

تفسير الثعالبى

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زبير الثعالبى المالكي

(٧٨٦-٨٧٥ هـ)

حقق أمثوله على أربع نسخ خطية وعثر عليه وشرح أهمادته

الشيخ علي محمد معوض
والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

خبير بتحقيق مجمع البحوث الإسلامية
وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
وعضو لجنة المصنف بالأزهر الشريف

دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

تفسير الثعالبِي

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زهير الثعالبِي المالكي

(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

حققه الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

الشيخ علي محمد معوض
والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

خبير بتحقيق مجمع البحوث الإسلامية
وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
وعضو لجنة المصنف بالأزهر الشريف

الجزء الأول

دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

رموز الكتاب

- ع = يعني ابن عطية في المحرر الوجيز.
- ص = الصَّفَاقُسِيُّ (السَّفَاقُسِيُّ) إبراهيم بن محمد المالكي (ت ٧٤٢ هـ) في كتابيه مختصر تفسير أبي حيان والمجيد في إعراب القرآن المجيد وغيرهما.
- ت = بدلاً من قول الثعالبي: (قلت).
- م = زيادة الصَّفَاقُسِيُّ على مختصر أبي حيان.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836551 - 836696 - 836766

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الشعالي
الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«توطئة»

نحمدك اللهم حمدَ الشاكرين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وصلاة وسلاماً دائماً دائمين متلازمين على نبينا محمد عبد الله ورسوله، خير من قرأ كتاب الله، وخير من فسرهُ، وخير من عمل به. وبعد:

فإن علم التفسير من خير العلوم قاطبة، وشرف العلم من شرف المعلوم، وقدر المرء قدّر ما يحسنه، ولا شك أن الاشتغال بكتاب الله تعالى وتفسيره شرف عظيم، ف«خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وهذا الشفاء لن يتحصل عليه إلا من التزم بشرطه، وشرطه التدبر، قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ مَا تَبَرَأَ مِنْهُ وَلِيَذْكُرَ الْأُولَى الْأُولَى﴾ [ص: ٢٩].

ولما كانت حاجة الأمة ماسة إلى معرفة تفسير كتاب ربها، والوقوف على أسرارهِ - قمنا بإخراج أحد هذه التفاسير المباركة؛ ليكون تبصرةً للمسلمين، وعوناً لهم على فهم كتاب الله العزيز.

وها نحن أولاء نقدم للأمة الإسلامية تَفْسِيرَ «الجواهر الحسان» للإمام العلامة أبي زيد الثعالبي؛ رحمه الله تعالى.

وقد جاء هذا الكتاب في قسمين:

القسم الأول: الدراسة. وجاء في ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول: نبذة عن حياة أبي زيد الثعالبي.

ويشمل: اسمه، كنيته، لقبه، مولده، نشأته، شيوخه، تلاميذه، مصنفاته، ثناء الناس عليه، ثم وفاته.

* المبحث الثاني: في الحديث عن التفسير قبل أبي زيد الثعالبي.

وفيه ذكرنا معنى التفسير والتأويل، والفرق بينهما، ثم ذكرنا حاجة الناس إلى تفسير الكتاب العزيز، ثم الحديث عن فهم أصحاب النبي ﷺ للقرآن الكريم، ثم ذكرنا أشهر مفسري القرآن من الصحابة فمن بعدهم، وبيّنا كذلك قيمة التفسير بالمأثور.

ثم عرضنا لأهم مدارس التفسير، وكانت كما يلي:

١ - مدرسة ابن عباس بـ «مكة»، وكان أشهر تلاميذه من التابعين:

- سعيد بن جبير.

- مجاهد بن جبر.

- عكرمة.

- طاوس.

- عطاء بن أبي رباح.

٢ - مدرسة أبي بن كعب بـ «المدينة النبوية»، وأشهر تلاميذه:

- أبو العالية.

- محمد بن كعب القرظي.

- زيد بن أسلم.

٣ - مدرسة عبد الله بن مسعود بـ «العراق»، وأشهر تلاميذه:

- علقمة.

- مسروق.

- عامر الشعبي.

- الحسن البصري.

- قتادة.

ثم تحدثنا عن قيمة التفسير المأثور عن التابعين، واختلاف أهل العلم من بعدهم في الاحتجاج بأقوالهم.

وكذلك خُصِّنَا في ذِكْرِ سِمَاتِ التفسير في تلك المَرْحَلَةِ من مثل: اعتماده على التَّلَقِّي والرواية، والخلاف المذهبي الناشئ، وغير ذلك مما هو مسطور في موضعه.

وانتقل بنا الحديث إلى الكلام عن التفسير في عَصْرِ التدوين، وتحديد هذا العصر تاريخياً، وكيف سار هذا التفسير سيره حتى بلغ تابعي التابعين. ثم تَدَرَّجْنَا إلى تبيان اتجاهات التفسير الموجودة بين المفسرين، وكانت:

- الاتجاه الأثري: وذكرنا من أعلامه «يحيى بن سلام»، ثم «محمد بن جرير الطَّبْرِي».

- الاتجاه اللُّغَوِي: وَبَيَّنَّا تاريخ بدايته، وبعض أعلامه، مثل «أبي عبيدة معمر بن المثنى».

- الاتجاه البَيَانِي: وأوضحنا جُذُورَهُ، وبعض أمثله.

* المبحث الثالث: الكلام على تفسير أبي زَيْد.

وتحدثنا فيه عن مصادر الشيخ الثعالبي في تفسيره، والكتب التي استقى منها مَادَّتَهُ، وبنى عليها مصنفه.

ثم تَطَرَّفْنَا إلى بيان منهجه في بناء تفسيره من احتجاج بمأثور، ورأي، وكيف أنه مَزَجَ بينهما، ففسر كتاب الله بعضه ببعض، ثم بالسُّنَّة، ثم بتفسير الصحابة والتابعين، واحتججه باللغة والأصول، وحديثه عن التوحيد، والرقائق، وعلوم الآخرة، وغير ذلك.

وتحدثنا عن الإسرائيليات في تفسيره، وكيف أنه أَقْلَ منها، ولم يعتمد عليها.

ثم تحدثنا عن المنهج اللُّغَوِي في تفسير أبي زَيْد، وكذلك المنهج البَيَانِي، ثم علوم القرآن في تفسير «الجواهر الحسان»، وهي:

- المَكِّي والمدني.

- القراءات المتواترة والشَّاذَّة.

- الناسخ والمنسوخ.

- الأحكام الفقهية المأخوذة من آيات الأحكام.

القسم الثاني : وهو قسم تحقيق النَّص :

وقد كان عملنا في الكتاب مرتباً على النحو التالي :

أولاً: إخراج النَّص سليماً خالياً من الأخطاء النحوية والإملائية، وقد اقتضى ذلك من المُوازَنة بين النسخ التي تحت أيدينا، فأثرنا النص الأصوب والأرق دون اعتماد على نسخة بعينها.

ثانياً: إثبات فروق النَّسخ، وتركنا الكثير منها؛ حيث لا جدوى من ذكرها.

ثالثاً: تخريج الأحاديث الواردة في النص.

رابعاً: عَزُو الآثار إلى مصادرها.

خامساً: توضيح الغريب من الألفاظ الواردة في النَّص معتمدين في ذلك على المعاجم اللغوية والفقهية.

سادساً: ترجمة الأعلام الواردة أسماؤهم في النص.

سابعاً: عَزُو القراءات إلى مصادرها، والتعليق على بعضها حسبما احتاج النص مع بيان كل قراءة.

ثامناً: توضيح بعض المصطلحات الفقهية والأصولية الواردة في النص.

تاسعاً: التعليق على بعض الموضوعات التي أشار إليها المصنف.

عاشراً: وَضَعُ آيات القرآن الكريم ضمن هلالين مزهرين تيسيراً على القارئ، وتخريج آيات الشواهد.

المبحث الأول

نبذة عن حياة الثعالبي

اسمه، وكُنْيَتُهُ، وَلَقَبُهُ:

هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف^(١)، يكنى أبا زيد، ويلقب بـ «الثعالبي»^(٢). الجزائري^(٣)، المغربي، المالكي.

مَوْلَدُهُ:

ذكر صاحباً «شجرة النور الزكية»، و «الأعلام» أنه ولد سنة ٧٨٦ هـ جزماً، بينما حكى صاحب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» الشك في سنة ميلاده بين ستاً وثمانين، وسبع وثمانين.

نَشَأَتُهُ:

لم تذكر المصادر المترجمة لهذا الإمام شيئاً عن نشأته؛ إلا أن الظن بحال من حاله كالإمام يؤكد أن نشأته في بيت علم وفضل، ولا يبعد وجود أهل صلاح في أسرته، كما أن الظن بمثله أن يكون درج على طلب العلم، كما يطلبه أهله من قراءة كتاب الله وحفظه في

(١) ينظر ترجمته في: «الضوء اللامع» (١٥٢/٤)، و «شجرة النور الزكية» (٢٦٥) ت (٩٧٦)، و «فهرس الفهارس» (١٣١/٢)، و «هدية العارفين» (٥٣٢)، و «ديوان الإسلام» (٥٦/٢) ت (٦٣٧)، و «نيل الابتهاج» (٢٥٧) ت (٣٠٦)، و «الأعلام» (٣٣١/٣). والملاحظ اتفاقها على ذكر اسمه وكنيته ولقبه، بلا زيادة على ما تقدم.

(٢) هذه النسبة إلى خياطة جلود الثعالب، وعمل الفراء. وفرق بينها وبين «الثعلبي»؛ حيث إن الأخيرة نسبة إلى القبائل وإلى الموضع، فأما المنتسب إلى القبائل، فإلى ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، منهم أسامة بن شريك الثعلبي، وابن أخيه زياد بن علاقة بن مالك الثعلبي، والنسبة إلى ثعلبة بن ثور بن هذبة بن لاطم بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة، بطن من «مزينة»، وأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي. ويقال: الثعالبي، المفسر المشهور النيسابوري. وثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، بطن كبير من تميم. وثعلبة بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء، بطن مشهور من طيء، منهم مسعود بن علبة بن حارثة بن ربيع بن عمرو بن عكوة بن ثعلبة الشاعر. ينظر: «الأنساب» (٥٠٥/١)، و «اللباب» (١/٢٣٧-٢٣٩)، و «الإكمال» (٥٢٩/١) و «لب الألباب» (١/١٨٥).

(٣) نسبة إلى البلدة المعروفة بـ «الجزائر» إحدى أقطار المغرب العربي.

الصغر، وأطْلَاعِهِ على كتب التاريخ، والتفسير، والحديث، والأصول، والكلام، والأدب، واللغة، والنحو، والصرف، والعروض، وغيرها.

رحلاته وشيوخه:

مما لا شك فيه أن حَاجَةَ العلماء إلى الرحلة عَظِيمَةً جداً؛ سَعياً في تحصيل العِلْم، والسَّمَاع من الأشْيَاخ؛ لأن في الرِّحْلَةَ إليهم، والالتقاء بهم تَقْصِيفاً للعقول، وتَنْقِيحاً للعلوم، وتَمَحِيصاً للمحفوظ. ولقد كانت الرِّحْلَةُ سُنَّةَ العلماء من لَدُن سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - إلى أن وقع النَّاسُ فَرِيْسَةً للتَّخَلُّف والتَّكاسُل، فقعَد بهم ذلك عن طَلَبِ العلم، والسَّعْي في تحصيله.

ولقد كان بَعْضُ أصحاب رَسولِ اللَّهِ ﷺ إذا تَنَاءَتْ به الدَّارُ، يركب إلى «المدينة»، فَيَسْأَلُ رسولَ اللَّهِ ﷺ.

واستمر ذلك السَّعْيُ والتَّزَحُّالُ بعد وَفَاةِ النبي ﷺ. ولما اتسعت رُفْعَةُ الدولة الإسلاميَّة بعد الفتوحات العظيمة، نجد أن الرِّحْلَةَ شَاعَتْ، وانتشر أَمْرُهَا، لتفرُّق العلماء في شَتَّى بُلْدَانِ الدولة الإسلاميَّة.

ولقد ضَحَّى سَلَفُنَا الصَّالِحُ بكلِّ غَالٍ ورخيص، ودفعوا المال والجُهد، وتكبَّدوا العَنَاءَ والمشاقَّ، في سبيل طَلَبِ الحديث وجمعه، والعناية بسُنَّةِ النبي ﷺ.

فهذا الصَّحَابِي الجليل أبو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ يَزْحَلُ من «المدينة» قاصداً عَقْبَةَ بن عامر بـ «مصر» ليسأله عن حديث سمعه من النبي ﷺ، حتى إذا وَصَلَ إلى منزل عقبة بن عامر، خرج إليه عَقْبَةُ فعانقه، وقال: ما جَاء بك يا أبا أَيُّوبَ؟ فقال: حديث سمعته من رسول اللَّهِ ﷺ لم يبق أحد سمعه منه غيري وَغَيْرُكَ، في سَتْرِ الْمُؤْمِن. قال عقبة: نعم، سمعت رسول اللَّهِ ﷺ يقول: «مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا عَلَيَّ خِزْيَةٍ، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

فقال أبو أَيُّوبَ: صَدَقْتَ.

ثم انصرف أبو أَيُّوبَ من تَوِّهِ إلى رَاجِلَتِهِ، رَاجِعاً إلى «المدينة»، متحملاً مشقَّةَ السفر، وَوَعْنَاءَ الطريق، وأخطار المَقَاوِزِ والقَفَارِ.

ويقول سعيد بن المُسَيَّبِ: إني كنت لَأَسَافِرُ مَسِيرَةَ الأَيَّام والليالي في الحديث الواحد.

وذات مَرَّةٍ قال عمرو بن أبي سَلَمَةَ لِلْأَوْزَاعِيِّ: يا أبا عَمْرٍو أنا أَلَزَمْتُكَ منذ أربعة أيام،

ولم أسمع منك إلا ثلاثين حديثاً! قال: وتستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام؟ لقد سار جابر بن عبد الله إلى «مصر»، واشترى راحلة فركبها، حتى سأل عُبَّة بن عامر عن حديث واحد، وانصرف إلى «المدينة»، وأنت تستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام؟^(١).

مما سبق يتبين أن للرحلة أثراً ملحوظاً في تمحيص العلوم، وتنقيحها، وتثبيتها في أذهان العلماء، وأن طلاب العلم نزلوا من قطر إلى قطر، تحملهم ظهور القياقي والقفار، تنقيباً عن الحديث، أو المسألة الفقهية، أو السماع من شيخ مشهور، أو التلمذة على يد عالم إمام.

ولم يكن الإمام الثعالبي يدعاً في هذا الشأن، بل سار على دَرب أسلافه من العلماء، وأقرانه من طلاب العلم في السَّغْي والسَّفر؛ رغبة في تحصيل العلم، وطلب مسائله وقضاياه.

وقد عرفنا الثعالبي نفسه أنه قد رحل في طلب العلم، وسمع من أهل العلم في مختلف الأقطار، فنراه يقول:

رحلت في طلب العلم من ناحية «الجزائر» في آخر القرن الثامن، فدخلت «بجاية» عام اثنين وثمانمائة، فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في العلم والدين والورع، أصحاب الفقيه الزاهد الورع عبد الرحمن الوغليسي، وأصحاب الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس متوافرون يومئذ، أصحاب ورع ووقوف مع الحد لا يعرفون الأمراء، ولا يخالطونهم، وسلك أتباعهم مسلكهم، كشيخنا الإمام الحافظ أبي الحسن علي بن عثمان المكلاتي، وشيخنا الولي الفقيه المحقق أبي الربيع سليمان بن الحسن، وأبي الحسن علي بن محمد البليلي، وعلي بن موسى، والإمام العلامة أبي العباس النقاسي، حضرت مجالسهم وعمدتي على الأولين، ثم دخلت «تونس» عام تسعة أوائل عشرة وأصحاب ابن عرفة متوافرون، فأخذت عنهم، كشيخنا واحد زمانه أبي مهدي عيسى الغبريني، وشيخنا الجامع بين علمي المنقول والمعقول أبي عبد الله الأبي، وأبي القاسم البرزلي، وأبي يوسف يعقوب الزغبى، وغيرهم، وأكثر عمدتي على الأبي، ثم رحلت للمشرق، وسمعت «البخاري» بـ «مصر» على البلاي، وكثيراً من اختصار «الإحياء» له، وحضرت مجلس شيخ المالكية بها أبي عبد الله البساطي، وحضرت كثيراً عند شيخ المحدثين بها ولي الدين العراقي، وأخذت عنه علوماً جمّة، معظمها علم الحديث، وفتح لي فتحاً عظيماً وأجازني،

ثم رجعت لـ «تونس» فإذا في موضع الغبريني الشيخ أبو عبد الله القلشاني خلفه فيه عند موته، فلازمته، وأخذت البخاري إلا يسيراً عن البرزلي، ولم يكن بـ «تونس» يومئذ من يفوقني في علم الحديث، إذا تكلمت أنصتوا، وقبلوا ما أرويه، تواضعاً منهم، وإنصافاً واعترافاً لحق، وكان بعض فضلاء المغاربة يقول لي لما قدمت من المشرق: كنت آية في علم الحديث، وحضرت أيضاً شيخنا الأبّي وأجازني، ثم قدم «تونس» شيخنا ابن مرزوق عام تسعة عشر، فأقام بها نحو سنة، فأخذت عنه كثيراً، وسمعت عليه «الموطأ» بقراءة الفقيه أبي حفص عمر القلشاني ابن شيخنا أبي عبد الله وغير شيء، وأجازني وأذن لي هو والأبّي في الإقراء، وأخذت عن غيرهم - اهـ - .

مما سبق يتضح أن الثعالبي قد ذكر أنه سمع في رحلته من شيوخ كثيرين، سمى منهم أربعة عشر شيخاً، وسنوردهم فيما يلي مع ذكر البلد التي سمع فيها:

١ - محمد بن خليفة بن عمر التونسي الوشتاني^(١) الشهير بـ «الأبّي»:

الإمام، العلامة، المحقق، المدقق، البارع، الحافظ، الحاج، الرحلة، أخذ عن الإمام ابن عرفة، ولازمه، واشتهر في حياته بالمهارة والتقدم في الفنون، وكان من أعيان أصحابه ومحققهم، «وأبّة»^(٢)، بضم الهمزة، قرية من «تونس».

قال السَّخَاوِيُّ: كان سليم الصدر، ذكر ذلك جماعة عنه مع مزيد تقدم في الفنون، له «إكمال الإكمال» في شرح مسلم في ثلاثة مجلدات، جمع فيه بين المازري، وعياض، والقرطبي، والنووي مع زيادات مفيدة من كلام ابن عرفة شيخه وغيره.

وله «شرح المُدَوَّنَةِ» أيضاً، وله نظم، وكثر انتقاده لشيخه مشافهة، وربما رجع عليه سيما في تعريفه الطهارة. ووصفه ابن حَجَرٍ في المثبته بالأصولي، عالم المغرب بالمعقول. وقال: إنه سكن «تونس» وسَمِيَ والده خلفاً.

وأما شرحه لمسلم، ففي غاية الجودة ملأه بتحقيقات بارعة، وزيادة حسنة نافعة سيما أوائله. قال الثعالبي: حضرت عليه قراءة بَحْثٍ وتحقيق وتدقيق من أوله إلى «الطهارة» متوالياً، وكثيراً من «الطهارة» وأكثر «كتاب الصلاة»، وكثيراً من أواخر مسلم أو كله، ومن

(١) ينظر ترجمته في: «شجرة النور الزكية» (٢٤٤)، و «نيل الابتهاج» (٤٨٧).

(٢) أبة: اسم مدينة بإفريقية، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام، وهي من ناحية الأربس، موصوفة بكثرة الفواكه وإنبات الزعفران. ينظر: «معجم البلدان» (١٠٨/١).

«المدونة» و «الرسالة» و «ابن الحاجب» كلها قراءة بحث وتحقيق، وأكثر «إرشاد» أبي المعالي وتفسير القرآن، وأذن لي في إقرائها كلها سنة تسعة عشر وثمانمائة - هـ - ملخصاً.

وسمعت والدي الفقيه أحمد - رحمه الله - يحدث عن بعض المشاركة أنه رأى له تفسير القرآن في ثمان مجلدات - هـ.

قال التنبكي: قرأت بخط سيدي يخلفتين حفيد الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أن وفاته سنة ثمان وعشرين وثمانمائة - هـ. ويذكر أن الإمام ابن عرفة ليم على كثرة الاجتهاد، وتعبه نفسه في النظر، فقال: كيف أنام وأنا بين أسدين الأبى بفهمه وعقله، والبرزلي بحفظه ونقله - هـ.

ووصفه أبو عبد الله المشذلي بالفقيه، المحقق، العالم. وأخذ عنه جماعة من الأئمة كالقاضي عمر القلشاني، وأبي القاسم بن ناجي، وعبد الرحمن الجدولي، والثعالبي، والشريف العجيسي، وغيرهم، وقال الثعالبي فيه: شيخنا، مولاي، الإمام، الحجة، الثقة، إمام المحققين، الجامع بين حقيقتي المنقول والمعقول، ذو التصانيف الفائقة البارعة، والحجج الساطعة اللامعة - هـ. توفي، فيما قيل، سنة سبع وعشرين، و «خلفه» بكسر المعجمة وفتحها ثم لام ساكنة بعدها فاء.

وقد سمع الثعالبي من شيخه الأبى ببلدة «تونس».

٢ - ولي الدين العراقي^(١):

وهو أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، الإمام الحافظ الفقيه، المصنف، قاضي القضاة ولي الدين أبو رزعة ابن الإمام العلامة الحافظ زين الدين أبي الفضل، العراقي الأصل، المصري. ولد في ذي الحجة سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وبكر به أبوه، فأحضره عند أبي الحرم القلانسي خاتمة المسندين بالقاهرة، واستجاز له من أبي الحسن الفرضي، ثم رحل به إلى «الشام» سنة خمس وستين، فأحضره في الثالثة على جماعة من أصحاب الفخر ابن البخاري، ثم رجع، وأسمعه ب «القاهرة» من جماعة من المسندين، ثم طلب بنفسه وهو شاب، فقرأ الكثير، ودأب على الشيوخ، ثم رحل إلى «الشام» صحبه صهره الحافظ نور الدين الهيثمي بعد الثمانين، فسمع الكثير ثم رجع، وهو

(١) ينظر ترجمته في: «إنباء الغمر في أبناء العمر» (٢١/٨)، و «البدر الطالع» (٧٢/١)، و «طبقات ابن قاضي شهبة» (٨٠/٤).

مع ذلك ملازم للاشتغال بالفقه، والعربية، والفنون، حتى مهر واشتهر، ولازم الشيخ سراج الدين البلقيني، وحفظ، وكتب عنه الكثير، وأخذ عن علماء عصره. قال الحافظ قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر: ونشأ صَيِّناً، دَيِّناً، خَيْراً، مع جمال الصورة، وطيب النعمة والتوُّدُّ إلى الناس، وناب في الحكم، ودرس في عدة أماكن، ثم استقر في جهات والده بعد وفاته، وعقد مجلس الإملاء بعده، واشتهر صيته وصنف التصانيف، وخرج التواريخ، وولي مشيخة «الجمالية».

ومن تصانيفه: «تحرير الفتاوى» على التنبيه، و«المنهاج»، و«الحاوي»، أخذ نكت النشائي، والتوشيح، ونُكَّت ابن النقيب على المنهاج، ونكت الحاوي لابن الملقن، وشحن الكتاب بفوائد الشيخ سراج الدين البلقيني، وبسبب ذلك اشتهر الكتاب، واجتمع شَمْلُ فوائد الشيخ، وجمع حواشي الشيخ على «الروضة» في مجلدين، واختصر «المهمات»، وجمع بينها وبين حواشي «الروضة» في مجلدين، وشرح «بهجة» ابن الوردي في مجلدين، وشرح «جمع الجوامع» للسبكي في مجلدة، وله وَفَيَاتُ ابتداء فيها من سنة مولده - رحمه الله تعالى - قال الحافظ شهاب الدين ابن حجر: وشرح منظومة أبيه في الأصول، وشرع في شرح «سنن» أبي داود، فكتب نحو السدس منه في سبع مجلدات.

مات في شعبان سنة ست وعشرين وثمانمائة وله ثلاث وستون سنة وثمانية أشهر.

وسمع منه الإمام الثعالبي بـ «مصر».

٣ - محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني^(١):

الإمام المشهور، الْعَلَمَةُ، الْحُجَّةُ، الحافظ، الْمُحَقِّقُ الكبير، الثقة الثبت، المطلع النظار، المصنف، التقى، الصالح، الزاهد، الورع، البركة، الخاشي لله، الخاشع الأواب، القدوة النبیه، الفقيه المجتهد، الأبرع، الْأُصُولِي المفسر المحدث، الحافظ المسند الراوية، الأستاذ المقرئ الْمُجَوِّد، النحوي اللغوي البياني العروضي، الصوفي المسلك المتخلق، الولي الصالح العارف بالله، الآخذ من كل فَنٍّ بأوفر نصيب.

أخذ العلم عن جماعة، كالسَّيِّد الشريف العلامة أبي محمد عبد الله بن الإمام العلم الشريف التلمساني، والإمام عالم المغرب سعيد العقباني، والولي الصالح أبي إِسْحَاق

(١) ينظر ترجمته في: «البدر الطالع» (١١٩/٢)، و «نيل الابتهاج» (٤٩٩).

المصمودي، أفرد ترجمته بتأليف، والعلامة أبي الحسن الأشهب العماري، وعن أبيه وعمه ابني الخطيب ابن مرزوق، وبتونس عن الإمام ابن عرفة، وأبي العباس القصار، وبفاس عن الأستاذ النحوي ابن حياتي الإمام، والشيخ الصالح أبي زيد المكودي، والحافظ محمد بن مسعود الصنهاجي الفيلالي في جماعة، وبمصر عن الأئمة السراج البلقيني، والحافظ أبي الفضل العراقي، والسراج ابن الملقن، والشمس الغماري، والمجد الفيروزآبادي صاحب «القاموس»، والإمام مُحِب الدين بن هشام ولد صاحب «المغني»، والنور النويري، والولي ابن خلدون، والقاضي العلامة ناصر الدين التنسي، وغيرهم.

وأجازه من «الأندلس» الأئمة كابن الحُشَاب، وأبي عبد الله القيجاطي، والمحدث الحفار، والحافظ ابن علاق، وأبي محمد ابن جزي، وغيرهم، وأخذ عنه جماعة من السادات كالشيخ الثعالبي، وقاضي الجماعة عمر القلشاني، والإمام محمد بن العباس، والعلامة نصر الزواوي، وولي الله الحسن أبركان، وأبي البركات الغماري، والعلامة أبي الفضل المشذالي، والسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة أبي العباس بن أبي يحيى الشريف، وأخيه أبي الفرج، وإبراهيم بن فائِد الزواوي، وأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الندرومي، والعلامة علي بن ثابت، والشهاب ابن كحيل التجاني، وولد العالم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف، والعلامة أحمد بن يونس القسنطيني، والعالم يحيى بن بدير، وأبي الحسن القلصادي، والشيخ عيسى بن سلامة البكري، والعلامة يحيى المازوني، والحافظ التنسي، والإمام ابن زكري. في خَلْقٍ كثيرين من الأجلَاء.

وقال الحافظ السَّخَاوِيُّ: هو أبو عبد الله حفيد ابن مرزوق، ويقال له أيضاً «ابن مرزوق»، تلا بنافع على عثمان الزروالي، وانتفع في الفقه بآبَن عرفة، وأجازه ابن الحُشَاب والحفار والقيجاطي. وحج قديماً سنة تسعين وسبعمائة رقيقاً لابن عرفة، وسمع من البهاء الدماميني، والنور العقيلي بمكة، وقرأ بها البخاري على ابن صديق، ولازم المحب ابن هشام في العربية، ثم حج سنة تسعة عشر وثمانمائة، ولقيه رضوان الزيني بمكة، وكذا لقيه ابن حجر - اهـ.

وأما تأليفه، فكثيرة منها: شروحه الثلاثة على «البردة»: الأكبر المسمى «إظهار صدق المودة في شرح البردة» استوفي فيه غاية الاستيفاء، ضمنه سبعة فنون في كل بيت، و«الأوسط» و«الأصغر» المسمى «بالاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب» و«المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية»، و«المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية»، ورجزان في علوم الحديث، الكبير سماه «الروضة» جمع فيه بين ألفيتي ابن ليون والعراقي،

و «مختصر الحديقة» اختصر فيه ألفية العراقي، وأرجوزة في الميقات سماه «المقنع الشافي» في ألف وسبعمائة بيت، وأرجوزة ألفية في محادة «الشاطبية»، وأرجوزة نظم «تلخيص المفتاح»، وأرجوزة نظم «تلخيص ابن البناء» وأرجوزة نظم «جمل» الخونجي، وأرجوزة في اختصار «ألفية ابن مالك»، و «نهاية الأمل» في شرح جمل الخونجي، و «اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة»، وهو أجوبة على مسائل في الفقه والتفسير وغيرهما، وردت عليه من عالم قفصة أبي يحيى بن عقيبة فأجابه عنها، و «المعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج» أجاب فيه العالم قاضي الجماعة بغرناطة ابن سراج عن مسائل نحوية ومنطقية، و «نور اليقين في شرح أولياء الله المتقين» تأليف ألفه في شأن البداء تكلم فيه على حديث في أول «الحلية»، و «الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي»، و «النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص» في سبعة كراريس، ألفه في الرد على عصره وبلديه الإمام قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية في أشياء صوّب العقباني صنيعهم فيها، فخالفه ابن مرزوق، و «مختصر الحاوي في الفتاوى» لابن عبد النور التونسي، و «الروض البهيج في مسألة الخليج» في أوراق نصف كراس، و «أنوار الدراري في مكررات البخاري»، وتأليف في مناقب شيخه الزاهد الولي إبراهيم المصمودي في مقدار كراس، و «تفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء»، وهذه كلها تامة.

وأما ما لم يكمل من تأليفه، «فالمعراج الربيع والسعي الرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح» صحيح البخاري، و «روضة الأديب في شرح التهذيب»، و «المنزع النبيل في شرح مختصر خليل» شرح منه الطهارة في مجلدين، ومن الأقضية لآخره في سفرين في غاية الإتقان، و «التحرير والاستيفاء والتنزيل لألفاظ الكتاب والنقول» لا نظير له أصلاً، لخصه العلامة الراعي، و «إيضاح المسالك في ألفية ابن مالك» انتهى إلى اسم الإشارة والموصول، مجلد في غاية الإتقان، ومجلد في شرح شواهد شراحها إلى باب كان وأخواتها، وله خطب عجيبة، وأما أجوبته وفتاويه على المسائل المنوعة، فقد سارت بها الركبان شرقاً وغرباً، بدأ وحضراً. ذكر المازوني والونشريسي منها جملة وافرة في كتابيهما، وله أيضاً عقيدته المسماة «عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد»، وعلى منحاه بنى السنوسي عقيدته الصغرى، و «الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات»، و «الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم»، و «إسماع الصّم في إثبات الشرف من قبل الأم».

وذكر السخاوي أن من تأليفه شرح فرعي ابن الحاجب، وشرح التسهيل، والله أعلم.

ومولده، كما ذكره هو في شرحه على البردة، ليلة الاثنين رابع عشر ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة.

وقال تلميذه الإمام الثعالبي: وقدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله بن مرزوق، فأقام بها وأخذت عنه كثيراً، وسمعت عليه جميع «الموطأ» بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني، وختمت عليه «أربعينيات النووي» قراءة عليه في منزلة قراءة تفهم، فكان كلما قرأت عليه حديثاً يعلوه خشوع وخضوع، ثم أخذ في البكاء، فلم أزل أقرأ وهو يبكي حتى ختمت الكتاب، وهو من أولياء الله تعالى الذين إذا رأوا ذكر الله.

وأجمع الناس على فضله من «المغرب» إلى الديار المصرية، واشتهر فضله في البلاد، فكان يذكره تطرز المجالس، جعل الله حبه في قلوب العامة والخاصة، فلا يذكر في مجلس إلا والنفوس متشوقة لما يحكى عنه، وكان في التواضع والإنصاف والاعتراف بالحق في الغاية وفوق النهاية، لا أعلم له نظيراً في ذلك في وقته فيما علمته.

وقال أيضاً في موضع آخر: هو سيدي الشيخ الإمام، الحبر الهمام، حجة أهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم، ورحلة النقاد وخلصتهم، ورئيس المحققين.

توفي يوم الخميس عصر رابع عشر شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمائة، وصلى عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة، حضر جنازته السلطان فمن دونه، لم أر مثله قبله، وأسف الناس لفقده، وآخر بيت سمع منه عند موته: [البسيط]

إِنْ كَانَ سَفْكَ دَمِي أَفْصَى مُرَادِكُمْ فَمَا عَلَتْ نَظْرَةَ مَنُكُم بِسَفْكِ دَمِي
وقد سمع الثعالبي منه بعد عودته من رحلته إلى تونس.

٤ - أبو القاسم بن أحمد بن محمد المعتل البلوي، القيرواني، ثم التونسي، الشهير بالبرزلي، الإمام المشهور^(١)، نزيل «تونس»:

مفتيها، وفقيها، وحافظها، العلامة، أحد الأئمة في المذهب المالكي صاحب «الديوان» في الفقه والنوازل، من كتب المذهب الأجلة، أجاد فيه ما شاء، كان - رحمه الله - إماماً علامة، بارعاً، حافظاً للفقه متفهماً فيه، باحثاً نظاراً مستحضراً للفقه، أخذ عن جماعة، وفي بعض إجازاته ما ملخصه أنه قرأ على الفقيه المحدث الراوية الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق شيئاً من الصحيحين، والشاطبيتين، وتكملة القيجاطي، والدرر

(١) ينظر ترجمته في: «شجرة النور الزكية» (٢٤٥)، و «نيل الابتهاج» (٣٦٨).

اللَّوَامِع، يرويهما عن مؤلفهما، والعمدة وغيرها، وعلى الفقيه المحدث الراوية المسن الصالح أبي الحسن البطروني القراءة السبعة، وكتباً كثيرة، وأحزاب الشاذلي عن الشيخ ماضي عنه، وعلى الإمام المؤلف الفقيه الصَّالح المتفنن العلم أبي عبد الله بن عرفة، لازمه ما ينيف على ثلاثين سنة، وقرأ عليه بعض مسلم، وسمع جميعه عليه وجميع البخاري، و«الموطأ»، و«الشفاء»، و«علوم الحديث» لابن الصلاح، وجميع «التهذيب» مراراً، وابن الحاجب الفرعي، وكثيراً من الأصلي، و«معالم» التلمساني الفقيه، و«جمل» الخونجي، وكثيراً من «المحصل»، وإلقاء التفسير مراراً، وقرأ عليه مختصره المنطقي وفي الأصلين وأكثر مختصره الفقهي، وأجازه بالجميع وغيرها، وكتب له بخطه مراراً، وقرأ عليه الفقيه المقرئ الراوية أحمد بن مسعود البلنسي، (عرف بابن الحاجة) القراءات السبعة وغيرها، وعلى الفقيه الصالح الراوية المتفنن أبي محمد الشيببي القراءات السبعة وغيرها، و«التهذيب»، و«الجلاب»، و«الرسالة» وغيرها، و«الموطأ»، ومسلماً، وعلم النحو، والحساب، والفرائض، والتنجيم، ولازمه من حدود ستين وسبعمائة إلى عام سبعين، وعلى الفقيه الصالح القاضي العدل الحافظ أحمد بن حيدرة التوزري، لازمه كثيراً، وأخذ عنه مسائل كثيرة، وقرأ على الفقيه الصالح العدل أبي العباس المومنانني الصحيحين، و«الشفاء»، وغيرها، وكذا أخوه الفقيه الصالح القاضي العدل أبو زيد عبد الرحمن، وقرأ عليه شيئاً من أصلي ابن الحاجب، وأذن له في إقرائه، وعلى الفقيه المحدث الراوية برهان الدين الشامي، قرأ عليه أبعاضاً من البخاري، والترمذي، والشفاء، والشاطبية، وغيرها، وناوله فهرسته، وعلى الرواية المحدث المعمر أبي إسحاق بن صديق الرسام.

وذكر في فتاويه أنه لازم ابن عرفة نحو أربعين عاماً، فأخذ هديه وعلمه وطريقته، وجالس غيره كثيراً في الفقه والرواية في الحديث وغيره، وحصل بذلك علماً كثيراً.

وقال السَّخَاوِيُّ: كان البرزلي أحد أئمة المالكية ببلاده «المغرب»، وصاحب الفتاوى المتداولة، قدم «القاهرة» حاجاً سنة ست وثمانمائة، وأجاز لشيخنا (يعني: ابن حجر) أخذ عنه غير واحد ممن لقيناهم، كأحمد بن يونس. توفي بتونس سنة أربع وأربعين، على ما قيل، أو سنة ثلاث، عن مائة وثلاث سنين، وحينئذ فهو آخر من في القسم الأول من معجم الحافظ ابن حجر، وكان موصوفاً بشيخ الإسلام - اهـ. وقد سمع الثعالبي منه ب «تونس».

وكانت وفاته سنة اثنين وأربعين، ومولده (على ما قال السخاوي) في حدود أربعين وسبعمائة، وممن أخذ عنه الشيخ أبو القاسم بن ناجي، والرصاع، والشيخ حلولو،

وغيرهم.

٥ - علي بن عثمان المنجلاتي^(١)، الزواوي، البجائي:

من علماء المالكية وفقهاها الجلة، أخذ عن الشيخ عبد الرحمن الوغليسي وغيره، وهو والد العلامة أبي منصور مفتي «بجاية»، قال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في حقه: شيخنا أبو الحسن، الإمام الحافظ، وعليه كانت عمدة قراءتي ببجاية - اهـ. وله فتاوى نقل بعضها في «المازونية» و «المعيار».

وقد سمع منه الثعالبي أثناء رحلته ب «بجاية».

٦ - أحمد النقاوسي البجائي^(٢)، العلامة:

قال تلميذه أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي: هو شيخنا الإمام المحقق الجامع بين علمي المنقول والمعقول، ذو الأخلاق المرضية، والأحوال الصالحة السنية - اهـ. وقد سمع منه الثعالبي ب «بجاية».

٧ - عيسى بن أحمد بن محمد بن محمد الغبريني، أبو مهدي التونسي^(٣):

قاضي الجماعة ب «تونس» وعالمها وصالحها، وحافظها وخطيبها، قال الشيخ الثعالبي: شيخنا أُوْحِدَ زمانه علماً وديناً - اهـ.

ووصفه تلميذه أبو القاسم بن ناجي بأنه ممن يظن به حفظ المذهب بلا مطالعة، وبالغ في الثناء عليه في غير موضع، بل نقل عنه عصره أبو القاسم البرزلي في ديوانه في غير موضع. قال السَّخَاوِيُّ في «تاريخ أهل المائة التاسعة» فيه: قاضي «تونس» وعالمها، أخذ عنه أحمد القلشاني، والشرف العجيسي وغيرهما، مات عام ستة عشر وثمانمائة - اهـ.

قال أحمد التنبكي في «نيل الابتهاج»: بل أخذ عنه غالب تلاميذ ابن عرفة المتأخرة وغيرهم، كالبسيلي، وأبي يحيى بن عقبة، وعمر القلشاني، وأبي القاسم القسنطيني، وأبي الحسن علي بن عصفور، وابن ناجي، والزليدي في خلق كثير، قال ابن ناجي: ما رأيت أصح منه نقلاً، ولا أحسن منه ذهنًا، ولا أنصف منه، مع كمال الرئاسة، وشاهدت بَعْضَ

(١) وقع في «شجرة النور الزكية» هكذا: المنكلاتي. وفي غيره «المكلاتي». وهو هنا كما في «نيل الابتهاج» (٣٣٢).

(٢) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (١١١).

(٣) ينظر ترجمته في: «شجرة النور الزكية» (٢٤٣)، و «نيل الابتهاج» (٢٩٧).

جُهاَل الطلبة، وكان مؤدباً تَلَقَّاهُ لما قام في مجلسه، وسجد بين يديه مشتكياً له بإنسان، فصاح عليه وانتهره، وهرب منه، وغضب لمخالفته السنة، وحلف له لا أسمع منه الآن كلمة واحدة - اهـ.

وقال تلميذه الأمير أبو عبد الله المدعو الحسن بن السلطان أبي العباس: شيخنا ابن عرفة وشيخنا الغبريني ممن يجتهد في المذهب، ولا يحتاج للدليل على ذلك؛ إذ العيان شاهد بتلك - اهـ.

وقال أبو العباس القلشاني: استناب ابن عرفة وقت سفره للحج تلميذه القاضي الجليل أبا مهدي الغبريني على إمامة جامع «الزيتونة»، وهو المشار إليه في كلامه، وتلميذه حينئذ قاضي الجماعة، ثم استقل بالإمامة المذكورة بعد وفاته، وبقي عليها حتى توفي ليلة السبت سابع عشرين من ربيع الثاني عام خمسة عشر وثمانمائة - اهـ.

وقد سمع منه الثعالبي بـ «تونس».

٨ - سليمان بن الحسن البوزيدي، الشريف التلمساني، أبو الربيع^(١):

الإمام العالم، المُحْصَلُ، السيد، قال الشيخ أبو البركات التالي: شيخنا الفقيه المحقق، كان قائماً على «المدونة» و «ابن الحاجب»، مستحضراً لفقه ابن عبد السلام، وأبحاثه نصب عينيه - اهـ.

قال القلصادي في رحلته: حضرت مجلس سيدي سليمان البوزيدي، وكان فقيهاً إماماً عالماً بمذهب مالك - اهـ.

وذكر ابن غازي في ترجمة شيخه أبي محمد الورياغلي، أن من شيوخه صاحب الترجمة، وأنه وصف بالشريف، الحسيب النسيب، الفقيه العالم، المحقق الأفاضل - اهـ.

قال الونشريسي: شيخ شيوخنا، الفقيه المُحْصَلُ المُحَقِّقُ، له إشكالات وجهها لعالم تونس أبي عبد الله بن عقاب، فأجابه عنها - اهـ.

وقال في وفاته: توفي شيخ شيوخنا، الحافظ الذاكر، شيخ الفروع أبو الربيع سليمان الشريف عام خمسة وأربعين وثمانمائة.

وسمع منه الثعالبي بـ «بجاية».

(١) تنظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (١٨٥).

٩ - محمد بن علي بن جعفر الشمس، العجلوني، ثم القاهري، الشافعي الصوفي، ويعرف بالبلالي^(١) - بكسر الموحدة ثم لام خفيفة -:

ولد قبل الخمسين وسبعمائة، واشتغل بتلك البلاد قليلاً، ولازم أبا بكر الموصلي، فانتفع به وبغيره، وتميز في التصوف، ولازم النظر في «الإحياء» بحيث كاد يأتي عليه حفظاً، وصارت له به ملكة قوية بحيث اختصره اختصاراً حسناً جداً. وكان بالنسبة لأصله كالحاوي مع الرافعي، وانتفع به الناس وأقبلوا على تحصيله سيما المغاربة وقرىء عليه غير مرة، وربما استكثر عليه، وكذا صنف «السول في شيء من أحاديث الرسول»، واختصر «الروضة» ولكن لم يكملها، واختصر «الشفاء»، وعمل مختصراً بديعاً في الفروع، وقرض السيرة النبوية لابن ناهض. وعرف بالخير والصلاح قديماً، واشتهر بالتعظيم في الآفاق، وحسنت عقيدة الناس فيه، واستقدمه سودون الشيعوني نائب السلطنة في حدود التسعين، وولاه مشيخة سعيد السعداء، فدام بها نحو ثلاثين سنة لم يزل عنها إلا مرة بخادمها خضر؛ لقيام تمرّاز نائب الغيبة في الأيام الناصرية فرج ولم يمض سوى عشرة أيام، ثم جيء بالقبض عليه، وعد ذلك من كرامات البلالي، ثم أعيد. وكان كثير التواضع إلى الغاية منطرح النفس جداً، مشهوراً بذلك، كثير البذل لما في يده، شديد الحياء، كثير العبادة والتلاوة والذكر، سليم الباطن جداً بحيث كان كثير من الناس يتكلم فيه بسبب ما له من المباشرات بالخانقات وتؤثر عنه كرامات وخوارق. ذكره ابن حجر في معجمه بما هذا حاصله، قال: وكان يودني كثيراً، وأجاز في استدعاء ابني محمد، وذكر أنه ضاع منه مسموعاته. وكذا ذكره في «الإنباء» باختصار، وأنه استقر في مشيخة سعيد السعداء مدة مُتَطَاوِلَةً مع التَّوَّاضُعِ الكامل، والخلق الحسن وإكرام الوارد. واختصر «الإحياء» فأجاد، وطار اسمه في الآفاق، ورحل إليه بسببه، ثم صنف تصانيف أخرى. وكانت له مقامات وأوراد، وله محبوبون معتقدون، ومبغضون منتقدون. ونحوه قول المقرئ: كان معتقداً وله شهرة طارت في الآفاق، وللناس فيه اعتقاد، وعليه انتقاد. مات في يوم الأربعاء رابع عشر شوال سنة عشرين، ودفن بمقابر الصوفية بعد شهود ابن حجر الصلاة عليه، وقد جاز السبعين. وهو في عقود المقرئ، وقال: كان كثير الذكر، متواضعاً إلى الغاية بحيث لما اجتمعت به قبل يدي مراراً، وقدم إليّ نعلي لما انصرفت عنه، وهذه سيرته مع كل أحد، وحضرت عنده وظيفة الذكر بعد العشاء بالخانقاه، وكان يرى رفع الصوت به ويعلل ذلك،

(١) ينظر: «الضوء اللامع» (١٧٨/٨).

كثير الحياء يديم التلاوة مع سلامة الباطن، وله محبوبون يؤثرون عنه كرامات وخوارق؛ رحمه الله.

وسمع منه الثعالبي بـ «مصر».

١٠ - عمر بن محمد القُلْشَانِي^(١) - بفتح القاف وسكون اللام ثم معجمة أو جيم - المغربي، التونسي، الباجي الأصل - «باجة تونس» لا «الأندلس» فتلك منها شارح «الموطأ» - المالكي والد قاضي الجماعة محمد وأخو أحمد. أخذ عن أبيه وغيره، وولي قضاء الجماعة بتونس، وأقرأ الفقه، والأصليين، والمنطق، والمعاني والبيان والعربية. وحدث بالبخاري عن أبي عبد الله بن مَرْزُوقٍ، وشرح «الطوالع» شرحاً حسناً لم يكمل انتهى منه أكثر من مجلد إلى الإلهيات، وأخذ عنه خلق، منهم ولده، وإبراهيم الأخضر، وغالب الأعيان، وأبو عبد الله التريكي وآخرون ممن لقيناهم كابن زغدان، وكانت ولايته أولاً قضاء الأنكحة ببلده كآبيه، ثم قضاء الجماعة بعد موت أبي القاسم القسنطيني، وكان يكون بينهما ما بين الأقران فدام به قليلاً حتى مات في سنة ثمان وأربعين. وهناك من أرخه في سنة سبع وسمى جده عبد الله، وكان أبو القاسم قام على أخيه أحمد بسبب ما وقع منه من نقل كلام بعض المفسرين في قصة آدم عليه السلام وأفتى بقتله، بل أفتى أخوه أيضاً بذلك قبل علمه به، فلما تبين أنه أخوه قام في الدفع عنه، وكان فصيحاً في التقرير بحيث يستفيد منه من يكون بمجلسه من الأعلى والأدنى، ولا يمكن كبير أحد من الكلام، وقد قيل: إن سبب دخوله في القضاء أن عمه أحمد لم يسر سير ابن عقارب الذي كان قبله، فعز على الملك، واقتضى رأيه صرفه بابن أخيه هذا، وحصل لعمه نكايه عظيمة ولكن أعطوه إمامة جامع «الزيتونة»، واستمر حتى مات، فالله أعلم.

وسمع منه الثعالبي بعد رجوعه إلى «تونس».

١١ - علي بن موسى البجائي، أحد شيوخ عبد الرحمن الثعالبي ابن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي^(٢):

كان إماماً في الفرائض والحساب، حسنَ الخط كثير التقييد، له مسائل في فنون، شرح تلخيص ابن البناء، وقيد على رفع الحجابلة، توفي عام ستة عشر وثمانمائة.

(١) ينظر ترجمته في: «الضوء اللامع» (١٣٧/٦).

(٢) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (٣٣٣).

وسمع منه الثعالبي بـ «بجاية».

١٢ - البساطي^(١) - محمد بن أحمد بن عثمان بن نعيم بن مقدم البساطي شمس الدين أبو يوسف القاضي المصري المالكي ولد سنة (٧٥٦) وتوفي سنة (٨٤٢) اثنتين وأربعين وثمانمائة. من تصانيفه: توضيح المعقول وتحرير المنقول في شرح منتهى السؤل والأمل لابن الحاجب، حاشية على شرح المواقف، حاشية على شرح لوامع الأسرار للتحفاني في المنطق والحكمة، حاشية على المطول، الرد الوافر على ابن الناصر، روضة المجالس وأنس الجالس، شرح الألفية لابن مالك، شرح البديعية لابن حجة، شرح التائية لابن الفارض، شرح قصيدة البردة، شفاء العليل شرح مختصر الشيخ خليل في الفروع قصة الخضر عليه السلام، محاضرات خواص البرية في ألغاز الفقهية، المغني في الفروع، المفخرة بين دمشق والقاهرة، مقدمة في الأصول، مقدمة في الكلام، نكت على طوالع الأنوار للبيضاوي في الكلام.

وسمع منه الثعالبي أثناء رحلته، وذلك بـ «مصر» حرسها الله!!

١٣ - أبو الحسن علي بن محمد البليتي^(٢):

وسمع منه الثعالبي بـ «بجاية».

١٤ - أبو يوسف يعقوب الزعبي^(٣):

وسمع منه بـ «تونس».

وأما شيوخه الذين لم يذكرهم في رحلته، فقد ذكر التنبكي في «نيل الابتهاج» منهم ثلاثة، وهم:

١ - عبد الله بن مسعود التونسي^(٤):

شهر بابن قرشية، قال ابن حجر: أخذ عن والده، وقرأت بخطه أن من شيوخه الإمام ابن عرفة، وقاضي الجماعة أحمد بن محمد بن حيدرة، وأحمد بن إدريس الزواوي، وأبا الحسن محمد بن أحمد البطروني، وأبا العباس أحمد بن مسعود بن غالب القيسي، وتوفي

(١) ينظر ترجمته في: «هدية العارفين» (١٩٢).

(٢) ينظر: «نيل الابتهاج» (٢٥٨).

(٣) ينظر: «نيل الابتهاج» (٢٥٨)، و «شجر النور الزكية» (٢٦٥)، وفيه «الزعبي» بالعين المهملة.

(٤) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (٢٣٠)، و «الضوء اللامع» (٧٠/٣).

سنة سبع وثلاثين وثمانمائة.

٢ - عبد العزيز بن موسى بن معطي العبدوسي^(١):

الإمام الحافظُ الفقيه المحدث العلامة الجليل، حامل لواء المذهب والحفظ في وقته، أبو القاسم شيخ الإسلام ابن شَيْخ الإسلام أبي عمران العبدوسي الفاسي نزيل «تونس»، أخذ عن أبيه وغيره، ووصل في قوة الحافظة الدرجة العظمى، قال القاضي أبو عبد الله بن الأزرَق: كتب إليّ الشيخ الفقيه الجليل أحد المفتين بتونس أبو عبد الله الزلديوي يعرفني حاله بالحفظ فيما يقضي منه العجب من الغرابة، قال: وَرَدَ علينا في أخريات عام سبعة عشر وثمانمائة الفقيه العالم الحافظ أبو القاسم ابن الشيخ الإمام أبي عَمْرَانَ موسى العبدوسي بكتاب في يده من قبل الإمام أبي عبد الله محمد بن مرزوق، ويقول لنا فيه: يرد عليكم حافظ المغرب الآن، فقلنا: لعل ذلك من تعسيل الإخوان لإخوانهم في الوصية بهم، فلما اجتمعنا به، وأقام عندنا أزيد من عام رأينا منه العجب العجائب من حفظ لا تَوَهُّمُ يكون لأحد لما رأينا في بلادنا إفريقيا ومجالس أشياخنا بتونس وبجاية، كان عندنا بتونس الشيخ أبو القاسم البرزلي له أهل زماننا في حفظ الفقه، وأشياخ المدونة والناس دونه في ذلك، وبجاية الشيخ الفقيه أبو القاسم المشدالي حضرنا مجالسهم، فما رأينا ولا سمعنا من يشبه العبدوسي في حفظه، وعلمنا صدق ابن مرزوق فيما وصفه به، وأن من ورعه ألا يذكر ولا يكتب إلا بما تحقق؛ كما قال الشاعر: [الطويل]

فَلَمَّا التَقَيْنَا صَدَقَ الْخَبْرُ الْخُبْرُ

وقال الآخر: [منهوك الرجز]

بَلْ صَغُرَ الْخُبْرُ الْخُبْرُ

وقال الونشريسي في تحليلته: إنه الفقيه الحافظ المدرس المحدث الصدر الراوية المعبر الأرفع الأفضل - اهـ.

وقال الشيخ الرصاع: شيخنا الإمام العلامة المحدث الصالح الرباني يقال: اجتمع ليلة في جهاز بالشيخ أبي القاسم البرزلي، وهو أعمى، ولما تكلم العبدوسي قال له البرزلي: أهلاً بواعظ بلدنا، فقال له العبدوسي: قل وفقهها، فسكت البرزلي، فعد ذلك من رجلة العبدوسي وسرعة جوابه، رحمهم الله تعالى - اهـ.

(١) ينظر ترجمته في: (٢٧٠)، (٣٧١)، و «شجرة النور الزكية» (٢٥٢).

ونقل عنه ابن ناجي في «شرح المدونة»، والشيخ الثعالبي في شرح ابن الحاجب، وذكر عنه أنه قال: لا يلزم البراذعي مما تعقب به إلا حيث خالف ما في روايته من الأمهات عن موسى بن عقبة. وذكر الونشريسي في وفياته أنه توفي بتونس في التاسع والعشرين في ذي القعدة عام سبعة وثلاثين وثمانمائة.

٣ - عبد الواحد الغرياني^(١):

تلاميذه:

أخذ عن الإمام الثعالبي جماعة من أهل العلم منهم:

١ - محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب، الشهير محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق^(٢).

العجيسي التلمساني، عرف بالكفيف، ولّد الإمام أبي الفضل قطب المغرب الحفيد ابن مرزوق شارح «المختصر»، كان ولده صاحب الترجمة إماماً عالماً علامة، وصفه ابن داود البلوي بشيخنا الإمام، علم الأعلام، فخر خطباء الإسلام، سلالة الأولياء وخلف الأتقياء، المسند الراوية المحدث، العلامة القدوة الحافل الكامل، أبو عبد الله ابن سيدنا شيخ الإسلام، خاتمة العلماء الأعلام، الحبر البحر، الناقد النافذ التحرير، المشاور العمدة الكبير، ذي التصانيف العديدة، والأنظار السديدة، أبي عبد الله بن مرزوق.

أخذ العلم عن جماعة منهم: أبو شيخ الإسلام، قرأ عليه «الصحيح»، و «الموطأ» وغير كتاب من تأليفه وغيرها، وتفقه عليه وأجازه ما يجوز له وعنه روايته. والإمام العالم، النظار الحجة، أبو الفضل ابن الإمام، والإمام العلامة قاضي الجماعة المعمر المشاور أبو الفضل قاسم العقباني، والأستاذ المقرئ العالم أحمد بن محمد بن عيسى اللجائي الفاسي، والإمام العالم والولي الصالح المحدث عبد الرحمن الثعالبي، والإمام العالم الفقيه النظار أبو عبد الله محمد بن قاسم المشذالي، والإمام قاضي الجماعة العالم المحقق أبو عبد الله بن عقاب الجذامي التونسي، والإمام العالم الراوية الرحال، قاضي الأنكحة أبو محمد عبد الله بن سليمان بن قاسم البجيربي التونسي. قرأ وسمع عليهم، وأجازه عامة، وأجازه مكاتبة من شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر مع أولاد مرزوق عام تسعة وعشرين،

(١) ينظر: «نيل الابتهاج» (٢٥٩)، و «شجرة النور الزكية» (٢٦٥).

(٢) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (٥٧٤).

ومولده ليلة الثلاثاء غرة ذي القعدة عام أربع وعشرين وثمانمائة.

قال التنبكي: ومن شيوخه الإمام ابن العباس، قال السخاوي: قدم صاحب الترجمة «مكة» فعرض عليه ظهيرة، وأخذ عنه في الفقه وأصوله، والعربية والمنطق في سنة إحدى وستين، وسمعت في إحدى وسبعين أنه حي - اهـ.

وفي «وفيات النوشريسي» أن وفاته عام أحد وتسعمائة، ووصفه بالفقيه الحافظ المصنف. وأخذ عنه الخطيب ابن مَرْزُوقِ ابن أخته، وابن العباس الصغير، ووصفه بشيخنا علم الأعلام وحجة الإسلام آخر حفاظ «المغرب»، قرأت عليه الصحيحين وبعض مختصري ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وحضرت عليه جملة من «التهذيب» و«الخونجي» وغيرها.

وبالإجازة ابن غازي نقل عنه في «المازونية».

٢ - محمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي^(١):

وبه اشتهر نسبة لقبيلة بالمغرب، الحسني، نسبة للحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أم أبيه، قاله تلميذه الماللي في تأليفه التلمساني، عالمها، وصالحها، وزاهدها، وكبير علمائها، الشيخ، العلامة المتفنن، الصالح الزاهد العابد، الأستاذ المَحَقِّق المقرئ، الخاشع: أبو يعقوب يُوسُف.

نشأ خيراً مباركاً فاضلاً صالحاً، أخذ (كما قال تلميذه الماللي) عن جماعة، منهم: والده المذكور، والشيخ العلامة نصر الزواوي، والعلامة محمد بن توزت، والسيد الشريف أبو الحجاج يوسف بن أبي العباس بن محمد الشريف الحسني، أخذ عنه القراءات، وعن العالم المعدل أبي عبد الله الحباب علم الإسطرلاب، وعن الإمام محمد بن العباس الأصول والمنطق، وعن الفقيه الجلاب الفقه، وعن الولي الكبير الصالح الحسن أركان الراشدي حضر عنده كثيراً، وانتفع به وبركته، وكان يحبه ويؤثره ويدعو له، فحقق الله فيه فراسته ودعوته، وعن الفقيه الحافظ أبي الحسن التالوتي أخيه لأمه «الرسالة»، وعن الإمام الورع الصالح أبي القاسم الكناشي «إرشاد» أبي المعالي والتوحيد، وعن الإمام الحجة الورع الصالح أبي زيد الثعالبي «الصحيحين» وغيرهما من كتب الحديث، وأجاز ما يجوز له وعنه، وعن الإمام العالم العلامة الولي الزاهد الناصح إبراهيم التازي، وروى عنه أشياء

(١) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (٥٦٣).

كثيرة من المسلسلات وغيرها. وعن العالم الأجلّ الصالح أبي الحسن القلصادي الأندلسي الفرائض والحساب، وأجازه جميع ما يرويه وغيرهم. وكان آية في علمه وهديه، وصلاحه وسيرته، وزهده وورعه وتوقيه.

جمع تلميذه الماللي في أحواله وسيره وفوائده تأليفاً كبيراً في نحو ستة عشر كراساً من القلب الكبير.

وكان حليماً، كثير الصبر، ربما يسمع ما يكره فيتعامى عنه ولا يؤثر فيه، بل يتبسم، وهذا شأنه في كل ما يغضبه ولا يلقي له بالاً، ولا يحقد على أحد، ولا يعبس في وجهه، يفتح من تكلم في عرضه بكلام طيب وإعظام حتى يعتقد أنه صديقه، وقع له ممن يدعي أنه أعلم أهل الأرض كلام ينقصه، فما بالى به، ولما ألف بعض عقائده أنكر عليه كثير من علماء أهل وقته، وتكلموا بما لا يليق، فتغير لذلك كثيراً وحزن أياماً، ثم رأى في منامه عمر بن الخطاب واقفاً على رأسه بيده سيف أو عصا، فهزها على رأسه وهدده بها، وكأنه قال: ما هذا الخوف من الناس. فأصبح قد زال حزنه، واشتدّ قلبه على المنكرين؛ فخرست حيثنذ ألسنتهم، فحلم عنهم وسمح، فأقروا بفضله.

وكان من عاداته أنه إذا صلى الصبح في مسجده وفرغ من ورده، أقرأ العلم إلى وقت الفطور المعتاد، ثم خرج ووقف مع الناس ساعة بباب داره ثم دخل وصلى الضحى قدر قراءة عشرة أحزاب، ثم اشتغل بالمطالعة في وقت طول النهار، وإلا ربما زالت الشمس وهو في الضحى، وخرج بعد الزوال للخلوات، فلا يرجع إلا للغروب، أو يبقى في بيته فيتوضأ ويصلي أربع ركعات، ثم خرج لمسجده وصلى بالناس الظهر وتنفل أربعاً، ويقرأ ثم يتنفل وقت العصر أربعاً، ويصلي العصر ويقرأ، أو يخرج لداره. واشتغل بالورد إلى الغروب، ثم خرج للمغرب وتنفل بست ركعات، ويبقى هناك حتى يصلي العشاء، ويقرأ ما تيسر ورجع لداره ونام ساعة، ثم اشتغل بالنظر أو النسخ ساعة وتوضأ، ويصلي باقياً فيها، أو في ذكر لطلوع الفجر، هذا أكثر حاله.

وأما وعظه، فكان يقرع الأسماع، وتقشعر منه الجلود، كل من حضر يقول: معي يتكلم، وإياي يعني، جله في الخوف والمراقبة وأحوال الآخرة، لا تخلو مجالسه منه مع حلاوة له، لا توجد في كلام غيره، يعظ كل أحد بحسب حاله، ما رؤي قط إلا وشفته متحركتان بالذكر، وربما يكلمه إنسان وهو يذكر الله تعالى، وتسمع لقلبه أنيناً من شدة خوفه ومراقبته على الدوام، كان يقول: حقيقة العبودية امتثال الأمر، واجتناب النهي مع كمال الذلة والخضوع.

وكان - رحمه الله - أروع زمانه، يبغض الاجتماع بأهل الدنيا والنظر إليهم وقربهم، وأتاه في مرضه بعض من يذمه من علماء عصره، فطلب منه أن يسمح له، فغفر له ودعا له، ولما مات بكى عليه هذا العالم شديداً وتألّم، ومتى ذكره بكى ويقول: فقدت الدنيا بفقده، كان يثني كثيراً على رجلين من علماء عصره ممن يذمونه ويسئون إليه، وكان يصلح بين الخصام، ويقضي الحوائج، ذكر أنه كتب يوماً ثلاثين كتاباً بلا فترة، قال: «كلّفتي بها إنسان لم أقدر على ردها». ولو كان إنسان ينسخ مثل هذا في كل يوم لظفر بعدة أسفار، وهذه مصائب ابتلينا بها.

ومن صبره كثرة وقوفه مع الخلق، ولا يفارق الرجل حتى ينصرف. وهذا كله مع إدامة الطاعات وسواء الطريقة وشدة التحرز والإسراع بوفاء حقوق العباد قبل استحقاقها، إذا أعار كتاباً رده في أقرب مدة قبل طلب صاحبه، وربما كان سفرأ ضخماً لا يمكن مطالعته إلا في ثلاثة أيام، فيطالعه يوماً واحداً ويرده.

وكان يأمر أهله بالصدقة سيما وقت الجوع ويقول: من أحب الجنة فليكثر الصدقة؛ خصوصاً في الغلاء، كثير التصدق بيده، ويكثر الخروج للخلوات ومواضع الخرب الباقية آثارها للاعتبار، وإذا رأى ما كان منها متقناً ذكر حديث: «رحم الله عبداً صنع شيئاً فاتقنه» ويقول: أين سكانها؟ وكيف يتنعمون؟.

وأما تأليفه فقال الملالي: منها شرحه الكبير على «العوفية» المسمى «المقرب المستوفى» كبير الجرم، كثير العلم، ألفه وهو ابن تسعة عشر عاماً، ولما وقف عليه شيخه الحسن أبركان تعجب منه، وأمر بإخفائه حتى يكمل سنه أربعين سنة؛ لثلاث يصاب بالعين، ويقول له: لا نظير له فيما أعلم، ودعا لمؤلفه، وعقيدته الكبرى سماها «عقيدة التوحيد» في كراريس من القلب الرباعي، أول ما صنفه في الفن، ثم شرحها، ثم الوسطى وشرحها في ثلاثة عشر كراساً، ثم الصغرى وشرحها في ست، وهي من أجل العقائد؛ لا تعادلها عقيدة، كما أشار إليه هو. حدثني بعضهم أنه مات قريبه وكان صالحاً، فرآه في النوم. فسأله عن حاله فقال: دخلت الجنة فرأيت إبراهيم الخليل (عليه السلام) يقرئ صَبِيحَانَا عقيدة السنوسي، يدرسونها في الألواح يَجْهَرُونَ بقراءتها - اهـ.

قال الشيخ: لا شك أنه لا نظير لها فيما علمت، تكفي من اقتصر عليها عن سائر العقائد، وقد نظم سيدي محمد بن يحبش التازي في مدحها أبياتاً، وعقيدته المختصرة أصغر من الصغرى، وشرحها أربع كراريس، وفيه فوائد ونكت، والمقدمات المبينة لعقيدته الصغرى قريبة منها جرماً، وشرحها خمس كراريس، وشرح الأسماء الحسنى في كراريس،

وشرحه الكبير على الجزيرية فيه نكت نفيسة، ومختصر الأبي على مسلم في سفرين فيه نكت حسنة، وشرح «إيسا غوجي» في المنطق، تأليف البرهان البقاعي كثير العلم، ومختصره العجيب فيه زوائد على «الخونجي» وشرحه الحسن جداً، وشرح قصيدة الحباك في الإسطرلاب شرح جليل، وشرح أبيات الإمام الأليري في التصوف، وشرح الأبيات التي أولها: تطهر بماء الغيب، وشرحه العجيب على البخاري وصل فيه إلى باب «من استبرأ لدينه»، وشرح مُشكلات البخاري في كراسين، ومختصر الزركشي على البخاري.

ومنها عقيدة أخرى فيها دلائل قطعية على من أثبت تأثير الأسباب العادية، كتبها لبعض الصالحين، ومختصر «حاشية التفتازاني» على «الكشاف»، و«شرح مقدمة الجبر والمقابلة» لابن الياسمين، وشرح «جمل» الخونجي في المنطق، و«شرح مختصر ابن عرفة»، فيه حل صعوبته، وقال لي: إن كلامه صعب سيما هذا المختصر تعبت كثيراً في حله؛ لصعوبته إلى الغاية، لا أستعين عليها إلا بالخلوة.

ومنها شرح رَجَزِ ابن سينا في الطب لم يكمل، ومختصر في القراءات السبع، وشرح «الشاطبية» الكبرى لم يكمل، وشرح «الوعليسية» في الفقه لم يكمل، ونظم في الفرائض، واختصار «رعاية» المحاسبي، ومختصر «الرؤوض الأنثف» للسهيلي لم يكمل، ومختصر «بغية السالك في أشرف المسالك» للساحلي، وشرح «المرشدة» و«الدر المنظوم» في شرح «الجرومية»، وشرح «جواهر العلوم» للعضد في علم الكلام على طريقة الحكماء، وهو كتاب عجيب جداً في ذلك، إلا أنه صعب مُتَعَسِّرٌ على الفهم جداً، وتفسير القرآن إلى قوله: «وأولئك هم المفلحون» في ثلاثة كراريس، ولم يمكن له التفرغ له، وتفسير سورة «ص» وما بعدها، فهذا ما علمت من تأليفه مع ما له من الفتاوى والوصايا والرسائل والمواعظ، مع كثرة الأوراد وقضاء الحوائج والإقراء - اهـ.

وقد أخذ عنه أعلام كابن سعد، وأبي القاسم الزواوي، وابن أبي مدين، والشيخ يحيى بن محمد، وابن الحاج البيدري، وابن العباس الصغير، وولي الله محمد القلعي ريحانة زمانه، وإبراهيم الوجديجي وابن ملوكة، وغيرهم من الفضلاء.

وتوفي يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأخيرة عام خمسة وتسعين وثمانمائة، وشم الناس المسك بنفس موته، رحمه الله. مولده بعد الثلاثين وثمانمائة.

٣ - أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي^(١)، الشيخ الإمام الفاضل،

(١) ينظر ترجمته في: «شجرة النور الزكية» (٢٦٥).

العالم العامل، الولي الصالح الكامل. أخذ عن أبي زيد الثعالبي وغيره، وعنه الشيخ زروق وغيره. ألف اللامية المشهورة في العقائد، شرحها الشيخ السنوسي، وأثنى على نظمها بالعلم والصّلاح. توفي سنة ٨٨٤هـ.

٤ - محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي^(١):

التلمساني خاتمة المحققين، الإمام العالم، العلامة الفهامة، القدوة الصالح السني، أحد الأذكياء، ممن له بسطة في الفهم والتقدم، متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين، وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء وقته حين قام على يهود «توات»، وألزمهم الذل، بل قتلهم وهدم كنائسهم، ونازعه في ذلك الفقيه عبد الله العصنوني قاضي «توات»، وراسلوا في ذلك علماء «فاس» و «تونس» و «تلمسان»، فكتب في ذلك الحافظ التنسي كتابة مطولة، بصواب رأي صاحب الترجمة، ووافقه عليها الإمام السنوسي.

دخل بلاد «أهر» وبلاد «تكدة»، واجتمع بصاحبها، وأقرأ أهلها وانتفعوا به، ثم دخل بلاد «كنو وكشن» من بلاد السودان، واجتمع بصاحب «كنو» واستفاد عليه، وكتب رسالة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده.

ثم رحل لبلاد «التكرور»، فوصل إلى بلدة «كاغو»، واجتمع بسلطانها ساسكي محمد الحاج، وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف، وألف له تأليفاً أجابه فيه عن مسائل، وبلغه هناك قتل ولده بتوات من جهة اليهود، فانزعج لذلك، وطلب من السلطان قبض أهل توات الذين بكأغو حينئذ، فقبض عليهم، وأنكر عليه أبو المحاسن محمود بن عمر؛ إذ لم يفعلوا شيئاً، فرجع عن ذلك، وأمر بإطلاقهم، ورحل لتوات فأدركته المنية بها، فتوفي هناك سنة تسع وتسعمائة.

ويقال: إن بعض ملاعين اليهود أو غيرهم مشى لبقبره فبال عليه فعمي مكانه، وكان - رحمه الله - مقداماً على الأمور، جسوراً جريء القلب، فصيح اللسان، محباً في السنة جديلاً نظاراً محققاً.

له تأليف منها: «البدر المنير في علوم التفسير»، و «مصباح الأرواح في أصول الفلاح» كتاب عجيب في كراسين أرسله للسنوسي، وابن غازي، فقرطاه، وشرح «مختصر

(١) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (٥٧٦)، و «بروكلمان» (٣٦٣/٢).

خليل» سماه «مغني النبيل»، اختصر فيه جداً، وصل فيه للقسم بين الزوجات، وله عليه قطع آخر من البيوعات وغيرها، بل قيل: إنه شرح ثلاثة أرباع المختصر، وحاشية عليه سماها «إكليل المغني»، وشرح بيوع الآجال من ابن الحاجب، فبحث فيه مع ابن عبد السلام و خليل، وتأليف في المنهيات، ومختصر «تلخيص المفتاح» وشرحه، و «مفتاح النظر» في علم الحديث، فيه أبحاث مع النووي في تقريبه، وشرح «الجمل» في المنطق، ومقدمة فيه، ومنظومة فيه سماها «منح الوهاب»، وثلاثة شروح عليها.

وله أيضاً «تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين»، وشرح خطبة المختصر، ومقدمة في العربية، وكتاب «الفتح المبين»، وفهرسة مروياته، وعدة قصائد، كالميمية على وزن البردة ورويتها في مدحه ﷺ.

أخذ عن الإمام عبد الرحمن الثعالبي، والشيخ يحيى بن بدير، وغيرهما، وأخذ عنه جماعة، كالفقيه أيد أحمد، والشيخ العاقب الأنصمني، ومحمد بن عبد الجبار الفيحي وغيرهم.

وقع له مراسلة مع الجلال السيوطي في علم المنطق، فمما كتب للسيوطي فيه قوله: [من الطويل]

| | |
|--|---|
| سَمِعْتُ بِأَمْرِ مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ | وَكُلُّ حَدِيثٍ حُكْمُهُ حُكْمُ أَصْلِهِ |
| أَيُنْكَرُ أَنَّ الْمَرْءَ فِي الْعِلْمِ حُجَّةٌ | وَيَنْهَى عَنِ الْفُرْقَانِ فِي بَعْضِ قَوْلِهِ |
| هَلِ الْمَنْطِقُ الْمَعْنِيُّ إِلَّا عِبَارَةٌ | عَنِ الْحَقِّ أَوْ تَحْقِيقِهِ حِينَ جَهْلِهِ |
| مَعَانِيهِ فِي كُلِّ الْكَلَامِ وَهَلْ تَرَى | دَلِيلًا صَاحِحًا لَا يُرَدُّ لِشَكْلِهِ |
| أَرْنِي هَذَاكَ اللَّهُ مِنْهُ قَضِيَّةٌ | عَلَى غَيْرِ هَذَا تَنْفِهَا عَنْ مَحَلِّهِ |
| وَدَغَ عَنْكَ أَبْدَاهُ كَفُورٍ وَذِمَّةٌ | رِجَالٍ وَإِنْ أَثْبَتَ صِحَّةَ نَفْلِهِ |
| خُذِ الْحَقَّ حَتَّى مِنْ كَفُورٍ وَلَا تُقِمِ | دَلِيلًا عَلَى شَخْصٍ بِمَذْهَبٍ مِثْلِهِ |
| عَرَفْنَاهُمْ بِالْحَقِّ لَا الْعَكْسِ فَاسْتَبِنْ | بِهِ لَا بِهِمْ إِذْ هُمْ هَذَاهُ لِأَجْلِهِ |
| لَيْتَن صَحَّ عَنْهُمْ مَا ذَكَرْتَ فَكَمْ هُمْ | وَكَمْ عَالِمٍ بِالشَّرْعِ بَاحٍ بِضَلِّهِ |

... في أبيات أخرى، فأجابه السيوطي بقوله: [من الطويل]

| | |
|--|--|
| حَمِدْتُ إِلَهَ الْعَرْشِ شُكْرًا لِفَضْلِهِ | وَأُهْدِي صَلَاةً لِلنَّبِيِّ وَأَهْلِهِ |
| عَجِيبٌ لِنَظْمٍ مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ | أَتَانِي عَنْ جَبْرِ أَقْرَأُ بِثَبْلِهِ |

تَعَجَّبَ مِنِّي حِينَ أَلْفَتْ مُبْدِعاً
 أَقَرُّ فِيهِ النَّهْيَ عَنْ عِلْمٍ مَنْطِقٍ
 وَسَمَاهُ بِالْفُرْقَانِ يَا لَيْتَ لَمْ يَقُلْ
 وَقَالَ فِيهِ فِيمَا يَقَرُّ رَأْيَهُ
 وَدَغَ عَنْكَ أَبْدَاهُ كَفُورٍ وَبَغْدَا
 وَقَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ فِي ذَمِّ مَنْ حَوَى
 يُعَزِّزُ بِهِ عِلْماً لَدَيْهِ وَأَنَّهُ
 وَقَدْ مَنَعَ الْمُخْتَارُ قَارُوقَ صَخِيهِ
 وَقَدْ جَاءَ مِنْ نَهْيِ اتِّبَاعِ لِكَافِرٍ
 أَقَمْتُ دَلِيلًا بِالْحَدِيثِ وَلَمْ أُقِمِ
 سَلَامٌ عَلَى هَذَا الْإِمَامِ فَكَمْ لَهُ

٥ - علي بن محمد التالوتي الأنصاري أخو الإمام محمد بن يوسف السنوسي لأمه^(١) :

قال تلميذه الملاي: شيخنا، الفقيه، الحافظ، المتقن، العالم، المتفنن، الصالح، أبو الحسن، كان مُحَقِّقاً متقناً حافظاً يحفظ كتاب ابن الحاجب، ويستحضره بين عينيه، قل أن ترى مثله حافظاً، قرأ عليه أخوه محمد السنوسي «الرسالة» في صغره، وكان من أكابر أصحاب الحسن أبركان، ما رأيت قط مشغلاً بما لا يعنيه، بل إما ذاكرة أو قارئاً للقرآن أو مُشْتَغِلاً بِمُطَالَعَةٍ أو نحوه، يحفظ «الرسالة» و «ابن الحاجب»، و «التسهيل» لابن مالك، وغيرها، جعل له وزداً كل يوم، قرأت عليه «ابن الحاجب» قراءة بَحْثٍ وإفادة، وسألته عن وضع الكتاب في الأرض، فقال: حكى شيخنا الحسن أبركان فيه قولين لمتأخري أهل «تونس» و «بجاية» جوازاً ومنعاً، وسألته عن مستند الناس في عاداتهم من عدم أخذ الرجل المقص من صاحبه بل يضعه على الأرض فيأخذه حينئذ، فقال: سألت عنه شيخنا الحسن أبركان فقال: هكذا رأينا شيوخنا يفعلون، ثم قال سيدي علي: وَلَعَلَّهُ عِلْمٌ نَسِي - اهـ.

قال التنبكي: وقد ذكر السيد الشريف السمهودي الشافعي في كتابه «جواهر العقدين» حكمة منعه عن بعض شيوخه فانظره فيه، قال الملاي: وسألته عن الوتر جالساً قال: فيه قولان بِالْجَوَازِ وعدمه، وذكر أخوه السنوسي أنه يؤخذ جوازه جالساً من قول «المدونة»: أنه

(١) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (٣٤١)، و «شجرة النور الزكية» (٢٦٦).

يُوتَرُ في سفره على الدَّابَّة - اهـ.

وهذا الأخذ نَقَلَهُ ابن ناجي عن بعض الشيوخ، قال الملاي: رأيت بِخَطِّهِ عن بعض الصالحين؛ أن من نزل منزلاً وجمع أثقاله وخط على حوالها خطأ وهو في داخل الخط، ويقول في داخله ثلاثاً: الله الله ربي لا شريك له، لم يضره لص ولا عدو ولا غيره، ويكون مع ثقله في حِزْرِ الله، وهو مجرب - اهـ. وتوفي في صفر عام خمسة وتسعين وثمانمائة، ورأى أخوه السنوسي قبل موته في المنام داراً عظيمة فيها فرش مرتفع فقيل له: هي لأخيك علي يدخل فيها عروساً - اهـ - من الملاي.

٦ - علي بن عباد التُّشْتُريُّ البكري الفاسي المغربي: (١)

أخذ عن أبي بكر البرجي الفقه، وأسئلة كثيرة عن محمد القوري، وسمع الحديث على عبد الرحمن الثعالبي، ومن تأليفه «لطائف الإشارات في مراتب الأنبياء في السموات»، ولد سنة ثلاثين وثمانمائة.

قال التنكي: وتأليفه المذكور في كراسة ذكر في آخره أنه فَرَّغَ منه في ذي الحجة عام ثمانين وثمانمائة.

٧ - أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق: (٢)

الإمام العالم الفقيه، المحدث، الصوفي، الولي، الصالح الزاهد، القطب الغوث العارف بالله، الحاج الرحلة المشهورة شرقاً وغرباً، ذو التصانيف العديدة، والمناقب الحميدة، والفوائد العتيدة، قد عرف بنفسه وأحواله وشيوخه في كُنَاشَتِهِ وغيرها، فقال: ولدت يوم الخميس طلوع الشمس ثامن وعشرين من المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، وتوفيت أُمِّي يوم السبت بعده وأبي يوم الثلاثاء بعده كلاهما في سابعي، فبقيت بعين الله بين جدتي الفقيهة أم البنين، فكفلتني حتى بلغت العشر، وحفظت القرآن، وتعلمت صناعة الخرز، ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر إلى القراءة، فقرأت «الرسالة» على الشيخين: علي السطّي، وعبد الله الفخار قراءة بحث وتحقيق، و «القرآن» على جماعة منهم: القوري، والزرهوني، وكان رجلاً صالحاً، والمجاصي، والأستاذ الصغير بحرف نافع، واشتغلت بالتصوف والتوحيد، فأخذت «الرسالة القدسية»، و «عقائد الطوسي» على الشيخ

(١) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (٣٤٢).

(٢) ينظر ترجمته في: «نيل الابتهاج» (١٣٠).

عبد الرحمن المجدولي، وهو من تلاميذ الأبي، وبعض «التنوير» على القوري، وسمعت عليه البخاري كثيراً، وتفقهت عليه في كل «أحكام عبد الحق الصغرى»، و «جامع الترمذي»، وصحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين قَبيهِ وقَبيِر.

وقال فيه الشيخ ابن غَازِي: صاحبنا الأود الخلاصة الصفي، الفقيه المحدث، الفقير، الصوفي البرنسي، و «برنس»، بنون مضمومة بعد الراء، نسبة إلى عرب بالمغرب، انتهت فهرسته. وقال الحافظ السخاوي: أخذ على القوري، وكتب على «حكم ابن عطاء الله»، وعلى «القرطبية» في الفقه، ونظم «فصول السلمي» - اهـ.

قال التنبكي: ومن شيوخه، كما ذكره هو، الشيخ الإمام عبد الرحمن الثعالبي، والولي إبراهيم التازي، والمشدالي، والشيخ حلولو، والسراج الصغير، والرصاص، وأحمد بن سعيد الحباك، والحافظ التنسي، والإمام السنوسي، وابن زكري، وأبو مهدي عيسى المواسي، وبالمشرق عن جماعة كالنور السنهوري، والحافظ الدميري، والحافظ السخاوي، والقطب أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي، وولي الله الشهاب الأنشيطي في جماعة آخرين. وأما تأليفه: فكثيرة يميل إلى الاختصار مع التحرير، ولا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة، وتحقيقات مفيدة سيما في التصوف، فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه، فمنها شرحان على «الرسالة»، وشرح «إرشاد ابن عسكر»، وشرح «مختصر خليل»، رأيت مواضع منه بخطه عن الأنكحة والبيوع وغيرها، وشرح «الوغيسية»، وشرح «القرطبية»، وشرح «الغافية»، وشرح «العقيدة القدسية» للغزالي، ونيف وعشرون شرحاً على الحكم، وقفت على الخامس عشر والسابع عشر منها، وأخبرني والذي - رحمه الله تعالى - أن بعض المكيين أخبره، أن له عليها أربعاً وعشرين شرحاً، وشرحان على «حزب البحر»، وشرح «الحزب الكبير» لأبي الحسن الشاذلي، وشرح مشكلاته، وشرح «الحقائق والدقائق» للمقري، وشرح قطع الششتري وشرح «الأسماء الحسنى»، وشرح «المرائد» في التصوف لشيخه ابن عقبة، و «النصحية الكافية لمن خَصَّه الله بالعافية». واختصره. و «إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين»، وكتاب «القواعد في التصوف»، وهذه الثلاثة في غاية النبل والحسن، سيما الأخير لا نظير له. وكتاب «النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة»، وكتاب «عدة المرید الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت» كتاب جليل فيه مائة فصل بين فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية، وله تعليق لطيف على «البخاري» قدر عشرين كراساً اقتصر فيه على ضبط الألفاظ وتفسيرها، وجزء صغير في عِلْم الحديث، وله رسائل كثيرة لأصحابه مشتملة على حكم

ومواعظ وآداب ولطائف التصوف مع الاختصار قل أن توجد لغيره، وبالجمله فقدره فوق ما يذكر، ومن تفرغ فذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلداً.

وهو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشرعية، له كرامات عديدة، وحجّ مرات، وأخذ عنه جماعة من الأئمة، كالشمس اللقاني، والعالم محمد بن عبد الرحمن الخطّاب، والزين طاهر القسنطيني، وغيرهم، وقد أجازني سيدي الشيخ الصوفي أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي ما أجازه شيخه العريف الخروبي تلميذ زروق عنه. توفي بـ «تكرين» من عمل «طرابلس»^(١) في صفر عام تسعة وتسعين وثمانمائة، ووجدت منسوباً إليه من نظمه قوله: [الطويل]

أَلَا قَدْ هَجَرْتُ الْخَلْقَ طُرّاً بِأَسْرِهِمْ
وَخَلَّفْتُ أَضْحَابِي وَأَهْلِي وَجِيرَتِي
وَوَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاءَ
وَعَلَّقْتُ قَلْبِي بِالْمَعَالِي تَهْمُساً
وَقُلَّدْتُ سَيْفَ الْعِزِّ فِي مَجْمَعِ الْوَعَى
وَمُلَكْتُ أَرْضَ الْعَرَبِ طُرّاً بِأَسْرَهَا
فَمَلَكْنِيهَا بَغْضَ مَنْ كَانَ عَارِفاً
فَأَزْفَعُ قَدْراً ثُمَّ أَخْفِضُ رُتْبَةً
وَأَعِزُّ قَوْماً ثُمَّ أُولِي سِوَاهُمْ
وَأَجْبُرُ مَكْسُوراً وَأُشْهِرُ خَامِلاً
وَأَقْهَرُ جَبَّاراً وَأَذْخُضُ ظَالِماً
وَأُلْهِمْتُ أَسْرَاراً وَأُعْطِيتُ حِكْماً
أَنَا لِمُرِيدِي جَامِعٌ لِشَتَاتِهِ
وَأَنْظُرُ مَظْلُوماً بِسُلْطَانِ سَطَوَاتِي
وَأُحِزُّ مَقَامَاتِ الْعُلَا الْمُسْتَنْيرَةِ
إِذَا مَا سَطَا جَوُزُ الزَّمَانِ بِتَكْبَةِ
فَنَادِ أَيْأَ زُرُوقُ، آتِ بِسُرْعَةٍ
وَكَمْ طُرْفَةً تُجَنِّي بِأَفْرَادِ صُخْبَتِي

(١) طرابلس الغرب: بلدة على جانب البحر. ينظر: «مراصد الاطلاع» (٨٨٢).

مُصَنَّفَاتُ الثَّعَالِبِيِّ :

لم تَحْطُ أمة من الأمم بمثل ما حظيت به هذه الأمة الإسلامية من تراث تليد، وأثر حميد، ذلك أن علماءها قد ملثوا مكتباتها بكتب وأسفار تحمل في صفحاتها وصحيفاتها كل علم نافع، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

ولقد دَرَجَ الثعالبي - رحمه الله - نفسه ضمن تلك السلسلة المباركة، من شيوخ هذه الأمة، فأخرج لنا نفائس الكتب في مختلف العلوم، إلا أن الذي ذكر لنا في تراجمه لم يكن بالعدد الضخم الذي يبلغ المائة، ولا ما يزيد، مثل ما كان عدد مصنفات ابن الجوزي مثلاً، فقد قال ابن تيمية عنه: «عددت له ألف مصنف، ثم رأيت بعد ذلك ما لم أر».

وكانت مُصَنَّفَاتُ الثعالبي كما يلي :

أولاً: في التفسير :

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، وهو هذا الكتاب.

ثانياً: في الفقه :

١ - روضة الأنوار، جمعه من نحو من ستين من أمهات الدواوين المعتمدة.

٢ - جامع الأمهات في أحكام العبادات.

ثالثاً: في الحديث :

١ - أربعون حديثاً مختارة.

٢ - المختار من الجوامع.

رابعاً: الرقائق وعلوم الآخرة :

١ - الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة.

٢ - العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة.

٣ - كتاب النِّصَائِح.

٤ - جامع الفوائد.

٥ - الدرر الفائقة في الأذكار.

٦ - الإرشاد في مصالح العباد.

خامساً: في القراءات:

- شرح منظومة ابن بَرِّي في قراءة نافع.

سادساً: تهذيب النَّفْس:

- إرشاد السالك.

سابعاً: إعراب القرآن وَغَرِيبُهُ:

١ - تحفة الأقران في إعراب بعض آي القرآن.

٢ - الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز.

ثامناً: في الخصائص النبوية:

- كتاب في معجزاته ﷺ.

وقد أثنى العلماء على مُصَنَّفَاتِ الثَّعَالِبِيِّ، فقال السخاوي: «كان إماماً علامة، مصنفاً...»، وفي شجرة النور: له تأليف كثيرة مفيدة.

وبالجملة، فهذا تقييم لأحد مترجمي الإمام الثعالبي، ذكر فيه كتبه وحجمها، ومادتها. قال التنكي:

وأما تأليفه فكثيرة كتفسيره «الجواهر الحسان» في غاية الحسن، اختصر فيه «ابن عطية» مع فوائد وزوائد كثيرة، و «روضة الأنوار، ونزهة الأخيار»، وهو قدر «المدونة»، فيه لباب من نحو ستين من أمهات الدواوين المعتمدة، وهو خزانة كتب لمن حصله قال: وجمعه في سنين كثيرة، فيه بساتين وروضات - اهـ.

وكتاب «الأنوار في معجزات النبي المختار» ﷺ، و «الأنوار المضيئة الجامع بين الحقيقة» في جزء، و «رياض الصالحين» جزء، وكتاب «التقاط الدرر»، وكتاب «الدر الفائق في الأذكار والدعوات»، و «العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة» مجلد ضخيم، وشرح «ابن الحاجب» الفرعي في سفرين، جمع فيه نخب كلام ابن رشد وابن عبد السلام وابن هارون و خليل و غرر ابن عرفة مع جواهر «المدونة» و عيون مسائلها في سفرين، وفي آخره جامع كبير نحو عشرة كراريس من القالب الكبير فيه فوائد، و «إرشاد السالك» جزء صغير،

و «الأربعون حديثاً مختارة»، و «المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع»، وكتاب «جامع الفوائد»، وكتاب «جامع الأمهات في أحكام العبادات»، وكتاب «النصائح»، وكتاب «تحفة الإخوان في إعراب بعض آي القرآن»، و «الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز»، وكتاب «الإرشاد في مصالح العباد»، ذكر جميعها في فهرسته.

ثناء العلماء عليه :

نال الإمام الثعالبي ثناءً عَظِراً من أهل العلم، واللّه (سبحانه) يعلي ذكر المرء في الأمم والأعصار على قدر إخلاصه ونيته.

قال الإمام السخاوي: «وكان إماماً مصنفاً... وعمل في الوعظ والرقائق وغير ذلك».

وفي «نيل الابتهاج» قال التنبكي: «الشيخ، الإمام، الحجة، العامل، الزاهد، الورع، ولي الله الناصح الصالح، العارف بالله، أبو زيد، شهر بالثعالبي، صاحب التصانيف المفيدة، كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد الله الصالحين، قال السخاوي: كان إماماً علامة مصنفاً، اختصر تفسير ابن عطية في جزئين، وشرح «ابن الحاجب» الفرعي في جزئين، وعمل في الوعظ والرقائق وغيرها - اهـ.

قال الشيخ زروق: شيخنا الفقيه الصالح والديا عليه أغلب من العلم، يتحرى في النقل أتم التحري، وكان لا يستوفيه في بعض المواضع - اهـ.

قال ابن سلامة البكري: كان شيخنا الثعالبي رجلاً صالحاً زاهداً عالماً عارفاً ولياً من أكابر العلماء، له تأليف جملة أعطاني نسخة من تفسير «الجواهر» لا بشراء ولا عوض، عاوضه الله بالجنة، وقال غيره: سيدنا ووسيلتنا لرَبنا الإمام الولي العارف بالله - اهـ.

قلت: وهو ممن اتفق النَّاسُ على صلاحه وإمامته، أثنى عليه جماعة من شيوخه بالقلم والدين والصلاح، كالإمام الأبي، والوليِّ العراقي، والإمام الحفيد ابن مرزوق.

وقال في «شجرة النور الزكية»: «الإمام، علم الأعلام، الفقيه، المفسر، المحدث، الراوية، العمدة، الفهامة، الهمام، الصالح، الفاضل، العارف بالله، الواصل. أثنى عليه جَمَاعَةٌ بالعلم والصلَاح والدين المتين».

وقال الغزي في «ديوان الإسلام»: «الإمام، الحبر، العلامة».

وقال الذَّهَبِيُّ في «التفسير والمفسرون»: «الإمام الحجة، العالم العامل، الزاهد، الورع، ولي الله الصالح، العارف بالله، كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد الله الصالحين».

وَفَاتُهُ:

كانت وفاة الثعالبي سنة خمس وسبعين وثمانمائة، كما ذكر تلميذه زروق، وذكره السخاوي في «الضوء اللامع». إلا أن صاحب «شجرة النور الزكية» حكاهما على الشك، بين خمس وست وسبعين. رحمه الله رحمة واسعة!!

المبحث الثاني التفسير قبل أبي زيد الثعالبي التفسير والتأويل

التفسير لغة:

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] أي: بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفسر، وهو: الإبانة والكشف.

قال الفيروزآبادي^(١):

«الْفَسْرُ: الإبانة وكشف المغطى؛ كالتفسير، والفعل كضرب ونصر».

وقال ابن منظور^(٢):

«الْفَسْرُ: البيان، فَسَرَ الشَّيْءَ يَفْسِرُهُ - بالكسر - وَيَفْسِرُهُ - بالضم - فَسْرًا، وَفَسْرُهُ: أبانه، والتفسير: مثله... والْفَسْرُ: كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكّل».

وقال أبو حيان^(٣):

«... وَيُطْلَقُ التفسيرُ أيضاً على التَّعْرِيةِ لِلانطلاق؛ قال ثَعْلَبٌ: «تقول: فَسَرْتُ الْفَرَسَ: عريته؛ لينطلق في حصره، وهو راجعٌ لمعنى الكَشْفِ، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه مِنَ الْجَزْيِ».

وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين^(٤):

الكشف المادّي المخسوس، والكشف المعنوي المعقول.

(١) «القاموس المحيط» «فسر».

(٢) «اللسان»: مادة «فسر».

(٣) «البحر المحيط» ١/ ١٣.

(٤) «التفسير»: معالم حياته - منهجه اليوم - أمين الخولي ص ٥، و«التفسير والمفسرون»/ للذهبي ج ١/ ١٥.

وقيل: إن أضلَّ الكَلِمَةَ من التَّفْسِيرَةِ، وهي الدليلُ مِنَ الماءِ ينظر فيه الطَّيِّبُ؛ فيكشف عن علَّةِ المَرِيضِ؛ كما يكشف المفسِّر عن شَأْنِ الآيَةِ وقِصَّتِهَا^(١).

التفسير اصطلاحاً:

عرفه السيوطي قائلًا^(٢):

«هو عِلْمُ نزولِ الآياتِ وشُؤْنِهَا وأَقاصِيصِهَا، والأسبابِ النازلةِ فيها، ثم ترتيب مَكَيِّهَا ومَدَنِيَّهَا، وبيان مُحْكَمِهَا ومُتَشَابِهِهَا، وناسِخِهَا ومَنْسُوخِهَا، وخاصَّهَا وعَامَّهَا، ومُطْلَقِهَا ومُقَيَّدِهَا، ومُجْمَلِهَا ومُفَسَّرِهَا، وحَلَالِهَا وحَرَامِهَا، وَوَعْدِهَا وَوَعِيدِهَا، وَأَمْرِهَا وَنَهْيِهَا، وَعَبَرِهَا وَأَمْثَالِهَا، وَنَحْوِ ذلك».

وعرّفه أبو حيان فقال^(٣):

«هو عِلْمٌ يُنَحِّثُ فيه عن كيفية التَّنْطِقِ بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحْمَلُ عليها حالة التَّزْكِيكِ وتَتِمَّاتِ ذلك...» وفيه قصور وغموض^(٤).

وتعريف الزركشي أوضح من التعريفين السابقين؛ إذ يقول^(٥):

«التفسيرُ: عِلْمٌ يُفْهَمُ به كتابُ اللَّهِ الْمُنْزَلُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِهِ، واستمداذُ ذلك مِنْ عِلْمِ اللغة، والنَّحْوِ والتَّصْرِيفِ، وعِلْمِ البَيَانِ، وَأَصُولِ الفَقْهِ، والقراءات، ويَخْتِاجُ لمعرفة أسبابِ التَّزْوِيلِ، والناسِخِ والمنسوخِ».

وهناك تعريفات أخرى - غير ما ذكرنا^(٦) - وكلها تتفق «على أن عِلْمَ التفسير عِلْمٌ يبحث عَنْ مرادِ اللَّهِ تعالى بقدر الطاقة البشرية؛ فهو شاملٌ لكلِّ ما يتوقَّفُ عليه فَهْمُ المعنى، وبيانُ المراد»^(٧).

(١) «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ٢/ ٢٩٤، و«تفسير البغوي» ١/ ١٨ ط المنار، و«اللسان»: فسر.

(٢) «الإتقان» ٢/ ١٧٤.

(٣) «البحر المحيط» ج ١ أو ما بعدها.

(٤) راجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير أبو شهبه ص ٤١.

(٥) «البرهان» ج ١/ ٣٣.

(٦) راجع مثلاً: «مناهل العرفان في علوم القرآن» ١/ ٤٠٦ ط أولى، و«منهج الفرقان في علوم القرآن» ج ٢/ ٦، «التيسير في قواعد التفسير»/ الكافي ج ٣، ١١ وغيرها.

(٧) «التفسير والمفسرون» ١٧/ ١.

التأويل لغة:

أصله: «من الأول، وهو الرجوع».

قال الفيروزآبادي^(١):

«آل إِلَيْهِ أَوَّلًا وَمَالًا: رَجَعَ - وَعَنْهُ اِزْتَدَّ... وَأَوَّلُ الْكَلَامِ تَأْوِيلًا، وَتَأْوَلَهُ: دَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ وَفَسَّرَهُ، وَالتَّأْوِيلُ عبارة الرُّؤْيَا».

وقال ابن منظور^(٢):

«الأَوَّلُ: الرجوعُ: آلَ الشَّيْءِ يُؤُولُ أَوَّلًا وَمَالًا: رَجَعَ، وَأَوَّلُ الشَّيْءِ: رَجَعَهُ، وَأَلْتُ عَنْ الشَّيْءِ: اِزْتَدَدْتُ؛ وفي الحديث: «مَنْ صَامَ الدَّهْرَ، فَلَا صَامَ وَلَا آلَ» أي: لَا رَجَعَ إِلَى خَيْرٍ... وَأَوَّلُ الْكَلَامِ وَتَأْوَلَهُ: دَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ، وَأَوَّلَهُ وَتَأْوَلَهُ: فَسَّرَهُ».

وعليه:

فالتأويل: إرجاع الكلام إلى ما يَحْتَمِلُهُ مِنَ الْمَعَانِي.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة، وهي السِّيَاسَةُ، فكانَ الْمُؤَوَّلَ سَاسَ الْكَلَامِ وَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ؛ قال الزمخشري^(٣):

«آلَ الرَّعِيَّةِ يُؤُولُهَا إِيَالَةً حَسَنَةً، وَهُوَ حَسَنُ الْإِيَالَةِ، وَائْتَالُهَا، وَهُوَ مُؤْتَالٌ لِقَوْمِهِ مِقْتَالٌ عَلَيْهِمْ، أَيُّ: سَائِسٌ مُحْتَكِمٌ؛ قال زيادٌ في خُطْبَتِهِ: قَدْ أُلْنَا وَإِيلَ عَلَيْنَا، أَيُّ: سُسْنَا وَسِسْنَا...».

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معانٍ مختلفة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ...﴾ [آل عمران: ٧]. بمعنى: التفسير والتعيين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] بمعنى: العاقبة والمصير.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ...﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله

(١) «القاموس المحيط» ٣/ ٣٣١.

(٢) «اللسان»/ مادة «أول» ١/ ١٧١ وما بعدها.

(٣) «أساس البلاغة» ص ٢٥ ط الشعب.

تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾ [يونس: ٣٩] بمعنى: وقوع المُخْبَر به.

ومن آيات سورة يوسف^(١) أُريدَ بها: نَفْسُ مَذْلُولِ الرُّبَا.

ومن آيتي سورة الكهف^(٢) بمعنى بيان حقيقة الأعمال التي عملها العبد الصالح، وليس تأويل الأقوال^(٣).

التأويل اصطلاحاً:

التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مترادفين، وهذا ما يعنيه «ابن جرير الطبري» في تفسيره؛ حين يقول: «الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى...» وكذا قوله: «اختلف أهل التأويل في هذه الآية...». فالتفسير والتأويل كلاهما بمعنى.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام؛ فإن كان الكلام طلباً، كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المُخْبَر به وعليه:

فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء كانت ماضية أم مستقبلية، فإذا قيل: طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر «ابن تيمية» هو لغة القرآن التي نزل بها؛ وعلى هذا فيمكن إرجاع كُلِّ ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني^(٤).

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والكلاميين وغيرهم:

فهو: «صَرَفُ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى الرَّاجِحِ إِلَى الْمَعْنَى الْمَرْجُوحِ؛ لِذَلِيلِ يَفْتَرِنُ بِهِ»، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف^(٥).

قال في «جمع الجوامع»^(٦):

(١) الآيات: ٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.

(٢) الآيتان: ٧٨، ٨٢.

(٣) راجع: «التفسير والمفسرون» ١/١٨، ١٩.

(٤) «التفسير والمفسرون» ١/١٩ (بتصرف وإيجاز).

(٥) راجع: «التفسير والمفسرون» ١/١٩.

(٦) ج ٢/٥٦، و«التفسير والمفسرون» ١/٢٠.

«التأويل: حَمَلَ الظاهر عَلَى الْمُخْتَمَلِ المَرْجُوحِ، فَإِنْ حَمَلَ عَلَيْهِ؛ لِذَلِيلٍ - فَصَحِيحٌ، أَوْ لِمَا يُظَنُّ دَلِيلًا مِنَ الْوَاقِعِ - ففاسدٌ، أَوْ لَا لِشَيْءٍ - فَلَعَبٌ لَا تَأْوِيلَ».

الْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ

اختلف علماء «التفسير» في بيان الفرق بين التفسير والتأويل، ولعل منشأ هذا الخلاف هو استعمال القرآن لكلمة «التأويل»، ثم ذهب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب^(١).

- ومن العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد، ومن هؤلاء: «أبو عبيد القاسم بن سلام»، وطائفة معه^(٢).

- ومنهم من فرق بينهما:

يقول الراغب الأصفهاني^(٣):

«التفسير أعظم من التأويل، وأكثر ما يُستعمل التفسير من الألفاظ، والتأويل في المعاني؛ كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يُستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل؛ فالتفسير: إما أن يستعمل في غريب الألفاظ: «كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة»، أو في تبين المراد وشرحه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وإما في كلام مضمّن بقصّة لا يمكن تصوّره إلا بمعرفتها؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السُّبُوءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرةً عامًا، ومرةً خاصًا؛ نحو «الكفر» المستعمل تارةً في

(١) «التفسير»: معالم حياة - ص ٦.

(٢) «الإتقان» ١٧٣/٢، «التفسير والمفسرون» ٢١/١ و«الإسرائيليات والموضوعات» ٤٣.

(٣) «التفسير والمفسرون» ٢١/١، «نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن»/ السيد خليل ص ٢٩، نقلًا عن: مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣ آخر كتاب «تنزيه القرآن عن المطاعن» للقاضي عبد الجبار.

الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة - و «الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معانٍ مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل في الجَدُّ والوَجْدُ والوُجُودُ.

وقال أبو طالب الثعلبي^(١):

«التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً؛ كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر، والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر؛ فالتأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد؛ لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] تفسيره: أنه من الرصد؛ يقال: رصدته إذا رقبته، والمِرْصَادُ: مِفْعَالٌ مِنْهُ، وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه».

وقال البغوي^(٢):

«التأويل: هو صَرْفُ الآيةِ إِلَى معنى مُحْتَمَلٍ يُوَافِقُ ما قبلها وما بعدها، غَيْرُ مخالفٍ للكتاب والسنة من طريق الاستنباط.

والتفسير: هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها».

وقيل: التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية^(٣) يقول الكافيجي^(٤):

«... إن علم التفسير عِلْمٌ يُبْحَثُ فيه عن أحوال كَلَامِ اللَّهِ المَجِيدِ، مِنْ حيثُ إنه يَدُلُّ على المَرَادِ بِحَسَبِ الطاقة البشرية، وينقسم إلى قسمين:

تفسير: وهو ما لا يُذَرَكُ إلا بالثقل أو السماع، أو بمشاهدة النزول وأسبابه، فهو ما يتعلق بالرواية؛ ولهذا قيل: إن التفسير للصحابة.

وتأويل: وهو ما يُمكن إدراكه بقواعد العربية، فهو ما يتعلق بالدراية؛ ولهذا قيل: إن التأويل للفقهاء، فالقول من الأول بلا نقل أو سماع خطأ؛ وكذا القول من الثاني بمجرد

(١) «الإتقان» ١٧٣/٢.

(٢) تفسير البغوي ١٨/١.

(٣) «الإتقان» ١٧٣/٢.

(٤) التيسير في قواعد التفسير ص ٣، ١١.

التشهي، وأما استنباط المعاني على قانون اللغة فمما يُعدُّ فضلاً وكمالاً.

وقد رجَّح المرحوم الدكتور الذهبي هذا الرأي، وعلَّل ذلك بقوله^(١):

«وذلك لأن التفسير معناه: الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا نَجْزُمُ بِهِ إِلَّا إِذَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، الَّذِينَ شَهِدُوا نَزُولَ الْوَحْيِ، وَعَلِمُوا مَا أَحَاطَ بِهِ مِنْ حَوَادِثٍ وَوَقَائِعٍ، وَخَالَطُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَجَعُوا إِلَيْهِ فِيمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

«وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحدِ مُحْتَمَلَاتِ اللَّفْظِ بِالدَّلِيلِ، وَالتَّرْجِيحُ يَعْتَمِدُ عَلَى الْجَاهِدِ، وَيتوصَّلُ إِلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمَدْلُولَاتِهَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَاسْتِعْمَالِهَا بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَسَالِبِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاسْتِنْبَاطِ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ».

وهذا هو ما نميل إليه.

حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى التَّفْسِيرِ

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين:

أولهما: ليكون معجزة؛ فلا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولا بسورة من مثله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

ثانيهما: ليكون منهج حياة، ودستوراً للمسلمين، فيه صلاحهم وفلاحهم؛ إذ تكفل بكل حاجاتهم من أمور الدين والدنيا: عقائد، وأخلاق، وعبادات، ومعاملات... إلخ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ [الإسراء: ٨٢]، ففي اتباعه الهداية، وفي الإعراض عنه الشقاء والضنك؛ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿طه: ١٢٣-١٢٦﴾.

وبه مخرج الأمة من أزمانها، ونجاتها من الفتن؛ يقول علي - كرم الله وجهه -: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَتَكُونُ فِتْنٌ، فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟.

قَالَ ﷺ: «كِتَابُ اللَّهِ؛ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ أَفْلَحَ، وَمَنْ دَعِيَ إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

- ولكي يكون مُعْجِزاً ويتأتى تحديهِ للبشر..

- ولكي يتأتى اتخاذه دستوراً وَمَنْهَجَ حَيَاةٍ..

ولكي يتدبر المؤمنون آياته.. (١).

ولكني يستطيع المسلمون العرب الانطلاق بالدعوة (٢).. لكل هذا جاء القرآن عريئاً.

وكان القوم - «عند نزوله - سواء من هو حُجَّةٌ له؛ من المؤمنين الصادقين، ومن هو حُجَّةٌ عليه؛ من الكافرين الجاحدين - يفهمونه ويحيطون بمعانيه إفراداً وتركيباً؛ فيتلقون دعوته، ويذركون مواعظه، وَيُعَوِّنُونَ تَحْدِيهِ بِالْإِعْجَازِ بَيْنَ مُذْعِنِينَ، يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ، وَمَعَانِدِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِهِ، وَيُؤْمِنُونَ فِي مَعَارِضِهِ كِيداً وَلِيّاً بِالسُّتْهِمْ وَطَغْناً فِي الدِّينِ.

«فما كان منهم مَنْ تَعَدَّرَ عَلَيْهِ فَهْمُهُ، وَلَا مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ مَقَاصِدُهُ وَمَعَانِيهِ، بَلْ كَانَ وَضُوحُ مَعَانِيهِ، وَيُسْرُ فَهْمُهُ، هُوَ الْأَضْلُ فِيمَا قَامَ حَوْلَهُ مِنْ صِرَاعٍ بَيْنَ مُؤْمِنٍ يَجِدُ فِيهِ شِفَاءَ نَفْسِهِ، وَانْشِرَاحَ صَدْرِهِ، وَكَافِرٍ يَنْقُبُ لِقَوَارِعِ آيَاتِهِ؛ فَلَا يَزَالُ يَدْفَعُهَا بِالْإِعْرَاضِ وَالْمُعَارَضَةِ، وَالدِّفَاعِ وَالْمُقَارَعَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الْأَضْلُ أَيْضاً فِي تَكُونِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَتَوَلَّدَ التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ» (٣).

(١) قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ...﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ...﴾.

(٣) «التفسير ورجاله»/ محمد الفاضل بن عاشور ص ٧-٨.

يقول ابن خلدون^(١):

«إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَعَلَى أَسَالِيبَ بِلَاغَتِهِمْ؛ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ، وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مَفْرَدَاتِهِ وَتَرَاجُيهِ».

وقد سبقه أبو عُيَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى؛ حِينَ قَالَ^(٢):

«إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ؛ فَلَمْ يَحْتَاجِ السَّلَفُ، وَلَا الَّذِينَ أَدْرَكُوا وَخِيَهُ، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ مَعَانِيهِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَرَبَ الْأَلْسُنِ، فَاسْتَغْنَوْا بِعِلْمِهِمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ مَعَانِيهِ، وَعَمَّا فِيهِ مِمَّا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِثْلُهُ مِنَ الْوُجُوهِ وَالتَّلْخِصِ».

إِلَّا أَنَّ هَذَا الْإِطْلَاقَ يُعَارِضُهُ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِلرَّسُولِ ﷺ^(٣):

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَأْتِينَا بِكَلَامٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمَا نَعْرِفُهُ، وَلَنَحْنُ الْعَرَبُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ رَبِّي عَلَّمَنِي فَتَعَلَّمْتُ، وَأَدَّبَنِي فَتَأَدَّبْتُ».

كما يعارضه صريح القرآن؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

نعم... إن هناك ألفاظاً لم تستطع بغض القبائل العربية معرفتها، رُبَّمَا لعدم استعمالهم لها، أو لاحتِمَالِ اللَّفْظِ عِدَّةَ مَعَانٍ، وكذا بعضُ آيَاتِ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ فَهْمُ مَعْنَاهَا؛ وَذَلِكَ كَسْوَالِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فَقَالُوا: وَأَيْنَا لَمْ يَظْلَمْ؟ وَفَزَعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَبِيْنَ لَهُمْ أَنَّ الْمَرَادَ بِالظُّلْمِ الشُّرْكَ؛ وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٤) [لقمان: ١٣].

ولو صح ما ذهب إليه ابن خلدون وأبو عُيَيْدَةَ، لَمَا كَانَتْ حَاجَةُ الصَّحَابَةِ إِلَى تَفْسِيرِ الرَّسُولِ ﷺ. لَكِنَّ تَفْسِيرَ الرَّسُولِ لِلْقُرْآنِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيْحَةِ، بَيَانًا لِمَعْنَى

(١) المقدمة ص ٣٦٧ ط الأزهرية سنة ١٩٣٠.

(٢) «مجاز القرآن» - ط ثانية - دار الفكر.

(٣) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي ١/ ٢٨٤ ط الحلبي تحقيق أبو الفضل إبراهيم، وقال الصيرفي: ولست أعرف إسناده هذا الحديث، وإن صح، فقد دل على أن النبي ﷺ قد عرف السنة العرب.

(٤) «الإتقان» للسيوطي ٢/ ٣٣٠ و«البرهان» للزركشي ١/ ١٤.

لفظ، أو توضيحاً لمشكل، أو تأكيداً لحكم، أو تفصيلاً لمُجمل، أو تخصيصاً لعام، أو تقييداً لمُطلق... إلخ.

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - حِرَاصاً على حفظ القرآن، وفَهَم معانيه، وفَقِه أحكامه..

قال أبو عبد الرحمن السلمي:

«حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يقرئُونَا القرآنَ؛ كعثْمَانُ بْنُ عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما؛ أنهم كانوا إذا تَعَلَّمُوا من النبي ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، لم يتجاوزوها حَتَّى يعلموا ما فيها مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قالوا: فَتَعَلَّمْنَا القرآنَ، وَالْعِلْمَ، وَالْعَمَلَ جميعاً».

وإذا كان العربُ الخُلَصُ الذين لم تُعَكِّزْ عربيتُهُمْ عُجْمَةً - يحتاجُونَ إلى التفسير، فنحن أَوْلَى وَأَحْوَجُ، بَلْ وَأَشَدُّ حَاجَةً إلى تفسير القرآن الكريم؛ إذ صار البؤُ بعيداً بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْفَصْحَى.

يقول السيوطي^(١):

«ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لَمْ يحتاجوا إليه من أَحْكَامِ الظواهر؛ لقصورنا عن مدارك أَحْكَامِ اللغة بغير تعلم، فنحن أَشَدُّ احتياجاً إلى التفسير».

والحاجة إلى التفسير «إِنَّمَا هِيَ حَاجَةٌ عَارِضَةٌ نَشَأَتْ من سببين:

السبب الأول: هو أن القرآن لَمْ يَنْزَلْ دفعةً واحدةً، وإنما كان نزوله وتبليغُه في ظرف زمنيٍّ متسعٍ جداً؛ قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاءٍ مَعَ فَوَاصِلَ زمنيةٍ متراخيةٍ بَيْنَ تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيبٍ يختلفُ عن ترتيبه التعبدي؛ لأنَّ ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجعُ إلى رُكْنٍ من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وترتيب التلاوة أو الترتيب التعبدي، كان منظوراً فيه إلى تَسْلُسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض،... والترتيب الأولُ مَوْقُتٌ زائلٌ بزوالِ ملبساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة.

أما ترتيبُ التلاوةِ التعبدِيُّ فباقي؛ لأنه في ذات الكلام، يدركه كُلُّ واقفٍ عليه وتالٍ له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيبُ التاريخيُّ لا يدرُكه إلا شاهدُ العيانِ لتلك الملبَّساتِ مِنَ الجيل الذي كان معاصراً لنزولِ القرآنِ... وكان انقراض تلك الملبَّساتِ الوقتية مُخَوِّجاً إلى معرفتها معرفةً نقليةً تصوُّريةً، ليتمكَّنَ الآثوَنُ من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتدى بها إلى معاني التراكيبِ القرآنيةِ سابقوهم.

وأما السبب الثاني: فهو أنَّ دلالاتِ القرآنِ الأصلية، التي هي واضحةٌ بوضوح ما يقتضيه من الألفاظ والتراكيب - تتبعها معانٍ تكونُ دلالةُ التراكيب عليها محلَّ إجمالٍ أو محلَّ إبهامٍ؛ إذ يكون الترتيبُ صالحاً على التردد لمعانٍ متباينة، يتصوَّر فيها معناه الأصلي ولا يتبيَّن المراد منها، كَأَنَّ يَقَعَ التعبيرُ عن ذاتٍ بإحدى صفاتها، أو يُكْنَى عن حقيقةٍ بإحدى خواصِّها، أو أُحْدِ لوازمها...؛ فينشأ عن ذلك إجمالٌ يتطلَّبُ بياناً، أو إبهامٌ يتطلَّبُ تعييناً... ولما كان الذين اتصلوا أولاً بتلك المجملاتِ أو المبهماتِ أو المطلقاتِ قد رجعوا إلى المُبلِّغِ ﷺ في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها؛ فتلَقَّوا عندما أفادهم؛ فاطلعوا بأن الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور الماثورة عن النبي ﷺ لَتَنْضَحَ لهم تلك المعاني؛ كما اتضحت لمن قبلهم...»^(١).

وبذا تبين أن التفسير نشأ منذ بدء الوحي؛ إذ احتاج إليه الصحابة، ثم زادت حاجة التابعين إلى التفسير، ولا سيما ما رآه الصحابة وسمِعُوهُ من الرسول ﷺ ولم يتمكَّنوا هم من رؤيته ولا سماعه... ثم اشتدَّت حاجةُ تابعي التابعين.

وهكذا كُلَّمَا بعد الناس عن عصر نزولِهِ، زادتِ الحاجةُ إلى التفسيرِ بِمِقْدَارِ مَا زَادَ مِنْ غُمُوضٍ^(٢)...

فَهْمُ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

نزل القرآنُ عربياً على رسولٍ عربيٍّ، وقوم عربٍ؛ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾ [الجمعة: ٢]، فكانوا أَخْبَرَ بلغتهم، وفهموا القرآنَ حَقَّ فهمه، وقد يُشْكِلُ عليهم فَهْمُ آيةٍ منه؛ فيرجعونَ إلى القرآنِ نَفْسِهِ، فقد يجدون فيه توضيحاً أو تفصيلاً، وإلا رجعوا إلى النبي ﷺ ليفسِّرَ لهم ما أَشْكَلَ عليهم...

(١) «التفسير ورجاله» من ١٠-١٣.

(٢) راجع «التفسير والمفسرون»/ للذهبي ١٠١/١ - ١٠٢.

وكان الصحابة يجتهدون في فهم القرآن الكريم مستعينين على ذلك ب^(١):

١ - معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

٢ - معرفة عادات العرب.

٣ - معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة وقت نزول القرآن.

٤ - قوة الفهم، وسعة الإذراك.

وبذهي أن يتفاوت الصحابة في توافر هذه الأدوات عندهم. وبالتالي في فهم القرآن الكريم؛ فلم يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة، ومن هنا كان الاختلاف اليسير بينهم في تفسير القرآن الكريم.

وَمِنْ ذَلِكَ:

- ما روي «من أن الصحابة فرحوا حين نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ لظنهم أنها مجرد إخبار وبُشِّرَى بكمال الدين، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نعي النبي ﷺ وقد كان مصيباً في ذلك؛ إذ لم يعيش النبي ﷺ بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً؛ كما روي^(٢).

- وفيه ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال^(٣):

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بذر. فكان بعضهم وجد في نفسه، وقال: لِمَ يَدْخُلُ هذا معنا، وإن لنا أبناءً مثله؟ فقال عمر: إِنَّهُ مِنْ أَعْلَمِكُمْ، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليُرِيَهُمْ، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره؛ إذ نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا، فقال: ما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

(١) راجع «التفسير والمفسرون» ٥٩/١ وما بعدها.

(٢) «الموافقات» للشاطبي ج ٣/ ٣٨٤، «التفسير والمفسرون» ٦١/١، ٦٢.

(٣) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ٥١٩/٨، باب التفسير، وكذا «أسد الغابة».

[النصر: ١]؛ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾
[النصر: ٣] فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

- وقال ابن عباس^(١):

«كُنْتُ لَا أَذْرِي مَا ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَانِ
يَتَخَصَّمَانِ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا؛ يَقُولُ: أَنَا ابْتَدَأْتُهَا».

أَشْهُرُ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ

عَدَّ السُّيُوطِيُّ عِدَدًا مِنْ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ ذَكَرَ مِنْهُمْ:

الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا
موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

أما الخلفاء الثلاثة الأول، فالرواية عنهم في التفسير قليلة جدًا؛ وذلك بسبب تقدم
وفاتهم، ولانشغالهم بمهام الخلافة^(٢).

١ - عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

وأما عليّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - فهو أكثرهم تفسيراً للقرآن؛ وذلك لأنه لَمْ يُشْغَلْ
بالخلافة، وإنما كان متفرغاً للعلم حَتَّى نَهَايَةِ عَصْرِ عثمان...

وكثرة مُرَافَقَتِهِ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَسُكُنَاةِ مَعَهُ، وَزَوَاجُهُ مِنْ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ إِلَى جَانِبِ مَا حَبَّاهُ
اللَّهُ مِنَ الْفِطْرَةِ السَّالِمَةِ... كُلُّ ذَلِكَ أَوْرَثَهُ الْعِلْمَ الْغَزِيرَ؛ حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ
عنها^(٣):

«أَمَّا إِنَّهُ لَا عِلْمَ النَّاسِ بِالسُّنَّةِ» فِي زَمَنِ كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مُتَوَافِرِينَ.

وَرَوَى مَعْمَرٌ، عَنْ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: «شَهِدْتُ عَلِيًّا يَخْطُبُ،
وَهُوَ يَقُولُ: سَلُونِي؛ فَوَاللَّهِ، لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ، وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ
اللَّهِ؛ فَوَاللَّهِ، مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ: أَلَيْلٍ نَزَلَتْ أَمْ بَنَهَارٍ، أَمْ فِي سَهْلٍ أَمْ فِي جَبَلٍ».

وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من عليّ؟

(١) «الإتقان» ١١٣/٢.

(٢) «الإسرائيليات والموضوعات في التفسير» ٨٤، و«التفسير والمفسرون» للذهبي ١/٦٤، ٦٥.

(٣) «الاستيعاب» ٣/١١٠٤، و«أسد الغابة» ٤/٢٩.

قال: لَا، وَاللَّهِ لَا أَعْلَمُهُ.

وقال ابن مسعود: «إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، مَا مِنْهَا حَرْفٌ إِلَّا وَلَهُ ظَهَرٌ وَبَطْنٌ، وَإِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَهُ مِنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ»^(١).

نُمُودَجْ من تفسیرِ عَلِيٍّ - رضي الله عنه - للقرآن:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]: إن الإيمان يَبْدُو لمظة يَبْضَاءُ في القلب، فكلما ازداد الإيمان عِظَمًا ازداد ذلك البياض، حَتَّى يَبْيَضُ القلبُ كله، وإن النفاق يَبْدُو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق ازداد بذلك السواد، حَتَّى يَسْوَدَ القلبُ كله، وإِنَّمِ اللهُ، لَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُؤْمِنٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَبْيَضَ، وَلَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُنَافِقٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَسْوَدَ^(٢).

٢ - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ:

هو: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ بْنُ غَافِلٍ بْنِ حَبِيبٍ بْنِ سَمْعٍ، وقيل «شمخ»... ينتهي نسبه إلى مُضَرٍّ، يُكْنَى بِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وأُمُّهُ: أُمُّ عَبْدِ بِنْتِ عَبْدِ وَدٍّ مِنْ هُذَيْلٍ، وكان يقال له: ابْنُ أُمِّ عَبْدِ.

أَسْلَمَ قديمًا قبل عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وكان سَبَبَ إسلامه: حين مرَّ به رسولُ الله ﷺ وأبو بَكْرٍ - رضي الله عنه - وهو يرعى غَنَمًا، فسألاه لَبَنًا فقال: إِنِّي مُؤْتَمَنٌ، قال: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنَاقًا لَمْ يَنْزُرْ عَلَيْهَا الْفَحْلُ، فاعتقلها، ثم حَلَبَ وَشَرِبَ وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ، ثم قال للضُّرْعِ: أَقْلِصْ، فَقَلَصَ، فقلتُ: عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ، فقال: إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلِّمٌ... الحديث^(٣).

كان عبد الله مِنْ أَحْفَظِ الصحابة لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقْرَبِهِمْ لَهُ، وكان ﷺ يطلب منه أن يقرأه عليه، فقال له يوماً: اقرأ عَلَيَّ سُورَةَ النَّسَاءِ، قال ابن مسعود: أقرأ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قال: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، يقول: فقرأتُ عليه، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿كَفَيْتَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]؛ فَقَاضَتْ

(١) راجع «الإنتقان» ٣١٩/٢.

(٢) «تفسير البغوي» - ط المنار ٢٧٣/٤.

(٣) «البداية والنهاية» ١٦٩/٧، «أسد الغابة» ٣/ ٢٥٦ - ٢٦٠.

عيناه ﷺ^(١).

وكان ﷺ يقول:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ»^(٢) وكان ابن مسعود حريصاً على فهم القرآن الكريم؛ يزوي الطبري وغيره عن ابن مسعود؛ أنه قال:

«كَانَ الرَّجُلُ مِثًا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ، وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ^(٣): قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ:

«وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيْمَ نَزَلَتْ، وَأَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ مِثِّي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».

وطُرُقُ الرواية عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مُتَعَدِّدَةٌ، وَأَصَحُّ هَذِهِ الطَّرِيقُ مَا جَاءَ مِنْ^(٤):

١ - طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

٢ - طَرِيقِ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

٣ - طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وهذه الطرق الثلاثة أَخْرَجَ مِنْهَا الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

وهناك طرق أخرى كـ:

١ - طَرِيقِ السُّدِّيِّ الْكَبِيرِ عَنْ مُرَّةِ الْهَمْدَانِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَخْرَجَ مِنْهَا الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، وَابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ - كَثِيرًا.

٢ - طَرِيقِ أَبِي رَوْقٍ عَنِ الضُّحَّاكِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَهِيَ طَرِيقٌ غَيْرُ مَرْصُيَّةٍ؛ أَخْرَجَ مِنْهَا ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ أَيْضًا، وَهِيَ مُنْقَطِعَةٌ؛ لِأَنَّ الضُّحَّاكَ لَمْ يَلْقَ ابْنَ مَسْعُودٍ.

وكان لابن مسعود تلاميذ كثير في الكوفة، وكان عمر - رضي الله عنه - لما ولي عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ عَلَى الْكُوفَةِ سَيَّرَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مُعَلِّمًا وَوَزِيرًا، فَجَلَسَ الْكُوفِيُّونَ إِلَيْهِ وَتَعَلَّمُوا مِنْهُ.

(١) «البداءة والنهاية» ١٦٩/٧.

(٢) «مسند الإمام أحمد» ٧/١.

(٣) «صحيح البخاري» - كتاب الفضائل/ باب مناقب عبد الله بن مسعود.

(٤) «التفسير والمفسرون» للذهبي ٨٧/١، ٨٨.

ويقول العلماء :

إن ابن مسعود هو الذي وَضَعَ الأساسَ لطريقة الاستدلال، وقد أثَّرت هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فَكثُرَ التفسير بالرأي والاجتهاد^(١)، وسوف يأتي ذكر تلاميذه عند حديثنا عن تفسير التابعين.

٣ - أَبِي بِنُ كَعْبٍ :

هو: أَبِي بِنُ كَعْبِ بْنِ قَيْسِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، سَيِّدُ الْقُرَاءِ^(٢)، كنيته: أَبُو الْمُنْذِرِ أَوْ أَبُو الطُّفَيْلِ.

شَهِدَ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ مَعَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَشَهِدَ بَذْراً وَأُحْداً وَالْخَنْدَقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وهو أَحَدُ الْمَشْهُورِينَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ، وبإقراءه؛ قال فيه عمر بن الخطاب: «أَبِي أَقْرَأُنَا»^(٣).

وهو أحد الذين تَلَمَّذَ عَلَيْهِمُ «ابْنُ عَبَّاسٍ»؛ يقول ابن عباس^(٤):

«ما حَدَّثَنِي أَحَدٌ قَطُّ حَدِيثاً فَاسْتَفْهَمْتُهُ، فَلَقَدْ كُنْتُ آتِي بَابَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَهُوَ نَائِمٌ، فَأَقِيلُ عَلَى بَابِهِ، وَلَوْ عَلِمَ بِمَكَانِي لَأَحَبَّ أَنْ يُوقَظَ؛ لِمَكَانِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَمْلَهُ».

كَانَ أَبُو يَكْتُبُ فِي مُضْجَفِهِ أَشْيَاءَ لَيْسَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِمَّا يُعَدُّ شَرْحاً، أَوْ تَفْسِيراً، أَوْ سَبِيلاً لِلزُّوْلِ، أَوْ مِمَّا تُسَيِّخُ، وَكَانَ يَقُولُ: لَا أَدْعُ شَيْئاً سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٥)، فَمِنْ ذَلِكَ مِثْلاً: دُعَاءُ الْقُنُوتِ^(٦).

وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ الصَّحَابَةِ بِكِتَابِ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ لِعِدَّةِ عَوَامِلَ:

* أَنَّهُ كَانَ مِنْ كُتَّابِ الْوَحْيِ لِلرَّسُولِ ﷺ.

* أَنَّهُ كَانَ خَبِراً مِنْ أَجْبَارِ الْيَهُودِ الْعَارِفِينَ بِأَسْرَارِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَمَا وَرَدَ فِيهَا.

(١) المصدر السابق ١/ ١٢٠.

(٢) «تهذيب التهذيب» ١/ ١٨٧، «غاية النهاية في طبقات القراء» ١/ ٣١. «أسد الغابة» ١/ ٤٩ - ٥١.

(٣) رواه البخاري، وانظر «طبقات القراء للذهبي» ٦/ ٦٢٩ وكذا شهد له النبي ﷺ.

(٤) «طبقات ابن سعد» ٢/ ٣٧١.

(٥) «تاريخ الإسلام» للذهبي ٢/ ٢٨.

(٦) راجع «الإتقان» ١/ ٦٦.

وقد تعددت طُرُق الرواية عنه، وأشهرُ هذه الطُرُق:

١ - طريقُ أَبِي جَعْفَرِ الرَّازِيِّ، عن الرِّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عن أَبِي العَالِيَةِ، عَنْ أَبِي، وهي طريقٌ صحيحةٌ، أخرج منها ابن جرير وابنُ أَبِي حَاتِمٍ كثيراً، وأخرج الحاكم منها في مستدركه، والإمامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ.

٢ - طريقٌ وَكِيعٌ عن سُفْيَانَ، عن عبد الله بن مُحَمَّد بن عَقِيلٍ، عن الطُّفَيْلِ بن أَبِي كَغَبٍ، عن أبيه، وهذه يُخْرِجُ منها الإمامُ أَحْمَدُ في مسنده، وهي على شرط الحَسَنِ^(١).

وتلاميذُ أَبِي كَثِيرٍ منهم: أَبُو العَالِيَةِ، وزيد بن أسلم، ومُحَمَّد بن كَغَبٍ القُرْطُبِيُّ وغيرهم، ويُعَدُّ أَبُو بن كعب أستاذَ مدرسةِ التفسيرِ في المدينة.

٤ - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ^(٢):

هو: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ... يلتقي مع الرسول ﷺ في الجدِّ الأول (عبد المطلب)، فهو ابنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ.

وُلِدَ إِثْبَانَ المِقَاطَةِ الاِقْتِصَادِيَةِ الَّتِي فَرَضَتْهَا قَرِيشٌ عَلَى بني الْمُطَّلِبِ، أَيْ: قبل الهجرة بثلاثِ سنواتٍ.

لازم ابنُ عَبَّاسٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لكنَّ الرسولَ تُوْفِيَ وَلابْنِ عَبَّاسٍ من العُمُرِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وقيل: خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً..

وقد حَظِيَ ابنُ عَبَّاسٍ بدعوة رَسُولِ اللَّهِ له جِئَنَ قال ﷺ: «اللَّهُمَّ، عَلِّمْنِي الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ».

وفي رواية: «اللَّهُمَّ، فَفِّهْ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْنِي التَّأْوِيلَ».

واستجيبَتْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ، فكان عبد الله بْنُ عَبَّاسٍ «تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ» يقول ابن مسعود:

«نِعَمَ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابنُ عَبَّاسٍ»؛ وذلك لبراعته في التفسير، كما لُقِّبَ بِالْجَبْرِ؛ لغزارة علمه، وبالبَحْرِ كذلك.

(١) راجع «التفسير والمفسرون» ١/ ٩٢، ٩٣.

(٢) بعض الكتب التي تترجم للمفسرين من الصحابة تقدم ابن عباس على سائر الصحابة لتفوقه في هذا العلم، وبعضها ترجمته بعد الثلاثة السابقين لتقدمهم في السن عليه وحدثاته بينهم.

وإذا كان ابن عباس قد فاته طول الصُحبة للرسول ﷺ، فقد استعاضَ عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يسألهم، ويتعرف أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

يقول ابن عباس^(١):

«لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنِ الْمَرَاتِنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ فِيهِمَا: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ [التَّحْرِيم: ٤]، وَلَمْ أَزَلْ أَتَلَطَّفُ لَهُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّهُمَا حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ».

ويقول:

«وَجَدْتُ عَامَّةَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الْأَنْصَارِ؛ فَإِنِّي كُنْتُ لَأَتِي الرَّجُلَ، فَأَجِدُهُ نَائِمًا، لَوْ شِئْتُ أَنْ يُوقِظَ لِي لِأَوْقِظَ، فَأَجْلِسُ عَلَى بَابِهِ تَسْفِي عَلَى وَجْهِي الرِّيحَ، حَتَّى يَسْتَيْقِظَ مَتَى مَا اسْتَيْقِظَ، وَأَسْأَلُهُ عَمَّا أُرِيدُ ثُمَّ أَنْصَرِفُ».

لقد تلمذ ابن عباس على رسول الله ﷺ أولاً، فكان الرسول يعلمه ويربيه، قال له يوماً:

«يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجُمِعَتِ الصُّحُفُ».

وفي خلافة عمر كان لابن عباس تقديرٌ خاصٌّ عنده، فكان يُذِنُ بِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ، رَغَمَ حَدَاثَةِ سِنِّهِ - كما ذكرنا.

وقد أفاد ابن عباس من هؤلاء الذين يُعَدُّونَ بمثابة شيوخه:

عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ^(٢):

«عَامَّةُ عِلْمِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ ثَلَاثَةِ: عُمَرَ وَعَلِيَّ وَأُبَيَّ بْنِ كَعْبٍ».

وذكر ابن الأثير الجزري في ترجمة ابن عباس أنه^(٣) «حَفِظَ الْمُحْكَمَ فِي زَمَنِ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» / للقرطبي ٢٢/١.

(٢) «تذكرة الحفاظ» للذهبي ٤١/١.

(٣) «طبقات القراء» ٤٢٥.

النبي ﷺ، ثم عَرَضَ الْقُرْآنَ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَقِيلَ: إِنَّهُ قَرَأَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَقَدْ أُوتِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ عِلْماً غَزِيْراً جَعَلَهُ أَبَرَّزَ الْمَفْسِّرِينَ، وَأَتَمَّهُمْ اضْطِلَاعاً بِالتَّفْسِيرِ؛ حَتَّى إِنَّهُ «لَمْ يَبْقَ عِنْدَ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ مِنَ الْهَجْرَةِ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَّا مُذْعِنٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ، مُسَلِّمٌ لَهُ مَقْدَرَتُهُ الْمَوْفُوقَةُ، وَمَوْهَبَتُهُ الْعَجِيبَةُ، وَعِلْمُهُ الْوَاسِعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»^(١).

لَقَدْ اِمْتَلَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَدَوَاتِ الْمَفْسِّرِ؛ فَكَانَ عَالِماً بِأَسْرَارِ الْعَرَبِيَّةِ يَحْفَظُ الْكَثِيرَ مِنَ الشُّعْرِ الْقَدِيمِ، وَيَحُثُّ النَّاسَ عَلَى النَّظَرِ فِيهِ قَائِلاً^(٢):

«إِذَا تَعَاجَمَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَنْظُرُوا فِي الشُّعْرِ فَإِنَّ الشُّعْرَ عَرَبِيٌّ».

وهو القائل^(٣):

«الشُّعْرُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ؛ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْنَا الْحَرْفُ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، رَجَعْنَا إِلَى دِيْوَانِهَا فَالْتَمَسْنَا ذَلِكَ مِنْهُ».

وقد ذكر السيوطي بسنده حواراً دار بين نافع بن الأزرق وابن عباس فقال^(٤):

بَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ جَالِسٌ بَفَنَاءِ الْكَعْبَةِ، قَدْ اِكْتَنَفَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ لِنَجْدَةَ بْنِ عُؤَيْمِرٍ:

قُمْ بِنَا إِلَى هَذَا الَّذِي يَجْتَرِءُ عَلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَقَامَا إِلَيْهِ، فَقَالَا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَكَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَتَفْسِّرُهَا لَنَا، وَتَأْتِيَنَا بِمَصَادِقَةٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَلَانِي عَمَّا بَدَأَ لَكُمْ، فَقَالَ نَافِعٌ:

أَخْبَرَنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧].

قَالَ: الْعِزُونَ: جِلْقُ الرَّقَاقِ.

(١) «التفسير ورجاله»/ ابن عاشور ص ١٦.

(٢) «التفسير ورجاله»/ ابن عاشور ص ١٧.

(٣) «الإنتقان» ١/ ١١٩، «غاية النهاية في طبقات القراء» ٤٢٦.

(٤) «الإنتقان» ١/ ١٢٠.

قال: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ؟

قال: نَعَمْ؛ أَمَا سَمِعْتَ عُبَيْدَ بْنِ الْأَبْرَصِ وهو يقول: [الوافر]

فَجَاءُوا يُهَرِّغُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مِثْبَرِهِ عَزِيزًا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال: الْوَسِيلَةُ: الْحَاجَةُ.

قال: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ؟

قال: نعم؛ أَمَا سَمِعْتَ عَنَّتْرَةَ وهو يقول: [الكامل]

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِنَّ يَأْخُذُوكِ تَكْحَلِي وَتَخْضِي
إلى آخر المسائل وأجوبتها^(١).

وهي إن دَلَّتْ فإنما تدلُّ على سَعَةِ عِلْمِهِ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَقُوَّةَ ذَاكِرَتِهِ؛ مما جعله إِمَامَ التَّفْسِيرِ في عهد الصحابة، وَمَرْجِعَ المفسرين في الأغصُرِ التالية لِعَصْرِهِ، وهو إِمَامُ مدرسة التفسير في مَكَّةَ، وَأَوَّلُ مَنْ أَبْتَدَعَ الطَّرِيقَةَ اللُّغَوِيَّةَ في تفسير القرآن.

طُرُقُ الرِّوَايَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

تَعَدَّدَتْ طُرُقُ الرِّوَايَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَاخْتَلَفَتْ تِلْكَ الطَّرِيقُ؛ وَأَشْهَرُ هَذِهِ الطَّرِيقُ وَأَصْحَحُهَا^(٢):

١ - طَرِيقُ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَتَعَدُّ هَذِهِ الطَّرِيقُ مِنَ السَّلَاسِلِ الذَّهَبِيَّةِ، وَقَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِمَا.

٢ - طَرِيقُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ - وَعَنْ عِكْرِمَةَ أحياناً - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ.

٣ - طَرِيقُ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... وقالوا:

(١) راجعها في «الإتقان» ١/ ١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع: «الإتقان» ٢/ ١٨٨، «التفسير والمفسرون» ١/ ٧٧، ٨٨، «حبر الأمة عبد الله بن عباس» ص ١٨٢.

إن هذه أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد - رضي الله عنه - «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقال الحافظ ابن حجر:

«وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس».

٤ - طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وهناك طرق أخرى تلي هذه الطرق... (١).

وكان لابن عباس مدرسة في التفسير بمكة، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى.

يقول الإمام ابن تيمية.

«أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس؛ كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس؛ كطاووس، وأبي الشغناء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم...» (٢).

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

بعض المحذنين يغطي التفسير المأثور عن الصحابي حكم المرفوع؛ ومن هؤلاء الإمام الحاكم في «مستدركه»؛ إذ يقول (٣):

«ليعلم طالب الحديث؛ أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مستند».

ولكن قيد ابن الصلاح والتوحي وغيرهما هذا الإطلاق بما يزجج إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه.

(١) راجع: «حبر الأمة عبد الله بن عباس» ١٤٦ وما بعدها.

(٢) «مقدمة في أصول التفسير» ص ١٥.

(٣) راجع: «تدريب الراوي» ص ٦٤، «التفسير والمفسرون» للذهبي ١/ ٩٤.

يقول ابن الصلاح^(١):

«ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مُسنَد، وإنما ذلك في تفسير يتعلّق بسبب نزول آية يُخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ، ولا مدخل للرأي فيه؛ كقول جابر - رضي الله عنه -: كانت اليهود تقول:

مَنْ أَتَى أَمْرًا مِنْ دُبْرَهَا فِي قُبْلَهَا، جَاءَ الْوَلَدُ أَخَوَلْ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَسْأَلُكُمْ خِزْيٌ لَكُمْ...﴾ [البقرة: ٢٢٣] الآية، فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول ﷺ فمعدودة في الموقوفات».

وذكروا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا لم يكن للرأي فيه مجال، وأما ما يكون للرأي فيه مجال، فله حكم الموقوف.

وما حكّم عليه بالوقف:

قال بعض العلماء: لا يجب الأخذ به؛ لأنه مُجتهد فيه، وقد يصيب وقد يخطئ.

وقال بعضهم:

يجب الأخذ به؛ لأنه: إما سمعه من الرسول، وإما فسره برأيه، وهم أذرى الناس بكتاب الله، وهم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال، ولا سيما ما ورد عن الأئمة الأربعة وابن مسعود وابن عباس وغيرهم^(٢).

يقول الزركشي^(٣):

«أَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ قِسْمَانِ: قِسْمٌ وَرَدَ تَفْسِيرُهُ بِالثَّقَلِ، وَقِسْمٌ لَمْ يَرِدْ، وَالْأَوَّلُ: إِمَّا أَنْ يَرِدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ الصَّحَابَةِ، أَوْ رُءُوسِ التَّابِعِينَ، فَالْأَوَّلُ: يَبْحَثُ فِيهِ عَنِ صِحَّةِ السَّنَدِ، وَالثَّانِي: يُنْظَرُ فِيهِ تَفْسِيرُ الصَّحَابِيِّ: فَإِنْ فَسَّرَهُ مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ، فَهُمْ أَهْلُ اللِّسَانِ؛ فَلَا شَكَّ فِي اعْتِمَادِهِ، أَوْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْقَرَائِنِ فَلَا شَكَّ فِيهِ...».

ويقول الحافظ ابن كثير^(٤):

«... وَحَيْثُ نَزِدَ: إِذَا لَمْ نَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَذْرَى بِذَلِكَ؛ لِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقَرَائِنِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتَصَّوْا بِهَا، وَلِمَا لَهُمْ

(١) مقدمة «ابن الصلاح» ص ٢٤.

(٢) التفسير والمفسرون» ص ٩٥ (بتصرف).

(٣) «البرهان» ١٨٣/٢.

(٤) مقدمة «تفسير ابن كثير»/ الجزء الأول.

مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا سَيِّمًا عُلَمَاءُؤُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ؛ كَالْأَثْمَةِ الْأَرْبَعَةِ، وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالْأَثْمَةِ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

مَدْرَسَةُ مَكَّةَ

تَلَامِيذُ ابْنِ عَبَّاسٍ

١ - سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:

هو^(١): سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ هِشَامِ الْأَسَدِيِّ، مَوْلَى بَنِي وَالِيَّةَ، يُكْنَى بِأَبِي مُحَمَّدٍ^(٢) أَوْ بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ^(٣)، كَانَ حَبَشِيَّ الْأَصْلِ، أَسْوَدَ اللَّوْنِ، أَبْيَضَ الْخِصَالِ^(٤).

هو أَحَدُ كِبَارِ التَّابِعِينَ، وَإِمَامٌ مِنَ أَثْمَةِ الْإِسْلَامِ فِي التَّفْسِيرِ.

كَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ كَاتِبًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، ثُمَّ لِأَبِي بُرْدَةَ الْأَشْعَرِيِّ، ثُمَّ تَفَرَّغَ لِلْعِلْمِ حَتَّى صَارَ إِمَامًا عُلَمَاءُ^(٥).

أَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُمرَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَقِّلِ الْمُزَنِيِّ وَغَيْرِهِمْ، وَتَخَرَّجَ مِنْ مَدْرَسَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٦).

وكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَثْقُ بِعِلْمِهِ، وَيُحِيلُ عَلَيْهِ مَنْ يَسْتَفْتِيهِ، وَكَانَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ إِذَا أَتَوْهُ لِيَسْأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ: أَلَيْسَ فَيْكُمْ أَبُو أُمِّ الدَّهْمَاءِ؟! يَعْنِي: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ^(٧).

وكَانَ يَحِبُّ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُ، قَالَ لَهُ مَرَّةً: حَدِّثْ، فَقَالَ: أَحَدْتُ، وَأَنْتَ هُنَا؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ أَنْ تَحَدِّثَ، وَأَنَا شَاهِدٌ؛ فَإِنْ أَصَبْتَ فَذَاكَ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ عَلَّمْتُكَ^(٨)!

(١) ترجمته في: «طبقات ابن سعد» ٢٥٦/٦، «تقريب التهذيب» ٢٩٢/١، و«فيات الأعيان» ٢٠٤/١،

«تهذيب التهذيب» ١١/٤، «البداية والنهاية» ١٠٣/٩، «الأعلام» ١٤٥/٣.

(٢) «طبقات ابن سعد»، و«البداية والنهاية» وغيرهما.

(٣) «طبقات ابن سعد»، و«البداية والنهاية» وغيرهما.

(٤) «التفسير والمفسرون» ١٠٤/١.

(٥) «الإسرائيليات والموضوعات» ٩٥.

(٦) «الإسرائيليات والموضوعات» ٩٥.

(٧) «التفسير والمفسرون» ١٠٥/١.

(٨) «طبقات ابن سعد» ٢٥٧/٦، و«فيات الأعيان» ٢٠٤/١.

مَكَائِنُهُ فِي التَّفْسِيرِ: كَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ أَعْلَمِ التَّابِعِينَ بِالْقُرْآنِ؛ يَقُولُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ^(١): «كَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يُؤْمِنُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَيَقْرَأُ لَيْلَةً بِقِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَلَيْلَةً بِقِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَلَيْلَةً بِقِرَاءَةِ غَيْرِهِ، وَهَكَذَا أَبَدًا».

وَسَاعَدَتْهُ مَعْرِفَتُهُ بِالْقُرْآنِ عَلَى مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَأَسْرَارِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَتَوَرَّعُ مِنَ الْقَوْلِ فِي التَّفْسِيرِ بِرَأْيِهِ.

يَزِيدُ بْنُ أَبِي خَلَّكَانَ^(٢): «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ سَعِيدًا أَنْ يَكْتُبَ لَهُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ، فَعَضِبَ، وَقَالَ: لِأَنَّ يَسْقُطَ شَيْئِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ».

وَقَدْ شَهِدَ لَهُ التَّابِعُونَ بِتَفَوُّقِهِ فِي الْعِلْمِ، وَلَا سِيَّما التَّفْسِيرِ؛ قَالَ قَتَادَةُ^(٣): «وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ أَرْبَعَةً، كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ أَعْلَمَهُمْ بِالْمَنَاسِكِ، وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَعْلَمَهُمْ بِالتَّفْسِيرِ، وَكَانَ عِكْرِمَةُ أَعْلَمَهُمْ بِالسِّيَرِ، وَكَانَ الْحَسَنُ أَعْلَمَهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ».

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ^(٤): «خُذُوا التَّفْسِيرَ عَنْ أَرْبَعَةٍ: سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ، وَعِكْرِمَةَ، وَالضَّحَّاكَ».

وَقَالَ خَصِيفٌ^(٥): «كَانَ مِنْ أَعْلَمِ التَّابِعِينَ بِالْإِطْلَاقِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَبِالْحَجِّ عَطَاءُ، وَبِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ طَاوُسٌ، وَبِالتَّفْسِيرِ أَبُو الْحَجَّاجِ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ، وَأَجْمَعَهُمْ لَذَلِكَ كُلُّهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ».

نُمُودَجٌّ مِنْ تَفْسِيرِهِ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: السَّبْعُ الْمَثَانِي هِيَ: الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءُ، وَالْمَائِدَةُ، وَالْأَنْعَامُ، وَالْأَعْرَافُ، وَیُوسُفُ؛ قَالَ: وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا بَيَّنَتْ فِيهَا الْفَرَائِضَ وَالْحُدُودَ^(٦).

قَتْلُهُ:

قُتِلَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ، قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ الثَّقَفِيُّ

(١) «وفيات الأعيان» ١/ ٢٠٤.

(٢) «وفيات الأعيان» ١/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) «الإسرائيليات والموضوعات» ٩٥.

(٤) «الإسرائيليات والموضوعات» ٩٥.

(٥) «وفيات الأعيان» ١/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٦) «تفسير الطبري» ١/ ٣٣، ٣٤.

صَبْرًا؛ وذلك: أن سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ خَرَجَ عَلَى الْخَلِيفَةِ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الْأَشْعَثِ وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ مِنْ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ هَرَبَ سَعِيدٌ، فَلَحِقَ بِمَكَّةَ، وَكَانَ وَالِيهَا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ، فَأَخَذَهُ وَبَعَثَ بِهِ إِلَى الْحَجَّاجِ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: مَا أَسْمُكَ؟ قَالَ: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.

قال: بَلْ أَنْتَ شَقِيئُ بْنُ كُسَيْرٍ، قال: بَلْ أُمِّي كَانَتْ أَعْلَمَ بِأَسْمِي مِنْكَ.

قال: شَقِيئٌ أَنْتَ وَشَقِيئٌ أَتُكُّ، قال: الْعَيْنُ يَعْلَمُهُ غَيْرُكَ.

قال: لَا أَبْدُلُكَ بِالْدُّنْيَا نَارًا تَلْظِي، قال: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ بِيَدِكَ لَاتَّخَذْتُكَ إِلَهًا.

قال: فَمَا قَوْلُكَ فِي مُحَمَّدٍ؟ قال: نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَإِمَامُ الْهُدَى.

قال: فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ؟ أَهْوَى فِي الْجَنَّةِ أَوْ هُوَ فِي النَّارِ؟ قَالَ: لَوْ دَخَلْتُهَا وَعَرَفْتُ مَنْ فِيهَا عَرَفْتُ أَهْلَهَا*).

قال: فَمَا قَوْلُكَ فِي الْخُلَفَاءِ؟ قال: لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.

قال: فَأَيُّهُمْ أَغْجَبُ إِلَيْكَ؟ قال: أَرْضَاهُمْ لِخَالِقِهِمْ.

قال: وَأَيُّهُمْ أَرْضَى لِلْخَالِقِ؟ قال: عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ الَّذِي يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ.

قال: فَمَا بِأَنَّكَ لَمْ تَضْحَكْ؟ قال: وَكَيْفَ يَضْحَكُ مَخْلُوقٌ خُلِقَ مِنْ طِينٍ، وَالطِّينُ تَأْكُلُهُ النَّارُ؟!

قال: فَمَا بِأَنَّكَ تَضْحَكُ؟ قال: لَمْ تَسْتَوْ الْقُلُوبُ.

ثم أمر الْحَجَّاجَ بِاللُّؤْلُؤِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ، فَجَمَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ سَعِيدٌ:

إِنْ كُنْتُ جَمَعْتُ هَذَا لِتَتَّقِيَ بِهِ مِنْ فَرَعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَصَالِحٌ، وَإِلَّا فَفَرَعَةٌ وَاجِدَةٌ تُذْهِلُ كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَزْضَعَتْ، وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ جُمِعَ لِلدُّنْيَا إِلَّا مَا طَابَ وَزَكَ، ثُمَّ دَعَا الْحَجَّاجَ بِالْعُودِ وَالنَّائِي، فَلَمَّا ضَرَبَ بِالْعُودِ، وَفُتِحَ بِالنَّائِي بَكَى سَعِيدٌ.

فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ هُوَ اللَّعِبُ؟

قال سَعِيدٌ: هُوَ الْحُزْنُ: أَمَا النَفْخُ، فَذَكَرْنِي يَوْمًا عَظِيمًا، يَوْمَ التَّنْفِخِ فِي الصُّورِ، وَأَمَا

(*) هذه رواية المحاجة بين سعيد والحجاج، أما نحن فننزه سعيداً عن هذا الرد، ونجزم بكون عليٍّ من أهل الجنة.

الْعُودُ، فَشَجَرَةٌ قُطِعَتْ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ، وَأَمَّا الْأَوْتَارُ، فَمِنْ الشَّاءِ تُبْعَثُ مَعَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ الْحَجَّاجُ: وَيَلَّكَ يَا سَعِيدُ! قَالَ: لَا وَبَلْ لِمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُذْخِلَ الْجَنَّةَ!

قَالَ الْحَجَّاجُ: أَخْتَرُ يَا سَعِيدُ أَيَّ قِتْلَةٍ أَقْتُلُكَ.

قَالَ: أَخْتَرُ لِنَفْسِكَ يَا حَجَّاجُ؛ فَوَاللَّهِ، لَا تَقْتُلْنِي قِتْلَةً إِلَّا قَتَلْتُكَ اللَّهُ مِثْلَهَا فِي الْآخِرَةِ!

قَالَ: أَفَتَرِيدُ أَنْ أَعْمُو عَنْكَ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ الْعَفْوُ، فَمِنْ اللَّهِ، وَأَمَا أَنْتَ، فَلَا بَرَاءَةَ لَكَ

وَلَا عُذْرَ.

قَالَ الْحَجَّاجُ: اذْهَبُوا بِهِ فَأَقْتُلُوهُ، فَلَمَّا خَرَجَ، ضَحِكَ، فَأَخْبَرَ الْحَجَّاجُ بِذَلِكَ قَرَدَهُ،

وَقَالَ: مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ: عَجِبْتُ مِنْ جُرْأَتِكَ عَلَى اللَّهِ، وَحِلْمِ اللَّهِ عَلَيْكَ.

فَأَمَرَ بِالنَّطْعِ فَبَسَطَ، وَقَالَ: أَقْتُلُوهُ! فَقَالَ سَعِيدٌ: وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ، حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

قَالَ: وَجَّهُوا بِهِ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ، قَالَ سَعِيدٌ: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة.

[١١٥].

قَالَ: كُبُوهُ لَوَجْهِهِ، قَالَ سَعِيدٌ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

قَالَ الْحَجَّاجُ: أَذْبَحُوهُ! قَالَ سَعِيدٌ: أَمَا إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خُذْهَا مِنِّي حَتَّى تَلْقَانِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ دَعِيَ سَعِيدٌ

فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُسَلِّطْهُ عَلَى أَحَدٍ يَقْتُلْهُ بَعْدِي.

وَكَانَ الْحَجَّاجُ إِذَا نَامَ يَرَاهُ فِي الْمَنَامِ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ تَوْبِهِ، وَيَقُولُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فِيمَ

قَتَلْتَنِي؟

فَيَقُولُ الْحَجَّاجُ: مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؟! مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؟^(١).

ذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ^(٢):

قَتَلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُخْتَاجٌ - أَوْ قَالَ: مُفْتَقِرٌ -

إِلَى عِلْمِهِ.

(١) انظر «وفيات الأعيان» ١/ ٢٠٥ - ٢٠٦، «تذكرة الحفاظ» ٧١ - ٧٣، «البداية والنهاية» ٩/ ١٠١ - ١٠٣.

(٢) «طبقات ابن سعد» ٦/ ٢٦٦، «وفيات الأعيان» ١/ ٢٠٦، «الأعلام» ٣/ ١٤٥.

٢ - مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ:

هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج القرشي المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، ولد سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣هـ^(١).

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وأحد أعلام القراء، ومن خاصة أصحاب ابن عباس، اشتهر بقوة حافظته؛ حتى قال ابن عمر وهو آخذ بركابه:

«وَدِدْتُ أَنْ أَبْنِي سَالِمًا وَغُلَامِي يَحْفَظَانِ حِفْظَكَ»^(٢).

كان مجاهد شغوفاً بالعلم، وخاصة التفسير، روى الفضل بن ميمون عن مجاهد قال^(٣): عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثِينَ مَرَّةً.

ويقول أيضاً^(٤): عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، أَقِفْ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ، أَسْأَلُهُ، فِيمَ نَزَلَتْ، وَكَيْفَ كَانَتْ؟

ولا تعارض بين الروایتين، فالأولى لِتَمَامِ الضَّبْطِ والتجويد، والثانية لِلْعِلْمِ والتفسير.

أُسْنَدَ مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم، عن ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمرو، وأبي سعيد، ورافع بن خديج... وروى عنه خلق من التابعين^(٥).

مَكَانَتُهُ فِي التَّفْسِيرِ: كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ^(٦): «إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ، فَحَسْبُكَ بِهِ».

وقال ابن تيمية^(٧): «وَلِذَا يَعْتَمِدُ عَلَى تَفْسِيرِهِ الشَّافِعِيُّ وَالْبَخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ» غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ كَانَ لَا يَأْخُذُ بِتَفْسِيرِهِ؛ يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ: قُلْتُ لِلْأَعْمَشِ، مَا بَالُ تَفْسِيرِ مُجَاهِدٍ مُخَالَفٌ؟ أَوْ: مَا بَالُهُمْ يَتَّقُونَ تَفْسِيرَ مُجَاهِدٍ؟

(١) «طبقات ابن سعد» ٤٤٦/٥، «تهذيب التهذيب» ٤٢/١٠، «البدایة والنهایة» ٢٣٢/٩.

(٢) «میزان الاعتدال» ٩/٣.

(٣) «میزان الاعتدال» ٩/٣.

(٤) «تهذيب التهذيب» ٤٢/١٠.

(٥) «البدایة والنهایة» ٢٣٢/٩.

(٦) «تفسير الطبري» ٣٠/١.

(٧) «مقدمة في أصول التفسير» ص ٧ لابن تيمية.

قال: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ^(١).

لكن هذا لا يَفْدُخُ فِي صِدْقِهِ وَعَدَالَتِهِ؛ فَقَدْ «أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى إِمَامَتِهِ وَالْإِحْتِجَاجِ بِهِ، وَقَدْ أَخْرَجَ لَهُ أَصْحَابُ الْكُتُبِ السُّنَّةَ»^(٢).

ثُمَّ إِنَّ سَوَّالَ الْكِتَابِ أَمَرَ مُبَاحًا - فِيمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِحُكْمٍ تَشْرِيعِيٍّ - أَبَاحَهُ الرَّسُولُ ﷺ^(٣).

كَانَ مُجَاهِدٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُعْطِي عَقْلَهُ حُرِّيَّةً وَاسِعَةً فِي فَهْمِ بَعْضِ نصوصِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَبْدُو ظَاهِرُهَا بَعِيداً؛ فَإِذَا مَا مَرَّ بِنَصِّ قِرَائَتِي مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَجَدْنَاهُ يَنْزِلُهُ بِكُلِّ صِرَاحَةٍ وَوَضُوحٍ عَلَى التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، وَتِلْكَ الْخُطَّةُ كَانَتْ فِيمَا بَعْدَ مُبْدَأٍ مُعْتَرَفاً بِهِ، وَمَقَرَّراً لَدَى الْمَعْتَزَلَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالنِّسْبَةِ لِمِثْلِ هَذِهِ النُّصوصِ^(٤).

نَمُودَجٌ مِنْ تَفْسِيرِ مُجَاهِدٍ: رَوَى ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّ مُجَاهِدًا قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قَالَ: أَمَّا الظَّاهِرَةُ: فَالْإِسْلَامُ وَالْقُرْآنُ وَالرَّسُولُ وَالرِّزْقُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ: فَمَا سَتَرَ مِنَ الْعُيُوبِ وَالذُّنُوبِ^(٥).

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قَالَ: مَنْ لَمْ يَتُبْ إِذَا أَضْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى، فَهُوَ مِنَ الظَّالِمِينَ^(٦).

٣ - عِكْرِمَةُ:

هُوَ: عِكْرِمَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَزْزَرِيُّ الْمَدَنِيُّ، مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، يُكْنَى بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ، أَصْلُهُ مِنَ الْبَزْزَرِ بِالْمَغْرِبِ^(٧).

سَمِعَ مِنْ مَوْلَاهُ «ابْنِ عَبَّاسٍ»، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَغَيْرِهِمْ^(٨).

(١) «طبقات ابن سعد» ٤٦٦/٥.

(٢) «سير أعلام النبلاء» ٣٢٤/٤.

(٣) يَقُولُ ﷺ: بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدَّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.

(٤) «التفسير والمفسرون» ١٠٨/١.

(٥) «البداية والنهاية» ٢٣٤/٩.

(٦) «البداية والنهاية» ٢٣٤/٩.

(٧) «طبقات ابن سعد» ٢٨٧/٥، «وفيات الأعيان» ٣١٩/١، «البداية والنهاية» ٢٥٤/٩، «الأعلام» ٤٣/٥.

(٨) «طبقات ابن سعد» ٢٨٧/٥.

تَلَمَّذَ عَلَى يَدَيَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا يَأْلُو جُهْدًا فِي تَثْقِيفِهِ وَتَعْلِيمِهِ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَقْسُو عَلَيْهِ حَتَّى يُعَلِّمَهُ، رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ^(١):

«كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَجْعَلُ فِي رَجُلٍ الْكَبْلَ يُعَلِّمُنِي الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ».

وَرَوَى الْبَخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ لَهُ^(٢):

«حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أُبَيِّتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْفَزْتَ فَثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَا تُبَلِّغْ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَلَا أَلْفَيْتُكَ تَأْتِي الْقَوْمَ، وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ؛ فَتَقْصُ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فْتَمْلَهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ، فَإِذَا أَمْرُوكَ فَحَدِّثْهُمْ، وَهُمْ يَسْتَهْوُونَ، وَأَنْظِرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَأَجْتَنِبْهُ؛ فَإِنِّي عَهَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ».

لَقَدْ اهْتَمَّ ابْنُ عَبَّاسٍ بِتَلْمِيذِهِ هَذَا اهْتِمَامًا كَبِيرًا؛ وَكَأَنَّهُ كَانَ يَعِدُّهُ لِيَكُونَ خَلِيفَتَهُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَكْفِيهِ إِذَا مَا أَحْسَنَ فَهَمَّ آيَةً أَشْكَلَتْ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ.

رَوَى دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ:

قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِمَ أَدْرَأْنَا الْقَوْمَ أَمْ هَلَكُوا؟ قَالَ: فَمَا زِلْتُ أُبَيِّنُ لَهُ حَتَّى عَرَفَ أَنَّهُمْ نَجَوْا، فَكَسَّانِي حُلَّةً^(٣).

قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: «عِكْرَمَةُ حَبَرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(٤).

وَقَدْ شَهِدَ لَهُ الْأَئِمَّةُ الْأَعْلَامُ بِالثَّقَةِ وَالْعَدَالَةِ.

قَالَ الْمَرْوَزِيُّ: قُلْتُ لِأَحْمَدَ: يَحْتَجُّ بِحَدِيثِ عِكْرَمَةَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، يُحْتَجُّ بِهِ^(٥).

وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ: إِذَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا يَقَعُ فِي عِكْرَمَةَ وَفِي حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، فَاتَّهِمَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ^(٦).

(١) «البدایة والنہایة» ٢٥٥/٩، والکبیل: القید.

(٢) «میزان الاعتدال» ٩٣/٣.

(٣) «طبقات ابن سعد» ٢٨٨/٥.

(٤) «میزان الاعتدال» ٩٣/٣، مقدمة فتح الباری ص ٤٥٠.

(٥) «مقدمة فتح الباری» ص ٣٤٠.

(٦) «معجم الأدباء» ١٨٩/١٢.

وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يَخْتَجُّ بِعِكرمة^(١).

وقد أخرج له: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

عِلْمُهُ وَمَكَائِنُهُ فِي التَّفْسِيرِ: كان عِكرمة على درجة كبيرة من العلم، فهو من أعلم الناس بالسِّيَر والمغازي.

قال سفيان عن عمرو قال^(٢):

كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ عِكرمة يحدث عن المغازي كأنه مُشْرِفٌ عليهم يَنْظُرُ كَيْفَ يُصَفُّونَ وَيَقْتُلُونَ، وهو من علماء زَمَانِهِ بِالْفَقْهِ وَالْقُرْآنِ.

أما التفسير، فقد شهد له الأئمة بذلك، يقول الشَّعْبِيُّ: ما بَقِيَ أَحَدٌ أَعْلَمُ بكتاب الله من عِكرمة^(٣).

وقال حبيب بن أبي ثابت:

اجْتَمَعَ عِنْدِي خَمْسَةٌ: طَاوُسٌ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكرمة، وَعَطَاءٌ؛ فَأَقْبَلَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يُلْقِيَانِ عَلَى عِكرمة التفسير، فَلَمْ يَسْأَلَاهُ عَنْ آيَةٍ إِلَّا فَسَّرَهَا لَهُمَا، فَلَمَّا نَفَذَ مَا عِنْدَهُمَا جَعَلَ يَقُولُ:

أُنْزِلَتْ آيَةٌ كَذَا فِي كَذَا، وَأُنْزِلَتْ آيَةٌ كَذَا فِي كَذَا^(٤).

نَمُودَجٌ مِنْ تَفْسِيرِ عِكرمة: قال عِكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: بالشهوات، ﴿وَتَرَبَّضْتُمْ﴾ بالتوبة، ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي﴾ أي: التَّسْوِيفُ، ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: الْمَوْتُ، ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]: الشَّيْطَانُ^(٥).

وَتُوفِّيَ عِكرمة - رضي الله عنه - بالمدينة سنة سَبْعٍ وَمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ، وقيل: سنة أربع ومائة^(٦).

(١) «مقدمة فتح الباري» ص ٤٥٠.

(٢) «البداية والنهاية» ٢٥٥/٩، «مقدمة فتح الباري» ص ٤٥٠.

(٣) «البداية والنهاية» ٢٥٥/٩.

(٤) «مقدمة فتح الباري» ص ٤٥٠.

(٥) «البداية والنهاية» ٢٥٩/٩.

(٦) «تهذيب التهذيب» ٧/٢٦٣ - ٢٧٣، «تذكرة الحفاظ» ٩٠/١، «البداية والنهاية» ٢٥٣/٩.

٤ - طَاوُسُ :

هو: طَاوُسُ بْنُ كَيْسَانَ الْخَوْلَانِيُّ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

أَوَّلُ طَبَقَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنَ التَّابِعِينَ، وَهُوَ مِنْ أَبْنَاءِ الْفُرْسِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ كِسْرَى إِلَى الْيَمَنِ^(١).

أَذْرَكَ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ وَرَوَى عَنْهُمْ، وَرَوَاتُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَكْثَرُ، وَأَخَذَهُ عَنْهُ فِي التَّفْسِيرِ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا عُذِّ مِنْ تَلَامِيذِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَاءَ ذِكْرُهُ فِي مَدْرَسَتِهِ بِمَكَّةَ^(٢).

رَوَى عَنْهُ خَلْقٌ مِنَ التَّابِعِينَ، مِنْهُمْ: مُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَغَيْرُهُمْ^(٣)، شَهِدَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالْوَرَعِ وَالتَّقْوَى، فَقَالَ: «إِنِّي لَا ظُنُّنَّ طَاوُسًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٤). وَطَاوُسُ ثَقَّةٌ، أَخْرَجَ لَهُ أَصْحَابُ الْكُتُبِ السُّنَّةَ.

كَانَ طَاوُسٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَرِيئًا فِي الْحَقِّ، لَا يَخْشَى فِيهِ لَوْمَةً لَائِمَةً.

رَوَى الزُّهْرِيُّ^(٥):

أَنَّ سُلَيْمَانَ رَأَى رَجُلًا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، لَهُ جَمَالٌ وَكَمَالٌ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا يَا زُهْرِيُّ؟

فَقُلْتُ: هَذَا طَاوُسٌ، وَقَدْ أَذْرَكَ عِدَّةً مِنَ الصَّحَابَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ، فَأَنَاهُ، فَقَالَ: لَوْ مَا حَدَّثْتُنَا!! فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا؛ فَلَمْ يَغْدِلْ فِيهِمْ»، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ سُلَيْمَانَ، فَأَطْرَقَ طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَوْ مَا حَدَّثْتُنَا!!

فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: ظَنَنْتُ أَنَّهُ أَرَادَ عَلِيًّا - قَالَ: دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى طَعَامٍ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قُرَيْشٍ، ثُمَّ قَالَ:

إِنَّ لَكُمْ عَلَى قُرَيْشٍ حَقًّا، وَلَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَقٌّ، مَا إِذَا اسْتَرْجَمُوا رَحْمُوا، وَإِذَا حَكَّمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا اتَّخَمُوا أَدُّوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلْنَاهُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،

(١) «البداية والنهاية» ٢٤٤/٩.

(٢) «التفسير والمفسرون» ١١٤/١.

(٣) «البداية والنهاية» ٢٤٥/٩.

(٤) «تهذيب التهذيب» ٩/٥.

(٥) «البداية والنهاية» ٢٤٧/٩.

لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

قال: فتغير وجه سليمان، وأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه إليه، وقال: لو ما حدثتينا!! فقال: حدثني ابن عباس؛ أن آخر آية نزلت من كتاب الله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

علمه: بلغ طاووس من العلم مبلغاً عظيماً، وكان واثقاً من علمه هذا...

أنكر عليه سعيد بن جبيرة قوله عن ابن عباس: «إن الخلع طلاق»، فلقبه مرة فقال له: «لقد قرأت القرآن قبل أن تولد، ولقد سمعته وأنت إذ ذاك همك لقم الثريد».

وقال قيس بن سعد:

«كان طاووس فينا مثل ابن سيرين فيكم».

والتفسير المأثور عنه قليل جداً، ومعظمه يرويه عن ابن عباس، ولقلة التفسير المأثور عنه وطول بابه في الفقه قالوا عنه: إنه فقيه لا مفسر، وعده علماء الفقه فقيهاً.

نموذج من تفسيره: قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [الروم: ٣٩] الآية: «هو الرجل يعطي العطية، ويهدي الهدية، ليُنَابِ أفضّل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر».

وقد توفي طاووس - رضي الله عنه - يوم السابع من ذي الحجة سنة ١٠٦هـ، ووافته منيته وهو يحج بيت الله الحرام، وصلى عليه هشام بن عبد الملك، وهو خليفة.

٥ - عطاء بن أبي رباح:

هو: عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح هو: أسلم بن صفوان، مولى آل أبي ميسرة بن أبي حنيم الفهري^(١).

سيد التابعين علماً وعملاً وإتقاناً في زمانه بمكة^(٢).

قال ابن سعد^(٣):

(١) طبقات ابن سعد ٥/٤٦٧، «وفيات الأعيان» ١/٣١٨، «البدية والنهاية» ٩/٣١٧، ٣١٨.

(٢) «ميزان الاعتدال» ٣/٧٠.

(٣) «طبقات ابن سعد» ٥/٤٩٦، «البدية والنهاية» ٩/٣١٨.

سَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: كَانَ عَطَاءٌ أَسْوَدَ، أَعْوَرَ، أَفْطَسَ، أَشْلَى، أَعْرَجَ، ثُمَّ عَمِيَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ ثَقَّةً، فَقِيهًا، عَالِمًا، كَثِيرَ الْحَدِيثِ.

قال أبو جعفر الباقر وغير واحد^(١):

ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حج سبعين حجة، وعمر مائة سنة، وكان في آخر عمره يُفطر في رمضان من الكبير والضعف، ويفدي عن إفطاره.

روى عن عدد كثير من الصحابة، منهم: ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وغيرهم.

وسمع من ابن عباس التفسير وغيره، وروى عنه من التابعين عدة، منهم: الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، والأعمش، وغيرهم^(٢).

مكأنته في التفسير: كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تَجَمُّعُونَ إِلَيَّ يَأْهَلْ مَكَّةَ، وَعِنْدَكُمْ عَطَاءٌ؟^(٣).

وقال قتادة^(٤):

كان أعلم التابعين أزيعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسيرة، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

لم يكن عطاء كثيراً من رواية التفسير عن ابن عباس فضلاً عن تفسيره هو، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي^(٥).

قال عبد العزيز بن رفيع^(٦): سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، ف قيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي.

(١) «البداية والنهاية» ٣١٨/٩.

(٢) «البداية والنهاية» ٣١٨/٩.

(٣) «تذكرة الحفاظ» ٩١/١.

(٤) «طبقات ابن سعد» ٤٩٦/٥.

(٥) «التفسير والمفسرون» ١١٥/١.

(٦) «التفسير والمفسرون» ١١٥/١.

لكنه كان يُدلي برأيه - أحياناً - في التفسير .

روى الطبراني - بسنده - عن يَحْيَى بْنِ رَبِيعَةَ الصَّنَعَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عطاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] قَالَ: كَانُوا يَقْرِضُونَ الدَّرَاهِمَ، قِيلَ: كَانُوا يَقْضُونَ مِنْهَا وَيَقْطَعُونَهَا^(١).

وقيل لعطاء: إن ههنا قوماً يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، فما هذا الهدى الذي زادهم؟ قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]؛ فجعل ذلك ديناً^(٢).

وَتُوْفِّي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سِتَّةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ^(٣).

وبعد:

فهذه هي مدرسة التفسير بمكة، تلك التي أسسها حنبل الأمة عبد الله بن عباس، وهؤلاء أشهر شيوخها الذين تخرجوا فيها على يدي ابن عباس، وفي نهاية المطافنا معها نرصد ما يلي:

* كان لهذه المدرسة دور ضخم في نشر التفسير، وقد هيأ لها هذا الدور: نبوغ شيوخها، بالإضافة إلى موطن المدرسة «مكة» حيث البيت الحرام الذي يأتيه الناس من كل فج عميق.

* لم يكتفِ شيوخ هذه المدرسة بنشر التفسير في مكة، وإنما كان لهم دور بالغ الأهمية خارج مكة؛ فقد كان لسعيد بن جببر رحلة إلى الرِّي؛ نشر فيها الكثير من العلم^(٤)، وكذلك كان لمجاهد رحلات خارج مكة، واستقر طاووس باليمن ينشر هناك علم ابن عباس وتفسيره، وأما عكرمة فقد طاف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً؛ إذ رحل إلى خراسان، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والحرَمين^(٥).

(١) (٢) «البداية والنهاية» ٣١٨/٩، ٣١٩.

(٣) «المصدر نفسه» ٣١٧/٩.

(٤) راجع: «حبر الأمة عبد الله بن عباس» ص ١٤٥.

(٥) راجع: «وفيات الأعيان» ٣١٩/١، «معجم الأدباء» ١٨١/١٢، «البداية والنهاية» ٢٥٤/٩.

جزى الله هؤلاء الأعلام عن القرآن والمسلمين خير الجزاء .

مَدْرَسَةُ الْمَدِينَةِ

تَلَامِيذُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ

قامت مدرسة المدينة في التفسير على الصحابي الجليل أبي بن كعب - رضي الله عنه - فهو أستاذها وأشهر مفسريها .

وكان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها، فجلسوا إلى أبي؛ يعلمهم كتاب الله وسنته، ومن أشهر هؤلاء :

١ - أبو العاللة :

هو : زياد، وقيل : رفيع بن مهران الرياحي، مولاهم^(١) .

مُخَضَّرَم، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بستين .

روى عن : علي، وابن مسعود، وابن عباس . وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم .

كان من ثقات التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة .

كان يحفظ القرآن ويثبته، قال :

«قَرَأْتُ الْقُرْآنَ بَعْدَ وَفَاةِ نَبِيِّكُمْ بِعَشْرِ سِنِينَ» .

وقال : «قَرَأْتُ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» .

وقال فيه ابن أبي داود :

«لَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَ الصَّحَابَةِ أَعْلَمُ بِالْقِرَاءَةِ مِنْ أَبِي الْعَالِلَةِ» .

رُوِيَ عَنْهُ نُسْخَةٌ كَبِيرَةٌ فِي التَّفْسِيرِ، رَوَاهَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِلَةِ عَنْ أَبِي، وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ .

تُوفِّيَ سَنَةَ تِسْعِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ، عَلَى أَزْجَحِ الْأَقْوَالِ .

(١) راجع : «تهذيب التهذيب» ٢٨٤/٣ - ٢٨٥ ، و«مقدمة فتح الباري» ص ٤٢٢ ، وانظر : «التفسير

٢ - مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ :

هو: مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ بْنِ سُلَيْمٍ بْنِ أَسَدِ الْقُرْظِيِّ، المدني، أَبُو حَمَزَةَ، أو أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة منهم:

عَلِيٍّ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُمْ، وَرَوَى عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ بِالْوَاسِطَةِ^(١).

قَالَ فِيهِ ابْنُ سَعْدٍ^(٢): كَانَ ثَقَّةً، عَالِمًا، كَثِيرَ الْحَدِيثِ، وَرِعًا، وَهُوَ مِنْ رِجَالِ الْكُتُبِ السَّيِّئَةِ.

قال فيه ابنُ عَوْنٍ^(٣):

مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ مِنَ الْقُرْظِيِّ:

نَمُودَجٌ مِنْ تَفْسِيرِهِ^(٤): قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿... أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا...﴾: أَصْبِرُوا: عَلَى دِينِكُمْ، وَصَابِرُوا: لَوْعَدِكُمْ الَّذِي وَعَدْتُمْ، وَرَابِطُوا: عَدَّوْكُمْ الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] إِذَا لَقِيتُمُونِي.

توفي سنة مائة وثمان من الهجرة^(٥)، وقيل: بعد ذلك.

٣ - زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ:

هُوَ^(٦): زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ الْعَدَوِيُّ، الْمَدَنِيُّ، الْفَقِيه، الْمُفَسِّرُ، أَبُو أَسَامَةَ، أو أَبُو عَبْدِ اللَّهِ.

كَانَ أَبُوهُ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَانَ زَيْدٌ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ عَرَفُوا الْقَوْلَ بِالتَّفْسِيرِ.

قَالَ فِيهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو زُرْعَةَ وَأَبُو حَاتِمٍ وَالنَّسَائِيُّ: «ثَقَّةٌ»، وَهُوَ عِنْدَ أَصْحَابِ الْكُتُبِ السَّيِّئَةِ.

(١) «البداية والنهاية» ٢٦٨/٩ وما بعدها.

(٢) راجع: «التفسير والمفسرون» ١١٧/١، و«الإسرائيليات والموضوعات» ٩٨.

(٣) راجع: «التفسير والمفسرون» ١١٧/١، و«الإسرائيليات والموضوعات» ٩٨.

(٤) «البداية والنهاية» ٢٦٨/٩.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) «تهذيب التهذيب» ٣/ ٣٩٥-٣٩٧، وراجع: «التفسير والمفسرون» ١١٨/١، ١١٩.

عُرِفَ بِعَزَازَةِ الْعِلْمِ، كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ، وَلَا يَتَحَرَّجُ مِنْ ذَلِكَ، إِذْ يَرَى جَوَازَ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ.

وَأَشْهَرُ مَنْ أَخَذَ التَّفْسِيرَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ مِنْ عِلْمَاءِ الْمَدِينَةِ: أَبْنَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ.

وَتُوَفِّيَ سَنَةً سِتُّ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةً لِلْهَجْرَةِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

مَدْرَسَةُ الْعِرَاقِ

تَلَامِيذُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

قَامَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَغَيْرِهِ، إِلَّا أَنَّ أَبْنَ مَسْعُودٍ هُوَ أَشْهَرُ أَسَاتِذَتِهَا أَوْ هُوَ أَسْتَاذُهَا الْأَوَّلُ لِطَوْلِ بَاعِهِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ وَلَّى عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ عَلَى الْكُوفَةِ، سَيَّرَ مَعَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، مُعَلِّمًا وَوَزِيرًا، فَجَلَسَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَخَذُوا عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ.

وَمِنْ أَهَمِّ سِمَاتِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ: شُيُوعُ طَرِيقَةِ الاسْتِدْلَالِ فِيهَا: نَظَرًا إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ عُرِفُوا بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الرَّأْيِ، وَقَدْ وَضَعَ حَجَرَ الْأَسَاسِ لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ^(١).

وَمِنْ أَشْهَرِ رِجَالِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ:

١ - عَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسٍ:

هُوَ: عَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ، أَبُو شَيْبَلٍ، النَّخَعِيُّ، الْكُوفِيُّ.

كَانَ مِنْ أَكْبَارِ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعِلْمَائِهِمْ، وَكَانَ يُشَبَّهُ بِابْنِ مَسْعُودٍ، وَكَانَ أَعْلَمَ أَصْحَابِهِ بِعِلْمِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٢).

قَالَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ: «قُلْتُ لِأَبْنِ مَعِينٍ: عَلْقَمَةُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ عُبَيْدَةُ؟ فَلَمْ يُخَيِّرْ، قَالَ عُثْمَانُ: كِلَاهُمَا ثَقَّةٌ، وَعَلْقَمَةُ أَعْلَمُ بِعَبْدِ اللَّهِ».

وَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: مَا أَقْرَأُ شَيْئًا وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا عَلْقَمَةُ

(١) «التفسير والمفسرون» ١/ ١٢٠ (بتصرف وإيجاز).

(٢) «تهذيب التهذيب» ٧/ ٢٧٦ - ٢٧٨، «البدایة والنہایة» ٨/ ٢١٩.

يقرؤه ويعلمه.

قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير، وهو عند أصحاب الكتب الستة.

مات سنة إحدى وستين، وقيل: سنة اثنتين وستين عن تسعين سنة^(١).

٢ - مسروق:

هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني، الكوفي، العابد، أبو عائشة.

سأله عمر يوماً عن أسمه، فقال له: أسمي مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن^(٢).

روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم.

وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذاً منه، قال علي بن المديني: ما أقدم على مسروق أحدًا من أصحاب عبد الله، يعني: ابن مسعود.

وقال الشَّعْبِيُّ: ما رأيت أطلبَ للعلم منه.

وقد وثقه علماء الجرح والتعديل؛ فقال ابن معين:

ثقة، لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: «كان ثقة، وله أحاديث صالحة»، وقد أخرج له الستة.

توفي - رضي الله عنه - سنة ثلاث وستين من الهجرة؛ على الأشهر^(٣).

٣ - عامر الشعبي:

هو: عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل أبو عمرو.

قاضي الكوفة^(٤).

(١) راجع المصدرين السابقين.

(٢) «تهذيب التهذيب» ١٠/ ١٠٩ - ١١١، «التفسير والمفسرون» ١/ ١٢١، ١٢٢، «الإسرائيليات والموضوعات» ٩٩.

(٣) «تهذيب التهذيب» ١٠/ ١٠٩ - ١١١، «التفسير والمفسرون» ١/ ١٢١، ١٢٢، «الإسرائيليات والموضوعات» ٩٩.

(٤) «تهذيب التهذيب» ٥/ ٦٥ - ٦٩، «البداية والنهاية» ٩/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

كَانَ عَلَامَةً أَهْلَ الْكُوفَةِ، إِمَامًا حَافِظًا، ذَا فُتُونٍ.

وقد أَدْرَكَ خَلْقًا مِنَ الصَّحَابَةِ وَرَوَى عَنْهُمْ، وَمِنْهُمْ: عُمَرُ، وَعَلِيٌّ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ، وَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَائِشَةَ، وَابْنَ عَبَّاسٍ، وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: أَذْرَكْتُ خَمْسِمِائَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَالشَّعْبِيُّ ثَقَّةٌ، فَهُوَ عِنْدَ أَصْحَابِ الْكُتُبِ السُّتَّةِ، وَقَالَ ابْنُ جِبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ: كَانَ فَقِيهًا شَاعِرًا.

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي مَجْلَزٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَفْقَهَ مِنَ الشَّعْبِيِّ، لَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَلَا طَاوُسٌ، وَلَا عَطَاءٌ، وَلَا الْحَسَنُ، وَلَا ابْنُ سِيرِينَ.

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ:

قَدِمْتُ الْكُوفَةَ، وَلِلشَّعْبِيِّ حَلْفَةٌ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمُنَا كَثِيرٌ^(١).

وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ أُوتِيَ هَذَا الْحِطُّ الْوَافِرَ مِنَ الْعِلْمِ، لَمْ يَكُنْ جَرِيئًا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ؛ حَتَّى يَقُولَ فِيهِ بَرَأْيَهُ؛ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ^(٢):

كَانَ جِلَّةً مِنَ السَّلَفِ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ يَعْظُمُونَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ، وَيَتَوَقَّفُونَ عَنْهُ؛ تَوَرُّعًا وَاحْتِيَاظًا لَأَنْفُسِهِمْ، مَعَ إِذْرَاكِهِمْ وَتَقَدُّمِهِمْ.

تُوفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ^(٣)، وَقِيلَ: سَنَةَ تِسْعٍ وَمِائَةٍ.

٤ - الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:

هُوَ: الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ يَسَارِ الْبَصْرِيِّ، أَبُو سَعِيدٍ، مَوْلَى الْأَنْصَارِ، وَأُمُّهُ خَيْرَةُ مَوْلَاةٌ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، رُبِّيَ فِي حَجْرِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ بِلَبَانِهَا، فَعَادَتْ عَلَيْهِ بَرَكَهُ النَّبَوِيَّةُ^(٤).

(١) راجع لهذه الأقوال: «تهذيب التهذيب»، «البدایة والنهاية»، و«التفسير والمفسرون».

(٢) مقدمة تفسير القرطبي ١/ ٣٤.

(٣) «البدایة والنهاية» ٩/ ٢٣٩.

(٤) «تهذيب التهذيب» ٢/ ٢٦٣ - ٢٧٠، «البدایة والنهاية» ٩/ ٢٨٠، «الحسن البصري» للإمام أبي الفرج بن الجوزي - هدية مجلة الأزهر/ محرم ١٤٠٨ هـ.

وُلِدَ لِسِتَيْنِ بَقِيَّتًا مِنْ خِلاَفَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

وهو أَحَدُ كِبَارِ التَّابِعِينَ الْأَجْلَاءِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِخْلَاصًا، شَهِدَ لَهُ بِالْعِلْمِ خَلْقٌ كَثِيرٌ.

قال أنسُ بْنُ مَالِكٍ:

«سَلُّوا الْحَسَنَ؛ فَإِنَّهُ حَفِظَ وَنَسِينَا»، وقال سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: «الْحَسَنُ شَيْخُ أَهْلِ

الْبَصْرَةِ»، وروى أبو عَوَانَةَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ:

«مَا جَالَسْتُ فَقِيهًا قَطُّ إِلَّا رَأَيْتُ فَضْلَ الْحَسَنِ عَلَيْهِ».

وكان أبو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ يَقُولُ عَنْهُ: «ذَلِكَ الَّذِي يُشَبِّهُ كَلَامَهُ كَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ»^(١).

وقد التزم الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِمَنْهَجِهِ السَّلَفِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ،

وَلَمْ يَمْتَنِعْ هَذَا الْإِلْتِزَامُ مِنْ حُرِّيَةِ الْعَقْلِ حِينَ تَعَرَّضَ لِغَيْرِهَا؛ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

«إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» [القمر: ٤٩]، قَدَّرَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ قَدْرَهُ الَّذِي يَنْبَغِي

لَهُ، وَهَذِهِ هِيَ عَقِيدَةُ السَّلَفِ الَّتِي بَنَوْهَا عَلَى مَا تَعَلَّقَ بِالْآيَةِ مِنْ سَبَبٍ لِنَزُولِهَا، فَعَنِ أَبِي

هَرِيرَةَ قَالَ:

جَاءَتْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَخَاصِمُونَهُ فِي الْقَدَرِ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «إِنَّا كُلَّ

شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» [القمر: ٤٩]^(٢).

وكان الْحَسَنُ يُعْمِلُ عَقْلَهُ وَفِكْرَهُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ؛ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

«لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا» [النبا: ٢٣]:

«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِأَهْلِ النَّارِ مُدَّةً، بَلْ قَالَ: لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا، فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنَّهُ

إِذَا مَضَى حَقْبٌ دَخَلَ آخَرٌ ثُمَّ آخَرٌ إِلَى الْأَبَدِ، فَلَيْسَ لِلْأَحْقَابِ عِدَّةٌ إِلَّا الْخُلُودُ»^(٣).

وَتُوفِّيَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - سَنَةَ عَشْرٍ وَمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ عَنْ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً.

٥ - قَتَادَةُ:

هو: قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السُّدُوسِيُّ: الْأَكْمَمُ، أَبُو الْخَطَّابِ، عَرَبِيٌّ الْأَصْلُ، كَانَ يَسْكُنُ

الْبَصْرَةَ.

(١) «تهذيب التهذيب» ٢/٢٦٣.

(٢) «البغوي الفراء» ٢٢١.

(٣) «البغوي الفراء» ٢٢٢.

أَخَذَ عِلْمَاءُ التَّابِعِينَ، وَالْأَثَمَةَ الْعَامِلِينَ، رَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ، مِنْهُمْ: سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَزُرَّارَةُ بْنُ أَوْفَى، وَعَطَاءٌ، وَمَجَاهِدٌ، وَابْنُ سِيرِينَ، وَمُسْرُوقٌ، وَأَبُو مِجْلَزٍ، وَغَيْرُهُمْ^(١).

وَحَدَّثَ عَنْهُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْكِبَارِ؛ كَالْأَعْمَشِ، وَشُعْبَةَ، وَالْأَوْزَاعِيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

وَكَانَ قَوِيَّ الْحَافِظَةِ، وَاسِعَ الْإِطْلَاقِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ، بَصِيرًا بِأَيَّامِ الْعَرَبِ.

كَانَ قِتَادَةً عَلَى مَبْلَغٍ عَظِيمٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَضْلًا عَمَّا أَشْتَهَرَ بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ لِتَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ كِبَارُ التَّابِعِينَ وَالْعُلَمَاءِ.

قَالَ فِيهِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: «مَا أَتَانِي عِرَاقِي أَحْسَنَ مِنْ قِتَادَةٍ».

وَقَدْ اسْتَعْمَلَ قِتَادَةُ مَعْرِفَتَهُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّفْسِيرِ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ فِي تَفْهَمِ الْآيَاتِ، بِجَانِبِ رَوَايَتِهِ عَنِ السَّلَفِ.

وَقَدْ تُوفِّيَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَنَةَ سَنَعِ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، عَنْ سِتٍّ وَخَمْسِينَ سَنَةً؛ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقِيلَ: سَنَةَ خَمْسِ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ^(٢).

وبعد:

فَهَذِهِ هِيَ مَدَارِسُ التَّفْسِيرِ الْمَشْهُورَةِ فِي عَصْرِ التَّابِعِينَ، الَّذِينَ تَلَقَّوْا غَالِبَ أَقْوَالِهِمْ فِي التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَبَعْضُهُمْ اسْتَعَانَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ اجْتَهِدُوا مُسْتَعِينِينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا بَلَّغُوا مِنَ الْعِلْمِ وَدَقَّةِ الْفَهْمِ، وَقُرِبَ عَهْدِهِمْ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْعَرَبِ الْخُلُصِ، فَلَمْ تَقْسُدْ سَلِيقَتُهُمْ.

وَهُنَاكَ مَدَارِسُ أُخْرَى غَيْرُ هَذِهِ الْمَدَارِسِ الثَّلَاثِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَزَقْ لَشَهْرَةِ هَذِهِ الثَّلَاثِ، وَمِنْ هَذِهِ: مَدْرَسَةُ مِصْرَ الَّتِي أَشْتَهَرَ مِنْ شِيُوخِهَا:

يَزِيدُ بْنُ حَبِيبٍ الْأَزْدِيُّ، وَأَبُو الْخَيْرِ مَرْثَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَغَيْرُهُمَا.

وَمَدْرَسَةُ الْيَمَنِ الَّتِي أَرْسَى دَعَائِمَهَا طَاوُسُ بْنُ كَيْسَانَ، وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِ شِيُوخِهَا: وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهِ الصَّنْعَائِيُّ.

(١) «وفيات الأعيان» ١٧٩/٢، «البداية والنهاية» ٣٢٦/٩، «تهذيب التهذيب» ٣٥١/٨.

(٢) راجع: «تهذيب التهذيب» ٣٥١/٨ - ٣٥٦، «البداية والنهاية» ٣٢٥/٩، ٣٢٦.

وهكذا بَدَل هؤلاء التابعون جُهْدًا ضَخْمًا فِي حَمْلِ الْأَمَانَةِ عَنِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ جَاءَ تَابِعُوا التَّابِعِينَ؛ لِيُكْمِلُوا الْمَسِيرَةَ، وَظَلَّتْ تَتَوَارَثُ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَيْنَا، فَجَزَى اللَّهُ كُلَّ مَنْ أَسْهَمَ فِي هَذَا الْعِلْمِ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَنَفَعْنَا اللَّهَ بِالْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ!!

قِيَمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ التَّابِعِينَ

تفسيرُ التَّابِعِيِّ: إما أَنْ يَكُونَ مَأْثُورًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ عَنْ صَحَابَتِهِ، أَوْ لَا، فَإِنْ كَانَ مَأْثُورًا عَنِ النَّبِيِّ، يَأْخُذُ حُكْمَ تَفْسِيرِهِ ﷺ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ مَأْثُورًا عَنِ الصَّحَابَةِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَأْثُورًا عَنِ النَّبِيِّ وَلَا عَنِ الصَّحَابَةِ، فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ وَالْأَخْذِ بِأَقْوَالِ التَّابِعِينَ فِيهِ.

* فَقَدْ نُقِلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَالَ^(١):

مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ، وَمَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ تَحْيِيزًا، وَمَا جَاءَ عَنِ التَّابِعِينَ فَهُمْ رِجَالٌ، وَنَحْنُ رِجَالٌ.

* وَنَقَلُوا عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَوَاتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا: بِالْقَبُولِ، وَالْأُخْرَى: بَعْدَ الْقَبُولِ^(٢).

وذهب بعضُ العلماءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ بِتَفْسِيرِ التَّابِعِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بخلافِ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ سَمِعُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وشاهدوا الْقَرَائِنَ وَالْأَحْوَالَ.

وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى الْأَخْذِ بِأَقْوَالِ التَّابِعِينَ؛ لِأَنَّهُمْ تَلَقَّوْا عَلَى أَيْدِي الصَّحَابَةِ؛ كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا.

وَالرَّأْيُ الَّذِي نَرْجِّحُهُ، وَنَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ، قَالَ^(٣):

«قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ وَغَيْرُهُ: أَقْوَالُ التَّابِعِينَ لَيْسَتْ حُجَّةً، فَكَيْفَ تَكُونُ حُجَّةً فِي التَّفْسِيرِ!! يَعْنِي أَنَّهُ لَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ خالفَهُمْ، وَهَذَا صَحِيحٌ، أَمَّا إِذَا أَجْمَعُوا عَلَى الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنْ اخْتَلَفُوا، فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَى بَعْضٍ، وَلَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ، أَوِ السَّنَةِ، أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ».

(١) راجع: «التفسير والمفسرون» للذهبي ١/١٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «مقدمة في أصول التفسير»/ ابن تيمية ٢٨ - ٢٩، «الإتقان في علوم القرآن» ٢/١٧٩.

سِمَاتُ التَّفْسِيرِ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ

اتَّسَمَ التفسيرُ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ بَعْدَهُ سِمَاتٍ، مِنْ أْبْرَزِهَا^(١):

* أنه اعتمد عَلَى التَّلَقِّي والرواية، وَغَلَبَ عَلَى التَّلَقِّي والرواية طَائِعُ الاختصاص، فكان لكلِّ بَلَدٍ مدرستُهُ وأُسْتَاذُهُ، فَمَكَّةُ: أَسْتَاذُهَا ابْنُ عَبَّاسٍ، والمدينةُ: أَسْتَاذُهَا أَبِي بَنْ كَعْبٍ، والعِرَاقُ: أَسْتَاذُهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، وهكذا.

* دُخُولُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْإِسْلَامِ كان سَبَباً فِي تَسَلُّلِ الدَّخِيلِ إِلَى عِلْمِ التفسير، وقد تَسَاهَلُ التَّابِعُونَ فِي الثَّقَلِ عَنْهُمْ - فيما لَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ - بِدُونِ تَحَرُّ وَنَقْدٍ، وَأَكْثَرُ مِنْ رُؤْيٍ عَنْهُ فِي ذَلِكَ مِنْ مُسْلِمِي أَهْلِ الْكِتَابِ:

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ، وَوَهْبُ بْنُ مُبَيَّهٍ، وَغَيْرُهُمْ.

* كان بَدْهِيًّا أَنْ يَخْتَلِفَ التَّابِعُونَ فِي التفسير؛ نَظَرًا لَتَعَدُّدِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ، وَأَخْتِلَافِ مَدَارِسِهِمْ الَّتِي تَخَرَّجُوا فِيهَا، وَلَكِنَّهُ خِلَافٌ لَيْسَ بِالْكَثِيرِ إِذَا مَا قِيسَ بِالْعُصُورِ اللاحقة.

* كما ظَهَرَتْ نَوَاءُ الْخِلَافِ الْمَذْهَبِيِّ؛ إِذْ ظَهَرَتْ بَعْضُ التفسيراتِ تَحْمِيلُ فِي طَيَّابَتِهَا بُدُوراً لِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ.

التَّفْسِيرُ فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ

تَبَدَّأَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ فِي أَوَاخِرِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ وَأَوَائِلِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ؛ إِذْ انْتَشَرَ التَّدْوِينُ بِصُورَةٍ وَاسِعَةٍ، وَعَنِيَ الْعَرَبُ «بِتَدْوِينِ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِدِينِهِمُ الْحَنِيفِ، فَقَدْ تَأَسَّسَتْ فِي كُلِّ بَلَدٍ إِسْلَامِيَّةٍ مَدْرَسَةٌ دِينِيَّةٌ عُيِّنَتْ بِتفسيرِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَرِوَايَةِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، وَتَلْقِينِ النَّاسِ الْفِقْهَ وَشُئُونَ التَّشْرِيعِ، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ فِي هَذِهِ الْمَدَارِسِ يَخْرِصُونَ عَلَى تَدْوِينِ مَا يَسْمَعُونَهُ...»^(٢).

تَدْوِينُ التَّفْسِيرِ: اخْتَلَفَ فِي أَوَّلِ مَنْ أَلَّفَ تفسيراً «مَكْتُوباً»، فبَعْضُهُمْ يَذْكُرُ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ جُرَيْجٍ^(٣) (ت ١٤٩هـ) هُوَ أَوَّلُ مَنْ أَلَّفَ تفسيراً مَكْتُوباً.

(١) راجع: «التفسير والمفسرون» ١/١٣١، ١٣٢.

(٢) «تاريخ الأدب العربي»/ العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ٤٥٢.

(٣) هو عبد الملك عبد العزيز بن جريج، أبو خالد، أو أبو الوليد، مولاها، من علماء مكة ومحدثيها، ولد سنة ٨٠هـ، توفي سنة ١٤٩هـ، أول من صنف بالحجاز الكتب، نقل عنه ابن جرير في تفسيره. راجع «طبقات ابن سعد».

وَذَكَرَ ابْنُ النَّدِيمِ: أَنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ ثَعْلَبًا قَالَ: كَانَ السَّبَبُ فِي إِمْلَاءِ كِتَابِ الْفَرَاءِ فِي الْمَعَانِي أَنَّ عُمَرَ بْنَ بُكَيْرٍ كَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ مُنْقَطِعًا إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ، فَكُتِبَ إِلَى الْفَرَاءِ: إِنَّ الْأَمِيرَ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ، رُبَّمَا سَأَلَنِي عَنِ الشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَلَا يَحْضُرُنِي فِيهِ جَوَابٌ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَجْمَعُ لِي أَصُولًا، أَوْ تَجْعَلَ فِي ذَلِكَ كِتَابًا أَزِجُ إِلَيْهِ، فَعَلْتُ، فَقَالَ الْفَرَاءُ لِأَصْحَابِهِ: اجْتَمِعُوا حَتَّى أُفْلِيَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا فِي الْقُرْآنِ... فَقَالَ الْفَرَاءُ لِرَجُلٍ: أَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ تَفْسِيرَهَا، ثُمَّ نُوفِيَ الْكِتَابَ كُلَّهُ، فَقَرَأَ الرَّجُلُ وَفَسَّرَ الْفَرَاءُ، قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: «لَمْ يَعْمَلْ أَحَدٌ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا أَحْسِبُ أَنَّ أَحَدًا يَزِيدُ عَلَيْهِ»^(١).

وبذلك يكون ابنُ النَّدِيمِ قد عدَّ «الْفَرَاءَ» أَوَّلَ مَنْ أَلَّفَ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ مُدَوَّنًا.

ولكن ابن حَجَرٍ يذكُرُ أَنَّ التفسير المدوَّن كان قبل الْفَرَاءِ وقَبْلَ ابْنِ جَرِيْجٍ؛ إِذْ يَقُولُ^(٢):

«وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ (ت ٨٦هـ) سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ (ت ٩٥هـ) أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَكُتِبَ سَعِيدٌ بِهَذَا التفسير، فَوَجَدَهُ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ فِي الدِّيوانِ؛ فَأَخَذَهُ؛ فَأَرْسَلَهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ.

ويبدو أنه مِنَ الصَّغْبِ تحديدهُ أَوَّلَ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ تَفْسِيرًا مُدَوَّنًا عَلَى تَتَابُعِ آيَاتِهِ وَسُورِهِ؛ كَمَا فِي الْمُضْحَفِ.

أَقْسَامُ التَّفْسِيرِ

وَزَلَّ الْخَلْفُ يَخْمِلُ رِسَالَةَ السَّلَفِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، حَتَّى وَصَلَتْ مَسِيرَةُ التفسير إِلَى تَابِعِي التَّابِعِينَ، وَهنا تَعَدَّدَتْ اتِّجَاهَاتُ التفسير إِلَى ثَلَاثَةِ اتِّجَاهَاتٍ رَئِيسِيَّةٍ هِيَ:

أَوَّلًا - الْإِتِّجَاهُ الْأَثَرِيُّ (التَّفْسِيرُ بِالْمَأْثُورِ):

وَالْمَأْثُورُ: اسْمٌ مَفْعُولٍ مِنْ أَثَرْتُ الْحَدِيثَ أَثَرًا: نَقَلْتُهُ، وَالْأَثَرُ: اسْمٌ مِنْهُ، وَحَدِيثُ مَأْثُورٌ، أَيُّ: مَنْقُولٌ^(٣).

وَعَلَى ذَلِكَ، فَهُوَ يَشْمَلُ الْمَنْقُولَ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ -،

(١) «الفهرست» ص ٩٩.

(٢) «تهذيب التهذيب» ١٩٨/٧.

(٣) «المصباح المنير» (أثر)، «الإسرائيليات والموضوعات» أبو شهبه ص ٦٤.

والمُنْقُولُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ والمُنْقُولُ عَنِ الصَّحَابَةِ، والمُنْقُولُ عَنِ التَّابِعِينَ.

وَجُلٌّ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ عَنْ تَارِيخِ التَّفْسِيرِ وَيَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْإِتِّجَاهِ الْأَثَرِيِّ يَبْدَأُونَهُ بِالطَّبْرِيِّ، «فَيَقْطَعُونَ بِذَلِكَ اتِّصَالَ سُلْسَلَةِ التَّطَوُّرِ فِي الْأَوْضَاعِ التَّفْسِيرِيَّةِ بَيْنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالْقَرْنِ الثَّالِثِ بِإِضَاعَةِ حَلَقَةٍ مِنْ تِلْكَ السُّلْسَلَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ مَنْهَجَ التَّفْسِيرِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي؛ لِأَنَّ تَفْسِيرَ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ أُلْفَ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ، وَصَاحِبُهُ تُوفِّيَ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ، وَبِالْوُقُوفِ عَلَى هَذِهِ الْحَلَقَةِ - وَهِيَ إِفْرِيقِيَّةٌ تُؤَسِّسَةٌ - يَتَّضِحُ كَيْفَ تَطَوَّرَ فَهْمُ التَّفْسِيرِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ ابْنِ جَرِيرٍ، إِلَى مَا أَصْبَحَ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ، وَيَتَّضِحُ لِمَنْ كَانَ الطَّبْرِيُّ مَدِينًا لَهُ بِذَلِكَ الْمَنْهَجِ الْأَثَرِيِّ النَّظَرِيُّ الَّذِي دَرَجَ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ الْعَظِيمِ.

«ذَلِكَ التَّفْسِيرُ هُوَ أَقْدَمُ التَّفَاسِيرِ الْمَوْجُودَةِ الْيَوْمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَيُعَدُّ صَاحِبُهُ مُؤَسَّسَ طَرِيقَةِ التَّفْسِيرِ النَّقْدِيِّ، أَوِ الْأَثَرِيِّ النَّظَرِيِّ الَّذِي صَارَ بَعْدَهُ «ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ» وَاشْتَهَرَ بِهَا.

ذَلِكَ هُوَ تَفْسِيرُ «يَحْيَى بْنِ سَلَامٍ» التَّمِيمِيِّ الْبَصْرِيِّ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٠٠هـ، وَيَقَعُ فِي ثَلَاثِ مَجْلَدَاتٍ ضَخْمَةٍ، وَقَدْ بَنَاهُ عَلَى إِيرَادِ الْأَخْبَارِ مُسْنَدَةً، ثُمَّ تَعَقَّبَهَا بِالنَّقْدِ وَالِاخْتِيَارِ، وَكَانَ يَبْنِي اخْتِيَارَهُ عَلَى الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ وَالتَّخْرِيجِ الْإِعْرَابِيِّ، وَتَوَجَّدَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ نُسْخَةٌ بَتُّوسَ (١).

وَيُعَدُّ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَبِيبَ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ، طَرِيقَةُ يَحْيَى بْنِ سَلَامٍ، وَثَمَرَةُ غَرَسِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ عِدَّةً مِنْ مَفْسَّرِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ الْأَثَرِيِّ مِنْهُمْ:

* يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ ت ١١٧هـ.

* شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ ت ١٦٠هـ.

* وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ ت ١٩٧هـ.

* سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ ت ١٩٨هـ، وَغَيْرُهُمْ.

- «ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ» (٢):

لَكِنَّ التَّفْسِيرَ حِينَ أَنْتَهَى إِلَى الطَّبْرِيِّ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ «كَانَ نَهْرًا مُزِيدًا،

(١) «التفسير ورجاله»/ ابن عاشور ص ٢٧.

(٢) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ. وقد جاوز الثمانين بخمسة أو ست سنين.

ذَا رُكَّامٍ وَرَوَاسِبَ، قَدْ أَنْصَبَ إِلَى بَخْرِ خَضَمٍ عُبابَ، فَاْمْتَزَجَ بِمَائِهِ، وَتَشَرَّبَ مِنْ عَنَاصِرِهِ، وَصَفَا إِلَيْهِ مِنْ زَبَدِهِ، وَتَطَهَّرَ لَدِيهِ مِنْ رُكَّامِهِ وَرَوَاسِيهِ»^(١).

«وَأَبْنُ جَرِيرٍ» فقيه، عَالِمٌ تَبَحَّرَ فِي فُنُونِ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَهُوَ أَحَدُ الْمَشَاهِيرِ مِنْ رِجَالِ التَّارِيخِ، وَيُعَدُّ كِتَابَهُ «تَارِيخُ الْأُمَمِ وَالْمُلُوكِ» فِيهِ مَزْجُ الْمَرَاجِعِ، وَبِهِ صَارَ إِمَامَ الْمُؤَرِّخِينَ غَيْرَ مُنَازَعٍ.

وقد شهد له بذلك كثير من الأعلام؛ يقول الخطيب البغدادي^(٢):

«جَمَعَ مِنَ الْعُلُومِ مَا لَمْ يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ، وَكَانَ حَافِظًا لِكِتَابِ اللَّهِ، عَارِفًا بِالْقَرَاءَاتِ كُلِّهَا، بَصِيرًا بِالْمَعَانِي، فَقِيهًا فِي الْأَحْكَامِ، عَالِمًا بِالسُّنَنِ وَطُرُقِهَا، وَصَحِيحًا وَسَقِيمًا، وَنَاسِخًا وَمَنْسُوخًا، عَارِفًا بِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، عَارِفًا بِأَيَّامِ النَّاسِ وَأَخْبَارِهِمْ، وَلَهُ الْكِتَابُ الْمَشْهُورُ فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ وَالْمُلُوكِ، وَكِتَابٌ فِي التَّفْسِيرِ لَمْ يُصَنَّفْ أَحَدٌ مِثْلَهُ...».

لقد امتلك الطبري أدوات التفسير؛ فاستخدمها بمهارة وصدق، ومن هنا عدَّ تفسيره «ذَا أَوَّلِيَّةٍ بَيْنَ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، أَوَّلِيَّةَ زَمْنِيَّةٍ، وَأَوَّلِيَّةٍ مِنْ نَاحِيَةِ الْفَنِيَّةِ وَالصِّيَاغَةِ، أَمَّا أَوَّلِيَّتُهُ الزَّمْنِيَّةُ: فَلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا وما سبقه من المحاولات التفسيرية، ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شيء منها، اللهم، إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نحن بصدد^(٣).

«وأما أوليته من ناحية الفن والصياغة، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجها للناس كتاباً له قيمته ومكانته»^(٤).

طريقة الطبري في التفسير:

حين يفسر الطبري آية يضع لها عنواناً هكذا «القول في تأويل قوله جل ثناؤه...» ثم يقول: «يعني تعالى بذلك...» ويستشهد على التفسير بما يزويه بسنده إلى الصحابة أو

(١) التفسير ورجاله ص ٣٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٥٦.

(٣) هذا على اعتبار فقد تفسير يحيى بن سلام الذي أشرت إليه آنفاً، أما وقد ذكر الإمام الفاضل بن عازور أن نسخة من الكتاب موجودة في تونس فإن تفسير الطبري لا يعد ذا أولية زمنية.

(٤) التفسير والمفسرون ١/٢٠٥.

التابعين، عَارِضاً المعاني الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب، مستشهداً بالشعر العربي على ما يُثَبِّتُ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي الْمَعْنَى الَّذِي حَمَلَهُ عَلَيْهِ.

وقد يَعْرِضُ أَقْوَالَ الصحابة والتابعين إِذَا تَعَدَّدَتْ فِي آيَةِ الْوَاحِدَةِ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِمَجْرَدِ الْعَرِضِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ رَأْيَاً عَلَى رَأْيِ بَقُولِهِ^(١):

«وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ عِنْدِي بِالصُّوَابِ...» أَوْ «وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَالصُّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ...»، أَوْ «وَأَوَّلَى التَّأْوِيلَاتِ بِالْآيَةِ...»، ثُمَّ يُوَيِّدُ رَأْيَهُ بِقَوْلِهِ: «وَيُمَثِّلُ الَّذِي قُلْنَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ...» أَوْ بِعَرَضِ حُجَجٍ وَأَدْلَةٍ قَائِلًا: «وَإِنَّمَا رَأَيْنَا أَنَّ ذَلِكَ أَوَّلَى التَّأْوِيلَاتِ بِالْآيَةِ؛ لِأَنَّ...»، وَقَدْ عُنِيَ ابْنُ جَرِيرٍ بِالْقِرَاءَاتِ عِنَايَةً كَبِيرَةً، وَلَا غَرْوَ، فَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الْقِرَاءَاتِ الْمَشْهُورِينَ، وَلَهُ فِيهَا مُؤَلَّفٌ، إِلَّا أَنَّهُ ضَاعَ ضَيْغَمٌ مَا ضَاعَ مِنَ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ.

كَمَا اهْتَمَّ الطَّبْرِيُّ بِالشَّعْرِ الْقَدِيمِ، يَسْتَشْهَدُ بِهِ عَلَى الْعَرَبِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ تَابِعٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَمَا كَانَتْ لَهُ عِنَايَةٌ بِالْمَذَاهِبِ النَّحْوِيَّةِ الْبَصْرِيَّةِ وَالْكُوفِيَّةِ، يورد الرُّأْيَ وَيُوجِّهُهُ.

وَيُورِدُ بَعْضَ الْأَحْكَامِ الْفَقْهِيَّةِ فِي تَفْسِيرِهِ، مُخْتَاراً لِأَحَدِ الْآرَاءِ، مُؤَيِّداً اخْتِيَارَهُ بِالْأَدَلَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْقِيَمَةِ...^(٢).

رَحِمَ اللَّهُ الطَّبْرِيَّ وَجْزَاهُ عَنِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ خَيْرَ الْجِزَاءِ..

ثَانِيًا - الْإِتْجَاهُ اللَّغَوِيُّ:

وَقَدْ بَدَأَ هَذَا الْإِتْجَاهُ وَاضِحاً فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّانِي الْهَجْرِيِّ وَأَوَّلِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ؛ إِذْ نَشَأَ عِلْمُ النَّحْوِ، وَنَضِجَتْ عُلُومُ اللُّغَةِ عَلَى أَيْدِي الرُّوَادِ أَمْثَالِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ، وَيُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ، وَالْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

وَكَانَ الْغَرَضُ الْأَسْمَى مِنْ تَأْصِيلِ هَذِهِ الْعُلُومِ وَتَقْعِيدِهَا خِدْمَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ صِيَانَةً لَهُ مِنَ اللَّحْنِ، وَلَا سِيَمَا بَعْدَ اتِّصَالِ الْعَرَبِ بِالْعَجَمِ.

وَقَدْ أَثَّرَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَاتُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ تَأْثِيرًا كَبِيرًا؛ إِذْ اسْتَعْلَى اللَّغَوِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْقُرْآنِ وَلِغَتِهِ، وَكَانَ مِنْ أَشْهُرِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ «أَبُو عُبَيْدَةَ مَغَمَّرُ بْنُ الْمُثَنَّى» الْمَتَوَفَّى سَنَةَ

(١) راجع: «تفسير الطبري».

(٢) راجع: «التفسير والمفسرون» ٢٠٢/١ - ٢١٨.

٢٠٨هـ أو ٢١٥هـ، وقد ألف كتابه «مَجَازُ الْقُرْآنِ» سنة ١٨٨هـ^(١)، ويُعدُّ هذا الكتابُ أقدمَ مؤلَّفٍ في معاني القرآن وصلَّ إلينا.

وأبو عُبيدة موسوعة علمية له مؤلفات في مجالات شتى، وقد «أوتِيَ لِسَانًا صَارِمًا جَلَبَ عَلَى نَفْسِهِ عِدَاوَاتٍ كَثِيرَةً، ثُمَّ تَنَفَّسَ بِهِ الْعُمُرُ قَرَابَةً قَرْنٍ كَامِلٍ زَامَلٍ فِيهِ أَعْلَامًا كِبَارًا، وَجَادَلَ خُصُومًا كَثَارًا، وَشَهِدَ تَلَامِيذَهُ وَمَنْ فِي طَبَقَتِهِمْ يَجَادِلُونَ عَنْهُ، وَيَجَادِلُونَ فِيهِ، فَقَرَّبَ وَبَاعَدَ، وَوَاصَلَ وَقَاطَعَ، وَلَكِنَّ مَخَالِفِهِ كَانُوا مِنَ الْكَثْرَةِ بِحَيْثُ أَرَهَقُوهُ وَضَايَقُوهُ، حَتَّى جَاءَهُ الْأَجَلُ فَلَمْ يَتَهَضَّ لِتَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ أَحَدًا، وَعُلِّلَ ذَلِكَ بِمَا تَرَكَ مِنْ خَزَائِنِ أُدْبِيَّةٍ»^(٢).

ويحكي أبو عُبيدة سَبَبَ تَأْلِيفِهِ كتاب «مَجَازِ الْقُرْآنِ» فيقول:

«أَرْسَلَ إِلَيَّ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ وَالِي الْبَصْرَةِ فِي الْخُرُوجِ إِلَيْهِ سَنَةً ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً، فَقَدِمْتُ إِلَى بَغْدَادَ وَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسٍ لَهُ طَوِيلٍ عَرِيضٍ فِيهِ بَسَاطٌ وَاحِدٌ قَدْ مَلَأَهُ، وَفِي صَدْرِهِ فُرْشٌ عَالِيَةٌ لَا يُرْتَقَى إِلَيْهَا إِلَّا عَلَى كُرْسِيِّ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَيْهَا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالْوِزَارَةِ، فَرَدَّ وَضَحِكَ إِلَيَّ، وَاسْتَذْنَانِي حَتَّى جَلَسْتُ إِلَيْهِ عَلَى فَرْشَةٍ، ثُمَّ سَأَلَنِي وَالْطَّفَنِي وَبَاسْطَنِي، وَقَالَ: أَنْشِدْنِي، فَأَنْشَدْتُهُ فَطَرِبَ وَضَحِكَ، وَزَادَ نَشَاطُهُ، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ فِي زِيِّ الْكُتَّابِ لَهُ هَيْئَةٌ، فَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِي، وَقَالَ لَهُ: أَتَعْرِفُ هَذَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: هَذَا أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَامَةُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ! أَقْدَمْنَاهُ لِتَسْتَفِيدَ مِنْ عِلْمِهِ، فَدَعَا لَهُ الرَّجُلُ وَقَرَّظَهُ لِفَعْلِهِ هَذَا، وَقَالَ لِي: إِنِّي كُنْتُ إِلَيْكَ مُشْتَقًا، وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَعْرِفَكَ يَأْهَا؟

فقلتُ: هَاتِ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصفات: ٦٥]، وَإِنَّمَا يَقَعُ الْوَعْدُ وَالْإِعَادُ بِمَا عُرِفَ مِثْلُهُ وَهَذَا لَمْ يُعْرِفْ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا كَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَرَبَ عَلَى قَدَرِ كَلَامِهِمْ؛ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ: [الطويل]

أَيْقَثْلَنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَعْوَالٍ
وَهُمْ لَمْ يَرَوْا الْعُورَ قَطُّ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ أَمْرُ الْعُورِ يَهْوُلُهُمْ، أَوْعَدُوا بِهِ فَاسْتَحْسَنَ الْفَضْلُ ذَلِكَ، وَاسْتَحْسَنَ السَّائِلُ، وَعَزَمْتُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَنْ أَضَعُ كِتَابًا فِي الْقُرْآنِ فِي مِثْلِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِهِ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ، عَمِلْتُ كِتَابِي الَّذِي سَمَّيْتُهُ

(١) «معجم الأدباء» ١٥٨/١٩.

(٢) «خطوات التفسير البياني» د. رجب البيومي ص ٣٧، ٣٨، وراجع: «معجم الأدباء» ١٦٠/١٩.

الْمَجَازَ، وَسَأَلْتُ عَنِ الرَّجُلِ السَّائِلِ، فَقِيلَ لِي: هُوَ مِنْ كُتَّابِ الْوَزِيرِ وَجَلَسَائِهِ وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكَاتِبِ^(١).

وبعضُ العلماءِ يُنَكِّرُ هذه القِصَّةَ؛ لأنَّ أبا عُبَيْدَةَ لَمْ يُشْرَإِ إِلَيْهَا فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ...^(٢).

وَمِنْ الَّذِينَ كَتَبُوا عَنْ اتِّجَاهَاتِ التَّفْسِيرِ مَنْ يَسْلُكُ أبا عُبَيْدَةَ - مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِ هَذَا - فِي سِلْكِ الْإِتِّجَاهِ الْبَيَانِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَعُدُّهُ رَأْسًا فِي الْإِتِّجَاهِ اللَّغَوِيِّ.

عَلَى أَنَّ أبا عُبَيْدَةَ لَمْ «يَعْنِ بِالْمَجَازِ مَا هُوَ قَسِيمُ الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا عَنَى بِمَجَازِ الْآيَةِ مَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْآيَةِ»^(٣).

فَقَدْ يَسْتَعْمَلُ أَبُو عُبَيْدَةَ لَفْظَ الْمَجَازِ قَاصِدًا بِهِ مَعْنَى اللَّفْظِ، فَمَثَلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» [الْأَحْقَافُ: ١٥] يَقُولُ: «مَجَازُهُ: شَدَدَنِي إِلَيْكَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: وَرَعْنِي الْجِلْمَ عَنِ السَّفَاءِ، أَيْ: مَنَعْنِي، وَمِنْهُ الْوَزْعَةُ: الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْخُصُومَ وَالنَّاسَ عَنِ الْفَضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ»؛ ثُمَّ يَسْتَشْهَدُ بِالْبَيِّنِ:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا فَقُلْتُ أَلَمْ تَضُحْ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ^(٤)
وَأَمَّا أَبُو زَكْرِيَّا الْفَرَّاءُ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٠٧هـ، فَكَانَ يَسْتَعِينُ بِتَفْسِيرَاتِ السَّلَفِ، مُضِيفًا لَهُ مَا أَدَّى إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ اللَّغَوِيُّ، وَكَذَا الرَّجَّاجُ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ٣١١هـ^(٥).

لَقَدْ اسْتَلْهَمَ الْفَرَّاءُ الْحِسَّ اللَّغَوِيَّ مُحْكَمًا ذَوْقَهُ وَعَقْلَهُ؛ كَمَا رَاعَى السِّيَاقَ الْعَامَّ فِي الْآيَةِ؛ وَلِذَا نَجَدُهُ يَفْضِلُ قِرَاءَةَ تَحْقُقِ التَّجَانُّسِ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ الْمُتَجَاوِرَاتِ عَلَى غَيْرِهَا^(٦).
ثَالِثًا - الْإِتِّجَاهُ الْبَيَانِيُّ^(٧):

وَيَذُورُ هَذَا الْإِتِّجَاهُ نَجْدَهَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَبْنُوثِ فِي ثَنَائِهِ التَّفْسِيرِ الْأَثَرِيِّ، وَمِنْ

(١) «معجم الأدباء» ١٥٨/١٩.

(٢) راجع «خطوات التفسير البياني» ص ٤٤، ٤٥ وقد ذكر الدكتور رجب البيومي أسباباً أخرى ومبررات لرفض هذه القصة.

(٣) «فتاوى ابن تيمية» كتاب الإيمان ص ٨٨.

(٤) «مجاز القرآن» ٩٢/٢، ٩٣.

(٥) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٨.

(٦) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٩، ٢٤٠ (بتصرف وإيجاز).

(٧) بعض المؤلفين في تاريخ التفسير يضعون اتجاهاً ثالثاً بدلاً من هذا الاتجاه يطلقون عليه «الاتجاه النقدي»، وبعضهم يسلك هذا الاتجاه ضمن الاتجاه الأثري. انظر: «التفسير ورجاله»: ابن عاشور ص ٢٦.

أمثلة ذلك: ما رواه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ... لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؛ أن عمر - رضي الله عنه - سأل الناس عن هذه الآية، فما وجد أحداً يشفيه، حتى قال ابن عباس، وهو خلفه: يا أمير المؤمنين، إني أجِدُ في نفسي منها شيئاً، فتلّفت إليه، فقال: تحوّل ههنا لِمَ تُحَقِّرُ نَفْسَكَ؟ قال:

هذا مثلُ صَرَبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أخوج ما يكون إلى أن يخيمه بخير حين فني عمره وأقترَبَ أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله فحرقه أخوج ما كان إليه^(١).
«وهو من باب الاستعارة التمثيلية، وقد ألمع إليه ابن عباس بقوله المقارب: هذا مثلُ صَرَبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... إلخ، وهل قال البلاغيون فيما بعد غير ذلك؟»^(٢).

ونهج تلاميذ ابن عباس نهجه، وكان أكثرهم نتاجاً في هذا الاتجاه «مجاهداً»^(٣)، وأما تأصيل هذا الاتجاه فقد كان على يد «أبي عبيدة» صاحب «مجاز القرآن»، ويعدُّ صاحب الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

«وقضّل هذا الكتاب في الدراسات البلاغية: أنه حين تعرض للنصوص القرآنية أشار إلى ما تدل عليه من حقيقة أو مثل أو تشبيه أو كناية وما يتضمن من ذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير، فوضع بذلك اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن... وإذا كان عبد القاهر أظهر من نادى من البلغاء بأن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهو ما سمي بقضية النظم؛ فإن بذور قضيته هذه كانت تكمن في مجاز «أبي عبيدة» حيث رأى في زمنه السابق ما رآه صاحب «الدلائل» في زمنه اللاحق، فكان بذلك الرائد الأول لعلم المعاني عند من يلتصقون الجذور الضاربة في الأعماق»^(٤).

وقد رتب «أبو عبيدة» كتابه وفق ترتيب السور القرآنية في المصحف، ومن هنا صار من اليسير أن يزج الدارس إلى ما ذكر أبو عبيدة في توجيه الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى: ﴿سَاوَكُمْ حَزْتُ لَكُمْ فَأْتُوا حَزْنَكُمْ أُنَى شَيْئَمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] حيث قال: إنها كناية

(١) «تفسير ابن جرير» ٤٧/٣.

(٢) راجع: «خطوات التفسير البياني» ص ٢١ وفيه شواهد أخرى.

(٣) راجع الأمثلة التي ذكرها الدكتور رجب البيومي في «خطوات التفسير البياني» ص ٣٤ وما بعدها.

(٤) «خطوات التفسير البياني» ص ٤٦، ٤٧.

وتشبيه^(١).

وَمِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩]؛ حَيْثُ أَتْبَعَ الْآيَةَ بِتَحْلِيلٍ بَيَانِيٍّ وَعَدَّهَا مِنْ مَجَازِ التَّمثِيلِ حِينَ قَالَ:

«وَمَجَازُ الْآيَةِ: مَجَازُ التَّمثِيلِ؛ لِأَنِّ مَا بَنُوهُ عَلَى التَّقْوَى أَثْبَتَ أُسَاساً مِنَ الْبِنَاءِ الَّذِي بَنَوْهُ عَلَى الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ؛ فَهُوَ عَلَى شَفَا جُرُفٍ، وَهُوَ مَا يُجْرَفُ مِنَ الْأُودِيَةِ؛ فَلَا يَثْبُتُ الْبِنَاءُ عَلَيْهِ^(٢).

تِلْكَ هِيَ الْخُطْوَةُ الْأُولَى خَطَاَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ فِي التَّفْسِيرِ الْبَيَانِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَإِنْ وُجِّهَتْ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النُّقُودِ وَالْمَطَاعِينَ مِنْ عُلَمَاءِ كِبَارِ أَمْثَالِ الْفَرَاءِ وَالْأَضْمَعِيِّ وَالطَّبْرِيِّ^(٣)...
ثُمَّ تَلَتْ هَذِهِ الْخُطْوَةَ خُطَوَاتُ الْجَاحِظِ وَأَبْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِمَا...

(١) راجع: «مجاز القرآن» ١/ ٧٣.

(٢) «مجاز القرآن» ١/ ٢٦٩، وانظر: «خطوات التفسير البياني» ص ٥١، ٥٢.

(٣) راجع: «خطوات التفسير البياني» ص ٥٨ وما بعدها.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

الكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ الثَّعَالِبِيِّ

أَوَّلًا: الْمَصَادِرُ الَّتِي اسْتَقَى مِنْهَا أَبُو زَيْدِ الثَّعَالِبِيُّ فِي «الْجَوَاهِرِ الْحَسَنِ»

باديء ذي بدء أقول: إنه لا يستطيع أَحَدٌ من الناس أن يزعم أنه يستطيع أن يأتي بأفضل مما أتى به أئمة هذه الأمة، فالخلف عيال على السلف، ولولا أن الله حفظ بهم الدين، لما كان هذا حال المسلمين، ولعبدوا الله تعالى بمذاهب باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، فلهذه درهم، وعليه شكرهم. [الطويل]

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ وليس هذا من باب تحجير الواسع، أو تضيق رحمة الله؛ فلم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على عصر دون عصر، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مُفَرَّقاً في الأمة، موجوداً لمن التمسه، وكم ترك الأول للآخر!!

إلا أن اللاحق - ولا مفر - ينقل عن السابق، وهكذا دواليك، سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

من هنا كان للثعالبي أن يعتمد على كلام من سبقوه، فهم سلفه، وهو خلفهم، وهم شيوخه، وهو تلميذهم، فمن مكثر عنه، ومن قَلَّ.

ولا شك أن للرحلة التي ارتحلها الثعالبي في طَلَبِ العلم أثراً بالغاً في تحصيل دواوين أولئك الأعلام؛ خاصة كتب المشرقيين منهم، فجمع حصيلة وافرة عَزَّ اقْتِنَاؤُهَا، وأسفاراً عظيمة نَدَّرَ اقْتِنَاصُهَا.

ولقد تنوعت مَصَادِرُ الثَّعَالِبِيِّ، وتشكلت على اختلاف العلوم التي يحتاج إليها المفسر والتفسير، وهذه قائمة بأهم المصادر في كل علم على حِدَةٍ:

أَوَّلًا: مَصَادِرُهُ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ:

اعتمد الثعالبي - رحمه الله - على عدة مصادر مهمة في التفسير، كان أهمها:

١ - تفسير ابن عطية المسمى «المُحَرَّرُ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»: وهو الأصل الذي اعتمده المصنّف، فاختصره، وزاد عليه. ومؤلف «المحرر» هو:

عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم. وقيل: عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية الغرناطي صاحب التفسير الإمام أبو محمد الحافظ القاضي. قال ابن الزبير: كان فقيهاً جليلاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، نحويًا لغويًا أديباً بارعاً شارعاً مفيداً ضابطاً نسبياً فاضلاً، من بيت علم وجلالة، غاية في توقد الذهن، وحسن الفهم، وجلالة التصرف. روى عن: أبيه الحافظ أبي بكر، وأبي علي الغساني، والصفدي، وعنه: ابن مضار، وأبو القاسم بن حبيش، وجماعة. وولي قضاء «المرية» يتوخى الحق والعدل.

وألّف تفسير القرآن العظيم، وهو أصدق شاهد له بإمامته في العربية وغيرها، وخرج له برنامجاً.

ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وتوفي بلورقة في خامس عشر رمضان سنة ثنتين. وقيل: إحدى. وقيل: ست وأربعين وخمسائة.

وذكره في «قلائد العقيان»، ووصفه بالبراعة في الأدب والنظم والنثر.

ولقد نَوَّه أبو حيان في مقدمة تفسيره بالزمخشري، وابن عطية باعتبارهما عَلَمَيْنِ من أعلام التفسير، وإمامين من كبار أئمتّه، ووصفهما بأنهما أجل من صَنَّفَ في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه، والتحرير، ثم أثنى أبو حيان في هذه المقدمة كذلك على كتابيهما في التفسير ثناء، ورفع من شأنهما، وأشار إلى أنه قام في تفسيره بانتقاد هذين الكتّابين والتعقيب عليهما، وذلك حيث يقول:

«ولما كان كتاباهما في التفسير قد أنجدا وأغارا وأشرقا في سماء هذا العلم بَذَرَيْنِ، وأنارا، وتَنَزَّلَا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين، والذهب الإبريز من العين، ويتيمة الدر من اللآلي، وليلة القدر من الليالي، فعكف الناس شرقاً وغرباً عليهما، وثنوا أَعْنَةً الاعتناء إليهما، وكان فيهما على جلالتهما مجال لانتقاد ذوي التبريز، ومسرح للتخيل فيهما والتميز، ثنيت إليهما عنان الانتقاد، وحللت ما تخيل الناس فيهما من الاعتقاد أنهما في التفسير الغاية التي لا تدرك، والمسلك الوعر الذي لا يكاد يُسْلَكُ، وعرضتهما على محك النظر، وأوريت فيهما نار الفكر، حتى خلصت دسيسهما، وبرز نفيسهما، وسيرو ذلك من هو للنظر أهل، واجتمع فيه إنصاف وعقل».

والمقصود ذكر فضل تفسير ابن عطية، وبيان أهميته.

ولقد نص الثعالبي نفسه في مقدمته على أنه قد اعتمد تفسير ابن عطية، فقال: «...»

فقد ضمته (يعني: تفسيره) بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة... إلخ».

٢ - «مختصر تفسير الطبري» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللخمي، النحوي.

٣ - مختصر «البحر المحيط» لأبي حيان، اختصره الصفاقسي، وسماه: «المجيد في إعراب القرآن المجيد»:

يقول محمد بن مخلوف في «شجرة النور الزكية» واصفاً كتاب «المجيد»: «وهو من أجل كتب الأعراب، وأكثرها فائدة».

ويقول حاجي خليفة في «كشف الظنون» (بعد أن عرّف بعلم إعراب القرآن وذكر بعض من صنف فيه): «وأبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي المتوفى ٥٦٢هـ، وكتابه أوضحها، وهو في عشر مجلدات، وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري النحوي، المتوفى سنة ٦١٦هـ، وكتابه أشهرها، وسماه «التبيان». أوله: «الحمد لله...»، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الصفاقسي، المتوفى سنة ٧٤٢هـ، وكتابه أحسن منه، وهو في مجلدات سماه «المجيد في إعراب القرآن المجيد». وقد ذكره في مقدمته، فقال: «وما نقلته من الإعراب عن غير ابن عطية، فمن الصفاقسي مختصر أبي حيان... إلخ».

٤ - «مفاتيح الغيب» أو التفسير الكبير، للإمام الرازي:

وهو من أجل التفاسير، وإن كان أطال في الاستدلال ورّد الشبه إطالة كادت تغطي على كونه كتاب تفسير. ولسنا نميل مع أبي حيان في قوله فيه: «فيه كل شيء إلا التفسير»، فإنه - رحمه الله - مع الاستطراد إلى ذكر الأدلة والبراهين، قد وفى التفسير حقّه.

وبالجملة: فالكتاب أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، واللغة، والأصول، والآثار، وفي العلوم الكونية، والطبيعية، وغير ذلك من فنون العلم.

هذا، ولم ينص الثعالبي في مقدمته على أنه استقى من «مفاتيح الغيب»، إلا أنه نقل منه في ثنايا تفسيره، فأكثر من النقل، فيقول: قال الفخر، ثم يذكر كلامه.

٥ - «أحكام القرآن» للقاضي أبي بكر بن العري:

وقد أكثر الثعالبي - رحمه الله - من النقل عنه، وهذا واضح من خلال استقراء آيات الأحكام، وتناوله لها.

وهذا الكتاب لا يتعرض لسور القرآن كلها، ولكنه يتعرض لما فيها من آيات الأحكام فقط، وطريقته في ذلك أن يذكر السورة، ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ في شرحها آية آية.. قائلًا: الآية الأولى وفيها خمس مسائل «مثلاً»، والآية الثانية وفيها سبع مسائل «مثلاً» وهكذا، حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة في السورة.

وهذا الكتاب يعتبر مرجعاً مهماً للتفسير الفقهي عند المالكية؛ وذلك لأن مؤلفه مالكي تأثر بمذهبه، فظهرت عليه في تفسيره روح التعصب له، والدفاع عنه، غير أنه لم يشتط في تعصبه إلى الدرجة التي يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي، ولم يبلغ به التعسف إلى الحد الذي يجعله يُقنّد كلام مخالفه إذا كان وجيهاً ومقبولاً، والذي يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الإنصاف لمخالفه أحياناً، كما يلمس منه روح التعصب المذهبي التي تستولي على صاحبها، فتجعله أحياناً كثيرة يرمي مخالفه، وإن كان إماماً له قيمته ومركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح. ويظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر، مع تسلط روح التعصب عليه، فأحياناً تغلب العقل على التعصب، فيصدر حكمه عادلاً لا تذكره شائبة التعصب، وأحياناً - وهو الغالب - تغلب العصبية المذهبية على العقل، فيصدر حكمه مشوباً بالتعسف، بعيداً عن الإنصاف.

وهذا الكتاب أيضاً لم ينص المصنف على أنه اعتمد عليه - في مقدمته، بل ذكر النقل عنه في ثنايا التفسير.

ثانياً: كُتِبَ غَرِيبٌ^(١) القرآن والحديث:

وقد اعتمد الثعالبي على كتابين في غريب ألفاظ الكتاب العزيز: أولهما: لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، والثاني: وهو مختصر غريب القرآن للحافظ زين الدين العراقي.

(١) قال الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل والغريب من الكلام يقال به على وجهين. أحدهما أن يراد به أنه بعيد المعنى غامض لا يتناول الفهم إلا عن بعد، ومعاناة فكره والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها انتهى.

وقال ابن الأثير في «النهاية»: وقد عرفت أن رسول الله ﷺ كان أفصح العرب لساناً، حتى قال له علي رضي الله تعالى عنه وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» فكان عليه الصلاة والسلام يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمونه، فكان الله تعالى قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره، وكان

كما اعتمد في غريب السنة على كتاب أبي عبيد بن سلام الهروي.

ثالثاً: المصايد التي اعتمد عليها من كتب السنة:

١ - صحيح الإمام البخاري.

٢ - صحيح الإمام مسلم.

٣ - سنن أبي داود.

٤ - سنن الترمذي.

٥ - حلية الأبرار «أو» الأذكار، للإمام النووي.

٦ - سلاح المؤمن، لتقي الدين أبي الفتح محمد بن محمد بن همام المصري الشافعي.

٧ - مصابيح السنة، للبغوي.

٨ - الموطأ، للإمام مالك.

رابعاً: كتب الترغيب والترهيب والرفائق:

اعتمد الثعالبي في هذا الفن على كتابين هما:

١ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي.

أصحابه يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه، فيوضحه لهم. واستمر عصره إلى حين وفاته - عليه الصلاة والسلام - وجاء عصر الصحابة جارياً على هذا النمط، فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً لا يتدخله الخلل إلى أن فتحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم، فامتزجت الألسن، ونشأ بينهم الأولاد، فتعلموا من اللسان العربي ما لا بد لهم في الخطاب، وتركوا ما عداه، وتمادت الأيام إلى أن انقضى عصر الصحابة، وجاء التابعون فسلخوا سبيلهم، فما انقضى زمانهم إلا واللسان العربي قد استحال أعجمياً، فلما أعضل الداء ألهم الله سبحانه وتعالى جماعة من أهل المعارف إن صرفوا إلى هذا الشأن طرفاً من عنايتهم، فشرعوا فيه حراسة لهذا العلم الشريف. فقليل: إن أول من جمع في هذا الفن شيئاً أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي التيمي البصري المتوفى سنة ٢١٠ عشر ومائتين، فجمع كتاباً صغيراً، ولم تكن قلته لجهله بغيره، وإنما ذلك لأمرين: أحدهما: أن كل مبتدئ [مبتدأ] بشيء لم يسبق إليه يكون قليلاً، ثم يكثر. والثاني: أن الناس كان فيهم يومئذ بقية، وعندهم معرفة، فلم يكن الجهل قد عم.

٢ - العاقبة، للإمام عبد الحق الأشبيلي.

وهذان الكتابان نص عليهما في مقدمته، إلا أنه اعتمد على كتب أخرى في ذلك الفن، مثل:

٣ - الرقائق، لابن المبارك.

٤ - بهجة المَجَالس وأنس المَجَالس، لأبي عمر بن عبد البر.

٥ - رياضة المتعلمين، للأصفهاني.

خامساً: كُتِبَ في الأحكام الفقهية والأُصولية:

١ - المدونة، لسحنون بن سعيد.

٢ - مختصر ابن الحاجب الفرعي.

٣ - الإمام في أحاديث الأحكام، لابن دقيق العيد.

٤ - البيان والتحصيل، لابن رشد.

٥ - مختصر ابن الحاجب، المسمى بـ «المنتهى».

سادساً: كُتِبَ الخصائص والشمائل:

اعتمد الثعالبي في «الجواهر الحسان» في هذا الفن على كتاب القاضي عياض، والمسمى بـ «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى».

وكذلك كتاب «الآيات والمعجزات» لابن القَطَّان.

سابعاً: كتب في التربية وتهذيب النفوس:

نُعِتَ الإمام الثعالبي بـ «الإمام، الورع، الزاهد، العارف بالله»، وهذا الرجل كان يتبرك به، ويكثر من الشناء عليه.

ولهذا عنى في تفسيره بإيراد آثار الصالحين، والتزود من أخبارهم، فأورد عن بعض كتب أهل العلم المصنفة في ذلك، وكان منها:

١ - «بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها»

وهو شرح مختصر صحيح البخاري، المسمى «جمع النهاية في بدء الخير والغاية»،

للإمام أبي محمد بن أبي جمرة الأندلسي .

وقد ذكره المصنف في مقدمته، فقال: «...» .

٢ - «إحياء علوم الدين»، لأبي حامد الغزالي .

وهو أشهر من أن يذكر، وأعرف من أن يعرف .

وقد نقل منه المصنف، فأكثر من النقل .

واعتمد أيضاً على مختصره لمحمد بن علي بن جعفر البلالي .

وقد حكى الثعالبي عن هذا المصنف، فقال: «... وهذا الشيخ البلالي لقيته، ورويت عنه كتابه هذا» .

وذلك في تفسيره لآيات الصيام من سورة البقرة .

٣ - «جواهر القرآن»، لأبي حامد الغزالي .

وهو أَلَيَقُ بالتفسير، إلا أنه ذكر فيه أنه ينقسم إلى علوم، وأعمال، والأعمال ظاهرة وباطنة، والباطنة إلى تركية وتخلية، فهي أربعة أقسام، علوم وأعمال ظاهرة وباطنة، مذمومة ومحمودة، وكل قسم يرجع إلى عشرة أصول، فيشتمل على زبدة القرآن .

٤ - شرح ابن الفاكهاني على أربعين النووي .

ثامناً: في الأسماء والصفات:

ذكر الثعالبي في ثَنَائِهِ كلامه نقله عن كتابين في «أسماء الله تعالى»، وهما:

١ - شرح أسماء الله الحُسْنَى، للإمام الرازي .

٢ - غاية المغنم في أسماء الله الأعظم . لابن الدريهم الموصلي .

تاسعاً: ومن كتب التاريخ:

ذكر الثعالبي أثناء تفسيره نُقُولاً عن أحد الكتب التي عنيت بسير الخلفاء، وهو كتاب:

- الاكتفاء في أخبار الخلفاء، لعبد الملك بن محمد بن أبي القاسم بن الكردبوس .

عاشراً: كتب أخرى مَثْنُوَّة:

١ - لطائف المنن، لابن عطاء الله .

- ٢ - الأنواء، للزجاج.
 - ٣ - الإفصاح، لشبيب بن إبراهيم.
 - ٤ - الكوكب الدري، لأبي العباس أحمد بن سعد التجيبي.
 - ٥ - الكلم الفارقة.
 - ٦ - التثؤف، ليوسف بن يحيى التادلي.
 - ٧ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر بن عبد البر.
 - ٨ - مختصر المدارك، للقضاعي.
 - ٩ - تاريخ بغداد، لأبي بكر بن الخطيب.
- وغير ذلك مما هو مَثْبُورٌ في تفسيره لكتاب الله تعالى.

ثانياً: مَنَهْجُ الإِمَامِ الثَّعَالِبِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ

بين يدي المنهج:

ذكر السيوطي في «الإتقان» شروطاً يجب تَوَافُرُهَا فيمن أقبل على كتاب رَبِّهِ بِنِيَّةٍ تفسیره، وكشف معانيه، فحكى عن بعض العلماء قوله: اختلف الناس في تفسير القرآن، هل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟ فقال قوم: لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً، أديباً، متسعاً في معرفة الأدلة والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وليس له إلا أن ينتهي إلى ما روي عن النبي ﷺ في ذلك.

ومنهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها، وهي خمسة عشر علماً... ثم ذكرها - رحمه الله -، وهي: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبيان، والبدیع، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وعلم الفقه، والأحاديث والآثار؛ لتفصيل المجل، وتوضيح المبهم، وهكذا، ثم علم الملكة (أو الموهبة).

وزاد غير السيوطي علوماً أخرى، وأياً ما يكن الأمر، فقد ذكر أيضاً في «التحبير في علم التفسير» عن العلماء أنه: «من أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أولاً من القرآن، فإن ما أجمل في مكان قد فسر في مكان آخر، فإن أعياه ذلك طلبه في السُّنَّة؛ فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له...» وساق كلام الشافعي.

والمقصود أن الإمام الثعالبي - رحمه الله - قد أتى بحظٍّ وافر من هذه الشروط التي ذكرها أهل العلم حدوداً ومراسم لمن أقبل على تفسير الكتاب العزيز. فهو قد فسر كتاب الله بعضه ببعض، وفسره بما فسر من أنزل عليه، وهو محمد ﷺ، وبما فسر الصحابة والتابعون، كما استخدم اللغة، وشرح الغريب، وتعرض لتصريف بعض الكلمات، وأكثر من المسائل الإعرابية، ثم هو بعد ذلك يذكر مسائل في أصول الدين، وأصول الفقه، وفروعه، وأسباب النزول، وإيراده بعض الإسرائيليات، واحتججه بالقراءات المتواترة، وذكره الشاذ منها، على ما سيتضح مما يلي.

العناصر التي بنى عليها الثعالبي مادة تفسيره:

١ - جمعه بين التفسير بالمأثور من كتاب وسُنَّة، والتفسير بالرأي.

٢ - تعرضه لمسائل في أصول الدين.

٣ - مسائل أصول الفقه في تفسيره.

٤ - تعرضه لآيات الأحكام، وذكره للاختلافات الفقهية.

٥ - احتججه باللغة، والمسائل النحوية، والتصريفية، وغيرها.

٦ - ذكره لأسباب النزول، ومَكِّي القرآن ومدنيّه.

٧ - ذكره للقراءات الواردة في الآية.

٨ - احتججه بالشعر واستشهاده به.

٩ - موقفه من الإسرائيليات.

وإليك - أيها القارئ الكريم - تفصيل ذلك:

أولاً: جَمْعُهُ بَيْنَ التفسيرِ بِالمأثورِ والرَّأي:

من المشهور عند أهل العلم أن خير ما فسر به كتاب الله تعالى، تفسير بعضه ببعض، أو بما فسر به رسوله ﷺ، قال السيوطي: «فإن ما أجمل في مكان، قد فسر في مكان آخر، فإن أعياه ذلك، طلبه في السُّنَّة؛ فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له»^(١).

وأما تفسيره كتاب الله بعضه ببعض، فمنه (مثلاً) في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ

(١) «التجوير في علم التفسير» (٣٢٣).

عنها. ﴿ [البقرة: ٣٦]، يتعرض لمعنى «أَزْلَهُمَا»، فيقول: مأخوذ من الزل، ثم يحكي اختلافهم في كيفية هذا الإزلال، فيقول: وقال جمهور العلماء: أغواهما مشافهة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وقاسمهما﴾ [الأعراف: ٢١].

وفي الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] يحكي عن الحسن أنها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ الآية وهي من [الأعراف: ٢٣].

وأما تفسيره بالحديث، فهذا كثير جداً، وفيه (مثلاً) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...﴾ الآية [الأنعام: ٨٢] يقول: والظلم في هذا الموضع: الشرك؛ تظاهرت بذلك الأحاديث الصحيحة.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ الآية [الأنفال: ٦٠] قال: وفي صحيح مسلم: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ».

وأما آثار السلف من الصحابة والتابعين، فقد حشأ بها تفسيره، فهم خير القرون وأعلمها، فإن سألت عن العربية فهم أرباب الفصاحة فيها، وإن سألت عن علمهم بالأحكام، فهم مؤصلوها، والبحور التي لا تكدرها الدلاء، وإن سألت عن أسباب النزول، ومعرفتهم بها، فليس المخبر كالمعاین، وليس من رأى كمن سمع، فمن بينهم من كان يعاین نزول الوحي، ومنهم من نزل بسببه آي الكتاب، وتوبة رب الأرباب.

وقد رأينا الثعالبي - رحمه الله - يُزَيِّنُ صحيفته بالنقل عنهم، والأمثلة تملأ الكتاب، ومنها مثلاً: في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ السورة، أن النبي ﷺ قال لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي»، قال الثعالبي: وتأوله عمر والعباس بحضرة النبي ﷺ فصدقهما. قال: ونزع هذا المنزع ابن عباس وغيره.

وفي سورة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يقول: قال الشعبي وغيره: المعنى: إنا ابتدأنا إنزال هذا القرآن.

ثانياً: تَعَرُّضُهُ لِمَسَائِلَ فِي أَصُولِ الدِّينِ:

فقد تعرض لذكر معتقده في مسائل منها، مثل «تكليف ما لا يُطَاقُ»، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١] فقال الثعالبي: «وقال قوم: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق، ويتقرر جَوَازُهُ؛ لأنه سبحانه علم أنهم لا

يعلمون. وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف، إنما هو على جهة التقرير والتوقيف».

ثم عاد وذكر المسألة عينها عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾ الآية «٢٨٦» من سورة البقرة، وحكى مذهب أبي الحسن الأشعري.

ومنها أيضاً: مسألة كلام الله تعالى، فتحدث عن مذهب أهل السنة فيه، عند قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ...﴾ الآية [البقرة: ٣٣]، فقال: «وهذا هو قول أهل السنة، والحق أن كلام الله (عز وجل) صِفَةٌ من صِفَاتِ ذَاتِهِ يستحيل عليها التَّقْصُصُ... إلخ».

ومنها: تَعَرُّضُهُ لمسألة الكَسْبِ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَتَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية [البقرة: ٩٥].

ومنها: مسألة رؤية الله تعالى، وهذه قد تعرض لها الثعالبي بالذكر عند قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فأشار إلى أن مذهب أهل السنة امتناع ذلك في الدنيا، وأنه من طريق السمع ورد، ثم عاد فرد على الزمخشري، عند تفسير الآية (١٤٣) من سورة «الأعراف».

ومنها: مسألة عِصْمَةِ الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكرها عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْبَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] وحكى إجماع الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ، ومن الكبائر والصغائر التي فيها رذيلة، وخلافهم في غير ذلك من الصغائر. وحكاية الإجماع إنما نقلها من مختصر الطبري.

ثالثاً: مَسَائِلُ أَصُولِ الْفِقْهِ فِي تَفْسِيرِهِ:

ولم يَتَوَسَّعِ الثعالبي في ذكر مصادر اعتمد عليها في المسائل الأصولية غير ما ذكره من مختصر ابن الحاجب.

ومن المسائل التي أوردها كلامه على «النسخ» لغة واصطلاحاً، وذلك عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا...﴾ [البقرة: ١٠٦]، فنقل كلام ابن الحاجب، ثم قال: انتهى من مختصره الكبير، ثم تعرض لجواز النسخ عقلاً، وأن البداء لا يجوز على الله تعالى، وبين أن المنسوخ هو الحكم الثابت نفسه، لا ما ذهب إليه المعتزلة من أنه مثل الحكم الثابت فيما يستقبل.

كما أنه تعرض لمسألة التقييح والتحسين، وأنهما في الأحكام من جهة الشرع، لا

بصفة نفسية.

ومنها: كلامه على تخصيص العموم، وأن العام المخصص حُجَّةٌ في غير محلّ التخصيص، ونقل عن الرازي قوله: وقد ثبت في أصول الفقه؛ أنه إذا وقع التعارض بين الإجمال والتخصيص، كان رفع الإجمال أولى؛ لأن العام المخصص حجة في غير محلّ التخصيص، والمجمل لا يكون حجة أصلاً. ثم قال الثعالبي: وهو حسن.

رابعاً: تعرضه لآيات الأحكام، وذكره للاختلافات الفقهية:

قدمنا أن الثعالبي - رحمه الله - نقل من أحكام القاضي ابن العربي، ولم لا؛ فالرجل مذهبه مالكي مثله، ولا غرو، فكان بدهياً أن ينقل ما يخص آيات الأحكام، ويذكر خلاف أهل العلم فيها.

ومن ذلك: آية الوضوء والطهارة، وهي الآية السادسة من سورة المائدة، فنجد الثعالبي يقول: قال ابن العربي في أحكامه... ثم حكى كلامه، ونقل المسائل الفقهية منه، ومنها: قوله: واختلف العلماء هل تدخل المرافق في الغسل أم لا... واختلف في ردّ اليدين في مسح الرأس هل هو فرض أو سنة؟...

ومنها: آية قصر الصلاة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١].

فقال: قال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن راهويه: تقصر الصلاة في أربعة بُرْدٍ، وهي ثمانية وأربعون ميلاً، وحجتهم: أحاديث رويت في ذلك عن ابن عمر، وابن عباس. وقال الحسن، والزهري: تقصر في مسيرة يومين. وروي هذا أيضاً عن مالك، وروي عنه: تقصر في مسافة يوم وليلة.

ثم قال: وهذه الأقوال الثلاثة تَقَارَبُ في المعنى، والجمهور على جواز القصر في السَّفَرِ المباح... إلخ.

ومنها: تعرضه لشهادة القاذف إذا تَابَ، وذلك في تفسير سورة النور، عند قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [النور: ٤-٥]. وحكى عن الجمهور قبول شهادته إذا تَابَ. قال: ثم اختلفوا في صورة توبته: فقيل: بأن يكذب نفسه، وإلا لم تقبل، وقالت فرقة منها مالك: توبته أن يصلح وتحسن حاله، وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب. واختلف فقهاء المالكية متى تسقط شهادة القاذف، فقال ابن الماجشون:

بنفس قذفه، وقال ابن القاسم وغيره: لا تسقط حتى يجلد، فإن منع من جلده مانع عفو أو غيره لم ترد شهادته، . . . إلخ كلامه».

وفي اللّعان يقول: وتحريم اللعان أبدي باتفاق فيما أحفظ من مذهب مالك.

ويلاحظ على الثعالبي أنه لم يتوسّع في الاحتجاج للمسائل الفقهية، كما صنع القرطبي - مثلاً - ومن قبله ابن العربي، ولعلّ السبب في ذلك هو أنه لم يخصص تفسيره لنقل الأحكام، وإلا لكان كتاب فقه لا تفسير، وهو قد نص في مقدمته على أنه مختصر، فقال: «فإني جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر . . . إلخ».

خامساً: احتجاجه باللغة والمسائل النحوية، والتصريفية وغيرها:

وقد ذكرنا آنفاً أنه ينقل من الغربيين لأبي عبيد الهروي، ويفسر الألفاظ التي ترد مشكلةً، فإذا كانت ذات دلالة شرعية نص عليها، كما وجدناه ينقل المسائل النحوية معتمداً على كلام الصفاقسي في اختصاره من أبي حيان.

فمنها: تفسيره للفظ «القيس» في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِيسِيْنِ وَرُهْبَانًا﴾ [المائدة: ٨٢]، فنراه يقول: قال الفخر: القس والقيس: اسم رئيس النصارى، والجمع: قسيسون، وقال قطرب: القس والقيس: العالم، بلغة الروم . . .

ويقول في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ . . .﴾ الآية [آل عمران: ١٥٦] قال ابن عطية: الرجس: كل مكروه ذميم، وقد يقال للعذاب والرجز: العذاب لا غير، والركس: العذرة لا غير، والرجس يقال للأمرين.

ويقول في قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] قال أبو عبيد الهروي: أي: أنبساطاً وتوسّعاً في العلم، وطولاً وتاماً في الجسم . . .

وفي قوله تعالى: ﴿فَصْرَهْنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] يقول: يقال: صرت الشيء أصوره، بمعنى: قطعته، ويقال أيضاً: صرت الشيء، بمعنى: أملت . . . إلخ».

وأما ذكره للمسائل النحوية، فكثير جداً، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا . . .﴾ [طه: ١٢٩] ينقل عن الصفاقسي قوله: «ولزاماً» إما مصدر، وإما بمعنى ملزم. وأجاز أبو البقاء أن يكون جمع لازم، كقائم وقيام.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

نقل عن الصفاقسي قوله: وقولهم: «لَقَدْ عَلِمْتَ» جواب قسم محذوف معمول لقول محذوف في موضع الحال، أي: قائلين: لقد علمت.

وفي أصل الكلمة يقول عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا...﴾ [الأعراف: ٣٨]: و «آذَرُكُوا» معناه: تلاحقوا. أصله: تداركوا أدغم، فجلبت ألف الوصل.

ويذكر بعض لغات العرب، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا...﴾ [يوسف: ٣٦]: قيل فيه: إنه سمى العنب خمرًا بالمآل. وقيل: هي لغة أزد عمان، يسمون العنب خمرًا.

سادساً: ذكره لأسباب النزول، ومكِّي القرآن ومدنيه:

وهذا الفن شريف عزيز، فبه يستطيع المفسر أن يحسن الوصول إلى المعنى من الآية، فيسهل فهمها بمعرفة الملابس التي أحاطت بنزلها.

وقد ذكر الثعالبي أسباب نزول بعض الآيات، فمثلاً:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] يقول: «خطاب للنبي ﷺ في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة، ومن ابن عمه شيبة، فطلبه العباس بن عبد المطلب؛ ليضيف السدانة إلى السقاية، فدخل النبي ﷺ الكعبة، وكسر ما كان فيها من الأوثان، وأخرج مقام إبراهيم، ونزل عليه جبريل بهذه الآية. قال عمر بن الخطاب: فخرج النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية، وما كنت سمعتها قبل منه، فدعا عثمان وشيبة، فقال لهما: خذاها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم...».

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا يُشْوِزًا...﴾ [النساء: ١٢٨] يقول: واختلف في سبب نزول الآية، فقال ابن عباس وجماعة: «نزلت في النبي - عليه السلام - وسودة بنت زمعة...» ثم حكى أقوالاً أخرى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ [الإسراء: ٨٥] يقول: روى ابن مسعود؛ أن اليهود قال بعضهم لبعض: سلوا محمداً عن الروح، فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي... فسألوه، فنزلت الآية. وقيل: إن الآية مكية، والسائلون هم قريش بإشارة اليهود.

وأما ما ذكره لمكِّي القرآن ومدنيه، فكان يذكر في أوائل السور كونها مكية أو مدنية،

فمثلاً في سورة الحجرات يقول: وهي مدينة بإجماع، ويقول في «ق»: وهي مكة بإجماع، وفي سورة الأنفال: مدينة كلها، قال مجاهد: إلا آية واحدة، وهي قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية.

وفي سورة هود: «مكة إلا نحو ثلاث آيات...» وهكذا.

سابعاً: ذِكْرُهُ لِلْقَرَاءَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْآيَةِ:

وبداية؛ فإن للقراءات الواردة في كتاب الله (تعالى) أثراً كبيراً في إثراء التفاسير بالمعاني المختلفة المتنوعة، مع اشتراط ما اشترطه أهل هذا الفن من ضوابط للقراءة المقبولة، واختلاف هذه القراءات له فوائد جمة:

منها: جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد يوحد بينها، وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن الكريم، والذي انتظم كثيراً من مختارات السنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج، وأسواق العرب المشهورة، فكان القرشيون يستملحون ما شاءوا، وَيَضْطَفُون ما رَأَوْا لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوبٍ وَحَدَبٍ، ثم يصقلونه ويهذبونه، ويدخلونه في دائرة لغتهم المرنّة، التي أذعن جميع العرب لها بالزرعامة، وعقدوا لها راية الإمامة.

وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن على سبعة أحرف يصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية، على نمط سياسة القرشيين، بل أوفق. ومن هنا صحَّ أن يقال: إنه نزل بلغة قريش؛ لأن لغات العرب جمعاء تمثلت في لسان القرشيين بهذا المعنى، وكانت هذه حكمة إلهية سامية؛ فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة، خصوصاً أول عهد بالتوثب والنهوض.

ومنها: بيان حُكْم من الأحكام، كقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢] قرأ سعد بن أبي وقاص: «وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمٍّ» بزيادة لفظ: «من أم»، فتبين بها أن المراد بالإخوة في هذا الحكم الإخوة للأم دون الأشقاء، ومن كانوا لأب، وهذا أمر مجمع عليه.

ومثل ذلك قوله سبحانه في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وجاء في قراءة: «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤَمَّنَةٍ» بزيادة لفظ «مؤمنة» فتبين بها اشتراط الإيمان في الرقيق الذي يعتق كفارة يمين.

وهذا يؤيد مذهب الشافعي، ومن نَحَا نَحْوَهُ في وجوب توافر ذلك الشرط.

ومنها: الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين، كقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] قرئ بالتخفيف والتشديد في حرف الطاء من كلمة «يطهرن»، ولا ريب أنَّ صيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة في طهر النساء من الحيض؛ لأن زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، أما قراءة التخفيف، فلا تفيد هذه المبالغة، ومجموع القراءتين يحكم بأمرين: أحدهما: أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر؛ وذلك بانقطاع الحيض. وثانيهما: أنها لا يقربها زوجها أيضاً إلاَّ إِنْ بَالَغَتْ في الطهر، وذلك بالاغتسال، فلا بد من الطهرين كليهما في جواز قربان النساء، وهو مذهب الشافعي، ومن وافقه أيضاً.

ومنها: الدلالة على حكمين شرعيين، ولكن في حالين مختلفين؛ كقوله تعالى في بيان الوضوء: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] قرئ بنصب لفظ «أرجلكم»، وبجرها، فالنصب يفيد طلب غسلها؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ: «وجوهكم» المنصوب، وهو مغسول، والجر يفيد طلب مسحها؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ «رءوسكم» المجرور، وهو ممسوح. وقد بين الرسول ﷺ: أن المسح يكون للابس الخف، وأنَّ الغسل يجب على مَنْ لم يلبس الخف.

ومنها: دفع توهم ما ليس مراداً: كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وقرئ: «فامضوا إلى ذكر الله»، فالقراءة الأولى يتوهم منها وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة، ولكنَّ القراءة الثانية رفعت هذا التوهم؛ لأن المضيَّ ليس من مدلوله السرعة.

ومنها: بيان لفظ مبهم على البعض: نحو قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوشِ﴾ [القارة: ٥] وقرئ: «كالصوف المنفوش»، فبينت القراءة الثانية أنَّ العهن هو الصوف.

ومنها: تجلية عقيدة ضلَّ فيها بعض الناس: نحو قوله تعالى في وصفه الجنة وأهلها: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] جاءت القراءة بضم الميم، وسكون اللام في لفظ: «وملكاً كبيراً»، وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم، وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه، فرفعت هذه القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه الحق في عقيدة رؤية

المؤمنين لله - تعالى - في الآخرة؛ لأنه - سبحانه - هو الملك وحده في تلك الدار: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

* والخلاصة: أن تنوع القراءات، يقوم مقام تعدد الآيات؛ وذلك ضرب من ضروب البلاغة، يبتدىء من جمال هذا الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإعجاز.

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله، وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد، ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله على تنوع قراءاته، يصدق بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم، وذلك - من غير شك - يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف.

ومعنى هذا: أن القرآن يعجز إذا قرئ بهذه القراءة، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة، وهلم جرا. ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف!

وَلَا رَيْبَ أَنْ ذَلِكَ أَدْلُ عَلَى صَدَقِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لَأَنَّهُ أَعْظَمُ فِي اشْتِمَالِ الْقُرْآنِ عَلَى مَنَاحِ جَمَةِ فِي الإِعْجَازِ وَفِي الْبَيَانِ، عَلَى كُلِّ حَرْفٍ وَوَجْهٍ، وَبِكُلِّ لَهْجَةٍ وَلِسَانٍ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولقد كان الثعالبي - رحمه الله - يكثر من إيراد القراءات مُتَوَاتِرَةً وشاذة، وكان معتمده الأول على تفسير ابن عطية، فكان ينقل منه مواضع القراءات ووجوهها.

ومن أمثلة نقله للقراءات:

١ - في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] قال: قرأ باقي السبعة غير نافع وابن عامر: «فدية» بالتثنية، «طعام مسكين» بالإنفراد. قال: «وهي قراءة حسنة...».

٢ - في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ﴾ [الحج: ٣٦] قال: وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم: «صوافن» جمع: صافنة، وهي التي رفعت إحدى يديها بالعقل؛ لثلا تضطرب، ومنه في الخيل: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجَيَّادُ﴾ [ص: ٣١].

٣ - وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: وقرأ

حمزة وغيره: «وأرجلكم» بالخفض، وقرأ نافع وغيره بالنصب، والعامل «اغسلوا». ومن قرأ بالخفض، جعل العامل أقرب العاملين. وجمهور الصحابة والتابعين على أن الفرض في الرجلين الغسل، وأن المسح لا يجزئ... ثم قال: قال ابن العربي في «القبس»: ومن قرأ «وأرجلكم» بالخفض، فإنه أراد المسح على الخفين، وهو أحد التأويلات في الآية. انتهى.

٤ - ثم يحتج ببعض القراءات الشاذة على تعضيد المعنى، مثل ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٨] قال: وقوله: ﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي مذحاً لنسبه ﷺ، وأنه من صميم العرب وشرفها، وقرأ عبد الله بن قسيط المكي «من أنفسكم» - بفتح الفاء - من النفاسة، ورويت عن النبي ﷺ.

ثامناً: احتجاجه بالشعر:

الشعر ديوان العرب؛ ففيه تاريخهم، وآثارهم، وبه يفتخرون، ويمتدحون، ويرغبون، ويرهبون، ولم لا وهم قوم الفصاحة والبيان؛ وقد قال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة».

وقد مضى سلف الأمة من المفسرين على الاحتجاج بأشعار العرب، وما قصة نافع بن الأزرق مع ابن عباس ببعيدة عن ذلك.

وقد ذكرت أقوال كثيرة عن ابن عباس تدل على جواز الاحتجاج بالشعر في تفسير الكتاب العزيز، منها: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه.

ومن سؤالات نافع ونجدة بن عويمر؛ أنهما قالوا: أخبرنا عن قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾ [المعارج: ٣٧]، قال: العزون: الحلق الرقاق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول: [الوافر]

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مَنْبَرِهِ عِزِّينَا

وهكذا كانت إجابات ابن عباس، قال أبو عبيد في فضائله: حدثنا هشيم؛ عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة؛ عن ابن عباس؛ أنه كان يسأل عن القرآن، فينشد فيه الشعر.

ومن هنا وجدنا الإمام الثعالبي يستشهد بأشعار العرب، فمن ذلك:

١ - احتجاجة لقراءة ابن كثير ﴿آتيتم﴾ [البقرة: ٢٣٣] بمعنى فعلتم - بقول زهير: [الطويل]

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
٢ - واحتجاجة لمعاني بعض الألفاظ، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]. فقال: مقيتاً: معناه: قديراً؛ ومنه قول الزبير بن عبد المطلب: [الوافر]

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُّقِيتًا
ومنه: احتجاجة على أن من معنى «الجهالة» أن يعتمد الأمر فيركبه، مع عدم مضادة للعلم قال: فمنها قول الشاعر: [الوافر]

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
٣ - ومنه احتجاجة على المسائل النحوية، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] يقول نقلاً عن الصفاقسي: و «الإيمان» منصوب بفعل مقدر، أي: واعتقدوا الإيمان، فهو من عطف الجمل؛ كقوله: [الرجز]
عَلَفْتُهَا تَبْنَأَ وَمَاءً بَارِدًا

وهذا بالإضافة إلى شعر الزُّهْدِ والرقائق الذي ضمنه تفسيره، والذي يقرؤه القارئ الكريم، فيستشعر عذوبته ورقته، وحسن اختياره ومكانه.

تاسعاً: موقفه من الإسْرَائِيلِيَّاتِ:

باديء ذي بدء، فإن الجنس البشري مرَّ عليه قرون عديدة، وأزمان بعيدة، حملت في طياتها أخباراً، وأحوالاً، وتارة أهوالاً، فأخبر بها السلف الخلف، والمتقدم المتأخر.

وإن هذه الأمة المباركة هي الآخرة في تلك السلسلة المديدة من عمر البشرية، فكان لها زبدة الأخبار، والرصيد الأكبر من تواريخ الأمم والشعوب، فحظيت بالعبر والعظات، والسعيد من وعظ بغيره.

ولأن أهل الكتاب كانوا سابقين علينا، فقد رُوِيَ لنا، ورووا هم من أخبارهم وأخبار السابقين، وفي هذا يقول نبينا محمد ﷺ: «... وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

فكان ما أخبرونا به على ثلاثة أقسام:

- ١ - قسم صدقهم فيه الوحي، فصديقهم فيه .
- ٢ - قسم أكذبهم فيه الوحي، فنكذبهم فيه .
- ٣ - قسم سكت عنه، فنسكت عنه، ونقول: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم .

ولكن ما المقصود بـ «الإسرائيليات»؟!!!

الإسرائيليات: جمع إسرائيلية، نسبة إلى بني إسرائيل، والنسبة في مثل هذا تكون لعجز المركب الإضافي لا لصدره، وإسرائيل هو: يعقوب - عليه السلام - أي: عبد الله، وبنو إسرائيل هم: أبناء يعقوب، ومن تناسلوا منهم فيما بعد، إلى عهد موسى، ومن جاء بعده من الأنبياء، حتى عهد عيسى - عليه السلام - وحتى عهد نبينا محمد ﷺ.

وقد عرفوا - «باليهود»، أو «باليهود» من قديم الزمان، أما من آمنوا بـعيسى: فقد أصبحوا يطلق عليهم اسم «النصارى»، وأما من آمن بخاتم الأنبياء: فقد أصبح في عداد المسلمين، ويعرفون بمسلمي أهل الكتاب».

وقد أكثر الله من خطابهم ببني إسرائيل في القرآن الكريم تذكيراً لهم بأبوة هذا النبي الصالح، حتى يتأسوا به، ويتخلقوا بأخلاقه، ويتركوا ما كانوا عليه من نكران نعم الله عليهم، وعلى آبائهم، وما كانوا يصفون به من الجحود، والغدر، واللؤم، والخيانة وكذلك ذكرهم الله - سبحانه - باسم اليهود في غير ما آية. وأشهر كتب اليهود هي: التوراة، وقد ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآتَمُّوا بِمَا آتَىٰهُم مِّنَ الْكِتَابِ وَلَا يَتَّبِعُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ مَا حَالُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ﴾ [البقرة: 176]. وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُخَوِّمُ بِهِ النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبَانِيُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِطُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾ [المائدة: ٤٤] والمراد بها: التوراة التي نزلت من عند الله قبل التحريف والتبديل، أما التوراة المحرفة المبدلة، فهي بمعزل عن كونها كلها هداية، وكونها نوراً، ولا سيما بعد نزول القرآن الكريم، الذي هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية السابقة، فما وافقه فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

ومن كتبهم أيضاً: الزبور، وأسفار الأنبياء، الذين جاءوا بعد موسى - عليه السلام - وتسمى التوراة، وما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها (بالعهد القديم).

وكان لليهود بجانب التوراة المكتوبة التلمود، وهي التوراة الشفهية، وهو مجموعة

قواعد ووصايا وشرائع دينية وأدبية، ومدنية، وشروح، وتفسير، وتعاليم، وروايات كانت تتناقل وتدرس شفهيّاً من حين إلى آخر... وقد اتسع نطاق الدرس والتعليم فيه إلى درجة عظيمة جدّاً، حتى صار من الصعب حفظه في الذاكرة، ولأجل دوام المطالعة، والمداولة، وحفظاً للأقوال والنصوص، والآراء الأصلية المتعددة والترتيبات، والعادات الحديثة، وخوفاً من نسيانها وفقدانها، مع مرور الزمن، وخصوصاً وقت الاضطهادات، والاضطرابات، قد دُوّنَها الحاخامون بالكتابة سياجاً للتوراة، وقُبِلَت كَسُنة من سيدنا موسى - عليه السلام -.

ومن التوراة وشروحها، والأسفار وما اشتملت عليه، والتلمود وشروحه، والأساطير والخرافات، والأباطيل التي افتروها، أو تناقلوها عن غيرهم: كانت معارف اليهود وثقافتهم، وهذه كلها كانت المنابع الأصلية للإسرائيليات التي زخرت بها بغض كتب التفسير، والتاريخ والقصص والمواعظ، وهذه المنابع إن كان فيها حق، ففيها باطل كثير، وإن كان فيها صدق، ففيها كذب صراح، وإن كان فيها سمين ففيها عتْ كثير، فمن ثم انجَرَّ ذلك إلى الإسرائيليات، وقد يتوسع بعض الباحثين في الإسرائيليات، فيجعلها شاملة لما كان من معارف اليهود، وما كان من معارف النصارى التي تدور حول الأناجيل وشروحها، والرسل وسيرهم، ونحو ذلك، وإنما سميت إسرائيلية؛ لأن الغالب والكثير منها إنما هو من ثقافة بني إسرائيل، أو من كتبهم ومعارفهم، أو من أساطيرهم وأباطيلهم.

والحق: أن ما في كتب التفسير من المسيحيات، أو من النصرانيات هو شيء قليل بالنسبة إلى ما فيها من الإسرائيليات، ولا يكاد يذكر بجانبها، وليس لها من الآثار السيئة ما للإسرائيليات؛ إذ معظمها في الأخلاق، والمواعظ، وتهذيب النفوس، وترقيق القلوب^(١).

والملاحظ أن الثعالبي - رحمه الله - كغيره من التفسير - ذكر بعض الإسرائيليات، ولكنه يعقب ما يذكره بما يفيد عدم صحته، أو على الأقل بما يفيد عدم القطع بصحته.

ومن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

فالثعالبي يقول: .. وروي في قصص ذلك أن الشيطان أشار على حواء أن تسمي هذا المولود عبد الحارث، وهو اسم إبليس، وقال لها: إن لم تفعلي قتلته، فزعموا أنهما

(١) ينظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»، د. محمد محمد أبو شبة، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ١٤٠٤هـ، ص ٢١ فما بعدها.

أطاعاه . . . ثم ذكر القصة وقال : قلت : وينزه آدم وحواء عن طاعتهما لإبليس ، ولم أقف بعد على صحة ما روي من هذه القصص ، ولو صحَّ لوجب تأويله . . . قال : وعلى كل حال : الواجب التوقُّفُ والتَّثَرُّيُّ لِمَنْ اجْتَبَاهُ اللَّهُ ، وحسن التأويل ما أمكن ، وقد قال ابن العربي في توهين هذا القول وتزييفه : وهذا القول ونحوه مذكور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره ، وفي الإسرائيليات التي ليس لها ثبات ، ولا يعول عليها من له قلب . . . إلخ» .

ومنه أيضاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٠] .

يقول : وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره ؛ لعدم صحته .

ونراه يَتَّقِدُ ما يروى من آثار إذا خالفت الشَّرْعَ ، أو ما لا يليق أن ينسب إلى الوحي .

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : ٥٢] . يذكر حديث الغرائيق ، ثم يحكي عن أئمة المالكية مثل القاضي عياض ، وأبي بكر بن العلاء إنكارهم لهذه الرواية ، وأمثالها ، ثم قال : قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره . . . وقد أجمعت الأمة على عِزْمَتِهِ ﷺ ، ونَزَاهَتِهِ عن مثل هذا .

ومنه أيضاً ما ذكره في قصّة بني إسرائيل لما سألوا عيسى ابن مريم مائدة من السماء [المائدة : ١١٣ - ١١٥] ، ثم قال : وأكثر الناس في قصص المائدة مما رأيت اختصاره ؛ لعدم سنده .

وعلى أية حال ، فإن الملاحظ على الثعالبي - رحمه الله - نُذْرَةُ إيرادهِ للإسرائيليات جداً ، فإن أورد بعض ذلك تَبَّهَ عليه ؛ كما تقدم .

وصف النسخ المعتمد عليها في كتاب تفسير «الثعالبي» المسمى بجواهر الحسان في تفسير القرآن

اعتمدنا في تحقيق الكتاب على أربع نسخ خطية.

ووصفها على النحو التالي:

النسخة الأولى: المحفوظة بدار الكتب المصرية/ تحت رقم (٤٥٣) طلعت، تقع في (٣١٣) ورقة، وسطرتها ٢٨ سطراً؛ ورمزنا لها بالرمز (أ).

النسخة الثانية: المحفوظة بدار الكتب المصرية، تبدأ من الكهف إلى آخر القرآن، تقع تحت رقم (٥) تفسير، الجزء الثاني فقط، ورمزنا لها بالرمز (ب).

النسخة الثالثة: المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١١٥٧) تفسير، تقع في (٢١٦) ورقة، سطرته (٣٣) سطراً وهي من مريم إلى آخر القرآن، ورمزنا لها بالرمز (ج).

النسخة الرابعة: المحفوظة بدار الكتب المصرية، وهي من أول الزمر إلى آخر القرآن، وتحت رقم (٤٧) تفسير م، وتقع في (٢٤٨) ورقة، ومسطرتها (١٩) سطراً، ورمزنا لها بالرمز (د)، هذا، وكان من النسخ المطبوعة المعتمد عليها طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. وقد رمزنا لها بالرمز (ط).

عملنا في الكتاب

قمنا في تحقيق الكتاب بما يلي:

أولاً: المقابلة وإثبات ما كان صواباً في النص ومخالفه في هامش الكتاب، وقمنا بضبط ما أشكل من الكتاب.

ثانياً: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها.

ثالثاً: تخريج الأحاديث النبوية والآثار.

رابعاً: ترجمة للأعلام الوارد أسمائهم بالكتاب.

خامساً: شرح غريب النص . معتمدين في ذلك على كتب المعاجم .

سادساً: التعليق على بعض المسائل الفقهية .

سابعاً: التعليق على بعض المسائل النحوية المشار إليها في النص .

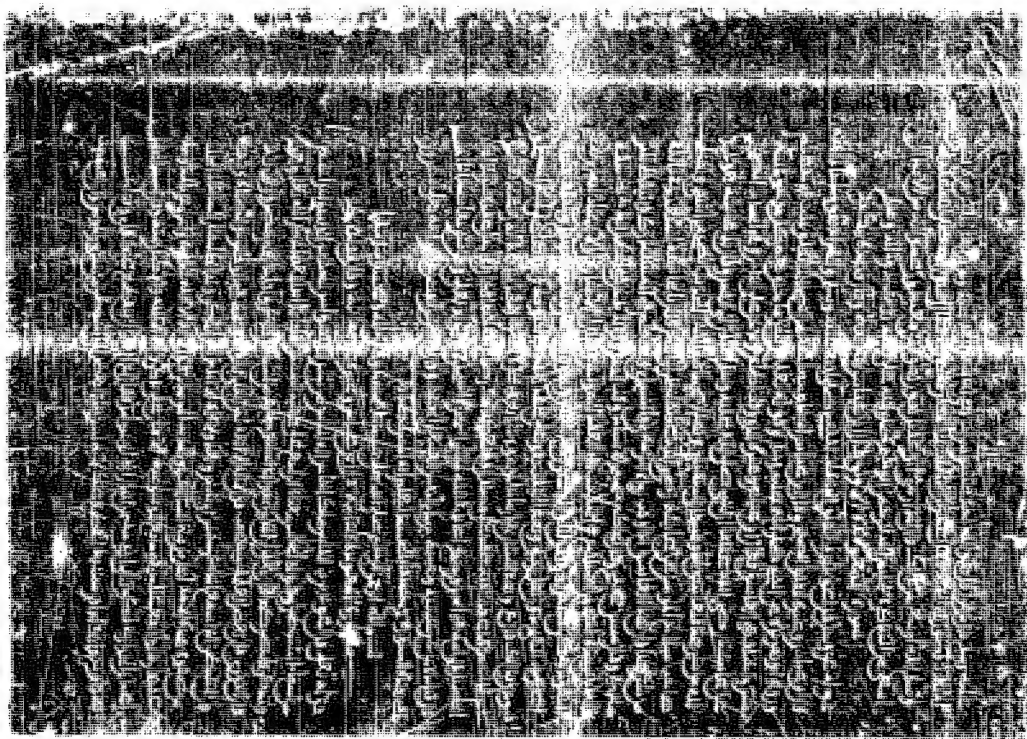
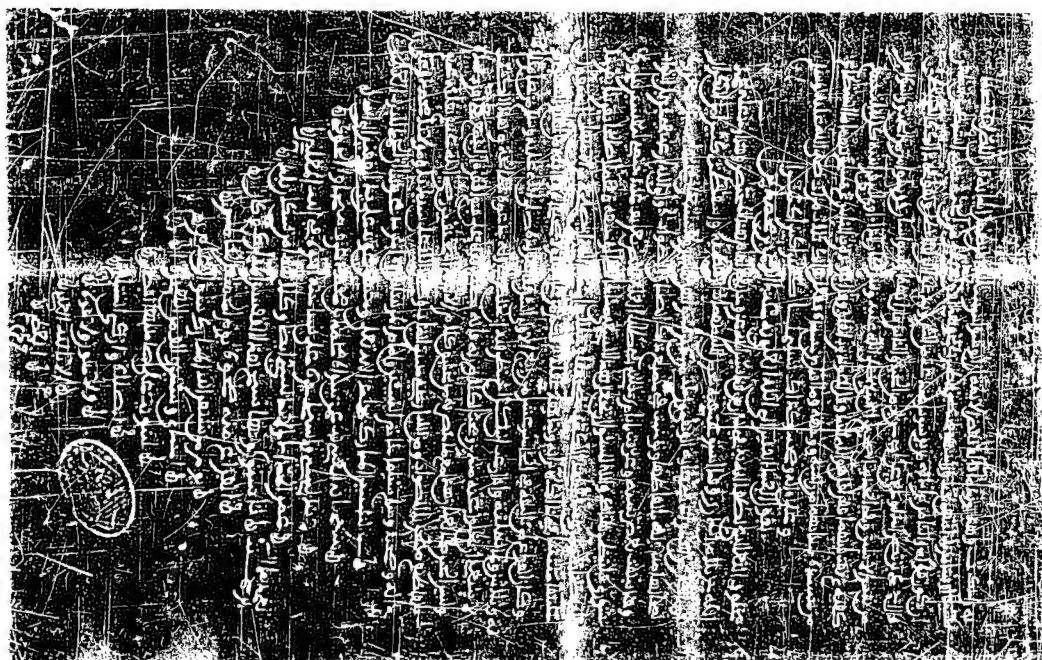
ثامناً: توثيق للقراءات الواردة في الكتاب ، وبيان ما أبهمه المصنف منها .

تاسعاً: توثيق لبعض المصادر التي اعتمد عليها المصنف .

عاشراً: وضع مقدمة للكتاب وترجمة لمؤلفه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





الورقة الأخيرة

الورقة قبل الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية

الجزء الأول من تفسير الثعالبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

يقول العبد الفقير إلى الله تعالى المعترف بذنبه، الراجي رحمة ربه، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، لطف الله به في الدارين وبسائر المؤمنين.

الحمد لله رب العالمين، وصلوات ربنا وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه السادة المكرمين، والحمد لله الذي من علينا بالإيمان، وشرفنا بتلاوة القرآن، فأشرق علينا بحمد الله أنواره، وبذت لذوي المعارف عند التلاوة أسرارها، وقاضت على العارفين عند التدبر والتأمل بحاره، فسبحان من أنزل على عبده الكتاب، وجعله لأهل الفهم المتمسكين به من أعظم الأسباب؛ ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

أما بعد، أيها الأخ، أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، وجعلني وإياك من أوليائه المتقين، الذين شرفهم بنزل قدسيه، وأوحشهم من الخليفة بأنسيه، وخصهم من معرفته، ومشاهدة عجائب ملكوته، وآثار قدرته، بما ملأ قلوبهم خبره، وولاه عقولهم في عظمتة خيره، فجعلوا همهم به واحداً، ولم يروا في الدارين غيره، فهم بمشاهدة كماله وجلاله يتنعمون؛ وبين آثار قدرته وعجائب عظمتة يترددون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون، لهجين بصادق قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] فإنني جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عيني وعينك في الدارين؛ فقد ضمنت بحمد الله المهم مما أشتمل عليه تفسير ابن عطية^(١)، وزدته فوائد جمه، من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأئمة، وذلك قريب من مائة تأليف، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين، ومعدود في

(١) عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي، كان فقيهاً جليلاً، عارفاً بالأحكام، والحديث، والتفسير، نحوياً، لغوياً، أديباً، روى عنه ابن مضاء وغيره، له «تفسير القرآن العظيم» مات سنة ٥٤١هـ.

ينظر: «طبقات المفسرين» - للسيوطي - ص ٦٠، ٦١ «بغية الوعاة» (٢/ ٧٣، ٧٤)، «طبقات المفسرين» للداوودي (١/ ٢٦٥).

المحققين، وكلُّ من نقلت عنه من المفسرين شيئاً فمن تأليفه نقلت، وعلى لفظ صاحبه عوّلت، ولم أنقل شيئاً من ذلك بالمعنى؛ خوفاً الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه، وما أنفردت بنقله عن الطبري^(١)، فمن اختصار الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللخميّ النحويّ لتفسير الطبري - نقلت؛ لأنه اعتنى بهذيبه، وقد أطنب أبو بكر بن الخطيب في حسن الثناء على الطبري ومدح تفسيره، وأثنى عليه غاية نسال الله تعالى أن يعاملنا وإياهم برحمته، وكلُّ ما في آخره انتهى، فليس هو من كلام ابن عطية، بل ذلك مما أنفردت بنقله عن غيره، ومن أشكل عليه لفظ في هذا المختصر، فليراجع الأمّهات المنقول منها، فليصلحه منها، ولا يضلّحه برأيه ويديه عقله؛ فيقع في الزلل من حيث لا يشعر، وجعلت علامة التاء لنفسي بدلاً من «قلت» ومن شاء كتبها «قلت»، وأما العين، فلأبن عطية، وما نقلته من الإعراب عن غير ابن عطية فمن الصفاقسي^(٢) مختصر أبي حيّان^(٣) غالباً، وجعلت الصّاد علامة عليه، وربما نقلت عن غيره معزواً لمن عنه نقلت، وكلُّ ما نقلته عن أبي حيّان، فإنما نقلني له بواسطة الصفاقسي غالباً، قال الصفاقسي: وجعلت علامة ما زدته على أبي حيّان * م *.

وما يتفق لي إن أمكن، فعلامته «قلت»، وبالجمله فحيث أطلق فالكلام لأبي

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، الإمام العلم صاحب التفسير المشهور، مولده سنة ٢٢٤، أخذ الفقه عن الزعفراني والربيع المرادي، وذكر الفرغاني عند عد مصنفاته كتاب: لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو مذهبه الذي اختاره وجوده واحتج له، وهو ثلاثة وثمانون كتاباً. مات سنة ٣١٠.

انظر: «طبقات ابن قاضي شهاب» (١٠٠/١)، «تاريخ بغداد» (١٦٢/٢)، «تذكرة الحفاظ» (٦١٠/٢).
(٢) هكذا بصاد ثم فاء كما ذكره المؤلف وفي الكتب بالسين ثم فاء، وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، القيسي، السفاقسي، أبو إسحاق، برهان الدين: فقيه مالكي. تفقه في «بجاية»، وحج فأخذ عن علماء «مصر» و «الشام». وأفتى ودرس سنين. له مصنفات منها «المجيد في إعراب القرآن المجيد» ويسمى «إعراب القرآن»، و «شرح ابن الحاجب» في أصول الفقه.

ينظر: «الأعلام» (٦٣/١)، و «الدرر الكامنة» (٥٥/١)، و «النجوم الزاهرة» (٩٨/١٠).
(٣) محمد بن يوسف بن علي بن حيّان بن يوسف، الشيخ الإمام العلامة، الحافظ، المفسر النحوي، اللغوي، أمير الدين، أبو حيّان الأندلسي، الجياني، الغرناطي، ثم المصري. ولد في ٦٥٢ هـ قرأ العربية على رضي الدين القسطنطيني، وبهاء الدين بن النحاس، وغيرهم، سمع نحواً من أربعمئة شيخ، وكان ظاهرياً، فانتفى إلى الشافعية، له مصنفات منها: «البحر المحيط في التفسير» و «النهر في البحر»، و «شرح التسهيل»، و «ارتشاف الضرب». سمع منه الأئمة العلماء، وأضر قبل موته بقليل، توفي بالقاهرة في صفر سنة خمس وأربعين وسبعمئة.

ينظر: «طبقات ابن قاضي شهاب» (٦٧/٣)، «الأعلام» (٢٦/٨)، «طبقات السبكي» (٣١/٦)؛ «الدرر الكامنة» (٣٠٢/٤).

حيّان، وما نقلته من الأحاديث الصّحاح والحسان عن غير البخاريّ ومسلم وأبي داود والتّرمذيّ في باب الأذكار والدّعوات - فأكثره من «التّوحيّ»^(١) و «سلاح المؤمن»، وفي التّرجيب والترهيب وأحوال الآخرة فمعظمه من «التذكرة» للقرطبي^(٢)، و «العاقبة» لعبد الحقّ، وربّما زدّت زيادات كثيرة من «مصابيح البغويّ»^(٣) وغيره؛ كما ستقف عليه - إن شاء الله تعالى - كلّ ذلك معزّو لِمَحَالّه، وبالجملّة فكتابي هذا محشوّ بنفائس الحكم، وجواهر السّنن الصحيحة والحسان الماثورة عن سيّدنا محمد ﷺ، وقد قال أبو عمر بن عبد البرّ^(٤) في كتاب «التّقصي»^(٥): «وَأَوَّلَى الْأُمُورِ بَمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ، وَأَلْهَمَ رَشْدَهُ - معرفه»

(١) يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام، شيخ الإسلام مخيي الدين، أبو زكريا الحزامي النووي، ولد سنة ٦٣١، قرأ القرآن ببلده، وختم وقد ناهز الاحتمام، وكان محققاً في علمه وفنونه، مدققاً في علمه وشؤونه، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، عارفاً بأنواعه من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه، واستنباط فقهه. في كثير من المناقب يطول ذكرها صنف «المنهاج في شرح مسلم»، و «المجموع» و «الأذكار» وغيرها. مات سنة ٦٧٧.
انظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (١٥٣/٢)، «طبقات السبكي» (١٦٥/٥)، «النجوم الزاهرة» (٧/٢٧٨).

(٢) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين، صالح متعبّد من أهل «قرطبة». رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسبوط، بمصر) وتوفي فيها. من كتبه «الجامع لأحكام القرآن» يعرف بتفسير القرطبي، و «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وكان ورعاً متعبداً، طارحاً للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. ينظر: «الأعلام» (٣٢٢/٥)، «الديباج» (٣١٧).

(٣) الحسين بن مسعود بن محمد، العلامة محيي السنة، أبو محمد البغوي، يعرف بالفراء أحد الأئمة، تفقه على القاضي الحسين، وكان ديناً، عالماً، عاملاً على طريقة السلف، قال الذهبي: كان إماماً في التفسير، إماماً في الحديث، إماماً في الفقه. بورك له في تصانيفه ورزق القبول لحسن قصده وصدق نيته. ومن تصانيفه: «التّهذيب»، و «شرح المختصر»، وتفسيره «معالم التنزيل». وغيرها. مات سنة ٥١٦.

انظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (٢٨١/١)، «وفيات الأعيان» (٤٠٢/١)، «تذكرة الحفاظ» (٤/١٢٥٨)، و «الأعلام» (٢٨٤/٢)، «شذرات الذهب» (٤٨/٤)، «النجوم الزاهرة» (٢٢٤/٥).

(٤) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، القرطبي، المالكي، أبو عمر: من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ أديب، بخاتة، يقال له: حافظ المغرب، ولد بقرطبة سنة ٣٦٨هـ، وتوفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ، من تصانيفه: «الدرر في اختصار المغازي والسير» و «الاستيعاب» و «جامع بيان العلم وفضله» و «المدخل» من القراءات، و «بهجة المجالس وأنس المجالس» و «الاستذكار من شرح مذاهب علماء الأمصار» و «الإنباه على قبائل الرواة» و «الإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف». ينظر: «الأعلام» (٢٤٠/٨)، «وفيات الأعيان» (٣٤٨/٢)، «بغية الملتبس» (٤٧٤).

(٥) «تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، أو «التقصي لحديث الموطأ وشيوخ الإمام مالك»،

السبب التي هي البيان لمُجَمِّل القرآن بها يُوصَلُ إلى مراد الله تعالى من عباده فيما تعبدهم به من شرائع دينه الذي به الأبتلاء، وعليه الجزاء، في دار الخلود والبقاء، التي لها يسعى الألباء العقلاء، والعلماء الحكماء، فَمَنْ مَنَّ اللَّهُ عليه بحفظ السُّنَنِ والقرآن، فقد جعل بيده لواء الإيمان، فَإِنْ فَقَهُ وَفَهُم، واستعمل ما عَلِمَ - دُعِيَ في ملكوت السموات عظيمًا، ونال فضلاً جسيماً - انتهى، والله أَسْأَلُ أَنْ يجعل هذا السَّعْيَ خالصاً لوجهه، وعملاً صالحاً يقربنا إلى مرضاته، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العلي العظيم.

وَسَمَّيْتُهُ بِـ «الْجَوَاهِرِ الْحَسَنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ ينفع به كُلُّ مَنْ حَصَّلَهُ، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً عَدَدَ ما ذكره الذاكرون، وغَفَلَ عن ذكره الغافلون، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وها أنا - إن شاء الله - أشرع في المقصود وألْقِطُ من كلام ابن عطية - رحمه الله - ما ستقف عليه من التَّبَذِ الحسنة المختارة ما تَقَرُّ به العين، وإذا نقلت شيئاً من غيره، عزوته لصاحبه؛ كما تقدّم.

قال * ع^(١) - رحمه الله - بعد كلام في أثناء خطبته: ولما أردتُ أَنْ أختار لنفسِي؛ وَأَنْظُرَ في عِلْمٍ أَعْدُ أَنْوَارَهُ لُظْلَمَ رَمْسِي، سَبَرْتُ الْعُلُومَ بِالتَّنَوُّعِ والتقسيم، وعلمتُ أَنَّ شَرَفَ الْعِلْمِ عَلَى قَدَرِ شَرَفِ الْمَعْلُومِ؛ فوجدتُ أَمْتَنَهَا حَبَالاً، وَأَرْسَخَهَا حَبَالاً، وَأَجْمَلَهَا آثَاراً؛ وَأَسْطَعَهَا أَنْوَاراً - عِلْمَ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] الَّذِي اسْتَقْبَلَ بِالسُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، وَنَزَلَ بِهِ أَمِينُ السَّمَاءِ إِلَى أَمِينِ الْأَرْضِ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّهُ أَعْظَمُ الْعُلُومِ تَقْرِيباً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَخْلِيصاً لِلنِّيَّاتِ، وَنَهْياً عَنِ الْبَاطِلِ، وَحُضّاً عَلَى الصَّالِحَاتِ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ عُلُومِ الدُّنْيَا؛ فَيَخْتَلُ حَامِلُهُ مِنْ مَنَازِلِهَا صَنِيداً، وَيَمْشِي فِي التَّلَطُّفِ لَهَا رُوْنِدَاً، وَرَجُوْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَرِّمُ عَلَى النَّارِ فِكْرَهُ عَمَرْتُهُ أَكْثَرَ عُمْرِهِ مَعَانِيهِ، وَنَفْساً مَيَّزَتْ بَرَاعَةَ رُضْفِهِ وَمَبَانِيهِ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] قَالَ الْمَفْسِّرُونَ: أَيُّ: عِلْمٍ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلِ بِهَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ»^(٢)؛ فَفَرَعْتُ إِلَى تَعْلِيْقِ مَا

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٤-٣٦).

(٢) ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة، وهم: أنس بن مالك، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عباس.

يُنْتَحَلُّ لي في المناظرة مَنْ عِلْمُ التفسير، قال: ولنقدّم بَيْنَ يَدَيِ القولِ في التفسيرِ أشياء قد قَدَّمَ

= * حديث أنس بن مالك:

أخرجه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (ص ٢٧٤ - بتحقيقنا) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٦/١٠)، وفي «تقييد العلم» (ص ٧٠ - ٧١) وفي «الجامع لأخلاق الراوي» (٢٢٨/١)، رقم (٤٤٠)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٦/١)، رقم (٩٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٣٠٦/١)، كلهم من طريق عبد الحميد بن سليمان، عن ابن المثنى، عن عمه ثمامة بن أنس، عن أنس بن مالك مرفوعاً.

وقال الخطيب في «التقييد»: تفرد برواية هذا الحديث عبد الحميد بن سليمان الخزاعي المدني أخو فليح عن عبد الله بن المثنى مرفوعاً، وغيره يرويه موقوفاً على أنس، وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح؛ تفرد بروايته مرفوعاً عبد الحميد، قال يحيى بن معين وأبو داود: ليس بثقة. وقال الدارقطني: ضعيف الحديث. قال: ووهب ابن المثنى في رفعه، والصواب: عن ثمامة، عن أنس أنه كان يقول ذلك لبنيه، ولا يرفعه. اهـ.

وعبد الحميد بن سليمان قال الحافظ في «التقريب» (٤٦٨/١): ضعيف.

وقال العسكري كما في «المقاصد» (ص ٥٥): ما أحسبه من كلام النبي ﷺ، وأحسب عبد الحميد وهم فيه، وإنه من قول أنس؛ فقد روى عبد الله بن المثنى عن ثمامة قال: كان أنس يقول لبنيه: يا بني قيدوا العلم بالكتاب. اهـ.

وللحديث طريق آخر مرفوع.

أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢٢٨/٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٣٧) كلاهما من طريق إسماعيل بن أبي أويس، عن إسماعيل بن إبراهيم ابن أخي موسى بن عقبة، عن الزهري، عن أنس مرفوعاً به. وإسماعيل بن أبي أويس، قال الحافظ في «التقريب» (٧١/١): صدوق، أخطأ في أحاديث من حفظه. وقد ورد هذا الحديث موقوفاً على أنس كما أشار إليه بعضهم كما تقدم.

والموقوف أخرجه الدارمي (١٢٦-١٢٧)، باب: من رخص في كتابه العلم، وأبو خيثمة في «العلم» رقم (١٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٤٦/١)، رقم (٧٠٠)، والحاكم (١٠٦/١)، والخطيب في «تقييد العلم» ص (٩٦)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٦/٧)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص - ٣٦٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٣١٦/١)، كلهم من طريق عبد الله بن المثنى الأنصاري، عن ثمامة، عن أنس موقوفاً.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٥/١) وقال: رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح، وعبد الله بن المثنى قال الحافظ في «هدي الساري» (ص - ٤٣٦): وثقه العجلي والترمذي، واختلف فيه قول الدارقطني، وقال ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم صالح، وقال النسائي: ليس بالقوي وقال الساجي: فيه ضعف، ولم يكن من أهل الحديث، وروى متاكبر، وقال العقيلي: لا يتابع على أكثر حديثه. قلت: لم أر البخاري احتج به إلا في روايته عن عمه ثمامة، فعنده عنه أحاديث، وأخرج له من روايته عن ثابت عن أنس حديثاً توبع فيه عنده، وهو في فضائل القرآن، وأخرج له أيضاً في اللباس عن مسلم بن إبراهيم عنه عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر في النهي عن القزع بمتابعة نافع وغيره عن ابن عمر، وروى له الترمذي وابن ماجه.

وقال في «التقريب» (٤٤٥/١): صدوق كثير الغلط.

أَكْثَرَهَا الْمَفْسُورُونَ، وَأَشْيَاءُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ رَاسِخَةً فِي حِفْظِ النَّازِلِ فِي هَذَا الْعِلْمِ مَجْتَمَعَةً لَذَهْنِهِ.

= * حديث عبد الله بن عمرو:

أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (١٠٦/١)، وَالْخَطِيبُ فِي «تَقْيِيدِ الْعِلْمِ» (ص ٦٩)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٤٦٩/١) رَقْم (٨٥٢)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعِلَلِ الْمَتْنَاهِيَةِ» (٨٧/١)، رَقْم (٩٦) كُلَّهُمْ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُؤَمَّلِ، عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَقِيدَ الْعِلْمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَمَا تَقْيِيدُهُ؟ قَالَ: الْكِتَابَةُ.

وَضَعُفَهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: ابْنُ الْمُؤَمَّلِ ضَعِيفٌ.

تَنْبِيهُ: وَقَعَ فِي «الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ» عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْمُؤَمَّلِ، عَنْ عَطَاءٍ، وَلَمْ يَذْكُرْ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَدْ اضْطَرَبَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْمُؤَمَّلِ فِي إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَرَوَاهُ كَمَا تَقَدَّمَ، وَرَوَاهُ مَرَّةً، عَنْ ابْنِ أَبِي مَلِيكَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ فِي «تَقْيِيدِ الْعِلْمِ» (ص ٦٨)، وَالرَّاهِمَزِيُّ فِي «الْمَحْدَثِ الْفَاصِلِ» (ص ٣٦٤)، وَأَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ أَيْضاً فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّائِي» (٢٢٨/١)، رَقْم (٤٣٩)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعِلَلِ الْمَتْنَاهِيَةِ» (٨٦/١) رَقْم (٩٥) كُلَّهُمْ مِنْ طَرِيقِ سَرِيحِ بْنِ التَّعْمَانِ عَنْهُ بِهِ. وَقَدْ ضَعَّفَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ هَذَا الطَّرِيقَ وَالَّذِي قَبْلَهُ، فَقَالَ: هَذِهِ الطَّرِيقُ كُلُّهَا لَا تَصَحُّحٌ، أَمَّا الطَّرِيقَانِ الْأَوَّلَانِ فَفِيهِمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُؤَمَّلِ قَالَ أَحْمَدُ: أَحَادِيثُهُ مَنَاقِبَرٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: ضَعِيفٌ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَانَ: لَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِخَبْرِهِ إِذَا انْفَرَدَ. أَهـ.

وَاضْطَرَبَ فِيهِ ابْنُ الْمُؤَمَّلِ مَرَّةً ثَلَاثَةً، فَرَوَاهُ عَنْ عَمْرٍو بْنِ شَعِيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ.

أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «تَقْيِيدِ الْعِلْمِ» (ص ٦٩)، وَقَدْ تَوَيَّعَ ابْنُ الْمُؤَمَّلِ عَلَى هَذَا، تَابِعَهُ ابْنُ أَبِي ذُئْبٍ: أَخْرَجَهُ الرَّاهِمَزِيُّ فِي «الْمَحْدَثِ الْفَاصِلِ» (ص ٣٦٤)، وَالْخَطِيبُ فِي «تَقْيِيدِ الْعِلْمِ» (ص ٦٩)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعِلَلِ الْمَتْنَاهِيَةِ» (٨٧/١)، رَقْم (٩٧)، كُلَّهُمْ مِنْ طَرِيقِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ ابْنِ أَبِي ذُئْبٍ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ شَعِيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ بِهِ.

وَنَقَلَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ، عَنْ الدَّارِقُطْنِيِّ قَوْلَهُ: تَفَرَّدَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ ابْنِ أَبِي ذُئْبٍ.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: فِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ ابْنُ عَدِي: يَحْدُثُ عَنْ الثَّقَاتِ بِالْبَوَاطِيلِ، وَقَالَ ابْنُ حَبَانَ: يَرُوي الْمَوْضُوعَاتِ عَنْ الثَّقَاتِ وَمَا لَا أَصْلَ لَهُ مِنَ الْأَثْبَاتِ، لَا يَحِلُّ الرِّوَايَةُ عَنْهُ بِحَالٍ، وَقَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ: كَذَابٌ مَتْرُوكٌ.

* حديث ابن عباس:

أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِي فِي «الْكَامِلِ» (٧٩٢/٢) مِنْ طَرِيقِ حَفْصِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أَبِي الْعَطَافِ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً.

وَقَالَ ابْنُ عَدِي: وَحَفْصُ بْنُ عَمْرِو حَدِيثُهُ مَنَكِرٌ.

وَالْحَدِيثُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ يَحْتَمِلُ التَّحْسِينَ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ مَوْقُوفَةٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ.

* أثر عمر:

أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٤٩/٩)، وَالدَّارِمِيُّ (١٢٧/١)، وَالْخَطِيبُ فِي «تَقْيِيدِ الْعِلْمِ» (ص ٨٨)، وَالْحَاكِمُ (١٠٦/١) مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جَرِيرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، عَنْ عَمِّهِ عَمْرٍو بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، عَنْ عَمْرِو، فَذَكَرَهُ. وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

* أثر ابن عباس:

أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ فِي «تَقْيِيدِ الْعِلْمِ» ص (٩٢) مِنْ طَرِيقِ عَكْرَمَةَ بْنِ عِمَارٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ. قَالَ: =

بَابُ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ^(١)

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ؛ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، قِيلَ: فَمَا النَّجَاةُ مِنْهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فِيهِ نَبَأٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ، وَخَبَرٌ مَّا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَّا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ فَضْلٌ؛ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ تَجَبَّرَ، قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَتْبَعَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضْلَهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَنُورُهُ الْمُبِينِ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمِ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَتَشَعَّبُ مَعَهُ الْأَرَاءُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَمْلَهُ الْأَتْقِيَاءُ، مَنْ عَلِمَ عِلْمَهُ سَبَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ اِعْتَصَمَ بِهِ، فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٢)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ»^(٣)، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي يَتَعَاهَدُ الْقُرْآنَ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ لَهُ أَجْرَانِ، وَالَّذِي يَقْرُؤُهُ وَهُوَ خَفِيفٌ عَلَيْهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ»^(٤)، وَقَالَ ﷺ: «أَتْلُوا هَذَا الْقُرْآنَ،

= قال ابن عباس: قيدوا العلم بالكتاب.

وسنده ضعيف؛ فرواية عكرمة بن عمار عن يحيى مضطربة.

(١) هذا الباب يوجد في «المحرر الوجيز» (٣٦/١) هكذا: باب: ما ورد عن النبي ﷺ، وعن الصحابة، وعن نبهة العلماء، في فضل القرآن المجيد، وصورة الاعتصام به.

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٢/٥)، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضائل القرآن، حديث (٢٩٠٦)، والدارمي (٤٣٥/٢)، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، كلاهما من طريق الحسين بن علي الجعفي، عن حمزة الزيات، عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث، عن علي به.

وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٣٧/٦)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، والدارمي، والترمذي، ومحمد بن نصر، وابن الأنباري في «المصاحف».

(٣) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٥٤٨/١) رقم (٢٤٥٤)، وعزاه إلى الديلمي، عن أنس مرفوعاً، وقد ورد هذا الحديث عن ابن مسعود لكن موقوفاً، فأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٦/٩)، رقم (٨٦٦٥) من طريق زهير، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٦٨/٧)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

وأخرجه الطبراني أيضاً (١٤٦/٩)، رقم (٨٦٦٦) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن عبد الله قال: «من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين» وأخرجه ابن المبارك في «الزهدة» (ص ٢٨٠)، رقم (٨١٤)، والفريابي في «فضائل القرآن» (ص ١٩٧)، رقم (٧٨)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٣٦) رقم (٨٠). وابن أبي شيبة (٤٨٥/١٠)، رقم (١٠٠٦٧) كلهم من طريق سفيان، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود قال: «إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين».

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٠/٨)، كتاب التفسير، باب سورة «عبس»، حديث (٤٩٣٧)، ومسلم (٥٥٠/١)، =

فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ بِالْحَرْفِ مِنْهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ؛ أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ «الْمَ» حَرْفٌ، وَلَكِنَّ الْأَلْفَ حَرْفٌ، وَاللَّامُ حَرْفٌ، وَالْمِيمُ حَرْفٌ»^(١)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ شَفِيعٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْقُرْآنِ، لَا نَبِيٍّ وَلَا مَلَكٍ»^(٢)، وقال ﷺ: «أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي الْقُرْآنُ»^(٣)، وحدث أنس بن

= كتاب «صلاة المسافرين»، باب فضل الماهر بالقرآن، حديث (٢٤٤/٧٩٨)، وأبو داود (٤٦٠/١)، كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن، حديث (١٤٥٤)، والترمذي (١٧١/٥)، كتاب «فضائل القرآن»، باب ما جاء في فضل قارئ القرآن، حديث (٢٩٠٤)، والنسائي في «التفسير» (٤٩٢/٢)، رقم (٦٦٦)، وابن ماجه (١٢٤٢/٢)، كتاب «الأدب»، باب ثواب القرآن، حديث (٣٧٧٩)، وأحمد (٦/٤٨، ١١٠، ١٩٢، ٢٣٩)، وعبد الرزاق (٤٩١/٢)، رقم (٤١٩٤)، وابن أبي شيبة (٤٩٠/١٠)، رقم (١٠٠٨٥)، والدارمي (٤٤٤/٢)، كتاب «فضائل القرآن»، باب فضل من يقرأ القرآن ويشد عليه، والطيالسي (٢/٢ - منحة)، رقم (١١٨٤)، والبيهقي (٣٩٥/٢)، كتاب «الصلاة»، وفي «شعب الإيمان» (٥٣٧/٤)، رقم (١٨٢٢)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص - ٥)، رقم (٦)، والفريابي في «الفضائل» (ص - ١١٤)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص ٣٩)، رقم (٢٩)، وابن حبان (٣/٤٤)، رقم (٧٦٧)، من طرق، عن قتادة، عن زبارة بن أوفى، عن سعد بن هشام الأنصاري، عن عائشة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه الترمذي (١٧٥/٥)، كتاب «فضائل القرآن»، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، حديث (٢٩١٠)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢١٦/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/٥٤٨)، رقم (١٨٣١) كلهم من طريق الضحاك بن عثمان، عن أيوب بن موسى قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الْمَ) حرف، ولكن ألف حرف، وميم حرف». وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، سمعت قتبية يقول: بلغني أن محمد بن كعب القرظي ولد في حياة النبي ﷺ... اهـ. قلت: الذي ولد في حياة النبي ﷺ كعب والد محمد، وينظر «الإصابة» (٣٤٦/٦).

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٢٧٣/١).

وقال الحافظ العراقي في «تخريجه»: رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلًا. اهـ. وينظر: «كشف الخفاء» (٢٠/١).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٤/٢)، رقم (٢٠٢٢) من طريق سلمة بن كهيل، عن حجية بن عدي، عن النعمان بن بشير مرفوعاً.

وقد ورد بلفظ: «أفضل العبادة قراءة القرآن».

ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٥١١/١)، رقم (٢٢٦٣)، وعزاه إلى ابن قانع، عن أسير بن جابر، وإلى السجزي في «الإبانة»، عن أنس.

وأسير بن جابر في صحبته نظر، قاله ابن الأثير كما في «فيض القدير» (٤٤/٢).

والحديث ذكره الغزالي في «الإحياء» (٢٧٣/١)، وقال الحافظ العراقي: أخرجه أبو نعيم في «فضائل القرآن» من حديث النعمان بن بشير، وأنس، وإسنادهما ضعيف.

مَالِكٌ^(١) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ، كُتِبَ مِنَ الْقَائِنِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَتَيْنِ آيَةٍ، لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْعَافِلِينَ، وَمَنْ قَرَأَ ثَلَاثِمِائَةَ آيَةٍ، لَمْ يُحَاجَّهِ الْقُرْآنُ»^(٢)، قَالَ الشَّيْخُ يَحْيَى بْنُ شَرَفٍ النَّوَوِيُّ^(٣): «أَعْلَمُ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَكْثَرُ الْأَذْكَارِ، وَأَفْضَلُهَا؛ فَيَنْبَغِي الْمَدَامَةُ عَلَيْهَا؛ فَلَا يَخْلُو عَنْهَا يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَيَحْصُلُ لَهُ أَضَلُّ الْقِرَاءَةِ بِقِرَاءَةِ الْآيَاتِ الْقَلِيلَةِ، وَالْمَطْلُوبُ الْقِرَاءَةُ بِالتَّدْبِيرِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ، وَقَدْ رُوِيَ فِي كِتَابِ ابْنِ السُّنِّيِّ عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ خَمْسِينَ آيَةً، لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْعَافِلِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ، كُتِبَ مِنَ الْقَائِنِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَتَيْنِ آيَةٍ، لَمْ يُحَاجَّهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ قَرَأَ خَمْسِمِائَةَ آيَةٍ، كُتِبَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنَ الْأَجْرِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَرَأَ أَرْبَعِينَ آيَةً بَدَلَ: «خَمْسِينَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «عِشْرِينَ»^(٤) آيَةً وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٥) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ

(١) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار - واسمه تيم الله - بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج بن حارثة.
أبو حمزة. الأنصاري. الخزرجي. النجاري من بني عدي بن النجار. خادم رسول الله ﷺ. توفي سنة ٩٠ وقيل غير ذلك.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٥٨/١/١٥١)، «الإصابة» (٧١/١)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/٣١)، «الاستيعاب» (١٠٩/١)، «الثقات» (٤/٣)، «سير أعلام النبلاء» (٣/٣٩٥)، «الجرح والتعديل» (٢/١٠٣٦)، «الأعلام» (٢/٢٤)، «المعبر» (١/١٠٧)، «تهذيب الكمال» (١/١٢٢)، «تقريب التهذيب» (١/١٤)، «الوافي بالوفيات» (٩/٤١١)، «تاريخ الثقات» (٧٣).

(٢) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٧٩).

(٣) ينظر: «الأذكار» ص ١٣٣، بتصرف.

(٤) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٧٩).

(٥) أبو هريرة بن عامر بن عبد ذي الشرى بن طريف بن عتاب بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب. الدوسي. وقيل في نسبه غير ذلك. واختلف في اسمه اختلافاً كثيراً. ذكره ابن حجر في «الإصابة» وقد عدد من أقوالهم في اسمه الشيء الكثير.

قال ابن الأثير:

أبو هريرة - الدوسي صاحب رسول الله ﷺ وأكثرهم حديثاً عنه، وهو دوسي. . وقد اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً لم يختلف في اسم آخر مثله ولا ما يقاربه. . وقيل: رآه رسول الله ﷺ وفي كفه هرة فقال: «يا أبا هريرة».

وفاته: قيل توفي سنة (٥٧)، وله (٧٨ سنة)، قيل: مات بـ «العقيق»، وحمل إلى المدينة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٦/٣١٨)، «الإصابة» (٧/١٩٩)، «الاستيعاب» (١٧٦٨)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢/٢٠٩)، «تهذيب الكمال» (٣/١٦٥٥)، «تهذيب التهذيب» (١٢/٢٦٢)، «الكنى والأسماء» (١/٦٠)، «المغني» (٢٩٨)، «الكاشف» (٣/٣٨٥)، «الأنساب» (٥/٤٠٢)، «تنقيح المقال» (٣/٣٨)، «معركة الثقات» (٢٢٧٥٦)، «تاريخ الثقات» (٢٠٦١).

مِنَ الْعَافِلِينَ»^(١)، وجاء في الباب أحاديث كثيرة بنحو هذا. انتهى من «الحليّة».

وروى ابن عباس^(٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ»^(٣)، وروى أنس بن مالك؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدِّقٌ، وَمَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ نَجَا، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَبَهُ اللَّهُ لَوَجْهِهِ فِي النَّارِ»^(٤)، وَأَحَقُّ مَنْ شَفَعَ

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص ١٨٨)، رقم (٧٠٢)، و «الحاكم» (٥٥٥/١)، كلاهما من طريق محمد بن إبراهيم الصوري، عن مؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

قلت: ومؤمل بن إسماعيل. وثقه ابن معين وإسحاق بن راهويه.

وقال ابن سعد: ثقة كثير الغلط.

وقال الدارقطني: كثير الخطأ.

وقال الساجي: صدوق كثير الخطأ، وله أوهام يطول ذكرها.

وقال أبو حاتم: صدوق شديد السنة، كثير الخطأ.

وقال البخاري: منكر الحديث.

وقد لخص الحافظ هذه الأقوال في «التقريب» فقال: صدوق إلا أنه سيء الحفظ.

ينظر: «الجرح والتعديل» (٣٧٤/٨)، و «التقريب» (٥٥٥/٢) و «التهذيب» (٣٨١/١٠).

(٢) هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو العباس. القرشي. الهاشمي. ابن عم رسول الله ﷺ. أمه: أم الفضل لبابة بنت الحارث. الهلالية.

ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث، وقيل: بخمس. كان يسمى «البحر» لسعة علمه، ويسمى «حبر الأمة»، ويسمى «ترجمان القرآن»، وهو من صغار الصحابة توفي النبي ﷺ وله على أرجح الأقوال ثلاث عشرة سنة. توفي بـ «الطائف» سنة ٦٨ وله (٧١ أو ٧٢ أو ٧٤).

ينظر ترجمته في: «الإصابة» (٩٠/٤)، «أسد الغابة» (٢٩٠/٣)، «الاستيعاب» (٩٣٣/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٢٠/١)، «التاريخ الكبير» (٣/٣)، (٥) «الجرح والتعديل» (١١٦/٥)، «العبر» (١/٤١)، «الأعلام» (٩٥/٤)، «شذرات الذهب» (٧٥/١) «صفوة الصفوة» (٧٤٦/١).

(٣) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص ٤٩٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢٥/١٢)، رقم (١٢٦١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥٦/٢)، رقم (٢٧٠٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/١٢٤)، كلهم من طريق سعد بن سعيد الجرجاني: ثنا نهشل بن عبد الله، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٤/٧)، وقال: وفيه سعد بن سعيد الجرجاني، وهو ضعيف.

والحديث ضعفه المنذري في «الترغيب» (٩١٩).

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «فضائل القرآن» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/١٨٧، ١٨٨) من طريق حجاج عن ابن جريج قال: حدثت عن أنس، فذكره وقال الزيلعي: وفيه انقطاع، وحجاج ضعيف.

لَهُ الْقُرْآنُ أَهْلُهُ وَحَمَلَتُهُ، وَأَوَّلَى مَنْ مَحَلَّ بِهِ مَنْ عَدَلَ عَنْهُ، وَصَيَّعَهُ، وَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ^(١)؛ لَمْ تَزَلْ دَارُهُ الْبَارِحَةَ يَزْهَرُ فِيهَا وَحَوْلَهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ؟! فَقَالَ لَهُمْ: فَلَعَلَّهُ قَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَسُئِلَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: نَعَمْ، قَرَأْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ»^(٢)، وفي هذا المعنى حديث صحيح عن أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ^(٣) في تنزل

= وللحديث شواهد من حديث جابر وابن مسعود.

* حديث جابر:

أخرجه ابن حبان (١٧٩٣- موارد)، والبخاري (٧٨ / ١- كشف)، رقم (١٢٢)، كلاهما من طريق أبي كريب محمد بن العلاء: ثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر عن النبي ﷺ قال: «القرآن شافع مشفع، وماحل مُصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار».

وصححه ابن حبان.

وقال البخاري: لا نعلم أحداً يرويه عن جابر إلا من هذا الوجه وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٤)، وقال: رجال حديث جابر المرفوع ثقات.

* حديث ابن مسعود:

أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠٨/٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٤٤/١٠)، رقم (١٠٤٥٠)، كلاهما من طريق هشام بن عمار: ثنا الربيع بن بدير، عن الأعمش، عن شقيق أبي وائل، عن ابن مسعود مرفوعاً.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث الأعمش، تفرد به عنه الربيع.

(١) ثابت بن قيس بن الشماس بن زهير بن مالك. أبو عبد الرحمن وأبو محمد. الأنصاري الخزرجي. خطيب الأنصار. قال ابن الأثير: كان ثابت خطيب الأنصار، وخطيب النبي ﷺ كما كان حسان شاعره. . شهد أحداً وما بعدها، وقتل يوم اليمامة في خلافة أبي بكر شهيداً. روى عنه أنس بن مالك وأولاده.

ينظر ترجمته في: «تجريد أسماء الصحابة» (٦٤/١)، «الاستيعاب» (٢٠٠/١)، «الاستبصار» (١/ ١١٧)، «الإصابة» (٢٠٣/١)، «أسد الغابة» (٢٧٥/١)، «الثقات» (٤٣/٣)، «تقريب التهذيب» (١/ ١١٦)، «تهذيب التهذيب» (١٢/٢)، «تهذيب الكمال» (٣٦٨/١)، «الكاشف» (١٧١/١)، «التاريخ الكبير» (١٦٧/٥)، «الجرح والتعديل» (٤٥٦/٢)، «سير أعلام النبلاء» (٣٠٨/١).

(٢) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب: «فضائل القرآن» كما في «تفسير ابن كثير» (٣٣/١)، قال حدثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن يزيد؛ أن أشياخ أهل المدينة حدثوه، فذكروا الحديث.

وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهاماً، ثم هو مرسل.

(٣) هو: أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ بْنِ سَمَّاكَ بْنِ عَتِكَ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ. . قيل كنيته: أبو حضير، أبو عمرو، أبو عيسى، أبو يحيى، أبو عتيك. الأنصاري. الأشهلي الأوسي، شهد العقبة الثانية، وكان نقيباً لبني عبد الأشهل. اختلف في شهوده بديراً، وشهد أحداً وكان ممن ثبت يومها، وجرح حينئذ سبع جراحات، قال ابن إسحاق: حدثنا يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن =

الملائكة في الظُّلَّة لصوته بقراءة سورة البقرة^(١).

قلتُ: وفي رواية سورة الكهف.

وهذا الحديث خرَّجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي. انتهى.

وقال عُقْبَةُ بن عامر^(٢): «عَهْدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: عَلَيَّكُمْ بِالْقُرْآنِ»^(٣)، وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي^(٤): «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُبَسِّطَ

= عائشة قالت: «ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد منهم يلحق في الفضل كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ؛ وأسيد بن حضير، وعباد بن بشير. توفي سنة (٢٠)، وقيل ٢١، وقيل: في إمارة عمر. ينظر ترجمته في: «تجريد أسماء الصحابة» (٢١/١)، «الثقات» (٦/٣)، «أسد الغابة» (١١١/١)، «الإصابة» (٤٨/١)، «الإكمال» (٤٨٢/٢)، «الاستيعاب» (٩٢/١)، «تهذيب الكمال» (١١٣/١).
(١) أخرجه البخاري (٦٨٠/٨)، كتاب «فضائل القرآن»، باب: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، حديث (٥٠١٨).

(٢) هو: عقبة بن عامر بن عيس بن عمرو بن عدي بن عمرو بن رفاعة بن مودة بن عدي بن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة... الجهني، أبو حماد. وقيل: أبو ليبد. وأبو عمرو. قال ابن الأثير في «الأسد»:

روى عنه من الصحابة: ابن عباس، وأبو عباس، وأبو أيوب، وأبو أمانة، وغيرهم. ومن التابعين: أبو الخير، وعلي بن رباح أبو قبيل، وسعيد بن المسيب وغيرهم.

شهد «صفين» مع معاوية، وشهد فتوح الشام، وهو كان البريد إلى عمر بفتح «دمشق»، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن. توفي بمصر، وكان والياً عليها سنة (٥٨هـ).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٥٣/٤)، «الإصابة» (٢٥٠/٤)، «الثقات» (٢٨٠/٣)، «الطبقات الكبرى» (٣٧٦/٢)، «التاريخ الكبير» (٣٤٠/٦)، «التاريخ الصغير» (١٢٣/٢)، «الرياض المستطابة» (٢٢٠)، «الأعلام» (٢٤٠/٢)، «العبر» (٦٢/١)، «الإكمال» (٨٨/٦)، «سير أعلام النبلاء» (٤٦٧/٢)، «طبقات الحفاظ» (١٠) «تذكرة الحفاظ» (٤٢/١)، «روضات الجنات» (٣٨/٨)، «الجرح والتعديل» (٣١٣/٦)، «تهذيب الكمال» (٩٤٥/٢)، «تقريب التهذيب» (٢٧/٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٩٦/١٩)، رقم (٦٥٨).

(٤) هو: عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤي... أبو محمد. وقيل: أبو عبد الرحمن. القرشي. السهمي. أسلم قبل أبيه، وكان من فضلاء الصحابة عالماً بالقرآن، وقرأ الكتب المتقدمة، وكان من أشهر حفاظهم، وأخباره كثيرة لا يتسع المقام للحديث عنه.

وفاته: قيل: توفي سنة (٦٣) وقيل غير ذلك.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣٤٩/٣)، «الإصابة» (١١١/٤)، «الثقات» (٢١١/٣)، «الاستيعاب» (٢٥٦/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٢٦/١)، «الجرح والتعديل» (١١٦/٥)، «تقريب التهذيب» (١/١)، «تهذيب التهذيب» (٣٣٧/٥)، «تهذيب الكمال» (٧١٦/٢)، «شذرات الذهب» (٦٢/١)، «النجوم الزاهرة» (٢٠)، «الوافي بالوفيات» (٣٨٠/١٧).

الْقَوْلُ، وَيُخَزَنَ الْفِعْلُ، وَيُزْفَعُ الْأَشْرَارُ، وَيُوضَعُ الْأَخْيَارُ، وَأَنْ تُقْرَأَ الْمَثْنَاءُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، لَا تُعَيَّرُ، قِيلَ: وَمَا الْمَثْنَاءُ^(١)؟ قَالَ: مَا أَسْتُكْتَبَ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ، قِيلَ لَهُ: فَكَيْفَ يَمَّا جَاءَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: مَا أَخَذْتُمُوهُ عَمَّنْ تَأْمَنُونَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدِينِهِ فَأَعْقَلُوهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَتَعَلَّمُوهُ، وَعَلِّمُوهُ أَبْنَاءَكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ عَنْهُ تُسْأَلُونَ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَكَفَى بِهِ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ^(٢)؛ وَقَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ^(٣): أَوْصِنِي، فَقَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَارْزَعْهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ بِأَمْرٍ بِهِ، أَوْ شَرُّ يَنْهَى عَنْهُ^(٤)، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ أَحْسَنِ النَّاسِ قِرَاءَةً أَوْ صَوْتاً بِالْقُرْآنِ فَقَالَ: «الَّذِي إِذَا سَمِعْتَهُ رَأَيْتَهُ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى»^(٥)، وَقَالَ ﷺ: «أَقْرَأُوا بِالْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَامُ الْقُدْحُ»^(٦)، وَيُضَيِّعُونَ مَعَانِيَهُ، يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ، وَلَا

(١) قال العلامة ابن الأثير: وقيل: إن المثناء هي أن أحبار بني إسرائيل بعد موسى - عليه السلام - وضعوا كتاباً فيما بينهم على ما أرادوا من غير كتاب الله، فهو المثناء، فكان ابن عمرو كره الأخذ عن أهل الكتاب، وقد كانت عنده كتب وقعت إليه يوم اليرموك منهم، فقال هذا لمعرفة بما فيها.
قال الجوهري: «المثناء» هي التي تسمى بالفارسية دُوبتي، وهو الغناء. ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) أخرجه الدارمي (١/ ١٢٣)، باب: من لم ير كتابة الحديث.

(٣) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمع بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن الحرث بن تيم بن سعد بن هذيل أبو عبد الرحمن الهذلي. حليف بني زهرة.
قال له النبي ﷺ في أول الإسلام «إنيك غلام معلم» وقال هو: لقد رأيتني سادس ستة، وما على الأرض مسلم غيرنا، وكان يقول أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة.
توفي سنة: ٣٢، وقيل: ٣٣، وقيل: توفي بالمدينة، وقيل: بالكوفة، والأول أرجح.
ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/ ٤٨٤)، «الإصابة» (٤/ ١٢٩)، «الثقات» (٣/ ٢٠٨)، «الاستبصار» (٦٥، ١٣٩)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٣٣٤)، «الأعلام» (٤/ ١٣٧)، «التاريخ الصغير» (١/ ٦٠)، «الجرح والتعديل» (٥/ ١٤٩)، «العبر» (١/ ٢٥)، «حلية الأولياء» (١/ ٣٧٥)، «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٦١).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٣١) رقم (٨٦٤) وابن المبارك في «الزهد» (ص ١٢) رقم (٣٦) وسعيد بن منصور رقم (٥٠) وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٠).

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٩٥) ولكن عن ابن عباس وأظنه خطأ من الطابع أو الناسخ وزاد نسبته إلى أبي عبيد في «فضائله» والبيهقي في «شعب الإيمان».
(٥) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٤٨٨) رقم (٤١٨٥) عن طاوس مرسلًا.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٣) من حديث ابن عمر وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: وفيه حميد بن حماد بن حواري وثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ ببقية رجاله رجال الصحيح.
(٦) القدح: السهم قبل أن ينطبل ويراش. ينظر: «لسان العرب» (٣٥٤٢).

يَتَأَجَّلُونَهُ»^(١)، وروى أَنَّ أهل اليمن، لَمَّا قدموا أيام أَبِي بَكْرٍ الصديق^(٢) رضي الله عنه سمعوا القُرْآنَ فَجَعَلُوا يَبْكُونَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ»^(٣)، وروى أَنَّ عمر بن الخطاب^(٤) رضي الله عنه قرأ مرة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨] فَأَنَّ أَتَةً عِيدَ مِنْهَا عِشْرِينَ يَوْمًا^(٥)، قال القرطبي في «التذكرة»^(٦): وما تقرَّب

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٠/١)، كتاب: «الصلاة»، باب: ما يجزىء الأمي والأعجمي من القراءة، حديث (٨٣٠)، وأحمد (٣٩٧/٣)، والريابي في «فضائل القرآن» (ص ٢٤٤)، رقم (١٧٤)، والآجري في «أخلاق أهل القرآن» (ص ٩٢)، رقم (٢٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٥٧٦-٥٧٧)، رقم (٢٣٩٩)، كلهم من طريق حميد الأعرج، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً. وأخرجه أحمد (٣٥٧/٣)، وأبو يعلى (١٤٠/٤)، رقم (٢١٩٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٥٧٦-٥٧٧)، رقم (٢٤٠٠) من طريق أسامة بن زيد الليثي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر به. وقد روي هذا الحديث عن ابن المنكدر مرسلًا.

أخرجه عبد الرزاق (٣٨٢/٣) رقم (٦٠٣٤)، وابن أبي شيبة (٤٨٠/١٠)، رقم (١٠٠٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٥٧٥)، رقم (٢٣٩٨)، عن ابن المنكدر، عن النبي ﷺ مرسلًا. (٢) هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي . القرشي. التيمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رسول الله ﷺ.

ولد بعد الفيل بستين وستة أشهر. هو صحابي شهير غني عن التعريف، وقد جاءت ترجمته في مصادر يصعب حصرها في مثل هذا الموضع. توفي يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة (١٣) وله (٦٣ سنة). ينظر ترجمته في: «الاستيعاب» (٢٩٣)، «أسد الغابة» (٣٧/٦)، «الإصابة» (١٠١/٤)، «المغني» (٢٨٦)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٥٢/٢)، «الكنى والأسماء» (٦/١)، «بقي بن مخلد» (٣٠)، «الزهد لوكيع» (٩٩)، «تاريخ الثقات» (١٩٠٦)، «معركة الثقات» (٢٠٩٢)، «الأعلام» (١٠٢/٤)، «تهذيب الكمال» (١٥٨٩/٣)، «تهذيب التهذيب» (٤٣/١٢)، «تقريب التهذيب» (٤٠١/٢)، «تذكرة الحفاظ» (٢/١)، «شرف أصحاب الحديث» (٣٥، ٩٠)، «أصحاب بدر» (٤١)، «التحفة اللطيفة» (٢/ ٣٥٨)، «تاريخ الإسلام» (٩٧/٢) «الرياض المستطابة» (١٤٠)، «صفة الصفوة» (٢٣٥/١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٣-٣٤) من طريق الأعمش عن أبي صالح به.

وذكره الهندي في «كنز العمال» (٤٠٩٧) وعزاه لأبي نعيم.

(٤) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي . أبو حفص. القرشي. العدوي. أمير المؤمنين. الفاروق.

ولد بعد «الفجار الأعظم» بأربع سنين قبل المبعث النبوي بثلاثين سنة، وقيل: يرون ذلك. طعن يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة (٢٣)، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة (٢٤) على أرجح الأقوال. ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٤٥/٤)، «الإصابة» (٢٧٥/٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٣٩٧)، «الاستيعاب» (١١٤٤/٣)، «الجرح والتعديل» (١٠٥/٦)، «تقريب التهذيب» (٥٤٠/٢)، «تهذيب التهذيب» (٤٣٨/٧)، «الكاشف» (٣٠٩)، «تاريخ جرجان» (٧٣٠).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٤٦/٦) وعزاه إلى أبي عبيد في «فضائله».

(٦) ينظر: «التذكرة» (١٢٦/١).

المتقربون إلى الله تعالى بشيء مثل القرآن؛ قال ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ مَسْأَلَتِي، أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ» رواه الترمذي. انتهى.

قُلْتُ: ولفظ الترمذي عن أبي سعيد^(١) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي، أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»، وَ«أَفْضَلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب^(٢).

(١) هو: سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبرج بن عوف بن الحارث بن الخزرج. أبو سعيد الخدري، الأنصاري.

قال ابن الأثير:

كان من الحفاظ لحديث رسول الله ﷺ المكثرين ومن العلماء الفضلاء العقلاء. روى عن أبي سعيد قال: عرضت على رسول الله ﷺ يوم الخندق وأنا ابن ثلاث عشرة، فجعل أبي يأخذ بيدي ويقول: يا رسول الله، إنه غِبْلُ الْعِظَامِ. فردني. توفي سنة «٧٤هـ».

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٤٣/٦)، «الإصابة» (٨٤/٧)، «الاستيعاب» (١٦٧١/٢)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٧٢/٢)، «الأنساب» (٦/٥)، «الإكمال» (٢٩٦/٣)، «تهذيب الكمال» (٣/١٦٠٩)، «تقريب التهذيب» (٤٢٨/٢).

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٤/٥)، كتاب «فضائل القرآن»، باب (٢٥)، حديث (٢٩٢٦)، والدارمي (٢/٤٤١)، كتاب «فضائل القرآن»، باب فضل كلام الله على سائر الكلام، وابن نصر في «قيام الليل» (ص ٧١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤٩/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٦/٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٢٣٨)، كلهم من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري به مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن غريب. والحديث أصله العقيلي في «الضعفاء» بمحمد بن الحسن وقال: لا يتابع عليه.

وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٨٢/٢)، رقم (١٧٣٨): سألت أبي عن حديث رواه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: «من شغله القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب السائلين» قال أبي: هذا حديث منكر، ومحمد بن الحسن ليس بالقوي اهـ. فأعل العقيلي وأبو حاتم هذا الحديث بمحمد بن الحسن. قلت: قال البيهقي: تابعه الحكم بن بشير، ومحمد بن مروان، عن عمرو بن قيس؛ لتتخصر علة الحديث في ضعف وتدليس عطية العوفي.

وللحديث شاهد من حديث عمر بن الخطاب: أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٩٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٣/١)، رقم (٥٧٢)، كلاهما من طريق صفوان بن أبي الصهبا، عن بكير بن عتيق، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، عن جده مرفوعاً به، ومن طريق صفوان أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٦٦/٣)، وقال: قال ابن حبان: هذا موضوع؛ ما رواه إلا صفوان بهذا الإسناد، فأما صفوان، فيروي عن الأثبات ما لا أصل له من حديث الثقات، ولا يجوز الاحتجاج بما انفرد ٤٠.

وعن عبد الله بن عمرو؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَمْ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح^(١). انتهى.

وعمد الأمر التدبر والتفهم، فقلّة القراءة مع التفهم أفضل من كثرتها من غير تفهم، وهذا الذي عليه المحققون، وهو الذي يدلُّ عليه القرآن، وصحيح الآثار، ولولا الإطالة، لأتينا من ذلك بما يثلج له الصدر، وقد ذكر بعضُ شراح «الرسالة»^(٢) في الذي يقرأ القرآن من غير تأمل ولا تفهم، هل له أجر أم لا؟ قولان، وهذا الخلاف، والله أعلم، في غير المتعلّم، والقول بعدم الأجر على ضعفه هو ظاهر ما حكاه عياض^(٣) في «المدارك» عن

= وللحديث شاهد آخر من حديث حذيفة: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣١٣/٧)، عن أبي مسلم عبد الرحمن بن واقد، ثنا سفيان بن عيينة، عن منصور، عن ربعي، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته قبل أن يسألني». وقال أبو نعيم: غريب، تفرد به أبو مسلم.

وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/٤١٣-٤١٤)، رقم (٥٧٣)، من طريق يزيد بن خمير، عن جابر، عن النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى قال: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». أخرجه الترمذي (١٩٨/٥)، كتاب «القراءات»، باب (١٣)، حديث (٢٩٤٩)، وأبو داود (٤٤٣/١)، كتاب «الصلاة»، باب تحزيب القرآن، حديث (١٣٩٤)، وابن ماجه (٤٢٨/١)، كتاب «الصلاة»، باب في كم يستحب يختم القرآن، حديث (١٣٤٧)، والدارمي (٣٥٠/١)، كتاب «الصلاة»، باب في كم يختم القرآن، وأحمد (١٩٥/٢)، وابن حبان (٣٥/٣)، رقم (٧٥٨)، كلهم من طريق قتادة، عن أبي العلاء يزيد بن عبد الله، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه ابن حبان.

(٢) هي «الرسالة القشيرية» في التصوف، للإمام أبي القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيري، الأستاذ الشافعي، المتوفى سنة ٤٦٥هـ، عن تسعة وثمانين عاماً، وهي على أربعة وخمسين باباً، وثلاثة فصول، وقد شرحها القاضي زكريا بن محمد الأنصاري ت ٩١٠، في مجلد مع المتن، سماه «إحكام الدلالة على تحرير الرسالة».

ومن شروحها «الدلالة على فوائد الرسالة» للشيخ الفقيه سديد الدين أبي محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد العلي اللخمي.

وشرحها - أيضاً - المولى علي القاري في مجلدين. ينظر: «كشف الظنون» (٨٨٣).

(٣) هو أبو الفضل عياض - بكسر العين - بن موسى بن عمار بن موسى اليحصبي - بضم الصاد - المالكي، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل، ولد سنة ٤٧٦هـ، ورحل إلى «الأندلس»، وأخذ عن علمائها كأبي الوليد بن رشد، وأبي علي الغساني، وغيرهما، ثم عاد إلى «سبته» وتولى بها التدريس والقضاء، وصار إمام وقته في الحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، كما كان عالماً بالنحو واللغة. ومن أشهر مؤلفاته: كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة»، وكتاب «ترتيب المدارك في طبقات أصحاب مالك». توفي سنة ٥٤٤هـ.

ينظر: «ترتيب المدارك» (١٨/١)، «الفكر السامي» (٥٨/٣) وما بعدها، «شجرة النور» ص ١٤٠.

الشُّبْلِيَّ في قصَّته مع الإمام المقرئ.

وبالجملة فالتدبر والتفهم هو الذي يحصل معه الإنابة والخشوع، وكل خير، ونقل الباجي^(١) في «سُنَنِ الصَّالِحِينَ» عن محمد بن كعب القرظي^(٢) قال: لَأَنْ أَقْرَأَ فِي لَيْلِي حَتَّى أَصْبَحَ بِ «إِذَا زُلْزِلَتْ»، وبالقارعة لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إليَّ من أن أهدِّد القرآن لَيْلِي هَذَا، أو قال: أَثَرُهُ نَثْرًا^(٣)، ونحوه عن مجاهد^(٤) وغيره، وعن ابن عباس قال: «رَكَعَتَانِ مُقْتَصِدَتَانِ فِي تَفَكُّرٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامٍ لَيْلَةٍ وَالْقَلْبُ سَاهٍ^(٥)». انتهى.

قال ابن أبي جَمْرَةَ^(٦): والمرغَّب فيه التدبر في القراءة، وإن قلَّتْ، وهو خيرٌ من كثرة

(١) القاضي أبو الوليد: هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن واث الباجي، أصلهم من «بطلوس»، ثم انتقلوا إلى باجة أعني «باجة» الأندلس، أخذ بالأندلس عن ابن الأصبع، وابن محمد المكي، وابن شاعر، وغيرهم، ورحل سنة ٤٢٦هـ، فأقام بالحجاز مع أبي ذر الهروي ثلاثة أعوام، ثم ارتحل إلى «بغداد»، فدرس الفقه، وسمع الحديث ثم دخل «الشام» ثم «الموصل». له مؤلفات عديدة منها: كتاب «السراج في علم الحجاج»، وكتاب «مسائل الخلاف»، وكتاب «شرح المدونة»، وكتاب «المقتبس» من علم مالك، وكتاب «المهذب في اختصار المدونة»، وكتاب «اختلاف الموطأ»، وكتاب «أحكام الفصول في أحكام الوصول»، وكتاب «المتقى في شرح الموطأ»، وهو اختصار لكتاب «الاستيفاء»، وتوفي سنة ٤٩٤هـ، وقيل سنة ٤٧٤هـ.

ينظر: «الديباج» ص ١٢٠ وما بعدها، و «شجرة النور» ص ١٢١.

(٢) محمد بن كعب القرظي المدني، ثم الكوفي أحد العلماء. قال ابن عون: ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظي. وقال ابن سعد: كان ثقة ورعا كثير الحديث. قيل: مات سنة تسع عشرة ومائة. وقيل: سنة عشرين.

ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (٤٥٢/٢) «تهذيب التهذيب» (٤٢٠/٩)، «تقريب التهذيب» (٢/٢٠٣)، «الكاشف» (٩٢/٣)، «الثقات» (٣٥١/٥)، «طبقات ابن سعد» (٣٧١، ٣٧٠/٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢١٤-٢١٥).

(٤) مجاهد بن جبر، مولى السائب بن أبي السائب، أبو الحجاج المكي، المقرئ، الإمام، المفسر، روى عن ابن عباس وقرأ عليه. قال مجاهد: عرضت على ابن عباس ثلاثين مرة. روى عن الصحابة. وثقه ابن معين وأبو زرعة. ولد سنة ٢١هـ، وتوفي بـ «مكة» وهو ساجد سنة ١٠٢هـ، وقيل: غير ذلك.

ينظر: «الخلاصة» (١٠/٣) (٦٨٥٤)، «صفة الصفوة» (٢/ ٢٠٨-٢١١)، و «ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٣٩-٤٤٠).

(٥) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٢٠١/٨) رقم (٢٢٥٤٤) وعزاه لابن أبي الدنيا في «التفكير».

(٦) عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمره، الأزدي، الأندلسي، أبو محمد: من العلماء بالحديث، مالكي. أصله من «الأندلس»، ووفاته بـ «مصر»، من كتبه «جمع النهاية» اختصر به صحيح البخاري، ويُعرف بمختصر ابن أبي جمره، و «بهجة النفوس» في شرح جمع النهاية، و «المراثي الحسان» في الحديث، و «الرؤيا».

ينظر: «الأعلام» (٨٩/٤)، «البداءة والنهاية» (٣٤٦/١٣).

القراءة بلا تدبر؛ وفائدة التدبر هو أن تعرف معنى ما تتلوه من الآي^(١). انتهى.

وقال الحسن بن أبي الحسن^(٢): إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً تركبونه، فتقطعون به المراحل، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل إلههم من ربهم، فكانوا يتدبرونه بالليل، وينفذونه بالنهار، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: أنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا درسه عملاً، إن أحدهم لينتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته، ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به.

قال ع^(٣): * قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [الفر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، أي: علم معانيه، والعمل به، والقيام بحقوقه ثقیلاً، فمال الناس إلى الميسر، وتركوا الثقيل، وهو المطلوب منهم، وقيل ليوسف بن أسباط^(٤): بأي شيء تدعو، إذا ختمت القرآن؟ فقال: أستغفر الله من تلاوتي؛ لأنني إذا ختمته، ثم تركت ما فيه من الأعمال، خشيئت المقت، فأعدل إلى الاستغفار والتسبيح، وقرأ رجل القرآن على بغض العلماء، قال: فلما ختمته، أردت الرجوع من أوله، فقال لي: اتخذت القراءة عليّ عملاً، اذهب فاقرأه على الله تعالى في ليالك، وانظر ماذا يفهمك منه، قال الغزالي في كتاب «التفكير»: وأما طريق الفكر الذي تطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محمودة، أو التنزه عن صفات مذمومة، فلا يوجد فيه أنفع من تلاوة القرآن بالفكر؛ فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف، والرجاء، والصبر، والشكر، والمحبة، والشوق، وسائر الأحوال المحمودة، وفيه ما يزرع

(١) «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة (٧٦/٤).

(٢) الحسن بن أبي الحسن البصري، مولى أم سلمة، والربيع بنت النضر، أو زيد بن ثابت، أبو سعيد الإمام، أحد أئمة الهدى والسنة. قال ابن سعد: كان عالماً جامعاً رفيعاً ثقة مأموناً عابداً، ناسكاً، كثير العلم فصيحاً جميلاً، وسيماً، ما أرسله فليس بحجة، وكان الحسن شجاعاً من أشجع أهل زمانه. قال ابن علية: مات سنة عشر ومائة. قيل: ولد سنة إحدى وعشرين لستين بقيتا من خلافة عمر. قال أبو زرعة: كل شيء قال الحسن: قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلاً ثابتاً خلا أربعة أحاديث.

ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (٢١٠/١)، «تهذيب الكمال» (٢٥٥/١)، «تهذيب التهذيب» (٢٦٣/٢) و «تقريب التهذيب» (١٦٥/١)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٢١٠/١)، «الكاشف» (٢٢٠/١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩/١).

(٤) أحد الزهاد والعباد، وكان له اليد الطولى في المواعظ والحكم. روى عن الثوري وزائدة بن قدامة وغيرهما. وروى عنه المسيب بن واضح، وعبد الله بن خبيق. نزل الثغور مرابطاً. قال شعيب بن حرب: ما أقدم على يوسف بن أسباط أحداً. وقد وثقه ابن معين. ينظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٢٣٧/٨)، «سير أعلام النبلاء» (١٦٩/٩).

عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد، ويردّد الآية التي هو محتاج إلى التفكّر فيها مرة بعد أخرى، ولو ليلة كاملة، فقراءة آية بتفكّر وفهم خير من ختمه من غير تدبّر وفهم؛ فإن تحت كل كلمة منه أسراراً لا تنحصر، ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة؛ وكذلك حُكْم مطالعة أخبار رسول الله ﷺ، فقد أوتي عليه السلام جوامع الكلم، فكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، لو تأمله العالم حقّاً تأمله، لم ينقطع فيه نظره طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول، وأنظر قوله ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي»^(١)؛ أَحَبُّ مَنْ أَحَبَّتْ، فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَعْمَلْ مَا شِئْتَ، فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ؛ فإن هذه الكلمات جامعة لحكم الأولين والآخرين؛ وهي كافية للمتأملين، ولو وقفوا على معانيها، وغلبت على قلوبهم غلبة يقين، لاستغزقتهم، ولحالت بينهم، وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية. انتهى من «الإحياء».

بَابُ فِي فَضْلِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَإِعْرَابِهِ

قال النبي ﷺ: «أَعْرَبُوا الْقُرْآنَ وَالتَّمَسُّوا عَرَائِيَهُ»^(٢)، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُعْرَبَ. قال أبو العالية^(٣) في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

(١) الرُّوع: القلب والعقل، ووقع ذلك في رُوعي، أي نفسي وخليدي وبالي.

ينظر: «لسان العرب» ١٧٧٨.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٣٦/١١)، رقم (٦٥٦٠)، والحاكم (٤٣٩/٢)، وابن أبي شيبه (٤٥٦/١٠)، رقم (٩٩٦١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٧٧-٧٨) كلهم من طريق عبد الله بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا. وتعقبه الذهبي بقوله: بل أجمع على ضعفه.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٧/٧) وقال: رواه أبو يعلى، وفيه عبد الله بن سعيد المقبري، وهو متروك.

والحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (١/ ٥٥٨-فيض)، وعزاه إلى ابن أبي شيبه، والحاكم، والبيهقي في «شعب الإيمان» ورمز له بالضعف، ووافقه المناوي.

وذكره أيضاً الألباني في «السلسلة الضعيفة».. رقم (١٣٤٥) وقال: ضعيف جداً.

(٣) رُفِعَ - بضم أوله مصغراً - ابن مهران الرياحي - بكسر المهملة - مولا هم، أبو العالية البصري، مخضرم، إمام من الأئمة، صلى خلف عمر، دخل على أبي بكر، روى عن أبي، وعلي، وحذيفة، وعلى خلق. وعنه قتادة، وثابت، وداود بن أبي هند بصريون وخلق. قال عاصم الأحول: كان إذا اجتمع عليه أكثر من أربعة قام وتركهم. قال مغيرة: أول من أدن بداه وراء النهر أبو العالية. قال أبو خلدة: مات سنة =

[البقرة: ٢٦٩] قال: الْحِكْمَةُ: الْفَهْمُ فِي الْقُرْآنِ^(١)، وقال قتادة^(٢): الْحِكْمَةُ: الْقُرْآنُ، وَالْفَقْهُ فِيهِ^(٣).

وقال غيره: الْحِكْمَةُ: تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ^(٤).

وقال الشعبي^(٥): رَحَلَ مَسْرُوقٌ^(٦) إِلَى الْبَصْرَةِ فِي تَفْسِيرِ آيَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الَّذِي يَفْسِّرُهَا رَحَلَ إِلَى الشَّامِ، فَتَجَهَّزْ، وَرَحَلَ إِلَيْهِ: حَتَّى عِلِمَ تَفْسِيرَهَا، وَذَكَرَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٧) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

= تسعين، وهو الصحيح.

ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (٣٣٠/١)، «تهذيب التهذيب» (٢٨٤/٣)، «تقريب التهذيب» (١/٢٥٢) و«الكاشف» (٣١٢/١).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩٠/٣) (٦١٧٩)، وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٤٠/١).

(٢) قتادة بن دُعامة السُّدُوسِي، أَبُو الْخَطَّابِ الْبَصْرِي الْأَكْمَه، أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ، حَافِظُ مَدْلَس. قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: مَا أَتَانِي عِرَاقِي أَحْفَظُ مِنْ قَتَادَةَ. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: قَتَادَةُ أَحْفَظُ النَّاسِ. وَقَالَ ابْنُ مَهْدِي: قَتَادَةُ أَحْفَظُ مِنْ خَمْسِينَ مِثْلَ حَمِيدٍ. قَالَ حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ: تُوْفِيَ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةٍ وَمِائَةٍ، وَقَدْ احْتَجَّ بِهِ أَرْبَابُ الصَّحَاحِ.

ينظر: «طبقات ابن سعد» (١٥٦/٩)، «معرفة الثقات» (١٥١٣)، «سير الأعلام» (٢٦٩/٥)، «الثقات» (٣٢٢/٥)، «تراجم الأخبار» (٢٦٤/٣)، «الحلية» (٣٣٣/٢)، «لسان الميزان» (٣٤١/٧)، «ميزان الاعتدال» (٣٨٥/٣)، «تهذيب الكمال» (١١٢١/٢)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٣٥٠/٢).

(٣) الطبري (٨٩/٣) (٦١٧٧)، وذكره السيوطي في «الدر» (٦١٦/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وذكره ابن عطية الأندلسي في تفسيره (٤٠/١).

(٤) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٤٠/١).

(٥) عامر بن شراحيل الحميري، الشعبي، أبو عمرو الكوفي، الإمام العلم، روى عن كثير من الصحابة، وروى عنه ابن سيرين والأعمش، وكان فقيهاً. قال الشعبي: «ما كتبت سوداء في بيضاء». توفي سنة ١٠٣هـ.

ينظر: «الخلاصة» (٢٢/٢) (٣٢٦٣) ابن سعد (١٧١-١٧٨)، و«المعارف» (ص ٤٤٩-٤٥١)، و«الحلية» (٣١٠/٤).

(٦) مسروق بن الأجدع الهمداني، أبو عائشة الكوفي، الإمام القدوة. عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وطائفة. وعنه: زوجته قمير، وأبو وائل، والشعبي، وخلق. قال أبو إسحاق: حج مسروق فما نام إلا ساجداً على وجهه، وقال ابن المديني: صلى خلف أبي بكر، وقال ابن معين: ثقة لا يسأل عن مثله. قال ابن سعد: توفي سنة ثلاث وستين.

ينظر: «طبقات ابن سعد» (١١٣/٤)، «سير الأعلام» (٦٣/٤)، «تاريخ بغداد» (٢٣٢/١٣)، «معرفة الثقات» (١٧٠٩)، «تراجم الأخبار» (٣٣٠/٣)، «تهذيب الكمال» (١٣٢٠/٣)، «تهذيب التهذيب» (١١٠/١٠) (٢٠٥)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٢١/٣).

(٧) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بين عبد مناف.. أبو الحسن. القرشي. الهاشمي. ابن عم النبي ﷺ.

جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ^(١)، فوصفه بالعلم، فقال له رجل: جُعِلَتْ فِدَاكَ، تصف جابراً بالعلم، وأنت أنت، فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾^(٢) [القصص: ٨٥]، وقال إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ^(٣): مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلاً، وليس عندهم مصباح، فتدخلتهم روعة^(٤) لا يدرون ما في الكتاب، ومَثَلُ الَّذِي يَعْلَمُ التفسيرَ كَرَجُلٍ جَاءَهُمْ بِمِصْبَاحٍ فِيَقْرَءُوا مَا فِي الْكِتَابِ^(٥)، وقال ابن عباس: الذي يقرأ، ولا يفسر كالأعرابي الذي يَهْدُ^(٦) الشَّعْرَ^(٧)، وقال مجاهد: أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ اللَّهُ أَعْلَمُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ^(٨)، وقال الحسن:

= ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح، رابع الخلفاء الراشدين، وزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ ووالد الحسن والحسين، وهو غني عن التعريف، فاضت بذكره كتب التواريخ والسير، قتل في ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة (٤٠).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٩١/٤)، «الإصابة» (٢٦٩/٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٩٢/١)، «الاستبصار» (٣٩٠)، «تاريخ الخلفاء» (١٦٦)، «الطبقات الكبرى» (١٣٧/٩)، «التاريخ الصغير» (١/٤٣٥)، «الجرح والتعديل» (١٩١/٦)، «حلية الأولياء» (٨٧/٢)، «تهذيب الكمال» (٩٧١/٢)، «تهذيب التهذيب» (٣٣٤/٧).

(١) هو: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة أبو عبد الله. وقيل: أبو عبد الرحمن الأنصاري السلمي شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي، ومن فضائله قال: استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسا وعشرين مرة. يعني بقوله: ليلة البعير؛ أنه باع رسول الله ﷺ بغيراً، واشترط ظهره إلى المدينة، وكان في غزوة لهم. توفي سنة ٧٤٠ وقيل ٧٧ وكان عمره: ٩٤ سنة. ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣٠٧/١)، «الإصابة» (٢٢٢/١)، «تجريد أسماء الصحابة» (٧٣/١)، «الاستيعاب» (٢١٩/١)، «الطبقات الكبرى» (٥٦١/٣)، «الاستبصار» (١٥١)، «التاريخ الكبير» (٢/٢٠٧)، «التاريخ الصغير» (٢١/١)، «الجرح والتعديل» (٢٠١٩/٢)، «تهذيب الكمال» (١/١٧٩).

(٢) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٤٠/١).

(٣) إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةِ الْمَزْنِيِّ، أَبُو وَائِلَةَ الْبَصْرِيِّ، الْقَاضِي. عَنْ أَبِيهِ، وَأَنْسَ، وَابْنِ الْمُسَيْبِ. وَعَنْهُ الْأَعْمَشُ، وَأَيُّوبُ، وَالْحَمَادَانُ. وَثَقَهُ ابْنُ سَعْدٍ وَابْنُ مَعِينٍ. قَالَ إِيَّاسُ: مَنْ عَدِمَ فَضِيلَةَ الصَّدَقِ فَقَدْ فُجِعَ بِأَكْرَمِ أَخْلَاقِهِ. وَقَالَ: كُلُّ دِيَانَةٍ أَسَسَتْ عَلَى غَيْرِ وَرَعٍ فَهِيَ هَبَاءٌ. قَالَ خَلِيفَةُ: مَاتَ بِ «وَاسِطٍ» سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ وَمِائَةً.

ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (١٠٨/١)، «تهذيب التهذيب» (٣٩٠/١)، «تقريب التهذيب» (١/٨٧)، و «الكاشف» (١٤٤/١)، «طبقات ابن سعد» (٢٣٤/٧).

(٤) الرُّوعَةُ: الْفَزَعَةُ. ينظر: «لسان العرب» ١٧٧٧.

(٥) ابن عطية (٤٠/١).

(٦) يَهْدُ: سُرْعَةُ الْقِرَاءَةِ، وَمِنْهُ: هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدُهُ هَذَا. ينظر: «لسان العرب» ٤٦٤٣.

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي (٤٠/١).

(٨) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠/١).

والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن أنزلت، وما يعني بها^(١)، وقال النبي ﷺ: «لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَرَى لِلْقُرْآنِ وَجُوهًا كَثِيرَةً»^(٢).

فَصْلٌ فِيْمَا قِيلَ فِي الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهِ وَمَرَاتِبِ الْمُفَسِّرِينَ

رُوي عن عائشة^(٣) رضي الله عنها؛ أنها قالت: «مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفَسِّرُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا آيَا بَعْدَ عَلْمَهُنَّ إِيَّاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

قال * ع^(٤) *: ومعنى هذا الحديث في معيَّبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة معيَّباته ما لم يُعَلِّمَ الله به عباده؛ كوقت قيام الساعة ونحوها، ومنها ما يستقرأ من ألفاظه؛ كعدد النفخات في الصور؛ وكرتبة خلق السموات والأرض.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ»^(٥)، ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله، فيتسوّر عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلوم؛ كالنحو، والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحاة نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد بأجتهاده المبني على قوانين علم ونظر؛ فإن هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه، وكان جلّة من السلف؛ كسعيد بن المسيّب^(٦)، وعامر الشَّعْبِيّ، وغيرهما يعظّمون تفسير القرآن، ويتوقّفون

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠/١).

(٢) ينظر: «إتحاف السادة المتقين» (٥٢٧/٤).

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة: عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي. أم عبد الله. أم المؤمنين - رضي الله عنها - القرشية. التيمية.

أمها: أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية. ولدت بعد البعثة بأربع سنين أو خمسة. توفيت سنة (٥٨) في ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان عند الأكثر، وقيل: سنة (٥٧) ودفنت بالقيع.

ينظر ترجمتها في: «أسد الغابة» (١٨٨/٧)، «الإصابة» (١٣٩/٨)، «أعلام النساء» (٩/٣)،

«الاستيعاب» (١٨٨١/٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٨٦/٢)، «التاريخ الصغير» (١٠٢/١)، «طبقات

ابن سعد» (٣٩/٨)، «حلية الأولياء» (٤٣/٢)، «تهذيب الكمال» (١٦٨٩/٣)، «تهذيب التهذيب» (١٢/

٤٣٣)، «تقريب التهذيب» (٦٠٦/٢)، «الكاشف» (٤٧٦/٣)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٣٨٧/٣)،

«السمط الثمين» (٣٣)، «شذرات الذهب» (٦١/١)، «طبقات الشيرازي» (٤٧)، «العبر» (٦٢/١)،

«بقي بن مخلد» (٤)، «النجوم الزاهرة» (١٥٠/١)، «معجم طبقات الحفاظ» (١٠٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١/١).

(٥) سيأتي تخريجه.

(٦) سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عابد بن مخزوم المخزومي، أبو محمد المدني، =

عنه؛ تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقديرهم، وكان جلة من السلف كثير عدوهم يفسرونه، وهم أبقوا على المسلمين في ذلك رضي الله عن جميعهم.

* ت *: وخرج أبو عيسى الترمذي في «جامعه» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَغْيَ عِلْمٍ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح^(١)، وخرج أيضاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، قال/ أبو عيسى: هذا حديث حسن^(٢)، وخرج عن ع جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ»^(٣)، قال

= الأعرور، رأس علماء التابعين، وفردهم، وفاضلهم وفقههم. ولد سنة خمس عشرة. قال ابن عمر: هو والله أحد المقتدين به. قال قتادة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه. وقال أحمد: مراسلات سعيد صحاح. قال أبو نعيم: مات سنة ثلاث وتسعين. وقال الواقدي: سنة أربع. ينظر: «الخلاصة» (٣٩٠/١)، «طبقات خليفة» ت (٢٠٩٦)، «تاريخ البخاري» (٥١٠/٣)، «تاريخ الإسلام» (٤/٤)، «العبر» (١١٠/١)، «سير أعلام النبلاء» (٢١٧/٤).

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩/٥)، كتاب «التفسير»، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث (٢٩٥٠)، وأحمد (٢٣٣/١)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٣٥/١)، وفي «شرح السنة» (١/١) -٢١١- بتحقيقنا، كلهم من طريق سفيان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

قلت: وعبد الأعلى هو ابن عامر الثعلبي.

قال أبو زرعة: ضعيف الحديث، ربما دفع الحديث وربما وقفه.

وقال أبو حاتم: ليس بقوي.

وقال النسائي: ليس بقوي، ويكتب حديثه.

وقال أحمد: ضعيف الحديث.

ينظر: «ميزان الاعتدال» (٥٣٠/٢)، و «تهذيب التهذيب» (٩٤/٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٩/٥)، كتاب «التفسير»، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث (٢٩٥١)، وأحمد (٢٩٣/١)، والبغوي في «شرح السنة» (٢١٠/١) من طريق عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال الترمذي: حديث حسن اهـ. ومداره على عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، وقد مرت ترجمته.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠/٥)، كتاب «تفسير القرآن»، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث (٢٩٥٢)، وأبو داود (٣٤٤/٢)، كتاب «العلم»، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، حديث (٣٦٥٢)، وأبو يعلى (٩٠/٣)، رقم (١٥٢٠)، والنسائي في «الكبرى» (٣١/٥)، كتاب «فضائل القرآن»، باب من قال في القرآن بغير علم، حديث (٨٠٨٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٣٥/١)، وفي «شرح السنة» (١/١) -٢١١- بتحقيقنا، كلهم من طريق سهيل أخو حزم، عن أبي عمران الجوني، عن جندب بن عبد الله به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم.

أبو عيسى: هكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في هذا في أن يفسر القرآن بغير علم.

وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم؛ أنهم فسروا القرآن، فليس الظنُّ بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم، وقد روي عنهم ما يدلُّ على ما قلنا: إنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم؛ حدثنا الحسين بن مهدي البصري^(١)، حدثنا عبد الرزاق^(٢) عن معمر^(٣) عن قتادة قال: ما في القرآن آية، إلا وقد سمعت فيها بشيء؛ وحدثنا ابن أبي عمر^(٤)، حدثنا سفيان بن عيينة^(٥) عن

(١) الحسين بن مهدي الأبلي - بالضم - أبو سعيد البصري. عن عبد الرزاق وعُبيد الله بن موسى. وعنه الترمذي وابن ماجه قال أبو حاتم: صدوق. مات سنة سبع وأربعين ومائتين.
ينظر: «الخلاصة» (٢٣٢/١)، «تهذيب الكمال» (٢٩٥/١)، «تهذيب التهذيب» (٣٧٢/٢)، «تقريب التهذيب» (١٨٠/١).

(٢) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، أبو بكر الصنعاني، أحد الأئمة الأعلام الحفاظ. قال أحمد: من سمع منه بعد ما ذهب بصره فهو ضعيف السماع. وقال ابن عدي: رحل إليه أئمة المسلمين وثقاتهم، ولم نر بحديثه بأساً، إلا أنهم نسبوه إلى التشيع. وقال أحمد: لم أسمع منه شيئاً، لكنه رجل يعجبه أخبار الناس. مات سنة (٢١١) هـ عن ٨٥ سنة.

ينظر: «تاريخ البخاري الكبير» (١٣٠/٦)، «الجرح والتعديل» (٢٠٤/٦)، «ميزان الاعتدال» (٦٠٩/٢)، «لسان الميزان» (٢٨٧/٧)، «سير الأعلام» (٥٦٣/٩)، «الثقات» (٤١٢/٨)، «تهذيب الكمال» (٢/٢)، «تهذيب التهذيب» (٣١٠/٦)، «خلاصة تهذيب» (١٦١/٢)، «البداية والنهاية» (٢٦٥/١٠).
(٣) معمر بن راشد الأزدي، مولى مولاهم، عبد السلام بن عبد القدوس، أبو غروة البصري ثم اليماني، أحد الأعلام. عن الزهري، وهمام بن منبه، وقتادة، وخلق. وعنه: أيوب، والثوري، وابن المبارك، وخلق. قال العجلي: ثقة صالح. قال النسائي: ثقة مأمون. وضعفه ابن معين في ثابت. توفي سنة (١٥٣) هـ.

ينظر: «نسيم الرياض» (٧٤/١)، «تراجم الأخبار» (٢٥٥/٣)، «تذكرة الحفاظ» (١٧٨/١)، «طبقات ابن سعد» (٣٩٧/٣)، «تاريخ الإسلام» (٣٩٤/٦)، «لسان الميزان» (٣٩٤/٧)، «تهذيب الكمال» (٣/٣)، «تهذيب التهذيب» (٢٤٣/١٠)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٤٧/٣)، «الكاشف» (١٦٤/٣).

(٤) محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، أبو عبد الله الحافظ، نزيل مكة. عن فضيل بن عياض، وأبي معاوية وخلق. وعنه مسلم، والترمذي وابن ماجه وهلال بن العلاء. وثقه ابن حبان. وقال أبو حاتم: صدوق، حدث بحديث موضوع. عن ابن عيينة. قال البخاري: مات سنة ثلاث وأربعين ومائتين.
ينظر: «الخلاصة» (٤٦٨/٢)، «الكاشف» (١٠٧/٣)، «تهذيب التهذيب» (٥١٨/٩).

(٥) سفيان بن عيينة بن أبي عمر بن الهلالي، مولاهم أبو محمد الأعور الكوفي، أحد أئمة الإسلام. روى عن عمرو بن دينار والزهري، وزيد بن أسلم وغيرهم، كان حديثه نحو سبعة آلاف. قال ابن وهب: ما رأيت أعلم بكتاب الله من ابن عيينة. وقال الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، ولد سنة (١٠٧) هـ، وتوفي سنة (١٩٨) هـ.

الأعمش^(١)، قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود، لم أحتج إلى أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن عما سألت. انتهى ما نقلته من الترمذي^(٢).

ثم قال * ع^(٣): فأما صذرُ المفسرين والمؤيد فيهم، فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو تجرد للأمر وكمله وتتبعه العلماء عليه؛ كمجاهد، وسعيد بن جبيرة^(٤)، وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب، وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن، فعن علي بن أبي طالب، وكان علي بن أبي طالب يثني على تفسير ابن عباس، ويحضر على الأخذ عنه، وكان عبد الله بن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «اللهم، فقهه في الدين، وعلمه التأويل»^(٥)، وحسبك بهذه

= ينظر: «الخلاصة» (٣٩٧/١)، (٢٥٩٠)، «الحلية» (٧/ ٢٧٠-٣١٨)، و «المعارف» ص (٥٠٦-٥٠٧)، «الوفيات» (٢/ ٣٩١-٣٩٣).

(١) سليمان بن مهران الكاهلي، مولاهم، أبو محمد الكوفي الأعمش، أحد الأعلام الحفاظ والقراء. قال ابن المديني: له نحو ألف وثلاثمائة حديث. وقال ابن عينة: كان أقرأهم وأحفظهم وأعلمهم. وقال عمرو بن علي: كان يسمى «المُضَحَف»؛ لصدقه. وقال العجلي، ثقة ثبت، يقال: ظهر له أربعة آلاف حديث، ولم يكن له كتاب، وكان فصيحاً وقال النسائي: ثقة ثبت. وعده من المدلسين. قال أبو نعيم: مات سنة ثمان وأربعين ومائة، عن أربع وثمانين سنة.

ينظر: «الثقات» (٣٠٢/٤)، «تهذيب التهذيب» (٢٢٢/٤)، «تقريب التهذيب» (٣٣١/١)، «تاريخ البخاري الكبير» (٣٧/٤)، «الجرح والتعديل» (٦٣/٤)، «سير الأعلام» (٥/٢٢٦).
(٢) ينظر: «سنن الترمذي» (٥/٢٠٠)، كتاب «التفسير».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١/١).

(٤) سعيد بن جبيرة الوالي، مولاهم الكوفي الفقيه، أحد الأعلام. قال اللالكائي: ثقة إمام حجة. قال عبد الملك بن أبي سليمان: كان يختم كل ليلتين. قال ميمون بن مهران: مات سعيد وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه. قتل سنة خمس وتسعين كهلاً؛ قتله الحجاج فما أمهل بعده. قال خلف بن خليفة عن أبيه: شهدت مقتل ابن جبيرة؛ فلما بان الرأس قال: لا إله إلا الله لا إله إلا الله، فلما قالها الثالثة لم يتمها - رضي الله عنه.

ينظر: «تهذيب الكمال» (٤٧٩/١)، «تهذيب التهذيب» (١١/٤)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٣٧٤/١)، «الكاشف» (٣٥٦/١)، «الثقات» (٢٧٥/٤)، «تاريخ البخاري الكبير» (٤٦١/٣)، «الحلية» (٤/٢٧٢).

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٤/١)، كتاب «الوضوء»، باب وضع الماء عند الخلاء، حديث (١٤١)، ومسلم (١٩٢٧/٤)، كتاب «فضائل الصحابة»، باب فضائل عبد الله بن عباس، حديث (١٣٨/٢٤٧٧)، وأحمد (٣٢٧/١)، والنسائي في «الكبرى» (٥١-٥٢)، كتاب «المناقب»، باب عبد الله بن العباس، حديث (٨١٧٧)، وأبو يعلى (٤٢٧/٤)، رقم (٢٥٥٣)، وابن حبان (٥٢٩/١٥)، رقم (٧٠٥٣)، والطبراني في «الكبير» (١١/١٠٤)، رقم (١١٢٠٤)، كلهم من طريق هاشم بن القاسم: ثنا=

الدعوات، ويتلوه عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب^(١)، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاصي.

وكل ما أخذ عن الصحابة، فحسن متقدّم، ومن المبرّزين في التابعين الحسن بن أبي

= ورقاء بن عمر الشكري، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس به. وأخرجه البخاري (٢٠٤/١)، كتاب «العلم»، باب قول النبي ﷺ: «اللهم علمه الكتاب»، حديث (٧٥)، و (١٢٦/٧) كتاب «فضائل الصحابة»، باب ذكر ابن عباس (رضي الله عنهما) حديث (٣٧٥٦)، و (٢٥٩/١٣)، كتاب «الاعتصام»، حديث (٧٢٧٠)، والترمذي (٦٨٠/٥)، كتاب «المناقب»، باب مناقب عبد الله بن عباس، حديث (٣٨٢٤)، والنسائي في «الكبرى» (٥٢/٥)، كتاب «المناقب»، حديث (٨١٧٩)، وابن ماجه (٥٨/١)، المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، حديث (١٦٦)، وأحمد (٢١٤/١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٥١٨/١)، وابن حبان (٥٣٠/١٥)، رقم (٧٠٥٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٩٣/١٠)، رقم (١٠٥٨٨)، كلهم من طريق خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (٢٦٩/١)، والطبراني في «الكبير» (٢١٣/١١)، رقم (١١٥٣١)، كلاهما من طريق سليمان بن بلال، عن حسين بن عبد الله، عن عكرمة، عن ابن عباس به. وأخرجه أحمد (٢٦٦/١)، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٤٩٣-٤٩٤)، وابن حبان (٥٣١/١٥)، رقم (٧٠٥٥)، والطبراني في الكبير (١٠٥٨٧، ١٠٦١٤)، كلهم من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وأخرجه الترمذي (٦٧٩-٦٨٠)، كتاب «المناقب»، باب مناقب عبد الله بن عباس (رضي الله عنه)، حديث (٣٨٢٣)، من طريق عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن عباس قال: دعا لي رسول الله ﷺ أن يؤتيني الحكمة مرتين.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث عطاء، وقد رواه عكرمة، عن ابن عباس.

(١) هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار. أبو المنذر، أبو الطفيل سيد القراء، سيد المسلمين، الأنصاري، النجاري، الخزرجي، المعاي. كان من أصحاب العقبة الثانية، وشهد بدرًا والمشاهد. قال له النبي ﷺ: «ليهنتك العلم يا أبا المنذر» وقال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك». وكان عمر (رضي الله عنه) يسميه: سيد المسلمين. وهو أول من كتب للنبي ﷺ، وأول من كتب في آخر الكتاب: وكتبه فلان بن فلان.

روى عنه من الصحابة: عمر، وكان يسأله عن النوازل، ويتحاكم إليه في المعضلات - وأبو أيوب، وعبادة بن الصامت، وسهل بن سعد، وأبو موسى، وابن عباس، وأبو هريرة، وأنس، وسليمان بن صرد وغيرهم.

مات سنة: ٢٢ في خلافة عمر، وقيل: بقي إلى خلافة عثمان.

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (ت ٣٣)، «الإصابة» (١٦/١)، «الثقات» (٥/٣)، «تقريب التهذيب» (٤٨/١)، «تاريخ ابن معين» (١٥٦٤)، «سير أعلام النبلاء» (٣٨٩/١).

الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعلقمة^(١)، وقد قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية، ويتلوهم عكرمة^(٢)، والضحاك بن مزاحم^(٣)، وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير، وأما السدي^(٤) - رحمه الله تعالى - فكان عامراً الشعبي يطعن عليه، وعلى أبي صالح^(٥)؛ لأنه كان يراهما مقصّرين في النظر، ثم حمل تفسير كتاب الله عز وجلّ عدول كل خلف، وألف الناس فيه كعبد الرزاق، والمفضل، وعلي بن أبي طلحة، والبخاري، وغيرهم، ثم إن محمد بن جرير الطبري - رحمه الله -

(١) علقمة بن قيس بن عبد الله بن علقمة بن سلامان بن كهيل بن بكر بن عوف بن الثّغع النّخعي، أبو شبل الكوفي، أحد الأعلام، مخضرم عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة، وطائفة. وعنه إبراهيم النّخعي، والشّعبي، وسلمة بن كهيل وخلق. قال إبراهيم: كان يقرأ في خمس. وقال ابن المديني: أعلم الناس بابن مسعود علقمة والأسود. قال ابن سعد: مات سنة اثنتين وستين وقال أبو نعيم: سنة إحدى وستين. قيل: عن تسعين سنة.

ينظر: «الخلاصة» (٢٤١/٢)، «تهذيب التهذيب» (٢٧٥/٧)، «تقريب التهذيب» (٣٠/٢)، «الكاشف» (٢٧٧/٢)، «طبقات ابن سعد» (٣٤/٧)، (٢٠٩).

(٢) عكرمة البربري، مولى ابن العباس، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأعلام. روى عن مولاة، وعائشة، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة. قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، رموه بغير نوع من البدعة. ثقة بريء مما يرميه الناس به. وثقه أحمد والنسائي. توفي سنة ١٠٥هـ.

ينظر: «الخلاصة» (٢٤٠/٢) (٤٩٢٨)، «ابن سعد» (٥/٢١٢-٢١٦) «الوفيات» (٣/٢٦٥-٢٦٦) و «الداودي» (١/٣٨٠-٣٨١).

(٣) الضحاك بن مزاحم الهلالي، مولاهم الخرساني، يكنى أبا القاسم. روى عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي سعيد، وغيرهم، وروى عنه عبد الرحمن بن عوسجة وغيره. قال ابن حبان: في جميع ما روى نظر، إنما اشتهر بالتفسير. توفي سنة ١٠٥هـ.

ينظر: «الخلاصة» (٥/٢) (٣١٤٦)، «ابن سعد» (٦/٢١٠-٢١١)، «صفة الصفوة» (٤/١٥٠)، «المعارف» ص (٤٥٧ - ٤٥٨).

(٤) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي مولى قريش، أبو محمد الكوفي، رمي بالشيعة. عن أنس، وابن عباس، وبازان. وعنه أسباط بن نصر، وإسرائيل، والحسن بن صالح. قال ابن عدي: مستقيم الحديث صدوق. قال خليفة: توفي سنة سبع وعشرين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٩٠/١)، و «تهذيب التهذيب» (٣١٣/١)، «تقريب التهذيب» (٧١/١)، (٧٢)، «الكاشف» (١٢٥/١)، «الثقات» (٢٠/٤)، «ميزان الاعتدال» (٢٣٦/١).

(٥) ذكوان المدني، أبو صالح السّمان، روى عن سعد، وأبي الدرداء، وعائشة، وأبي هريرة، وخلق. وروى عنه بنوه سهيل، وعبد الله، وصالح، وعطاء بن أبي رباح، وسمع منه الأعمش ألف حديث. قال أحمد: ثقة ثقة، شهد الدار. قال محمد بن عمر الواقدي: توفي سنة ١٠١هـ.

ينظر: «الخلاصة» (٣١١/١) (١٩٧٣) «ابن سعد» (٥/٢٢٢ و ١٥٨/٦) و «تهذيب التهذيب» (٣/٢١٩-٢٢٠)، و «مرآة الجنان» (٢١١/١).

جمع على الناس أَشْتَاتَ التفسير، وقَرَّبَ البعيد وشفى في الإسناد.

ومن المبرزين في المتأخرين أبو إسحاق الزَّجَّاج^(١)، وأبو عليّ الفارسي^(٢)؛ فإن كَلَامَهُما منخولٌ، وأما أبو بكرُ الثَّقَاش^(٣)، وأبو جعفر النُّحَاس^(٤) - رحمهما الله -، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما، وعلى سَنَنِهِمَا مَكِّي بن أبي طالب^(٥) - رحمه الله -، وأبو العباس المَهْدَوِيُّ^(٦) - رحمه الله - مُتَقَنُّ التَّأْلِيفِ، وكلُّهُم مجتهدٌ مأجور - رحمهم الله - ونُضِرَ وجوهُهُم.

(١) هو: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، كان من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، كان يخرط الزَّجَّاج، ثم مال إلى النحو فلزم المبرد. صنف: «معاني القرآن وإعرابه» و «الاشتقاق» و «فعلت وأفعلت» وغيرها. توفي (٣١١هـ).

ينظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٨٩/٦)، و «النجوم الزاهرة» (٢٠٨/٣)، و «بغية الوعاة» (٤١١/١).
(٢) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو علي الفارسي، النحوي المشهور، أخذ النحو عن أبي إسحاق الزجاج، ثم عن أبي بكر بن السري، وأخذ عنه كتاب سيويه، وانتهت إليه رئاسة علم النحو، مات الفارسي سنة ٣٧٧هـ.

ينظر: «غاية النهاية» (٢٠٧/١)، «طبقات الزبيدي» ص ١٢٠.

(٣) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون الموصلي. ولد سنة (٢٦٦) هـ. وهو إمام أهل العراق في القراءات والتفسير، بلا مدافع. وقد قرأ على ابن أبي مهران، وهارون بن موسى الأخفش، وجماعة. وروى عن أبي مسلم الكجي، ومطين، وآخرين. وروى عنه الدارقطني، وابن شاهين وجماعة. ورحل وطوف من مصر إلى ما وراء النهر. وقد صنف في التفسير، وسماه «شفاء الصدور». قال هبة الله اللاكائي: تفسير النقاش، إشفاء الصدور، ليس شفاء الصدور. توفي في شوال سنة (٣٥١) هـ.

ينظر: «الأعلام» (٨١/٦)، و «وفيات الأعيان» (٤٨٩/١).

(٤) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس: مفسر، أديب، مولده بـ «مصر»، ووفاته بـ «مصر» أيضاً سنة (٣٣٨) هـ، كان من نظراء نفطويه، وابن الأنباري، زار «العراق»، واجتمع بعلمائه، من مصنفاته: «تفسير القرآن»، و «إعراب القرآن»، و «ناسخ القرآن ومنسوخه»، و «شرح المعلقات السبع».

ينظر: «الأعلام» (٢٠٨/١)، «البداية والنهاية» (٢٢٢/١١)، «إنباه الرواة» (١٠١/١).

(٥) أبو محمد، مكي بن أبي طالب القيسي، النحوي المقرئ، كان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية كثير التأليف. صنف: «الكشف عن وجوه القراءات»، و «مشكل إعراب القرآن»، و «الموجز في القراءات» وغيرها. توفي (٤٣٧هـ).

تنظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٢٧٤/٥)، و «بغية الوعاة» (٢٩٨/٢)، و «شذرات الذهب» (٣/٢٦٠).

(٦) أحمد بن عمار، أبو العباس المهدي، أستاذ مشهور، قرأ على محمد بن سفيان، وقرأ عليه غانم بن الوليد، وموسى بن سليمان اللخمي، له: «التفسير المشهور» مات سنة ٤٤٠هـ.

فصل

واختلف الناس في معنى قوله ﷺ: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

ثم قال * ع^(١) * بعد كلام: والذي مال إليه كثير من أهل العلم؛ كأبي عبيد^(٢) وغيره، أن معنى الحديث أنه أنزل على سبع/ لغات لسبع قبائل، ثم اختلفوا في تعيينهم، وأنا ألخص الغرض جهدي بحول الله، فأصل ذلك وقاعدته قريش، ثم بنو سعد بن بكر^(٣)؛ لأن النبي ﷺ قرشي، واسترضع في بني سغد، ونشأ فيهم، ثم ترعرع وشب، وهو يخالط في اللسان كنانة وهذيل وخزاعة وأسدًا وضبةً وألفافها؛ لقربهم من مكة، وتكرارهم عليها، ثم بعد هذه تميمًا وقيسًا ومن أنضاف إليهم وسط جزيرة العرب، فلما بعثه الله تعالى، ويسر عليه أمر الأحرف أنزل عليه القرآن بلغة هذه الجملة المذكورة، وهي التي قسمها على سبعة لها السبعة الأحرف، وهي اختلافاتها في العبارة، قال ثابت بن قاسم: لو قلنا: من هذه الأحرف لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتميم، ومنها لضبة وألفافها^(٤)، ومنها لقيس، - لكان قد أتى على قبائل مضر في مراتب سبعة تستوعب اللغات التي نزل بها القرآن، وهذا نحو ما ذكرناه، وهذه الجملة هي التي

= ينظر: «بغية الوعاة» (١/٣٥١)، ط. دار المعارف، و «غاية النهاية» (١/٩٢).

(١) انظر «المحرر الوجيز» (١/٥٤).

(٢) القاسم بن سلام أبو عبيد البغدادي، أحد أئمة الإسلام فقهاً، ولغة وأدباً، أخذ العلم عن الشافعي، والقراءات عن الكسائي وغيره. قال ابن الأنباري: كان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثاً فيصلّي ثلثه، وينام ثلثه، ويصنف ثلثه. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: عرضت كتاب «الغريب» لأبي عبيد على أبي فاستحسنه، وقال: جزاه الله خيراً. توفي سنة (٢٢٤).

انظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (١/٦٧)، «طبقات ابن سعد» (٧/٣٥٥)، و «إنباه الرواة» (٣/١٢)، و «طبقات الشافعية» للأسنوي ص ١١، «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/٣٠)، «طبقات الفقهاء» للعبادي ص ٢٥.

(٣) بنو سعد بن بكر: هم بطن من هوازن، من قيس عيلان، أصلهم من العدنانية. وهم بنو سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان.

وهم أصحاب غنم، وهم حضنة النبي ﷺ، وقد بعثوا سنة تسع للهجرة ضمام بن ثعلبة وافتدوا إلى رسول الله ﷺ، وحديثه مشهور. ومن أوديتهم: قرن الحبال، ومن مياهم: تقتد.

ينظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص ٤٨١)، و «نهاية الأرب» للنويري (٢/٣٣٥)، و «معجم قبائل العرب» لكحالة (٥١٣).

(٤) اللفيف: القوم يجتمعون من قبائل شتى ليس أصلهم واحداً. وجاءوا ألفافاً، أي لفيفاً. ينظر: «لسان العرب» (٤٠٥٤).

انتهت إليها الفصاحة وسَلِمَتْ لغاتها من الدَّخَلِ^(١)، ويسرها الله لذلك؛ ليظهر آية نهيهِ بعجزها عن معارضة ما أنزل عليه، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب في الحجاز ونَجِدٍ وَتِهَامَةَ، فلم تطرقها الأمم.

فأما اليمن، وهو جنوبي الجزيرة، فأفسدت كلام عربهِ خلطة الحَبَشَةِ والهِنْدِ؛ عَلَى أَنَّ أبا عُبَيْدٍ الْقَاسِمَ بْنَ سَلَامٍ، وأبا الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدَ^(٢) قد ذكرا أَنَّ عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلغاتها.

قال *ع^(٣): * وذلك عندي إنما هو فيما استعملته عرب الحجاز من لغة اليمن؛ كَالْعَرَمِ^(٤) وَالْفَتْاحِ؛ فأما ما انفردوا به؛ كَالزَّخِيخِ^(٥) وَالْقَلُوبِ^(٦)، فليس في كتاب الله منه شيء، وأما ما وإلى العراق من جزيرة العرب؛ وهي بلاد ربيعة وَشَرْقِيَّ الجزيرة، فأفسدت لُغَتَهَا مخالطة الْفُرسِ وَالتُّبَطِ وَنَصَارَى الْجِيَرَةِ وغير ذلك، وأما الذي يلي الشام، وهو شمالي الجزيرة، وهي بلاد آل جَفَنَةَ وغيرهم، فأفسدها مخالطة الرُّوم، وكثير من بني إسرائيل، وأما غربي الجزيرة، فهي جبال تسكن بعضها هُذَيْلٌ وغيرهم، وأكثرها غير معمر، فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات، لم تكدر صفو كلامها أمة من الْعَجَم.

ويقوى هذا المنزَعُ أنه لما اتسع نطاق الإسلام وداخَلَتِ الْأُمَمُ الْعَرَبَ، وتجرَّد أهل المصْرَيْنِ؛ البصرة، والكوفة لحفظ لسان العرب، وكتب لغتها، لم يأخذوا إلا من هذه

(١) الدَّخَلُ: العيب والغش والفساد. ينظر «لسان العرب» (١٣٤٢).

(٢) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، أبو العباس المبرد، إمام العربية بـ «بغداد» في زمانه، أخذ عن المازني، وأبي حاتم السجستاني، له كتاب «الكامل»، و «المقتضب»، و «إعراب القرآن» مات سنة ٢٨٥هـ. ينظر: «بغية الوعاة» (٢٦٩/١)، و «أخبار النحويين البصريين» - لأبي السعيد الصيرفي - ص ١٠٥ ط. الاعتصام.

(٣) «المحرر الوجيز» (٤٦/١).

(٤) قيل: العرم: اسم الوادي (يعني الذي كان به سبأ). وقيل: اسم الخلد الذي نقب السدَّ حتى فتح وسال ماؤه، ففرق ديارهم وأهلك بساتينهم. وقيل: العرم: المُسَنَّة. قال ابن الأعرابي: الْعَرَمُ البرُّ من أسماء الفأرة... وقيل: العرم: المطر الشديد. وخصه بعضهم بالفأر الذكر، وهو الجراد أيضاً.

ينظر: «عمدة الحفاظ»، للسمين الحلبي أحمد بن يوسف ت ٧٥٦هـ، (٧٨/٣)، و «تفسير غريب القرآن»، ابن قتيبة الدينوري ص ٣٥٥.

(٥) الزَّخِيخُ: النار، يمانية، وقيل: هي شدة بريق الجمر والحرِّ والحرير؛ لأن الحرير يبرق من الثياب. ينظر: «لسان العرب» ١٨٢٠.

(٦) الْقَلِيبُ، وَالْقَلُوبُ، وَالْقَلُوبُ، وَالْقَلُوبُ، وَالْقَلُوبُ، وَالْقَلُوبُ، يمانية. ينظر: «لسان العرب» ٣٧١٥.

القبائل الوسيطة المذكورة، ومن كان معها، وتجنّبوا اليمن والعراق والشام، فلم يكتب عنهم حرف واحد، وكذلك تجنّبوا حواضر الحجاز مكّة، والمدينة، والطائف؛ لأنّ السّبيّ والتّجّار من الأمم كثّروا فيها، فأفسدوا اللغة، وكانت هذه الحواضر في مدة النّبي ﷺ سليمة؛ لقلة المخالطة، فمعنى قول النّبي ﷺ: «أُنزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ»، أي: فيه عبارات سبع قبائل؛ بلغة جملتها نزل القرآن؛ فيعبر عن المعنى فيه مرةً بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك؛ بحسب الأفصح، والأوجز في اللفظة؛ ألا ترى أنّ: «فَطَرَ» معناها عند غير قريش ابتداء خلق الشيء وعمله، فجاءت في القرآن، فلم تتجه لأبنِ عبّاس حتى اختصم إليه أعرابيان في بشر، فقال أحدهما/ أنا فَطَرْتُهَا، قال ابنُ عبّاس: ففهمت^٥ ب حينئذٍ موقّع قوله سبحانه: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، وقال أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] حتّى سمعت بنتَ ذي جدن تقول لزوجها: تعال، أفتاحك، أي: أحاكمك^(٢)، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]، فوقف به فتّى، فقال: إن أبي يتخوفني حقّي، فقال عمر: الله أكبر، ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] أي: على تنقّص لهم^(٣)، وكذلك اتفق لقُطَيْبَةُ بن مالِك^(٤)؛ إذ سمع النّبي ﷺ يقرأ في الصلاة: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق: ١٠] ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر^(٥) إلى غير هذا من الأمثلة، فأباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٥٨/٢) (١٦٨٢)، وذكره السيوطي في «الدر» في سورة فاطر (٥/٤٥٨)، وعزاه لأبي عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب».

(٢) أخرجه الطبري في سورة الأعراف (٤/٦) (١٤٨٦٧)، وذكره السيوطي في «الدر» (٣/١٩١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «الوقف والابتداء»، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٣) الطبري (٥٨١/٧) (٢١٦١٨) بنحوه. وذكره السيوطي في «الدر» (٤/٢٢٣)، وعزاه لابن جرير.

(٤) قطبة بن مالك الثعلبي. صحابي له أحاديث. وعنه ابن أخيه زياد بن علاقة فقط.

ينظر: «الخلاصة» (٢/٣٥٤)، «تهذيب التهذيب» (٨/٣٨٩) (٦٧٣)، «تاريخ البخاري الكبير» (٧/١٩١)، «الثقات» (٧/٣٤٧)، «أسماء الصحابة الرواة» ت (٢٢٦).

(٥) أخرجه مسلم (٢/٤١٤- نووي/ دار الحديث)، كتاب «الصلاة»، باب القراءة في الصبح، حديث (١٦٥- ١٦٧/ ٤٥٧)، والترمذي (٢/ ١٠٨- ١٠٩)، كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في القراءة في صلاة الصبح، حديث (٣٠٦)، والنسائي (٢/ ١٥٧)، كتاب «الافتتاح»، باب القراءة في الصبح بقاف، حديث (٩٥٠)، وابن ماجه (١/ ٢٦٨)، كتاب «الصلاة»، باب القراءة في صلاة الفجر، حديث (٨١٦)، وأحمد=

السبعة، وعارضه بها جبريلُ في عَرَصَاتِهِ على الوجه الذي فيه الإعجازُ، وجودةُ الرِّصْفِ^(١)، ولم تقع الإباحة في قوله: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات، جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا، لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضاً أن يبدل هذا وهذا؛ حتى يكون غير الذي نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي ﷺ لِيُوسِّعَ بها على أمته، فقرأ مرةً لِأَبِيٍّ بما عارضه به جبريلُ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً، وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ، فَرَجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ»^(٢).

فَصْلٌ فِي ذِكْرِ الْأَلْفَافِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ

مِمَّا لِللُّغَاتِ الْعَجَمِ بِهَا تَعَلُّقٌ

..... يختلف الناس في هذه المسألة^(٣)،

= (٤/٣٢٢)، والحميدي (٨٢٥)، وابن خزيمة (٥٢٧، ١٥٩١)، كلهم من طريق زياد بن علاقة، عن قطبة بن مالك. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) الرِّصْفُ: ضم الشيء بعضه إلى بعض ونظمه. ينظر: «لسان العرب» (١٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٩/٨)، كتاب «فضائل القرآن»، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، حديث (٤٩٩١)، ومسلم (٥٦١/١)، كتاب «صلاة المسافرين»، باب بيان أن القرآن على سبعة حروف، حديث (٢٧٢٢/٨١٩)، من حديث ابن عباس.

(٣) ذهب أكثر أهل العلم، ومنهم الإمام الشافعي، وابن جرير، وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر، وأبو الحسين بن فارس إلى عدم وقوع لفظ أعجمي في كتاب الله تعالى. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِي وَعَرَبِي﴾ [فصلت: ٤٤]، وقد شدد الشافعي النكير على القائل بعكس ذلك.

وقال أبو عبيدة: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن «كذا» بالنبطية فقد أكبر القول.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - رحمه الله -: ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية والحبشية أو النبطية أو نحو ذلك، إنما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد.

وقال ابن فارس: لو كان فيه من لغة غير العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثلها؛ لأنه أتى بلغات لا يعرفونها.

وذهب آخرون من العلماء إلى وقوعه فيه، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بأن الكلمات السييرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيًّا، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية، وعن قوله تعالى: ﴿أَعْجَمِي وَعَرَبِي﴾ بأن المعنى من السياق: «أكلام أعجمي ومخاطب عربي!» كما استدلوا =

فقال أبو عبيدة^(١) وغيره: إن في كتاب الله تعالى من كل لغة، وذهب الطبري وغيره إلى أن القرآن ليس فيه لفظة إلا وهي عربية صريحة، وأن الأمثلة والحروف التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها توارد اللغتين، فتكلمت العرب والفرس أو الحبشة بلفظ واحد؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ [المزمل: ٦] قال ابن عباس: نشأ بلغه الحبشة: قام من الليل^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، قال أبو موسى الأشعري^(٣): كفلان: ضِعْفَانِ مِنَ الْأَجْرِ بِلِسَانِ

= باتفاق النحاة على أن منع صرف نحو «إبراهيم»، و «سليمان»، و «داود» للعلمية والعجمة. ورد هذا الاستدلال بأن الأعلام ليست محل خلاف، فالكلام في غيرها موجه بأنه إذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس.

وقد اختار السيوطي مذهب القائلين بالوقوع، واستدل له بما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان. وروي مثله عن سعيد بن جبيرة ووهب بن منبه. وكان في ذلك إشارة إلى أن كتاب الله حوى علوم الأولين والآخرين، ونبا كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لئتم إحاطته بكل شيء، فاختر له من كل لغة أعذبتها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب.

وأيضاً فالنبي ﷺ مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ [إبراهيم: ٤] فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم، وإن كان أصله بلغه قومه هو. وثمة مذهب يجمع بين القولين، وهو قول أبي عبيد القاسم بن سلام، فقد قال: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً؛ وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعربتها بألستها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: أعجمية فصادق. ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون.

وللتاج السبكي نظم لهذه الكلمات الأعجمية، وقد زاد عليه كل من الحافظ ابن حجر والسيوطي. ينظر: «الإتقان في علوم القرآن» (٢/ ١٢٥-١٢٩)، و «التجوير في علم التفسير» (٢٠٠-٢٠٢)، وكلاهما للحافظ السيوطي.

(١) معمر بن المثنى التيمي البصري، أبو عبيدة النحوي: من أئمة العلم بالأدب واللغة، ولد في ١١٠هـ قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، كان إباحياً شعوبياً، من حفاظ الحديث، لما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه توفي ٢٠٩هـ، له مؤلفات منها: «مجاز القرآن»، «الشوارد»، «الزروع».

ينظر: «وفيات» (٢/ ١٠٥)، «المشرق» (١٥/ ٦٠٠)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٣٨)، «بغية الوعاة» (٣٩٥)، «السيرافي» (٦٧)، «الأعلام» (٧/ ٢٧٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (١/ ٣١)، (٢)، والبيهقي في «سننه» (٣/ ٢٠)، وذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٤٤٣)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن نصر، وابن المنذر، والبيهقي في «سننه».

(٣) هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار بن حرب بن عامر بن غنم بن بكر بن عامر بن عذب بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر. أبو موسى الأشعري. صحابي مشهور، كان حسن الصوت =

الحبشة^(١)، وكذلك قال ابنُ عَبَّاسٍ فِي الْقَسْوَرَةِ: إِنَّهُ الْأَسَدُ بِلُغَةِ الْحَبْشَةِ^(٢)، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنَ الْأَمْثَلَةِ.

قال * ع^(٣) * : وَالَّذِي أَقُولُهُ إِنَّ الْقَاعِدَةَ وَالْعَقِيدَةَ هِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَلَيْسَ فِيهِ لَفْظَةٌ تَخْرُجُ عَنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، فَلَا تَفْهَمُهَا إِلَّا مِنْ لِسَانِ آخَرٍ، فَأَمَّا هَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ الْعَارِبَةُ الَّتِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهَا بَعْضُ مَخَالَطَةِ لِسَانِ الْأَلْسِنَةِ بِتِجَارَاتٍ وَسَفَرٍ إِلَى الشَّامِ وَأَرْضِ الْحَبْشَةِ، فَعَلِقَتْ الْعَرَبُ بِهَذَا كُلِّهِ أَلْفَاظًا أَعْجَمِيَّةً، غَيَّرَتْ بَعْضُهَا بِالنَّقْصِ مِنْ حُرُوفِهَا، وَجَرَتْ إِلَى تَخْفِيفِ ثِقَلِ الْعُجْمَةِ، وَأَسْتَعْمَلَتْهَا فِي أَشْعَارِهَا وَمَحَاوِرَاتِهَا؛ حَتَّى جَرَتْ مَجْرَى الْعَرَبِيِّ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ، وَوَقَعَ بِهَا الْبَيَانُ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، فَإِنْ جَهَلَهَا عَرَبِيٌّ مَا، فَكَجْهَلَهُ الصَّرِيحُ مِمَّا فِي لُغَةٍ غَيْرِهِ؛ كَمَا لَمْ يَعْرِفْ ابْنُ عَبَّاسٍ مَعْنَى «فَاطِرٍ» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَحَقِيقَةُ الْعِبَارَةِ عَنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَنَّهَا فِي الْأَصْلِ أَعْجَمِيَّةٌ، لَكِنْ اسْتَعْمَلَتْهَا الْعَرَبُ، وَعَرَّبَتْهَا، فَهِيَ عَرَبِيَّةٌ بِهَذَا الْوَجْهِ، وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّبْرِيُّ مِنْ أَنَّ اللَّغَتَيْنِ اتَّفَقَتَا فِي لَفْظَةٍ لَفْظَةً، فَذَلِكَ بَعِيدٌ، بَلْ إِحْدَاهُمَا أَصْلٌ، وَالْأُخْرَى فَرْعٌ فِيهِ. الْأَكْثَرُ؛ لِأَنَّا لَا نَدْفَعُ أَيْضًا جَوَازَ الْإِتْفَاقِ قَلِيلًا شَاذًا.

بَابُ تَفْسِيرِ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ السُّورَةِ وَالْآيَةِ

هُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ الْكِتَابُ، وَهُوَ الْفُرْقَانُ، وَهُوَ الذِّكْرُ، فَالْقُرْآنُ: مُصَدَّرٌ مِنْ قَوْلِكَ: قَرَأَ الرَّجُلُ، إِذَا تَلَا، يَفْرَأُ قُرْآنًا وَقِرَاءَةً.

١٦ / وَقَالَ قَتَادَةُ: الْقُرْآنُ: مَعْنَاهُ التَّأْلِيفُ، قَرَأَ الرَّجُلُ إِذَا جَمَعَ وَأَلْفَ قَوْلًا، وَبِهَذَا فَسَّرَ قَتَادَةُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [الْقِيَامَةُ: ١٧] أَيْ: تَأْلِيفَهُ^(٤)، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ

= بِالْقُرْآنِ، وَلَهُ رَوَايَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَثِيرَةٌ تُوْفِي سَنَةَ ٤٢ أَوْ ٤٤ وَلَهُ نِيفٌ وَسِتِّينَ سَنَةً. يَنْظُرُ تَرْجُمَتُهُ فِي: «أَسَدُ الْغَابَةِ» (٣٠٦/٦)، «الْإِصَابَةُ» (١١٩/٤)، «الْإِسْتِيعَابُ» (١٧٦٢/٤)، «تَجْرِيدُ أَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ» (٢٠٦/٢)، «الْأَنْسَابُ» (٢٦٦/١)، «الْكُنَى وَالْأَسْمَاءُ» (٥٧/١)، «تَذَكُّرَةُ الْحَفَظِ» (١/٢٣).

(١) يَنْظُرُ: الطَّبْرِيُّ (٣١/١) (١)، وَقَدْ ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» (٢٦١/٦)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣١/١) (٤)، وَذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» (٤٦١/٦)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥١/١).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٨/١) (١١٩)، وَذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» (٤٦٨/٦)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

أَقْوَى؛ أَنْ الْقُرْآنَ مُصَدَّرٌ مِنْ قَرَأَ؛ إِذَا تَلَا، وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ^(١) يَزِيحُ عِثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [البسيط]

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانِ الشُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا^(٣)
أي: وقراءة.

وَأَمَّا الْكِتَابُ، فَهُوَ مُصَدَّرٌ مِنْ كَتَبَ، إِذَا جَمَعَ؛ وَمِنْهُ قِيلَ: كَتَيْبَةٌ لِاجْتِمَاعِهَا؛ وَمِنْهُ
قَوْلُ الشَّاعِرِ: [البسيط]

..... وَأَكْتُبُهَا بِأَسْيَارٍ^(٤)

(١) هو: حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مائة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار. أبو الوليد، وأبو المضرب، وأبو الحسام، وأبو عبد الرحمن الأنصاري. الخزرجي. النجاري.

شاعر النبي ﷺ. وهو صحابي شهير، وقد جاء في الصحيحين عن البراء؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ: «اهْجُم» أَوْ «هَاجِم»، وَجَبْرِيلُ مَعَكَ.

وفاته: قيل: توفي قبل الأربعين وقيل غير ذلك.

ينظر ترجمته في: «تجريد أسماء الصحابة» (١/١٢٩)، «الاستيعاب» (١/٣٤١)، «أسد الغابة» (٢/٥)، «الإصابة» (٢/٨)، «الثقات» (٣/٧١)، «تقريب التهذيب» (١/١٦١)، «تهذيب التهذيب» (٢/٢٤٧)، «تهذيب الكمال» (١/٢٤٨)، «الجرح والتعديل» (٣/١٠٢٦)، «شذرات الذهب» (١/٤١).

(٢) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس. أبو عبد الله وأبو عمرو. القرشي. الأموي. ذو النورين. أمير المؤمنين. ولد بعد عام الفيل بست سنين. وهو ثالث الخلفاء الراشدين ومجهز جيش العسرة، وهو الذي تستحي منه ملائكة الرحمن، وهو المقتول ظلماً، غني عن التعريف، كتبت في سيرته الكتب، وتغير وجه التاريخ بمقتله، والله سبحانه نسأل العوده إلى أصل الإسلام الصافي قبل الممات بفضله أمين. توفي يوم ٢٢ ذي الحجة سنة ٣٥ وقيل: غير ذلك.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/٥٨٤)، «الإصابة» (٤/٢٢٣)، «الزهد» لوكيع (١/٥٢١)، «التبصرة والتذكرة» (١/١٣١)، «التعديل والتجريح» (١٠٤٣)، «بقي بن مخلد» (٢٨).

(٣) وهو في «ديوانه» ص ٢١٦، و «لسان العرب» (عنن)، و (ضحا)، و «الدر المصون» (١/٤٦٦)، والذهبي في «التاريخ» كما في «خزانة الأدب» (٩/٤١٨)، ونسبه البغدادي لأوس بن مغراء، وكذلك في المقاصد النحوية (٤/١٧)، وكثير بن عبد الله النهشلي في «الدر» (٥/٢١٤)، وبلا نسبة في «إصلاح المنطق» ص ٢٩٠.

وللبيت رواية أخرى لصدره، وهي: هذا سراققة للقرآن يدرسه. وقوله: «ضَحَّوْا»... البيت أي: ذبحوه كالأضحية؛ وذلك أنهم قتلوه في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة. والشَّمَطُ: بياض الشعر من الرأس يخالط سواده. وكأنه قال: بأشمط ظاهر الخير.

(٤) هذا جزء من عجز بيت، وهو:

لا تأسمنن فسزانيا خلوت به على بعيرك..... =

أَيَّ: أَجْمَعَهَا.

وأما الْفُرْقَان، فهو أيضاً مصدر؛ لأنه فَرَّقَ بين الحقِّ والباطل، والمؤمن والكافر فِرْقَاناً وَفُرْقَاناً.

وأما الذِّكْر؛ فسمي بذلك لأنه ذكر به الناس آخرتهم وَإِلَاهَهُمْ، وما كانوا في غَفْلَةٍ عنه، فهو ذِكْرٌ لهم، وقيل: سمي بذلك، لأن فيه ذِكْرَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، والأنبياء، وقيل: سمي بذلك؛ لأنه ذِكْرٌ وَشَرَفٌ لمُحَمَّدٍ ﷺ وقومه وسائر العلماء به.

وأما السُّورَةُ، فإن قريشاً كُلُّهَا ومن جاورها من قبائل العرب؛ كهذيل، وسعد بن بكر، وكنانة يقولون: سُورَةٌ؛ بغير همز، وتميم كلها وغيرهم يهزمون.

فأما من همز، فهي عنده كَالْبَقِيَّةِ من الشيء، والقطعة منه التي هي سُورٌ وسُورَةٌ مِنْ أَسَارٍ، إِذَا أَبْقِيَ؛ ومنه سُورُ الشراب. وأما من لا يهمز، فمنهم من يراها من المعنى المتقدم إلا أنها سهلت همزتها، ومنهم من يراها مشبهة بسورة البناء، أي: القطعة منه؛ لأن كل بناء فإنما بني قطعة بعد قطعة، فكل قطعة منها سورة، فكان سور القرآن هي قطعة بعد قطعة؛ حتى كمل منها القرآن، ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة من المجد والمُلْك: سُورَةٌ؛ ومنه قول النابغة الذبياني^(١) للنعمان بن المُنْذِرِ^(٢) [الطويل]:

= والبيت منسوب لسالم بن دارة الفزاري في «الكامل» (٩٨٨)، و «خزانة الأدب» (٥٣١/٥)، وفيها «على قلوبك»، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢٠٥/١)، وبلا نسبة في «اللسان» (كتب)، و «تاج العروس» (١٠٣/٤). ولبيت رواية أخرى كما في «شرح ديوان الحماسة»، وهي:

وإن خلوت به في الأرض وحدكما فاحفظ قلوبك واكتبها بأسيار وقصة البيت أن بني فزارة كانت ترمي بغشيان الإبل، فهجاهم سالم بقصيدة مطلعها:

يا صاحبي أَلَمَّا بِي عَلَى الدَّارِ بَيْنَ الْهَشُورِ وَشَطِي ذات أَمَارِ
(١) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، الغطفاني المضري؛ أبو أمامة، شاعر جاهلي. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة، كان أحسن شعراء العرب ديباجة، عاش عمراً طويلاً. توفي في (١٨) ق هـ.

ينظر: «شرح شواهد المغني» (٢٩)، «معاهد التنصيص» (٢٣٣/١)، «الأغاني» (٣/١١)، و «جمهرة» (٥٢٤٢٦)، و «نهاية الأرب» (٥٩/٣)، و «الشعر والشعراء» (٣٨)، «الأعلام» (٥٤/٣).

(٢) النعمان الثالث بن المنذر الرابع بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، أبو قابوس، من أشهر ملوك «الحيرة» في الجاهلية. كان داهية مقداماً. وهو ممدوح النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، وحاتم الطائي. وهو صاحب إفاد العرب على كسرى، وباني مدينة «النعمانية» على ضفة دجلة اليمنى، وصاحب يومي البؤس والنعيم. توفي سنة (١٥) قبل الهجرة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ^(١) فكان الرتبة أنبت حتى كملت.

وأما الآية، فهي العلامة في كلام العرب، ولما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها، وعلى عجز المتحدثي بها، سميت آية، هذا قول بعضهم، وقيل: سميت آية؛ لما كانت جملة وجماعة كلام؛ كما تقول العرب: جئنا بآيتنا، أي: بجماعتنا، وقيل: لما كانت علامة للفضل بين ما قبلها وما بعدها، سُمِّيَتْ آيةً.

* ت *: وقوله ﷺ في الصحيح: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ...» الحديث^(٢)، و «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ»^(٣)، وآيَةُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ شُهُودُ الْعِشَاءِ» يقوي القول الأول، والله أعلم، وهذا هو الراجح في مختصر الطبري، قال: والآية العلامة، وذلك أظهر في العربية والقرآن، وأصح القول أن آيات القرآن علامات للإيمان، وطاعة الله تعالى، ودلالات على وحدانيته وإرسال رسله، وعلى البعث والنشور، وأمور الآخرة، وغير ذلك مما تضمنته علوم القرآن. انتهى.

= انظر: «حمزة الأصفهاني» (٧٣-٧٤)، «الصحيح» (٣٤٠/٢)، «ابن خلدون» (٢/٢٦٥)، «الأعلام» (٤٣/٨).

(١) البيت في ديوانه (٢٨)، «ديوان المعاني» (١٦/١)، و «المصون» (١٥٤)، و «البحر المحيط» (١/٢٤٢)، و «تفسير القرطبي» (١/٦٥)، و «الدر المصون» (١/١٥٣)، «اللسان» (سور) (٣/٢١٤٨). والمعنى: أعطاك رفعة وشرفاً ومنزلة، وجمعها (سور)، أي: رَفَع.

(٢) أخرجه البخاري (١١١/١)، كتاب «الإيمان»، باب علامة المنافق، حديث (٣٣)، و (٥/٣٤١-٣٤٢)، كتاب «الشهادات»، باب من أمر بإنجاز الوعد، حديث (٢٦٨٢)، (٥/٤٤١)، كتاب «الأدب»، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، حديث (٦٠٩٥)، ومسلم (١/٧٨)، كتاب «الإيمان»، باب بيان خصال المنافق، حديث (١٠٧/٩٥)، والترمذي (١٩/٥)، كتاب «الإيمان»، باب ما جاء في علامة المنافق، حديث (٢٦٣١)، والنسائي (٨/١١٧)، كتاب «الإيمان»، باب علامة المنافق، وأحمد (٢/٣٥٧، ٣٩٧، ٥٣٦)، وأبو عوانة (١/٢٠، ٢١)، وأبو يعلى (١١/٤٠٦)، رقم (٦٥٣٣)، وابن الجوزي في «مشيخته» (ص ٥٩) من طرق، عن أبي هريرة به.

(٣) أخرجه البخاري (١٤١/٧)، كتاب «مناقب الأنصار»، باب حب الأنصار من الإيمان، حديث (٣٧٨٤)، ومسلم (١/٨٥)، كتاب «الإيمان»، باب الدليل على أن حب الأنصار من الإيمان، حديث (٧٤/١٢٨)، والنسائي (٨/١١٦)، كتاب «الإيمان»: باب علامة الإيمان، وأبو يعلى (٧/١٩٠-١٩١)، رقم (٤١٧٥)، والبيهقي في «شرح السنة» (٧/٢٤٠-بتحقيقنا)، من حديث أنس مرفوعاً.

بَابُ فِي الاسْتِعَاذَةِ

قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] معناه: إذا أردت أن تقرأ، فأوقع الماضي موقع المستقبل؛ لثبوته، وأجمع العلماء على أن قول القارئ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ليس بآية من كتاب الله، وأجمعوا على استحسان ذلك، والتزامه عند كل قراءة في غير صلاة.

واختلفوا في التعوذ في الصلاة؛ فابن سيرين^(١) والنخعي^(٢) وقوم يتعوذون في كل ركعة، ويمثلون أمر الله سبحانه بالاستعاذة على العموم في كل قراءة، وأبو حنيفة^(٣)

(١) محمد بن سيرين الأنصاري مولاهم، أبو بكر البصري، إمام وقته. عن مولاه أنس، وزيد بن ثابت، وعمران بن حصين، وأبي هريرة، وعائشة، وطائفة من كبار التابعين. وعنه الشعبي، وثابت، وقتادة، وأيوب، ومالك بن دينار، وسليمان التيمي، وخالد الحذاء، والأوزاعي وخلق كثير. قال أحمد: لم يسمع من ابن عباس. وقال خالد الحذاء: كل شيء يقول ثبت عن ابن عباس إنما سمعه من عكرمة أيام المختار. قال ابن سعد: كان ثقة مأموناً، عالياً، رفيعاً، فقيهاً، إماماً، كثير العلم. وقال أبو عوانة: رأيت ابن سيرين في السوق فما رآه أحد إلا ذكر الله تعالى. وقال بكر المزني: والله ما أدرنا من هو أروع منه. وروي أنه اشترى بيتاً، فأشرف فيه على ثمانين ألف دينار، فعرض في قلبه منه شيء فتركه. قال حماد بن زيد: مات سنة عشر ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٤١٢/٢)، «تهذيب التهذيب» (٢١٤/٩)، «الكاشف» (٥١/٣)، «تاريخ البخاري الكبير» (٩٠/١)، «الوافي بالوفيات» (١٤٦/٣).

(٢) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران الكوفي، الفقيه يرسل كثيراً عن علقمة، وهمام بن الحارث، والأسود بن يزيد، وأبي عبيدة بن عبد الله، ومسروق، وخلق. وعنه الحكم، ومنصور، والأعمش، وابن عون، وزبيد وخلق. وكان لا يتكلم إلا إذا سُئِلَ. قال مغيرة: كنا نهاب إبراهيم كما يهاب الأمير. وقال الأعمش: كان إبراهيم يتوقى الشهرة، ولا يجلس إلى الأسطوانة. وقيل: إنه لم يسمع من عائشة. قال أبو نعيم: مات سنة ست وتسعين. وقال عمرو بن علي: سنة خمس آخر السنة. وولد سنة خمسين، وقيل سنة سبع وأربعين.

ينظر: «الخلاصة» (٥٩/١، ٦٠)، «تاريخ البخاري الكبير» (٣٣٥/١)، «الجرح والتعديل» (١٤٦/٢)، «الثقات» (٢٥/٦)، «لسان الميزان» (١٢٦/١).

(٣) النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه. ثم انقطع للتدريس والافتاء، وامتنع عن القضاء ورعاً، كان قوي الحجّة، ومن أحسن الناس منطقاً، كريماً في أخلاقه. وقال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة، ولد سنة (٨٠) هـ، وتوفي سنة (١٥٠) هـ.

انظر: «تاريخ بغداد» (٣٢٣/١٣)، «النجوم الزاهرة» (١٢/٢)، «الأعلام» (٣٦/٨).

والشافعي^(١) يتعوّذان/ في الركعة الأولى من الصلاة، ويريان قراءة الصلاة كلّها كقراءة ٦ ب واحدة، ومالك - رحمه الله - لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة، ويراها في قيام رمضان، ولم يحفظ عن النبي ﷺ أنّه تعوذ في صلاة.

وأما لفظ الاستعاذة، فالذي عليه جمهور الناس هو لفظ كتاب الله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، وأما المقرءون، فأكثرُوا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله، وفي الجهة الأخرى؛ كقول بعضهم: أَعُوذُ بِاللَّهِ الْمَجِيدِ مِنَ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ، ونحو هذا مما لا أقول فيه: نعمت البدعة، ولا أقول: إنه لا يجوز، ومعنى الاستعاذة الاستجارة والتحيز إلى الشيء على وجه الامتناع به من المكروه.

وأما الشيطان، فأختلف في اشتقاقه^(٢)، فقال الحذّاق: هو فَيْعَالٌ من شَطَنَ، إذا بعد؛

(١) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن الشافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف جد النبي ﷺ. وشافع بن السائب هو الذي ينسب إليه الشافعي، لقبي النبي ﷺ في صغره، وأسلم أبوه السائب يوم «بدر»؛ فإنه كان صاحب راية بني هاشم، وكانت ولادة الشافعي بقرية من الشام يقال لها «غزة». قاله ابن خلكان وابن عبد البر. وقال صاحب التنقيب: بـ «منى» من مكة، وقال ابن بكار: بـ «عسقلان»، وقال الزوزني: بـ «اليمن»، والأول أشهر، وكان ذلك في سنة خمسين ومائة، وهي السنة التي مات فيها الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) حمل إلى مكة وهو ابن ستين، ونشأ بها، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم سلمه أبوه للتفقه إلى مسلم بن خالد مفتي مكة، فأذن له في الإفتاء. وهو ابن خمسة عشر سنة، فرحل إلى الإمام مالك بن أنس بـ «المدينة»، فلزمه حتى توفي مالك (رحمه الله) ثم قدم «بغداد» سنة خمسة وتسعين ومائة، وأقام بها ستين، فاجتمع عليه علماؤها، وأخذوا عنه العلم ثم خرج إلى «مكة» حاجاً، ثم عاد إلى «بغداد» سنة ثمان وتسعين ومائة، فأقام بها شهرين أو أقل، فلما قتل الإمام موسى الكاظم خرج إلى «مصر»، فلم يزل بها ناشراً للعلم، وصنف بها الكتب الجديدة، وانتقل إلى رحمة الله (تعالى) يوم الجمعة سلخ رجب سنة أربع ومائتين، ودفن بالقرافة بعد العصر في يومه.

ينظر: «ابن هداية الله» ص ١١، «سير أعلام النبلاء» (١/١٠)، «التاريخ الكبير» (٤٢/١)، «طبقات الحفاظ» (ص ١٥٢)، «تذكرة الحفاظ» (١/٣٦١).

(٢) اختلف أهل العربية في اشتقاق «الشيطان»، فقال جمهورهم: هو مشتق من «شطن يَشْطُنُ» أي: بعد؛ لأنه بعيد من رحمة الله تعالى، وأنشدوا: [الوافر]
نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوَى شَطُوفُ قَبَائِثَ وَالْفُؤَادُ بِهَا رَهِينُ
وقال أمية بن أبي الصلت: [الخفيف]

أَيُّمَا شَاطِئِنِ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُنْقَى فِي السُّجْنِ وَالْأَكْبَالِ
وحكى شيخ النحاة سيويه: «تشيطن» أي فعل فعل الشياطين، فهذا كله يدل على أنه من شطن؛ لثبوت النون وسقوط الألف في تصاريف الكلمة، ووزنه على هذا «فيعال».

وقيل: هو مشتق من «شاط بشيط» أي: هاج واحترق. ولا شك أن هذا المعنى موجود فيه، فأخذوا=

لأنه بعد عن الخير والرحمة، وأما الرحيم، فهو فَعِيلٌ بمعنى مَفْعُولٍ؛ كَقَتِيلٍ وَجَرِيحٍ، ومعناه: أنه رُجِمَ باللعنة والمَقَت وعدم الرحمة.

بَابُ فِي تَفْسِيرِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

روي أن رجلاً قال بحضرة النبي ﷺ: «تَعَسَّ الشَّيْطَانُ»؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَتَعَاطَمُ عِنْدَهُ وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَصِيرَ أَقْلًا مِنَ الدُّبَابِ»^(١)، وَالبَسْمَلَةُ تِسْعَةُ عَشَرَ حَرْفًا، قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ رَوَايَةَ بَلَّغْتَهُمْ أَنَّ مَلَائِكَةَ النَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدر: ٣٠] إِنَّمَا تَرْتَبُ عَدَدَهُمْ عَلَى حُرُوفٍ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لِكُلِّ حَرْفٍ مَلَكٌ، وَهُمْ يَقُولُونَ فِي كُلِّ أَفْعَالِهِمْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فَمِنْ هُنَا هِيَ قُوَّتُهُمْ، وَبِاسْمِ اللَّهِ اسْتَضَلُّوا^(٢).

قال * ع^(٣) *: وهذا من ملح التفسير، وليس من متين العلم.

* ت *: ولا يخفى عليك لين ما بلغ هؤلاء، ولقد أغنى الله تعالى بصحيح

= بذلك أنه مشتق من هذه المادة، لكن لم يسمع من تصاريفه إلا ثابت النون محذوف الألف، كما تقدم. ووزنه على هذا «فعلان». ويرتّب على القولين: صرفه وعدم صرفه إذا سمى به، وأما إذا لم يسم به فإنه منصرف البتة؛ لأن من شرط امتناع فعلان الصفة ألا يؤنث بالتاء، وهذا يؤنث بها، قالوا: شيطانة. ينظر: «الدر المصون»، للسمين الحلبي (١/ ٤٨-٤٩). بتصرف.

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٧١٤)، كتاب «الأدب»، باب (٧٧)، حديث (٤٩٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٤٢)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول إذا عثرت دابته، حديث (١٠٣٨٨)، كلاهما من طريق خالد الحذاء، عن أبي تميم، عن أبي المليح، عن رجل قال: كنت رديف النبي ﷺ فذكره. وأخرجه الحاكم (٤/ ٢٩٢) من طريق يزيد بن زريع: ثنا خالد الحذاء، عن أبي تميم، عن رديف رسول الله ﷺ به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ورفيف رسول الله ﷺ الذي لم يسمه يزيد بن زريع، عن خالد سماه غيره أسامة بن مالك والد أبي المليح بن أسامة.

ووافقه الذهبي، وزاد: «ورواه محمد بن حمدان، عن خالد، عن أبي تميم، عن أبي المليح بن أسامة عن أبيه. اهـ. والطريق الذي أشار إليه الذهبي:

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ١٤٢)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول إذا عثرت به دابته، حديث (١٠٣٨٩)، من طريق أحمد بن عبدة، عن محمد بن حمدان به. وأخرجه أحمد (٥/ ٥٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٦/ ٤٠١- بتحقيقنا)، من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن عاصم الأحول، عن أبي تميم الهجيمي، عن عمن كان رديفه.

(٢) الضَّلَاعَةُ: القوة وشدة الأضلاع، والضليع: العظيم الخلق الشديد، يقال: ضليعٌ بَيْنُ الضَّلَاعَةِ.

ينظر: «لسان العرب» (٢٥٩٩).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/ ٦١).

الأحاديث وحُسْنُهَا عن موضوعاتِ الورَّاقين، فجزى الله نقاد الأمة عنا خيراً.

وما جاء من الأثر عن جابر وأبي هريرة مما يقتضي بظاهره أن البسملة آية من الفاتحة يرده صحيح الأحاديث؛ كحديث أنس، وأبي بن كعب، وحديث: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»^(١) ونحوها، ولم يحفظ قط عن النبي ﷺ، ولا عن الخلفاء بعده؛ أنهم يسملون في الصلاة^(٢).

(١) أخرجه مالك (٨٤/١)، كتاب «الصلاة»، باب القراءة خلف الإمام، الحديث (٣٩)، وأحمد (٢/٢٨٥)، ومسلم (٢٩٧/١)، كتاب «الصلاة»، باب وجوب قراءة الفاتحة، الحديث (٣٩ و٤٠)، وأبو داود (١/٥١٢-٥١٣-٥١٤)، كتاب «الصلاة»، باب من ترك قراءة الفاتحة، الحديث (٨٢١)، والترمذي (٢٥/٢)، كتاب «الصلاة»، باب لا صلاة إلا بالفاتحة، الحديث (٢٤٧)، والنسائي (٢/١٣٥-١٣٦)، كتاب «الصلاة»، باب ترك قراءة البسملة في الفاتحة، والبخاري في «جزء القراءة» (ص ٤)، وابن ماجة (٢/١٢٤٣)، كتاب «الأدب»، باب ثواب القرآن، حديث (٣٧٨٤)، والدارقطني (١/٣١٢) وابن خزيمة (١/٢٥٣)، والبيهقي (٢/٣٩) عن أبي هريرة.

ولفظ مالك عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبي هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، هي خداج غير تمام» قال: فقلت: يا أبا هريرة إني أحياناً أكون وراء الإمام، قال: فغمز ذراعي، ثم قال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»؛ قال رسول الله ﷺ: «أقرءوا، يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله تعالى: حمدني عبدي». الحديث.

(٢) ذهب أكثر أهل العلم من الصحابة، فمن بعدهم إلى ترك الجهر بالتسمية، بل يُسرُّ بها، منهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم، وهو قول إبراهيم النخعي، وبه قال مالك، والثوري، وابن المبارك، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي.

وذهب قوم إلى أنه يُجهر بالتسمية للفاتحة والسورة جميعاً، وبه قال من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وأبو الزبير، وهو قول سعيد بن جبَّير، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإليه ذهب الشافعي. وروى في الحديث أن النبي ﷺ وأبا بكر يبدءون وعمر وعثمان كانوا يفتتحون القراءة بـ «الحمد لله رب العالمين» معناه: أنهم كانوا يبدءون بقراءة فاتحة الكتاب قبل السورة، وليس معناه: أنهم كانوا لا يقرءون «بسم الله الرحمن الرحيم». وكان الشافعي يرى أن يُبدأ «بسم الله الرحمن الرحيم» وأن يجهر بها إذا جهر بالقراءة. قال العلامة أحمد شاكر: ومن فقه أبي عيسى الترمذي أن عقد الخلاف في البابين (١٨٠)، (١٨١) بين الجهر بالبسملة وترك الجهر بها، ولم يعقد بين أصل قراءتها وتركها. أما أئمة القراءات، فإنهم جميعاً اتفقوا على قراءة البسملة في ابتداء قراءة كل سورة، سواء الفاتحة أو غيرها من السور سوى «براءة» ولم يرد عن واحد منهم أبداً إجازة ابتداء القراءة بدون التسمية. قال ابن الجزري في «طبيته».

بَسْمَلٌ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ (ب) س (ن) ص ف (د) م (ش) ق (ر) ج ا وصل (ف) ش ا وعن خلف (العاشر) فاسكت فصل والخلف (ك) م (ح) م (ج) لا (الأزرق) إلى أن قال: وفي ابتداء السورة كلٌ بسماً.

وقال صاحب «الشاطبية»: ولا بد منها (أي البسملة) في ابتدائك سورة.

*ع^(١): * والباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ متعلّقة عند نحاة البصرة باسم تقديره: ابتدائي مستقر أو ثابت باسم الله، وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره: ابتدأت باسم الله، وأسم: أصله سَمَوْ؛ بكسر السين، أو سَمَوْ؛ بضمها، وهو عند البصريين مشتق من السُمُو^(٢).

* ت *: وهو العلو والارتفاع.

= والحرف الأول في كلمة من البيتين يرمز لقارئ أو راوٍ، فالبسمة آية في كل سورة عند الأكثرين، وهؤلاء هم أهل الرواية المنقولة بالسماع والتلقي شيخاً عن شيخ في التلاوة والأداء، وقد اتفقوا جميعاً على قراءتها أول الفاتحة، وإن وصلت بغيرها، وجميع المصاحف التي كتبها الخليفة الثالث عثمان وأقرها الصحابة دون ما عداها كتبت فيها البسمة في أول كل سورة، سوى «براءة»، وأن الصحابة (رضوان الله عليهم) حين جمعوا القرآن في المصاحف جردوه من كل شيء غيره، فلم ياذنوا بكتابة أسماء السور ولا أعداد الآي ولا «آمين»، ومنعوا أن يجرؤ أحد على كتابة ما ليس في كتاب الله في المصاحف، حرصاً منهم على الحفاظ عليه، فهل يعقل مع هذا كله أن يكتبوا مائة وثلاث عشرة بسمة زيادة على ما أنزل على رسول الله ﷺ؛ ألا يدل دلالة قاطعة منقولة بالتواتر العمل المؤيد بالكتابة المتواترة على أنها آية من القرآن في كل موضع كتابة فيه؟!!

تنظر المسألة في: «الأم» للشافعي (٢١٣/١)، «شرح المذهب» (٢٨٨/٣)، «حلية العلماء ومعرفة مذاهب الفقهاء» (١٠٢/٢)، «فتح الوهاب» للشيخ زكريا (٤٠/١)، «الحاوي» للماوردي (١٠٤/٢)، «روضة الطالبين» (٣٤٧/١)، «بدائع الصنائع» (٢٠٣/١)، «المبسوط» (١٥/١)، «الهداية» (٤٨/١)، «شرح فتح القدير» (٢٥٣/١، ٢٥٤)، «الاختيار» (٥١/١)، «الحجة على أهل المدينة» (٩٦/١)، «الكافي» لابن عبد البر ص (٤٠)، «المغني» لابن قدامة (١٥١/٢)، «كشاف القناع» (٣٣٥/١)، «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف» (٤٨/٢)، «بداية المجتهد» لابن رشد (٩٦-٩٧)، «نيل الأوطار» (٢٢٢-٢٣٢)، «فتح العلام» ص (١٩٥)، «سبل السلام» (٢٤١/١)، «شرح البهجة» (١/١)، «الجمال على المنهج» (٣٤٥/١)، «مختلف الرواية» ص (٤١٢)، «الأوسط» (٣/ ١١٩-١٢٣).

(١) «المحرر الوجيز» (٦١/١).

(٢) اشتقاق الاسم عند المحققين من النحويين من السمو، وهو الارتفاع، ومحل مرتفع فهو ظاهر. والاسم يظهر المسمى عند السامع؛ فاشتق من السمو لذلك، وقد قيل: إنما اشتق الاسم من السمو؛ لكون الكلام على ثلاثة أقسام. وضع لكل قسم عبارة، وكان الاسم المقدم؛ فأعطي أرفع العبارات، وكان الحرف المتأخر؛ إذ لا معنى له في ذاته، فأعطي أحط العبارات، وكان الفعل واسطة بينهما فتوسط اسمه.

وهذه قوم إلى أن اشتقاق الاسم من السمة، وهي العلامة، والاسم جعل دلالة على المسمى، وهذا تبطله صناعة العربية؛ إذ لو كان مشتقاً من السمة لقل في تصغيره: وسيم، ولا يقال ذلك إنما يقال في تصغيره سمي، وكذلك في جمعه أسماء برد لام الفعل. والتكبير والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها، فصح أن اشتقاقه من السمو.

ينظر: «العلوم المستودعة في السبع المثاني» (ج ٢)، و «الصاوي على الخريدة» (٦-٧).

قال * ص^(١) *: والاسم: هو الدالُّ بالوضع. على موجود في العيان؛ إن كان محسوساً، وفي الأذهان؛ إن كان معقولاً من غير تعرض ببنيته للزمان، ومدلوله هو المسمى^(٢)، والتسمية جعل ذلك اللفظ دليلاً على المعنى، فهي أمور ثلاثة متباينة، فإذا أسندت حكماً إلى لفظ اسم، فتارة يكون حقيقة؛ نحو: زيد؛ اسم ابنك، وتارة يكون مجازاً وهو حيث يطلق الاسم، ويراد به المسمى؛ كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]، و ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، وتأول السُّهَيْلِيُّ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾؛ على إقحام الاسم، أي: سبِّح ربك، وإنما ذكر الاسم حتى لا يخلو التسبيح من/ اللفظ ١٧ باللسان؛ لأن الذكر بالقلب متعلقه المسمى، والذكر باللسان متعلقه اللفظ، وتأول قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ﴾ [يوسف: ٤٠]؛ بأنها أسماء كاذبة غير واقعة على الحقيقة؛ فكانهم لم يعبدوا إلا الأسماء التي اخترعوها. انتهى.

وقال الكوفيون: أصل اسم وشم من السَّمة، وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له، والمكتوبة التي لفظها الله أبهر أسمائه تعالى وأكثرها استعمالاً، وهو المتقدم لسائرهما في الأغلب، وإنما تجيء الآخر أوصافاً، وحذفت الألف الأخيرة من الله لئلا يشكل بخط «اللات»، وقيل: طرحت تخفيفاً.

(١) ينظر: «المجيد في إعراب القرآن المجيد» لإبراهيم بن محمد الصفاقسي ص (٤١).

(٢) في حقيقة الاسم عند المتكلمين خلاف مشهور، فذهب الأشعرية إلى أنه عين المسمى. وذهبت المعتزلة إلى أنه غير المسمى، وقالت الأشعرية وطائفة من المتكلمين: إن الكلام في الاسم والمسمى يعرفك حقيقة صفات معبودك، فتصل بذلك إلى تصحيح توحيدك، فإذا لم ينظر الإنسان ويستدل فكيف يصل إلى المعرفة التي كلفها؟! لكن منع الشافعي رضي الله عنه، وابن حبل، وأكثر الفقهاء، والمحدثين (رضي الله عنهم) طريق الكلام في الاسم والمسمى. حتى قال الشافعي: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له.

وعلى كل، فطريق المتكلمين غير طريق الفقهاء والمحدثين؛ فإن الفقهاء والمحدثين أخذوا الأمور بالتسليم والنقل، والمتكلمون ركبوا إلى النقل طريق النظر بالعقل، فأقاموا صناعة غير معهودة في السلف، وقالوا: نفتح بها طريق النظر؛ إذ السلف كانوا لقرب عهدهم بالنبوة ولاشتغال أفكارهم بالنظر في ملكوت السماء والأرض مستغنيين عن هذه الصناعة؛ إذ كانت الأدلة راسخة في قلوبهم، وطرق الاستدلال نيرة في عقولهم، فلما ذهب ذلك الجيل الجليل وفترت الدواعي، وفشت البدع بسوء النظر، وجب أن يحز طريق النظر، وتنهج مسلك العبر، وتبين الأدلة الصحيحة من الفاسدة، وتضان عقائد الخلق عن تشويش المبتدعة والمارقة، فتكلموا بما لم يعهد من السلف الكلام فيه، فمن العلماء من يؤثره ويراه عين الصواب، ومنهم من يجتنبه ويجعله عين الضلال، ومنهم من يتوقف فيه، ومنهم من يرتضي منه أسلوباً دون غيره من الأساليب. انظر: «العلوم المستودعة في السبع المثاني» ١٩ خ.

وَالرَّحْمَنُ^(١): صفةٌ مبالغيةٌ من الرحمة، معناها: أنه انتهى إلى غاية الرحمة، وهي صفة تختصُّ باللَّهِ تعالى، ولا تطلق على البشر، وهي أبلغ من فَعِيلٍ، وفَعِيلٌ أبلغ من فَاعِلٍ؛ لأن رَاحِمًا يقال لمن رَحِمَ ولو مرةً واحدة، وَرَحِيمًا يقال لمن كَثُرَ منه ذلك، والرحمن النهايةُ في الرخمة^(٢).

(١) ينظر: «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للإمام القرطبي، (١/٦١: ٩٢).

(٢) قال الشيخ أبو حيان: «وكان القياس الترقى كما تقول: عالم نحير، وشجاع باسل، لكن أردف الرحمن الذي يتناول جلائل النعم وأصولها، ليكون كالتممة والرديف؛ ليتناول ما دق منها وما لطف، واختاره الزمخشري».

ينظر: «البحر المحيط» (١/١٢٨).

تَفْسِيرُ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ

بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قال ابن عباس وغيره: إنها مكية^(١)؛ ويؤيد هذا أن في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، والحجر مكية بإجماع، وفي حديث أبي بن كعب أنها السبع المثاني^(٢).

ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كانت قط في الإسلام صلاة بغير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وروي عن عطاء بن يسار^(٣) وغيره؛

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٧٨/١)، وابن كثير (٨/١) عن ابن عباس، وقتادة، وأبي العالية. والسيوطي في «الدر» (١/ ١٩ - ٢٠) عن علي وقتادة. وقال الحافظ في «الفتح» (٩/٨): إن الفاتحة مكية، وهو قول الجمهور.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٧/٥)، كتاب «تفسير القرآن»، باب سورة الحجر، حديث (٣١٢٥)، (١٥٥/٥)، كتاب «فضائل القرآن»، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، حديث (٢٨٧٥)، والنسائي (١٣٩/٢)، كتاب «الافتتاح»، باب تأويل قول الله (عز وجل): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، حديث (٩١٤)، وفي «التفسير» (١/ ٥٢٣ - ٥٢٤)، رقم (٢٢٥)، والطبري في «تفسيره» (١٤٢/٩)، وأحمد (٢/ ٤١٢ - ٤١٣)، والدارمي (٢/ ٤٤٦)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١١٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص ٨٦)، رقم (١٦٥)، وأبو يعلى (١١/ ٣٦٧ - ٣٦٨)، رقم (٦٤٨٢)، وابن خزيمة (٢٥٢/١)، رقم (٥٠٠، ٥٠١)، وابن حبان (٣/ ٥٣)، رقم (٧٧٥ - الإحسان)، والحاكم (١/ ٥٥٧)، والبيهقي (٢/ ٣٧٥ - ٣٧٦)، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب به. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وصححه ابن خزيمة وابن حبان.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثنوي» (٢١/١) وزاد نسبه إلى أبي عبيد، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبي ذر الهروي في «فضائل القرآن».

(٣) عطاء بن يسار الهلالي، أبو محمد المدني، أحد الأعلام. عن مولاه ميمونة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبي ذرٍّ وخلق. وعنه أبو سلمة، وحبيب بن أبي ثابت، وأبو جعفر الباقر، وعمر بن دينار، وخلق. قال النسائي: ثقة. قال الهيثم بن عدي: توفي سنة سبع وتسعين. وقال عمرو بن علي: سنة

أنها مدنية^(١)، وأما أسماؤها فلا خلاف أنه يقال لها فاتحة الكتاب، واختلف هل يقال لها أم الكتاب؟ فكره ذلك الحسن بن أبي الحسن، وأجازته ابن عباس وغيره^(٢).

وفي تسميتها بـ «أُمُّ الْكِتَابِ» حديث رواه أبو هريرة^(٣)، واختلف هل يقال لها: «أُمُّ الْقُرْآنِ»؟ فكره ذلك ابن سيرين^(٤)، وجوزوه جمهور العلماء.

وسميت «الْمَثَانِي»؛ لأنها تتلى في كل ركعة^(٥)؛ وقيل: لأنها استثنيت لهذه الأمة.

وأما فضل هذه السورة، فقد قال رسول الله ﷺ في حديث أبي بن كعب؛ أنها لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الفرقان مثلها^(٦)، وروي أنها تعدل ثلثي القرآن، وهذا العدل إما أن يكون في المعاني، وإما أن يكون تفضيلاً من الله تعالى لا يعلل؛ وكذلك يجيء عدل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وعدل: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ [الزلزلة: ١] وغيره.

= ثلاث ومائة.

ينظر: «تهذيب الكمال» (٩٣٨/٢)، و «تهذيب التهذيب» (٣١٧/٧)، و «تقريب التهذيب» (٢٣/٢)، و «سير الأعلام» (٤٤٨/٤).

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣٧/١)، والماوردي في «تفسيره» (٤٥/١)، والسيوطي في «الدر» (١/٢٠)، وعزاه لوكيع في «تفسيره». كلهم عن مجاهد. وابن كثير (٨/١) عن أبي هريرة، ومجاهد، وعطاء بن يسار، والزهري. وقال ابن كثير: والأولى أشبه «أي أنها مكية»، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً (٦/٨). وذكره الماوردي في «تفسيره» (٤٦/١)، وابن كثير (٨/١). وقال الحافظ في «الفتح» (٦/٨): ويأتي في تفسير «الحجر» حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أم القرآن هي السبع المثاني» ولا فرق بين تسميتها بأم القرآن، وأم الكتاب، ولعل الذي كره ذلك وقف عند لفظ «الأم».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٧/٥)، كتاب «التفسير»، باب ومن سورة الحجر، حديث (٣١٢٤)، وأبو داود (٤٦١/١)، كتاب «الصلاة»، باب فاتحة الكتاب، حديث (١٤٥٧) من طريق ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب والسبع المثاني». وأخرجه البخاري (٢٣٢/٨) بلفظ: «أم القرآن هي السبع، والقرآن العظيم».

وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٣/ ١٣- بتحقيقنا)، وقال: هذا حديث صحيح، وأراد بأم القرآن فاتحة الكتاب، وسميت بأم القرآن؛ لأنها أصل القرآن، وأم كل شيء أصله، وسميت مكة أم القرى كأنها أصلها ومعظمها، وقيل: سميت أم القرآن، لأنها تتقدم القرآن، وكل من تقدم شيئاً فقد أمه.

(٤) ينظر: الماوردي في «تفسيره» (٤٦/١)، وابن كثير (٨/١)، والحافظ في «الفتح» (٦/٨)، والسيوطي في «الدر» (٢٠/١)، وعزاه لابن ضريس في «فضائل القرآن».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٣/١) طبعة أحمد شاكر.

(٦) تقدم تخريجه قريباً.

* ت * : ونحو حديث أَبِي حَدِيث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى^(١)؛ إِذْ قَالَ لَهُ ﷺ: «أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ. رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه. انتهى من «سِلَاحِ الْمُؤْمِنِ» تأليف الشيخ المحدث أبي الفتح تقي الدين محمد بن علي بن همام^(٢) - رحمه الله -.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

الْحَمْدُ: معناه الثناء الكامل، والألف واللام فيه لاسْتِغْرَاقِ الجنس من المحامد، وهو أعم من الشكر؛ لأنَّ الشكر إنما يكون على فِعْلٍ جميل يسدى إلى الشاكر، والحمد المجرَّد هو ثناء بصفات المحمود.

قال ص^(٣) * : وهل الحمد بمعنى الشكر أو الحمد أعمُّ، أو الشكر ثناء على الله بأفعاله، والحمد ثناء عليه بأوصافه؟ ثلاثة أقوال. انتهى.

قال الطبري^(٤): الحمد لله: ثناء أثنى به على نفسه تعالى، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا به عليه؛ فكانه قال: قولوا: الحمد لله، وعلى هذا يجيء: قولوا: ﴿إِيَّاكَ﴾، ٧ ب وَ ﴿أَهْدِنَا﴾.

(١) أبو سعيد بن المُعَلَّى بن لُؤْذَانَ بن حبيب بن عدي بن زيد بن ثعلبة بن مالك بن زيد مَنَاة الأنصاري، اسمه رافع، له أحاديث، انفرد له البخاري بحديث. وعنه حفص بن عاصم. قال الزيايدي: مات سنة ثلاث وسبعين.

ينظر: «الخلاصة» (٢١٩/٣)، و «تهذيب التهذيب» (١٠٧/١٢)، و «التاريخ الكبير» (٣٤/٩).

(٢) «سِلَاحِ الْمُؤْمِنِ» لتقي الدين أبي الفتح محمد بن محمد بن علي بن همام، المصري، الشافعي، المتوفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة. اشتهر في حياته بالغرناطي. أوله: الحمد لله المنعم على خلقه بجميع آلائه. إلخ، بوبه على واحد وعشرين باباً، وقد اختصره الذهبي محمد بن أحمد الحافظ المتوفى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. ينظر: «كشف الظنون» (٩٩٤/٢)، (٩٩٥).

(٣) «المجيد» ص ٥٠.

(٤) «تفسير الطبري» (١٣٩-١٤٠)، وقد استدلل أبو جعفر على حذف ما تعرفه العرب في أحاديثها بقول الشاعر: [الوافر]

واعلم أنني سأكون رمساً إذا سار النواعج لا يسير
فقال السائلون لمن حفرتم؟ فقال المخبرون لهم: وزير
ثم قال: يريد بذلك، فقال المخبرون لهم: الميت وزير، فأسقط الميت؛ إذ كان قد أتى من الكلام بما دل على ذلك...».

قال: وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه، وهو كثير.

والرب؛ في اللغة: المعبود، والسيد المالك، والقائم بالأمور المصلحة لما يفسد منها، فالرب على الإطلاق هو رب الأرباب على كل جهة، وهو الله تعالى.

والعالمون: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، يقال لجملته: عالم، ولأجزائه من الإنس والجن وغير ذلك عالم، وعالم، وبحسب ذلك يجمع على العالمين، ومن حيث عالم الزمان متبدل في زمان آخر، حسن جمعها، ولفظه العالم جمع لا واحد له من لفظه، وهو مأخوذ من العلم والعلامة؛ لأنه يدل على موجد؛ كذا قال الزجاج^(١)، قال أبو حيان^(٢): الألف واللام في العالمين للاستغراق، وهو جمع سلامة، مفردة عالم، اسم جمع، وقياسه ألا يجمع، وشد جمعها أيضاً جمع سلامة؛ لأنه ليس بعلم ولا صفة.

* م: * وذهب ابن مالك^(٣) في «شرح التسهيل» إلى أن «عالمين» اسم جمع لمن يعقل، وليس جمع عالم؛ لأن العالم عام، و«عالمين» خاص، قلت: وفيه نظر. انتهى.

وقد تقدم القول في الرحمن الرحيم.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: الدين في كلام العرب على أنحاء، وهو هنا الجزاء يوم الدين، أي: يوم الجزاء على الأعمال والحساب بها؛ قاله ابن عباس^(٤) وغيره؛ مدينيين: محاسبين^(٥)، وحكى أهل اللغة: دِنْتُهُ بِفَعْلِهِ دَيْنًا؛ بفتح الدال، ودِينًا؛ بكسرها: جزئته؛

(١) «معاني القرآن وإعرابه» لأبي إسحاق الزجاج (٤٦/١).

(٢) «البحر المحيط» (١٣٢/١)، وينظر «المجيد» ص (٥٣).

(٣) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبائي، أبو عبد الله، جمال الدين، أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في حيان بـ «الأندلس» سنة ٦٠٠ هـ، وانتقل إلى دمشق، فتوفي فيها سنة (٦٧٢) هـ. من كتبه: «الألفية» وهو أشهرها في النحو، و «تسهيل الفوائد» في النحو أيضاً، وكذلك «الكافية الشافية» أرجوزة في نحو ثلاثة آلاف بيت، و «إيجاز التعريف» في الصرف، و «العروض». ينظر: «الأعلام» (٢٣٣/٦)، «بغية الوعاة» (٥٣)، «آداب اللغة» (١٤٠/٣)، و «طبقات السبكي» (٥/٢٨).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٩٢/٩) (٢٥٨٨٩)، وذكره السيوطي في «الدر» (٦٥/٥) عن ابن عباس، والقرطبي (١٢٥/١).

(٥) أخرجه ابن جرير (٤٩١/١٠) برقم (٢٩٣٨٣)، عن قتادة، و (٤٩١/١٠) رقم (٢٩٣٨٤)، عن السدي. وذكره السيوطي في «الدر» (٥١٩/٥)، والقرطبي (١٢٥/١).

ومنه قول الشاعر: [الكامل]

وَأَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ وَأَعْلَمُ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ^(١)
«إِيَّاكَ نَعْبُدُ»: نطق المؤمن به إقرار بالربوبية، وتذلل وتحقيق لعبادة الله؛ وقدم
«إِيَّاكَ» على الفعل أهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم، واختلف النحويون في «إِيَّاكَ»^(٢)،
فقال الخليل^(٣): «إِيَّا»: اسم مضمّر أضيف إلى ما بعده؛ للبيان لا للتعريف، وحكى عن
العرب: «إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السَّنَيْنِ، فَإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوَابِ»، وقال المبرد: إِيَّاءُ: اسمٌ مبهم أضيف
للتخصيص لا للتعريف، وحكى ابن كيسان^(٤) عن بعض الكوفيّين أَنَّ «إِيَّاكَ» بكماله اسم

- (١) ينظر: «مجاز القرآن» (٢٣/١)، «الكامل» (٤٢٦/١)، «إعراب ثلاثين سورة» لابن خالويه (٢٤١)، «الجمهرة» (٣٠٦/٢)، «الخزانة» (٢٣٠/٤)، «جمهرة الأمثال» للعسكري (١٦٩)، «المخصص» (١٧/١٥٥)، «تفسير الطبري» (١٥٥/١)، «القرطبي» (١٠١/١)، «الدر المصون» (٧٢/١)، «اللسان والتاج» (دين).
(٢) اختلف النحويون في «إِيَّا» هل هو من قبيل الأسماء الظاهرة أو المضمرة؟ فالجمهور على أنه مضمّر، وقال الزجاج: هو اسم ظاهر. وقال ابن درستويه. إنه بين الظاهر والمضمّر. وقال الكوفيون: مجموع «إِيَّا» ولو أحققها هو الضمير. والقائلون بأنه ضمير اختلفوا فيه على أربعة أقوال:
أحدها: أنه كله ضمير.

والثاني: أن «إِيَّا» وحده ضميره، وما بعده اسم مضاف إليه يبين ما يراد به من تكلم، وغيبة، وخطاب.
والثالث: أن «إِيَّا» عماد، وما بعده هو الضمير، وشذت إضافته إلى الظاهر في قولهم: «إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السَّنَيْنِ، فَإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوَابِ» بإضافة «إِيَّا» إلى الشوَاب. وهذا يؤيد قول من جعل الكاف والهاء والياء في محل جر إذا قلت: إِيَّاكَ، إِيَّاه، إِيَّاي.

- ينظر: «الدر المصون» (٧٣/١)، و «همع الهوامع» (٦١/١)، و «الكتاب» (٣٥٥/٢)، و «شرح الكافية» (١٢/٢)، و «سر صناعة الإعراب» (٣١١/١)، و «شرح المفصل» (٩٨/٣)، و «الإنصاف» (٦٩٥/٢).
(٣) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، الفراهيدي، الأزدي، اليحمدي، أبو عبد الرحمن، ولد سنة (١٠٠) هـ في البصرة. من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، عاش فقيراً صابراً. قال النضر بن شميل: ما رأى الرائون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسه. فكر في ابتكار طريقة في الحساب تسهله على العامة؛ فدخل المسجد وهو يعمل فكره؛ فصدمة سارية وهو غافل، فكانت سبب موته سنة (١٧٠) هـ بـ «البصرة». من كتبه «العين»، و «معاني الحروف»، و «العروض»، و «النغم».

ينظر: «وفيات الأعيان» (١٧٢/١)، «إنباه الرواة» (٣٤١/١)، «نزهة الجليس» (٨٠/١)، «الأعلام» (٢/٣١٤).

- (٤) محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن المعروف بـ «ابن كيسان»: عالم بالعربية من أهل «بغداد»، أخذ عن المبرد وثعلب، من كتبه «المهذب» في النحو، «غريب الحديث»، «معاني القرآن»، «المختار في علل النحو» توفي من (٢٩٩) هـ.

ينظر: «إرشاد الأريب» (٢٨٠/٦)، «معجم المطبوعات» (٢٢٩). «نزهة الألبا» (٣٠١)، «شذرات الذهب» (٢٣٢/٢)، «كشف الظنون» (١٧٠٣)، «مصباح الكتاب»، «الأعلام» (٣٠٨/٥).

مضمر، ولا يعرف اسم مضمر يتغير آخره غيره، وحكي عن بعضهم أنه قال: الكاف والهاء والياء هو الاسم المضمر، لكنها لا تقوم بأنفسها، ولا تكون إلا متصلات، فإذا تقدمت الأفعال جعل «إيّا» عماداً لها، فيقال: إيّاك، وإيّاها، وإيّاي، فإذا تأخرت، اتصلت بالأفعال، واستغني عن «إيّا».

و ﴿نَعْبُدُ﴾: معناه: نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة، والطريق المذلل يقال له معبّد، وكذلك البعير.

و ﴿نُسْتَعِينُ﴾؛ معناه نطلب العون منك في جميع أمورنا، وهذا كله تبرّ من الأصنام.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

وقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا﴾: رغبة؛ لأنها من المربوب إلى الرب، وهكذا صيغ الأمر كلها، فإذا كانت من الأعلى، فهي أمر.

والهداية؛ في اللغة: الإرشاد، لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد وكلها إذا تأملت راجعة إلى الإرشاد، فالهdy يجيء بمعنى خَلَقَ الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] و ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، و ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَخْبَتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٥] الآية، قال أبو المعالي^(١): فهذه الآيات لا يتجه جلها إلا على خلق الإيمان في القلب، وهو محض الإرشاد^(٢).

١٨ وقد جاء الهدى بمعنى الدعاء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: داع/ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

(١) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد، العلامة إمام الحرمين، أبو المعالي بن أبي محمد الجويني، ولد سنة (٤١٩)، وتفقه على والده، وقعد للتدريس بعده، وحصل أصول الدين وأصول الفقه على أبي القاسم الإسفراييني الإسكافي، وصار إماماً، حضر درسه الأكابر، وتفقه به جماعة من الأئمة. قال السمعاني: كان إمام الأئمة على الإطلاق، ومن تصانيفه: النهاية والغياني والإرشاد، وغيرهما. مات سنة (٤٧٨).

انظر: «طبقات ابن قاضي شهاب» (١/٢٥٥)، «طبقات السبكي» (٣/٢٤٩)، «وفيات الأعيان» (٢/٣٤١)، و «الأنساب» (٣/٤٣٠)، «شذرات الذهب» (٣/٣٥٨)، «النجوم الزاهرة» (٥/١٢١)، و «معجم البلدان» (٢/١٩٣).

(٢) ينظر: ص ٤٨٦.

وقد جاء الهدى بمعنى الإلهام؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

قال المفسرون: ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها.

وقد جاء الهدى بمعنى البيان؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] قال المفسرون: معناه: بيّنا لهم.

قال أبو المعالي^(١): معناه: دعوناهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]، أي: علينا أن نبين.

وفي هذا كله معنى الإرشاد.

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية، والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ كقوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَنْ يَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُضْلِحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٥] ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣]، معناه: فأسلكوهم إليها.

قال ع^(٢): وهذه الهداية بعينها هي التي تقال في طرق الدنيا، وهي ضد الضلال، وهي الواقعة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَدْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ على صحيح التأويلات، وذلك بين من لفظ «الصِّرَاط» والصراط؛ في اللغة: الطريق الواضح؛ ومن ذلك قول جرير^(٣): [الوافر]

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا أَعْوَجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ^(٤)

(١) ينظر: «الإرشاد» ص (١٩٠)، و «المحرر الوجيز» (٧٣/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٣/١).

(٣) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي، اليربوعي، من تميم أشعر أهل عصره، ولد سنة (٢٨) هـ، ومات سنة ١١٠ هـ في «البصرة». وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، وكان هجاءً مرّاً، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً.
ينظر: «الأعلام» (١٩/٢)، «وفيات الأعيان» (١٠٢/١)، «الشعر والشعراء» (١٧٩)، و «خزانة الأدب» (٣٦/١).

(٤) البيت في مدح هشام بن عبد الملك، ينظر: ديوانه (٥٠٧)، «شرح الديوان» لمحمد بن حبيب (١/ ٢١٨)، «المحتسب» (٤٣/١)، «مجاز القرآن» (٢٤/١)، «تفسير الطبري» (٥٦/١)، «تفسير القرطبي» (١٠٣/١)، «اللسان» (سرط)، «الجمهرة» (٣٣٠/٢)، «الدر المصنوع» (٧٨/١).
والموارد: الطرق، واحدها موردة.

واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له «الصُّراط» في هذا الموضع: فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصراط المستقيم هنا القرآن^(١)، وقال جابر: هو الإسلام، يعني الحنيفية^(٢).

وقال محمد بن الحنفية^(٣): هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره^(٤).

وقال أبو العالية: هو رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر وعمر، أي: الصراط المستقيم طريق محمد ﷺ وأبي بكر وعمر^(٥)، وهذا قوي في المعنى، إلا أن تسمية أشخاصهم طريقاً فيه تجوز، ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة هي أن يكون الداعي على سنن المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام؛ وهو حال رسول الله ﷺ وصاحبيه.

وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون، وعندهم المعتقدات، وعند كل واحد بعض الأعمال، فمعنى قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾ فيما هو حاصل عندهم: التثبيت والدوام، وفيما ليس بحاصل، إما من جهة الجهل به، أو التقصير في المحافظة عليه: طلب الإرشاد إليه، فكلُّ

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٣/١) (١٧٦)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٥٩/١)، والبغوي في «تفسيره» (٤١/١)، عن علي مرفوعاً، وابن كثير (٢٧/١)، عن علي موقوفاً عليه.

وقال أحمد شاعر في تحقيقه للطبري: والإسناد إلى علي بن أبي طالب فيه انهيار.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧٨)، وصححه الحاكم (٢٥٩/٢)، ووافقه الذهبي. وذكره الماوردي في تفسيره (٥٩/١)، والبغوي (٤١/١)، وابن كثير (٢٧/١)، قال: صحيح، وذكره السيوطي في «الدر» (٤٠/١) وعزاه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، والمحاملي في «أماله»، والحاكم. وقال أحمد شاعر: إسناده صحيح.

(٣) محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو محمد، الإمام المعروف بـ «ابن الحنفية» أمه خولة بنت جعفر الحنفية، نسب إليها. عن أبيه، وعثمان، وغيرهما. وعنه بنوه: إبراهيم، وعبد الله، والحسن، وعمرو بن دينار، وخلق. قال إبراهيم بن الجندب: لا نعلم أحداً أسند عن علي أكثر ولا أصح مما أسند محمد بن الحنفية. قال أبو نعيم: مات سنة ثمانين.

ينظر: «الخلاصة» (٤٤٠/٢)، و«تهذيب التهذيب» (٣٥٤/٩)، و«الكاشف» (٨٠/٣)، و«الثقات» (٣٤٧/٥).

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (ص ٥٩)، وابن كثير (ص ٢٧)، وقال: صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير (١٠٥/١) برقم (١٨٤)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٥٩/١)، والبغوي (٤١/١)، وابن كثير (١/ص ٢٧، ٢٨)، وقال: صحيح. وذكره السيوطي في «الدر» (٤١/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جريج، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن عساكر. ورواه الحاكم في «المستدرک»، عن ابن عباس، وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

داع به إنما يريد الصراط بكماله في أقواله، وأفعاله، ومعتقداته؛ واختلف في المشار إليهم بأنه سبحانه أنعم عليهم، وقول ابن عباس، وجمهور من المفسرين: أنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ...﴾ الآية [النساء: ٦٦] إلى قوله: ﴿رَفِيقًا﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، اعلم أن حكم كل مضاف إلى معرفة أن يكون معرفة، وإنما تنكرت «غَيْرٌ» و «مِثْلُ»^(٢) مع إضافتهما إلى المعارف من أجل معنهما، وذلك إذا قلت: رأيت غَيْرَكَ، فكل شيء سوى المخاطب، فهو غيره؛ وكذلك إن قلت: رأيت مثلك، فما هو مثله لا يحصى؛ لكثرة وجوه المماثلة.

و ﴿المغضوب عليهم﴾: اليهود، والضالون: النصارى؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، مجاهد، والسدي، وابن زيد^(٣).

وروى ذلك عدي بن حاتم^(٤) عن النبي ﷺ^(٥)، وذلك بين من كتاب الله؛ لأن ذكر

(١) أخرجه ابن جرير (١٠٦/١) برقم (١٨٨)، وقال أحمد شاكر في تحقيقه للطبري (١٧٨/١) (١٨٨): في إسناده ضعف. وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٧٥/١)، والسيوطي في «الدر» (٤٢/١).

(٢) هذا يكون في الإضافة المحضة المعنوية لا الإضافة غير المحضة اللفظية.

(٣) أخرجه الطبري (١/ ١١١-١١٤) بأرقام (٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٥-٢١٤-٢١٩) عن ابن زيد، ومجاهد، عن ابن عباس، وابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ. وذكره ابن عطية الأندلسي في تفسيره (٧٧/١)، والسيوطي في «الدر» (١/ ٤٢-٤٣).

وابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني روى عن أبيه، وعن وكيع وابن وهب، وقيّة، وخلق. ضَعَفَ أحمد، وابن المديني، والنسائي، وغيرهم. توفي سنة (١٨٢) هـ.

ينظر: «الخلاصة» (١٣٣/٢) (٤٠٩٤)، «الجرح والتعديل» (٢/ ٢٣٢-٢٣٣)، و «المعني» (٢/ ٣٨٠).

(٤) هو: عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن أخزم بن أبي أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثعلب بن عمرو بن عوث بن طي. وقيل في نسبه غير ذلك، أبو الطريف. وقيل: أبو وهب، الطائي.

وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بكرمه وجوده المثل، وكان هو أيضاً كريماً جواداً، وقد أسلم بعد أن كان نصرانياً. وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وثبت هو وقومه بعد موت النبي ﷺ وردت كثير من العرب، فجاء إلى أبي بكر بصدقة قومه. وأخباره في الكلام كثيرة، وسيرته بين الصحابة شهيرة. توفي سنة (٦٧) وقيل غير ذلك.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٨/٤)، «الإصابة» (٢٢٨/٤)، «الثقات» (٣١٦/١)، «الاستيعاب» (١٠٥٧)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٧٦/١)، «الطبقات الكبرى» (٣٢٢/١)، «التاريخ الكبير» (٧/ ٤٣)، «التاريخ الصغير» (١٤٨/١)، «الجرح والتعديل» (٢/٧).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٤/٥)، كتاب «تفسير القرآن»، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، حديث (٢٩٥٤). =

٨ ب غضب الله على اليهود متكرر فيه؛ كقوله: ﴿وَبَاءُ وَبِعُضْبٍ / مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢] ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية [المائدة: ٦٠] وغضب الله تعالى، عبارة عن إظهاره عليهم محناً وعقوباتٍ وذلةً، ونحو ذلك مما يدل على أنه قد أبعدهم عن رحمته بعداً مؤكداً مبالغاً فيه، والنصارى كان محققوهم على شريعة قبل ورود شرع محمد ﷺ، فلما ورد، ضلوا، وأما غير متحققهم، فضلالتهم متفرقة منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وأجمع الناس على أن عدد آي سورة الحمد سبع آيات؛ العالمين آية، الرحيم آية، الدين آية، نستعين آية، المستقيم آية، أنعمت عليهم آية، ولا الضالين آية، وقد ذكرنا عند تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ أن ما ورد من خلاف في ذلك ضعيف.

(الْقَوْلُ فِي «آمِينَ»)

روى أبو هريرة وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ فَقُولُوا «آمِينَ»، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي السَّمَاءِ تَقُولُ: «آمِينَ»، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

= وأحمد (٤/ ٣٧٨-٣٧٩)، وابن حبان (١٧١٥- موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٩-١٠٠)، رقم (٢٣٧)، والطبري في «تفسيره» (١/ ١٩٣- شاذر)، رقم (٢٠٨) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٤٠)، كلهم من طريق سماك بن حرب، عن عباد بن حبيش، عن عدي بن حاتم به مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب، وروى شعبة، عن سماك بن حرب، عن عباد بن حبيش، عن عدي بن حاتم، عن النبي ﷺ الحديث بطوله. وصححه ابن حبان.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣/١)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وقد ورد هذا الحديث مرسلًا.

أخرجه سعيد بن منصور (١٧٩) ثنا سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، أن رسول الله ﷺ قال لعدي بن حاتم: «المغضوب عليهم: اليهود، والنصارى هم الضالون».

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣/١)، وزاد نسبه إلى سفيان بن عيينة في «تفسيره». وللحديث طرق أخرى ضعيفة أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٩٣/١).

وللحديث أيضاً شاهد من حديث أبي ذر، أخرجه ابن مردويه كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٠). وحسنه الحافظ في «الفتح» (٩/٨) فقال: وأخرجه ابن مردويه بإسناد حسن عن أبي ذر.

(١) أخرجه مالك (٨٨/١)، كتاب «الصلاة»، باب التأمين خلف الإمام، الحديث (٤٧)، وأحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاري (٢/ ٢٦٦)، كتاب «الأذان»، باب جهر المأموم بالتأمين، الحديث (٧٨٢)، ومسلم =

* ت *: وخرج مسلم وأبو داود والنسائي من طريق أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، ثُمَّ لِيُؤْمَكُم أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَالَ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» فَقُولُوا: «آمِينَ»، يُجِبْكُمْ اللَّهُ...» الحديث^(١). انتهى.

ومعنى «آمِينَ»؛ عند أكثر أهل العلم: اللَّهُمَّ، اسْتَجِبْ، أو أَجِبْ^(٢) يَا رَبَّ.

ومقتضى الآثار أنَّ كل داع ينبغي له في آخر دعائه أن يقول: «آمِينَ»، وكذلك كل

= (١/٣١٠)، كتاب «الصلاة»، باب النهي عن مبادرة الإمام بالتكبير، الحديث (٨٧/٤١٥)، وأبو داود (١/٥٧٥)، كتاب «الصلاة»، باب التأمين وراء الإمام، الحديث (٩٣٥)، والنسائي (٢/١٤٤)، كتاب «الافتتاح»، باب الأمر بالتأمين خلف الإمام، من حديث أبي صالح، عن أبي هريرة به بزيادة: «فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

وأخرجه عبد الرزاق (٢/٩٧)، كتاب «الصلاة»، باب آمين، الحديث (٢٦٤٤) بزيادة، فقال: ثنا معمر، عن الزهري، عن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»، فَقُولُوا: آمِينَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَقُولُونَ: آمِينَ، وَإِنَّ الْإِمَامَ يَقُولُ: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وأخرجه أحمد (٢/٢٣٣)، والنسائي (٢/١٤٤)، كتاب «الافتتاح»، باب جهر الإمام بآمين، من طريق معمر به.

(١) أخرجه مسلم (٢/٢٨٣: ٢٨٦. الأبي)، كتاب «الصلاة»، باب التشهد في الصلاة، حديث (٦٢/٤٠٤)، وأبو داود (١/٣١٩: ٣٢٠)، كتاب «الصلاة»، باب التشهد، حديث (٩٧٢)، والنسائي (٢/١٩٦)، كتاب «التطيق»، باب قوله، ربنا لك الحمد، حديث (١٠٦٤). وابن ماجه (١/٢٧٦)، كتاب «الصلاة»، باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا، حديث (٨٤٧)، وأحمد (٤/٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠١، ٤٠٥)، (٤١٥)، وابن خزيمة (١٥٨٤، ١٥٩٣)، والبيهقي (٢/٩٦)، كلهم من طريق حطان بن عبد الله الرقاشي، عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً.

(٢) «آمِينَ» ليست من القرآن إجماعاً، ومعناها: استجب، فهي اسم فعل مبني على الفتح. وقيل: ليس اسم فعل، بل هو من أسماء الباري تعالى، والتقدير: يا آمين، وقد ضعف أبو البقاء هذا القول بوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن يبنى على الضم؛ لأنه منادى مفرد معرفة. والثاني: أن أسماء الله تعالى توقيفية.

وفي «آمين» لغتان: المد والقصر، تقول العرب: آمين، وآمين، قال الشاعر: [الطويل]
تَبَاعَدَ عَنِّي فَطُحِّلْ إِذْ دَعَوْتُهُ أَمِينَ فَرَاذَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدًا
وقال المجنون: [البيط]

يَا رَبِّ لَا تَسْلُبْنِي حُبَّهَا أَبَدًا وَيَزَحْمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَ
ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/٥٤)، و «الوسيط» (١/٧٠)، و «الدر المصون» (١/٨٦)، و «الزاهر» (١/١٦١)، و «غرائب النسابوري» (١/٧٥)، وابن كثير (١/٣١).

قارىء للحمد في غير صلاة، وأما في الصلاة، فيقولها المأموم والقُد، وفي الإمام في الجهر اختلاف^(١).

واختلف في معنى قوله ﷺ: «فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ»، فقيل: في الإجابة، وقيل: في خلوص النية، وقيل: في الوقت، والذي يترجح أَنَّ المعنى: فمن وافق في الوقت مع خلوص النية والإقبال على الرغبة إلى الله بقلب سليم فالإجابة تتبع حينئذ؛ لِأَنَّ من هذه حاله، فهو على الصراط المستقيم.

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٢) انتهى، وعند مالك: «فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي».

وأُسند أبو بكر بن الخطيب^(٣) عن نافع^(٤) عن أَبْنِ عُمَرَ^(٥) قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ

(١) ذهب جماعة من الصحابة والتابعين فَمَن بعدهم إلى الجهر بالتأمين، وبه يقول الشافعي، وأحمد، وإسحاق، قال عطاء: كُنْتُ أَسْمَعُ الْأَيْمَةَ - وَذَكَرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَمَنْ بَعْدَهُ - يَقُولُونَ: آمِينَ، وَيَقُولُ مَنْ خَلْفَهُ: آمِينَ، حَتَّى إِذَا لِلْمَسْجِدِ لَلَّجَةٌ.
ينظر: «شرح السنة» (٢/٢٠٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، أحد حفاظ الحديث وضابطيه المتقنين. ولد سنة (٣٩٢)، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري، وأبي إسحاق الشيرازي وأبي نصر ابن الصباغ، وشهرته في الحديث تغني عن الإطناب. قال ابن ماكولا: ولم يكن للبغداديين بعد الدارقطني مثله. وقال الشيرازي: كان أبو بكر يشبه بالدارقطني ونظرائه في معرفة الحديث وحفظه. مات (٤٦٣).

انظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (١/٢٤٠)، «طبقات السبكي» (٣/١٢)، «وفيات الأعيان» (١/٧٦).
(٤) نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، أبو سهيل المدني عن ابن عمر، وأنس. وعنه ابن أخيه مالك بن أنس، والزهرري. وثقه أبو حاتم وغيره. قال الواقدي: هلك في إمارة أبي العباس.
ينظر: «تاريخ الإسلام» (٥/٣٠٧)، «الثقات» (٥/٤٧١)، «تراجم الأخبار» (٤/١٣٩)، «تاريخ أسماء الثقات» (١٤٧٣)، «سير الأعلام» (٥/٢٨٣)، «تهذيب الكمال» (٣/١٤٠٤)، «تهذيب التهذيب» (١٠/٤٠٩)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٣/٨٩)، «الكاشف» (٣/١٩٧).

(٥) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن =

كَانَ لَهُ إِمَامٌ، فَقَرَأَهُ الْإِمَامُ لَهُ قِرَاءَةً^(١) انتهى من «تَارِيخِ بَغْدَاد» ولم يذكر في سنده مَطْعَنًا.
 وقال ابن العربي^(٢) في «أحكامه»^(٣): والصحيحُ عندي وجوبُ قراءتها على المأمومِ
 فيما أسر فيه، وتحريمها فيما جهر فيه، إذا سمع / الإمامَ لِمَا عليه من وجوب الإنصاتِ ١٩
 والاستماعِ، فَإِنْ بَعُدَ عن الإمامِ، فهو بمنزلة صلاة السرِّ. انتهى.
 نجز تفسير سورة الحمدِ، والحمدُ لله بجميع محامده كلها؛ ما علمتُ منها، وما لم
 أَعْلَمْ.

= عدي بن كعب بن لؤي بن غالب. أبو عبد الرحمن. القرشي، العدوي. ولد سنة: (٣) من البعثة النبوية توفي سنة: (٨٤).

ينظر ترجمته في: «الإصابة» (١٠٧/٤)، «أسد الغابة» (٣٤٠/٣)، «الثقات» (٢٠٩/٣)، «شذرات الذهب» (١٥/٢)، «الجرح والتعديل» (١٠٧/٥)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠٣/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٢٥/١)، «تقريب التهذيب» (٤٣٥/١)، «تهذيب التهذيب» (٣٢٨/٥).

(١) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشيلي المالكي، أبو بكر بن العربي، ولد (٤٦٨) هـ، من حفاظ الحديث بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، صنف كتباً في الحديث، والفقه، والأصول، والتفسير، والأدب، والتاريخ، وولي قضاء إشبيلية، من مؤلفاته «أحكام القرآن» و «المحصل»، و «الناسخ والمنسوخ»، وغيرها كثير، توفي (٥٤٣) هـ.

ينظر: «طبقات الحفاظ» للسيوطي، «وفيات» (٤٨٩/١)، «نفح الطيب» (٣٤٠/١)، «قضاة الأندلس» (١٠٥)، «جذوة الاقتباس» (٢١٦٠)، «الأعلام» (٢٣٠/٦).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٥/١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ^(١)

هذه السورة مدنيّة نزلت في مدد شتّى، وفيها آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ،

(١) هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيبها فسطاط القرآن. فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسان. وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها، ولكن هذا لا يحجم بنا عن التعرض إلى لاثحات منها. وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لُحمة محكمة في نظم الكلام، وسدى متين من فصاحة الكلمات. ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.

وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية وأساليب الكتب التشريعية وأساليب التذكير والموعظة. يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين، ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين تحدياً إجمالياً بحروف التهجي المفتوح بها رمزاً يقتضي استشرافهم لما يرد بعده، وانتظارهم لبيان مقصده، فأعقب بالتنويه بشأن القرآن، فتحول الرمز إيماء إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقعاً على نفوسهم، فبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] الآيات.

فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه، وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافاً أربعة، وكانوا قبل الهجرة صنفين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي، وإذ قد كان أخص الأصناف انتفاعاً بهديه هم المؤمنون بالغيب المقيمين الصلاة يعني المسلمين - ابتدئ بذكرهم، ولما كان أشد الأصناف عناداً وحقداً صنفى المشركين الصرحاء، والمنافقين، لف الفريقان لفاً واحداً، فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة، ثم خص بالإطناب صنف أهل النفاق تشويهاً لنفاقهم وإعلاناً لدخائلهم، ورد مطاعنهم، ثم كان خاتمة ما قرعت من أنوفهم صريح التحدي الذي رمز إليه بدءاً تحدياً يلجنهم إلى الاستكاثرة ويخرس ألسنتهم عن التطاول والإبانة، ويلقي في قرارات أنفسهم مذلة الهزيمة وصدق الرسول الذي تحداهم، فكان ذلك من رد العجز على الصدر، فاتسع المجال لدعوة المنصفين إلى عبادة الرب الحق الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، وأنعم عليهم بما في الأرض جميعاً، وتخلص إلى صفة بدء خلق الإنسان؛ فإن في ذلك تذكيراً لهم بالخلق الأول قبل أن توجد أصنامهم التي يزعمونها من صالحى قوم نوح ومن بعدهم، ومثله على النوع بتفصيل أصلهم على مخلوقات هذا العالم وبميزته بعلم ما لم يعلمه أهل الملأ الأعلى، وكيف نشأت عداوة الشيطان له ولنسله لتهيته نفوس السامعين لاتهم شهواتها ولمحاسبتها على دعواتها، فهذه المنة التي شملت كل الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها كانت مناسبة للتخلص إلى منة عظمى تخص الفريق الرابع وهم أهل الكتاب الذين هم أشد الناس مقاومة لهدي القرآن، وأنفذ الفرق قولاً في عامة العرب؛ لأن أهل الكتاب يومئذ هم أهل =

وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

= العلم، ومظنة اقتداء العامة لهم من قوله: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي﴾ [البقرة: ٤٠] الآيات، فأطنب في تذكيرهم بنعم الله وأيامه لهم، ووصف ما لاقوا به نعمه العجمة من الانحراف عن الصراط السوي انحرافاً بلغ بهم حد الكفر، وذلك جامع لخلاصة تكوين أمة إسرائيل وجامعتهم في عهد موسى ثم ما كان من أهم أحداثهم مع الأنبياء الذين قفوا موسى إلى أن تلقوا دعوة الإسلام بالحسد والعداوة حتى على الملك جبريل وبيان أخطائهم؛ لأن ذلك يلقي في النفوس شكاً في تأهلهم للاقتداء بهم. وذكر من ذلك نموذجاً من أخلاقهم في تعلق الحياة ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ [البقرة: ٩٦] ومحاولة العمل بالسحر ﴿واتبعوا ما تنلتوا الشياطين﴾ [البقرة: ١٠٢] إلخ، وأذى النبي بموجة الكلام ﴿لا تقولوا راعنا﴾ [البقرة: ١٠٤].

ثم قرن اليهود والنصارى والمشركين في قرن حسدهم المسلمين والسخط على الشريعة الجديدة ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين - إلى قوله - ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ١٠٥-١١٢] ثم ما أثير من الخلاف بين اليهود والنصارى، وادعاء كل فريق أنه هو المحق ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء - إلى - يختلفون﴾ [البقرة: ١١٢] ثم خص المشركين بأنهم أظلم هؤلاء الأصناف الثلاثة؛ لأنهم منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام، وسمحوا بذلك في خرابه، وأنهم تشابهوا في ذلك هم واليهود والنصارى واتحدوا في كراهية الإسلام.

والاحتراز عن إيجابتها في الذين كفروا منهم، وأن الإسلام على أساس ملة إبراهيم وهو التوحيد، وأن اليهودية والنصرانية ليستا ملة إبراهيم، وأن من ذلك الرجوع إلى استقبال الكعبة، ادخره الله للمسلمين آية على أن الإسلام هو القائم على أساس الحنيفية، وذكر شعائر الله بمكة، وإبكات أهل الكتاب في طعنهم على تحويل القبلة، وإن العناية بتزكية النفوس أجدر من العناية باستقبال الجهات: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ [البقرة: ١٧٧] وذكروا بنسخ الشرائع لصالح الأمم، وأنه لا بدع في نسخ شريعة التوراة أو الإنجيل بما هو خير منهما. ثم عاد إلى محاجة المشركين بآثار صنعة الله ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك﴾ [البقرة: ١٦٤] إلخ ومحاجة المشركين في يوم يتبرءون فيه من قاداتهم، وإبطال مزاعم دين الفريقين في محرمات من الأكل ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة: ١٧٢] وقد كمل ذلك بذكر صنف من الناس قليل، وهم المشركون الذين لم يظهروا الإسلام ولكنهم أظهروا مودة المسلمين ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ [البقرة: ٢٠٤].

ولما قضى حق ذلك كله بأبدع بيان وأوضح برهان انتقل إلى قسم تشريعات الإسلام إجمالاً بقوله: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ [البقرة: ١٧٧] ثم تفصيلاً: القصاص، الوصية، الصيام، الاعتكاف، الحج، الجهاد، ونظام المعاشرة والعائلة والمعاملات المالية، والإنفاق في سبيل الله والصدقات، والمسكرات، واليتامى، والموارث، والبيوع، والربا، والديون، والإشهاد، والرهن، والنكاح، وأحكام النساء والعدة والطلاق، والرضاع، والنفقات، والأيمان.

وختمت السورة بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة الإسلامية، وذلك من جوامع الكلم؛ فكان هذا الختام تذليلاً وفذلحة: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ [البقرة: ٢٨٤] الآيات.

وكانت في خلال ذلك كله أغراض شتى سبقت في معرض الاستطراد في متفرق المناسبات؛ تجديداً=

[البقرة: ٢٨١]، ويقال لسورة البقرة: «فَسَطَّاطُ الْقُرْآنِ»، وذلك لعظمها وبهاؤها، وما تضمنت من الأحكام والمواعظ، وفيها خمسمائة حكم، وخَمْسَةَ عَشَرَ مثلاً، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَأُعْطِيَتْ طَهَ وَالطَّوَّاسِينِ^(١) مِنْ أَلْوَحِ مُوسَى^(٢)، وَأُعْطِيَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ^(٣)».

* ت * : وها أنا إن شاء الله أذكر أضل الحديث بكماله لما أشتمل عليه من الفوائد العظيمة.

خَرَجَ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ^(٤) فِي «الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ»

= لنشاط القارئ والسماع كما يسفر وجه الشمس إثر نزول الغيوث الهوامع، وتخرج بوادر الزهر عقب الرعود القوارع - من تمجيد الله وصفاته ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ورحمته، وسماحة الإسلام، وضرب أمثال ﴿أَوْ كَصَيْبٍ﴾ [البقرة: ١٩] واستحضار نظائر ﴿وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ [البقرة: ٧٤] ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وعلم، وحكمة، ومعاني الإيمان والإسلام، وتثبيت المسلمين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ١٥٣] والكلمات الأصلية، والمزايا التحسينية، وأخذ الأعمال والمعاني من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها، وعدم الاعتداد بالمصطلحات إذا لم ترم إلى غايات ﴿وَلَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] والنظر والاستدلال، ونظام المحاجة، وأخبار الأمم الماضية والرسل وتفاضلهم، واختلاف الشرائع. ينظر: «التحرير» (١/ ٢٠٣-٢٠٦).

(١) وهي السور المبدوءة بـ «طس» أو «طسم».

(٢) «موسى» اسم عبراني معرب عن «موشى»، «مو» بالعبرانية: الماء، و «شى» الشجر، سمي به لأنه أخذ من بين الماء والشجر. وهو اسم نبي بني إسرائيل عليه الصلاة والسلام، وهو علم أعجمي لا يقضى عليه بالاشتقاق، وإنما يشتق «موسى الحديد». ينظر: «التبيان» (١/ ٦٣).

وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل . «الكامل» لابن الأثير (١/ ١٦٩).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥٦١)، (٢/ ٢٥٩)، وعنه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٨٥)، رقم (٢٤٧٨)، كلاهما من طريق عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن معقل بن يسار به مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي فقال: عبيد الله، قال أحمد: تركوا حديثه.

(٤) محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم، الضبي، الطهماني، الحافظ أبو عبد الله، الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع، صاحب «المستدرک»، وغيره من الكتب المشهورة، كان مولده سنة (٣٢١)، ورحل في طلب الحديث، وسمع الكثير على شيوخ يزيدون على ألفين، وتفقه على أبي علي بن أبي هريرة وأبي الوليد النيسابوري وأبي سهل الصعلوكي وغيرهم، أخذ عنه أبو بكر البيهقي وصنف المصنفات الكثيرة. مات سنة (٤٠٥). انظر: «طبقات ابن قاضي شهبة» (١/ ١٩٣)، «لسان الميزان» (٥/ ٢٣٢).

عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ^(١) رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْمَلُوا بِالْقُرْآنِ أَجَلُوا حَلَالَهُ، وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ، وَاقْتَدُوا بِهِ، وَلَا تَكْفُرُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَمَا تَشَابَهَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى أُولِي الْعِلْمِ مِنْ بَعْدِي كَيْ مَا يُخْبِرُونَكُمْ، وَأَمِنُوا بِالْتَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزُّبُورِ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، وَلْيَسْغُكُمُ الْقُرْآنُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاجِلٌ^(٢) مُصَدَّقٌ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الْأَوَّلِ وَأُعْطِيتُ طَهَ وَالطَّوْاسِينَ وَالْحَوَامِيمَ^(٣) مِنْ أَلْوَحِ مُوسَى، وَأُعْطِيتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مَنْ تَحْتَ الْعَرْشِ^(٤)، مَاجِلٌ بِالْمِهْمَلَةِ، أَيِ: سَاعٍ، وَقِيلَ: خَضَمٌ. انْتَهَى مِنْ «السَّلَاحِ».

وفي الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَأَلْ عِمْرَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ^(٥)، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ عَمَامَتَانِ سَوْدَاوَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا ظِلَّةٌ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُجَادِلَانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا^(٦)».

* ت * : أصل الحديث في صحيح مسلم عن أبي أمامة الباهلي^(٧) رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ؛

(١) معقل بن يسار المزني، أبو علي، بايع تحت الشجرة. له أربعة وثلاثون حديثاً، اتفقا على حديث، وانفرد البخاري بآخر، ومسلم بحديثين وعنه عمران بن حصين. مات في خلافة معاوية. ينظر: «الخلاصة» (٤٥/٣)، و «تهذيب التهذيب» (٢٣٥/١٠)، و «الثقات» (٣/٣٩٢).

(٢) أي: خصم مجادل مصدق. وقيل: ساع مصدق، من قولهم: محل بفلان، إذا سعي به إلى السلطان، يعني أن من اتبعه وعمل بما فيه، فإنه شافع له مقبول الشفاعة، ومصدق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به. ينظر: «النهاية» (٣٠٣/٤).

(٣) يعني السور المبدوءة بـ «حم».

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٧٨/٣) كتاب «معرفة الصحابة» باب معقل بن يسار وسكت عنه هو والذهبي.

(٥) الغاية: السحابة المنفردة، أو هي كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه. ينظر: «النهاية» (٤٠٣/٣)، و «لسان العرب» (٣٣٣٢).

(٦) سياثي تخريجه.

(٧) هو: صدي بن عجلان بن الحارث وقيل: عجلان بن وهب... أبو أمامة. الباهلي. السهمي. سكن «مصر» ثم انتقل منها فسكن «حمص» من الشام، ومات بها، وكان من المكثرين في الرواية، وأكثر حديثه عند الشاميين. وقال ابن الأثير في موضع آخر. روى عنه سليم بن عامر الجنازري، والقاسم أبو عبد الرحمن، وأبو غالب حزور، وشرحبيل بن مسلم، ومحمد بن زياد، وغيرهم. توفي سنة (٨١). ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٦/٣)، (١٦/٦)، «الإصابة» (٩/٧)، «الاستيعاب» (٤/١٦٠٢) «تجريد أسماء الصحابة» (١٤٨/٢)، «بقي بن مخلد» (١٧)، «الطبقات الكبرى» (٤١٥/١).

أَقْرَأُوا الزُّهْرَاوِينَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا عَيَّيَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ^(١) مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، أَقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقْرَةِ؛ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَتٌ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ^(٢)، قَالَ مُعَاوِيَةُ^(٣): بَلَّغْنِي أَنَّ الْبَطْلَةَ: السَّحْرَةُ^(٤)، فَقَوْلُهُ ﷺ: «عَمَامَتَانِ»، يَعْنِي: سَحَابَتَيْنِ بِيضَاوَيْنِ، وَالْعَيَّيَتَانِ؛ بِالْعَيْنِ الْمَعْجَمَةِ.

أَبُو عُبَيْدٍ: الْعَيَّيَةُ كُلُّ شَيْءٍ أَظْلَمَ الْإِنْسَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَهُوَ مِثْلُ السَّحَابَةِ، وَفِرْقَانٍ؛ بِكَسْرِ الْفَاءِ، أَيِ: جَمَاعَتَانِ. انْتَهَى مِنْ «السَّلَاحِ».

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقْرَةِ فِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ»^(٥)، وَفِي «الْبَخَارِيِّ» أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ

(١) الْفِرْقَانِ: الْقِطْعَتَانِ. يَنْظُرُ: «الْهِيَاةُ» (٤٤٠/٣).

(٢) هُوَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ صَخْرٍ (أَبِي سَفْيَانَ) بْنُ حَرْبٍ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ. الْقُرَشِيُّ. الْأُمَوِيُّ. أُمُّهُ: هِنْدُ بِنْتُ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ، قِيلَ: وَلَدَ قَبْلَ الْبُعْثَةِ بِخَمْسِ سِنِينَ، وَقِيلَ: بِسَبْعٍ، وَقِيلَ: بِثَلَاثِ عَشْرَةٍ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَشْهُرُ عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ. وَهُوَ خَالَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَاتَبَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ الَّذِي طَالَبَ بِدَمِ عُمَانَ، فَكَانَ مِنَ الْحُرُوبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَلِيٍّ مَا كَانَ، وَإِسْلَامُهُ وَحُرُوبُهُ وَإِمَارَتُهُ شَهِيرَةٌ جَدًّا، وَلَا يَتَسَعُ الْمَقَامُ لِلْحَدِيثِ عَنْهُ. تَوَفَّى فِي رَجَبِ سَنَةِ (٦٠) هـ.

يَنْظُرُ تَرْجَمَتَهُ فِي: «أَسَدُ الْغَابَةِ» (٢٠٩/٥)، «الْإِصَابَةُ» (١١٢/٦)، «الْإِسْتِيعَابُ» (١٤١٦/٣)، «الْإِسْتِصَارُ» (٤٠، ٦٧)، «الْكَاشِفُ» (١٥٧/٣)، «الْأَعْلَامُ» (٢٦١/٧)، «شَذَرَاتُ الذَّهَبِ» (٤١٨/١)، «الْعَبَرُ» (٥٤٩/١)، «الْعَقْدُ الثَّمِينُ» (٢٢٧/٧)، «تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ» (٢٠٧/١٠)، «تَهْذِيبُ الْكَمَالِ» (٣/١٣٤٤)، «التَّارِيخُ الْكَبِيرُ» (٣٢٦/٧).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥٥٣/١)، كِتَابُ «صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ»، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ الْبَقْرَةِ، حَدِيثٌ (٢٥٢)، وَأَحْمَدُ (٢٤٩/٥)، وَالتَّطَبُّعِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٣٩/٨)، رَقْمٌ (٧٥٤٤)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكَبِيرِ» (٣٩٥/٢)، كِتَابُ «الصَّلَاةِ»، بَابُ الْمَعَاهِدَةِ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَفِي «شُعْبِ الْإِيمَانِ» (٢/٤٥١)، رَقْمٌ (٢٣٧٢)، وَالبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السَّنَةِ» (٣/١٩ - بِتَحْقِيقِنَا)، كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ مُعَاوِيَةَ بْنِ سَلَامٍ، عَنْ أَخِيهِ زَيْدِ بْنِ سَلَامٍ؛ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَامٍ؛ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا أَمَامَةَ، فَذَكَرَهُ.

وَلِلْحَدِيثِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ: أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥٥٣/١) كِتَابُ «صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ»، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقْرَةِ، حَدِيثٌ (٢٥٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٦٠/٥)، كِتَابُ «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»، بَابُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، حَدِيثٌ (٢٨٨٣). وَالبَيْهَقِيُّ فِي «شُعْبِ الْإِيمَانِ» (٢٣٧٣)، عَنْ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ بِنَحْوِ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ.

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (١٥٧/٥)، كِتَابُ «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ سُورَةِ الْبَقْرَةِ وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، حَدِيثٌ (٢٨٧٨)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ (٣/٣٧٦ - ٣٧٧)، رَقْمٌ (٦٠١٩)، وَالحَمِيدِيُّ (٤٣٧/٢)، رَقْمٌ (٩٩٤)، وَالحَاكِمُ (١/٥٦٠ - ٥٦١)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «شُعْبِ الْإِيمَانِ» (٢/٤٥٢)، رَقْمٌ (٢٣٧٥)، وَابْنُ عَدِي فِي «الْكَامِلِ» (٢/٦٣٧). كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ حَكِيمِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا. =

بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ/ فِي لَيْلَةٍ، كَفَّتَاهُ^(١)، وروى أبو هريرة عنه ﷺ؛ أنه قال: ٩ ب

= وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير وضعفه اهـ.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه؛ والشيخان لم يخرجا عن حكيم لو هن في رواياته، وإنما تركاه لغلوه في التشيع. ووافقه الذهبي.

قلت: والشيخان لم يتركا حكيم لتشيعه فقط، إنما لضعفه أيضاً.

فقال الحافظ في «التقريب» (١٤٦٨): ضعيف، رمي بالتشيع. ولأول الحديث شاهد من حديث سهل بن سعد: أخرجه أبو يعلى (٥٤٧/١٣)، رقم (٧٥٥٤)، وابن حبان (١٧٢٧- موارد)، والعقيلي في «الضعفاء» (٦/٢)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/١٠١)، والطبراني في «الكبير» (٦/١٦٣)، رقم (٥٨٦٤) كلهم من طريق خالد بن سعيد المدني، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد به. وخالد بن سعيد، قال العقيلي: لا يتابع على حديثه.

وقال: وفي فضل سورة البقرة رواية أحسن من هذا الإسناد وأصلح.

والنسائي في «الكبرى» (١٤/٥)، كتاب «فضائل القرآن»، باب الآيات من سورة البقرة، حديث (٨٠٢٠)، والحميدي (٢١٥/١)، رقم (٤٥٢)، وعبد الرزاق (٣/٣٧٧)، رقم (٦٠٢١)، وابن خزيمة (٢/١٨٠)، رقم (١١٤١)، كلهم من طريق سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن علقمة، عن أبي مسعود به مرفوعاً. وعند بعضهم: قال عبد الرحمن: ثم لقيت أبا مسعود في الطواف فسألته عنه، فحدثني؛ أن رسول الله ﷺ... وذكر الحديث وللحديث طرق أخرى واختلاف فيها تكلم عليها الحافظ علي بن عمر الدارقطني في كتابه القيم «الملل الواردة في الأحاديث النبوية» (٦/ ١٧١- ١٧٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢/٨)، كتاب «فضائل القرآن»: باب فضل سورة البقرة، حديث (٥٠٠٩)، ومسلم (١/٥٥٥)، كتاب «صلاة المسافرين»: باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٢٥٥/ ٨٠٧)، وأبو داود (١/٤٤٤)، كتاب «الصلاة»، باب تحزيب القرآن، حديث (١٣٩٧)، والترمذي (٥/١٥٩)، كتاب «فضائل القرآن»، باب ما جاء في آخر سورة البقرة، حديث (٢٨٨١)، والنسائي في «الكبرى» (٩/٥) كتاب «فضائل القرآن»، باب سورة كذا وسورة كذا، حديث (٨٠٠٣)، و (١٤/٥)، باب الآيات من آخر سورة البقرة، حديث (٨٠١٨)، وأحمد (٤/١٢١، ١٢٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المستند» (ص ١٠٥ - ١٠٦)، رقم (٢٣٣)، وعبد الرزاق (٣/٣٧٧)، رقم (٦٠٢٠)، والدارمي (١/٢٨٨)، وسعيد بن منصور (٤٧٥)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص ٨٣ - ٨٤)، رقم (١٦١)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٠٤- ٢٠٥) رقم (٥٥٠، ٥٥٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٠)، كتاب «الصلاة»، باب كم يكفي الرجل قراءة القرآن في ليلة، وفي «شعب الإيمان» (٢/ ٤٦٢)، رقم (٢٤٠٥)، (٢٤٠٦)، كلهم من طريق منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنت أخذت عن أبي مسعود حديثاً فلقيته وهو يطوف بالبيت، فسألته، فحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه».

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قلت: والذي حدث عبد الرحمن بن يزيد بهذا الحديث هو علقمة بلا شك؛ فأخرجه البخاري (٨/ ٧١٢)، كتاب «فضائل القرآن»، باب في كم يقرأ القرآن، حديث (٥٠٥١).

«الْبَيْتُ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ»^(١).

* ت * : وعن ابن عباس قال: بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبي ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَقَالَ لَهُ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، وَقَالَ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ؛ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ لَنْ تُقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتهُ» رواه مسلم، والنسائي^(٢)، والنقيضُ؛ بالنون والقاف: هو الصوت انتهى من «السلاح».

وعدد آي سورة البقرة مائتَانِ، وخمس وثمانون آيةً، وقيل: وستٌ وثمانون آيةً، وقيل: وسبع وثمانون.

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿الْم﴾: اختلف في الحروف التي في أوائل السور على قولين^(٣)؛ فقال

(١) الحديث بهذا اللفظ عن عبد الله بن المغفل ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١٥/٦)، وقال: رواه الطبراني، وفيه عدي بن الفضل، وهو ضعيف.

أما الحديث الذي ورد عن أبي هريرة في هذا المعنى، فأخرجه مسلم (٥٣٩/١) من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة».

(٢) أخرجه مسلم (٥٥٤/١)، كتاب: «الإيمان»، باب: في ذكر سدرة المنتهى، حديث (٨٠٦/٢٥٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٥/٥)، كتاب «فضائل القرآن»، باب «الآيات من آخر سورة البقرة»، حديث (٨٠٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (٢/٢٣- بتحقيقنا)، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

(٣) إنه مما علم باستقراء كتاب الله تعالى أن تسعاً وعشرين سورة من القرآن الكريم قد افتتحت بحروف مقطعة، من جنس كلام العرب.

وبداية، فإن هذه الحروف لم ينقل عن العرب دلالات لها، ولو كانت لها دلالات لتواتر النقل عليها، ولنقل ذلك علماء الصحابة وأئمتهم، وهذا الأمر - أعني افتتاح السور بها - لهو في حد ذاته نوع من التحدي للقيام بالكشف عن أسرارها والتفكر فيها.

ولما لم يذكر عن الغرب لها دلالات فقد كان للعلماء بشأنها موقفان: أولهما: ذهب الشيعي وسفيان الثوري، وجماعة من أهل الحديث إلى أنها سر الله في القرآن، وهي من المتشابهة. وثانيهما: وهو ما ذهب إليه الجمهور من أهل العلم: أنه يجب أن يتكلم فيها، وتلتصم الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها.

وقد كان لابن عباس ترجمان القرآن النصيب الأوفر من الأقوال في هذه الأحرف.

وجاء المفسرون من بعده، فاتسعوا في تحديد معاني هذه الفواتح، فقد ذكروا منها: أنها: =

الشَّعْبِيُّ، وسفیان الثوري، وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن يُتكلَّم فيها، ولكن يؤمن بها، وتُمرَّ كما جاءت^(١)، وقال الجمهور من العلماء، بل يجب أن يُتكلَّم فيها، وتلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك على اثني عشر قولاً.

فقال علي، وابن عباس رضي الله عنهما: الحروف المقطعة في القرآن: هي اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها^(٢).

وقال ابن عباس أيضاً: هي أسماء الله أقسم بها^(٣)، وقال أيضاً: هي حروف تدلُّ على: أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَا اللَّهُ أَرَى^(٤)، وقال قوم:

= ١ - اسم الله الأعظم.

٢ - قسم أقسم الله به وهو من أسمائه.

٣ - أسماء للصور التي وردت فيها.

٤ - اسم من أسماء القرآن.

٥ - فواتح يفتح الله بها القرآن.

٦ - لكل كتاب سر، وسر القرآن فواتحه.

٧ - حروف مقطعة من أسماء وأفعال، كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر.

٨ - حروف هجاء موضوع.

٩ - حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة.

١٠ - ابتدئت بذلك السور؛ ليفتح لاستماعه أسماع المشركين.

١١ - علامات لأهل الكتاب أنه سينزل على محمد كتاب يفتح بالحروف المقطعة.

١٢ - حروف من حساب الجمل.

ينظر: «البرهان» (١٦٩/١)، و«جامع البيان» (٢٠٥/١)، و«المحرر الوجيز» (٨١/١)، و«مفاتيح الغيب» (٣/٢)، و«البحر المحيط» (١٥٤/١).

(١) ذكره السمرقندي في تفسيره (٨٧/١)، والبغوي (٤٤/١)، وابن عطية الأندلسي (٨٢/١)، والقرطبي (١٣٣-١٣٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١٩/١)، (٢٣٣) مختصراً. وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٨٧/١)، عن علي بلفظ «وهو اسم من أسماء الله تعالى». وابن عطية في «تفسيره» (٨٢/١)، وابن كثير (٣٦/١)، القرطبي (١٣٤/١)، والسيوطي في «الدر» (٥٤/١)، بلفظ «اسم الله أعظم»، وعزاه لابن جريج وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير (١١٩/١) (٢٣٦)، وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٨٢/١)، والبغوي (١/١) (٤٤)، بلفظ «أنها أقسام» عن ابن عباس، والماوردي في «تفسيره» (٦٤/١) وابن كثير (٣٦/١)، والسيوطي في «الدر» (٥٤/١)، وعزاه لابن مردويه.

(٤) أخرجه ابن جرير (١١٩/١) برقم (٢٣٩) بلفظ: «أنا الله أعلم». وفي (٥٢٥/٦) برقم (١٧٥٣٤)، =

هي حسابُ أبي جَاد^(١)؛ لتدلَّ على مدَّة ملَّة محمَّد ﷺ؛ كما ورد في حديث حُيَّي بن أخطب^(٢)، وهو قول أبي العالية وغيره^(٣).

* ت * : وإليه مال السَّهْلِيَّ^(٤) في «الروض الأنف»، فأنظره.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الاسم من «ذَلِكَ»: الذال، والألف، واللام؛ لبعد المشار إليه، والكاف للخطاب.

اختلف في «ذَلِكَ» هنا؛ فقليل: هو بمعنى «هَذَا»، وتكون الإشارة إلى هذه الحروف من القرآن، وذلك أنه قد يشار بذلك إلى حاضرٍ تعلَّق به بعضُ غَيْبَةٍ، وقيل: هو على بابه، إشارةً إلى غائب.

واختلفوا في ذلك الغائب؛ فقليل: ما قد كان نزل من القرآن، وقيل غير ذلك؛ انظره.

= بلفظ: «أنا الله أرى». والسيوطي في «الدر» (٥٤/١)، بلفظ: «أنا الله أعلم»، وعزاه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس. وفي (٥٣٤/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، وابن النجار في «تاريخه»، وذكره القرطبي (١٣٥/١)، وابن كثير (٣٦/١)، وابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٨٢/١).

(١) وأبو جاد: الكلمة الأولى من الكلمات الثماني التي تجمع حروف الهجاء العربية. ويقال: إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لقي أعرابياً فسأله: هل تحسن القراءة؟ فقال: نعم، قال: فاقراً أم القرآن، فقال الأعرابي: والله ما أحسن البنات فكيف الأم؟!، فضربه عمر، وأسلمه إلى الكتاب، فمكث حيناً ثم هرب، ولما رجع إلى أهله أنشداهم [الوافر]:

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أسطر متتابعات
وخطوا لي أبا جاد وقالوا تعلم سعفساً وقُريشيات
وما أنا والكتابة والتهجى وما حظ البنين مع البنات

ينظر: «المعجم الكبير» (٢٢/١، ٢٣).

(٢) حُيَّي بن أخطب النضري: جاهلي، من الأشداء العتاة. كان ينعت بـ «سيد الحاضر والبادي». أدرك الإسلام، وأذى المسلمين فأُسروه يوم «قريظة». ثم قتلوه. ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٤٨-١٤٩)، «تهذيب الأسماء» (١٧١/١)، و «الأعلام» (٢٩٢/٢).

(٣) ذكره ابن عطية الأندلسي (٨٢/١) والسيوطي في «الدر» (٥٦/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي: حافظ، عالم باللغة والسير، ضريب. ولد في «مالقة»، وعمي وعمره (١٧ سنة). ونبغ فاتصل خبره بصاحب «مراكش» فطلبه إليها وأكرمه، فأقام يصنّف كتبه، من كتبه «الروض الأنف» في شرح «السيرة النبوية» لابن هشام، وغيرها من الكتب في التفسير. ولد سنة (٥٠٨هـ)، وتوفي سنة (٥٨١هـ).

انظر: «وفيات الأعيان» (٢٨/١)، «نكت الهميان» (١٨٧)، «زاد المسافر» (٩٦) «الأعلام» (٣١٣/٣).

و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: معناه: لا شك فيه، و ﴿هُدًى﴾: معناه إرشاد وبيان، وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: اللفظ مأخوذ من «وقى»، والمعنى: الذين يتقون الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذابه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: معناه يُصَدِّقُونَ، وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾: قالت طائفة: معناه: يُصَدِّقُونَ، إذا غَابُوا وَخَلَوْا، لا كالمنافقين الذين يؤمنون إذا حضروا، ويكفرون إذا غابوا، وقال آخرون: معناه: يصدقون بما غاب عنهم مما أخبرث به الشرائع، وقوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: معناه: يظهرونها ويثبتونها؛ كما يقال: أُقيمت السُّوقُ.

* ت * : وقال أبو عبد الله الخواري في اختصاره لتفسير الطبري: إقامة الصلاة إتمام الركوع، والسجود، والتلاوة، والخشوع، والإقبال عليها. انتهى.

قال * ص *^(١): * يقيمون الصلاة من التقويم؛ ومنه: أقمْتُ العودَ، أو الإدامة؛ ومنه: قامت السُّوقُ، أو التشمير والنهوض؛ ومنه: قام بالأمر. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: الرزق^(٢) عند أهل السنة ما صحَّ الانتفاع

(١) «المجيد» ص ٨٤.

(٢) اختلف العلماء في تعريف الرزق في عرف الشرع، فقال أبو الحسين البصري من المعتزلة: الرزق هو تمكين الحيوان من الانتفاع بالشيء والحظر على غيره أن يمنعه من الانتفاع به، فإذا قلنا: قد رزقنا الله تعالى الأموال. فمعنى ذلك أنه مكنتنا من الانتفاع بها، وإذا سألناه تعالى أن يرزقنا مالاً فإننا نقصد بذلك أن يجعلنا بالمال أخص.

واعلم أن المعتزلة لما فسروا الرزق بذلك لا جرم قالوا: الحرام لا يكون رزقاً.

وقال الأشاعرة: الحرام قد يكون رزقاً، وحجتهم من وجهين:

الأول: أن الرزق في أصل اللغة هو الحظ والنصيب على ما بيناه، فمن انتفع بالحرام، فذلك الحرام صار حظاً ونصيباً، فوجب أن يكون رزقاً له.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: ٦] وقد يعيش الرجل طول عمره لا يأكل إلا من السرقة، فوجب أن يقال: إنه طول عمره لم يأكل من رزقه شيئاً.

وقد احتج المعتزلة بالكتاب، والسنة، والمعنى:

أما الكتاب فعلة وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [البقرة: ٣] مدحهم الله تعالى على الإنفاق مما رزقهم، فلو كان الحرام رزقاً لوجب أن يستحقوا المدح إذا أنفقوا من الحرام، وهذا باطل بالاتفاق.

ثانيها: قالوا: لو كان الحرام رزقاً لجاز أن ينفق الغاصب منه؛ لقوله سبحانه: ﴿وأنفقوا من ما رزقناكم﴾ [المنافقون: ١٠]، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز للغاصب أن ينفق مما أخذه، بل يجب عليه =

به، حلالاً كان أو حراماً، و ﴿يُنْفِقُونَ﴾: معناه هنا: يؤثرون ما ألزمهم الشرع من زكاة، وما نديهم إليه من غير ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤) ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴿

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون: اختلف المتأولون من المراد بهذه الآية والتي قبلها، فقال قوم: الآيتان جميعاً في جميع المؤمنين، وقال آخرون: هما في مؤمني أهل الكتاب، وقال آخرون: الآية الأولى في مؤمني العرب، والثانية في مؤمني أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام^(١)؛ وفيه نزلت.

= رده؛ فدل ذلك على أن الحرام لا يكون رزقاً.

ثالثها: استدلووا بقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم﴾ [يونس: ٥٩]. فبين سبحانه أن من حرم رزق الله فهو مفتر على الله؛ فثبت أن الحرام لا يكون رزقاً.

وأما السنة، فما رواه أبو الحسين البصري بإسناده عن صفوان بن أمية قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه عمرو بن قرّة، فقال له: يا رسول الله! إن الله كتب علي الشقوة، فلا أراني أرزق إلا من دُفّي بكفي، فإذن لي في الغناء من غير فاحشة، فقال عليه السلام: «لا إذن لك ولا كرامة ولا نعمة، كذبت، أي عدو الله: لقد رزقك الله رزقاً طيباً فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله، أما إنك لو قلت بعد هذه المقدمة شيئاً ضربت ضرباً وجيعاً» وأما المعنى، فإن الله تعالى منع المكلف من الانتفاع بالحرام، وأمر غيره بمنعه من الانتفاع به، ومن منع من أخذ الشيء والانتفاع به لا يقال: إنه رزقه إياه؛ ألا ترى أنه لا يقال: إن السلطان قد رزق جنده مالا قد منعهم من أخذه، وإنما يقال: إنه رزقهم ما مكنهم من أخذه ولا يمنعهم منه ولا أمر بمنعهم منه، أجاب أصحابنا عن التمسك بالآيات بأنه وإن كان الكل من الله، لكنه كما يقال: يا خالق المحدثات والعرش والكرسي، ولا يقال: يا خالق الكلاب والخنازير، وقال: ﴿عينا يشرب بها عباد الله﴾ [الإنسان: ٦] فخص اسم العباد بالمؤمنين، وإن كان الكفار أيضاً من العباد، وكذلك هاهنا خص اسم الرزق بالحلال على سبيل التشريف وإن كان الحرام رزقاً أيضاً، وأجابوا عن التمسك بالخبر بأنه حجة لنا؛ لأن قوله عليه السلام: «فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه» صريح في أن الرزق قد يكون حراماً. وأجابوا عن المعنى بأن هذه المسألة محض اللغة، وهو أن الحرام هل يسمى رزقاً أم لا؟ ولا مجال للدلائل العقلية في الألفاظ. والله أعلم. ينظر: «الفخر الرازي» (٢/ ٢٨، ٢٩).

(١) هو: عبد الله بن سلام بن الحارث.. من ذرية يوسف (عليه السلام). أبو يوسف، حليف النوافل من الخزرج «الإسرائيلي»، الأنصاري.

وقوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: يعني القرآن، ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، يعني: الكتب السالفة، و ﴿يُوقِنُونَ﴾ معناه: يعلمون علماً متمكناً في نفوسهم، واليقين أعلى درجات العلم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَّلِيكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى المذكورين، والهُدًى هنا: الإرشاد، والفلاح: الظفر بالبغيه، وإدراك الأمل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ...﴾ إلى ﴿عظيم﴾: اختلف فيمن نزلت هذه الآية بعد الاتفاق على أنها غير عامة لوجود الكفار قد أسلموا بعدها، فقال قوم: هي فيمن سبق في علم الله، أنه لا يؤمن، وقال ابن عباس: نزلت في حَيٍّ بْنِ أَخْطَبَ، وأبي ياسر بن أَخْطَبَ، وكعب بن الأشرف^(١)، ونظرائهم^(٢).

والقول الأول هو المعتمد عليه.

وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: معتدل عندهم، والإنذار: إعلام بتخويف، هذا حذو، وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ﴾: مأخوذ من الختم، وهو الطبع، والخاتم: الطابع؛ قال في مختصر الطبري: والصحيح أن هذا الطبع حقيقة^(٣).....

= قال ابن الأثير في «الأسد»: كان إسلامه لما قدم النبي المدينة مهاجراً. روى عنه ابنه يوسف، ومحمد، وأنس بن مالك، وزرارة بن أوفى، وكان قد ذكر قبل ذلك أنه كان اسمه في الجاهلية «الحصين»، فسماه رسول الله حين أسلم عبد الله. توفي سنة (٤٣) هـ. ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/٢٦٤)، «الإصابة» (٤/٨٠)، «الثقات» (٣/٢٢٨)، «نقعة الصديان» (٢٤٥)، «عنوان النجاة» (١٢٤)، «شذرات الذهب» (١/٤٠)، «تقريب التهذيب» (١/٤٢٢)، «تهذيب التهذيب» (٥/٢٤٩).

(١) كعب بن الأشرف الطائي، من بني نيهان، شاعر جاهلي. كانت أمه من «بني النضير» فدان باليهودية. وكان سيداً في أخواله. أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجوم النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة «بدر» فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار فقتلوه في ظاهر حصنه سنة (٣) هـ. وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.

ينظر: «الروض الأنف» (٢/١٢٣)، «إمتاع الأسماع» (١/١٠٧)، «ابن الأثير» (٢/٥٣)، «الطبري» (٣/٢)، «الأعلام» (٥/٢٢٥).

(٢) الطبري (١/١٤١) برقم (٢٩٥) وذكره السمرقندي (١/٩١-٩٢)، وابن عطية الأندلسي (١/٨٧)، والماوردي (١/٧٢)، والقرطبي (١/١٦٠)، والسيوطي في «الدر» (١/٦٥)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم. وذكره ابن كثير (١/٤٥).

(٣) قال ابن فارس في «فقه اللغة»: الحقيقة من قولنا: حق الشيء إذا وجب. واشتقاقه من الشيء المحقق، =

لا أنه مجاز^(١)؛ فقد جاء عن النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَدْنَبَ ذَنْبًا، نُكِنَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ، وَتَزَعَّ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ^(٢) قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ، زَادَتْ؛ حَتَّى تَعَلَّقَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ

وهو المحكم؛ يقال: ثوبٌ محققٌ النَّسج: أي مُحْكَمُهُ. فالحقيقة: الكلامُ الموضوعُ موضعه الذي ليس باستعارة، ولا تمثيل، ولا تقديم فيه، ولا تأخير؛ كقول القائل: أحمد الله على نعمه وإحسانه. وهذا أكثر الكلام، وأكثر آي القرآن وشعر العرب على هذا.

وينظر: «البحر المحيط» للزركشي (١٥٢/٢)، «سلاسل الذهب» له ص (١٨٢)، «التمهيد» للأسنوي ص (١٨٥)، «نهاية السؤل» له (١٤٥/٢)، «منهاج العقول» للبدخشي (٣٢٧/١)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (ص ٤٦).

(١) المجاز مأخوذٌ من جاز يجوز إذا استتر ماضياً، تقول: جاز بنا فلان، وجاز علينا فارسٌ؛ هذا هو الأصل. ثم تقول: يجوز أن تفعل كذا: أي ينفذ ولا يُرَد ولا يُمنع. وتقول: عندنا دراهم وضح وازنة، وأخرى تجوز جواز الازنة: أي: إن هذه وإن لم تكن وازنة فهي تجوز مجازها وجوازها لقربها منها.

فهذا تأويل قولنا: «مجاز» يعني: أن الكلام الحقيقي يَمْضِي لِسَنَتِهِ لا يُعْتَرَضُ عليه، وقد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه، إلا أن فيه من تشبيه واستعارة وكف ما ليس في الأول؛ وذلك كقولنا: عطاء فلان مزن وإكف. فهذا تشبيه، وقد جاز مجاز قوله: عطاؤه كثير وإف. ومن هذا قوله تعالى: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» [القلم: ١٦]. فهذا استعارة.

وقال ابن جني في «الخصائص»: الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز: ما كان بضد ذلك، وإنما يقع المجاز ويُعَدَّلُ إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة: وهي الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عُدِمَتِ الثلاثة تعيَّنت الحقيقة؛ فمن ذلك قوله ﷺ في الفرس: «هو بحر»، فالمعاني الثلاثة موجودة فيه.

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (١٥٨/٢)، «سلاسل الذهب» له ص (١٩٠)، «التمهيد» للأسنوي ص (١٨٥)، «نهاية السؤل» له (١٤٥/٢)، «منهاج العقول» للبدخشي (٣٥٤/١)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري ص (٤٧)، «التحصيل من المحصول» للأرموي، (٢٢١/١)، «المستصفى» للغزالي (٣٤١/١)، «حاشية البناني» (٣٠٤/١)، «الإبهاج» لابن السبكي (٢٧٣/١)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (١٥٢/٢)، «تخريج الفروع على الأصول» للزنجاني ص (٣٨٧)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (٣٩٩/١)، «المعتمد» لأبي الحسين (١٤/١)، (٤٠٥/٢)، «الإحكام في أصول الأحكام» (٤٣٧/٤)، «التحرير» لابن الهمام ص (١٦٠)، «تيسير التحرير لأمير بادشاه» (٧٣/١)، (٣)، «كشف الأسرار» للنسفي (٢٢٦/١)، «حاشية الفتازاني والشريف على مختصر المنتهى» (١/١٣٨)، «شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (٧٢/١)، «حاشية نسمات الأسحار» لابن عابدين ص (٩٨)، «شرح مختصر المنار» للكوراني ص (٥٩)، «الوجيز» للكراماسي ص (٨)، «ميزان الأصول» للسمرقندي (٥٢٧/١)، «تقريب الوصول» لابن جزي ص (٧٣)، «إرشاد الفحول» للشوكاني ص (٢٢)، «نشر البنود» للشنيطي (١٢٤/١)، «الكوكب المنير» للفتوح ص (٣٩-٥٦)، «التقرير والتجوير» لابن أمير الحاج (٢/٢).

(٢) الصُّقِلَ: الجلاء. ينظر: «لسان العرب» (٢٤٧٣).

الرَّأْنُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) [المطففين: ١٤] انتهى.

وَالْغِشَاوَةُ: الغطاء المغشي الساتر، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: معناه: لمخالفتك يا محمد، وكفرهم بالله، و ﴿عَظِيمٌ﴾: معناه بالإضافة إلى عذاب دونه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَاْلُوْهُرِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ﴾ (٨) يُخَادِعُوْنَ اللَّهَ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَمَا يُخَادِعُوْنَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ﴾ (٩) فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌۢ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ﴾ (١٠) وَاِذَا قِيْلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوْا فِي الْاَرْضِ قَالُوْا اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُوْنَ﴾ (١١) اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُوْنَ وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُوْنَ﴾ (١٢)

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ...﴾ إِلَى ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: هذه الآية نزلت في المنافقين، وسمى الله تعالى يوم القيامة اليوم الآخر؛ لأنه لا ليل بعده، ولا يقال يوم إلا لما تقدمه ليل، واختلف المتأولون في قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، فقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى يُخَادِعُونَ رسول الله^(٢)، فأضاف الأمر إلى الله تجوزاً؛ لتعلق رسوله به، ومخادعتهم هي تحيلهم في أن يُفشي رسول الله ﷺ والمؤمنون إليهم أسرارهم.

* ع^(٣): تقول: خَادَعْتُ الرَّجُلَ؛ بمعنى: أعملت التحيل عليه، فَخَدَعْتُهُ، بمعنى: تَمَّتْ عليه الحيلة، ونفذ فيه المراد، وقال جماعة: بل يخادعون الله والمؤمنين؛ بإظهارهم من الإيمان خلاف ما أبطنوا من الكفر، وإنما خدعوا أنفسهم؛ لحصولهم في العذاب، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، معناه: وما يعلمون علماً تفتن وتهذ، وهي لفظة مأخوذة من

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي (٥/٤٣٤)، كتاب «تفسير القرآن»، باب ومن سورة ويل للمطففين، حديث (٣٣٣٤)، والنسائي في «التفسير» (٢/٥٠٥)، رقم (٦٧٨)، وفي «الكبرى» (٦/١١٠)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يفعل من بلي بذنب وما يقول، حديث (١٠٢٥١)، وابن ماجه (٢/١٤١٨)، كتاب «الزهد» باب ذكر الذنوب، حديث (٤٢٤٤)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/٦٢)، والحاكم (٢/٥١٧)، وابن حبان (٣/٢١٠)، رقم (٩٣٠)، و (١٧٧١ - موارد)، كلهم من طريق محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٣٩) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ذكره ابن عطية (١/٩٠)، والقرطبي (١/١٧٠).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/٩٠).

الشَّعَار؛ كأن الشيء المتفطن له شعار للنفس، وقولهم: لَيْتَ شِعْرِي: معناه: ليت فطنتي تُدْرِكُ.

١٠ ب. واختلف، ما الذي نَقَى / الله عنهم أن يشعروا له؟ فقالت طائفة: وما يَشْعُرُونَ أَنَّ ضَرَرَ تِلْكَ المخادَعَةِ راجعٌ عليهم؛ لخلودهم في النار، وقال آخرون: وما يَشْعُرُونَ أَنَّ الله يكشف لك سرَّهم ومخادعتهم في قولهم: ﴿أَمَّا﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، أي: في عقائدهم فساد^(١)، وهم المنافقون، وذلك إما أن يكون شكاً، وإما جحداً بسبب حسدهم مع علمهم بصحة ما يجحدون، وقال قوم: المَرَضُ غمُّهم بظهوره ﷺ، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، قيل: هو دعاء عليهم، وقيل: هو خبر أن الله قد فعل بهم ذلك، وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي، ويظهر من البراهين.

* ت * : لما تكلَّم * ع * : على تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]. قال (٢): كل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأن الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته، وهي في قبضته، ومن هذا: ﴿وَنَزَّلَ لَكُلُّ هُمْزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَنَزَّلَ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، وهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى: ﴿وَأَلْهَمُوا عَذَابَ آلِيمٍ﴾، أي: مؤلم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بالكفر وموالات الكفرة؛ ولقول المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ثلاث تأويلات:

أحدها: جحد أنهم يفسدون، وهذا استمرار منهم على النفاق.

والثاني: أن يقرؤا بموالات الكفار ويدعون أنها صلاح؛ من حيث هم قرابة توصل.

والثالث: أنهم يصلحون بين الكفار والمؤمنين.

(١) وفي تفسير «المرض» قال ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وقتادة، وجميع المفسرين: أي شك ونفاق. وقال الزجاج: المرض في القلب: كل ما خرج به الإنسان من الصحة في الدين.

ينظر: «الوسيط» (٨٧/١)، «صحيفة ابن أبي طلحة» (ص ٧٨)، و«معاني الزجاج» (٨٦/١)، ونسبه إلى أبي عبيدة، و«غريب القرآن» (ص ٤١)، و«الدر المنثور» (٣٠/١) عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، والربيع، وينظر: «مجاز القرآن» (٣٢/١)، و«الزاهر» (٥٨٦/١).

(٢) «المحرر الوجيز» (٧٣/٣).

و «أَلَا»: استفتاح كلام، و «لكن»: حرف استدراك، ويحتمل أن يراد هنا: لا يَشْعُرُونَ أنهم مفسدون، ويحتمل أن يراد: لا يشعرون أن الله يَفْضَحُهُمْ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَاحَتِ يَحَرُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ...﴾ الآية: المعنى: صدقوا بمحمد وشرعه كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب، قالوا: أنكون كالذين خَفَّتْ عقولهم، والسفه: الخفة والرقّة الداعية إلى الخفة، يقال: ثوب سَفِيءٌ، إذا كان رقيقاً هَلْهَلَ النسيج، وهذا القول إنما كانوا يقولونه في خفاء، فَأُطْلِعَ الله عليه نبيّه عليه السلام، والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقّة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم السفهاء لِلرَّيْنِ الذي على قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية: هذه كانت حال المنافقين: إظهار الإيمان للمؤمنين، وإظهار الكفر في خلواتهم، وكان رسول الله ﷺ يعرض عنهم، وَيَدْعُهُمْ في غمرة الاشتباه؛ مخافة أن يتحدث الناس عنه أنه يقتل أصحابه حَسْبَمَا وقع في قِصَّة عبد الله بن أبيّ ابن سلول^(١)، قال مالك: النِّفَاقُ في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة اليَوْمَ، واختلف المفسرون في المراد بشياطينهم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم رؤساء الكفر^(٢)، وقيل: الكُفَّان، قال البخاري: قال مجاهد: ﴿إِلَى شياطينهم﴾، أي: أصحابهم من المنافقين والمشركين^(٣).

قال ص* ص*^(٤): جمع شيطان، وهو كل متمرّد من الجن والإنس

(١) عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحباب، المشهور بـ «ابن سلول»، وسلول جدته لأبيه، من «خزاعة»، رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة. كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم. كان كلما نزلت بالمسلمين نازلة شمت بهم، وكلما سمع بسيرة نشرها. لما مات تقدّم النبي ﷺ، فصلى عليه ولم يكن ذلك من رأي «عمر» فنزلت: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]. ينظر: «الأعلام» (٦٥/٤)، «طبقات ابن سعد» (٩٠/٣)، «جمهرة الأنساب» (٣٣٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٦٣/١) برقم (٣٤٩)، وذكره القرطبي (١٧٩/١).

(٣) أخرجه الطبري (١٦٤/١) برقم (٣٥٥)، وذكره البغوي في «التفسير» (٥١/١)، والسيوطي في «الدر» (٧٠/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وذكره ابن كثير (٥١/١).

(٤) «المجيد في إعراب القرآن المجيد» (ص ١١٨).

والدواب. قاله ابن عباس، وأثناه شيطانة. انتهى.

* ت * : ويجب على المؤمن أن يجتنب هذه الأخلاق الذميمة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بِوَجْهِهِ، وَهَوْلَاءَ بِوَجْهِهِ». رواه أبو داود^(١)، وفيه عنه ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ». انتهى. / من سنن أبي داود^(٢).

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾: اختلف المفسرون في هذا الاستهزاء، فقال جمهور العلماء: هي تسمية العقوبة باسم الذنب، والعرب تستعمل ذلك كثيراً، وقال قوم: إن الله سبحانه يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هزء؛ روي أن الثَّارَ تجمد كما تُجمد الإهالة^(٣)، فيمشون عليها، ويظنون أنها منجاة، فتخسف بهم، وما روي أن أبواب الثَّار تفتح لهم، فيذهبون إلى الخروج، نحا هذا المنحى ابنُ عباس والحسن.

* ت * : وقوله تعالى: ﴿قِيلَ آزِجُوا وَرَاءَكُمْ فَأَلْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] يقوي هذا المنحى، وهكذا نص عليه في اختصار الطبري. انتهى.

وقيل: استهزاؤه بهم هو استدراجهم بذرور النعم الدنيوية، و ﴿يَمْدُهم﴾، أي: يزيدهم في الطغيان، وقال مجاهد: معناه: يملئ لهم^(٤)، والطغيان الغلو وتعدّي الحد؛

(١) أخرجه أبو داود (٦٨٤/٢)، كتاب «الأدب»، باب في ذي الوجهين، حديث (٤٨٧٢)، من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، مرفوعاً بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٤٨٩/١٠)، كتاب «الأدب»، باب ما قيل في ذي الوجهين، حديث (٦٠٥٨)، ومسلم (١٩٥٨/٤)، كتاب «فضائل الصحابة»، باب خيار الناس، حديث (٢٥٢٦/١٩٩)، بلفظ: «تجدون من شر الناس.....» الحديث.

(٢) أخرجه أبو داود (٦٨٤-٦٨٥/٢)، كتاب «الأدب»، باب في ذي الوجهين، حديث (٤٨٧٣)، والدارمي (٣١٤/٢)، كتاب «الرقاق»، باب ما قيل في ذي الوجهين، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٨٨)، وابن حبان (١٩٧٩- موارد)، والطيالسي (٥٩- منحة)، رقم (٦١٧٥)، وابن أبي شيبة (٥٥٨/٨) رقم (٥٥١٥)، والبنغوي في «شرح السنة» (٥٢٣- بتحقيقنا)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٩/٤)، رقم (٤٨٨١)، كلهم من طريق شريك بن عبد الله، عن الركين، عن نعيم بن حنظلة، عن عمار بن ياسر مرفوعاً، وصححه ابن حبان.

وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (١٣٧/٣): وسنده حسن.

(٣) الإهالة: الدهن. ينظر: «عمدة الحفاظ» (١٥٣/١).

(٤) أخرجه الطبري (١٦٨/١) برقم (٣٦٤) عن ابن مسعود وناسٍ من أصحاب النبي ﷺ. وبرقم (٣٦٥) عن مجاهد، وذكره السيوطي في «الدر» (٧٠/١) عن ابن مسعود.

كما يقال: طَغَى الْمَاءُ، وَطَغَتِ النَّارُ و ﴿يَغْمَهُونَ﴾: معناه: يترددون حيرة، والعَمَةُ الحيرة من جهة النَّظَر، والعَامَةُ الذي كأنه لا يَبْصُرُ.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (١٧) ﴿هُمْ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَاعَهُمْ فِي أَزْدَانِهِمْ مِنَ الصُّورِ حَذَرُ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) ﴿يَكَادُ الزُّقُ يُخِفْتُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَنَاشِيرُ وَقْدِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلى قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾: قال الفخر^(١): اعلم أن المقصود من ضرب المَثَلِ أَنَّهُ يُوْثِرُ فِي الْقُلُوبِ مَا لَا يُوْثِرُهُ وَصِفُ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ؛ لأن الغرض من المَثَلِ تشبيه الخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل؛ وذلك هو النهاية في الإيضاح؛ ألا تَرَى أَنَّ التَّوْبَةَ والتَّوْبَةَ إِذَا وَقَعَ مَجْزُوداً عَنْ ضَرْبِ مَثَلٍ، لَمْ يَتَأَكَّدْ وَقُوعُهُ فِي الْقَلْبِ؛ كَتَأَكُّدِهِ مَعَ ضَرْبِ الْمَثَلِ، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه الأمثال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] انتهى.

والمَثَلُ والمِثْلُ والمِثْلُ واحدٌ، معناه: الشبيه، قاله أهل اللغة.

و ﴿اسْتَوْقَدَ﴾: قيل: معناه أوقد.

واختلف المتأولون في فعل المنافقين الذي يشبه فعل الذي استوقد ناراً؛ فقالت فرقة: هي فيمن كان آمن، ثم كفر بالنفاق، فإيمانه بمنزلة النار أضاءت، وكفره بعد بمنزلة انطفائها، وذهاب النور، وقالت فرقة، منهم فتادة: نطقهم بـ «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» والقُرْآنِ كإضاءة النار، واعتقادهم الكفر بقلوبهم كأنطفائها^(٢)، قال جمهور النحاة: جواب «لَمَّا»: «ذَهَبَ» ويعود الضمير من نورهم على «الذي»، وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد؛ لأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر بقاء المنافق؛ على الخلاف المتقدم.

وقال قوم^(٣): جواب «لَمَّا» مضمّر، وهو «طُفِئَتْ»، فالضمير في «نُورِهِمْ» على هذا

(١) «مفاتيح الغيب» (٢/٦٦).

(٢) ذكره ابن عطية (١/١٠٠).

(٣) ومن هؤلاء أبو القاسم الزمخشري، فقد قال عن جواب «لَمَّا». «محذوف...» كأن قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين على فوت الضوء، خائبين بعد الكدح في=

للمنافقين، والإخبار بهذا هو عن حال لهم تكون في الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ...﴾ الآية [الحديد: ١٣] وهذا القول غير قوي.

والأصم: الذي لا يسمع، والأبكم: الذي لا ينطق، ولا يفهم، فإذا فهم، فهو الأخرس، وقيل: الأبكم والأخرس واحد، ووصفهم بهذه الصفات؛ إذ أعمالهم من الخطأ وعدم الإجابة؛ كأعمال من هذه صفته.

و «صُمٌّ»: رفع على خبر الابتداء، إما على تقدير تكرير «أُولَئِكَ»، أو إضمارهم.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قيل: معناه: لا يؤمنون بوجه، وهذا إنما يصح أن لو كانت الآية في معيّنين، وقيل: معناه: فهم لا يرجعون ما داموا على الحال التي وصفهم بها، وهذا هو الصحيح.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾: «أَوْ»: للتخيير، معناه مثلوهم بهذا أو بهذا، والصَّيْبُ المَطَرُ؛ من: ١١ ب صَابَ يَصُوبُ، إذا/ انحط من علو إلى سفلى.

و «ظُلُمَاتٍ»: بالجمع: إشارة إلى ظلمة الليل وظلمة الدجن، ومن حيث تتراكب وتزيد جُمِعَتْ، وكون الدجن مظلماً هول وغم للنفوس؛ بخلاف السحاب والمطر، إذا انجلى دجنه، فإنه سارّ جميل.

واختلف العلماء في «الرَّعْدِ»، فقال ابن عباس ومجاهد وشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ^(١) وغيرهم: هو مَلَكٌ يزجرُ السحابَ بهذا الصوت المسموع كلما خالفت سحابة، صاح بها، فإذا اشتد غضبه، طارت النار من فيه، فهي الصواعق، واسم هذا الملك: الرَّعْدُ^(٢).

= إحياء النار.. وجعل هذا أبلغ من ذكر الجواب، وجعل جملة قوله: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ مستأنفة أو بدلاً من جملة التمثيل.

وقد رد عليه أبو حيان - كما ذكر السمين عنه - بوجهين: أحدهما: أن هذا تقدير مع وجود ما يغني عنه، فلا حاجة إليه؛ إذ التقديرات إنما تكون عند الضرورات. والثاني: أنه لا تبدل الجملة الفعلية من الجملة الاسمية.

ينظر: «الكشاف» (١/ ٧٣)، و «البحر المحيط» (١/ ٢١٣)، و «الدر المصون» (١/ ١٣٢).

(١) شهر بن حوشب الأشعري، فقيه قارىء، من رجال الحديث. شامي الأصل، سكن «العراق»، وكان يتزياً بزي الجند، ويسمع الغناء بالآلات. وولي بيت المال مدة، وهو متروك الحديث. وكان ظريفاً، قال له رجل: إني أحبك، فقال: ولم لا تحبني وأنا أخوك في كتاب الله، ووزيرك على دين الله، ومؤنتي على غيرك.

ينظر: «الأعلام» (٣/ ١٧٨)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ٣٦٩)، و «التاج» (١/ ٢١٤).

(٢) ذكره ابن عطية (١/ ١٠٢)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٥٣)، والقرطبي (١/ ١٨٧).

وقيل: الرُّعْدُ مَلَكٌ، وهذا الصوت تسبيحه.

وقيل: الرعد: اسم الصوت المسموع؛ قاله علي بن أبي طالب^(١).

وأكثر العلماء على أن الرعد ملك، وذلك صوته يسبح ويزجر السحاب. واختلَفوا في البرق.

فقال علي بن أبي طالب؛ وروي عن النبي ﷺ: «هُوَ مَخْرَاقٌ حَدِيدٌ بِيَدِ الْمَلِكِ يَسُوقُ بِهِ السَّحَابَ» وهذا أصح ما روي فيه^(٢).

وقال ابن عباس: هو سوط نور بيد الملك يزجي به السحاب^(٣)، وروي عنه: أن البرق ملك يتراءى^(٤).

واختلف المتأولون في المقصد بهذا المثل، وكيف ترتب أحوال المنافقين الموازنة لما في المثل من الظلمات والرعد والبرق والصواعق.

فقال جمهور المفسرين: مثل الله تعالى القرآن بالصَّيْبِ، فما فيه من الإشكال عليهم والعمى هو الظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة هو البرق، وتخوفهم ورؤعهم وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، وقضخ نفاقهم، واشتهاز كفرهم، وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق، وهذا كله صحيح بين.

وقال ابن مسعود: إن المنافقين في مجلس رسول الله ﷺ كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم؛ لئلا يسمعوا القرآن، فضرب الله المثل لهم^(٥)، وهذا وفاق لقول الجمهور.

و ﴿مَحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ معناه: يعقابهم، يقال: أحاط السلطان بفلان، إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢].

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥٣/١)، وابن عطية (١٠٢/١)، والقرطبي (١٨٧/١).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» (٣٦٣/٣)، كتاب «صلاة الاستسقاء»، باب ما جاء في الرعد، عن علي موقوفاً وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩٦/٤)، وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب «المطر»، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، والخرائطي في «مكارم الأخلاق».

(٣) ذكره الماوردي في «التفسير» (٨٢/١)، والبغوي (٥٣/١)، والقرطبي (١٨٧/١).

(٤) ذكره ابن عطية الأندلسي (١٠٢/١)، والقرطبي (١٨٨/١).

(٥) ذكره ابن عطية الأندلسي (١٠٣/١).

و ﴿يَكَاذُ﴾ فعل ينفي المعنى مع إيجابه، ويوجب مع النفي^(١)، فهنا لم يخطف البرق الأَبصار، والخطْفُ: الانتزاعُ بسرعة، ومعنى ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، تكاد حجج القرآن وبراهينه وآياته الساطعة تبهرهم، ومن جعل الْبَرْقَ في المثل الزَجَرُ والوعيدُ، قال: يكاد ذلك يصيبهم.

و «كُلَّمَا»: ظرفٌ، والعامل فيه «مَشَوْا»، و «قَامُوا» معناه: ثَبَتُوا، ومعنى الآية فيما روي عن ابن عَبَّاسٍ وغيره: كُلَّمَا سَمِعَ الْمَنَافِقُونَ الْقُرْآنَ، وَظَهَرَتْ لَهُمُ الْحُجُجُ، أَنَسُوا وَمَشَوْا مَعَهُ، فَإِذَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَعْمَهُونَ فِيهِ، وَيَضِلُّونَ بِهِ، أَوْ يَكْلِفُونَهُ، قَامُوا، أَي: ثَبَتُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ.

وروي عن ابن مسعود؛ أَنَّ معنى الآية: كُلَّمَا صَلَحَتْ أحوالهم في زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم التعم، قالوا: دين مُحَمَّدٌ دِينٌ مَبَارَكٌ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ مَصِيبَةٌ أَوْ أَصَابَتْهُمْ شِدَّةٌ، سَخَطُوا وَثَبَتُوا فِي نِفَاقِهِمْ^(٢).

ووَحَّدَ السَّمْعَ؛ لأنه مصدر يقع للواحد والجمع.

وقوله سبحانه: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لفظه العموم، ومعناه عند المتكلمين: فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه، وقديرٌ بمعنى قَادِرٍ، وفيه مبالغة، وَخَصَّ هنا سبحانه صفته التي هي القدرة - بالذِّكْر؛ لأنه قد تقدَّم ذكر فعلٍ مضمَّنُه الوعيدُ والإِخَافَةُ، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك.

١١٢

(١) وزعم جماعة منهم ابن جني وأبو البقاء وابن عطية أَنَّ نفيها إثبات وإثباتها نفي، حتى أَلْغَزَ بعضهم فيها فقال: [الطويل]

أَنخَوِيَّ هَذَا الْعَصْرَ مَا هِيَ لَفْظَةٌ جَرَتْ فِي لِسَانِي جُرْهُمُ وَتُمُودُ
إِذَا نُفِيتَ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَثْبِتْ وَإِنْ أَثْبِتْتَ قَامَتْ مَقَامَ جُحُودِ
وَخَكَّوْا عَنِ ذِي الرُّمَةِ أَنَّهُ لَمَّا أَتَشَدَّ قَوْلُهُ: [الطويل]

إِذَا غَيَّرَ النَّاسُ الْمَجْبُوبِينَ لَمْ يَكْدُ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ
عَيَّبَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَكْدُ يَبْرَحُ فَيَكُونُ قَدْ بَرَحَ، فَعَيَّرَهُ إِلَى قَوْلِهِ: «لَمْ يَزَلْ» أَوْ مَا هُوَ بِمَعْنَاهُ، وَالَّذِي غَرَّ
هَؤُلَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَبِّحُوها وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] قالوا: فَبِهِ هُنَا مَنَفِيَّةٌ وَخَبَرُهَا مُثَبَّتٌ فِي
الْمَعْنَى، لِأَنَّ الذَّبْحَ وَقَعَ لِقَوْلِهِ: ﴿فَذَبِّحُوها﴾. والجواب عن هذه الآية من وَجْهَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى اخْتِلَافِ وَقَتَيْنِ، أَي: ذَبَّحُوها فِي وَقْتٍ، وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ فِي وَقْتٍ آخَرَ.
وَالثَّانِي: أَنَّهُ غَبَّرَ بِنَفْيِ مَقَارِبَةِ الْفِعْلِ عَنِ شِدَّةِ تَعَتُّبِهِمْ وَعُسْرِهِمْ فِي الْفِعْلِ. وَأَمَّا مَا حَكَّوْهُ عَنِ ذِي الرُّمَةِ فَقَدْ
غَلَطَ الْجُمْهُورُ ذَا الرُّمَةِ فِي رَجُوعِهِ عَنِ قَوْلِهِ وَقَالُوا: هُوَ أَتْلَغُ وَأَحْسَنُ مِمَّا غَيَّرَ إِلَيْهِ.

ينظر: «الدر المصون» (١/١٤٠).

(٢) ينظر: ابن عطية (١/١٠٤).

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي أُفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴿

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾ الآية: «يَا»: حرفُ نداء، وفيه تنبيه، و «أَيُّ» هو المنادى، قال مجاهد: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ حيث وقع في القرآن مكي، و ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مدني^(١).

قال *ع^(٢): قد تقدّم في أول السورة؛ أنها كلها مدنية، وقد يجيء في المدني: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾.

وأما قوله في: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فصحيح.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: معناه: وحّدوه، وخصّوه بالعبادة، وذكر تعالى خلقه لهم؛ إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك سبحانه حجة عليهم، ولعل في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين: هي بمعنى إيجاب التقوى، وليست من الله تعالى بمعنى ترج وتوقع، وفي «مختصر الطبري»: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عن مجاهد، أي: لعلكم تطيعون^(٣)، والتقوى التوقي من عذاب الله بعبادته، وهي من الوقاية، وأما «لَعَلَّ» هنا، فهي بمعنى «كَي» أو «لام كَي»، أي: لتتقوا، أو لكي تتقوا، وليست هنا من الله تعالى بمعنى الترجي، وإنما هي بمعنى كَي، وقد تجيء بمعنى «كَي» في اللغة؛ قال الشاعر: [الطويل]

وَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكُفُّ وَوَقَّضْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ^(٤)

(١) ينظر المصدر السابق، والقرطبي (١/١٩٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/١٠٥).

(٣) أخرجه الطبري (١/١٩٦) برقم (٤٧٤)، والسيوطي في «الدر» (١/٧٤)، وعزاه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

(٤) وبعده:

فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ غُهُودُكُمْ كَلِمَعِ سَرَابٍ فِي الْمَلَأِ مُتَأَلِّقِ

وهما بلا نسبة في «تفسير الطبري» (١/٣٦٤)، و «القرطبي» (١/٢٢٧، ١٢/٢٨٢)، و «زاد المسير» (٤٨/١)، و «الدر المصون» (١/٤٧)، و «الحامسة البصرية» (١/٥٦). والشاهد فيه «لعل»: استعمالها =

انتهى .

قال * ع^(١) : * وقال سيبويه^(٢) : ورؤساء اللسان : هي على بابها ، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر ، أي : إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم ، رجوتُمْ لأنفسكم التقوى ، و «لعل» : متعلقة بقوله : «اعبدوا» ، ويتجه تعلقها بـ «خَلَقَكُمْ» أي : لَمَّا وُلِدَ كُلُّ مولود على الفطرة ، فهو إن تأمله متأمل ، توقع له ورجا أن يكون متقيًا ، و «تَتَّقُونَ» : مأخوذ من الوقاية ، وجعل بمعنى «صَيَّرَ» في هذه الآية ؛ لتعديها إلى مفعولين ، و «فِرَاشًا» معناه : تفتريشونها ، و «السَّمَاء» قيل : هو اسم مفرد ، جمعه سماوات ، وقيل : هو جمع ، واحده سَمَاوَة ، وكلُّ ما ارتفع عليك في الهواء ، فهو سماء ، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يريد السحاب ، سمي بذلك تجوُّزًا ؛ لَمَّا كان يلي السماء ، وقد سَمَّوْا المطر سماءً للمجاورة ؛ ومنه قول الشاعر : [الوافر]
إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا^(٣)
فتجوز أيضاً في «رَعَيْنَاهُ» .

وواحد الأنداد نَدٌّ ، وهو المقاوم والمضاهي ، واختلف المتأولون من المخاطب بهذه الآية ، فقالت جماعة من المفسرين : المخاطبُ جميع المشركين ، فقوله سبحانه على هذا : ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يريد العلم الخاص في أنه تعالى خلق ، وأنزل الماء ، وأخرج الرزق ، وقيل : المراد كفَّار بني إسرائيل ، فالمعنى : وأنتم تعلمون من الكتب التي عندكم أنَّ الله لا

= الشاعر هنا مجردة من الشك بمعنى «لام كي» . يقول : كفوا الحروب لتكف ، ولو كانت «لعل» هنا شكاً لم يوثقوا لهم كل موثق . ينظر : «أمالى ابن الشجري» (١ : ٧١) ، والملا : الصحراء ، والأرض الواسعة . (١) ينظر : «المحرر الوجيز» (١ / ١٠٥) .

(٢) عمرو بن عثمان بن قنير الحارثي بالولاء ، أبو بشر ، الملقب «سيبويه» : إمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو . ولد في إحدى قرى «شيراز» ، وقدم «البصرة» ، فلزم الخليل بن أحمد ، ففاقه ، وصنف كتابه المسمى «كتاب سيبويه» في النحو . لم يصنع قبله ولا بعده مثله ، ناظر الكسائي وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم . كان أنيقاً جميلاً ، توفي شاباً ، ولد سنة (١٤٨ هـ) ، وتوفي سنة (١٨٠ هـ) . ينظر : «ابن خلكان» (١ : ٣٨٥) ، «البداية والنهاية» (١٠ : ١٧٦) ، «الأعلام» (٥ / ٨١) .

(٣) البيت لمعود الحكماء . انظر : «تأويل مشكل القرآن» (١٣٥) ، الأصبهاني (٢١٤) ، الصاحبي (٦٣) ، «معجم الشعراء» (٣٩١) ، «المفضليات» (٣٥٩) ، «الصناعتين» (٢١٢) ، «معجم مقاييس اللغة» (٣ / ٩٨) ، «العمدة» (١٧ / ٢٣٧) ، وفيه النسبة لجريز بن عطية ، «معاهد التنصيص» (٢ / ٢٦٠) .

والشاهد فيه : الاستخدام ، وهو أن يراد بلفظ له معنيان : أحدهما ، ثم يراد بضمير الآخر ، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما ، ثم يراد بالآخر الآخر ، فالأول كما في البيت هنا ، فإنه أراد بالسماء الغيث ، وبالضمير الراجع إليه من «رعيناه» النبت .

نَدَّ لَهُ، وقال ابنُ فُورَكٍ^(١): يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، أي: في شك، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾: الضمير في «مِثْلِهِ» عند الجمهور: عائد على القرآن^(٢)، ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾، أي: مَنْ شهدكم وحضركم من عون ونصير؛ قاله ابنُ عَبَّاسٍ^(٣): ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: فيما قلتُم من أنَّكم تقدرون على معارضته. ويؤيد هذا القول ما حكى عنهم في آية أخرى: / ١٢ ب ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، وفي قوله جل وعلا: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إثارة لِهَمِّهِمْ، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو أيضاً من الغيوب التي أخبر بها القرآن.

وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا النَّارَ﴾: أمر بالإيمان وطاعة الله، قال الفخر^(٤) ولما ظهر عجزهم عن المعارضة، صح عندهم صدق النبي ﷺ وإذا صح ذلك، ثم لزموا العناد، استوجبوا العقاب بالنار، واتقاء النار يوجب ترك العناد؛ فأقيم قوله: ﴿فَأْتُوا النَّارَ﴾ مقام قوله: «وَأَتَرُكُوا الْعِنَادَ»، ووصف النار بأنها تنقد بالناس والحجارة؛ وذلك يدل على قوتها، نجانا الله منها برحمته الواسعة.

وَقَرَنَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ النَّاسَ بِالْحِجَارَةِ؛ لأنهم اتخذوها في الدنيا أصناماً يعبدونها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فأحدى الآيتين مفسرة للأخرى، وهذا كتعذيب مانعي الزكاة بنوع ما منعوا، انتهى.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/١٠٦). وابن فُورَكٍ هو: محمد بن الحسين بن فُورَكٍ، أبو بكر الأصفهاني، المتكلم، الأصولي، الأديب، النحوي، الواعظ، أخذ طريقة أبي الحسن الأشعري، عن أبي الحسين الباهلي وغيره، أحبى الله تعالى به أنواعاً من العلوم، وبلغت مصنفاته الشيء الكثير، وجرت له مناظرات عظيمة. مات سنة (٤٠٦). انظر: «طبقات ابن قاضي شهاب» (١/١٩٠)، «طبقات السبكي» (٣/٥٢)، «تبيين كذب المفتري» ص (٢٣٢). «الأعلام» (٦/٣١٣)، «مرآة الجنان» (٣/١٧)، «النجوم الزاهرة» (٤/٢٤٠).

(٢) وقال قوم آخرون: إن معنى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾: من مثل محمد من البشر؛ لأن محمداً بشر مثلكم، يعني لأنه لم يكن قرأ الكتب ولا درس، فأتوا بسورة فيها حق من مثل محمد، كما جاء بذلك ﷺ.

ينظر: «تفسير الطبري» (١/٣٧٤)، و «بحر العلوم» للسمرقندي (١/١٠٢).

(٣) أخرجه الطبري (١/٢٠٢) برقم (٤٩٦)، وذكره ابن عطية (١/١٠٧)، والسيوطي في «الدر» (١/٧٧)، وعزه لابن جرير، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٢/١١٢).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات...﴾ الآية.

﴿بَشِّرْ﴾: مأخوذ من البَشَرَة؛ لأن ما يبشر به الإنسان من خير أو شر يظهر عنه أثر في بَشَرَة الوجه، والأغلب استعمال البَشَرَة في الخير، وقد تستعمل في الشر مقيّدة به؛ كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] ومتى أطلق لفظ البَشَرَة، فإنما يحمل على الخير، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ردٌّ على من يقول: إن لفظة الإيمان بمجرد ما تقتضي الطاعات؛ لأنه لو كان كذلك، ما أعادها، و ﴿جَنَّاتٍ﴾ جمع جَنَّة، وهي بستان الشجر والنخل، وبستان الكرم، يقال له الفِرْدَوْسُ، وروى النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أَنَّ ثِيَابَ الْجَنَّةِ تَشَقُّ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ»^(١)، وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أَنَّ قَالَ: «مَا فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِلَّا وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن^(٢). انتهى من «التذكرة»^(٣).

* ت *: وفي الباب عن ابن عباس، وجريير بن عبد الله، وغيرهما: وسميت الجنة جنة؛ لأنها تجن من دخلها^(٤)؛ أي: تستره، ومنه المَجَنُّ، وَالْجَنُّ، وَجَنُّ اللَّيْلِ.

و ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ معناه من تحت الأشجار التي يتضمَّنُها ذكر الجنة.

* ت *: ومن أعظم البشارات أن هذه الأمة هم ثلثا أهل الجنة، وقد خرَّج أبو بكر بن أبي شيبة^(٥) عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُلُثَا أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ أَهْلَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٧١-٦٧٢)، كتاب «صفة الجنة»، باب ما جاء في صفة شجرة الجنة، حديث (٢٥٢٥)، وأبو يعلى (١١/ ٥٧)، رقم (٦١٩٥)، وابن حبان (٢٦٢٤-موارد)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣/ ٢٤٠)، رقم (٤٠٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠٨/٥)، كلهم من طريق أبي حازم، عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حسن غريب. وصححه ابن حبان.

(٣) «التذكرة»، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، ص (٦٠٧)، وفيها قول الترمذي: حديث حسن غريب.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٨/١).

(٥) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان القنس (بموحدة)، مولاهم، أبو بكر بن أبي شيبة، الكوفي الحافظ. أحد الأعلام، وصاحب «المصنف». عن شريك، وهشيم، وابن المبارك، وجريير بن=

الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، وَإِنَّ أُمَّتِي مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا^(١)، وخرَجَ ابن ماجه والترمذي عن بُرَيْدَةَ بن حُصَيْنٍ^(٢) قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ؛ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن^(٣).

= عبد الحميد، وابن عينة، وخلق. وعنه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وأبو زرعة، وعثمان بن حُرَّاذ، وأحمد بن علي المروزي، وخلق. قال أبو زرعة: ما رأيت أحفظ منه. وقال الخطيب: كان متقناً حافظاً، صنف التفسير وغيره. وقال نفطويه: اجتمع في مجلسه نحو ثلاثين ألفاً. قال البخاري: مات سنة خمس وثلاثين ومائتين.

ينظر: «الخلاصة» (٩٤/٢)، و «تهذيب التهذيب» (٢/٦)، و «الجرح والتعديل» (٥/٧٣٧).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/٤٧٠).

(٢) هو: بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْن بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج بن سعد بن رزاح بن عدي بن سهم بن مازن بن الحارث بن سلامان بن أسلم بن أفضى بن حارثة بن عمرو بن عامر... أبو عبد الله. وقيل: أبو سهل. وقيل: أبو ساسان. وقيل أبو الحُصَيْن. الأسلمي. قال ابن الأثير في «الأسد»: أسلم حين مر به النبي ﷺ مهاجراً هو ومن معه، وكانوا نحو ثمانين بيتاً، فصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فصلوا خلفه، وأقام بأرض قومه ثم قدم على رسول الله ﷺ بعد «أحد»، فشهد معه مشاهدته، وشهد الحديبية وبيعة الرضوان تحت الشجرة.

وكان من ساكني «المدينة» ثم تحول إلى «البصرة»، وابتنى بها داراً، ثم خرج منها غازياً إلى «خراسان» فأقام بـ «مرو» حتى مات ودفن بها، وبقي ولده بها.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١/٢٠٩)، «الإصابة» (١/١٥١)، «الثقات» (٣/٢٩)، «الجرح والتعديل» (٢/٤٢٤)، «سير أعلام النبلاء» (٢/٤٦٩)، «الجمع بين رجال الصحيحين» (١/٦١)، «مشاهير علماء الأمصار» (٦٠)، «تقريب التهذيب» (١/٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/٦٨٣)، كتاب «صفة الجنة»، باب ما جاء في صف أهل الجنة، حديث (٢٥٤٦)، وأحمد (٥/٣٤٧)، كلاهما من طريق ضرار بن مرة، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد روي هذا الحديث عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن النبي ﷺ مرسلاً، ومنهم من قال: عن سليمان بن بريدة، عن أبيه. اهـ.

قلت: أما الطريق المرسل والذي أشار إليه الترمذي، فأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٥٤٨)، رقم (١٥٧٢) من طريق سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن ابن بريدة، عن النبي ﷺ مرسلاً.

وأخرجه ابن ماجه (٢/١٤٣٣-١٤٣٤)، كتاب «الزهد»، باب صفة أمة محمد ﷺ، حديث (٤٢٨٩)، والدارمي (٢/٣٣٧)، كتاب «الرفاق»، باب في صفوف أهل الجنة، والحاكم (١/٨٢) من طرق عن سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه مرفوعاً. وعند الدارمي: عن علقمة، عن سليمان قال: أراه عن أبيه. وللحديث شاهد من حديث أبي موسى.

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٧٣)، وقال: رواه الطبراني، وفيه القاسم بن غصن، وهو ضعيف.

انتهى من «التذكرة»^(١) للقرطبي.

﴿والأنهار﴾: المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة؛ مأخوذة من أنهرت، أي: وسعت؛ ومنه قول النبي ﷺ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكُلُّهُ»^(٢). ومعناه: ما وسع الذبح؛ حتى جرى الدم كالنهر، ونسب الجري إلى النهر، وإنما يجري الماء تجوذاً؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وروي أن أنهار الجنة ليست في أخاديد؛ إنما تجري على سطح أرض الجنة منضبطة.

وقولهم: ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: إشارة إلى الجنس، أي: هذا من الجنس الذي رزقنا منه من قبل، والكلام يحتمل/ أن يكون تعجباً منهم، وهو قول ابن عباس^(٣)، ويحتمل أن يكون خبراً من بعضهم لبعض؛ قاله جماعة من المفسرين، وقال الحسن، ومجاهد: يرزقون الثمرة، ثم يرزقون بغدها مثل صورتها، والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، ويخبر بعضهم بعضاً^(٤)، وقال ابن عباس: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا سوى

= وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/٢١٥): سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه القاسم بن غصن، عن موسى الجهني، عن أبي بردة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، أمي منهم ثمانون صفاً» قالوا: هذا خطأ؛ إنما هو موسى الجهني، عن الشعبي، عن النبي ﷺ مرسل. قالوا: والخطأ من القاسم. قلت: ما حال القاسم؟؟؟ قالوا: ليس بقوي.

(١) ينظر: «التذكرة» (٢/٥٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٦٣-٤٦٤)، والبخاري (٩/٦٧٢)، كتاب «الذبائح والصيد»، باب إذا أصاب القوم غنيمة...، حديث (٥٥٤٣)، ومسلم (٣/١٥٥٨)، كتاب «الأضاحي»، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم، حديث (١٩٦٨/٢٠)، وأبو داود (٣/٢٤٧)، كتاب «الأضاحي»، باب في الذبيحة بالمروة، حديث (٢٨٢١)، والترمذي (٤/٨١)، كتاب «الأحكام والفوائد»، باب ما جاء في الزكاة بالقصب وغيره، حديث (١٤٩١)، والسنائي (٧/٢٢٦)، كتاب «الضحايا»، باب في الذبح بالسن، وابن ماجه (٢/١٠٦)، كتاب «الذبائح»، باب ما يذكر به، حديث (٣١٧٨). والدارمي (٢/٨٤)، كتاب «الأضاحي»، باب: في البهيمة إذا ندت، وعبد الرزاق (٤/٤٦٥-٤٦٦)، رقم (٨٤٨١)، والطيالسي (٩٦٣)، وابن الجارود (٨٩٥)، والحميدي (١/١٩٩)، رقم (٤١٠)، وابن حبان (٥٨٥٦-الإحسان)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/١٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٤/٣٢١)، رقم (٤٣٨٠)، ٤٣٨١، ٤٣٨٢، ٤٣٨٣، ٤٣٨٤)، والبخاري في «شرح السنة» (٦/١٨-بتحقيقنا)، من طريق عباية بن رفاع، عن رافع بن خديج قال: قلت يا رسول الله، إنا نلقى العدو غداً، وليس معنا مئدة، فقال النبي ﷺ: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوا ما لم يكن سئاً، أو ظفراً، وسأحدثكم عن ذلك؛ أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الجبشة».

(٣) ذكره ابن عطية الأندلسي (١/١٠٩)، والماوردي (١/٨٦)، وابن كثير (١/٦٢).

(٤) أخرجه الطبري (١/٢٠٩) برقم (٥٢٨)، وعبد الرزاق في تفسيره (١/٤١)، وذكره البخاري في «التفسير» =

الأسماء، وأما الذوات فمتباينة^(١)، وقال بعض المتأولين: المعنى أنهم يرون الثمر، فيميزون أجناسه حين أشبه منظره ما كان في الدنيا، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وقال قوم: إن ثمر الجنة إذا قطف منه شيء، خرج في الحين في موضعه مثله، فهذا إشارة إلى الخارج في موضع المجني.

وقوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال ابن عباس وغيره: معناه يشبه بعضه بعضاً في المنظر، ويختلف في الطعم^(٢)، و ﴿أَزْوَاجٌ﴾: جمع زوج، ويقال في المرأة: زوجة، والأول أشهر، و ﴿مُطَهَّرَةً﴾: أبلغ من طاهرة، أي: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْحَيْضِ، والبُرَاق، وسائر أقدار الآدميات، والخلود: الدوام، وخرج ابن ماجة عن أسامة بن زيد^(٣)؛ قال: قال النبي ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ: «أَلَا مُشَمَّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ^(٤) لَهَا؛ هِيَ، وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، نُورٌ

= (٥٦/١)، وابن عطية الأندلسي (١٠٩/١)، والماوردي (٨٦/١)، والسيوطي في «الدر» (٨٣/١)، وعزاه لوكيع، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وذكره ابن كثير (٦٣/١).

(١) أخرجه الطبري (٢١٠/١) برقم (٥٣٥)، وذكره السمرقندي (١٠٤/١)، والبغوي في التفسير (٥٦/١)، وابن عطية الأندلسي (١٠٩/١)، والماوردي (٨٦/١)، والقرطبي (٢٠٦/١)، وابن كثير (٦٣/١)، والسيوطي في «الدر» (٨٢/١)، وعزاه لمسدّد، وهناد في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٩/١) برقم (٥٢٤)، وذكره البغوي في التفسير (٥٦/١)، وابن عطية (١٠٩/١)، والماوردي (٨٦/١)، وابن كثير (٦٣/١).

(٣) أسامة بن زيد بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرئ القيس بن عامر بن التعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر، أبو يزيد، وأبو خارجة، وأبو محمد، وأبو زيد الحب بن الحب الكلبي.

أمه: أم أيمن حاضنة النبي ﷺ. ولد في الإسلام، ومناقبه كثيرة، وأحاديثه شهيرة، وكان سكن «المزة» من عمل «دمشق»، ثم رجع فسكن وادي القرى، ثم نزل إلى «المدينة» فمات بها بـ «الجرف». روى ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن أسامة بن زيد لأحب إليّ (أو من أحب الناس إليّ)، وأنا أرجو أن يكون من صالحكم، فاستوصوا به خيراً».

قيل: توفي في آخر خلافة معاوية، وقيل: مات سنة (٥٤).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٧٩/١)، «الإصابة» (٢٩/١)، «الاستيعاب» (٧٥/١)، «الاستبصار» (٣٤)، «الكاشف» (١٠٤/١)، «صفة الصفوة» (٥٢١/١)، «بقي بن مخلد» (٣٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٣/١)، «التاريخ الكبير» (٢٠/٢)، «التاريخ لابن معين» (٢٢/٣).

(٤) قوله ﷺ: «لا خطر لها» أي لا عوض لها ولا مثل. والخطر بالتحريك - في الأصل: الزهن وما يخاطر عليه. ومثل الشيء، وعذله، ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدر ومزية. ينظر: «النهاية» (٤٦/٢).

يَتَلَأَلُ، وَرِيحَانَتُهُ تَهْتَرُ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَرِدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ؛ وَرَوْجَةٌ حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلٌّ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدٍ فِي حَبْرَةٍ^(١) وَنَضْرَةٌ، فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ، قَالُوا: نَحْنُ الْمُشْمَرُونَ لَهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، ثُمَّ ذَكَرَ الْجِهَادَ وَحَضَّ عَلَيْهِ^(٢) انتهى من «التذكرة»^(٣).

وقوله: لَا خَطَرَ لَهَا؛ بفتح الطاء: قيل: معناه: لَا عِوَضَ لَهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمِنًا فَأَخِيتَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾: لما كان الجليلُ القدرُ في الشاهد لا يمنعه من الخوض في نازل القولِ إِلَّا الحياءُ من ذلك، رَدَّ اللَّهُ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾؛ على القائلين كيف يضرب الله مثلاً

(١) الخبر: النعمة وسعة العيش، وكذلك الجبور. ينظر: «النهاية» (٣٢٧/١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٨/٢ - ١٤٤٩)، كتاب «الزهد»، باب صفة الجنة، حديث (٤٣٣٢)، وابن حبان (٢٦٢٠ - موارد)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١٦٢ - ١٦٣)، رقم (٣٨٨)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣٠٤/١)، وأبو نعيم في «صفة الجنة»، رقم (٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص ٢٣٣)، رقم (٣٩١)، كلهم من طريق الضحاك المعافري، عن سليمان بن موسى، عن كريب مولى ابن عباس، عن أسامة بن زيد مرفوعاً.

وقال البوصيري في «الزوائد»: في إسناد مقال، والضحاك المعافري ذكره ابن حبان في «الثقات» اهـ. قال الحافظ في «التقريب» (٣٧٤/١): الضحاك المعافري مقبول. اهـ.

يعني عند المتابعة، وإلا فهو لين كما ذكره هو في مقدمة «التقريب».

والحديث ذكره الهندي في «كنز العمال» (٤٦١/١٤)، وعزاه إلى ابن ماجه، وأبي يعلى، والنسائي، وابن حبان، وأبي بكر بن أبي داود في «البعث»، والرويانى، والرامهرمزي، والطبراني، والبيهقي في «البعث»، وسعيد بن منصور، عن أسامة بن زيد.

تنبيه: عزاه الحافظ المزي في «تحفة الأشراف» (٥٩/١) إلى ابن ماجه فقط، ولم يعزه للنسائي في «الصغرى»، ولا في «الكبرى»، وأظن أن عزوه للنسائي خطأ من المتقي الهندي.

(٣) ينظر: «التذكرة» (٥٩٦).

بالذُّبَابِ ونحوه.

واختلف في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، هل هو من قول الكافرين أو خبر من الله تعالى؟ ولا خلاف أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ من قول الله تعالى، والفسق: الخروج عن الشيء، يقال: فَسَقَتِ الْقَارَةُ، إذا خرجت من جحرها، والرُّطْبَةُ، إذا خرجت من قشرها، والفسق في عرف استعمال الشرع: الخروج من طاعة الله عز وجل بكفر أو عصيان.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾: التَّقْضُ: ردُّ ما أبرم على أوله غير مبرم، والعهد: في هذه الآية: التقدم في الشيء، والوَصَاءُ به، وظاهر مما قبل وبعد أنه في جميع الكُفَّار.

*ع^(١): * وكل عهد جائز بين المسلمين، فنقضه لا يحل بهذه الآية، والخاسر الذي نَقَصَ نفسه حظها من الفلاح والفوز، والخسران النقص، كان في ميزان أو غيره.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾: هو تقرير وتوبيخ، أي: كيف تكفرون، ونعمه عليكم وقدرته هذه، والواو في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ واو الحال.

واختلف في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا...﴾ الآية.

فقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد: المعنى: كنتم أَمْوَاتًا معدومين قبل أن تخلقوا دارسين؛ كما يقال للشيء الدَّارِسُ: مَيِّتٌ، ثم خلقكم وأخرجكم إلى الدنيا، فأحياكم، ثم يميتكم/ الموت المعهود، ثم يحييكم للبعث يوم القيامة^(٢)، وهذا التأويل هو ١٣ ب أولى ما قيل؛ لأنه هو الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به، والضمير في «إِلَيْهِ» عائد على الله تعالى، أي: إلى ثوابه أو عقابه، و ﴿خَلَقَ﴾: معناه: اخترع، وأوجد بعد العدم، و ﴿لَكُمْ﴾: معناه: للإعتبار؛ ويدل عليه ما قبله وما بعده من نَصْبِ الْعَبْرِ: الإحياء والإماتة والاستواء إلى السماء وتسويتها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾: «ثُمَّ» هنا: لترتيب الأخبار، لا لترتيب الأمر

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/١١٣).

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٢٢٢-٢٢٣) برقم (٥٧٦- ٥٨٠) بنحوه، عن ابن عباس، ومجاهد. وذكره ابن عطية الأندلسي (١/١١٤)، والماوردي (١/٩٠)، والسيوطي في «الدر» (١/٨٩)، والقرطبي (١/٢١٣).

في نفسه، و ﴿اَسْتَوَى﴾: قال قومٌ: معناه: علا دون كَيْفٍ، ولا تحديدٍ، هذا اختيار الطبري، والتقدير: علا أمره وقدرته وسلطانه، وقال ابن كَيْسَانَ: معناه: قصد إلى السماء.

* ع^(١): أي: بخلقه، واختراعه، والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الثقله وحلول الحوادث، ويبقى استواء القدرة والسلطان.

و ﴿سَوَّاهُنَّ﴾: قيل: جعلهن سواءً، وقيل: سوَّى سطوحهنَّ بالإملاس، وقال الثعلبي^(٢): ﴿فسواهن﴾، أي: خلقهن. انتهى. وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خُلِقَ قبل السماء، وذلك صحيحٌ، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء، وبهذا تتفق معاني الآيات هذه والتي في سورة «المؤمن»، وفي «النازعات».

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِهٰذَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: «إِذْ» ليست بزائدة عند الجمهور، وإنما هي معلقة بفعل مقدر، تقديره: واذكر إذ قال، وإضافة «رَبِّ» إلى مُحَمَّدٍ ﷺ، ومخاطبته بالكاف - تشریف منه سبحانه لنبيه، وإظهار لأختصاصه به، و «الملائكة»: واحداً ملكاً، والهاء في «ملائكة» لتأنيث الجُمُوع غير حقيقي، وقيل: هي للمبالغة؛ كَعَلَامَةٍ وَنَسَابَةٍ، والأول أبين.

و ﴿جَاعِلٌ﴾: في هذه الآية بمعنى خَالِقٍ، وقال الحسن وقتادة: جاعلٌ بمعنى فاعل^(٣)، وقال ابن سابط^(٤) عن النبي ﷺ: «إِنَّ الْأَرْضَ هُنَا هِيَ مَكَّةُ؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ دُجِيتْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/١١٥).

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي. كان إماماً كبيراً، حافظاً للغة بارعاً في العربية، روى عن أبي طاهر بن خزيمة، وأبي محمد المخلدي. أخذ عنه الواحدي. له: «العرائس في قصص الأنبياء» وكتاب «ربيع المذكرين». توفي (٤٢٧هـ).

ينظر ترجمته في: «بغية الوعاة» (١/٣٥٦)، و «النجوم الزاهرة» (٤/٢٨٣)، و «طبقات المفسرين» للداودودي (١/٦٦).

(٣) أخرجه الطبري (١/٢٣٥) برقم (٥٩٧)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/٩٣)، عن الحسن، وعزاه لابن جرير.

(٤) عبد الرحمن بن سابط القرشي، الجمحي، المكي، عن عمر، ومعاذ مرسلأ، وعن عائشة بواسطة، في =

مِنْ تَحْتِهَا؛ وَلَا تَهَا مَقَرٌّ مِّنْ هَلَكٍ قَوْمُهُ مِنَ الْآثِيَاءِ، وَأَنَّ قَبْرَ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالرُّكْنِ»^(١).

و ﴿خَلِيفَةً﴾: معناه: من يخلف.

قال ابن عباس: كانت الجن قبل بني آدم في الأرض، فأفسدوا، وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم قبلاً من الملائكة قتلهم، وألحقَ قُلُوبَهُمْ^(٢) بجزائر البحار، ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة^(٣)، وقال ابن مسعود: إنما معناه: خليفة مني في الحكم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ الآية: قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا تسبق القول، وذلك عامٌّ في جميع الملائكة، لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] خرج على جهة المدح لهم، قال القاضي ابن الطيب^(٥): فهذه قرينة العموم، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليفة نبأً ومقدمة.

قال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قومٌ يفسدون، ويسفكون الدماء^(٦)؛ فقالوا لذلك هذه المقالة: إما على طريق التعجب من استخلاف الله

= مسلم فرد حديث، وسعد، وجابر، وعنه علقمة بن مرثد، وابن جريج، والليث، وخلق. وثقه ابن معين وقال: لم يسمع من أبي أمامة، والدارقطني، وجماعة. قال ابن سعد: مات بمكة سنة ثمانى عشرة ومائة. ينظر: «الخلاصة» (١٣٣/٢)، «تهذيب التهذيب» (١٨٠/٦)، «الثقات» (٦٩/٧).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٤٨-٤٤٩). وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٧٠/١) من طريق عطاء عن ابن سابط به مرفوعاً.

وقال ابن كثير: وهذا مرسل، وفي سنده ضعف.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩٥/١)، وزاد نسبه إلى ابن عساكر.

(٢) الفل: المنهزمون. ينظر: «لسان العرب» (٣٤٦٦).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣٦/١) برقم (٦٠١)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٦١)، ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في «الدر» (٩٣/١).

(٤) ذكره ابن عطية الأندلسي (١١٦/١)، والماوردي (٩٥/١).

(٥) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر: قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في «البصرة» سنة (٣٣٨) هـ، وسكن «بغداد» فتوفي فيها سنة (٤٠٣ هـ)، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. من تصانيفه: «إعجاز القرآن»، و «الإنصاف»، و «مناقب الأئمة»، و «دقائق الكلام»، و «الملل والنحل»، و «هداية المرشدين»، وغير ذلك.

ينظر: «الأعلام» (١٧٦/٦)، «وفيات الأعيان» (٤٨١/١)، «قضاة الأندلس» (٣٧-٤٠)، «تاريخ بغداد» (٣٧٩/٥).

(٦) أخرجه الطبري (٢٤٤/١) برقم (٦١٤-٦١٥-٦١٦)، عن ابن زيد، وابن إسحاق، وابن جريج، وذكره السيوطي في «الدر» (٩٤/١)، عن ابن زيد، وعزاه لابن جرير.

من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً؛ الاستخلاف، والعصيان.

١١٤ وقال أحمد بن يحيى / ثعلب^(١) وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأته، وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء في الأرض؛ فجاء قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾^(٢) الآية؛ على جهة الاستفهام المخض، هل هذا الخليفة يا ربنا على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟

وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة؛ أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون، ويسفكون الدماء، فلما قال لهم سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِيهَا...﴾ قالوا: رَبَّنَا، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ الآية؛ على جهة الاسترشاد والاستعلام، هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به سبحانه قبل، أو غيره؟ ونحو هذا في «مختصر الطبري»، قال: وقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ ليس بإنكار لفعله عز وجل وحكمه، بل استخبار، هل يكون الأمر هكذا، وقد وجه بعضهم بأنهم استعظموا الإفساد وسفك الدماء؛ فكانهم سألوا عن وجه الحكمة في ذلك؛ إذ علموا أنه عز وجل لا يفعل إلا حكمة. انتهى.

* ت: والعقيدة أن الملائكة معصومون، فلا يقع منهم ما يوجب نقصاناً من رتبته، وشريف منزلتهم - صلوات الله وسلامه على جميعهم - والسفك صب الدم، هذا عرّفه، وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.

قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام؛ كأنهم أرادوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ...﴾ الآية، أم نغير عن هذه الحال؟

قال * ع^(٣): وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المخض في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ...﴾.

وقال آخرون: معناه: التمدح ووصف حالهم، وذلك جائز لهم؛ كما قال يوسف: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٥٥]، وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام؛ لأن يستخلف الله

(١) هو: أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار، وقيل: سيار الشيباني، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة. صنف: «المصون في النحو»، و«معاني القرآن»، و«ما تلحن فيه العامة»، و«الفصيح» وغيرها. توفي (٢٩١هـ).

ينظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣٠/١)، و«بغية الوعاة» (٢٩٦/١)، و«غاية النهاية» (١٤٨/١).

(٢) ينظر: ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١١٧/١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٨/١).

من يعصيه في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾، وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ومعنى: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: ننزهك عما لا يليق بصفاتك، وقال ابن عباس وابن مسعود: تسبيح الملائكة صلاتهم لله سبحانه^(١)، وقال قتادة: تسبيحهم قولهم: «سبحان الله»؛ على عرفه^(٢) في اللغة، و ﴿بِحَمْدِكَ﴾: معناه نصل التسبيح بالحمد، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ اعتراضاً بين الكلامين؛ كأنهم قالوا: ونحن نسبح ونقدس، وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك، وخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر^(٣)؛ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، وفي رواية: «سُئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَا أَصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»^(٤) وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٥) وهذا الحديث

(١) أخرجه الطبري (٢٤٨/١) برقم (٦١٩)، وذكره البغوي (٦٠/١)، وابن عطية الأندلسي (١١٨/١)، والقرطبي (٢٣٦/١)، وابن كثير (٧١/١).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٨/١) برقم (٦٢٠)، وعبد الرزاق في التفسير (٤٢/١)، وذكره السيوطي في «الدر» (٩٥/١).

(٣) قيل هو: جندب بن جنادة بن سكن. وقيل: عبد الله، وقيل: اسمه: برير وقيل بالتصغير، والاختلاف في أبيه كذلك، وشهرته: أبو ذر الغفاري. قلت: كان من كبار الصحابة وفضلائهم ومشاهيرهم وزهادهم، قديم الإسلام، قوياً في الحق، صادق اللهجة. ولا يتسع المقام للحديث عنه، وقد ألفت في سيرته المؤلفات الكثيرة. توفي بـ «الربذة» سنة (٣١ أو ٣٢).

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣٥٧/١)، «الإصابة» (٦٠/٧)، «بقي بن مخلد» (١٥)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٦٤/٢)، «حلية الأولياء» (١٢٧/١)، «تهذيب الكمال» (١٦٠٣)، «تقريب التهذيب» (٢/٤٢٠)، «تهذيب التهذيب» (٩٠/١٢)، «الزهد» لوكيع (٣٣)، «شذرات الذهب» (٣١/١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٩٣-٢٠٩٤)، كتاب «الذكر والدعاء»، باب فضل سبحان الله وبحمده، حديث (٨٤)، (٢٧٣١/٨٥)، من طريق عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر به.

(٥) أخرجه البخاري (٢١٠/١١)، كتاب «الدعوات»، باب فضل التسبيح، حديث (٦٤٠٦)، و (١١/٥٧٥)، كتاب «الآيمان والنذور»، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم فصلى، حديث (٦٦٨٢)، و (١٣/٥٤٧)، كتاب «التوحيد»، باب قول الله تعالى: ﴿وَنُضِعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، حديث (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٠٧٢/٤)، كتاب «الذكر والدعاء»، باب فضل التهليل، والتسبيح، والدعاء، حديث (٢٦٩٤/٣١)، والترمذي (٥١٢/٥)، كتاب «الدعوات»، باب (٦٠)، حديث (٣٤٦٧)، وابن ماجه (١٢٥١/٢)، كتاب «الأدب»، باب فضل التسبيح، حديث (٣٨٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (٦/٢٠٧ - ٢٠٨)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يثقل الميزان، حديث (١٠٦٦٦)، وأحمد (٢/٢٣٢)، وأبو يعلى (٤٨٣/١٠)، رقم (٦٠٩٦)، وابن حبان (١١٢-١١٣)، رقم (٨٣١)، (٣/ =

به ختم البخاري رحمه الله . انتهى .

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ : قال الضَّحَّاك وغيره : معناه : نُطَهِّرُ أَنْفُسَنَا لَكَ ؛ ابتغاء مرضاتك ، والتقدِّيسُ : التطهير بلا خلاف^(١) ، ومنه الأرض المقدَّسة ، أي : المطهَّرة ، وقال آخرون : ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ : معناه : نقُدِّسُكَ ، أي : نعظِّمُكَ ونطهِّرُ ذِكْرَكَ ممَّا لا يليقُ به ، قاله مجاهد وغيره^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

قال ابن عباس : كان إبليس - لعنه الله - قد أُعْجِبَ بنفسه ، ودخله الكِبَرُ لما جعله الله ب ١٤ خَازِنَ السماء الدنيا/ ، واعتقد أن ذلك لمزِيَّةٌ له ، فلما قالت الملائكة : ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّسُ لَكَ ، وهي لا تعلم أنَّ في نفس إبليس خلافَ ذلك ، قال الله سبحانه : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني ما في نفس إبليس^(٣) .

وقال قتادة : لما قالت الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ، وقد علم الله أنَّ في مَنْ يَسْتَخْلِفُ في الأرض أنبياءَ وفضلاءَ وأهلَ طاعةٍ ، قال لهم : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، يعني : أفعال الفضلاء^(٤) .

١٢١-١٢٢) ، رقم (٨٤١) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٤٩٩) ، وفي «شعب الإيمان» (١/ ٤٢٠) ، رقم (٥٩١) ، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٨١ بتحقيقنا) ، وابن الجوزي في «مشيخته» (ص ٨٧) ، كلهم من طريق محمد بن فضيل ، ثنا عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة مرفوعاً . وقال الترمذي : حسن صحيح غريب .

(١) أخرجه الطبري (٢٤٩/١) برقم (٦٢٥) ، وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ٩٥) ، عن ابن عباس ، وذكره ابن كثير (٧١/١) .

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٩/١) برقم (٦٢٣) ، وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ٩٥) ، وابن كثير (٧١/١) .

(٣) أخرجه الطبري (٢٤٩/١) برقم (٦٢٦) ، وقال أحمد شاکر : بشر بن عمارة ضعيف ، قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٨١/٢/١) : تعرف وتنكر .

وقال النسائي في «الضعفاء» ص ٦ : ضعيف . وقال الدارقطني : متروك . وقال ابن حبان في كتاب : «المعجروحين» (ص ١٢٥) ، رقم (١٣٢) : كان يخطيء حتى خرج عن حد الاحتجاج به إذا انفرد ، ولم يكن يعلم الحديث ولا صناعته ، وأما شيخه أبو روق فهو عطية بن الحارث الهمداني ، وهو ثقة ، وقال أحمد والنسائي : «لا بأس به» ، وقد أشار ابن كثير إليه بالانقطاع ؛ لأجل اختلافهم في سماع الضحاک بن مزاحم الهلالي من ابن عباس وقد رجح أحمد شاکر في «شرح المسند» (٢٢٦٢) سماعه منه ، ثم قال : وكفى ببشر بن عمارة ضعفاً في الإسناد إلى نكارة السياق الذي رواه وغرابته . اهـ .

(٤) أخرجه الطبري (٢٥٠/١) برقم (٦٣٩) ، وقال أحمد شاکر : ذكره ابن كثير (١/ ١٣٠) ، و «الدر المثور» (٤٦/١) ، و «الشوكاني» (٥٠/١) .

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: معناه: عرّف، وتعليم آدم هنا عند قوم إلهام علمه ضرورة، وقال قوم: بل تعليم بقول؛ إما بواسطة ملك، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى - عليه السلام - في خاصّته.

* ت *: قال الشيخ العارف بالله عبد الله بن أبي جَمْرَة: تعليمه سبحانه لِآدم الأسماء كُلّها، إنما كان بالعلم اللدنيّ بلا واسطة. انتهى من كتابه الذي شرح فيه بعض أحاديث البخاريّ، وكل ما أنقله عنه، فمنه، واختلف المتأولون في قوله: ﴿الْأَسْمَاءُ﴾: فقال جمهور الأئمة: علّمه التسميات، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص، والأول أبين؛ ولقطة علّم تعطي ذلك.

ثم اختلف الجمهور في أيّ الأسماء علّمه، فقال ابن عبّاس، وقتادة، ومجاهد: علّمه اسم كل شيء من جميع المخلوقات؛ دقيقتها، وجليلها^(١)، وقال الطبري^(٢): علّمه أسماء ذريته، والملائكة؛ ورّجّحه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وقال أكثر العلماء: علّمه تعالى منافع كل شيء، ولما يصلح.

وقيل غير هذا.

واختلف المتأولون، هل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص؟.

﴿وَأَنْبِئُونِي﴾: معناه: أخبروني، والنبأ: الخبر، وقال قوم: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق^(٣)، ويتقرّر جوازه؛ لأنه سبحانه علّم أنهم لا يعلمون.

(١) أخرجه الطبري (٢٥٢/١) برقم (٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٦)، وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ٤٢ - ٤٣)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ١٠٠ - ١٠١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٨٥).

(٣) حاصل ما في شرح «المواقف»، أشار إليه «الخالي» هو أن ما لا يطاق على ثلاث مراتب:

الأولى: ما يمكن في نفسه لكن يمتنع من العبد؛ لعلم الله (تعالى) بعدم وقوعه، كإيمان أبي لهب، وهي المرتبة الأولى من مراتب ما لا يطاق؛ فإن هذا مقدور للمكلف بالنظر إلى ذاته، وممتنع له بالنظر إلى علم الله (تعالى) بعدم وقوعه، ومعنى كونه مقدوراً أنه يجوز تعلق القدرة الحادثة أي قدرة المكلف به لا أنه متعلق القدرة بالفعل؛ لأن القدرة الحادثة لا تتعلق بمثل هذا الفعل؛ لأن القدرة الحادثة عندنا مع الفعل لا قبله، فلا يتصور تعلقه بما لم يقع. ثم إن التكليف بهذا المحال جائز وواقع اتفاقاً، ولا خلاف فيه للمعتزلة.

الثانية: ما يمكن في نفسه لكن يمتنع من العبد عادة، كخلق الأجسام، وحمل الجبل، والطيّان إلى =

وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف، إنما هو على جهة التقرير والتوقيف.

وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ ظاهره حضور أشخاص، وذلك عند العرض على الملائكة، وليس في هذه الآية ما يدل أن الاسم هو المسمّى؛ كما ذهب إليه مكّي والمهدوي.

والذي يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء، وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصاً، ثم عرض تلك على الملائكة، وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلّمها آدم، ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا.

﴿وهؤلاء﴾: مبني على الكسر، ﴿وكنتم﴾ في موضع الجزم بالشرط، والجواب عند سيويه: فيما قبله، وعند المبرد: محذوف؛ تقديره: إن كنتم صادقين، فأثبتوني، وقال ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ: معنى الآية: إن كنتم صادقين في أن الخليفة يُفسدُ ويسفك^(١).

* ت *: وفي النفس من هذا القول شيء، والملائكة منزّهون معصومون؛ كما تقدّم، والصواب ما تقدّم من التفسير عند قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ الآية.

السما. وهذه المرتبة الوسطى من مراتب ما لا يطاق، والتكليف بهذا جائز عندنا وإن لم يقع، كما دل عليه الاستقراء، وقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦] وما يتوهم من ظاهر بعض الآيات أنه تكليف بهذا المحال، كقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] فهو للتعجيز لا للتكليف، ومنعت المعتزلة جواز التكليف؛ لكونه قبيحاً منه تعالى عقلاً عندهم كما في الشاهد؛ فإن من كلف الأعمى نقط المصاحف والزمنى المشي إلى أقصى البلاد، عد سفيهاً، وقبح ذلك في بداهة العقول. والجواب: أنه لا يقبح منه تعالى شيء، ولا يجب عليه، إذ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، والمفهوم من كلام صاحب «التوضيح» أن مذهب الماتريدية هنا كمذهب المعتزلة إلا أن عدم جوازه عند الماتريدية بناء على أنه لا يليق من حكمته وفضله. وعند المعتزلة بناء على أن الأصلح واجب على الله (تعالى).

الثالثة: ما يمكن في نفسه ولكن يمتنع لنفس مفهومه، كجمع الضدين، وقلب الحقائق. وهي المرتبة القصوى من مراتب ما لا يطاق، والتكليف به لا يقع ولا يجوز بالاتفاق، أما أنه لا يقع قط؛ فلأنه لم يوجد بالاستقراء، وأما أنه لا يجوز؛ فلأن جواز التكليف فرع تصوره، ولا يمكن تصوره. وفي شرح «المواقف» أن بعضاً منا قالوا بوقوع تصوره، فما ذكره صاحب «المواقف» من أن جواز التكليف بالمتنوع لذاته فرع تصوره يشعر بأن هؤلاء يجوزونه.

ينظر: «نشر الطوالع» (٢٩٥ - ٢٩٧)، و«البرهان» (١٠٢/١)، و«المنحول» (ص ٢٢)، و«المحصول» (٣٥٧/٢)، و«المتصفي» (٧٤/١).

(١) أخرجه الطبري (٢٥٥/١) برقم (٦٧٢)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٠١/١).

وقال آخرون: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنِّي إِنْ أَسْتَخْلَفْتُكُمْ، سَبَّحْتُمْ بِحَمْدِي، وَقَدَّسْتُمْ لِي.

وقال/ قوم: معناه: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي جَوَابِ السُّؤَالِ، عَالِمِينَ بِالْأَسْمَاءِ. ١١٥

و ﴿سُبْحَانَكَ﴾: معناه تنزيهاً لك وتبرئة أن يعلم أحدٌ من علمك إلا ما علمته، وَالْعَلِيمُ: معناه: الْعَالِمُ، ويزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير في المعلومات، والحَكِيمُ: معناه: الْحَاكِمُ وبينهما مزية المبالغة، وقيل: معناه: الْمُحْكِمُ، وقال قوم: الْحَكِيمُ الْمَانِعُ مِنَ الْفَسَادِ، وَمِنْهُ حَكَمَةُ الْفَرَسِ مانعته.

﴿قَالَ يَتَدَأْمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾: أَنْبِئُهُمْ: معناه: أخبرهم، والضمير في «أَنْبِئُهُمْ» عائذٌ على الملائكة بإجماع، والضمير في «أَسْمَائِهِمْ» مختلفٌ فيه حسب الاختلاف في الأسماء التي علمها آدم، قال بعض العلماء: إِنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ نبوءة لآدم عليه السلام؛ إِذْ أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْبِئَ الْمَلَائِكَةَ بِمَا لَيْسَ عَنْدهُمْ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: معناه: ما غاب عنكم؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، الْكُلُّ مَعْلُومٌ لَهُ.

واختلف في قوله تعالى: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

فقال طائفة: ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى الْعُمُومِ فِي مَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ وَبِوَاطْنِهِمْ أَجْمَعٍ، «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ» مَعْطُوفَةٌ عَلَى «إِذْ» الْمَتَقَدِّمَةِ، وَقَوْلُ^(١) اللَّهِ تَعَالَى

(١) كلام الله تعالى صفة أزلية قديمة قائمة بذاته (تعالى)، منافية للسكوت والآفة - كما في الخرس - ليست من جنس الأصوات والحروف. بل بها أمرٌ ناوٍ يدل عليها بالعبارات أو الكتابة أو الإشارة. فتلك الصفة واحدة في ذاتها، وإن اختلفت العبارات الدالة عليها، كما إذا ذكر الله بالسنن المختلفة، فالصفة: هي الأمر القائم بالغير، فهو جنس في التعريف أو كالجنس، بناء على الخلاف في المفهومات الاصطلاحية: هل هي حدود أو رسوم.

الأول: مبني على أنها وإن كان أمراً اصطلاحياً طارئاً على المعنى اللغوي للكلام؛ إذ الكلام في اللغة القول. يقال: أتى بكلام طيب، أي قول، إلا أنه ليست وراء ما اصطلاح عليه المصطلح أمر آخر. فذلك =

وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزَل؛ بشرط وجودهم وفهمهم، وهذا هو الباب كله في أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته.

= الذي ذكر في تعريف تلك الصفة هو ذاتياتها بحسب الاصطلاح.

والثاني: مبني على أن لها قبل المعنى الاصطلاحي معنى وضع الواضع اللفظ ليدل عليه، فذلك المعنى ثان بعد أول، فهو عارض والتعريف بالعوارض رسم. وجزم البعض من المحققين بأنها رسوم؛ لأن الاطلاع على ذاتيات تلك الصفات غير ممكن. والحد ما تركب من الذاتيات: الجنس، والفصل. وحيث إن الذاتيات لم يطالع عليها فلا تكون إلا رسوماً؛ لأنها بخواص هذه الصفات فقط؛ لأن الخواص مأخوذة في تعريف الصفات؛ حيث أخذ في تعريف صفة الكلام أنها تتعلق دلالة. وفي تعريف صفة القدرة أنها تتعلق تأثير.

وعلى كل فـ «صفة» يشمل الصفة القديمة والحادثة. «قديمة»: فصل أو كالفصل - مخرج لغير الصفة القديمة، وهو الصفة الحادثة. ثم الأقوال في القديم والأزلي ثلاثة: الأول: القديم هو الذي لا ابتداء لوجوده. والأزلي: ما لا أول له، عديمًا كان أو وجوديًا. فكل قديم أزلي ولا عكس.

الثاني: القديم هو القائم بنفسه الذي لا أول لوجوده. والأزلي: ما لا أول له عديمًا كان أو وجوديًا، قائماً بنفسه أو غيره.

الثالث: القديم والأزلي: ما لا أول له، عديمًا كان أو وجوديًا، قائماً بنفسه أولاً.

فعلى الأول: الصفات السلبية لا توصف بالقدم، وتوصف بالأزلية، بخلاف ذات الله تعالى والصفات الثبوتية؛ فإنها توصف بالقدم والأزلية.

وعلى الثاني: الصفات مطلقاً لا توصف بالقدم، وتوصف بالأزلية، بخلاف ذاته تعالى؛ فإنها توصف بكل منهما.

وعلى الثالث: كل من الذات والصفات مطلقاً يوصف بالقدم والأزلية. فالقديم في التعريف صحيح على الرأي الأول والثالث، بخلافه على الثاني «قائمة بذاته». وللقيام معنيان:

قيام: بمعنى التبعية في التحيز كما في العرض بالنسبة لجوهره. وليس قيام صفة الله بذاته على هذا النحو؛ إذ لا تحيز للذات حتى تتبعها الصفة فيه. وقيام: بمعنى آخر هو اختصاص الناعت بالمنعوت. وهو المراد بقيام الصفة بذاته تعالى.

«ليس بحرف ولا صوت»: لأنه معنى نفسي، وتلك أعراض مشروط حدوث بعضها بانقضاء البعض؛ إذ امتناع التكلم بالحرف الثاني بدون انقضاء الحرف الأول بدهي؛ خلافاً للحنابلة، والحشوية، والكرامية القائلين بأن كلامه منتظم من كلمات قائمة بذاته تعالى. قديم عند الحنابلة، حادث عند الكرامية. «منافية للسكوت والآفة»: السكوت عدم التكلم مع القدرة عليه.

والآفة: عدم مطاوعة الآلة، إما بحسب الفطرة كما في الخرس، أو من جهة ضعفها كما في الطفولية. ولقائل أن يقول: هذا إنما يصدق على الكلام اللفظي دون النفسي؛ إذ السكوت والخرس إنما ينافيان التلطف.

ويجاب بأن المراد بـ «السكوت والآفة»: الباطنيان، بأن لا يريد في نفسه الكلام، أو لا يقدر عليه، ويتلخص في أنه كما أن الكلام لفظي ونفسي، كذلك ضده، وهو السكوت والخرس: لفظي وباطني، =

* ت * : ما ذكره - رحمه الله - هو عقيدة أهل السنة، وها أنا أنقل من كلام الأئمة،
 إن شاء الله، ما يتبين به كلامه، ويزيده وضوحاً، قال ابن رشد: قوله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ
 اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»^(١) لا يفهم منه أن لله عز وجل كلمات غير تامّات؛ لأن

= والمراد الثاني منهما؛ حيث أريد بالكلام الكلام النفسي، فالله منزّه عن الاتصاف بالخرس والآفة. «هو بها أمرٌ ناء»؛ فهو صفة واحدة تتكرر بحسب التعلقات. فالكلام باعتبار تعلقه بشيء خبر، وبآخر أمر أو نهي. وبهذا يخرج العلم والقدرة. وهكذا سائر الصفات الوجودية غير الكلام؛ لأنه لا أمر ولا نهي بوحدة منها.

وغير الأشاعرة يقولون: الكلام هو اللفظ المتظم من الحروف والأصوات، وينفون الصفة النفسية وهم في ذلك قد انقسموا إلى قسمين:

القسم الأول: كلامه ألفاظ قائمة بذاته، وهي قديمة، وهم بعض الحنابلة، أو حادثة، وهم الكرامية.
 والقسم الثاني: يقول: كلام الله ألفاظ قائمة بالغير. وهم المعتزلة. فالحنابلة يعرفونه: بأنه المؤلف من الكلمات القديمة القائمة بذاته تعالى. والكرامية يعرفونه: بأنه هو المؤلف من الكلمات الحادثة القائمة بذاته تعالى. وحيث إن المعتزلة لم يعرفوه بالصفة النفسية، فليس عندهم سوى الألفاظ وهي حادثة؛ لأنها مرتبة، ويستحيل قيام الحادث بالقديم. فهم يقولون: إن كلامه ألفاظ قائمة بغيره، فهم يتجاوزون بمتكلم عن موجد وخالق للكلام. وعليه فالمعتزلة لا يثبتون كلاماً لله لا نفسياً، كما أثبتته الأشاعرة. ولا لفظياً حادثاً كما قالت الكرامية، بل يثبتون كلاماً لا على أنه متصف به، بل على أنه مخلوق قائم بغيره.

فالكلام عند المعتزلة هو المؤلف من الكلمات المسموعة الحادثة القائمة بغير الذات. فقد خالفوا جميع الفرق.

ينظر: تحقيق «صفة الكلام» لشيخنا حافظ مهدي ص ٥٢ - ٥٤.

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٧٨)، كتاب «الاستئذان»، باب ما يؤمر به من الكلام في السفر، حديث (٣٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠ - ٢٠٨١)، كتاب «الذكر والدعاء»، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، حديث (٥٤/ ٢٧٠٨)، والترمذي (٥/ ٤٩٦)، كتاب «الدعوات»، باب ما يقول إذا نزل منزلاً، حديث (٣٤٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٤٤)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول إذا نزل منزلاً، حديث (١٠٣٩٤)، وأحمد (٦/ ٣٧٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، رقم (٥٣٣)، وابن خزيمة (٤/ ١٥٠ - ١٥١)، رقم (٢٥٦٧)، وابن حبان (٦/ ٤١٨)، رقم (٢٧٠٠)، والبيهقي (٥/ ٢٥٣)، كتاب «الحج»، باب ما يقول إذا نزل منزلاً، كلهم من طريق يعقوب بن عبد الله الأشج، عن بسر بن سعيد، عن سعد بن أبي وقاص، عن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً فليقل...» فذكرت الحديث.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال: وروى مالك بن أنس هذا الحديث أنه بلغه، عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج، فذكر نحو هذا الحديث.

وروى ابن عجلان هذا الحديث عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج، ويقول: عن سعيد بن المسيب، عن خولة.

كلماته هي قوله، وكلامه هو صفة من صفات ذاته يستحيل عليها النقص، وفي الحديث بيان واضح على أن كلماته عز وجل غير مخلوقة إذ لا يستعاض بمخلوق، وهذا هو قول أهل السنة، والحق أن كلام الله عز وجل صفة من صفات ذاته قديم غير مخلوق؛ لأن الكلام هو المعنى القائم في النفس، والنطق به عبارة عنه؛ قال الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨] فأخبر أن القول معنى يقوم في النفس، وتقول: في نفسي كلام، أريد أن أعلمك به، فحقيقة كلام الرجل هو المفهوم من كلامه، وأما الذي تسمعه منه، فهو عبارة عنه؛ وكذلك كلام الله عز وجل القديم الذي هو صفة من صفات ذاته هو المفهوم من قراءة القارئ لا نفس قراءته التي تسمعه؛ لأن نفس قراءته التي تسمعها مُخَدَّثَةٌ، لم تكن؛ حتى قرأ بها، فكانت، وهذا كله بين إلا لمن أعمى الله بصيرته. انتهى بلفظه من «البيان».

وقال العزالي^(١) بعد كلام له نحو ما تقدّم لأبني رشد: وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد قبل أن يخلق ولده؛ حتى إذا خلق ولده، وعقل، وخلق الله سبحانه له علماً بما في قلب أبيه من الطلب، صار مأموراً بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه، ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده، فليعقل قيام الطلب الذي دلّ عليه قوله عز وجل: ﴿فَأَخْلَع نَعْلَيْكَ﴾ / [طه: ١٢] بذات الله تعالى، ومصير موسى عليه السلام سامعاً لذلك الكلام

= وحديث الليث أصح من رواية ابن عجلان . اهـ. وهذا توضيح وشرح لكلام الترمذي رحمه الله: أما رواية مالك، فهي في «الموطأ» (٢/ ٩٧٨)، عن الثقة عنده، عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج به. أما رواية محمد بن عجلان، فأخرجها ابن ماجة (٢/ ١١٧٤)، كتاب «الطب»، باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه، حديث (٣٥٤٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٤٤)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول إذا نزل منزلاً، حديث (١٠٣٩٥)، كلاهما من طريق محمد بن عجلان، عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج، عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن مالك، عن خولة بنت حكيم به. وقد ورد هذا الحديث، عن سعيد بن المسيب مرسلًا.

أخرجه عبد الرزاق (٩٢٦٠)، والنسائي (٦/ ١٤٤ - الكبرى)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول إذا نزل منزلاً، كلاهما من طريق ابن عجلان، عن يعقوب بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب مرسلًا. (١) محمد بن محمد بن محمد، حجة الإسلام، أبو حامد الغزالي، ولد سنة (٤٥٠)، أخذ عن الإمام، ولازمه، حتى صار أنظر أهل زمانه وجلس للإقراء في حياة إمامه وصف «الإحياء» المشهور، و«السيط»، وهو كالمختصر للنهاية، وله «الوجيز»، و«المستصفى»، وغيرها. توفي سنة (٥٠٥). انظر: «طبقات ابن قاضي شهبة» (١/ ٢٩٣)، «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٥٣)، «الأعلام» (٧/ ٢٤٧)، و«اللباب» (٢/ ١٧٠)، و«شذرات الذهب» (٤/ ١٠)، و«النجوم الزاهرة» (٥/ ٢٠٣)، «العبر» (٤/ ١٠).

مخاطباً به بعد وجوده؛ إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب، ومعرفةً بذلك الكلام القديم. انتهى بلفظه من «الإحياء».

وقوله: ﴿لَلْمَلَائِكَةِ﴾ عمومٌ فيهم، والسجود في كلام العرب: الخضوع والتذلل، وغايته وضعه الوجه بالأرض، والجمهور على أن سجود الملائكة لآدم إيماء وخضوع، ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود، وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] لا دليل فيه؛ لأن الجائي على ركبتيه واقع، واختلف في حال السجود لآدم.

فقال ابن عباس: تعبدهم الله بالسجود لآدم، والعبادة في ذلك لله^(١)، وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس أيضاً: كان سجود تحية؛ كسجود أبوي يوسف عليه السلام له، لا سجود عبادة^(٢)، وقال الشعبي: إنما كان آدم كالقنبلة^(٣)، ومعنى ﴿لَأَدَمَ﴾: إلى آدم.

* ع^(٤): وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل؛ لأنه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية، وكان خازناً ومَلَكاً على سماء الدنيا والأرض، واسمه عزازيل؛ قال ابن عباس^(٥).

وقال ابن زيد والحسن: هو أبو الجن كما آدم أبو البشر، ولم يك قط ملكاً^(٦)، وقد روي نحوه عن ابن عباس أيضاً، قال: واسمه الحارث^(٧).

(١) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٢٤/١)، والسيوطي في «الدر» (١٠٢/١) بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٢٤/١)، والسيوطي في «الدر» (١٠٢/١)، بنحوه عن ابن عباس.

(٣) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٢٤/١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٤/١).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٧٠/١) برقم (١٤٦-١٤٧) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر» (١/١٠٢-١٠٣)، وعزا أحدهما لابن أبي الدنيا في «مكاييد الشيطان»، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب: «الأصدا»، والبيهقي في «الشعب»، والثاني عزاه لوكيع، وابن المنذر، والبيهقي.

(٦) أخرجه الطبري (٢٦٤/١) رقم (٧٠١)، عن ابن زيد، وذكره ابن عطية في تفسيره (١٢٤/١)، والقرطبي (٢٥١/١).

(٧) أخرجه الطبري (٢٦٥/١) برقم (٧٠٤)، عن السدي، وذكره ابن عطية الأندلسي (١٢٤/١)، والقرطبي (٢٥١/١) والسيوطي في «الدر» (١٠٣/١)، عن السدي بلفظ «كان اسم إبليس الحرث».

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين كانوا في الأرض، وقاتلتهم الملائكة فسبوه صغيراً، وتعبّد مع الملائكة، وخوطب معها، وحكاها الطبري عن ابن مسعود^(١).

والاستثناء على هذا الأقوال منقطع؛ واحتج بعض أصحاب هذا القول؛ بأن الله تعالى قال في صفة الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ورجح الطبري قول من قال: إن إبليس كان من الملائكة، وقال^(٢): ليس في خلقه من نار، ولا في تركيب الشهوة والنسل فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه كان من الملائكة، وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] يتخرج على أنه عمل عملهم، فكان منهم في هذا، أو على أن الملائكة قد تسمى جنّاً؛ لاستئثارها؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَبَاً﴾ [الصافات: ١٥٨] وقال الأعشى في ذكر سليمان عليه السلام: [الطويل]

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الْمَلَائِكِ تِسْعَةَ قِيَاماً لَدَيْهِ يَغْمَلُونَ بِلاَ أَجْرِ^(٣)
أو على أن يكون نسبه إلى الجنة؛ كما ينسب إلى البصرة بضري.

قال عياض: ومما يذكرونه قصة إبليس، وأنه كان من الملائكة، ورئيساً فيهم، ومن خزان الجنة إلى ما حكوه، وهذا لم يتفق عليه، بل الأكثر ينفون ذلك، وأنه أبو الجن. انتهى من «الشفاء»^(٤).

وإبليس: لا ينصرف؛ لأنه اسم أعجمي؛ قال الزجاج: ووزنه فغليل، وقال ابن عباس وغيره: هو مشتق من أبليس، إذا أبعد عن الخير، ووزنه على هذا إفعيل^(٥)، ولم

(١) أخرجه الطبري (٢٦٣/١) برقم (٦٩٨)، وذكره القرطبي (٢٥١/١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٠٨/١).

(٣) البيت للأعشى وقبلة:

وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ خَالِداً أَوْ مُعَمَّراً
لَكَانَ سُلَيْمَانُ الْبَرِيءَ مِنَ الدَّهْرِ
بَرَاهُ إِلَهِي وَاضْطَفَّاهُ عِبَادَهُ
وَمَلَكُهُ مَا بَيْنَ نُزْيَا إِلَى مُضَرٍ

ينظر: «ملحق ديوانه» (٢٤٣)، و «اللسان» (جن)، و «تفسير الطبري» (٥٠٦/١)، و «القرطبي» (١/١).

(٢٩٥)، و «البحر المحيط» (٣٠٤/١)، و «الدر المصون» (١٨٦/١)، و «روح المعاني» (٢٣٠/١).

وقال: وكون الملائكة لا يستكبرون - وهو قد استكبر - لا يضر، إما لأن من الملائكة من ليس بمعصوم - وإن كان الغالب فيهم العصمة على العكس منا - وفي «عقيدة أبي المعين النسفي» ما يؤيد ذلك، وإما لأن إبليس سلبه الله (تعالى) الصفات الملكية، وألبسه ثياب الصفات الشيطانية، فعصى عند ذلك، والملك ما دام ملكاً لا يعصي.

(٤) ينظر: «الشفاء» ص (٨٥٨).

(٥) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٢٥/١).

تصرفه هذه الفرقة؛ لشذوذه وقلته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي: يائسون من الخير، مبعدون منه فيما يَرَوْنَ، و ﴿أَبَى﴾: معناه: امتنع من فعل ما أمر به، ﴿وَأَسْتَكْبَرُ﴾: دخل في الكبرياء، والإبَاءَةُ مقدّمة على الِاسْتِكْبَارِ في ظهورهما عليه، والاسْتِكْبَارُ والأنفَةُ مقدّمة في معتقده، وروى ابن القاسم^(١) عن مالك؛ أنه قال: بَلَّغْنِي أَنَّ أَوَّلَ مَعْصِيَةٍ كَانَتْ الْحَسَدُ، وَالْكِبْرُ، وَالشُّحُّ، حَسَدُ إِبْلِيسَ آدَمَ، وَتَكْبَرُ، وَشُحُّ آدَمَ/ فِي أَكْلِهِ ١١٦ من شجرة قَدْ نُهِيَ عَنْ قَرِبِهَا^(٢).

* ت: إطلاَق الشُّحِّ على آدَمَ فيه ما لا يَخْفَى عَلَيْكَ، والواجب اعتقاد تنزيه الأنبياء عن كل ما يَحْطُ من رتبتهم، وقد قال الله تعالى في حق آدَمَ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِيبِي وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: قالت فِرْقَةٌ: معناه: وصار من الكافرين، وردّه ابن فُورَكُ، وقال جمهور المتأولين: معنى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: في عِلْمِ اللَّهِ تعالى، وقال أبو العالية: معناه: من العاصين^(٣)، وذهب الطبري إلى أن الله تعالى أراد بقصة إِبْلِيسَ تَقْرِيعَ أَشْبَاهِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وهم اليهود الذين كفروا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، مع علمهم بنبوءته، ومع تقدّم نعم الله عليهم، وعلى أسلافهم.

* ت: ولفظ الطبري^(٤): وفي هذا تَقْرِيعٌ لليهود؛ إذ أبوا الإسلام مع علمهم بنبوءة رسولِ الله ﷺ من التوراة والكتب؛ حَسَدًا لَهُ، ولبني إِسْمَاعِيلَ؛ كما امتنع إِبْلِيسُ من السجود؛ حَسَدًا لآدَمَ وَتَكْبَرًا عَنِ الْحَقِّ وَقَبُولِهِ، فاليهود نظراء إِبْلِيسَ فِي كُفْرِهِمْ وَكِبْرِهِمْ وَحَسَدِهِمْ وَتَرْكِهِمْ الانقيادَ لأمرِ الله تعالى. انتهى من «مختصر الطبري» لأبي عبد الله اللُّخْمِيِّ النُحْوِيِّ.

واختلف، هل كفر إِبْلِيسَ جهلاً أو عناداً؟ على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه

(١) عبد الرحمن بن القاسم العتقي: جمع بين الزهد والعلم، وتفقه بمالك ونظرائه، وصحب مالكاَ عشرين سنة، وعاش بعده اثنتي عشرة سنة، مولده سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ومات بـ «مصر» سنة إحدى وتسعين ومائة.

ينظر: «الطبقات» للشيرازي (١٥٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/١٢٥).

(٣) أخرجه الطبري (١/٢٦٦) برقم (٧٠٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥١٠).

كان عالماً بالله قبل كفره، ولا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره، وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم: ﴿أَسْكُنْ﴾.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسَفَرٌ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) ﴿

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: ﴿أَسْكُنْ﴾: معناه: لا زِم الإقامة، ولفظه لفظ الأمر، ومعناه الإذن، واختلف في الجنة التي أسكنها آدم عليه السلام، هل هي جنة الخلد، أو جنة أخرى.

* ت * : والأول هو مذهب أهل السنة والجماعة.

﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾، أي: من الجنة، والرغد: العيش الدارّ الهنيء، و «حَيْثُ» مبنية على الضم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: معناه لا تقرباها بأكل، والهاء في «هَذِهِ» بدل من الياء، وتحتمل هذه الإشارة أن تكون إلى شجرة معينة واحدة، واختلف في هذه الشجرة، ما هي؟ فقال ابن عباس، وابن مسعود: هي الكرم^(١)، وقيل: هي شجرة التين^(٢)، وقيل: السنبلة^(٣) وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: الظالم؛ في اللغة: الذي يضع الشيء في غير موضعه، والظلم؛ في أحكام الشرع على مراتب: أعلاها الشرك، ثم ظُلم المعاصي؛ وهي مراتب، و «أَزَلَّهُمَا»: مأخوذ من الزَّلَل، وهو في الآية مجاز؛ لأنه في الرأي والنظر، وإنما حقيقة الزَّلَل في القدم، وقرأ حمزة^(٤): «فَأَزَلَّهُمَا» مأخوذ من الزوال، ولا خلاف بين

(١) أخرجه الطبري (١/ ٢٦٩- ٢٧٠) برقم (٧٣٠) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ١٠٧).

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٢٧٠) برقم (٧٤٠) عن بعض أصحاب النبي ﷺ بلفظ «التينة» وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ١٧٠) بلفظ: «التين»، والشوكاني في «تفسيره» (١/ ١٣٠).

(٣) أخرجه الطبري (١/ ٢٦٩) عن عدد من الصحابة والتابعين، وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ١٠٧)، وعزه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر» (١/ ٣٨٨)، و «الحجة للقراء السبعة» (٢/ ١٤)، و «طية النشر» (٤/ ١٨)، و «العنوان» (٦٩)، و «إعراب القراءات السبع وعللها» (١/ ٨١)، و «حجة القراءات» (٩٤)، و «شرح شملة» (٢٦١)، و «معاني القراءات» للأزهري (١/ ١٤٧)،

وقد قرأ بها الحسن وأبو رجاء. ينظر: «البحر المحيط» (١/ ٣١٣)، و «القرطبي» (١/ ٢١٣). =

العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء آدم - عليه السلام -، واختلف في الكيفية.

فقال ابن عباس، وابن مسعود، وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة^(١)؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١] والمقاسمة ظاهرها المشافهة.

وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة بعد أن أخرج منها، وإنما أغوى آدم بشيطانه، وسُلْطَانِه، ووساوسه التي أعطاه الله تعالى، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أُنْثَىٰ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»^(٢).

ب ١٦

* ت *: وإلى هذا القول نَحَا المَازِرِيُّ^(٣) في بعض أجوبته، ومن ابتلي بشيء من

= حمزة هو: حمزة بن حبيب بن عمار بن إسماعيل التيمي الزيات. أحد القراء السبعة. كان عالماً بالقراءات. انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول.

قال الثوري: ما قرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر.

ينظر: «الأعلام» (٢/٢٧٧)، «تهذيب التهذيب» (٣/٢٧)، «وفيات الأعيان» (١/١٦٧).

(١) أخرجه الطبري (١/٢٧٢) برقم (٧٤١)، عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر» (١/١٠٨)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وذكره الشوكاني في «تفسيره» (١/١٣١)، كلاهما عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري (٤/٣٢٦)، كتاب «الاعتكاف»، باب هل يخرج المعتكف، حديث (٢٠٣٥)، وباب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، حديث (٢٠٣٨)، وباب هل يدرك المعتكف عن نفسه، حديث (٢٠٣٩)، و (٦/٢٤٢-٢٤٣)، كتاب «فرض الخمس»، باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ حديث (٣١٠١)، و (٦/٣٨٧-٣٨٨)، كتاب «بدء الخلق»، باب صفة إبليس وجنوده، حديث (٣٢٨١)، و (١٠/٦١٣-٦١٤)، كتاب «الأدب» باب التكبير والتسبيح عند التعجب، حديث (٦٢١٩)، و (١٣/١٦٩)، كتاب «الأحكام»، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء، حديث (٧١٧١)، ومسلم (٤/١٧١٢)، كتاب «السلام»، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة...، حديث (٢٥/٢١٧٥)، وأبو داود (١/٧٤٩)، كتاب «الصيام»، باب المعتكف يدخل البيت لحاجته، حديث (٢٤٧٠)، و (١/٥٦٥-٥٦٦)، كتاب «الصيام»، باب في المعتكف يزوره أهله في المسجد، حديث (١٧٧٩)، وأحمد (٦/٣٣٧)، وعبد الرزاق (٨٠٦٥)، وابن خزيمة (٣/٣٤٩)، رقم (٢٢٣٣)، و (٢٢٣٤)، وابن حبان (٣٦٧١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/٢٩-٣٠)، والبيهقي (٤/٣٢١)، كتاب «الصيام»، باب المعتكف يخرج إلى باب المسجد، والبغوي في «شرح السنة» (٧/٣٩٧-بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري، عن علي بن الحسين، عن صفية بنت حيي به.

(٣) المازري: هو محمد بن علي بن عمر التميمي، المازري، يعرف بـ «الإمام»، ويكنى بأبي عبد الله، أصله من «مازر» مدينة في جزيرة «صقلية»، خاتمة العلماء المحققين والأئمة الأعلام المجتهدين، الحافظ النظار، كان واسع الباع في العلم والاطلاع مع حدة في الذهن ورسوخ تام حتى بلغ درجة الاجتهاد، أخذ عن أبي الحسن اللخمي وغيره وعنه أخذ ما لا يعد، منهم: أبو محمد عبد السلام، وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم، وله مؤلفات منها: «شرح التلقين» ليس للمالكية كتاب مثله، و «شرح البرهان»=

وسوسة هذا اللعين؛ فأعظم الأدوية له الثقة بالله، والتعوذ به، والإعراض عن هذا اللعين، وعدم الالتفات إليه، ما أمكن؛ قال ابن عطاء الله^(١) في «لطائف المنن»: كان بي وسواس في الوضوء، فقال لي الشيخ أبو العباس المُرسي^(٢): إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تغدُ تأتينَا، فشق ذلك عليّ، وقطع الله الوسواس عني، وكان الشيخ أبو العباس يُلقنُ للوسواس: سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿فاطر: ١٦، ١٧﴾ انتهى.

قال عِيَّاضٌ: في «الشفا»^(٣)؛ وأما قصة آدم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] بعد قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] وتصريحه تعالى عليه بالمعصية بقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] أي: جهل، وقيل: أخطأ، فإن الله تعالى قد أخبر بعذره بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] قال ابن عباس: نسي عداوة إبليس، وما عهد الله إليه من ذلك^(٤)؛ بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ...﴾ [طه: ١١٧] الآية، وقيل: نسي ذلك بما أظهر لهما، وقال ابن عباس: إنما سمي الإنسان إنساناً؛ لأنه عهد إليه فنسي^(٥)، وقيل: لم يقصد المخالفة؛ استحلالاً لها، ولكنهما أغترا بحلف إبليس لهما: ﴿إِنِّي لَكُمْ لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] وتوهما أن أحداً لا يحلف

= لأبي المعالي الجويني المسمى «إيضاح المحصول من برهان الأصول».

ولد سنة (٤٤٣) هـ، وتوفي سنة (٥٣٦ هـ). ينظر: «شجرة النور» ص (١٢٧)، «الديباج» (ص ٢٧٩). (١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله الإسكندري: متصوف شاذلي، من العلماء، كان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. له تصانيف منها: «الحكم العطائية» في التصوف، و «تاج العروس» في الوصايا والعظات، و «لطائف المنن في مناقب المرسى وأبي الحسن» توفي ب «القاهرة». وينسب إليه كتاب «مفتاح الفلاح»، وليس من تأليفه.

ينظر: «الأعلام» (١/ ٢٢١ و ٢٢٢)، «الدرر الكامنة» (١/ ٢٧٣)، «كشف الظنون» (٦٧٥).

(٢) أحمد بن عمر المرسى، أبو العباس، شهاب الدين: فقيه متصوف، من أهل الإسكندرية، أصله من «مرسية» من «الأندلس».

ينظر: «الأعلام» (١/ ١٨٦)، «النجوم الزاهرة» (٧/ ٣٧١).

(٣) ينظر: «الشفا» ص (٨٢٢، ٨٢٣).

(٤) ذكره الماوردي في «التفسير» (٣/ ٤٣٠) بنحوه، والقرطبي (٦/ ٤٢٩١).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٤٦٥) برقم (٢٤٣٨٠)، والحاكم (٢/ ٣٨٠-٣٨١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في «الدرر» (٤/ ٥٥٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الصغير» وابن منده في «التوحيد»، والحاكم.

بِاللَّهِ حَانِثًا، وقد روي عذر آدم مثل هذا في بعض الآثار، وقال ابن جُبَيْر: حلف بالله لهما حتى غَرَّهُمَا، والمؤمن يخدع، وقد قيل: نسي، ولم ينو المخالفة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أي: قَصْدًا للمخالفة وأكثر المفسرين^(١) على أن العزم هنا الحزم والصبر، وقال ابن فُورَك وغيره: إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وقيل: بل أكلها، وهو متأول، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهى عنها، لأنه تأول نهى الله تعالى عن شجرة مخصوصة، لا على الجنس، ولهذا قيل: إنما كانت التوبة من ترك التحفُّظ، لا من المخالفة، وقيل: تأول أن الله تعالى لم ينهه عنها نهْيَ تحريم. انتهى بافظه فجزاه الله خيرًا، ولقد جعل الله في شِفَاءهِ شِفَاءً.

والضمير في ﴿عَنْهَا﴾ يعود على الجنة، وهنا محذوف يدلُّ عليه الظاهر تقديره: فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ. وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: قيل: معناه: مِنْ نِعْمَةِ الْجَنَّةِ إِلَى شِقَاءِ الدُّنْيَا، وقيل: من رفعة المنزلة إلى سُفْلِ مكانة الذنب.

* ت * وفي هذا القول ما فيه، بل الصواب ما أشار إليه صاحب «التَّنْوِيرِ»؛ بأن إخراج آدم لم يكن إهانة له، بل لما سبق في علمه سبحانه من إكرام آدم وجعله في الأرض خليفة، هو وأخيَّار ذريته، قائمين فيها بما يجب لله من عبادته، والهبوط النزول من علو إلى سُفْل، واختلف من المخاطب بالهبوط.

فقال السُّدِّيُّ/ وغيره: آدم، وحواء، وإبليس، والحَيَّة التي أدخلت إبليس في فَمِهَا، ١٧ ا وقال^(٢) الحسن: آدم، وحواء والْوَسْوَسة^(٣).

و ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ جملة في موضع الحال، ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي: موضع استقرار، وقيل: المراد الاستقرار في القبور، والمتاع: ما يستمتع به؛ من

(١) قال السمين الحلبي: «قال قتادة: صبراً، وقال غيره: حزمًا. وهذه غلطة. والأولى في تفسيرها: ولم نجد له تصميمًا على ما همَّ به. وقال شمر: العزم والعزيمة: ما عُقد عليه قلبك من أمر أنك فاعله. ينظر: «عمدة الحفاظ» (٨٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٧٨/١) برقم (٧٦٠)، وذكره السيوطي في «الدر» (١١٠/١) عن ابن عباس، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير (٢٠٦/١)، والماوردي (١٠٧/١) والشوكاني في «تفسيره» (١٣١/١).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٢٩/١)، والقرطبي (٢٧٢/١).

أكل، ولُبس، وحديث، وأنس، وغير ذلك.

واختلف في «الحين» هنا.

فقال فرقاً: إلى الموت، وهذا قول من يقول: المستقرُّ هو المقام في الدنيا، وقالت
فرقة: ﴿إلى حين﴾: إلى يوم القيامة، وهذا هو قول من يقول: المستقرُّ هو في القبور،
والحينُ المدة الطويلة من الدهر، أقصرها في الإيمان^(١) والالتزامات سنّة؛ قال الله تعالى:
﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وقيل: أقصرها سنّة أشهر؛ لأن من النخل ما يطعم في
كلّ ستة أشهر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ فائدة لآدم عليه السلام؛ ليعلم أنه غير باق فيها،
ومنتقل إلى الجنة التي وعد بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد، وروي أن آدم
نزل على جبل من جبال سَرَنْدِيب^(٢)، وأن حواء نزلت بِجُدّة^(٣)، وأن الحية نزلت
بأَصْبَهان^(٤).

(١) الإيمان لغة: جمع يمين، وهو القوة، وفي الصحاح: اليمين: القسم، والجمع: الأيمن، والأيمان.
انظر: «الصحاح» (٢٢٢١/٦)، «المصباح المنير» (١٠٥٧/٢)، و«المغرب» (٣٩٩/٢)، «لسان
العرب» (٤٦٢/٣)، «القاموس المحيط» (٢٨١/٤).
واصطلاحاً:

عرفه الحنفية بأنه: عقد قوي به عزم الحالف على فعل شيء أو تركه.
وعرفه الشافعية بأنه: تحقيق غير ثابت ماضياً كان أو مستقبلاً، نفيّاً أو إثباتاً، ممكناً أو ممتنعاً، صادقة أو
كاذبة، على العلم بالحال أو الجهل به.
وعرفه المالكية بأنه: تحقيق ما لم يجب بذكر اسم الله أو صفته.
وعرفه الحنابلة بأنه: تأكيد حكم (أي: محلوف عليه)، بذكر معظم، أو هو: المحلوف به على وجه
مخصوص.

ينظر: «تبيين الحقائق» (١٠٧/٣)، «شرح فتح القدير» (٢/٤)، «مغني المحتاج» (٣٢٠/٤)، «المحلى
على المنهاج» (٣٧٠/٤)، «حاشية الدسوقي» (١١٢/٢)، «شرح منتهى الإرادات» (٤١٩/٣).

(٢) سَرَنْدِيب جزيرة عظيمة بأقصى بلاد الهند. يقال: ثمانون فرسخاً في مثلها، فيها الجبل الذي هبط عليه
آدم - عليه السلام - يقال له: الرهون، وهو ذاهب في السماء يراه البحريون من مسافة أيام كثيرة. وفيه أثر
آدم وقبره، وهي قدم واحدة مغموسة في الحجر طولها نحو سبعين ذراعاً. ينظر: «مراصد الاطلاع» (٢/٢).
(٧١٠).

(٣) جُدّة بالتشديد: بلد على ساحل بحر اليمن، هو فرضة «مكة». ينظر: «مراصد الاطلاع» (٣١٨/١).

(٤) أَصْبَهان منهم من يفتح الهمزة وهو الأكثر الأشهر، وكسرها آخرون. أصبهان: لفظ مُعَرَّب من سباهان
بمعنى الجيش، فيكون معناه على حذف المضاف مدينة «الجيش»: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام
المدن وأعيانها. وأصبهان: اسم للإقليم بأسره. ينظر: «مراصد الاطلاع» (٨٧/١).

وقيل: بِمَيْسَانَ^(١)، وأن إبليس نزل عند الأُبْلَةِ^(٢).

﴿فَلَقَّ عَادُمْ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَقَّ عَادُمْ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾: المعنى: فقال الكلمات، فتَابَ الله عليه عند ذلك، وقرأ ابن كثير^(٣) «آدم» بالنصب «مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ» بالرفع، واختلف المتأولون في الكلمات، فقال الحسن بن أبي الحسن: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾^(٤) الآية [الأعراف: ٢٣]، وقالت طائفة: إن آدم رأى مكتوباً على ساق العرش: محمدٌ رسولُ الله، فتشقق به، فهي الكلمات^(٥)، وسئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب، فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وما قاله موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وما قال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وتَابَ عَلَيْهِ: معناه: راجع به، والتوبة من الله تعالى الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب، مع تركه فيما يستأنف.

* ت *: يعني: مع العزم على تركه فيما يستقبل، وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر في التلقي، والتوبة، وحواء مشاركة له في ذلك بإجماع؛ لأنه المخاطب في أول القصة، فكمملت القصة بذكره وخذه؛ وأيضاً: فلأن المرأة حُرْمَةٌ ومستورة، فأراد الله تعالى الستر لها؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١] وبنية التَّوَابِ للمبالغة والتكثير، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ التَّوَابُ﴾ تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي

(١) «مَيْسَانَ»: كورة واسعة كثيرة القرى والنخل، بين «البصرة» و «واسط» قصبتها «ميسان».

ينظر: «مراصد الاطلاع» (١٣٤٣/٣).

(٢) «الأُبْلَةُ»: بلدة على شاطئ دجلة «البصرة» العظمى، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة «البصرة».

ينظر: «مراصد الاطلاع» (١٨/١).

(٣) عبد الله بن كثير الداري المكي، أبو معبد: أحد القراء السبعة. كان قاضي الجماعة بـ «مكة». وكانت حرفته العطارة. ويسمون العطار «دارياً». فعرف بـ «الداري». وهو فارسي الأصل، ولد سنة (٤٤٥هـ) بـ «مكة» وتوفي سنة (١٢٠هـ) بها أيضاً.

ينظر: «وفيات الأعيان» (١: ٢٥٠)، «الأعلام» (٤/ ١١٥).

(٤) أخرجه الطبري (٢٨١/١) برقم (٧٧٨)، وذكره السيوطي في «الدر» (١١٨/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وذكره ابن كثير (٨١/١).

(٥) ينظر: القرطبي (٢٧٦/١).

نعمة من الله تعالى، لا من العبد وحده؛ لثلاً يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه، وكرر الأمر بالهبوط لما علّق بكل أمر منهما حكماً غير حكم الآخر، فعُلّق بالأول العداوة، وبالثاني إتيان الهدى.

* ت *: وهذه الآية تبين أن هبوط آدم كان هبوط تَكْرِمَةٍ؛ لما ينشأ عن ذلك من أنواع الخيرات، وفنون العبادات.

١٧ ب و﴿جميعاً﴾: حال من الضمير/ في «أهبطوا»، واختلف في المقصود بهذا الخطاب.

فقيل: آدم، وحواء، وإبليس، وذريتهم، وقيل: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص في آدم وحواء؛ لأن إبليس لا يأتيه هدى، والأول أصح؛ لأن إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع^(١).

«وإن» في قوله: ﴿فَإِمَّا﴾ هي للشرط، دخلت «مَا» عليها مؤكدة؛ ليصح دخول النون المشددة، واختلف في معنى قوله: ﴿هُدًى﴾ فقيل: بيان وإرشاد، والصواب أن يقال: بيان ودعاء، وقالت فرقة: الهدى الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة، وإلى بنيه من البشر هو فَمَنْ بعده.

(١) يُطْلَقُ الإجماع في اللغة، على معنيين:

أَحَدُهُمَا: الْعَزْمُ، يقال: أَجْمَعْتُ المسير والأمر، وأَجْمَعْتُ عليه؛ أي: عَزَمْتُ.

ثَانِيَهُمَا: الْإِتِّفَاقُ، ومنه يُقَالُ: أَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى كَذَا، إِذَا اتَّفَقُوا، قال في «القاموس»: الإجماع: الاتفاق، والعزم على الأمر.

عرّفه الرازي في «المختصّل» والإجماع أضطلاحاً بأنه: عبارة عن اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور.

وعرّفه الأبيدي بقوله: عبارة عن اتفاق جملة أهل الحل والعقد من أمة محمد ﷺ في عصر من الأغصار على واقعة من الوقائع.

وعرّفه النظام من المعتزلة بقوله: هو كل قول قامَت حُجَّتُهُ حَتَّى قول الواحد.

وعرّفه سراج الدين الأرموي في «التحصيل» بقوله: هو اتفاق المسلمين المُجْتَهِدِينَ في أحكام الشّرع على أمرٍ ما من اعتقاد، أو قول، أو فعل.

ويمكن أن يُعرّف بأنه اتفاق المجتهدين من هذه الأمة بغد وفاة محمد ﷺ في عصرٍ على أمرٍ شرعي.

ينظر: «البرهان» لإمام الحرمين (١/٦٧٠)، «البحر المحيط» للزركشي (٤/٤٣٥)، «الإحكام في أصول

الأحكام» للأبيدي (١/١٧٩)، «سلاسل الذهب» للزركشي ص (٣٣٧)، «التمهيد» للأسنوي

ص (٤٥١)، «نهاية السؤل» له (٣/٢٣٧)، «زوائد الأصول» له ص (٣٦٢)، «منهاج العقول» (٢/٣٧٧).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هَدَايَ﴾: شرط، جوابه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، قال سيوطي: والشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول في قوله: ﴿فَأَمَّا يَا تَبِيتُكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: يحتمل فيما بين أيديهم من الدنيا، ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم منها، ويحتمل: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ فيه.

* ت * : وهذا هو الظاهر، وعليه اقتصر في اختصار الطبري، ولفظه عن ابن زيد: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا خوف عليهم أمامهم^(١)، قال: وليس شيء أعظم في صدر من يموت مما بعد الموت؛ فأمنهم سبحانه منه، وسألهم عن الدنيا. انتهى.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩) يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْمَتَ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَقْوَمُ ﴿٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية: لما كانت لفظة الكفر يشترك فيها كفر النعم، وكفر المعاصي، ولا يجب بهذا خلود، بين سبحانه أن الكفر هنا هو الشرك، بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾ والآيات هنا يحتمل أن يريد بها المتلوة، ويحتمل أن يريد العلامات المنصوبة، والصُّخْبَةُ الإقتران بالشيء في حالة ثَمَنًا.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾: إِسْرَءِيلُ: هو يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عليهم السلام - وإِسْرَآ: هو بالعبرانية عبد، وإِيلُ: اسم الله تعالى، فمعناه عَبْدُ اللَّهِ، والذِّكْرُ في كلام العرب على أنحاء، وهذا منها ذكر القلب الذي هو ضد النسيان، والنعمة هنا اسم^(٢) جنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، قال ابن عباس، وجمهور العلماء: الخِطَابُ لجميع بني إسرائيل في مدة النبي ﷺ.

(١) أخرجه الطبري (٢٨٥/١) برقم (٧٩٦).

(٢) الجنس: هو جملة الشيء ومجموع أفراده، وهو أعم من النوع، وقد استعمل النحاة هذا التعبير في مجال الدلالة على الشيوع والعمومية في النوع الواحد. وقد أطلق النحاة هذا اللفظ في مجال تقسيم العلم وذكر أنواعه، فقالوا: العلم: علم شخص أو جنس. واستعملوه أيضاً في اسم الجنس الذي قسموه إلى ثلاثة أقسام:

١- اسم جنس جمعي. ٢- اسم جنس إفرادي. ٣- اسم جنس آحادي.

«معجم المصطلحات النحوية والصرفية»، د. محمد سمير نجيب اللبدي، (ص ٥٥-٥٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: أمر وجوابه، وهذا العهد في قول جمهور العلماء عام^(١) في جميع أوامره سبحانه ونواهيه ووصاياه لهم، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة، والرهبة يتضمن الأمر بها معنى التهديد، وأسند الترمذي الحكيم^(٢) في «نَوَادِرِ الْأُصُول» له عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «قَالَ رَبُّكُمْ سُبْحَانَهُ: لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، فَمَنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا، أَخَفَّتُهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٣). انتهى من «التذكرة» للقرطبي، ورواه ابن المبارك^(٤) في

(١) عرفه أبو الحسين البصري في «المعتمد» بقوله: «هُوَ اللَّفْظُ الْمُسْتَعْرَقُ لِمَا يَصْلُحُ لَهُ». وزاد الإمام الرّازي على هذا التعريف في «المحصول»: «... بوضع واحد»، وعليه جرى البيضاوي في «منهاجي». وعرفه إمام الحرمين الجويني في «الورقات» بقوله: «العام: ما عمّ شيئين فصاعداً». وإلى ذلك أيضاً ذهب الإمام الغزالي؛ حيث عرفه بأنه: «اللفظ الواحد الدال من جهة واحدة على شيئين فصاعداً». ويرى سيف الدين الأيمدي أن العام هو: «اللفظ الواحد الدال على قسمين فصاعداً مطلقاً معاً». واختار ابن الحاجب: «أن العام ما دل على مسميات باختيار أمر اشتركت فيه مطلقاً ضربة». ينظر: «البرهان» لإمام الحرمين (٣١٨/١)، و«البحر المحيط» للزركشي (٥/٣)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدني (١٨٥/٢)، و«سلاسل الذهب» للزركشي (ص ٢١٩)، و«التمهيد» للإسنوي (ص ٢٩٧)، و«نهاية السؤل» له (٣١٢/٢)، و«زوائد الأصول» له (ص ٢٤٨)، و«منهاج العقول» للبدخشي: (٧٥/٢)، و«غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (ص ٦٩)، و«التحصيل من المحصول» للأرموي: (٣٤٣/١)، و«المنخول» للغزالي (ص ١٣٨)، و«المستصفى» له (٣٢/٢)، و«حاشية البناني» (٣٩٢/١)، و«الإبهاج» لابن السبكي (٨٢/٢)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢٥٤/٢)، و«تخريج الفروع على الأصول» للزنجاني (ص ٣٢٦)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (٥٠٥/١)، و«المعتمد» لأبي الحسين (١٨٩/١)، و«إحكام الفصول في أحكام الأصول» للباجي (ص ٢٣٠).

(٢) محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي: باحث صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين من أهل «ترمذ» نفي منها بسبب تصنيفه كتاباً خالف فيه ما عليه أهلها، فشهدوا عليه بالكفر. وقيل: اتهم باتباع طريقة الصوفية في الإشارات ودعوى الكشف. وقيل: فضل الولاية على النبوة، ورد بعض العلماء هذه التهمة عنه. أما كتبه، فمنها: «نوادير الأصول في أحاديث الرسول»، و«الفروق».

ينظر: «الأعلام» (٢٧٢/٦)، «مفتاح السعادة» (١٧٠/٢)، «طبقات السبكي» (٢٠/٢)، «الرسالة المستطرفة» (٤٣).

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٤٩٤- موارد)، والبخاري (٧٤- كشف)، حديث (٣٢٣٣).

(٤) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، مولاهم، أبو عبد الرحمن المزوزي، أحد الأئمة الأعلام وشيوخ الإسلام. روى عن حميد، وإسماعيل، وغيرهم. كتب عن أربعة آلاف شيخ وروى عن ألف، عالم المشرق والمغرب، وكان ثقة، ولد سنة (١١٨هـ)، وتوفي سنة (١٨١هـ).

ينظر: «الخلاصة» (٩٣/٢) (٣٧٦٧)، و«الحلية» (١٦٢/٨ - ١٩٠)، و«الوفيات» (٣٢/٣ - ٣٤).

«وَقَائِقِهِ» من طريق الحسن البصري، وفيه: قَالَ اللَّهُ: «وَعِزَّتِي، لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ؛ فَإِذَا أَمِنْتَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). انتهى، ورواه أيضاً الترمذي الحكيم في كتاب «خُتَمِ الْأَوْلِيَاءِ» قال صاحب «الْكَلِمِ الْفَارِقِيَّةِ»، وَالْحَكَمِ الْحَقِيقِيَّةِ: «بقدر ما يدخل القلب من التعظيم والحرمة/ ١١٨ تنبعث الجوارح في الطاعة والخدمة». انتهى.

و «آمِنُوا»: معناه: صدقوا، و «مُصَدِّقًا» نصب على الحال من الضمير في «أَنْزَلْتُ»، و «مَا أَنْزَلْتُ» كناية عن القرآن، و «لِمَا مَعَكُمْ»، يعني: التوراة.

وقوله: «وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ» هذا من مفهوم الخطاب الذي المذكور فيه والمسكوت عنه حكمها واحد، وَحَذَرُوا الْبِدَارَ إِلَى الْكَفْرِ بِهِ؛ إذ على الأول كِفْلٌ من فعل المقتدى به، ونصب «أَوَّلَ» على خبر «كَانَ».

* ع^(٢): * وقد كان كَفَرُ قَبْلَهُمْ كفار قريش، وإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم في مثل هذا، واختلف في الضمير في «به»، ف قيل: يعود على مُحَمَّد ﷺ، وقيل: على القرآن، وقيل: على التوراة، واختلف في الثمن الذي نُهَوُا أن يشتروه بالآيات.

فقال طائفة: إن الأخبار كانوا يُعَلِّمُونَ دينهم بالأجرة، فَنهَوُا عن ذلك، وفي كتبهم: «عَلِّمَ مَجَانًا؛ كَمَا عَلِّمْتَ مَجَانًا»، أي: باطلاً بغير أجرة.

وقيل: كانت للأخبار مأكلة يأكلونها على العِلْمِ.

وقال قوم: إن الأخبار أخذوا رُشَاءً عَلَى تَغْيِيرِ صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ في التوراة، فَنهَوُا عن ذلك.

وقال قوم: معنى الآية: ولا تشتروا بأوامري، ونواهي، وآياتي ثمنًا قليلًا، يعني: الدنيا ومدتها والعيش الذي هو نَزْرُ^(٣) لا خَطَرُ له، وقد تقدّم نظير قوله: «وَلِيَايَ فَاتَّقُونِ»، وبين «اتَّقُونِ»، و «أَزْهَبُونِ» فرق أن الرهبة مقرونة بها وعيد بالغ.

«وَلَا تَلْسِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٥٠، ٥١) رقم (١٥٧) عن الحسن مرسلًا.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٣٤).

(٣) النَّزْر: القليل الثافه. ينظر: «لسان العرب» (٤٣٩٣).

وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكِيِّينَ ﴿٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، أي: لا تخلطوا، قال أبو العالية: قالت اليهود: محمد نبي مبعوث، لكن إلى غيرنا، فأقرارهم ببعثه حق، وقولهم: إلى غيرنا باطل، ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، أي: أمر محمد ﷺ^(١)، وفي هذه الألفاظ دليل على تغليظ الذنب على من وقع فيه، مع العلم به، وأنه أعصى من الجاهل، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال.

قال * ص^(٢) *: ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ مجزوم معطوف على ﴿تَلْبِسُوا﴾، والمعنى النهي عن كل من الفعلين. انتهى.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: معناه: أظهروا هيئتها، وأديموها بشروطها، والزكاة في هذه الآية هي المفروضة، وهي مأخوذة من النماء، وقيل: من التطهير.

وقوله تعالى: ﴿وَارْكعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: قيل: إنما خص الركوع بالذكر؛ لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع.

* ت *: وفي هذا القول نظر، وقد قال تعالى في «مزيم»: ﴿أَسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]، وقالت فرقة: إنما قال: ﴿مَعَ﴾؛ لأن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتضِ شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: ﴿مَعَ﴾ شهود الجماعة.

* ت *: وهذا القول هو الذي عول عليه * ع *: في قصة مزيم^(٣) - عليها السلام -، والركوع الانحناء بالشخص.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَطُغُونَ أَنْهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ خرج مخرج الاستفهام، ومعناه التوبيخ، و «البر» يجمع وجوه الخير والطاعات، و «تَنْسَوْنَ» معناه تتركون أنفسكم.

قال ابن عباس: كان الأحرار يأمرون أتباعهم ومقلديهم باتباع التوراة، وكانوا هم

(١) أخرجه الطبري (٢٩٤/١) برقم (٨٢٩) بلفظ «كتموا بعث محمد ﷺ». وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١/١٣٥).

(٢) «المجيد» ص ٢٣٠.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٣٤).

يخالفونها في جحدهم منها صفة محمد ﷺ^(١).

وقالت فرقة: كان الأحبار إذا استرشدتهم أحد من العرب في اتباع محمد ﷺ، دلوهم على ذلك، وهم لا يفعلونه.

* ت *: وخرج الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني^(٢) في كتاب «رياضة المتعلمين»؛ قال: حدثنا أبو بكر بن خلاد^(٣)، حدثنا الحارث بن أبي أسامة^(٤)، حدثنا أبو النضر^(٥)، حدثنا محمد بن عبد الله بن علي بن زيد عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي رَجُلًا تُفَرِّضُ أَلْسِنَتَهُمْ وَشِفَاهَهُمْ بِمَقَارِضٍ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ»^(٦). انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٢٩٦/١) برقم (٨٤٠) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر» (١٢٦/١)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم: حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية. ولد ومات في «أصبهان». من تصانيفه «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، و «معرفة الصحابة». ينظر: «الأعلام» (١٥٧/١)، «ابن خلكان» (٢٦/١)، «ميزان الاعتدال» (٥٢/١)، «طبقات الشافعية» (٧/٣).

(٣) محمد بن خلاد بن كثير الباهلي، أبو بكر البصري. عن ابن عيينة، ومعتز بن سليمان، وابن فضيل، وطبقته. وعنه مسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وزكريا خياط السنة. قال ابن حبان في «الثقات»: مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

ينظر: «خلاصة تذهيب تذهيب الكمال» (٤٠١/٢)، «تهذيب التهذيب» (١٥٢/٩)، «الثقات» (٨٦/٩).

(٤) اسم أبي أسامة: ذاهر: ونعت الحارث بأنه الحافظ، الصدوق، العالم، مسند العراق، أبو محمد التميمي، مولاهم البغدادي الحصب، صاحب «المُسند» المشهور، ولم يرتبه على الصحابة، ولا على الأبواب. ولد في سنة ست وثمانين ومئة.

ذكره ابن حبان في «الثقات». وقال الدارقطني: صدوق.

توفي الحارث يوم «عرفة» سنة اثنين وثمانين ومئتين. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٨٨-٣٩٠).

(٥) هاشم بن القاسم الليثي، أبو النضر الخراساني، قيصر، الحافظ. عن شعبة، وابن أبي ذئب، وحريز بن عثمان، وخلق. وعنه أحمد، وإسحاق، ويحيى، وابن المديني، وخلق. قال العجلي: ثقة، صاحب سنة. كان أهل «بغداد» يفتخرون به. قال مطين: مات سنة سبع ومائتين. ينظر: «خلاصة تذهيب التهذيب» (١١٠/٣)، و «تهذيب التهذيب» (١٨/١١)، و «الكاشف» (٢١٧/٣)، و «الجرح والتعديل» (٤٤٦/٦).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠، ١٨٠، ٢٣١، ٢٣٩)، وابن المبارك في «الزهد» (٨١٩)، وأبو يعلى (٧/ ٦٩)، رقم (٣٩٩٢)، من طريق حماد عن علي بن زيد، عن أنس به.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾: قال مقاتل^(١): معناه: على طلب الآخرة، وقيل: استعينوا بالصبر على الطاعات، وعن الشهوات على نيل رضوان الله سبحانه، وبالصلاة على نيل رضوان الله، وحطّ الذنوب، وعلى مصائب الدهر أيضاً؛ ومنه الحديث: «كان رسول الله ﷺ، إِذَا حَزَبَهُ»^(٢) أَمَرَ، فَرَعَ إِلَى الصَّلَاةِ»^(٣)، ومنه ما روي أَنَّ عبد الله بن عباس نَعِيَ له أخوه قُتَيْمٌ^(٤) وهو في سفر، فَأَسْتَرْجَعَ، وَتَنَحَّى عن الطريق، وَصَلَّى، ثم أَنَصَرَفَ إلى راحلته، وهو يقرأ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٥)، وقال مجاهد: الصبر في هذه الآية الصوم^(٦)، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر، وخص الصوم والصلاة على هذا القول بالذكر؛ لتناسبهما في أن الصيام يمنع الشهوات، ويزهّد في الدنيا، والصلاة تنهّي عن الفحشاء والمنكر، وتُخْشَع، ويقرأ فيها القرآن الذي يذكر بالآخرة، وقال قوم: الصبر على بابه، والصلاة الدعاء، وتجيء الآية على هذا القول مشبهة لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا

وأخرجه أبو يعلى (١٨٠/٧)، رقم (٤١٦٠)، وابن حبان. (٣٥٠ موارد) من طريق مالك بن دينار، عن أنس به.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٧٢/٨)، من طريق سليمان التيمي، عن أنس به. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٤/١)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن أبي داود في «البعث»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان». (١) مقاتل بن سليمان الأزدي، أبو الحسن الخراساني، المفسر عن الضحاك، ومجاهد. وعنه ابن عينة، وعلي بن الجعد. قال الشافعي: الناس عيال عليه في التفسير. قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة. وقال الحربي: لم يسمع من مجاهد شيئاً. وقال أبو حنيفة: مشبه. وكذّبه وكيع. قال ابن حبان: كان يأخذ عن اليهود علم الكتاب، وكان مشبهاً يكذب. قيل: مات سنة خمسين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٣/ ٥٣-٥٤)، «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢٨٥).

(٢) أي إذا نزل به منهم أو أصابه غم.

ينظر: «النهاية» (١/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٨/٥)، وأبو داود (١/ ٤٢٠-٤٢١) كتاب «الصلاة»، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل، حديث (١٣١٩)، من حديث حذيفة.

(٤) قُتَيْمٌ (بضم أوله، وفتح المثناة) ابن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، صحابي، روى عنه أبو إسحاق السبيعي، واستشهد في غزو «سمرقند» وقبره بها.

ينظر: «الخلاصة» (٢/ ٣٥٩)، «تهذيب الكمال» (٢/ ١١٢٤)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٣٦١)، «تقريب التهذيب» (٢/ ١٢٣).

(٥) أخرجه الطبري (٢٩٩/١) برقم (٨٥٢)، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٧/ ١١٤) برقم (٩٦٨٢)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ١٣١)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الشعب».

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧/ ١١٣) برقم (٩٦٨٠).

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ ﴿[الأنفال: ٤٥] لأن الثبات هو الصبر، وذكر الله هو الدعاء، وروى ابن المبارك في «رقائقه»؛ قال: أخبرنا حماد بن سلمة^(١) عن ثابت البناني^(٢) عن صلة بن أشيم^(٣)؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً، لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»^(٤) وأسند ابن المبارك عن عقبة بن عامر الجهني؛ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ وُضُوئَهُ، ثُمَّ صَلَّى صَلَاةً غَيْرَ سَاهٍ، وَلَا لَاهٍ، كَفَّرَ عَنْهُ مَا كَانَ قَبْلَهَا مِنْ شَيْءٍ»^(٥). انتهى.

وهذان الحديثان يُبَيِّنَانِ ما جاء في «صحيح البخاري» عن عثمان حيث تَوَضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا

(١) حماد بن سلمة بن دينار الرُّبَيعِي، أو التَّيْمِي، أو الْفَرَّاشِي، مولا هم، أبو سلمة البَصْرِي، أحد الأعلام. عن ثابت، وسماك، وسلمة بن كهيل، وابن أبي مليكة، وقتادة، وحَمِيد، وخلق. وعنه ابن جريح، وابن إسحاق شيخاه، وشعبة، ومالك، وحَبَّان بن هلال، والقَعْنَبِي، وأُمِّم. قال القَطَان: إذا رأيت الرجل يقع في حماد فاتهمه على الإسلام. وقال ابن المبارك: ما رأيت أشبه بمسالك الأول من حماد. وقال وَهَب بن خَالِد: كان حماد بن سلمة سيدنا وأعلمنا. قال حماد: من طلب العلم لغير الله مكر به. توفي سنة سبع وستين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٢٥٢/١)، «تهذيب التهذيب» (١١/٣)، و «الثقات» (٢١٦/٦).

(٢) ثابت بن أسلم البناني، مولا هم، أبو محمد البصري، أحد الأعلام. قال ابن المديني: له نحو مائتين وخمسين حديثاً. وقال حماد بن زيد: ما رأيت أعبد من ثابت. وقال شعبة: كان يختم في كل يوم ليلة ويصوم الدهر. وثقه النسائي، وأحمد، والعجلي. قال ابن عُثَيْمَة: مات سنة سبع وعشرين ومائة عن ست وثمانين سنة.

ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤٧٨/١ و ٢٣١/٧)، «الوافي بالوفيات» (٤٦١/١٠)، «الحلية» (٣١٨/٢)، «سير الأعلام» (٢٢٠/٥)، «تذكرة الحفاظ» (١٢٥)، «لسان الميزان» (١٨٧/٧)، «ميزان الاعتدال» (١/٣٦٢)، «تهذيب الكمال» (١٧٠/١)، «خلاصة تهذيب الكمال» (١٤٧/١).

(٣) الزاهد، العابد، القدوة، أبو الصهباء، العدوي، البصري، زوج العالممة معاذة العدوية.

حدث عنه: أهله مُعَاذَةُ، والحسن، وحَمِيد بن هلال، وثابت البناني، وغيرهم.

ينظر: «سير الأعلام» (٤٩٧/٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤٠٢) رقم (١١٤٣)، وابن شاهين في «الصحابة» كما في «الإصابة» (٢٦٠/٣) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن صلة بن أشيم به رسلاً.

(٥) أخرجه ابن المبارك (ص ٤٠٢-٤٠٣)، رقم (١١٤٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/٣٢٦-٣٢٧)، رقم (٩٠٢) من طريق ابن لهيعة، عن بكر بن سودة، عن ربيعة بن قيس، عن عقبة بن عامر مرفوعاً. وأخرجه الطبراني (١٧/٣٢٧)، رقم (٩٠٣)، من طريق ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن بكر بن سودة، عن رجل، عن ربيعة بن قيس، عن عقبة بن عامر به.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٧٨/٢)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» بإسنادين في أحدهما ابن لهيعة، وفيه كلام.

يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ^(١). انتهى.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأْهَا﴾ قيل: يعود على الصلاة، وقيل: على العبادة التي تضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة.

قال * ص^(٢) * : ﴿وَأَنبَأْهَا﴾ الضمير للصلاة، وهو القاعدة في أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل. انتهى.

ثم ذكر أبو حيان^(٣) وجوهاً آخرَ نحو ما تقدم.

وكَبِيرَةٌ: معناه: ثِقِيلَةٌ شاقَّةٌ، وَالْحَاشِعُونَ: المتواضعون المخبثون، والخشوعُ هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكونٌ وتواضعٌ.

و ﴿يَظُنُّونَ﴾ في هذه الآية، قال الجمهور: معناه: يوقنون، والظنُّ في كلام العرب قاعدته الشكُّ مع ميلٍ إلى أحد معتقديه، وقد يقع موقع اليقين، لكنه لا يقع فيما قد خرج إلى الحسِّ لا تقول العرب في رجل مَزِيٍّ أَظُنُّ هذا إنساناً، وإنَّما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس؛ كهذه الآية؛ وكقوله تعالى: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

قال * ص^(٤) * : قلتُ: وما ذكره ابن عطية هو معنى ما ذكره الزَّجَّاج^(٥) في معانيه ١٩٩ عن بغض أهل العلم؛ أَنَّ الظَّنَّ يقع في معنى العلم الذي لم تشاهده، وإنَّ كان قد قامت في نفسك حقيقته، قال: وهذا مذهب إلا أن أهل اللغة لم يذكروه، قال: وسمعت من أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق القاضي^(٦)،

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩/١)، كتاب «الوضوء»، باب الوضوء ثلاثاً، الحديث (١٥٩)، (١٦٠)، (١٦٤)، (١٩٣٤)، (٦٤٣٣)، ومسلم (٢٠٥/١)، كتاب «الطهارة»، باب صفة الوضوء وكماله، الحديث (٤/٢٢٦)، وأبو داود (١/٧٨-٨١)، كتاب «الطهارة»، باب صفة وضوء النبي ﷺ، الحديث (١٠٦)، (١١٠)، وابن ماجه (١/١٠٥)، كتاب «الطهارة»، باب ثواب الطهور، الحديث (٢٨٥)، والنسائي (١/٦٤)، كتاب «الطهارة»، باب المضمضة والاستنشاق، وباب بأي اليدين يتمضمض، والبيهقي (١/٤٩)، كتاب «الطهارة»، باب سنة التكرار في المضمضة والاستنشاق، والدارقطني (١/٨٣)، كتاب «الطهارة»، باب وضوء رسول الله ﷺ.

(٢) «المجيد» ص ٢٣٣.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (١/٣٤١).

(٤) «المجيد» (٢٣٥).

(٥) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/١٢٦).

(٦) أبو إسحاق: إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد بن درهم بن بابك الجهمي الأزدی: مولى آل جرير بن حازم. أصله من «البصرة»، وبها نشأ، واستوطن «بغداد» وتفقه بآب=

رواه عن زيد بن أسلم^(١). انتهى.

والمُلاقاة هي للثواب أو العقاب، ويصح أن تكون الملاقاة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة، وورد بها متواتر الحديث.

و ﴿رَاجِعُونَ﴾: قيل: معناه: بالموت، وقيل: بالحشر والخروج إلى الحساب والعرض، ويقوي هذا القول الآية المتقدمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل...﴾ الآية: قد تكرر هذا النداء والتذكير بالنعمة، وفائدة ذلك أن الخطاب الأول يصح أن يكون للمؤمنين، ويصح أن يكون للكافرين منهم، وهذا المتكرر إنما هو للكافرين؛ بدلالة ما بعده؛ وأيضاً: فإن فيه تقوية التوقيف، وتأكيده الحض على أبادي الله سبحانه، وحسن خطابهم بقوله سبحانه: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ لأن تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم، وفي الكلام اتساع، قال قتادة وغيره: المعنى: على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوءة المتكررة، لأن الله تعالى يقول لأمة محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢) [آل عمران: ١١٠].

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾، أي: عذاب يوم، أو هول يوم؛ ويصح أن يكون يوماً نصبه على

= المعدل، وكان يقول: أفخر على الناس برجلين بـ «البصرة»: ابن المعدل: يُعلمني الفقه، وابن المدني: يُعلمني الحديث.

ينظر: «الديباج المذهب» (١/ ٢٨٣-٢٨٤).

(١) زيد بن أسلم العدوي، مولا هم، المدني، أحد الأعلام. عن أبيه، وابن عمر، وجابر، وعائشة، وأبي هريرة، وقال ابن معين: لم يسمع منه، ولا من جابر، وعنه بنوه، وداد بن قيس، ومغمر وروح بن القاسم. قال مالك: كان زيد يحدث من تلقاء نفسه، فإذا قام فلا يجترئ عليه أحد. وثقه أحمد، ويعقوب بن شعبة. مات سنة ست وثلاثين ومائة في ذي الحجة.

ينظر: «الخلاصة» (١/ ٣٤٩)، «تهذيب التهذيب» (٣/ ٣٩٥)، «الكاشف» (١/ ١٣٦)، «تاريخ البخاري الكبير» (٣/ ٣٨٧)، «تاريخ البخاري الصغير» (١/ ١٣٧)، «الجرح والتعديل» (٣/ ٢٥٠٩)، «ميزان الاعتدال» (٢/ ٩٨)، «الثقات» (٦/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٣٠٣) برقم (٨٦٩) بلفظ «فضلهم على عالم ذلك الزمان» وذكره السيوطي في «الدرر» (١٣٣/ ١) بلفظ «فضلوا على العالم الذي كانوا فيه، ولكل زمان عالم» وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

الظرف^(١)، و ﴿لَا تَجْزِي﴾: معناه: لا تغني، وقال السُّدِّي: معناه: لا تقضي؛ ويقويه قوله: ﴿شَيْئاً﴾، وفي الكلام حذف، التقدير: لا تجزي فيه، وفي مختصر الطبري: أي: واتقوا يوماً لا تقضي نفس عن نفس شيئاً، ولا تغني غناء، وأخذنا اليوم قد يقضي عن قريبه ديناً، وأما في الآخرة، فيسر المرء أن يترتب له على قريبه حق؛ لأنَّ القضاء هناك من الحسنات والسيئات؛ كما أخبر النبي ﷺ. انتهى.

والشَّفَاعَةُ: مأخوذة من الشَّفَع، وهما الاثنان؛ لأن الشافع والمشفوع له شَفَع؛ وسبب هذه الآية أنَّ بني إسرائيل قالوا: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ، وسيشفع لنا آباؤنا»، وهذا إنما هو في حق الكافرين؛ للإجماع، وتواتر الأحاديث بالشفاعة في المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: قال أبو العالية: العَدْلُ: الفدية.

قال ع^(٢): * عدل الشيء هو الذي يساويه قيمةً وقدرًا، وإن لم يكن من جنسه، والعَدْلُ: بكسر العين: هو الذي يساوي الشيء من جنسه، وفي جرمه، والضمير في قوله: ﴿وَلَا هُمْ﴾ عائد على الكافرين الذين اقتضتهم الآية، ويحتمل أن يعود على النفسين المتقدم ذكرهما؛ لأن اثنين جمع، أو لأن النفس للجنس، وهو جمع، وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا؛ فإن الواقع في شدة مع آدمي لا يتخلص إلا بأن يشفع له، أو ينصر، أو يفندي.

* ت: أو يَمَنَ عليه إلا أنَّ الكافر ليس هو بأهلٍ لأنَّ يَمَنَ عليه.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٤٩)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: خلصناكم، وآل: أضله أهل؛ قلبت الهاء ألفاً؛ ولذلك رَدَّهَا التَّصْغِيرُ إِلَى الْأَصْلِ، فْقِيلَ: أَهْيَلُ، وآل الرجل قرابته، وشيعته، وأتباعه، وفرعون: اسم لكل من ملك من الْعَمَالِقَةِ بِمَضَرَ، وفرعونُ مُوسَى، قيل:

(١) ويكون المفعول حيث حذف، وتقديره: واتقوا العذاب في يوم صفته كيت وكيت. وقد منع أبو البقاء كونه ظرفاً، قال: لأن الأمر بالتقوى لا يقع في يوم القيامة. والجواب عنه - كما يقول السمين الحلبي -: أن الأمر بالاحذر من الأسباب المؤدية إلى العذاب في يوم القيامة.

ينظر: «الدر المصون» (١/٢١٤)، «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الشام للتراث، بيروت لبنان، (١/٦٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/١٣٩).

اسمه مُضْعَبُ بْنُ الرَّيَّانِ، وقال ابنُ إسحاق: اسمه الوليدُ بْنُ مُضْعَبٍ، وروي أنه كان من أهلِ إِصْطَخَر^(١) وَرَدَ مِصْرَ، فاتفق له فيها المُلْكُ، وكان أصلُ كون بني إسرائيل بمصر نزولَ إسرائيل بها زَمَنَ ابنه يُوسُفَ عليهما السلام.

و ﴿يَسْؤُمُونَكَ﴾: معناه: يأخذونكم به، ويلزموئنكم إياه، والجملة في موضع نصب على الحال، أي: سائمين/ لكم سوءُ العذاب، وسوءُ العذاب أشدُّه وأصعبه، وكان فرعونُ ب ١٩ على ما روي قد رأى في منامه ناراً خرجت من بيت المقدس، فأحرقت بيوتَ مِصْرَ، فأولت له رؤياه؛ أن مولوداً من بني إسرائيل ينشأ، فيخرب مُلْكَ فرعون على يَدَيْهِ، وقال ابنُ إسحاق، وابن عباس، وغيرهما: إن الكهنة والمنجمين قالوا لفرعون: قد أظلك زمانُ مولودٍ من بني إسرائيل يخرب مُلْكَكَ^(٢).

و ﴿يَذَبِّحُونَ﴾ بدلٌ من: «يَسْؤُمُونَ»، ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾: إشارة إلى جملة الأمر، و ﴿بَلَاءٌ﴾ معناه: امتحان واختبار، ويكون البلاء في الخير والشر.

وحكى الطبري وغيره في كيفية نجاتهم أن موسى - عليه السلام - أوحى إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل، فأمرهم موسى أن يستعبروا الحليَّ والمتاعَ من القَبِيطِ^(٣)، وأحلَّ الله ذلك لبني إسرائيل، ويُرَوَّى أنهم فعلوا ذلك دون رأيِ موسى - عليه السلام - وهو الأشبه به، فسرى بهم موسى من أول الليل، فأعلم بهم فرعون، فقال: لا يتبعهم أحد حتى تصبح الديكَّةُ، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديكٌ؛ حتى أصبح، وأمات الله تلك الليلة كثيراً من أبناء القَبِيطِ، فاشتغلوا بالدَّفْنِ، وخرجوا في الأتباع مشرِّقين، وذهب موسى عليه السلام إلى ناحية البحر؛ حتى بلغه، وكانت عدة بني إسرائيل نيفاً على ستمائة ألف، وكانت عِدَّة فرعون أَلْفَ أَلْفٍ ومائتي ألفٍ، وحكي غير هذا مما اختصرته لقلة ثبوته، فلما لحق فرعونُ موسى، ظن بنو إسرائيل أنهم غير ناجين، فقال يُوشعُ بْنُ نُونٍ لموسى: أين أُمِرْتَ؟ فقال: هكذا، وأشار إلى البحر، فركض يُوشعُ فرسه؛ حتى بلغ الغَمَرِ^(٤)، ثم رجع، فقال لموسى: أين أُمِرْتَ؟ فوالله: ما كَذَبْتُ، ولا كُذِّبْتُ، فأشار إلى البحر، وأوحى الله تعالى

(١) إِصْطَخَر: بلدة بفارس، يقال: إن كور «فارس» الخمسة، أكبرها وأصلها كورة «إصطخر». ينظر: «مراصد الاطلاع» (١/٨٧).

(٢) أخرجه الطبري (٣١١/١) برقم (٨٩٣)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/١٣٣)، وعزاه لابن جرير.

(٣) القبط: جيل بمصر. وقيل: هم أهل مصر. ينظر: «لسان العرب» (٣٥١٤)، و «النهاية» (٦/٤).

(٤) غَمَر البحر: معظمه، والغمر: الماء الكثير، وقيل: الكثير المُعَرَّق. ينظر: «لسان العرب» (٣٢٩٣)، (٣٢٩٤).

إليه؛ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، وأوحى الله إلى البحر؛ أَنْ انْفِرُقْ لِمُوسَى إِذَا ضَرَبَكَ، فَبَاتَ الْبَحْرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَضْطَرِبُ، فَحِينَ أَصْبَحَ، ضَرَبَ مُوسَى الْبَحْرَ، وَكَانَ أَبُو خَالِدٍ، فَانْفَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ عَاشُورَاءَ.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَدْنِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥٦) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٩)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ...﴾ الآية: ﴿فَرَقْنَا﴾: معناه: جعلناه فِرْقًا، ومعنى ﴿بِكُمْ﴾ أي: بسببكم، والبحر هو بحر القلزم^(١) ولم يفرق البحر عَرْضًا من ضَفَّةٍ إلى ضَفَّةٍ، وإنما فرق من موضع إلى موضع آخر في ضفة واحدة، وكان ذلك الفرق يُقَرِّبُ موضع النجاة، ولا يلحق في البر إلا في أيام كثيرة بسبب جبال وأغار حائلة، وقيل: انفرق البحر عَرْضًا على اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا؛ طريق لكل سبط، فلما دخلوها، قَالَتْ كُل طَائِفَةٌ: غَرِقَ أَصْحَابُنَا، وَجَزَعُوا، فَقَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام -: اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَىٰ أَخْلَاقِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ أِذِ عَصَاكَ عَلَى الْبَحْرِ، فَادَارَهَا، فَصَارَ فِي الْمَاءِ فَتُوحٌ كَالطَّاقِ^(٢)، يَرَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَجَازُوا وَجَبْرِيلُ فِي سَاقَتِهِمْ عَلَىٰ مَا ذِيَانَةٍ^(٣) يَحْثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَقُولُ لَأَلِ فِرْعَوْنُ: مَهْلًا حَتَّىٰ يَلْحَقَ آخِرُكُمْ أَوَّلَكُمْ، فلما وصل فرعون إلى البحر، أَرَادَ الدَّخُولَ، فَفَرَّ فَرَسُهُ، فَتَعَرَّضَ لَهُ جَبْرِيلُ بِالرَّمْكَةِ^(٤)، فَاتَّبَعَهَا الْفَرَسُ، وَدَخَلَ أَلُ فِرْعَوْنَ، وَمِكَائِيلُ يَحْثُهُمْ، فلما لم يبق إلا مِكَائِيلُ فِي سَاقَتِهِمْ عَلَى الضَّفَّةِ وَحده، انْطَبَقَ الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ، فَغَرَقُوا.

(١) بحر القلزم: شعبة من بحر الهند، أوله من بلاد البربر والسودان والحيش من جهة الجنوب، ومن جهة الشمال «عَدَن» وبلاد العرب حتى يقطع آخره عند «القلزم»، وهي مدينة صغيرة على أرض مصر.

ينظر: «مراصد الاطلاع» (١/١٦٦).

(٢) هو ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية.

ينظر: «لسان العرب» (٢٧٢٥)، و «المعجم الوسيط» (٥٧٧).

(٣) قيل: إن الماذيان هو النهر الكبير، وهذه الكلمة ليست بعربية، قال ابن الأثير: وهي سواحلية.

ينظر: «النهاية» (٣١٣/٤)، و «اللسان» (٤١٦٤) (حزن).

(٤) الرَّمْكَة: الْفَرَسُ وَالْبَزْدَوْنَةُ التي تتخذ للنسل، مُعَرَّبٌ، والجمع رَمَك.

ينظر: «لسان العرب» (١٧٣٣).

وَ «تَنْظُرُونَ»: قيل: معناه بأبصاركم لقُرْبِ بعضهم من بعض، وقيل: ببصائرهم للإعتبار؛ لأنهم كانوا في شغلٍ.

قال الطبري: وفي أخبار القرآن على لسان النبي ﷺ بهذه المغيبات التي لم تكن من علم العرب، ولا وقعت إلا في خفي علم بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل، وقائم/ عليهم بنبوء نبينا محمد ﷺ.

١٢٠

وموسى: اسم أعجمي، قال ابن إسحاق: هو موسى بن عمران بن يضر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ﷺ^(١).

وخص الليالي بالذكر في قوله تعالى: «وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» إذ الليلة أقدم من اليوم، وقبله في الرتبة، ولذلك وقع بها التاريخ، قال النقاش: وفي ذلك إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه لو ذكر الأيام، لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي، اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين ليلة بأيامها.

قال * ع^(٢): * حدثني أبي - رضي الله عنه - قال: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل بن الجوهري - رحمه الله - يعظ الناس بهذا المعنى في الخلوة بالله سبحانه، والدنو منه في الصلاة، ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب، ويقول: أين حال موسى في القرب من الله، وواصل ثمانين من الدهر من قوله، حين سار إلى الحضر لفتاه في بعض يوم: «آتَيْنَا عَذَاءَنَا» [الكهف: ٦٢].

* ت * : وأيضاً في الأثر أن موسى لم يصبه، أو لم يشك ما شكاه من النصب؛ حتى جاوز الموضع الذي وعد فيه لقاء الحضر عليهما السلام.

قال * ع^(٣): * وكل المفسرين على أن الأربعين كلها ميعاد.

وقوله تعالى: «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ آلِهَةً»: أي: إلهاً، والضمير في «بَعْدِهِ» يعود على موسى، وقيل: على انطلاقه للتكليم؛ إذ المواعدة تقتضيه، وقصص هذه الآية أن موسى عليه السلام، لما خرج ببني إسرائيل من مصر، قال لهم: إن الله تعالى سينجيكم من آل فرعون، وينفلكم خليئهم، ويروى أن استعارتهم للخلي كانت بغير إذن موسى - عليه

(١) ينظر: «النكت والعيون» (١/ ١٢٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٤٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٤٢).

السلام - وهو الأشبه به، ويؤيده ما في سورة طه في قولهم لموسى: ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوزَارًا﴾ [طه: ٨٧]، فظاهره أنهم أخبروه بما لم يتقدم له به شعور، ثم قال لهم موسى: إنه سينزل الله عليّ كتاباً فيه التحليل والتحريم والهدى لكم، فلما جازوا البحر، طلبوا موسى بما قال لهم من أمر الكتاب، فخرج لميعاد ربه وحده، وقد أعلمهم بالأربعين ليلة، فعدوا عشرين يوماً بعشرين ليلة، وقالوا: هذه أربعون من الدهر، وقد أخلفنا الموعد، وبدا تعنتهم وخلافهم، وكان السامري رجلاً من بني إسرائيل يسمى موسى بن ظفر، ويقال: إنه ابن خال موسى، وقيل: لم يكن من بني إسرائيل، بل كان غريباً فيهم، والأول أصح، وكان قد عرف جبريل عليه السلام وقت عبورهم، قالت طائفة: أنكر هيئته، فعرف أنه ملك، وقالت طائفة: كانت أم السامري ولدته عام الذبح، فجعلته في غار وأطبقت عليه، فكان جبريل عليه السلام يغذوه بأصبع نفسه، فيجد في أصبع لبناً وفي أصبع عسلاً، وفي أصبع سمناً، فلما رآه وقت جواز البحر، عرفه، فأخذ من تحت حافر فرسه قبضة تراب، وألقى في روعه؛ أنه لن يلقها على شيء، ويقول له: كن كذا إلا كان، فلما خرج موسى لميعاده، قال هارون لبني إسرائيل: إن ذلك الحلي والمتاع الذي استعرت من القبط لا يحل لكم، فحيثوا به؛ حتى تأكله النار التي كانت العادة أن تنزل على القرايين.

وقيل: بل أوقد لهم ناراً، وأمرهم بطرح جميع ذلك فيها، فجعلوا يطرحون.

وقيل: بل أمرهم أن يضعوه في حفرة دون نار حتى يجيء موسى، وروي، وهو ب ٢٠. الأصح الأكثر؛ أنه ألقى الناس الحلي في حفرة، أو نحوها، وجاء السامري، / فطرح القبضة، وقال: كن عجلاً.

وقيل: إن السامري كان في أصله من قوم يعبدون البقر، وكان يعجبه ذلك.

وقيل: بل كانت بنو إسرائيل قد مرّت مع موسى على قوم يعبدون البقر.

* ت * والذي في القرآن: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، قيل: كانت على صور البقر، ﴿فَقَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فوعاها السامري، وعلم أن من تلك الجهة يفتنون، ففتنت بنو إسرائيل بالعجل، وظلت منهم طائفة يعبدونه، فأعتزلهم هارون بمن تبعه، فجاء موسى من ميعاده، فغضب حسبما يأتي قصصه في مواضعه، إن شاء الله تعالى، ثم أوحى الله إليه؛ أنه لن يتوب على بني إسرائيل؛ حتى يقتلوا أنفسهم، ففعلت بنو إسرائيل ذلك، فروي أنهم لبسوا السلاح من عبدة منهم، ومن لم يغبد، وألقى الله عليهم الظلام، فقتل بعضهم بعضاً، يقتل الأب ابنه،

والأخ أخاه، فلما استحر فيهم القتل، وبلغ سبعين ألفاً، عفا الله عنهم، وجعل من مات شهيداً، وتاب على البقية؛ فذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ وقال بعض المفسرين: وقف الذين عبدوا العجل صفًا، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح، فقتلوهم، وقالت طائفة: جلس الذين عبدوا بالأفنية، وخرج يوشع بن نون ينادي: ملعون من حلَّ حُبُونَهُ^(١)، وجعل الذين لم يعبدوه يقتلونهم، وموسى ﷺ في خلال ذلك يدعو لقومه، وَيَرْغَبُ في العفو عنهم، وإنما عوقب الذين لم يعبدوا بقتل أنفسهم على أحد الأقوال؛ لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبد العجل.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال، والعفو تغطية الأثر، وإذهاب الحال الأول من الذنب أو غيره.

* ت * : ومنه الحديث: «فَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تَعْفِي أَثَرَهَا».

قال * ع *^(٢) : ولا يستعمل العفو بمعنى الصفح إلا في الذنب، والكتاب هنا هو التوراة بإجماع، واختلف في الفرقان هنا، فقال الزجاج وغيره: هو التوراة أيضاً؛ كرر المعنى؛ لاختلاف اللفظ، وقال آخرون: الكتاب التوراة، والفرقان سائر الآيات التي أوتي موسى عليه السلام؛ لأنها فرقَت بين الحق والباطل، واختلف هل بقي العجل من ذهب؟ فقال ذلك الجمهور، وقال الحسن بن أبي الحسن: صار لحماً ودماً، والأول أصح.

* ت * : وقوله تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ عن أبي العالية: إلى خالقكم^(٣)؛ من بَرَأَ الله الخلق، أي: خلقهم، فالبرئثة: فَعِيلَةٌ بمعنى مفعولة. انتهى من «مختصر أبي عبد الله اللخمي النحوي للطبري».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِنْ طَائِفَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾: يريد السبعين الذين اختارهم موسى، واختلف

(١) الجبوة والخبوة: الثوب الذي يُخْتَبَى به، والاحتباء هو أن يضم الإنسان رجله إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشده عليها. ينظر: «لسان العرب» (٧٦٥).

(٢) «المحرر الوجيز» (١/١٤٤).

(٣) السيوطي في «الدر» (١/١٣٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

في وقت اختيارهم.

فحكى أكثر المفسرين؛ أن ذلك بعد عبادة العجل، فاخترهم؛ ليستغفروا لبني إسرائيل، وحكى النقّاش وغيره؛ أنه اختارهم حين خَرَجَ من البُخْرِ، وطلب بالميعاد، والأول أصح.

وقصة السبعين أن موسى عليه السلام، لما رجع من تكليم الله تعالى، ووجد العجل قد عُيِدَ، قالت له طائفة ممن لم يعبد العجل: نحن لم نَكْفُرْ، ونحن أصحابك، ولكن أسمعنا كلام ربك، فأوحى الله إليه؛ أن اختر منهم سَبْعِينَ، فلم يجد إلا سَتِينَ، فأوحى إليه أن اختر من الشباب عَشْرَةَ، ففعل، فأصبحوا شيوخاً، وكان قد اختار سِتَّةً من كل سبط، فزادوا اثنين على السبعين، فتشأخوا فيمن يتأخر، فأوحى إليه أن من تأخر له أجر من مضى، فتأخر يوشع بن نون، وكالوث بن يوفنا، وذهب موسى عليه السلام/ بالسبعين، بعد أن أمرهم أن يتجنبوا النساء ثلاثاً، ويغتسلوا في اليوم الثالث، واستخلف هارون على قومه، ومضى حتى أتى الجبل، فألقى عليهم الغمام، قال النقّاش: غشيتهم سحابة، وجعل بينهم وبين موسى بالنور، فوقعوا سجوداً، قال السُدِّي وغيره: وَسَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ يَأْمُرُ وَيَنْهَى، فلم يطيقوا سماعه، واختلطت أذهانهم، ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعبر لهم، ففعل، فلما فرغوا، وخرجوا، بذلت منهم طائفة ما سمعت من كلام الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ﴾ [البقرة: ٧٥] واضطرب إيمانهم، وامتنعهم الله تعالى بذلك، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، ولم يطلبوا من الرؤية محالاً؛ أما إنه عند أهل السنة^(١) ممتنع في الدنيا من طريق السمع،

(١) اتفقت كلمة الأشاعرة على جواز رؤيته (تعالى) عقلاً في الدنيا والآخرة، بمعنى أنه تعالى يجوز أن ينكشف لعباده المؤمنين من غير ارتسام صورة، ولا اتصال شعاع، ولا حصول في جهة ومقابلة. واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية وأدلة عقلية، فلنذكر الأدلة العقلية؛ لأنها الأصل في هذا الباب، وهي أكثر من أن تحصى، والمعتمد منها عند أهل السنة قوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى - عليه السلام - في ميقات المناجاة: ﴿قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ [الأعراف: ١٤٣].

تنطق الآية الكريمة بمسألة تتعلق بالذات الأقدس، وهي مسألة الرؤية، ولم يحدد النطق الكريم الحكم فيها، بل ترك لذوي العقول البحث.

فكان القول بجوازها ووقوعها، وكان القول باستحالتها وعدم وقوعها، ولم يكن لصاحب كل قول من الآية الكريمة ما يعتمد عليه صريحاً، بل كل مستند له هو الركون إلى اللغة تارة، واللجوء إلى الدليل العقلي أخرى. غير أن أهل السنة نظروا إلى ظروف الآية وما سبقت لأجله، فكانت عضداً قوياً ركنا إليه. =

فأخذتهم حينئذ الصاعقة، فأحترقوا وماتوا موتاً همودٍ يعتبر به الغَيْرُ، وقال قتادة: ماتوا،

= فالآية الكريمة تقول: لقد وعى موسى - عليه السلام - لمناجاتنا، ورفعناه إلى هذا المستوى واتصل بالأفق الأعلى، وانتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا، وشهد من أمر الله ما لم يصل غيره إلى تعقله بأقوى الأدلة والبراهين، وأنزله هذه المنزلة، ووقف في ساحة جلاله وحظائره قدسه ومساقط أنوار جماله وذاق حلاوة خطابه.

أليس يطلب إلى ربه أن يتمتع بالنظر إلى ذاته الأقدس؛ ليجمع بين حلاوة الكلام وجمال الرؤية، ويؤيد أن الحامل لموسى - عليه السلام - على طلب الرؤية عوامل الشوق ما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: «جاء موسى - عليه السلام - ومعه السبعون رجلاً، وصعد موسى الجبل، وبقي السبعون في أسفل الجبل، فكلّم الله موسى، وكتب له في الألواح كتاباً، وقرّبه نجياً، فلما سمع موسى صرير القلم عظم شوقه فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾، نعم طلبها يعامل الشوق، وقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾، ولم يكن موسى قد جرى في هذه القضية على غير المألوف، حيث جعل النظر مسبباً عن الرؤية، والحال أن النظر تقلب الحدة نحو الشيء التماساً لرؤيته، فهي متأخرة عنها؛ إذ الغرض ﴿رب أرني أنظر إليك﴾: مكني من رؤيتك، فأنظر إليك، وأراك، ففي الكلام ذكر الملزوم وإرادة اللازم. نعم أقدم موسى على طلب النظر إلى الذات الأقدس، وانتظر ما يكون من أمر الله، وقد وقع عليه عمود من الغمام، وتغشى الجبل جلال الرب وسمع النطق الكريم ﴿لن تراني﴾ عند هذه الآية الكريمة تقف المعتزلة رافعة الرأس، ولو أنهم لاحظوا ما كان من حب موسى واصطفاء الله له، لم ينصرف ذهنهم إلى المنع من مطالعة الذات الأقدس، بل المتبادر إلى الذهن ﴿لن تقوى على رؤيتي وأنت على ما أنت عليه، لتوقفها على استعداد في الرائي، ولم يوجد في موسى - عليه السلام - وقت الطلب يشهد لهذا ما أخرجه الترمذي في «نوادير الأصول» عن ابن عباس «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: قال الله تعالى: «يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا رطب إلا تفرق وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم، ولا تبلى أجسامهم».

كذلك يدل على أن التأييد المستفاد من قوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ إنما هو موقف على عدم تغيير الحال؛ يؤيد ذلك ما رواه أبو الشيخ عن ابن عباس، وفيه يقول: «يا موسى إنه لن يراني أحد فيحيا، قال موسى: رب أن أراك ثم أموت أحب إلي من ألا أراك ثم أحيأ» وقد نبّه جل شأنه بقوله: ﴿لن تراني﴾ على وجود المانع، وهو الضعف عن تحملها، حيث أراه ضعف من هو أقوى منه وتفتت عندما تجلى عليه الرب وغشيه ذو الجلال والإكرام.

فكان الجبل وتماسكه وعاد الجبل متقوص الأركان متداخل الأجزاء سقيم القوام، وكان موسى فاقد الحياة؛ لطلبه هذه المرمية من الانكشاف، وهو باق على حاله.

أفاق موسى واسترد حياته، وقال: ﴿سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ [الأعراف: ١٤٣] أنزهك من أن أسألك شيئاً بغير إذنك تبت عن الإقدام وأنا أول المؤمنين بأن لا يراك أحد في هذه النشأة، وليس كما يزعم الخصم من أن التوبة دليل العصيان، فكان موسى يعلم امتناعها وقد طلبها وهي ممتنعة. بل تاب من طلب الرؤية بغير إذن، وكيف لا يتوب وهو الرب صاحب الجبروت، وهو موسى المصطفى الكليم. وقد قيل قديماً: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) - إلى هنا كان حتماً أن نبين أن أهل السنة كانوا في غيبة عن أدلة الجواز، لكن دفعهم أن ما سيكون من الأدلة على الوقوع سمعي فحسب، قد يأتيها الخصم بمنع إمكان المطلوب؛ لأجل هذا مهدوا الطريق للوقوع، فبرهنوا على الجواز بالأدلة النقيضة والعقلية، =

وزهدت أرواحهم، ثم رُدُّوا؛ لِاستِيفاء آجالهم، فحين حصلوا في ذلك الهمود، جعل موسى

= وكان سلوكهم بهذا الطريق كافياً في الاستدلال على الوقوع بالدليل الثقلي، وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد.

وكذلك اتفقت كلمة الأشاعرة على وقوع رؤيته (تعالى) في الآخرة، واستدلوا على ذلك بالكتاب، والسنة، والإجماع:

أما دلالة الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] فالآية صريحة في أن وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة متهلة من عظيم المسرة، يشاهد عليها نضرة النعيم. ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أن تراه مستغرقة في مطالعة جماله، بحيث تغفل عما سواه؛ ففي حديث جابر، وقد رواه ابن ماجة: «فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم» والحجاب من قبلهم لا من قبله (عز وجل)، فهذا يدل على أن المراد من النظر حقيقته، وهو الرؤية.

ووجه الاحتجاج في الآية الكريمة: أن النظر في الآية جاء موصولاً بإلى، وكل ما كان كذلك فهو بمعنى الرؤية، فالنظر في الآية بمعنى الرؤية.

أما الصغرى، فدليلها الآية، وأما الكبرى، فيستدل لها بشهادة النقل عن أئمة اللغة وتتبع موارد الاستعمال، فقد نقل عن أهل اللغة أن للنظر معان عدة يتميز بعضها عن بعض بواسطة التعدية؛ فقد جاء النظر بمعنى الانتظار متعدياً بنفسه قال الله تعالى: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ [الحديد: ١٣] أي: انتظرونا، وقول الشاعر: [الوافر]

وإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب
أي ينتظره.

وجاء بمعنى التفكير يستعمل بـ «في» يقال: نظرت في الأمر الفلاني، أي تفكرت فيه: وجاء بمعنى الرأفة والتعطف، ويتعدى باللام، يقال: نظر الأمير لفلان، أي رأف به وتعطف.

وجاء بمعنى الرؤية، ويستعمل بـ «إلى» قال الشاعر: [الطويل]

نظرت إلى من أحسن الله وجهه فيا نظرة كادت على رامق تقضي

ومثل ذلك النظر في الآية؛ إذ جاء موصولاً بـ «إلى»، فيجب حمله على الرؤية، فتكون واقعة في ذلك اليوم، وهو المطلوب. ولا يعكر أن النظر المستعمل بـ «إلى» يأتي بمعنى آخر غير الرؤية كالتأخير كما في قوله تعالى: ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ [البقرة: ٢٨٠]. لأن لفظة «إلى» في الآية ليست صلة للنظر، بل لبيان المدة.

وقد اعترضت المعتزلة هذا الدليل، فمنعت صغراه (النظر في الآية موصول بإلى) قالوا: لا نسلم أن النظر في الآية موصول بـ «إلى»؛ لأنها ليست حرفاً، بل هي اسم بمعنى النعمة واحد الآلاء، ومفعول به للنظر، يشهد لذلك ما قيل عن أهل اللغة أن الآلاء واحدها آلى، وأيلى، وألوى، وألى، وإلى. قال الأعشى:

أبيض لا يرهبه النزال ولا يقطع رحماً ولا يسخون إليّ

أي نعمة أو بمعنى «عند» يؤيده قول الشاعر:

فهل لكم فيما إلي فلانني طبيب بما أعىى النطاس حذيما
= أي فيما عند.

يناشد ربّه فيهم، ويقول: أي ربّ، كيف أرجع إلى بني إسرائيل دونهم، فيهلّكون، ولا يؤمنون بي أبداً، وقد خرجوا، وهم الأخيار.

قال * ع^(١) *: يعني: هم بحال الخير وقتَ الخروج، وقال قومٌ: بل ظن موسى أنّ السبعين، إنما عوقبوا بسبب عبادة العجل، فذلك قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، يعني السبعين: ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] يعني: عبدة العجل، وقال ابن فورك: يحتمل أن تكون معاقبة السبعين؛ لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه؛ بقولهم لموسى: ﴿أَرِنَا﴾ [النساء: ١٥٣] وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام.

قال * ع^(٢) *: ومن قال: إن السبعين سمِعُوا ما سمع موسى، فقد أخطأ، وأذهب فضيلة موسى، واختصاصه بالتكليم.

و ﴿جَهْرَةً﴾: مصدر في موضع الحال^(٣)، والجهرُ العلانية، ومنه الجهرُ ضد السر،

= ومعنى الآية على الأول: منتظرة نعمة ربها، وعلى الثاني: عند ربها منتظرة نعمته.

أجاب أهل السنة عند المنع:

أولاً: لو أريد من النظر في الآية انتظار النعمة لما خص بإسناده إلى الوجوه التي هي محل الأعين - بالباصرة، ولم يكن للتعدي بالظرف معنى؛ فإن المؤمنين في دار الدنيا منتظرون نعمته تعالى، وكذلك الكفار.

ثانياً: أن جعل «إلى» بمعنى النعمة في هذا المقام يخالف المعقول؛ لأن الانتظار يعد من الآلام؛ كيف وقد قيل: إنه الموت الأحمر؟! ويخالف المنقول أيضاً؛ إذ روي أنه ﷺ قال: «أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى جنته وأزواجه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجه الله غدوة وعشية» ثم قرأ (عليه الصلاة والسلام): ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] والله ما نسخها منذ أنزلها.

ثالثاً: إن الانتظار أمانة الغم وعدم الاطمئنان، وقد قيل كما سبق أنه الموت الأحمر، وهذا يخالف ما سقت لأجله الآية من التبشير للمؤمنين بالإنعام وحسن الحال وفراغ البال، وذلك إنما يكون برؤيته تعالى، فإنها من أجل النعم والكرامات المستتعة لنضارة الوجوه.

وما يقوله المعتزلة من أن ترتب الغم على الانتظار أمر عادي يجوز تخلفه في الآخرة حيث إنها دار خوارق العادات، على أنه إنما يكون غماً إذا لم يكن مقطوعاً بما يترتب عليه من حصول النعم؛ كيف وهو وغد من لا يخلف وعده، فمدفوع بأن هذا خروج عن السنن الكونية فقد جرت عادة الله (تعالى) أن ييشر خلقه وينذرهم بما يعلمونه لذة وعذاباً بحسب العادة، ولذا لم يقع التبشير بالنار والإنذار بالجنة مع إمكان أن يخلق الله اللذة في النار والعذاب والألم في الجنة.

ينظر: الرؤية لشيخنا عبد الفضيل طلبة ص ٤٠ وما بعدها.

(١) «المحرر الوجيز» (١/١٤٧).

(٢) السابق.

(٣) قوله تعالى: ﴿جَهْرَةً﴾ فيه قولان:

وَجَهَرَ الرَّجُلُ الْأَمْرَ: كشفه، وفي «مختصر الطبري» عن ابن عباس: ﴿جَهْرَةٌ﴾: قال علانية^(١)، وعن الربيع: ﴿جَهْرَةٌ﴾: عياناً^(٢). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أجاب الله تعالى فيهم رغبةً مُوسَى عليه السلام وأحياهم من ذلك الهمود، أو الموت؛ ليستوفوا آجالهم، وتاب عليهم، والبعث هنا الإثارة، و﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: على هذه النعمة، والترجي إنَّما هو في حق البشر.

وذكر المفسرون في تظليل الغمام؛ أنَّ بني إسرائيل، لما كان من أمرهم ما كان من القتل، وبقي منهم من بقي، حصلوا في فحص^(٣) التي بين مضر والشام، فأمرُوا بقتال الجبارين، فَعَصَوْا، وقالوا: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] فدعا موسى عليهم فعوقبوا بالبقاء في ذلك الفحص أربعين سنةً يتيهون في مقدارِ خمسة فراسخٍ أو ستة، روي أنهم كانوا يمشون النهار كله، وينزلون للمبيت، فيصبحون حيث كانوا بكرةً أمس، فندم موسى على دعائه عليهم، فقليل له: ﴿لَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

= أحدهما: أنها مصدرٌ وفيها حيثنذ قولان:
أحدهما: أنَّ ناصبها محذوفٌ، وهو من لفظها، تقديره: جَهَرْتُمْ جَهْرَةً، نقله أبو البقاء.
والثاني: أنها مصدرٌ من نوع الفعل فَتَنَّتْصِبُ انتصابَ القرفصاء من قولك: «قعد القرفصاء»، «واشتمل الصماء»، فإنها نوعٌ من الرؤية، وبه بدأ الزمخشري.
والثاني: أنها مصدرٌ واقعٌ موقع الحال، وفيها حيثنذ أربعة أقوال:
أحدهما: أنه حالٌ من فاعل «نرى» أي: ذوي جَهْرَةٍ، قاله الزمخشري.
والثاني: أنها حالٌ من فاعل «قُلْتُمْ»، أي: قُلْتُمْ ذلك مجاهرين، قاله أبو البقاء، وقال بعضهم: فيكون في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قُلْتُمْ جَهْرَةً لِنُؤْمِنَ لَكَ، ومثل هذا لا يُقال فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، بل أتى بمفعول القول ثم بالحال من فاعله، فهو نظيرُ: «ضَرَبْتُ هَذَا قَائِماً».
والثالث: أنها حالٌ من اسم الله تعالى، أي: نَرَاهُ ظاهراً غيرَ مستور.
والرابع: أنها حالٌ من فاعل «نؤمن» نقله ابن عطية، ولا معنى له، والصحيح من هذه الأقوال الستة الثاني.

ينظر: «الدر المصون» (١/٢٢٩).

(١) أخرجه الطبري (١/٣٣٨) برقم (٩٤٨)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/١٣٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١/٣٣٩) برقم (٩٤٩).

(٣) الفحص: ما استوى من الأرض. وفي حديث كعب: «إن الله بارك في الشام، وخص بالتقديس من فخص الأردن إلى رفح» والفحص - هنا - ما بسط من نهر الأردن، وكشف من نواحيه. ينظر: «لسان العرب» (٣٣٥٦).

وروي أنهم ماتوا بأجمعهم في فحوص التيه، ونشأ بنوهم على خير طاعة، فهم الذين خرجوا من فحوص التيه، وقاتلوا الجبارين، وإذا كان جميعهم في التيه، قالوا لموسى: من لنا بالطعام؟ قال: الله، فأنزل الله عليهم المن والسلوى، قالوا: من لنا من حر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام، قالوا: بيم نستضيح بالليل، فضرب لهم عمود نور في وسط محللتهم، وذكر مكّي عمود نار، قالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر، قالوا: من لنا باللباس، فأعطوا الأيائل لهم ثوب، ولا يخلق، ولا يذرّن، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان، والمن صمعة خلوة؛ هذا قول فرقة، وقيل: هو عسل، وقيل: شراب خلو، وقيل: الذي ينزل اليوم على الشجر، وروي أن المن كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ كالثلج، فيأخذ منه الرجل ما يكفيه ليومه، فإن ادّخر، فسد عليه إلا في يوم الجمعة؛ فإنهم كانوا يدّخرون ليوم السبت، فلا يفسد عليهم؛ لأن يوم السبت يوم عبادة.

والسلوى طير؛ بإجماع المفسرين، فقيل: هو السمّانة.

وقيل: طائر مثل السمّانة.

وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب.

* ص (١): قال ابن عطية: وغلط الهذلي (٢) في إطلاقه السلوى على العسل؛ حيث قال: [الطويل]

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ عَهْدًا لَأَنْتُمْ أَلَدُ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا (٣)

* ت (٤): قد نقل صاحب المختصر؛ أنه يطلق على العسل لغة؛ فلا وجه

(١) «المجيد» ص (٢٥٩).

(٢) خويلد بن خالد بن محرث، أبو ذؤيب، من بني هذيل بن مدركة، من «مضر»: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن «المدينة»، واشترك في الغزو والفتوح. وعاش إلى أيام عثمان. قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة. وفد على النبي ﷺ ليلة وفاته، فأدركه وهو مسجى، وشهد دفنه.

ينظر: «الأغاني» (٥٦/٦)، «الشعر والشعراء» (٢٥٢)، و«خزانة البغدادي» (١/٢٠٣)، و«الأعلام» (٣٢٥/٢).

(٣) البيت لأبي ذؤيب، وأنشده ابن منظور في «اللسان» لخالد بن زهير.

ينظر: «ديوان الهذليين» (١/١٥٨)، و«اللسان» (سلا)، و«البحر المحيط» (١/٣٦٤)، و«القرطبي» (١/٤٠٧)، و«الدر المصون» (١/٢٣٠)، و«روح المعاني» (١/٢٦٤).

(٤) لا زال الكلام للصفاسي.

لتغليظه؛ لأن إجماع المفسرين لا يمنع من إطلاقه لغة بمعنى آخر في غير الآية. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿كلوا...﴾ الآية: معناه: وكلنا: كلوا، فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه، والطيبات، هنا جمعت الحلال واللذيذ.

* ص^(١): وقوله: ﴿وما ظلمونا﴾: قدر ابن عطية قبل هذه الجملة محذوفاً، أي: فَعَصُوا، وما ظَلَمُونَا، وقدر غيره: فَظَلَمُوا، وَمَا ظَلَمُونَا، ولا حاجة إلى ذلك؛ لأن ما تقدم عنهم من القبائح يُغني عنه. انتهى.

* ت: وقول أبي حيان: «لا حاجة إلى هذا التقدير...» إلى آخره: يُرد بأن المحذوفات في الكلام الفصيح هذا شأنها؛ لا بد من دليل في اللفظ يدل عليها إلا أنه يختلف ذلك في الوضوح والخفاء، فأما حذف ما لا دليل عليه، فإنه لا يجوز.

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَاكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَنْغِرَ لَكُمُ خُطَايَاكُمْ وَسَيَرْزِقُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسِيباً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِيبَهُمْ شَلُوا وَافْتَرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَاكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَرْزِقُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * وإذا استسقى موسى لقومه.

﴿القرية﴾: المدينة؛ سُميت بذلك؛ لأنها تَقَرَّتْ، أي: اجتمعت؛ ومنه: قَرِئْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ، أي: جمعته، والإشارة بهذه إلى بيت المقدس في قول الجمهور.

وقيل: إلى أريحا، وهي قريب من بيت المقدس، قال عمر بن شبة^(٢): كانت

(١) «المجيد» (ص ٢٥٩).

(٢) عمر بن شبة - واسمه زيد - بن عبيدة بن ربيعة النميري، البصري، أبو زيد، شاعر، رأوية، مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل «البصرة». توفي بـ «سمراء» سنة (٢٦٢) هـ، له تصانيف، منها: «كتاب الكتاب»، و «النسب»، و «أخبار بني نمير»، و «أخبار المدينة» جزء منه، و «تاريخ البصرة»، و «أمرء الكوفة»، و «أمرء البصرة»، و «أمرء المدينة»، و «أمرء مكة» و «كتاب السلطان»، و «مقتل عثمان»، و «السقيفة»، و «جمهرة أشعار العرب»، و «الشعر والشعراء»، و «الأغاني».

ينظر: «الأعلام» (٥/ ٤٧- ٤٨)، و «تهذيب التهذيب» (٧/ ٤٦٠)، و «الوفيات» (١/ ٣٧٨).

قاعدةً، ومسكنَ ملوكٍ، ولما خرج ذريةُ بني إسرائيل من التَّيَّة، أُمِرُوا بدخول القرية المشار إليها، وأما الشيوخ، فماتوا فيه، وروي أن موسى وهارون عليهما السلام ماتا في التَّيَّة، وحكى الزَّجَّاج^(١) عن بعضهم أنهما لم يكونا في التَّيَّة؛ لأنه عَذَابٌ، والأول أكثر.

* ت *: لكن ظاهر قوله: ﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] يقوي ما حكاؤه الزَّجَّاج، وهكذا قال الإمام الفخر^(٢). انتهى.

وَ ﴿كُلُوا﴾: إباحة، وتقدّم معنى الرَّغَد، وهي أرض مباركة عظيمة الغلّة، فلذلك قال: ﴿رَعْدًا﴾.

و ﴿البَّاب﴾: قال مجاهد: هو باب في مدينة يَبْتَث المَقْدِس يُعْرِفُ إلى اليوم بباب حِطَّة^(٣)، و ﴿سُجَّدًا﴾: قال ابن عباس: معناه: ركوعاً^(٤)، وقيل: متواضعين خضوعاً، والسجودُ يعم هذا كله، وحِطَّة: فِعْلَةٌ؛ من حَطَّ يَحْطُ، ورفعته على خبر ابتداء^(٥)؛ كأنهم قالوا: سألنا حِطَّةً لذُنُوبِنَا، قال عكرمة وغيره: أُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ لتحطُّ بها ذُنُوبُهُمْ^(٦)، وقال ابن عباس: قيل / لهم: استغفروا، وقولوا ما يحطُّ ذُنُوبِكُمْ^(٧).

١٢٢

* ت *: قال أحمد بن نصر^(٨) الدَّأُوْدِي في «تفسيره»: «وَرَوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَارَ

(١) ينظر: «معاني القرآن» (١٦٥/٢).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٥٩/١١).

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٩/١) برقم (١٠٠٤).

(٤) أخرجه الطبري (٣٣٩/١) برقم (١٠٠٨)، والحاكم (٢٦٢/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في «الدُر» (١٣٨/١)، وعزاه لوكيع، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم.

(٥) قال الزجّاج: ولو قرئ «حِطَّة» كان وجهها في العربية، كأنهم قيل لهم: قولوا: احطط عنا ذُنُوبِنَا حِطَّة. معاني القرآن (١٣٩/١).

وقد فات الزجّاج أن إبراهيم بن أبي عبله قرأها بالنصب، كما في «المحرر الوجيز» (١٥٠/١)، و «البحر المحيط» (٣٨٤/١)، و «الدُر المصنوع» (٢٣٢/١)، و «الشواذ» لابن خالويه (ص ١٣).

(٦) أخرجه الطبري (٣٤٠/١) برقم (١٠١٦)، وذكره السيوطي في «الدُر» (١٣٨/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم. كلاهما عن عكرمة. وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٧/١)، بلفظ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

(٧) أخرجه الطبري (٣٤١/١) برقم (١٠١٧)، بلفظ: «أَمَرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا».

(٨) أحمد بن نصر، أبو حفص الداودي، فقيه مالكي. له كتاب «الأموال» في أحكام أموال المغانم والأراضي التي يتغلب عليها المسلمون.

ينظر: «الأعلام» (٢٦٤/١).

مَعَ أَصْحَابِهِ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ: قُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَالُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ، إِنَّهَا لِلْحِطَّةِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَقُولُوهَا» انتهى.

وحكي عن ابن مسعود وغيره؛ أنهم أمروا بالسُّجود، وأن يقولوا: حِطَّةٌ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَيَقُولُونَ: حِنْطَةُ حَبَّةٍ حَمْرَاءُ فِي شَعْرَةٍ، ويروى غير هذا من الألفاظ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ عِدَّةُ: المعنى: إذا غُفِرَتِ الخطايا بدخولكم وقولكم، زيدَ بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أُمِرَ، وقال: لا إله إلا الله، ف قيل: هم المراد بـ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ هنا.

وقوله تعالى: ﴿قَبِّلْ الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ الآية.

روي أنهم لما جاءوا الباب، دخلوا من قبل أدبارهم القَهْقَرَى، وفي الحديث: أنهم دَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وبدلوا، فقالوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وقيل: قالوا: حِنْطَةُ حَبَّةٍ حَمْرَاءُ فِي شَعْرَةٍ، وقيل: شعيرة، وحكى الطبري؛ أنهم قالوا: «هَطِي شَمَقَاتَا أَزْبَةً» وتفسيره ما تقدّم وفي اختصار الطبري، وعن مجاهد قال: أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سُجْدًا، ويقولوا: حِطَّةٌ، وَطُوطِيءَ لَهُمُ الْبَابُ؛ ليسجدوا، فلم يسجدوا، ودخلوا على أدبارهم، وقالوا: حِنْطَةُ^(١).

وذكر عز وجل فعل سلفهم؛ تنبيهاً أن تكذيبهم لمحمد ﷺ جَارٍ عَلَى طَرِيقِ سَلَفِهِمْ فِي خِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَسْتَخْفَافِهِمْ بِهِمْ، وَأَسْتَهْزَائِهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ. انتهى.

والرَّجَزُ الْعَذَابُ، قال ابن زيد وغيره: فبعث الله على الذين بدلوا الطاعونَ، فأذهب منهم سَبْعِينَ أَلْفًا، وقال ابن عباس^(٢): أَمَاتَ اللَّهُ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ نِيفًا عَلَى عَشْرِينَ أَلْفًا.

و ﴿أَسْتَسْقَى﴾: معناه: طلب السُّقْيَا، وَعُزْفُ «أَسْتَفْعَلَ» طَلَبُ الشَّيْءِ، وقد جاء في غير ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْنِي اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، وكان هذا الاستسقاء في فخص التيه، فأمره الله تعالى بضرب الحجر آيَةً مِنْهُ، وكان الْحَجَرُ من جبل الطور على قدر رأس

(١) أخرجه الطبري (٣٤٤/١) برقم (١٠٢٨)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٣٩/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٥/١) برقم (١٠٤١) بنحوه. وذكره الماوردي في «التفسير» (١٢٧/١) بنحوه.

الشاة، يلقي في كسر جَوَالِقٍ^(١)، ويرحل به، فإذا نزلوا وضع في وَسْطَ محلَّتْهم، وضربه موسى، وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحَجَر لكَثْرَتهم كانوا يجدونه في كلِّ مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآية، ولا خلاف أنه كان حجراً مربعاً منفصلاً تطرد من كلِّ جهة منه ثلاث عُيُون، إذا ضربه موسى، وإذا استغنوا عن الماء، ورحلوا، جفَّت العيون، وفي الكلام حذف؛ تقديره: فضربه، فأنفجرت، والانفجار: أنصداع شيء عن شيء؛ ومنه: الفَجْر، والانجاس في الماء أقلُّ من الانفجار.

و ﴿أَنَاسٌ﴾: اسم جمع، لا واحد له من لفظه، ومعناه هنا: كلُّ سَبِيْطٍ؛ لأن الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهم ذرية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام. وقوله سبحانه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ...﴾ الآية.

* ت * : رُوِيَنا من طريق أنس بن مالك عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» رواه مُسْلِمٌ، والترمذي، والنسائي^(٢). انتهى.

والمَشْرَبُ: موضع الشرب، وكان لكل سبيط عَيْنٌ من تلك العيون، لا يتعدها.

﴿وَلَا تَغْنُوا﴾: معناه: ولا تُفْرِطُوا في الفَسَادِ.

* ص ^(٣) * : ﴿مُفْسِدِينَ﴾: حال مؤكدة؛ لأن: «لَا تَغْنُوا»: معناه: / لا تفسدوا. ٢٢ ب انتهى.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدْ فَإِذْ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ

(١) الجَوَالِقُ والجَوَالِقُ: وعاء من الأوعية معروف معرب.

ينظر: «لسان العرب» (٦٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩٥/٤)، كتاب «الذكر والدعاء»، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث (٢٧٣٤/٨٩)، والترمذي (٢٦٥/٤)، كتاب «الأطعمة»، باب ما جاء في الحمد على الطعام إذا فرغ منه، حديث (١٨١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٢٠٢/٤) كتاب «الدعاء بعد الأكل»، باب ثواب الحمد لله، حديث (٦٨٩٩)، وأحمد (١٠٠/٣)، (١١٧)، وأخرجه أيضاً الترمذي في «الشمائل»، رقم (١٩٥)، والبخاري في «شرح السنة» (٣/٦٥ - بتحقيقنا)، كلهم من طريق زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ولا نعرفه إلا من حديث زكريا بن أبي زائدة.

(٣) «المجيد» (ص ٢٧١).

بِقَلْبِهَا وَقَفَّابِهَا وَفُومِهَا وَوَعْدِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ سَيِّئٌ أَهْبَطُوا
 مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَصُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالسَّكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابِ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَانُوا
 يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتْ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْبَنِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
 مَّا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
 وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ...﴾ الآية: كان هذا
 القول منهم في التيه حين ملؤوا المَنَّ والسَّلْوَى، وتذكروا عيشهم الأول بمِصْرَ، قال ابن
 عَبَّاس وأكثَرُ المفسرين: الفُومُ: الحِنْطَةُ^(١)، وقال قتادة، وعطاء: الفوم: جميع الحبوب
 التي يمكن أن تختبئ^(٢)، وقال الضحَّاك: الفوم: الثوم، وهي قراءة عبد الله بن مسعود،
 وروي ذلك عن ابن عَبَّاس^(٣)، والثاء تُبْدَلُ من الفاء؛ كما قالوا: مَغَايِرُ وَمَغَايِرُ^(٤).

* ت * : قال أحمد بن نصر الداوودي: وهذا القول أشبه لما ذكر معه، أي: من
 العَدَسِ والبَصَلِ. انتهى.

و﴿أَذْنَى﴾: قال علي بن سليمان الأَخْفَشُ^(٥). مأخوذ من الدَّيْنِ البَيْنِ الدَّناءة؛ بمعنى:

(١) أخرجه الطبري (٣٥٢/١) برقم (١٠٧٦) قال أحمد شاكر: «ابن كريب» ضعيف، وقد بين القول في
 ضعفه في «شرح المسند» (٢٥٧١). وأبوه كريب بن أبي مسلم «تابعي ثقة» اهـ.
 وذكره السيوطي في «الدر» (١٤١/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي
 حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٣٥١/١) برقم (١٠٧١) عن قتادة.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (١٤١/١) عن ابن عباس بنحوه، وعزاه لابن أبي حاتم. وذكره في موضع آخر
 عن ابن عباس بلفظ «قراءتي قراءة زيد، وأنا أخذ بيضة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود هذا أحدها: «من
 بقلها وقثائها وثومها» وعزاه في هذا الموضوع لابن أبي داود.

(٤) المغاير: صمغ شبيه بالناطف ينضح العرط والرمث. الواحد مغفور ومغثور.
 ينظر: «لسان العرب» (٣٢٧٥).

(٥) علي بن سليمان بن الفضل، أبو المحاسن، المعروف بـ «الأخفش الأصغر»: نحوي، من العلماء. من
 أهل بغداد، أقام بـ «مصر» سنة (٢٨٧-٣٠٠هـ)، وخرج إلى «حلب»، ثم عاد إلى «بغداد»، وتوفي بها
 وهو ابن ٨٠ سنة. له تصانيف، منها: «شرح سيبويه»، و «الأنواء»، و «المهذب»، وكان ابن الرومي
 مكثراً من هجوه. توفي سنة (٣١٥هـ).

انظر: «بغية الوعاة» (٣٣٨)، و «وفيات الأعيان» (١: ٣٣٢)، و «الأعلام» (٤/ ٢٩١).

الْأَخْسَ، إِلَّا أَنَّهُ حُفِّقَتْ هِمَزَتُهُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الدُّونِ، أَيُّ: الْأَحْطُ فَأَصْلُهُ أَذَوْنٌ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: ائْتَسِبِدُلُونِ الْبَقْلَ، وَالْقَيْثَاءَ، وَالْقُومَ، وَالْعَدَسَ، وَالْبَصَلَ الَّتِي هِيَ أَذْنَى بِالْمَنْ وَالسَّلْوَى الَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

وجمهور النَّاسِ يقرءون «مِصْرًا» بالتَّنوين^(١)، قَالَ مجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: أَرَادَ مِصْرًا مِنْ الْأَمْصَارِ غَيْرِ مَعِينٍ^(٢)، وَاسْتَدْلُوا بِمَا اقْتَضَاهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِمْ؛ بِدُخُولِ الْقَرْيَةِ، وَبِمَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ؛ أَنَّهُمْ سَكَنُوا الشَّامَ بَعْدَ التَّيَّةِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: أَرَادَ مِصْرَ فِرْعَوْنَ بَعِينَهَا، وَاسْتَدْلُوا بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ أَوْزَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ دِيَارَ آلِ فِرْعَوْنَ وَأَثَارَهُمْ، قَالَ فِي «مَخْتَصَرِ الطَّبْرِيِّ»: وَعَلَى أَنَّ الْمَرَادَ مِصْرَ الَّتِي خَرَجُوا مِنْهَا، فَالْمَعْنَى: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُونَ كَانَ فِي الْبَلَدِ الَّذِي كَانَ فِيهِ عَذَابُكُمْ، وَاسْتِعْبَادُكُمْ، وَأَسْرَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُمْ مُذْ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ، لَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ يقتضي أَنَّهُ وَكَلَّهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾^(٣) معناه: أَلْزَمُوها؛ كَمَا قَالَتِ الْعَرَبُ: ضَرْبَةُ لَازِبٍ، وَبَاءٌ وَبَغْضَبٍ: معناه: مَرَوْا مَتَحَمِّلِينَ لَهُ، قَالَ الطَّبْرِيُّ: بَاءُوا بِهِ، أَيُّ: رَجَعُوا بِهِ، وَاحْتَمَلُوهُ، وَلَا بَدَأَ أَنْ يُوَصَلَ بَاءٌ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ. انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الإشارةُ بِـ ﴿ذَلِكَ﴾ إِلَى ضَرْبِ الذِّلَّةِ وَمَا بَعْدَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تَعْظِيمٌ

(١) وقرأ «مصر» بغير تنوين في هذه الآية الأعمش، كما في مختصر الشواذ لابن خالويه (ص ١٤). كما قرأ بها طلحة بن مصرف والحسن وأبان بن تغلب، وقيل: هي كذلك في مصحف أبي بن كعب ومصحف عبد الله وبعض مصاحف عثمان. كما في «البحر المحيط» (١/ ٣٩٦-٣٩٧)، و«الدر المصون» (١/ ٢٤١).

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٣٥٤) برقم (١٠٨٥) بلفظ: «مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ» اهـ.

(٣) قوله تعالى: ﴿الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ يعني: فقر النفس. قال السمين الحلبي: والمراد بها هنا الجزية والصغار. «عمدة الحفاظ» (٢/ ٢٣٩). وقال الحسن وقتادة: «ضربت عليهم الذلة» هي أنهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وقال عطاء بن السائب: هي الكُسْتَيْنَج (لبس اليهود) وزبي اليهودية، و«المسكنة»: زبي الفقر، فترى المثري منهم يتبأس مخافة أن يضاعف عليه الجزية، ولا يوجد يهودي غني النفس.

ينظر: «الوسيط» (١/ ١٤٧)، و«الطبري» (٢/ ١٣٧)، و«البغوي» (١/ ٦٦)، و«ابن كثير» (١/ ١٠٢)، و«الدر المثور» (١/ ٧٣).

للشنعة^(١)، والدَّئِب، ولم يجرم نبي قط ما يوجب قتله، وإنما التسليط عليهم بالقتل كرامة لهم، وزيادة لهم في منازلهم صلى الله عليهم؛ كَمَثَلٍ مَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، والباء في «يَمًا» باء السبب.

و «يَعْتَدُونَ»: معناه: يتجاوزون الحدود، والاعتداء هو تجاوز الحد.

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ...» الآية.

اختلف في المراد بـ «الَّذِينَ آمَنُوا» في هذه الآية.

فقال فرقة: الذين آمنوا هم المؤمنون حقاً بنبينا محمد ﷺ، وقوله: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» يكون فيهم بمعنى مَنْ ثَبَّتَ وَدَامَ، وفي سائر الفرق: بمعنى: مَنْ دَخَلَ فِيهِ، وقال السُّدِّي: هم أهل الحنيفية مَنْ لم يلحق محمداً ﷺ، والذين هادوا، ومن عطف عليهم كذلك مَنْ لم يلحق محمداً ﷺ، «والذين هادوا» هم اليهود، وسُموا بذلك؛ لقولهم: «هَذَا إِلَيْكَ» [الأعراف: ١٥٦]، أي: تبنا، «والنصارى» لفظة مشتقة من / التَّضَرِ. ١٢٣

قال * ص^(٢): «وَالصَّابِئِينَ»: قرأ الأكثر بالهمز؛ صَبَاً النَّجْمُ، والسَّنُّ، إذا خرج، أي: خَرَجُوا من دين مشهور إلى غيره، وقرأ نافع^(٣) بغير همز، فيحتمل أن يكون من التهموز المُسَهَّل، فيكون بمعنى الأول، ويحتمل أن يكون مِنْ صَبَاً غَيْرَ مَهْمُوزٍ، أي: مَالٍ؛ ومنه: [الهمز]

إِلَى هِنْدٍ صَبَاً قَلْبِي وَهِنْدٌ مِثْلَهَا يُضْبِي^(٤)
انتهى.

قال * ع^(٥): «وَالصَّابِئِيُّ» في اللغة: من خرج من دين إلى دين.

وأما المشار إليهم في قوله تعالى: «وَالصَّابِئِينَ» فقال السدي: هم فرقة من أهل

(١) الشُّنْعَةُ: الاسم من الشناعة، وشَنَعَ الأمر أو الشيء شناعةً وشَنَعاً وشُنُوعاً وشُنُوعاً: قَبَحَ. ينظر: «لسان العرب» (٢٣٣٩).

(٢) «المجيد» (ص ٢٨٠).

(٣) ينظر: «السبعة» (١٥٧)، و «الحجة للقراء السبعة» (٩٤/٢)، و «حجة القراءات» (١٠٠)، و «شرح شملة» (٢٦٥)، و «تحاف فضلاء البشر» (٣٩٦/١).

(٤) البيت لزيد بن ضبة، وهي في «اللسان» صبا.

(٥) «المحرر الوجيز» (١٥٧/١).

الكتاب^(١)، وقال مجاهد: هم قوم لا دين لهم^(٢)، وقال ابن جريج^(٣): هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية^(٤)، وقال ابن زيد: هم قوم يقولون لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب كانوا بجزيرة الموصيل^(٥)، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون الخمس إلى القبلة، ويقرءون الزبور رآهم زياد بن أبي سفيان^(٦)، فأراد وضع الجزية عنهم حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة^(٧).

وقوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الطور...﴾ الآية: ﴿الطور﴾: اسم الجبل الذي نوحى موسى عليه السلام عليه. قاله ابن عباس^(٨)، وقال مجاهد وغيره: ﴿الطور﴾: اسم لكل جبل^(٩)، وقصص هذه الآية أن موسى عليه السلام، لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح، فيها التوراة، قال لهم: خذوها، وألتزموها، فقالوا: لا، إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أخبوا، فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا، فأمر الله الملائكة، فأقتلعت جبلاً من جبال فلسطين^(١٠) طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان

(١) أخرجه الطبري (٣٦١/١) برقم (١١١٢)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٤٦/١)، وعزاه لوكيع.
(٢) أخرجه الطبري (٣٦٠/١) برقم (١١٠١) بنحوه، وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٤٧/١)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٤٥/١)، وعزاه لوكيع، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، مولاهم، أبو الوليد، وأبو خالد المكي، الفقيه، أحد الأعلام. عن ابن أبي مليكة، وعكرمة مرسلاً، وعن طاوس مسألة، ومجاهد، ونافع، وخلق، وعنه يحيى بن سعيد الأنصاري أكبر منه، والأوزاعي، والسفيانان، وخلق. قال أبو نعيم: مات سنة خمسين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (١٢/٢)، «تهذيب التهذيب» (٤٠٢/٦)، «تهذيب الكمال» (١٧٨/٢)، «الكاشف» (٢١٠/٢)، «الثقات» (٩٣/٧).

(٤) أخرجه الطبري (٣٦٠/١) برقم (١١٠٧).
(٥) أخرجه الطبري (٣٦٠/١) برقم (١١٠٨).
(٦) زياد بن أبيه، وأبيه أبو سفيان، أمير من الدهاة، القادة الفاتحين، الولاة من أهل «الطائف» أدرك النبي ﷺ ولم يره، وأسلم في عهد أبي بكر، ولد في (هـ) ١ قال الشعبي: ما رأيت أحداً أخطب من زياد، توفي في (هـ) ٥٣.

ينظر: «ميزان الاعتدال» (٣٥٥: ١)، «الأعلام» (٥٣/٣).

(٧) أخرجه الطبري (٣٦١/١) برقم (١١٠٩)، (١١١٠) عن الحسن وقتادة.

(٨) أخرجه الطبري (١/ ٣٦٦-٣٦٧) برقم (١١٢٥).

(٩) أخرجه الطبري (٣٦٦/١) برقم (١١١٨)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٤٦/١)، وعزاه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(١٠) فلسطين: آخر كور «الشام» من ناحية «مصر»، قصبها «بيت المقدس»، ومن مشهور مدنها «عسقلان»، =

عَسَّكَرَهُمْ، فجعل عليهم مثل الظَّلَّةِ، وأخرج الله تعالى الْبَخْرَ من ورائهم، وأضرم ناراً من بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم: خذوها، وعليكم الميثاق، ولا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وأغرقكم الْبَخْرُ، وأحرقكم النار، فَسَجَدُوا؛ توبةً لله سبحانه، وأخذوا التوراة بالميثاق، قال الطبري عن بعض العلماء: لو أخذوها أول مرة، لم يكن عليهم ميثاق، وكانت سجدهم على شق؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل؛ خوفاً، فلما رحمهم الله سبحانه، قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله، وَرَجِمَ بها، فَأَمَرُوا سَجُودَهُمْ عَلَى شِقِّ واحدٍ.

قال * ع^(١) *: والذي لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان في قلوبهم، لا أنهم آمنوا كُرْهاً، وقلوبهم غير مطمئنة، قال: وقد اختصرت ما سرد في قصص هذه الآية، وقصدت أصحّه الذي تقتضيه ألفاظ الآية، وخلط بغض الناس صَعَقَةَ هذه القصة بصَعَقَةِ السبعين.

وَ «بِقُوَّةٍ»: قال ابن عباس: معناه: بجِدِّ وَاجْتِهَادٍ^(٢).

وقال ابن زيد: معناه: بتصديق وتحقيق^(٣).

﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي: تدبروه واحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه، ولا تضيعوه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ...﴾ الآية: تَوَلَّى: أصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور، والأديان، والمعتقدات؛ اتساعاً ومجازاً، وَتَوَلَّيْتُمْ من بعد ذلك: إما بالمعاصي، فكان فضل الله بالتوبة والإمهال إليها، وإما أن يكون تَوَلَّيْتُمْ بالكفر، فلم يعاجلهم سبحانه بالهلاك؛ لِيَكُونَ من ذريتهم من يؤمن.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ فَعَلَّانَهَا

= و «الرملة»، و «غزة»، و «أرسوف»، و «قيسارية»، و «نابلس»، و «أريحا»، و «عمان» و «يافا»، و «بيت جبرين»، وهي أول أجناد «الشام»، أولها من ناحية الغرب «رفح» وآخرها «اللجون» من ناحية الغور.

ينظر: «مراصد الاطلاع» (١٠٤٢/٣).

(١) «المحرر الوجيز» (١٥٩/١).

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٧/١) برقم (١١٣١) عن السدي، وذكره السيوطي في «الدر» (١٤٦/١) وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٨/١) برقم (١١٣٢) بلفظ: «خذوا الكتاب الذي جاء به موسى بصدق وبحق».

نَكَلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت...﴾ الآية: علمتم: معناه: عرفتكم، والسَّبْتُ مأخوذٌ من السُّبُوت الَّذِي هو الراحة والدَّعة، وإما من السبت، وهو القَطْع؛ لأن الأشياء فيه سَبَتْ وتَمَّت خَلَقْتُهَا، وقِصَّةُ أَعْدَائِهِمْ فيه/ أن الله عز وجل أمر ٢٣ ب موسى عليه السلام بيوم الجمعة، وعرفه فضله، كما أمر به سائر الأنبياء صلوات الله عليهم، فذكر موسى ذلك لبني إسرائيل عن الله سبحانه، وأمرهم بالتشريع فيه، فأبوا وتعذَّوه إلى يوم السبت، فأوحى الله إلى موسى: أن دَعِهم، وما اختاروا من ذلك، وامتنحهم بأن أمرهم بترك العمل فيه، وحَرِّم عليهم صَيَدَ الْحَيَاتَانِ، وشَدَّد عليهم المِحْنَةَ؛ بأن كانت الْحَيَاتَانِ تأتي يوم السبت؛ حتى تخرج إلى الأفنية، قاله الحسن بن أبي الحسن.

وقيل حتى تخرج خراطيمها من الماء، وذلك إما بإلهام من الله تعالى، أو بأمر لا يعلل، وإما بأن ألهما معنى الأَمْنَةِ التي في اليوم، مع تكراره؛ كما فهِم حمام مَكَّة الأَمْنَةَ، وكان أمر بني إسرائيل بِأَيْلَةٍ^(١) على البحر، فإذا ذهب السبت، ذهب الحيتان، فلم تظهر إلى السبت الآخر، فبقوا على ذلك زماناً؛ حتى اشتَهَوْا الحُوتَ، فَعَمَدَ رَجُلٌ يوم السبت، فربط حوتاً بخزمة^(٢)، وضرب له وِتْدًا بالساحل، فلما ذهب السبت، جاء، فأخذه، فسمع قومٌ بفعله، فصنعوا مثل ما صنع.

وقيل: بل حفر رجلٌ في غير السبت حَفِيرًا يخرج إليه البحر، فإذا كان يوم السبت، خرج الحوت، وحصل في الحفير، فإذا جزر البحر، ذهب الماء من طريق الحفير، وبقي الحوت، فجاء بعد السبت، فأخذه، ففعل قومٌ مثل فعله، وكَثُرَ ذلك؛ حتى صادوه يوم السبت علانية، وباعوه في الأسواق، فكان هذا من أعظم الاعتداء، وكانت من بني إسرائيل فرقةٌ نهَتْ عن ذلك، فنَجَتْ من العقوبة، وكانت منهم فرقةٌ لم تَغْصِرْ، ولم تَنْهَ، فقيل: نجت مع الناهين، وقيل: هَلَكْتَ مع العصاة.

وَ ﴿كُونُوا﴾: لفظةٌ أمر، وهو أمر التكوين؛ كقوله تعالى لكل شيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] قال ابن الحاجب^(٣).....

(١) أَيْلَة: مدينة على ساحل بحر «القلزم» مما يلي «الشام». قيل: هي آخر الحجاز وأول «الشام». وهي مدينة اليهود، الذين اعتدوا في السبت. ينظر: «مراصد الاطلاع» (١/ ١٣٨).

(٢) الخَزَم: شجر له ليف تتخذ من لحائه الحبال، الواحدة خَزَمَةٌ. ينظر: «لسان العرب» (١١٥٣).

(٣) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو، جمال الدين ابن الحاجب: فقيه مالكي، من كبار =

ففي مختصره الكبير المسمى بـ «منتهى الوصول»^(١) : صيغة: أَفْعَلْ، وما في معناها قد صَحَّ إطلاقها بإزاء خمسة عشر محملاً.

الوجوب: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [الإسراء: ٧٨] والنَّذْبُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور: ٣٣].

والإرشاد: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والإِباحَةُ: ﴿فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢].

والتأديب: «كُلِّ مِمَّا يَلِيكَ». والامتنان: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

والإكرام: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [ق: ٣٤] والتَّهْدِيدُ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] والإنذار: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ [إبراهيم: ٣٠] والتسخير: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ [الأعراف: ١٦٦] والإِهانة: ﴿كُونُوا حِجَارَةً﴾ [الإسراء: ٥٠] والتَّسْوِيَةُ: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: ١٦] والدعاء: ﴿أَغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] والتمني: [الطويل]:

..... أَلَا أُنْجِـبُـي

وكمال القدرة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. انتهى.

وزاد غيره كونهما للتعجيز، أعني: صيغة «أَفْعَلْ».

قال ابن الحاجب: وقد اتفق على أنها مجازٌ فيما عدا الوجوب والنَّذْبُ والإِباحَةُ والتَّهْدِيدُ، ثم الجمهورُ على أنها حقيقةٌ في الوجوب^(٣). انتهى.

= العلماء بالعربية، كردي الأصل. ولد في «أسنا» (من صعيد مصر) ونشأ في «القاهرة»، وسكن «دمشق»، وكان أبوه حاجباً، فعرّف به، له تصانيف كثيرة منها: «الكافية» في النحو، و «الشافية» في الصرف. ولد سنة (٥٧٠هـ)، وتوفي سنة (٦٤٦هـ).

ينظر: «وفيات» (٣١٤: ١)، «الطالع السعيد» (١٨٨)، «مفتاح السعادة» (١: ١١٧)، «غاية النهاية» (١: ٥٠٨)، «الأعلام» (٤/ ٢١١).

(١) ينظر: «البرهان» (١/ ٢١٢)، «المحصول» (١/ ٢/ ٦٢)، «الأحكام» للآمدي (١/ ١٢٢)، «المستصفى» (١/ ٤٢٠)، «التمهيد» للأسنوي (٢٦٩)، «المنحول» (١٠٥)، «شرح العضد» (٢/ ٧٩)، «شرح الكوكب» (٢/ ٤١)، «المعتمد» (١/ ٥٧)، «التبصرة» (٢٧)، «كشف الأسرار» (١/ ١٠٧)، «حاشية البنانى» (١/ ٣١٦)، «فوائح الرحموت» (١/ ٣٧٢)، «تيسير التحرير» (١/ ٣٥١)، «أصول السرخسي» (١/ ١٥)، «الوصول إلى الأصول» (١/ ١٣٣)، «تقريب الوصول» (٩٣)، «ميزان الأصول» (١/ ٢١٧).
(٢) البيت لامرئ القيس في ديوانه ص (١٨)؛ و «الأزهيّة» ص (٢٧١)؛ و «خزانة الأدب» (٢/ ٣٢٦، ٣٢٧)؛ و «سر صناعة الإعراب» (٢/ ٥١٣)، و «لسان العرب» (١١/ ٣٦١) (شلل)؛ و «المقاصد النحويّة» (٤/ ٣١٧)؛ وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (٤/ ٩٣)؛ و «جواهر الأدب» ص (٧٨)؛ و «رصف المباني» ص (٧٩)؛ و «شرح الأشموني» (٢/ ٤٩٣).

(٣) ولطلب الفعل صيغَ مُخْتَلَفَةً نُورِدَهَا فيما يلي:

و ﴿خَاسِيَيْنَ﴾: معناه: مُعَدِّينَ أَذْلَاءَ صَاغِرِينَ؛ كما يقال للكلب، وللمطرود: أَخْسَأُ، وروي في قصصهم؛ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَسَخَ الْعَاصِيْنَ قَرْدَةً فِي اللَّيْلِ، فَأَصْبَحَ النَّاجُونَ

= ١ - فَعُلُ الْأَمْرِ: وذلك بصيغته المعروفة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٧٨].

٢ - صِيغَةُ الْمُضَارِعِ الْمُفْتَرِنِ بِـ «لَامِ الْأَمْرِ» مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومثل: ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

ومثل: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧].

٣ - صيغة المَصْدَرِ القائم مقام فعل الأمر: مثل قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

٤ - جملة خبرية يراد بها الطلب: مثل قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

إذ ليس المراد من هذا النص الإخبار عن حصول الإرضاع من الوالدات لأولادهن، وإنما المراد هو أمر الوالدات بإرضاع أولادهن، وطلب إيجادهن.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

فإن الظاهر من هذه الآية أنها للتحذير، وإنما المراد بها أمر المؤمنين ألا يُمَكِّنُوا الكافرين من التجبر عليهم، والتكبر بأية صفة كانت.

ومثل قوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان: «لَا تُنْكَحُ الْبُكَرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ».

وقد اتفق الأصوليون على أَنَّ صِيغَةَ الْأَمْرِ تُسْتَعْمَلُ فِي مدلولات كثيرة، لكن لا تدلُّ على وَاحِدٍ من هذه المدلولات بعينه إلا بقرينة، وهذه المدلولات هي كما ذكرها المصنف رحمه الله.

وقد اختلفت آراء العلماء في تعدد هذه الصيغ زيادةً، ونقصاً، وسبب ذلك تداخل هذه الصيغ مع بعضها، واختلاف وجهات النظر في المعنى، وفي القرينة التي تحدّد وجه الاستعمال.

واتسعت دائرة الاختلاف بين العلماء والأصوليين فيما يدلُّ عليه الأمر حقيقة؛ حيث إنَّ دَوْرَانَ الْأَمْرِ على أَوْجِهٍ كثيرة - كَمَا سَبَقَ - لا يدلُّ على أَنَّهُ حقيقة في كلِّ منها.

فإذا وَرَدَ أمر من الأوامر في القرآن الكريم، أو في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، فهل يُعْتَبَرُ هذا الأمر دالاً على الوجوب؟ أم التَّذْبِ؟ أم الإباحة؟ أم لمعنى آخر؟

إن خصوصية التعجيز، والتحقير، والتسخير... وغير هذه المعاني غير مُستَفَادٍ من مجرد صيغة الأمر، بل إنَّما تفهم هذه المعاني من القرائن، وعليه فلا خلاف في أَنَّ صِيغَةَ الْأَمْرِ ليست حَقِيقَةً في جميع الوجوه السابقة.

وللعلماء آراء مُتَعَدِّدة في دلالة الصيغة على الوجوب، أو على التذنب، أو على غيرهما، فقد اتفق العلماء على أَنَّ صِيغَةَ الْأَمْرِ لا تدلُّ على أي معنى من المعاني المتقدمة إلا بقرينة، كما قلنا سابقاً.

وقد اختلفوا فيما إذا تَجَرَّدَتْ هذه الصيغة عن القرينة، فهل تدل على الوجوب؟ أم على التذنب؟ أم على الإباحة؟

المذهب الأول: وهو لجمهور العلماء؛ حيث ذهبوا إلى أَنَّ صِيغَةَ «افعل» تدلُّ على الوجوب حقيقة، =

إلى مساجدِهِمْ، ومجمعاتِهِمْ، فلم يروا أحداً من الهالكينَ، فقالوا: إن للنَّاسَ لشأناً، ففتحو عليهم الأبوابَ لما كانت مغلقةً بالليل، فوجدوهم قردةً يعرفون الرجلَ والمرأةَ.

وقيل: إن الناجينَ كانوا قد قسموا بينهم وبين العاصين القريةَ جدارٍ؛ تبرّياً منهم، فأصبحوا، ولم تفتح مدينةُ الهالكينَ، فتسوّروا عليهم الجدارَ، فإذا هم قردةٌ يثبُّ بعضهم على بعضٍ/.

وروي عن النبي ﷺ، وثبت أن المُسُوخَ لا تنسل، ولا تأكل، ولا تشرب، ولا تعيش أكثرَ من ثلاثة أيامٍ^(١)، ووقع في كتاب مسلمٍ عنه ﷺ «أن أمةً من الأممِ فُقدت، وأراها

= مجازاً فيما سواه، أي: في الذُّب والإباحة، وسائر المعاني المستعملة فيها الصيغة، وهذا مذهبُ الشافعي، واختاره ابن الحاجب في «المختصر»، والبيضاوي في «المنهاج». المذهبُ الثاني: ويُغزى لأبي هاشم الجُبَّائي، وهو وَجْهٌ عند الشافعية؛ حيث ذهبوا إلى أن صيغةَ الأمرِ حَقِيقَةٌ في الندب، مجازٌ فيما سواه.

المذهبُ الثالثُ: يرى أن صيغةَ الأمرِ حَقِيقَةٌ في الإباحة، وهو التخيير بين الفعل والتَّرك، فهي لَا تَدُلُّ إلا على الجواز حَقِيقَةً؛ لأنه هو المتيقن، فعند خُلُوه عن القرينة يكون حَقِيقَةً في الإباحة، مجازاً فيما سواه.

المذهبُ الرابعُ: ويُغزى لِلْمَاتَرِيدِيِّ؛ حيث يرى أن صيغةَ الأمرِ حَقِيقَةٌ في القَدْرِ المشترك بين الوجوبِ والندب، وهو الطَّلَبُ؛ لأن كلا من الوجوبِ والندب طَلَبٌ، ويزاد قيد الجَزْمِ في جانب الوجوب؛ لأنه الطلب الجازم، والندب غير جازم.

المذهبُ الخامسُ: وفيه تكون صيغةُ الأمرِ مشتركة بين الوجوبِ والذُّب اشتراكاً لَفْظِيّاً.

المذهبُ السادسُ: يرى أن صيغةَ الأمرِ مُشْتَرَكَةٌ بين الوجوبِ، والذُّب، والإباحة.

المذهبُ السابعُ: يرى أن صيغةَ الأمرِ حَقِيقَةٌ في القَدْرِ المشترك بين هذه الأنواع الثلاثة، وهو الإِذْنُ. نصُّ عليه أَبُو عَمْرٍو بن الحاجب.

المذهبُ الثامنُ: وإليه ذهبَ القاضي أبو بكر الباقلائي، والغزالي، والآمدي؛ حيث كانوا يَتَوَقَّفُونَ عن القولِ بأن الصيغة تَدُلُّ على الوجوب، أو على الندب؛ لأن الصيغةَ استعملت في الوجوبِ تارةً، وفي الذُّبِ أخرى، فقالوا بالتوقُّفِ.

قال الآمدي: ومنهم من تَوَقَّفَ، وهو مذهبُ الأشعري (رحمه الله تعالى) ومن تبعه من أصحابه؛ كالقاضي أبي بَكْرٍ، والغزالي، وغيرهما، وهو الأصح.

المذهبُ التاسعُ: يرى أن صيغةَ الأمرِ مشتركة بين الوجوبِ، والندب، والإباحة، والإرشاد، والتهديد. وقيل: صيغةُ الأمرِ مشتركة بين الوجوبِ، والذُّب، والتَّحْرِيمِ، والكراهة، والإباحة؛ فهي مشتركة بين الأحكام الخمسة، ووجه دلالة الصيغة على التَّحْرِيمِ والكراهة؛ فإنها تستعمل في التَّهْدِيدِ، وهو يستلزم تَرْكَ الفِعْلِ المَهْدَدِ عليه، وهو إما محرم، أو مَكْرُوه.

ينظر: «الإحكام» للآمدي (٩/٢)، و «التيسير شرح التحرير» (٤٩/٢).

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٤٧/١) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

الفأر»، وظاهر هذا أن المسوخ تنسل، فإن كان أراد هذا، فهو ظنٌ منه ﷺ في أمر لا مدخل له في التبليغ، ثم أوحى إليه بعد ذلك،؛ أن المسوخ لا تنسل؛ ونظير ما قلناه نزوله ﷺ على مياهٍ يذُر وأمره بأطراح تذكير النخل، وقد قال ﷺ: إذا أخبرتكم عن الله تعالى، فهو كما أخبرتكم، وإذا أخبرتكم برأبي في أمور الدنيا، فإنما أنا بشرٌ مثلكم، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ يحتملُ عوده على المسخة والعقوبة، ويحتمل على الأمة التي مُسِخَتْ، ويحتمل على القردة، ويحتمل على القرية؛ إذ معنى الكلام يقتضيها، والثكال: الزجرُ بالعقاب، و﴿لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَّهَا﴾. قال السُّدِّي: ما بين يدي المسخة ما قبلها من ذنوب القوم، وما خلفها لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب^(١)، وقال غيره: ما بين يديها من حضرها من الناجين، وما خلفها، أي: لمن يجيء بعدها^(٢)، وقال ابن عباس: لما بين يديها وما خلفها من القرى^(٣).

﴿وَمَوْعِظَةً﴾: من الانتعاض، والازدجار، و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: معناه: الذين نهوا ونَجُوا، وقالت فرقة: معناه: لأمة محمد ﷺ، واللفظ يَعُمُّ كُلُّ مُتَّقٍ من كُلِّ أُمَّة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَجِدُا هَؤُلَاءِ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَتْ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكْرُ عَوَاءٌ يَبْكُ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَأُ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النُّظُرَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ...﴾ الآية: المراد تذكيرهم بنقض سلفهم للميثاق، وسبب هذه القصة على ما روي أن رجلاً من بني إسرائيل أسن، وكان له مال، فاستبطأ ابن أخيه موته، وقيل: أخوه، وقيل: ابنا عمه، وقيل: ورثة غير معينين، فقتله؛ ليرثه، وألقاه في سبط آخر غير سبطه؛ لياخذ ديتة، ويلطخهم بدمه.

(١) ذكره ابن عطية في «التفسير» (١/١٦١)، والماوردي (١/١٣٦).

(٢) ذكره ابن عطية في «التفسير» (١/١٦١).

(٣) ذكره ابن عطية (١/١٦١)، وقد رجح هذا الخبر الذي رواه ابن عباس.

وقيل: كانت بنو إسرائيل في قريتين متجاورتين، فالتقاء إلى باب إحدى القريتين، وهي التي لم يُقتل فيها، ثم جعل يطلبه هو وسبطه؛ حتى وجده قتيلاً، فتعلق بالسبط، أو بسكان المدينة التي وجد القتل عندها، فأنكروا قتله، فوقع بين بني إسرائيل في ذلك لحاء^(١)؛ حتى دخلوا في السلاح، فقال أهل التَّهْي، منهم: أَتَقْتَلُ وَرَسُولُ اللَّهِ معنا، فذهبوا إلى موسى عليه السلام، فقصوا عليه القصة، وسألوه البيان، فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة، فَيُضْرَبَ القَتِيلَ ببعضها، فَيَحْيَى وَيُخْبِرُ بقاتله، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فكان جوابهم أن ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزْوَاً﴾ وهذا القول منهم ظاهره فساد اعتقاد مَن قاله، ولا يصح إيمان من يقول لِنبي قد ظهرت معجزته، وقال: إن الله يأمر بكذا: اتَّخَذْنَا هُزْوَاً، ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي ﷺ، لوجب تكفيره.

وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلط الطبع والجفاء، وقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: أحدهما: الاستعاذة من الجهل في أن يخبر عن الله تعالى مستهزئاً.

والآخر: من الجهل؛ كما جهلوا في قولهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَذُغَ لَنَا رَبِّكَ/...﴾ الآية: هذا تعنيث منهم، وقلة طواعية، ولو امتثلوا الأمر، فاستعرضوا بقرة فذبحوها، لَقَضُوا ما أمروا به، ولكن شددوا، فشدد الله عليهم؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢).

والفارض: المسنة الهرمة، والبكر؛ من البقر: التي لم تلد من الصغر، ورفعت «عَوَان» على خبر ابتداء مضمر، تقديره: هي عَوَان، والعَوَان التي قد وَلَدَتْ مرّة بعد مرّة.

قال * م * : قال الجوهري^(٣): والعَوَان: النَّصْفُ في سنّها من كل شيء، والجمع عَوْنٌ. انتهى.

(١) اللِّحَاء - ممدود -: المُلَاحَاة كَالسَّبَابِ، ولاحى الرَّجُلَ مِلَاحَاةً وَلِحَاءً: شاتمته. ولاحيته ملاحاة ولحاء: إذا نازعته. ينظر: «لسان العرب» (٤٠١٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣٨٩/١) برقم (١٢٣٩)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٥١/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم. كلاهما عن ابن عباس.

(٣) إسماعيل بن حماد الجوهري، كان من أعاجيب الزمان ذكاء، وفطنة، وعلماً، كان إماماً في اللغة والأدب، قرأ على ابن علي الفارسي، والسيرافي. له: «الصحيح»، و «مقدمة في النحو»، مات سنة ٣٩٣هـ.

ينظر: «البيغة» (١/٤٤٦، ٤٤٧).

* ت *: قال الشيخ زين الدين عبد الرحيم بن حُسَيْنِ الْعِرَاقِيِّ^(١) في نظمه لغريب القرآن جمع أبي حيان: [الرجز]

مَعْنَى «عَوَان» نَصَفَ بَيْنَ الصُّعَزِ وَبَيْنَ مَا قَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الْكِبَرِ
وكل ما نقلته عن الْعِرَاقِيِّ منظوماً، فمن أرجوزته هذه.

وقوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ تجديد للأمر، وتأكيذ وتنبية على ترك التعنت، فما تركوه. قال ابن زَيْد: وجمهور الناس في قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾؛ أنها كانت كلها صفراء، وفي «مختصر الطبري»: ﴿فَاقِغْ لَوْنَهَا﴾ أي: صافٍ لونها. انتهى.

والفقوغ مختص بالصفرة؛ كما خص أحمر بقانيء، وأسود بحالك، وأبيضُ بناصع، وأخضرُ بناضير، قال ابن عباس وغيره: الصفرة تسر النفس، وسألوا بعد هذا كله عن ما هي سؤال متحيرين، قد أحسوا مقت المعصية^(٢).

وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابةً مأ، وانقياداً، ودليل ندم وجرص على موافقة الأمر. ورؤي عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْلَا مَا اسْتَنْتَوَا، مَا أَهْتَدَوْا إِلَيْهَا أَبَدًا»^(٣).

(١) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم، محدث الديار المصرية، ذو التصانيف المفيدة، زين الدين أبو الفضل، العراقي الأصل، الكردي. ولد سنة (٧٢٥)، أحب الحديث، وسمع كثيراً، وولع بتخريج أحاديث «الإحياء»، ورافق الزيلعي الحنفي، وكان مفرط الذكاء، أكثر الرحلة والسماع، أخذ عنه الهيثمي وغيره كابن حجر وبرهان الدين الحلبي، صنف «ألفية الحديث» وعمل نكتاً على ابن الصلاح، وشرع في تكملة شرح الترمذي تذيلاً على ابن سيد الناس. ت (٨٠٦).

ينظر: «طبقات ابن قاضي شهاب» (٢٩/٤)، «الضوء اللامع» (١٧١/٤)، «إنباء الغمر» (١٧٠/٥).

(٢) ذكره ابن عطية الأندلسي (١٦٣/١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٢٣/١)، رقم (٧٢٧)، والبخاري (٤٠٠٣)، وابن مردويه كما في «تفسير ابن كثير» (١١١/١)، كلهم من طريق عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْلَا أَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] لَمَا أُعْطُوا، وَلَكِنْ اسْتَنْتَوَا» وقال البخاري: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد. وقال الهيثمي في «المجمع» (٣١٩/٦): رواه البخاري، وفيه عباد بن منصور، وهو ضعيف، وبقي رجاله ثقات.

وقال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٠/١)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

وللحديث شاهد مرسل عن عكرمة.

ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٠/١)، وعزاه إلى سعيد بن منصور، والفرابي، وابن المنذر.

وقوله: ﴿لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، أي: غير مذللة بالعمل والرياضة، و﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ معناه: بالحرثة، وهي عند قوم جملة في موضع رفع على صفة البقرة، أي: لا ذلول مثيرة، وقال قوم: «تُثِيرُ» فعلٌ مستأنف والمعنى إيجاب الحرث، وأنها كانت تحرث، ولا تسقي، و﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: بناء مبالغة من السلامة؛ قال ابن عباس وغيره: معناه: من العيوب^(١)، وقال مجاهد: معناه: من الشَّيَاتِ والألوان^(٢)، وقيل: من العمل^(٣).

و﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾، أي: لا خلاف في لونها؛ هي صفراء كلها؛ قاله ابن زيد وغيره، والمَوْشَى المختلط الألوان، ومنه: وَشَى الثَّوبُ: تزيينه بالألوان، والثَّوْرُ الْأَشْيَةُ الذي فيه بلقة؛ يقال: فرس أبلق، وكبش أخرج، ونيس أبرق، وكلب أبقع، وثور أشيه؛ كل ذلك بمعنى البلقة.

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا، فشدد الله عليهم، ودين الله يُسر، والتعمق في سؤال الأنبياء مذموم، وقصة وجود هذه البقرة على ما روي؛ أن رجلاً من بني إسرائيل ولد له ابن، وكانت له عجلة، فأرسلها في غيضة^(٤)، وقال: اللهم، إني قد استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلما كبر الصبي، قالت له أمه: إن أباك كان قد استودع الله عجلة لك، فأذهب، فخذها، فلما رأته البقرة، جاءت إليه؛ حتى أخذ بقرتها، وكانت مستوحشة، فجعل يقودها نحو أمه، فلقية بنو إسرائيل، ووجدوا بقرته على الصفة التي أمروا بها، فلما وجدت البقرة، ساموا صاحبها، فأشتط عليهم، فأتوا به موسى عليه السلام وقالوا له: إن هذا اشتط علينا، فقال لهم موسى: أرضوه في ملكه. / فأشتروها منه بوزنها مرة؛ قاله عبيدة السلماني^(٥).

(١) أخرجه الطبري (١/ ٣٩٤-٣٩٥) برقم (١٢٦٢-١٢٦٣-١٢٦٤)، عن قتادة وأبي العالية، وذكره

السيوطي في «الدر» (١٥٢/١) عن أبي العالية، وعزاه لابن جرير.

(٢) ذكره ابن عطية الأندلسي (١/ ١٩٤).

(٣) ذكره ابن عطية الأندلسي (١/ ١٦٤).

(٤) الغيضة: الأجمة، وهي مغيض ماء يجتمع فينت فيه الشجر. ينظر: «لسان العرب» (٣٣٢٧).

(٥) أخرجه الطبري (١/ ٣٩٨) برقم (١٢٩٠) عن عبيدة السلماني من طريق محمد بن سيرين. كما أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٤٩/١).

وهو عبيدة بن عمرو السلماني، قبيلة من «مُرَاد». مات النبي ﷺ وهو في الطريق. عن علي، وابن مسعود. وعنه الشعبي، والنخعي، وابن سيرين. قال ابن عيينة: كان يوازي شريحاً في القضاء والعلم. قال أبو مسهر: مات سنة اثنتين وسبعين. وقال الترمذي: سنة ثلاث.

ينظر: «الخلاصة» (٢/ ٢٠٧)، «طبقات ابن سعد» (٦/ ٩٣)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٠)، «العبر» (١/ ٧٩)، و«التقريب» (١/ ٥٤٧).

وقيل: بوزنها مرتين^(١). وقيل: بوزنها عشر مرات^(٢)، وقال مجاهد: كانت لرجل يبرأ أمه، وأخذت منه بملء جلدتها دنائير^(٣).

و﴿الآن﴾: مبني على الفتح^(٤)، معناه: هذا الوقت، وهو عبارة عما بين الماضي والمستقبل، و ﴿جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾: معناه؛ عند من جعلهم عَصَاً: بَيَّنَّتْ لَنَا غَايَةَ الْبَيَانِ، وهذه الآية تعطي أن الذَّنْبُ أصل في البقر، وإن نحررت أجزأ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: عبارة عن تَبْطُّهُمْ في ذَنْبِهَا، وَقَلَّةُ مَبَادِرَتِهِمْ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وقال محمد بن كَعْبِ الْقُرْظِيُّ: كان ذلك منهم لغلاء البقرة^(٥)، وقيل: كان

(١) ذكره ابن عطية الأندلسي (١٦٤/١)، ولم يذكر له سنداً.

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٨/١) برقم (١٢٨٢) عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري (٣٩٨/١) برقم (١٢٨٤) بلفظ: «كانت البقرة لرجل يبرأ أمه، فزقه الله أن جعل تلك البقرة له، فباعها بملء جلدتها ذهباً». عن مجاهد. اهـ.

(٤) واخْتَلَفَ فِي عِلَّةِ بَنَائِهِ، فَقَالَ الزَّجَاجُ: «لأنَّه تَضَمَّنَ مَعْنَى الْإِشَارَةِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى أَفْعَلُ الْآنَ أَيُّ: هَذَا الْوَقْتُ». وقيل: لأنه أَشْبَهَ الْحَرْفَ فِي لَزُومِ لَفْظِ وَاحِدٍ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ لَا يُنْتَى وَلَا يُجْمَعُ وَلَا يُصَغَّرُ. وقيل: لأنه تَضَمَّنَ مَعْنَى حَرْفِ التَّعْرِيفِ وَهُوَ الْأَلْفُ وَاللَّامُ كَأَمْسٍ، وَهَذِهِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ زَائِدَةٌ فِيهِ؛ بِدَلِيلِ بَنَائِهِ وَلَمْ يُعْهَدْ مَعْرِفُ بَالٍ إِلَّا مُعَرَّباً، وَلَزِمَتْ فِيهِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ كَمَا لَزِمَتْ فِي «الَّذِي» وَ«الَّتِي» وَبَابِهِمَا، وَيُعْزَى هَذَا لِلْفَارِسِيِّ. وَهُوَ مُرَدُّدٌ بِأَنَّ التَّضْمِينَ اخْتِصَارٌ، فَكَيْفَ يُخْتَصَرُ الشَّيْءُ، ثُمَّ يُؤْتَى بِمِثْلِ لَفْظِهِ. وَهُوَ لَارِمٌ لِلظَّرِيفَةِ وَلَا يَتَصَرَّفُ غَالِباً، وَقَدْ وَقَعَ مُبْتَدَأٌ فِي قَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «فَهُوَ يَهْوِي فِي قَعْرِهَا الْآنَ حِينَ انْتَهَى» فَالْآنَ مُبْتَدَأٌ، وَبَنِيَ عَلَى الْفَتْحِ لِمَا تَقَدَّمَ، وَ«حِينَ» خَبَرُهُ، بُنِيَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، وَمَجْرُوراً فِي قَوْلِهِ:

إِلَى الْآنَ لَا يَبِينُ أَزْعَوَاءُ

وَادْعَى بَعْضُهُمْ إِعْرَابَهُ مُسْتَدَلاً بِقَوْلِهِ:

كَأَنَّهُمَا مِلَانٍ لَمْ يَتَغَيَّرَا وَقَدْ مَرَّ لِلدَّارِزِينَ مِنْ بَعْدِنَا عَظْرُ
يريد: «من الآن» فَجَرَّهَ بِالْكَسْرِ، وَهَذَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بُنِيَ عَلَى الْكَسْرِ. وَزَعَمَ الْفَرَاءُ أَنَّهُ مَنْقُولٌ مِنْ فِعْلٍ
ماضٍ، وَأَنْ أَصْلَهُ أَنَّ بِمَعْنَى حَانَ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أَلْ زَائِدَةٌ وَاسْتَضَجِبَ بَنَاؤُهُ عَلَى الْفَتْحِ، وَجَعَلَهُ مِثْلَ
قَوْلِهِمْ: «مَا رَأَيْتُهُ مَذْ شَبَّ إِلَى دَبٍّ» وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَنْتَاهُمْ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ»، وَزُدَّ عَلَيْهِ بِأَنَّ أَلْ لَا
تَدْخُلُ عَلَى الْمَنْقُولِ مِنْ فِعْلِ مَاضٍ، وَبِأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ إِعْرَابُهُ كَنْظَائِرِهِ، وَعَنْهُ قَوْلُ آخَرٍ أَنَّ أَصْلَهُ
«أَوَانٌ» فَخُذِفَتْ الْأَلْفُ ثُمَّ قُلِبَتْ أَلْوَافُ الْفَاءِ، فَعُلِيَ هَذَا أَلْفُهُ عَنْ وَاوٍ، وَقَدْ أَدْخَلَهُ الرَّاعِبُ فِي بَابِ «أَيْنَ»
فَتَكُونُ أَلْفُهُ عَنْ يَاءٍ، وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ.

ينظر: «الدر المصون» (٢٦٠/١)، (٢٦١).

(٥) أخرجه الطبري (٣٩٧/١) برقم (١٢٧٩) بلفظ: «من كثرة قيمتها» قال العلامة أحمد شاكر: «وفيه أبو
معشر بن عبد الرحمن السندي المدني، وهو ضعيف». وذكره السيوطي في «الدر» (١٥٢/١)، وعزاه
لابن جرير، وذكره الشوكاني في «تفسيره» (١٦٣/١).

ذلك خوف الفضيحة في أمر القاتل^(١).

و ﴿أَذَارُكُمْ﴾: معناه: تدافعتم قتل القاتل، و ﴿فِيهَا﴾، أي: في النفس.

وقوله تعالى: ﴿أَضْرِبُوهُ بِعُضْبِهَا﴾: آية من الله تعالى على يدي موسى عليه السلام أن أمرهم أن يضربوا ببعض البقرة القاتل، فَيُخَيِّلُ ويخبر بقاتله، فقل: ضربه، وقيل: ضربوا قبره؛ لأن ابن عباس ذكر أن أمر القاتل وقع قبل جواز البحر، وأنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّلُ اللَّهُ الْمَوْتَى...﴾ الآية: في هذه الآية حض على العبرة، ودلالة على البعث في الآخرة، وظهرها أنها خطاب لبني إسرائيل حينئذ، حكي لمحمد ﷺ؛ ليعتبر به إلى يوم القيامة.

وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد ﷺ، وأنها مقطوعة من قوله: ﴿أَضْرِبُوهُ بِعُضْبِهَا﴾، وروي أن هذا القاتل لما حيي، وأخبر بقاتله، عاد ميتاً كما كان.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ﴿أَنْتُمْ مَوْتُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْفِرُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾ الآية: أي: صلبت وجفت، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لإيات الله تعالى، قال قتادة وغيره: المراد قلوب بني إسرائيل جميعاً في معاصيهم، وما ركبوه بعد ذلك^(٢)، و «أو»: لا يصح أن تكون هنا للشك، فقل: هي بمعنى «الواو»، وقيل: للإضراب، وقيل: للإبهام، وقيل غير ذلك^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٣٩٩/١) برقم (١٢٩٢) عن وهب بن منبه كان يقول: «إن القوم إذ أمروا بذبح البقرة، إنما قالوا لموسى «أتأخذونا هزوا»؛ لعلمهم بأنهم سيفتضحون إذا ذبحت، فحادوا عن ذبحها»، وذكره ابن عطية في تفسيره (١٦٥/١)، والقرطبي (٣٨٧/١)، عن وهب بن منبه.

(٢) ذكره ابن عطية الأندلسي في تفسيره (١٦٦/١) عن أبي العالية وقتادة.

(٣) في «أو» خمسة أقوال:

أظهرها: أنها للتفصيل بمعنى أن الناظرين في حال هؤلاء منهم من يُشَبِّهُهُمْ بحال المستوقد الذي هذه صفته، ومنهم من يُشَبِّهُهُمْ بأصحاب صيب هذه صفته.

الثاني: أنها للإبهام، أي: إن الله أبهم على عباده تشبيههم بهؤلاء أو بهؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ الْحَجَارَةِ...﴾ الآية: معذرة للحجارة، وتفضيل لها على قلوبهم، قال قتادة: عذر الله تعالى الحجارة، ولم يعذر شقي بني آدم^(١).

* ت * : وروى البزار عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ، وَقَسَاوَةُ الْقَلْبِ، وَطُولُ الْأَمَلِ، وَالْحِرْضُ عَلَى الدُّنْيَا»^(٢). انتهى من «الكوكب الدرّي» لأبي

= الثالث: أنها للشك، بمعنى أن الناظر يشك في تشبيههم.

الرابع: أنها للإباحة.

الخامس: أنها للتخير، أي: أبيع للناس أن يشبهوهم بكذا أو بكذا، وخيروا في ذلك. وزاد الكوفيون فيها معنيين آخرين:

أحدهما: كونها بمعنى الواو، وأنشدوا: [البسيط]

جاء الخلافة أو كائن له قَدْرًا كما أتى ربه موسى على قَدَرٍ

والثاني: كونها بمعنى بل، وأنشدوا: [الطويل]

بَدَتْ مثل قُرْنِ الشَّمْسِ فِي زَوْتِي الضُّحَى وصورتها أو أَنتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ
أي: بل أنت.

ينظر: «الدر المصون» (١/ ١٣٤-١٣٥).

(١) أخرجه الطبري (٤٠٨/١) برقم (١٣٢٣)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/ ١٥٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٢) أخرجه البزار (٣٢٣٠- كشف)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٢٥) من طريق هانيء بن المتوكل عن عبد الله بن سليمان عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس مرفوعاً. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وفيه هانيء بن المتوكل. قال ابن حبان: كثرت المناكير في روايته، لا يجوز الاحتجاج به. وقال ابن الجوزي: وعبد الله بن سليمان مجهول. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٩)، وقال: رواه البزار، وفيه هانيء بن المتوكل، وهو ضعيف.

وتعقب السيوطي ابن الجوزي في «اللالي» (٢/ ٣١٢) بما لا طائل تحته، فقال: أورده في «الميزان» في ترجمة هانيء، وقال: حديث منكر. اهـ.

والحديث ذكره الحافظ في «اللسان» (٦/ ١٨٦-١٨٧) وقال: أورده البزار في مسنده، وقال: عبد الله بن سليمان روى أحاديث لم يتابع عليها، وأما هانيء فقال ابن القطان: لا يعرف حاله. كذا قال. وقال أبو حاتم الرازي: أدركته ولم أكتب عنه. اهـ. وللحديث طريق آخر:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٩٩)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٢٤٦)، (٢/ ٣٢٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٢٥) كلهم من طريق سليمان بن عمرو النخعي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس مرفوعاً.

وقال ابن عدي: هذا الحديث وضعه سليمان على إسحاق.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، أبو داود النخعي، قال أحمد ويحيى: كان يضع الأحاديث، قال ابن عدي: وضع هذا على إسحاق. وللحديث طريق ثالث:

أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٧٥) من طريق الحسن بن عثمان: ثنا أبو سعيد المازني، ثنا =

العباس أحمد بن سَعْدِ التَّجِيبِيِّ، قال الغَزَالِيُّ في «المِنْهَاجِ»: واعلم أن أول الذنب قسوة، وآخره، والعياذ بالله، شؤمٌ وشِقْوَةٌ، وسوادُ القلب يكون من الذنوب، وعلامةٌ سواد القلب ألا تجد للذنوب مفرعاً، ولا للطاعات موقعاً، ولا للموعظة منجعاً. انتهى.

وقيل في هبوط الحجارة: تفيؤ ظلالها، وقيل: إن الله تعالى يخلُق في بعض الأحجار خشيةً وحياةً، يهبط بها من علُو تواضعاً، وقال مجاهد: ما تردى حجرٌ من رأس جبل، ولا تَفَجَّرَ نهرٌ من حَجَرٍ، ولا خَرَجَ ماءٌ منه، إلا من خشية الله عز وجل؛ نزل بذلك القرآن^(١)، وقال مثله ابنُ جُرَيْجٍ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآية: الخطاب للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ؛ وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم، ومعنى هذا الخطاب التقرير/ على أمر فيه بُعْد؛ إذ قد سلف لأسلاف هؤلاء اليهود أفاعيلُ سوءٍ، وهؤلاء على ذلك السَّنَن.

وتحريفُ الشيء: إمالته من حالٍ إلى حالٍ، وذهب ابن عباس إلى أن تحريفهم وتبديلهم؛ إنما هو بالتأويل، ولَفْظُ التوراة باقٍ^(٣)، وذهب جماعة من العلماء؛ إلى أنهم بدّلوا ألفاظاً من تلقائهم، وأن ذلك ممكن في التوراة؛ لأنهم أَسْتَحْفَظُوهَا، وغير ممكن في القرآن؛ لأن الله تعالى ضَمِنَ حفظه.

قُلْتُ: وعن ابن إسحاق؛ أن المراد بـ «الفريق» هنا طائفة من السبعين الذين سمعوا كلامَ الله مع موسى. انتهى من «مختصر الطبري»؛ وهذا يحتاج إلى سند صحيح.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَصْمُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ

= حجاج بن منهال عن صالح المري عن يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً.

وقال أبو نعيم: تفرد برفعه متصلاً عن صالح حجاج.

وهذا الشاهد ذكره السيوطي في «اللالى» (٣١٣/٢)، ولم يتكلم عليه.

وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٣٠١/٢) قلت: فيه مضغفون. اهـ.

يقصد رحمه الله صالح المري وزيد الرقاشي. وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٧/٧) رقم (١٠٧٨٣) عن محمد بن واسع من قوله.

(١) أخرجه الطبري (٤٠٨/١) برقم (١٣٢١)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٥٦/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٨/١) برقم (١٣٢٦)، وذكره القرطبي (٣٩٥/١).

(٣) ذكره ابن عطية (١٦٨/١).

عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا...﴾ الآية: المعنى: وهم أيضاً، إذا لقوا يفعلون هذا، فكيف يُطمع في إيمانهم، ويحتمل أن يكون هذا الكلام مستأنفاً؛ فيه كشف سرائرهم؛ وَرَدَ في التفسير؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْنَا قَصَبَةٌ^(١) الْمَدِينَةِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»، فقال كَعْبُ بن الْأَشْرَفِ وأشباهه: أذهبوا وتحسسوا أخبارَ من آمَنَ بِمُحَمَّدٍ، وقولوا لهم: آمنا، وأكفروا إذا رجعت، فنزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: نزلت في المنافقين من اليهود^(٢)، وروي عنه أيضاً أنها نزلت في قوم من اليهود، قالوا لبعض المؤمنين: نحن نؤمن أنه نبيٌّ، ولكن ليس إلينا، وإنما هو إليكم خاصة، فلما خلوا، قال بعضهم: لم تُقرؤوا بنبوءته^(٣)، وقال أبو العالية وقتادة: إن بعض اليهود تكلم بما في التوراة من صفة النبي ﷺ فقال لهم كفره الأخبار: «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم» أي: عرفكم من صفة محمد ﷺ^(٤).

و ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾: من الحجة، و ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾: معناه: في الآخرة.

وقول تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: قيل: هو من قول الأخبار للاتباع، وقيل: هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين، أي: أفلا تعقلون أن بني إسرائيل لا يؤمنون، وهم بهذه الأحوال.

و ﴿أُمِّيُونَ﴾ هنا: عبارة عن عامة اليهود، وجهلهم، أي: أنهم لا يطمع في إيمانهم لما غمرهم من الضلال، والأُمِّيُّ في اللغة: الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب؛ نُسِبَ إلى الأُمِّ؛ إما لأنه بحال أمه من عَدَمِ الكتب، لا بحال أبيه؛ إذ النساء ليس من شغلهن الكتب؛ قاله الطبري؛ وإما لأنه بحال ولدته أمه فيها، لم ينتقل عنها.

و ﴿الكتاب﴾: التوراة.

-
- (١) قصبة البلد: مدينته، وقيل: معظمه، والقصبة: جوف الحصن، يبنى فيه بناء هو أوسطه، والقصبة: القرية. وقصبة القرية: وسطها.
ينظر: «لسان العرب» (٣٦٤١).
(٢) أخرجه الطبري (٤١٣/١) برقم (١٣٣٩)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٥٧/١)، وعزاه لابن جرير. وذكره ابن عطية الأندلسي في «التفسير» (١٦٨/١).
(٣) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٦٨/١).
(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (١٥٨/١)، وعزاه لعبد بن حميد.

والأَمَانِيُّ: جمع أَمْنِيَّة، وأختلف في معنى «أَمَانِيٍّ»، فقالت طائفة: هي ههنا من: تَمَنَّى الرجل، إذا تَرَجَّى، فمعناه أن منهم من لا يَكْتُب ولا يقرأ، وإنما يقول بظنه شيئاً سمعه، فيتمنى أنه من الكتاب.

وقال آخرون: هي من تَمَنَّى إذا تلا، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ^(١)
فمعنى الآية: أنهم لا يَعْلَمُونَ الكتاب إلا سماع شيء يُتْلَى، لا عِلْمَ لَهُمْ بِصَحْتِهِ.

وقال الطبري: هي من تَمَنَّى الرجل، إذا حَدَّث بحديث مختلق كذب، أي: لا يعلمون الكتاب إلا سماع أشياء مختلقة من أحبارهم، يظنونها من الكتاب.

* ص (٢): * «وإن هم إلا يظنون»: «إِنْ»: نافية؛ بمعنى «مَا». انتهى.

﴿وَيُؤَيِّلُ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَاكُمْ مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَتُهَا فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤَيِّلُ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ الآية.

١٢٦

قال الخليل: «الْوَيْلُ»: شِدَّةُ الشر، وهو مصدر، / لا فِعْلَ له، ويجمع على وَيَلَاتٍ، والأحسن فيه إذا انفصل: الرُّفْعُ؛ لأنه يقتضي الوقوع، ويصحُّ النصب على معنى الدُّعَاءِ، أي: ألزمه الله وَيَلًا، وَيَوَيْلًا وَيَوَيْعًا وَيَوَيْسًا تتقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم.

وروى سفيان، وعطاء بن يسار؛ أن الوَيْلَ في هذه الآية وإد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار^(٣).

(١) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (١/١٦٩) و «البحر المحيط» (١/٤٣٦)، و «الدر المصون» (١/٢٦٩).

(٢) «المعجم» ص ٣٠٨.

(٣) أخرجه الطبري (١/٤٢٣) برقم (١٣٩٩) بلفظ «وإد في جهنم لو سیرت فيه الجبال لانماعت من شدة حره»، وذكره السيوطي في «الدر» (١/١٥٩)، وعزاه لابن مبارك في «الزهد»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ عن النبي ﷺ «أنه واد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفاً»^(١).

وروى عثمان بن عفان عن النبي ﷺ «أنه جبل من جبال النار»^(٢)، والذين يكتبون: هم الأخبار والرؤساء.

و «بأيديهم» قال ابن السراج^(٣): هي كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، والذي بذلوه هو صفة النبي ﷺ؛ ليستديموا رياستهم ومكاسبهم، وذكر السدي؛ أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبي ﷺ ويبيعونها من الأعراب، ويبثونها في أتباعهم، ويقولون هي من عند الله^(٤)، والثمن: قيل: عرض الدنيا، وقيل: الرشا والمأكُل التي كانت لهم، و «يكتبون» معناه: من المعاصي، وقيل: من المال الذي تضمنه ذكر الثمن.

وقوله تعالى: «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة...» الآية: روى ابن زيد وغيره؛ أن سببها أن النبي ﷺ قال لليهود: «من أهل النار؟ فقالوا: نحن، ثم تخلفونا أنتم،

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠/٥) كتاب «تفسير القرآن»، باب سورة الأنبياء، حديث (٣١٦٤)، وأحمد (٣/٧٥)، وعبد بن حميد في «المتخب من المسند» رقم (٩٢٤)، وأبو يعلى (٥٢٣/٢) رقم (١٣٨٣)، وابن حبان (٢٦١٠-موارد)، والطبري (١٥٥/٢٩)، والحاكم (٥٩٦/٤)، ونعيم بن حماد في «زوائد» على «الزهد» لابن المبارك رقم (٣٣٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص ٢٧١) رقم (٤٦٤) من طرق عن دراج أبي السمع عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي قلت: وسنده ضعيف؛ لضعف دراج كما هو معروف، وبعضهم يقبل حديثه عن أبي الهيثم.

قال الحافظ في «التقريب» (٢٣٥/١): دراج صدوق في حديثه عن أبي الهيثم، ضعيف.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٩/١)، وزاد نسبه إلى هناد، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٢٢/١) عن عثمان.

(٣) محمد بن السري بن سهل، أبو بكر: أحد أئمة الأدب والعربية. من أهل «بغداد»، كان يلشغ بالراء فيجعلها غيناً. ويقال: ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله. مات شاباً. وكان عارفاً بالموسيقى. من كتبه: «الأصول» في النحو، و «شرح كتاب سيبويه»، و «الشعر والشعراء»، و «الخط والهجاء»، و «المواصلات والمذكرات في الأخبار». توفي في سنة ٣١٦هـ.

ينظر: «بغية الوعاة» (٤٤)، و «طبقات النحويين واللغويين» (١٢٢)، و «نزهة الألباء» (٣١٣)، و «الأعلام» (١٣٦/٦).

(٤) أخرجه الطبري (٤٢٢/١) برقم (١٣٩١)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/٦٦٠)، وعزاه لابن أبي حاتم.

فَقَالَ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ؛ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّا لَا نَخْلُقُكُمْ» فنزلت هذه الآية^(١).

قال أهل التفسير: العهد في هذه الآية: الميثاق والموعود، و«بَلَى» رد بعد النفي بمنزلة «نَعَمْ» بعد الإيجاب^(٢)، وقالت طائفة: السيئة هنا الشرك؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] والخَطِيئَاتُ: كبائر الذنوب، قال الحسن بن أبي الحسن، والسُّدِّيُّ: كل ما توعد الله عليه بالنار، فهي الخطيئة المحيطة^(٣)، والخلود في هذه الآية على الإطلاق والتأيد في الكفار، ومستعار؛ بمعنى الطول في العُصاة، وإن علم انقطاعه.

قال محمد بن عبد الله اللخمي في مختصره للطبري: أجمعت الأمة على تخليد من مات كافراً، وتظاهرت الروايات الصحيحة عن الرسول ﷺ والسلف الصالح، بأن عصاة أهل التوحيد لا يخلدون في النار، ونطق القرآن بـ ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] لكن من خاف على لَحْمِهِ وَدَمِهِ، اجْتَنَبَ كُلَّ مَا جَاءَ فِيهِ الوعيد، ولم يتجاسز على المعاصي؛ اتكلاً على ما يرى لنفسه من التوحيد، فقد كان السلف وخيار الأمة يخافون سلب الإيمان على أنفسهم، ويخافون النفاق عليها، وقد تظاهرت بذلك عنهم الأخبار. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية: يدل هذا التقسيم على أن قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً...﴾ الآية في الكفار، لا في العصاة؛ ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿وَأَحَاطَتْ﴾؛ لأن العاصي مؤمن، فلم تحط به خطيئاته؛ ويدل على ذلك أيضاً أن الرد كان على كفار ادَّعَوْا أَنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُمْ إِلَّا أَيَّاماً معدودة، فهم المراد بالخلود، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَقْطَعُونَ عَلَيْهِمْ سُلَاسِيًّا وَأَتُوكُمْ أُسْتُرَىٰ فَقَتَلْتُمُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

(١) أخرجه الطبري (٤٢٦/١) برقم (١٤٦٢). وذكره السيوطي في «الدر» (١٦٣/١)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «مغني اللبيب» ص ١١٣، ص ٣٤٦، ص ٣٤٨.

(٣) أخرجه الطبري (٤٣٠/١) برقم (١٤٣٨) عن الحسن، وذكره السيوطي في «الدر» (١٦٤/١)، وعزاه لوكيع.

أَفْتَوِيْتُونَ يَبْعِضُ الْكَذِبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ...﴾ الآية: أخذ الله سبحانه الميثاق عليهم على لسان موسى - عليه السلام - وغيره من أنبيائهم، وأخذ الميثاق قول، فالمعنى: قلنا لهم: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ الآية، قال سيبويه: «لا تعبدون: متلق لقسم»؛ والمعنى: وإذا استخلفناهم، والله/ لا تعبدون إلا الله، وفي الإحسان تدخل أنواع ير ٢٦ والوالدين كلها، واليُثم في بني آدم: فَقَدْ الْأَبِ، وفي البهائم فَقَدْ الْأُمِّ، وقال ﷺ: «لَا يُتَمَّ بَعْدَ بُلُوغِ وَالْمُسْكِينِ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ»، وقيل: هو الذي له بُلْغَةٌ، والآية تتضمن الرأفة باليتامى، وحيلة أموالهم، والحض على الصدقة، والمواساة، وتفقد المساكين.

وقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾: أمر عطف على ما تضمنه ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ وما بعده، وقرأ حمزة والكسائي^(١): «حَسَنًا»؛ بفتح الحاء والسين، قال الأخفش^(٢): وهما بمعنى واحد، وقال الزجاج^(٣) وغيره: بل المعنى في القراءة الثانية، وقولوا «قَوْلًا حَسَنًا»؛ بفتح الحاء والسين، أو قولاً ذا حُسْن بضم الحاء وسكون السين في الأولى؛ قال ابن عباس: معنى الكلام قولوا للناس: لا إله إلا الله، ومُرُوهم بها^(٤)، وقال ابن جرير: قولوا لهم حسناً في الإعلام بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ^(٥)، وقال سفيان الثوري^(٦):

(١) ينظر: «العنوان» (٧٠)، و «حجة القراءات» (١٠٣)، و «الحجة» (١٢٦/٢)، و «شرح الطيبة» (٤/٤٤)، و «شرح شعلة» (٢٦٧)، و «إتحاف» (٤٠١/١)، و «معاني القراءات» للأزهري (١٦٠/١). والكسائي هو: علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي: إمام في اللغة والنحو والقراءة. من تصانيفه: «معاني القرآن»، و «المصادر»، و «الحروف»، و «القراءات»، و «النوادر»، و «المتشابه في القرآن»، و «ما يلحن فيه العوام». توفي ب «الري» في «العراق» سنة ١٨٩هـ.

ينظر: «ابن خلكان» (٣٣٠/١)، «تاريخ بغداد» (٤٠٣/١١)، «الأعلام» (٢٨٣/٤).

(٢) «معاني القرآن» (٣٠٨/١)، و «المحتسب» (٣٦٣/٢).

(٣) «معاني القرآن» (١٦٤/١).

(٤) أخرجه الطبري (٤٣٢/١) برقم (١٤٥٠) من طريق سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر» (١٦٥/١)، وعزاه لابن جرير.

(٥) ذكره ابن عطية في تفسيره (١٧٣/١) عن ابن جريج.

(٦) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهب بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن مالك بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أذ بن طابخة على الصحيح، وقيل: من ثور همدان، الثوري، أبو عبد الله الكوفي، أحد الأئمة الأعلام، كان من الفضلاء، وكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه، كان متقناً ضابطاً زاهداً ورعاً. ولد سنة سبع وسبعين، وتوفي ب «البصرة» سنة ١٦١هـ. =

معناه: مروهم بالمعروف، وأنهُوهم عن المُنكَر^(١)، وقال أبو العالية: قولوا لهم الطيب من القول، وحاوروهم بأحسن ما تُجِبُونَ أن تحاوروا به^(٢)، وهذا حصٌّ على مكارم الأخلاق، وزكائهم هي التي كانوا يَضْعُونها، وتنزل النار على ما تُقْبَلُ منها، دون ما لم يتقبل.

١٢٧

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ...﴾ الآية: خطابٌ لمعاصري النبي ﷺ أسند إليهم تَوَلَّى أسلافهم؛ إذ هم كلُّهم بتلك السبيل، قال نحوه ابنُ عَبَّاسٍ وغيره^(٣). والمراد بالقليل المستثنى جميعُ مؤمنهم قديماً من أسلافهم، وحديثاً كابن سَلامٍ وغيره، والقِلَّةُ على هذا هي في عدد الأشخاص، ويحتمل أن تكون القِلَّةُ في الإيمان، والأول أقوى.

* ص^(٤): ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾: منصوب على الاستثناء، وهو الأفصح؛ لأنه استثناء من موجب، وروى عن أبي عمرو^(٥): «إِلَّا قَلِيلاً»؛ بالرفع، ووجهه ابن عطية على بدل قليل من ضمير: «تَوَلَّيْتُمْ» على أن معنى «تَوَلَّيْتُمْ» النفي، أي: لم يف بالميثاق إلا قليل، ورد بمنع النحويين البدل من الموجب؛ لأن البدل يحل محلَّ المبدل منه، فلو قلت: قام إلا زيد، لم يجز؛ لأن «إِلَّا» لا تدخل في الموجب، وتأويله الإيجاب بالنفي يلزم في كل موجب بأعتبار نفي ضده أو نقيضه؛ فيجوز إذن: «قَامَ الْقَوْمُ إِلَّا زَيْدٌ»؛ على تأويل: «لَمْ يَجْلِسُوا إِلَّا زَيْدٌ» ولم تبن العرب على ذلك كلامها، وإنما أجازوا: «قَامَ الْقَوْمُ إِلَّا زَيْدٌ»؛ بالرفع على الصفة، وقد عقد سيويته^(٦) لذلك باباً في كتابه. انتهى.

و ﴿دماءكم﴾: جمع دَمٍ، وهو اسمٌ منقوصٌ. أصله «دَمَيٌّ»؛ ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ

= ينظر: «الخلاصة» (٣٩٦/١) (٢٥٨٤)، «ابن سعد» (٢٥٧-٢٦٠)، و «الحلية» (٣٥٦-٤٩٣)، و (١٤١-٣).

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٧٣/١) عن سفيان الثوري.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٧٣/١) عن أبي العالية.

(٣) أخرجه الطبري (٤٣٨/١) برقم (١٤٦٥) بلفظ: «أي تركتم ذلك كله»، وذكره السيوطي في «الدر» (١/١٦٥)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) «المجيد» ص ٣١٩.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٣/١)، و «البحر المحيط» (٤٥٥/١)، و «الدر المصون» (٢٨٠/١)، و «حاشية الشيخ زادة على البضاوي» (٣٤٥/١).

وهو زيان (وقيل غير ذلك) أبو عمرو بن العلاء، البصري، أحد القراء السبعة، قرأ على سعيد بن جبير، وشيبة بن نصاح، وعاصم بن أبي النجود، روى القراءة عنه عرضاً وسماعاً حسين بن علي الجعفي، وخارجه بن مصعب، مات سنة ١٥٤هـ.

ينظر: «غاية النهاية» (٢٨٨/١)، و «طبقات الزبيدي» (ص ٣٥).

(٦) ينظر: «الكتاب» (٢/٣٣٠-٣٣١).

مِنْ دِيَارِكُمْ﴿: معناه: ولا ينفي بعضكم بعضاً بالفتنة والبغي، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللفظ في القول.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾، أي: خَلَفًا بعد سَلَف، أن هذا الميثاق أخذ عليكم، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ قيل: الخطاب يُرَادُّ به من سلف منهم، والمعنى: وأنتم شهود، أي: حضور أخذ الميثاق والإقرار.

وقيل: المراد: من كان في مدة مُحَمَّد ﷺ والمعنى: وأنتم شهداء، أي: بَيِّنَةٌ أن الميثاق أخذ على أسلافكم، فمن بعدهم منكم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ دالَّةٌ على أن المخاطبة للحاضرين لا تحتمل ردًّا إلى الأسلاف، قيل: تقدير الكلام: / يا هَؤُلَاءِ، فحذف حرف النداء، ولا يحسن حذفه عند سيبويه^(١)، مع المبهمات.

وقال الأستاذ الأجلُّ أبو الحسن بن أحمد^(٢)

(١) إلى مذهب سيبويه والبصريين أشار ابن مالك بقوله: [الرجز]
وَذَاكَ فِي أَسْمِ الْجِنْسِ وَالْمُشَارِ لَهُ قُلْ، وَمَنْ يَمْنَعُهُ فَأَنْصُرْ عَاذِلَهُ
أي: ذاك التعرُّي من حرف النداء يكون مع اسم الجنس، واسم الإشارة - كما في الآية - قليلاً، وهو مذهب الكوفيين، وأما من منع الحذف معهما - وهم البصريون وسيبويه - فهم محجوجون بما روي من أشعار العرب مما لا يمكن رَدُّه، فمما ورد في اسم الإشارة قوله: [الطويل]
إِذَا هَمَلْتُ عَيْنِي لَهَا قَالَ صَاحِبِي بِمِثْلِكَ - هَذَا - لَوْعَةٌ وَغَرَامٌ
وقوله: [البسيط]
إِنَّ الْأَكْلَى وَصَفُوا قَوْمِي لَهُمْ فِيهِمْ هَذَا - أَعْتَصِمْ، تَلَقَّ مَنْ عَاذَكَ مَخْذُولًا
وقوله: [الخفيف]

ذَا، أَرْعَوَاءَ، فَلَيْسَ بَعْدَ أَشْتَعَالِ الزَّ رَأْسٍ شَنِيبًا إِلَى الصُّبَا مِنْ سَبِيلٍ
وجعل منه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ - هَؤُلَاءِ - تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥].

واعلم أن هذا الحذف مع اسم الجنس واسم الإشارة مقيس مطرد عند الكوفيين، وأما مذهب البصريين وسيبويه فشاذ أو ضرورة؛ كما أشار المصنف إليه بمنع سيبويه الحذف.

(٢) قال أبو حيان: وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري، من أهل بلدنا «غرناطة»، يعرف بابن الباذش، وهو والد الإمام أبي جعفر أحمد مؤلف كتاب «الإقناع» في القراءات، وله اختيارات في النحو، حدث بكتاب سيبويه عن الوزير أبي بكر محمد بن هشام المصحفي، وعلق عنه في النحو على كتاب «الجمال» و «الإيضاح»، ومسائل من «كتاب سيبويه».

وقال السيوطي: وفي «تاريخ غرناطة»: أوجد في زمانه إتقاناً ومعرفة، وتفرداً بعلم العربية، ومشاركة في غيرها. حسن الخط، كبير الفضل، مشاركاً في الحديث، عالماً بأسماء رجاله ونقلته، مع الدين والفضل =

١٢٨ شيخنا^(١): ﴿هَؤُلَاءِ﴾: رفع بالابتداء، و ﴿أَنْتُمْ﴾: خبر، و ﴿تَقْتُلُونَ﴾، حال بها تَمَّ المعنى، وهي المقصود.

* ص^(٢): قال الشيخ أبو حَيَّان: ما نقله ابن عطية عن شيخه أبي الحسن بن الباذش من جعله ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ، و ﴿أَنْتُمْ﴾ خبر مقدم، لا أدري ما العلة في ذلك، وفي عدوله عن جعل ﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿هَؤُلَاءِ﴾ الخبر، إلى عكسه. انتهى.

* ت: قيل: العلة في ذلك دخول هاء التنبيه عليه؛ لاختصاصها بأول الكلام؛ ويدل على ذلك قولهم: «هَآنَذَا قَائِمًا»، ولم يقولوا: «أَنَا هَذَا قَائِمًا»، قال معناه ابن هشام^(٣)، ف «قَائِمًا» في المثال المتقدم نصب على الحال. انتهى.

وهذه الآية خطاب لقرينة، والنضير، وبني قينقاع، وذلك أن النضير وقرينة حالفت الأوس، وبني قينقاع حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني قيلة، ذهب كل طائفة من بني إسرائيل مع أحلافها، فقتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض أتباعاً لحكم التوراة، وهم قد خالفوها بالقتال، والإخراج.

والديار: مباني الإقامة، وقال الخليل: «مَحَلَّةُ الْقَوْمِ: دَارُهُمْ».

ومعنى ﴿تَتَظَاهَرُونَ﴾: تتعاونون، و ﴿الْعُدْوَانُ﴾: تجاوز الحدود، والظلم.

= والزهد والانقباض عن أهل الدنيا، قرأ على نعم الخلف وغيره. وحديث عن القاضي عياض وغيره، وأم بجامع «غزناطة».

وصنف: شرح «كتاب سيبويه»، و«المقتضب» وشرح «أصول ابن السراج»، وشرح «الإيضاح»، وشرح «الجميل»، وشرح «الكافي» للنحاس. توفي سنة ثمان وعشرين وخمسائة. ينظر: «البحر المحيط» (٤٥٨/١)، و «بغية الوعاة» (١٤٢-١٤٣).

(١) هذا من كلام ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٧٤/١).

(٢) «المجيد» ص ٣٢٢.

(٣) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، من أئمة العربية، قال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بـ «مصر» عالم بالعربية يقال له: «ابن هشام»، أنحى من سيبويه. من تصانيفه: «مغني اللبيب عن كتب الأعريب - ط» و «عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب»، و «الجامع الصغير»، و «الجامع الكبير»، وغيرها، وتوفي سنة ٥٦٧ هـ بـ «مصر».

ينظر: «الأعلام» (١٤٧/٤)، «الدرر الكامنة» (٣٠٨/٢)، «النجوم الزاهرة» (٣٣٦/١٠).

وقرأ حمزة^(١): «أَسْرَى تُفْدُوهُمْ»، و «أَسَارَى»: جمع أسير، مأخوذ من الأسر، وهو الشَّد، ثم كثر استعماله؛ حتى لزم، وإن لم يكن ثَمَّ رِبْطٌ وَلَا شَدٌّ، وَأَسِيرٌ: فَعِيلٌ: بمعنى مفعول، و «تُفَادُوهُمْ»: معناه في اللغة: تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، وَقَالَ الثَّغَلِيّ: يقال: فَدَى، إِذَا أُعْطِيَ مَالاً، وَأَخَذَ رَجُلًا، وَفَادَى، إِذَا أُعْطِيَ رَجُلًا، وَأَخَذَ رَجُلًا فَتُفْدُوهُمْ: معناه بالمال، وَتُفَادُوهُمْ، أي: مفادات الأسير بالأسير. انتهى.

* ت * وفي الحديث من قول العَبَّاس رضي الله عنه: «فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَعَقِيلًا»، وظاهره لا فَرَقَ بينهما.

وقوله تعالى: «أَفْتَوْنُون بِنَغْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ...» الآية: والذي آمنوا به فداء الأسارى، والذي كَفَرُوا به قَتْلُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وإِخْرَاجُهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وهذا توبيخٌ لهم وبيانٌ لقبح فعلهم، والخِزْيُ: الفضيحة، والعقوبة، ف قيل: خزيهم: ضربُ الجزية عليهم غَابِرُ الدهر، وقيل: قتل قريظة، وإِجْلَاءُ النضير، وقيل: الخِزْيُ الذي تتوَعَّدُ به الأمة من الناس هو غلبةُ العدوِّ.

و «الدُّنْيَا»: مأخوذة من دَنَا يَذْنُو، وأصل الباء فيها واوٌ، ولكن أبدلت فرقا بين الأسماء والصفات، و «أَشَدَّ الْعَذَابِ»: الخلود في جهنم.

وقوله تعالى: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» قرأ نافع، وابن كثير^(٢) بياء على ذِكرِ الغائب، فالخطاب بالآية لأمة محمد ﷺ والآية واعظةٌ لهم بالمعنى، إذ الله تعالى بالمرصاد لكل كافر وعاص.

وقرأ الباقر بقاء؛ على الخطاب لمن تقدّم ذكره في الآية قبل هذا؛ وهو قوله: «أَفْتَوْمُنُون بِبَعْضِ الْكِتَابِ...» الآية، وهو الأظهر، ويحتمل أن يكون لأمة محمد ﷺ فقد رُوِيَ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ مَضَوْا، وَأَنْتُمْ الَّذِينَ تُعْتَنُونَ بِهَذَا، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ؛ يريد هذا، وما يجري مجراه^(٣)».

٢٨ ب

(١) قرأ الجماعة غير حمزة «أسارى»، وقرأ هو أسرى، وقرأ «أسارى» بفتح الهمزة.

ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (١٤٣/٢)، و «حجة القراءات» (١٠٤)، و «العنوان» (٧٠)، و «إتحاف» (٤٠٢/١)، و «شرح الطيبة» (٤٥/٤)، و «شرح شعلة» (٢٦٨)، و «البحر المحيط» (٤٥٩/١).

(٢) ينظر: «حجة القراءات» (١٠٥)، و «شرح طيبة النشر» (٤٠/٤)، و «شرح شعلة» (٢٦٦)، و «إتحاف فضلاء البشر» (٤٠٣/١).

(٣) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٧٦/١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
 الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾
 وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ...﴾ الآية: جعل الله ترك الآخرة، وأخذ الدنيا عوضاً عنها، مع قدرتهم على التمسك بالآخرة - بمنزلة من أخذها، ثم باعها بالدنيا، ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾، في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

* ص (١): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: «اللام» في «لَقَدْ»: يحتمل أن تكون توكيداً، ويحتمل أن تكون جواب قسم، وموسى هو المفعول الأول، والكتاب الثاني، وعكس السهيلي.

و ﴿مَرْيَمَ﴾: معناه في السريانية: الخادم، وسميت به أم عيسى، فصار علماً عليها. انتهى.

و ﴿الكتاب﴾: التوراة.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: مأخوذ من القفا؛ تقول: قَفَّيْتُ فُلَانًا بِفُلَانٍ، إذا جثت به من قبل قفاه، ومنه: قَفَا يَقْفُو، إذا اتبع، وكلُّ رسول جاء بعد موسى، فإنما جاء بإثبات التوراة، والأمر بلزومها إلى عيسى - عليهم السلام -.

و ﴿البيّنات﴾: الحجج التي أعطاها الله عيسى.

وقيل: هي آياته من إحياء، وإبراء، وخلق طير، وقيل: هي الإنجيل، والآية نعم ذلك.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: معناه: قويناه، والأيدُ القوة.

قال ابن عباس: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: هو الاسم الذي كان يُخَيِّي به الموتى^(٢)، وقال ابن زيد: هو الإنجيل؛ كما سَمَّى الله تعالى القرآن رُوحاً^(٣)، وقال السُّدِّي، والضَّحَّاك،

(١) «المجيد» (ص ٣٣١).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٩/١) برقم (١٤٩٤)، وذكره السيوطي في «الدر» (١/١٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (٤٤٩/١) برقم (١٤٩٣) عن ابن زيد.

والربيع، وقتادة: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: جبريل - عليه السلام^(١)؛ وهذا أصح الأقوال، وقد قال النبي ﷺ لِحَسَّان: «أَهْجُ قُرَيْشًا، وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ»^(٢) ومرة قال له: «وَجِبْرِيلُ مَعَكَ»، و ﴿كُلَّمَا﴾: ظرف؛ والعامل فيه: ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾، وظاهر الكلام الاستفهام، ومعناه التوبيخ؛ روي أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سوقهم آخر النهار، وروي سبعين نبياً، ثم تقوم سوق بقلهم آخر النهار.

والهوى أكثر ما يستعمل فيما ليس بحق، وهو في هذه الآية من ذلك؛ لأنهم إنما كانوا يَهْوُونَ الشهوات، ومعنى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي: عليها غشاوات، فهي لا تفقه، قاله ابن عباس. ثم بين تعالى سبب نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لَعِنُوا بما تقدّم من كفرهم وأجترامهم، وهذا هو الجزاء على الذنب بذنب أعظم منه، واللعن: الإبعاد والطرود.

و ﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر محذوف، تقديره: فإيماناً قليلاً ما يؤمنون، والضمير في «يؤمنون» لحاضري محمد ﷺ منهم؛ وما في قوله: ﴿مَا يَوْمُنُونَ﴾ زائدة مؤكدة^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٤٤٨/١) بأرقام (١٤٨٨ - ١٤٨٩ - ١٤٩٠ - ١٤٩١) عن قتادة، والسدي، والضحاك، والربيع.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥١/٦) كتاب «بدء الخلق»، باب ذكر الملائكة، حديث (٣٢١٣)، (٤٨٠/٧) كتاب «المغازي»، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، حديث (٤١٢٣، ٤١٢٤)، (٥٦٢/١٠) كتاب «الأدب»، باب هجاء المشركين، حديث (٦١٥٣)، ومسلم (١٩٣٣/٤) كتاب «فضائل الصحابة»، باب فضائل حسان بن ثابت، حديث (٢٤٨٦/١٥٣)، وأحمد (٢٩٩/٤، ٣٠٢)، وابن حبان (٧١٤٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٩٨/٤)، والبيهقي (٢٣٧/١٠)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٨٨، ٣٥٨٩) كلهم من طريق عدي بن ثابت عن البراء بن عازب به.

(٣) قال السمين الحلبي: في نصب «قليلًا» ستة أوجه:

أحدها وهو الأظهر: أنه نعت لمصدر محذوف أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون.

الثاني: أنه حال من ضمير ذلك المصدر المحذوف أي: فيؤمنونه أي الإيمان في حال قلته، وقد تقدّم أنه مذهب سيبويه وتقدّم تقريره.

الثالث: أنه صفة لزمان محذوف، أي: فزماناً قليلاً يؤمنون، وهو كقوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾.

الرابع: أنه على إسقاط الخافض والأصل: فبقليل يؤمنون، فلما حذف حرف الجر انتصب، ويُغزى لأبي عبيدة.

الخامس: أن يكون حالاً من فاعل «يؤمنون»، أي فجمعاً قليلاً يؤمنون أي المؤمن فيهم قليل، قال معناه ابن عباس وقتادة. إلا أن المهدوي قال: «ذهب قتادة إلى أن المعنى: فقليل منهم من يؤمن»، وأنكره النحويون، وقالوا: لو كان كذلك للزم رفع «قليل». قلت: لا يلزم الرفع مع القول بالمعنى الذي ذهب إليه قتادة لما تقدّم من أن نصبه على الحال واف بهذا المعنى. و «ما» على هذه الأقوال كلها مزيدة للتأكيد.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَأُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩) يَسْكَمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَقُولُوا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَرَأَوْهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَلْيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

وقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله...﴾ الآية الكتاب: القرآن، و﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾: يعني التوراة، و﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه أن بني إسرائيل كانوا قبل مَبْعَثِ رسولِ الله ﷺ قد علموا خروجه بما علموا عندهم من صفته، وذكر وقته، وظنوا أنه منهم، فكانوا إذا حاربوا الأوس والخزرج، فغلبتهم العرب، قالوا لهم: لو قد خرج النبي الذي أظلم وقته، لقاتلناكم معه، وأستنصرنا عليكم به، و﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه يستنصرون، قال أحمد بن نصر الداودي: ومنه: «عسى الله أن يأتي بالفتح»، أي: بالنصر. انتهى.

وروى أبو بكر/ محمد بن حسين الأجرى^(١) عن ابن عباس، قال: كانت يهود خيبر

= السادس: أن تكون «ما» نافية أي: فما يؤمنون قليلاً ولا كثيراً، ومثله: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ [السجدة: ٩]، ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا قوي من جهة المعنى، وإنما يضعف شيئاً من جهة تقدم ما في خبرها عليها، قاله أبو البقاء، وإليه ذهب ابن الأنباري، إلا أن تقديم ما في خبرها عليها لم يجزه البصريون، وأجازه الكوفيون. قال أبو البقاء: «ولا يجوز أن تكون «ما» مصدرية، لأن «قليلاً» يبقى بلا ناصب». يعني أنك إذا جعلتها مصدرية كان ما بعدها صلتها، ويكون المصدر مرفوعاً بـ «قليلاً» على أنه فاعل به فأين الناصب له؟ وهذا بخلاف قوله: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ [الذاريات: ١٧] فإن «ما» هناك يجوز أن تكون مصدرية لأن «قليلاً» منصوب بـ كان. وقال الزمخشري: «يجوز أن تكون القلة بمعنى العدم».

قال أبو حيان: «وما ذهب إليه من أن «قليلاً» يراد به النفي فصحيح، لكن في غير هذا التركيب»، أعني قوله تعالى: ﴿فقل قليلاً ما يؤمنون﴾ [البقرة: ٨٨] لأن «قليلاً» انتصب بالفعل المثبت فصار نظير «قمت قليلاً» أي: قمت قياً قليلاً، ولا يذهب ذاهب إلى أنك إذا أتيت بفعل مثبت وجعلت «قليلاً» منصوباً نعتاً لمصدر ذلك الفعل يكون المعنى في المثبت الواقع على صفة أو هيئة انتفاء ذلك المثبت رأساً وعدم وقوعه بالكلية، وإنما الذي نقل الحويون: أنه قد يراد بالقلة النفي المحض في قولهم: «أقل رجل يقول ذلك، وقلماً يقوم زيد»، وإذا تقرّر هذا فحمل القلة على النفي المحض هنا ليس بصحيح» انتهى. قلت: ما قاله أبو القاسم الزمخشري - رحمه الله - من أن معنى التقليل هنا النفي قد قال به الواحدي قبله، فإنه قال: «أي: لا قليلاً ولا كثيراً، كما تقول: قلماً يفعل كذا، أي: ما يفعله أصلاً».

ينظر: «الدر المصون» (١/٢٩٧).

(١) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الأجرى: فقيه شافعي، محدث، نسبته إلى «آجر» (من قرى =

يُقَاتِلُونَ غَطَفَانَ، فُكُلَمَا أَلْتَقَوْا، هَزَمَتِ الْيَهُودُ، فَعَادَ الْيَهُودُ يَوْمًا بِالدَّعَاءِ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي وَعَدْتَنَا أَنْ تَخْرِجَهُ لَنَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِلَّا نَصَرْتَنَا عَلَيْهِمْ، فَكَانُوا إِذَا أَلْتَقَوْا، دَعَا بِهَذَا الدَّعَاءِ، فَهَزَمُوا غَطَفَانَ، فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَفَرُوا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَكَاثُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وَالِاسْتَفْتَاخُ: الْإِسْتِنَارُ، وَوَقَعَ لِيَهُودِ الْمَدِينَةِ نَحْوَ هَذَا مَعَ الْأَنْصَارِ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ^(١). انْتَهَى مِنْ تَأْلِيفِ حَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الرَّهَوِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْقَطَّانِ، وَهُوَ كِتَابُ نَفِيسٍ جِدًّا أَلْفَهُ فِي مَعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَيَّاتِ نُبُوَّتِهِ.

وروي أن قريظة والنضير وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت كانوا يستفتحون على سائر العرب، وبسبب خروج النبي المنتظر، كانت نقلتهم إلى الحجاز، وسكناهم به، فإنهم كانوا علموا صُقع^(٢) المَبْعَثِ، وما عرفوا هو مُحَمَّدٌ ﷺ وشرعه؛ ويظهر في هذه الآية العناد منهم، وأن كفرهم كان مع معرفة ومعاندة و ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ إبعاده لهم، وخزيهم لذلك.

و ﴿بِئْسَ﴾: أصله «بَيْسَ»، سُهِّلَتِ الهمزة، ونقلت حركتها إلى الباء، و «مَا» عند سيبويه^(٣): «فَاعِلَةٌ بِ «بِئْسَ» والتقدير: بِئْسَ الَّذِي اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ».

= «بغداد») ولد فيها، وحدث بـ «بغداد» قبل سنة ٣٣٠، ثم انتقل إلى «مكة»، فتنسك وتوفي فيها ٣٦٠هـ، له تصانيف كثيرة، منها: «أخبار عمر بن عبد العزيز»، و «أخلاق حملة القرآن».

ينظر: «الأعلام» (٩٧/٦)، «وفيات الأعيان» (٤٨٨:١)، و «الرسالة المستطرفة» (٣٢)، و «صفة الصفوة» (٢/٢٦٥)، و «النجوم الزاهرة» (٤/٦٠).

(١) أخرجه الحاكم (٢/٢٦٣) وقال الذهبي: عبد الملك متروك هالك.

(٢) الصُّقْعُ: ناحية الأرض والبيت.. وفلان من أهل هذا الصقع، أي من أهل هذه الناحية. ينظر: «لسان العرب» (٢٤٧٢).

(٣) ذهب الفراء إلى أنها مع «بِئْسَ» شيء واحد رُكِبَ تركيب «جَبَدَا»، نَقَلَ ابنُ عطية، ونَقَلَ عنه المهدوي أنه يُجَوِّزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» مع بِئْسَ بِمَنْزِلَةِ كَلِمَا، فظاهِرُ هَذَيْنِ النِّقْلَيْنِ أَنَّهَا لَا مَحْلَ لَهَا. وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ لَهَا مَحَلًّا، ثُمَّ اخْتَلَفُوا: مَحَلُّهَا رَفْعٌ أَوْ نَصْبٌ؟ فَذَهَبَ الْأَخْفَشُ إِلَى أَنَّهَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى التَّمْيِيزِ وَالْجُمْلَةِ بَعْدَهَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ صِفَةً لَهَا، وَفَاعِلٌ بِئْسَ مُضْمَرٌ تُفْسِّرُهُ «مَا»، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ هُوَ قَوْلُهُ: «أَنْ يَكْفُرُوا» لِأَنَّهُ فِي تَأْوِيلٍ مُصَدِّرٍ، وَالتَّقْدِيرُ: بِئْسَ هُوَ شَيْئًا اشْتَرَوْا بِهِ كُفْرَهُمْ، وَفِيهِ قَالَ الْفَارِسِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلِيهِ، وَاخْتَارَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَيَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مُحذُوفًا، وَ «اشْتَرَوْا» صِفَةً لَهُ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ تَقْدِيرُهُ: بِئْسَ شَيْئًا شَيْءٌ أَوْ كَفَرُ اشْتَرَوْا بِهِ، كَقَوْلِهِ: [الطويل]

لِنِغْمِ الْفَتَى أَضْحَى بِأَكْثَافٍ حَائِلِ

أَي: فَتَى أَضْحَى، وَ «أَنْ يَكْفُرُوا» بَدَلٌ مِنْ ذَلِكَ الْمُحْذُوفِ، أَوْ خَيْرٌ مُبْتَدَأُ مُحْذُوفٍ أَيْ: هُوَ أَنْ يَكْفُرُوا. وَذَهَبَ الْكَسَائِيُّ إِلَى أَنَّ «مَا» مَنْصُوبَةٌ الْمَحَلِّ أَيْضًا، لَكِنَّهُ قَدَّرَ بَعْدَهَا «مَا» أُخْرَى مُوَصَّوْلَةٌ بِمَعْنَى الَّذِي، وَجَعَلَ الْجُمْلَةَ مِنْ قَوْلِهِ: «اشْتَرَوْا» صِلَتَهَا، وَ «مَا» هَذِهِ الْمُوَصَّوْلَةُ هِيَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ، وَالتَّقْدِيرُ: بِئْسَ =

و﴿أَشْتَرُوا﴾: بمعنى: بَاءُوا.

و﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾، يعني به القرآن، ويحتمل التوراة، ويحتمل أن يراد الجميع من توراة، وإنجيل، وقرآن؛ لأن الكفر ببعض يستلزم الكفر بالكل، و﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾، يعني: من النبوة والرسالة، و﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، يعني به محمداً ﷺ؛ لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم، وكان من العرب، ويدخل في المعنى عيسى ﷺ؛ لأنهم كفروا به بغياً، والله قد تفضل عليه.

و﴿بَاءُوا﴾: معناه: مَضَوْا متحملين لما يذكر؛ أنهم بَاءُوا به.

وقال البخاري: قال قتادة: ﴿بَاءُوا﴾: معناه: أَنْقَلَبُوا^(١). انتهى.

= شيئاً الذي اشتروا به أنفسهم، فلا محل لـ «اشتروا» على هذا، ويكون «أَنْ يَكْفُرُوا» على هذا القول خبراً لمبتدأ محذوف كما تقدم، فتلخص في الجملة الواقعة بعد «ما» على القول بنصبها ثلاثة أقوال، أحدها: أنها صفة لها فتكون في محل نصب أو صلة لـ «ما» المحذوفة فلا محل لها أو صفة للمخصوص بالذم فتكون في محل رفع.

وذهب سيبويه إلى أن موضعها رفع على أنها فاعل بش، فقال سيبويه: هي معرفة تامة، التقدير: بش الشيء، والمخصوص بالذم على هذا محذوف أي شيء اشتروا به أنفسهم، وعزى هذا القول أيضاً للكسائي. وذهب الفراء والكسائي أيضاً إلى أن «ما» موصولة بمعنى الذي والجملة بعدها صلتها، ونقله ابن عطية عن سيبويه، وهو أحد قولني الفارسي، والتقدير: بش الذي اشتروا به أنفسهم أَنْ يَكْفُرُوا، فَأَنْ يَكْفُرُوا هو المخصوص بالذم.

قال أبو حيان: «وما نقله ابن عطية عن سيبويه وَهَمَّ عليه». ونقل المهدوي وابن عطية عن الكسائي أيضاً أن «ما» يجوز أن تكون مصدرية، والتقدير: بش اشتراؤهم، فتكون «ما» وما في خبرها في محل رفع. قال ابن عطية: «وهذا معترض بأن «بش» لا تدخل على اسم معين يتعرف بالإضافة للضمير».

قال أبو حيان: «وهذا لا يلزم إلا إذا نص أنه مرفوع بش، أما إذا جعله المخصوص بالذم وجعل فاعل «بش» مضمراً والتمييز محذوف لفهم المعنى، والتقدير: بش اشتراء اشتراؤهم فلا يلزم الاعتراض» قلت: وبهذا - أعني بجعل فاعل بش مضمراً فيها - يجوز أبو البقاء في «ما» أن تكون مصدرية، فإنه قال: «والرابع أن تكون مصدرية أي: بش شراؤهم، وفاعل بش على هذا مضمراً لأن المصدر ههنا مخصص ليس بجنس» يعني فلا يكون فاعلاً، لكن يُبَيَّنُّ هذا القول عود الضمير في «به» على «ما» والمصدرية لا يعود عليها، لأنها حرف عند الجمهور، وتقدير أدلة كل فريق مذكور في المطولات. فهذه نهاية القول في «بشما» و«نِعَمًا» والله أعلم.

ينظر: «الدر المصون» (١/ ٢٩٩-٣٠٠)، و«الكتاب» (١/ ٤٧٦).

(١) علقه البخاري في «صحيحه» (١١/ ٨) كتاب «التفسير» وقال الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٨): وصله عبد بن حميد.

و ﴿يَغْضَبُ﴾ معناه من الله تعالى؛ لكفرهم بمحمد ﷺ على غضب متقدم من الله تعالى عليهم، قيل: لعبادتهم العجل.

وقيل: لكفرهم بعتسى - عليه السلام - فالمعنى: على غضب قد باء به أسلافهم، حظ هؤلاء منه وافر؛ بسبب رضاهم بتلك الأفعال، وتصويهم لها.

و ﴿مَهِينٌ﴾: مأخوذ من «الهوان»، وهو الخلود في النار؛ لأن من لا يخلد من عصاة المسلمين، إنما عذابه كعذاب الذي يقام عليه الحد، لا هوان فيه، بل هو تطهير له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، يعني لليهود: ﴿آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على محمد ﷺ، وهو القرآن، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ يعنون: التوراة، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَ﴾؛ قال قتادة: أي: بما بعده^(١)، قال الفراء^(٢). أي: بما سواه^(٣)، ويعني به: القرآن، ووصف تعالى القرآن؛ بأنه الحق و ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال مؤكدة؛ عند سيوييه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ رد من الله تعالى عليهم، وتكذيب لهم في ذلك، واحتجاج عليهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَا بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾: ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: التوراة، والعصا، وفرق البخر، وسائر الآيات، و ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾: يعني: التوراة والشرع ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: ٢٩ ب

(١) أخرجه الطبري (٤٦٣/١) برقم (١٥٥٩)، وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٧٩/١).

(٢) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان، الدليمي، إمام العربية، أبو زكريا، المعروف بـ «الفراء»، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، كان يميل إلى الاعتزال، من تصانيفه: «معاني القرآن» و «المذكر والمؤنث»، و «الحدود» في الإعراب وغيرها. توفي (٢٠٧هـ).

ينظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٤٩/١)، و «بغية الوعاة» (٣٣٣/٢)، و «النجوم الزاهرة» (٢/٨٥).

(٣) ينظر: «معاني الفراء» (٦٠/١)، و «الطبري» (٣٤٨/٢)، و «الوسيط» (١٧٤/١)، و «بحر العلوم» (١٣٧/١).

بعزم، ونشاط. وجد.

﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾: أي: حبَّ العِجْلِ، والمعنى: جُعِلَتْ قُلُوبُهُمْ تَشْرِبُهُ، وهذا تشبيهٌ ومجازٌ عبارة عن تمكُّن أمر العِجْلِ في قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿بَكْفَرِهِمْ﴾ يحتمل أن تكون باء السبب، ويحتمل أن تكون بمعنى «مَعَ».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِشْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أمر لمحمد ﷺ أن يوبِّخهم؛ لأنه بشس هذه الأشياء التي فَعَلْتُمْ، وأمركم بها إيمانكم الذي زعمتم في قولكم: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ...﴾ الآية: أمر لمحمد ﷺ أن يوبِّخهم، والمعنى: إن كان لكم نعيمها وحظوتها، وخيرها، فذلك يقتضي حرصكم على الوصول إليها، ﴿فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ﴾، والدار: اسم «كان»، و «خَالِصَةً»: خبرها و «مِنْ دُونِ النَّاسِ» يحتمل أن يراد بـ «النَّاسِ»: محمد ﷺ، ومن تبعه، ويحتمل أن يراد العموم، وهذه آية بيَّنة أعطاه الله رسوله محمداً ﷺ؛ لأن اليهود قالت: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وشبه ذلك من القول، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت، وأن يعلمهم أنه من تمنَّاه منهم مات، ففعل النبي ﷺ ذلك، فعلموا صدقه، فأَحْجَمُوا عن تمنيه فَرَقًا من الله؛ لِقَبْحِ أفعالهم ومعرفتهم بكذبهم، وحرصاً منهم على الحَيَاة، وقيل: إن الله تعالى منعهم من التمني، وقصرهم على الإمساك عنه؛ لتظهر الآية لنبيه ﷺ.

* ت * قال عِيَّاض^(١): ومن الوجوه البَيِّنَةُ في إعجاز القرآن آيٌ وردت بتعجيز قوم في قضايا^(٢)، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فَعَلُوا ولا قَدَرُوا عَلَى ذلك؛ كقوله تعالى لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً^(٣)...﴾ الآية: قال أبو إسحاق الرِّجَاج^(٤) في هذه الآية: أعظم حجة، وأظهر دلالة على صحَّة الرسالة؛ لأنه قال لهم: ﴿فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ﴾ وأعلمهم أنهم لَنْ يَمُتُوهُ أَبَدًا، فلم يتمَّه وَاحِدٌ منهم، وعن النبي صلى الله

(١) ينظر: «الشفاء» (ص ٣٨٢-٣٨٣).

(٢) قضايا: جمع قضية، وهي الحادثة الواقعة في حكم قضاء الله (تعالى) وقدره.

(٣) خالصة: خاصة بكم.

(٤) «معاني القرآن» (١/١٧٦).

تعالى عليه وسلم «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقُولُهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ إِلَّا غَصَّ بِرِيقِهِ»^(١)، يعني: يموت مكانه، قال أبو محمد الأصيلي^(٢): من أعجب أمرهم؛ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا وَاحِدٌ مِنْ يَوْمِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ نَبِيَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْهِ^(٣)، وَلَا يَجِيبُ إِلَيْهِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ مُشَاهِدٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَهُ مِنْهُمْ. انْتَهَى مِنَ «الشُّفَا».

والمراد بقوله: ﴿تَمَنُّوا﴾: أريدوه بقلوبكم، واسألوه، هذا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَرَادُ بِهِ السُّؤَالُ فَقَطْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْقَلْبِ^(٤)، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِعَجْزِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَتَمَنُّونَهُ أَبَدًا، وَأَضَافَ ذُنُوبَهُمْ وَأَجْتَرَامَهُمْ إِلَى الْأَيْدِي؛ إِذِ الْكَثْرُ مِنْ كَسْبِ^(٥) الْعَبْدِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، إِنَّمَا هُوَ بِيَدَيْهِ، فَحَمَلَ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ عَلَى ذَلِكَ.

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٢)، الغصة: ما تقف في الحلق، فتمنع النفس حتى تهلكه، وغص بريقه: وقع الموت به سريعاً.

وقد ورد هذا موقوفاً على ابن عباس، أخرجه الطبري وابن أبي حاتم وينظر: «الدر المنثور» (١/ ١٧٣).
(٢) عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر، أبو محمد، الأموي، المعروف بالأصيلي: عالم بالحديث، والفقه. من أهل «أصيلة» (في «المغرب») أصله من كورة «شبدونة» ولد فيها سنة ٣٢٤هـ، ورحل به أبوه إلى «أصيلة» من بلاد العدو، فنشأ فيها، ويقال: ولد في «أصيلة». رحل في طلب العلم، فطاف في «الأندلس» والمشرق، ودخل «بغداد» سنة ٣٥١هـ، وعاد إلى «الأندلس» في آخر أيام المستنصر، فمات بـ «قرطبة»، له كتاب «الدلائل على أمهات المسائل» في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة.

ينظر: «الأعلام» (٤/ ٦٣)، و «جذوة المقتبس» (٢٣٩).

(٣) يقدم عليه أي: على تمنى الموت. ولا يجيب إليه: أي إلى تمنيه، إذا قيل له: تمنه.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (١/ ١٧٢) بلفظ: «فاسألوا الموت»، وعزاه لابن جرير.
(٥) وذكره ابن عطية الأندلسي في «التفسير» (١/ ١٨١) بلفظ: «السؤال فقط وإن لم يكن بالقلب». قاله ابن عباس.

(٥) الكسب أصله في اللغة: الجمع، قاله الجوهري: وهو طلب الرزق، يقال: كسبت شيئاً واكتسبته بمعنى، وكسبت أهلي خيراً، وكسبت الرجل مالاً فكسب، وهذا مما جاء على فَعَلْتُهُ ففعل. والكواسب: الجوارح، وتكسب: تكلف الكسب، والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها: عقد القلب وعزمه، كقوله تعالى: ﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أي بما عزمتم عليه وقصدتموه.

الوجه الثاني: من الكسب: كسب المال من التجارة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. فالأول للتجار، والثاني للزراع.

الوجه الثالث: من الكسب: السعي والعمل، كقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩] وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت [الأنعام: ٧٠] فهذا كله للعمل، واختلف الناس في الكسب والاكْتِسَابِ، هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: ظاهره الخير، ومضمّنه الوعيد؛ لأن الله سبحانه عليمٌ بالظالمين، وغيرهم، ففائدة تخصيصهم حصول الوعيد.

﴿وَلَجَدْتَهُمُ آخِزِينَ النَّاسَ عَلَى حَيَاقٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَجِّحٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

= فقالت طائفة: معناهما واحد.

قال أبو الحسن علي بن أحمد: وهو الصحيح عند أهل اللغة؛ لا فرق بينهما، وقال ذو الرمة: [البيسط] ألفى أباه بذاك الكسب يكتب.

وقال الآخرون: الاكتساب أخص من الكسب؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه لنفسه ولغيره، ولا يقال: يكتب، قال الحطيئة: [البيسط]

ألقى كاسبهم في قعر مظلمة فاعفر هداك ملك الناس يا عمر قلت: والاكتساب: افتعال، وهو يستدعي اهتماماً وتعملاً واجتهاداً، وأما الكسب فيصح نسبته بأدنى شيء، ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أو في سعي. وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهد واهتمام.

والقائلون بالكسب اختلفوا في حقيقته، فقالت المعتزلة: هو إحداث العبد لفعله بقدرته ومشيئته استقلالاً، وليس للرب منع فيه، ولا هو خالق فعله، ولا مكنونه، ولا مريد له.

وقالت الأشعرية: هو مقارنة قدرة العبد لفعله الاختياري في محل واحد هو العبد، بمعنى أنه متى خلق الله القدرة التي هي العرض مقارنة لذلك الفعل، كان ذلك الفعل اختيارياً ومكسباً للعبد بدون أن يكون لقدرته فيه مدخل أصلاً، وإن لم يخلق الله تلك القدرة المقارنة للفعل، بل خلق الفعل في العبد فقط، كان ذلك الفعل اضطرارياً، ولم يكن مكسباً للعبد. وهذا الفريق صرح بأن العبد مجبور في الباطن مختار في الظاهر، فهو عنده مجبور في صورة مختار.

ولا يخفى أن هذا المذهب ومذهب الجبرية واحد معنى، فيلزم على كل من المذهبين ما يلزم على الآخر، والتستر بقال الاختيار، وصورته الظاهرية، المخالفة للواقع لا يفيد.

وقال العلامة الأمير: الكسب هو صرف إرادة العبد إلى الفعل، وهو أمر اعتياري، لا يحتاج لخلق وإيجاد، وبيان ذلك: أن العبد إذا توجهت إرادته لفعل من أفعاله كالصلاة، أوجد الله (تعالى) في العبد شيئين مقترنين أحدهما فعله بالمعنى الحاصل بالمصدر أي حركاته وسكناته. والثاني قدرته المتعلقة بفعله تعلق مقارنة، وتعلق المذكور هو فعله بالمعنى المصدرى، فالسبب هو توجه إرادة العبد، والمسبب شيئان وجوديان أوجدهما المولى تعالى مقترنين وهما فعل العبد وقدرته، فلا يناسب حينئذ جعل أحدهما علة أو شرطاً لآخر، وإنما السبب أو الشرط في إيجاد المؤثر لهما إرادة العبد، لكنه عادي لا عقلي. فإذا قصد العبد فعل الخير خلق الله (تعالى) فيه قدرة فعل الخير، وخلق الخير معها. وإن قصد فعل الشر خلق الله (تعالى) فيه قدرة فعل الشر، وخلق الشر معها. فكان هو المفوت لقدرة فعل الخير؛ لقصد فعل الشر؛ فيستحق الذم.

ينظر: «أفعال العباد» لشيخنا عبد الرحمن إبراهيم ص ٥١ - ٥٤.

وقوله تعالى: ﴿وَلتجدنهم أحرص الناس على حياة...﴾ الآية: وحرصهم على الحياة لمعرفةهم بذنوبهم، وأن لا خير لهم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ومن الذين أشركوا﴾: قيل: المعنى: / وأحرص من الذين أشركوا ١٣٠ لأن مشركي العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، والضمير في ﴿أحدهم﴾ يعود في هذا القول على اليهود، وقيل: إن الكلام تم في حياة، ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين؛ أنهم يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، والزحزحة الإبعاد والتنجية، وفي قوله تعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ وعيد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ...﴾ الآية: أجمع أهل التفسير؛ أن اليهود قالت: جبريل عدونا، واختلف في كيفية ذلك، فقيل: إن يهود فدك^(١) قالوا للنبي ﷺ: «نَسْأَلُكَ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ عَرَفْتَهَا، اتَّبَعْنَاكَ، فَسَأَلُوهُ عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: لُحُومُ الْإِبِلِ، وَالْبَائِنَا، وَسَأَلُوهُ عَنِ الشَّبَةِ فِي الْوَلَدِ، فَقَالَ: أَيُّ مَاءٍ عِلَّا، كَانَ لَهُ الشَّبَةُ، وَسَأَلُوهُ عَنْ نَوْمِهِ، فَقَالَ: تَنَامُ عَيْنِي، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي، وَسَأَلُوهُ عَنْ مَنْ يَجِيئُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَلَمَّا ذَكَرَهُ، قَالُوا: ذَاكَ عَدُوُّنَا؛ لِأَنَّهُ مَلَكُ الْحَزْبِ، وَالشَّدَائِدِ، وَالْجَذْبِ، وَلَوْ كَانَ الَّذِي يَجِيئُكَ مِيكَائِيلُ مَلَكُ الرَّحْمَةِ، وَالْخِصْبِ، وَالْأَمْطَارِ، لَاتَّبَعْنَاكَ».

وفي جبريل لغات:

جبريل^(٢)؛ بكسر الجيم والراء من غير همز، وبها قرأ نافع، وجبريل، بفتح الجيم

(١) بالتحريك، وآخره كاف: قرية بـ «الحجاز»، بينها وبين «المدينة» يومان. وقيل: ثلاثة، أفاءها الله تعالى على رسوله (عليه السلام) صلحاً. فيها عين فؤارة ونخل. ينظر: «مراصد الاطلاع» (٣/ ١٠٢٠).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص: «جبريل» بكسر الجيم والراء، جعلوا (جبريل) اسماً واحداً على وزن (قطمير)، وحجتهم قول الشاعر:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء
وقرأ حمزة والكسائي: «جبريل» بفتح الجيم والراء مهموزاً، قال الشاعر:

شهدنا فما تلقى لنا من كتبة مدى الدهر إلا جبرئيل أمامها
وحجتهم ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما جبرئيل وميكائيل كقولك عبد الله وعبد الرحمن، (جبر) هو العبد، و (إيل) هو الله، فأضيف (جبر) إليه وبني فقيل (جبرئيل).

وقرأ ابن كثير «جبريل» بفتح الجيم وكسر الراء مثل (سمويل) وهو اسم طائر. قال عبد الله بن كثير: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فأقراني «جبريل» فأنا لا أقرأ إلا كذلك.

وقرأ يحيى عن أبي بكر: «جبرئيل» على وزن (جبرعل) وهذه لغة تميم وقيس.

ينظر: «العنوان في القراءات السبع» (٧١)، و «حجة القراءات» (١٠٧)، و «الحجة» (٢/ ١٦٣)، و «شرح طيبة النشر» (٤/ ٥٠)، و «شرح شعله» (٢٧٠)، و «معاني القراءات» للأزهري (١/ ١٦٧).

وكسر الراء من غير همز، وبها قرأ ابن كثير، وروي عنه؛ أنه قال: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ وَهُوَ يَقْرَأُ: جَبْرِيلَ وَمِيكَالَ، فلا أزال أقرأها أبداً كذلك.

* ت * : يعني، والله أعلم: مع اعتماده على روايتها، قال الثعالبي: والصحيح المشهور عن ابن كثير ما تقدم من فتح الجيم، لا ما حكى عنه في الرؤيا من كسرها. انتهى.

وذكر ابن عباس وغيره؛ أن جبر، وميك، وإسراف هي كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك، وإيل: الله^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّه نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ الضمير في «إِنَّه» عائد على الله تعالى، وفي «نَزَّلَهُ» عائد على «جبريل»، أي: بالقرآن، وسائر الوحي، وقيل: الضمير في «إِنَّه» عائد على جبريل، وفي «نَزَّلَهُ» عائد على القرآن، وخص القلب بالذكر؛ لأنه موضع العقل والعلم، وتلقي المعارف.

و ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: معناه: بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة، و ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ضمير القرآن في «نَزَّلَهُ»، و ﴿مَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ما تقدمه من كتب الله تعالى، ﴿وَهْدًى﴾، أي: إرشاد.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِسَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا سَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِنَعْلَمَ عَذَابُ آيَةٍ (١٠٤) ﴿

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/١٨٣).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ...﴾ الآية: وعيدٌ وذمٌ لمعادي جبريل، وإعلام أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم، وعطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وقد كان ذكّر الملائكة عنهما؛ تشريفاً لهما؛ وقيل: خُصّاً لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما؛ فذكرا لثلاثي قول اليهود: إنا لم نُعَادِ الله، وجميع ملائكته، وعداوة العبد لله هي مَغْصِبَتُهُ، وترك طاعته، ومعاداة أوليائه، وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا...﴾ الآية: قال سيويّ^(١): «الواو للعطف، دخلت عليها ألف الاستفهام»، والنبد: الطرح، ومنه المنبوذ، والعهد الذي نبذوه: هو ما أخذ عليهم في التوراة من أمر النبي ﷺ ﴿ولما جاءهم رسولٌ من عند الله﴾ هو محمد ﷺ و ﴿مصدق﴾: نعتٌ لرسول، وكتابُ الله: القرآن، وقيل: التوراة؛ لأن مخالفتها نبذ لها، و ﴿وراءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ مثل؛ لأن ما يجعل ظهرياً، فقد زال النظر إليه جملةً، والعرب تقول: جَعَلَ هذا الأمرَ وراءَ ظهره، ودَبَّرَ أُنْذِيهِ.

وَ ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: تشبيه بمن لا يَعْلَمُ/ فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على ٣٠ ب عِلْمٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ...﴾ الآية: يعني اليهود، و ﴿تَتْلُوا﴾: قال عطاء: معناه: تقرأ^(٢)، وقال ابن عباس: ﴿تَتْلُوا﴾: تتبع^(٣)، و ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، أي: على عهد مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وقال الطبري: ﴿اتَّبَعُوا﴾: بمعنى: فَضَّلُوا، و ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، أي: على شرعه ونبوءته، والذي تلت الشياطين، قيل: إنهم كانوا يلقون إلى الكهنة الكَلِمَةَ من الحقِّ معها المائتة من الباطل؛ حتى صار ذلك علمهم، فجمعه سُلَيْمَانُ، ودَفَنَتْهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، فلما مات، أخرجته الشياطين، وقالت: إن ذلك كان عِلْمَ سُلَيْمَانَ.

(١) اختلف النحويون في ذلك على ثلاثة أقوال؛ فقال الأخفش: إن الهمزة للاستفهام والواو زائدة، وهذا على رأيه في جواز زيادتها. وقال الكسائي: هي «أو» العاطفة التي بمعنى بل، وإنما حركت الواو ويؤيده قراءة من قرأها ساكنة. وقال البصريون هي واو العطف قدمت عليها همزة الاستفهام على ما عرف، والزمخشري يقدر بين الهمزة وحرف العطف شيئاً يعطف عليه ما بعده، لذلك قدره هنا: أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا. ينظر: «الدر المصون» (٣١٦/١)، و «الكتاب» (١٨٩/٣).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٨٥/١) بلفظ: «تقرأ من التلاوة» عن عطاء.

(٣) أخرجه الطبري (٤٩٢/١) برقم (١٦٥٨)، وقال العلامة أحمد شاکر: ووقع في المطبوعة «العبري» وهو تصحيف، وتصحيحه كالآتي: الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي - ضعيف قال أبو زرعة «لا يصدق»، وهو مترجم في «لسان الميزان»، و «ابن أبي حاتم» (٢/١) ٦١- ٦٢، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٨٥/١)، والسيوطي في «الدر» (١٨٣/١)، وعزاه لابن جرير.

وروي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لما ذَكَرَ سليمانَ - عليه السلام - في الأنبياء، قال بعضُ اليهود: أَنظَرُوا إِلَيَّ مُحَمَّدٌ يذكرُ سليمانَ في الأنبياء، وما كان إلا ساحراً.

وقوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾ تبرئة من الله تعالى لسليمان - عليه السلام.

والسُّخْرُ والعمل به كُفْرٌ، ويقتلُ السَّاحِر عند مالك؛ كُفْرًا، ولا يستتاب؛ كالزناديق، وقال الشافعي: يسأل عن سِخْرِهِ، فإن كان كُفْرًا، استتيب منه، فإن تاب، وإلا قتل، وقال مالكٌ فيمن يعقدُ الرجالَ عن النساء: يعاقبُ، ولا يُقتلُ، والناس المَعْلَمُونَ: أتباعُ الشياطين من بني إسرائيل، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾: «مَا» عطفٌ على السُّخْرِ، فهي مفعولة، وهذا على القول بأن الله تعالى أنزل السُّخْرَ على الملكَيْن؛ ليكفر به من اتبعه، ويؤمن به من تركه، أو على قول مجاهد وغيره؛ أَنَّ الله تعالى أنزل على الملكَيْن الشيءَ الذي يفرق به بين المرء وزوجه، دون السُّخْرِ، أو ^(١) على القول؛ أَنَّ الله تعالى أنزل السحر عليهما؛ لِيُعْلَمَ عَلَى جَهَةِ التحذير منه، والنهي عنه.

قال * ع ^(٢): * والتعلِيم؛ على هذا القول، إنما هو تعريف يسير بمبادئه، وقيل: «إِنَّمَا» عطف على «ما» في قوله: ﴿مَا تَتْلُوا﴾، وقيل: «ما» نافية، ردٌّ على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، وذلك أَنَّ اليهود قالوا: إن الله تعالى أنزل جبريلَ وميكائيلَ بالسُّخْرِ، فنفى الله ذلك.

* ت * قال عِيَاضُ: والقِرَاءَةُ بكسر اللام من الملكَيْن شاذَّةٌ ^(٣)، وبَابِل: قُطِرَ من الأرض، وهَارُوثٌ وَمَارُوثٌ: بدل من الملكَيْن، وما يذكر في قصتهما مع الزُّهْرَةِ كُلُّهُ ضعيفٌ؛ وكذا قال: * ع ^(٤).

* ت * قال عِيَاضُ ^(٥): وأما ما ذكره أهل الأخبار، ونقله المفسِّرون في قصَّة

(١) أخرجه الطبري (٤٩٩/١) برقم (١٦٨٠)، وذكره السيوطي في «الدر» (١٨٣/١)، وابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٨٦/١).

(٢) «المحرر الوجيز» (١٨٦/١).

(٣) وقرأ بها الحسن بن علي وابن عباس، كما في مختصر الشواذ ص ١٦ وقرأ بها أيضاً أبو الأسود الدؤلي، والضحاك، وابن أبيزى.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٦/١)، و «البحر المحيط» (٤٩٧/١)، و «الدر المصون» (٣٢١/١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٧/١).

(٥) ينظر: «الشفاء» (ص ٨٥٣ - ٨٥٥).

هَارُوتَ وَمَارُوتَ. وما رُويَ عن عليٍّ، وابنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - في خَبَرِهما، وابتلائهما، فأعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يُزو منها سقيمٌ ولا صحيحٌ عن رسولِ الله ﷺ، وليس^(١) هو شَيْئاً يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن، اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثيرٌ من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود، وأفرائهم^(٢)؛ كما نصّه الله أول الآيات. انتهى. أنظره.

وقوله تعالى: ﴿وما يعلمان...﴾ الآية: ذكر ابنُ الأعرابي^(٣) في «اللياقوتية»؛ أن ﴿يَعْلَمَانِ﴾ بمعنى «يُعْلَمَانِ»^(٤)، ويشعران؛ كما قال كعب بن زهير^(٥): [الطويل]

(١) وليس هو؛ أي ما تضمنته قصتهما. يؤخذ بقياس: يستنبط بقياس؛ أي ليس مما يجري فيه القياس على غيره، مما ورد من الآيات والأحاديث الصحيحة؛ فلا ينبغي الخوض فيه نفيًا أو إثباتًا. قال في «نسيم الرياض»: وهذا الذي ذكره من أنه لم يرد فيه حديث ضعيف، ولا صحيح ردوه - كما نقله السيوطي في «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» - بأنه ورد من طرق كثيرة؛ منها ما في مسند أحمد، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً؛ ورواه ابن حبان، والبيهقي، وابن جرير؛ وابن حميد في «مسنده»، وابن أبي الدنيا وغيرهم من طرق عديدة.

وقال ابن حجر في «شرح البخاري»: إن له طرقاً تفيد العلم بصحته. وكذا في حواشي البرهان الحلبي، وذكره مسنداً عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه سمعه ﷺ يقول: «لما أهبط الله (تعالى) آدم إلى الأرض، قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها! وقالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم. فقال الله تعالى: هلما بملكين يهبطان الأرض. قالوا: ربنا هاروت وماروت. فأهبط، فتمثلت لهما الزهرة امرأة حسنة من البشر؛ فراوداها عن نفسها، فقالت: لا، والله، حتى تتكلما بهذه الكلمة من الشرك، فأبيا. فذهبت وأنت بابن جار لها تحمله، فراوداها. فقالت: لا، حتى تقتلا هذا الصبي، فقالا: لا. ثم راوداها مرة أخرى، فأنت بقدح خمر، فقالت: لا، حتى تشرباه. فشربا وسكرا، فتكلما بكلمة الكفر، وقتلا الصبي، فخيرهما الله (تعالى) بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاخترنا عذاب الدنيا: «فعلقا بين السماء والأرض». قال الخفاجي: وقد جمع السيوطي طرق هذا الحديث في تأليف مستقل، فبلغت نيفاً وعشرين طريقاً.

(٢) هذه الأخبار التي ذكرها بعض المفسرين منقولة من كتب اليهود في الإسرائيليات وأفرائهم وكذبهم على أنبياء الله تعالى وملائكته.

(٣) محمد بن زياد، المعروف بـ «ابن الأعرابي»، راوية، ناسب، علامة باللغة، ولد ١٥٠ هـ من أهل «الكوفة»، كان أحول، لم ير أحد في علم الشعر أغزر منه. له تصانيف منها: «أسماء الخيل وفرسانها»، و «الأنواء» و «الفاضل» و «البشر» وغيرها. توفي ٢٣١ هـ.

ينظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٤٩٢)، و «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٨٢)، و «المقتبس» (٦/ ٣ - ٩)، و «نزهة الألبا» (٢٠٧)، و «الأعلام» (٦/ ١٣١).

(٤) وهي قراءة طلحة بن مصرف، كما في «مختصر الشواذ» (ص ١٦)، و «البحر المحيط» (١/ ٤٩٨)، و «الدر المصون» (١/ ٣٢٢).

(٥) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبو المصرب. شاعر عالي الطبقة من أهل «نجد». له «ديوان=

تَعَلَّم رَسُولَ اللَّهِ أَتَكَ مُذْرِكِي وَأَنْ وَعِيداً مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ^(١)
وَحَمَلَ هَذِهِ آيَةَ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَّمَا نَزَلُوا يُعَلِّمَانِ بِالسَّخَرِ، وَيَنْهَيَانِ عَنْهُ، وَقَالَ
الْجَمْهُورُ: بَلِ التَّعْلِيمُ عَلَى عَرَفِهِ.

١٣١ * ص^(٢) * : وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾: «مِنْ» هُنَا زَائِدَةٌ مَعَ الْمَفْعُولِ لِتَأْكِيدِ/
اسْتِغْرَاقِ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّ أَحَدًا مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُومِ. انْتَهَى.

و ﴿يَقْرُؤُونَ﴾: مَعْنَاهُ فِرْقَةُ الْعِصْمَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يُؤْخَذُونَ^(٣) الرَّجُلَ عَنِ الْمَرْأَةِ؛ حَتَّى
لَا يَقْدِرَ عَلَى وَطْئِهَا، فَهِيَ أَيْضاً فِرْقَةٌ، وَ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: مَعْنَاهُ: بِعِلْمِهِ، وَتَمَكِينِهِ،
وَ ﴿يَضْرِبُهُمْ﴾: مَعْنَاهُ: فِي الْآخِرَةِ، وَالضَّمِيرُ فِي عِلْمُوا عَائِدٌ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ:
﴿اشْتَرَاهُ﴾؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْطُونَ الْأَجْرَةَ عَلَى أَنْ يُعَلِّمُوا، وَالْخَلَّاقُ: النَّصِيبُ وَالْحِطُّ وَهُوَ هُنَا
بِمَعْنَى الْجَاهِ وَالْقَدْرِ، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «لَمَنْ» لِلْقِسْمِ الْمُؤَذَّنَةِ بِأَنَّ الْكَلَامَ قَسَمٌ لَا شَرْطَ.

* م * : ﴿وَلَبِئْسَ مَا﴾: أَبُو الْبَقَاءِ^(٤): جَوَابُ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ

شِعْرٌ كَانَ مِمَّنْ اشْتَهَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمَّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ هَجَا النَّبِيَّ ﷺ وَأَقَامَ يَشِيبَ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ،
فَهَدَرَ النَّبِيَّ دَمَهُ، فَجَاءَهُ «كَعْبٌ» مُسْتَأْمِنًا، وَقَدْ أَسْلَمَ، وَأَنشَدَهُ لَامِيَتَهُ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي مَطَّلَعَهَا: «بَانَتْ سَعَادُ
فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولٌ» فَقَعَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ وَخَلَعَ عَلَيْهِ بَرْدَتَهُ. وَهُوَ مِنْ أَعْرَقَ النَّاسَ فِي الشَّعْرِ.
يَنْظُرُ: «الْأَعْلَامُ» (٢٢٦/٥).

(١) الْبَيْتُ فِي مِلْحَقِ دِيَوَانِهِ (٢٥٨)، وَ «أَمَالِي الْمَرْتَضَى» (٧٧/٢)، وَ «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١٨٧/١)،
وَ «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (٥٤/٢)، وَ «الدَّرُ الْمَصُونُ» (٣٢٢). وَيُرْوَى مُلَفَّقًا مِنْ بَيْتَيْنِ لِأَسِيدِ بْنِ أَبِي إِيَّاسَ
الْهَذَلِيِّ فِي «شَرْحِ أَشْعَارِ الْهَذَلِيِّينَ» (٦٢٧/٢)؛ وَبِلَا نِسْبَةٍ فِي «شَرْحِ الْأَشْمُونِيِّ» (١٥٨/١)؛ وَ «شَرْحِ
شُدُورِ الذَّهَبِ» (ص ٤٦٨)؛ وَ «مِفْتَاحِ اللَّيْلِ» (ص ٥٩٤/٢).
وَالشَّاهِدُ فِيهِ اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ «تَعَلَّمَ» بِمَعْنَى «اعْلَمَ»، فَنَصَبَ بِهِ مَفْعُولَيْنِ بِوَسْطَةِ «أَنَّ» الْمَصْدَرِيَّةَ الْمُؤَكَّدَةَ،
وَهَذَا هُوَ الْأَكْثَرُ فِي تَعْدِي هَذَا الْفِعْلِ.

(٢) «الْمَجِيد» (ص ٣٦١).

(٣) التَّأْخِذُ: حَبْسُ السَّوَّاحِرِ أَزْوَاجَهُنَّ عَنْ غَيْرِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ. وَالتَّأْخِذُ - أَيْضًا -: أَنْ تَحْتَالَ الْمَرْأَةُ بِحِيلٍ فِي
مَنْعِ زَوْجِهَا مِنْ جَمَاعٍ غَيْرِهَا، يُقَالُ: لِفُلَانَةٍ أَخَذَتْ تَوْخِذَ بِهَا الرِّجَالُ عَنِ النِّسَاءِ.
يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (٣٦).

(٤) «التَّبَيَّانُ» (١٠١/١) وَأَبُو الْبَقَاءِ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ، الْإِمَامُ مُحِبُّ الدِّينِ،
أَبُو الْبَقَاءِ الْعُكْبَرِيُّ، الْبَغْدَادِيُّ الصَّرِيرُ، النَّحْوِيُّ، الْحَنْبَلِيُّ، صَاحِبُ الْإِعْرَابِ. قَالَ الْقِفْطِيُّ: أَصْلُهُ مِنْ
«عُكْبَرٍ»، وَقُرَأَ بِالزَّوَايَا عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الْبَطَّانِيِّ، وَتَفَقَّهَ بِالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى الْفَرَّاءِ، وَلَا زَمَهُ حَتَّى بَرَعَ
فِي الْمَذْهَبِ وَالْخِلَافِ وَالْأَصُولِ، وَقُرَأَ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى يَحْيَى بْنِ نَجَّاحٍ وَابْنِ الْخَثَّابِ؛ حَتَّى حَازَ قِصَبَ
السَّبْقِ، وَصَارَ فِيهَا مِنَ الرُّؤَسَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَقَصَدَهُ النَّاسُ مِنَ الْأَفْطَارِ، وَأَقْرَأَ التَّحْوِ، وَاللُّغَةَ، وَالْمَذْهَبَ،
وَالْخِلَافَ، وَالْفَرَائِضَ، وَالْحِسَابَ. يَنْظُرُ: «بَغْيَةُ الْوَعَاةِ» (٣٨/٢، ٣٩).

محذوف، أي: السحراً والكفر، والضمير في «يَه» عائذ على السحر، أو الكفر. انتهى.

و ﴿شَرَوْا﴾: معناه: باعوا، والضمير في «يَعْلَمُونَ» عائذ على بني إسرائيل اتفاقاً، ﴿ولو أنهم آمنوا﴾: يعني: الذين اشتَرَوْا السُّحْرَ، وجواب: «لَوْ»: ﴿لَمْثُوبَةٌ﴾، والمثوبة؛ عند الجمهور: بمعنى الثواب.

وقوله سبحانه: ﴿لو كانوا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل نفْي العلم عنهم، ويحتمل: لو كانوا يعلمون علماً ينفع.

وقرأ جمهورُ النَّاسِ^(١): ﴿رَاعِنَا﴾؛ من المراعاة؛ بمعنى: قَاعِلْنَا، أي: أَرْعَنَا نَرْعَكَ، وفي هذا جَفَاءٌ أَنْ يُخَاطَبَ به أحدُ نبيِّه، وقد حضَّ الله تعالى على خَفْضِ الصوتِ عنده، وتعزيره وتوقيره، وقالت طائفةٌ: هي لغة للعرب، فكانت اليهودُ تصرفها إلى الرُّعُونَةِ؛ يظهرُونَ أنهم يريدون المراعاة، وَيُبْطِنُونَ أنهم يريدون الرُّعُونَةَ التي هي الجَهْلُ، فنهى الله المؤمنين عن هذا القول؛ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ^(٢)؛ لئلاً يتطرق منه اليهود إلى المحذور، و ﴿أَنْظُرْنَا﴾: معناه: أَنْتَظِرْنَا، وأمهَل عَلَيْنَا، ويحتمل أن يكون المعنى: تَفَقَّدْنَا مِنَ النَّظَرِ، والظاهرُ عندي استدعاءُ نظر العَيْنِ الْمُقْتَرِنِ بتدبُّر الحال، ولما نهى الله تعالى في هذه الآية، وأمر، حضَّ بَعْدَ عَلَى السَّمْعِ الذي في ضمنه الطاعة، وأَعْلَمَ أَنَّ لِمَنْ خَالَفَ أمره، فكفر - عذاباً أليماً، وهو المؤلم، ﴿وَأَسْمَعُوا﴾: معطوفٌ على ﴿قُولُوا﴾، لا على معمولها.

﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ

(١) وفي مصحف عبد الله وقراءته، وقراءة أبي: «راعونا» على إسناد الفعل لضمير الجمع، وذكر أيضاً أن في مصحف عبد الله (ازعونا) خاطبه بذلك إكباراً وتعظيماً إذ أقاموه مقام الجمع، وقرأ الحسن وابن أبي ليلى، وأبو حيو، وابن محيصن: «راعناً» بالتونين جعله صفة لمصدر محذوف، أي: قولاً راعناً، وهو على سبيل النسب كلابن، وتامر.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١/١٨٩)، و «البحر المحيط» (١/٥٠٨)، و «الدرر المصونة» (١/٣٣٢)، و «مختصر الشواذ» (ص ١٦)، و «إتحاف فضلاء البشر» (١/٤١١).

(٢) وسدُّ الذَّرَائِعِ: هي التَّوَصُّلُ بما هو مَضْلَحَةٌ إلى مفسدة، كما يرى الشاطبي، أو وسيلة وطَّرِيقَةٌ إلى الشيء، عن شمس الدين ابن القيم، فالشاطبي يقتصر على الذَّرَائِعِ سَدًّا، وابن القيم يشملها سَدًّا وفتحاً. فسدُّ الذرائع وسيلة مُبَاحَةٌ يَتَوَصَّلُ بها إلى مَنُوعٍ مشتمل على مفسدة.

قال البَاجِي: ذهب مَالِكٌ إلى الْمَنعِ من سَدِّ الذَّرَائِعِ، وهي المسألة التي ظاهرها الإِبَاحَةُ، ويتوصَّلُ بها إلى فِعْلٍ الْمَحْظُورِ، مثل: أن يبيع السِّلْعَةُ بمائة إلى أَجَلٍ، ويشتريها بخمسين نَقْدًا، فهذا قد توصل إلى حَمْسِينَ بِذِكْرِ السِّلْعَةِ.

رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية: يتناول لفظ الآية كل خير، والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها، وقال قوم: الرحمة القرآن.

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا...﴾ الآية: النسخ؛ في كلام العرب، على وجهين:

أحدهما: الثقل؛ كنقل كتاب من آخر، وهذا لا مدخل له في هذه الآية، وورد في كتاب الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٩].

الثاني: الإزالة، وهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين:

أحدهما: يثبت الناسخ بعد المنسوخ؛ كقولهم: نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ.

والآخر: لا يثبت؛ كقولهم: نَسَخَتِ الرِّيحُ الْأَثَرَ.

وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين وحدّ «الناسخ» عند حُذَقِ أَهْلِ السَّنة: الْخِطَابُ الدَّالُّ عَلَى ارْتِفَاعِ الْحُكْمِ الثَّابِتِ بِالْخِطَابِ الْمُتَقَدِّمِ عَلَى وَجْهِ لَوْلَاهُ لَكَانَ ثَابِتًا، مع تراخيه عنه.

* ت * قال ابن الحاجب: والنسخ؛ لغة: الإزالة، وفي الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي؛ بدليل شرعي متأخر^(١). انتهى من «مختصره الكبير».

(١) ينظر: «البرهان» لإمام الحرمين (٢/١٢٩٣)، «البحر المحيط» للزركشي (٤/٦٣)، «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/١٥)، «سلاسل الذهب» للزركشي (ص ٢٩٠)، «التمهيد» للأسنوي (ص ٤٣٥)، «نهاية السؤل» له (٢/٥٤٨)، «زوائد الأصول» له (ص ٣٠٨)، «منهاج العقول» للبدخشي (٢/٢٢٤)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (ص ٨٧)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٢/٧)، «المنخول» للغزالي (ص ٢٨٨)، «المستصفى» له (١/١٠٧)، «حاشية البناي» (٢/٧٤)، «الإبهاج» لابن السبكي (٢/٢٢٦)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٣/١٢٩)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (٢/١٠٦)، «المعتمد» لأبي الحسين (١/٣٦٣)، «إحكام الفصول في أحكام الأصول» للبايجي (ص ٣٨٩)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٤/٤٦٣)، «أعلام الموقعين» لابن القيم (١/٢٩)، «التقرير والتجوير» لابن أمير الحاج (٣/٤٩)، «ميزان الأصول» للسمرقندي (٢/٦٢١)، (٩٨١)، «حاشية الفتازاني والشريف على مختصر المنتهى» (٢/١٨٥)، «شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (٢/٣٤)، «شرح المنار» لابن ملك (ص ٩١)، «الموافقات» للشاطبي (٣/ =

والنسخُ جائز على الله تعالى عقلاً؛ لأنه لا يلزم عنه محال^(١)، ولا تتغيرُ صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر متعلّقة بالإرادة، فيلزم من النسخ أن الإرادة تغيّرت، ولا ٣١ ب النسخ؛ لطروء علم، بل الله تعالى يعلم إلى أيّ وقت ينتهي أمره بالحكم الأول، ويعلم نسخه له بالثاني، والبَداء لا يجوزُ على الله تعالى؛ لأنه لا يكون إلا لطروء علم أو لتغيّر إرادة؛ وذلك محالٌ في جهة الله تعالى، وجعلت اليهود النسخَ والبَداءَ واحداً، فلم يجوزوه، فضّلوا.

والمنسوخُ؛ عند أئمتنا: الحُكم الثابت نفسه، لا ما ذهب إليه المعتزلة من أنه مثل الحُكم الثابت فيما يستقبل، والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الأوامر مرادة، وأن

١٠٢)، «تقريب الوصول» لابن جزّي (ص ١٢٥)، «شرح مختصر المنار» للكوراني (ص ٩١)، «نشر البود» للشنيطي (٢/ ٢٨٠)، «شرح الكوكب المنير» للفتوح (ص ٤٦٢).

وينظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ١٨١)، «لسان العرب» (٦/ ٤٤٠٧)، «تاج العروس» (٢/ ٢٨٢)، «معيار العقول في علم الأصول» لابن المرتضى (١/ ١٧٢)، «كشف الأسرار» (٣/ ١٥٤)، «حواشي المنار» (٧٠٨)، «العدة» (٣/ ٧٧٨)، «الحدود» للباقي (ص ٤٩)، «اللمع» (ص ٣٠) «الوصول» لابن برهان (٧/ ٢)، «روضة الناظر» (٢٦)، «الرسالة» للشافعي (١٢٨)، «المغني» للخبازي (٢٥٠)، «المسودة» (١٩٥)، «شرح تنقيح الفصول» (٣٠١)، «تقريب الوصول» (١٢٥)، «المنتهى» لابن الحاجب (١١٣).

(١) أجمع أهل الشرائع طراً من المسلمين والنصارى واليهود على جوازه عقلاً، وخالف في ذلك الشمعونية من اليهود؛ متمسكين بشبه واهية.

احتج الجمهور بدليل عقلي حاصله: أن المخالف لا يخلو حاله من أحد أمرين: أما إن يكون ممن يوافق على أن الله تعالى هو الفاعل المختار، له أن يفعل ما يشاء كما يشاء من غير نظر إلى حكمة وغرض. وإما أن يكون ممن يعتبر المصلحة في أفعاله تعالى، فإن كان الأول، فليس في العقل ما يمنع من أن يأمر الله بشيء في وقت وينهى عنه في وقت آخر، كأمره بالصوم في اليوم الأخير من رمضان، ونهيه عنه في اليوم الأول من شوال. وإن كان الثاني، فلا يمتنع أن يعلم الله أن في الفعل مصلحة في وقت، فيأمر به، وأن في الفعل مضرة في وقت آخر، فينهى عنه؛ فإن المصلحة مما تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال. أما اختلافها بالأشخاص؛ فإننا نرى الغنى مصلحة لبعض الناس، والفقر مفسدة له، بينما نرى الفقر مصلحة للبعض الآخر، والغنى مفسدة له؛ يدلنا على ذلك قول الرسول الأمين فيما يرويه عن رب العالمين: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده. وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده» وأما اختلافها بحسب الأحوال والأزمان، فإننا نرى الشدة والغلظة نافعة في زمان دون زمان، لا ينفع فيه إلا المداراة والمساهلة. ومثل ذلك المريض يكون تناول الدواء مفيداً له حين مرضه، فيأمره الطبيب بتناوله، ويكون مضراً له بعد سلامته، فينهى الطبيب عنه حينئذ، أو كالغذاء الجيد لا تتحمله معدة المريض الضعيف، فينهى عنه. فإذا شفي من مرضه وسلمت معدته واحتاج إلى ما يعيد قوته، حتم عليه الطبيب تناول ما كان يمنعه عنه. واعتبر ذلك في تربية الطفل يعطى من الغذاء الخفيف ما يناسبه حتى إذا شب زيد له من متين الغذاء بسقاره. ومنع من رضاع أمه؛ إذ كان ذلك لا يناسب بعد كبره. ينظر: «النسخ» لشيخنا إمام إبراهيم عيسى ص ٢٠.

الحُسْنُ صفةٌ نفسيةٌ للحَسَنِ، ومراد الله تعالى حَسَنٌ^(١)، وقد قامت الأدلة على أَنَّ الأوامر لا

(١) لا قبح عقلاً وشرعاً في شيء من الأشياء من حيث كونه مخلوقاً لله (تعالى)، سواء كانت أفعال العباد أو لا؛ لأن مالك الأمور كلها يفعل ما يشاء. وأما أفعال العباد من حيث كونها مكسوبة للعباد، فقد تتصف بالحسن والقبح الشرعيين. هذا عند الأشاعرة، وأما المعتزلة فقد قالوا: القبح قبيح في نفسه، فيقبح من الله (تعالى) كما يقبح منا، وكذا الحسن، وقد يدركان بالعقل، فوقع الاختلاف بين الفريقين في أن العقل هل له حكم في حسن الأفعال وقبحها أم لا. بل الحاكم بهما الشرع فقط؟! وتفصيل المقام على ما في شرح «المواقف»: أن العلماء قد ذكروا أن الحسن والقبح يطلقان على ثلاثة معان: الأول: كون الفعل صفة كمال كالعلم، وكونه صفة نقصان كالجهل، ولا نزاع بين الفريقين في أن الحسن والقبح بهذا المعنى يدركان بالعقل؛ فإن العقل يحتم بأن العلم حسن، والجهل قبيح، ولا يتوقف على حكم الشرع بالحسن والقبح فيهما. والمعنى الثاني: كون الفعل ملائماً للغرض أو منافراً له، فما وافق الغرض كان حسناً، وما خالفه كان قبيحاً، وما خلا منهما لا يكون حسناً ولا قبيحاً. وقد يعبر عن الحسن والقبح بهذا المعنى بالمصلحة والمفسدة، فيقال: الحسن ما فيه مصلحة، والقبيح ما فيه مفسدة، وما خلا عنهما لا يكون حسناً ولا قبيحاً. ولا نزاع في أن الحسن والقبح بهذا المعنى أيضاً عقليان، أي يدركان بالعقل، لكن هذا المعنى يختلف بالاعتبار؛ فإن قتل زيد مصلحة لأعدائه وموافق لغرضهم، ومفسدة لأوليائه ومخالف لغرضهم، والمعنى الثالث: كون الفعل متعلق المدح عاجلاً والثواب أجلاً، وكونه متعلق الذم عاجلاً والعقاب أجلاً. وهذا المعنى الثالث هو محل النزاع، فالحسن والقبح بهذا المعنى عند الأشعرى شرعي؛ وذلك لأنهما لا يكونان لذات الفعل، وليس للفعل صفة لأجلها يكون الفعل حسناً وقبيحاً بهذا المعنى الثالث حتى يدرك العقل ما به الحسن والقبح، ويحكم بالحسن والقبح، بل كل ما أمر الشارع به فهو حسن، وكل ما نهى الشارع عنه قبيح، حتى لو عكس الأمر لانعكس الحال. وقالت المعتزلة: للفعل في نفسه (أي مع قطع النظر عن الشرع) جهة محسنة مقتضية لاستحقاق فاعله مدحاً وثواباً أو مقبحة مقتضية لاستحقاق فاعله ذماً وعقاباً. ثم إن تلك الجهة المقتضية لهما هو ذات الفعل عند جمهور المتقدمين منهم، وصفة حقيقية زائدة على ذات الفعل عند بعض المتقدمين منهم. وقال الجبائي منهم: ليس حسن الأفعال وقبحها لذواتها ولا لصفات حقيقية لها، بل لوجوه واعتبارات وأوصاف إضافية تختلف بحسب الاعتبار كما في لطم اليتيم للتأديب. ثم إن المعتزلة قالوا: إن من الحسن والقبح ما يدركه العقل ضرورة من غير نظر واستدلال، كحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار. ومنهما ما يدركه العقل بالنظر والاستدلال، كقبح الصدق الضار، وحسن الكذب النافع. ومنهما ما لا يدركه العقل لا بالضرورة ولا بالاستدلال، كحسن صوم آخر رمضان، وقبح صوم أول شوال، لكن إذا ورد به الشرع، وعلم أن ثمة جهة محسنة ومقبحة، فإدراكه الحسن والقبح في هذا القسم موقوف على كشف الشرع عنهما بأمره ونهيه. وللماتريديّة موافقة للمعتزلة في أن حسن بعض أفعال العباد وقبحها يكونان لذات الفعل أو لصفة له، ويعرفان عقلاً كما يعرفان شرعاً.

ينظر: «نشر الطوالع» (ص ٢٧٨-٢٨٠)، «البحر المحيط» للزركشي (١/١٤٣، ١٦٨)، «البرهان» لإمام الحرمين (١/٨٧)، «سلاسل الذهب» للزركشي (٩٧)، «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (١/٧٦)، «التمهيد» للأسنوي (٦١-٦٢)، «نهاية السؤل» له (١/٨٨)، «زوائد الأصول» له (١٩٥)، «منهاج العقول» للبدخشي (١/٦٧٠)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٧)، «التحصيل من المحصول» للآموي (١/١٧٥-١٨٠)، «المنخول» للغزالي (٨)، «المستصفى» له (١/٥٥)، «حاشية البناني» (١/ =

ترتبط بالإرادة، وعلى أن الحُسن والقُبْح في الأحكام، إنما هو من جهة الشرع، لا بصفة نفسية، والتخصيص من العموم يوهم أنه نسخ، وليس^(١) به؛ لأن المخصَّص لم يتناولهُ العمومُ قطُّ، ولو تناولهُ العموم، لكان نسخاً، والنسخ لا يجوز في الأخبار^(٢)، وإنما هو

= (٦٤)، «الإبهاج» لابن السبكي (١/ ٦١، ١٣٨)، «الآيات البيّنات» لابن قاسم العبادي (١/ ٨٧، ٨٨)، «تخريج الفروع» (٢٤٤)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/ ٧٧، ٨١)، «المعتمد» لأبي الحسين (٢/ ٣٢٧)، «شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (١/ ١٧٣)، «نسمات الأسحار» لابن عابدين (٤٥)، «شرح المنار» لابن ملك (٣٥)، «ميزان الأصول» للسمرقندي (١/ ١٥٠-١٥١)، «الكوكب المنير» للفتوح (٩٥).

(١) معلوم أن التخصيص والنسخ يشتركان في أن كل واحد منهما بيان ما لم يرد باللفظ، إلا أنهما يفترقان في أمور، وهي أن التخصيص يبين أن العام لم يتناول المخصوص، والنسخ يرفع بعد الثبوت؛ وأن التخصيص لا يرد إلا على العام، والنسخ يرد عليه وعلى غيره. وأنه يجب أن يكون متصلاً، والنسخ لا يكون إلا متراحياً. وأنه لا يجوز إلى أن لا يبقى شيء، والنسخ يجوز. وأنه قد يكون بأدلة السمع وغيرها، والنسخ لا يجوز إلا بالسمع. وأنه يكون معلوماً ومجهولاً. والنسخ لا يكون إلا معلوماً. وأنه لا يخرج المخصوص منه من كونه معمولاً به في مستقبل الزمان، والنسخ يخرج المنسوخ عن ذلك. وأنه يرد في الأخبار والأحكام، والنسخ لا يرد إلا في الأحكام. وأن دليل الخصوص يقبل التعليل ودليل النسخ لا يقبله.

ينظر: «النسخ» لشيخنا إمام إبراهيم عيسى ص ٩١.

(٢) تنوعت آراء الأصوليين في موضوع النسخ، فمنهم من ذهب إلى أن النسخ كما يكون في الأوامر والنواهي يكون في الأخبار. وينسب لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والسدي حيث قالوا: «قد يدخل النسخ على الأمر والنهي وعلى جميع الأخبار» ولم يفصلاً، وتابعهما على هذا القول جماعة. قال أبو جعفر: «وهذا القول عظيم جداً يثول إلى الكفر»؛ لأن قائلًا لو قال: «قام فلان» ثم قال: «لم يقم» ثم قال: «نسخته» لكان كاذباً.

وبعضهم ذهب إلى أن أمر الناسخ والمنسوخ موكول إلى الإمام، فله أن ينسخ ما شاء. وهذا القول أعظم؛ لأن النسخ لم يكن إلى النبي ﷺ إلا بالوحي من الله (تعالى)؛ إما بقرآن مثله على قول قوم، وإما بوحى من غير القرآن، فلما ارتفع هذا بموت النبي ﷺ ارتفع النسخ.

ومنهم من ذهب إلى أن النسخ يكون في الأوامر والنواهي، وأما الأخبار فيفضل فيها بين ما فيه حكم، فيجوز النسخ فيه، وبين ما لا حكم فيه، فلا يجوز.

ومنهم من ذهب إلى أن النسخ يكون في الأوامر والنواهي خاصة.

وهذا المذهب حكاه هبة الله بن سلامة عن مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة بن عمار.

وهناك مذهب خامس، عليه أئمة العلماء، وهو أن النسخ إنما يكون في المتعبدات؛ لأن لله (عز وجل) أن يتعبد خلقه بما شاء إلى أي وقت شاء، ثم يتعبد بهم بغير ذلك، فيكون النسخ في الأوامر والنواهي وما كان في معناهما مثل قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ [النور: ٣] وقوله تعالى في سورة يوسف - عليه السلام -: ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً﴾ [يوسف: ٤٧] فالأولى مثال للخبر الذي بمعنى النهي؛ لأن المعنى. لا تنكحوا زانية ولا مشركة. =

مختص بالأوامر والنواهي، ورد بعض المعترضين الأمر خبراً؛ بأن قال: أليس معناه واجب عليكم أن تفعلوا كذا، فهذا خبر، والجواب أن يقال: إن في ضمن المعنى: إلا أن أنسخه عنكم، وأرفعه، فكما تضمن لفظ الأمر ذلك الإخبار؛ كذلك تضمن هذا الاستثناء، وصور النسخ تختلف، فقد ينسخ الأثقل إلى الأخف، وبالعكس، وقد ينسخ المثل بمثله ثقلاً وخفة، وقد ينسخ الشيء لا إلى بدل، وقد تُنسخ التلاوة دون الحُكم، وبالعكس، والتلاوة والحكم حكمان، فجائز نسخ أحدهما دون الآخر، ونسخ القرآن بالقرآن، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد؛ وهذا كله مُتَّفَقٌ عليه، وحُذِّقَ الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في قوله - عليه السلام - «لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ»^(١)، وهو ظاهر مسائل مالك.

= والثانية مثال للخبر الذي بمعنى الأمر؛ لأن المعنى «ازرعوا» وهذا المذهب عُزِيَ إلى الضحاك بن مزاحم.

ينظر: «النسخ» لشيخنا إمام عيسى. (ص ١٨ - ١٩).

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٠/٣) كتاب «الوصايا»، باب الوصية للوارث، حديث (٢٨٧٠)، والترمذي (٤/٤٣٣) كتاب «الوصايا»، باب لا وصية لوارث، حديث (٢١٢٠)، وابن ماجه (٩٠٥/٢) كتاب «الوصايا»، باب لا وصية لوارث، حديث (٢٧١٣)، وأحمد (٢٦٧/٥)، والطيالسي (٢/ ١١٧ - منحة رقم (٢٤٠٧)، وسعيد بن منصور (٤٢٧)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٦٤)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٢٢٧)، والبيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب «الوصايا»، باب نسخ الوصية للوالدين، كلهم من إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: «إن الله (تبارك وتعالى) قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٤٩) من طريق الوليد بن مسلم قال: ثنا ابن جابر، ثنا سليم بن عامر، سمعت أبا أمامة، فذكر الحديث.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم: عمرو بن خارجة، وأنس بن مالك، وابن عباس، وجابر، وعلي، وعبد الله بن عمرو، ومעقل بن يسار، وزيد بن أرقم، والبراء، ومجاهد مرسلاً.

* حديث خارجة: أخرجه الترمذي (٤/ ٤٣٤) كتاب «الوصايا»، باب لا وصية لوارث، حديث (٢١٢١)، والنسائي (٦/ ٢٤٧) كتاب «الوصايا»، باب إبطال الوصية للوارث وابن ماجه (٩٠٥/٢) كتاب «الوصايا»، باب لا وصية لوارث، وأحمد (٤/ ١٨٦، ١٨٧)، والدارمي (٢/ ٤١٩) كتاب «الوصايا»، باب الوصية للوارث، والطيالسي (١٣١٧)، وأبو يعلى (٣/ ٧٨) رقم (١٥٠٨)، والبيهقي (٦/ ٢٦٤) كتاب «الوصايا»، باب نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو بن خارجة؛ أن النبي ﷺ خطب على ناقته وأنا تحت جرائنها، وإن لعبها يسيل بين كتفي، فسمعت يقول: «إن الله (عز وجل) أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

قال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طريق آخر.

* ت *: ويعني بالسنة الناسخة للقرآن الحَبَر المتواتر القطعي، وقد أشار إلى أن هذا

= أخرجه الدارقطني (١٥٢/٤) كتاب الوصايا، حديث (١٠)، والبيهقي (٢٦٤/٦) كتاب «الوصايا»، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين، عن طريق زياد بن عبد الله عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن بن عمرو بن خارجة مرفوعاً بلفظ: «لا وصية لوارث، إلا أن يجيز الورثة». وضعف البيهقي سنده: وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠٢/٤) رقم (٤١٤٠) من طريق عبد الملك بن قدامة الجمحي عن أبيه عن خارجة بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح وأنا عند ناقته: «ليس لوارث وصية، قد أعطى الله (عز وجل) كل ذي حق حقه، وللعاهر الحجر». وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحي، وثقه ابن معين، وضعفه الناس. اهـ.

قلت: وثقه أيضاً يعقوب بن سفيان فقال في «المعرفة والتاريخ» (١/٤٣٥): «مديني ثقة».

لكن عبد الملك هذا وضعفه الجمهور: قال البخاري في «الضعفاء» (٢٢٠): يعرف وينكر.

وقال أبو زرعة الرازي: منكر الحديث «سؤالات البرذعي» (ص ٣٥٦).

وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث «علل الحديث» (٢٤٣٥).

وقال النسائي: مديني ليس بالقوي «الضعفاء والمتروكين» (٤٠٣).

وقال الدارقطني: مديني يترك «سؤالات البرقاني» (٣٠١).

* حديث أنس: أخرجه ابن ماجه (٩٠٦/٢) كتاب «الوصايا» باب لا وصية لوارث، حديث (٢٧١٤)، والدارقطني (٧٠/٤) كتاب «الفرائض»، حديث (٨)، والبيهقي (٢٦٤/٦) كتاب «الوصايا»، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين. من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد عن أنس به.

قال البوصيري في «الزوائد» (٢/٣٦٨): هذا إسناد صحيح؛ رجاله ثقات.

* حديث ابن عباس:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب الفرائض، حديث (٨٩)، والبيهقي (٢٦٣/٦) كتاب «الوصايا»، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين. من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. قال البيهقي: عطاء: هو الخراساني، لم يدرك ابن عباس ولم يره. قاله أبو داود وغيره.

وأخرجه البيهقي (٢٦٣/٦) من طريق يونس بن راشد عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس.

قال الحافظ في «التلخيص» (٣/٩٢): حديث حسن.

* حديث جابر:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب «الفرائض»، حديث (٩٠) من طريق فضل بن سهل: ثنى إسحاق بن إبراهيم الهروي، ثنا سفيان بن عمرو عن جابر به.

قال الدارقطني: الصواب مرسل.

قال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٩٧/٤): إسحاق بن إبراهيم الهروي، ثم البغدادي، أبو موسى، وثقه ابن معين وغيره، وقال عبد الله بن علي بن المديني: سمعت أبي يقول: أبو موسى الهروي روى عن سفيان بن عمرو عن جابر: «لا وصية.. الحديث».

كأنه سفيان بن عمرو مرسلًا، «كذا في «الميزان» اهـ.

الحديث مُتَوَاتِرٌ، ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠]،

= وللحديث طريق آخر: أخرجه الدارقطني (١٥٢/٤) كتاب «الوصايا»، حديث (١٢) من طريق نوح بن دراج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وصية لوارث، ولا إقرار بدين».

* حديث علي:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب الفرائض، حديث (٩١)، من طريق يحيى بن أبي أنيسة، عن أبي إسحاق الهمداني، عن عاصم بن ضمرة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين قبل الوصية، ولا وصية لوارث».

ومن طريق يحيى أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٩٠/٧) ويحيى بن أبي أنيسة. قال أحمد: متروك الحديث.

وقال ابن المديني: لا يكتب حديثه.

وقال ابن معين: ليس بشيء.

وقال البخاري: لا يتابع في حديثه، وليس بذاك.

وقال النسائي: متروك الحديث.

وأسند ذلك ابن عدي في «الكامل» عنهم.

* حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه الدارقطني (٩٨/٤) كتاب «الفرائض»، حديث (٩٣)، وابن عدي في «الكامل» (٨١٧/٢) من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده؛ أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم النحر: «لا وصية لوارث، إلا أن يجيز الورثة».

* حديث معقل بن يسار:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢١١/٥) من طريق علي بن الحسن بن يعمر: ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال معقل بن يسار: كنا بمنى وكان رسول الله ﷺ يخطب ولعاب ناقته بين كتفي، ففهمت من كلامه قال: «لا وصية لوارث».

قال ابن عدي: هذا الحديث باطل بهذا الإسناد.

* حديث زيد بن أرقم والبراء:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٥٠/٦) من طريق موسى بن عثمان الحضرمي عن أبي إسحاق عن البراء وزيد بن أرقم قالوا: كنا مع النبي ﷺ يوم غدیر «خم» ونحن نرفع غصن الشجرة عن رأسه فقال: «إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهلي، لعن الله من ادعى إلى غير أبيه، ولعن الله من تولى غير مواليه. الولد للفراش وللعاهر الحجر. ليس لوارث وصية». قال ابن عدي: موسى بن عثمان: حديثه ليس بمحفوظ.

وقال أبو حاتم: متروك. ينظر: «اللسان» (١٢٥/٦)، و «الميزان» (٢١٤/٤).

* مرسل مجاهد:

أخرجه البيهقي (٢٦٤/٦) كتاب «الوصايا»، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق الشافعي عن ابن عينة عن سليمان الأحول عن مجاهد به.

واختلف القُرَّاء في قراءة قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِيهَا﴾ فقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «نُنْسَاهَا»؛ بنون مفتوحة، وأخرى ساكنة، وسين مفتوحة، وألف بعدها مهموزة، وهذا بمعنى التأخير، وأما قراءة نافع والجمهور: «نُنْسِيهَا»؛ من النسيان^(١)، وقرأت ذلك فرقة إلا أنها همزت بعد السين^(٢)، فهذه بمعنى التأخير والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضدّ الذكر، وقد يجيء بمعنى التَّرك، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظة النسيان الذي هو ضدّ الذكر، فمعنى الآية به: ما ننسخ/ من آية أو نقدر نسيانك لها، فإننا نأتي بخير منها لكم أو مثلها في المنفعة، وما كان على معنى الترك، أو على معنى التأخير، فيترتب فيه معانٍ، أنظرها، إن شئت فإني آثرت الاختصار.

* ع^(٣): والصحيح أن نسيان النبي ﷺ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْسَاهُ، ولم يرد أن يثبت قرآنًا - جائز، فأما النسيان الذي هو آفة في البشر، فالنبي ﷺ معصومٌ منه قبل التبليغ، وبعد التبليغ، ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يحفظ، فجائز عليه ما يجوز على البشر؛ لأنه ﷺ قد بَلَغَ، وأدى الأمانة؛ ومنه الحديث، حِينَ أَسْقَطَ آيَةً، فَلَمَّا فَرَعَ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ: «أَفِي الْقَوْمِ أُبَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلِمَ لَمْ تُذَكِّرْنِي؟ قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهَا رُفِعَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَمْ تُرْفَعْ، وَلَكِنِّي نُسِيْتُهَا»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: معناه: التقرير، ومعنى الآية أن الله تعالى ينسخ ما شاء، ويثبت ما شاء، ويفعل في أحكامه ما شاء، هو قدير على ذلك، وعلى كل شيء، وهذا لإِنْكَارِ الْيَهُودِ النَّسْخَ، وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَمُومٌ﴾، معناه الخصوص، إذ لا تدخل فيه الصفات القديمة؛ بدليل العقل، ولا المحالات؛ لأنها ليست بأشياء، والشئ في كلام العرب: الموجود، و﴿قديرٌ﴾: اسم فاعل على المبالغة، قال القُشَيْرِيُّ^(٥): وإن من علم

(١) ينظر: «السبعة» (١٦٨)، و«الكشف» (٢٥٧/١)، و«حجة القراءات» (١٠٩)، و«العنوان» (٧١)، و«الحجة» (١٨٠/٢)، و«شرح الطيبة» (٥٤/٤، ٥٥)، و«شرح شعلة» (٢٧٢)، و«معاني القراءات» (١٦٩/١)، و«إتحاف» (٤١١/١).

(٢) وقد ذكر أبو حيان في البحر اثنتي عشرة قراءة لهذه اللفظة. ينظر: «البحر المحيط» (٥١٣/١).

(٣) «المحرر الوجيز» (١٩٤/١).

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٧/٣) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٢/٢) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٥) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد، أبو القاسم القشيري، النيسابوري، أخذ عن أبي علي الدقاق، وأبي عبد الرحمن السلمي، ودرس الفقه على أبي بكر الطوسي، وقرأ الكلام على ابن فورك، وأبي إسحاق الإسفراييني، قال ابن السمعاني: لم ير أبو القاسم مثل نفسه في كماله وبراعته. صنف التفسير الكبير، والرسالة. ولد سنة ٣٧٦، ومات سنة ٤٦٥.

أن مولاه قديرٌ على ما يريد، قَطَعَ رجاءه عن الأغيار؛ كما قال تعالى عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] قال أهل الإشارة: معناه: سهلت طريقهم إليك، وقطعت رجاءهم عن سواك، ثم قال: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، [إبراهيم: ٣٧] أي: شغلتهم بخدمتك، وأنت أولى بهم، ﴿فَأَجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، أي: إذا احتاجوا شيئاً، فذل عبادك لهم، وأوصل بكرمك رعايتهم إليهم؛ فإنك على ذلك قدير، وإن من لزم بابه أوصل إليه محابته، وكفاه أسبابه، وذل له كل صعب، وأورده كل سهل عذب من غير قطع شقة، ولا تحمل مشقة انتهى من «التحبير».

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٧٧)
 أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٧٨)

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: المُلْكُ السلطان، ونفوذ الأمر، والإرادة، وجمع الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ دالٌّ على أن المراد بـ«خطاب النبي ﷺ» خطاب أمته.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...﴾ الآية: قال أبو العالية: إن هذه الآية نزلت حين قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: «لَيْتَ دُونَنَا جَرَتْ مَجْرَى دُنُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَعْطَاكُمْ اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا أُعْطِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، وَتَلَا: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال ابن عباس: سَبَّهَا أُنْ رَافِعَ بْنُ خُرَيْمَةَ الْيَهُودِيَّ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ تَفْجِيرَ عُيُونٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ^(١)، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا، وَمَا سُئِلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُوَ أَنْ يَرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

وكنى عن الإعراض عن الإيمان والإقبال على الكفر بالتبذل، و ﴿ضَلَّ﴾: أخطأ (٣٢) ب الطريق، والسواء من/ كل شيء الوسط، والمعظم؛ ومنه: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾

= انظر: «طبقات ابن قاضي شهبة» (١/٢٥٤)، «طبقات السبكي» (٣/٢٤٣)، «تاريخ بغداد» (١١/٨٣)، «الأعلام» (٤/١٨٠).

(١) أخرجه الطبري (١/٥٣٠) برقم (١٧٨٠) وقال أحمد شاكر في المطبوعة: «من قولهم»، والصواب ما أثبت من سيرة ابن هشام (٢/١٩٧) اهـ. وذكره السيوطي في «الدر» (١/٢٠١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن إسحاق.

[الصفات: ٥٥] وقال حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ فِي رِثَاءِ النَّبِيِّ ﷺ [الكامل]:

يَا وَنَحْ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ بَعْدَ الْمُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ الْمُلْحَدِ^(١)
والسبيل: عبارة عن الشريعة التي أنزلها الله تعالى لعباده.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَاسًا مِّنْ عِندِ
أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا...﴾
الآية: قال ابن عَبَّاسٍ: المراد ابنا أَخْطَبَ؛ حَيٍّ وَأَبُو يَاسِرٍ، أَي: وأتباعهما^(٢)، واختلف
في سبب هذه الآية، ف قيل: إن حُذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ^(٣)، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ^(٤) أتيا بَيَّنَّتْ

(١) ينظر: «ديوانه» ص (٦٦)، و «لسان العرب» (٤١٢/١٤) (سوا)، وبلا نسبة من «المقتضب» (٢/٢٧٤)، و «السيرة مع الروض» (٢٦٦/٤)، و «مجاز القرآن» (٥٠/١)، و «الكامل» (٣/١٣٦٩).

وينظر: «تفسير الطبري» (٣٦٨/١)، و «القرطبي» (٧٠/٢)، «الدر المصون» (١/٣٤٠).
(٢) أخرجه الطبري (٥٣٤/١) برقم (١٧٩١)، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٠١/١)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم. وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١/١٩٦).

(٣) حذيفة بن اليمان (واسم اليمان حِثْل، وقيل: حُسَيْل) بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جروة فزوة، ابن الحارث بن مازن بن قُطَيْعة بن عيس بن بغيض. أبو عبد الله العبسي، واليمان لقب: حسل والده. وقيل: لقب جروة بن الحارث. وقيل له ذلك؛ لأنه حالف الأنصار وهم من اليمن. من كبار الصحابة. صاحب سر رسول الله ﷺ في المناقطين. روى عنه ابنه أبو عبيدة، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وقيس بن أبي حازم، وأبي وائل، وزيد بن وهب، وغيرهم. توفي سنة (٣٦) بعد وفاة عثمان بأربعين ليلة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤٦٨/١)، «الإصابة» (٣٣٢/١)، «الثقات» (٨٠/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٢٥/١)، «الكاشف» (٢١٠/١)، «العبر» (٢٥/١)، «الاستيعاب» (١/٣٤٤).

(٤) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوديم... المذحجي أبو اليقظان العنسي. حليف بني مخزوم. هو من السابقين الأولين إلى الإسلام... وأمه سُمَيَّة، وهي أول من استشهد في سبيل الله (عز وجل) وأبوه وأمه من السابقين، وكان إسلام عمار بعد بضعة وثلاثين، وهو ممن عذب في الله. قال عمار: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله ﷺ فيها فقلت: ما تريد؟ فقال: ما تريد أنت؟ قلت: أريد أن أدخل على محمد وأسمع منه كلامه. فقال: وأنا أريد ذلك، فدخلنا عليه، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا. وهو من مشاهير الصحابة رضي الله عنه.
قتل مع علي بـ «صفين» سنة (٣٧)، وله (٩٣ سنة).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٢٩/٤)، «الإصابة» (٣٧٣/٤)، «الثقات» (٣٠٢/٣)، «الاستيعاب» =

المِذْرَاس^(١)، فأراد اليهود صَرْفَهُمَا عن دينهما، فثبنا عليه، ونزلت الآية، وقيل: إن هذه الآية تابعة في المعنى لما تقدّم من نهي الله عز وجل عن متابعة أقوال اليهود في: ﴿رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] وغيره، وأنهم لا يودّون أن ينزل على المؤمنين خير، ويودّون أن يردوهم كفاراً من بعد ما تبين لهم الحق، وهو نبوءة محمد ﷺ.

* ت * : وقد جاءت أحاديث صحيحة في النهي عن الحسد، فمنها حديث مالك في الموطأ عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ»^(٢) وأسند أبو عمر بن عبد البر عن الزبير، قال: قال رسول الله ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، حَالِقَتَا الدِّينِ، لَا حَالِقَتَا الشَّعْرِ»^(٣). انتهى من «التمهيد».

= (٣/ ١١٣٥)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٣٩٤)، «التاريخ الصغير» (١/ ٧٩)، «الجرح والتعديل» (٦/ ٣٨٩).

(١) المِذْرَاس: البيت الذي يذرس فيه القرآن، وكذلك مدراس اليهود، وهو المقصود هنا. ينظر: «لسان العرب» (١٣٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦/١٠) في الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير (٦٠٦٥)، وباب الهجرة (٧٠٧٦). ومسلم (٤/ ١٩٨٣-١٩٨٤) في البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابير (٢٣-٢٤/ ٢٥٥٩). وأبو داود (٢/ ٦٩٥) في الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٠)، والترمذي (٤/ ٩٠) في البر والصلة، باب ما جاء في الحسد (١٩٣٥)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٧) في المهاجرة، باب ما جاء في حسن الخلق، باب ما جاء في المهاجرة (١٤). وأحمد (٣/ ١٩٩)، وأبو يعلى (٣٢٦١) والبيهقي (١٠/ ٢٣٢) والبخاري (٦/ ١٢٠) كلهم من طريق يحيى بن أبي كثير عن عيش بن الوليد؛ أن مولى الزبير حدثه؛ أن الزبير بن العوام حدثه؛ أن النبي ﷺ قال، فذكره. وقال الترمذي: هذا حديث قد اختلفوا في روايته عن يحيى بن أبي كثير، فروى بعضهم عن يحيى بن أبي كثير عن عيش بن الوليد، عن مولى الزبير عن النبي ﷺ ولم يذكروا فيه عن الزبير. اهـ.

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٦٤) كتاب «صفة القيامة»، باب (٥٦) رقم (٢٥١٠)، وأحمد (١/ ١٦٥، ١٦٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٢٠) كلهم من طريق يحيى بن أبي كثير عن عيش بن الوليد؛ أن مولى الزبير حدثه؛ أن الزبير بن العوام حدثه؛ أن النبي ﷺ قال، فذكره. وقال الترمذي: هذا حديث قد اختلفوا في روايته عن يحيى بن أبي كثير، فروى بعضهم عن يحيى بن أبي كثير عن عيش بن الوليد، عن مولى الزبير عن النبي ﷺ ولم يذكروا فيه عن الزبير. اهـ.

والطريق المرسل الذي أشار إليه الترمذي: أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٢١). وهذا الحديث أخرجه البزار (٢/ ٤١٨، ٤١٩-كشف) رقم (٢٠٠٢) من طريق موسى بن خلف عن يحيى بن أبي كثير عن عيش بن الوليد مولى لآل الزبير عن ابن الزبير به.

وقال البزار: هكذا رواه موسى بن خلف، ورواه هشام صاحب الدستوائي عن يحيى عن عيش عن مولى للزبير عن الزبير. وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣): وإسناده جيد.

قلت: وفيه نظر كما سيأتي؛ فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٣٢٧) رقم (٢٥٠٠): سئل أبو زرعة عن حديث رواه موسى بن خلف عن يحيى بن أبي كثير عن عيش مولى ابن الزبير عن الزبير؛ أن النبي ﷺ =

وَالْعَفْوَ: تَرَكَ الْعُقُوبَةَ، وَالصَّفْحُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ الْمُذْنِبِ؛ كَأَنَّهُ يُولِي صَفْحَةَ الْعُتُقِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿صَاغِرُونَ﴾^(١).

وقيل: بقوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) [التوبة: ٥]، وقال قوم: ليس هذا حدَّ المنسوخ؛ لأن هذا في نفس الأمر كان التوقيف على مدته.

* ت * : وينبغي للمؤمن أن يتأدب بآداب هذه الآية، وفي الحديث عن النبي ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «تَحْلُمُ عَلَى مَنْ جَهَلَ عَلَيْكَ، وَتَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ» خَرَجَ النَّسَائِيُّ^(٣). انتهى من «الكوكب الدرِّي» لأبي العباس أحمد بن سعيد التُّجَيْبِيِّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: مقتضاه في هذا الموضع: وَعُدَّ للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية: قال الطبري^(٤): إنما أمر الله المؤمنين هنا بالصَّلَاةِ والزَّكَاةِ ليحطَّ ما تقدَّم من ميلهم إلى قول اليهود: ﴿رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ لِأَنَّ ذَلِكَ نَهْيٌ عَنْ نَوْعِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَجِدُوهُ﴾، أَي: تَجِدُوا ثَوَابَهُ، وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رَقَائِقِهِ» بِسَنَدِهِ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لِي لَا أُحِبُّ الْمَوْتَ؟ فَقَالَ: هَلْ لَكَ مَالٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَقَدَّمَ مَالَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ؛ فَإِنَّ

قال، فذكر الحديث، قال أبو زرعة: رواه علي بن المبارك، وشيبان، وحرب بن شداد عن يحيى بن أبي كثير عن يعيش بن الوليد بن هشام؛ أن مولى لآل الزبير حدثه؛ أن الزبير حدثه عن النبي ﷺ. قال أبو زرعة: الصحيح هذا، وحديث موسى بن خلف وهم.

(١) أخرجه الطبري (٥٣٦/١) برقم (١٧٩٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٥٨٢/٢)، وذكره ابن عطية في تفسيره (١٩٦/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٠٢/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل». وذكره الشوكاني في «تفسيره» (١٩٤/١).

(٢) أخرجه الطبري (٥٣٦/١) برقم (١٧٩٩) عن ابن عباس، وعبد الرزاق في تفسيره (٥٥/١) عن قتادة، والبيهقي في «الدلائل» (٥٨٢/٢) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٠٢/١) عن ابن عباس، وعزاه لابن جرير، والبيهقي في «الدلائل»، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. وذكره الشوكاني في «تفسيره» (١٩٤/١).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٢/٨) من حديث عبادة بن الصامت، وقال: رواه البزار، وفيه يوسف بن خالد السمتي، وهو كذاب.

(٤) «تفسير الطبري» (٥٠٦/٢).

الْمَرَّةَ مَعَ مَالِهِ، إِنْ قَدَّمَهُ، أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ، وَإِنْ خَلَفَهُ، أَحَبَّ التَّخَلُّفَ^(١). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خبر في اللفظ، معناه الوعد والوعيد.

١٣٣

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ آمَانِيُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١٦) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَاللَّهِ يَجْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِئًا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٨) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٩) وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ (١٢٠)﴾

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، معناه: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فجمع قولهم. ودل تفريق نوعيهم على تفريق قوليهم، وهذا هو الإيجاز واللف.

و ﴿هُودًا﴾: جمع هَائِدٍ^(٢)، ومعناه: التائب الراجع، وكذبهم الله تعالى، وجعل قولهم أمينةً، وأمر نبيه - عليه السلام - بدعائهم إلى إظهار البرهان، وهو الدليل الذي يوقع اليقين، وقولهم: «لَنْ» نفي حسنت بعده «بَلَىٰ»؛ إذ هي رد بالإيجاب في جواب النفي، حرف مرتجل لذلك، و ﴿أَسْلَمَ﴾: معناه: استسلم، وخضع، ودان، وخص الوجه بالذكر؛ لكونه أشرف الأعضاء، وفيه يظهر أثر العز والذل، ﴿وهو محسن﴾: جملة في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ...﴾ الآية: معناه: أنه ادعى كل فريق أنه أحق برحمة الله من الآخر، وسبب الآية أن نصارى نجران اجتمعوا مع يهود المدينة عند النبي ﷺ فتسأبوا، وكفر اليهود بعيسى وبمملته، وبالإنجيل، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة.

* ع^(٣): وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابها؛ لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى، وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعيسى، وكلاهما يتضمن صدق النبي ﷺ،

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٢٤) رقم (٦٣٤) عن عبد الله بن عبيد به.

(٢) ينظر: «عمدة الحفاظ» (٤/٣٠٧).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/١٩٨).

فَعَنفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كَذِبِهِمْ، وَفِي كَتَبِهِمْ خِلَافٌ مَا قَالُوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تنبيه لأمة محمد ﷺ على ملازمة القرآن، والوقوف عند حدوده، والكتاب الذي يتلونه، قيل: هو التوراة والإنجيل، فالألف واللام للجنس، وقيل: التوراة؛ لأن النصارى تمثلها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: كفار العرب؛ لأنهم لا كتاب لهم، ﴿قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ الآية، أي: فيشيب من كان على شيء، ويعاقب من كان على غير شيء، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ...﴾ الآية، أي: لا أحد أظلم من هؤلاء، قال ابن عباس وغيره: المراد النصارى الذين كانوا يؤذون من يصلي ببيت المقدس^(١)، وقال ابن زيد: المراد كفار قرنش حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام^(٢)، وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ...﴾ الآية: فمن جعل الآية في النصارى، روى أنه مرّ زمنٌ بعد ذلك لا يدخل نصراني بيت المقدس إلا أوجع ضرباً، قاله قتادة والسدي^(٣)، ومن جعلها في قریش، قال: كذلك نودي بأمر النبي ﷺ ألا يحج مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان^(٤)؛ ﴿وَأَيْنَمَا﴾^(٥) شرط، ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ جزم به،

(١) أخرجه الطبري (٥٤٤/١) برقم (١٨٢٢) بلفظ: «إنهم النصارى»، وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١٩٩/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٠٤/١)، وعزاه لابن جرير، ولفظه السيوطي: «هم النصارى».

(٢) أخرجه الطبري (٥٤٦/١) برقم (١٨٢٨) وذكره ابن كثير (١٥٦/١) ورجح قول ابن زيد. وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٩٩/١)، والبغوي في «تفسيره» (١٠٧/١)، ولفظه «نزلت في مشركي مكة، وأراد بالمساجد المسجد الحرام، منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من حجه والصلاة فيه عام الحديبية»، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٠٤/١)، وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٥٤٧/١) برقم (١٨٢٩) عن قتادة وبرقم (١٨٣١) عن السدي. وذكره ابن عطية في تفسيره (١٩٩/١) عن قتادة والسدي.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٣/٣)، كتاب «الحج»، باب لا يطوف بالبيت عريان، الحديث (١٦٢٢)، ومسلم (٩٨٢/٢)، كتاب «الحج»، باب لا يحج البيت مشرك، الحديث (١٣٤٧/٤٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، في الحجّة التي أمره عليها رسول الله ﷺ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

(٥) «أين» هنا اسم شرط بمعنى «إن» و «ما» مزيدة عليها «وتولوا» مجزوم بها وزيادة «ما» ليست لازمة لها بدليل قوله:

﴿وَتَمَّ﴾: جوابه، و ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾: معناه: الذي وجَّهنا إليه كما تقول: سافَرْتُ في وجه كذا، أي: في جهة كذا، ويتجه في بعض المواضع من القرآن كهذه الآية أن يراد بالوجه الجِهَةُ التي فيها رِضاهُ، وعليها ثوابه؛ كما تقول تصدَّقت لوجهِ الله، ويتَّجه في هذه الآية خاصَّة أن يراد بالوجه الجِهَةُ التي وجَّهنا إليها في القبلة، واختلف في سبب نزول هذه الآية، فقال ابنُ عُمَرَ: نزلت هذه الآية في صلاة النافلة في السَّفَرِ، / حيث توجَّهت بالإنسان دابَّتُه^(١)، وقال التَّخَعِيُّ: الآية عامَّة، أينما تولوا في متصرِّفاتكم ومسايعيكم، فتمَّ وجهُ الله، أي: موضع رضاه وثوابه، وجهة رحمته التي يوصل إليها بالطاعة^(٢)، وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة^(٣): نزلت فيمن أجتهد في القبلة^(٤)، فأخطأ، ووَرَدَ في ذلك حديث رواه عامرُ بنُ ربيعة، قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَتَحَرَّيْ قَوْمُ الْقِبْلَةِ،

= أَيْنَ تَضْرِبُ بِنَا الْعُدَّةَ تَجِدُنَا

وهي ظرف مكان، والناصب لها ما بعدها، وتكون اسم استفهام أيضاً فهي لفظ مشترك بين الشرط والاستفهام كـ «من» و «ما» وزعم بعضهم أن أصلها السؤال عن الأمكنة وهي مبنية على الفتح لتضمنه معنى حرف الشرط أو الاستفهام. ينظر «الدر المصون» (١/ ٣٥٠).

(١) الطبري (١/ ٥٥٠) (١٨٣٩-١٨٤٠) وروي بإسنادين عن ابن عمر أولهما من طريق أبي كريب قال حدثنا ابن إدريس قال حدثنا عبد الملك عن سعيد بن جبير عن ابن عمر. وثانيهما من طريق أبي السائب قال حدثنا ابن فضيل عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر . اهـ.
وقال أحمد شاكر: «والحديث رواه أحمد أيضاً (٤٧١٤) عن يحيى القطان عن عبد الملك بن أبي سليمان بنحوه ورواه مسلم (١/ ١٩٥) من طريق يحيى وآخرين. وكذلك رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٢) بأسانيد من طريق عبد الملك» اهـ.
وذكره البغوي في «التفسير» (١/ ١٠٨) وذكره ابن عطية (١/ ٢٠٠)، وابن كثير (١/ ١٥٨) والشوكاني في «التفسير» (١/ ١٩٧).

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٥٥١) برقم (١٨٤٤) عن المثنى قال: حدثني الحجاج، قال: حدثنا حماد، قال: قلت للتخعي: إني كنت استيقظت - أو قال: أيقظت - شك الطبري - فكان في السماء سحاب، فصليت لغير القبلة؟ قال: مضت صلاتك، يقول الله (عز وجل): ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ . اهـ.
وذكره ابن عطية في تفسيره (١/ ٢٠٠).

(٣) عبد الله بن عامر بن ربيعة بن مالك بن عامر . حليف بني عدي بن كعب ثم حليف الخطاب والد عمرو . وهو من عنز بن وائل . أبو محمود . العنزي . الأصغر . العدوي . ولد على عهد النبي ﷺ ، وقيل: ولد سنة ٦ ، وتوفي سنة (٨٥هـ) .

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/ ٢٨٧)، «الإصابة» (٤/ ٨٩)، «الثقات» (٣/ ٢١٩)، «الجرح والتعديل» (٥/ ١٢٢)، «بقي بن مخلد» (٦٤٧).

(٤) أخرجه الطبري (١/ ٥٥١) برقم (١٨٤٥)، وذكره ابن عطية (١/ ٢٠٠) والشوكاني في «فتح القدير» (١/ ١٩٧).

وَأَعْلَمُوا عَلَامَاتٍ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوهَا، فَعَرَفُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(١).

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (ص - ١٥٦)، الحديث (١١٤٥)، والترمذي (١٧٦/٢)، كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة في الغيم، الحديث (٣٤٥)، وابن ماجه (٣٢٦/١)، كتاب «إقامة الصلاة»، باب من يصلي لغير القبلة وهو لا يعلم، الحديث (١٠٢٠)، والدارقطني (٢٧٢/١): كتاب «الصلاة»، باب الاجتهاد في القبلة، الحديث (٥)، وأبو نعيم (١٧٩/١)، والبيهقي (١١/٢)، كتاب «الصلاة»، باب استبيان الخطأ بعد الاجتهاد، وعبد بن حميد (ص - ١٣٠)، رقم (٣١٦)، والطبري في «تفسيره» (٥٣١/٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣١/١)، من رواية الربيع بن السمان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه به، وقال الترمذي: (ليس إسناده بذلك، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث بن سعيد، أبو الربيع السمان يضعف في الحديث). وقال العقيلي: وأما حديث عامر بن ربيعة، فليس يروى من وجه يثبت مثته، وقد توبع أبو الربيع السمان.

تابعه عمرو بن قيس عند الطيالسي، وسعد بن سعيد، عند عبد بن حميد؛ لتتخصر علة الحديث في عاصم بن عبيد الله.

وعاصم بن عبيد الله: قال الحافظ: ضعيف.

ينظر: «التقريب» (٣٨٥/١).

وقال العلامة أحمد شاكر في «تعليقه على الطبري» (٥٣١/٢)، حديث ضعيف.

وقد وردت القصة من وجه آخر من حديث جابر بن عبد الله: أخرجه الحاكم (٢٠٦/١)، كتاب «الصلاة»، والدارقطني (٢٧٢/١)، والبيهقي (١٠/٢)، من طريق داود بن عمرو، ثنا محمد بن يزيد الواسطي، عن محمد بن سالم، عن عطاء، عن جابر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأصابنا غيم..». فذكره، قال الدارقطني: (كذا قال: عن محمد بن سالم؛ وقال غيره: عن محمد بن يزيد، عن محمد بن عبيد الله العزمي عن عطاء، وهما ضعيفان).

وقال الحاكم: (روأته محتج بهم كلهم، غير محمد بن سالم، فإنني لا أعرفه بعدالة ولا جرح).

وأخرجه الدارقطني (٢٧٢/١)، والبيهقي (١١/٢)، أيضاً من طريق أحمد بن عبيد الله بن الحسن العنبري قال: وجدت في كتاب أبي: ثنا عبد الملك بن أبي سليمان العزمي، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر (رضي الله عنهما) قال: «بعث رسول الله ﷺ بسرية كنت فيها، فأصابنا ظلمة، فلم نعرف القبلة...». فذكر الحديث، وفيه: «فأتينا النبي ﷺ فسالناه عن ذلك، فسكت؛ وأنزل الله (عز وجل): ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي حيث كنتم».

قال البيهقي: (وكذلك رواه الحسن بن علي بن شبيب العمري، ومحمد بن محمد بن سليمان الباعدي، عن أحمد بن عبيد الله، ولم نعلم لهذا الحديث إسناداً صحيحاً قوياً، وذلك؛ لأن عاصم بن عبيد الله بن عمر العمري، ومحمد بن عبيد الله العزمي، ومحمد بن سالم الكوفي، كلهم ضعفاء، والطريق إلى عبد الملك العزمي غير واضح؛ لما فيه من الوجداء وغيرها، وفي حديثه أيضاً نزول الآية في ذلك، وصحيح عن عبد الملك بن أبي سليمان العزمي، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أن الآية إنما نزلت في التطوع خاصة، حيث توجه بك بعيرك).

وقيل: نزلت الآية حين صُدَّ رسولُ الله ﷺ عن البيتِ.

و ﴿وَاسِعٌ﴾: معناه مُتَسِعٌ الرحمة، ﴿عَلِيمٌ﴾ أين يضعها، وقيل: ﴿واسع﴾: معناه هنا أنه يوسّع على عباده في الحكم دينه يُسرّ، ﴿عليم﴾ بالنبأت التي هي ملاك العمل.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ...﴾ الآية: اختلف على من يعود ضميرُ «قَالُوا»، فقيل: على النصارى، وهو الأشبه، وقيل: على اليهود؛ لأنهم قالوا: عَزَّيْزُ ابْنِ اللَّهِ، وقيل: على كفرة العرب؛ لأنهم قالوا: الملائكة بناتُ الله.

* ت * وقال أبو عبد الله اللّخمي: ويحتمل أن يعني بالآية كلُّ من تقدّم ذكره من الكفرة، وقد تقدّم ذكر اليهود والنصارى والذين لا يعلمون، وهم المشركون، وكلّهم قد ادّعى لله ولداً، تعالى الله عن قولهم. انتهى من «مختصر الطبري».

و ﴿سُبْحَانَهُ﴾: مصدر، معناه: تنزيهاً له وتبرئة مما قالوا، والقنوت؛ في اللغة: الطاعة، والقنوت: طول القيام، فمعنى الآية: إن المخلوقات تقتت لله، أي: تخشع، وتطيع، والكفار قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم، وقيل: الكافر يسجد ظله، وهو كاره، و ﴿بَدِيعٌ﴾: مصروفٌ من مُبدع، والمُبدع: المخترعُ المنشئ، وخص السموات والأرض بالذكر؛ لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جلّ وعلا.

و ﴿قَضَىٰ﴾: معناه: قدر، وقد يجيء بمعنى: أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان، والأمر: واحد الأمور، وليس هو هنا بمصدر أمرٍ يأمر، وتلخيص المعتقد في هذه الآية؛ أن الله عزّ وجلّ لم يزل أمراً للمعدومات بشرط وجودها، قادراً مع تأخر المقدورات، عالماً مع تأخر وقوع المعلومات، فكلُّ ما في الآية ممّا يقتضي الاستقبال، فهو بحسب المأمورات إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن، وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر، فهو قديمٌ لم يزل، والمعنى الذي تقتضيه عبارة ﴿كُنْ﴾ هو قديمٌ قائم بالذات، والوضوح التام في هذه المسألة [لا] يحتاج أكثر من هذا البسط.

* ت * وقد قدّمنا ما يزيد هذا المعنى وضوحاً عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فأنظره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

مَثَلُ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ بَلْتُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِجَتِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله...﴾ الآية: قال الربيع والسُّدِّيُّ: هم كفار العرب^(١)، وقد طلب عبد الله بن أمية وغيره من النبي ﷺ نحو هذا، وقال مجاهد: هم النصارى^(٢)، وقال ابن عباس: المراد من كان على عهد النبي ﷺ من اليهود؛ لأن رافع بن خريملة قال للنبي ﷺ: أَسْمِعْنَا كَلَامَ اللَّهِ^(٣)، وقيل: الإشارة إلى ١٣٤ جميع هذه الطوائف؛ لأنهم كلهم قالوا هذه المقالة، و ﴿لولا﴾ تحضيض بمعنى «هلاً»، والآية هنا العلامة الدالة، و ﴿الذين من قبلهم﴾ هم اليهود والنصارى في قول من جعل ﴿الذين لا يعلمون﴾ كفار العرب، وهم اليهود في قول من جعل ﴿الذين لا يعلمون﴾ النصارى، وهم الأمم السالفة في قول من جعل ﴿الذين لا يعلمون﴾ العرب والنصارى واليهود وتشابه القلوب هنا في طلب ما لا يصح أو في الكفر.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قرينة تقتضي أن اليقين صفة لعلمهم، وقرينة أخرى أن الكلام مدح لهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾، أي: لمن آمن، ونذيراً لمن كفر، وقرأ نافع وحده^(٤) ولا تسأل، أي: لا تسأل عن شدة عذابهم؛ كما تقول: فلان لا تسأل عنه، تعني أنه في نهاية تشهره من خير أو شر.

* ت * : وزاد في «مختصر الطبري»، قال: وتحتل هذه القراءة معنى آخر، وهو،

(١) أخرجه الطبري (٥٦٠/١) برقم (١٨٦٦) عن الربيع بلفظ: «هم كفار العرب»، ويرقم (١٨٦٧) عن السدي: «فهم العرب» اهـ.

وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٠٢/١).

(٢) أخرجه الطبري (٥٦٠/١) برقم (١٨٦٢)، (١٨٦٣) من طريقين عن مجاهد.

وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٠٢/١)، والبيهقي في «معالم التنزيل» (١٠٩/١).

(٣) أخرجه الطبري (٥٦٠/١) برقم (١٨٦٤) وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٠٢/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٠٨/١)، وعزه لابن إسحاق، وابن جرير وابن أبي حاتم. وذكره الشوكاني في «تفسيره» (١٩٩/١).

(٤) ينظر: «السبعة» (١٦٩)، و «الكشف» (٢٦٢/١)، و «حجة القراءات» (١١١)، و «الحجة للقراء السبعة» (٢٠٩/٢)، و «العنوان» (٧١)، و «شرح طيبة النشر» (٦٠/٤)، و «معاني القراءات» (١/١٧٠)، و «شرح شعلة» (٢٧٤)، و «إتحاف» (٤١٤/١).

والله أعلم، أظهر، أي: ولا تسأل عنهم سؤالَ مَكْتَرِبٍ^(١) بما أصابهم، أو بما هم عليه من الكُفْر الذي يوردهم الجحيم؛ نظير قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأما ما روي عن محمد بن كعب القُرَظِيُّ ومن وافقه؛ من أن النبي ﷺ سَأَلَ، مَا فَعَلَ أَبَوَايَ؟ فَتَرَلَّتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ، فهو بعيدٌ، ولا يتصل أيضاً بمعنى ما قبله. انتهى.

وقرأ باقي السبعة: «وَلَا تُسْأَلُ»؛ بضم التاء واللام.

و ﴿الجحيم﴾: إحدى طبقات النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، أي: ما أنت عليه يا محمد من هدى الله هو الهدى الحقيقي، لا ما يدعيه هؤلاء، ثم قال تعالى لنبيه: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فهذا شرط خاطب به النبي ﷺ وأُمته معه داخله فيه.

* ت: والأدب أن يقال: خُوطِبَ به ﷺ والمراد أُمُّهُ؛ لوجود عصمته ﷺ وكذلك الجواب في سائر ما أشبه هذا المعنى من الآي، وقد نبّه - رحمه الله - على هذا المعنى في نظيرتها؛ كما سيأتي، وكان الأولى؛ أن ينبّه على ذلك هنا أيضاً، وقد أجاب عِيَاضٌ عن الآي الواردة في القرآن ممّا يوهّم ظاهره إشكالاً، فقال - رحمه الله -: أَعْلَمَ، وَقَفْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ، أنه - عليه السلام - لا يصحّ ولا يجوز عليه ألا يبلغ، وأن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك ولا أن يتقول^(٢) على الله ما لا يجب أو يفترى عليه، أو يضل، أو يختتم على قلبه^(٣)، أو يطيع الكافرين، لكن الله أمره بالمكاشفة والبيان^(٤) في البلاغ للمخالفين، وأن إبلاغه، إن لم يكن بهذا البيان فكأنه ما بلغ، وطيب نفسه، وقوى قلبه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٥) [المائدة: ٦٧] كما قال لموسى وهارون - عليها السلام -: ﴿لَا تَخَافَا﴾ [طه: ٤٦] لتشتد بصائرهم^(٦) في الإبلاغ وإظهار دين الله، ويذهب

(١) يقال: ما أكثرث به، أي ما أبالي، ولا يستعمل إلا في النفي، فإن ورد في إثبات فهو شاذ.

ينظر: «لسان العرب» (٣٨٤٨) (كرث).

(٢) أي: يكذب عليه ويفتري.

(٣) يختتم على قلبه: يطبع عليه ما يمنعه عن قبول الحق.

(٤) بالمكاشفة والبيان: بكشفه له وتبيينه.

(٥) «ويعصمك من الناس»: أي يحميك ويصونك عنهم حتى لا يقدر أحد على شيء يضرك.

(٦) تشتد: تقوى، وتزيد شدة. بصائرهم: المقصود بهم موسى، وهارون، ومحمد. أي: يكونون على بصيرة ويقين في أمورهم.

عنهم خَوْفُ العدوِّ المضعف لليقين، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ...﴾ [الحاقة: ٤٤] الآية، وقوله: ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفُ الْحَيَاةِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، فمعناه: أنَّ هذا جزء من فعل هذا، وجزاؤك لو كنت ممن يفعله، وهو ﷺ لا يفعله، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلِنْ تَطْعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمراد غيره، كما قال: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٩] وقوله: ﴿إِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وَ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبهه، فالمراد غيره، وأن هذا حال مَنْ أشرك، والنبِيُّ ﷺ لا يَجُوزُ عليه هذا، وقوله تعالى: ﴿أَتَقِيَّ اللَّهَ ۚ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فليس فيه أنه أطاعهم، واللَّهُ يَنْهَاهُ عما يشاء، ويأمره بما يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية، وما كان طَرَدُهُمْ - عليه السلام - ولا كَانَ من الظالمين. انتهى من «الشفاء»^(١).

* ص^(٢): ﴿وَلَتَيْنِ﴾: هذه اللام هي الموطئة والمودنة، وهي مشعرة بِقَسَمٍ مقدَّر قبلها. انتهى.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
 ﴿يَخَيَّرُ لِمَنْ يَشَاءُ أَدْعُوهُمْ يُعْمَىٰ إِلَيْهِ أُنْعِمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧) وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٧٨) وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُرْسِدُ رُؤْيَاكُمْ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُمْ قَالِ إِيَّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (٧٩)﴾

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ...﴾ الآية: قال قتادة: المراد بـ «الَّذِينَ» في هذا الموضع: مَنْ أَسْلَمَ من أَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، والكتابُ على هذا: التأويل القرآن^(٣)، وقال ابنُ زَيْدٍ: المراد مَنْ أَسْلَمَ من بني إِسْرَائِيلَ^(٤)، والكتابُ؛ على هذا التأويل: التوراة، و «آتَيْنَاهُمْ»: معناه: أعطيناها، و «يَتْلُونَهُ»: معناه: يتبعونه حقَّ اتباعه بأمثال الأمر والنهي، قال أحمد بن نَصْر الدَّأُوْدِيُّ: وهذا قول ابن عباس، قال عِكْرِمَةُ: يقال: فلان يتلو فلاناً، أي: يتبعه؛ ومنه: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢] أي: تبعها. انتهى.

(١) ينظر: «الشفاء» (ص ٧١٧، ٧١٨).

(٢) «المجيد» (ص ٣٩٦).

(٣) أخرجه الطبري (١/٥٦٦) برقم (١٨٨٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٢٠٤)، والسيوطي في «الدر» (١/٢١٠)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٢٠٤).

وَلِلَّهِ دَرٌّ مِّنْ أَتَبَعَ كَلَامَ رَبِّهِ، وَأَقْتَفَى سُنَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِنْ قَلَّ عِلْمُهُ، قَالَ الْقَضَائِيُّ فِي اخْتِصَارِهِ لِـ «المدارك»: قَالَ فِي تَرْجُمَةِ سُخْنُونَ^(١): كَانَ سُخْنُونَ يَقُولُ: مَثَلُ الْعِلْمِ الْقَلِيلِ فِي الرَّجُلِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَيْنِ الْعَذْبَةِ فِي الْأَرْضِ الْعَذْبَةِ، يَزْرَعُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا مَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَمَثَلُ الْعِلْمِ الْكَثِيرِ فِي الرَّجُلِ الطَّالِحِ مَثَلُ الْعَيْنِ الْخَرَّارَةِ فِي السَّبِيحَةِ تَهْرُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا. أَنْتَهَى.

وقيل: «يتلونه»: يقرءونه حقَّ قراءته، وهذا أيضاً يتضمَّن الْأَتْبَاعَ وَالْأِمْتَنَالَ، وَ «حَقَّ»^(٢): مصدرٌ، وهو بمعنى أفعَلَ، والضمير في «بِهِ» عائِدٌ عَلَى «الكتاب»، وقيل: يعود على مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَن مَتَّبِعِي التَّوْرَةِ يَجِدُونَهُ فِيهَا، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَالضَّمِيرُ فِي «يَكْفُرُ بِهِ» يَحْتَمِلُ مِنَ الْعُودِ مَا ذَكَرَ فِي الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ...» الآية: تقدَّم بيان نظيرها، ومعنى: «لَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ»: أَنَّهُ لَيْسَتْ ثَمَّ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ يَشْفَعُ فِيهِمْ أَحَدٌ، فِيرَدُّ، وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الَّتِي هِيَ فِي تَعْجِيلِ الْحِسَابِ، فَلَيْسَتْ بِنَافِعَةٍ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَّرةِ.

* ت * : وَلَمْ يَنْبَهْ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَلَى هَذَا فِي الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَوَّلَ السُّورَةِ، وَ «أَبْتَلَى» معناه: أَخْتَبَرَ، وَفِي «مَخْتَصَرِ الطَّبْرِيِّ»: «أَبْتَلَى»، أَي: أَخْتَبَرَ، وَالْأَخْتِبَارُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ سَبْحَانَهُ بِبَاطِنِ أَمْرِهِمْ وَظَاهَرِهِ، وَإِنَّمَا يَبْتَلِيهِمْ لِيُظْهِرَ مِنْهُمْ سَابِقُ عِلْمِهِ

(١) هُوَ الْإِمَامُ سَحْنُونُ، أَبُو سَعِيدٍ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ سَعِيدِ التَّنُوخِيِّ، الْقَيْرَوَانِيُّ، الْفَقِيهَ، الْحَافِظَ، الْعَابِدَ، الْوَرَعَ، الْمُتَّفَقَ عَلَى فَضْلِهِ وَإِمَامَتِهِ، اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا تَفَرَّقَ فِي غَيْرِهِ، أَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ أئِمَّةٍ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. وَأَخَذَ عَنْهُ مِنْ أئِمَّةِ الرِّوَاةِ نَحْوَ سَبْعِمِائَةٍ، انْتَهَتْ إِلَيْهِ الرِّيَاسَةُ فِي الْعِلْمِ، وَعَلَيْهِ الْمَعُولُ فِي الْمَشْكَلَاتِ، وَإِلَيْهِ الرَّحْلَةُ، وَمَدُونَتُهُ عَلَيْهَا الْاعْتِمَادُ فِي الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ. وَلَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٤٠ هـ وَقَبْرُهُ بِ «الْقَيْرَوَانِ».

يَنْظُرُ: «الدِّيْبَاجُ» (٢/٣٠)، وَ «الشَّجَرَةُ الزَّكِيَّةُ» (ص ٦٩).

(٢) فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ نَصَبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَأَصْلُهُ: «تَلَاوَةٌ حَقًّا» ثُمَّ قَدِمَ الرِّصْفُ وَأُضِيفَ إِلَى الْمَصْدَرِ، وَصَارَ نَظِيرُ: «ضَرَبْتُ شَدِيدَ الضَّرْبِ» أَي: ضَرْبًا شَدِيدًا، فَلَمَّا قَدِمَ وَصِفَ الْمَصْدَرُ نَصَبَ نَصْبَهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ يَتْلُوهُ، أَي: يَتْلُوهُ مُحَقِّقِينَ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ نَعَتْ مَصْدَرَ مَحْذُوفٍ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَ «حَقَّ» مَصْدَرٌ، وَالْعَامِلُ فِيهِ فِعْلٌ مَضْمَرٌ، وَهُوَ بِمَعْنَى أَفْعَلَ، وَلَا تَجُوزُ إِضَافَتُهُ إِلَى وَاحِدٍ مَعْرُوفٍ، وَإِنَّمَا جَازَتْ هُنَا لِأَن تَعْرِفَ التَّلَاوَةَ بِإِضَافَتِهَا إِلَى ضَمِيرٍ لَيْسَ بِتَعْرِفٍ مُحَضَّرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ: «رَجُلٌ وَاحِدٌ أُمَةٌ، وَنَسِيجٌ وَحْدَهُ» يَعْنِي أَنَّهُ فِي قُوَّةِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ بِمَعْنَى أَحَقَّ التَّلَاوَةِ، وَكَأَنَّهُ يَرَى أَنَّ إِضَافَةَ أَفْعَلَ غَيْرَ مُحَضَّرَةٍ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ عَامِلٍ فِيهِ، لِأَن مَا قَبْلَهُ يَطْلُبُهُ. يَنْظُرُ: «الدَّرُ الْمَصُونُ» (١/٣٥٨).

فيهم، وقد روي ذلك عن عليٍّ - رضي الله عنه - في قوله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فقال رضي الله عنه: إن الله عز وجل لم يزل عالماً بأخبارهم وخبرهم وما هم عليه، وإن قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾، أي: حتى نسوقكم إلى سابق علمي فيكم. انتهى، وهو كلام حسن.

وقد نبه * ع *: على هذا المعنى فيما يأتي، والعقيدة أن علمه سبحانه قديم، علم كل شيء قبل كونه، فجزئى على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه، وسبق علمه به سبحانه لا إله إلا هو.

و ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: يقال: إن تفسيره بالعربية أَب رَحِيمٍ، واختلف أهل التأويل في «الكلمات»، فقال ابن عباس: هي ثلاثون سهماً هي الإسلام كله، لم يتمه أحد كاملاً إلا إبراهيم - عليه السلام - منها في «براءة»: ﴿الَّتَائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾ الآية [التوبة: ١١٢]، وعشرة في «الأحزاب»: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥]، وعشرة في ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾^(١) [المعارج: ١].

* ت *: وقيل غير هذا.

وفي «البخاري»: أنه اختتن، وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم^(٢)، قال الراوي: فأوحى الله إليه ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والإمام القدوة.

وإنما سميت هذه الخصال كلمات؛ لأنها/ اقترنت بها أوامر هي كلمات، وروي أن ١٣٥

(١) أخرجه الطبري (٥٧٢/١) برقم (١٩٠٩ - ١٩١٠ - ١٩١١)، والحاكم (٥٥٢/٢)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وصححه الذهبي. وذكره البغوي في «تفسيره» (١١١/١)، وابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٢٠٥/١)، وابن كثير (١٦٥/١)، والسيوطي في «الدرر» (٢١١/١)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، وابن عساكر، وذكره الشوكاني في «تفسيره» (٢٠٤/١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ حديث (٣٣٥٦)، ومسلم (١٨٣٩/٤) كتاب «الفضائل»، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، حديث (١٥١/٢٣٧٠)، وأحمد (٤١٨/٢)، والبيهقي (٣٢٥/٨) كتاب «الأشربة»، باب السلطان يكره على الاختتان. كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختتن إبراهيم على رأس ثمانين سنة، واختن بالقدوم».

وللحديث طريق آخر عن أبي هريرة: أخرجه أبو يعلى (٣٨٣ - ٣٨٤) رقم (٥٩٨١) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

إبراهيم، لما أتم هذه الكلمات أو أتمها الله عليه، كتب الله له البراءة من النار، فذلك قوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: ٣٧]. وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن ذريتي﴾ هو على جهة الرجاء إلى الله، أي: ومن ذريتي، يا رب، فأجعل.

وقوله تعالى: ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾، أي: قال الله، والعهد فيما قال مجاهد: الإمامة^(١).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَهَدَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهراً بَيْنَ الظَّالِمِينَ وَالْمُكَفِّينَ وَالرَّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّرَاتِ مَن ءَامَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَفِي سَ ٱلْمَصِيرِ (١٢٦) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾، أي: الكعبة ﴿مَثَابَةً﴾^(٢)، يحتمل من ثاب إذا رجع، ويحتمل أن تكون من الثواب، أي: يشابون هناك، ﴿وَأَمْنَا﴾ للناس والطير والوحوش؛ إذ جعل الله لها حرمة في النفوس؛ بحيث يلقي الرجل بها قاتل أبيه، فلا يهيجه، وقرأ جمهور الناس: «وَاتَّخِذُوا»، بكسر الخاء؛ على جهة الأمر لأمة محمد ﷺ، وقرأ نافع، وابن عامر، «وَاتَّخِذُوا»^(٣) بفتح الخاء؛ على جهة الخبر عن من اتَّخَذَهُ مِنْ متبعي إبراهيم - عليه السلام - ومقام إبراهيم في قول ابن عباس، وقتادة، وغيرهما، وخرجه البخاري هو الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضُغِفَ عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت، وغرقت قدماه فيه، و ﴿مُصَلًّى﴾: موضع صلاة.

* ص^(٤): ﴿مِنْ مَّقَامٍ﴾: مِنْ تَبْعِيضَةٍ عَلَى الْأَظْهَرِ، أَوْ بِمَعْنَى: «فِي» أَوْ زَائِدَةٌ؛

(١) أخرجه الطبري (٥٧٨/١) برقم (١٩٤٨) بلفظ: «لا يكون إمام ظالماً» من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد. وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٠٦/١)، كما ذكر المصنف.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قيل: مكاناً يثوبون إليه كل وقت على ممر الأيام وتكرر الأعمار، لا يملون منه. وقيل: مكاناً يكسبون فيه الثواب.

قال السمين: ولا شك أنه موجود فيه الأمان. ومنه: إن فلاناً لمثابة ولمثاباً، أي تأتبه الناس لمعرفه، ويرجعون إليه مرة أخرى.

ينظر: «عمدة الحفاظ» (٣٣٩/١)، و «غريب القرآن» لابن قتيبة (٦٣).

(٣) ينظر: «حجة القراءات» (١١٣)، و «الحجة» (٢٢٠/٢)، و «العنوان» (٧١)، و «شرح الطيبة» (٤/٦٧)، و «إنحاف» (٤١٧/١).

(٤) «المجيد» (ص ٤٠٢).

على مذهب الأخفش، والمقام: مَفْعَلٌ من القيام، والمراد به هنا المكان، انتهى، يعني: المكان الذي فيه الحَجَرُ المسمَّى بالمقام.

وقوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا﴾: العهد؛ في اللغة: على أقسام، هذا منها، الوصية بمعنى الأمر، و ﴿طَهَّرَا﴾: قيل: معناه: أبنياه وأُسساه على طَهَارَةٍ وَثِيَّةٍ طَهَارَةٍ، وقال مجاهد: هو أمر بالتطهير من عبادة الأوثان^(١)، و ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ ظاهره: أهل الطواف، وَقَالَهُ عطاء وغيره^(٢)، وقال ابن جُبَيْر: معناه: للغرباء الطائرين على مَكَّة^(٣)، ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: قال ابن جُبَيْر: هم أهل البلد المقيمون^(٤)، وقال عطاء: هم المجاورون بمَكَّة^(٥)، وقال ابن عباس: المصلون^(٦)، وقال غيره: المعتكفون، والعكوف؛ في اللغة: الملازمة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، أي: من الجبابرة والعدو المستأصل، وروي أن الله تعالى، لما دعاه إبراهيم، أمر جبريل، فأقتلع فلسطين، وقيل: بقعة من الأزْدُن^(٧)، فطاف بها حَوْلَ البيتِ سُبْعًا، وأنزلها بِوَجْ^(٨)، فَسُمِّيَتِ الطَّائِفُ^(٩)؛ بسبب الطواف.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا...﴾ الآية: قال أبي بن كعب، وأَبْنُ إِسْحَاقَ، وغيرهما: هذا الْقَوْلُ من الله عزَّ وجلَّ لإبراهيم^(١٠)، وقال ابن عباس، وغيره:

(١) أخرجه الطبري (٥٨٨/١) برقم (٢٠١٦) بلفظ: «من الأوثان»، وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٢٠٨/١).

(٢) أخرجه الطبري (٥٨٨/١) برقم (٢٠٢٠) بلفظ: «إذا كان طائفًا بالبيت فهو من الطائفين». وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٢٠٨/١).

(٣) أخرجه الطبري (٥٨٨/١) برقم (٢٠١٩) بلفظ: «من أتاه من غربة»، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٢٠٨).

(٤) أخرجه الطبري (٥٨٩/١) برقم (٢٠٢٣)، وابن عطية الأندلسي في «التفسير» (١/٢٠٨).

(٥) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١/٢٠٨).

(٦) أخرجه الطبري (٥٨٩/١) برقم (٢٠٢٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٢٠٨).

(٧) الْأَزْدُنُّ: كورة واسعة منها «الغور»، و «طَبْرِيَّة»، و «صور»، و «عكا»، وما بين ذلك. ينظر: «مراسد الاطلاع» (١/٥٤).

(٨) بالفتح، ثم التشديد: وإذ موضع بالطائف به كانت غزاة النبي عليه السلام. ينظر: «مراسد الاطلاع» (٣/١٤٢٦).

(٩) كانت تسمى قديماً «وَجْ»، وسميت «الطائف» لما أطيّف عليها الحائط؛ وهي ناحية ذات نخيل وأعناب ومزارع وأودية، وهي على ظهر جبل غَزْوان. ينظر: «مراسد الاطلاع» (٢/٨٧٧).

(١٠) أخرجه الطبري (٥٩٤/١) برقم (٢٠٣٥) عن أبي بن كعب، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٢٠٩)، والسيوطي في «الدر» (١/٢٣٣)، والشوكاني في «التفسير» (١/٢٠٨).

هذا القول من إبراهيم^(١).

قال ع^(٢) * : فكأن إبراهيم دعا للمؤمنين، وعلى الكافرين، وفي «مختصر الطبري»: وقرأ بعضهم، «فأمتعه»؛ بالجزم، والقطع على الدعاء^(٣)، ورآه دعاء من إبراهيم، وروي ذلك عن أبي العالية، كان ابن عباس يقول: ذلك قول إبراهيم، سأل ربه أن من كفر به، فأمتعه قليلاً يقول: فأرزقه قليلاً، ثم أضطره إلى عذاب النار، أي: ألجئه. انتهى، وعلى هذه القراءة يجيء قول ابن عباس، لا على قراءة الجمهور، و «قليلاً»: معناه: مدة العمر؛ لأن متاع الدنيا قليل.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧)
رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٨)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...﴾ الآية: القواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس.

* ص^(٤) : القواعد، قال الكسائي والقرءاء: هي الجذر، وقال أبو عبيدة: هي الأساس. انتهى.

واختلفوا في قصص البيت، فقليل: إن آدم أمر ببناؤه، ثم دثر، ودرس حتى دلّ عليه

(١) أخرجه الطبري (٥٩٤/١) برقم (٢٠٣٧)، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٣٣/١)، والشوكاني في «التفسير» (٢٠٨/١).

(٢) «المحرر الوجيز» (٢٠٩/١).

(٣) وهي قراءة شاذة، كما في «المحتسب» (١٠٤/١)، ونسبها لابن عباس - رضي الله عنهما - قال ابن جني: فيحتمل أمرين:

أحدهما: - وهو الظاهر - أن يكون الفاعل في «قال» ضمير إبراهيم عليه السلام، أي قال إبراهيم أيضاً: ومن كفر فأمتعه يا رب ثم اضطره يا رب... .

وأما الآخر فهو أن يكون الفاعل في «قال» ضمير اسم الله تعالى؛ أي: فأمتعه يا خالق، أو فأمتعه يا قادر، أو يا مالك، أو يا إله، يخاطب بذلك نفسه (عز وجل)، فجرى هذا على ما تعتاده العرب من أمر الإنسان لنفسه، كقراءة من قرأ: ﴿قال اعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي: اعلم يا إنسان. وكقول الأعشى: [البسيط]

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

(٤) «المجيد» (ص ٤٠٨).

إبراهيم، فرفع قواعده، وقيل: إن إبراهيم ابتداءً ببناءه بأمر الله، وقيل غير هذا.

ع^(١) * : والذي يصح من هذا كله أن الله سبحانه أمر إبراهيم برفع قواعد البيت، / ٣٥ ب
وجائز قديمه، وجائز أن يكون ذلك ابتداءً، ولا يرجح شيء من ذلك إلا بسند يقطع العذر.

﴿وإسماعيل﴾: عطف على ﴿إبراهيم﴾، والتقدير: يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: السميع لدعائنا، العليم بنبأتنا، وخصاً هاتين الصفتين؛ لتناسبهما مع حالهما، وقولهما: ﴿أَجْعَلْنَا﴾ بمعنى: صيرنا مسلمين، وكذلك كانا، وإنما أرادا التثبيت والدوام، والإسلام في هذا الموضع. الإيمان والأعمال جميعاً، «وَمِنْ» في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ للتبعيض؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين، والأمة: الجماعة، ﴿وَأَرَنَا﴾ قالت طائفة: من رؤية البصر، وقالت طائفة: من رؤية القلب، وهذا لا يصح، قال قتادة: المناسك معالم الحج، واختلف في معنى طلبهم التوبة، وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة: طلبا التثبيت والدوام، وقيل: أرادوا من بعدهما من الذرية، وقيل، وهو الأحسن؛ إنهما لما عرفا المناسك، وبنا البيت، أرادوا أن يسنا للناس؛ أن تلك المواطن مكان التنصل من الذنوب، وطلب التوبة.

وقال الطبري: إنه ليس أحد من خلق الله إلا بينه وبين الله معانٍ يحب أن تكون أحسن ممّا هي، وأجمعت الأمة على عظمة الأنبياء في معنى التبليغ، ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصغائر، والذي أقول به أنهم معصومون من الجميع^(٢)، وأن قول النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَتُوبُ فِي الْيَوْمِ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ سَبْعِينَ

(١) «المحرر الوجيز» (١/٢١٠).

(٢) وفي «شرح المواقف»: أجمع أهل الملل والشرائع كلها على وجوب عصمتهم عن تعمد الكذب في دعوى الرسالة وما يبلغونه من الله (تعالى) إلى الخلائق، وفي جواز صدور الكذب عنهم فيما ذكر على سبيل السهو والنسيان خلاف، فمنعه الأستاذ أبو إسحاق وكثير من الأئمة؛ لدلالة المعجزة على صدقهم في تبليغ الأحكام. وجوز القاضي أبو بكر، وقال: إنما دلت المعجزة على صدقه فيما هو متذكر له عائد إليه، وأما ما كان من النسيان وفلتات اللسان، فلا دلالة للمعجزة على الصدق فيه، فلا يلزم من الكذب هناك نقص لدلائلها. وأما ما سوى الكذب في التبليغ، فهو إما كفر أو غيره من المعاصي، أما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم عنه قبل النبوة وبعدها.

وجوز الشيعة إظهار الكفر وقاية لنفسه عند الهلاك، وذلك باطل؛ لأنه يفضي إلى إخفاء الدعوة بالكلية؛ لضعفهم وقلة موافقتهم وكثرة مخالفتهم عند دعوتهم أولاً. وأيضاً منقوض بدعوة إبراهيم وموسى (عليهما السلام) في زمن نمرود وفرعون مع شدة خوف الهلاك. وأما غير الكفر فإما كبائر أو صغائر، وكل منهما إما أن يصدر عمداً أو سهواً، فالأقسام أربعة، وكل واحد منهما إما قبل البعثة أو بعدها،

مَرَّةً»، إِنَّمَا هُوَ رُجُوعُهُ مِنْ حَالَةٍ إِلَى أُزْفَعٍ مِنْهَا؛ لِتَرْيُدِ عِلْمَهُ، وإِطْلَاعَهُ عَلَى أَمْرِ رَبِّهِ، فهو يتوب من منزلة إلى أعلى، والتوبة هنا لَعْوِيَّةٌ، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ...﴾ الآية: هذا هو الذي أراد النبي ﷺ بقوله: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عَيْسَى»، ومعنى ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: يعرفوه، ويتحققوا فضله، ويشفق عليهم، ويحرص.

* ت * : وقد تواترت أخبار نبينا محمد ﷺ وبعثته في الكتب السالفة، وعلم بذلك الأخبار، وأخبروا به، وبتعيين الزمان الذي يبعث فيه.

وقد روى البيهقي أحمد بن الحسين^(١)

= فالأقسام ثمانية. أما صدور الكبائر عنهم عمداً، فمنعه الجمهور من محققي الأشاعرة والمعتزلة، وأما صدورها عنهم سهواً أو على سبيل الخطأ في التأويل، فجزوه الأكرتون، والمختار خلافه. وأما الصغائر عمداً فجزوه الجمهور؛ خلافاً للجبائي. وأما صدورها سهواً، فهو جائز باتفاق أكثر أصحابنا وأكثر المعتزلة؛ بشرط أن ينهوا عليه فينتهوا عنه، إلا الصغائر التي تدل على الخسة ودناءة الهمة، كسرقة حبة أو لقمة؛ فإنها لا تجوز أصلاً، عمداً ولا سهواً. وهذا كله بعد الانصاف بالنوبة. وأما قبلها فعد أكثر أصحابنا وجمع من المعتزلة لا يمتنع أن يصدر عنهم كبيرة (أقول: أي عمداً كان أو سهواً) وقال أكثر المعتزلة: تمتنع الكبيرة وإن تاب عنها؛ لأن صدور الكبيرة يوجب النفرة ممن ارتكبتها، والمنفور عنه لا يتبعه الناس، فتفوت مصلحة البعثة. وفي «شرح العقائد»: ومن المعتزلة من منع ما ينفر الطباع عن متابعتهم، سواء كان ذنباً لهم أو لا، كعهر الأمهات، أي كونهن زانيات، والفجور في الآباء ودنائتهم أو استرذالهم. كذا في شرح «المواقف». وفي شرح «العقائد»: أنه الحق. ولعل ضميري الجمع في «دنائتهم» واسترذالهم» راجعان إلى الأنبياء، ولا يبعد رجوعهما إلى الآباء. وعند الروافض: لا يجوز صغيرة ولا كبيرة، لا عمداً ولا سهواً، ولا خطأ في التأويل قبل الوحي وبعده. والمفهوم من شرح «العقائد»: أن الشيعة كالروافض في هذا الحكم إلا أنهم جوزوا إظهار الكفر عند خوف الهلاك.

تنبيه: العصمة عندنا على ما يقتضيه أصلنا من استناد الأشياء كلها إلى الفاعل المختار ابتداء: ألا يخلق الله (تعالى) فيهم ذنباً. وهي عند الفلاسفة بناء على ما ذهبوا إليه من القول بإيجاب الفعل عند استعداد القوابل ملكة، أي صفة نفسانية راسخة تمنع صاحبها من الفجور، وتحصل هذه الصفة النفسانية ابتداء بالعلم بمعاييب المعاصي ومناقب الطاعات، وتؤكد وترسخ هذه الصفة في الأنبياء بتتابع الوحي إليهم بالأوامر والنواهي، والاعتراض على ما يصدر عنهم من الصغائر وترك الأولى؛ فإن الصفات النفسانية تكون في ابتداء حصولها أحوالاً، أي غير راسخة ثم تصير ملكات، أي راسخة في محلها، كذا في شرح «المواقف».

ينظر: «نشر الطوالع» (٣٣٨-٣٤٢).

(١) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، الإمام الحافظ الكبير، أبو بكر البيهقي سمع الكثير ورحل وجمع وصنف، مولده سنة ٣٨٤، تفقه على ناصر العمري، وأخذ علم الحديث عن أبي عبد الله الحاكم، وكان كثير التحقيق والإنصاف، قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منه إلا البيهقي، فإن له على الشافعي منه لتصانيفه في نصرة مذهبه، ومن تصانيفه: «السنن الكبير»، و «السنن الصغير»، =

وغيره عن طلحة بن عبيد الله^(١) - رضي الله عنه - قَالَ: «حَضَرْتُ سُوقَ بَصْرَى، فَإِذَا رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَةٍ، يَقُولُ: سَلُّوا أَهْلَ هَذَا الْمَوْسِمِ، أَفِيهِمْ مَنْ هُوَ مِنْ هَذَا الْحَرَمِ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا، فَمَا تَشَاءُ؟ قَالَ: هَلْ ظَهَرَ أَحْمَدُ بَعْدُ؟ قُلْتُ: وَمَنْ أَحْمَدُ؟ قَالَ: أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، هَذَا شَهْرُهُ الَّذِي يَخْرُجُ فِيهِ، وَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، مَخْرَجُهُ مِنَ الْحَرَمِ، وَمُهَاجَرُهُ إِلَى نَخْلٍ وَسَبَاخٍ، إِذَا كَانَ، فَلَا تُسَبِّقَنَّ إِلَيْهِ، فَوَضَعَ فِي قَلْبِي مَا قَالَ، وَأَسْرَعْتُ اللَّحَاقَ بِمَكَّةَ، فَسَأَلْتُ، هَلْ ظَهَرَ بَعْدِي أَمْرٌ؟ فَقَالُوا: مُحَمَّدٌ الْأُمِّيُّ قَدْ تَبَيَّنَ، وَتَبِعَهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَمَشَيْتُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَأَذْخَلَنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَسْلَمْتُ»^(٢)، وقد روى العُذْرِيُّ وغيره عن أبي بكر - رضي الله عنه - أَنَّهُ قَالَ: «لَقِيتُ شَيْخًا بِالْيَمَنِ، فَقَالَ لِي: أَنْتَ حَرَمِي، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَأَحْسَبُكَ قُرَشِيًّا، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: بَقِيتَ لِي فِيكَ وَاحِدَةٌ، أَكْشِفُ لِي عَنْ بَطْنِكَ، قُلْتُ: لَا أَفْعَلُ، أَوْ تَخْبِرُنِي لِمَ ذَلِكَ، قَالَ: أَجِدُ فِي الْعِلْمِ الصَّحِيحِ أَنْ نَبِيًّا يَبْعَثُ فِي الْحَرَمِينَ يَقَارِنُهُ عَلَى أَمْرِهِ فَتَى وَكَهْلٌ، أَمَّا الْفَتَى، فَخَوَاضُ غَمْرَاتٍ، وَدِفَاعُ مُغْضَلَاتٍ، وَأَمَّا الْكَهْلُ، فَأَبْيَضُ نَحِيفٌ عَلَى بَطْنِهِ شَامَةٌ، وَعَلَى فَخْذِهِ الْيَسْرَى عَلَامَةٌ، وَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَرِنِي مَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ، فَقَدْ تَكَامَلَتْ فِيكَ الصِّفَةُ، إِلَّا/ مَا خَفِيَ ١٣٦ عَلَيَّ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَكَشَفْتُ لَهُ عَنْ بَطْنِي، فَرَأَى شَامَةً سَوْدَاءَ فَوْقَ سُرَّتِي، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، إِنِّي مُتَقَدِّمٌ إِلَيْكَ فِي أَمْرٍ، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِيَّاكَ، وَالْمَمِيلَ عَنِ الْهُدَى،

= و «دلائل النبوة» وغيرها. مات سنة ٤٥٨.

ينظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (٢٢٠/١)، «الأعلام» (١١٣/١).

(١) هو: طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب.. أبو محمد القرشي. التيمي، أحد العشرة. يعرف بـ «طلحة الخير».

قال ابن حجر في «الإصابة» هو أحد العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى. روى عن النبي، وعنه: بنوه يحيى، وموسى، وعيسى، وقيس بن أبي حازم، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والأحنف، ومالك بن أبي عامر، وغيرهم... وكان عند وقعة بدر في تجارة في «الشام»، فضرِبَ له النبي بسهمه وأجره، وشهد «أحدًا»، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، ووقى النبي نفسه، واتقى النبل عنه بيده حتى شلت أصبعه. توفي في جمادى الأولى سنة (٣٦).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٨٥/٣)، «البداية والنهاية» (٤٧/٧)، «تهذيب التهذيب» (٢٠/٥)، «التحفة اللطيفة» (٢٦٤/٢)، «شذرات الذهب» (٤٢/١، ٤٣، ٥٩)، «الإصابة» (٢٩٠/٣)، «التعديل والتجريح» (٤٢١)، «الاستبصار» (١١٦، ١٣٤، ١٦٠)، «التاريخ الصغير» (٦٩، ٧٥)، «الرياض المستطابة» (١٣٥)، «الرياض النضرة» (٣٣/١)، «تهذيب الكمال» (٦٢٨/٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٦٥ - ١٦٦) عن طلحة بن عبيد الله.

وعليك بالتمسك بالطريقة الوسطى، وخَفِ الله فيما خَوَّلَكَ، وَأَعْطَى، قال أبو بكر: فلماً ودعته، قال: أَتَحْمِلُ عَنِّي إِلَى ذَلِكَ النَّبِيِّ آيَاتاً، قلت: نعم، فَأَنشَأَ الشَّيْخُ يَقُولُ: [الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ مُعَاشِرِي وَنَفْسِي وَقَدْ أَصْبَحْتُ فِي الْحَيِّ عَاهِنَا
حَيِّتْ وَفِي الْأَيَّامِ لِلْمَرْءِ عِبْرَةً ثَلَاثَ مِثْلَيْنِ بَغْدَ تَسْعِيْنِ آمِنَا
وَقَدْ خَمَدَتْ مِنِّي شَرَارَةٌ قُوَّتِي وَأَلْفَيْتُ شَيْخاً لَا أُطِيقُ الشَّوَاحِنَا
وَأَنْتَ وَرَبُّ الْبَيْتِ تَأْتِي مُحَمَّداً لِعَامِكَ هَذَا قَدْ أَقَامَ الْبَرَاهِنَا
فَحَيِّ رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي فَإِنِّي عَلَى دِينِهِ أَحْيَا وَإِنْ كُنْتُ قَاطِنَا

قال أبو بكر: فحفظت شعره، وقَدِمْتُ مَكَّةَ، وقد بعث النبي ﷺ، فجاءني صناديد^(١) قُرَيْشٍ، وقالوا: يا أبا بكر، يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قال: فجئتُ إِلَى مَنْزِلِ النَّبِيِّ ﷺ ففرغتُ عَلَيْهِ، فخرَجَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَدْتُ مِنْ مَنَازِلِ قَوْمِكَ، وَتَرَكْتُ دِينَ آبَائِكَ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، وَإِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، فَأَمِنَ بِاللَّهِ، فَقُلْتُ: وَمَا دَلِيلُكَ؟ قَالَ: الشَّيْخُ الرَّاهِبُ الَّذِي لَقِيْتَهُ بِالْيَمَنِ، قُلْتُ: وَكَمْ مِنْ شَيْخٍ لَقِيتُ؟ قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ أُرِيدُ، إِنَّمَا أُرِيدُ الشَّيْخَ الَّذِي أَفَادَكَ الْآيَاتِ، قُلْتُ: وَمَنْ أَخْبَرَكَ بِهَا؟ قَالَ: الرُّوحُ الْأَمِينُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي الْأَنْبِيَاءَ قَبْلِي، قُلْتُ: مَدَّ يَمِينَكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَانْصَرَفْتُ وَمَا بَيْنَ لَابَتَيْنِهَا أَشَدُّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرحاً بِإِسْلَامِي. انتهى من تأليف ابن القُطَّانِ فِي «الآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ».

و ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾، أي: آيات القرآن، و ﴿الكتاب﴾: القرآن، قال قتادة: ﴿والحكمة﴾ السنة^(٢)، وروى ابن وهب^(٣) عن مالك؛ أن ﴿الحكمة﴾: الفقه في الدين^(٤)، والفهم الذي هو سجيّة ونور من الله تعالى.

- (١) هم أشرافهم وعظماؤهم، واحداً صِنْدِيدٌ. ينظر: «لسان العرب» (٢٥٠٧).
- (٢) أخرجه الطبري (٦٠٧/١) برقم (٢٠٨٣) وذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٢١٢/١) والسيوطي في «الدر» (٢٥٥/١)، وعزاه لعبد بن حميد، ابن جرير. وذكره ابن كثير (١٨٤/١).
- (٣) ابن وهب هو أبو محمد، عبد الله بن وهب بن مسلم، القرشي، مولا هم. روى عن علماء كثيرين منهم مالك، والليث، وابن أبي ذئب، والسيفانان. وقرأ على نافع بن أبي نعيم، تفقه بمالك، والليث، وابن أبي دينار، وأبي حازم، وغيرهم. له مصنفات كثيرة، منها: سماعه من مالك، وجامعه الكبير، وكان مولده سنة خمس ب «مصر» وتوفي يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة سبع وتسعين ومائة.
- ينظر: «الديباج المذهب» (٤١٣/١)، و «تذكرة الحفاظ» (٢٧٧/١)، و «البداية والنهاية» (٢٤٠/١٠).
- (٤) أخرجه الطبري (٦٠٧/١) برقم (٢٠٨٤)، وذكره ابن عطية (٢١٢/١)، وابن كثير (١٨٤/١).

* ت * : ونقل عِيَاضٌ في «مداركه» عن مالك ؛ أن ﴿الحكمة﴾ نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، وقال أيضاً: يقع في قلبي ؛ أن ﴿الحكمة﴾ الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله القلوب من رحمته وفضله، وقال أيضاً: ﴿الحكمة﴾ التفكر في أمر الله، والاتباع له، والفقه في الدين، والعمل به. انتهى.

وقد أشار * ع * : إلى هذا عند قوله تعالى: ﴿يُؤْتِ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) [البقرة: ٢٦٩].

* ت * : والظاهر أن المراد بـ ﴿الحكمة﴾ هنا: ما قاله قتادة، فتأمل.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: معناه يطهرهم، وينمّيهم بالخير، و ﴿العزیزُ﴾: الذي يغلب، ويتم مراده، و ﴿الحَكِيمُ﴾: المصيبُ مواقعِ الفعلِ، المُحكِّمُ لها.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٥) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية: «مَنْ»: أَسْتَفْهَامٌ، والمعنى: وَمَنْ يَزْهَدُ مِنْهَا، ويربأ بنفسه عنها إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، والمِلَّةُ: الشريعة والطريقة، وَسَفِهَ مَنْ السَّفَهَ الَّذِي معناه الرُّقَّةُ وَالْخِفَّةُ، وَاصْطَفَى مِنَ الصَّفْوَةِ، معناه: تَخَيَّرَ الْأَصْفَى، ومعنى هذا الإِصْطِفَاءِ؛ أَنَّهُ نَبَاهُ، وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: قيل: المعنى أنه في عمل الآخرة لمن الصالحين، فالكلام على حذف مضاف، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمَ﴾ كان هذا القول من الله تعالى حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس؛ والإِسْلَامُ هنا على أتم وجوهه، والضمير في «بِهَا» عائد على كلمته التي هي «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»، وقيل: على الملة، والأول أصوب؛ لأنه أقرب مذكور.

﴿ويعقوبُ﴾: قيل: عطفٌ على ﴿إبراهيمَ﴾، وقيل: مقطوعٌ منفردٌ بقوله: ﴿يَا بَنِيَّ﴾، والتقدير: ويعقوب قال: يَا بَنِيَّ/.

و ﴿أَصْطَفَى﴾ هنا: معناه: تَخَيَّرَ صفوة الأديان.

وقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: إيجاز بليغ، وذلك أَنَّ المقصود من أمرهم بالإسلام الدوامُ عليه، فَأَتَى بلفظ موجزٍ يقتضي المقصود، ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت، وذلك أَنَّ المرء يتحقق أنه يموت، ولا يدري متى، فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه من وقت الأمر دائماً لازماً.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين أَتَّخَلَّوْا الْأَنْبِيَاءَ - صلوات الله عليهم - ونَسَبُوهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَرَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَذَّبَهُمْ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْخَنِيفَةِ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ لَهُمْ عَلَى جَهَةِ التَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ: أَشْهَدْتُمْ يَعْقُوبَ بِمَا أَوْصَى، فَتَدْعُونَ عَنْ عِلْمٍ أَمْ لَمْ تَشْهَدُوا، بَلْ أَنْتُمْ تَفْتَرُونَ، «وَأَمْ»^(١): للاستفهام في صدر الكلام، لغة يمانية، وحكى الطبري أَنَّ «أَمْ» يستفهم

(١) في «أَمْ» هذه ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو المشهور أنها منقطعة، والمنقطعة تقدر بـ «بل» وهمزة الاستفهام، وبعضهم يقدرها بـ «بل وحدها»، ومعنى الإضراب انتقال من شيء إلى شيء لا إبطال له، ومعنى الاستفهام الإنكار والتوبيخ، فيؤول معناه إلى النفي أي: بل أَكُنْتُمْ شُهَدَاءَ يعني لم تكونوا.

الثاني: أنها بمعنى همزة الاستفهام وهو قول ابن عطية والطبري، لا أنهما اختلفا في محلها: فإن ابن عطية قال: وأم تكون بمعنى ألف الاستفهام في صدر الكلام لغة يمانية، وقال الطبري: إن أم يستفهم بها وسط كلام قد تقدم صدره.

قال أبو حيان في قول ابن عطية: ولم أقف لأحد من النحويين على ما قال، وقال في قول الطبري: وهذا أيضاً قول غريب.

الثالث: أنها متصلة وهو قول الزمخشري، قال الزمخشري بعد أن جعلها منقطعة وجعل الخطاب للمؤمنين قال بعد ذلك: وقيل الخطاب لليهود، لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبي إلا على اليهودية، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية، فالآية منافية لقولهم فكيف يقال لهم: أم كنتم شهداء؟ ولكن الوجه أن تكون «أَمْ» متصلة على أن يقدر قبلها محذوف كأنه قيل: أندعون على الأنبياء اليهودية أم كنتم شهداء، يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه براء؟

قال أبو حيان: ولا أعلم أحداً أجاز حذف هذه الجملة، ولا يحفظ ذلك في شعر ولا غيره لو قلت: «أَمْ زيد» تريد: «أقام عمرو أم زيد» لم يجز، وإنما يجوز حذف المعطوف عليه مع الواو والفاء إذا دل عليه دليل كقولك: «بلى وعمراً» لمن قال: لم يضرب زيدا، وقوله - تعالى -: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]

أي فضرب فانفجرت وندر حذفه مع أو كقوله: [الطويل]

فَهَلْ لَكَ أَوْ مِنْ وَالِدٍ لَكَ قَبْلَنَا

أي: من أخ أو والد، ومع حتى كقوله: [الطويل]

بها في وسط كلام قد تقدّم صدره، وهذا منه، و ﴿شُهَدَاءُ﴾: جمع شاهد، أي: حاضر، ومعنى الآية: حضر يعقوب مقدّمات الموت.

و ﴿مَنْ بَعْدِي﴾، أي: من بعد موتي، ودخل إسماعيل في الآباء لأنه عمّ.

وقد أطلق النبي ﷺ على العباس اسم الأب، فقال: «هذا بقية آبائي»^(١)، وقال: «رُدُّوا عَلَيَّ أَبِي» الحديث^(٢)، وقال: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»^(٣)، على القول الشهير في أن إسحاق هو الذبيح.

* ت *: وفي تشهيره نظر، بل الراجح أنه إسماعيل على ما هو معلوم في موضعه، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

= قَوَاعِبًا حَتَّى كَلِبَ تَسُبُّنِي كَأَنَّ أَبَاهَا نَهَشَلْ أَوْ مُجَاشِغَ
أي: يسبني الناس حتى كليب على نظر فيه، وإنما الجائز حذف «أم» مع ما عطفت كقوله: [الطويل] دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهِ سَمِيعٌ فَمَا أَزْدِي أَرْشُدَ طَلَابِهَا
أي: أم في، وإنما جاز ذلك، لأن المستفهم عن الإثبات يتضمن نقيضه، ويجوز حذف الثواني المقابلات إذا دل عليها المعنى، ألا ترى إلى قوله: ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] كيف حذف، «والبرد» انتهى.

ينظر: «الكتاب» (١٨/٣)، و «ابن يعيش» (١٨/٨)، و «المقتضب» (٤١/٢)، و «الأشموني» (٣/ ١١٦)، و «البحر المحيط» (٥٧٢/١)، و «الدر المصون» (١/ ٣٧٧-٣٧٨).
(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٠٧/١) من حديث الحسن بن علي مرفوعاً بلفظ: «احفظوني في العباس، فإنه بقية آبائي».

وقال: لا يروي عن الحسن بن علي بن أبي طالب إلا بهذا الإسناد. وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٧٢): رواه الطبراني في «الصغير»، و «الأوسط»، وفيه جماعة لم أعرفهم.
وأخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٩٠/١) عن ابن عباس بمثل حديث الحسن.

وقد روي هذا الحديث مرسلًا عن مجاهد: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨٢/٦) كتاب «الفضائل»، باب فضائل العباس، حديث (٣٢٢١٢)، وعبد الرزاق (١٣٢/٢) كلاهما من طريق ابن عينة عن داود بن سابور عن مجاهد عن النبي ﷺ مرسلًا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٨٤/١٤) كتاب «المغازي»، باب فتح مكة عن عكرمة مرسلًا بلفظ: «ردوا عليّ أبي؛ فإن عم الرجل صنو أبيه».

وذكره الهندي في «كتر العمال» (٣٠١٩٥)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة.

(٣) الحديث لا أصل له بهذا اللفظ.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٧٧/٣): غريب، والخلاف في تعيين الذبيح، هل هو إسماعيل أم إسحاق منذ عهد الصحابة (رضي الله عنهم)، والأحاديث التي وردت في تعيين أحدهما لا يصح منها شيء.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتُحُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ (١٣٥) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٦﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَسْتَكْبِرُكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٨﴾ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٣٩﴾

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ...﴾ الآية، يعني بالأمة الأنبياء المذكورين، والمخاطب في هذه الآية اليهود والنصارى، وقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ نظير قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، والحنيف في الدين: الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق، ويجيء الحنيف في الدين بمعنى المستقيم على جميع طاعات الله.

قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ الآية: هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾: يعني القرآن، و ﴿الْأَسْبَاطَ﴾ هم ولد يعقوب، وهم: زوئيل، وشمعون، ولأوي، ويهوذا، وريالون، ويشحر، ودنية بنته، وأهمم ليا، ثم خلف على أختها راحيل، فولدت له يوسف، وابن يامين، وولد له من سُرَّتَيْنِ: دان، وتفتالا، وجاد، واشر.

والسُّبُط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، فسُموا الأسباط؛ لأنه كان من كل واحد منهم سبط.

و ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾، أي: لا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض؛ كما تفعلون، ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾، أي: فإن صدقوا تصديقاً مثل تصديقكم، ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: أعرضوا، يعني: اليهود والنصارى، ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، أي: في مشاققة ومخالفة لك، هم في شق، وأنت في شق، وقيل: شاق معناه: شق كل واحد وصل ما بينه وبين صاحبه، ثم وعده تعالى أنه سيكفيه إياهم، ويغلبه عليهم، فكان ذلك في قتل بني قَيْنُقَاعَ، وبني قريظة، وإجلاء النضير.

وهذا الوعد وانتجازه من أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ.

و ﴿السَّمِيعُ﴾ لقول كل قائل، و ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينفذه في عباده، و ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾:

شريعته ودينه وسنته، وفطرته، قال كثير من المفسرين/ : وذلك أن النصارى لهم ماء^{١٣٧} يصبغون فيه أولادهم، فهذا ينظر إلى ذلك، وقيل: سمي الدين صبغة؛ استعارة من حيث تظهر أعماله وسنته على المتدين؛ كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره، ونصب الصبغة على الإغراء^(١).

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩)
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَتَنْتُمْ أَغْلَمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَظْلَمُ وَمِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ...﴾ الآية: معنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: أتحتاجوننا في الله، أي: أتجادلوننا في دينه، والقرب منه، والخطوة لديه سبحانه، والرب واحد، وكل مجازي بعمله، ثم وبخهم بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾، أي: ولم تخلصوا أنتم، فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ عطف على ألف الاستفهام المتقدمة، وهذه القراءة بالتاء من فوق قراءة ابن عامر، وحمزة، وغيرهما، وقرأ نافع وغيره بالياء من أسفل^(٢)، «وَأَمْ» على هذه القراءة مقطوعة، ووقفهم تعالى على موضع الانقطاع في الحجة؛ لأنهم إن قالوا:

(١) وفي انتصاب «صبغة» أربعة أوجه:

أحدها: أن انتصابها انتصاب المصدر المؤكد، وهذا اختاره الزمخشري، وقال: هو الذي ذكر سيبويه والقول ما قالت حذام انتهى. قوله واختلف حيثئذ عن ماذا انتصب هذا المصدر؟ قيل عن قوله: ﴿قولوا آمنا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقيل عن قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقيل عن قوله: ﴿فقد اهتدوا﴾ [البقرة: ١٣٧].

الثاني: أن انتصابها على الإغراء أي: الزموا صبغة الله.

قال أبو حيان: وهذا ينافره آخر الآية، وهو قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ [البقرة: ١٣٨] إلا أن يقدر هنا قول، وهو تقدير لا حاجة إليه، ولا دليل من الكلام عليه.

الثالث: أنها بدل من «ملة»، وهذا ضعيف إذ قد وقع الفصل بينهما بجمل كثيرة.

الرابع: انتصابها بإضمار فعل أي: اتبعوا صبغة الله، ذكره أبو البقاء مع وجه الإغراء، وهو في الحقيقة ليس زائداً، فإن الإغراء أيضاً هو نصب بإضمار فعل.

ينظر: «الدر المصون» (١/٣٨٨).

(٢) ينظر: «السبعة» (١٧١)، و«الحجة» (٢/٢٢٨)، و«معاني القراءات» (١/١٨٠)، و«العنوان» (٧٢)، و«حجة القراءات» (١١٥)، و«شرح الطيبة» (٤/٧١)، و«شرح شملة» (٢٧٨)، و«إتحاف» (١/٤١٩).

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، كَذَّبُوا؛ لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ هَذَيْنِ الدِّينَيْنِ حَدَّثَا بَعْدَهُمْ، وَإِنْ قَالُوا: لَمْ يَكُونُوا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، قِيلَ لَهُمْ: فَهَلُمُّوا إِلَى دِينِهِمْ؛ إِذْ تَقْرُونَ بِالْحَقِّ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ تقريرٌ على فساد دعواهم؛ إذ لا جواب لمفطورٍ إلا أن الله تعالى أعلم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً﴾، أي: لا أحد أظلم منه، وإياهم أراد تعالى بكتمان الشهادة، قال مجاهد وغيره: فالذي كتموه هو ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية، لا على ما ادَّعَوْهُ^(١)، وقال قتادة وغيره: هو ما عندهم من الأمر بتصديق النبي ﷺ^(٢) والأول أشبه بسياق الآية، «ومن» متعلقة بـ «عنده»، ويحتمل أن تتعلق بـ «كتم».

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ...﴾ الآية: فيه وعيد وإعلام؛ أنه لا يترك أمرهم سدى، والغافل الذي لا يفتن للأمر إهمالاً منه، مأخوذ من الأرض الغفل، وهي التي لا معلّم بها.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ...﴾ الآية: كرّرها عن قرب؛ لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، ولترداد ذكرهم أيضاً في معنى غير الأول.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ آلِي كَاوُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ إِنَّمَا يَكُنِ اللَّهُ

بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ...﴾ الآية: اختلف في تعيين هؤلاء السفهاء، فقال ابن عباس: هم الأحرار، وذلك أنهم جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، ما ولأك عن قبلتنا، أرجع إلينا، ونؤمن بك^(٣)، يريدون فتنته، وقيل: اليهود والمنافقون، وقالت فرقة: هم كفار قريش.

(١) ذكره ابن عطية (٢١٧/١) عن مجاهد، والحسن، والربيع.

(٢) أخرجه الطبري (٦٢٧/١) برقم (٢١٤٢) من طريق معمر عن قتادة. وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٠/١) بنحوه. وذكره السيوطي في «الدر» (٢٦٠/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير. وذكره ابن عطية في «التفسير» (٢١٧/١).

(٣) أخرجه الطبري (٧/٢) برقم (٢١٦٧)، وذكره ابن عطية (٢١٨/١).

﴿وَلَا تُهْمُ﴾: معناه: صَرَفَهُمْ، و﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قبلة إبراهيم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾، أي؛ كما هديناكم إلى قبلة إبراهيم وشريعته، ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي: عدولاً؛ روي ذلك عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وتظاهرت به عبارات المفسرين، والْوَسْطُ: الخيارُ والأعلى من الشيء، وواسطة القلادة أَنْفُسُ حَجَرٍ فيها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨].

و ﴿شهداء﴾: جمع شاهدٍ، والمراد بالناس هنا في قول جماعة: جميعُ الجنس، وأن أمة محمد ﷺ تشهد يوم القيامة للأنبياء على أمهم بالتبليغ، وروي في هذا المعنى حديث صحيح عن النبي ﷺ وروي عنه؛ أَنَّ أُمَّتَهُ تشهد لكل نبي نَكَرَهُ قومه^(١).

* ت * : وهذا الحديث خرَّجه البخاري، وابن ماجة، وابن المبارك في «رقائقه» / ٣٧ ب وغيرهم؛ قائلاً ﷺ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ الآية.

وكون الرسول شهيداً، قيل: معناه: بأعمالكم يوم القيامة، وقيل: «عليكم» بمعنى «لَكُمْ»، أي: يَشْهَدُ لَكُمْ بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ...﴾ الآية: قال قتادة وغيره: القبلة هنا بَيْتُ الْمَقْدِسِ^(٢)، أي: إِلَّا فِتْنَةً لِنَعْلَمَ من يتبعك من العرب الذين لم يَأْلَفُوا إِلَّا مَسْجِدَ مَكَّةَ أو من اليهود على ما قاله الضَّحَّاك الذين قالوا للنبي ﷺ: «إِنْ صَلَّيْتَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، أَتَبْعُكَ»، فأمره الله بالصلاة إليه، أمتحاناً لهم، فلم يؤمنوا^(٣).

وقال ابن عَبَّاس: القبلة في الآية: الكعبة^(٤)، و﴿كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ بمعنى: أَنْتَ عليها؛ كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بمعنى: أنتم.

وَمَا جَعَلْنَاهَا وَصَرَّفْنَاكَ إِلَيْهَا إِلَّا فِتْنَةً، وروي في ذلك؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لما حُوِّلَ إِلَى الكعبة، أَكْثَرَ في ذلك اليهود والمنافقون، وأرتاب بعض المؤمنين؛ حتَّى نزلت الآية، ومعنى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾، أي؛ ليعلم رسولي والمؤمنون به، والقاعدة نفِيُ أَسْتِقْبَالِ الْعِلْمِ بعد أن

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧/٨) كتاب «التفسير»، باب «ذرية من حملنا مع نوح» حديث (٤٧١٢) ومسلم (١٨٤/١) كتاب «الإيمان» باب أدنى أهل الجنة منزلة حديث (١٩٤/٣٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبري (١٤/٢) برقم (٢٢٠٦) عن السدي، وذكره ابن عطية (٢١٩/١). وذكره الشوكاني (١/٢١٨) عن عطاء.

(٣) ذكره ابن عطية (٢١٩/١).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٢٠/١).

لم يكن، و ﴿يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ عبارة عن المرتد، والرجوع على العقب أسوأ حالات الراجع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ...﴾ الآية: الضمير في «كَانَتْ» راجع إلى القبلة إلى بيت المقدس، أو إلى التحويلة إلى الكعبة، حسبما تقدّم من الخلاف في القبلة، «وكَبِيرَةً» هنا معناه: شاقّة صعبة، تكبر في الصدور، ولما حُولت القبلة، كان من قول اليهود: يا محمد، إن كانت الأولى حقاً، فأنت الآن على باطل، وإن كانت هذه حقاً، فكنت في الأولى على ضلال، فَوَجَمَتْ نفوس بعض المؤمنين، وأشفقوا على مَنْ مات قبل التحويل من صلاتهم السالفة، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾، أي: صلاتكم، قاله ابن عباس وغيره^(١)، وسمي الصلاة إيماناً لما كانت صادرة عن الإيمان؛ ولأن الإيمان هو القطب الذي عليه تدور الأعمال، فذكره إذ هو الأصل، ولئلا يندرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس، فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر، وأيضاً سُمِّيَتْ إيماناً؛ إذ هي من شَعَب الإيمان.

* ت * : وفي العتبية من سماع ابن القاسم^(٢)، قال مالك: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال: هي صلاة المؤمنين إلى بيت المقدس، قال ابن رشد؛ وعلى هذا القول أكثر أهل التفسير، وقد قيل: إن المعنى في ذلك، وما كان الله ليضيع إيمانكم بفرض الصلاة عليكم إلى بيت المقدس. انتهى من «البيان».

والرأفة: أعلى منازل الرحمة.

﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاةِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ

(١) أخرجه الطبري (٢٠/٢) برقم (٢٢٣٢)، وذكره ابن عطية (١/٢٢١).

(٢) ابن القاسم هو: أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي بالولاء، المعروف بابن القاسم، ولد بـ «مصر» سنة ١٢٨هـ، وقيل: سنة ١٣٢هـ. وقيل غير ذلك، سافر إلى «المدينة» فصحب الإمام مالكا، وتفقه عليه، وروى عنه وعن الليث بن سعد، وعبد العزيز بن الماجشون، وغيرهم، وروى عنه أصبغ، وسحنون، وعيسى بن دينار، وغيرهم. ومن مؤلفاته: «كتاب المدونة»، وهي التي أخذها عنه سحنون، وهي من أجل كتب الفقه المالكي، توفي بـ «مصر» سنة ١٩١هـ.

ينظر: «الديباج المذهب» (١/٤٦٥)، «شذرات الذهب» (١/٣٢٩)، «وفيات الأعيان» (٣/٣٦٢).

فَبَلَّغْهُمْ وَمَا يَفْعَلُهُمْ بِسَاجٍ قَبْلَهُ بَعْضٌ وَلَكِنْ أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...﴾ الآية: المقصود تقَلُّبُ البصر، وأيضاً: فالوجه يتقلَّب بتقلُّبِ البصر، قال قتادة وغيره: كان رسولُ الله ﷺ يقلِّب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى؛ أن يحوِّله إلى قبلة مكة^(١)، ومعنى التقلُّب نحو السماء: أن السماء جهة قد تعود العالم منها الرحمة؛ كالمطر، والأنوار، والوحي، فهم يجعلون رغبتهم حيث توالى النعم.

قال * ص * : ﴿فلنوليئك﴾: يدلُّ على تقدير حال، أي: قد نَرَى تقَلُّبَ وجهك في السماء طالباً قبلة غير التي أنت مستقبلها، فلنوليئك. انتهى.

و﴿تَرْضَاهَا﴾: معناه: تحبُّها/، وكان النبي ﷺ يحبُّ الكعبة والتحوُّل عن بيت المقدس؛ لوجه ثلاثة رُوِيَ:

أحدها: لقول اليهود: «مَا عَلِمَ مُحَمَّدٌ دِينَهُ؛ حَتَّى أَتَبَعَنَا»؛ قاله مجاهد.

الثاني^(٢): ليصيب قبلة إبراهيم - عليه السلام - قاله ابن عباس^(٣).

الثالث: ليستألف العرب؛ لمحبتهم في الكعبة، قاله الربيع والسدي^(٤).

* ع^(٥) * : والميزابُ هو قبلة المدينة والشام، وهنالك قبلة أهل الأندلس بتأريب، ولا خلاف أن الكعبة قبلة من كل أقي.

وقوله تعالى: ﴿فَوَلَّ وَجْهَكَ...﴾ الآية: أمر بالتحوُّل، ونسخ لقبلة الشام، و﴿شَطْرُ﴾: نصبٌ على الظرف، ومعناه: نحو، وتلقاء، ﴿وَحِينَئِذٍ مَا كُنْتُمْ فَوَلَّوْا﴾: أمر

(١) أخرجه الطبري (٢٢/٢) برقم (٢٢٣٥)، (٢٢٣٦) عن قتادة من طريقين وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٦٢/١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٢١/١).

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/٢) برقم (٢٢٣٩) بنحوه. وذكره ابن عطية (٢٢١/١)، والسيوطي في «الدر» (١/٢٦٩)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/٢) برقم (٢٢٤١) بنحوه. وذكره ابن عطية (٢٢١/١).

(٤) أخرجه الطبري (٢٢/٢) برقم (٢٢٣٧) عن الربيع، وبرقم (٢٢٣٨) عن السدي. وذكره ابن عطية (١/٢٢٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٢/١)، والميزاب: المُنْعَب، فارسي معرب، والجمع مأزيب إذا همز، وميازيب إذا لم يهمز. ينظر: «لسان العرب» (٤٨٢٣) (وزب)، و «الوسيط» (٤٠٧).

للأمة ناسخ.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ أوتُوا الكتابَ...﴾ الآية: المعنى: أن اليهود والنصارى يعلمون أن الكعبة هي قبله إبراهيم أمام الأمم، وأن استقبالها هو الحق الواجب على الجميع أتباعاً لمحمد ﷺ الذي يجدونه في كتبهم، وتضمنت الآية الوعيد.

وقوله جلّت قدرته: ﴿ولئن أتيت...﴾ الآية: أعلم الله تعالى نبيه - عليه السلام - حين قالت له اليهود: راجع بيت المقدس، ونؤمن بك؛ أن ذلك مخادعة منهم، وأنهم لا يتبعون له قبلة، يعني: جملتهم؛ لأن البعض قد اتبع، كعبد الله بن سلام وغيره، وأنهم لا يؤمنون بدينه، أي: فلا تضغ إليهم، والآية هنا العلامة.

وقوله جلّت عظمته: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم...﴾ لفظ خبر يتضمن الأمر، أي: فلا تركز إلى شيء من ذلك، ﴿وما بغضهم...﴾ الآية، قال ابن زيد وغيره: المعنى ليست اليهود متبعة قبله النصارى، ولا النصارى متبعة قبله اليهود، فهذا^(١) إعلام باختلافهم، وتدابره، وضلالهم، وقبله النصارى مشرق الشمس، وقبله اليهود بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿ولئن أتبت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم...﴾ الآية: خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهّم من النبي ﷺ ظُلماً متوقفاً، فهو محمود على إرادة أمته؛ لعصمة النبي ﷺ، وقطعاً أن ذلك لا يكون منه، وإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوِطب النبي ﷺ تعظيماً للأمر، قال الفخر^(٢): ودلت هذه الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم؛ لأن قوله: ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ يدل على ذلك. انتهى، وهو حسن.

* ص *: ﴿ولئن أتيت﴾: لام «لئن» مؤذنة بقسم مقدّر قبلها، ولهذا كان الجواب: له ﴿ما تبعوا﴾، ولو كان للشرط، لدخلت الفاء، وجواب الشرط محذوف؛ لدلالة جواب القسم عليه، ومن ثم جاء فعل الشرط ماضياً، لأنه إذا حذف جوابه، وجب فعله لفظاً. انتهى.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

(١) أخرجه الطبري (٢٧/٢) برقم (٢٢٦٣)، وذكره ابن عطية (٢٢٣/١)، والسيوطي في «الدر» (١/٢٧٠) عن السدي. وذكره الشوكاني في «تفسيره» عن السدي كذلك.

(٢) «التفسير الكبير» (٤/١١٦).

يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه...﴾ الآية: الضمير في يعرفونه عائذ على الحق في القبلة، والتحول إلى الكعبة، قال ابن عباس وغيره^(١)، وقال مجاهد وغيره: هو عائذ على محمد ﷺ، أي: يعرفون صدقه ونبوته^(٢).

* ت * : بل وصفاته.

﴿وَأِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: الفريق: الجماعة، وخص، [لأن] منهم من أسلم ولم يكتم والإشارة بالحق إلى ما تقدم على الخلاف في ضمير ﴿يعرفونه﴾ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ظاهر في صحة الكفر عناداً.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: هو الحق، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: الخطاب للنبي/ ﷺ والمراد أمته، وأمتري في الشيء، إذا شك فيه؛ ومنه: المرء، لأن ٣٨ ب هذا يشك في قول هذا.

﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاتَّبِعُوا أَمْرَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَلَا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَابَتُهُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهٌ﴾: الوجهة: من المواجهة؛ كالقبلة، والمعنى: ولكل صاحب ملة وجهة هو موليها نفسه، قاله ابن عباس وغيره^(٣).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨/٢) برقم (٢٢٦٧) عن ابن عباس، كما أخرج عدة آثار بهذا المعنى عن قتادة، والربيع، والسدي وغيرهم.

والأثر ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٢٣/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٧٠/١).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٢٤/١).

(٣) أخرجه الطبري (٣١/٢) برقم (٢٢٨٠) عن الربيع وبرقم (٢٢٨١) عن عطاء وبرقم (٢٢٨٣) عن ابن عباس.

وذكره ابن عطية الأندلسي (٢٢٤/١)، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٧١/١)، وعن ابن عباس، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقرأ ابن عامر^(١): «هُوَ مَوْلَاهَا»، أي: الله مَوْلَاهُ إِيَّاهُمْ، ثم أمر تعالى عباده باستباقِ الْخَيْرَاتِ، والبدارِ، إلى سبيل النجاة، وروى ابن المُبَارَك في «رِقَائِقِهِ» بسنده؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ»^(٢)، فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي، مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ. انتهى.

ثم وعظهم سبحانه بذكر الحشر موعظةً تتضمَّن وعيداً وتحذيراً.

* ص *: «أينما» ظرفٌ مضمَّن معنى الشرط في موضعِ خَبَرِ «كان». انتهى.

وقوله: «يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً» يعني به البعثُ من القبور.

وقوله تعالى: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» معناه: حَيْثُ كُنْتُ، وَأَنْتَى تَوَجَّهْتَ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ، وَمَغَارِبِهَا، وَكَرَّرْتَ هَذِهِ الْآيَةَ؛ تَأْكِيداً مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّ مَوْقِعَ التَّحْوِيلِ كَانَ صَغْباً فِي نَفْسِهِمْ جَدًّا، فَأَكَّدَ الْأَمْرَ؛ لِيَرَى النَّاسُ التَّهَمُّ بِه، فَيَخَفُ عَلَيْهِمْ وَتَسْكُنَ نَفْسُهُمْ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِثَلَاثٍ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ...» الآية: المعنى: عرفتكم وجه الصواب في قبلتكم، والحجة لذلك؛ لِثَلَاثٍ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ، والمراد بـ «النَّاسِ» العمومُ في اليهودِ والعربِ وغيرهم «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، أي: من المذكورين ممَّنْ تكلَّم في النازلة في قولهم: «مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ» [البقرة: ١٤٢].

وقوله تعالى: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...» الآية: [فيه] تحقيرُ لشأنهم، وأمرُ بِأَطْرَاحِ أَمْرِهِمْ، ومراعاة أمره سبحانه، قال الفخر^(٣): وهذه الآية تدلُّ على أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمَرْءِ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ وَتَرْوِكَه؛ أَنْ يَنْصِبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ خَشْيَةَ رَبِّهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَيْدِي الْخَلْقِ شَيْءٌ الْبَتَّةَ وَأَلَّا يَكُونَ مُشْتَغِلَ الْقَلْبِ بِهِمْ، وَلَا مُلْتَفِتَ الْخَاطِرِ إِلَيْهِمْ. انتهى.

(١) وحجته في هذه القراءة أنه: قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَتَوَلَّاهَا، وَلَمْ يَسْنَدْ إِلَى فَاعِلٍ بَعِينِهِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «هُوَ» كِنَايَةً عَنِ الْاسْمِ الَّذِي أَضِيغَتْ إِلَيْهِ «كُلٌّ». وهو الفاعل، ويجوز أن يكون فاعل التولية «اللَّهُ»، و «هُوَ» كِنَايَةً عَنْهُ. والتقدير: ولكل ذي ملة قبله الله مولياً وجهه. ثم رُدَّ ذَلِكَ إِلَى مَا لَمْ يَسْمَ فَاعِلُهُ.

ينظر: «حجة القراءات» (١١٧)، و «الحجة للقراء السبعة» (٢٣٠/٢)، و «العنوان» (٧٢)، و «شرح طيبة النشر» (٧٤/٤، ٧٥)، و «شرح شعلة» (٢٧٨)، و «معاني القراءات» (١٨١/١)، و «إتحاف فضلاء البشر» (٤٢٢/١).

(٢) التَّهَزُّةُ: الفرصة، وانتهزتها: اغتنمتها. ينظر: «النهاية» (١٣٥/٥).

(٣) «التفسير الكبير» (١٢٧/٤).

قال * ص * : ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناءً مُتَّصِلٌ، قاله ابن عباس وغيره، أي: لئلا تكون حجة من اليهود المعاندين القائلين ما ترك قبلتنا، وتوجّه للكعبة إلّا حباً لبلده، وقيل: منقطع، أي: لكن الذين ظلموا منهم؛ فإنهم يتعلّقون عليكم بالشّبه، وزعم أبو عبيدة مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى: إن «إِلَّا» في الآية بمعنى «الواو»، قال ومنه: [الوافر]:
وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ^(١)
أي: والذين ظلموا، وَالْفَرَقْدَانِ، وَرَدُّ بَأَنَّ «إِلَّا» بمعنى الواو ولا يقوم عليه دليل.
انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أمرٌ بِأَسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ، وهو شرطٌ في الفرض إلّا في القتال حالة الالتحام، وفي النوافل إلّا في السفر الطويل للرّكاب، والقدرة على اليقين في مصادفتها تَمْنَعُ من الاجتهاد، وعلى الاجتهاد تَمْنَعُ من التقليد.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْنَعُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطْفٌ على قوله: ﴿لَيْلًا﴾ وقيل: هو في موضع رفع بالابتداء، والخبر مضمّر، تقديره: وَلَا تَمْنَعُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ، عَرَفْتُمْ قِبْلَتِي، وَنَحْوَهُ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ترجّ في حقّ البشر، والكاف في قوله: «كَمَا» ردّ على قوله: ﴿وَلَا تَمْنَعُ﴾، أي: إتماماً كما، وهذا أحسن الأقوال، أي: لَا تَمْنَعُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي بَيَانِ سُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ/؛ «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ»؛ إجابة لدعوته في قوله: ﴿رَبَّنَا ۙ وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(١) البيت لعمر بن معد يكرب في ديوانه (ص ١٧٨)؛ و «الكتاب» (٣٣٤/٢)؛ و «لسان العرب» (١٥/٤٣٢) (ألا)؛ و «المتع في التصريف» (٥١/١)؛ والحضرمي بن عامر في «تذكرة النحاة» (ص ٩٠)؛ و «حماسة البحري» (ص ١٥١)؛ و «الحماسة البصرية» (٤١٨/٢)؛ و «شرح أبيات سيبويه» (٢/٤٦)؛ و «المؤتلف والمختلف» (ص ٨٥)؛ ولعمرو أو لحضرمي في «خزانة الأدب» (٣/٤٢١)؛ و «الدور» (٣/١٧٠)؛ و «شرح شواهد المغني» (١/٢١٦)؛ وبلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (٨/١٨٠)؛ و «أمالي المرتضى» (٨٨/٢)؛ و «الإنصاف» (١/٢٦٨)؛ و «الجنى الداني» (ص ٥١٩)؛ و «خزانة الأدب» (٣٢١/٩، ٣٢٢)؛ و «رصف المباني» (ص ٩٢)؛ و «شرح الأشموني» (١/٢٣٤)؛ و «شرح المفصل» (٢/٨٩)؛ و «المقد الفريد» (٣/١٠٧، ١٣٣)؛ و «فصل المقال» (ص ٢٥٧)؛ و «مغني اللبيب» (١/٧٢)؛ و «المقتضب» (٤/٤٠٩)؛ و «همع الهوامع» (١/٢٢٩).

واستشهد به على نعت «كلّ» بقوله: «إِلَّا الْفَرَقْدَانِ» على تقدير «غير». وفيه ردّ على المبرد الذي زعم أنّ الوصف بـ «إِلَّا» لم يجيء إلّا فيما يجوز فيه البدل. فـ «إِلَّا الْفَرَقْدَانِ» صفة، ولا يمكن فيه البدل.

(والفرقدان) نجمان قريبان من القطب، لا يفارق أحدهما الآخر.

وقيل: الكاف من «كما» ردّ على «تَهْتَدُونَ»، أي: اهتداء كما.

قال الفخر^(١): وهنا تأويل ثالث، وهو أن الكاف متعلّقة بما بعدها، أي: كما أرسلنا فيكم رسولا، وأوليتكم هذه النعم، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي...﴾ الآية. انتهى.

* ت * : وهذا التأويل نقله الداوودي عن الفراء. انتهى، وهذه الآية خطاب لامة محمد ﷺ و «آياتنا» يعني: القرآن، و «يُزَكِّيكُمْ»، أي: يطهركم من الكفر، وينمّيكم بالطاعة، و «الكتاب»: القرآن، و «الحكمة»: ما يتلقّى عنه ﷺ من سنّة، وفقه، ودين، وما لم تكونوا تعلمون قصص من سلف، وقصص ما يأتي من الغيوب.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ (١٥٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ...﴾ الآية: قال سعيد بن جبّير: معنى الآية: اذكروني بالطاعة، اذكركم بالثواب^(٢).

* ت * : وفي تفسير أحمد بن نصر الداوودي: وعن ابن جبّير: اذكروني بطاعتي، اذكركم بمغفرتي^(٣)، وروي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ، وَإِنْ قَلَّتْ صَلَاتُهُ، وَصِيَامُهُ، وَتِلَاوَتُهُ الْقُرْآنَ، وَمَنْ عَصَى اللَّهَ، فَقَدْ نَسِيَ اللَّهَ، وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ، وَصِيَامُهُ، وَتِلَاوَتُهُ الْقُرْآنَ»^(٤). انتهى.

(١) ينظر: «التفسير الكبير» (١٢٩/٤)، و «الدر المصون» (١/ ٤٠٩ - ٤١١).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٢٦/١).

(٣) أخرجه الطبري (٤٠/٢) برقم (٢٣١٨)، وذكره ابن عطية (٢٢٦/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٧٣/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» باب ذكر الله تبارك وتعالى، (٩٢٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٢٨/١).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٥٤/٢٢) رقم (٤١٣) من طريق الهيثم بن جمار عن الحارث بن حسان عن زاذان عن واقد مولى رسول الله ﷺ به مرفوعاً. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٦١)، وقال: وفيه الهيثم بن جمار، وهو متروك.

وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٤٦/١) رقم (١٩٢٤)، وعزاه إلى الحسن بن سفيان، والطبراني، وابن عساكر عن واقد.

وللحديث شاهد مرسل: أخرجه ابن المبارك (ص ١٧) رقم (٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٥٢) رقم (٦٨٧)، وسعيد بن منصور رقم (٢٣٠) عن خالد بن أبي عمران مرسلاً.

وزاد نسبه السيوطي في «الدر» (١٤٩/١) إلى ابن المنذر.

وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده عن أنس بن مالك، قال: مَا مِنْ بَغْعَةٍ يُذَكِّرُ اللَّهُ عَلَيْهَا بِصَلَاةٍ أَوْ بِذِكْرِ إِلَّا أَفْتَحَرَتْ عَلَى مَا حَوَّلَهَا مِنَ الْبِقَاعِ، وَاسْتَبْشَرَتْ بِذِكْرِ اللَّهِ إِلَى مَنَاطِقِهَا مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَقُومُ يَصَلِّي إِلَّا تَزَحَّرَتْ لَهُ الْأَرْضُ^(١). قال ابن المبارك: وَأَخْبَرَنَا الْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(٢)، قَالَ: الذَّاكِرُ فِي الْغَائِلِينَ؛ كَالْمَقَاتِلِ خَلْفَ الْفَارِزِينَ^(٣). انتهى.

وقال الربيع والسدي: المعنى: أذكروني بالدعاء والتسبيح^(٤) ونحوه، وفي صحيح البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ...»^(٥) الحديث. انتهى.

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص (١١٥) رقم (٣٣٩) عن أنس بن مالك موقوفاً. وأخرجه أبو يعلى (١٤٣/٧) رقم (٤١١٠) من طريق موسى بن عبيدة الرزدي عن يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨١ - ٨٢) وقال: رواه أبو يعلى، وفيه موسى بن عبيدة الرزدي، وهو ضعيف. اهـ.

وزاد نسبه المناوي في «فيض القدير» (٥/ ٤٧٥) إلى البيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله، الكوفي، الزاهد. عن أبيه، وعائشة، وابن عباس. وعنه قتادة، وأبو الزبير، والزهرى. وثقه أحمد وابن معين، ورواه ابن سعد بالإرجاء. قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٢/ ٣٠٩)، و «تهذيب التهذيب» (٨/ ١٧١)، و «الكاشف» (٢/ ٣٥٨)، و «تاريخ الثقات» (٣٧٧).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ١٢٢) رقم (٣٥٧).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٠) برقم (٢٣١٩)، وذكره ابن عطية في تفسيره (١/ ٢٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٩٥) كتاب «التوحيد»، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، حديث (٧٤٥٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١) كتاب «الذكر والدعاء»، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث (٢١/ ٢٦٧٥)، والترمذي (٥/ ٥٨١) كتاب «الدعوات»، باب في حسن الظن بالله (عز وجل)، حديث (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥ - ١٢٥٦) كتاب «الأدب»، باب فضل العمل، حديث (٣٨٢٢)، وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤١٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ٧)، وابن حبان (٣/ ٩٣) رقم (٨١١)، والبنوي في «شرح السنة» (٣/ ٨١ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦١) كتاب «الذكر والدعاء»، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث =

﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾، أي: نعمي وأياي، ﴿وَلَا تَكْفُرُون﴾: أي: نعمي وأياي.

* ت * : وعن جابر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ نِعْمَةٍ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا وَقَدْ أَدَّى شُكْرَهَا، فَإِنْ قَالَهَا الثَّانِيَةَ، جَدَّدَ اللَّهُ لَهَا ثَوَابَهَا، فَإِنْ قَالَهَا الثَّالِثَةَ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ» رواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح^(١). انتهى من «السَّلاح».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، أي: بمعونته وإنجاده.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَعْيَا وَلَكِنْ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٦) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ...﴾ الآية: سببها أن الناس قالوا فيمن قتل بيدر وأحد من المؤمنين: مَاتَ فُلَانٌ، مَاتَ فُلَانٌ، فكره الله سبحانه؛ أن تُحَطَّ منزلة الشهداء إلى منزلة غيرهم، فنزلت هذه الآية، وأيضاً: فإن المؤمنين صُغِبَ عليهم فراق إخوانهم وقربائهم، فنزلت الآية مسلية لهم، تعظم منزلة الشهداء، وتخبر عن حقيقة حالهم، فصاروا مغبوطين لا محزوناً لهم؛ ويظهر ذلك من حديث أم حارثة في السير.

* ت * : وخرجه البخاري في «صحيحه» عن أنس، قال: «أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ غَزْبٌ^(٢) سَهُمٌ، وهو غلامٌ، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، قد

= (٢٦٧٥)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٨٥)، وأحمد (٥١٦/٢)، ٥٢٤ من طريق زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٠٧-٥٠٨)، وعنه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨/٤) رقم (٤٤٠٢) من طريق عبد الرحمن بن قيس: نا محمد بن أبي حميد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي فقال: ليس بصحيح؛ قال أبو زرعة: عبد الرحمن بن قيس كذاب.

والحديث ذكره الذهبي في «الميزان» (٢/ ٥٨٣)، وقال: منكر. اهـ.

وعبد الرحمن بن قيس: قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٤٩٦): متروك؛ كذبه أبو زرعة وغيره.

(٢) أي لا يعرف راميه؛ يقال: سَهُمٌ غَرِبٌ، بفتح الراء وسكونها، وبالإضافة، وغير الإضافة. وقيل: هو بالسكون إذا أتاه من حيث لا يدري، وبالفصح إذا رماه فأصاب غيره. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٥٠-٣٥١).

عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ أَضْيَرُ، وَأَخْتَسِبُ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى، تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: وَنَحْكَ، أَوْ هُبْلَتِ، أَوْ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؛ إِنَّهَا جَنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى... الحديث^(١). انتهى.

* ع^(٢): والفرق بين الشهيد وغيره إنما هو الرُّزْقُ، وذلك أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَّلَهُمْ بِدَوَامِ حَالِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا فَرَزَقَهُمْ.

* ت * : وللشهيد أحوال شريفة منها ما خرَّجه الترمذي وابن ماجه عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتٌّ خِصَالٌ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنَ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقْرَبَائِهِ». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، زاد ابن ماجه: «وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ»^(٣)، قال القرطبي في «تذكرته»^(٤): هكذا وقع في نسخ الترمذي وابن ماجه: «سِتٌّ خِصَالٌ» وهي في متن الحديث سَبْعٌ، وعلى ما في ابن ماجه: «وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ» تكون ثمانية، وكذا ذكره أبو بكر أحمد بن سَلْمَانَ النَّجَّاد^(٥) بسنده عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ ثَمَانِ خِصَالٍ» انتهى. وخرَّج الترمذي، والنسائي عنه ﷺ أنه قال: «الشَّهِيدُ لَا يَجِدُ أَلَمَ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ أَلَمَ الْقَرْصَةِ»^(٦) انتهى.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥/٧) كتاب «المغازي»، باب فضل من شهد بدرًا، حديث (٣٩٨٢)، (٤٢٣/١١) كتاب «الرقاق» باب صفة الجنة والنار، حديث (٦٥٥٠) من حديث أنس.

(٢) «المحرر الوجيز» (٢٢٧/١).

(٣) أخرجه الترمذي (١٨٧-١٨٨) كتاب «فضائل الجهاد»، باب في ثواب الشهيد، حديث (١٦٦٣)، وابن ماجه (٩٣٥-٩٣٦) كتاب «الجهاد»، باب فضل الشهادة في سبيل الله، حديث (٢٧٩٩) كلاهما من طريق بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدم بن معد يكرب مرفوعاً.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٤) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢١٨/١).

(٥) الإمام المحدث الحافظ الفقيه المفتي، شيخ العراق، أبو بكر أحمد بن سلمان بن الحسن بن إسرائيل، البغدادي الحنبلي النَّجَّاد.

ولد سنة ثلاث وخمسين ومئتين، سمع أبا داود السجستاني، ارتحل إليه، وهو خاتمة أصحابه، وصنف ديواناً كبيراً في السنن، مات النَّجَّاد - رحمه الله تعالى - في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥/٥٠٢-٥٠٤).

(٦) أخرجه الترمذي (١٩٠/٤) كتاب «فضائل الجهاد»، باب ما جاء في فضل المرباط، حديث (١٦٦٨)، والنسائي (٣٦/٦) كتاب «الجهاد»، باب ما يجد الشهيد من الألم، حديث (٣١٦١)، وابن ماجه (٢/٢) =

* ع^(١) : * روي عن النبي ﷺ: «أَنَّ أَزْوَاجَ الشَّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ تُعَلَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ»^(٢)، وروي: «أَنَّهُمْ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ»، وروي: «أَنَّهُمْ فِي قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ»، إلى كثير من هذا، ولا محالة أنها أحوالٌ لِطَوَائِفَ، أو للجميع في أوقات متغايرة.

* ت * : وكذا ذكر شبيب بن إبراهيم في كتاب «الإفصاح» أَنَّ المنعمين على جهاتٍ مختلفة؛ بحسب مقاماتهم وتفاوتهم في أعمالهم، قال صاحب «التذكرة»: وهذا قول حسنٌ، وبه يجمع بين الأخبار حتى لا تدافع. انتهى.

قال * ع^(٣) : * وجمهور العلماء على أنهم في الجنة؛ ويؤيده قول النبي ﷺ: «لَا مَحَارِبَ: إِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى».

وقال مجاهد: هم خارجُ الجنة ويعلقون من شجرها^(٤)، وفي «مختصر الطبري»، قال: ونهى عزَّ وجلَّ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ، وأُغْلِمَ سبحانه أنه أحياء،

= (٩٣٧) كتاب «الجهاد»، باب فضل الشهادة في سبيل الله، حديث (٢٨٠٢)، والدارمي (٢٠٥/٢) كتاب «الجهاد»، باب فضل الشهيد، وأحمد (٢٩٧/٢)، والبيهقي (١٦٤/٩) كتاب «السير»، باب فضل الشهادة في سبيل الله (عز وجل)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٥١٦ - بتحقيقنا) كلهم من طريق محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وللحديث شاهد من حديث أبي قتادة: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٧/٥) وقال: رواه الطبراني، وفيه رشدين بن سعد، وهو ضعيف.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٤٢/٧) من طريق إسحاق العنبري: ثنا يعلى بن عبيد، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث الثوري، تفرد به إسحاق عن يعلى. اهـ.

وإسحاق العنبري: قال الذهبي في «المغني» (٧٢/١) رقم (٥٧٤): قال الأزدي: لا تحل الرواية عنه؛ كذاب. اهـ. وللحديث شاهد من حديث سنان بن سنة الأسلمي: أخرجه ابن ماجة (٥٦١/١) كتاب «الصيام»، باب فيمن قال: الطاعم الشاكر كالصائم الصابر، حديث (١٧٦٥)، والدارمي (٩٥/٢).

وقال البوصيري: إسناده صحيح.

(١) «المحرر الوجيز» (٢٢٧/١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٦/٤) كتاب «فضائل الجهاد»، باب ما جاء في ثواب الشهداء، حديث (١٦٤١).

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٧/١).

(٤) أخرجه الطبري (٤٢/٢) برقم (٢٣٢٣) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٨٥/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

ولكن لا شعورَ لنا بذلك؛ إذ لا نُشَاهِدُ باطنَ أمرهم، وخُصُّوا مِنْ بين سائر المؤمنين، بأنهم في البرزخ يرزقون من مطاعِمِ الجَنَّةِ ما يُرزَقُ المؤمنون من أهل الجنة على أنه قد ورد في الحديث: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ»، ومعنى: «يُعَلَّقُ»: يأكل؛ ومنه قوله: ما ذُقْتُ عَلاقاً، أي: مأكلاً، فقد عم المؤمنين؛ بأنهم يرزقون في البرزخ من رزق الجنة، ولكن لا يمتنع أن يخصَّ الشهداء من ذلك بقدر لا يناله غيرهم، والله أعلم. انتهى.

وروى النسائي أن رجلاً قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»^(١). انتهى.

* ت * : وحديث: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ خَرَّجَهُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ. قَالَ الدَّاوُدِيُّ: وحديث مالك، هذا أصحُّ ما جاء في الأرواح، والذي روي أنها تجعل في حواصل طير لا يصحُّ في النقل. انتهى.

قال أبو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ في «التمهيد»^(٢): والأشبه قول من قال: كَطَيْرٍ أو كَصُورٍ طير؛ لموافقة لحديث «الموطأ»، هذا/ وأسند أبو عمر هذه الأحاديث، ولم يذكر مطعناً في ١٤. إسناده. انتهى.

ثم أعلمهم تعالى أن الدنيا دارُ بلاءٍ ومحنةٍ، ثم وعد على الصَّبر، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نمتحنكم ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾، أي: من الأعداء في الحروب، ﴿وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي بالجوانح^(٣)، والمصائب، ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ بالموت، والقتل، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ بالعاهات، والمراد بشيءٍ من هذا وشيءٍ من هذا، واكتفى بالأول إيجازاً، ثم وصف سبحانه الصابرين الذين بشرهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾، فجعل سبحانه هذه الكلمات ملجأً لذوي المصائب؛ لما جمعت من المعاني المباركة من توحيد الله سبحانه، والإقرار له بالعبودية، والبعث من القبور، واليقين

(١) أخرجه النسائي (٩٩/٤) كتاب «الجنائز»، باب الشهيد، حديث (٢٠٥٣) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ به مرفوعاً.

وهذا الحديث لم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي.

(٢) ينظر: «التمهيد» (٦٤/١١).

(٣) الجائحة: الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة. ينظر: «لسان العرب» (٧١٩) (جوح).

بأن رجوع الأمر كله إليه؛ كما هو له، قال الفخر^(١) : قال أبو بكر الوراق^(٢) : ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ : إقراراً مثلاً له بالملك، ﴿وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقراراً على أنفسنا بالهلاك.

واعلم أن قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ يدل على كونه راضياً بكل ما نزل به، ووردت أخبار كثيرة في هذا الباب عن النبي ﷺ، فمن أسترجع عند المصيبة، جبر الله مصيبته، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرثاه. انتهى.

وروي: «أن مَضْبَاحَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْطَفَأَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، فَقِيلَ: أَمْصِيبَةٌ هِيَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ كُلُّ مَا آذَى الْمُؤْمِنَ، فَهُوَ مُصِيبَةٌ»^(٣). قال النووي^(٤) : ورؤينا في «كتاب ابن السني»^(٥) عن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ليسترجع أحدكم في كل شيء، حتَّى في شَيْعٍ»^(٦) نَعْلِهِ؛ فَإِنِهَا مِنَ الْمَصَائِبِ»^(٧). انتهى من «الحليّة».

(١) «التفسير الكبير» (٤/ ١٤٠).

(٢) الإمام المحدث، أبو بكر، محمد بن إسماعيل بن العباس البغداديُّ المُستَمْلِي الوراق. سمع أباه، والحسن بن الطيب، وعمر بن أبي غيلان، وأحمد بن الحسن الصوفي، ومحمد بن محمد الباغندي، والبغوي.

وعنه: الدارقطني، والبرقاني، وأبو محمد الخلال، وأحمد بن عمر القاضي، وأبو محمد الجوهري وعدة.

وُلِدَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتَسْعِينَ وَمِئَتَيْنِ، وَمَاتَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ.

ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢/ ١٧٥).

(٤) «الأذكار» (ص ١٥٨).

(٥) الإمام الحافظُ الثقةُ الزَّحَال، أبو بكر، أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط الهاشمي، الجعفري، مولا هم الديوري، المشهور بـ «ابن السني»، ولد في حدود سنة ثمانين ومئتين.

وهو الذي اختصر «سنن النسائي»، واقتصر على رواية المختصر، وسماه «المجتبى»، وجمع وصنّف كتاب «يوم وليلة». توفي آخر سنة أربع وستين وثلاثمائة. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٦) الشُّعْ : أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام، والزمام: السير الذي يعقد فيه الشُّع.

ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٧٢).

(٧) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٦)، وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٢٣١) رقم (٣٣٥١)، وعزاه لمسدد.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ الآية: نَعَمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الصَّابِرِينَ الْمُسْتَرجِعِينَ، وصلوات الله على عبده: عَفْوُهُ، وَرَحْمَتُهُ، وَبِرَكَتُهُ، وَتَشْرِيفُهُ إِياه فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَرَّرَ الرَّحْمَةَ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَجْزَاءِ الصَّلَاةِ، لَمَّا اخْتَلَفَ اللَّفْظُ؛ تَأْكِيداً مِنْهُ تَعَالَى وَشَهِدَ لَهُم بِالْإِهْتِدَاءِ.

* ت * وفي «صحيح البخاري»: وَقَالَ عُمَرُ: نَعَمْ الْعَدْلَانِ، وَنَعْمُ الْعِلَاوَةُ^(١) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ، قَالُوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ...﴾ إِلَى «الْمُهْتَدُونَ»^(٢)، قَالَ النَّوَوِيُّ فِي «الْحَلِيَّةِ»^(٣): وَرَوَيْنَا فِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ، وَابْنِ بَيْهَقٍ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ^(٤) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعْزَى أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥)، وَرَوَيْنَا فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ، وَالسَّنَنِ الْكَبِيرِ لِلْبَيْهَقِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَزَى مُصَابَا، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ» إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ^(٦)، وَرَوَيْنَا فِي

(١) الْعِلَاوَةُ: مَا عُرِيَ فَوْقَ الْجُمْلِ وَزِيدَ عَلَيْهِ. يَنْظُرُ: «الْنَهَايَةُ» (٢٩٥/٣)، وَ «الْوَسِيطُ» (٦٣١).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٠٥/٣) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ»، بَابِ الصَّبْرِ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى، عَنْ عَمْرِو تَعْلِيقاً.

وَوَصَلَهُ الْحَاكِمُ (٢٧٠/٢) مِنْ طَرِيقِ جَرِيرٍ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عَمْرِو بِهِ.

وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يَخْرُجْهُ، وَلَا أَعْلَمُ خِلَافاً بَيْنَ أَثْمَتِنَا أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ أَدْرَكَ أَيَّامَ عَمْرِو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي سَمَاعِهِ مِنْهُ. اهـ.

وَلَهُ طَرِيقٌ آخَرٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ نُحَيْلٍ: ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٢٠٥/٣)، وَعَزَاهُ إِلَى عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ.

(٣) «الْأَذْكَارُ» (ص ١٨٠).

(٤) عَمْرِو بْنُ حَزْمٍ بْنُ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ، الْخَزْرَجِيُّ، أَبُو الضَّحَّاكِ، الْمَدَنِيُّ، شَهِدَ الْخَنْدُقَ، وَوَلِيَ بَعْضَ أُمُورِ «الْيَمَنِ». لَهُ أَحَادِيثٌ. وَعَنْهُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَزَيْدُ بْنُ نُعَيْمٍ. قَالَ الْمَدَائِنِيُّ: مَاتَ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ.

يَنْظُرُ: «الْخُلَاصَةُ» (٢٨٢/٢ - ٢٨٣)، وَ «تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ» (٢٠/٨)، وَ «الْكَاشِفُ» (٣٢٦)، وَ «تَقْرِيبُ التَّهْذِيبِ» (٦٨/٢).

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (٥١١/١) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ» بَابَ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ مَنْ عَزَى مُصَابَا، حَدِيثُ (١٦٠١)، وَابْنُ بَيْهَقٍ (٥٩/٤) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ»، بَابَ مَا يَسْتَحَبُّ مِنْ تَعْزِيَةِ أَهْلِ الْمَيِّتِ مِنْ طَرِيقِ قَيْسِ أَبِي عِمَارَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ مَرْفُوعاً. وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ: فِي إِسْنَادِهِ قَيْسُ أَبُو عِمَارَةَ، ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَانَ فِي «الثَّقَاتِ»، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «الْكَاشِفِ»: ثِقَةٌ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: فِيهِ نَظَرٌ، وَبَاقِي رِجَالُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

(٦) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٨٥/٣) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ»، بَابَ مَا جَاءَ فِي أَجْرِ مَنْ عَزَى مُصَابَا، حَدِيثُ (١٠٧٣)، وَابْنُ مَاجَةَ (٥١١/١) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ»، بَابَ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ مَنْ عَزَى مُصَابَا، حَدِيثُ (١٦٠٢) مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ سُوْقَةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْأَسْوَدِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ بِهِ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعاً إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ عَاصِمٍ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوْقَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ مَوْقُوفاً. اهـ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي أَجْوِبَتِهِ عَنْ أَحَادِيثِ «الْمَصَابِيحِ» (٨٦/١): قُلْتُ: أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ =

كتاب الترمذي أيضاً عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ عَزَى ثُكُلِي، كُسِيَ بِرِدَاءٍ فِي الْجَنَّةِ». قال الترمذي ليس إسناده بالقوي^(١). انتهى.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: الصَّفَا: جمع صَفَاةٍ، وهي الصَّخْرَةُ الْعَظِيمَةُ، وَالْمَرْوَةُ واحدةُ الْمَرْوِ، وهي الْحِجَارَةُ الصُّغَارُ الَّتِي فِيهَا لَيْنٌ، و ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ معناه: معالمه، ومواضع عبادته، وقال مجاهد: ذلك راجعٌ إِلَى الْقَوْلِ، أَي: مما أشعركم الله بفضلِهِ: مأخوذٌ مِنْ شَعَرْتِ، إِذَا تَحَسَّسْتَ^(٢).

و ﴿حَجَّ﴾: معناه: قصد، وتكرَّر، و ﴿اعْتَمَرَ﴾: زار وتكرَّر مأخوذٌ مِنْ عَمَرْتُ^{٤٠} ب الموضع، والجُنَاحُ: الإِثْمُ، والمَمِيلُ عَنْ الْحَقِّ والطَّاعَةِ، ومن اللفظةِ الجَنَاحُ؛ لأنه في شِقٍّ؛ ومنه: ﴿وإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، و ﴿يَطَّوَّفُ﴾: أصله يَطَّوَّفُ، فقولهُ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...﴾ الآية: خبر يقتضي الأمر بما عهد من الطواف بهما، وقولهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ليس المقصودُ منه إباحة الطواف لمن شاء؛ لأن ذلك بعد الأمر لا يستقيم، وإنما المقصودُ رفعُ ما وقع في نفوس قوم من العرب من أنَّ الطَوَافَ بينهما فيه حرجٌ، وإعلامهم أن ما وقع في نفوسهم غيرُ صوابٍ، وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله

من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ. ورجاله رجال «الصحيحين» إلا علي بن عاصم؛ فإنه ضعيف عندهم. قال الترمذي بعد تخريجه: «لا نعرفه مرفوعاً إلا عن علي بن عاصم».

ورواه بعضهم عن محمد بن سودة شيخ علي بن عاصم موقوفاً على عبد الله بن مسعود. وقال الترمذي أيضاً: «أنكروه على علي بن عاصم، وعدوه من غلظه».

وقال أبو أحمد بن عدي: رواه جماعة متابعة لعلي بن عاصم، سرقه بعضهم منه، وأخطأ فيه بعضهم. وأخرجه ابن عدي من حديث أنس بلفظ: «مَنْ عَزَى أَخَاهُ الْمُسْلِمَ مِنْ مَصِيبَتِهِ كَسَاهُ اللَّهُ حِلَّةً»، وسنده ضعيف.

وأخرجه أبو الشيخ في «كتاب الثواب» من حديث جابر بمعناه، وأبو يعلى من حديث أبي برزة بلفظ آخر. وقد قلنا: إن الحديث إذا تعددت طرقه يقوى بعضها ببعض، وإذا قوي كيف يحسن أن يطلق عليه: إنه مختلق؟! اهـ.

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٧٨-٣٧٩)، كتاب «الجنائز»، باب آخر في فضل التعزية، حديث (١٠٧٦)، من حديث أبي برزة.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وليس إسناده بالقوي.

وهذا الحديث لم يخرجهُ أحد من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي.

(٢) ذكره ابن عطية (١/ ٢٢٩).

عنها :- «أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَنْصَارِ».

ومذهب مالك والشافعي^(١)؛ أَنَّ السَّعْيَ بينهما فرض لا يجزىء تاركه، إلاَّ العودة، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢) والدليل على ركنيته ما روي عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ

(١) من أركان الحج: السعي بين الصفا والمروة؛ لما روى «الدارقطني» و«البيهقي» بإسناد حسن أنه ﷺ استقبل الناس في المسعى. وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْعُوا فَإِنَّ السَّعْيَ قَدْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ»، أي فرض، وأصل السعي: الإسراع، والمراد به هنا: مطلق المشي. ويشترط لصحة السعي شروط ستة:

الأول: البدء بالصفا في الأوتار، وبالمروة في الأشفاع؛ للاتباع مع خبر «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»، وخبر «ابْدَءُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»، فلو خالف الساعي ذلك لم يصح.

الثاني: كونه سبع مرات يقيناً، للاتباع بحسب الذهاب من الصفا إلى المروة مرة، والإياب من المروة إلى الصفا مرة أخرى، ولا بد أن تكون السبع متيقنة، فلو شك الساعي في العدد، فإن كان قبل الفراغ، بنى على الأقل وجوباً، وإن كان بعد الفراغ لم يؤثر.

الثالث: أن يقطع الساعي المسافة بين الصفا والمروة في كل مرة، فلو بقي منها شيء لم يكف.

الرابع: أن يكون قطع المسافة من بطن الوادي، وهو المسعى المعروف الآن.

نعم لو انحرف قليلاً في سعيه عن محل السعي لم يضر، كما نص عليه الشافعي - رضي الله عنه -.

الخامس: أن يكون بعد طواف الإفاضة أو طواف القدوم؛ لأنه الوارد من فعله ﷺ، ونقل «الماوردي» الإجماع على ذلك.

ومحل كونه يقع صحيحاً بعد طواف القدوم إذا لم يكن الساعي قد وقف بعرفة بعد طواف القدوم، فلو وقف بها بعد طواف القدوم، وقبل السعي، لم يصح سعيه، إلا بعد طواف الإفاضة؛ لدخول طواف الفرض، فلا يجوز أن يسعى بعد طواف نفل مع إمكانه بعد طواف الفرض.

ومن فعل السعي بعد طواف القدوم لم تسن له إعادته بعد طواف الإفاضة، بل تكره إعادته؛ لأنه ﷺ وأصحابه لم يسعوا إلا بعد طواف القدوم.

نعم تجب إعادة السعي على صبي ورقيق إذا كمالا قبل الوقوف بعرفة، أو في أثنائه، كما تقدّم.

السادس: عدم الصارف، فلو حصل السعي بقصد المسابقة مثلاً لم يصح.

ويندب في السعي أمور: منها: أن يخرج من باب الصفا عقب الفراغ من صلاة الطواف واستلام الحجر وتقبيله. ومنها: أن يرقى الذكر على الصفا والمروة قدر قامة؛ فإنه ﷺ رقى على كل منهما - حتى رأى البيت. رواه مسلم. أما النساء والخنثى، فلا يسنّ لهم ذلك إلا إذا خلا المحل عن الرجال الأجانب.

ومنها: الذكر الوارد عند كل منهما. ومنها: أن يكون متطهراً من الحدث والخبث، مستور العورة.

ومنها: عدم الركوب إلا لعذر. ومنها: أن يهرول الذكر في وسط المسافة ذهاباً وإياباً، وأما في أول

المسافة وآخرها، فيمشي على حسب عادته، كما أن المرأة والخنثى لا يهرولان مطلقاً. ومنها: اتصال

السعي بالطواف، واتصال أشواط بعضها ببعض من غير تفريق. ومنها: أن يتحرز من إيذاء الغير وألا

يشغل بما يشغل القلب، كالنظر إلى الساعين.

ويكره للساعي أن يقف في أثناء سعيه بلا عذر لحديث أو غيره، وأن يصلّي بعده ركعتين.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١/٤٨).

اللَّهُ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّغْيَ، فَأَسْعَوْا»، صحَّحه الدارقطني^(١)؛ ويعضده المعنى، فإنه شعار، أي: معلم لا يخلو عنه الحجُّ والعمرة، فكان ركناً كالطواف. انتهى.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾: أي: زاد برّاً بعد الواجب في جميع الأعمال، وقال بعضهم: معناه: من تطوَّع بحجٍّ أو عمرة بعد حجة الفريضة، ومعنى ﴿شَاكِرٌ﴾، أي: يبذل الثواب والجزاء، ﴿عَلِيمٌ﴾: بالنيات والأعمال لا يضيع معه لعاملٍ عملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا...﴾ الآية: المراد بـ «الذين»: أحبار اليهود^(٢)، ورهبان النصارى الذين كتموا أمرَ محمد ﷺ وتناول الآية بغد كلٍّ من كتم علماً من دين الله يُحتاج إلى بُهٍّ، وذلك مفسر في قول النبي ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكْتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ»^(٣).

- (١) أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان، البغدادي الدارقطني، الحافظ الكبير، ولد سنة ٣٠٦، تفقه بأبي سعيد الإصطخري، صنف المصنفات المفيدة، منها السنن والعلل وغيرهما، قال الحاكم: صار أوحده عصره في الحفظ والفهم والورع، وإماماً في النحو، والقراءة، وأشهد أنه لم يخلق على أديم الأرض مثله. مات سنة ٣٨٥.
- انظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (١/١٦١)، «تاريخ بغداد» (١٢/٣٤)، «وفيات الأعيان» (٢/٤٥٩).
- (٢) ينظر: «الطبري» (٣/٢٤٩)، و «معاني الزجاج» (١/٢١٨)، و «الدر المنثور» (١/١٦٢)، عن مجاهد والسدي وقتادة، وابن كثير (١/٢٠٠) عن أبي العالية، و «غرائب النيسابوري» (٢/٦٧) عن ابن عباس، و «أسباب النزول» للواحدي (ص ٣١)، و «أسباب النزول» للسيوطي (ص ٢٧).
- (٣) ورد من حديث أبي هريرة، وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعمرو بن عبسة، وطلق بن علي. فأما حديث أبي هريرة أخرجه أبو داود (٢/٣٤٥) في العلم، باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٩/٥) في العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩)، وابن ماجه (١/٩٦) في «المقدمة»، باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦١)، وأحمد في «المستند» (٢/٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/٥٥)، والطالسي (٢٥٣٤)، وأبو يعلى (١١/٢٦٨)، برقم (٦٣٨٣)، وابن حبان (٩٥- موارد)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٣٢)، من طريقين: حماد بن سلمة، وعمارة بن زاذان، وعن علي بن الحكم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة به.
- وقال الترمذي: حديث حسن. وقال العقيلي في «الضعفاء» (١/٧٤)، إسناده صالح.
- وقال الذهبي في «الكبائر» (ص ١٢٢): إسناده صحيح، رواه عطاء بن أبي هريرة.
- وقال الحافظ في «القول المسدد» ص ٤٥ بعدما أورد الحديث من طريق أبي داود: والحديث وإن لم =

= يكن في نهاية الصحة .. لكنه صالح للحجة.

وأخرجه أحمد (٢٩٦/٢، ٤٩٩، ٥٠٨)، وابن أبي شيبة (٥٥/١٩)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢٦٨/٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٤، ١٣٥)، من طريق الحجاج بن أرطاة، عن عطاء به.

وأخرجه الحاكم (١٠١/١) من طريق القاسم بن محمد بن حماد، عن أحمد بن عبد الله، عن محمد بن ثور، عن ابن جريج قال: جاء الأعمش إلى عطاء فسأله عن حديث فحدثه، فقلنا له: تحدث هذا وهو عراقي؟ قال: لأنني سمعت أبا هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال: «من سئل...» فذكره.

وقال الحاكم: هذا حديث تداوله الناس بأسانيد كثيرة، تجمع ويذكر بها. وهذا الإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي. وتعبه العراقي كما في «شرح الإحياء» رقم ٥٦ بقوله: لا يصح من هذا الطريق؛ لضعف القاسم بن محمد بن حماد الدلال الكوفي. قال الدارقطني: حدثنا عنه وهو ضعيف. فلماذا لم أخرجه من هذا الوجه. قال الدارقطني في الجزء السابع من «الأفراد»: وإنما يعرف هذا من حديث علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة.

وأخرجه البيهقي في «المدخل» (٥٧٤)، والبخاري في «شرح السنة» بتحقيقنا (٢٣٨/١) برقم (١٤٠)، من طريق سماك بن حرب، عن عطاء به. وقال البخاري: هذا حديث حسن.

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٤١٠/٤)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٧)، من طريق الحسن بن شعيب قال نا إسماعيل بن إبراهيم نا صغدي بن سنان، عن ابن جريج عن عطاء به. وقال ابن الجوزي (١٠٦/١): صغدي، قال يحيى: ليس بشيء.

وأخرجه الطبراني في «الصفير» (١١٤/١)، وابن عدي في «الكامل» (١٣٩٥/٤)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل» (١٣٦)، من طريق صدقة بن موسى الدقيقي عن مالك بن دينار، عن عطاء به. قال الطبراني، وابن عدي: لم يروه عن مالك غير صدقة. ونقل ابن الجوزي قول يحيى في صدقة: ليس بشيء.

وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٦)، وابن الجوزي في «العلل» (١٤٠)، وابن عدي في «الكامل» (١٥٩٦/٤)، من طريقين عن ليث بن أبي سليم عن عطاء به.

وقال ابن عدي: وهذا لا أعلم رفعه عن ليث غير عبد الرحمن بن أبي الجويني - الراوي عنه، وعند ابن عبد البر - ورواه جرير الرازي، وغيره عن ليث موقوفاً.

وأخرجه ابن ماجه (٩٨/١) في «المقدمة»، باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦٦)، والعقيلي (٧٤/١) من طريق إسماعيل بن إبراهيم الكرابيسي، قال: أخبرنا ابن عون، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة به. وقال الحافظ العراقي في «الشرح»: وله طريق آخر صحيح من رواية ابن سيرين، عن أبي هريرة أورده ابن ماجه. وقال العلامة ابن القيم في «تهذيب السنن» (٢٥١/٥): وهؤلاء كلهم ثقات، وعزاه لابن خزيمة أيضاً.

وقال العقيلي في ترجمة الكرابيسي: ليس لحديثه أصل مستند، إنما هو موقوف من حديث ابن عون. أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فأخرجه ابن حبان (٩٦- موارد)، وابن عبد البر (٨)، والحاكم =

قال ابن العربي^(١): وللاية تحقيق، وهو أن العالم إذا قصد الكتمان، عصي، وإذا لم يقصده، لم يلزمه التبليغ، إذا عرف أن معه غيره، وقد كان أبو بكر وعمر لا يحدثان بكل ما سمعا من النبي ﷺ إلا عند الحاجة، وكان الزبير أقلهم حديثاً، ثم قال ابن العربي: فأما من سئل، فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية، وأما إن لم يُسأل، فلا يلزم التبليغ إلا في القرآن وخده، وقد ثبت عن النبي ﷺ في فضيلة التبليغ بأنه قال: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها، فَأَذَاهَا كَمَا سَمِعَهَا»^(٢) انتهى من «أحكام القرآن».

= في المستدرک (١٠٢/١)، والخطيب في «التاريخ» (٥/ ٣٨-٣٩)، وابن المبارك في «الزهد» (١١٩)، والبيهقي في «المدخل» (٥٧٥)، وابن الجوزي في «العلل» (١٢٣)، من طرق عن ابن وهب قال: حدثني عبد الله بن عياش بن عباس، عن أبيه، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو رفعه به. وصححه الحاكم، وسكت عنه الذهبي، وقال ابن الجوزي: فيه عبد الله بن وهب الفسوي قال ابن حبان: دجال يضع الحديث.

وقال المنذري في «المختصر» (٥/ ٢٥١): وهذا إسناد صحيح. وقد ظن أبو الفرج بن الجوزي أن هذا هو ابن وهب النسوي الذي قال فيه ابن حبان: يضع الحديث، فضعف الحديث به، وهذا من غلطاته، بل هو ابن وهب الإمام العلم، والدليل عليه: أن الحديث من رواية أصبغ بن الفرج، ومحمد بن عبد الله بن الحكم، وغيرهما من أصحاب ابن وهب عنه. والنسوي متأخر. من طبقة يحيى بن صاعد. والعجب من أبي الفرج كيف خفي عليه هذا؟ وقد ساقها من طريق أصبغ، وابن عبد الحكم، عن ابن وهب.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٦٦). رواه الطبراني في «الكبير»، و «الأوسط»، ورجاله موثقون. وأما حديث ابن مسعود فأخرجه الخطيب في «التاريخ» (٦/ ٧٧)، وابن عبد البر (٩)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٦٢، ١٢٩٣، ٦/ ٢١٧٤)، وابن الجوزي في «العلل» (١١٥-١١٨)، وابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٩٧) من طرق عنه.

وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٦٣) للطبراني في «الكبير»، و «الأوسط»، وقال في إسناد «الكبير»: سوار بن مصعب وهو متروك، وفي إسناد «الأوسط»: النضر بن سعيد ضعفه العقيلي.

(١) ينظر: «الأحكام» (١/ ٤٩).

(٢) ورد من حديث ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وجبير بن مطعم، فأما حديث ابن مسعود أخرجه الترمذي (٥/ ٣٣) في «العلم»، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وابن ماجه (١/ ٨٥) في «المقدمة»، باب من بلغ علماً (٢٣٢)، والحميدي في «مسنده» (٨٨)، وأحمد (١/ ٤٣٧)، والشافعي في «مسنده» (١/ ١٦)، وأبو يعلى (٥/ ٢٦، ٥٢٩٦)، وابن حبان (٧٤، ٧٥، ٧٦) موارد، والرامهرمزي في «المحدث الفاضل» برقم (٦، ٧، ٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣١)، والخطيب في «الكفاية» (ص ١٧٣)، وفي «شرف أصحاب الحديث». ص (١٨، ١٩)، والبيهقي في «معركة السنن والآثار» (١/ ١٥-١٦، ٤٣)، وفي «الدلائل» (٦/ ٥٤٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤١٩، ١٤٢٠)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/ ١٠)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٠٤)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٩٠)، والحاكم في «معركة علوم الحديث» ص ٣٢٢ من طرق عنه.

و ﴿الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾: أمر محمد ﷺ ثم يعُمُّ بعدُ كُلُّ ما يكتُم من خير، و ﴿في الكتاب﴾ يراد به التوراة والإنجيل، ويدخل القرآن في عموم الآية.
واختلف في «اللاعنين».

فقال قتادة، والربيع: الملائكة والمؤمنون^(١)، وهذا ظاهرٌ واضحٌ، وقيل: الحشرات والبهائم^(٢)، وقيل: جميع المخلوقات ما عدا الثقلين الجِنَّ

= وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وأما حديث زيد بن ثابت أخرجه أبو داود (٣٤٦/٢)، في «العلم»، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (١٨٣/٥)، وابن حبان (٧٢-٧٣) موارد، والدارمي (٧٥/١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٣٢/٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٤)، (١٨٥، ١٨٦، ١٨٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٤)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/١١)، والرامهرمزي (٤، ٣)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص ١٧، ١٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٧١/٢).

وقال الترمذي: حديث حسن.
* وأما حديث جبير بن مطعم:
فأخرجه ابن ماجه (٢٣١)، وأحمد (٨٠/٤، ٨٢)، والدارمي (١/٧٤-٧٥)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤١٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٢١)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٢/٢)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١٠/٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/٤-٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٩٥)، والحاكم في «المستدرک» (١/٨٧)، من طرق عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن محمد بن جبير، عن أبيه.
وأخرجه ابن ماجه (٢٣١)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤٢)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٢/٢)، من طريق ابن إسحاق، وعن عبد السلام بن أبي الجنوب، عن الزهري، عن محمد بن جبير به.
وقال البوصيري في «الزوائد» (٩٩/١): هذا إسناد ضعيف؛ لضعف عبد السلام... وأخرجه الطبراني (١٥٤٣)، وابن أبي حاتم (١٠/١) من طريق ابن إسحاق، عن عمرو بن أبي عمرو، عن محمد بن جبير، عن أبيه به.

وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧٤١٤)، والحاكم (١/٨٧-٨٨)، من طريق ابن إسحاق، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الرحمن بن الحويرث، عن محمد بن جبير به.
وتابعه عليه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو به، أخرجه الدارمي في «سننه» (١/٧٤).
وأخرجه الطبراني (١٥٤٤)، والحاكم (٨٧/١) من طريق نعيم بن حماد قال: ثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان، عن الزهري، عن محمد بن جبير. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.
(١) أخرجه الطبري (٥٩/٢) برقم (٢٣٩٣-٢٣٩٤-٢٣٩٥)، عن قتادة، والربيع، وذكره ابن عطية (١/٢٣١)، وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/٦٥) عن قتادة بلفظ: «الملائكة».
(٢) أخرجه الطبري (٥٨/٢) برقم (٢٣٨٥ إلى ٢٣٩٢) عن مجاهد، وعكرمة، أما الأخبار التي عن مجاهد رويت بأسانيد مختلفة.

وذكره ابن عطية الأندلسي (٢٣١/١)، والبغوي في «التفسير» (١/١٣٤) عن مجاهد.

والإنس^(١)، وهذان القولان لا يقتضيهما اللفظ، ولا يثبتان إلا بسند يقطع العذر، ثم أسستني الله سبحانه التائين.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾، أي: في أعمالهم وأقوالهم.

﴿وَيَبْنُوا﴾، أي: أمر محمد ﷺ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ الآية: هذه الآية محكمة في الذين وافوا على كفرهم، واختلف في معنى قوله: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: والكفار لا يلعنون أنفسهم.

فقال قتادة، والربيع: المراد بـ ﴿الناس﴾: المؤمنون خاصة^(٢)، وقال أبو العالية: معنى ذلك في الآخرة^(٣).

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: في اللعنة، وقيل: في النار، وعاد الضمير عليها، وإن لم يجز لها ذكر؛ لثبوتها في المعنى.

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، أي: لا يؤخرون عن العذاب، ويحتمل أن يكون من النظر؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظَرُ إِلَيْهِمْ/ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] والأول أظهر؛ لأن النظر بالعين إنما يعدى بـ «إلى» إلا شاذاً في الشعر.

﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاتِّخَافِ الْبَلِّ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (٦٠/٢) برقم (٢٣٩٦)، وإسناد هذا الخبر: «حدثني موسى قال: حدثنا عمرو قال: حدثنا أسباط عن السدي قال: قال البراء بن عازب...» ثم ذكر الخبر بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٦٢/٢) برقم (٢٤٠٠-٢٤٠١) بإسنادين مختلفين أحدهما: عن قتادة، والآخر عن الربيع. وذكره ابن عطية (٢٣٢/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٩٨/١) عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (٦٢/٢) برقم (٢٤٠٢) بلفظ: «إن الكافر يوقف يوم القيامة، فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون». وذكره ابن عطية (٢٣٢/١)، والبخاري في «تفسيره» (١٣٤/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٩٨/١)، وعزاه لابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَالْهَكَمَ إِلَهُ وَاحِدٌ...﴾ الآية: إعلام بالوحدانية.

قال عطاء: لما نزلت هذه الآية بالمدينة، قال كفّار قريش بمكة: ما الدليل على هذا، وما آيته، وعلامته^(١)؟ ونحوه عن ابن المُسيّب^(٢)، فنزل عند ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، أي: في اختراعها وإنشائها.

﴿والنهار﴾: من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يقضي بذلك قول النبي ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «إِنَّمَا هُوَ بَيَاضُ النَّهَارِ، وَسَوَادُ اللَّيْلِ»^(٣)، وهذا هو مقتضى الفقه في

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٢٣٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) ورد ذلك من حديث عدي بن حاتم، وسهل بن سعد: فأما حديث عدي بن حاتم: فأخرجه البخاري (٤/١٥٧) في الصوم: باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ...﴾، وفي (٨/٣١) في التفسير، باب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ...﴾ (٤٥٠٩)، ومسلم (٢/٧٦٦) في الصيام: باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (٣٣-١٠٩٠)، وأبو داود (١/٧١٧) في الصيام، باب في وقت السحور (٢٣٤٩)، والترمذي (٥/١٩٥) في التفسير: باب ومن سورة البقرة (٢٩٧٠، ٢٩٧١)، وأحمد (٤/٣٧٧)، وابن أبي شيبه في «مصنفه» (٣/٢٨٩) برقم (٩٠٧٩)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٩٨٩)، والدارمي (٢/٥، ٦)، في الصوم، باب متى يمسك المتسحر من الطعام والشراب، والطبراني في «الكبير» (١٧/٧٩، ٨٠) برقم (١٧٦)، والبيهقي (٤/٢١٥) من طريق الشعبي، عن عدي بن حاتم به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر» (١/٣٦٠)، فزاد في نسبه إلى سفيان بن عيينة، وسعيد بن منصور، وابن المنذر.

وأخرجه البخاري في التفسير (١٠/٤٥١)، والنسائي (٤/١٤٨) في الصيام: باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ...﴾، وابن جرير (٢٩٨٩)، والطبراني (١٧٧، ١٧٨) من طريق مطرف عن الشعبي، عن عدي قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا، إن أبصرت الخيطين، ثم قال: لا، بل هو سواد الليل، وبياض النهار. وصححه ابن خزيمة (٣/٢٠٩) برقم (١٩٢٦)، وذكره السيوطي في «الدر»، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد.

وأخرجه أحمد (٤/٣٧٧)، والطبراني في «الكبير» (١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥)، وابن جرير (٢٩٨٨) من طريق مجالد: حدثني عامر حدثني عدي بن حاتم. قال: علمني رسول الله ﷺ الصلاة والصيام. فقال: صل كذا، وصل كذا، وصم كذا. فإذا غابت الشمس فكل واشرب، حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وصم ثلاثين يوماً، إلا أن ترى الهلال قبل ذلك. فأخذت خيطين من شعر أسود وأبيض، فكنت أبصر فيهما فلا يتبين لي، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضحك، فقال: يا ابن حاتم، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل.

وأما حديث سهل بن سعد: فأخرجه البخاري (٤/١٥٧) في الصوم، باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا=

الْأَيْمَانِ ونحوها، وأما على ظاهر اللغة، وأخذه من السعة، فهو من الإسْفَار، وقال الرَّجَّاح في «كتاب الأنوار»: «أَوَّلُ النَّهَارِ دُرُورُ الشَّمْسِ، قال: وزعم النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ^(١)؛ أن أول النهار ابتداء طلوع الشمس، ولا يعدُّ ما قبل ذلك من النَّهَارِ.

قال * ع^(٢) *: وقول النبي ﷺ هو الْحَكَمُ.

﴿وَالْفُلْكَ﴾: السُّفُن، ومفرده وجمعه بلفظ واحد.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ يعني به الأمطار، ﴿وَبَثَّ﴾: معناه: فرق، وبسط، و ﴿دَابَّة﴾: تجمع الحيوان كله.

و ﴿تَضْرِيْفُ الرِّيحِ﴾: إرسالها عقيماً، وملقحة وصيراً ونضراً وهلاكاً وجنوباً وشمالاً وغير ذلك، والرِّيحُ: جمع ريح، وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة، مفردة مع العذاب، إلا في «يونس» في قوله سبحانه: ﴿وَجَرَيْنَ بَيْنَهُم بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ﴾ [يونس: ٢٢] وهذا، أغلب وقوعها في الكلام، وفي الحديث: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا هَبَّتْ رِيحٌ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحاً، وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحاً»^(٣)، وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتزمة

= واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض... ﴿ (١٩١٧)، و (٣١/٨) في التفسير، باب: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود...﴾ (٤٥١١). ومسلم (٧٦٧/٢) في الصيام: باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (١٠٩١/٣٥)، والنسائي في «الكبرى»، ذكره المزني في «تحفة الأشراف» (١٢١/٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٥٣/٢). وأبو يعلى في «مسنده» (٧٥٤٠)، وابن جرير (٢٩٩٠)، والبيهقي (٢١٥/٤) في الصيام، باب الوقت الذي يحرم فيه الطعام على الصائمين من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال: فكان الرجل إذا أراد الصوم، ربط أحدهم في رجله الخيط الأسود والخيط الأبيض، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رئيها، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنما يعني بذلك: الليل والنهار.

(١) النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني، التميمي، أبو الحسن: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة، ولد بـ «مرو» (من بلاد «خراسان») سنة ١٢٢ هـ. من مصنفاته: «الصفات» كبير، من صفات الإنسان، والبيوت، والجبال، والإبل، والغنم، والطير، والكواكب، والزروع، و «كتاب السلاح»، و «المعاني» و «غريب الحديث» و «الأنواء». وتوفي بـ «مرو» سنة ٢٠٣ هـ. ينظر: «الأعلام» (٣٣/٨)، و «وفيات الأعيان» (١٦١/٢)، و «غاية النهاية» (٣٤١/٢).

(٢) «المحرر الوجيز» (٢٣٣/١).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٣٤١/٤) رقم (٢٤٥٦) من طريق حسين بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٨/١٠)، وقال: رواه الطبراني، وفيه حسين بن قيس. الملقب بحنش، وهو متروك، وقد وثقه حصين بن نمير، وبقيّة رجاله رجال الصحيح. اهـ. والحديث ذكره الحافظ في «المطالب العلية» رقم (٣٣٧١)، وعزاه إلى مسدد وأبي يعلى.

الأجزاء، كأنها جسمٌ واحدٌ، وريح الرحمة لينة تجيء من ههنا وههنا متقطعة، فلذلك يقال هي رياحٌ، وهو معنى نشر، وأفردت مع الفلك؛ لأن ريح إجراء السفن، إنما هي واحدة متصلة، ثم وصفت بالطيب، فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب، وهي لفظة من ذوات الواو، يقال: رِيحٌ، وأزواخٌ، ولا يقال: «أزياخٌ»، وإنما يقال: رِيَاخٌ من جهة الكسرة، وطلب تناسب الياء معها، وقد لُحِنَ في هذه اللفظة عُمَارَةُ بْنُ عَقِيلٍ بْنِ بِلَالٍ بْنِ جَرِيرٍ^(١)، فاستعمل «الأزياخ» في شعره، ولُحِنَ في ذلك، وقال له أبو حَاتِمٍ^(٢): إِنَّ الأرياحَ لا يجوزُ، فقال: أما تَسْمَعُ قولهم: رِيَاخٌ، فقال أبو حَاتِمٍ: هذا خلافُ ذلك، فقال: صدقت، ورَجَعَ. ﴿والسحاب﴾: جمع سحابة، سمي بذلك؛ لأنه ينسحبُ، وتسخيره بعثه من مكانٍ إلى آخر، فهذه آيات.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً...﴾ الآية: التذ: النظير،

(١) عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية الكلبي، اليربوعي، التميمي: شاعر مقدم، فصيح. من أهل «اليمامة». كان يسكن بادية «البصرة»، ويزور الخلفاء من بني العباس، فيجزلون صلته. وبقي إلى أيام الواصل، وعمي قبل موته. وهو من أحفاد جرير الشاعر. وكان النحويون في البصرة يأخذون اللغة عنه. له أخبار. وهو القائل: [الطويل]

«بدأتم فأحسنتم، فأثنيتم جاهداً وإن عدتُم أثنيتم، والعود أحمد»
والقائل: [الطويل]

«وما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرها»
وجمع من نظمه «ديوان شعر» حققه ونشره شاكر العاشور. ينظر: «الأعلام» (٣٧/٥)، و «تاريخ بغداد» (٢٨٢/١٢).

(٢) سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني: من كبار العلماء باللغة والشعر؟ من أهل «البصرة» كان المبرد يلازم القراءة عليه. له نيف وثلاثون كتاباً، منها كتاب «المعمرين»، و «النخلة»، و «ما تلحن فيه العامة»، و «الشجر والنبات»، و «الطير» و «الأضداد»، و «الوحوش»، و «الحشرات»، و «الشوق إلى الوطن»، و «العشب والبقل»، و «الفرق بين الآدميين وكل ذي روح»، و «المختصر» في النحو على مذهب الأخفش وسيبويه. وله شعر جيد.

ينظر: «الأعلام» (١٤٣/٣)، و «الفهرست» لابن النديم (٥٨/١)، و «الوفيات» (٢١٨/١).

والمقاوم، قال مجاهد، وقتادة: المراد بالأنداد: الأوثان^(١) ﴿كَحَبِّ اللَّهِ﴾، أي: كحبِّكم لله، أو كحبِّهم حسبما قَدَّر كل وجه منها فرقة، ومعنى: كَحَبِّهِمْ، أي: يسوون بين محبة الله، ومحبة الأوثان، ثم أخبر أن المؤمنين أشد حبا لله، لإخلاصهم، وتيقنهم الحق.

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى الذين ظلموا﴾، أي: ولو ترى، يا محمد، الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب، وفزعهم منه، واستعظامهم له، لأقروا أن القوة لله، أو لعلمت أن القوة لله جميعاً، فجواب «لو»: مضمَّر؛ على التقديرين^(٢)، وقد كان النبي ﷺ / عَلِمَ

(١) أخرجه الطبري (٧١/٢) برقم (٢٤١٤-٢٤١٥) بإسنادين مختلفين أحدهما: عن قتادة، ومجاهد بلفظ: «من الكفار لأوثانهم». وذكره ابن عطية (٢٣٤/١) والسيوطي في «الدر» (٣٠٣/١ - ٣٠٤).

(٢) جواب «لو» محذوف، واختلَف في تقديره، ولا يَظْهَرُ ذلك إلا بعد ذِكْرِ القراءات الواردة في ألفاظ هذه الآية الكريمة: قرأ ابنُ عامر ونافع: «ولو ترى» بناءً الخطاب، «أن القوة» و «أن الله» بفتحهما، وقرأ ابنُ عامر: «إذ يُرَوَّن» بضم الياء، والباقون بفتحهما. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكوفيون: «ولو يرى» بياء الغيبة، «أن القوة» و «أن الله» بفتحهما، وقرأ الحسن وقتادة وشيبة ويعقوب وأبو جعفر: «ولو ترى» بالخطاب، «إن القوة» و «إن الله» بكسرهما، وقرأت طائفة: «ولو يرى» بياء الغيبة، «إن القوة» و «إن الله» بكسرهما. إذا تقرَّر ذلك فقد اختلفوا في تقدير جواب لو، فمنهم من قَدَّرَه قبل قوله: «أن القوة» ومنهم من قَدَّرَه بعد قوله: «وأن الله شديد العذاب» وهو قول أبي الحسن الأخفش والميرد. أمَّا من قَدَّرَه قبل «أن القوة» فيكون «أن القوة» معمولاً لذلك الجواب. وتقديره على قراءة ترى - بالخطاب - وفتح أن وأن: لعلمت أيها السامع أن القوة لله جميعاً، والمراد بهذا الخطاب: إمَّا النبي عليه السلام وإمَّا كل سامع. وعلى قراءة الكسر في «إن» يكون التقدير: لقلت إن القوة لله جميعاً، والخلاف في المراد بالخطاب كما تقدَّم، أو كون التقدير: لاستعظمت حالهم، وإنما كُسِرَتْ «إن» لأنَّ فيها معنى التعليل نحو قولك: لو قَدِّمْتُ على زيد لأخسَّن إليك إنَّه مكْرَمٌ للضيْفان، فقولك: «إنه مكْرَمٌ للضيْفان» عِلَّةٌ لقولك: «أخسَّن إليك».

وقال ابنُ عطية: «تقديره: ولو ترى الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه واستعظامهم له لأقروا أن القوة لله جميعاً».

وناقشه الشيخ فقال: «كان ينبغي أن يقول: في وقت رؤيتهم العذاب فيأتي بمرادف «إذ» وهو الوقت لا الحال، وأيضاً فتقديره لجواب «لو» غير مُرتَّب على ما يلي «لو» لأنَّ رؤية السامع أو النبي عليه السلام الظالمين في وقت رؤيتهم لا يترتَّب عليها إقرارهم بأنَّ القوة لله جميعاً، وهو نظير قولك: «يا زيد لو ترى عمراً في وقت ضربه لأقرَّ أن الله قادرٌ عليه» فأقراؤه بقدرة الله ليست مترتبة على رؤية زيد. انتهى. وتقديره على قراءة «يرى» بالغيبة: لعلموا أن القوة، إن كان فاعل «يرى» «الذين ظلموا»، وإن كان ضميراً يعود على السامع فيَقْدَرُ: لَعَلِمَ أنَّ القوة.

وأما من قَدَّرَه بعد قوله: شديد العذاب فتقديره على قراءة «ترى» بالخطاب: لاستعظمت ما حلَّ بهم، ويكون فتح «أن» على أنه مفعول من أجله، أي: لأنَّ القوة لله جميعاً، وكسرها على معنى التعليل نحو: «أكرم زيداً إنه عالم، وأهن عمراً إنَّه جاهل»، أو تكون جملة معترضة بين «لو» وجوابها المحذوف. وتقديره على قراءة «ولو يرى» بالغيبة إن كان فاعل «يرى» ضمير السامع: لاستعظمت ذلك، وإن كان فاعله =

ذَلِكَ، وَلَكِنْ خَوَّطَبَ، والمرادُ أمته.

وقرأ حمزة وغيره^(١) بالياء، أي: ولو يَرَى في الدنيا الذين ظلموا حالَهُمْ في الآخرة، إذ يرون العذاب، لعلّموا أن القوة لله.

و ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ بفتح التاء والباء: هم العَبْدَةُ لغير الله الضالُّون المقلِّدون لرؤسائهم، أو للشياطين، وتبريهم هو بأن قالوا إنا لم نضلْ هؤلاء، بل كفروا بإرادتهم.

والسَّبَبُ؛ في اللغة: الحبلُ الرابط الموصِّل، فيقال في كلِّ ما يتمسَّك به فيَصِلُ بين شيئين، ﴿وقال الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾، أي: الأتباع.

والكَرَّة: العودة إلى حال قد كانت كذلك، ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ...﴾ الآية: يحتمل

= «الذين» كان التقدير: لاستعظمو ما حلَّ بهم، ويكونُ فتح «أن» على أنها معمولةٌ ليرى، على أن يكون الفاعلُ «الذين ظلموا»، والرؤية هنا تحتمِلُ أن تكونَ من رؤية القلبِ فتسدُّ «أن» مسدًّا مفعولهما، وأن تكونَ من رؤية البصر فتكونُ في موضع مفعولٍ واحدٍ.

وأما قراءة «يرى الذين» بالغيبة وكسر «إن» و «إن» فيكونُ الجوابُ قولاً محذوفاً وكسرتا لوقوعهما بعد القول، فتقديره على كونِ الفاعلي ضميرِ الرأي: لقال إنَّ القوة؛ وعلى كونه «الذين»: لقالوا، ويكونُ مفعولُ «يرى» محذوفاً أي: لو يرى حالهم. ويحتملُ أن يكونَ الجوابُ: لاستعظَّم أو لاستعظَّموا على حسب القولين، وإنما كُسرنا استئنافاً، وحذفُ جوابِ «لو» شائعٌ مستفيضٌ، وكثر حذفُه في القرآن. وفائدة حذفه استعظامه وذهابُ النفس كلِّ مذهب فيه بخلاف ما لو ذُكر، فإنَّ السامعَ يقصُرُ همُّه عليه، وقد ورَدَ في أشعارهم ونثرهم حذفُه كثيراً. قال امرؤ القيس: [الطويل]

وَجَدْتُكَ لَوْ شِئْتُ أَنَا زُسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعاً
وقال النابغة: [الطويل]

فَمَا كَانَ بَيْنَ الْخَيْرِ لَوْ جَاءَ سَالِماً أَبَوْ حُجْرٍ إِلَّا لَيَالٍ قَلَائِلُ
ينظر: «الدر المصون» (١/ ٤٢٨-٤٢٩)، و «البحر المحيط» (١/ ٦٤٥-٦٤٦).

(١) قراءة أهل مكة والكوفة وأبي عمرو بالياء التحتية «يرى»، وهو اختيار أبي عبيد. وقراءة أهل المدينة وأهل الشام بالفرقية. والمقصود بأهل مكة: ابن كثير، وأهل الكوفة: عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف العاشر، وأبو عامر بالياء التحتية، وابن جمار عن أبي جعفر، وليس من أهل الشام من يقرأ بياء الغيبة، والمقصود به ابن عامر.

وأما الذين يقرءون بناء الخطاب، فهم: نافع، وابن وردان عن أبي جعفر، ويعقوب البصري. والمخاطب: السامع، أو الرسول ﷺ. و «الذين» مفعول به. أما اختيار أبي عبيد لإحدى القراءتين فلا يطن في الأخرى؛ لأن القراءة سنة متبعة.

ينظر: «حجة القراءات» (١٢٠)، و «السبعة» (١٧٣)، و «الحجة» (٢/ ٢٥٨)، و «العنوان» (٧٢)، و «شرح طيبة النشر» (٤/ ٨٠)، و «معاني القراءات» (١/ ١٨٦)، و «إتحاف فضلاء البشر» (١/ ٤٢٥).

أن يكون من رؤية البَصَر، ويحتمل رؤية القلب، أي: يريهم الله أعمالهم الفاسدة التي أرتكبوها.

وقال ابن مسعود: أعمالهم الصالحة التي تركوها^(١)، والحسرة: أعلى درجات الندامة، والهَمُّ بما فات، وهي مشتقة من الشيء الحسير الذي أنقطع، وذهبت قوته، وقيل: من حَسَرَ، إذا كشف.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهَا كَانَتْ آبَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾ الآية: الخطاب عام، و «ما» بمعنى «الذي»، «وحلالاً»: حال من الضمير العائد على «ما»، و «طَيِّباً»: نعت، ويصح أن يكون حالاً من الضمير في «كُلُوا»، تقديره: مستطيبين، والطَّيِّبُ عند مالك: الحلال؛ فهو هنا تأكيد لاختلاف اللفظ، وهو عند الشافعي: المستلذ، ولذلك يمنع أكل الحيوان القدير.

قال الفخر^(٢): الحلال هو المباح الذي انحلت عقدة الحظر عنه، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. انتهى.

و ﴿خُطُوَاتِ﴾: جمع خطوة، والمعنى: النهي عن اتباع الشيطان، وسلوك سبيله، وطرائقه.

قال ابن عباس: خطواته: أعماله^(٣)، وقال غيره: آثاره^(٤).

* ع^(٥): وكل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي، فهي خطوات الشيطان.

(١) ذكره ابن عطية (٢٣٦/١) عن ابن مسعود، والسدي.

(٢) ينظر: «التفسير الكبير» (٣/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٨١/٢) برقم (٢٤٤٦) بلفظ: «عمله»، وذكره ابن عطية في التفسير (٢٣٧/١)، والسيوطي في «الدر» (٣٠٥/١).

(٤) ينظر: «المحرر» (٢٣٧/١).

(٥) ينظر: «المحرر» (٢٣٧/١).

وَعَدُو: يقع للمفرد والمثنى والجمع.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ...﴾ الآية: «إنما» ههنا: للحصر، وأمر الشيطان: إما بقوله في زَمَن الكهنة، وإما بوسوسته.

و ﴿السُّوءِ﴾: مصدرٌ من: سَاءَ يَسُوءُ، وهي المعاصي، وما تسوء عاقبته، و﴿الْفَحْشَاءِ﴾: قيل: الزنا، وقيل: ما تفاحش ذكره، وأصل الفُحْش: قُبْح المنظر، ثم أستمعلت اللفظة فيما يستقبح، والشرع: هو الذي يُحَسِّنُ وَيُقَبِّحُ، فكل ما نهت عنه الشريعة، فهو من الفحشاء.

و ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: قال الطبري^(١): يريد: ما حرموا من البحيرة، والسائبة، ونحوها، وجعلوه شرعاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، يعني: كفَّار العرب، وقال ابن عباس: نزلت في اليهود^(٢)، والألف في قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَوْ كَانَ﴾: للاستفهام؛ لأن غاية الفساد في الالتزام؛ أن يقولوا: نتبع آبائنا، ولو كانوا لا يعقلون، فقرروا على التزامهم هذا؛ إذ هذه حال آبائهم.

وقوة ألفاظ هذه الآية تُعطي إبطال التقليد، وأجمعت الأمة على إبطاله في العقائد.

﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْمٌ عُتِيَ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية: المراد تشبيه واعظ الكافرين، وداعيهم بالراعي الذي يَنْعِقُ بالغَنَمِ أو الإبل، فلا تسمع إلا دعاءه، ونداءه، ولا تَفْقَهُ ما يقول؛ هكذا فسر ابن عباس، وعكرمة، والسدي^(٣)، وسيبويه^(٤)، فذكر تعالى بغض هذه الجملة، وبعض هذه، ودل المذكور على المحذوف، وهذه نهاية الإيجاز.

وَالنَّعِيقُ: زجر الغنم، والصياح بها.

(١) تفسير الطبري (٣/٣٠٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢/٨٣)، برقم (٢٤٥٥)، وذكره ابن عطية (١/٢٣٨)، وابن كثير (١/٢٠٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/٨٤ - ٨٥) عن ابن عباس، والسدي، وعكرمة، وكذا أخرجه سفيان الثوري في «التفسير» (١/٥٥) عن عكرمة، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٢٢٨)، وابن كثير في «التفسير» (١/٢٠٤)، والسيوطي في «الدر» (١/٣٠٦ - ٣٠٧).

(٤) ينظر: «الكتاب» (١/١٠٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١٧٢)
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ، لَعَنَ اللَّهُ فَمَن أَضْطَرَّ غَيْرَ بَارِعٍ وَلَا عَادٍ فَلَا
 إِنَّمَا عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

١٤٢

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا/ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ الآية: الطَّيِّبُ:
 هنا يجمع الحلال المستلذذ، والآية تشير بتبعية «مِنْ»؛ إلى أن الحرام رزق، وحض
 سبحانه على الشكر، والمعنى: في كل حالة، وفي «مصابيح البَغْوِيِّ»؛ عن أبي داود
 والنسائي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ كَالصَّائِمِ الصَّابِرِ»^(١). انتهى.

قال القُشَيْرِيُّ: قال أهل العلم بالأصول: نِعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ضَرِيَيْنِ: نِعْمَةٌ نَّفْع،
 ونِعْمَةٌ دَفْع، فنِعْمَةُ النَّفْعِ: ما أولَاهُمْ، ونِعْمَةُ الدَّفْعِ: ما زَوَى عَنْهُمْ، وليس كُلُّ إِنْعَامِهِ

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٣/٤)، كتاب «صفة القيامة»، باب (٤٣) رقم (٢٤٨٦)، حدثنا إسحاق بن موسى
 الأنصاري، ثنا محمد بن معن، حدثني أبي عن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة به مرفوعاً.
 وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وأخرجه الحاكم (١٣٦/٤) من طريق عمر بن علي المقدمي، عن محمد بن معن به.
 وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.
 وأخرجه ابن حبان (٩٥٢- موارد) من طريق معتمر بن سليمان، عن معمر، عن سعيد المقبري، عن أبي
 هريرة به.

وهذا سند منقطع كما أفاد الحافظ في «الفتح» (٥٨٣/٩)، وقال: لكن في الرواية انقطاع خفي على ابن
 حبان، فقد رويناه في مسند مسدد عن معتمر، عن معمر، عن رجل من بني غفار عن المقبري اهـ.
 والطريق الذي ذكره الحافظ وعزاه لمسدد: أخرجه عبد الرزاق (٤٢٤/١٠) رقم (١٩٥٧٣)، وأحمد
 (٢٨٣/٢)، والبيهقي (٣٠٦/٤) كتاب «الصيام»، باب ما جاء في الطاعم الشاكر. كلهم من طريق معمر
 عن رجل من بني غفار، عن المقبري، عن أبي هريرة به. وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة: فأخرجه
 أحمد (٢٨٩/٢)، والحاكم (١٣٦/٤) من طريق محمد بن عبد الله بن أبي حرة عن عمه حكيم عن
 سلمان الأغر عن أبي هريرة.

وأخرجه ابن ماجه (٥٦١/١) كتاب «الصيام»، باب فيمن قال: الطاعم الشاكر كالصائم الصابر، حديث
 (١٧٦٤) من طريق عبد الله بن عبد الله الأموي، عن معن بن محمد عن حنظلة بن علي الأسلمي،
 عن أبي هريرة به.

وللحديث شاهد آخر من حديث عائشة: أخرجه الحاكم (١٢/٢) من طريق عبد العزيز بن يحيى: ثنا
 سليمان بن بلال، عن علقمة بن أبي علقمة، عن أمه عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس بالمؤمن
 الذي يبيت وجاره جائع إلى جنبه».

وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: عبد العزيز ليس بثقة.
 وقال ابن حجر في «التقريب» (٥٢٣/١): متروك؛ كذبه إبراهيم بن المنذر.

سبحانه انتظام أسباب الدنيا، والتمكّن منها، بل أطفأ الله تعالى فيما رَوَى عنهم من الدنيا أكثر، وإن قرب العبد من الربّ تعالى على حسب تباُعده من الدنيا. انتهى من «التَّحْبِير».

وقال أبو عمر بن عبد البرّ في كتابه المسمّى بـ «بهجة المجالس». قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ، فَعَلِمَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ شُكْرَهَا، وَمَا عَلَّمَ اللَّهُ مِنْ عَبْدٍ نَدَامَةً عَلَى ذَنْبٍ إِلَّا عَفَرَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَلْبَسُ الثَّوْبَ، فَيُحَمِّدُ اللَّهَ، فَمَا يَبْلُغُ رُكْبَتَيْهِ حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ»^(١) قال أبو عمر: مكتوب في التوراة: «أَشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ، وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا زَوَالَ لِلنَّعْمِ، إِذَا شُكِرْتَ، وَلَا مَقَامَ لَهَا، إِذَا كُفِرَتْ». انتهى.

«وإنّ» من قوله: «إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ»: شرط، والمراد بهذا الشرط التثبيث، وهُزّ النفوس؛ كما تقول: أَفْعَلْ كَذَا، إِنْ كُنْتَ رَجُلًا، و «إِنَّمَا» ههنا حاصرة، ولفظ الميتة عموم، والمعنى مخصّص لأنّ الحوت لم يدخل قط في هذا العموم، وفي مسند الزّار عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ وَثَمَنَهَا، وَحَرَّمَ الْمَيْتَةَ وَثَمَنَهَا، وَحَرَّمَ الْخَنزِيرَ وَثَمَنَهُ»^(٢) انتهى من «الكوكب الدُّرِّي»؛ للإمام أبي العباس أحمد بن سَعْدِ التَّجِيبِي.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لقد أبعد المصنف (رحمه الله) النجعة في هذا الحديث، حيث إن هذا الحديث بهذا اللفظ قد أخرجه أبو داود (٣٠١/٢) كتاب «اليوع»، باب في ثمن الخمر والميتة، حديث (٣٤٨٥) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وللحديث شاهد من حديث جابر: أخرجه البخاري (٤٢٤/٤) كتاب «اليوع»، باب بيع الميتة: والأصنام حديث (٢٢٣٦)، ومسلم (١٢٠٧/٣) كتاب «المساقاة»، باب تحريم بيع الخمر، والميتة، والخنزير، والأصنام حديث (١٥٨١/٧١)، وأحمد (٣٢٤/٣)، وأبو داود (٧٥٦-٧٥٧) كتاب «اليوع»، باب في ثمن الخمر، والميتة حديث (٣٤٨٦). والترمذي (٥٩١/٣) كتاب «اليوع»، باب ما جاء في بيع جلود الميتة والأصنام، حديث (١٢٩٧)، والنسائي (٣٠٩-٣١٠)، كتاب «اليوع»، باب بيع الخنزير، وابن ماجه (٧٣٢/٢)، كتاب «التجارات»، باب ما لا يحل بيعه حديث (٢١٦٧)، وأبو يعلى (٣٩٥-٣٩٦) رقم (١٨٧٣)، وابن الجارود (٥٧٨)، والبيهقي (١٢/٦) كتاب «اليوع»، باب تحريم بيع الخمر، والميتة، والخنزير والأصنام. والبخاري (٢١٨-٢١٩) بتحقيقنا من طريق يزيد بن أبي حبيب، عن عطاء بن أبي رباح عن جابر به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وفي الباب عن عمر بن الخطاب، وابن عباس، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، ويحيى بن عباد، وأنس بن مالك:

* حديث عمر بن الخطاب:

أخرجه البخاري (٤٨٣/٤) كتاب «اليوع» باب لا يذاب شحم الميتة ويباع ودكه، حديث (٢٢٢٣)، =

﴿والدم﴾ يراد به المسفوح؛ لأن ما خالط اللحم، فغير محرّم بإجماع.

* ت *: بل فيه خلافٌ شادٌّ، ذكره ابن الحاجب وغيره، والمشهور: أظهر؛ لقول

= ومسلم (١٢٠٨/٣) كتاب «المساقاة»، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، حديث (١/١٨٥٢)، والنسائي (١٧٧/٧)، كتاب «الفرع والعتيرة»، باب النهي عن الانتفاع بما حرم الله (عز وجل). وابن ماجه (١١٢٢/٢)، كتاب «الأشربة»، باب التجارة في الخمر، حديث (٣٣٨٣). والدارمي (١١٥/٢) كتاب «الأشربة»، باب النهي عن الخمر وشراؤها. وأحمد (٢٥/١)، والحميدي (٩/١) رقم (١٣)، وعبد الرزاق (٨/ ١٩٥-١٩٦) رقم (١٤٨٥٤)، وابن الجارود رقم (٥٧٧)، وأبو يعلى (١٧٨/١) رقم (٢٠٠). والبخاري في «شرح السنة» (٤/ ٢٢٠-٢٢١ بتحقيقنا) كلهم من طريق طاوس، عن ابن عباس قال: بلغ عمر أن فلاناً باع خمرأ فقال: قاتل الله فلاناً؛ ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود؛ حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها».

* حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد (٣٤٧/١، ٢٩٣)، وأبو داود (٢/ ٣-٢)، كتاب «البيوع»، باب في ثمن الخمر والميتة حديث (٣٤٨٨)، والبيهقي (١٣/٦) كتاب «البيوع»، باب تحريم بيع ما يكون نجساً لا يحل أكله. كلهم من طريق أبي الوليد، عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ جالساً عند الركن قال: فرجع بصره إلى السماء فضحك، فقال: «لعن الله اليهود.. ثلاثاً، إن الله تعالى حرم عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا أثمانها، وإن الله تعالى إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه».

* حديث أبي هريرة:

أخرجه البخاري (٤٨٤/٤) كتاب «البيوع»، باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع، ودكه حديث (٢٢٢٤)، ومسلم (١٢٠٨/٣) كتاب «المساقاة»، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، حديث (١٥٨٣) من طريق سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله يهوداً؛ حرمت عليهم الشحوم، فباعوها، وأكلوا أثمانها».

* حديث عبد الله بن عمر:

أخرجه أحمد (٢١٣/٢) عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ عام الفتح يقول: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة، والخنزير، فقليل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة؛ فإنه يدهن به الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال: «لا، هي حرام»، ثم قال: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم الشحوم جملوها، ثم باعوها، فأكلوا أثمانها».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٤/٤)، وقال: رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط»، إلا أنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، وثنم الخنزير، وعن مهر البغي، وعن عصب الفحل. ورجال أحمد ثقات وإسناد الطبراني حسن.

* حديث يحيى بن عباد:

ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٢/٤) عنه، قال: أهدى للنبي ﷺ زق خمر بعدما حرمت فلما أتى بها النبي ﷺ فقال: «إن الخمر قد حرمت»، فقال بعضهم: لو باعوها فأعطوا ثمنها فقراء المسلمين، فأمر بها النبي ﷺ فأهرقت في وادي من أودية «المدينة»، وقال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم شحومها فباعوها، وأكلوا أثمانها».

= قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه أشعث بن سوار، وهو ثقة، وفيه كلام.

عائشة - رضي الله عنها :- «لَوْ حُرِّمَ غَيْرُ الْمَسْفُوحِ، لَتَتَبَعَ النَّاسُ مَا فِي الْعُرُوقِ، وَلَقَدْ كُنَّا نَطْبُخُ اللَّحْمَ، وَالْبُرْمَةُ تَغْلُوها الصُّفْرَةُ». انتهى.

﴿وما أَهْلٌ به لغير الله﴾.

قال ابن عباس وغيره: المراد ما دُبِحَ لِلْأَنْصَابِ وَالْأَوْثَانِ^(١)، و﴿أَهْلٌ به﴾: معناه صبيح به؛ ومنه: استهلال المولود، وجرت عادة العرب بالصياح بِأَسْمِ المقصود بالذبيحة، وغلب ذلك في استعمالهم؛ حتى عبر به عن النية التي هي علّة التحريم.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ باغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال قتادة وغيره: غير قاصدٍ فسادٍ^(٢) وتعد؛ بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحةً، ويأكلها، وأصحاب هذا القول يجيزون الأكل منها في كل سفر، مع الضرورة، وقال مجاهد وغيره: المعنى: غير باغٍ على المسلمين، وعادٍ عليهم، فيدخل في الباغي والعادي قُطَاعُ السبل، والخارج على السلطان، والمسافر في قُطْعِ الرحم، والغارة على المسلمين، وما شاكله، ولغير هؤلاء: هي الرخصة^(٣).

= * حديث أنس بن مالك:

أخرجه أحمد (٢١٧/٣)، وأبو يعلى (٣٨٢/٥) رقم (٣٠٤٢). وابن حبان (١١١٩-موارد)، من طريق عبد الرزاق وهو في «مصنفه» (٩/ ٢١١-٢١٢) رقم (١٦٩٧٠)، من حديث أنس بن مالك مرفوعاً بلفظ: «قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا أثمانها».

(١) أخرجه الطبري (٩٠/٢) برقم (٢٤٧٩-٢٤٨١) بإسنادين مختلفين عن ابن عباس بنحوه، وذكره ابن عطية (١/ ٢٤٠) والسيوطي في «الدر» (٣٠٨/١)، وعزاه لابن المنذر، وابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٩٢/٢) برقم (٢٤٩٥) بنحوه. وذكره ابن عطية في «التفسير» (١/ ٢٤٠)، والبغوي في «التفسير» (١/ ١٤١)، والسيوطي في «الدر» (٣٠٨/١)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) الرخصة (بسكون الخاء وحكي ضمها) في اللغة: التيسير والتسهيل. قال الجوهري: الرخصة في الأمر: خلاف التشديد فيه، ومن ذلك رخص الشعر إذا سهل وتيسر.

وفي الاصطلاح: الحكم الثابت على خلاف الدليل لعذر.

وتنقسم الرخصة إلى أربعة أقسام:

الأول: الإيجاب، ويمثل له بوجوب أكل الميتة للمضطر الثابت بقوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] مع قوله تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾ [البقرة: ١٧٣] على خلاف قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾. [المائدة: ٣] إلخ فهو رخصة؛ لأنه حكم ثبت على خلاف الدليل لعذر هو حفظ الحياة.

الثاني: الندب، كقصر الصلاة الرباعية في السفر الثابت بقوله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» على خلاف الدليل الموجب للإتمام، وهو فعله ﷺ مع قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي» المبين للعدد المطلوب في قوله تعالى: ﴿أقيموا الصلاة﴾.

الثالث: الإباحة، كإباحة السلم الثابت بقوله ﷺ: «من أسلم فليسلم في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى =

قال مالك^(١) - رحمه الله -: يأكل المضطرُّ شَبَعَهُ، وفي «الموطأ» وهو لكثير من
٤٢ ب العلماء أنه يتزود، إذا خشي الضرورة فيما بين يديه / من مفازة وقفر.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢)، وقد قال العلماء: إن من اضطرَّ إلى أكل الميتة،
والدم، ولحم الخنزير، فلم يأكل، دخل النار إلا أن يَغْفِرَ الله له. انتهى. والمعنى: أنه لم
يأكل حتى مات جوعاً، فهو عاصٍ، وكأنه قتل نفسه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ...﴾ [النساء: ٢٩] الآية إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّيهِ
نَارًا﴾ [النساء: ٣٠] قال ابن العربي: وإذا دامت المَحْصَةُ^(٣)، فلا خلاف في جواز شبع
المضطرِّ، وإن كانت نادرة، ففي شبعه قولان: أحدهما لمالك: يأكل؛ حتى يشبع،
ويتضلع، وقال غيره: يأكل بمقدار سدِّ الرَّمَقِ، وبه قال ابن حبيب^(٤)،

أجل معلوم» على خلاف قوله ﷺ: «لا تبع ما ليس عندك» الدال على حرمة بيع المعدوم. للحاجة إلى
هذا النوع من المعاملة. وإن شئت فارجع إلى كتب الفروع لتقف على حكمة مشرعية السلم.
الرابع: خلاف الأولى، كالفطر في نهار رمضان (للمسافر الذي لا يتأذى بالصوم) المشروع بقوله تعالى:
﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] على خلاف قوله تعالى: ﴿فَمَنْ
شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] دفعاً للمشقة. وكان خلاف الأولى لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ
تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (١/ ٣٢٥-٣٢٦)، «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (١/ ١٢٢)،
«التمهيد» للأسنوي (٧٠)، «نهاية السؤل» له (١/ ١٢٠)، «منهاج العقول» للبدخشي (١/ ٩٣)، «غاية
الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (١٩)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (١/ ١٧٩)، «المستصفي»
للغزالي (١/ ٩٨)، «حاشية البناني» (١/ ١١٩ - ١٢٣)، «الإبهاج» لابن السبكي (١/ ٨١)، «الآيات
البيّنات» لابن قاسم العبادي (١/ ١٨٥).

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٩١-٩٢) بإسنادين عن مجاهد. وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٦٤٥) برقم (٢٤٣)
وذكره ابن عطية (١/ ٢٤٠).

(٢) ينظر: «الأحكام» (١/ ٥٦).

(٣) المَحْصَةُ: مَفْعَلَةٌ من الحَمَص، وهو ضمور البطن، ومنه: رجل خامص، وخمضان البطن، وامرأة
خمصانة، ولما كان الجوع يؤدي إلى ضمور البطن غُبِرَ به عنه: أي فمن اضطر في مجاعة.
ينظر: «عمدة الحفاظ» (١/ ٦١٧).

لأن الضرورة تقدر بقدرها، فأكل الميتة محظور، ولكن إبقاء مهجة الإنسان عند المحمصة ضرورة،
وليست أقل من المحظور، فيباح المحظور لأجل الضرورة، فعليه الأكل لإبقاء روحه، فلو لم تبح
الضرورات المحظورات لما تحقق الضرر، والضرر يزال.

(٤) ابن حبيب: هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب، كان إماماً في الحديث، والفقه، واللغة، والنحو،
انتهت إليه رئاسة العلم في الأندلس، ولد في «البيرة»، وسكن «قرطبة»، وتفقه بآبَن الماجشون،
ومطرف، وعبد الله بن عبد الحكم، وغيرهم، له مؤلفات تزيد على ألف كتاب، أشهرها:
«الواضحة»، توفي عام ٢٣٨هـ، وقيل ٢٣٩هـ.

وابن المَاجِشُونِ^(١). انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ الآية.

قال ابن عباس وغيره: المراد أحبار اليهود الذين كتموا أمر محمد ﷺ، و ﴿الكتاب﴾: التوراة والإنجيل^(٢).

* ع^(٣) *: وهذه الآية وإن كانت نزلت في الأحبار، فإنها تتناول من علماء المسلمين مَنْ كتم الحقَّ مختاراً لذلك بسبب دُنْيَا يَصِيْبُهَا، وفي ذكر البُطْنِ تَنْبِيْهُ عَلَى مَذْمَتِهِمْ؛ بأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خَطَرَ لَهُ، وعلى هُجْنَتِهِمْ^(٤) بطاعة بُطُونِهِمْ، قال الرِّبِيع وغيره: سَمَى مَأْكُولَهُمْ نَاراً؛ لأنه يؤول بهم إلى النار^(٥)، وقيل: يأكلون النار في جَهَنَّمَ حَقِيقَةً.

* ت *: وينبغي لأهل العلم التنزه عن أخذ شيء من المتعلمين على تعليم العلم، بل يلتبسُونَ الأجر من الله عَزَّ وَجَلَّ^(٦)، وقد قال تعالى لنبيه - عليه السلام -: ﴿قُلْ لَا

ينظر ترجمته في: «شجرة النور الزكية» (ص ٧٤)، «الديباج» (ص ١٥٤)، «شذرات الذهب» (٢/ ٩٠).

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، كنيته أبو مروان، والماجشون هو أبو سلمة، والماجشون: المورد بالفارسية، سمي بذلك لحمرة في وجهه.

كان عبد الملك فقيهاً فصيحاً، دارت عليه الفتوى في أيامه إلى أن مات، كما دارت على أبيه قبله، فهو فقيه تفقه بأبيه وبمالك، وغيرهما، وتفقه به خلق كأحمد بن المعذل، وابن حبيب، توفي عبد الملك سنة اثنتي عشرة، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: أربع عشرة ومائتين هجرية.

ينظر: «الديباج المذهب» (٢/ ٦)، و «ترتيب المدارك» (٢/ ٣٦٠)، و «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٤٠)، و «شجرة النور الزكية» (١/ ٥٦).

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٩٤) برقم (٢٥٠٢ - ٢٥٠٣ - ٢٥٠٤) عن قتادة، والربيع، والسدي. وذكره ابن عطية في التفسير (١/ ٢٤١).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٤١).

(٤) الهُجْنَةُ من الكلام: ما يعيبك، وتقول: لا تفعل كذا فيكون عليك هُجْنَةٌ. ينظر: «لسان العرب» (٤٦٢٥ - ٤٦٢٦).

(٥) ينظر: «المحرر» (١/ ٢٤١).

(٦) «تفسير الطبري» (٣/ ٣٣٠).

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا... ﴿[الأنعام: ٩٠] الآية، وفي سنن أبي داود، عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ^(١)، قَالَ: «عَلِمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْكِتَابِ، وَالْقُرْآنِ، وَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا، فَقُلْتُ: لَيْسَتْ بِمَالٍ، وَأَزْمِي عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَتَيْنِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَأَسْأَلُهُ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ أَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا مِمَّنْ كُنْتُ أَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ، وَلَيْسَتْ بِمَالٍ، وَأَزْمِي عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تُطَوِّقَ طَوْقًا مِنْ نَارٍ، فَأَقْبِلْهَا»، وَفِي رَوَايَةٍ: «فَقُلْتُ مَا تَرَى فِيهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: جَمْرَةٌ بَيْنَ كَيْفَيْكَ تَقْلُدُهَا أَوْ تَعْلَقُهَا»^(٢). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ﴾: قيل: هي عبارة عن الغضب عليهم، وإزالة الرضا عنهم؛ إذ في غير موضع من القرآن ما ظاهره أن الله تعالى يكلم الكافرين، وقال الطبري وغيره: المعنى: لا يكلمهم بما يحبونه.

﴿وَلَا يَزْكِيهِمْ﴾، أي: لا يظهرهم من موجبات العذاب، وقيل: المعنى: لا يسميهم أزكياء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: قال جمهور المفسرين: «ما تعجب، وهو في حيز المخاطبين، أي: هم أهل أن تعجبوا منهم، ومما يطول مكثهم في النار، وفي التنزيل: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧] و﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مریم: ٣٨].

(١) هو: عبادة بن الصامت بن قيس بن صرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، أبو الوليد الأنصاري، الخزرجي.
من مناقبه: نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥١] لما تبرأ من حلفه مع بني قينقاع لما خانوا المسلمين في غزوة الخندق.
توفي سنة ٣٤ بالرملة. وقيل: ببيت المقدس. وقيل: عاش إلى سنة «٤٥».

ينظر ترجمته في: «الثقات» (٣/٣٠٢)، «أسد الغابة» (٣/١٦٠)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/٣٩٤)، «أصحاب بدر» (١٨٤)، «الإصابة» (٤/٢٧)، «الطبقات» (٩٩، ٣٠٢)، «المصباح المضيء» (١/٨٥)، «الجرح والتعديل» (٦/٩٥)، «تقريب التهذيب» (١/٣٩٥)، «الاستيعاب» (٢/٨٠٧)، «تهذيب التهذيب» (٥/١١١)، «التاريخ الصغير» (١/٤١، ٤٢، ٦٥، ٦٦)، «التاريخ الكبير» (٦/٩٢)، «الوافي بالوفيات» (١٦/٦١٨)، «الطبقات الكبرى» (٩/١٠٧)، «تهذيب الكمال» (٢/٦٥٥)، «طبقات الحفاظ» (٤٥)، «الأعلام» (٣/٢٥٨)، «الرياض المستطاب» (٢٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/٢٨٥) كتاب «الإجارة»، باب في كسب المعلم، حديث (٣٤١٦)، وابن ماجه (٢/٧٢٩ - ٧٣٠) كتاب «التجارات»، باب الأجر على تعليم القرآن، حديث (٢١٥٧)، وأحمد (٥/٣١٥)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (١٨٣) من طريق المغيرة بن زياد الموصلي عن عبادة بن نسي عن الأسود بن ثعلبة عن عبادة بن الصامت به.

وقال قتادة، والحسن، وابنُ جُبَيْر، والربيع: أظهر التعجب من صبرهم على النار لما عملوا عمل مَنْ وَطَنَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا^(١)، وتقديره ما أجرأهم على النار؛ إذ يعملون عملاً يؤدي إليها، وذهب مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى؛ إلى أن «ما» استفهام، معناه: أي شيء صبرهم على النار^(٢)، والأول أظهر.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ الآية: المعنى: ذلك الأمر بأنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، فكفروا/ به، والإشارة إلى وجوب الثَّار لهم.

١٤٣

و ﴿الْكِتَابُ﴾: الْقُرْآن، و ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بالإخبار الحق، أي: الصادقة.

و ﴿الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى، في قول السُّدِّي^(٣)، وقيل: هم كفَّار العرب؛ لقول بعضهم: هو سِخْرٌ، وبعضهم: أساطير، وبعضهم: مفترى، إلى غير ذلك.

و ﴿بَعِيدٌ﴾، هنا: معناه من الحق، والاستقامة.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾ الآية: قال ابن عَبَّاس وغيره: الْخِطَابُ بهذه الآية للمؤمنين، فالمعنى: ليس البرُّ الصلاة وخُدها^(٤)،

(١) أخرجه الطبري (٩٦/٢) برقم (٢٥٠٨ - ٢٥٠٩ - ٢٥١٠ - ٢٥١١ - ٢٥١٢)، عن قتادة، والحسن، وسعيد بن جبیر، والربيع. وذكره ابن عطية (٢٤٢/١)، وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٦٦/١) عن قتادة بلفظ: «ما أجرأهم عليها»، وذكره السيوطي في «الدر» (٣٠٩/١) عن قتادة، وعزاه لابن جرير. (٢) وبه قال السدي وجماعة، كما في تفسير الطبري (٣٣٢/٣)، عن السدي، وأبي كريب، وابن زيد، وفي «البحر» (٦٦٩/١) عن ابن عباس والسدي، والمبرد ومعمار بن المثنى، وفي «الدر» (١٦٩/١) عن السدي، وفي «فتح القدير» (١٧٢/١) عنه أيضاً. وينظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٦٤/١).

(٣) أخرجه الطبري (٩٨/٢) برقم (٢٥٢٠) وذكره ابن عطية (٢٤٢/١)، والسيوطي في «الدر» (٣٠٩/١)، وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (٩٩/٢) برقم (٢٥٢١ - ٢٥٢٤) بإسنادين عن ابن عباس. وذكره ابن عطية (٢٤٣/١)، والسيوطي في «الدر» (٣١٠/١) بإسنادين، عن ابن عباس، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال قتادة، والربيع: الخطاب لليهود والنصارى؛ لأنهم تكلموا في تحويل القبلة، وفضلت كل فرقة توليها، فقليل لهم: ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ...﴾ الآية: هذه كلها حقوق في المال سوى الزكاة، قال الفخر^(٢): وروث فاطمة بنت قيس، أن في المال حقاً سوى الزكاة^(٣)، وتلاً: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ...﴾ الآية، وعنه عليه السلام «لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ بَاتَ شُبْعَانًا، وَجَارُهُ طَاوِيًا إِلَى جَنْبِهِ»^(٤) انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٩٩/٢ - ١٠٠) برقم (٢٥٢٦-٢٥٢٨) عن قتادة، والربيع بن أنس، وذكره ابن عطية (٢٤٣/١).

وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٦٦/١) عن قتادة. وذكره السيوطي في «الدر» (٣١٠/١) عن قتادة، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير.

(٢) «التفسير الكبير» (٣٥/٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٤٨/٣) في الزكاة، باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة (٦٥٩، ٦٦٠). والطبري (٥٧/٢)، والدارمي (٣٨٥/١) في الزكاة، باب ما يجب في مال سوى الزكاة. والدرقايني (١٢٥/٢) في الزكاة، باب تعجيل الصدقة قبل الحول رقم (١١، ١٢). والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/٢٧)، والبيهقي (٨٤/٤) في الزكاة: باب الدليل على أن من أدى فرض الله في الزكاة، فليس عليه أكثر منه إلا أن يتطوع... من طريق شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس بنحوه. وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بذلك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف. وروى بيان وإسماعيل بن سالم، عن الشعبي هذا الحديث من قوله. وهذا أصح. وقال البيهقي: هذا حديث يعرف بأبي حمزة ميمون الأعور كوفي، وقد جرحه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، فمن بعدهما من حفاظ الحديث. والذي يرويه أصحابنا في التعاليق ليس في المال حق سوى الزكاة - فليست أحفظ فيه إسناداً. وأخرجه ابن ماجة بالإسناد السابق (٥٧٠/١) في الزكاة، باب ما أدى زكاته ليس بكثر (١٧٨٩) بلفظ: «ليس في المال حق سوى الزكاة».

وقال النووي كما في تخريج أحاديث «الكشاف» للزيلعي (١٠٧/١): حديث «ليس في المال حق سوى الزكاة» حديث منكر. ثم نقل كلام البيهقي برمته.

وبالجملة فالحديث كيفما كان ضعيف بأبي حمزة ميمون الأعور؛ ضعفه الترمذي. وقال البيهقي: لا يثبت إسناده، تفرد به أبو حمزة الأعور، وهو ضعيف. ومن تابعه أضعف منه.

وللفظ الأول من الحديث شاهد أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨٩/٣، ٩٠)، من طريق موسى بن إسماعيل، عن محمد بن راشد، عن عبد الكريم، عن حبان بن جزي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «في المال حق بعد الزكاة؟ قال: نعم، يحمل على النجبة».

(٤) أخرجه البزار (٧٦-٧٧ كشف) رقم (١١٥)، من طريق حسين بن علي الجعفي، ثنا سفيان بن عيينة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أنس مرفوعاً بلفظ: «ليس المؤمن الذي يبيت شعبان وجاره طاوي». وقال البزار: لا نعلمه، يروى عن أنس إلا من هذا الوجه.

قلت: وفي كلام البزار نظراً؛ حيث إن للحديث طريقاً آخر عن أنس: أخرجه الطبراني في «المعجم

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): وإذا وقع أداء الزكاة، ثم نزلت بعد ذلك حاجة، فإنه يجب صرف المال إليها باتفاق من العلماء، وقد قال مالك: يجب على كافة المسلمين فداء أسراهم، وإن استغرق ذلك أموالهم، وكذلك إذا منع الوالي الزكاة، فهل يجب على الأغنياء إغناء الفقراء؟ الصحيح: وجوب ذلك عليهم. انتهى.

ومعنى: ﴿آتَى﴾: أعطى على حبه، أي: على حب المال، ويحتمل أن يعود الضمير على اسم الله تعالى من قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، أي: من تصدق محبة في الله وطاعته.

* ص *: والظاهر أن الضمير في «حبه» عائذ على «المال»؛ لأن قاعدتهم أن الضمير لا يعود على غير الأقرب إلاً بدليل. انتهى.

قال * ع ^(٢): والمعنى المقصود أن يتصدق المرء في هذه الوجوه، وهو صحيح شحيح يخشى الفقر، ويأمل الغنى؛ كما قال ﷺ^(٣). والشح؛ في هذا الحديث: هو

= الكبير» (٢٥٩/١) رقم (٧٥١)، من طريق محمد بن سعيد الأثرم، ثنا همام، ثنا ثابت، ثنا أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً، وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به». والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٧٠/٨)، وقال: رواه الطبراني، والبزار، وإسناد البزار حسن. والحديث ذكره أيضاً المنذري في «الترغيب» (٣٣٤/٣)، وقال: رواه الطبراني، والبزار، وإسناده حسن، وللحديث شاهد من حديث ابن عباس.

أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (١١٠)، وفي «التاريخ الكبير» (١٩٥/٥، ١٩٦)، وأبو يعلى (٩٢/٥) رقم (٢٦٩٩)، والحاكم (١٦٧/٤)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤/١٢) رقم (١٢٧٤١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٩٢/١٠)، كلهم من طريق سفيان عن عبد الملك بن أبي بشير، عن عبد الله بن المساور، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن الذي يشبع، وجاره جائع إلى جنبه».

والحديث ذكره المنذري في «الترغيب» (٣٣٤/٣)، وقال: رواه الطبراني، وأبو يعلى ورواته ثقات. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٧٠/٨): رواه الطبراني، وأبو يعلى، ورجاله ثقات.

(١) ينظر: «الأحكام» (٥٩/١).

(٢) «المحرر الوجيز» (٢٤٣/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤/٣) في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح (١٤١٩)، و (٥/٤٣٩-٥٤٠) في «الوصايا»، باب الصدقة عند الموت (٢٧٤٨)، ومسلم (٧١٦/٢) في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (٩٢-٩٣/١٠٣٢)، وأبو داود (١٢٦/٢) في الوصايا، باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية (٢٨٦٥)، والنسائي (٦٨/٥) في الزكاة، باب أي الصدقة أفضل، و (٢٣٧/٦) في الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية، وابن ماجه (٩٠٣/٢) في الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة، والتبذير عند الموت (٢٧٠٦). والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٧٨٦)، وأحمد (٢٣١/٢)، (٤١٥، ٤٤٧)، وابن خزيمة (١٠٣/٤) برقم (٢٤٥٤)، والبيهقي (١٩٠/٤)، والبخاري (٤٢٣/٣) برقم =

الغريزي الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] وليس المعنى أن يكون المتصدق متصفاً بالشح الذي هو البخل.

﴿وفي الرقاب﴾، أي: العنق، وفك الأسرى.

﴿والصّابرين﴾: نصب على المدح، أو على إضمار فعل، وهذا مهيع^(١) في تكرار النعوت.

﴿والبأساء﴾: الفقر والفاقة.

﴿والضّراء﴾: المرضى، ومصائب البدن، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» رواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح على شرط مسلم^(٢). انتهى من «السلام».

= (١٦٦٥)، من طريق عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟.....» فذكره.

(١) المهيع: هو الطريق الواسع المنبسط. ينظر: «لسان العرب» (٤٧٣٨) (هيج).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١٠٣/١)، وفي «الأوسط» (٤٤/٤) رقم (٣٠٥٧)، وفي «الكبير» (١٩/١٢) رقم (١٢٣٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٩/٥). كلهم من طريق قيس بن الربيع، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الطبراني: لم يروه عن حبيب إلا قيس بن الربيع، وشعبة بن الحجاج، عن نصر بن حماد الوراق. وقال أبو نعيم: رواه شعبة عن حبيب بن أبي ثابت، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٨/١٠)، وقال: رواه الطبراني في الثلاثة بأسانيد، وفي أحدها قيس بن الربيع وثقه شعبة، والثوري، وغيرهما. وضعفه يحيى القطان، وغيره، وبقيّة رجاله رجال الصحيح اهـ.

قلت: قيس بن الربيع في سند الطبراني في معاجمه الثلاثة، وليس كما يوهّم كلام الهيثمي. والحديث ضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٧٩/٤)، وأعله بقیس بن الربيع، وقال: ضعفه الجمهور، وهذا الحديث قد رواه شعبة عن حبيب بن أبي ثابت، كما أشار إلى ذلك الحافظ أبو نعيم. أخرجه الطبراني في «الصغير» (١٠٣/١)، والبغوي في «شرح السنة» (٨٤/٣) بتحقيقنا. كلاهما من طريق نصر بن حماد الوراق، نا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف جداً.

نصر بن حماد قال النسائي، وغيره: ليس بثقة، ينظر «المغني» للذهبي (٦٦٠٩).

وتابعهما عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن حبيب.

أخرجه الحاكم (٥٠٢/١).

وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. والمسعودي لم يخرج له مسلم شيئاً؛ فضلاً عن اختلاطه.

وفي صحيح مسلم، عن صُهَيْب^(١)، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِذَا أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ»^(٢) انتهى.

﴿وَجِينَ الْبَأْسِ﴾، أي: وقت شدة القتال، هذا قول المفسرين في الألفاظ الثلاثة، تقول العرب: بَيَسَ الرَّجُلُ إِذَا افْتَقَرَ، وَبُؤَسَ إِذَا شَجِعَ، ثم وصف تعالى أهل هذه الأفعال البرة بالصدق في أمورهم، أي: هم عند الظن بهم والرجاء فيهم؛ كما تقول: صَدَقَنِي الْمَالُ، وَصَدَقَنِي الرُّنْحُ، ووصفهم تعالى/ بالتقى، والمعنى: هم الذين جَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَذَابِ اللَّهِ وَقَايَةً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفَى لِمَنْ مِنْ أَخِيهِ شَيْئاً فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّمَّنْ أَعَدَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...﴾ الآية: ﴿كُتِبَ﴾: معناه: فُرضَ، وَأُنْبِتَ، وصورة فُرضِ القصاص^(٣)، هو أن القاتل فُرضَ عليه، إذا أراد

(١) هو: صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن عقيل بن عامر. أبو يحيى. الرومي. الربيعي. النمري.

وهو صحابي مشهور. روى عنه أولاده حبيب، وحزمة، وسعد، وصالح، وصيفي، وعباد، وعثمان، ومحمد. وحفيده زياد بن صيفي. وروى عنه أيضاً جابر الصحابي. وسعيد بن المسيب. وإنما قيل له الرومي؛ قيل: لأن الروم سبوه صغيراً حين كان أبوه وعمه عاملين لكسرى على «الأبله»، وكانت لهم منازل على «دجلة» عند الموصل، وقيل غير ذلك. وروى الستة عنه قال: لم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط إلا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضره، ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزاة قط إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامه، توفي سنة (٣٨) وقيل (٣٩)، وقيل في شوال سنة ٣٨، وله (٧٠ سنة).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/٣٦)، «الإصابة» (٣/٢٥٤)، «الاستيعاب» (٢/٧٢٦)، «الاستبصار» (٧٨، ١٣٤)، «الرياض المستطابة» (١٣٠)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/٢٦٨)، «عنوان النجاة» (١٠٦)، «أصحاب بدر» (١٠٨)، «الثقات» (٣/١٩٤)، «الكاشف» (٢/٣٢)، «حلية الأولياء» (١/٣٧٢)، «التحفة اللطيفة» (٢/١٤٤)، «تنقيح المقال» (٥٨١١)، «بقي بن مخلد» (٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٥) كتاب «الزهد»، باب المؤمن أمره كله خير، حديث (٢٩٩٩/٦٤). وهذا الحديث لم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة سوى مسلم. وينظر: «تحفة الأشراف» (٤/٢٠٠).

(٣) القصاص: أن يُفعل بالفاعل مثل ما فعل. كذا في «المغرب». وفي «الصحيح»: القصاص: القود، وقَدْ أَقْصَى الْأَمِيرُ فُلَاناً مِنْ فُلَانٍ إِذَا اقْتَصَّ لَهُ مِنْهُ فَجْرَحَهُ مِثْلَ جَرْحِهِ أَوْ قَتَلَهُ.

الوليُّ القتل، الاستسلامُ لأمر الله، وأن الوليَّ فرض عليه الوقوفُ عند قتل قاتل وليِّه، وترك التعديِّ على غيره، فإن وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو، فذلك مباح، والآية معلّمة أن القصاص هو الغاية عند التشاح^(١)، و ﴿القصاص﴾: مأخوذ من: قصَّ الأثر؛ فكان القاتل سلك طريقاً من القتل، فقص أثره فيها.

ينظر: «الصحيح» (١٠٥٢/٣)، و «القاموس المحيط» (٣٢٤/٢)، و «المصباح المنير» (٧٧٨/٢)، و «المغرب» (١٨٢/٢).

وقد اضطربت القوانين الوضعية في هذا القصاص، واختلفت أنظار المفكرين في جوازه أو عدمه، وأخذ كل يدافع عن فكرته، ويحاجج عن رأيه، حتى رمى بعض الغلاة الإسلام بالقسوة في تقرير هذه العقوبة، وقالوا: إنها غير صالحة لهذا الزمن، وقد نسوا أن الإسلام جاء في ذلك بما يصلح البشر على مر الزمن مهما بلغوا في الرقي، وتقدموا في الحضارة.

كانت هذه العقوبة موجودة قبل الإسلام، ولكن للاعتداء فيها يده المثمرة، وللإسراف فيها ضرره البالغ، فحد الإسلام من غلوائها، وقصر من عدوانها، ومنع الإسراف منها. فقال تعالى: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾ [الإسراء: ٣٣] فلم يبح دم من لم يشترك في القتل قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾.

وقال عز من قائل: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف...﴾ [المائدة: ٤٥] ولكنه أفسح المجال للفصل بين الناس، وترك للجماعة الراقية مع ذلك أن ترى خيراً في العفو عن الجاني فقال: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ [المائدة: ٤٥] على أن العقلاء الذين خبروا الحوادث، وعركوا الأمور، ودرسوا طبائع النفوس البشرية، ونزعاتها وغرائزها، فهداهم تفكيرهم الصحيح إلى صلاح هذه العقوبة، لإنتاج الغاية المقصودة، وهي إقرار الأمن وطمأنة النفوس، ودرء العدوان والبغي، وإنقاذ كثيرين من الهلاك، قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾. ولقد فهم أولو الألباب هذه الحكمة البالغة، وقدروها حق قدرها، وها نحن أولاء نرى اليوم أن الأمم التي ألغت هذه العقوبة عادت إلى تقريرها لما رآته في ذلك من المصلحة.

وأمكننا الآن أن نقول: إنه ليس هناك من خلاف كبير بين الإسلام والقوانين الوضعية في هذا الموضوع. أما القصاص في غير القتل مما ورد في الآية الكريمة: ﴿والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾ [المائدة: ٤٥] فهو في غاية الحكمة والعدالة؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لاعتدى القوي على الضعيف، وشوه خلقته، وفعل به ما أمكنته الفرصة لا يخشى من وراء ذلك ضرراً يناله، أو شراً يصيبه، ولو اقتصر الأمر على الديات كما هو الحال في القوانين الوضعية لكان سهلاً على الباغي يسيراً على الجاني، ولتنازل الإنسان عن شيء من ماله في سبيل تعجيز عدوه، وتشويهه ما دامت القوة في يده، ولكنه لو عرف أن ما يناله بالسوء من أعضاء عدوه سيصيب أعضائه مثله كذلك، انكمش وارتدع، وسلموا جميعاً من الشر.

(١) يقال: هما يتشاحان على أمر: إذا تنازعا، لا يريد كل واحد منهما أن يفوته...، وتشاح الخصمان في الجدل كذلك. ينظر: «لسان العرب» (٢٢٠٥).

روي عن ابن عباس؛ أن هذه الآية مُحْكَمَةٌ^(١)، وفيها إجمال فسّرت آية «المائدة»، وأن قوله سبحانه: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ﴾ يعُمُّ الرجال والنساء، وأجمعت الأمة على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ...﴾ الآية: فيه تأويلات:

أحدها: أن «مَنْ» يراد بها القاتل، و «عُفِيَ»: تتضمن عافياً، وهو وليُّ الدم، والأخ: هو المقتول، و «شَيْءٌ»: هو الدّم الذي يعفَى عنه، ويرجع إلى أخذ الدية، هذا قول ابن عباس، وجماعة من العلماء^(٣)، والعفو على هذا القول على بابه.

والتأويل الثاني: وهو قول مالك؛ أن «مَنْ» يراد بها الولي، وعُفِيَ: بمعنى: يُسَّرَ، لا على بابها في العفو، والأخ: يراد به القاتل، و «شَيْءٌ»: هي الدية، والأخوة على هذا أخوة الإسلام.

والتأويل الثالث: أن هذه الألفاظ في معنى: الذين نزلت فيهم الآية، وهم قوم تقتلوا، فقتل بعضهم بعضاً، فأمر النبي ﷺ أن يصلح بينهم، ويقاصهم بعضهم من بعض بالديات على استواء الأحرار بالأحرار، والنساء بالنساء، والعبيد بالعبيد، فمعنى الآية: فمن فضّل له من إحدى الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات، وتكون: «عُفِيَ» بمعنى فضّل.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَاعُ﴾: تقديره: فالواجب والحكم: اتباع، وهذا سبيل الواجبات؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وأما المندوب إليه، فيأتي منصوباً؛ كقوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وهذه الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدّي.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ﴾ إشارة إلى ما شرعه لهذه الأمة، من أخذ الدية، وكانت بنو إسرائيل لا دية عندهم، إنما هو القصاص فقط، والاعتداء المتوعد عليه في هذه

(١) المحكم: هو ما لا يحتمل شيئاً من ذلك، وحكمه بثبوت ما انتظمه على اليقين، ويرادفه المبين عند علماء الشافعية.

(٢) أخرجه الطبري (١١٠/٢) برقم (٢٥٧٩)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ٣٩٠-٤٠)، وذكره ابن عطية (١/ ٢٤٥)، وأورده ابن عباس في «تفسيره» (ص ٥٢/٩٣) وابن كثير (١/ ٢٠٩)، والسيوطي في «الدر» (١/ ٣١٦)، وعزاه للنحاس في «ناسخه».

(٣) ذكره ابن عطية في «التفسير» (١/ ٢٤٥).

الآية، هو أن يأخذ الرجل ديةً وليه، ثم يقتل القاتل بعد سقوط الدم.

وَأُخْتَلِفَ في العذابِ الأليم الذي يلحقه، فقال فريقٌ من العلماء، منهم مالك: هو كَمَنْ قتل ابتداءً، إن شاء الوليُّ قتله، وإن شاء، عفا عنه، وعذابه في الآخرة، وقال قتادة وغيره: يقتل البتَّة، ولا عَفْو فيه^(١)، وَرُوِيَ في ذلك حديثٌ عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: المعنى: أن القصاص إذا أقيم، وتحقق الحكمُ به، أزدجر مَنْ يريد قتلَ أحدٍ مخافةً أن يقتصَّ منه، فَحَيَاةً بذلك معاً، وأيضاً: فكانت العربُ إذا قتل الرجل الآخر، حمي قبيلاهما^(٢)، وتقاتلوا، وكان ذلك داعياً إلى موت العدد الكثير، فلما شرعَ الله سبحانه القصاص، قنع الكلُّ به، ووقف عنده، وتركوا الاقتتال، فلهم في ذلك حياةً، وخُصَّ أولو الألباب بالذكر، تنبيهاً عليهم؛ لأنهم العارفون القابلون للأوامر والنواهي، وغيرهم تبعَ لهم.

و ﴿تَتَّقُونَ﴾ معناه: القتل، فتسلمون من القصاص، ثم يكون ذلك داعيةً لأنواع ١٤٤ التقوى في غير ذلك، فإن الله سبحانه/ يثبُّ على الطاعة بالطاعة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا سَمِعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ إِثْمُ الَّذِي يَدْلُوهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨٢) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٣)

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...﴾ الآية: ﴿كُتِبَ﴾: معناه: فُرِضَ وأُثْبِتَ، وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ مجازاً؛ لأن المعنى: إذا تخوَّف وحضرت علاماته.

والخير في هذه الآية: المال، واختلفَ في هذه الآية، هل هي مُحْكَمَةٌ، أو منسوخةٌ، فقال ابنُ عباس، وقاتدة، والحسن: الآيةُ عامَّةٌ، وتقرَّر الحكمُ بها برهَةً، ونسخ منها كلٌّ من يرث بآية الفرائض^(٣)، وقال بعضُ العلماء: إن الناسخ لهذه الآية هي السُّنَّة المتواترة، وهو

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٤٦/١) عن قتادة، وعكرمة، والسدي، وغيرهم.

(٢) القَبِيل: الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى، كالزنج والروم والعرب، وقد يكونون من نحو واحد، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. وجمع القبيل قَبْل. ينظر: «لسان العرب» (٣٥١٩).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٢-١٢٣) عن ابن عباس، والحسن، وقاتدة بالفاظ متقاربة، وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» عن قتادة، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٤٨/١).

قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَلَا وَصِيَّةَ لِيَوَارِثُ»^(١).

و ﴿بالمعروف﴾: معناه بالقصد الذي تعرفه النفوس دون إضرار بالورثة، ولا تنزير^(٢) للوصية و ﴿حَقًّا﴾: مصدر مؤكد، وخُصَّ «المتقون» بالذكر؛ تشريفاً للرتبة؛ ليتبادر الناس إليها.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ...﴾ الآية: الضمير في «بَدَّلَهُ» عائذ على الإيصاء، وأمر الميت، وكذلك في «سَمِعَهُ»، ويحتمل أن يعود الذي في «سَمِعَهُ» على أمر الله تعالى في هذه الآية، والأول أسبق للناظر، و ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: صفتان لا يخفى معهما شيء من جَنَفِ الموصيِّين، وتبديل المتعديِّين، والجَنَفُ: الميل.

ومعنى الآية على ما قال مجاهد: من خشي أن يحيف الموصي، ويقطع ميراث طائفة، ويتعمد الإذاعة، فذلك هو الجَنَفُ في إثم، وإن لم يتعمد، فهو الجنف دون إثم^(٣)، فالمعنى: مَنْ وعظه في ذلك وردَّه عنه، وأصلح ما بينه وبين ورثته، وما بين الورثة في ذاتهم، فلا إثم عليه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالموصي، إذا عملت فيه الموعظة، ورجع عما أراد من الإذاعة.

وقال ابن عباس وغيره: معنى الآية: ﴿مَنْ خَافَ﴾، أي: عليم، ورأى بعد موت الموصي؛ أن الموصي خَافَ، وجَنَفَ، وتعمد إذاعة بعض ورثته، ﴿فَأَصْلَحَ﴾ ما بين الورثة، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وإن كان في فعله تبديلٌ ما؛ لأنه تبديلٌ لمصلحة، والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى^(٤).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُيِّبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُيِّبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٥) أَيَّامًا مَعْدُودَةً فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ

(١) تقدم.

(٢) التنزير: تفعليل من التزير، وهو: القليل النافه من كل شيء. والمقصود ألا يقلل من الوصية ولو شيئاً يسيراً.

(٣) أخرجه الطبري (١٢٩/٢) برقم (٢٦٩٧ - ٢٦٩٨) بإسنادين مختلفين، عن مجاهد. وذكره ابن عطية (٢٤٩/١)، والبغوي في تفسيره (١٤٨/١)، والسيوطي في «الدر» (٣٢١/١)، وعزاه لابن جرير، وعبد بن حميد.

(٤) أخرجه الطبري (١٢٩/٢) برقم (٢٦٩٩)، وذكره ابن عطية (٢٤٩/١)، والسيوطي في «الدر» (١/٣٢٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

كُتِبَ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

قوله جَلَّتْ قدرته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ الآية: ﴿كُتِبَ﴾: معناه فُرِضَ، والصيام؛ في اللغة: الإمساك، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] وفي الشرع: إمساك عن الطعام والشراب مقتربة به قرائن؛ مِنْ مُرَاعَاةِ أَوْقَاتٍ، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: اختلف في موضع التشبيه: قالت فرقة: التشبيه: كُتِبَ عليكم كصيام قد تقدّم في شرع غيركم، ف «الَّذِينَ» عامٌّ في النصارى^(١) وغيرهم.

و «لَعَلَّكُمْ»: ترجّ في حقهم.

و «تَتَّقُونَ»: قيل على العموم؛ لأن الصيام؛ كما قال ﷺ: «جُنَّةٌ»^(٢) ووجاء، وسبب

(١) هذا قول، والقول الثاني: أن التشبيه يعود إلى وقت الصوم وإلى قدره، وهذا ضعيف؛ لأن تشبيه الشيء بالشيء يقتضي استواءهما في أمر من الأمور، فأما أن يقال: إنه يقتضي الاستواء في كل الأمور فلا. ثم القائلون بهذا القول ذكروا وجوهاً. أحدها: أن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود، والنصارى، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة، وزعموا أنه يوم غرق فيه فرعون، وكذبوا في ذلك أيضاً؛ لأن ذلك اليوم يوم عاشوراء على لسان رسول الله ﷺ، أما النصارى فإنهم صاموا رمضان، فصادفوا فيه الحر الشديد، فحولوه إلى وقت لا يتغير، ثم قالوا عند التحويل: نزيد فيه، فزادوا عشراً، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم، فنذر سبعا، فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال: ما بال هذه الثلاثة، فأنتم خمسين يوماً، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَجَارَهُمْ وَرِهَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١] وهذا مروي عن الحسن. وثانيها: أنهم أخذوا بالوثيقة زماناً، فصاموا قبل الثلاثين يوماً وبعدها يوماً، ثم لم يزل الأخير يستسن بسنة القرن الذي قبله حتى صاروا إلى خمسين يوماً، ولهذا كره صوم يوم الشك، وهو مروي عن الشعبي، وثالثها: أن وجه التشبيه أنه يحرم الطعام والشراب والجماع بعد النوم كما كان ذلك حراماً على سائر الأمم. واحتج القائلون بهذا القول بأن الأمة مجمعة على أن قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] يفيد نسخ هذا الحكم، فهذا الحكم لا بد فيه من دليل يدل عليه، ولا دليل عليه إلا هذا التشبيه وهو قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فوجب أن يكون هذا التشبيه دليلاً على ثبوت هذا المعنى، قال أصحاب القول الأول: قد بينا أن تشبيه شيء بشيء لا يدل على مشابهتهما من كل الوجه، فلم يلزم من تشبيه صومنا بصومهم أن يكون صومهم مختصاً بـرمضان، وأن يكون صومهم مقدراً بثلاثين يوماً، ثم إن هذه الرواية مما ينفر من قبول الإسلام إذا علم اليهود والنصارى كونه كذلك.

ينظر: «الفخر الرازي» (٥/٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤/١٢٥)، كتاب «الصوم»، باب فضل الصوم حديث (١٨٩٤)، ومسلم (٢/٨٠٦)، كتاب «الصيام»، باب فضل الصيام حديث (١٦٢/١١٥١). ومالك (١/٣١٠) كتاب «الصيام»، باب=

تَقَوَّى؛ لأنه يميّت الشهوات».

و «أياماً معدودات»: قيل: رمضان، وقيل: الثلاثة الأيام من كل شهر، ويوم عاشوراء التي نُسَخَتْ بشهر رمضان.

* ص *: و «أياماً»: منصوبٌ بفعلٍ مقدّر يدلُّ عليه ما قبله، أي: صوموا أياماً، وقيل: «أياماً»: نصب على الظرف^(١) انتهى.

= جامع الصيام حديث (٥٨). وأبو داود (٧٢/١)، كتاب «الصيام»، باب الغيبة للصائم حديث (٢٣٦٣). وأحمد (٤٦٥/٢)، والبيهقي (٢٦٩/٤) كتاب «الصيام»، باب الصائم ينزه صيامه عن اللفظة والمشامة، والبغوي في «شرح السنة» (٤٥٣/٣). بتحقيقنا، كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جنة، فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شتمه - فليقل: إني صائم مرتين -، والذي نفسي بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه، وشرابه، وشهوته من أجلي، الصيام لي، وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها» لفظ البخاري. وأخرجه البخاري (١٤١/٤) كتاب «الصيام»، باب هل يقول الصائم: إني صائم إذا شتم، حديث (١٩٠٤). ومسلم (٨٠٦/٢)، كتاب «الصيام»، باب فضل الصيام، حديث (١١٥١/١٦٣). والنسائي (١٢٦٣/٤)، كتاب «الصوم»، باب فضل الصوم، وأحمد (٢٧٣/٢)، والبيهقي (٢٧٠/٤). كلهم من طريق ابن جريج، حدثني عطاء عن أبي صالح، عن أبي هريرة به.

وأخرجه البخاري (٣٨١/١)، كتاب «اللباس»، باب ما يذكر في المسك، حديث (٥٩٢٧). ومسلم (٨٠٦/٢) كتاب «الصيام»، باب فضل الصيام، حديث (١١٥١/١٦١). والترمذي (١٣٦/٣)، كتاب «الصوم»، باب ما جاء في فضل الصوم، حديث (٧٦٤). والنسائي (١٦٤/٤)، كتاب «الصوم»، باب فضل الصوم. وأحمد (٢٨١/٢)، وعبد الرزاق (٣٠٦/٤) رقم (٧٨٩١). والبغوي في «شرح السنة» (٤٥١/٣). بتحقيقنا. كلهم من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه البخاري (٤٧٢/١٣) كتاب «التوحيد»، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ حديث (٧٤٩٢)، ومسلم (٨٠٦/٢) كتاب «الصيام»، باب فضل الصيام، حديث (١١٥١/١٦٤)، وأحمد (٣٩٣/٢، ٤٤٣، ٤٧٧، ٤٨٠).

وابن ماجة (٥٢٥/١)، كتاب «الصيام»، باب ما جاء في فضل الصيام حديث (١٦٣٨)، (١٢٥٦/٢)، كتاب «الأدب»، باب فضل العمل حديث (٣٨٢٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٥٠/٣). بتحقيقنا، من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة.

وأخرجه البخاري (٥٢١/١٣) كتاب «التوحيد»، باب ذكر النبي ﷺ، وروايته عن ربه حديث (٧٥٣٨)، وأحمد (٤٥٧/٢، ٤٦٧، ٥٠٤). والطيالسي (١٨١/١) منحة رقم (٨٦٣)، من طريق محمد بن زياد، عن أبي هريرة.

وأخرجه أحمد (٥٠٣/٢)، والدارمي (٢٥/٢) كتاب «الصيام»، باب فضل الصيام، وأبو يعلى (١٠/٣٥٣) رقم (٥٩٤٧)، من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

(١) وقيل: منصوبٌ بالصيام، ولم يذكر الزمخشري غيره. ونظرة بقولك: «تَوَيْتُ الخُرُوجَ يوم الجمعة»، =

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾: التقدير: فأفطر، ﴿فَعِدَّةٌ﴾، وهذا يسمونه فَحْوًى^(١) الخطاب، واختلف العلماء في حَدِّ المرض الذي يقع به الفطر، فقال جمهور العلماء: إذا كان به مرض يؤذيه، ويؤلمه أو يخاف تَمَادِيَهُ، أو يخاف من الصوم تزيده، صحَّ له الفطر، وهذا مذهب حُذَاقِ أصحاب مالك، وبه يناظرون، وأما لفظ ب مالك: فهو المرض الذي يَشُقُّ على المرء، ويبلغ به، واختلف في الأفضل/ من الفطر أو الصَّوْم، ومذهب مالك استحبَّ الصوم لمن قَدَرَ عَلَيْهِ، وتقصير الصلاة حَسَنٌ؛ لأنَّ الذمَّة تبرا في رخصة الصلاة، وهي مشغولة في أمر الصيام، والصواب: المبادرة بالأعمال.

والسَّفر: سَفَرُ الطاعة؛ كالحج، والجهاد؛ بإجماع، ويتصل بهذين سفرُ صلاة الرِّجَم، وطلب المعاش الضروري.

وأما سفر التجارة، والمباحات، فمختلَف فيه بالمنع، والجواز، والقول بالجواز أرجح.

= وهذا ليس بشيء، لأنَّه يلزم الفصل بين المصدر ومعمولِه بأجنبي، وهو قوله: «كما كُتِبَ» لأنه ليس معمولاً للمصدر على أي تقدير قَدَرْتَهُ. فإن قيل: يُجْعَل «كما كُتِبَ» صفة للصيام، وذلك على رأي مَنْ يُجَيِّز وَصْفَ المَعْرِفِ بِالْجَنْسِيَّةِ بما يجري مجرى النكرة فلا يكون أجنبياً. قيل: يلزم من ذلك وصف المصدر قبل ذكر معمولِه، وهو ممتنع.

وقيل: منصوب بالصيام على أن تقدَّر الكاف نعتاً لمصدر من الصيام، كما قد قال به بعضهم، وإن كان ضعيفاً، فيكون التقدير: «الصيام صوماً كما كُتِبَ» فجاز أن يَعمَلَ في «أياماً» «الصيام» لأنه إذ ذاك عاملٌ في «صوماً» الذي هو موصوفٌ بـ «كما كُتِبَ» فلا يقع الفصل بينهما بأجنبي بل بمعمول المصدر.

وقيل: ينتصب بكتب: إمّا على الظرف وإمّا على المفعول به توسعاً، وإليه نحا القراء وتبعه أبو البقاء. قال أبو حيان: «وكلا القولين خطأ: أمّا النصب على الظرف فإنه محلٌّ للفعل، والكتابة ليست واقعة في الأيام، لكن متعلّقةً هو الواقع في الأيام. وأمّا النصب على المفعول اتساعاً فإنَّ ذلك مبنيٌّ على كونه ظرفاً لكُتِبَ، وقد تقدّم أنه خطأ. ينظر: «الدر المصون» (١/٤٦٠).

(١) وهو: مفهوم الموافقة وهو ما كان مدلول اللفظ في محل المسكوت موافقاً لمعناه في محل المنطوق، ويسمى «دلالة النص»، و«فحوى الخطاب»، و«لحن الخطاب».

وقد اتفق الشافعية، والحنفية على حجية الفحوى، واشترط الشافعية أولوية المسكوت.

وينظر تفصيل ذلك في: «البحر المحيط» للزركشي (٧/٤)، «البرهان» لإمام الحرمين (١/٤٤٩)، «الإحكام في أصول الأحكام» للأمدي (٣/٦٢)، «نهاية السؤل» للأسنوي (٢/٢٠٢)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٣٧)، «المنخول» للغزالي (٢٠٨)، «حاشية البناني» (١/٢٤٠)، «الإيهاج» لابن السبكي (١/٣٦٧)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢٠/١٥)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/٣١٩)، «التحرير» لابن الهمام (٢٩)، «حاشية التفازاني والشريف على مختصر المنتهى» (٢/١٧٢)، «التقرير والتحبير» لابن أمير الحاج (١/١١٢).

وأما سفر العُصَيَّان، فمختلف فيه بالجواز، والمنع، والقول بالمنع أرجح.

ومسافة سفر الفطر؛ عند مالك، حيث تقصر الصلاة ثمانية وأربعون^(١) ميلاً.

(١) يُبَاحُ للمسافر الفطر في رمضان إذا تحققت الشروط الآتية:

الأول: أن يكون سفره سفر قصر، أي: أن يكون سفرًا طويلاً، والسفر الطويل: ما كان مرحلتين فأكثر، وهما: سير يومين من غير ليلة على الاعتبار، أو ليلتين بلا يوم كذلك، أو يوم وليلة مع النزول المعتاد، لنحو استراحة، أو أكل أو صلاة، وأن تكون المرحلتان يسير الأتقال. أي: الحيوانات المثقلة بالأحمال، والبحر كالبر في اشتراط المسافة المذكورة، فلو قطع الأميال فيه في ساعة مثلاً لشدة جري السفينة بالهواء، فإنه يبيح له الفطر أيضاً؛ لوجود المسافة الصالحة، وَلَا يُضَرُّ قَطْعُهَا فِي زَمَنِ يَسِيرٍ. فإن قيل: إذا قطع المسافة في لحظة صار مقيماً، فكيف يتصور ترخيصه فيها؟

أجيب بأنه لَا يَلْزَمُ مِنْ وَصُولِ الْمُقْصِدِ انْتِهَاءُ الرُّخْصَةِ.

الشرط الثاني: أن يكون سفره في غير معصية بألا يكون عاصياً بالسفر، وهو الذي أنشأ سفره معصية، ولا عاصياً بالسفر في السفر، وهو الذي أنشأ سفره طاعة ثم قلبه معصية. أمّا العاصي في السفر، وهو من أنشأ سفره طاعة، واستمر كذلك إلا أنه وقعت منه معصية في أثناء سفره؛ فيجوز له الفطر، وَلَمْ يُجَوِّزْ الشَّارِعُ الفطر لمن كان سفره في معصية؛ لأن ذلك يكون إغارة له على المعصية؛ ولأن جواز الفطر رخصة والرخصة لا تَنَاطُ بِالمَعَاصِي.

وبناء على هذين الشرطين يمكن أن يُقَالَ: إنَّ المسافر الذي كان سفره في غير معصية، وكان سفره سفر قصر يُبَاحُ له الفطر بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فله الفطر وعليه عدة من أيام أخر، ولما روت السيدة عائشة - رضي الله عنها - أن حَمْرَةَ بِنَ عُمَرَ الأسلمي قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَافْطِرْ». ثُمَّ إِنْ كَانَ المسافر ممن لا يجهد الصوم. أي: لا يتضرر به، فالأفضل له الصوم؛ لِمَا رَوَى عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - أَنَّهُ قَالَ لِلصَّائِمِ فِي السَّفَرِ: «إِنْ أَفْطَرْتَ فَرُخْصَةً، وَإِنْ صُمْتَ فَأَفْضَلَ». وَأَنَّهُ لَوْ أَفْطَرَ عَرَضَ الصَّوْمِ لِلنَّسِيَانِ، وَحَادَثَ الْإِيَّامِ؛ وَلَأنَّ شَهْرَ الصَّوْمِ لَهُ أَفْضَلِيَّةٌ وَمَزِيَّةٌ عَلَى سَائِرِ الْإِيَّامِ. وَإِنْ كَانَ المسافر ممن يجهد الصوم، أي: يتضرر به فالأفضل له الفطر؛ لما روى جابر - رضي الله عنه - أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ بِرَجُلٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَرِشُ عَلَيْهِ الْمَاءَ، فَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَا بَالُ هَذَا؟» قَالُوا: صَائِمٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ».

فَإِنْ صَامَ الْمُسَافِرُ ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ؛ لِأَنَّ الْعَذْرَاقَتِمْ، كَمَا لَوْ صَامَ الْمَرِيضُ وَأَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ. الشرط الثالث: أَنْ يَكُونَ السَّفَرُ سَابِقاً عَلَى الصَّوْمِ؛ بِأَنْ يَكُونَ الشَّرُوعُ فِيهِ سَابِقاً عَلَى الشَّرُوعِ فِي الصَّوْمِ، كَانَ يَقَعُ السَّفَرُ بَعْدَ الْغُرُوبِ، وَقَبْلَ الْفَجْرِ.

أما إِذَا كَانَ الشَّرُوعُ فِي السَّفَرِ بَعْدَ الشَّرُوعِ فِي الصَّوْمِ، فَيَحْرَمُ عَلَيْهِ الْفَطْرُ، وَيَجِبُ الصَّوْمُ. وقال المزني: لَهُ أَنْ يُفْطِرَ، كَمَا لَوْ أَصْبَحَ الصَّحِيحُ صَائِماً، ثُمَّ مَرَضَ. والمذهب الأول، وهو وجوب الصَّوْمِ وَعَدَمُ جَوَازِ الْفَطْرِ. دليل ذلك: أَنَّهُ عِبَادَةٌ اجْتَمَعَ فِيهَا سَفَرٌ وَحَضَرٌ، وَكُلُّ عِبَادَةٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا سَفَرٌ وَحَضَرٌ يَغْلِبُ جَانِبُ الْحَضَرِ؛ لِأَنَّهُ الْأَضْلُّ.

وعلى الأول: لو جامع فيه لزمه الكفارة؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ مِنْ رَمَضَانَ هُوَ صَائِمٌ فِيهِ صَوْماً لَا يَجُوزُ فِيهِ الْفَطْرُ. الشرط الرابع: أَنْ يَرَجُو الْمَسَافِرُ إِقَامَةً يَقْضِي فِيهَا مَا أَفْطَرَهُ مِنْ أَيَّامِ سَفَرِهِ، فَإِنْ لَمْ يَرَجُ إِقَامَةً يَقْضِي فِيهَا مَا =

وقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ﴾، أي: فالحكم أو الواجب عِدَّةٌ، وفي وجوبِ متابعتها قولان، و ﴿أُخْرٍ﴾ لا ينصرف للعدل.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ...﴾ الآية: قرأ باقي السبعة^(١) غير نافع وابنِ عامر: «فِدْيَةٌ»؛ بالتونين «طَعَامُ مَسْكِينٍ»؛ بالإفراد، وهي قراءة حَسَنَةٌ؛ لأنها بَيِّنَتْ الحكم في اليوم.

واختلفوا في المراد بالآية، فقال ابنُ عمرَ وجماعةٌ: كان فرضُ الصيام هكذا على

= أفطره، بأن كان مُدِيمَ السَّفَرِ، فَلَا يُبَاحُ لَهُ الْفِطْرُ، لِأَنَّ إِبَاحَةَ الْفِطْرِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تُؤَدِّي إِلَى إِسْقَاطِ الْفَرْضِ بِالْكَلِيَّةِ، نَعَمْ، لَوْ قَصِدَ الْقَضَاءُ فِي أَيَّامٍ أُخْرَى مِنْ أَيَّامِ سَفَرِهِ، جَازَ لَهُ الْفِطْرُ، وَلَا فَرْقَ فِي جَوَازِ الْفِطْرِ لِلْمَسَافِرِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ بِأَكْلٍ أَوْ نَحْوِهِ، كَجَمَاعٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَتَى أَفْطَرَ الْمَسَافِرُ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ دُونَ الْفِدْيَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا قَدِمَ الْمُسَافِرُ، أَوْ بَرِئَ الْمَرِيضُ، وَهَمَا مَفْطَرَانِ اسْتَحَبَّ لِهَمَا إِمْسَاكُ بَقِيَّةِ النَّهَارِ؛ لِحُزْمَةِ الْوَقْتِ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمَا أَفْطَرَا بَعْدَ ذَلِكَ. وَيُنْذَبُ لَهُمَا إِذَا أَكَلَا أَوْ شَرَبَا إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ عَذْرَهُمَا؛ لَخَوْفِ التَّهْمَةِ.

وإِذَا قَدِمَ الْمَسَافِرُ، وَهُوَ صَائِمٌ، أَوْ بَرِئَ الْمَرِيضُ وَهُوَ صَائِمٌ، فَقِي جَوَازُ إِفْطَارِهِ وَجِهَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُمَا الْفِطْرُ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ لِأَنَّهُ أُبِيحَ لَهُمَا الْفِطْرُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، فَجَازَ لَهُمَا الْإِفْطَارُ فِي بَقِيَّةِ النَّهَارِ، كَمَا لَوْ دَامَ السَّفَرُ وَالْمَرَضُ.

وِثَانِيَهُمَا: لَا يَجُوزُ لَهُمَا الْإِفْطَارُ، وَهُوَ قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي الطَّيِّبِ وَجُمْهُورِ الْأَصْحَابِ؛ لِأَنَّهُ زَالِ سَبَبِ الرُّخْصَةِ قَبْلَ التَّرْخُصِ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُبَاحُ الْفِطْرُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ، إِلَّا إِذَا نَوَى الْمُفْطِرُ التَّرْخُصَ بِفِطْرِهِ، بِأَنَّهُ يَقْصِدُ أَنَّ الشَّارِعَ رَخَّصَ لَهُ الْفِطْرَ، وَذَلِكَ لِيَحْصَلَ الْفَرْقُ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْفِطْرِ الْجَائِزِ وَالْفِطْرِ الْمَمْنُوعِ.

فَلَوْ أَفْطَرَ بِدُونِ النِّيَّةِ الْمَذْكُورَةِ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْفِطْرُ، وَأَثِمَ بِهِ.

(١) وَأَمَّا قِرَاءَةُ نَافِعِ بْنِ عَامِرٍ، فَهِيَ «فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ»، وَحُجَّتُهُمَا فِي الْإِضَافَةِ أَوَّلًا: أَنَّ الْفِدْيَةَ غَيْرُ الطَّعَامِ، وَأَنَّ الطَّعَامَ إِنَّمَا هُوَ الْمَفْدَى بِهِ الصَّوْمِ، لَا الْفِدْيَةِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْصَّوَابُ فِي الْقِرَاءَةِ إِضَافَةُ الْفِدْيَةِ إِلَى الطَّعَامِ.

وَحُجَّةُ الْجَمْعِ أَيْضًا: قَوْلُهُ قَبْلُهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ قَالُوا: إِنَّمَا عَرَفَ عِبَادَهُ حُكْمَ مَنْ أَفْطَرَ الْأَيَّامَ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ صَوْمُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالْوَاجِبُ أَنْ تَكُونَ الْقِرَاءَةُ فِي «الْمَسَاكِينَ» عَلَى الْجَمْعِ لَا عَلَى التَّوْحِيدِ، وَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ: وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةُ أَيَّامٍ يَفْطُرُ فِيهَا إِطْعَامَ مَسَاكِينَ، ثُمَّ تَحْذِفُ «أَيَّاماً» وَتَقِيمُ «الطَّعَامَ» مَكَانَهَا.

يَنْظُرُ: «حُجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (١٢٤، ١٢٥)، «السَّبْعَةُ» (١٧٦)، وَ«الْكَشْفُ» (٢٨٢/١)، وَ«الْحُجَّةُ لِلْقِرَاءَةِ السَّبْعَةِ» (٢٧٣/٢)، وَ«شَرْحُ الطَّيْبَةِ» (٩١/٤)، وَ«مَعَانِي الْقِرَاءَاتِ» (١٩٢/١)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةِ» (٢٨٥، ٢٨٤)، وَ«الْعَتَوَانُ» (٧٣)، وَ«إِتْحَافُ فَضْلَاءِ الْبَشَرِ» (٤٣٠/١).

الناس؛ مَنْ أراد أن يصوم، صام، ومن أراد أن يفطر أطعم مسكيناً، وأفطر، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(١) [البقرة: ١٨٥]. وقالت فرقة: الآية في الشيوخ الذي يطيقونه بتكُلُّفٍ شديد^(٢)، والآية عند مالك: إنما هي فيمن يدرکه رمضان ثانٍ، وعليه صومٌ من المتقدم، فقد كان يطيق في تلك المدة الصوم، فتركه، والفدية عند مالك وجماعة من العلماء: مُدٌّ لكل مسكين.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: المراد مَنْ أطعم مسكيتين فصاعداً^(٣)، وقال ابن شهاب^(٤): من زاد الإطعام مع

(١) أخرجه الطبري (١٣٩/٢) برقم (٢٧٤٧)، وقال أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (٤٢١/٣): «عمر بن المثنى» هكذا في المطبوعة، وأنا أرجح أن يكون صوابه «محمد بن المثنى»، شيخ الطبري الذي يروي عنه كثيراً. ولم أجد من يسمي «عمر بن المثنى» إلا رجلاً واحداً ذكر في «التهذيب»، و«لسان الميزان»، على أنه من التابعين ثم لم أجترأ على تصحيحه هذا، لاحتمال أن يكون من شيوخ الطبري الذين لم نجد تراجمهم.

عبد الوهاب: هو ابن عبد المجيد الثقفي.

عبد الله: هو ابن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، عرف بلقب «العمرى» وهو ثقة مترجم في «التهذيب»، وابن أبي حاتم (١٠٩/٢ - ١١٠)، ومن المحتمل أن يكون في المطبوعة خطأ، وأن يكون صوابه «عبيد الله» بالتصغير، وهو أخو عبد الله أكبر منه، وأوثق عند أئمة الجرح والتعديل، وهو أحد الفقهاء السبعة. مترجم في «التهذيب»، وابن أبي حاتم (٣٢٦/٢ - ٣٢٧)، وهو وأخوه يشتركان في كثير من الشيوخ، منهم: «نافع مولى ابن عمر»، وإنما ظننت هذا الاحتمال؛ لأن الحديث مروي من حديث «عبيد الله».

فرواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٠/٤)، من طريق عبد الوهاب الثقفي، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر. ورواه البخاري مختصراً (١٦٤/٤، ١٣٦/٨) من طريق عبد الأعلى، وهو ابن عبد الأعلى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر.

ورواه البيهقي أيضاً من أحد طريق البخاري.

والحديث صحيح بكل حال. اهـ.

وذكره السيوطي في «الدر» (٣٢٥/١)، وعزاه لوكيع، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في «المصنف»، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «سننه». وذكره ابن عطية (٢٥٢/١)، عن ابن عمر، والشعبي، وسلمة بن الأكوع، وابن شهاب، ومعاذ بن جبل، وعلقمة، والنخعي، والحسن البصري.

(٢) وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٥٢/١).

(٣) أخرجه الطبري (١٤٨/٢) برقم (٢٨٠٢) عن ابن عباس بلفظ: «فزاد طعام مسكين آخر»، وذكره ابن عطية (٢٥٣/١)، والسيوطي في «الدر» (٣٢٧/١)، عن طاوس بلفظ: «إطعام مساكين»، وعزاه لعبد بن حميد. اهـ.

(٤) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة القرشي، =

الصوم^(١)، وقال مجاهد: مَنْ زاد في الإطعام على المُدِّ^(٢)، و﴿خَيْرًا﴾ الأول قد نُزِلَ منزلة مالٍ، أو نفعٍ، و﴿خَيْرٌ﴾ الثاني والثالث صفة تفضيل.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يقتضي الحَضُّ على الصوم، أي: فاعلموا ذلك وصوموا.

* ت *: وجاء في فضل الصوم أحاديثٌ صحيحةٌ مشهورةٌ، وحدث أبو بكر بنُ الخَطِيبُ بسنده عن سهل بن سعد الساعدي^(٣) عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا تَطَوُّعًا، لَمْ يَطْلُغْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، لَمْ يَرْضَ اللَّهُ لَهُ بِثَوَابِ دُونَ الْجَنَّةِ»^(٤)، قال: وبهذا الإسناد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثله. انتهى^(٥).

= الزهري، أبو بكر المدني، أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام. عن ابن عمر، وسهل بن سعد، وأنس، ومحمود بن الربيع، وابن المُسَيَّبِ وخلق. وعنه أبنان بن صالح، وأيوب، وإبراهيم بن أبي عَبدِلة، وجعفر بن بُزْقان، وابن عينة، وابن جريج، والليث، ومالك وأمم. قال ابن المديني: له نحو ألفي حديث. قال ابن شهاب: ما استودعت قلبي شيئاً فنسيته. وقال الليث: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب. وقال أيوب: ما رأيت أعلم من الزهري. وقال مالك: كان ابن شهاب من أسخى الناس وتقيًا، ما له في الناس نظير. قال إبراهيم بن سعد: مات سنة أربع وعشرين ومائة.

ينظر: «تهذيب الكمال» (١٢٦٩/٣)، و«تهذيب التهذيب» (٤٤٥/٩)، و«تقريب التهذيب» (٢/٢٠٧)، و«خلاصة تهذيب الكمال» (٤٥٧/٢)، و«الكاشف» (٩٦/٣)، و«تاريخ البخاري الكبير» (٢٢٠/١)، و«تاريخ البخاري الصغير» (٥٦/١، ٣٢٠)، و«الجرح والتعديل» (٣١٨/٨).

(١) أخرجه الطبري (١٤٩/٢) برقم (٢٨١٣)، وذكره ابن عطية (٢٥٣/١).
(٢) أخرجه الطبري (١٤٩/٢) برقم (٢٨١٤)، وذكره ابن عطية (٢٥٣/١)، والبغوي في «التفسير» (١/١٥٠).

(٣) هو: سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة بن كعب. أبو العباس. وقيل: أبو يحيى، الأنصاري، الساعدي.

قال ابن الأثير في «الأسد»: شهد قضاء رسول الله ﷺ في المتلاعنين، وأنه فرق بينهما، وكان اسمه حزنًا، فسماه رسول الله ﷺ سهلاً. قال الزهري: رأى سهل بن سعد النبي ﷺ وسمع منه، وذكر أنه كان له يوم توفي النبي ﷺ خمس عشرة سنة. توفي سنة (٨٨) وله (٩٦) سنة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤٧٢/٢)، «الإصابة» (١٤٠/٣)، «الكاشف» (٤٠٧/١)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٤٤/١)، «الثقات» (١٦٨/٣)، «الاستيعاب» (٦٦٤/٢)، «تهذيب الكمال» (١/٥٥٥)، «تهذيب التهذيب» (٢٥٢/٤)، «تقريب التهذيب» (٣٣٦/١)، «الجرح والتعديل» (٨٥٣/٤)، «شذرات الذهب» (٦٣/١)، «الرياض المستطابة» (١١٠)، «الأعلام» (١٤٣/١).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٧٨/١)، عن سهل بن سعد الساعدي.

(٥) ينظر المصدر السابق.

قال ابن عبد البر في كتابه المسمى بـ «بهجة المجالس» قال أبو العالية: الصائم في عبادة ما لم يعتب.

قال الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد البلالي الشافعي في «أختصاره للإحياء»: وذكر السبكي^(١) في شرحه؛ أن الغيبة تمنع ثواب الصوم إجماعاً، قال البلالي: وفيه نظر؛ لمشقة الاحتراز، نعم، إن أكثر، توجهت المقالة. انتهى، وهذا الشيخ البلالي لقيته، ورويت عنه كتابه هذا.

وصح عنه ﷺ: «إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ»^(٢) قال أبو عمر في «التمهيد»^(٣): وذلك لأن الصوم جنة يستجرب بها العبد من النار، وتفتح لهم أبواب الجنة؛ لأن أعمالهم تزكو فيه، وتقبل منهم، ثم أسند أبو عمر عن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيَْتُ أُمِّي خَمْسَ خِصَالٍ فِي رَمَضَانَ، لَمْ تُعْطَهُنَّ أُمَّةٌ قَبْلَهَا: خُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ/ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُفْطَرُوا، وَيَزَيِّنُ اللَّهُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَوْشِكُ عِبَادِي الصَّائِمُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمْ الْمَثَوْنَةَ، وَالْأَذَى، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَيْكَ، وَتَصَفَّدُ^(٤) فِيهِ مَرَدَّةُ الشَّيَاطِينِ، فَلَا يَخْلُصُونَ إِلَّا إِلَى مَا كَانُوا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ فِي غَيْرِهِ، وَيَغْفِرُ لَهُمْ آخِرَ لَيْلَةٍ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟

(١) علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام، الأنصاري، الخرجي، الشيخ الإمام الفقيه، المحدث، الحافظ، المفسر، المقرئ، الأصولي، المتكلم، النحوي، اللغوي، الأديب الحكيم، المنطقي، الجدلي، الخلافي، النظار، شيخ الإسلام، قاضي القضاة تقي الدين السبكي، ولد بسبك من أعمال الشرقية في صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة. قال ابن الرفعة: إمام الفقهاء ومصنفاته تزيد على المائة والخمسين. توفي في جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وسبعمائة.

ينظر: «ابن قاضي شهبة» (٦٠٣/٣)، و «الدور الكامنة» (٥٨/٣)؛ و «شذرات الذهب» (١٨٧/٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥/٤) كتاب «الصوم»، باب هل يقال: رمضان، أو شهر رمضان، حديث (١٨٩٨، ١٨٩٩)، ومسلم (٧٥٨/٢)، كتاب «الصيام»، باب فضل شهر رمضان، حديث (١٠٧٩، ١٠٨٠)، والنسائي (١٢٦/٤ - ١٢٧)، كتاب «الصيام»، باب فضل شهر رمضان، وأحمد (٣٥٧/٢، ٤٠١)، والدارمي (٢٦/٢)، كتاب «الصوم»، باب في فضل شهر رمضان، وابن حبان (٣٤٣٤)، والبيهقي (٤/٢٠٢) كتاب «الصيام»، باب ما روي في كراهية قول القائل: جاء رمضان، وذهب رمضان. والبخاري في «شرح السنة» (٤٤٦/٣). بتحقيقنا، من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) ينظر: «التمهيد» (١٥٣/١٦).

(٤) صَفَّدَهُ يَصْفِدُهُ صَفْدًا وَصُفُودًا وَصَفْدَةً: أوثقه، وشده وقيدته في الحديد وغيره، وكذلك التصفيد.

ينظر: «لسان العرب» (٢٤٥٧).

قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْعَامِلَ إِنَّمَا يُوفَّى أَجْرَهُ إِذَا أَنْقَضَى^(١)، قال أبو عمر: وفي سنده أبو المقدام، فيه ضعف، ولكنه محتمل فيما يرويه من الفضائل.

وأسند أبو عمر عن الزهري، قال: «تسبيحة في رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره». انتهى.

* ت * : وخرجه الترمذي عن الزهري قال: «تسبيحة في رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره»^(٢). انتهى.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: الشَّهْرُ: مشتق من الاشتهار.

قال * ص * : الشهر مضدَرُ: شَهْرٌ يَشْهَرُ، إذا ظهر، وهو اسم للمدة الزمانية، وقال الزجاج: الشَّهْرُ: الهلال، وقيل: سُمِّيَ الشَّهْرُ بِاسْمِ الْهَلَالِ. انتهى.

وَرَمَضَانُ: عَلِقَهُ هَذَا الْاسْمُ مِنْ مُدَّةٍ كَانَ فِيهَا فِي الرَّمَضِ، وَشِدَّةِ الْحَرِّ، وَكَانَ اسْمُهُ قَبْلَ ذَلِكَ نَائِرًا^(٣).

واختلف في إنزال القرآن فيه، فقال الضَّحَّاك: أنزل في قَرْضِهِ، وتعظيمه، والحض

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٢)، والبخاري (١/٤٥٨ - كشف) رقم (٩٦٣)، من طريق هشام بن زياد، عن محمد بن محمد بن الأسود، عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال البخاري: لا نعلمه عن أبي هريرة مرفوعاً، إلا بهذا الإسناد، وهشام بصري يقال له: هشام بن زياد أبو المقدم، حدث عنه جماعة من أهل العلم، وليس هو بالقوي في الحديث.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/١٤٣)، وقال: رواه أحمد، والبخاري، وفيه هشام بن زياد أبو المقدم، وهو ضعيف. اهـ.

وذكره الحافظ في «المطالب العلية» (٩٣٢)، وعزاه لأحمد بن منيع في «مسنده».

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (١/٣٤١)، عن الزهري، وعزاه للأصبهاني.

(٣) الصواب كما في «اللسان» (٤٣٣٧) «ناتقاً»، قال ابن منظور: «وناتق: شهر رمضان»، وحكاه عن ابن سيده وغيره.

عليه^(١)، وقيل: بدىء بنزوله فيه على النبي ﷺ وقال ابن عباس فيما يؤثر: أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ليلة أربع وعشرين من رمضان، ثم كان جبريل ينزله رسلاً رسلاً في الأوامر، والنواهي، والأسباب^(٢)، وروى وإثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «نزلت صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَالتَّوْرَةُ لَيْسَتْ مَضِينٍ مِنْهُ، وَالْإِنْجِيلُ لثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَالْقُرْآنُ لِأَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ»^(٣).

و﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على الحال من القرآن، فالمراد أن القرآن بجملته من مُحْكَمٍ ومتشابهٍ وناسخٍ ومنسوخٍ - هُدى ثم شُرفٌ، بالذِّكْر، والتخصيصِ البيئات منه، يعني: الحلال والحرام والمواظع والمُحْكَم كَلَه، فالألف واللام في الهدى للعهد، والمراد الأول.

قال * ص * : ﴿هُدًى﴾: منصوبٌ على الحال، أي: هادياً، فهو مصدرٌ وضع موضع اسم الفاعل، وذو الحال القرآن، والعامل «أنزل». انتهى.

و ﴿الْفُرْقَانُ﴾: المُفَرِّق بين الحق والباطل، و ﴿شَهِدَ﴾: بمعنى حَضَرَ، والتقدير: مَنْ حَضَرَ الْمِصْرَ فِي الشَّهْرِ، فالشهر نصبٌ على الظرف.

وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

قال مجاهد، والضَّحَّاك: الْيُسْرُ: الْفِطْرُ فِي السَّفَرِ، وَالْعُسْرُ: الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ^(٤).

* ع *^(٥): والوجهُ عمومُ اللفظ في جميع أمور الدين، وقد فسر ذلك قول النبي ﷺ: «دِينُ اللَّهِ يُسْرٌ».

قلتُ: قال ابنُ الفاكهاني في «شرح الأربعين» للنووي: فَإِنْ قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا...﴾ [الشرح: ٦] الآية: يدلُّ على وقوع العُسْرِ قطعاً، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ

(١) ذكره ابن عطية في «التفسير» (٢٥٤/١).

(٢) ذكره ابن عطية في «التفسير» (٢٥٤/١).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٣/١) وعزاه لابن جرير الطبري.

(٤) أخرجه أحمد (١٠٧/٤) من حديث واثلة، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٠٢/١)، وقال: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» و «الأوسط»، وفيه عمران بن داود القطان، ضعفه يحيى، وثقه ابن حبان، وقال أحمد: أرجو أن يكون صالح الحديث. وبقيّة رجاله ثقات.

(٥) ذكره ابن عطية في «التفسير» (٢٥٥/١).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٥/١).

اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يَرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» يدلُّ على نفي العسر قطعاً؛ لأن ما لا يريده تعالى، لا يكون بإجماع أهل السنة، قلْتُ: العسرُ المنفي غير المثبت، فالمنفي: إنما هو العسر في الأحكام، لا غير، فلا تعارض. انتهى.

وترجم البخاري في «صحيحه» قول النبي ﷺ: «يَسْرُوا وَلَا تُعْسَرُوا»، وَكَانَ يُحِبُّ التَّخْفِيفَ وَالْيُسْرَ عَلَى النَّاسِ. ثم أسند هو ومسلم عن أنس، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَسْرُوا وَلَا تُعْسَرُوا، وَسَكُنُوا وَلَا تُنْفَرُوا»^(١) وأسند البخاري ومسلم عن النبي ﷺ؛ أنه قال لأبي موسى، ومعاذ^(٢): «يَسْرَا وَلَا تُعْسَرَا، وَبَشَرَا وَلَا تُنْفَرَا»^(٣). قال البخاري: حَدَّثَنَا أَبُو النَعْمَانِ^(٤)، قال:

(١) أخرجه البخاري (١٩٦/١) كتاب «العلم»، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، حديث (٦٩)، (٥٢٤/١٠) كتاب «الأدب»، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» حديث (٦١٢٥)، وفي «الأدب المفرد» رقم (٤٦٩)، ومسلم (١٣٥٩/٣) كتاب «الجهاد والسير»، باب في الأمر بالتيسير، وترك التنفير، حديث (١٨٣٤/٨). وأحمد (١٣١/٣)، وأبو يعلى (١٨٧/٧) رقم (٤١٧٢)، والبخاري في «شرح السنة» (٣١٥/٥) بتحقيقنا، من طريق أبي التياح عن أنس مرفوعاً.

(٢) هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن علي بن أسد بن ساردة.. أبو عبد الرحمن، الخزرجي، الأنصاري. ثم الجشمي.

هو من صحابة رسول الله ﷺ وقد روى عنه من الصحابة عمر، وابنه عبد الله، وأبو قتادة، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو ليلى الأنصاري، ومن التابعين جنادة بن أبي أمية، وعبد الرحمن بن علف، وأبو إدريس وغيرهم. توفي قيل: في طاعون «عمواس» سنة (١٨ أو ١٧) وله (٣٨) سنة وقيل: (٣٣)، وقيل: (٣٤).

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٩٤/٥)، «الإصابة» (١٠٦/٦)، «الثقات» (٣٦٨/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٨٠/٢)، «بقي بن مخلد» (٢٦)، «الاستيعاب» (١٤٠٢/٣)، «الاستبصار» (٤٨، ٧١، ١٢٦)، «شذرات الذهب» (٣٠/١)، «البرج والتعديل» (٤٤/٨)، «غاية النهاية» (٣٠١/٢)، «العبر» (٧٨/١)، «تهذيب التهذيب» (١٨٦/١٠)، «تهذيب الكمال» (١٣٣٨/٣)، «سير أعلام النبلاء» (١/٤٤٣)، «المصباح المضيء» (٦٦/١)، «الأعلام» (٢٥٨/٧)، «الطبقات الكبرى» (١٨٤/٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠/٧)، كتاب «المغازي»، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث (٤٣٤٥)، ومسلم (١٣٥٩/٣)، كتاب «الجهاد والسير»، باب في الأمر بالتيسير، وترك التنفير، وأحمد (٤٠٩/٤).

(٤) تصحف في المطبوعة إلى «أبو اليمان»، وأبو النعمان هو: محمد بن الفضل السدوسي، أبو الثعمان البصري، الحافظ الملقب بـ «عارم». عن الحماديين، ومهدي بن ميمون، وهيب بن خالد، وخلق. وعنه البخاري، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن يحيى، وعبد بن حميد وخلق. اختلط عارم. قال أبو حاتم: ثقة، من سمع منه قبل سنة عشرين ومائتين، فسماعه جيد. قال عاصم بن عمر المقيمي: مات ستة أربع وعشرين ومائتين.

ينظر: «الخلاصة» (٤٤٩/٢)، و «تهذيب التهذيب» (٤٠٢/٩)، و «الكاشف» (٨٩/٣)، و «التقريب» (٢٠٠/٢)، و «المغني» (٥٩٠٣).

حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ^(١)، عَنِ الْأَزْرَقِ بْنِ قَيْسٍ^(٢). قَالَ: «كُنَّا عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ بِالْأَهْوَازِ^(٣) قَدْ نَضَبَ عَنْهُ الْمَاءُ، فَجَاءَ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ^(٤) عَلَى فَرَسٍ، فَصَلَّى وَخَلَّى فَرَسَهُ، فَأَنْطَلَقَ الْفَرَسُ فَتَرَكَ صَلَاتَهُ، وَتَبِعَهَا؛ حَتَّى أَذْرَكَهَا، فَأَخَذَهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَضَى صَلَاتَهُ، وَفِينَا رَجُلٌ لَهُ رَأْيٌ، فَأَقْبَلَ يَقُولُ: أَنْظَرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، تَرَكَ صَلَاتَهُ مِنْ أَجْلِ فَرَسٍ، فَأَقْبَلَ، فَقَالَ: مَا عَنَّفَنِي أَحَدٌ مُنْذُ فَارَقْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَقَالَ: إِنَّ مَنَزِلِي مُنْزَاخٌ، فَلَوْ صَلَّيْتُ وَتَرَكْتُه، لَمْ آتِ أَهْلِي إِلَى اللَّيْلِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ فَرَأَى مِنْ تَبْسِيرِهِ^(٥). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾: معناه: وليُكْمِلَ من أَفْطَرَ في سفره، أو في مرضه عِدَّةَ الأيام التي أَفْطَرَ فيها.

(١) حماد بن زيد بن دزهم الأزدي، أبو إسماعيل الأزرق، البصري، الحافظ، مولى جرير بن حازم، وأحد الأعلام. عن أنس بن سيرين، وثابت، وعاصم بن بهدلة، وابن واسع، وأيوب وخلق كثير. وعنه إبراهيم بن أبي عبلة، والثوري، وابن مهدي، وأبو الربيع الزهراني وابن المديني وخلق. قال ابن مهدي: ما رأيت أحفظ منه، ولا أعلم بالسنة، ولا أفقه بـ «البصرة» منه. وقال أحمد: من أئمة المسلمين. قال خالد بن خديش: توفي سنة سبع وتسعين ومائة عن إحدى وثمانين سنة.

ينظر: «الخلاصة» (٢٥١/١)، و «تهذيب التهذيب» (٩/٣)، و «التقريب» (١٩٧/١)، و «الكاشف» (٢٥١/١)، و «الثقات» (٢١٧/٦).

(٢) أزرق بن قيس الحارثي بلخاري بن كعب بصري. عن أبي بركة وعبد الله بن عمرو وأنس. وعنه الحمادان وشعبة، ووثقه النسائي. قال الذهبي: بقي إلى حدود العشرين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٦٤/١)، و «تهذيب التهذيب» (٢٠٠/١)، و «التقريب» (٥١/١)، و «الكاشف» (١٠٢/١)، و «الثقات» (٦٢/٤).

(٣) أصله أهواز جمع «خوز» أبدلته الفرس؛ لأنه ليس في كلامهم هاء، وكان اسمها في أيام الفرس «خوزستان». وقيل: اسمها هُزْمَز شهر، وأهل هذه البلاد بأسرها يقال لهم الحوز. ينظر: «مرادد الاطلاع» (١٣٥/١).

(٤) أبو بركة الأسلمي. قال ابن الأثير في «الأسد»: اختلف في اسمه واسم أبيه وأصح ما قيل فيه: نضلة بن عبيد قاله أحمد بن حنبل وابن معين، وقال غيرهما: نضلة بن عبد الله ويقال: نضلة بن عابد، وقال الخطيب أبو بكر عن الهيثم بن عدي: اسم أبي بركة خالد بن نضلة. نزل البصرة وله بها دار وسار إلى خراسان فنزل مرو وعاد إلى البصرة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣١/٦)، «الإصابة» (٢٣٧/٦)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٥١/٢)، «بقي بن مخلد» (١٢٣)، «الاستيعاب» (١٦١٠/٤)، «تقريب التهذيب» (٢٩٤/٢)، «تهذيب التهذيب» (٢٠/٢)، «تهذيب الكمال» (١٥٨٠/٣)، «المصباح المضيء» (٢٠٨/١)، «التاريخ الصغير» (١/١٢٨)، «الكنى والأسماء» (١٩)، «التاريخ لابن معين» (١٥١/٢)، «التاريخ الكبير» (٩٢/٩)، تبصير المتنبه (١٤٧٢/٤).

(٥) أخرجه البخاري (٥٤١/١٠)، كتاب «الأدب»، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» حديث (٦١٢٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكْبِرُوا لِلَّهِ﴾ حضُّ على التكبير في آخر رمضان.

قال مالك: وهو من حين يَخْرُجُ الرجلُ من منزله إلى أن يخرج الإمام إلى المصلَّى، ولفظه عند مالك وجماعة من العلماء: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ؛ ثلاثاً.

ومن العلماء من يكبِّر، ويهْلَل، ويسبِّح أثناء التكبير، ومنهم من يقول: اللَّهُ أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، وقيل غير هذا. والجميع حسنٌ واسعٌ مع البداءة بالتكبير.

و ﴿هَذَاكُمْ﴾: قيل: المراد: لِمَا ضَلَّ فيه النَّصَارَى من تبديل صيامهم، وتعميم الهدى جيداً.

﴿ولعلكم تشكرون﴾ ترجُّ في حق البشر، أي: على نعم الله في الهدى.

* ص *: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ علَّة الترخيص والتيسير، وهذا نوعٌ من اللَّفِّ لطيف المسلك انتهى.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾

وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ الآية.

قال الحسن بن أبي الحسن: سببها أن قوماً قالوا للنبي ﷺ: «أَقْرَبُ رَبُّنَا فَنُتَاجِيهِ، أَمْ بَعِيدُ فَنُتَنَادِيهِ»، فنزلت الآية^(١).

و ﴿أُجِيبُ﴾: قال قومٌ: المعنى: أُجِيبُ إن شئتُ، وقال قومٌ: إن الله تعالى يجيب كلَّ الدعاء، فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفَّر عنه، وإما أن يُدَخَّرَ له أجرٌ في الآخرة، وهذا بحسب حديث «الموطأ»، وهو: «مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلَّا كَانَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ...»^(٢) الحديث.

(١) أخرجه الطبري (١٦٥/٢) برقم (٢٩١٣)، وقال شاكر في «عمدة التفسير» (٤٨١/٣): «وهذا الإسناد صحيح إلى الحسن، ولكن الحديث ضعيف؛ لأنه مرسل لم يسند الحسن عن أحد من الصحابة». وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٧٣/١)، وابن كثير (٢١٨/١).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢١٨/١). كتاب «القرآن»، باب العمل في الدعاء حديث (٤١).

* ت * : وليس هذا باختلاف قول.

قال ابن رُشد في «البيان»: الدعاء عبادة من العبادات يؤجر فيها الأجر العظيم، أجيبت دعوته فيما دعا به، أو لم تُجِبْ، وهأنا أنقل، إن شاء الله، من صحيح الأحاديث في هذا المَحَلِّ ما يَثْلُجُ له الصَّدْرُ، وعن أنس - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَعْجِزُوا عَنِ الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ» رواه الحاكم أبو عبد الله في «المُسْتَدْرَكِ» على الصحيحين، وابن حِبَّانَ في «صحيحه»، واللفظ له، وقال الحاكم: صحيح الإسناد^(١)، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّعَاءُ: سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» رواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح^(٢)، وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قَالَ: «يَدْعُو اللَّهُ بِالْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: عَبْدِي، إِنِّي أَمَرْتُكَ؛ أَنْ تَدْعُوَنِي، وَوَعَدْتُكَ أَنْ أَسْتَجِيبَ لَكَ، فَهَلْ كُنْتَ تَدْعُوَنِي، فَيَقُولُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ، / فَيَقُولُ: أَمَا إِنَّكَ لَمْ تَدْعُنِي بِدَعْوَةٍ إِلَّا أَسْتَجِيبُ لَكَ، أَلَيْسَ دَعَوْتَنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا لِعَمِّ نَزَلَ بِكَ؛ أَنْ أَفْرَجَ عَنْكَ فَفَرَجْتُ عَنْكَ؟! فَيَقُولُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: فَإِنِّي عَجَلْتُهَا لَكَ فِي الدُّنْيَا، وَدَعَوْتَنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا لِعَمِّ نَزَلَ بِكَ، أَنْ أَفْرَجَ عَنْكَ، فَلَمْ تَرَ فَرَجًا؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَدَّخَرْتُ لَكَ بِهَا فِي الْجَنَّةِ كَذَا وَكَذَا [و] كَذَا وَكَذَا، وَدَعَوْتَنِي فِي حَاجَةٍ أَقْضِيهَا لَكَ فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فَقَضَيْتُهَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: فَإِنِّي عَجَلْتُهَا لَكَ فِي الدُّنْيَا، وَدَعَوْتَنِي فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا فِي حَاجَةٍ أَقْضِيهَا لَكَ، فَلَمْ تَرَ قَضَاءَهَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَدَّخَرْتُ لَكَ فِي الْجَنَّةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَا يَدْعُ اللَّهُ دَعْوَةً دَعَا بِهَا عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ إِلَّا بَيَّنَّ لَهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَجَلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَدَّخَرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ: فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ: يَا لَيْتَنِي لَمْ يَكُنْ عَجَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ دُعَائِهِ»، رواه الحاكم في «المستدرک»^(٣).

(١) أخرجه ابن حبان (١٥٢/٣ - ١٥٣) رقم (٨٧١)، والحاكم (١/ ٤٩٣ - ٤٩٤)، من طريق عمر بن محمد الأسلمي، عن ثابت عن أنس مرفوعاً.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٨١)، وأبو يعلى (١/ ٣٤٤) رقم (٤٣٩). كلهم من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي مرفوعاً. وليس عن أبي هريرة؛ كما ذكره المؤلف. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي، والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٠)، وقال: رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد، وهو متروك.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٨)، من طريق الفضل بن عيسى، عن =

وعن ثوبان - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرُ إِلَّا الدُّعَاءُ»، رواه الحاكم في «المستدرک» وابنُ جَبَّانَ في «صحيحه»، واللفظ للحاكم، وقال: صحيح الإسناد^(١).

قلت: وقد أخرج ابن المبارك في «رفائقه» هذا الحديث أيضاً، قال: حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبي الجعد^(٢)، عن ثوبان^(٣)، قال: قَالَ رَسُولُ

= محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً.

وقال الحاكم: هذا حديث تفرد به الفضل بن عيسى الرقاشي، ومحلّه محل من لا يتهم بالوضع، ووافقه الذهبي، والفضل بن عيسى، قال الحافظ في «التقريب»: متروك.

(١) أخرجه ابن ماجة (١٣٣٤/٢)، كتاب «الفتن»، باب العقوبات حديث (١٠٢٢)، وأحمد (٢٧٧/٥)، ٢٨٠، ٢٨٢، والحاكم (٤٩٣/١)، وابن أبي شبة (٤٤١/١٠ - ٤٤٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٦٩/٤)، وأبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (١٠/٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٣١)، من حديث ثوبان مرفوعاً.

قال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان. (٢) عبد الله بن أبي الجعد الأشجعي. عن ثوبان. وعنه عبد الله بن عيسى بن أبي ليلى. له عند كل منهما فرد حديث. وثقه ابن حبان. ينظر: «الخلاصة» (٤٦/٢).

(٣) هو: ثوبان بن بُجْدَد. مولى رسول الله ﷺ.

قال ابن الأثير في «الأسد»: هو من «حمير» من «اليمن»، وقيل: هو من سعد العشيرة من «مذحج»، أصابه سباء، فاشتره رسول الله ﷺ فأعتقه، وقال له: «إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم، وإن شئت أن تكون منا أهل البيت». فثبت على ولاء رسول الله ﷺ، ولم يزل معه سفيراً وحضراً إلى أن توفي رسول الله ﷺ، فخرج إلى الشام فنزل إلى «الرملة» وابتنى بها داراً، وابتنى بـ «مصر» داراً، وبـ «حمص» داراً، وتوفي بها سنة (٥٤).

روى عن النبي ﷺ أحاديث ذوات عدد.

روى عنه شداد بن أوس، وجبير بن نفير، وأبي إدريس الخولاني، وأبي سلام ممطور الحبشي، ومعدان بن أبي طلحة، وأبي الأشعث الصنعاني، وأبي أسماء الرحبي، وغيرهم.

قال البرقي: روي عنه نحو من خمسين حديثاً.

توفي بـ «حمص» سنة (٥٤).

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٩٦/١)، «الإصابة» (٢١٢/١)، «الثقات» (٤٨/٣)، «الاستيعاب» (٢١٨/١)، «تجريد أسماء الصحابة» (٧/١)، «العبر» (٥٩/١)، «در السحابة» (٧٥٩)، «صفة الصفوة» (٦٧٠)، «الحلية» (٣٥٠/١)، «التحفة اللطيفة» (٤٠١/١)، «الوافي بالوفيات» (٢١/١)، «التاريخ الكبير» (١٨١/٢)، «البحر والتعديل» (٤٦٩/٢)، «تنقيح المقال» (١٥٧٨)، «الزهد» لوكيع (١٤٠)، «بقي بن مخلد» (٣٤)، «تهذيب الكمال» (١٧٦/١)، «تهذيب التهذيب» (٣١/٢)، «تقريب التهذيب» (١٢٠/١)، «مشاهير علماء الأمصار» (٣٢٤).

اللَّهُ ﷻ: «لَا يَزُدُ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالدُّنْبِ يُصِيبُهُ»^(١). انتهى.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُغْنِي حَذْرُ مَنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه الحاكم في «مستدركه»، وقال: صحيح الإسناد^(٢)، وقوله؛ «فَيَعْتَلِجَانِ»، أي: يتصارعان.

وعن سَلْمَانَ^(٣) - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ: «مَنْ سَرَهُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ عِنْدَ الْكُرْبِ، وَالشَّدَائِدِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»، رواه الحاكم أيضاً، وقال: صحيح الإسناد^(٤)، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ: «مَنْ فُتِحَ لَهُ فِي

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٩) رقم (٨٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٢/١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٥٣/٨)، وابن الجوزي في «العلل» (٢/٣٥٩)، من طريق زكريا بن منظور، عن عطاء بن خالد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: زكريا بن منظور مجمع على ضعفه. وقال ابن الجوزي: لا يصح، قال يحيى: زكريا ليس بثقة، وقال الدارقطني: متروك.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٩/١٠)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، والبخاري، وفيه زكريا بن منظور، وثقه أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور، وبقي رجاله ثقات.

(٣) هو: سلمان بن الإسلام. وسلمان الخير، وسلمان الفارسي. أبو عبد الله. مولى رسول الله ﷺ. كان اسمه قبل الإسلام: مابه بن بودخشان بن مورسلان بن بهبودان بن فيروز بن سهرك، من ولد آب الملك.

وأول مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندق، ولم يتخلف عن مشهد بعد الخندق، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي الدرداء.

ومما ذكر في مناقبه قول النبي ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ تَشْتَاقُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: عَلِيٍّ وَعِمَارٍ، وَسَلْمَانَ»، كان سلمان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلانهم وذو القرب من رسول الله ﷺ. روى عنه ابن عباس، وأنس، وعقبة بن عامر، وأبو سعيد، وكعب بن عجرة، وأبو عثمان النهدي. وغيرهم.

توفي سنة (٣٥) آخر خلافة عثمان.

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤١٧/٢)، «الإصابة» (١١٣/٣)، «الاستيعاب» (٦٣٤/٢)، «الاستبصار» (١٢٥)، «الرياض المستطابة» (١٠٢)، «حلية الأولياء» (٣٦٧/٦)، «الطبقات الكبرى» (٩/٨٤)، «صفة الصفوة» (٥٢٣/١)، «التاريخ الكبير» (١٣٤/٤)، «التاريخ الصغير» (٧١/١)، «تاريخ

بغداد» (١٦٣/١)، «الكاشف» (٣٨٢/١)، «تاريخ جرجان» (٦٤، ١٣٨)، «التحفة اللطيفة» (١٦٧).

(٤) أخرجه الحاكم (٥٤٤/١)، من طريق عبد الله بن صالح، ثنا معاوية بن صالح، عن أبي عامر الألهماني، عن أبي هريرة مرفوعاً.

الدُّعَاءِ مِنْكُمْ، فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ»^(١)، قال العزالي - رحمه الله - في كتاب «الإحياء»: «فإن قلت: فما فائدة الدعاء، والقضاء لا يرُدُّ؟ فاعلم أن من القضاء ردَّ البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لردَّ البلاء، واستجلاب للرحمة؛ كما أن التُّرْس سبب لردَّ السهم، ثم في الدعاء من الفائدة أنه يستدعي حضور القلب، مع الله عزَّ وجلَّ، وذلك منتهى العبادات، فالدعاء يرُدُّ القلب إلى الله عزَّ وجلَّ بالتضرُّع والاستكانة»، فأنظره، فإني أثرت الاختصار، وانظر «سِلاحَ المؤمن» الذي منه نقلت هذه الأحاديث.

ومن «جامع الترمذي». عن أبي خزيمة^(٢)، واسمه رفاعه، عن أبيه، قال: سألت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقِيَ نَسْرَتِيهَا، وَدَوَّاءُ تَنَدَاوِي بِهِ، وَثِقَاءَةٌ تَنْقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئاً؟ قَالَ: هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؛ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح^(٣).

وانظر جواب عمر لأبي عبيدة «نعم، نَفِرُ من قدر الله إلى قدر الله...» الحديث هو من هذا المعنى. انتهى، والله الموفق بفضله.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾/ قال أبو رجاء الخراساني^(٤): معناه: «فَلْيَذْعُبُونِي».

٤٦ ب

قال *ع^(٥): * المعنى: فليطلبوا أن أجيبهم، وهذا هو باب «أَسْتَفْعَلُ»، أي: طلب

= وقال الحاكم: صحيح الإسناد، احتج البخاري بابن صالح. وأبو عامر الألهاني أظنه الهوزني، وهو صدوق. ووافقه الذهبي.

وأخرجه الترمذي (٣٣٨٢)، من طريق شهر بن حوشب، عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الترمذي: غريب.

(١) أخرجه الحاكم (٤٩٨/١).

وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: المليكى ضعيف.

(٢) أبو خزيمة. ذكره المؤلف (رحمنا الله وإياه) بغير نسبة، قال ابن الأثير: كان يسكن «الجناب»، وهي أرض عذرة. له صحبة، عداة من أهل «الحجاز». روى عن عطاء بن يسار.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٨٨/٦)، و «الإصابة» (٥١/٧)، و «بقي بن مخلد» (٣١٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٩٩-٤٠٠)، كتاب «الطب»، باب ما جاء في الرقى والأدوية، حديث (٢٠٦٥)، وابن ماجه (١١٣٧/٢)، كتاب «الطب»، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، حديث (٣٤٣٧). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) عبد الله بن واقد بن الحارث، الحنفي، أبو رجاء الهروي. عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، وأبي هارون العبدى. وعنه إسحاق بن منصور السلولي. وثقه أحمد وابن معين. ينظر: «الخلاصة» (٢/ ١٠٨).

(٥) «المحرر الوجيز» (٢٥٦/١).

الشيء إلا ما شئذ؛ مثل: أَسْتَغْنِي اللَّهَ.

وقال مجاهد وغيره: المعنى: فليجيئوا لي فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي: بالطاعة، والعمل^(١).

فائدة: قال صاحب «غاية المَغْنَم في اسم الله الأعظم» وهو إمام عارف^(٢) بعلم الحديث، وكتابه هذا يَشْهَدُ له، قال: ذكر الدِّينَوْرِيُّ^(٣) في «كتاب المَجَالَسَةِ»، عن ليث بن سُلَيْمٍ؛ أن رجلاً وَقَفَ عَلَى قوم، فقال: مَنْ عنده ضيافة هذه الليلة، فسَكَتَ القومُ، ثم عادَ، فقالَ رَجُلٌ أَعْمَى: عندي، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى منزلِهِ، فعَشَاهُ، ثم حَدَّثَهُ ساعةً، ثم وَضَعَ لَهُ وَضوءاً، فقام الرجلُ في جَوْفِ اللَّيْلِ، فتَوَضَّأَ، وصَلَّى ما قُضِيَ لَهُ، ثم جَعَلَ يدعو، فَأَنْتَبَهَ الأَعْمَى، وجَعَلَ يسمع لَدَعَائِهِ، فقال: اللَّهُمَّ، رَبِّ الأرواحِ الفانيَةِ، والأجسادِ الباليَةِ، أَسْأَلُكَ بِطَاعَةِ الأرواحِ الرَّاجِعَةِ إِلَى أجسادِها، وبطَاعَةِ الأجسادِ الملتئِمَةِ في عروقِها، وبطاعةِ القُبُورِ المتشَقِّقَةِ عن أهلِها، وبِدَعْوَتِكَ الصادِقَةِ فيهِم، وأَخِذْكَ الحَقُّ مِنْهُمْ، وتبريزِ الخلائِقِ كُلِّهِم من مخافَتِكَ يَتَنَظَّرُونَ قِضاءَكَ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَكَ، وَيَخَافُونَ عَذَابَكَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ النُّورَ في بَصَرِي، والإِخلاصَ في عَمَلِي، وشُكْرَكَ في قَلْبِي، وذِكْرَكَ في لِسَانِي في اللَّيْلِ والنَّهَارِ، ما أَبْقَيْتَنِي، قال: فَحَفِظَ الأَعْمَى هذا الدَّعاءَ، ثم قَامَ، فَتَوَضَّأَ، وصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ودعا به فأَضْبَحَ قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ. انتهى من «غاية المَغْنَم في اسم الله الأعظم»، وإِطلاَقُ الفناءِ عَلَى الأرواحِ فيه تَجَوُّزٌ، والعقيدةُ أَنَّ الأرواحَ باقيةٌ لا تَفْنَى، وإِنَّمَا عَبرَ عن مفارقتها لأجسادِها بالفَنَاءِ، هذا هو مراده.

وروى ابنُ المَبَّارِ في «رقائقه» بسنده عن النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ القُلُوبَ أَوْعِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَأَدْعُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ، حِينَ تَدْعُونَ، وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ»^(٤). انتهى.

(١) أخرجه الطبري (١٦٦/٢) برقم (٢٩٢١) بلفظ: قوله: «فليستجيئوا لي» قال: فليطيعوا لي. قال: «الاستجابة» الطاعة، وذكره ابن عطية (٢٥٦/١).

(٢) وهو الشيخ تاج الدين علي بن محمد بن الدريهم الموصلي، المتوفى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وكتابه هذا ذكره حاجي خليفة بعنوان «غاية المغنم في الاسم الأعظم»، وذكر عنه أنه أورد فيه من الأحاديث وأقوال العلماء. ينظر: «كشف الظنون» (١١٩٤).

(٣) «المجالسة» - لأحمد بن مروان الدينوري المالكي، المتوفى سنة ٣١٠ عشرة وثلاثمائة، ضَمَّنَهُ من كتب الأحاديث والأخبار ومحاسن النوادر والآثار، ومتقى الحكم والأشعار، وانتخب منه بعضهم وسماه «نخبة المؤانسة من كتاب المجالسة». ينظر: «كشف الظنون» (١٥٩١/٢).

(٤) أخرجه ابن المَبَّارِ في «الزهد» (٢١/٢).

قال ابن عطاء الله في «الطائف المنن»: وإذا أراد الله أن يعطي عبداً شيئاً وهبه الاضطرار إليه فيه، فيطلبه بالاضطرار، فيعطى، وإذا أراد الله أن يمنع عبداً أمراً، منعه الاضطرار إليه فيه، ثم منعه إياه، فلا يخاف عليك أن تضطر، وتطلب، فلا تعطى، بل يخاف عليك أن تحرم الاضطرار، فتحرم الطلب، أو تطلب بغير اضطرار، فتحرم العطاء. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وليؤمنوا بي﴾، قال أبو رجاء: في أنني أجيب دعاءهم، وقال غيره: بل ذلك دعاء إلى الإيمان بجملته.

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ مَنِ يَأْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسَ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْغَيْطُ الْأَبْيَنُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَاللَّيْلِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام...﴾ الآية: لفظة «أحل» تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك^(١)، و «ليلة»: نصب على الظرف.

و «الرفق»: كناية عن الجماع؛ لأن الله تعالى كريم يكتفي؛ قاله ابن عباس^(٢) وغيره، والرفق في غير هذا: ما فحش من القول، وقال أبو إسحاق^(٣): الرفق: كل ما يأتيه الرجل، مع المرأة من قبله، ولمس^(٤).

* ع^(٥): أو كلام في هذا المعنى، وسبب هذه الآية فيما قال ابن عباس وغيره: إن جماعة من المسلمين اختانوا أنفسهم، وأصابوا النساء بعد النوم، أو بعد صلاة العشاء على

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٨٨/٥ - ٨٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٦٧/٢ - ١٦٨) برقم (٢٩٢٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧٩/٣) برقم (١٣٢٣٠). وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٥٦/١)، والبيهقي في «التفسير» (١٥٦/١).

(٣) «معاني القرآن» (٢٥٥/١)، ولفظه: الرفق: كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة.

وينظر: «عمدة الحفاظ» (١١٤/٢).

(٤) ذكره ابن عطية في «التفسير» (٢٥٧/١).

(٥) «المحرر الوجيز» (٢٥٧/١).

الخلاف في ذلك، منهم عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: جاء إلى امرأته، فأرادها/، فقالت له قد نِمْتُ، ١٤٧ فَظَنُّوا أَنَّهَا تَغْتَلُّ بِذَلِكَ، فوقع بها، ثم تحقق أنها قد كانت نَامَتْ، وكان الوطء بعد نَوْمٍ أحدهما ممنوعاً، فذهب عُمَرُ، فأعتذر عند رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَزَلَّ صَدْرُ الْآيَةِ^(١)، وروي أن صِرْمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ^(٢) نام قَبْلَ الْأَكْلِ، فبقي كذلك دُونَ أَكْلِ، حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ فِي نَهَارِهِ الْمُقْبِلِ، فَتَزَلَّ فِيهِ مَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾^(٣).

وَاللَّبَّاسُ: أصله في الثَّيَابِ، ثم شبه أَلْتِبَاسَ الرَّجُلِ بِالْمَرَأَةِ بِذَلِكَ.

وَتَابَ عَلَيْكُمْ، أي: من المعصية التي وقعتم فيها.

قال ابن عَبَّاس وغيره: ﴿بَاشِرُوهُمْ﴾ كناية عن الجماعة، ﴿وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ﴾^(٤) اللَّهُ لَكُمْ.

قال ابن عَبَّاس وغيره: أي: أَبْتَغُوا الْوَلَدَ^(٥)، قال الْفَخْرُ^(٦) وَالْمَعْنَى: لا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط، ولكنْ لِأَبْتِغَاءِ مَا وَضَعَ اللَّهُ لَهُ النِّكَاحَ مِنَ التَّنَاسُلِ، قال - عليه

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» ٢/ ١٧٠ - ١٧١ رقم (٢٩٤٣، ٢٩٤٨، ٢٩٤٩)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٥٧)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٥٧)، وعزاه إلى أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بسند حسن، عن كعب بن مالك.

(٢) صرمة بن قيس بن مالك، النجاري، الأوسي، أبو قيس: شاعر جاهلي، عمر طويلاً، وترهب، وفارق الأوثان في الجاهلية. وكان معظماً في قومه. أدرك الإسلام في شيخوخته، وأسلم عام الهجرة. ينظر: «الأعلام» (٣/ ٢٠٣)، و«الإصابة» ت (٤٠٥٦)، و«الروض الأنف» (٢/ ٢١).

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٣) برقم (٢٩٤٥، ٢٩٤٧، ٢٩٥٧). وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٥٧)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٥٨)، وعزاه إلى وكيع، وعبد بن حميد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

(٤) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢/ ١٧٤) رقم (٢٩٦١)، (٢٩٦٦). وذكره ابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٥٩)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٥) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢/ ١٧٥)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٥٧)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٥٩)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٦) «التفسير الكبير» (٥/ ٩٢).

السلام :- «تَنَاقَحُوا، تَنَاسَلُوا؛ فَإِنِّي مُكَاثِّرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ»^(١) انتهى.

(١) أخرجه ابن ماجه (٥٩٩/١)، كتاب «النكاح»، باب تزويج الحرائر والولود، حديث (١٨٦٣)، من طريق طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «انكحوا؛ فإنني مكاثر بكم».

وقال البوصيري في «الزوائد» (٧٣/٢): هذا إسناد ضعيف؛ لضعف طلحة بن عمرو المكي الحضرمي اهـ.

وطلحة بن عمرو: قال عمرو بن علي: كان يحيى وعبد الرحمن لا يحدثان عنه. وقال أحمد: لا شيء متروك الحديث.

وقال البخاري: ليس بشيء.

وقال النسائي: متروك الحديث.

وكذلك ضعفه ابن حبان وغيره.

وله لفظ آخر بإسناد آخر: أخرجه أبو داود (٥٤٢/٢)، كتاب «النكاح»، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث (٢٠٥٠)، والنسائي (٦٠-٦٦/٦)، كتاب «النكاح»، باب كراهية تزويج العقيم، والحاكم (١٦٢/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٢/٣)، من حديث معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود؛ فإنني مكاثر بكم الأمم».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وأخرجه أيضاً ابن حبان (١٢٢٩-موارد)، والبيهقي (٨١/٧)، كتاب «النكاح»، باب استحباب التزويج بالودود الولود.

وأخرجه أحمد (١٥٨/٣)، وسعيد بن منصور (١٦٤/١) رقم (٤٩٠)، وابن حبان (١٢٢٨-موارد)، والبيهقي (٨١/٧)، كتاب «النكاح»، باب استحباب الزوج بالودود الولود، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٦٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢١٩/٤)، من حديث أنس بلفظ: «تزوجوا الودود الولود؛ فإنني مكاثر بكم الأنبياء».

وصححه ابن حبان.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦١/٤)، وقال: رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط»، وإسناده حسن.

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢١٤٧/٦)، ومن طريقه البيهقي (٧٨/٧)، من حديث أبي أمامة بلفظ: «تزوجوا، فإنني مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهانية النصارى».

وفيه محمد بن ثابت البصري، وهو ضعيف؛ قاله الحافظ في «التقريب» (١٤٨/٢).

وأخرجه ابن ماجه (٥٩٢/١)، كتاب «النكاح»، باب ما جاء في فضل النكاح، حديث (١٨٤٦)، من طريق عيسى بن ميمون، عن القاسم، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «النكاح من ستي، فمن لم يعمل بستى فليس مني، وتزوجوا؛ فإنني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصوم؛ فإن الصوم له وجاء».

قال البوصيري في «الزوائد» (٦٥/٢): هذا إسناد ضعيف؛ لضعف عيسى بن ميمون اهـ.

وضعفه الحافظ ابن حجر في «تلخيصه» (١٠٢/٢)، وقال: ضعيف.

وقيل: المعنى: أبتغوا ليلة القدر.

وقيل: ابتغوا الرخصة، والتوسعة؛ قاله قتادة، وهو قول حسن^(١).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ...﴾ الآية: نزلت بسبب صرمة بن قيس، و﴿حَتَّى﴾: غاية للتبيين، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد، ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر، والخيطة استعارة وتشبيه لرقعة البياض أولاً، ورقعة السواد إلحاق به، والمراد فيما قال جميع العلماء^(٢): بياض النهار، وسواد الليل.

و﴿مِنْ﴾ الأولى لأبتداء الغاية، والثانية للتبعيض، و﴿الفجر﴾: مأخوذ من تفجر الماء؛ لأنه ينفجر شيئاً بعد شيء، وروي عن سهل بن سعد وغيره من الصحابة؛ أن الآية نزلت إلا قوله: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾، فصنع بعض الناس خيطين، أبيض وأسود، فنزل قوله تعالى: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾^(٣).

* ع^(٤) *: وَرَوِيَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ طَرَفَيْ الْمُدَّةِ عَامٌ مِنْ رَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ تَأَخَّرَ

وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٧٧/١٢)، من حديث ابن عمر بلفظ: «تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثركم الأمم يوم القيامة».

وأخرجه عبد الرزاق (١٧٣/٦) رقم (١٠٣٩١) عن سعيد بن أبي هلال مرسلًا. والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» برقم (١٧٨٢).

(١) أخرجه الطبري (١٧٦/٢) برقم (٢٩٨٧). وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٥٧/١)، وابن عطية من «المحرر الوجيز» (٢٥٧/١ - ٢٥٨).

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٩/١)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم. (٢) ينظر: «الطبري» (٥٠٩/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٥٨/١)، و«الرازي» (٩٤/٥)، و«الوسيط» (١/٢٨٧)، و«بحر العلوم» (١٨٦/١).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٧/٤) كتاب «الصوم»، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. حديث (١٩١٧). ومسلم (٧٦٧/٢) كتاب «الصيام»، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره، حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك، حديث (١٠٩١/٣٤).

والنسائي (٢٩٧/٦) (الكبرى)، كتاب «التفسير»، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. حديث (٢/١١٠٢٢).

والطبري في «التفسير» (١٨٧/٢) رقم (٢٩٩٨)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٥٨/١)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٢٥٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٠/١)، وعزاه إلى البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٨/١).

البيان^(١) إلى وقت الحاجة، وعَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ جعل خِيَطَيْنِ عَلَى وَسَادِهِ، وأخبر النبي ﷺ

(١) تأخر البيان إلى وقت الحاجة: بادئ ذي بدء أقول: هناك حالات لكل ما يحتاج إلى تأخير بيان، من عام، ومجمل، ومجاز، ومشارك، وفعل متردد ومطلق:

الحال الأول: أن يتأخر عن وقت الحاجة، وهو الوقت الذي إن أخر البيان عنه لم يتمكن المكلف من المعرفة بما تضمنه الخطاب، وهذا يكون في كل ما كان واجباً على الفور، كالإيمان، ورد الودائع. وقد حكى أبو بكر الباقلاني إجماع أرباب الشرائع على امتناعه.

الحال الثاني: أن يؤخر عن وقت ورود الخطاب إلى وقت الحاجة إلى الفعل، وذلك في الواجبات التي ليست على الفور، ويكون فيما لا ظاهر له كالأسماء المتواطئة والمشاركة، أو له ظاهر وقد استعمل في خلافه، كتأخير بيان التخصيص، وتأخير بيان النسخ، ونحوه.

وقد اختلف العلماء في هذا القسم على مذاهب:

الأول: الجواز مطلقاً، وعليه عامة العلماء من الفقهاء والمتكلمين، كما قال ابن بَرَهان. ومنهم ابن فورك، والقاضي أبو الطيب، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وابن السمعاني، ونقلوه عن ابن سريج، والإصطخري، والقفال، وكثير من علماء الشافعية. ونقل عن الشافعي - كما قال الزركشي في «البحر» - وقد اختاره الرازي في «المحصول»، وابن الحاجب، وقال الباكي: عليه أكثر أصحابنا. وحكاه القاضي عن مالك.

واستدلوا بآيات، منها قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ثم إن علينا بيانه ﴿[القيامة: ١٨-١٩]﴾. وهناك حوادث كثيرة جداً - كما يقول الشوكاني - وقع البيان لها بعد السَّنة.

المذهب الثاني: المنع مطلقاً، ونقل عن أبي إسحاق المروزي، والصيرفي، وأبي حامد المروزي، والدقاق، ومن المالكية: الأبهري.

قال القاضي: وهو قول المعتزلة، وكثير من الحنفية، وابن داود الظاهري، ونقله القشيري عن داود. وقد استدلل هؤلاء بما لا طائل تحته، قالوا: لو جاز ذلك فلما أن يجوز إلى مدة معينة أو إلى الأبد، وكلاهما باطل، أما إلى المدة المعينة؛ فلكونه تحكماً، ولكونه لم يقل به أحد. وأما إلى الأبد؛ فلكونه يلزم المحذور، وهو الخطاب والتكليف به مع عدم الفهم.

وأجيب عنهم: باختيار جوازه إلى مدة معينة يعلمها الله، وهو الوقت الذي يعلم أنه يكلف به فيه؛ فلا تحكم.

المذهب الثالث: جوازه في المجمل دون غيره، وحكي عن الصيرفي وأبي حامد المروزي.

المذهب الرابع: جوازه في العموم، وحكي عن عبد الجبار، وحكاه الروياني والماوردي وجهاً لأصحاب الشافعي.

المذهب الخامس: جوازه في الأوامر والنواهي، لا في الأخبار، وحكي عن الكرخي وبعض المعتزلة. المذهب السادس: عكسه. حكاه الشيخ أبو إسحاق، ولم ينسبه إلى أحد.

المذهب السابع: جوازه في النسخ دون غيره، ذكره أبو الحسين البصري، وأبو علي، وأبو هاشم، وعبد الجبار.

المذهب الثامن: التفصيل بين ما ليس له ظاهر كالمشارك فلا يجوز، وما له ظاهر كالعام فيجوز.

المذهب التاسع: أن بيان المجمل إن لم يكن تبديلاً ولا تغييراً، جاز مقارناً وطارئاً، وإن كان تغييراً جاز مقارناً، ولا يجوز طارئاً. نقله ابن السمعاني عن أبي زيد من الأحناف.

فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ»^(١).

واختلف في الحد الذي بتبينه يجب الإمساك، فقال الجمهور، وبه أخذ الناس، ومضت عليه الأمصار والأعصار، ووردت به الأحاديث الصّحاح: إنه الفجر المُعْتَرِضُ في الأفق يَمْنَةً وَيَسْرَةً، فبطلوع أوله في الأفق يجب الإمساك، وروي عن عثمان بن عفّان، وحذيفة بن اليمان، وابن عبّاس وغيرهم؛ أن الإمساك يجب بتبين الفجر في الطّرق، وعلى رءوس الجبال^(٢)، وذكر عن حذيفة؛ أنه قال: «تَسَحَّرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ النَّهَارُ إِلَّا أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَطْلُعْ»^(٣).

ومن أكل، وهو يشك في الفجر، فعليه القضاء عند مالك.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أمر يقتضي الوجوب، و ﴿إِلَى﴾: غاية، وإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها، فهو داخل في حكمه، وإذا كان من غير جنسه، لم يدخل في المحدود، والليل: الذي يتم به الصيام: مَغِيْبُ قرص الشمس، فمن أفطر شاكاً في غروبها، فالمشهور من المذهب؛ أن عليه القضاء والكفارة.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حِينَ يَفْطُرُ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَزْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ تَعَالَى: وَعِزَّتِي، لَأَنْصُرَنَّكَ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ» رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان ٤٧ ب

= والمذاهب الثمانية الأخيرة ضعيفة كما أشار إلى ذلك الشوكاني، قال رحمه الله: وأنت إذا تتبعنا موارد هذه الشريعة المطهرة وجدتها قاضية بجواز تأخير البيان عن وقت الخطاب قضاء ظاهراً واضحاً لا ينكره من له أدنى خبرة بها وممارسة لها.

ينظر: «البحر المحيط» للزكرشي (٤٩٣/٣)، «البرهان» لإمام الحرمين (١٦٦/١)، «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدني (٢٨/٣)، «نهاية السؤل» (٥٤٠/٢)، «زوائد الأصول» للأسنوي (ص ٣٠٤)، «منهاج العقول» (٢٢٠/٢)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (ص ٨٦)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٤٢٩/١)، «المنخول» للغزالي (ص ٦٨)، «المستصفى» له (٣٦٨/١)، «حاشية الباني» (٢/٢)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (١٢١/٣)، «حاشية المطار لجمع الجوامع» (١٠٢/٢)، «المعتمد» لأبي الحسين (٣١٤/١)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٨١/١)، «حاشية التفنازاني والشريف على مختصر المنتهى» (١٦٤/٢). وينظر: «كشف الأسرار» (١٠٨/٣)، «المسودة» (١٨١)، «شرح المضد» (١٦٤/٢).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (١٧٩/٢) برقم (٣٠٠٢)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٢٥٨/١).

(٣) أخرجه الطبري (١٨١/٢) برقم (٣٠١٩)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٢٥٨/١).

في «صحيحه»، وقال الترمذي: واللفظ له؛ حديث حسن، ولفظ ابن ماجه: «حَتَّى يُفْطِر»^(١). انتهى من «السلام».

وعنه رحمته: «إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لِدَعْوَةَ مَا تُرَدُّ»، رواه ابن السني^(٢). انتهى من «حِلْيَةِ النَوَوِيِّ»^(٣).

وعنه رحمته؛ أَنَّهُ قَالَ: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ». رواه البخاري ومسلم. انتهى^(٤).

وروى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا حماد بن سلمة، عن واصل^(٥) مولى أبي عيينة، عن لقيط أبي المغيرة، عن أبي بريدة^(٦): أَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ كَانَ فِي سَفِينَةٍ

(١) أخرجه الترمذي (٥٣٩/٥)، كتاب «الدعوات»، باب «في العفو والعافية»، حديث (٣٥٩٨)، وابن ماجه (٥٥٧/١)، كتاب «الصيام»، باب في الصائم لا ترد دعوته، حديث (١٧٥٢)، والبيهقي (٣٤٥/٣)، كتاب «صلاة الاستسقاء»، باب استحباب الصيام للاستسقاء لما يرجى من دعاء الصائم، (١٦٢/٨)، كتاب «قتال أهل البغي»، باب فضل الإمام العادل، و(٨٨/١٠)، كتاب «آداب القاضي»، باب فضل من ابتلي بشيء من الأعمال، فقام فيه بالقسط، وقضى بالحق، وابن حبان كما في «موارد الظمآن» (٣/١٩٨)، باب دعوة الصائم وغيره، حديث (٨٩٤)، والطيالسي (٢٥٥/١)، حديث (١٢٦٤)، وأحمد (٢/٣٠٤-٣٠٥)، من حديث أبي هريرة بلفظ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر...» وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٥٥٧/١)، كتاب «الصيام»، باب في الصائم لا ترد دعوته، حديث (١٧٥٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٨٢)، من طريق عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً.

وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح.

(٣) «حلية» النووي (ص ٢٢٤).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) واصل الأسدي مولى أبي عيينة بن المهلب. عن ابن بريدة، والضحاك. وعنه حماد بن زيد، وعبد بن عباد. وثقه ابن معين. ينظر: «الخلاصة» (١٢٦/٣).

(٦) هو: عامر بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عاز بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب..

أبو بردة. الأشعري. مشهور بكنيته كأخيه. قال ابن حجر في «الإصابة»: قال البغوي: سكن «الكوفة». وروى حديثه أحمد، والحاكم من طريق عاصم الأحول عن كريب بن الحارث بن أبي موسى عن عمه أبي بردة قال: قال رسول الله: «اللهم اجعل فناء أمتي قتلاً في سبيلك بالطعن والطاعون».

وله ذكر في حديث آخر من طريق يزيد بن عبد الله بن أبي بردة عن أبي موسى عن جده أبي موسى قال: خرجنا من اليمن في بضع وخمسين رجلاً من قومنا ونحن ثلاثة إخوة: أبو موسى، وأبو بردة، وأبو رهم، فأخرجتنا سفينة إلى النجاشي. أخرجه البغوي من هذا الوجه.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٩/٦)، «الإصابة» (١٧/٧)، «الثقات» (٤٥١/٣)، «تجريد أسماء»

في البحر مرفوع شراعها، فإذا رَجُلٌ يقول: يَأْهَلُ السَّفِينَةِ، قِفُوا سِنْعَ مَرَارٍ، فَقُلْنَا: أَلَا تَرَى عَلَى أَيْ حَالٍ نَحْنُ، ثُمَّ قَالَ فِي السَّابِعَةِ، قِفُوا أَخْبِرْكُمْ بِقَضَاءِ قَضَاءِ اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ؛ أَنَّهُ مِنْ عَطَشٍ لِّلَّهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا شَدِيدِ الْحَرِّ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرْوِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَغَيُّي الْيَوْمَ الشَّدِيدِ الْحَرِّ، فَيَصُومُهُ. انتهى.

قال يوسُفُ بن يَحْيَى التَّادِلِيُّ في «كتاب التشوُّف»، وَخَرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مَصَنَّفِهِ» عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانٍ^(١)، عَنْ وَاصِلِ بْنِ لَقِيطٍ، عَنْ أَبِي بُزْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: «عَزَا النَّاسُ بَرًّا وَبَحْرًا، فَكُنْتُ مَمَّنْ عَزَا فِي الْبَحْرِ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ فِي الْبَحْرِ؛ إِذْ سَمِعْنَا صَوْتًا يَقُولُ: يَأْهَلُ السَّفِينَةِ، قِفُوا أَخْبِرْكُمْ، فَنَظَرْنَا يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَمْ نَرِ شَيْئًا إِلَّا لُجَّةَ الْبَحْرِ، ثُمَّ نَادَى الثَّانِيَةَ؛ حَتَّى نَادَى سِنْعَ مَرَاتٍ، يَقُولُ كَذَلِكَ، قَالَ أَبُو مُوسَى: فَلَمَّا كَانَتْ السَّابِعَةُ، قُمْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَخْبِرُنَا؟ قَالَ: أَخْبِرْكُمْ بِقَضَاءِ قَضَاءِ اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ؛ أَنَّ مِنْ عَطَشٍ لِّلَّهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، أَنْ يَرْوِيهِ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبِيبٍ فِي «الْوَاضِحَةِ»؛ بَلَفَظَ آخَرَ. انتهى.

قال ابن المبارك: وأخبرنا أبو بكر بن أبي مَرْزِمٍ الْعَسَّانِي^(٣)، قَالَ: حَدَّثَنِي ضَمْرَةُ بْنُ حَبِيبٍ^(٤)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ بَابًا، وَإِنَّ بَابَ الْعِبَادَةِ الصِّيَامُ»^(٥). انتهى.

= الصحابة (١٥١/٢)، «بقي بن مخلد» (٨٨٣)، «الاستيعاب» (١٦٠٨/٤)، «التاريخ الكبير» (١/٢١١)، «تهذيب الكمال» (١٥٧٩/٣)، «تهذيب التهذيب» (١٨/١٢)، «تقريب التهذيب» (٣٩٤/٢)، «تجليل المنفعة» (٤٦٨)، «الاستبصار» (٢٣٨)، «الجرح والتعديل» (٤٣٦/٩)، «الكاشف» (٣١٢/٣).
(١) هشام بن حسان القُرْدُوسِي الْأَزْدِي، مولاهم، أبو عبد الله البصري. أحد الأعلام. عن حفصة، ومحمد، وأنس بن سيرين، وطائفة. وعنه السفينان والحُمَّادان. ضعفه القطان عن عطاء. وقال عباد بن منصور: ما رأيته عند الحسن قط، قال أبو حاتم: صدوق. قال مكي بن إبراهيم: مات سنة ثمان وأربعين ومائة.
ينظر: «الخلاصة» (١١٣/٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٢٩/١) وعزاه للبيهقي.
(٣) أبو بكر بن عبد الله بن أبي مَرْزِمٍ الْعَسَّانِي، الْحِمْصِيُّ، اسمه: بَكَيْرٌ، أو عبد السلام. عن مكحول، وخالد بن مَعْدَانَ. وعنه إسماعيل بن عِيَّاش، وَبَقِيَّةٌ. قال الحافظ أبو عبد الله: ضعيف. توفي سنة ست وخمسين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٢٠٣/٣).

(٤) ضَمْرَةُ بْنُ حَبِيبٍ الزُّبَيْدِيُّ، أَبُو عُبَيْدٍ الْحِمَصِيُّ. عن أبي أُمَامَةَ، وَشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ. وعنه ابنه عُتْبَةُ، وَأَرْطَاةُ بْنُ الْمُثَنِّدِ. وثقه ابن معين. ينظر: «الخلاصة» (٦/٢).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٥٠٠) رقم (١٤٢٣)، وهناد بن السري في «الزهد» (٣٥٨/٢) رقم (١٧٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٣٢)، عن ضمرة بن حبيب مرسلاً.

وروى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عن النبي ﷺ قال: «كُلَّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، إِنَّمَا يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»^(١). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ قالت فرقة: المعنى: ولا تجامعوهن، وقال الجمهور: ذلك يقع على الجماع، فما دونه ممّا يُتَلَذَّذُ به من النساء، و﴿عَاكِفُونَ﴾، أي: مُلَازِمُونَ، قال مالك - رحمه الله - وجماعة معه: لا اعتكاف إلا في مساجد الجُمُوعَاتِ^(٢)، وروي عن مالك أيضاً؛ أنَّ ذلك في كل مسجد، ويخرج إلى الجُمُعة؛ كما يخرج إلى ضروري أشغاله، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): وحرم الله سبحانه المباشرة في المسجد؛ وكذلك تحرم خارج المسجد؛ لأن معنى الآية، ولا تباشروهن وأنتم ملتزمون للاعتكاف في المساجد معتقدون له. انتهى. و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي.

والحدود: الحواجز بين الإباحة والحظر؛ ومنه قيل للبواب حُدَادٌ؛ لأنه يمنع؛ ومنه الحَادُّ؛ لأنها تمنع من الزينة، والآيات: العلامات الهادية إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...﴾ الآية: الخطاب لأمة/ نبينا محمد ﷺ ويدخل في هذه الآية القِمَارُ، والخُدْعُ، والغُصُوبُ، وَجَحْدُ الْحُقُوقِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ...﴾ الآية: يقال: أَدْلَى الرَّجُلُ بِحُجَّةٍ، أو

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لا يصح الاعتكاف إلا في المسجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ ووجه الدلالة من الآية: أنه لو صح في غير المسجد لم يختص تحريم المباشرة به؛ لأن الجماع مناف للاعتكاف بالإجماع، فعلم من ذكر المساجد أن المراد أن الاعتكاف لا يكون إلا فيها؛ فدل على أنه لا يجوز إلا في المسجد، والأفضل أن يعتكف في المسجد الجامع؛ لأن رسول الله ﷺ اعتكف في المسجد الجامع؛ ولأن الجماعة في صلواته أكثر؛ ولأنه يخرج من الخلاف، فإن الزهري قال: لا يجوز في غيره. وإن نذر أن يعتكف في مسجد غير الثلاثة، وهي المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد المدينة، جاز أن يعتكف في غيره؛ لأنه لا مزية لبعضها على بعض؛ فلم تتعين ويصح الاعتكاف في كل مسجد، والجامع أفضل، وأوما الشافعي في القديم إلى اشتراط الجامع، والصواب جوازه في كل مسجد، ويصح في رجبته، وسطحه بلا خلاف، لأنهما منه.

ينظر: «الاعتكاف» لشيخنا أحمد خليفة جبر.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١/٩٦).

بأمر يرجو النَّجَاحَ به، تشبيهاً بالذي يرسل الدُّلو في البئر يرجو بها الماء، قال قومٌ: معنى الآية: تُسارعون في الأموال إلى المخاصمة، إذا علمتم أنَّ الحُجَّةَ تقوم لكم؛ إمَّا بأن لا تكون على الجاحِدِ بيّنة، أو يكون مالَ أمانة؛ كالتيم ونحوه ممَّا يكون القول فيه قوله، فالباء في «بِهَا» باء السبب^(١)، وقيل: معنى الآية: تُرْشُوا بِهَا عَلَى أَكْلٍ أَكْثَرَ مِنْهَا، فالباء إلِزَاقٌ مجرَّدٌ، وهذا القول يترجَّح لأنَّ الحُكَّامَ مَظِنَّةُ الرُّشَاءِ، إِلَّا مِنْ عُصِمَ، وهو الأقل، وأيضاً، فإنَّ اللفظَينِ متناسبتان.

﴿تَذَلُّوا﴾: من إرسال الدُّلو، والرُّشوة: من الرُّشَاءِ؛ كأنها يمدُّ بها؛ لتقضي الحاجة.

والفريق: القطعة، والجزء.

و ﴿بِالْإِثْمِ﴾ أي: بالظلم.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنكم مبطلون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩) وَفَقِّتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾، قال ابن عباس وغيره: نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال، وما فائدة مُحَاقِهِ، وكمالِهِ، ومخالفته لحال الشمس^(٢).

و ﴿مَوَاقِيتُ﴾ أي: لمحَلَّ الديون، وانقضاء العدَدِ والأَكْرِيةِ، وما أشبه، هذا من مصالح العباد، ومواقيت للحج أيضاً: يعرف بها وقته وأشهره.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ...﴾ الآية: قال البراء بن عازب^(٣)، والزهرى،

(١) وقيل: إنها للتعدي، أي: لترسلوا بها إلى الحكام. ينظر: «الدر المصون» (٤٧٨/١).

(٢) أخرجه الطبراني في «تفسيره» (١٨٩/٢) رقم (٣٨٠)، وذكره البغوي (١٦٠/٢)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٢٦١/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٨/١)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس.

(٣) هو: البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن الأوس... أبو عمرو. وقيل: أبو عمارة، وهو الأصح. الأوسي. الأنصاري.

قال ابن الأثير في «الأسد»:

وقتادة: سببها أن الأنصار كانوا إذا حَجُّوا، أو أَعْتَمَرُوا، يلتزمون تشريعاً ألا يحول بينهم وبين السماء حائل، فكانوا يتسَّمون ظهور بيوتهم على الجُدُرَات^(١)، وقيل: كانوا يجعلون في ظهور بيوتهم قُتُوحاً يدخلون منها، ولا يدخلون من الأبواب^(٢)، وقيل غير هذا ممَّا يشبهه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية هي أول آية نزلت في الأمر بالقتال. قال ابن زَيْد، والربيع: قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: في قتال مَنْ لم يقاتلكم، وهذه المَوَادَّةُ منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(٤) [التوبة: ٣٦]، وقال ابن عَبَّاس وغيره:

= رده رسول الله ﷺ عن «بدر»؛ استصغره. وأول مشاهدته «أحد»، وقيل: «الخنديق». وغزا مع النبي ﷺ أربع عشرة غزوة. وهو الذي افتتح الري سنة أربع وعشرين صلحاً أو عنوة في قول أبي عمرو الشيباني. وقال أبو عبيدة: افتتحها حذيفة. نزل «الكوفة» وابتنى بها داراً. توفي في إمارة مصعب بن الزبير، وقيل: في سنة (٧٧). ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٠٥/١)، «الإصابة» (١٤٧/١)، «الاستيعاب» (١٥٥/١)، «تجريد أسماء الصحابة» (٤٦/١)، «الطبقات الكبرى» (٣٧٦/٢)، «الأعلام» (٤٦/٢)، «التاريخ الكبير» (٢/١١٧)، «التاريخ الصغير» (٦/١)، «الجرح والتعديل» (٣٩٩/٢)، «تهذيب الكمال» (٢١٣٩/١)، «تهذيب التهذيب» (٤٢٥/١)، «تقريب التهذيب» (٩٤/١)، «تاريخ بغداد» (١٧٧/١)، «تاريخ ابن معين» (١٤٧/٢)، «بقي بن مخلد» (١٤)، «البداءة والنهاية» (٣٢٨/٨)، «التحفة اللطيفة» (٣٦٤/١)، «الوافي بالوفيات» (١٠٤/١)، «الكاشف» (١٥١/١)، «الثقات» (٢٦/٣)، «عنوان النجاة» (٤٩). (١) أخرجه الطبري (١٩٤/٢) برقم (٣٠٩٠)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٦٠/١)، وابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٢٦١/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٨/١)، وعزاه إلى الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي المنذر، وابن أبي حاتم عن البراء. وفي (٣٦٩/١)، عن الزهري، وعزاه لابن جرير. والجَدْرَةُ: حظيرة تصنع للغنم من حجارة. والجمع جَدَرٌ. والجديرة: زَرْبُ الغنم. والجديرة: كيف يتخذ من حجارة يكون للبهائم وغيرها. ينظر: «لسان العرب» (٥٦٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٢/٢) رقم (٣٠٨٢)، ورقم (٣٠٨٩). وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/١٦٠)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦١/١)، عن البراء بن عازب، والزهري، وقتادة. والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٩/١)، عن الزهري.

(٣) أخرجه الطبري (١٩٢/٢ / ١٩٣ / ١٩٤) برقم (٣٠٨٢)، (٣٠٨٣) عن البراء، وبرقم (٣٠٨٩)، عن الزهري وبرقم (٣٠٩٠) عن قتادة، وذكره البغوي (١٦٠/١)، وابن عطية (٢٦١/١) عن البراء بن عازب، والزهري، وقتادة.

كما ذكره السيوطي (٣٦٨/١ - ٣٦٩)، عن البراء بن عازب، وقتادة.

(٤) أخرجه الطبري (١٩٥/٢) برقم (٣٠٩٥)، عن الربيع وبرقم (٣٠٩٦)، عن زيد.

وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٦١/١)، عن الربيع.

وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٢/١)، عن ابن زيد، والربيع.

﴿ولا تعتدوا﴾ في قتل النساء، والصبيان، والرهبان، وشبههم؛ فهي مُحْكَمَةٌ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وأقتلوهم حيث ثقتموهم...﴾ الآية: قال ابنُ إسحاق وغيره: نزلت هذه الآية في شأنِ عمرو بن الحَضْرَمِيِّ، وواقِدٍ، وهي سرِيَّةُ عبد الله بن جَحْش^(٢)، و﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ معناه: أحكمتهم غلبتهم، يقال: رَجُلٌ ثَقِفَ لَقِفٌ، إذا كان مُحْكَمًا لما يتناوله من الأمور^(٣).

و ﴿أخرجوهم﴾: خطابٌ لجميع المؤمنين، والضميرُ لكفار قريش.

و ﴿الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، أي: الفتنة التي حملوكم عليها، وراؤوكم بها على الرجوع إلى الكفر - أشدُّ من القتل، ويحتمل أن يكون المعنى: والفتنة، أي: الكفر والضلال الذي هم فيه أشدُّ في الحرَم، وأعظمُ جُزْماً من القتل الذي عيَّروكم به في شأن ابنِ الحَضْرَمِيِّ.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام...﴾ الآية.

قال الجمهور^(٤): كان هذا ثُمَّ نُسِخَ، وقال مجاهد: الآية محكمة^(٥)، ولا يجوز قتال أحد، يعني: عند المسجد الحرام، إلا بعد أن يقاتل.

قلت: وظاهر قوله ﷺ: «وَأِنَّمَا أَجِلْتُ لِي سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ بَعْدِي»^(٦) يقوي قول مجاهد، وهذا هو الراجح عند الإمام

(١) أخرجه الطبري (١٩٦/٢) برقم (٣١٠٠)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٦١/١) من قول ابن عباس، ومجاهد، وذكره ابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٢٦٢/١)، عن ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد.

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٠/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس.

(٢) عبد الله بن جَحْش الأسدي بن رباب، ابن يعمر الأسدي. حليف بني عبد شمس. أخذ السابقين. قَالَ ابْنُ جَبَّانٍ: له صحبة. وقال ابن إسحاق: هاجر إلى الحبشة، وشهد بَدْرًا. ودفن هو وحمة في قبر واحد، وكان له يوم قُتِلَ ثِيْفٌ وأربعون سنة. ينظر: «الإصابة» (٣١/٤)، (٣٣).

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٢/١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٦٧/٣)، و «المحرر الوجيز» (٢٦٣/١).

(٥) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٦٢/١)، عن مجاهد، وجماعة، وابن عطية الأندلسي (٢٦٣/١) عن مجاهد.

(٦) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٦، ٤٧)، كتاب «جزاء الصيد»، باب لا يحل القتال بمكة، =

الفُخْر^(١)، وأن الآية محكمة، ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم. انتهى.

ب ٤٨

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢) وقد روى الأئمة/ عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُزْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهَا لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ»^(٣).

فقد ثبت النهي عن القتال فيها قرآنًا وسُنَّةً، فإن لجأ إليها كافرٌ، فلا سبيل إليه، وأما الزاني والقاتل، فلا بُدَّ من إقامة الحدِّ عليه إلا أن يتبدى الكافر بالقتال فيها، فيقتل بنصِّ القرآن. انتهى.

وقرأ حمزة والكسائي^(٤): «وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ، فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ»، أي: فإن قتلوا منكم، والانتفاء في هذه الآية هو الدخول في الإسلام.

= حديث (١٨٣٤)، ومسلم (٩٨٦/٢، ٩٨٧)، كتاب «الحج»، باب تحريم مكة، وصيدها، وخلهاها، وشجرها، ولقطنها إلا لمشد على الدوام، حديث (١٣٥٣/٤٤٥).

وأبو داود (٦/٢) كتاب «الجهاد»، باب في الهجرة هل انقطعت، حديث (٢٤٨٠)، والنسائي (١٤٦/٧) كتاب «الجهاد»، باب ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة. والترمذي (١٢٦/٤) كتاب «السير»، باب ما جاء في الهجرة، حديث (١٥٩). والدارمي (٢٣٩/٢)، كتاب «السير»، باب لا هجرة بعد الفتح. وعبد الرزاق (٣٠٩/٥) رقم (٩٧١٣). وابن الجارود (١٠٣٠). وابن حبان (٤٨٤٥-الإحسان)، والبيهقي (١٩٥/٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٩٤٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٥٢٠-بتحقيقنا)، من طريق منصور، عن مجاهد، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فذكره.

(٢) ينظر: «التفسير الكبير» (١١٣/٥).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١/ ١٠٦-١٠٧).

(٣) ينظر الحديث السابق.

(٤) وحجة جمهور السبعة قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وحجة أخرى، وهي: أن القتال إنما يؤمر به الأحياء، فأما المقتولون، فإنهم لا يقاتلون فيؤمروا به، وعلى قراءة الأخوين ظاهره أمر للمقتول بقتل القاتلين، وذلك محال.

وحجتهم: أن وصف المؤمنين بالقتل في سبيل الله أبلغ في الثناء، وأن المقصود: فإن قتلوا بعضهم فاقتلوهم، وحكى الفراء عن العرب أنهم يقولون: قتلنا بني فلان. وإنما قتلوا بعضهم.

واحتجا بأثر: «ولا تبدهم بالقتل حتى يبدءوكم به».

ينظر: «حجة القراءات» (١٢٨)، و«السبعة» (١٧٩)، و«الكشف» (٢٨٥/١)، و«الحجة» (٢/ ٢٨٤-٢٨٥).

و«العنوان» (٧٣)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٩٤-٩٦)، و«شرح شعلة» (٢٨٦)، و«إتحاف» (٤٣٣/١)، و«معاني القراءات» (١/ ١٩٥).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَبَتْ هَذِهِ قُلُوبُ النَّاسِ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ : ﴿الْفِتْنَةُ﴾ : هنا الشُّرْكُ ، وما تابعه من أذى المؤمنين . قاله ابن عَبَّاسٍ وغيره^(١) .

و ﴿الدِّينُ﴾ : هنا : الطاعة ، والشُّرْعُ ، والانتهاؤ في هذا الموضع يصحُّ مع عموم الآية في الكفار ؛ أن يكون الدُّخُولُ في الإسلام ؛ ويصحُّ أن يكون أداء الجزية .

وقوله تعالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ...﴾ الآية : قال ابن عَبَّاسٍ وغيره : نزلت في عمرة القَصِيَّةِ ، وعام الحديبية سنة ست ، حين صدَّهم المشركون ، أي : الشهر الحرام الذي غلبكم الله فيه ، وأدخلكم الحرَمَ عليهم سنة سبع - بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه ، والحرمت قصاص^(٢) .

وقالت فرقة : قوله : ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ : مقطوع مما قبله^(٣) ، وهو ابتداء أمر كان في أول الإسلام أن من أنتهك حرمتك ، نلت منه مثل ما اعتدى عليك .

﴿واتقوا الله﴾ : قيل : معناه في ألا تعتدوا ، وقيل : في ألا تزيدوا على المثل .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ الآية : سبيلُ اللَّهِ هنا : الجهادُ ، واللفظ يتناولُ بَعْدَ جميعِ سُبُلِهِ ، وفي الصحيح أن أبا أيوب الأنصاري^(٤) كان على القُسْطَنْطِينِيَّةِ ، فحمل رجلٌ على عَسْكَرِ العَدُوِّ ، فقال قومٌ : ألقى هذا بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : لا ، إِنَّ هذه الآية نزلت في الأنصار ، حين أرادوا ، لما ظهر الإسلام ؛ أن يتركوا الجهادَ ، وَيَعْمُرُوا أموالهم ، وأما هذا ، فهو الذي قال الله تعالى

(١) أخرجه الطبري (٢٠٠/١) برقم (٣١٢٤) ، وذكره ابن عطية الأندلسي (٢٦٣/١) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧١/١) ، وعزاه لابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي .

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٦٣/١) ، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٣/١) .

(٣) ذكره ابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٢٦٤/١) .

(٤) خالد بن زيد بن كُليب بن ثعلبة ، الأنصاري ، الثُّجَارِي ، أبو أيوب المدني ، شهد بدرًا والعَقَبَةَ ، وعليه نزل النبي ﷺ حين دخل المدينة . له مائة وخمسون حديثاً .

ينظر : «الخلاصة» (٢٧٧/١) .

فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(١) [البقرة: ٢٠٧].

وقال ابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وجمهور الناس: المعنى: لا تُلْقُوا بأيديكم؛ بأن تتركوا الثقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة^(٢).

﴿وَأَحْسِنُوا﴾: قيل: معناه: في أعمالكم بأمثال الطاعات؛ روي ذلك عن بعض الصحابة^(٣)، وقيل: المعنى: وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله، وفي الصدقات، قاله زيد بن أسلم^(٤)، وقال عكرمة: المعنى: وأحسنوا الظن بالله عز وجل^(٥).

* ت * : ولا شك أن لفظ الآية عام يتناول جميع ما ذكر، والمخصص يفتقر إلى دليل.

فأما حسن الظن بالله سبحانه، فقد جاءت فيه أحاديث صحيحة، فمنها: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^(٦)، وفي «صحيح مسلم»، عن جابر، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَقَاتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»^(٧) انتهى / ١٤٩

وأخرج أبو بكر بن الخطيب، بسنده، عن أنس؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ الْمَرْءِ حُسْنُ ظَنِّهِ»^(٨). انتهى.

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٥/١).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٠٧/٢) رقم (٣١٥٥).

وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٦٤/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٥/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٤/١)، وعزاه إلى الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٥/١).

(٤) أخرجه الطبري (٢١٢/٢) برقم (٣١٩٠)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٥/١).

(٥) أخرجه الطبري (٢١٢/٢)، رقم (٣١٨٩)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٥/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٥/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه مسلم (٢٢٠٤/٤) كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث (٢٨٧٧/٨١)، من حديث جابر.

وابن ماجه (١٢٩٥/٢)، كتاب «الزهد»، باب «التوكل واليقين» رقم (٤١٦٧)، والبيهقي (٣٧٨/٣) كتاب «الجنائز»، باب المريض يحسن ظنه بالله - عز وجل - ويرجو برحمته، وأحمد (٣/٢٩٣-٣١٥-٣٢٥-٣٩٠)، وابن حبان (٤٠٣/٢)، كتاب «الرقاق»، باب ذكر الأمر للمسلم بحسن الظن بمعبوده، مع قلة التقصير في الطاعات رقم (٦٣٦)، (٤٠٤/٢)، (٤٠٥)، كتاب «الرقاق»، باب حث المصطفى ﷺ على حسن الظن بمعبودهم جل وعلا، رقم (٦٣٨).

(٨) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٧٧/٥).

قال عبد الحق في «العاقبة»: «أما حسن الظن بالله عز وجل عند الموت، فواجب؛ للحديث. انتهى».

ويدخل في عموم الآية أنواع المعروف؛ قال أبو عمر بن عبد البر: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»^(١)، قَالَ أَبُو جُرَيْجٍ الْهَجِيمِيُّ^(٢)؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَخْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ؛ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَوْ أَنْ تُفَرِّغَ مِنْ ذَلِكَ فِي إِنَاءٍ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهَكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ»^(٣)، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ»^(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢/١٠) كتاب «الأدب»، باب كل معروف صدقة حديث (٦٠٢١)، ومسلم (٢/٦٩٧)، كتاب «الزكاة» باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف حديث (١٠٠٥/٥٢).

(٢) هو جابر بن سليم، وقيل: سليم بن جابر، جُرَيْجُ الْهَجِيمِيِّ مشهور بكنيته. ينظر: «أسد الغابة» ت (٦٣٧)، «الاستيعاب» ت (٣٠٥)، «الثقات» (٣/٢٥٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/٧١)، «تقريب التهذيب» (٢/٣٩)، «الطبقات الكبرى» (١٧٩)، «تهذيب الكمال» (١/١٧٨)، «الوافي بالوفيات» (١١/٢٦)، «التاريخ الصغير» (١/١١٧)، «التاريخ الكبير» (٢/٢٠٥)، «الجرح والتعديل» (٢/٢٠٢٧)، «تبصير المتنبه» (٣/٩١٥)، «الإصابة» (١/٥٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/٤٥٤)، كتاب «اللباس»، باب ما جاء في إسبال الإزار، حديث (٤٠٨٤)، وأحمد (٥/٦٣)، والحاكم (٤/١٨٦)، وابن حبان (٨٦٦ موارد).

(٤) أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/٢٦٢ - ٢٦٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٠١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/٣١٩) من طريق المسيب بن واضح، ثنا علي بن بكار، ثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الطبراني: لم يروه عن هشام إلا علي، تفرد به المسيب، وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/٢٩٢) رقم (٢٣٨٠): سألت أبي عن حديث رواه المسيب بن واضح، عن علي بن بكار، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة». قال أبي: هذا حديث منكر جداً أهد.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٦٦)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير»، و «الأوسط» بإسنادين في أحدهما يحيى بن خالد بن حيان الرقي، ولم أعرفه، ولا ولده أحمد، وفي الأخير المسيب بن واضح، قال أبو حاتم: يخطيء كثيراً أهد.

وفي الباب عن أبي موسى، وابن عمر، وعمر، وعلي، وسلمان، وأبي الدرداء، وابن عباس، وأبي أمامة، وقيصة بن مرة.

* حديث أبي موسى:

أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/٧٤) من طريق مؤمل بن إسماعيل، ثنا سفيان، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً.

وقال الطبراني: لم يروه عن سفيان إلا مؤمل.

والحديث أخرجه الدارقطني في «العلل» (٧/٢٤٢ - ٢٤٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل» =

= **المتناهية** (٥٠٨/٢) رقم (٨٣٨)، من طريق مؤمل بن إسماعيل به.

وقال الدارقطني: هذا حديث يرويه عاصم الأحول، واختلف عنه، فرواه مؤمل عن الثوري، عن عاصم، عن أبي عثمان، عن أبي موسى.

وخالفه هشام بن لاحق، رواه عن عاصم عن أبي عثمان عن سلمان، عن النبي ﷺ.

وغيرهما يرويه عن عاصم، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ مرسلًا، وهو الصواب.

وقال ابن الجوزي: تفرد به مؤمل عن الثوري، فأسنده عن أبي موسى.

* حديث ابن عمر:

أخرجه البزار (٣٢٩٥ - كشف)، وابن عدي في **«الكامل»** (٢٠٠١/٥)، وابن الجوزي في **«العلل** **المتناهية»** (٥٠٦/٢) رقم (٨٣٥)، من طريق خازم بن مروان. قال: حدثني ابن السائب عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً.

قال ابن أبي حاتم في **«العلل»** (١٠٥/٢) رقم (١٨٠٨): قال أبي الحديث الذي روي عن عطاء بن السائب، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أهل المعروف في الدنيا، أهل المعروف في الآخرة». قال أبي: هذا حديث باطل. اهـ.

والحديث ذكره الهيثمي في **«مجمع الزوائد»** (٢٦٥/٧)، وقال: رواه البزار، وفيه خازم أبو محمد قال أبو حاتم: مجهول.

* حديث عمر:

قال الدارقطني في **«العلل»** (٢٤٤/٢ - ٢٤٦): يرويه عاصم بن سليمان الأحول، واختلف عنه، فرواه مؤمل عن الثوري عن عاصم عن أبي موسى عن النبي ﷺ، ورواه هشام بن لاحق عن عاصم عن أبي عثمان عن سلمان عن النبي ﷺ. وكلاهما وهم، والصواب ما رواه حماد بن زيد، وغيره عن عاصم عن أبي عثمان عن عمر من قوله غير مرفوع، ورواه علي بن مسهر، وغيره، عن عاصم عن أبي عثمان قال: قال رسول الله ﷺ مرسلًا، حدثنا أبو علي المالكي، ثنا زيد بن أكرم، ثنا عبد القاهر بن شعيب قال: ثنا هشام، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان قال: سمعت عمر على المنبر يقول: «إن أهل المعروف... الحديث».

والحديث ذكره الهيثمي في **«مجمع الزوائد»** (٢٦٦/٧)، وقال: رواه الطبراني، وفيه هشام بن لاحق تركه أحمد، وقوّاه النسائي، وبقيّة رجاله ثقات. اهـ.

* حديث أبي الدرداء:

أخرجه الخطيب (٤٢٠/١٠) من طريق هيثم بن قتيبة، قال: نا عبد الملك بن زيد أبو بشر البزار: قال: نا سفيان الثوري، عن العلاء بن الحارث، عن مكحول، عن أبي الدرداء مرفوعاً، ومن طريق الخطيب، أخرجه ابن الجوزي في **«العلل»** (٥٠٨/٢) رقم (٨٤٠)، وقال: هيثم مجهول.

* حديث ابن عباس:

أخرجه الطبراني في **«الكبير»** (٧١/١١) رقم (١١٠٧٨) من طريق موسى بن أعين، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً. وأخرجه (١١/ ١٩٠ - ١٩١) رقم (١١٤٦٠)، من طريق عبد الله بن هارون الفروي، ثنا محمد بن منصور، حدثني أبي عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً. =

عِبَاداً خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ، هُمْ الْآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). انتهى من كتابه المسمى بـ «بهجة المجالس وأنس المجالس».

﴿وَأَمِنُوا لِحَاجِّ وَالْمَمَرَةِ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَآسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُٓ﴾

= والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٦٦/٧)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير»، و «الأوسط»، وفي إسناده الكبير عبد الله بن هارون الفروي وهو ضعيف، وفي الآخر ليث بن أبي سليم.

* حديث أبي أمامة:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٣١٢-٣١٣) رقم (٨٠١٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٦/٧): وفيه من لم أعرفه.

* حديث قبيصة بن مرة:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٧٦/١٨) رقم (٩٦)، والبخاري (٣٢٩٤- كشف)، من طريق نصير بن عمرو بن يزيد بن قبيصة بن برمّة الأسدي الكوفي قال: سمعت برمّة بن ليث يقول: سمعت قبيصة بن برمّة به مرفوعاً.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٥/٧): وفيه علي بن أبي هاشم، قال أبو حاتم: هو صدوق إلا أنه ترك حديثه من أجل أن يتوقف في القرآن، وفيه من لم أعرفه.

* حديث علي:

أخرجه الخطيب (٢٤٤/٢)، من طريق محمد بن الحسين البغدادي، عن محمد بن عبد الله بن خليس، عن أبي عثمان بكر بن محمد المازني قال: سمعت سيبويه يقول: سمعت الخليل بن أحمد يقول: سمعت ذراً الهمداني يقول: سمعت الحارث العكلي عن علي بن أبي طالب مرفوعاً.

وله طريق آخر: أخرجه الخطيب (٣٢٦/١١) من طريق أيوب بن محمد، عن أبي عثمان المازني به. ومن طريقي الخطيب أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٥٠٧/٢) رقم (٨٣٦، ٨٣٧).

وقال: هذا حديث لا يصح. أما حديث علي ففي الطريق الأول محمد بن الحسين البغدادي، وكان يسمي نفسه لاحقاً، وقد وضع على رسول الله ﷺ ما لا يحصى؛ ذكره الخطيب. وأما الطريق الثاني فإن أيوب بن محمد مجهول الحال. اهـ.

وللحديث طريق آخر عن علي: أخرجه الحاكم (٣٢١/٤)، من طريق حبان بن علي عن سعد بن طريف عن الأصم بن نباتة عن علي مرفوعاً بلفظ: «يا علي، إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة». وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي فقال: الأصم بن حبان، وحبان ضعفه.

* حديث سلمان:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤٦/٦) رقم (٦١١٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣٣٧/٤)، من طريق هشام بن لاحق، ثنا عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان مرفوعاً.

قال ابن الجوزي في «العلل» (٥٠٩/٢): وأما حديث سلمان فقال أحمد بن حنبل: تركت حديث هشام بن لاحق، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به.

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٠٠٧، ١٠٠٨).

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَذَبْحَةٌ مِّن يَمَانِهِ أَوْ مَدَقَّةٌ أَوْ فُكٌّ فَإِذَا آمَنْتُمْ مِّن تَمَنٍّ بِالْعَمَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلًا حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمَةَ لِلَّهِ﴾: قال ابن زَيْد وغيره: إتمامهما ألا تفسخا، وأن تتمهما، إذا بدأت بهما^(١)، وقال ابن عَبَّاس وغيره: إتمامهما أن تقضي مناسكهما كاملة بما كان فيهما من دماء^(٢)، وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج قاصداً لهما، لا لتجارة، ولا لغير ذلك^(٣)؛ ويؤيد هذا قوله: ﴿لِلَّهِ﴾.

وفروض الحج: النية^(٤)، والإحرام، والطواف^(٥) المتصل بالسغي، يعني: طواف

(١) أخرجه الطبري (٢١٤/٢) برقم (٣٢٠٧)، وذكره ابن عطية (٢٦٥/١).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٣/٢) برقم (٣١٩٤). وذكره البغوي (١٦٥/١)، وابن عطية (٢٦٦/١)، والسيوطي (٣٧٦/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٢١٤/٢) برقم (٣٢٠٦)، وذكره البغوي (١٦٥/١ - ١٦٦)، وابن عطية (٢٦٥/١).

(٤) معناه: نية الدخول في الحج وكيفية: أن يقصد الحج والإحرام به لله تعالى؛ لخبر «إنما الأعمال بالنيات».. ويشترط في النية أن تكون في أشهر الحج؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ والمراد به وقت إحرام الحج.

ويسمى اقتران النية بالتلبية بأن ينوي ويلبي بلا فاصل، كما يسن في النية - التلطف باللسان، ليساعد اللسان القلب، بأن يقول الشخص: نويت الحج وأحرمت به لله (تعالى) إذا كان يحج عن نفسه، أو نويت الحج عن فلان، وأحرمت به لله تعالى - إذا كان يحج عن غيره.

وصيغة التلبية: «ليتك اللهم ليك ليك لا شريك لك ليك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وقال أبو حنيفة (رضي الله عنه): لا ينعقد الإحرام حتى يلتي، أو يسوق الهدى، واستدل «أولاً» بقوله (عليه الصلاة والسلام): «أمرني جبريل أن آمر أصحابي بالتلبية ورفع الصوت. و «ثانياً» بالقياس على الصلاة.

وأجيب عن الأول بأن الأمر أمر استحباب، وإلا لزم رفع الصوت، كما أجيب عن الثاني، بأن المقصود من الصلاة الذكر بخلاف الحج.

(٥) من أركان الحج الطواف بالبيت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، والمراد به طواف الإفاضة، لانعقاد الإجماع على ذلك، ولهذا الطواف أسماء غير ذلك، منها «طواف الزيارة»، و «طواف الفرض»، وقد يسمى «طواف الصدر» بفتح الدال، والأشهر أن طواف الصدر هو طواف الوداع.

ومحل طواف الإفاضة بعد الخروج من عرفة؛ ولهذا سمي طواف الإفاضة، ويدخل وقته بنصف ليلة النحر، لمن وقف قبله؛ قياساً على رمي جمرة العقبة، ولا آخر لوقته؛ إذ الأصل، عدم التأقيت إلا إذا دل دليل على ذلك، ولا دليل ثمة.

الإفاضة، والسَّعْي بين الصفا والمروة عندنا؛ خلافاً لأبي حنيفة، والوقوف بعرفة^(١)، وزاد ابن الماجشون: جَمْرَةُ الْعَقَبَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا أَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَذْيِ﴾ هذه الآية نزلت عام الحديبية عند جمهور أهل التأويل، وأجمع جمهور الناس على أَنَّ الْمُخَصَّرَ بِالْعَدُوِّ يَحِلُّ حَيْثُ أُخْصِرَ، وينحر هذيه، إِنْ كَانَ ثُمَّ هَذْيٌ، ويحلق رأسه، وأما الْمُخَصَّرُ بِمَرْضٍ، فقال مالك، وجمهور من العلماء: لَا يَحِلُّهُ إِلَّا الْبَيْتُ، وَيُقِيمُ حَتَّى يُفِيقَ، وَإِنْ أَقَامَ سَنِينَ، فَإِذَا وَصَلَ الْبَيْتَ، بَعْدَ فَوْتِ الْحَجِّ، قَطَعَ التَّلْبِيَةَ فِي أَوَائِلِ الْحَرَمِ، وَحَلَّ بِعِمْرَةٍ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِ حَجَّةٌ قَضَاءً، وَفِيهَا يَكُونُ الْهَذْيُ.

و«مَا» فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ^(٢)، أَي: فَالْوَاجِبُ، أَوْ: فَعَلَيْكُمْ مَا أَسْتَيْسِرَ، وَهُوَ شَأْنٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.

= ويسن تأخيره إلى بعد طلوع الشمس؛ للاتباع، ويكره تأخيره عن يوم النحر، وفي تأخيره عن أيام التشريق كراهة شديدة، وعن خروجه من «مكة» كراهة أشد.

(١) من أركان الحج: الوقوف بعرفة، لقوله ﷺ: «الحج عرفة» أي: معظمه، ويتبدى وقته من زوال اليوم التاسع من ذي الحجة؛ لما صح «أَنَّهُ ﷺ وَقَفَ بَعْدَ الزَّوَالِ» مع خبر «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»، وينتهي بطلوع فجر يوم النحر، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة؛ لقوله ﷺ: «مَنْ أَذْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَذْرَكَ الْحَجَّ»، ففي أي جزء من الزمن المذكور وقف المحرم بأرض عرفة أجزأه، دون ما قبله، ودون ما بعده.

نعم لو وقفوا يوم النحر غلطاً لظنهم أنه اليوم التاسع بأن غم عليهم هلال ذي الحجة، فأكملوا ذا القعدة ثلاثين، ثم بان أن الهلال أهل ليلة الثلاثين، أجزأهم ذلك الوقوف بدون قضاء، بشرط ألا يكون عددهم أقل من المعتاد، فإذا قل عددهم عن حسب العادة وجب عليهم القضاء، كما يجب عليهم القضاء إذا وقفوا اليوم الثامن أو الحادي عشر غلطاً؛ لندرة الغلط فيهما.

والمعتبر في الوقوف بعرفة حضور المحرم بها ولو لحظة ماشياً كان أو راكباً، متيقظاً كان أو نائماً، وسواء حضر لغرض الوقوف أم لا، كأن كان هارباً أو ماراً في طلب أبق، وسواء علم أنها عرفة، أو لم يعلم أنها هي، وبالجمله فيجزئ الوقوف مع النوم ولو استغرق جميع الوقت، ومع الغفلة، ومع عدم المكث، ومع الجهل بالبقعة واليوم.

وفي حكم أرض عرفة ما اتصل بها وكان في هوائها، فيكفي كون المحرم على دابة أو سيارة أو شجرة في أرض المذكورة. ولا يكفي كونه على غصن شجرة خارج عن هوائها، وإن كان أصل الغصن المذكور فيها، ولا كونه على غصن في هوائها وأصله ليس فيها، كما لا يكفي الطيران في جوها، ولا الوقوف على جزء نقل منها إلى مكان آخر.

وحدَّ عرفة من وادي «عَرَنَةَ» إلى الجبال المقبلة على عرفة إلى حوائط بستان بني عامر، وإلى طريق الحصن، وليست الثميرة، ولا وادي «عَرَنَةَ»، ولا صدر مسجد إبراهيم (عليه السلام) من عرفات.

(٢) وفيها قولان آخران:

= أحدهما: أنها في محل نصب، أي: فَلْيُهْدِ، أَوْ فَلْيَنْحِر. وهذا مذهب ثعلب.

وقال ابن عمر وعروة^(١): جَمَلٌ دُونَ جَمَلٍ، وَبِقَرَّةٍ دُونَ بَقَرَةٍ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَذْيُ مَحِلَّهُ﴾ الخطابُ لجميعِ الأُمَّةِ، وقيل: للمَحْصَرِينَ خاصَّةً، وَمَحِلُّ الْهَذْيِ: حيثُ يحلُّ نَحْرُهُ، وذلكُ لمن لَمْ يُحْصَرْ بِمَنَى، والترتيب: أن يرمي الحاجُّ الجَمْرَةَ، ثم ينحر، ثم يَحْلِقُ، ثم يَطُوفُ لِلْإِفَاضَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا...﴾ الآية: المعنى: فَحَلَقَ لِإِزَالَةِ الْأَذَى، ﴿فَفِدْيَةٌ﴾، وهذا هو فَخْوَى الْخَطَابِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْأَصُولِيِّينَ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ^(٣)، حِينَ رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَأْسُهُ يَتَنَازَرُ قَمَلًا، فَأَمَرَهُ بِالْحَلَقِ، وَنَزَلَتْ الرُّخْصَةُ.

والصَّيَامُ؛ عِنْدَ مَالِكٍ، وَجَمِيعِ أَصْحَابِهِ: ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَالصَّدَقَةُ سِتَّةَ مَسَاكِينَ؛ لِكُلِّ

= والثاني: أنه مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: فعليه ما استيسر. ويعزى للأخفش.

ينظر: «الدر المصون» (١/٤٨٤).

(١) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو عبد الله المدني، أحد الفقهاء السبعة، وأحد علماء التابعين، روى عن أبيه وأمه وكثير من الصحابة.

قال الزهري: عروة بحر لا تكدره الدلاء. كان يقرأ كل ليلة ربع القرآن. ولد سنة ٢٩هـ ومات وهو صائماً سنة ٩٢هـ، وقيل غير ذلك.

ينظر: «الخلاصة» (٢/٢٢٦) (٤٨٢٦)، ابن سعد (٥/١٣٢ - ١٣٥)، و «الحلية» (٢/١٧٦ - ١٨٣)، «الوفيات» (٣/٢٥٥ - ٢٥٨).

(٢) أخرجه الطبري (٢/٢٢٥) رقم (٣٢٧٥)، وذكره ابن عطية (١/٢٦٧)، والسيوطي (١/٣٨٤)، وعزاه لوكيع، وسفيان بن عيينة، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق عن ابن عمر.

(٣) هو: كعب بن عجرة بن أمية بن عدي بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن عوف بن غنم بن سواد بن مري بن إراشة... أبو محمد البلوي، حليف الأنصار.

قال الواقدي: ليس بحليف للأنصار، ولكنه من أنفسهم. قال ابن سعد: طلبت اسمه في نسب الأنصار فلم أجده. وقال ابن الكلبي: وساق نسبه إلى «بلي» ثم قال: انتسب كعب في الأنصار في بني عمرو بن عوف، وتأخر إسلامه ثم أسلم وشهد المشاهد كلها. روى عنه ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وابن عياش، وطارق بن شهاب وغيرهم.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤/٤٨١)، «الإصابة» (٥/٣٠٤)، «الثقات» (٣/٣٥١)، «الاستيعاب» (٢/١٣٢١)، «الاستبصار» (١٩٥)، «العبير» (١/٥٧)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢/٣١)، «تاريخ جرجان» (٢٩٦)، «الأعلام» (٥/٢٢٧)، «عنوان النجاة» (١٤٩)، «الكاشف» (٣/٨)، «الإكمال» (٤/٣٩١)، «الجرح والتعديل» (٧/١٦٠)، «تهذيب الكمال» (٣/١١٤٧)، «تهذيب التهذيب» (٨/٤٣٥)، «تقريب التهذيب» (٢/١٣٥)، «سير أعلام النبلاء» (٣/٥٢).

مسكين نصف صاع، وذلك مُدَّانِ بُمْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْتُسُكُ: شاة بإجماع، وَمَنْ أَتَى بِأَفْضَلٍ مِنْهَا مِمَّا يَذْبَحُ أَوْ يَنْحَرُ، فَهُوَ أَفْضَلُ وَالْمُقْتَدِي مَخِيرٌ فِي أَيِّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ شَاءَ، حَيْثُ شَاءَ مِنْ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا.

قال مالك وغيره: كُلَّمَا أَتَى فِي الْقُرْآنِ «أَوْ أَوْ»، فَإِنَّهُ عَلَى التَّخْيِيرِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمْتُمْ﴾، أي: من العُدُوِّ الْمُخْصِرِ/، قاله ابن عباس وغيره^(١)، ٤٩ ب وهو أشبه باللفظ، وقيل: معناه: إِذَا بَرَأْتُمْ مِنْ مَرَضِكُمْ^(٢).

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ...﴾ الآية.

قال ابن عباس وجماعة من العلماء: الآية في المحصرين وغيرهم^(٣)، وصورة التمتع^(٤) أَنْ تَجْتَمَعَ فِيهِ سِتَّةُ شُرُوطٍ، أَنْ يَكُونَ مَعْتَمِرًا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَهُوَ مِنْ غَيْرِ

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦٨/١)، والسيوطي (٣٨٤/١)، وعزاه إلى سفيان بن عيينة، والشافعي في «الأم»، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥١/٢)، وذكره البغوي (١٧٠/١)، وابن عطية (٢٦٨/١).

(٣) أخرجه الطبري (٢٥٤/٢) برقم (٣٤٣١)، وذكره ابن عطية (٢٦٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨٧/١)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) وهو عكس الأفراد أن يحرم الشخص بالعمرة أولاً من الميقات الذي مَرَّ عليه في طريقه إن كان غير ميقات بلده، ثم يأتي بأعمالها، وبعد الفراغ منها يحرم بالحج من «مكة» أو من الميقات الذي أحرم منه للعمرة، أو من مثل مسافته، أو من ميقات أقرب منه، وسواء كان إحرامه بالعمرة في أشهر الحج أو قبل أشهره، وسواء حج في العام الذي اعتمر فيه، أو آخر الحج إلى عام قابل، فللتمتع أربع صور، وسمي الآتي به: متمتعاً؛ لأنه تمتع بمحظورات الإحرام بين التمسكين. ولدم التمتع شروط أربعة: أَنْ تَقَعَ عِمْرَةُ التَّمَتُّعِ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، فَإِذَا أَحْرَمَ بِالْعِمْرَةِ قَبْلَ أَشْهُرِ الْحَجِّ «سواء أتمها قبل دخول أشهر الحج أو أتمها فيها» فلا يجب عليه الدم، لأنه لم يجمع بين الحج والعمرة في أشهر الحج، فأشبهه المفرد. أَنْ يَحْجَّ مِنْ عَامِهِ، فَإِذَا اعْتَمَرَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ ثُمَّ حَجَّ فِي عَامٍ آخَرَ أَوْ لَمْ يَحْجَّ أَصْلًا، فَلَا دَمَ عَلَيْهِ، لَمَا رَوَى الْبَيْهَقِيُّ «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَعْتَمِرُونَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، فَإِذَا لَمْ يَحْجُوا مِنْ عَامِهِمْ ذَلِكَ لَمْ يَهْدُوا».

ألا ويعود المتمتع بعد فراغه من العمرة إلى الميقات الذي أحرم منه أولاً أو إلى ميقات آخر من مواقيت الحج ليحرم منه بالحج، فإن عاد المتمتع إلى الميقات ليحرم منه بالحج، فلا دم عليه لأن مقتضي للدم هو ذبح الميقات، وقد انتفى بعودة المتمتع إليه.

ألا يكون المتمتع من حاضري المسجد الحرام، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والمراد بحاضري المسجد الحرام من بين مساكنهم، والحرم أقل من مرحلتين، فإن كان المتمتع من أهل هذه الجهة، فلا يلزمه الدم، لقربه من الحرم، والقريب من الشيء يقال له: «حاضره»، قال تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] أي =

خَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَيَحِلُّ وَيَنْشَى الْحَجَّ مِنْ عَامِهِ ذَلِكَ، دُونَ رُجُوعٍ إِلَى وَطْنِهِ، أَوْ مَا سِوَاهُ بُغْدَاً، هَذَا قَوْلُ مَالِكٍ، وَأَصْحَابِهِ، وَأَخْتَلَفَ، لِمَ سُمِّيَ مَتَمَعاً.

فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ: لِأَنَّهُ تَمَتَّعَ بِكُلِّ مَا لَا يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ فَعَلَهُ مِنْ وَقْتِ حَلِّهِ فِي الْعِمْرَةِ إِلَى وَقْتِ إِنْشَاءِ الْحَجِّ^(١)، وَقَالَ غَيْرُهُ: سُمِّيَ مَتَمَعاً؛ لِأَنَّهُ تَمَتَّعَ بِإِسْقَاطِ أَحَدِ السَّافِرِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ حَقَّ الْعِمْرَةِ أَنْ تَقْصِدَ بِسَفَرٍ، وَحَقَّ الْحَجِّ كَذَلِكَ، فَلَمَّا تَمَتَّعَ بِإِسْقَاطِ أَحَدِهِمَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا كَالْقَارَنِ الَّذِي يَجْمَعُ الْحَجَّ وَالْعِمْرَةَ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ، وَجُلُّ الْأَمَةِ^(٢) عَلَى جَوَازِ الْعِمْرَةِ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ لِلْمَكِّيِّ وَلَا دَمَ عَلَيْهِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾، يَعْنِي: مِنْ وَقْتِ يُحْرِمُ إِلَى يَوْمِ عَرَفَةَ، فَإِنْ فَاتَهُ صِيَامُهَا قَبْلَ يَوْمِ النَحْرِ، فَلْيَصُمْهَا فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَيَّامِ الْحَجِّ.

﴿وَسَبَّحْتَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: أَيُّ: إِذَا رَجَعْتُمْ مِنْ مَنًى^(٤)، وَقَالَ قَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ: هَذِهِ رَخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ^(٥)، وَالْمَعْنَى: إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَوْطَانِكُمْ، وَلَمَّا جَازَ أَنْ

= قَرِيبَةٌ مِنْهُ. وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَرِيجْ مِقَاتاً عَامّاً لِأَهْلِهِ وَلَمْ يَرْبُ بِهِ.

وَوَقْتُ وَجُوبِ الدَّمِ عَلَى التَّمَتُّعِ هُوَ وَقْتُ إِحْرَامِهِ بِالْحَجِّ، لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَصِيرُ مَتَمَعاً بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَذْبَحَ بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنَ الْعِمْرَةِ وَقَبْلَ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ؛ لِتَقَدُّمِ أَحَدِ سَبَبَيْهِ. وَالْأَفْضَلُ ذَبْحُهُ يَوْمَ النَحْرِ وَلَا آخِرَ لَوْ قَتَهُ كَسَائِرُ دِمَاءِ الْجَبْرِ بِهَا.

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ» (٢٦٨/١).

(٢) وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسًا أَخْبَرَهُ قَالَ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ إِلَّا الَّتِي كَانَتْ مَعَ حَجَّتِهِ: عُمْرَةً مِنَ الْحَدِيثِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مِنَ الْجَعْرَانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مَعَ حَجَّتِهِ.

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٨٠١/٣)، كِتَابُ الْعِمْرَةِ: بَابُ كَيْفِ اعْتِمَارِ النَّبِيِّ ﷺ (١٧٧٨)، وَأَطْرَافُهُ فِي (١٧٧٩-١٧٨٠-٣٠٦٦-٤١٤٨)، وَمُسْلِمٌ (٩١٦/٢)، كِتَابُ «الْحَجِّ»، بَابُ بَيَانِ عَدَدِ عَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ (٢١٧-١٢٥٣).

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو أَنَّهُ قَالَ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ، إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ، فَأَخْبَرَتْ عَائِشَةَ بِذَلِكَ، قَالَتْ: يَرْحِمُ اللَّهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ مَا اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ مَعَهُ، وَمَا اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ قَطُّ. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ؛ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: فِي كُلِّ شَهْرٍ عُمْرَةٌ، وَكَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ بِمَكَّةَ، فَكَانَ إِذَا حَمَمَ رَأْسَهُ، خَرَجَ فَاعْتَمَرَ.

أَخْرَجَهُ الشَّافِعِيُّ، كَذَا فِي «تَرْتِيبِ الْمُسْنَدِ» (٣٧٩/٢).

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ» (٢٦٧/١ - ٢٦٨).

(٤) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ» (٢٧٠/١).

(٥) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ» (٢٧٠/١).

يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ التَّخْيِيرِ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ أَوْ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعَ، أُرْزِلَ ذَلِكَ بِالْجَلِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ﴾.

و﴿كَامِلَةٌ﴾^(١) قَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: الْمَعْنَى: كَامِلَةُ الثَّوَابِ^(٢)، وَقِيلَ: كَامِلَةٌ^(٣) تَأَكِيدُ؛ كَمَا تَقُولُ: كَتَبْتُ بِيَدِي، وَقِيلَ: لَفْظُهَا الْإِخْبَارُ^(٤)، وَمَعْنَاهَا الْأَمْرُ، أَيْ: أَكْمَلُوهَا، فَذَلِكَ فَرْضُهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ...﴾ الْآيَةُ: الْإِشَارَةُ بِذَلِكَ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ هِيَ إِلَى الْهَذْيِ، أَيْ: ذَلِكَ الْإِشْتِدَادُ وَالْإِلْزَامُ، وَعَلَى قَوْلِ مَنْ يَرَى أَنَّ الْمَكِّيَّ لَا تَجُوزُ لَهُ الْعُمْرَةُ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، تَكُونُ الْإِشَارَةُ إِلَى التَّمَتُّعِ، وَحُكْمُهُ؛ فَكَانَ الْكَلَامُ؛ ذَلِكَ التَّرْخِيفُ لِمَنْ لَمْ؛ وَيَتَأَيَّدُ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ لَمْ﴾؛ لِأَنَّ اللَّامَ أَبَدًا إِنَّمَا تَجِيءُ مَعَ الرِّخْصِ^(٥)، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بَعْدَ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَمَا اتَّصَلَ بِهَا، فَقِيلَ: مَنْ تَجَبُّ عَلَيْهِ الْجُمُعَةُ بِمَكَّةَ، فَهُوَ حَاضِرِيٌّ، وَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ بَدَوِيٌّ، قَالَ * ع^(٦): * فَجَعَلَ اللَّفْظَةُ مِنَ الْحَضَارَةِ، وَالْبَدَاوَةِ.

وَقِيلَ: مَنْ كَانَ بِحَيْثُ لَا يَقْضِرُ الصَّلَاةَ، فَهُوَ حَاضِرٌ، أَيْ: مُشَاهِدٌ، وَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ غَائِبٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: أَهْلُ الْحَرَمِ^(٧) كُلُّهُ حَاضِرُو الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ عَلَى الْعُمُومِ، وَحَدَّرَ مِنْ شَدِيدِ عِقَابِهِ.

﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ رَضِيَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي

- (١) قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي «رِسَالَتِهِ»: اخْتَمَلْتُ أَنْ تَكُونَ زِيَادَةً فِي التَّبَيِّنِ، وَاحْتَمَلْتُ أَنْ يَكُونَ أَعْلَمُهُمْ أَنَّ ثَلَاثَةَ إِذَا جُمِعَتْ إِلَى سَبْعٍ كَانَتْ عَشْرَةً كَامِلَةً. يَنْظُرُ: «الرِّسَالَةُ» (٢٦).
- (٢) ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» (١/ ١٧٠) وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ» (١/ ٢٧٠).
- (٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢/ ٢٦٤)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١/ ١٧٠)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (١/ ٢٧٠).
- (٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢/ ٢٦٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١/ ٢٧٠)، وَالْبَغَوِيُّ (١/ ١٧١).
- (٥) وَهَذَا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِشَارَةَ بِ«ذَلِكَ» الْمَقْصُودُ بِهَا: ذَلِكَ التَّرْخِيفُ، وَأَمَّا الْقَائِلُونَ بِجَوَازِ اعْتِمَارِ الْمَكِّيِّ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِمَنْ» بِمَعْنَى «عَلَى»، وَيَصِيرُ الْمَعْنَى: وَجُوبُ الدَّمِ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اشْتَرَطِي لَهُمُ الْوَلَاءَ». يَنْظُرُ: «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ»، لِلْإِمَامِ الْقُرْطُبِيِّ (٢/ ٢٦٨).
- (٦) «الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ» (١/ ٢٧١).
- (٧) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢/ ٢٦٥) بِرَقْمِ (٣٥٠٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١/ ٢٧١)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (١/ ٣٩١) عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الْحَجُّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَتَرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ حَتَرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ وَاتَّقُوا يَتَأُولِي
الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٩٧﴾

وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أشهر معلومات﴾ في الكلام حذف، تقديره^(١): أشهر الحج أشهر أو وقت الحج أشهر معلومات، قال ابن مسعود وغيره: وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة كله^(٢).

وقال ابن عباس وغيره: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة^(٣)، والقولان لمالك - رحمه الله - ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾، أي: ألزمه نفسه، وفرض الحج هو بالنية والدخول في الإحرام، والتلبية تبع لذلك، وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾، ولم يجيء الكلام «فيها»، فقال قوم: هما سواء/ في الاستعمال، وقال أبو عثمان المازني^(٤): الجمع الكثير ١٥.

(١) وكان هذا التقدير؛ لأن «الحج» فعل من الأفعال، و «أشهر» زمان؛ فهما غيران، فكان لا بد من تأويل. وهناك احتمالان آخران للإعراب، وهما:
الأول: الحج حج أشهر على الإضافة.

والثاني: أن يجعل الحدث نفس الزمان مبالغة ومجازاً، فالحج حال فيه، فلما اتسع في الظرف جعل نفس الحدث.

ونظيرها: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥] وإذا كان ظرف الزمان نكرة مُخْتَرِاً به عن حَدَثٍ جاز فيه الرفع والنصب مطلقاً، أي: سواء كان الحدث مستوعباً للظرف أم لا، هذا مذهب البصريين.

وأما الكوفيون فقالوا: إن كان الحدث مستوعباً فالرفع فقط نحو: «الصوم يوم» وإن لم يكن مستوعباً فهشام يلتزم رفعه أيضاً نحو: «معاذك يوم» والفراء يجيز نصبه مثل البصريين، وقد نُقِلَ عنه أنه منع نصب «أشهر» يعني في الآية لأنها نكرة، فيكون له في المسألة قولان، وهذه المسألة بعيدة الأطراف تَضُمُّها كتب النحويين. قال ابن عطية: «وَمَنْ قَدَّرَ الكلام: الحج في أشهر فيلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر، ولم يقرأ به أحد» قال الشيخ: «ولا يلزم ذلك، لأن الرفع على جهة الاتساع، وإن كان أصله الجر بفي».

ينظر: «الدر المصون» (١/ ٤٨٩ - ٤٩٠).

(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٧١).

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٢٦٨) برقم (٣٥٢٥)، وذكره ابن عطية (١/ ٢٧١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٩٣)، وعزاه لوكيع، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٤) بكر بن محمد بن حبيب بن بنية، أبو عثمان المازني، من مازن شيبان: أحد الأئمة في النحو، من أهل البصرة. ووفاته فيها. له تصانيف، منها كتاب: «ما تلحن فيه العامة» و «الألف واللام» و «التصريف» و «المروض» و «الدياج». توفي سنة (٢٤٩) هـ. ينظر: «الأعلام» (٢/ ٦٩).

لما لا يعقل يأتي كالأحادثة المؤتة، والقليل ليس كذلك، تقول: الأجداعُ أَنْكَسَرْنَ والجُدُوعُ أَنْكَسَرَتْ^(١)، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦] ثم قال: ﴿منها﴾ [التوبة: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ...﴾ الآية، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ»، بالرفع في الاثنين، ونصب الجدال^(٢)، و «لا» بمعنى «لَيْسَ»، في قراءة الرفع، والرَفَثُ الجماعُ في قول ابن عباس، ومجاهد، ومالك^(٣)، والفُسُوقُ قال ابن عباس وغيره: هي المعاصي كلها^(٤)، وقال ابن زيد، ومالك: الفُسُوقُ: الذبح للأصنام^(٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، والأول أولى.

قال الفخر^(٦): وأكثر المحققين حملوا الفِسْقَ هنا على كل المعاصي؛ قالوا: لأن

(١) وهذا بخلاف قوله: ﴿منها أربعة حرم﴾ [التوبة: ٣٦]، فهناك «أشهر» جمع كثرة، وهنا «حرم» جمع قلة.

(٢) وحجة من فتح أنه نفي لجميع جنس الرفث والفسوق، كما قال: ﴿لا ريب فيه﴾ [البقرة: ٢] وكان قاتلاً قال: هل من رفث؟ هل من فسوق؟

وحجة من رفع: أنه يعلم من الفحوى أنه ليس النفي وقتاً واحداً، ولكنه بجميع ضروبه، وقد يكون اللفظ واحداً، والمراد جميعاً.

ينظر: «السبعة» (١٨٠)، و «الكشف» (٢٨٥/١)، و «حجة القراءات» (١٢٨، ١٢٩)، و «الحجة» (٢/ ٢٨٦)، و «شرح الطيبة» (٩٦/٤)، و «شرح شملة» (٢٨٧)، و «المنوان» (٧٣)، و «إتحاف» (١/ ٤٣٣)، و «معاني القراءات» (١٩٦/١).

(٣) أخرجه الطبري (٢٧٦/٢ - ٢٧٧) رقم (٣٥٩٩ - ٣٦٠٣ - ٣٦١٣) عن ابن عباس، رقم (٣٦٠٩ - ٣٦١٤) عن مجاهد.

وذكره البغوي (١٧٢/١) عن ابن عباس ومجاهد، وابن عطية (٢٧٢/١) عن ابن عباس، ومجاهد، ومالك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٥/١)، وعزاه لوكيع، وسفيان بن عينة، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٢٧٩/٢ - ٢٨٠) رقم (٣٦٣٤، ٣٦٤٨، ٣٦٥٢، ٣٦٥٦)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٧٢/١). وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٢/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٩٥)، وفي (٣٩٦/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وسفيان، ووكيع، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي يعلى، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٢٨٢/٢) رقم (٣٦٧١)، عن ابن زيد. وذكره ابن عطية (٢٧٢/١)، عن ابن زيد، ومالك.

(٦) «التفسير الكبير» (١٤٠/٥).

اللفظ صالحٌ للكُلِّ ومتناولٌ له، والنهي عن الشيء يوجبُ الإنهاء عن جميع أنواعه، فحمل اللفظ على بعض أنواع الفسوق تحكُّم من غير دليل. انتهى.

قال ابن عباس وغيره: الجدالُ هنا: أن تماري مسلماً^(١).

وقال مالك، وابن زَيْد: الجدالُ هنا أن يَخْتَلَفَ الناسُ أيهم صادقٌ موقفَ إبراهيم عليه السلام -؛ كما كانوا يفعلون في الجاهلية^(٢)، قُلْتُ: ومعنى الآية: فلا تَرْفُثُوا، ولا تَفْسُقُوا، ولا تجادلُوا؛ كقوله ﷺ: «وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ صَوْمُ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَزِفُثْ، وَلَا يَضْحَبْ، فَإِنْ شَاتَمَهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي أَمْرُؤُ صَائِمٌ...»^(٣) الحديث. انتهى.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾، أراد نفيه مشروعا، لا موجودا، فإننا نجد الرفثَ فيه، ونشاهده، وخبرَ الله سبحانه لا يَقَعُ بخلافٍ مخبره. انتهى.

قال الفخر^(٥): قال القفال: ويدخل في هذا النهي ما وَقَعَ من بعضهم من مجادلة النبي ﷺ حين أمرهم بِقَسْخِ الْحَجِّ إلى العمرة، فسَقَّ عليهم ذلك، وقالوا: «أَنُروُحُ إِلَى مِنَى، وَمَذَاكِرُنَا تَقْطُرُ مِنَى...» الحديث. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾: المعنى: فيثيب عليه، وفي هذا تحضيضٌ على فعل الخير.

* ت * وروى أسامةُ بنُ زيد عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَغْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ» رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه» بهذا اللفظ^(٦). انتهى من «السلام» ونحو هذا جوابه ﷺ للمهاجرين؛ حَيْثُ

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٢٨٣-٢٨٤)، رقم (٣٦٧٤-٣٦٧٥-٣٦٨١-٣٦٩٥-٣٦٩٦)، وذكره ابن عطية (١/ ٢٧٣)، والسيوطي (١/ ٣٩٥-٣٩٦)؛ وعزاه إلى وكيع، وسفيان بن عيينة، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٢٨٦) رقم (٣٧٠٦)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٧٣)، وابن عطية (١/ ٢٧٣) عن مالك، وابن زيد، وذكره السيوطي (١/ ٣٩٧)، وعزاه لابن جرير عن ابن زيد.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر: «الأحكام» (١/ ١٣٤).

(٥) «التفسير الكبير» (١/ ١٤١).

(٦) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٨٠) كتاب «البر والصلة»، باب ما جاء في المتتبع بما لم يعطه، حديث (٢٠٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥٣)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول لمن صنع إليه معروفاً، =

قَالُوا: «مَا رَأَيْنَا كَالْأَنْصَارِ»، وَأَثْنُوا عَلَيْهِمْ خَيْرًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...﴾ الآية: قال ابن عُمَرَ وغيره: نَزَلَتْ الآية في طائفة من العرب، كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويبقون عائلة على الناس، فأمرُوا بالتزود^(١)، وقال بعض الناس: المعنى: تزودوا الرفيق الصالح، وهذا تخصيص ضعيف، والأولى في معنى الآية: تزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة، قُلْتُ: وهذا التأويل هو الذي صَدَّرَ به الفخر^(٢) وهو الظاهر، وفي قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ حضٌ على التقوى.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِينَ ۚ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩)

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ...﴾ الآية: الجُنَاحُ: أعم من الإثم؛ لأنه فيما

= حديث (١٠٠٠٨). وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٧٦)، والطبراني في «الصغير» (١٤٨/٢)، وأبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٣٤٥/٢)، كلهم من طريق الأحوص بن جواب، ثنا سعيد بن الخمس، ثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة بن زيد مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن جيد غريب، لا نعرفه من حديث أسامة بن زيد، إلا من هذا الوجه. اهـ.

وصححه ابن حبان برقم (٣٤١٣).

وقال الترمذي أيضاً: وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثله، وسألت محمداً فلم يعرفه اهـ. قلت: والحديث الذي أشار إليه الترمذي:

أخرجه ابن أبي شيبه (٧٠/٩)، والبزار (٣٩٧/٢ - كشف) رقم (١٩٤٤)، والطبراني في «الصغير» (٢/١٤٩)، كلهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قال الرجل لأخيه: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الشاء».

قال البزار: ومحمد بن ثابت لا نعلم روى عنه إلا موسى بن عبيدة، ولا روى عن أبي هريرة هذا الحديث غيره.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٣/٤)، وقال: رواه البزار، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.

(١) أخرجه الطبري في (٢/٢٩٠) رقم (٣٧٣٢)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/١٧٣)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٢٧٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٣٩٨)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عمر.

(٢) ينظر: «التفسير الكبير» (٥/١٤٣).

يقتضي العقاب، وفي ما يقتضي الزجر والعتاب.

٥٠ ب

و «تَبْتَعُوا»: معناه: تَطْلُبُوا، أي: لا دَرَكٌ^(١) في أن تتجروا وتطلبوا/ الرنج.

وقوله تعالى: «فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عِرْفَاتٍ»: أجمع أهل العلم على تمام حج من وقف بعرفات بعد الزوال، وأفاض نهاراً قبل الليل إلا مالك بن أنس، فإنه قال: لا بد أن يأخذ من الليل شيئاً، وأما من وقف بعرفة ليلاً، فلا خلاف بين الأمة في تمام حجه.

وأفاض القوم أو الجيش، إذا اندفعوا جملةً، واختلف في تسميتها عرفةً، والظاهر أنه اسم مرتجل؛ كسائر أسماء البقاع، وعرفة هي نَعْمَانُ الْأَرَاكِ^(٢)، والمَشْعَرُ الْحَرَامُ جمع كله، وهو ما بين جبلي المزدلفة من حَدِّ مُفَضِّي مَأْزَمِي^(٣) عرفة إلى بطن مُحَسِّر^(٤)، قاله ابن عباس وغيره^(٥)، فهي كلها مشعر^(٦) إلا بطن مُحَسِّر؛ كما أن عرفة كلها موقف إلا بطن عُرَّة^(٧) بفتح الراء وضمها، وروي عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «عُرَّةٌ كُلُّهَا مَوْقِفٌ إِلَّا بَطْنَ عُرَّةَ، وَالْمُزْدَلِفَةُ كُلُّهَا مَشْعَرٌ، إِلَّا وَارْتَفَعُوا عَنْ بَطْنِ مُحَسِّرٍ»^(٨)، وذكر هذا عبد الله بن

(١) الدَّرَك: التَّبَعَةُ، يُسَكَّنُ ويحرك. يقال: ما لحقك من دَرَكٍ فعلي خلاصه. ينظر: «لسان العرب» (١٣٦٤).

(٢) هو واد في طريق الطائف يخرج إلى عرفات. ينظر: «لسان العرب» (٤٤٨٤) (نعم).

(٣) الْمَأْزِمُ: كل طريق ضيق بين جبلين، ومنه سمي الموضع الذي بين المشعر وعرفة مأزمين. ينظر: «لسان العرب» (٧٤) (أزم).

(٤) وَمُحَسِّر: بضم الميم، وفتح الحاء، بعدها سين مهملة مشددة مكسورة، بعدها راء، كذا قيده البكري: وهو واد بين «مُزْدَلِفَةٍ» و«مَنَى»، وقيل: سمي بذلك؛ لأن فيل أصحاب الفيل حَسَرَ فيه، أي: أعبا. وقال البكري: هو واد بـ «جمع». وقال الجوهري: هو موضع بـ «مَنَى». ينظر: «المطلع» (١٩٦-١٩٧).

(٥) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٩٨/٢) رقم (٣٧٩٨)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٢٧٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٠١/١)، وعزاه إلى وكيع، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٦) المشعر الحرام، بفتح الميم، قال الجوهري: وكسر الميم لغة، وهو موضع معروف بـ «مزدلفة»، ويقال له: «قَرَح». وقد تقدم أن المشعر الحرام و«قَرَح»، من أسماء المزدلفة، فتكون «مزدلفة» كلها سميت بالمشعر الحرام، و«قَرَح»، تسمية لكل باسم البعض، كما سمي المكان كله: «بدرًا»، باسم ماء به، ويقال له: «بدر». ينظر: «المطلع» (١٩٧).

(٧) بضم العين، وفتح الراء والنون بين عرفة والمزدلفة. وكل طريق بين جبلين فهو مأزم، وموضع الحرب أيضاً: مأزِم. قال الجوهري: ومنه سمي الموضع الذي بين المشعر الحرام وعرفة: مأزمين. ينظر: «المطلع» (١٩٦).

(٨) بدون الاستثناء لعرفة ومحسر: أخرجه: مسلم (٨٨٦/٢: ٨٩٢) كتاب «الحج»، باب حجة النبي ﷺ، حديث (١٢١٨/١٤٧)، وغيره من حديث جابر في حديثه الطويل في صفة حج النبي ﷺ، المعروف من رواية محمد بن علي، عن جابر.

= وفي حديث آخر له أيضاً من رواية عطاء عنه: أخرجه أبو داود (٤٧٨/٢، ٤٧٩)، كتاب «المناسك» (الحج)، باب الصلاة بجمع، حديث (١٩٣٧)، وأحمد (٣٢٦/٣)، والدارمي (٥٦/٢، ٥٧)، كتاب «المناسك»، باب عرفة كلها موقف، والبيهقي (١٢٢/٥)، كتاب «الحج»، باب حيث ما وقف من «المزدلفة» أجزأه.

ولفظه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل عرفة موقف، وكل مزدلفة موقف، ومنى كلها منحر، وكل فجاج مكة طريق ومنحر».

ورود أيضاً من حديث علي: أخرجه أبو داود (٤٧٨/٢)، كتاب «المناسك» (الحج)، باب الصلاة بجمع (١٩٣٥)، والترمذي (٢٣٢/٣)، كتاب «الحج»، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف، حديث (٨٨٥)، وابن ماجه (١٠٠١/٢)، كتاب «المناسك»، باب الموقف بعرفات، حديث (٣٠١٠)، والبيهقي (١٢٢/٥)، كتاب «الحج»، باب حيث ما وقف من «المزدلفة» أجزأه، وأحمد (٧٦/١).

وقال الترمذي: حسن صحيح.

أما بزيادة الاستثناء المذكور، فورد من حديث جبير بن مطعم، وجابر، وابن عباس، وأبي هريرة، وحبيب بن حماسة، وابن عمر.

* حديث جبير بن مطعم:

أخرجه أحمد (٨٢/٤)، والبخاري (٢٧/٢)، كتاب «الحج»، باب عرفة كلها موقف، حديث (١١٢٦)، والطبراني (١٣٨/٢)، رقم (١٥٨٣)، وابن حبان في «مؤلفه» إلى زوائد ابن حبان للهيثم (ص ٢٤٩)، كتاب «الحج»، باب ما جاء في الوقوف بعرفة والمزدلفة، حديث (١٠٠٨)، والبيهقي (٢٣٩)، كتاب «الحج»، باب النحر يوم النحر، وأيام منى كلها، وابن حزم في «المحلى» (١٨٨/٧)، عنه، قال رسول الله ﷺ: «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عُرَتِه، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن محسر، وكل فجاج منى منحر، وكل أيام التشريق ذبح».

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٤/٣)، وقال: رواه أحمد، والبخاري، والطبراني في «الكبير»..... ورجاله موثقون. اهـ. وصححه ابن حبان.

* وحديث جابر:

أخرجه ابن ماجه (١٠٠٢/٢)، كتاب «المناسك»، باب الموقف بعرفات، حديث (٣٠١٢)، من طريق القاسم بن عبد الله العمري، ثنا محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عرفة موقف، وارفعوا عن بطن عرنة، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن بطن محسر، وكل منى منحر إلا ما وراء العقبة».

قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٢٧/٣): هذا إسناد ضعيف القاسم بن عبد الله بن عمر قال فيه أحمد بن حنبل: كان كذاباً يضع الحديث، ترك الناس حديثه. وقال البخاري: سكتوا عنه. وقال أبو حاتم، وأبو زرعة، والنسائي: متروك الحديث. اهـ.

وذكره مالك في «الموطأ» (٣٨٨/١)، كتاب «الحج»، باب الوقوف بعرفة والمزدلفة (١٦٦) بلاغاً.

وللحديث طريق آخر عن محمد بن المنكدر مرسلاً.

أخرجه البيهقي (١١٥/٥)، كتاب «الحج»، باب حيث ما وقف من عرفة أجزأه من طريق عبد الوهاب بن عطاء، عن ابن جريج قال: أخبرني محمد بن المنكدر به.

الرَّبِيبِ^(١) في خطبته، وذَكَرُ اللّٰهَ تَعَالَى عند المشعر

= * حديث ابن عباس:

أخرجه الحاكم (٤٦٢/١)، كتاب «المناسك»، والبيهقي (١١٥/٥)، كتاب «الحج»، باب حيث ما وقف من عرفة أجزأه، من طريق سفيان بن عيينة، عن زياد بن سعد، عن أبي الزبير، عن أبي معبد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرنة، والمزدلفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن محسر، وشعاب منى كلها منحرة».

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وشاهده على شرط الشيخين صحيح، إلا أن فيه تقصيراً في سنده، ثم أخرجه من طريق يحيى القطان، عن ابن جريج، أخبرني عطاء، عن ابن عباس قال: كان يقال: «ارتفعوا عن محسر، وارتفعوا عن عرفات».

* حديث أبي هريرة:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٧١٦/٧)، من جهة يزيد بن عبد الملك النوفلي، عن داود بن فراهج، عنه، والنوفلي ضعيف.

قال الذهبي في «المغني» (٧٥١/٢): مجمع على ضعفه.

وله طريق صحيح، ذكره ابن عبد البر كما في «تلخيص الحبير» (٢٥٥/٢)، رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن محمد بن المنكدر عن أبي هريرة به.

* حديث حبيب بن خماش:

أخرجه الحارث بن أبي أسامة (٣٨٠-بغية)، في «مسنده»، قال: حدثنا محمد بن عمر، ثنا صالح بن خوات، عن يزيد بن رومان، عن حبيب بن عمير بن عدي، عن حبيب بن خماش الجهني، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول بعرفة: «عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة، والمزدلفة كلها موقف إلا بطن محسر»، وذكره الحافظ في «التلخيص» (٢٥٥/٢)، وقال: رواه ابن قانع في «معجم الصحابة»، وفي إسناده الواقدي، وهو كذاب.

* حديث ابن عمر: أخرجه ابن عدي (١٥٨٩/٤، ١٥٩٠)، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله العمري. تركوه، واتهمه بعضهم. وقال الحافظ: متروك.

ينظر: «المغني» للذهبي (٣٨٢/٢)، و «التقريب» (١/٤٨٧-٤٨٨).

(١) هو: عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى.. أبو بكر. وقيل أبو حبيب الأسدي. القرشي.

ولد عام الهجرة، وهو أول مولود للمسلمين بعد الهجرة. من مشاهير الصحابة وفضلائهم، وسيرته شهيرة مع الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان قد حفظ عن النبي ﷺ، وعن أبيه، وعن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وخالته عائشة أم المؤمنين، وغيرهم، وهو أحد الشجعان. توفي في جمادى الأولى سنة (٧٣) هـ.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٤٢/٣)، «الإصابة» (٦٩/٤)، «الثقات» (٢١٢/٣)، «الاستيعاب» (٩٥/٣)، «الاستبصار» (٧٣)، «صفة الصفوة» (١١٧/٩)، «التاريخ الكبير» (٦/٣)، «الجرح والتعديل» (٥٦/٥)، «التاريخ الصغير» (١٥٩/١)، «التاريخ لابن معين» (٤٩/٢)، «تهذيب الكمال» (٦٨٢/٢)، «غاية النهاية» (٤١٩/١)، «الأعلام» (٨٧/٤)، «الرياض المستطابة» (٢٠١)، «رياض النفوس» (١/٤٢)، «حلية الأولياء» (٣٢٩/١)، «شذرات الذهب» (٤٢/١)، «العبر» (٤/١)، (٦٠).

الحرام^(١) نذبت عند أهل العلم، قال مالك: ومن مرَّ به، ولم ينزل، فعليه دَمٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ تعديد للنعمة، وأمر بشكرها.

* ص *: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾: الكاف للتشبيه، وهو في موضع نصبٍ على النعت لمصدرٍ محذوفٍ، و «مَا» مصدريةٌ، أي: كهديته، فتكون «مَا» وما بعدها في موضع جرٍّ، إذ يَنْسَبُكُ منها مع الفعل مضدَّرٌ، ويَحْتَمَلُ أن تكون للتعليل على مذهب الأخفش، وابن بَرَهَانَ^(٢)، وجوز ابن عطية وغيره، أن تكون «مَا» كَافَّةً للكاف عن العَمَلِ، والأول أولى^(٣)؛ لأن فيه إقرار الكاف على عملها الجرّ، وقد منع صاحبُ «المُسْتَوْفَى»^(٤) أن تكون الكاف مكفوفةً بـ «مَا»؛ واحتج من أثبت به قوله: [الوافر]

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَأَبَا حُمَيْدٍ كَمَا النُّسَوَانُ وَالرَّجُلُ الْحَلِيمُ
أُرِيدُ هَجَاءَهُ وَأَخَافُ رَبِّي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ عَبْدٌ لَّئِيمٌ^(٥)

انتهى.

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٢٧٤).

(٢) عبد الواحد بن علي بن عمر بن إسحاق بن إبراهيم بن برهان أبو القاسم الأزدي العكبري التحوي. صاحب العربية واللغة والتواريخ وأيام العرب، قرأ على عبد السلام البصري وأبي الحسن وكان أول أمره منجماً فصار نحويًا، وكان حنبليًا فصار حنفيًا. مات في جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وأربعمائة. ينظر: «بغية الوعاة» (٢/١٢٠ - ١٢١).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٢/١٠٦)، و «الدر المصون» (١/٤٩٥).

(٤) «المستوفى» في النحو، قال السيوطي في «بغية الوعاة» (٣٥٥): «أكثر أبو حيان من النقل عنه». وهو لأبي سعد كمال الدين علي بن مسعود بن محمود بن الحكم الفرخان القاضي. وفي «كشف الظنون» أنه علي بن مسعود الفرغاني. لكن قال السيوطي: «كذا، وسماء هكذا ابن مكثوم في «تذكرته».

(٥) البيتان لزياد الأعجم في ديوانه (ص ٩٧)؛ و «الجنى الداني» (ص ٤٨١)؛ و «شرح شواهد المغني» (ص ٥٠١)؛ و «المقاصد النحوية» (٣/٣٤٨)؛ وبلا نسبة في «مغني اللبيب» (١/١٧٨)، «خزانة الأدب» (١٠/٢٠٦ - ٢٠٨)، «العيني» (٣/٤٨)، و «شرح أبيات المغني» للبغدادي (٤/ ١٢٥ - ١٢٦)، و «الدر المصون» (١/٤٩٥).

ويروى البيت الثاني هكذا:

أُرِيدُ حَبَاءَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ الرَّجُلُ اللَّئِيمُ
وبعده:

فإن الخمر من شر المطايا كما الحفاظان شر بني تميم
والنشوان: السكران. والنشوة: السكر. والحليم: الذي عنده تأن. وتحمل لما يثقل على النفس. يقول: أنا وأبو حميد كالسكران والحليم، أتحمّل منه وهو يعبث بي. كالسكران يشفّه على الحليم وهو متحمّل. وهذا تشبيه تمثيلي. شبه حالته معه بحالة الحليم مع السكران. ينظر: «خزانة الأدب» (١٠/٢٠٩).

ثم ذكّرهم سبحانه بحال ضلالهم؛ ليظهر قدر إنعامه عليهم.

﴿وإن كنتم من قبله﴾، أي: من قبل الهدى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ المخاطب بهذه الآية قريش، ومن ولدت، قاله ابن عباس وغيره^(١)، وذلك أنهم كانوا لا يخرجون من الحرم، ويفقون بجمع، ويفيضون منه، مع معرفته أن عرفة هي موقف إبراهيم، ف قيل لهم: أفيضوا من حيث أفاض الناس، أي: من عرفة، و﴿ثم﴾ ليست في هذه الآية للترتيب، إنما هي لعطف جملة كلام على جملة هي منها منقطعة.

وقال الضحاك: المخاطب بالآية جملة الأمة، والمراد بالناس إبراهيم، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى، وهي التي من المزدلفة^(٢)، وعلى هذا عول الطبري^(٣)، فتكون «ثم» على بابها، وقرأ سعيد بن جبّير: «الناسي»^(٤)، وتأوله آدم - عليه السلام -، وأمر عز وجل بالاستغفار؛ لأنها موطنه، ومطأ القبول، ومساقط الرحمة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ خطب عشية عرفة، فقال: «أيها الناس، إن الله عز وجل تطاول عليكم في مقامكم هذا، فقبل من مخسينكم وهب مسيينكم لمخسينكم، إلا التبعات فيما بينكم، أفيضوا على أسم الله»، فلما كان غداة جمع، خطب، فقال: «أيها الناس، إن الله تطاول عليكم، فعوض التبعات من عنده»^(٥).

﴿فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٣٠٧/٢)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٧٥/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٥/١).

(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٥/١).

(٣) الطبري لم يصرح بموافقه لتأويل الضحاك، وإنما احترز بوجود الإجماع على خلافه، ولولا الإجماع لقال بقوله. ينظر: «جامع البيان» (١٩٠/٤ - ١٩١).

(٤) واستدل بها أبو الفتح على أن لام التعريف تدخل على الأعلام للزم كما تدخلها للمدح، فمن الأول قولهم: فلان بن الصعق؛ لأن ذلك داء ناله، فهي بلوى. ومن الثاني: المظفر، والعباس ونحوهما.

ينظر: «المحتسب» (١١٩/١)، و«الشواذ» (ص ٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٢٧٦/١)، و«البحر المحيط» (١٠٩/٢)، و«الدر المصون» (٤٩٧/١).

(٥) ذكر ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢١٥/٢) أحاديث بهذا المعنى عن أنس، وابن عمر، وعبادة. وقال: ليس في هذه الأحاديث شيء يصح.

الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ﴾... الآية. ١٥١

قال مجاهد: المناسك: الذبائح، وهي إراقة الدماء^(١).

* ع^(٢): والمناسك عندي العبادات في معالم الحج، ومواضع النسك فيه.

والمعنى: إذا فرغتم من حجكم الذي هو الوقوف بعرفة، فأذكروا الله بمحامده، وأنشؤا عليه بآلاته عندهم، وكانت عادة العرب، إذا قضت حجها، تقف عند الجمرة تتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها؛ من بسالة، وكرم، وغير ذلك، فنزلت الآية، أن يلزموا أنفسهم ذكر الله تعالى أكثر من التزامهم ذكر آبائهم بأيام الجاهلية، هذا قول جمهور المفسرين^(٣).

وقال ابن عباس، وعطاء: معنى الآية: وأذكروا الله؛ كذكر الأطفال آباءهم، وأمهاتهم، أي: فاستغيثوا به، والنجوا إليه^(٤).

قال النووي في «حليته»^(٥): والمراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب؛ كما هو مطلوب في القراءة؛ لأشتراكهما في المعنى المقصود، ولهذا كان المذهب الصحيح المختار استحباب مد الذكر قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، لما فيه من التدبر، وأقوال السلف، وأئمة الخلف في هذا مشهورة. انتهى.

قال الشيخ العارف أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الساحلي المالقي: ومنفعة الذكر أبداً إنما هي تتبع معناه بالفكر؛ ليقبس الذاكر من ذكره أنوار المعرفة، ويحصل على

(١) أخرجه الطبري (٣٠٧/٢) رقم (٣٨٤٨)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٦/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

(٢) «المحرر الوجيز» (٢٧٦/١).

(٣) ينظر: «معاني الزجاج» (٢٦٢/١)، و«الرازي» (١٨٣/٥)، و«الدر» (٢٣٢/١)، و«الوسيط» (١/٣٠٦).

(٤) أخرجه الطبري (٣٠٩/٢) برقم (٣٨٦٧)، وذكره البيهقي (١٧٦/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٧/١).

(٥) «حلية النووي» (ص ٤٠).

اللُّبُّ المراد، ولا خير في ذِكْرٍ مع قَلْبٍ غافل ساهٍ، ولا مع تضييع شيءٍ من رسوم الشرع، وقال في موضع آخر من هذا الكتاب الذي أَلْفَه في «السُّلوك»: «ولا مَطْمَع للذَّاكِر في ذَرِكِ حَقَائِقِ الذِّكْرِ إِلَّا بِإِعْمَالِ الْفِكْرِ فيما تحت ألفاظ الذِّكْرِ من المعاني، وليدفع خَطَرَاتِ نَفْسِهِ عن باطنه راجِعاً إلى مقتضى ذِكْرِهِ؛ حتى يغلب معنى الذِّكْرِ عَلَى قَلْبِهِ، وقد آن له أَنْ يدخل في دائرة أَهْلِ الْمَحَاضِرَاتِ. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا...﴾ الآية: قال أبو وائل وغيره: كانت عاداتهم في الجاهلية الدُّعَاءُ في مصالح الدُّنْيَا فقط؛ إذ كانوا لا يعرفون الآخِرَةَ، فَتُهَوِّا عَنْ ذَلِكَ الدُّعَاءِ الْمَخْصُوصِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، وجاء النُّهْيُ في صيغة الخبر عنه، وَالْخَلَاقُ: الحظُّ، والنصيب^(١).

قال الحسنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: حَسَنَةُ الدُّنْيَا: العِلْمُ والعبادة^(٢).

* ع^(٣): * واللفظ أعمُّ من هذا، وَحَسَنَةُ الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ؛ بِإِجْمَاعٍ، وعن أنس: قال: كان أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» رواه البخاريُّ ومسلم وغيرهما^(٤)، زاد مسلم: «وَكَانَ أَنَسٌ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُو بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ». انتهى.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ وَغَدَّ عَلَى كَسْبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى عَقْدٍ، وَلَا إِعْمَالِ فِكْرٍ، قِيلَ لِعَلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: كَيْفَ يَحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ فِي يَوْمٍ، فَقَالَ: كَمَا يَزُرُّهُمْ فِي يَوْمٍ، وَقِيلَ: الْحِسَابُ هُنَا: الْمَجَازَاتُ.

وقيل: معنى الآية: سَرِيعُ مَجِيءِ يَوْمِ الْحِسَابِ، فَيَكُونُ الْمَقْصَدُ بِالْآيَةِ الْإِنْذَارَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَقْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٦/١).

(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧٦/١).

(٣) «المحرر الوجيز» (٢٧٧/١).

(٤) أخرجه البخاري (١١/١٩٥)، كتاب «الدُّعَوَاتِ»، باب قول النبي ﷺ: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» حديث (٦٣٨٩)، ومسلم (٤/٢٠٧٠ - ٢٠٧١) كتاب «الذِّكْرُ والدُّعَاءُ»، باب فضل الدُّعَاءِ بِاللَّهِمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، حديث (٢٦، ٢٧ / ٢٦٩٠).

إِنَّمَا عَلَيْهِ لِمَنِ أَنْتَقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾. أَمَرَ اللَّهَ سبحانه بذكره في الأيام المَعْدُودَاتِ/، وهي الثلاثة التي بعد يَوْمِ النحر، ومن جملة الذكر التَّكْبِيرُ في إثر الصَّلَواتِ. ٥١ ب قال مالك: يكبر من صلاة الظهر يوم النَّحْرِ إلى صلاة الصُّبْح من آخر أيام التَّشْرِيقِ، وبه قال الشافعي، ومشهور مذهب مالك، أنه يكبر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات.

ومن خواص التَّكْبِيرِ وبركته ما رواه ابن السُّنِّي، بسنده، عن عمرو بن شُعَيْب، عن أبيه، عن جده، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْحَرِيقَ، فَكَبِّرُوا؛ فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ»^(١) انتهى من «حلية النووي»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ الآية: قال ابنُ عَبَّاس وغيره: المعنى: من نَفَرَ اليوم الثاني من الأيام المَعْدُودَاتِ، فلا حرج عليه، ومن تأخَّر إلى الثالث، فلا إثم عليه، كل ذلك مباح؛ إذ كان من العرب مَنْ يذمُّ المتعجل وبالعكس، فنزلت الآية رافعةً للجَنَاحِ^(٣). قُلْتُ: وأهل مكة في التعجيل كغيرهم على الأصح.

ثم أمر سبحانه بالتَّقَوُّي، وذَكَرَ بِالْحَشْرِ، والوقوف بين يَدَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الآية.

قال السُّدِّي: نزلت في الأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ: أظهر الإسلام، ثم هَرَبَ، فمَرَّ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَحْرَقَ لَهُمْ زَرْعاً، وَقَتَلَ حُمُرًا^(٤).

قال *ع^(٥): ما ثبت قط أن الأخنس أسلم، قُلْتُ: وفي ما قاله *ع: *نَظَرُ،

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» حديث (٢٩٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/٢٩٦)، من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده مرفوعاً.

(٢) «حلية النووي» (ص ٣٣٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٣١٨ - ٣٢١) برقم (٣٩٣١ - ٣٩٥٧).

وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٢٣).

(٤) أخرجه الطبري (٢/ ٣٢٤) رقم (٣٩٦٤)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٢٧)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن السدي.

(٥) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٧٩).

ولا يلزم من عدم ثبوته عنده ألا يثبت عند غيره، وقد ذكر أحمد بن نصر الداودي في تفسيره؛ أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق. انتهى، وسيأتي للطبري نحوه.

وقال قتادة، وجماعة: نزلت هذه الآية في كل مُبْطِن كُفِّرَ، أو نفاق، أو كذب، أو ضرار، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك، فهي عامة^(١)، ومعنى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ﴾، أي: يقول: الله يعلم أنني أقول حقاً، والألذ: الشديّد الخصومة الذي يُلَوِّي الحُجج في كل جانب، فيشبه انحرافه المَشْي في لَدِيدِي^(٢) الوادي.

وعنه عليه السلام: «أَبْعَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَضَمُ».

و ﴿تَوَلَّى﴾ و ﴿سَعَى﴾: يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكونا فِعْلَ قَلْبٍ، فيجيء «تَوَلَّى» بمعنى: ضَلَّ وَغَضِبَ وَأَنفَ في نفسه، فسَعَى بِحِيلِهِ وإدارته الدوائر على الإسلام؛ نحا هذا المنحَى في معنى الآية ابنُ جَرِيح، وغيره.

والمعنى الثاني: أن يكونا فِعْلَ شَخْصٍ، فيجيء «تَوَلَّى» بمعنى: أدبر وَنَهَضَ وَسَعَى، أي: بقدميه، فقطع الطريقَ وأفسدها، نحا هذا المنحَى ابنُ عَبَّاس وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْلِكُ الْحَرْتَ وَالنَّسْلُ﴾: قال الطبري^(٣): المراد الأخنس في إحراقه الزرع، وقتله الحُمَر.

قال ع^(٤): * والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغته في الإفساد.

و ﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ معناه: لا يحبُّه من أهل الصَّلاح، أو لا يحبُّه ديناً، وإلا فلا يقع إلا ما يحبُّ الله وقوعه، والفساد: واقع، وهذا على ما ذهب إليه المتكلمون من أن الحُبَّ بمعنى الإرادة.

قال ع^(٥): * والحبُّ له على الإرادة مزية إيثارية؛ إذ الحبُّ من الله تعالى إنما هو

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٢٧٩).

(٢) اللدِيدَان: جانبا الوادي. كل واحد منهما لَدِيدٌ. ينظر: «لسان العرب» (٤٠١٩).

(٣) «جامع البيان» (٤/٢٣٨).

(٤) «المحرر الوجيز» (١/٢٨٠).

(٥) «المحرر الوجيز» (١/٢٨١).

لما حَسَنَ من جميع جهاته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُوا بِهِم مَّوَدَّةَ بَيْنِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ فِي صَفَاتِهِ لَكَلِيمٌ ﴿٢٠٦﴾ وَمَنْ يَشْرِهِ نَفْسُهُ ابْتِغَاءَ مَهْجَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ...﴾ الآية: هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً، ويحذر المؤمن أن يوقعه الحرج في نحو هذا، وقد قال بعض العلماء: كفى بالمرء إثماً أن يقول له أخوة: اتَّقِ اللَّهَ، فيقول له: عَلَيْكَ نَفْسُكَ، مثلكَ يوصيني. قلت: قال أحمد بن نصر الداودي: عن ابن مسعود: من أكبر الذنب أن يقال للرجل: اتَّقِ اللَّهَ، فيقول: عَلَيْكَ نَفْسُكَ، أَنْتَ تَأْمُرُنِي ^(١). انتهى.

و ﴿الْعِزَّةُ﴾ هنا: المنعة، وشدة النفس، أي: اعتز في نفسه، فأوقعته تلك العزة في الإثم، ويحتمل المعنى: أخذته العزة مع الإثم.

و ﴿حَسِبُوا﴾، أي: كافيه، و ﴿الْمَهَادُ﴾: ما مهد الرجل لنفسه؛ كأنه الفراش.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْرِي نَفْسَهُ...﴾ الآية: تتناول كل مجاهد في سبيل الله، أو مستشهد في ذاته، أو مغير منكّر، وقيل: هذه الآية في شهداء غزوة الرّجيع ^(٢): عاصم بن ثابت ^(٣)، وحبيب ^(٤)، وأصحابهما، وقال عكرمة وغيره: هي في طائفة من

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ١٨٠)، والسيوطي في «الدر المشثور» (١/ ٤٣٠)، وعزاه لوكيع، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود.

(٢) والرّجيع (يفتح الراء وكسر الجيم) هو في الأصل: اسم للروث، سمي بذلك لاستحالاته. والمراد هنا اسم موضع من بلاد هذيل، كانت الوقعة بقرب منه، فسميت به. ينظر: «فتح الباري» (٨/ ١٣١).

(٣) عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح.

واسم أبي الأفلح قيس بن عصمة بن التّعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عمرو بن عوف الأنصاري. جدّ عاصم بن عمرو بن الخطاب لأمه، من السابقين الأولين من الأنصار. ينظر: «الإصابة» (٣/ ٤٦٠).

(٤) حبيب بن عدي: بن مالك بن عامر بن مُجْدَعَة بن جَحْجَبِي بن عَوْف بن كُلفَة بن عَوْف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي. شهد بَدْرًا واستشهد في عهد النبي ﷺ. ينظر: «الإصابة» (٢/ ٢٢٥).

المهاجرين، وذكروا حديثَ صُهَيْبٍ^(١).

و ﴿يَشْرِي﴾: معناه يبيع؛ ومنه ﴿وَشَرُّهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، وحكى قوم؛ أنه يقال: شَرَى؛ بمعنى اشترى، ويحتاج إلى هذا من تأول الآية في صُهَيْب؛ لأنه اشترى نفسه بماله.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ترجية تقتضي الحضّ على امتثال ما وقع به المذخ في الآية؛ كما أن قوله سبحانه: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ تخويف يقتضي التحذير مما وقع به الذم في الآية، ثم أمر تعالى المؤمنين بالدخول في السلم، وهو الإسلام، والمُسالمة، وقال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب، والألف واللام في الشيطان للجنس^(٢).

و ﴿عَدُوٌّ﴾: يقع للواحد، والاثنين، والجمع، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ زُلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ...﴾ الآية: أصل الزلل في القدم، ثم يستعمل في الاعتقادات، والآراء، وغير ذلك، والمعنى: ضللتهم، و ﴿البينات﴾ محمد ﷺ وآياته، ومعجزاته، إذا كان الخطاب أولاً لجماعة المؤمنين، وإذا كان خطاباً لأهل الكتاب، فالبينات ما ورد في شرائعهم من الإعلام بمحمد ﷺ، والتعريف به.

و ﴿عَزِيزٌ﴾: صفة مقتضية أنه قادرٌ عليكم لا تعجزونه، ولا تمتنعون منه، و ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: مُحْكِمٌ فيما يعاقبكم به لِزَلِّكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾، أي: ينتظرون، والمراد هؤلاء الذين يزؤون، والظُّلُلُ: جمع ظُلة، وهي ما أظّل من فوق، والمعنى: يأتيهم حكم الله، وأمره، ونهيه، وعقابه إياهم.

وذهب ابن جُرَيج وغيره؛ إلى أن هذا التوعد هو مما يقع في الدنيا^(٣)، وقال قوم: بل هو توعد بيوم القيامة^(٤)، وقال قوم: إلا أن يأتيهم الله وعيد بيوم القيامة^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣٣٣/٢) برقم (٤٠٠٤)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨١/١)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٣٠/١) وعزاه لابن جرير الطبري.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٧/٢) برقم (٤٠٢٠)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٢/١) والسيوطي في «الدر المثور» (٢١٠/١) وعزاه لابن جرير. من طريق ابن جريج، عن ابن عباس.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٣/١).

(٤) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٣/١).

(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٣/١).

وأما ﴿الملائكة﴾، فالوعيد بإتيانهم عند الموت؛ والغمام: أرقُّ السحاب، وأصفاه وأحسنه، وهو الذي ظلَّ به بنو إسرائيل.

وقال الثَّقَاش: هو ضَبَابٌ أبيض، وقُضِيَ الأمر: معناه وقع الجزاء، وعُذِّبَ أهل العصيان، وقرأ معاذ بن جَبَل^(١): «وقضاء الأمر».

وإلى الله تُرْجَعُ الأمُورُ: هي راجعةٌ إليه سبحانه قبل ويَعُد، وإنما نبه بذكر ذلك في يوم القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك في الدنيا.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَاتِنَا وَمَن يُّدِلْ نِعْمَةً اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١) ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢١٢)

وقوله سبحانه: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية: معنى الآية: توبيخهم على عنادهم بعد الآيات البينات، والمراد بالآية: كم جاءهم في أمر محمد ﷺ من آية مُعرِّفة به دالَّةٌ عليه، و ﴿نِعْمَةُ اللَّهِ﴾: لفظ عامٌ لجميع إنعامه؛ ولكن يقوي من حال النبي ﷺ معهم؛ أنَّ المشار إليه هنا هو محمد ﷺ فالمعنى: ومن يبدل من بني إسرائيل صفةً نعمة الله، ثم جاء اللفظ منسحباً على كلِّ مبدل نعمة لله، ويدخل في اللفظ كفار قريش، والتوراة أيضاً نعمة على بني إسرائيل، فبدلوا بالتحريف لها، وجحد أمر محمد ﷺ، ﴿فإنَّ الله شديد العقاب﴾: خبرٌ يتضمن الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ الآية: الإشارة إلى كفار قريش؛ لأنهم كانوا يعظمون حالهم من الدنيا، ويغبتطون بها، ويسخرون من أتباع النبي ﷺ؛ كبلال^(٢)، وصُهَيْب، وابن مسعود، وغيرهم، فذكر الله قبيح فعلهم، ونبه على خَفَض

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨٤/١)، و «الكشاف» (٢٥٤/١)، وفيه أنها عطف على «الملائكة»، وينظر: «الشواذ» (ص ٢٠).

(٢) بلال بن رباح. هو بلال بن حمامة. أبو عبد الرحمن. الحبشي. مؤذن النبي ﷺ قال ابن حجر: اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين لما كانوا يعذبونه على التوحيد، فأعتقه، فلزم النبي وأذن له، وشهد معه جميع المشاهد، وأخى النبي بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، ثم خرج بلال بعد النبي مجاهداً. توفي بـ «الشام».

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٤٣/١)، «الإصابة» (١٧٠/١)، «الاستيعاب» (١٧٨/١)، «تجريد أسماء الصحابة» (٥٦/١)، «التاريخ الكبير» (١٠٦/٢)، «الجرح والتعديل» (٣٩٥/٢)، «الثقات» (٣/٢٨)، «تهذيب الكمال» (١٤٠/١)، «تهذيب التهذيب» (٥٠٢/١)، «العبر» (٢٤/١)، «تقريب التهذيب» (١١٠/١)، «التحفة اللطيفة» (٣٨٢/١)، «الحلية» (١٤٧/١).

منزلتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ومعنى الفوقية هنا في الدرجة والقدر؛ ويحتمل أن يريد أن نعيم المتقين في الآخرة فوق نعيم هؤلاء الآن. قُلْتُ: وحكى الداوودي عن قتادة: فوقهم يوم القيامة. قال: فَوْقَهُمْ فِي الْجَنَّةِ^(١). انتهى.

ومهما ذكرت الداوودي في هذا «المختصر»، فإنما أريد أحمد بن نصر الفقيه المالكي، ومن تفسيره أنا أنقل. انتهى.

فإن تشوّفت نفسك أيها الأخ إلى هذه الفوقية، ونيل هذه الدرجة العلية، فأزفُض دنياك الدنية، وازهد فيها بالكلية؛ لتسلم من كل آفة وبليّة، وأقتد في ذلك بخير البرية. قال عياض في «شفاه»^(٢): فانظر - رحمك الله - سيرة نبينا محمد ﷺ وخُلُقَه في المال، تجده قد أوتي خزائن الأرض [ومفاتيح البلاد، وأحلّت له الغنائم]^(٣)، ولم تحلّ لنبي قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن؛ وجميع جزيرة العرب، وما داني ذلك من الشام والعراق^(٤)، وجيبت إليه الأخماس، [وصدقاتها ما لا يجبي^(٥) للملوك إلا بعضه]^(٦)، وهادته جماعة من الملوك، فما استأثر بشيء من ذلك، ولا أَمَسَكَ دِرْهَمًا منه، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، ومات ﷺ، ودزعه مرهونة في نفقة عياله، وأقتصر من نفقته وملبسه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان - عليه

(١) أخرجه الطبري (٣٤٦/٢) رقم (٤٠٥٠)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٥/١)، والسيوطي في «الدر المشور» (٤٣٤/١)، وعزاه لعبد الرزاق عن قتادة.

(٢) ينظر: «الشفاه» (١٢٢-١٢٣).

(٣) الغنيمة في اللغة: ما ينال الرجل أو الجماعة بسعي، ومن ذلك قول الشاعر: [الوافر]

وقد طوّفت في الآفاق حتى رضىت من الغنيمة بالإياب
وتطلق الغنيمة على الفوز بالشئ بلا مشقة، ومن قولهم للشئ يحصل عليه الإنسان عفواً بلا مشقة: «غنيمة باردة».

واصطلاحاً: عرفها الشافعية بأنها: مال أو مال ألحق به، كخمر محترمة، حصل لنا من كفار أصليين حربيين، مما هو لهم بقتال منا، أو إيجاف خيل ما، أو نحو ذلك.

وعرفها الحنفية: بما نيل من أهل الشرك عنوة؛ أي قهراً، أو غلبة والحرب قائمة.

وعرفها المالكية: بأنها اسم لما أخذه المسلمون من الكفار بإيجاف الخيل أو الركاب.

وعرفها الحنابلة: بأنها ما أخذ من مال حربي قهراً بقتال وما ألحق به..

ينظر: «الإقناع» للخطيب الشربيني (٥١٧/٢)، «أنيس الفقهاء» (١٨٣)، و «كشاف القناع» (٧٧/٣).

(٤) من «الشفاه» (١٢٣/١).

(٥) يجبي: يجمع.

(٦) من «الشفاه» (١٢٣/١).

السلام - يلبس ما وَجَدَ، فيلبسُ في الغالبِ السُّمْلَةَ، والكساءَ الخَشِينَ، والبُرْدَ الغليظَ. انتهى.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾

وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ الآية: قال ابن عباس: ﴿الناس﴾: القُرُونُ التي كانت بين آدم ونوح، وهي عَشَوَةٌ كانوا على الحق؛ حتى اختلفوا، فبعث الله تعالى نوحاً فمن بعده^(١)، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: كفاراً يريد في مدة نوح؛ حين بعثه الله^(٢).

وقال أبي بن كعب، وابن زَيْد: المراد بـ ﴿الناس﴾ بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم، أي: كانوا على الفطرة^(٣)، وقيل غير هذا، وكل من قَدَّر الناس في الآية مؤمنين، قَدَّر في الكلام «فَاخْتَلَفُوا»، وكلُّ من قَدَّرهم كفاراً، قَدَّر: كانت بعثة النبيين إليهم.

والأُمَّة: الجماعة على المَقْصِد، ويسمى الواحد أُمَّةً، إذا كان منفرداً بِمَقْصِد، و﴿مُبَشِّرِينَ﴾: معناه بالشواب على الطاعة، و﴿مُنْذِرِينَ﴾: بالعقاب، و﴿الكتاب﴾: اسم الجنس، والمعنى: جميع الكتب، و﴿لِيَحْكُمَ﴾: مسند إلى الكتاب؛ في قول الجمهور، والذين أُوتوه أرباب العلم به، وخصوا بالذكر تنبيهاً منه سبحانه على عظيم الشُّعْعة، والقُبْح، و﴿الْبَيِّنَات﴾: الدَّلالات، والحجج، والبغى: التعدي بالباطل، وهَدَى: معناه أرشد،

(١) أخرجه الطبري (٣٤٧/٢) برقم (٤٠٥١)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٥/١)، وعزاه إلى البزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٨٦/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٥/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٣٤٨/٢) برقم (٤٠٥٧)، عن ابن زيد.

وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٨٦/١)، عن أبي بن كعب. وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٢٨٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٥/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب.

والمراد بـ ﴿الذين آمنوا﴾ من آمن بمحمد ﷺ فقالت طائفة: معنى الآية أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض، فهدى الله أمة محمد ﷺ للتصديق بجميعها^(١)، وقالت طائفة: إن الله سبحانه هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيه أهل الكتاب من قولهم: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً^(٢)، قال زيد بن أسلم: وكأخلافهم في يوم الجمعة؛ فإن النبي ﷺ / قال: «هذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهذانا الله له، فليهود غد، وللنصارى بَعْدَ غد، وفي صياهم، وجميع ما اختلفوا^(٣) فيه.

قال الفراء: وفي الكلام قلب، واختاره الطبري^(٤)، قال: وتقديره: فهدى الله الذين آمنوا للحق ممّا اختلفوا فيه، ودعاه إلى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللفظ أنهم اختلفوا في الحق، فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق في نفسه؛ نحا إلى هذا الطبري في حكايته عن الفراء.

قال * ع^(٥) *: وأدعأ القلب على كتاب الله دون ضرورة تدفع إلى ذلك عجز، وسوء نظير. وذلك أن الكلام يتخرج على وجهه ورصفه؛ لأن قوله: ﴿فهدي﴾ يقتضي أنهم أصابوا الحق، وتم المعنى في قوله: ﴿فيه﴾، وتبين بقوله: ﴿من الحق﴾ جنس ما وقع الخلاف فيه، و ﴿يأذنيه﴾ قال الزجاج^(٦): معناه بعلمه.

* ع^(٧) *: والإذن هو العلم، والتمكين، فإن أقرن بذلك أمر، صار أقوى من الإذن بمزية.

وقوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم...﴾ الآية: أكثر المفسرين^(٨)

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٦/١).

(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٧/١).

(٣) أخرجه الطبري (٣٥١/٢) برقم (٤٠٦٤)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١٨٧/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٧/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٦/١)، وعزاه لابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم.

(٤) «تفسير الطبري» (٢٨٦/٤).

(٥) «المحرر الوجيز» (٢٨٧/١).

(٦) «معاني القرآن» (٢٨٥/١).

(٧) «المحرر الوجيز» (٢٨٧/١).

(٨) ينظر: «الطبري» (٢٨٨/٤)، و «المحرر الوجيز» (٢٨٧/١)، و «بحر العلوم» (٢٠٠/١)، و «الرازي» (١٧/٦).

أنها نزلت في قصة الأحزاب حين حصروا المدينة، وقالت فرقة: نزلت تسلياً للمهاجرين، حين أصيبت أموالهم بغدهم، وفيما نالهم من أذى الكافرين لهم.

و ﴿خَلَوْا﴾: معناه: أنقرضوا، أي: صاروا في خلأ من الأرض، و ﴿البأساء﴾ في المال، و ﴿الضرأ﴾ في البدن، و ﴿مثل﴾: معناه شبه، والزلزلة: شدة التحريك، تكون في الأشخاص والأحوال.

وقرأ نافع^(١): «يقول» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب، وحتى: غاية مجردة تنصب الفعل بتقدير «إلى أن» وعلى قراءة نافع، كأنها اقترن بها تسيب، فهي حرف ابتداء ترفع الفعل.

وأكثر المتأولين على أن الكلام إلى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين، ويكون ذلك من قول الرسول على طلب أستعجال الضر، لا على شك ولا أرتياب، والرسول اسم الجنس، وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا: متى نضر الله، فيقول الرسول: ألا إن نضر الله قريب، فقدم الرسول في الرتبة؛ لمكانته، ثم قدم قول المؤمنين؛ لأنه المتقدم في الزمان.

قال ع^(٢): * وهذا تحكم، وحمل الكلام على وجهه غير متعذر، ويحتمل أن يكون: ﴿ألا إن نضر الله قريب﴾ إخباراً من الله تعالى مؤتلفاً بعد تمام ذكر القول.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير...﴾ الآية: السائلون: هم المؤمنون، والمعنى: يسألونك، ما هي الوجوه التي ينفقون فيها؟ و «ما» يصح أن تكون في موضع رفع على الابتداء، و «ذا»: خبرها بمعنى «الذي» و «يُنْفِقُونَ»: صلة، و «فيه» عائذ على «ذا» تقديره: ينفقونه، ويصح أن تكون «ماذا» اسماً واحداً مركباً في موضع نصب.

(١) وحجته أنها بمعنى «قال»، وليست على الاستقبال، وإنما ينصب من هذا الباب ما كان مستقبلاً.

وحجة الباقي أنها بمعنى الانتظار.

ينظر: «حجة القراءات» (١٣١-١٣٢)، و «السبعة» (١٨١)، و «النشر» (٢/٢٢٧)، و «الحجة» للفارسي (٢/٣٠٥)، و «الزجاج» (١/٢٧٧).

(٢) «المحرر الوجيز» (١/٢٨٨).

قال قوم: هذه الآية في الزكاة المفروضة، وعلى هذا نسخ منها الوالدان^(١)، وقال السدي: نزلت قبل فرض الزكاة، ثم نسختها آية الزكاة المفروضة^(٢)، وقال ابن جريج وغيره: هي نذبة، والزكاة غير هذا الإنفاق، وعلى هذا لا نسخ فيها^(٣).

و ﴿مَا تَفْعَلُوا﴾ جزم بالشرط، والجواب في الفاء، وظاهر الآية الخبر، وهي تتضمن الوعد بالمجازات، و ﴿كُتِبَ﴾: معناه فرض وأستمر الإجماع على أن الجهاد على أمة محمد ﷺ فرض كفاية^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا...﴾ الآية: قال قوم: عسى من الله واجبة، والمعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة، وهو خير لكم في أنكم تغلبون

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٨/١).

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٦/٢) برقم (٤٠٧١)، وذكره البغوي (١٨٨/١). وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٧/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري (٣٥٦/٢) برقم (٤٠٧٢)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٩/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٧/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج.

(٤) أجمع العلماء على أن الجهاد يكون فرض عين في ثلاثة أحوال:

الأول: أن يستنفر الإمام شخصاً أو جماعة للقتال، ففي هذه الحالة يتعين الخروج على من طلب للجهاد. والدليل على ذلك قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُم إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وجه الدلالة: أن الله (تعالى) أنكر تناقلهم عن الجهاد، ولو لم يكن متعيناً لما أنكره عليهم. وما رواه الجماعة إلا ابن ماجة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتُهُ، وَإِذَا اسْتَنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا».

وجه الدلالة من الحديث: أن النبي ﷺ يقول: من طُلب للجهاد وجب عليه أن ينفر، وهو معنى الوجوب العيني.

الثاني: أن يدخل العدو بلاد المسلمين، أو يتغلب على قطر من أقطارهم، فيتعين القتال حينئذ، والدليل عليه الإجماع؛ لأنه من قبيل إغاثة الملهوف المجمع عليها.

الثالث: عند التقاء الصنفين يجب على من حضر القتال، ويحرم الانصراف إلا إذا كان مُتَحَرِّفًا لقتال أو متحيزاً إلى فئة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا فَلَا تُوَلُّوهُمْ إِلَّا ذُبَابًا * وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦] فقد نهى الله المؤمنين عن التولي يوم الزحف، وتوعدهم عليه، والنهي والتوعد يدلان على أن الثبات واجب، واستفيدت العينية من أداة العموم في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ﴾..... ثم اختلفوا في غير هذه الأحوال:

فذهب جمهور العلماء إلى أنه فرض كفاية، إذا قام به من فيه الكفاية سقط الطلب عن الباقيين.

وقيل: إنه فرض عين، وحكاها الماوردي عن سعيد بن المسيب. وقيل: إنه مندوب.

وَتَظْهَرُونَ، وَتَغْتُمُونَ، وَتُوجَرُونَ، وَمِنْ مَات، مَاتَ شَهِيدًا، وَعَسَى أَنْ تُجِبُوا الدَّعَةَ، وَتَرَكَ هـ ب القتال، وهو شرٌ لكم في أنكم تُغْلَبُونَ، وتذَلُونَ، ويذهب أمركم.

قال * ص *: قوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا﴾ عَسَى هنا للترجي، ومجيئها له كثير في كلام العرب، قالوا: وكل «عَسَى» في القرآن للتحقيق، يغنون به الوقوع إلا قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] انتهى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ...﴾ الآية - قوة أمر.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنْ الدُّنْيَا ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ...﴾ الآية نزلت في قصة عمرو بن الحضرمي، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها عبد الله بن جحش الأسدي مقدمه من بدر الأولى، فلقوا عمرو بن الحضرمي، ومعه عثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل المخزوميان، والحكم بن كيسان في آخر يوم من رجب على ما قاله ابن إسحاق^(١)، وقالوا: إن تركناهم اليوم، دخلوا الحرم، فازمعو قتلهم، فرمى واقد بن عبد الله^(٢) عمرو بن الحضرمي بسهم، فقتله، وأسر عثمان بن عبد الله، والحكم، وفر نوفل، فأعجزهم، وأستسهل المسلمون هذا في الشهر الحرام؛ خوف فوتهم، فقالت قريش: محمد قد استحل الأشهر الحرم، وعيروا بذلك، وتوقف النبي ﷺ وقال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ» فنزلت هذه الآية، و ﴿قِتَالٍ﴾ بدل اشتغال عند سيوئه.

وقال الفراء: هو مخفوض بتقدير «عَنْ» وقرئ^(٣) به، والشهر في الآية اسم الجنس،

(١) أخرجه الطبري في «ال تفسير» (٣٦٠/٢) برقم (٤٠٨٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨٩/١).

(٢) واقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يزبوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مائة بن تميم التميمي الحنظلي اليربوعي، حليف بني عدي بن كعب.

قال موسى بن عتبة في «المغازي»: واقد، ويقال: وقدان، شهد بدرًا، وكذا ذكره ابن إسحاق فيمن شهد بدرًا. ينظر: «الإصابة» (٤٦٥/٦).

(٣) وهي في مصحف عبد الله بن مسعود، ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٠/١)، وزاد أبو حيان في «البحر» (١٥٤/٢) نسبتها إلى ابن عباس، والربيع، والأعمش.

وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قواماً تعتدل عنده، فكانت لا تسفك دمًا، ولا تغير في الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم ورجب، وروى جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ لم يكن يغزو فيها إلا أن يغزى، فذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ﴾: مبتدأ مقطوع مما قبله، والخبر «أكبر»، ومعنى الآية؛ على قول الجمهور: إنكم يا كفّار قُرَيْشٍ تَسْتَغْطُمُونَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وما تفعلون أنتم من الصّد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، وكُفِّرَكُمْ بِاللَّهِ، وإخراجكم أهل المسجد عنه؛ كما فعلتم برسول الله ﷺ وأصحابه، أكبر جُرمًا عند الله.

قال الزهري ومجاهد وغيرهما: قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كِبِيرٌ﴾ منسوخ.

* ص * : وسبيل الله: دينه^(١)، و ﴿المسجد﴾: قراءة الجمهور بالخفض، قال المبرّد، وتبعه ابن عطية^(٢) وغيره: هو معطوف على ﴿سبيل الله﴾؛ ردّ بأنه حينئذ يكون متعلقاً بـ «صدّ»، أي: صدّ عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، فيلزم الفضل بين المصدر، وهو «صدّ» وبين معموله، وهو «المسجد» بأجنبي، وهو: «وكُفِّرَ بِهِ»، ولا يجوز.

وقيل: معطوف على ضمير «به»، أي: وكُفِّرَ بِهِ، وبِالْمَسْجِدِ؛ ردّ بأن فيه عطفًا على الضمير المجرور من غير إعادة الخافض؛ ولا يجوز عند جمهور البصريين، وأجازه الكوفيون، ويونس^(٣)، وأبو الحسن والشّلوّيين^(٤)، والمختار جوازه؛ لكثرة سماعاً؛ ومنه

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٣٦٢-٣٦٣-٣٦٥) برقم (٤٠٨٨)، عن مجاهد، ويرقم (٤٠٨٩)، (٤١٠١) عن الزهري، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٠)، عن الزهري، ومجاهد.

وذكره أيضاً السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٤٩) وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد. وفي (١/ ٤٥٠) عزاه لعبد الرزاق، وأبي داود في «ناسخه»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الزهري.

(٢) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٠).

(٣) يونس بن حبيب الضبي بالولاء، البصري، أبو عبد الرحمن. قال السيرافي: بارع في النحو، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، سمع من العرب، وروى عن سيويه فأكثر، وله قياس في النحو، ومذاهب يتفرّد بها. سمع منه الكسائي والفراء. وكانت له حلقة بـ «البصرة» يتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الأعراب والبادية. مولده سنة تسعين، ومات سنة ثنتين وثمانين ومائة. ينظر: «البغية» (٢/ ٣٦٥).

(٤) عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله، الأستاذ أبو علي الإشبيلي، الأزدي، المعروف بالشّلوّيين، ومعناه بلغة الأندلس: «الأبيض الأشقر».

قراءة حمزة: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] أي: وبالأرحام، وتأويلها على غيره بعيدٌ يُخْرِجُ الكلام عن فصاحته. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾: المعنى عند جمهور المفسرين: والفتنة التي كُنْتُمْ تفتنون المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا أشدُّ أجتراماً من قتلهم في الشهر الحرام، وقيل: المعنى والفتنة أشدُّ من أن لو قتلوا ذلك المَفْتُون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ هو ابتداء خبر من الله تعالى، وتحذيرٌ منه للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ﴾، أي: يرجع عن الإسلام إلى الكفر؛ عياداً بالله، قالت طائفة من العلماء: يُسْتَتَابُ المرتدُّ ثلاثة أيام، فإن تاب، وإلا قتل، وبه قال مالك، وأحمد^(١)، وأصحاب الرأي، والشافعي في أحد قوليه، وفي قول له: يُقْتَلُ دون استتابة، وحبط العمل، إذا انفسد في آخره، فبطل، وميراث المرتد^(٢) عند مالك والشافعي: في بيت

= قال ابن الزبير: كان إمام عصره في العربية بلا مدافع، آخر أئمة هذا الشأن بالشرق والمغرب، ذا معرفة بنقد الشعر وغيره، بارعاً في التعليم، ناصحاً، أبقى الله به ما بأيدي أهل المغرب من العربية. روى عن السهيلي، وابن بشكوال، وغيرهما، وأجاز له السلفي وغيره، وأخذ عنه ابن أبي الأوص، وابن قزتون وجماعة.

وصنف تعليقاً على كتاب سيويه، وشرحين على الجزولية، وله كتاب في النحو سماه «التوطئة». مولده سنة ثنتين وستين وخمسائة، ومات في العشر الأخير من صفر سنة خمس وأربعين وستمائة. ينظر: «البغية» (٢/٢٢٤ - ٢٢٥).

(١) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي. ولد سنة ١٦٤، أخذ الفقه عن الشافعي، وسلك مسلكه، صنف المسند. قال إبراهيم الحربي: كان الله جمع له علم الأولين والآخرين. توفي سنة ٢٤١.

ينظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (١/٥٦)، و«حلية الأولياء» (٩/١٦١)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/٤٣١).

(٢) إذا قتل المرتد أو مات على رده، فقد اختلف الفقهاء في إرث ورثته المسلمين لماله على الوجه الآتي: ذهب الشافعي، وابن أبي ليلى، وأبو ثور، وأحمد بن حنبل، ومالك، وداود بن علي، وعلقمة، وقاتدة إلى عدم إرث ورثته المسلمين من تركته. واختلف هؤلاء فيما بينهم، فذهب الشافعي، وابن أبي ليلى، وأبو ثور، وابن حنبل إلى أن جميع ماله يكون فيئاً لبيت مال المسلمين، ووافقهم مالك على ذلك، إلا في حالة واحدة هي ما إذا قصد المورث المرتد حرمان ورثته من ماله فيرثوه في تلك الحالة عنده. وذهب داود بن غلي إلى أن ماله يكون لورثته الذين ارتد إليهم. وذهب علقة، وقاتدة إلى أن ماله ينتقل لأهل الدين الذين ارتد إليهم.

وذهب الحنفية، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وسعيد بن المسيب، وعمر بن =

مال المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية:

= عبد العزيز، والحسن، وعطاء، وسفيان الثوري، وزفر إلى إرث ورثته المسلمين من تركته. وهؤلاء فريقان أيضاً: ذهب علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، والحسن وعطاء، والصاحبان من الحنفية إلى أن جميع ماله الذي كسبه في الإسلام وبعد رده يكون موروثاً لورثته المسلمين. وذهب الإمام أبو حنيفة، وسفيان الثوري، وزفر إلى أن الذي يورث هو كسب إسلامه دون كسب رده فإنه يكون فيثاً.

استدل القائلون بعدم إرث الورثة المسلمين:

أولاً: بما رواه البراء بن عازب قال: مر بي خالي أبو بردة ومعه الراية، فقلت: إلى أين تذهب؟ فقال: أرسلني رسول الله ﷺ إلى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً أَبِيهِ أَنْ أَقْتُلَهُ وَأَخَذَ مَالَهُ. دلت الرواية على أن مال المرتد فيء وليس لورثته، فإن إرسال الرسول الرجل لمن فعل فعلاً يخرج به عن الإسلام، وأمره بقتله - دليل على أنه ارتد بفعله.

وثانياً: بما روى معاوية بن قرة عن أبيه؛ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بعث جَدَّ مَعَاوِيَةَ إِلَى رَجُلٍ عَرَسَ بِامْرَأَةِ أَبِيهِ أَنْ يُضْرِبَ عُنُقَهُ، وَيُخَمَّسَ مَالَهُ» وهذا يدل على أن مال ذلك الرجل كان مغنوماً بالمحاربة، ولذلك أخذ منه الخمس.

ونوقش الحديثان:

بأن الرسول ﷺ إنما فعل ذلك؛ لأن كلاً من الرجلين، كان محارباً بسبب استحلاله لأمر محظور شرعاً، فكان ماله مغنوماً. ودليل ذلك: أن الراية إنما تعقد للمحاربة لا لغيرها. وإذا كان مغنوماً، فلا حق لورثته والحالة هذه لكونه فيثاً.

واستدلوا ثانياً: بأن المرتد كافر برده، والمسلم لا يرث الكافر.

ونوقش بالفرق بين المرتد والكافر؛ فإن ملك المرتد فيما كسبه قبل الردة كان صحيحاً، فلم تجز غنيمة، إذ لا تغنم أموال المسلمين؛ لصحة ملكهم له. وإن جاز غنيمة ما كسبه بعد الردة لمحاربتة الله والرسول، فكان كالمربي في أمواله. وبهذا يتبين أن مال المرتد غير مال الكافر؛ وكيف يكون مثله والمرتد غير مَقْرُوعٍ على ما انتقل إليه، ولا يحل التزوج بالمرتدة ولا أكل ذبيحتها ولا كذلك الكافر.

واستدل القائلون بالإرث، وهم الحنفية:

أولاً: بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وجه الدلالة: أن صلة الرحم باقية بين المرتد وورثته، فتكون سبباً في بقاء الميراث بينهما.

ثانياً: بالآثار: فقد ورد عن كثير من الصحابة توريثهم الورثة المسلمين من المرتد؛ روى زيد بن ثابت قال: بعثني أبو بكر عند رجوعه إلى أهل الردة أن أقسم أموالهم بين ورثتهم المسلمين. وروى مثله عن ابن مسعود، وإليه ذهب أكثر التابعين؛ كسعيد بن المسيب، والحسن. وروى عن علي بن أبي طالب أنه أتى بالمستورد العجلي وقد ارتد، فعرض عليه الإسلام، فأبى أن يسلم، فضرب عنقه، وجعل ميراثه لورثته المسلمين. وروى ابن حزم من طريق المنهال عن معاوية الضرير عن الأعمش عن أبي عمرو الشيباني عن علي بن أبي طالب «اجعلوا ميراث المرتد لورثته من المسلمين». فدللت هذه الآثار على أن ورثة المرتد المسلمين أحق بتركته دون غيرهم إذا كانوا يرثونه في الصدر الأول.

قال عروة بن الزبير وغيره: لما عَفَّ المسلمون عبدَ الله بن جَحْشٍ وأصحابه، شَقَّ ذلك عليهم، فتلافاهم الله عز وجل بهذه الآية، ثم هي باقية في كل من فعل ما ذكره الله عز وجل^(١).

وهَا جَرَ الرَّجُلُ، إذا انتقل نقلة إقامة من موضع إلى موضع، وقصد ترك الأول إشاراً للثاني، وهي مُفَاعَلَةٌ من هَجَرَ، وَجَاهَدَ مُفَاعَلَةٌ من جهد، إذا استخرج الجهد، و ﴿يَرْجُونَ﴾: معناه يطمعون ويستقربون، والرجاء تنعم، والرجاء أبداً معه خوف ولا بد، كما أن الخوف معه رجاء.

* ت * : والرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنيّة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْبَقَاةُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُ فَأَعُوذُ بِاللَّهِ يَعْلَمُ الْمُنَافِقُ مِنْ الْأَمْلِيقِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ الآية: السائلون هم المؤمنون، والخمر: مأخوذ من خمر، إذا ستر؛ ومنه: خِمَارُ الْمَرْأَةِ، والخمر: ما وارك من شجر وغيره، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

أَلَا يَا زَيْدُ وَالضُّحَّاكَ سِيرًا فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَمَرَ الطَّرِيقِ^(٢)

= واستدلوا ثالثاً: بأن المرتد بردته تنتقل أمواله عنه، فلا بد أن تنقل إلى ورثته المسلمين، كما لو انتقلت بالموت، خصوصاً وقد جاء نص الموارث عاماً؛ لأن ظاهر قوله: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ» [النساء: ١١] يقتضي توريث المسلم من المرتد؛ إذ لم يفرق بين الميت المسلم وبين المرتد. ونوقش: بأن العموم في آية الموارث قد خص بحديث أسامة بن زيد: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ مِنَ الْكَافِرِ» كما خص توريث الكافر من المسلم، وهو وإن كان من أخبار الآحاد إلا أن الأمة تلقتة بالقبول، واستعملته في منع توريث الكافر من المسلم، فصار في حيز المتواتر؛ لأن آية الموارث خاصة بالاتفاق. وأخبار الآحاد مقبولة في تخصيص مثلها.

وأجيب: بأن حديث أسامة المراد به إسقاط التوارث بين أهل الملتين، وليست الردة بملة قائمة؛ لأنه غير مُقَرَّرَ عليها. وليس محكوماً عليه بحكم الملة التي انتقل إليها، فلم يتناول الحديث محل النزاع. ينظر: «أثر الاختلاف في الأحكام» لشيخنا «بدران أبو العينين»، «تفسير الجصاص» (١٢٧/٢)، «مغني» ابن قدامة (١٧٤/٧)، «المتقى» على الموطأ (٢٥٠/٦)، «الأم» للشافعي (٣/٤)، «المحلى» لابن حزم (٣٠٨/٩).

(١) أخرجه الطبري (٣٦٩/٢) برقم (٤١٠٦)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩١/١).

(٢) البيت بلا نسبة في «الأزهية» (ص ١٦٥)؛ و «الدرر» (١٦٨/٦)؛ و «شرح قطر الندى» (ص ٢١٠)؛ =

ولما كانت الخمر تسترُ العقل، وتغطي عليه، سُميت بذلك، وأجمعت الأمة على تحريم خمر العنب، ووجوب الحد في القليل والكثير منه، وجمهور الأمة على أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب محرّم قليله وكثيره، والحد في ذلك واجب.

وروي أن هذه الآية أول تطرُق إلى تحريم الخمر، ثم بعده: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] ثم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ . . .﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائد: ٩٠] فقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَتِ الْخَمْرُ»^(١)،

= و «شرح المفصل» (١٢٩/١)؛ و «لسان العرب» (٢٥٧/٤) (خمر)؛ و «اللمع» (ص ١٩٥)؛ و «همع الهوامع» (١٤٢/٢)، و «الدر المصون» (٥٣٥/١).

واستشهد بقوله: «يا زيد والضحاك» حيث روي بنصب «الضحاك» ورفع، فدل ذلك على أنّ المعطوف على المنادى المبني، إذا كان مفرداً، يجوز فيه وجهان: الرفع على لفظ المنادى، والنصب على محله. (١) أخرجه النسائي (٣٢١/٨)، كتاب «الأشربة»، باب ذكر الأخبار التي اعتل بها من أراد شرب السكر، من طريق ابن شبرمة، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، عن ابن عباس موقوفاً بلفظ: «حرمت الخمر قليلاً وكثيرها، والسكر من كل شراب».

قال النسائي: ابن شبرمة لم يسمعه من عبد الله بن شداد، وأخرجه (٣٢١/٨) كتاب «الأشربة»، باب ذكر الأخبار التي اعتل بها من أراد شرب السكر، من طريق ابن شبرمة قال: حدثني الثقة عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس به. قال: خالفه أبو عون محمد بن عبيد الله الثقفي.

فرواه عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس بزيادة: «حرمت الخمر بعينها: قليلاً، وكثيرها» . . . أخرجه النسائي (٣٢١/٨).

ثم أخرجه من طريق عباس بن ذريح، عن أبي عون، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس قال: «حرمت الخمر؛ قليلاً وكثيرها، وما أسكر من كل شراب».

قال النسائي: وهذا أولى بالصواب من حديث ابن شبرمة، وهشيم بن بشير - الراوي عنه - كان يدلّس، وليس في حديثه ذكر السماع من ابن شبرمة، ورواية أبي عون أشبه بما رواه الثقات عن ابن عباس. وقد أخرجه النسائي (٣٢١/٨)، والدارقطني (٢٥٦/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٢٤/٧)، من طريق شعبة، عن مسعر، عن أبي عون به، عن ابن عباس موقوفاً.

وفي الباب عن علي مرفوعاً: أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١٢٣-١٢٤)، من طريق محمد بن الفرات الكوفي، عن أبي إسحاق السبيعي، عن الحارث، عن علي قال: طاف النبي ﷺ بين الصفا والمروة أسبوعاً، ثم استند إلى حائط من حيطان مكة، فقال: «هل من شربة؟» فأتى بقعب من نبيذ، فذاقه، فقطب، قال: فردّه، قال: فقام إليه رجل من آل حاطب، فقال: يا رسول الله، هذا شراب أهل مكة، قال: فردّه. قال: فصب عليه الماء حتى رغا، ثم شرب، ثم قال: «حرمت الخمر بعينها، والسكر من كل شراب».

قال العقيلي: لا يتابع عليه.

= ونقل عن يحيى قوله: ليس بشيء، وعن البخاري قوله: منكر الحديث.

ولم يحفظ عن النبي ﷺ في حدِّ الخمر إلا أنه جلد أربعين، خرَّجه مسلم، وأبو داود^(١)، وروي عنه ﷺ؛ أنه ضرب فيها ضرباً مُشاعاً^(٢)، وحَزَرَهُ أبو بكر أربعين سوطاً، وعمل بذلك هو، ثُمَّ عمر^(٣) ثم تهافت النَّاس فيها، فشَدَّد عليهم الحدَّ، وجعله كَأَخْفِ الحدود

وقول العقيلي: لا يتابع عليه، فيه نظر.

فقد تابعه عبد الرحمن بن بشر الغطفاني.

أخرجه هو في «ضعفاته» (٤٢٤/٣) من طريقه، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن الأشربة، عام حجة الوداع، فقال رسول الله ﷺ: «حرم الله الخمر بعينها، والسكر من كُلِّ شراب».

قال العقيلي: عبد الرحمن بن بشر مجهول في النسب والرواية حديثه غير محفوظ.

ليس له من حديث أبي إسحاق أصل، وهذا يعرف عن عبد الله بن شداد بن الهاد، عن ابن عباس قوله. أخرجه أحمد (٦٧/٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٥٧/٣)، كتاب «الحدود»، باب حد الخمر، من طريق يزيد بن هارون، عن المسعودي، عن زيد العمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: جلد على عهد النبي ﷺ في الخمر بتعنين أربعين، فلما كان زمن عمر جلد بدل كل نعل سوطاً. وزيد العمي ضعيف، والمسعودي كان قد اختلط.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦/١٢) كتاب «الحدود»، باب الضرب بالجريد والنعال، حديث (٦٧٧٨)، ومسلم (١٣٣٢/٣) كتاب «الحدود»، باب حد الخمر، حديث (١٧٠٧/٣٩)، وأبو داود (٦٢٦/٤)، كتاب «الحدود»، باب إذا تتابع في شرب الخمر، حديث (٤٤٨٦)، وابن ماجه (٨٥٨/٢)، كتاب «الحدود»، باب حد السكران، حديث (٢٥٦٩)، وأحمد (١٢٥/١)، وأبو يعلى (٢٨١/١) برقم (٣٣٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار»، كتاب «الحدود»، باب حد الخمر، والبيهقي (٣٢١/٨)، كتاب «الأشربة والحد فيها»، باب الشارب يضرب زيادة على الأربعين. كلهم من حديث علي قال: ما كنت لأقيم حداً على أحد، فيموت، وأجد في نفسي منه شيئاً، إلا صاحب الخمر؛ فإنه لو مات وديته، وذلك أن رسول الله ﷺ لم يتبين فيه شيئاً.

قال البيهقي: وإنما أراد - والله أعلم - أن رسول الله ﷺ لم يسنه زيادة على الأربعين، أو لم يسنه بالسياط، وقد سنه بالنعال، وأطراف الثياب مقدار أربعين.

(٣) أخرجه أبو داود (٦٢٨/٤)، كتاب «الحدود»، باب إذا تتابع في شرب الخمر، حديث (٤٤٨٩)، والشافعي (٩٠/٢) كتاب «الحدود»، باب حد الشرب، حديث (٢٩٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٥٦/٣)، كتاب «الحدود»، باب حد الخمر، والحاكم (٣٧٥/٤)، كتاب «الحدود»، باب كان الشارب يضرب بالأيدي والنعال، والبيهقي (٣٢٠/٨) كتاب «الأشربة»، باب عدد حد الخمر، عن عبد الرحمن بن أذهر قال: «رأيت رسول الله ﷺ غداة الفتح، وأنا غلام شاب يتخلل الناس، يسأل عن منزل خالد بن الوليد، فأني بشارب، فأمرهم، فضربوه بما في أيديهم، فمنهم من ضربه بالسوط، ومنهم من ضربه بعضاً، ومنهم من ضربه بتعليه، وحتى رسول الله ﷺ التراب، فلما كان أبو بكر، فسألهم عن ضرب النبي ﷺ الذي ضرب، فحزروه أربعين، فضرب أبو بكر أربعين. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

ثَمَانِينَ؛ وبه قال مالك^(١).

(١) ذهب الحنفية والمالكية إلى أن حد الخمر ثمانون، وهو مذهب إسحاق، والأوزاعي، والثوري، وغيرهم، وإحدى الروایتين عن أحمد، وأحد قولي الشافعي، واختاره ابن المنذر.

وذهب الشافعي (في أصح مذهبه) إلى أن قدرها أربعون، وهو مذهب الظاهرية، وأبي ثور، وإحدى الروایتين عن أحمد، قال الشافعي: وللإمام أن يبلغ به ثمانين، وتكون الزيادة على الأربعين تعزيرات على تسببه في إزالة عقله، وفي تعرضه للقدف والقتل وأنواع الإيذاء، وترك الصلاة وغير ذلك.

واحتج الأولون بما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وصححه عن أنس أن النبي ﷺ «أَتَى بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ، فَجُلِدَ بِجَرِيدَتَيْنِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ. وَقَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ اسْتَشَارَ النَّاسَ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَخَفِّ الْخُدُودِ ثَمَانِينَ. فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ».

وبما رواه أحمد عن أبي سعيد قال: جلد على عهد رسول الله ﷺ في الخمر بنعلين أربعين، فلما كان زمن عمر جعل بدل كل نعل سوطاً.

وجه الدلالة: أن شارب الخمر كان يجلد بين يدي رسول الله ﷺ ثمانين؛ لأنه كان يضرب بالجريدتين أو بالنعلين مجتمعين أربعين، فتكون الجملة الحاصلة ثمانين؛ لأن كل ضربة ضربتان. وإن كانت الرواية الأولى محتملة؛ لقوله: «فَجُلِدَ بِجَرِيدَتَيْنِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ» إلا أن الثانية جازمة، بأن الضرب بنعلين أربعين، ولذا استشار عمر الصحابة (رضوان الله عليهم أجمعين) فرأوا أن الجلد في الخمر ثمانون سوطاً بدل الضرب بالنعال ونحوها.

وروى الإمام مالك (رضي الله عنه) عن ثور بن زيد الديلي أن عمر بن الخطاب استشار في الخمر يشربها الرجل فقال له علي بن أبي طالب: «نرى أن تجلده ثمانين؛ فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى. أو كما قال. فجلد عمر في الخمر ثمانين».

وجه الدلالة: أن عمر (رضي الله عنه) استشار الصحابة في عقوبة شرب الخمر، فأشار عليه عليٌّ بأنها ثمانون، فوافقه عمر عليها، وعمل بها؛ فدل ذلك على أنها ثمانون، ولم يعلم له مخالف.

وأما المعقول فقالوا: إن هذا حد في معصيته، فلم يكن أقل من ثمانين، كحد الفرية والزنا. وأما الإجماع، فقالوا: إن الصحابة في عهد عمر أجمعوا على أن حد شرب الخمر ثمانون. يدل لذلك ما روى الدارقطني قال: حدثنا القاضي الحسين بن إسماعيل، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدؤزقي، قال: حدثنا صفوان بن عيسى، قال: حدثنا أسامة بن زيد عن الزهري، قال: أخبرني عبد الرحمن بن أزهر، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين، وهو يتخلل الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد، فأتي بسكران، قال: فقال رسول الله ﷺ لمن عنده، فضربوه بما في أيديهم، وقال: وحثا رسول الله ﷺ عليه التراب قال: ثم أتى أبو بكر (رضي الله عنه) بسكران، قال: فتوختي الذي كان من ضربهم يومئذ، فضرب أربعين. قال الزهري: ثم أخبرني حميد بن عبد الرحمن عن ابن وبرة الكلبي قال: أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر، قال: فأتيته ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب وطلحة والزبير (رضي الله عنهم). وهم معه متكئون في المسجد، فقلت: إن خالد بن الوليد أرسلني إليك وهو يقرأ عليك السلام، ويقول: إن الناس قد انهمكوا في الخمر وتحاقروا العقوبة فيه، فقال عمر: هم هؤلاء عندك، فسلهم، فقال علي: نراه إذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفترى ثمانون. قال: فقال عمر: أبلغ صاحبك ما قال، قال: فجلد خالد ثمانين، وعمر ثمانين.

ويجتنب من المضروب: الوجه، والفَرْج، والقَلْب، والدِّماغ، والخَوَاصِر؛ بإجماع.
قال ابن سيرين، والحسن، وابنُ عَبَّاس، وابنُ المُسَيَّب، وغيرهم: كلُّ قمارٍ مَيْسِرٌ؛
مِنْ نَزْدٍ وشَطْرُنَجٍ، ونحوه، حتَّى لَغِبَ الصَّبِيَّانِ بِالْجَوَزِ^(١).

وأخرج أبو داود والنسائي من حديث عبد الرحمن بن أزهر في قصة الشارب الذي ضربه النبي ﷺ بحنين، وفيه: فلما كان عمر كتب إليه خالد بن الوليد أن الناس قد انهمكوا في الشرب وتحاقروا العقوبة. قال: وعنده المهاجرون والأنصار، فسألهم واجتمعوا على أن يضربه ثمانين.
قال الباجي: «واستدل أن ذلك حكمه، وإلى ذلك ذهب مالك، وأبو حنيفة أن حد شارب الخمر ثمانون، وقال الشافعي: أربعون. والدليل على ما نقوله ما روي من الأحاديث الدالة على أنه لم يكن من النبي ﷺ نص في ذلك على تحديد، وكان الناس على ذلك ثم وقع الاجتهاد في ذلك في زمن عمر بن الخطاب، ولم يوجد عند أحد منهم نص على تحديد، وذلك من أقوى الدليل على عدم النص فيه؛ لأنه لا يصح أن يكون فيه نص باق حكمه، ويذهب على الأمة؛ لأن ذلك كان يكون إجماعاً منهم على الخطأ ولا يجوز ذلك على الأمة، ثم أجمعوا واتفقوا على أن الحد ثمانون، وحكم بذلك على ملائمتهم، ولم يعلم لأحد فيه مخالفة؛ فثبت أنه إجماع.

واستدل الشافعي ومن معه بالسنة، والأثر، والمعقول. فمن السنة ما روى مسلم عن أنس (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد أربعين.
وجه الدلالة: أن النبي ﷺ كان يضرب في الخمر بالجريد والنعال أربعين؛ فدل ذلك على أنها حده. وأما الأثر، فما روى مسلم عن حُضَيْن بن المنذر قال: شهدت عثمان بن عفان أتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال: أزيدكم، فشهد عليه رجلان أحدهما حرمان أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيؤها، فقال عثمان: إنه لم يتقيأها حتى شربها، فقال: يا علي قم فاجلده، فقال علي: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: «ول حازها من تولى قازها» فكانه وجد عليه، فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده، فجلده وعلي يحد حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلُّ سُنَّةٍ، وهذا أحب إلَيَّ.

وجه الدلالة: أن علياً (كرم الله وجهه) جزم في إخباره بأن النبي ﷺ جلد أربعين، وسائر الأخبار ليس فيها عدد محدد إلا بعض الروايات السالفة عن أنس، ففيها نحو الأربعين. بطريق التقريب، والجمع بين الأخبار أن علياً جزم بالأربعين، فهو حجة على من ذكرها بلفظ التقريب، فعملنا بما جزم به علي في إخباره عن الجلد الواقع في عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) وعهد أبي بكر، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ولذلك قال لعبد الله بن جعفر لما بلغ الأربعين: أمسك.
وأما المعقول فقالوا: إن الشرب سبب يوجب الحد، فوجب أن يختص بعدد لا يشاركه فيه غيره، كالزنا والقذف.

ينظر: «الباجي» على الموطأ (٣/١٤٤)، و«الزرقاني» على الموطأ (٤/٣٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٢/١٦٥)، و«فتح الباري» (١٢/٥٥).

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٣٧٠-٣٧١) برقم (٤١١٤-٤١١٥)، عن محمد بن سيرين، وبرقم (٤١١٨)، عن الحسين، وبرقم (٤١٢٠) عن سعيد بن المسيب، وبرقم (٤١٢٤) عن ابن عباس. وذكره ابن عطية (١/٢٩٤).

* ت * : وعبارة الداوديّ: وعن ابنِ عُمَرَ: الْمَيْسِرُ الْقِمَارُ كُلُّهُ^(١)، قال ابن عباس: كلُّ ذلك قمارٌ؛ حتى لَغِبَ الصَّيِّتَانِ بِالْجَوَزِ، وَالْكَعَابِ^(٢). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...﴾ الآية: قال ابن عباس، ١٥٤ والرَّيْبُ: الإِثْمُ فِيهِمَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ /، وَالْمَنَفْعَةُ قَبْلَهُ^(٣).

وقال مجاهد: الْمَنَفْعَةُ بِالْخَمْرِ كَسْبُ أَثْمَانِهَا^(٤)، وقيل: اللَّذَّةُ بِهَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْرَاجِهَا^(٥)، ثم أعلم الله عزَّ وجلَّ؛ أَنَّ الإِثْمَ أَكْبَرُ مِنَ النَّفْعِ، وَأَعُودَ بِالضَّرَرِ فِي الْآخِرَةِ، فِهَذَا هُوَ التَّقْدِمَةُ لِلتَّحْرِيمِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قال جمهور العلماء: هذه نفقات التطوُّع، وَالْعَفْوَ مَاخُذٌ مِنْ عَفَا الشَّيْءِ، إِذَا كَثُرَ، فَالْمَعْنَى: أَنْفِقُوا مَا فَضَّلَ عَنْ حَوَائِجِكُمْ، وَلَمْ تُؤْذُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ، فَتَكُونُوا عَالَةً عَلَى النَّاسِ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: الإشارة إلى ما تقدَّم تبيينُهُ مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَالْإِنْفَاقِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى؛ أَنَّهُ يَبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْآيَاتِ الَّتِي تَقُودُهُمْ إِلَى الْفِكْرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَذَلِكَ طَرِيقُ النِّجَاةِ لِمَنْ نَفَعَتْهُ فِكْرَتُهُ.

قال الداوديّ: وعن ابن عباس: لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَعْنِي: فِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَفَنَائِهَا، وَإِقْبَالَ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا^(٦). انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٣٧١/٢) برقم (٤١٣٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٧١/٢) برقم (٤١٢٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٢/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه» عن ابن عباس. والكعاب: فصوص النرد، واحدها كَعَبٌ وَكَعْبَةٌ. ينظر: «لسان العرب» (٣٨٨٩).

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩٤/١) والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٣/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٣٧٢/٢) برقم (٤١٣٧)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/١).

(٥) أخرجه الطبري (٣٧٣/٢) برقم (٤١٤٠)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩٤/١)، والسيوطي (٤٥٢/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه» عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري (٣٨١/٢) برقم (٤١٨١)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩٥/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٦/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «المعظمة» عن ابن عباس.

قال الغزالي - رحمه الله - تعالى: العاقل لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة؛ فإنها مصيره ومستقره، فيكون له في كل ما يراه من ماء، أو نار، أو غيرهما عبرة؛ فإن نظر إلى سواد، ذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى صورة مروعة، تذكر منكراً ونكيراً والزبانية، وإن سمع صوتاً هائلاً، تذكر نفخة الصور، وإن رأى شيئاً حسناً، تذكر نعيم الجنة، وإن سمع كلمة رد أو قبول، تذكر ما ينكشف له من آخر أمره بعد الحساب؛ من رد أو قبول، ما أجدد أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل، لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا، فإذا نسب مدة مقامه في الدنيا إلى مدة مقامه في الآخرة، استحقق الدنيا إن لم يكن أغفل قلبه، وأعميت بصيرته. انتهى من «الإحياء».

وقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾: قال ابن عباس، وسعيد بن المسيب: سبب الآية أن المسلمين لما نزلت: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم...﴾ [الأنعام: ١٥٢] و[الإسراء: ٣٤] الآية، ونزلت: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ [النساء: ١٠]، تجنبوا اليتامى وأموالهم، وعزلوهم عن أنفسهم، فنزلت: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم...﴾ الآية، وأمر الله سبحانه نبيه؛ أن يجيب بأن من قصد الإصلاح في مال اليتيم، فهو خير، فرفع تعالى المشقة، وأباح الخلطة في ذلك إذا قصد الإصلاح، ورفق اليتيم^(١).

وقوله سبحانه: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾: تحذير.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾، أي: لأتعبكم في تجنب أمر اليتامى، والعنت: المشقة، ومنه عقبة عثوث؛ ومنه: عنت العزبة، و ﴿عزيز﴾: مقتضاه لا يرد أمره، و ﴿حكيم﴾: أي: مُحْكِم ما ينفذه.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيَسَبُّ عَيْنَيْهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤) برقم (٤١٨٥ - ٤١٨٦ - ٤١٩٢ - ٤١٩٤ - ٤١٩٦) عن ابن عباس، وبرقم (٤١٨٧) عن سعيد.

وذكره البغوي (١/ ١٩٤) عن ابن عباس، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٥-٢٩٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٥٦)، وعزاه لأبي داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمَنَ﴾ وَنَكَحَ: أَصْلُهُ فِي الْجَمَاعِ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْعَقْدِ تَجَوُّزًا.

قالت طائفة: المشركاُ هنا: مَنْ يُشْرِكُ مَعَ اللَّهِ ^(١) إِلَهًا آخَرَ.

وقال قتادة وابنُ جُبَيْر: الآيةُ عامَّةٌ فِي كُلِّ كَافِرَةٍ، وَخَصَّصْتُهَا آيَةُ الْمَائِدَةِ، وَلَمْ يَتَنَاوَلَ الْعُمُومُ قَطُّ الْكِتَابِيَّاتِ ^(٢)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ: تَنَاوَلَهُنَّ الْعُمُومُ، ثُمَّ نَسَخَتْ آيَةُ الْمَائِدَةِ بَعْضَ الْعُمُومِ فِي الْكِتَابِيَّاتِ ^(٣)، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذَكَرَهُ ابْنُ حَبِيبٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ...﴾ الآية. هذا إخبار من الله سبحانه ب ٥٤ أن المؤمنة المملوكة خير من المشركة، وإن كانت ذات الحسب والمال، ولو أعجبتمكم/ في الحُسن وغير ذلك، هذا قول الطَّبْرِيِّ وغيره.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا...﴾ الآية: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكَ لَا يَطَأُ الْمُؤْمِنَةَ بِوَجْهِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْغَضَاظَةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ.

قال بعض العلماء: إِنْ الْوَلَايَةُ فِي النِّكَاحِ نَصٌّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قُلْتُ: وَيَعْنِي بِيَعُضُ الْعُلَمَاءِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ ^(٤). انتهى.

وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ مَمْلُوكٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ حَسِيبٍ، وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ حُسْنُهُ وَمَالُهُ؛ حَسْبَمَا تَقَدَّمُ.

قال * ع ^(٥) *: وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ ذَكَرُ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ عِبَارَةً عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ خُرُجَهُمْ وَمَمْلُوكِيهِمْ؛ إِذْ هُمْ كُلُّهُمْ عِبْدُهُ سُبْحَانَهُ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، أَي: بِصَحْبَتِهِمْ، وَمَعَاشَرَتِهِمْ، وَالْإِنْحِطَاطُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَهْوَائِهِمْ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُؤْمِنٌ بِالْهَدَايَةِ، وَيَبَيِّنُ الْآيَاتِ، وَيَحْضُرُ عَلَى الطَّاعَاتِ

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩٦/١).

(٢) أخرجه الطبري (٣٨٩/٢) برقم (٤٢٢٠، ٤٢٢١، ٤٢٢٢) عن قتادة، وبرقم (٤٢٢٣) عن سعيد بن جبیر، وذكره البغوي (١٩٥/١).

وابن عطية (٢٩٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٨/١)، وعزاه إلى وكيع، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه» عن سعيد بن جبیر، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩٦/١).

(٤) ينظر: «الأحكام» (١٥٨/١).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٧/١).

التي هي كلها دواع إلى الجئنة، والإذن: العلم والتمكين، فإن أنضاف إلى ذلك أمر، فهو أقوى من الإذن؛ لأنك إذا قلت: أدنئت في كذا، فليس يلزمك أنك أمرت، و ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ترج في حق البشر، ومن تذكر، عمل حسب التذكر، فتجأ.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعِزُّوهُنَّ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢)

قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾ قال الطبري عن السدي: إنَّ السائل ثابت بن الدخداح^(١)، وقال قتادة وغيره: إنما سألوه؛ لأنَّ العرب في المدينة وما والاها، كانوا قد استنوا بسنة بني إسرائيل في تجنب مواكلة الحائض، ومساكنتها، فنزلت الآية^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَاعِزُّوهُنَّ﴾ يريد: جماعهن بما فسر من ذلك رسول الله ﷺ من أن تشد الحائض إزارها، ثم شأنه بأعلاها.

قال أحمد بن نصر الداودي: روي أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ؛ فَإِنَّ الْجَذَامَ يَكُونُ مِنْ أَوْلَادِ الْمَحِيضِ»^(٣) انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، وقرأ حمزة^(٤) وغيره «يَطْهُرْنَ»؛ بتشديد الطاء والهاء، وفتحهما، وكل واحد من القراءتين يحتمل أن يراد بها الاغتسال بالماء، وأن يراد بها انقطاع الدم، وزوال أذاه، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٥): سمعت أبا بكر

(١) أخرجه الطبري (٣٩٣/٢) برقم (٤٢٣٧)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٩٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦١/١)، وعزاه لابن جرير.

وهو ثابت بن الدخداح بن نعيم بن غنم بن إياس، حليف الأنصار. وكان بلوياً، حالف بني عمرو بن عوف. ويقال: ثابت بن الدخداحة. ويكنى أبا الدخداح، وأبا الدخداحة. ينظر: «الإصابة» (٥٠٣/١) (العلمية).

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٣/٢) برقم (٤٢٣٤)، وذكره ابن عطية (٢٩٨/١). والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٢/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٩/١)، وعزاه لابن المنذر.

(٤) ينظر: «السبعة» (١٨٢)، و «الكشف» (٢٩٣/١)، و «الحجة» (٣٢١/٢)، و «حجة القراءات» (١٣٤)، (١٣٥)، و «العنوان» (٧٤)، و «شرح الطيبة» (٩٩/٤)، و «شرح شلعة» (٢٩٠، ٢٩١)، و «معاني القراءات» للأزهري (٢٠٢/١)، و «إتحاف» (٤٣٨/١).

(٥) ينظر: «الأحكام» (١٦٤/١٠).

الشَّاشِيَّ^(١) يقول: إذا قيل: لا تَقْرُبْ؛ بفتح الراء، كان معناه: لا تَلْتَبِسْ بالفعل، وإذا كان بضم الراء، كان معناه لا تَذُنْ منه. انتهى.

وجمهور العلماء على أن وطأها في الدَّمِ ذَنْبٌ عَظِيمٌ يتاب منه، ولا كفارة فيه بمال^(٢)، وجمهورهم على أن الطَّهْرُ الذي يُحِلُّ جماع الحائض، هو بالماء؛ كطهر الجُنُب، ولا يجزئ من ذلك تيمُّم ولا غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ...﴾ الآية: الخلاف فيها كما تقدّم، وقال مجاهد وجماعة: ﴿تَطَهَّرْنَ﴾، أي: اغتسلن بالماء^(٣) بقرينة الأمر بالإتيان؛ لأن صيغة الأمر من الله

(١) القاسم بن القفال الكبير الشاشي محمد بن علي، مصنف «التقريب»، كان إماماً جليلاً حافظاً، برع في حياة أبيه، قال العبادي: إن كتابه «التقريب» قد تخرج به فقهاء خراسان، وازدادت طريقة أهل العراق به حسناً، وقد أثنى البيهقي على التقريب، وقال فيه الإسني: ولم أر في كتب الأصحاب أجلاً منه. ينظر: «طبقات ابن قاضي شهبة» (١/١٨٧)، «هدية العارفين» (١/٨٢٧)، «طبقات الإسني» (ص ١٠٨).

(٢) اتفق أهل العلم على تحريم غشيان الحائض، ومن فعله عالماً عصي، ومن استحلّه كفر؛ لأنه مُحَرَّمٌ بَنَصُ القرآن، ولا يرتفع التحريم حتى ينقطع الدَّمُ وتغتسل به أكثر أهل العلم، وهو قول سالم بن عبد الله، وسليمان بن يسار، ومجاهد، والحسن، وإبراهيم، وإليه ذهب عامة العلماء، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: اغتسلن.

وذهب أبو حنيفة إلى أنه يجوز غشيانها بعد ما انقطع دَمُها لأكثر الحيض قبل الغسل. واختلف أهل العلم في وجوب الكفارة بوطء الحائض، فذهب أكثرهم إلى أنه يستغفر الله ولا كفارة عليه، وهو قول سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والقاسم، وعطاء، والشَّعْبِي، وابن سيرين، وبه قال ابن المبارك، والشَّافِعِي، وأصحاب الرأي.

وذهب جماعة إلى إيجاب الكفارة بإتيان الحائض، منهم قتادة والأوزاعي، وأحمد، وإسحاق، وقاله الشافعي في القديم، لما روى عن ابن عباس، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، قَالَ: «إِنْ كَانَ الدَّمُ عَبِيْطاً، فَلْيَتَصَدَّقْ بِدِينَارٍ، وَإِنْ كَانَ صُفْرَةً، فَيُصْفَ دِينَارٌ».

أخرجه الترمذي (١/٢٤٥)، أبواب الطهارة: باب ما جاء في الكفارة في ذلك (١٣٧)، وفي سنده عبد الكريم بن أبي المخارق، ضعيف كما في «التقريب» (١/٥١٦)، وللحديث طرق أخرى قد بسطها الشيخ شاکر في شرحه للترمذي (١/ ٢٤٥-٢٥٤)، فانظرها؛ ففيها فوائد.

قال أبو عيسى: حديث الكفارة في إتيان الحائض قد روي عن ابن عباس موقوفاً، وروي أنه قال: «إن أصابها في فَرْزِ الدَّمِ تصدَّقْ بدینار، وإن كان في انقطاع الدم، فيصْفَ دینار».

وقال قتادة: دينارٌ للحائض، ونصف دينار إذا أصابها قبل الغسل. وقال أحمد: يَتَخَيَّرُ بين الدینار والنصف، وقال الحسن: عليه ما على المُجَامِعِ في نهار رمضان.

ومن لم يوجب الكفارة، ذهب إلى أن حديث ابن عباس لا يصحُّ مُتَّصِلاً مرفوعاً. ينظر: «شرح السنة» (١/ ٤٠٩-٤١٠).

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٣٩٨-٣٩٩) برقم (٤٢٧٣).

تعالى لا تقع إلا على الوجه الأكمل، و ﴿فَأْتَوْهُنَّ﴾: أمر بعد الحظر يقتضي الإباحة، والمعنى: من حيث أمركم الله بأعتزالهن، وهو الفرج، أو من السرة إلى الرخصة؛ على الخلاف في ذلك، وقال ابن عباس: المعنى: من قبل الطهر، لا من قبل الحيض^(١)، وقيل: المعنى من قبل حال الإباحة، لا صائمت ولا مُحْرِمَاتٍ، ولا غير ذلك، والتَّوَابُونَ: الرجَّاعون، وعزفهُ من الشرِّ إلى الخير، والمُتَطَهِّرُونَ: قال عطاء وغيره: المعنى: بالماء^(٢)، وقال مجاهد وغيره: المعنى: من الذنوب^(٣).

﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٣)

وقوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ...﴾ الآية مبيحة لهيئات الإتيان كلها، إذا كان / ١٥٥
الوطء في موضع الحرث، ولفظة «الحَرْث» تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة؛ إذ هو المَزْدَرَعُ.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): وفي سبب نزول هذه الآية روايات:

الأولى: عن جابر، قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأة في قبلها من دبرها، جاء الولد أخول، فنزلت الآية، وهذا حديث صحيح خرجه الأئمة^(٥).

= وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/١٩٧)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٢٩٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٤٦٥)، وعزاه لسفيان بن عيينة، وعبد الرزاق في «المصنف»، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس عن مجاهد.

(١) أخرجه الطبري (٢/٤٠١) برقم (٤٢٩٢)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٩٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٤٦٦)، وعزاه إلى الدارمي، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٢/٤٠٣) برقم (٤٣٠٤ - ٤٣٠٥ - ٤٣٠٦)، وذكره البغوي (١/١٩٨)، وابن عطية (١/٢٩٩)، والسيوطي (١/٤٦٦)، وعزاه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عطاء.

(٣) أخرجه الطبري (٢/٤٠٣) برقم (٤٣٠٨)، وذكره البغوي (١/١٩٨)، وابن عطية (١/٢٩٩).

(٤) ينظر: «الأحكام» (١/١٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٨/٣٧)، كتاب «التفسير»، باب ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾، حديث (٤٥٢٨)، ومسلم (٢/١٠٥٨ - ١٠٥٩)، كتاب «النكاح»، باب جواز جماعه امرأته في قبلها من قدامها، ومن ورائها، من غير تعرض للدبر، حديث (١١٧ - ١١٩ / ١٤٣٥)، وأبو داود (١/٦٥٦) كتاب «النكاح»، باب في جامع النكاح، حديث (٢١٦٣)، والترمذي (٥/٢٠٠)، كتاب «التفسير»، باب سورة البقرة، حديث (٢٩٨٢). وابن ماجه (١/٦٢٠) كتاب «النكاح»، باب إتيان النساء في أدبارهن، حديث (١٩٢٥)، والدارمي (١/٢٥٨)، كتاب «الوضوء»، باب إتيان النساء في أدبارهن، وفي (٢/١٤٥ - ١٤٦) كتاب «النكاح»، باب النهي عن إتيان النساء في أعجازهن، وأبو يعلى (٤/٢١) =

الثانية: قالت أم سلمة^(١) عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾: قال: «يَأْتِيهَا مُقْبِلَةٌ وَمُذْبِرَةٌ، إِذَا كَانَ فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ خَرَجَهُ مُسْلِمًا، وَغَيْرُهُ^(٢)».

الثالثة: ما رَوَى الترمذي أَنَّ عمر جاء إِلَى النبي ﷺ فَقَالَ لَهُ: هَلَكْتُ، قَالَ: «وَمَا أَهْلَكَ؟ قَالَ: حَوَلْتُ الْبَارِحَةَ رَحْلِي، فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلْتُ: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ، وَآتَى الدُّبُرَ^(٣)» انتهى.

= برقم (٢٠٢٤)، وابن حبان (٤١٧٤)، والطبري في «تفسيره» (٣٩٧/٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٥٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤٠/٣)، والبيهقي (١٩٣/٧)، (١٩٤، ١٩٥)، من حديث جابر. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/٤٦٧)، وعزاه إلى وكيع، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن جرير، وأبي نعيم، والبيهقي، عن جابر، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) هي: هند بنت أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. أم المؤمنين (رضي الله عنها) أم سلمة. القرشية. المخزومية.

قال ابن الأثير: كان أبوها يعرف بـ «زاد الركب». . . وكانت من المهاجرات إلى الحبشة وإلى المدينة. . . وقيل: إنها أول ظعينة هاجرت إلى «المدينة»، والله أعلم، وتزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة. توفيت سنة (٦٣) على أرجح الأقوال.

ينظر ترجمتها في: «أسد الغابة» (٣٤٠/٧)، «الإصابة» (٢٤٠/٨)، «الاستيعاب» (١٩٣٩/٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٢٢/٢)، «أعلام النساء» (٢٣٥/٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠/٥) في التفسير، باب «ومن سورة البقرة» (٢٩٧٩)، وأحمد (٣٠٥/٦)، (٣١٠، ٣١٨)، والدارمي (٢٥٦/١) في الوضوء: باب إتيان النساء في أدبارهن، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٩٧٢)، والطبري في تفسيره (٤٣٤٥-٤٣٤١)، والطحاوي (٤٣-٤٢/٣)، والبيهقي (١٩٥/٧) عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن ابن سابط، عن حفصة بنت عبد الرحمن عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِي شَتْمٌ﴾، قال: صماماً واحداً، صماماً واحداً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. . . . ويروى في صمام واحد.

ويشهد له حديث جابر عند مسلم (١٥٩/٢) في النكاح: باب جواز جماعه امرأته في قبلها من قدامها، ومن ورائها، من غير تعرض للدبر (١١٩-١٤٣٥). والواحدي في «أسباب النزول» ص (٥٣).

والطحاوي (٤١/٣)، والبيهقي (١٩٥/٧) عن النعمان بن راشد، عن الزهري، عن ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قالت اليهود: إذا أتى الرجل امرأته مجيبة كان الولد أحول، فنزلت: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِي شَتْمٌ﴾، إن شاء مجيبة وإن شاء غير مجيبة، غير أن ذلك في صمام واحد.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠/٥) في التفسير، باب «ومن سورة البقرة» (٢٩٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٥/٣١٤)، في «عشرة النساء» (٨٩٧٧/٤) و (٣٠٢/٦)، في «التفسير» (٣/١١٠٤٠)، وأحمد (٢٦٧/١)، والطبري في التفسير (٤٣٤٧)، وأبو يعلى (٢٧٣٦)، والبيهقي (١٩٨/٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٥٣ عن يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت. . . . فذكره. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

قال *ع^(١)*: وَ «أَتَى شَيْثُثْمٌ»: معناه عند جمهور العلماء: من أي وجه شئتم؛ مقبلةً، ومدبرةً، وعلى جنب.

قال *ع^(٢)*: وقد ورد عن رسول الله ﷺ في مصنف النسائي وفي غيره؛ أنه قال: «إِتْيَانُ النِّسَاءِ فِي أَذْبَارِهِنَّ حَرَامٌ»^(٣)، وورد عنه فيه، أنه قال: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى أَمْرَأَةً فِي دُبُرِهَا»^(٤)، وورد عنه، أنه قال: «مَنْ أَتَى أَمْرَأَةً فِي دُبُرِهَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ»^(٥)، وهذا هو الحق المتبع، ولا ينبغي لمؤمن بالله أن يعرج بهذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه، والله المرشد لا رب غيره.

وينظر: «الدر المثور» (٤٦٩/١).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٩/١).

(٢) ذكره في «المحرر الوجيز» (٣٠٠/١).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في «السنن الكبرى» (٣١٩/٥)، كتاب «عشرة النساء»، باب ذكر الاختلاف على عبد الله بن علي بن السائب، حديث (٨٩٩٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٦٥٥/١)، كتاب «النكاح»، باب في جامع النكاح، حديث (٢١٦٢)، وأحمد (٢/٤٤٤)، وأبو يعلى (٣٤٩/١١) برقم (٦٤٦٢)، من حديث أبي هريرة، وليس من حديث خزيمة بن ثابت؛ كما في «المهذب».

(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٨/٢) كتاب «الطب»، باب في الكهان، حديث (٣٩٠٤)، والترمذي (٢٤٢/١) - (٢٤٣) كتاب «الطهارة»، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض، حديث (١٣٥)، والنسائي في «الكبرى» (٣٢٣/٥)، كتاب «عشرة النساء»، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي هريرة في ذلك، حديث (٩٠١٦، ٩٠١٧)، وابن ماجه (٢٠٩/١) كتاب «الطهارة»، باب النهي عن إتيان الحائض، حديث (٦٣٩)، وأحمد (٤٠٨/٢، ٤٧٦). والدارمي (٢٥٩/١)، كتاب «النكاح»، باب من أتى امرأته في دبرها. والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٦/٣)، وابن الجارود في «المتقى» برقم (١٠٧)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣١٨/١). وابن عدي في «الكامل» (٦٣٧/٢). والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤٤/٣) - (٤٥). والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٨/٧). كلهم من طريق حكيم الأثرم، عن أبي تيممة الهجيمي، عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الترمذي: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم، عن أبي تيممة الهجيمي، عن أبي هريرة.

وقال البخاري: هذا حديث لا يتابع عليه، ولا يعرف لأبي تيممة سماع من أبي هريرة.

وقال البزار كما في «التلخيص» (١٨٠/٣): هذا حديث منكر، وحكيم لا يحتج به، وما انفرد به فليس بشيء.

وقال ابن عدي: الأثرم يعرف بهذا الحديث، وليس له غيره إلا اليسير.

وقد ضعف هذا الحديث البخاري، والترمذي، وابن سيد الناس، والبغوي، والذهبي فقال: إسناده ليس بالقائم، وينظر «فيض القدير» (٢٣/٦). وقد صحح هذا الحديث الشيخ أحمد شاكِر في «تعليقه على المسند» (٥٦/١٨، ١٤٢/١٩)، وفند العلل التي عللوا بها الحديث بما لا تراه في مكان، فليُنظر.

وقوله جَلَّتْ قُدْرَتُهُ: ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾.

قال السُّدِّيُّ: معناه: قَدِّمُوا الْآخِرَ فِي تَجَنُّبِ مَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ، وَأَمْتِثَالِ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ - ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: تحذيرٌ - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ﴾: خبرٌ يقتضي المبالغة في التحذير، أي: فهو مجازيكم على البرِّ والإثم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: تأنيسٌ لفاعلي البرِّ، ومُتَّبِعِي سُنَنِ الْهَدْيِ^(١)،

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفِعْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ...﴾ الآية: مقصد الآية: ولا تُعَرِّضُوا اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فتكثروا الأيمان به، فَإِنَّ الْحِنْثَ يَقَعُ مَعَ الْإِكْثَارِ، وَفِيهِ قَلَّةٌ رَغِي لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

وقال الزَّجَّاجُ^(٢) وغيره: معنى الآية: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ، إِذَا طُلِبَ مِنْهُ فِعْلُ خَيْرٍ وَنَحْوِهِ، أَعْتَلَّ بِاللَّهِ، وَقَالَ: عَلَيَّ يَمِينٌ، وَهُوَ لَمْ يَحْلِفْ.

وقوله: ﴿عُرْضَةً﴾، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): أَعْلَمَ أَنْ بِنَاءَ عَرْضٍ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يَتَصَرَّفُ عَلَى مَعَانٍ مَرْجِعُهَا إِلَى الْمَنْعِ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَرْضٌ، فَقَدْ مَنَعَ، وَيُقَالُ لِمَا عَرْضَ فِي السَّمَاءِ مِنَ السَّحَابِ عَارِضٌ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤَيْتِهَا، وَمِنْ رُؤْيَا الْبَذَرَيْنِ، وَالْكَوَاكِبِ. انتهى.

و ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾: مفعولٌ من أَجَلِهِ^(٤)، وَالْبَرُّ: جَمِيعُ وُجُوهِ الْبِرِّ، وَهُوَ ضِدُّ الْإِثْمِ

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٠٠).

(٢) «معاني القرآن» (١/٢٩٩).

(٣) ينظر: «الأحكام» (١/١٧٤ - ١٧٥).

(٤) هذا قول الجمهور، ثم اختلفوا في تقديره، فقيل: إِرَادَةُ أَنْ تَبَرُّوا، وقيل: كَرَاهَةُ أَنْ تَبَرُّوا، قاله المهدي، وقيل: لترك أن تبروا، قاله المبرد، وقيل: لثلاث تبروا، قاله أبو عبيدة والطبري، وأنشدا: ... فَلَا وَاللَّهِ تَهَيَّطْ تَلْعَةً

أي: لا تهبط، فحذف «لا» ومثله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَصِلُوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لثلاث تصلوا. وتقدير الإرادة هو الوجه، وذلك أن التقادير التي ذكرتها بعد تقدير الإرادة لا يظهر معناها، إما فيه من تعليل امتناع الحلف بانتفاء البر، بل وقوع الحلف مغللاً بانتفاء البر، ولا ينعقد منهما شرطٌ وجزاء، لو قلت في معنى هذا النهي وعليه: «إِنْ حَلَفْتَ بِاللَّهِ بَرَزْتَ» لم يصح، بخلاف تقدير الإرادة، فإنه يُعَلَّلُ امتناع =

- و﴿سَمِيعٌ﴾، أي: لأقوالِ العبادِ - ﴿عَلِيمٌ﴾: بنياتهم، وهو مُجَازٍ على الجميع، واليمين: الحَلْفُ، وأصله أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ إِذَا تَحَالَفَتْ، أَوْ تَعَاهَدَتْ، أَخَذَ الرَّجُلُ يَمِينَ صَاحِبِهِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى سُمِيَ الْحَلْفُ وَالْعَهْدُ نَفْسَهُ يَمِينًا.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾: اللَّغْوُ: سَقَطُ الْكَلَامِ الَّذِي لَا حُكْمَ لَهُ.

قال ابنُ عَبَّاسٍ، وعائِشَةُ، والشَّعْبِيُّ، وأبو صَالِحٍ، ومجاهد: لَغَوَ الْيَمِينَ: قولُ الرجلِ في دَزَجِ كَلَامِهِ وَأَسْتَعْجَالِهِ فِي الْمَحَاوَرَةِ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ، دُونَ قَصْدِ الْيَمِينَ، وَقَدْ أَسْنَدَهُ الْبَخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ^(١).

وقال أبو هريرة، والحسن، ومالك، وجماعة: لغو اليمين: ما حلف به الرجلُ على يقينه، فكشف الغيبُ خلافَ ذلك^(٢).

٥٥ ب

* ع^(٣) *: وهذا اليقين/ هو غلبة الظن.

وقال زيدُ بْنُ أَسْلَمَ: لغو اليمين: هو دعاء الرجلِ على نفسه^(٤).

وقال الضَّحَّاكُ: هي اليمينُ المكفَّرة^(٥).

وحكى ابنُ عبد البرِّ قولاً؛ أَنَّ اللغو أَيْمَانُ^(٦)

= الحَلْفُ بإرادة وجود البرِّ، وينعقدُ منهما شرطٌ وجزاء، تقول: إِن حَلَفْتُ لَمْ تَبَرَّ وَإِن لَمْ تَخْلِفْ بَرَزْتُ. ينظر: «الدر المصون» (١/ ٥٤٦ - ٥٤٧).

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩) برقم (٤٣٧٧ - ٤٣٧٨) عن عائشة، وبرقم (٤٣٨٧ - ٤٣٨٨).

(٢) ٤٤٠١ - عن الشعبي، وبرقم (٤٣٧٦) عن ابن عباس، وبرقم (٤٣٩٢) عن أبي صالح.

وذكره البغوي (١/ ٢٠١) عن عائشة، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠١)، والسيوطي في

«الدر المنثور» (١/ ٤٨٠)، وعزاه إلى مالك، ووكيعة، والشافعي في «الأم»، وعبد الرزاق، وعبد بن

حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، من طرق عن عائشة. وفي (١/ ٤٨١)،

وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١)، رقم (٤٤٠٩ - ٤٤١٠ - ٤٤١١ - ٤٤١٢ - ٤٤٢٣) عن

الحسن، (٤٤٢٠ - ٤٤٢٩ - ٤٤٣٠) عن مالك، وذكره البغوي (١/ ٢٠١) عن الحسن، وابن عطية (١/ ٣٠١)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٨١)، وعزاه لابن جرير عن أبي هريرة.

(٣) «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠١).

(٤) أخرجه الطبري (٢/ ٤٢٤)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٢٠١)، وابن عطية (١/ ٣٠١).

(٥) أخرجه الطبري (٢/ ٤٢٥) برقم (٤٤٦٧)، وذكره ابن عطية (١/ ٣٠١).

(٦) وقد اختلفوا في تفسير «اللغو»: فمنهم من قال: هو ما جرى على لسان الحالف من غير قصد كـ «لا»

المُكْرَه (١).

قال * ع (٢): * وطريقة النظر أن تتأمل لفظة اللغو، ولفظة الكسب، ويحكم موقعهما في اللغة، فكسب المرء ما قصده، ونواه، واللغو: ما لم يتعمده، أو ما حقه لهجته أن يسقط، فيقوى على هذه الطريقة بغض الأقوال المتقدمة، ويضعف بعضها، وقد رفع الله عز وجل المؤاخذه بالإطلاق في اللغو، فحقيقته: ما لا إثم فيه، ولا كفارة، والمؤاخذه في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس (٣) المصنورة، وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة،

= وَاللَّهِ، وَ «بَلَى وَاللَّهِ» وهم الشافعية ورواية عن أبي حنيفة، وهو مروى عن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة (رضي الله عنهم)، والشعبي، وعكرمة، وعطاء، والقاسم وغيرهم. وسواء تعلق عندهم بالماضي أو بالمستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...﴾ الآية. يقال: لَغَا يَلْغُو. وَلَغَا يَلْغَا إِذَا تَكَلَّمَ بِمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا قَصْدَ لَهُ فِيهِ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: اللُّغْوُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: فضول الكلام، وباطله الذي يجري على غير عقد.

والثاني: ما كان فيه رفث وفحش ومأثم.

وقال قتادة في قوله (تعالى): ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١] ما يؤثم. وقالت عائشة (رضي الله عنها): «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يعني في اللغو في اليمين)؛ «هُوَ كَلَامُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَرَوَاهُ الزَّهْرِيُّ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ أَبِي سَلِيمَانَ، وَمَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عَائِشَةَ مَوْقُوفًا.

وقالت المالكية: هو الحلف على شيء يعتقد الحالف. أي: «يغلب على ظنه فيظهر له خلافه»، وهو مذهب الحنفية.

وقالت الحنابلة: هو ما جرى على اللسان من غير قصد، أو الحلف على شيء يعتقد، فيظهر له خلافه، ودليلهم ما تقدم للشافعية والمالكية والحنفية.

وإذا نظرنا إلى دليل كل وجدنا أن اللغو الذي ينبغي أن يعتبر هو: ما جرى على اللسان من غير قصد فقط؛ لأن هذا هو معنى اللغو في اللغة، والألفاظ تحمل على معانيها اللغوية ما لم يرد عن الشرع ما يحملها على خلافه، ولم يرد عنه ما يخالف ذلك، بل وَرَدَ ما يعضده، فقد أَجَابَتْ عائشة (رضي الله عنها) حِينَما سُئِلَتْ عَنِ اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ بأنه هو كلام الرجل في بيته: «لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ». ووافقها على ذلك كثير من الصحابة والتابعين، فإن كان هذا القول قائله عن سماع من رسول الله ﷺ فالحجة فيه واضحة، وإن كان قولاً منها، فهو تفسير لصحابي يعرف معاني الألفاظ اللغوية والمعاني الشرعية، وقوله مقبول.

وأما حديث الرُّمَاءِ، فقد قال الحافظ فيه: إنه لا يثبت؛ لأنه من مراسيل الحسن، وهو ممن لا تعتبر مراسيله؛ لأنه كان لا يتحرى الثقة. ينظر: «الكفارات» لشيخنا: حسن علي حسنين.

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٠).

(٢) «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٢).

(٣) اليمين الغموس هي: الحلف على فعل أو ترك ماضٍ كاذباً، سميت به؛ لأنها تَغْمُسُ صاحبها في الإثم. =

وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة، فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة؛ لأن المؤاخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المؤاخذة؛ بأنها في الآخرة فقط تحكم.

* ت *: والقول الأول أرجح، وعليه عَوَّل اللَّخْمِيُّ وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

قال ابن عباس وغيره: ما كسب القلب هي اليمين الكاذبة الغموس^(١)، فهذه فيها المؤاخذة في الآخرة، أي: ولا تكفر.

* ع^(٢) *: وسميت الغموس؛ لأنها غَمَسَتْ صَاحِبَهَا في الإثم، و ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: صفتان لاقتتان بما ذكر من طرح المؤاخذة، إذ هو باب رُفِي وتوسعة.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرْبُصُ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ...﴾ الآية: ﴿يُؤْلُونَ﴾: معناه يَخْلِفُونَ، والإيلاء: اليمين.

واختلف من المراد بلزوم حكم الإيلاء^(٣). فقال مالك: هو الرجل يغاضب امرأته،

= واختلفوا في اليمين الغموس هل لها كفارة؟ فقال أبو حنيفة، ومالك، وأحمد في إحدى الروايتين عنه: لا كفارة لها؛ لأنها أعظم من أن تكفر، وقال الشافعي، وأحمد في الرواية الأخرى: تكفر. ينظر: «أنيس الفقهاء» (١٧٢).

(١) أخرجه الطبري (٤٢٧/٢) برقم (٤٤٧٢)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٢/١).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣٠٢/١).

(٣) الإيلاء لغة: الحلف، وهو: مصدر. يقال: آلى بمدة بعد الهزمة، يؤلي إيلاءً، وتألّى وتألّى، والألية، بوزن فعيلة: اليمين، وجمعها ألياء: بوزن خطايا، قال الشاعر: [الطويل]

قليل الألياء حافظ ليمينه وإن سبقت فيه الألية برت والألوة (بسكون اللام، وتثنية الهزمة): اليمين أيضاً.

ينظر: «الصحيح» (٢٢٧/٦)، «المغرب» (٢٨)، «لسان العرب» (١١٧/١)، «المصباح المنير» (١/٣٥).

واصطلاحاً:

عرفه الحنفية بأنه: عبارة عن اليمين على ترك وطء المنكوحة أربعة أشهر أو أكثر.

وعرفه الشافعية بأنه: حلف زوج يصح طلاقه ليمتنع من وطئها مطلقاً أو فوق أربعة أشهر.

وعرفه المالكية بأنه: حلف الزوج المسلم المكلف الممكن وطؤه بما يدل على ترك وطء زوجته غير الموضع أكثر من أربعة أشهر أو شهرين للعبد، تصريحاً أو احتمالاً، قيد أو أطلق وإن تعليقاً. =

فيحلفُ بيمينٍ يلحقُ عن الحنثِ فيها حُكْمُ الْأَيطَاطِها؛ ضرراً منه، أَكْثَرَ من أربعة أشهر، لا يقصد بذلك إصلاحَ وَلَدٍ رضيعٍ ونحوه، وقال به عطاءٌ وغيره^(١).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ نَسَاهُمْ﴾ يدخل فيه الحرائر والإماء، إِذَا تزَوَّجْنَ، والترئُص: الثاني والتأخر، وأربعة أشهر؛ عند مالك، وغيره: للحر، وشهران: للعبد.

وقال الشافعي: هو كالحر، و ﴿فَاءٌ﴾: معناه: رَجَعُوا؛ ومنه: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]: قال الجمهور: وَإِذَا فَاءٌ كَفَّرَ، والفِيءُ؛ عند مالك: لا يكون إلا بالوطء، أو بالتكفير في حال العُدْر.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ أَرْعَامَهُنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ حكم هذه الآية قِصْدُ الاستبراء، لا أنه عبادة؛ ولذلك خرجت منه مَنْ لم يُبَيِّنْ بها؛ بخلاف عِدَّةِ الوفاة التي هي عبادة - والقُرءُ؛ في اللغة: الوقت المعتادُ تردده، فالْحَيْضُ يسمَّى على هذا قُرءاً، وكذلك يسمَّى الطَّهْرُ قُرءاً.

وعرفه الحنابلة بأنه: حلف الزوج - القادر على الوطء - بالله (تعالى) أو صفة من صفاته على ترك وطء زوجته في قبلها مدة زائدة على أربعة أشهر.

وخصت الأربعة الأشهر بالذكر لأن المرأة يعظم ضررها إذا زاد على ذلك؛ لأنها تصبر عن الزوج أربعة أشهر، وبعد ذلك يفنى صبرها أو يقل، روى البيهقي عن عمر أنه خرج مرة في الليل في شوارع المدينة فسمع امرأة تقول: [الطويل]

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأزقني أن لا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يصدني وأخشى لبعلي أن تنال مراتبه

فقال عمر لابنته حفصة: كم أكثر ما تصبر المرأة عن الزوج؟ وروي أنه سأل النساء فقلن له: تصبر شهرين، وفي الثالث يقل صبرها، وفي آخر الرابع يفقد صبرها، فكتب إلى أمراء الأجناد: ألا تجبسوا رجلاً عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

ينظر: «تبيين الحقائق/ شرح كنز الدقائق» (٢/ ٢٦١)، «مغني المحتاج» (٣/ ٣٤٣)، «الشرح الصغير» (٢/ ٢٧٨، ٢٧٩)، «المطلع» (٣٤٣)، «تحفة المحتاج» (٨/ ١٨٨)، «شرح المحلى على المنهاج» (٢٤).

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٢).

واختلف في المراد بالقُرْء هنا: فقال عُمَرُ وجماعةٌ كثيرة: المراد بالقُرْء، في الآية: الحَيْضُ، وقالت عائشة وجماعةٌ من الصَّحابة، والتابعين، ومن بعدهم: المراد: الأطهار، وهو قولُ مالكٍ.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾.

فقال ابن عُمَرُ، ومجاهدٌ، وغيرهما: هو الحَيْضُ، والحَبْلُ جميعاً، ومعنى النهي عن الكتمان: النهي عن الإصرار بالزَّوْج في إلزامه النفقة، وإِذهابِ حقه في الْإِرْتِجَاع، فَأَمَرَ بالصَّدَقِ نَفياً وَإِثْبَاتاً^(١)، وقال قتادة: كانت عاداتُهُنَّ في الجاهلية أن يَكْتُمْنَ الحَمْلَ؛ لِيُلْحَقَنَّ الولد بالزَّوْج الجديد، ففي ذلك نزلت الآية^(٢).

وقال ابن عَبَّاسٍ: إن المراد الحَبْل، والعموم راجع^(٣)، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ ما يقتضي أَنَّهُنَّ مؤتمنات على ما ذكر، ولو كَانَ الاستقصاء مباحاً، لم يمكن كَتْمُ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنْ يَوْمُنَّ بِاللَّهِ...﴾ الآية: أي: حقَّ الإيمان، وهذا كما تقول: إِنْ كُنْتُ حُرّاً، فانتَصِرْ، وأنت تخاطبُ حُرّاً، والبَغْلُ: الزَّوْج، ونَصَّ اللَّهُ تعالى بهذه الآية على أن للزَّوْج أن يرتجع امرأته المطلقة، ما دامت في العدة، والإشارة بذلك إلى المدة بشرط أن يريد الإِصْلَاحَ، دون المُضَارَّة؛ كما تُشَدَّدُ على النساء في كَتْمِ ما في أرحامهن، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ...﴾ الآية: تعمُّ جميعَ حقوقِ الزوجية.

وقوله تعالى: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ قال مجاهدٌ: هو تنبيهٌ على فضلِ حظِّه على حظِّها في الميراث، وما أشبهه^(٤)، وقال زيد بن أسلم: ذلك في الطَّاعة؛ عَلَيْهَا أَنْ تطيعه، وليس عليه أَنْ يطيعَهَا^(٥)، وقال ابن عباس: تلك الدرَجَةُ إشارةٌ إلى حُضِّ الرِّجُلِ على حُسْنِ

(١) أخرجه الطبري (٢/٤٦١) برقم (٤٧٣٨)، عن ابن عمر وأرقام (٤٧٣٩، ٤٧٤٠، ٤٧٤٥) عن مجاهد. وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٠٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٤٩٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر وفي (١/٤٩٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي، عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٢/٤٦٢) رقم (٤٧٥٤ - ٤٧٥٥ - ٤٧٥٦)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٠٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٤٩٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٠٥).

(٤) أخرجه الطبري (٢/٤٦٧) برقم (٤٧٧٣ - ٤٧٧٤).

وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٠٥). والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٤٩٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري (٢/٤٦٨) رقم (٤٧٧٧)، وذكره ابن عطية (١/٣٠٥).

العشرة، والتوسع للنساء في المال والخُلُق^(١)، أي: أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه، وهو قول حسن بارع.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَلِمَسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ...﴾ الآية: قال عروة بن الزبير وغيره: نزلت هذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذي للمرأة فيه أن يرتجع دون تجديد مهر وولي^(٢)، وقال ابن عباس وغيره: المراد بالآية التعريف بسنة الطلاق، وأن من طلق اثنتين، فليتق الله في الثالثة، فإما تركها غير مظلومة شيئاً من حقها، وإما أمسكها محسناً عشرتها^(٣).

* ع^(٤) *: والآية تتضمن هذين المعنيين.

ب ٥٦ * ص *: الطلاق: مبتدأ؛ على حذف مضاف، أي: عدد الطلاق، ومرتان: خبره. انتهى.

والإمساك بالمعروف: هو الارتجاع بعد الثانية إلى حسن العشرة، والتسريح: يحتمل لفظه معنيين:

أحدهما: تركها تنم العدة من الثانية، وتكون أملك بنفسها، وهذا قول السدي، والضحاك^(٥).

والمعنى الآخر: أن يطلقها ثالثة، فيسرحها بذلك، وهذا قول مجاهد، وعطاء، وغيرهما، وإمساك: مرتفع بالإبتداء والخبر أمثل أو أحسن.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً...﴾ الآية: خطاب

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٦/١).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٩/٢) رقم (٤٧٨٣)، وذكره البغوي (٢٠٦/١)، وابن عطية (٣٠٦/١)، والسيوطي (٤٩٤/١)، وعزاه لمالك، والشافعي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عروة.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٤٧٠ - ٤٧١) برقم (٤٧٩١)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٦/١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠٦/١).

(٥) أخرجه الطبري (٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، برقم (٤٨٠٠ - ٤٨٠٧) عن السدي، وأرقام (٤٨٠١ - ٤٨٠٢ - ٤٨٠٣ - ٤٨٠٨) عن الضحاك، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٦/١).

للأزواج، نهاهم به أن يأخذوا من أزواجهم شيئاً؛ على وجه المضاربة، وهذا هو الخلع^(١) الذي لا يصح إلا بأن لا ينفرد الرجل بالضرر، وخص بالذكر ما أتى الأزواج نساءهم؛ لأنه عرف الناس عند الشقاق والفساد أن يطلبوا ما خرج من أيديهم، وحرّم الله تعالى على الزوج في هذه الآية أن يأخذ إلا بعد الخوف ألا يقيما حدود الله، وأكد التحريم بالوعيد، وحدود الله في هذا الموضع هي ما يلزم الزوجين من حسن العشرة، وحقوق العضة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾: المخاطبة للحكام والمتوسطين لهذا الأمر، وإن لم يكونوا حكاماً، وترك إقامة حدود الله: هو استخفاف المرأة بحق زوجها، وسوء طاعتها إياه؛ قاله ابن عباس، ومالك، وجمهور العلماء^(٢).

وقال الشعبي: ﴿أَلَّا يَقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾: معناه: ألا يطيعا الله^(٣)، وذلك أن المغاضبة تدعو إلى ترك الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾: إباحة للفدية، وشركها/ في ارتفاع ١٥٧ الجناح؛ لأنها لا يجوز لها أن تعطيه مالها حيث لا يجوز له أخذه، وهي تقدّر على المخاصمة.

قال ابن عباس، وابن عمر، ومالك، وأبو حنيفة، وغيرهم: مباح للزوج أن يأخذ من المرأة في الفدية جميع ما تملكه؛ وقضى بذلك عمر بن الخطاب^(٤).

(١) الخلع لغة: التزاع، وهو استعارة من خلع اللباس؛ لأن كل واحد منهما لباس للآخر، فكان كل واحد نزع لباسه منه، وخلعت المرأة زوجها مخالعة: إذا افتدت منه، وطلقها على الفدية. واصطلاحاً:

عرفه الأخناف بأنه: عبارة عن أخذ المال بإزاء ملك النكاح، بلفظ الخلع.

وعرفه الشافعية بأنه: فزقة بين الزوجين يعوض، بلفظ طلاق أو خلع.

وعرفه المالكية بأنه: الطلاق بعوض.

وعرفه الحنابلة بأنه: فراق الزوج امرأته، بعوض يأخذه الزوج، بالفاظ مخصوصة.

ينظر: «لسان العرب» (١٢٣٢/٢)، و«المصباح المنير» (٢٤٣/١)، و«المطلع» (٣٣١)، «تبيين

الحقائق» (٢٦٧/٢)، «شرح فتح القدير» (٢١٠/٤)، «حاشية ابن عابدين» (٤٢٢/٣)، «مغني المحتاج»

(٢٦٢/٣)، «الشرح الصغير» للرددير (٣١٩/٣)، «بداية المجتهد» (٩٨/٢)، «الكافي» (٥٩٧/٢)،

«كشف القناع» (٢١٢/٥)، «المغني» (٥٣٦/٧).

(٢) أخرجه الطبري (٤٧٩/٢) برقم (٤٨٣٩)، عن ابن عباس.

وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٧/١).

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٧/١).

(٤) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٧/١ - ٣٠٨).

وقال طاوُس^(١)، والزُّهْرِيُّ، والحَسَنُ، وغيرهم: لا يجوزُ له أن يزيدَ على المهر الذي أعطاهما^(٢)، وقال ابن المُسَيَّب: لا أرى أن يأخذ منها كلَّ مالِها، ولكنَّ لِيَدْعَ لها شيئاً^(٣).

وقوله تعالى: ﴿تلك حدودُ الله...﴾ الآية: أي: هذه الأوامر والنواهي، فلا تتجاوزوها، ثم توعدُ تعالى على تجاوزِ الحدِّ بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هم الظالمونَ﴾، وهو كما قال ﷺ: «الظُّلُمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٣) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُمْ أَبْطُنَّ فَأَنْبِكُوهُنَّ بِمَرْوٍ أَوْ سَرْحُوهُنَّ بِمَرْوٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوَّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَعْدُوا أَيْتَ اللَّهِ هُزُؤًا وَادْكُرُوا فِصْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ

(١) طاووس بن كيسان اليماني الجندي - بفتح الجيم والنون - قيل: من الأبناء، وقيل: مولى همدان، الإمام العلم. قيل: اسمه ذكوان. قاله ابن الجوزي. عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم. وعنه: مجاهد، وعمرو بن شعيب، وحبيب. قال ابن عباس: إني لأظن طاووساً من أهل الجنة. مات سنة ١٠٦. ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (١٥/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٤٨٣ - ٤٨٥) بأرقام (٤٨٥٨)، (٤٨٥٩)، (٤٨٦٠)، (٤٨٨٠) عن الحسن، وبرقم (٤٨٦٢) عن ابن طاووس، وبرقم (٤٨٦٣) عن الزهري. وذكره البغوي (١/ ٢٠٧) عن الزهري، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٨).

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٤٨٣) برقم (٤٨٦١)، وذكره البغوي (١/ ٢٠٧)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ١٢٠ - ١٢١) كتاب «المظالم»، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، حديث (٢٤٤٧)، وفي «الأدب المفرد» رقم (٤٨١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٦)، كتاب «البر والصلة»، باب تحريم الظلم، حديث (٥٧/ ٢٥٧٩). وأحمد (٢/ ١٣٧، ١٤٦)، والبيهقي (٦/ ٣٩)، كتاب «الغصب»، باب تحريم الغصب. والبغوي في «شرح السنة» (٧/ ٣٦٤ - بتحقيقنا). كلهم من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر مرفوعاً، وللحديث شاهد من حديث جابر بلفظ: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة». أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٦)، كتاب «البر والصلة»، باب تحريم الظلم، حديث (٥٦/ ٢٥٧٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٤٧٩). وأحمد (٣/ ٣٢٣)، من طريق عبيد الله بن مقسم، عن جابر به. وله شاهد أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو.

وأخرجه أحمد (٢/ ١٥٩) عنه مرفوعاً، بلفظ: «الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش.....».

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنْفَقْنَ أَجُلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: هو ابتداء الطلقة الثالثة^(١)؛ قال * ع^(٢) * : فيجزي التسريح المتقدم ترك المرأة تتم عدتها من الثانية، وأجمعت الأمة في هذه النازلة على اتباع الحديث الصحيح في امرأة رفاة^(٣)، حين تزوجت عبد الرحمن بن الزبير^(٤)، فقال لها النبي ﷺ: «لَعَلَّكَ أَرَدْتَ الرُّجُوعَ إِلَى رِفَاعَةَ، لَا؛ حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكَ، وَتَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ»^(٥)؛ فرأى العلماء أنه لا يحلها إلا الوطء.

(١) أخرجه الطبري (٤٨٨/٢) برقم (٤٨٨٦)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٤/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس.

(٢) «المحرر الوجيز» (٣٠٨/١).

(٣) امرأة رفاة القرظي التي تزوجها عبد الرحمن بن الزبير اختلف في اسمها فقيل: سهيمة، وقيل: عائشة، وقيل: تميمية، حكى الأقوال الثلاثة ابن الأثير في مواضع من كتابه، وذكرها في حرف «التاء» تميمية بنت وهب بن عبيد القرظية، مطلقة رفاة القرظي. ينظر: «تهذيب الأسماء» (٣٧٠/٢).

(٤) عبد الرحمن بن الزبير بفتح الزاي ابن باطياء القرشي، صحابي له حديث، وعنه ابنه الزبير. ينظر: «الخلاصة» (١٣٢/٢).

(٥) أخرجه مالك (٥٣١/٢)، كتاب «النكاح»، باب نكاح المحلل وما أشبهه، حديث (١٧)، من طريق المسور بن رفاة القرظي، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، أن رفاة بن سموال طلق امرأته... ومن طريق مالك أخرجه الشافعي في «الأم» (٢٤٨/٥)، باب نكاح المطلقة ثلاثاً، وابن حبان (١٣٢٣- موارد)، والبيهقي (٣٧٥/٧) كتاب «الرجعة»، باب نكاح المطلقة ثلاثاً.

قال السيوطي في «تنوير الحوالك» (٦/٢)، قال ابن عبد البر: كذا لأكثر الرواة مرسل، ووصله ابن وهب عن مالك، فقال: عن أبيه، وابن وهب من أجل من روى عن مالك هذا الشأن، وأثبتهم فيه، وتابعه أيضاً ابن القاسم، وعلي بن زياد، وإبراهيم بن طهمان، وعبيد الله بن عبد المجيد الحنفي. كلهم عن مالك، وقالوا فيه: عن أبيه، وهو صاحب القصة. اهـ.

ومن طريق ابن وهب: أخرجه ابن الجارود (٦٨٢)، والبيهقي، (٣٧٥/٧) كتاب «الرجعة»، باب نكاح المطلقة ثلاثاً.

وأخرجه الزوار (١٩٤/٢) (كشف) رقم (١٥٠٤)، من طريق عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، ثنا مالك بن أنس، عن المسور بن رفاة، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، عن أبيه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٣/٤): رواه الزوار، والطبراني، ورجالهما ثقات، وقد رواه مالك في «الموطأ» مرسلًا، وهو هنا متصل. اهـ.

وكلهم على أن مَغِيبَ الْحَشْفَةِ يُحِلُّ إِلَّا الْحَسَنَ بِنَ أَبِي الْحَسَنِ، قال: لا يحلها إلا الإنزال،

= وقد ورد هذا الحديث مَوْضُوعاً من حديث عائشة.

أخرجه أحمد (٢٢٦/٦)، والبخاري (٢٤٩/٥)، كتاب «الشهادات»، باب شهادة المختبىء، حديث (٢٦٣٩)، ومسلم (١٠٥٥/٢ - ١٠٥٦)، كتاب «النكاح»، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١١). والترمذي (٢٩٣/٢)، كتاب «النكاح»، باب ما جاء فيمن يطلق امرأته ثلاثاً، حديث (١١١٨). والنسائي (١٤٨/٦) كتاب «الطلاق»، باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (٦٢١/١ - ٦٢٢) كتاب «النكاح»، باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً، حديث (١٩٣٢).

والدارمي (١٦١/٢) كتاب «الطلاق»، باب ما يحل المرأة لزوجها الذي طلقها... والشافعي (٢/ ٣٤ - ٣٥) كتاب الطلاق، حديث (١١٠)، والحميدي (١١١/١) رقم (٢٢٦)، وعبد الرزاق (٦/ ٣٤٦ - ٣٤٧) رقم (١١٣١)، والطبرسي (١/ ٣١٤ - ٣١٥) رقم (١٦١٣، ١٦١٢). وسعيد بن منصور (٢/ ٧٣ - ٧٤) رقم (١٩٨٥). وأبو يعلى (٣٩٧/٧) رقم (٤٤٢٣). وابن حبان (٤١٩٩ - الإحسان)، والبيهقي (٣٧٣/٧ - ٣٧٤). والبخاري (٣٧٤) في «شرح السنة» (٥/ ١٦٩ - بتحقيقنا)، من طريق الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: «جاءت امرأة رفاعَةَ القرظي إلى النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعَةَ، فطلقني، فبِتُ طلاقاً، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدية الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعَةَ؟ لا حتى تذوقي عسيلته، ويدوق عسيلتك».

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طرق أخرى عن عائشة.

فأخرجه البخاري (٢٨٤/٩)، كتاب «الطلاق»، باب من قال لامرأته: أنت علي حرام، حديث (٥٢٦٥)، ومسلم (١٠٥٧/٢)، كتاب «النكاح»، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها، حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١٤)، وأحمد (٢٢٩/٦)، والدارمي (١٦٢/٢)، من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة به، وأخرجه مسلم (١٠٥٧/٢)، كتاب «النكاح»، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها، حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١٥)، وأحمد (١٩٣/٦). وأبو يعلى (٣٧٣/٨ - ٣٧٤) رقم (٤٩٦٤)، من طريق القاسم بن محمد عن عائشة.

وأخرجه أبو داود (٧٠٥/١) كتاب «الطلاق»، باب في المبتوتة لا يرجع إليها زوجها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (٢٣٠٩). وأحمد (٤٢/٦) من طريق الأسود عن عائشة.

وأخرجه البخاري (٢٩٣/١٠)، من طريق عبد الوهاب عن أيوب عن عكرمة أنَّ رفاعَةَ طَلَّقَ امرأته، فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي، قالت عائشة: وعليها خِمَارٌ أخضر، فشكَّتْ إليها، وأزتها خُضْرَةً بجلدها، فلما جاء رسول الله ﷺ - والنساء يَنْصُرُ بعضهن بعضاً - قالت عائشة: ما رأيت مثل ما يلقي المؤمنات، ليجلدها أشدَّ خُضْرَةً من ثوبها، قال: وسمِعَ أنها قد آتَتْ رسول الله ﷺ، فجاء معه ابنان له من غيرها، قالت: واللَّهِ مالي إليه من ذَنْبٍ، إلا أنَّ ما معه ليس بأغنى عني من هذه - وأخذت هدية من ثوبها - فقال: كَذَبْتَ واللَّهِ يا رسول الله، إني لأنفَضُها نفَضَ الأديم، ولكنها ناشَرْتُ تريد رِفاعَةَ، فقال رسول الله ﷺ: فإن كان ذلك لم تحلي له أو تصلحي له حتى يدوق من عَسِيلَتِكَ، قال: وأبصرَ معه ابنين له فقال: بَنُوكَ هَؤُلاءِ؟ قال: نعم. قال: هذا الذي تزعمين ما تزعمين؟ فواللَّهِ لهم أشبه به من الغراب بالغراب.

وهو ذَوْقُ الْعُسَيْلَةِ^(١)، والذي يُحِلُّهَا عند مالك النكاح الصحيح، والوطء المُباح.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ...﴾ الآية: المعنى: فَإِنْ طَلَّقَهَا الْمُتَزَوِّجُ الثَّانِي، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، أَي: المرأة والزوج الأول. قاله ابن عَبَّاس^(٢)، ولا خلاف فيه، والظنُّ هنا على بابهِ من تغليب أحد الجائزين، وخص الذين يعلمون بالذکر تشريعاً.

= وفي الباب عن ابن عمر، وعبيد الله بن عباس؛ وأنس بن مالك، والفضل بن عباس.

* حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٨٥/٢)، والنسائي (١٤٨/٦ - ١٤٩)، كتاب «النكاح»، باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (٦٢٢/١)، كتاب «النكاح»، باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فتزوج، فيطلقها (١٩٣٣)، من طريق محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد: سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر به.

أخرجه أحمد (٦٢/٢)، والنسائي (١٤٩/٦)، والبيهقي (٣٧٥/٧)، من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد، عن رزين بن سليمان، عن ابن عمر. قال النسائي: هذا أولى بالصواب.

وأخرجه أبو يعلى (٣٧٤/٨)، رقم (٤٦٦)، من طريق يحيى بن سعيد، عن نافع، عن ابن عمر.

قال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/٤)، رواه الطبراني وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

* حديث عبيد الله بن عباس:

أخرجه أحمد (٢١٤/١)، والنسائي (١٤٨/٦)، كتاب «الطلاق»، باب إحلال المطلقة ثلاثاً عنه؛ أن الغميصاء أو الرميضاء أتت النبي ﷺ تشكي زوجها أنه لا يصل إليها، فلم يلبث أن جاء زوجها فقال: يا رسول الله، هي كاذبة وهو يصل إليها، ولكنها تريد أن ترجع إلى زوجها الأول، فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك حتى تذوقي عسيلته»، وأخرجه أبو يعلى (٨٥/١٢ - ٨٦) رقم (٦٧١٨) عن عبيد الله بن عباس، والفضل بن عباس به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/٤)، رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

* حديث أنس بن مالك:

أخرجه أحمد (٢٨٤/٣)، والبخاري (١٩٥/٢ - كشف) برقم (١٥٠٥)، وأبو يعلى (٢٠٧/٧) رقم (٤١٩٩) عنه؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت زوجاً، فمات عنها قبل أن يدخل بها. هل يتزوجها الأول، قال: «لا، حتى يذوق عسيلتها».

قال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/٤)، وقال: رواه أحمد، والبخاري، وأبو يعلى، والطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح، خلا محمد بن دينار الطاحي، وقد وثقه أبو حاتم، وأبو زرعة، وابن حبان، وفيه كلام لا يضر.

* حديث الفضل بن عباس: ينظر حديث عبيد الله بن العباس.

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٩/١).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩١/٢) برقم (٤٩٠٩)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٩/١)، والسيوطي في

«الدر المنثور» (٥٠٨/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ...﴾ الآية: خطابٌ للرجال، نُهي الرجل أن يطول العدة، مضارةً لها؛ بأن يرتجع قرب أنقضائها، ثم يطلق بعد ذلك؛ قاله الضحاك وغيره^(١)، ولا خلاف فيه.

ومعنى: ﴿بَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: قاربن؛ لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك، ومعنى: أمسكوهن راجعوهن - و ﴿بمعروف﴾: قيل: هو الإِشهاد^(٢) - ﴿وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ﴾، أي: لا تراجعوهن ﴿ضراً﴾، وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا...﴾ الآية: المراد بآياته النازلة في الأوامر والنواهي، وقال الحسن: نزلت هذه الآية فيمن طلق لاعباً أو هازئاً، أو راجع كذلك^(٣).

وقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ جِدْهِنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ»^(٤).

ثم ذَكَرَ الله عباده بإنعامه سبحانه عليهم بالقرآن، والسُّنة، والحكمة: هي السُّنة المبينة مراد الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ...﴾ الآية: خطابٌ للمؤمنين الذين منهم الأزواج، ومنهم الأولياء؛ لأنهم المراد في تَعْضُلُوهُنَّ، وبلوغ الأجل في هذا الموضع تناهيه؛ لأن المعنى يقتضي ذلك.

وقد قال بعض الناس في هذا المعنى: إن المراد بـ ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: الأزواج؛ وذلك بأن يكون الارتجاع مضارةً؛ عضلاً/ عن نكاح الغير، فقوله: ﴿أزواجهن﴾؛ على هذا، يعني به: الرجال؛ إذ منهم الأزواج، وعلى أن المراد بـ ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الأولياء، فالأزواج

(١) أخرجه الطبري (٤٩٤/٢) برقم (٤٩٢٢)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٩/١).

(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠٩/١)، والبغوي في (٢١٠/١).

(٣) أخرجه الطبري (٤٩٦/٢) برقم (٤٩٢٦)، وذكره ابن عطية (٣١٠/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣١/١)، وعزاه لابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٩/٢)، كتاب «الطلاق»، باب في الطلاق (٢١٩٤)، والترمذي (٤٩٠/٣)، كتاب «الطلاق»، باب ما جاء في الحد (١١٨٤)، وابن ماجه (٦٥٨/١)، كتاب «الطلاق»، باب من طلق أو نكح (٢٠٣٩)، والدارقطني (١٨/٤ - ١٩)، كتاب «الطلاق»، والحاكم في «المستدرک» (١٩٧/٢) - (١٩٨)، كتاب «الطلاق»، باب ثلاث جدهن جد.

هم الذين كُنْ في عصمتهم.

«وَالْعَظْلُ»: المَنع وهو من معنى التضييق والتعسير؛ كما يقال: أَعْضَلْتُ الدجاجةَ، إذا عَسِرَ بيضُها، والدَّاءُ العُضَالُ: العسيرُ البرء، وقيل: نزلت هذه الآية في مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ^(١)، وأخته، لما طَلَّقها زوجها، وَتَمَّتْ عَدَّتُهَا، أراد أَرْتَجَاعَهَا، فَمَنَعَهُ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ^(٢)، وقيل: نزلت في جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وأخْتِهِ^(٣).

وهذه الآية تقتضي ثبوت حَقِّ الولي في إِنْكَاحِ وَلِيِّتِهِ، وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: معناه: المهر، والإشهاد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ ثم رَجُوعٌ إلى خطابِ الْجَمَاعَةِ، والإشارة في ﴿ذَلِكَ أَرْكَى﴾ إلى ترك العَظْل، و ﴿أَرْكَى... وَأَطْهَرَ﴾: معناه: أَطِيبُ لِلنَّفْسِ، وأَطْهَرُ لِلْعِرْضِ والذِّينِ؛ بسبب العلاقات التي تكون بين الأزواج، وربما لم يعلمها الولي، فيؤدِّي العَظْلُ إلى الفسادِ، والمخالطةِ؛ عَلَى ما لا ينبغي، واللَّهُ تعالى يَعْلَمُ من ذلك ما لا يَعْلَمُ الْبَشَرُ.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ رَضَائِهِمَا فَكُلَّامٌ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا فَأُولَئِكَ فَلَاحُ عَلَيْهِمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَآَلَفُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٣)

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾

(١) معقل بن يسار بن عبد الله بن معبر بن حراق بن أبي بن كعب بن عبد ثور بن هذمة بن لاطم بن عثمان بن عمرو المزني.

ومزينة هي والدته عثمان بن عمرو، ونسبوا إليها.

ومعقل يكنى أبا علي، وقيل: كنيته أبو عبد الله، وقيل: أبو يسار.

ومات في آخر خلافة معاوية. وقيل: عاش إلى إمرة يزيد. وذكره البخاري في «الأوسط» في فضل من مات ما بين الستين إلى السبعين.

ينظر: «الإصابة» (١٤٦/٦ - ١٤٧).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٧/٢ - ٤٩٨ - ٤٩٩) بأرقام (٤٩٣٠ - ٤٩٣١ - ٤٩٣٢ - ٤٩٣٣ - ٤٩٣٤)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٠/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١١/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٤٩٩/٢) رقم (٤٩٤٢)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٠/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١١/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن السدي.

﴿يرضعن أولادهن﴾: خبر معناه الأمر على الوجوب لبغض الوالدات، وعلى الذنب لبعضهن، فيجب على الأم الإرضاع، إن كانت تحت أبيه، أو رجعية، ولا مانع من علو قدر بغير أجر، وكذلك إن كان الأب عديماً، أو لم يقبل الولد غيرها.

وهذه الآيات في المطلقات جعلها الله حداً عند اختلاف الزوجين في مدة الرضاع، فمن دعا منهما إلى إكمال الحولين، فذلك له.

وقوله تعالى: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ مبني على أن الحولين ليسا بقرض، لا يتجاوز، وانتزع مالك - رحمه الله - وجماعة من العلماء من هذه الآية؛ أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب، إنما هي ما كان في الحولين^(١)؛ لأنَّ بآنقضاء الحولين، تمت الرضاعة، فلا رضاعة.

* ت *: فلو كان رضاعه بعد الحولين بمدة قريبة، وهو مستمر الرضاع، أو بعد يومين من فصائه - اعتبر، إذ ما قارب الشيء فله حكمه. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وعلى المولود له رزقهن...﴾ الآية: المولود له: اسم جنس،

(١) من شروط الرضاع المحرم: ألا يبلغ الرضيع حولين كاملين يقيناً في ابتداء الرضعة الخامسة، فلا أثر لرضاع من بلغها، ولو بيسير من الزمن، فإن شك في بلوغه وعدمه حرم؛ لأن الشك لا أثر له مع اليقين الذي هو الأصل، وهو بقاء المدة، ولو بلغها في أثناء الرضعة الخامسة حرم؛ لكفاية ما وجد من هذه الرضعة في الحولين، ويعتبر الحولان بالأهلة؛ فإن انكسر الشهر الأول تم ثلاثين يوماً من الشهر الخامس والعشرين.

والسنة الهلالية، وهي القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وخمس، وسدس من اليوم، والسنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، إلا جزءاً من ثلاثمائة من اليوم، والفلكيون يعتبرونها ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً فقط إن كانت بسيطة، وستين وستين إن كانت كبيسة، والسنة العددية ثلاثمائة وستون يوماً لا تزيد ولا تنقص.

وشرط عدم بلوغ الرضيع حولين كاملين هو مذهب إمامنا الشافعي (رضي الله تعالى عنه)، وهو قول أبي يوسف، ومحمد (رضي الله تعالى عنهم أجمعين). وقول الإمام مالك في إحدى روايته، وبه قال من الصحابة سيدنا عمر، وابنه، وسيدنا علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأمّهات المؤمنين سوى سيدتنا عائشة (رضي الله تعالى عنهم)، وقال سيدنا مالك (رضي الله عنه) مدته خمسة وعشرون شهراً، وقال الإمام أبو حنيفة: مدته ثلاثون شهراً، وقال زُفر: مدته ثلاثة أحوال، فهي ستة وثلاثون شهراً، فكل هؤلاء يشترطون الصغر في الرضاع غير أنهم قد اختلفوا فيما بينهم في مدته.

وذهب بعض الفقهاء (ومنهم الأوزاعي، وداود الظاهري) إلى تحريم رضاع الكبير، ونسب هذا أيضاً إلى الإمام الليث بن سعد، وهو مذهب أم المؤمنين عائشة (رضي الله تعالى عنها) وقال الجصاص: إنه قول شاذ. ينظر: «الرضاع» لشيخنا قاسم محمد العبدى.

وصنّف من الرجال، والرّزق في هذا الحكم: الطعام الكافي.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يجمع حُسن القَدْر في الطعام، وجَوْدَة الأداء له، وحُسْن الاقتضاء من المرأة.

ثم بيّن سبحانه؛ أنّ الإنفاق على قدر غنى الزوج بقوله: ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وقرأ^(١) أبو عمرو، وابن كثير، وأبان^(٢) عن عاصم^(٣): «لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ؛ بضم الراء، وهو خير، معناه الأمر، ويحتمل أن يكون الأصل: لَا تُضَارُّ؛ بكسر الراء الأولى، ف «وَالِدَةٌ» فاعلة، ويحتمل بفتح الراء الأولى، ف «وَالِدَةٌ»: مفعول لم يسم فاعله، ويعطف «مولود له» على هذا الحد في الاحتمالين، وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وعاصم: لَا تُضَارُّ؛ بفتح الراء، وهذا على النهي، ويحتمل أصله ما ذكرنا في الأولى، ومعنى الآية في كل قراءة: النهي عن الإضرار، ووجه الضّر لا تنحصر، وكل ما ذُكر منها في التفاسير، / ٥٨ ب فهو مثال.

* ت * : وفي الحديث: «لَا ضَرَرَ، وَلَا ضِرَارَ»، رواه مالك في «الموطأ» مرسل^(٤).

(١) وحجتهم في ذلك قوله تعالى قَبْلَهُ: ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فجعلنا الرفع نسقاً عليه، وجعلناه خبراً بمعنى النهي.

ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٣٣٣/٢)، و «العنوان» (٧٤)، و «شرح طيبة النشر» (٤/١٠٠ - ١٠٢)، و «حجة القراءات» (١٣٦)، و «معاني القراءات» (١/٢٠٥)، و «شرح شعلة» (٢٩٠)، و «إتحاف» (٤٤٠/١).

(٢) أبان بن تغلب الربيعي، أبو سعد، ويقال: أبو أميمة الكوفي، النحوي، جليل، قرأ على عاصم، وأبي عمرو الشيباني، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وهو أحد الذين ختموا عليه. ويقال: إنه لم يختم القرآن على الأعمش إلا ثلاثة منهم أبان بن تغلب، أخذ القراءة عنه عرضاً محمد بن صالح بن زيد الكوفي، توفي سنة إحدى وأربعين ومائة. وقال القاضي أسد: سنة ثلاث وخمسين ومائة. ينظر: «غاية النهاية» (٤/١).

(٣) عاصم بن أبي النجود بهذلة، الكوفي، الأسدي بالولاء، أبو بكر: أحد القراء السبعة، تابعي من أهل «الكوفة»، ووفاته فيها سنة ١٢٧هـ، كان ثقة في القراءات، صدوقاً في الحديث، قيل: اسم أبيه عبيد، وبهذلة اسم أمه.

ينظر: «تهذيب التهذيب» (٣٨/٥)، «الأعلام» (٢٤٨/٣)، «الوفيات» (١/٢٤٣)، «غاية النهاية» (١/٣٤٦)، «ميزان الاعتدال» (٥/٢).

(٤) ورد هذا الحديث من حديث عبادة بن الصامت، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وعائشة، وأبي سعيد الخدري، وجابر، وعمرو بن عوف، وأبي لبابة.

* حديث عبادة بن الصامت:

أخرجه ابن ماجه (٧٨٤/٢)، كتاب «الأحكام»، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، حديث (٢٣٤٠).

قال النووي في «الحلية»: ورويناه في «سُنَن الدَّارَقُطِيِّ» وغيره من طرقٍ متصلاً، وهو

حسن انتهى.

= وأحمد (٣٢٦/٥ - ٣٢٧). وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٣٤٤/١)، والبيهقي (١٣٣/١٠)، كتاب «آداب القاضي»، باب ما لا يحتمل القسمة، كلهم من طريق موسى بن عقبة، ثنا إسحاق بن يحيى بن الوليد، عن عبادة بن الصامت؛ أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار. قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣٨٤/٤)، قال ابن عساكر في «أطرافه»: وأظن إسحاق لم يدرك جده. وقال العلائي في «جامع التحصيل» (ص ١٤٤) إسحاق بن يحيى بن الوليد بن الصامت، عن جد أبيه عبادة بن الصامت (رضي الله عنه). قال الترمذي: لم يدركه. اهـ. والحديث ذكره البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٢٢١/٢)، وقال: هذا إسناد رجاله ثقات، إلا أنه منقطع. اهـ. قلت: وهذا فيه نظر، فإن إسحاق بن يحيى قد ذكره ابن عدي في «الكامل» (٣٣٣/١)، وقال: عامة أحاديثه غير محفوظة. وقد حكى البوصيري نفسه تضعيفه في «الزوائد» (١٧٩/٢)، فقال عن إسناد فيه إسحاق هذا: هذا إسناد ضعيف؛ لضعف إسحاق بن يحيى بن الوليد، وأيضاً لم يدرك عبادة بن الصامت؛ قاله البخاري، والترمذي، وابن حبان، وابن عدي.

والحديث ذكره الحافظ أيضاً في «الدراية» (٢٨٢/٢)، وقال: وفيه انقطاع.

* حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد (٣١٣/١)، وابن ماجه (٧٨٤/٢)، كتاب «الأحكام»، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، حديث (٢٣٤١)، من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن جابر الجعفي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

قال البوصيري في «الزوائد» (٢٢٢/٢): هذا إسناد فيه جابر، وقد اتهم. اهـ.

لكنه توبع تابعه داود بن الحصين: أخرجه الدارقطني (٢٢٨/٤)، كتاب «الأقضية»، حديث (٨٤) من طريق إبراهيم بن إسماعيل، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس به.

قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣٨٥/٤)، قال عبد الحق في «أحكامه»: وإبراهيم بن إسماعيل هذا هو ابن أبي حبيبة وفيه مقال، فوثقه أحمد، وضعفه أبو حاتم، وقال: هو منكر الحديث، لا يحتج به. اهـ. قلت: وضعفه أيضاً البخاري، فقال: منكر الحديث «التاريخ الكبير» (٨٧٣/١).

وقال الترمذي في «سننه» (١٤٦٢): يضعف في الحديث، وقال النسائي فقال في «الضعفاء» رقم (٢): ضعيف.

وقال الدارقطني: متروك، ينظر «سؤالات البرقاني» (٢٢)، و «الضعفاء» له (٣٢).

وقال أبو حاتم: ليس بالقوي ينظر «العلل» (١٥٧٥)، وقال الحافظ في «التقريب» (٣١/١) رقم (١٦٨)، ضعيف.

* حديث أبي هريرة:

أخرجه الدارقطني (٢٢٨/٤)، كتاب «الأقضية»، حديث (٨٦)، من طريق أبي بكر بن عياش قال: أراه عن ابن عطاء، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرورة، ولا يمتنع أحدكم جاره أن يضع خشبة على حائطه».

قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣٨٥/٤)، وأبو بكر بن عياش مختلف فيه. اهـ.

وللحديث علة أخرى، وهي ابن عطاء، واسمه يعقوب بن عطاء بن أبي رباح.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قال مالك، وجميع أصحابه، والشَّعْبِيُّ،

= قال أحمد: منكر الحديث. وقال مرة أخرى: ضعيف، وقال ابن معين، وأبو زرعة، والنسائي: ضعيف.

وقال أبو حاتم: ليس بالمتين يكتب حديثه.

وقال ابن عدي: له أحاديث صالحة، وهو ممن يكتب حديثه، وعنده غرائب.

ينظر «التهذيب» (١١/٣٩٣).

وقد لخص الحافظ هذه الأقوال فقال في «التقريب» (٢/٣٧٦) رقم (٣٨٦): ضعيف.

* حديث عائشة:

وله طريقان:

الأول: أخرجه الدارقطني (٤/٢٢٧) كتاب «الأفضية»، حديث (٨٣)، من طريق الواقدي: ثنا خارجة بن عبد الله بن سليمان بن زيد بن ثابت، عن أبي الرجال، عن عمرة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار».

والواقدي محمد بن عمر متروك.

الطريق الثاني: أخرجه الطبراني في «الأوسط»، كما في «نصب الراية» (٤/٣٨٦)، حدثنا أحمد بن رشدين، ثنا روح بن صلاح، ثنا سعيد بن أبي أيوب، عن أبي سهل، عن القاسم بن محمد، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا إضرار».

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/١١٣)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه أحمد بن محمد بن الحجاج بن رشدين. قال ابن عدي: كذبوه. اهـ.

وللحديث طريق آخر أيضاً: أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «نصب الراية» (٤/٣٨٦)، حدثنا أحمد بن داود المكي، ثنا عمرو بن مالك الراسبي، ثنا محمد بن سليمان بن مسمول، عن أبي بكر بن أبي سبرة، عن نافع بن مالك، عن القاسم بن محمد، عن عائشة؛ أن النبي ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار».

قال الطبراني: لم يروه عن القاسم إلا نافع بن مالك.

قلت: وهذا الطريق لم يذكره الهيثمي في «المجمع»، مع أنه على شرطه.

وأبو بكر بن أبي سبرة: قال البخاري: منكر الحديث... «التاريخ الصغير» (٢/١٨٤)، وقال مرة:

ضعيف... «الضعفاء الصغير» (٤١٦). وقال النسائي: متروك الحديث... «الضعفاء والمتروكين»

(٦٩٧). وقال الدارقطني: متروك... «الضعفاء والمتروكين» (٦١٢). وقال البزار: لين الحديث...

«كشف الاستار» (١١٢٩). وذكره أبو زرعة الرازي في «أسامي الضعفاء» (٣٨٠).

* حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه الدارقطني (٤/٢٢٨) كتاب «الأفضية»، حديث (٨٦)، والحاكم (٢/٥٧)، كتاب «البيع»، باب النهي عن المحاقلة...، والبيهقي (٦/٦٩ - ٧٠)، كتاب «الصلح»، باب لا ضرر ولا ضرار، كلهم من طريق الدراوردي، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»، قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

= وقال البيهقي: تفرد به عثمان بن محمد - عن الدراوردي.. قلت: وفي كلام الثلاثة نظر.

والرُهرِيُّ، وجماعةٌ من العلماء: المرادُ بقوله: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾: أَلَا يُضَارُّ، وأَمَّا الرزقُ، والكُسوةُ، فلا شيءَ عَلَيْهِ منه^(١)، قال * ع^(٢): فالإجماع من الأُمَّة في ألا يُضَارَّ الوارثُ، وإِنَّمَا الخلافُ، هل عليه رزقٌ وكُسوةٌ أم لا؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا...﴾ الآية، أي: فَإِنْ أَرَادَ الْوَالِدَانِ، وَفِصَالًا: معناه: فِطَامًا عَنِ الرِّضَاعِ.

وتحرير القول في هذا: أن فَضْلَهُ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِتَرَاضِيهِمَا وَأَلَّا يَكُونَ عَلَى الْمَوْلُودِ ضَرَرٌ، وَأَمَّا بَعْدَ تَمَامِهِمَا، فَمِنْ دَعَا إِلَى الْفَضْلِ، فَذَلِكَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى الصَّبِيِّ ضَرَرٌ.

= أما صحته على شرط مسلم، فعثمان بن محمد لم يخرج له مسلم شيئاً، ومع ذلك فهو ضعيف ضَعْفُهُ الدارقطني. ينظر: «لسان الميزان» (١٧٥/٤).

وأما قول البيهقي: «تفرد به عثمان بن محمد»، ففيه نظر أيضاً، فقد تابعه عبد الملك بن معاذ النصيبي عن الدراوردي به؛ كما في «نصب الراية» (٣٨٥/٤). قال ابن القطان في كتابه: وعبد الملك هذا لا يعرف له حال. اهـ.

وأخرجه مالك (٧٤٥/٢)، كتاب «الأقضية»، باب القضاء في المرفق، حديث (٣١)، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار». هكذا مرسلًا. حديث جابر:

أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «نصب الراية» (٣٨٦/٤)، ثنا محمد بن عبدوس بن كامل، ثنا حبان بن بشر القاضي قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن عمه واسع بن حبان، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٣/٤)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه ابن إسحاق، وهو ثقة لكنه مدلس. اهـ.

وهذا الحديث رواه عبد الرحمن بن مغراء، ثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن عمه واسع بن حبان مرسلًا. أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ٢٩٤) رقم (٤٠٧). حديث عمرو بن عوف:

ذكره الحافظ في «التهذيب» (٤٢١/٨ - ٤٢٢)، من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه.

* حديث أبي لبابة:

أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ٢٩٤) رقم (٤٠٧).

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢١٣/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٢/١).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣١٢/١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ مخاطبة لجميع الناس، يجمع الآباء والأمهات، أي: لهم اتخاذ الظئر^(١)، مع الاتفاق على ذلك، وأما قوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾، فمخاطبة للرجال خاصة إلا على أحد التأويلين في قراءة من^(٢) قرأ: «أوتيتم»، وقرأ السبعة من السبعة: «أتيتم»؛ بالمد؛ بمعنى أعطيتم، وقرأ ابن كثير: «أتيتم»؛ بمعنى فعلتم^(٣)؛ كما قال زهير: [الطويل]

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ^(٤)
فأحد التأويلين في هذه القراءة كالأول، والتأويل الثاني لقتادة، وهو إذا سلمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع^(٥)، أي: سلم كل واحد من الأبوين، ورضي، وكان ذلك على اتفاق منهما، وقصد خير، وإرادة معروف، وعلى هذا الاحتمال يدخل النساء في الخطاب.
* ت * وفي هذا التأويل تكلف.

وقال سفيان: المعنى: إذا سلمتم إلى المسترضعة، وهي الظئر أجراها بالمعروف^(٦).
وباقى الآية أمر بالتقوى، وتوقيف على أن الله تعالى بصير بكل عمل، وفي هذا وعيد وتحذير، أي: فهو مجاز بحسب عملكم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

(١) الظئر: المرضعة غير ولدها.

ينظر: «النهاية» (٣/١٥٤)، و «لسان العرب» (٢٧٤١).

(٢) وهي رواية شيبان عن عاصم، كما في شواذ ابن خالويه ص (٢٢).

(٣) وقراءة ابن كثير معناها: إذا سلمتم ما أتيتم به.

ينظر: «حجة القراءات» (١٣٧)، و «السبعة» (١٨٣)، و «الحجة» (٢/٣٣٥)، و «معاني القراءات» (١/٢٠٦ - ٢٠٧)، و «المعاني» (٧٤)، و «شرح الطيبة» (٤/١٠٣)، و «شرح شملة» (٢٩١)، و «إتحاف» (٤٤٠/١).

(٤) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص (١١٥)، و «تفسير القرطبي» (٣/١٧٣)، و «الدر المصون» (٥٧٥/١).

توارثه، يعني: ورثه كابر عن كابر. وقال ابن ميادة في مثله:

إِنَّ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُشْرِفٍ يَزِلُّ عَنْهُ الْعُفُورُ، الْأَحْمَرُ
لَهُ الْفَعَالُ، وَلَهُ الْوَالِدُ الْكَبَرُ، فَلَاكِبَرُ، فَلَاكِبَرُ

(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣١٣).

(٦) أخرجه الطبري (٢/٥٢٣) برقم (٥٠٧٣)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣١٣).

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ هذه الآية في عدة المتوفى عنها زوجها، وظاهرها العموم، ومعناها الخصوص في الحرائر غير الحوامل، ولم تكن الآية لما يشد من مرتابة ونحوها، وعدة الحامل: وضع حملها؛ عند الجمهور.

وروي عن علي، وابن عباس: أقصى الأجلين^(١)، ويتربصن: خبر يتضمن معنى الأمر، والتربص: الصبر والتأني.

والأحاديث عن النبي ﷺ متظاهرة أن التربص بإحداد، وهو الامتناع عن الزينة، ولبس المضبوط الجميل، والطيب، ونحوه، والتزام المبيت في مسكنها؛ حيث كانت وقت وفاة الزوج، وهذا قول جمهور العلماء، وهو قول مالك، وأصحابه، وجعل الله تعالى ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ عبادة في العدة فيها استبراء للحمل؛ إذ فيها تكمل الأربعون، والأربعون، والأربعون؛ حسب الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره، ثم ينفخ الروح/، وجعل تعالى العشر تكملة؛ إذ هي مظنة لظهور الحركة بالجنين، وذلك لنقص الشهر، أو كمالها، أو لسرعة حركة الجنين، أو إبطائها.

قاله ابن المسيب، وغيره^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَعَشْرًا﴾؛ تغليبا لحكم الليالي، وقرأ^(٣) ابن عباس: «وَعَشْرَ لَيَالٍ»، قال جمهور العلماء: ويدخل في ذلك اليوم العاشر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: ﴿فِيمَا فَعَلْنَا﴾: يريد به الزوج، فما دونه من زينة، وأطراح الإحداد؛ قاله مجاهد وغيره^(٤)، إذا كان مغروفاً غير منكر.

قال ع^(٥): * ووجوه المنكر كثيرة، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٤/١).

(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩١٤/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١٥/١)، وعزاه لابن جرير عن قتادة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣١٤/١)، و «البحر المحيط» (٢٣٣/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٥٣٠/٢) برقم (٥٠٩٧-٥٠٩٨).

وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٤-٣١٥).

(٥) «المحرر الوجيز» (٣١٥/١).

وعيدٌ يتضمَّن التحذيرَ، و ﴿خَبِيرٌ﴾: اسم فاعلٍ من «خَبَرَ»، إذا تَقَصَّى عِلْمَ الشيء.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ...﴾ الآية: تصريحٌ خطبة المعتدة حرام، والتعريضُ جائزٌ، وهو الكلام الذي لا تصريح فيه، ﴿أو أَكْنَنْتُمْ﴾: معناه: سترتم، وأخفيتم.

وقوله تعالى: ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ قال الحسن: معناه: ستخطبونهنَّ^(١)، وقال غيره: معناه: علم الله أنكم ستذكرون النساء المعتدات في نفوسكم وبألسنتكم، فنهي عن أن يوصل إلى التواعدِ معهنَّ^(٢).

* ع^(٣): * والسرُّ، في اللغة: يقع على الوطاء حلاله وحرامه، والآية تعطي النهي عن أن يواعد الرجلُ المعتدة؛ أن يطأها بعد العدة بوجه التزويج، وقال ابن جبير: ﴿سِرًّا﴾، أي: نكاحاً^(٤)، وهذه عبارة مخلصه.

وأجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ استثناء منقطع، والقول المعروف هو ما أبيح من التعريض؛ كقول الرجل: إِنَّكُمْ لَأَكْفَاءُ كِرَامٍ، وما قُدِّرَ كَانَ، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾: عزمُ العقدة: عَقْدُهَا بالإشهاد، والولي، وحينئذ: تسمى عُقْدَةً.

(١) أخرجه الطبري (٥٣٥/٢) برقم (٥١٣٦-٥١٣٨)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٥/١)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥١٨/١)، وعزاه لوكيع، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري (٥٣٥/٢) رقم (٥١٣٧)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٦/١)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥١٨/١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير عن مجاهد.

(٣) «المحرر الوجيز» (٣١٦/١).

(٤) أخرجه الطبري (٥٣٧/٢) رقم (٥١٥٨)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣١٦/١)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥١٩/١)، وعزاه لعبد الرزاق عن سعيد بن جبير.

* ت * : والظاهر أن العزم غَيْرُ العقد، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾: يريد تمام العدة، والكتاب هنا هو الحد الذي جُعِلَ، والقدر الذي رُسِمَ من المدة، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...﴾ الآية: تحذير من الوقوع فيما نهى عنه، وتوقيف على غفره وحلمه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٣) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْتُمْ مَا قُرْضَتْمْ إِلَّا أَنْ يَفُوتَ أَوْ يَمُوتَ الَّذِي يَكُونُ عَقْدُهُ النِّكَاحَ وَأَنْ تَمُوتَا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٤﴾

وقوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ هذا ابتداء إخبار برفع الجناح عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهرأ أو لم يفرض، ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذوق، وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج، طلباً للعصمة، وألتماس ثواب الله، وقصد دوام الصلابة، وقع في نفوس المؤمنين؛ أن من طلق قبل البناء قد وقع جزءاً من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك، إذا كان أضل النكاح على المقصد الحسن.

وقال قوم: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: معناه: لا طلب لجميع المهر، بل عليكم نصف المفروض لمن فرض لها، والمتعة لمن لم يفرض لها، وفرض المهر: إثباته، وتحديثه، وهذه الآية/ تُعْطِي جَوَازَ الْعَقْدِ عَلَى التَّفْرِيزِ؛ لأنه نكاح مقرر في الآية، مُبَيَّن حُكْمُ الطَّلَاقِ فِيهِ؛ قاله مالك في «المدة».

والفريضة: الصداق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾. أي: أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن، وحمله ابن عمر وغيره على الوجوب، وحمله مالك وغيره على النذب، واختلف الناس في مقدار المتعة، قال الحسن: يمتنع كل على قدره، هذا بخادم، وهذا بأثواب، وهذا بثوب، وهذا بنفقة^(١)، وكذلك يقول مالك.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾: دليل على رفض التحديد، والموسع: أي: من اتسع حاله، والمقتير: المقل القليل المال، و﴿مَتَاعًا﴾:

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣١٩).

نصب على المصدر^(١).

وقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: لا حمل فيه، ولا تكلف على أحد الجانبين، فهو تأكيد لمعنى قوله: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ﴾، ثم أكد تعالى الذب بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: في هذه النازلة من التمتع هم محسنون، ومن قال؛ بأن المتعة واجبة، قال: هذا تأكيد للوجوب، أي: على المحسنين بالإيمان والإسلام، و ﴿حَقًّا﴾: صفة لقوله تعالى: ﴿مَتَاعًا﴾.

* ت * : وظاهر الآية عموم هذا الحكم في جميع المطلقات؛ كما هو مذهب الشافعي، وأحمد، وأصحاب الرأي، والظاهر حمل المتعة على الوجوب؛ لوجوه، منها: صيغة الأمر، ومنها: قوله: ﴿حَقًّا﴾، ومنها: لفظة «عَلَى»، ومنها: من جهة المعنى: ما يترتب على إمتاعها من جبر القلوب، وربما أدّى ترك ذلك إلى العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وقد مال بعض أئمتنا المتأخرين إلى الوجوب. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُموهنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ...﴾ الآية: اختلف في هذه الآية، فقالت فرقة، فيها مال: إنها مخرجة للمطلقة بعد الفرض من حكم التمتع؛ إذ يتناولها.

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾: وقال قتادة: نَسَخَتْ هذه الآية الآية التي قبلها^(٢)، وقال ابن القاسم في «المدونة»: كان المتاع لكل مطلقة؛ بقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]، ولغير المدخول بها بالآية التي في سورة «الأحزاب»، فاستثنى الله سبحانه المفروض لها قبل الدخول بهذه الآية، وأثبت لها نصف ما فرض فقط^(٣)، وزعم زيد بن أسلم؛ أنها منسوخة^(٤)، حكى ذلك في «المدونة» عن زيد بن أسلم زعمًا.

وقال ابن القاسم: إنها استثناء، والتحرير يرد ذلك إلى النسخ الذي قال زيد؛ لأن ابن القاسم قال: إن قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ﴾ [البقرة: ٢٤١] عم الجميع، ثم استثنى الله

(١) ويجوز أن ينتصب على الحال، والعامل فيه حيثما تضمنه الجار والمجرور «على الموسع» من معنى الفعل، وصاحب الحال ذلك الضمير المستكن في ذلك العامل. والتقدير: قدر الموسع يستقر عليه في حال كونه متاعاً. وينظر: «الدرر المصون» (١/٥٨٣).

(٢) أخرجه الطبري (٥٥٥/٢) برقم (٥٢٥٢)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٢٠).

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٢٧).

(٤) ينظر المصدر السابق.

منه هذه التي فُرِضَ لها قبل المَسييس، وقال فريق من العلماء، منهم أبو ثور^(١): الْمُتَعَّةُ لكلِّ مطلَّقة عموماً، وهذه الآية إنما بينت أن المفروض لها تأخذُ نصفَ ما فرض، أي: مع مُتَعَّتِها، وقرأ الجمهور^(٢): «فَنُصْفُ»؛ بالرفع، والمعنى: فالواجبُ نصفُ ما فرضتُم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾: استثناء منقطع، و «يَعْفُونَ»: معناه: يتركُن ويصفحن، أي: يتركُن النِّصْفَ الذي وَجِبَ لهنَّ عند الزَّوْجِ، وذلك إذا كانت المرأة تملكُ أَمْرَ نَفْسِهَا.

واختلف في المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾.

فقال ابن عباس، ومُجاهد، ومالك، وغيرهم: هو الولي الذي المَرأة في حِجره^(٣)،
٥٩ ب وقالت فزقة: الذي بيده عَقْدَةُ النِّكَاحِ هو الزَّوْجُ^(٤)، فعلى القول الأول: / الذُّبُ في النِّصْفِ الذي يجبُ للمرأة إما أن تعفو هي، وإما أن يعفو وليها، وعلى القول الثاني: إما أن تعفو هي أيضاً؛ فلا تأخذ شيئاً، وإما أن يعفو الزوج عن النِّصْفِ الذي يُحْطُ، فيؤدِّي جميع

(١) أبو عبد الله إبراهيم بن خالد بن أبي يمان، أبو ثور، أخذ عن الشافعي - رضي الله عنه - كما أخذ الفقه عن غيره، قال الخطيب البغدادي: كان أحد الثقات المأمونين، ومن الأئمة الأعلام في الدين، وله كتب مصنفة في الأحكام.

ينظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (٥٥/١)، و «تهذيب التهذيب» (١١٨/١)، و «طبقات السبكي» (١/٢٧٧).

(٢) وقرأ علي وزيد بن ثابت «فَنُصْفُ» بضم النون في جميع القرآن. قال ابن عطية: وهي لغة، وكذلك روى الأصمعي قراءة عن أبي عمرو بن العلاء.

ينظر: «الشواذ» (ص ٢٢)، و «المحرر الوجيز» (٣٢٠/١). ونسبها أبو حيان في «البحر» (٢٤٤/٢) زيادة على ما تقدم إلى السلمي.

(٣) أخرجه الطبري (٥٥٨ - ٥٥٩) برقم (٥٢٨٦ - ٥٢٨٧ - ٥٣٠٨) عن مجاهد برقم (٥٣٠٤) عن ابن عباس. وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢١٩/١) عن ابن عباس. وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢٠/١). والسيوطي في «الدرد المنثور» (٥٢١/١)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٥٦٠ - ٥٦٣) بأرقام (٥٣١٧ - ٥٣٦٣) عن علي وشريح. وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢١٩/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢١/١)، والسيوطي في «الدرد المنثور» (١/٥٢١). وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي بسند حسن، عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ.

وعزاه لوكيع، وسفيان، والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي، عن علي بن أبي طالب.

وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي من طرق عن ابن عباس.

المَهْر، ثم خاطب تعالى الجميع؛ نادياً بقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾، أي: يا جميع الناس، وقرأ علي بن أبي طالب. وغيره: «وَلَا تَنَاسُوا الْفَضْلَ»، وهي قراءة متمكنة المعنى^(١)؛ لأنه موضع تناس، لا نسيان إلا على التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ﴾: نذب إلى المجاملة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خَبَرٌ، وضمه الوغد للمحسين والجِزْمان لغير المُحسن.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ﴾ (٢٢٨) فَإِنْ خِفْتُمْ وِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَلَمَّا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى...﴾ الآية: الخطاب لجميع الأمة، والآية أمر بالمحافظة عَلَى إقامة الصَّلوات في أوقاتها، وبجميع شروطها، وخُرج الطحاوي^(٢) عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «أَمَرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَنْ يُضْرَبَ فِي قَبْرِهِ مِائَةٌ جَلْدَةً، فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى وَيَدْعُوهُ، حَتَّى صَارَتْ وَاحِدَةً، فَأَمْتَلًا قَبْرُهُ عَلَيْهِ نَارًا، فَلَمَّا أَرْتَفَعَ عَنْهُ، أَفَاقَ، فَقَالَ: عَلَامَ جَلَدْتَنِي؟ قَالَ: إِنَّكَ صَلَّيْتَ صَلَاةً بِغَيْرِ طَهُورٍ، وَمَرَزْتَ عَلَى مَظْلُومٍ، فَلَمْ تَنْصُرْهُ»^(٣). انتهى من «التذكرة» للقرطبي^(٤).

وفي الحديث: «أَنَّ الصَّلَاةَ ثَلَاثَةٌ أَثْلَاثِ الطَّهُورِ ثُلُثٌ، وَالرُّكُوعُ ثُلُثٌ، وَالسُّجُودُ ثُلُثٌ،

(١) ينظر: «المحتسب» (١/١٢٧)، و«مختصر الشواذ» (ص ٢٢). وزاد ابن عطية نسبتها إلى مجاهد وأبي حنيفة، وابن أبي عتبة.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٢٢)، و«البحر المحيط» (٢/٢٤٧)، و«الدر المصون» (١/٥٨٨).

(٢) أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي، الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رئاسة الحنفية بـ «مصر»، ولد ونشأ في «طحا» من صعيد مصر ٢٣٩هـ، وتفقه على مذهب الشافعي ثم تحول حنفياً. وتوفي بـ «القاهرة» ٣٢١هـ وهو ابن أخت المزني. من تصانيفه: «شرح معاني الآثار»، و«بيان السنة»، و«الشفعة»، و«المحاضر والسجلات»، و«مشكل الآثار»، و«أحكام القرآن»، و«المختصر» في الفقه، وشرحه كثيرون.

ينظر: «الأعلام» (١/٢٠٦)، «البداية والنهاية» (١١/١٧٤)، «لسان الميزان» (١/٢٧٤)، «اللباب» (٢/٨٢).

(٣) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/٢٣١)، وقال الطحاوي: في هذا الحديث ما يدل على أن تارك الصلاة ليس بكافر؛ لأن من صلى صلاة بغير طهور فلم يصل، وقد أجيب دعوته، ولو كان كافراً ما أجيب له دعوة؛ لأن الله (تبارك وتعالى) يقول: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

(٤) ينظر: «التذكرة» (١/١٩٥).

فَمَنْ أَدَاهَا بِحَقِّهَا، قُبِلَتْ مِنْهُ، وَقُبِلَ مِنْهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَمَنْ رُدَّتْ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ، رُدَّ عَلَيْهِ سَائِرُ عَمَلِهِ» رواه النَّسَائِيُّ^(١). انتهى من «الكوكب الدُّرِّي».

وَرَوَى مَالِكٌ فِي «المَوْطَأِ»، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ^(٢)؛ أَنَّهُ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّهُ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْعَبْدِ الصَّلَاةَ، فَإِنْ قُبِلَتْ مِنْهُ، نُظِرَ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ، لَمْ يُنْظَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ»^(٣). قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التمهيد»: وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مُسْنَدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَجْهِ صَحَّاحٍ، ثُمَّ أَسْنَدَ أَبُو عَمْرٍو عَنْ أَنَسِ بْنِ حَكِيمٍ الضَّبِّيِّ^(٤)، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو هُرَيْرَةَ: إِذَا أَتَيْتَ أَهْلَ مِضْرَكٍ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ صَلَاةُ الْمَكْتُوبَةِ، فَإِنْ أَتَمَّهَا وَإِلَّا قِيلَ: أَنْظَرُوا، هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ، أَكْمَلَتِ الْفَرِيضَةُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ يُفْعَلُ بِسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمَفْرُوضَةِ مِثْلُ ذَلِكَ»^(٥).

(١) أخرجه البزار (١/ ١٧٧- كشف) رقم (٣٤٩)، من طريق المغيرة بن مسلم، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة به. وقال البزار: لا نعلمه مرفوعاً إلا عن المغيرة، وإنما نحفظه عن أبي صالح عن كعب قوله.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٠): المغيرة ثقة، وإسناده حسن.

(٢) يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو بن سهل بن ثعلبة الأنصاري، التجاري، قاضي المدينة. عن أنس، وابن المسيب، والقاسم، وعزّك بن مالك وخلق. وعنه الزهري، والأوزاعي، ومالك، والشافعيان، والحمّادان، والجريان وأمم. قال ابن المديني: له نحو ثلاثمائة حديث. وقال ابن سعد: ثقة، حجة، كثير الحديث، وقال أبو حاتم: يوازي الزهري في الكثرة. وقال أحمد: يحيى بن سعيد أثبت الناس. قال القطان: مات سنة ثلاث وأربعين ومائة. ينظر: «الخلاصة» (٣/ ١٤٩).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٣)، كتاب «قصر الصلاة في السفر»، باب جامع الصلاة، حديث (٨٩).

(٤) أنس بن حكيم الضبّي، البصري. عن أبي هريرة. وعنه الحسن، وعلي بن زيد.

ينظر: «الخلاصة» (١/ ١٠٤).

(٥) أخرجه أبو داود (١/ ٢٩٠ - ٢٩١)، كتاب «الصلاة»، باب كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه، حديث (٨٦٤). وأحمد (٢/ ٤٢٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٣٣)، والحاكم (١/ ٢٦٢)، من طريق الحسن، عن أنس بن حكيم الضبي، عن أبي هريرة به.

وأخرجه ابن ماجه (١/ ٤٥٨)، كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة، حديث (١٤٥٠)، من طريق علي بن زيد، عن أنس بن حكيم الضبي، عن أبي هريرة به.

وأخرجه أبو داود (١/ ٢٩١)، كتاب «الصلاة»، باب كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه، حديث (٨٦٥). والحاكم (١/ ٢٦٣)، والبخاري في «التاريخ» (٢/ ٣٤)، من طريق حماد بن سلمة، عن

حميد، عن الحسن، عن رجل من بني سليط عن أبي هريرة.

وأخرجه الترمذي (٢/ ٢٦٩ - ٢٧٠)، كتاب «الصلاة»، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم =

وفي رواية تميم الداري^(١) عن النبي ﷺ؛ بهذا المعنى.

قال: «ثُمَّ الزَّكَاةُ مِثْلُ ذَلِكَ، ثُمَّ تُوْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»^(٢). انتهى.

وذكرَ الله سبحانه الصلاة الوسطى ثانية، وقد دخلت قبل في عموم قوله: «الصَّلَوَاتِ»؛ لأنه أراد تشریفها.

واختلف الناس في تعيينها.

فقال علي، وابن عباس، وجماعة من الصحابة: إنها صلاة الصُّبح^(٣)، وهو قول مالك، وقالت فرقة: هي الظُّهر، وورد فيه حديث، وقالت فرقة: هي صلاة العَصْرِ، وفي

القيام الصلاة، حديث (٤١٣). والنسائي (٢٣٢/١)، كتاب «الصلاة»، باب المحاسبة على الصلاة، كلاهما من طريق قتادة، عن الحسن، عن حريث بن قبيصة، عن أبي هريرة به. وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، عن أبي هريرة. اهـ. وقد روى هذا الحديث الحسن عن أبي هريرة.

أخرجه أبو داود الطيالسي (١/ ٦٨ - منحة) رقم (٢٦٤)، وأبو يعلى (٩٦/١١) رقم (٦٢٢٥)، من طريق الحسن، عن أبي هريرة.

قال البخاري في «التاريخ» (٣٥/٢)، ولا يصح سماع الحسن من أبي هريرة في هذا. وقد وصف الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (١/ ٣٧٤) هذا الحديث بالاضطراب. وصححه الألباني بطرقه في «الصحيحة» (١٣٥٨).

(١) هو: تميم بن أوس بن حارثة أبو رقية. الداري. قال ابن حجر في «الإصابة»: مشهور في الصحابة، وكان نصرانياً، وقدم المدينة فأسلم، وذكر للنبي قصة الجساسة والدجال، فحدث النبي عنه بذلك على المنبر، وعد ذلك من مناقبه. وقال أبو نعيم. كان راهب أهل عصره، وعابد أهل «فلسطين»، وهو أول من أسرج السراج في المسجد. وقال ابن إسحاق: قدم «المدينة» وغزا مع النبي ﷺ.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١/ ٢٥٦)، «الإصابة» (١/ ١٩١)، «الثقات» (٣/ ٣٩)، «الجرح والتعديل» (٢/ ٤٤٠)، «تقريب التهذيب» (١/ ١١٣)، «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤٤٢)، «جمهرة أنساب العرب» (٤٢٢)، (٤٥٤)، «المفردات والوحدان» (٦٢)، «مشاهير علماء الأمصار» (٥٢)، «الجمع بين رجال الصحيحين» (٦٤)، «تسمية من أخرج لهم البخاري ومسلم» (٢٢)، «التاريخ لابن معين» (١٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٢٩١)، كتاب «الصلاة»، باب كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه، حديث (٨٦٦)، وابن ماجه (١/ ٤٥٨) كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة، حديث (١٤٢٦). وأحمد (٤/ ١٠٣). والدارمي (١/ ٣١٣)، كتاب «الصلاة»، باب أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة، والحاكم (١/ ٢٦٢)، والطبراني في «الأوائل» رقم (٢٣). كلهم من طريق داود بن أبي هند، عن زرارة بن أوفى، عن تميم الداري مرفوعاً.

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (١/ ٣٠٩)، والبخاري في «معالم التنزيل» (١/ ٢٢٠)، وابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١/ ٣٢٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٣٤).

مُضَحَّف عائشة^(١)، وإِمْلَاء حَفْصَة: «صَلَاةُ الْعَصْرِ»؛ وَعَلَى هَذَا الْقَوْلُ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، وَبِهِ أَقُولُ.

وَقَالَ قَبِيصَةُ بْنُ دُؤَيْبٍ^(٢): هِيَ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ^(٣)، وَحَكَى أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ فَرَقَةٍ؛ أَنَّهَا صَلَاةُ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَقَالَتْ فَرَقَةٌ: الصَّلَاةُ الْوَسْطَى لَمْ يَعْنِهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَهِيَ فِي جُمْلَةِ الْخَمْسِ غَيْرِ مَعِيْنَةٍ؛ كَلِيلَةُ الْقَدَرِ، وَقَالَتْ فَرَقَةٌ: هِيَ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هِيَ الْخَمْسُ، وَقَوْلُهُ أَوَّلًا: ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ يَعْنِي النِّفْلَ/، وَالْفَرَضَ، ثُمَّ خَصَّ الْفَرَضَ بِالذِّكْرِ. ب ٦٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مَعْنَاهُ فِي صَلَاتِكُمْ.

وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى ﴿قَانِتِينَ﴾.

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ مَطِيعِينَ^(٤)، قَالَ الضَّحَّاكُ: كُلُّ قُتُوبٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّمَا يُعْنَى بِهِ الطَّاعَةُ^(٥)، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ: الْقُتُوبُ: السُّكُوتُ^(٦)؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَمَرُوا بِالسُّكُوتِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَى ﴿قَانِتِينَ﴾ خَاشِعِينَ، فَالْقُنُوتُ: طُولُ الرُّكُوعِ وَالْخُشُوعِ، وَغَضُّ الْبَصَرِ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ^(٧)، قَالَ ع^(٨): * وَإِحْضَارُ الْخَشْيَةِ، وَالْفِكْرُ فِي الْوُقُوفِ

(١) وفي مختصر ابن خالويه: «وصلاة العصر» بزيادة واو، ونسبها إلى عائشة، وابن عباس، وجماعة. «مختصر الشواذ» (ص ٢٢).

وينظر: «الكشاف» (١/ ٢٨٧)، و «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٢ - ٣٢٣)، و «البحر المحيط» (١/ ٢٤٩)، وزاد نسبتها إلى أبي، وعبيد بن عمير.

(٢) قبيصة بن دؤيب، عن أبيه، وأبي هريرة، وعنه الزهري، ورجاء بن حيوة وغيره. وثقه ابن حبان، قال عمرو بن علي: مات سنة ست وثمانين. ينظر: «الخلاصة» (٢/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٧٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٤٢)، وعزاه لابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس.

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٢٢١).

(٥) أخرجه الطبري (٥/ ٢٢٩)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٣).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٨٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٣٨).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٨٥)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/ ٣١٠) والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٢٢١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٤٤).

(٨) «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٤).

بين يَدَيَّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وقال الرِّبِّيُّ: القنوت: طولُ القيام، وطولُ الرُّكُوع^(١).

وقال قومٌ: القنوت: الدعاء، و ﴿قَانِتَيْنِ﴾: معناه دَاعِيَيْنِ، روي معناه عن ابن عَبَّاس^(٢).

وقول تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالَ أَوْ رُكْبَانًا...﴾ الآية، أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة بحالة قُنُوت، وهو الوقار والسكينة، وهُدُوء الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأَمْن والطُمَأْنِينَة، ثم ذكر تعالى حالة الخَوْف الطارئة أحياناً، فرخَّص لعبيده في الصَّلَاة ﴿رجالاً﴾: متصرفين على الأقدام، و ﴿رُكْبَانًا﴾: على الخَيْل والإِبِل ونحوهما؛ إيماء، وإشارة بالرأس؛ حيث ما توجَّه، هذا قول جميع العلماء، وهذه هي صلاة الفَذِّ الذي قد ضايقه الخَوْف على نفسه في حال المسايقة، أو مِنْ سَبْع يطلبه، أو عدو يتبعه، أو سَيْلٍ يحمله، وبالجملَة فكلُّ أمرٍ يخاف منه على رُوحِهِ، فهو مبيحٌ ما تضمَّنته هذه الآية.

وأما صَلَاةُ الخَوْف بالإمام، وانقسام النَّاس، فليس حكمها في هذه الآية، وسيأتي، إن شاء الله، في «سورة النساء»^(٣).

والرُّكْبَان: جمع رَاكِب^(٤)، وهذه الرُّخْصَة في ضمِّها؛ بإجماع من العلماء: أن يكون الإنسان حيث ما توجَّه ويتقلَّب ويتصرَّف بحسب نظرهِ في نَجَاة نَفْسِهِ.

* ت * : وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ^(٥)، قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٣٩/١).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣١٠/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٢٤/١).

(٣) في تفسير الآية (١٠١)، (١٠٢).

(٤) ينظر: «لسان العرب» (١٧١٢)، و «عمدة الحفاظ» (١٢١/٢).

(٥) عبد الله بن أنيس بن أسعد بن حرام بن خبيب بن مالك بن غنم بن كعب بن تيم، أبو يحيى الجهنني. القضاعي. الأنصاري. السلمي. قال ابن الأثير: كان مهاجراً، أنصارياً، عصبياً، شهد بدرأً وأحداً وما بعدهما. روى عنه أولاده: عطية، وعمرو، وضمرة، وعبد الله، وجابر بن عبد الله، وبسر بن سعيد. هو الذي سأل رسول الله عن ليلة القدر وقال: إني شاسع الدار، فمرني بليلة أنزل لها قال: «أنزل ليلة ثلاث وعشرين» وهو أحد الذين كانوا يكسرون أصنام بني سلمة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٧٩/٣)، «الإصابة» (٣٧/٤)، «الثقات» (٢٣٤/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٩٨/١)، «الاستيعاب» (٨٦٩/٣)، «الاستبصار» (١٣٧)، «شذرات الذهب» (٦٠/١)، «حلية الأولياء» (٥/٢)، «عنوان النجابة» (١١٧)، «تقريب التهذيب» (٤٠٢/١)، «تهذيب التهذيب» (٥/١٤٩)، «تهذيب الكمال» (٦٦٦/٢)، «بقي بن مخلد» (١١٣)، «الوافي بالوفيات» (٧٦/١٧)، «الكاشف» (٧٣/٢)، «رياض النفوس» (٤٥/١)، «الجرح والتعديل» (١/٥)، «التاريخ الكبير» (٣/١٤).

اللَّهُ ﷻ إِلَى خَالِدِ بْنِ سُفْيَانَ، وَكَانَ نَحْوَ عُرْنَةٍ وَعَرَفَاتٍ، قَالَ: «أَذْهَبَ فَأَقْتُلْهُ»، فَرَأَيْتُهُ وَقَدْ حَضَرَتْ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَقُلْتُ: إِنِّي لَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا يُؤْخِرُ الصَّلَاةَ، فَأَنْطَلَقْتُ أَمْشِي وَأَنَا أَصَلِّي أَوْمِيءَ إِيْمَاءِ نَحْوِهِ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ، قَالَ لِي: «مَنْ أَنْتَ؟» قُلْتُ: رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ، بَلَّغَنِي أَنَّكَ تَجْمَعُ لِهَذَا الرَّجُلِ، فَجِئْتُكَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: إِنِّي لَفِي ذَلِكَ، فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً حَتَّى إِذَا أَمَكَّنَنِي عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي؛ حَتَّى بَرَدَ^(١). انتهى، وقد ترجم عليه «باب في صَلَاةِ الطَّالِبِ».

قال * ع^(٢) *: واختلف الناس، كَمْ يَصَلِّي من الركعات؟ والذي عليه مالكٌ وجماعةٌ: أنه لا ينقص من عدد الركعات شيئاً، فيصلي المسافر ركعتين.

واختلف المتأولون في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ...﴾ الآية: فقالت فرقة: المعنى: إذا زال خوفُكم، فأذكروا الله سبحانه بالشُّكر على هذه النعمة، وقالت فرقة: اذكروا الله، أي: صلُّوا كما علمتم صلاةً تامةً، يعني فيما يُستقبل من الصَّلوات.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤١) وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتَعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَفَّاتِ (٢٤٢) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٣)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: ﴿الذين﴾: رَفَعُ بِالْإِبْتِدَاءِ، وخبره مضمرٌ، تقديره: فعليهم وصيةٌ لأزواجهم، وفي قراءة ابن مسعود^(٣): كُتِبَ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةٌ، قالت فرقة: كانت هذه وصيةٌ من الله تعالى تَجِبُ بعد وفاة الزوج، قال قتادة: كانت المرأة إذا تُوَفِّي عنها زوجها، لها السكَنَى والنفقة حولاً في مال الزوج، ما لم تخرج برأيها^(٤)، ثم نُسِخَ ما في هذه الآية من النفقة بالربع أو بالثلثين

(١) أخرجه أبو داود (٤٠١/١) كتاب «الصلاة»، باب صلاة الطالب، حديث (١٢٤٩).

وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة سوى أبي داود.

(٢) «المحرر الوجيز» (٣٢٥/١).

(٣) وهي في «مختصر شواذ ابن خالويه» ص (٢٢) هكذا: كتب عليكم الوصية لأزواجكم. وينظر: «الكشاف» (٢٨٩/١). وحكاها ابن عطية في «المحرر» (٣٢٦/١): الوصية لأزواجهم.

(٤) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢٦/١).

الَّذِي فِي «سورة النساء»^(١)، ونسخ سَكَنِي الحَوْلَ بالأربعة الأشهر والعَشْر^(٢)، وقاله ابن عَبَّاس وغيره^(٣): و ﴿مَتَاعًا﴾ نَضَبَ عَلَى الْمَضْدَر، وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾: معناه: ليس لأولياء الميِّت، ووارثي المنزل إخراجها، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَا...﴾ الآية: معناه: إِنَّ الخُرُوجَ، إِذَا كَانَ مِنْ قَبْلِ الزَّوْجَةِ، فَلَا جُنَاحَ عَلَى أَحَدٍ وَلِيٍّ أَوْ حَاكِمٍ، أَوْ غَيْرِهِ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ تَزْوِيجٍ وَتَرْكِينَ، وَتَرَكَ إِحْدَادًا، إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ الَّذِي لَا يُنْكَرُ، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: صِفَةٌ تَقْتَضِي الْوَعِيدَ بِالنَّفْثَةِ لِمَنْ خَالَفَ الْحَدَّ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ قَدْ زَالَ حُكْمُهُ بِالنَّسْخِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّاقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ * كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ: قال عطاء بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وغيره: هذه الآية في الثِّيَابِ اللّوَاتِي قَدْ جُومِعْنَ^(٤)؛ إِذْ قَدْ تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ ذِكْرُ الْمَتْعَةِ لِلّوَاتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهِنَّ.

وقال ابنُ زَيْدٍ: هذه الآية نزلت مؤكدة لأمر المتعة؛ لأنه نزل قبل ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، فقال رجلٌ: فَإِنْ لَمْ أَرِدْ أَحْسِنَ، لَمْ أَمْتَعْ، فنزلت ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

قال الطبري: فوجب ذلك عليهم^(٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ لِمَتَّ اللَّهُ لَهُمْ فَقَصَلَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَنْكُرُونَ﴾ (٢٤٣) وَقَلَّبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْلِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرًا وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْطِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا...﴾ الآية: هذه رؤية القلب؛ بمعنى: أَلَمْ تَعْلَمْ، وَقَضَّةٌ هَؤُلَاءِ فِيمَا قَالَ الضُّحَّاكُ؛ أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَمَرُوا بِالْجِهَادِ، فَخَافُوا الْمَوْتَ بِالْقَتْلِ فِي الْجِهَادِ، فَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنْ ذَلِكَ، فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ؛ لِيَعْرِفَهُمْ أَنَّهُ لَا يُنْجِيهِمْ مِنَ الْمَوْتِ شَيْءٌ،

(١) آية (١٢).

(٢) آية (٢٣٤) من سورة البقرة.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٢٦).

(٤) ذكره الطبري (٢/٥٩٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٢٧).

(٥) ذكره الطبري في «تفسيره» (٢/٥٩٩).

ثم أحياهم، وأمرهم بالجهاد، بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية^(١).

وروى ابن جريج عن ابن عباس؛ أنهم كانوا من بني إسرائيل، وأنهم كانوا أربعين ألفاً، وثمانية آلاف، وأنهم أميتوا، ثم أحيوا، وبقيت الرائحة على ذلك السبب من بني إسرائيل إلى اليوم، فأمرهم الله بالجهاد ثانية، فذلك قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢).

قال * ع^(٣) *: وهذا القصص كله لئن الإسناد، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً ﷺ إخباراً في عبارة التنبيه، والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فأماهم الله، ثم أحياهم؛ ليعلموا هم وكل من خلف بعدهم؛ أن الإمامة إنما هي بإذن الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد، هذا قول الطبري^(٤)، وهو ظاهر رصف الآية.

والجمهور على أن ﴿أَلُوفٌ﴾ جمع ألف، وهو جمع كثرة^(٥)، وقال ابن زيد في لفظة ﴿أَلُوفٌ﴾: إنما معناها، وهم مؤلفون^(٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾... الآية: تنبيه على فضله سبحانه على هؤلاء القوم الذين تفضل عليهم بالنعم، وأمرهم بالجهاد، وألا يجعلوا الحول والقوة إلا له سبحانه؛ حسبنا أمر جميع العالم بذلك، فلم يشكروا نعمته في جميع هذا، بل استبدؤا وظنوا أن حولهم وسغيهم ينجيهم، وهذه الآية تحذير لسائر الناس من مثل هذا الفعل، أي: فيجب أن يشكر الناس فضله سبحانه؛ في إيجاده لهم، ورزقه إياهم، وهدايته بالأوامر والنواهي، فيكون منهم المبادرة إلى أمثالها، لا

١٦١

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢٧/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٢/٢) برقم (٥٦٠٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٢٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٣/١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٨/١).

(٤) ينظر: «جامع البيان» (٢٧٨/٥).

(٥) هو أحد قسمي جمع التكسير، والآخر هو جمع القلة، فأما جمع القلة فيصدق على الثلاثة إلى العشرة، وأما جمع الكثرة فيدل على أحد عشر فما فوق، ولكل من النوعين صيغ؛ فلجمع القلة أربع صيغ، ولجمع الكثرة ثلاثة وعشرون بناء. ينظر: «معجم المصطلحات النحوية والصرفية» (ص ٥١).

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٣/١).

طَلَبُ الْخُرُوجِ عَنْهَا، وَفِي تَخْصِيصِهِ تَعَالَى: «الْأَكْثَرُ» دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَقْلَّ الشَّائِرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية: الجمهور أن هذه الآية مخاطبة لأمّة محمد ﷺ بالقتال في سبيل الله، وهو الذي يُنَوَّى به أن تكون كلمة الله هي العليا؛ حَسَبَ الحديث^(١).

وقال ابن عباس، والضّحّاك: الأمر بالقتال هو لِلَّذِينَ أُخِيُوا من بني إسرائيل^(٢)، قال الطبري^(٣): ولا وجه لهذا القول، ثم قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ...﴾ الآية، فدخل في ذلك المقاتل في سبيل الله، فإنه يقرض؛ رجاء ثواب الله؛ كما فعل عثمان في جيش العسرة، ويُرَوَّى أَنَّ هذه الآية، لَمَّا نَزَلَتْ، قَالَ أَبُو الدُّخْدَاحِ^(٤): يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَا أَبَا الدُّخْدَاحِ»، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُهُ حَائِطِي لِحَائِطٍ فِيهِ سِتْمَائَةٌ نَخْلَةٍ، ثُمَّ جَاءَ الْحَائِطُ، وَفِيهِ أُمُّ الدُّخْدَاحِ^(٥)، فَقَالَ: أَخْرِجِي، فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ

(١) أخرجه البخاري في العلم (٢٦٨/١) باب مَنْ سَأَلَ وَهُوَ قَائِمٌ عَالِماً جَالِساً (١٢٣)، و (٣٣/٦) في الجهاد: باب مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (٢٨١٠) و (٢٦٠/٦) في فرض الخمس (٣١٢٦)، و (٤٥٠/١٣) في التوحيد: باب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٤٥٨)، ومسلم (٣/ ١٥١٢-١٥١٣) في الإمارة: باب مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١٤٩-١٥١/ ١٩٠٤) وأبو داود (١٨/١) في الجهاد: باب مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (٢٥١٧-٢٥١٨) والترمذي (١٥٤/٤) في فضائل الجهاد: باب مَا جَاءَ فِيمَنْ يِقَاتِلُ رِيَاءً وَلِلدُّنْيَا (١٦٤٦)، والنسائي (٦/ ٢٣) في الجهاد: باب مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وابن ماجه (٩٣١/٢) في الجهاد: باب النية في القتال (٢٧٨٣)، وأحمد (٣٩٢/٤، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٧)، والطيالسي (٢٣٣/١) برقم (١١٣٥)، وأبو يعلى (٧٢٥٣)، والبيهقي (١٦٧/٩، ١٦٨) من طرق عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن أبي موسى الأشعري قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنْ أَحَدُنَا يِقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حِمِيَةً، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا، فَقَالَ: مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٢٩/١).

(٣) ينظر: «جامع البيان» (٢٨١/٥).

(٤) أبو الدُّخْدَاحِ الأنصاري: حليف لهم. قال أَبُو عُمَرَ: لَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمِهِ وَلَا نَسَبِهِ، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ مِنَ الْأَنْصَارِ حَلِيفٍ لَهُمْ، وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: أَبُو الدُّخْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ، وَلَمْ يَزِدْ.

ينظر: «الإصابة» (١٠٠/٧).

(٥) أُمُّ الدُّخْدَاحِ، زَوْجُ أَبِي الدُّخْدَاحِ.

لَهَا ذِكْرٌ فِي حَدِيثِ أَبِي الدُّخْدَاحِ، وَصَدَقَتْهُ بِالْحَائِطِ الَّذِي فِيهِ النَّخْلُ. فَقَالَ: يَا أُمَّ الدُّخْدَاحِ، أَخْرِجِي، يَعْنِي: مِنَ الْحَائِطِ، ذَكَرَهُ الْأَشْيَبِيُّ.

ينظر: «أسد الغابة» (٣١٦/٧).

رَبِّي حَائِطِي هَذَا، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ مُذَلِّلٍ لِأَبِي الدُّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

واستدعاء القرض؛ في هذه الآية وغيرها؛ إنما هو تأنيس وتقريب للأفهام، والله هو الغني الحميد.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢) وكَتَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عن الفقيرِ بِنَفْسِهِ العِلَّةِ ترغيباً في الصَّدَقَةِ؛ كما كَتَى عن المريض، والجائع، والعاطشِ بِنَفْسِهِ المقدَّسة؛ فقال النبي ﷺ: «إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرَضْتُ، فَلَمْ تُعْذِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُوذُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ، فَلَمْ تُعْذِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتُهُ، لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطَعَمْتُكَ، فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانًا، فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أُطْعِمْتُهُ، لَوَجَدْتُ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تُسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانًا، فَلَمْ تُسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ، وَجَدْتُ ذَلِكَ عِنْدِي». انتهى، واللفظ لصحيح مسلم^(٣)، قال ابن العربي^(٤): وهذا كله خَرَجَ مَخْرَجَ التَّشْرِيفِ لِمَنْ كُنِيَ عَنْهُ، وترغيباً لمن خوطب انتهى.

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٧/١ - ٩٨)، وعنه الطبري (٥٦١٨)، عن معمر عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾، قال: جاء أبو الدحداح...

وقال الشيخ شاكر: هذا حديث مرسل؛ فهو ضعيف الإسناد؛ لأن زيد بن أسلم تابعي، ولم يذكر من حدثه من الصحابة.

وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٢٠)، وأبو يعلى (٤٩٨٦)، عن خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾، قال أبو الدحداح: «...»، فذكره بنحوه.

وذكره السيوطي في «الدر» (٥٥٤/١ - ٥٥٥)، وزاد فعزاه لسعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، والطبراني، والبيهقي في «الشعب». ولم يعزه لأبي يعلى.

وقال الشيخ شاكر: هذا إسناد ضعيف جداً... فالبلاء في هذه الرواية من حميد الأعرج.

(٢) ينظر «أحكام القرآن» (٢٣٠/١).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٩٠/٤) في البر والصلة: باب فضل عيادة المريض (٢٥٦٩/٤٣)، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ (عز وجل) يقول يوم القيامة: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي...» فذكره.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٢٣٠/١).

وقوله: ﴿حَسَنًا﴾: معناه: تَطَيَّبُ فيه النية، ويشبه أيضاً أن تكون إشارة إلى كثرته وجودته.

وهذه الأضعاف الكثيرة إلى السَّبْعِمِائَةِ التي رُوِيَتْ، ويعطيها مثال السُّبُّلَة.

* ت *: والحق الذي لا شَكَّ فيه وجوب الإيمان بما ذكر المولى سبحانه، ولا سبيل إلى التحديد؛ إلا أن يثبت في ذلك حديث صحيح، فيصار إليه، وقد بين ذلك ﷺ ٦١ ب، فيما خرَّجه مُسْلِمٌ، والبُخَارِيُّ، أنظره عند قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال * ع *: رُوِيَ أن النبي ﷺ طَلِبَ مِنْهُ أَنْ يُسَعِّرَ بِسَبَبٍ غَلَاءٍ خِيفَ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْبَاسِطُ الْقَابِضُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ، وَلَا يَتَّبِعُنِي أَحَدٌ بِمَظْلَمَةٍ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ»^(١)، قال صاحب «سلاح المؤمن» عند شَرْحه لاسمه تعالى «الْقَابِضُ الْبَاسِطُ»: قال بغض العلماء: يجب أن يُفَرَّقَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ، وَلَا يَفْصَلُ بَيْنَهُمَا؛ لِيَكُونَ أَنْبَأُ عَنِ الْقُدْرَةِ، وَأَدْلُ عَلَى الْحِكْمَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾، وَإِذَا قُلْتُ: «الْقَابِضُ» مفرداً، فكأنك قَصَرْتَ بِالصِّفَةِ عَلَى الْمَنْعِ وَالْحَزْمَانِ، وَإِذَا جَمَعْتَ أَثْبَتَ الصِّفَتَيْنِ؛ وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْخَافِضِ وَالرَّافِعِ وَالْمُعِزِّ وَالْمُذِلِّ. انتهى، وما ذكره عن بعض العلماء، هو كلام الإمام الفخر في شرحه لأسماء الله الحسنى، ولفظه: القابض والباسط: الأحسن

(١) أخرجه أبو داود (٢/٢٩٣)، كتاب «اليوع»، باب في التسعير، حديث (٣٤٥٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٣٣١ - بتحقيقنا)، وأحمد (٢/٣٣٧)، من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ «أن رجلاً جاء فقال: يا رسول الله سعر، فقال: بل ادعوا، ثم جاء رجل فقال: يا رسول الله، سعر، فقال: بل الله يخفض ويرفع، وإنني لأرجو أن ألقى الله، وليس لأحد عندي مظلمة». وللحديث شاهد قوي من حديث أنس بن مالك.

أخرجه أبو داود (٢/٢٩٣ - ٢٩٤) كتاب «اليوع»، باب في التسعير، حديث (٣٤٥١)، والترمذي (٣/ ٦٠٥ - ٦٠٦) كتاب «اليوع»، باب ما جاء في التسعير، حديث (١٣١٤)، والدارمي (٢/٢٤٩) كتاب «اليوع»، باب في النهي أن يسعر في المسلمين، وأحمد (٣/٢٨٦)، والبيهقي (٦/٢٩) كتاب «اليوع»، باب التسعير، كلهم من طريق حماد بن سلمة، عن قتادة، وثابت، وحميد عن أنس قال: غلا السعر في المدينة على عهد رسول الله ﷺ. فقالوا: يا رسول الله، سعر لنا، فقال: «إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق، وإنني لأرجو أن ألقى ربي، وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة بدم ولا مال». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه أبو يعلى (٥/٢٤٥) رقم (٢٨٦١)، من طريق حماد بن سلمة، عن قتادة، وثابت، وحميد عن أنس به.

وأخرجه أحمد (٣/١٥٦)، من طريق حماد، عن قتادة، عن ثابت، عن أنس.

وأخرجه أبو يعلى (٥/١٦٠) رقم (٢٧٧٤)، من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس به.

في هذين الإسمين أن يقرن أحدهما في الذكر بالآخر؛ ليكون ذلك أدل على القدرة والحكمة؛ ولهذا السبب قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَفْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ وإذا ذكرت «القابض» منفرداً عن «الباسط»، كنت قد وصفته بالمنع والحرمان، وذلك غير جائز، وقوله: «المعز المذل»، وقد عرفت أنه يجب في أمثال هذين ذكر كل واحد منهما مع الآخر. انتهى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مِلْكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى...﴾ الآية: هذه الآية خبر عن قوم من بني إسرائيل نالهم ذلة وغلبة عدو؛ فطلبوا الإذن في الجهاد، وأن يؤمروا به، فلما أمروا، كع أكثرهم^(١)، وصبر الأقل، فنصرهم الله، وفي هذا كله مثال للمؤمنين؛ ليحذروا المكروه منه، ويقتدوا بالحسن.

و «الملاء»: في هذه الآية جميع القوم؛ لأن المعنى يقتضيه، وهو أصل اللفظة، ويسمى الأشراف «الملاء»؛ تشبيهاً، و «من بعد موسى»: معناه: من بعد موته، وانقضاء مدته.

وقوله تعالى: ﴿لنبي لهم﴾، قال ابن إسحاق وغيره: هو شمويل بن بابل^(٢). وقال السدي: هو شمعون^(٣)، وكانت بنو إسرائيل تغلب من حاربها، وروي أنها

(١) أي: نكصوا على أعقابهم.

ينظر: «لسان العرب» (٣٨٩١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦١٠/٢) برقم (٥٦٣٠)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٣٠).

(٣) أخرجه الطبري (٦١٠/٢) برقم (٥٦٣٠)، وذكره البغوي في «تفسيره» «معالم التنزيل» (١/٢٢٦)، وينظر «المحرر الوجيز» لابن عطية (١/٣٣٠)، و «النكت والعيون» للماوردي (١/٣١٤).

كانت تَضَعُ التابوتَ الذي فيه السكينة والبقية في مَازِقِ الحرب، فلا تزال تَغْلِبُ؛ حتى عصت، وظهرت فيهم الأحداث، وخالف ملوكهم الأنبياء، واتبعوا الشهوات، وقد كان الله تعالى أقام أمورهم؛ بأن يكون أنبياؤهم يسدون ملوكهم، فلما فعلوا ما ذكرناه، سلط الله عليهم أمماً من الكفرة، فغلبوهم، وأخذ لهم التابوت في بعض الحروب، فذل أمرهم.

وقال السدي: كان الغالب لهم «جألوت»، وهو من العمالقة، فلما رأوا أنه الأصطلام، وذهاب الذكر، أنف بعضهم وتكلموا في أمرهم^(١)؛ حتى اجتمع ملاهم على أن قالوا لنبي الوقت: «ابعث لنا ملكاً...» الآية، وإنما طلبوا ملكاً يقوم بأمر القتال، وكانت المملكة في سبط من أسباط بني إسرائيل يقال لهم: بَنُو يَهُوذَا، فعلم النبي بالوحي، أنه ليس في بيت المملكة من يقوم بأمر الحزب، ويسر الله لذلك طألوت، وقرأ جمهور الناس: «نُقَاتِلُ»؛ بالنون وجزم اللام؛ على جواب الأمر، وأراد النبي المذكور - عليه السلام - أن يتوكل منهم، فوقفهم على جهة/ التقرير، وسبر ما عندهم بقوله: «هَلْ عَسَيْتُمْ»، ومعنى هذه المقالة، هل أنتم قريب من التولي والفرار، إن كُتِبَ عليكم القتال. ١٦٢

* ص * : «لَنَبِيٍّ» متعلق بـ «قَالُوا»، واللام معناها: التبليغ. انتهى.

ثم أخبر تعالى أنه لما فرض عليهم القتال، تولوا، أي: اضطربت نياتهم، وفترت عزائمهم، إلا قليلاً منهم، وهذا شأن الأمم المتنعة المائلة إلى الدعة تتمي الحرب أوقات السعة، فإذا حضرت الحزب، كفت، وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ؛ بقوله: «لَا تَتَمَتَّؤْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ، فَاقْتُلُوا»^(٢).

ثم توعد سبحانه الظالمين في لفظ الخبر؛ بقوله: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

وقوله تعالى: «وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً...» الآية: قال وهب بن مئب^(٣):

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٠/ ٦)، كتاب «الجهاد»، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل، حديث (٢٩٦٦). ومسلم (٣/ ١٣٦٢ - ١٣٦٣)، كتاب «الجهاد»، باب كراهة تمنى لقاء العدو، حديث (١٧٤٢/ ٢٠).

(٣) وهب بن مئب بن كامل، الأبتائي، الصنعاني، أبو عبد الله الأخباري، عن ابن عباس، وجابر، وأبي سعيد، وطائفة، وعنه سيماك بن الفضل، وهمام بن نافع، وخلق.

وتفقه النسائي، قال مسلم بن خالد: لبث وهب أربعين سنة لم يرقد على فراشه، قتله يوسف بن عمر سنة عشر ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٣/ ١٣٨).

وكان طالوت رجلاً دُبَاغاً^(١)، وقال السُّدِّيُّ: سَقَاءُ^(٢)، وكان من سِبْطِ «بَنِيَامِينَ»، وكان سبطاً لا نبوة فيه، ولا ملك، ثم إن بني إسرائيل تعثتوا، وحاذوا عن أمر الله، وجرؤا على سَنَنِهِمْ، فقالوا: «أَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ»، أي: لم يؤت مالا واسعا، يجمع به نفوس الرجال، وَيَغْلِبَ به أهل الأَنْفَةِ.

قال * ع^(٣) *: وترك القَوْمُ السَّبَبَ الأقْوَى، وهو قَدَرُ الله وقضاؤه السابق، وأنه مالك الملك؛ فَاحْتَجَّ عليهم نبيُّهم بالحُجَّةِ القاطعة، وبَيَّنَّ لهم مع ذلك تعليلَ أَصْطِفَاءِ طالوتَ بِنِسْطَتِهِ في العِلْمِ، وهو ملاكُ الإنسان، والجِسْمِ الذي هو مُعِينُهُ في الحرب، وعُدَّتُهُ عند اللقاء، و «أَصْطَفَى»: مأخوذ من الصَّفْوَةِ، والجمهورُ على أَنَّ العِلْمَ في هذه الآية يراؤ به العمومُ في المعارف، وقيل: المرادُ عِلْمُ الحرب، وأما جِسْمُهُ، فقال وهبُ بْنُ مُثَنَّبٍ: إن أطولَ رجلٍ في بني إسرائيل كان يَبْلُغُ مَنَكِبَ طالوت^(٤).

* ت *: قال أبو عُبَيْدٍ الهَرَوِيُّ: قوله: «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»، أي: أَنْبَسَاطاً وتوسعا في العلم، وطولاً وتاماً في الجسم. انتهى من شرحه لِعَرَبِيِّ الْقُرْآنِ وأحاديثِ النَّبِيِّ عليه السلام.

ولما علم نبيُّهم - عليه السلام - تعثتْهم وجدالهم، تَمَّ كلامه بِالْقَطْعِ الذي لا اعتراض عليه، وهو قوله: «وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مِنْ يَشَاءُ»، وظاهر اللفظ أنه من قول نبيِّهم - عليه السلام -، وذهب بعض المتأولين إلى أَنَّهُ من قول الله تعالى لمحمد ﷺ، والأول أظهر، و «وَاسِعٌ»: معناه: وسعت قدرته، وعلمه كلَّ شيء، وأما قولُ النَّبِيِّ لَهُمْ: «إِنَّ آيَةَ مَلَكِهِ»، فإن الطبريَّ ذهب إلى أن بني إسرائيل تعثتوا، وقالوا لنبيِّهم: وما آية مَلِكِ طالوت؟ وذلك على جهة سؤال الدلالة على صِدْقِهِ في قوله: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُ.

قال * ع *: ويحتمل أن نبيِّهم قال لهم ذلك على جهة التَغْلِيظِ والتنبية على هذه النعمة الَّتِي قَرَنَهَا بِمُلْكِ طالوت، دون تَكْذِيبِ منهم لنبيِّهم، وهذا عندي أظهر من لفظ الآية، وتأويلُ الطبريَّ أشبهُ بأخلاقِ بني إسرائيل الذميمة؛ فَإِنَّهُمْ أهل تَكْذِيبٍ وتعَثٍّ وأعوجاجٍ.

(١) ذكره البغوي في تفسيره «معالم التنزيل» (١/٢٢٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٣٠).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (١/٣١٤)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٣٠).

(٣) ينظر «المحرر الوجيز» (١/٣٣٢).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/٣١٣) برقم (٥٦٥٢)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٣٢).

وقد حكى الطبري معناه عن ابن عباس وغيره^(١).

واختلف في كيفية إتيان التابوت، فقال وهب: لما صار التابوت عند القوم الذين غلبوا بني إسرائيل، وضَعُوهُ في كنيسة لهم فيها أصنام، فكانت الأصنام تُضَيِّحُ مِنْكُسه، فجعلوه في قرية قَوْم، فأصاب أولئك القَوْم / أوجاع، فقالوا: ما هذا إلا لهذا التابوت، فلنردّه إلى بني إسرائيل، فأخذوا عَجَلَةً، فجعلوا التابوت عليها، وربطوها ببقرتين، فأرسلوهما في الأرض نحو بلاد بني إسرائيل، فبعث الله ملائكة تَسُوِّقُ البقرتين؛ حتى دخلتا به على بني إسرائيل، وهم في أمر طالوت، فأيقنوا بالنضر.

وقال قتادة، والربيع: كان هذا التابوت مما تركه موسى عند يوشع، فجعله يوشع في البرية، ومَرَّتْ عَلَيْهِ الدُّهُور؛ حتَّى جاء وقت طالوت، فحملته الملائكة في الهواء؛ حتى وضعته بينهم، فاستوثقت بنو إسرائيل عند ذلك على طالوت^(٢)، وقيل غير هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فيه سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآية: قال ابن عباس: السكينة طَسَتْ من ذهب من الجئة^(٣)، وقال مجاهد: السكينة لها رأس كرأس الهرة، وجناحان، ودَنْبٌ^(٤).

وقال عطاء: السكينة ما يعرفون من الآيات، فيسكنون إليها^(٥)، وقال قتادة: ﴿سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: وقار لكم من ربكم^(٦).

قال ع * : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، تَسْكُنُ إِلَى ذلك النفوس، وتأنس به، ثم قرّر تعالى: أن مجيء التابوت آية لهم، إن كانوا

(١) أخرجه الطبري (٣١٥/٥)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٣٢/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٤/٥) برقم (٥٦٦٢، ٥٦٦٣)، و «المحرر الوجيز» (٣٣٢/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٨/٥) برقم (٥٦٧٨)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢٢٨/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٣٢/١)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣١٦/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٨/٥) برقم (٥٦٧٥)، و «المحرر الوجيز» لابن عطية (٣٣٢/١)، و «الدر المنثور» (٥٦٢/١)، وعزه السيوطي لسفيان بن عيينة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٩/٥)، والبغوي في «تفسيره معالم التنزيل» (٢٢٨/١)، و «النكت والعيون» (٣١٦/١)، و «المحرر الوجيز» (٣٣٢/١).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٩/٥) برقم (٥٦٨٤)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (١/٣١٦)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٣٣/١).

مَنْ يَوْمَن وَيُنْصِر.

* ت *: وهذا يؤيد تأويل الطبري المتقدم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فَتْنَةٍ فَمِمَّا تَبَلَغَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِغًا وَنَسِيتَ آتِدَانَا وَأَنْصُرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ...﴾ الآية، أي: لما اتفق ملائمتهم على تمليك طالوت، وفصل بهم، أي: خرج بهم من القُطْرِ، وفَصَلَ حالَ السفر من حال الإقامة.

قال السُّدِّيُّ وغيره: وكانوا ثمانين ألفاً^(١)، ﴿قال إن الله مبتليكم بنهر﴾ أي: مختبركم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء، علم أنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلبته شهوته في الماء، وعصى الأمر، فهو بالعصيان في الشدائد أخرى؛ ورخص للمطيعين في الغرقة؛ ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع، وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال.

* ت *: ولقد أحسن من شبه الدنيا بنهر طالوت، فمن اغترف منها غُرْفَةً بيد الزهيد، وأقبل على ما يعينه من أمر آخرته، نجا، ومن أكب عليها، صدته عن التأهب لآخرته، وقلت سلامته إلا أن يتداركه الله.

قال ابن عباس: وهذا النهر بين الأزد وفلسطين^(٢)، وقال أيضاً: هو نهر فلسطين^(٣).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣٩/٥) برقم (٥٧٠٨)، وذكره السيوطي في «الدر» (٥٦٣/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٤٠/٥) برقم (٥٧١٤)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (١/٣١٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٤١/٥) برقم (٥٧١٥)، وذكره البغوي (٢٣١/١)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣١٧/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٣٤/١)، والسيوطي في «الدر»، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

قال ع * : وظاهرُ قولِ طالوتَ ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾؛ أنه بإخبار من النبي لطالوتَ، ويحتمل أن يكون هذا مما ألهم الله إليه طالوتَ، فجزَّب به جنده، وهذه النَّزْعَةُ واجبٌ أن تقع من كلِّ متولِّي حَزْبٍ، فليس يحاربُ إلا بالجنْدِ المطيعِ، ويَبَيِّنُ أن الغرفةَ كَأَفْئُةٍ ضرر العَطَشِ عند الحَزْمَةِ^(١) الصَّابِرِينَ على شَطَفِ^(٢) العَيْشِ الَّذِينَ هم في غير الرفاهيةِ، وقوله: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾، أي: ليس من أصحابي في هذه الحَزْبِ، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان، ومثل هذا قولُ النبي ﷺ: «مَنْ عَشَّنَا، فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣)، و «مَنْ رَمَانَا بِالْبُئْلِ،»

(١) الحزمة: جمع حازم، ورجل حزيم، وهو من قوم حزماء، وحَزْمٌ وحَزَامٌ، وأحزام. وهو العاقل المميز ذو الحُنْكَةِ. ينظر: «لسان العرب» (٨٥٩).

(٢) الشَّطَفُ: الشدة والضيق، وَيُسُّ العيش وشدته.

ينظر: «لسان العرب» (٢٢٦٧).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٣٤٨- الأبي)، كتاب «الإيمان»، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»، حديث (١٠٢/١٦٤)، وأبو داود (٢/ ٢٩٤) كتاب «اليبوع»، باب في النهي عن الغش، حديث (٣٤٥٢)، والترمذي (٣/ ٥٩٧)، كتاب «اليبوع»، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع، حديث (١٣١٥)، وابن ماجة (٢/ ٧٤٩) كتاب «التجارات»، باب النهي عن الغش، حديث (٢٢٢٤)، وأبو عوانة (١/ ٥٧)، وأحمد (٢/ ٢٤٢)، والحميدي (٢/ ٤٤٧) رقم (١٠٣٣)، وابن الجارود في «المتقى» رقم (٥٦٤)، وابن حبان (٤٩٠٥- الإحسان)، وابن مَنَدَه في «الإيمان» رقم (٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٣٤)، والحاكم (٢/ ٨ - ٩)، والبيهقي (٥/ ٣٢٠)، كتاب «اليبوع»، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

قلت: وقد وهم رحمه الله في ذلك؛ فالحديث في «صحيح مسلم»، كما تقدم في التخریج.

وللحديث شواهد من حديث ابن عمر، وأبي بردة بن نيار، وابن مسعود، والحرث بن سويد، وقيس بن أبي غرزة، وأبي الحمراء، وعائشة.

* حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، والبخاري (٢/ ٨٢ - كشف) رقم (١٢٥٥)، من طريق أبي معشر، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا».

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨٨). وقال: رواه أحمد، والبخاري، والطبراني في «الأوسط»، وفيه أبو معشر وهو صدوق، وضعفه جماعة.

وللحديث طريق آخر عن ابن عمر: أخرجه الدارمي (٢/ ٢٤٨)، كتاب «اليبوع»، باب في النهي عن الغش، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٥١)، من طريق يحيى بن المتوكل، ثنا القاسم بن عبيد الله، عن عمه سالم بن عبد الله، عن ابن عمر به. ويحيى بن المتوكل قال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٥٦): ضعيف.

* حديث أبي بردة بن نيار:

فَلَيْسَ مِثْلًا^(١)، و «لَيْسَ مِثْلًا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ، وَلَطَمَ الْخُدُودَ»^(٢).

وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ﴾ سدُّ الذرائع؛ لأنَّ أذنى الذُّوق يَدْخُلُ في لفظ الطَّعم،

= أخرجه أحمد (٤٦٦/٣)، والبخاري (١/٦٨ - كشف) رقم (٦٨)، والطبراني في «الكبير» (١٩٨/٢٢) رقم (٥٢١)، وابن أبي شيبة (٢٩٠/٧). كلهم من طريق جميع بن عمير عن عمه، يعني أبا بردة مرفوعاً. وقال الهيثمي في «المجمع» (٣١/٢): رواه البزار، وفيه جميع بن عمير، وثقه أبو حاتم، وضعفه البخاري وغيره.

* حديث ابن مسعود:

أخرجه ابن حبان (٥٦٧)، والطبراني في «الكبير» (١٠٢٣٤)، وفي «الصغير» (٢٦١/١). وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨٨/٤ - ١٨٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٥٣). كلهم من طريق عاصم بن بهدلة، عن زر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منا، والمكر والخديعة في النار».

* حديث الحارث بن سويد:

أخرجه الحاكم (٩/٢).

* حديث قيس بن أبي غرزة:

أخرجه أبو يعلى (٢٣٣/٢) رقم (٩٣٣)، من طريق الحكم بن عتيبة، عن قيس بن أبي غرزة مرفوعاً بلفظ: «من غش المسلمين فليس منهم».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٢/٤)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط»، ورجاله ثقات، وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (١٣٦١)، وعزاه إلى أبي يعلى.

* حديث أبي الحمراء:

أخرجه ابن ماجه (٧٤٩/٢) كتاب «التجارات»، باب النهي عن الغش، حديث (٢٢٢٥)، من طريق أبي داود، عن أبي الحمراء به مرفوعاً.

وأبو داود هو نفع بن الحارث الأعمى متروك؛ كذبه ابن معين، وغيره.

* حديث عائشة:

أخرجه البزار (٨٣/٢ - كشف) رقم (١٢٥٦)، وقال البزار: لا نعلمه عن عائشة إلا بهذا الإسناد، والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٨١/٤)، وقال: ورجاله ثقات.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢١/١١) رقم (١١٥٥٣)، من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري (١٦٣/٣)، كتاب «الجنائز»، باب ليس منا من شق الجيوب، حديث (١٢٩٤)، ومسلم

(٩٩/١)، كتاب «الإيمان»، باب تحريم ضرب الخدود، حديث (١٠٣/١٦٥). والترمذي (٣١٥/٣)،

كتاب «الجنائز»، باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود، حديث (٩٩٩)، والنسائي (٢٠/٤)، كتاب

«الجنائز»، باب ضرب الخدود، وابن ماجه (٥٠٤/١ - ٥٠٥)، كتاب «الجنائز»، باب ما جاء في النهي

عن ضرب الخدود وشق الجيوب، حديث (١٥٨٤). وأحمد (٤٣٢/١)، والطيالسي (١/١٥٧ - منحة)

رقم (٧٤٧). وأبو يعلى (١٢٧/٩) رقم (٥٢٠١)، والبيهقي (٦٤/٤) كتاب «الجنائز»، والبغوي في

«شرح السنة» (٢٨٨/٣) - بتحقيقنا، من حديث عبد الله بن مسعود به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فإذا وقع التَّهْيُ عن الطُّعْم، فلا سبيل إلى وقوع الشُّرْبِ مِمَّنْ يَتَجَبَّبُ الطُّعْم، ولهذه المبالغة لم يأتِ الكلام: وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ.

* ص * : ﴿إِلَّا مَنْ أَعْتَرَفَ عُزْفَةً بِيَدِهِ﴾: استثناء من الجملة الأولى، وهو قوله: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، أي: إِلَّا مَنْ أَعْتَرَفَ عُزْفَةً بِيَدِهِ، دون الكَرَع، / فهو مِنِّي، ١٦٣ والاستثناء إذا تعقَّب جملتين فأكثر، أمكَّن عَوْدَهُ إِلَى كُلِّ مِنْهَا، فقليل: يعود على الأخيرة، وقيل: إلى الجميع^(١).

وقال أبو البقاء: إِنْ شُتِّ، جعلته مِنْ «مَنْ» الأولى، وَإِنْ شُتِّتَ مِنْ «مَنْ» الثانية، وَتُعَقَّبَ؛ بأنه لو كان استثناء من الثانية، وهي: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ: ﴿مَنْ أَعْتَرَفَ عُزْفَةً﴾ ليس منه؛ لأن الاستثناء من الإثبات نفْي، ومن النفي إثبات؛ على الصحيح، وليس كذلك؛ لأنه أبيع لهم الاعتراف، والظاهر عودته إلى الأولى، والجملة الثانية مفهومة من الأولى، لأنه حين ذكر أَنَّ مَنْ شَرِبَهُ، فليس منه، فُهِمَ مَنْ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ، فإنه منه. انتهى.

ثم أخبر تعالى؛ أَنَّ الأكثرَ شَرِبَ، وخالفَ ما أريد منه، روي عن ابن عَبَّاس وغيره؛ أَنَّ القومَ شَرَبُوا عَلَى قَدَرِ يَقِينِهِمْ، فشرب الكُفَّارُ شَرِبَ الهيم، وشرب العاصُونَ دُونَ ذَلِكَ، وَأَنْصَرَفَ مِنَ الْقَوْمِ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا، وبقي بعض المؤمنين، لم يَشْرَبْ شيئاً، وأخذ بعضهم العُزْفَةَ، فَأَمَّا مَنْ شَرِبَ، فلم يرو، بل بَرَّحَ به العطش، وأما من ترك الماء، فَحَسُنَتْ حاله،

(١) الصحيح أنه يعود على الجملة الأولى وهي: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، والجملة الثانية معترضة بين المستننى والمستثنى منه، وأصلها التأخير، وإنما قُدِّمَتْ؛ لأنها تَدُلُّ عَلَيْهَا الْأُولَى بِطَرِيقِ الْمَفْهُومِ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فُهِمَ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْرَبْ فَإِنَّهُ مِنْهُ، فَلَمَّا كَانَتْ مَدْلُولاً عَلَيْهَا بِالْمَفْهُومِ صَارَ الْفَصْلُ بَهَا كَلَامَ فَصْلٍ. وقال الزمخشري: «والجملة الثانية في حكم المتأخرة، إلا أنها قُدِّمَتْ لِلْعَنَانَةِ، كَمَا قُدِّمَ «وَالصَّابِتُونَ» فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِتُونَ﴾ [الحج: ١٧].

والثاني: أنه مستثنى من الجملة الثانية، وإليه ذهب أبو البقاء. وهذا غير سديد لأنه يؤدي إلى أن المعنى: وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ أَعْتَرَفَ بِيَدِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي؛ لأنَّ الاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفْي، كما هو الصحيح، ولكن هذا فاسد في المعنى؛ لأنهم مفسوخ لهم في الاعتراف عُزْفَةً واحدة. والاستثناء إذا تعقَّب الجمل وصلَّحَ عَوْدُهُ عَلَى كُلِّ مِنْهَا هل يختصُّ بِالْآخِرَةِ أَمْ لَا؟ خلاف مشهور، فإنَّ دَلِيلَ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِإِحْدَى الْجُمْلِ عَمِلَ بِهِ، وَالْآيَةُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَإِنَّ الْمَعْنَى يَعُودُ إِلَى عَوْدِهِ إِلَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى لَا الثَّانِيَةَ لِمَا ذَكَرْتُ لَكَ.

ينظر: «الدر المصون» (١/٦٠٥).

وكان أجَلَدَ ممن أخذ العُرْفَةَ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فلما جاوزَهُ هو والذين آمنوا معه...﴾ الآية: أكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النَّهْرَ مَنْ لم يشرب إلا عُرْفَةً، ومن لم يشرب جملةً، ثم كانت بصائر هؤلاء مختلفة؛ فبعض كع، وقليل صمم، وهم عِدَّة أهل بدر ثلاثمائة، وبضعة عشر رجلاً. وقوله تعالى: ﴿قالوا لا طاقةَ﴾.

قال ابن عباس: قال كثير من الأربعة الآلاف الباقية مع طالوت، الذين جاوزوا النَّهْرَ: ﴿لا^(٢) طاقةَ لنا﴾ على جهة الفشل، والفرع من الموت، وأنصرفوا عن طالوت، فقال المؤمنون الموقنون بالبغت، والرجوع إلى الله تعالى، وهم عِدَّة أهل بدر: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ﴾، والظن على هذا القول: اليقين، والفئة: الجماعة التي يرجع إليها في الشدائد، وفي قوله رضي الله عنهم - ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ...﴾ الآية: تحريض بالمثال، وحض واستشعار للصبر، وأقتداء بمن صدق ربه، ﴿والله مع الصَّابِرِينَ﴾ بنصره وتأييده.

وقوله تعالى: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً...﴾ الآية: ﴿برزوا﴾: معناه صاروا في البراز، وهو الأفح من الأرض المتسع، والإفراغ: أعظم الصب، وكان جالوت أمير العمالق، ومليكهم، وروي في قصة داود وقتله جالوت؛ أن أصحاب طالوت كان فيهم إخوة داود، وهم بنو أيش، وكان داود صغيراً يرعى غنماً لأبيه، فلما حضرت الحرب، قال في نفسه: لأذهبن لرؤية هذه الحرب، فلما نهض مر في طريقه بحجر، فناداه: يا داود، خذني، فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حَجَرٌ آخَرُ، ثم آخر، ثم آخر، فأخذها، وجعلها في مِخْلَاته، وسار، فلما حضر البأس، خرج جالوت يطلب مبارزاً، فكع الناس عنه؛ حتى قال طالوت: مَنْ بَرَزَ له، ويقتله، فأنا أزوجه ابنتي، وأحكمه في مالي، فجاء داود، فقال: أنا أبرز له، وأقتله، فقال له طالوت: فأركب فرسي، وخذ سلاحي، ففعل، وخرج في أحسن شِكَّة، فلما مشى قليلاً، رجع، فقال الناس: جبن الفتى، فقال داود: إن الله سبحانه، إن لم يقتله لي، ويعينني عليه، لم ينفعني هذا الفرس، ولا هذا السلاح، ولكني أحب أن أقاتله على عادتي، قال: وكان داود من أزمى الناس بالمِغْلَاح، فنزل، وأخذ مِخْلَاته، فتقلدها، وأخذ مِغْلَاحه، فخرج إلى جالوت، وهو شاك في السلاح، فقال له جالوت: «أنت، يا فتى، تخرج إلي». قال: نعم، قال: هكذا؛ كما

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٤٥/٥) بنحوه، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٣٥).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٣٦).

يُخْرِجُ إِلَى الْكَلْبِ، قَالَ: نعم، وَأَنْتَ أَهْوَنُ، قَالَ: لَا طَعِمَنَّ الْيَوْمَ لَحْمَكَ الطَّيْرَ، وَالسَّبَاعَ، ثُمَّ تَدَانِيَا، فَأَدَارَ دَاوُدُ مِقْلَاعَهُ، وَأَذْخَلَ يَدَهُ إِلَى الْحِجَارَةِ، فَرَوَى أَنَّهَا أَلْتَأَمَتْ، فَصَارَتْ وَاحِدًا، فَأَخَذَهُ، وَوَضَعَهُ فِي الْمِقْلَاعِ، وَسَمَّى اللَّهَ، وَأَدَارَهُ، وَرَمَاهُ، فَأَصَابَ بِهِ رَأْسَ جَالُوتَ، فَقَتَلَهُ، وَحَزَّ رَأْسَهُ، وَجَعَلَهُ فِي مِخْلَاتِهِ، وَأَخْتَلَطَ النَّاسُ، وَحَمَلَ أَصْحَابُ طَالُوتَ، وَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ، ثُمَّ إِنَّ دَاوُدَ جَاءَ يَطْلُبُ شَرْطَهُ مِنْ طَالُوتَ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَهُنَّ غَرَائِبُ مِنَ الْمَهْرِ، وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ قَتْلِ مَائَتَيْنِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَرَّاجِمَةِ^(١) الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّاسَ، وَتَجِئَنِي بِغُلْفِهِمْ^(٢)، وَطَمَعَ طَالُوتُ أَنْ يُعَرِّضَ دَاوُدَ لِلْقَتْلِ بِهَذِهِ النَّزْعَةِ، فَقَتَلَ دَاوُدَ مِنْهُمْ مَائَتَيْنِ، وَجَاءَ بِذَلِكَ، وَطَلَبَ امْرَأَتَهُ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ طَالُوتُ، وَعَظَّمَ أَمْرَ دَاوُدَ، فَيَرْوَى؛ أَنَّ طَالُوتَ تَخَلَّى لَهُ عَنِ الْمُلْكِ، وَصَارَ هُوَ الْمَلِكُ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي قَصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ لِيُنَاسِنِدَ؛ فَلِذَلِكَ انْتَقَيْتُ مِنْهُ مَا تَنَفَّكَ بِهِ الْآيَةُ، وَيَعْلَمُ بِهِ مُنَاقِلُ النَّازِلَةِ.

وَأَمَّا الْحِكْمَةُ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ، فَهِيَ النُّبُوَّةُ، وَالزُّبُورُ، وَعَلَّمَهُ سُبْحَانَهُ صَنْعَةَ الدُّرُوعِ، وَمَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ عِلْمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيَّ نَبِيَّنَا وَعَلَيْهِ -.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ...﴾ الْآيَةُ: أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ أَنَّهُ لَوْلَا دَفْعُهُ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي صُدُورِ الْكُفْرِ عَلَى مَرِّ الدَّهْرِ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ كَانَ يَطْبِقُهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُخْلِي الزَّمَانَ مِنْ قَائِمٍ بِحَقٍّ، وَدَاعٍ إِلَى اللَّهِ إِلَى أَنْ جَعَلَ ذَلِكَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ لَهُ الْحَمْدُ كَثِيرًا.

* ص * : ﴿وَلَكِنَّ﴾ اسْتَدْرَاكَ بِإثبات الفضل لله سُبْحَانَهُ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ؛ لِمَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ يَرِيدُ الْفَسَادَ؛ أَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مُتَفَضِّلٍ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَقَاصِدُهُ؛ وَأَحْتِجَ إِلَى هَذَا التَّقْدِيرِ؛ لِأَنَّ «لَكِنَّ» تَكُونُ بَيْنَ مُتَنَاقِضَيْنِ بَوَاحٍ مَّا. انْتَهَى.

وَالْإِشَارَةُ بِـ ﴿تِلْكَ﴾ إِلَى مَا سَلَفَ مِنَ الْقِصَصِ وَالْأَنْبَاءِ، وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ بِجَمَلَتِهَا مِثَالٌ عَظِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَمُعْتَبَرٌ، وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مُعَدِّينَ لِحَزْبِ الْكُفَّارِ، فَلَهُمْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ مُعْتَبَرٌ يَقْتَضِي تَقْوِيَةَ النُّفُوسِ، وَالثِّقَةَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وَجُوهِ الْعِبَرِ.

(١) أَي لِمَنْ يَسْتَلْبِونَ النَّاسَ، وَيَتَنَهَوْنَهُمْ. وَالْجَرَّاجِمَةُ: قَوْمٌ مِنَ الْعَجَمِ بِالْجَزِيرَةِ. وَيَقَالُ: الْجَرَّاجِمَةُ نَبَطُ الشَّامِ. يَنْظُرُ: «اللسان العرب» (٥٨٦).

(٢) هُوَ جَمْعُ غِلَافٍ، وَالْغِلَافُ مَا اشْتَمَلَ عَلَى الشَّيْءِ، وَالْغِلَافُ: غِلَافُ السَّيْفِ وَالْقَارُورَةِ، وَسَيْفٌ أَغْلَفَ، وَقَوْسٌ غُلِفَ، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ فِي غِلَافٍ. وَرَجُلٌ مُغْلَفٌ: عَلَيْهِ غِلَافٌ مِنْ هَذِهِ الْأَدَمِ وَنَحْوِهَا.

يَنْظُرُ: «اللسان العرب» (٣٢٨٢، ٣٢٨٣).

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَحَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَحُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يُفَعِّلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ الآية: «تِلْكَ»: رفع بالابتداء، والرسول: خبره، ويجوز أن يكون «الرسول» عطف بيان، و «فَضَّلْنَا»: الخبر، و «تِلْكَ»: إشارة إلى جماعة، ونص الله سبحانه في هذه الآية على تفضيل بعض النبيين على بعض من غير نبيين.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾:

قال مجاهد وغيره: هي إشارة إلى نبينا محمد ﷺ؛ لأنه بعث إلى الناس كافة، وأعطى الخمس التي لم يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ، وهو أعظم الناس أمةً، وختم الله به النبوات^(١) إلى غير ذلك مما أعطاه من الخلق العظيم، ومن معجزاته، وباهر آياته، ويختل اللفظ أن يراد به نبينا محمد ﷺ وغيره ممن عظم آياته، وبينات عيسى - عليه السلام - إحياء الموتى، وإبراء الأنكمه، والأبرص، وخلق الطير من الطين، وروح القدس جبريل - عليه السلام - وقد تقدم/ ما قال العلماء فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَحَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ الآية: معنى الآية: ولو شاء الله ما أفتلح الناس بعد كل نبي، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر بغياً وحسداً، وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء، وقدر، وإرادة من الله سبحانه، ولو شاء الله خلاف ذلك، لكان، ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك، وهو الفعل لما يريد سبحانه.

* ص * : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَحَ﴾، قيل: في الكلام حذف، أي: فاختلف أممهم، فأفتلحوا، ولو شاء الله، فمفعول «شاء» محذوف، أي: «أَلَا يَفْتَلِحُوا» انتهى.

وقوله: ﴿مَا أَفْتَلَحُوا﴾، أي: بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر، وذلك هو

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣) برقم (٥٧٥٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٣٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧١/١)، وعزاه لآدم بن أبي إياس، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

دَفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ .

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ الآية، قال ابن جُزَيْج: هذه الآية تجمعُ الزكاةَ والتطوُّعَ، أي^(١): وجميعُ وجوهِ البرِّ من سبيلِ وصلةِ رحم، وهذا كلامٌ صحيحٌ، لكن ما تقدَّم من الآياتِ في ذِكْرِ الْقِتَالِ يَرْجَحُ أَنَّ هَذِهِ النِّفْقَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَقْوِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: فكافِهُوهم بِالْقِتَالِ بِالنَّفْسِ، وَإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ، وَهَذَا غَايَةُ الْإِنْعَامِ وَالتَّفَضُّلِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ أَنْ رَزَقَ، ثُمَّ نَدَبَ لِلنِّفْقَةِ مِمَّا بِهِ أَنْعَمَ، وَحَدَّرَ سُبْحَانَهُ مِنَ الْإِمْسَاكِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يُمْكِنُ فِيهِ بَيْعٌ، وَلَا شِرَاءٌ، وَلَا أَسْتِدْرَاكُ نَفَقَةٍ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ هِيَ مَبَايِعَةٌ إِذِ الْبَيْعُ فِدْيَةٌ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ، وَمَرَادُهُ بِمَالِهِ؛ فَكَأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ لَا فِدْيَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا خُلَّةَ نَافِعَةٍ، وَأَهْلُ التَّقْوَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَيْنَهُمْ خُلَّةٌ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا.

* ت * وفي قوله: «غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا» قُلْتُ، وَلَا شِفَاعَةَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِمَنْ أذنَ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَالْمَنْفِيُّ مِثْلَ حَالِ الدُّنْيَا مِنَ الْبَيْعِ، وَالْخُلَّةِ، وَالشَّفَاعَةِ؛ بِغَيْرِ إِذْنِ الْمَشْفُوعِ عِنْدَهُ، قَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ^(٢).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ الآية: هذه الآيةُ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٣)، وَوَرَدَ «أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا أَوَّلَ لَيْلَةٍ، لَمْ يَقْرُبْهُ شَيْطَانٌ»؛ وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَهَا أَوَّلَ نَهَارِهِ^(٤)، وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ التَّوْحِيدَ وَالصِّفَاتِ الْعُلَا،

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥/٣) بِرَقْمِ (٥٧٦٢)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»، وَذَكَرَهُ أَيْضاً ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٣٩/١)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْتُورِ» (٥٧١/١)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦/٣) بِرَقْمِ (٥٧٦٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحْجُورِ الْوَجِيزِ»، (٣٤٠/١)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْتُورِ» (٥٧١/١)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) تَقْدِمُ تَحْرِيجَهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» (٩٦١)، وَأَبُو يَعْلَى كَمَا فِي «النَّكَتِ الظَّرَافِ» (٣٨/١)، وَابْنُ حَبَانَ (٧٨٤). وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَائِلِ النَّبُوَّةِ» (٧٦٥/٢)، وَالْحَاكِمُ (٥٦٢/١). وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «الدَّلَائِلِ» (١٠٩/٧). وَالتَّبْرَانِيُّ (٥١٤). كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَنْ كَعْبٍ؛ أَنَّهُ كَانَ لَهُ جَرْنٌ فِيهِ تَمْرٌ، فَكَانَ =

وعن أنس بن مالك، قال: قال النبي ﷺ لفاطمة: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْمَعِي، مَا أَوْصَيْتُكَ بِهِ، تَقُولِينَ، إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ: يَا حَيَّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»، رواه النسائي، واللفظ له، والحاكم في «المستدرک» عَلَى الصَّحِيحَيْنِ، وقال: صحيحٌ عَلَى شرط الشيخين، يعني البخاري ومسلماً^(١). انتهى من «السَّلاح».

وعن ابن مسعود؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا نَزَلَ بِهِ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ، قَالَ: «يَا حَيَّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» رواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح الإسناد^(٢)، ورواه الترمذي من حديث أنس^(٣)، والنسائي من حديث ربيعة بن عامر^(٤)، انتهى من «السَّلاح».

والله: مبتدأ، ولا إله: مبتدأ ثانٍ، وخبره محذوف، تقديره معبود أو موجود، وقَيُّوم: بناءٌ مبالغٍ، أي: هو القائم على كل نفس بما كَسَبَتْ؛ بهذا المعنى/ فسره مجاهد، والرَّبيع، والضُّحَاك^(٥)، ثم نفى عزَّ وجلَّ؛ أَنْ تَأْخُذَهُ سِنَّةٌ أَوْ نَوْمٌ، وفي لفظ: الْأَخْذُ غَلَبَةٌ

= يتعاهده، فوجده ينقص، فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم قال: فسلمت، فرد السلام، فقلت: من أنت؟ جني أم إنسي؟ قال: جني. قلت: ناولني يدك، فناولني، فإذا يده يد كلب، وشعره شعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن؟ قال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني، قلت: ما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب طعامك، فقال له أبي: فما الذي يجيرنا منك، قال: هذه الآية آية الكرسي التي في «سورة البقرة»، من قالها حين يمسي أجبر منا حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح أجبر منا حتى يمسي، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «صدق الخبيث».

(١) أخرجه الحاكم (٥٤٥/١)، كتاب «الدعاء»، من حديث أنس بن مالك.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٠٩/١)، من طريق وضاح بن يحيى النهشلي، ثنا النضر بن إسماعيل البجلي، ثنا عبد الرحمن بن إسحاق، ثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه، عن ابن مسعود به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي. فقال: عبد الرحمن لم يسمع من أبيه، ومن بعده ليسوا بحجة.

(٣) أخرجه الترمذي (٥٣٩/٥) كتاب «الدعوات»، باب (٩٢)، حديث (٣٥٢٤)، من طريق يزيد الرقاشي عن أنس به. وقال: هذا حديث غريب.

(٤) ربيعة بن عامر، صحابي له حديث. وعنه يحيى بن حسان، شيخ لابن المبارك. ينظر: «الخلاصة» ت (٢٠٤١).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/٣) برقم (٥٧٦٧، ٥٧٧٠)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٣٨/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٤٠/١)، والسيوطي في «الدُر المنثور» (٥٧٩/١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن الربيع، ولآدم بن أبي أياس، وابن جرير، والبيهقي عن مجاهد.

مَّا، فلذلك حَسُنَتْ في هذا الموضع بالنفي، والسُّنَّةُ: بذء الثُّعَاسِ، وليس يفقد معه كلُّ الذَّهْنِ، والثُّومُ هو المستَقْلُ الذي يزولُ معه الذَّهْنُ، والمراد بالآية: التنزيهُ أنه سبحانه لا تدركه آفة، ولا يلحقه خلل بحالٍ من الأحوال، فجعلت هذه مثلاً لذلك، وأقيمَ هذا المذكورُ من الآفاتِ مقامَ الجميع، وهذا هو مفهومُ الخطَابِ^(١)؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ [الإسراء: ٢٣].

* ت * : وبَيَانِهِ أَنَّهُ إِذَا حَرَّمَ التَّأْفِيفَ، فَأَخْرَجَ مَا فَوْقَهُ مِنَ الشَّتْمِ، وَالضَّرْبِ فِي حَقِّ الْأَبْوَيْنِ، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْبِي عَنْ مُوسَى عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَ: «وَقَعَ فِي نَفْسِ مُوسَى: هَلْ يَنَامُ اللَّهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَأَرَقَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَعْطَاهُ قَارُورَتَيْنِ فِي كُلِّ يَدٍ قَارُورَةً، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَحْتَفِظَ بِهِمَا، قَالَ: فَجَعَلَ يَنَامُ، وَتَكَادَ يَدَاهُ تَلْتَقِيَانِ، ثُمَّ يَسْتَبْقِظُ، فَيَحْسِبُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى؛ حَتَّى نَامَ نَوْمَةً، فَأَضْطَفَقَتْ يَدَاهُ، فَأَنْكَسَرَتِ الْقَارُورَتَانِ، قَالَ: ضَرَبَ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا أَنْ لَوْ كَانَ يَنَامُ، لَمْ تَسْتَمْسِكِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ»^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بالملك؛ فهو مالكُ الجميع، وربُّه، ثم قرأ، وَوَقَفَ تعالى من يتعاطى أن يشفع إلا بإذنه، أي: بأمره.

* ص * : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾: «مَنْ»: مبتدأ، وهو استفهامٌ معناه النفي؛ ولذا دخلت «إلا» في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، والخبر «ذَا»، و «الَّذِي» نعتٌ لـ «ذَا» أو بدل منه، وهذا على أن «ذَا» اسمٌ إشارة، وفيه بُغْدٌ؛ لأن الجملة لم تستقلْ بـ «مَنْ» مع «ذَا»، ولو كان خبراً، لاستقل، ولم يحتج إلى الموصول، فالأولى أن «مَنْ» رُكِبَتْ مع «ذَا» للاستفهام. انتهى.

(١) يُطْلَقُ الْمَفْهُومُ، وَيُقَصَّدُ بِهِ مَعْنَى ذَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ لَا فِي مَحَلِّ الطُّقِ، أَوْ هُوَ: «دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَى فِي غَيْرِ مَحَلِّ الطُّقِ؛ بَأَن يَكُونَ ذَلِكَ الْمَعْنَى حَكْمًا لَغَيْرِ الْمَذْكُورِ فِي الْكَلَامِ، وَحَالًا مِنْ أَخْوَالِهِ، سِوَاهُ كَانَ ذَلِكَ الْحَكْمُ مُوَافِقًا لِحَكْمِ الْمَذْكُورِ، أَوْ مُخَالَفًا لَهُ.

ينظر: «المفهوم» لشيخنا الخضراوي، و «شرح العضد» (١٧١/٢)، و «البرهان» (٤٤٩/١)، و «العدة» (١٥٤/١)، و «الإحكام» للآمدي (٦٢/٣)، و «جمع الجوامع» (٢٤٠/١)، و «الآيات البينات» (٢/١٥، ٢٣)، و «شرح الكوكب» (٤٨٠/٣، ٤٨٩)، و «روضة الناظر» (١٣٨، ١٣٩)، و «إرشاد الفحول» (١٧٨-١٩٨)، و «تيسير التحرير» (٩١/١ - ٩٨)، و «فواتح الرحموت» (٤١٣/١ - ٤١٤)، و «شرح التفتيح» (٥٣)، و «الحدود» للباجي (٥٠)، و «نشر البنود» (٩٤/١ - ٩٨)، و «المدخل» (٢٧١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» رقم (٥٧٨٠) عن أبي هريرة مرفوعاً.

قال مجاهد وغيره: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الآخرة^(١)، وهذا صحيح في نفسه عند موت الإنسان؛ لأن ما بين اليد هو كل ما تقدم الإنسان، وما خلفه: هو كل ما يأتي بعده، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾، أي: من معلوماته؛ لأن علم الله تعالى لا يتبعض، ومعنى الآية: لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه، قال ابن عباس: كُرْسِيُّه: علمه^(٢) [قال الطبري^(٣)]: ومنه الكرّاسة.

قال *ع^(٤): * والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش أعظم منه؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَذَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي تُرْسٍ» وقال أبو ذر: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَخَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أَلْفَيْتٍ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»^(٥) وهذه الآية مُنْبِتَةٌ عَنْ عِظَمِ مخلوقات الله سبحانه، والمستفاد من ذلك عِظَمُ قدرته - جل وعلا -؛ إذ لا يؤوده حفظ هذه المخلوقات العظيمة، ﴿وَلَا يُؤْودُهُ﴾: معناه: لا يُثْقِلُهُ، ولا يشق عليه، وهو تفسير ابن عباس وغيره، و ﴿الْعَلِيُّ﴾: يراد به علو القدر، والمنزلة، لا علو المكان؛ لأن الله سبحانه منزّه عن التّحيّز؛ وكذا ﴿العظيم﴾: هو صفة؛ بمعنى عِظَمُ القدر، والخطَر، لا على معنى عِظَمُ الأجزاء، ومن «سلاح المؤمن» قال: وعن أبي أمامة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ». رواه النسائي^(٦) عن الحسين بن بشر^(٧)

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٣) برقم (٥٧٨٣)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٣٩/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤١/١)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن جرير (٥٨٠/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٣) برقم (٥٧٨٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٤٢/١)، والماوردي في «تفسيره» (٣٢٥/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٠٩/١)، والسيوطي في «تفسيره» (١/٥٨٠)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عنه.

(٣) ذكره الطبري (١٢/٣).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٤٢/١).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٨٧/٢)، من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي ذر.

وقال ابن كثير في «البداءة والنهاية» (١٣/١): أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع.

وقال الذهبي: «العلو» (ص ٩١): هذا مرسل، وعبد الرحمن ضعيف.

(٦) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٠/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة، حديث (٩٩٢٨).

(٧) الحسين بن بشر الطرسوسي، عن محمد بن جَمِير، وَحَجَّاج بن محمد، وعنه النسائي، ووثقه، قال=

عن محمد بن حنبل^(١)، عن محمد بن زياد/ الألهاني، عن أبي أمامة، فأما الحسين، فقال ٦٥ ب فيه النسائي: لا بأس به، وقال في موضع آخر: ثقة، وقال أبو حاتم: شيخ، وأما المحدثان، فأحتج بهما البخاري في «صحيحه»، وقد أخرج شيخنا الحافظ أبو محمد الدميطي^(٢) - رحمه الله - الحديث في بعض تصانيفه من حديث أبي أمامة، وعلي، وعبد الله بن عمر، والمغيرة، وجابر، وأنس، قال: وإذا ضمت هذه الأحاديث بعضها إلى بعض، أخذت قوة. انتهى من «السلام».

وقد أخرج البخاري والنسائي من حديث أبي هريرة في قصته مع الشيطان وأخذه الطعام، ما هو معلوم من فضل هذه الآية.

وفيه: أنه إذا قرأتها حين تأوي إلى فراشك، لم يزل عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى توضح، وخرجه الترمذي من حديث أبي أيوب في قصته مع الغول نحو حديث أبي هريرة^(٣)؛ قال الغزالي ما معناه: إنما وصفت بكونها سيده آي القرآن؛ لاشتغالها على اسم الله الأعظم، وهو الحي القيوم؛ قاله في «الجواهر»، وأسند صاحب «غاية المغنم

= الميزي: لم أقف على روايته عنه.

ينظر: «الخلاصة» (١/٢٢٣).

(١) محمد بن حنبل القضاعي السليحي الحمصي، عن محمد بن زياد، وبجير بن سعد، وصفوان بن عمرو، وخلق، وعنه داود بن رشد، ومحمد بن مضع، وعمرو بن عثمان، وخلق. قال دحيم: مات سنة مائتين. ينظر: «الخلاصة» (٢/٣٩٦ - ٣٩٧).

(٢) عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرق بن الخضر بن موسى، شرف الدين أبو محمد، وأبو أحمد الدميطي، ولد ب «دمياط» سنة ٦١٣، وتفقه بها وقرأ بالسبع على الكمال الضريع، وسمع الكثير، ورحل، ولازم المنذري سنين، وتخرج به، ودرس لطائفة المحدثين بالمنصورة، وسمع منه أبو الفتح الأبيوردي، وروى عنه من تلامذته: المزي، والبرزالي، والذهبي، وابن سيد الناس والسبكي وغيرهم. نعتة الذهبي ببقية نقاد الحديث. وله مصنفات نفيسة منها «السيرة النبوية»، و «الصلاة الوسطى» وغيرهما. مات سنة ٧٠٥. انظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (٢/٢٢٠)، «طبقات السبكي» (٦/١٣٣)، «الأعلام» (٤/٣١٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٨٥/٥) كتاب «فضائل القرآن»، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، حديث (٢٨٨٠). وأحمد (٤٢٣/٥)، والحاكم (٤٥٩/٣)، والطبراني في «الكبير» (٤/١٩٣) رقم (٤٠١١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٠٩١). كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي أيوب الأنصاري به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/٥٧٦)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبه، وابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان». وأبي نعيم في «الدلائل».

في أَسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ»، عن غَالِبِ الْقَطَّانِ^(١)، قال: مكثتُ عشرَ سنينَ، أدعو الله أن يعلمني أَسْمَهُ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي ثَلَاثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَاتٍ يَقُولُ: يَا غَالِبُ قُلْ: يَا فَارِجَ الْهَمِّ، وَيَا كَاشِفَ الْغَمِّ، يَا صَادِقَ الْوَعْدِ، يَا مُوفِيَا بِالْعَهْدِ، يَا مُنْجِزاً لِلْوَعْدِ، يَا حَيَّ يَا قَيُّوْمَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. انتهى من «غاية المغنم».

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيُجْزِي عَالِمٌ﴾ (٢٥٦) **اللَّهُ** وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَطُوعُوا بِالطَّاغُوتِ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾: الدِّينُ، في هذه الآية: هو الْمُعْتَقَدُ، وَالْمِلَّةُ، ومقتضى قول زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أن هذه الآية مَكِّيَّةٌ، وأنها من آياتِ الْمَوَادَعَةِ الَّتِي نَسَخَهَا آيَةُ السِّيفِ^(٢)، وقال قتادة والضحاك بن مزاحم: هذه الآية مُحْكَمَةٌ خَاصَّةٌ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ الْجَزْيَةَ^(٣)، وقوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾: معناه: بنصب الأدلة، ووجود الرسول ﷺ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، والآياتِ الْمُنِيرَةِ، والرُّشْدُ: مُضَدَّرٌ مِنْ قَوْلِكَ: رَشِدَ؛ بِكَسْرِ الشَّيْنِ، وَضَمِّهَا، يَرْشُدُ رُشْداً، وَرَشْداً، وَرَشَاداً، وَالْغَيُّ مصدرٌ مِنْ: غَوَى يَغْوَى، إِذَا ضَلَّ فِي مَعْتَقَدٍ، أَوْ رَأْيٍ، وَلَا يُقَالُ: الْغَيُّ فِي الضَّلَالِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَالطَّاغُوتُ بِنَاءٌ مُبَالِغَةٌ مِنْ: طَغَى يَطْغَى، وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى الطَّاغُوتِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَغَيْرُهُ: هُوَ الشَّيْطَانُ^(٤)، وَقِيلَ: هُوَ السَّاجِرُ، وَقِيلَ: الْكَاهِنُ، وَقِيلَ: الْأَضْنَامُ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ طَاغُوتٌ.

(١) غالب بن خُطَّاف (بضم المعجمة وتشديد الطاء) القَطَّان، أبو سليمان بن أبي غِيْلَانَ البصري، عن ابن سيرين، ويكر المُرْزَنِي، وعنه شعبة، وابن عُليَّة، وبشر بن الْمُفَضَّل، وثقه أحمد وابن معين. ينظر: «الخلاصة» (٣٢٩/٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨/٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٤٢/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧/٣)، برقم (٥٨٢٩) (٥٨٢٣٠)، وذكره البغوي في «تفسيره» عن قتادة (٢٤٠/١)، والماوردي في «تفسيره» (٣٢٧/١) عن قتادة، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤٣/١). والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٣/١)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي داود في «ناسخه»، وابن جرير عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٠/٣) برقم (٥٨٣٥) وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٢٧/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤٤/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣١١/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٥٨٤)، وعزاه للقرطبي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عمر.

* ع^(١) : وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك؛ كفرعون وثمود، وأما من لا يرضى ذلك، فسمي طاغوتاً في حق العبد، قال مجاهد: العروة الوثقى: الإيمان^(٢)، وقال السدي: الإسلام^(٣)، وقال ابن جبير وغيره: لا إله إلا الله^(٤).

قال * ع^(٥) : وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد.

والانفصام: الانكسار من غير بينونة، وقد يجيء بمعنى البينونة^(٦)، والقضم كسر بالبينونة.

* ت : وفي «الموطأ» عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ الْوَحْيَ يَأْتِينِي أَحْيَانًا فِي مِثْلِ صَلَصلةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيَقْصِمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ»^(٧). قال أبو عمر في «التمهيد»: قوله: «فَيَقْصِمُ عَنِّي»: معناه: ينفرج عني، ويذهب؛ كما تفصم الخلخال، إذا فتحته؛ لتخرجه من الرجل، وكل عقدة حللتها، فقد قصمتها/، قال الله عز وجل: ﴿فَقَدْ أَصْلُتْ أَسْتَمْسِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، وانفصام العروة أن تنفك عن موضعها، وأصل القضم عند العرب: أن تفك الخلخال، ولا يبين كسره، فإذا كسره، فقد قصمته بالقاف. انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٣٤٤/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/٣) برقم (٥٨٤٨) عن محمد بن عمرو، عن أبي عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٢٨/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤٤/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣١١/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٤/١)، وعزاه لسفيان، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/١) برقم (٥٨٥٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٤٤/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣١١/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤٤/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣١١).

(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٤٤/١).

(٦) البينونة والبين في كلام العرب جاء على وجهين: يكون بمعنى الفرفة، ويكون الوصل، وهو هنا من الأول، يقال: ضربه فأبان رأسه من جسده وفصله. ينظر: «لسان العرب» (٤٠٣، ٤٠٤).

(٧) أخرجه مالك (٢٠٢/١ - ٢٠٣): كتاب «القرآن»، باب ما جاء في القرآن، حديث (٧)، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة؛ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، كيف يأتيك الوحي؟ فذكره. ومن طريق مالك: أخرجه البخاري (٢٥/١ - ٢٦)، كتاب «بدء الوحي»، حديث (٢). وأخرجه مسلم (١٨١٦/٤): كتاب «الفضائل»، باب عرق النبي ﷺ في البرد، حديث (٢٣٣٣/٨٧)، من طرق عن هشام بن عروة به.

المحاجة روايتان.

إحدهما: ذكر زيد بن أسلم أنَّ الثمروذ هذا قَعَدَ يأمر للناس بالميرة^(١)، فكلَّمَا جاء قومٌ، قال: مَنْ رَبُّكُمْ وَإِلَهِكُمْ، فيقولون: أَنْتَ، فيقول: مِيرُوهُمْ، وجاء إبراهيم - عليه السلام -، يَمْتَارُ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ وَإِلَهُكَ؟ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّي الَّذِي يُخَيِّي وَيُمِيْتُ، فَلَمَّا سَمِعَهَا ثَمْرُوذٌ، قَالَ: أَنَا أُخَيِّي وَأُمِيْتُ، فَعَارَضَهُ إِبْرَاهِيمُ بِأَمْرِ الشَّمْسِ؛ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، وَقَالَ: لَا تُمِيرُوهُ، فَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ دُونَ شَيْءٍ، فَمَرَّ عَلَى كَثِيبٍ رَمَلٍ؛ كَالذَّقِيقِ، فَقَالَ: لَوْ مَلَأْتُ غَرَازِي مِنْ هَذَا، فَإِذَا دَخَلْتُ بِهِ، فَرِحَ الصَّبِيَّانُ؛ حَتَّى أَنْظَرَ لُهُمَا، فَذَهَبَ بِذَلِكَ، فَلَمَّا بَلَغَ مَنَزَلَهُ، فَرِحَ الصَّبِيَّانُ، وَجَعَلَا يَلْعَبَانِ فَوْقَ الْغَرَازَتَيْنِ، وَنَامَ هُوَ مِنَ الْإِغْيَاءِ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: لَوْ صَنَعْتُ لَهُ طَعَامًا يَجِدُهُ حَاضِرًا، إِذَا أَنْتَبَهَ، فَفَتَحْتُ إِحْدَى الْغَرَازَتَيْنِ، فَوَجَدْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَوَارِي، فَخَبَزْتُهُ، فَلَمَّا قَامَ، وَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَتْ: مِنَ الذَّقِيقِ الَّذِي سَقَيْتُ، فَعَلِمَ إِبْرَاهِيمُ؛ أَنَّ اللَّهَ يَسِّرُ لَهُمْ ذَلِكَ.

وقال^(٢) الربيع وغيره في هذا القصص: إن الثمروذ لما قال: أَنَا أُخَيِّي وَأُمِيْتُ، أَخْضَرَ رَجُلَيْنِ، فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا، وَأَرْسَلَ الْآخَرَ، وَقَالَ: قَدْ أَخَيَّيْتُ هَذَا، وَأَمْتُ هَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ بِأَمْرِ الشَّمْسِ^(٣).

والرواية الأخرى: ذكر السُّدِّيُّ؛ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ إِبْرَاهِيمُ مِنَ النَّارِ، وَأَذْخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، قَالَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ: رَبِّي الَّذِي يُخَيِّي وَيُمِيْتُ^(٤).

يقال: بُهِتَ الرَّجُلُ، إِذَا انْقَطَعَ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ.

= وخرَّب «بيت المقدس»، وعاد إلى «بابل»، وأقام في سلطانه إلى ما شاء الله. ينظر: «الكامل» لابن الأثير (٢٦١/١، ٢٦٦).

وانظر أقوال المفسرين: في «تفسير الثوري» (ص ٧١)، و«الدر» (٣٣١/١ - ٣٣٣) عن علي، وابن عباس، وعكرمة، وقتادة، وسليمان بن بريدة، والضحاك، والسدي، وعبد الله بن سلام، وكعب، والحسن، وهب. والطبري (٤٣٩/٥) عنهم، و«كنز العمال» (٢/٢٦٤)، وابن كثير (٣١٤/١) عن علي وغيره، و«فتح القدير» (١/٢٧٩).

(١) الميرة: الطعام يمتاره الإنسان، قال ابن سيده: الميرة جَلَبَ الطعام، وفي التهذيب: جَلَبَ الطعام للبيع. ينظر: «لسان العرب» (٤٣٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٧/٣) برقم (٥٨٧٦) وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٤٥/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨/٣) برقم (٥٨٧٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٤٦/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨/٣) برقم (٥٨٧٩) وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣١٣/١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: إخبارٌ لمحمد ﷺ وأمه، والمعنى: لا يرشدهم في حججهم على ظلمهم، وظاهر اللفظ العموم، ومعناه الخصوص؛ لأن الله سبحانه قد يهدي بغض الظالمين بالتوبة والرجوع إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا...﴾ الآية: عطفت «أو» في هذه الآية على المعنى الذي هو التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾.

قال ابن عباس وغيره: الذي مرَّ على القرية هو عُزَيْرٌ، وقال^(١) / وهُب بن مُنْبِهٍ وغيره: هو أَرْمِيَا^(٢)، قال ابن إسحاق: أَرْمِيَا هو الْخَصِرُ^(٣)، وحكاه الثَّقَاش عن وهب بن منبّه.

وأختلف في القرية، ما هي؟ فقيل: الْمُؤْتَفِكَةُ، وقال زَيْدُ بن أسلم: قرية الذين خَرَجُوا مِنْ ديارهم، وهم أُلُوفٌ^(٤)، وقال وهب بن مُنْبِهٍ، وقتادة، والضَّحَّاك، والرَّبِيع، وعِكْرَمَةُ: هي بَيْتُ الْمَقْدِسِ^(٥)، لما خَرِبَهَا بُحْتُ نَصْرُ الْبَابِلِيِّ، والعَرِيشُ: سقف البيت، قال السُّدِّيُّ: يقول: هي ساقطةٌ عَلَى سَفْفِهَا، أي: سقطت السقف، ثم سقطت الحيطان عليها^(٦)، وقال غيره: معناه: خاوية من الناس، وخاوية: معناه: خالية؛ يقال: حَوَتْ الدَّارُ تَحْوِي خَوَاءً وَخَوِيًّا، ويقال: خويت، قال الطبري^(٧): والأول أَفْصَحُ، قال * ص *

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠/٣) برقم (٥٨٩١) وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٤٧/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣١٤/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٧/١)، وعزاه لابن جرير، وابن عساكر. (٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠/٣) برقم (٥٨٩٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٤٧/١)، والماوردي في «تفسيره» (٣٣١/١)، وابن كثير (٣١٤/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٩/١)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠/٣) برقم (٥٨٩١)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٣١/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤٧/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣١٤/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢/٣) برقم (٥٩٠٦)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٣١/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤٧/١)، وقد ذكروا هذا الأثر عن ابن زيد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣١/٣) بأرقام (٥٩٠٠)، (٥٩٠١)، (٥٩٠٣)، بأسانيد مختلفة، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٤٣/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٤٧/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٥٨٩). وعزاه لابن جرير.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣/٣) برقم (٥٩١٠). وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٤٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٩/١)، وعزاه لابن جرير.

(٧) ذكره الطبري (٣٢/٣).

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ في موضع الحال من فاعِلٍ «مَرَّ» أو من «قَرْيَةٍ» و ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: قيل: على بابِها، والمعنى: خاويةٌ من أهلها، ثابتةٌ على عروشها، والبيوت قائمةٌ، والمَجْرور على هذا يتعلّق بمحذوفٍ، وهو ثابتةٌ، وقيل: يتعلّق بـ «خَاوِيَةٍ» والمعنى: وقعتْ جُدُرَاتُهَا على سقوفها بعد سُقُوط السقوف. انتهى، وقد زدنا هذا المعنى وضوحاً في سورة الكهف، واللّه الموفق بفضله.

وقوله: ﴿أَتَىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهْ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القَرْيَةِ بعمارةٍ أو سُكَّانٍ، فكأنَّ هذا تلهُّفٌ من الواقِفِ المعتبر على مدينة أحبَّته، ويحتمل أن يكون سؤاله إنما كان عن إحياء الموتى، فضرب له المَثَل في نفسه، وحكى الطبري^(١) عن بعضهم؛ أنَّ هذا القول منه شك في قدرة الله على الإحياء؛ قال * ع^(٢) *: والصواب ألا يتأول في الآية شك، وروي في قصص هذه الآية؛ أنَّ بني إسرائيل، لما أحدثوا الأحداث، بعث الله عليهم بُخْتَ نَصَرَ، فقتلهم، وجلاهم من بيت المقدس، وخربه، فلما ذهب عنه، جاء عُزَيْرٌ أو أَرْمِيَا، فوقف على المدينة معتبراً، فقال: ﴿أَتَىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهْ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فأماته الله تعالى، وكان معه حمارٌ قد رَبَطَهُ بِحَبْلِ جَدِيدٍ، وكان معه سَلَةٌ فيها تَيْنٌ هو طعامه، وقيل: تَيْنٌ وَعِنَبٌ، وكانت معه رَكْوَةٌ^(٣) من خَمَرٍ، وقيل: من عصيرٍ، وقيل: قُلَّةٌ من ماءٍ هي شرابُه، وبقي مِئْأَةً مائة عامٍ، فروي أنه بَلِيَ، وتفرقت عظامه هو وحمارُه، وروي أنَّ الحمار بَلِيَ، وتفرقت أوصاله، دون عُزَيْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْهُ﴾: معناه: أحياه، فسأله الله تعالى بوساطة المَلَكِ، كَمْ لَبِثْتَ؛ على جهة التقرير، فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، قال ابن جرّيج، و قتادة، والربيع: أماته الله غدوة يَوْمٍ، ثم بعثه قُرْبَ الغروب، فظنَّ هو اليوم واحدًا، فقال: لَبِثْتُ يَوْمًا، ثم رأى بَقِيَّةَ من الشمس، فَخَشِيَ أن يكون كاذبًا، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فقيل له: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامًا﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْتَنْهَ﴾، أي: لم يتغيّر.

(١) ذكره الطبري (٣/٣٣).

(٢) ذكره ابن عطية (١/٣٤٨).

(٣) الرَكْوَةُ: إناء صغير من جلد يشرب فيه. والجمع رَكَوَات، وركاء. ينظر: «لسان العرب» (١٧٢٢).

(٤) أخرجه الطبري عن ابن جرّيج، قتادة، الربيع (٣/٣٨) بأرقام (٥٩١٥)، (٥٩١٦)، (٥٩١٧)،

(٥٩١٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٥٨٩)، وعزاه

لابن أبي حاتم عن قتادة.

* ت * : قال البخاري في «جامعه»: ﴿يَسَنَّهُ﴾: يتغير.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾، فقال وهب بن منبه وغيره: المعنى: أنظر إلى اتصال عظامه، وإحيائه جزءاً جزءاً^(١)، ويروى: أنه أحياء الله كذلك؛ حتى صار عظماً ملتئمة، ثم كساه لحماً، حتى كمل حماراً، ثم جاء ملك، فنفخ في أنفه الروح، فقام الحمار ينهق.

وروي عن الضحاك، ووهب بن منبه أيضاً؛ أنهما قالوا: بل قيل له: وأنظر إلى حمارك قائماً في مربطه، لم يصبه شيء مائة سنة، قالوا: وإنما العظام التي نَظَرَ إليها عظام نفسه، وأعمى الله العيون عنه، وعن حماره طول هذه المدة^(٢)، وكثر أهل القصص في ٦٦ ب صورة هذه التازلة كثيراً اختصرته، / لعدم صحته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، قال * ع *^(٣): وفي إِمَاتَتِهِ هذه المدة، ثم إحيائه - أعظم آية، وأمره كله آية للناس غابر الدهر.

* ت * : قال ابن هشام: لا يصح انتصاب «مائة» ب «أَمَاتُهُ»؛ لأن الإِمَاتَةَ سَلَبُ الحياة، وهي لا تمتد، وإنما الوجه أن يضمن «أَمَاتُهُ» معنى «أَلْبَتُهُ»، فكانه قيل: فألبته الله بالموت مائة عام؛ وحينئذ يتعلّق به الظرف. انتهى من «المُغْنِي».

ومعنى «تُنشِزُهَا»، أي: نُحْيِيهَا، وقرأ حمزة وغيره: «تُنشِزُهَا»^(٤) ومعناه: نرفعها، أي: ارتفاعاً قليلاً قليلاً؛ فكانه وَقَفَ عَلَى نَبَاتِ الْعِظَامِ الرُّقَاتِ، وقال الثَّقَاشُ: تُنشِزُهَا: معناه: تُنْشِئُهَا، ومن ذلك: نَسَزَ نَابُ الْبَعِيرِ.

(١) أخرجه الطبري بنحوه (٤٢/٣) برقم (٥٩٣٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٥٠/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢/٣) برقم (٥٩٣٩) بنحوه، عن وهب بن منبه، وبرقم (٥٩٣٩) عن الضحاك، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٥٠/١).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٥٠/١).

(٤) وحجتهم أن العظام إنما توصف بتأليفها وجمع بعضها إلى بعض؛ إذ كانت العظام نفسها لا توصف بالحياة، لا يقال: قد حيّ العظم. وإنما يوصف بالإحياء صاحبها.

وحجة أخرى، وهي قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ دل على أنها قبل أن يكسوها اللحم غير أحياء، فلما قال: ﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ علم بذلك أنه لم يحيها قبل أن يكسوها اللحم.

ينظر: «السبعة» (١٨٩)، و «الحجة للقراء السبعة» (٣٧٩/٢)، و «معاني القراءات» (٢٢٢/١)، و «إعراب القراءات» (٩٦/١)، و «العنوان» (٧٥)، و «حجة القراءات» (١٤٤)، و «شرح شعلة» (٢٩٥)، و «شرح الطيبة» (١١٨/٤)، و «إتحاف فضلاء البشر» (٤٤٩/١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ﴾: المعنى: قال هو: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وهذا عندي لَيْسَ بِإِقْرَارٍ بِمَا كَانَ قَبْلَ يُنْكِرُهُ؛ كما زعم الطبري^(١)، بل هو قولٌ بَعَثَهُ الاعتبار؛ كما يقول الإنسان المؤمن، إذا رأى شيئاً غريباً مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ونحو هذا.

وأما قراءة حمزة والكسائي^(٢): «قال أَعْلَمُ» موصولة الألف، ساكنة الميم، فتحتمل وجهين:

أحدهما: قال المَلَكُ له: أَعْلَمُ، وقد قرأ ابن مسعود، والأعمش^(٣): «قِيلَ أَعْلَمُ».

والوجه الثاني: أن يُنَزَلَ نفسه منزلة المُخَاطَبِ الأجنبي المُنفَصِلِ، أي: قال لنفسه: أَعْلَمُ، وأمثلة هذا كثيرة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَعَدْ أَزْوَاجًا مِّنَ الظُّلُمِ فَصَرَّهِنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَاهُنَّ وَيَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ...﴾ الآية: قال جمهور العلماء: إن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة، وأما قول النبي ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»^(٤) فمعناه: أن لو كَانَ شَكٌّ، لَكُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ، فإبراهيم - عليه

(١) ذكره الطبري (٤٧/٣).

(٢) ينظر: «السبعة» (١٨٩)، و«الحجة» (٣٨٣/٢)، و«حجة القراءات» (١٤٤)، و«معاني القراءات» (١/٢٢٣)، و«شرح شملة» (٢٩٦)، و«العنوان» (٧٥)، و«شرح الطيبة» (١١٨/٤)، و«إتحاف» (١/٤٤٩).

(٣) قراءة ابن مسعود ذكرها ابن زنجلة في «حجة القراءات» (ص ١٤٤) وابن خالويه في «مختصر الشواذ» (ص ٢٣)، والزمخشري في «الكشاف» (٣٠٨/١)، وقراءتهما معاً في «المحرر الوجيز» (٣٥١/١)، و«البحر المحيط» (٣٠٨/٢)، وقراءة الأعمش وحده في «الدر المصون» (٦٢٨/١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٣/٦)، كتاب «الأنبياء»، باب قوله: ﴿وَنَبِّهْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، حديث (٣٣٧٢)، و (٤٨١/٦) باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾، حديث (٣٣٨٧)، و (٤٩/٨)، كتاب «التفسير»، باب: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾، حديث (٤٥٣٧)، وباب تفسير سورة يوسف، حديث (٤٦٩٤)، و (٣٩٧/١٢)، كتاب «التعبير»، باب رؤيا أهل السجون، حديث (٦٩٩٢)، ومسلم (١٣٣/١)، كتاب «الإيمان»، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث (١٥١/٢٣٨)، وابن ماجة (١٣٣٥/٢)، كتاب «الفتن»، باب الصبر على البلاء، حديث (٤٠٢٦)، =

السلام - أَخْرَجُ الْأَيْشَكُ، فالحديث مَبْنِيٌّ عَلَى نَفْيِ الشُّكِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، والذي روي فيه عن النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «ذَلِكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ»^(١)؛ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخَوَاطِرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي لَا تَثْبُتُ، وَأَمَّا الشُّكُّ، فَهُوَ تَوَقُّفٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، لَا مَزِيَّةَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَنْفِيُّ عَنِ الْخَلِيلِ ﷺ.

وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم أعلم بذلك؛ يدلك على ذلك قوله: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، والشك يبعد على مَنْ ثبت قدمه في

= والطبري في تفسيره بأرقام (٥٩٧٣)، (٥٩٧٣)، (١٩٣٩٩)، (١٩٤٠٠)، وأحمد (٣٢٦/٢)، وابن حبان (٦٢٠٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٣٤/١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (٥٠٧)، وابن منده في «الإيمان» (٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١)، والبغوي في «شرح السنة» (١/١٢٣). بتحقيقنا). كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

قال البغوي في «شرح السنة» (١/١٢٤): حُكِيَ عَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ يَحْيَى الْمَزْنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَشْكِ النَّبِيُّ، وَلَا إِبْرَاهِيمَ (صلوات الله عليهما) فِي أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى، وَإِنَّمَا شُكًّا أَنْ يَجِيئَهُمَا إِلَى مَا سَالَاهُ، وَمَا يُؤَيِّدُ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْمَزْنِيُّ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك.

قال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشك عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا، ولم أرتب في قدرة الله (عز وجل) على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ولا يرتاب، وقال ذلك على سبيل التواضع، والهضم من النفس، وفيه الإعلام أن المسألة من قبل إبراهيم لم تعرض من جهة شك، لكن من قبل زيادة العلم؛ فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقوله: ﴿ليطمئن قلبي﴾، أي: ييقن النظر.

(١) أخرجه مسلم (١١٩/١): كتاب «الإيمان»، باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، حديث (١٣٣/٢١١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، كما في «تحفة الإشراف» (١٠٧/٧)، وأبو عوانة (٧٩/١)، وابن حبان (١٤٩- الإحسان)، وابن منده في «الإيمان» (٣٤٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/٢٥١)؛ والبغوي في «شرح السنة» (١/١٢٠). بتحقيقنا). كلهم من طريق إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود قال: سألنا رسول الله ﷺ عن الرجل يجد الشيء، لو خر من السماء فتخطفه الطير كان أحب إليه من أن يتكلم به؟ قال: ذلك محض، أو صريح الإيمان. اهـ.

وقال ابن حبان: إذا وجد المسلم في قلبه، أو خطر بباله من الأشياء التي لا يحل له النطق بها - من كيفية الباري جل وعلا، أو ما يشبه هذه، فرد ذلك على قلبه بالإيمان الصريح، وترك العزم على شيء منها - كان رده إياها من الإيمان، لا أن خطرات مثلها من الإيمان.

وقال البغوي: قال أبو سليمان الخطابي: قوله ﷺ: «ذلك صريح الإيمان» معناه أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقى الشيطان في أنفسكم، والتصديق به، وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله، فكيف يكون إيماناً صريحاً.

الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة، والأنبياء معصومون من الكبائر، ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً، وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر ألفاظ الآية، لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بـ «كَيْفَ»، إنما هو عن حال شيء موجود، ومتقرر الوجود عند السائل والمستؤل؛ نحو قولك: كَيْفَ عِلْمُ زَيْدٍ، وَكَيْفَ نَسْجُ الثَّوبِ؟ فـ «كَيْفَ» في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، ولما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء، يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك؛ أن الشيء في نفسه لا يصح؛ مثال ذلك: أن يقول مدّع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول المكذب: كَيْفَ ترفعه، فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها: تسليم جدلي؛ كأنه يقول: أقرض أنك ترفعه، أرني كَيْفَ، فلما كان في عبارة الخليل عليه السلام هذا الاشتراك المجازي، خلص الله سبحانه ذلك، وحمله على أن يبين الحقيقة، فقال له: ٦٧ ب ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَال بَلَى﴾ فكمل الأمر، وتخلص من كل شك، ثم علل - عليه السلام - سؤاله بالطمأنينة.

* ت * : قال الداودي: وعن ابن جُبَيْر: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بالخلة^(١)، قال مجاهد، والنخعي: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾، أي: أزداد إيماناً إلى إيماني^(٢)، وعن قتادة: لأزداد يقيناً^(٣). انتهى.

قال * ع *^(٤): وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ معناه: إيماناً مطلقاً دخل فيه فضل إحياء الموتى، والواو: واو حالٍ دخلت عليها ألفُ التقرير، وقال * ص * : الهمزة في ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ للتقرير؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ وكقوله [الوافر]:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا^(٥)

.....

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠/٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٥٢/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢/٣)، برقم (٥٩٨٤)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٣٤/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٥٣/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢/٣)، برقم (٥٩٧٩)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٣٤/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٥٣/١).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٥٣/١).

(٥) صدر بيت لجري، وعجزه

أي: قد شَرَحْنَا لك صدرك، وأنتم خير.

وقول ابن عطية^(١): «الواو للحال، دَخَلَتْ عليها أَلْفُ التقرير»: متعقَّب، والظاهر أنَّ التقرير منسحبٌ على الجملة المنفية فقط، وأن الواو للعطف. انتهى.

و﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾: معناه: ليسكنن، فطمأنينة القلب هي أن تسكن فكره في الشيء المعتقد، والفكر في صورة الإحياء غير محظورة؛ كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها، بل هي فكرٌ، فيها عِبَرٌ، فأراد الخليل: أن يعاين، فتذهب فكره في صورة الإحياء؛ إذ حرَّكه إلى ذلك، إما الدابة المأكولة في تأويل، وإما قول الثمروذ: أنا أخِي وأميث في تأويل آخر، وروي أن الأربعة التي أخذ إبراهيم - عليه السلام - هي الديك، والطاؤس، والحمام، والغراب، قاله مجاهد وغيره^(٢)، وقال ابن عباس: مكان الغراب الكركي، فروي أنه أخذها - عليه السلام - حسب ما أمر، ودكَّاهَا، ثم قَطَعَهَا قِطْعاً صِغَاراً، وجمع ذلك مع الدم والريش، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء، وأمسك رؤوس الطير في يده، ثم قال: تَعَالَيْنَ؛ بإذن الله، فتطايَّرت تلك الأجزاء، وطار الدم إلى الدم، والريش إلى الريش؛ حتى ألتأمت؛ كما كانت أولاً، وبقيت بلا رؤوس، ثم كرر النداء، فجاءته سعيّاً؛ حتى وضعت أجسادها في رؤوسها، وطارَتْ بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَصُرُّهُنَّ﴾، يقال: صُرْتُ الشيء، أصوره، بمعنى: قطعته، ويقال أيضاً: صُرْتُ الشيء، بمعنى: أملتُه، وقد تأوَّل المفسرون اللفظة بمعنى التقطيع، وبمعنى الإمالة، وقد قال ابن عباس وغيره في هذه الآية: «صُرُّهُنَّ»: معناه: قَطَّعُهُنَّ^(٣)، وقال

= وهو من قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان مطلعها:

أَتَضَحُّوْ بَلْ فَوَاذِكْ غَيْرُ صَاحٍ عَشِيَّةً هَمَّ صَخْبُكَ بِالرَّوَّاحِ

وهو في ديوانه (ص ٨٥، ٨٩)، و«الجنى الداني» (ص ٣٢)؛ و«شرح شواهد المغني» (١/٤٢)؛ و«لسان العرب» (٧/١٠١) (نقص)؛ و«مغني اللبيب» (١/١٧)؛ وبلا نسبة في «الخصائص» (٢/٤٦٣، ٢٦٩/٣)، و«وصف المباني» (ص ٤٦)، و«شرح المفصل» (٨/١٢٣)، و«المقتضب» (٣/٢٩٢).

واستشهد بمجيء همزة الاستفهام للإيجاب وتحقيق الكلام. والمعنى: أنتم خير من ركب المطايا.

- (١) ذكره ابن عطية (١/٣٥٣).
- (٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٥٣) برقم (٥٩٩١) عن مجاهد، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٣٤)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/٢٤٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٣٥٢).
- (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٥٦) برقم (٥٩٩٦) عن ابن عباس، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٣٤)، وابن عطية في «تفسيره» (١/٣٥٤).

قتادة: صُرْهُنَّ: فَصَلْنَهُنَّ^(١)، وقال عطاء بن أبي رباح^(٢): صُرْهُنَّ: أَصْمَمْنَهُنَّ^(٣)، وقال ابن زيد: معناه: أَجْمَعْنَهُنَّ^(٤)، وعن ابن عباس أيضاً: أَوْثَقْنَهُنَّ^(٥).

وقرأ قوم: «فَصُرْهُنَّ»؛ بضم الصاد، وشدّ الراء؛ كأنه يقول: فَشَدَّهِنَّ؛ ومنه: صُرَّةُ الدنانير.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً تَلَوْنَهَا يَلْوِي وَيَقْذِفُهَا إِلَى الْأَرْضِ فَتَكُونُ فَتَحْنًا أَوْ لِبَاسًا أَوْ تُحْمَلُ بِهَا أَوْ كَغَلْدٍ يُقْتَلُ أَوْ رَجُلٍ يُرْمَى فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ في الآية بيان شرف النفقة في سبيل الله، وتحسينها، وضمها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبيل الله كثيرة، وهي جميع ما هو طاعة، وعائد بمنفعة على المسلمين، وعلى الملة وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد؛ لتكون كلمة الله هي العليا، والحبّة: أسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم، وأشهر ذلك البر، وقد يوجد في سنبل القمح/ ما فيه مائة حبة، وأما في ٦٧ ب سائر الحبوب، فأكثر، وقد ورد القرآن؛ بأن الحسنه بعشر أمثالها؛ واقتضت الآية أن نفقة

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٥٤).

(٢) عطاء بن أبي رباح القرشي. مولا هم، أبو محمد الجندي، اليماني، نزيل «مكة» وأحد الفقهاء والأئمة. عن: عثمان، وعتاب بن أسيد مرسلًا، وعن أسامة بن زيد، وعائشة. وعنه: أيوب، وحبيب بن أبي ثابت، وجعفر بن محمد، وجريز بن حازم. قال ابن سعد: كان ثقة عالمًا كثير الحديث. وقال أبو حنيفة: ما لقيت أفضل من عطاء. مات سنة ١٣٦هـ.

ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (٢/٢٣٠).

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٣٤)، وابن عطية في «تفسيره» (١/٣٥٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٥٧) برقم (٦٠١٢) وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٣٥) عن أبي عبيدة، وابن عطية في «تفسيره» (١/٣٥٤).

(٥) ذكره السيوطي في «تفسيره» (١/٥٩٢)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس.

الجهاد حسنتها سَبْعِمِائَةَ ضَعْفٍ، وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ، وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّهُ يَضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فَقِيلَ: هِيَ مَبِينَةٌ، وَمُؤَكَّدَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ السَّبْعِمِائَةِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: بَلْ هُوَ إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ بِأَنَّهُ يَضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةَ ضَعْفٍ.

* ت * : وَأَرْجَحُ الْأَقْوَالَ عِنْدِي قَوْلُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَفْعَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ...» الْحَدِيثُ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ خَالٍ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ ^(١). انْتَهَى.

وقال ابن عمر: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَبِّ، زِدْ أُمَّتِي»، فَتَزَلَّتْ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [البقرة: ٢٤٥] الْآيَةُ، فَقَالَ: «رَبِّ، زِدْ أُمَّتِي»، فَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ...﴾ ^(٢) [الزمر: ١٠].

وَفِي الْآيَةِ حَذْفُ مِضَافٍ، تَقْدِيرُهُ مَثَلُ إِنْفَاقِ الَّذِينَ، وَكَمَثَلِ ذِي حَبَّةٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَثًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، لَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلُهَا ذِكْرُ فَضْلِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى الْعُمُومِ، بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ لَمْ يُتَّبَعْ إِنْفَاقُهُ مَثًّا وَلَا أَدَى، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنْفِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّمَا يَرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ، وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ مِنَ الْمُنْفِقِ عَلَيْهِ جَزَاءً بَوَاجِهِ مِنَ الْوَجْهِ، فَهَذَا لَمْ يَرِدْ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي مَتَى أَخْلَفَهُ ظَنُّهُ، مَنُّ بِالْإِنْفَاقِ وَأَدَى، إِذْ لَمْ يَكُنْ إِنْفَاقُهُ مُخْلِصًا لَوَجْهِ اللَّهِ، فَالْمَنْ وَالْأَدَى مُبْطَلَانِ لِلصَّدَقَةِ، وَهُمَا كَاشِفَانِ لِمَقَاصِدِ الْمُنْفِقِينَ، وَالْمَنْ: ذِكْرُ النِّعْمَةِ؛ عَلَى مَعْنَى التَّعْدِيدِ لَهَا، وَالتَّفْرِيعُ بِهَا، وَالْأَدَى: السَّبُّ وَالتَّشْكِي، وَهُوَ أَعْمُ مِنَ الْمَنْ، لِأَنَّ الْمَنْ جُزْءٌ مِنَ الْأَدَى، وَلَكِنَّهُ نَصٌّ عَلَيْهِ؛ لِكثَرَةِ وَقُوعِهِ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ: لَيْتَ ظَنَنْتَ أَنَّ سَلَامَكَ يَنْقُلُ عَلَى مَنْ أَنْفَقْتَ عَلَيْهِ، تَرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، فَلَا تَسَلِّمْ عَلَيْهِ ^(٣)، وَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ: «يَا أَبَا أُسَامَةَ، ذُلِّبْنِي عَلَى رَجُلٍ يَخْرُجُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣١/١١)، كِتَابُ «الرَّقَاقِ»، بَابُ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ، حَدِيثُ (٦٤٩١)، وَمُسْلِمٌ (١٣١)، كِتَابُ «الْإِيمَانِ»، بَابُ إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ، وَأَحْمَدُ (٣١٠/١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ (١٦٤٨-١٦٤٩ مَوَارِدُ) وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٣١٣/١)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ الْمُنْذَرِ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنِ مَرْدُوَيْهِ، وَابْنِ بَيْهَقٍ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ».

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٥٦/١).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقًّا؛ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَخْرُجُونَ؛ لِأَكْلُوا الْفَوَاكِهَ، فَإِنَّ عِنْدِي أَسْهُمًا وَجَعَبَةً^(١)، فَقَالَ لَهَا: لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي أَسْهُمِكَ وَجَعَبَتِكَ، فَقَدْ آذَيْتَهُمْ قَبْلَ أَنْ تُعْطِيَهُمْ.

وَتَضُمَّنُ اللَّهُ الْأَجْرَ لِلْمُنْفِقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْأَجْرُ: الْجَنَّةُ، وَنَفَى عَنْهُ الْخَوْفَ لِمَا يَسْتَقْبَلُ، وَالْحُزْنَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ دُنْيَاهُ؛ لِأَنَّهُ يَغْتَبِطُ بِأَخْرَجَتِهِ.

* ت * : وَمِمَّا جَاءَ مِنْ صَحِيحِ الْأَثَارِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ»، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ^(٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ/، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ ١٦٨ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(٣)، قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْتَمْهِيدِ»^(٤): فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَقْه: [وَالْفَضَائِلُ] الْحَضُّ عَلَى الْإِتِّفَاقِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ، وَمَعْنَى زَوْجَيْنِ، أَي: شَيْئَيْنِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ؛ نَحْوَ دَرَاهِمَيْنِ، أَوْ دِينَارَيْنِ، أَوْ فَرَسَيْنِ، أَوْ قَمِيصَيْنِ، هَكَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَفِيهِ: أَنَّ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ، عُرِفَ بِهِ، وَنُسِبَ إِلَيْهِ؛ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: «فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ»، يَرِيدُ: مَنْ أَكْثَرَ

(١) الْجَعَبَةُ: كِتَابَةُ الثُّنَابِ. يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (٦٣٠).

(٢) حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ الْمَدَنِيُّ. عَنْ أُمِّهِ أَمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عُقْبَةَ، وَخَالَهِ عُثْمَانُ، وَطَائِفَةٌ. وَعَنْهُ ابْنُهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَابْنُ أَخِيهِ سَعْدٌ، وَالزُّهْرِيُّ. وَثَقَّهُ أَبُو زُرْعَةَ وَقَالَ: مَاتَ سَنَةَ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ. يَنْظُرُ: «الْخُلَاصَةُ» (٢٥٩/١).

(٣) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (٤٦٩/٢)، كِتَابُ «الْجِهَادِ»، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْخَيْلِ وَالْمَسَابِقَةِ بَيْنَهَا، حَدِيثٌ (٤٩).

وَمِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٣/٤) كِتَابُ «الصَّيَامِ»، بَابُ الرِّيَّانِ لِلصَّائِمِينَ، حَدِيثٌ (١٨٩٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٦١٤/٥) كِتَابُ «الْمَنَاقِبِ»، بَابُ فِي مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، حَدِيثٌ (٣٦٧٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٤/١٦٨-١٦٩) كِتَابُ «الصَّوْمِ»، بَابُ ذِكْرِ الْاِخْتِلَافِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ فِي فَضْلِ الصَّائِمِ، وَفِي (٤٧/٦ - ٤٨) كِتَابُ «الْجِهَادِ»، بَابُ فَضْلِ النِّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٦٦)، وَمُسْلِمٌ (٧١٢/٢) كِتَابُ «الزَّكَاةِ»، بَابُ مِنْ جَمْعِ الصَّدَقَةِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ، حَدِيثٌ (١٠٢٧/٨٥)، وَالنَّسَائِيُّ (٩/٥) كِتَابُ «الزَّكَاةِ»، بَابُ وَجُوبِ الزَّكَاةِ. وَابْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ.

(٤) يَنْظُرُ: «الْتَمْهِيدُ» (١٨٤/٧).

منها، فُنُسِبَ إِلَيْهَا؛ لَأَن الْجَمِيعَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ؛ وَكَذَلِكَ: مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الْجِهَادِ، وَمِنْ الصِّيَامِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَالرَّيْأَنُ: فَغَلَّانَ مِنَ الرَّيِّ، وَمَعْنَى الدَّعَاءِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ: إِعْطَاؤُهُ ثَوَابَ الْعَامِلِينَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ، وَتَنِيلُهُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَفِيهِ: أَنَّ لِلْجَنَّةِ أَبْوَاباً، يَعْنِي: مُتَعَدِّدَةً بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ. انْتَهَى.

وروى ابن أبي شَيْبَةَ فِي «مُسْنَدِهِ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ لِكُلِّ أَهْلٍ عَمَلٍ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُدْعَوْنَ فِيهِ بِذَلِكَ الْعَمَلِ»^(١). هَذَا لَفْظُهُ عَلَى مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ «الْكَوْكَبِ الدَّرِيِّ». انْتَهَى.

قوله تعالى: «قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى»: هَذَا إِخْبَارٌ، جَزَمَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الْقَوْلَ الْمَعْرُوفَ؛ وَهُوَ الدَّعَاءُ وَالتَّائِسُ وَالتَّرَجُّعُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ - خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ، هِيَ فِي ظَاهِرِهَا صَدَقَةٌ، وَفِي بَاطِنِهَا لَا شَيْءَ؛ لَأَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ الْمَعْرُوفَ فِيهِ أَجْرٌ، وَهَذِهِ لَا أَجْرَ فِيهَا، وَالْمَغْفِرَةُ: السَّرُّ لِلْخَلَّةِ، وَسُوءُ حَالَةِ الْمُحْتَاجِ؛ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْأَعْرَابِيِّ، وَقَدْ سَأَلَ قَوْمًا بِكَلَامٍ فَصِيحٍ، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ غَفِرًا، سُوءَ الْاِكْتِسَابِ يَمْنَعُ مِنَ الْاِكْتِسَابِ».

وَقَالَ الثَّقَافُ يَقَالُ: مَعْنَاهُ: وَمَغْفِرَةٌ لِلْسَّائِلِ إِنْ أَغْلَظَ أَوْ جَفَا، إِذَا حُرِمَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِغَنَاءِ عَنْ صَدَقَةٍ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ، وَحُلْمِهِ عَمَّنْ يَقَعُ مِنْهُ هَذَا وَإِمَاهِلِهِ. وَحَدَّثَ [ابن] الْجَوَازِي^(٢) فِي «صَفْوَةِ الصَّفْوَةِ» بِسَنَدِهِ إِلَى حَارِثَةَ بْنِ الثُّعْمَانِ^(٣)

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السَّنَةِ» (٥٧٨/٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْجَوَازِيِّ، الْقُرَشِيُّ، الْبَغْدَادِيُّ، أَبُو الْفَرَجِ، عَلَامَةُ عَصَرِهِ فِي التَّارِيخِ وَالحَدِيثِ، كَثِيرُ التَّصَانِيفِ، مَوْلَدُهُ فِي ٥٠٨ هـ، لَهُ ثَلَاثُمِائَةٌ مُصَنَّفٌ مِنْهَا: «رُوحُ الْأَرْوَاحِ»، «الْأَذْكَاءُ وَأَخْبَارُهُمْ»، «النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ»، «تَبْلِيسُ إِبْلِيسَ»، «صَيْدُ الْخَاطِرِ»، «غَرِيبُ الْحَدِيثِ»، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ جَدًّا. تَوَفَّى فِي ٥٩٧ هـ.

يَنْظُرُ: «وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ» (٢٧٩/١)، «الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» (٢٨/١٣)، «مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ» (٢٠٧/١)، «ابْنُ الْوَرْدِيِّ» (١١٨/٢)، «آدَابُ اللُّغَةِ» (٩١/٣)، «دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ» (١٢٥/١)، «الْأَعْلَامُ» (٣/٣١٧)، «الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» (٢٨/١٣ - ٣٠)، وَ «الْعَبْرُ» (٢٩٧/٤ - ٢٩٨)، وَ «هَدْيَةُ الْعَارِفِينَ» (١/٥٢٠ - ٥٢٣).

(٣) حَارِثَةُ بْنُ الثُّعْمَانِ بْنِ نَفْعٍ بْنِ زَيْدٍ بْنِ عُبَيْدٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ غَنَمٍ بْنِ مَالِكٍ بْنِ التَّجَارِ الْأَنْصَارِيِّ. ذَكَرَهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ وَابْنُ سَعْدٍ فِيمَنْ شَهِدَ بَذْرًا، وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ إِلَّا أَنَّهُ سَمَّى جَدَّهُ رَافِعًا. وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: يَكْنَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ. وَكَانَ بَرًّا بِأَمَةٍ، وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرٍ عَنِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ أَوْ غَيْرِهِ؛ وَلَفْظُهُ: كَانَ أَبْرَأَ النَّاسِ بِأَمَةٍ. يَنْظُرُ: «الْإِصَابَةُ» (١/٧٠٧).

الصحابي - رضي الله عنه - قال، لَمَّا كُفَّ بصره، جعل خيطاً في مُصَلَّاهُ إِلَى بابِ حُجْرَتِهِ، ووضعه عنده مِكَتَلاً فِيهِ تَمَرٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَكَانَ إِذَا سَأَلَ الْمِسْكِينَ أَخَذَ مِنْ ذَلِكَ التَّمَرِ، ثُمَّ أَخَذَ مِنْ ذَلِكَ الْخَيْطِ؛ حَتَّى يَأْخُذَ إِلَى بابِ الْحُجْرَةِ، فَيَنَالُوهُ الْمِسْكِينَ، فَكَانَ أَهْلُهُ يَقُولُونَ: نَحْنُ نَكْفِيكَ، فيقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مُتَاوَلَةَ الْمِسْكِينَ تَقِي مِيتَةَ السُّوءِ» انتهى^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...﴾ الآية. العقيدة أَنَّ السَّيِّئَاتِ لَا تَبْطُلُ الْحَسَنَاتِ، فَقَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ الصَّدَقَةَ الَّتِي يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ صَاحِبِهَا أَنَّهُ يَمْنُ بِهَا أَوْ يُؤْذِي؛ فَإِنَّهَا لَا تُتَقَبَّلُ صَدَقَةً، وَقِيلَ: بَلْ يَجْعَلُ اللَّهُ لِلْمَلِكِ عَلَيْهَا أَمَارَةً، فَهُوَ لَا يَكْتُبُهَا، قَالَ * ع^(٢): * وَهَذَا حَسَنٌ؛ لِأَنَّ الْمَانَ الْمُؤْذِي لَمْ تَكُنْ نِيَّتُهُ خَالِصَةً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَمْ تَتَرْتَّبْ لَهُ صَدَقَةٌ، فَهَذَا هُوَ الْبَطْلَانُ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، وَهُمَا لَا يَبْطُلَانِ صَدَقَةً غَيْرَهَا سَالِمَةً النِّية.

ثم مثل الله سبحانه هذا الَّذِي يَمْنُ وَيُؤْذِي بِحَسَبِ مَقْدَمِهِ نِيَّتُهُ؛ بِالَّذِي يَنْفَقُ رِيَاءً، لَا لَوَجْهَ لِلَّهِ/، وَالرِّيَاءُ: مُصَدَّرٌ مِنْ «فَاعَلَ» مِنَ الرُّوْيَةِ: كَأَنَّ الرِّيَاءَ تَظَاهُرَ، وَتَفَاخُرَ بَيْنَ مَنْ لَا ٦٨ ب خَيْرَ فِيهِ مِنَ النَّاسِ.

قال المَهْدَوِيُّ: والتقدير: كإبطال الذي ينفق رياءً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يحتمل أَنْ يَرِيدَ الْكَافِرَ أَوْ الْمُنَافِقَ؛ إِذْ كُلُّ مَنْهُمَا يَنْفَقُ؛ لِيَقَالَ: جَوَادٌ، ثُمَّ مَثَلُ سُبْحَانِهِ هَذَا الْمُتَنَفِّقُ رِيَاءً بِصَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ، فَيُظَنُّهُ الظَّانُّ أَرْضاً مُنَبَّهَةً طَيِّبَةً؛ كَمَا يَظُنُّ قَوْمٌ أَنَّ صَدَقَةَ هَذَا الْمَرَاتِي لَهَا قَدَرٌ، أَوْ مَعْنَى، فَإِذَا أَصَابَ الصَّفْوَانَ وَابِلٌ مِنَ الْمَطَرِ، انْكَشَفَ ذَلِكَ التَّرَابُ، وَبَقِيَ صُلْدًا، فَكَذَلِكَ هَذَا الْمَرَاتِي، إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَضَرَتْ الْأَعْمَالُ، انْكَشَفَ سِرُّهُ، وَظَهَرَ أَنَّهُ لَا قَدْرَ لَصَدَقَاتِهِ، وَلَا مَعْنَى، وَالصَّفْوَانُ: الْحَجَرُ الْكَبِيرُ الْأَمْلَسُ، وَالْوَابِلُ: الْكَثِيرُ الْقَوِيُّ مِنَ الْمَطَرِ وَهُوَ الَّذِي يُسِيلُ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَالصُّلْدُ مِنَ الْحَجَارَةِ: الْأَمْلَسُ الصُّلْبُ الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ، وَيَسْتَعَارُ لِلرَّأْسِ الَّذِي لَا شَعْرَ فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْقِرُونَ﴾ يريد: الَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ رِيَاءً، أَيْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِتِّفَاعِ

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥٢/٢/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٥٧/١).

بشيء من إنفاقهم ذلك، وهو كسبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إما عموم يراد به الخصوص، ويحتمل لا يهديهم في كفرهم؛ إذ هو ضلال محض، ويحتمل: لا يهديهم في صدقاتهم، وأعمالهم، وهم على الكفر.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ مِّنْ رَّيَونَ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَلَّثَ أَكْطَلَهَا ضِغْفِيرٌ فَإِنْ لَّمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١٥﴾ أَيُّدُ أَعْدَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَمْ جَنَّةٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية: من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما يتقدم ذكره؛ ليتبين حال التضاد بعرضها على الذهن، ولما ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم، ونهى المؤمنين عن موافقة ما يشبه ذلك بوجه ما، عَقَّبَ في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين بذلوا صدقاتهم على وجهها في الشرع، فضرب لها مثلاً، وتقدير الكلام: ومثل نفقة الذين ينفقون كمثال غارس جنة، أو تقدّر الإضمار في آخر الكلام، دون إضمار في أوله؛ كأنه قال: كمثال غارس جنة - وابتغاء: معناه طلب، وهو مصدر في موضع الحال - وتثبیتاً: مصدر، ومَرْضَاة: مصدر من: رَضِيَ.

قال ص * : ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا﴾ كلاهما مفعول من أجله، وقاله مكِّي، وردّه ابن عطية^(١)؛ بأن ابتغاء: لا يكون مفعولاً من أجله، لعطف: «وَتَثْبِيتًا» عليه، ولا يصح في «تثبیت» أن يكون مفعولاً من أجله؛ لأنّ الإنفاق ليس من أجل التثبیت؛ وأجيب: بأنه يمكن أن يقدر مفعول التثبیت الثواب، أي: وتحصيلاً لأنفسهم الثواب على تلك النفقة؛ فيصح أن يكون مفعولاً من أجله، ثم قال أبو حيان^(٢)، بعد كلام: والمعنى أنهم يُثَبِّتُونَ من أنفسهم على الإيمان، وما يرجونه من الله تعالى بهذا العمل. انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (١/٣٥٨).

(٢) ذكره أبو حيان (٢/٣٢٣).

قال قتادة وغيره: ﴿وَتَثْبِتًا﴾: معناه: وتيقنًا، أي^(١): أن نفوسهم لها بصائر متأكدة، فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبِتًا، وقال مجاهد والحسن: معنى قوله: ﴿وَتَثْبِتًا﴾، أي: أنهم يتثبتون، أين يَضْعُونَ صَدَقَاتِهِمْ^(٢).
قال الحسن: كان الرجل، إذا همَّ تثبَّت؛ فإن كان ذلك لله أمضاه، وإن خالطه شيء أَمْسَكَ^(٣).

والقول الأول أصوب؛ لأن هذا المعنى الذي ذهب إليه مجاهد، والحسن إنما عبارته: «وَتَثْبِتًا»، فإن قال محتج: إن هذا من المصادر التي خُرِجَتْ عَلَى غير الصدر؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبَيُّلًا﴾ [المزمل: ٨] ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فالجواب: أن هذا لا يسوغ إلا مع ذكر الصدر، والإفصاح/ بالفعل المتقدم للمصدر، وأما إذا لم يقع إفصاح بفعل، فليس لك أن تأتي بمصدر في غير معناه، ثم تقول: أحمله على فعل كذا وكذا؛ لفعل لم يتقدم له ذكر، هذا مهيج كلام العرب فيما علمت.
والرَبْوَةُ: ما ارتفع من الأرض ارتفاعاً يسيراً معه في الأغلب كثافة التراب وطيبته وتعمقه، وما كان كذلك، فنباته أحسن.

ولفظ الرَبْوَةُ: مأخوذ من: رَبَا يَرْبُو، إذا زاد، وآت: معناه أعطت، والأَكْل: بضم الهمزة: الثمر الذي يُؤْكَل، والشيء المأكول من كُل شيء، يقال له: أكل، وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص؛ كَسَرَج الدَّابَّة، وباب الدار، وضِعْفَيْن: معناه اثْنَيْنِ مِمَّا يظن بها، ويُخَزَّر من مثلها.

ثم أكد سبحانه مدح هذه الربوة؛ بأنها إن لم يصنها وابل، فإن الطَّل يكفيها، وينوب مناب الوابل؛ وذلك لكرم الأرض، والطل: المستدق من القطر، قاله ابن عباس وغيره^(٤)، وهو مشهور اللغة، فشبه سبحانه ثَمَوَ نفقات هؤلاء الْمُخْلِصِينَ الذين يُرَبِّي الله صدقاتهم؛ كترية القُلُو^(٥).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٩/٣) برقم (٦٠٦٥) عن قتادة. وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٥٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٠/١) برقم (٦٠٦٩)، (٦٠٧٠)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٤٠)، وابن عطية في «تفسيره» (١/٣٥٩)، وابن كثير في «تفسيره» (١/٣١٩).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٥٩).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٦٠).

(٥) القُلُو والقُلُو والقُلُو: الجحش والمهر إذا فطم.

ينظر: «لسان العرب» (٣٤٦٩).

والفصيل^(١)؛ حسب الحديث بنمو نبات هذه الجنة بالرَبْوَةِ الموصوفة، وذلك كله بخلاف الصَّفْوَان، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: وعد ووعد.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...﴾ الآية: حكى الطبري^(٢) عن ابن زَيْد، أنه قرأ قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ...﴾ [البقرة: ٢٦٤] الآية: ثم قال: ضَرَبَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مَثَلًا؛ فقال: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ...﴾ الآية، وهذا بَيِّن، وهو مقتضى سياق الكلام^(٣)، وقال ابن عَبَّاس: هذا مَثَلٌ ضربه الله؛ كأنه قال: أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ يَعْمَلَ عَمْرَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ، فَإِذَا قَنِيَ عَمْرَهُ، وَأَقْتَرَبَ أَجْلَهُ، خَتَمَ ذَلِكَ بِعَمَلٍ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَرَضِيَ ذَلِكَ عَمْرُ مِنْهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤)، وروى ابنُ أَبِي مُلَيْكَةَ^(٥) عن عُمَرُ نحوه^(٦).

* ع^(٧): فهذا نظَرٌ يحمل الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها، وقال بنحو هذا مجاهدٌ وغيره^(٨)، ونقل الثَّعْلَبِيُّ عن الحَسَنِ، قال: قُلَّ وَاللَّهِ، مَنْ يَعْقِلُ هَذَا الْمَثَلَ شَيْخٌ كَبَر سِنُهُ، وَضَعُفَ جِسْمُهُ، وَكَثُرَ عِيَالُهُ، أَفْقَرُ مَا كَانَ إِلَى جَنَّتِهِ، وَأَحْدُكُمْ أَفْقَرُ مَا يَكُونُ إِلَى عَمَلِهِ، إِذَا أَنْقَطَعَتِ الدُّنْيَا عَنْهُ. انتهى، وهو حَسَنٌ جَدًّا.

(١) الفَصِيلُ: ولد الناقة إذا فُصِلَ عن أمه، والجمع فُضْلَانٌ، وَفُضَالٌ. ينظر: «لسان العرب» (٣٤٢٣).

(٢) أخرجه الطبري (٧٧/٣) برقم (٦١٠٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٧/١) برقم (٦١٠٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٣٨)، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٥/١) برقم (٦٠٩٣)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٥٣/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٦٠/١)، والسيوطي في «الدر» (٦٠٢/١)، وعزاه لابن المبارك في «الزهد»، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس.

(٥) عبد الله بن عَبِيدَةَ اللَّهِ بن زُهَيْرٍ، وهو أبو مُلَيْكَةَ بن عبد الله بن جُدْعَانَ بن عَمْرٍو بن كَعْبٍ بن سعد بن تَيْمٍ، التيمي، أبو بكر المكي. عن عائشة، وأم سلمة، وأسماء، وابن عباس. وأدرك ثلاثين من الصحابة (رضي الله عنهم). وعنه ابنه يحيى، وعطاء، وعمرو بن دينار. وثقه أبو حاتم وأبو زرعة. قال البخاري: مات سنة سبع عشرة ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (٧٦/٢)، و«تهذيب التهذيب» (٣٠٦/٥)، «تقريب التهذيب» (٤٣١/١)،

و«تهذيب الكمال» (٧٠٧/٢)، «الكاشف» (١٠٦/٢)، «طبقات ابن سعد» (٤٧٣).

(٦) ينظر الأثر السابق، و«المحرر الوجيز» (٣٦٠/١).

(٧) ذكره ابن عطية (٣٦٠/١).

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٥/٣) برقم (٦٠٩٢)، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦٠٣/١)،

وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

وقال أبو عبد الله اللُّخْمِيُّ في «مختصره» لتفسير الطبري: وعن قتادة: هذا مثل^(١)، فأعقلوا عن الله أمثاله؛ هذا رجلٌ كبرت سُنُّه، ورَقَّ عظمه، وكثُرَ عياله، ثم أحتَرَقَتْ جَنَّتُه، أخوَجَ ما يَكُونُ إليها، يقول: أَيْحُبُّ أَحَدَكُم أن يَضِلَّ عنه عمله يَوْمَ الْقِيَامَةِ أخوَجَ ما يَكُونُ إِلَيْهِ. وعن الحَسَنِ نحوه. انتهى.

وخصَّ الأعناب والتَّخِيلَ بالذكر، لشرفهما، وفضلهما على سائر الشَّجَرِ، والواو في قوله: ﴿وَأَصَابَهُ﴾ واو الحال؛ وكذلك في قوله: ﴿وَلَهُ﴾، وضعفاء: جمعٌ ضعيف، والأعصار: الريحُ الشديدةُ العاصفةُ التي فيها إحراقٌ لكلِّ ما مرَّت عليه يكونُ ذلك في شدة الحرِّ، ويكون في شدة البرد، وكلُّ ذلك من فيج جهنم.

و ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تَرْجُ في حقِّ البَشَرِ، أي: إذا تأمل من بُيِّن له هذا البيان رُجِيَ له التفكُّر، وكان أهلاً له، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: تتفكَّرون في زوال الدنيا، وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها^(٢).

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ الآية: هذا خطاب

لجميع أمة نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ/ وهذه صيغةُ أمرٍ بالإِنْفَاقِ، واختلف المتأولون، هل المرادُ بهذا ٦٩ ب الإِنْفَاقَ الزَّكَاةَ المفروضة، أو التطوُّع، والآية تعمُّ الوجهين، لكنَّ صاحبَ الزكاة يتلقاها على الوجوب، وصاحب التطوُّع يتلقاها على النَّدْبِ، وجمهورُ المتأولين قالوا: معنى ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾: من جيِّدٍ ومختارٍ ما كَسَبْتُمْ، وجعلوا الخبيثَ بمعنَى الرديء، وقال ابنُ زَيْدٍ: معناه: من حلالٍ ما كَسَبْتُمْ^(٣)، قال: وقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾، أي: الحرام^(٤).

* ع^(٥): وقول ابن زَيْدٍ ليس بالقوي من جهة نَسَقِ الآية، لا من معناه في نفسه.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٧/١) برقم (٦٠٩٨)، وذكره السيوطي في «تفسيره» (١/٦٠٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨٠/٣) برقم (٦١١٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٦١).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٦١).

(٤) ينظر السابق.

(٥) ذكره ابن عطية (١/٣٦١).

﴿كَسَبْتُمْ﴾: معناه: كانت لكم فيه سعاية، ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾: النباتات، والمعادن، والرُّكَّاز، وما ضارَّع ذلك، و ﴿تَيَمَّمُوا﴾: معناه: تعمدوا، وتقصّدوا، والتمسُّم: القصد، وقال الجُزْجَانِيُّ: قال فريقٌ من الناس: إنَّ الكلامَ تَمَّ في قوله: ﴿الْحَيِّثُ﴾، ثم ابتدأ خبراً آخر، فقال: تَنْفِقُونَ منه وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم، أي: ساهلُتم، قال * ع^(١): * كَأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى عَتَابٌ لِلنَّفْسِ وَتَقْرِيعٌ؛ وَعَلَى هَذَا، فَالضَّمِيرُ فِي ﴿مِنْهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى ﴿الْحَيِّثُ﴾.

قال الجُزْجَانِيُّ: وقال فريقٌ آخر: بل الكلامُ متَّصِلٌ إلى قوله: ﴿فِيهِ﴾؛ وعلى هذا، فالضمير في «مِنْهُ» عائِدٌ على: «مَا كَسَبْتُمْ»؛ كأنه في موضعٍ نصبٍ على الحال، والمعنى في الآية: فَلَا تَفْعَلُوا مَعَ اللَّهِ مَا لَا تَرْضَوْنَهُ لِأَنْفُسِكُمْ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَاتِكُمْ، فَمَنْ تَقَرَّبَ وَطَلَبَ مَثْوًى، فَلْيَفْعَلْ ذَلِكَ بِمَا لَهُ قَدَرٌ.

* ت * : وهذا يقوِّي القولَ بأنها في الزكاة المفروضة، و ﴿حَمِيدٌ﴾: معناه محمودٌ.

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ...﴾ الآية: هذه الآية وما بعدها - وإن لم تكن أمراً بالصدقة، فهي جالبةُ النفوس إلى الصدقة - بيِّن - عزٌّ وجلٌ - فيها نزغات الشيطان، ووسوسته، وعداوته، وذكرُ بثوابه هو سبحانه، لا ربَّ غيره، وذكرُ بتفضله بالحكمة، وأثنى عليها، ونبّه أنَّ أهلَ العقول هم المتذكِّرون الذين يقيمون بالحكمة قدرَ الإنفاق في طاعة الله، وغير ذلك، ثم ذكر سبحانه علمه بكلِّ نفقة ونذر، وفي ذلك غدٌّ ووعيدٌ، ثم بيَّن الحِكمَ في الإعلان والإخفاء؛ وكذلك إلى آخر المعنى.

والوعد؛ في كلام العرب، إذا أطلق، فهو في الخير، وإذا قيّد بالموعود، فقد يقيد بالخير، وقد يقيد بالشر؛ كالإشارة، وهذه الآية مما قيّد الوعدُ فيها بمكروه، والفحشاء: كلُّ ما فحش، وفحش ذكره، روى ابنُ مسعودٍ، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً^(٢) مِنْ ابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ، فَاِيعَادُ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ، فَاِيعَادُ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ قرأ ﷺ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ...﴾ الآية. قُلْتُ: هذا حديثٌ صحيحٌ خرَّجه أبو عيسى الترمذِيُّ، وقال

(١) ذكره ابن عطية (١/٣٦٢).

(٢) اللَّمَّةُ: الهمة والخطرة تقع في القلب. ينظر: «لسان العرب» (٤٠٧٩).

فيه: حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ^(١).

والمغفرة: هي السَّتر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل: هو الرزق في الدنيا، والتوسعة فيه، والتَّعْيِيمُ في الآخرة، وَبِكُلِّ قَدْ وَعَدَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، وروي، أَنَّ فِي التَّوْرَةِ: «عَبْدِي، أَنْفَقَ مِنْ رِزْقِي، أَبْسَطَ عَلَيْكَ فَضْلِي، فَإِنَّ يَدِي مَبْسُوطَةٌ عَلَى كُلِّ يَدٍ مَبْسُوطَةٌ»؛ وفي القرآن مصداقه، وهو: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ/ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. ١٧٠

* ت * : روى الطبراني سليمان بن أحمد^(٢)، بسنده عن عبد الله بن عمرو، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ حَتَّى يُشْبِعَهُ، وَسَقَاهُ مِنَ الْمَاءِ، حَتَّى يَزْوِيَهُ، بَعَّدَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ سَنَعٌ خَنَادِقَ مَا بَيْنَ كُلِّ خَنَادِقَيْنِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ»^(٣). انتهى.

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى غُزْيٍ، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضِرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ، سَقَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ» أخرجه أبو داود^(٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي خَالِدٍ، هُوَ الدَّلَالِيُّ^(٥)، عَنْ نُبَيْحٍ^(٦)،

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩/٥ - ٢٢٠)، كتاب «التفسير» باب سورة البقرة، حديث (٢٩٨٨)، وأبو يعلى (٤١٧/٨) رقم (٤٩٩٩)، وابن حبان (٤٠٠ - موارد)، والطبري (٨٨/٣) كلهم من طريق عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم، ولد بـ «عكا» سنة ٢٦٠هـ. من كبار المحدثين، أصله من «طبرية» الشام، وإليها نسبته، رحل إلى الحجاز، واليمن، ومصر، والعراق، وفارس، والجزيرة، وتوفي سنة ٣٦٠هـ بـ «أصبهان». له ثلاثة معاجم في الحديث، منها «المعجم الصغير» وله كتب في «التفسير»، و «الأوائل»، و «دلائل النبوة» وغير ذلك. ينظر: «وفيات الأعيان» (٢١٥/١)، و «النجوم الزاهرة» (٥٩/٤)، و «تهذيب ابن عساكر» (٢٤٠/٦)، و «الأعلام» (١٢١/٣).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٣/٣)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» بنحوه إلا أنه قال: من أطعم أخاه خبزاً، وفيه رجاء بن أبي عطاء، وهو ضعيف.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٦/١) كتاب «الزكاة»، باب في فضل سقي الماء، حديث (١٦٨٢) من طريق أبي خالد الدالاني عن نبیح عن أبي سعيد مرفوعاً.

(٥) أبو خالد الدالاني الكوفي، اسمه يزيد بن عبد الرحمن، عن عمرو بن مرة، والجنهال بن عمرو، وعنه الثوري، وشعبة، وثقه أبو حاتم، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن عدي: في حديثه لين مات سنة مائة. ينظر: «الخلاصة» (٢١٤/٣).



(٦) نبیح بن عبد الله، العنزي الكوفي، عن جابر، وابن عباس، وابن عمر، وعنه الأسود بن قيس وجماعة، وثقه أبو زرعة. ينظر: «الخلاصة» (١٠٤/٣).

وقد وثق أبو حاتم أبا خالد، وسئل أبو زرعة^(١) عن نبیح، فقال: هو كوفي ثقة. انتهى من «الإلمام في أحاديث الأحكام»؛ لابن دقيق العيد^(٢).

و ﴿واسع﴾: لأنه وسع كل شيء رحمةً وعلماً.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾: أي: يعطيها لمن يشاء من عباده، والحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في عمل أو قول، وكتاب الله حكمة، وسنة نبيه - عليه السلام - حكمة، وكل ما ذكره المتأولون فيها، فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس، قال الإمام الفخر في شرحه لأسماء الله الحسنى: قال المحققون: العلماء ثلاثة: علماء بأحكام الله فقط؛ وهم العلماء أصحاب الفتوى، وعلماء بالله فقط؛ وهم الحكماء، وعلماء بالقسمين؛ وهم الكبراء، فالقسم الأول كالسراج يحرق نفسه، ويضيء لغيره، والقسم الثاني حالهم أكمل من الأول؛ لأنه أشرق قلبه بمعرفة الله، وسره بنور جلال الله، إلا أنه كالكنز تحت التراب، لا يصل أثره إلى غيره، وأما القسم الثالث، فهم أشرف الأقسام، فهو كالشمس تضيء العالم؛ لأنه تام، وفوق التام. انتهى.

وباقى الآية تذكرة بيّنة، وإقامة لهمم العقلة - و ﴿الألباب﴾: العقول، واحداً لب.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٣)  ^(٣)  إن بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ

(١) عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن قروخ، المخزومي، مولاهم، أبو زرعة الرازي الحافظ، أحد الأعلام والأئمة. عن: أبي نعيم، وقبيصة، وخلائق، وعنه: مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. قال أحمد: ما جاوز الجسر أحفظ من أبي زرعة، قال إسحاق: كل حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل. وقال صالح بن محمد عنه: إنه قال: أحفظ عشرة آلاف حديث من القرآن. مات سنة أربع وستين ومائتين.

ينظر: «تهذيب الكمال» (٢/ ٨٨١)، و «تهذيب التهذيب» (٧/ ٣٠)، و «خلاصة تهذيب الكمال» (٢/ ١٩٥)، و «الكاشف» (٢/ ٢٣٠)، و «الجرح والتعديل» (١/ ٣٢٨)، و «سير الأعلام» (١٣/ ١٦٥).

(٢) محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري، تقي الدين ابن دقيق العيد، ولد سنة ٦٢٥هـ، تفقه على والده، ثم على ابن عبد السلام، وسمع الحديث من جماعة، قال ابن عبد السلام: ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها: ابن منير بالإسكندرية، وابن دقيق العيد بقوص. قال السبكي: ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة، وأنه أستاذ زمانه علماً وديناً. صنف «الإلمام» في الحديث، وله «شرح العمدة» أملاه إمامه، وله «الاقتراح في اختصار علوم ابن الصلاح» وهو مطبوع. مات سنة ٧٠٢. انظر: «طبقات ابن قاضي شهبة» (٢/ ٢٢٩)، و «طبقات الإسنوي» (ص ٣٣٦)، و «طبقات السبكي» (٢/ ٦).

عَنْكُمْ مِّن سَعْيِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

وقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر...﴾ الآية: يقال: نَذَرَ الرَّجُلُ كَذَا، إذا التزم فعله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾. قال مجاهد: معناه: يُخَصِّصُهُ، وفي الآية وغدٌ ووعيدٌ، أي: مَنْ كَانَ خَالِصَ النِّيَّةِ، فَهُوَ مَثَابٌ، وَمَنْ أَتَّفَقَ رِبَاءٌ أَوْ لَمَعْنَى آخَرَ مِمَّا يَكْشِفُهُ الْمَنُّ وَالْأَذَى، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهُوَ ظَالِمٌ يَذْهَبُ فَعْلُهُ بِاطِلَاءٍ، وَلَا يَجِدُ نَاصِرًا فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدَّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ...﴾ الآية: ذهب جمهورُ المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال: بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، يقال: بخمسة وعشرين ضعفاً، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها^(١).

* ع^(٢): ويقوي ذلك قول النبي ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ»^(٣)، وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياءٌ، والنوافل غرضة لذلك، قال الطبري^(٤): أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل.

وقوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: ثناء على إبداء الصدقة، ثم حكم أن الإخفاء خير من ذلك الإبداء، والتقدير: نغم شيءٌ إبداءها، فالإبداء هو المخصوص بالمدح؛ / وخرج أبو داود في «سننه»، عن أبي أمامة، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْتَطَلِقُ بِرَجُلٍ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبٌ: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالْفَرَضُ الْوَاحِدُ بِثَمَانِيَةِ عَشْرٍ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْقَرْضِ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ، وَالصَّدَقَةُ رِيَاءٌ وَضِعَتْ فِي غَنِيِّ، وَخَرَجَهُ ابْنُ مَاجَه فِي «سَنَنِ»، قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ^(٥)، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ^(٦)، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩٣/٣) برقم (٦١٩٥)، وذكره الماوردي في «النكت» (٣٤٥/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٦٥/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٢٣/١).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٦٥/١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره الطبري (٩٣/٣).

(٥) هشام بن خالد الأزرق، أبو مزوان الدمشقي. عن الوليد بن مسلم وجماعة. وعنه أبو داود وابن ماجه.

قال أبو حاتم: صدوق. قال عمرو بن دحيم: مات سنة تسع وأربعين ومائتين.

ينظر: «المخلاصة» (١١٣/٣).

(٦) خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، الهمداني، أبو هاشم الدمشقي، عن أبيه وأبيه رزق، وعنه =

اللَّهُ ﷻ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبٌ: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ، فَقُلْتُ لِجَبْرِيلَ: مَا بَالُ الْقَرْضِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: إِنَّ السَّائِلَ يَسْأَلُ وَعِنْدَهُ، وَالْمُسْتَقْرِضُ لَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ»^(١). انتهى من «التذكرة».

وقرأ ابن كثير وغيره: «وَنُكْفَرُ»؛ بالنون، ورفع الراء، وقرأ ابن عامر: «وَيُكْفَرُ»، بالياء، ورفع الراء، وقرأ نافع وغيره: «وَنُكْفَرُ»، بالنون، والجزم، فأما رفع الراء، فهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون الفعل خبر ابتداء، تقديره: ونحن نكفر، أو: واللّه يكفر.

والثاني: القطع، والاستئناف، والواو لعطف جملة على جملة، والجزم في الراء أفصح هذه القراءات؛ لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزاء، وكونه مشروطاً إن وقع الإخفاء، وأما رفع الراء، فليس فيه هذا المعنى، و«من» في قوله: «مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ» للتبعية المخض، لا أنها زائدة؛ كما زعم قوم، «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»: وعد ووعد.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِأَنْتَ بَعْدَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٧)
 لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْأَلُونَ صَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٧﴾

وقوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ...» الآية: وَرَدَتْ آثَارُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَنَعَ فُقَرَاءَ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ الصَّدَقَةِ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ مَبِيحَةً لَهُمْ، وذكر الطبري^(٢)؛ أَنَّ مَقْصِدَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْعِ

= أحمد بن أبي الخواريزي، وهاه ابن معين، وقال ابن حبان: صدوق، في حديثه مناكير، وقال النسائي: ليس بثقة، ووثقه أحمد بن صالح، وأبو زُرعة الدمشقي، مات سنة خمس وثمانين ومائة. ينظر: «الخلاصة» (٢٨٦/١).

(١) أخرجه ابن ماجه (٨١٢/٢): كتاب «الصدقات»، باب القرض، حديث (٢٤٣١).

قال البوصيري في «الزوائد» (٢٥٢/٢): هذا إسناد ضعيف؛ خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك، أبو هشام الهمداني الدمشقي، ضعفه أحمد، وابن معين، وأبو داود، والنسائي، وأبو زرعة، وابن الجارود، والساجي، والعقيلي، والدارقطني وغيرهم. ووثقه أحمد بن صالح المصري، وأبو زرعة الدمشقي. وقال ابن حبان: هو من فقهاء الشام، كان صدوقاً في الرواية ولكنه كان يخطئ كثيراً. وأبوه فقيه «دمشق» ومفتيهم.

(٢) ذكره الطبري (٩٤/٣ - ٩٥).

الصدقة، إنما كان لِيُسَلِّمُوا، وَلِيَدْخُلُوا فِي الدِّينِ، فقال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هَذَا هُمْ﴾، قال * ع^(١) * : وهذه الصدقة التي أبحث لهم حسباً تضمنته هذه الآثار، إنما هي صدقة التطوع، وأما المفروضة، فلا يجزىء دفعها لكافر، قال ابن المُنْذِر^(٢) : إجماعاً فيما عَلِمْتُ، وقول المَهْدَوِيِّ : إباحتها هذه الآية مردود، قال ابن العَرَبِيِّ^(٣) ، وإذا كان المسلم يترك أركان الإسلام من الصلاة، والصيام، فلا تُضْرَفُ إِلَيْهِ الصدقة؛ حتى يثوب، وسائر المعاصي تُضْرَفُ الصَّدَقَةُ إِلَى مَرْتَكِبِهَا؛ لدخولهم في أسم المسلمين. انتهى من «الإحكام»، ويعني بالصدقة المفروضة، والهدى الذي ليس على نَبِيِّنا ﷺ هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاء، فهو عَلَيْهِ ﷺ، وليس بمراد في هذه الآية.

ثم أخبر سبحانه؛ أنه يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وفي الآية ردُّ على القدرية وطوائف المعتزلة، ثم بين تعالى؛ أنَّ النفقة المقبولة ما كان ابتغاء وجه الله.

وفي الآية تأويل آخر، وهو أنها شهادة من الله تعالى للصحابية؛ أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجه الله سبحانه، فهو خير منه لهم فيه تفضيل، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾، أي: في الآخرة، وهذا هو بيان قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ﴾، والخير هنا: المال؛ بقرينة الإنفاق، ومتى لم يقترب بما يدل على أنه المال، فلا يلزم أن يكون بمعنى ١٧١ المال، وهذا الذي قلناه تحزناً من قول عكرمة: كُلُّ خَيْرٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فهو المال^(٤).

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَخْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية: التقدير: الإنفاق أو الصدقة للفقراء، قال مجاهد وغيره: المراد بهؤلاء الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم^(٥).

(١) ذكره ابن عطية (١/٣٦٧).

(٢) محمد بن إبراهيم بن المنذر، أبو بكر النيسابوري الفقيه، نزيل مكة أحد الأئمة الأعلام، ومن يفتدى بنقله في الحلال والحرام، صنف كتباً معتبرة عند أئمة الإسلام، منها «الإشراف في معرفة الخلاف»، و«الأوسط» وهو أصل الإشراف، والإجماع والإقناع والتفسير وغير ذلك وكان مجتهداً لا يقلد أحداً. ينظر: «طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة» (١/٩٨)، «طبقات الشافعية للسبكي» (٢/١٢٦)، «وفيات الأعيان» (٣/٣٤٤)، «شذرات الذهب» (٢/٢٨٠).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١/٢٣٨).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٦٨).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٩٦، ٦٢١٠) بنحوه، وابن عطية في «تفسيره» (١/٣٦٨) وابن كثير في «تفسيره» (١/٣٢٤).

* ع^(١): ثم تتناول الآية كُلَّ مَنْ دَخَلَ تَحْتَ صِفَةِ الْفَقْرِ غَايِرَ الدَّهْرِ، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ أَحْوَالِ أَوْلَئِكَ الْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ مَا يُوجِبُ الْحُنُوَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وَالْمَعْنَى: حُسِبُوا، وَمُنِعُوا، وَتَأَوَّلَ الطَّبْرِيُّ^(٢) فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ أَنَّهُمْ هُمْ حَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ بِرَبْقَةِ الدِّينِ، وَقَصْدُ الْجِهَادِ، وَخَوْفِ الْعَدُوِّ، إِذْ أَحَاطَ بِهِمُ الْكُفْرُ، فَصَارَ خَوْفُ الْعَدُوِّ عَذْرًا أُخْصِرُوا بِهِ.

* ع^(٣): كَأَنَّ هَذِهِ الْأَعْذَارَ أَحْصَرْتَهُمْ، فَالْعَدُوُّ وَكُلُّ مُحِيطٍ يَحْصِرُ، وَقَوْلُهُ: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ الْجِهَادَ، وَيَحْتَمِلُ الدَّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ: هُوَ التَّصَرُّفُ فِي التَّجَارَةِ، وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ؛ لَكُونَ الْبِلَادَ كُلَّهَا كُفْرًا مُطَبَقًا، وَهَذَا فِي صَدْرِ الْهَجْرَةِ، وَكَانُوا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مِنَ الْإِتْقَابِضِ، وَتَرْكِ الْمَسْأَلَةِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ بَحِثْ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ بِيَاظِنِ أَحْوَالِهِمْ أَغْنِيَاءَ.

* ت: وَأَعْلَمَ أَنَّ الْمَوَاسَاةَ وَاجِبَةً، وَقَدْ خَرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ، مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ، فَلْيَعْذُ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيَعْذُ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ؛ حَتَّى رُئِينَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ^(٤) أَنْتَهَى.

و ﴿التَّعَفُّفُ﴾: تَفَعُّلٌ، وَهُوَ بِنَاءٌ مِبَالِغَةٍ مِنْ: عَفَّ عَنْ الشَّيْءِ، إِذَا أَمْسَكَ عَنْهُ، وَتَنَزَّهَ عَنْ طَلْبِهِ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى فَسَرَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ.

* ت: مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ السَّادَةَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ غِنَى النَّفْسِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْمَالِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(٥) وَقَدْ صَحَّ

(١) ينظر: «المحرر» (٣٦٨/١).

(٢) ينظر: «الطبري» (٩٧/٣).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣٦٨/١).

(٤) أخرجه مسلم (١٣٥٤/٣) كتاب «اللقطة»، باب استحباب المواساة بفضول المال، حديث (١٧٢٨)، وأبو داود (٥٢٢/١) كتاب «الزكاة»، باب في حقوق المال، حديث (١٦٦٣)، وأحمد (٣٤/٣)، وأبو يعلى (٣٢٦/٢) رقم (١٠٦٤) كلهم من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري به.

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٦/١١)، كتاب «الرقاق»، باب الغنى غنى النفس، حديث (٦٤٤٦)، ومسلم (٢/٧٢٦) كتاب «الزكاة»، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، حديث (١٠٥١/١٢٠)، والترمذي (٥٠٦/٤).
(٥٠٧) كتاب «الزهد»، باب ما جاء أن الغنى غنى النفس، حديث (٢٣٧٣)، وابن ماجه (١٣٤٨٦/٢): =

عنه ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ، اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا» أخرجه مسلم، وغيره^(١)، وعندِي أن المراد بالآل هنا مَتَّبِعُوهُ ﷺ.

وفي سنن ابن ماجة، عن أنس، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ غَنِيٍّ، وَلَا فَاقِرٍ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ أُوتِيَ مِنَ الدُّنْيَا قُوتًا»^(٢)، وروى مسلم والترمذي عن أبي أمامة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تَبَذَّلَ الْفَضْلَ خَيْرَ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكَ شَرَّ لَكَ، وَلَا تُلَامَ عَلَى كَفَافٍ، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(٣)، قال أبو عيسى،

= كتاب «الزهد»، باب القناعة، حديث (٤١٣٧)، وأحمد (٢/٢٤٣)، وأبو يعلى (١١/١٣٣) رقم (٦٢٥٩)، وابن حبان (٦٧٩)، والبنوي «شرح السنة» (٧: ٢٨٩ - بتحقيقنا) كلهم من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث شاهد من حديث أنس: أخرجه أبو يعلى (٥/٤٠٤) رقم (٣٠٧٩) من طريق الخليل بن عمر العبدى، حدثني أبي عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٤٠): رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجال الطبراني رجال الصحيح.

(١) أخرجه البخاري (١١/٢٨٧) كتاب «الرقاق»، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، حديث (٦٤٦٠)، ومسلم (٢/٧٣٠)، كتاب «الزكاة»، باب في الكفاف والقناعة (١٢٦/١٠٥٥) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/١٣٨٧) كتاب «الزهد»، باب القناعة، حديث (٤١٤٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/٦٩) كلاهما من طريق أبي داود نفع عن أنس بن مالك مرفوعاً.

ونفع متروك؛ وكذبه ابن معين، وقد تقدمت ترجمته.

(٣) أخرجه مسلم (٩٧/١٠٣٦)، والترمذي (٤/٤٩٥) في الزهد، باب (٣٢) برقم (٢٣٤٣)، وأحمد (٥/٢٦٢)، والبيهقي (٤/١٨٢) عنه مرفوعاً: «يا آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الباب عن حكيم بن حزام، وأبي هريرة، وجابر بن عبد الله، وابن عمر..

فأما حديث حكيم فرواه البخاري (٣/٣٤٥) في الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٤٢٧)، ومسلم (٢/٧١٧) في الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد (٩٥/١٠٣٤)، والنسائي (٥/٦٩) في الزكاة، باب أي الصدقة أفضل؟ وأحمد (٣/٤٠٢ - ٤٣٤)، والدارمي (٢/٣١٠). والطبراني في «الكبير» (٣/٢١٢) (٣٠٨٣ - ٣٠٩١ - ٣٠٩٣ - ٣١٢٠). والبيهقي (٤/١٨٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٢٨ - ١٢٢٩) بلفظ «أفضل الصدقة عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

وأما حديث أبي هريرة فرواه البخاري في المصدر السابق (١٤٢٦، ١٤٢٨) و (٩/٤١٠) في النفقات، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال (٥٣٥٥، ٥٣٥٦) والنسائي (٥/٦٩)، وأبو داود (١/٥٢٥) في الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله (١٦٧٦)، والنسائي (٥/٦٩)، وأحمد (٢/٢٨٨، ٣٩٤)، (٢/ =

واللفظ له: هذا حديث حسن صحيح. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾: السِّيمَا؛ مقصورة: العلامة، واختلف المفسرون في تعيينها، فقال مجاهد: هي التَّخَشُّعُ والتَّوَضُّعُ^(١)، وقال الربيع، والسُّدِّي: هي جهد الحاجة، وَقَضْفُ الْفَقْرِ في وجوههم، وَقَلَّةُ النِّعْمَةِ^(٢)، وقال ابن زَيْد: هي رِثَّةُ الثِّيَابِ^(٣)، وقال قوم، وحكاه مَكِّي: هي أثر السجود^(٤)، قال * ع^(٥): * وهذا حسن، وذلك لأنهم كانوا متفرغين متوكِّلين، لا شُغْلُ لَهُمْ في الأغلب إِلَّا الصَّلَاةَ، فكان أَثَرُ السُّجُودِ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَالْإِلْحَافُ، وَالْإِلْحَاحُ بمعنى، قال * ع^(٦): * وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ معنيين / ١٧٢

أحدهما: نفى السؤال جملة، وهذا هو الذي عليه الجمهور؛ أنهم لا يسألون البتة.

والثاني: نفي الإلحاف فقط، أي: لا يظهر لهم سؤال، بل هو قليل وإجمال.

* ت * : وهذا الثاني بعيدٌ من ألفاظ الآية، فتأمل.

* ت * : وينبغي للفقير أن يتعقّف في فقره، ويكتفي بعلم ربّه، قال الشيخُ أَبْنُ أَبِي جَمْرَةَ: وقد قال أهلُ التوفيق: مَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْيَسِيرِ، فهو أَسِير. انتهى، وذكر

= ٤٠٢، ٤٣٤، ٤٧٦، ٤٨٠، ٥٢٤، ٥٢٧) والحميدي (١٠٥٨)، وابن خزيمة (٩٦/٤، ٩٧) برقم (٢٤٣٦، ٢٤٣٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٣٤، ١٢٣٢) وابن حبان (٣٣٥٢)، والدارقطني (٢٩٧/٣)، وابن الجارود في «المتقى» (٧٥١) بلفظ: «أفضل الصدقة ما تصدق به عن ظهر تعول...».

وأما حديث جابر فرواه أحمد (٣٣٠/٣)، وابن حبان (٨٢٦) مرفوعاً عنه: «أفضل الصدقة عن ظهر غنى... وأبدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

وأما حديث ابن عمر فرواه أحمد (٩٣-٩٤) عنه مرفوعاً «المسألة كدوح في وجه صاحبها يوم القيامة. فمن شاء فليستبق على وجهه، وأهون المسألة مسألة ذي الرحم تسأله في حاجته. وخير المسألة مسألة عن ظهر غنى. وأبدأ بمن تعول».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩٨/٣)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٤٦/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٦٩/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩٩/٣) برقم (٦٢٢٣)، (٦٢٢٤)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٦٩)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٦٩/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩٨/٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٦٩/١).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٦٨/١).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٩/١).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٩/١).

عبد الملك بن محمد بن أبي القاسم بن الكزدبوس^(١) في «الاكتفاء في أخبار الخلفاء»، قال: وتكلم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بتسع كلمات، ثلاث في المناجاة، وثلاث في الحكمة، وثلاث في الآداب؛ أما المناجاة، فقال: كَفَّانِي فُخْرًا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا، وَكَفَّانِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا، وَأَنْتَ كَمَا أَحِبُّ، فَأَجْعَلْنِي كَمَا تُحِبُّ، وَأَمَّا الْحِكْمَةُ، فَقَالَ: قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ، وَمَا هَلَكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ، وَالْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ، وَأَمَّا الْآدَابُ، فَقَالَ: أَسْتَعِزَّ عَمَّنْ شِئْتُ، فَأَنْتَ نَظِيرُهُ، وَتَفْضُلٌ عَلَيَّ مَنْ شِئْتُ، فَأَنْتَ أَمِيرُهُ، وَأَضْرَعُ إِلَى مَنْ شِئْتُ، فَأَنْتَ أَسِيرُهُ. انتهى.

ولما كانت السیما تدلُّ على حال صاحبها، ويعرف بها حاله، أقامها الله سبحانه مقام الإخبار عن حال صاحبها، فقال: «تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ»، وقد قال الشيخ العارف بالله صاحب «الكلم الفارقية والحكم الحقيقية»: كلُّ ما دلَّ على معنى، فقد أخبر عنه، ولو كان صامتاً، وأشار إليه، ولو كان ساكناً، لكنَّ حصول الفهم والمعرفة بحسب اعتبار المعنى، ونظر المتأمل المتدبِّر. انتهى.

قال * ع^(٢) *: وفي الآية تنبيه على سوء حالة من يسأل النَّاسَ إلحافاً، وقال: * ص *: وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا﴾، إِذَا نُفِي حُكْمٌ مِنْ مُحْكومٍ عَلَيْهِ بِقَيْدٍ، فالأكثر في لسانهم أنصراف النفي إلى ذلك القيد، فالمعنى على هذا: ثبوت سؤالهم، ونفي الإلحاح، ويجوز أن ينفي الحكم، فينتفي ذلك القيد، فينتفي السؤال والإلحاح، وله نظائر. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: وعد محض، أي: يعلمه، ويحصيه؛ ليجازي عليه، ويشيب.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٢) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

(١) عبد الملك بن قاسم بن الكزدبوس التوزري، أبو مروان: مؤرخ، نسبته إلى «توزر» بـ «تونس» صنف «الاكتفاء في أخبار الخلفاء».

ينظر: «الأعلام» (١٦١/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٩/١).

خَلِدُوا ۖ يَمَحُوكَ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٧﴾

وقوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار...﴾ الآية: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كانت له أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية^(١)، وقال قتادة: نزلت في المنفقين في سبيل الله من غير تبذير ولا تقتير، قال * ع^(٢): * والآية، وإن كانت نزلت في علي - رضي الله عنه - فمعناها يتناول كل من فعل فعله، وكل مشاء بصدقته في الظلم إلى مظنة الحاجة.

وقوله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا...﴾ الآية: ﴿الربا﴾: هو الزيادة، مأخوذ من: رَبَا يَرْبُو، إِذَا نَمَا، وزاد على ما كان، وغالبه: ما كانت العرب تفعله من قولها للغريم: «أَتَقْضِي، أَمْ تُرَبِّي»، فكان الغريم يزيد في عدد المال، ويصير الطالب عليه، ومن الربا بين التفاضل في النوع الواحد؛ وكذلك أكثر البيوع الممنوعة، إنما تجد منعها لمعنى زيادة؛ إما في عين مال، أو في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه، ومعنى الآية: الذين يكسبون الربا، ويفعلونه، وإنما قصد إلى لفظة الأكل؛ لأنها أقوى مقاصد الناس في المال، قال ابن عباس وغيره: معنى قوله سبحانه: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾، أي: من قبورهم في البعث يوم القيامة إلا كما/ يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس^(٣)، قالوا: كلهم يبعث كالمجنون؛ عقوبة له وتمقيتاً عند جميع المخشع؛ ويقوي هذا التأويل المجمع عليه أن في قراءة عبد الله بن مسعود: «لَا يَقُومُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ».

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ معناه: عند جميع المتأولين: في الكفار، وأنه قول بتكذيب الشريعة، والآية كلها في الكفار المربين، نزلت، ولهم قيل:

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٧١/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٢/١)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن عساكر من طريق عبد الوهاب بن معاهد عن أبيه عن ابن عباس به، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣٤٧/١)، والبغوي في «تفسيره» (٢٦٠/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧١/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠٢/١) برقم (٦٢٣٨)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٤٨/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٧٢/١) بنحوه.

﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾، ولا يقال ذلك لمؤمن عاصٍ، ولكن يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية، ثم جزم الله سبحانه الخبر في قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، قيل: هذا من عموم القرآن المخصّص، وقيل: من مُجْمَلِهِ الْمَبِينِ، قال جعفر بن محمد الصادق^(١): «وَحَرَّمَ اللَّهُ الرِّبَا؛ لِيَتَقَارَضَ النَّاسُ».

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾، أي: من الربا؛ لا تباعة عليه في الدنيا والآخرة، وهذا حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ سبحانه لِمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْكُفَّارِ، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَرْبَعُ تَأْوِيلَاتٍ:

أحدها: أَمْرُ الرِّبَا فِي إِمْرَارِ تَحْرِيمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

والثاني: أَمْرُ مَا سَلَفَ، أي: فِي الْعَفْوِ وَإِسْقَاطِ التَّبَعَةِ فِيهَا.

والثالث: أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى ذِي الرِّبَا؛ بِمَعْنَى: أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يَشْبِتَهُ عَلَى الْإِتِّهَاءِ أَوْ يَعِيدَهُ إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

والرابع: أَنَّ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْمُنْتَهَى، وَلَكِنْ بِمَعْنَى التَّائِسِ لَهُ، وَيَسْطُ أَمْلُهُ فِي الْخَيْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾، يعني: إِلَى فِعْلِ الرِّبَا، وَالْقَوْلُ؛ إِنَّمَا الْبَيْعُ الرِّبَا، وَالْخُلُودُ فِي حَقِّ الْكَافِرِ: خُلُودٌ تَأْبِيدٌ حَقِيقِي، وَإِنْ لَحِظْنَا الْآيَةَ فِي مُسْلِمٍ عَاصٍ، فَهُوَ خُلُودٌ مُسْتَعَارٌ عَلَى مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ.

وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾، ﴿يَمْحَقُ﴾: مَعْنَاهُ: يَنْقُصُ، وَيَذْهَبُ؛ وَمِنْهُ: مِحَاقُ الْقَمَرِ^(٢)، وَهُوَ انْتِقَاصُهُ، ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾: مَعْنَاهُ: يَنْمِيهَا، وَيَزِيدُ ثَوَابَهَا تَضَاعُفًا، تَقُولُ: رَبَّتِ الصَّدَقَةُ، وَأَرْبَاهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَرَبَّاهَا، وَذَلِكَ هُوَ التَّضْعِيفُ لِمَنْ يَشَاءُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ «إِنَّ صَدَقَةَ أَحَدِكُمْ لَتَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ تَعَالَى،

(١) جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو عبد الله، الإمام الصادق المدني، أحد الأعلام، عن أبيه وجده أبي أمه، القاسم بن محمد، وعنه خلق لا يحصون منهم ابنه موسى، وشُعْبَةُ، وَالسُّفْيَانَانِ، وَمَالِكٌ، قَالَ الشَّافِعِيُّ وَابْنُ مَعِينٍ، وَأَبُو حَاتِمٍ: ثِقَةٌ، مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَةً، عَنْ ثَمَانَ وَسِتِينَ سَنَةً. ينظر: «الخلاصة» (١٦٨/١ - ١٦٩).

(٢) الْمِحَاقُ وَالْمُحَاقُ: آخِرُ الشَّهْرِ إِذَا امْتَحَقَ الْهَالِكُ فَلَمْ يَر. ينظر: «لسان العرب» (٤١٤٧).

فَيُرَبِّهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ؛ حَتَّى تَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ اللُّقْمَةَ لَعَلَى قَدْرِ أَحَدٍ^(١).

قال * ع^(٢) : * وقد جعل الله سبحانه هذين الفعلين بعكس ما يظنه الحريص الجشع من بني آدم؛ إذ يظن الربا يغنيه، وهو في الحقيقة مُنْحَقٌ، ويظن الصدقة تُفْقِرُهُ، وهي في الحقيقة نماء في الدنيا والآخرة، وعن يزيد بن أبي حبيب^(٣)؛ أن أبا الخير^(٤) حدثه؛ أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أَمْرِيءٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ؛ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ» أَوْ قَالَ: «حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ»، قال يزيد: وكان أبو الخير لا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ لَا يَتَصَدَّقُ بِشَيْءٍ فِيهِ، وَلَوْ كَعَكَّةٍ أَوْ بَصْلَةٍ، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، يعني: البخاري ومسلم^(٥). انتهى من «الإمام في أحاديث الأحكام» لابن دقيق العيد.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦/١٣)، كتاب «التوحيد»، باب قول الله تعالى: ﴿تُجْرَبُونَ بِالْمَالِ وَالنَفْسِ وَالْأَرْوَاحِ﴾، حديث (٧٤٣٠)، ومسلم (٧٠٢/٢) كتاب «الزكاة»، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث (٦٣، ١٠١٤/٦٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٣/١).

(٣) يزيد بن أبي حبيب مولى شريك بن الطفيل الأزدي، أبو رجاء المصري، عالمها. عن عبد الله بن الحارث بن جزء، وأبي الخير الزني، وعطاء، وطائفة. وعنه يزيد بن أبي أنيسة. قال ابن سعد: ثقة يتشيع، مات سنة ثمان وسبعين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (١٦٧/٣)، «التهذيب» (٣١٨/١١).

(٤) مرثد بن عبد الله الجفيري، الزني، أبو الخير المصري الفقيه، عن عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر وطائفة. وعنه يزيد بن أبي حبيب، وجعفر بن ربيعة، وطائفة، قال سعيد بن عفير: مات سنة تسعين. ينظر: «الخلاصة» (١٧/٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٤٧/٤ - ١٤٨)، وأبو يعلى (٣٠٠/٣ - ٣٠١) رقم (١٧٦٦)، وابن خزيمة (٩٤/٤) رقم (٢٤٣١)، وابن حبان (٨١٧ - موارد)، والحاكم (٤١٦/١)، والبيهقي (١٧٧/٤) كتاب «الزكاة»، باب التحريض على الصدقة وإن قلت، وأبو نعيم في «الحلية» (١٨١/٨)، والبخاري في «شرح السنة» (٣/ ٤٠٢ - بتحقيقنا) كلهم من طريق ابن المبارك، وهو في «الزهد» له (ص ٢٢٧) رقم (٦٤٥) عن حرملة بن عمران عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس». وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة، ولو بصلّة.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه ابن خزيمة وابن حبان. وقال الهيثمي في «المجمع» (١١٣/٣): رواه أحمد، وأبو يعلى، والطبراني. ورجال أحمد ثقات. وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٢٨٢).

وقال المناوي في «الفيض» (١٣/٥): وقال - أي الذهبي - في «المهذب»: إسناده قوي.

قال الشيخ أَبُو أَبِي جَمْرَةَ: وَلَا يُلْهَمُ لِلصَّدَقَةِ إِلَّا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ سَابِقَةٌ خَيْرٌ. انتهى.

قال أبو عمر في «التمهيد»: وروى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَحْسَنَ عَبْدٌ الصَّدَقَةَ إِلَّا أَحْسَنَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ عَلَى بَيْنِهِ، وَكَانَ فِي ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وَحُفِظَ فِي يَوْمِ صَدَقَتِهِ مِنْ كُلِّ عَاهَةٍ وَآفَةٍ»^(١). انتهى.

وروى أبو داود في «سننه»، أَنَّ سَعْدَ بْنَ عِبَادَةَ^(٢)، قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ^(٣) مَاتَتْ، فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْمَاءُ، فَحَفَرَ بَثْرًا، وَقَالَ: هَذِهِ لَأُمِّ سَعْدٍ»^(٤).

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢٢٥/١): أخرجه ابن المبارك في «الزهد» عن ابن شهاب مرسلًا بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر، وضعفه.

(٢) هو: سعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة بن أَبِي خَزِيمَةَ، أَبُو ثَابِت، صحابي مشهور، وهو نقيب بني ساعدة، ذكره الواقدي والمدائني، وابن الكلبي فيمن شهد بدرًا، وكان سيدًا جوادًا. وله ولأهله في الجود أخبار حسنة. وكان صاحب راية الأنصار في المشاهد كلها. وكان غيورًا شديد الغيرة، وإياه أراد رسول الله بقوله: «إِنْ سَعْدًا لَغُيُورٍ، وَإِنِّي لِأَغِيرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهُ أَغِيرُ مِنَّا، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ تَوْتِيَ مُحَارِمَهُ...» الحديث. روى أبو داود من حديث قيس بن سعد قال: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة» توفي بـ «الشام» سنة (١١).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣٥٦/٢)، «الإصابة» (٨٠/٣)، «الثقات» (١٤٨/٣)، «الاستيعاب» (٥٩٤/٢)، «الطبقات الكبرى» (٧٩/٩)، «بقي بن مخلد» (١٢١)، «سير أعلام النبلاء» (٢٧٠/١)، «البداءة والنهاية» (٣٨٩/٣)، «تقريب التهذيب» (٢٨٨/١)، «تهذيب التهذيب» (٤٧٥/٣)، «تهذيب الكمال» (٤٧١/١)، «الاستبصار» (٢٥/٧)، «٩٣»، «التحفة اللطيفة» (١٣٠)، «صفة الصفوة» (١/٥٠٣)، «البرج والتعديل» (٣٨٢/٤)، «شذرات الذهب» (٢٨/١)، «أصحاب بدر» (٢٣٦)، «التاريخ الكبير» (٢٥/١)، «الوافي بالوفيات» (٢٠٣/١٥)، «تاريخ الإسلام» (٩٠/٣).

(٣) عمرة بنت مسعود بن قيس بن عمرو بن زيد مائة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجاد، والدة سعد بن عبادة. ماتت في حياة النبي ﷺ سنة خمس. قال ابن سعد: ماتت والنبي ﷺ في غزوة «دومة الجندل» في شهر ربيع الأول، فلما جاء النبي ﷺ المدينة أتى قبرها، فصلّى عليها. ينظر: «الإصابة» (٢٤٦/٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٦/١)، كتاب «الزكاة»، باب في فضل سقي الماء، حديث (١٦٨١) من طريق أبي إسحاق عن رجل عن سعد بن عبادة به.

وأخرجه أحمد (٢٨٤/٥)، والنسائي (٢٥٥/٦)، كتاب «الوصايا»، باب ذكر الاختلاف على سفيان، حديث (٣٦٦٦) من طريق شعبة عن قتادة عن الحسن عن سعد بن عبادة به نحوه.

وأخرجه النسائي (٢٥٤/٦)، كتاب «الوصايا»، باب ذكر الاختلاف على سفيان، حديث (٣٦٦٥)، وابن ماجه (١٢١٤/٢)، كتاب «الأدب»، باب فضل صدقة الماء، حديث (٣٦٨٤)، وابن خزيمة، رقم (٢٤٩٧) من طريق هشام الدستوائي عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن سعد بن عبادة قال: قلت: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء».

وأخرجه أبو داود (٥٢٦/١) كتاب «الزكاة»، باب في فضل سقي الماء، حديث (١٦٨٠) من طريق شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب والحسن عن سعد بن عبادة بنحوه.

١٧٣ وروى أبو داود في «سننه»، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ / كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عَزِيٍّ، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خَضِرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوعٍ، أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ، سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ»^(١). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ يقتضي الزجر للكفار المستحلين للربا، ووصف «الكفار» بـ «أثيم» إما مبالغة من حيث اختلف اللفظان، وإما ليذهب الاشتراك الذي في «كفار»؛ إذ قد يقع على الزارع الذي يستر الحب في الأرض، قاله ابن فورك^(٢).

ولما انقضت ذكر الكافرين، عقب سبحانه بذكر ضدهم؛ ليبين ما بين الحاليتين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية، وقد تقدم تفسير مثل هذه الألفاظ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٨١) فَإِنْ لَمْ تَقْعُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُؤُوسٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٨٢) وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٣) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٤﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا...﴾ الآية: سبب هذه الآية أنه لما افتتح النبي ﷺ مكة، قال في خطبته اليوم الثاني من الفتح: «ألا كلُّ ربا في الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا»^(٣).....

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٧٣/١).

(٣) قال صاحب «المصباح»: الربا: الفضل والزيادة، وهو مقصور على الأشهر، ويثنى فيقال: ربوان بالواو على الأصل، وقد يقال: ربّان على التخفيف، وينسب إليه على لفظه، فيقال: ربوي. قاله أبو عبيد وغيره.

وزاد المطرزي فقال: الفتح في النسبة خطأ.

وربما الشيء يزبو، إذا زاد ونما، وأربى الرجل (بالألف) دخل في الربا، وأربى على الخمسين، زاد عليها.

وفي «اللسان»: ربا الشيء يزبو زبوا ورباء: زاد ونما، وأربيته: نميته.

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَيُزَيِّدُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ومنه: أخذ الربا الحرام. وأزبى الرجل في الربا: يربي، وقد تكرر ذكره في الحديث. والأصل فيه الزيادة من: ربا المال، إذا زاد وارتفع، والاسم: الربا مقصور، وأربى الرجل على الخمسين ونحوها: زاد، وفي حديث الأنصار يوم «أحد»: «لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَتُزَيَّنَ عَلَيْهِمْ». أي: لتزيد ولنضاعف. وفي حديث الصدقة: «وَتَزْبُو فِي كَفٍّ»

الْعَبَّاسِ»^(١) فبدأ ﷺ بعمه، وأخصَّ الناس به، وهذه من سنن العَدْلِ للإمام أن يفيض العَدْل على نفسه وخاصته، فيستفيض في النَّاس، ثم رجع رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى المدينة، وأستعمل على مَكَّة عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ^(٢)، فلَمَّا أَسْتَنْزَلَ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ، أَشْرَطُوا شُرُوطًا، وكان في شروطهم: أَنْ كُلَّ رِبَا لَهْمَ عَلَى النَّاسِ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَهُ، وَكُلُّ رِبَا عَلَيْهِمْ، فَهُوَ مَوْضُوعٌ، فَيَرَوِي؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَّرَ لَهُمْ هَذِهِ، ثُمَّ رَدَّهَا اللَّهُ بِهِذِهِ الْآيَةِ؛ كَمَا رَدَّ

= الرُّحْمَنِ، حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجِبَلِ» وَرَبَّ السَّيْقِ وَنَحْوَهُ رُبُورًا: صَبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ فَانْتَفَخَ، وَقَوْلُهُ (عز وجل) فِي صِفَةِ الْأَرْضِ: «أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ» [الحج: ٥] قِيلَ: مَعْنَاهُ عَظُمَتْ وَانْتَفَخَتْ. وَقُرِئَ: «وَرِبَاتٌ»؛ فَمَنْ قَرَأَ: «وَرِبَتْ» فَهُوَ مِنْ رَبَا يَرْبُو، إِذَا زَادَ عَلَى أَيِّ الْجِهَاتِ زَادَ. وَمَنْ قَرَأَ: «وَرِبَاتٌ» بِالْهَمْزِ فَمَعْنَاهُ: ارْتَفَعَتْ، وَسَابَ فُلَانٌ فُلَانًا، فَأَرَبَى عَلَيْهِ فِي السَّبَابِ، إِذَا زَادَ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ (عز وجل): «فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً» [الحاقة: ١٠] أَي: أَخَذَهُ تَزِيدَ عَلَى الْأَخْذَاتِ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: أَي: زَائِدَةٌ، كَقَوْلِكَ: «أَرَبَيْتَ، إِذَا أَخَذْتَ أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَتْ». وَاصْطِلَاحًا:

عَرَفَهُ الْحَنْفِيَّةُ بِأَنَّهُ: فَضَّلَ مَالِي خَالٍ عَنْ عَوَضٍ، شُرْطَ لِأَحَدِ الْعَاقِدِينَ، فِي مَعَاوِضَةِ مَالٍ بِمَالٍ. وَعَرَفَهُ الشَّافِعِيَّةُ بِأَنَّهُ: عَقَّدَ عَلَى عَوَضٍ مَخْصُوصٍ، غَيْرَ مَعْلُومِ التَّمَاثُلِ فِي مَعْيَارِ حَالَةِ الْعَقْدِ، أَي: مَعَ تَأْخِيرٍ فِي الْبَدَلَيْنِ، أَوْ أَحَدَهُمَا. وَعَرَفَهُ الْمَالِكِيَّةُ بِأَنَّهُ: عَقَّدَ مَعَاوِضَةً عَلَى نَقْدٍ أَوْ طَعَامٍ مَخْصُوصٍ بِجَنْسِهِ، مَعَ التَّفَاضُلِ، أَوْ مَعَ التَّأْخِيرِ مَطْلَقًا.

وعرفه الحنابلة بأنه: الزِّيَادَةُ فِي أَشْيَاءٍ مَخْصُوصَةٍ.

وقد قَسَمَ الْفُقَهَاءُ الرِّبَا إِلَى قِسْمَيْنِ، وَزَادَ الشَّافِعِيَّةُ قِسْمًا ثَالِثًا:

١ - رَبَا الْفَضْلُ، وَهُوَ: الْبَيْعُ مَعَ زِيَادَةِ أَحَدِ الْعَوْضَيْنِ عَنِ الْآخَرِ.

٢ - رَبَا النَّسَاءُ، وَهُوَ: الْبَيْعُ لِأَجَلٍ، أَوْ تَأْخِيرِ أَحَدِ الْعَوْضَيْنِ عَنِ الْآخَرِ.

٣ - رَبَا الْيَدِ، وَهُوَ: الْبَيْعُ مَعَ تَأْخِيرِ قِبْضِهِمَا، أَوْ قِبْضِ أَحَدِهِمَا.

يَنْظُرُ: «الصَّحَاحُ» (٢٣٥٠/٦)، وَ«الْمَغْرِبُ» (١٨٢)، وَ«الْمَصْبَاحُ الْمُنِيرُ» (٣٣٣/١)، وَ«الْمَطْلَعُ» (٢٣٩).

وَيَنْظُرُ: «شرح فتح القدير» (٣/٧)، «تبين الحقائق شرح كنز الحقائق» (٨٥/٤)، «تحفة الفقهاء» للسمرقندي (٣١/٢)، «مغنى المحتاج» (٢١/٢)، «فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب» (١٦١/١)، «المغني» (١٢٢/٤)، «مجمع الأنهر» (٨٣/٢)، «كشاف القناع» (٢٥١/٣).

(١) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ فِي صِفَةِ حَجِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَخْرِيجُ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ آيَاتِ الْحَجِّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(٢) عَتَّابُ بْنُ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الْعَيْصِ الْأُمَوِيِّ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ. وَلِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ «مَكَّةَ» وَلَهُ عَشْرُونَ سَنَةً. وَعَنْهُ ابْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعَطَاءُ مَرَسَلًا؛ لِأَنَّهُ مَاتَ يَوْمَ مَاتَ الصَّدِيقُ. وَذَكَرَ الطَّبْرَانِيُّ أَنَّهُ عَمِلَ لِعَمْرٍ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ حَدِيثٌ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِلَى سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ. يَنْظُرُ: «الْخُلَاصَةُ» (٢٠٨/٢).

صَلَحَهُ لَكُفَّارٍ قُرَيْشٍ فِي رَدِّ النَّسَاءِ إِلَيْهِمْ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَذَكَرَ النَّقَّاشُ رَوَايَةً؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ فِي أَسْفَلِ الْكِتَابِ لِثَقِيفٍ: «لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ»، فَلَمَّا جَاءَتْ آجَالُ رِبَاهُ، بَعَثُوا إِلَى مَكَّةَ لِلْإِقْتِضَاءِ، وَكَانَتْ عَلَى بَنِي الْمُغِيرَةِ الْمَحْزُومِينَ، فَقَالَ بَنُو الْمُغِيرَةِ: لَا نُعْطِي شَيْئًا؛ فَإِنَّ الرِّبَا قَدْ وُضِعَ، وَرَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى عَتَّابِ بْنِ أَبِي سَيْدٍ بِمَكَّةَ، فَكُتِبَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ، وَكُتِبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَتَّابٍ، فَعَلِمَتْ بِهَا ثَقِيفٌ، فَكَفَّتْ: هَذَا سَبَبُ الْآيَةِ عَلَى اخْتِصَارٍ مِمَّا رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ^(١).

فَمَعْنَى الْآيَةِ: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَذَابِ اللَّهِ وَقَايَةً بِتَرْكِكُمْ مَا بَقِيَ لَكُمْ مِنْ رِبَاٍّ، وَصَفَحِكُمْ عَنْهُ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ تَعَالَى، إِنَّ لَمْ يَذَرُوا الرِّبَا بِحَرْبٍ مِنْهُ، وَمِنْ رَسُولِهِ، وَأُمَّتِهِ، وَالْحَرْبُ دَاعِيَةُ الْقَتْلِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذْ نَادَا﴾ قَالَ سَيِّئُونِهِ: آذَنْتُ: أَعْلَمْتُ.

* ت * : وهكذا فسرهُ البخاريُّ، فقال: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: فَآذَنْتُ، فَأَعْلَمُوا^(٢)، وَقَالَ * ع^(٣) * : هِيَ عِنْدِي مِنَ الْأَذَنِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ فَاسْتَيْقِنُوا بِحَرْبٍ^(٤).

ثُمَّ رَدَّاهُمْ سَبْحَانَهُ مَعَ التَّوْبَةِ إِلَى رَعُوسِ أَمْوَالِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: لَا تَظْلِمُوا فِي أَخْذِ الزَّائِدِ، وَلَا تَظْلِمُوا فِي أَنْ يَتَمَسَّكَ بِشَيْءٍ مِنْ رَعُوسِ أَمْوَالِكُمْ، وَيَحْتَمِلُ لَا تَظْلِمُونَ فِي مَظِلٍّ، لِأَنَّ مَظِلَّ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ؛ كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٥) - فَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَكُونُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٠٧/٣) بِرَقْم (٦٢٥٦)، (٦٢٥٧) عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ وَالسُّدِّيِّ، وَالْأَثَرُ ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٧٤/١)، وَالسُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٦٤٦/١)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْجٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ السُّدِّيِّ، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ.

(٢) يَنْظُرُ: صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٥٢/٨)، كِتَابُ «التَّفْسِيرِ»، بَابُ «فَإِذْ نَادَا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ»، حَدِيثُ (٤٥٤٢).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيرُ» (٣٧٥/١).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٨/١) بِرَقْم (٦٢٦٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٧٥/١)، وَالسُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٦٤٧/١)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْجٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٥) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ (٦٧٤/٢)، كِتَابُ «الْبَيْوعِ»، بَابُ جَامِعِ الدِّينِ وَالْحَوْلِ، حَدِيثُ (٨٤)، وَالْبُخَارِيُّ (٤/٤٦٤) كِتَابُ «الْحَوَالَةِ»، بَابُ هَلْ يَرْجِعُ فِي الْحَوَالَةِ، حَدِيثُ (٢٢٨٧)، وَمُسْلِمٌ (١١٩٧/٣)، كِتَابُ «الْمَسَاقَاةِ»، بَابُ تَحْرِيمِ مَظِلِّ الْغَنِيِّ، حَدِيثُ (١٥٦٤/٣٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٦٤٠/٣)، كِتَابُ «الْبَيْوعِ»، بَابُ فِي الْمَظِلِّ، حَدِيثُ (٣٣٤٥)، وَالنَّسَائِيُّ (٣١٧/٧)، كِتَابُ «الْبَيْوعِ»، بَابُ الْحَوَالَةِ. وَالتِّرْمِذِيُّ (٦٠٠/٣)، كِتَابُ «الْبَيْوعِ»، بَابُ مَظِلِّ الْغَنِيِّ ظَلَمَ، حَدِيثُ (١٣٠٨)، وَابْنُ مَاجَهَ (٨٠٣/٢) كِتَابُ =

القضاء، مع وضع الربا؛ وهكذا سنة الصلح، وهذا أشبه شيء بالصلح؛ ألا ترى أنَّ النبي ﷺ لما أشار على كعب بن مالك في دين ابن أبي حذرد بوضع الشطر، فقال كعب: نعم، فقال النبي ﷺ لِلْآخَرِ: «قُمْ، فَأَقْضِهِ»^(١)، فتلقى العلماء أمره بالقضاء سنة في المصالحات.

= «الصدقات»، باب الحوالة، حديث (٢٤٠٣)، والشافعي في «الأم» (٢٣٣/٣)، كتاب «الحوالة». وأحمد (٢٤٥/٢)، والدارمي (٢٦١/٢) كتاب «البيع»، باب في مطل الغني ظلم. والحميدي (٢/٤٤٧) رقم (١٠٣٢)، وأبو يعلى (١٧٢/١١ - ١٧٣) رقم (٦٢٨٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٨/٤)، والبيهقي (٧٠/٦) كتاب «الحوالة»، باب من أحيل على ملىء فليتبع، كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «مطل الغني ظلم، وإذا أحيل أحدكم على ملىء فليتبع».

وأخرجه البخاري (٧٥/٥) كتاب «الاستقراض»، باب مطل الغني ظلم، حديث (٢٤٠٠)، ومسلم (٣/١١٩٧)، كتاب «المساقاة»، باب تحريم مطل الغني. وأحمد (٣١٥/٢)، وعبد الرزاق (٣١٦/٨) رقم (١٥٣٥٥)، والبيهقي (٧٠/٦) كتاب «الحوالة»، باب من أحيل على ملىء فليتبع، كلهم من طريق معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم». لفظ البخاري هكذا مختصراً.

وأخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٣١/١) من طريق أبي قرة موسى بن طارق عن ابن جريج عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم». وقال الطبراني: لم يروه عن صالح إلا ابن جريج، تفرد به أبو قرة. قال السهمي في «سؤالاته للدارقطني» (٤٠٢): سألت أبا الحسن الدارقطني، قلت: أبو قرة موسى بن طارق لا يقول: «أخبرنا» أبداً، يقول: ذكر فلان. أيش العلة فيه؟ فقال: هو سماع له كله، وقد كان أصاب كتبه آفة فتورع فيه، فكان يقول: ذكر فلان. اهـ.

وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٩٤/٦) من طريق علي بن مسهر عن عاصم الأحول عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم». وفي الباب عن ابن عمر:

أخرجه الترمذي (٦٠٠/٣ - ٦٠١) كتاب «البيع»، باب ما جاء في مطل الغني أنه ظلم، حديث (١٣٠٩)، وابن ماجه (٨٠٣/٢) كتاب «الصدقات»، باب الحوالة، حديث (٢٤٠٤)، وأحمد (٧١/٢) من طريق هشيم: ثنا يونس بن عبيد عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم، وإذا أحلت على ملىء فاتبعه، ولا تبع بيعتين في واحدة».

والحديث ذكره الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٢٤٢/٢) مع أنه ليس على شرطه؛ فقد أخرجه الترمذي أيضاً، ولم ينفرد به ابن ماجه.

فقال: هذا إسناد رجاله ثقات غير أنه منقطع، قال أحمد بن حنبل: لم يسمع يونس بن عبيد من نافع شيئاً، إنما سمع من ابن نافع عن أبيه. وقال ابن معين وأبو حاتم: لم يسمع من نافع شيئاً.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧/١)، كتاب «الصلاة»، باب التقاضي والملازمة في المسجد، حديث (٤٥٧)، (٦٦٩/١)، كتاب «الصلاة»، باب رفع الصوت في المسجد، حديث (٤٧١)، ومسلم (٣/١١٩٢)، كتاب «المساقاة»، باب استحباب الوضع من الدين، حديث (٢٠، ٢١/١٥٥٨).

٧٣ ب

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ / فنظرة إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ حكم الله تعالى لأرباب الربا برؤوس أموالهم عند الواجدين للمال، ثم حكم في ذي العُسْرَةِ بالنَّظَرَةِ إلى حال اليُسْرِ، والعُسْر: ضيق الحال من جهة عدم المال، والنَّظَرَةُ التأخير.

* ت *: وفي «الصحيحين» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا، فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنْكَ، قَالَ: فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»^(١)، وفي «صحيح مسلم»: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»، وفي رواية: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وفي رواية: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ»^(٢). انتهى.

- (١) أخرجه البخاري (٣٦١/٤)، كتاب «اليوع»، باب من أنظر معسراً، حديث (٢٠٧٨)، ومسلم (٣/١١٩٦)، كتاب «المساقاة»، باب فضل إنظار المعسر، حديث (١٥٦٢/٣١) من حديث أبي هريرة.
- (٢) ورد من حديث أبي اليسر، وأبي هريرة، وأبي قتادة، وعثمان، وابن عباس، وكعب بن عجرة، وأسد بن زرارة.

* حديث أبي اليسر:

أخرجه أحمد (٤٢٧/٣)، والدارمي في «السنن» (٢٦١/٢)، كتاب «اليوع»، باب فيمن أنظر معسراً، ومسلم في «الصحيح» (٢٣٠٢/٤)، كتاب «الزهد» (٥٣)، باب حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر (١٨)، الحديث (٣٠٠٦/٧٤)، وابن ماجه «السنن» (٨٠٨/٢)، كتاب «الصدقات» (١٥)، باب إنظار المعسر. (١٤)، الحديث (٢٤١٩)، والحاكم في «المستدرک» (٢٨/٢ - ٢٩)، كتاب «اليوع»، باب من أنظر معسراً، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٨/٦)، كتاب «اليوع»، باب من عجل له أدنى من حقه، وأبو نعيم في «الحلية» (١٩/٢ - ٢٠) في ترجمة كعب بن عمرو أبي اليسر، رقم (١١٥) بلفظ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وهم، لإخراج مسلماً إياه.

* حديث أبي هريرة:

أخرجه الترمذي في «السنن» (٥٩٩/٣)، كتاب «اليوع» (١٢)، باب ما جاء في إنظار المعسر والرفق به (٦٧)، الحديث (١٣٠٦). والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٨١/١)، الحديث (٤٥٩) بلفظ: «من أنظر معسراً أو وضع له، أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله». قال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

* حديث أبي قتادة:

أخرجه أحمد (٣٠٠/٥)، والدارمي (٢٦١/٢ - ٢٦٢)، ومسلم (١١٩٦/٣) كتاب «المساقاة»، باب فضل إنظار المعسر، الحديث (١٥٦٣/٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٦/٦) في ترجمة حماد بن زيد، رقم (٣٧٣) بلفظ: «من نفس عن غريمه أو محاه عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة» لفظ أحمد والدارمي، وقال مسلم: «من سره أن ينجاه الله من كُرب يوم القيامة، فلينظر معسراً، أو ليضع عنه» وقال أبو نعيم: «من أنظر معسراً أو وهب له، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

* حديث عثمان:

وَالْمَيْسَرَةُ: مصدرٌ بمعنى اليسر، وارتفع: «ذُو عُسْرَةٍ» بـ «كان» التامة التي هي بمعنى: «وُجِدَ، وَحْدَتْ»، وارتفع قَوْلُهُ: «فَنَظَرَةٌ»؛ عَلَى خبر ابتداءٍ مقدَّر، تقديره فالواجبُ نَظَرَةٌ.

واختلف أهل العلم هل هذا الحُكْمُ بالنَّظَرَةِ إلى الميسرة واقفٌ عَلَى أهل الربا خاصَّةً، وهو قول ابن عباس، وشُرِّحَ^(١)، أو هو منسحبٌ عَلَى كُلِّ ذَيْنِ حلالٍ، وهو قول جمهور

= أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٧٣/١) بلفظ: «أَظَلَّ اللَّهُ عَبْدًا فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، أَنْظَرَ مَعْسِرًا أَوْ تَرَكَ لَغَارَمَ» وقال الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/٤): وفيه عباس بن الفضل، ونسب إلى الكذب.

* حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد في «المسند» (٣٢٧/١) عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا، وأوماً أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض: «من أنظر معسراً، أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم». وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٦/٤ - ١٣٧) وقال: رواه أحمد، وفيه عبد الله بن جعوبة السلمي، ولم أجد من ترجمه، وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

* حديث آخر لابن عباس:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٣٣٠) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً إلى ميسرته، أنظره الله بدبته إلى نوبته».

قال الهيثمي في «المجمع» (١٣٨/٤): رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط»، وفيه الحكم بن الجارود، ضعفه الأزدي. وشيخ الحاكم وشيخه لم أعرفهما.

* حديث كعب بن عجرة:

أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٠٩/١ - ٢١٠)، و «الكبير» (١٩/ رقم ٢١٤) «من أنظر معسراً أو يسر عليه، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٣٧/٤)، وقال: رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه عبيدة بن معتب، وهو متروك.

* حديث أسعد بن زرارة:

أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٩) بلفظ «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلييسر على معسر، أو ليضع عنه».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٣٧/٤)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» من طريق عاصم بن عبيد الله عن أسعد، وعاصم ضعيف، ولم يدرك أسعد بن زرارة.

(١) شُرِّحَ بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية الكندي، أبو أمية الكوفي، مخضرم، ولي لعمر «الكوفة» فقصى بها ستين سنة، وكان من جلة العلماء، وأدكى العالم عن علي وابن مسعود، وعنه الشَّعْبِي، وأبو وائل، وثقه ابن معين، قال الشعبي: كان أعلم الناس بالقضاء. وقال ابن حُصَيْن: اختصم إليه رجلان فحكم على أحدهما، فقال: قد علمت من حيث أتيت، فقال شريح: لعن الله الراشي والمرثي والكاذب، قال محمد بن نُمَيْر: مات سنة ثمانين على الأصح، عن مائة وعشر سنين وقيل: عشرين سنة.

ينظر: «الخلاصة» (٤٤٧/١).

العلماء^(١)؟

* ع^(٢) *: وما قاله ابن عباس إنما يترتب، إذا لم يكن فقر مُدَقِّع، وأما مع الفقر والعُذْمِ الصريح، فالْحُكْمُ هي النُّظَرَةُ ضرورةً.

* ت *: ولا يخالف ابن عباس في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾: نَدَبَ اللَّهُ بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المُعْسِرِ، وجعل ذلك خيراً من إنظاره، قاله جمهور العلماء.

وروى سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال: كان آخر ما نَزَلَ من القرآن آية الربا، وقَبِضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَفْسَرْهَا لَنَا، فَدَعَا الرَّبَا وَالرَّيْبَةَ^(٣).

وقال ابن عباس: آخر ما نزل آية الربا^(٤).

قال ع^(٥) *: ومعنى هذا عندي، أنها من آخر ما نَزَلَ؛ لأن جمهور النَّاسِ؛ ابنُ عباس، والسُّدِّيُّ، والضَّحَّاك، وابنُ جريج، وغيرهم، قالوا: آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، وَرُوِيَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَتَّقُوا﴾ نزلت قبل موت النبي ﷺ بِتِسْعِ لَيَالٍ، ثم لم ينزل بعدها شيء، وَرُوِيَ بثلاث ليالٍ، وروى أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَجْعَلُوهَا بَيْنَ آيَةِ الرَّبَا وَآيَةِ الدِّينِ»، وَحَكَى مَكِّي؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «جَاءَنِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: أَجْعَلْهَا عَلَى مِائَتَيْنِ وَتَمَانِينَ آيَةً مِنَ الْبَقَرَةِ»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية: وَغُظَّ لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَأُمِرَ بِإِخْصَ كُلِّ إِنْسَانٍ.

* ت *: حَدَّثَنِي مَنْ أَثَقَّ بِهِ؛ أَنَّهُ جَلَسَ عِنْدَ شَيْخٍ مِنَ الْأَفْضَالِ يُجَوِّدُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١٠/٣) برقم (٦٢٧٤) عن ابن عباس، وبرقم (٦٢٧٥) عن ابن سيرين، والأثر ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣٥٢/١) عن ابن عباس، وابن عطية (٣٧٧/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٠/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٧/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١٤/٣) (٦٣٠٥)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٥٣/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٧٧/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١٤/٣) برقم (٦٣٠٧).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٨/١).

(٦) ينظر: «تفسير القرطبي» (٣٧٤/٣).

فقرئت عليه هذه الآية، فبكى عندها، ثم بكى، إلى أن فاضت نفسه، ومال، فحرّكوه، فإذا هو ميت - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَنَفَعَ بِهِ، يَا هَذَا، مَنْ صَحَا عَقْلُهُ مِنْ سُكْرِ هَوَاهُ، وَجَهْلِهِ، أَخْتَرَقَ بِنَارِ النَّدَمِ وَالْخَجَلِ مِنْ مَهَابَةِ نَظَرِ رَبِّهِ، وَتَنَكَّرَتْ صُورَةُ حَالِهِ فِي عَيْنِهِ نَفُوسَ الْأَغْيَاءِ النَّجْهَالِ، غَافِلَةً عَنِ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ، وَلَا هَيْئَةَ عَنْ أَهْوَالِ الْمَعَادِ وَالْمَالِ، مَشْغُولَةً بِرَذَائِلِ الْأَفْعَالِ، وَفُضُولِ الْقَبِيلِ وَالْقَالَ، وَالْإِسْتِنْبَاطِ وَالْإِخْتِيَالِ؛ لِإِزْدِيَادِ الْأَمْوَالِ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا فِتْنَةٌ وَوَبَالٌ، وَطُولُ حِسَابٍ وَبَلَاءٌ وَبَلْبَالٌ^(١)، أَغْتَنِمُوا، يَا ذَوِي الْبَصَائِرِ نِعْمَةَ الْإِمْهَالِ، وَأَطْرَحُوا خَوَادِجَ الْأَمَانِي، وَكَوَادِبَ الْأَمَالِ، فَكَأَنَّ قَدْ فَجَأَتْكُمْ هَوَاجِمُ الْأَجَالِ. انتهى من ٧٤: «الْكَلِمِ الْفَارِقِيَّةِ، فِي الْحِكْمِ الْحَقِيقِيَّةِ».

و ﴿يَوْمًا﴾: نصب على المفعول، لا على الظرف، وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذّر منه هو يوم القيامة، والحساب والتوفية، وقال قوم: هو يوم الموت، والأول أصح، وهو يوم تنفطر لذكره القلوب، وفي هذه الآية نصّ على أن الشراب والعقاب متعلق بكسب الإنسان، وهذا ردّ على الجبرية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رِضْوَانُ مِنَ الشَّاهِدَةِ أَنْ تَكُنْ إحدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّاهِدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُرُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَعِيْلَكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...﴾ الآية.

قال ابن عباس: هذه الآية نزلت في السلم خاصة^(٢)،

(١) الْبَلْبَالُ: والبَلْبَلُ، والْبَلْبَلَةُ: شدة الهم والوسواس في الصدور وحديث النفس. ينظر: «لسان العرب» (٣٥١) (بلل).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١٦/٣) برقم (٦٣١٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره».

قال * ع^(١) : * معناه أَنَّ سَلَمَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَانَ سَبَبَ الْآيَةِ، ثُمَّ هِيَ تَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَدَائِنَاتِ؛ إِجْمَاعاً، وَوَصْفُهُ الْأَجَلَ بِ «مُسْمَى» - دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجَهَالََةَ لَا تَجُوزُ، وَقَالَ جَمَهُورُ الْعُلَمَاءِ: الْأَمْرُ بِالْكَتَبِ نَذْبٌ إِلَى حِفْظِ الْأَمْوَالِ، وَإِزَالَةِ الرَّيْبِ، وَإِذَا كَانَ الْغَرِيمُ تَقِيًّا، فَمَا يَضُرُّهُ الْكَتَبُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَالْكَتَبُ ثِقَافٌ فِي دِينِهِ وَحَاجَةٌ صَاحِبِ الْحَقِّ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ أَشْهَدْتُ، فَحَزَمْتُ، وَإِنْ أَتَمَنْتُ، فَفِي حِلٍّ وَسَعَةٍ.

* ع^(٢) : * وهذا هو القول الصحيح، ثم علم تعالى أَنَّهُ سَيَقَعُ الْإِثْمَانُ، فَقَالَ: إِنْ وَقَعَ ذَلِكَ، «فَلْيُؤَدَّ...» [البقرة: ٢٨٣] الْآيَةِ، فَهَذِهِ وَصِيَّةٌ لِلَّذِينَ عَلَيْهِمُ الدِّيُونُ.

واختلف في قوله تعالى: «وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ».

فقال عطاء، والشَّعْبِيُّ: وَاجِبٌ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ، إِذَا لَمْ يَوْجَدْ سِوَاهُ^(٣)، وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ وَاجِبٌ مَعَ الْفَرَاغِ^(٤).

وقوله: «بِالْعَدْلِ»: معناه: بِالْحَقِّ، ثُمَّ نَهَى اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ الْكَتَابَ عَنِ الْإِبَاءَةِ، وَحَكَى الْمَهْدُودِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ، وَالضُّحَّاكِ؛ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «وَلَا يَأْبُ» مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: «وَلَا يُضَارُّ» كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ، قَالَ^(٥) * ع^(٦) : * أَمَّا إِذَا أُمِكنَ الْكَتَابُ، فَلَيْسَ يَجِبُ الْكَتَبُ عَلَى مَعِينٍ، بَلْ لَهُ الْأَمْتِنَاعُ، إِلَّا إِذَا أَسْتَأْجَرَهُ، وَأَمَّا إِذَا عَدِمَ الْكَاتِبُ، فَيَتَوَجَّهُ وَجُوبُ النَّذْبِ حَيْثُ يُذِى عَلَى الْكَاتِبِ.

وقوله تعالى: «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ...» الْآيَةِ: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْإِمْلَالِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ، إِنَّمَا تَكُونُ بِحَسَبِ إِقْرَارِهِ، وَإِذَا كَتَبَتِ الْوُثِيقَةُ، وَأَقْرَبَهَا، فَهِيَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٧٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٧٩).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/١١٩) برقم (٦٣٣٩) عن عطاء، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٥٥)، وابن عطية في «تفسيره» (١/٣٧٩).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/١١٩) برقم (٦٣٤٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٦٥٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي، وذكره.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/١١٩) برقم (٦٣٤٠، ٦٣٤١)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٥٥) عن الضحاك، وذكره أيضاً ابن عطية في «تفسيره» (١/٣٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٦٥٥)، وعزاه لابن جرير عن الضحاك.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٧٩).

كإملاله، والْبَخْسُ: النقصُ بنوع من المخادعة، والمُدافعة، وهؤلاء الذين أُمِرُوا بالإملاال هم المالكون لأنفسهم، إِذَا حَضَرُوا.

ثم ذكر تعالى ثلاثة أنواع تقع نوازلهم في كل زمان، فقال: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾، والسفيه: الهلhel الرأي في المال، الذي لا يحسن الأخذ لنفسه ولا الإيعاء منها؛ مشبه بالثوب السفيه، وهو الخفيف النسج، والسفه: الخفة، وهذه الصفة في الشريعة لا تخلو من حجر أب، أو وصي ذلك هو وليه، ثم قال: ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾، والضعيف: هو المدخول في عقله، وهذا أيضاً قد يكون وليه أباً أو وصياً، والذي لا يستطيع أن يمل هو الصغير، ووليّه وصيه أو أبوه، والغائب عن موضع الإشهاد لمرض أو لغير ذلك من الأعذار، ووليّه وكيله، وأما الآخرس، فيسوغ أن يكون من الضعفاء، والأولى أنه ممن لا يستطيع.

وقوله: ﴿بِالْعَدْلِ﴾: معناه: بالحق، وقصد الصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ...﴾ الآية: الاستشهاد: طلب الشهادة/، وعبر ٧٤ ب ببناءً مبالغة في «شَهِيدَيْنِ»؛ دلالة على من قد شهد، وتكرّر ذلك منه؛ فكانه إشارة إلى العدالة، قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): والصحيح أن الأمر بالاستشهاد محمول على الندب. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾: نص في رفض الكفار، والصبيان، والنساء، وأما العبيد، فاللفظ يتناولهم.

واختلف العلماء فيهم، وقول مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وجمهور العلماء: أن شهادتهم لا تجوز، وغلبوا نقض الرق.

وأسم كان الضمير الذي في قوله: ﴿يَكُونَا﴾، والمعنى: في قول الجمهور: فإن لم يكن المستشهد رجلين، وقال قوم: بل المعنى: فإن لم يوجد رجلان.

ولا يجوز استشهاد المزأتين إلا مع عدم الرجال، قال * ع^(٢): * وهذا قول ضعيف؛ ولفظ الآية لا يعطيه، بل الظاهر منه قول الجمهور.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١/٢٥١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٨١).

وقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، أي: فليشهد أو فليكن رجُل وامرأتان.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: رفع في موضع الصفة؛ لقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وهذا الخطاب لجميع الناس، المتلبس بهذه القصة هم الحُكَّام، وهذا كثير في كتاب الله يعمُ الخطاب فيما يتلبس به البغض.

وفي قوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ﴾: دليل على أنَّ في الشهود من لا يُرضَى؛ فيجيء من ذلك، أنَّ الناس ليسوا بمحمولين على العدالة؛ حتى تثبت لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا...﴾ الآية: «أَنْ» مفعول من أجله، والشهادة لم تقع؛ لأنَّ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا، وإنما وقع إسهاد امرأتين؛ لأنَّ تُذَكَّرُ إِحْدَاهُمَا، إنَّ ضَلَّتْ الأخرى، قال سيوطي، وهذا كما تقول: أغدثت هذه الخشبة؛ أن يميل الحائط، فأدعمه.

* ع^(١): ولما كانت النفوس مستشرفة إلى معرفة أسباب الحوادث، قدم في هذه العبارة ذكر سبب الأمر المقصود إلى أن يخبر به، وهذا من أبرع الفصاحة؛ إذ لو قال لك رجل: أغدثت هذه الخشبة؛ أن أدعم بها هذا الحائط، لقال السامع: ولم تدعم حائطاً قائماً، فيجب ذكر السبب، فيقال: إذا مال، فجاء في كلامهم تقديم السبب أخصر من هذه المحاورة، قال أبو عبيد: ومعنى: ﴿تَضِلَّ﴾ تنسى^(٢).

* ع^(٣): والضلال عن الشهادة: إنما هو نسيان جزء منها، وذكر جزء، وبقى المرء بين ذلك حيران ضالاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا...﴾ الآية: قال قتادة وغيره: معنى الآية: إذا دُعُوا أَنْ يَشْهَدُوا^(٤)، وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية جمعت أمرين: لا تأب إذا دُعيت إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دُعيت إلى أدائها^(٥) وقاله ابن عباس^(٦)، وقال

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٢/١).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٨٣/١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٢/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٦/٣) برقم (٦٣٦٦) بنحوه، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٨٣/١)، والسيوطي في «الدر المشور» (٦٥٧/١) بنحوه، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري (١٢٧/٣) برقم (٦٣٦٩)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٥٧/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٨٣/١).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٧/٣) برقم (٦٣٧٠)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٥٧/١).

مجاهد: معنى الآية لا تأب، إذا دُعِيَتْ إلى أداء شهادة قد حَصَلَتْ عندك^(١)، وأُسند الثَّقَاشُ إلى النبي ﷺ؛ أنه فسر الآية بهذا.

* ت *: وهذا هو الحقيقة في الآية، وأما تسمية الشيء بما يؤول إليه، فمجاز، والشاهد حقيقة من حَصَلَتْ له الشهادة، قال مجاهد: فأما إذا دُعِيَتْ أولاً، فإن شئت؛ فأذهب، وإن شئت، فلا تذهب^(٢)، وقاله جماعة، قال * ع^(٣) *: والآية كما قال الحسنُ جمعت أمرين، والمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم، فإذا كانت الفُسْحَة لكثرة الشهود والأمن من تعطل الحق، فالمدعو مندوب، وإن خيف تَلَفُ الحق بتأخر الشاهد، وجب عليه القيام بها؛ سيمّا إن كانت محصّلة، ودُعِيَ لأدائها، فهذه آكد؛ لأنها قِلَادَة في العُنُق ١٧٥ وأمانة تقتضي الأداء.

* م *: ﴿ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ﴾، قال أبو البقاء: مفعول «يَأْب» محذوف، أي: ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إقامة الشهادة أو تحمّل الشهادة، «وإذا»: ظرف لـ «يَأْب»، ويحتمل أن يكون ظرفاً للمفعول المحذوف. اهـ.

و ﴿تَسَاءَلُوا﴾: معناه تَمَلَّؤُوا، وقَدِّم الصغير؛ اهتماماً به، و ﴿أَقْسَطُوا﴾: معناه أعدل، و ﴿أَقُومُوا﴾، أي: أشد إقامَةً، وقيل: أَقُومُ، من: قَامَ؛ بمعنى: أَعْتَدَلُ، و ﴿أَذْنَى﴾: معناه: أقرب، و ﴿تَرْتَابُوا﴾: معناه: تَشْكُوا.

قال ابن هشام: ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾: لا يصح تعلُّقه بـ «تَكْتُبُوهُ»؛ لأقتضائه استمرار الكتابة إلى أجل الدِّين، وإنما هو حال، أي: مستقراً في الدِّمَّة إلى أجله. اهـ من «المُغْنِي».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً...﴾ الآية: لما علم الله سبحانه مشقّة الكُثْب عليهم، نصّ على ترك ذلك، ورفّع الجُنَاح فيه، في كلِّ مبايعة بنقْد، وذلك في الأغلب، إنما هو في قليل كالطَّعام ونحوه، لا في كثير؛ كالأملاك ونحوها، وقال السُّدِّي، والضَّحَّاك: هذا فيما كان يداً بيد، تأخذ وتُعطي^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٧/٣) برقم (٦٣٧٥) بنحوه، وذكره الماوردي بنحوه في «تفسيره» (١/٣٥٧)، وابن عطية في «تفسيره» (٣٨٣/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٨/٣) برقم (٦٣٧٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٨٣/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٧/١) وعزاه لسفيان، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٣/١).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٢/٣) برقم (٦٣٩٧) عن السدي، وبرقم (٦٣٩٨) عن الضحَّاك، وذكره ابن عطية (٣٨٣/١).

وقوله تعالى: ﴿تَدِيرُوهَا﴾: يقتضي التقابضَ والبيئونةَ في المقبوض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، اختلف، هل ذلك على الوجوب، أو على الندب؟ والوجوب في ذلك قَلِيلٌ؛ أمَّا في الدقائق، فصعب شاقٌّ، وأما ما كَثُرَ، فربَّما يقصد التاجر الاستِثْلَافَ بترك الإِشهادِ إلى غير ذلك من المصالح، فلا يُشْهَدُ، ويدخل ذلك كله في الاتِّمّانِ، ويبقى الأمر في الإِشهاد نَدْبًا؛ لما فيه من المصلحة في الأغلب، وحكى المهدوي عن قوم؛ أنهم قالوا: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنَ...﴾ [البقرة: ٢٨٣] الآية: وذكره مكِّي عن أبي سعيد الخُدْري.

واختلف النَّاسُ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، أي: كأختلافهم في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، هل الفعلُ مسندٌ إلى الفاعل، فأصله: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾؛ بكسر الراء، وقيل: مسندٌ إلى المفعول الذي لم يسمَّ فاعله، فأصله: ﴿وَلَا يُضَارُّزُ﴾؛ بفتحها.

* ع^(١): * ووجوه المضارة لا تنحصر، وفكُّ الفعلِ هي لغةُ الحجاز، والإِدْغَامُ لغة تميم.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾؛ أي: وإنْ تَفْعَلُوا المضارةَ، وقوله: ﴿بِكُمْ﴾، أي: حالٌ بِكُمْ.

وباقِي الآية موعظةٌ وتهديدٌ، واللَّهُ المستعانُ لا ربَّ غيره، وقيل: معنى الآية الوعدُ؛ لأنَّ من اتَّقَى عِلْمَ الْخَيْرِ وَالْإِهْمَةِ.

* ت: * وفي «العتبية» مِنْ سَمَاعِ ابْنِ الْقَاسِمِ، قال: سَمِعْتُ مَالَكًا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَنَّهُ يُقَالُ: مَا زَهْدَ عَبْدٌ، وَاتَّقَى اللَّهَ إِلَّا أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْحِكْمَةِ. اهـ.

والمراد بهذا العلمُ العلمُ النَّافِعُ الَّذِي يُورِثُ الْخَشْيَةَ؛ قال أبو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: رَوَيْنَا عَنْ مَسْرُوقٍ، قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وكفى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بعلمه»، أبو عمر: إنما أعرفه بعَمَلِهِ. اهـ من كتاب «فضل العلم».

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَيْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ ﴿٢٨٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ...﴾ الآية: لما ذكر الله تعالى النذْبَ إلى الإِشهاد، والكتب؛ لمصلحة حفظ الأموال والأديان - عَقِبَ ذلك بذِكر حال الأعذار المانعة من الكتب، وجعل بدلها الرهن، ونصَّ على السفر؛ إذ هو الغالب من الأعذار، ويدخل في ذلك بالمعنى كلُّ عذر. /

٧٥ ب

قال ع^(١) * : رَهْنُ الشَّيْءِ؛ في كلام العرب معناه: دَامَ، وأَسْتَمَرَّ، قيل: ولما كان الرهنُ بمعنى الثبوت، والدوام^(٢)، فَمِنْ ثَمَّ بَطَلَ الرهنُ؛ عند الفقهاء: إذا خرج مِنْ يد

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٨٦).

(٢) الرهن يطلق لَعَةً على العين المرهونة.

قال ابن سيده: الرهن ما وضع عند الإنسان مما ينوب مَتَابَ ما أخذ منه يقال: رَهَنْتُ فلاناً رهناً، وارتهنته إذا أخذته رهناً، والرهينة (واحدة الرهائن): الرهن. والهاء للمبالغة كالشئمة والشتم، ثم استعمالاً في معنى المرهون، فقيل: هو رهن بكذا، أو رهينة بكذا. وفي الحديث: «كُلُّ غَلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيَّتِهِ».

ومعناه: أن العقيدة لازمة له لا بد منها، فشبَّهه في لزومها، وعدم انفكاكه منها بالرهن في يد المُرْتَهِن. قال الحَطَّاي: تكلم الناس في هذا، وأجود ما قيل فيه ما ذهب إليه أحمد بن حنبل، قال: هذا في الشفاعة، يريد أنه إذا لم يَغُثَّ عنه، فمات طفلاً لم يشفع في والديه، أي: أن كل غلام محبوس، ومرهون عن الشفاعة بسبب ترك العقيدة عنه.

وقيل: معناه أنه مرهون بأذى شَعْرِهِ، واستدلوا بقوله: «فَأَمِيطُوا عَنْهُ الْأَذَى» وهو ما عَلِقَ به من دم الرِّجَم. وَرَهْنَةُ الشَّيْءِ يرهنه رَهْنًا، وَرَهْنَتُهُ عنده، كلاهما، جعله عنده رهناً، وَرَهْنَتُهُ عنه جعله رهناً بدلاً منه.

قال الشاعر: [الكامل]

أَزْهَنْ بُنَيْكَ عَنْهُمْ وَأَزْهَنْ بُنَيْ

أَي: أَزْهَنْ أَنَا بُنَيْ كَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ.

ويطلق على الدوام والجس.

قال ابن عرفة: الرهن في كلام العرب هو الشيء الملزم، يقال: هذا رهن لك، أي: دائم محبوس عليك، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ و ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينًا﴾ أي: محتبس بعمله، ورهينة محبوسة بكنسها.

وحديث: «نفس المؤمن مرهونة بذنبيه حتى يقضى عنه» أي محبوسة عن مقامها الكريم.

قال الشاعر: [البسيط]

وَقَارَظْتُكَ بِرَهْنٍ لَا فِكَكَ لَهْ يَوْمَ الْوَدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلَقَا =

المرتَّهِنُ إلى يدِ الرَّاهِنِ؛ لَأَنَّهُ فَارَقَ مَا جُعِلَ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾: هي بينونة المرتَّهِنِ بالرَّهْنِ.

وأجمع الناس على صَحَّةِ قَبْضِ المرتَّهِنِ؛ وكذلك على قبض وكيله؛ فيما علمت.

واختلفوا في قَبْضِ عدل^(١) يوضَعُ الرُّهْنُ على يَدَيْهِ.

= شبه لُزُومَ قلبه لها، واحتباسه عندها لشدة وَجْدِهِ بِهَا، بالرهن الذي يلزمه المرتَّهِنُ، فيبقى عنده، ولا يفارقه، وكل شيء ثبت ودَامَ فقد رهن، ورهن لك الشيء أقام ودام، وطعام رهن مقيم. وأنشد الأعشى يصف قوماً يشربون خمرأ لا تنقطع: [البسيط]
لَا يَسْتَفِيضُونَ مِنْهَا وَهِيَ رَاهِنَةٌ إِلَّا بِهَاتِ وَإِنْ عَلُوا وَإِنْ نَهَلُوا
ورهن الشيء رهناً: دام وثبت، وراهنة في البيت ثابتة، ورهين والرهن اسمان.
ينظر: «لسان العرب» (٣/١٧٥٧ - ١٧٥٨)، «المصباح المنير» (١/٣٣٠)، «الصحاح» (٥/٢١٢٨)، «المغرب» (١/٣٥٦).
واصطلاحاً:

عرفه الحنفية بأنه: جعل الشيء محبوساً بحق يمكن استيفاؤه من الرهن كالدين.

وعرفه الشافعية بأنه: جعل عين مال متمولة وثيقة بدين ليستوفى منها عند تعذر وفائه.

وعرفه المالكية بأنه: مال قبضه توثقاً به في دين.

وعرفه الحنابلة بأنه: المال الذي يجعل وثيقة بالدين ليستوفى من ثمنه إن تعذر استيفاؤه من ذمة الغريم.
يُنظر: «تكملة فتح القدير» (١٠/١٣٥)، «مجمع الأنهر» (٢/٥٨٤)، «حاشية الشرقاوي على شرح التحرير» (٢/١٠٩)، «مغني المحتاج» (٢/١٢١)، «حاشية الدسوقي» (٣/٢٣١)، «أسهل المدارك» (٢/٢٦٦)، «الإقناع في فقه الحنابلة» (٢/١٥٠)، «المغني لابن قدامة» (٤/٣٦١).

(١) القبض في اللغة: الإمساك والتناول، يقال: قبضه بيده يقبضه: تناوله، وقبض عليه بيده أمسكه، والقبض شرعاً: يرجع فيه إلى الشرع والعرف، وهو يختلف باختلاف الحال، وتفصيله: أن المال إما أن يرهن من غير اعتبار تقدير فيه، أو يرهن معتبراً فيه تقدير، فالحالة الأولى التي لم يعتبر فيها تقدير، إما لعدم إمكانه، أو مع الإمكان، فينظر إن كان المرهون مما لا ينقل، كالدرور، والأرضين، والشجر الثابت، والثمرة على الشجرة قبل أوان الجداد، فقبضه بالتخلية بينه وبين المرتَّهِنِ، وتمكينه من وضع يده، بأن يفتح الدار أو يسلمه مفتاحها، وإن كان من جملة المنقولات ففيه خلاف نبينه:
فراى «الشافعي» (في رواية راجحة)، وأحمد، وأبو يوسف: أنه لا يكتفي بالتخلية، بل لا بد من النقل والتحويل.

ومذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي (في رواية مرجوحة): «الاكتفاء بالتخلية». وقد أجمع الناس على قبض المرتَّهِنِ، وكذا على قبض وكيله، واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه. وقيل ذكر المذاهب أوضح المراد من العدل هنا. العدل: من رضي الراهن والمرتَّهِنِ وضع المرهون في يده، سواء أرضيا بيعه أم لا، أو هو من يقدر على الإيفاء والاستيفاء، مسلماً كان أم ذمياً أم حربياً مستأثماً ما دام في دارنا؛ أو هو من يجوز توكيله، وهو الجائر التصرف، مسلماً كان أم كافراً، عدلاً أم فاسقاً، ذكراً أم أنثى.

فقال مالك، وجميع أصحابه، وجمهور العلماء: قَبَضَ الْعَدْلُ قَبْضًا.

وقال الْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ^(١)، وغيره: ليس بَقَبْضٍ.

وقول الجمهور أصح؛ من جهة المعنى في الرهن.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: شَرَطَ رِبَطَ بِهِ وَصِيَّةَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْأَدَاءِ.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: معناه: إن أسقط الكُتْبَ، والإِشْهَادَ، والرَّهْنَ، وعوَّلَ على أمانة المعامِلِ، فليؤدِّ الأمانة، وليتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ؛ وهذا يبيِّن أنَّ الإِشْهَادَ ليس بواجبٍ؛ إذ لو كان واجباً، لما جاز إسقاطه، ثم قال: وجملة الأمر أنَّ الإِشْهَادَ حَزْمٌ، وَالْإِثْمَانُ ثَقَّةٌ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدَّائِنِ، وَمَرْوَةٌ مِنَ الْمُدْيَانِ، ثم ذكر الحديث الصحيح^(٣) في قِصَّةِ الرَّجُلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي اسْتَسْلَفَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَكَيْفَ تَعَامَلًا عَلَى الْإِثْمَانِ، ثم قال ابن العربي: وقد رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ؛ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ، فَقَالَ: هَذَا نَسْخٌ لِكُلِّ مَا تَقَدَّمَ، يَعْنِي: مِنَ الْأَمْرِ بِالْكَتْبِ، وَالْإِشْهَادِ،

= وقال ابن المقري: فإن شرطاً وضعه عند عدل أو عدلين جاز. قال شارحه: لو عبر بدل عدل بثالث لكان أولى؛ فإن الفاسق كالعدل في ذلك وقد رأى أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وعطاء، وعمرو بن دينار، والثوري، وابن المبارك، وإسحاق، وأبو ثور: أن قبضه يقوم مقام قبض المرتهن إذا شرطاً وضعه عند عدل.

وجنح ابن أبي ليلى، وقتادة، والحاتر العسكري، والظاهرية إلى أنه لا يقوم مقامه. ينظر: «الرهن» لشيخنا حسن مصطفی، و «الأم» (١٢٣/٣)، و «المهذب» (٣٠٤/١)، والقرطبي (٣/٤١٠)، و «البحر الرائق» (٢٩١/٨)، و «ابن عابدين» (٣٣٤/٥)، و «تكملة فتح القدير» (٢٢١/٨)، و «الشرح الكبير» لابن قدامة (٤١٤/٤)، و «المغني» له (٣٨٧/٤).

(١) الحكم بن عُثَيْبَةَ الْكِنْدِي، مولاہم، أو أبو عبد الله الكوفي، أحد الأعلام، عن أبي جُحَيْفَةَ، وعبد الله بن شداد، وأبي وائل، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وخلق، وعنه منصور، والأعمش، ومسنر، وشُعْبَةُ، وأبي عَوَانَةَ، وخلق، قال العجلي: ثقة ثبت من فقهاء أصحاب إبراهيم، صاحب سنة واتباع، قال أبو نعيم: مات سنة خمس عشرة ومائة، عن خمس وستين سنة. ينظر: «الخلاصة» (٢٤٥/١).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٢٦٢/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥/٤) في البيوع: باب التجارة في البحر (٢٠٦٣)، و (٤/٥٤٨-٥٤٩) في الكفالة: باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها (٢٢٩١)، وأحمد (٣٤٨/٢) من طريق ليث بن سعد عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل... فذكره.

والرهن . اهـ .

وقوله: ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾: أمر بمعنى الوجوب، وقوله: ﴿أَمَانَتَهُ﴾: مضدّر سُمِّيَ به الشيء الذي في الذمّة .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ...﴾ الآية: نهى فيه تهديد ووعد، وخص تعالى ذكر القلب؛ إذ الكتم من أفعاله، وإذ هو البُضْعَةُ التي بصلاحها يصلح الجسد كله؛ كما قال ﷺ، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعد، وإن كَانَ لفظها يعم الوعد والوعد .

وروى البزار في «مسنده»، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ مَشَى إِلَى غَرِيمِهِ بِحَقِّهِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ دَوَابُّ الْأَرْضِ، وَتَوُّنُ الْمَاءِ، وَتَبَتَّ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ شَجَرَةٌ، تُغْرَسُ فِي الْجَنَّةِ، وَذَنْبُهُ يُغْفَرُ»^(١) اهـ من «الكوكب الدرّي» .

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: المعنى: جميع ما في السموات، وما في الأرض ملّك له سبحانه .

وقوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية: قوله: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي قوّة اللفظ أَنَّهُ ما تقرّر في النفس، وأسْتُصْحِبَتِ الْفِكْرَةُ فيه، وأما الخواطر التي لا يُمكن دفعها، فليست في النفس، إلا على تجوُّز .

وأختلف في معنى هذه الآية .

فقال عكرمة وغيره: هي في معنى الشهادة التي نُهي عن كتمها^(٢)، فلفظ الآية؛ على هذا التأويل: العموم، ومعناه الخصوص؛ وكذا نقل الثعالبي .

وقال ابن عباس: وأبو هريرة، وجماعة من الصحابة والتابعين: إن هذه الآية، لما نزلت، شقّ ذلك على الصحابة، وقالوا: هلكنا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ حُوسِبَنَا بِخَوَاطِرِ نُفُوسِنَا، وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لِكُنْهُ قَالَ لَهُمْ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، / فَقَالُوا: فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

(١) أخرجه البزار (٢/ ١١٩ - كشف) رقم (١٣٤٢)، من طريق إسماعيل بن عياش، عن عبد الرحمن بن سليمان، عن أبي سعد، عن معاوية بن إسحاق، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس به .

وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٥٢): رواه البزار، وفيه جماعة لم أجد من ترجمهم .

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ١٤٣) برقم (٦٤٥٢)، وذكره ابن عطية (١/ ٣٨٩) .

وُسْعَهَا^(١) [البقرة: ٢٨٦]؛ وَنَسَخَ بِهَذِهِ تِلْكَ» هذا معنى الحديث الصحيح، وله طرق من جهات، واختلفت عباراته، وتعاضدت عبارة هؤلاء القائلين بلفظة النسخ في هذه النازلة.

وقال ابن عباس: لما شق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ الآية، فنسخت الوسوسة، وثبت القول، والفعل.

وقال آخرون: هذه الآية محكمة غير منسوخة، والله محاسب خلقه على ما عملوه، وأضمره، وأرادوه، ويغفر للمؤمنين، ويأخذ به أهل الكفر والنفاق؛ ورَّجَحَ الطبري^(٢) أن

(١) أخرجه مسلم (١/ ١١٥-١١٦) كتاب «الإيمان»، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، حديث (١٩٩/١٢٥)، وأحمد (٢/ ٤١٢)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٦١). كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوا يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله (عز وجل): ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَهْطَأْنَا﴾، قال: نعم، «ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا» قال: نعم، «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» قال: نعم، «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٦١)، وزاد نسبه إلى أبي داود في «ناسخه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

ورود أيضاً بنحو ذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه مسلم (١/ ١١٦)، كتاب «الإيمان»، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، حديث (٢٠٠/١٢٥). والترمذي (٥/ ٢٠٦)، كتاب «التفسير»، باب سورة البقرة، حديث (٢٩٩٢). وأحمد (١/ ٢٣٣). والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٠٧)، كتاب «التفسير»، باب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوا﴾، حديث (١١٠٥٩)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ١٠٥)، والحاكم (٢/ ٢٨٦)، كلهم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه؛ ووافقه الذهبي.

وفيه نظر: فقد أخرجه مسلم كما تقدم في التخريج.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٦١)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) ينظر: «الطبري» (٣/ ١٤٩).

الآية محكمة غير منسوخة.

* ع^(١): * وهذا هو الصواب، وإنما هي مخصصة، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾: معناه: بما هو في وسعكم، وتحت كسيكم، وذلك استصحاب المعتقد، والفكر فيه، فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل فيه الخواطر، أشفق الصحابة، والنبى ﷺ فيبين الله تعالى لهم ما أراد بالآية الأولى، وخصصها، ونص على حكمه؛ أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، والخواطر ليست هي، ولا دفعها في الوسع، بل هي أمر غالب، وليست مما يكسب، ولا يكتسب، وكان في هذا البيان فرحهم، وكشف كربهم، وتأتي الآية محكمة لا نسخ فيها، ومما يدفع أمر النسخ؛ أن الآية خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، فإن ذهب ذاهب إلى تقرير النسخ، فإنما يترتب له في الحكم الذي لحق الصحابة، حين فرعوا من الآية، وذلك أن قول النبى ﷺ لهم: «قولوا سمعنا وأطعنا»، يجيء منه: الأمر بأن يبنوا على هذا، ويلتزموه، وينتظروا لطف الله في الغفران، فإذا قرر هذا الحكم، فصحيح وقوع النسخ فيه، وتشبه الآية حينئذ قوله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ [الأنفال: ٦٥]، فهذا لفظه الخبر، ولكن معناه: ألزموا هذا، وأبثوا عليه، واصبروا بحسبه، ثم نسخ ذلك بعد ذلك، فهذه الآية في البقرة أشبه شيء بها.

١٧٦

وقوله تعالى: ﴿ويعذب من يشاء﴾، يعني: من العصاة، وتعلق قوم بهذه الآية ممن قال بجواز تكليف ما لا يطاق، وقالوا: إن الله قد كلفهم أمر الخواطر، وذلك مما لا يطاق، قال * ع^(٢): * وهذا غير بين، وإنما كان أمر الخواطر تأويلاً أوله أصحاب النبى ﷺ ولم يثبت تكليفاً إلا على الوجه الذي ذكرناه من تقرير النبى ﷺ، إنه على ذلك، قال الشيخ الولي العارف بالله أبى جمره: والخواطر عندهم ستة يعني عند العلماء العارفين بالله: أولها الهمة، ثم اللمة، ثم الخطرة؛ وهذه الثلاث عندهم غير مؤاخذ بها، ثم نيّة، ثم إرادة، ثم عزيمة، وهذه الثلاث مؤاخذ بها. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه...﴾ الآية: سبب هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم﴾، وأشفق منها النبى ﷺ وأصحابه، ثم تقرر الأمر على أن قالوا: ﴿سمعنا وأطعنا﴾، ورجعوا إلى التضرع والاستكانة، مدحهم الله تعالى، وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقهم بهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح، والثناء، ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، لا كما

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٨٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٩٠).

قالت بنو إسرائيل: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]؛ فأعقبهم ضد ذلك، وهذه ثمرة العصيان، أعادنا الله من نقيمه.

و﴿آمَنَ﴾ معناه: صدَّق، والرسول: محمد ﷺ، و﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾: القرآن، وسائر ما أوحى الله إليه من جملة ذلك، وكلُّ لفظة تصلح للإحاطة، وهي كذلك هنا، والإيمان بالله: هو التصديق به، أي: بوجوده وصفاته، ورفض كلِّ معبود سواه، والإيمان بملأئحته: هو اعتقادهم أنهم عباد لله مكرّمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، والإيمان بكتبه: هو التصديق بكلِّ ما أنزل سبحانه على أنبيائه.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا تُفَرِّقُ﴾؛ بالنون^(١). والمعنى: يقولون: لا نفرق.

ومعنى هذه الآية: أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى؛ في أنهم يؤمنون ببغض، ويكفرون ببعض.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: مدح يقتضي الحض على هذه المقالة، وأن يكون المؤمن يمثلها غابر الدهر، والطاعة: قبول الأوامر، و﴿غُفْرَانِكَ﴾: مصدر، والعامل فيه فعل، تقديره: تطلب أو نسأل غُفْرَانَكَ.

* ت * : وزاد أبو حيان^(٢)، قال: وجوز بعضهم الرفع فيه، على أن يكون مبتدأ، أي: غفرانك بُغْيَيْنَا. اهـ.

﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: إقرار بالبعث، والوقوف بين يديه سبحانه، وروي أن النبي ﷺ، لما أنزلت عليه هذه الآية، قال له جبريل: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَلَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ، وَعَلَى أُمَّتِكَ، فَسَلْ تُعْطَهُ، فَسَأَلَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ^(٣).

(١) وروي عن أبي عمرو «يفرق» كما في «الكشاف» (٣٣١/١)، ورويت عن سعيد بن جبير ويحيى بن يعمر، وأبي زرعة بن عمر بن جرير، ويعقوب كما في «المحرر الوجيز» (٣٩٢/١).

وقرأ عبد الله «يفرقون»، ينظر: «الكشاف» (٣٣١/١)، و«المحرر الوجيز» (٣٩٢/١)، و«البحر المحيط» (٣٧٩/٢ - ٣٨٠)، و«الدر المصون» (٦٩٤/١).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٣٨٠/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٥٠١)، وابن أبي شيبة (٥٠١/١١) رقم (١١٨٢٤)، وسعد بن منصور (٤٧٨) عن حكيم بن جابر به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٦٥/١)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، والحديث مرسل.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شِئْنَا أَوْ آخِظْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧٦)

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ الآية: خبر جزم نص على أنه لا يكلف الله العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب والجوارح إلا وهي في وسع المكلف، وفي مقتضى إدراكه وبنيته، وبهذا أنكشفت الكربة عن المسلمين في تأويلهم أمر الخواطر، وهذا المعنى الذي ذكرناه في هذه الآية يجري مع معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، قال العراقي: ﴿وُسْعَهَا﴾، أي: طاقتها. اهـ.

قال * ع^(١): * واختلف الناس في جواز تكليف ما لا يطاق في الأحكام التي هي في الدنيا بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعاً الآن في الشرع، وأن هذه الآية آذنت بعدمه، وأختلف القائلون بجوازه، هل وقع في رسالة سيدنا محمد ﷺ أم لا؟

فقال فرقة: وقع في نازلة أبي لهب؛ لأنه حكّم عليه بتبّ اليدين، وصلي النار؛ وذلك مؤذن أنه لا يؤمن، وتكليف الشرع له الإيمان راتب، فكانه كُلف أن يؤمن، وأن يكون في إيمانه أنه لا يؤمن؛ لأنه إذا آمن، فلا محالة أن يدبّر بسورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

وقالت فرقة: لم يقع قط، وقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ [المسد: ٣] إنما معناه: إن وافى على كفره.

* ع^(٢): * وما لا يطاق على أقسام:

منه المحال عقلاً؛ كالجمع بين الضدين، ومنه المحال عادة؛ كرفع إنسان جبلاً، ومنه ما لا يطاق من حيث هو مهلك؛ كالأحترق بالنار، ونحوه، ومنه ما لا يطاق للاشتغال بغيره، وهذا إنما يقال فيه ما لا يطاق على تجويز كثير.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، يريد: من الحسنات، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، يريد:

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٩٣).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

من السَّيِّئَاتِ؛ قاله جماعة المفسرين؛ لا خلاف في ذلك، والخواطر ونحوها ليس من كَسَب الإنسان، وجاءت العبارة في الحَسَنَاتِ بـ «لَهَا»؛ من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه، ويسر المرء بها، فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئة بـ «عَلَيْهَا»؛ من حيث هي أوزار، وأثقال، ومتَحَمَّلَاتُ صُعْبَةٍ؛ وهذا كما تقول: لي مَالٌ، وعليَّ ذَيْنٌ، وكرَّرَ فَعَلَ الكَسْبَ، فخالف بين التصريقتين حسناً لنمط الكلام؛ كما قال: ﴿قَمَّهْلُ الْكَافِرِينَ أَفْمَهْلُهُمْ رُؤُودًا﴾ [الطارق: ١٧] هذا وجه.

* ع^(١): والذي يظهر لي في هذا أنَّ الحسناتِ ممَّا يكسب دُونَ تَكْلَفٍ؛ إذ كاسبها على جاذبة أمر الله، ورسم شرعه، والسيئاتِ تُكْتَسَبُ؛ ببناءِ المبالغة؛ إذ كاسبها يتكَلَّفُ في أمرها خَرْقَ حِجَابِ نَهْيِ اللَّهِ تَعَالَى، ويتخطأه إِلَيْهَا، فيحسن في الآية مجيء التصريقتين لهذا المعنى.

وقال المهدوي وغيره: معنى الآية: لَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بَذَنْبِ أَحَدٍ^(٢)؛ قال * ع^(٣): وهذا صحيح في نفسه، لكن من غير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾: معناه: قُولُوا، واختلف الناس في معنى قوله سبحانه: ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فذهب كثير من العلماء إلى أنَّ هذا الدعاء في النسيانِ الغالبِ، وَالْخَطَأِ غَيْرِ المقصود، وهو الصحيح عندي، قال قتادة في تفسير الآية: بَلَّغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَنْ نَسْيَانِهَا وَخَطِئِهَا»، وقال السُّدِّي: لما نزلت هذه الآية، فقالوها، قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «قَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ، يَا مُحَمَّدُ»، قال * ع^(٤): فظاهر قوليهما ما صحَّحته؛ وذلك أن المؤمنين، لما كُثِفَ عنهم ما خافوه في قوله تعالى: ﴿يُخَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أمروا بالدعاء في ذلك النوع الذي لَيْسَ من طاقة الإنسان دفعه، وذلك في النسيانِ، والخطأ، والإصر الثَقِيلِ، وما لَا يطاقُ على أنْموه، وهذه الآية على هذا القولِ تقضي بجوازِ تكليف ما لَا يطاقُ؛ ولذلك أمر المؤمنون بالدعاء في الأَيَّامِ الجائزِ الصَّغْبُ. ومذهب أبي الحَسَنِ الأشعري^(٥) وجماعة من

(١) ينظر: المصدر السابق.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٩٣/١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٣/١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٤/١).

(٥) علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، الشيخ أبو الحسن الأشعري، البصري، إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، =

المتكلمين؛ أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ولا يخرم ذلك شيئاً من عقائد الشَّرع.

وذهب الطبري^(١) وغيره إلى أن تكليف ما لا يطاق غير جائز، وأن النسيان في الآية بمعنى التَّرك أي: إن تركنا شيئاً من طاعتك، والخطأ هو المقصود من العُضيان، والإضر هي العبادات الثقيلة؛ كتكاليف بني إسرائيل، وما لا طاقة للمرء به هو عندهم على تجوُّز؛ كما تقول: لا طاقة لي على خصومة فلان، أو: لا طاقة لنا به؛ من حيث هو مهلك؛ كعذاب جهنم وغيره، ثم قال تعالى فيما أمر المؤمنين بقوله: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾، أي: فيما واقعناه، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: أَسْئُرْ علينا ما عَلِمْتَ منا ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾، أي: تَفْضَّلْ مبتدئاً بِرَحْمَةٍ منك لَنَا، فهذه مناج من الدعاء متباعدة، و ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾: مدح في ضمنه تقرب إِلَيْهِ، وشكر على نعمه، ومَوْلَى: هو من وَلِي، وفي الحديث/ : أن جبريل - عليه السلام - قال للنبي ﷺ: «قُلْ: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» فقالها، فَقَالَ جِبْرِيلُ: قَدْ فَعَلَ، قَالَ: قُلْ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُهَا فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَدْ فَعَلَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ^(٢).

وتظاهرت بهذا المعنى أحاديث، وروى أبو مسعود عُقْبَةُ بن عمرو^(٣) عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ، كَفَتَاهُ»^(٤) يَغْنِي مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، قال

= والذاب عن الدين، والمصحح لعقائد المسلمين، مولده سنة ستين ومائتين، وقيل: سنة سبعين. كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم من أقماع السمس. قال الخطيب البغدادي: أبو الحسن الأشعري، المتكلم، صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة، والرافضة، والجهمية، والخوارج وسائر أصناف المبتدعة. توفي سنة ٣٢٤هـ، وقيل: ٣٣٠هـ.

ينظر: «الأعلام» (٦٩/٥)، و «تاريخ بغداد» (٣٤٦/١١)، و «وفيات الأعيان» (٤٤٦/٢)، و «ابن قاضي شعبة» (١١٣/١).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥٩/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هو: عُقْبَةُ بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة أبو مسعود. الأنصاري. البصري.

قال ابن الأثير: هو المعروف بـ «البصري»؛ لأنه سكن أو نزل ماء بدر، وشهد العقبة ولم يشهد بدرأ عند أكثر أهل السير. وقيل: شهد بدرأ. ثم أورد له حديثاً في الأحق بالإمامة.

توفي سنة (٤١) أو (٤٢).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٨٦/٦)، «الإصابة» (٢٧٦/٧)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٠٢/٢)،

«بقي بن مخلد» (٣٧)، «الاستيعاب» (١٧٥٦/٤)، «الكنى والأسماء» (٥٤/١)، (٩٠)، «تقريب

التهذيب» (٤٧٢/٢)، «تهذيب التهذيب» (٢٣٤/١٢)، «تهذيب الكمال» (١٦٤٧/٣)، «أصحاب بدر»

(٢٣٧)، «التاريخ» لابن معين (١٤٥/٢)، «تنقيح المقال» (٣٥/٣).

(٤) تقدم تخريجه.

صاحب «سلاح المؤمن»: هذا الحديث رواه الجماعة، يعني: الستة، ومعنى: «كَفَّتَاهُ» أَجْرَتَاهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وقيل: كَفَّتَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ، فلا يقربه لَيْلَتُهُ، وقيل: كَفَّتَاهُ مَا يَكُونُ مِنَ الْآفَاتِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وقيل: معناه حَسَبُهُ بِهِمَا فَضلاً وَأَجْراً، ويحتمل الجميع، والله أعلم. اهـ من «سلاح المؤمن».

وقال عليّ - رضي الله عنه -: «ما أَظُنُّ أَحَدًا عَقَلَ، وَأَذَرَكَ الْإِسْلَامَ يَنَامُ، حَتَّى يَفْرَأَهُمَا»^(١) وفي الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «أُوتِيَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مِنْ كُنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُؤْتَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي»^(٢).

كمل تفسير سورة البقرة، والحمد لله

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٩٥/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٦٩/١)، وعزاه للدارمي، ومحمد بن نصر، وابن الضريس، وابن مردويه عن علي.

(٢) تقدم تخريجه.

محتوى الجزء الأول من تفسير الثعالبي

| | |
|----|--|
| ٥ | مقدمة المحقق |
| ٩ | المبحث الأول: نبذة عن حياة الثعالبي |
| ٩ | - اسمه وكنيته ولقبه |
| ٩ | - رحلاته وشيوخه |
| ١٢ | ١ - محمد بن خلفه بن عمر التونسي |
| ١٣ | ٢ - ولي الدين العراقي |
| ١٤ | ٣ - محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر مرزوق .. |
| ١٧ | ٤ - أبو القاسم بن أحمد بن محمد المعتل البلوي |
| ١٩ | ٥ - علي بن عثمان المنجلاتي |
| ١٩ | ٦ - أحمد النقاوسي البجائي |
| ١٩ | ٧ - عيسى بن أحمد بن محمد بن محمد الغبريني |
| ٢٠ | ٨ - سليمان بن الحسن البوزيدي |
| ٢١ | ٩ - محمد بن علي بن جعفر الشمس |
| ٢٢ | ١٠ - عمر بن محمد القلشاني |
| ٢٢ | ١١ - علي بن موسى البجائي |
| ٢٣ | ١٢ - البساطي |
| ٢٣ | ١٣ - أبو الحسن علي بن محمد البليتي |
| ٢٣ | ١٤ - أبو يوسف يعقوب الزغبى |
| ٢٣ | - شيوخه الذين لم يذكره في رحلته |
| ٢٣ | ١ - عبد الله بن مسعود التونسي |
| ٢٤ | ٢ - عبد العزيز بن موسى بن معطي العبدوسي |
| ٢٥ | ٣ - عبد الواحد الغرياني |

- تلاميذه ٢٥
- ١ - محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب ٢٥
- ٢ - محمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي ٢٦
- ٣ - أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي ٢٩
- ٤ - محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي ٣٠
- ٥ - علي بن محمد التالوتي الأنصاري ٣٢
- ٦ - علي بن عباد التستري البكري ٣٣
- ٧ - أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي القاسي الشهير بزروق ٣٣
- مصنفات الثعالبي ٣٦
- ثناء العلماء عليه ٣٨
- المبحث الثاني: التفسير قبل أبي زيد الثعالبي ٤٠
- التفسير لغة ٤٠
- التفسير اصطلاحاً ٤١
- التأويل لغة ٤٢
- التأويل اصطلاحاً ٤٣
- الفرق بين التفسير والتأويل ٤٤
- حاجة الناس إلى التفسير ٤٦
- فهم الصحابة للقرآن الكريم ٥٠
- أشهر مفسري القرآن من الصحابة ٥٢
- ١ - علي بن أبي طالب ٥٢
- ٢ - عبد الله بن مسعود ٥٣
- ٣ - أبي بن كعب ٥٥
- ٤ - عبد الله بن عباس ٥٦
- طرق الرواية عن ابن عباس ٥٩
- قيمة التفسير المأثور عن الصحابة ٦٠
- مدرسة مكة: تلاميذ ابن عباس ٦٢
- ١ - سعيد بن جبير ٦٢
- ٢ - مجاهد بن جبر ٦٦

- ٣ - عكرمة ٦٧
- ٤ - طاووس ٧٠
- مدرسة المدينة: تلاميذ أبي كعب ٧٤
- ١ - أبو العالية ٧٤
- ٢ - محمد بن كعب القرظي ٧٥
- ٣ - زيد بن أسلم ٧٥
- مدرسة العراق: تلاميذ عبد الله بن مسعود ٧٦
- ١ - علقمة بن قيس ٧٦
- ٢ - مسروق ٧٧
- ٣ - عامر الشعبي ٧٧
- ٤ - الحسن البصري ٧٨
- ٥ - قتادة ٧٩
- قيمة التفسير المأثور عن التابعين ٨١
- سمات التفسير في تلك المرحلة ٨٢
- التفسير في عصر التدوين ٨٢
- أقسام التفسير ٨٣
- الاتجاه الأثري في التفسير ٨٣
- ابن جرير الطبري ٨٤
- طريقة الطبري في التفسير ٨٥
- الاتجاه اللغوي ٨٦
- الاتجاه البياني ٨٨
- المبحث الثالث: الكلام على تفسير الثعالبي ٩١
- ١ - مصادر من كتب التفسير ٩١
- ٢ - كتب غريب القرآن والحديث ٩٤
- ٣ - المصادر التي اعتمد عليها من كتب السنة ٩٥
- ٤ - كتب الترغيب والترهيب ٩٥
- ٥ - كتب في الأحكام الفقهية والأصولية ٩٦
- ٦ - كتب الخصائص والشمائل ٩٦

- ٧ - كتب في التريية وتهذيب النفوس ٩٦
- ٨ - في الأسماء والصفات ٩٧
- ٩ - ومن كتب التاريخ ٩٧
- ١٠ - كتب أخرى مثورة ٩٧
- منهج الإمام الثعالبي في تفسيره ٩٨
- ١ - جمعه بين التفسير بالمأثور والرأي ٩٩
- ٢ - تعرضه لمسائل في أصول الدين ١٠٠
- ٣ - مسائل أصول الفقه في تفسيره ١٠١
- ٤ - تعرضه لآيات الأحكام ١٠٢
- ٥ - احتجاجة باللغة والمسائل النحوية ١٠٣
- ٦ - ذكره لأسباب النزول ١٠٤
- ٧ - ذكره للقراءات الواردة في الآية ١٠٥
- ٨ - احتجاجة بالشعر ١٠٨
- ٩ - موقفه من الإسرائيليات ١٠٩
- وصف النسخ المعتمد عليها في كتاب تفسير الثعالبي ١١٣
- نماذج من صور مخطوطات الكتاب ١١٥

الجزء الأول

من تفسير الثعالبي

- مقدمة المؤلف ١١٧
- باب في فضل القرآن ١٢٣
- باب في فضل تفسير القرآن وإعرابه ١٣٥
- فصل فيما قيل في الكلام في تفسير القرآن والجرأة عليه ومراتب المفسرين ١٣٨
- فصل: أنزل القرآن على سبعة أحرف ١٤٥
- فصل في ذكر الألفاظ التي في القرآن مما للغات العجم بها تعلق ١٤٨
- باب تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية ١٥٠
- باب في الاستعانة ١٥٤
- باب في تفسير ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ١٥٦

محتوى الجزء الأول من تفسير الثعالبي ٥٦٧

١٦١ - تفسير فاتحة الكتاب

١٧٤ - تفسير سورة البقرة

طَبَعَ عَلَى مَطْبَعِ
وَلَا زِلْهِيَّا، الزَّيْشُ الْعَرَبِيَّ

تفسير الثعالبي

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي

(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلم عليه وفتح أمارته

الشيخ علي محمد معوض
والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو سنة

خبير التحقيق بمجمع البحوث الإسلامية
ومفتي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
ومفتي لجنة المصنف بالأزهر الشريف

الجزء الثاني

دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836551 - 836696 - 836766

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الشعالي
الجزء الثاني

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مدنيّة، بإجماع في ما علّمت.

﴿الْعَمَّ﴾ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ هَدَى النَّاسَ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾

قوله جَلَّتْ قدرته: ﴿الْعَمَّ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الأبرع في نظم الآية أن يكون: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ كلاماً مبتدأً جزماً؛ جملة رادة على نصارى نجران الذين وفدوا على النبي ﷺ فحاجّوه في عيسى ابن مريم، وقالوا: إنّه الله على ما هو معلوم في السّير، فنزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف^(١) وثمانين آية منها، إلى أن دعاهم ﷺ إلى الابتهاال.

وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في آية الكرسي، والآية هناك إخبار لجميع الناس، وكُرِّرَتْ هنا إخباراً بحجج هؤلاء النصارى، ويردّ عليهم؛ إذ هذه الصفات لا يمكنهم أدعاؤها لعيسى - عليه السلام -؛ لأنهم إذ يقولون: إنه صلب، فذلك موت في معتقدهم، وإذ من البين أنه ليس بقيوم.

وقراءة الجمهور «الْقَيُّوم»، وقرئ خارج السّبع: «الْقَيَّامُ»؛ و«الْقَيِّمُ»^(٢)، وهذا كله من: قَامَ بِالْأَمْرِ يَقُومُ بِهِ، إِذَا أَضْطَلَعَ بِحِفْظِهِ، وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده، فالله تعالى

(١) كل ما زاد على العقد، فهو نيف - قال أبو العباس: الذي حصلناه من أقاويل حذاق البصريين والكوفيين أن النيف من واحدة إلى ثلاث.

ينظر: «لسان العرب» (٤٥٨٠) (نوف).

(٢) قرأ «الْحَيُّ الْقَيَّامُ» كل من عمر، وعثمان، وابن مسعود، والنخعي، والأعمش، وأصحاب عبد الله، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وأبي رجاء بخلاف، ورويت عن النبي ﷺ، وقرأ «الْحَيُّ الْقَيِّمُ» علقمة بن قيس. كما في «مختصر الشواذ» (ص ٢٥)، و«المحتسب» (١/١٥١)، و«المحرر الوجيز» (٣٩٧/١).

الْقِيَامُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِّمَّا يَنْبَغِي لَهُ، أَوْ فِيهِ، أَوْ عَلَيْهِ.

* ت *: وقد تقدّم ما نقلناه في هذا الاسم الشريف؛ أنه اسم الله الأعظم، قال النووي: ورؤيتنا في كتاب الترمذي؛ عن أنس، عن النبي ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا كَرَبَهُ أَمَرَ: قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ»، قَالَ الْحَاكِمُ: هذا حديث صحيح الإسناد^(١). اهـ.

قال صاحب «سلاح المؤمن»: وعن عليّ - رضي الله عنه -، قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، قَاتَلْتُ شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْظُرُ مَا صَنَعَ فَجِئْتُ، فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ»، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْقِتَالِ /، ثُمَّ جِئْتُ، فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ لَا يَزِيدُ عَلَيَّ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ جِئْتُ، فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ ذَلِكَ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ رواه النسائي، والحاكم في «المستدرک»، واللفظ للنسائي^(٢).

وعن أسماء بنت يزيد^(٣) - رضي الله عنها -؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ﴾» رواه أبو داود، واللفظ له، والترمذي، وابن ماجه^(٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) تقدم تخريجه في سورة البقرة.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٥٦/٦ - ١٥٧)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب الاستنصار عند اللقاء، حديث (١٠٤٤٧). والحاكم (٢٢٢/١)، من طريق عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، عن إسماعيل بن عون بن عبيد الله بن أبي رافع، عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه محمد بن عمر بن علي عن علي به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي، فقال: ابن موهب اختلف قولهم فيه، وإسماعيل فيه جهالة.

(٣) هي: أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث... أم سلمة، الأنصارية، الأوسية، الأشهلية. خطيبة النساء.

قال ابن حجر في «الإصابة»: روت عن النبي ﷺ عدة أحاديث، وعند أبي داود بسند حسن عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقتلوا أولادكم سرّاً؛ إنه ليدرك الفارس فيدعثره عن فرسه».

ينظر ترجمتها في: «أسد الغابة» (١٨/٧، ١٩)، «الإصابة» (١٢/٨)، «الثقات» (٢٣/٣)، «الاستيعاب» (١٧٨٧/٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٤٥/٢)، «أعلام النساء» (٥٣/١)، «حلية الأولياء» (٧٦/٢)، «خلاصة تهذيب تهذيب الكمال» (٣٧٥/٣)، «الكاشف» (٦٤/٣)، «تهذيب الكمال» (١٦٧٨/٣)، «تهذيب التهذيب» (٣٩٩/١٢)، «تقريب التهذيب» (٥٨٩/٢)، «بقي بن مخلد» (٤٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٠/١)، كتاب «الصلاة»، باب الدعاء، حديث (١٤٩٦)، والترمذي (٥١٧/٥)، كتاب «الدعوات»، حديث (٣٤٧٨)، وابن ماجه (١٢٦٧/٢)، كتاب «الدعاء»، باب اسم الله الأعظم، =

وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ، قَالَ: «أَسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي ثَلَاثِ سُورٍ: فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطِهَ»، قَالَ الْقَاسِمُ: فَالْتَمَسْتُهَا أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ^(١). انتهى.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: يحتمل معنيين:

أحدهما: أَنْ يكون المعنى: ضَمَّنَ الحقائق؛ في خبره، وأمره، ونهيه، ومواعظه.

والثاني: أَنْ يكون المعنى: أَنَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِأَسْتَحْقَاقٍ أَنْ يُنَزَّلَ؛ لما فيه من المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أَنَّهُ واجبٌ على اللَّهِ تعالى أَنْ يفعلَه.

* ت * : أَي: إِذْ لَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَعْلٌ؛

قال * ع *^(٢): * فالباء، في هذا المعنى: عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقيل: معنى: ﴿بِالْحَقِّ﴾: أَي: مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَأَضْطَرَبَ فِيهِ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى الْوَافِدُونَ.

قال * ع *^(٣): * وهذا داخلٌ في المعنى الأول.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾: حَالٌ مُؤَكِّدٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ، لما بين يديه من كتب اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ يَدِيهِ﴾: هِيَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَسَائِرُ كُتُبِ اللَّهِ الَّتِي تُلْقِيَتْ مِنْ شَرَعِنَا.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: يَعْنِي: مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ.

وقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾: مَعْنَاهُ: دُعَاءٌ، وَالنَّاسُ: بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَإِنْ

= حديث (٣٨٥٥). كلهم من طريق عيسى بن يونس، عن عبيد الله بن أبي زياد القداح، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وشهر بن حوشب صدوق، كثير الإرسال والأوهام.

ينظر: «التقريب» (٣٥٥/١).

(١) أخرجه ابن ماجة (١٢٦٧/٢)، كتاب «الدعاء»، باب اسم الله الأعظم، حديث (٣٨٥٦). والطبراني في «الكبير» (٢١٤/٨)، من طريق عيسى بن موسى، عن غيلان بن أنس، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً.

قال البوصيري في «الزوائد» (٢٠٤/٣): هذا إسناد فيه مقال؛ غيلان لم أر من جرحه، ولا من وثقه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٧/١).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

كان المراد أنهما هُدى في ذاتهما، مَدْعُوٌّ إِلَيْهِ فَرَعَوْنُ وَغَيْرُهُ، فالنَّاسُ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ شَاءَ حِينَئِذٍ أَنْ يَسْتَبْصِرَ، وَ ﴿الْفُرْقَانُ﴾: الْقُرْآنُ؛ لِأَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ثُمَّ تَوَعَّدَ سَبْحَانَهُ الْكَفَّارَ عَمُومًا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَالْإِشَارَةُ بِهَذَا الْوَعِيدِ إِلَى نَصَارَى نَجْرَانَ، وَ ﴿عَزِيزٌ﴾: مَعْنَاهُ: غَالِبٌ، وَالنِّقْمَةُ وَالْإِنْتِقَامُ: مَعَاqِبَةُ الْمَذْنِبِ بِمَبَالِغَةٍ فِي ذَلِكَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: هذه الآية خَبَّرَ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ، عَلَى التَّفْصِيلِ، وَهَذِهِ صِفَةٌ لَمْ تَكُنْ لِعِيسَى، وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، ثُمَّ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ عَنْ تَصْوِيرِهِ لِلْبَشَرِ فِي أَرْحَامِ الْأُمّهَاتِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَنْكَرُهُ عَاقِلٌ، وَلَا يَنْكَرُ أَنْ عِيسَى وَسَائِرُ الْبَشَرِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْكَرُ أَنْ عِيسَى مِنَ الْمَصْوَورِينَ؛ كغیره من سائر البشر، فهذه الآية تعظيمٌ لله جَلَّتْ قُدْرَتُهُ فِي ضَمْنِهَا الرَّدُّ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾: وَعِيدٌ، وَشَرْحُ النَّبِيِّ ﷺ كَيْفِيَّةَ التَّصْوِيرِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ؛ «أَنَّ النُّطْفَةَ، إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّحِمِ، مَكَثَتْ نُطْفَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَكُونُ عِلْقَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَنْبَعُ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَذْكَرُ/ أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ...» الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْفَاظِهِ ^(١)، وَفِي مَسْنَدِ أَبِي سِنْدٍ حَدِيثٌ: «أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ عِظَامَ الْجَنِينِ وَغَضَارِيفَهُ مِنْ مَنِيِّ الرَّجُلِ، وَلَحْمَهُ وَشَحْمَهُ وَسَائِرَ ذَلِكَ مِنْ مَنِيِّ الْمَرْأَةِ»، وَصَوَّرَ: بِنَاءَ مَبَالِغَةٍ مِنْ صَارَ يَصُورُ، إِذَا أَمَالَ وَنَثَى إِلَى حَالٍ مَا، فَلَمَّا كَانَ التَّصْوِيرُ إِمَالَةً إِلَى حَالٍ، وَإِثْبَاتًا فِيهَا، جَاءَ بِنَاؤُهُ عَلَى الْمُبَالِغَةِ، وَالْكِتَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْقُرْآنُ، بِإِجْمَاعٍ، وَالْمُحْكَمَاتُ: الْمَفْصَلَاتُ الْمَبِينَاتُ الثَّابِتَاتُ الْأَحْكَامُ، وَالْمُتَشَابِهَاتُ: هِيَ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَتَأْوِيلٍ، وَيُظْهِرُ فِيهَا بِنَادِي النَّظَرِ: إِمَّا تَعَارُضٌ مَعَ أُخْرَى، وَإِمَّا مَعَ الْعَقْلِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّشَابُهِ، فَهَذَا الشَّبَهُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ تُوصَفُ بِمُتَشَابِهَاتٍ، إِنَّمَا هُوَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَعَانِي الْفَاسِدَةِ الَّتِي يَظُنُّهَا أَهْلُ الزَّيْغِ، وَمَنْ لَمْ يُنْجِمْ النَّظَرَ، وَهَذَا نَحْوُ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُسْتَبْهَاتٌ» ^(٢)، أَي: يَكُونُ الشَّيْءُ حَرَامًا فِي نَفْسِهِ،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ورد ذلك من حديث النعمان بن بشير، وعمار بن ياسر، وابن عباس، وجابر بن عبد الله.

فَيْشِبُهُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يُنْعِمِ النَّظَرَ شَيْئًا حَلَالًا؛ وكذلك الآية: يَكُونُ لَهَا فِي نَفْسِهَا مَعْنَى صَحِيحٌ، فَيْشِبُهُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَنْعِمِ النَّظَرَ، أَوْ عِنْدَ الزَّائِغِ مَعْنَى آخِرٍ فَاسِدًا، فَرُبَّمَا أَرَادَ الْإِعْتِرَاضَ بِهِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، هَذَا عِنْدِي مَعْنَى الْإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

= فأما حديث النعمان، فأخرجه البخاري (١٥٣/١) في الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، و (٣٤٠/٤) في البيوع: باب الحلال بَيْنَ، والحرام بَيْنَ، وبينهما مشتبهات (٢٠٥١)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ - ١٢٢١)، في المساقاة: باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٠٧، ١٥٩٩/١٠٨)، وأبو داود (٢٦٣/١) في البيوع، باب في اجتناب الشبهات (٣٣٢٩، ٣٣٣٠). والنسائي (٢٤١/٧) في البيوع: باب اجتناب الشبهات في الكسب. والترمذي (٥١١/٣) في البيوع: باب ما جاء في ترك الشبهات (١٢٠٥). وابن ماجه (١٣١٨/٢) في الفتن، باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤)، وأحمد (٢٦٩/٤)، (٢٧٠)، والدارمي (٢٤٥/٢) في البيوع، باب في الحلال بين، والحرام بين. والحميدي (٩١٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٢٤/١)، والبيهقي (٢٦٤/٥) في البيوع: باب طلب الحلال، واجتناب الشهوات، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٩/٢ - ٢٧٠)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ٣١٧). والبلغوي في «شرح السنة» بتحقيقنا (٢٠٧/٤) في البيوع: باب الاتقاء عن الشبهات (٢٠٢٤)، من طرق عن الشعبي قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله. إلا وهي القلب».

وأخرجه أحمد (٢٦٧/٤)، ثنا هاشم بن القاسم، ثنا شيبان، عن عاصم، عن خيثمة. والشعبي عن النعمان مرفوعاً بنحوه.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

* وأما حديث عمار بن ياسر، فأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٦٥٣). والطبراني في «الكبير»، و «الأوسط»؛ كما في «مجمع الزوائد» (٧٦/٤)، من طريق موسى بن عبيدة، أخبرني سعد بن إبراهيم عن عمه أخيه، عن عمار بن ياسر رفعه: «إن الحلال بَيْنَ، والحرام بَيْنَ، وبينهما شبهات. من توقاهن كن وقاء لدينه، ومن يوقع فيهن يوشك أن يواقع الكبائر، كالمرتج حول الحمى يوشك أن يواقعه، لكل ملك حمى».

وقال الهيثمي (٧٦/٤، ٢٩٦/١٠): فيه موسى بن عبيدة، وهو متروك. وقال الحافظ في «المطالب» (١٢٥٤): إسناده ضعيف.

* وأما حديث ابن عباس، فأخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٠٤/١٠) برقم (١٠٨٢٤)، من طريق الوليد بن شجاع، حدثني أبي، ثنا سابق الجزري؛ أن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب أخبره عن عبد الرحمن بن الحارث، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الحلال بين، والحرام بين، وبين ذلك شبهات. فمن أوقع بهن فهو قمن أن يأثم، ومن اجتنبهن فهو أوفر لدينه، كمرتج إلى جنب حمى أوشك أن يقع فيه، ولكل ملك حمى، وحمى الله الحرام».

قال الهيثمي في «المجمع» (٢٩٧/١٠) فيه سابق الجزري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وأما حديث جابر، فأخرجه الخطيب في «التاريخ» (٧٠/٦)، من طريق سعيد بن زكريا المدائني، حدثنا الزبير بن =

قال * ع^(١) : وأحسن ما قيل في هذه الآية قول محمد بن جعفر بن الزبير^(٢) ؛ أن المُحَكَّمَاتِ هي التي فيهن حُجَّةُ الرَّبِّ، وعصمةُ العبادِ، ودفعُ الخصومِ والباطلِ، ليس لها تصريفٌ ولا تحريفٌ عمَّا وضعنَ عليه، والمُتَشَابِهَاتُ : لها تصريفٌ وتحريفٌ، وتأويلٌ أبْتَلَى اللَّهُ فِيهِنَّ العبادَ^(٣)، قال ابن الحاجب في «منتهى الوصول» : مسألة في القرآن مُحَكَّمٌ ومتشابهٌ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحَكَّمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾، فالمُحَكَّمُ : المتَّضِحُّ المعنى، قال الرهوني : يعني نصًّا كان أو ظاهراً، والمتشابهُ : مقابله إمَّا لِلإِشْتِرَاكِ ؛ مثل : ﴿ ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]، أو لِلإِجْمَالِ ؛ مثل : ﴿ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النُّكاحِ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] وما ظاهره التَّشْبِيهُ ؛ مثل : ﴿ مِنْ رُوحِي ﴾ [ص : ٧٢]، و ﴿ أَيَّدِينَا ﴾ [يس : ٧١]، و ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] و ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : ٦٧]، و ﴿ يَسْتَهْزِئُ ﴾ [البقرة : ١٥]، و ﴿ مَكَرَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ونحوه، والظاهرُ : الوقُفُّ على : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ؛ لأنَّ الخطاب بما لا يُفْهَمُ بعيدٌ. انتهى .

قال الرهوني : وسُمِّي ما ذكر «مُتَشَابِهًا» ؛ لاشتباهه على السامع، قال الرهوني : والحقُّ الوقُفُّ على : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وهو المرويُّ عن جماعة ؛ منهم : ابنُ عَبَّاسٍ، وابنُ عمر، وابنُ مسعود، ومالك، وغيرهم، وفي مُضَحَّفِ أَبِي : «وما يعلم تأويله إِلَّا اللَّهُ ويقول الراسخون [في العلم]^(٤) آمنا به^(٥)» . اهـ .

وقوله تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾، أي : معظم الكتاب، وعُمْدَةٌ ما فيه : إِذِ الْمُحَكَّمُ في آياتِ اللَّهِ كثيرٌ قد فُصِّلَ، ولم يَفْرُطْ في شيء منه، قال يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ^(٦) : كما يقال

= سعيد الهاشمي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر رفعه بنحوه .

ثم قال : أخبرنا أحمد بن أبي جعفر أخبرنا محمد بن عدي البصري - في كتابه - حدثنا أبو عبيد محمد بن علي الآجري قال : سألت أبا داود عن سعيد بن زكريا المدائني فقال : سألت يحيى عنه فقال : ليس بشيء .

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٤٠١/١) .

(٢) محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الأسدي، عن عمه غزوة، وابن عمه عبَّاد بن عبد الله، وعنه عبيد الله بن أبي جعفر، وابن إسحاق، وجماعة، وثقه النسائي .

ينظر : «الخلاصة» (٣٨٨/٢) .

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧٤/٣) برقم (٦٥٨٤)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٦٩/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٠١/١) .

(٤) سقط في : أ .

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨٣/١) برقم (٦٦٢٤) وعبد الرزاق (١١٦/١) .

(٦) يحيى بن يعمر القيسي، الجذلي العدواني البصري، عن أبي ذر وأبي هريرة، وعلي، وعمار، وعائشة، =

لمكة أم القرى.

قال * ع^(١) : * : وكما يقال: أم الرأس لمجتمع الشؤون، فجميع المحكم هو أم الكتاب، ومعنى الآية الإنحاء على أهل الزيغ، والمذمة لهم، والإشارة بذلك أولاً إلى نصارى نجران، وإلى اليهود الذين كانوا معاصرين لمحمد ﷺ، فإنهم كانوا يعترضون معاني القرآن، ثم يعم بعد ذلك كل زائغ، فذكر تعالى؛ أنه نزل الكتاب/ على نبيه ﷺ ٧٨ ب محمد ﷺ؛ إفضالاً منه، ونعمة؛ وأنَّ مُحْكَمَهُ وَيُنَبِّئُ الَّذِي لَا أَعْتَرَضُ فِيهِ هُوَ مُعْظَمُهُ، والغالب فيه؛ وأنَّ متشابهه الذي يحتمل التأويل، ويحتاج إلى التفهيم هو أقله، ثم إن أهل الزيغ يتركون المحكم الذي فيه غنيتهم، ويتبعون المتشابه؛ ابتغاء الفتنة، وأن يفسدوا ذات البين، ويردوا الناس إلى زيغهم.

* م * : قال أبو البقاء: ﴿وَأُخْرَ﴾: معطوف على ﴿آيَاتٍ﴾، و ﴿مُتَشَابِهَاتٍ﴾: نعت لـ ﴿أُخْرَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: يعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل صاحب بدعة، والزيغ: الميل، و ﴿أَبْتِغَاءُ﴾: نصب على المفعول من أجله، ومعناه: طلب الفتنة، قال الربيع: الفتنة هنا الشرك، وقال مجاهد: الفتنة: الشبهات، واللُّبْسُ على المؤمنين، ثم قال: وأبتغاء تأويله، والتأويل هو مراد الكلام، ومَرَجَعُهُ، والشيء الذي يقف عليه من المعاني، وهو من: آل يثول، إذا رجع، فالمعنى: وطلب تأويله على منازعهم الفاسدة، هذا في ما له تأويل حسن، وإن كان مما لا يتأول، بل يوقف فيه، كالكلام في معنى الروح ونحوه، ففُسِّ طلب تأويله هو أتباع ما تشابه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، أي: وما يعلم تأويله على الكمال إلا الله سبحانه.

وأخْتَلِفَ في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، فرأت فرقة أن رفع الراسخين هو بالعطف على اسم الله (عز وجل)؛ وأنه مع علمهم بالمتشابه يقولون: ﴿أَمَّا بِهِ﴾، وقالت طائفة أخرى: والراسخون: رفع بالأبتداء، وهو مقطوع من الكلام الأول، وخبره «يقولون»، والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده.

= وابن عباس، وعنه ابن بريدة، وعكرمة، وقتادة، وسليمان التيمي.

قال أبو داود: لم يسمع من عائشة، وثقه أبو حامد، توفي قبل التسعين «بخراسان».

ينظر: «الخلاصة» (٣/ ١٦٤ - ١٦٥).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٠١).

قال * ع^(١) : وهذه المسألة إذا تُؤمِّلَتْ، قُرِبَ الخلافُ فيها من الاتِّفاقِ، وذلك أنَّ الله تعالى قَسَمَ آيَ الكتابِ قِسْمَيْنِ مُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، فalmُحْكَمُ هو المتَّضِحُّ المعنَى لكلِّ من يفهم كلامَ العربِ، لا يحتاجُ فيه إلى نظرٍ، ولا يتعلَّقُ به شيءٌ يلبسُ، ويستوي في علمه الراسخُ وغيره، والمتشابه على نوعين، منه: ما لا يُعْلَمُ البتَّةُ؛ كأمرُ الرُّوحِ، وآمِدُ المغيَّباتِ التي قد أَعْلَمَ اللهُ بوقوعها إلى سائر ذلك، ومنه: ما يُحْمَلُ على وجوه في اللغة، ومَنَاح في كلام العربِ، فَيَتَأَوَّلُ، ويُعْلَمُ تأويله، ولا يسمَّى أحدٌ راسخاً إلا أن يعلم من هذا النوع كثيراً؛ بحسب ما قُدِّرَ له، فمن قال: إن الراسخين يعلمون تأويلَ المتشابهِ، فمراده النوعُ الثاني الذي ذكرناه، ومن قال: إن الراسخين لا يعلمون تأويله، فمراده النوع الأول؛ كأمر الرُّوحِ، ووقَّتِ الساعةُ، لكنَّ تخصيصه المتشابه بهذا النوع غيرُ صحيح، بل هو نوعان؛ كما ذكرنا، والضمير في «تأويله» عائِدٌ على جميعِ متشابه القرآن، وهما نوعان؛ كما ذكرنا، والرُّسوخُ: الثبوتُ في الشيءِ، وسئل النبي ﷺ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ: «هُوَ مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وَصَدَقَ لِسَانُهُ، وَاسْتَقَامَ قَلْبُهُ»^(٢)، قُلْتُ: ومن «جامعِ الْعَتَبَةِ»، وسئل مالكٌ عن تفسيرِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ: الْعَالِمُونَ الْعَامِلُونَ بما علموا، المتَّبِعُونَ له، قال ابنُ رُشْدٍ: قولُ مالِكٍ هذا هو معنى ما رَوَى من أنَّ النبي ﷺ سُئِلَ: مَنْ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ؟ فَقَالَ: «مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وَصَدَقَ لِسَانُهُ، / وَاسْتَقَامَ بِهِ قَلْبُهُ، وَعَفَّ بَطْنُهُ، فَذَلِكَ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ»؛ قال ابنُ رُشْدٍ: ويشهد لصحة هذا قولُ اللهِ (عز وجل): «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» [فاطر: ٢٨]؛ لأنه كلامٌ يدلُّ على أنَّ مَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ، فَلَيْسَ بعالمٍ. انتهى.

قلت: وقد جاء في فضلِ العلمِ آثارٌ كثيرةٌ، فمن أحسنها: ما رواه أبو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ بسنده، عن معاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعْلِيمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ، وَمَذَاكِرَتُهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لَأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سُبُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الْأَنْبَسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُخْدَتُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالِدَلِيلُ عَلَى السَّرِّاءِ وَالضَّرِّاءِ، وَالسَّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخْلَاءِ، وَيَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأُئِمَّةً تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفَعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، وَتَرْعَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خَلَّتِهِمْ،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٠٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧٧/٨ - ١٧٨) رقم (٧٦٥٨)، من طريق عبد الله بن يزيد بن آدم، حدثني أبو الدرداء، وأبو أمامة، ووائلة بن الأسقع، وأنس بن مالك به.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٢٧/٦)، وقال: وفيه عبد الله بن يزيد، وهو ضعيف.

وَيَا جُنْحَتَهَا تَمْسَحُهُمْ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّ رَطْبٍ وَيَأْسٍ، وَجِثَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاغُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمَصَابِيحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلُمِ، يَبْلُغُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ، وَالذَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الْفِكْرُ فِيهِ يَغْدِلُ الصِّيَامُ، وَمُذَارَسَتُهُ تَغْدِلُ الْقِيَامُ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، هُوَ إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهِمُهُ السُّعْدَاءُ، وَيَحْزَمُهُ الْأَشْقِيَاءُ^(١)، قَالَ أَبُو عَمْرٍ: هَكَذَا حَدَّثَنِي عُبَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ مَرْفُوعاً بِالإِسْنَادِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ بِهِ عَنْهُ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ جَدًّا، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ قَوِيٌّ، وَرَوَيْنَاهُ مِنْ طَرِيقٍ شَتَّى مَوْقُوفًا عَلَى مَعَاذٍ. انْتَهَى مِنْ كِتَابِ «فَضْلِ الْعِلْمِ»^(٢)، قَالَ الشَّيْخُ الْعَارِفُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يُوسُفَ اللَّجَائِي (رَحِمَهُ اللَّهُ)، وَمِنْ عِلَامَةِ نُورِ الْعِلْمِ، إِذَا حُلَّ بِالْقَلْبِ: الْمَعْرِفَةُ وَالْمَرَاqَبَةُ وَالْحَيَاءُ وَالتَّوْبَةُ وَالْوَرَعُ وَالزُّهْدُ وَالتَّوَكُّلُ وَالصَّبْرُ وَالرِّضَى وَالْأَنَسُ وَالْمَجَاهَدَةُ وَالصُّمْتُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالْقَنَاعَةُ وَذِكْرُ الْمَوْتِ . اهـ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾: فِيهِ ضَمِيرٌ عَائِدٌ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: كُلُّهُ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، أَي: مَا يَقُولُ هَذَا، وَيُؤْمِنُ وَيَقِفُ حَيْثُ وَقَفَ، وَيَدْعُ أَتْبَاعَ الْمُتَشَابِهِ إِلَّا ذُو لُبٍّ، وَهُوَ الْعَقْلُ وَ «أُولُو»: جَمْعُ: «ذُو».

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُفْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا...﴾ الْآيَةُ: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الزُّنُغِ، وَذَكَرَ نَقِضَهُمْ، وَظَهَرَ مَا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ، عَقَبَ ذَلِكَ؛ بِأَنْ عَلَّمَ عِبَادَهُ الدَّعَاءَ إِلَيْهِ فِي الْأَوَّلِ لِيَكُونُوا مِنَ الطَّائِفَةِ الذَّمِيمَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ، وَهُمْ أَهْلُ الزُّنُغِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ تَمَامِ قَوْلِ الرَّاسِخِينَ، وَ «تُزِغُ»: مَعْنَاهُ: تُثْمِلُ قُلُوبَنَا عَنِ الْهَدْيِ وَالْحَقِّ، وَ «مِنْ لَدُنْكَ»: مَعْنَاهُ: مِنْ عِنْدِكَ تَفْضُلًا، لَا عَنْ سَبَبٍ مَثًا، وَلَا عَمَلٍ، وَفِي هَذَا اسْتِسْلَامٌ وَتَطَارُحٌ، وَالْمَرَادُ: هَبْ لَنَا نَعِيمًا صَادِرًا عَنِ الرَّحْمَةِ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: إِقْرَارٌ بِالْبَعْثِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ،

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ» رَقْمَ (٢٦٨).

(٢) يَنْظُرُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

وَالرَّيْبُ: الشك، والمعنى أنه في نفسه حق لا ريب فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، يحتمل: أن يكون إخباراً منه سبحانه
٧٩ ب لمحمد ﷺ، وأتمته، ويحتمل: أن يكون حكاية من قول/ الداعين، ففي ذلك إقرار بصفة
ذات الله تعالى، والميعاد: من الوعد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً...﴾ الآية: الإشارة بالآية إلى معاصري النبي ﷺ، وكانوا يَفْخَرُونَ بأموالهم وأبنائهم، وهي بغد متناولة كل كافر، والوفود؛ بفتح الواو: كل ما يحترق في النار من حطب ونحوه، والدأب، والدأب؛ بسكون الهمزة وفتحها: مصدر: دأب يدأب، إذا لازم فعل شيء، ودام عليه مجتهداً فيه، ويقال للعادة دأب، والمعنى في الآية: تشبيه هؤلاء في لزومهم الكفر ودوامهم عليه بأولئك المتقدمين، وآخر الآية يقتضي الوعيد بأن يصيب هؤلاء ما أصاب أولئك، والكاف في قوله: ﴿كَذَّابٌ﴾ في موضع رفع، والتقدير: دأبهم كذاب، والضمير في ﴿قَبْلَهُمْ﴾ عائد على ﴿آل فرعون﴾، ويحتمل: على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: يحتمل: أن يريد المتلوّة، ويحتمل أن يريد العلامات المنصوبة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ وَلَهُمْ جَهَنَّمُ وَمَا آلِهَهُمْ﴾ (١٢) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرَيْشِ فِيمَا تَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافَّةً يَرْوَنَّهُمْ مِنْهُمُ الرَّكَعُ أَلْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَوَئِذٍ لَآتِبَرُ﴾ (١٣)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ وَلَهُمْ جَهَنَّمُ...﴾ الآية: اختلف في تعيين هؤلاء الذين أمر ﷺ بالقول لهم:

ف قيل: هم جميع معاصريه أمر أن يقول لهم هذا الذي فيه إعلام بغيب، فوقع بحمد الله كذلك، فغلبوا، وصار من مات منهم على الكفر إلى جهنم.

وتظاهرت روايات عن ابن عباس وغيره؛ بأن المراد يهود المدينة، لما قديم رسول الله ﷺ من غزوة بدر، جمعهم، وقال: «يَا مَعْشَرَ يَهُودِ أَسْلِمُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا»، فقالوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا تَعْرُثْكَ نَفْسُكَ أَنْ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَعْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا، لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ» (١)

(١) أخرجه أبو داود (١٧٠/٢): كتاب «الخراج والفيء والإمارة»، (٣٠٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٩٢/٣) =

وَالْحَشْرُ: الجَمْعُ والإِحْضَارُ.

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾: يعني: جهنم؛ هذا ظاهر الآية، وقال مجاهد: المعنى: بِئْسَ ما مهدوا لأنفسهم^(١).

قال * ع^(٢): * فكان المعنى: وبئس فعلهم الذي أذاهم إلى جهنم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتَيْنِ...﴾ الآية تحتمل أن يخاطب بها المؤمنون؛ تبييناً لنفوسهم، وتشجيعاً لها، وأن يُخاطَبَ بها جميع الكفار، وأن يخاطب بها يهود المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم، وقرىء شاذاً: «تَرَوْنَهُمْ»؛ بضم التاء^(٣)؛ فكان معناها أن اعتقاد التضعيف في جمع الكفار؛ إنما كان تخميناً وظناً لا يقيناً، وذلك أن «أَرَى»؛ بضم الهمزة: تقولها فيما بقي عندك فيه نظراً، وأرى؛ بفتح الهمزة: تقولها في ما قد صَحَّ نظرك فيه، ونحا هذا المنحى أبو الفتح^(٤)، وهو صحيح، والمراد بالفتنيتين: جماعة المؤمنين، وجماعة الكفار ببذر.

قال * ع^(٥): * ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفتنتين هي إلى يوم بدر؛ و ﴿يُؤَيَّدُ﴾: معناه يُقَوِّي؛ من «الأيد»، وهو القوة.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ

= رقم (٦٦٦٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٧٣/٣ - ١٧٤). كلهم من طريق محمد بن أبي محمد مولى زيد، عن سعيد بن جبيرة، أو عكرمة عن ابن عباس به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٦/٢)، وزاه نسبته إلى ابن إسحاق، وفاته أن يعزوه إلى أبي داود. (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٩٢/٣) برقم (٦٦٦٨)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٧٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٠٦/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٦/١).

(٣) وقرأ بها أبان عن عاصم، وأبو عبد الرحمن السلمي، كما في «المحرر الوجيز» (٤٠٦/١)، و «البحر المحيط» (٤١١/٢). وقد نسبها ابن جني في «المحتسب» (١٥٤/١) إلى ابن عباس، وطلحة بن مصرف، وقال: قراءة حسنة.

(٤) أبو الفتح عثمان بن يزيد بن جني، من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف - تلمذ على أبي علي الفارسي، من تصانيفه «الخصائص»، «سر صناعة الإعراب»، «المحتسب»، «اللمع» مات سنة ٣٩٢هـ.

ينظر: «بغية الوعاة» (١٣٢/٢).

(٥) ينظر «المحرر الوجيز» (٤٠٧/١).

الْمَقَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوذِيْتُكُمْ بِيَوْمٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْمَكِيدِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَهْمَكَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآية: هذه الآية ابتداءً وعظاً لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ، والشهوات ذميمة، وأتباعها مُرَدٌّ، وطاعتها مهلكة، وقد قال ﷺ: «حُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»^(١)، فَحَسْبُكَ أَنَّ النَّارَ حُقَّتْ بِهَا، ١٨٠ فَمَنْ واقعها، خلص إلى النار، قلت: وقد جاءت أحاديث/ كثيرة في التزهيد في الدنيا، ذكرنا من صحيحها وحسنها في هذا المختصر جملةً صالحة لا توجد في غيره من التفاسير، فعليك بتحصيله، فتطلع فيه على جواهر نفيسة، لا توجد مجموعة في غيره؛ كما هي بحمد الله حاصلة فيه، وكيف لا يكون هذا المختصر فائقاً في الحُسن، وأحاديثه بحمد الله مختارة، أكثرها من أصول الإسلام الستة: البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، فهذه أصول الإسلام، ثم من غيرها؛ كصحيح ابن جبان، وصحيح الحاكم، أعني: «المُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ»، وأبي عَوَانَةَ، وابن خُزَيْمَةَ، والدارمي، والموطأ، وغيرها من المسانيد المشهورة بين أئمة الحديث؛ حَسْبَمَا هو معلوم في علم الحديث، وقصدي من هذا نُضْحٌ من اطلع على هذا الكتاب أن يعلم قَدْرَ ما أنعم الله به عليه، فإن التحدث بالنعم شكر، ولنرجع إلى ما قصدناه من نقل الأحاديث:

(١) أخرجه مسلم (٢١٧٤/٤)، كتاب «الجنة»، باب صفة نعيمها، حديث (٢٨٢١/١)، والترمذي (٤/٦٩٣)، كتاب «صفة الجنة»، باب ما جاء: حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، حديث (٢٥٥٩)، وأحمد (٣/١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤)، وأبو يعلى (٦/٣٣) رقم (٣٢٧٥)، وابن حبان (٧١٦)، (٧١٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧/١٤٧) رقم (٩٧٩٥). والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/١٨٤)، والبخاري في «شرح السنة» (٧/٣٣١. بتحقيقنا)، من حديث أنس بن مالك به مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وله شاهد من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (١١/٣٢٧) كتاب «الرقاق»، باب حجبت النار بالشهوات، حديث (٦٤٨٧)، ومسلم (٤/٢١٧٤)، كتاب «الجنة»، حديث (٢٨٢٣/١)، وأحمد (٢/٢٦٠)، وابن حبان (٧١٩). كلهم من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة به.

وعند البخاري: «حجبت» بدلاً من «حفت».

وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٥٦٧)، من طريق مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة به.

روى الترمذي عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَرَدْتَ الْحُقُوقَ بِي، فَلْيَكْفِكَ مِنَ الدُّنْيَا، كَزَادِ الرَّائِبِ، وَإِيَّاكَ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا تَسْتَخْلِفِي ثَوْبًا حَتَّى تَرْقِعِيهِ»^(١) حديث غَرِيبٌ، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْبَدَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ»، خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٢) وقد نقله البغوي في «مصابيح»، والبدَاذَةُ: هي رث الهَيْئَةِ. اهـ و «القناطر»: جمع قِنطَارٍ، وهو العُقْدَةُ الكثيرة من المال؛ واختلف النَّاسُ في تحرير

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥/٤)، كتاب «اللباس»، باب ما جاء في ترقيع الثوب، حديث (١٧٨٠). والحاكم (٣١٢/٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٨-١٥٧ / ٥) رقم (٦١٨١)، وابن السني في «القناعة» رقم (٥٤). كلهم من طريق سعيد بن محمد الوراق، عن صالح بن حسان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة به.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان، وسمعت محمداً يقول: صالح بن حسان منكر الحديث.

وقال البيهقي: تفرد به صالح بن حسان، وليس بالقوي، ورواه الحسن بن حماد، عن إبراهيم بن عيينة، عن صالح بن حسان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، ورواه أبو يحيى الحماني، عن صالح بن عروة، وقيل: عنه، عن صالح، عن هشام بن عروة. أما الحاكم فقال: صحيح الإسناد. وقد تعقبه الذهبي فقال: الوراق عدم.

وفي كلامهما نظر، أما تصحيحه فليس بصحيح كما مر، وكما سيأتي. أما تعليقه بالوراق فقد توبع كما سيأتي؛ لتحصير العلة في صالح بن حسان.

فأخرجه الترمذي (٢٤٥/٤)، كتاب «اللباس»، باب ما جاء في ترقيع الثوب حديث (١٧٨٠)، وابن السني في «القناعة» برقم (٥٥)، وابن عدي في «الكامل» (١٣٧٠/٤). وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٣٩/٣ - ١٤٠)، من طريق أبي يحيى الحماني، عن صالح بن حسان، عن عروة، عن عائشة به. وقال ابن عدي: وقد رواه بعضهم عن أبي يحيى الحماني، عن صالح بن حسان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. ومن قال: عن صالح بن عروة. أصح.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، قال يحيى بن معين: صالح بن حسان ليس حديثه بشيء، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات والحديث أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٨٩/١)، من طريق حفص بن غياث، عن صالح، عن عروة، عن عائشة. وأخرجه ابن السني في «القناعة» رقم (٥٦)، من طريق إبراهيم بن عيينة، عن صالح بن حسان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة به.

والحديث ذكره الهندي في «الكنز» (٧٣٠/٣ - ٧٣١) رقم (٨٥٩٨). وزاد نسبه إلى ابن الأعرابي في «الزهد»، والحديث ضعفه المنذري في «الترغيب» (٦٤/٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٤ - ٤٧٥)، كتاب «الرجل»، حديث (٤١٦١)، من طريق عبد الله بن أبي أمامة، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبي أمامة به. وقال أبو داود: هو أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري.

حَدَّه، وَأَصْحُ الْأَقْوَالِ فِيهِ: مَا رَوَاهُ أَبِي بَنْ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «الْقِنْطَارُ أَلْفٌ وَمِائَتًا أُوقِيَّةً»^(١)، لَكِنَّ الْقِنْطَارَ عَلَى هَذَا يَخْتَلِفُ بِأَخْتِلَافِ الْبِلَادِ فِي قَدْرِ الْأُوقِيَّةِ.

وقوله: «الْمُقَنْطَرَةُ»^(٢)، قال الطبري^(٣): معناه: الْمُضَعَّفَةُ، وقال الربيع: المال الكثير بغضه على بعض^(٣).

* ص *: «الْمُقَنْطَرَةُ»: مُقَعَّلَةٌ، أَوْ مُنْعَلَةٌ؛ مِنَ الْقِنْطَارِ، ومعناه: المجتمعة.

* م *: أبو البقاء: و «مِنَ الذَّهَبِ»: فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ «الْمُقَنْطَرَةِ» اهـ.

وقوله: «الْمُسُومَةُ»: قال مجاهد: معناه الْمُطْهَمَةُ الْحِسَانِ^(٤)، وقال ابن عباس وغيره: معناه: الرَّاعِيَةُ^(٥)، وقيل: الْمُعَدَّةُ، «وَالْأَنْعَامُ»: الْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ: الْإِبِلُ، وَالْبَقَرُ، وَالضَّأْنُ، وَالْمَغَزُ.

* ص *: وَالْأَنْعَامُ: وَاحِدُهَا نَعَمٌ، وَالنَّعَمُ: الْإِبِلُ فَقَطْ، وَإِذَا جُمِعَ، أَنْطَلَقَ عَلَى الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ اهـ.

«وَالْحَزْتُ»: هُنَا اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُحْرَثُ مِنْ حَبٍّ وَغَيْرِهِ، وَالْمَتَاعُ: مَا يَسْتَمْتَعُ بِهِ، وَيَنْتَفِعُ مَدَّةً مَا مَنْحَصَرَةٌ، وَ «الْمَأْبُ»: الْمَرْجِعُ، فَمَعْنَى الْآيَةِ: تَقْلِيلُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرُهَا، وَالتَّرْغِيبُ فِي حُسْنِ الْمَرْجِعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: «قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ...» الآية: فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَسْلِيَّةٌ عَنِ الدُّنْيَا، وَتَقْوِيَةٌ لِنَفْسِ تَارِكِيهَا؛ ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدُّنْيَا، وَكَيْفَ اسْتَقَرَّتْ تَزِينُ شَهَوَاتِهَا، ثُمَّ جَاءَ بِالْإِنْبَاءِ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ هَازِئًا لِلنَّفُوسِ، وَجَامِعاً لَهَا؛ لَتَسْمَعَ هَذَا النَّبَأَ الْمُسْتَغْرَبَ النَّافِعَ لِمَنْ عَقَلَ، وَأُنْبِئْ: معناه: أَخْبِرْ.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٩٩/٣) برقم (٦٦٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٠١/٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٠١/٣) برقم (٦٧٢٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٠٩/١)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٩/٢)، وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٠٣/٣) برقم (٦٧٣٦)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٧٧/١) بنحوه، وابن عطية في «تفسيره» (٤٠٩/١)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٩/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٠٢/٣) برقم (٦٧٣١)، وذكره ابن عطية (٤٠٩/١)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٩/٢)، وعزاه لابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾، الرِّضْوَانُ: مصدرٌ مِنْ «رَضِيَ»، وفي الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ: «أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِذَا اسْتَقَرُّوا فِيهَا، وَحَصَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: أَتُرِيدُونَ أَنْ أُعْطِيَكُمْ/ ٨٠ ب مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ قَالُوا: يَا رَبَّنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَجِلْ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا»^(١)، هذا سياقُ الحديث، وقد يجيء مختلف الألفاظ، والمعنى قريبٌ بعضه من بعض، قال الفخر^(٢): وذلك أن معرفة أهل الجنة، مع هذا النعيم المقيم بأنّه تعالى راضٍ عنهم، مُثْنٍ عليهم - أزيدُ عليهم في إيجاب السرور . اهـ.

وباقى الآية بين، وقد تقدّم في سورة البقرة بيانه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا...﴾ الآية: «الَّذِينَ»: بدلٌ من «الَّذِينَ آمَنُوا»، وفسر سبحانه في هذه الآية أحوال المتقين الموعودين بالجنّات، والصّبر؛ في هذه الآية: معناه: على الطّاعات، وعن المعاصي والشّهوات، والصّدق: معناه: في الأقوال والأفعال، والقنوت: الطاعة والدعاء أيضاً، وبكل ذلك يتصف المتقي، والإنفاق: معناه: في سبيل الله ومطاع الأجر، والاستغفار: طلب المغفرة من الله سبحانه، وخصّ تعالى السّحر؛ لما فيه من الفضل؛ حسباً ورَدَ فيه من صحيح الأحاديث؛ كحديث الثّؤل: «هَلْ مِنْ دَاعٍ، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ، فَأَغْفِرَ لَهُ»^(٣)، إلى غير ذلك ممّا ورد في فضله.

قلت: تنبيه: قال القرطبي في «تذكرته»، وقد جاء حديث النزول مفسراً مبيناً في ما خرّجه النسائي عن أبي هريرة، وأبي سعيد، قالاً: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يُمَهِّلُ حَتَّى يَمْضِيَ شَطْرُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ يَأْمُرُ مُنَادِيًا يَقُولُ: هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى»، صحّحه أبو محمّد عبد الحق^(٤). اهـ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٧٤/٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩/٣)، كتاب «التهجد»، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، حديث (١١٤٥) ومسلم (٥٢٢/١)، كتاب «صلاة المسافرين»، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل حديث (١٦٨)، وأبو داود (٤٢٠/١)، كتاب «الصلاة»، باب أي الليل أفضل؟، حديث (١٣١٥) والترمذي (٥٢٦/٥)، كتاب «الدعوات»، باب (٧٩) حديث (٣٤٩٨) وأحمد (٤٨٧/٢) والبيهقي (٣/٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) ينظر الحديث السابق.

وخرَجَ أبو بكرُ بْنُ الْخَطِيبِ بسنده، عن عبد الرحمن بْنِ عَوْفٍ ^(١)، عن النبي ﷺ: قَالَ: «إِنَّ نَزُولَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الشَّيْءِ إِقْبَالُهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ نَزُولٍ» ^(٢). اهـ.

والسَّحَر: آخرُ الليل، قال نافع: «كان ابنُ عَمَرَ يُخَيِّي الليلَ صلاةً، ثم يقول: يا نافع، أسحَرْنَا، فأقول: لا، فَيَعَاوِدُ الصَّلَاةَ، ثم يسأل، فإذا قُلْتُ: نَعَمْ، قَعَدَ يَسْتَغْفِرُ».

قال * ع ^(٣): * وحقيقةُ السَّحَرِ في هذه الأحكام الشرعية من الاستغفارِ المحمودِ، وسُحُورِ الصَّائِمِ، وَمِنْ يَمِينِ لَوْ وَقَعَتْ، إنما هي مِنْ ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِلَى الْفَجْرِ.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَقِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ جَاحَوْكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْأَعْيَادِ ﴿٢٠﴾

(١) هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة.. أبو محمد. القرشي. الزهري. من مشاهير الصحابة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى الذين أوصى إليهم عمر بعده، وأحد الثمانية الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق، وشهد بدرًا وأحُدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وصلى خلفه رسول الله ﷺ، ومناقبه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

توفي سنة (٣١) بـ «المدينة».

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤٨٠/٣)، «الإصابة» (١٧٦/٤)، «الاستيعاب» (٨٤٤/٢)، «الاستبصار» (١١٤، ١٢٦)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٥٣/١)، «عنوان النجاة» (١٣١)، «الرياض المستطابة» (١٧٦)، «الأعلام» (٣٢١/٣)، «التاريخ الكبير» (٢٣٩/٥)، «التاريخ الصغير» (٥٠/١)، «العبر» (٣٣/١)، «الكاشف» (١٧٩/٢)، «بقي بن مخلد» (٥٣)، «تاريخ الإسلام» (٢٢١/٣)، «الرياض النضرة» (٣٧٦/٢)، «البداية والنهاية» (١٦٣/٧)، «سير أعلام النبلاء» (٦٨/١)، «شذرات الذهب» (٢٥/١، ٣٨، ٦٢)، «التحفة اللطيفة» (٥٢٤/٢)، «تهذيب الكمال» (٨٠٩/٢)، «تقريب التهذيب» (٤٩٤/١)، «العقد الثمين» (٣٩٦/٥).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٤٦/٢). وقال الذهبي في «الميزان» (٥٠٨٣): إسناده مظلم، ومتن مختلف، وقال ابن عراق في «فتاوى الشريعة» (١٣٨/١): وفيه عبد العزيز بن إسحاق بن جعفر البقال، وبحر بن كنيز السقا، وعبد الكريم بن روح. قال الذهبي في «تلخيص الموضوعات»: هم ظلمات متروكون.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٢/١).

وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ الآية: معنى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: أعلم عباده بهذا الأمر الحق،

وقال * ص * : ﴿شَهِدَ﴾، بمعنى عَلِمَ أو قَضَى، أو حَكَمَ، أو بَيَّنَّ، وهي أقوال اهـ.

وأُسند أبو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ في كتاب «فَضْلِ الْعِلْمِ»؛ عن غَالِبِ الْقَطَّانِ، قَالَ: كُنْتُ اخْتَلَفْتُ إِلَى الْأَعْمَشِ، فَرَأَيْتُهُ لَيْلَةً قَامَ يَتَهَجَّدُ مِنَ اللَّيْلِ، وَقَرَأَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿ قَالَ الْأَعْمَشُ: وَأَنَا أَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ بِهِ، وَأُسْتَوْدِعُ اللَّهَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ، فَقُلْتُ لِلْأَعْمَشِ: إِنِّي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ تَرُدُّدَهَا، فَمَا بَلَغَكَ فِيهَا؟ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو وَائِلٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: عَبْدِي عَهْدٌ إِلَيَّ، وَأَنَا أَحَقُّ مِنْ وَفَى بِالْعَهْدِ، أَذْخِلُوا عَبْدِي/ الْجَنَّةَ ^(١) . اهـ.

١٨١

وقرأ جميعُ القراء «أَنَّهُ»؛ بفتح الهمزة؛ وبكسرها من قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾؛ على استئناف الكلام، وقرأ الكِسَائِيُّ وخذه: «أَنَّ الدِّينَ»؛ بفتح الهمزة بدلاً من «أَنَّهُ» الأولى، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾: عَظَّفَ على اسم الله، قال الفخر ^(٢): المراد بأُولِي الْعِلْمِ هنا: الَّذِينَ عَرَفُوا اللَّهَ بِالذَّلَالَةِ الْقَطْعِيَّةِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ، إِنَّمَا تَكُونُ مَقْبُولَةً، إِذَا كَانَ الْإِخْبَارُ مَقْرُونًا بِالْعِلْمِ، وَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ هَذِهِ الدَّرَجَةَ الشَّرِيفَةَ لَيْسَتْ إِلَّا لِلْعُلَمَاءِ بِالْأَصُولِ، وَتَكَرَّرَتْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هنا، وفائدةُ هذا التكرير الإعلامُ بأنَّ المسلمَ يجبُ أَنْ يَكُونَ أَبَدًا فِي تَكْرِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَإِنَّ أَشْرَفَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا الْإِنْسَانُ هِيَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ، وَإِذَا كَانَ فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ مُشْتَغَلًا بِذِكْرِهَا، وَتَكْرِيرِهَا، كَانَ مُشْتَغَلًا بِأَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، فَكَانَ مِنَ التَّكْرِيرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُضُّ الْعِبَادِ عَلَى تَكْرِيرِهَا . اهـ.

وصحَّ في البخاري، عنه ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ:

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٣/٣٢٥)، وابن عدي في «الكامل» (٥/١٦٩٣ - ١٦٩٤). والخطيب في «تاريخه» (٧/١٩٣ - ١٩٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٦٠٧). كلهم من طريق عمار بن عمر، عن أبيه، عن غالب القطان به.

وقال العقيلي في ترجمة عمار: لا يتابع على حديثه، ولا يعرف إلا به.

وقال الذهبي في «الميزان» (٣/٣٣٠): الآفة من عمر؛ فإنه منهم بالوضع. وأقره الحافظ في «اللسان» (٤/٢٧٣).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٧/١٧٩).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ^(١)، وروى زيد بن أرقم^(٢)، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِخْلَاصُهَا؟ قَالَ: أَنْ تَحْجِزَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ»^(٣)، خرَّجه الترمذي الحَكِيمُ في «تَوَادِرِ الْأُصُولِ» اهـ من «التَّذَكُّرَةِ».

و «قَائِمًا»: حال من اسمه تعالى في قوله: «شَهِدَ اللَّهُ»، أو من قوله: «إِلَّا هُوَ»، و «الْقِسْطُ»: العَدْلُ، وقوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...» الآية: الدِّينُ؛ في هذه الآية: الطَّاعَةُ وَالْمِلَّةُ، والمعْنَى: أَنَّ الدِّينَ الْمَقْبُولُ أو النافع هو الإسلام، والإسلام في هذه الآية هو الإيمان والطاعات، قاله أبو العالية^(٤)؛ وعليه جمهور المتكلمين، وحديث: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»^(٥)، وحديث مَجِيءٍ جَبْرِيلُ يَعْلَمُ النَّاسَ

(١) أخرجه البخاري (٢٣٣/١) كتاب «العلم»، باب الحرص على الحديث، حديث (٩٩)، و (٤٢٦/١١): كتاب «الرقاق»، باب صفة الجنة والنار، حديث (٦٥٧٠).

(٢) هو: زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج. أبو عمر. وقيل: أبو سعد، وقيل: أبو سعيد. الأنصاري، الخزرجي. سكن «الكوفة»، وابتنى بها داراً في «كندة».

روى حديثاً كثيراً عن النبي ﷺ، روي عنه من وجوه أنه شهد مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة، واستصغر يوم أحد، وكان يتيماً في حجر عبد الله بن رواحة، وسار معه إلى مؤتة، ويقال: إن أول مشاهدته «المريسيع». شهد مع علي «صفين»، وهو معدود في خاصة أصحابه. توفي بـ «الكوفة» سنة (٦٦)، وقيل: (٦٨).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٧٦/٢)، «الإصابة» (٢١/٣)، «الثقات» (١٣٩/٣)، «الاستيعاب» (٥٣٥/٢)، «الاستبصار» (١١)، «الأعلام» (٥٦/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٩٦/١)، «الطبقات الكبرى» (١٨/١)، (٦٥/٢)، «در السحابة» (٧٧٠)، «الرياض المستطابة» (٨٧)، «بقي بن مخلد» (٤٨). ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٩١/٢) رقم (٢٢٥٣)، وعزاه للطبراني في «الكبير»، و «الأوسط»، وضعفه.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١/١)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، و «الكبير»، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن عزوان، وهو وضاع.

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤١٣/٣).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤/١) كتاب «الإيمان»، باب دعاؤكم إيمانكم حديث (٨)، ومسلم (٤٥/١) كتاب «الإيمان»، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، حديث (١٦/١٩)، والترمذي (٥/٥) كتاب «الإيمان»، باب ما جاء في «بني الإسلام على خمس»، حديث (٢٦٠٩)، والنسائي (١٠٧/٨ - ١٠٨) كتاب «الإيمان»، باب على كم بني الإسلام، وأحمد (١٢٠/٢)، (١٤٣)، والحميدي (٣٠٨/٢) رقم (٧٠٣)، وابن خزيمة (٣٠٨، ٣٠٩)، وأبو يعلى (١٦٤/١٠) رقم (٥٧٨٨)، وابن حبان (١٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٢/٣)، والبيهقي (٨١/٤) كتاب «الزكاة»، والبغوي في «شرح السنة» (١/١) - ٦٤ بتحقيقنا من طرق عن ابن عمر به.

وقال الترمذي: هذ حديث حسن صحيح.

دِينَهُمْ^(١) يَفْسُرُ ذَلِكَ، ثم أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب بغد علمهم بالحقائق، وأنه

= وللحديث شاهد من حديث جرير: أخرجه أحمد (٣٦٣/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥١/٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٦/٢) رقم (٢٣٦٣)، من طرق عن الشعبي عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٥٠/١): وإسناد أحمد صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٣٣٠/٣)، والترمذي (٢٨١/١ - ٢٨٣)، كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في مواقيت الصلاة، الحديث (١٥٠)، والنسائي (٢٥٥/١)، كتاب «الصلاة»، باب آخر وقت العصر، والدارقطني (٢٥٧/١)، كتاب «الصلاة»، باب إمامة جبرائيل، الحديث (٣)، والحاكم (١٩٥/١)، كتاب «الصلاة»، والبيهقي (٣٦٨/١)، كتاب «الصلاة»، باب وقت المغرب، من حديث وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله «أن النبي ﷺ جاءه جبريل (عليه السلام) فقال له: قم فصله، فضلى الظهر حين زالت الشمس، ثم جاءه العصر فقال: قم فصله، فضلى العصر حين صار كل شيء مثله، ثم جاءه المغرب فقال: قم فصله، فضلى المغرب حين وجبت الشمس، ثم جاءه العشاء فقال: قم فصله، فضلى العشاء حين غاب الشفق، ثم جاء الفجر فقال: قم فصله، فضلى الفجر حين برق الفجر، أو قال سطع الفجر، ثم جاءه من الغد للظهر فقال: فصله فضلى الظهر حين صار ظل كل شيء مثله، ثم جاءه العصر فقال: قم فصله فضلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه، ثم جاءه المغرب وقتاً واحداً لم يزل عنه، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل، أو قال ثلث الليل، فضلى العشاء، ثم جاءه الفجر حين أسفر جداً، فقال: قم فصله، فضلى الفجر، ثم قال: ما بين هذين الوقتين وقت».

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

* حديث جابر في المواقيت:

قد رواه عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وأبو الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، نحو حديث وهب بن كيسان، عن جابر، وقال محمد - يعني البخاري -: أصح شيء في المواقيت، حديث جابر عن النبي ﷺ.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح مشهور. ووافقه الذهبي، وقال الزيلعي (٢٢٢/١)؛ وقال ابن القطان: هذا الحديث يجب أن يكون مرسلًا؛ لأن جابرًا لم يذكر من حدثه بذلك، وجابر لم يشاهد ذلك صريحة الإسرائ؛ لما علم أنه أنصاري، إنما صحب بالمدينة، ولا يلزم ذلك في حديث أبي هريرة، وابن عباس، فإنهما روايا إمامة جبريل من قول النبي ﷺ.

وتعقبه ابن دقيق العيد كما في «نصب الراية» (٢٢٣/١) فقال: وهذا المرسل غير ضار، فمن أبعد البعد أن يكون جابر سمعه من تابعي عن صحابي، وقد اشتهر أن مراسيل الصحابة مقبولة، وجهالة عينهم غير ضارة.

قلت: وقد صرح جابر بأن هذا من كلام النبي ﷺ كما في «سنن الترمذي». فقال: عن رسول الله ﷺ قال: «أمني جبريل».. فذكر الحديث.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة منهم: ابن عباس، وأبو هريرة، وأبو مسعود الأنصاري، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري وأنس.

* حديث ابن عباس:

كان بَغِيًّا وطلباً للدنيا؛ قاله ابن عُمَر وغيره^(١)، و «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»: لفظ يَعُمُّ اليهود والنصارى، لكنَّ الرَّبِيعَ بنَ أَنَسٍ^(٢) قال: المرادُ بهذه الآية اليهود؛ اختلفوا بعد مَوْتِ

= أخرجه أبو داود (٣٩٣)، والترمذي (١٤٩)، والحاكم (١٩٣/١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٨٧/١)، وابن الجارود (٧٨)، والدارقطني (٢٥٨/١)، والبيهقي (٣٦٤/١) من طريق عبد الرحمن بن الحارث بن عياش بن أبي ربيعة، عن حكيم عن نافع بن جبير بن مطعم، عن ابن عباس بنحو حديث جابر.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان، وابن خزيمة؛ فقد رواه في صحيحيهما كما في «نصب الراية» (٢٢١/١).

لكن قال الزيلعي في «نصب الراية» (٢٢١/١): وعبد الرحمن بن الحارث هذا تكلم فيه أحمد، وقال: متروك الحديث، هكذا حكاه ابن الجوزي في «كتاب الضعفاء»، ولينه النسائي، وابن معين، وأبو حاتم الرازي، ووثقه ابن سعد، وابن حبان. قال في «الإمام»: ورواه أبو بكر بن خزيمة في «صحيحه»، وقال ابن عبد البر في «المهيد»: وقد تكلم بعض الناس في حديث ابن عباس هذا بكلام لا وجه له، ورواته كلهم مشهورون بالعلم.

وقد أخرجه عبد الرزاق عن الثوري، وابن أبي سبرة، عن عبد الرحمن بن الحارث بإسناده، وأخرجه أيضاً عن العمري، عن عمر بن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن ابن عباس نحوه، قال الشيخ: وكأنه اكتفى بشهرة العلم مع عدم الحرج الثابت، وأكد هذه الرواية بمتابعة ابن أبي سبرة، عن عبد الرحمن، ومتابعة العمري، عن عمر بن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه، وهي متتابعة حسنة. اهـ.

* حديث أبي هريرة:

أخرجه النسائي (٢٨٨/١)، والدارقطني (٢٥٨/١)، والحاكم (١٩٤/١)، والبيهقي (٣٦٩/١) بلفظ: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»، فصلى الصبح حين طلع الفجر... بنحو الحديث الأول. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

* حديث أبي مسعود الأنصاري:

أخرجه أبو داود (٣٩٤)، والدارقطني (٢٥٧/١)، والحاكم (١٩٢/١)، والبيهقي (٣٦٣/١). وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

* حديث عمرو بن حزم:

أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»، كما في «نصب الراية» (٢٢٥/١)، وعنه إسحاق بن راهويه في مسنده.

* حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه أحمد (٣٠/٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٨٨/١).

* حديث أنس:

أخرجه الدارقطني (٢٥٧/١)، من طريق قتادة عنه.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١٣/٣) برقم (٦٧٦٤) وذكره ابن عطية (٤١٣/١).

(٢) الربيع بن أنس الكندي، أو الحنفي، البصري، عن أنس، والحسن، وأرسل عن أم سلمة. وعنه سليمان =

موسى، وبعد مُضي ثلاثة قرون^(١)، وقيل: الآية توبّخ لنصارى نَجْرَانَ، وسُرْعَةُ الحِسَاب: يحتمل أن يراد بها: مَجِيءُ القِيَامَةِ والحِسَاب؛ إذ كل آت قريب، ويحتمل أن يراد بسُرْعَةِ الحِسَاب: أن الله تعالى بإحاطته بكل شيء علماً لا يحتاج إلى عد ولا فكرة؛ قاله مجاهد^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ...﴾ الآية: الضمير في ﴿حَاجُّوكَ﴾ لليهود، ولنصارى نَجْرَانَ، والمعنى: إن جادلوك وتعنّوا بالأقاييل المزورة والمغالطات، فأسند إلى ما كُلِّفَ من الإيمان، والتبليغ، وعلى الله نصرُكَ.

وقوله: ﴿وَجْهِيَ﴾: يحتمل أن يراد به المَقْصِدُ، أي: جعلت مقصدي لله، ويحتمل أن يراد به الذات، أي: أَسْلَمْتُ شَخْصِي وذاتي لله، وأَسْلَمْتُ؛ في هذا الموضع بمعنى: دَفَعْتُ، وَأَمْضَيْتُ، وليست بمعنى دَخَلْتُ في السُّلْم؛ / لأن تلك لا تتعدى، وَمَنِ اتَّبَعَنِي: ٨١ ب في موضع رفع؛ عطفاً على الضمير في «أَسْلَمْتُ»، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، في هذا الموضع: يجمعُ اليهود والنصارى؛ باتِّفَاقٍ، وَالْأُمِّيُّونَ: الذين لا يكتبون، وهم العَرَبُ في هذه الآية، وقوله: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾: تقرير في ضمنه الأمر، وقال الرَّجَّاج: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾: تهديد، وهو حسن، و ﴿الْبَلَاغُ﴾: مَضْدَرُ بَلَغَ؛ بتخفيف عَيْنِ الفعل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وعدٌ للمؤمنين، ووعدٌ للكافرين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُغْوَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في اليهود

= الثَّيْمِي، وسليمان الأعمش، وابن المبارك، قال أبو حاتم: صدوق، قيل: توفي سنة تسع وثلاثين ومائة، وقيل: سنة أربعين. ينظر: «الخلاصة» (٣١٨/١).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١٣/٣) برقم (٦٧٦٥)، وذكره ابن عطية (٤١٣/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢/٢) وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١٤/٣) برقم (٦٧٦٨) بنحوه.

والنصارى، وتعمُّ كلَّ من كان بهذه الحال، وفيها توبيخٌ للمعاصرين لرسول الله ﷺ، روى أبو عبيدة بن الجراح^(١)، عن النبي ﷺ؛ «أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَتَلُوا ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا، فَأَجْتَمَعَ مِنْ عِبَادِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ؛ لِيُعَذِّبُوا الْمُنْكَرَ، وَيُنَكِّرُوا، فَقَتَلُوا جَمِيعًا، كُلُّ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢)، و﴿حَبِطَتْ﴾: معناه: بَطَلَتْ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ...﴾ الآية: قال ابن عباس: نَزَلَتْ هذه الآية بسبب أن النبي ﷺ دَخَلَ بَيْتَ الْمَدْرَاسِ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ يَهُودٍ، فدعاهم إلى الله تعالى، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: عَلَى أَيِّ دِينٍ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، فقال رسول الله ﷺ: أَنَا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَقَالَا: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: فَهَلُمُّوا إِلَى التَّوْرَةِ، فَهِيَ بَيْنُنَا، وَبَيْنَكُمْ، فَأَبَيَا عَلَيْهِ، وَنَزَلَتْ الآية^(٣).

قال ع^(٤): * فالكِتَابُ؛ في قوله: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾: اسمُ جنس، والكِتَابُ؛ في قوله: ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ هو التوراة، وقال قتادة وابن جريج: هو القرآن^(٥)، ورجَّح الطبري الأول^(٦).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾: الإشارة فيه إلى التولي والإعراض، أي: إنما تولَّوا، وأعرضوا؛ لاغترارهم بأقوالهم، وأفترائهم، ثم قال تعالى خطاباً لنبى محمد ﷺ،

(١) هو: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر... أبو عبيدة. القرشي. الفهري. أمين الأمة، المشهور بـ «أبو عبيدة بن الجراح». قال ابن الأثير: أحد العشرة المشهور لهم بالجنة، وشهد بدرأً وأحدًا. وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية. توفي في طاعون «عمواس» سنة (١٨).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٠٥/٦)، «الإصابة» (١٢٨/٧)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٨٥/٢)، «بقي بن مخلد» (١٥١)، «الاستيعاب» (١٧١٠/٤)، «تقريب التهذيب» (٤٤٨/٢)، «تهذيب التهذيب» (١٥٩/١٢)، «تهذيب الكمال» (١٦٢٣/٣)، «العقد الثمين» (٦٩/٨)، «مقاتل الطالبين» (٥٧).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١٦/٣) برقم (٦٧٧٧)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣/٢)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١٧/٣) برقم (٦٧٧٨) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤/٢)، وزاد نسبه إلى ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٦/١).

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣١٢/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤١٦/١).

(٦) ينظر الطبري (٢١٩/٣).

وأمتة، على جهة التوقيف والتعجيب: فكيف حال هؤلاء المغترين بالباطيل، إذا حشروا يوم القيامة، وأضحلت تلك الزخارف والدعائى، وجوزوا بما أكتسبوه من كفرهم، وأعمالهم القبيحة، قال ابن عطية: والصحيح في يوم القيامة أنه يوم؛ لأن قبله ليلة، وفيه شمس^(١)، وقال النقاش: المراد باليوم الوقت.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُضِلُّ مَنْ تَشَاءُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعِزِّ حِسَابِ ﴿٢٧﴾ لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُيُوتِهِمْ أَوْ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ...﴾ الآية: هو سبحانه وتعالى مالك الملك كله مطلقاً في جميع أنواعه، وأشرف ملك يؤتیه عباده سعادة الآخرة، روي أن الآية نزلت بسبب أن النبي ﷺ بشر أمته؛ بفتح ملك فارس وغيره، فقالت اليهود والمنافقون: هيهات، وكذبوا بذلك.

ومذهب البصريين أن الأصل في «اللهم»: يَا إِلَه، فعوض من ياء النداء ميماً مشددة.

و ﴿مَلِكُ﴾: نصب على النداء، وخص تعالى الخير بالذكر، وهو تعالى بيده كل شيء؛ إذ الآية في معنى دعاء ورغبة، فكأن المعنى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ فَأَجْزِلْ حَظِّي مِنْهُ، قال النووي: ورؤيتنا في كتاب «الترمذي» وغيره، عن عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ/ قَالَ: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ ١٨٢ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، يُخَيَّرَ وَيُمَيَّتَ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ»^(٢)، ورواه الحاكم أبو عبد الله في «المستدرک علی الصحیحین»؛ من طرق كثيرة، وزاد فيه في بعض طرقه: «وَبَنَى لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ» قال الحاكم: وفي الباب، عن جابر،

(١) ذكره ابن عطية (٤١٤/١).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٩١/٥)، كتاب «الدعوات»، باب ما يقول إذا دخل السوق، حديث (٣٤٢٨)، (٣٤٢٩)، وابن ماجه (٧٥٢/٢)، كتاب «التجارات»، باب الأسواق ودخولها، حديث (٢٢٣٥)، والحاكم (٥٣٩/١) من حديث عمر بن الخطاب.

وأبي هريرة، وبُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ . اهـ من «الحلية»^(١).

وقال ابن عباس وغيره في معنى قوله تعالى: ﴿تَوَلَّجَ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ...﴾ الآية: إنه ما ينتقص من النهار، فيزيد في الليل، وما ينتقص من الليل، فيزيد في النهار ذأباً كل فضل من السنة^(٢)، وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار؛ كأن زوال أحدهما وتولُّج في الآخر.

واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...﴾ الآية:

فقال الحسن: معناه: يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ^(٣)، وروي نحوه، عن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ^(٤)، وروى الزُّهْرِيُّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لَمَّا سَمِعَ نَعْمَةَ^(٥) خَالِدَةَ بِنْتِ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَعْثُوثَ، فَقَالَ: «مَنْ هَذِهِ» فَأُخْبِرَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ»، وَكَانَتْ أَمْرًا صَالِحَةً، وَكَانَ أَبُوهَا كَافِرًا^(٦)، والمراد على هذا: موت قلب الكافر، وحياة قلب المؤمن.

(١) ينظر: «الأذكار» (ص ٣٣٧ - ٣٣٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٢/٣) برقم (٦٧٩٢) وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٨٤) ونسبه للجمهور، وذكره ابن عطية (١/٤١٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٥/٣) برقم (٦٨١٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/٢٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٧)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٥/٣) برقم (٦٨١٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٧)، وعزاه لابن مردويه.

(٥) ذكر هذا الحديث الطبري (٦٨٢١) بلفظ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دخل على بعض نسائه، فإذا بامرأة حسنة النعمة، فقال: من هذه؟ قالت إحدى خالاتك! قال: إن خالاتي بهذه البلدة لغرائب! وأبي خالاتي هذه؟ قالت: خالدة ابنة الأسود بن عبد يغوث. قال: سبحانه الذي يخرج الحي من الميت! وكانت امرأة صالحة، وكان أبوها كافراً. وقد علق عليه الشيخ أحمد شاكر قائلاً:

قوله: «حسنة النعمة»، في المطبوعة: «النعمة» بالغين المعجمة، وهو خطأ، والنعمة (بفتح النون وسكون: العين) المسرة والفرح والترفة، وكأنه يعني ما يبين عليها من أثر الترف والنعمة. بيد أن الذي رواه ابن سعد، وما نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة: «حسنة الهيئة».

هذا ما قاله العلامة أحمد شاكر، إلا أن الرواية الواردة في الأصول عندنا «لما سمع نعمة» تشعر بترجيح المعجمة أو لعل الحديث ذكر مع اختلاف في ألفاظه.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/٣٠٨ - شاكر)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/١١٧ - ١١٨) عن الزهري مرسلاً، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٧)، وزاد نسبته إلى ابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وذهب جمهورٌ كثيرٌ إلى أنَّ الحياة والمَوْتَ في الآية حقيقة، لا أنها استعارة، ثم اختلفوا في المُثَلِّ التي فسَّروا بها.

فقال ابن مسعود: هي الثُّنْطُفة، تَخْرُجُ من الرَّجُلِ، وهي ميتة، وهو حيٌّ، ويخرج الرَّجُلُ منها، وهي ميتة^(١).

وقال عكرمة: هو إخراج الدَّجَاجَةِ، وهي حية، مِنَ البَيْضَةِ، وهي ميتة، وإخراج البَيْضَةِ، وهي ميتة من الدَّجَاجَةِ، وهي حية^(٢).

وروى السُّدِّيُّ، عن أبي مالك، قال: هي الحَبَّةُ تَخْرُجُ من السَّنْبِلَةِ، والسَّنْبِلَةُ تَخْرُجُ من الحَبَّةِ، وكذلك التَّوَاةُ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية: هذا النهي عن الاتِّخَاذِ، إنما هو عن إظهار اللُّطْفِ للكَفَّارِ، والميلِ إِلَيْهِمْ، فأما أن يتخذوا بِالْقَلْبِ، فلا يفعل ذلك مؤمن، ولفظ الآية عامٌ في جميع الأعصار.

واختلف في سَبَبِ نزولها، فقال ابنُ عَبَّاسٍ: في كَغَبِ بَنِ الْأَشْرَفِ وغيره، قد بطنوا بِنَفَرٍ من الأنصار، ليفتُوهُم عن دينِهِم، فنزلت في ذلك الآية^(٤)، وقال قومٌ: نزلت في قِصَّةِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، وكتابه إلى أهل مَكَّةَ^(٥)، والآية عامة في جميع هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: معناه: في شيءٍ مَرَضِيٍّ؛ كقوله ﷺ: «مَنْ عَشَّنَا، فَلَيْسَ مِنَّا»^(٦)، ثم أباح سبحانه إظهار آتخاذهُم بشرط الاتِّقَاءِ، فأما إبطانه، فلا يصح أن يتصف به مؤمنٌ في حالٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ...﴾ إلى آخر الآية: وعيدٌ وتنبيهٌ ووعظٌ وتذكيرٌ بالآخرة.

(١) أخرجه الطبري (٣/٢٢٣)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٣٨٥)، والبغوي في «تفسيره» (١/٢٩١).

(٢) أخرجه الطبري بنحوه في «تفسيره» (٣/٢٢٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/٢٩١)، وابن عطية (١/٤١٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٧) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن عكرمة.

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤١٨).

(٤) ذكره ابن عطية (١/٤١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٨).

(٥) ذكره ابن عطية (١/٤١٩).

(٦) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿نَفْسُهُ﴾: نائبة عن «إِيَّاهُ»، وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر، والنفس في مثل هذا راجع إلى الذات، وفي الكلام حذف مضاف؛ لأن التحذير إنما هو من عقاب وتنكيل ونحوه، قال ابن عباس، والحسن: / ويحذركم الله عقابه^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ...﴾ الآية: الضمير في «تَخَفُوا» هو للمؤمنين الذين نُهوا عن الكافرين، والمعنى: إنكم إن أبطنتم الحِرْصَ على إظهار مواليتهم، فإن الله يعلم ذلك، وَيَكْرَهُهُ منكم.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَعْلَزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾، قال ابن هشام في «المغني»: «يَوْمَ»: نصبٌ بمحذوف، تقديره: اذكروا أو أذكروا، ولا يصح أن يكون ظرفاً لـ «يحذركم»؛ كما زعم بعضهم؛ لأن التحذير في الدنيا وقع لا في الآخرة. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ﴾، يحتمل أن تكون «مَا» معطوفة على «مَا» الأولى، فهي في موضع نصب، ويكون «تَوَدُّ» في موضع الحال، وإليه ذهب الطبري^(٢) وغيره، ويحتمل أن تكون «مَا» رُفِعَ بِالْإِتْدَاءِ، والخبر في قوله: «تَوَدُّ». وما بعده، والأمْدُ: الغاية المَحْدُودَةُ من المكان أو الزمان.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى أن تحذيره رَأْفَةً منه سبحانه بعباده، ويحتمل أن يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة، فمقتضى ذلك: التأنيس؛ لئلا يفرط الوعيد على نفس مؤمن، فسبحانه ما أرحمه بعباده!.

وعن منصور بن عمار^(٣)؛ أنه قال: أعقل الناس مُحْسِنٌ خَائِفٌ، وأجهل الناس مُسِيءٌ

(١) ذكره ابن عطية (١/ ٤٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٢٣٠).

(٣) منصور بن عمار بن كثير الواعظ، البليغ الصالح، الرباني، أبو السري السلمي، الخراساني، وقيل: البصري، كان عديم النظير في الموعظة والتذكير، روى عن الليث، وابن لهيعة، ومَعْرُوفُ الْخِطَّاطِ، وهِشَلُ بْنُ زِيَادٍ، والمُنْكَدِرُ بن محمد، وبشير بن طلحة وجماعة، ولم يكن بالمتصلع من الحديث. قال أبو حاتم: صاحب موعظ، ليس بالقوي.

وقال ابن عدي: حديثه منكر.

وقال الدارقطني: يروي عن ضعفاء أحاديث لا يتابع عليها.

أَمِنْ، فلما سمع عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ^(١) منه هذا الكلامَ؛ بَكَى حَتَّى بَلَ ثِيَابِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَتَنْتَلِي عَلَيَّ، يَا مَنْصُورُ، شَيْئاً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَنَلَا عَلَيْهِ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً...﴾ الآية، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: قَتَلْتَنِي، يَا مَنْصُورُ، ثُمَّ غَشِيَ عَلَيْهِ . اهـ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي...﴾ الآية: قال الشيخ العارف بالله ابنُ أَبِي جَمْرَةَ (رضي الله عنه): مِنْ علامة السعادة للشخص: أَنْ يَكُونَ مُغْتَنِيّاً بِمَعْرِفَةِ السُّنَّةِ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِهِ، وَالَّذِي يَكُونُ كَذَلِكَ هُوَ دَائِمٌ فِي عِبَادَةٍ؛ فِي كُلِّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَهَذَا هُوَ طَرِيقُ أَهْلِ الْفَضْلِ؛ حَتَّى حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ؛ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلِ الْبَطِيخَ سَنِينَ؛ لَمَّا لَمْ يَلْغُهُ كَيْفِيَّةُ السُّنَّةِ فِي أَكْلِهِ، وَكَيْفَ لَا، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وَالْإِتِّبَاعِيَّةُ الْكَامِلَةُ إِنَّمَا تَصَحُّ بِأَنْ تَكُونَ عَامَّةً فِي كُلِّ الْأَشْيَاءِ، يَعْنِي: إِلَّا مَا خَصَّصَهُ بِهِ الدَّلِيلُ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْ أَهْلِهَا فِي الدَّارَيْنِ. انتهى.

قال * ع^(٢): * قال الحسن بن أبي الحسن، وابن جُرَيج: إِنَّ قوماً على عهد النبي ﷺ قالوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَحِبُ رَبَّنَا، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَقِيلَ: أَمْرٌ ﷺ أَنْ يَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ لِنَصَارَى نَجْرَانَ.

قال * ع^(٣): * ويحتمل أن تكون الآية عامة لأهل الكتاب اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا يدعون أنهم يحبون الله، ويحبهم.

قال عِيَّاضٌ: أَعْلِمَ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً، آثَرَهُ، وَآثَرُ مُوَافَقَتِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ صَادِقاً فِي حُبِّهِ، وَكَانَ مَدْعِياً، فَالصَّادِقُ فِي حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ، مَنْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عِلَامَاتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَأَوَّلُهَا الْإِقْتِدَاءُ بِهِ، وَاتِّبَاعُ سُنَّتِهِ، وَاتِّبَاعُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَابِهِ فِي عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي...﴾ الآية، قَالَ عِيَّاضٌ: رَوَى فِي الْحَدِيثِ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ اسْتَمْسَكَ بِحَدِيثِي، وَفَهِمَهُ وَحَفِظَهُ، جَاءَ مَعَ الْقُرْآنِ، وَمَنْ

= ينظر: «التاريخ الكبير» (٣٥٠/٧)، و «طبقات الصوفية» (١٣٠، ١٣٦)، و «السير» (٩٣/٩ - ٩٤)، و «النجوم الزاهرة» (٢/٢٤٤).

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم، الأموي، القرشي، أبو الوليد: من أعظم الخلفاء ودهاتهم، نشأ في «المدينة» فقيهاً واسع العلم، متعبداً، ناسكاً، وشهد يوم الدار مع أبيه، نقش خاتمه «أمنت بالله مخلصاً» توفي بـ «دمشق» سنة ٨٦ هـ. انظر: «ابن الأثير» (١٩٨/٤)، و «الطبري» (٥٦/٨)، و «الأعلام» (٤/١٦٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢١/١ - ٤٢٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٢/١).

١٨٣ تَهَاوَنَ بِالْقُرْآنِ، وَحَدِيثِي، / خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ... الحديث^(١)، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، عن النبي ﷺ قَالَ: «الْمُسْتَمْسِكُ بِسُتِّي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي، لَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ»^(٢)، وَقَالَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، ذَكَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ، فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ أَبَدًا، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، ذَكَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ، فَأَقْشَعَرَ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، إِلَّا كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ، قَدْ يَبَسَ وَرَقُهَا، فَهِيَ كَذَلِكَ؛ إِذَا أَصَابَتْهَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَتَحَاتَّ عَنْهَا وَرَقُهَا إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ؛ كَمَا تَحَاتَّ عَنِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا...» الحديث.

قال عِيَاضٌ: ومن علامات محبته ﷺ: زُهِدٌ مَدْعِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِثَارَةُ الْفَقْرِ، وَاتِّصَافُهُ فِيهِ؛ ففي حديث أبي سعيد: «إِنَّ الْفَقْرَ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنْكُمْ أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي، أَوْ الْجَبَلِ إِلَى أَسْفَلِهِ»^(٣)، وفي حديث عبد الله بن مَعْقِلٍ^(٤): «قال رجلٌ للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُحِبُّكَ، فَقَالَ: أَنْظُرْ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لِأُحِبُّكَ؛ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ قَالَ: «إِنْ كُنْتُ تُحِبُّنِي، فَأَعِدْ لِلْفَقْرِ تَجَقُّفًا»، ثم ذكر نحو حديث أبي سعيد بمعناه^(٥) اهـ من «الشفا».

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/١٨).

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧٣٩/٢) من طريق الحسن بن قتيبة عن عبد الخالق بن المنذر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً.

وذكره الذهبي في «الميزان» (٥١٩/١) في ترجمة الحسن، وقال: هالك. قال الدارقطني: متروك الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد (٤٢/٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) هو: عبد الله بن مَعْقِل بن عبد غنم المزني. قال البخاري: له صحبة، سكن «البصرة»، وهو أحد البكائين في غزوة «تبوك»، وشهد بيعة الشجرة، ثبت ذلك في الصحيح، وهو أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقه الناس بـ «البصرة». وهو أول من دخل مدينة «تستر» قال ابن الأثير: روي عن النبي ﷺ أحاديث. وروى عنه: الحسن البصري، وأبو العالية، ومطرف، ويزيد بن عبد الله بن الشخير، وعقبة بن صهبان... وغيرهم.

توفي بـ «البصرة» سنة (٥٩ هـ)، وقيل: سنة (٦٠ هـ).

تنظر ترجمته في: «اللقاات» (٢٣٦/٣)، «أسد الغابة» (٣٩٨/٣)، «الاستبصار» (٢٢٥)، «الجرح والتعديل» (١٤٩/٥)، «التحفة اللطيفة» (٢٣/٢)، «الإصابة» (١٣٢/٤)، «تقريب التهذيب» (٤٥٣/١)، «تهذيب التهذيب» (٤٢/٦)، «بقي بن مخلد» (٧٥)، «التاريخ الصغير» (١٢٨/١)، «التعديل والتجريح» (٧٧٦)، «الخلاصة» (١٠٣/٢)، «الاستيعاب» (٣)، (٩٩٦/٤).

(٥) أخرجه الترمذي (٥٧٦-٥٧٧) كتاب «الزهد»، باب ما جاء في فضل الفقر، حديث (٢٣٥٠) من طريق أبي الوائز عن عبد الله بن مَعْقِل به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأبو الوائز الراسي اسمه جابر بن عمرو، وهو بصري.

قال * ع^(١) : * والمحبة: إرادة يقرن بها إقبال من النفس وميل بالمعتقد، وقد تكون الإرادة المجردة فيما يكره المريد، والله تعالى يريد وقوع الكفر، ولا يحبه، ومحبة العبد لله تعالى يلزم عنها، ولا بد أن يطيعه، ومحبة الله تعالى أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض، فلطف الله تعالى بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته، وبهذا النظر يفسر لفظ المحبة؛ حيث وقعت من كتاب الله عز وجل.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا...﴾ الآية: لما مضى صدر من حاجة نصارى نجران، والرد عليهم وبيان فساد ما هم عليه، جاءت هذه الآيات معلمة بصورة الأمر الذي قد ضلوا فيه، ومثبته عن حقيقته، كيف كانت، فبدأ تعالى بذكر فضل آدم ومن ذكر بعده، ثم خص امرأة عمران بالذكر؛ لأن القضاء وصف قصة القوم إلى أن يبين أمر عيسى (عليه السلام)، وكيف كان، وأنصرف «نوح»، مع عجمته وتعريفه؛ لخفة الاسم؛ كهود ولوط، قال الفخر^(٢) هنا: أعلم أن المخلوقات على قسمين: مكلف، وغير مكلف، واتفقوا على أن المكلف أفضل من غير المكلف، واتفقوا على أن أصناف المكلفين أربعة: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين.

* ت * : تأمله جعل الشياطين قسيماً للجن . اهـ.

والآل؛ في اللغة: الأهل، والقرابة، ويقال للأتباع، وأهل الطاعة: آل، والآل؛ في الآية: يحتمل الوجهين، فإن أريد بالآل: القرابة، فالتقدير أن الله اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم، أو على العالمين جميعاً؛ بأن يقدر نبينا محمد ﷺ من آل إبراهيم، وإن أريد بالآل: الأتباع، فيستقيم دخول أمة نبينا محمد ﷺ في الآل؛ لأنها على ملّة إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، أي: متشابهين في الدين، والحال، وعمران/ هو رجل من بني إسرائيل، وامرأة عمران أسماها حنة، ومعنى: ﴿نَذَرْتُ﴾: ٨٣ ب جعلت لك ما في بطني محرراً، أي: حبساً على خدمة بيتك، محرراً من كل خدمة وشغل من أشغال الدنيا، والبيت الذي نذرته له هو بيت المقدس، ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾، أي: أقرض عني

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٢٢).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٨/١٨).

في ذلك، وأَجْعَلْهُ فعلاً مقبولاً مُجَازِي به، و﴿السَّمِيعُ﴾: إشارة إلى دعائها، و﴿الْعَلِيمُ﴾: إشارة إلى نيتها.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّكَ لَآتِنُنِي وَإِنِّي سَمِئْتُهَا مَرِيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾: الوضع: الولادة، وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾: لفظ خبر في ضميره التحسر والتلهف، وبين الله ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾، وقولها: ﴿وَلَئِنَّكَ لَآتِنُنِي﴾، تريد في امتناع نذرها؛ إذ الأنثى تحيض ولا تصلح لصحبة الرهبان، قاله قتادة وغيره^(١)، وبدأت بذكر الأهم في نفسها، وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول: وليس الأنثى كالذكر، وفي قولها: ﴿وَإِنِّي سَمِئْتُهَا مَرِيَمَ﴾: سنة تسمية الأطفال قُرب الولادة؛ ونحوه قول النبي ﷺ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ مَوْلُودٌ، فَسَمَيْتُهُ بِأَسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»^(٢)، وبأبي الآية إعادة، قال النووي^(٣): «وَرُويَا فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ؛ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ»^(٤)، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣٧/٣) برقم (٦٨٧٤)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٨٧/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٢٥/١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٠٧/٤)، كتاب «الفضائل»، باب رحمته بالصبيان والعيال، حديث (٢٣١٥/٦٢)، وأبو داود (٢١٠/٢)، كتاب «الجنائز»، باب في البكاء على الميت، حديث (٣١٢٦)، وأحمد (٣/١٩٤)، وابن حبان (٢٩٠٢)، والبيهقي (٦٩/٤) كلهم من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس به.

(٣) ينظر: «حلية الأبرار» (ص ٣٢١).

(٤) هو: عويمر بن عامر بن مالك بن زيد بن قيس بن أمية بن عامر بن عدي بن كعب بن الخزرج. . . وقيل: اسمه: عامر بن مالك، و «عويمر» لقب. أبو الدرداء.

قال ابن الأثير في «الأسد»: تأخر إسلامه قليلاً، كان آخر أهل داره إسلاماً، وحسن إسلامه، وكان فقيهاً عاقلاً حكيماً. أخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي، وقال النبي ﷺ: «وعويمر حكيم أمتي» شهد ما بعد «أحد» من المشاهد. قلت: وهو صحابي مشهور بالزهد والورع والحكمة، ولا يتسع المقام للحديث عنه.

وفاته قبل مقتل عثمان بستين.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٩٧/٦)، «الإصابة» (٥٨/٧)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٦٣/٢)، «الاستيعاب» (١٦٤٦/٤)، «بقي بن مخلد» (٢١)، «تقريب التهذيب» (٤١٩/٢)، «تهذيب التهذيب» =

قَالَ: «إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ»^(١). وفي صحيح مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»^(٢) وفي سنن أَبِي دَاوُدَ وَالتَّسَائِي، وَغَيْرِهِمَا، عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْجُشَمِيِّ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَسَمُّوا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَزْبٌ وَمُرَّة»^(٣). اهـ.

وفي الحديث، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ مِنْ بَنِي آدَمَ لَهُ طَعْنَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَسْتَهْلُ الصَّبِيُّ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ، وَابْنَتِهَا؛ فَإِنَّ أُمَّهَا

= (١٢/٧٩، ٨٩)، «تهذيب الكمال» (٣/١٦٠٣)، «الجرح والتعديل» (٩/٣٦٨)، «التاريخ» لابن معين (٢/١٤٦)، «الكنى والأسماء» (١/٢٧)، «تنقيح المقال» (٣/١٦)، «المصباح المضيء» (١/١٥١).
(١) أخرجه أبو داود (٢/٧٠٥)، كتاب «الأدب»، باب في تغيير الأسماء، حديث (٤٩٤٨)، وأحمد (٥/١٩٤)، والدارمي (٢/٢٩٤)، كتاب «الاستئذان»، باب في حسن الأسماء، وابن حبان (٥٨١٨)، والبيهقي (٩/٣٠٦)، كتاب «الضحايا»، باب ما يستحب أن يسمى به. وأبو نعيم في «الحلية» (٥/١٥٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/٣٨٢. بتحقيقنا) كلهم من طريق عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي عن أبي الدرداء مرفوعاً.

وقال البيهقي: هذا مرسل؛ ابن أبي زكريا لم يسمع من أبي الدرداء.
قال ابن أبي حاتم في «المراسيل» (ص ١١٣) رقم (٤١٠): سمعت أبي يقول: عبد الله بن أبي زكريا لم يسمع أبا الدرداء. اهـ.

وأشار إلى هذا الانقطاع أيضاً الحافظ المنذري في «الترغيب» (٢/٦٩٧).
(٢) أخرجه مسلم (٣/١٦٨٢)، كتاب «الأدب»، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، حديث (٢/٢١٣٢)، وأبو داود (٢/٧٠٥)، كتاب «الأدب» باب في تغيير الأسماء، حديث (٤٩٤٩)، والترمذي (١٣٢/٥) كتاب «الأدب»، باب ما جاء ما يستحب من الأسماء، حديث (٢٨٣٣)، وابن ماجه (٢/١٢٢٩)، كتاب «الأدب»، باب ما يستحب من الأسماء، حديث (٣٧٢٨)، والبيهقي (٩/٣٠٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/٣٨٦، ٣٨٧. بتحقيقنا) من حديث ابن عمر مرفوعاً.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وللحديث شاهد من حديث أنس: أخرجه أبو يعلى (٥/١٦٤) رقم (٢٧٧٨) من طريق إسماعيل بن مسلم المكي عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله: عبد الله، وعبد الرحمن، والحارث».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/٥٢) وقال: رواه أبو يعلى، وفيه إسماعيل بن مسلم المكي، وهو ضعيف اهـ.

وذكره أيضاً الحافظ في «المطالب العالية» (٢٨٠٢)، وعزاه لأبي يعلى، وقال: له شاهد من حديث ابن عمر في صحيح مسلم.

(٣) أخرجه أبو داود (٤/٢٨٧-٢٨٨)، كتاب «الأدب»، باب تغيير الأسماء، حديث (٤٩٥٠)، والتسائي (٦/٢١٨)، كتاب «الخیل»، باب ما يستحب من شبة الخيل، من حديث أبي وهب الجشمي.

قَالَتْ حِينَ وَصَّغَتْهَا: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، فَضَرِبَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ، فَطَعَنَ الشَّيْطَانُ فِي الْحِجَابِ^(١)، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُ هَذَا الْحَدِيثِ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ؛ كَمَا ذَكَرْتَهُ، قَالَ النَّوَوِيُّ: بَابُ مَا يُقَالُ عِنْدَ الْوَلَادَةِ^(٢): رُؤْيَا فِي كِتَابِ ابْنِ السُّنِّي، عَنْ فَاطِمَةَ^(٣) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا دَنَا وَلَدَهَا، أَسْرَأُ سَلَمَةً، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ؛ أَنْ تَأْتِيَاهَا، فَتَقْرَأَ عِنْدَهَا آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣٦/٦ - شاکر) رقم (٦٨٨٤)، (٦٨٨٥)، (٦٨٨٦)، والحاكم (٥٩٤) كلاهما من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وهذه الرواية ذكرها السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤/٢) وزاد نسبتها إلى عبد بن حميد.

وأخرجه البخاري (٦٠/٨) كتاب «التفسير»، باب ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، حديث (٤٥٤٨) و (٥٤١/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ»، حديث (٣٤٣١)، ومسلم (١٨٣٨/٤) كتاب «الفضائل»، باب فضائل عيسى عليه السلام، حديث (١٤٦/٢٣٦٦)، وأحمد (٢٣٣/٢)، (٢٧٤-٢٧٥)، والطبري في «تفسيره» (٦/٣٣٩ - شاکر) رقم (٦٨٩١)، وابن حبان (٦٢٣٥ - الإحسان)، والواحدي في «الوسيط» (١/٤٣١ - بتحقيقنا)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢٩٥/١) كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.

وأخرجه الطبري (٦/٣٤٣ - شاکر) رقم (٦٨٩٩)، وأبو يعلى (٣٧٦/١٠) رقم (٥٩٧١) من طريقين عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

وأخرجه البخاري (٣٨٨/٦ - ٣٨٩) كتاب «بدء الخلق»، باب صفة إبليس وجنوده، حديث (٣٢٨٦)، والحميدي (٤٥٠/٢) رقم (١٠٤٢)، كلاهما من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به. وأخرجه مسلم (١٨٣٨/٤)، كتاب «الفضائل»، باب فضائل عيسى عليه السلام، حديث (١٤٧/٢٣٦٦)، والطبري في «تفسيره» (٦/٣٣٨ - شاکر) كلاهما من طريق عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث؛ أن أبا يونس سليمان مولى أبي هريرة حدثه عن أبي هريرة به.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤/٢)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «حلية الأبرار» (ص ٣١٨).

(٣) هي: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، الزهراء، سيدة نساء العالمين ما عدا مريم بنت عمران. أمها: خديجة بنت خويلد بن وهب.. كنيته: أم أبيها.

هي أول من غُطي نعشها في الإسلام، ثم بعدها زينب بنت جحش، كانت أحب الناس إلى رسول الله، وأول آل بيته لحوقاً به بعد موته، وقد كتبت في سيرتها المؤلفات الكثيرة، ولا يتسع المقام لذكر شيء منها. توفيت ثلاث خلون من رمضان سنة (١١) هـ وكان عمرها (٢٩) سنة.

تُنظر ترجمتها في: «أسد الغابة» (٧/٢٢٠)، «الإصابة» (٨/١٥٧)، «الثقات» (٣/٣٣٤)، «بقي بن مخلد» (١٣٧)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢/٢٩٤)، «تقريب التهذيب» (٢/٦٠٩)، «تهذيب التهذيب» (١٢/٤٤٠)، «تهذيب الكمال» (٣/١٦٩١)، «أعلام النساء» (٤/١٠٨)، «السمط الثمين» (١٧١)، «الدر المنثور» (٣٥٩)، «الاستيعاب» (٤/١٨٩٣)، «حلية الأولياء» (٢/٢٩).

وَتُعَوِّذَانَهَا بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ^(١). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: إخبار منه سبحانه لمحمد ﷺ؛ بأنه رَضِيَ مَرِيَمَ لخدمة المسجد؛ كما نَذَرَتْ أُمُّهَا وَسَتَّى لها الأَمَلَ في ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: عبارة عن حُسْنِ النشأة في خِلْقَةِ وَخُلُقِ/. ١٨٤

* ص * : ﴿يَقْبُولُ﴾ مصدر على غير الصُّدْرِ، والجاري على: تَقَبَّلَ تَقْبُلًا، وعلى قَبِلَ قَبُولًا، و ﴿نَبَاتًا﴾: مصدرٌ منصوبٌ بـ «أَنْبَتَهَا»؛ على غير الصُّدْرِ. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ معناه: ضمَّها إلى إنفاقه وحِضْنِهِ، والكافلُ: هو المربي، قال السُّدِّيُّ وغيره: إِنَّ زَكَرِيَّا كَانَ زَوْجَ أُخْتِهَا^(٢)؛ وَيَعْضُدُ هذا القولَ قوله ﷺ في يَحْيَى وَعِيسَى: «أَبْنَا الْحَالَةِ»، والذي عليه النَّاسُ: أَنَّ زَكَرِيَّا إِنَّمَا كَفَّلَهَا بِالْإِسْتِهَامِ^(٣)؛ لِتَشَاحُّهِمْ حِينَئِذٍ فَيَمْنُ يَكْفُلُ المحرَّر.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾: الْمِحْرَابُ: الْمَبْنَى الْحَسَنُ، وَمِحْرَابُ الْقَضَر: أَشْرَفُ مَا فِيهِ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ لِأَشْرَفِ مَا فِي الْمُصَلَّى؛ وَهُوَ مَوْقِفُ الْإِمَامِ: مِحْرَاب، وَمَعْنَى ﴿رِزْقًا﴾، أُنَى: طَعَامًا يَتَغَذَّى بِهِ، لَمْ يَغْهَدهُ، وَلَا عَرَفَ كَيْفَ جُلِبَ إِلَيْهَا، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةً الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ^(٤)، وَنَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: ثِمَارُ الْجَنَّةِ^(٥)، وَقَوْلُهُ: ﴿أُنَى﴾: مَعْنَاهُ: كَيْفَ، وَمِنْ أَيْنَ، وَقَوْلُهَا: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جُلْبِ بَشَرٍ، قَالَ الرَّجَّاجُ. وَهَذَا مِنَ الْآيَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وَقَوْلُهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: تَقْرِيرٌ لِكُونَ ذَلِكَ الرِّزْقِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، وَذَهَبَ الطَّبْرِيُّ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ مَرِيَمَ، وَأَنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَاللَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ السَّيْنِيِّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» رَقْم (٦٢٥)، وَقَالَ الْأَبَّانِيُّ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى «الْكَلَمِ الطَّيِّبِ» (ص ١١٠): مَوْضُوعٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٤٢/٣) بِرَقْم (٦٨٩٩)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»، وَعَزَاهُ لِابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

(٣) اسْتِهَامُ الرِّجْلَانِ: تَقَارَعَا، وَالْإِسْتِهَامُ: الْمَغَالَبَةُ بِالْقَرْعَةِ. يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (٢١٣٥) (سَهْمٌ) بِتَصْرِفٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٤٤/٣) بِرَقْم (٦٩٢٢)، وَذَكَرَهُ الْمَوْرِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٨٨/١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٦/١)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٣٦/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

(٥) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٦/١).

سبحانه لا تنقص خزائنه، فليس يحسب ما خرج منها، وقد يُعبر بهذه العبارة عن المُكثِرِينَ مِنَ النَّاسِ؛ أنهم ينفقون بغير حساب، وذلك مجازاً وتشبيهاً، والحقيقة هي فيما ينتفق من خزائن الله سبحانه، قال الشيخ ابن أبي جَمْرَةَ (رضي الله عنه): وقد قال العلماء في معنى قوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: إنه الفتوح، إذا كان على وجهه. اهـ، ذكر هذا عند شرحه لقوله ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ، لَأَجَبْتُ».^(١)

وقوله تعالى: ﴿هَنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ...﴾ الآية: هُنَالِكَ؛ في كلام العرب: إشارة إلى مكانٍ أو زمانٍ فيه بُعْدٌ، ومعنى هذه الآية: إِنَّ فِي الْوَقْتِ الَّذِي رَأَى زَكَرِيَّا رِزْقَ اللَّهِ لَمَرِيَمَ وَمَكَاتَهَا مِنَ اللَّهِ، وَفَكَرَ فِي أَنَّهَا جَاءَتْ أُمُّهَا بَعْدَ أَنْ أُسِّنَتْ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَقَبَّلَهَا، وَجَعَلَهَا مِنَ الصَّالِحَاتِ، تَحَرَّكَ أَمَلُهُ لَطَلَبِ الْوَلَدِ، وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ، وَذَلِكَ مِنْهُ عَلَى حَالِ سِنٍّ وَوَهْنٍ عَظِيمٍ، وَأَشْتَغَالٍ شَدِيدٍ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً يَرِثُهُ، وَالذُّرِّيَّةُ: اسم جنس، يَقَعُ عَلَى وَاحِدٍ فَصَاعِدًا؛ كَمَا أَنَّ الْوَلَدَ: اسم جنس كذلك، وَطَيِّبَةٌ: معناه: سَلِيمَةٌ فِي الْخَلْقِ وَالْدِّينِ، تَقِيَّةٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وَتَرِكَ مَحذُوفٌ كَثِيرٌ

(١) أخرجه البخاري (١٥٤/٩)، كتاب «النكاح»، باب من أجاب إلى كراع، حديث (٥١٧٨) والبيهقي (٦/١٦٩)، كتاب «الهيئات»، باب التحريض على الهبة وابن حبان (٣٤٩/٧) رقم (٥٢٦٧) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/١٢) والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٣٨٢. بتحقيقنا) من حديث أبي هريرة مرفوعاً وفي الباب عن أنس وابن عباس.
* حديث أنس:

أخرجه الترمذي (٦٢٣/٣): كتاب «الأحكام»، باب ما جاء في قبول الهدية وإجابة الدعوة، حديث (١٣٣٨) وفي الشرائع رقم (٣٣٨)، وأحمد (٢٠٩/٣)، وابن حبان (١٠٦٥). موارد) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص ٢٣٤)، والبيهقي (١٦٩/٦) كتاب «الهيئات»، باب التحريض على الهبة والبغوي في «شرح السنة» (٣٦/٧) كلهم من طريق قتادة عن أنس مرفوعاً.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه ابن حبان.

وللحديث طريق آخر عن أنس بلفظ: يا معشر الأنصار تهادوا فإن الهدية تحل السخيمة وتورث المودة، فوالله لو أهدي إلى كراع لقبلت ولو دعيت إلى ذراع لأجبت قال الهيثمي في «المجمع» (١٤٩/٤)، رواه الطبراني في «الأوسط» والبخاري بنحوه وفيه عائد بن شريح وهو ضعيف.
* حديث ابن عباس:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٠/١١) رقم (١١٢٣٦) من طريق عبد الله بن المؤمل عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس مرفوعاً: «لو دعيت إلى كراع لأجبت».
وقال الهيثمي في «المجمع» (٥٦/٣): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الله بن المؤمل وثقه ابن سعد وابن حبان وقال يخطيء وضعفه جماعة.

دَلَّ عَلَيْهِ مَا ذُكِرَ، تقديره: فَقَبِلَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، وَيَعَثَّ الْمَلَكُ، أو الملائكة، فنادته، وذكر جمهور المفسرين؛ أَنَّ الْمَنَادِيَ إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيلُ، وقال قوم: بل نادته ملائكة كثيرة؛ حسبما تقتضيه ألفاظ الآية، قلت: وهذا هو الظاهر، ولا يعدل عنه إلا أن يصحَّ في ذلك حديث عنه ﷺ، فيتبع.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِبْرِ (٤١) ﴿

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ عبارة تستعمل في التبشير، وفي ما ينبغي أن يسرع/ به، ٨٤ ب. ويُنتهى إلى نفس السامع ليسر به، فلم يكن هذا من الملائكة إخباراً على عرف الوحي، بل نداء كما نادى الرُّجُلُ الأنصاري كَغَبَّ بِنَ مَالِكٍ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، يعني: بـ «المِحْرَابِ»؛ في هذا الموضع: موقف الإمام من المسجد، وَيُخَيِّى: أَسْمَ سَمَاءَ اللَّهِ بِهِ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ، و «مُصَدِّقًا» نَضَبٌ عَلَى الْحَالِ، قال ابن عَبَّاس وغيره: الكلمة هنا يراود بها عيسى ابن مَرْيَمَ.

قال *ع^(١): وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى كَلِمَةً، إِذْ صَدَرَ عَنْ كَلِمَةٍ مِنْهُ تَعَالَى، وَهِيَ «كُنْ»، لَا بِسَبَبِ إِنْسَانٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾: قال قتادة: أَيُّ: وَاللَّهُ سَيِّدٌ فِي الْحِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْوَرَعِ^(٢).

قال *ع^(٣): مَنْ قَسَّرَ السُّودَّ بِالْحِلْمِ، فَقَدْ أَحْرَزَ أَكْثَرَ مَعْنَى السُّودِّ، وَمَنْ جَرَّدَ تَفْسِيرَهُ بِالْعِلْمِ وَالتَّقَى وَنَحْوِهِ، فَلَمْ يَفْسِّرْهُ بِحَسَبِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَقَدْ تَحَصَّلَ الْعِلْمُ لِيَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وَتَحَصَّلَ التَّقَى بِبَاقِي الْآيَةِ، وَخَصَّهُ اللَّهُ بِذِكْرِ السُّودِّ الَّذِي هُوَ الْإِعْتِمَالُ فِي رِضَا النَّاسِ عَلَى أَشْرَفِ الْوُجُوهِ، دُونَ أَنْ يَوْقَعَ فِي بَاطِلٍ هَذَا اللَّفْظُ يَعْنِي السُّودَّ، وَتَفْصِيلُهُ أَنْ يَقَالَ: بِذَلِكَ النَّدَى، وَهَذَا هُوَ الْكَرْمُ، وَكَفَّ الْأَدْنَى، وَهَذَا

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٩/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٥٣/٣) برقم (٦٩٦١) وذكره ابن عطية (٤٢٩/١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٩/١).

هي العفة بالفَرْج، واليَد، وَاللِّسَان، واحتمالُ العظام، وهنا هو الجِلْمُ وغيرُهُ مِنْ تحمُّلِ الغراماتِ والإنقاذِ مِنَ الْهَلَكَاتِ، وَجَبُرَ الْكَيْسِيرُ، والإفضالُ عَلَى الْمُسْتَرْفَدِ، وَأَنْظُرْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»^(١)، وذكر حديثَ الشفاعةِ فِي إِطْلَاقِ الْمَوْقِفِ، وذلك مِنْهُ أَعْتَمَالٌ فِي رِضَا وَلَدِ آدَمَ، ثم:

قال * ع^(٢) *: أما أَنَّهُ يَحْسَنُ بِالتَّقِيِّ الْعَالِمِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ السُّودِّ بِكُلِّ مَا لَا يَخْلُ بِعِلْمِهِ وَتَقَاهُ، وَهَكَذَا كَانَ يَخْيِي - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

وقوله تعالى: ﴿وَحْصُورًا﴾ أصل هذه اللفظة: الْحَبْسُ وَالْمَنْعُ، ومنه: حَصْرُ العدو.

قال * ع^(٣) *: وَأَجْمَعَ مَنْ يَعْتَدُّ بِقَوْلِهِ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ لِيَخْيِي - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّمَا هِيَ الْإِمْتِنَاعُ مِنْ وَطْءِ النِّسَاءِ إِلَّا مَا حَكَى مَكِّيٌّ مِنْ قَوْلٍ مِنْ قَالَ: إِنَّهُ الْحُصُورُ عَنِ الذُّنُوبِ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ حُضْرَهُ كَانَ بِأَنَّهُ يُمَسِّكُ نَفْسَهُ؛ تُقَى وَجَلَدًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَكَانَتْ بِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى جَمَاعِ النِّسَاءِ، قَالُوا: وَهَذِهِ أَمْدَحُ لَهُ، قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ^(٤): وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ الْمُحَقِّقِينَ؛ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، لَا لِلْعَجْزِ، بَلْ لِلْعِصْمَةِ وَالزُّهْدِ.

قُلْتُ: قَالَ عِيَّاضٌ: أَعْلَمَ أَنَّ ثَنَاءَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَخْيِي - عَلَيْهِ السَّلَامُ -؛ بِأَنَّهُ حُصُورٌ، لَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ هَيُوبًا^(٥) أَوْ لَا ذَكَرَ لَهُ، بَلْ قَدْ أَنْكَرَ هَذَا حُذَّاقُ الْمَفْسِّرِينَ، وَتَفَادَى الْعُلَمَاءُ، وَقَالُوا: هَذِهِ نَقِصَةٌ وَعَيْبٌ، وَلَا تَلِيْقُ بِالْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ، أَيْ: لَا يَأْتِيهَا؛ كَأَنَّهُ حُصِرَ عَنْهَا^(٦)، وَقِيلَ: مَانَعًا نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَقِيلَ: لَيْسَتْ لَهُ شَهْوَةٌ فِي النِّسَاءِ؛ كَفَايَةً مِنَ اللَّهِ لَهُ؛ لِكُونِهَا مَشْعَلَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٣٠).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٨/٣٣).

(٥) الهيوب: الجبان الذي يهاب الناس، والمقصود هنا أنه كان يهاب من إتيان النساء، وهذا لا يليق بأنبياء الله سبحانه، كما علق القاضي عياض.

ويقال أيضاً: الهيوب: المحجم عن الشيء، وهذا أيضاً مما لا يليق وصفه الأنبياء به. ينظر «لسان العرب» (هيب) (حصر).

(٦) حصر عنها: منع.

الأوقات، حاطة إلى الدنيا، ثم هي؛ في حق من أقدِرَ عَلَيْهَا، وقام بالواجب فيها، ولم تَشْغَلْهُ عن ربِّه - درجةً عُلْيَا، وهي درجةُ نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ، أي: وسائرِ النبيِّين. اهـ من «الشفا»^(١).

وباقى الآية بين.

ورُوي من صلاحه/ - عليه السلام -؛ أنه كان يعيش من العُشب، وأنه كان كثير البُكاء ١٨٥ من خَشْيَةِ اللَّهِ؛ حتى آتخذ الدَّمْعَ في وَجْهِهِ أَخْذَوْدًا.

* ص *: و ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، أي: من أصْلابِ الأنبياء، أو صالحاً من الصَّالِحِينَ، فيكون صفةً لموصوفٍ محذوفٍ. اهـ.

قلت: والثاني أحسن، والأول تحصيلُ الحاصل، فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغننى الكبر...﴾ الآية: ذهب الطَّبْرِيُّ^(٢) وغيره إلى أنَّ زكريَّا لمَّا رأى حال نفسه، وحال امرأته، وأنها ليست بحالِ نسلٍ، سأل عن الوجه الذي به يكونُ الغلامُ، أتبدلُ المرأةُ خِلْقَتَهَا أم كيف يكونُ؟

قال * ع^(٣) *: وهذا تأويلٌ حسن لائقٌ بزكريَّا - عليه السلام -.

و ﴿أنى﴾: معناها: كيف، ومن أين، وحسن في الآية ﴿بَلَّغْنِى الْكِبَرَ﴾؛ من حيث هي عبارةٌ وإهينٌ منفعلٌ.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: كهذه القُدرةُ المستغرَبةُ قُدرةُ اللَّهِ، ويحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى حال زكريَّا، وحالِ امرأته؛ كأنه قال: رب، على أي وجه يكونُ لنا غلامٌ، ونحن بحالِ كذا، فقال له: كما أنَّتمَّا يكونُ لكُما الغلامُ، والكلام تامٌ؛ على هذا التأويل في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾.

وقوله: ﴿اللَّهُ يفعل ما يشاء﴾: جملةٌ مبيِّنة مقرَّرة في النفس وقوعٌ هذا الأمر المستغرَبِ.

وقوله: ﴿قال رب اجعل لى آية﴾، أي: علامة، قالت فرقة من المفسرين لم يكن

(١) ينظر: «الشفا» (١١٦).

(٢) ينظر «تفسير الطبري» (٣/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٣١).

هذا من زكريّا على جهة الشك، وإنما سأل علامة على وقت الحمل.

وقوله تعالى: ﴿آيَتِكَ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ...﴾ الآية: قال الطبري وغيره: لم يكن منه الكلام لآفة، ولكنه مُنِعَ محاورَةَ النَّاسِ، وكان يَقْدِرُ على ذكر الله، ثم أَسْتثنى الرَّمْزَ، وهو استثناء مُنْقَطِعٌ، والكلام المراد في الآية: إنما هو النطق باللسان، لا الإعلام بما في النفس، والرَّمْزُ في اللغة: حركة تُعْلِمُ بما في نفس الرّامِزِ؛ كانت الحركة من عَيْنٍ، أو حاجِبٍ، أو شَفَةِ، أو يدٍ، أو عودٍ، أو غير ذلك، وقد قيل للكلام المحرّف عن ظاهره: رُمُوز.

وأَمَرَهُ تعالى بالذّكر لربه كثيراً؛ لأنه لم يحل بينه وبين ذكر الله، وهذا قاضٍ بأنه لم تدركه آفة ولا علة في لسانه، قال محمد بن كعب القرظي: لو كان الله رخص لأحد في ترك الذّكر، لرخص لزكريّا - عليه السلام -؛ حيث قال: ﴿آيَتِكَ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾، لكنه قال له: ﴿أَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾^(١) قال الإمام الفخر^(٢): وفي الآية تأويلان:

أحدهما: أن الله تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا، وأقدره على الذّكر والتّسبيح والتهليل؛ ليكون في تلك المدة مشغلاً بذكر الله وطاعته؛ شُكراً لله على هذه النعمة، ثم أعلم أن هذه الواقعة كانت مشتملة على المعجز من وجوه:

أحدها: أن قدرته على الذّكر والتّسبيح، وعجزه عن التكلّم بأمر الدنيا من المعجزات.

وثانيها: أن حصول ذلك العجز مع صحّة البينة من المعجزات.

وثالثها: أن إخباره بأنه متى حصلت تلك الحالة، فقد حصل الولد، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضاً من المعجزات.

والتأويل الثاني: أن المراد منه الذّكر بالقلب؛ وذلك لأن المستغريقين في بحار معرفة الله تعالى عادتهم في أول الأمر أن يواظبوا على الذّكر اللّساني مدة، فإذا أمتلأ القلب من نور ذكر الله تعالى، سكّثوا باللسان، وبقي الذّكر في القلب؛ ولذلك قالوا: «مَنْ عَرَفَ الله، كُلَّ لِسَانُهُ»، فكان زكريّا - عليه السلام - أمر بالسكوت باللسان وأستحضار معاني

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٦١/٣) برقم (٧٠١٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٣٢/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٣٦/٨).

الذكر والمعرفة، وأستدامتها بالقلب . اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾: معناه: قلْ سُبْحَانَ اللَّهِ، وقال قومٌ: معناه صَلِّ، والأول أصوب؛ لأنه يناسب الذكر، ويستغربُ مع امتناع الكلام مع النَّاسِ، والعَشِيِّ، في اللغة: من زوالِ الشَّمْسِ إلى مغيبها، والإِبْكَارُ: مصدرُ أَبْكَرَ الرَّجُلُ، إذا بادر أمره من لدُنْ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وتتمادى البُكْرَةُ شيئاً بعد طلوع الشمس، يقال: أَبْكَرَ الرَّجُلُ وَبَكَرَ.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢)
يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الزَّكِيِّينَ ﴿٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأَكَةُ﴾: العامل في «إِذْ»: «أَذْكُرُ»؛ لأن هذه الآيات كلها إنما هي إخبارات بغيث تدل على نبوة نبينا محمد ﷺ، مقصود ذكرها هو الأظهر في حفظ روثي الكلام.

و ﴿اصْطَفَاكِ﴾: معناه: تَخَيَّرَكِ لطاعته، و ﴿طَهَّرَكِ﴾: معناه: من كُلِّ مَا يَصْنُمُ النِّسَاءَ فِي خَلْقٍ، أَوْ خُلُقٍ، أَوْ دِينٍ؛ قاله مجاهد وغيره^(١)، وقول الزَّجَّاج: قد جاء في التفسير؛ أَنَّ معناه: طَهَّرَكِ مِنَ الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ - يحتاج إلى سند قوي، وما أحفظه، و ﴿الْعَالَمِينَ﴾: يحتمل عالمَ زمانها.

قال * ع^(٢): * وسائغ أن يتأول عموم الاصطفاء على العالمين، وقد قال بعض الناس: إن مريم نبيّة من أجل مخاطبة الملائكة لها، وجمهور الناس على أنها لم تُنبأ امرأة، و ﴿أَقْنِي﴾ معناه: أعْبُدِي، وأطِيعِي؛ قاله الحسن وغيره^(٣)، ويحتمل أن يكون معناه: أطيلي القيام في الصلاة، وهذا هو قول الجمهور، وهو المناسب في المعنى لقوله: ﴿وَأَسْجُدِي﴾، وروى مجاهد؛ أنها لما خوطبت بهذا، قامت حتى ورمّت قدميها، وروى الأوزاعي: حَتَّى سَالَ الدَّمُ وَالْقَيْحُ مِنْ قَدَمَيْهَا، وروي أَنَّ الطَّيْرَ كَانَتْ، تنزل على رأسها تظنها جماداً.

واختلف المتأولون، لِمَ قُدِّمَ السُّجُودُ على الركوع.

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٣٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٣٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣/٢٦٥) برقم (٧٠٤٦)، وذكره ابن عطية (١/٤٣٤).

فقال قوم: كان ذلك في شرعهم، والقول عندي في ذلك: أَنَّ مريم أُمِرَتْ بِفَضْلَيْنِ وَمَعْلَمَيْنِ مِنْ مَعَالِمِ الصَّلَاةِ، وهما طُولُ الْقِيَامِ، وَالسُّجُودُ، وَخُصًّا بِالذِّكْرِ لَشَرْفِهِمَا، وَهَذَا يَخْتَصُّانِ بِصَلَاتِهَا مُفْرَدَةً وَإِلَّا فَمَنْ يَصَلِّي وَرَاءَ إِمَامٍ، فَلَيْسَ يُقَالُ لَهُ: أَطْلُ قِيَامَكَ، ثُمَّ أُمِرَتْ بَعْدَ بِالصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، فَقِيلَ لَهَا: ﴿وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاَكِعِينَ﴾، وَقَصِدَ هُنَا مَعْلَمٌ آخَرٌ مِنْ مَعَالِمِ الصَّلَاةِ لِثَلَاثِ تَكَرُّرِ اللَّفْظِ، وَلَمْ يَرِدْ فِي الْآيَةِ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ الَّذِي هُوَ مُنْتَظَمٌ فِي رُكْعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال * ص * قوله: ﴿وَأَرْكَعِي﴾، الواو: لا ترتب، فلا يسأل، لِمَ قُدِّمَ السُّجُودُ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ، وَجَوَابُهُ أَنَّهُ قُدِّمَ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ فِيهِ مِنْ رَبِّهِ، فَكَانَ أَشْرَفَ، وَقِيلَ: كَانَ مُقَدِّمًا فِي شَرْعِهِمْ. اهـ.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَتِهِ مِنْهُ أَسْمُهُ السَّيِّحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْمُنْتَظَرِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنْزِلْهُ لِي وَلَدًا وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَصَّرْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) ﴿

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...﴾ الآية: هذه المخاطبة لنبينا محمد ﷺ، والإشارة بذلك إلى ما تقدّم ذكره من القصص، والأنباء: الأخبار، والغيب: ما غاب عن مدارك الإنسان، ونُوحِيهِ: معناه: نُلقِيهِ فِي نَفْسِكَ فِي خَفَاءٍ، وَحَدُّ الْوَحْيِ: إلقاء المعنى فِي النَّفْسِ فِي خَفَاءٍ، فَمِنْهُ بِالْمَلَكِ، وَمِنْهُ بِالْإِلَهَامِ، وَمِنْهُ بِالْإِشَارَةِ، وَمِنْهُ بِالْكِتَابِ.

وفي هذه الآية بيان لنبوّة نبينا محمد ﷺ؛ إِذْ جَاءَهُمْ بِغُيُوبٍ/ لا يعلمها إِلَّا مَنْ شَاهَدَهَا، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ، أَوْ مَنْ قَرَأَهَا فِي كِتَابِهِمْ، وَهُوَ ﷺ أُمِّيٌّ مِنْ قَوْمٍ أُمِّيِّينَ، أَوْ: مَنْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهَا، وَهُوَ ذَاكَ ﷺ، وَ ﴿لَدَيْهِمْ﴾: معناه: عندهم وَمَعَهُمْ.

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمْ...﴾ الآية: جمهور العلماء على أَنَّهُ أَسْتَهَامَ لِأَخْذِهَا وَالْمَنَافَسَةِ فِيهَا، فَرَوِي أَنَّهُمْ أَلْفَوْا أَفْلَامَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ فِي النَّهْرِ، فَرَوِي أَنَّ قَلَمَ زَكَرِيَّا صَاعِدَ الْجَرِيَةِ، وَمَضَتْ أَفْلَامُ الْآخَرِينَ، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا، قُلْتُ: وَلَفْظُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ فِي «الْأَحْكَامِ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَجَرَتْ الْأَفْلَامُ وَعَلَا قَلَمُ زَكَرِيَّا»^(١) اهـ، وَإِذَا ثَبِتَ الْحَدِيثُ،

فلا نظر لأحدٍ معه.

و ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: معناه: يتراجعون القولَ الجهيرَ في أمرها.

وفي هذه الآية أستعمال الفرعة، والفرعة سنة، «وكان النبي ﷺ، إذا سافر، أقرع بين نسائه»^(١) وقال ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، لَأَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ»^(٢).

واختلف أيضاً، هل الملائكة هنا عبارة عن جنبريل وخده أو عن جماعة من الملائكة؟

و ﴿وجيهاً﴾: نصب على الحال، وهو من الوجه، أي: له وجه ومنزلة عند الله، وقال البخاري: وجيهاً: شريفاً اهـ.

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: معناه: من الله تعالى، وكلامه في المهد: آية دالة على براءة أمه، وأخبر تعالى عنه أنه أيضاً يكلم الناس كهلاً، وفائدة ذلك أنه إخبار لها بحياته إلى سن الكهولة، قال جمهور الناس: الكهل الذي بلغ سن الكهولة، وقال مجاهد: الكهل: الحليم؛

قال * ع^(٣): * وهذا تفسير للكهولة بعرض مصاحب لها في الأغلب، واختلف الناس في حد الكهولة، فقيل: الكهل ابن أربعين، وقيل: ابن خمسة وثلاثين، وقيل: ابن ثلاثة وثلاثين، وقيل: ابن اثنين وثلاثين، هذا حد أولها، وأما آخرها، فاثنتان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة.

وقول مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾: استفهام عن جهة حملها، واستغراب للحمل على بكارتها، و «يَمْسَسُنَّ»: معناه: يَطَأُ وَيُجَامِعُ.

* ص * : والبشر يُطْلَقُ على الواحد والجمع اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٢١٨/٥)، كتاب «الهيئة»، باب هبة المرأة لغير زوجها، الحديث (٢٥٩٣)، ومسلم (٢١٣٠/٤)، كتاب «التوبة»، باب في حديث الإفك، الحديث (٢٧٧٠/٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (٢٩٥/٥ - ٢٩٦) كتاب «عشرة النساء»، باب قرعة الرجل بين نسائه إذا أراد السفر، حديث (٨٩٣١)، وابن الجارود في (٧٢٣) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج في سفر، أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٧/١).

والكلام في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ كالكلام في أمر زكريّا، وجاءت العبارة في أمر زكريّا: «يَفْعَلُ»، وجاءت هنا: «يَخْلُقُ»؛ من حيث إنّ أمر زكريّا داخل في الإمكان الذي يتعارف، وإن قلّ، وقصة مريم لا تتعارف البتّة، فلفظ الخلق أقرب إلى الاختراع، وأدلّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾: معناه: إذا أراد إيجاد، والأمر واحد الأمور، وهو مصدرٌ سُمّي به، والضمير في «لَهُ» عائذ على الأمر والقول؛ على جهة المخاطبة.

وقوله: ﴿كُنْ﴾: خطابٌ للمفضي.

وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾؛ بالرفع: خطابٌ للمخبر.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ...﴾ الآية: الكتاب هنا: هو الخط باليد، وهو مصدر: كَتَبَ يَكْتُبُ؛ قاله جمهور المفسرين.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَنْزَمَ وَأُنْخِ الْأَمَوتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمَصَدَقًا لِّمَا بِيَدَ رَبِّكَ التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، أي: ويجعله رسولاً، وكانت رسالة عيسى عليه السلام - إلى بني إسرائيل مبيّناً حكم التوراة، ونادياً إلى العمل بها، ومُحللاً أشياء ٨٦ ب ممّا حرم فيها؛ كالثروب ولحوم الإبل، وأشياء من الحيتان والطير، ومن أول القول لمريم إلى قوله: ﴿إِسْرَءِيلَ﴾: خطابٌ لمريم، ومن قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: يحتمل أن يكون خطاباً لمريم؛ على معنى: يكون من قوله لبني إسرائيل كَيْتَ وَكَيْتَ، ويكون في آخر الكلام محذوفٌ يدلُّ عليه الظاهر، تقديره: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولاً، فقال لهم ما تقدّم ذكره، ويحتمل أن يكون المحذوف مقدراً في صدر الكلام بعد قوله: ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، فيكون تقديره: فجاء عيسى؛ كما بَشَّرَ اللَّهُ رسولاً إلى بني إسرائيل؛ بأنّي قد جئتكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ ليس بخطابٍ لمريم، والأول أظهر.

وقوله: ﴿أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ...﴾ الآية: قرأ نافع: «إِنِّي أَخْلَقْتُ» بكسر الهمزة، وقرأ باقي السبعة بفتحها، فوجه قراءة نافع إمّا القطع والاستئناف، وإما أنه فسّر الآية بقوله: ﴿إِنِّي﴾، كما فسر المثل في قوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] ووجه قراءة الباقيين البَدَلُ

من «آية»؛ كأنه قال: وجئتكم بأنّي أخلّق، و «أخلّق»: معناه: أقدر وأهيء بيدي.

* ص *: ﴿كَهَيئَةٍ﴾: الهيئة: الشّكل والصّورة، وهو مصدر: هاء الشّيء يهيء هَيْئَةً، وَهَيَّاءً، إِذَا تَرْتَّبَ وَاسْتَقَرَّ عَلَى حَالٍ مَا، وتعدّيه بالتضعيف، قال تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] اهـ.

وقرأ نافع وحده: «فَيَكُونُ طَائِرًا»؛ بالإنفراد؛ أي: يكون طائراً من الطيور، وقرأ الباقر: «فَيَكُونُ طَيْرًا»؛ بالجمع؛ وكذلك في «سورة المائدة» والطيور: اسم جمع، وليس من أبنية الجُمُوع، وإنما البناء في جمع طائر: أَطْيَارٌ، وَجَمْعُ الْجَمْعِ: طُيُورٌ.

وقوله: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾، ذكّر الضمير؛ لأنه يحتمل أن يعود على الطين المهيء، ويحتمل أن يريد: فَأَنْفُخُ فِي الْمَذْكُورِ، وَأَنْتَ الضمير في «سورة المائدة»؛ لأنه يحتمل أن يعود على الهيئة، أو على تَأْنِيثِ لَفْظِ الْجَمَاعَةِ، وَكَوْنُ عَيْسَى يَخْلُقُ بِيَدِهِ، وَيَنْفُخُ فِيهِ، إِنَّمَا هُوَ لَيْسَ تَلْبَسُهُ بِالْمَعْجَزَةِ، وَأَنَّهُ جَاءَتْ مِنْ قَبْلِهِ، وَأَمَّا الْإِبْجَادُ مِنَ الْعَدَمِ، وَخَلَقَ الْحَيَاةَ فِي ذَلِكَ الطِّينِ، فَمِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَرُويَ فِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - كَانَ يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَيُّ الطَّيْرِ أَشَدَّ خِلْفَةً، وَأَضْعَبَ أَنْ يُحَكِّي؟ فَيَقُولُونَ: الْخُفَّاشُ؛ لَأَنَّهُ طَائِرٌ لَا رِيشَ لَهُ، فَكَانَ يَصْنَعُ مِنَ الطِّينِ خَفَافِيشَ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهَا فَتَطِيرُ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ، وَمَعَايِنَتِهِمْ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: «هَذَا سَاحِرٌ» ﴿أَبْرَى﴾ معناه: أَزِيلَ الْمَرَضَ، وَ «الْأَكْمَهَ»: هُوَ الَّذِي يُولَدُ أَعْمَى مَظْمُومَ الْعَيْنَيْنِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ^(١)،

قال * ع^(٢) *: «وَالْأَكْمَهَ»؛ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْأَعْمَى، وَقَدْ كَانَ عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - يَبْرِئُ بَدْعَائِهِ، وَمَسَحَ يَدَهُ عَلَى كُلِّ عَاهَةٍ، وَلَكِنَّ الْإِحْتِجَاجَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مَعْنَى النُّبُوَّةِ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالْإِبْرَاءِ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي لَا يُبْرِئُ مِنْهَا طَبِيبٌ بَوَاحٍ، وَرُويَ فِي إِحْيَائِهِ الْمَوْتَى؛ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ بِعَصَاهُ الْمَيِّتَ، أَوِ الْقَبْرَ، أَوِ الْجُمُجُمَةَ؛ فَيَحْيِي الْإِنْسَانَ، وَيَكَلِّمُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَفِي قِصَصِ الْإِحْيَاءِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ لَا يَوْفُقُ عَلَى صَحَّتِهَا، وَأَيَّاتُ عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - إِنَّمَا تَجْرِي فِيمَا يُعَارِضُ الطَّبَّ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ الطَّبَّ كَانَ شَرَفَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ / الزَّمَانِ، ١٨٧

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٧٥/٣) برقم (٧٠٨٦)، (٧٠٨٧) عن قتادة، وابن عباس. وذكره ابن عطية (٤٤٠/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧/١)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق الضحاك عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٠/١).

وَشَغْلَهُمْ، وَحِينَئِذٍ أُبَيِّرَتْ فِيهِ الْعَجَائِبُ، فَلَمَّا جَاءَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - بِغَرَائِبَ لَا تَقْتَضِيهَا الْأَمْزَجَةُ وَأَصُولُ الطَّبِّ؛ وَذَلِكَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى، وَإِبْرَاءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، عَلِمَتِ الْأَطْبَاءُ؛ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَهَذَا كَأَمْرِ السَّحَرَةِ مَعَ مُوسَى، وَالْفُصْحَاءِ مَعَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَوَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ الْمُتَرَجِّمَةِ عَنِ الْأَطْبَاءِ؛ أَنَّ جَالِيئُوسَ كَانَ فِي زَمَنِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام -، وَأَنَّهُ رَحَلَ إِلَيْهِ مِنْ رُومِيَّةٍ إِلَى الشَّامِ، فَمَاتَ فِي طَرِيقِهِ ذَلِكَ.

وقوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ...﴾ الآية: قال مجاهد وغيره: كان عيسى - عليه السلام - مِنْ لَدُنْ طِفْلِيَّتِهِ، وَهُوَ فِي الْكُتَّابِ، يَخْبِرُ الصَّبِيَّانَ بِمَا يَفْعَلُ آبَاؤُهُمْ فِي مَنْازِلِهِمْ، وَبِمَا يُؤْكَلُ مِنَ الطَّعَامِ، وَيُدْخَرُ، وَكَذَلِكَ إِلَيَّ أَنْ تُبْنَى، فَكَانَ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى: أَكَلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا، وَأَدْخَرْتُ كَذَا^(١)، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّمَا هُوَ فِي نَزُولِ الْمَائِدَةِ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ، أَخَذَ عَلَيْهِمْ عَهْدَ أَنْ يَأْكُلُوا وَلَا يَخْبَأُ أَحَدٌ شَيْئًا، وَلَا يَدْخِرُهُ وَلَا يَخْمِلُهُ إِلَى بَيْتِهِ، فَخَانُوا، وَجَعَلُوا يُخْبِتُونَ، فَكَانَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - يُخْبِرُ كُلَّ أَحَدٍ عَمَّا أَكَلَ، وَعَمَّا أَدْخَرَ فِي بَيْتِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَعَوَقِبُوا عَلَى ذَلِكَ^(٢).

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: تحذير، ودعاء إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، لِأَنَّ أَلْفَاظَهُ جَمَعَتِ الْإِيمَانَ وَالطَّاعَاتِ، وَالصِّرَاطَ: الطَّرِيقَ، وَالْمُسْتَقِيمَ: الَّذِي لَا أَعْوَجَاجَ فِيهِ.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ...﴾ الآية: قبل هذه الآية محذوف، به يتمُّ اتِّسَاقُ الْآيَاتِ، تَقْدِيرُهُ: فَجَاءَ عِيسَى؛ كَمَا بَشَّرَ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ جَمِيعٌ مَا ذُكِرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾، وَمَعْنَى: ﴿أَحَسَّ﴾: عَلِمَ مِنْ جِهَةِ الْخَوَاسِ بِمَا سَمِعَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِ، وَرَأَى مِنْ قَرَائِنِ أَحْوَالِهِمْ، وَشِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ، وَإِعْرَاضِهِمْ، ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٧٨/٣) برقم (٧٠٩٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (١/٤٤٠).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٧٩/٣) برقم (٧١٠٤)، وذكره ابن عطية (١/٤٤٠).

أحدهما: مَنْ ينصرني في السَّبِيلِ إلى الله.

والثاني: أَنْ يكون التقديرُ: مَنْ يضيفُ نُصْرتهِ إِلَى نصرَةِ اللَّهِ لي، فَإِلَى دَالَّةٍ عَلَى الغَايَةِ فِي كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ، وَلَيْسَ يُبَاحُ أَنْ يُقَالَ: «إِلَى» بِمَعْنَى «مَعَ»؛ كَمَا غَلَطَ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، فَقَالَ: «إِلَى» بِمَعْنَى «مَعَ»، وَهَذِهِ عُجْمَةٌ.

والحواريُّونَ قَوْمٌ مَرَّ بِهِمْ عِيسَى ﷺ، فَدَعَاهُمْ إِلَى نَصْرِهِ وَاتَّبَاعِ مِلَّتِهِ، فَأَجَابُوهُ، وَقَامُوا بِذَلِكَ خَيْرَ قِيَامٍ، وَصَبَرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَاخْتَلَفَ، لَمْ يَقِلْ لَهُمْ حَوَارِيُّونَ؟ فَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: لِبَيَاضِ ثِيَابِهِمْ^(١)، وَقَالَ أَبُو أَرْطَاةَ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَصَّارِينَ يَحُورُونَ الثِّيَابَ، أَيْ: يَبْيِضُونَهَا^(٢)، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْحَوَارِيُّونَ: أَصْفِيَاءُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ تَصْلُحُ لَهُمُ الْخِلَافَةُ^(٣)، وَقَالَ الضَّحَّاكُ نَحْوَهُ^(٤)،

قَالَ * ع^(٥): * وَهَذَا الْقَوْلُ تَقْرِيرُ حَالِ الْقَوْمِ، وَلَيْسَ بِتَفْسِيرِ اللَّفْظَةِ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ أَبْنَ عَمَّتِهِ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ: «وَحَوَارِيُّي الزُّبَيْرُ».

وَالْأَقْوَالُ الْأَوَّلُ هِيَ تَفْسِيرُ اللَّفْظَةِ؛ إِذْ هِيَ مِنَ الْحَوَارِ، وَهُوَ الْبَيَاضُ، حَوَزَتْ ٨٧ ب الثُّوبَ: بَيَّضَتْهُ؛ وَمِنْهُ الْحَوَارِيُّ، وَقَدْ تَسَمَّى الْعَرَبُ النِّسَاءَ السَّائِكَاتِ فِي الْأُمْصَارِ: الْحَوَارِيَّاتِ؛ لَغَلْبَةِ الْبَيَاضِ عَلَيْهِنَّ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي جِلْدَةَ الْيَشْكُرِيِّ^(٦): [الطويل]

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٨٥/٣) بِرَقْم (٧١٢٠)، وَذَكَرَهُ الْمَوَارِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٩٥/١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٤٢/١).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢٨٥/٣) بِرَقْم (٧١٢١) وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٤٢/١).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٨٥/٣) بِرَقْم (٧١٢٢)، وَذَكَرَهُ الْبُغْوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٠٦/١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٤٢/١)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرُ الْمَثُور» (٦٣/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٤) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٤٢/١).

(٥) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤٤٢/١).

(٦) أَبُو جِلْدَةَ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْيَشْكُرِيُّ، مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ جِشْمٍ، مِنْ يَشْكُرٍ، شَاعِرُ نَعْتَةِ ابْنِ قَتِيْبَةَ ب «الْخَيْثِ»، كَانَ مَوْلَعًا بِالشَّرَابِ، مِنْ أَهْلِ «الْكُوفَةِ». خَرَجَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ (عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ) وَقَتْلَهُ الْحِجَاجِ، وَقِيلَ: مَاتَ فِي طَرِيقِ «مَكَّةَ». لَهُ شُعْرٌ وَأَخْبَارٌ، وَكَانَ يَهَاجِي زِيَادًا الْأَعْجَمَ، وَفِي حِمَاسَةِ ابْنِ الشَّجَرِيِّ قَصِيدَةً لَهُ فِي تَحْرِيزِ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الثُّورَةِ بَعْدَ قِيَامِ ابْنِ الْأَشْعَثِ عَلَى الْحِجَاجِ. يَنْظُرُ: «الْأَعْلَامُ» (١٣٣/٢).

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا وَلَا تَبْكِينَ إِلَّا الْكِلَابَ النَّوَاحِ^(١)
وقول الحواريين: ﴿وَأَشْهَدْ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لعيسى - عليه السلام -، أي:
أَشْهَدْ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ، ويحتمل أن يكون خطاباً لله تعالى؛ كقوله ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ:
«اللَّهُمَّ، أَشْهَدْ»، وقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ يريدون: الإنجيل، وآيات عيسى،
﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: فِي عِدَادِ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ مِنْ مُؤْمِنِي الْأُمَمِ، ثم أخبر تعالى
عن بني إسرائيل الكافرين بعيسى - عليه السلام -، فقال: ﴿وَمَكُرُوا﴾، يريد في تحيلهم في
قتله بزعمهم فهذا هو مَكْرُهُمْ، فجازاهم الله تعالى؛ بأن طرح شَبَّةَ عِيسَى عَلَى أَحَدِ
الْحَوَارِيِّينَ؛ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ، أَوْ عَلَى يَهُودِيٍّ مِنْهُمْ كَانَ جَاسُوساً، وَأَعْقَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
مَذَلَّةً وَهَوَاناً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ هِيَ الَّتِي سَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى مَكْرًا فِي قَوْلِهِ:
﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾، وَذَلِكَ مَهْيَعٌ^(٢) أَنْ تَسْمَى الْعُقُوبَةُ بِأَسْمِ الذَّنْبِ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: معناه: فاعلُ حَقٍّ فِي ذَلِكَ، وَذَكَرَ أَبُو الْقَاسِمِ
الْقُسَيْرِيُّ فِي «تَحْيِيرِهِ»، قَالَ: سُئِلَ مَيْمُونٌ، أَحْسَبُهُ: أَبْنَى مِهْرَانَ^(٣)؛ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ فقال: تَخْلِيئُهُ إِيَّاهُمْ، مَعَ مَكْرِهِمْ هُوَ مَكْرُهُ بِهِمْ. اهـ. وَنَحْوَهُ عَنْ
الْجُنَيْدِ^(٤)، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْمَكْرُ مِنَ الْمَخْلُوقِ الْخُبُّ وَالْحِيلَةُ، وَمِنْ الْإِلَهِ الْإِسْتِدْرَاجُ، قَالَ اللَّهُ

(١) البيت لأبي جلدة اليشكري كما ذكر المصنف وهو من شعراء الدولة الأموية. من قصيدة قالها الشاعر،
تحريضاً وتحضيضاً على قتال أهل «الشام» وهو يرمي أهل الشام وأنصار معاوية بالكفر والتنصر، ويصف
نفسه وجماعته أنهم أهل بداءة وخشونة، ومعنى البيت: قل للنساء الحضريات يبكين غيرنا؛ فلسنا ممن
عرف بالحضر على الفرائش، بل نحن من أهل البدو والمحاربة، فلا تبكي علينا إلا الكلاب التي تساق
معنا في البدو، أو الكلاب التي جرت عادتُهن أن يأكلن قتلتنا في المحاربة. والبيت في «مجاز القرآن»
(٩٥/١)، و «جامع البيان» (٤٥١/٦)، و «معاني القرآن» للزجاج (٤٢٣/١)، و «الكشاف» (١/٤٣٢)،
و «الجمهرة» (٢٣٠/١)، (١٤٦/٢)، والأساس (حور)، (ص ١٤٦)، و «اللسان»
(ص ١٠٤٣)، الطبري (٤٥٠/٦).

(٢) المَهْيَعُ: هو الطريق الواسع المنبسط، وهو مَفْعَلٌ مِنَ التَّهْيِيعِ، وهو الانبساط.
ينظر: «لسان العرب» (٤٧٣٨) (هيج).

(٣) ميمون بن مهران الرقي، أبو أيوب: فقيه من القضاة، كان مولى لامرأة بـ «الكوفة»، وأعتقته، فنشأ فيها،
ثم استوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة، وسيدها، واستعمله عمر بن عبد العزيز
على خراجها وقضاها، وكان على مقدمة الجند الشامي، مع معاوية بن هشام بن عبد الملك، لما عبر
البحر غازياً إلى «قبرس»، سنة ١٠٨هـ، وكان ثقة في الحديث، كثير العبادة.
توفي سنة (١١٧) هـ. ينظر «الأعلام» (٣٤٢/٧).

(٤) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفي من العلماء بالدين. مولده ومنشؤه
ووفاته ببغداد، أصل أبيه من «نهاد» وعرف بالخرزاز؛ لأنه كان يعمل الخز. قال أحد معاصريه: ما رأته =

تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] قال ابن عباس: كُلَّمَا أَخَذْتُوا خطيئةً، أخذنا لَهُمْ نعمة . اهـ.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ إِيَّاكَ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ تَوَكُّفَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيَّاكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِيَّاكَ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ الآية: اختلف في هذا التوفي.

فقال الربيع: هي وفاة نَوْم^(١)، وقال الحسن وغيره: هو توفي قبض وتخصيل، أي: قابضك من الأرض، ومحصلك في السماء^(٢) وقال ابن عباس: هي وفاة مَوْت^(٣)، ونحوه لمالك في «العنيفة»، وقال وهب بن مئب: توفاه الله بالموت ثلاث ساعات، ورفعها فيها، ثُمَّ أَحْيَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ^(٤)، وقال الفراء: هي وفاة مَوْت^(٥)، ولكن المعنى: إني متوفيك في آخر أمرك عند نزولك وقتلك الدجال، ففي الكلام تقديم وتأخير.

قال * ع^(٦): وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر^(٧)؛ من أن عيسى - عليه

= عينا مثله، وهو أول من تكلم في علم التوحيد، وقال ابن الأثير: إمام الدنيا في زمانه، له رسائل، منها: «دواء الأرواح» مخطوط، توفي في (٢٩٧) هـ.

ينظر: «وفيات الأعيان» (١١٧/١)، و«حلية» (٢٥٥/١٠)، و«صفة الصفوة» (٢٣٥/٢)، و«تاريخ بغداد» (٢٤١/٧)، و«طبقات السبكي» (٢٨/٢)، و«طبقات الحنابلة» (٨٩)، «الأعلام» (١٤١/٢).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٨/٣) برقم (٧١٢٩) وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٩٧/١)، والبغوي في «تفسيره» (٣٠٨/١)، وابن عطية (٤٤٢/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٨/٣) برقم (٧١٣١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٤٤/١).

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٩٦/١)، وابن عطية (٤٤٤/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٩/٣) برقم (٧١٣٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٣٠٨/١)، وابن عطية (٤٤٤/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٤/١).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٤/١).

(٧) والحديث المتواتر هو ما رواه جَمْعٌ يُجِيلُ الْعَقْلَ تَوَاطَوْهُمْ عَلَى الْكَذِبِ عَادَةً؛ من أمر جَسِيٍّ، أو حُصُولِ الْكَذِبِ مِنْهُمْ اتِّفَاقًا، ويعتبر ذلك في جميع الطبقات إن تعددت.

السلام - في السَّمَاءِ حَيٍّ، وأنه يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الدَّجَالَ، وَيَقْبِضُ الْعَذْلَ، وَيُظْهِرُ هَذِهِ الْمَلَّةَ مِلَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَيُخْرِجُ النَّبِيَّ، وَيَغْتَمِرُ، وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُمِيتُهُ اللَّهُ تَعَالَى^(١).

= وشروط التواتر:

- ١ - أن يكون رَوَاتُهُ عَدَدًا كَثِيرًا.
 - ٢ - أن يُحِيلَ الْعَقْلُ تَوَاطُّعَهُمْ عَلَى الْكَذِبِ، أَوْ أَنْ يَخْضَلَ الْكَذِبُ مِنْهُمْ اتِّفَاقًا عَادَةً.
 - ٣ - أَنْ يَزُولُوا ذَلِكَ عَنْ مِثْلِهِمْ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ فِي كَوْنِ الْعَقْلِ يَمْنَعُ مِنْ تَوَاطُّعِهِمْ عَلَى الْكَذِبِ، أَوْ حُصُولِهِ مِنْهُمْ اتِّفَاقًا عَادَةً.
 - ٤ - أَنْ يَكُونَ مُسْتَنَدَ انْتِهَائِهِمُ الْإِذْرَاكَ الْجَسَدِيَّ؛ بَأَنْ يَكُونَ آخِرُ مَا يُتَوَلَّى إِلَيْهِ الطَّرِيقُ وَيَتِمُّ عِنْدَهُ الْإِسْنَادُ - أَمْرٌ حَسِيٌّ مُذَكَّرٌ يُلْحِذُ الْحَوَاسَّ الْخَمْسَ الظَّاهِرَةَ؛ مِنَ الذُّوقِ، وَاللَّمْسِ، وَالشَّمِّ، وَالسَّمْعِ، وَالْبَصَرِ.
- ثم إنه من الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، وَأَرْبَابِ النَّظَرِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا تَجُوزُ الرِّوَايَةُ فِيهِ بِالْمَعْنَى، بَلْ أَجْمَعُوا عَلَى وَجُوبِ رِوَايَتِهِ لَفْظَةً لَفْظَةً، وَعَلَى أَسْلُوبِهِ، وَتَرْتِيبِهِ، وَلِهَذَا كَانَ تَوَاتُرُهُ اللَّفْظِي لَا يَشْكُ فِيهِ أَدْنَى عَاقِلٍ، أَوْ صَاحِبِ حِسٍّ، وَأَمَّا سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ، فَقَدْ أَجَازُوا رِوَايَتَهَا بِالْمَعْنَى لِذَلِكَ لَمْ تَتَّحِدْ أَلْفَاظُهَا، وَلَا أَسْلُوبُهَا، وَلَا تَرْتِيبُهَا.
- فَإِذَا كَانَ الْخَبَرُ مُتَوَاتِرًا تَوَاتُرًا لَفْظِيًّا، أَوْ مَعْنَوِيًّا، إِذَا تَعَدَّدَتِ الرِّوَايَةُ بِالْفَظِ مُتَرَادِفَةً، وَأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةً فِي التَّمَامِ وَالْقَصَصِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي الْوَاقِعَةِ الْوَاحِدَةِ، حَتَّى بَلَغَتْ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ.
- وَمِنْ نَاجِيَةِ أُخْرَى، فَإِذَا تَعَدَّدَتِ الْوَقَائِعُ، وَاتَّفَقَتْ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، ذَلَّتْ عَلَيْهِ تَارَةً بِالتَّصْمُنِ، وَتَارَةً بِالِاتِّزَامِ حَتَّى بَلَغَ الْقَدْرُ الْمَشْتَرَكُ فِي تِلْكَ الْوَقَائِعِ الْمُتَعَدِّدَةِ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ مُتَوَاتِرًا تَوَاتُرًا مَعْنَوِيًّا، لَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ.

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٢٣١/٤)، «البرهان» لإمام الحرمين (٥٦٦/١)، «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (١٤/٢)، «نهاية السؤل» للأسنوي (٥٤/٣)، «متهاج العقول» للبدخشي (٢٩٦/٢)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٩٥)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٩٥/٢)، «المنحول» للغزالي (٢٣١)، «المستصفى» له (١٣٢/١)، «حاشية البناي» (١١٩/٢)، «الإبهاج» لابن السبكي (٢٦٣/٢)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢٠٦/٣).

- (١) أخرجه البخاري (٤٨٣/٤) في البيوع: باب قتل الخنزير (٢٢٢٢)، (١٤٤/٥) في المظالم: باب كسر الصليب وقتل الخنزير (٢٤٧٦) و (٥٦٦/٦) في أحاديث الأنبياء: باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام (٣٤٤٨)، ومسلم في الإيمان: باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (٢٤٢٢)، (١٥٥)، (٢٤٣....)، وأبو داود (٥٢٠/٢) في الملاحم: باب ذكر خروج الدجال (٤٣٢٤)، والترمذي (٤٣٩/٤) في الفتن: باب ما جاء في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (٢٢٣٣)، وابن ماجه (١٣٦٣/٢) في الفتن: باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم... (٤٠٧٨)، وأحمد (٢٧٢/٢)، ٢٩٠، ٣٩٤، ٤٠٦، ٤٣٧، ٤٨٢، ٥٣٨. وعبد الرزاق (٢٠٨٤٠، ٢٠٨٤٤، ٢٠٨٤٥)، والحميدي (٤٦٨/٢) برقم (١٠٩٧، ١٠٩٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٨٧٧) من طرق عن أبي هريرة رفعه: «لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

قال * ع^(١) : * فقول ابن عباس: هي وفاة مَوْتٍ لا بَدْءٌ أَنْ يَتِمَّ إمَّا عَلَى قَوْلِ وَهْبِ بْنِ مُثَنَّبٍ، وَإِمَّا عَلَى قَوْلِ الْفَرَّاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَفَعَكَ إِلَى﴾ عبارة عَنْ نَقْلِهِ مِنْ سُفْلِ إِلَى عُلوٍّ، وإضافه الله سبحانه إضافةً تشريفٍ، وإلا فمعلوم أنه سبحانه غَيْرُ مُتَحَيِّزٍ فِي جِهَةٍ، ﴿وَمُطَهَّرُكَ﴾، أي: مِنْ: دَعَاوَى الْكُفْرَةِ وَمَعَاشَرَتِهِمْ.

وقوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ...﴾ الآية: قال جمهور المفسرين بعموم اللفظ/ في ١٨٨ المتَّبِعِينَ، فتدخل في ذلك أمة محمد ﷺ؛ لأنها مُتَّبِعَةٌ لِعِيسَى؛ قاله قتادة وغيره^(٢)؛ وكذلك قالوا بعموم اللفظ في الكَافِرِينَ، فمقتضى الآية إِعْلَامُ عِيسَى - عليه السلام -؛ أَنْ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِهِ، كما يجب، هم فوق الذين كَفَرُوا بِالْحُجَّةِ، والبُزْهَانِ، والعِزِّ والغَلْبَةِ، ويظهر من عبارة ابن جُرَيْج وغيره؛ أَنَّ المراد المتبعون لَهُ في وَقْتِ أَسْتِنصَارِهِ، وهم الحواريون^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ خطابٌ لِعِيسَى، والمراد: الإخبار بالقيامة، والخَسِرِ، وباقي الآية بَيِّنُ، وتوفية الأجور هي قَسْمُ الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ، فذلك هو بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ، وأما نَفْسُ دُخُولِ الْجَنَّةِ، فبرَحْمَةِ اللَّهِ وتفضله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ...﴾ الآية: «ذَلِكَ»: إشارة إلى ما تقدّم من الأنبياء، و ﴿نَتْلُوهُ﴾: معناه: نَسْرُدُّهُ، و ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾: ظاهره آيات القرآن، ويحتملُ أَنْ يَرِيدَ: من المعجزاتِ والمُسْتَعْرَبَاتِ؛ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِهَذِهِ الْغُيُوبِ مِنْ قِبَلِنَا، وبَسَبِّ تِلَاوَتِنَا، و ﴿الذِّكْرِ﴾: ما ينزل من عند الله. قال ابن عباس: الذِّكْرُ: القرآن، و ﴿الْحَكِيمِ﴾: الذي قد كَمَلَ في حِكْمَتِهِ^(٤).

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

(١) ينظر «المحرر الوجيز» (١/٤٤٤).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٤٥).

(٣) ذكره ابن عطية (١/٤٤٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٢٩٣) برقم (٧١٥٥)، وذكره ابن عطية (١/٤٤٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: سَبَبُ نزولها مُحَاجَّةُ نَصَارَى نَجْرَانَ في أمر عِيسَى، وقولهم: يا مُحَمَّد، هل رَأَيْتَ بَشَرًا قَطُّ مِنْ غَيْرِ فَحُلٍ، أَوْ سَمِعْتَ بِهِ^(١)، ومعنى الآية أَنَّ المَثَلَ الذي تتصوَّره النفوس والعقول من عِيسَى هو كالمُتصوِّر من آدَمَ؛ إذ النَّاسُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ مِنْ غَيْرِ فَحُلٍ، وفي هذه الآية صَحَّةُ القياس.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ﴾ ترتيبٌ للأخبار لمُحَمَّد ﷺ، المعنى: خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ، ثم كان مِنْ أمره في الأَزَلِ أَنْ قال له: كُنْ وَفَتْ كذا.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: هذا هو الحقُّ، و ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: هم الشَّاكُونَ، ونُهِيَ النَّبِيَّ ﷺ في عبارة أَقْتَضَتْ ذَمَّ الممترين؛ وهذا يدلُّ على أَنَّ المراد بالأمتراء غَيْرُهُ ونُهِيَ عن الأمتراء، مع بُعده عنه عَلَى جهة التَّثْيِيتِ والدَّوامِ عَلَى حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾، أي: في عِيسَى، ويحتملُ في الحقِّ، والعِلْمُ الذي أُشِيرَ إِلَيْهِ بالمجيء هو ما تَضَمَّنَتْ هذه الآياتُ المتقدِّمة.

وقوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾: استدعاءٌ للمُبَاهَلَةِ^(٢)، و ﴿تَعَالَوْا﴾: تَفَاعَلُوا؛ من العُلُوِّ، وهي كلمةٌ قُصِدَ بها أولاً تحسِينُ الأدبِ مع المدعوِّ، ثم أَطْرَدَتْ؛ حتى يقولها الإنسان لعدُوِّه، وللبهيمة، و ﴿تَبْتَهَلُ﴾: معناه: نَلْتَعِنُ، ويقال: عَلَيْنِهِمْ بهلةُ اللَّهِ، والابْتِهَالُ: الجِدُّ في الدُّعَاءِ بالبهلة، روى مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ بن الزُّبَيْرِ وغيره: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لما دَعَا نَصَارَى نَجْرَانَ إِلَى المِبَاهَلَةِ، قالوا: دَعْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، ثم نَأْتِكَ بِمَا نَفْعَلُ، فَذَهَبُوا إِلَى العَاقِبِ، وهو ذُو رَأْيِهِمْ، فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ، مَا تَرَى، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى، وَاللَّهِ، لَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا النَّبِيَّ الْمُرْسَلُ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْفَضْلِ مِنْ خَبَرٍ صَاحِبِكُمْ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَاعَنَ قَوْمٌ قَطُّ نَبِيًّا، فَبَقِيَ كِبِيرُهُمْ، وَلَا نَبَتْ/ صَغِيرُهُمْ، وَأَنَّهُ الْأُسْتُثْصَالُ إِنْ فَعَلْتُمْ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا إِلْفَ دِينِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي صَاحِبِكُمْ، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ،

ب ٨٨

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٩٣/٣) برقم (٧١٥٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٦/٢)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٢) المِبَاهَلَةُ: الملاعة، يقال: باهلت فلاناً، أي: لاعته، ومعنى المِبَاهَلَةِ أَنْ يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا.

ينظر: «لسان العرب» (٣٧٥).

وَأَنْصَرِفُوا إِلَىٰ بِلَادِكُمْ؛ حَتَّىٰ يُرِيكُمْ زَمَنَ رَأْيِهِ، فَأَتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَدْ رَأَيْنَا أَلَّا نُلَاعِنَكَ، وَأَنْ نَبْقَىٰ عَلَىٰ دِينِنَا، وَصَالِحُوهُ عَلَىٰ أَمْوَالٍ، وَقَالُوا لَهُ: أَبَعَثَ مَعَنَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا، يَحْكُمَ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءَ قَدْ اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالِنَا؛ فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا رِضَىٰ^(١).

قال * ع^(٢) *: وفي ترك النصارى الملاعة لعلمهم بنبوة نبينا محمد ﷺ شاهد عظيم على صحة نبوته ﷺ عندهم، ودعاء النساء والأبناء أهز للنفس، وأدعى لرحمة الله للمُحَقِّين، أو لغضبه على المُبْطِلِينَ.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ...﴾ الآية: هذا خبر من الله تعالى، جزم مؤكّد، فصل به بين المختصمين، والإشارة بهذا هي إلى ما تقدّم في أمر عيسى - عليه السلام -، والقصص معناه الإخبار.

وقال * ص *: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ﴾: هذا، إشارة إلى القرآن . اهـ.

واختلف المفسرون من المراد بأهل الكتاب هنا.

فروى قتادة، عن النبي ﷺ؛ أنهم يهود المدينة^(٣).

وقال ابن زَيْد وغيره: المراد نصارى نجران^(٤).

قال * ع^(٥) *: والذي يظهر لي أنَّ الآية نزلت في وفد نجران، لكن لفظ الآية يعمهم، وسواهم من النصارى واليهود، وقد كتب النبي ﷺ بهذه الآية إلى هرقل عظيم الروم، وكذا ١٨٩

(١) أخرجه الطبري (٢٩٨/٣) برقم (٧١٧٧)، وذكره ابن عطية (٤٤٧/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٨/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٠/٣) برقم (٧١٨٧) وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧١/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٠/٣) برقم (٧١٩٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٨/١).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٨/١).

ينبغي أن يدعى بها أهل الكتاب إلى يوم القيامة، «والكلمة» هنا؛ عند الجمهور: عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها^(١)، وهي ما فسر بعد ذلك، وهذا كما تسمي العرب القصيدة «كلمة»، وقوله: ﴿سَوَاءٌ﴾ نعت للكلمة، قال قتادة وغيره: معناه: إلى كلمة عدل^(٢)، وفي مضعف ابن مسعود: «إلى كلمة عدل»^(٣)؛ كما فسر قتادة،

قال * ع^(٤): والذي أقوله في لفظة ﴿سَوَاءٌ﴾: إنها ينبغي أن تفسر بتفسير خاص بها في هذا الموضع، وهو أنه دعاهم إلى معانٍ، جميع الناس فيها مستوون.

وقوله: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ هو في موضع خفض على البدل من «كلمة»، أو في موضع رفع؛ بمعنى هي ألا نعبد إلا الله، واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب، أشدها: اعتقادهم الألوهية، وعبادتهم لهم؛ كعزير، وعيسى، ومريم، وأدنى ذلك: طاعتهم لأساقفتهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي، والتزامهم طاعتهم شرعاً.

* م: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أبو البقاء: تَوَلَّوْا: فعلٌ ماضٍ، ولا يجوز أن يكون التقدير: «تَوَلَّوْا»؛ لفساد المعنى؛ لأن قوله: ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا﴾ خطابٌ للمؤمنين، و ﴿تَوَلَّوْا﴾ للمشركين. اهـ.

وقوله: ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أمر بالإعلان بمخالفتهم، ومواجهتهم بذلك وإشهادهم؛ على معنى التوبيخ والتهديد.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٥) هَئَانَتْ هَؤُلَاءِ حُجَجَتُهُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (١٨)

وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية: قال ابن عباس

(١) الكلمة، والكلمة، والكلمة، مثل كبد وكبد وكبد.

قال أبو منصور: ... تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكمالها وخطة بأسرها. ينظر: «لسان العرب» (٣٩٢٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠١/٣) برقم (٧١٩٣) وذكره ابن عطية (٤٤٩/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧١/٢)، وعزه لابن جرير، وابن المنذر عن قتادة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٩/١)،

(٤) ينظر المصدر السابق.

وغيره: اجتمعت نصارى نَجْرَانَ، وأحبارُ يَهُودَ عند النبي ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبارُ: ما كان إبراهيمُ إلّا يهوديًا، وقالتِ النصارى: ما كان إبراهيمُ إلّا نصرانيًا/، فأنزل ٨٩ ب الله الآية^(١). ومعنى قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، أي: على زعمكم، وفسّر الطبري^(٢) هذا الموضع؛ بأنه فيما لهم به علمٌ من جهة كتبهم، وأنبيائهم ممّا أيقنوه، وثبتت عندهم صحته،

قال ع*^(٣): وذهب عنه (رحمه الله)؛ أنّ ما كان هكذا، فلا يحتاج معهم فيه إلى حاجة؛ لأنهم يجدونه عند محمد ﷺ؛ كما كان هناك على حقيقته. قُلْتُ: وما قاله الطبري أبين، وهو ظاهر الآية، ومن المعلوم أن أكثر احتجاجاتهم إنّما كانت تعسفًا، وجحدًا للحقّ.

وقوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيمُ يهوديًا ولا نصرانيًا...﴾ الآية: أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حقيقة أمر إبراهيم - عليه السلام -، ونفى عنه اليهوديّة والنصرانيّة، والإشراك، ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكّداً أن أولى الناس بإبراهيم هم القوم الذين اتّبَعُوهُ، فدخل في ذلك كلّ من اتّبَع الحنيفيّة في الفترات؛ و ﴿هَذَا النَّبِيُّ﴾: يعني: محمدًا ﷺ؛ لأنه بعث بالحنيفيّة السّمحة، و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يعني: بمحمد ﷺ، وسائر الأنبياء؛ على ما يجب ثم أخبر سبحانه؛ أنه وليّ المؤمنين؛ وعداً منه لهم بالنّصر في الدنيا والنّعيم في الآخرة؛ رَوَى عبدُ الله بنُ مسعودٍ، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاَةٌ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيَّيَ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي إِبْرَاهِيمُ﴾، ثُمَّ قرَأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٣/٣) برقم (٧١٩٨)، وذكره ابن عطية (٤٥٠/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٢/٢)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «الطبري» (٣٠٤/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥١/١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٣/٥)، كتاب «التفسير»، باب من سورة آل عمران، حديث (٢٩٩٥)، والطبري في «تفسيره» (٤٩٨ - ٦/٦ - شاذر) رقم (٧٢١٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٤٤/١)، والبزار كما في «تفسير ابن كثير» (٣٧٢/١) كلهم من طريق أبي أحمد الزبيري عن سفيان الثوري عن أبيه عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود به.

وأخرجه الحاكم (٢٩٢/٢) من طريق محمد بن عبيد الطنافسي عن سفيان عن أبيه عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه الحاكم (٥٥٣/٢) من طريق الواقدي عن سفيان به.

وذكره ابن أبي حاتم في «العلل» (٦٣/٢) رقم (١٦٧٧) من طريق روح بن عبادة عن سفيان بهذا=

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ بِأَيْتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾، قال مكي: قيل: إن هذه الآية عُيِي بها قُرَيْظَةُ، والنَّضِيرُ، وَبَنُو قَيْنِقَاعَ، وَنَصَارَى نَجْرَانَ.

* ص *: قوله تعالى: ﴿ودت طائفة﴾: وَدَّ: بمعنى تَمَنَّى، ويستعمل معها: «أَنْ، وَلَوْ»، وَرَبَّمَا جمع بينهما نَحْوُ: «وَدِدْتُ أَنْ لَوْ فَعَلَ»، ومصدره الْوَدَادَةُ، وَالْأَسْمُ منه الْوُدُّ، وبمعنى: أَحَبَّ، فَيَتَعَدَّى كَتَعَدَّى أَحَبَّ، ومصدره: مَوَدَّةٌ، وَالْأَسْمُ منه وَدٌّ، وقد يتداخلان في الأسم والمصدر اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾: إِعْلَامٌ بأن سوء فعلهم عائدٌ عليهم، وأنهم ببعدهم عن الإسلام هم الضالُّون، ثم أَعْلَمَ تعالى: أنهم لا يشعرون بذلك، أي: لا يتفطنون، ثم وقفهم تعالى موبخاً لهم على لسان نبيه، والمعنى: قُلْ لهم، يا مُحَمَّدُ: لأَيِّ سببٍ تكفرون بآياتِ الله التي هي آياتُ القرآن، وأنتم تَشْهَدُونَ؟ أَنَّ أمره وَصِفَةُ مُحَمَّدٍ في

= الإسناد. ومن هذا نعلم أنه اتفق أبو أحمد الزبيري ومحمد بن عبيد وروح بن عباد والواقدي على رواية هذا الحديث عن سفيان عن أبيه عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود.

وقد خالفهم ابن مهدي ويحيى القطان وأبو نعيم وكيع، فرووه عن سفيان عن أبيه عن أبي الضحى عن ابن مسعود، فأخرجه أحمد (١/ ٤٢٩ - ٤٣٠) من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان به.

وأخرجه (١/ ٤٠٠ - ٤٠١) من طريق وكيع عن سفيان به. والترمذي (٥/ ٢٢٤) من طريق وكيع أيضاً.

وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٣) كتاب «التفسير»، باب من سورة آل عمران، حديث (٢٩٩٥)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٩٩ - شاکر) رقم (٧٢١٧)، والحاكم (٢/ ٥٥٣) كلهم من طريق أبي نعيم عن سفيان به.

وقال الترمذي: هذا أصح من حديث أبي الضحى عن مسروق، وأبو الضحى اسمه مسلم بن صبيح.

وأخرجه الخطيب (٤/ ٢٢٢) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان به.

وقد رجح الترمذي رواية أبي الضحى عن ابن مسعود، وكذلك رجحه أبو زرعة وأبو حاتم.

فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٦٣) رقم (١٦٧٧): سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه أبو أحمد الزبيري وروح بن عباد عن سفيان الثوري عن أبيه عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله عن النبي ﷺ: «لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم وخليي أبي إبراهيم»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾. فقالا جميعاً: هذا خطأ؛ رواه المتقنون من أصحاب الثوري عن الثوري عن أبيه عن أبي الضحى عن عبد الله عن النبي ﷺ بلا مسروق اهـ.

وقد رجح الشيخ أحمد شاکر الطريقتين في «تعليقه على الطبري» بكلام متين، فليُنظر.

كتابكم؛ قال هذا المعنى قتادة وغيره^(١).

ويحتمل أن يريد بالآيات ما ظهر على يده ﷺ من المعجزات.

قلت: ويحتمل الجميع من الآيات المتلوة والمعجزات التي شاهدها منه ﷺ.

وقال * ص * : ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: جملة حاليّة، ومفعول «تَشْهَدُونَ»: محذوف، أي: أنها آيات الله، أو ما يدل على صحتها من كتابكم، أو بمثلها من آيات الأنبياء. اهـ.

وقوله: ﴿لَمْ تَلِسُون﴾: معناه: تَخْلُطُونَ: تَقُولُ: لَبَسْتُ الأمر؛ بفتح الباء: بمعنى خَلَطْتُهُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ توقيف على العنادِ ظاهر.

وباقى الآية تقدّم بيانه في «سورة البقرة».

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ وَجَّهَ النَّهَارَ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢) وَلَا تَوُفُّوهُ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْهُ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَرْحَمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾

النهار... الآية/ أخبر الله سبحانه في هذه الآية أن طائفة من اليهود من أحبارهم ذهبَت إلى خديعة المسلمين بهذا المنزع، قال قتادة وغيره: قال بغضُ الأحبار: لنظهر الإيمان بمحمد صَدْرَ النَّهَارِ ثم لنكفر به آخر النهار، فيقول المسلمون عند ذلك: ما بال هؤلاء كانوا معنا ثم أنصروا عنا، ما ذاك إلا لأنهم أنكشفت لهم حقيقة في الأمر، فيشكون، ولعلهم يرجعون عن الإيمان^(٢) بمحمد، قال الإمام الفخر^(٣): وفي إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من الفائدة وجوه:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٧/٣) برقم (٧٢١٥)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٤٠٠/١) بنحوه، وابن عطية (٤٥٢/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٥/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٨/٣) برقم (٧٢٢٠) بنحوه، وذكره الماوردي (٤٠١/١)، والبغوي في «تفسيره» (٣١٥/١)، وابن عطية (٤٥٣/١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٧٣/١).

(٣) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٨٤/٨).

الأول: أنَّ هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، فلما أخبر بها عنهم، كان إخباراً بمعيب، فيكون مُعْجِزاً.

الثاني: أنه تعالى، لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة، لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلام، لأمكن تأثيرها في قلب من ضُغِفَ إيمانه.

الثالث: أنَّ القوم لما أفتضحوا في هذه الحيلة، صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبس اهـ.

وذكر تعالى عن هذه الطائفة من أهل الكتاب؛ أنهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، ولا خلاف أن هذا القول هو من كلام الطائفة، واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، فقال مجاهد وغيره من أهل التأويل: الكلام كله من قول الطائفة لأتباعهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ هُذَىٰ اللَّهُ﴾ اعتراض بين الكلامين؛

قال ع^(٢) * : والكلام على هذا التأويل يحتمل معاني:

أحدها: ولا تصدقوا وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم؛ حذاراً أن يؤتى أحد من النبوة والكرامة مثل ما أوتيتم، وحذاراً أن يحاجوكم بتصديقكم إياهم عند ربكم، إذا لم تستمروا عليه، وهذا القول على هذا المعنى ثمره الحسد والكفر، مع المعرفة بصحة نبوة محمد ﷺ، ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تؤمنوا بمحمد، وتقرؤوا بنبوته؛ إذ قد علمتم صحتها إلا لليهود الذين هم منكم، و ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾: صفة لحال محمد ﷺ، فالمعنى: تستروا بإقراركم أن قد أوتي مثل ما أوتيتم، أو فإنهم (يعنون العرب) يحاجونكم بالإقرار عند ربكم.

وقرأ ابن كثير وخده من بين السبعة: «أَنْ يُؤْتَىٰ»؛ بالمد: على جهة الاستفهام الذي هو تقرير^(٣)، وفسر أبو علي قراءة ابن كثير على أن الكلام كله من قول الطائفة إلا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣١١) برقم (٧٢٤٢) عن قتادة قال: هذا قول بعضهم لبعض. وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٥٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٥٤).

(٣) قال الأزهري: ومن قرأ بالمد فهو استفهام معناه الإنكار، وذلك أن أحبار اليهود قالوا لذوهم: أيؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ أي: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم.

الاعتراض الذي هو: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾؛ فإنه لا يختلف؛ أنه من قول الله تعالى لنبيه ﷺ، قال: فلا يجوز مع الاستفهام أن يحمل: «أَنْ يُؤْتَى» على ما قبله مِنَ الْفَعْلِ؛ لأن الاستفهام قاطع، فيجوز أن تكون «أَنْ» في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف، تقديره: تُصدّقون أو تعترفون أو تذكرونه لغيركم، ونحو هذا ممّا يدلّ عليه الكلام.

قال * ع^(١): * ويكون «يحتاجوكم»؛ على هذا معطوفاً على: «أَنْ يُؤْتَى». قال أبو علي: ويجوز أن يكون موضع «أَنْ» نَصْباً، فيكون المعنى: أتشيعون أو تذكرون أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتُمْ، ويكون ذلك بمعنى قوله تعالى عنهم: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]، فعلى كلا الوجهين/ معنى الآية توبيخ من الأخبارِ للتأبّع على ٩٠ ب تصديقهم بأن محمداً ﷺ نبيّ مبعوث.

قال * ع^(٢): * ويكون قوله تعالى: ﴿أو يحتاجوكم﴾ في تأويل نصب «أَنْ» بمعنى: أو تريدون أن يحتاجوكم.

وقال السدّي وغيره: الكلام كلّ من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: هو ممّا أمر به النبي ﷺ؛ أن يقول لأُمَّته^(٣).

وحكى الرّجاج^(٤) وغيره: أنَّ المعنى: قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُوَ هَذَا الْهُدَىٰ، لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتُمْ.

ومعنى الآية على قول السدّي: أي: لم يعط أحدٌ مثل حظكم، وإلاّ فليحتاجكم من ادّعى سوى ذلك، أو يكون المعنى: أو يحتاجونكم؛ على معنى الأزدراء باليهود؛ كأنه قال: أو هلّ لهم أن يحتاجوكم، أو يخاصموكم فيما وهبكم الله، وفضلكم به، وقال قتادة والربيع: الكلام كلّ من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية هو ممّا أمر به النبي ﷺ أن يقوله للطائفة.

= ينظر: «معاني القراءات» (١/ ٢٦٠)، و «السبعة» (٢٠٧)، و «الكشف» (١/ ١٤٧)، و «الحجة» (٣/ ٥٢)، و «حجة القراءات» (١٦٥)، و «إعراب القراءات» (١/ ١١٤)، و «العنوان» (٨٠)، و «شرح الطيبة» (٤/ ١٦٠)، و «إتحاف فضلاء البشر» (١/ ٤٨٢).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٥٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٥٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٣١٢) برقم (٧٢٤٨)، وذكره ابن عطية (١/ ٤٥٦)، والسيوطي (٢/ ٧٦)، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) «معاني القرآن» (١/ ٤٣٠).

قال * ع^(١) : * ويحتمل أن يكون قوله : ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ بدلاً من قوله : ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ . قلت : وقد أطالوا الكلام هنا ، وفيما ذكرناه كفاية .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ * يختص برحمته مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ في الآية تكذيبٌ لليهود في قولهم : لَنْ يُؤْتِيَ اللَّهُ أَحَدًا مِثْلَ مَا أَتَى بني إسرائيل ؛ من النبوة والشرف ، وباقي الآية تقدم تفسير نظيره .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُنْتَظَرُ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوَنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ...﴾ الآية : أخبر تعالى عن أهل الكتاب ؛ أنهم قسمان في الأمانة ، ومقصود الآية ذم الخونة منهم ، والتفنيذ لرأيهم وكذبهم على الله في استحلالهم أموال العرب . قال الفخر^(٢) وفي الآية ثلاثة أقوال :

الأول : أن أهل الأمانة منهم الذين أسلموا ، أما الذين بقوا على اليهودية ، فهم مصرؤون على الخيانة ؛ لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من خالفهم في الدين ، وأخذ ماله .

الثاني : أن أهل الأمانة منهم هم النصارى ، وأهل الخيانة هم اليهود .

الثالث : قال ابن عباس : أودع رجل عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب ، فأدّى إليه ، وأودع آخر فنحاصاً يهودي ديناراً ، فخان ، فزلت الآية . اهـ^(٣) .

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤) : قال الطبري^(٥) : وفائدة هذه الآية النهي عن أتمانهم

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (١/٤٥٦) .

(٢) ينظر : «مقاتيع الغيب» (٨/٨٨) .

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/٣١٧) .

(٤) ينظر : «أحكام القرآن» (١/٢٧٥) .

(٥) ينظر : «تفسير الطبري» (٣/٣١٥) بنحوه .

عَلَى مَالٍ، وَقَالَ شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَغْرِبِيُّ: فَاثْنَتُهَا أَلَّا يُؤْتَمَّنُوا عَلَى دِينٍ؛ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُتَوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ...﴾ الآية، والصحيح عندي: أَنَّهَا فِي الْمَالِ نَصٌّ، وَفِي الدِّينِ تَنْبِيْهٌ، فَأَفَادَتِ الْمَعْنَيْنِ بِهِذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: فَالْأَمَانَةُ عَظِيمَةُ الْقَدْرِ فِي الدِّينِ، وَمِنْ عَظِيمٍ قَدَرُهَا أَنَّهَا تَقْفُ عَلَى جَنْبَتِي الصَّرَاطِ لَا يُمْكِنُ مِنَ الْجَوَازِ إِلَّا مَنْ حَفَظَهَا، وَلِهَذَا وَجِبَ عَلَيْكَ أَنْ تُوَدِّيَهَا إِلَى مَنْ أَتَمَمَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ، فَتَقَابِلِ الْمَغْصِيَّةَ بِالْمَغْصِيَّةِ؛ وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَغْدَرَ مَنْ غَدَرَكَ. قَالَ الْبَخَارِيُّ: بَابُ إِثْمِ الْعَادِرِ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ. اهـ.

وَالْقِنْطَارُ؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مِثَالٌ لِلْمَالِ الْكَثِيرِ، يَدْخُلُ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الْقِنْطَارِ وَأَقْلُ، وَأَمَّا الدِّينَارُ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ مِثَالًا لِمَا قَلَّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ أَنَّ مِنْهُمْ طَبَقَةً لَا تَخُونُ إِلَّا فِي دِينَارٍ فَمَا زَادَ، وَلَمْ يُغْنِ/ لَذَكَرِ الْخَائِنِينَ فِي أَقْلٍ؛ إِذْ هُمْ طَعَامُ حُثَالَةٍ، وَدَامَ: مَعْنَاهُ: ١٩١ ثَبَتَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَائِمًا﴾: يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: قَالَ قَتَادَةُ، وَمَجَاهِدٌ، وَالزَّجَّاجُ^(١): مَعْنَاهُ: قَائِمًا عَلَى اقْتِضَاءِ حَقِّكَ^(٢)، يَرِيدُونَ بِأَنْوَاعِ الْاِقْتِضَاءِ مِنَ الْحَفْزِ وَالْمُرَافَعَةِ إِلَى الْحَاكِمِ مِنْ غَيْرِ مَرَاعَاةٍ لِهَيْئَةِ هَذَا الدَّائِمِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: مَعْنَى قَائِمًا: عَلَى رَأْسِهِ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ...﴾ الآية: الْإِشَارَةُ بِـ «ذَلِكَ» إِلَى كَوْنِهِمْ لَا يُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ، أَيْ: يَقُولُونَ نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالْعَرَبُ أُمِّيُّونَ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ، فَأَمْوَالُهُمْ لَنَا حَلَالٌ، مَتَى قَدَرْنَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، لَا حُجَّةَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ، وَلَا سَبِيلَ لِمُعْتَرِضٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذَمُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي غَيْرِ مَا شَيْءٍ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِمَوَاضِعِ الصَّدْقِ.

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٤٣٣/١).

(٢) أخرجه الطبري (٣/٣١٥) برقم (٧٢٥٨)، (٧٢٥٩) عن قتادة، وبرقم (٧٢٦٠) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (١/٤٥٨)، والسيوطي (٢/٧٧)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٣/٣١٦) برقم (٧٢٦٢)، وذكره ابن عطية (١/٤٥٨)، والسيوطي (٢/٧٧)، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

قال * ص * : ﴿وَهُمْ يَظُنُّونَ﴾ : جملةً حاليةً . اهـ .

ثم ردَّ الله تعالى في صدر قولهم : ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ ؛ بقوله : ﴿بَلَى﴾ ؛ أي : عليهم سبيلٌ ، وحُجَّةٌ ، وتِبَاعَةٌ ، ثُمَّ أخبر ؛ على جهة الشرط ؛ أَنَّ مَنْ أَوْفَى بِالْعَهْدِ ، وَأَتَّقَى عَقوبَةَ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ مَحْبُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ . . .﴾ الآية : آية وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة ، وهي آية يدخل فيها الكُفْرُ فما دونه من جحد الحق وختر^(١) المواثيق ، وكلُّ يأخذ من وعيدها ؛ بحسب جريمته .

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢) : وقد اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية ، والذي يصحُّ من ذلك : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ حَلَفَ يَمِينَ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ أَمْرِي مُسْلِمٍ ، لَقِيَ اللَّهَ ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . .﴾ الآية ، قال : فجاء الأشعث بن قيس ، فَقَالَ : فِيَّ نَزَلَتْ ؛ كَانَتْ لِي بَثْرٌ فِي أَرْضِ ابْنِ عَمٍّ لِي ، وَفِي رِوَايَةٍ : كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ ، فَجَحَدَنِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «بَيْتُكَ أَوْ يَمِينُهُ» ، قُلْتُ : إِذَنْ يَحْلِفُ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ^(٣) . اهـ .

وقوله تعالى : ﴿وإن منهم لفرقة يلوون ألستهم بالكتاب . . .﴾ الآية : يَلْوُونَ : معناه : يحرفون ويتحيلون ؛ لتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ ، واشتراكها ، وتشعب

(١) الخنز : شبه بالغدر والخديعة ، وقيل : هو الخديعة بعينها ، وقيل : هو أسوأ الغدر وأقبحه ، وفي التنزيل العزيز : ﴿كُلُّ خَنَازِيرٍ كُفْرٍ﴾ [لقمان : ٣٢] . ينظر : لسان العرب (١٠٩٩) .

(٢) ينظر : «أحكام القرآن» (١/ ٢٧٧ - ٢٧٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠/٥) ، كتاب «الشهادات» ، باب اليمين على المدعى عليه ، حديث (٢٦٦٩) ، (٢٦٧٠) ، ومسلم (١٢٢/١ - ١٢٣) كتاب «الإيمان» ، باب من أقطع حق امرئ مسلم يمين فاجرة ، حديث (١٣٨/٢٢٠) ، وأبو داود (٤١/٤) كتاب «الأقضية» ، باب إذا كان المدعى عليه ذمياً ، حديث (٣٦٢١) ، والترمذي (٢٢٤/٥) كتاب «التفسير» باب (٤) حديث (٢٩٩٦) ، وابن ماجه (٧٧٨/٢) كتاب «الأحكام» ، باب البينة على المدعي ، حديث (٢٣٢٢) .

والحميدي (٥٣/١) رقم (٩٥) ، والطيالسي (٢٤٦/١) رقم (١٢١٦) ، وأبو عوانة (١/ ٣٨ - ٣٩) باب بيان الأعمال التي يستوجب فاعلها عذاب الله ، وأبو يعلى (٥٠/٩ - ٥١) رقم (٥١١٤) ، والبيهقي (١٠/ ١٧٨) كلهم من طريق أبي وائل عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم ، لقي الله وهو عليه غضبان» فقال الأشعث بن قيس : في والله كان ذلك .

التأويلات؛ كقولهم: ﴿رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، ﴿وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء: ٤٦] ونحو ذلك، وليس التبديلُ المخضُ بِلَيٍّ، وحقيقة اللَّيِّ في الثَّيَابِ والجِبَالِ ونحوها، وهو قَتْلُهَا وإِراغَتُهَا؛ ومنه: لَيُّ العُنُقِ، ثم استعمل ذلك في الحُجَجِ، والخُصُوماتِ والمُجَادَلَاتِ، والكِتَابِ؛ في هذا الموضع: التوراة، والضميرُ في «تَحَسُّبُوهُ» للمسلمين.

وقوله: ﴿وما هو من عند الله﴾: نفْيُ أَنْ يكون منزلاً من عند الله؛ كما أَدْعَوْا، وهو من عند الله، بالخلق، والإِختراع، والإِيجاد، ومنهم بالتكسِبِ.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ آزِبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ الآية: معناه: النفْيُ التامُّ؛ لأننا نقطع أنَّ الله لا يؤتي النبوةَ للكذبةِ والمدَّعينَ، و ﴿الْكِتَابِ﴾ هنا اسم جنس، و ﴿الْحُكْمِ﴾: بمعنى الحكمة؛ ومنه قولُ النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحُكْمًا»^(١) وقال الفخر^(٢): هنا اتَّفَقَ أَهْلُ اللغةِ والتفسيرِ على أنَّ هذا الحكم هو العلم، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] يعني: العلم والفهم اهـ.

«وُثْمٌ»: في قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾: معطيةٌ تعظيمِ الذنبِ في القولِ بعد مُهْلَةٍ من هذا الإنعام، وقوله: ﴿عِبَادًا﴾: جمع «عَبْدٍ»، ومن جموعه عَبِيدٌ، وَعِبْدَى.

قال ع*^(٣): والذي أَسْتَفْرِئْتُ/ في لفظة العِبَادِ، أنه جَمْعُ عَبْدٍ، متى سَيِّقَتِ اللفظةُ ٩١ ب في مضمارِ الترفيعِ، والدلالةُ على الطاعة، دون أَنْ يقتربَ بها معنى التَّخْقِيرِ، وتصغيرِ الشأنِ، وأما العَبِيدُ، فيستعمل في التَّخْقِيرِ.

(١) أخرجه أبو داود (٧٢١/٢)، كتاب «الأدب»، باب ما جاء في الشعر، حديث (٥٠١١)، والترمذي (٥/١٢٦)، كتاب «الأدب»، باب ما جاء إن من الشعر حكمة، حديث (٢٨٤٥) وابن ماجه (١٢٣٦/٢)، كتاب «الأدب»، باب الشعر، حديث (٣٧٥٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٨٧٢)، وأحمد (١/٢٦٩، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٢)، وأبو يعلى (٢٢٠/٤) رقم (٢٣٣٢)، والبيهقي (١٠/٢٤١)، كتاب «الشهادات»، باب شهادات الشعراء، كلهم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٩٨/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦١/١).

قال * ص * : ونوقش ابنُ عطية بأنَّ «عبدى» : اسمُ جمع، وتفرقه بينَ عبادٍ وعبيدٍ لا يصحُّ . اهـ.

قلتُ : وقوله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ [الفرقان : ١٧] ونحوه يوضحه . اهـ.

ومعنى الآية : ما كان لأحدٍ من النَّاسِ أَنْ يَقُولَ : أَعْبُدُونِي ، وأجعلوني إلهًا ، قال الثَّقَاشُ وغيره : وهذه الإشارةُ إلى عيسى - عليه السلام - ، والآية رادةٌ على النصارى ، وقال ابنُ عباسٍ وجماعةٌ من المفسرين : بل الإشارةُ إلى النبي ﷺ ؛ وسببُ نزولِ الآية أنَّ أبا رافعَ القُرظيَّ قال للنبي ﷺ حينَ أَجْتَمَعَتِ الْأَحْبَارُ من يهودَ ، والوَفْدُ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ نَعْبُدَكَ وَنَتَّخِذَكَ إلهًا ، كَمَا عَبَدَتِ النَّصَارَى عِيسَى ، فَقَالَ الرَّئِيسُ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ : أَوْ ذَاكَ تُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ ، وَإِلَيْهِ تَدْعُونَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَعَاذَ اللَّهِ ! مَا بِذَلِكَ أَمْرٌ ، وَلَا إِلَيْهِ دَعْوَةٌ» ، فنزلتِ الآية ، قال بعضُ العلماءِ : أرادتِ الأحبارُ أَنْ تُلْزِمَ هذا القولَ مُحَمَّدًا ﷺ ، لَمَّا تلا عليهم : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران : ٣١] وإنما معنى الآية : فَاتَّبِعُونِي فيما أَدْعُوكُمْ إليه مِنْ طاعةِ اللَّهِ ، فحرفوها بتأويلهم ، وهذا مِنْ نوعِ لِيْهِمُ الكتابَ بالسنتهم ، قال الفخر^(١) وقال ابنُ عباسٍ : إن الآيةَ نزلتْ بسببِ قولِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، وقولُ اليهود : عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ^(٢) وقيل : إن رجلاً من المسلمين قال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا نَسْجُدُ لَكَ؟ فَقَالَ - عليه السلام - : «مَا يَنْبَغِي السُّجُودُ إِلَّا لِلَّهِ»^(٣) . قيل : وقوله تعالى : ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يقوِّي هذا التأويل . اهـ.

وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ...﴾ الآية : المعنى : ولكن يقول : كونوا ربانيين ، وهو جَمْعُ رَبَّانِيٍّ ، قال قومٌ : منسوبٌ إلى الرَّبِّ ؛ من حيثُ هو عَالِمٌ ما علمه ، عَامِلٌ بطاعته ، معلِّمٌ للناسِ ما أَمَرَ به ، وَزِيدَتْ فِيهِ الثُّنُؤُ ؛ مبالغةً ، وقال قومٌ : منسوبٌ إلى الرَّبَّانِ ، وهو معلِّمُ الناسِ ، مأخوذٌ من : رَبٌّ يَرْبُ ، إِذَا أَصْلَحَ ، وَرَبَّيْ ، والثُّنُؤُ أيضاً زائدةٌ ؛

(١) ينظر : «مفاتيح الغيب» (٩٦/٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٣/٣) برقم (٧٢٩٤) ، وذكره البخاري في «تفسيره» (٣٢٠/١) ، وابن عطية في «تفسيره» (٤٦٢/١) ، وابن كثير في «تفسيره» (٣٧٧/١) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٨٢) ، وعزاه لابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس .

(٣) أخرجه ابن حبان (١٢٩١ - موارد) بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة . وأخرجه الترمذي (١١٥٩) ، والبيهقي (٢٩١/٧) ، مختصراً .

كما زِيدَتْ في غُضْبَانٍ، وَعَظْشَانٍ^(١)، وفي البخاري: الرِّبَانِيُّ الذي يُرَبِّي النَّاسَ بِصَغَارِ الْعِلْمِ قبل كِبَارِهِ.

قال * ع^(٢) *: فجمله ما يُقَالُ في الرِّبَانِيِّ: أنه العالمُ بالرَّبِّ والشرع، المصيبُ في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في النَّاسِ، وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾: معناه: بسبب كونكم عالمين دارسين، ف «مَا»: مصدرية، وأسند أبو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ في كتاب «فَضْلُ الْعِلْمِ»، عن النبي ﷺ قَالَ: الْعِلْمُ عِلْمَانِ، عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ، فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ فِي اللِّسَانِ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) عَلَى ابْنِ آدَمَ^(٣)، وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلَاكَ أُمَّتِي عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَعَابِدٌ جَاهِلٌ، وَشَرُّ الشَّرَارِ جَبَّارُ الْعُلَمَاءِ، وَخَيْرُ الْخِيَارِ خِيَارُ الْعُلَمَاءِ»^(٤). اهـ.

(١) والرِّبَانِيُّونَ جمع رِبَانِيٍّ، وفيه قولان:

أحدهما: أنه منسوب إلى الرُّبِّ، والآلِف والنون فيه زائدتان في النسب دلالة على المبالغة، كَرِبَانِيٍّ، وشُعْرَانِيٍّ، ولِخْيَانِيٍّ للغليظ الرقبة، والكثير الشعر، والطويل اللحية، ولا تُفَرِّد هذه الزيادة عن النسب، أمَّا إِذَا نَسَبُوا إِلَى الرَّقَبَةِ، والشعر، واللحية من غير مبالغة قالوا: رَقَبِيٍّ وشُعْرِيٍّ وَلَحَوِيٍّ، هذا معنى قول سيبويه.

والثاني: أنه منسوب إلى رِبَّانٍ، والرِّبَانُ هو الْمُعَلِّمُ للخير وَمَنْ يَسُوسُ النَّاسَ وَيُعَرِّفُهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ، فالآلِف والنون دالتان على زيادة الوصف كهي في عَظْشَانٍ، وَرِبَّانٍ، وَجَوْعَانٍ، وَوَشْنَانٍ، وتكون النسبة على هذا في الوصف نحو أحمريٍّ، قال:

أَطْرَبَا وَأَتَتْ قِئْسَرِيَّ وَالذَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَارِيَّ

وقال سيبويه: «زادوا ألفاً ونوناً في الرِّبَانِيٍّ أرادوا تخصيصاً بعلم الرب دون غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: شُعْرَانِيٍّ، وَلِخْيَانِيٍّ، وَرَقَبَانِيٍّ» وفي التفسير: «كونوا فقهاء علماء»، ولَمَّا مات ابن عباس قال محمد ابن الحنفية: «مات اليوم رِبَانِيٌّ هذه الأمة».

ينظر: «الكتاب» (٢/٨٩) و «الدر المصون» (٢/١٤٧ - ١٤٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٦٢).

(٣) أخرجه الدارمي (١/١٠٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/٢٣٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١١٥٠)، عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً.

وأخرجه الخطيب (٤/٣٤٦)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» رقم (٨٨). من طريق الحسن عن جابر مرفوعاً.

وأخرجه ابن الجوزي في «العلل» (٨٩)، من طريق أبي الصلت الهروي، عن يوسف بن عطية الصفار، عن قتادة، عن الحسن، عن أنس مرفوعاً.

والحديث ضعيف.

(٤) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١١٦٢) من حديث ابن وهب عن النبي ﷺ.

وقرأ جمهور الناس: «تَدْرُسُونَ»؛ بضم الرَّاء: من دَرَسَ، إِذَا أَدَمَنَ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ، وكَرَّرَهُ.

وقرأ نافع وغيره: «وَلَا يَأْمُرُكُمْ»؛ برفع الراء: على القُطْع^(١)؛ قال سيبويه: المَعْنَى لَا يَأْمُرُكُمُ اللَّهُ، وقال ابنُ جُرَيْج وغيره: المَعْنَى: وَلَا يَأْمُرُكُمْ هَذَا الْبَشَرُ الَّذِي أُوتِيَ هَذِهِ النِّعَمَ، وهو مُحَمَّدٌ ﷺ^(٢)، وأما قِرَاءَةُ مَنْ نَصَبَ الرَاءَ، وهو حمزة وغيره، فهي عَطَفٌ على قوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾، المَعْنَى: وَلَا لَهُ أَنْ يَأْمُرَكُمْ؛ قاله أبو علي وغيره^(٣)، وهو الصواب، لا ما ١٩٢ قاله الطبري^(٤)؛ من أَنَّهَا عَطَفٌ على قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾، والأرباب؛ في هذه الآية: بمعنى الآلهة.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُجْمَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾: المَعْنَى: وَأَذْكُرُ يَا مُحَمَّدُ إِذْ، فيحتمل أن يكون أخذ هذا الميثاق؛ حين أخرج بني آدم من ظَهر آدم نَسَمًا، ويحتمل أن يكون هذا الأخذ على كل نبي في زمنه، ووقت بعثه، والمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ؛ بأنه ملتزم هو ومن آمن به بالإيمان بمن أتى بعده من الرُّسُل، والنَّصْرَ له، وقال ابن عباس: إنما

(١) ينظر: «السبعة» (٢١٣)، و«الكشف» (٣٥٠/١)، و«الحجة» (٥٧/٣)، و«معاني القراءات» (١/٢٦٤)، و«حجة القراءات» (١٦٨)، و«العنوان» (٨٠)، و«إعراب القراءات» (١١٦/١)، و«شرح طيبة النشر» (١٦١/٤)، و«شرح شعلة» (٣١٩)، و«إتحاف» (٤٨٣/١).

(٢) أخرجه الطبري بنحوه في «تفسيره» (٣٢٧/٣) برقم (٧٣٢٠)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٣٢١/١)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٦٣/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» بنحوه (٨٣/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٣/١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٢٧/٣).

أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَهُوَ أَخَذَ لِمِيثَاقِ الْجَمِيعِ^(١)، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا آدَمَ فَمَنْ بَعْدَهُ، إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ: لَتُنَّ بُعْثَ، وَهُوَ حَيٌّ، لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ، وَلَيَنْصُرَنَّهُ^(٢)، وَأَمَرَهُ بِأَخْذِهِ عَلَى قَوْمِهِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ^(٣).

وَقَرَأَ حَمْزَةً: «لِمَا»؛ بِكَسْرِ اللَّامِ^(٤)، وَهِيَ لَامُ الْجَرِّ، وَالتَّقْدِيرُ لِأَجْلِ مَا آتَيْنَاكُمْ؛ إِذْ أَنْتُمْ الْقَادَةُ وَالرَّعُوسُ، وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْحَالِ، فَهُوَ الَّذِي يُؤْخَذُ مِيثَاقُهُ، وَ «مَا» فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ بِمَعْنَى «الَّذِي»، وَالْعَائِدُ إِلَيْهَا مِنَ الصَّلَةِ، تَقْدِيرُهُ: آتَيْنَاكُمْوه، وَ «مِنْ»: لِبَيَانِ الْجَنَسِ، وَ «ثُمَّ جَاءَكُمْ...» الْآيَةُ: جَمَلَةٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الصَّلَةِ، وَلَا بُدَّ فِي هَذِهِ الْجَمَلَةِ مِنْ ضَمِيرٍ يَعُودُ عَلَى الْمَوْضُولِ، وَإِنَّمَا حُذِفَ؛ تَخْفِيفًا لَطَوِيلِ الْكَلَامِ، وَتَقْدِيرُهُ عِنْدَ سَبِيوهِ: رَسُولٌ بِهِ مَصْدَقٌ لِمَا مَعَكُمْ، وَاللَّامُ فِي: «لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ» هِيَ اللَّامُ الْمُتَلَقِّيَّةُ لِلْقَسَمِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ أَخْذُ الْمِيثَاقِ، وَفَصْلُ بَيْنَ الْقَسَمِ وَالْمُقَسَّمِ عَلَيْهِ بِالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ، وَقَرَأَ سَائِرُ السَّبْعَةِ «لِمَا»؛ بِفَتْحِ اللَّامِ، وَذَلِكَ يَتَخَرَّجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ «مَا» مَوْصُولَةً فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَاللَّامُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ، وَهِيَ مُتَلَقِّيَّةٌ لِمَا أُجْرِيَ مُجْرَى الْقَسَمِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ»، وَخَبَرُ الْإِبْتِدَاءِ قَوْلُهُ: «لَتُؤْمِنَنَّ»، وَلَتُؤْمِنَنَّ: مُتَعَلِّقٌ بِقَسَمٍ مُحْذُوفٍ، فَالْمَعْنَى: وَاللَّهُ، لَتُؤْمِنَنَّ، قَالَه أَبُو عَلِيٍّ^(٥) وَهُوَ مُتَّجِهٌ؛ بِأَنَّ الْحَلْفَ يَقَعُ مَرَّتَيْنِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ «مَا» لِلْجَزَاءِ شَرْطًا، فَتَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِالْفِعْلِ الَّذِي

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ٣٣٠) بِرَقْم (٧٣٢٤)، وَذَكَرَهُ الْمَاورِدِي فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/ ٤٠٦)، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ٣٣٠) بِرَقْم (٧٣٢٦)، وَذَكَرَهُ الْمَاورِدِي فِي «تَفْسِيرِهِ» بِنَحْوِهِ (١/ ٤٠٦)، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ٣٣٠) بِرَقْم (٧٣٢٩)، وَذَكَرَهُ الْمَاورِدِي فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/ ٤٠٦)، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٤) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٢١٣)، وَ «الْكَشْفُ» (١/ ٣٥١)، وَ «الْحَجَّةُ» (٣/ ٦٢)، وَ «إِعْرَابُ الْقِرَاءَاتِ» (١/ ١١٦)، وَ «شَرْحُ الطَّبِيَةِ» (٤/ ١٦١)، وَ «مَعَانِي الْقِرَاءَاتِ» (٢٦٥)، وَ «شَرْحُ شَعْلَةٍ» (٣٢٠)، وَ «إِتْحَافُ» (١/ ٤٨٣)، وَ «الْعُنْوَانُ» (٨٠).

(٥) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/ ٤٦٤).

بَعْدَهَا، وهو مجزومٌ، و «جَاءَكُمْ»: معطوفٌ في موضع جزم، واللام الداخلة على «مَا» ليستِ المتلقية للقسم، ولكنها الموطئة المؤذنة بمجيء لام القسم، فهي بمنزلة اللام في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأحزاب: ٦٠] لأنها مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠] وكذلك هذه مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾.

وقرأ نافعٌ وخُده: «آتَيْنَاكُمْ»، بالثون، وقرأ الباقون: «آتَيْنَاكُمْ»؛ بالتاء^(١)، ورسولٌ؛ في هذه الآية: اسمٌ جنس، وقال كثيرٌ من المفسرين هو نبيُّنا محمدٌ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي...﴾ هذه الآية: هي وصفٌ توقيف الأنبياء - عليهم السلام - على إقرارهم بهذا الميثاق، والتزامهم له، ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾؛ في هذه الآية: عبارة عما تحصل لهم من إيتاء الكتب والحكمة، فمن حيث أخذ عليهم، أخذوا هم أيضاً، وقال الطبري^(٢): ﴿أَخَذْتُمْ﴾؛ في هذه الآية: معناه: قَبِلْتُمْ، والإضر: العهد لا تفسير له في هذا الموضع إلا ذلك^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ يحتملُ معنيين:

أحدهما: فاشْهَدُوا/ على أممكم المؤمنين بكم، وعلى أنفسكم بالتزام هذا العهد، ب^٩ قاله الطبري، وجماعة^(٤).

والمعنى الثاني: بُثُوا الأمر عند أممكم، وأشهدوا به، وشهادة الله على هذا التأويل هي إعطاء المعجزات، وإقرارُ نبوتهم، هذا قولُ الزجاج وغيره^(٥).

(١) وحجة نافع قوله تعالى: ﴿وَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ [الصفات: ١١٧]، ونحوه.

ينظر: «حجة القراءات» (١٦٨)، و «السبعة» (٢١٤)، و «الحجة» (٦٩/٣)، و «معاني القراءات» (١/٢٦٥)، و «إعراب القراءات» (١١٦/١)، و «شرح شملة» (٣١٩)، و «العنوان» (٨٠)، و «تحاف فضلاء البشر» (٤٨٤/١).

(٢) ينظر: «الطبري» (٣٣٢/٣).

(٣) وأصل الإضر: الثقل والشدة. والإضر - أيضاً -: الذنب. والإضر - أيضاً -: والأضر ما عطفك على شيء.

ينظر: «لسان العرب» (٨٦، ٨٧).

(٤) ينظر: «الطبري» (٣٣٣/٣).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٤٣٧/١).

وقال *ع^(١): * فتأمل أنَّ القول الأول هو إيداع الشهادة وأستحفاظها، والقول الثاني هو الأمر بأدائها، وحَكَمَ تعالى بالفِسْقِ عَلَى مَنْ تَوَلَّى مِنَ الْأُمَمِ بَعْدَ هَذَا الْمِيثَاقِ، قاله عليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وغيره^(٢)، وقرأ أبو عمرو: «يَبْغُونَ»؛ بالياء مِنْ أَسْفَلَ مُفْتُوحَةً^(٣)، و «تُرْجَعُونَ» بالتاء من فوق مضمومة، وقرأ عاصمٌ بالياء مِنْ أَسْفَلَ فيهما، وقرأ الباقر بالتاء فيهما، ووجوه هذه القراءات لا تحفى بأدنى تأمل.

و «تَبْغُونَ»: معناه: تَطْلُبُونَ.

قال النووي: ورؤينا في كتاب ابن السني، عن السيّد الجليل المُجمَع على جلالته وحفظه وديانته ورّعه يؤنس بن عبيد بن دينار البصري الشافعي المشهور^(٤)؛ أنه قال: ليس رجلٌ يكون على دأبة صعبة، فيقول في أذنها: «أَفْعِيزَ دِينَ اللَّهِ تَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، إلا وقفت بإذن الله تعالى.

ورؤينا في كتاب ابن السني، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إِذَا أَنْفَلْتَنِي دَابَّةً أَحَدِكُمْ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَلْيُنَادِ: يَا عِبَادَ اللَّهِ، أَحْبِسُوا، يَا عِبَادَ اللَّهِ، أَحْبِسُوا، فَإِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَرْضِ حَاضِراً سَيَحْبِسُهَا»^(٥).

قال النووي^(٦): حَكَى لي بعض شيوخنا؛ أنه أَنْفَلْتَنِي لَهُ دَابَّةً أَظْنَهَا بَغْلَةً، وَكَانَ يَعْرِفُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٦/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣٣/٢) برقم (٧٣٣٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٦/١).

(٣) وهي رواية حفص عن عاصم، وحجتها أن الخطاب قد انقضى بالفصل بينه وبين ذلك بقوله: «فمن تولى بعد ذلك...» الآية، ثم إن المعنى حينئذ: اليهود.

ينظر: «السبعة» (٢١٤)، و «الكشف» (٢٥٣/١)، و «العنوان» (٨٠)، و «الحجة للقراء السبعة» (٣/٦٩)، و «حجة القراءات» (١٧٠)، و «شرح شعلة» (٣٢٠)، و «شرح الطيبة» (١٦٢/٤)، و «إتحاف» (٤٨٤/١)، و «معاني القراءات» (٢٦٧/١).

(٤) يؤنس بن عبيد بن دينار الإمام القدوة، الحجة، أبو عبد الله العبدى، مولا هم البصري، من صغار التابعين وفضلائهم.

رأى أنس بن مالك، وحدث عن الحسن، وابن سيرين، وعطاء، وعكرمة، قال علي بن المديني: له نحو مائتي حديث، وقال ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث، وقال أحمد وابن معين والناس: ثقة.

ينظر: «السير» (٢٨٨/٦)، «طبقات ابن سعد» (٢٦٠/٧)، «الكامل» (٤٨٧/٥)، «حلية الأولياء» (٣/١٥-٢٧).

(٥) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة»، حديث (٥٤٢).

(٦) ينظر: «حلية الأبرار» (ص ٢٥٧).

هذا الحديث، فقالهُ، فَحَبَسَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ، وَكُنْتُ أَنَا مَرَّةً مَعَ جَمَاعَةٍ، فَأَنْفَلْتُ مَنَّا بِهَيْمَةٍ، فَعَجَزُوا عَنْهَا، فَقُلْتُ، فَوَقَفْتُ فِي الْحَالِ بَعِيرٍ سَبَبَ سَوَى هَذَا الْكَلَامِ . اهـ .

وَ «أَسْلَمَ» : معناه : اسْتَسَلَّمَ ، عند الجمهور .

واختلفوا في مَعْنَى قَوْلِهِ : «طَوَّعاً وَكَرْهاً» ، فقال مجاهد : هذه الآية كقوله تعالى : «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» [لقمان : ٢٥] فالمعنى : أَنْ إِقْرَارَ كُلِّ كَافِرٍ بِالصَّانِعِ هُوَ إِسْلَامٌ كَرْهًا^(١) ، ونحوه لأبي العالية ، وعبارته : كُلُّ آدَمِيٍّ ، فَقَدْ أَقَرَّ عَلَى نَفْسِهِ ؛ بِأَنَّ اللَّهَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُهُ ، فَمَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَتِهِ ، فَهُوَ الَّذِي أَسْلَمَ كَرْهًا ، وَمَنْ أَخْلَصَ ، فَهُوَ الَّذِي أَسْلَمَ طَوَّعاً^(٢) .

قال * ع^(٣) : * والمعنى في هذه الآية يفهم كل ناظر أَنَّ الكره خاصٌّ بأهل الأرض .

وقوله سبحانه : «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ» : تَوْقِيفٌ لِمُعَاصِرِي نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالْكُفَّارِ .

قوله تعالى : «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ . . .» الآية : المعنى قُلْ يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ وَأُمَّتُكَ : «آمَنَّا بِاللَّهِ . . .» الآية ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا فِي «الْبَقَرَةِ» ، ثُمَّ حَكَمَ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ . . .» الآية ؛ بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْ آدَمِيٍّ دِينَاً غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ الَّذِي وَافَقَ فِي مَعْتَقَدَاتِهِ دِينَ كُلِّ مَنْ سَمِيَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ، وَهُوَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ : إِنْ «مَنْ يَبْتَغِ . . .» الآية ، نَزَلَتْ فِي الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ^(٤) ، قُلْتُ : وَعَلَى تَقْدِيرِ صَحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ ، فَهِيَ تَتَنَاوَلُ بَعْمُومَهَا مَنْ سِوَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

«كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣٤/٢) برقم (٧٣٤٠) ، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٦/١) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٨٥/٢) ، وعزاه لعبد بن حميد ، وابن جرير .

(٢) ذكره ابن عطية (٤٦٦/١) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٨٦/٢) . وعزاه لابن جرير ، وابن أبي حاتم .

(٣) ينظر : «المحرر الوجيز» (٤٦٧/١) .

(٤) الحارث بن سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيِّ الْأَوْسِيِّ ، وَوَقَعَ لَابَنُ عَبْدِ الْبَرِّ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ ، وَيُقَالُ : ابْنُ مُسْلِمٍ الْمَخْزُومِي ، ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالْكُفَّارِ فَتَزَلَّتْ : «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا» .

ينظر : «الإصابة» (٦٧١/١ - ٦٧٢) ، «أسد الغابة» ت (٨٩٩) .

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٩﴾

وقوله تعالى: / ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...﴾ الآيات: قال ابن ١٩٣ عباس: نَزَلَتْ هذه الآيات من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ في الحارث بن سُوَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ، كان مُسْلِمًا، ثم أَرْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشَّرْكَ، ثُمَّ نَدِمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ؛ أَنْ سَلُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فنَزَلَتِ الْآيَاتُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ، فَأَسْلَمَ^(١)، قال مجاهد: وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ^(٢)، وقال ابن عباس أيضًا وَالْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، شَهِدُوا بِنَبِيِّ ﷺ، وَأَمَنُوا بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ مِنَ الْعَرَبِ، حَسَدُوهُ، وَكَفَرُوا^(٣) بِهِ، وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ^(٤).

وقال النقَّاش: نَزَلَتْ فِي طُعَيْمَةَ بْنِ أَبِي رِيقٍ^(٥).

قال * ع^(٦): * وَكُلُّ مَنْ ذُكِرَ، فَأَلْفَاظُ الْآيَةِ تَعْمُهُ.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ﴾: سَوَالٌ عَنْ حَالِ لَكُنْهُ سَوَالُ تَوْقِيفٍ عَلَى جِهَةِ الْإِسْتِيعَادِ لِلْأَمْرِ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَشِدَّةِ هَذِهِ الْجَرَائِمِ يَبْعَدُ أَنْ يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

قال الفَخْر^(٧): وَأَسْتَغْظَمُ تَعَالَى كُفْرَ هَؤُلَاءِ الْمُرْتَدِّينَ بَعْدَ حُصُولِ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْكُفْرِ يَكُونُ كَالْمَعَانِدَةِ وَالْجُحُودِ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ زَلَّةَ الْعَالِمِ أَقْبَحُ مِنْ زَلَّةِ الْجَاهِلِ. اهـ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٩٠﴾

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣٨/٢) برقم (٧٣٥٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٨٧/١)، وعزاه للنسائي، وابن حبان، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه»، من طريق عكرمة.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٨/١).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨٨/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعن الحسن، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٣٢٠).

(٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٨/١).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٨/١).

(٧) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٨/١١٢).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لَنَا إِتْرَئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً...﴾ الآية: قال أبو العالية رُفِعَ: الآية في اليهود كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ بعد إيمانهم بصفاته، وإقرارهم أنها في التَّوْرَةِ، ثم ازدادوا كُفْرًا؛ بالذُّنُوبِ الَّتِي أَصَابُوهَا فِي خِلَافِ النَّبِيِّ ﷺ؛ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ، وَالْبُهْتِ، وَالسَّغْيِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ^(١).

قال * ع^(٢): وَعَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ يَدْخُلُ فِي الْآيَةِ: الْمُرْتَدُّونَ الْلاحِقُونَ بِقُرَيْشٍ، وَغَيْرِهِمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾، أَي: أَتَمُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَبَلَّغُوا الْمَوْتَ^(٣) بِهِ.

قال * ع^(٤): * فَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْقَوْلِ: الْيَهُودُ، وَالْمُرْتَدُّونَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ نَحْوَهُ^(٥)، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ تَوْبَةَ هَؤُلَاءِ لَنْ تُقْبَلَ، وَقَدْ قَرَّرَتِ الشَّرِيعَةُ؛ أَنَّ تَوْبَةَ كُلِّ كَافِرٍ تُقْبَلُ، فَلَا بُدَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ تَخْصِصٍ تُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَيَصْحُحُ بِهِ نَفْيُ قَبُولِ التَّوْبَةِ، فَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: الْمَعْنَى: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ عِنْدَ الْعَرْشَةِ وَالْمَعَايِنَةِ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْمَعْنَى: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ الَّتِي أَصَابُوهَا مَعَ إِقَامَتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ^(٦).

قال * ع^(٧): * وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ إِشَارَةً إِلَى قَوْمٍ بِأَعْيَانِهِمْ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ سَبَحَانَهُ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ [آل عمران: ٨٦]، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُ لَا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٤١) برقم (٧٣٧٤، ٧٣٧٥)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٤٠٨)، وأسند لأبي العالية، وذكره أيضاً ابن عطية (١/٤٦٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٨٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٦٩).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٧٠)، والسيوطي في «الدر» (٢/٨٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٧٠).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٤٢) برقم (٧٣٨١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٨٨)، وعزاه لابن جرير.

(٦) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٧٠).

(٧) ينظر: المصدر السابق.

تَكُونُ مِنْهُمْ تَوْبَةً، فَيَتَصَوَّرُ قَبُولَهَا؛ فكَأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْيِنِينَ؛ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ كُفَّارًا، ثُمَّ أَخْبَرَ النَّاسَ عَنْ حُكْمِ كُلِّ مَنْ يَمُوتُ كَافِرًا، وَالْمِلَّةُ: مَا شُجِّنَ بِهِ الْوَعَاءُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾، قَالَ الرَّجَّاجُ^(١): الْمَعْنَى: لَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ إِنْفَاقُهُ وَتَقَرُّبَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَلَوْ أَنْفَقَ مِلَّةَ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَوْ افْتَدَى أَيْضًا بِهِ فِي الْآخِرَةِ، لَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ، قَالَ: فَأَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُثَبِّتُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ الْإِفْتِدَاءَ مِنَ الْعَذَابِ.

قَالَ * ع^(٢) *: وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، وَقَالَ قَوْمٌ: الْوَاوُ زَائِدَةٌ، وَهَذَا قَوْلٌ مُرَدُّودٌ، وَيَحْتَمَلُ الْمَعْنَى نَفْيَ الْقَبُولِ عَلَى كُلِّ وَجْهِ، ثُمَّ خَصَّ مِنْ تِلْكَ الْوُجُوهِ أَلْيَقَهَا وَأَحْرَاهَا بِالْقَبُولِ، وَبَاقِي الْآيَةِ وَعِيدٌ بَيِّنٌ، عَافَانَا اللَّهُ مِنْ عِقَابِهِ، وَخَتَمَ لَنَا بِمَا خَتَمَ بِهِ لِلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ/ .

٩٣ ب

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ...﴾ الآية: خُطَابٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَحْتَمَلُ الْآيَةُ أَنْ يَرِيدَ لَنْ تَنَالُوا بِرَّ اللَّهِ بِكُمْ، أَيْ: رَحِمَتُهُ وَلُطْفُهُ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ لَنْ تَنَالُوا دَرَجَةَ الْكَمَالِ مِنْ فِعْلِ الْبِرِّ؛ حَتَّى تَكُونُوا أَبْرَارًا إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ الْمُتَصَافِ إِلَى سَائِرِ أَعْمَالِكُمْ.

قَالَ * ص *: قَوْلُهُ: ﴿مِمَّا تَحِبُّونَ﴾: «مِنْ»: لِلتَّبَعِيضِ؛ تَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: «بَعْضُ مَا تُحِبُّونَ»^(٣) اهـ.

قَالَ الْغَزَالِيُّ: قَالَ نَافِعٌ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ مَرِيضًا، فَأَشْتَهَى سَمَكَةَ طَرِيَّةً، فَحَمَلَتْ إِلَيْهِ عَلَى رَغِيفٍ، فَقَامَ سَائِلٌ بِالْبَابِ، فَأَمَرَ بِدَفْعِهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَيُّمَا أَمْرٍ أَشْتَهَى شَهْوَةً، فَرَدَّ شَهْوَتَهُ، وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ عَقَرَ اللَّهُ لَهُ»^(٤) اهـ مِنْ «الْإِحْيَاءِ».

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/٤٤١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٧٠).

(٣) ينظر: «الكشاف» (١/٣٨٥)، و «البحر المحيط» (٢/٥٤٦)، و «الدر المصون» (٢/١٦٦).

(٤) ذكره الهندي في «الكنز» (٤٣١١٢)، وعزاه للدارقطني في الأفراد، وأبي الشيخ في «الثواب». وقال الحافظ العراقي في «تغريب الإحياء» (٣/٢٥٧): أخرجه ابن حبان في «الضعفاء»، وأبو الشيخ في «الثواب» من حديث ابن عمر بسند ضعيف. اهـ.

والحديث أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/١٣٨)، من طريق عمرو بن خالد، عن حبيب بن أبي ثابت، عن نافع، عن ابن عمر به.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، والمتهم به عمرو بن خالد، قال وكيع: كان في جوارنا يضع الحديث، وقال ابن عدي: عامة ما يروي موضوعات؛ كذبه أحمد، ويحيى.

واعلم أن جهلة المتزهدين بنوا على مثل هذا الحديث الواهي، فتركوا كل ما تشبهه النفس، فعذبوا أنفسهم لمجاهدتها في ترك كل ما يُشْتَهَى مِنَ الْمُبَاحَاتِ، وَذَلِكَ غَلَطٌ؛ لِأَنَّ لِلنَّفْسِ حَقًّا، وَمَتَى تَرَكَ كُلَّ مَا =

قال *ع^(١)*: وبسبب نزول هذه الآية تَصَدَّقَ أَبُو طَلْحَةَ بِحَائِطِهِ الْمَسْمُومِ يَبْرَحًا، وَتَصَدَّقَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِفَرَسٍ كَانَ يَحْبُهَا، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَشْتَهِي أَكْلَ الشُّكْرِ بِاللُّوزِ، فَكَانَ يَشْتَرِي ذَلِكَ، وَيَتَصَدَّقُ بِهِ^(٢).

قال الفخر^(٣): والصحيح أن هذه الآية في إيتاء المال على طريق النَّدْبِ، لا أنها في الزكاة الواجبة. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ شرط وجواب فيه وغد، أي: عليمٌ مُجَازٍ بِهِ، وَإِنْ قُلْ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية إخبارٌ بِمَغْيِبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَحَلَالًا: مَعْنَاهُ: حَلَالًا، وَالْآيَةُ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ فِي زَعْمِهِمْ؛ أَنَّ كُلَّ مَا حَرَّمَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ أَنَّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّوْرَةِ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، أَي: فَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ، لَا هَذِهِ الزَّوَائِدُ الَّتِي أَفْتَرَوْهَا.

وقال الفخر^(٤): قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾، الْمَعْنَى: أَنَّ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ كُلِّ أَنْوَاعِ الْمَطْعُومَاتِ سِوَى مَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَمَّا بَعْدَ نُزُولِ التَّوْرَةِ، فَلَمْ يَبْقَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ، وَذَلِكَ هُوَ عَيْنُ النَّسْخِ الَّذِي هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ. اهـ.

= تشهيه أثر في صورتها ومعناها. أما في صورتها، فإن جسدنا قد بُني على أخلاط وفي باطنها طبيعة مستحثة على ما يصلحها، فإذا قَلَّتْ عندها الرطوبة مالت إلى المرطبات، وإذا كَثُرَتْ فيها طلبت المنشفات، طلباً لإصلاح بدننا، فإذا منعَتْ ما ركبَتْ عليه من طلب الملائم كان ذلك مضاداً لحكمة الواضع، ومبالغة في أذى النفس.

وأما في معناها ينكمد برد أغراضها؛ إذ تَبَلُّ أغراضها يقوي حاستها، فلا ينبغي أن يترك من أغراضها، إلا ما خاف من تناوله، إما الملائم أو التشبُّط عن الطاعة، أو فوات خيرها، وإنما المنع من ترك شهواتها على الإطلاق. وأما إذا اشتهد شيئاً من فضول العيش، فأثرت به، فالثواب حاصل، وذلك داخل في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧١/١).

(٢) ذكره ابن عطية (٤٧١/١).

(٣) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١١٨/٨).

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٢٣/٨).

قال * ع^(١) *: ولم يختلف فيما علمت أن سبب تحريم يعقوب ما حرّمه على نفسه هو بمرض أصابه، فجعل تحريم ذلك شكراً لله، إن شفي، وقيل: هو وجع عرق النسا، وفي حديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ عَصَابَةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، مَا الَّذِي حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَنْتِدُّكُمْ بِاللَّهِ! هَلْ تَعْلَمُونَ؟ أُنَّ يَعْقُوبَ مَرِيضَ مَرَضاً شَدِيداً، فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ، فَتَذَرَّ لِلَّهِ نَذراً، إِنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ، لِيَحْرَمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحُومُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ، نَعَمْ»^(٢).

قال * ع^(٣) *: وظاهر الأحاديث والتفاسير في هذا الأمر أن يعقوب - عليه السلام - حرّم لحوم الإبل وألبانها، وهو يحبها؛ تقريباً بذلك؛ إذ ترك الترفه والتنعم من القرب، وهذا هو الزهد في الدنيا، وإليه نحا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)؛ بقوله: «إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْمَجَازِرُ؛ فَإِنَّ لَهَا ضَرَاوَةً كَضَرَاوَةِ الْخَمْرِ»؛ ومن ذلك قول أبي حازم الزاهد، وقد مرّ بسوق الفاكهة، / فرأى محاسنها، فقال: مَوْعِدُكَ الْجَنَّةُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

١٩٤

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ...﴾ الآية: قال الزّجاج^(٤): وفي هذا تعجيز لهم، وإقامة للحجة عليهم.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ^(٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ^(٩٧) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: من بعد ما تبين له الحق، وقيام الحجة، فهو الظالم.

وقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾، أي: الأمر كما وصف سبحانه، لا كما تكذبون، فإن كنتم تغتزون إلى إبراهيم، فاتبعوا ملته؛ على ما ذكر الله.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٧٣).

(٢) رواه الطبري (٧٤٠٢) عن ابن عباس، وزاد السيوطي في «الدر» (٩٢/٢) فعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وأخرجه الطبري (٧٤٠٠) عن الضحاك.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٤٧٣).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» (١/٤٤٤).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ.....﴾ الآية: لا مِرْيَةَ أَنْ إبراهيم - عليه السلام - وضع بينت مكة، وإنما الخلاف، هل هو وضع بَدَأَةً أَوْ وُضِعَ تجديداً؟ وقال الفخر^(١): يحتمل أولاً في الوضع والبناء، ويحتمل أن يريد أولاً في كونه مباركاً، وهذا تحصيل المفسرين في الآية. اهـ.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢) وكون البين الحرام مباركاً، قيل: بركته ثواب الأعمال هناك، وقيل: ثواب قاصديه، وقيل: أمن الوحش فيه، وقيل: عزوف النفس عن الدنيا عند رؤيته، قال ابن العربي^(٣): والصحيح عندي أنه مبارك من كل وجه من وجوه الدنيا والآخرة؛ وذلك بجميعة موجود فيه. اهـ.

قال مالك في سماع ابن القاسم من «العتبية»: بكّة موضع البين، ومكّة غيره من المواضع، قال ابن القاسم: يريد القرية^(٤)، قلت: قال ابن رشد في «البيان»^(٥): أُرِي مالكا أخذ ذلك من قول الله عز وجل؛ لأنه قال تعالى في بكّة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾، وهو إنما وضع بموضعه الذي وُضِعَ فيه لا فيما سواه من القرية، وقال في «مكّة»؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] وذلك إنما كان في القرية، لا في موضع البين. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿فيه﴾، أي: في البين ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾،

قال ع^(٦) * : والمترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلاً مثلاً ممّا في حرم الله من الآيات وخصاً بالذكر؛ لعظمهما، و «مقام إبراهيم»: هو الحجر المعروف؛ قاله الجمهور، وقال قوم: البين كله مقام إبراهيم، وقال قوم: الحرم كله مقام إبراهيم، والضمير في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ عائذ على البين؛ في قول الجمهور، وعائذ على الحرم؛

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٢٥/٨).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٢٨٣٠/٢).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٢٨٣/٢ - ٢٨٤).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٤/١).

(٥) صاحب «البيان» هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي. وكتاب «البيان» هو كتاب «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل»، وهي مستخرجة العتي المسماة «العتبية»، وهو كتاب عظيم نيف على عشرين مجلداً.

ينظر: «شجرة النور» (١٢٩/١)، و «هدية العارفين» (٨٥/٢)، و «الدبيح المذهب» (٢٤٨/٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/١).

في قول مَنْ قَالَ: مقام إبراهيم هو الْحَرَمُ.

وقوله: ﴿كَانَ آمِنًا﴾ قال الْحَسَنُ وغيره: هذه وَضْفٌ حالٍ كَانَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ، إِذَا دَخَلَ أَحَدُ الْحَرَمِ، آمِنًا، فَلَا يُعْرَضُ لَهُ، فَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْحَرَمَ لَا يَمْنَعُ مِنْ حَدِّ مَنْ حَدَّوهُ اللَّهُ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ جَعْفَرَةَ: معنى الآية: وَمَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ، كَانَ آمِنًا مِنَ النَّارِ، وَحَكَى النَّقَّاشُ عَنْ بَعْضِ الْعُبَّادِ، قَالَ: كُنْتُ أَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ لَيْلًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ قُلْتَ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، فَمَاذَا هُوَ آمِنٌ؟ فَسَمِعْتُ مَكْلَمًا يَكْلَمُنِي، وَهُوَ يَقُولُ: مِنْ النَّارِ، فَنَظَرْتُ، وَتَأَمَّلْتُ، فَمَا كَانَ فِي الْمَكَانِ أَحَدٌ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(١): وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا مِنَ النَّارِ - لَا يَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى عُمُومِهِ، وَلَكِنَّهُ ثَبَّتَ؛ أَنَّ مَنْ حَجَّ، فَلَمْ يَزُقْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ^(٢)، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ^(٣). قَالَ ذَلِكَ كُلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اهـ.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٣٨٢)، كتاب «الحج»، باب فضل الحج المبرور، حديث (١٥٢١)، (٢٥/ ٤)، كتاب «المحصر»، باب قوله الله تعالى: ﴿فَلَا رَفْثَ﴾، حديث (١٨١٩)، وباب قول الله (عز وجل): ﴿وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، حديث (١٨٢٠). ومسلم (٢/ ٩٨٣)، كتاب «الحج»، باب في فضل الحج والعمرة، حديث (٤٣٨/ ١٣٥٠). والنسائي (٥/ ١٤)، كتاب «الحج»، باب فضل الحج. والترمذي (٣/ ١٧٦)، كتاب «الحج»، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، حديث (٨١). وابن ماجه (٢/ ٩٦٤-٩٦٥)، كتاب «المناسك»، باب فضل الحج والعمرة، حديث (٢٨٨٩). وأحمد (٢/ ٢٤٨، ٤١٠، ٤٨٤)، والطيالسي (١/ ٢٠٢-منحة) رقم (٩٧٥). والدارمي (٢/ ٣١)، كتاب «المناسك»، باب في فضل الحج والعمرة، وأبو يعلى (١١/ ٦١) رقم (٦١٩٨). وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٦). وابن خزيمة (٤/ ١٣١) رقم (٢٥١٤)، وابن حبان رقم (٣٧٠٢-الإحسان). والبيهقي (٥/ ٦٧)، كتاب «الحج»، باب لا رَفْثَ وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٢٢)، والحميدي (٢/ ٤٤٠) رقم (١٠٠٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٤). بتحقيقنا. كلهم من طريق أبي حازم عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٦٩٨) في العمرة: باب العمرة، وجوب العمرة وفضلها (١٧٧٣)، ومسلم (٢/ ٩٨٣) في الحج: باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (٤٣٧-١٣٤٩)، والنسائي (٥/ ١١٥) في الحج: باب فضل العمرة. والترمذي (٣/ ٢٧٢) في الحج، باب ما ذكر في فضل العمرة (٩٣٣). وابن ماجه (١/ ٩٦٤) في المناسك: باب فضل الحج والعمرة (٢٨٨٨). وأحمد (٢/ ٢٤٦، ٢٦١، ٢٦٢)، والدارمي (٢/ ٣١) في المناسك: باب في فضل الحج والعمرة، من طريق سمي مولى أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة مرفوعاً: «العمرة إلى العمرة كفارة ما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾ الآية: هو فرضُ الحجِّ في كتابِ الله؛ بإجماع، وقرأ حمزة، والكسائي، وحُفص عن عاصم: «حِجُّ الْبَيْتِ»؛ بكسر الحاء، ٩٤ ب وقرأ الباقون بفتحها^(١)، / فَبِكَسْرِ الحاء: يريدون عَمَلَ سَنَةٍ واحدة، وقال الطبري^(٢): هما لُعْتَانِ الْكُسْرِ: لُعَةُ نَجْدٍ، والفتح لغة أهل الْعَالِيَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «مَنْ»: في موضعِ خَفْضٍ بدلٍ من «النَّاسِ»، وهو بدلُ الْبَعْضِ من الكلِّ، وقال الكسائي وغيره: هي شَرْطٌ في موضع رفعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، والجوابُ محذوفٌ، تقديره: فَعَلَيْهِ الْحِجُّ؛ ويدلُّ عليه عَطْفُ الشَّرْطِ الْآخِرِ بعده في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، وأسند الطبري إلى النبي ﷺ؛ أنه قال: «مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً، فَلَمْ يَحُجَّ، فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا»^(٣)، وذهب جماعةٌ من العلماءِ إلى أَنَّ قوله سبحانه: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ كلامٌ عامٌّ لا يتفسَّر بزادٍ ولا راحلةٍ، ولا غَيْرِ ذلك، بل إذا كان مستطيعاً غَيْرَ شاقٍّ عَلَى نفسه، فقد وَجَبَ عَلَيْهِ الْحِجُّ، وإليه نحا مَالِكٌ في سماعِ أَشْهَبَ، وقال: لا صِفَةً في هذا أَبَيْنُ مِمَّا قال الله تعالى. هذا أَتْبَلُ الْأَقْوَالِ، وهذه مِنَ الْأُمُورِ التي يتصرَّف فيها فَهْمُ الْحَالِ، والضميرُ في «إِلَيْهِ» عائِدٌ على البيت، ويحتملُ عَلَى الْحِجِّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، قال ابن عباس وغيره: المعنى: مَنْ زعم أَنَّ الْحِجَّ ليس بفَرْضٍ عليه^(٤)، وَرُوِيَ عن النبي ﷺ؛ أنه قرأ هذه الآية، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ هَذِيلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ تَرَكَهُ، كَفَرَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ تَرَكَهُ، لَا

(١) يُنْظَرُ: «السبعة» (٢١٤)، و «الكشف» (٢٥٣/١)، و «الحجة» (٧١/٣)، و «العنوان» (٨٠)، و «حجة القراءات» (١٧٠)، و «إعراب القراءات» (١١٧/١)، و «شرح شملة» (٣٢٠)، و «شرح الطيبة» (٤/١٦٢)، و «إتحاف» (٤٨٥/١)، و «معاني القراءات» (٢٦٨/١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٦٦/٣).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٩/٢)، كتاب «الحج»، باب من مات ولم يحج. وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥١/٩)، من طريق شريك، عن ليث، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامة مرفوعاً. ومن هذا الوجه أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/٢١٠ - بتحقيقنا)، وقال: لا يصح. وأعله بالمغيرة بن عبد الرحمن، قال يحيى: ليس بشيء. وفيه ليث، وقد ضعفه ابن عيينة، وتركه يحيى القطان، ويحيى بن معين، وابن مهدي، وأحمد. قلت: ولا وجه لإعلاله بالمغيرة؛ لأنه تويع على هذا الحديث، تابعه الدارمي، ومحمد بن أسلم، عن أبي نعيم في «الحلية».

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٧/٣)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٤١١/١)، والبغوي في «تفسيره» (٣٣٠/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٠١/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

يَخَافُ عُقُوبَتَهُ، وَمَنْ حَجَّهْ لَا يَزُجُو ثَوَابَهُ، فَهُوَ ذَلِكَ»^(١)، وقال بمعنى هذا الحديث ابنُ عباس وغيره، وقال السُّدِّيُّ وجماعة من أهل العلم. معنى الآية: مَنْ كَفَرَ بأنْ وَجَدَ مَا يَحُجُّ به، ثُمَّ لَمْ يَحُجَّ، قال السُّدِّيُّ: مَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْحَالِ، فَهُوَ كَافِرٌ^(٢)، يعني: كُفِّرَ مَعْصِيَةً، وَلَا شَكَّ أَنْ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَصَحَّةٍ، وَلَمْ يَحُجَّ، فَقَدْ كَفَرَ النُّعْمَةَ، وقال ابنُ عُمَرَ وجماعة: معنى الآية: وَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قال الفَخْرُ^(٣): وَالْأَكْثَرُونَ هُمُ الَّذِينَ حَمَلُوا الْوَعِيدَ عَلَى مَنْ تَرَكَ اعْتِقَادَ وَجُوبِ الْحَجِّ، وقال الضَّحَّاكُ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْحَجِّ، فَأَعْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ أَهْلَ الْمِلَلِ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَأَمَّنَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَكَفَرَ غَيْرُهُمْ^(٤)، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، قَالَ الْفَخْرُ^(٥): وَهَذَا هُوَ الْأَقْوَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: الْوَعِيدُ لِمَنْ كَفَرَ، وَالْقَصْدُ بِالْكَلَامِ: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَلَكِنْ عَمَّ اللَّفْظُ؛ لِيُبَيِّنَ الْمَعْنَى، وَتَنْتَبِهَ الْفِكْرُ لِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩) ﴿يَتَاهَلِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَاهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾. هذه الآيات: توبيخٌ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، والكتاب: التوراة، وآياتُ الله يحتملُ أنْ يريدَ بها القرآن، ويحتملُ العلاماتِ الظاهرةَ على يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وقوله

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٦٨) رقم (٧٥٠٩)، عن أبي داود نفيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٠١)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٨٠).

(٣) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٨/١٣٥).

(٤) أخرجه الطبري (٧/ ٤٩-٥٠) برقم (٧٥١٦)، وسعيد بن منصور رقم (٥١٥). كلاهما من طريق جوير عن الضحاك به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٠١)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(٥) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٨/١٣٥).

سبحانه: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ محضٌ، قال الطبري^(١): هاتان الآيتان: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وما بعدهما إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، نزلت بسبب رَجُلٍ من اليهود، حاول الإغراء بين الأوس والخزرج، قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي الثُّقَّةُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ الْيَهُودِيُّ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَظِيمَ الْكُفْرِ، شَدِيدَ الضُّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْحَسَدِ لَهُمْ؛ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَهُمْ فِي مَجْلِسٍ يَتَحَدَّثُونَ، فَعَاظَهُ مَا رَأَاهُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ بَيْنِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، فَقَالَ: قَدْ أَجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ، وَاللَّهِ، مَا لَنَا مَعَهُمْ، إِذَا أَجْتَمَعَ مَلَأُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ فَتَى شَابًّا مِنْ يَهُودٍ، فَقَالَ: أَعْمِدْ إِلَيْهِمْ، وَأَجْلِسْ مَعَهُمْ، وَذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثَ، وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ أَيَّامِ حَزْبِهِمْ، وَأَنْشِدْهُمْ مَا قَالُوهُ مِنَ الشُّعْرِ فِي ذَلِكَ، فَفَعَلَ الْفَتَى، فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَتَفَاحَرُوا، وَتَنَازَعُوا حَتَّى تَوَاتَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيِّينَ عَلَى الرُّكْبِ أَوْسُ بْنُ قَيْظٍ مِنَ الْأَوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلَا، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنْ شِئْتُمْ، وَاللَّهِ، رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذْعَةً، فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، السَّلَاحَ السَّلَاحَ! مَوْعِدُكُمْ الظَّاهِرَةُ، يُرِيدُونَ: الْحَرَّةَ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا وَتَحَاوَزَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَاهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ اللَّهُ، أَبَدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ^(٢)، وَوَعظَهُمْ، فَعَرَفَ الْقَوْمُ؛ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَلْقُوا السَّلَاحَ، وَبَكَوْا، وَعَانَقَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَأَنْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ، وَمَا صَنَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ.

وقال الحسن وغيره: نزلت في أخبار اليهود الذين يصدون المسلمين عن الإسلام، ويقولون: إن محمداً ليس بالموصوف في كتابنا^(٣).

قال ع^(٤): * : ولا شك في وقوع هذين الشيتين، وما شاكلهما من أفعال اليهود وأقوالهم، فنزلت الآيات في جميع ذلك، ومعنى «تبغون» أي: تطلبون لها الأعوجاج

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٣٧١).

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» (٢/ ١٩٧-١٩٨). والحديث أخرجه الطبري (٤/ ١٦) بسنده.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٣٧٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨١).

وَالْإِنْفَسَادَ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ: يريدُ جَمَعَ شَاهِدٍ عَلَى مَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَصِدْقِهِ، وَبَاقِي الْآيَةِ وَعِيدٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ...﴾ الآية: خطابٌ عامٌّ للمؤمنين، والإشارة بذلك وَفَتْ نَزُولَهُ إِلَى الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ بِسَبَبِ نَائِرَةِ شَاسِ بْنِ قَيْسٍ.

قال * ص *: قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾، رَدٌّ: بمعنى صَيَّرَ، فَيَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ الْأَوَّلِ: الْكَافِ، وَالثَّانِي: الْكَافِرِينَ؛ كَقَوْلِهِ: [الوافر]

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضًا وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبَيْضَ سُودًا^(١)
اهـ.

و ﴿يَغْتَصِمَ﴾: معناه: يَتَمَسَّكُ، وَعُصِمَ الشَّيْءُ، إِذَا مُنِعَ وَحُمِيَ؛ وَمِنْهُ: قَوْلُهُ: ﴿يَغْصِنُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] وَبَاقِي الْآيَةِ بَيْنَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَأَغْصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، قال ابن مسعود: «حَقُّ تَقَاتِهِ»: هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يَعْصَى، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ^(٢)، وَكَذَلِكَ عَبَّرَ

(١) وقيله:

رَمَى الْحَدَّثَانِ نِسْوَةَ آلِ حَزْبٍ بِمُقْدَارِ سَهْرَئَ لَهُ سُمُودًا
وهو لعبد الله بن الزبير في ملحق ديوانه (ص ١٤٣-١٤٤)؛ و «تخليص الشواهد» (ص ٤٤٣)؛
و «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص ٩٤١)؛ و «المقاصد النحوية» (٢/٤١٧)؛ ولأيمن بن خريم
في ديوانه (ص ١٢٦)؛ ولفضالة بن شريك في «عيون الأخبار» (٣/٧٦)؛ و «معجم الشعراء»
(ص ٣٠٩)؛ وللكميت بن معروف في «ذيل الأمالي» (ص ١١٥)؛ وبلا نسبة في «شرح الأشموني»
(١٥٩/١)؛ و «شرح ابن عقيل» (ص ٢١٧)؛ و «لسان العرب» (٣/٢١٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٧٥) برقم (٧٥٣٤: ٧٥٤١)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٣٣٢-٣٣٣)، وابن عطية (١/٤٨٣)، والسيوطي في «الدر» (٢/١٠٥)، وعزاه لابن المبارك في «الزهدة»، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «الناسخ»، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ^(١)، وقتاده، والحسن، قالت فرقة: نَزَلَتِ الْآيَةُ عَلَى عَمومَ لفظها؛ مِنْ لزوم غايَةِ التَّقْوَى؛ حَتَّى لَا يَقَعَ الْإِخْلَالُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وبقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقالت جماعة: لَا نُسَخُ هُنَا، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ فِي مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ / قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَهِيَ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الرُّقُومِ قُطِرَتْ فِي الدُّنْيَا، لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ؟» قَالَ أَبُو عَيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَخَرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ أَيْضًا^(٢) اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: معناه: دُومُوا عَلَى الْإِسْلَامِ؛ حَتَّى يُوَافِيَكُمُ الْمَوْتُ، وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَالْحَبْلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُسْتَعَارٌ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: حَبْلُ اللَّهِ الْجَمَاعَةُ، وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَفْتَرَقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً،

(١) الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ، الثَّوْرِيُّ، أَبُو يَزِيدَ الْكُوفِيُّ، مَخْضَرَمٌ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي أَيُّوبَ، وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ، وَعَنْهُ الشَّعْبِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَأَبُو بُرْدَةَ، قَالَ لَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ: لَوْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ لِأَحَبِّكَ، تَوَفَّى سَنَةً أَرْبَعٌ وَسِتِّينَ، وَكَانَ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

ينظر: «الخلاصة» (١/ ٣١٨-٣١٩)، و«تهذيب الكمال» (١/ ٤٠٣)، و«تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٤٢)، و«الكاشف» (١/ ٣٠٤)، و«طبقات ابن سعد» (٦/ ١٠، ٩٦، ١١٨)، و«سير الأعلام» (٤/ ٢٥٨)، و«الثقات» (٤/ ٢٢٤).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٤/ ٧٠٦-٧٠٧)، كِتَابَ «صِفَةِ جَهَنَّمَ»، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ شَرَابِ أَهْلِ النَّارِ، حَدِيثُ (٢٥٨٥). وَابْنُ مَاجَةَ (٢/ ١٤٤٦)، كِتَابَ «الزَّهْدِ»، بَابُ صِفَةِ النَّارِ، حَدِيثُ (٤٣٢٥)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «التَّفْسِيرِ» (١/ ٣١٦)، رَقْمُ (٩٠)، وَأَحْمَدُ (١/ ٣٠١، ٣٣٨)، وَالطَّيَالِسِيُّ (٢/ ١٦-منحة) رَقْمُ (١٩٥)، وَابْنُ حِبَانَ (٢٦١١-موارد)، وَالْحَاكِمُ (٢/ ٢٩٤، ٤٥١-٤٥٢). وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ» رَقْمُ (٥٩٦)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١١/ ٦٨)، رَقْمُ (١١٠٦٨)، وَفِي «الصَّغِيرِ» (٢/ ٥١). كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٦٠). وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن المنذر.

وقد جاء هذا الحديث موقوفاً على ابن عباس: أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/ ٣٣٨)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٣/ ١٦١) رَقْمُ (١٥٩٩١). وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ» (٥٩٧)، مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَاتِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفاً، وَأَبُو يَحْيَى الْقَتَاتِ، قَالَ الْحَافِظُ: لَيْسَ الْحَدِيثُ.

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هَذِهِ الْوَاحِدَةُ؟ قَالَ: فَقَبِضْ يَدَهُ، وَقَالَ: الْجَمَاعَةُ، وَقُرْ^(١): ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، وقال قتادة وغيره: حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِالْأَعْتَصَامِ بِهِ: هُوَ الْقُرْآنُ^(٢)، ورواه أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣)، وقال ابنُ زَيْدٍ: هُوَ الْإِسْلَامُ^(٤)، وقيل غير هذا ممَّا هُوَ كُلُّهُ قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَقُوا﴾: يريد: التفرُّق الَّذِي لَا يَتَأْتِي مَعَهُ الْإِكْتِلَافُ، كالتفرُّق بالفتن، والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقه، فَلَيْسَ بِدَاخِلٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بَلْ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ ﷺ: «خَلَّافُ أُمَّتِي رَحْمَةً»^(٥)، وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الصَّحَابَةُ

-
- (١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (١٣٢٢/٢)، كِتَابُ «الْفَتَنِ»، بَابُ افْتِرَاقِ الْأُمَمِ، حَدِيثُ (٣٩٩٣)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ. وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «الزَّوَائِدِ» (٢٣٩/٣): هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ؛ رَجَالُهُ ثِقَاتٌ.
- (٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٧٨/٣)، وَذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ بِنَحْوِهِ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤١٢/١)، وَابْنُ الْبُغْوِيِّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٣٣/١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٨٣/١).
- (٣) ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (١٠٧/٢)، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ جُرَيْرٍ.
- (٤) ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤١٤/١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٨٣/١)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (١٠٨/٢).

(٥) قَالَ السَّخَاوِيُّ فِي «الْمَقَاصِدِ» (ص ٢٦-٢٧): أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الْمَدْخَلِ» مِنْ حَدِيثِ سَلِيمَانَ بْنِ أَبِي كَرِيمَةَ عَنْ جُوَيْرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْمَا أُوتِيتُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَالْعَمَلُ بِهِ لَا عَذْرَ لِأَحَدٍ فِي تَرْكِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَسَنَةٌ مِنْ مَاضِيَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ سَنَةً مِنْ مَنِ فَمَا قَالَ أَصْحَابِي، إِنْ أَصْحَابِي بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، فَأَيُّمَا أَخَذْتُمْ بِهِ اهْتَدَيْتُمْ، وَاخْتِلَافُ أَصْحَابِي لَكُمْ رَحْمَةٌ، وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَالدَّيْلَمِيُّ فِي مَسْنَدِهِ بِلَفْظِهِ سَوَاءً، وَجُوَيْرٍ ضَعِيفٌ جَدًّا، وَالضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مُنْقَطِعٌ، وَقَدْ عَزَاهُ الزُّرْكَشِيُّ إِلَى كِتَابِ «الْحُجَّةِ» لِنَصْرِ الْمَقْدِسِيِّ مَرْفُوعاً مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ لِمُسْنَدِهِ وَلَا صَحَابِيهِ، وَكَذَا عَزَاهُ الْعِرَاقِيُّ لِآدَمَ بْنِ أَبِي إِيَّاسٍ فِي كِتَابِ «الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ» بِدُونِ بَيَانٍ بِلَفْظٍ: «اخْتِلَافُ أَصْحَابِي رَحْمَةٌ لِأُمَّتِي» قَالَ: وَهُوَ مَرْسَلٌ ضَعِيفٌ، وَبِهَذَا اللَّفْظُ ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي رِسَالَتِهِ الْأَشْعَرِيَّةِ بِغَيْرِ إِسْنَادٍ، وَفِي «الْمَدْخَلِ» لَهُ مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ عَنْ أَفْلَحَ بْنِ حَمِيدٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: اخْتِلَافُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَحْمَةٌ لِعِبَادِ اللَّهِ. وَمِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ؛ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ يَقُولُ: مَا سَرَنِي لَوْ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَخْتَلَفُوا؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَخْتَلَفُوا لَمْ تَكُنْ رَخْصَةٌ. وَمِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: أَهْلُ الْعِلْمِ أَهْلُ تَوْسَعَةٍ، وَمَا بَرَحَ الْمُفْتَخُونَ يَحِلُّ هَذَا وَيَحْرَمُ هَذَا، فَلَا يَعِيبُ هَذَا عَلَى هَذَا إِذَا عِلِمَ هَذَا. وَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ شَيْخِنَا: إِنَّهُ (يَعْنِي هَذَا الْحَدِيثَ) حَدِيثٌ مَشْهُورٌ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَقَدْ أَوْرَدَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي «الْمَخْتَصَرِ» فِي مَبَاحِثِ الْقِيَاسِ بِلَفْظٍ: «اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ»، وَكَثُرَ السُّؤَالُ عَنْهُ، وَزَعَمَ كَثِيرٌ مِنَ الْأُئِمَّةِ أَنَّهُ لَا أَصْلَ لَهُ، لَكِنْ ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ فِي «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» مُسْتَطَرِّدًا، وَقَالَ: اعْتَزَّضَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا مَاجِنٌ وَالْآخَرُ مَلْحَدٌ، وَهُمَا إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ وَعُمَرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاظِ، وَقَالَا جَمِيعًا: لَوْ كَانَ الْاخْتِلَافُ رَحْمَةً لَكَانَ الْإِتِّفَاقُ عَذَابًا، ثُمَّ تَشَاغَلَ الْخَطَّابِيُّ بِرَدِّ هَذَا الْكَلَامِ، وَلَمْ يَقَعْ فِي كَلَامِهِ شِفَاءٌ فِي عَزْوِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّهُ أَشْعَرَ بِأَنَّهُ لَهُ أَصْلًا عَنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْخُنَا شَيْئًا مِمَّا تَقَدَّمَ فِي عَزْوِهِ.

في الفُرُوع أَشدَّ اختلافٍ، وهم يَدُّ واحدةً على كُلِّ كافٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ...﴾ الآية: هذه الآية تدلُّ على أَنَّ الخطاب إنما هو للأوس والخزرج؛ كما تقدَّم، وكانتِ العداوة قد دامت بين الحَيِّين مائةَ وعشرين سنةً؛ حتى رَفَعَهَا اللهُ بالإسلام، فجاء النَّفَرُ السَّتَّةُ من الأَنْصَارِ إلى مَكَّة حُجَّاجاً، فعرض النبي ﷺ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ، وتَلَّا عَلَيْهِمْ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ؛ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ مَعَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، فَأَمَّنُوا بِهِ، وَأَرَادَ الْخُرُوجَ مَعَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ قَدِمْتَ بِلَدَّنَا عَلَى مَا بَيَّنَّنَا مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَرْبِ، خِفْنَا أَلَّا يَتِمَّ مَا نُرِيدُهُ بِكَ، وَلَكِنْ نَمْضِي نَحْنُ، وَنُشِيعُ أَمْرَكَ، وَنُدْخِلُ النَّاسَ، وَمَوْعِدُنَا وَإِيَّاكَ الْعَامَ الْقَابِلَ، فَمَضَوْا، وَقَعَلُوا، وَجَاءَتِ الْأَنْصَارُ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ، فَكَانَتِ الْعَقَبَةُ الثَّانِيَّةُ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فِيهِمْ خَمْسَةٌ مِنَ السَّتَّةِ الْأَوَّلِينَ، ثُمَّ جَاءُوا مِنَ الْعَامِ الثَّالِثِ، فَكَانَتِ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الْكُبْرَى، حَضَرَهَا سَبْعُونَ، وَفِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ نَقِيًّا.

ووضف القصة مستوعب في السير، ويسر الله تعالى الأنصار للإسلام بوجهين:

أحدهما: أَنَّ بني إسرائيل كانوا مجاورين لهم، وكانوا يقولون لِمَنْ يتوعدونه من الْعَرَبِ: يَبْعَثُ لَنَا الْآنَ نَبِيٌّ نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ، فلما رأى النَّفَرُ من الأَنْصَارِ النَّبِيَّ ﷺ قال بعضهم لبعض: هذا، والله، النَّبِيُّ الَّذِي تَذْكُرُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فلا تُسَبِّقَنَّ إِلَيْهِ.

والوجه الآخر: الْحَرْبُ الَّتِي كَانَتْ ضَرَسَتْهُمْ، وَأَفْنَتْ سِرَاتِهِمْ، فَرَجَوْا أَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ بِهِ كَلِمَتَهُمْ، فكان الأمر كما رَجَوْا، فعَدَّدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ فِي تَأْلِيفِهِمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ، وَذَكَرَهُمْ/ بها قال الْفَخْرُ^(١): كَانَتِ الْأَنْصَارُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَعْدَاءَ، فلما أكرمهم اللَّهُ [سبحانه]^(٢) بالإسلام، صاروا إِخْوَاناً فِي اللَّهِ متراجمين.

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ وَجْهَهُ إِلَى الدُّنْيَا، كَانَ مُعَادِيّاً لِأَكْثَرِ الْخَلْقِ، وَمَنْ كَانَ وَجْهَهُ إِلَى خِدْمَةِ الْمَوْلَى سَبْحَانَهُ، لَمْ يَكُنْ مُعَادِيّاً لِأَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ يَرَى الْكُلَّ أَسِيرًا فِي قَبْضَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، ولهذا قيل: إِنْ الْعَارِفَ، إِذَا أَمَرَ، أَمَرَ بِرَفْقٍ، وَنَصَحَ لَا بِعُغْفٍ وَعُسْرٍ، وَكَيْفَ، وَهُوَ مُسْتَبْصِرٌ بِاللَّهِ فِي الْقَدَرِ. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ عبارة عن الاستمرار.

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٨/١٤٣).

(٢) سقط من أ.

قال * ص *: «أَصْبَحَ»: يستعملُ لِاتِّصافِ الموصوفِ بصفتهِ وقتَ الصُّباحِ، وبمعنى^(١) «صَارَ»، فلا يلحظ فيها وقتَ الصُّباحِ، بل مطلقُ الانتقالِ والصيرورةِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، وَأَصْبَحَ: هنا بمعنى صَارَ، وما ذكره ابنُ عطية^(٢) مِنْ أَنَّ «أَصْبَحَ» لِلاستمرارِ، لم يذهبْ إليه أحدٌ مِنَ النُّحويِّينَ . اهـ.

قلتُ: وفيما ادَّعاه نَظَرٌ، وهي شهادةٌ على نفي . وكلام .

* ع^(٣) *: واضح من جهة المعنى، والشَّفا: حَرْفٌ كُلُّ جِزْمٍ له مَهَوِيٌّ؛ كالحفرة، والبئر، والجُرفِ، والسَّقْفِ، والجِدَارِ، ونحوه، ويضافُ في الاستعمالِ إلى الأعلى؛ كقوله: «شَفَا جُرْفٌ» [التوبة: ١٠٩]، وإلى الأسفلِ؛ كقوله: «شَفَا حُفْرَةً» فشبه الله كفرهم الذي كانوا عليه بالشَّفا، لأنهم كانوا يَسْقُطُونَ في جهنَّمَ دَابًّا، فأنقذهم الله منها بالإسلام .

وقوله تعالى: «فأنقذكم منها»، أي: مِنَ النَّارِ، ويحتمل من الحُفرة، والأول أحسنُ، قال العِراقِيُّ: أنقَذَكُم، أي: خلَّصَكُم . اهـ.

وقوله تعالى: «وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ»: أَمَرَ الله سبحانه الأُمَّةَ؛ بأن يكونَ منها علماءٌ يَفْعَلُونَ هذه الأفعالَ على وجوهاها، ويحفظُونَ قوانينَها، ويكون سائرُ الأُمَّةِ مُتَّبِعِينَ لأولئك، إذ هذه الأفعالُ لا تَكُونُ إِلَّا بعِلْمٍ واسعٍ، وقد عَلِمَ الله سبحانه؛ أَنَّ الكُلَّ

(١) أصبح من أخوابِ «كان»، فإذا كانت ناقصة كانت مثل «كان» في رفع الاسم ونصب الخبر، وإذا كانت تامة رفعت فاعلاً واستغنت به، فإن وجد منصوب بعدها فهي حال، وتكون تامة إذا كانت بمعنى دخل في الصباح تقول: «أصبح زيد» أي دخل في الصباح، ومثلها في ذلك «أمسى»، قال تعالى: «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون» [الروم: ١٧] وقوله: «وإنكم لتمزنون عليهم مضحين» [الصفات: ١٣٧] وفي أمثالهم: «إذا سمعت بُسرى القَيْنِ فاعلم أنه مُصبح»؛ لأنَّ القَيْنَ - وهو الحداد - ربما قلت صناعته في أحياء العرب فيقول: أنا غداً مسافرٌ، لياتوه الناس بحوائجهم فيقيم ويترك السفر، فأخرجوه مثلاً لمن يقول قولاً ويخالفه، فالمعنى أنه مقيم في الصباح، وتكون بمعنى «صار» عملاً ومعنى كقوله:

١٣٧٩- فَأَصْبَحُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَدَ فَ قَالَتِ بِهِ الصُّبَا وَالِدُبُورُ
أي: صاروا. و «إخواناً» خبرها، وجَوَزُوا فيها هنا أن تكون على بابها من دلالتها على اتِّصافِ الموصوفِ بالصفة في وقت الصباح، وأن تكون بمعنى «صار»، وأن تكون التامة، أي: دخلتم في الصباح، فإذا كانت ناقصةً على بابها فالأظهر أن يكونَ «إخواناً» خبرها. ينظر: «الدر المصون» (٢/ ١٧٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨٥).

لا يَكُونُونَ علماء، ف «مِنْ» هنا: للتبعية، وهو تأويل الطبري^(١) وغيره.

وذهب الزَّجَّاج^(٢) وغيرُ واحدٍ؛ إلى أنَّ المعنى: ولتكونوا كلُّكم أمةً يَدْعُونَ، و «مِنْ»: لبيان الجنس، ومعنى الآية على هذا: أمر الأمة بأن يَدْعُوا جميعَ العالم إلى الخير، فيَدْعُونَ الكُفَّارَ إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كلُّ واحدٍ في هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة، وروى الليثُ بْنُ سَعْدٍ^(٣)، قال: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَجْلَانَ^(٤)، أنَّ وَافِدًا النَّضْرِيَّ أَخْبَرَهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَيُؤْتَيْنَ بِرِجَالٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ، يَغِطُّهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ؛ لِمَنَّا زِلْهِمْ مِنَ اللَّهِ؛ يَكُونُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ إِلَى النَّاسِ، وَيُحِبُّونَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ، وَيَمُشُونَ فِي الْأَرْضِ نُضْحًا، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا يُحِبُّونَ اللَّهَ إِلَى النَّاسِ، فَكَيْفَ يُحِبُّونَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ؟! قَالَ: يَأْمُرُونَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا أَطَاعُوهُمْ، أَحَبَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى»^(٥) اهـ من «التذكرة»^(٦) للطبري.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٣٨٥) بنحوه.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (١/ ٤٥٢).

(٣) ليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، مولاهم، الإمام، عالم «مصر» وفتيها ورئيسها، عن سعيد المقبري، وعطاء، ونافع، وقتادة، والزهري وصفوان بن سليم، وخلاتق. وعنه ابن عجلان، وابن لهيعة، وهشيم، وابن المبارك، والوليد بن مسلم، وابن وهب، وأمم. قال ابن بكير: هو أفتقه من مالك. وقال محمد بن ربح: كان دخلَ الليث ثمانين ألف دينار ما وجبت عليه زكاة قط. وثقه أحمد وابن معين والناس. قال ابن بكير: ولد سنة أربع وتسعين، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة. ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (٢/ ٣٧١).

(٤) محمد بن عجلان القُرشي، أبو عبد الله المدني، أحد العلماء العاملين. عن أنس، وأبي حازم، والأعرج، وعكرمة، وطائفة. وعنه عبد الوهاب بن بخت، ومنصور، وشعبة، والثوري، ومالك، وخلق. وثقه أحمد وابن معين. وذكره البخاري في الضعفاء. حُبل به ثلاث سنين. توفي سنة ثمان وأربعين ومائة. روى له البخاري تعليقاً، ومسلم متابعة.

ينظر: «الخلاصة» (٢/ ٤٣٨)، و «تهذيب الكمال» (٣/ ١٢٤٢)، و «الكاشف» (٣/ ٧٧)، و «تقريب التهذيب» (٢/ ١٩٠)، و «لسان الميزان» (٧/ ٣٦٨).

(٥) أخرجه العقيلي (٤/ ٣٣١)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٩٢-٩٣)، من طريق الليث بن سعد، عن جابر بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال.

وأسند العقيلي عن البخاري قوله: واقد بن سلامة النضري لم يصح حديثه. وذكره العقيلي، وابن الجارود في «الضعفاء»، وقال الحافظ في «اللسان»: ضعفه.

ينظر: «لسان الميزان» (٦/ ٢١٥).

(٦) ينظر: «التذكرة» للطبري (٢/ ٢٢٠).

قال * ع^(١) : قال أهل العلم: وفرض الله سبحانه بهذه الآية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية^(٢)، إذا قام به قائم، سقط عن الغير، وقال النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٣) والناس في الأمر بالمعروف وتغيير المنكر على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الولاة والحكام بعد النهي عنه ٩٦ ب قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلةً بديهيةً من المنكر كالسلب والزنا ونحوه، فيغيرها بنفسه، بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يعتمل في تغيير المنكر، وإن ناله بعض الأذى؛ ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان وابن مسعود، وابن الزبير: «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَسْتَعِينُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ»^(٤)، فهذا وإن لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقيب الأمر والنهي؛ كما هو في قوله: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ» [لقمان: ١٧].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥)
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨٦).

(٢) «الفرض» و «الواجب» عند غير الحنفية لفظان مترادفان اصطلاحاً على مفهوم واحد، هو الفعل الذي طلبه الشارع من المكلف طلباً جازماً، سواء كان الطلب بدليل قطعي كالكتاب والسنة المتواترة، أو كان بدليل ظني كخبر الآحاد، ومن هنا يمكن أن نقول:

ينقسم الواجب باعتبار فاعله إلى فرض عين، وفرض كفاية، وفرض الكفاية:

هو الفعل الذي طلب الشارع حصوله من غير نظر بالذات إلى فاعله. ومعناه: أن فرض الكفاية هو الفعل المطلوب حصوله في الجملة، أي من غير نظر بالإصالة إلى الفاعل، وإنما المنظور إليه أولاً وبالذات إنما هو الفعل. أما الفاعل، فلا ينظر إليه إلا تبعاً للفعل ضرورة توقف حصوله على فاعل. ولذا كان فعل البعض كافياً في تحصيل المقصود منه والخروج عن عهده، ومن هنا سمي «فرض كفاية».

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٦٩) في الإيمان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، (٧٨ - ٧٩) (٤٩)، وأبو داود (١/ ٣٦٦) في الصلاة: باب الخطبة يوم العيد (١١٤٠)، و (٥٢٦/٢)، في الملاحم: باب الأمر والنهي (٤٣٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٠٧ - ٤٠٨) في الفتن: باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب (٢١٧٢)، والنسائي (٨/ ١١١ - ١١٢) في الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان، وابن ماجه (٢/ ٤٠٦)، في إقامة الصلاة: باب ما جاء في صلاة العيدين (١٢٧٥)، وأحمد (٣/ ٢٠، ٤٩، ٥٢ - ٥٣)، والبيهقي (٣/ ٢٩٦ - ٢٩٧)، (٦/ ٩٤ - ٩٥)، (٧/ ٢٦٦)، (١٠/ ٩٠) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً به.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨٦)، و «البحر المحيط» (٣/ ٢٤).

كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْصَحْتَ وُجُوهَهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٦٩﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالَّذِينَ تَفَرَّقُوا...﴾ الآية: قال ابن عباس: هي إشارة إلى كُلِّ مَنْ أَفْتَرَقَ مِنَ الْأَمَمِ فِي الدِّينِ، فأهلكهم الافتراق^(١)، وقال الحسن: هي إشارة إلى اليهود والنصارى^(٢).

قلت: وروى أبو داود في سننه، عن معاوية بن أبي سفيان، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَفْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»^(٣)، وروى أبو هريرة نحوه، ولم يذكر النار^(٤) اهـ.

وقوله تعالى: ﴿يوم تبيضُ وجوه وتسودُ وجوه...﴾ الآية: بياضُ الوجوه: عبارة عن إشراقها واستنارتها وبشرها برحمة الله؛ قاله الزجاج^(٥) وغيره.

وقوله تعالى: ﴿أكفرتم﴾: تقريرٌ وتوبيخٌ متعلقٌ بمحذوف، تقديره: فيقال لهم: أكفرتم، وفي هذا المحذوف جوابُ «أما»، وهذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون في

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» بنحوه (٣/٣٨٦)، وذكره ابن عطية (١/٤٨٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٨٦)، وذكره ابن عطية (١/٤٨٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٠)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه أبو داود (٢/٦٠٨)، كتاب «السنة»، باب شرح السنة، حديث (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/١٠٢). والطيالسي (٢/٢١١ - منحة) برقم (٢٧٥٤)، والدارمي (٢/٢٤١)، كتاب «السير»، باب في افتراق هذه الأمة، والحاكم (١/١٢٨) من حديث معاوية. وصححه الحاكم.

(٤) أخرجه أبو داود (٢/٦٠٨)، كتاب «السنة»، باب شرح السنة، حديث (٤٥٩٦)، والترمذي (٥/٢٥)، كتاب «الإيمان»، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٢/١٣٢١)، كتاب «الفتن»، باب افتراق الأمم (٣٩٩١)، والحاكم (١/١٢٨)، وابن حبان (١٨٣٤)، من حديث أبي هريرة.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

والحديث صححه ابن حبان.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (١/٤٥٣).

الكلام شيءٌ مقدَّر لا يستغني المعنى عنه؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ [البقرة: ١٨٤] المعنى: فأفطر، فَعِدَّةٌ.

وقوله تعالى: ﴿بعد إيمانكم﴾ يقتضي أنَّ لهؤلاء المذكورين إيماناً متقدماً، واختلف أهل التأويل في تغيينهم، فقال أبي بن كعب: هم جميع الكفار، وإيمانهم هو إقرارهم يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾^(١) [الأعراف: ١٧٢] وقال أكثر المتأولين: المراد أهل القبلة من هذه الأمة، ثم اختلفوا، فقال الحسن: الآية في المنافقين^(٢)، وقال قتادة: هي في أهل الردة^(٣)، وقال أبو أمامة: هي في الخوارج^(٤).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ الإشارة بـ «تِلْكَ» إلى هذه الآيات المتضمنة تعذيب الكفار، وتثعيم المؤمنين، ولما كان في هذا ذكر التعذيب، أخبر سبحانه؛ أنه لا يريد أن يقع منه ظلم لأحد من العباد، وإذا لم ير ذلك، فلا يوجد البتة؛ لأنه لا يقع من شيء إلا ما يريده سبحانه، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: معناه بالإخبار الحق، ويحتمل أن يكون المعنى: نتلوها عليك مضمّنة الأفعال التي هي حق في نفسها من كرامة قوم، وتعذيب آخرين، ولما كان للذهن أن يقف هنا في الوجه الذي به خصَّ الله قوماً بعمل يرحمهم من أجله، وآخرين بعمل يعذبهم عليه، ذكر سبحانه الحجة القاطعة في ملكه جميع المخلوقات، وأنَّ الحقَّ ألاَّ يعترض عليه؛ وذلك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية/.

١٩٧

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١) لَن يُضْرَبَكُمْ إِلَّا أَدْنَىٰ وَإِنْ يُفْعَلْكُمْ يُولَوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٢) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلِ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٨٧) وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٤١٠)، وابن عطية (١/٤٨٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٢) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٨٧) برقم (٧٦٠٣)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٤١٠)، وابن عطية في «تفسيره» (١/٤٨٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٨٦) برقم (٧٥٩٩)، وابن عطية، في «تفسيره» (١/٤٨٧)، والسيوطي بنحوه في «الدر المنثور» (٢/١١٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٨٧) برقم (٧٦٠١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/٣٤٠)، وابن عطية (١/٤٨٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

مِنَ اللَّهِ وَحَبَلَ مِنَ النَّاسِ وَيَأْخُذُ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ الآية: اختلف في تأويل هذه الآية.

ف قيل: نزلت في الصحابة، وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة من أهل العلم: الآية خطاب لجميع الأمة؛ بأنهم خير أمة أخرجت للناس^(١)؛ ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس. وأما قوله: «كُنْتُمْ»؛ على صيغة المضى؛ فإنها التي بمعنى الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣] وقال قوم: المعنى: كنتم في علم الله، وهذه الخيرية التي خص الله بها هذه الأمة، إنما يأخذ بحظه منها من عمل بهذه الشروط من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله؛ مما جاء في فضل هذه الأمة ما خرجه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وفي رواية: «السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» وفي رواية: «نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»، وفي رواية: «الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ»^(٢). اهـ.

وخرج ابن ماجه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قَالَ: «نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأَمِيَّةُ وَنَبِيِّهَا، فَتَخُنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ»^(٣)، وفي رواية عن ابن عباس: «فَتَفْرُجُ لَنَا الْأُمَمُ عَنْ طَرِيقَتَنَا، فَتَمْضِي غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَارِ الطُّهُورِ، فَتَقُولُ الْأُمَمُ: كَادَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَنْ تَكُونَ أَنْبِيَاءَ كُلِّهَا»^(٤)، وخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده بمعناه. اهـ من «التذكرة»^(٥).

وروى أبو داود في سننه، قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن أبي

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» بنحوه (٣/٣٩١)، ولفظه «قال: قد كان ما تسمع من الخير في هذه الأمة»، والأثر ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢/٥٨٥)، كتاب «الجمعة»، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، حديث (١٩/٨٨٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/١٤٣٤)، كتاب «الزهد»، باب صفة أمة محمد ﷺ، حديث (٤٢٩٠).

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/٣١٧): هذا إسناد صحيح؛ رجاله ثقات.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٢٨٢).

(٥) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١/٣٧٧).

مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ؛ لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا؛ الْفِتْنُ، وَالزَّلَازِلُ، وَالْقَتْلُ»^(١) اهـ، وقد ذكرنا هذا الحديث أيضاً عن غير أبي داود، وهذا الحديث ليس هو على عمومه في جميع الأمة؛ لثبوت نفوذ الوعيد في طائفة من العصاة . اهـ.

وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وما بعده: أحوال في موضع نصب.

وفي الحديث: «خَيْرُ النَّاسِ اتَّقَاهُمْ لِلَّهِ، وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ»^(٢)، رواه البغوي في «متخبه» . اهـ من «الكوكب الدرّي» .

وقوله سبحانه: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾: تنبيه على حال عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَخِيهِ، وَغُلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ آمَنَ .

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾، أي: إِلَّا أَذًى بِاللِّسَانَةِ فَقَطْ، وأخبر سبحانه في قوله: ﴿وَلَنْ يَقَاتِلَكُمْ يَوْلَاكُمْ الْأَدْبَارُ﴾، بخبر غيب، صحَّحه الوجود، فهي مِنْ آيَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وفائدة الخبر هي في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾، أي: لَا تَكُونُ حَزْبُ الْيَهُودِ مَعَكُمْ سَجَالاً، وخص الأدبار بالذكر دون الظَّهْرِ، تَخْشِيساً لِلْقَارِ، وهكذا هو حيث تصرَّف .

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ﴾: معناها: أُثْبِتَتْ بِشِدَّةٍ وَإِلْزَامٍ، وهذا وصف حالٍ تَقَرَّرَتْ عَلَى الْيَهُودِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، وَثَبَّتُوا: معناها أَخَذُوا بِحَالِ الْمَذْنِبِ الْمَسْتَحِقِّ الْإِهْلَاكِ، وقوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ في الكلام محذوفٌ يَدْرُكُهُ فَهْمُ السَّامِعِ، تقديره: فلا نَجَاةَ لَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ أَوْ الْأَسْتِصَالِ إِلَّا بِحَبْلِ، وهو الْعَهْدُ .

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الْعَضْبِ، وَضَرْبُ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وباقي الآية تقدّم تفسير نظيره .

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ اللَّهُ ءَاثَهُ أَتِلْ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧/٢)، كتاب «الفتن»، باب ما يرجى في القتل، حديث (٤٢٧٨)، حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال: ثنا كثير بن هشام، ثنا المسعودي، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى مرفوعاً .

وسقط في السند عند المؤلف كثير، والمسعودي، وسعيد بن أبي بردة .

(٢) أخرجه أحمد (٤٣١ / ٦ - ٤٣٢)، من حديث درة بنت أبي لهب .

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٦/٧): رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات .

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٣) وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿ليسوا سواء...﴾ الآية: قال ابن عباس (رضي الله عنهما): لَمَّا ب ٩٧ أسلم عبد الله بن سلام، وتعلبه بن سعية، وأسند بن سعية، وأسند بن عبيد، ومن أسلم من اليهود معهم، قال الكفار من أخبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شراونا، ولو كانوا خياراً، ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله سبحانه في ذلك: ﴿ليسوا سواء...﴾ الآية^(١)، وقال مثله قتادة، وابن جريج^(٢)، وهو أصح التأويلات في الآية.

واختلف في قوله: ﴿قَائِمَةٌ﴾، فقال ابن عباس وغيره: معناه: قائمة على كتاب الله، وحُدوده مهتدية^(٣)، وقال السدي: القائمة: القائنة المطيعة^(٤)، وهذا كله يرجع إلى معنى واحد، ويحتمل أن يراد بـ ﴿قَائِمَةٌ﴾: وصف حال التالين في آناء الليل، ومن كانت حاله هذه، فلا محالة؛ أنه معتدل على أمر الله، و﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾؛ في هذه الآية: هي كتبه، والآناء: الساعات، واجدها إنني؛ بكسر الهمزة، وسكون النون، وحكم هذه الآية لا يتفق في شخص شخص؛ بأن يكون كل واحد يصلي جميع ساعات الليل، وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة الأمة؛ إذ بعض الناس يقوم أول الليل، وبعضهم آخره، وبعضهم بعد هجعة، ثم يعود إلى نومه، فيأتي من مجموع ذلك في المدين والجماعات عمارة آناء الليل بالقيام، وهكذا كان صدر هذه الأمة، وعزف الناس القيام في أول الثلث الآخر من الليل، أو قبله بشيء، وحينئذ: كان يقوم الأكثر، والقيام طول الليل قليل، وقد كان في الصالحين من يلتزمه، وقد ذكر الله سبحانه القصد من ذلك في «سورة المزمل»، وقيام الليل لقراءة العلم المبتغى به وجه الله داخل في هذه الآية، وهو أفضل من التنقل لمن يزجي انتفاع المسلمين بعلمه، قلت: وقد تقدم في أول السورة: ما جاء من التأويل في حديث التزول،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٩٨) برقم (٧٦٤٢)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٤١٧)، والبغوي في «تفسيره» (١/٣٤٣)، وابن عطية (١/٤٩٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٥)، وعزاه لابن إسحاق، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في «الدلائل»، وابن عساکر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٩٩) برقم (٧٦٤٤)، (٧٦٤٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٣٩٩) برقم (٧٦٥١) وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٤١٧).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٤٠٠) برقم (٧٦٥٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٤٩٢)، والسيوطي بنحوه في «الدر المنثور» (٢/١١٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

فلنذكر الآن الحديث بكماله، لما فيه من الفوائد:

روى أبو هريرة، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي؟ فَأُعْطِيهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي؟ فَأَغْفِرُ لَهُ»^(١) رواه الجماعة، أعني: الكتب الستة؛ البخاري، ومسلم، وأبا داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وفي بعض الطرق^(٢): «حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»، زاد ابن ماجه: «فَلِذَلِكَ كَانُوا يَسْتَجِيبُونَ الصَّلَاةَ آخِرَ اللَّيْلِ عَلَى أَوَّلِهِ».

وعن عمرو بن عَبَسَةَ^(٣) أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، فَكُنْ»^(٤). رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم في «المستدرک»، واللفظ للترمذي، وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقال الحاكم: صحيحٌ على شرطِ مُسْلِمٍ. اهـ من «السلاح».

وعن أبي أُمَامَةَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ»^(٥)، رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ، وفي رواية: «جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ أَرْجَى»، أو نحو هذا. اهـ من «السلاح».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) عمرو بن عَبَسَةَ، السلمي، أبو نَجِيج، صحابي مشهور. له ثمانية وأربعون حديثاً. عنه أبو أُمَامَةَ، وشُرَيْبُ بْنُ السَّمْطِ. قال الواقدي: أسلم بـ «مكة» ثم رجع إلى بلاد قومه حتى مضت «بدر» و «أحد» و «الخندي» و «الحديبية» و «خيبر»، ثم قدم «المدينة». قال أبو سعيد: يقولون: إنه رابع أو خامس في الإسلام.

ينظر: «الخلاصة» (٢/٢٩٠)، و «تهذيب الكمال» (٢/١٠٤٠)، و «تهذيب التهذيب» (٨/٦٩) ت (١٠٧)، و «الجرح والتعديل» (٦/٢٤١)، و «الثقات» (٣/٢٦٩)، (٤/٢٥١)، و «أسد الغابة» (٤/٢٥١)، و «الاستيعاب» (٣/١١٩٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٥٦٩ - ٥٧٠)، كتاب «الدعوات» باب (١١٩)، حديث (٣٥٧٩)، والنسائي (١/٢٧٩ - ٢٨٠) كتاب «الصلاة»، باب النهي عن الصلاة بعد العصر، حديث (٥٧٢)، وابن خزيمة (٢/١٨٢).

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه الترمذي (٥/٥٢٦ - ٥٢٧)، كتاب «الدعوات»، باب (٧٩)، حديث (٣٤٩٩) من طريق عبد الرحمن بن سابط عنه به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

ومما يَدْخُلُ فِي ضَمَنِ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ مَغْتَنِمًا لِلْخَمْسِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَغْتَنِمَ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَغَنَّاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»^(١)؛ فَيَكُونُ مَتَى أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ خَيْرًا، بَادِرَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَسُوفْ نَفْسَهُ بِالْأَمَلِ، فَهَذِهِ أَيْضًا مَسَارِعَةٌ فِي الْخَيْرَاتِ، وَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ بَعْضِ الصَّالِحِينَ فِي مَرْكَبٍ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا تَقُولُ (أُضْلِحَكَ اللَّهُ) فِي الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ لِي: إِنَّهَا الْمُبَادَرَةُ، يَا ابْنَ الْأَخِ، قَالَ الْمُحَدِّثُ: فَجَاءَنِي، وَاللَّهِ، بِجَوَابٍ لَيْسَ مِنْ أَجُوبَةِ الْفُقَهَاءِ/.

١٩٨

قال * ص *: قوله: ﴿مَنْ الصَّالِحِينَ﴾: «مِنْ»: للتبويض، ابنُ عطية: ويحسنُ أيضاً أن تكون لبيان الجنس، وتعقب بأنه لم يتقدم شيء فيه إيهام، فبين جنسه . اهـ.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾، أي: فلن يعطى دونكم، فلا تثابون عليه، وفي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾: وعدٌ ووعدٌ.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧)

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ...﴾ الآية: وقع في الآية التشبيه بين شيئين وشيئين، وترك من كل منهما ما دلَّ عليه الكلام، وهذه غاية الإيجاز والبلاغة، وجمهور المفسرين على أن ﴿ينفقون﴾ يراد به الأموال التي كانوا ينفقونها في التحنُّث، أي: يبطّلها كفرهم؛ كما تبطل الريح الزرع، والصَّرُّ: البَرْدُ الشَّدِيدُ الْمُحْرِقُ لِكُلِّ مَا يَهْبُ عَلَيْهِ، وَالْحَرْثُ: شامل للزرع والثمار.

(١) أخرجه الحاكم (٣٠٦/٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٣/٧) رقم (١٠٢٤٨) من طريق عبد الله بن سغيّد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٤٨/٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٣/٧) رقم (١٠٢٥٠)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٧٦/٧)، ٢٧٧- بتحقيقنا عن عمرو بن ميمون الأودي عن النبي ﷺ مرسلًا.

والمرسل ذكره الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤٤٣/٤)، وعزاه لأحمد في «الزهد»، وقال: بإسناد حسن.

وقوله سبحانه: ﴿حَزَبَتْ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ الآية: مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَرَى أَنَّ كُلَّ مَصَائِبِ الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا هِيَ بِمَعَاصِي الْعَبِيدِ، وَيَنْتَزِعُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَيَسْتَقِيمُ عَلَى قَوْلِهِ؛ أَنَّ كُلَّ حَرْثٍ تَحْرَفُهُ رِيحٌ، فَإِنَّمَا هُوَ لِمَنْ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ضَمِيرُهُمْ فِي ﴿يَنْفَقُونَ﴾، وَلَيْسَ هُوَ لِلْقَوْمِ ذَوِي الْحَزَبِ.

﴿يَتَّيَبُّوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ فَلَوْأَ أَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيَكُمْ أَلَّا نَأْمِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾، أي: لَا تَتَّخِذُوا مِنَ الْكَفَّارِ، وَالْيَهُودِ، وَالْمَنَافِقِينَ أَخْلَاءَ تَأْتَسُونَ بِهِمْ فِي الْبَاطِنِ، وَتَفَاوِضُونَهُمْ فِي الْآرَاءِ.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾، يعني: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: معناه: لَا يَقْصُرُونَ لَكُمْ فِيْمَا فِيهِ فُسَادٌ عَلَيْكُمْ، تَقُولُ: مَا أَلَوْتُ فِي كَذَا، أَيْ: مَا قَصُرْتُ، بَلْ أَجْتَهِدْتُ، وَالْخَبَالُ: الْفُسَادُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ رَجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوَاصِلُونَ رَجَالًا مِنَ الْيَهُودِ لِلْخَلْفِ وَالْجَوَارِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَزَلَّتْ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ^(١)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ، وَالسُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي الْمَنَافِقِينَ^(٢).

قال * ع^(٣): * ويدخل في هذه الآية أَسْتَكْتَابُ أَهْلَ الذِّمَّةِ، وَتَصْرِيفُهُمْ فِي الْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَ «مَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: مُصَدِّرَةٌ، فَالْمَعْنَى: وَدُّوا عَنَتَكُمْ، وَالْعَنَتُ: الْمَشَقَّةُ وَالْمَكْرَهُ يَلْقَاهُ الْمَرْءُ، وَعَقَبَةٌ عَنُوتٌ، أَيْ: شَاقَّةٌ.

قال * ص: * قال الزَّجَّاجُ^(٤): عَنَتَكُمْ، أَيْ: مَشَقَّتَكُمْ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ^(٥): ضَلَالَتَكُمْ،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٧/٣) برقم (٧٦٧٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٣٤٤/١)، وابن عطية (٤٩٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٨/٢)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٧/٣، ٤٠٨) برقم (٧٦٨٠-٧٦٨٤)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤٩٦/١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٦/١).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» (٤٦٢/١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٠٨/٣).

وقال الزُّبَيْدِيُّ: الْعَتَتْ: الهلاك . اهـ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: فهم فوق المستتر الذي تبدو البغضاء في عينه، وخصَّ سبحانه الأفواه بالذكرِ دون الألسنة إشارةً إلى تشدُّقهم وثُرَّتِ رِيهِمْ في أقوالهم هذه، ثُمَّ قَالَ سبحانه للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ تحذيراً وتنبهياً، وقد عَلِمَ سبحانه؛ أنهم عقلاء، ولكن هذا هَرُّ للنفس، كما تقول: إِنْ كُنْتُ رَجُلًا، فَأَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا.

وقوله: ﴿هَأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ﴾: الضمير في «تُحِبُّونَهُمْ» للذين تقدَّم ذكرُهم في قوله: ﴿بِطَانَةٍ مِنْ دُونِكُمْ﴾، قال: * ص *: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾، قال أبو البقاء: الْكِتَابُ، هنا: جنس، أي: بالكتب كلها . اهـ.

وقوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغِظِ﴾: عبارة عن شِدَّة الغيظ، مع عدم القُدرة على إنفاذه؛ ومنه قولُ أَبِي طَالِبٍ: [الطويل]

يَعَضُّونَ غَيْظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ^(١)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَاتُوا بَغِظَ لَكُمْ﴾ قال فيه الطبري^(٢)، وكثيرٌ من المفسرين: هو دعاءٌ عليهم، وقال قومٌ: بل أمر النبي ﷺ وأُمَّتُهُ أَنْ يَواجَهُوهم بهذا؛ فعلى/ هذا زال معنى ٩٨ ب الدعاء، وبَقِيَ معنى التفريع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: وعيدٌ و﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾: ما تنطوي عليه.

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

(١) عجز بيت، وصدره:

وقد صالحوا قوماً علينا أشحَّةً

وهو في ديوان أبي طالب (١٠١)، و«السيرة النبوية» (٢٧٢/١)، و«الروض الأنف» (١٣/٢)،

و«البحر المحيط» (٤٤/٣)، و«الدر المصون» (١٩٧/٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤١٢/٣، ٤١٣).

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَمَسَسْنَكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ...﴾ الآية: الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ؛ في هذه الآية: لفظ عامٌ في كل ما يَحْسُنُ وَيَسُوءُ، قُلْتُ: ويجبُ على المؤمن أن يجتنب هذه الأخلاق الذميمة؛ وَرَوَيْنَا في «كتاب الترمذي»، عن واثلة بن الأسقع (رضي الله عنه)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَظْهَرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ»^(١) اهـ.

وَالْكَيْدُ: الْإِحْتِيَالُ بِالْأَبَاطِيلِ، وقوله تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] من باب تسمية العقوبة باسم الذنب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَرَّى الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ هذا ابتداء عتبٍ

(١) أخرجه الترمذي (٦٦٢/٤)، كتاب «صفة القيامة»، باب (٥٤)، حديث (٢٥٠٦)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢١٣-٢١٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨٦/٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/٥٣ - ٥٤) رقم (١٢٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩١٧) كلهم من طريق القاسم بن أمية الحذاء: ثنا حفص بن غياث عن برد بن سنان عن مكحول عن واثلة بن الأسقع. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ومكحول قد سمع من واثلة بن الأسقع، وأنس بن مالك، وأبي هند الداري، ويقال: إنه لم يسمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا من هؤلاء الثلاثة. اهـ. وقال أبو نعيم: غريب من حديث برد ومكحول، لم نكتبه إلا من حديث حفص بن غياث. وقال ابن حبان: هذا لا أصل له من كلام رسول الله ﷺ. وقال في ترجمة القاسم: شيخ، يروي عن حفص بن غياث المناكير الكثيرة، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. اهـ. وفيما قاله ابن حبان نظر؛ فقد قال الحافظ في «التقريب» (٢/ ١١٥): بصري صدوق، ضعفه ابن حبان بلا مستند.

قلت: وقد توبع القاسم على هذا الحديث: فأخرجه الترمذي (٦٦٢/٤) كتاب «صفة القيامة»: باب (٥٤) حديث (٢٥٠٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩٥/٩ - ٩٦)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٠٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٥/٥) رقم (٦٧٧٧) كلهم من طريق عمر بن إسماعيل بن مجالد عن حفص بن غياث به.

ومن طريق الخطيب أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٢٤). وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وعمر بن إسماعيل لا يعد. وقال يحيى: ليس بشيء، كذاب، رجل سوء، خبيث، وقال الدارقطني: متروك. اهـ. وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٥٢): متروك.

وله متابع آخر: أخرجه المخلص في «فوائده» كما في «اللائيء» (٢/ ٢٢٨) من طريق فهد بن حيان عن حفص بن غياث به.

وفهد بن حيان: قال البخاري: سكتوا عنه، وقال أيضاً: يتكلمون فيه. وقال العجلي: ضعيف الحديث. وذكره الدارقطني في «الضعفاء والمتروكين».

ينظر: «التاريخ الصغير» (٢/ ٣٣١، ٣٤٤)، و «الثقات» للعجلي (١١٥٧)، و «الضعفاء والمتروكين» للدارقطني (٤٣٦).

المؤمنين في أمر أحد، وفيه نزلت هذه الآيات كلها، وكان من أمر غزوة أحد أن المشركين اجتمعوا في ثلاثة آلاف رجل، وقصدوا المدينة؛ ليأخذوا بثأرهم في يوم بدر، فنزلوا عند أحد يوم الأربعاء، الثاني عشر من شوال، سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهرا من الهجرة، وأقاموا هنالك يوم الخميس، ورسول الله ﷺ بالمدينة يدبر وينتظر أمر الله سبحانه، فلما كان في صبيحة يوم الجمعة، جمع رسول الله ﷺ الناس واستشارهم، وأخبرهم أنه كان يرى بقرًا تذبح، وثلما في دباب سيفه، وأنه يدخل يده في درع حصينة، وأنه تأولها المدينة، وقال لهم: أرى ألا نخرج إلى هؤلاء الكفار، فقال له عبد الله بن أبي ابن سلول: أقم، يا رسول الله، ولا تخرج إليهم بالناس، فإن هم أقاموا، أقاموا بشر مخيس، وإن انصرفوا، مضوا خائبين، وإن جاءونا إلى المدينة، قاتلناهم في الأقينية ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام^(١)، فوالله، ما حاربنا قط عدو في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدو إلا غلبنا، فوافق هذا الرأي رأي رسول الله ﷺ، ورأي جماعة عظيمة من المهاجرين والأنصار، وقال قوم من صلحاء المؤمنين ممن فاته بدر: يا رسول الله أخرج بنا إلى عدونا، وشجعوا الناس، ودعوا إلى الحزب، فقام رسول الله ﷺ، فصلى بالناس صلاة الجمعة، وقد حشمه هؤلاء الداعون إلى الحزب، فدخل إثر صلاته بيته، وليس سلاحه، فندم أولئك القوم، وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ، فلما خرج عليهم النبي ﷺ في سلاحه، قالوا: يا رسول الله، أقم، إن شئت، فإننا لا نريد أن نكرهك، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبى ليس سلاحه أن يضعها؛ حتى يقاتل، ثم خرج بالناس، وسار حتى قرب من عسكر المشركين، فعسكر هنالك، وبات تلك الليلة، وقد غضب عبد الله بن أبي ابن سلول، وقال: أطاعهم، وعصاني، فلما كان في صبيحة يوم السبت، اعتزم النبي ﷺ على المسير إلى مناجزة المشركين، فنهض وهو في ألف رجل، فأنحزله عنه عند ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة رجل من منافق ومتبع، وقالوا: نظن أنكم لا تلقون قتالا، ومضى رسول الله ﷺ في سبعائة/ فهمت عند ذلك بنو حارثة من الأوس ونحو سلمة من الخزرج بالانصراف، ورأوا كثافة المشركين، وقلة المسلمين، وكادوا أن يجبئوا، ويفشلوا، فعصمهم الله تعالى، ودم بعضهم بغضا، ونهضوا مع النبي ﷺ حتى أطل على المشركين فتصاف الناس، وكان النبي ﷺ قد أمر على الرماة عبد الله بن جبير^(٢)، وكانوا خمسين رجلا، وجعلهم يحمون الجبل وراء المسلمين،

(١) واحدها: أطم، وهي حصون مبنية بحجارة. ينظر: «لسان العرب» (٩٣).

(٢) عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري، أخو خوات بن جبير.

وَأَسْنَدَ هُوَ إِلَى الْجَبَلِ، فَلَمَّا أَضْطَرَمَّت نَارُ الْحَرْبِ، انْكَشَفَ الْمُشْرِكُونَ، وَأَنْهَزُوا، وَجَعَلَ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ يُشْدُدْنَ فِي الْجَبَلِ، وَيَرْفَعْنَ عَنْ سَوْقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلَائِلُهُنَّ، فَجَعَلَ الرُّمَاءُ يَقُولُونَ: الْغَنِيْمَةُ الْغَنِيْمَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ لَهُمْ: لَا تَبْرَحُوا مِنْ هُنَا، وَلَوْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَوْمٌ مِنْهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَأَثْبِتُوا؛ كَمَا أَمَرَكُمْ نَبِيُّكُمْ، فَعَصَوْا، وَخَالَفُوا، وَأَنْصَرَفُوا يُرِيدُونَ النَّهْبَ، وَخَلُّوا ظُهُورَ الْمُسْلِمِينَ لِلْخَيْلِ، وَجَاءَ خَالِدٌ فِي جَرِيدَةِ خَيْلٍ مِنْ خَلْفِ الْمُسْلِمِينَ، حَيْثُ كَانَ الرُّمَاءُ، فَحَمَلَ عَلَى النَّاسِ، وَوَقَعَ التَّخَاذُلُ، وَصِيحَ فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُقَدِّمَتِهِمْ، وَمِنْ سَاقَتِهِمْ، وَصَرَخَ صَارِخٌ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَتَخَاذَلَ النَّاسُ، وَأَسْتَشْهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ، وَتَحَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَعْلَى الْجَبَلِ، وَتَحَاوَزَ النَّاسُ.

هَذَا مختصر من القصة يتركب عليه تفسير الآيات، وأمر أحد مستوعب في السير، وليس هذا التعليق مما يقتضي ذكره، و ﴿تُبَوِّءُ﴾: معناه: تُعَيِّنُ لَهُمْ مَقَاعِدَ يَتِمَكَّنُونَ فِيهَا، وَيُثْبِتُونَ، وقوله سبحانه: ﴿مَقَاعِدَ﴾: جمع مَقْعَدٍ، وهو مكان القعود، وهذا بمنزلة قولك: مَوَاقِفَ، ولكن لفظة القعود أدل على الثبوت، ولا سيما أن الرماة إنما كانوا قُعوداً، وكذلك كانت صفوف المسلمين أولاً والمبارزة والسرعان^(١) يَجُولُونَ.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: ما تقول، وما يقال لك وقت المشاورة وغيره، و ﴿هَمَّتْ﴾: معناه: أرادت، ولم تَفْعَلْ، والفشل: في هذا الموضع: هو الجُبْن الذي كاد يلحق الطائفتين، ففي البخاري وغيره، عن جابر، قال: نزلت هذه الآية فينا؛ إذ هممت طائفتان في بني سلمة وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾^(٢).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَالَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (١٢٤) بَلَى إِنْ نَصَبُوا وَتَقُوا وَيَأْتُواكُم مِّن قَوْمِهِمْ هَذَا يُبَدِّلُكُمْ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَالَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢٥)

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ...﴾ لما أمر الله سبحانه بالتوكل

= قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدِيثُهُ فِي أَهْلِ «الْمَدِينَةِ»، شَهِدَ الْعُقْبَةَ وَبَدْرًا، وَاسْتَشْهَدَ بِأَحَدٍ، وَكَانَ أَمِيرَ الرَّمَاةِ. ينظر: «الإصابة» (٣١/٤).

(١) سَرَعَانُ النَّاسِ وَسَرَعَانُهُمْ: أَوَّلُهُمُ الْمُسْتَبِقُونَ إِلَى الْأَمْرِ. ينظر: «لسان العرب» (١٩٩٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ رَقْمَ (٤٥٥٨).

عليه، ذَكَرَ بِأَمْرِ بَذْرِ الذي كَانَ ثَمَرَتُهُ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالثَّقَّةُ بِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: معناه: قليلون، وَأَسْمُ الذَّلِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: مُسْتَعَارٌ؛ إِذْ نُسِبَتْهُمْ إِلَى عَدُوِّهِمْ، وَإِلَى جَمِيعِ الْكُفَّارِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ تَقْتَضِي عِنْدَ الْمُتَأَمِّلِ ذِلَّتَهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ؛ رَوَى ابْنُ عَمْرٍو «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ بَذْرِ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ، وَخَمْسَةَ عَشَرَ، فَقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ، إِنَّهُمْ حَفَاةٌ، فَأَحْمِلْهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاةٌ، فَأَكْسُهُمْ، اللَّهُمَّ، إِنَّهُمْ جِيَاعٌ، فَأَشْبِغْهُمْ»، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَذْرِ، فَأَنْقَلَبُوا حِينَ أَنْقَلَبُوا، وَمَا فِيهِمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ، وَآكْتَسَوْا، وَشَبِعُوا»^(١) رواه أبو داود، والحاكم في «المستدرک علی الصَّحِيحَيْنِ»، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط الشيخين. اهـ من «السلح».

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾: العامل في «إِذْ» فعلٌ مضمَرٌ، ويحتمل أن يكون العامل «نَصَرَكَمْ»، وَعَلَى هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ؛ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ بِبَذْرِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ تَقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا يَوْمَ بَذْرِ، وَكَانُوا يَكُونُونَ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ عَدَدًا وَمَدَدًا لَا يَضْرِبُونَ^(٢)، قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَهُمْ يَحْضُرُونَ حُرُوبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَذْرِ بِخَمْسَةِ آلَافٍ^(٣)، قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ الْوَعْدُ يَوْمَ بَذْرِ، فَلَمْ يَضْبِرُوا يَوْمَ أَحُدٍ، وَلَا اتَّقَوْا، فَلَمْ يُمَدُّوا، وَلَوْ مُدُّوا، لَمْ يَهْزَمُوا^(٤)، وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ: إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْوَعْدُ وَالْمَقَالَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أَحُدٍ، فَفَرَّ النَّاسُ، وَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ، فَلَمْ يَمُدَّهُمُ اللَّهُ، وَإِنَّمَا مُدُّوا يَوْمَ بَذْرِ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْدَفِينَ^(٥)، وَالْقَوْرُ: الْنَهْضُ الْمُسْرِعُ إِلَى الشَّيْءِ؛ مَاخُذٌ مِنْ قَوْرِ الْقِدْرِ، وَالْمَاءِ وَنَحْوِهِ؛ وَمِنْهُ: الْقَوْرُ فِي الْحَجِّ وَالْوُضُوءِ

(١) أخرجه أبو داود (٨٨/٢)، كتاب «الجهاد» باب في نفل السرية تخرج من المعسكر، حديث (٢٧٤٧)، والحاكم (١٣٢/٢ - ١٣٣)، والبيهقي (٥٧/٩) كتاب «السير»، باب قسم الغنيمة في دار الحرب، من حديث عبد الله بن عمرو.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٢/٣) برقم (٧٧٤٩)، وذكره ابن عطية (٥٠٣/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٣/٣) برقم (٧٧٥٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٢٤/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٤/٣) برقم (٧٧٥٨)، وذكر ابن عطية في «تفسيره» (٥٠٣/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢٤/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٠٣/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢٤/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وعزاه لابن جرير عن ابن زيد.

و ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: معناه: مُغْلِمِينَ بَعْلَامَاتٍ، وروى أَنَّ الملائكةَ أَعْلَمَتْ يَوْمَ بَذَرِ بَعْمَائِمِ بِيضٍ إِلَّا جِبْرِيلَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ بِعَمَامَةٍ صَفْرَاءَ عَلَى مِثَالِ عَمَامَةِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ^(١)، وروى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَذَرٍ: «سُومُوا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سَوَّمَتْ»^(٢).

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٣) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: الضميرُ في ﴿جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: عائدٌ على الإنزال والإمداد، ومعنى الآية: وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به، وتطمئنن به قلوبكم، وترون حَقَايَةَ اللَّهِ بكم، وإلا فالكثرة لا تُغني شيئاً إلا أن ينصر الله، واللامُ في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾، ويحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿جَعَلَهُ﴾ فيكون قَطَعَ الطَّرْفَ إشارةً إلى مَنْ قَتَلَ بِنْدَرٍ؛ على قول ابن إسحاق وغيره، أو إلى^(٣) مَنْ قَتَلَ بِأَحَدٍ عَلَى مَا قَالَ السُّدِّيُّ^(٤)، وقَتَلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِنْدَرٍ سَبْعُونَ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ رَجُلًا، والطرف الفريق.

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَكْتُمَهُمْ﴾: معناه يُخْزِيهِمْ وَالْكَبْتُ: الصَّرْعُ لِلْيَدَيْنِ.

وقال * ص *: الكَبْتُ: الهزيمة، وقيل: الصَّرْعُ لليدين اهـ.

(١) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى. أبو عبد الله القرشي. الأسدي. حواري الرسول ﷺ وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب. أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وهو صحابي مشهور، وفضائله كثيرة لا يتسع المقام للكلام عنها. قتل بعد منصرفه يوم الجمل في جمادى الأولى سنة (٣٦)، وله ست أو سبع وستون سنة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢/٢٤٩)، و «تجريد أسماء الصحابة» (١/١٨٨)، و «الإصابة» (٣/٥)، و «الاستيعاب» (٢/٥١٠)، و «التاريخ الكبير» (٣/٤٠٩)، و «حلية الأولياء» (١/٨٠٩)، و «الكاشف» (١/٣٢٠)، و «الرياض المستطابة» (٧٤)، و «المصباح المضيء» (١/١١٤)، و «الرياض النضرة» (٢/٣٥١)، و «البداية والنهاية» (٧/٤٤٩)، و «بقي بن مخلد» (٨٤) و «الأنساب» (١/٢١٦)، و «صفة الصفوة» (١/٣٤٢)، و «سير أعلام النبلاء» (١/٤١).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٢/٣٦٠) رقم (٢٨٦١) عن عمير بن إسحاق عن النبي ﷺ مرسلًا.

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٥٠٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٤٣٠) برقم (٧٧٩٩)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/٤٢٢)، وابن عطية في «تفسيره» (١/٥٠٥).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الآية: رُوِيَ في سبب هذه الآية؛ أنه لما هزم أصحابه ﷺ، وشَجَّ وَجْهَهُ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، جَعَلَ يَمْسَحُ وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ»، وفي بعض طُرُقِ الْحَدِيثِ: «كَيْفَ يَقُومُ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ»، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي: عواقب الأمور بيد الله، فَأَمَضَ أَنْتَ لِسَانِكَ، وَدُمَ عَلَى الدَّعَاءِ إِلَى رَبِّكَ. قُلْتُ: وقد فعل ذلك ﷺ مِمْتَثِلًا أَمْرَ رَبِّهِ، قَالَ عِيَّاضُ: رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَشَجَّ وَجْهَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَقَالُوا: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانَا، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ ذَا عِيَاءٍ، وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ أَهْدِ قَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١)، وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ (رضي الله عنه)؛ أَنَّهُ قَالَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: بِأَبِي وَأُمِّي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ دَعَا نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦] الْآيَةُ وَلَوْ دَعَوْتَ عَلَيْنَا، لَهْلَكْنَا مِنْ عِنْدِ آخِرِنَا، فَلَقَدْ وَطِيءَ ظَهْرُكَ، وَأَذْمِيَ وَجْهُكَ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُكَ، فَأَبَيْتَ أَنْ تَقُولَ إِلَّا خَيْرًا، فَقُلْتُ: «اللَّهُمَّ، أَغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» اهـ.

قال الطبري^(٢) وغيره من المفسرين: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ عطفٌ على ﴿يَكْتَبُهُمْ﴾ والمعنى: ١٠٠ ب أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، فَيَسْلُمُونَ/ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ، إِنْ تَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ، ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ بِذِكْرِ الْحُجَّةِ السَّاطِعَةِ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ مُلْكُهُ الْأَشْيَاءِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: فله سُبْحَانَهُ أَنْ يَفْعَلَ بِحَقِّ مُلْكِهِ مَا يَشَاءُ، لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ: أَنْ الْغُفْرَانَ أَوْ التَّعْذِيبَ، إِنَّمَا هُوَ بِمَشِئَتِهِ، وَبِحَسَبِ السَّابِقِ فِي عِلْمِهِ، ثُمَّ رَجَعَ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ ذَلِكَ؛ تَأْنِيسًا لِلنُّفُوسِ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣٠)
 وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً...﴾ الآية:

قال ع^(٣): * هذا النهي عن أكل الربا اعترض أثناء قِصَّةِ أُحُدٍ، وَلَا أَحْفَظُ سَبَبًا فِي ذَلِكَ

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٦-٢٠٠٧)، كتاب «البر والصلة»، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث (٢٥٩٩/٨٧) عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله: ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٤٣١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥٠٦).

مروئياً، ومعناه: الربّ الذي كانت العربُ تُضعِف فيه الدّين، وقد تقدّم الكلامُ على ذلك في «سورة البقرة».

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: أنهم المقصودُ، والمراد الأوّل، وقد يدخلها سواهم من العُصاة، هذا مذهبُ أهل العلم في هذه الآية، وحكى الماورديّ^(١) وغيره، عن قوم؛ أنهم ذهبوا إلى أن أكلة الرّبّا، إنما توعّدهم الله بنارِ الكفّرة، لا بنار العُصاة.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، قال محمّد بنُ إسحاق: هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ هي ابتداءُ المعاتبَةِ في أمرٍ أُخِذ، وأنهزامٌ مَنْ قَرَأ، وزوالِ الرّماةِ عن مَراكِزهم^(٢).

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١٣٣)
﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكُطَيْبِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٣٤)

وقوله تعالى: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قرأ نافعٌ، وابنُ عامِرٍ: سارعوا بغيرِ «واوٍ»؛ وكذلك هي في مصاحفِ أهل المدينة والشام، وقرأ باقي السبعة بالواو، والمُسَارَعَةُ: المبادرة، وهي مفاعلة؛ إذ الناس كأن كلَّ واحدٍ يُسْرِعُ لِيَصِلَ قبل غيره، فَيَبْتَنَّهُمْ في ذلك مُفَاعَلَةٌ؛ أَلَا تَرَى إِلَى قولهِ تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، والمعنى: سارعوا بالطّاعة، والتقوى، والتقربُ إلى ربِّكم إلى حالٍ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ فيها، قُلْتُ: وَحَقٌّ عَلَى مَنْ فَهَمَ كلامَ رَبِّهِ؛ أَنْ يبادرَ وَيُسَارِعَ إلى ما ندبه إِلَيْهِ رَبُّهُ، وَالْأُ يَتَهَاوَنَ بترك الفضائلِ الوارِدَةِ في الشَّرْع، قال النووي - رحمه الله -: أَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ بَلَغَهُ شَيْءٌ في فضائلِ الأعمال؛ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، وَلَوْ مَرَّةً؛ لِيَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يتركه جملةً، بل يَأْتِي بما تيسَّر منه؛ لقول النبي ﷺ في الحديثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ: «وَإِذَا

(١) علي بن محمد بن حبيب، القاضي أبو الحسن الماوردى، البصري، أحد أئمة أصحاب الوجوه، تفقه على أبي القاسم الصيمري، وسمع من أبي حامد الإسفراييني، قال الخطيب: كان ثقة، من وجوه الفقهاء الشافعيين. وقال الشيرازي: وله مصنفات كثيرة في الفقه والتفسير وأصول الفقه والأدب، وكان حافظاً للمذهب.

ومن تصانيفه: «الحاوي». قال الأسنوي: ولم يصنف مثله، والأحكام السلطانية والتفسير المعروف بالنكت والعيون وغيرها. مات سنة ٤٥٠.

انظر: «طبقات ابن قاضي شهبة» (١/٢٣٠)، و «تاريخ بغداد» (١٢/١٠٢)، و «طبقات السبكي» (٣/٣٠٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٤٣٥) برقم (٧٨٢٨).

أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَفْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ^(١). انتهى من «الحلينة».

وقوله سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، أي: كعرض السموات والأرض، قال ابن عباس في تفسير الآية: تقرن السموات والأرضون بعضها إلى بعض؛ كما تبسط الثياب، فذلك عرض الجنة؛ ولا يعلم طولها إلا الله سبحانه^(٢)؛ وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ الْمَضْرَاعَيْنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَسَيَأْتِي عَلَيْهَا يَوْمٌ يَزْدَحِمُ النَّاسُ فِيهَا كَمَا تَزْدَحِمُ الْإِبِلُ، إِذَا وَرَدَتْ خُمْصًا ظِمَاءً»^(٣). وفي الصحيح: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْمُجِدُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»^(٤) فهذا كله يقوي

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤/١٣٠)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، حديث (٧٢٨٨)، ومسلم (١٨٣١/٤) كتاب «الفضائل»، باب توقيره ﷺ، حديث (١٣٣٧/١٣١)، وأحمد (٢٥٨/٢)، والحميدي (٤٧٧/٢) رقم (١١٢٥)، وأبو يعلى (١٩٥/١١) رقم (٦٣٠٥) كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

ومن طريق أبي الزناد أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١/ ١٧٧ - بتحقيقنا).

وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة: فأخرجه مسلم (٩٧٥/٢) كتاب «الحج»، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث (١٣٣٧/٤١٢)، والنسائي (١١٠/٥) كتاب «الحج»، باب وجوب الحج، وأحمد (٤٤٧/٢ - ٤٤٨، ٤٥٧، ٤٦٧، ٥٠٨)، وابن خزيمة (١٢٩/٤) رقم (٢٥٠٨) من طريق محمد بن زياد عن أبي هريرة.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٢٠/١١) رقم (٢٠٣٧٤)، ومسلم (١٨٣١/٤) كتاب «الفضائل»، باب توقيره ﷺ، (١٣٣٧/١٣١)، وأحمد (٣١٣/٢)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ١٧٦ - بتحقيقنا) من طريق همام بن منبه عن أبي هريرة.

وأخرجه أحمد (٢٤٧/٢، ٤٢٨، ٥١٧)، والحميدي (٤٧٧/٢) رقم (١١٢٥)، وابن حبان (٢٠٩٧ - الإحسان) من طريق محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة.

وأخرجه مسلم (١٨٣١/٤) كتاب «الفضائل»، باب توقيره ﷺ، حديث (١٣٣٧/١٣١)، والترمذي (٤٥ - ٤٦) كتاب «العلم»، باب في الانتهاء عما نهى عنه سول الله ﷺ، حديث (٢٦٧٩) من طريق همام بن المنبه عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٦/٣) برقم (٧٨٢٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٢٨/٢)، وعزاه لابن جرير.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٥/٨) كتاب «التفسير»، باب تفسير سورة الواقعة، حديث (٤٨٨١)، ومسلم (٤/ ٢١٧٥) كتاب «الجنة وصفة نعيمها»، باب أن في الجنة شجرة، حديث (٢٨٢٦/٧)، وأحمد (٢٥٧/٢، ٤١٨)، والحميدي (٤٧٩/٢) رقم (١١٣١)، وابن حبان (٧٤١١ - الإحسان)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٤٠٣)، والبيهقي في «البعث» (٢٦٨)، وابن الجوزي في «مشيخته» (ص ١٨٣) كلهم من طريق =

قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ، وهو قولُ الجُمهور: «إِنَّ الْجَنَّةَ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَذْكُورَةِ، وَهِيَ مَمْتَدَّةٌ عَلَى السَّمَاءِ؛ حَيْثُ شَاءَ/ اللَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ لَا يُنْكَرُ، فَإِنْ فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا أَرَى السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ أُلْفَيْتِ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَمَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْفَيْتِ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»^(١).

قال * ع^(٢): فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السموات والأرض، وقدرته الله أعظم من ذلك كله، قلت: قال الفخر: ^(٣) وفي الآية وجه ثان؛ أن الجنة التي عرضها مثل عَرْضِ السموات والأرض، إنما تكون للرجل الواحد؛ لأن الإنسان يرغب فيما يكون ملكاً له، فلا بُدَّ أن تصير الجنة المملوكة لكل أحد مقدارها هكذا. اهـ.

وقُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَوْسَع، وَقَضْلُهُ أَعْظَم، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، وَالتِّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ^(٤) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «فِي سُؤَالِ مُوسَى رَبَّهُ عَنْ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ

= أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً.

وَأَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٣٦٨/٦) كِتَابُ «بَدَأُ الْخَلْقِ»، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ، حَدِيثُ (٢٢٥٢)، وَأَحْمَدُ (٤٨٢/٢) مِنْ طَرِيقِ فُلَيْحِ بْنِ سَلِيمَانَ عَنْ هَلَالِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرٍة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ.

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢١٧٥/٤) كِتَابُ «الْجَنَّةِ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا»، بَابُ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، حَدِيثُ (٢٨٢٦/٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٥٧٩/٤) كِتَابُ «صِفَةِ الْجَنَّةِ»، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَدِيثُ (٢٥٢٣)، وَأَحْمَدُ (٤٥٢/٢)، وَالطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٧/١٨٣)، وَابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي «الْبَعْثِ» (٦٧)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «صِفَةِ الْجَنَّةِ» (٤٠١). مِنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبَرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (١٤٤٨/٢) كِتَابُ «الزَّهْدِ»، بَابُ صِفَةِ الْجَنَّةِ، حَدِيثُ (٤٣٣٥)، وَأَحْمَدُ (٤٣٨/٢)، وَالدَّارِمِيُّ (٣٣٨/٢) مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَأَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ (٢/ ٢٤٢- منحة) رَقْمُ (٢٨٣٣)، وَأَحْمَدُ (٤٥٥/٢)، (٤٦٢)، وَالدَّارِمِيُّ (٣٣٨/٢) كِتَابُ «الرِّقَاقِ»، بَابُ فِي أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، وَالطَّبْرِيُّ (٢٧/١٨٣) مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي الضَّحَّاكِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٨/١).

(٣) ينظر: «الفخر الرازي» (٦/٩).

(٤) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس.. أبو عبد الله. معروف بـ «مغيرة الرأي».

قال ابن الأثير: أسلم عام الخندق، وشهد «الحديبية»، وله في صلحها كلام مع عروة بن مسعود.. وكان موصوفاً بالدهاء، قال الشعبي: دهاء العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزباد. فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمعضلات. وأما المغيرة فللمبادأة، وأما زياد فللصغير والكبير. توفي بـ «الكوفة» سنة (٥٠ هـ).

مَنْزِلَةً، وَأَنَّهُ رَجُلٌ يَأْتِي بَعْدَ مَا يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيَقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مَا كَانَ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ، أَيْ رَبِّ، فَيَقَالُ لَهُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ، أَيْ رَبِّ، فَيَقَالُ لَهُ: لَكَ ذَلِكَ، وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ، أَيْ رَبِّ، فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَعَ هَذَا مَا أَشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ^(١)، قَالَ أَبُو عَيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وفي البخاري من طريق ابن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبِوًا، فَيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: أَدْخِلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ، الْجَنَّةَ مَلَأَى، فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ»^(٢). اهـ.

وفي «جامع الترمذي»، عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى جَنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدْيِهِ وَسُرُورِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً...»^(٣) الحديث، قال أبو عيسى، وقد رَوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا، وَفِي الصَّحِيحِ مَا مَعْنَاهُ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، تَبَقَّى فِيهَا فَضْلَةٌ، فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا»، أَوْ كَمَا قَالَ . اهـ.

قال * ع^(٤): * وخص العرض بالذكر؛ لأنه يدلُّ متى ما ذُكِرَ عَلَى الطُّولِ، والطُّولُ إِذَا ذَكَرَ لَا يَدُلُّ عَلَى قَدْرِ الْعَرْضِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الطُّوْلُ يَسِيرَ الْعَرْضِ؛ كَالْخِطِّ وَنَحْوِهِ.

ثم وصف تعالى المتقين الذين أعدت لهم الجنة بقوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَاءِ

= ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٤٧/٥)، و«الإصابة» (١٣١/٦)، و«الثقات» (٣٨٢/٣)، و«الاستبصار» (٩٧)، و«الأعلام» (٢٧٧/٧)، و«الاستيعاب» (١٤٤٥/٤)، و«الكاشف» (٣/١٦٨)، و«تجريد أسماء الصحابة» (٩١/٢)، و«العقد الثمين» (٢٥٥/٧)، و«الجرح والتعديل» (٨/٢٢٤)، و«التاريخ الكبير» (٣١٦/٧)، و«تاريخ جرجان» (٢٩٥).

(١) أخرجه مسلم (٥٨١/١)، ٥٨٢- الأبي، كتاب «الإيمان»، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث (١٨٩/٣١٢)، والترمذي (٣٤٧/٥) كتاب «تفسير القرآن»، باب «ومن سورة السجدة»، حديث (٣١٩٨).

وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢/١٣)، كتاب «التوحيد»، باب كلام الرب (عز وجل) يوم القيامة مع الأنبياء، حديث (٧٥١١).

(٣) أخرجه الترمذي (٦٨٨/٤)، كتاب «صفة الجنة»، باب (١٧)، حديث (٢٥٥٣) من حديث ابن عمر.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٩/١).

والضراء^(١)، وهما اليُسْر والعُسْر، قاله ابن عَبَّاس^(٢). إِذِ الْأَغْلَبُ أَنَّ مَعَ الْيُسْرِ النَّشَاطُ، وسُرُورُ النَّفْسِ، ومع العُسْرِ الكراهية، وضُرُّ النَّفْسِ، وَكَظْمُ الْغَيْظِ: رُدُّهُ فِي الْجَوْفِ، إِذَا كَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ كَثْرَتِهِ، ومنعه: كَظَمَ لَهُ، وَالْكَظَامُ: السَّيْرُ الَّذِي يَشُدُّ بِهِ قُمْ الزَّقُّ، وَالْغَيْظُ: أَضْلُ الْغَضَبِ، وكثيراً ما يتلازمان؛ ولذلك فَسَّرَ بعضُ النَّاسِ الْغَيْظَ بِالْغَضَبِ، وليس تحريراً الأمر كذلك، بل الْغَيْظُ حَالٌ لِلنَّفْسِ، لا تَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ، والغَضَبُ حَالٌ لَهَا تَظْهَرُ فِي الْجَوَارِحِ وَفِعْلٌ مَّا؛ ولا بدُّ؛ ولهذا جاز إِسْنَادُ الْغَضَبِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ إِذْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، ولا يَسْنَدُ إِلَيْهِ تَعَالَى الْغَيْظُ.

ووردت في كَظْمِ الْغَيْظِ، ومِلْكِ النَّفْسِ عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادات، وجهاد النفس، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ١٠١ ب «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْقَاضِهِ، مَلَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا»، إلى غير ذلك من الأحاديث، قُلْتُ: وروى أبو داود، والترمذي عن معاذِ بْنِ أَنَسٍ^(٣) (رضي الله عنه)؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيَّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ»^(٤)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هذا حديث حسن. اهـ.

وفي رواية أخرى لأبي داود: «مَلَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا، وَمَنْ تَرَكَ لُبْسَ ثَوْبٍ جَمَالٍ،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٧/٣) برقم (٧٨٣٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٠٩/١)، والسيوطي في «الدُرِّ الْمَثُور» (١٢٨/٢)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) هو: معاذ بن أنس، الجهني، حليف الأنصار.

قال أبو سعيد بن يونس: صحابي كان بـ «مصر» و «الشام»، روى عن النبي ﷺ أحاديث. وله رواية عن أبي الدرداء وكعب الأحبار. روى عنه ابنه سهل بن معاذ وحده. وذكر أبو أحمد العسكري ما يدل على أنه بقي إلى خلافة عبد الملك بن مروان.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٩٣/٥)، و «الإصابة» (١٠٦/٦)، و «الثقات» (٣٧٠/٣)، و «الاستيعاب» (١٤٠٢/٣)، و «تجريد أسماء الصحابة» (٨٠/٢)، و «بقي بن مخلد» (٩٣)، و «الكاشف» (١٥٣/٣)، و «الجرح والتعديل» (٢٤٥/٨)، و «تهذيب الكمال» (١٣٣٨/٣)، و «تهذيب التهذيب» (١٨٦/١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٦٦٢/٢)، كتاب «الأدب»، باب من كَظَمَ غَيْظًا، حديث (٤٧٧٧)، والترمذي (٤/٦٥٦) كتاب «صفة القيامة»، باب (٤٨)، حديث (٢٤٩٣)، وابن ماجه (١٤٠٠/٢) كتاب «الزهد»، باب «الحلم»، حديث (٤١٨٦)، وأحمد (٤٤٠/٣)، والبيهقي (١٦١/٨) كتاب قتال أهل البغي. كلهم من طريق سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن.

وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، - قَالَ بَشَرٌ: أَحْسِبُهُ قَالَ: تَوَاضَعًا..، كَسَاَهُ اللَّهُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ^(١)، وَحَدَّثَ الْحَافِظُ أَبُو الْفَضْلِ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرِ الْمَقْدِسِيِّ^(٢) بِسَنَدِهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ، كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ، سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ أَعْتَذَرَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ اللَّهِ عَذْرَهُ»^(٣). اهـ من «صفوة التصوف».

وَالْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ: مِنْ أَجْلِ ضُرُوبِ فِعْلِ الْخَيْرِ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فَعَمَ أَنْوَاعُ الْبِرِّ، وَظَاهَرَ الْآيَةُ أَنَّهَا مَدْحٌ بِفِعْلِ الْمُنْدُوبِ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) أُولَئِكَ جَرَّاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ...﴾ الآية: ذكر سبحانه في هذه الآية صنفًا هو دُون الصَّنَفِ الأول، فَأَلْحَقَهُمْ بِهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَمَنَّةٍ، وَهُمْ التَّوَّابُونَ، وَرَوَى فِي سَبَبِ نَزُولِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ؛ أَنَّ الصَّحَابَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَّا حِينَ كَانَ الْمُذْنِبُ مِنْهُمْ يُضْبِحُ، وَغُفُوبَتُهُ مَكْتُوبَةٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ؛ تَوْسِيعَةً وَرَحْمَةً، وَعِوَضًا مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ^(٤).

وَرُوي أَنَّ إِبْلِيسَ بَكَى، حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَالْفَاحِشَةُ لَفْظٌ يَعْمُ جَمِيعَ الْمَعَاصِي، وَقَدْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الزُّنَا؛ حَتَّى فُسِّرَ السُّدِّيُّ الْفَاحِشَةَ هُنَا بِالزُّنَا^(٥)، وَقَالَ قَوْمٌ: الْفَاحِشَةُ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٦٦٣/٢)، كِتَابُ «الْأَدَبِ»، بَابُ مِنْ كَظَمَ غِيظًا، حَدِيثُ (٤٧٧٨) مِنْ طَرِيقِ سُؤِيدِ بْنِ وَهَبٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهِ.

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَحْمَدَ الْمَقْدِسِيِّ الشَّيْبَانِي، ابْنُ الْقَيْسَرَانِي، أَبُو الْفَضْلِ: رَحَالَةٌ مُؤَخَّرٌ، مِنْ حِفَازِ الْحَدِيثِ، كَانَ مَوْلَدَهُ بِ «بَيْتِ الْمَقْدَسِ» سَنَةَ ٤٤٨ هـ وَوَفَاتَهُ بِ «بَغْدَادٍ» ٥٠٧ هـ، لَهُ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: «تَارِيخُ أَهْلِ الشَّامِ»، وَمَعْرِفَةُ الْأَثَمَةِ مِنْهُمْ وَالْأَعْلَامِ، وَ «مَعْجَمُ الْبِلَادِ»، وَ «صَفْوَةُ التَّصَوُّفِ». يَنْظُرُ: «الْأَعْلَامُ» (١٧١/٦)، وَ «وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ» (٤٨٦/١)، وَ «مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ» (٧٥/٣)، وَ «لِسَانُ الْمِيزَانِ» (٢٠٧/٥).

(٣) ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزُّوَائِدِ» (٧٣/٨)، وَقَالَ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَفِيهِ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ هَلَالٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

(٤) ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْتُورِ» (١٣٧/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ الْمُنْذَرِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٣٩/٣) بِرَقْمِ (٧٨٤٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥١٠/١)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْتُورِ» (١٣٧/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

هنا: إشارة إلى الكبائر، وظلم النفس: إشارة إلى الصغائر، وأستغفروا: معناه: طلبوا الغفران.

قال النووي: وَرَوَيْنَا فِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ؛ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ^(١) (بضم الباء)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ أَسْتَغْفَاراً كَثِيراً»^(٢) انتهى من «الحلية».

و ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾: معناه: بالخوف من عقابه، والحياء منه؛ إذ هو الْمُنْعِمُ الْمُتَطَوِّلُ، ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ اعتراضاً موقفاً للنفس، داعياً إلى الله مرجعاً في عفوه، إذا رجع إليه، وجاء اسم «الله» مرفوعاً بعد الاستثناء، والكلام موجب؛ حملاً على المعنى؛ إذ هو بمعنى، وَمَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، وعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْباً، ثُمَّ يَقُومُ، فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ...﴾ إِلَى آخِرِ آيَةِ» رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن

(١) عبد الله بن بسر. أبو صفوان. وقيل: أبو بسر. المازني. الحمصي. قال ابن الأثير في «الأسد»: صلى القبلتين. وضع النبي ﷺ يده على رأسه ودعا له. صحب النبي ﷺ هو وأبوه وأمه وأخوه عطية وأخته الصماء. وروى عنه الشاميون، منهم: خالد بن معدان، ويزيد بن خمير، وسليم بن عامر، وراشد بن سعد، وغيرهم. وهو آخر من مات بـ «الشام» من الصحابة. توفي سنة (٨٨) وله (٩٤ سنة)، وقيل: مات بـ «حمص» سنة (٩٦) وله (١٠٠ سنة).

ينظر: «أسد الغابة» (٣/١٨٦)، و «الإصابة» (٤/٤٠)، و «الثقات» (٣/٢٣٢)، و «الاستيعاب» (٣/٨٧٤)، و «تجريد أسماء الصحابة» (١/٣٠٠)، و «الأعلام» (٤/٧٤)، و «الرياض المستطابة» (٢٠٥)، و «التاريخ الكبير» (٣/١٤)، و «الصفير» (٢/٧٦)، و «التاريخ» لابن معين (٢/٤٥)، و «الطبقات الكبرى» (٧/٤٦٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/١٢٥٦)، كتاب «الأدب»، باب الاستغفار، حديث (٣٨١٨)، والنسائي في «الكبرى» (٦/١١٨)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ثواب ذلك، حديث (١٠٢٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/٤٤٠) رقم (٦٤٧) من طريق محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بسر مرفوعاً. قال البوصيري في «الزوائد» (٣/١٩٦): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. اهـ.

وللحديث شاهد من حديث عائشة: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٩٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/١١)، والبيهقي في «الشعب» (١/٤٤٠) رقم (٦٤٦) من طريق منصور بن صفية عن أمه عن عائشة، أن رسول الله ﷺ نهى عن سب الأموات، وقال: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً».

ماجة، وإبْنُ حَبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ: حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١) انْتَهَى مِنْ «السَّلَاحِ».

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَمْ يَصْرُوا﴾: الْإِضْرَارُ: هُوَ الْمُقَامُ عَلَى الذَّنْبِ، وَاعْتِقَادُ الْعُودَةِ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٧٦/١ - ٤٧٧)، كِتَابَ «الصَّلَاةِ»، بَابَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ، حَدِيثَ (١٥٢١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٢٨/٥) كِتَابَ «التَّفْسِيرِ»، بَابَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، حَدِيثَ (٣٠٠٦)، وَابْنُ مَاجَةَ (٤٤٦/١) كِتَابَ «الصَّلَاةِ»، بَابَ مَا جَاءَ فِي أَنَّ الصَّلَاةَ كَفَّارَةٌ، حَدِيثَ (١٣٩٥)، وَأَحْمَدُ (٢/١، ١٠)، وَالحَمِيدِيُّ (٤، ١)، وَالمُرُوزِيُّ فِي «مُسْنَدِ أَبِي بَكْرٍ» رَقْمَ (٩، ١٠، ١١)، وَأَبُو يَعْلَى (١١/١) رَقْمَ (١)، وَابْنُ حَبَّانَ (٣٨٩/٢، ٣٩٠ - الْإِحْسَانُ) رَقْمَ (٦٢٣) كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ عَثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ أَسْمَاءَ بْنِ الْحَكَمِ الْفَزَارِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ بِهِ. وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/ ٩٨) مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ أَسْمَاءَ أَوْ ابْنِ أَسْمَاءَ بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ قَدْ رَوَاهُ شُعْبَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ فَرَفَعُوهُ، وَرَوَاهُ مَسْعَرٌ وَسَفْيَانُ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ فَلَمْ يَرْفَعَاهُ، وَقَدْ رَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ مَسْعَرٍ فَأَوْقَفَهُ وَرَفَعَهُ بَعْضُهُمْ، وَرَوَاهُ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ، فَأَوْقَفَهُ، وَلَا نَعْرِفُ لِأَسْمَاءَ بْنِ الْحَكَمِ حَدِيثًا إِلَّا هَذَا. اهـ. وَالحَدِيثُ صَحِيحُهُ ابْنُ حَبَّانَ.

وَكَذَلِكَ الدَّارِقُطْنِيُّ فَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ فِي «الْعِلَلِ» (١٧٦/١ - ١٨٠) فَقَالَ: رَوَاهُ عَثْمَانُ بْنُ الْمَغِيرَةِ، وَيَكْنَى أَبَا الْمَغِيرَةِ، وَهُوَ عَثْمَانُ بْنُ أَبِي زُرْعَةَ، وَهُوَ عَثْمَانُ الْأَعَشَى. رَوَاهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ الْوَالِبِيِّ عَنْ أَسْمَاءَ بْنِ الْحَكَمِ الْفَزَارِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. حَدَّثَ بِهِ عَنْهُ ذَلِكَ مَسْعَرُ بْنُ كَدَانَ وَسَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَشُعْبَةُ، وَأَبُو عَوَانَةَ، وَشَرِيكٌ، وَقَيْسٌ، وَإِسْرَائِيلُ، وَالحَسَنُ بْنُ عِمَارَةَ، فَاتَّفَقُوا فِي إِسْنَادِهِ إِلَّا أَنَّ شُعْبَةَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَكٌّ فِي أَسْمَاءَ بْنِ الْحَكَمِ، فَقَالَ: عَنْ أَسْمَاءَ أَوْ أَبِي أَسْمَاءَ أَوْ ابْنِ أَسْمَاءَ، وَخَالَفَهُمْ عَلِيُّ بْنُ عَابِسٍ، فَرَوَاهُ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ عَنْ أَبِي صَادِقٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ نَاجِدٍ عَنْ عَلِيٍّ، وَوَهْمٌ فِيهِ قَالَ ذَلِكَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ. وَخَالَفَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ يُوْسُفَ الْجَبْرِ، فَرَوَاهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَابِسٍ عَنْ عَثْمَانَ عَنْ رَجُلٍ عَنْ عَلِيٍّ. وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبْعِيُّ، وَاخْتَلَفَ عَنْهُ، فَرَوَاهُ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ الضَّحَّاكِ الْعَرَضِيُّ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَّاشٍ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ.

وَخَالَفَهُ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ نَجْدَةَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَ فِيهِ: عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ.

وَخَالَفَهُمْ مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَطَاءٍ، رَوَاهُ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَّاشٍ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، لَمْ يَذْكُرْ بَيْنَهُمَا أَحَدًا، وَمُوسَى هَذَا مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ، مُقَدَّسِي يَعْرِفُ بِأَبِي طَاهِرٍ الْمُقَدَّسِيِّ، وَرَوَاهُ دَاوُدُ بْنُ مِهْرَانَ الدَّبَائِغُ عَنْ عَمْرِو بْنِ يَزِيدٍ قَاضِي الْمَدَائِنِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَخَالَفَهُ الْفَرَجُ بْنُ الْيَمَانِ، رَوَاهُ عَمْرُ بْنُ يَزِيدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ.

وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ أَبُو الْمُثَنَّى سَلِيمَانُ بْنُ يَزِيدٍ، وَاخْتَلَفَ عَنْهُ، فَحَدَّثَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَمْزَةَ الزُّبَيْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَافِعٍ الصَّبَائِغُ عَنْ أَبِي الْمُثَنَّى عَنْ الْمَغِيرَةِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَوَهْمٌ فِيهِ: =

إليه، وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، قال السُّدِّيُّ: معناه: وهم يَعْلَمُونَ أنهم/ قد أَذْنبُوا^(١)، وقال ١١٠٢ ابنُ إِسْحَاقَ: معناه: وهم يعلمون بما حَرَّمَ عَلَيْهِمْ^(٢)، وقيل: وهم يَعْلَمُونَ أَنَّ بابَ التَّوْبَةِ مفتوحٌ، وقيل: وهم يعلمون أَنِّي أعاقبُ عَلَى الإِصرارِ، ثُمَّ شَرَّكَ سُبْحَانَهُ الطَّائِفَتَيْنِ المذكورتَيْنِ في قوله: ﴿أُولَئِكَ جزاؤهم مغفرة من ربهم...﴾ الآية.

قال * ص *: قوله: ﴿وَنِعَمٌ﴾ المخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ، أي المغفرةُ والجنَّةُ.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَسْكُنْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلَيَحْصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَيَعْلَمَ الْغَابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفُتَهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ لِنَظَرٍ (١٤٣)

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: الخطابُ للمؤمنين، والمعنى: لا يذهب بكم أَنَّ ظَهَرَ الْكُفَّارِ الْمَكْذِبُونَ عَلَيْكُمْ بِأَحَدٍ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، وَقَدِيمًا مَا أَدَالِ اللَّهُ الْمُكْذِبِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ أَنْظُرُوا كَيْفَ هَلَكَ الْمَكْذِبُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ تَكُونُ عَاقِبَةُ هَؤُلَاءِ، وَقَالَ الثَّقَافُ: الْخِطَابُ بـ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ لِلْكَفَّارِ.

قال * ع^(٣) *: وَذَلِكَ قَلْبٌ، وَخَلَتْ: مَضَتْ، وَالسُّنَنُ: الطَّرَائِقُ.

وقال ابنُ زَيْدٍ: سُنَنٌ: معناه: أمثال^(٤)، وهذا تفسيرٌ لا يَخُصُّ اللفظة، وقوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ هو عند الجمهورِ مِنْ نَظَرِ الْعَيْنِ، وَقَالَ قَوْمٌ: هو بالفكر.

= وإنما رواه أبو المثنى عن المقبري، واختلف عن المقبري فيه، فقال مسلم بن عمرو الحذاء: عن ابن نافع عن ابن المثنى سليمان بن يزيد عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن علي عن أبي بكر. وأحسنها إسناداً وأصحها ما رواه الثوري ومسرور ومن تابعهما عن عثمان بن المغيرة.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٢/٣) برقم (٧٨٦٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥١١/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٩/٢)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٣/٣) برقم (٧٨٦٤)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٥١١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١١/١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٤/٣) برقم (٧٨٧١)، وذكره ابن عطية (٥١٢/١).

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، يريد به القرآن؛ قاله الحسن وغيره^(١)، وقال جماعة: الإشارة بـ «هذا» إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

وقال الفخر^(٢): يعني بقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ﴾ ما تقدّم؛ من أمره سبحانه، ونهيّه، ووعدّه، ووعدّه، وذكره لأنواع البينات والآيات. انتهى.

ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن، وهو الضعف، وأنسهم بأنهم الأعْلَوْنَ أصحاب العاقبة، ومن كرم الخلق أَلَا يَهِنَ الْإِنْسَانُ في حربته، إذا كان مُحِقًّا، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى، ومنه قوله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ هَيِّنٌ لَيِّنٌ»^(٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ إخبار بعلو كلمة الإسلام، هذا قول الجمهور، وهو ظاهر اللفظ.

قال * ص * : ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: في موضع نصب؛ على الحال.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: المقصد هُزُّ النفوس، وإقامتها، ويترتب من ذلك الطُّغْنُ عَلَى من نجم في ذلك اليَوْمِ نِفَاقُهُ أو اضطرب يقينه، أي: لا يتحصّل الوعد إلا بالإيمان، فالزموه، ثم قال تعالى: تسليّة للمؤمنين: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، والأسوّة مسلاة للْبَسَر؛ ومنه قول الخنساء: [الوافر]

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي^(٤)
والقَرْح: القتل والجراح؛ قاله مجاهد وغيره^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، أخبر سبحانه على جهة التسلية؛ أن

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٤/٣)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٤٢٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٩/٢)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «الفخر الرازي» (١١/٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٢/٦) رقم (٨١٢٧) من طريق يزيد بن عياض عن صفوان بن سليم عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال البيهقي: تفرد به يزيد بن عياض، وليس بالقوي، وروي من وجه آخر صحيح مرسلًا. ثم أخرجه عن مكحول برقم (٨١٢٨) مرسلًا بلفظ «المؤمنون هينون لينون كالجمال الأنف إن قيد انقاد، وإن أنيخ استناخ على صخرة».

(٤) ينظر: «ديوان الخنساء» (٦٢).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٨/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٤٠/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

الأيام على قديم الدهر وغابره أيضاً إنما جعلها ذولاً بين البشر، أي: فلا تُنكروا أن يدال عليكم الكفار.

وقوله تعالى^(١): ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾، تقديره: وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك، والمعنى: ليظهر في الوجود إيمان الذين قد علم الله أزلاً؛ أنهم يؤمنون وإلا فقد علمهم في الأزل، ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾: معناه أهل فوز في سبيله، حسبما ورد في فضائل الشهداء، وذهب كثير من العلماء إلى التعبير عن إدالة المؤمنين بالنصر، وعن إدالة الكفار بالإدالة، ورؤي عن النبي ﷺ في ذلك حديث: «أنهم يدألون؛ كما تُنصرون» والتمحيص: التنقية، قال الخليل: التَّمحيص: التخليص من العيب، فتمحيص المؤمنين/ ١٠٢ ب هو تنقيتهم من الذنوب، والمَحَقُّ: الإذهاب شيئاً فشيئاً؛ ومنه: مَحَقَّ القمر، وقوله سبحانه: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين...﴾ الآية: حسبتم: ظننتم، وهذه الآية وما بعدها عتب وتقرع لطوائف من المؤمنين الذين وقعت منهم الهنات المشهورة في يوم أُحُد، ثم خاطب الله سبحانه المؤمنين بقوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾، والسبب في ذلك أن النبي ﷺ خرج في غزوة بدر، يريد عير قريش مبادراً، فلم يوعب الناس معه؛ إذ كان الظن أنه لا يلقي حزياً، فلما قضى الله ببذر ما قضى، وفاز حاضروها بالمنزلة الرفيعة، كان المتخلفون من المؤمنين عنها يتمنون حضور قتال الكفار؛ ليكون منهم في ذلك غناء يلحقهم عند ربهم ونبهم بمنزلة أهل بدر، فلما جاء أمر أُحُد، لم يصدق كل المؤمنين، فعاتبهم الله بهذه الآية، وألزمهم تمني الموت؛ من حيث تمنوا أسبابه، وهو لقاء العدو ومضاربتهم، وإلا فتفسد قتل المشرك للمسلم لا يجوز أن يتمنى؛ من حيث هو قتل، وإنما تتمنى لواحقه من الشهادة والتثمين، قلت:

وفي كلام * ع^(٢): * بعض إجمال، وقد ترجم البخاري تمني الشهادة، ثم أسند عن أبي هريرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، لولا أن رجلاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم؛ أن يتخلفوا عني، ولا أجِدَ ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لو ددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أخيا ثم أقتل، ثم أخيا ثم أقتل، ثم أخيا ثم أقتل» وخرجه أيضاً مسلم^(٣)، وخرج البخاري ومسلم من حديث

(١) في أ: سبحانه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥١٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٤/٦)، كتاب «الجهاد»، باب الجعائل والحملان في السبيل، حديث (٢٩٧٢) =

أنس، عن النبي ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ، لَهُ عِنْدَ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) خَيْرٌ، يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَهُ وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدَ، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيَقْتُلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ». اهـ^(١).

فقد تبين لك تمنّي القتل في سبيل الله بهذه التّصوُّص؛ لما فيه من الكرامة.

وصوابُ كلام * ع^(٢) *: أن يقول: وإنما يتمي القتل؛ للواحقه؛ من الشهادة والتّنعيم.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾، يريد: رأيتُم أسبابه، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: تأكيد للرؤية، وإخراجها من الاشتراك الذي بين رؤية القلب ورؤية العين.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١١٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَلْبًا مُؤَمَّلًا وَمَنْ يُدْرِ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُدْرِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١١٥) وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ (١١٦)

وقوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل...﴾ الآية: هذا استمراز في عتبهم، وإقامة الحجة عليهم: المعنى أن محمداً - عليه السلام - رسول كسائر الرسل قد بلغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمّن الرسالة، وليس حياته وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك؛ لأنه يموت؛ كما ماتت الرسل قبله، ثم توعد سبحانه المنقلب على عقبيه بقوله: ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾؛ لأن المعنى: فإنما يضر نفسه، وإياها يوبق، ثم وعد الشاكرين، وهم الذين صدّقوا، وصبروا، ومضوا في دينهم، ووفوا لله

= ، ومسلم (١٤٩٥-١٤٩٦) كتاب «الإمارة» باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث (٣- ١/ ١٨٧٦)، ومالك في «الموطأ» (٤٦٥/٢) كتاب «الجهاد»، باب التّغيب في الجهاد، حديث (٤).

(١) أخرجه البخاري (١٨/٦)، كتاب «الجهاد»، باب الحور العين وصفتهن، حديث (٢٧٩٥)، ومسلم (٣/ ١٤٩٨) كتاب «الإمارة»، باب فضل الشهادة، حديث (١٨٧٧/١٠٩)، والترمذي (١٥١/٤)، كتاب «فضائل الجهاد»، باب ما جاء في ثواب الشهداء، حديث (١٦٤٣)، من طريق حميد عن أنس به. وأخرجه البخاري (٣٩/٦) كتاب «الجهاد» باب تمنّي الجهاد، حديث (٢٨١٧)، ومسلم (٣/ ١٤٩٨)، كتاب «الإمارة»، باب فضل الشهادة، حديث (١٨٧٧/١٠٩) من طريق قتادة عن أنس به.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٥/١).

بَعْدَهُمْ؛ كَسَعِدِ بْنِ الرَّبِيعِ^(١)، ووصيته يومئذٍ للأنصار، وأنس بن النضر^(٢)، وغيرهما، ثم يَدْخُلُ فِي الْآيَةِ الشَّاكِرُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ عَلِيٌّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ^(٣): الشَّاكِرُونَ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ؛ أَبُو بَكْرٍ، وَأَصْحَابُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ/ أَمِيرُ الشَّاكِرِينَ؛ إِشَارَةً مِنْهُ إِلَى صَدْعِ أَبِي بَكْرٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَوْمَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَثُبُوتِهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، وَثُبُوتِهِ فِي أَمْرِ الرَّدَّةِ، وَسَائِرِ الْمَوَاطِنِ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا شُكْرُهُ، وَشُكْرُ النَّاسِ بِسَبَبِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ النَّفُوسِ؛ أَنَّهَا إِنَّمَا تَمُوتُ بِأَجَلٍ مَكْتُوبٍ مَحْتُومٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ: فَالْجَبْنُ وَالْخَوْزُ لَا يَزِيدُ فِي الْأَجَلِ، وَالشَّجَاعَةُ وَالْإِقْدَامُ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَقْوِيَةٌ لِلنَّفُوسِ فِي الْجِهَادِ، وَفِيهَا رَدٌّ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِالْأَجَلِينَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرِثْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا...﴾ الْآيَةُ، أَيْ: نُؤْتِ مَنْ شِئْنَا مِنْهَا مَا قُدِّرَ لَهُ؛ يَبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٨]، وَقَرِينَةُ الْكَلَامِ تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُؤْتَى شَيْئاً مِنَ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ مِنْ عَمَلِهِ مَقْصُورَةً عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا، فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَقَرِينَةُ الْكَلَامِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَرِثْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ لَا تَمْنَعُ أَنْ يُؤْتَى نَصِيباً مِنَ الدُّنْيَا، قَالَ ابْنُ فُورَكٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَنْعَمُهُمْ بِنِعَمِ الدُّنْيَا، لَا أَنَّهُمْ يَقْصُرُونَ عَلَى الْآخِرَةِ^(٤).

ثُمَّ ضَرَبَ سَبْحَانَهُ الْمَثَلَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَنْ سَلَفَ مِنْ صَالِحِ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَبْ عَنْ دِينِهِمْ قَتْلُ الْكُفَّارِ لِأَنْبِيَائِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَايُنَ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ...﴾ الْآيَةُ: وَفِي «كَأَيْنَ» لُغَاتٌ، فَهَذِهِ اللَّغَةُ أَصْلُهَا^(٥)؛ لِأَنَّهَا كَافُ التَّشْبِيهِ دَخَلَتْ عَلَى «أَيٍّ»، وَ «كَأَيْنَ» فِي

(١) سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنُ عَمْرِو بْنِ أَبِي زَهْرٍ بْنُ مَالِكِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ مَالِكِ الْأَعْرَجِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْخَزْرَجِ، الْأَنْصَارِيُّ، الْخَزْرَجِيُّ، أَحَدُ نَقَبَاءِ الْأَنْصَارِ. يَنْظُرُ: «الْإِصَابَةُ» (٤٩/٣).

(٢) أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ بْنِ ضَمْضَمِ الْأَنْصَارِيِّ، الْخَزْرَجِيُّ، عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكِ خَادِمِ النَّبِيِّ ﷺ. يَنْظُرُ: «الْإِصَابَةُ» (٢٨١/١).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٥٥/٣) بِرَقْمِ (٧٩٣٧)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١٦/١)، وَالسَّيُوطِيُّ بِنَحْوِهِ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (١٤٥/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

(٤) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١٨/١).

(٥) هَذِهِ اللَّفْظَةُ قِيلَ: مَرْكَبَةٌ مِنْ كَافِ التَّشْبِيهِ وَمِنْ «أَيٍّ»، وَحَدَّثَ فِيهَا بَعْدَ التَّرْكِيبِ مَعْنَى التَّكْثِيرِ الْمَفْهُومُ مِنْ «كَمْ» الْخَبَرِيَّةِ، وَمِثْلُهَا فِي التَّرْكِيبِ وَافْهَامِ التَّكْثِيرِ: «كَذَا» فِي قَوْلِهِمْ: «لَهُ عِنْدِي كَذَا كَذَا دَرْهَمًا» وَالْأَصْلُ: كَافُ التَّشْبِيهِ وَ «ذَا» الَّذِي هُوَ اسْمُ إِشَارَةٍ، فَلَمَّا رُكِّبَا حَدَّثَ فِيهِمَا مَعْنَى التَّكْثِيرِ، وَكَمْ الْخَبَرِيَّةُ وَ «كَأَيْنَ» وَ «كَذَا» كُلُّهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقَدْ عَهَدْنَا فِي التَّرْكِيبِ إِحْدَاثَ مَعْنَى آخَرَ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ «لَوْلَا» حَدَّثَ لَهَا مَعْنَى جَدِيدَ. «وَكَايُنَ» مِنْ حَقِّهَا عَلَى هَذَا أَنَّ يُوقَفَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ نَوْنٍ؛ لِأَنَّ التَّنْوِينَ يُخَدَفُ وَقَفًا، إِلَّا أَنْ =

هذه الآية في موضع رفع بالابتداء، وهي بمنزلة «كَمْ»، وبمعناها تعطى في الأغلب التكثير، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: «قُتِلَ» مَبْنِيًّا لما لم يسم فاعله، وقرأ^(١) الباقون «قَاتَلَ»، فقولُه: «قُتِلَ»، قال فيه جماعة من المفسرين، منهم الطبري^(٢): إنه مستند إلى ضمير «نَبِيٍّ»، والمعنى عندهم أَنَّ النَّبِيَّ قُتِلَ، ونحنا إليه ابن عَبَّاس، وإذا كان هذا، فـ «رَبِّيُّونَ» مرتفع بالظرف بلا خلاف، وهو متعلق بمحذوف، وليس متعلقاً بـ «قُتِلَ»، وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة: إِنَّ «قُتِلَ» إنما هو مستند إلى قوله: «رَبِّيُّونَ»، وهم المقتولون^(٣)، قال الحسن، وابن جُبَيْر: لم يقتل نبي في حرب^(٤) قط.

قال * ع^(٥): * فعلى هذا القول يتعلق قوله: «مَعَهُ» بـ «قُتِلَ» ورجح الطبري^(٦) القول الأول؛ بدلالة نازلة النبي ﷺ، وذلك أَنَّ المؤمنين إنما تخاذلوا يوم أحد، لما قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فضرب المثل بنبي قُتِلَ، وترجيح الطبري حسن؛ ويؤيد ذلك ما تقدّم من قوله: «أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ» [آل عمران: ١٤٤] وحجة من قرأ «قَاتَلَ»: أنها أعم في المدح؛ لأنه يدخل فيها مَنْ قُتِلَ، ومن بقي.

= الصحابة كتبها: «كأين» بثبوت النون، فَمِنْ ثَمَّ وَقَفَ عليها جمهور القراء بالنون اتباعاً لرسم المصحف. ووقف أبو عمرو وسورة بن مبارك - عن الكسائي - عليها: «كأي» من غير نون على القياس. واعتلّ الفارسي لوقف النون بأشياء طَوَّلَ بها، منها: أَنَّ الكلمة لَمَّا رُكِبَتْ حَرَجَتْ عن نظائرها، فَجُعِلَ التنوين كأنه حرف أصلي من بنية الكلمة. وفيها لغات خمس:

أحدها: «كأين» وهي الأصل.

والثانية: «كائن» بزنة «كاعن».

واللغة الثالثة: «كأين» بياء خفيفة بعد الهمزة على مثال: كَعِين.

واللغة الرابعة: «كئين» بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة.

واللغة الخامسة: «كئين» على مثال كع، ونقلها الداني قراءة عن ابن محيصن.

ينظر: «الدر المصون» (٢/ ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦).

(١) وحجة من قرأ «قُتِلَ»: أن ذلك نزل معاتبة لمن أدبر عن القتال يوم أحد، إذ صاح صائحهم: قتل محمد ﷺ، فلما تراجعوا كان اعتذارهم أن قالوا: سمعنا «قتل محمد»، فنزلت.

انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٥١٦)، و «الدر المصون» (٢/ ١٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٤٦٠).

(٣) ذكره ابن عطية (١/ ٥٢٠).

(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (١/ ٤٢٨) عن الحسن، وذكره (أيضاً) البغوي في «تفسيره» (١/ ٣٦٠).

(٥) وابن عطية (١/ ٥٢٠).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥٢٠).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٤٦١).

قال *ع^(١): * ويحسُنْ عندي على هذه القراءة استنادُ الفعلِ إلى الرئيِّين، وقوله: ﴿رَبِّيُونَ﴾، قال ابن عباس وغيره: معناه: جموعٌ كثيرةٌ، وهو الرِّيَّةُ^(٢) (بكسر الراء)، وهي الجماعة الكثيرة، وروي عن ابنِ عَبَّاسٍ والحسنِ بنِ أَبِي الحَسَنِ وغيرهما: أنهم قالوا: رَبِّيُونَ: معناه: علماء^(٣)؛ ويقوِّي هذا القولَ قراءةٌ مَنْ قرأ: رَبِّيُونَ^(٤) (بفتح الراء)، منسوبون إلى الرِّبِّ؛ إما لأنهم مطيعُونَ له، أو مِنْ حيثِ إنهم علماء بما شَرَعَ.

وقوله سبحانه: ﴿وما أَسْتَكَانُوا﴾، ذهب طائفةٌ من النحاة^(٥) إلى أنه من السُّكُونِ، وذهبت طائفةٌ إلى أنه مأخوذٌ مِنْ: «كَانَ، يَكُونُ»، وأصله: أَسْتَكُونُوا، والمعنى: أنهم لم يَضْعُفُوا، ولا كانوا/ قريباً من ذلك، قلتُ: وأعلم (رحمك الله) أنَّ أَضْلَ الوَهْنِ والضَّعْفِ ١٠٣ ب عن الجِهَادِ، ومكافحةِ العَدُوِّ هو حُبُّ الدنيا، وكرهيةُ بذلِ النفوسِ لله، وبذلِ مُهْجَتِهَا لِلْقَتْلِ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥٢٠).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٦٢). برقم (٧٩٦٠)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٣٦٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٤٧)، وعزه للوفى.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٦٢) برقم (٧٩٦٣)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/ ٤٢٨)، وابن عطية (١/ ٥٢١).

(٤) ورواها قتادة عن ابن عباس.

ينظر: «شواذ ابن خالويه» (ص ٢٩)، و «المحتسب» (١/ ١٧٣)، و «المحرر الوجيز» (١/ ٥٢٠)، و «البحر المحيط» (٣/ ٨٠)، و «الدر المصون» (٢/ ٢٢٩)، و «القرطبي» (٤/ ١٤٨).

(٥) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه استفعل من الكونِ والكونُ: الدَّلُّ، وأصله: اسْتَكُونُ، فَنَقَلَتْ حركةُ الواوِ على الكافِ، ثم قُلِبَتِ الواوُ أَلِفًا. وقال الأزهريُّ وأبو عليّ: «هو من قول العرب: «بات فلان بِكَيْتَةٍ سوءٍ» على وزنٍ «جَفَنَةٍ» أي: «بحالةٍ سوءٍ» فألفه على هذا من ياءٍ، والأصل: اسْتَكَيْنَ، ففُعِلَ بالياءِ ما فُعِلَ بأخنها. الثاني: قال الفراء: «وزنه افتعل من السكون، وإنما أُشْبِعَتِ الفتحةُ فتولَّدَ منها أَلِفٌ».

ورُدَّ على الفراء بأنَّ هذه الألفَ ثابتةٌ في جميعِ تصاريفِ الكلمةِ نحو: اسْتَكَانَ يَسْتَكِينُ فهو مُسْتَكِينٌ ومُسْتَكَانٌ إليه استكانةٌ، وبأنَّ الإشباعَ لا يكونُ إلا في ضرورةٍ. وكلاهما لا يَلْزَمُهُ: أمَّا الإشباعُ، فواقعٌ في القراءاتِ السبعِ كما سيمرُّ بك، وأمَّا ثبوتُ الألفِ في تصاريفِ الكلمةِ، فلا يَدُلُّ أيضاً؛ لأنَّ الزائدَ قد يَلْزَمُ؛ ألا ترى أنَّ الميمَ في تَمَنَّدَلٍ وتَمَذَّرَعٍ زائدةٌ، ومع ذلك هي ثابتةٌ في جميعِ تصاريفِ الكلمةِ قالوا: تَمَنَّدَلٌ يَتَمَنَّدَلُ تَمَنَّدَلًا فهو مُتَمَنَّدَلٌ ومُتَمَنَّدَلٌ به، وكذا تَمَذَّرَعٌ، وهما من التَّذَلُّعِ والدُّزَعِ. وعبارةُ أبي البقاء أحسنُ في الردِّ فإنه قال: «لأنَّ الكلمةَ في جميعِ تصاريفِها ثَبَّتَتْ عَيْنُهَا، والإشباعُ لا يكونُ على هذا الحدِّ».

ولم يَذْكُرْ متعلّقُ الاستكانةِ والضعفِ فلم يَقُلْ «فما ضَعُفُوا عن كذا، وما اسْتَكَانُوا لكذا» للعلمِ به أو للاقتصارِ على الفعلينِ نحو: ﴿كُلُوا واشربوا﴾ لِيُعْمَ ما يَصْلُحُ لهما.

ينظر: «الدر المصون» (٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠).

في سَبِيلِ اللَّهِ؛ أَلَا تَرَى إِلَى حَالِ الصَّحَابَةِ (رضي الله عنهم)، وَقَلَّتْهُمْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وكيف فتح الله بهم البلاد، ودان لِدِينِهِمُ العباد، لما بَذَلُوا لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ فِي الْجِهَادِ، وَحَالِنَا الْيَوْمَ، كما تَرَى؛ عَدَدُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ كَثِيرٌ، وَنَكَائِتُهُمْ فِي الْكُفَّارِ نَزْرٌ يَسِيرٌ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» عَنْ ثُوبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ؛ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ غَنَاءَ كَغَنَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(١). اهـ، فَانْظُرْ (رحمك الله)، فَهَلْ هَذَا الزَّمَانُ إِلَّا زَمَانُنَا بَعَيْنُهُ، وَتَأْمَلْ حَالِ مَلُوكِنَا، إِنَّمَا هِمَّتْهُمْ جَنُوعُ الْمَالِ مِنْ حَرَامٍ وَحَلَالٍ، وَإِعْرَاضُهُمْ عَنْ أَمْرِ الْجِهَادِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَلَى مُصَابِ الْإِسْلَامِ.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١٤٧) فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(١٤٨) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا...﴾ الآية: هذه الآية في ذِكْرِ الرَّبِّينِ، أَي: هَذَا كَانَ قَوْلُهُمْ، لَا مَا قَالَهُ بَعْضُكُمْ، يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُلْنَا هَٰؤُلَاءِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَقْتَضَتْهُ تِلْكَ الْحَالُ مِنَ الْأَقْوَالِ، قُلْتُ: وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ تَرْجِعُ الْقَوْلَ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِ الرَّبِّينِ؛ إِذْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ إِنَّمَا تَصُدِّرُ مِنْ عُلَمَاءَ عَارِفِينَ بِاللَّهِ.

قال ع^(٢): ﴿وَأَسْتَغْفِرُ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ الْمَمْدُوحِينَ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ يَنْحُو إِلَيَّ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ مَا نَزَلَ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ بِذُنُوبٍ مِنَ الْبَشَرِ؛ كَمَا نَزَلَتْ قِصَّةُ أُحُدٍ بِبَعْضِيَانٍ مِنْ عَصَى، وَقَوْلُهُمْ: ﴿ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾: عِبَارَتَانِ عَنْ مَعْنَى قَرِيبٍ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ؛ جَاءَ لِلتَّأَكِيدِ، وَلِتَعْمَ مَنَاحِي الذُّنُوبِ؛ وَكَذَلِكَ فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٣)، وَقَالَ الضُّحَّاكُ: الذُّنُوبُ عَامٌّ، وَالْإِسْرَافُ فِي الْأَمْرِ، أُرِيدَ بِهِ الْكِبَائِرُ خَاصَّةً، ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٥١٤/٢)، كِتَابُ «الْمَلَا حِم»، بَابُ فِي تَدَاعَى الْأُمَمِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، حَدِيثُ (٤٢٩٧) مِنْ طَرِيقِ أَبِي عَبْدِ السَّلَامِ عَنْ ثُوبَانَ بِهِ.

وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٧٨/٥)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (١٨٢/١) مِنْ طَرِيقِ أَبِي أَسْمَاءَ الرَّحْبِيِّ عَنْ ثُوبَانَ بِهِ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥٢٢/١).

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٢/١).

الدُّنْيَا؛ بأن أظهرهم على عدوهم، ﴿وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: الجَنَّةُ بلا^(١) خلاف.

قال الفخر^(٢): ولا شك أن ثواب الآخرة هي الجنة، وذلك غير حاصل في الحال، فيكون المراد أنه سبحانه، لما حكم لهم بحصولها في الآخرة، قام حكمه لهم بذلك مقام الحصول في الحال، ومحمّل قوله: ﴿آتَاهُمْ﴾ أنه سيؤتيهم.

وقيل: ولا يمتنع أن تكون هذه الآية خاصة بالشهداء، وأنه تعالى في حال نزول هذه الآية، كان قد آتاهم حسن ثواب الآخرة. انتهى.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَا أَشْرَكُوا بِإِلَهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَيَسْ مَتَوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: المنافقين الذين خيَّبوا المسلمين، وقالوا في أمر أحد: لو كان محمد نبياً، لم يهزم.

وقوله سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ هذا تثبيت لهم، وقوله سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ سبب هذه الآية أنه لما ارتحل أبو سفيان بالكفار، رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فتجهز، واتبع المشركين، وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي^(٣) قد جاء إلى النبي ﷺ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ، لَقَدْ سَاءَ مَا أَصَابَكَ، وَكَانَتْ خِزَاعَةٌ تَمِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ رَكِبَ مَعْبَدٌ؛ حَتَّىٰ لَحِقَ بِأَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا رَأَىٰ أَبُو سُفْيَانَ ١١٠٤ مَعْبَدًا، قَالَ: مَا وَرَاءَكَ، يَا مَعْبَدُ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرِ مِثْلَهُ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ قَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَن كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ، وَنَدِمُوا عَلَىٰ مَا صَنَعُوا، قَالَ: وَيْلَكَ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: وَاللَّهِ، مَا أَرَاكَ أَنْ تَرْحَلَ حَتَّىٰ تَرَىٰ نَوَاصِي الْخَيْلِ، قَالَ: قَوْلَ اللَّهِ، لَقَدْ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٢٢/١).

(٢) ينظر: «الفخر الرازي» (٢٤/٩).

(٣) معبد بن أبي معبد الخزاعي. ذكره ابن منده، وذكر سيف في «الفتوح»، والطبري من طريق ابن المشي بن حارثة لما توجه خالد بن الوليد إلى الشام قاسمه العساكر؛ فكان معبد بن أبي معبد ممن بقي مع المشي بن حارثة من الصحابة. ينظر: «الإصابة» (١٣٣/٦).

أَجْمَعْنَا الْكَرَّةَ إِلَيْهِمْ، قَالَ: فَإِنِّي أَنُهَاكَ عَنْ ذَلِكَ، وَوَاللَّهِ، لَقَدْ حَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ عَلَى أَنْ قُلْتُ فِيهِمْ شِعْراً، قَالَ: وَمَا قُلْتُ؟ قَالَ: قُلْتُ^(١): [البسيط]

كَادَتْ تَهْدُ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاجِلَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ^(٢)
تَزْدِي بِأَسْدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مَعَاذِيلِ^(٣)
فَظَلْتُ عَذْواً أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً لَمَّا سَمَوْا بِرُئَيْسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ^(٤)

إلى آخر الشعر، فألقى الله الرُّعْبَ في قلوب الكفار، وقال صفوان بن أمية^(٥): لَا تَرْجِعُوا فَإِنِّي أَرَى أَنَّهُ سَيَكُونُ لِلْقَوْمِ قِتَالٌ غَيْرُ الَّذِي كَانَ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ فِي هَذَا الْإِلْقَاءِ، وَهِيَ بَعْدُ مُتَنَاوِلَةٌ كُلِّ كَافِرٍ؛ قَالَ الْفَخْرُ^(٦): لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَخَالِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ، إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ خَوْفٌ مِنَ الرُّعْبِ، إِمَّا عِنْدَ الْحَرْبِ، وَإِمَّا عِنْدَ الْمُحَاجَّةِ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾، هذه بَاءُ السَّبَبِ، وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ.

قال * ص: * قوله: ﴿وَيْسُ﴾، المخصوصُ بالذِّمِّ محذوفٌ، أي: النار [انتهى].

(١) ينظر: «السيرة» لابن هشام (١٠٣/٣). وبعده:

فَقُلْتُ: وَيْلَ ابْنِ حَزْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ إِذَا تَغَطَّمْتَ الْبَطْحَاءَ بِالْجِيلِ
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولٍ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخْشَ تَنَابِلَةٍ وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذِرْتُ بِالْقِيلِ
(٢) تهد: تسقط لهول ما رأت من أصوات الجيش وكثرته. والجرد: الخيل العتاق. والأبَابِيل: الجماعات.
(٣) تردى: تسرع. والتنبلة: القصار. والميل: جمع أميل، وهو الذي لا رمح أولا ترمى معه؛ وقيل: هو الذي لا يثبت على السرج. والمعازيل: الذين لا سلاح معهم.
(٤) العدو: المشي السريع. وسماوا: علوا وارتفعوا.

(٥) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جدح. أبو وهب، وقيل: أبو أمية القرشي، الجمحي. روى عنه ابنه عبد الله، وعبد الله بن الحارث، وعامر بن مالك، وطاوس. قتل أبوه يوم بدر كافراً. وهرب هو يوم فتح «مكة» ثم عاد إليها بعد أن أخذ أماناً من النبي، وأعار النبي سلاحاً يوم حنين، وحضرها مشركاً، ثم أسلم، وحسن إسلامه، وكان من المؤلفين قلوبهم، وكان من أشرف قريش في الجاهلية وأحد المطعمين.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٣/٣)، و«الإصابة» (٢٤٦/٣)، و«الثقات» (١٩١/٣)، و«نقعة الصديان» (٣٠٠)، و«الاستيعاب» (٧١٨/٢)، و«الاستبصار» (٩٣، ١١٥)، و«تجريد أسماء الصحابة» (٢٦٦/١)، و«الطبقات الكبرى» (٤٤٩/٥)، و«سير النبلاء» (٥٦٢/٢)، و«المعرفة والتاريخ» (٣٠٩/١)، و«التاريخ الكبير» (٣٠٤/٤)، و«الجرح والتعديل» (١٨٤٦/٤)، و«الثقات» (١٩١/٣)، و«الكاشف» (٢٩/٢)، و«المعبر» (٥٠/١)، و«الأعلام» (٢٠٥/٣)، و«تهذيب الكمال» (٦٠٨/٢)، و«تهذيب التهذيب» (٤٢٤/٤)، و«تقريب التهذيب» (٣٦٧/١).

(٦) ينظر: «الفخر الرازي» (٢٧/٩).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تحَسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ﴾، جاء الخطاب لجميع المؤمنين، وإن كانت الأمور التي عاتبهم سبحانه عليها، لم يقع فيها جميعهم؛ ولذلك وجوه من الفصاحة، منها: وغظ الجميع، وزجره؛ إذ من لم يفعل مُعَدُّ أن يفعل؛ إن لم يزجر، ومنها: السُّر والإبقاء على من فعل، وكان النبي ﷺ قد وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ النَّصْرَ يَوْمَئِذٍ عَلَى خَيْرِ اللَّهِ؛ إِنْ صَبَرُوا وَجَدُوا، فَصَدَقَهُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ؛ وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَافَّ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَرَتَّبَ الرَّمَاةَ، عَلَى مَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ قَبْلَ هَذَا، وَاشْتَعَلَتْ نَارُ الْحَرْبِ، وَأَبْلَى حِمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبُو دُجَانَةَ^(١)، وَعَلِيٌّ، وَعَاصِمُ بْنُ أَبِي الْأَفْلَحِ^(٢)، وَغَيْرُهُمْ، وَأَنهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ رَجُلًا، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تحَسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ﴾، وَالْحَسُّ: الْقَتْلُ الدَّرِيعُ، يُقَالُ: حَسَّهُمْ إِذَا أَسْتَأْصَلَهُمْ قَتْلًا، وَحَسَّ الْبَرْدُ الثَّباتَ.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ «حَتَّى» غَايَةً؛ كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَى أَنْ فَشِلْتُمْ، وَالْأَظْهَرُ الْأَقْوَى أَنَّ «إِذَا» عَلَى بَابِهَا تَحْتَاجُ إِلَى الْجَوَابِ، وَمَذْهَبُ الْخَلِيلِ، وَسِيبَوْنِي، وَفَرَسَانَ الصَّنَاعَةِ؛ أَنَّ الْجَوَابَ مَحذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى، تَقْدِيرُهُ: أَنهَزَمْتُمْ، وَنَحْوَهُ، وَالْفَشْلُ: اسْتَشْعَارُ الْعَجْزِ، وَتَرْكُ الْجِدِّ، وَالتَّنَارُغُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ الرَّمَاةِ، ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾: عِبَارَةٌ عَنْ ذَهَابِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الرَّمَاةِ، وَتَأَمَّلْ (رَحِمَكَ اللَّهُ) مَا يُوْجِبُهُ الرُّكُوءُ إِلَى الدُّنْيَا، وَمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الضَّرَرِ، وَإِذَا كَانَ مَثَلُ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ عَلَى رِفْعَتِهِمْ وَعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِمْ، حَصَلَ لَهُمْ بِسَبَبِهَا مَا حَصَلَ مِنْ الْفَشْلِ وَالْهَزِيمَةِ، فَكَيْفَ بِأَمْثَالِنَا، وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَنَبِيُّهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - مِنَ الدُّنْيَا وَأَفَاتِهَا؛ بِمَا لَا يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي هَذَا «الْمُخْتَصَرِ» جَمْلَةً كَافِيَةً لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ، وَقَدْ خَرَجَ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ الْمُتَخَصَّبِ» لَهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ/ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَفْتَحِ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَلْقَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ ١٠٤ ب وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣). انتهى من «الكوكب الدري».

(١) أبو دجانة الأنصاري: اسمه سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ، وَقِيلَ: ابْنُ أَوْسٍ بْنِ خَرْشَةَ، مُتَّفَقٌ عَلَى شَهَادَةِ بَذْرَاءَ. وَقَالَ عَلِيٌّ: إِنَّهُ اسْتَشْهَدَ بِالْإِمَامَةِ، وَأَسْنَدَ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا التَحَمَّ الْقِتَالُ ذَبَّ عَنْهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ (يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ)، حَتَّى قُتِلَ، وَأَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِ الْجِرَاحَةُ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِمَّنْ شَارَكَ فِي قَتْلِ مَسِيلِمَةَ. يَنْظُرُ: «الإصابة» (٩٩/٧ - ١٠٠).

(٢) عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، واسم أبي الأفلح: قيس بن عصمة بن التعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عمرو بن عوف، الأنصاري، جَدُّ عَاصِمِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْخَطَّابِ لِأُمِّهِ، مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ. يَنْظُرُ: «الإصابة» (٤٦٠/٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٦/١)، والبخاري (٣٦٠٩ - كشف) من حديث عمر بن الخطاب مرفوعاً. وقال المنذري في «الترغيب» (٨٣/٤)، رواه أحمد بإسناد حسن، والبخاري، وأبو يعلى. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٣٦/١٠): رواه أحمد، والبخاري، وأبو يعلى في «الكبير»، وإسناده حسن.

وقال - عليه السلام - لِلْأَنْصَارِ لَمَّا تَعَرَّضُوا لَهُ؛ إِذْ سَمِعُوا بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ بِمَالِ الْبَحْرَيْنِ: «أَبْشِرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسْرُكُم، فَوَاللَّهِ، مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ! وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسِطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ؛ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ^(١). انتهى.

واعلم (رحمك الله) أَنَّ تيسير أسباب الدنيا مع إعراضك عن أمر آخرتك، ليس ذلك من علامات الفلاح؛ وقد روى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا ابن لهيعة^(٢)، قال: حدثني سعيد بن أبي سعيد^(٣)؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا؟ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَابْتَغَيْتُهُ، يُسِّرَ لَكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا، وَابْتَغَيْتُهُ، عُسِّرَ عَلَيْكَ، فَأَنْتَ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَابْتَغَيْتُهُ، عُسِّرَ عَلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَابْتَغَيْتُهُ، يُسِّرَ لَكَ، فَأَنْتَ عَلَى حَالٍ قَبِيحَةٍ»^(٤). انتهى، فتأمله راشداً، وقوله: ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾، يعني: هزيمة المشركين، قال الزبير^(٥): واللَّهِ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنْظُرُ إِلَى خَدَمِ هِنْدَ بِنْتِ عُتْبَةَ^(٦)،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي الغافقي، أبو عبد الرحمن المصري، قاضيهما وعالمهما. عن عطاء، والأعرج، وعكرمة، وخلق. وعنه شعبة، وعمرو بن الحارث، والليث، وابن وهب، وخلق. قال أحمد: احترقت كتبه وهو صحيح الكتاب. قال مسلم: تركه وكيع ويحيى القطان وابن مهدي. قال يحيى بن بكير: مات سنة ١٧٤ هـ.

ينظر: «خلاصة تهذيب الكمال» (٩٢/٢)، و «تهذيب الكمال» (٧٢٧/٢)، و «الكاشف» (١٢٢/٢)، و «ميزان الاعتدال» (٤٧٥/٢، ٤٨٣)، و «طبقات ابن سعد» (٢٠٤/٧).

(٣) سعيد بن أبي سعيد المقبري، أبو سعيد المدني، أرسل عن أم سلمة، وعن أبيه، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس، وخلق. وعنه عمرو بن شعيب، وأيوب بن موسى، وعبيد الله بن عمر، والليث، وهو أثبت الناس فيه، قال ابن جرّاش: ثقة جليل، قال الواقدي: اختلط قبل موته بثلاث سنين. قال ابن سعد: مات سنة ثلاث وعشرين، وقال أبو عبيد: سنة خمس وعشرين ومائة.

ينظر: «تهذيب الكمال» (٤٩٠/١)، و «الثقات» (٢٧٨/٤)، و «الخلاصة» (٣٨٠/١)، و «اللسان الميزان» (٢٢٩/٧).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٩) رقم (٨٨) ووقع في «الزهد»: «شعيب بن أبي سعيد».

(٥) أخرجه الطبري (٤٧٠/٣) برقم (٨٠٠٨)، وذكره ابن عطيّة (٥٢٥/١).

(٦) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشيّة، والدة معاوية بن أبي سفيان، شهدت أحداً، وفعلت ما فعلت بحمزة، ثم كانت تولب على المسلمين إلى أن جاء الله بالفتح فأسلم زوجها ثم أسلمت هي يوم الفتح؛ وقصتهما (في قولها عند بيعة النساء: ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾؛ فقالت: وهل تزني الحرّة؟)

ينظر: «الإصابة» (٣٤٦/٨).

وصَوَّاجِهَا مَشْمَرَاتِ هَوَارِبَ، مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ قَلِيلٌ، وَلَا كَثِيرٌ؛ إِذْ مَالَتْ الرَّمَاةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَسَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ، يَرِيدُونَ النَّهْبَ، وَخَلُّوا ظَهورَنَا لِلخَيْلِ، فَأَوْتَيْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا، وَصَرَخَ صَارِخٌ أَلَّا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَأَنكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمَ.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا﴾، يعني بهم الذين حَرَصُوا عَلَى الْغَنِيمَةِ، وَكَانَ الْمَالُ هَمَّهُمْ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١)، وَسَائِرُ الْمَفْسِّرِينَ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَرِيدُ الدُّنْيَا؛ حَتَّى نَزَلَ فِيْنَا يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا﴾^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ إِبْخَارٌ عَنْ ثُبُوتٍ مَنْ ثَبَّتَ مِنَ الرَّمَاةِ، مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ أَمْتَالًا لِلْأَمْرِ حَتَّى قُتِلُوا، وَبَدَخَلُ فِي هَذَا أَسُّ بْنُ النَّضْرِ، وَكُلُّ مَنْ جَدَّ وَلَمْ يَضْطَرْبِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتَوْنَاكُمْ عَمَّا غَمَرَ لِكَيْلًا نَحْزَنُوا عَلَى مَا فَانَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٥٢) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ سَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(١٥٣) إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ^(١٥٤) ﴿

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ العامل في إذ قوله: «عفا»، وقراءة^(٣) الجمهور «تصعدون» (بضم التاء، وكسر العين)؛ من: أَصْعَدَ، ومعناه: ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ، وَالصَّعِيدُ: وَجْهُ الْأَرْضِ، ف «أَصْعَدَ»: دَخَلَ فِي الصَّعِيدِ؛ كَمَا أَنَّ «أَصْبَحَ»: دَخَلَ فِي الصَّبَاحِ.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧٢/٣) برقم (٨٠٢٣) بنحوه، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٢٥/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» بنحوه (١٥٢/٢)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧٢/٣) برقم (٨٠٢٣)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٣٦٢/١)، وابن عطية (٥٢٥/١)، والسيوطي في «تفسيره» (١٥٢/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٥/١)، و «البحر المحيط» (٨٩/٣)، و «الدر المصون» (٢٣٣/٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ مبالغة في صفة الإنهزام، وقرأ حميد بن قيس^(١): «عَلَى أَحَدٍ» (بضم الألف والحاء)، يريد الجبل، والمعنى بذلك نبي الله ﷺ؛ لأنه كان على الجبل، والقراءة الشهيرة أقوى؛ لأن النبي ﷺ لم يكن على الجبل إلا بعد ما فر الناس، وهذه الحال من إصعادهم إنما كانت، وهو يدعوهم، وروى أنه كان يتأدي ﷺ: «إِلَيَّ، عِبَادَ اللَّهِ»، والناس يفرون، وفي قوله تعالى: ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾: مدح له ﷺ؛ فإن ذلك هو موقف الأبطال في أغقاب الناس؛ ومنه قول الزبير بن باطا^(٢): ما فعل مقدمتنا إذا حملنا، وحاميتنا إذا فرزنا؛ وكذلك كان ﷺ أشجع الناس؛ ومنه قول سلمة بن الأكوع^(٣): كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْبَأْسُ، اتَّقَيْنَاهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾: معناه: جازاكم على صنيعكم، واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿غَمًّا بَغْمٌ﴾، فقال قوم: المعنى: أثابكم غمًّا بسبب الغم الذي أدخلتموه على رسول الله ﷺ وسائر المسلمين بفشلكم، وتنازعكم، وعصيانكم. قال قتادة، ومجاهد: الغم الأول: أَنْ سَمِعُوا أَلَّا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، والثاني: القتل والجراح^(٤).

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾، أي: من الغنيمة، ولا ما أصابكم، أي: من القتل والجراح، ودل الإنهزام، واللام من قوله: «لَكِنِّي لَا» متعلقة بـ «أَثَابَكُمْ»، المعنى: لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتم أنفسكم، وعادة البشر أن جاني الذنب يضرب للعقوبة، وأكثر فلق المعاقب وحزنه، إنما هو مع ظنه البراءة بنفسه، ثم ذكر سبحانه أمر النعاس الذي آمن به المؤمنين، فغشي أهل الإخلاص، قلت: وفي صحيح البخاري، عن أنس؛ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ، وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ:

(١) ينظر: «المحور الوجيز» (١/٥٢٦)، و«البحر المحيط» (٣/٩٠)، و«الدر المصون» (١/٢٣٤).

(٢) قال السهيلي: «هو الزبير، بفتح الزاي وكسر الباء، جد الزبير بن عبد الرحمن المذكور في «الموطأ» في كتاب النكاح. واختلف في الزبير بن عبد الرحمن؛ ف قيل: الزبير، بفتح الزاي وكسر الباء، كما سمي جده، وقيل: الزبير».

(٣) سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع سنان بن عبد الله. وقيل: اسم أبيه وهب، وقيل غير ذلك. أول مشاهده «الحديبية»، وكان من الشجعان، ويسبق الفرس عدوًّا، وبايع النبي ﷺ عند الشجرة على الموت. ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/٣٠٥)، و«الإصابة» (٣/١٢٧)، و«أسد الغابة» (ت ٢١٧٩)، و«طبقات خليفة» (٦٨٩)، و«الخلاصة» (١٢٦)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/٢٢٩)، و«تهذيب التهذيب» (٤/١٥٠).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٤٧٩) برقم (٨٠٥٩)، (٨٠٦١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٥٢٦).

فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَأَخَذَهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ^(١)، ونحوه عن الزُّبَيْرِ^(٢)، وابنِ مسعود^(٣)، «والواو» في قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾، واو الحال، ذَهَبَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ اللفظة من الهم الذي هو بمعنى الغم والحزن.

وقوله سبحانه: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾: معناه: يظنون أن دين الإسلام ليس بحق، وأن أمر محمد ﷺ يضمحل.

قلتُ: وقد وردت أحاديثٌ صحَّاحٌ في الترغيبِ في حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ففي «صحيح مُسْلِم»، وغيره، عن النبي ﷺ حاكياً عن الله عزَّ وجلَّ يقولُ سبحانه: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي...»^(٤) الحديث، وقال ابنُ مسعود: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، لَا يُحْسِنُ أَحَدٌ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ ظَنَّهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ بِيَدِهِ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْخَطِيبِ بِسَنَدِهِ، عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ الْمَرْءِ حُسْنُ ظَنِّهِ»^(٥) اهـ. وقوله:

(١) أخرجه البخاري (٤٢٢/٧)، كتاب «المغازي»، باب: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾، حديث (٤٠٦٨)، (٧٦/٨) كتاب «التفسير»، باب «أمانة نعاساً»، حديث (٤٥٦٢)، والترمذي (٢٢٩/٥). (٢٣٠) كتاب «التفسير»، باب ومن سورة آل عمران، حديث (٣٠٠٨)، وأحمد (٢٩/٤)، وابن حبان (٧١٨٠)، والطبري في «تفسيره» (٤٨٤/٣) رقم (٨٠٧٦، ٨٠٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٩٥/٥) - (٩٦) رقم (٤٦٩٩، ٤٧٠٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة». (٣/٢٧٣-٢٧٤) كلهم من طريق قتادة عن أنس به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه الترمذي (٢٢٩/٥)، كتاب «التفسير»، باب ومن سورة آل عمران، حديث (٣٠٠٧)، وابن سعد في «الطبقات» (٥٠٥/٣)، وابن أبي شيبه (١٤/٤٠٦-٤٠٧)، والطبري في «تفسيره» (٣/٤٨٣-٤٨٤) رقم (٨٠٧٤)، والحاكم (٢٩٧/٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/٢٧٢)، وأبو نعيم في «الدلائل» ص (٣٦٧) كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن سعد (٥٠٥/٣)، والطبري في «تفسيره» (٣/٤٨٣) رقم (٨٠٧٣) من طريق حميد عن أنس.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٥٥)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث الزبير بن العوام: أخرجه الترمذي (٢٢٩/٥) كتاب «التفسير»، باب ومن سورة آل عمران، حديث (٣٠٠٧) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير به بنحو حديث أنس.

(٢) ينظر الحديث السابق.

(٣) ينظر الحديث السابق.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ﴾: ذهب الجمهور إلى أنَّ المراد مدَّة الجاهليَّة القديمة قبل الإسلام، وهذا كقوله سبحانه: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦] و ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المراد في هذه الآية ظنُّ الفرقة الجاهليَّة، وهم أبو سُفْيَانَ ومن معه، قال قتادة وابنُ جُرَيْج: قيل لعبد الله بن أبيّ أبنِ سَلُولَ: قُتِلَ بَنُو الْحَزْرَجِ، فَقَالَ: وهل لنا من الأمرِ من شيءٍ، يريد أنَّ الرأي ليس لنا، ولو كان لنا منه شيءٌ، لسمع من رأينا، فلم يَخْرُجْ، فلم يُقْتَلْ أحدٌ منا.

وقوله ^(١) سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ اعتراضٌ أثناء الكلام فصيحٌ، ومضمَّنه الردُّ عليهم، وقوله سبحانه: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ...﴾ الآية: أخبر تعالى عنهم على الجملة دونَ تعيين، وهذه كانت سُنَّتُهُ في المنافقين، لا إله إلا هو.

وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا﴾ هي مقالةٌ سُمِعَتْ من مُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ المغموص ^(٢) عليه بالثفاق، وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: اللام في «ليبتلي» متعلِّقة بفعلٍ ١٠٥ ب متأخِّر، تقديره: وليبتلي وليمحصَّ فعلٌ هذه الأمور الواقعة، والابتلاء هنا/ الاختبار.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ قال عُمَرُ (رضي الله عنه): المرادُ بهذه الآية جميعُ مَنْ تَوَلَّى ذلك اليومَ عن العدو ^(٣).

وقيل: نزلت في الذين فرُّوا إلى المدينة.

(١) ذكره ابن عطية في تفسيره (٥٢٨/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٦/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج.

(٢) مُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ بن مُلَيْل بن زيد بن العطف بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن الأوس، الأنصاري، الأوسي.

ذكروه فيمن شهد العقبة. وقيل: إنه كان منافقاً، وإنه الذي قال يوم أخذ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقيل: إنه تاب.

وقد ذكره ابنُ إسحاق فيمن شهد بدرًا.

ينظر: «الإصابة» (١٣٧/٦)، و «أسد الغابة» ت (٥٠١٧)، و «الاستيعاب» ت (٢٤٨٥)، و «المؤتلف والمختلف» (٢١٩).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٢٩/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٧/٢)، وعزاه لابن جرير عن كليب عنه به.

قال ابن زَيْد: فلا أدري، هل عُفِيَ عن هذه الطائفة خاصّة، أم عن المؤمنين جميعاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُم الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾: ظاهره عند جمهور المفسرين: أنه كانت لهم ذنوب عاقبهم الله عليها بتمكين الشيطان من استزلالهم بوسوسته وتخويفه، والفرار من الزحف^(٢) من الكبائر؛ بإجماع فيما علمت، وقد عده ﷺ في السبع الموبقات^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ...﴾ الآية: نهى الله المؤمنين؛ أن يكونوا مثل الكفار المنافقين في هذا المعتقد الفاسد الذي هو أن من سافر في تجارة ونحوها، ومن قاتل فقتل، لو قعد في بيته لعاش، ولم يمُت في ذلك الوقت الذي عرّض فيه نفسه للسفر أو للقتال، وهذا هو معتقد المعتزلة في القول بالأجلين، أو نحو منه، وصرّح بهذا المقالة عبد الله بن أبي المُنَافِق، وأصحابه؛ قاله مجاهد

(١) ذكره ابن عطية (١/٥٣٠).

(٢) قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦] في هذه الآية ينهى الله المؤمنين عن الفرار من الكفار إذا التقوا بهم في القتال، وحكمة ذلك أن الفرار كبير المفسدة وخيم العاقبة؛ لأن الفار يكون كالحجر يسقط من البناء، فيتداعى ويختل نظامه؛ لهذا عدّ الشارع الحكيم الفرار من الزحف من أكبر الجنايات، وقد توعّد الله المقاتلين الذين يولون العدو ظهورهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ﴾... الآية.

وفي الفرار من العدو عار يجعل الحياة بغیضة عند النفوس الأبية، قال يزيد بن المهلب: «والله إنني لأكره الحياة بعد الهزيمة».

وقال بعض العلماء: إن هذا النهي خاصّ بوقعة بدر. وبه قال نافع والحسن وقتادة، ويزيد بن أبي حبيب، والضحاك، ونسب إلى أبي حنيفة كما حكاه القرطبي.

وقال الجمهور (وهو المروي عن ابن عباس): إن تحريم الفرار من الصف عند الزحف باقٍ إلى يوم القيامة في كل قتال يلتقي فيه المسلمون والكفار.

(٣) تقدم تخريجه.

«مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أُعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُضْبَعْ»^(١)، انفراد به مُسلم. انتهى من «سلاح المؤمن».

﴿فَمَا رَحِمَ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْمًا مِمَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾
 ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فَيَذَرُ فِيهِمْ الْآثَرَ﴾ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ
 فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾: معناه: فبرحمة، قال القشيري في «التحجير»: واعلم أن الله سبحانه يحب من عباده من يرحم خلقه، ولا يرحم العبد إلا إذا رحمه الله سبحانه، قال الله تعالى لنبيه - عليه السلام -: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾. انتهى.

قال * ع^(٢) * : ومعنى هذه الآية التقريع لكلّ مَنْ أُخِلَّ يَوْمَ أُحُدٍ بِمَرْكَزِهِ، أي: كانوا يستحقّون الملام منك، ولكنّ برحمةٍ منه سُبْحَانَهُ/ لَئِنْ لَهِمْ، وَجَعَلَكَ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، ١١٠٦ وَبَعَثَكَ لَتَتِمِّمَ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ، وَلَوْ كُنْتَ فُظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ، لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ، وَتَفَرَّقُوا عَنْكَ، وَالْفُظُّ: الْجَافِي فِي مَنْطِقِهِ وَمَقَاطِعِهِ، وَفِي صِفَتِهِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ: «لَيْسَ بِفُظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ»^(٣)، وَالْفُظَّاطَةُ: الْجَفْوَةُ فِي الْمَعَاشِرَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَغَلِظَ الْقَلْبُ: عِبَارَةٌ عَنْ تَجَهُّمِ الْوَجْهِ، وَقَلَّةِ الْإِنْفِعَالِ فِي الرِّغَائِبِ، وَقَلَّةِ الْإِشْفَاقِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْإِنْفَضَاضُ: أَفْتَرَاقُ الْجُمُوعِ.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ الآية: أمر سبحانه نبيه - عليه السلام - بهذه الأوامر التي هي بتدرج بليغ، فأمره أن يعفو عنهم فيما له عليهم من حق، ثم

= والنسائي (٣٦/٦ - ٣٧) كتاب «الجهاد»، باب مسألة الشهادة، وابن ماجة (٩٣٥/٢) كتاب «الجهاد»، باب القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى، حديث (٢٧٩٧)، والدارمي (٢٠٥/٢) كتاب «الجهاد»، باب فيمن سأل الله الشهادة، وابن حبان (٣١٩٢)، والبيهقي (٩/ ١٦٩ - ١٧٠) كتاب «السير»، باب تمنى الشهادة ومساألتها، والطبراني في «الكبير» (٧٢/٦) رقم (٥٥٥٠) كلهم من طريق عبد الرحمن بن شريح عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن شريح.

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥١٧)، كتاب «الإمارة»، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، حديث (١٩٠٨/١٥٦) من حديث أنس بن مالك.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٥٣٣).

(۳) تقدم.

يستغفر لهم فيما لله عليهم مِنْ تَبِعَةٍ، فإذا صاروا في هذه الدَّرَجَةِ، كانوا أهلاً للاستشارة.

قال * ع^(١) : وَمَنْ لَا يَسْتَشِيرُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْدِّينِ، فَعَزَلَهُ وَاجِبٌ، هَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الْإِسْتِشَارَةِ، وَمُشَاوَرَتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّمَا هِيَ فِي أُمُورِ الْحَرْبِ وَالْبُعُوثِ وَنَحْوِهِ مِنْ أَشْخَاصِ النَّوَازِلِ، فَأَمَّا فِي حَلَالٍ، أَوْ حَرَامٍ، أَوْ حَدٍّ، فَتِلْكَ قَوَانِينُ شَرْعٍ، مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، وَالشُّورَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى اخْتِلَافٍ^(٢) الْآرَاءِ، وَالْمُسْتَشِيرُ يَنْظُرُ فِي ذَلِكَ الْخِلَافِ، وَيَتَخَيَّرُ، فَإِذَا أُرْشِدَهُ اللَّهُ إِلَى مَا شَاءَ مِنْهُ، عَزَمَ عَلَيْهِ، وَأَنْفَذَهُ مُتَوَكِّلاً عَلَى اللَّهِ؛ إِذْ هُوَ غَايَةُ الْأَجْتِهَادِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ، وَبِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَصِفَةُ الْمُسْتَشَارِ فِي الْأَحْكَامِ أَنْ يَكُونَ عَالِماً دِيناً، وَقَلَمًا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي عَاقِلٍ، فَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ ابْنُ أَبِي الْحَسَنِ: مَا كَمَلَ دِينَ أَمْرٍ لَمْ يَكْمَلْ عَقْلُهُ^(٣).

قال * ع^(٤) : وَالتَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ فُرُوضِ الْإِيمَانِ وَفُصُولِهِ، وَلَكِنَّهُ مَقْتَرَنٌ بِالْجِدِّ فِي الطَّاعَاتِ، وَالتَّشْمِيرِ وَالْحَزَامَةِ بِغَايَةِ الْجُهْدِ، وَلَيْسَ الْإِلْقَاءُ بِالْيَدِ وَمَا أَشْبَهَهُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٥٣٤).

(٢) الشورى: مصدر بمعنى التشاور، يقال: تشاور القوم إذا اجتمعوا على الأمر؛ ليستشير كل واحد منهم صاحبه، ويستخرج ما عنده من رأي، من قولهم: شرت الدابة: إذا عرضتها على مشترئها ليلوها وينظر ما عندها، وبالعرض يعلم خيرها وشرها، فكذلك بالتشاور يعلم خير الأمور وشرها. والشورى دعامة الحكومة الإسلامية، وعليها مدار انتظامها وحسن سلوكها وسعادتها، فأعدل الحكومات هي الحكومة الشورية، لذلك عنى الله (سبحانه وتعالى) بأمرها حتى قرر أصولها، في كثير من آيات الذكر الحكيم، وأمر بها رسوله المعصوم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، فامتدحهم بأن أمرهم شورى بينهم وقرنوه بأصل الإيمان، وهو الاستجابة إلى الله، وبأقوى أركانه وهو الصلاة، وفي هذا تنويه بشأنها، وإعلاء من أمرها، وتنبيه على أنها من أصول الإسلام ودعائمه.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. روي عن الحسن البصري؛ أنه قال في تفسير هذه الآية: «قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة، ولكن أراد أن يستن به من بعده».

وقال البيضاوي في تفسيرها: عاملهم معاملة العفو والصفح فيما يختص بك، واطلب المغفرة لهم، واستظهر برأيهم، وشاورهم في أمر الحرب وفي كل ما تصح فيه المشاورة؛ لتطيب نفوسهم ولتمهيد سنة المشاورة لأمتك.

ينظر: «الخلافة» لشيخنا عبد الفتاح الجوهري.

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/٥٣٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٥٣٤).

بتوكل، وإنما هو كما قال - عليه السلام -: «قَيِّدَهَا وَتَوَكَّلْ».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ هذه غاية في الرُّفعة، وشرَفِ المنزلة، وقد جاءت آثار صحيحة في فضل التوكل وعظيم منزلة المتوكلين، ففي «صحيح مسلم» عن عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالُوا: مَنْ هُمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَزُقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١)، وَخَرَجَ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثَ حَتَّيَاتٍ مِنْ حَتَّيَاتِ رَبِّي»، وَخَرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ أَيْضًا^(٢)، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرِ الْبَزَّازُ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَلَّا اسْتَرَدَدْتُهُ، فَقَدْ اسْتَرَدَدْتُهُ، فَأَعْطَانِي الْأَلْفَ السَّبْعِينَ أَلْفًا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَلَّا اسْتَرَدَدْتُهُ، فَقَالَ: قَدْ اسْتَرَدَدْتُهُ، فَأَعْطَانِي هَكَذَا، وَفَتَحَ أَبُو وَهَبٌ يَدَيْهِ، قَالَ أَبُو وَهَبٍ: قَالَ هِشَامٌ: هَذَا مِنَ اللَّهِ لَا يُذَرِّي، مَا عَدَدُهُ»^(٣)، وَخَرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي مِائَةَ أَلْفٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنَا، قَالَ: وَهَكَذَا، ١٠٦ ب وَأَشَارَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنَا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ أَنْ يُدْخِلَ النَّاسَ الْجَنَّةَ بِحَفْنَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ»^(٤). اهـ من

(١) أخرجه مسلم (١/١٩٨)، كتاب «الإيمان»، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، حديث (٢١٨/٣٧١)، وأحمد (٤/٤٣٦، ٤٤١)، والبخاري في «شرح السنة» (٧/٣٢٧ بتحقيقنا).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٦٢٦)، كتاب «صفة القيامة»، باب (١٢)، حديث (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٢/١٤٣٣) كتاب «الزهد»، باب صفة أمة محمد ﷺ، حديث (٤٢٨٦)، وأحمد (٥/٢٦٨).

(٣) أخرجه البزار كما في «مجمع الزوائد» (١٠/٤١٣-٤١٤)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، والبزار، والطبراني بنحوه، وفي أسانيدهم القاسم بن مهران عن موسى بن عبيد، وموسى بن عبيد هذا هو مولى خالد بن عبد الله بن أسيد، ذكره ابن حبان في «الثقات». والقاسم بن مهران ذكره الذهبي في «الميزان»، وأنه لم يرو عنه إلا سليم بن عمرو النخعي، وليس كذلك، فقد روى عنه هذا الحديث هشام بن حسان، وباقي رجال إسناده محتج بهم في الصحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٣/١٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٤٤-٣٤٥) من طريق أبي هلال عن قتادة عن أنس مرفوعاً.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث قتادة عن أنس (رضي الله عنه)، تفرد به أبو هلال، واسمه محمد بن سليم الراسي، ثقة بصري.

«التذكرة»^(١)، وما وَقَعَ من ذِكْرِ الْحَثِيَّةِ وَالْحَفْصَةِ لَيْسَ هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مَنْزَهُ عَنِ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ أي: يترككم، والخذل الترك، والضميرُ في: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعودُ على اسمِ اللَّهِ، ويَحْتَمِلُ على الْخَذَلِ.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يُغْلَ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦٦) أَفَمِنْ أَنْتَبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ يَسْحَطُ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٦﴾ هُمْ دَرَجَتُ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٦)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾، قرأ ابنُ كثيرٍ^(٢)، وأبو عمرو، وعاصم: «أَنْ يُغْلَ»؛ بفتح الياء، وضم الغين، وقرأ باقي السبعة: «أَنْ يُغْلَ»؛ بضم الياء، وفتح الغين، واللفظةُ بمعنى الْخِيَانَةِ فِي خَفَاءٍ، تقولُ العربُ: أَغْلَ الرَّجُلُ يُغْلُ إِغْلَالًا، إِذَا خَانَ، واختلفَ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى، فقال ابنُ عَبَّاسٍ وغيره: نزلت بسبب قَطِيفَةِ حَمْرَاءَ فَقَدَتْ مِنَ الْمَغَانِمِ يَوْمَ بَدْرٍ، فقال بعضُ النَّاسِ: لعلَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا^(٣)، فقيل: كانت هذه الْمَقَالَةُ مِنْ مُؤْمِنٍ لَمْ يَظُنَّ فِي ذَلِكَ حَرَجًا.

وقيل: كانت من منافقين، وقد رُوِيَ أَنَّ الْمَفْقُودَ إِنَّمَا كَانَ سَيْفًا، قال الثَّقَافُ: ويقال: إِنَّمَا نَزَلَتْ؛ لِأَنَّ الرَّمَاةَ قَالُوا يَوْمَ أُحُدٍ: الْغَنِيْمَةُ الْغَنِيْمَةُ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَقُولَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَخَذَ شَيْئًا، فهو له^(٤)، وقال ابنُ إِسْحَاقَ: الْآيَةُ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ، إِعْلَامًا بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكْتُمْ شَيْئًا مِمَّا أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ^(٥).

وأما على القراءة الثانية، فمعناها عند الجمهور، أي: ليس لأحدٍ أَنْ يُغْلَ النَّبِيَّ، أي: يخونه في الغنيمة؛ لِأَنَّ الْمَعَاصِي تَعْظُمُ بِحَضْرَتِهِ؛ لِتَعْيِينِ تَوْقِيرِهِ.

(١) ينظر: «التذكرة» (٢/٥٠٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٢١٨)، و«الحجة» (٩٤/٣)، و«حجة القراءات» (١٧٩، ١٨٠)، و«إعراب القراءات» (١٢٢/١)، و«العنوان» (٨١)، و«شرح شعلة» (٣٢٥)، و«إتحاف» (٤٩٣/١)، و«معاني القراءات» (٢٧٩/١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٠/٥) كتاب «التفسير» باب ومن سورة آل عمران حديث (٣٠٠٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) ذكره ابن عطية (١/٥٣٥).

(٥) ذكره ابن عطية (١/٥٣٥).

قال ابنُ العَرَبِيِّ^(١) في «أحكامه»: وهذا القول هو الصحيح، وذلك أنَّ قومًا غَلُّوا من الغنائم، أو هَمُّوا، فأنزل الله تعالى الآية، فنهاهم الله عن ذلك، رواه الترمذي. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ الآية: وعيدٌ لِمَنْ يغل من الغنيمة، أو في زكاته بالفَضِيحَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رءوس الأَشْهَاد، قال القرطبي في «تذكرته»^(٢): قال علماؤنا (رحمهم الله) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ كما بيَّنه ﷺ، أي: يأتي به حاملاً له عَلَى ظَهْرِهِ وَرَقَبَتِهِ، معذباً بحمله وثِقَلِهِ، ومروَّعاً بصوته، وموَّخاً بإظهار خيانه. انتهى. وفي الحديث عنه ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «أَدُّوا الْحَايِطَ وَالْمَخِيطَ؛ فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) رواه مالك في «الموطأ»، قال أبو عُمَرَ في «التمهيد»: الشَّنَار: لَفْظَةٌ جَامِعَةٌ لِمَعْنَى الْعَارِ وَالنَّارِ، ومعناها الشُّنَيْن، والنَّار؛ يريد أن الغلول شَيْنٌ وَعَارٌ وَمُنْقَصَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ. انتهى، وفي الباب أحاديثٌ صحيحةٌ فِي الْغُلُولِ، وفي مَنَعِ الزَّكَاةِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، أي: الطاعة الكفيلة بِرِضْوَانِ اللَّهِ.

قال ص * ص: «أَفَمَنْ»: أَسْتَفْهَمَ، معناه: النَّفْيُ، أي: ليس مَنْ أَتَّبَعَ مَا يُثَوَّلُ بِهِ إِلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ؛ فَبَاءَ بَرَضَاهُ، كَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ ذَلِكَ؛ فَبَاءَ بِسَخَطِهِ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال ابنُ إِسْحَاقَ وغيره: المراد بذلك الْجَمْعَانِ الْمَذْكُورَانِ؛ أَهْلُ الرِّضْوَانِ، وَأَصْحَابُ السَّخَطِ^(٤)، / أي: لكلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ تَبَاطُؤٌ فِي نَفْسِهِ فِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ، وفي أَطْبَاقِ النَّارِ أَيْضاً، وقال مجاهدٌ والسُّدِّيُّ ما ظاهره: أن المراد بقوله: «هم»، إِنَّمَا هُوَ لِمَتَّبِعِي الرِّضْوَانِ^(٥)، أي: لَهُمْ دَرَجَاتٌ كَرِيمَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وفي الْكَلَامِ حَذْفٌ، تقديره: هُمْ ذَوُو دَرَجَاتٍ، والدَّرَجَاتُ: الْمَنَازِلُ بَعْضُهَا أَعْلَى مِنْ بَعْضٍ فِي الْمَسَافَةِ، أو فِي التَّكْرَمَةِ، أو فِي الْعَذَابِ، وباقي الآية وَغَدٌ وَوَعِيدٌ.

(١) ينظر: «الأحكام» لابن العربي (٣٠١/١).

(٢) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٣٩٩/١).

(٣) أخرجه مالك (٢/ ٤٥٧-٤٥٨)، كتاب «الجهاد»، باب ما جاء في الغلول، حديث (٢٢) عن عبد الرحمن بن سعيد عن عمرو بن شعيب مرسلاً.

وأخرجه أبو داود (٢/ ٧٠) (٢٦٩٤)، والنسائي (٦/ ٢٦٢-٢٦٣)، وأحمد (٢/ ١٨٤)، والبيهقي (٦/ ٣٣٦-٣٣٧) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده موصولاً.

(٤) ذكره ابن عطية (٥٣٦/١).

(٥) ذكره ابن عطية (٥٣٧/١).

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَرُكُوبَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٦﴾ أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٧﴾﴾

. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية: اللام في «لَقَدْ»: لام القسم، و«مَنَّ» في هذه الآية: معناه: تطول وتفضل سبحانه، وقد يقال: «مَنَّ» بمعنى كَدَّرَ مَعْرُوفُهُ بِالذَّكْرِ، فهي لفظة مشتركة، وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: في الجنس، واللسان، والمُجَاوِرَةِ، فكونه مِّنَ الجنس يوجب الأُنْسَ به، وكونه بِلِسَانِهِمْ يوجب حُسْنَ التفهيم، وكونه جَارًا وَرَبًّا يوجب التصديق والطُمَأْنِينَةَ؛ إذ قد خَبَرُوهُ وَعَرَفُوا صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، ثم وَقَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْخَطَا فِي قُلُوبِهِمْ لِلْمُصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِمْ، وإِعْرَاضِهِمْ عَمَّا نَزَلَ بِالْكَفَّارِ، فقال: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾، أي: يوم أُحُدٍ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾، أي: يوم بَدْر؛ إذ قتل من الكُفَّار سبعون، وأسر سَبْعُونَ، هذا تَفْسِيرُ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١)، والجمهور.

وقال الزَّجَّاج^(٢): وَاحِدُ الْمُثْلَيْنِ: هو قَتْلُ السَّبْعِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، والثاني: هو قتل اثْنَيْنِ وعشرين يَوْمَ أُحُدٍ، ولا مَدْخَلَ لِلْأَسْرَى؛ لأنهم قد قُودُوا.

و ﴿أَنَّى﴾: معناها: كَيْفَ، وَمِنْ أَيْنَ، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: حين خالفتهم النَّبِيُّ ﷺ في الرَّأْيِ حين رَأَى أَن يَقِيمَ بِالْمَدِينَةِ، ويترك الكُفَّارَ بَشَرٍ مَخْبِسٍ، فأبَيْتُمْ إِلَّا الْخُرُوجَ، وهذا هو تَأْوِيلُ الجمهور، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾: إشارة إلى عَصِيَانِ الرُّمَّةِ، وتسببهم الهَزِيمَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وقال عليّ والحسن: بل ذلك لِمَا قَبِلُوا الْفِدَاءَ يَوْمَ بَدْرٍ^(٣)؛ وذلك أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ أَخْبَرَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بَيْنَ قَتْلِ الْأَسْرَى أَوْ يَأْخُذُوا الْفِدَاءَ عَلَى أَن يُقْتَلَ مِنْهُمْ عِدَّةُ الْأَسْرَى، فَأَخْتَارُوا أَخْذَ الْفِدَاءِ، وَرَضُوا بِالشَّهَادَةِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ، قُلْتُ: وهذا الحديث رواه الترمذي عن عليّ (رضي الله عنه)، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرِ الدَّأُوْدِيُّ: وَعَنِ الضَّحَّاكِ: ﴿أَنَّى هَذَا﴾، أي: بأيّ ذنب هذا؟

(١) أخرجه الطبري (٥٠٨/٣) برقم (٨١٨٥)، وذكره ابن عطية (٥٣٨/١)، والسيوطي (١٦٦/٢)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (٤٨٨/١).

(٣) أخرجه الطبري (٥٠٩/٣) برقم (٨١٩٠) عن علي، وذكره ابن عطية (٥٣٨/١)، والسيوطي (١٦٦/٢)، وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن، ولابن أبي شيبه، والترمذي وحسنه، وابن مردويه عن علي.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١): ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ عقوبة لمعصيتكم لنبيكم - عليه السلام - . انتهى .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْعِ الْجَمْعَانِ فَيَاذِينَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا فُتُورِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما أصابكم يوم التَّنْعِ الْجَمْعَانِ﴾، يعني: يوم أُحُد.

وقوله سبحانه: ﴿وليَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليعلم الله المؤمن من المنافق، والإشارة بقوله سبحانه: ﴿نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ﴾: هي إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، حين أَنَحَزَلَ بَنُو ثُلُثِ النَّاسِ، فَمَشَى فِي إِثْرِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ حَزَامِ أَبُو جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ، وَلَا تَتْرَكُوا نَبِيَّكُمْ، وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ أَدْفَعُوا، وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي: مَا أَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالًا، وَلَوْ عَلِمْنَا أَنْ يَكُونَ قِتَالًا، لَكُنَّا مَعَكُمْ، فَلَمَّا يَسَّ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: أَذْهَبُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ، فَسَيُغْنِي اللَّهُ رَسُولَهُ عَنْكُمْ، وَمَضَى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَشْهَدَ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْفَعُوا﴾، قال ابنُ جُرَيْجٍ وغيره: معناه: كَثُرُوا السَّوَادَ، وَإِنْ لَمْ تَقَاتِلُوا، فَيَنْدَفِعُ الْقَوْمُ؛ كَثُرَتْكُمْ^(٢)، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: «أَوْ أَدْفَعُوا»: اسْتَدْعَاءٌ لِلْقِتَالِ حَمِيَّةٌ؛ إِذْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَعْنَى: قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ قَاتِلُوا دِفَاعًا عَنِ الْحَوَازَةِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ قُرْمَانَ قَالَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: وَاللَّهِ، مَا قَاتَلْتُ إِلَّا عَلَى أَحْسَابِ قَوْمِي، وَقَوْلُ الْأَنْصَارِيِّ يَوْمَئِذٍ؛ لَمَّا أُرْسِلَتْ قُرَيْشُ الظُّهَرَ فِي الزُّرُوعِ: أَتُرْعَى زُرُوعَ بَنِي قَيْلَةَ، وَلَمَّا نُضَارِبَ.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

(١) ذكره ابن عطية (٥٣٨/١)، والسيوطي (١٦٦/٢)، وعزاه لابن المنذر.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٤٣٥/١)، وابن عطية (٥٣٩/١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا﴾، ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ المتقدم، ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾، أي: لأجل إخوانهم، أو في شأن إخوانهم المقتولين، ويحتمل أن يريد: لإخوانهم الأحياء من المتأففين، ويكون الضمير في «أطاعونا» للمقتولين، وقعدوا: جملة في موضع الحال، معترضة أثناء الكلام، وقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾، يريدون: في ألا يخرجوا، وباقي الآية بين.

ثم أخبر سبحانه عن الشهداء؛ أنهم في الجنة أحياء يرزقون، وعن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَطْلُعُ عَلَى الشُّهَدَاءِ، فَيَقُولُ: يَا عِبَادِي، مَا تَسْتَهْوَنَ، فَأَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، لَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا، هَذِهِ الْجَنَّةُ نَأْكُلُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ، لَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدُّنْيَا، فَنُقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ، فَنُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: قَدْ سَبَقَ أَنْكُمْ لَا تَرُدُّونَ»^(١)، والأحاديث في فضل الشهداء كثيرة.

قال الفخر^(٢): والروايات في هذا الباب كأنها بلغت حد التواتر، ثم قال: قال بغض المفسرين: أرواح الشهداء أحياء، وهي تركع وتسجد تحت العرش إلى يوم القيامة. انتهى.

والعقيدة أن الأرواح كلها أحياء، لا فرق بين الشهداء وغيرهم في ذلك إلا ما خصص الله به الشهداء من زيادة المزية والحياة التي ليست بمكيفة، وفي «صحيح مسلم»، عن مسروق قال، سألنا ابن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عند ربهم يُرزقون﴾، فقال: أما أنا، فقد سألت عن ذلك، فقال، يغني النبي ﷺ: «أزواخهم في جوف طير خضر، لها فتاديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى تلك الفتاديل...»^(٣) الحديث إلى آخره اهـ.

ومن الآثار الصحيحة الدالة على فضل الشهداء ما رواه مالك في «الموطأ»؛ أنه بلغه أن عمرو بن الجموح^(٤)، وعبد الله بن عمرو الأنصاريين ثم السلميين كانا قد حفر السيل

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٠٢)، كتاب «الإمارة»، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، حديث (١٢١)/١٨٨٧.

(٢) ينظر: «الفخر الرازي» (٩/٧٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن عثم بن سلمة الأنصاري، السلمي.

من سادات الأنصار، واستشهد بأحد.

قال ابن إسحاق في «المغازي»: كان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة، وشريفاً من أشرافهم؛ وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يعظمه، فلما أسلم فتيان بني سلمة منهم ابنه معاذ، =

قبرهما، وكان قَبْرُهُمَا مِمَّا يَلِي السَّيْلَ، وكانا في قَبْرِ واحدٍ، وهما مِمَّنْ أَسْتَشْهَدُ يَوْمَ أُحُدٍ، فحفر عنهما ليَعْيَرَا مِنْ مَكَانِهِمَا، فَوَجَدَا لَمْ يُعْيَرَا، كأنما ماتا بالأَمْسِ، وكا أحدهما قَدْ جُرِحَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جُرْحِهِ، فُدْفِنَ، وهو كذلك، فَأَمِيطَتْ يده عَنْ جُرْحِهِ، ثم أُرْسِلَتْ، فَرَجَعَتْ، كما كَانَتْ، وكان بَيْنَ أُحُدٍ، وَبَيْنَ يَوْمِ حُفْرِ عَنْهُمَا سِتُّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، قال أبو عمر في «التمهيد»: حديث مالِك هذا يَتَّصِلُ من وجوه صحاح بمعنى واحدٍ متقاربٍ، وعبد الله بن عمرو هذا هو والدُ جابر بن عبد الله، وعَمَرُو بْنُ الْجَمُوحِ هو ابنُ عَمِّهِ، ثم أسند أبو عمر، عن جابر بن عبد الله، قال: لما أراد معاوية أَنْ يُجَرِّيَ الْعَيْنَ بِأُحُدٍ، نُودِيَ بِالْمَدِينَةِ: مَنْ كَانَ لَهُ/ قَتِيلٌ، فليأت قتيله، قال جابر: فأتيناهم، فأخرجناهم رطاباً يَتَنَتَّنُونَ، ١١٠٨ فأصابَتِ الْمِسْحَاةُ أَصْبُعَ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَأَنْفَطَرَتْ دَمًا، قال أبو سعيد الخُدْرِيُّ: «لَا يُنْكَرُ بَعْدَ هَذَا مُنْكَرٌ أَبَدًا» وفي رواية: «فَأَسْتَخْرَجَهُمْ - يعني: معاوية -، بعد سِتِّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً لَيْتَنَ أَجْسَادُهُمْ، تَتَنَتَّى أَطْرَافُهُمْ»، قال أبو عمر: الذي أَصَابَتِ الْمِسْحَاةُ أَصْبُعَهُ هو حمزة (رضي الله عنه).

ثم أسند عَنْ جَابِرٍ قَالَ: رَأَيْتُ الشَّهَدَاءَ يَخْرُجُونَ عَلَى رِقَابِ الرِّجَالِ؛ كَأَنَّهُمْ رِجَالٌ نَوْمٌ؛ حَتَّى إِذَا أَصَابَتِ الْمِسْحَاةُ قَدَمَ حَمْزَةَ (رضي الله عنه): «فَأَنْتَعَبَتْ دَمًا» انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ...﴾ الآية: معناه: يُسْرُونَ، وَيَفْرَحُونَ، وَذَهَبَ قِتَادَةٌ وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّ أَسْتَبْشَرْتَهُمْ هُوَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِخْوَانُنَا الَّذِينَ تَرَكْنَاهُمْ خَلْفَنَا فِي الدُّنْيَا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ نَبِيِّهِمْ، فَيَسْتَشْهَدُونَ، فَيَنَالُونَ مِنَ الْكَرَامَةِ مِثْلَ مَا نَلَيْنَا نَحْنُ، فَيُسْرُونَ لَهُمْ بِذَلِكَ؛ إِذْ يَحْضُلُونَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(١)، وَذَهَبَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا﴾، إِلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي فَضْلِ الشَّهَادَةِ؛ وَذَلِكَ لِمَا عَايَنُوا مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ، فَهَمَّ فَرِحُونَ لَأَنْفُسِهِمْ بِمَا

= ومعاذ بن جبل، كانوا يدخلون على صَنَمٍ عَمَرُو فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ حُفْرِ بَنِي سَلْمَةَ، فَيَغْدُو عَمَرُو فَيَجِدُهُ مِنْكَأً لَوَجْهِهِ فِي الْعَدْرَةِ، فَيَأْخُذُهُ وَيَغْسِلُهُ وَيَطْبِئُهُ، ويقول: لو أعلم مَنْ صَنَعَ هَذَا بِكَ لِأَخْرَيْتَهُ، ففعلوا ذلك مراراً، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، وقال: إن كان فيك خير فامتنع، فلما أمسى أخذوا كلباً ميتاً فربطوه في عنقه، وأخذوا السيفَ، فأصبح فوجده كذلك، فأبصر رُشْدَهُ وَأَسْلَمَ، وقال في ذلك آياتاً منها:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهاً لَمْ تَكُنْ أَنتَ وَكَانَتْ بَنِي إِسْرَافِيلَ فِي قَرْنٍ
ينظر: «أسد الغابة» ت (٣٨٩١)، و «الاستيعاب» ت (١٩٢٥)، و «الإصابة» (٥٠٦/٤)، و «سير أعلام النبلاء» (٢٥٢١١/١).

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٤١/١).

أتاهم الله من فضله، ومُستبشرون للمؤمنين أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ثم أكد سبحانه أستبشارهم بقوله: ﴿يُستبشرون بنعمة﴾، ثم بين سبحانه بقوله: ﴿وَفَضْلٌ﴾، أن إدخاله إياهم الجنة هو بفضل منه، لا بعمل أحد، وأما النعمة في الجنة، والدرجات، فقد أخبر أنها على قدر الأعمال.

قُلْتُ: وخَرَجَ أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن حَرْب^(١) صاحب ابن المبارك في «رقائقه»، بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي؛ «أنَّ الشَّهَدَاءَ فِي قِبَابٍ مِنْ حَرِيرٍ فِي رِيَاضٍ خَضِرٍ، عِنْدَهُمْ حَوْثٌ وَثَوْرٌ، يَظَلُّ الْحَوْثُ يُسَبِّحُ فِي أَثْنَاءِ الْجَنَّةِ يَأْكُلُ مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ فِي أَثْنَاءِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا أَمْسَى وَكَرَهُ الثَّوْرُ بَقَرَتِهِ، فَيَذْكِيهِ، فَيَأْكُلُونَ لَحْمَهُ، يَجِدُونَ فِي لَحْمِهِ طَعْمَ كُلِّ رَائِحَةٍ، وَيَبِيتُ الثَّوْرُ فِي أَفْنَاءِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا أَصْبَحَ، عَدَا عَلَيْهِ الْحَوْثُ، فَوَكَرَهُ بِذَنْبِهِ، فَيَذْكِيهِ، فَيَأْكُلُونَ، فَيَجِدُونَ فِي لَحْمِهِ طَعْمَ كُلِّ رَائِحَةٍ فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَعُودُونَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَدْعُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ...» الحديث. انتهى. مختصراً، وقد ذكره صاحب «الذاكرة» مطولاً.

وقرأ الكسائي: «وَأَنَّ اللَّهَ»؛ بكسر^(٢) الهمزة؛ على استئناف الإخبار، وقرأ باقي السبعة بالفتح على أن ذلك داخل فيما يُستبشر به، وقوله: ﴿الَّذِينَ أَسْتَجَابُوا﴾ يحتمل أن يكون صفةً للمؤمنين؛ على قراءة مَنْ كَسَرَ الألف من «إِنَّ»، والأظهر أن الذين ابتداءً، وخبره في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ...﴾ الآية، والمستجيبون لله والرسول: هم الذين خرجوا مع النبي ﷺ إلى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ فِي طَلَبِ قُرَيْشٍ.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَفَضَّلَ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ...﴾ الآية: «الذين»: صفةً للمحسنين، وهذا القول هو الذي قاله الرُّكْبُ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) الحسين بن الحسن بن حَرْب السلمي، أبو عبد الله المَرْزُوزِي، ثم المكي. عن ابن المبارك، وهشيم، وابن عُيَيْنَةَ، ويزيد بن زُرَيْع، وخلق. وعنه الترمذي وابن ماجه.
ينظر: «الخلاصة» (١/٢٢٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٢١٩)، و «الحجة» (٩٨/٣)، و «حجة القراءات» (١٨٢)، و «إعراب القراءات» (١/١٢٢)، و «العنوان» (٨١)، و «شرح الطيبة» (١٧٨/٤)، و «شرح شعلة» (٣٢٦)، و «إتحاف» (١/٤٩٤)، و «معاني القراءات» (١/٢٨٠).

وأصحابه حين حملهم أبو سفيان ذلك، «فالتأس» الأول هم الركب، و «التأس» الثاني عسكر قرينش؛ هذا قول الجمهور، وهو الصواب، وقول من قال: إن الآية نزلت في خروج النبي ﷺ إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان، و «إن الناس» هنا هو نعيم بن مسعود - قول ضعيف، وعن ابن عباس؛ أنه قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام -، حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فأخسؤهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»، رواه مسلم. والبخاري^(١). انتهى.

﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥) وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ...﴾ الآية: إشارة إلى جميع ما جرى من أخبار الركب عن رسالة أبي سفيان، ومن جرّع من جرّع من الخبر.

وقرأ الجمهور^(٢): «يُخَافُ أَوْلِيَاءَهُ»، قال قوم: معناه: يخوف المنافقين، ومن في قلبه مرض، وحكى أبو الفتح بن جني^(٣)، عن ابن عباس؛ أنه قرأ «يُخَافُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ»، فهذه قراءة ظهر فيها المفعولان، وهي مفسرة لقراءة الجماعة، وفي قراءة أبي بن كعب: «يُخَافُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ»، وفي كتاب «القصص إلى الله تعالى»؛ للمحاسبي^(٤)، قال: وكلما عظمت هيبة الله عز وجل في صدور الأولياء، لم يهابوا معه غيره؛ حياة منه عز وجل أن يخافوا معه سواه. انتهى.

(١) أخرجه البخاري (٧٧/٨) كتاب «التفسير»، باب «الذين قال لهم الناس»، حديث (٤٥٦٣) عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٤/١)، و «البحر المحيط» (١٢٥/٣)، و «الدر المصون» (٢٦٣/٢).

(٣) ينظر: «المحتسب» (١٧٧/١).

(٤) الحارث بن أسد، أبو عبد الله المحاسبي، قال ابن الصلاح: ذكره أبو منصور التميمي في الطبقة الأولى من الشافعية فيمن صحب الشافعي. قال ابن قاضي شعبة: أحد مشايخ الصوفية. توفي سنة ٢٤٣هـ.

ينظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (٥٩/١)، و «طبقات الفقهاء» للعبادي (ص ٢٧)، و «ميزان الاعتدال» (١٩٩/١).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، والمسارة في الكفر: هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله، والجِدُّ في ذلك، وسَلَّى الله تعالى نبيّه - عليه السلام - بهذه الآية عن حال المنافقين والمجاهرين؛ إذ كلُّهم مسارعٌ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: خبرٌ في ضِمنِهِ وعيدٌ لهم، أي: وإنما يضرُّون أنفسهم، والحِطُّ: إذا أطلق، فإنما يستعمل في الخير، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أُنْمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ﴾: نُمْلِي: معناه: نُمهل ونمُد في العمر، والمعنى: لا تَخْسِبَنَّ إِملاءنا للذين كفَرُوا خَيْراً لهم، فالآية ردٌّ على الكفار في قولهم: إن كونا ممولين أصحّة دليل على رضا الله بحالتنا.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الْغَيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَاعُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَحُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ﴾، أي: ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين، مُشْكِلًا أمرهم؛ حتى يميز بغضهم من بعض؛ بما يظهره من هؤلاء وهؤلاء في «أخذ» من الأفعال والأقوال، هذا تفسير مجاهد وغيره^(١).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾، أي: في أمر أحد، وما كان من الهزيمة وأيضاً: فما كان الله ليطلعكم على المنافقين تصريحاً وتسميةً لهم، ولكن بقرائن أفعالهم وأقوالهم.

قال الفخر^(٢): وذلك أن سنة الله جارية بأنه لا يُطْلِعُ عوامَّ الناس على غَيْبِهِ، أي: لا سبيل لكم إلى معرفة ذلك الامتياز إلا بامتحانات؛ كما تقدّم، فأما معرفة ذلك على سبيل الإطلاع من الغيب، فهو من خواص الأنبياء، فلهذا قال تعالى: ﴿ولكن الله يجتبي من رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. انتهى.

وقال الزجاج^(٣) وغيره: رُوِيَ أَنَّ بعض الكفار قال: لِمَ لا يكون جميعنا أنبياء،

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٤٣٩/١) بنحوه، وذكره أيضاً ابن عطية في «تفسيره» (٥٤٦/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨٤/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازي (٩٠/٩).

(٣) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤٩٢/١).

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَ ﴿يَجْتَبِي﴾: معناه: يَخْتَارُ وَيُضْطَفِي، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الْآيَةُ: قَالَ السُّدِّيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ: الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْبُخْلِ بِالْمَالِ، وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، قَالَ: وَمَعْنَى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ﴾ هُوَ الَّذِي وَرَدَ/ فِي الْحَدِيثِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ ١٠٩ قَالَ: «مَا مِنْ ذِي رَجَمٍ يَأْتِي ذَا رَجَمِهِ، فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلٍ عِنْدَهُ، فَيَنْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا أُخْرِجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعٌ مِنَ النَّارِ يَتَلَمَّظُ؛ حَتَّى يُطَوِّقَهُ»^(١)، قُلْتُ: وَفِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثْلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ رَبِيبَتَانِ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلَهْرَمَتَيْهِ، يَغْنِي: شِدْقِيهِ، يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾»^(٢) الْآيَةُ.

قُلْتُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ آثَارٌ صَحِيحَةٌ بِتَعْذِيبِ الْعَصَا بِنَوْعٍ مَا عَصَوْا بِهِ؛ كَحَدِيثٍ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَهُوَ يَجَأُ نَفْسَهُ بِحَدِيدَتِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَالَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ بِالسُّمِّ، فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٣)، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٣٢٢/٢) رَقْم (٢٣٤٣) مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ. وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١٥٧/٨)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» وَ «الْكَبِيرِ»، وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ حَجِيرِ بْنِ بَيَانَ: ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي «الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ» (٣١٤/٣) رَقْم (٣٥٦٨)، وَعَزَاهُ لِأَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ. (٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣١٥/٣)، كِتَابُ «الزَّكَاةِ»، بَابُ إِثْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ، حَدِيثُ (١٤٠٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥٨/١٠)، كِتَابُ «الطَّبِّ»، بَابُ شَرْبِ السَّمِّ وَالِدَوَاءِ...، حَدِيثُ (٥٧٧٨)، وَمُسْلِمٌ (١٠٣/١) كِتَابُ «الْإِيمَانِ»، بَابُ غُلْظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، حَدِيثُ (١٧٥/١٠٩)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢/٤٠٠) كِتَابُ «الطَّبِّ»، بَابُ فِي الْأَدْوِيَةِ الْمَكْرُوهَةِ، حَدِيثُ (٣٨٧٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٨٦/٤) كِتَابُ «الطَّبِّ»، بَابُ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ قَتْلِ نَفْسِهِ بِسَمٍّ أَوْ غَيْرِهِ، حَدِيثُ (٢٠٤٣، ٢٠٤٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٦٦/٤ - ٦٧) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ»، بَابُ تَرْكِ الصَّلَاةِ عَلَى مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ، وَابْنُ مَاجَةَ (١١٤٥/٢)، كِتَابُ «الطَّبِّ»، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الدَّوَاءِ الْخَبِيثِ، حَدِيثُ (٣٤٦٠)، وَأَحْمَدُ (٢٠٥٤/٢، ٤٧٨)، وَالدَّارِمِيُّ (١٩٢/٢) كِتَابُ «الْدِّيَاتِ»، بَابُ التَّشْدِيدِ عَلَى مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ، وَابْنُ حَبَانَ (٥٩٨٦ - الْإِحْسَانُ)، وَابْنُ مَنْدَةَ فِي «الْإِيمَانِ» (٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٢٤ - ٢٣/٨) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ»، بَابُ التَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ، كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١٠/٢٩١ - ٢٩٢) وَقَالَ: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتَّبْرَانِيُّ بِإِخْتِصَارٍ، وَرِجَالُ أَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ، غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُنَادَةَ، وَهُوَ ثِقَةٌ.

* حَدِيثُ سَلْمَانَ:

قال الغزالي في «الجواهر»: وأعلم أن المعاني في عالم الآخرة تستتب الصور، ولا تتبعها، فيتمثل كل شيء بصورة توازي معناه، فيخسر المتكبرون في صور الذر يطؤونهم من أقبل وأدبر، والمتواضعون أعزاء. انتهى، وهو كلام صحيح يشهد له صحيح الآثار؛ ويؤيده النظر والإعتبار، اللهم، وفقنا لما تحبه وترضاه.

قال ابن العربي^(١) في «أحكامه»: قال علماؤنا: البخل: منع الواجب، والشح: منع المستحب، والصحيح المختار أن هذه الآية في الزكاة الواجبة؛ لأن هذا وعيد لمانعيها، والوعيد إذا أقترن بالفعل المأمور به، أو المنهي عنه، أقتضى الوجوب أو التحريم. انتهى. وتعميمها في جميع أنواع الواجب أحسن.

وقوله سبحانه: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ خطاب على ما يفهمه البشر، دال على فناء الجميع، وأنه لا يبقى مالك إلا الله سبحانه.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُوعًا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٦﴾﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء...﴾ الآية: نزلت بسبب فتخاص اليهودي وأشباهه؛ كحبي بن أخطب وغيره، لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]، قالوا: يستقرضنا ربنا، إنما يستقرض الفقير الغني، وهذا من تحريف اليهود للتأويل على نحو ما صنعوا في توراتهم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾: دال على أنهم جماعة.

وقوله تعالى: ﴿سنكتب ما قالوا...﴾ الآية: وعيد لهم، أي: سنخصي عليهم قولهم، ويتصل ذلك بفعل آبائهم من قتل الأنبياء بغير حق.

وقوله سبحانه: ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: أي: وبأن الله ليس بظلام للعبيد.

= أخرجه الحاكم (٦٠٤/٣) والطبراني في «الكبير» (٦١٨٣) كلاهما من طريق سعيد بن محمد الوراق عن موسى الجهني عن زيد بن وهب عن سلمان به وصححه الحاكم.

وتعقبه الذهبي فقال: الوراق تركه الدارقطني وغيره. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٩٢/١٠): رواه الطبراني وفيه سعيد بن محمد الوراق، وهو متروك.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣٠٣/١).

قال * ص * قيل : المراد هنا نفْيُ القليل والكثير مِنَ الظلم ؛ كقول طَرْفَةٍ^(١) : [الطويل].
وَلَسْتُ بِحَلَالِ الثَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَزِيدُ^(٢)
ولا يريد : أنه قد يحلُّ الثَّلَاعَ قليلاً.

وزاد أبو البقاء وَجْهًا آخر، وهو أن يكون عَلَى النَّسَبِ، أي : لا ينسب سبحانه إلى ظلم، فيكون من باب بَرَّازٍ وَعَطَّارٍ. انتهى، قلت : وهذا القولُ أَحْسَنُ ما قيل هنا، فمعنى وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ، أي : بذي ظلم.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَأْتِيَنَّكَ وَإِلَٰدِي قُلْتُمْ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٧٤﴾﴾

وقوله سبحانه : ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا...﴾ الآية : هذه المقالة قالتها أخبار اليهود مدافعة لأمر النبي ﷺ، والمعنى : إنك لم تأتينا بقُرْآنٍ تأكله النار، فنحن قد عهد إلينا أَلَّا نُؤْمِنَ لك.

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري، الوائلي، أبو عمرو : شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ولد في بادية «البحرين»، وتغل في بَقَاع «نجد». واتصل بالملك عمرو بن هند، فجعله في ندمائه، ثم أمر بقتله ؛ لأبيات بلغ الملك فيها أن طرفة هجاه بها. وأشهر شعره معلقته. ومطلعها :
«لخولة أطلال بيرة نهمد».

وقد شرحها كثيرون من العلماء. كان غير فاحش القول في شعره خاصة في الهجاء. توفي سنة ٦٠ قبل الهجرة.

انظر : «التبريزي» (٨/٤)، و «جمهرة أشعار العرب» (٣٢، ٨٣)، و «الأعلام» (٣/٢٢٥).

(٢) وهذا البيت من معلقة طرفة. وقد عابه المرزباني في كتاب «الموشح» وقال : المصراع الثاني غير مشاكل للأول.

ينظر : «ديوانه» (ص ٢٩)؛ و «خزانة الأدب» (٩/٦٦، ٦٧، ٤٧١)؛ و «الكتاب» (٣/٧٨)؛ وبلا نسبة في «شرح شذور الذهب» (ص ٤٣٥)؛ و «مغني اللبيب» (٢/٦٠٦).

وَالْحَلَالُ : مبالغة الحال، من الحُلُول، وهو التُّزُول. والأحسن أن يكون «فَعَالٌ» للنسبة، أي لست بذي حُلُول. و (الثَّلَاع) : جمع ثَلْعَةٍ، وهو مَجْرَى الماء من رءوس الجبال إلى الأودية. قال ابن الأثيري : والثَّلْعَةُ من الأضداد، تكون ما ارتفع، وما انخفض. والمراد هنا الثاني، وهو سيل ماء عظيم. و (أَرْفَد) بكسر الفاء ؛ لأنه مضارع رَفَدَهُ وَفَدَأَ من باب ضرب، أي أعطاه أو أعانته. والرَّفْد بالكسر اسمٌ منه. وأَرْفَدَهُ بالألِف مثله. وتَرَأَفُوا : تعاونوا. واسترفدته : طلبت رفده. قال الزوزني : المعنى : إني لست ممن يستتر في الثَّلَاعِ مخافة الضَّيْفِ أو غدرِ الأعداءِ إِيَّاي، ولكن أظهر وأعينُ القوم إذا استعانوا بي، إمَّا في قَرَى الضيف، وإمَّا في قتال الأعداء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾؛ مِنْ أَمْرٍ ١٠٩ ب الْقُرْبَانِ، والمعنى: أَنَّ هَذَا مِنْكُمْ تَعَلَّلُ/ وَتَعَتُّ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِقُرْبَانٍ، لَتَعَلَّلْتُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَنَسَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِالْأَسْوَةِ وَالْقُدْوَةِ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

قال الفخر^(١): والمراد ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات. انتهى.

﴿وَالزُّبُرِ﴾: الكتاب المكتوب، قال الزجاج^(٢): زَبَرْتُ: كَتَبْتُ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنْ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾ الآية: وَغُطِّ فِيهِ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، ولأَمْتِهِ عَنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَوَعْدُ بِالْفَلَاحِ فِي الْآخِرَةِ؛ فَبِالْفِكْرَةِ فِي الْمَوْتِ يَهْوُونَ أَمْرَ الْكُفَّارِ وَتَكْذِيبُهُمْ، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ﴾، أَي: عَلَى الْكَمَالِ، وَلَا مَحَالَةَ أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقَعُ فِيهِ تَوْفِيقُ الْأَجُورِ، وَتَوْفِيقُ الْعُقُوبَاتِ، وَ ﴿زُحِرَ﴾: مَعْنَاهُ: أَبْعَدَ، وَالْمَكَانُ الزُّحْرَاخُ: الْبَعِيدُ، وَ﴿فَازَ﴾: مَعْنَاهُ: نَجَا مِنْ خَطَرِهِ وَخَوْفِهِ، وَ ﴿الْغُرُورِ﴾: الْخَدْعُ، وَالتَّرْجِيَةُ بِالْبَاطِلِ وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَ﴿كُلُّ﴾ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ هِيَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَخْدَعُ الْمَرْءَ، وَيَمْنِيهِ الْأَبَاطِيلُ؛ وَعَلَى هَذَا فَمَرَّ الْآيَةُ جَمْعُورُ الْمَفْسُورِينَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَمَْوْضِعُ سَوِطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، قُلْتُ: وَأَسْنَدُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْخَطِيبِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ قَطُّ إِلَّا أَلْتَاطُ^(٣) مِنْهَا بِخَصَالٍ ثَلَاثٍ: أَمَلٌ لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهَا، وَفَقْرٌ لَا يُدْرِكُ غِنَاهَا، وَشُغْلٌ لَا يَنْفِكُ عَنْهَا^(٤)». انتهى.

﴿تَتَّبَلُّونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

وقوله تعالى: ﴿تَتَّبَلُّونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية: خُطَابُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمْتُهُ، وَالْمَعْنَى: لَتَخْتَبِرَنَّ وَلَتَمْتَحِنَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالْأَزْوَاءِ، وَبِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» للإمام فخر الدين الرازي (١٠١/٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤٩٥/١).

(٣) يعني لصق بقلبه، ويقال للشيء، إذا لم يوافق صاحبه: مَا يَلْتَاطُ، وَلَا يَلْتَاطُ هَذَا الْأَمْرُ بِصَفَرِي، أَي: لَا يَلْزُقُ بِقَلْبِي، وَهُوَ يَفْتَعِلُ مِنَ اللَّوْطِ.

ينظر: «لسان العرب» (٤٠٩٩).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٣٦/٣).

وفي سائر تكاليف الشنع، والابتلاء في الأنفس بالموت، والأمراض وفقد الأحبة، قال الفخر^(١): قال الواحدي^(٢): اللام في ﴿لَتُبْلَوْنَ﴾: لام قسم. انتهى.

وقوله: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب...﴾ الآية: قال عكرمة وغيره: السبب في نزولها أقوال فنحاص^(٣)، وقال الزهري^(٤) وغيره: نزلت بسبب كعب بن الأشرف؛ حتى بعث إليه رسول الله ﷺ من قتله، والأذى: اسم جامع في معنى الضرر، وهو هنا يشمل أقوالهم فيما يخص النبي ﷺ، وأصحابه؛ من سب، وأقوالهم في جهة الله سبحانه، وأنبيائه، وندب سبحانه إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي: من أشدها وأحسنها، والعزم: إمضاء الأمر المروى المنقح، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْرُونَ﴾ (٧٧)

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاق الذين أوتوا الكتاب...﴾ الآية: توبيخ لمعاصري النبي ﷺ، ثم هو مع ذلك خبر عام لهم ولغيرهم، قال جمهور من العلماء: الآية عامة في كل من علمه الله علماً، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق، وقد قال ﷺ: «مَنْ سِئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكْتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٥)، والضمير في: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: عائد على «الكتاب»، والتبذؤ: الطرح، وأظهر الأقوال في هذه الآية أنها نزلت في اليهود، وهم المغنيون، ثم كل كاتم من هذه الأمة يأخذ بحظه من هذه المذمة.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنْ

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (١٠٣/٩).

(٢) علي بن أحمد بن محمد، أبو الحسن الواحدي، كان فقيهاً إماماً في النحو واللغة وغيرهما، وأما التفسير فهو إمام عصره فيه، أخذ التفسير عن أبي إسحاق الثعلبي، واللغة عن أبي الفضل العروضي صاحب أبي منصور الأزهري والنحو عن أبي الحسن القهندري. صنف الوسيط، والبسيط والوجيز، ومنه أخذ الغزالي هذه الأسماء، وله «أسباب النزول»، وغير ذلك. مات سنة ٤٦٨.

ينظر: «طبقات ابن قاضي شعبة» (٢٥٦/١)، و «الأعلام» (٥٩/٥)، و «وفيات الأعيان» (٤٦٤/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٤١/٣) برقم (٨٣١٦)، وذكره ابن عطية (٥٥٠/١).

(٤) أخرجه الطبري (٥٤٢/٣) برقم (٨٣١٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢/١)، وذكره ابن عطية (١/٥٥١)، والسيوطي في «الدر» (١٨٩/٢)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) تقدم تخريجه.

الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿ لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا... ﴾ الآية: ذهب جماعة إلى أن الآية في المنافقين، وقالت جماعة كبيرة: إنما نزلت في أهل الكتاب أحبار/ اليهود، قال سعيد بن جبير^(١): الآية في اليهود، فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم من النبوة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم، ويحبون أن يحمدوا بذلك، وهم ليسوا على طريقهم^(٢)، وقراءة سعيد^(٣) بن جبير: «بما أتوا»؛ بمعنى «أعطوا» (بضم الهمزة والطاء)؛ وعلى قراءته يستقيم المعنى الذي قال، والمفازة مفعلة من فاز يَفُوزُ، إذا نجا، وباقي الآية بين.

ثم دل سبحانه على مواضع النظر والعبرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: تعاقب الليل والنهار؛ إذ جعلهما سبحانه خلفَةً، ويدخل تحت اختلافهما قصر أحدهما وطول الآخر، وبالعكس، واختلافهما بالنور والظلام، والآيات: العلامات الدالة على وحدانيته، وعظيم قدرته سبحانه.

قال الفخر^(٤): وأعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأزواح عن الاشتغال بالخلق والاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام، والجواب عن شبهات المبطلين، عاد إلى إثارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والكبرياء والجلال، وذكر الأدعية، فختم بهذه الآيات بنحو ما في «سورة البقرة». انتهى.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (٥٤٦/٣) برقم (٨٣٣٦)، وذكره ابن عطية (٥٥٢/١)، والسيوطي في «الدر» (٢/١٩١)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٥٤٦/٣) برقم (٨٣٣٧)، وذكره ابن عطية (٥٥٢/١)، وذكره السيوطي في «الدر» (٢/١٩٢)، وعزاه لابن جرير.

(٣) قرأ بها علي فيما روي عنه.

ينظر: «الكشاف» (٤٥١/١)، و «مختصر الشواذ» (٣٠)، و «المحرر الوجيز» (٥٥٢/١).

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (١٠٩/٩).

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾: الَّذِينَ: في موضع خفضٍ صفةً لـ ﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وهذا وصف ظاهره استعمالُ التَّحْمِيدِ والتَّهْلِيلِ والتَّكْبِيرِ وَنَحْوِهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْضُرَ الْقَلْبَ اللِّسَانَ؛ وذلك من أَعْظَمِ وجوه العباداتِ، والأحاديثُ الصحيحةُ في ذلك كثيرةٌ، وابنُ آدمَ متنقِّلٌ في هذه الثلاثِ الهيئاتِ، لا يخلو في غالبِ أمره مِنْهَا فكانها تحصرُ زمنه، وكذلك جَرَتْ عائِشةُ (رضي الله عنها) إلى حصرِ الزَّمنِ في قولها: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ».

قلت: خرَّجه أبو داود^(١)، فدخل في ذلك كونه على الخلَاءِ وغيره.

وذهب جماعةٌ إلى أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إنما هو عبارةٌ عن الصَّلَاةِ، أي: لا يضيِّعونها، ففي حال العُذر يصلُّونها قعوداً، وعلى جُنُوبِهِمْ، ثم عَطَفَ عَلَى هذه العبادة التي هي ذِكْرُ اللَّهِ باللسان، أو الصَّلَاةُ فرضها وندبها بعبادةٍ أُخْرَى عظيمةٍ، وهي الفِكْرَةُ في قُدْرَةِ اللَّهِ تعالى ومخلوقاتِهِ، والعِبَرُ التي بَثَّ. [المقارب]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَذِلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(٢)
قال العزَّائي: ونهايةُ ثمرةِ الدِّينِ في الدُّنْيَا تَحْصِيلُ معرفةِ اللَّهِ، وَتَحْصِيلُ الْأَنْسِ بِذِكْرِ اللَّهِ تعالى، وَالْأَنْسُ يَحْصُلُ بِدَوَامِ الذِّكْرِ، وَالْمَعْرِفَةُ تَحْصُلُ بِدَوَامِ الْفِكْرِ. انتهى من «الإحياء».

ومرَّ النبي ﷺ عَلَى قومٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدُرُونَ قُدْرَهُ»^(٣).

قال *ع^(٤): وهذا هو قَصْدُ الآيةِ في قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وقوله:

ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد البيت لأبي العتاهية في ديوانه (١٢٢)، و «المحتسب» (١٥٣/١).

(٣) أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١/١٧٤)، وأبو الشيخ في «المعظمة» (١/٢١٦) رقم (٥) عن ابن عباس مرفوعاً.

وذكره السيوطي في «الدرر المشورة» (٢/١١٠)، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكير»، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب».

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٥٥٥).

وقال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله كالتأطر في عين الشمس؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، وإنما التفكير وأنسأط الذهن في المخلوقات، وفي أحوال الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «لَا عِبَادَةَ كَتَفَكْرٍ»^(١) وقال ابن عباس، وأبو الدرداء: فِكْرُهُ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ قِيَامٍ لَيْلَةٍ^(٢)، وقال سِرِّي السَّقَطِيُّ^(٣): فِكْرُهُ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ، ما هو إلا أن تحلَّ أطناب خِمْمَتِكَ، فَتَجْعَلَهَا فِي الْآخِرَةِ^(٤)، وقال الحسن بن أبي الحسن: الفِكْرَةُ مِرَآةُ الْمُؤْمِنِ/، ينظر فيها إلى حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ^(٥)، وأخذ أبو سليمان الدَّارَانِيُّ^(٦) قَدَحَ الْمَاءِ؛ لِيَتَوَضَّأَ لَصَلَاةِ اللَّيْلِ، وعنده ضَيْفٌ، فَرَأَاهُ لَمَّا أَدْخَلَ أَصْبَعَهُ فِي أُذُنِ الْقَدَحِ، أقام كذلك مفكراً حتى طلع الفجر، فقال له: ما هذا يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَمَّا طَرَحْتُ أَصْبَعِي فِي أُذُنِ الْقَدَحِ، تَذَكَّرْتُ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ [غافر: ٧١]،

- (١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٦/٣ - ٦٨) رقم (٢٦٨٨) من طريق أبي رجاء الحبلي محمد بن عبد الله: ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي بن أبي طالب.
- وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٨٣/١٠)، وقال: رواه الطبراني، وفيه أبو رجاء الحبلي، واسمه محمد بن عبد الله، وهو كذاب.
- (٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥٠٩/١)، والبيهقي في «الشعب» (١١٨/١) كلاهما عن أبي الدرداء. كما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٢٩٧-٢٩٨) برقم (٤٢)، وذكره الديلمي في «مستند الفردوس» (٢/ ١١٠) برقم (٢٢١٦) عن ابن عباس، وفي طريق ابن عباس «ليث بن أبي سليم» وهو ضعيف. والأثر ذكره السيوطي في «الدر» (١٩٥/٢)، وعزاه لأبي الشيخ في «العظمة».
- (٣) سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن: من كبار المتصوفة. بغدادى المولد والوفاء. وهو أول من تكلم في «بغداد» بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته. وهو خال الجنيد، وأستاذه. قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أنت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علة الموت. من كلامه: «من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز» توفي سنة ٢٥٣.
- ينظر: «الأعلام» (٨٢/٣)، و «الوفيات» (٢٠٠/١)، و «صفة الصفوة» (٢٠٩/٢).
- (٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٥٥/١).
- (٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٥٥/١).
- (٦) عبد الرحمن بن سليمان بن أبي الجون العنسيّ الدمشقي، محدث رحال.
- روى عن: ليث، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن أبي خالد، والأعمش، وعمرو بن شراحيل الداراني.
- وعنه: إسماعيل بن عياش من أقرانه، ومحمد بن عائذ، وأبو توبة الحلبي، وصفوان بن صالح، وهشام بن عمار، وجماعة.
- وثقه دحيم وقال أبو حاتم: لا يحتج به. توفي سنة نيف وتسعين ومائة.
- ينظر ترجمته في: «التاريخ الكبير» (٢٨٩/٥)، و «ميزان الاعتدال» (٥٦٧/٢)، و «سير أعلام النبلاء» (١٨٦/١٠)، و «تهذيب التهذيب» (١٨٨-١٨٩).

فتفكرت في حالي، وكيف أتلقى الغل، إن طريح في عُنُقِي يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتى أضحى.

قال *ع^(١)*: وهذه نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها، وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج، وقراءة علم كتاب الله ومعاني سنة رسوله لمن يفهم ويُرْجى نفعه أفضل من هذا، لكن يحسن ألا تخلو البلاد من مثل هذا.

قال *ع^(٢)*: وحدثني أبي (رحمه الله)، عن بعض علماء المشرق، قال: كنت باثًا في مسجد الإقدام بـ «مصر» فصليت العتمة، فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له، حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة، وسهرنا، فلما أقيمت صلاة الصبح، قام ذلك الرجل، فاستقبل القبلة، وصلى مع الناس، فاستعظمت جراته في الصلاة بغير وضوء، فلما فرغت الصلاة، خرج، فتبعته لأعظه، فلما دنوت منه، سمعته، وهو يُشيد: [المنسرح]

مُنْسَجِنُ الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرٌ مُنْتَبِهُ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذَاكِرٌ
مُنْبَسِطٌ فِي الْغُيُوبِ مُنْقَبِضٌ كَذَلِكَ مَنْ كَانَ عَارِفًا نَاكِزٌ
يَمِيتُ فِي لَيْلِهِ أَخَا فِكْرٍ فَهُوَ مَدَى اللَّيْلِ نَائِمٌ سَاهِرٌ
قال: فعلمت أنه ممن يعبد الله بالفكرة، فأنصرف^(٣) عنه.

قال الفخر^(٤): ودلت الآية على أن أعلى مراتب الصديقين التفكير. انتهى.

وفي «العتبية»: قال مالك: قيل لأم الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكير. قال مالك: وهو من الأعمال، وهو اليقين؛ قال الله عز وجل: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال ابن رشد: والتفكير من الأعمال؛ كما قاله مالك (رحمه الله)، وهو من أشرف الأعمال؛ لأنه من أعمال القلوب التي هي أشرف الجوارح؛ ألا ترى أنه لا يُجاب أحد على عمل من أعمال الجوارح من سائر الطاعات، إلا مع مشاركة القلوب لها بإخلاص النية لله (عز وجل) في فعلها. انتهى من «البيان والتحصيل».

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٥٥٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٥٥٥).

(٣) وهذا الفعل غير مشروع؛ لأنه يخالف الكتاب والسنة؛ لأن التفكير الذي يجعل العبد يعبد الله (عز وجل) على غير نهجه، فباطل وغير مأجور عليه العبد.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (١/١٢٢).

قال ابن بَطَّال^(١): إِنْ الْإِنْسَانُ إِذَا كَمَلَ إِيمَانَهُ، وَكَثُرَ تَفَكُّرُهُ، كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْإِشْفَاقُ وَالْخَوْفُ. انتهى.

قال ابنُ عطاءِ اللَّهِ: الْفِكْرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْإِعْتِبَارِ، وَالْفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ، فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ.

قُلْتُ: قال بعض المحققين: وذلك أن الإنسان إذا تفكر، عِلِمَ، وإذا عِلِمَ، عَمِلَ.

قال ابنُ عَبَّاد^(٢): قال الإمام أبو القاسم القشيري (رحمه الله): التفكر نعت كل طالب، وثمرته الوصول بشرط العلم، ثم فكر الزاهدين: في فناء الدنيا، وقلة وفائها لطلابها؛ فيزدادون بالفكر زهداً، وفكر العابدين: في جميل الثواب، فيزدادون نشاطاً ورغبة فيه، وفكر العارفين: في الآلاء والنعماء؛ فيزدادون محبة للحق سبحانه. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، أي: يقولون: يا ربنا؛ على النداء، ما خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا، يريد: لغير غاية منصوبة، بل خلقته، وخلقت البشر؛ لينظروا فيه؛ فيوحّدوك، ويعبدوك؛ فَمَنْ فعل ذلك نَعَمْتَهُ، وَمَنْ ضَلَّ عن ذلك عَذَّبْتَهُ، وقولهم: ﴿سَبِّحْهُمْ﴾، أي: تنزيهاً لك عما يقول المبطلون، وقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدَخُلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾، أي: فلا تفعل ذلك بنا، والخزي: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء.

قال أنس بن مالك، والحسن بن أبي الحسن، وابن جريج، وغيرهم: هذه إشارة إلى من يخلد في النار، وأما من يخرج منها بالشفاعة والأمان، فليس بمُخْزَى، أي: وما أصابه

(١) شارح «صحيح» البخاري، العلامة أبو الحسن؛ علي بن خلف بن بطلال البكري، القرطبي، ثم البلنسي، ويعرف بـ «ابن اللجام».

أخذ عن: أبي عمر الطلمنكي، وابن عفيف، وأبي المطرف القنازعي، ويونس بن مغيث.
قال ابن بشكوال: كان من أهل العلم والمعرفة، غني بالحديث العناية التامة؛ شرح «الصحيح» في عدة أسفار، رواه الناس عنه، واستقصى بحصن «لورقة». توفي في صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة.
تنظر ترجمته في: «ترتيب المدارك» (٨٢٧/٤)، و«الديباج المذهب» (١٠٥/٣ - ١٠٦)، و«شجرة النور الزكية» (١١٥/١)، و«سير أعلام النبلاء» (٤٧/١٨).

(٢) محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفزي، الحميري، الرندي، أبو عبد الله، المعروف بـ «ابن عباد»: متصوف باحث. من أهل «رندة» بالأندلس. تنقل بين «فاس» و«تلمسان» و«مراكش» و«سلا» و«طنجة»، واستقر خطيباً للقرويين بـ «فاس». وتوفي بها. له كتب، منها «الرسائل الكبرى» في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات، و«غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية»، و«كفاية المحتاج» و«الرسائل الصغرى». ينظر: «الأعلام» (٢٩٩/٥).

من عذابها، إنما هو تمحيصٌ لذنوبه^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: هو من قول الداعين.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآلِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ
إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ...﴾ الآية: حكاية عن أولي
الالباب، قال أبو الدرداء^(٢): يرحم الله المؤمنين؛ ما زالوا يقولون: رَبَّنَا رَبَّنَا، حَتَّى
أَسْتَجِيبَ لَهُمْ، قال ابن جُرَيْج^(٣) وغيره: المنادي مُحَمَّدٌ ﷺ، وقال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ
الْقُرْطُبِيُّ: المنادي كِتَابُ اللَّهِ^(٤)، وليس كُلُّهُمْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ، وسمعه، وقولهم: ﴿مَا
وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾، معناه: على أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ، وقولهم: ﴿وَلَا تَخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا
تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾
[التحریم: ٨] فهذا وعده تعالى، وهو دالٌّ على أَنَّ الْخِزْيَ إنما هو مع الخلود.

قال * ص *: قال أبو البقاء: المِيعَادُ مصدرٌ بمعنى الوَعْدِ. انتهى.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ
فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ لَا

(١) أخرجه الطبري (٥٥٢/٣) برقم (٨٣٥٦ - ٨٣٥٩) عن أنس، وابن المسيب، والحسن، وابن جريج
بألفاظ متقاربة، وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢/١) عن ابن المسيب بلفظ: «هذه خاصة لمن لا
يخرج منها»، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣٨٦/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/١)
(٥٥٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٦/٢) عن أنس، وابن المسيب، وابن جريج، وعزاه لابن
جرير، وابن أبي حاتم، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) ذكره ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» «المحرر الوجيز» (٥٥٦/١).

(٣) أخرجه الطبري (٥٣/٣) برقم (٨٣٦٣ - ٨٣٦٤)، عن ابن جريج وابن زيد، وذكره الماوردي في
«تفسيره» (٤٤٣/١)، والبغوي في «التفسير» (٣٨٦/١) عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما،
وذكره ابن عطية (٥٥٦/١)، والسيوطي في «الدر» (١٩٦/٢)، عن ابن جريج وابن زيد، وعزاه لابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٥٥٣/٣) برقم (٨٣٦١)، (٨٣٦٢)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٤٤٢/١)،
والبغوي في «تفسيره» (٣٨٦/١)، وابن عطية (٥٥٦/١)، والسيوطي في «الدر» (١٩٦/٢)، وعزاه
لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب في «المفتق والمفتق».

يَعْرِتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى...﴾ الآية: أَسْتَجَابَ بِمَعْنَى أَجَابَ، رُوي أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الرَّجَالَ فِي الْهَجْرَةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ (١) الآية. وَهِيَ آيَةُ وَعْدٍ مِنَ اللَّهِ، أَي: هَذَا فَعَلَهُ سُبْحَانَهُ مَعَ الَّذِي يَتَّصِفُونَ بِمَا ذَكَرَ، قَالَ الْفَخْرُ (٢): رُوي عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ؛ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ فَقَالَ خَمْسَ مَرَّاتٍ: رَبَّنَا - أَنْجَاهُ اللَّهُ مِمَّا يَخَافُ، وَأَعْطَاهُ مَا أَرَادَ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ؛ قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَى عَنْهُمْ؛ أَنَّهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا؛ خَمْسَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَسْتَجَابَ لَهُمْ. انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، يَعْنِي: فِي الْأَجْرِ، وَتَقْبُلُ الْأَعْمَالُ، أَي: أَنَّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ فِي ذَلِكَ عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ، قَالَ الْفَخْرُ (٣): قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، أَي: شِبْهُ بَعْضٍ، أَوْ مِثْلُ بَعْضٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا تَفَاوُتُ فِي الثَّوَابِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؛ إِذَا اسْتَوَوْا فِي الطَّاعَةِ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ فِي بَابِ الدِّينِ، إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ، لَا بِسِرِّ صِفَاتِ الْعَامِلِينَ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُمْ ذَكَرًا أَوْ أَنْثَى، أَوْ مِنْ نَسَبٍ خَسِيسٍ أَوْ شَرِيفٍ - لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ. انْتَهَى.

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ حَالَ الْمُهَاجِرِينَ، ثُمَّ الْآيَةُ بَعْدُ تَنْسَحِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أُوذِيَ فِي اللَّهِ، وَهَاجَرَ أَيْضًا إِلَى اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: عِبَارَةٌ فِيهَا إِلْزَامُ الذَّنْبِ لِلْكَفَّارِ، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا كُفْرًا﴾: لَامُ الْقَسَمِ، وَ «تَوَابًا»: مُصَدَّرٌ مُوَكَّدٌ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ...﴾ الآية: نُزِلَتْ: ﴿لَا يَغْرَتُكَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْزِلَةً: «لَا تَطْنُ»؛ أَنَّ حَالَ الْكُفَّارِ حَسَنَةٌ، وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ، وَالتَّقَلُّبُ: التَّصَرُّفُ فِي التِّجَارَاتِ، وَالْأَرْبَاحِ، وَالْحُرُوبِ، وَسَائِرِ الْأُمُورِ؛

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣/ ٥٥٥)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» (١/ ٣٨٦ - ٣٨٧).

(٢) يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ» (٩/ ١٢).

(٣) يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ» (٩/ ١٢٣).

وقوله: ﴿نُزِّلًا﴾: معناه تَكْرِمَةً.

وقوله تعالى: ﴿وما عند الله خَيْرٌ للأبرار﴾: يحتمل أن يريد: خَيْرٌ مِمَّا هُوَ لاءِ فيه، من التقلب والتنعم، ويحتمل أن يريد: خَيْرٌ مِمَّا هم فيه في الدنيا، وفي الحديث عنه ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ /، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١) قال القاضي ابن الطَّيْب: هذا بالإضافة إلى ما يصير ١١١ ب. إِلَيْهِ كُلُّ واحد منهما في الآخرة، وقيل: المعنى أنها سِجْنُ الْمُؤْمِنِ؛ لأنها موضعُ تَعَبِهِ في الطاعة.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١٩٩) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾، قال جابر بن عبد الله وغيره: هذه الآية نَزَلَتْ بسبب أَضْحَمَةِ النَّجَاشِيِّ سُلْطَانِ الحَبَشَةِ، آمَنَ بِاللَّهِ، وبمحمَّد - عليه السلام -، وَأَضْحَمَةُ^(٢): تفسيره بالعربية:

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٢/٤)، كتاب «الزهد»، باب (٢٩٥٦/١)، والترمذي (٤٨٦/٤) كتاب «الزهد»، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن، حديث (٢٣٢٤)، وابن ماجه (١٣٧٨/٢)، كتاب «الزهد»، باب مثل الدنيا، حديث (٤١١٣)، وأحمد (٣٢٣/٢)، (٣٨٩، ٤٨٥)، وفي «الزهد» (ص ٣٧)، وابن حبان (٦٨٧، ٦٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٥٠/٦)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٤٢)، والبيهقي في «شرح السنة» (٧/ ٣٢٥. بتحقيقنا) كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وللحديث شواهد من حديث ابن عمر، وعبد الله بن عمرو، وسلمان:

* حديث ابن عمر:

أخرجه البزار (٣٦٥٤. كشف)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٣٤٠/٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» رقم (١٤٣)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٤٤٩، ٤٥٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٠١/٦) عن ابن عمر: والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٩٢/١٠) وقال: رواه البزار بسنتين أحدهما ضعيف، والآخر فيه جماعة لم أعرفهم.

* حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه أحمد (٦٨/٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» رقم (١٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٧/٨)، (١٨٥)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٩٨)، والحاكم (٣١٥/٤)، والبيهقي في «شرح السنة» (٧/ ٣٢٦. بتحقيقنا).

(٢) أخرجه الطبري (٥٥٩/٣) برقم (٨٣٧٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٤/١) عن قتادة، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٤٤٤/١)، والبيهقي في «تفسيره» (٣٨٨/١) عن ابن عباس، وجابر، وأنس، وقاتدة، وذكره ابن عطية (٥٥٩/١)، وذكره السيوطي في «الدر» (٢٠٠/٢) عن جابر وغيره.

عَطِيَّة؛ قاله سفيان وغيره، وقال قوم: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ^(١)، وقال ابنُ زَيْدٍ ومجاهد: نَزَلَتْ فِي جَمِيعِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: مدحُ لهم، وذمُّ لسائر كفّار أهل الكتاب؛ لتبديلهم وإيثارهم مكاسب الدنيا على آخرتهم، وعلى آياتِ اللَّهِ سبحانه، ثم حَتَمَ اللَّهُ سبحانه السُّورَةَ بهذه الوَصَاةِ التي جَمَعَتِ الظُّهُورَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالْفُؤُزَ بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ، فَحَضَّ سُبْحَانَهُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَاتِ، وَعَنِ الشَّهَوَاتِ، وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ، فَقِيلَ: معناه مصابرةُ الأعداء؛ قاله زيد بنُ أسلم^(٣)، وقيل: معناه مصابرةٌ وغدِ اللَّهِ فِي النَّصْرِ؛ قاله محمد بنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ^(٤)، أي: لَا تَسْأَمُوا وَأَنْتَظِرُوا الْفَرَجَ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَنْتَظَرُ الْفَرَجَ بِالصَّبْرِ عِبَادَةَ»^(٥).

قال الفخر^(٦): والمصابرةُ عبارةٌ عن تحمُّلِ المكارِهِ الواقعةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ، وَبَيْنَ الْغَيْرِ. انتهى.

وقوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾: معناه عند الجُمهُور: رَابِطُوا أَعْدَاءَكُمْ الْخَيْلَ، أي: ارتبطوها؛ كما يرتبطها أعداؤكم، قُلْتُ: وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن سلمان، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «رَبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَصِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَنَ»^(٧)، وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْمُو عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ»، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٥٦٠) برقم (٨٣٨٢) عن ابن جريج، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٣٨٨) عن ابن جريج، والماوردي في «تفسيره» (١/ ٤٤٥)، وابن عطية (١/ ٥٥٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٥٦٠) برقم (٨٣٨٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٣٨٨)، والماوردي (١/ ٤٤٥)، وابن عطية (١/ ٥٥٩).

(٣) ذكره ابن عطية (١/ ٥٥٩).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٤٤، ٤٥) من حديث ابن عمر وابن عباس.

(٦) ينظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (٩/ ١٢٦).

(٧) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٠) كتاب «الإمارة» باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، حديث (١٦٣/ ١٩١٣) من حديث سلمان.

صحيح^(١)، وخرجه أبو داود بمعناه، وقال: «وَيُؤْمِنُ مِنْ قَتَانِي الْقَبْرِ»^(٢)، وخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَجَرَى اللَّهُ عَلَيْهِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانَ، وَيَبْعَثُهُ اللَّهُ آمناً مِنَ الْقَرْعِ»^(٣)، وروى مسلم والبخاري، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا»^(٤). انتهى.

وجاء في فضل الرباط أحاديث كثيرة يطول ذكرها.

قال صاحب «التذكرة»: «وروى أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «لِرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِباً مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَعْظَمُ أَجْراً مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ؛ صِيَامِهَا، وَقِيَامِهَا، وَرِبَاطِ يَوْمٍ فِي رَمَضَانَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْراً»، أَرَاهُ قَالَ: «مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِي سَنَةٍ، صِيَامِهَا، وَقِيَامِهَا...»^(٥) الحديث ذكره القرطبي مسنداً. انتهى.

والرباط: هو الملازمة في سبيل الله؛ أصلها مِنْ رَبَطَ الْخَيْلَ، ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ مَلَاذِمٍ لَتَغْرِ مِنْ تُغَوِّرِ الْإِسْلَامِ / مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الرِّبْط، قلت: ١١١٢ قال الشيخ زين الدين العراقي في «اختصاره لغريب القرآن»؛ لأبي حيان: معنى: رَابِطُوا:

(١) أخرجه الترمذي (١٦٥/٤)، كتاب «فضائل الجهاد»، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً، حديث (١٦٢١)، وأبو داود (١٢/٢)، كتاب «الجهاد»، باب في فضل الرباط، حديث (٢٥٠٠)، وأحمد (٦/٢٠، ٢٢)، وسعيد بن منصور (١٩٤/٢) رقم (٢٤١٤)، وابن حبان (١٦٢٤- موارد)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٠٢/٣)، والحاكم (٧٢/٢)، والطبراني في «الكبير» (٣١١/١٨) رقم (٨٠٢) كلهم من طريق أبي هانيء الخولاني عن عمرو بن مالك عن فضالة بن عبيد به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان.

(٢) ينظر الحديث السابق.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٩٢٤/٢)، كتاب «الجهاد»، باب فضل الرباط في سبيل الله، حديث (٢٧٦٧).

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣٩١/٢)، هذا إسناد صحيح؛ رجاله ثقات.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٩٢٤/٢ - ٩٢٥) كتاب «الجهاد»، باب فضل الرباط في سبيل الله، حديث (٢٧٦٨).

قال المنذري في «الترغيب» (٢٠٣/٢): وآثار الوضع ظاهرة عليه. ولا عجب؛ فراويه عمر بن صبح الخراساني.

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣٩٢ - ٣٩٣/٢): هذا إسناد ضعيف؛ لضعف محمد بن يعلى وشيخه عمر بن صبح، ومكحول لم يدرك أبي بن كعب، ومع ذلك فهو مدلس.

دُومُوا وَاتَّبِعُوا، وَمَتَى ذَكَرْتُ الْعِرَاقِيَّ، فَمَرَادِي هَذَا الشَّيْخُ. انتهى.

وروى ابنُ المبارك في «رقائقه»، أنَّ هذه الآية: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾، إنما نزلت في انتظار الصلاة خلف الصلاة؛ قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن، قال: ولم يكن يومئذ عَدُوٌّ يَرَابِطُ فيه^(١). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: ترجُّ في حقِّ البَشَرِ، والحمد لله حقَّ حمده.

(١) أخرجه الطبري (٥٦٢/٣) برقم (٨٣٩٤)، والحاكم في مستدركه (٣٠١/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٣٨٩/١)، وابن عطية (٥٦٠/١)، والسيوطي في «الدر» (٢٠١/٢)، وعزاه لابن مردويه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النِّسَاءِ مَدِينَةٌ

إِلَّا آيَةً وَاحِدَةً نَزَلَتْ بِمَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، وَهِيَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ [النساء: ٥٨] الآية: وفي البخاري: عن عائشة (رضي الله عنها)؛ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا نَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَغْنِي: قَدْ بَنَىٰ بِهَا^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم...﴾ الآية: في الآية تنبيه على الصانع، وعلى افتتاح الوجود، وفيها حضٌّ على التواصل لحمة هذا النسب، والمراد بالنفس آدم ﷺ، وقال: ﴿وَاحِدَةً﴾؛ على تأنيث لفظ النفس، و ﴿زَوْجَهَا﴾، يعني: حواء، قال ابن عباس وغيره: خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَحِشًا فِي الْجَنَّةِ وَحْدَهُ، ثُمَّ نَامَ، فَانْتَزَعَ اللَّهُ إِحْدَى أَضْلَاعِهِ الْفُصَيْرَى مِنْ شِمَالِهِ^(٢)، وقيل: مِنْ يَمِينِهِ، فَخَلَقَ مِنْهَا حَوَاءً، وَيَعْضُدُ هَذَا - الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ أُعْوَجَ...» الْحَدِيثُ^(٣)، ﴿وَبَثَّ﴾: معناه: نَشَرَ؛ كقوله تعالى: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] أي: المنتشر، وفي تكرير الأمر بالتقوى

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٠٥)، وعزاه للبخاري.

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٨/٦) في أحاديث الأنبياء: باب خلق آدم وذريته (٣٣٣١)، و (١٦٠/٩) في النكاح: باب المدارة مع النساء (٥١٨٤)، وباب الوصاة بالنساء (٥١٨٦)، ومسلم (١٠٩٠/٢ - ١٠٩١) في الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨)، والترمذي (٣/ ٤٩٣-٤٩٤) في الطلاق: باب ما جاء في مدارة النساء (١١٨٨)، وأحمد (٤٢٨/٢، ٤٤٩، ٤٩٧)، والدارمي (١٤٨/٢) في النكاح: باب مدارة الرجل أهله، من طرق عن أبي هريرة رفعه - واللفظ لمسلم - : «أَنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عَوْجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تَقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرْتَهَا طَلَقَهَا».

وقال الترمذي: حسن صحيح، وإسناده جيد.

ويشهد له حديث سمرة رواه أحمد (٨/٥)، وحديث أبي ذر عند أحمد (٥/ ١٥٠-١٥١)، والدارمي (٢/ ١٤٧ - ١٤٨) وحديث عائشة رواه أحمد (٦/ ٢٧٩).

تأكيداً لنفوس المأمورين، و ﴿تَسَاءَلُونَ﴾: معناه: تتعاطفون به، فيقول أحدهم: أسألك بالله، وقوله: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾، أي: وأتقوا الأرحام، وقرأ حمزة «وَالْأَرْحَامَ» (بالخفض)؛ عطفًا على الضمير؛ كقولهم: أسألك بالله وبالرحم؛ قاله مجاهد وغيره.

قال * ع^(١): * وهذه القراءة عند نحاة البصرة لا تجوز؛ لأنه لا يجوز عندهم أن يعطف ظاهرًا على مضمير مخفوض إلا في ضرورة الشعر؛ كقوله: [البسيط]

..... فَأَذْهَبَ فَمَا بِكَ وَالْأَيَّامُ مِنْ عَجَبٍ^(٢)

لأن الضمير المخفوض لا ينفصل؛ فهو كحرف من الكلمة، ولا يعطف على حرف، واستسهل بعض النحاة هذه القراءة. انتهى كلام * ع *.

قال * ص *: والصحيح جواز العطف على الضمير المجزور من غير إعادة الجاز؛ كمذهب الكوفيين، ولا تُردُّ القراءة المتواترة بمثل مذهب البصريين^(٣)، قال: وقد أمعنا

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢).

(٢) عجز بيت، وصدرة:

فاليوم قربت تهجونا وتشتبنا

وهو بلا نسبة في «الإنصاف» (ص ٤٦٤)؛ و «خزانة الأدب» (٥/ ١٢٣-١٢٨، ١٢٩، ١٣١)؛ و «شرح الأشموني» (٢/ ٤٣٠)؛ و «الدرر» (٨١/٢)؛ (١٥١/٦)؛ و «شرح أبيات سيبويه» (٢/ ٢٠٧)؛ و «شرح ابن عقيل» (ص ٥٠٣)؛ و «شرح عمدة الحافظ» (ص ٦٦٢)؛ و «شرح المفصل» (٣/ ٧٨، ٧٩)؛ و «الكتاب» (٢/ ٣٩٢)؛ و «اللمع في العربية» (ص ١٨٥)؛ و «المقاصد النحوية» (٤/ ١٦٣)؛ و «المقرب» (١/ ٢٣٤)؛ و «همع الهوامع» (٢/ ١٣٩).

(٣) اختلف النحاة في العطف على الضمير المجزور على ثلاثة مذاهب:

أحدها: وهو مذهب الجمهور من البصريين -: وجوب إعادة الجاز إلا في ضرورة.

الثاني: أنه يجوز ذلك في السعة مطلقاً، وهو مذهب الكوفيين، وتبعهم أبو الحسن ويونس والشلوبيون. والثالث: التفصيل، وهو إن أُنكِد الضمير جاز العطف من غير إعادة الخافض نحو: «مررت بك نفسك وزيد»، وإلا فلا يجوز إلا ضرورة، وهو قول الجرّمي. والذي ينبغي أنه يجوز مطلقاً لكثرة السماع الوارد به، وضعف دليل المانعين واعتضاده بالقياس.

أما السماع: ففي الشر كقولهم: «ما فيها غيره وفرسه» بجر «فرسه» عطفًا على الهاء في «غيره». وقوله: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ في قراءة جماعة كثيرة، منهم حمزة. وفي النظم وهو كثير جداً، فمنه قول العباس بن مرداس: [الوافر]

أَكْرُ عَلَى الْكِتَابَةِ لَا أَبَالِي أَفِيهَا كَانَ حَثْفِي أَمْ سَوَاهَا
وَأَمَّا الْقِيَّاسُ؛ فَلأنه تابع من التوايح الخمسة، فكما يُؤكَّد الضمير المجزور ويُبدل منه فكذلك يُعطف عليه.

وينظر: «الدر المصون» (١/ ٥٢٩-٥٣١)، و «البحر المحيط» (٢/ ١٥٥).

الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿وَكُفِّرْ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [البقرة: ٢١٧] انتهى، وهو حسن، ونحوه للإمام الفخر^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: ضَرَبَ من الوعيد، قال المُحَاسِبِيُّ: سألت أبا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ مُوسَى، فَقُلْتُ: أَجْمَلُ حَالَاتِ الْعَارِفِينَ مَا هِيَ؟ فَقَالَ: إِنَّ الْحَالَ الَّتِي تَجْمَعُ لَكَ الْحَالَاتِ الْمَحْمُودَةُ كُلُّهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْمِرَاقَبَةُ، فَأَلْزِمَ نَفْسَكَ، وَقَلْبَكَ دَوَامَ الْعِلْمِ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ؛ فِي حَرَكَتِكَ، وَسُكُونِكَ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِكَ؛ / فَإِنَّكَ بَعَيْنِ اللَّهِ ١١٢ ب (عَزَّ وَجَلَّ) فِي جَمِيعِ تَقَلُّبَاتِكَ، وَإِنَّكَ فِي قَبْضَتِهِ؛ حَيْثُ كُنْتَ، وَإِنَّ عَيْنَ اللَّهِ عَلَى قَلْبِكَ، وَنَاطِرٌ إِلَى سِرِّكَ وَعِلَانِيَتِكَ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ، يَا قَتْنِي، بِخَرٍّ لَيْسَ لَهُ شَطٌّ، بِخَرٍّ تَجْرِي مِنْهُ السَّوَاقِي وَالْأَنْهَارُ، وَتَسِيرُ فِيهِ السُّفُنُ إِلَى مَعَادِنِ الْغَنِيمَةِ. انتهى من كتاب «الْقَصْدُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

﴿وَمَا أَتُوا أَلَيْسَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَنَبَّدَلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَمْوَالُكُمْ إِنَّكُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾
 ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاَنْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَتِلْكَ وَرِثَةُ الْوَالِدِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَابُ اللَّهِ لَا تَعْلُوا ﴿٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ...﴾ الآية: قال ابنُ زَيْدٍ: هذه مخاطبةٌ لِمَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ مِنَ الْعَرَبِ أَلَّا يَرِثَ الصَّغِيرُ مِنَ الْأَوْلَادِ^(٢)، وقالت طائفة: هذه مخاطبةٌ لِلأَوْصِيَاءِ.

قال ابنُ الْعَرَبِيِّ^(٣): وذلك عند الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِرْشَادِ. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾، قال ابنُ الْمُسَيَّبِ وغيره: هو ما كان يفعلُه بعضهم من إبدالِ الشاةِ السَّمينَةِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِالْهَزِيلَةِ مِنْ مَالِهِ، وَالذُّرْهَمَ الطَّيِّبَ بِالزَّرَائِفِ، وَقِيلَ^(٤): المراد: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ خَبِيثًا، وَتَدْعُوا أَمْوَالَكُمْ طَيِّبًا، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا.

وَالطَّيِّبُ هُنَا: الْحَلَالُ، وَالْخَبِيثُ: الْحَرَامُ.

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٢٩/٩).
 (٢) أخرجه الطبري (٥٧١/٣) برقم (٨٤٤٦)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٨/٢)، وعزاه لابن جرير عن ابن زيد.
 (٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣٠٨/١).
 (٤) أخرجه الطبري (٥٧١/٣) برقم (٨٤٤١)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/٢) والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٨/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾: التقدير: ولا تُضَيِّفُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ فِي الْأَكْلِ، وَالضَّمِيرُ فِي «إِنَّهُ»: عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ، وَالْحُبُّ: الْإِثْمُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(١)؛ وَتَحَوَّبَ الرَّجُلُ، إِذَا أَلْقَى الْحُبَّ عَنْ نَفْسِهِ، وَكَذَلِكَ تَحَنَّتْ وَتَأَثَّمَتْ وَتَحَرَّجَتْ؛ فَإِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ بِخِلَافِ «تَفَعَّلَ» كُلُّهُ؛ لِأَنَّ «تَفَعَّلَ» مَعْنَاهُ: الدُّخُولُ فِي الشَّيْءِ؛ كـ «تَعَبَّدَ»، وَ «تَكَسَّبَ»، وَمَا أَشْبَهَهُ؛ وَيَلْحَقُ بِهِذِهِ الْأَرْبَعَةُ «تَفَكَّهُوْنَ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُوْنَ﴾ [الواقعة: ٦٥] أَيْ: تُطَرِّحُونَ الْمَكَاهَةَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿كَبِيرًا﴾: نَصٌّ عَلَى أَنَّ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ مِنَ الْكَبَائِرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى...﴾ الآية: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: خِفْتُمْ ههنا بِمَعْنَى أَيْقَنْتُمْ.

قَالَ * ع^(٢) * : وَمَا قَالَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَلَا يَكُونُ الْخَوْفُ بِمَعْنَى الْيَقِينِ بَوَاحٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَفْعَالِ التَّوَقُّعِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَمِيلُ فِيهِ الظَّنُّ إِلَى إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ؛ قُلْتُ: وَكَذَا رَدُّ الدَّأُوْدِيِّ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، وَلَفْظُهُ: وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾: مَجَازُهُ: أَيْقَنْتُمْ^(٣)، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ^(٤): بَلْ هُوَ عَلَى ظَاهِرِ الْكَلِمَةِ. انْتَهَى.

و ﴿تُقْسُطُوا﴾: مَعْنَاهُ: تَعْدِلُوا؛ يُقَالُ: أَقْسَطَ الرَّجُلُ إِذَا عَدَلَ، وَقَسَطَ إِذَا جَارَ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا): نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَوْلِيَاءِ الْيَتَامَى الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ جَمَالُ وَلِيَّائِهِمْ، فَيُرِيدُونَ أَنْ يَخْسُوهُمْ فِي الْمَهْرِ؛ لِمَكَانٍ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ عَلَيْهِمْ، فَقِيلَ لَهُمْ: أَقْسُطُوا فِي مَهْوَرِهِمْ، فَمَنْ خَافَ أَلَّا يُقْسَطَ، فَلْيَتَزَوَّجْ مَا طَابَ لَهُ مِنَ الْأَجْنِيَّاتِ اللَّوَاتِي يُكَاسِنُ^(٥) فِي حَقُوقِهِمْ، وَقَالَ رُبَيْعَةُ.

قَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: ﴿مَا طَابَ﴾: مَعْنَاهُ^(٦) مَا حَلَّ.

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحَرَّرِ الْوَجِيزِ» (٦/٢).

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٦/٢).

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٦/٢).

(٤) يَنْظُرُ: الطَّبْرِي (٥٧٩/٣).

(٥) الْكَئِيسُ: الْحِفَّةُ وَالتَّوَقُّدُ، وَالْكَئِيسُ: الْعَاقِلُ، وَيُقَالُ: كَاسَيْتُ فَلَانًا فَكَسَيْتُهُ أَكَيْسَهُ كَيْسًا: أَيَّ غَلَبْتُهُ بِالْكَئِيسِ، وَكَنتُ أَكَيْسَ مِنْهُ.

يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (٣٩٦٦، ٣٩٦٧).

(٦) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِي (٥٧٧/٣) بِرَقْمِ (٨٤٧٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمَحَرَّرِ الْوَجِيزِ» (٧/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْثَوْرِ» (٢/٢١٠)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

وقيل: «ما» ظرفية، أي: ما دُمْتُمْ تستحسنون النكاح، وضَعُفَ؛ قُلْتُ: وفي تضعيفه نَظَرٌ، فتأمله.

قال الإمام الفخر: وفي تفسير^(١) ﴿مَا طَابَ﴾ بما حلَّ - نَظَرٌ؛ وذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا﴾: أَمْرٌ بإباحة، فلو كان المراد بقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، أي: ما حلَّ لكم - لتنزَّلَت الآية منزلة ما يُقَالُ: أَبَحْنَا لَكُمْ نِكَاحَ مَنْ يكون نكاحها مباحاً لكم، وذلك يُخْرِجُ الآية عن الفائدة، ويصيرها مُجْمَلَةً لا محالة، أما إذا حَمَلْنَا «طَابَ» على استطابة النَّفْسِ، ومِثْلِ القلبِ، كَانَتْ الآية عامة دَخَلَهَا التخصيصُ، وقد ثَبَتَ في أصول الفقه؛ أنه إذا وقع التعارضُ بَيْنَ الإجمالِ / والتَّخصيصِ، كان رَفَعُ الإجمالِ أَوْلَى؛ لأنَّ العامَّ المخصَّص حُجَّةٌ في غَيْر محلِّ التخصيص^(٢)، والمُجْمَل لا يكون حُجَّةً أصلاً. انتهى، وهو حَسَنٌ، و ﴿مِثْلَى

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٠/١٤١).

(٢) اقتضت حكمة الله أن تكون التكاليف المشروعة في كتابه وسنة رسوله ﷺ موضوعة على طريقة العموم وكثيراً ما تكون كذلك في البعض، وعلى طريقة الخصوص في البعض الآخر..

غير أن أغلب ما احتواه القرآن من عام وما اشتملت عليه السنة منه قد تطرق إليه التخصيص، فأخرجه عن عمومته وشموله لجميع الأفراد.. وحكم العام قبل التخصيص دال على أفراده قطعاً عند البعض، وظناً عند آخرين.. ودليل التخصيص تارة يكون عقلاً، وتارة يكون كلاماً، وتارة لا يكون عقلاً ولا كلاماً، كالحس، والزيادة، والنقصان، فإن كان المخصص هو العقل، كان العام قطعياً في الباقي؛ إذ ليس فيه ما يورث الشبهة؛ لأن ما يقتضي العقل إخراجه فهو مخرج وغيره باق على ما كان؛ إذ هو في حكم الاستثناء لكنه حذف اعتماداً على العقل، فمثلاً ليس في قوله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] - وظواهر ذلك - شبهة في دلالته مع خروج الصبي والمجنون بالعقل، وإلا لما أجمعوا على كفر من جحد العمل بمقتضى الخطابات الواردة بالفرائض من مثل ما معنا، وليس لقاتل أن يقول: من الجائر أن تكون قطعتها بواسطة الإجماع؛ لأننا نقول: هذه الخطابات قطعية قبل أن يتحقق الإجماع. هكذا أطلق صدر الشريعة في «توضيحه»، ولم يفصل بين ما إذا كان المخرج بالعقل معلوماً أو مجهولاً؛ إذ العقل قد يقتضي إخراج بعض معلوم، وقد يقتضي إخراج بعض مجهول، بأن يكون الحكم مما يمتنع على الكل دون البعض مثل: «الرجال في الدار».

وقد نبه صاحب «التلويح» وغيره على أن المخرج به إن كان مجهولاً فهو لا يصلح حجة حتى يتبين المراد منه؛ لأن جهالة المخرج أورثت جهالة في الباقي..

ولا شك أن القول بالقطعية إنما يكون على مذهب من يرى قطعية العام قبل التخصيص، أما من يرى ظنيته فظاهر أنه يكون ظنياً بعده كما كان قبله؛ لأن الاحتمال الذي كان من أجله الحكم بالظنية عندهم باق بعد التخصيص بالعقل، فالحق أن إطلاق القول بالقطعية ليس على ما ينبغي، اللهم إلا إن كان الإطلاق بناء على مذهبه.

وإن كان المخصص غير العقل والكلام فالظاهر أنه لا يبقى قطعياً؛ لاختلاف العادات وخفاء الزيادة والنقصان وعدم إطلاع الحس على تفاصيل الأشياء، اللهم إلا أن يعلم القدر المخصوص قطعاً. =

وَتَلَاثَ وَرُبَاعَ: موضعها من الإعراب نَصَبٌ على البدل من «مَا طَابَ»، وهي نكراتٌ لا تنصرف؛ لأنها معدولةٌ وصِفَةٌ.

= وإن كان المخصص كلاماً وكان مبهماً كما لو قال: «أحسن إلى الناس» ثم يقول عقيب ذلك: «لا تحسن إلى بعضهم»، وكما لو قال: «اقتلوا المشركين إلا بعضهم»، فقد نقل الأمدى في «الإحكام» اتفاق الكل على أنه لا يبقى حجة على معنى أن يتوقف في الاحتجاج به حتى يجيء البيان؛ لأنه قد صار مجعلاً، وقد جرى على هذا النحو من حكاية الاتفاق العضد حيث قال: قد اختلف في العام المخصص بمبين هل هو حجة فيما بقي أم لا، أما المخصص بمجمل نحو هذا العام مخصوص أو لم يرد به كل ما يتناوله، فليس حجة بالاتفاق. وحكى في «إرشاد الفحول» أن ممن نقل الإجماع على هذا جماعة، منهم: القاضي أبو بكر، وابن السمعاني، والأصفهاني.

وفي حكاية الاتفاق في هذا المقام نظر، ففي «المسلم» وقال الجمهور: العام المخصوص بمبهم ليس حجة؛ خلافاً لفخر الإسلام. قال شارحه: «والإمام شمس الأئمة، والقاضي الإمام أبي زيد، وأكثر معتبري مشايخنا في المستقل؛ بل لا مخصص عندهم إلا هو، فإنه عندهم حجة ظنية، وقيل: إذا كان المخصص مستقلاً مبهماً يسقط المبهم، ويبقى العام كما كان، وإليه مال أبو المعين من الحنفية. وعبارة «كشف الأسرار» على «البردوي»: والصحيح من المذهب أن العام يبقى حجة بعد الخصوص، معلوماً كان المخصص أو مجهولاً، إلا أن فيه ضرب شبهة.

ثم حكى أن القاضي الإمام أبا زيد ذكر في «التقويم» أن الذي ثبت عنده من مذهب السلف أنه يبقى على عمومهِ بعد التخصيص.

وفي «أصول الجصاص»: «والذي عندي من مذهب أصحابنا في هذا المعنى أن تخصيص العموم لا يمنع الاستدلال به فيما عدا المخصوص، وعليه يدل أصولهم واحتجاجهم للمسائل».

ونقل صاحب «إرشاد الفحول» عن الزركشي في «البحر» أن ما نقلوه من الاتفاق، فليس بصحيح. وقال المحلّي بعد حكاية الخلاف في المعين: وما اقتضاه كلام الأمدى وغيره من الاتفاق على أنه في المبهم غير حجة مدفوع بنقل ابن برهان وغيره الخلاف فيه.

والذي تطمئن النفس إليه بصدد حكاية الاتفاق على عدم الحجية إن خص بمبهم وأقوال من نقلنا عنهم الخلاف في الحجية أن حكاية الاتفاق على عدم حجيته فيما كان غير مستقل، يشرح ذلك تمثيل الإسنوي بعد أن ذكر ما قاله الأمدى وغيره من الاتفاق على عدم الحجية بقوله تعالى: «أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم» [المائدة: ١]؛ فإن المخصص فيه مبهم غير مستقل، ولذلك قال البدخشي: العام إن خص بغير مستقل من اللفظ مبهم نحو: «اقتلوا المشركين إلا بعضهم»، فليس بحجة وفاقاً، لأن المجموع كلام واحد؛ لكون الغير المستقل بمنزلة وصف قائم بالأول، فتسري جهالته إليه، فيتوقف على البيان. اهـ.

فخص موضع الوفاق بالمخصص المبهم غير المستقل.

أما المستقل فمما تقدم نعلم أن للأصوليين فيه أقوالاً ثلاثة:

الأول: عدم الحجية مطلقاً، وإليه ذهب الجمهور.

الثاني: حجية ظنية، وإليه ذهب فخر الإسلام، وشمس الأئمة، والقاضي الإمام أبو زيد.

الثالث: سقوط المبهم كأن لم يكن وبقاء العام كما كان من كونه حجة قطعية كما هو عند الحنفية، أو

ظنية كما هو عند الشافعية، وإليه مال أبو المعين من الحنفية.

وقوله: ﴿فَوَاحِدَةٌ﴾، أي: فأنكحوا واحدةً أو ما ملكت أيمانكم، يريد به الإماء، والمعنى: إِنْ خَافَ أَلَّا يُعَدِّلَ فِي عِشْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فما ملكت يمينه، وأسند الملِك إلى اليمين؛ إذ هي صفةٌ مَدْحٍ، واليمينُ مخصوصةٌ بالمحاسِنِ؛ أَلَّا تَرَى أَنَّهَا الْمُنْفِقَةُ؛ كما قال

= ونذكر آراءهم في المخصص المبين وهي كما جاءت في كتبهم من تقدم منهم ومن تأخر ستة أقوال:
الأول: فمن ذاهب إلى أنه حجة في الباقي، وهم الجمهور، غير أن الذين يرون قطعية العام قبل التخصيص يرون ظنيته هنا به.

الثاني: ومن ذاهب إلى أنه ليس بحجة مطلقاً فيما بقي، وإليه ذهب أبو ثور في رواية، وفي أخرى أنه ليس بحجة إلا في أخص الخصوص، وهو رأي الكرخي والجرجاني وعيسى بن أبان، كذا في «التحرير». وفي «أصول الجصاص»: كان شيخنا أبو الحسن الكرخي يقول في العام إذا ثبت خصوصه: سقط الاستدلال باللفظ، وصار حكمه موقوفاً على دلالة أخرى من غيره، فيصير بمنزلة اللفظ المجمل المفتقر إلى البيان. وكان يفرق بين الاستثناء المتصل باللفظ وبين الدلالة من غير اللفظ إذا أوجب التخصيص، فيقول: إن الاستثناء غير مانع من بقاء حكم اللفظ فيما عدا المستثنى؛ لأن الاستثناء لا يجعل اللفظ مجازاً ولا يزيله عن حقيقته. ودلالة التخصيص من غير جهة اللفظ تجعل اللفظ مجازاً وتزيله عن حقيقته؛ لأن الحقيقة هي العموم، وكان يقول: هذا مذهبي، ولا يمكنني أن أعزبه إلى أصحابي. وكان محمد بن شجاع يذهب هذا المذهب، وقد ذكره في بعض كتبه. اهـ.

ثالثاً: ومنهم من ذهب إلى أن العام إن كان منبئاً عن الباقي ودالاً عليه بسرعة، كلفظ «المشركين» في قوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين﴾ [التوبة: ٥] إذا خص بأهل الذمة، كان حجة؛ لأن المراد من «المشركين» بعد تخصيصه بأهل الذمة ظاهر ينتقل الذهن بسرعة إلى أن المراد منه حينئذ المريون. وأما إذا كان لا يدل عليه بسرعة لا يكون حجة؛ لتوقفه على البيان، وذلك كلفظ «السارق» في قوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ [المائدة: ٣٨]؛ فإنه بعد تخصيصه بذئ الشبهة لا يعلم المراد منه؛ لأنه يحتمل سرقة نصاب وغيره، من حرز أم لا، فيحتاج إلى بيان الشارع، فلا ينتقل الذهن إلى سارق نصاب من حرز قبل بيان الشارع. وإلى هذا الرأي ذهب أبو عبد الله البصري تلميذ الكرخي.

رابعاً: وقال القاضي عبد الجبار: إن كان العام قبل التخصيص ظاهراً لا يتوقف على البيان ولا يحتاج إليه، فهو حجة كما في قوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين﴾؛ فإنه بين في أفرادهِ قبل إخراج أهل الذمة. وإن كان يتوقف على البيان ويحتاج إليه، فليس بحجة كما في قوله تعالى: ﴿أقيموا الصلاة﴾ [النساء: ٧٧]؛ فإنه لا يدري المراد منه قبل بيان الشارع بقوله وفعله، بل هو مفتقر إلى البيان قبل إخراج الحائض، ولذلك بينه رسول الله ﷺ بفعله فقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي». وهذا المذهب قريب من سابقة. خامساً: ومن الناس من ذهب إلى أنه حجة في أقل الجمع، وهو اثنان أو ثلاثة - على الخلاف - ولا يكون حجة فيما زاد على ذلك. قال في «إرشاد الفحول»: حكى هذا المذهب القاضي أبو بكر وابن القشيري، وقال: إنه تحكم. وقال الصفي الهندي: لعله قول من لا يجوز تخصيص الثنية، وحكى الغزالي في «المستصفى» أن فريقاً من القدرية ذهبوا إلى هذا المذهب.

سادساً: وذهب البلخي (وهو ممن يرى أن الدليل المتصل كالشرط والصفة تخصيص) إلى أن العام إن خص بمتصل فهو حجة نحو: «اقتلوا المشركين إلا أهل الذمة»، وإن خص بمنفصل لم يكن حجة. وإذا ما علمنا أن البلخي يرى المتصل تخصيصاً، وأن الكرخي لا يراه - يظهر لنا الفرق بين ما ذهب إليه =

- عليه السلام -: «حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»^(١)، وهي المعاهدة المَبَايَعَة .

قال ابن العَرَبِيِّ^(٢): قال علماؤنا: وفي الآية دليل على أَنَّ مِلْكَ اليمين لا حَقَّ له في الوَطءِ والقَسَمِ^(٣)؛ لأنَّ المعنى: فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِي الْقَسَمِ، فواحدة، أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، فجعل سبحانه مِلْكَ اليمين كَلَّةً بمنزلةِ الواحدة، فَأَنْتَفَى بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلأَمَةِ حَقٌّ فِي وَطءٍ أَوْ قَسَمٍ. انتهى من «الأحكام».

وقوله: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾، أَدْنَى: معناه: أقرب ألا تعولوا، أي: ألا تميلوا، قاله ابن عباس وغيره^(٤)، وقالت فرقة: معناه: أدنى ألا يكثُر عِيَالُكُمْ^(٥)، وَقَدَحَ فِي هَذَا الرِّجَاجِ وغيره.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (٤) وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً...﴾ الآية: قال ابن عَبَّاس وغيره: الآية خطابٌ للأزواج^(٦) وقال أبو صَالِحٍ: هي خطابٌ لأولياءِ النِّسَاءِ؛ لأنَّ عَادَةً بَعْضِ الْعَرَبِ

= البلخي وما ذهب إليه الكرخي، ويكون للتفصيل وجه عند البلخي، ولا وجه له عند الكرخي، وعليه فما في «التقرير والتجوير» شرح «التحرير» من أن قول البلخي هو بعينه قول الكرخي غير وجهه، اللهم إلا باعتبار المآل والنتيجة؛ إذ على المذهبين المنفصل يجعل العام غير حجة في الباقي، والمتصل يجعله حجة وإن سماه البلخي تخصيصاً دون الثاني.

ينظر: «العام» لشيخنا محمد حسن ص ٢١٧ وما بعدها.

(١) تقدم تخريجه، وهو حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١/٣١٤).

(٣) القسم والنشوز:

القَسَمُ: بفتح القاف مع سكون السين بمعنى العدل بين الزوجات في المبيت، وهو المراد هنا، ومع فتح السين: اليمين، وبكسر القاف مع سكون السين بمعنى: الحظ، والنصيب، ومع فتح السين: جمع قِسْمَة، وقد تطلق على النصيب أيضاً.

(٤) أخرجه الطبري (٥٨٢/٣) برقم (٨٥٠٢)، (٨٥٠٣).

وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢١١)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (٥٨٣/٣) برقم (٨٥٠٧) عن ابن زيد، وذكره البغوي (١/٣٩٢) عن الشافعي.

وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/٢) عن زيد بن أسلم، وابن زيد، والشافعي.

وذكره أيضاً السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢١١)، وعزاه لابن جرير عن ابن زيد.

(٦) ذكره ابن عطية الأندلسي في «المحرر الوجيز» (٨/٢).

كَانَتْ أَنْ يَأْكُلَ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ مَهْرَهَا، فَرَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْإِسْلَامِ^(١)، وقيل: إن الآية في المتشاعرين^(٢) الذين يتزوجون امرأةً بأخرى، فَأَمَرُوا أَنْ يَضْرِبُوا الْمُهْوَ.

(١) أخرجه الطبري (٥٨٣/٣) برقم (٨٥١٢)، وذكره البغوي (٣٩٢/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٢/٢)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) الشَّعَارُ في اللغة: الرفع، من قولهم: شجر البلد عن السلطان، إذا خلا عنه؛ لخلوه عن الصداق، أو لخلوه عن بعض الشرائط. وقيل: مأخوذ من قولهم: شجر الكلب برجله، إذا رفعها ليبول، كأن كُلاً من الوليين يقول للآخر: لا تدفع رجل ابنتي حتى أرفع رجل ابنتك. وفي التشبيه بهذه الهيئة القبيحة تقييح للشغار وتغليظ على فاعله.

وأما معناه شرعاً، فهو أن يزوج الرجل موليته على أن يزوجه الآخر موليته ليس عنهما صداق. وقد قال عياض عن بعض العلماء: كان الشغار من نكاح الجاهلية يقول: شاغرني وليتي بوليتك، أي عاوضني جماعاً بجماع.

وقسم علماء المالكية الشغار إلى ثلاثة أقسام:

الأول: صريح الشغار، وهو أن يقول الرجل لصاحبه: زوجني ابنتك مثلاً على أن أزوجك ابنتي مثلاً من غير صداق.

الثاني: وجه الشغار، وهو أن يقول له زوجني ابنتك بمائة على أن أزوجك ابنتي بمائة.

الثالث: المركب منهما، وهو أن يقول له: زوجني ابنتك بلا شيء على أن أزوجك ابنتي بمائة، فالصريح هو الخالي من الصداق من الجانبين، والوجه هو المسمى فيه الصداق من الجانبين، والمركب هو المسمى فيه لواحدة دون الثانية.

ويحرم الإقدام عليه بجميع أنواعه، لقوله ﷺ: «لَا شِعَارَ فِي الْإِسْلَامِ».

ولما كان المالكية قد قسموا الشغار إلى الأقسام الثلاثة المتقدمة نبين الحكم عندهم في هذه الأقسام: أما صريح الشغار فقالوا: يفسخ مطلقاً قبل الدخول وبعده، ولو ولدت الأولاد، ولا شيء للمرأة قبل الدخول، ولها بعده صداق المثل، وأما وجه الشغار، فقالوا: يفسخ قبل الدخول، ولا شيء فيه للمرأة، ويثبت بعده بالأكثر من المسمى وصداق المثل. وأما المركب منهما، فيفسخ قبل الدخول في كل، ولا شيء فيه للمرأة، ويثبت نكاح المسمى لها بعد الدخول بالأكثر من المسمى وصداق المثل، ويفسخ نكاح من لم يسم لها، ولها صداق المثل.

وقد اختلف الفقهاء في نكاح الشغار هل هو صحيح أو فاسد وحصر الخلاف في مسألتين:

المسألة الأولى: إذا لم يسميا صداقاً لواحدة منهما، بل يجعلان بضع كل صداقاً للأخرى، وهو المسمى بصريح الشغار. وقد اختلف الفقهاء في صحة هذا النكاح وفساده.

فذهب المالكية والحنابلة والظاهرية والشافعية إلى القول بفساد النكاح في هذه الحالة، إلا أن الشافعية كما يفهم مما جاء في كتبهم يقولون: إن محل فساد النكاح في هذه الحالة إذا جعل بضع كل واحدة منهما صداقاً للأخرى. وأما إذا لم يجعل بضع كل منهما صداقاً للأخرى، فالأصح عندهم الصحة للنكاحين. وذهب الحنفية إلى القول بصحة النكاح، وأنه يجب لكل واحدة منهما مهر مثلها، وحكي هذا عن عطاء، وعمرو بن دينار، ومكحول، والزهرري، والثوري.

استدل الحنفية ومن معهم بما يأتي: قالوا: لما جعلنا بضع كل منهما صداقاً للأخرى، فقد سميا ما لا =

= يصلح صداقاً، والنكاح لا تبطله الشروط الفاسدة، وإذا كان الأمر كذلك صح النكاح، ووجب مهر المثل، كما لو سميا خمراً أو خنزيراً، فيكون حاصل هذا الدليل أن فسادَه من جهة المهر، وفساد المهر لا يوجب فساد العقد.

ويرد هذا الدليل بأن الفساد هنا ليس من جهة المهر بل فسادَه من جهة أن أوقفه على شرط فاسد يوجب فساد العقد؛ إذ فيه التشريك في البضع؛ لأن كل واحد منهما جعل بضع موليته مورداً للنكاح وصداقاً للآخرى، فأشبه تزويجها من رجلين، وهو باطل، فكذلك ما هنا، على أن هذا معقول في مقابلة النص، وهو باطل.

واستدل المالكية ومن معهم بالسنة والمعقول: أما السنة، فأولاً ما روي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الشغار» ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن الرسول ﷺ نهى عن الشغار، والنهي يدل على فساد المنهي عنه؛ فوجب أن يكون الشغار فاسداً. وهذا الذي روي عن أبي هريرة روي مثله أيضاً صحيحاً مسنداً عن ابن عمر؛ فقد روي عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار. متفق عليه. وروي أيضاً من طريق جابر وأنس.

ثانياً: ما روي أن النبي ﷺ قال: «لا شغار في الإسلام» ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن النبي ﷺ قال: «لا شغار في الإسلام» وهذا يحتمل أمرين؛ نفي وجود الشغار في الإسلام، ونفي صحته، ولا شك أن وجوده في الإسلام دافع؛ فتعين حمل الكلام على نفي الصحة. وأما المعقول، فقد قالوا فيه: إن كل واحد منهما جعل بضع موليته مورداً للنكاح وصداقاً للآخرى، وذلك يوجب فساد العقد كما لو زوج موليته من رجلين.

وقد قيل للمالكية ومن معهم في الأحاديث ما يأتي: أولاً: إن النهي عن نكاح الشغار، ونكاح الشغار هو النكاح الخالي عن العوض، وما هنا نكاح بعوض وهو مهر المثل؛ فلا يكون شغاراً. وترد هذه المناقشة بأن القول بأن هذا نكاح بعوض وهو من المثل غير مستقيم؛ فإن مهر المثل إنما أوجبتوه أتم؛ لتصحيح مذهبكم، وذلك أن الواقع في العقد إنما هو جعل بضع كل منهما في مقابلة بضع الأخرى.

وثانياً: أن النهي يحمل على الكراهة. ويرد هذا بأن الأصل في النهي أن يكون للتحريم، ولا يحمل على الكراهة إلا لدليل، ولا دليل هنا، لا سيما أن الشغار كان من أنكحة الجاهلية، فرفعه الإسلام، ولذلك قال الرسول ﷺ: «لا شغار في الإسلام». وأما تفرقة الشافعية بين ما إذا جعل بضع كل منهما صداقاً للآخرى وبين ما إذا لم يجعل بضع كل منهما صداقاً للآخرى حيث حكموا بالفساد في الصورة الأولى دون الثانية، فتفرقة غير ظاهرة؛ فإن نفي الصداق معناه جعل بضع كل منهما صداقاً للآخرى، ولو لم يصرحا بذلك.

المسألة الثانية: إذا سميا لكل واحدة منهما صداقاً، وهو المسمى بـ «وجه الشغار»، أو سميا لواحدة منهما دون الأخرى، وهو «المركب منهما».

اختلف الفقهاء في صحة النكاح وفساده في هذه الحالة أيضاً: فذهب المالكية والظاهرية إلى القول بالفساد في هذه الحالة أيضاً، وهو الصحيح من مذهب الشافعية، قال ابن شهاب الدين الرملي: ولو سميا أو أحدهما مالا مع جعل البضع صداقاً كان قال: ويضع كل وألف صداق الأخرى؛ بطل في الأصح؛ لبقاء معنى التشريك، والثاني: يصح؛ لأنه ليس على صورة تفسير الشغار؛ ولأنه لم يخل عن المهر. =

= وذهب الحنابلة إلى التفصيل، فقالوا: إذا سمي صداقاً لكل واحدة صح النكاح، ولهم في المهر روايتان، فقيل: تفسد التسمية، ويجب مهر المثل؛ لأن كل واحد منهما لم يرض بالمسمى إلا بشرط أن يزوج وليته صاحبه، فينقص المهر لهذا الشرط، وهو باطل، فإذا احتجنا إلى ضمان النقص صار المسمى مجهولاً فبطل. وعند بطلان المسمى يرجع إلى مهر المثل. والرواية الثانية: أنه يجب المسمى لأنه ذكر قدراً معلوماً يصح أن يكون مهراً، فصح.

وأما إن سمي صداقاً لواحدة دون الأخرى، فقيل: يفسد النكاح فيهما، وقيل: يفسد في التي لم يسم لها صداق، ويصح في التي سمي لها مهر.

استدل الحنابلة ومن وافقهم على القول بصحة النكاح إذا سمي لكل واحدة منهما مهراً - بما روي عن ابن عمر - (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ «نهى عن الشغار» والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه ابنته، ليس بينهما صداق.

ووجه الدلالة من هذا: أنهم قالوا: إن الشغار المنهي عنه هو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه ابنته ليس بينهما صداق. وأما إذا وجد فيه صداق كما هنا، فليس هو من الشغار المنهي عنه، وإذا لم يكن كذلك فيكون صحيحاً.

ويرد هذا الدليل بأن تفسير الشغار الواقع في الحديث ليس هو من كلام الرسول ﷺ، وإنما هو من قول مالك وصل بالمتن المرفوع. وقيل: هو من قول نافع، فقد روى الإسماعيلي من حديث محرز بن عون ومعن بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ «نهى عن الشغار» - قال محرز: قال مالك: والشغار هو أن يزوج الرجل ابنته إلى آخره. وقال في صحيح مسلم من غير طريق مالك أن تفسير الشغار من قول نافع. وإذا ثبت أن تفسير الشغار ليس من قول النبي ﷺ، فلا يكون فيه حجة. وأما المالكية ومن وافقهم، فقد استدلوا بما روي عن الأعرج أن العباس بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أنكح ابنته عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وأنكحه عبد الرحمن ابنته، وكانا جعلاً صداقاً، فكتب معاوية إلى مروان يأمره أن يفرق بينهما، وقال معاوية في كتابه: هذا الشغار الذي نهى عنه رسول الله ﷺ.

ووجه الدلالة من هذا: أن معاوية أمر بفسخ هذا النكاح مع أنه سمي فيه الصداق لكل واحدة منهما، وكان ذلك بمحض من الصحابة، ولم يعرف له منهم مخالف؛ فدل ذلك على فساد، وإلا لما أمر معاوية بفسخه، ولما أقر عليه.

فإن قال قائل: إن هذا اجتهد من معاوية، وعدم إنكار من حضر من الصحابة لا يدل على الرضى والموافقة؛ فإن السكوت في المسائل الاجتهادية لا يكون دليلاً على الرضى. يجاب عن هذا بأن معاوية قال في كتابه: إن هذا هو الشغار الذي نهى عنه رسول الله ﷺ. فقد نسب إلى الرسول لا إلى اجتهداه، وعلى ذلك يحمل سكوت من حضر من الصحابة على موافقتهم له بأن هذا من الشغار الذي نهى عنه الرسول ﷺ. وأما وجه قول الحنابلة فيما إذا سمي لإحدهما مهراً دون الأخرى على رواية أن النكاح يفسد فيهما. فقد قالوا: إنه فسد في إحدهما، فوجب أن يفسد في الأخرى؛ لأن نكاح كل واحدة منهما متوقف على نكاح الأخرى.

وأما على رواية فساد نكاح التي لم يسم لها مهر دون الأخرى، فذلك لأن نكاح التي لم يسم لها خلا من المهر، بخلاف نكاح الأخرى فيفسد. وأما الثانية، فيصح نكاحها؛ لأن فيه تسمية وشرطاً، فأشبه ما لو =

قال * ع^(١) : والآية تتناول هذه التأويلات الثلاث، ونَحْلَةً، أي: عطيةً منكم لهنَّ، وقيل: نَحْلَةً: معناه: شِرْعَةً؛ مأخوذةً من النَحْل، وقيل: التقدير: نَحْلَةً مِنَ اللَّهِ لهنَّ؛ قال ابن العربي: وذلك أَنَّ النحلة في اللغة: العطية عن غير عوض. انتهى.

وقوله: ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا...﴾ الآية: الخطابُ حَسْبَمَا تَقَدَّمُ مِنَ الإِخْتِلَافِ، والمعنى: إِنْ وَهَبْنَا غَيْرَ مَكْرَهَاتٍ، طَيِّبَةً نَفُوسُهُنَّ، والضميرُ في «مِنْهُ» يعودُ على الصَّدَاقِ؛ قاله عكرمة وغيره^(٢)، «وَمَنْ»: تتضمنُ الجنسَ ههنا؛ ولذلك يجوزُ أَنْ تَهَبَ الْمَهْرَ كُلَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: قال اللغويون: الطعَامُ الْهَنِيُّ هو السَّائِغُ الْمُسْتَحْسَنُ الْحَمِيدُ الْمَغْنِيُّ؛ وكذلك المَرِيءُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، قال أبو موسى الأشعري وغيره: نَزَلَتْ فِي كُلِّ مَنْ أَقْتَضَى الصَّفَةَ الَّتِي شَرَطَ اللَّهُ مِنَ السَّفَةِ، كان من كان^(٣)، وقوله: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾، يريد: أَمْوَالَ الْمُخَاطَبِينَ؛ قاله أبو موسى الأشعري، وابنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وغيرهم^(٤)، وقال ابنُ جُبَيْرٍ: يريدُ أَمْوَالَ السُّفَهَاءِ، وَأَضَافَهَا إِلَى الْمُخَاطَبِينَ، إِذْ هِيَ كَأَمْوَالِهِمْ، وَ «قِيَامًا» جَمْعُ قِيَمَةٍ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا...﴾ الآية: قيل: معناه: فَيَمُنْ تَلْزِمَ الرَّجُلَ نَفَقَتَهُ،

= سَمِيَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا.

ويرد هذا بأن الأولى فساد نكاحهما معاً؛ لتوقف نكاح كل على نكاح الأخرى، كما هو القول الأول. والنظر في الأدلة ومناقشتها يقضي بترجيح مذهب من قال بفساد نكاح الشغار مطلقاً، سواء أذكر في كل ذلك صداق لكل واحدة منهما أو لإحدهما دون الأخرى أو لم يذكر في شيء من ذلك صداق. وذلك لأن الجميع يصدق عليه شغار، وقد نهى النبي ﷺ عن الشغار، خصوصاً أن الشغار كان من أنكحة الجاهلية، فجاء الإسلام بهديه.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٨٤/٣) برقم (٨٥١٤) بلفظ «المهر». وذكره ابن عطية (٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٢/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٥٨٨-٥٩١)، برقم (٨٥٥٧)، (٨٥٦٢) عن ابن عباس، وبرقم (٨٥٤٦) عن أبي موسى الأشعري، وبرقم (٨٥٤٣) عن الحسن. وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/٢).

(٥) أخرجه الطبري (٥٩٠/٣) برقم (٨٥٥٩)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٤/٢)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقيل: في المحجورين من أموالهم، و ﴿مَعْرُوفًا﴾: قيل: معناه: أَدْعُوا لَهُمْ، وقيل: معناه: عِدْوُهُمْ وَغَدَاً حَسَنًا، أي: إِنْ رَشِدْتُمْ، دَفَعْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ، ومعنى اللفظة: كُلُّ كَلَامٍ تَعْرِفُهُ النَّفْسُ، وتَأْنَسُ إِلَيْهِ، ويقتضيه الشَّرْعُ.

﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ٧﴾

وقوله: ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ...﴾ الآية: الإبتلاء: الاختبار، و ﴿بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾: معناه: بَلَغُوا مَبْلَغَ الرِّجَالِ بِحُلْمٍ أَوْ حَيْضٍ، / أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، ومعناه: جَرَّبُوا عَقُولَهُمْ، وَقَرَّائِحَهُمْ، ١١٣ ب وتصرفهم، و ﴿آنَسْتُمْ﴾: معناه: عَلِمْتُمْ، وَشَعَرْتُمْ، وَخَبَرْتُمْ، وَمَالِكٌ (رَحِمَهُ اللَّهُ) يَرَى الشَّرْطَيْنِ الْبُلُوغَ^(١)

(١) البلوغ طور من أطوار الحياة، به يستعد الشخص لأداء وظيفته النوعية وهي التناسل، وقريب من هذا قول المارزي: هي قوة تحدث للشخص تنقله من حال الطفولة إلى غيرها. وللبلوغ علامات يعرف بها، بعضها خاص بالإناث، والبعض الآخر يشترك فيه الإناث والذكور، فالقسم الأول: الحمل، والحيض. والقسم الثاني: ثلاثة أنواع:

الأول: خروج المني منهما في البقطة أو النوم، ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَ عَنِ الثَّانِي حَتَّى يَسْتَقِظَ، وَعَنِ الْمَخْنُونِ حَتَّى يُقَيِّقَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ» وقول النبي ﷺ لمعاذ: «خُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا»، وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩] الآية.

الثاني: نبات شعر العانة على فرج الذكر والأنثى. وخالف في ذلك أبو حنيفة (رضي الله عنه) فلم يره علامة للبلوغ مستنداً إلى أن شعر العانة شعر نبت على الجسم كغيره من الشعور، فلا يصلح علامة على البلوغ كغيره.

أما الجمهور، فإنه استند إلى ما ورد من أن النبي ﷺ لما حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، وحكم سعد بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، أمر عليه الصلاة والسلام بأن يكشف عن مؤثرهم، فمن أنبت فهو من المقاتلة، ومن لم ينبت فهو من الذراري، وفي ذلك يقول عطية القرظي: عرضت على رسول الله ﷺ يوم قريظة، فشكوا في، فأمر النبي (عليه السلام) أن ينظر هل أنبت بعد، فنظروا إليّ فلم يجدوني أنبت بعد، فألحقوني بالذرية.

فأنت ترى أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) جعل الإنبات فارقاً بين المقاتلة والذرية، فكان علامة على البلوغ؛ إذ لا يقتل إلا من بلغ. وكذلك ثبت أن عمر (رضي الله عنه) كتب إلى بعض عماله ألا تأخذ الجزية إلا ممن جرت عليه المواسي. ويعني بذلك من نبتت عانته؛ فدل ذلك على أن نبات شعر العانة علامة على البلوغ؛ لأن الجزية لا تؤخذ إلا ممن بلغ. وأيضاً فقد ورد أن غلاماً من الأنصار شرب بامرأة =

والرُّشد^(١) المختبر^(٢)، وحينئذٍ يدفع المال.

قال * ع^(٣) : والبلوغ لم تَسْقُهُ الآيةُ سياقَ الشَّرْطِ، ولكِنَّها حالةُ الغالبِ على بني آدم؛ أنْ تَلْتَمِمْ عقولَهُم فيها، فهو الوقتُ الذي لا يُعْتَبَرُ شَرْطُ الرُّشدِ إلَّا فيه، فقال: إذا بلغ ذلك الوقتُ، فلينظُرْ إلى الشرطِ، وهو الرُّشدُ حينئذٍ؛ وفصاحةُ الكلامِ تدُلُّ على ذلك؛ لأنَّ التوقيفَ بالبلوغ جاء بـ «إِذَا»، والمشروطُ جاء بـ «إِنْ» التي هي قاعِدَةُ حروفِ الشرطِ، «وإذا» ليست بحَرْفِ شرطٍ إلَّا في ضرورة^(٤) الشُّعرِ، قال ابنُ عَبَّاسٍ: الرُّشدُ في العقلِ

= في شعره، فرفع أمره إلى عمر بن الخطاب، فلما كشف عن مؤثره لم يجده أنبت فقال: «لو أنبت الشعر لحددتك». فكل ذلك يفيد أن نبات شعر العامة علامة من علامات البلوغ. وأمَّا ما قاله أبو حنيفة، فغير ظاهر؛ فإن شعر العانة قد امتاز عن غيره من الشعور بأنه لا ينبت إلا عند البلوغ، أما غيره، فقد يتقدم البلوغ كشعر الجسد، وقد يتأخر عنه كشعر اللحية والشارب. ينظر: «نظام الحجر» لشيخنا: سليمان رمضان عثمان.

(١) أمَّا الرشد، فقال كثير من العلماء: إنه الصلاح في المال وحسن التصرف فيه وتشميره وتنميته.

وذهب الشافعي وجماعة إلى أن المراد به الصلاح في المال والدين.

أما طرق معرفته، فتختلف باختلاف أحوال المختبر نفسه، فهي في الذكور الذين يخالطون الناس في الأسواق وغيرها، تختلف عنها في الإناث اللاتي لا يخالطن الناس في الأسواق. والأمر في معرفة الرشد ليس من السهولة بالدرجة التي تظن، فالذين يخالطون الناس في الأسواق يختبرون بدخول الأسواق ومخالطة من فيها حتى يشاهدون ما يجري بين الناس من بيع أو شراء، فينكرون على المغبون، ويغبطون الراجح، وبذلك تحصل لهم الخبرة، ويثبت لهم الرشد.

والذين لا يخالطون بالناس في الأسواق مَن يسمون بالطبقة العليا يدفع إليهم نفقة قليل من الزمن؛ ليرى كيف ينفقونها ويتصرفون فيها، فإن أحسنوا النظر في تصرفها، فقد استبان رشدهم، وثبت استقامة نظرهم، وإلا فهم على السفه وعدم الرشد.

أمَّا الإناث فيختبرن بدفع قليل من المال لشراء ما يلزم للبيت من حاجيات الطهي وما إلى ذلك من كل ما يختص به النساء، عادة، فإن تبين من صنيعهن حسن التصرف واستقامة النظر، فقد تحقق رشدهن.

ينظر: «نظام الحجر» لشيخنا سليمان رمضان عثمان.

(٢) لم يختلف العلماء في أن الصبي إذا بلغ رشيداً زال الحجر عنه، ووجب دفع ماله إليه، وإنما اختلفوا في وقت اختباره ومعرفة متى يحسن التصرف.

فقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه: إن الاختبار قبل البلوغ والمعنى: وبعد التمييز.

وذهب مالك إلى أن الاختبار بعد البلوغ.

ينظر: «نظام الحجر» لشيخنا سليمان رمضان عثمان.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠/٢).

(٤) ظاهرُ عبارة بعضهم أنَّ «إذا» ليست بشرطية، قال: «وإذا ليست بشرطية لحصول ما بعدها، وأجاز سيويه أن يُجازى بها في الشعرِ، وقال: «فعلوا ذلك مضطرين»، وإنما جُوزي بها؛ لأنها تحتاج إلى جواب، =

وتدبير المَالِ لَا غَيْرُ^(١)؛ وهو قولُ ابنِ القَاسِمِ في مَذْهَبِنَا.

وقال الحَسَنُ، وَقَتَادَةَ: الرُّشْدُ فِي الْعَقْلِ والدين^(٢)؛ وهو روايةٌ أيضًا عن مالك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾: نهي منه سبحانه للأوصياء عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى بِغَيْرِ الْوَاجِبِ الْمُبَاحِ لَهُمْ، وَالْإِسْرَافُ: الْإِفْرَاطُ فِي الْفَعْلِ، وَالسَّرَفُ: الْخَطَأُ فِي مَوَاضِعِ الْإِنْفَاقِ، وَبِدَارًا: مَعْنَاهُ: مُبَادَرَةً كِبَرِهِمْ، أَيْ أَنَّ الْوَصِيَّ يَسْتَغْنَمُ مَالَ مَخْجُورِهِ، وَأَنْ يَكْبُرُوا: نَصَبٌ بـ «بِدَارٍ»، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ مَخَافَةً أَنْ يَكْبُرُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾، يُقَالُ: عَفَّ الرَّجُلُ عَنِ الشَّيْءِ، وَاسْتَعَفَّ، إِذَا أَمْسَكَ، فَأَمَرَ الْغَنِيُّ بِالْإِمْسَاكِ عَنِ مَالِ الْيَتِيمِ؛ وَأُبَاحَ اللَّهُ لِلْوَصِيِّ الْفَقِيرِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَالِ يَتِيمِهِ بِالْمَعْرُوفِ.

واختلف العلماءُ فِي حَدِّ «الْمَعْرُوفِ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا يَأْكُلُ الْوَصِيُّ بِالْمَعْرُوفِ؛ إِذَا شَرِبَ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَكَلَ مِنَ التَّمْرِ بِمَا يَهْنَأُ الْجَرْبَاءُ، وَيَلْطُ الْحَوْضُ، وَيُجَدُّ التَّمْرُ، وَمَا أَشْبَهَهُ^(٣)، قُلْتُ: يُقَالُ لِلْقَطِرَانِ: الْهَنَاءُ؛ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؛ كَذَا رَأَيْتُهُ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ.

= وبأنه يليها الفعلُ ظاهراً أو مضمراً، واحتجَّ الخليلُ على عدم شرطيتها بحصول ما بعدها؛ ألا ترى أنك تقول: «أَجِئْتُكَ إِذَا احْمَرَّ الْبُشْرُ»، وَلَا تَقُولُ: «إِنْ احْمَرَّ».

قال الشيخ: «وكلامه يدل على أنها تكون ظرفاً مجرداً ليس فيها معنى الشرط، وهو مخالفٌ للنحويين؛ فإنهم كالمجمعين على أنها ظرفٌ فيها معنى الشرط غالباً، وإن وجد في عبارة بعضهم ما ينفي كونها أداةً شرط، فإنما يعني أنها لا يُجْزَمُ بها لا أنها لا تكون شرطاً». وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ: «تَقْدِيرُهُ: بَلَّغُوا حَدَّ النِّكَاحِ أَوْ وَقْتَهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ إِذِ الْمَعْنَى: صَلِّحُوا لِلنِّكَاحِ. وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ﴾ جَوَابٌ «إِذَا»، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَادْفَعُوا﴾ جَوَابٌ «إِنْ».

ينظر: «الدر المصون» (٣١٢/٢).

(١) أخرجه الطبري (٥٩٤/٣) برقم (٨٥٨٥)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٤/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي. وذكره في (٢١٥/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٥٩٤/٣) برقم (٨٥٨٣) عن قتادة، وبرقم (٨٥٨٤) عن الحسن. وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٥/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن الحسن.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١١/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢١٦/٢)، وعزاه إلى عبد بن حميد، والبيهقي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. وفي (١١/٢)، وعزاه لمالك، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس في «تاسخه» عن القاسم بن محمد عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾: أَمَرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْتَحَرُّزِ وَالْحَزْمِ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْإِشْهَادِ فِي الْمَذْفُوعَاتِ كُلِّهَا؛ إِذَا كَانَ حَبْسَهَا أَوَّلًا مَعْرُوفًا.

قال * ع^(١) *: وَالْأَظْهَرُ أَنَّ ﴿حَسْبِيَ﴾ هُنَا: مَعْنَاهُ: حَاسِبًا أَعْمَالَكُمْ، وَمَجَازِيًا بِهَا، فَفِي هَذَا وَعِيدٌ لِكُلِّ جَا حِدٍ حَقٌّ.

وقوله سبحانه: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَلَدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ الآية: قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَ مِنْهَا مَنْ لَا يُورَثُ النِّسَاءَ، وَيَقُولُونَ: لَا يَرِثُ إِلَّا مَنْ طَاعَنَ بِالرُّمُحِ، وَقَاتَلَ بِالسَّيْفِ^(٢).

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا



وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى...﴾ الآية: اختلف فيمن خُوطِبَ بهذه الآية، فقيل: الخطابُ لِلْوَارِثِينَ، وقيل: لِلْمَحْتَضَرِّينَ؛ والمعنى: إِذَا حَضَرَ كُمْ الْمَوْتُ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَقَسَمْتُمْ أَمْوَالَكُمْ بِالْوَصِيَّةِ، وَحَضَرَ كُمْ مَنْ لَا يَرِثُ مِنْ ذَوِي الْقَرَابَةِ، وَالْيَتَامَى، فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٣).

وَأُخْتَلَفَ، هَلْ هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمَوَارِيثِ، أَوْ هِيَ مُحْكَمَةٌ؟ وَعَلَى أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ، فَهَلِ الْأَمْرُ عَلَى الْوُجُوبِ، فَيُعْطَى لَهُمْ مَا خَفَّ، أَوْ عَلَى التَّدْبِ؟ خِلَافٌ.

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ﴾: عَائِدٌ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ، وَالْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ: كُلُّ مَا يَتَأَسَّسُ بِهِ؛ مِنْ دَعَاءٍ، أَوْ عِدَّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا



وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ الآية: اختلف، مَنِ الْمَرَادُ

(١) ينظر: «المحرر» (١٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٦٠٤/٣) برقم (٨٦٥٧)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣٩٦/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٦٠٨/٣) برقم (٨٦٨٩)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٩/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه» عن ابن عباس.

في هذه الآية؟ فقال ابن عباس وغيره: المراد: مَنْ حَضَرَ مِيتاً حِينَ يَوْصِي، فيقول له: قَدْ مَرَّ لِنَفْسِكَ، وَأَعْطِ لِفُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَيُؤْذِي الْوَرِثَةَ بِذَلِكَ^(١)، فكَأَنَّ الْآيَةَ تَقُولُ لَهُمْ: كَمَا كُنْتُمْ تَخْشَوْنَ عَلَى وَرَثَتِكُمْ وَذُرِّيَّتِكُمْ بَعْدَكُمْ، فَكَذَلِكَ فَاخْشَوْا عَلَى وَرَثَةِ غَيْرِكُمْ/، وَلَا تَحْمِلُوهُ ١١٤ عَلَى تَبْذِيرِ مَالِهِ، وَتَرْكِهِمْ عَالَةً، وَقَالَ مَقْسَمٌ وَحَضْرَمِيٌّ: نَزَلَتْ فِي عَكْسِ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لِلْمُخْتَصِرِ: أَمْسِكْ عَلَى وَرَثَتِكَ، وَأَبْقِ لَوَلَدِكَ، وَنَهَاهُ عَنِ الْوَصِيَّةِ، فَيَضُرَّ بِذَلِكَ ذَوِي الْقَرْبَى، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينَ، وَكُلٌّ مِنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَوْصَى لَهُ^(٢)؛ فَقِيلَ لَهُمْ: كَمَا كُنْتُمْ تَخْشَوْنَ عَلَى ذُرِّيَّتِكُمْ، وَتُسِرُّونَ بِأَنْ يَحْسَنَ إِلَيْهِمْ؛ فَكَذَلِكَ فَسَدِّدُوا الْقَوْلَ فِي جِهَةِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ.

قال *ع^(٣)*: والقولان لا يطرذان في كل الناس، بل الناس صنفان؛ يصلح لأحدهما القول الواحد، وللآخر القول الثاني؛ وذلك أن الرجل، إذا ترك ورثة أغنياء، حَسَنَ أَنْ يُنْدَبَ إِلَى الْوَصِيَّةِ، وَيُحْمَلَ عَلَى أَنْ يَقْدَمَ لِنَفْسِهِ، وَإِذَا تَرَكَ وَرَثَةً ضِعْفَاءَ مَقْلِينَ، حَسَنَ أَنْ يُنْدَبَ إِلَى التَّزْكِيَةِ لَهُمْ، وَالْإِحْتِيَاظِ؛ فَإِنَّ أَجْرَهُ فِي قَضْدِ ذَلِكَ كَأَجْرِهِ فِي الْمَسَاكِينِ، فَالْمُرَاعَاةُ إِنَّمَا هِيَ الضَّعْفُ، فَيَجِبُ أَنْ يُمَالَ مَعَهُ.

وقال ابن عباس أيضاً: المراد بالآية: ولاية الأيتام^(٤)، فالمعنى: أحسنوا إليهم، وسددوا القول لهم، واتقوا الله في أكل أموالهم؛ كما تخافون على ذُرِّيَّتِكُمْ أَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ خِلَافُ ذَلِكَ.

وقالت فرقة: بل المراد جميع الناس، فالمعنى: أمرهم بالتقوى في الأيتام، وأولاد الناس، والتشديد لهم في القول، وإن لم يكونوا في حُجُورِهِمْ؛ كما يريد كل أحد أن يفعل بولده بَعْدَهُ، والسديد: معناه: المصيب للحق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهِمْ خُلَافًا ۖ إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٥)

(١) أخرجه الطبري (٦١١/٣) برقم (٨٧٠٩)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٩/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٦١٣/٣) برقم (٨٧١٨)، (٨٧١٩) عن مقسم، وبرقم (٨٧٢٠) عن حضرمي. وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/٢) عنهما.

(٣) بنظر: «المحرر الوجيز» (١٣/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٦١٤/٣) برقم (٨٧٢١)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٤/٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا...﴾ الآية: أَكْثَرُ النَّاسِ أَنْ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْأَوْصِيَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مَا لَمْ يُبَخَّ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ، وَهِيَ تَتَنَاوَلُ كُلَّ أَكَلٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَصِيًّا، وَوَرَدَ فِي هَذَا الْوَعِيدِ أَحَادِيثٌ؛ مِنْهَا: حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا النَّبِيُّ ﷺ، عَنْ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ، قَالَ: «رَأَيْتُ قَوْمًا لَهُمْ مَسَافِرُ كَمَسَافِرِ الْإِبِلِ، وَقَدْ وُكِّلَ بِهِمْ مَنْ يَأْخُذُ بِمَسَافِرِهِمْ، ثُمَّ يَجْعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ صَخْرًا مِنْ نَارٍ تَخْرُجُ مِنْ أَسَافِلِهِمْ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا»^(١).

قُلْتُ: تَأَمَّلْ (رَحِمَكَ اللَّهُ) صَدَرَ هَذِهِ السُّورَةِ مَعْظَمُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي شَأْنِ الْأَجُوفَيْنِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ مَعَ اللِّسَانِ، وَهُمَا الْمُهْلِكَانِ، وَأَعْظَمُ الْجَوَارِحِ آفَةٌ وَجَنَائَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ مَالِكٍ فِي «الْمَوْطَأِ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ اثْنَيْنِ، وَلَجَّ الْجَنَّةَ: مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ»^(٢).

قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ»: وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ أَرَادَ ﷺ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ: اللِّسَانُ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ: الْفَرْجُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ولهذا أَرَدَفَ مَالِكٌ حَدِيثَهُ هَذَا بِحَدِيثِهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَهُوَ يَجِيدُ لِسَانَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَهْ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ^(٣)، قَالَ أَبُو عُمَرَ: وَفِي اللِّسَانِ أَثَارٌ كَثِيرَةٌ، ثُمَّ قَالَ أَبُو عُمَرَ: وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ الْأَجُوفَانِ: الْبَطْنُ، وَالْفَرْجُ، ثُمَّ أَسْنَدَ أَبُو عُمَرَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَتَكَفَّلْ لِي بِمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، وَأَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٤)، وَمِنْ طَرِيقِ جَابِرٍ نَحْوَهُ. انْتَهَى.

وَالصَّلَى: هُوَ التَّسَخُّنُ بِقُرْبِ النَّارِ أَوْ بِمَبَاشَرَتِهَا، وَالْمُخْتَرِقُ الَّذِي يَذْهَبُ الْحَزَقُ لَيْسَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ٦١٥) بِرَقْمِ (٨٧٢٥)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (١/ ٢٢١)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (٢/ ٩٨٧-٩٨٨) كِتَابَ «الْكَلَامِ»، بَابُ مَا جَاءَ فِيهِمَا يَخَافُ مِنَ اللِّسَانِ، حَدِيثُ (١١) مِنْ حَدِيثِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مَرْسَلًا.

(٣) أَخْرَجَهُ مَالِكُ الْمَصْدَرِ السَّابِقِ (١٢):

وَأَخْرَجَهُ هِنَادُ بْنُ السَّرِيِّ فِي «الزَّهْدِ» (٢/ ٥٣١) بِرَقْمِ (١٠٩٣)، وَوَكَّعَ فِي «الزَّهْدِ» بِرَقْمِ (٢٨٧).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١/ ٣١٤)، كِتَابَ «الرَّقَاقِ»، بَابُ حِفْظِ اللِّسَانِ، حَدِيثُ (٦٤٧٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤/ ٥٢٤) كِتَابَ «الزَّهْدِ»، بَابُ مَا جَاءَ فِي حِفْظِ اللِّسَانِ، حَدِيثُ (٢٤٠٨)، وَأَحْمَدُ (٥/ ٣٣٣)، وَابُغْيَا فِي «شَرْحِ السَّنَةِ» (٧/ ٣٣٦). بِتَحْقِيقِنَا.

بصَالٍ/ إِلَّا فِي بَدْءِ أَمْرِهِ، وَأَهْلُ جَهَنَّمَ لَا تُذْهِبُهُمُ النَّارُ، فَهَمَّ فِيهَا صَالُونَ (أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا ١١٤ ب جُودِهِ وَكَرَمِهِ)، وَالسَّعِيرُ: الْجَمْرُ الْمُشْتَعِلُ. وَهَذِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ، وَالَّذِي يَعْتَقِدُهُ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ ذَلِكَ نَافِذٌ عَلَى بَعْضِ الْعَصَاةِ؛ لِثَلَاثٍ يَقَعُ الْخَبَرُ بِخِلَافِ مَخْبَرِهِ، سَاقِطٌ بِالْمَشِيئَةِ عَنْ بَعْضِهِمْ.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلِأَبَائِهِ وَلِأُمَّهُمَا لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ مَّأْبَأُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...﴾ الآية: تتضمن الفرض والوجوب، قيل: نَزَلَتْ بِسَبَبِ بَنَاتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ. وقيل: بِسَبَبِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

وقوله: ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: حظ مثل حظ الأنثيين.

وقوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾، معناه: اثنتان فَمَا فَوْقَهُمَا تَقْتَضِي ذَلِكَ قُوَّةَ الْكَلَامِ، وَأَمَّا الْوُقُوفُ مَعَ اللفظ، فَيَسْقُطُ مَعَهُ النَّصُّ عَلَى الْإُنثَيَيْنِ، وَيُثْبِتُ الثَّلَاثَانِ لِهَمَا؛ بِالْإِجْمَاعِ، وَلَمْ يَحْفَظْ فِيهِ خِلَافٌ إِلَّا مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ يَرَى لِهَمَا النِّصْفَ، وَيُثْبِتُ لِهَمَا أَيْضًا ذَلِكَ بِالْقِيَاسِ عَلَى الْأَخْتَيْنِ^(١)؛ وَبِحَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ؛ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى لِلْإِثْنَتَيْنِ بِالثَّلَاثَيْنِ»^(٢).

(١) ذكره ابن عطية (١٥/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٥٢)، وأبو داود (٣/٣١٦)، كتاب «الفرائض»، باب ميراث الصلب، حديث (٢٨٩٢)، والترمذي (٤/٤١٤) كتاب «الفرائض»، باب ميراث البنات، حديث (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢/٩٠٨) كتاب «الفرائض»، باب فرائض الصلب، حديث (٢٧٢٠)، وابن سعد (٣/٧٨)، والحاكم (٤/٣٣٣ - ٣٣٤) كتاب «الفرائض»، باب إذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض. والبيهقي (٦/٢١٦) كتاب «الفرائض»، باب توريث ذوي الأرحام، كلهم من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بأبنتها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله!! هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلا يدع لهما مالاً، ولا تتكحان إلا ولهما مال. قال: «يقضي الله في ذلك». فنزلت آية الميراث، فبعت رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك». قال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾: المعنى: وَلَا وَلَدٌ وَلَدٌ، ذَكَرَ كَانَ أَوْ أُنْثَى، ﴿فَلَأَمَّهُ الثُّلُثُ﴾، أي: وَلِلْأَبِ الثُّلُثَانِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَأَمَّهُ السُّدُسُ﴾، أي: كانوا أشقاءً أو للأب أو للأم، والإجماع على أنهم لا يأخذون السُّدُسَ الذي يحجبون الأم عنه؛ وكذا أجمعوا على أن أخوين فصاعداً يحجبون^(١) الأم عنه إلا ما روي عن ابن عباس؛ من أن الأخوين في

= وقال الترمذي: حسن صحيح.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٢٢)، وعزاه إلى ابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وأبي داود، والترمذي، وابن ماجه، ومسدد، والطيالسي، وابن أبي عمر، وابن منيع، وابن أبي أسامة، وأبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي عن جابر.

(١) هو لغة: المنع، وشرعاً: منع شخص معين عن ميراثه إما كله أو بعضه بوجود شخص آخر. والمراد بقولنا «عن ميراثه»: أن يقوم به سبب الإرث كالقربة، فيمنع عنه. وقولنا: «إما كله أو بعضه»، (أو) فيه للتنوع لا للشك. فالأول حجب الحرمات، والثاني حجب نقصان. ولهذا المبحث شأن عظيم في الفرائض، فمن لم يعرف الحجب لا يعد عالماً بالفرائض، ويحرم عليه أن يفتي فيها.

وهو في حد ذاته قسمان:

أ: حجب بالأوصاف، وهي الموانع السابقة التي هي الرق والقتل... إلخ.

ب: حجب بالأشخاص، وهو المراد من عبارة الفرضيين عند إطلاقهم لفظ الحجب. وهذا على نوعين:

١- حجب حرمان ٢- حجب نقصان والورثة في الحجب على ثلاثة أصناف:

الأول: أن يكون كل من الحاجب والمحجوب عصبة. وفي هذه الحالة قد يكون الحجب حجب حرمان كما إذا كانا في جهة واحدة، ولكن أحدهما أقرب درجة من الآخر، فإن الأقرب يحجب الأبعد. وقد يكون حجب نقصان كالعصبتين المتساويتين في القرب كالابنين مثلاً؛ فإن كل واحد منهما يحجب عن ميراث الكل إلى البعض بوجود الآخر.

الثاني: إذا كانا من أهل السهام، وفي هذه الحالة أيضاً يكون حجب حرمان ونقصان، فالأول: كما إذا اجتمع أولاد الأم مع البنات وبنات الابن. والثاني: كالأم مع البنات والأخوات. والأخت لأب مع الشقيقة. الثالث: إذا كان أحدهما عاصياً والآخر ذا فرض: ولا يخلو الحال من أن يكون الحاجب ذا سهم والمحجوب عصبة، فيحجب العصبة حيثئذ حجب نقصان بذئ السهم، كالبنات مع الابن، والأخت مع الأخ؛ فإنه لو لم تكن الأنثى لصار جميع المال للذكر، وبوجود الأنثى انتقص نصيبه.

أو يكون الحاجب عصبة والمحجوب ذا سهم. وفي هذه الحالة قد يكون الحجب حجب نقصان، كما إذا ترك الميت أختين شقيقتين وأختين لأم وأم، فالمسألة في الأصل في سنه، وتعمل بسدسها إلى سبعة، ويكون للأختين الثلثان: «أربعة» من سبعة، فلو ترك معهما أختاً شقيقاً لكان لهما معه ثلاثة من ستة.

وقد يكون حجب حرمان كبنت الابن مع الابن أو كأخ شقيق مع الأخت لأب.

انظر: «الموارث» لشيوخنا وهبة إبراهيم.

حُكْمُ الْوَاحِد^(١).

وقدّم الوصية في اللفظ؛ اهتماماً بها، وندباً إليها؛ إذ هي أقلُّ لزوماً من الدّين؛ وأيضاً: قدّمها لأنّ الشرع قد حضّ عليها فلا بُدَّ منها، والدّين قد يكون وقد لا يكون؛ وأيضاً: قدّمها إذ هي حظّ مساكينٍ وضعافٍ، وآخر الدّين؛ لأنه حقٌّ غريم يطلبه بقوة، وله فيه مقال، وأجمع العلماء على أنّ الدّين مقدّم على^(٢) الوصية، والإجماع على أنه لا يوصى بأكثر من الثلث، وأسحب كثيرٌ منهم ألاّ يبلغ الثلث.

وقوله تعالى: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ رفعُ بالابتداء، والخبرُ مضمّرٌ، تقديره: هم المَقْسُوم عليهم، أو هم الْمُعْطُونَ، وهذا عَرْضٌ للحكمة في ذلك، وتأنيسٌ للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه الصّفة.

قال ابن زَيْد: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾، يعني: في الدنيا والآخرة^(٣)، قال الفخر^(٤): وفي الآية إشارة إلى الانقياد إلى الشرع، وترك ما يميل إليه الطبع. انتهى.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِيَتْ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِيَتْ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُوسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِيَتْ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٣/٢)، وعزاه لابن جرير، والحاكم، وصححه، والبيهقي في «سننه».

(٢) من الحقوق التي تثبت على العبد الديون المرسلة في الذمة، فتقدم على الوصية، وسميت مرسلة؛ لأنها أرسلت، أي أطلقت عن تعلقها بعين التركة. ويجب تقديم دين الله على دين الآدمي إذا مات ولم يؤدهما ثم ضاقت التركة عنهما؛ لقوله ﷺ: «دين الله أحق بالقضاء».

أما قبل الموت، فإن كان محجوراً عليه قدم دين الآدمي جزءاً، ولو اجتمع عليه ديون لله (تعالى) قدمت الزكاة إن كان النصاب موجوداً، وإلا فتستوي الحقوق. وإنما قدمت الديون المرسلة في الذمة على الوصية، لأن تلك الديون حق واجب على الميت، فقضاؤه مقدم، والوصية تبرع؛ فلذا أخرجت. ينظر: «الموارث» لشيخنا هبة إبراهيم.

(٣) أخرجه الطبري (٦٢٤/٣) برقم (٨٧٤٦)، وذكره البغوي (٤٠٣/١)، وابن عطية (١٨/٢).

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٧٧/٩).

اللَّهُ وَرَسُولُهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَفْوَزُ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد...﴾ الآية: الولد هنا في هذه الآية، وفي التي بعدها: هُم بَنُو الصُّلْبِ، وَبَنُو ذُكُورِهِمْ، وَإِنْ سَقَلُوا، وَالْكَالَاءَةُ: خُلُو الْمَيِّتِ عَنِ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ؛ هذا هو الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿وله أخ أو أخت...﴾ الآية: الإجماع على الأخوة في هذه الآية للأُمِّ، وأما حُكْم سائر الإخوة سواهم، فهو المذكور في آخر السورة.

وقرأ^(١) سعدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ^(٢): «وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ لِأُمِّهِ»، والأنثى والذكر في هذه النِّازلة سواء، بإجماع.

وقوله سبحانه: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾، قال ابن عباس: «الضَّرَارُ فِي الْوَصِيَّةِ مِنَ الْكَبَائِرِ» ورواه^(٣) عن النبي ﷺ، وروى أبو هريرة؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ ضَارَّ فِي وَصِيَّتِهِ، أَلْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَادٍ فِي جَهَنَّمَ»^(٤).

(١) ينظر: «الكشاف» (٤٨٦/١)، و«المحرر الوجيز» (١٩/١)، و«البحر المحيط» (١٩٨/٣)، و«الدر المصون» (٣٢٦/٢)، وفيه: «من أم».

(٢) هو: سعد بن مالك (واسم مالك: أبي وقاص) بن أهيب (وقيل: وهيب) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. أبو إسحاق. القرشي. الزهري. أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم موتاً. وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وهو أول من كوف بـ «الكوفة»، روى عن النبي كثيراً، روى عنه بنوه: إبراهيم، وعامر، ومصعب، وعمر، ومحمد، وعائشة. وروى عنه من الصحابة: عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وجابر بن سمرة. وروى عنه من كبار التابعين: سعيد بن المسيب، وأبو سعيد الهندي، وقيس بن أبي حازم، وعلقمة، والأحنف، وغيرهم. وهو صحابي مشهور كتب في سيرته مؤلفات كثيرة. توفي سنة (٥٥)، وقيل: سنة (٥٨)، وقيل: (٥١)، وقيل: (٥٧).

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣٦٦/٢)، و«الإصابة» (٨٣/٣)، و«بقي بن مخلد» (١٦)، و«صيانة مسلم» (٢٤٠)، و«التبصرة والتذكرة» (٢٠٦/٣)، و«الزهد الكبير» (١١٣)، و«التعديل والتجريح» (١٣٠٠)، و«الزهد» لوكيع (٩٨)، و«الأنساب» (٣٥/١)، و«تفسير الطبري» (٨٧٧٢/٨)، و«تقريب التهذيب» (٢٩٠/١)، و«تهذيب التهذيب» (٤٨٣/٣)، و«تاريخ بغداد» (١٤٤/١).

(٣) أخرجه الطبري (٦٣٠/٣) برقم (٨٧٨٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٧/٢)، وعزاه للنسائي، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبه في «المصنف»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

قال * ع^(١) *: «ووجوه المضارة كثيرة؛ من ذلك: أن يُقرَّ بحقِّ ليس عليه، أو يُوصي بأكثر من ثلثه، أو لوارثه.

قال * ص *: «غَيْرُ مُضَارٍّ»: منصوبٌ على الحال: أي: غَيْرُ مُضَارٍّ وَرَثَتُهُ. انتهى.

قلت: وتقدير أبي^(٢) حَيَّان: «وَرَثَتُهُ» ياباه فصاحةً ألفاظِ الآية؛ إذ مقتضاها العموم، فلو قال: «غَيْرُ مُضَارٍّ وَرَثَتُهُ، أو غَيْرِهِمْ»، لكان أحسنَ، لكن الغالبُ مُضَارَّةُ الورثة، فلهذا قَدَرَهُمْ/.

١١٥

وقوله تعالى: ﴿تلك حدود الله...﴾ الآية: «تِلْكَ»: إشارةٌ إلى القِسْمة المتقدِّمة في الموارِث، وباقي الآية بيِّن.

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا نَأْسِكُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ...﴾ الآية: الْفَاحِشَةُ؛ في هذا الموضع: الزَّنا، وقوله: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾، إضافةٌ في معناها الإسلام، وجعل الله الشهادة على الزَّنا خاصَّة لا تَتِمُّ إِلَّا بأربعة شُهَدَاء، تَغْلِيظًا على المُدَّعي، وسِتْرًا على العباد.

قلت: ومن هذا المعنى اشتراطُ رؤية كَذَا في كَذَا؛ كَالْمِرْوَدِ في الْمُكْحَلَةِ.

قال * ع^(٣) *: «وكانت أولُ عقوبة الزَّناةِ الإِمْسَاكُ في البُيُوتِ، ثم نُسِخَ ذلك بالأدَى الَّذِي بَعْدَهُ، ثم نُسِخَ ذلك بآيةِ الثَّورِ وبالرَّجْمِ في الثَّيِّبِ؛ قاله عبادة بن الصَّامت وغيره^(٤)، وعن عمران بن حصين؛ أنه قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ، وَوَجْهُهُ مُحْمَرٌّ، فَقَالَ: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا؛ الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ، وَالثَّيِّبُ بِالْثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ»، خَرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٥)، وهو خَبَرٌ آحَادٌ، ثم ورد في الْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ؛ أَنَّ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢٠).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٩٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢١).

(٤) وسيأتي حديثه وحديث عمران بن حصين.

(٥) أخرجه مسلم (٣/ ١٣١٦)، كتاب «الحدود»، باب حد الزنى، حديث (١٢/ ١٦٩٠)، وأبو داود (٤/

٥٦٩- ٥٧٠) كتاب «الحدود»، باب في الرجم، حديث (٤٤١٥)، والترمذي (٤١/ ٤) كتاب

«الحدود»، باب الرجم على الثيب، حديث (١٤٣٤)، والدارمي (٢/ ١٨١)، كتاب «الحدود»، باب في =

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَمَ، وَلَمْ يَجْلِدْ^(١)، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ السُّنَّةَ الْمَتَوَاتِرَةَ تَنْسَخُ.....

= تفسير قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وأحمد (٣١٣/٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠-٣٢١)، وابن أبي شيبة (٨/١٠)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٢٩٨-منحة) رقم (١٥١٤)، وابن الجارود في «المنتقى» (٨١٠)، والطبري في «تفسيره» (٤/١٩٨)، وابن حبان (٤٤٠٨، ٤٤٠٩، ٤٤١٠، ٤٤٢٦-الإحسان)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/١٣٤)، وفي «مشكل الآثار» (١/٩٢)، والبيهقي (٨/٢١٠) كتاب «الحدود»، باب جلد الزانين ورجم الثيب، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/١١٣) من طرق عن الحسن بن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عباد بن الصامت به. والحديث أخرجه الشافعي (٢/٧٧) كتاب «الحدود»، باب الزنا، حديث (٢٥٢)، والطيالسي (١/ ٢٩٨-منحة) رقم (١٥١٤)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/٣٢٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٥٧-بتحقيقنا) من طريق الحسن بن عباد بن الصامت دون ذكر حطان بن عبد الله. قلت: ولعل ذلك من تدليسات الحسن. فأسقط حطان بن عبد الله، ورواه عن عباد دون واسطة. تنبيه: وهذا الحديث أخرجه ابن ماجة (٢/٨٥٢) كتاب «الحدود»، باب حد الزنا، حديث (٢٥٥٠) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن حطان بن عبد الله عن عباد بن الصامت. قال الحافظ المزي في «تحفة الأشراف» (٤/٢٤٧): هذا وهم والله أعلم - فإن المحفوظ بهذا الإسناد حديث حطان - اهـ.

وقد روى هذا الحديث الفضل بن دلهم عن الحسن بن قبيصة بن حريث عن سلمة بن المحبق عن النبي ﷺ قال: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً.....» الحديث. أخرجه أحمد (٤٧٦/٣).

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/٤٥٦) رقم (١٣٧٠): سألت أبي عن حديث رواه الفضل بن دلهم عن الحسن بن قبيصة بن حريث عن سلمة بن المحبق عن النبي ﷺ: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً..» الحديث، قال أبي: هذا خطأ، إنما رواه الحسن عن حطان عن عباد بن الصامت عن النبي ﷺ اهـ.

ومن هذا الطريق ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٢٦٧)، وقال: رواه أحمد، وفيه الفضل بن دلهم، وهو ثقة ولكنه أخطأ في هذا الحديث.

(١) تواتر عن النبي ﷺ أنه رجم ماعزاً والغامدية، ورجم يهوديين. وإليك تخريج هذه الأحاديث:

* حديث رجم ماعز:

ورد حديث رجم ماعز عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ، وهم: ابن عباس، وجابر، وأبو هريرة، وبريدة، وجابر بن سمرة، وأبو سعيد الخدري، ونعيم بن هزال، وأبو بكر الصديق، وأبو ذر، ورجل من الصحابة، وسهل بن سعد، وأبو برزة، وسعيد بن المسيب مرسلاً، والشعبي أيضاً مرسلاً. ١ - حديث عبد الله بن عباس:

أخرجه مسلم (٣/١٣٢٠) كتاب «الحدود»، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث (١٦٩٣/١٩)، وأبو داود (٤/٥٧٩) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٢٥)، والترمذي (٤/٣٥) كتاب «الحدود»، باب التلقين في الحد، حديث (١٤٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٤/٢٧٩) كتاب «الرجم»، باب الاعتراف بالزنا أربع مرات، حديث (٧١٧١، ٧١٧٢، ٧١٧٣)، وأحمد (١/٢٤٥) =

= ٣١٤، ٣٢٨)، وعبد الرزاق (٣٢٤/٧) رقم (١٣٣٤٤)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٢٩٩ - منحة) رقم (١٥٢٠)، وأبو يعلى (٤٥٣/٤) رقم (٢٥٨٠)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٤٢/٣) باب الاعتراف بالزنى الذي يجب به الحد ما هو، كلهم من طريق سمالك عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال لماعز بن مالك: «أحق ما بلغني عنك؟» قال: وما بلغك عني؟ قال: «بلغني أنك وقعت بجارية آل فلان»، قال: نعم. قال: فشهد أربع شهادات، ثم أمر به، فرجم.

* وللحديث طريق آخر عن ابن عباس:

أخرجه البخاري (١٣٨/١٢) كتاب «الحدود»، باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت؟، حديث (٣٨٢٤)، وأبو داود (٥٨/٤) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٧٨ - ٢٧٩) كتاب «الرجم»، باب مسألة المعترف بالزنا عن كفيته، حديث (٧١٦٩)، وأحمد (٢٣٨/١، ٢٧٠)، والدارقطني (١٢١/٣) كتاب «الحدود والديات»، حديث (١٣١)، (١٣٢)، والبيهقي (٢٢٦/٨) كتاب «الحدود»، باب من قال: لا يقام عليه الحد حتى يعترف أربع مرات، وابن حزم في «المحلى» (١١/ ١٧٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٥/ ٤٦٧ - بتحقيقنا)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٣٨) رقم (١١٩٣٦)، كلهم من طريق جرير بن حازم عن يعلى بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ قال له: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت؟» قال: لا يا رسول الله قال: «أنكته؟» - لا يكتفي - قال: فعند ذلك أمر برجمه.

وأخرجه أبو داود (٥٧٨/٤) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٧٩) كتاب «الرجم»، باب مسألة المعترف بالزنا عن كفيته، حديث (٧١٧٠) كلاهما من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن ماعز بن مالك أتى النبي ﷺ فقال: إنه زنى، فأعرض عنه، فأعاد عليه مراراً، فأعرض عنه، فسأل قومه: «أمجنون هو؟» قالوا: ليس به بأس قال: «أفعلت بها؟» قال: نعم فأمر به أن يرجم، فانطلق به فرجم ولم يصل عليه. وأخرجه أحمد (٢٨٩/١)، (٣٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٧٨) كتاب «الرجم»، باب مسألة المعترف بالزنا عن كفيته، حديث (٧١٦٨)، والدارقطني (٣/ ١٢٢) كتاب «الحدود والديات»، حديث (١٣٣) كلهم من طريق عبد الله بن المبارك عن معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فاعترف بالزنا فقال: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت». واللفظ للنسائي في «الكبرى».

٢ - حديث جابر:

أخرجه البخاري (١٢٩/١٢) كتاب «الحدود»، باب الرجم بالمصلى، حديث (٦٨٢٠)، ومسلم (٣/ ١٣١٨) كتاب «الحدود»، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث (١٦٩١/١٦)، وأبو داود (٤/ ٥٨٠) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٣٠)، والترمذي (٢٨/٤) كتاب «الحدود»، باب ما جاء في درء الحد عن المعترف إذا رجع، حديث (١٤٢٩)، والنسائي (٤/ ٦٢ - ٦٣) كتاب «الجنائز»، باب ترك الصلاة على المرجوم، وأحمد (٣/ ٣٢٣)، وابن الجارود رقم (٨١٣)، والدارقطني (٣/ ١٢٧ - ١٢٨) كتاب «الحدود والديات»، حديث (١٤٦) كلهم من طريق عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٣٢٠)، رقم (١٣٣٣٧) عن معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن جابر؛ أن رجلاً من أسلم جاء إلى النبي ﷺ فاعترف عنده بالزنى، ثم اعترف فأعرض عنه، ثم اعترف فأعرض عنه حتى شهد على نفسه أربع مرات، فقال النبي ﷺ: «أبك جنون؟» قال: لا، قال: «أحصنت؟» قال: نعم قال: فأمر =

= به النبي ﷺ فرجم بالمصلى، فلما أذلقته الحجارة فر، فأدرك فرجم حتى مات، فقال له النبي ﷺ: خيراً، ولم يصل عليه.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أما البخاري فقال في روايته: «وصلى عليه»، وقد رواه من طريق محمود بن غيلان عن عبد الرزاق به. قال الحافظ في «الفتح»: (١٣٣/١٢): قوله: «وصلى عليه» هكذا وقع هنا عن محمود بن غيلان عن عبد الرزاق، وخالفه محمد بن يحيى الذهلي وجماعة عن عبد الرزاق، فقالوا في آخره: «ولم يصل عليه» قال المنذري في حاشية السنن: رواه ثمانية أنفس عن عبد الرزاق، فلم يذكروا قوله: «وصلى عليه» قلت: قد أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الرزاق، ومسلم عن إسحاق بن راهويه، وأبو داود عن محمد بن المتوكل العسقلاني، وابن حبان من طريقه: زاد أبو داود والحسن بن علي الخلال والترمذي عن الحسن بن علي المذكور، والنسائي وابن الجارود عن محمد بن يحيى الذهلي، زاد النسائي ومحمد بن رافع ونوح بن حبيب والإسماعيلي، والدارقطني من طريق أحمد بن منصور الرمادي زاد الإسماعيلي: ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه، وأخرجه أبو عوانة عن الدبري ومحمد بن سهل الصغاني، فهؤلاء أكثر من عشرة أنفس خالفوا محموداً، منهم من سكت عن هذه الزيادة، ومنهم من صرح بنفيها. اهـ.

قلت: وعليه، فزيادة «وصلى عليه» زيادة شاذة، تفرد بها محمود بن غيلان، وخالف فيها الثقات. وقد رواه ابن جريج عن الزهري عن أبي سلمة عن جابر، أن رجلاً من «أسلم» أتى النبي ﷺ فحدثه أنه زنى، فشهد على نفسه أنه زنى أربعاً، فأمر برجمه، وكان قد أحصن.

أخرجه الدارمي (١٧٦/٢) كتاب «الحدود»، باب الاعتراف بالزنا من طريق أبي عاصم عن ابن جريج به. * وللمحدث طريق آخر عن جابر:

أخرجه أبو داود (٥٧٧/٤) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٢٠) من طريق محمد بن إسحاق قال: ذكرت لعاصم بن عمر بن قتادة قصة ماعز بن مالك، فقال لي: حدثني حسن بن محمد بن علي بن أبي طالب قال: حدثني ذلك من قول رسول الله ﷺ: «فهلأ تركتموه» من شتم من رجال أسلم ممن لا أنهم قال: ولم أعرف هذا الحديث. قال: فجئت جابر بن عبد الله، فقلت: إن رجلاً من أسلم يحدثون أن رسول الله ﷺ قال لهم حين ذكروا له جزع ماعز من الحجارة حين أصابته: «ألا تركتموه» وما أعرف الحديث، قال: يا بن أخي، أنا أعلم الناس بهذا الحديث، كنت فيمن رجم الرجل، إنا لما خرجنا به، فرجمناه، فوجد مس الحجارة صرخ بنا: يا قوم ردوني إلى رسول الله ﷺ، فإن قومي قتلوني وغروني من نفسي، وأخبروني أن رسول الله ﷺ غير قاتلي، فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلما رجعنا إلى رسول الله ﷺ وأخبرناه قال: «فهلأ تركتموه وجتموني به؟» ليستثبت رسول الله ﷺ منه، فأما لترك حد، فلا. قال: فعرفت وجه الحديث.

٣ - حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (١٣٦/١٢) كتاب «الحدود»، باب سؤال الإمام المقر هل أحصنت؟ حديث (٦٨٢٥)، ومسلم (١٣١٨/٣) كتاب «الحدود»، باب من اعترف على نفسه بالزنا، حديث (١٦٩١/١٦)، وأحمد (٤٥٣/٢)، والبيهقي (٢١٩/٨) كتاب «الحدود»، باب من أجاز أن لا يحضر الإمام، والبغوي في «شرح السنة» (٤٦٥/٥)، ٤٦٦ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن =

= سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ رجل من الناس وهو في المسجد، فناداه: يا رسول الله إني زنيت، فأعرض عنه النبي ﷺ فتنحى لشق وجهه الذي أعرض قَيْلَهُ، فقال: يا رسول الله إني زنيت، فأعرض عنه، فجاء لشق وجه النبي ﷺ الذي أعرض عنه، فلما شهد على نفسه أربع شهادات، دعاه النبي ﷺ فقال: «أبك جنون؟» قال: لا يا رسول الله، فقال: «أحصنت؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «أذهبوا، فارجموه».

وللحديث طريق آخر عن أبي هريرة:

أخرجه الترمذي (٢٧/٤) كتاب «الحدود»، باب ما جاء في درء الحد عن المعترف إذا رجع، حديث (١٤٢٨)، وابن ماجه (٨٥٤/٢) كتاب «الحدود»، باب الرجم، حديث (٢٥٥٤)، وأحمد (٢/ ٢٨٦-٢٨٧، ٤٥٠)، وابن الجارود في «المتقى» رقم (٨١٩)، وابن حبان (٢٤٢٢-الإحسان)، والحاكم (٤/ ٣٣٦)، والبخاري في «شرح السنة» (٥/ ٤٦٥-بتحقيقنا) كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: جاء ماعز بن مالك الأسلمي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني زنيت، فأعرض عنه، ثم جاءه من شقه الأيمن، فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه، ثم جاءه من شقه الأيسر، فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه، ثم جاءه فقال: إني قد زنيت، قال ذلك أربع مرات، فقال رسول الله ﷺ: «انطلقوا به، فارجموه» فانطلقوا به، فلما مسته الحجارة أدبر يشتد، فلقية رجل في يده لحي جمل فضربه به فصرعه، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، قال: «فهلا تركتموه». وقال الترمذي: حديث حسن، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

وصححه ابن حبان.

وقال البخاري عقبه: هذا حديث متفق على صحته. وهو وهم، فهو متفق على صحته من حديث أبي هريرة، ولكن ليس من هذا الطريق.

* وللحديث طريق ثالث عن أبي هريرة:

أخرجه أبو داود (٥٧٩/٤) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٢٩)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٧٦-٢٧٧) كتاب «الرجم»، باب استقصاء الإمام على المعترف عنده بالزنا، حديث (٧١٦٤)، وأبو يعلى (١٠/ ٥٢٤-٥٢٥) رقم (٦١٤٠) كلهم من طريق ابن جريج: أخبرني أبو الزبير عن ابن عم أبي هريرة عن أبي هريرة، أن ماعز بن مالك جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فأعرض عنه حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة قال: «زنيت؟» قال: نعم، قال: «وتدري ما الزنى؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً، قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرني قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والعصا في الشيء؟» قال: نعم يا رسول الله. قال: فأمر برجمه، فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب. فسار النبي ﷺ شيئاً، ثم مر بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلتا جيفة هذا الحمار». . . قال: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال: «فما نلتما من أخيكما أنفأ أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة يتقمص فيها».

= وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة ابن عم أبي هريرة.

لكن أخرجه عبد الرزاق (٣٢٢/٧) رقم (١٣٣٤٠) عن ابن جريج: أخبرني أبو الزبير عن عبد الرحمن بن الصامت عن أبي هريرة به. ومن طريق عبد الرزاق أخرجه أبو داود (٥٧٩/٤) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٢٧٧/٤) كتاب «الرجم»، باب ذكر استقصاء الإمام علي المعترف عنده بالزنا، حديث (٧١٦٥)، وابن الجارود رقم (٨١٤)، وابن حبان (١٥١٣-موارد)، والدارقطني (٣/ ١٩٦-١٩٧) كتاب «الحدود والديات»، حديث (٣٣٩)، والبيهقي (٢٢٧/٨) كتاب «الحدود»، باب من قال: لا يقام عليه الحد حتى يعترف أربع مرات. وقد أخرجه ابن حبان (١٥١٤-موارد) من طريق زيد بن أبي أنيسة عن أبي الزبير به. وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٢٧٧/٤) كتاب «الرجم»، حديث (٧١٦٦) من طريق حماد بن سلمة عن أبي الزبير.

وصححه ابن حبان.

وقال النسائي: عبد الرحمن بن الهضاهض ليس بمشهور.

قلت: ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢٩٧/٥)، والبخاري في «تاريخه الكبير» (٣٦١/٥)، ولم يذكر في جرحاً ولا تعديلاً. وذكره ابن حبان في «الثقات».

٤ - حديث بريدة:

أخرجه مسلم (١٣٢١/٣) كتاب «الحدود»، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث (١٦٩٥/٢٢)، وأبو داود (٥٨١/٤) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، والنسائي في «الكبرى» (٢٧٦/٤) كتاب «الرجم»، باب كيف الاعتراف بالزنا، حديث (٧١٦٣)، وأحمد (٥/ ٣٤٧-٣٤٨)، والدارقطني (٣/ ٩٢-٩١) كتاب «الحدود والديات»، حديث (٣٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٥/ ٤٦٨، ٤٦٩-بتحقيقنا) كلهم من طريق غيلان بن جامع عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! طهرني، فقال: «ويحك! ارجع فاستغفر الله، وتب إليه» قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي مثل ذلك. حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ «أبه جنون؟» فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «أشرب خمراً؟» فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أزנית؟» فقال: نعم. فأمر به فرجم. فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك. لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز؛ أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: «استغفروا لماعز بن مالك»، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»، قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله! طهرني. فقال: «ويحك! ارجعي فاستغفري الله، وتوبي إليه»، فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك. قال: «وما ذاك؟»، قالت: إنها حبلى من الزنى. فقال: «أنت» قالت: نعم. فقال لها: «حتى تضعي ما في بطنك». قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت. قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية. فقال: «إذا لا نرجمها ونذع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه» =

= فقام رجل من الأنصار، فقال: إلي رضاعه يا نبي الله! قال: فرجمها.

قال الدارقطني: (حديث صحيح).

وقال النسائي: (هذا صالح الإسناد).

٥ - حديث جابر بن سمرة:

أخرجه مسلم (٣/ ١٣١٨-١٣١٩) كتاب «الحدود»، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث (١٧/ ١٦٩٢)، وأبو داود (٤/ ٥٧٨) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٢٢)، والدارمي (٢/ ١٧٦-١٧٧) كتاب «الحدود» باب الاعتراف بالزنا، وأحمد (٥/ ٩١، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣)، وعبد الرزاق (٧/ ٣٢٤) رقم (١٣٣٤٣)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٢٩٩-منحة) رقم (١٥٢٢)، وأبو يعلى (١٣/ ٤٤٣-٤٤٤) رقم (٧٤٤٦)، والطحطاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٤٢) كتاب «الحدود»، باب الاعتراف بالزنى، والبيهقي (٨/ ٢٢٦) كتاب «الحدود»، باب من قال: لا يقام عليه الحد حتى يعترف أربع مرات، من طرق عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: رأيت ماعز بن مالك حين جيء به إلى النبي ﷺ حاسراً ما عليه رداء، فشهد على نفسه أربع مرات أنه قد زنى فقال رسول الله ﷺ: «فلعلك؟» قال: لا والله إنه قد زنى الآخر، قال: فرجمه ثم خطب، فقال: «ألا كلما نفروا في سبيل الله خلف أحدهم له نيب كنيب التيس يمنح إحداهن الكلبة، أما إن أمكنتني الله من أحد منهم لأنكلن عنهن».

* وللحديث طريق آخر:

أخرجه البزار (٢/ ٢١٨، ٢١٩-كشف) رقم (١٥٥٦) حدثنا صفوان بن المغلس، ثنا بكر بن خدش، ثنا حرب بن خالد بن جابر بن سمرة عن أبيه عن جده قال: جاء ماعز إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض بوجهه، ثم جاءه من قبل وجهه، فأعرض عنه، فجاءه الثالثة، فأعرض عنه، ثم جاءه الرابعة، فلما قال له ذلك، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى صاحبكم، فإن كان صحيحاً فارجموه» فستل عنه فوجد صحيحاً، فرجم، فلما أصابته الحجارة حاضرهم، وتلقاه رجل من أصحاب النبي ﷺ بلحي جمل، فضربه به فقتله، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: إلى النار. فقال رسول الله ﷺ: «كلا؛ إنه قد تاب توبة لو تابها أمة من الأمم تقبل منهم».

قال الهيثمي في «الكشف»: له حديث في الصحيح بغير هذا السياق.

وذكره هو في «المجمع» (٦/ ٢٧٠-٢٧١)، وقال: قلت: لسمرة حديث في الصحيح بغير سياقه، رواه البزار عن شيخه صفوان بن المغلس ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

٦ - حديث أبي سعيد:

أخرجه مسلم (٣/ ١٣٢٠-١٣٢١) كتاب «الحدود»، باب فيمن اعترف على نفسه بالزنى، حديث (٢٠/ ١٦٩٤)، وأبو داود (٤/ ٥٨١) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤٣١)، وأحمد (٣/ ٢-٣) كلهم من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد؛ أن رجلاً من «أسلم» يقال له: ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت فاحشة فأقمه علي، فرده النبي ﷺ مراراً، قال: ثم سألت قومه؟ فقالوا: ما نعلم به بأساً إلا أنه أصاب شيئاً يرى أنه لا يخرج منه إلا أن يقام فيه الحد، قال: فرجع إلى النبي ﷺ فأمرنا أن نرجمه قال: فانطلقنا به إلى «بقيع الغرقد» قال: فما أوثقناه ولا حفرنا له، قال: فرميناه بالعظم، والمدر، والخزف، قال: فاشتد، واشتدنا خلفه حتى أتى عُرض الحرة فانتصب لنا، فرميناه بجلايد =

= الحرة (يعني الحجارة) حتى سكت، ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً من العشي فقال: «أو كلما انطلقنا غزاة في سبيل الله تخلف رجل في عيالنا له نيب كنيب التيس، عليّ أن لا أوتى برجل فعل ذلك إلا نكلت به» قال: فما استغفر له، ولا سبه.

٧ - حديث نعيم بن هزال:

أخرجه ابن أبي شيبة (٧١/١٠) كتاب «الحدود»، باب الزاني كم مرة يرد، حديث (٨٨١٦)، وأحمد (٥/ ٢١٦-٢١٧)، وأبو داود (٥٧٣/٤) كتاب «الحدود»، باب رجم ماعز بن مالك، حديث (٤٤١٩)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٩٠-٢٩١) كتاب «الرجم»، باب إذا اعترف بالزنا ثم رجع، حديث (٧٢٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٠١ - ٢٠٢) رقم (٥٣٠، ٥٣١)، والحاكم (٣٦٣/٤) كتاب «الحدود»، باب الحفر عند الرجم، والبيهقي (٢٢٨/٨) كتاب «الحدود»، باب المعترف بالزنا يرجع عن إقراره، وابن حزم في «المحلى» (١٧٧/١١) كلهم من طريق يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه قال: كان ماعز بن مالك يتيماً في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي، فقال له أبي: انت رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت، لعله يستغفر لك، وإنما يريد بذلك رجاء أن يكون له مخرجاً، فأتاه فقال: يا رسول الله إني زنيت، فأقم عليّ كتاب الله، فأعرض عنه، فعاد فقال: يا رسول الله إني زنيت، فأقم عليّ كتاب الله. حتى قالها أربع مرات. قال ﷺ: إنك قد قلتها أربع مرات، فيمن؟ قال: بفلاتة، قال: هل ضاقتها؟ قال: نعم، قال: هل باشرت؟ قال: نعم، قال: هل جامعتهما؟ قال: نعم قال: فأمر به أن يرجم، فأخرج به إلى «الحرة»، فلما رجم فوجد مس الحجارة جزع، فخرج يشتد، فلقبه عبد الله بن أنيس وقد عجز أصحابه، فنزع له بوظيف بعير فرماه به فقتله، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك، فقال: «هلا تركتموه؛ لعله أن يتوب فيتوب الله عليه».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. والحديث أعله ابن حزم بالإرسال.

قال العلائي في «جامع التحصيل» (ص ٢٩٢): نعيم بن هزال الأسلمي مختلف في صحبته، أخرج له أبو داود والنسائي عن النبي ﷺ، وقد روى عنه عن أبيه عن النبي ﷺ. قال ابن عبد البر: هو أولى بالصواب، ولا صحبة لنعيم، وإنما الصحبة لأبيه. قلت: والحديث فيه اختلاف كثير. اهـ.

٨ - حديث أبي بكر الصديق:

أخرجه أحمد (٨/١)، وأبو يعلى (٤٢/١، ٤٣) رقم (٤٠، ٤١)، والبزار (٢/ ٢١٧ - كشف) رقم (١٥٥٤) من طريق جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند النبي ﷺ فأتاه ماعز بن مالك، فاعترف بالزنى، فردّه، ثم عاد الثانية، فردّه، ثم عاد الثالثة، فردّه، فقلت: إن عدت الرابعة رجمك، فعاد الرابعة، فأمر النبي ﷺ بحبسه، ثم أرسل فسأل عنه. قالوا: لا نعلم إلا خيراً، فأمر برجمه.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٩/٦)، وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، ولفظه: أن النبي ﷺ رد ماعزاً أربع مرات، ثم أمر برجمه. والطبراني في «الأوسط» إلا أنه قال: ثلاث مرات. وفي أسانيدهم كلها جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف.

٩ - حديث أبي ذر:

أخرجه أحمد (٥/ ١٧٩)، والبزار (٢/ ٢١٧، ٢١٨ - كشف) رقم (١٥٥٥) كلاهما من طريق =

= الحجاج بن أرطاة عن عبد الله بن المغيرة عن عبد الله بن المقدم عن نسعة بن شداد عن أبي ذر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأتاه رجل فقال: إن الآخر زنى، فأعرض عنه ثلاث مرات، ثم رجع، فأمرنا فحفروا له حفيرة ليست بالطويلة، فرجم، فارتحل رسول الله ﷺ كئيباً حزيناً، فسرنا حتى نزلنا منزلاً، فسري عن رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذر؛ ألم تر إلى صاحبكم قد غفر له وأدخل الجنة». قال البزار: لا نعلم أحداً رواه بهذا اللفظ إلا أبو ذر، وعبد الملك معروف، وعبد الله بن المقدم ونسعة لا نعلمهما ذكرنا إلا في هذا الحديث. والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٦٩/٦) وقال: رواه أحمد والبزار، وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو مدلس.

١٠ - حديث رجل من الصحابة:

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢٨٩/٤) كتاب «الرجم»، باب كيف يفعل بالرجل، وذكر اختلاف الناقلين للخبر في ذلك، حديث (٧٢٠١) من طريق سلمة بن كهيل. قال: حدثني أبو مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ أربع مرات، كل ذلك يرده، ويقول: «أخبرت أحداً غيري»، ثم أمر برجمه، فذهبوا به إلى مكان يبلغ صدره إلى حائط، فذهب يشب فرماه رجل..... الحديث.

١١ - حديث سهل بن سعد:

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧١/٦) عنه قال: شهدت ماعزاً حين أمر رسول الله ﷺ برجمه، فاتبعه الناس يرجمونه، حتى لقيه عمر بالجبانة، فضربه بلحي جمل فقتله. وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه أبو بكر بن أبي سبرة، وهو كذاب.

١٢ - حديث أبي برزة الأسلمي:

أخرجه ابن أبي شيبه (٧٨/١٠) كتاب «الحدود»، باب في الزاني كم مرة يرد، حديث (٨٨٣١)، وأحمد (٤٢٣/٤)، وأبو يعلى (٤٢٦/١٣) رقم (٧٤٣١) من طريق مساور بن عبيد قال: حدثني أبو برزة قال: رجم رسول الله ﷺ رجلاً منا يقال له ماعز بن مالك.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٨/٦)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

١٣ - مرسل سعيد بن المسيب:

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢٨١/٤) كتاب «الرجم»، باب اختلاف الزهري وسعيد بن المسيب في هذا الحديث، من طريق مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب؛ أن رجلاً من «أسلم» جاء إلى أبي بكر الصديق فقال له: إن الآخر قد زنى، فقال له أبو بكر: هل ذكرت ذلك لأحد غيري؟ قال: لا، قال: فاستتر بستر الله؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده، فأثنى عمر فقال له مثل ما قاله لأبي بكر فقال له عمر ما قال له أبو بكر، فأثنى رسول الله ﷺ فقال: إن الآخر قد زنى، قال سعيد: فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك يعرض عنه حتى إذا أكثر عليه بعث إلى أهله فقال: «أيشتكى؟ أبه جنة؟» فقالوا: والله إنه لصحيح، فقال رسول الله ﷺ: «أبكر أم ثيب؟» قال: بل ثيب، فأمر به رسول الله ﷺ، فرجم.

١٤ - مرسل الشعبي:

أخرجه ابن أبي شيبه (٥٣٨/٥) كتاب «الحدود»، باب في الزاني كم مرة يرد، حديث (٢٨٧٧) من طريق جرير عن مغيرة عن الشعبي قال: شهد ماعز على نفسه أربع مرات أنه قد زنى، فأمر به رسول الله ﷺ أن =

الْقُرْآن^(١)، جَعَلَ رَجَمَ الرِّسُولِ دُونَ جَلْدٍ نَاسِخًا لَجَلْدِ الثَّيِّبِ، وهذا الذي عليه الأُمَّة؛ أَنَّ السُّنَّةَ المتواترة تَنْسَخُ الْقُرْآنَ؛ إذ هما جميعاً وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَيُوجِبَانِ جَمِيعاً الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ.

وَيَتَّجِهْ عِنْدِي فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ بِعَيْنِهَا أَنْ يُقَالَ: إِنْ النَّاسِخَ لِحُكْمِ الْجَلْدِ هُوَ الْقُرْآنُ الْمَتَّفَقُ عَلَى رَفْعِ لَفْظِهِ، وَبِقَاءِ حُكْمِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «السَّيِّئُ وَالسَّيِّئَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَبْتَةً»، وَهَذَا نَصٌّ فِي الرِّجْمِ، وَقَدْ قَرَّرَهُ عَمْرٌ عَلَى الْمِنْبَرِ بِمَحْضَرِ الصَّحَابَةِ، وَالْحَدِيثُ بِكَمَالِهِ فِي مُسْلِمٍ، وَالسُّنَّةُ هِيَ الْمَبِيتَةُ، وَلَفْظُ «الْبَخَارِيِّ»: «أَوْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا؛ الرَّجْمُ لِلثَّيِّبِ، وَالْجَلْدُ لِلْبَكْرِ»^(٢). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ...﴾ الآية: قال مجاهدٌ وغيره: الآية الأولى في النساء عموماً، وهذه في الرجال، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأدنى^(٣). وهذا قولٌ يقتضيه اللفظ، ويستوفي نصُّ الكلام أصنافَ الزَّناةِ عَامَّةً؛ ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾، وقوله في الثانية: ﴿مِنْكُمْ﴾، وأجمع العلماء على أَنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مُسَوِّخَتَانِ؛ كما تقدَّم.

= يرجم. وقصة ماعز في الزنا ورجمه قد عدّها الحافظ السيوطي متواترة، فذكرها في كتابه «الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة» (ص ٥٩) رقم (٨٢)، وعزاها إلى الشيخين عن جابر بن عبد الله وابن عباس ومسلم عن بريدة وجابر بن سمرة وأبي سعيد، وأبي داود عن اللجلاج ونعيم بن هزال وأبي هريرة، والنسائي عن رجل من الصحابة ومن مرسل ابن المسيب، وأحمد عن أبي بكر الصديق وأبي ذر، وابن أبي شيبة في «المصنف» عن نصر والد عثمان، ومن مرسل عطاء بن يسار والشعبي، وأبي مرة في سننه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف.

(١) ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (١٠٩/٤)، و«البرهان لإمام الحرمين» (١٣٠٧/٢)، و«سلاسل الذهب» للزركشي (٣٠٢)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدني (١٣٩/٣)، و«نهاية السؤل» للأسنوي (٥٧٨/٢)، و«منهاج العقول» للبدخشي (٢٥٢/٢)، و«غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٨٨)، و«التحصيل من المحصول» للأرموي (٢٣/٢)، و«المنحول» للغزالي (٢٩٢)، و«المستصفى له» (١٢٤/١)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (١٣٩/٣)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (١١١/٢)، و«المعتمد» لأبي الحسين (٣٩٢/١)، و«إحكام الفصول في أحكام الأصول» للبايجي (٤١٨)، و«الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٥٥٥/٤)، و«التحرير» لابن الهمام (٣٨٨)، و«شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود ابن عمر التفتازاني (٣٦/٢)، و«ميزان الأصول» للسمرقندي (١٠٠٦/٢)، و«التقرير والتحبير» لابن أمير الحاج (٦٠/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٢/٢).

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ...﴾ الآية.

قال * ص * : التوبة: مبتدأ؛ على حذف مضاف، أي: قبول التوبة. انتهى.

قال * ع ^(١) * : «إِنَّمَا»: حاصرة، وهو مقصد المتكلم بها أبداً، فقد تصادف من المعنى ما يقتضي العقل فيه الحصر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وقد لا تصادف ذلك؛ كقوله: «إِنَّمَا الشُّجَاعُ عَتَرُهُ»، وهي في هذه الآية حاصرة؛ إذ ليست التوبة إلا لهذا الصنف المذكور، وتصح التوبة، وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب، فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصححت، وهو محتاج بعد موقعة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة، وتصح أيضاً التوبة من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نَوَيْهِ، خلافاً للمعتزلة ^(٢) في قولهم: لا يكون تائباً مَنْ أقام على ذنب.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾، أي: على فضل الله ورحمته لعباده، وهذا نحو قوله ﷺ: «مَا حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ»، إنما معناه: ما حَقَّهم على فضله ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله/ تعالى شيء عقلاً، و ﴿السُّوءَ﴾؛ في هذه الآية: يعم الكفر والمعاصي، ١١٥ ب وقوله تعالى: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: معناه: بسفاهة، وقلة تحصيل أدنى إلى المعصية، وليس المعنى أن تكون الجهالة بأن ذلك الفعل معصية؛ لأن المتعمد للذنوب كان يخرج من التوبة، وهذا

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢١).

(٢) كان للحسن البصري تلميذ يتلقى عليه، فلما سمعه يقرر أن مرتكب الكبيرة مذنب عاص إن لم يتب، فأمره لربه إن شاء عفا عنه وإن شاء عقابه عقاباً لا خلود معه في النار، وأن أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله تعالى. عند ذلك خالف أستاذه في هاتين المسألتين، واعتزل مجلس أستاذه إلى مجلس آخر يقرر في المسألة الأولى أنه ليس بمؤمن ولا بكافر، بل هو واسطة بينهما، فلا هو بمؤمن؛ لأن الإيمان عقيدة وعمل، ولا بكافر، ويقرر في الثانية أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بإقدار من الله تعالى، عند ذلك قال الحسن: اعتزلنا واصل، فسموا «معتزلة» لذلك، ثم كثر أتباع واصل، وصار لهم مذهب معروف في مسائل كثيرة، منها: وجوب ثواب المطيع وعقاب العاصي، ومنها نفي الصفات القديمة، ومنها مسألة الحسن والقبح العقليين، ومسألة الصلاح والأصلح.

ينظر: «مذكرة الشيخ»، صالح موسى شرف.

فاسد إجماعاً، وما ذكرته في الجهالة قاله أصحاب النبي ﷺ؛ ذكر ذلك عنهم أبو العالية^(١)، وقال قتادة: أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل مغصية، فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً^(٢)؛ وقال به ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وروي عن مجاهد والضحاك؛ أنهما قالا: الجهالة هنا العمد^(٣)، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة^(٤).

قال * ع^(٥): * يريد الخاصة بها الخارجة عن طاعة الله سبحانه، وهذا المعنى عندي جارٍ مع قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾.

فقال ابن عباس والسدي: معنى ذلك: قبل المَرَضِ والموت^(٦)، وقال الجمهور: معنى ذلك قبل المعايضة للملائكة والسوق، وأن يغلب المَرَضُ على نفسه، وروى أبو قلابة^(٧)؛ أن الله تعالى لما خلق آدم قرأه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى، ولعن وأنظر، قال: وعزيتك، لا برخت من قلبه، ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: «وعزيتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح»^(٨).

قال * ع^(٩): * فابن عباس (رضي الله عنه) ذكر أحسن أوقات التوبة، والجمهور حذوا

(١) أخرجه الطبري (٦٤٠/٣) برقم (٨٨٣٣)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣١/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٦٤٠/٣) برقم (٨٨٣٤)، وذكره البغوي (٤٠٧/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٢/٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٦٤١/٣) برقم (٨٨٤١)، (٨٨٤٢) عن مجاهد وبرقم (٨٨٤٣) عن الضحاك، وذكره البغوي (٤٠٧/١) عن مجاهد. وابن عطية (٢٤/٢) عنهما.

(٤) أخرجه الطبري (٦٤١/٣) برقم (٨٨٤٤)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٤/٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤/٢).

(٦) أخرجه الطبري (٦٤٢/٣) برقم (٨٨٤٥) عن السدي، وبرقم (٨٨٤٦) عن ابن عباس. وذكره البغوي (٤٠٧/١) عن السدي، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٤/٢) عنهما.

(٧) عبد الله بن زيد بن عمرو بن عامر الجزيمي، أبو قلابة البصري، أحد الأئمة، نزل «الشام» عن عائشة في «مسلم» و «النسائي». وعن عمر مرسلاً، وحذيفة، وابن عباس، وأبي هريرة، ومعاوية وخلق. وعنه مولاه أبو رجاء، وقتادة، وأيوب، وخالد الحذاء، وعاصم الأخول وخلق. قال أيوب: أبو قلابة من الفقهاء ذوي الألباب. قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث. قال خليفة: مات بالشام سنة أربع ومائة، وقيل: سنة ست، وقيل: سنة سبع.

ينظر: «الخلاصة» (٥٨/٢).

(٨) أخرجه الطبري (٦٤٣/٣) برقم (٨٨٥٤)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٤/٢).

(٩) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥/٢).

آخر وقتها^(١)، وروى بشير بن كعب، والحسن؛ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْزِ، وَيَغْلِبْ عَلَى عَقْلِهِ»^(٢).

قال * ع^(٣) *: لَأَنَّ الرجاء فيه باقٍ، ويصحُّ منه الندم والعزم على الترك، وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾، إنما معناه: مِنْ قَرِيبٍ إِلَى وَفْتِ الذَّنْبِ، ومُدَّةُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا قَرِيبٌ، والمبادرة في الصَّحَّةِ أَفْضَلُ، قلت: بل المبادرة واجبة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾، أي: بِمَنْ يَتُوبُ، وَيُسِّرُهُ هُوَ سُبْحَانَهُ لِلتَّوْبَةِ ﴿حَكِيمًا﴾: فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يُؤَخَّرُ حَتَّى يَهْلِكَ، ثم نَقَى بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ...﴾ الآية: أَنْ يَدْخُلَ فِي حُكْمِ التَّائِبِينَ مَنْ حَضَرَهُ مَوْتُهُ، وصار في حَيْزِ الْيَأْسِ؛ كما كان فرعونُ حِينَ صَارَ فِي غَمْرَةِ الْمَاءِ، وَالْعَرَقِ، فلم يَنْفَعُهُ مَا أَظْهَرَهُ مِنَ الْإِيمَانِ؛ وبهذا قال ابنُ عَبَّاسٍ وجماعةُ المفسرين^(٤).

قال * ع^(٥) *: والعقيدة عندي في هذه الآيات: أَنْ مَنْ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ، فله حُكْمُ التَّائِبِ، فَيَغْلِبُ الظَّنُّ عَلَيْهِ؛ أَنَّهُ يَنْعَمُ وَلَا يَعْذَّبُ؛ هذا مذهبُ أَبِي الْمَعَالِي وغيره.

وقال غيرهم: بل هو مغفورٌ له قطعاً لإخبار الله تعالى بذلك، وأبو الْمَعَالِي يجعل تلك الأخبار ظواهرَ مشروطةً بِالمَشِيئَةِ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ حَتَّى حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فليس في حُكْمِ التَّائِبِينَ، فَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فهو يَخْلُدُ، وَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، فهو عَاصٍ فِي الْمَشِيئَةِ، لَكِنْ يَغْلِبُ الْخَوْفُ عَلَيْهِ، وَيَقْوَى الظَّنُّ فِي تَعْذِيبِهِ، وَيُقَطَّعُ مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ؛ أَنَّ مِنْ هَذِهِ الصَّنِيفَةِ مَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ؛ تَفَضُّلاً مِنْهُ لَا يَعْذَّبُهُ.

وَأَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا؛ أَنَّ الَّذِينَ يَمُوتُونَ، وَهُمْ كَفَّارٌ؛ فَلَا مُسْتَعْتَبَ لَهُمْ، وَلَا تَوْبَةَ فِي الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَّلُكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: إِنْ كَانَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى الَّذِينَ يَمُوتُونَ، وَهُمْ كَفَّارٌ، فَقَطْ، فَالْعَذَابُ عَذَابُ خُلُودٍ مُؤَبَّدٍ، وَإِنْ كَانَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى مَنْ يَنْقُذُ عَلَيْهِ الْوَعْدُ مِمَّنْ لَا يَتُوبُ إِلَّا مَعَ حُضُورِ الْمَوْتِ/، فهو في جهة هَوْلٍ عَذَابٍ لَا خُلُودَ مَعَهُ، ١١١٦

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٥/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٣/٦٤٥) برقم (٨٨٦٣).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥/٢).

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ معناه: يَسْرِنَاهُ وَأَخْضَرْنَاهُ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاصِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا...﴾ الآية: قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية، إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمراته من أهلها، إن شاءوا تزوجها أحدُهم، وإن شاءوا زوجوها من غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج، فنزلت الآية في ذلك^(١).

وقال بعض المتأولين: معنى الآية: لا يحلُّ لكم عَضْلُ النِّسَاءِ اللواتي أنتم أولياءُ لهنَّ، وإِمْسَاكُهُنَّ دون تزويجٍ؛ حتى يَمُتْنَ، فتورث أموالهنَّ.

قال ع^(٢): * : فعلى هذا القول: فالموروث مالها، لا هي؛ وروي نحو هذا عن ابن عباس^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: هي أيضاً في أولئك الأولياء الذين كانوا يرثون المرأة، لأنهم كانوا يتزوجونها؛ إذا كانت جميلة، ويمسكونها حتى تموت؛ إذا كانت دميمة^(٤)؛ وقال نحوه الحسن، وعكرمة، وقال ابن عباس أيضاً: هي في الأزواج في الرجل يمسك المرأة، ويسيء عشرتها؛ حتى تفتدي منه؛ فذلك لا يحلُّ له^(٥)، وقال مثله قتادة^(٦)، وهو أقوى الأقوال؛ ودليل ذلك: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ

(١) أخرجه الطبري (٦٤٧/٣) برقم (٨٨٧٠)، وذكره البغوي (٤٠٨/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٤/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٦/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٦٤٧/٣) برقم (٨٨٧٤)، وذكره البغوي (٤٠٨/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٤/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٦٤٩/٣) برقم (٨٨٨٣)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٤/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧/٢).

(٦) أخرجه الطبري (٦٥٠/٣) برقم (٨٨٨٦)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٧/٢).

يَأْتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ﴿١﴾، وَإِذَا أَتَتْ بِفَاحِشَةٍ، فليس للوليِّ حَبْسُهَا حَتَّى يَذْهَبَ بِمَالِهَا؛ إجماعاً من الأُمَّة، وإنما ذلك للزَّوْجِ عَلَى مَا سَنَبِّئُهُ الْآنَ (إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، وكذلك قوله: ﴿عَاشِرُوهُنَّ...﴾ إلى آخر الآية، يظهر منه تقوية ما ذكرته.

واختلفَ في معنى «الْفَاحِشَةِ» هنا، فقال الحسنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: هو الزَّانَا^(١)، قال أبو قِلَابَةَ: إِذَا زَنَتْ أَمْرَأَةُ الرَّجُلِ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يُضَارَّهَا، وَيَشُقَّ عَلَيْهَا؛ حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِذَا فَعَلَنَ ذَلِكَ، فَخُذُوا مَهْرَهُنَّ^(٢).

قُلْتُ: وحديثُ المتلاعنين يَضَعُفُ هذا القول؛ لقوله ﷺ: «فَإِذَا بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا...» الحديث^(٣).

وقال ابنُ عَبَّاسٍ وغيره: الفاحشةُ في هذه الآية: البُغْضُ والنُّشُوزُ؛ فَإِذَا نَشَزْتَ، حَلَّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِمَالِهَا^(٤).

قال * ع^(٥): * وهو مذهبُ مالك.

وقال قوم: الفاحشةُ: البَذَاءُ بِاللِّسَانِ، وَسَوْءُ الْعِشْرَةِ قَوْلاً وَفِعْلاً، وهذا في معنى النُّشُوزِ.

قال * ع^(٦): * والزنا أَصْعَبُ عَلَى الزَّوْجِ مِنَ النُّشُوزِ وَالْأَدْوَى، وَكُلُّ ذَلِكَ فَاحِشَةٌ تُحِلُّ أَخْذَ الْمَالِ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أَمْرٌ يَعْمُ الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ الْمَتَلَبِّسَ فِي الْأَغْلَبِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْأَزْوَاجَ، وَالْعِشْرَةُ: الْمُخَالَطَةُ وَالْمِمَازَجَةُ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾،

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤٠٩/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٦/٢)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٦٥٢/٣) برقم (٨٨٩٨)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨/٢).

(٣) سيأتي تخريج أحاديث اللعان في محلها، وهي في سورة «النور».

(٤) أخرجه الطبري (٦٥٢/٣) برقم (٨٩٠٠)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٥/٢)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨/٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨/٢).

قال السُدِّي: الخَيْرُ الكثيرُ في المرأةِ الولَدُ^(١)، وقال نحوهُ ابنُ عباسٍ^(٢).

قال *ع^(٣): * ومن فصاحة القرآن العمومُ الذي في لفظة «شيء»؛ لأنه يطرَد هذا النَّظَرُ في كُلِّ ما يكرهه المرءُ ممَّا يجملُ الصبرُ عليه، ويحسنُ، إذ عاقبةُ الصبرِ إلى خيرٍ، إذا أريد به وَجْهُ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وإن أردتُمْ استبدالَ زوجٍ مكانَ زَوْجٍ...﴾ الآية: لما مَضَى في الآيةِ المتقدِّمة حُكْمُ الْفِرَاقِ الذي سبَّبَهُ المرأةُ، وأنَّ للزوجِ أَخَذَ المالِ منها، عَقَّبَ ذلكَ بِذِكْرِ الْفِرَاقِ الذي سبَّبَهُ الزَّوْجُ، والمَنعُ من أَخْذِ مالِها مع ذلك.

وقال بعضُ النَّاسِ: يُوْخَذُ من الآيةِ جوازُ الْمُعَالَاةِ بِالْمُهْوَ، وقال قوم: لا تُعْطَى الآيةُ ذلك؛ لأنَّ التَّمثِيلَ إنما جاء على جهةِ المبالغةِ^(٤).

والبُهتان: مصدر في موضع الحال، ومعناه: مُبْهَتًا، ثم وَعَظَ تعالى عباده، و ﴿أَفْضَى﴾: معناه: بَاشَرَ، وقال مجاهدٌ وغيره: الإِفْضَاءُ في هذه الآية: الجَماعُ^(٥)، قال ابنُ عَبَّاسٍ: ولكنَّ اللَّهَ كريمٌ يَكْنِي^(٦).

واختلف في المراد بالميثاقِ الْغَلِيظِ.

١١٦ ب فقال الحسن وغيره: / هو قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾^(٧) [البقرة: ٢٢٩] وقال مجاهدٌ، وابنُ زَيْدٍ: الميثاقُ الْغَلِيظُ: عُقْدَةُ النِّكَاحِ^(٨)، وقولُ الرَّجُلِ:

(١) أخرجه الطبري (٦٥٥/٣) برقم (٨٩١١)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤٠٩/١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٦/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٦٥٥/٣) برقم (٨٩١٢)، وذكره ابن عطية (٢٨/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨/٢).

(٤) ومن أفصح العادات أن يطلب والد العروس من الزوج ما يعجز عن دفعه، فيضطر إلى بيع ما يملك أو الاستدانة من غيره، فيبتدئ صفحة حياته الجديدة بالهم والشقاء المستمر، وهذا من دواعي إحجام بعض الشباب عن الزواج، وفي الحديث الشريف «أقلهن صداقاً أكثرهن بركة». ينظر: «أحكام الصداق» لشيخنا محمد جوهر.

(٥) أخرجه الطبري (٦٥٦/٣) برقم (٨٩١٨)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠/٢).

(٦) أخرجه الطبري (٦٥٦/٣) برقم (٨٩١٥)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٨/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري (٦٥٧/٣) برقم (٨٩٢٧)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣٠/٢).

(٨) أخرجه الطبري (٦٥٨/٣) برقم (٨٩٢٨ - ٨٩٣٢) عن مجاهد، وبرقم (٨٩٣٣) عن زيد. وذكره ابن =

نَكَحْتُ، وَمَلَكَتُ النِّكَاحَ، ونحوه، فهذه التي بها تستحلُّ الفروج.

وقال عكرمة، والربيع: الميثاق الغليظ يفسره قول النبي ﷺ: «أَسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَأَسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ»^(١).

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: سبب الآية ما اعتادته بعض قبائل العرب أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه، وقد كان في العرب من تزوج أخته، وهو حاجب بن زُرارة^(٢).

واختلف في مقتضى ألفاظ الآية.

فقالَتْ فرقة: قوله: ﴿مَا نَكَحَ﴾، يريد: النساء، أي: لا تنكحوا النساء اللواتي نكح آبائكم، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، معناه: ولكن ما قد سلف، فدعوه، وقال بعضهم: المعنى: لكن ما قد سلف، فهو معفو عنكم لمن كان واقعه، فكأنه قال: ولا تفعلوا، حاشا ما قد سلف، وقالت فرقة: معناه: لا تنكحوا كما نكح آبائكم من عقودهم الفاسدة إلا ما قد سلف منكم من تلك العقود الفاسدة، فمباح لكم الإقامة عليه في الإسلام، إذا كان ممّا يقرّر الإسلام عليه، وقيل: إلا ما قد سلف، فهو معفو عنكم، وقال ابن زيد: معنى الآية: النهي عن أن يطأ الرجل امرأة وطنها الأب، إلا ما سلف من الآباء في الجاهلية من الزنا بالنساء، لا على وجه المُنَاكِحَةِ، فذلك جائز لكم؛ لأن ذلك الزنا كان فاحشةً، والمقت: البُغْضُ والاحتقار، بسبب رذيلة يفعلها الممقوث، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: أي: بشس الطريق والمنهج لمن يسلكه؛ إذ عاقبته إلى عذاب الله.

قال * ص *: «سَاءَ» للمبالغة في الذم؛ كـ «بُشْسَ»، وسبيلًا: تفسيره، والمخصوص

= عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٢٣٨)، وعزاه لابن أبي شيبة عن مجاهد.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) حاجب بن زُرارة بن عُدس، الدارمي التميمي، من سادات العرب في الجاهلية. كان رئيس تميم في عدة مواطن. وهو الذي رهن قوسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به. وحضر يوم شعب جيلة (من أيام العرب المعروفة) قبل ١٩ أو ١٧ سنة من مولد النبي ﷺ، وأدرك الإسلام وأسلم. وبعثه النبي ﷺ على صدقات بني تميم، فلم يلبث أن مات نحو ٣ هـ. تنظر ترجمته في: «الأعلام» (٢/ ١٥٣).

بالدُم محذوف، أي: سبيل هذا النكاح؛ كقوله تعالى: ﴿يَسَسُ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: ذلك الماء انتهى.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأَنْهَيْتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ لِكُلِّكُمْ رَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ إِبْنَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾ الآية: حُرِّمَ اللَّهُ به سبعة من النسب، وستاً من بَيْنِ رضاع وصهر، وَالْحَقَّقَ السَّنَةَ المتواترة سابعة، وهي الْجَمْعُ بَيْنَ المرأة وَعَمَّتْهَا^(١)، ومضى عليه الإجماع، وروي عن ابن عباس؛ أنه قال: حُرِّمَ مِنَ النَّسَبِ

(١) وقد اختلف العلماء في الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها: فذهب الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء إلى القول بحرمة الجمع بينهما، وعلى ذلك فمن كان تحت امرأة وعقد على عمتها أو خالتها كان النكاح فاسداً يجب فسخه مطلقاً. وذهب الرافضة، والخوارج، وبعض الشيعة، وعثمان البتي إلى القول بجواز الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وعليه فمن كان عنده امرأة، ثم عقد على عمتها أو خالتها كان النكاح صحيحاً.

استدل الخوارج والروافض بقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤]. ووجه الدلالة من الآية الكريمة، أنهم قالوا: إن الله (سبحانه وتعالى) لم يذكر في التحريم بالجمع إلا الجمع بين الأختين، ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ فدخلت المرأة وعمتها أو خالتها فيما أحل الله، وإذا حلت المرأة على عمتها أو خالتها، فيكون نكاحها عليها صحيحاً.

يقال لهم في هذا الدليل: إن قولكم بأن قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ عام يشمل المرأة على عمتها أو خالتها غير صحيح؛ لأن العموم في الآية مخصص بالأحاديث الصحيحة المشهورة التي تلتفتها الأمة بالقبول.

وأما الجمهور فقد استدلوا بالسنة والمعقول:

أما السنة: فأولاً ما روي عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَاتِهَا» ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن الرسول ﷺ نهى عن الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها بقوله: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا» الحديث، وهو خبر لفظاً نهي معني، فيكون الجمع بينهما حراماً، وحيث حرم الجمع، فلو نكحهما معاً بطل نكاحهما، وإن نكحهما مرتباً بطل نكاح الثانية؛ لأن الجمع حصل بها.

ثانياً: ما روي أن النبي ﷺ قال: «لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا عَلَى خَالَاتِهَا وَلَا عَلَى بَنَاتِ أَخِيهَا، وَلَا عَلَى بَنَاتِ أَخِيهَا»، وفي بعض الروايات: «لَا الصَّغُورَى عَلَى الْكُبْرَى، وَلَا الْكُبْرَى عَلَى الصَّغُورَى»، فهذه الأحاديث بلغت حد الشهرة، وتلقفتها الأمة بالقبول، وهي من الأخبار الموجبة للعلم والعمل؛ فوجب استعمال حكمها مع الآية؛ فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ مستعملاً فيما عدا الأختين =

سَنَعُ، ومن الصَّهَرِ سَنَعٌ، وتلا هذه الآية^(١)، وقال عمرو بن سالم مثلاً ذلك، وجعل السابعة قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾^(٢) [النساء: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾، أي: سواء دَخَلَ بالبنت، أو لم يَدْخُلْ، فبالعقدِ على البنتِ حُرْمَتِ الأم؛ هذا الذي عليه الجمهور^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ ذَكَرَ الْأَغْلَبُ من هذه الأمور؛ إذ هذه

= وعدا من بين النبي ﷺ تحريم الجمع بينهما، ولما كانت الأحاديث لا يعلم تاريخ ورودها، وجب أن تحمل على المقارنة، فتكون مخصصة لعموم الآية، ويكون الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها حراماً. وأما المعقول، فقد قالوا: إن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها يفضي إلى القطيعة، والقرابة المحرمة للنكاح، إنما كانت محرمة لإفضائها إلى القطيعة، فيكون حراماً؛ لأن المفضي إلى الحرام حرام. وحيث بطل دليل المخالفين، وثبت أدلة الجمهور ترجح لنا مذهبهم، وهو حرمة نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، وأنه إذا وقع فالنكاح فاسد واجب الفسخ.

(١) أخرجه الطبري (٦٦٢/٣) برقم (٨٩٤٥ : ٨٩٥٠)، وذكره ابن عطية (٣١/٢)، وابن كثير (٤٦٩/١)، والسيوطي (٢/ ٢٤٠ - ٢٤١).

(٢) أخرجه الطبري (٦٦٢/٣) برقم (٨٩٥١)، وذكره ابن عطية (٣١/٢).

(٣) ذهب الأئمة الأربعة إلى القول بعدم اشتراط الدخول بالبنت في تحريم الأم، وهو مذهب جمهور الصحابة، وأكثر أهل العلم عليه، حتى كان من قواعدهم المشهورة قولهم: «الْعَقْدُ عَلَى الْبَنَاتِ يُحَرِّمُ الْأُمّهَاتِ» وعلى ذلك يحرم على الرجل أن يتزوج بأم من عقد عليها، ولم يدخل بها، وإذا حصل، وتزوج بها كان النكاح باطلاً يجب فسخه.

وذهب داود الظاهري وبشر المريس والزيبر ومجاهد إلى القول بأنه لا يحرم على الرجل أن يتزوج بأم من عقد عليها ولم يدخل بها؛ لأن العقد على البنت عندهم لا يحرم الأم حتى يصحبه دخول. وعلى هذا لو عقد على أم من عقد عليها ولم يدخل بها يكون النكاح صحيحاً.

استدل داود الظاهري ومن معه بقوله تعالى: ﴿وَأُمّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] ووجه الدلالة من هذه الآية: أنهم قالوا: إن الله (سبحانه) ذكر أمهات النساء، وعطف عليها الربائب، ثم أعقبهما بذكر الشرط، وهو الدخول فينصرف الشرط إليهما. ومما يؤيد أن الشرط راجع إليهما جميعاً أنه روي عن علي بن أبي طالب ذلك، وقالوا أيضاً: يصح أن يكون الموصول، وهو قوله تعالى: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ صفة للجملتين، فيتقيدا بالدخول، ويصير معنى الآية هكذا: وَأُمّهَاتُ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، يقال للظاهرة ومن معهم في الآية: إن محل رجوع الشرط المذكور في آخر كلمات الآية معطوف بعضها على بعض للجميع إذا كان مصرحاً به، وأما الصفة المذكورة في آخر الكلام فتصرف إلى ما يليها فقط؛ فإنك إذا قلت مثلاً: جاءني محمد وخالد العالم، فإن صفة العلم تقتصر على خالد فقط، وقوله تعالى: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ وصف بالدخول، فيقتصر على ما يليه فقط، وأما رواية أن علي بن أبي طالب قال ذلك فإنه رواها عنه خلاص بن عمر الهجري، وقد ضعفها العلماء. قال القرطبي: وحديث خلاص عن =

حالة الرَبِيبَةِ في الأَكْثَر، وهي محرمة، وإن لم تكن في الحَجَر، ويقال: حَجَر (بكسر الحاء، وفَتْحِها)، وهو مقدّم ثوب الإنسان وما بين يديه منه، ثم أستمعلت اللفظة في الحِفْظِ والسَّتر.

وقوله: ﴿اللاتي دخلتُم بهن﴾، قال ابن عباس وغيره: الدخول هنا الجماع^(١)،

= علي لا تقوم به حجة، ولا تصح روايته عند أهل العلم بالحديث، والصحيح عنه مثل قول الجماعة والقول بأن الموصول يصح أن يكون صفة للجملتين باطل؛ لأنه لو كان وصفاً لهما للزم أن يكون وصفاً لمعمولي عاملين مختلفين؛ لأن العامل في «أمهات نسائكم» الإضافة، وفي «نسائكم» حرف الجر، وهو «من»، فلو كان الدخول صفة لهما لأدى إلى اختلاف العامل في الصفة، واختلاف العامل على معمول واحد باطل، كالعطف على معمولي عاملين مختلفين، فتعين أنه ليس صفة عائدة إليهما، بل يجب أن يكون صفة لواحد منهما، وما يليه أولاً، على أن الاحتياط في الفروج يقضي أن يجعل شرطاً في الريبة فقط. وأما الجمهور فقد استدلوا بالكتابة، والسنة والمعقول:

أما الكتاب، فقول الله تعالى: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ ووجه الدلالة من الآية: أنهم قالوا: إن الله (سبحانه وتعالى) ذكر تحريم أمهات النساء مطلقاً من غير قيد بالدخول، فتحرم أمهات النساء ولو لم يدخل بهن، ومما يؤيد إطلاق الآية الكريمة ما روي عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال في هذه الآية: «المرأة مُبْهِمَةٌ، فَأَبْهَمُوا مَا أَبْهَمَ اللَّهُ» أي أطلقوا ما أطلقه الله، وعمموا حكمها في كل حال، ولا تفصلوا بين المدخول بها وبين غيرها. وأيضاً فإن المعقود عليها يصدق عليها أنها من نسائه، فتدخل في قوله تعالى: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾.

وأما السنة، فأولاً: ما روي عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا نكح الرجل امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فله أن يتزوج ابنتها، وليس له أن يتزوج الأم».

وثانياً: ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «إذا نكح الرجل المرأة، فلا يحلُّ له أن يتزوج أمها، دخل بالبنت أو لم يدخل، وإن تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها، فإن شاء تزوج البنت» أخرجه في الصحيحين.

فهذه الأحاديث صريحة في عدم حل أم الزوجة مطلقاً، دخل بها، أو لم يدخل.

وأما المعقول، فإنهم قالوا: إن هذا النكاح يفضي إلى قطيعة الرحم؛ لأنه إذا طلق البنت، وتزوج أمها حملها ذلك على الضغينة التي هي سبب لقطيعة الرحم، وكل ما يفضي إلى قطيعة الرحم تحرمه الشريعة الإسلامية، لذلك نجدها تحرم الجمع بين المرأة وأختها، وبين المرأة وبنتها خوفاً من قطيعة الرحم، وهذا المعنى يستوي فيه ما إذا دخل بالبنت، وما إذا لم يدخل بها؛ بخلاف الأم حيث قلنا: لا تحرم بنتها بمجرد العقد عليها؛ لأن إباحة نكاح البنت بعد العقد على أمها لا يفضي إلى القطيعة المحرمة، وذلك لما هو معروف عن الأم من الشفقة على بنتها، فهي تؤثرها على نفسها؛ بخلاف البنت، فإنها لا تؤثر أمها على نفسها.

يتبين لنا من بيان الأدلة ومن مناقشة أدلة المخالفين للجمهور رجحان مذهب الجمهور، لقوة أدلتهم، وسلامتها من الطعن، وعدم قوة معارضة غيرها لها.

(١) أخرجه الطبري (٦٦٤/٣) برقم (٨٩٥٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢/٢)، وابن كثير (٤٧١/١) بنحوه، والسيوطي (٢٤٣/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس.

وجمهور العلماء يقولون: إن جميع أنواع التلذذ بالأم يُحرّم الأئمة؛ كما يحرمها الجماع، والحلائل: جمع حليلة؛ لأنها تحلّ مع الزوج حيث حلّ، فهي فعيلة بمعنى فاعلة، وذهب الزجاج^(١) وقوم؛ إلى أنها من لفظة «الحلال»، فهي حليلة بمعنى مُحلّلة.

وقوله تعالى: ﴿الذين/ من أصلا بكم﴾ يخرج من كانت العرب تبتئها ممن ليس ١١٧ للصُّلب، وحُرِّمَت حليلة الأبن من الرضاع، وإن لم يكن للصُّلب بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: «يُحْرَمُ مِنَ الرُّضَاعِ مَا يُحْرَمُ مِنَ النَّسَبِ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾: لفظ يعُمّ الجمع بنكاح وبملك يمين، وأُجمعت الأمة على منع جمعهما بنكاح، ولا خلاف في جواز جمعهما بالملك^(٣)،

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣٥/٢).

(٢) أخرجه مالك (٦٠١/٢) كتاب «الرضاع»، باب رضاعة الصغير، حديث (١)، والبخاري (٣٠٠/٥) كتاب «الشهادات»، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، حديث (٢٦٤٤)، ومسلم (٢/١٠٦٨) كتاب «الرضاع»، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة، حديث (١٤٤٤/٢)، والنسائي (١٠٢/٦ - ١٠٣) كتاب «النكاح»، باب لبن الفعل، والدارمي (١٥٥/٢ - ١٥٦) كتاب «النكاح»، باب ما يحرم من الرضاع. وعبد الرزاق (٤٧٦/٧) رقم (١٣٩٥٢)، وأحمد (١٧٨/٦)، وابن الجارود (٦٨٧)، وأبو يعلى (٣٣٨/٧) رقم (٤٣٧٤)، والبيهقي (١٥٩/٧) كتاب «النكاح»، باب ما يرحم من نكاح القرابة والرضاع... كلهم من طريق عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة» وله لفظ آخر مطولاً.

* وللحديث طريق آخر عن عائشة:

أخرجه مالك (٦٠٧/٢) كتاب «الرضاع»، باب جامع ما جاء في الرضاعة، حديث (١٥)، والشافعي (٢/ ١٩ - ٢٠) كتاب «النكاح»، باب ما جاء في الرضاع، حديث (٥٩)، وعبد الرزاق (٤٧٧/٧) رقم (١٣٩٥٤)، وأحمد (٤٤/٦، ٥١)، وأبو داود (٢/ ٥٤٥ - ٥٤٦) كتاب «النكاح»، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، حديث (٢٠٥٥)، والترمذي (٤٥٣/٣) كتاب «الرضاع»، باب ما جاء يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، حديث (١١٤٧)، وابن ماجه (٦٢٣/١) كتاب «النكاح»، باب يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، حديث (١٩٣٧). والنسائي (٩٩/٦)، والدارمي (١٥٦/٢) كتاب «النكاح»، باب ما يحرم من الرضاع. وسعيد بن منصور (٢٧٣/١) رقم (٩٥٣)، وابن حبان (٤٢٠٩ - الإحسان)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنن» (ص ٨٦) رقم (٣٠٤)، والبيهقي (١٥٩/٧) كتاب «النكاح»، باب ما يحرم من نكاح القرابة والرضاع. والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٣٣/٦) من طرق عن عروة عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة».

وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أجمع المسلمون على أنه يحرم على الرجل أن يجمع بين الأختين بعقد نكاح، فمن كان عنده امرأة ثم عقد على أختها، فالعقد فاسد باتفاق المسلمين، وذلك؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ وهذا نص واضح لإفادة التحريم؛ حيث إنه معطوف على «أُمَّهَاتِكُمْ» والعطف يقتضي =

ومذهب مالك؛ أن له أن يطأ أَيْتَهُمَا شَاءَ، والكف عن الأخرى موكل إلى أمانته، فإن أراد وطأ الأخرى، فيلزمه أن يحرم فرج الأولى بعثق، أو كتابة، أو غير ذلك؛ وثبت عن النبي ﷺ: «أنه نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها»^(١)، وأجمعت الأمة على ذلك.

= الشربة؛ ولأن الجمع بينهما يفضي إلى قطيعة الرحم، وهي حرام، والمفضي إلى الحرام حرام، كما اتفقوا على أنه لو عقد عليهما معاً في عقد واحد كان النكاح فاسداً، وكذلك إذا عقد عليهما، ولم تعلم السابقة منهما بطل نكاحهما؛ إذ ليس تخصيص إحداهما بالبطلان في هذه الحالة بأولى من الأخرى. (١) هذا الحديث تواتر عن رسول الله ﷺ؛ ورواه عنه جماعة من أصحابه رضوان الله عليهم، وهم: أبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وأبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وأبو الدرداء، وسمرة بن جندب، وعتاب بن أسيد، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص. وإليك تخريج أحاديثهم:

* حديث أبي هريرة:

وله طرق كثيرة عنه، وقد رواه عنه جماعة من أصحابه، وهم: عامر الشعبي، والأعرج، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وقبيصة بن ذؤيب، وابن سيرين، وعراك بن مالك، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله، وعبد الملك بن يسار، وإبراهيم، وسعيد بن المسيب، وأبو العالية.

* طريق الشعبي:

علقه البخاري (١٦٠/٩) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها، حديث (٥١٠٨)، ووصله أبو داود (٥٥٣/٢) كتاب «النكاح»، باب ما يكره أن يجمع بينهما من النساء، حديث (٢٠٦٥)، والترمذي (٤٣٣/٣) كتاب «النكاح»، باب ما جاء لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها، حديث (١١٢٦)، والنسائي (٩٨/٦) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وخالتها. والدارمي (٢/١٣٦) كتاب «النكاح»، باب الحال التي يجوز للرجل أن يخطب فيها. وأحمد (٤٢٦/٢)، وعبد الرزاق (٢٦٢/٦) رقم (١٠٧٥٨)، وابن أبي شيبه (٢٤٦/٤)، وسعيد بن منصور (٢٠٨/١) رقم (٦٥٢)، وابن الجارود رقم (٦٨٥)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنن» (ص ٧٨-٧٩) رقم (٢٧٣)، وأبو يعلى (١١/٥١٦-٥١٧) رقم (٦٦٤١)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ٣٩٢)، والبيهقي (٧/١٦٦) كتاب «النكاح»، باب ما جاء في الجمع بين المرأة وعمتها وبين خالتها. كلهم من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ نهى أن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه الطبراني في «الصغير» (١/٢٢٥ - ٢٢٦) من طريق ابن بزيع عن سليم مولى الشعبي عن الشعبي عن أبي هريرة مرفوعاً به.

* طريق الأعرج:

أخرجه مالك (٥٣٢/٢) كتاب «النكاح»، باب ما لا يجمع بينه من النساء، حديث (٢٠)، والبخاري (٩/١٦٠) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها، حديث (٥١٠٩)، ومسلم (١٠٢٨/٢) كتاب =

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: استثناء منقطع، معناه: لكن ما قد سَلَفَ من ذلك، ووقع وأزأله الإسلام، فإن الله تعالى يغفره، والإسلام يَجِبُهُ.

= «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، حديث (١٤٠٨/٣٣)، والشافعي في «مسنده» (١٨/٢) كتاب «النكاح»، باب الترغيب في الزوج (٥٠)، والنسائي (٩٦/٦) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها، والدارمي (١٣٦/٢) كتاب «النكاح»، باب الحال التي يجوز للرجل أن يخطب فيها. وأحمد (٤٦٥/٢)، وسعيد بن منصور (٢٠٩/١) رقم (٦٥٤)، ومحمد بن نصر في «السنة» (ص ٧٨) رقم (٢٧٠، ٢٧١)، والبيهقي (١٦٥/٧) كتاب «النكاح»، باب ما جاء في الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها.

* طريق أبي سلمة:

أخرجه مسلم (١٠٢٩/٢) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، حديث (١٤٠٨/٣٧)، والنسائي (٩٧/٦) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها، وسعيد بن منصور (٢٠٨/١) رقم (٦٥٠)، وأحمد (٢٢٩/٢، ٤٢٣)، وعبد الرزاق (٢٦١/٦) رقم (١٠٧٥٥)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (ص ٧٨) رقم (٢٦٩).

* طريق قبيصة بن ذؤيب:

أخرجه البخاري (١٦٠/٩) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها (٥١١٠)، ومسلم (٢/١٠٢٨) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، حديث (٣٥/١٤٠٨)، وأبو داود (٥٥٤/٢) كتاب «النكاح»، باب ما يكره أن يجمع بينهما من النساء، حديث (٢٠٦٦)، والنسائي (٩٦/٦ - ٩٧) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها. وأحمد (٤٠١/٢، ٤٥٢، ٥١٨)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (ص ٧٨) برقم (٢٧٢)، والبيهقي (١٦٥/٧) كتاب «النكاح»، باب ما جاء في الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها.

* طريق ابن سيرين:

أخرجه مسلم (١٠٢٩/٢) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، حديث (٣٨/١٤٠٨)، والترمذي (٤٣٣/٣) كتاب «النكاح»، باب ما جاء لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها (١١٢٥)، والنسائي (٩٨/٦) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها. وابن ماجه (١/٦٢١) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها، حديث (١٩٢٩)، وأحمد (٤٧٤/١)، وعبد الرزاق (٢٦١/٦) رقم (١٠٧٥٣)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٨٨/١)، وابن عدي في «الكامل» (١/٤١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٧/٦)، والبيهقي (١٦٥/٧) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

* طريق عراك بن مالك:

أخرجه مسلم (١٠٢٨/٢) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، حديث (٣٤/١٤٠٨)، والنسائي (٩٧/٦) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها. والبيهقي (١٦٥/٧) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها.

وأخرجه النسائي (٩٧/٦) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها من طريق عراك بن مالك والأعرج معاً عن أبي هريرة مرفوعاً به.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرْضَاهُنَّ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَائِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَاتٍ أَخَذَانِ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَجْشَةٍ فَلَهُنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَدَايِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرُوهَا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

= * طريق عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله :

أخرجه ابن نصر في «السنّة» (ص ٧٨) رقم (٢٧٢) من طريق عقيل عن الزهري عنهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: أنه نهى أن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها.

طريق عبد الملك بن يسار: أخرجه النسائي (١٧/٦) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها، ومحمد بن نصر المروزي في «السنّة» (ص ٧٩) رقم (٢٧٨) من طريق بكير بن عبد الله الأشج عن سليمان بن يسار عن عبد الملك بن يسار عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها».

* طريق إبراهيم:

أخرجه سعيد بن منصور (٢٠٨/١) رقم (٦٥٣) ثنا هشيم أنا المغيرة عن إبراهيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفي ما صحفتها ولتزوج؛ فإنما لها ما كتب لها».

* طريق سعيد بن المسيب وأبي العالية:

ذكره ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤١٩- ٤٢٠) رقم (١٢٦٣) قال: سمعت أبي يقول: حدثنا هارون بن محمد بن بكار عن أبيه عن سعيد بن بشير عن قتادة عن سعيد بن المسيب وأبي العالية عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ نهى أن يتزوج الرجل [المرأة] على عمتها أو على خالتها. قال أبي: يروي هذا الحديث ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي العالية وسعيد بن المسيب، عن النبي ﷺ مرسلًا. قالوا: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «لا ينكح» وهو أشبه، وابن أبي عروبة أحفظ. اهـ.

وطريق ابن أبي عروبة أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٣٧/٤) وقال: المراسيل في هذا الحديث أولى. وقد اختلف على قتادة في هذا الحديث: فأخرجه العقيلي (٣٧/٤) من طريق أبي عاصم ثنا همام عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها وعلى خالتها».

قال العقيلي: وقد قيل: عن أبي عاصم عن همام عن قتادة عن سعيد عن النبي ﷺ مرسل. اهـ.

وقد خالفه محمد بن بلال: أخرجه العقيلي (٣٧/٤)، والبزار (٢/ ١٦٥- كشف) من طريقه: ثنا هشام عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها وعلى خالتها.

قال البزار: لا نعلمه عن سمرة إلا من هذا الوجه، ولا نعلم رواه عن همام إلا محمد بن بلال ويعلى بن =

وقوله تعالى: ﴿والمحصنات﴾ عطفًا على الْمُحَرَّمَاتِ، قيل: والتحصن المتمتع، ومنه

= عباد، ومحمد أثبت من يعلى.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٦/٤) وقال: رواه البزار، والطبراني في «الكبير» و «الأوسط»، ورجال البزار ثقات.

* حديث جابر:

أخرجه البخاري (١٦٠/٩) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها، حديث (٥١٠٨)، والنسائي (٩٨/٦) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وخالتها، وأحمد (٣٣٨/٣)، والطيلوسي (١/ ٣٠٨-منحة) رقم (١٥٦٧)، وعبد الرزاق (٢٦٢/٦) رقم (١٠٧٥٩)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (ص ٧٩) رقم (٢٧٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٠٨/٣) رقم (١٨٩٠)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٦٠)، والبيهقي (١٦٦/٧) كتاب «النكاح»، باب الجمع بين المرأة وعمتها. من طريق عاصم بن سليمان عن الشعبي عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها.

وقد خالفه داود بن أبي هند، فرواه عن الشعبي عن أبي هريرة - وقد مر تخريجه -.

قال البيهقي: الحفاظ يرون رواية عاصم خطأ. وقد رده الحفاظ ابن حجر في «الفتح» (٦٠/٩)، فقال: وهذا الاختلاف لم يقدح عند البخاري؛ لأن الشعبي أشهر بجابر منه بأبي هريرة. وللحديث طرق أخرى عن جابر بشرط الصحيح أخرجه النسائي من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر، والحديث محفوظ أيضاً من أوجه عن أبي هريرة، فلكل من الطريقين ما يعضده. اهـ.

وقد تابع أبو الزبير الشعبي على هذا الحديث: أخرجه النسائي (٩٨/٦) كتاب «النكاح»، باب تحريم الجمع بين المرأة وخالتها، وابن جميع في «معجم الشيوخ» (ص ١١٨ - ١١٩) رقم (٦٩) و (ص ٢٥٢ - ٢٥٣) رقم (٢١٢) من طريقين عن أبي الزبير عن جابر به.

* حديث علي بن أبي طالب:

أخرجه أحمد (٧٧/١ - ٧٨)، وأبو يعلى (٢٩٧/١) رقم (٣٦٠)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (ص ٨٠) رقم (٢٨٣)، والبزار (٢/ ١٦٤-كشف) رقم (١٤٣٤) من طريق ابن لهيعة: ثنا عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن زبير عن علي بن أبي طالب، أن النبي ﷺ نهى أن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها.

قال البزار: لا نعلمه عن علي إلا بهذا الإسناد.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٦/٤)، وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقي رجاله ثقات.

* حديث عبد الله بن مسعود:

أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/١ رقم ٩٨٠١)، والبزار (٢/ ١٦٥-كشف) رقم (١٤٣٥) من طريق المنهال بن خليفة عن خالد بن سلمة عن عمرو بن الحارث عن زينب امرأة عبد الله عن ابن مسعود مرفوعاً بلفظ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفي» ما في صحتها.

قال البزار: لا نعلمه عن عبد الله عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد.

الْحِصْنُ، وَحَصَّنَتِ الْمَرْأَةُ: أَمْتَنَتْ بِوَجْهِهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِمْتِنَاعِ، وَأَخْصَنَتْ نَفْسَهَا، وَأَخْصَنَهَا غَيْرُهَا، وَالْإِخْصَانُ تَسْتَعْمَلُهُ الْعَرَبُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ، وَعَلَى ذَلِكَ تَصَرَّفَتِ اللَّفْظَةُ فِي كِتَابِ

= وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٦/٤): رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده منقطع بين المنهال بن خليفة وعمرو بن الحارث بن أبي ضرار، ورجالهما ثقات آحد. وهذا الكلام فيه نظر؛ فإن المنهال لم يروه هنا عن عمرو بن الحارث، إنما رواه عن خالد بن سلمة عن عمرو بن الحارث.
* حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه أحمد (١٧٩/٢، ١٨٢، ١٨٩، ٢٠٧) عن محمد بن جعفر عن حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها». قال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٦/٤): ورجاله ثقات.

وأخرجه محمد بن نصر المروزي في «السنة» (ص ٨٠) رقم (٢٨٠) من طريق الحسين بن ذكوان، وابن عدي في «الكامل» (٣٢٨/٥) من طريق الحكم، كلاهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وللحديث طريق آخر عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ استند إلى بيت، فوعظ الناس وذكرهم. قال: «لا يصلي أحد بعد العصر حتى الليل، ولا بعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي رحم مسيرة ثلاث، ولا يعقد من امرأة على عمتها ولا على خالتها».

قال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٦/٤): رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط»..... ورجال الجميع ثقات، إلا أن إسناده الطبراني الأول فيه محمد بن أبي ليلي، وهو ضعيف.
* حديث عبد الله بن عمر:

أخرجه البزار (١٦٥/٢ - كشف) رقم (١٤٣٦)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (ص ٨٠) رقم (٢٨٤) من طريق كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن الزهري عن سالم عن أبيه؛ أن النبي ﷺ نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها وخالتها.

قال البزار: لا نعلم رواه عن الزهري هكذا إلا جعفر، ولا عنه إلا كثير.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٦/٤٠): رواه الطبراني في «الأوسط»، والبزار..... ورجالهم رجال الصحيح.

وقد أعل هذا الحديث أبو حاتم؛ فقال ابنه في «العلل» (١/ ٤٠٢-٤٠٣) رقم (١٢٠٥): سألت أبي عن حديث رواه كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ أنه نهى أن يجلس الرجل على مائدة يشرب عليها الخمر، وأن تنكح المرأة على عمتها. قال أبي: هذان الحديثان خطأ؛ يرويه عن جعفر عن رجل عن الزهري هكذا، وليس هذا من صحيح حديث الزهري، أما حديث «نهى أن تنكح المرأة على عمتها وعلى خالتها» فإن عقلاً رواه عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله وقبيصة بن ذؤيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وهو أشبه. وأما قصة المائدة، فهو مفتعل، ليس من حديث الثقات.

* وللحديث طريق آخر عن ابن عمر:

أخرجه أبو يعلى في «معجم شيوخه» (ص ٢٨١) رقم (٢٤٨) من طريق موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها. وموسى بن عبيدة الربذي: قال البخاري: منكر الحديث. (الضعفاء - ٣٤٥).

وقال النسائي: ضعيف. (الضعفاء والمتروكين - ٥٨١)، وكذلك ضعفه الدارقطني، فذكره في «الضعفاء» =

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَتَسْتَعْمَلُهُ فِي الزَّوْاجِ؛ لِأَنَّ مِلْكَ الزَّوْجِ مَنَعَةٌ وَحِفْظٌ، وَتَسْتَعْمَلُهُ فِي الْحَرِّيَّةِ؛

= (٥١٧)، وقال: لا يتابع على حديثه.

وقال الترمذي في «السنن» (٣٠٣٩): موسى بن عبيدة يضعف في الحديث؛ ضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل.

وقال البزار (١٨٢٣ - كشف): لم يكن حافظاً للحديث؛ لتشاغله بالعبادة فيما نرى اهـ. فالحديث بهذا الإسناد ضعيف.

* حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد (٣٧٢/١)، وأبو داود (٥٤٤/٢) كتاب «النكاح»، باب ما يكره أن يجمع من النساء، حديث (٢٠٦٧)، والترمذي (٤٣٢/٣) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها. ومحمد بن نصر المروزي (ص ٨٠) رقم (٢٨٤)، وابن حبان (١٢٧٥ - موارد) من طريق عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كره أن يجمع بين العمة والخالة وبين الخاليتين والعمتين.

واللفظ لأبي داود، وزاد ابن حبان قال: «إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم». وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه ابن حبان.

* حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه أحمد (٦٧/٣)، وابن ماجه (٦٢١/١) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، حديث (١٩٣٠)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنن» (ص ٧٩) رقم (٢٧٧) من طريق محمد بن إسحاق حدثني يعقوب بن عبد الله بن عتبة عن سليمان بن يسار عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن نكاحين: أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها. قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (١٠٠/٢): هذا إسناد ضعيف؛ لتدليس ابن إسحاق، وقد عنعنه اهـ.

قلت: وكلام البوصيري فيه نظر؛ لأن ابن إسحاق صرح بالتحديث عند المروزي في «السنن»، فالسند حسن.

* وللحديث طريق آخر:

فأخرجه أبو محمد البخاري في «مسند أبي حنيفة» كما في «جامع المسانيد» للخوازمي (١٠٣/٢) بسنده عن أبي حنيفة عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تتزوج المرأة على عمتها ولا على خالتها». ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٤/١٦٦).

وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه عطية، وهو ضعيف. وقد وثق، وفيه ضعيف آخر لا يذكر.

* حديث أبي موسى الأشعري:

أخرجه ابن ماجه (٦٢١/١) كتاب «النكاح»، باب لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، حديث (١٩٣١): حدثنا جبارة بن المغلس، ثنا أبو بكر النهشلي، حدثني أبو بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها».

قال البوصيري في «الزوائد» (١٠٠/٢): هذا إسناد فيه جبارة بن المغلس وهو ضعيف.

من طريق جبارة بن المغلس أخرجه أيضاً أبو يعلى في «مسنده» (١٩٣/١٣) رقم (٧٢٢٥)، وفي «مجمع»

لأنَّ الإماء كان عُرْفُهُنَّ في الجاهليَّة الزَّنا، والحرَّة بخلاف ذلك؛ ألا تَرَى إلَيَّ قول هناد:

= شيوخه» (ص ١٦٨) رقم (١٢٤).

* حديث أبي الدرداء:

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٧/٤) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها».

وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه راويان لم يسميا.

* حديث سمرة بن جندب:

تقدم تخريجه أثناء حديث أبي هريرة، فليراجع.

* حديث عتاب بن أسيد:

أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ رقم ٤٢٦) من طريق عبد العزيز بن محمد عن موسى بن عبيدة الرزدي عن أيوب بن خالد عن عتاب بن أسيد عن النبي ﷺ قال: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها».

قال الهيثمي في «المعجم» (٤/ ٢٦٣-٢٦٤): رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة الرزدي هو ضعيف. واختلف على موسى في هذا الحديث: فأخرجه أبو يعلى في «معجم شيوخه» (ص ٢٨١) رقم (٢٤٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٣٥) من طريق عبد الرحيم بن سليمان عن موسى بن عبيدة الرزدي عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها. وزاد ابن عدي: ونهى عن الشغار، والشغار أن تنكح المرأة بالمرأة ليس لهما صداق.

* حديث عائشة:

أخرجه أبو يعلى (٨/ ١٩٧ - ١٩٨) رقم (٤٧٥٧)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنن» (ص ٨٠) رقم (٢٨٢) من طريق عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب قال: سمعت مالك بن محمد بن عبد الرحمن قال: سمعت عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة قالت: وجد في قائم سيف رسول الله ﷺ كتابان في أحدهما: «ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها».

ولفظ أبي يعلى مطولاً.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٩٥) وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير مالك بن أبي الرجال، وقد وثقه ابن حبان، ولم يضعفه أحد.

وذكره أيضاً ابن حجر في «المطالب العلية» (١٤٨٦)، وعزه لأبي يعلى.

* حديث سعد بن أبي وقاص:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢١) من طريق مؤمل بن إسماعيل: ثنا الثوري عن خالد بن سلمة المخزومي عن سعيد بن المسيب عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها».

قال ابن عدي: كذا قال لنا فيه ابن صاعد: عن سعيد بن المسيب، وقال غيره: عن محمد بن ميمون عن عيسى بن طلحة عن سعد، هكذا رواه عن ابن ميمون إبراهيم بن موسى التوزي.

وحدثناه أحمد بن محمد بن سعيد عن عبد الله بن أبي سعد الوراق عن ابن ميمون كذلك، وهذا

الحديث عن عيسى بن طلحة عن سعد أشبه من سعيد بن المسيب عن سعد؛ لأنه قد روي عن عيسى بن =

«وَهَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ»، وتستعمله في الإسلام؛ لأنه حافظ، وتستعمله في العِفَّة^(١)؛ لأنها إذا أرتبطَ بها إنسانٌ، وظهرت على شخصٍ ما، وتخلقَ بها، فهي مَنَعَةٌ وحفظٌ.

وحيثما وقعت اللفظة في القرآن، فلا تجدها تخرجُ عن هذه المعاني، لكنها قد تقوى فيها بعضُ هذه المعاني دونَ بعضٍ؛ كما سيأتي بيانهُ في أماكنه (إن شاء الله).

فقوله سبحانه في هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ قال فيه ابنُ عَبَّاسٍ وغيره: هنَّ ذواتُ الأزواج، محرَّماتُ إلا ما ملكت اليمينُ بالسَّني^(٢)، وزوي عن ابنِ شهابٍ؛ أنه سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، فقال: نُرَى أنه حَرَمٌ في هذه الآية ذَوَاتُ الأزواج، والعَقَائِفُ مِنْ حَرَائِرٍ ومملوكاتٍ، ولم يحلَّ شيءٌ من ذلك إلا بِنِكَاحٍ، أو شراءٍ، أو تملك^(٣)، وهذا قولٌ حَسَنٌ عَمَّ لفظَ الإحصانِ، وَلَفْظُ ملكِ اليمينِ، وذلك راجعٌ إلى أَنَّ اللهَ حَرَمَ الزنا، قال عبيدَةُ السَّلْمَانِي وغيره: قوله سبحانه: ﴿كَتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: إشارةٌ إلى ما ثبت من القرآن من قوله سبحانه: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾^(٤) [النساء: ٣]؛ وفي هذا بُعْدٌ،

= طلحة عن سعد موقوفاً ومرسلاً اهـ. وقد خولف مؤمل في هذا الحديث؛ خالفه عبد الرزاق وأبو عامر، فروياه عن الثوري عن خالد بن سلمة المخزومي عن عيسى بن طلحة قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على قرابتها مخافة القطيعة.

أخرجه عبد الرزاق (٢٦٣/٦) رقم (١٠٧٦٧)، وأبو داود في «المراسيل» (ص ١٨٢) رقم (٢٠٨).
(١) قَالَ صَاحِبُ «لِسَانِ الْعَرَبِ»:

العفة: الكف عما لا يحل ويجمل: عف عن المحارم والأطماع الدنيئة يعف عفةً، وعفاً، وعفافاً، وعفافاً، فهو عفيف. وَعَفَّ أَي: كف، وتعفف، واستعفف وأعفه الله، وفي التنزيل: ﴿وَلَيْسَتُغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣] فَسَّرَهُ ثعلب فقال: ليضبط نفسه بمثل الصوم، وفي الحديث: «مَنْ يَسْتَعْفِفْ يَعْفَهُ اللَّهُ» أَي: من طلب العفة وتكلفتها أعطاه الله إياها.

وقيل: الاستعفاف: الصبر، والنزاهة عن الشيء ومنه الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعِفَّةَ وَالْغِنَى إلخ...».

وعرف علماء الأخلاق فضيلة العفة بتعاريف متعددة مختلفة أهمها ما يأتي:

أولاً: عرفها حجة الإسلام الغزالي فقال: هي تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

ثانياً: عرفها محيي الدين بن العربي: بأنها ضَبْطُ النَّفْسِ عن الشهوات وقَسْرُهَا على الاكتفاء بما يقيم الجسد، ويحفظ صحته. وَالَّذِي ألاحظه على هذين التعريفين قَصْرُ العفة على شهوات البدن فقط، مع أنها تتناول ملاذ الروح أيضاً.

(٢) أخرجه الطبري (٣/٤) برقم (٨٩٦٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٤-٣٥)، والسيوطي (٢/ ٢٤٦-٢٤٧) بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٨/٤) برقم (٩٠١٢)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٥)، والسيوطي (٢/ ٢٤٨) بنحوه، وعزاه لابن جرير عن ابن شهاب.

(٤) أخرجه الطبري (١١/٤) برقم (٩٠١٨)، (٩٠١٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٦)، وابن كثير=

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إنما هو إشارة إلى التحريم الحَاجِزِ بَيْنَ النَّاسِ، وَبَيَّنَّ مَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ.

قال الفخر^(١): و ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: مُضَدَّرٌ مِنْ غَيْرِ لَفْظِ الْفَعْلِ، قال الرَّجَّاجُ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوباً عَلَى جِهَةِ الْأَمْرِ، وَيَكُونُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ خَبِراً لَهُ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَلْزَمُوا كِتَابَ اللَّهِ. انتهى.

وفي «التمهيد» لأبي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أي: حكمه فيكم وقضاؤه عليكم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ﴾، قال عطاء وغيره: المعنى: وأحلَّ لكم ما وراء مَنْ حُرِّمَ^(٢)، قلتُ: أي: على ما عَلِمَ تفصيله مِنَ الشَّريعة.

١١٧ ب قال ع^(٣): * و ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾: لَفْظٌ يَجْمَعُ/ التَّزْوِجَ وَالشِّرَاءَ، وَ ﴿مُخَصِّصِينَ﴾: معناه: متعَفِّفِينَ، أي: تُخَصِّصُونَ أَنْفُسَكُمْ بِذَلِكَ، ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، أي: غَيْرَ زُنَافَةٍ، وَالسَّفَاحُ: الزَّنا.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، قال ابن عَبَّاسٍ وغيره: الْمَعْنَى: فَإِذَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِالزَّوْجَةِ، وَوَقَعَ الْوَطْءُ، وَلَوْ مَرَّةً، فَقَدْ وَجِبَ إِعْطَاءُ الْأَجْرِ، وَهُوَ الْمَهْرُ^(٤) كُلُّهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً وَغَيْرُهُ: إِنْ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي نِكَاحٍ^(٥)

= (١/٤٧٤) بنحوه، والسيوطي (٢/٢٤٩) بنحوه، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٠/٣٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤/١٢) برقم (٩٠٢٤)، وذكره ابن عطية (٢/٣٦)، وابن كثير (١/٤٧٤)، والسيوطي (٢/٢٤٩)، وعزاه لابن جرير عن عطاء.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٣٦).

(٤) أخرجه الطبري (٤/١٣) برقم (٩٠٢٩)، وذكره ابن عطية (٢/٣٦)، والسيوطي (٢/٢٥٠) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه» عن ابن عباس.

(٥) أصل المتعة في اللغة: الانتفاع، يقال: تمتعت بكذا، واستمتعت بمعنى، والاسم المتعة. قال الجوهري: ومنه: متعة النكاح، ومتعة الطلاق، ومتعة الحج؛ لأنه انتفاع، والمراد بالمتعة هنا أن يتزوج الرجل المرأة مدة من الزمن، سواء أكانت المدة معلومة مثل أن يقول: زوجتك ابنتي مثلاً شهراً. أو مجهولة، مثل أن يقول: زوجتك ابنتي إلى قدوم زيد الغائب، فإذا انقضت المدة، فَقَدْ بَطَلَ حكم النكاح، وإنما سمي النكاح لأجل بذلك؛ لانتفاعها بما يعطيها، وانتفاعه بقضاء شهوته، فكان الغرض منها مجرد التمتع دون التوالد وغيره من أغراض النكاح.

وقد كانت المتعة منتشرة عند العرب في الجاهلية، فكان الرجل يتزوج المرأة مدة ثم يتركها من غير أن يرى العرب في ذلك غضاظة، فلما جاء الإسلام أقرهم على ذلك في أول الأمر، ولم نعلم أن النبي ﷺ نهى عن المتعة إلا في غزوة خيبر في السنة السابعة من الهجرة؛ فقد روي عن علي (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ: «نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ لَحْمِ الْخُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ» واستمر الأمر على ذلك، حتى فتح «مكة» حيث ثبت أن النبي ﷺ أباحها ثلاثة أيام، وفي بعض الروايات أنه أباحها يوم «أوطاس»، ولكن الحقيقة أن ذلك كان في يوم الفتح، ومن قال: يوم «أوطاس»، فذلك لاتصالها بها، ثم حرمها رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى يوم القيامة.

فيعلم من هذا أن المتعة كانت مباحة قبل خيبر، ثم حُرمت في خيبر، ثم أبيحت يوم الفتح، ثم حُرمت بعد ذلك إلى يوم القيامة، فتكون المتعة مما تناولها التحريم والإباحة مرتين..

وقد نشأ من هذا الاختلاف في المتعة بين الصحابة، فمنهم من يرى أن إباحة المتعة قبل خيبر كانت للضرورة وللحاجة، ثم لما ارتفعت الحاجة في خيبر نهى عنها رسول الله ﷺ، ثم لما تجددت الحاجة عام الفتح أذن فيها، ولما ارتفعت الحاجة نهى عنها، وعليه فتكون المتعة مباحة عند الحاجة، وبهذا كان يقول ابن عباس (رضي الله عنهما) إلا أنه رجع عنه كما سيأتي بيانه.

ومنهم من يرى أن نهى النبي ﷺ عن المتعة يوم خيبر كان نسخاً لها، ثم رفع النسخ في يوم الفتح ثلاثة أيام، ثم نسخت بعد ذلك إلى يوم القيامة، وإلى هذا ذهب جمهور الصحابة.

وقد اختلف الفقهاء بعد ذلك في المتعة هل هي محرمة، فتكون من الأنكحة الفاسدة، أو مباحة، فتكون من الأنكحة الصحيحة.

فذهب الجمهور إلى القول بتحريمها، وأنها من الأنكحة الفاسدة التي تفسخ مطلقاً قبل الدخول وبعده، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وذهب الإمامية من الشيعة إلى القول بإباحة نكاح المتعة إلى يوم القيامة، بل منهم من تغالى في ذلك وقال: إنها قريبة، وعليه فالخلاف في المتعة بين الجمهور والإمامية. ولما لم أجد كتاباً من كتب الإمامية أثق به لأستطيع استيفاء الكلام على مذهبهم في المتعة رأيت أن اكتفي بما قاله شرف الدين الصنعاني، وهو من علماء الشيعة؛ فإنه بعد أن ذكر الحديث عن علي قال ما نصه: «والحديث يدل على تحريم نكاح المتعة؛ للنهي عنه، وهو النكاح المؤقت إلى أمد مجهول أو معلوم، وغايته إلى خمسة وأربعين يوماً، ويرتفع النكاح بانقضاء الوقت المذكور في المنقطة الحيض، والحائض بحيضتين، والمتوفى عنها بأربعة أشهر وعشر، ولا يثبت لها مهر ولا نفقة، ولا توارث، ولا عدة إلا الاستبراء بما ذكر، ولا نسب يثبت به إلا أن يشترط، وتحرم المصاهرة بسببه». هكذا ذكره في بعض كتب الإمامية وإنا أذكر دليل الإمامية والرد عليه:

استدل الإمامية على القول بإباحة المتعة بالكتاب، والأثر، والمعقول، والإجماع.

أما الكتاب، فقول الله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» [النساء: ٢٤] فإنهم حملوا الاستمتاع في الآية على المتعة، وقالوا: المراد بقوله تعالى: «فَاتَّوَهُنَّ أُجُورَهُنَّ» أجر المتعة، ومما يؤيد أن الآية في المتعة قراءة أبي وابن عباس: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ»، فهي صريحة في المتعة. وأما الأثر: فأولاً: بما روي أن ابن عباس كان يفتي بالمتعة، ووجه الدلالة من هذا أنهم قالوا: لو لم تكن

= المتعة مباحة لما أفنى بها ابن عباس؛ إذ لا يليق بمثله أن يفتي بها مع أنها محرمة. وثانياً: بما روي عن جابر (رضي الله عنه) قال: تمتعنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدر من خلافة عمر، ثم نهانا عمر.

ووجه الدلالة من هذا: أن جابراً (رضي الله عنه) أخبر أنهم استمتعوا في زمن النبي ﷺ وفي خلافة أبي بكر، وفي صدر من خلافة عمر، وهذا يدل على أن المتعة مباحة، وإنما نهى عنها عمر من باب السياسة الشرعية.

وأما المعقول: فقد قالوا: إنها منفعة خالية من جهات القبح، ولا نعلم فيها ضرراً عاجلاً، ولا آجلاً، وكل ما هذا شأنه فهو مباح، فالمتعة مباحة.

وأما الإجماع: فإنهم قالوا: أجمع أهل البيت على إباحتها.

وتناقش هذه الأدلة التي تمسك بها الإمامية بما يأتي:

أما الآية، فيقال لهم فيها: إنها بمعزل عن الدلالة لكم؛ إذ هي محمولة على النكاح الدائم، وما يجب للمرأة من المهر كاملاً إذ استمتع بها الزوج، ويؤيد هذا أنها وردت في سياق الكلام على النكاح بالعقد المعروف بعد الكلام على أجناس يحرم التزوج بها. وتسمية المهر أجراً لا يدل على أنه أجر المتعة، فقد سمي المهر أجراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَقْنَا لَكَ أَزْوَاجَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي: مهورهن، وكقوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، وأما قراءة أبي وابن عباس، فهي شاذة، والقراءة الشاذة لا تعارض القطعي، وهي الآية الدالة على التحريم، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مع أن الدليلين إن تساويا في القوة وتعارضاً في الحل والحرمة قدم دليل الحرمة منهما، ويقال لهم فيما روي عن ابن عباس أنه ثبت رجوعه عنه، وقد كان يفتي بها أولاً؛ لأنه فهم من نهى النبي ﷺ عنها يوم خيبر، ثم إباحتها يوم الفتح، ثم نهيه عنها بعد ذلك - أن الإباحة كانت للضرورة، والنهي عند ارتفاعها يؤيد ذلك ما روي عن شعبة عن أبي جمرة قال: سمعت ابن عباس سئل عن متعة النساء، فرخص فيها، فقال له مولى له: إنما ذلك في الحال الشديد، وفي النساء قلة، فقال ابن عباس: نعم فإنه يعلم من هذا أن ابن عباس كان يتأول في إباحة نكاح المتعة لمضطر إليه، ثم توقف بعد ذلك لما ثبت له النسخ.

ومما يؤيد رجوع ابن عباس ما أخرجه الترمذي، أن ابن عباس قال: إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه يقيم، فتحفظ له متاعه، وتصلح له شأنه، حتى نزلت: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] و [المعارج: ٣٠] فقال ابن عباس: فكل فرج سواهما حرام.

وقد روى رجوعه أيضاً البيهقي وأبو عوانة في صحيحه، وروي عنه أنه قال عند موته: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ قَوْلِي فِي الْمَتْعَةِ وَالصَّرْفِ، وَعَلَيْهِ فَلَا يَصِحُّ الْاِحْتِجَاجُ بِقَوْلِي ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَدْ رَجَعْتُ عَنْهَا».

ويقال لهم في أثر جابر: إن قوله: «امتعنا إلخ...» يحمل على أن من تمتع لم يبلغه النسخ، حتى نهى عنها عمر، أو يكون جابر (رضي الله عنه) قال ذلك لفعلهم في زمن رسول الله ﷺ، ثم لم يبلغه النسخ، حتى نهى عنها عمر، فاعتقد أن الناس باقون على ذلك؛ لعدم الناقل عنده، والقول بأن عمر هو الذي نهى عنها، وأن ذلك من قبيل السياسة الشرعية غير مسلم؛ فإن عمر إنما قصد الإخبار عن تحريم النبي ﷺ ونهيه عنها، إذ لا يجوز أن ينهى عما كان النبي ﷺ أباحه وبقي على إباحته. ومما يؤيد أن نهيه =

= عنها ليس من قبيل السياسة الشرعية، بل إنه نهى عنها لما علم نهى النبي ﷺ ما روي من طريق سالم بن عبد الله عن أبيه عن عمر قال: صعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «مَا بَالُ رِجَالٍ يَنْكَحُونَ هَذِهِ الْمُتَعَةَ وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا، لَا أُوتَى بِأَحَدٍ نَكَحَهَا إِلَّا رَجُمَتْهُ».

ويقال لهم في المعقول: لا نسلم أنها منفعة خالية من جهات القبح، ولا ضرر فيها في الآجل ولا في العاجل، بل الضرر متحقق فيها؛ فإن فيها امتهان المرأة، وضيق الأنساب؛ فإنه مما لا شك فيه أن المرأة التي تنصب نفسها ليستمتع بها كل من يريد تصبح محتقرة في أعين الناس، وأيضاً فهو معقول في مقابلة النص، وهو باطل.

ويقال لهم في الإجماع: أولاً: إن إجماع أهل البيت (على فرض إجماعهم) ليس بحجة، فما بالك والإجماع لم يصح عنهم؟! فهذا زيد بن علي، وهو من أعلمهم يوافق الجمهور، ثم إن الإمام علياً (رضي الله عنه) وهو رأس الأئمة عندهم يقول بتحريمها، فقد روي من طريق جويرية عن مالك بن أنس عن الزهري أن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، والحسن بن محمد حدثاه عن أبيهما؛ أنه سمع علي بن أبي طالب يقول لابن عباس: إنك رجل تائه - أي: مائل - إن رسول الله ﷺ نهى عن المتعة.

وأما الجمهور، فقد استدلووا على تحريم نكاح المتعة بالكتاب، والسنة، والمعقول، والإجماع: أما الكتاب: فقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥-٦] و[المعارج: ٢٩-٣٠] ووجه الدلالة من هذه الآية الكريمة: أنها أفادت أن الوطء لا يحل إلا في الزوجة والمملوكة؛ وامرأة المتعة لا شك أنها ليست مملوكة ولا زوجة. أما أنها ليست مملوكة، فواضح. وأما أنها ليست زوجة، فلأنها لو كانت زوجة لحصل التوارث بينهما؛ لقوله (تعالى): ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] الآية. وبالاتفاق لا توارث بينهما.

وثانياً: ثبت النسب، بقوله ﷺ: «الولد للفراس، وللعاشر الحجر» وبالاتفاق لا يثبت النسب. وثالثاً: لوجبت العدة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤ و٢٤٠] الآية.

وأما السنة: فأولاً: ما روى مالك عن ابن شهاب عن عبد الله والحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عن أبيهما عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الإنسية» ووجه الدلالة من الحديث: أن النبي ﷺ نهى عن المتعة، والنهي يدل على فساد المنهي عنه، فيكون نكاح المتعة فاسداً. والحديث يدل على نسخ ما تقدم من إباحتها.

ثانياً: ما روي عن سبرة الجهني أنه غزا مع النبي ﷺ فتح مكة، قال: فأقمنا بها خمسة عشر، فأذن لنا رسول الله ﷺ في متعة النساء، وذكر الحديث إلى أن قال: فلم أخرج منها حتى حرّمها رسول الله ﷺ. وفي رواية أنه كان مع النبي ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخلى سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» رواه أحمد ومسلم ووجه الدلالة من الحديث أنه يدل بروايته على تحريم نكاح المتعة، وقد جاء في الرواية الثانية التصريح بتحريمها إلى يوم القيامة، فيكون ذلك نسخاً لإباحتها، وإذا ثبت ذلك فهي من الأنكحة الفاسدة.

وأما المعقول: فقد قالوا: إن النكاح لم يشرع لقضاء الشهوة، بل شرع لأغراض ومقاصد يتوسل به إليها. واقتضاء الشهوة بالمتعة لا يقع وسيلة إلى المقاصد التي من أجلها شرع النكاح، فلا يكون مشروعاً. =

= وأما الإجماع: فقد قالوا: إن الأمة امتنعت عن العمل بالمتعة مع ظهور الحاجة إلى ذلك، وما ذلك إلا لعلمهم بنسخها.

وقد نوقشت أدلة الجمهور بما يأتي:

أما حديث علي، فقد قيل لهم فيه: إنه وقع فيه كلام، حتى زعم ابن عبد البر أن ذكر النهي بيوم خبير غلط. وقال السهيلي: ويتصل بهذا الحديث تنبيه على إشكال؛ لأن فيه النهي عن نكاح المتعة يوم خبير، وهذا شيء لا يعرفه أهل السير ورواة الآثار. والذي يظهر أنه وقع تقديم وتأخير في لفظ الزهري. وقد أشار ابن القيم إلى تقرير هذا التقديم والتأخير فقال: وأما نكاح المتعة، فثبت عنه أنه أحلها عام الفتح، وثبت عنه أنه نهى عنها عام الفتح، واختلف هل نهى عنها يوم خبير على قولين، والصحيح أن النهي إنما كان عام الفتح، وأن النهي يوم خبير إنما كان عن الحمر الأهلية وإنما قال علي لابن عباس: إن رسول الله ﷺ نهى يوم خبير عن متعة النساء، ونهى عن الحمر الأهلية محتجاً عليه في المسألتين، فظن بعض الرواة أن التقييد بيوم خبير راجع إلى الفعلين، فرواه بالمعنى، ثم أفرد بعضهم أحد الفعلين، وقيده بيوم خبير.

وترد هذه المناقشة بأن أصحاب الزهري قد اتفقوا على أن نهى النبي ﷺ عن المتعة يوم خبير، وهم حفاظ ثقات، وزيادة الحفاظ الثقة تقبل. ولهذا قال عياض تحريمها يوم خبير صحيح لا شك فيه، والقول بأنه وقع في لفظ الزهري تقديم وتأخير يخالفه ظاهر الحديث؛ فإن ظاهره أن عام خبير ظرف لتحريم نكاح المتعة.

ومما يؤيد هذا الظاهر حديث ابن عمر الذي أخرجه البيهقي بإسناد قوي أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن المتعة، فقال: حرام، قال: فإن فلاناً يقول فيها، فقال: والله لقد علم أن رسول الله ﷺ حرمها يوم خبير، وما كنا مسافحين.

والذي يظهر أن القائلين بأن النهي يوم خبير إنما كان عن لحوم الحمر الأهلية يحاولون بذلك استبعاد أن تكون المتعة قد نسخت مرتين؛ لأنه ثبت النهي عنها يوم الفتح، ومعلوم أن يوم الفتح بعد خبير، إذ أن خبير في السنة السابعة من الهجرة، وغزوة الفتح في السنة الثامنة؛ فيلزم من ذلك نسخها مرتين.

ونحن نرى أن لا داعي لهذه المحاولة ما دام الحديث ظاهراً في أن يوم خبير ظرف لتحريم نكاح المتعة، ولا مانع من نسخها مرتين، ولها نظير في الشريعة الإسلامية، وهو مسألة القبلة؛ فقد نسخت مرتين، وذلك أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة تأليفاً لليهود، وامتحاناً للمسلمين الذين اتبعوه بمكة، ثم حول إلى الكعبة ثانياً. وقيل لهم في حديث سبرة الجهني: أن القول بأن النبي ﷺ حرمها إلى يوم القيامة معارض بما روي عنه أن النبي ﷺ نهى عن المتعة في حجة الوداع كما عند أبي داود.

وترد هذه المناقشة بأن هذا اختلف فيه عن سبرة، والرواية عنه بأنها في الفتح أصح لأنهم في فتح مكة شكوا للنبي ﷺ العزوبة، فرخص لهم فيها مدة ثم نسخها، وعلى تسليم صحة النهي عنها في حجة الوداع، فنقول: إن النبي ﷺ أعاد النهي في حجة الوداع ليسمعه من لم يكن سمعه قبل، فأكد ذلك حتى لا تبقى شبهة لأحد يدعي تحليها.

ويقال لهم في الإجماع: إنه غير مسلم؛ فقد ثبت الجواز عن ابن عباس كما ثبت عن جماعة من التابعين. =

الْمُتْعَةُ^(١)، قال ابنُ المُسَيَّب: ثُمَّ تُسَيِّحُ^(٢).

قال * ع^(٣): * وقد كانتِ المتعةُ في صَدْرِ الإسلامِ، ثُمَّ نَهَى عنها النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاوَيْتُمْ بِهِ﴾، أي: مِنْ حَظٍّ أَوْ تَأْخِيرٍ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ الْفَرِيضَةِ، وَمَنْ قَالَ بَأَنَّ الْآيَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ فِي الْمُتْعَةِ، قَالَ: الْإِشَارَةُ بِهَذِهِ إِلَى أَنَّ مَا تَرَاوَيْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ زِيَادَةٍ فِي مُدَّةِ الْمُتْعَةِ، وَزِيَادَةٍ فِي الْأَجْرِ جَائِزٌ.

= ويجب عن هذا بأن ابن عباس صح عنه أنه رجع عن القول بحل المتعة، كما قدمنا؛ فانهقد الإجماع على تحريمها. وأما خلاف بعض التابعين؛ فإنه إن صح عنهم لم يضر بعد تقرر التحريم قبل حدوثهم. يتبين لنا من بيان الأدلة ومناقشتها رجحان مذهب الجمهور من أن المتعة حرام، وهي من الأنكحة الفاسدة؛ لقوة أدلتهم، وأنه لا عبرة بمخالفة الإمامية؛ لما تبين من بطلان ما تمسكوا به من الأدلة. هذا وقد نسب بعض العلماء القول بصحة نكاح المتعة إلى إمام دار الهجرة (رضي الله عنه) قال صاحب «الهداية» من الحنفية: «ونكاح المتعة باطل، وهو أن يقول لامرأة: أتمتع بك كذا مدة بكذا من المال» وقال مالك (رحمه الله): «هو جائز».

وهذه النسبة باطلة؛ فإن الإمام مالكا (رضي الله عنه) لم يقل بإباحة نكاح المتعة، ولا قال به أحد المالكية؛ فإنهم جميعاً اتفقوا على تحريم نكاح المتعة. ولأجل مخالفة هذه النسبة لمذهب المالكية نجد بعض علماء الحنفية أنكروها على صاحب «الهداية». قال ابن نجيم في «البحر الرائق»: وما في «الهداية» من نسبته إلى مالك، فغلط كما ذكره الشارحون. والصحيح في كتب المالكية إنما هو فيمن نكح نكاحاً مطلقاً، ونيته ألا يصحك معها إلا مدة نواهاه فقالوا: إن ذلك جائز، وليس هو بنكاح متعة ولو علمت المرأة نيتها. وهذا لم ينفرده المالكية بل قال به الجمهور، إلا ما روي عن الأوزاعي؛ فقد قال: هذا نكاح متعة، ولا خير فيه. وقد قال الإمام مالك: ليس هذا من الجميل، ولا من أخلاق الناس.

فإن قيل: ما الفرق بين هذا النكاح الذي نوى فيه الرجل الإقامة معها مدة نواها، وبين نكاح المتعة الذي قالت به الإمامية وقتلتم ببطلانه؟؟ نقول: الفرق بينهما واضح، وهو أن نكاح المتعة الذي قلنا ببطلانه، والذي قالت به الإمامية دخلاً فيه على تحديده بمدة معينة أو غير معينة. وأيضاً فهو نكاح لا تترتب عليه أحكام النكاح من التوارث ولحوق النسب ووجوب العدة؛ بخلاف هذا، فإنه وإن نوى الإقامة معها مدة إلا أنها لم يدخلها على ذلك، وهو نكاح تترتب عليه آثاره، ففرق بينهما، غاية الأمر أنه نوى الإقامة معها مدة نواها، وهذا لا يضر؛ لأن الرجل بيده الطلاق، فله أن يطلق في أي وقت شاء.

ينظر: «الروض الضمير شرح مجموع الفقه الكبير» (٤/٢٢)، و «زاد المعاد» (٤/٨)، و «الهداية» (٢/٣٨٤).

(١) أخرجه الطبري (٤/١٤) برقم (٩٠٣٧) بنحوه، وذكره البغوي (١/٤١٤)، وابن عطية (٢/٣٦)، والسيوطي (٢/٢٥٠) بنحوه، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ذكره ابن عطية (٢/٣٦)، والسيوطي (٢/٢٥١) بنحوه، وعزاه لأبي داود في «ناسخه»، وابن المنذر، والنحاس، والبيهقي.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٣٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً...﴾ الآية: قال ابن عَبَّاس وغيره: الطَّوْلُ هنا: السَّعة في المال^(١)؛ وقاله مالك في «المُدَوَّنة»، فعلى هذا التأويل لا يصحُّ للحُرِّ أَنْ يتزوَّج الأُمّة إلاّ بأجتماعِ شرطين: عَدَمِ السَّعة في المال، وَخَوْفِ العَنَتِ، وهذا هو نصُّ مالك في «المُدَوَّنة».

قال مالك في «المُدَوَّنة»: «وَلَيْسَتْ الحُرّة تحتَه بِطَوْلٍ، إِنْ خَشِيَ العَنَتَ»، وقال في «كتاب محمد» ما يقتضي أَنَّ الحُرّة بمثابة الطَّوْل.

قال الشيخ أبو الحسن اللّخمي: وهو ظاهر القرآن، ونحوه عن ابنِ حبيب^(٢).

وقال أبو حنيفة: وجودُ الحُرّة تحتَه لا يَجُوزُ معه نكاحُ الأُمّة؛ وقاله^(٣) الطَّبْرِيُّ، وتقول: طَالَ الرَّجُلُ طَوْلًا (بفتح الطاء)؛ إِذَا تَفَضَّلَ، وَوَجَدَ، وَاتَّسَعَ، وَطَوَّلًا (بضمها): فِي ضِدِّ الْقِصَرِ، وَ «المَحْصَنَاتُ» فِي هَذَا الْمَوْضِع: الْحَرَائِرُ - وَالْفَتَاةُ، وَإِنْ كَانَتْ فِي اللُّغَةِ وَاقِعَةً عَلَى الشَّابَّةِ، أَيَّةُ كَانَتْ، فَعَرَفُهَا فِي الْإِمَاءِ، وَفَتَى كَذَلِكَ، وَ «الْمُؤْمَنَاتُ»؛ فِي هَذَا الْمَوْضِع: صِفَةٌ مُشْتَرِطَةٌ عِنْدَ مَالِكٍ، وَجَمْهُورِ أَصْحَابِهِ، فَلَا يَجُوزُ نِكَاحُ أُمّةٍ كَافِرَةٍ^(٤).

(١) أخرجه الطبري (١٧/٤) برقم (٩٠٥٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٧/٢)، والسيوطي (٢٥٣/٢) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٧/٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/٤).

(٤) اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب إلى جوازه مع كونه خلاف الأولى الحنفية وأحمد في رواية، وهو المنقول في «العتبية» و «الواضحة» من سماع ابن القاسم عن مالك. وذهب الشافعية والحنابلة في ظاهر مذهبه، والمالكية في المشهور عندهم إلى القول بعدم جواز الزوج مطلقاً.

استدل المانعون بالكتاب:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١] وجه الدلالة: أَنَّ الآية دلت على تحريم المشركات. والكتابية مشركة، فيحرم نكاحها حرة كانت أو أمة؛ لاندراجها تحت العموم، لا أَنَّ اللَّهَ (تعالى) خص الحرائر بالحل بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]؛ إِذ المراد بالمحصنات الحرائر، فبقيت الإماء على أصل المنع وعدم الحل كاللوثنيات والمجوسيات. ونوقش بأن المستدل منع فيما تقدم أَنَّ تكون الكتائية مشركة، ونفى إرادة الكتائية من لفظ «المشركات» في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾، وكيف يصح هذا وقد خصهن العرف باسم آخر ولم يطلق عليهم اسم الشرك؟! يؤيده خصوصية كل منهما باللفظ، والعطف في أسلوب القرآن، فإن الأخير يقتضي المغايرة.

ولو سلمنا اندراجهن تحت عموم المشركات وإرادتهن من اللفظ، فقد خرجن بالاتفاق على تخصيص هذا العموم بحل الحرائر من الكتابيات بآية «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، فلم تبق الآية على =

عندهم؛ قُلْتُ: والعلة في مَنع نكاح الأمة ما يؤول إليه الحال من استرقاق الولد.

= عمومها؛ فلا يحتج بها. ثم ما تقدم على القول بتفسير المحصنات بالحرائر. أما إن فسرت بالعفاف (كما جرى عليه الحنفية استناداً إلى أن الإحصان في كلام العرب عبارة عن المنع، وهو يحصل بالحرية والإسلام). فاسم العفاف متناول للحرائر والإماء، فيكن في الحكم سواء. وحيث وقع الاتفاق على حل الحرائر، فالإماء كذلك؛ لعدم الفصل في الدليل المبيح.

وثانياً من الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥] دلت الآية على أن حل المتزوج بالإماء مشروط بشرطين هما إيمانهن وعدم قدرة المتزوج بهن على طول الحرية، فإذا انتفى الإيمان منهن (وهو أحد الشرطين) بأن كن كتابيات انتفى الحكم، وهو الحل، فيحرم نكاحهن بناءً على أن الحكم متى علق بشرط أو أضيف إلى مسمى بوصف خاص، أوجب نفي الحكم عند عدم الشرط أو الوصف، فكان انتفاء الشرطين أو أحدهما وهو الإيمان مفيداً لتحريم الإماء.

ونوقش بأن هذه الآية غاية ما تنيد وجود الحكم عند وجود الشرط، أما نفي الحكم عند نفي الشرط، فلم تتعرض له الآية، فلا دلالة فيها على التحريم؛ إذ اللفظ لا يدل على خلاف الموضوع له.

وغاية درجات الوصف إذا كان مؤثراً أن يكون علة، ولا تأثير للعلة في نفي الحكمة؛ لأن عدم العلة لا يصلح أن يكون علة لعدم الحكم؛ لكون العدمي لا يكون علة لحكم عدمي ولا وجودي، وعلى ذلك فالآية أفادت حل الإماء المؤمنات عند الشرط لا تحريم الكتابيات.

ولو سلمنا للمستدل حجية المفهوم، فمقتضى مفهوم الآية عدم الإباحة الثابتة عند وجود القيد المبيح، وعدم الإباحة أعم من ثبوت الكراهة أو الحرمة؛ لأنه لا دلالة للأعم على أخص بخصوصه. وعليه يجوز ثبوت الكراهة أو الحرمة على سواء لا ثبوت الحرمة بعينها، لكن لما كانت الكراهة أقل تعينت، وإليها مالت الحنفية. وصرح بذلك صاحب «البدائع» منهم.

فإن قال قائل: إن الوصف بالإيمان يدل على الحرمة عند عدمه، فتحرم الأمة الكتابية؛ لعدم تحقق وصف الإيمان فيها. ولهذا نظير معتبر متفق عليه وارد في القرآن الكريم هو قوله تعالى في كفارة القتل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] فقد وقع الاتفاق على عدم إجراء الرقبة الكافرة في هذه الكفارة؛ لكونها مقيدة بالإيمان، فكأنهم اعتبروا الوصف الوارد في الآية.

أجيب بأن تحرير الرقبة في كفارة القتل لم يشرع إلا مقيدة بالإيمان، بخلاف النكاح؛ فقد شرح مطلقاً ومقيداً.

واستدل المانعون بالمعقول من وجهين:

الوجه الأول: أن نكاح الإماء في الأصل ثبت ضرورة وما ثبت بالضرورة يقتصر على قدرها الوارد به النص. وقد ورد النص بحل الحرائر والإماء المؤمنات؛ لكون الضرورة مرتفعة بهما، فلا تحل الإماء الكتابيات لعدم ورود النص بذلك.

أما أن نكاح الإماء ثابت ضرورة، فلما فيه من تعريض الولد للرق الذي هو مَوْتُ حكماً، فكان كالأهلاك حساً؛ إذ به يخرج الشخص عن أن يكون منتفعاً به في حق نفسه ملحقاً بالعجماءات في البيع والشراء، وهلاك الجزء من غير ضرورة لا يجوز.

والوجه الثاني: هو أن التزوج بالإماء بالكتابيات يؤدي إلى تعريض ولد الحر المسلم لرق الكافر؛ لأن الولد ينشأ رقيقاً برق أمه، فإذا كانت الأم مملوكة لكافر وتزوجها حر مسلم نشأ الولد رقيقاً برق أمه، =

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، ومعناه: واللَّهُ أَعْلَمُ بِبَوَاطِنِ الأمور، ولكم ظواهرها، فإذا كَانَتِ الفتاةَ ظاهِرُها الإيمانُ، فنكاحها صحيحٌ، وفي اللفظ

= مسلماً بإسلام أبيه، مملوكاً لكافر هو سيد أمه. ولا شك أن هذا التعريض محظور شرعاً، فيحظر ما أفضى إليه، وهو التزوج بالأمة الكتابية؛ إذ أن ما يفضي إلى المحظور يكون محظوراً.

ونوقش المعقول بوجهيه: بأن على تسليم كون نكاح الإمام فيه تعريض الولد للرق لا يفضي إلى التحريم بل يفيد الكراهة؛ إذ لو كان محرماً لما أجاز الشارع للعبد أن يتزوج بأمتين مع وجود العلة المذكورة في نكاحه، كما أن تحصيل الولد رقيقاً مسلماً أولى من عدم تحصيله أصلاً؛ لأن فيه تكثير المقرين بالوحدانية الأمر الذي هو المقصود الأصلي من النكاح. أما كون الولد حراً بعد كونه مسلماً، فهو كمال يرجع إلى أمر دينوي. وفي إمكان المتزوج بالأمة الكتابية عدم تحصيل الولد أصلاً بنكاح من لا تلد فلا يتحقق المانع، فلا تحرم. أما كون النكاح فيه تعريض ولد الحر المسلم لرق الكافر، فهذا غير مطرد، ومؤثر في بعض الحالات دون بعض، وغاية ما يفيد الكراهة لا الحرمة.

وهناك معقول ثالث: استدل به المانعون هو أن الأمة الكتابية جمعت بين نقصين مؤثرين في منع النكاح هما الكفر والرق، فيحرم نكاحها كالحرمة المجوسية، حرمت لاجتماع نقصي الكفر وعدم الكتاب فيها. ونوقش: بأن المانع من نكاح الحرمة المجوسية هو تغليظ كفرها بعدم الانتماء إلى نبي أو كتاب منزل، فأشبهت المشركة، ولا كذلك الأمة الكتابية؛ فظهر الفرق بينهما.

واستدل المجيزون بالكتاب والمعقول: أولاً: الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] الآية، وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُغِدِّلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وجه الدلالة: أن العمومات التي اشتملت عليها هذه الآيات أفادت حل النكاح بالنساء مطلقاً من غير تقييد بحرائر أو إماء بإيمان أو غير إيمان. ذلك لأن الآية أفادت حل النساء المستطابة مطلقاً من غير تقييد بحرمة أو غيرها. والآية الثانية أفادت حل المملوكات، وهو بإطلاقه شامل للكتابيات وغيرها.

والآية الثالثة إنما يتم الاستدلال بها على المطلوب إذا فسرت المحصنات بالعفاف؛ لأن العفيفة كما تكون حرة تكون أمة. دل عليه استثناءها من المحصنات في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، فكان لفظ «المحصنات» متناولاً للإماء كما هو متناول للحرائر.

ونوقش: بأن هذه العمومات المستدل بها مراد بها الحرائر دون الإماء، شهد بذلك سياق الآيات؛ ففي سياق قوله: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأُتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ بِنِكَاحٍ﴾ [النساء: ٤] والمملوكة سيدها هو المتولي قبض مهرها، فكان هذا دليلاً على خصوصية الحرائر بالآية؛ لأنهن اللاتي يقبضن مهرهن.

وكذا قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُغِدِّلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣] سيق لبيان عدم اشتراط العدل في نكاح المملوكات دون الحرائر.

أما قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ فلا دلالة فيها على حل نكاح الإماء؛ لأن الإحصان اسم مشترك يتناول معان مختلفة، وليس بعام حتى يجري على مقتضى لفظه، فكان مجعلاً موقوفاً على البيان معناه. ووقوع الاتفاق على أن حل الحرائر من الكتابيات مستفاد من الآية مشعر بورود بيان يفيد ذلك. أما الإماء، فعدم البيان في حقهن مبيح لهن على أصل المنع والتحريم.

وأجيب: بأن دعوى سوق العمومات في الحرائر دون الإماء لا تمنع دلالة العمومات على حل الإماء =

أيضاً: تنبيه على أنه ربما كان إيمان أمة أفضل من إيمان بعض الحرائر، فلا تعجبوا بمعنى الحرية، والمقصود بهذا الكلام أن الناس سواء، بنو الحرائر، وبنو الإمام، أكرمهم عند الله أتقاهم، وفي هذا توطئة لنفوس العرب التي كانت تستهجن ولد الأمة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُمْ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، معناه: بولاية أربابهن المالكين، ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، أي: مهرهن، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: معناه: بالشئع والسنة، و ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾: الظاهر أنه بمعنى عفيفات.

قال ص * : مُحْصَنَاتٍ: منصوب على الحال، والظاهر أن العامِلِ وأتوهنَّ، ويجوز أن يكون العامِلُ: فَأَنْكِحُوهُنَّ مُحْصَنَاتٍ، أي: عفاف. انتهى.

والمسافحات: الزواني المتبدلات اللواتي هن سوق للزنا، ومتخذات الأخدان هن المستترات اللواتي يصحبن واحداً واحداً، ويزنين خفية، وهذان كانا نوعين في زنا الجاهلية؛ قاله ابن عباس وغيره^(١).

= الكتابيات؛ إذ ليس هناك ما يمنع ثبوت حكم سياق اللفظ وآخر بإشارته. وما استندوا إليه من الاتفاق على حل الحرائر لا ينهض حجة لهم؛ لأن التحريم لا يثبت إلا بنص، فما لم يرد يكون حكم العموم جارياً على أفرادها، وهنا كذلك، فتكون العمومات متناولة للحرائر والإماء على أن الراجح إرادة العفاف من المحصنات لا غيرها في هذا المقام، كما روي هذا عن جماعة من السلف. وأيده كون العفة من معاني الإحصان، وورود القرآن الكريم بذلك، وما عدا هذا المعنى من معاني الإحصان فغير مراد؛ لعدم قيام الدليل، وحيث كانت العفة هي المرادة وهي صادقة على الحرائر والإماء، وجب اعتبار عموم العفة في تناولها للحرائر والإماء، فوجب القول بحل الإماء الكتابيات؛ لأنها من أفراد العام في الآية.

واستدلوا ثانياً بالمعقول، وهو قياس الأمة الكتابية على الأمة المسلمة بجامع جواز وطء كل منهما بملك اليمين، فحيث جاز نكاح الأمة المسلمة اتفاقاً، جاز كذلك نكاح الأمة الكتابية. ونوقش: بأن وطء الإماء بملك اليمين أقل شأنًا من وطئهن بملك النكاح. وثبوت الحكم في الأدنى غير مستلزم ثبوته في الأعلى، ولذا كانت الأمة المسلمة يجوز وطؤها بملك اليمين، وعند وجود حرة تحت الزوج يمتنع، ولو كانت حرة لا أمة لجاز النكاح.

وأجيب: بأن ما استظهر به من منع نكاح الأمة المسلمة عند وجود حرة، لا يصلح علة في جميع الأحوال، بل هو علة لجواز الأمة منفردة غير مجموعة إلى غيرها، ومن هنا كانت الأمة المسلمة يجوز وطؤها بملك اليمين، ويجوز نكاحها منفردة، وحين تكون تحت الزوج حرة يمتنع نكاحها من جهة أخرى هي جمعها مع حرة.

ينظر: «أثر الاختلاف في الأحكام» لشيخنا بدران أبو العنين.

(١) أخرجه الطبري (٢٢/٤) برقم (٩٠٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩/٢)، والسيوطي (٢٥٤/٢)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ...﴾ الآية، أي: تزوجن، قال الزُّهْرِيُّ وغيره:
فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمُسلِّمة غير المتزوجة محدودة بالحديث، وفي مسلم
١١٨ البخاري، «أنه قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْأَمَةُ إِذَا زَنَتْ، وَلَمْ تُحْصَنْ؟ فَأَوْجِبْ/ عَلَيْهَا الْحَدَّ»
والفاحشة^(١)، هنا الزُّنا.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩/٤) كتاب «البيوع»، باب بيع العبد الزاني، حديث (٢١٥٣)، ومسلم (٣/١٣٢٩) كتاب «الحدود»، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، حديث (١٧٠٤/٣٣)، ومالك (٢/٨٢٦) كتاب «الحدود»، باب جامع ما جاء في الزنا، حديث (١٤)، وأبو داود (٥٥٦/٢) كتاب «الحدود»، باب في الأمة تزني ولم تحصن، حديث (٤٤٦٩)، وابن ماجه (٨٥٧/٢) كتاب «الحدود»، باب إقامة الحدود على الإماء، حديث (٢٥٦٥)، والدارمي (١٨١/٢) كتاب «الحدود»، باب في المماليك يقيم عليهم سادتهم الحدود دون السلطان، وأحمد (١١٦/٤)، والشافعي في «الأم» (١٣٥/٦)، وأبو داود الطيالسي (١/٣٠٠-منحة) رقم (١٥٢٨)، والحميدي (٣٥٥/٢) رقم (٨١٢)، وعبد الرزاق (٣٩٣/٧) رقم (١٣٥٩٨)، وابن أبي شيبة (٥١٣/٩)، وابن الجارود في «المتقى» رقم (٨٢١)، وابن حبان (٤٤٢٧-الإحسان)، والطبراني في «الكبير» (٢٣٨/٥) رقم (٥٢٠١)، (٥٢٠٢، ٥٢٠٣، ٥٢٠٤، ٥٢٠٥، ٥٢٠٦، ٥٢٠٧)، والدارقطني (١٦٢/٣) كتاب «الحدود والديات»، حديث (٢٣٦)، والبيهقي (٢٤٢/٨) كتاب «الحدود»، باب ما جاء في حد المماليك، كلهم من طريق عبيد الله بن عبد الله عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، فقال: «إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فبيعوها ولو بضيفير» قال ابن شهاب: لا أدري أبعد الثالثة أو الرابعة.

والحديث أخرجه أبو داود الطيالسي (١/٣٠٠-منحة) رقم (١٥٢٧) من طريق زمعة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن زيد بن خالد الجهني - وحده - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت أمة أحكم فليجلدها، فإن عادت فليجلدها، فإن عادت فليجلدها، فإن عادت فليبيعها ولو بضيفير من شعر». وقد روي هذا الحديث عن أبي هريرة وحده، وسيأتي تخريجه مع ماله من الشواهد:

أخرجه البخاري (٤٣٢/٤) كتاب «البيوع»، باب بيع العبد الزاني، حديث (٢١٥٢)، ومسلم (٣/١٣٢٨) كتاب «الحدود»، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، حديث (١٧٠٣/٣٠)، وأحمد (٢/٤٩٤)، وأبو داود (٥٦٦/٢) كتاب «الحدود»، باب في الأمة تزني ولم تحصن، حديث (٤٤٧٠)، والحميدي (٤٦٣/٢) رقم (١٠٨٢)، والشافعي (٧٩/٢) كتاب «الحدود»، باب الزنا، حديث (٢٥٦)، وعبد الرزاق (٣٩٢/٧) رقم (١٣٥٩٧، ١٣٥٩٩)، وأبو يعلى (٤١٩/١١) رقم (٦٥٤١)، والدارقطني (٣/١٦٠-١٦١) كتاب «الحدود والديات»، حديث (٢٣٦)، والبيهقي (٢٤٢/٨) كتاب «الحدود»، باب ما جاء في حد المماليك، والبغوي في «شرح السنة» (٥/٤٧١-بتحقيقنا) من طريق سعيد بن أبي سعيد المقبري - قال بعضهم: عن أبيه - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت الأمة فتبين زناها، فليجلدها ولا يثرب، ثم إن زنت، فليجلدها ولا يثرب، ثم إن زنت الثالثة، فليبيعها ولو بحبل من شعر». قلت: وقع في هذا الإسناد اختلاف؛ فقد رواه الليث عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة، وقد وافقه على ذلك محمد بن إسحاق. ورواه بعضهم عن سعيد عن أبي هريرة دون ذكر أبيه، كإسماعيل وعبيد الله بن عمر وأيوب بن موسى ومحمد بن عجلان وعبد الرحمن بن إسحاق، ووقع =

قال * ص * : وجوابُ : «إِذَا» : «فَإِنْ أَتَيْنَ» ، وجوابه . انتهى .

= في رواية عبد الرحمن تصريح سعيد بسماعه عن أبي هريرة فقال: سمعت أبا هريرة قال الحافظ في «الفتح» (١٧٢/١٢): ووافق الليث على زيادة قوله: «عن أبيه» محمد بن إسحاق، أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي، ووافق إسماعيل [ابن أمية] على حذفه عبيد الله بن عمر العمري عندهم، وأيوب بن موسى عند مسلم والنسائي، ومحمد بن عجلان وعبد الرحمن بن إسحاق عند النسائي، ووقع في رواية عبد الرحمن المذكور عن سعيد سمعت أبا هريرة... اهـ.

وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة: أخرجه الترمذي (٣٧/٤) كتاب «الحدود»، باب ما جاء في إقامة الحد على الإماء، حديث (١٤٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (٢٩٩/٤) كتاب «الرجم»، باب إقامة الرجل الحد على وليدته إذا زنت كلاهما من طريق أبي خالد الأحمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ثلاثاً بكتاب الله، فإن عادت فليبعها ولو بحبل من شعر».

قال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح . اهـ.
وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي خالد عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن أبي هريرة به .

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢٩٩/٤) كتاب «الرجم»، باب إقامة الرجل الحد على وليدته إذا زنت، حديث (٧٢٤٢).

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٥٨/٣) من طريق سعد بن سعيد عن سفيان عن الأعمش عن حبيب عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت الأمة فاجلدوها، فإن عادت فاجلدوها، فإن عادت فبيعوها ولو بضيفير».

قال ابن عدي: ذكر الأعمش غير محفوظ، إنما هو عن الثوري عن حبيب نفسه، وهذه الأحاديث التي ذكرتها لسعد بن سعيد عن الثوري وعن غيره مما ينفرد فيها سعد عنهم، وقد صحب سعد الثوري بجران في بلده، روى عنه غرائب، وسأله عن مسائل كثيرة، فتلك المسائل معروفة عنه، ولسعد غير ما ذكرت من الأحاديث غرائب وأفراد غريبة تروى عنهم، وكان رجلاً صالحاً، ولم تؤت أحاديثه التي لم يتابع عليها من تَعَمُّدٍ منه فيها أو ضعف في نفسه وروايته إلا لغفلة كانت تدخل عليه، وهكذا الصالحين، ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً، لأنهم كانوا غافلين عنه، وهو من أهل بلدنا، ونحن أعرف به . اهـ.

وسعد ذكره الذهبي في «المغني في الضعفاء» (١/٢٥٤) رقم (٢٣٤٣) وقال: سعد بن سعيد الساعدي عن الثوري، وهاه أبو نعيم . اهـ.

قلت: وقد خالفه عبد الرحمن بن مهدي، فرواه عن الثوري عن حبيب عن أبي صالح عن أبي هريرة، ولم يذكر فيه الأعمش.

أخرجه النسائي (٢٩٩/٤- الكبرى) كتاب «الرجم»، باب إقامة الرجل الحد على وليدته إذا زنت، حديث (٧٢٤١) عن محمد بن بشار - بن دار - عن عبد الرحمن بن مهدي به .

وينظر: «تحفة الأشراف» (٣٤٢/٩).

وللحديث شواهد عن عائشة، وابن عمر، وعبد الله بن زيد.

١ - حديث عائشة:

أخرجه ابن ماجه (٨٥٧/٢) كتاب «الحدود»، باب إقامة الحدود على الإماء، حديث (٢٥٦٦)، =

و ﴿المُحْصَنَاتُ﴾ في هذه الآية: الحَرَائِرُ؛ إذ هي الصِّفَةُ الْمَشْرُوطَةُ فِي الْحَدِّ الْكَامِلِ، وَالرَّجْمُ لَا يَتَنَصَّفُ، فَلَمْ يُرَدْ فِي الْآيَةِ بِإِجْمَاعٍ، وَالْعَتُّ فِي اللُّغَةِ: الْمَشَقَّةُ.

قال ابن عباس وغيره: والمَقْصِدُ بِهِ هُنَا الزَّنا^(١).

= والنسائي في «الكبرى» (٣٠٣/٤) كتاب «الرجم»، باب إقامة الرجل الحد على وليدته إذا زنت، حديث (٧٢٦٤) كلاهما من طريق يزيد بن أبي حبيب عن عمار بن أبي فروة؛ أن محمد بن مسلم حدثه؛ أن عروة حدثه؛ أن عمرة بنت عبد الرحمن حدثته؛ أن عائشة حدثتها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زنت الأمة فاجلدوها، فإن زنت فاجلدوها، فإن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضعير».

وقد رواه عروة وعمرة عن عائشة: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٠٣/٤) كتاب «الرجم»، باب إقامة الرجل الحد على وليدته إذا زنت، حديث (٧٢٦٥)، وابن عدي في «الكامل» (٧٤/٥) كلاهما من طريق الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن عمار بن أبي فروة؛ أن محمد بن مسلم حدثه؛ أن عروة وعمرة حدثته؛ أن عائشة حدثتهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: .. فذكره.

وأخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٣٢٤/٣) من طريق الليث عن حبيب عن عمار بن أبي فروة، أن محمد بن مسلم حدثه؛ أن عمرة بنت عبد الرحمن حدثته؛ أن عائشة حدثتها؛ أن رسول الله ﷺ قال: .. فذكر الحديث.

قلت: وهذا كله من ضعف عمار بن أبي فروة؛ فمرة يرويه عن محمد عن عروة عن عمرة عن عائشة، ومرة يرويه عن محمد عن عروة وعمرة عن عائشة، ومرة يرويه عن محمد عن عمرة عن عائشة. والحديث ذكره البوصيري في «الزوائد» (٣١٠/٢)، وقال: هذا إسناد ضعيف؛ عمارة - كذا قال، والصواب عمار - ابن أبي فروة قال البخاري: لا يتابع على حديثه. وذكره العقيلي وابن الجارود في «الضعفاء»، وذكره ابن حبان في «الثقات» فما أجاداه.

٢ - حديث ابن عمر:

ذكره ابن أبي حاتم في «العلل» (٤٥٥/١) رقم (١٣٦٦) فقال: سألت أبي عن حديث رواه مسلم بن خالد عن إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إذا زنت أمة أحدكم فاجلدوها...» الحديث قال أبي: هذا خطأ؛ إنما هو ما رواه بشر بن المفضل عن إسماعيل بن أمية عن المقبري عن أبي هريرة . اهـ.

٣ - حديث عبد الله بن زيد:

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢٩٨/٤) كتاب «الرجم»، باب حد الزاني البكر، حديث (٧٢٣٨) من طريق أبي أويس عن عبد الله بن أبي بكر عن عباد بن تميم عن عمه (وكان شهد بدرأ) أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زنت الأمة فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها ولن بضعير».

قال النسائي: أبو أويس ضعيف، وإسماعيل ابنه أضعف منه.

قلت: وعم عباد بن تميم هو عبد الله بن زيد كما في «تحفة الأشراف» (٣٤٠/٤) للحافظ المزي. وفي «التحفة» قول النسائي: أبو أويس ليس بالقوي.

(١) أخرجه الطبري (٢٧/٤) برقم (٩١١٣)، (٩١١٤)، وذكره ابن عطية (٣٩/٢)، والسيوطي (٢٥٥/٢)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني: عَنْ نِكَاحِ الْإِمَاءِ؛ قاله ابنُ عَبَّاسٍ وغيره^(١): وهذا نَذْبٌ إِلَى التَّرْكِ؛ وَعِلَّتُهُ مَا يُوْدِّي إِلَيْهِ نِكَاحُ الْإِمَاءِ مِنْ أَسْتِرْقَاقِ الْوَلَدِ وَمِهْنَتِهِنَّ.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ قَبِلُوا مِثْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ...﴾ الآية: التقديرُ عندَ سَيِّئَتِهِ: يريدُ اللَّهُ لِأَنْ يُذَيِّبَ لَكُمْ، وَيَهْدِيَكُمْ، بِمَعْنَى: يُرْشِدُكُمْ، وَالسُّنَنُ: الطَّرِيقُ، وَوَجْهُ الْأُمُورِ، وَأَنْحَاؤُهَا، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا: همُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ كُلِّ شَرِيعَةٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يريدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية: مَقْصِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِخْبَارُ عَنْ إِرَادَةِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ، فَقَدْ مَتَّ إِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَوَطُّعًا مُظْهِرَةً لِفَسَادِ إِرَادَةِ مُتَّبِعِي الشَّهَوَاتِ، وَاخْتَلَفَ الْمُتَأَوَّلُونَ فِي تَعْيِينِ مُتَّبِعِي الشَّهَوَاتِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ: همُ الزَّانَةُ^(٢)، وَقَالَ السُّدِّيُّ: همُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى^(٣)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: همُ الْيَهُودُ خَاصَّةً؛ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَتَّبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي نِكَاحِ الْأَخَوَاتِ مِنَ الْأَبِّ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ذَلِكَ عَلَى الْعُمُومِ فِي هَؤُلَاءِ، وَفِي كُلِّ مُتَّبِعِ شَهْوَةٍ^(٤)؛ وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ...﴾ الآية: أَي: لَمَّا عَلِمْنَا ضَعْفَكُمْ عَنْ الصَّبْرِ عَنِ النِّسَاءِ، خَفَّفْنَا عَنْكُمْ بِإِبَاحَةِ الْإِمَاءِ، قَالَه مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(٦)، وَهُوَ ظَاهِرٌ مَقْصُودِ الْآيَةِ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْمَقْصِدِ تَخْرُجُ الْآيَةُ مَخْرَجَ التَّفْضِيلِ؛ لِأَنَّهُمَا تَتَنَاولُ كُلُّ مَا خَفَّفَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْ عِبَادِهِ، وَجَعَلَهُ الَّذِينَ يُسْرَأُ، وَيَقَعُ الْإِخْبَارُ عَنْ ضَعْفِ الْإِنْسَانِ عَامًّا؛ حَسْبَمَا هُوَ

(١) أخرجه الطبري (٢٩/٤) برقم (٩١٢٩)، وذكره ابن عطية (٣٩/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣١/٤) برقم (٩١٣٠ - ٩١٣١ - ٩١٣٢ - ٩١٣٣) بنحوه، وذكره البغوي (٤١٧/١)، وابن عطية (٤٠/٢)، والسيوطي (٢٥٧/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٣١/٤) برقم (٩١٣٤)، وذكره البغوي (٤١٧/١)، وابن عطية (٤٠/٢)، والسيوطي (٢٥٧/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٣١/٤) برقم (٩١٣٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٠/٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٩/٤).

(٦) أخرجه الطبري (٣٢/٤) برقم (٩١٣٦)، وذكره ابن عطية (٤٠/٢)، وابن كثير (٤٧٩/١)، والسيوطي (٢٥٧/٢) بنحوه، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

في نفسه ضعيف يستميله هواه في الأغلب .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَدْخُلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً...﴾ الآية: الاستثناء منقطع، المعنى: لكنْ إِنْ كَانَتْ تِجَارَةً، فَكُلُّوْهَا، وَأَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا، أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا، أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(١). انتهى .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، أجمع المتأولون على أن المقصود بهذه الآية النهي عن أن يقتل بغض الناس بغضا، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل، أو بأن يحملها على غرر، ريمًا مات منه، فهذا كله يتناوله النهي، وقد احتج عمرو بن العاصي بهذه الآية حين أمتنع من الإغتسال بالماء البارد؛ خوفاً على نفسه منه، فقرر رسول الله ﷺ احتجاجه^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٣/٥، ٥٤)، كتاب «الاستقراض»، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها وإتلافها، حديث (٢٣٨٧)، وابن ماجه (٨٠٦/٢)، كتاب «الصدقات»، باب التشديد في الدين، حديث (٢٤١١)، وأحمد (٣٦١/٢، ٤١٧)، والبيهقي (٣٥٤/٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥١/٤) بتحقيقنا، كلهم من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤/١)، كتاب «التييم»، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض، تعليقا في أول الباب، وأحمد (٢٠٣/٤)، وأبو داود (٣٣٨/١)، كتاب «الطهارة»، باب إذا خاف الجنب البرد أتييم، الحديث (٣٣٤)، والدارقطني (١٧٨/١)، كتاب «الطهارة»، باب التيمم، الحديث، والحاكم (١/١٧٧)، كتاب «الطهارة»، والبيهقي (٢٢٥/١)، كتاب «الطهارة»، باب التيمم في السفر إذا خاف الموت، فأما أحمد فمن طريق ابن لهيعة، وأما الباقر، فمن طريق جرير بن حازم، عن يحيى بن أيوب، كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص قال: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فاشفقت أن أغتسل فأهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو... صليت بأصحابك وأنت جنب؟! فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا».

ورواه أبو داود (٣٣٥)، والدارقطني (١٧٨/١)، كتاب «الطهارة»، باب التيمم (١٣)، الحاكم (١/١٧٧)، والبيهقي (٢٢٥/١) من طريق عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص؛ أن عمرو بن العاص كان على =

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدَوَانًا وظُلْمًا...﴾ الآية: اختلف في المُسَارِ إِلَيْهِ بـ «ذَلِكَ».

فقال عطاء: «ذَلِكَ» عائذٌ على القتل؛ لأنه أقرب مذكور، وقالت فرقة: «ذلك» عائذٌ على أكل المال بالباطل، وقتل النفس، وقالت فرقة: «ذَلِكَ»: عائذٌ على كل ما نُهي عنه مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ، وقال الطبري^(١): «ذَلِكَ» عائذٌ على ما نُهي عنه مِنْ آخر وعيد، وذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجْلُ لَكُمْ أَنْ تَرثُوا النِّسَاءَ كُرْهًا﴾ [النساء: ١٩]؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا نُهي عنه قبله إلى أَوَّلِ السُّورَةِ، قُرِنَ به وعيدٌ.

قال ابنُ العَرَبِيِّ^(٢) في «أحكامه»: والقول الأول أصحُّ، وما عداه محتملٌ. انتهى.
والعدوانُ: تَجَاوُزُ الحَدِّ.

قال * ص *: ﴿عُدْوَانًا وظُلْمًا﴾: مصدران في مَوْضِعِ الحال، / أي: متعدّين ١١٨ ب وظالمين، أبو البقاء: أو مفعولٌ من أجله. انتهى.

واختلف العلماء في^(٣) الكبائر.

فقال ابنُ عَبَّاسٍ وغيره: الكبائرُ: كُلُّ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ وعيدٌ بنارٍ، أو عذابٍ، أو لَعْنَةٍ، أو

= سرية... فذكر الحديث.

وفيه: «فغسل مغابنه وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم صلى بهم»، وليس فيه ذكر التيمم.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، والذي عندي أنهما عللاه بحديث جرير بن حازم عن يحيى بن أيوب، عن يزيد بن أبي حبيب. اهـ.

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣٤/١١) رقم (١١٥٩٣) من طريق يوسف بن خالد السمتي: ثنا زياد بن سعد عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن عمرو بن العاص صلى بالناس وهو جنب، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له، فدعاه رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك فقال: يا رسول الله خشيت أن يقتلني البرد، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بكم رحيمًا﴾ فسكت عنه رسول الله ﷺ.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٧/١)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه يوسف بن خالد السمتي، وهو كذاب.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٩/٤).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٤١١/١).

(٣) ينظر الكلام على الكبائر في: «البحر المحيط» للزركشي (٢٧٩/٤)، و «منهاج العقول» للبدخشي (٢/ ٣٤٤)، و «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (١٠٠)، و «حاشية البناني» (١٥٢/٢)، و «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٤٩/٣)، و «حاشية العطار على جمع الجوامع» (١٧٥/٢)، و «أعلام الموقعين» لابن القيم (٣٠٥/٤)، و «تيسير التحرير» لأمير بادشاه (٤٥/٣).

ما أشبه ذلك^(١).

وقال ابن عباس أيضاً: كل ما نهى الله عنه، فهو كبير^(٢)، وعلى هذا القول أئمة الكلام؛ القاضي، وأبو المعالي، وغيرهما؛ قالوا: وإنما قيل: صغيرة؛ بالإضافة إلى أكبر منها، وإلا فهي في نفسها كبيرة؛ من حيث المعصية بالجميع واحد، واختلف العلماء في هذه المسألة، فجماعة من الفقهاء والمحدثين يرون أن باجتناب الكبائر تكفر الصغائر قطعاً، وأما الأصوليون، فقالوا: محمل ذلك على غلبة الظن، وقوة الرجاء، لا على القطع، ومحمل الكبائر عند الأصوليين في هذه الآية أجناس الكفر، والآية التي قيدت الحكم، فترد إليها هذه المطلقات كلها: قوله تعالى: ﴿ويعفّر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

و ﴿كرماً﴾: يقتضي كرم الفضيلة، ونفي العيوب؛ كما تقول: ثوب كريم، وهذه آية رجاء، وروى أبو حاتم البستي في «المسنّد الصحيح» له، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر، ثم قال: «والذي نفسي بيده»، ثلاث مرّات، ثم سكّت، فأكبّ كل رجل منّا ينيكي خزيماً ليمين رسول الله ﷺ، ثم قال: «ما من عبد يؤدّي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويحْتَبِئُ الكبائر السبع، إلا فتحت له ثمانية أبواب من الجنة يوم القيامة؛ حتّى إنّها لتصفق، ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سِئَاتِكُمْ...﴾ (٣) الآية». انتهى من «التذكرة» للقرطبي، ونحوه ما رواه مسلم، عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفّرات ما بينهنّ، إذا اجْتَنَبْتَ الكبائر»^(٤)؛ قال القرطبي^(٥): وعلى هذا جماعة أهل التأويل، وجماعة الفقهاء، وهو الصحيح؛ أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر قطعاً بوعد الله الصّدق، وقوله الحق سبحانه، وأما الكبائر، فلا تكفرها إلا التوبة منها. انتهى.

قلت: وفي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة (رضي الله عنه)؛ أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الطبري (٤٤/٤) برقم (٩٢١٣)، وذكره ابن عطية (٤٣/٢ - ٤٤)، وابن كثير (٤٨٦/١)، والسيوطي (٢٦١/٢)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٤٣/٤) برقم (٩٢٠٢)، وذكره ابن عطية (٤٤/٢)، وابن كثير (٤٨٦/١)، والسيوطي (٢٦١/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في «الشعب».

(٣) أخرجه النسائي (٨/٥)، كتاب «الزكاة»، باب وجوب الزكاة، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣١٦/٤)، وابن خزيمة (٣١٥)، وابن حبان (١٧٤٨)، والبيهقي (١٨٧/١٠) كلهم من طريق سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجر عن صهيب مولى العنوايين عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٠٤/٥).

قَالَ: «أَجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسُّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». انتهى^(١).

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَاوَهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية: سَبَبُ الْآيَةِ أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ: لَيْتَنَّا أَسْتَوَيْنَا مَعَ الرِّجَالِ فِي الْمِيرَاثِ، وَشَارَكْنَاهُمْ فِي الْعَزْوِ، وَرَوَى أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ ذَلِكَ، أَوْ نحوه^(٢)، وقال الرِّجَالُ: لَيْتَ لَنَا فِي الْآخِرَةِ حَظًّا زَائِدًا عَلَى النِّسَاءِ؛ كَمَا لَنَا عَلَيْهِنَّ فِي الدُّنْيَا، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ.

قال *ع^(٣): * : لِأَنَّ فِي تَمَنِّيهِمْ هَذَا تَحُكْمًا عَلَى الشَّرِيعَةِ وَتَطَرُّقًا إِلَى الدَّفْعِ فِي صَدْرِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذَا نَهْيٌ عَنْ كُلِّ تَمَنٍّ بِخِلَافِ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ، وَأَمَّا التَّمَنِّيُّ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَذَلِكَ هُوَ الْحَسَنُ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «وَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَخِيًا، ثُمَّ أُقْتَلَ، ثُمَّ أَخِيًا...» الحديث^(٤). وفي غير موضع؛ ولقوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]. قال القُشَيْرِيُّ: سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ يَقُولُ: مِنْ عَلَامَاتِ الْمَعْرِفَةِ أَلَّا تَسْأَلَ حَوَائِجَكَ، قُلْتَ أَوْ كَثُرَتْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مِثْلُ مُوسَى أَشْتَاقَ إِلَى الرُّؤْيَا، فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، واحتاج مرَّةً إِلَى رَغِيفٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٠/١٠) والثوري في «تفسيره» (ص ٢٤١ - ٢٤٢) كلاهما من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد عن أم سلمة به.

(٣) وأخرجه أحمد (٣٠١/٦) والطبراني في «الكبير» (٢٩٨/٢٣) رقم (٦٦٥) من طريق عبد الله بن رافع عن أم سلمة وأخرجه أحمد (٣٠٥/٦) والنسائي في «الكبرى» (٤٣١/٦) كتاب «التفسير»، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ حديث (١١٤٠٥) والطبراني في «الكبير» (٢٩٤/٢٣) رقم (٦٥٠) من طريق عثمان بن حكيم ثنا عبد الرحمن بن شعبة عن أم سلمة به والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٣٧٩/٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه والفریابی وابن سعد وابن أبي شعبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤ - ٤٥).

(٤) تقدم تخريجه.

خَيْرٍ فَقِيرٍ» [القصص: ٢٤] انتهى من «التحبير».

وقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ...﴾ الآية: قَالَتْ فرقة: معناه: من الأجر، والحسنات، فكأنه قِيلَ لِلنَّاسِ: لَا تَتَمَنَّوْا فِي أَمْرِ مَخَالِفٍ لِمَا حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ؛ لِاخْتِيَارِ تَرَوُّنُهُ أَنْتُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصِيباً مِنَ الْأَجْرِ وَالْفَضْلِ بِحَسَبِ اكْتِسَابِهِ فِيمَا شَرَعَ لَهُ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، وَفِي تَعْلِيْقِهِ سُبْحَانَهُ النَّصِيبُ بِالْاِكْتِسَابِ حُضُّ عَلَى الْعَمَلِ، وَتَنْبِيْهُ عَلَى كَسْبِ الْخَيْرِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ: هَذَا فِي فَضْلِ الْعِبَادَاتِ، وَالذِّينِ، لَا فِي فَضْلِ الدُّنْيَا^(١)، وَقَالَ الْجُمْهُورُ: ذَلِكَ عَلَى الْعَمُومِ، وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ اللَّفْظُ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ﴾ يَقْتَضِي مَفْعُولاً ثَانِياً، تَقْدِيرُهُ: وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْجَنَّةَ أَوْ كَثِيراً مِنْ فَضْلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي...﴾ أَي: وَلِكُلِّ أَحَدٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْمَوَالِي هُنَا الْعَصَبَةُ وَالْوَرَثَةُ، وَالْمَعْنَى: وَلِكُلِّ أَحَدٍ جَعَلْنَا مَوَالِي يَرِثُونَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ رَفَعَ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّوَهُم نَصِيَّهُمْ﴾. وَاخْتَلَفَ مِنَ الْمَرَادِ بِ «الَّذِينَ».

فَقَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ: هُمُ الْأَخْلَافُ، فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَوَارَثُ بِالْجَلْفِ، ثُمَّ نُسِخَتْ بآيَاتِ الْأَنْفَالِ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٢) [الأنفال: ٧٥].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً: هُمُ الَّذِينَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آخِي بَيْنَهُمْ، كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ حَتَّى نُسِخَ ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّمَ^(٣).

وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُتَبَّنُونَ^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥١/٤) بِرَقْم (٩٢٥٤)، وَذَكَرَهُ الْبُغْوِيُّ (٤٢١/١)، بَنَحْوِهِ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٥/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٦٧/٢)، وَعِزَّاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٤/٤) بِرَقْم (٩٢٦٧ - ٩٢٦٩ - ٩٢٦٨)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٦/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١/٤٨٩)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٦٨/٢) بَنَحْوِهِ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٥٨٠).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٧/٤) بِرَقْم (٩٢٨٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٦/٢).

قال * ع^(١) : * ولفظه المَعَاقِدَةُ والأَيْمَانِ تَرْجُحُ أَنَّ المراد الأخْلَافُ .

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾
 فَالْمَصْلَحَةُ قَنِينَتْ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ يَعْظُمُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي
 الْمَصَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

وقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾ بناء مبالغة، وهو من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه، وحفظه، فقيام الرجال^(٢) على النساء هو على هذا الحد، وتعليل ذلك بالفضيلة والثقة يقتضي أَنَّ للرجال عليهنَّ استيلاء، قال ابن عباس: الرجال أمراء على النساء .

قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: وللرجال عليهنَّ درجة؛ لفضل القَوَّامِيَّة، فعليه أَنْ يَنْدُلَ الْمَهْرَ وَالثَّقَّةَ، وَحُسْنَ الْعِشْرَةِ، وَيُحْجِبَهَا وَيَأْمُرَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُنْهِيَ إِلَيْهَا شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ؛ مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ؛ وَمَا وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهَا الْحِفْظُ لِمَالِهِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى أَهْلِهِ، وَالْإِلْتِزَامُ لِأَمْرِهِ فِي الْحُجَّةِ وَغَيْرِهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَقَبُولُ قَوْلِهِ فِي الطَّاعَاتِ. انتهى .

و«ما» مصدرية في الموضعين، والصَّلاخُ في قوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ هو الصَّلاخُ في الدين، و ﴿قَانِتَاتُ﴾: معناه: مطيعات لأزواجهنَّ، أو لِّلَّهِ في أزواجهنَّ، ﴿حَافِظَاتُ لِلْغَيْبِ﴾: معناه: لكلِّ ما غاب عَنْ عِلْمِ زَوْجِهَا مِمَّا اسْتُرْعِيَتْهُ، وروى أبو هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النِّسَاءِ أَمْرَأَةٌ، إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَبَتْ عَنْهَا حَفِظْتَكَ فِي مَالِكَ وَنَفْسِهَا»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ^(٤).

وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾: «ما»: مصدرية، تقديره: بِحِفْظِ اللَّهِ، ويصحُّ أَنْ تكون بمعنى «الَّذِي» ويكون العائدُ في «حَفِظَ» ضمير نَصْبٍ، أي: بالذي حَفِظَهُ اللَّهُ، ويكون المعنى: إِمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَرِعَايَتَهُ الَّتِي لَا يَتِمُّ أَمْرُ دُونِهَا، وَإِمَّا أَوْامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ لِلنِّسَاءِ، فَكَانَهَا حِفْظُهُ، بمعنى أَنَّ النساءَ يَحْفَظْنَ بِإِزاء ذلك وبِقُدْرِهِ .

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ...﴾ الآية: التُّشُوزُ: أَنْ تَتَعَوَّجَ الْمَرْأَةُ، ويرتفع خُلُقُهَا، وَتَسْتَعْلِي عَلَى زَوْجِهَا^(٥).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦/٢).

(٢) في أ: الرجل .

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٤١٦/١).

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢٣٢٥) من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ .

(٥) أخرجه الطبري (٦٠/٤) برقم (٩٣٠١)، وذكره ابن عطية (٤٧/٢)، وابن كثير (٤٩١/١)، والسيوطي

(٢٧١/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم . عن ابن عباس .

﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾: قال ابن عباس: يضاجعها، ويولّيها ظهره، ولا يجامعها^(١)، وقال مجاهد: جنبوا مضاجعتهن^(٢)، وقال ابن جبير: هي هجرة الكلام، أي: لا تكلموهن، وأعرضوا عنهن^(٣)، فيقدّر حذف، تقديره: وأهجروهن في سبب المضاجع، حتّى يراجعنها.

* م: قوله: ﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾، ذكر^(٤) أبو البقاء فيه وجهين^(٥):

الأول: أن «في» على بابها من الظرفية، أي: أهجروهن في مواضع الإضطجاع، أي: اتركوا مضاجعتهن دون ترك مكالمتهن.

الثاني: أنها بمعنى السبب، أي: أهجروهن بسبب المضاجع؛ كما تقول: في هذه الجناية عقوبة. انتهى، وكونها للظرفية أظهر، والله أعلم.

والضرب في هذه الآية: هو ضرب الأدب غير المبرح، وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يشين جراحة، وقال النبي ﷺ: «أَضْرِبُوا النِّسَاءَ؛ إِذَا عَصَيْنَكُمْ فِي مَعْرُوفٍ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرَحٍ» قال عطاء: قلتُ عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال: بالشرّك ونحوه^(٦).

قال ابن العربي^(٧) في «أحكامه»: قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَلَّا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرَحٍ، فَإِنْ أَنْتَهَيْنَ، فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ، وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(٨). وفي هذا دليل على أن الناشز لا نفقة لها ولا كسوة، وأن الفاحشة هي

(١) أخرجه الطبري (٦٦/٤) برقم (٩٣٤٩)، (٩٣٥٣)، وذكره البغوي (٤٢٣/١) بنحوه، وابن عطية (٢/٤٨)، وابن كثير (١/٤٩٢)، والسيوطي (٢/٢٧٧)، وعزاه لابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري (٦٧/٤) برقم (٩٣٥٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٨)، وابن كثير (١/٤٩٢)، والسيوطي (٢/٢٧٧) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة.
(٣) ذكره ابن عطية (٢/٤٨).

(٤) في أ: قال.

(٥) في أ: تقدير.

(٦) أخرجه الطبري (٧١/٤) رقم (٩٣٨٧-٩٣٨٨)، وذكره ابن عطية (٢/٤٨)، والسيوطي (٢/٢٧٨)، وعزاه لابن جرير عن عطاء قال: قلت لابن عباس.

(٧) ينظر: «أحكام القرآن» (١/٤٢٠).

(٨) أخرجه الترمذي (٣/٦٧) في الرضاع: باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٣)، وابن ماجه (١/٥٩٤) في النكاح، باب حق المرأة على الزوج (١٨٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٥/٣٧٢) في عشرة =

الْبَدَاءُ لَيْسَ الزَّنَا؛ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ، فَفَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الضَّرْبَ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُبَرَّحًا، أَيْ: لَا يَظْهَرُ لَهُ أَثَرٌ عَلَى الْبَدَنِ. انْتَهَى.

قال *ع^(١): وهذه العظة والهجر والضرب مراتب، إن وقعت الطاعة عند إحداها، لم يتعد إلى سائرهما، و «تَبَغُّوا»: معناه: تَطَلَّعُوا، و «سَيَّلَا»: أي: إلى الأدنى، وهو التعنيت والتعسف بقول أو فعل، وهذا نهى عن ظلمهن، وحسن هنا الاتصاف بالعلو والكبر، أي: قَدْرُهُ سَبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ قَدْرٍ، ويده بالقُدرة فَوْقَ كُلِّ يَدٍ؛ فلا يستعلي أحد بالظلم على أمراته، فالله تعالى بالمرصاد، وينظر إلى هذا حديث أبي مسعود، قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامِي، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: أَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ، أَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ، فَصَرَفْتُ وَجْهِي، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ؛ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ...» الحديث^(٢).

= النساء، باب كيف الضرب (١/٩١٦٩) من طريق الحسين بن علي عن زائدة عن شبيب بن غرقدة البارقي عن سليمان بن عمرو بن الأحوص حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. فإن أطعنكم، فلا تبغوا عليهن سبيلاً، إلا أن لكم من نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقوقكم على نسائكم، فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»، وهذا لفظ النسائي.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ويشهد له حديث حكيم بن معاوية عن أبيه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: ما حق المرأة على الزوج؟ قال: «يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح ولا يهجر إلا في البيت». رواه أبو داود (٢/٢٤٤) في النكاح: باب في حق المرأة على زوجها (٢١٤٢)، وابن ماجه (١/٥٩٣) - (٥٩٤) في النكاح: باب حق المرأة على الزوج (١٨٥٠)، والنسائي في التفسير (١/٣٨١) (١٢٤)، وأحمد (٤/٤٤٦، ٤٤٧)، (٥/٣، ٥)، والطبراني في «الكبير» (١٩/٩٩٩-١٠٠٢، ١٠٣٤، ١٠٣٨، ١٠٣٩)، وابن حبان (١٢٨٦-موارد)، والحاكم (٢/١٨٧-١٨٨)، والبيهقي (٧/٢٩٥، ٣٠٥، ٤٦٦-٤٦٧) والبغوي في «شرح السنة» (٥/١١٩) برقم (٢٣٢٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٢٨٠-١٢٨١)، كتاب «الإيمان»، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده، حديث (٣٤/١٦٥٩)، وأبو داود (٢/٧٦٢)، كتاب «الأدب»، باب في حق المملوك، حديث (٥١٥٩)، والترمذي (٤/٣٣٥)، كتاب «البر والصلة»، باب النهي عن ضرب الخدم وشتيمهم، حديث (١٩٤٨)، وأحمد (٤/١٢٠، ٢٧٣/٥، ٢٧٤)، وعبد الرزاق (١٧٩٥٩)، والبيهقي (٨/١٠)، والطبراني في «الكبير» (١٧/٢٤٥) رقم (٦٨٤).

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٥)

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا...﴾ الآية: اختلف من المأمور بالبغثة. فقيل: الحكماء^(١)، وقيل: المُخَاطَبُ الزَّوْجَانِ، وإليهما تقديم الحكمين، وهذا في مذهب مالك، والأول لربيعة وغيره، ولا يُبْعَثُ الْحَكَمَانِ إِلَّا مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالشَّقَاقِ، ومذهب مالك وجمهور العلماء: أَنَّ الْحَكَمَيْنِ يَنْظُرَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ويحملان على الظالم، وَيُمْضِيَانِ مَا رَأَيَاهُ مِنْ بَقَاءٍ أَوْ فِرَاقٍ، وهو قول علي بن أبي طالب في «المدونة» وغيرها^(٢).

وقوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾، قال مجاهد وغيره: المراد الحكمان، أي: إذا نَصَحَا وَقَصَدَا الْخَيْرَ، بُورِكَ فِي وَسَاطَتِهِمَا^(٣)، وقالت فرقة: المراد الزَّوْجَانِ، والأول أظهر، وكذلك الضمير في ﴿بَيْنَهُمَا﴾، يحتمل الأمرين، والأظهر أنه للزَّوْجَيْنِ، والاتِّصَافُ بِـ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: يناسب ما ذُكِرَ مِنْ إِرَادَةِ الْإِصْلَاحِ.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (٣٧)

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ العبادات: ١١٢٠ التذلل بالطاعة، وإحساناً، مصدر، والعامل فيه فعل، تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وَبِذِي الْقُرْبَى: هو القريب النَّسَبِ مِنْ قَبْلِ الْأَبِ وَالْأُمِّ، قال ابن عباس وغيره: وَالْجَارُ ذُو الْقُرْبَى: هو القريب النَّسَبِ، وَالْجَارُ الْجُنُبِ: هو الْجَارُ الْأَجْنَبِيُّ^(٤)، وقالت فرقة: الْجَارُ ذُو

(١) في أ: الحاكم.

(٢) أخرجه الطبري (٧٤/٤) برقم (٩٤٠٨ - ٩٤٠٩)، وذكره البغوي (٤٢٤/١) بنحوه، وابن عطية (٢/٤٩)، والسيوطي (٢٧٩/٢)، وعزاه للشافعي في «الأم»، وعبد الرزاق في «المصنف»، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه»، عن عبيدة السلماني.

(٣) أخرجه الطبري (٧٩/٤) برقم (٩٤٣١)، وذكره ابن عطية (٤٩/٢)، والسيوطي (٢٨٠/٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٨٠/٤ - ٨٢) برقم (٩٤٣٨ : ٩٤٤٩)، وذكره ابن عطية (٥٠/٢)، وابن كثير (١/٤٩٤)، والسيوطي (٢٨٢/٢) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طرق، عن ابن عباس.

وابنُ السَّيْلِ: المسافرُ، وسُمِّيَ أَبْنُهُ؛ للزومه له، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ: هم العبيدُ
الْأَرْقَاءُ.

- = في «مكارم الأخلاق» (ص ٣٦)، والبيهقي (٢٧/٧) من طرق عن عمرة عنها به.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وأخرجه مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عنها.
وأخرجه أحمد (٩١/٦، ٢٥، ١٨٧)، وأبو يعلى (٤٥٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٧/٣)،
والخراطي في «مكارم الأخلاق» (ص ٣٦)، والخطيب في «التاريخ» (١٨٧/٤) من طريق زبيد عن
مجاهد عنها.
وأما حديث ابن عمر، فأخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥/١٤١)، وأحمد (٨٥/٢)،
والطبراني في «الكبير» (٣٦٠/١٢) (١٣٣٤٠، ٣٣٤٣)، والخراطي (ص ٣٧)، والبيهقي (٢٧/٧)،
والبغوي في «شرح السنة» (٦/٤٧٠) برقم (٣٣٨١) من طريق عمر بن محمد عن أبيه عنه مرفوعاً. وكذا
رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٢).
وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فأخرجه أبو داود (٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٣)، والبخاري
في «الأدب المفرد» (١٠٣)، وأحمد (١٦٠/٢)، والحميدي (٢/٢٧٠-٢٧١) برقم (٥٩٣)،
والخراطي (ص ٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٦/٣) من طريق مجاهد عنه به.
وعند الحميدي «عن مجاهد بن جبر عن محرر بن قيس بن السائب؛ أن عبد الله بن عمرو...»
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث عن مجاهد عن عائشة وأبي هريرة عن
النبي ﷺ أيضاً.
وأما حديث أبي هريرة، فأخرجه ابن ماجه (٣٦٧٤)، وأحمد (٣٠٥/٢، ٤٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية»
(٣٠٦/٣) من طريق يونس بن أبي إسحاق عن مجاهد عنه به.
وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/١٦٤): هذا إسناد صحيح؛ رجاله ثقات.
ورواه أحمد: (٢/٢٥٩، ٥١٤)، وابن حبان (٢٠٥٢-موارد)، وابن أبي شيبه (٨/٥٤٦-٥٤٧) برقم
(٥٤٧٢)، والبزار (٢/٣٨١) برقم (١٨٩٨)، وابن عدي (٣/٩٤٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/
٤٧٠) برقم (٣٣٨٢) من طريق شعبة عن داود بن فراهيج عنه به.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/١٥٩): رواه البزار، وفيه داود بن فراهيج، وهو ثقة، وفيه ضعف،
وبقية رجاله ثقات.
وأما حديث أبي أمامة، فأخرجه أحمد (٥/٢٦٧)، والخراطي (٣٧) عن بقة بن الوليد حدثنا محمد بن
زياد سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يوصي بالجار حتى ظننت أنه سيورثه. وكذا رواه
الطبراني في «الكبير» (٨/١٣٠) برقم (٧٥٢٣).
وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/١٦٨)، رواه الطبراني، وإسناده جيد.
وأخرجه الطبراني (٧٦٣٠) من طريق يحيى بن أبي كثير عن شداد أبي عمار عن أبي أمامة به، ولفظه لفظ
حديث عائشة.
وقال الهيثمي (٨/١٦٧): رواه أحمد والطبراني بنحوه، وصرح بقة بالتحديث، فهو حديث حسن.
وأما حديث أنس فأخرجه الخراطي مطولاً (ص ٣٦) عن الربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشي عنه.

قال ابنُ العَرَبِيِّ^(١) في «أحكامه»: وقد أمر الله سبحانه بالرفق بهم، والإحسان إليهم؛ وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِخْوَانُكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ رِقَابُهُمْ، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُونَ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ، فَأَعْيُونَهُمْ»^(٢). انتهى.

= وأخرجه البزار (١٨٩٩ - كشف الأستار) عن محمد بن ثابت عن أبيه عن أنس. وقال الهيثمي (١٦٨): فيه محمد بن ثابت بن أسلم، وهو ضعيف. وأما حديث زيد بن ثابت فرواه الطبراني في «الكبير» (١٥١/٥) (٤٩١٤)، وفي «الأوسط» (٢٥٤ - مجمع البحرين) من طريق عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن زيد بن ثابت به مرفوعاً. وقال الهيثمي: فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب، وهو ثقة، وفيه ضعف. وبقي رجاله رجال الصحيح.

وأما حديث جابر، فأخرجه البزار (١٨٩٧) عن زياد بن عبد الله: ثنا الفضل بن مبشر عن جابر بنحوه. وقال الهيثمي: فيه الفضل بن مبشر، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقي رجاله ثقات. وأما حديث محمد بن مسلمة: فأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩ / ٢٣٤ - ٢٣٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٧٧/٧) من طريق محمد بن المثنى قال: حدثنا عباد بن موسى، قال: حدثنا يونس عن الحسن عن محمد بن سلمة به مطولاً.

وقال الهيثمي: فيه عباد بن موسى السعدي. وقد ذكر ابن أبي حاتم عباس بن مؤنس، وروى عنه اثنان، فإن كان هذا ابن مؤنس، فرجاله ثقات، وإلا فلم أعرفه.

وأما حديث الأنصاري، فأخرجه أحمد (٣٢/٥، ٣٦٥)، والطحاوي (٢٧/٤)، والخرائطي (ص ٣٥ - ٣٦) من طريق هشام عن حفصة بنت سيرين عن أبي العالية عنه.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٤٣١/١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٦/١) في الأيمان: باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، و (٢٠٦/٥) في العتق: باب قول النبي ﷺ: «العبيد إخوانكم، فأطعموهم مما تأكلون»، (٢٥٤٥)، و (٤٨٠/١٠) في الأدب: باب ما ينهى عن السباب واللعن (٦٠٥٠).

ومسلم (٣/ ١٢٨٢-١٢٨٣) في الأيمان: باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يليس (٣٨ - ٤٠/ ١٦٦١)، وأبو داود (٧٦١/٢) في الأدب: باب في حق المملوك (٥١٥٨)، والترمذي (٤/ ٢٩٤ - ٢٩٥) في البر والصلة: باب ما جاء في الإحسان إلى الخدم (١٩٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٦ - ١٢١٧) في الأدب: باب الإحسان إلى المماليك (٣٦٩٠)، وأحمد (١٥٨/٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٨٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٥٦)، والبيهقي (٧/٨) من طريق المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة. فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعمجية، فغيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية. قلت: يا رسول الله. من سب الرجال سبوا أباه وأمه. قال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ونَقَى سُبْحَانَهُ مَحَبَّتَهُ عَمَّنْ صِفَتِهِ الْخِيَلَاءِ وَالْفَخْرُ، وَذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ التَّوَعُّدِ، يُقَالُ: خَالَ الرَّجُلُ يَخُولُ خَوْلاً، إِذَا تَكَبَّرَ وَأَعْجَبَ بِنَفْسِهِ، وَخَصَّ سُبْحَانَهُ هَاتَيْنِ الصَّفَتَيْنِ هُنَا؛ إِذْ مَقْتَضَاهُمَا الْعُجْبَ وَالزَّفْو، وَذَلِكَ هُوَ الْحَامِلُ عَلَى الْإِخْلَالِ بِالْأَصْنَافِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ أَمْرُ اللَّهِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ...﴾ الآية: قالت فرقة: «الذين» في موضع نصبٍ بدلٍ مِنْ «مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾، ومعناه؛ على هذا: يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ، يَعْنِي: إِخْوَانَهُمْ وَمَنْ هُوَ مَقْطَعٌ طَاعَتُهُمْ؛ بِالْبُخْلِ بِالْأَمْوَالِ أَنْ تُتَّقَى فِي شَيْءٍ مِنْ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ ذَكَرَ، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، يَعْنِي: مِنَ الرِّزْقِ وَالْمَالِ، فَلَايَةُ، إِذَنْ، فِي الْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا، وَرَوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ؛ إِذْ كَتَمُوا أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَجَلُوا بِهِ، وَالتَّوَعُّدُ بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ لَهُمْ، وَ ﴿أَعْتَدْنَا﴾: مَعْنَاهُ يَسِّرْنَا وَأَخْضَرْنَا، وَالْعِتِيدُ: الْحَاضِرُ، وَالْمُهِينُ: الَّذِي يَقْتَرِنُ بِهِ خِزْيٌ وَذُلٌّ، وَهُوَ أَثْكَى وَأَشَدُّ عَلَى الْمُعَذَّبِ.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٢٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٢٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ...﴾ الآية: «الَّذِينَ» في موضعٍ رَفَعَ؛ عَلَى الْقَطْعِ، وَالْخَبْرُ مَحذُوفٌ، وَتَقْدِيرُهُ، بَعْدَ «الْيَوْمِ الْآخِرِ»: مُعَذَّبُونَ.

= ويشهد له حديث أبي اليسر، رواه مسلم (٤/ ٢٣٠١-٢٣٠٣) في الزهد: باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٧٤-٣٠٠٦، ٣٠٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٨١)، والطبراني في «الكبير» (١٦٨/١٩ - ١٦٩) برقم (٣٧٩)، والطحاوي (٤/ ٣٥٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ١١) من طريق حاتم بن إسماعيل: ثنا يعقوب بن مجاهد عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت عنه.

كما يشهد له حديث جابر، رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨٢)، (١٩٢) من طريق مروان بن معاوية: ثنا الفضل بن مبشر قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ يوصي بالمملوكين خيراً، ويقول: «أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم من لبوسكم، ولا تعذبوا خلق الله».

ويشهد له أيضاً حديث يزيد بن جارية، رواه أحمد (٤/ ٣٥-٣٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ٣٦٤) عن سفيان عن عاصم (يعني ابن عبيد الله) عن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه.

وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٣٧): رواه أحمد والطبراني عن يزيد بن جارية، وفيه عاصم بن عبيد الله، وهو ضعيف. ويشهد له حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨٤)، وأحمد (٥٨/٥).

والصحيح الذي عليه الجمهور أن هذه الآية في المنافقين /، والقرين: فعيل بمعنى ١٢٠ ب فاعل من المقارنة، وهي الملازمة والأضطحاب، والإنسان كله يقارنه الشيطان لكن الموفق عاص له.

وقوله تعالى: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر...﴾ الآية: التقدير: وأي شيء عليهم، لو آمنوا، وفي هذا الكلام تفجع ما عليهم، واستدعاء جميل يقتضي خبطة وإشفاقاً، ﴿وكان الله بهم عليماً﴾: إخبار يتضمن وعيداً، وينبه على سوء تواطئهم، أي: لا ينفعهم كثرتهم مع علم الله بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ الآية: مِثْقَال: مفعال من الثقل، والذرة: الصغيرة الحمراء من النمل، ورؤي عن ابن عباس؛ أنه قال: الذرة: رأس النملة^(١)، وقرأ ابن عباس: «مِثْقَالُ نَمْلَةٍ»؛ قال قتادة عن نفسه^(٢)، ورواه عن بعض العلماء: لَأَنْ تَفْضَلَ حَسَنَاتِي عَلَى سَيِّئَاتِي بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾: التقدير: وَإِنْ تَكَ زَنَةً الذرة، وفي «صحيح مسلم» وغيره، من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ قَالَ: «ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحُلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ، سَلِّمْ سَلِّمْ»، وفيه: «فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالْريحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرَّكَابِ، فَتَنَاجِ مُسَلِّمٌ، وَمُخْدُوشٌ^(٣) مُرْسَلٌ، وَمُخْدُوشٌ^(٤) فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، قَوَّالٌ نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ بِأَشَدَّ مُتَأَسِّدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا، كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيُحْجُونَ، فَيَقَالَ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتَحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا، مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ، فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ

(١) أخرجه الطبري (٩١/٤) برقم (٩٥٠٦)، وذكره ابن عطية (٥٣/٢)، والسيوطي (٢٩٠/٢) بلفظ «نملة»، وعزه لابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٩١/٤) برقم (٩٥٠٤)، (٩٥٠٥)، وذكره السيوطي (٢٩٠/٢)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٣) خَذَشَ الجلد: قَشَرُهُ بعدد أو نحوه. ينظر: «النهاية» (١٤/٢).

(٤) أي: مدفوع. وتكُدَّس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط. ينظر: «النهاية» (١٥٥/٤).

يَقُولُونَ: رَبَّنَا، لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَرْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نَصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ، فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا، لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا، لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا، وكان أبو سعيد الخدري يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَصَدَّقُونِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَأَقْرَعُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضَاغِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فيقول الله عز وجل: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ...» الحديث. انتهى.

ولفظ البخاري: «فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشِدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، إِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ...»^(١) الحديث.

وقرأ نافع وابن كثير: «حَسَنَةً»^(٢) (بالرفع)؛ على تمام «كَانَ»، التقدير: وَإِنْ تُوَجَّدَ حَسَنَةً، وَيُضَاعَفُهَا: جواب الشرط، وقرأ^(٣) ابن كثير: «يُضَعِّفُهَا»، وهو بناء تكثير يقتضي أَكْثَرَ مِنْ مَرَّتَيْنِ إِلَى أَقْصَى مَا تَرِيدُ مِنَ الْعَدَدِ، قال بعض المتأولين: هذه الآية خُصَّ بها المهاجرون؛ لأن الله تعالى أعلم في كتابه؛ أَنَّ الْحَسَنَةَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مُضَاعَفَةٌ عَشْرَ مَرَارٍ، وَأَعْلَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا مُضَاعَفَةٌ مَرَارًا كَثِيرَةً؛ حَسْبَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ أَنَّهَا تُضَاعَفُ أَلْفِي أَلْفٍ مَرَّةً^(٤)، وروى غيره: أَلْفَ أَلْفٍ مَرَّةً^(٥)، وقال بعضهم: بَلْ وَعَدَ بِذَلِكَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ.

قال *ع^(٦)*: وَالْآيَةُ تَعْمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ، فَيَجَازُونَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مِثْقَالِ الذَّرِّ، فَمَا زَادَ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ، فَمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّهُ تَقَعُ عَلَيْهِ الْمَكَافَأَةُ بِنَعْمٍ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «الحجة» (١٦٠/٣)، و«حجة القراءات» (٢٠٣)، و«إعراب القراءات» (١٣٣)، و«العنوان» (٨٤)، و«شرح الطيبة» (٢٠٦/٤)، و«شرح شعلة» (٣٣٩)، و«إتحاف» (٥١١/١)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٣)، و«الدر المصون» (٣٦٢/٢)، و«معاني القراءات» (٣٠٨/١).

(٣) ينظر: «السبعة» (٢٣٣)، و«حجة القراءات» (٢٠٣)، و«الحجة» (١٦١/٣)، و«العنوان» (٨٤)، و«إعراب القراءات» (١٣٤/١)، و«إتحاف» (٥١٢/١).

(٤) ذكره ابن عطية (٥٤/٢)، وابن كثير (٤٩٨/١)، والسيوطي (٢٩١/٢)، وعزاه لابن أبي شيبة عن أبي عثمان قال: بلغني عن أبي هريرة.. فذكره.

(٥) ذكره ابن عطية (٥٤/٢).

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٥٤/٢).

الدنيا/، وَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ، قُلْتُ: وقد ذكرنا في هذا الْمُخْتَصَر من أحاديث ١١٢١ الرِّجَاءِ، وأحاديث الشَّفَاعَةِ جملةً صالحةً لا تُوجَدُ مجتمعةً في غَيْرِهِ على نَحْوِ مَا هِيَ فِيهِ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ النَّازِرَ فِيهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ أَحَادِيثِ الرِّجَاءِ مَا ذَكَرَهُ عِيَاضُ فِي «الشَّفَا» قَالَ: ومن حديث أنس: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا شَفَعَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ»^(١). انتهى.

وهذا الحديث أخرجه النسائي، ولفظه: «إِنِّي لَا شَفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرِ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ...» الحديث. انتهى من «الكوكب الدرّي».

و ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾: معناه: مِنْ عِنْدِهِ، وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ: الْجَنَّةُ؛ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(٢) وَغَيْرُهُ، وَإِذَا مَنَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِتَفْضُلِهِ عَلَى عَبْدِهِ، بَلَغَ بِهِ الْغَايَةَ، اللَّهُمَّ مَنْ عَلَيْنَا بِخَيْرِ الدَّارَيْنِ بِفَضْلِكَ.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٣) يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ شِئَى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا^(٤) ﴿

وقوله جَلَّتْ قُدْرَتُهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا...﴾ الآية: لما تَقَدَّمَ فِي الَّتِي قَبْلُهَا الْإِعْلَامُ بِتَحْقِيقِ الْأَحْكَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَسُنَ بَعْدَ ذَلِكَ التَّنْبِيهُ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي يُحْضَرُ ذَلِكَ فِيهَا، وَيُجَاءُ فِيهَا بِالشُّهَدَاءِ عَلَى الْأُمَمِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَأْتِي بِالْأَنْبِيَاءِ شُهَدَاءَ عَلَى أُمَمِهِمْ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَمَعْنَى الْأُمَّةِ؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: جَمِيعُ مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِ؛ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَمَنْ كَفَرَ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْمَتَاوَلُونَ: إِنْ الْإِشَارَةُ بِـ «هَؤُلَاءِ» إِلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، وَرُويَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَكَذَلِكَ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ قَرَأَهَا عَلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ؛ حَسْبَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ بَعْدَ ثَمَانِ سَنِينَ، كَالْمَوْدَعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ثُمَّ طَلَعَ الْمَنْبِرَ، فَقَالَ: إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ قَرِطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنْ مَوَدَعُكُمْ الْحَوْضُ وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا، قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظَرَةٍ نَظَرْتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) ينظر: «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» (٣٥).

(٢) أخرجه الطبري (٩٤/٤) برقم (٩٥١٤)، وذكره ابن عطية (٥٤/٢)، والسيوطي (٢/ ٢٩٠-٢٩١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٣) * حديث عقبة بن عامر:

وقوله تعالى: ﴿لَوْ تَسَوَّى﴾ قالت فرقة معناه: تنشق الأرض، فيحصلون فيها، ثم تسوَّى هي في نفسها عليهم وبهم، وقالت فرقة: معناه لو تستوي هي معهم في أن يكونوا ترابا كالبهائم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: معناه، عند طائفة: أن الكفار، لما يرونه من الهول وشدة المخاوف، يودون لو تسوى بهم الأرض، فلا ينالهم ذلك الخوف، ثم استأنف الكلام، فأخبر أنهم لا يكتُمون الله حديثا، لنطق جوارحهم بذلك كله، حين يقول بعضهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] فيقول الله سبحانه: «كذبتُم» ثم تنطق جوارحهم، فلا تكتُم حديثا، وهذا قول ابن عباس^(١).

وقالت طائفة: الكلام كله متصل وودَّهم ألا يكتُموا الله حديثا إنما هو ندم على كذبهم حين قالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] والرسول في هذه الآية الجنس، شرف بالذكر، وهو مفرد دلَّ على الجمع.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٤٣)

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ الآية: نزلت قبل تحريم الخمر، وجمهور المفسرين على أن المراد سُكْر الخمر إلا الضحَّاك، فإنه قال: المراد سُكْر النَّوْم، وهذا قول ضعيف، والمراد بـ «الصلوة» ١٢١ ب هنا/ الصلاة المعروفة.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الصَّلَاةُ هُنَا الْمَرَادُ بِهَا مَوْضِعُ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ مَعًا.

= أخرجه البخاري (٢٠٩/٣)، كتاب «الجنائز»، باب الصلاة على الشهيد، الحديث (١٣٤٤)، ومسلم (١٧٩٦/٤)، كتاب «الفضائل»، باب إثبات حوض نبينا، الحديث (٣١)، وأبو داود (٥٥١/٣)، كتاب «الجنائز»، باب الميت يصل على قبره بعد حين، الحديث (٣٢٢٣)، والنسائي (٤/ ٦١-٦٢)، كتاب «الجنائز»، باب الصلاة على الشهداء، والدارقطني (٧٨/٢)، كتاب «الجنائز»، باب الصلاة على القبر، في صلاته ﷺ على شهداء أحد بعد ثمان سنين.

(١) أخرجه الطبري (٩٧-٩٦ / ٤) برقم (٩٥٢٢ : ٩٥٢٤)، وذكره البغوي (٤٣٠/١) بنحوه، وابن عطية (٥٥/٢)، وابن كثير (٤٩٩/١)، والسيوطي (٢/ ٢٩٢-٢٩٣).

قال ابن العربي في «الأحكام»^(١): ورؤي في سبب نزول هذه الآية عن علي (رضي الله عنه)؛ أنه قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا، وسقانا من الخمر - يعني: وذلك قبل تحريمها - قال: فأخذت الخمر منّا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقرّبوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...﴾ الآية: خرّجه الترمذي وصحّحه. انتهى^(٢).

وقوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾، قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وغيره: عابر السبيل: المسافر^(٣).

وقال ابن مسعود وغيره: عابر السبيل هنا: الخاطر في المسجد، وعابر سبيل هو من العبور، أي: الخطور والجواز^(٤)، والمريض المذكور في الآية هو الحضري، وأصل الغائط ما أنخفض من الأرض، ثم كثر استعماله في قضاء الحاجة.

واللمس في اللغة لفظ يقع للّمس الذي هو الجماع، وللمس الذي هو جس اليد والقبلة ونحوه، واختلف في موقعها هنا، فمالك (رحمه الله) يقول: اللفظة هنا تقتضي الوجهين، فالملايس بالجماع يتيم، والملايس باليد يتيم، ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَتَتِمَّمُوا﴾: أقصدوا، والصعيد^(٥)؛ في اللغة: وجه الأرض؛ قاله الخليل وغيره، واختلف

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١/٤٣٣).

(٢) أخرجه الطبري (٩٨/٤) برقم (٩٥٢٧)، وذكره ابن عطية (٥٦/٢)، وابن كثير (١/٥٠٠)، والسيوطي (٢/٢٩٣-٢٩٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٠/٤) برقم (٩٥٤٢)، وذكره البغوي (١/٤٣١)، وابن عطية (٢/٥٧)، وابن كثير (١/٥٠١)، والسيوطي (٢/٢٩٤-٢٩٥) وعزاه للفرابي، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن علي.

(٤) ذكره البغوي (١/٤٣١)، وابن عطية (٢/٥٧)، والسيوطي (٢/٢٩٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن مسعود.

(٥) قال في «لسان العرب»: الصعيد المرتفع من الأرض.. وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة - وقيل: ما لم يخالطه رمل، ولا سبخة - وقيل: وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَضَبَّحْ ضَعِيداً زَلَقاً﴾ [الكهف: ٤٠] أي: أرضاً ملساء لا نبات بها. وقال جرير:

إذا تيم ثوت بصعيد أرض بكت من حيث لؤمهم الصعيد
وقيل: الصعيد الأرض، وقيل: الأرض الطيبة، وقيل: هو كل تراب طيب - «وفي التنزيل: ﴿فَتَتِمَّمُوا ضَعِيداً طَيِّباً﴾ [المائدة: ٦]» وقال «الفراء» في قوله: ﴿ضَعِيداً جَرِزاً﴾ [الكهف: ٨]: الصعيد التراب =

الْفَقْهَاءُ فِيهِ مِنْ أَجْلِ تَقْيِيدِ الْآيَةِ إِيَّاهُ بِالطَّيِّبِ .

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَتِيَمُّ بِوَجْهِ الْأَرْضِ ، تَرَاباً كَانَ أَوْ زَمْلاً أَوْ حَجَارَةً أَوْ مَعْدِناً أَوْ سَبِيحَةً ، وَجَعَلَتِ الطَّيِّبَ بِمَعْنَى الطَّاهِرِ ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ ^(١) ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : الطَّيِّبُ

= وَقَالَ غَيْرُهُ : هِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ .

وَقَالَ «الشَّافِعِيُّ» : لَا يَقَعُ اسْمُ الصَّعِيدِ إِلَّا عَلَى تَرَابٍ لَهُ غَبَارٌ - فَأَمَّا الْبَطْحَاءُ الْغَلِيظَةُ وَالرَّقِيقَةُ ، وَالْكُثِيبُ الْغَلِيظُ - فَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الصَّعِيدِ ، وَإِنْ خَالَطَهُ تَرَابٌ ، أَوْ صَعِيدٌ ، أَوْ مَدْرٌ يَكُونُ لَهُ غَبَارٌ - كَانَ الَّذِي خَالَطَهُ الصَّعِيدَ وَلَا يَتِيَمُّ . . . بِالنُّورَةِ ، وَلَا بِالزُّرْنِخِ ، وَكُلُّ هَذَا حَجَارَةٌ .

وَقَالَ «أَبُو إِسْحَقَ» : الصَّعِيدُ : وَجْهُ الْأَرْضِ قَالَ : وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَضْرِبَ بِيَدَيْهِ وَجْهَ الْأَرْضِ ، وَلَا يَبَالِي أَمَا فِي الْمَوْضِعِ تَرَابٌ ، أَوْ لَمْ يَكُنْ ؛ لِأَنَّ الصَّعِيدَ لَيْسَ هُوَ التَّرَابُ ؛ إِنَّمَا هُوَ وَجْهُ الْأَرْضِ ، تَرَاباً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ .

قَالَ : وَلَوْ أَنَّ أَرْضاً كَانَتْ كُلُّهَا صَخْرًا ، لَا تَرَابَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ ضَرَبَ الْمُتِيَمُّ يَدَهُ عَلَى ذَلِكَ الصَّخَرِ لَكَانَ ذَلِكَ طَهُورًا ، إِذَا مَسَحَ بِهِ وَجْهَهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا﴾ [الكهف : ٤٠] ؛ لِأَنَّهُ نِهَايَةُ مَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ .

قَالَ «الْأَزْهَرِيُّ» : هَذَا الَّذِي قَالَهُ «أَبُو إِسْحَقَ» أَحْسَبُهُ مَذْهَبَ مَالِكٍ

قَالَ «الْمَلِثُ» : يُقَالُ لِلْحَدِيقَةِ إِذَا خَرِبَتْ ، وَذَهَبَ شَجَرُهَا : قَدْ صَارَتْ صَعِيدًا ، أَيْ أَرْضاً مُسْتَوِيَةً لَا شَجَرَ فِيهَا قَالَ «ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ» : الصَّعِيدُ الْأَرْضُ بَعِينُهَا ، وَالصَّعِيدُ الطَّرِيقُ سَمِيَ بِالصَّعِيدِ مِنَ التَّرَابِ ، وَالْجَمْعُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ صَعْدَانُ .
قَالَ «حَمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ» :

وَتِيَهُ تَشَابَهُ صَعْدَاتِهِ وَيَفْنَى بِهِ الْمَاءُ إِلَّا السَّمْلُ وَصُعْدَ كَذَلِكَ - وَصُعْدَاتُ جَمْعُ الْجَمْعِ . وَفِي حَدِيثٍ عَلِيٍّ . . . (رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ) - إِيَّاكُمْ وَالْقَعُودَ بِالصَّعْدَاتِ ، إِلَّا مِنْ أَدَى حَقِّهَا ، وَهِيَ الطَّرِيقُ ، وَهِيَ جَمْعُ صُعْدٍ وَصُعْدٌ . . . جَمْعُ صَعِيدٍ كَطَرِيقٍ وَطَرِيقٍ وَطَرَقَاتٍ ، مَأْخُذٌ مِنَ الصَّعِيدِ ، وَهُوَ التَّرَابُ ، وَقِيلَ : جَمْعُ صُعْدَةٍ كظلمة وهي فناء باب الدار ، وَمَرَّ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : «وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعْدَاتِ تَجَاوَزُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» ، وَالصَّعِيدُ الطَّرِيقُ يَكُونُ وَاسِعًا وَضِيقًا ، وَالصَّعِيدُ الْمَوْضِعُ الْعَرِيزُ الْوَاسِعُ ، وَالصَّعِيدُ الْقَبْرُ . اِهـ . يَنْظُرُ «التَّيْمُ» لَشَيْخِنَا جَادَ الرَّبِّ .

(١) أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جَوَازِ التَّيْمِ بِتَرَابِ الْحَرثِ الطَّيِّبِ وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِهِ بِمَا عَدَا التَّرَابَ مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ الْمُتَوَلَّدِ عَنْهَا كَالْحَجَارَةِ .

فَذَهَبَ «الشَّافِعِيُّ» إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّيْمُ إِلَّا بِالتَّرَابِ الْخَالِصِ . . . وَذَهَبَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ التَّيْمُ بِكُلِّ مَا صَعَدَ عَلَى . . . وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ أَجْزَائِهَا مِنَ الْخَصْبِ وَالرَّمْلِ وَالتَّرَابِ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ ، وَزَادَ «أَبُو حَنِيفَةَ» فَقَالَ : وَبِكُلِّ مَا يَتَوَلَّدُ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلُ : الْحَجَارَةِ وَالتُّونِ وَالزُّرْنِخِ وَالْجَصِّ وَالطِّينِ وَالرُّخَامِ . وَمِنْهُمْ مَنْ شَرَطَ أَنْ يَكُونَ التَّرَابُ عَلَ وَجْهِ الْأَرْضِ .

وَقَالَ «الْحَنَابِلَةُ» : لَا يَجُوزُ التَّيْمُ إِلَّا بِتَرَابِ طَاهِرٍ ذِي غَبَارٍ يَلْتَقِ بِالْيَدِ ، كَقَوْلِ «الشَّافِعِيِّ» وَبِهِ قَالَ «إِسْحَاقُ» وَ «أَبُو يُونُسَ» وَ «دَاوُدُ» . وَقَالَ أَحْمَدُ : يَتِيَمُ بِغَبَارِ الثُّوبِ وَاللَّبَدِ ، وَنَقَلَ عَنْ «مَالِكٍ» فِي بَعْضِ رَوَايَاتِهِ جَوَازَ التَّيْمِ عَلَى الْحَشِيشِ وَالثَّلْجِ . وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ مِنَ الظَّاهِرَةِ : لَا يَجُوزُ التَّيْمُ إِلَّا . . . بِالْأَرْضِ ، =

بمعنى المُنْتَبِت؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، فالصعيد عندهم هو التراب، وهذه الطائفة لا تُجِزُ التيمم بغيره، فمكان الإجماع أن يتيمم في تراب مُنْتَبِت طاهرٍ غَيْرِ مَنقُولٍ، ولا مَغْصُوبٍ، وترتيب القرآن الوجه قبل اليدين، وبه قال الجمهور، وفي «المدونة»؛ أن التيمم ضربتان^(١)، وجمهور العلماء أنه ينتهي في مسح اليدين إلى المرافق^(٢).

= ثم الأرض تنقسم إلى قسمين: تراب، وغير تراب، فأما التراب فالتيمم به جائز كان في موضعه من الأرض أو منزوعاً مجهولاً في إناء أو ثوب أو على يد إنسان أو حيوان، أو كان في بناء لبن، أو طابية، أو غير ذلك وأما ما عدا التراب من الحصى والحصاة والرخام والرمل والكحل والزرنخ والجير والجص والذهب والتوتيا والكبريت والملح وغير ذلك، فإن كان شيء من هذه المعادن في الأرض غير مزال عنها إلى شيء آخر، فالتيمم بكل ذلك جائز - وإن كان شيء من ذلك مزالاً إلى إناء أو ثوب أو نحو ذلك لم يجز التيمم بشيء منه ولا يجوز التيمم بالآجر فإن رض حتى يقع عليه اسم التراب جاز التيمم؟ وكذلك الطين لا يجوز التيمم به، فإن جف حتى يسمى تراباً جاز التيمم به، ولا يجوز التيمم بملح انعقد من الماء كان في موضعه أو لم يكن ولا بثلج ولا بورق ولا بحشيش ولا بخشب ولا بغير ذلك، ممّا يحول بين التيمم وبين الأرض.

ينظر: «التيمم» لشيخنا جاد الرب.

(١) والأصح عند الشافعي: وجوب ضربتين، وإن أمكن مسح الوجه واليدين بضربة واحدة؛ بأن يأخذ خرقه كبيرة، ويضرب بها التراب، ثم يمسح ببعضها وجهه، وبباقيها يديه. وإنما كان الأصح وجوب ضربتين؛ لخبر أبي داود، والحاكم: «التيمم ضربتان ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين».

ينظر: «التيمم» لجاد الرب.

(٢) اختلفوا في القدر الواجب مسحه في اليدين على ثلاثة مذاهب:

الأول: أن الحد الواجب في ذلك هو الحد الواجب بعينه في الوضوء، وهو أن يمسحهما إلى المرفقين.. وبه قال الشافعي في «الجديد»، ومنصوصات «القديم» وقال به من الأصحاب: ابن عمر، وجابر، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، ومن الفقهاء الليث بن سعد، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة وصاحبه.

والثاني: أن الفرض هو مسح الكف فقط، وبه قال أهل الظاهر، وأهل الحديث. وبه قال مالك أيضاً مع استحباب المسح إلى المرفقين، وبه قال من الصحابة ابن مسعود، وابن عباس، ومن التابعين عكرمة، ومكحول، ومن الفقهاء: الأوزاعي، وأحمد، وإسحاق، ورواه أبو ثور عن الشافعي في القديم. وحكاه الزعفراني على أن الشافعي في القديم كان يجعله موقوفاً على صحة حديث عمار، ومنصوصه في القديم خلاف هذا.

الثالث: أن الفرض المسح إلى المناكب، وهو مروى عن الزهري.

ولأن الله تعالى أوجب طهارة الأعضاء الأربعة في الوضوء في أول الآية، ثم أسقط منها عضوين في التيمم في آخر الآية، فبقي العضوان في التيمم على ما ذكر في الوضوء، إذ لو اختلفا حداً في التيمم لبيته.

ينظر: «التيمم» لشيخنا جاد الرب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۖ﴾ (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ
وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّنَعْنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (٤٦)

وقوله سبحانه: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الصلاة ويريدون أن تضلوا السبيل...﴾ الآية: ﴿ألم تر﴾: من رؤية القلب، وهي علم بالشيء، والمراد بـ «الذين»: اليهود؛ قاله قتادة وغيره^(١)، ثم اللفظ يتناول معهم النصارى، وقال ابن عباس: نزلت في رفاعَةَ بِن زَيْدِ بْنِ التَّائِبِ الْيَهُودِيِّ^(٢)، والكتاب: التوراة والإنجيل، و «يشترون»: عبارة عن إيثارهم الكفر، وتركهم الإيمان، وقالت فرقة: أراد الذين كانوا يغطون أموالهم للأخبار على إقامة شرعهم، فهو شراء حقيقة، ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ معناه: أن تكفروا.

وقوله سبحانه: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ خبر في ضمنه التحذير منهم، ﴿وكفى بالله ولياً﴾، أي: اكتفوا بالله ولياً.

وقوله سبحانه: ﴿من الذين هادوا﴾، قال بعض المتأولين: «من» راجعة على «الذين» الأولى، وقالت فرقة: «من» متعلقة بـ «نصيراً»، والمعنى: ينصركم من الذين هادوا، فعلى هذين التأويلين لا يوقف في قوله: «نصيراً»، وقالت فرقة: هي ابتداء كلام، وفيه إضمار، تقديره: قوم يحرفون، وهذا مذهب أبي علي، وعلى هذا التأويل يوقف في «نصيراً»، وقول ١١٢٢ سَبَوْنِهِ أَضُوبٌ؛ لأنَّ إضمار الموصولِ ثَقِيلٌ، وإضمار الموصوفِ أَسهلٌ، وتحريفهم للكلام على وجهين، إما بتغيير اللفظ، وقد فعلوا ذلك في الأقل، وإما بتغيير التأويل، وقد فعلوا ذلك في الأكثر، وإليه ذهب الطبري^(٣)، وهذا كله في التوراة؛ على قول الجمهور، وقالت طائفة: هو كَلِمُ الْقُرْآنِ، وقال مكي: هو كلام النبي ﷺ، فالتحريف على هذا في التأويل.

وقوله تعالى عنهم: ﴿سمعنا وعصينا﴾ عبارة عن عتوهم في كفرهم وطغيانهم فيه، و «غَيْرُ مَسْمُوعٍ»: يتخرج فيه معنيان:

(١) أخرجه الطبري (١١٩/٤) برقم (٩٦٩٢)، وذكره ابن عطية (٦١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١١٩/٤) برقم (٩٦٩٤)، وذكره البغوي (٤٣٧/١)، وابن عطية (٦١/٢)، والسيوطي (٣٠٠/٢)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢٠/٤).

أَحَدُهُمَا: غير مأمور وغير صاغر؛ كأنهم قالوا: غَيْرَ أَنْ تُسَمَعَ مأموراً بذلك.

والآخر: على جهة الدعاء، أي: لَا سَمِعْتَ؛ كما تَقُولُ: أَمَضِ غَيْرَ مُصِيبٍ، ونحو ذلك، فكانت اليهود إذا خاطبت النبي ﷺ بـ ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أرادت في الباطن الدعاء عليه، وأزّت ظاهراً؛ أنها تريد تعظيمه، قال ابن عباس وغيره نحوه^(١)، وكذلك كانوا يريدون منه في أنفسهم معنى الرُعونة، وحكى مكّي معنى رعاية الماشية، ويظهرون منه معنى المُرَاعاة، فهذا معنى لِيّ اللسان، وقال الحسن ومجاهد: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أي: غَيْرَ مقبول منك^(٢)، و ﴿لِيّاً﴾: أصله «لويّاً»، و ﴿طَغْنَا فِي الدِّينِ﴾: أي: توهيناً له وإظهاراً للإستخفاف به.

قال * ع *: وهذا اللَّيّ باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا أمثلة إلا أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم...﴾ الآية: المعنى: ولو أنهم آمنوا وسمعوا وأطاعوا، و ﴿أَقْوَمَ﴾: معناه: أعدل وأصوب، و ﴿قَلِيلًا﴾: نعت إما لإيمان، وإما لينفر، أو قوم، والمعنى مختلف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكِتَابِ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْلَسَ وَجُوهًا فَرَدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ وَكَانَ اللَّهُ مُفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكِتَابِ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ...﴾ الآية: هذا خطاب لليهود والنصارى، ﴿وَلِمَا مَعَكُمْ﴾: من شرع ومله، لا لما معهم من مُبَدَّلٍ، ومُعَيَّرٍ، والطامس: الدائر المغير الأعلام، قالت طائفة: طَمَسُ الوجوه هنا هو خُلُو الحواس منها، وزوال الخلق، وقال ابن عباس وغيره: طَمَسُ الوجوه: أن تُزَال العينان

(١) أخرجه الطبري (١٢١/٤) برقم (٩٧٠٣)، وذكره ابن عطية (٦٢/٢)، وابن كثير (٥٠٧/١)، والسيوطي (٣٠٠/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس.

(٢) ذكره الطبري (١٢٢/٤) برقم (٩٧٠٤، ٩٧٠٥) عن مجاهد، وبرقم (٩٧٠٦) عن الحسن، وابن عطية (٦٢/٢)، وابن كثير (٥٠٧/١)، والسيوطي (٣٠٠/٢) عن مجاهد وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

خاصة منها، وثرَدَ العِنان في القفا، فيكون ذلك رَدًّا على الأَذْبَارِ، وَيَمْشِي الْقَهْقَرَى^(١)، وقال مالك (رحمه الله): كان أول إسلام كَعْبِ الْأَخْبَارِ؛ أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا...﴾ الْآيَةَ، فَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى وَجْهِهِ، وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى إِلَى بَيْتِهِ، فَاسْتَلَمَ مَكَانَهُ، وَقَالَ: «وَاللَّهِ، لَقَدْ خِفْتُ أَلَّا أُبْلَغَ بَيْتِي، حَتَّى يُطَمَسَ وَجْهِي»^(٢)، وَأَصْحَابُ السَّبْتِ: هُمُ الَّذِينَ أَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ فِي الصَّيْدِ؛ حَسَبًا تَقَدَّمَ، قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: وَأَمَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَاحِدَ الْأُمُورِ دَالًّا عَلَى جَنْسِهَا لَا وَاحِدَ الْأُمُورِ، فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ كَالْعَذَابِ، وَاللُّغَةُ هُنَا، أَوْ مَا اقْتَضَاهُ كُلُّ مَوْضِعٍ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ الْآيَةَ: هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْحَاكِمَةُ بَيِّنَاتٍ مَا تَعَارَضَ مِنْ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَتَلْخِيصُ الْكَلَامِ فِيهَا أَنْ يُقَالَ: النَّاسُ أَرْبَعَةٌ أَصْنَافٍ: كَافِرٌ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، فَهَذَا مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ؛ بِإِجْمَاعٍ، وَمُؤْمِنٌ مُخْسِنٌ لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَهَذَا فِي الْجَنَّةِ مَحْتَرَمٌ عَلَيْهِ حَسَبُ الْخَيْرِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، بِإِجْمَاعٍ، وَتَأْتِي مَاتَ عَلَى تَوْبَتِهِ، فَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَجُمْهُورِ/ فُقَهَاءِ الْأُمَّةِ لِأَحَقِّ بِالْمُؤْمِنِ الْمُخْسِنِ، إِلَّا أَنَّ قَانُونَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّهُ فِي الْمَشْيِئَةِ، وَمُذْنِبٌ مَاتَ قَبْلَ تَوْبَتِهِ، فَهَذَا هُوَ مَوْضِعُ الْخِلَافِ، فَقَالَتِ الْمُزْجِئَةُ: هُوَ فِي الْجَنَّةِ بِإِيمَانِهِ، وَلَا تَضُرُّهُ سَيِّئَاتُهُ، وَجَعَلُوا آيَاتِ الْوَعِيدِ كُلَّهَا فِي الْكُفَّارِ، وَآيَاتِ الْوَعْدِ عَامَّةً فِي الْمُؤْمِنِينَ؛ تَقِيهِمْ وَعَاصِيهِمْ، وَقَالَتِ الْمَعْتَزِلَةُ: إِذَا كَانَ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ، أَوْ صَغِيرَةٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ مُخَلَّدٌ، وَلَا إِيمَانُ لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ كُلَّ الذُّنُوبِ كَبَائِرَ، وَجَعَلُوا آيَاتِ الْوَعْدِ كُلَّهَا فِي الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَمْ يَعْصِ قَطُّ، وَالْمُؤْمِنِ النَّائِبِ، وَقَالَ أَهْلُ السُّنَّةِ: هُوَ فِي الْمَشْيِئَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْحَاكِمَةُ، وَهِيَ النَّصُّ فِي مَوْضِعِ النَّزَاعِ، وَذَلِكَ

(١) أخرجه الطبري (١٢٤/٤) برقم (٩٧١٨)، وذكره ابن عطية (٦٣/٢)، والسيوطي (٣٠١/٢)، وعزاه لابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٢٧/٤) برقم (٩٧٣٠)، وذكره البغوي (٤٣٩/١)، وابن عطية (٦٣/٢)، وابن كثير (٥٠٨/١)، والسيوطي (٣٠١/٢) وعزاه لابن جرير عن عيسى بن المغيرة.

(٣) ذكره ابن عطية (٦٣/٢ - ٦٤).

(٤) الفرقة الثالثة: الخوارج وهم سبع فرق: المحكمية بضم الميم وكسر الكاف المشددة، والنهشية، والأزارمة، والنجدات، والأصفرية بالفاء. والأباضية، وافترق الأباضية فرقا أربعة: الحفصية، اليزيدية، الحارثية، والقائلون بأن إتيان المأمور به طاعة وإن لم يقصد به وجه الله. والسابعة من الخوارج العجاردة وهم عشر فرق: الميمونية الحمزية، الشعبية، الحازمية، الحليفية، الأطرافية، المعلوماتية، المجهولية، الصلنية، الشعالية. وتفرق الشعالية فرقا أربعة: الأخنسية، المعبدية، الشيبانية، المكرمية.

ينظر: «نشر الطوالع» (٣٨٩ - ٣٩٠).

أَنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فَضْلٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فَضْلٌ قَاطِعٌ لِلْمَعْتَزَلَةِ، رَادٌّ عَلَى قَوْلِهِمْ رَدًّا لَا مُحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَوْ وَقَفْنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الْكَلَامِ، لَصَحَّ قَوْلُ^(١) الْمَرْجِيَّةِ، فَجَاءَ قَوْلُهُ: ﴿لَمَنْ يَشَاءُ﴾، رَدًّا عَلَيْهِمْ مَبِينًا أَنَّ غُفْرَانَ مَا دُونَ الشُّرْكِ إِنَّمَا هُوَ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ؛ بِخِلَافِ مَا زَعَمُوهُ مِنْ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ، وَلَمَّا حَتَمَ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشُّرْكَ، ذَكَرَ قُبْحَ مَوْقِعِهِ، وَقَدَرَهُ فِي الذُّنُوبِ، وَالْفِرْيَةِ: أَشَدَّ مَرَاتِبِ الْكَذِبِ قُبْحًا، وَهُوَ الْإِخْتِلَاقُ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مِنْ يَشَاءُ...﴾ الْآيَةُ: لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُتَأَوِّلِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ الْيَهُودَ؛ وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي الْمَعْنَى الَّتِي بِهِ زَكُّوا أَنْفُسَهُمْ.

فَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ غُرُورِهِمْ^(٢).

قَالَ * ع^(٣) *: فَتَقْتَضِي هَذِهِ الْآيَةُ الْعِصَّ مِنَ الْمُزَكِّي لِنَفْسِهِ بِلِسَانِهِ، وَالْإِعْلَامَ بِأَنَّ الزَّكَاةَ الْمُزَكِّي مَنْ حَسُنَتْ أَعْمَالُهُ، وَزَكَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْفَتِيلُ: الْحَيْطُ الَّذِي فِي شَقِّ نَوَاةِ الثَّمَرَةِ^(٤)، وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى الْكِنَايَةِ عَنْ تَخْقِيرِ الشَّيْءِ وَتَصْغِيرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا شَيْءٌ دُونَهُ فِي الصَّغَرِ، فَكَيْفَ بِمَا قَوْفُهُ.

وقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ...﴾ الْآيَةُ: يَبِينُ أَنَّ تَرْكِيتَهُمْ

(١) المرجية: اسم فرقة من كبار الفرق الإسلامية لقبوا به؛ لأنهم يرجئون العمل عن النية، أي: يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد، من أرجأه أي: أخره، ومنه ﴿أزجه وأخاه﴾ [الأعراف: ١١١] أي: أمهله وأخره؛ أو لأنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، ولا يتفنع مع الكفر طاعة، فهم يعطون الرجاء، وعلى هذا ينبغي أن لا يهمز لفظ المرجية؛ وفرقهم خمس: البوئسية، والغبيدية، والغسانية، والثوبانية، والثومية، كذا في شرح المواقف، وتحقيق كل في موضعه.

ينظر: «كشاف اصطلاحات الفنون» (٣/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٩/٤) برقم (٩٧٣٨-٩٧٣٩)، وذكره البغوي (١/٤٤٠)، وابن عطية (٢/٦٥)، وابن كثير (١/٥١١)، والسيوطي (٢/٣٠٤) عن الحسن، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٦٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٢/٤) برقم (٩٧٥٧)، وذكره ابن عطية (٢/٦٦)، وابن كثير (١/٥١٢)، والسيوطي (٢/٣٠٥) وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

أَنْفُسَهُمْ كَانَتْ بِالْبَاطِلِ، وَالْكَذِبِ؛ وَيُقَوِّي أَنَّ التَّرْكِيزَ كَانَتْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أَنَّ الْإِفْتِرَاءَ أَعْظَمُ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ، وَ ﴿كَيْفَ﴾ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ فِي قَوْلِهِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ وَ ﴿كَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ خَبَرٌ فِي ضِمْنِهِ تَعَجُّبٌ وَتَعَجُّبٌ مِنْ أَمْرِهِمْ.

قال * ص * : ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْإِفْتِرَاءِ، وَقِيلَ: عَلَى الْكَذِبِ. انتهى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۝٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝٥٧﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...﴾ الآية: أَجْمَعَ الْمُتَأَوَّلُونَ أَنَّ الْمَرَادَ بِهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَالْقَصَصُ بَيِّنٌ ذَلِكَ، وَمَجْمُوعٌ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُونَ فِي تَفْسِيرِ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ يَقْتَضِي أَنَّهُ كُلُّ مَا عُبِدَ وَأُطِيعَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية: سَبِّهَا أَنَّ قَرِيشًا قَالَتْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، حِينَ وَرَدَ مَكَّةَ: أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَسَيِّدُ قَوْمِكَ، إِنَّا قَوْمٌ نَحْرُ الْكُومَاءِ^(١)، وَنَقْرِي الضَّيْفَ، وَنَصِلُ الرَّحِمَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ، وَنَعْبُدُ آلِهَتَنَا الَّتِي وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، وَهَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ قَطَعَ الرَّحِمَ، فَمَنْ أَهْدَى نَحْنُ أَوْ هُوَ؟ فَقَالَ كَعْبٌ: أَنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُ، وَأَقَوْمٌ دِينًا، ١٢٣ فَتَرَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢)، فَالضَّمِيرُ فِي «يَقُولُونَ» عَائِدٌ عَلَى كَعْبٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ الَّتِي مَعَهُ مِنَ الْيَهُودِ الْمُحَرِّضِينَ عَلَى قَتَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَ «الَّذِينَ كَفَرُوا» فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمْ كَفَّارُ قَرِيشَ، وَالْإِشَارَةُ بـ «هَؤُلَاءِ» إِلَيْهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَأُمَّتُهُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلِ الْمَرَادُ حُبَيْبُ بْنُ أَخْطَبَ وَأَتْبَاعَهُ، وَهُمُ الْمَقْصُودُ مِنْ أَوَّلِ الْآيَاتِ.

قال * ص * : «لِلَّذِينَ»: اللَّامُ لِلتَّبْلِغِ مُتَعَلِّقَةٌ بـ «يَقُولُونَ». انتهى.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٦﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝٥٧﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٨﴾

(١) ناقة كُومَاء: عظيمة السنام طويلته. ينظر: «لسان العرب» (٣٩٥٨).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٣٦ - ١٣٧) برقم (٩٧٩١)، وذكره ابن عطية (٢/ ٦٦ - ٦٧)، وابن كثير (١/ ٥١٣).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ...﴾ الآية: عُرِفَ «أَمْ» أَنْ تُعْطَفَ بَعْدَ اسْتِفْهَامٍ مُتَقَدِّمٍ؛ كَقَوْلِكَ: أَقَامَ زَيْدٌ أَمْ عَمَرُو؟ فَإِذَا وَرَدَتْ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهَا اسْتِفْهَامٌ؛ كَمَا هِيَ هُنَا، فَمَذْهَبُ سَيِّوِيٍّ؛ أَنَّهَا مُضْمَنَةٌ مَعْنَى الْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، وَالْقَطْعُ مِنْهُ، وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ مَعَ ذَلِكَ مَعْنَى الْإِسْتِفْهَامِ، فَهِيَ بِمَعْنَى «بَلْ» مَعَ هَمْزَةِ اسْتِفْهَامٍ؛ كَقَوْلِ الْعَرَبِ: «إِنَّهَا لِإِبِلٍ أَمْ شَاءَ»، التَّقْدِيرُ عِنْدَ سَيِّوِيٍّ: إِنَّهَا لِإِبِلٍ بَلْ أَهِيَ شَاءَ؟ وَكَذَلِكَ هَذَا الْمَوْضِعُ: بَلْ أَلَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ، فَإِذَا عُرِفَتْ هَذَا، فَالْمَعْنَى عَلَى الْأَرْجَحِ الَّذِي هُوَ مَذْهَبُ سَيِّوِيٍّ وَالْحُدَاقِ: أَنَّ هَذَا اسْتِفْهَامٌ عَلَى مَعْنَى الْإِنْكَارِ، أَيْ: أَلَهُمْ مُلْكٌ؛ فَإِذَنْ لَوْ كَانَ، لَبَخِلُوا بِهِ، وَالتَّقْيِيرُ: هِيَ التَّكْتَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ مِنَ الثَّمَرِ؛ هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنِ الْغَايَةِ فِي الْحَقَارَةِ وَالْقِلَّةِ، وَتُكْتَبُ «إِذَنْ» بِالثَّوْنِ وَبِالْأَلِفِ، فَالثَّوْنُ هُوَ الْأَصْلُ؛ كَ «عَنْ»، وَ «مِنْ»، وَجَازَ كَتَبَهَا بِالْأَلِفِ؛ لَصَحَّةِ الْوَقُوفِ عَلَيْهَا، فَأَشْبَهَتْ نَوْنَ التَّثْوِينِ، وَلَا يَصِحُّ الْوَقُوفُ عَلَى عَنْ وَمِنْ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ...﴾ الآية: «أَمْ» هَذِهِ عَلَى بَابِهَا مِنَ الْعُطْفِ بَعْدَ الْإِسْتِفْهَامِ.

وقال * ص * : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾: «أَمْ» أَيْضاً مَنْقُوعَةٌ تَتَقَدَّرُ بِ «بَلْ» وَ «الْهِمَزَةِ». انتهى. قلت: والظاهر ما قاله * ع^(١) *.

واختلف في المراد بـ «الناس» هنا.

فقال ابن عباس وغيره: هو النبي ﷺ، والفَضْلُ: النبوة فقط^(٢)، والمعنى: فَلِمَ يَخْصُونَهُ بِالْحَسَدِ، وَلَا يَحْسُدُونَ آلَ إِبْرَاهِيمَ فِي جَمِيعِ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُلْكِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: «النَّاسُ» هُنَا: الْعَرَبُ، حَسَدَتْهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي أَنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهَا، وَالْفَضْلُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ^(٣)، قَالَ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ قَوْمًا عَلَى حَسَدِهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ثُمَّ حَدَّثَ بِسَنَدِهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: لَمَّا رَفَعَ اللَّهُ مُوسَى نَجِيًّا، رَأَى رَجُلًا مُتَعَلِّقًا بِالْعَرْشِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، مَنْ هَذَا، فَقَالَ: هَذَا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي، صَالِحٌ، إِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ بِعَمَلِهِ،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٨/٢).

(٢) ذكره البغوي (٤٤٢/١)، وابن عطية (٦٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٤١/٤) برقم (٩٨٢٥)، وذكره البغوي (٤٤٢/١)، وابن عطية (٦٨/٢)، والسيوطي (٣٠٩/٢) وعزه لابن جرير.

فقال: يا رَبِّ، أَخْبِرْنِي، فقال: كَانَ لَا يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، ثُمَّ حَدَّثَ أَبُو عُمَرَ بِسَنَدِهِ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ؛ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(١)، وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ^(٢)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ: الطَّيْرَةُ، وَالظَّنُّ، وَالْحَسَدُ! قِيلَ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهُنَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِذَا تَطَيَّرْتَ فَلَا تَرْجِعْ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ»^(٣) انتهى من «التمهيد».

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ اُخْتَلَفَ فِي الضَّمِيرِ مِنْ «بِهِ».

فقال الجمهور: هو عائذٌ على القرآن الذي في قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بما نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧]؛ فأعلم الله سبحانه أنَّ منهم مَنْ آمَنَ كما ١٢٣ ب أَمِرٍ؛ فلذلك / ارتفع الوعيد بالطمس، ولم يَقْع، وَصَدَّ قَوْمٌ ثَبَتَ الوعيدُ عليهم في الآخرة؛ بقوله سبحانه: ﴿وَكُفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا﴾.

وقيل: هو عائذٌ على إبراهيم - عليه السلام -.

وقيل: هو عائذٌ على الفضل الذي آتاه الله النبي - عليه السلام -، والعرب على ما تقدم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضَعَتْ جُلُودَهُمْ بَدَلَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَوْجٌ مُمْطَرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٨/٢) كتاب «الزهد»، باب الحسد، حديث (٤٢١٠)، وأبو يعلى (٣٣٠/٦) رقم (٣٦٥٦) من طريق عيسى بن ميسرة عن أبي الزناد عن أنس به.

وقال البوصيري في «الزوائد» (٢٩٨/٣): هذا إسناد فيه عيسى بن أبي عيسى، وهو ضعيف.

وللحديث شاهدٌ من حديث أبي هريرة، أخرجه أبو داود (٦٩٣/٢)، كتاب «الأدب»، باب في الحسد، حديث (٤٩٠٣) عنه بلفظ: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

(٢) إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموي المكي: أخذ العلماء والأشراف عن أبيه، وأيوب بن خالد، وسعيد المقبري، وعنه معمر، والسفيانان، وروح بن القاسم. قال ابن المديني: له نحو سبعين حديثاً، وثقه أبو حاتم، قال ابن معين: مات سنة أربع وأربعين ومائة. ينظر: «الخلاصة» (٨٤/١) (٤٨٠).

(٣) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (١٢٥/٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نَصْلِيهِمْ نَارًا...﴾ الآية: لما تقدّم في الآية وصف المردة من بني إسرائيل وذكر أفعالهم وذنوبهم، جاءت هذه الآية بالوعيد النصّ لهم بلفظ جليّ عامّ لهم ولغيرهم؛ ممّن فعل فعلهم من الكفرة، واختلف في معنّى تبديل الجلود.

فقال فرقة: تبدّل عليهم جلود أغيار؛ إذ نفوسهم هي المعذبة، والجلود لا تألّم في ذاتها، وقالت فرقة: تبديل الجلود هو إعادة ذلك الجلد بعينه الذي كان في الدنيا، وإنما سمّاه تبديلاً؛ لأنّ أوصافه تتغيّر، قال الحسن بن أبي الحسن: تبدّل عليهم في اليوم سبعين ألف مرّة (عافانا الله من عذابه برحمته) ^(١).

ولما ذكر سبحانه وعيد الكفار، عقّب بوعد المؤمنين بالجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، و ﴿ظليلاً﴾: معناه عند بعضهم: يقي الحرّ والبرد، ويصحّ أن يريد أنه ظلّ لا يستحيل ولا يتنقّل، وصح وصفه بظليل؛ لامتداده، فقد قال عليه السلام: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا» ^(٢)، ورأيت لبعضهم ما نصّه وذكر الطبري في كتابه، قال: لما خلق الله عزّ وجلّ الجنة، قال لها: أمتدي، فقالت: يا ربّ، كم، وإلى كم؟ فقال لها: أمتدي مائة ألف سنة، فأمتدت، ثم قال لها: أمتدي، فقالت: يا ربّ، كم، وإلى كم؟ فقال لها: أمتدي مائة ألف سنة، فأمتدت، ثم قال لها: أمتدي، فقالت: يا ربّ، كم، وإلى كم؟ فقال لها: أمتدي مقدار رحمتي، فأمتدت، فهي تمتدّ أبد الآبدين، فليس للجنة طرف؛ كما أنّه ليس لرحمة الله طرف. انتهى، فهذا لا يعلم إلا من جهة السمع، فهو ممّا أطلع عليه الطبري، وهو إمام حافظ محدث ثقة؛ قاله الخطيب أحمد بن عليّ بن ثابت.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ الآية: قال ابن

(١) أخرجه الطبري (١٤٥/٤) برقم (٩٨٤٢)، وذكره البغوي (٤٤٣/١)، وابن عطية (٦٩/٢)، وابن كثير (٥١٤/١)، والسيوطي (٣١١/٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨/٦)، كتاب «بدء الخلق»، باب ما جاء في صفة الجنة، حديث (٣٢٥١)، ومسلم (٢١٧٥/٤)، كتاب «الجنة»، باب أن في الجنة شجرة، حديث (٢٨٢٧/٨).

جُرَيْج وغيره^(١): الآية خطابٌ للنبي ﷺ في أمرِ مِفْتَاحِ الكَعْبَةِ حينَ أخذه من عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ^(٢)، ومنَ ابْنِ عَمِّهِ شَيْبَةَ، فطلبه العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٣)؛ لِيُضِيفَ السَّدَانَةَ إِلَى السَّقَايَةِ، فدخل النبي ﷺ الكعبةَ، وَكَسَرَ ما كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَوْثَانِ، وَأَخْرَجَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ بِهذه الآية، قال عمر بنُ الْخَطَّابِ: فخرج النبي ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية، وما كُنْتُ سَمِعْتُهَا قَبْلُ مِنْهُ، فَدَعَا عُثْمَانَ وَشَيْبَةَ، فَقَالَ لَهُمَا: خُذَاهَا خَالِدَةً تَالِدَةً، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ^(٤)، ثم الآية بَعْدَ تَتَنَاولُ الْوَلَاةَ فِيمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْأَمَانَاتِ فِي قِسْمَةِ الْأُمُوالِ، وَرَدَّ الظُّلُمَاتِ، وَعَذَلَ الْحُكُومَاتِ، وَتَتَنَاولُ مِنْ دُونِهِمْ مِنَ النَّاسِ؛ فِي حِفْظِ

(١) أخرجه الطبري (١٤٨/٤) برقم (٩٨٥١)، وذكره ابن عطية (٧٠/٢)، والسيوطي (٣١٢/٢)، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٢) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة: (عبد الله) بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة، القرشي، العبدي، حاجب البيت، قال ابن الأثير: قُتِلَ أَبُوهُ طَلْحَةُ، وعمره عثمان بن أبي طلحة جميعاً يوم أحد كافرين، قُتِلَ حمزة عثمان، وقتل علي طلحة مبارزة، وقتل يوم أحد منهم أيضاً: مسافع، والجلاس، والحارث، وكناب بنو طلحة كلهم إخوة عثمان بن طلحة قتلوا كفاراً.. وهاجر عثمان بن طلحة إلى رسول الله ﷺ في هذنة الحديدية، مع خالد بن الوليد، فلحقا عمرو بن العاص قد أتى من عند النجاشي يريد الهجرة، فاصطحبوه حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فقال رسول الله ﷺ حين رآهم: «أَلَقْتُ إِلَيْكُمْ مَكَّةَ أَفْلاذَ كِبْدِهَا»، وأقام مع النبي بالمدينة، وشهد معه فتح مكة، ودفع إليه مِفْتَاحَ الكعبة يوم الفتح، وإلى ابن عمه شيبَةَ بن عثمان وقال: «خُذُوهَا خَالِدَةً تَالِدَةً وَلَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ» ثَوْفِي بِمَكَّةَ سَنَةَ (٤٢)، وقيل: اسْتَشْهَدَ بِ «أُجْنَادِينَ». يُنْظَرُ تَرْجَمَتُهُ فِي: «أَسَدُ الْغَابَةِ» (٥٧٨/٣)، «الْإِصَابَةُ» (٢٢٠/٤)، «الثَّقَاتُ» (٢٦٠/٣)، «الْإِسْتِيعَابُ» (٣- ٤/١٠٣٤)، «تَجْرِيدُ أَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ» (٣٧٣/١)، «سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» (١٠/٣)، «التَّارِيخُ الْكَبِيرُ» (٢١١/٦).

(٣) العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، عَمَ رسول الله ﷺ، أَبُو الْفَضْلِ. وُلِدَ قَبْلَ رسول الله ﷺ بِسِتِّينَ، وَضَاعَ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَنَذَرَتْ أُمُّهُ إِنْ وَجَدَتْهُ أَنْ تَكْسُوَ الْبَيْتَ الْحَرِيرَ، فَوَجَدَتْهُ فَكَسَتْ الْبَيْتَ الْحَرِيرَ، فَهِيَ أَوَّلُ مَنْ كَسَاهُ ذَلِكَ، وَكَانَ إِلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ السَّقَايَةُ وَالْعِمَارَةُ، وَحَضَرَ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ مَعَ الْأَنْصَارِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَشَهِدَ بَدْرًا مَعَ الْمُشْرِكِينَ مُكْرَهًا؛ فَأَسِيرَ فَافْتَدَى نَفْسَهُ، وَافْتَدَى ابْنُ أَخِيهِ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ أَسْلَمَ، وَكُتِبَ قَوْمُهُ ذَلِكَ، وَصَارَ يَكْتُبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَخْبَارِ، ثُمَّ هَاجَرَ قَبْلَ الْفَتْحِ بِقَلِيلٍ، وَشَهِدَ الْفَتْحَ، وَثَبَتَ يَوْمَ حُنَيْنٍ؛ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ آدَى الْعَبَّاسَ فَقَدْ آذَانِي؛ فَإِنَّمَا عَمَّ الرَّجُلُ صِنُو أَبِيهِ»، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي قِصَّةٍ. وَقَدْ حَدَّثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَحَادِيثَ، رَوَى عَنْهُ أَوْلَادُهُ، وَعَامَرُ بْنُ سَعْدٍ، وَالْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ، وَغَيْرُهُمْ. وَمَاتَ بِالْمَدِينَةِ فِي رَجَبٍ أَوْ رَمَضَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، وَكَانَ طَوِيلًا جَمِيلًا أَيْضًا.

يُنْظَرُ تَرْجَمَتُهُ فِي: «الْإِصَابَةُ» (٥١١/٣)، (٥١٢) برقم (٤٥٢٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٤٨/٤) برقم (٩٨٥١)، وذكره ابن عطية (٧٠/٢)، وابن كثير (٥١٦/١)، والسيوطي (٣١٢/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج.

الودائع، والتحرُّز في الشهادات، وغير ذلك؛ كالرجُل يُحَكَّم في نازلةٍ ما ونحوه، والصَّلَاة والزكاة والصَّيَام وسائر العباداتِ أماناتٌ لله تعالى، قال ابنُ العَرَبِيِّ/ في «أحكامه»: هذه ١٢٤ الآية في أداء الأمانة، والحكم بين الناس - عامة في الوَلَاة والخَلْق؛ لأنَّ كُلَّ مسلمٍ عَالِمٌ، بل كُلُّ مسلمٍ حاكمٌ، ووالٍ، قال النبيُّ ﷺ: «المُقْسِطُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكُنَّا يَدِيهِ يَمِينٍ، وَهُمْ الَّذِينَ يَغْدِلُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»^(١) وقال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٢)، فهذه الأحاديثُ الصحيحةُ تدلُّ على ما قلناه. انتهى.

(١) أخرجه مسلم (١٤٥٨/٣) في الإمامة: باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٧/١٨)، والنسائي (٨/ ٢٢١-٢٢٢) في آداب القضاة: باب فضل الحاكم العادل في حكمه، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحميدي (٢/ ٢٦٨-٢٦٩) برقم (٥٨٨)، وابن حبان (١٥٣٨) موارد، والبيهقي (١٠/ ٨٧-٨٨)، والخطيب في «التاريخ» (٥/ ٣٦٧)، وابن أبي شيبه (١٣/ ١٢٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣١٢) برقم (٢٤٦٤) من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ به مرفوعاً.

وعند مسلم، والنسائي، وابن حبان، والخطيب، والبغوي: «سفيان بن عيينة». وأخرجه عبد الرزاق (١١/ ٣٢٥) برقم (٢٠٦٦٤)، وأحمد (٢/ ١٥٩، ٢٠٣)، والحاكم (٤/ ٨٨-٨٩) من طريق معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقد أخرجاه جميعاً، وسكت عنه الذهبي. قلت: لم يخرجوه سوى مسلم كما تقدم في التخريج.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٨٤) كتاب «الاستقراض»، باب العبد راعٍ في مال سيده، حديث (٢٤٠٩)، (٥/ ٢١١) كتاب «العتق»، باب كراهية التطاول على الرقيق، حديث (٢٥٥٤)، (٥/ ٢١٥) كتاب «العتق»، باب العبد راعٍ في مال سيده، حديث (٢٥٥٨)، (٥/ ٤٤٤) كتاب «الوصايا»، باب تأويل قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينَ﴾، حديث (٢٧٥١)، (٩/ ١٦٣) كتاب «النكاح»، باب ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، حديث (٥١٨٨)، (٩/ ٢١٠) كتاب «النكاح»، باب المرأة راعية في بيت زوجها، حديث (٥٢٠٠)، (١٣/ ١١٩) كتاب «الأحكام»، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ...﴾، حديث (٧١٣٨)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩) كتاب «الإمارة»، باب فضيلة الإمام، حديث (١٨٢٩/٢٠)، وأبو داود (٢/ ١٤٥) كتاب «الخراج»، باب ما يلزم الإمام من حق الرعية، حديث (٢٩٢٨)، والترمذي (٥/ ١٧٠٥)، وأحمد (٢/ ٥٠٤-٥٠٥، ١١١، ١٢١)، وابن الجارود في «المنتقى» برقم (١٠٩٤)، وأبو عبيد في كتاب «الأموال» (ص ١٠، ١١) رقم (٤، ٣)، وعبد الرزاق (١١/ ٣١٩) برقم (٢٠٦٥٠)، وأبو يعلى (١٠/ ١٩٩) برقم (٥٨٣١)، وابن حبان (٤٤٧٢، ٤٤٧٤)، والبيهقي (٧١/ ٢٩١)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣١١-بتحقيقنا)، والقضاعي في «مسند الشهاب» برقم (٢٠٩) كلهم من حديث ابن عمر. وللحديث شواهد من حديث أنس، وعائشة، وأبي لبابة بن عبد المنذر. حديث أنس: قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته، فالأمرُ راعٍ على الناس ومسؤول عن رعيته، والرجل راع =

و «نِعْمًا»: أصله: «نِعْمَ مَا»؛ سُكِنَتِ الميمُ الأولى، وأدغمت في الثانية، وَحُرِّكَتِ العينُ؛ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَخُصَّتْ بِالْكَسْرِ؛ إِتِّبَاعًا لِلثُّونِ، وَ «مَا» المردوفةُ عَلَى «نِعْمَ» إِنَّمَا هِيَ مَهْيَةٌ لِاتِّصَالِ الْفِعْلِ بِهَا، وَمَعَ أَنَّهَا مُوْطئةٌ، فَهِيَ بِمَعْنَى «الَّذِي».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩)

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...» الآية: لَمَّا تَقَدَّمَ إِلَى الْوَلَاةِ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ إِلَى الرَّعِيَّةِ، فَأَمَرَ بِطَاعَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَطَاعَةِ الْأُمَرَاءِ؛ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ^(١)، فَالْأَمْرُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ؛ وَمِنْهُ لَفْظَةُ «الْأَمِيرِ»، وَقَالَ جَابِرٌ وَجُمَاعَةٌ: «أُولُو الْأَمْرِ»: أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ.

قال عطاء: طاعةُ الرَّسُولِ هِيَ اتِّبَاعُ سُنَّتِهِ، يَعْنِي: بَعْدَ مَوْتِهِ^(٢)، وَلَفْظُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٣) قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ» فِيهَا قَوْلَانِ:

= عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَمَسْئُولٍ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةِ رَاعِيَةٍ لَزُوجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ بَيْتِهَا وَوَلَدِهَا، وَالْمَمْلُوكِ رَاعٍ عَلَى مَوْلَاهُ وَمَسْئُولٌ عَنْ مَالِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...»
ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٢١٠/٥)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الصَّغِيرِ» وَ «الْأَوْسَطِ»، وَأَحَدُ إِسْنَادِي «الْأَوْسَطِ» رَجَالَهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

* حَدِيثُ عَائِشَةَ: ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٢١٠/٥)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» وَفِيهِ أَرْطَاةُ بَنِ الْأَشْعَثِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جَدًّا.
وَلِلْحَدِيثِ طَرِيقٌ آخَرٌ.

أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ فِي «تَارِيخِ بَغْدَادَ» (٢٧٦/٥) مِنْ طَرِيقِ النَّضْرِ بْنِ شَمِيلٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

* حَدِيثُ أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذَرِ:

نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الْحَيَاتِ الَّتِي فِي الْبُيُوتِ، وَقَالَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَامْرَأَةُ الرَّجُلِ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ...».

قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (٢١٠/٥): لِأَبِي لُبَابَةَ فِي الصَّحِيحِ النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الْحَيَاتِ فَقَطْ، رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» وَ «الْكَبِيرِ»، وَرِجَالُ الْكَبِيرِ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٧٠/٢).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٥٠/٤) بِرَقْمِ (٩٨٥٧-٩٨٥٨)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٧١/٢)، وَالسَّبُوطِيُّ (٣١٤/٢)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) يَنْظُرُ: «أَحْكَامُ الْقُرْآنِ» (٤٥١/١).

الأول: قال ميمون بن مهران: هم أصحاب السرايا، وروى في ذلك حديثاً، وهو اختيار البخاري، وروي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله بن حذافة^(١)، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية^(٢).

والثاني: هم العلماء، وبه قال أكثر التابعين، وأختاره مالك^(٣) والطبري.

والصحيح عندي: أنهم الأمراء والعلماء، أمّا الأمراء؛ فلأن الأمر منهم، والحكم إليهم، وأمّا العلماء؛ فلأن سؤالهم متعين على الخلق، وجوابهم لازم، وامتنال فتوَاهم واجب، ويدخل فيه تأمر الزوج على الزوجة؛ لأنه حاكم عليها. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ...﴾ الآية: معنى التنازع أن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها، والرّد إلى الله هو التّظّر في كتابه العزيز، والرّد إلى الرسول هو سؤاله ﷺ في حياته، والتّظّر في سنته بعد وفاته، هذا قول مجاهد وغيره^(٤)، وهو الصحيح.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُوْمِنُونَ بِاللّهِ...﴾ الآية: فيه بعض وعيد، و ﴿تَأْوِيلًا﴾: معناه: مآلاً؛ في قول جماعة، وقال قتادة وغيره: المعنى: أحسن عاقبة^(٥)، وقالت فرقة: المعنى أن الله ورسوله أحسن نظراً وتأولاً منكم، إذا انفردتم بتأولكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠)

(١) عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي: أبو حذافة أو أبو حذيفة، وأمه تميمة بنت خثران، من بني الحارث بن عبد مناة من السابقين الأولين.

يقال: شهد بدران، ولم يذكره موسى بن عقبة ولا ابن إسحاق ولا غيرهما من أصحاب المغازي. وقال ابن يونس: شهد فتح مصر.

ينظر: «الإصابة» (٤/ ٥٠-٥٣)، «أسد الغابة» ت (٢٨٩١)، «الاستيعاب» ت (١٥٢٦)، «الثقات» (٣/ ٢٦).

(٢) تقدم.

(٣) ينظر «تفسير الطبري» (٤/ ١٥٣).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ١٥٤) برقم (٩٨٨٤-٩٨٨٥-٩٨٨٦)، وذكره ابن عطية (٢/ ٧١)، وابن كثير (١/ ٥١٨)، والسيوطي (٢/ ٣١٨)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٤/ ١٥٥) برقم (٩٨٩٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٧١)، والسيوطي (٢/ ٣١٨)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن قتادة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك...﴾ الآية: تقول العرب: زَعَمَ فُلَانٌ كَذَا؛ في الأمر الذي يَضَعُ فيه التحقيق، وغاية دَرَجَةِ الزَّعْمِ إذا قَوِيَ؛ أن يكون مَظْنُونًا، وإذا قال سَيِّبُونَهُ: زَعَمَ الْخَلِيلُ، فإنما يستعملها فيما أَنْفَرَدَ الْخَلِيلُ به؛ وكَأَنَّ أَقْوَى رُتَبِ «زَعَمَ» أن تبقى معها عُهْدَةُ الْخَبَرِ على الْمُخْبِرِ.

١٢٤ ب قال عامرُ السَّعْبِيُّ: / نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي مَنَافِقِ اسْمُهُ بِشَرٍّ، خَاصَمَ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ، فَدَعَاهُ الْيَهُودِيُّ إِلَى الْمُسْلِمِينَ؛ لَعَلَّمَهُ أَنَّهُمْ لَا يَرْتَشُونَ، وَكَانَ الْمَنَافِقُ يَدْعُو الْيَهُودِيَّ إِلَى الْيَهُودِ؛ لَعَلَّمَهُ أَنَّهُمْ يَرْتَشُونَ، فَاتَّفَقَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ أَتَيَا كَاهِنًا كَانَ بِالْمَدِينَةِ، فَرَضِيَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِمَا، وَفِي صِنْفَيْنِهِمَا^(١)، فَالَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُمُ الْمَنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ هُمُ الْيَهُودُ، وَكُلُّ قَدْ أَمَرَ فِي كِتَابِهِ بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ، وَالطَّاغُوتُ هُنَا الْكَاهِنُ الْمَذْكُورُ، فَهَذَا تَأْنِيبٌ لِلصَّنْفَيْنِ.

وقال ابنُ عَبَّاسٍ: الطَّاغُوتُ هُنَا هُوَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، وَهُوَ الَّذِي تَرَاضِيََا بِهِ^(٢)، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ﴾، هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ لِمَنْ صَدَّ مِنَ الْمَنَافِقِينَ مَجَاهِرَةً وَتَصْرِيحًا، وَهِيَ رُؤْيَا قَلْبٍ لِمَنْ صَدَّ مِنْهُمْ مَكْرًا وَتَخَابُثًا وَمُسَارَقَةً حَتَّى لَا يُعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا بِالْقَرَائِنِ الصَّادِرَةِ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، قَالَتْ فِرْقَةٌ: هِيَ فِي الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ أَحْتَكَمُوا؛ حَسَبًا تَقَدَّمَ، فَالْمَعْنَى: فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا عَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الذُّنُوبِ بِنِقْمَةٍ مِنْهُ، ثُمَّ حَلَفُوا، إِنْ أَرَدْنَا بِالْأَحْتِكَامِ إِلَى الطَّاغُوتِ إِلَّا تَوْفِيقَ الْحُكْمِ وَتَقْرِيبَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤/ ١٥٥-١٥٦) بِرَقْمِ (٩٨٩٦-٩٨٩٨)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١/ ٤٤٦)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/ ٧٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢/ ٣١٩)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤/ ١٥٧) بِرَقْمِ (٩٩٠٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/ ٧٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢/ ٣٢٠)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْعُوفِيِّ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: تكذيب لهم وتوعد، أي: فهو سبحانه مجازيهم، فأعرض عنهم، وعظمهم بالتخويف من عذاب الله وغيره من الموعظ.

وقوله سبحانه: ﴿وقل لهم في أنفسهم﴾.

قال * ص *: أي: قل لهم خالياً بهم؛ لأنّ التّضح، إذا كان في السرّ، كان أنجَح، أو: قل لهم في حال أنفسهم النّجسة المنظوية على النّفاق قولاً يبلّغ منهم الزّجر عن العود إلى ما فعلوا. انتهى.

واختلف في «القول البليغ»، فقيل: هو الزجر والرذع والكفّ بالبلاغة من القول، وقيل: هو التوعد بالقتل، إن استداموا حالة النّفاق؛ قاله الحسن^(١)، وهذا أبلغ ما يكون في نفوسهم، والبلاغة مأخوذة من بلوغ المراد بالقول.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٤)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: تنبيه على جلاله الرسل، أي: فانت، يا محمّد، منهم تجب طاعتك، وتتعيّن إجابة الدّعوة إليك، و ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: معناه: بأمر الله، و ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: أي: بالمعصية، والنّفاق، وعن العتبيّ، قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السّلام عليك، يا رسول الله، سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد جئتُك مُستغفياً من ذنوبي، مُستغفراً إلى ربّي، ثمّ أنشأ يقول: [البسيط]

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالقَاعِ أَعْظَمُهُ قَطَابَ مِنْ طَيْبِهِنَّ القَاعِ وَالْأَكْمُ
نَفْسِي الْفِدَاءَ لِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِئُهُ فِيهِ الْعَفَافُ، وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

قال: ثمّ أنصرفت، فحملتني عيناّي، قرأتُ النبي ﷺ في النّوم، فقال لي: «يا عتيبيّ: ألحق الأعرابيّ، فبشره أنّ الله تعالى قد غفر له». انتهى من «حلية النووي»، و «سنن الصّالحين»؛ للباقي، وفيه: مُستغفراً من ذنوبي، مستشفعاً بك إلى ربّي.

(١) ذكره البغوي (١/٤٤٨)، وابن عطية (٢/٧٣).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ (١٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَرِيقًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا (١٦) وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (١٧) وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ الآية: ١٢٥ قال الطبري^(١): قوله: «فَلَا»: رَدُّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، تقديره: فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ/ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، ثُمَّ أَسْتَأْنَفَ الْقَسَمَ، وقال غيره: إِنَّمَا قَدَّمَ «لَا» عَلَى الْقَسَمِ؛ أَهْتِمَامًا بِالنَّهْيِ، وإِظْهَارًا لِقَوْتِهِ، قال ابنُ عطاءِ اللَّهِ في «التنوير»: وفي قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: دلالة على أَنَّ الْإِيمَانَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِمَنْ حَكَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى نَفْسِهِ، قَوْلًا وَفِعْلًا، وَأَخْذًا وَتَرْكًا، وَحُبًّا وَبُغْضًا؛ فَتَبَيَّنَ لَكَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَا تَخْصُلُ لَكَ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: الْأَمْتِثَالِ لِأَمْرِهِ، وَالْإِسْتِسْلَامِ لِقَهْرِهِ سبحانه. انتهى.

و ﴿شَجَرَ﴾: معناه أَخْتَلَطَ وَالتَّفَّ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَهُوَ مِنَ الشَّجَرِ، شَبَّهَ بِالتَّفَافِ الْأَغْصَانِ، وَالْحَرَجُ: الضِّيقُ وَالتَّكَلُّفُ وَالمَشَقَّةُ، قال مجاهد: حَرَجًا: شَكًّا^(٢).

وقوله: ﴿تَسْلِيمًا﴾. مصدرٌ مُؤَكَّدٌ مُنْبِئٌ عَنِ التَّحْقِيقِ فِي التَّسْلِيمِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ إِنَّمَا تَرَدُّفُ الْفِعْلَ بِالمَصْدَرِ، إِذَا أَرَادَتْ أَنَّ الْفِعْلَ وَقَعَ حَقِيقَةً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] قال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِمَّنْ أَرَادَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَفِيهِمْ نَزَلَتْ^(٣)، وَرَجَّحَ^(٤) الطبريُّ هذا؛ لِأَنَّهُ أَشْبَهَ بِنَسَقِ الْآيَةِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ خَاصَمَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي السَّقْيِ بِمَاءِ^(٥) الْحَرَّةِ؛ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّ الزُّبَيْرَ قَالَ: فَمَا أَحْسِبُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ إِلَّا فِي ذَلِكَ.

و ﴿كَتَبْنَا﴾: معناه: فَرَضْنَا، ﴿أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: معناه: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَقَدْ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/١٦٠).

(٢) أخرجه الطبري (٤/١٦١) برقم (٩٩١٣-٩٩١٤)، وذكره البغوي (١/٤٤٩)، وابن عطية (٢/٧٤)، والسيوطي (٢/٣٤٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٤/١٦٢) برقم (٩٩٢٠)، وذكره ابن عطية (٢/٧٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/١٦٢).

(٥) حديث شراح الحرة، حديث مشهور تقدم تخريجه.

تَقَدَّمَ نظيره في «البقرة»، وسبب الآية، على ما حُكي: أَنَّ اليهود قالوا؛ لَمَّا لم يَرْضَ المنافقُ بِحُكْمِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَأَيْنَا أَسْخَفَ مِنْ هَؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ، ثُمَّ لَا يَرْضُونَ بِحُكْمِهِ، وَنَحْنُ قَدْ أَمَرْنَا بِقَتْلِ أَنْفُسِنَا، فَفَعَلْنَا، وَبَلَغَ الْقَتْلُ فِينَا سَبْعِينَ أَلْفًا، فَقَالَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ: لَوْ كُتِبَ ذَلِكَ عَلَيْنَا، لَفَعَلْنَاهُ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ مُعَلِّمَةً بِحَالِ أَوْلَئِكَ الْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّهُ لَوْ كُتِبَ ذَلِكَ عَلَى الْأُمَّةِ، لَمْ يَفْعَلُوهُ، وَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ إِلَّا قَلِيلٌ مُؤْمِنُونَ مُحَقِّقُونَ؛ كَثَابَتِ، قُلْتُ: وَفِي «العتبية»، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) نَحْوُ مَقَالَةٍ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ ابْنُ رُشْدٍ: وَلَا شَكَّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِي أَسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ، فَلَا أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنْهُ. انْتَهَى.

قال * ص * : ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾: الجمهورُ بالرفعِ، على البدلِ من واوِ «فَعَلُوهُ»؛ عند البصريين^(١). انتهى.

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾: لو أنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ اتَّعَظُوا وَأَتَابُوا، لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ ﴿تَثْبِيثًا﴾، معناه: يَقِينًا وَتَصْدِيقًا، وَنَحْوَ هَذَا، أُنِيَ: يَثْبِثُهُمُ اللَّهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانَ يَمُنُّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَفْضُلِهِ بِالْأَجْرِ، وَوَضَعَهُ إِيَّاهُ بِالْعَظِيمِ مُقْتَضٍ مَا لَا يُخْصِيهِ بَشَرٌ مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: الْإِيمَانُ الْمُوْدِّي إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْمَقْصُودُ تَعْدِيدُ مَا كَانَ يُنْعَمُ بِهِ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا ﴿٧٠﴾

وقوله (جَلَّتْ عَظَمَتُهُ): ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾... الآية: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَمْرَ الَّذِي لَوْ فَعَلُوهُ، لَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَوَابَ مَنْ يَفْعَلُهُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَفْسِّرُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لَمَّا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ

(١) وقرأ ابن عامر وجماعة: «إلا قليلاً» نصباً وفيه وجهان:

أشهرهما: أَنَّهُ نَصَبٌ عَلَى الْاسْتِنَاءِ، وَإِنْ كَانَ الْاِخْتِيَارُ الرَّفْعُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى مَوْجُودٌ مَعَهُ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ مَعَ النَّصْبِ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ بِمُوَافَقَةِ اللَّفْظِ.

والثاني: أَنَّهُ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: «إِلَّا قَلِيلًا قَلِيلًا»، قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ إِذِ الظَّاهِرُ: أَنَّ «مِنْهُمْ» صِفَةٌ لـ «قَلِيلًا»، وَمَتَى حُمِلَ الْقَلِيلُ عَلَى غَيْرِ الْأَشْخَاصِ يَنْقَلِبُ هَذَا التَّرْكِيبُ؛ إِذْ لَا فَائِدَةَ حَيْثُ ذَكَرَ «مِنْهُمْ».

ينظر: «حجة القراءات» (٢٠٦، ٢٠٧)، «الدر المصنوع» (٣٨٤/٢).

الذي أَرَى الْأَذَانَ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا مِتُّ، وَمِثْنًا، كُنْتُ فِي عِلْيَيْنَ، فَلَا تَرَكَ، وَلَا تَجْتَمِعُ بَكَ، وَذَكَرَ حُزْنَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(١).

قال *ع^(٢)*: ومعنى أنهم مَعَهُمْ: في دارٍ واحدة، ومُتَنَعِمٍ واحد، وكلُّ مَنْ فيها قَدْ ب رُزِقَ الرِّضَا بِحَالِهِ، وذهب عنه أن يعتقد أنه/ مفضُول، وإن كنا نَحْنُ قَدْ عَلِمْنَا مِنَ الشَّرِيعَةِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ تَخْتَلِفُ مَرَاتِبُهُمْ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، وَعَلَى قَدَرِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَالصَّدِيقُ: فِعْلٌ مِنَ الصَّدَقِ، وَقِيلَ: مِنَ الصَّدَقَةِ، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الصَّدِيقُونَ الْمُتَصَدِّقُونَ». وَلَفْظُ الشَّهَدَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَعُمُّ أَنْوَاعَ الشَّهَدَاءِ.

قال *ص* *: ﴿وَحَسَنٌ أَوْلَيْكَ رَفِيقًا﴾ فيه معنى التعجب؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَمَا أَحْسَنَ أَوْلَيْكَ رَفِيقًا، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي كَلَامِ ابْنِ الْحَاجِّ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّعَجُّبَ لَازِمٌ لـ «فَعَلٌ» الْمُسْتَعْمَلِ لِلْمَدْحِ وَالذَّمِّ، عَلَى كُلِّ حَالٍ، سَوَاءً أَسْتَعْمَلْتَ أَسْتَعْمَالَ نِعَمٍ أَوْ لَا. انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾: الإِشَارَةُ بِـ «ذَلِكَ» إِلَى كَوْنِ الْمُطِيعِينَ مَعَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَوِّلَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَاهِدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾ الآية: هَذَا خُطَابٌ لِلْمُخْلِصِينَ مِنْ أُمَّةٍ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَمْرٌ لَهُمْ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ، وَالْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَحِمَايَةِ الْإِسْلَامِ، وَ «خُذُوا حِذْرَكُمْ»: أَي: أَحْزَمُوا وَأَسْتَعِدُّوا بِأَنْوَاعِ الْأَسْتِعْدَادِ، وَ «انْفِرُوا»: مَعْنَاهُ: أَخْرَجُوا، وَ «ثُبَاتٍ»: مَعْنَاهُ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ، وَهِيَ السَّرَايَا، وَالثُّبَةُ: حُكِّيَ أَنَّهَا فَوْقَ الْعَشْرَةِ، وَ «جَمِيعًا»: مَعْنَاهُ: الْجَيْشُ الْكَثِيرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ إِيْجَابٌ، وَالْخُطَابُ لَجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَرَادُ بِـ «مَنْ»:

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦٦/٤) بِرَقْم (٩٩٢٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٧٦/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٢٢/١)، وَالسِّيُوطِيُّ (٣٢٥/٢)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٧٦/٢).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦٨/٤) بِرَقْم (٩٩٣٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٧٧/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٢٤/١)، وَالسِّيُوطِيُّ (٣٢٦/٢)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

المنافقون، وعبر عنهم بـ ﴿منكم﴾ إذ في الظاهر في عداد المؤمنين، واللام الداخلة على «من»: لام التأكيد، والداخلة على: «يُطِطَّن»: لام القسم؛ عند الجمهور، وتقديره: وإن منكم لمن، والله، ليُطِطَّن، ويُطِطَّن: معناه: يبطن غير، أي: يبطنه. ويحمله على التخلف عن مغازي رسول الله ﷺ، و﴿مُصِيبَةٌ﴾ يعني: من قتال، واستشهاد، وإنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد، وإنما الشهادة في الحقيقة نعمة من الله سبحانه؛ لحسن مآلها، و﴿شهادة﴾: معناه: مُشاهداً.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَن أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: ظفرتم وغنمتم، نديم المنافق، وقال: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ متمنياً شيئاً قد كان عاهد أن يفعله، ثم عذر في عهده.

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾: التفاتة بليغة، وأعتراض بين القائل والمقول بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم، وقال الزجاج^(١): قوله: «كأن لم يكن بينكم وبينه مودة» مؤخر، وإنما موضعه: «فإن أصابتكم مصيبة».

قال * ع^(٢): * وهذا ضعيف؛ لأنه يُفسد فصاحة الكلام.

قال * ص * : وقوله: ﴿فأفوز﴾ بالنصب: هو جواب التمني. انتهى.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَاتِلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

وقوله تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة...﴾ الآية: هذا أمر من الله سبحانه للمؤمنين بالجهاد، ويشرون هنا: معناه: يبيعون، ثم وصف سبحانه ثواب المقاتلين، والأجر العظيم: الجنة.

وقوله تعالى: ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله...﴾ الآية: «ما»: استفهام، ﴿والمستضعفين﴾: عطف على اسم الله عز وجل، أي: وفي سبيل المستضعفين؛

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٧٦/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٧/٢).

لَا سْتَنْقَازَهُمْ، ويعني بـ «المستضعفين»: مَنْ كَانَ بِمَكَّةَ تَحْتَ إِذْلَالِ كَفَرَةِ قُرَيْشٍ، وفيهم كَانَ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١)، «وَالْوِلْدَانِ»: عبارة عن الصبيان، و «الْقَرْيَةِ» هنا: مَكَّةَ بِإِجْمَاعٍ، والآيةُ تَتَنَاوَلُ/ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَسْرَى فِي حَوَاضِرِ الشُّرْكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال ابنُ العربي^(٢) في «أحكامه»: قال علماءونا (رحمهم الله): أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْقِتَالَ؛ لِاسْتِنْقَازِ الْأَسْرَى مِنْ يَدِ الْعَدُوِّ، وَقَدْ رَوَى الْأَثَمَةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعَوِّدُوا الْمَرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِي»^(٣). يعني: الْأَسِيرَ، قَالَ مَالِكٌ (رَحِمَهُ اللَّهُ): عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفُكُّوا الْأَسْرَى بِجَمِيعِ أَمْوَالِهِمْ؛ وَكَذَلِكَ قَالُوا: عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَاسُواهُمْ. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلون في سبيل الله...﴾ الآية: هذه الآية تقتضي تقوية قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَحْرِيطَهُمْ، وَقَرِينَةُ ذِكْرِ الشَّيْطَانِ بَعْدُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالطَّاعُوتِ هُنَا الشَّيْطَانُ، وَإِعْلَامُهُ تَعَالَى بِضَعْفِ كَيْدِ الشَّيْطَانِ فِيهِ تَقْوِيَةٌ لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَجَرِئَةٌ لَهُمْ عَلَى مُقَارَعَةِ الْكَيْدِ الضَّعِيفِ؛ فَإِنَّ الْعِزْمَ وَالْحَزْمَ الَّذِي يَكُونُ عَلَى حَقَائِقِ الْإِيمَانِ يَكْسِرُهُ وَبِهَذِهِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرُ وَلَا تُظْلَمُونَ فَبَيِّنَا (٧٧) أَتَيْنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُبْصِرْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُنْصِبْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢/٢)، كتاب «الاستسقاء»، باب دعاء النبي ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، حديث (١٠٠٦)، ومسلم (١/ ٤٤٦-٤٤٧)، كتاب «المساجد»، باب استحباب القنوت، حديث (٢٧٥/ ٢٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٤٥٩/١).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣/٦) في الجهاد: باب فكاك الأسير (٣٠٤٦)، و (١٤٩/٩) في النكاح: باب حق إجابة الوليمة والدعوة (٥١٧٤)، و (٤٢٧/٩) في الأطعمة: باب قول الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (٥٣٧٣)، (١١٧/١٠) في المرضى: باب وجوب عيادة المريض (٥٦٤٩)، و (١٧٤/١٣) في الأحكام: باب إجابة الحاكم الدعوة (٧١٧٣)، وأبو داود (٢٠٤/٢) في الجنائز: باب الدعاء للمريض بالشفاء عند العيادة (٣١٠٥)، وأحمد (٣٩٤/٤)، وأبو داود الطيالسي (٥٢/١) برقم (٢١٣٦)، والدارمي (٢٢٣/٢)، والبيهقي (٣٧٩/٣)، (٣/١٠)، والبخاري في «شرح السنة» (١٧٣/٣) برقم (١٤٠١) عن منصور عن أبي وائل عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً به.

هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفُوا أيديكم وأقيموا الصلاة...﴾ الآية: اختلف المتأولون، فيمن المراد بقوله: ﴿الذين قيل لهم﴾.

فقال ابن عباس وغيره: كان جماعة من المؤمنين قد أنفوا من الدل بمكة قبل الهجرة، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُبيح لهم مقاتلة المشركين، فأمرهم عن الله تعالى بكف الأيدي، فلما كتب عليهم القتال بالمدينة، شق ذلك على بعضهم، ولحقهم ما يلحق البشر من الخور والكع عن مقارعة العدو، فنزلت الآية فيهم.

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: إنما الآية حكاية عن حال اليهود؛ أنهم فعلوا ذلك مع نبيهم في وفته^(١)، فمعنى الحكاية عنهم تقييح فعلهم، ونهي المؤمنين عن فعل مثله. وقيل: المراد المنافقون.

و «أو»: تقدم شرحها في «سورة البقرة»؛ في قوله تعالى: ﴿أو أشد قسوة﴾ [البقرة: ٧٤]؛ لأن الموضعين سواء.

وقولهم: ﴿لم كتب علينا القتال﴾: رد في صدر أوامر الله سبحانه، وقلة استسلام له، والأجل القريب: يعنون به موتهم على فرشهم؛ هكذا قال المفسرون.

قال ع^(٢): * وهذا يحسن؛ إذا كانت الآية في اليهود أو في المنافقين، وأما إذا كانت في طائفة من الصحابة، فإنما طلبوا التأخر إلى وقت ظهور الإسلام، وكثرة عددهم، ويحسن القول بأنها في المنافقين أطراً ذكرهم فيما يأتي بعد من الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿قل متاع الدنيا قليل...﴾ الآية: المعنى: قل، يا محمد، لهؤلاء: متاع الدنيا، أي: الاستمتاع بالحياة فيها الذي حرصتم عليه قليل، وباقي الآية بين.

وهذا إخبار منه سبحانه يتضمن تحقير الدنيا، قلت: ولما علم الله في الدنيا من الآفات، حمى منها أوليائه، ففي الترمذي عن قتادة بن النعمان، عن النبي ﷺ؛ أنه قال:

(١) أخرجه الطبري (١٧٣/٤) برقم (٩٩٥٧)، وذكره ابن عطية (٧٩/٢)، وابن كثير (٥٢٦/١)، والسيوطي (٣٢٨/٢)، وعزاه للنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه» من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٠/٢).

«إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا، حَمَاهُ الدُّنْيَا؛ كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ»^(١)، قال أبو عيسى: وفي الباب عَنْ صُهَيْبٍ، وَأُمِّ الْمُنْذِرِ، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «نَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ فِرَاشًا؟! فَقَالَ: مَالِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(٢)، وفي الباب عَنْ ابْنِ عُمرَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا ١٢٦ ب حَدِيثٌ / حَسَنٌ صَحِيحٌ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فِي بَرُوجٍ﴾ الأكثر والأصح الذي عليه الجمهور: أنه أراد بـ «البروج»: الحصون التي في الأرض المبنية؛ لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة، فمثل الله لهم بها، قال قتادة: المعنى: في قصور محصنة^(٣)؛ وقاله ابن جريج^(٤) والجمهور، وبرج: معناه: ظهر؛ ومنه تبرج المرأة، و ﴿مُشِيدَةً﴾: قال الزجاج^(٥) وغيره: معناه: مرفوعة مطولة؛ ومنه أشاد الرجل ذكر الرجل؛ إذا رفعه، وقالت طائفة: ﴿مُشِيدَةً﴾: معناه: محسنة بالشيد، وهو الجص، وروى النسائي عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قَالَ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ»، يعني: الموت، وخرجه ابن ماجه والترمذي^(٦)، وخرجه أبو نعيم

(١) أخرجه الترمذي (٣٨١/٤)، كتاب «الطب»، باب ما جاء في الحمية، حديث (٢٠٣٦)، والحاكم (٤/٢٠٧، ٣٠٩)، وابن حبان (٢٤٧٤-٢٤٧٤) من حديث قتادة بن النعمان مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٨٨/٤ - ٥٨٩)، كتاب «الزهد» باب (٤٤) رقم (٢٣٧٧)، وابن ماجه (١٣٧٦/٢)، كتاب «الزهد»، باب مثل الدنيا، حديث (٤١٠٩)، وأحمد (٤٤١/١)، والطيايسي (٢/١٢٠ - منحة) رقم (٢٤٣٠)، والحاكم (٣١٠/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٢/٢) كلهم من طريق علقمة عن ابن مسعود به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم.

(٣) أخرجه الطبري (١٧٥/٤) برقم (٩٩٦٣)، وذكره البغوي (٤٥٤/١)، وابن عطية (٨٠/٢)، والسيوطي (٣٢٩/٢)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري (١٧٥/٤) برقم (٩٩٦٥)، وذكره ابن عطية (٨٠/٢).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٧٩/٢).

(٦) أخرجه الترمذي (٤٧٩/٤)، كتاب «الزهد»، باب ما جاء في ذكر الموت، حديث (٢٣٠٧)، والنسائي (٤/٤) كتاب «الجنائز»، باب كثرة ذكر الموت، وابن ماجه (١٤٢٢/٢) كتاب «الزهد»، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٥٨)، وأحمد (٢٩٢/٢ - ٢٩٣)، وابن أبي شيبة (٢٢٦/١٣)، رقم (١٦١٧٤)، والحاكم (٣٢١/٤)، وابن حبان (٢٥٥٩ - موارد)، ونعيم بن حماد في «زوائد الزهد». رقم (١٤٦)، والخطيب (٤٧٠/٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩١/١) رقم (٦٦٩) كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. =

الحافظ بإسناده من حديث مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ بمثله^(١)، وروى ابن ماجة بسنده، عن ابن عمر؛ أنه قال: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَسُ؟ قَالَ: أَكْثَرُهُمْ لِمَمُوتٍ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أَوْلَيْكَ الْأَكْيَاسُ»، وأخرجه مالك أيضاً^(٢). انتهى من «التذكرة»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبَهُمْ حَسَنَةً...﴾ الآية: الضمير في ﴿تُصْبَهُمْ﴾ عائذ على الذين قِيلَ لَهُمْ كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ؛ وهذا يدل على أنهم المنافقون؛ لأن المؤمنين لا تليق بهم هذه المقالة؛ ولأن اليهود لم يكونوا للنبي ﷺ تَحْتَ أَمْرٍ، فتصبيهم بِسَبِّهِ أَسْوَاءٌ، والمعنى: إِنْ تُصِبْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ حَسَنَةً مِنْ غَنِيمَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، رَأَوْا أَنَّ ذَلِكَ بِالْإِتِّفَاقِ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ، لَا بِبَرَكَاتِهِ أَتْبَاعِكَ وَالْإِيمَانِ بِكَ، ﴿وَإِنْ تَصْبَهُمْ سَيِّئَةً﴾ أي: هزيمة، أو شدة جوع، أو غير ذلك، قالوا: هذه بِسَبِّكَ.

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: إعلَامٌ مِنَ اللَّهِ سبحانه؛ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ خَلَقَ لَهُ، وَمِنْ عِنْدِهِ، لَا رَبَّ غَيْرِهِ، وَلَا خَالِقَ وَلَا مُخْتَرَعَ سِوَاهُ، وَالْمَعْنَى: قُلْ، يَا مُحَمَّدٌ، لَهُؤُلَاءِ.

= وللحديث شاهد من حديث أنس بن مالك.

أخرجه البزار (٢٤٠/٤) رقم (٣٦٢٣)، والطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم (٢٥٢/٩)، والخطيب في تاريخه (٧٢/١٢ - ٧٣) كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١١/١٠) وقال: رواه البزار، والطبراني باختصار عنه، وإسنادهما حسن. اهـ.

وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٧١) من حديث ابن عمر.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٥٥/٦) من طريق جعفر بن محمد بن الحسين الزهري، ثنا عبد الملك بن يزيد ثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن عمر مرفوعاً، وقال أبو نعيم: غريب من حديث مالك تفرد به جعفر عن عبد الملك. اهـ.

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) أخرجه ابن ماجة (١٤٢٣/٢)، كتاب «الزهد»، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٥٩) من طريق فروة بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر به، قال البوصيري في «الزوائد» (٣١٠/٣): هذا إسناد ضعيف، فروة بن قيس مجهول، وكذا الراوي عنه وخبره باطل، قاله الذهبي في «طبقات التهذيب».

(٣) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢٠/١).

ثُمَّ وَبَّخَهُمْ سُبْحَانَهُ بِالْإِسْتِفْهَامِ عَنْ عِلَّةِ جَهْلِهِمْ، وَقَلَّةِ فَهْمِهِمْ، وَتَحْصِيلِهِمْ لِمَا يُخْبِرُونَ بِهِ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَالْفَقْهُ فِي اللُّغَةِ: الْفَهْمُ، وَفِي الشَّرْعِ: الْفَهْمُ فِي أُمُورِ الدِّينِ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ الْإِسْتِعْمَالُ فِي عِلْمِ الْمَسَائِلِ الْأَحْكَامِيَّةِ^(١).

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾

وقوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله...﴾ الآية: خطابٌ للنبي ﷺ، وغيره داخلٌ في المعنى، ومعنى الآية؛ عند ابن عباس وغيره: على القطع، وأستثناؤه الأخبار من الله عز وجل؛ بأنَّ الحسنة منه، ومن فضله، وبأنَّ السيئة من الإنسان؛ بإذناؤه، وهي من

(١) يطلق الفقه لغة على أقوال ثلاثة:

الفهم مطلقاً سواء كان المفهوم دقيقاً أم غيره، وسواء غرضاً لمتكلم أم غيره. والدليل على ذلك على لسان قوم شعيب: ﴿ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ [هود: ٩١]، وقوله في شأن الكفار: ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ [النساء: ٧٨]، وقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤].

فهذه الآيات تفيد أنَّ الفقه هو الفهم مطلقاً.

ثانياً: قيل: هو الفهم للأشياء الدقيقة فقط، فلا يصح أن نقول: فقهت أن السماء فوقنا وأن الأرض تحتنا.

وهذا القول مردود بما سبق من آيات، وبما قاله أئمة اللغة من أن الفقه هو الفهم مطلقاً.

ثالثاً: هو فهم غرض المتكلم من كلامه، فلا يسمى لغة فهم الطير فقهاً، ورد هذا القول بما رد به الثاني. واصطلاحاً: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية.

وقال السيوطي نقلاً عن بعض أصحاب الشافعي: الفقه: معرفة النظائر، وقال بعض أصحاب الشافعية أيضاً: الفقه: فرق وجمع. وقال الغزالي: الفقه: عبارة عن العلم والفهم في أصل الوضع، ولكن صار يعرف العلماء عبارة عن العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة.

وقال محمد نظام الدين محمد الكنوي في «فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت»: الفقه: حكمة فرعية شرعية، وعرفوه بأنه: العلم بالأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية.

وعرفه الزركشي: بمعرفة الحوادث نصاً واستنباطاً.

وعرفه أبو حنيفة: بمعرفة النفس ما لها وما عليها.

ينظر: «لسان العرب» (٣٤٥٠/٥)، «ترتيب القاموس» (٥١٣/٣)، «المصباح المنير» (٦٥٦/٢)، «الأشباه والنظائر» (٦)، والقائل الشيخ قطب الدين السباطي، «المنثور» (٦٦/١)، «المستصفى» (١/

٤)، «التلويح على التوضيح» (٥/١).

اللَّهُ تَعَالَى بِخَلْقِهِ وَأَخْتِرَاعِهِ، لَا خَالِقَ سِوَاهُ سُبْحَانَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَفِي مُضْخَفٍ^(١) ابْنِ مَسْعُودٍ: «فَمِنْ نَفْسِكَ، وَأَنَا قَضَيْتُهَا عَلَيْكَ»، وَقَرَأَ بِهَا ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢)، وَفِي رَوَايَةٍ: «وَأَنَا قَدَرْتُهَا عَلَيْكَ»؛ وَيَغْضُدُ هَذَا التَّأْوِيلَ أَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَعْنَاهَا: أَنَّ مَا يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ مِنَ الْمَصَائِبِ، فَإِنَّمَا هُوَ عِقُوبَةُ ذَنْبِهِ^(٣)، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرِ الدَّأُوْدِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾: خَطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَرَادُ غَيْرُهُ. انْتَهَى.

وَفِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: / ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾، ثُمَّ تَلَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: تَوَعُّدٌ لِلْكَفَّارِ، وَتَهْدِيدٌ تَقْتَضِيهِ قُوَّةُ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: شَهِيداً عَلَى مَنْ كَذَبَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَطْعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، فَالْمَعْنَى: أَنَّ الرُّسُولَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّمَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى؛ بَيَاناً وَتَبْلِيغاً عَنِ اللَّهِ، وَ ﴿تَوَلَّى﴾: مَعْنَاهُ: أَعْرَضَ، وَ ﴿حَفِظَ﴾: يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: أَيْ: لِيَحْفَظَهُمْ حَتَّى لَا يَقْعُوا فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَنَحْوِهِ، أَوْ لِيَحْفَظَ مَسَاوِيَهُمْ وَتَحْسِبَهَا عَلَيْهِمْ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي الْإِعْرَاضَ عَنْ^(٤) تَوَلَّى، وَالتَّرْكَ لَهُ، وَهِيَ قَبْلُ نَزُولِ الْقِتَالِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَوَطُّئَةً وَرِفْقاً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ حَتَّى يَسْتَحْكَمَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ...﴾ الْآيَةُ: نَزَلَتْ فِي الْمَنَافِقِينَ بِاتِّفَاقِ الْمَفْسِّرِينَ، الْمَعْنَى: يَقُولُونَ لَكَ، يَا مُحَمَّدٌ: أَمَرْنَا طَاعَةً، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ، اجْتَمَعُوا لَيْلًا، وَقَالُوا غَيْرَ مَا أَظْهَرُوا لَكَ، وَ ﴿بَيْتٌ﴾: مَعْنَاهُ: فَعَلَ لَيْلًا، وَهُوَ مَاخُودٌ مِنْ بَاتٍ أَوْ مِنَ الْبَيْتِ؛ لِأَنَّهُ مُلْتَزِمٌ بِاللَّيْلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَقُولُ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: تَقُولُ أَنْتَ، وَيَحْتَمِلُ تَقُولُ هِيَ لَكَ، وَالْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ إِنَّمَا هُوَ عِنْدَ مَعَاقِبَتِهِمْ وَمَجَازَاتِهِمْ، وَأَمَّا اسْتِمْرَارُ عِظَتِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ، فَلِإِجْرَامٍ، ثُمَّ أَمْرٌ سُبْحَانَهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِعَزْوَتِهِ الْوَثْقَى؛ ثَقَّةً بِإِنْجَازِ وَعْدِهِ فِي النَّصْرِ،

(١) يُنْظَرُ: «الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٨٢/٢)، وَ «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٣/٣١٣).

(٢) وَرَوَيْتُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي يُنْظَرُ السَّابِقَ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٠٣/١٠)، كِتَابُ «الْمَرْضَى»، بَابُ مَا جَاءَ فِي كِفَارَةِ الْمَرَضِ، حَدِيثُ (٥٦٤١)، (٥٦٤٢)، وَمُسْلِمٌ (١٩٩٢/٤)، كِتَابُ «الْبِرِّ وَالصَّلَةِ»، بَابُ ثَوَابِ الْمُؤْمَنِ فِيمَا يَصِيبُهُ، حَدِيثُ (٥٢/٢٥٧٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ بَلَفْظُ: «مَا يَصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يَشَاكُهَا، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ».

(٤) فِي أ: عَمَّنْ.

وَالْوَكِيلُ: القائم بالأمور المُصْلِح لما يُخَافُ مِنْ فسادها.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣) فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَكُفَّ بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤)

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ...﴾ الآية: المعنى: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون كلام الله تعالى، فتظهر لهم براهينه، وتلوح لهم أدلته، قُلْتُ: أَعَلَمْ (رحمك الله تعالى)؛ أن تدبر القرآن كفيل لصاحبه بكل خير، وأما الهذَرمة^(١) والعَجَلَة، فتأثيرها في القلب ضعيف؛ قال النووي (رحمه الله): وقد كره جماعة من المتقدمين الحُتْمَ في يوم وليلة؛ ويدل عليه ما رُوِيَ بالأسانيد الصحيحة في سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي وغيرها، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثٍ»^(٢). انتهى.

قال ع*^(٣): والتدبر هو النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كله يقتضيه قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، وهذا أمرٌ بالنظر والاستدلال، ثم عَرَفَ تعالى بِمَوْقِعِ الْحُجَّةِ، أي: لو كان من كلام البشر، لَدَخَلَهُ مَا فِي الْبَشَرِ مِنَ الْقُصُورِ، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يُمكنُ جَمْعُهُ؛ إذ ذلك موجودٌ في كلام البشر، والقرآن منزّه عنه؛ إذ هو كلام المحيط بِكُلِّ شيء سبحانه.

قال ع*^(٤): فَإِنْ عَرَضَتْ لِأَحَدٍ شَبْهَةٌ، وَظَنَّ اخْتِلَافًا فِي شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَتَّهَمَ نَظَرَهُ وَيَسْأَلَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ...﴾ الآية: قال جمهور المفسرين: إن الآية من المنافقين حُسْبًا تقدّم، والمعنى: أن المنافقين كانوا يتشوّفون إلى

(١) الهذَرمة: كثرة الكلام، وهذرم الرجل في كلامه هذرمه إذا خلط فيه، ويقال للتخليط: الهذرمه، ويقال: هو السرعة في القراءة والكلام والمشي. ينظر: «السان العرب» (٤٦٤٤).

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٣/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٣/٢).

سماع ما يُسيء النبي ﷺ، فإذا طرأت لهم شبهة آمن للمسلمين، أو فتح عليهم، حَقَرُوهَا وصَغَرُوا شَأْنَهَا، وأذاعوا ذلك التحقير والتَّصْغِيرَ، وإذا طرأت لهم شبهة خَوْفٍ للمسلمين أو مُصِيبَةٍ، عَظَّمُوهَا، وأذاعوا ذلك، و ﴿أذاعوا بِهِ﴾: معناه: أَفْشَوْهُ، وهو فِعْلٌ يتعدَّى بحرف الجرِّ وبِنفسه أحياناً.

وقالت فرقة: الآية نزلت في المنافقين، وفيمن ضَعُفَ جَلَدُهُ، وَقَلَّتْ تَجَرِبَتُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛/ وفي الصحيح مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)؛ أَنَّهُ جَاءَ، وَقَوْمٌ ١٢٧ ب فِي الْمَسْجِدِ، يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، ثُمَّ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَقَالَ: لَا، قَالَ عُمَرُ: فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقُلْتُ: أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُطَلِّقْ نِسَاءَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف...﴾ الآية؛ قال: وَأَنَا الَّذِي اسْتَنْبَطْتُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوه إِلَى الرَّسُولِ...﴾ الآية: المعنى: لو أمسكوا عن الْخَوْضِ وَاسْتَفْصَوْا الْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ الرَّسُولِ، وَأُولِي الْأَمْرِ، وَهُمُ الْأَمْرَاءُ وَالْعُلَمَاءُ، لَعَلِمَهُ طُلَابُهُ مِنْ أُولِي الْأَمْرِ، وَالْبَحْثَةُ عَنْهُ، وَهُمُ مَسْتَنْبَطُوهُ؛ كَمَا يُسْتَنْبَطُ الْمَاءُ، وَهُوَ اسْتِخْرَاجُهُ مِنَ الْأَرْضِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ...﴾ الآية: خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ؛ بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ هو مُسْتَثْنَى فِي قَوْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ زَيْدٍ: ذَلِكَ مُسْتَثْنَى مِنْ قَوْلِهِ: «أَذَاعُوا بِهِ إِلَّا قَلِيلاً»، وَرَجَّحَهُ^(٢) الطَّبْرِيُّ^(٣)، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ مُسْتَثْنَى مِنْ قَوْلِهِ: «يَسْتَنْبَطُونَهُ إِلَّا قَلِيلاً»^(٤).

* ت * قال الدَّأُوْدِيُّ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَإِنَّمَا كَرِهَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يَجْعَلُوا الْإِسْتِثْنَاءَ مِنْ

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١١٠٥ - ١١٠٨)، كتاب «الطلاق»، باب في الإيلاء، واعتزال النساء، وتخييرهن، حديث (٣٠/ ١٤٧٩).

وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٢/ ٣٣٣)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٨٦) برقم (١٠٠١٧ - ١٠٠١٨)، وذكره ابن عطية (٢/ ٨٤)، والسيوطي (٢/ ٣٣٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ١٨٦).

(٤) أخرجه الطبري (٤/ ١٨٥ - ١٨٦) برقم (١٠٠١٤ - ١٠٠١٥)، وذكره ابن عطية (٢/ ٨٤)، والسيوطي (٢/ ٣٣٤)، وعزه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قوله: ﴿لَا تَبْتَغُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لَأَنَّهُ لَا وَجْهَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ، لَاتَّبَعُوا الشَّيْطَانَ كُلَّهُمْ. انتهى، وهو حَسَنٌ، وأما قوله: «لَا وَجْهَ لَهُ»، ففيه نَظَرٌ، فقد وَجَّهه العلماء بما لَا تُطِيلُ بِذِكْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية: هذا أَمْرٌ فِي ظَاهِرِ اللَّفْظِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَخَدَهُ، لَكِنْ لَمْ تَجِدْ قَطُّ فِي خَبَرٍ، أَنَّ الْقِتَالَ فُرِضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، دُونَ الْأُمَّةِ مُدَّةً مَّا، وَالْمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ أَنَّهُ خُطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي اللَّفْظِ، وَهُوَ مِثَالُ مَا يُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، أَي: أَنْتَ، يَا مُحَمَّدٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أُمَّتِكَ الْقَوْلُ لَهُ: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا تُكَلِّفْ إِلَّا نَفْسَكَ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَسْتَشِيرَ أَنْ يُجَاهِدَ، وَلَوْ وَخَدَهُ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «وَاللَّهِ، لَأَقَاتِلَنَّكُمْ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي»^(١)، وَقَوْلُ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وَقَتِ الرَّدَّةِ: «وَلَوْ خَالَفْتَنِي يَمِينِي، لَجَاهَدْتُهَا بِشِمَالِي»، وَعَسَى إِذَا وَرَدَتْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ عِكْرَمَةٌ وَغَيْرُهُ: هِيَ وَاجِبَةٌ؛ بِفَضْلِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ الْجَمِيلِ^(٢)، قُلْتُ: أَيْ: وَاقِعٌ مَا وَعَدَ بِهِ سَبْحَانَهُ، وَالتَّنْكِيلُ: الْأَخْذُ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾ (٨٥) وَإِذَا حُيِّمَ بِنَحِيْقَةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً...﴾ الآية: قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: هِيَ فِي شَفَاعَاتِ النَّاسِ بَيْنَهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ، فَمَنْ يَشْفَعُ لِيَنْفَعُ، فَلَهُ نَصِيبٌ، وَمَنْ يَشْفَعُ لِيُضُرَّ، فَلَهُ^(٤) كِفْلٌ، وَالْكِفْلُ: النَّصِيبُ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَفِي الشَّرِّ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛

(١) السالفة: صفحة العنق، وهما سالفان من جانبيه، وكنتى بانفرادها عن الموت؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت. وقيل: أراد حتى يفرق بين رأسي وجسدي. ينظر: «النهاية» (٢/٣٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥/٣٨٨-٣٩٢)، كتاب «الشروط»، باب الشروط في الجهاد، حديث (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)، وأحمد (٤/٣٢٩) من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم.

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٨٦).

(٤) أخرجه الطبري (٤/١٨٨) برقم (١٠٠٢١)، وذكره البغوي (١/٤٥٧)، وابن عطية (٢/٨٦)، وابن كثير (١/٥٣١)، والسيوطي (٢/٣٣٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ شَفَعَ لِأَحَدٍ شَفَاعَةً، فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا، فَقَبِلَهَا، فَقَدْ أَتَى بَاباً عَظِيماً مِنْ أَبْوَابِ الرَّبِّ»^(١). انتهى.

و ﴿مُقِيَّتًا﴾: معناه: قدير؛ ومنه قول الزبير بن عبد المطلب: [الوافر]

وَذِي ضِعْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيَّتًا^(٢)
أي: قديرًا.

وقيل: مُقِيَّتًا: معناه شهيداً، وقيل: حفيظاً.

وذهب مقاتل إلى أنه الذي يَفُوتُ كلَّ حيوان، قال الداودي: قال الكلبي المُقِيَّتُ هو المُقْدِرُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ. انتهى.

وقوله سبحانه: / ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ...﴾ الآية: قالت فرقة: معنى الآية: تخيير ١١٢٨ الرّادّ؛ فإذا قال الباديء: «السَّلَامُ عَلَيْكَ»، فللرّادّ أن يقول: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ» فقط، وهذا هو الرّدّ، وله أن يقول: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ»، وهذا هو التّحيّة بأحسن، وروي عن ابن عمّار وغيره انتهاء السَّلَام إلى البركة، وقالت فرقة: المعنى: إذا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ، فَإِنْ نَقَصَ الْمُسْلِمُ مِنَ النّهَايَةِ، فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَإِنْ أَتَتْهُ، فَردُّوْهَا، كَذَلِكَ قَالَ عطاء، والآية في المؤمنين خاصّة، وَمَنْ سَلَّمَ مِنْ غَيْرِهِمْ، فيقال لَهُ: «عَلَيْكَ»؛ كما^(٣) في الحديث^(٤)، وفي

(١) أخرجه أبو داود (٣١٤/٢)، كتاب «البيع»، باب في الهدية لقضاء الحاجة، حديث (٣٥٤١) من طريق خالد بن أبي عمران عن القاسم عن أبي أمامة به.

(٢) البيت من شواهد «البحر المحيط» (٣١٦/٣)، و «الدر المصون» (٤٠٥/٢)، و «الكشاف» (٥٤٣/١). والضغن: الحقد. والإقاة: الاقتدار، وروى الصاغاني: أقيت، وروى بعده:

يبيت الليل مرتفعاً ثقيلاً على فرش الفتاة وما أبيت وطن إليّ منهُ مؤذيات كما تؤذي الجذامير البروت (٣) أخرجه الطبري (١٩١/٤) برقم (١٠٠٤٠)، وذكره ابن عطية (٨٧/٢)، والسيوطي (٣٣٧/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٤) قال الخطابي في «معالم السنن» (١٥٤/٤): هكذا يرويه عامة المحدثين وعليكم «بالواو»، وكان سفيان بن عيينة يرويه: «عليكم» بحذف الواو، وهو الصواب؛ وذلك أنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوه بعينه مردوداً عليهم، وبإدخال الواو يقع الاشتراك معهم، والدخول فيما قالوه لأن الواو حرف العطف والجمع بين الشئين.

وقال الحافظ: «الفتح» (٤٨/١١): قال النووي: الصواب أن حذف الواو وإثباتها ثابتان جائزان وإثباتها أجود، ولا مفسدة فيه، وعليه أكثر الروايات، وفي معناها وجهان:

أحدهما: أنهم قالوا: عليكم الموت، فقال: وعليكم أيضاً؛ أي: نحن وأنتم فيه سواء كلنا نموت. =

أبي داود، والترمذي، أن النبي ﷺ قال: «أُولَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَ بِالسَّلَامِ»^(١). انتهى.

وأكثر أهل العلم على أن الابتداء بالسَّلَامِ سُنَّةٌ مؤكَّدة، ورَّده^(٢) فريضة؛ لأنه حقٌّ من الحقوق؛ قاله الحسن وغيره، قال^(٣) النووي: ورؤينا في كتاب ابن السَّيِّ، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدَيْنِ مُتَحَابِّينِ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَقْبِلُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَيَصَافِحُهُ، فَيُصَلِّيَانِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا لَمْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى تُغْفَرَ ذُنُوبُهُمَا، مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ»^(٤)، ورؤينا

= **والثاني:** أن الواو للاستئناف لا للعطف والتشريك، والتقدير: وعليكم ما تستحقونه من الذم. وقال البيضاوي: في العطف شيء مقدر، والتقدير: وأقول عليكم ما تريدون بنا أو ما تستحقون، وليس هو عطفًا على «عليكم» في كلامهم، وقال القرطبي: قيل: الواو للاستئناف، وقيل: زائدة، وأولى الأجوبة أنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا.

وحكى ابن دقيق العيد عن ابن رشد تفصيلاً يجمع الروایتين: إثبات الواو، وحذفها فقال: من تحقق أنه قال: السام أو السلام بكسر السين فليرد عليه بحذف الواو، ومن لم يتحقق منه فليرد بإثبات الواو، فيجتمع من مجموع كلام العلماء في ذلك ستة أقوال. وقال النووي تبعاً لبعض: من فسر السام بالموت فلا يبعد ثبوت الواو، ومن فسرهما بالسَّامَة فإسقاطها هو الوجه. قلت: بل الرواية بإثبات الواو ثابتة وهي ترجح التفسير بالموت، وهو أولى من تغليب الثقة.

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٢/٢)، كتاب «الأدب»، باب في فضل من بدأ بالسلام، حديث (٥١٩٧)، والترمذي (٥٦/٥)، كتاب «الاستئذان»، باب ما جاء في فضل الذي يبدأ بالسلام، حديث (٢٦٩٤)، وأحمد (٥/٢٤٥، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٩) من حديث أبي أمامة.

(٢) ابتداء السلام سنة عين من الواحد، ولو صيباً ولو على من ظن أنه لا يرد، ومن الجماعة سنة كفاية ورده فرض عين على الواحد عند إقباله وانصرافه، وكذا لو علمه واحد فقط من الجماعة ولو كان المسلم صيباً مميّزاً، وفرض كفاية إن كان على جماعة اثنين فأكثر مسلمين مكلفين وسكارى لهم نوع تمييز عالَمين به ولو نساء، ولم يتحلل به من صلاة، وإن كرهت صيغته، ولو أسقط المسلم حقه لم يسقط؛ لأن الحق لله تعالى، ولو ردوا كلهم ولو مرتباً أُنبيوا ثواب الفرض، كالمصلين على جنازة، وشرطه إسماع واتصال كاتصال الإيجاب بالقبول.

واعلم أن ابتداء السلام أفضل من رده، وهذا من المسائل التي استثنت من كون الفرض أفضل من التطوع، ومنها إبراء المعسر أفضل من انتظاره؛ لكن رد ذلك العلامة ابن حجر في: «التحفة» بأن سبب الفضل في هذين: اشتغال المندوب على مصلحة الواجب، وزيادة؛ إذ بالإبراء زال الانتظار، وبلا ابتداء حصل أمن أكثر مما في الجواب، أي: ففضله عليه من حيث اشتغاله على مصلحة الواجب لا من ذاته، ولا من حيث كونه مندوباً، وقد وقت للعلامة ابن علان في ذلك على هذين البيتين:

الفرض أفضل من نفل وإن كثر
فيما عدا صور أخذها حوت دررا
بدء السلام أذان والطهارة من
قبيل وقت مع الإبراء لمن عسرا
ينظر: «سبعة كتب مفيدة» ص (١٤١، ١٤٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٨٧/٢)، وابن كثير (٥٣٢/١)، والسيوطي (٣٣٨/٢)، وعزاه للبخاري في «الأدب المفرد»، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (١٩٣).

فيه عَنْ أَنَسٍ أَيْضاً، قَالَ: «مَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِ رَجُلٍ، فَفَارَقَهُ؛ حَتَّى قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(١)؛ وَرَوَيْنَا فِيهِ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا أَلْتَقَوْا، فَتَصَافَحَا، وَتَكَاشَرَا بِوُدٍّ وَنَصِيحَةٍ، تَنَافَرَتْ خَطَايَاهُمَا بَيْنَهُمَا»، وَفِي رَوَايَةٍ: «إِذَا أَلْتَقَى الْمُسْلِمَانِ، فَتَصَافَحَا، وَحَمِدَا اللَّهَ تَعَالَى، وَاسْتَغْفَرَا - غَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا»^(٢). انتهى.

و ﴿حَسِيْبًا﴾: معناه حَفِيظًا، وهو فَعِيلٌ مِنَ الْحِسَابِ.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ...﴾ الآية: لما تقدّم الإنذار والتحذير الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا﴾، تلاه الإعلام بصفة الربوبية، وحال الوحدةانية والإعلام بالحشر والبغث من القبور للثواب والعقاب إعلاماً بقسم، تقديره: وَحَقُّهُ وَعَظَمَتِهِ لِيَجْمَعَنَّكُمْ، والجمع بمعنى الحشر.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾: المعنى: لا أَحَدٌ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ تعالى.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَ لَهُ سَبِيلًا ۝٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقْتَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْتُلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّوْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَاءُ إِلَيْكُمْ أَلَسَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ...﴾ الآية: واختلف في هؤلاء المنافقين.

فقال ابن عباس: هم قوم كانوا بمكة أظهروا الإيمان لأصحاب النبي ﷺ في كتب بعثوا بها إلى المدينة، ثم خَرَجُوا مسافرين إلى الشام، وأعطتهم قريش بضاعات، وقالوا لهم: أنتم لا تَخَافُونَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّكُمْ تَخْدَعُونَهُمْ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ، فَاتَّصَلَ خَبَرُهُمْ

(١) أخرجه ابن السني رقم (٢٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٧٥/٢)، كتاب «الأدب»، باب في المصافحة، حديث (٥٢١١، ٥٢١٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، حديث (١٩٢، ١٩٤) من حديث البراء.

بالمدينة، فاختلف المؤمنون فيهم^(١)، فقالت فرقة: نَخْرُجُ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ مَنَافِقُونَ، وَقَالَتْ
فِرْقَةٌ: بَلْ هُمْ مُؤْمِنُونَ، لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَيْهِمْ، فَتَرَلَّتِ الْآيَةُ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ نَحْوَهُ^(٢).

قال * ع^(٣): * وَيَعْضُدُهُ مَا فِي آخِرِ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَهَاجِرُوا﴾، وقال
زيد بن ثابت: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ رَجَعُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُوَ فِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» مُسْنَدًا^(٤)، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٥)، وَهَذَا
الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ الْبَخَارِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ. انْتَهَى.

قال * ع^(٦): * وَعَلَى هَذَا، فَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿حَتَّى يَهَاجِرُوا﴾ الْمُرَادُ هَجَرُ مَا نَهَى
اللَّهُ عَنْهُ؛ كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَام -: «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٧)، وَ «فَتْنَيْنِ»: ١٢٨ ب
مَعْنَاهُ: فَرَقَتَيْنِ، / وَ «أَرْكَسَهُمْ»: مَعْنَاهُ: أَرْجَعَهُمْ فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ، وَالرُّكْسُ:
الرَّجْعُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي الرُّؤْيَا: «إِنَّهَا رُكْسٌ»^(٨)، وَحَكَى النُّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ وَالْكِسَائِيُّ:
رُكْسٌ وَأَرْكَسَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، أَي: أَرْجَعَهُمْ، وَمَنْ قَالَ مِنَ الْمَتَأُولِينَ: أَهْلَكَهُمْ، أَوْ أَضَلَّهُمْ،
فإنَّمَا هُوَ بِالْمَعْنَى، وَبَاقِي الْآيَةِ يَبَيِّنُ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٥/٤) بِرَقْم (١٠٠٦٠)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّة (٨٨/٢)، وَابْنُ كَثِير (١/ ٥٣٢-٥٣٣)،
وَالسَّيُوطِيُّ (٣٤٠/٢)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٥-١٩٤ / ٤) بِرَقْم (١٠٠٥٨-١٠٠٥٩)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١/ ٤٥٩)، وَابْنُ عَطِيَّة
(٨٨/٢)، وَابْنُ كَثِير (١/ ٥٣٣)، السَّيُوطِيُّ (٢/ ٣٤٠-٣٤١)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ
الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٨٨/٢).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٨/ ١٠٤-١٠٥)، كِتَابُ «التَّفْسِيرِ»، بَابُ «فَمَا لَكُمْ فِي الْمَنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ
أَرْكَسَهُمْ»، حَدِيثُ (٤٥٨٩) مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ.

(٥) يَنْظُرُ: «أَحْكَامُ الْقُرْآنِ» لَابْنِ الْعَرَبِيِّ (١/ ٤٦٩).

(٦) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٨٨/٢).

(٧) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (١/ ٦٩)، كِتَابُ «الْإِيمَانِ»، بَابُ الْمُسْلِمِ مِنْ سَلَمِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيدُهُ، حَدِيثُ
(١٠) وَفِي (٣٢٣/١١) كِتَابُ «الرَّفَاقِ»، بَابُ الْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي، حَدِيثُ (٦٤٨٤)، وَمُسْلِمٌ (١/ ٦٥)
كِتَابُ «الْإِيمَانِ»، بَابُ بَيَانِ تَفَاضُلِ الْإِسْلَامِ وَأَيِّ أَمْرِهِ أَفْضَلُ، حَدِيثُ (٤٠/٦٤) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَمْرٍو.

(٨) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (١/ ٣٠٨)، كِتَابُ «الطَّهَارَةِ»، بَابُ لَا يَسْتَنْجِي بِرُوثٍ، حَدِيثُ (١٥٦)، وَالنَّسَائِيُّ (١/
٣٩-٤٠) كِتَابُ «الطَّهَارَةِ»، بَابُ الرِّخْصَةِ فِي الْإِسْتِطَابَةِ بِحَجَرٍ، وَابْنُ مَاجَةَ (١/ ١١٤)، كِتَابُ
«الطَّهَارَةِ»، بَابُ الْإِسْتِجْنَاءِ بِالْحِجَارَةِ، حَدِيثُ (٣١٤)، وَأَحْمَدُ (١/ ٤١٨)، وَأَبُو يَعْلَى (٩/ ٦٣) بِرَقْم
(٥١٢٧)، وَابْنُ الْمُنْذَرِ فِي «الْأَوْسَطِ» (٢٩٦)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢/ ٤١٣) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

قال * ص * : ﴿أُزَكِّسَهُمْ﴾، أي: رَدَّهم في الكُفْر.

وقال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»: أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ رَدَّ الْمُنَافِقِينَ إِلَى الْكُفْرِ، وَهُوَ الْإِرْكَاسُ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَى الْحَالَةِ الْمَكْرُوهَةِ؛ كَمَا قَالَ فِي الرُّوْثَةِ: «إِنَّهَا رُكُسٌ»، أَيُّ: رَجَعَتْ إِلَى حَالَةٍ مَكْرُوهَةٍ، فَتَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الصَّحَابَةَ أَنْ يَتَعَلَّقُوا فِيهِمْ بِظَاهِرِ الْإِيمَانِ؛ إِذْ كَانَ بَاطِنُهُمُ الْكُفْرُ، وَأَمَرَهُمْ بِقَتْلِهِمْ، حَيْثُ وَجَدُوهُمْ. انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...﴾ الآية.

قال * ص * : ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾: اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ مِنْ مَفْعُولٍ ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ. انْتَهَى.

قال * ع ^(١) * : هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ آيَاتِ الْمَوَادَعَةِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَتْ بِمَا فِي سُورَةِ «بَرَاءةٍ» فَالْآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ مَنْ وَصَلَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا عَهْدَ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هَؤُلَاءِ أَهْلِ الْعَهْدِ، فَدَخَلَ فِي عِدَادِهِمْ، وَفَعَلَ فَعْلَهُمْ مِنَ الْمَوَادَعَةِ، فَلَا سَبِيلَ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ﴾: عَطْفٌ عَلَى ﴿يَصِلُونَ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، وَالْمَعْنَى فِي الْعَطْفَيْنِ مُخْتَلَفٌ، وَهَذَا أَيْضاً حُكْمٌ قَبْلَ أَنْ يَسْتَحْكَمَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ، فَكَانَ الْمَشْرِكُ، إِذَا أَعْتَزَلَ الْقِتَالَ، وَجَاءَ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ مُسَالِماً كَارِهاً لِقِتَالِ قَوْمِهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ قَوْمِهِ، لَا سَبِيلَ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ نُسِخَتْ أَيْضاً بِمَا فِي «بَرَاءةٍ»، وَمَعْنَى ﴿حَصِرَتْ﴾: ضَاقَتْ، وَحَرِجَتْ؛ وَمِنْهُ: الْحَصْرُ فِي الْقَوْلِ، وَهُوَ ضَيْقُ الْكَلَامِ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ، وَ ﴿حَصِرَتْ﴾: فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى الْحَالِ، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَسَلَطَهُمْ﴾ جَوَابُ «لَوْ»، وَالْمَعْنَى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ، لَسَلَطَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ بِهِذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الْمُسَالَمَةِ وَالْمُتَارَكَةِ عَلَيْهِمْ، ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ﴾، أَيُّ: إِذَا وَقَعَ هَذَا، فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا كُلُّهُ، وَالَّذِي فِي سُورَةِ «الْمُمْتَحِنَةِ»: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ...﴾ [الْمُمْتَحِنَةُ: ٨] الْآيَةُ: مَنْسُوخٌ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ ^(٢).

و ﴿السَّلَامُ﴾: الصُّلْحُ.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَاخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٩٠).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٩١).

لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

وقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ...﴾ الآية: لما وَصَفَ اللَّهُ سبحانه المحققين في المَآزَكَةِ وإِلْقَاءِ السَّلَمِ، نَبَّهَ عَلَى طَائِفَةٍ مَخَادِعَةٍ كَانُوا يُرِيدُونَ الإِقَامَةَ فِي مَوَاضِعِهِمْ مَعَ أَهْلِيهِمْ، يَقُولُونَ لَهُمْ: نَحْنُ مَعَكُمْ وَعَلَى دِينِكُمْ، وَيَقُولُونَ أَيْضًا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ مَعَكُمْ، وَعَلَى دِينِكُمْ؛ خَبْنَةً مِنْهُمْ وَخَدِيعَةً، وَقوله: ﴿إِلَى الْفِتْنَةِ﴾: معناه: إِلَى الْإِخْتِبَارِ، حُكِّيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَزْجِعُونَ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَيَقَالُ لِأَحَدِهِمْ: قُلْ: رَبِّي الْخُنْفَسَاءُ، رَبِّي الْعَوْدُ، رَبِّي الْعَقْرَبُ، وَنَحْوَهُ، فَيَقُولُهَا، وَمَعْنَى: ﴿أُزْكِسُوا﴾: أَي: رَجَعُوا رَجْعَ ضَلَالَةٍ، أَي: أَهْلِكُوا فِي الْإِخْتِبَارِ بِمَا وَقَعُوهُ مِنَ الْكُفْرِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ حَضُّ عَلَى قَتْلِ هَؤُلَاءِ الْمُخَادِعِينَ؛ إِذَا لَمْ يَزْجِعُوا عَنْ حَالِهِمْ، وَ ﴿تَقِفْتُمُوهُمْ﴾: مَاخُذُ مِنَ الثَّقَافِ، أَي: ظَفَرْتُمْ بِهِمْ، مَغْلُوبِينَ مَتَمَكِّنًا مِنْهُمْ، وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ، قَالَ عِكْرَمَةُ: حَيْثَمَا وَقَعَ السُّلْطَانُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ الْحُجَّةُ ^(١).

﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً...﴾ الآية: قَالَ جَمْهُورُ الْمَفْسِّرِينَ: مَعْنَى الْآيَةِ: وَمَا كَانَ فِي إِذْنِ اللَّهِ، وَفِي أَمْرِهِ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا بَوَاجِهِ، ثُمَّ اسْتَثْنَى اسْتِثْنَاءً/ مَنْقُطَعًا لَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ، وَهُوَ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ «إِلَّا» بِمَعْنَى «لَكِنْ»، وَالتَّقْدِيرُ: لَكِنْ الْخَطَاً قَدْ يَقَعُ، وَيَتَجَعُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ تَقْدَرُ «كَانَ» بِمَعْنَى «أَسْتَقَرَّ»، وَ «وُجِدَ»؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَمَا وَجِدَ، وَلَا تَقَرَّرَ، وَلَا سَاعَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً؛ إِذْ هُوَ مَغْلُوبٌ فِيهِ، فَيَجِيءُ الْإِسْتِثْنَاءُ عَلَى هَذَا مُتَّصِلًا، وَتَتَضَمَّنُ الْآيَةُ عَلَى هَذَا إِعْظَامَ الْعَمْدِ، وَبَشَاعَةَ شَأْنِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً...﴾ الآية: حَقِيقَةُ الْخَطَاِ أَلَّا يَقْصِدَهُ بِالْقَتْلِ، وَوَجْهُ الْخَطَاِ كَثِيرَةٌ لَا تَحْصَى، يَرْبِطُهَا عَدَمُ الْقَصْدِ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٠٤/٤) (١٠٠٩٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٩٢/٢).

قال ابن عباس وغيره: الرِّقَبَةُ المؤمنة: هي الكَبِيرَةُ الَّتِي قَدْ صَلَّتْ وَعَقَلَتِ الْإِيمَانَ^(١)، وَقَالَتْ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: يَجْزِيءُ كُلُّ مَنْ يُحْكَمُ لَهُ بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، إِنْ مَاتَ^(٢)، قَالَ مَالِكٌ: وَمَنْ صَلَّى وَصَامَ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَلَا يَجْزِيءُ ذُو الْعَيْبِ الْكَثِيرِ؛ كَأَقْطَعِ الْيَدَيْنِ، أَوْ الرَّجْلَيْنِ، أَوْ الْأَعْمَى؛ إِجْمَاعاً فِيمَا عَلِمْتُ، وَ «مُسْلِمَةً»: مَعْنَاهُ: مُؤَدَّاةٌ مَدْفُوعَةٌ، وَهِيَ عَلَى الْعَاقِلَةِ فِيمَا جَاوَزَ ثُلُثَ الدِّيَةِ، وَ «إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا»: يَرِيدُ: أَوْلِيَاءَ الْقَتِيلِ، وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...» الآية: أَيْ: وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمَقْتُولُ خَطِئاً مُؤْمِناً قَدْ آمَنَ، وَبَقِيَ فِي قَوْمِهِ، وَهُمْ كَفَرَةٌ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَلَا دِيَّةَ فِيهِ، وَإِنَّمَا كَفَّارَتُهُ تَحْرِيرُ الرِّقَبَةِ؛ قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣) وَغَيْرُهُ، وَسَقَطَتِ الدِّيَةُ عَنْهُمْ؛ لَوْجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْمَقْتُولِ كُفَّارٌ، فَلَا يَصِحُّ دَفْعُ الدِّيَةِ إِلَيْهِمْ.

وَالْآخَرُ: قَلَّةُ حُرْمَةِ هَذَا الْمَقْتُولِ، فَلَا دِيَّةَ فِيهِ.

وَاحْتِجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا» [الأنفال: ٧٢].

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلِ الْوَجْهُ فِي سَقُوطِ الدِّيَةِ أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ كُفَّارٌ فَقَطْ، وَسَوَاءٌ قُتِلَ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ بَيْنَ قَوْمِهِ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ دَفْعُهَا إِلَى الْكُفَّارِ.

قَالَ ع^(٤) *: وَقَائِلُ الْمَقَالَةِ الْأُولَى يَقُولُ: إِنْ قُتِلَ الْمُؤْمِنُ فِي بَلَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَوْمُهُ حَرْبٌ، فَفِيهِ الدِّيَةُ لِبَيْتِ الْمَالِ وَالْكَفَّارَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...» الآية: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْمَقْتُولُ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ خَطِئاً لَا نُبَالِي، كَانَ مُؤْمِناً أَوْ كَافِراً، عَلَى عَهْدِ قَوْمِهِ فِيهِ الدِّيَةُ وَالتَّخْرِيرُ^(٥).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٠٧/٤) (١٠١٠٨)، وَالْمَوْرِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١٨/١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٩٣)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِ الْمَثُورِ» (٣٤٥/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/٩٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٠٩/٤) (١٠١١٤)، وَالْمَوْرِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١٨/١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٩٣)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِ الْمَثُورِ» (٣٤٧/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ عَبَّاسٍ.

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٢/٩٣).

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢١٠/٤) (١٠١٢٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٩٤)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِ الْمَثُورِ» (٣٤٨/٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ بَيْهَقِيٍّ مِنْ طَرِيقِ عِكْرَمَةَ.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ...﴾ الآية، أي: فَمَنْ لَمْ يَجِدِ الرَقَبَةَ وَلَا اتَّسَعَ مَالُهُ لَشُرَائِهَا، فيجزيه صِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَةٍ الْأَيَّامِ، لَا يَتَخَلَّلُهَا^(١) فِطْرًا، وَ «تَوْبَةً»: نَضْبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، ومعناه: رَجُوعًا بِكُمْ إِلَى التَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيلِ.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣)

(١) دلت الآية الكريمة على أن المكفر إذا لم يجد الرقبة المؤمنة، أو وجدها، ولكن عجز عن تحصيلها، فالواجب عليه حينئذ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، واشترط التتابع في الصوم ههنا، قَدْزُرَ مُتَقَقَّ عَلَيْهِ بين العلماء. ما يقطع التتابع: بعد اتفاقهم على اشتراط التتابع في هذه الكفارة اختلفوا فيما بينهم، فيما يقطع به هذا التتابع، وسنين ذلك بعد إن شاء الله.

لا خلاف بين العلماء في أن من أفطر لغير عذر أثناء الشهرين، فقد انقطع تنابعه للصوم، ووجب عليه أن يستأنف الشهرين، ويلغي ما صَامَهُ.

ولا خلاف بينهم أيضاً في أنَّ التتابع لا ينقطع بالحيض متى باشرت المرأة الصوم عقب الطهر، ولم يفصل ذلك بفصل؛ لأن الحيض لا يمكن التحرز منه في أثناء الشهرين. إلا إذا أخرجت الصوم إلى سن اليأس. وفي تأخيرها إلى هذا الوقت خطر، وغرر؛ لأنها ربما تموت قبل ذلك. واختلفوا في أمور منها:

أولاً: إذا تخلل صوم الكفارة شهر رمضان، فهل صوم رمضان يقطع التتابع، أو لا يقطعه، فيبني على ما صامه من الكفارة.

فمذهب الشافعية، والحنفية، والظاهرية: أن التتابع ينقطع بذلك، وعليه أن يستأنف؛ لأنه قد ترك التتابع لغير عذر؛ إذ كان في استطاعته أن يصوم شهرين ليس بينهما رمضان خصوصاً وأن الكفارة لم تجب على الفور، ولا يصح أن يتنوي برمضان الكفارة؛ لأن الزمن متعين لغيرها، والمتعين لا يقبل غيره.

ومذهب الحنابلة: أن التتابع لا ينقطع بذلك علم بأن رمضان يتخلل صوم الكفارة، أم لم يعلم بذلك؛ لأنه زمن منع الشرع من صومه عن الكفارة، فلا يقطع التتابع كزمن الحيض، والنفاس.

وهذا ما لم يتنوّ بِرَمَضَانَ صَوْمَ الكفارة، وإلا انقطع التتابع، ولا يجزيه عن رمضان، ولا عن الكفارة. أمّا أنه لا يجزيه عن الكفارة، فلأن الزمن متعين لغيرها، ولا يقبل غير ما عين له.

وأما أنه لم يجزه عن رمضان؛ لأنه لم يتنوّه، وإنما نوى غيره، والنبي ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...»

ومذهب المالكية: إن جهل تخلل رمضان لصوم الكفارة لم ينقطع التتابع بذلك؛ لعذره بالجهل، وإن علم بذلك انقطع تنابعه؛ لأنه كان في وسعه أن يؤخر الصوم إلى زمن لا يعترضه رمضان، والكفارة ليست واجبة على الفور، حتى يعذر بذلك، ولا يجزيه صوم رمضان عن الكفارة سواء نوى الكفارة وحدها، أو أشركها مع رمضان؛ لأن الزمن متعين لغيرها.

ينظر: «الكفارات» لشيخنا حسن علي حسنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ...﴾ الآية: المتعمد في لغة العرب: القاصد إلى الشيء، والجمهور أن المتعمد كل مَنْ قَتَلَ، كان القتل بحديدة أو غيرها، وهذا هو^(١) الصحيح، ورأي الشافعي وغيره أن القتل بغير الحديد المشحوذ هو شبه العمد، ورأوا فيه تغليظ الدية، ومالك لا يرى شبه العمد، ولا يقول به، وإنما القتل عنده ما ذكره الله تعالى عمداً أو خطأ لا غير.

وقوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، تقديره عند أهل السنة: فجزاؤه، إن جازاه بذلك، أي: هو أهل لذلك، ومستحقه؛ لعظيم ذنبه..

قال * ع^(٢): * وَمَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، وَقَتْلَ قَوْدًا، فَهُوَ غَيْرُ مُتَّبِعٍ فِي الْآخِرَةِ، وَالْوَعْدُ غَيْرُ نَافِذٍ عَلَيْهِ؛ إجماعاً، وللحديث الصحيح، عن عبادة بن الصامت؛ أنه: «مَنْ عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ»^(٣)، ومعنى الخلود هنا: مدة طويلة، إن جازاه الله؛ ويدل على ذلك

(١) لغة: قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٥/٥٦): القاف والتاء واللام أضلّ صحيح يدل على إذلال وإماتة، والقتل مصدر؛ يقال: قتله يقتله قتلاً. وقتله إذا أماته، بضرب أو حَجَرٍ أو سُمٍّ أو علة. ورجل قتيل: مقتول، والجمع: قتلاء وقتلى وقتلى. العمد في اللغة: القصد؛ يقال: عمدت إلى الشيء قصدته، وتعمدته: قصدت إليه أيضاً، والعمد ضد الخطأ.

عرفه الشافعية بأنه: ما حصل بقصد الفعل العدوان، وعين الشخص بما يقتل غالباً وعرفه «أبو حنيفة» بأنه: ما تعمد فيه ضرب المقتول بسلاح، أو ما أجرى مجرى السلاح. وعرفه الصاحبان بأنه: ما تعمد فيه ضرب المقتول بما لا تطيق النفس احتماله. وعرفه «ابن عرفة» فقال: العمد ما قصد به إتلاف النفس بآلة تقتل غالباً، ولو بمثل، أو بإصابة المقتل؛ كعصر الأنثيين، وشدة الضغط والخنق. وزاد ابن القصار أو يطبق عليه بيتاً، أو يمنعه الغذاء حتى يموت جوعاً.

وعرفه الحنابلة فقالوا: العمد أن يقتل قصداً بما يغلب على الظن موته به، عالماً بكونه آدمياً معصوماً. ينظر: «مغني المحتاج» (٣/٤)، «شرح الدر المختار على ابن عابدين» (٥/٣٥١)، «شرح حدود ابن عرفة» ص (٤٧٣)، «كشاف القناع» (٣/٣٣٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (١/٨١)، كتاب «الإيمان»، باب علامة الإيمان حب الأنصار، حديث (٨١)، وفي (٧/٢٦٠) كتاب «منابغ الأنصار»، باب وفود الأنصار، حديث (٣٨٩٢، ٣٨٩٣)، وفي (٧/٣٦٥)، كتاب «المغازي»، باب (١٢)، حديث (٣٩٩٩)، وفي (٨/٥٠٦): كتاب «التفسير» باب «إذا جاءك المؤمنات»، حديث (٤٨٩٤)، وفي (١٢/٨٥) كتاب «الحدود»، باب الحدود كفارة، حديث (٦٧٨٤)، وفي (١٢/١٩٩) كتاب «الديات»، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا...﴾، حديث (٦٨٧٣)، وفي (٧/١٣) كتاب «الفتن»، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً»، حديث (٧٠٥٥)، وفي (١٣/٢١٦) كتاب «الأحكام»، باب يبايع الإمام الناس، حديث (٧١٩٩)، وفي (١٣/٢١٦)، باب =

سَقُوطُ لَفْظِ التَّائِبِ.

١٢٨ ب قال * ع^(١) : والجمهور على قبول توبته، وزوي عن بعض العلماء؛ أنهم/ كانوا يقصدون الإغلاظ، والتخويف أحياناً، فيطْلُقُونَ أَلَّا تُقْبَلَ توبته؛ منهم ابن شهاب، وابن عباس^(٢)، فكان ابن شهاب، إذا سأل من يفهم منه أنه قد قُتِلَ، قال له: تَوْبَتُكَ مَقْبُولَةٌ، وإذا سأل من لم يفعل، قال: لَا تَوْبَةَ لِلْقَاتِلِ، وعن ابن عباس نحوه، قال الدَّائِدِيُّ وعن أبي هريرة؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهِ، لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَهْوَى عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ نَفْسٍ بَغِيرِ حَقٍّ، وَمَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ مَكْتُوبٌ عَلَى جَبْهَتِهِ: أَيْسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»^(٣)، وعن معاوية، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا، أَوْ مَاتَ كَافِرًا»^(٤)، وعن أبي هريرة؛ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَاتِلِ الْمُؤْمِنِ، هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، قَالَ: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَشْرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ إِلَّا كَبَّهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فِي النَّارِ. انتهى.

﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ

= بيعة النساء، حديث (٧٢١٣)، وفي (٤٥٥/١٣)، كتاب «التوحيد»، باب المشيئة والإرادة، حديث (٧٤٦٨)، ومسلم (١٣٣/٣) كتاب «الحدود»، باب الحدود كفارة لأهلها، حديث (١٧٠٩/٤١)، والترمذي (٤٥/٤)، كتاب «الحدود»، باب ما جاء أن الحدود كفارة لأهلها، حديث (١٤٣٩)، والنسائي (١٤١/٧ - ١٤٢) كتاب «البيعة»، باب البيعة على الجهاد، حديث (٤١٦١) وفي (١٠٨/٨ - ١٠٩) كتاب «الإيمان»، باب البيعة على الإسلام، حديث (٥٠٠٢)، وأحمد (٣١٤/٥، ٣٢٠)، والحميدي (٣٨٧)، والدراطيني (٢١٥/٣) كتاب «الحدود والديات»، والبيهقي (١٨/٨) كتاب «الجنايات»، باب قتل الولدان، كلهم من حديث عبادة بن الصامت.

وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٥/٢).
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٠/٤) برقم (١٠١٩٢)، والماوردي في «تفسيره» (٥٢٠/١)، والبغوي في «تفسيره» (٤٦٤/١).

(٣) أخرجه ابن ماجة (٨٧٤/٢)، كتاب «الديات»، باب التغليظ في قتل المسلم، حديث (٢٦٢٠).

وقال البوصيري: في إسناده يزيد بن أبي زياد بالغوا في تضعيفه.

(٤) أخرجه أحمد (٩٩/٤)، والنسائي (٨١/٧) كتاب «تحريم الدم»، وأبو نعيم (٩٩/٦) من حديث معاوية، وله شاهد من حديث أبي الدرداء.

أخرجه أبو داود (٤٢٧٠)، وابن حبان (٥١- موارد)، والحاكم (٣٥١/٤).

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا...﴾ الآية: تقول: ضَرَبْتُ فِي الْأَرْضِ؛ إِذَا سَرَتْ لِتِجَارَةٍ أَوْ غَزَوُ، أَوْ غَيْرِهِ، مُقْتَرَنَةً بِ«فِي»، وَضَرَبْتُ الْأَرْضَ، دُونَ «فِي»؛ إِذَا قَصَدْتَ قِضَاءَ الْحَاجَةِ.

وقال * ص * : ضَرَبْتُمْ، أَي: سَافَرْتُمْ.

قال * ع^(١) * : وَسَبَبُ هَذِهِ الْآيَةِ؛ أَنَّ سَرِيَّةً مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقِيَتْ رَجُلًا لَهُ جَمَلٌ، وَمُتَبِّعٌ^(٢)، وَقِيلَ: غَنِيْمَةٌ، فَسَلَّمَ عَلَى الْقَوْمِ، وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَحَدُهُمْ، فَقَتَلَهُ، وَاخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِ الْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُ، وَهُوَ فِي سِيرِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَفِي مُصَنَّفِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِمَا؛ أَنَّ الْقَاتِلَ مُحَلَّمٌ بْنُ جَثَامَةَ^(٣)، وَالْمَقْتُولُ عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ^(٤)، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِي لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، حِينَ مَاتَ، هُوَ مُحَلَّمٌ بْنُ جَثَامَةَ^(٥)، وَقَرَأَ جَمَهَوْرُ السَّبْعَةِ: «فَتَبَيَّنُوا»، وَقَرَأَ^(٦) حَمْزَةً وَالْكَسَائِيُّ: «فَتَبَيَّنُوا» (بِالْثَاءِ الْمُثَلَّثَةِ) فِي الْمَوْضَعَيْنِ هُنَا، وَفِي «الْحُجَرَاتِ»، وَقَرَأَ^(٧) نَافِعٌ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٦/٢).

(٢) الثَّيْبَةُ: اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان، وكأنها الجملة التي للسعاة عليها سبيل، من تاع يتبع: إِذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ.

ينظر: «النهاية» (٢٠٢/١).

(٣) مُحَلَّمٌ بْنُ جَثَامَةَ اللَّيْثِي: أَخُو الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ.

قال ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: يُقَالُ: إِنَّهُ الَّذِي قَتَلَ عَامِرَ بْنَ الْأَضْبَطِ، وَقِيلَ: إِنَّ مُحَلَّمًا غَيْرَ الَّذِي قَتَلَ، وَإِنَّهُ نَزَلَ حِمَصَ وَمَاتَ بِهَا أَيَّامَ ابْنِ الزَّيْبِرِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ الَّذِي مَاتَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدُفِنَ فَلَفَظَتْهُ الْأَرْضُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

(٤) عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيُّ.

ذَكَرَهُ ابْنُ شَاهِينَ وَغَيْرُهُ، وَسَاقَ قِصَّةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قُتِلَ حِينَ أَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى النَّبِيَّ ﷺ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٢٤/٤) بِرَقْمِ (١٠٢١٦)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٩٦/٢).

(٦) وَقَرَأَهُ الْأَخْوِينُ مَقْصُودَهَا: أَنَّ التَّثْبِتَ خِلَافَ الْإِقْدَامِ، وَالْمَرَادُ التَّائِي، فَيَكُونُ التَّثْبِتُ أَشَدَّ اخْتِصَاصًا بِهَذَا الْمَوْضِعِ، يَعْضِدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشَدُّ تَثْبِيْتًا﴾ [النساء: ٦٦]، وَمِمَّا يَقْوِيهِ قَوْلُهُمْ: تَثْبِتُ فِي أَمْرِكَ، وَلَا يَكَادُ يُقَالُ فِي هَذَا الْمَعْنَى: تَبَيَّنَ.

وَحُجَّةُ الْبَاقِينَ أَنَّ التَّبَيَّنَ لَيْسَ وَرَاءَهُ شَيْءٌ، وَقَدْ يَكُونُ أَشَدَّ مِنَ التَّثْبِتِ.

ينظر: «السبعة» (٢٣٦)، و«الحجة» (١٧٣/٣)، و«حجة القراءات» (٢٠٩)، و«العنوان» (٨٥)،

و«إعراب القراءات» (١٣٦/١)، و«شرح شُعَلَةُ» (٣٤٢)، و«شرح الطيبة» (٢١١/٤)، و«إتحاف»

(٥١٨/١)، و«معاني القراءات» (٣١٥/١).

(٧) وَقَرَأَهَا ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةً.

وغيره: «السَّلَم»، ومعناه: الأستسلام، أي: ألقى بيده، واستسلم لكم، وأظهر دعوتكم، وقرأ باقي السبعة: «السَّلَام» (بالألف)، يريد: سلام ذلك المقتول على السريّة؛ لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته، وأنقياده، وفي بغض طرق عاصم: «السَّلَم» - بكسر السين المشددة، وسكون اللام -، وهو الصُّلح، والمعنى المراد بهذه الثلاثة مُتقارب، وقرئ: «لَسْتُ مُؤمناً»^(١) - بفتح الميم - أي: لَسْنَا نُؤمّنك.

وقوله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾: عِدَّةٌ منه سبحانه بما يأتي به مِنْ فَضله؛ من الحلال دون ارتكابٍ محظور، أي: فلا تتهافثوا. وأخلف في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.

فقال ابنُ جُبَيْرٍ: معناه: كذلك كنتم مستخفين من قومكم بإسلامكم، فمن الله عليكم بإعزاز دينكم، وإظهار شريعتكم، فهم الآن كذلك كل واحد منهم خائف من قومه، متربص أن يصل إليكم، فلم يصلح إذا وصل أن تقتلوه حتى تتبينوا أمره^(٢)، وقال ابنُ زَيْدٍ: المعنى: كذلك كنتم كفرة، فمن الله عليكم بأن أسلمتم، فلا تنكروا أن يكون هو كافراً، ثم يسلم لحينه^(٣)، ثم وكّد تبارك وتعالى الوصية بالتبيين، وأعلم أنه خبير بما يعملُه العباد، وذلك منه خبر يتضمّن تحذيراً منه سبحانه، أي: فأحفظوا أنفسكم، وجنبوا الزلل الموبق لكم.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسَفَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤) دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(٥) ﴿٩٦﴾

= ينظر: «السبعة» (٢٣٦)، و«الحجة» (١٧٥/٣، ١٧٦)، و«حجة القراءات» (٢٠٩)، و«العنوان» (٨٥)، و«إعراب القراءات» (١٣٦/١، ١٣٧)، و«شرح شلعة» (٣٤٣)، و«شرح الطيبة» (٢١٣/٤)، و«إتحاف» (٥١٨/١)، و«معاني القراءات» (١/٣١٥-٣١٦).

(١) قرأ بها محمد بن علي، وابن مسعود، وابن عباس.

ينظر: «الشواذ» ص (٣٤)، و«الكشاف» (٥٥٢/١)، ونسبها ابن عطية في المحرر (٩٦/٢) إلى أبي جعفر بن القعقاع، وأبي حمزة، واليماني، وزاد أبو حيان في «البحر» (٣٤٢/٣) نسبتها إلى عكرمة، وأبي العالبة، ويحيى بن يعمر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٨/٤) وابن عطية في «تفسيره» (٩٧/٢)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٤٦٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٩/٢) وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٨/٤) (١٠٢٣٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٩٧/٢).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ...﴾ الآية: في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ إِبْهَامٌ عَلَى السَّمْعِ/، وهو أُبْلَغُ من تحديدِ الْمَنْزِلَةِ التي يَبْنَى ١١٢٩ المجاهد والقاعد، فالمتأمل يَمْشِي مع فِكْرته، وَلَا يَزَالُ يَتَخَيَّلُ الدَّرَجَاتِ بينهما، والقاعدُونَ عبارة عن المتخلفين.

قُلْتُ: وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْخَطِيبِ بسنده، عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ أَغْلَاهَا الْحُلُّ، وَمِنْ أَسْفَلِهَا خَيْلٌ بُلُقٌ مِنْ ذَهَبٍ مُسَرَّجَةٌ مُلَجَّمَةٌ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، لَا تَرْوُثُ، وَلَا تَبُولُ، ذَوَاتُ أَجْنَحَةٍ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؛ فَيَطِيرُ بِهِمْ حَيْثُ شَاءُوا، فَيَقُولُ الَّذِينَ أَسْفَلَ مِنْهُمْ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، نَاصِفُونَا، يَا رَبِّ، مَا بَلَغَ هَؤُلَاءِ هَذِهِ الْكِرَامَةَ؟! فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّهُمْ كَانُوا يَصُومُونَ، وَكُنْتُمْ تُفْطِرُونَ، وَكَانُوا يَقُومُونَ بِاللَّيْلِ وَكُنْتُمْ تَنَامُونَ، وَكَانُوا يُنْفِقُونَ، وَكُنْتُمْ تَبْخُلُونَ، وَكَانُوا يُجَاهِدُونَ الْعَدُوَّ وَكُنْتُمْ تَجْبُنُونَ»^(١). انتهى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو^(٢) وحَمْزَةُ: «غَيْرُ» - بالرفع - صِفَةً للقاعدين، وقرأ نافع وغيره: «غَيْرَ» - بالنصب - أَسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْقَاعِدِينَ، وَرَوَى مِنْ غَيْرِ مَا طَرِيقٍ؛ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ»، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، حِينَ سَمِعَهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ مِنْ رُخْصَةٍ، فَإِنِّي ضَرِيرُ الْبَصَرِ، فَنَزَلَتْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(٣).

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٦٦-٢٦٧) من طريق سعد بن طريف عن زيد بن علي عن أبيه عن علي بن أبي طالب مرفوعاً.

ومن طريق الخطيب أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٥٥).

وقال: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ إحداهن: إرساله، فإن علي بن الحسين لم يدرك علي بن أبي طالب، والثانية: محمد بن مروان وهو السدي الكبير، قال ابن نمير: وهو كذاب، وقال أبو حاتم الرازي: متروك الحديث، وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا اعتباراً. والثالثة: أظهر، وهو سعد بن طريف وهو المتهم به، قال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني: متروك، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على الفور.

(٢) ينظر: «السبعة» (٢٣٧)، و «الحجة» (٣/ ١٧٩)، وفيه ذكر رواية عن ابن كثير أنه قرأ بالنصب.

وينظر: «حجة القراءات» (٢١٠)، و «إعراب القراءات» (١/ ١٣٧)، و «العنوان» (٨٥)، و «معاني القراءات» (١/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣/ ٦) كتاب «الجهاد»، باب قول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ...﴾، حديث (٢٨٣١)، (١٠٨/ ٨) كتاب «التفسير»، باب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، حديث (٤٥٩٣)، (٤٥٩٤)، (٨/ ٦٣٨-٦٣٩) كتاب «فضائل القرآن»، باب كاتب =

= النبي ﷺ، حديث (٤٩٩٠)، ومسلم (١٥٠٨/٣) كتاب «الإمارة»، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين، حديث (١٨٩٨/١٤١)، والترمذي (٢٢٥/٥) كتاب «التفسير»، باب سورة النساء، حديث (٣٠٣١)، والنسائي (١٠/٦) كتاب «الجهاد»، باب فضل المجاهدين على القاعدين، وأحمد (٢٨٢/٤)، ٢٨٤، ٢٩٠، والطيالسي (٢/ ١٧ - منحة) برقم (١٩٤٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٢٩/٥)، وأبو يعلى (٢٦٩/٣) برقم (١٧٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول»، (ص ١٣١)، والبيهقي (٢٣/٩)، باب من اعتذر بالضعف والزمانة، كلهم من طريق أبي إسحاق عن البراء بن عازب به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

والحديث: ذكره السيوطي في «الدرد المثلوث» (٣٦١/٢)، وزاد نسبه إلى ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف»، والبغوي في مجمعه.

تنبيه: فات الإمام السيوطي في هذا الحديث أن يعزوه إلى مسلم وهو في صحيحه كما تقدم في أثناء التخریج.

وللحديث شواهد من حديث سهل بن سعد، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وزيد بن أرقم، والفلتان بن عاصم.

* حديث سهل بن سعد:

أخرجه البخاري (١٠٨/٨) كتاب «التفسير»، باب (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله)، حديث (٤٥٩٢)، والترمذي (٢٢٦/٥) كتاب «التفسير»، باب سورة النساء، حديث (٣٠٣٣)، والنسائي (٩/٦) كتاب «الجهاد»، باب فضل المجاهدين على القاعدين، حديث (٣٠٩٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٧/ ٨٧ بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن سهل بن سعد أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا: أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أُملى عليه: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله)، فجاء ابن أم مكتوم وهو يملأها علي قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فقللت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله: ﴿غير أولي الضرر﴾.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح هكذا روى غير واحد عن الزهري عن سهل بن سعد نحو هذا، وروى معمر عن الزهري هذا الحديث عن قبيصة بن ذؤيب عن زيد بن ثابت، وفي هذا الحديث رواية رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رجل من التابعين، رواه سهل بن سعد عن مروان بن الحكم، ومروان لم يسمع من النبي ﷺ. اهـ.

* حديث زيد بن ثابت:

أخرجه أبو داود (١٤ - ١٥) كتاب «الجهاد»، باب في الرخصة في القعود من العذر، حديث (٢٥٠٧)، وأحمد (٥/ ١٩٠ - ١٩١)، والحاكم (٢/ ٨١ - ٨٢)، والطبراني في «الكبير» (١٣٢/٥) برقم (٤٨٥١) كلهم من طريق أبي الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة، فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي، فما وجدت شيئاً أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سري عنه، فقال: اكتب فكتبت في كتف: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين =

قَالَ الْفَلَتَانُ بْنُ عَاصِمٍ^(١) (رضي الله عنه): كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، دَامَ بَصَرُهُ مَفْتُوحَةً عَيْنَاهُ، وَفَرَّغَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ لِمَا يَأْتِيهِ مِنَ اللَّهِ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَ: فَلَمَّا فَرَّغَ، قَالَ لِلْكَاتِبِ: أَكْتُبْ: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ...» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ: فَقَامَ الْأَعْمَى، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا ذُنُوبُنَا؟ قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، فَقُلْنَا لِلْأَعْمَى: إِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَخَافَ أَنْ يَنْزَلَ فِيهِ شَيْءٌ، فَبَقِيَ قَائِمًا مَكَانَهُ، يَقُولُ: أَتُوبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، حَتَّى فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِلْكَاتِبِ:

= والمجاهدون في سبيل الله إلى آخر الآية، فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - لما سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة، ف وقعت فخذة على فخذ، ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى، ثم سري عن رسول الله ﷺ، فقال: اقرأ يا زيد، فقرأت: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين» فقال رسول الله ﷺ: «غير أولي الضرر» الآية كلها.

قاله زيد: فأنزلها الله وحدها فألحقها، والذي نفسي بيده لكانني أنظر إلى ملحقتها عند صدع في كتف. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٦١/٢)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن المنذر، وابن الأباري.

* حديث ابن عباس:

أخرجه الترمذي (٢٢٥/٥) كتاب «التفسير»، باب سورة النساء، حديث (٣٠٣٢)، والبيهقي (٤٧/٩) كتاب «السير»، باب الفير وما يستدل به على أن الجهاد فرض على الكفاية، كلاهما من طريق ابن جريج عن عبد الكريم عن مقسم عن ابن عباس أنه قال: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر» عن بدر والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش، وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله فهل لنا رخصة؟ فنزلت: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر، وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة) فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن عباس.

* حديث زيد بن أرقم:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩٠/٥) برقم (٥٠٥٣) من طريق أبي إسحاق عن زيد بن أرقم قال: لما نزلت: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) جاء ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، أما لي رخصة؟ قال: لا، قال ابن أم مكتوم: اللهم إني ضرير فرخص لي فأنزل الله ﷻ «غير أولي الضرر» فأمر رسول الله ﷺ بكتابتها.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٢/٧): رجاله ثقات.

(١) الفلتان: بفتحين، ومثناة فوقانية، ابن عاصم الجرمي، خال كليب. يُعدُّ في الكوفيين. قَالَ الْبُخَارِيُّ: قال عاصم بن كليب: له صحبة، وكذا قال ابن السَّكَنِ، وابنُ أَبِي حَاتِمٍ، وابن حبان - له صحبة، وقال البغوي: سكن المدينة. وقال ابن حبان: عداة في الكوفيين.

وَقَالَ أَبُو عَمَرَ: يقال المنقري، والجرمي أصح: ينظر: «الإصابة» (٥/ ٢٨٨ - ٢٨٩).

أَكْتُبُ: «غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ»^(١)، وأهل الضرر: هم أهل الأعداء، إذ قد أضرت بهم؛ حتى منعتهم الجهاد؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢).

وقوله تعالى: «بأموالهم وأنفسهم»، هي الغاية في كمال الجهاد، قال ابن جرير: الفضل بدرجة هو على القاعدين من أهل العذر.

قال * ع^(٣) : * لأنهم مع المؤمنين بنياتهم؛ كما هو مذكور في الحديث الصحيح.

قال ابن جرير: والتفضيل بالأجر العظيم والدرجات هو على القاعدين من غير عذر^(٤)، و «الحسنى»: الجنة التي وعدّها الله المؤمنين؛ وكذلك قال السدي وغيره^(٥).

وقال ابن محيريز^(٦): الدرجات: هي درجات في الجنة سبعة ما بين الدرجتين حضر الجواد المضمّر سبعين سنة^(٧)، قلت: وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ؛ وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٨). انتهى.

(١) حديث الفلتان بن عاصم: أخرجه أبو يعلى (٣/ ١٥٦-١٥٧) برقم (١٥٨٣)، وابن حبان (١٧٣٣- موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٣٣٤) برقم (٨٥٦)، والزار (٣/ ٤٥- كشف) برقم (٢٢٠٣) كلهم من طريق عبد الواحد بن زياد ثنا عاصم بن كليب حدثني أبي عن الفلتان بن عاصم به.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٣١) برقم (١٠٢٤٨) وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ٩٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٦٢)، وعزاه لابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٩٨).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٣٣) برقم (١٠٢٦٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ٩٨).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٣٣) برقم (١٠٢٥٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ٩٨).

(٦) عبد الله بن محيريز بضم أوله وفتح المهملة بعدها تحتانية ساكنة ثم مهملة مكسورة ثم تحتانية ثم معجمة، الجُمُحِي أَبُو مُحِيرِيز المكي نزِيل الشَّام، عن أَبِي مَحْذُورَةَ، وعبادة بن الصامت، وعنه عبد الملك بن أبي محذورة، ومكحول الرُّهْرِي، وثقه العجلي. قال الأوزاعي: من كان مقتدياً فليقتد بمثل ابن مُحِيرِيز، قال خليفة: مات في خلافة عمر بن عبد العزيز. وقال ضمرة: في خلافة الوليد بن عبد الملك.

ينظر: «الخلاصة» (٢/ ٩٨)، «تهذيب الكمال» (٢/ ٧٣٩)، «تهذيب التهذيب» (٦/ ٢٢)، «الكاشف» (٢/ ١٢٨).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٣٣) برقم (١٠٢٦٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٩٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٦٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن محيريز بلفظ: قال: الدرجات سبعون درجة، ما بين الدرجتين عدو الجواد المضمّر سبعون سنة.

(٨) تقدم تخريجه.

وقال ابن زَيْد: الدرجاتُ في الآية هي السُّبُغُ المذكورةُ في «بَرَاءة» في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ...﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية^(١).

قال *ع^(٢): ودرجاتُ الجهاد، لَوْ حُصِرَتْ، أَكْثَرُ من هذه، لكن يَجْمَعُهَا بِذَلِّ النَّفْسِ، وَالْإِعْتِمَالِ بِالْبَدَنِ وَالْمَالِ فِي أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ بِحَسَبِ / ١٢٩ ب مراتبِ الأعمالِ ودرجاتِهَا تَكُونُ مراتبُ الْجَنَّةِ ودرجاتِهَا، فالأقوالُ كُلُّهَا متقاربةٌ، وبإِثباتِ الآيةِ وَغَدُ كَرِيمٍ وَتَأْنِيسٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْسَ لَنَا بِمَأْوَاهُمْ وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَصِيرِ ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْسَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ...﴾ الآية: المراد بهذه الآية إلى قوله: ﴿مَصِيرًا﴾ جماعةٌ من أهل مكة كانوا قد أسلموا، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَقَامُوا مَعَ قَوْمِهِمْ، وَفُتِنَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ، فَأَفْتَتَنُوا، فَلَمَّا كَانَ أَمْرُ بَذْرِ، خَرَجَ مِنْهُمْ قَوْمٌ مَعَ الْكُفَّارِ، فَقَتَلُوا بِبَذْرِ، فَزَلَّتِ الآيةُ فِيهِمْ.

قال *ع^(٣): والذي يَجْرِي مع الأصولِ أَنَّ مَنْ مَاتَ مِنْ هَؤُلَاءِ مُرْتَدًّا، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ عَلَى جِهَةِ الْخُلُودِ الْمُؤَبَّدِ، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ أَمْرِ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ فَرَضْنَا فِيهِمْ مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا، وَأُكْرِهَ عَلَى الْخُرُوجِ، أَوْ مَاتَ بِمَكَّةَ، فَإِنَّمَا هُوَ عَاصٍ فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ عَلَى جِهَةِ الْعِصْيَانِ دُونَ خُلُودٍ.

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِعْلًا مَاضِيًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَلًا؛ عَلَى مَعْنَى: «تَوَفَّاهُمْ»؛ فَحَدَّثْتُ إِحْدَى التَّائِيْنِ وَتَكُونُ فِي الْعِبَارَةِ إِشَارَةً إِلَى مَا يَأْتِي مِنْ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ نَزُولِ الْآيَةِ، وَ ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾: نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيِ:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣٣/٤) برقم (١٠٢٦٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٩٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٤/٢)، وعزاه لابن جرير عن ابن وهب قال: سألت زيد، وذكر الأثر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٨/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٩/٢).

ظالمها بترك الهجرة، وَ «تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ»: معناه: تقيض أرواحهم، قال الرَّجَّاجُ^(١)، وحذفت النون من ظالمين؛ تخفيفاً؛ كقوله: «بَالِغُ الْكَفْبَةِ» [المائدة: ٩٥]، وقول الملائكة: «فِيمَ كُنْتُمْ»: تقرير وتوبيخ، وقول هؤلاء: «كُنَّا مُسْتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ»: اعتذار غير صحيح؛ إذ كانوا يستطيعون الحيل، وَيَهْتَدُونَ السُّبُلَ، ثم وَقَفَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى ذُنُوبِهِمْ بقولهم: «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً»، والأرض الأولى: هي أرض مكة خاصة، وأرض الله هي الأرض بالإطلاق، والمراد: فتهاجروا فيها إلى مواضع الأمن، وهذه المقاولَةُ إنما هي بعد توفي الملائكة لأرواح هؤلاء، وهي دالة على أنهم ماتوا مُسْلِمِينَ وإلا فلو ماتوا كافرين، لم يقل لهم شيء من هذا، ثم استثنى سبحانه مَنْ كان أَسْتِضَاعُهُ حَقِيقَةً مِنْ زَمَنِي الرِّجَالِ، وَضَعْفَةُ النِّسَاءِ، والولدان، قال ابن عَبَّاسٍ: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضَعِّفِينَ»^(٢)، والجيلَةُ: لفظ عام لأنواع أسباب التخلُّص، والسَّيْلُ: سبيل المدينة؛ فيما قاله مجاهد وغيره^(٣)، والصواب: أنه عام في جميع السُّبُل، ثم رَجَّى اللَّهُ تَعَالَى هؤلاء بِالْعَفْوِ عنهم، والمُرَاعَمُ: الْمُتَحَوُّلُ والمَذْهَبُ؛ قاله ابن عَبَّاسٍ وغيره^(٤)، وقال مجاهد: المُرَاعَمُ المتزخُّرُ عَمَّا يُكْرَهُ^(٥)، وقال ابن زَيْدٍ: المُرَاعَمُ: المَهَاجِرُ^(٦)، وقال السُّدِّيُّ: المُرَاعَمُ: المبتَغى للمعيشة^(٧).

قال *ع^(٨): * وهذا كله تفسير بالمعنى، وأما الخاصُّ باللفظة، فإن المُرَاعَمَ هو موضع المراعمة، فلو هاجر أحد من هؤلاء المخبوسين بمكة، لَأَزْعَمَ أَثُوفَ قَرِيشٍ بحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراعمة، قال ابن عَبَّاسٍ وغيره: السَّعَةُ هنا هي السَّعَةُ في

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٢/٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣٥/٤) برقم (١٠٢٦٤)، وذكره ابن عطية (٢/١٠٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٦٧)، وعزاه للطبراني.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣٩/٤) برقم (١٠٢٨٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/٤٧٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٦٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/١٠٠).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٢/٢) برقم (١٠٣٠٧)، وذكره ابن عطية (٢/١٠١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٦٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٣/٤) برقم (١٠٣٠٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/١٠١).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٢/٤) برقم (١٠٣٠٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/١٠١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٦٨)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٨) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/١٠١).

الرِّزْقِ^(١)، وقال مالك: السَّعة: سَعَةُ البلاد^(٢).

قال * ع^(٣): وهذا هو المُسْبِيهِ للفصاحة؛ أن يريد سعة الأرض؛ وبذلك تكون السَّعة في الرِّزْقِ، وأتساع الصَّدْرُ، وغير ذلك من وجوه الفَرَجِ، وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾.

قال مالك بن أنس (رحمه الله): الآية تُعْطِي أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي تُغَيَّرُ فِيهَا/ السُّنَنُ، وَيُعْمَلُ فِيهَا بِغَيْرِ الْحَقِّ^(٤).

١١٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ...﴾ الآية حُكْمُ هذه الآية باقي في الجهاد، والمشي إلى الصلاة، والحج، ونحوه، قلت: وفي الباب حديث عن أبي أمامة، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

قال * ع^(٥): والآية نزلت بسبب رجل من كِنَانَةَ، وقيل: من خُزَاعَةَ، اسمه ضَمْرَةُ في قول الأكثر؛ لما سمع قول الله تعالى: الَّذِينَ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال: إِنِّي لَذُو مَالٍ وَعَبِيدٍ، وَكَانَ مَرِيضًا، فَقَالَ: أَخْرِجُونِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأُخْرِجَ فِي سَرِيرٍ، فَأَذْرَكُهُ الْمَوْتُ بِالتَّعْنِيمِ، فَتَزَلَّتِ الآية بسببه.

قال * ع^(٦): ومن هذه الآية رأى بعض العلماء أن مَنْ مات من المسلمين، وقد خَرَجَ غَازِيًا، فله سَهْمُهُ من الغنيمة، قَاسُوا ذلك على الأَجْرِ، وَوَقَعَ: عبارة عن الثُّبُوتِ، وكذلك هي «وَجَبَ»؛ لأنَّ الوقوعَ والوجوبَ نُزُولٌ في الأَجْرَامِ بِقُوَّةٍ، فشبّه لازم المعاني بذلك، وباقي الآية بين.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٣/٤) برقم (١٠٣١٠) وذكره الماوردي في «تفسيره» (٥٢٢/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٨/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن ابن عباس.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٠١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٨/٢)، وعزاه لابن القاسم بلفظ: «قال: سئل مالك عن قول الله ﴿وسعة﴾؟! قال: سعة البلاد.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠١/٢).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٠١/٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠١/٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٢/٢).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ الآية: ضَرَبْتُمْ: سافَرْتُمْ، قال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن رَاهَوِيَّة: تُقْصِرُ الصَّلَاةَ فِي أَرْبَعَةِ بُرُودٍ، وهي ثمانية وأربعون ميلاً؛ وَحُجَّتْهُمْ أَحَادِيثُ رُوِيَتْ فِي ذَلِكَ، عَنْ أَبِي عَمْرٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ^(١).

وقال الحسنُ والزُّهْرِيُّ: تُقْصِرُ فِي مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ^(٢)، وروى هذا أيضاً عن مالك^(٣)، وروى عنه: تُقْصِرُ فِي مَسَافَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وهذه الأقوال الثلاثة تتقارب في المعنى.

والجمهور على جواز القصر في السفر المباح.

وقال عطاء: لَا تُقْصِرُ إِلَّا فِي سَفَرٍ طَاعَةٍ، وسبيل خير، والجمهور: أَنَّهُ لَا قَصْرَ فِي سَفَرٍ مَعْصِيَةٍ، والجمهور أَنَّهُ لَا يُقْصَرُ الْمَسَافِرُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ بُيُوتِ الْقَرْيَةِ، وَحِينَئِذٍ هُوَ ضَارِبٌ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَجَمَاعَةِ الْمَذْهَبِ، وَإِلَى ذَلِكَ فِي الرَّجُوعِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «صَلَّى الظُّهْرَ بِالْمَدِينَةِ أَرْبَعًا، وَالْعَصْرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكَعَتَيْنِ»، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا ثَلَاثُ يَوْمٍ،^(٤) وَيُظْهَرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا﴾ أَنَّ الْقَصْرَ مَبَاحٌ أَوْ مَخِيرٌ فِيهِ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ، أَنَّ الْمَسَافِرَ مَخِيرٌ فِيهِ^(٥)؛ وَقَالَ الْأَبْهَرِيُّ؛ وَعَلَيْهِ حُذَاقُ الْمَذْهَبِ، وَقَالَ مَالِكٌ فِي «الْمَبْسُوطِ»: الْقَصْرُ سُنَّةٌ^(٦)؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٠٣/٢).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٠٣/٢).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٠٣/٢).

(٤) * حديث أنس:

أخرجه البخاري (٤٠٧/٣) كتاب «الحج»، باب من بات بذِي الحليفة حتى أصبح، حديث (١٥٤٦)، ومسلم (٤٨٠/١)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث (١١/٦٩٠)، مختصراً، من رواية ابن المنكدر، عنه، قال: «صلى النبي ﷺ بالمدينة أربعاً، وبذي الحليفة رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ بَاتَ حَتَّى أَصْبَحَ بِذِي الْحَلِيفَةِ، فَلَمَّا رَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَاسْتَوْتُ بِهِ أَهْلًا».

وأخرجه أبو داود (٣٧٥/٢)، كتاب «المناسك» (الحج)، باب في وقت الإحرام، حديث (١٧٧٣)، والترمذي (٤٣١/٢)، كتاب «الصلاة»، أبواب السفر، باب ما جاء في التقصير في السفر، حديث (٥٤٦)، والبيهقي (٣٨/٥)، كتاب «الحج»، باب من قال: يهل إذا انبعثت به راحلته.

(٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٠٣/٢).

(٦) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٠٣/٢).

جمهور المذهب؛ وعليه جواب «المدونة» بالإعادة في الوقت لمن أتم في سفره.

وقال ابن سحنون وغيره: القصر فرض.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية، وفي حديث يغلى بن أمية، قال: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾؛ وَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ، فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»^(١).

وَيَفْتِنُكُمْ: معناه يمتحنكم بالحمل عليكم، وإشغال نفوسكم، وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا صَلَّى الظُّهْر بِأَصْحَابِهِ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: قَدْ أُمَكَّنَكُمْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ مِنْ ظُهُورِهِمْ، هَلَّا شَدَدْتُمْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: إِنَّ لَهُمْ أُخْرَى فِي أَرْضِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾/ إلى آخر صلاة الخوف.

ب ١٣٠

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلُوبُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١١٢)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ...﴾ الآية: قال جمهور الأمة: الآية خطاب للنبي ﷺ، وهو يتناول الأمراء بعده إلى يوم القيامة، وكذلك جمهور العلماء على أَنَّ صلاة الخوف تصلّى في الحضر، إِذَا نَزَلَ الْخَوْفُ، قال الطبري^(٢): ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمْ﴾: معناه: خُدودها وهيئتها.

وقوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾: أمر بالانقسام، أي: وسائرهم وجاء العدو، ومعظم الروايات والأحاديث على أَنَّ صلاة الخوف إنما نزلت الرخصة فيها في غزوة ذات الرقاع، واختلف من المأمور بأخذ الأسلحة هنا؟ فقيل: الطائفة المصلية، وقيل: بل الحارسة.

(١) أخرجه الطبري عن ابن جريج (١٤٨/٤) برقم (٩٨٥١)، وذكره السيوطي في «الدر» (٣١٢/٢)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

وفيه زيادة: وقال عمر بن الخطاب: لما خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: فداه أبي وأمي، ما سمعته يتلوها قبل ذلك.

(٢) ينظر: الطبري (٢٥١/٤).

قال *ع^(١)*: ولفظ الآية يتناول الكل، ولكن سلاح المصلين ما خَفَّ، قلت: ومن المعلوم أنه إذا كانت الطائفة المصلية هي المأمورة بِأَخْذِ السِّلَاحِ، فالحارسة من باب أخرى.

وَأَخْتَلَفَتِ الْأَثَارُ فِي هَيْئَةِ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ صَلَاةِ الْخَوْفِ؛ وَبِحَسَبِ ذَلِكَ، اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ، فَرَوَى يَزِيدُ بْنُ زُوْمَانَ^(٢)، عَنْ صَالِحِ^(٣) بْنِ خَوَاتٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي^(٤) حَثْمَةَ؛ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ يَوْمَ ذَاتِ الرِّقَاعِ، فَصَفَّتْ طَائِفَةٌ مَعَهُ، وَطَائِفَةٌ وَجَّهَ الْعُدُوَّ، وَجَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى، فَصَلَّى بِهِمُ الرُّكْعَةَ الَّتِي بَقِيََتْ مِنْ صَلَاتِهِ، ثُمَّ تَبَتَّ جَالِسًا، وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ^(٥)، وَرَوَى الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٥/٢).

(٢) يزيد بن زومان مولى آل الزبير أبو رُوح المدني. عن ابن الزبير وعُزْوة وعنه جرير بن حازم وابن إسحاق ونافع القاري وطائفة. قال ابن سعد: كان عالماً ثقة كثير الحديث. توفي سنة ثلاثين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (١٦٩/٣)، «تهذيب الكمال» (١٥٣٢/٣)، «تهذيب التهذيب» (٣٢٥/١١)، «الكاشف» (٢٧٧/٣)، «الثقات» (١٥٨١).

(٣) صالح بن خوات بفتح المعجمة: ابن جبير بن النعمان الأنصاري المدني. عن أبيه وعنه ابنه خوات والقاسم بن محمد. وثقه النسائي.

ينظر: (٤٥٩/١)، «تهذيب الكمال» (٥٩٥/٢)، «تهذيب التهذيب» (٣٨٧/٤)، «الكاشف» (١٩/٢)، «الثقات» (٣٧٢/٤).

(٤) هو: سهل بن أبي حثمة بن ساعدة بن عامر بن عدي بن مجدعة بن حارث بن الحرث بن عمرو بن مالك بن الأوس اختلف في اسم أبيه فقليل: عبد الله، وقيل: عبيد الله. الأوسي الأنصاري، أمه: أم الربيع بنت سالم بن عدي بن مجدعة، ولد سنة ثلاث من الهجرة، حدث عن النبي بأحاديث وحدث عن زيد بن ثابت، ومحمد بن سلمة، روى عنه ابنه محمد، وابن أخيه محمد بن سليمان بن أبي حثمة، وبشر بن يسار، وصالح بن خوات بن جبير، ونافع بن جبير، وعروة وغيرهم. قال الواقدي: قبض النبي وهو ابن ثمانين سنين، ولكنه حفظ عنه. توفي أول أيام معاوية.

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤٦٨/٢)، «الإصابة» (١٣٨/٣)، «الثقات» (١٦٩/٣)، «الاستيعاب» (٦٦١/١)، «الاستبصار» (٢٤٥)، «بقي بن مخلد» (١٠٨)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٤٣/١)، «الرياض المستطابة» (١١٠)، «الطبقات الكبرى» (٣٠٤/٥)، «التاريخ الكبير» (٩٧/٤)، «التحفة اللطيفة» (٢٠٠)، «الوافي بالوفيات» (٨/١٦)، «إسعاف المبطأ» (١٩٤)، «التعديل والتجريح» (١٣٣٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٢١/٧)، كتاب «المغازي»، باب غزوة ذات الرقاع، الحديث (٤١٢٩)، ومسلم (١/

٥٧٥)، كتاب «صلاة المسافرين»، باب صلاة الخوف، الحديث (٨٤٢/٣١٠)، ومالك (١/١٨٣)،

كتاب «الخوف»، باب صلاة الخوف، الحديث (١)، وأحمد (٤٤٨/٣)، وأبو داود (٣٠/٢)، كتاب

«الصلاة»، باب إذا صلى ركعة وثبت قائمة، الحديث (١٢٣٨)، والنسائي (١٧١/٣)، كتاب «الخوف»،

باب صلاة الخوف، وابن الجارود (ص ٩٠)، كتاب «الصلاة»، باب في صلاة الخوف، الحديث =

خَوَاتٍ، عَنْ سَهْلٍ هَذَا الْحَدِيثَ بَعِينَهُ، إِلَّا أَنَّهُ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ صَلَّى بِالطَّائِفَةِ الْآخِرَةِ رُكْعَةً، سَلَّمَ، ثُمَّ قَضَتْ بَعْدَ سَلَامِهِ، وَبِحَدِيثِ^(١) الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَخَذَ مَالِكٌ، وَإِلَيْهِ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَوَّلًا يَمِيلُ إِلَى رِوَايَةِ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: لَمْ يَصِلْ النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بَذَاتِ الرَّقَاعِ مِنْ أَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ، وَمَرَّةً بَعُسْفَانَ، وَالْمَشْرُكُونَ بِضُجْعَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ^(٢).

قال * ع^(٣): * وظاهر اختلاف الروايات عن النبي ﷺ يقتضي أنه صلى صلاة الخوف في غير هذين الموطئتين، وقد ذكر ابن عباس؛ أنه كان في غزوة ذي قرد صلاة خوف^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ ورائكم...﴾ الآية: المعنى: فإذا سجدوا معك الركعة الأولى، فلينصرفوا؛ هذا على بعض الهيئات المروية، وقيل: المعنى: فإذا

= (٢٣٥)، والدارقطني (٢/٦٠)، كتاب «العديد»، باب صلاة الخوف، الحديث (١١)، والبيهقي (٣/٢٥٣)، كلهم من طريق مالك، عن يزيد بن رومان، عن صالح بن خوات به. والحديث في «الموطأ» (١٨٣/١) كتاب «صلاة الخوف»، باب صلاة الخوف، حديث (١). ومن طريقه أيضاً أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٢/٥٩٢ - بتحقيقنا).

(١) أخرجه مالك (١٨٣/١) كتاب «صلاة الخوف»، باب صلاة الخوف، الحديث (٢)، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، عن صالح بن خوات: أن سهل بن أبي حنمة حدثه: أن صلاة الخوف أن يقوم الإمام ومعه طائفة من أصحابه، وطائفة مواجهة العدو، فيركع الإمام ركعة ويسجد بالذين معه، ثم يقوم. فإذا استوى قائماً ثبت وأنموا لأنفسهم الركعة الثانية، ثم يسلمون وينصرفون والإمام، فيكونون وجاه العدو، ثم يقبل الآخرون الذين لم يصلوا فيكبسون وراء الإمام فيركع بهم الركعة، ويسجد ثم يسلم فيقومون فيركعون لأنفسهم الركعة الباقية، ثم يسلمون.

وأخرجه مرفوعاً: البخاري (٧/٤٢٢)، كتاب «المغازي»، باب غزوة ذات الرقاع، الحديث (٤١٣١)، ومسلم (١/٥٧٥)، كتاب «المسافرين»، باب صلاة الخوف، الحديث (٨٤١/٣٠٩)، وأبو داود (٢/٣٠)، كتاب «الصلوة»، باب يقوم صف مع الإمام، وصف وجاة العدو، الحديث (١٢٣٧)، والترمذي (٢/٤٠)، كتاب «السفر»، باب صلاة الخوف، الحديث (٥٦٢)، والنسائي (٣/١٧٨)، كتاب «الخوف» باب صلاة الخوف، وابن ماجه (١/٤٠٠)، كتاب «إقامة الصلاة»، باب صلاة الخوف، الحديث (١٢٥٩)، وأحمد (٣/٤٤٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/٣٢٣)، كتاب «الصلوة»، باب صلاة الخوف، والبيهقي (٣/٢٥٣)، كتاب «صلاة الخوف»، باب كيفية صلاة الخوف، كلهم من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه، عن صالح بن خوات، عن سهل بن أبي حنمة مرفوعاً.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/١٠٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/١٠٦).

(٤) ابن عطية في «تفسيره» (٢/١٠٦).

سَجَدُوا رُكْعَةَ الْقَضَاءِ، وهذا على رواية ابن أبي حَتْمَةَ، والضميرُ في قوله: ﴿فليكونوا﴾،
يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلَّذِينَ سَجَدُوا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلطَّائِفَةِ الْقَائِمَةِ أَوَّلًا بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ، وَيَجِيءُ
الْكَلَامُ وَصَاةً فِي حَالِ الْحَذَرِ وَالْحَزَبِ.

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ...﴾ الآية: إخبارٌ عن مُعْتَقِدِ الْقَوْمِ،
وتحذيرٌ من الغفلة؛ لِئَلَّا يَنَالَ الْعَدُوُّ أَمْلَهُ، وَأُسْلِحَتْ: جَمْعُ سِلَاحٍ، وفي قوله تعالى: ﴿مِثْلَهُ
وَاحِدَةً﴾: مبالغة، أي: مستأصلة لا يُحْتَاجُ معها إلى ثانية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية: ترخيصٌ.

قال ابنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ بِسَبَبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، كَانَ مَرِيضًا، فَوَضَعَ سِلَاحَهُ،
فَعَتَفَهُ بَعْضُ النَّاسِ ^(١).

قال * ع ^(٢): كَانَهُمْ تَلَقَّوْا الْأَمْرَ بِأَخْذِ السِّلَاحِ عَلَى الْوُجُوبِ، فَرَخَّصَ اللَّهُ تَعَالَى
١١٣١ فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، وَيَنْقَاسُ عَلَيْهِمَا كُلُّ عَذْرِ، ثُمَّ قَوَّى سَبْحَانَهُ / نُفُوسَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ:
﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ^(١١٣)

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا...﴾ الآية: ذهب
جمهورُ العلماءِ إلى أَنَّ هَذَا الذِّكْرَ الْمَأْمُورَ بِهِ، إِنَّمَا هُوَ إِثْرُ صَلَاةِ الْخَوْفِ عَلَى حَدِّ مَا أُمِرُوا
عِنْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ بِذِكْرِ اللَّهِ، فَهُوَ ذِكْرٌ بِاللِّسَانِ، وَالطَّمَأْنِينَةُ فِي الْآيَةِ: سَكُونُ النُّفُوسِ مِنْ
الْخَوْفِ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَوِّلِينَ: الْمَعْنَى: فَإِذَا رَجَعْتُمْ مِنْ سَفَرِكُمْ إِلَى الْحَضَرِ، فَأَقِيمُوهَا تَامَّةً
أَرْبَعًا.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾: معناه: منجمًا في أوقاتٍ، هَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ، وَرُويَ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ الْمَعْنَى: فَرَضًا مَفْرُوضًا ^(٣)، فَهَذَا لَفْظَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُرِّرَ؛ مبالغةً.

(١) أخرجه البخاري (١١٣/٨) كتاب «التفسير»، باب «ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى» حديث (٤٥٩٩)
والنسائي في «تفسيره» (١٤١) والحاكم (٣٠٨/٢) والبيهقي (٣/٢٥٥). وزاد السيوطي نسبته في «الدر»
(٢١٤/٢) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٧/٢).

(٣) ابن عطية (١٠٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨٠/٢)، وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلَهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾: أي: لَا تَلِينُوا وَتَضَعُفُوا؛ يُقَالُ: حَبِلٌ وَاهِنٌ، أَيُّ: ضَعِيفٌ؛ ومنه: «وَهَنَ الْعَظْمُ» وَابْتِغَاءُ الْقَوْمِ: طَلَبُهُمْ، وهذا تشجيعٌ لنفوس المؤمنين، وتحقيقٌ لأمر الكفرة، ثم تأكد التشجيع بقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، وهذا برهانٌ بَيِّنٌ، ينبغي بحسبه أَنْ تَقْوَى نفوس المؤمنين، وباقِي الآية بَيِّنٌ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾ الآية: فِي هذه الآية تشريفٌ للنبي ﷺ، وتفويضٌ إليه، وتقويمٌ أيضاً على الجادة في الحكم، وتأنيبٌ ما عَلَى قبولِ ما رُفِعَ إِلَيْهِ فِي أمرِ بَنِي أُبَيْرِقٍ بِسُرْعَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾: معناه: عَلَى قَوَائِنِ الشَّرْعِ إِمَّا بِوَحْيٍ وَنَصٍّ أَوْ نَظَرٍ جَارٍ عَلَى سَنَنِ الْوَحْيِ، وَقَدْ تَضَمَّنَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ الْعِصْمَةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، قَالَ الْهَرَوِيُّ: ﴿خَصِيمًا﴾: أَيُّ: مُخَاصِمًا، وَلَا دَافِعًا. انتهى.

قال * ع^(١): سببها، بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ: أَمْرُ بَنِي أُبَيْرِقٍ، وَكَانُوا إِخْوَةً: بِشَرٍّ، وَبَشِيرٍ، وَمُبَشِّرٍ، وَطُعْمَةٍ، وَكَانَ بِشِيرٌ رَجُلًا مُنَافِقًا يَهْجُو أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، وَينحلُّ الشَّعْرَ لغيره، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا شَعْرُ الْحَبِيثِ، فَقَالَ شَعْرًا يَتَنَصَّلُ فِيهِ؛ فَمِنْهُ قَوْلُهُ: [الطويل]

أَفِي كُلِّ مَا قَالَ الرَّجَالُ قَصِيدَةً نَجَلْتُ، وَقَالُوا: أَبْنُ الْأُبَيْرِقِ قَالَهَا
قَالَ قَتَادَةُ بْنُ الثُّعْمَانِ: وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَهْلَ فَاقَةَ، فَابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ^(٢) حِمْلًا

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٨/٢).

(٢) رفاعه بن زيد: ابن عامر بن سواد بن كعب، وهو ظَفَرُ بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن أوس الأنصاري الظفري، عم قتادة بن الثعمان.

روى الترمذي والطبري، من طريق عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه، عن جده قتادة بن الثعمان، قال: كان أهل بيتٍ مَثَا يُقَالُ لَهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ، فَابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّرْمَكِ، فَجَعَلَهُ فِي مِشْرَبَةٍ لَهُ، فَعَدَا عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ اللَّيْلِ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ فِي نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] وَفِي آخِرِهِ قَالَ قَتَادَةُ: فَاتَيْتُ عَمِي بِسِلَاحِهِ، وَكَانَ قَدْ عَاشَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَنتُ أَظُنُّ =

مِنْ دَرَمَكِ الشَّامِ، فَجَعَلَهُ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ، وَفِي الْمَشْرُبَةِ دِرْعَانٍ لَهُ، وَسِنْفَانِ، فَعُدِّيَ عَلَى الْمَشْرُبَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ، فَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي، أَتَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ عُدِّيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ، فَتَقَبَّطَ مَشْرُبَتُنَا، وَذُهِبَ بِطَعَامِنَا، وَسِلَاحِنَا، قَالَ: فَتَحَسَّنَا فِي الدَّارِ، وَسَأَلْنَا، فَقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ أَسْتَوْقَدُوا نَارًا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَلَا نَرَاهُ إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ، قَالَ: وَقَدْ كَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا، وَنَحْنُ نَسْأَلُ: وَاللَّهِ، مَا نَرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا لَيْدَ بَنٍ سَهْلٍ^(١)، رَجُلٌ مِّنَّا لَهُ صَلَاحٌ وَإِسْلَامٌ، فَسَمِعَ ذَلِكَ لَيْدٌ، فَأَخْطَرَطَ سَيْفَهُ، ثُمَّ أَتَى بَنِي أُبَيْرِقٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لِيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ، أَوْ لَتُبَيِّنَنَّ هَذِهِ السَّرْقَةُ، فَقَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا، أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَوَاللَّهِ، مَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا، فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشْكُ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا، فَقَالَ لِي عَمِّي: يَا بَنَ أَخِي، لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتَهُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ، فَأَتَيْتُهُ ﷺ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَنْظِرْ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ بَنُو أُبَيْرِقٍ، أَتَوْا رَجُلًا مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ: أُسَيْرُ بْنُ عُرْوَةَ^(٢)، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ/ ١٣ ب

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ رِفَاعَةَ عَمَدًا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِّنَّا أَهْلِ إِسْلَامٍ وَصَلَاحٍ يَزِمَانِهِم بِالسَّرْقَةِ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ، قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: عَمَدَتُ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ، ذَكَرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ، فَرَمَيْتُهُم بِالسَّرْقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ، قَالَ: فَرَجَعْتُ، وَقَدْ وَدِدْتُ أَنْ أَخْرَجَ عَن بَعْضِ مَالِي، وَلَمْ أَكَلِّمُهُ، فَأَتَيْتُ عَمِّي، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ الْآيَاتِ، قَالَ: فَالْخَائِثُونَ: بَنُو أُبَيْرِقٍ، وَالْبَرِيءُ الْمَرْمِيُّ

= إسلامه مدخولاً، قال: فلما أتيت به قال: يا بن أخي، هو في سبيل الله، عرفت أن إسلامه كان صحيحاً.

قال الترمذي: غريب تفرد محمد بن سلمة بوصله، ورواه غيره مرسلاً، ورواه الواقدي من طرق عن محمود بن لبيد، فذكر القصة مطولة فزاد ونقص.

ينظر: «الإصابة» (٤٠٧/٢)، «تبصير المتنبه» (٨٥١/٣)، «الجرح والتعديل» (٢٢٣٣/٣)، «الأعلمي» (٢٦٣/١٨)، «أسد الغابة» ت (١٦٨٨)، «الاستيعاب» ت (٧٧٧).

(١) لبيد بن سهل بن الحارث بن عروة بن رزاح بن ظفر الأنصاري. وقال ابن عبد البر: لا أدري هو من أنفسهم أو حليف لهم. انتهى.

وقد نسب ابن الكلبي إلى القبيلة كما ترى، لكن قال العدوي: إنه وهم من ابن الكلبي؛ وإنما هو أبو لبيد بن سهل - رجل من بني الحارث بن مازن بن سعد العشيرة من حلفاء الأنصار.

ينظر: «أسد الغابة» ت (٤٥٢٨)، «الإصابة» (٥٠٤/٥)، «الاستيعاب» ت (٢٢٦١).

(٢) أسير بن عروة بن سواد بن الهيثم بن ظفر الأنصاري الطفري. قال ابن القداح: شهد أحداً والمشاهد بعدها، واستشهد بنهاوند.

ينظر: «الإصابة» (٢٣٧/١)، «الفتاوى» (١٥/٣)، «أسد الغابة» ت (٦٧٧)، «الاستيعاب» ت (٦٣).

لَيْدُ بْنُ سَهْلٍ، والطائفة التي هَمَّتْ أُسِيرَ وَأَصْحَابُهُ^(١).

قال * ع^(٢) : قال قتادة وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هذه القصة ونحوها إنما كان صاحبها طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ، ويقال فيه: طُعَيْمَةٌ.

قال * ع^(٣) : وطُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ صَرَّحَ بعد ذلك بِالْإِرتِدَادِ، وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ، فُرُوِيَ أَنَّهُ نَقَبَ حَائِطَ بَيْتٍ؛ لِيَسْرِقَهُ، فَأَنْهَضَ الحَائِطُ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ، وَيُرَوَّى أَنَّهُ اتَّبَعَ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ، فَسَرَقَهُمْ، فَقَتَلُوهُ^(٤).

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾، ذهب^(٥) الطبري إلى أَنَّ المعنى: أَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبِكَ فِي خَصَامِكَ لِلنَّاسِ.

قال * ع^(٦) : وهذا ليس بِذَنْبٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا دَافَعَ عَنِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ بَرَاءَتَهُمْ، وَالْمَعْنَى: وَأَسْتَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْتِكَ، وَالْمُتَخَاصِمِينَ بِالْبَاطِلِ، لَا أَنَّ تَكُونَ ذَا جِدَالٍ عَنْهُمْ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ، فَكَثُرَ فِيهِ لَعْنُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: «سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ، وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن جبان في «صحيحيهما»، وقال الترمذي، واللفظ له: حديث حسن صحيح غريب^(٧)، ورواه النسائي والحاكم أيضاً مِنْ طُرُقٍ عَنْ عَائِشَةَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٦٥/٤) برقم (١٠٤١٦)، ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٧٧/١)، وابن عطية في «تفسيره» (١٠٩/٢)، والسيوطي في «الدر» (٣٨٥/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٩/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٩/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (١٠٩/٢).

(٥) ينظر الطبري (٢٦٥/٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٠/٢).

(٧) أخرجه الترمذي (٤٩٤/٥)، كتاب «الدعوات»، باب ما يقول إذا قام من المجلس، حديث (٣٤٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥/٦ - ١٠٦) كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول إذا جلس في مجلس كثر فيه لفظه، حديث (١٠٢٣٠)، والحاكم (١/٥٣٦ - ٥٣٧)، وابن حبان (٢٣٦٦ - موارد)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ١٢٩ - بتحقيقنا)، كلهم من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه لا نعرفه من حديث سهيل إلا من هذا الوجه. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وغيرها^(١). انتهى من «الصلاح».

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١١٧)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾، لفظ عام يندرج تحته أصحاب النازلة، ويتقرر به توبيخهم، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: رَفَقَ وإِبْقَاءٌ؛ فَإِنَّ الْخَوَّانَ هو الذي تتكرر منه الخيانة؛ كطُعْمَةِ بْنِ الْأُبَيْرِقِ، وَالْأَثِيمُ هو الذي يَقْصِدُهَا، فيخرج من هذا التشديد السَّاقِطُ مرةً واحدةً، ونحو ذلك، وَأَخْتِيَانُ الْأَنْفُسِ هو بما يَعُودُ عليها من الإِثْمِ والعقوبة في الدنيا والآخرة.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١١٨)

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ...﴾ الآية: الضمير في «يستخفون» للصفة المرتكبة للمعاصي، ويندرج في طي هذا العموم أهل الخيانة في النازلة المذكورة، وأهل التعصّب لهم، والتدبير في خدع النبي ﷺ والتلبس عليه، ويحتمل أن يكون الضمير لأهل هذه النازلة، ويدخل في معنى هذا التوبيخ كل من يفعل نحو فعلهم، قال صاحب «الكلم الفارقيّة»، والحكم الحقيقيّة: النفوس المرتكبة للمحارم؛ المحتقبة للمأثم، والمظالم؛ شبيهة بالأراقم، تملأ أفواهها سماً، وتقصد من تقذفه عليه عدواناً وظلماً، تجمع في ضمايرها سُومٌ شُرورها وضررها، وتحتال/ لإلقائها على الغافلين عن ١١٢ مكائدها وخدعها. انتهى.

ومعنى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، بالإحاطة والعلم والقُدرة، و﴿يُبَيِّتُونَ﴾: يدبرون ليلاً، ويحتمل أن تكون اللفظة مأخوذة من البَيْت، أي: يستبرؤون في تدبيرهم بالجدرات.

﴿هَآئِنْتَ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّدُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١١٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ عَفْوًَا رَّحِيمًا (١٢٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٢١)

= وصححه أيضاً ابن حبان.

وللحديث شاهد من حديث عائشة، أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٦/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول إذا جلس في مجلس كثر فيه لغطه، حديث (١٠٢٣١).

(١) ينظر الحديث السابق.

وقوله تعالى: ﴿هَآئِنتُمْ هَؤُلَاءِ﴾: خطابٌ للقوم الذين يَتَعَصَّبُونَ لِأَهْلِ الرَّبِّ والمعاصي، ويندرجُ في طَيِّ هذا العموم أهلُ النازلة، وهو الأظهرُ عندي؛ بحُكم التأكيد بهؤلاء، وهي إشارةٌ إلى حاضرين، ومن «مصابيح البغوي» عن أبي داود، عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ ذُوْنَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ، وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ، حَتَّى يَنْزِعَ، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ، أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَذْعَةَ الْخِبَالِ؛ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»^(١)، ويروى: «مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ لَا يَذَرِي أَحَقَّ أَمْ بَاطِلٌ، فَهُوَ فِي سَخَطِ اللَّهِ؛ حَتَّى يَنْزِعَ». انتهى.

وأوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ الآية: وعيدٌ مخض، ولَمَّا تَمَكَّنَ هذا الوعيدُ، وَقَضَتْ العقولُ بأنَّ لا مجادلَ لِلَّهِ سبحانه، ولا وَكِيلَ يَقُومُ بِأَمْرِ الْعَصَا عنده، عَقَّبَ ذلك بهذا الرِّجاء العظيم، والمَهْل المنفصح، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ...﴾ الآية، وباقي الآية بين.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ بَهِتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾، ذهب بعضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّهُمَا لَفْظَانِ بِمَعْنَى، كَرَّرَ؛ لِأَخْتِلَافِ اللَّفْظِ، وقال الطَّبْرِيُّ^(٢): إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَ الْخَطِيئَةِ وَالْإِثْمِ؛ لِأَنَّ الْخَطِيئَةَ تَكُونُ عَنْ عَمْدٍ، وَعَنْ غَيْرِ عَمْدٍ، وَالْإِثْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَمْدٍ، وهذه الآية لفظها عامٌ، ويندرجُ تحتَ ذلك العموم أهلُ النازلة المذكورة، وبريء النازلة، وهو لبيد، كما تقدّم، أي: ويتناول عموم الآية كلَّ بريء.

وقوله: ﴿فَقَدْ آخَضَ بَهِتَانًا﴾: تشبيه، إذ الذنوبُ ثَقُلُ ووزُرُ، فهي كالمحمولات، و ﴿بَهِتَانًا﴾: معناه: كَذِبًا، ثم وَقَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَى مِقْدَارِ عِصْمَتِهِ لَهُ، وَأَنَّهَا بِفَضْلِ مِنْهُ

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٩/٢)، كتاب «الأقضية»، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، حديث (٣٥٩٧)، وأحمد (٧٠/٢)، والحاكم (٢٧/٢) كلهم من طريق عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد عن عبد الله بن عمر مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر الطبري (٢٧٤/٤).

سُبْحَانَهُ وَرَحْمَتُهُ.

وقوله تعالى: ﴿لَهْمَّتُ﴾: معناه: لَجَعَلْتُهُ هَمًّا وَسُغْلَهَا، حتى تنفذه؛ وهذا يدلُّ على أنَّ الألفاظ عامة في غير أهل النَّازِلَةِ، وإِلَّا فَأَهْلُ التَّعَصُّبِ لِبَنِي أُبَيْرِقٍ قَدْ وَقَعَ هَمُّهُمْ وَثَبَتْ، ثم أخبر تعالى أنهم لا يضلُّون إلا أنفسهم، وما يضرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ، قُلْتُ: ثم ذكر سبحانه ما أنعم به على نبيه مِنْ إِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَالْحِكْمَةِ، وَتَعْلِيمِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي رَحْلَتِهِ: أَعْلَمْتُ أَنَّ عُلُومَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ: تَوْحِيدٌ، وَتَذْكِيرٌ، وَأَحْكَامٌ، وَعِلْمُ التَّذْكِيرِ هُوَ مَعْظَمُ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالْقُرْبِ وَمَا يَرْتَبِطُ بِهَا، وَيَدْعُو إِلَيْهَا وَيَكُونُ عَنْهَا، وَذَلِكَ مَعْنَى تَتَسَّعُ أَبْوَابُهُ، وَتَمْتَدُّ أَطْنَابُهُ. انْتَهَى، وَبَاقِي الْآيَةِ وَغَدٌ كَرِيمٌ لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام -، وَتَقْرِيرُ نَعْمِهِ لَدَيْهِ سُبْحَانَهُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

وقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾ الآية: الضَّمِيرُ فِي «نَجْوَاهُمْ»: عَائِدٌ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعٍ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَامَّةُ التَّنَاوُلِ، وَفِي عَمُومِهَا يَنْدَرِجُ أَصْحَابُ النَّازِلَةِ، وَهَذَا مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْإِيجَازِ ١٣٢ ب الْمُضْمَنِ الْمَاضِي وَالْغَابِرِ فِي عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ، قَالَ النَّوَوِيُّ / وَرَوَيْنَا فِي كِتَابِي «الْتَرْمِذِي» وَ «ابْنِ مَاجَةَ»، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ^(١) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ كَلَامٍ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرٌ أَوْ مَعْرُوفٌ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرٌ لِلَّهِ تَعَالَى»^(٢). انْتَهَى.

(١) هي: رملة بنت أبي سفيان (صخر) بن حرب بن أمية بن عبد شمس... أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها القرشية الأموية. أمها: صفية بنت أبي العاص عمة عثمان بن عفان. ميلادها: ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً.

قال ابن الأثير في «الأسد»: كانت من السابقين إلى الإسلام، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله (بن جحش)؛ فولدت هناك حبيبة فتنصر عبيد الله ومات بالحبشة نصرانياً، وبقيت أم حبيبة مسلمة بأرض الحبشة، فأرسل رسول الله ﷺ يخطبها إلى النجاشي..

قال ابن إسحاق: تزوجها رسول الله ﷺ بعد زينب بنت خزيمة الهلالية. توفيت رحمها الله سنة (٤٤).

تنظر ترجمتها في: «أسد الغابة» (١١٤/٧)، (٣١٥)، «الإصابة» (٨٤/٨)، (٢٢٢)، «الفتاوى» (١٣١/٣)، «بقي بن مخلد» (٥٢)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٦٨/٢)، «تقريب التهذيب» (٦٢٠/٢)، «تهذيب التهذيب» (٤١٩/١٢)، «تهذيب الكمال» (١٦٨٣/٣)، «أعلام النساء» (٣٩٧/١)، «الكاشف» (٣/٤٧١).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٠٨/٤)، كتاب «الزهد»، باب (٦٢)، حديث (٢٤١٢)، وابن ماجه (١٣١٥/٢)، =

وَالنَّجْوَى: المسارة، وقد تسمّى بها الجماعة؛ كما يقال: قَوْمٌ عَدْلٌ، وليست النجوى بمقصورة على الهمس في الأذن، والمعروف لفظ يعم الصدقة والإصلاح وغيرهما، ولكن خصاً بالذكر؛ اهتماماً؛ إذ هما عظيمَا الغناء في مصالح العباد، ثم وعد تعالى بالأجر العظيم على فعل هذه الخيرات بنية وقصد لرضا الله تعالى.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا كُنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ...﴾ الآية: لفظ عام نزل بسبب طغمة بن أبيريق؛ لأنه ارتدّ وسار إلى مكة، فاندرج الإنحاء عليه في طي هذا العموم المتناول لمن أنصف بهذه الصفات إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿تُولَّهِ مَا تَوَلَّى﴾: وعيد بأن يترك مع فاسد اختياره في تودّد الطاغوت، ثم أوجب تعالى؛ أنه لا يغفر أن يشرك به، وقد مضى تفسير مثل هذه الآية.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوسًا ١١٨﴾ وَلَا تُلَاقِهِمْ وَلَا تُنَاجِهِمْ وَلَا تُؤْمِنُ لَهُمْ وَلَا تَرْتَعَبُنَّ لَهُمْ ١١٩﴾ وَاللَّهُ فَخَسِرَ أَفْسَرًا مُبِينًا ١٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا...﴾ الآية: الضمير في ﴿يدعون﴾: عائذ على من ذكر في قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ [النساء: ١١٥]، و «إِنْ»: نافية بمعنى «ما»، ويدعون: عبارة مغنية موجزة في معنى: يعبدون ويتخذون آلهة، قلت: وفي «البخاري» ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾: يعني الموات حَجَرًا ومدراً، وما أشبهه. انتهى، وفي مُضَحَف^(١) عائشة: «إِلَّا أوثاناً»؛ ونحوه عن ابن عباس^(٢)، والمراد بالشيطان هنا

= كتاب «الفتن»، باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٤) كلاهما من طريق محمد بن يزيد بن خنيس قال: سمعت سعيد بن حسان المخزومي قال: حدثني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس.

(١) ينظر: «الشواذ» ص (٣٥)، و «الكشاف» (١/٥٦٦)، و «المحرر الوجيز» (٢/١١٣)، و «البحر المحيط» (٣/٣٦٧)، و «الدر المصون» (٢/٤٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/٢٧٩) برقم (١٠٤٤٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/٤٨١)، وابن عطية في «تفسيره» (٢/١١٣).

إِبْلِيسُ؛ قاله الجمهور، وهو الصواب؛ لأنَّ سائر المقالة به تليقُ، و ﴿مَرِيداً﴾: معناه: متمرداً عاتياً صليماً في غوايته، وأضلَّ اللُّغْنِ: الإبعادُ، والمفروضُ: معناه: في هذا الموضعِ المُنْحَاز، وهو مأخوذٌ من الفرض، وهو الحَزْ في العود وغيره.

قال * ع^(١): * ويحتملُ أن يريد واجباً إن اتَّخَذَهُ، وَبَعَثَ النَّارِ هو نَصِيبُ إِبْلِيسَ.

وقوله: ﴿وَلَا أَضِلُّهُمْ...﴾ الآية: معنى أَضِلُّهُمْ: أَصْرَفُهُمْ عن طريقِ الهدى، ﴿وَلَا مَنِّيَهُمْ﴾: لَأَسْؤِلَنَّ لَهُمْ، وَأَمَانِيَّهُ لَا تَنْحَصِرُ فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ، وَالبَتُّ: القَطْعُ.

وقوله: ﴿وَلَا مَرَّتُهُمْ فليَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾: اختلف المتأولون في معنى تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ، ومِلَاكُ تفسير هذه الآية أنَّ كُلَّ تَغْيِيرٍ ضَارٌّ، فهو داخلٌ في الآية، وكلُّ تَغْيِيرٍ نَافِعٌ فهو مباحٌ، وفي «مختصر الطبري»: ﴿فليَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، قال ابنُ عَبَّاسٍ: خَلَقَ اللَّهُ: دِينَ اللَّهَ، وعن إبراهيم، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وابنُ زَيْدٍ مثله^(٢)، وفَسَّرَ ابنُ زَيْدٍ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِمَخْلَقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، أي: لِدِينِ اللَّهِ، واختارَ الطبري^(٣) هذا القول؛ واستدلَّ له بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] وأجاز أن يدخل في الآية كُلُّ ما نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ معاصيه، والتَّرْكُ لطاعته. انتهى، وهو حَسَنٌ.

قال * ع^(٤): * واللاماتُ كُلُّها لِلْقَسَمِ.

قال * ص: * ﴿وَلَا أَضِلُّهُمْ﴾، مفعوله محذوفٌ، أي: عن الهدى؛ وكذا: ﴿وَلَا مَنِّيَهُمْ﴾، أي: الباطل؛ وكذا: ﴿وَلَا مَرَّتُهُمْ﴾، أي: بالتغيير، فليَغَيِّرَنَّ كُلُّ ما أوجده اللَّهُ لِلطَّاعَةِ فيستعينُونَ به في المَعْصِيَةِ. انتهى.

١١٣٣ ولما ذكر الله سبحانه/ غَوَّ الشيطان، وما تَوَعَّد به مَنْ بَثَّ مَكْرَهُ، حَذَّرَ تبارك وتعالى عباده؛ بأن شرط لمن يَتَّخِذْهُ وليّاً جزاءَ الخُسْران.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (١٢٥) أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٤/٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٣/٤) برقم (١٠٤٦٨)، (١٠٤٧٠)، (١٠٤٧٧)، (١٠٤٨٠)، (١٠٤٨١)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٥٣٠/١)، وابن عطية في «تفسيره» (١١٤/٢)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٣٩٦/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر الطبري (٢٨٥/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٤/٢).

عَنْهَا مَحْصَاً ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢٣﴾

وقوله تعالى: ﴿يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾، أي: يعذبهم بأباطيلهم من المال، والجاه، وأن لا بُعْثَ، ولا عِقَابَ، ونحو ذلك لكلِّ أحدٍ ما يليقُ بحاله، ويمنيهم كذلك، ثم ابتدأ سبحانه الخبر عن حقيقة ذلك؛ بقوله: ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غُرُورًا﴾ ثم أخبر سبحانه بمصير المتخذين الشيطان ولياً، وتوعدهم بأن مأواهم جهنم، لا يدافعونها بحيلة، ولا يترؤغون، و ﴿مَحْصَاً﴾: مِنْ حَاصٍّ؛ إِذَا رَاغَ وَنَفَرَ؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَلَمْ نَذَرِ إِنْ حِصْنَا مِنَ الْمَوْتِ حَيْصَةً كَمِ الْعُمُرِ بَاقٍ وَالْمَدَى مُتَطَاوِلٌ^(١)

ومنه الحديث: «فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوُخْشِ»، ولما ذكر سبحانه ما تقدّم من الوعيد، واقتضى ذلك التحذير، عقب ذلك عزّ وجلّ بالترغيب في ذكره حالة المؤمنين، وأعلم بصحة وعده، ثم قرّر ذلك بالتوقيف عليه في قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، والقليل والقول واحد، ونصبه على التمييز.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢٣﴾

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية: الأمانى: جمع أُمْنِيَّة، وهي ما يتشبهه المرء، ويُطمع نفسه فيه، قال ابن عباس وغيره: الخطاب لأمة النبي ﷺ^(٢) وفي «مختصر الطبري»، عن مسروق وغيره، قال: احتج المسلمون وأهل الكتاب، فقال المسلمون: نَحْنُ أَهْدَى، وقال أهل الكتاب: نَحْنُ أَهْدَى، فأنزل الله هذه الآية^(٣)، وعن مجاهد: قالت العرب: لَنْ نُبْعَثَ، وَلَنْ نُعَذَّبَ، وقالت اليهود والنصارى:

(١) البيت لجعفر بن عليّ الحارثي وقبلة:

فَقُلْنَا لَهُمْ تِلْكَمُ إِذَا بَعْدَ كَرَّةٍ تُعَادِرُ صَرَغَى نَزْوَهَا مُتَخَاذِلُ

ينظر: «ديوان الحماسة» (٨/١)، وينظر: «البحر المحيط» (٣/٣٦٤)، و «الدر المصون» (٢/٤٢٨). وإن حصنا أي: إن عدلنا وانحرنا عن الموت، يقول: لم ندر إن جدنا عن القتال الذي فيه الموت، وعدلنا عنه، كم يكون بقاؤنا؟! فلم نحيد ونرتكب العار؟! ولعلنا إن تركنا القتال لم نعش إلا قليلاً.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٨/٤) برقم (١٠٥٠١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١١٦/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٧/٤) برقم (١٠٤٩٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١١٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٨/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مسروق.

﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾^(١) [البقرة: ١١١]، وقالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، قال الطبري^(٢): وقول مجاهدٍ أُولَى بالصواب، وذلك أَنَّ المسلمين لَمْ يَجْرِ لَأَمَانِيَّهِمْ ذِكْرٌ فِيمَا مَضَى مِنَ الْآيِ، وَإِنَّمَا جَرَى ذِكْرُ أَمَانِيٍّ نَصِيبِ الشَّيْطَانِ. انتهى.

وعليه عَوَّلَ ص * : في سبب نزول الآية، أعني: عَلَى تَأْوِيل مجاهد.
وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

قال جمهورُ النَّاسِ: لفظ الآية عامٌ، فالكافر والمؤمن مُجَارَى، فأما مُجَازَاةُ الكافر، فالنَّار، وأما مُجَازَاةُ المؤمن، فَبِنِكَبَاتِ الدُّنْيَا؛ فَمَنْ بَقِيَ لَهُ سُوءٌ إِلَى الْآخِرَةِ، فَهُوَ فِي الْمَشِيئَةِ يَغْفِرُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَجْزِي مَنْ يَشَاءُ.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا^(١٢٥) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، دخلت «من» للتبعض؛ إذا الصالحات على الكمالِ ممَّا لَا يَطِيقُهُ الْبَشَرُ؛ ففِي هَذَا رَفَقٌ بِالْعِبَادِ، لَكِنْ فِي هَذَا الْبَعْضِ الْفَرِائِضُ، وَمَا أَمْكَنَ مِنَ الْمُنْدُوبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَيَّدَ الْأَمْرَ بِالْإِيمَانِ؛ إِذْ لَا يَنْفَعُ عَمَلٌ دُونَهُ، وَالنَّقِيرُ: الثُّكَّةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ وَمِنْهُ تَنْبُثُ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا تَنْقَرُهُ بِأَصْبِعِكَ^(٣).

ثم أخبر تعالى إخباراً موقفاً عَلَى أَنَّهُ لَا أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، أَي: أَخْلَصَ مَقْصِدَهُ وَتَوَجَّهَهُ، وَأَحْسَنَ فِي أَعْمَالِهِ، وَاتَّبَعَ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِمَامِ الْعَالَمِ، وَقُدُورَةِ الْأَدْيَانِ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ تَشْرِيفَهُ لِنَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام -؛ بِاتِّخَاذِهِ خَلِيلًا، وَسَمَاءَهُ خَلِيلًا؛ إِذْ كَانَ خُلُوصَهُ، وَعِبَادَتُهُ، وَاجْتِهَادُهُ عَلَى الْغَايَةِ الَّتِي يَجْرِي إِلَيْهَا الْمَحَبُّ الْمُبَالِغُ، وَذَهَبَ قَوْمٌ؛ إِلَى أَنَّهُ سُمِّيَ خَلِيلًا مِنْ «الْخَلَّةِ» - بفتح الخاء -، أَي: لِأَنَّهُ أَنْزَلَ خَلَّتَهُ وَفَاقَتْهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ شَرَّفَ اللَّهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ بِالْخَلَّةِ؛ كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الْصَّحِيحِ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾^(١٢٦) ﴿

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٩/٤) برقم (١٠٥٠٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١١٦/٢).

(٢) ينظر الطبري (٢٩٠/٤).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره».

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: ذكر سبحانه سعة ملكه وإحاطته بكل شيء، عَقَبَ ذُكْرَ الدِّينِ، وتبيينِ الجادة منه؛ ترغيباً في طاعته والانقطاع إليه سبحانه.

﴿وَسْتَغْفِرُكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ...﴾ الآية: معنَى قوله: ﴿يفتيكم فيهن﴾: أي: يبين لكم حكم ما سألتكم عنه.

قال^(١) ع*: تحتمل «ما» أن تكونَ في موضع رفع؛ عطفاً على اسم الله عز وجل، أي: ويفتيكم ما يتلى عليكم في الكتاب، يعني: القرآن، والإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الآية في أمر النساء، وهو قوله تعالى في صدر السورة: ﴿وإن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ [النساء: ٣] الآية، قالت عائشة: نزلت هذه الآية أولاً، ثم سأل ناسٌ بعدها رسولَ الله ﷺ عن أمر النساء، فنزلت، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾: معناه: النهي عما كانت العربُ تفعله من ضمِّ اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقُّه من المهر، ومن عَضْلِ الدميمة الغنيّة حتى تموت، فيرثها العاضلُ، والذي كَتَبَ اللَّهُ لَهُنَّ هو توفية ما تستحقُّه من مهرٍ.

وقوله تعالى: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾، أي: إن كانت الجارية غنيّة جميلة، فالرغبة في نكاحها، وإن كانت بالعكس، فالرغبة عن نكاحها.

وقوله تعالى: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ عَطَفَ عَلَى «يتامى النساء»، والذي يُتْلَى في الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ هو قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...﴾ [النساء: ١١] الآية؛ وذلك أن العرب كانت لا تورث الصبيّة، ولا الصبي الصغير، ففرض الله تعالى لكل واحدٍ حقّه.

وقوله تعالى: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾: عَطَفَ أيضاً على ما تقدّم، والذي تُلي في هذا المعنى هو قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم...﴾ [النساء: ٢] الآية،

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذُكِرَ فِي مَالِ الْيَتِيمِ، وَالْقِسْطُ: الْعَدْلُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٧٨)

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا...﴾ الآية: هذه الآية حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِ الْمَرْأَةِ الَّتِي تَكُونُ ذَاتَ سِنٍّ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَرْعُبُ زَوْجُهَا عَنْهَا، فَيَعْرَضُ عَلَيْهَا الْفُرْقَةُ أَوِ الصَّبْرُ عَلَى الْأَثَرَةِ، فَتُرِيدُ هِيَ بَقَاءَ الْعِصْمَةِ، فَهَذِهِ الَّتِي أَبَاحَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا الصُّلْحَ وَرَفَعَ الْجُنَاحَ فِيهِ.

واختلف في سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ: نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَسُودَةٌ بِنْتُ زَمْعَةَ^(١) وَفِي الْمَصْنُفَاتِ: أَنَّ سُودَةَ لَمَّا كَبِرَتْ، وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ^(٢)، وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ بِسَبَبِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ^(٣).....

(١) هي: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، أم المؤمنين. القرشية. العامرية رضي الله عنها.

قال ابن الأثير: تزوجها النبي ﷺ بمكة بعد وفاة خديجة قبل عائشة. قاله عقيل عن الزهري. . وقال عبد الله بن محمد بن عقيل: تزوجها بعد عائشة توفيت آخر خلافة عمر سنة (٥٤).

تنظر ترجمتها في: «أسد الغابة» (١٥٧/٧)، «الإصابة» (١١٧/٨)، «الثقات» (١٨٣/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٨٠/٢)، «تقريب التهذيب» (٦٠١/٢)، «تهذيب التهذيب» (٤٢٦/١٢)، «تهذيب الكمال» (١٦٨٦/٣)، «أعلام النساء» (٢٦٧/٢)، «السمط الثمين» (١١٧)، «الدر المنثور» (٢٥٢)، «الاستيعاب» (١٨٦٧/٤)، «الكاشف» (٤٧٣/٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩/٥)، كتاب «التفسير»، باب سورة النساء، حديث (٣٠٤٠)، وأبو داود الطيالسي (١٩٤٤)، والطبري في «تفسيره» (١٠٦٠٨)، والبيهقي (٢٩٧/٧) كتاب «القسم والنشوز»، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا...﴾، والطبراني في «الكبير» (٢٨٤/١١) رقم (١١٧٤٦)، كلهم من طريق سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة، ففعل ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا...﴾، قال ابن عباس: فما اصطالحا عليه من شيء فهو جائز. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤١٠/٢)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

وللحديث شواهد أخرى عن عائشة.

(٣) هو: رافع بن خديج بن عدي بن يزيد بن جشم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس... أبو عبد الله. أبو خديج. الأنصاري. الأوسي. الحارثي أمه: حليلة بنت مسعود بن سنان. عرض نفسه يوم بدر على النبي ﷺ فردّه لصغره، ثم أجازته يوم أحد فشهد أحد وأصيب بها، ثم المخذق وأكثر المشاهد، وشهد صفين مع علي، واستوطن المدينة، وكان عريف قومه =

وامرأته خولة^(١)، وقال مجاهد: نزلت بسبب أبي السَّنايل^(٢) وامرأته^(٣)، ولفظ ابن العربي في «أحكامه»^(٤): قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً...﴾ الآية: قالت عائشة (رضي الله تعالى عنها): هي المرأة تكون عند الرجل ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول له: أجعلك من شأني في حل، فنزلت الآية، قال الفقيه أبو بكر بن العريبي: فرضوان الله على الصديقة المطهرة، لقد وث بما حملها ربها من العهد في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] انتهى.

وقوله تعالى: ﴿والصلح خير﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين/ على ما ذكرنا - خير من الفرقة.

١١٣٤

وقوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ معذرة عن عبيده تعالى، أي: لا بد للإنسان بحكم خلقته وجبلته من أن يشح على إرادته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره، وخصص المفسرون هذه اللفظة هنا.

- = إلى أن مات بها. وصلى عليه ابن عمر. توفي سنة (٧٤) وله (٨٦ سنة).
- تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢/ ١٩٠)، «الإصابة» (٢/ ١٨٦)، «الثقات» (٣/ ١٢١)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ١٧٣)، «الاستيعاب» (٢/ ٤٧٩)، «العبر» (١/ ٨٣)، «الاستبصار» (٢٤٠)، «عنوان النجاة» (٨٠)، «الكاشف» (١/ ٣٠)، «التحفة اللطيفة» (٢/ ٥٠)، «الرياض المستطابة» (٦٩).
- (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٠٧) برقم (١٠٦٠٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ١١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٤١١)، وعزاه للشافعي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عن سعيد بن المسيب.
- (٢) أبو السنايل بن نَعَك: بموحدة ثم مهملة ثم كافين، بوزن جعفر، ابن الحارث بن عميلة، بفتح أوله، ابن السباق، ابن عبد الدار القرشي العبدي، واسمه صَبَة، بموحدة، وقيل: بنون. قال البَغَوِيُّ: سكن الكوفة، وقال البخاري: لا أعلم أنه عاش بعد النبي ﷺ.
- روى عن النبي ﷺ: روى عنه الأسود بن يزيد النخعي، وزُفر بن أوس بن الحدثان النصري.
- وقال ابن سَعْدٍ وغيره: أقام بمكة حتى مات، وهو من مسلمة الفتح، وأخرج حديثه الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، كلهم من رواية منصور، عن إبراهيم، عن الأسود عنه في قصة سبيعة.
- ينظر: «الإصابة» (٧/ ١٦١)، «الكنى والأسماء» (٣٢١١)، «تفسير الطبري» (٩/ ١٠٦٠١)، «تهذيب التهذيب» (١٢/ ١٢١)، «تقريب التهذيب» (٢/ ٤٣١).
- (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٣٠٨) برقم (١٠٦٠٦)، وذكره ابن عطية (٢/ ١١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٤١٢)، وعزاه لابن جرير.
- (٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١/ ٥٠٣).

فقال ابن جُبَيْر: هو شَحُّ المرأة بالنفقة مِنْ زوجها، وبَقْسُمه لها أيامها^(١).

وقال ابن زَيْد: الشَحُّ هنا منه وَمِنْهَا؛

قال * ع^(٢) : وهذا حسن.

والشَحُّ: الضبط على المَعْتَقَدَاتِ، وفي الهمم، والأموال، ونحو ذلك، فما أفرط منه، ففيه بعض المذمة، وهو الذي قال تعالى فيه: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: ٩]، وما صار إلى حَيْزٍ مَنَعَ الحقوق الشرعية، أو التي تقتضيها المروءة، فهو البُخْل، وهي رذيلة، لكنها قد تَكُونُ في المؤمن؛ ومنه الحديث: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ قَالَ: نَعَمْ»، وأما الشَحُّ، ففي كلِّ أحد، وينبغي ألا يفرط إلا على الدين؛ ويدلُّك على أنَّ الشَحَّ في كلِّ أحد قوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: ٩]، فقد أثبت أنَّ لكل نفس شَحًّا، وقول النبي - عليه السلام -: «وَأَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ»^(٣)، وهذا لم يُرَدِّ به واحداً بعينه، وليس يَجْمَلُ أَنْ يُقال هنا: أَنْ تَصَدَّقَ، وَأَنْتَ صَحِيحٌ بَخِيلٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا﴾: ندَّب إلى الإحسان في تحسين العشرة، والصَّبْر على خُلُقِ الزوجة، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: معناه: تتقوا الله في وصيته بهنَّ؛ إِذْ هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩)

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا...﴾ الآية: معناه: العَدْلُ التَّامُّ على

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣١٠/٤) برقم (١٠٦٢٤)، وذكره ابن عطية (١٢٠/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٠/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤/٣) في الزكاة: باب فضل صدقة الشحيح (١٤١٩)، و (٥/ ٤٣٩-٥٤٠) في الوصايا: باب الصدقة عند الموت (٢٧٤٨)، ومسلم (٧١٦/٢) في الزكاة: باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (٩٢-٩٣/٩٣)، وأبو داود (١٢٦/٢) في الوصايا: باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية (٢٨٦٥)، والنسائي (٦٨/٥) في الزكاة: باب أي الصدقة أفضل، و (٢٣٧/٦) في الوصايا: باب الكراهية في تأخير الوصية، وابن ماجه (٩٠٣/٢) في الوصايا: باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت (٢٧٠٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٧٨٦)، وأحمد (٢٣١/٢)، (٤٤٧، ٤١٥)، وابن خزيمة (١٠٣/٤)، برقم (٢٤٥٤)، والبيهقي (١٩٠/٤)، والبنغوي (٤٢٣/٣) برقم (١٦٦٥) من طريق عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟..... فذكره.

الإطلاق، والمستوي في الأفعال، والأقوال، والمحبة، والجماع، وغير ذلك، «وكان ﷺ يَقسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، هَذَا فِغْلِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ»^(١).

فوصف الله سبحانه حالة البشر؛ أنهم بحكم الخلقة لا يملكون مثل قلوبهم إلى بعض الأزواج، دون بعض، ثم نهى سبحانه عن الميل كل الميل، وهو أن يفعل فعلاً يقصده من التفضيل، وهو يقدر ألا يفعله، فهذا هو كل الميل، وإن كان في أمر حقير.

وقوله سبحانه: ﴿تَذَرُوهَا كَالْمعلقة﴾، أي: لا هي آيم، ولا ذات زوج، وجاء في التي قبل: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾، وفي هذه: ﴿وَإِنْ تُضِلُّوا﴾؛ لأن الأولى في مندوب إليه، وفي هذه في لازم؛ إذ يلزمه العدل فيما يملك.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾^(١٣٠)

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ...﴾ الآية: إن شح كل واحد من الزوجين، فلم يتصالحا، لكنهما تفرقا بطلاق، فإن الله تعالى يغني كل واحد منهما عن صاحبه بفضله، ولطائف صنعه في المال، والعشرة، والسعة، وجود المراتب، والتمكن منها، والواسع: معناه: الذي عنده خزائن كل شيء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾^(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١٣٢) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾^(١٣٣)

وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: تنبيه على موضع الرجاء لهذين المفترقين، ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ تنبيهاً على استغنائهِ عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه غنياً حميداً، ثم جاء بعد

(١) أخرجه أبو داود (٦٤٨/١) في النكاح: باب في القسم بين النساء (٢١٣٤)، والترمذي (٤٤٦/٣) في النكاح: باب ما جاء في التسوية بين الضرائر (١١٤٠)، وابن ماجه (٦٣٤/١) في النكاح: باب القسمة بين النساء (١٩٧١)، والنسائي في «عشرة النساء» (٦٣-٦٤): باب ميل الرجل إلى بعض نساؤه دون بعض، وأحمد (١٤٤/٦)، وابن أبي شيبة (٣٨٦-٣٨٧)، وابن حبان (١٣٠٥-موارد)، والحاكم (١٨٧/٢)، والبيهقي (٢٩٨/٧)، والدارمي (١٤٤/٢) من حديث عائشة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ مقدمة للوعيد، فهذه وجوه تَكَرَّرَ هذا الخبر الواحد ثلاث مرَّاتٍ متقاربة.

* ت *: وفي تمشيته هذه عندي نَظَرٌ، والأخسَنُ بقاء الكلام على نَسَقِهِ فقوله (رحمه الله): «تَنْبِيهِ عَلَى مَوْضِعِ الرَّجَاءِ لِهَٰذَيْنِ الْمُفْتَرَقَيْنِ» - حَسَنٌ، وإنما الذي فيه قَلَقٌ ما بعده من توجيهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ...﴾ الآية: لفظٌ عامٌ لكل مَنْ أُوتِيَ كتاباً، فَإِنَّ وَصِيَّتَهُ سبحانه لعباده لم تَرَلْ منذُ أَوَّجَدَهُمْ.

١٣٤ ب * ت *: قال الأستاذ أبو بَكْر الطَّرُطُوشِي^(١) في «سراج المُلُوكِ»: ولما ضَرَبَ ابْنُ مُلْجِمٍ^(٢) علياً (رضي الله عنه)، أَدْخَلَ مَنْزِلَهُ، فَأَعْتَرَتْهُ غَشِيَّةٌ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَدَعَا أَوْلَادَهُ؛

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي. الفهري. الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي وُلِدَ سنة ٤٥١ هـ ١٠٥٩ م وتوفي سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م، ويقال له: ابن أبي رندقة: أديب، من فقهاء المالكية، الحفاظ. من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس. تفقه ببلاده، ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ فحج وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان، وأقام مدة في الشام، وسكن الإسكندرية، فتولى التدريس واستمر فيها إلى أن توفي. وكان زاهداً لم يتشبث من الدنيا بشيء. من كتبه: «سراج الملوك - ط» و «التعليقة» في الخلافات، وكتاب كبير عارض به إحياء علوم الدين للغزالي، و «بر الوالدين» و «الفتن» و «الحوادث والبدع» و «مختصر تفسير الثعالبي - خ» و «المجالس - خ» في الرباط.

ينظر: «الأعلام» (٧/ ١٣٣-١٣٤)، و «وفيات الأعيان» (١/ ٤٧٩).

(٢) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي التدؤلي الحميري توفي سنة ٤٠ هـ ٦٦٠ م: فاتك ثائر، من أشداء الفرسان. أدرك الجاهلية، وهاجر في خلافة عمر، وقرأ على معاذ بن جبل فكان من القراء وأهل الفقه والعبادة، ثم شهد فتح مصر وسكنها فكان فيها فارس بني تدؤل، وكان من شيعة علي بن أبي طالب وشهد معه صفين. ثم خرج عليه؛ فاتفق مع «البرك» و «عمرو بن بكر» على قتل علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص، في ليلة واحدة (١٧ رمضان) وتعهد البرك بقتل معاوية، وعمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص، وتعهد ابن ملجم بقتل علي، فقصد الكوفة واستعان برجل يدعى شيباً الأشجعي، فلما كانت ليلة ١٧ رمضان كمنّا خلف الباب الذي يخرج منه عليّ لصلاة الفجر، فلما خرج، ضربه شيب فأخطأه، فضربه ابن ملجم فأصاب مقدم رأسه، فنهض من في المسجد، فحمل عليهم بسيفه فأفروا له، وتلقاه المغيرة بن نوفل بقطيفة رمى بها عليه وحمله وضرب به الأرض وقعد على صدره. وفر شيب. وتوفي عليّ من أثر الجرح. وفي آخر اليوم الثالث لوفاته أحضر ابن ملجم بين يدي الحسن فقال له: والله لأضربنك ضربة تؤديك إلى النار. فقال ابن ملجم: لو علمت أن هذا في يدك ما اتخذت إلهاً غيرك! ثم قطعوا يديه ورجليه، وهو لا ينفك عن ذكر الله. فلما عمدوا إلى لسانه شق ذلك عليه، وقال: وددت أن لا يزال فمي بذكر الله رطباً. فأجهزوا عليه، وذلك في الكوفة. وقيل: أحرق بعد قتله.

ينظر: «الأعلام» (٣/ ٣٣٩).

الْحَسَنَ، وَالْحُسَيْنَ، وَمُحَمَّدًا، فَقَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةِ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدِ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالْعَدْلِ عَلَى الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ، وَالْعَمَلِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ؛ يَا بَنِيَّ، مَا شَرُّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ بِشَرِّ، وَلَا خَيْرٌ بَعْدَهُ النَّارُ بِخَيْرٍ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ حَقِيرٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ، مَنْ أَبْصَرَ غَيْبَ نَفْسِهِ شُغِلَ عَنْ غَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِقَسَمِ اللَّهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَ سَيْفَ بَغْيٍ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ بُئْرًا وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ أَخِيهِ، كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَاتِ بَنِيهِ، وَمَنْ نَسِيَ خَطِيئَتَهُ، اسْتَغْطَمَ خَطِيئَةَ غَيْرِهِ، وَمَنْ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ. وَمَنْ جَالَسَ الْعُلَمَاءَ وَفَرَّ، وَمَنْ خَالَطَ الْأَثَدَالَ اخْتَقَرَ، وَمَنْ دَخَلَ مَذَاحِلَ السُّوءِ أَتَاهُمْ، وَمَنْ مَرَحَ اسْتَخَفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عَرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطْوُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ، يَا بَنِيَّ، الْأَدَبُ خَيْرٌ مِيرَاثٍ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ خَيْرٌ قَرِينٍ، يَا بَنِيَّ، الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ: تَسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ إِلَّا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَوَاحِدٌ فِي تَرْكِ مُجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ، يَا بَنِيَّ، زِينَةُ الْفَقْرِ الصَّبْرُ، وَزِينَةُ الْغِنَى الشُّكْرُ، يَا بَنِيَّ، لَا شَرَفَ أَعَزَّ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا كَرَمَ أَعَزَّ مِنَ التَّقْوَى، يَا بَنِيَّ، الْحِرْصُ مِفْتَاحُ الْبَغْيِ، وَمُطِئَةُ النَّصَبِ، طُوبَى لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ وَعِلْمَهُ، وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ، وَأَخَذَهُ وَتَرَكَهُ، وَكَلَامَهُ وَصَمْتَهُ، وَقَوْلَهُ وَفِعْلَهُ. انْتَهَى.

وَالْوَكِيلُ: الْقَائِمُ بِالْأُمُورِ، الْمُنْفَذُ فِيهَا مَا رَأَاهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾: مَخَاطَبَةٌ لِلْحَاضِرِينَ مِنَ الْعَرَبِ، وَتَوْقِيفٌ لِلْسَامِعِينَ؛ لَتَحْضُرَ أَذْهَانُهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿بِآخِرِينَ﴾ يُرِيدُ مِنْ نَوْعِهِمْ، وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ أَنْ تَكُونَ وَعِيدًا لِجَمِيعِ بَنِي آدَمَ، وَيَكُونُ الْآخَرُونَ مِنْ غَيْرِ نَوْعِهِمْ؛ كَالْمَلَائِكَةِ، وَقَوْلُ الطَّبْرِيِّ^(١): «هَذَا الْوَعِيدُ وَالتَّوْبِيخُ لِلشَّافِعِينَ وَالْمُخَاصِمِينَ فِي قِصَّةِ بَنِي أُبَيْرِقٍ» - بَعِيدٌ، وَاللَّفْظُ إِنَّمَا يَظْهَرُ حُسْنُ رِضْفِهِ بِعُمُومِهِ وَأَنْسَحَابِهِ عَلَى الْعَالَمِ جَمْلَةً، أَوِ الْعَالَمِ الْحَاضِرِ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١٣٤)
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَسْتُمْ فَلَانَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٥)

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ الآية: أي: من كان لا مُرَادَ له إلا في ثواب الدنيا، ولا يعتقد أن ثَمَّ سواه، فليس كما ظنَّ، بل عند الله سبحانه ثواب الدارين، فَمَنْ قَصَدَ الآخرة، أعطاه الله مِنْ ثواب الدنيا، وأعطاه قَصْدَهُ، وَمَنْ قَصَدَ الدنيا فَقَطْ، أعطاه من الدنيا ما قَدَّرَ له، وكان له في الآخرة العَذَابُ، والله تعالى سميعٌ للأقوال، بصيرٌ بالأعمال والنيات، وفي الحديث الصَّحيح، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَّا نَوَى...»^(١) الحديث، قال

- (١) أخرجه البخاري (٩/١) كتاب «بدء الوحي»، باب كيف كان بدء الوحي، حديث (١)، (١٩٠/٥) كتاب «العق»، باب الخطأ والسيان، حديث (٢٥٢٩)، (٢٦٧/٧) كتاب «مناقب الأنصار»، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث (٣٨٩٨)، (١٧/٩) كتاب «النكاح»، باب من هاجر أو عمل خيراً لتزوج امرأة فله ما نوى، حديث (٥٠٧٠)، (٥٨٠/١١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب النية في الآيمان، حديث (٦٦٨٩)، (١٢/٣٤٢-٤٣٤) كتاب «الحيل»، باب من ترك الحيل، حديث (٦٩٥٣)، ومسلم (١٥١٥/٣) كتاب «الإمارة»، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، حديث (١٩٠٧/١٥٥)، وأبو داود (٦٥١/٢)، كتاب «الطلاق»، باب فيما عني به الطلاق والنيات، حديث (٢٢٠١)، والنسائي (٥٨-٥٩) كتاب «الطهارة»، باب النية في الوضوء، والترمذي (١٧٩/٤) كتاب «فضائل الجهاد»، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء، حديث (١٦٤٧)، وابن ماجه (١٤١٣/٢) كتاب «الزهد»، باب النية، حديث (٤٢٢٧)، وأحمد (٢٥/١)، (٤٣)، والحميدي (١٦-١٧) برقم (٢٨)، وأبو داود الطيالسي (٢/٢٧-منحة) رقم (١٩٩٧)، وابن خزيمة (٧٣/١-٧٤) برقم (١٤٢)، وابن حبان (٣٨٨، ٣٨٩-الإحسان)، وابن الجارود في «المتقى» رقم (٦٤)، وابن المبارك في «الزهد» (ص ٦٢، ٦٣)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص ١٠١) برقم (٢٠٦)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/٤٤٠) برقم (٨٧١)، ووكيع في «الزهد» رقم (٣٥١)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣٦٩/١)، وابن أبي حاتم في «مقدمة الجرح والتعديل» (ص ٢١٣)، والدارقطني (٥٠-٥١) كتاب «الطهارة»، باب النية، حديث (١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٩٦/٣) كتاب «الطلاق»، باب طلاق المكره، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤٢/٨)، وفي «تاريخ أصبهان» (١١٥/٢)، (٢٢٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/٤٠٣-تهذيب)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١، ٢، ١١٧٢، ١١٧٣)، وابن حزم في «المحلى» (٧٣/١)، والبيهقي (٤١/١) كتاب «الطهارة»، باب النية في الطهارة، وفي «معركة السنن والآثار» (١٥٢/١)، و«شعب الإيمان» (٣٣٦/٥) رقم (٦٨٣٧)، و«الاعتقاد» رقم (٢٥٤)، وفي «الزهد الكبير» (ص ١٣٢) رقم (٢٤١)، وفي «الأدب» رقم (١١٣٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٢٢٤)، (٦/١٥٣)، (٩/٣٤٦-٣٤٥)، والقاضي عياض في «الإلماع» (ص ٥٤-٥٥)، باب ما يلزم من إخلاص النية في طلب الحديث وانتقاد ما يؤخذ عنه، وابن جميع في «معجم شيوخه» (ص ١١٧) رقم (٦٦)، والبخاري في «شرح السنة» (١/٥٤-بتحقيقنا)، والرافعي في «تاريخ قزوین» (٤/٧٧)، والنووي في «الأذكار» (ص ٣٣)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٢/٧٧٤)، والحافظ ابن حجر في «تغريب أحاديث المختصر» (٢/٢٤٢، ٢٤٣). كلهم من طريق يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنْ لِكُلِّ

النووي: بَلَعْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا يُحْفَظُ الرَّجُلُ عَلَى قَدَرِ نِيَّتِهِ»، وقال غيره: إِنَّمَا يُعْطَى النَّاسُ عَلَى قَدَرِ نِيَّاتِهِمْ. انتهى.

= امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح . اهـ.

وقال أبو نعيم: هذا الحديث من صحاح الأحاديث وعيونها . اهـ.

وقال ابن عساکر: هذا حديث صحيح من حديث أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب، وثابت من حديث علقمة بن وقاص الليثي لم يروه عنه غير أبي عبد الله محمد بن إبراهيم التيمي، واشتهر عنه برواية أبي سعد يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري المدني القاضي، وهو ممن انفرد به كل واحد من هؤلاء عن صاحبه، ورواه عن يحيى العدد الكثير والجم الغفير . اهـ.

قال الحافظ في «التلخيص» (٥٥/١): وقال الحافظ أبو سعيد محمد بن علي الخشاب: رواه عن يحيى بن سعيد نحو من مائتين وخمسين إنساناً، وقال الحافظ أبو موسى: سمعت عبد الجليل بن أحمد في المذاكرة يقول: قال أبو إسماعيل الهروي عبد الله بن محمد الأنصاري: كتبت هذا الحديث عن سبعة عشر نفر من أصحاب يحيى بن سعيد قلت - أي الحافظ -: تَبَعْتَهُ من الكتب والأجزاء حتى مررت على أكثر من ثلاثة آلاف جزء، فما استطعت أن أكمل له سبعين طريقاً، وقال البزار، والخطابي، وأبو علي بن السكن، ومحمد بن عتاب، وابن الجوزي، وغيرهم: إنه لا يصح عن النبي ﷺ إلا عن عمر بن الخطاب اهـ.

قلنا: وقد روى هذا الحديث غير يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم، أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٣٦/٣) من طريق الربيع بن زياد أبو عمرو الضبي، عن محمد بن عمرو، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه».

قال ابن عدي: وهذا الأصل فيه يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن إبراهيم، وقد رواه عن يحيى أئمة الناس، وأما عن محمد بن عمرو، عن محمد بن إبراهيم لم يروه عنه غير الربيع بن زياد، وقد روى الربيع بن زياد عن غير محمد بن عمرو من أهل المدينة بأحاديث لا يتابع عليها اهـ. وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم: أبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وهزال بن يزياد الأسلمي.

١ - حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه الخليلي في «الإرشاد» (٢٣٣/١)، والدارقطني في «غرائب مالك»، والحاكم في «تاريخ نيسابور»، كما في «تخريج أحاديث المختصر» لابن حجر (٢/ ٢٤٧-٢٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٤٢/٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٧٣)، كلهم من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، ثنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه» قال الخليلي: وعبد المجيد قد أخطأ في هذا الحديث الذي يرويه عن مالك في الحديث الذي يرويه مالك، والخلق عن يحيى بن سعيد الأنصاري وهو غير محفوظ =

ثم خاطَبَ سبحانه المؤمنينَ بقوله: ﴿كونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، وهو العدل، ومعنى ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، أي: لذاته، ولوجهه، ولمرضاته سبحانه، وقوله: ﴿ولو على أنفسكم﴾:

= من حديث زيد بن أسلم بوجه . اهـ.

وقال الدارقطني: تفرد به عبد المجيد عن مالك اهـ.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث مالك عن زيد تفرد به عبد المجيد، ومشهوره وصحيحه ما في الموطأ مالك، عن يحيى بن سعيد اهـ.

وقد حكم بطلان هذا الطريق أبو حاتم الرازي فقال ولده في «العلل» (١٣١/١) رقم (٣٦٢).....

سئل أبي عن حديث رواه نوح بن حبيب، عن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عن مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...» قال أبي: هذا حديث باطل لا أصل له، إنما هو مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر عن النبي ﷺ اهـ.

وقد أخرجه الحافظ ابن حجر في «تخريج المختصر» (٢٤٧/٢) من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز، عن مالك عن زيد... به.

وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال أيضاً: وعبد المجيد وثقه أحمد، وابن معين، والنسائي، وتكلم فيه أبو حاتم، والدارقطني، وقيل: إن هذا مما أخطأ فيه على مالك، والمحفوظ عن مالك عن يحيى بن سعيد بالسند المعروف المتقدم اهـ.

قلت: وقد حاول بعضهم إلصاق الخطأ بنوح بن حبيب الراوي، عن عبد المجيد كاليزار مثلاً.

فقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣٠٢/١). وقال - يعني اليزار -: في مسند الخدري حديث روي عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «الأعمال بالنية» أخطأ فيه نوح بن حبيب ولم يتابع عليه وليس له أصل عن أبي سعيد اهـ.

قلت: وفي كلام اليزار نظر، أما إن الحديث ليس له أصل عن أبي سعيد فهذا صواب، أما إلصاق الخطأ بنوح بن حبيب ودعواه أنه تفرد به ولم يتابع عليه فهذا الخطأ.

فقد توبع نوح بن حبيب على هذا الحديث، تابعه اثنان وهما: إبراهيم بن محمد بن مروان بن هشام عند الدارقطني في «غرائب مالك»، وعلي بن الحسن الذهلي عند الحاكم في «تاريخ نيسابور».

ينظر: «تخريج المختصر» لابن حجر (٢٤٧/٢ - ٢٤٨).

ومنه نعلم أن نوحاً لم يتفرد به، بل تابعه اثنان، وأن الذي تفرد به هو عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وهو الذي أخطأ في الحديث.

٢ - حديث أنس بن مالك:

أخرجه ابن عساكر في أماليه كما في «تخريج المختصر» لابن حجر (٢٤٦/٢).

وقال الحافظ: وفي سنده ضعف.

وقال الحافظ العراقي في «طرح الشريب» (٤/٢): رواه ابن عساكر من رواية يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم، عن أنس بن مالك، وقال: هذا حديث غريب جداً، والمحفوظ حديث عمر.

٣ - حديث أبي هريرة:

متعلق بـ ﴿شهداء﴾، هذا هو الظاهر الذي فُسِّر عليه الناس، وأن هذه الشهادة المذكورة هي في الحُقوق، ويحتمل أن يَكُون المعنى: شهداء لله بالوحدانية، ويتعلق قوله: ﴿ولو على أنفسكم﴾، بـ ﴿قَوَّامِينَ بالقسط﴾، والتأويل الأول أُبَيِّنُ، وشهادة المَرءِ عَلَى نفسه هو ١٣٥ إقراره بالحقائق.

قال * ص * : وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾: ضميرُ «يَكُنْ» عائدٌ إلى المشهودِ عَلَيْهِ، والضميرُ في «بِهِمَا» عائدٌ عَلَى جِنْسِي الغَنِيِّ والفَقِيرِ. انتهى.

قال * ع^(١) * : وقوله: ﴿أَوَّلَىٰ بِهِمَا﴾: أي: هو أنظر لهما، وروى الطبري^(٢)؛ أن هذه الآية هي سَبَبِ نازلةِ بَنِي أُبَيِّرٍ، وقيام مَنْ قَامَ فيها بغيرِ القسطِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾: نهْيٌ بَيْنٌ، واتباعُ الهوى مُزِدٌ مهلكٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ يحتملُ أن يكون معناه: مَخَافَةٌ أَنْ تَعْدِلُوا، ويكون العَدْلُ هنا بمعنَى العُدُولِ عن الحقِّ، ويحتملُ أن يكون معناه: مَحَبَّةٌ أَنْ تَعْدِلُوا، ويكون العَدْلُ

= قال العراقي في «طرح الثريب» (٤/٢): رواه الرشيد العطار في بعض تخاريجِه وهو وهم أيضاً. وقال ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/٢٤٦): أخرجه الرشيد العطار في فوائده بسند ضعيف.

٤ - حديث علي بن أبي طالب:

قال الحافظ العراقي في «طرح الثريب» (٤/٢): رواه محمد بن ياسر الجبائي في نسخة من طريق أهل البيت إسناده ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/٢٤٦): أخرجه أبو علي بن الأشعث وهو واه جداً.

٥ - حديث هزال بن يزيد الأسلمي:

أخرجه الحاكم في «تاريخ نيسابور»، كما في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/٢٤٨) في ترجمة أبي بكر محمد بن أحمد بن بالويه، من طريق محمد بن يونس، عن روح بن عباد، عن شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن ابن هزال عن أبيه، عن النبي ﷺ . . . فذكره. قال الحاكم: ذكرته لأبي علي الحافظ فأنكره جداً، وقال لي: قل لأبي بكر لا يحدث به بعد هذا . اهـ.

قال الحافظ: محمد بن يونس شيخه هو الكديمي وهو معروف بالضعف، والمحفوظ بالسند المذكور قصة ماعز فلعله دخل عليه حديث في حديث، وهزال هو ابن يزيد الأسلمي وهو صحابي معروف، واسم ابنه نعيم وهو مختلف في صحبته اهـ.

قلت: مما سبق تبين أن حديث «إنما الأعمال بالنيات» لم يصح إلا من حديث عمر.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/١٢٣).

(٢) ينظر: الطبري (٤/٣٢٠).

بمعنى القسْط .

وقوله تعالى: ﴿وإن تَلُوتُوا أَوْ تَعْرَضُوا...﴾ الآية: قال ابن عباس: هي في الخصْمين يجلسان بين يدي القاضي، فيكون لِي القاضي وإِعراضُهُ لأحدهما عَلَى الآخر^(١)، وقال ابن زَيْد وغيره: هي في الشُّهود يُلوي الشهادة بلسانه، أو يعرض عن أدائها^(٢).

قال * ع^(٣) : * : ولفظ الآية يعمُ القضاء والشَّهادة، والتوسُّطُ بينَ النَّاسِ، وكلُّ إنسانٍ مأخوذٌ بأنَّ يعدلَ، والخصْومُ مطلوبونٌ بعدلٍ ما في القضاة، فتأملهُ، وقد تقدَّم تفسير اللَّيِّ، وباقي الآية وعيدٌ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالَكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالَكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكُوتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٤)
وقوله تعالى: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: اختلفَ من المخاطَبِ بهذه الآية:

ف قيل: الخطابُ للمؤمنين، ومضمَّنُ هذا الأمرِ الثبوتُ والدوامُ، وقالت فرقة: الخطابُ لأهل الكتابين، ورَجَّحه الطبري، وقيل: الخطابُ للمنافقين، أي: يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا في الظَّاهر، ليكنَّ إيمانكم حقيقةً.

وقوله سبحانه: ﴿ومن يكفر بالله...﴾ إلى آخر الآية: وعيدٌ، وخبر مضمَّنهُ تحذيرُ المؤمنين مِنْ حالة الكُفر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾^(٥)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا...﴾ الآية: قال مجاهدٌ، وابنُ زَيْدٍ: الآيةُ في المنافقين، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ، ثُمَّ يَكْفُرُ، ثُمَّ يُؤْمِنُ، ثُمَّ يَكْفُرُ، ثُمَّ أَزْدَادَ كُفْرًا؛ بَأَنَّ تَمَّ عَلَى نِفَاقِهِ حَتَّى مَاتَ.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٢/٤) برقم (١٠٦٨٨)، وذكره ابن عطية (١٢٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٣/٢)، وعزاه لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الحلية».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢٣/٤) برقم (١٠٦٩٦)، وذكره ابن عطية (١٢٣/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٣/٢).

قال * ع^(١) : * وهذا هو التأويل الراجح، وتأمل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتومٌ عليهم من أول أمرهم؛ ولذلك تردّدوا، وليست هذه العبارة مثل أن يقول: لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ، بل هي أشدُّ، فتأمل الفرقَ بينَ العبارتين؛ فإنه من دقيقِ غرائبِ الفصاحةِ التي في كتابِ الله سبحانه.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ أَيْبِنُوا لَهُمْ عَذَابَهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ﴾ (١٣٩)

وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا...﴾ الآية: في هذه الآية دليلٌ ما على أن التي قبلها إنما هي في المنافقين، ثم نصّ سبحانه من صفات المنافقين على أشدها ضرراً، وهي موالاتهم الكافرين، وأطراحهم المؤمنين، ونبه على فساد ذلك؛ ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين؛ غفلةً، أو جهالةً، أو مسامحةً ثم وقفهم سبحانه على جهة التوبيخ، فقال: ﴿أَيْبِنُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾؛ والاستكثار، أي: ليس الأمر كذلك؛ فإن العزة لله جميعاً يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين، والعزة أصلها الشدة والقوة؛ ومنه: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ [مر: ٢٣] أي: غلبني بشدته.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۖ﴾ (١٤٠)

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ...﴾ الآية: مخاطبةٌ لجميع من أظهر الإيمان من محققٍ ومنافقٍ؛ لأنه إذا أظهر الإيمان، فقد لزمه أمثال أوامر كتاب الله تعالى، والإشارة بهذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] إلى نحو/ هذا من الآيات، والكتاب في هذا ١٣٥ ب الموضوع القرآن، وفي الآية دليلٌ قويٌّ على وجوب تجنب أهل البدع والمعاصي، وألا يجالسوا، وقد قيل: [الطويل]

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ مُفْتَدٍ^(٢)

وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ثم توعد سبحانه المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم، فتأكد بذلك النهي عن مجالستهم وخلطتهم.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٤/٢).

(٢) ينظر البيت في «العزلة» للخطابي ص (٦٩) وينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٦/٢).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَتَمَنَعْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ يُحْكُمَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝١٤١﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝١٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿الذين يتربصون بكم...﴾ الآية: هذه صفة المنافقين، و﴿يتربصون بكم﴾: معناه: ينتظرون دُور الدوائر عليكم، فإن كان فتح للمؤمنين، أذعنوا فيه النصيب بحكم ما يظهره من الإيمان، وإن كان للكافرين نيل من المؤمنين، أذعنوا فيه النصيب بحكم ما يبطنونه من موالاة الكفار، وهذا حال المنافقين، و﴿تستحذون﴾: معناه: تغلب على أمرهم ونحوظكم؛ ومنه: ﴿استحذو عليهم الشيطان﴾ [المجادلة: ١٩]، معناه: غلب على أمرهم، ثم سأل سبحانه المؤمنين، وأنسهم بما وعدهم به في قوله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، أي: وبينهم، وينصفكم من جميعهم، ويقول تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، أي: يوم القيامة؛ قاله علي (رضي الله عنه) ^(١)؛ وعليه جميع أهل التأويل، والسبيل هنا: الحجة والغلبة. قلت: إلا ابن العربي ^(٢) لم يرتض هذا التأويل، قال: وإنما معنى الآية أحد ثلاثة وجوه:

الأول: لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا يمحو به دولة المؤمنين، ويستبيح بيضتهم.

الثاني: لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا إلا أن يتواصوا بالباطل، ولا يتناهوا عن المنكر، ويتابعوا عن التوبة، فيكون تسلط العدو من قبلهم، وهذا نفيس جدًا.

الثالث: لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا بالشروع، فإن وجد ذلك، فبخلاف الشروع، ونزع بهذا علماؤنا؛ بالاحتجاج على أن الكافر لا يملك العبد المسلم. انتهى ^(٣).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣١/٤) برقم (١٠٧٢٠)، وذكره ابن عطية (١٢٦/٢).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٥١٠/١).

(٣) قد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة، فذهب الشافعية، والحنابلة، والمالكية في إحدى الروايتين عن أشهب إلى القول بعدم صحة شراء الكافر له... وذهب الحنفية، وابن القاسم من المالكية إلى القول بصحته. قالت الحنفية: ويجبر المشتري على بيعه وإزالة ملكه عنه.

ومخادعة المنافقين: هي لأولياء الله، ففي الكلام حَذَفُ مَضَافٍ؛ إذ لا يقصد أحد من البشر مخادعة الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: عبارة عن عقوبتهم، سَمَّاهَا بِأَسْمِ الذَّنْبِ، وقال ابنُ

= احتج الحنفية: بعمومات الكتاب والسنة الواردة في حل البيع من غير فصل بين مسلم وكافر. وحيث حل الشراء للمسلم يحل للكافر بمقتضى العموم.

وأجيب: بأن تلك العمومات مخصصة في حق الكافر بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، واحتجوا أيضاً بأن شراء الكافر للعبد المسلم عقد صدر من أهله في محله؛ لأن الكافر أهل للتصرف والعبد مال متقوم، ولهذا صح للمسلم بيعه وشراؤه، وإذا كان العقد كذلك كان صحيحاً. أما دليل أن الكافر أهل للتصرف فهو ثبوت الملك له على العبد المسلم وميراثه له وبقاء ملكه عليه حينما يسلم، وأما دليل جبر المشتري على البيع بعد صحة الشراء، فهو احتمال أن يفعل الكافر بالمسلم فعلاً لا يحل له نظراً للعداوة الدينية التي بينهما.

ونوقش هذا الدليل: بأن استدلالكم على صحة البيع بصحة الإرث غير مسلم من وجهين: أحدهما: أن انتقال الملك في الإرث قهري؛ لئلا يبقى الشيء بلا مالك، ولا كذلك البيع، فإنه اختياري، إن لم يصح بقي على ملك صاحبه الأصلي.

الثاني: أن الإرث يفيد استدامة ملك والبيع ابتداءه، والاستدامة أخف من الابتداء، حتى صح إرث المسلم للخبر؛ لكونه استدامة لا شراؤه ابتداء، فظهر الفرق بينهما فلا يقاس أحدهما على الآخر.

حجة الجمهور: احتجوا أولاً: بأن في تصحيح مثل هذا البيع طريقاً لإثبات السبيل من الكافر على المسلم؛ إذ به يتمكن من إذلاله بالاستخدام وهو محظور شرعاً فيمتنع ما أدى إليه.

ونوقش: بكون السبيل غير حاصل بالجبر على بيعه بعد تصحيحه، وأجيب: بنفي تصحيحه مع الجبر لعدم الفائدة فكان المنع ابتداء أولى.

واحتجوا ثانياً: بأن المقصود من الشراء هو استدامة الملك من المشتري على العين المشتراة وعدم خروجها من ملكه إلا برضاه، ثم في تصحيح الشراء من الكافر للعبد المسلم، مع جبره بعد ذلك على البيع إخلال بمقاصد النكاح. وعدم ترتب آثاره عليه؛ فكان خليقاً بالفساد دون الصحة، ولهذا حظر عقد الزواج من المشتركة للمسلم؛ لعدم ترتب آثار النكاح عليه، والبيع مثله.

ونوقش: بأن مثل هذا الشراء لم يخل عن الفائدة لو قلنا بتصحيحه مع الجبر؛ إذ قد ظهرت بتمامه سلطة المالك على البيع وجاز له بيعه وانتقال ملكيته إليه، وتصحيح عقده إن أراد، ومسألة الإذلال ممنوعة مع الجبر على البيع.

وأجيب: بأن تلك السلطة الحاصلة من مثل هذا الشراء كعدمها؛ لقيام أمر الجبر مسلطاً عليه. ولا شك أن الإذلال متحقق بمجرد انتقال ملكية العبد إلى الكافر؛ لأنه حينئذ يتمكن من استخدامه إن كان عبداً، واستفراشها إن كانت أمة.

هذه أدلة الفريقين بالنظر فيها نجد: أن مذهب الجمهور هو الراجح في المسألة إذ لا معنى للتصحيح مع الجبر على البيع، فكان المنع ابتداء أولى.

ينظر: «أثر الاختلاف في الأحكام» لشيخنا/ بدران أبو العينين، «المغني» لابن قدامة (٤/٤١)، «بدائع الصنائع» (٥/١٤٢)، «المبسوط» (٣/١٢٠).

جُرْنَج، وَالْحَسَن، وَالسُّدِّي، وغيرهم من المفسرين: إِنَّ هَذَا الْخَدْعَ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مُؤْمِنٍ، أَوْ مُنَافِقٍ، فَيُفْرَحُ الْمُنَافِقُونَ، وَيُظَلُّونَ؛ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَّوْا، فَإِذَا جَاءُوا إِلَى الصُّرَاطِ، طُفِيَ نُورُ كُلِّ مُنَافِقٍ، وَنَهَضَ الْمُؤْمِنُونَ^(١)، فَذَلِكَ قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فَذَلِكَ هُوَ الْخَدْعُ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ كَسَلَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَتِلْكَ حَالُ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ كَارَهَا غَيْرَ مُعْتَقِدٍ فِيهِ الصَّوَابَ، بَلْ تَقِيَّةٌ أَوْ مَصَانَعَةٌ.

قال ابنُ العَرَبِيِّ^(٢) في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، روى الأئمة مالِكٌ وغيره، عن أنسٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِينَ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِينَ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِينَ، يَجْلِسُ أَحَدُهُمْ حَتَّى إِذَا أَصْفَرَتِ الشَّمْسُ، وَكَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ يَنْفَرُ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»^(٣) قال ابنُ^(٤) العَرَبِيِّ: وَقَدْ بَيَّنَّ ١٣٦ أ تَعَالَى/ صَلَاةَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] وَمِنْ خَشَعِ خَضَعِ، وَأَسْتَمَرَ، وَلَمْ يَنْفَرِ صَلَاتَهُ، وَلَمْ يَسْتَعْجَلْ. انْتَهَى.

و ﴿مُذْنَبِينَ﴾: معناه: مُضْطَرِبِينَ لَا يَثْبُتُونَ عَلَى حَالٍ، وَالتَّذْنُبُ: الاضطرابُ، فَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مُتَرَدِّدُونَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «مِثْلُ الْمُنَافِقِ كَمِثْلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ»^(٥) بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ^(٦)، وَالْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى حَالَتِي الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ.

﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَنْجِدُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ١٤٤ إِنَّ الْكُفَّاعِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣٢/٤) برقم (١٠٧٢٦)، (١٠٧٢٧)، (١٠٧٢٨)، وذكره ابن عطية (٢/١٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٧/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن الحسن.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٥١١/١).

(٣) أخرجه مسلم (٤٣٤/١)، كتاب «المساجد»، باب استحباب التكبير بالعصر (١٩٥/٦٢٢)، ومالك (١/٢٢٠)، كتاب «القرآن»، باب النهي عن الصلاة بعد الصبح وبعد العصر (٤٦).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٥١٢/١).

(٥) أي: المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع.

ينظر: «النهاية» (٣٢٨/٣).

(٦) أخرجه مسلم (٢١٤٦/٤) كتاب «صفات المنافقين»، باب (٥٠)، حديث (٢٧٨٤/١٧)، والنسائي (٨/١٢٤) كتاب «الإيمان»، باب مثل المنافق، حديث (٥٠٣٧)، وأحمد (٣٢/٢)، والخطيب (٢٦٨/١٤) من حديث ابن عمر.

الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية: خطابه سبحانه للمؤمنين يَدْخُلُ فيه بِحُكْمِ الظَّاهِرِ الْمَنَافِقُونَ الْمَظْهُرُونَ لِلْإِيمَانِ، فِيهِ اللَّفْظُ رَفَقَ بِهِمْ، وَهَمَّ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَتَرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ لِأَنَّ هَذَا التَّوْقِيفَ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ أَلَمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفِعْلِ الْمُؤَدِّي إِلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَالْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ مَا أَلَمُوا قَطُّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيُقَوِّي هَذَا الْمَنْزَعُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: وَالْمُؤْمِنُونَ الْعَارِفُونَ الْمُخْلِصُونَ غُيِّبَ عَنْ هَذِهِ الْمَوَالَاةِ، وَهَذَا لَا يُقَالُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ، بَلِ الْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ، وَأَلْتَزَمُوا لَوَازِمَهُ، وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ.

ثم أخبر تعالى عن المنافقين؛ أنهم في الدُّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ؛ وذلك لأنهم أَسْرَى غَوَائِلَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَأَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنْ أَدَى الْمُسْلِمِينَ؛ قُلْتُ: وَأَيْضًا لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْ مَعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَوَارِقِ مَا لَمْ يُشَاهِدْ غَيْرَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فَكَانَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَعْظَمَ، وَكَانَ كُفْرُهُمْ مُحَضَّضَ عِنَادٍ، وَرُويَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَغَيْرِهِمَا؛ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْمَنَافِقُونَ فِي الدُّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فِي تَوَابِيَتْ مِنَ النَّارِ تُقْفَلُ^(١) عَلَيْهِمْ، ثُمَّ اسْتثنَى عَزَّ وَجَلَّ التَّائِبِينَ مِنَ الْمَنَافِقِينَ، وَمِنْ شُرُوطِ التَّائِبِ؛ أَنْ يُضْلِحَ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَيَعْتَصِمَ بِاللَّهِ، أَيْ: يَجْعَلُهُ مَنَعَةً، وَمَلْجَأً، وَيُخْلِصَ دِينَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِتَائِبٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: فِي رَحْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَفِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَعَدَ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ، وَهُوَ التَّخْلِيدُ فِي الْجَنَّةِ.

وقال * ص *: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: خبره مُضْمَرٌ، وَالتَّقْدِيرُ: فَأُولَٰئِكَ مُؤْمِنُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَالَهُ أَبُو الْبَقَاءِ. انْتَهَى.

ثم قال سبحانه للمنافقين: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ...﴾ الآية: أَيْ: أَيُّ مَنَفْعَةٍ لَهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَلِكَ أَوْ حَاجَةٍ؟! قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ اللُّخْمِيُّ: زَعَمَ الطَّبْرِيُّ^(٢)؛ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾: خَطَابٌ لِلْمَنَافِقِينَ، وَلَا يَكَادُ يَقُومُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ دَلِيلٌ يَقْطَعُ

(١) أخرجه الطبري (٣٣٦/٤) برقم (١٠٧٤٦، ١٠٧٤٧، ١٠٧٤٨) وذكره البغوي (٤٩٣/١).

(٢) ينظر: الطبري (٣٣٨/٤).

به، وليس في ذكر المنافقين قبله ما يقتضي أن يُحمل عليهم خاصة، مع احتمال الآية للعموم، فقطعه بأن الآية في المنافقين حكم لا يقوم به دليل. انتهى، وهو حسن؛ إذ حمل الآية على العموم أحسن.

والعجب من * ع *: كيف تبع الطبري في هذا التخصيص، ويظهر - والله أعلم - أنهما عوّلا في تخصيص الآية على قوله تعالى: ﴿وَأَمْتُمْ﴾، وهو محتمل أن يحمل في حق المنافقين على ظاهره، وفي حق المؤمنين على معنى: «دُفِئْتُمْ عَلَى إيمانكم»، والله أعلم.

والشكر على الحقيقة لا يكون إلا مقترناً بالإيمان، لكنه ذكر الإيمان تأكيداً وتنبهاً ١٣٦ ب على/ جلالة موقعه، ثم وعد سبحانه بقوله: ﴿وكان الله شاكراً عليمًا﴾: أي يتقبل أقل شيء من العمل، وينمي؛ فذلك شكر منه سبحانه لعباده، والشكور من البهائم: الذي يأكل قليلاً، ويظهر به بدنه، والعرب تقول في مثل: «أشكر من بزوجة»؛ لأنها يقال: تخضر وتنضّر بظل السحاب دون مطر، وفي قوله: ﴿عليماً﴾: تحذير ونذير إلى الإخلاص.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (٤٨) **إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** (٤٩) ﴿

وقوله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم...﴾ الآية: قراءة الجمهور^(١) بضّم الظاء، وقرئ^(٢) شاذاً بفتحها، واختلف على قراءة الجمهور، فقالت فرقة: المعنى: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا من ظلم، فلا يكره له الجهر به، ثم اختلفت هذه الفرقة في كيفية الجهر بالسوء، وما هو المباح منه، فقال ابن عباس وغيره: لا بأس لمن ظلم أن ينتصر من ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوء من القول، أي: بما يوازي الظلّامة^(٣)، وقال مجاهد وغيره: نزلت في الضيف المحول رخله، فإنه رخص له أن يجهر بالسوء من القول للذي لم يكرمه، يريد: بقدر الظلم، والظلامه^(٤)،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٩/٢)، و «البحر المحيط» (٣٩٨/٣)، و «الدر المصون» (٤٥١/٢).

(٢) وهي قراءة ابن أبي إسحاق، وزيد بن أسلم، والضحاك بن مزاحم، وابن عباس، وابن جبير، وعطاء بن السائب، وعبد الأعلى بن عبد الله بن مسلم بن يسار، ومسلم بن يسار وغيرهم.
ينظر: السابق، والمحتسب (٢٠٣/١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» بتحقيق الشيخ شاکر (٣٤٤/٩) برقم (١٠٧٤٩)، وذكره ابن عطية (٢/١٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٠/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٤١/٤) برقم (١٠٧٦٣، ١٠٧٦٥)، وذكره ابن عطية (٢/١٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٠/٢)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١). انتهى.

«وسميَّ عليّ»: صفتان لا تَقْتَنَانِ بِالْجَهْرِ بالسوء، وبالظلم أيضاً، فإنه يعلمه ويجازي
عليه، ولما ذكر سبحانه عُذْرَ الْمَظْلُومِ في أن يجهر بالسوء لظالمه، أَتْبَعَ ذَلِكَ عَرْضَ إِبْدَاءِ
الخير، وإخفائه، والعَفْوِ عن السَّوءِ، ثُمَّ وَعَدَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا
قَدِيرًا﴾ وَعَدًّا خَفِيًّا تَقْتَضِيهِ الْبَلَاغَةُ، وَرَغْبَ سُبْحَانَهُ فِي الْعَفْوِ؛ إِذْ ذَكَرَ أَنَّهَا صِفَتُهُ مَعَ الْقُدْرَةِ
عَلَى الْإِتْقَامِ.

قال * ع^(٢) *: فِي هَذِهِ الْأَفَافِ الْيَسِيرَةِ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا، قَالَ الدَّأُوْدِيُّ:
وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ؛ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِبُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَدْعُو أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يُظْلَمَ، فَقَدْ
رَخَّصَ لَهُ فِي ذَلِكَ. انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا ۝١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ
سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٢﴾

(١) أخرجه البخاري (٥٤٨/١٠)، كتاب «الأدب»، باب إكرام الضيف وخدمته، حديث (٦١٣٦)، ومسلم (٦٨/١) كتاب «الإيمان»، باب الحث على إكرام الضيف، حديث (٧٤/٧٥)، وابن ماجه (١٣١٣/٢) كتاب «الفتن»، باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧١) من طريق أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً.

وأخرجه البخاري (٣١٤/١١)، كتاب «الرفاق»، باب حفظ اللسان، حديث (٦٤٧٥)، ومسلم (١/٦٨) كتاب «الإيمان»، باب الحث على إكرام الجار، حديث (٤٧)، وأبو داود (٧٦١.٧٦٠ / ٢) كتاب «الأدب»، باب في حق الجوار، حديث (٥٤ : ٥)، والترمذي (٥٦٩/٤)، كتاب «صفة القيامة»، باب إكرام الضيف، حديث (٢٥٠٠)، وأحمد (٢٦٧/٢)، والبخاري (٣٣٦ / ٧) بتحقيقنا كلهم من طريق الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة مرفوعاً.

وأخرجه البخاري (١٦١/٩)، كتاب «النكاح»، باب الوصاة بالنساء، حديث (٥١٨٥)، ومسلم (٢/١٠٩١)، كتاب «الرضاع»، باب الوصية بالنساء، حديث (١٤٦٨/٦٠)، والبيهقي (٢٩٥/٧)، كتاب «القسم والنشوز»، باب حق المرأة على الرجل، وأبو يعلى (٨٥ / ١١) رقم (٦٢١٨) من طريق أبي حازم عن أبي هريرة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٠/٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ إلى آخر الآية: نَزَلَ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وقد تقدّم بيان هذه المعاني.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: لما ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمَفْرُقَيْنِ بَيْنَ الرُّسُلِ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، عَقَّبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ جَمِيعًا، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِيَصْرَحَ بِوَعْدِ هَؤُلَاءِ؛ كَمَا صَرَّحَ بِوَعْدِ أَوْلَئِكَ، فَبَيَّنَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُنْتَزِعِينَ.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْنَتْ فَعَقَّبُوا عَنِ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية: قال قتادة سَأَلَتِ الْيَهُودُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَاصٌّ لِلْيَهُودِ، يَأْمُرُهُمْ فِيهِ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ^(١) ونحوه عن ابنِ جُرَيْجٍ^(٢)، وزاد: «إِلَى فُلَانٍ، وَإِلَى فُلَانٍ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ»، ثم قال سبحانه؛ عَلَى جِهَةِ التَّسْلِيَةِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ»، وَفِي الْكَلَامِ مُحَذَوْفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَذْكُورُ، تَقْدِيرُهُ: فَلَا تَبَالٍ، يَا مُحَمَّدُ، مِنْ سَوْأِهِمْ وَتَشْطُطِهِمْ؛ فَإِنَّهَا عَادَتُهُمْ، وَجُمْهُورُ الْمُتَأَوِّلِينَ عَلَى أَنَّ «جَهْرَةً» مَعْمُولٌ لـ «أَرَنَا»، أَيْ: حَتَّى نَرَاهُ جَهَارًا، أَيْ: عَيْنَانَا، وَأَهْلُ السُّنَّةِ مُعْتَقِدُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَسْأَلُوا مُحَالًا عَقْلًا، لَكِنَّهُ ١٣٨ ب مُحَالٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ؛ إِذْ قَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ أَنَّهُ لَا يُرَى سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَالرُّؤْيَى فِي الْآخِرَةِ ثَابِتَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ، وَهِيَ جَائِزَةٌ عَقْلًا مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْزِيرٍ؛ كَمَا هُوَ تَعَالَى مَعْلُومٌ لَا كَالْمَعْلُومَاتِ؛ كَذَلِكَ هُوَ مَرْتَبِيٌّ، لَا كَالْمَرْتَبَاتِ سُبْحَانَهُ؛ هَذِهِ حُجَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَوْلُهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْصُ الْقَوْمِ فِي «الْبَقَرَةِ»، وَظُلْمُهُمْ: هُوَ تَعْتُهُمْ وَسْؤَالُهُمْ مَا لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾: «ثُمَّ»: لِلتَّرْتِيبِ فِي الْأَخْبَارِ، لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، التَّقْدِيرُ؛ ثُمَّ قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنْ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، وَذَلِكَ أَنَّ اتَّخَاذَ الْعِجْلِ كَانَ عِنْدَ أَمْرِ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٤٦/٤) بِرَقْم (١٠٧٧٥)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْتَوَر» (٤٢٢/٢)، وَعَزَاهُ لَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جُرَيْجٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٤٦/٤) بِرَقْم (١٠٧٧٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣١/٢).

الْمُضِيِّ إِلَى الْمَنَاجَاةِ، وَلَمْ يَكُنِ الَّذِينَ صُعِفُوا مِمَّنِ اتَّخَذَ الْعِجْلَ، لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُ كَانُوا قَدْ جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ.

وقوله سبحانه: ﴿فَعْفُونَا عَنْ ذَلِكَ﴾، يعني: بما أَمْتَحَنَهُمْ بِهِ مِنَ الْقَتْلِ لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ وَقَعَ الْعَفْوُ عَنِ الْبَاقِيْنَ مِنْهُمْ.

﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ يَمِثُّقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَوْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) وَكَفَرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْقُلُوبِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقَضَهُمْ﴾: «ما» زائدة مؤكدة، التقدير: فبنقضهم، فالآية مخبرة عن أشياء واقعوها هي ضد ما أمروا به، وحذف جواب هذا الكلام بليغ مُبْهَمٌ متروك مع ذهن السامع، تقديره: لَعَنَاهُمْ ونحوه، ثم قال سبحانه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾: أي: بعيسى، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا﴾، هو رميهم إياها بالزنا بعد رؤيتهم الآية في كلام عيسى في المهد؛ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ...﴾ الآية: هذه الآية والتي قبلها عدد الله تعالى فيهما أقوال بني إسرائيل، وأفعالهم؛ على اختلاف الأزمان، وتعاقب القرون؛ فاجتمع من ذلك توبيخ خلفهم المعاصرين لنبينا محمد ﷺ، فهذه الطائفة التي قالت: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ - غير الذين نقضوا الميثاق في الطور، وغير الذين اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، وقول بني إسرائيل إِنَّمَا هُوَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾، إنما هو إخبار من الله تعالى بصفة لعيسى، وهي الرسالة، على جهة إظهار ذنب هؤلاء المُقِرِّينَ بِالْقَتْلِ، ولزمهم الذنب، وهم لم يقتلوا عيسى؛ لأنهم صَلَبُوا ذلك الشخص؛ على أنه عيسى، وعلى أن عيسى كَذَّابٌ ليس برَسُولِ اللَّهِ، فلزمهم الذنب من حيث اعتقدوا أن قتلهم وَقَعَ فِي عِيسَى.

قال ص * و ﴿عِيسَى﴾: بدل أو عطف بيان من ﴿المسيح﴾، و ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ كذلك، ويجوز أن يكون صفة لـ ﴿عِيسَى﴾، وأن يكون نصباً على إضمار أعني.

قُلْتُ: وهذا الأخير أحسنها من جهة المعنى. انتهى.

ثم أخبر سبحانه أن بني إسرائيل ما قَتَلُوا عِيسَى، وما صَلَبُوهُ، ولكن شُبِّهَ لَهُمْ، واختلفت الرواة في هذه القصة، والذي لا يَشْكُ فِيهِ أَنَّ عِيسَى - عليه السلام - كان يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ ويدعو إلى الله، وكانت بنو إسرائيل تَطْلُبُهُ، وَمَلِكُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ يجعل عليه

الْجَعَائِلَ، وَكَانَ عَيْسَى قَدْ أَنْصَوَى إِلَيْهِ الْحَوَارِثُونَ يَسِيرُونَ مَعَهُ؛ حَيْثُ سَارَ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، شَعَرَ بِأَمْرِ عَيْسَى، فَرُويَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ جُعِلَ لَهُ جُغْلٌ، فَمَا زَالَ يَنْقُرُ عَنْهُ؛ حَتَّى دَلَّ عَلَى مَكَانِهِ، فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى وَأَصْحَابُهُ بِتَلَاخُقِ الطَّالِبِينَ بِهِمْ، دَخَلُوا بَيْتًا بِمَرَأَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرُويَ أَنَّهُمْ عَدُّوهُمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَرُويَ: ثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَحُصِرُوا لَيْلًا، فَرُويَ أَنَّ عَيْسَى فَرَقَ الْحَوَارِثِينَ عَنْ نَفْسِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَوَجَّهَهُمْ إِلَى الْآفَاقِ، وَبَقِيَ هُوَ وَرَجُلٌ مَعَهُ، فَرَفَعَ عَيْسَى، وَأَلْقَى شَبَّهُهُ عَلَى الرَّجُلِ، فَصَلَبَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَرُويَ أَنَّ الشَّبَّهَ ١١٣٤ أَلْقَى عَلَى الْيَهُودِيِّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، فَصَلَبَ، وَرُويَ أَنَّ عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - لَمَّا أُحِيطَ بِهِمْ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَّهِي، فَيُقْتَلُ، وَيُخْلَصُ هَؤُلَاءِ، وَهُوَ زَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ سِرْجِسُ: أَنَا، فَأَلْقَى عَلَيْهِ شَبَّهَ عَيْسَى، وَرُويَ أَنَّ شَبَّهَ عَيْسَى أَلْقَى عَلَى الْجَمَاعَةِ كُلِّهَا، فَلَمَّا أَخْرَجَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، نَقَصُوا وَاحِدًا مِنَ الْعِدَّةِ، فَأَخَذُوا وَاحِدًا مِمَّنْ عَلَيْهِ الشَّبَّهَ حَسَبَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، فَصَلَبُوهُ، وَرُويَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالْمَتَنَوِّلِينَ لَمْ يَخَفَ عَلَيْهِمْ أَمْرُ رَفْعِ عَيْسَى، لِمَا رَأَوْهُ مِنْ نَقْصَانِ الْعِدَّةِ، وَاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ...﴾ الآية: يعني اختلاف المحاولين لأخذه؛ لأنهم حين فقدوا واحداً من العدد، وتحدث برُفع عيسى، اضطربوا، واختلفوا، لكن أجمعوا على صلب واحدٍ من غير ثقة، ولا يقين، أنه هو.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، قال ابن عباس^(١) وجماعة: المعنى: وما صحَّ ظنُّهم عندهم، ولا تحقَّقوه يقيناً، فالضميرُ في «قتلوه» عندهم عائِدٌ على الظَّنِّ؛ كما تقول: مَا قَتَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ عِلْماً، قُلْتُ: وعبارَةُ السُّدِّيِّ: «وَمَا قَتَلُوا أَمْرَهُ يَقِينًا أَنَّ الرَّجُلَ هُوَ عَيْسَى»^(٢). انتهى من «مختصر الطَّبْرِيِّ»، وقال قومٌ: الضميرُ عائِدٌ على عيسى، أخبر سبحانه أنهم مَا قَتَلُوهُ فِي الْحَقِيقَةِ جَمَلَةً وَاحِدَةً، لَا يَقِينًا وَلَا شَكًّا، لَكِنْ لَمَّا حَصَلَتْ فِي ذَلِكَ الدَّعْوَى، صَارَ قَتْلُهُ عَنْدهم مُشْكُوكاً فِيهِ، وَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اللَّسَانِ: الْكَلَامُ تَامٌّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، وَ﴿يَقِينًا﴾: مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ لِلنَّفْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، الْمَعْنَى: نَخْبَرُكُمْ يَقِينًا، أَوْ نَقْصُ عَلَيْكُمْ يَقِينًا، أَوْ أَيَقُنُوا بِذَلِكَ يَقِينًا.

وقال * ص: * بعد كلام: والظاهرُ أَنَّ الضميرَ في «قتلوه» عائِدٌ إِلَى عَيْسَى لِتَجَدُّ الضَّمَانِ، وَ﴿يَقِينًا﴾: مَنْصُوبٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ «قتلوه»: أَي: مُسْتَيَقِنِينَ أَنَّهُ

(١) ذكره ابن عطية (١٣٤/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (١٣٤/٢).

عيسى، أو نعت لمصدرٍ محذوف، أي: قتلاً يقيناً. انتهى.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨)

وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾: يعني: إلى سماؤه وكرامته، وعيسى - عليه السلام - في السماء؛ على ما تضمنه حديث الإسراء في ذكرِ ابْنِي الخالة عيسى ويحيى، ذكره البخاري في حديث^(١) المعراج، وذكره غيره، وهو هنالك مُقيمٌ؛ حتى يُنْزله الله تعالى لِقَتْلِ الدَّجَالِ، وليملأ الأرض عدلاً ويحيي فيها أربعين سنةً، ثم يموت، كما يموت البشر.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١٥٩)

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: اختلف في معنى الآية:

فقال ابن عباس^(٢) وغيره: الضميرُ في ﴿مَوْتِهِ﴾ راجعٌ إلى عيسى، والمعنى: أنه لا يبقى من أهل الكتاب أحدٌ، إذا نزلَ عيسى إلى الأرض، إلا يؤمنُ بعيسى؛ كما يؤمنُ سائرُ البشر، وترجعُ الأديانُ كلها واحداً، يعني: يرجعون على دينِ نبينا محمد ﷺ؛ إذ عيسى واحدٌ من أمته وعلى شريعته، وأئمتنا ممّا كما ورد في الحديث الصحيح.

وقال مجاهدٌ وابنُ عباس أيضاً وغيرهما: الضميرُ في ﴿بِهِ﴾ لعيسى، وفي ﴿مَوْتِهِ﴾ للكتابي، لكن عند المعاينة للموت فهو إيمانٌ لا ينفعه^(٣)، وقال عكرمة: الضميرُ في ﴿بِهِ﴾ لنبينا محمد ﷺ و ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ للكتابي^(٤) قال: وليس يخرج يهودي ولا نصراني من الدنيا حتّى يؤمن بمحمد ﷺ، ولو غرق أو سقط عليه جدارٌ، فإنه يؤمن في ذلك الوقت، وفي مُصحف أبي بن كعب: «قَبْلَ مَوْتِهِمْ»، ففي هذه القراءة تقوية لعود الضمير على الكتابي^(٥).

قال * ص *: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية: «إِنْ»: هنا نافية، والمخبرُ عنه

(١) سيأتي تخريجه مفصلاً في سورة الإسراء.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٦/٤) برقم (١٠٧٩٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٣٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٩/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (١٣٤/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (١٣٤/٢).

(٥) ذكره ابن عطية (١٣٤/٢).

١٣٩ ب محذوف قَامَتْ صِفَتُهُ مَقَامَهُ، أي: وما أحدٌ من أهل الكتاب؛ كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْهُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤] أي: وما أحدٌ منا، وما أحدٌ منكم، قال الشيخ أبو حيان^(١): ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾: جوابُ قَسَمٍ محذوف، والقَسَمُ وجوابُهُ هو الخبرُ، وكذلك أيضاً ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ﴾ و ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾، هُما الخبرُ، قال الزجاج: وحذف «أحد» مطلوبٌ في كلِّ نفيٍ يدخله الاستثناء؛ نحو: مَا قَامَ إِلَّا زَيْدٌ، أي: ما قام أحدٌ إلا زيد. انتهى.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمَوالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١] لكن الرِّبَا في العلمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

وقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ...﴾ الآية: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾: معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، والطَّيِّبَاتُ هنا: هي الشُّحُومُ، وبغضِ الذَّبَائِحِ، والطَّيْرِ وَالْحُوتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وقرأ ابن عباس^(٢): «طَيِّبَاتٍ كَانَتْ أُحِلَّتْ لَّهُمْ».

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾: يحتملُ أن يريدَ صَدَّهُمْ فِي ذَاتِهِمْ، ويحتملُ أن يريدَ صَدَّهُمْ غَيْرَهُمْ، ﴿وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا﴾، هو الدرهمُ بالدرهمَيْنِ إِلَى أَجَلٍ، ونحو ذلك ممَّا هو مَفْسَدَةٌ، وقد نُهُوا عنه، ثم استثنى سبحانه الراسخين في العلمِ منهم؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَمُخَيْرِيقٍ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُم.

واختلف الناس في قوله سبحانه: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾، وكيف خالفَ إعرابُها إعرابَ ما تقدَّم وما تأخر.

فقال بعضُ نحاة البَصْرَةِ والكُوفَةِ: إنما هذا مِنْ قَطْعِ النُّعُوتِ، إِذَا كَثُرَتْ عَلَى النِّصْبِ بِ «أَعْيَنِي» والرفعُ بعد ذلك بِ «هُم»؛ وقال قومٌ: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾: عَطَفَ عَلَى «مَا» في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، والمعنى: ويؤمنون بالمقيمِينَ الصَّلَاةَ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وقال قومٌ: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾: عَطَفَ عَلَى الضَّمِيرِ فِي مِنْهُمْ، وقال آخرون: بل على الكَافِ في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤٠٦/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٥/٢)، و «البحر المحيط» (٤١١/٣)، و «الدر المصون» (٤٦١/٢).

وزاد ص: ﴿والمقيمين﴾ منصوبٌ على المَدْح، قال: وقرأ جماعة: «والمقيمُونَ»^(١) انتهى.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُرًا﴾ ﴿١٦٢﴾ وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٥﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ الآية: سَبَبُ نزولها قولُ بعضِ أحرارِ يَهُودَ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ...﴾ ﴿الأنعام: ٩١﴾ فأنزل الله سبحانه الآية؛ تكذيباً لهم.

قال * ع^(٢): ﴿إسماعيلُ هو الذبيح؛ في قول المحققين، والوَخِيُّ: إلقاء المعنى في خفاء، وعُزْفُهُ في الأنبياء بوساطة جبريل - عليه السلام -، وكَلَّمَ اللَّهُ سبحانه موسى بكلام دون تكليف، ولا تحديد، ولا حرف، ولا صوت، والذي عليه الراسخون في العلم؛ أنَّ الكلام هو المعنى القائم في النفس، ويخلق الله لموسى إدراكاً من جهة السَّمْعِ يتحصَّل به الكلام، وكما أنَّ الله تعالى موجودٌ لا كالموجودات، معلومٌ لا كالمعلومات؛ فكذلك كلامُهُ لا كالكلام.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٦٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...﴾ الآية: رُسُلًا: بدلٌ من الأول، وأراد سبحانه أن يقطع بالرُّسُلِ احتجاجَ مَنْ يقول: لو بُعِثَ إِلَيَّ رَسُولٌ، لَأَمْنْتُ، واللَّهُ سبحانه «عزیزٌ»؛ لا يغالبُهُ شيءٌ، ولا حُجَّةٌ لأحدٍ عليه، حَكِيمٌ في أفعاليه، فقطع الحُجَّةَ بالرُّسُلِ؛ حِكْمَةً منه سبحانه.

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلُوهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

(١) وممن قرأ بها: عبد الله، ومالك بن دينار، والجحدري، وعيسى الثقفي.

ينظر: «المحتسب» (٢٠٤/١)، و«الكشاف» (٥٩٠/١)، و«المحرر الوجيز» (١٣٥/٢)، وزاد نسبتها إلى الأعمش، وسعيد بن جبیر، ورواية يونس وهارون عن أبي عمرو، وينظر: «البحر المحيط» (٣/٤١١)، و«الدر المصون» (٢/٤٦١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (١٣٦/٢).

﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

وقوله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك...﴾ الآية: سببها قول اليهود: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال * ص *: «لكن»: استدراك، ولا يُبتدأ بها، فيتعين تقدير جملة قبلها بينها سبب النزول، وهو أنه لما نزل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣]، قالوا: ما نشهد لك بهذا؛ فنزل: ﴿لكن الله يشهد﴾. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾، هذه الآية من أقوى متعلقات أهل السنة في إثبات علم الله عز وجل؛ خلافاً للمعتزلة في أنهم يقولون: عالم بلا علم، والمعنى عند أهل السنة: أنزله، وهو يعلم/ إنزاله ونزوله.

وقوله سبحانه: ﴿والملائكة يشهدون﴾: تقوية لأمر نبينا محمد ﷺ، ورد على اليهود.

وقوله تعالى: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾، تقديره: وكفى الله شهيداً، لكنه دخلت الباء؛ لتدل على أن المراد أكتفوا بالله، وباقي الآية بين.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧٠﴾ يَأْتِيهِ الْكِتَابُ لَا تَحْشُرُ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

وقوله تعالى: ﴿يأيتها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم...﴾ الآية: خطاب لجميع الناس، وهي دعاء إلى الشزع، ولو كانت في أمر من أوامر الأحكام، ونحو هذا، لكانت: «يأيتها الذين آمنوا»، والرسول في الآية: نبينا محمد ﷺ، ثم قال سبحانه: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض﴾، وهذا خبر بالاستغناء، وأن ضرر الكفر إنما هو

نازل بهم، ثم خاطب سبحانه أهل الكتاب من النصارى، وهو أن يدعوا الغلو، وهو تجاوز الحد.

وقوله: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾: معناه: في دين الله الذي أنتم مطلوبون به؛ بأن تؤحدوا الله، ولا تقولوا على الله إلا الحق، وليست الإشارة إلى دينهم المضلل، وعن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه)، عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ»^(١) رواه مسلم، والبخاري والنسائي، وفي مسلم: «أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ». انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: الذين من جملتهم: عيسى، ومحمد عليهما السلام..

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: «إِنَّمَا»؛ في هذه الآية: حاصرة، و «سُبْحَانَهُ»: معناه: تنزيهاً له، وتعظيماً، والاستنكاف إِبَاءَةً بِأَنْفَةٍ.

قال * ع^(٢): وقوله سبحانه: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: زيادة في الحجة، وتقريب من الأذهان، أي: وهؤلاء الذين هم في أعلى درجات المخلوقين لا يستنكفون عن ذلك، فكيف بسواهم، وفي هذه الآية دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء.

وقوله سبحانه: ﴿فَسِيحِشْرَهُمْ﴾: عبارة وعيد.

قال * ع^(٣): وهذا الاستنكاف إنما يكون من الكفار عن اتباع الأنبياء، وما جرى مجراه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

(١) أخرجه البخاري (٥٤٦/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب قوله: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾، حديث (٣٤٣٥)، ومسلم (٥٧/١)، كتاب «الإيمان»، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، حديث (٢٨/٤٦)، وأحمد (٣١٣/٥)، والنسائي في «الكبرى» (٢٧٧/٦ - ٢٧٨)، كتاب «عمل اليوم والليلة»، باب ما يقول عند الموت، حديث (١٠٩٦٩)، والبخاري في «شرح السنة».. (١/١١٥ - بتحقيقنا) كلهم من طريق جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت به.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٠/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٠/٢).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بَرَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآية: إشارة إلى نبينا محمد ﷺ، والبرهان: الحجة الثبوتية الواضحة التي تُعطي اليقين التام، والثبوت المبين: يعني القرآن؛ لأن فيه بيان كل شيء، وفي «صحيح مسلم»، عن زيد بن أرقم، قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشرٌ مثلكم يوشك أن يأتيَنِّي رسولُ ربِّي، فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما كتابُ الله؛ فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا»، فحث على كتاب الله، ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله؛ ثلاثاً في أهل بيتي...»^(١) الحديث، وفي رواية: «كتابُ الله؛ فيه الهدى والنور من استمسك به، وأخذ به، كان على الهدى، ومن أخطأه، ضل»، وفي رواية: «ألا وإني تاركٌ فيكم ثقلين: أحدهما: كتابُ الله، وهو حبلُ الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة». انتهى.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَفَضْلِ وَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥)

١٤٠ ب وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾: أي: اعتصموا بالله، ويحتمل: اعتصموا بالقرآن؛ كما قال - عليه السلام -: «القرآن حبلُ الله المتين؛ من تمسك به عصم»^(٢)، والرحمة والفضل: الجنة ونعيمها، و «يَهْدِيهِمْ»: معناه: إلى الفضل، وهذه هداية طريق الجنان؛ كما قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِالْهَمِّ...﴾ [محمد: ٥] الآية؛ لأن هداية الإرشاد قد تقدمت، وتحصلت حين آمنوا بالله واعتصموا بكتابه، فيهديهم هنا بمعنى: يُعرِّفهم، وباقي الآية بين.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَكُمْ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا رَزَقَ وَهُوَ بِرِثَتِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا النِّسْأَانِ مِمَّا رَزَقَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَّتَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦)

(١) أخرجه مسلم (١٨٧٣/٤)، كتاب «فضائل الصحابة»، باب فضل علي بن أبي طالب، حديث (٣٦/٢٤٠٨)، وأحمد (٣٦٦-٣٦٧)، والدارمي (٤٣١-٤٣٢)، كتاب «فضائل القرآن»، باب فضل من قرأ القرآن، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٦٨/٤)، وابن أبي عاصم في «السنن» رقم (١٥٥٠)، والطبراني في «الكبير» رقم (٥٠٢٦)، والبغوي في «شرح السنن» (٧/٢٠٥ - بتحقيقنا).

(٢) تقدم في أول التفسير.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، قد تقدّم القول في تفسير «الْكَلَالَةِ» في صدر السورة، وكان أمر الكَلَالَةِ عندَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) مُشْكِلًا، والله أعلم، ما الذي أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْهَا، وقول النبي ﷺ لَهُ: «تَكْفِيكَ مِنْهَا آيَةُ الصَّيْفِ»^(١) الَّتِي نَزَلَتْ فِي آخِرِ سُورَةِ «النِّسَاءِ» بَيَانٌ فِيهِ كِفَايَةٌ، قال كثيرٌ من الصحابة: هذه الآية هي من آخر ما نَزَلَ.

وقوله سبحانه: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾: التقدير: لئلا تَضِلُّوا، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، سبحانه، صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

(١) أخرجه مسلم (١٢٣٦/٣)، كتاب «الفرائض»، باب ميراث الكلاله (١٦١٧/٩)، بلفظ: ألا تكفيك آية الصيف التي في أواخر سورة النساء، وأخرجه أبو داود (١٢٠/٣)، كتاب «الفرائض»، باب من كان ليس له ولد وله أخوات (٢٨٨٩)، بلفظ: تجزيك آية الصيف.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذِهِ السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِلَّا مَا بَيْنَ عَلَيْكُمْ عِدًّا مُحِلًّا
الضَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ الآية عامة في الوفاء بالعقود، وهي الرُّبُوطُ في القول، كان ذلك في تعاهد على برٍّ أو في عُقْدَةِ نِكَاحٍ، أو بَيْعٍ، أو غيره، فمعنى الآية أُمِرَ جميع المؤمنين بالوفاء على عَقْدٍ جَارٍ عَلَى رِسْمِ الشريعة، وَفَسَّرَ بعض الناس لَفْظَ «العقود» بِالْعُهُودِ، وقال ابنُ شِهَابٍ: قرأتُ كتابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الذي كَتَبَ لِعَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ^(١) حِينَ بَعَثَهُ إِلَى نَجْرَانَ، وفي صَدْرِهِ: «هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، فكتب الآياتِ إِلَى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾»^(٢)

(١) هو: عمرو بن حزم بن زيد بن لؤذان بن عمرو بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار. أبو الضحاك. الأنصاري. الخزرجي ثم النجاري. أمه من بني ساعدة.

قال ابن حجر في «الإصابة»: شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبي على نجران، روى عنه كتاباً كتبه له فيه الفرائض والزكاة والديات وغير ذلك، أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن حبان، روى عنه ابنه محمد وجماعة، توفي بالمدينة سنة (٥١) وقيل (٥٤): أنه توفي بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب.

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢١٤/٤)، «الإصابة» (٢٩٣/٤)، «الثقات» (٢٦٧/٣)، «الاستيعاب» (١١٧٢/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٤٠٤/١)، «بقي بن مخلد» (٢٩٧)، «الاستيعاب» (٧٣)، «الجرح والتعديل» (٢٢٤/٦)، «التاريخ الكبير» (٣٠٥/٦)، «تقريب التهذيب» (٦٨/٢)، «تهذيب التهذيب» (٦٨/٢)، «تهذيب الكمال» (١٠٢٩/٢)، «التحفة اللطيفة» (٢٩٥/٣)، «عنوان النجاة» (١٣٨)، «الكاشف» (٣٢٦)، «الأعلام» (٧٦/٥)، «الطبقات الكبرى» (٢٦٧/١)، «التاريخ لابن معين» (١٥٣/٢)، «بقي بن مخلد» (٢٩٧)، «العبر» (٥٨)، «معجم الثقات» (٣١٤).

(٢) أخرجه النسائي (٥٧/٨)، كتاب «القسماء»، باب ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول واختلاف الناقلين له، حديث (٤٨٥٣)، والدارمي (٣٨١/١) - كتاب الزكاة، باب في زكاة الغنم، وأبو داود في «المراسيل» رقم (٢٥٨، ٢٥٩)، والحاكم (٣٩٧-٣٩٥)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/٣٤)، والبيهقي (٨٩/٤) كتاب «الزكاة»، باب كيف فرض الصدقة، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/٣٣٩-٣٤١)، وابن حبان (٧٩٣- موارد)، وابن حزم في «المحلى» (٤١١/١٠) كلهم من طريق =

[المائدة: ٤].

قال ع^(١) *: وأصوب ما يقال في هذه الآية: أن تعمم ألفاظها بغاية ما تتناول، فيعمم لفظ المؤمنين في مؤمني أهل الكتاب، وفي كل مظهر للإيمان، وإن لم يبطئه، وفي المؤمنين حقيقة، ويعمم العقود في كل ربط بقول موافق للحق والشرع.

وقوله تعالى: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ اختلف في معنى ﴿بهيمة الأنعام﴾.

فقال قتادة وغيره: هي الأنعام كلها.

ع^(٢) *: كأنه قال: أحلت لكم الأنعام. وقال الطبري^(٣): قال قوم: بهيمة الأنعام: وحشها، وهذا قول حسن؛ وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج، وأنضاف إليها من سائر الحيوان ما يقال له: أنعام بمجموعه معها، والبهيمة في كلام العرب: ما أبهم من جهة نقص النطق والفهم.

= سليمان بن داود، حدثني الزهري، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده. وصححه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي.

وقال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على «المحلى» (٨٢/١): وهو إسناد صحيح، وأخرجه مالك (٢/٨٤٩) كتاب «العقول»، باب ذكر العقول، حديث (١)، والشافعي في «الأم» (٥٧١/٨)، والنسائي (٨/٦٠) كتاب القسامة، والبيهقي (٧٣/٨، ٨٢) كلهم من طريق عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه «أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم في العقول: «أن في النفس مائة من الإبل، وفي الأنف إذا أوعى جدعاً مائة من الإبل، وفي المأمومة ثلث الدية، وفي الجائفة مثلها، وفي العين خمسون، وفي الرجل الواحدة خمسون، وفي كل إصبع مما هنالك عشر من الإبل، وفي السن خمس، وفي الموضحة خمس».

وأخرجه عبد الرزاق مختصراً (٣١٦/٩) رقم (١٧٣٥٨) من طريق معمر، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن جده. ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الدارمي (٣٨١/١)، وابن خزيمة (١٩/٤) رقم (٢٢٦٩)، والدارقطني (٢١٠/٣) رقم (٣٧٩)، وتابع معمر ابن إسحاق. أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/٤١٣-٤١٥).

وأخرجه النسائي (٥٩/٨) كتاب «القسامة»، من طريق ابن وهب، ثنا يونس بن يزيد، عن الزهري قال: قرأت كتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم. وأخرجه الدارقطني (٢٠٩/٣) رقم (٣٧٧) من طريق محمد بن عمار، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: كان في كتاب عمرو بن حزم..... فذكره.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٤/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٤/٢).

(٣) ينظر: الطبري (٣٨٩/٤).

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: استثناء ما تلي في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ...﴾ [المائدة: ٣] الآية: «وما» في موضع نصب؛ على أصل الاستثناء.

وقوله سبحانه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ...﴾: نصب «غير»؛ على الحال من الكاف والميم في قوله: ﴿أَجِلَّتْ لَكُمْ﴾، وهو استثناء بعد استثناء.

قال * ص *: وهذا هو قول الجمهور، واعتراض بأنه يلزم منه تقييد الحلية بحالة كونهم غير محلين الصيد، وهم حرم، والحلية ثابتة مطلقاً.

قال * ص *: والجواب عن هذا؛ أن المفهوم هنا متروك؛ لدليل خارجي، وكثير في القرآن وغيره من المفهومات المتروكة لمعارض، ثم ذكر ما نقله أبو حيان/ من الوجوه التي لم يرتضها.

* م *: وما فيها من التكلف، ثم قال: ولا شك أن ما ذكره الجمهور من أن «غير» حال، وإن لزم عنه الترك بالمفهوم، فهو أولى من تخريج تنبؤ عنه المفهوم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾: تقوية لهذه الأحكام الشرعية المخالفة لمعهود أحكام الجاهلية، أي: فأنت أيها السامع لنسخ تلك التي عهدت، تنبئة، فإن الله الذي هو مالك الكل يحكم ما يريد لا معقب لحكمه سبحانه.

قال * ع ^(١) *: وهذه الآية مما تلوح فصاحتها، وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بصر بالكلام، ولمن عنده أدنى إِبْصَارٍ، وقد حكى النقاش؛ أن أصحاب الكندي ^(٢) قالوا للكندي: أيها الحكماء، أعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل لكم مثل بعضه، فأحتجب أياماً كثيرة، ثم خرج، فقال: والله، ما أقدر عليه، ولا يطيق هذا أحد؛ إني فتحت المصحف، فخرجت سورة المائدة، فنظرت، فإذا هو قد أمر بالوفاء، ونهى عن

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٥/٢).

(٢) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أبو يوسف: فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. نشأ في البصرة. وانتقل إلى بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. وألف وترجم وشرح كتباً كثيرة. يزيد عددها على ثلاثمائة. ولقي في حياته ما يلقاه أمثاله من فلاسفة الأمم، فوشي به إلى المتوكل العباسي، فضرب وأخذت كتبه، ثم ردت إليه. وأصاب عند المأمون والمعتمد منزلة عظيمة وإكراماً. قال ابن جليل: «ولم يكن في الإسلام غيره احتذى في تواليه حذو أرسطاطاليس».

تنظر ترجمته في: «الأعلام» (١٩٥/٨) (١٧٦٩)، «طبقات الأطباء» (٢٠٦/١ - ٢١٤)، «لسان الميزان» (٣٠٥/٦).

الثُّكُثِ، وحُلِّلَ تحليلًا عامًا، ثم أَسْتَشْنَى استثناءً بعد استثناءٍ، ثم أخبر عن قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي سَطْرَيْنِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِهَذَا إِلَّا فِي أَجْلَادٍ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْتِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أُمَيْنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعَاتِرَ اللَّهِ﴾: خطابٌ للمؤمنين حقًّا؛ ألاَّ يَتَعَدَّوْا حَدُودَ اللَّهِ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، قَالَ عطاء بنُ أَبِي رَبَاحٍ: سَعَاتِرُ اللَّهِ جَمِيعُ مَا أَمَرَ بِهِ سَبْحَانَهُ، أَوْ نَهَى عَنْهُ ^(١)، وَهَذَا قَوْلٌ رَاجِعٌ، فَالسَّعَاتِرُ: جَمْعُ شَعِيرَةٍ، أَيُّ: قَدْ أَشْعَرَ اللَّهُ أَنَّهَا حَدُّهُ وَطَاعَتُهُ، فَهِيَ بِمَعْنَى مَعَالِمِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ﴾: أَيُّ: لَا تَحِلُّوهُ بِقِتَالٍ وَلَا غَارَةٍ، وَالْأُظْهَرُ أَنَّ الشَّهَرَ الْحَرَامَ أُريدَ بِهِ رَجَبٌ؛ لِشِدَّةِ أَمْرِهِ، وَهُوَ شَهْرٌ كَانَ تَحْرِيمُهُ مُخْتَصًّا بِقَرِيشٍ، وَكَانَتْ تَعْظُمُهُ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أُريدَ بِهِ الْجَنَسُ فِي جَمِيعِ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾: أَيُّ: لَا يَسْتَحِلُّ وَلَا يُغَارُ عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُقْلَدَ مِنْهُ تَأْكِيدًا وَمِبَالِغَةً فِي التَّنْبِيهِ عَلَى الْحُزْمَةِ فِي التَّقْلِيدِ، هَذَا مَعْنَى كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٢).

وَقَالَ الْجُمْهُورُ: الْهَدْيُ عَامٌّ فِي أَنْوَاعٍ مَا يُهْدَى قُرْبَةً، وَالْقَلَائِدُ: مَا كَانَ النَّاسُ يَتَقَلَّدُونَهُ مِنْ لِحَافِ السَّمَرِ وَغَيْرِهِ؛ أَمَنَةً لَهُمْ.

وَقَالَ * ص * : ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾: أَيُّ: وَلَا ذَوَاتِ الْقَلَائِدِ، وَقِيلَ: بَلِ الْمَرَادُ الْقَلَائِدُ نَفْسُهَا؛ مِبَالِغَةً فِي النَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ لِلْهَدْيِ. انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أُمَيْنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾: أَيُّ: قَاصِدِيْنَهُ مِنَ الْكُفَّارِ؛ الْمَعْنَى: لَا تَحِلُّوهُمْ، فَتُغْيَرُونَ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِ «آيَةِ السَّيْفِ»؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] فَكُلُّ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِمَّا يَتَصَوَّرُ فِي مُسْلِمٍ حَاجٍّ، فَهُوَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٩٢/٤) برقم (١٠٩٤١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٢٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٠/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٩٥/٤) برقم (١٠٩٥١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٩/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

مُخَكَّم، وكلُّ ما كان منها في الكُفَّار، فهو مُسْوَح.

وقوله سبحانه: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾، قال فيه جمهور المفسرين: معناه: يبتغون الفضل من الأرباح في التجارة، ويبتغون مع ذلك رضوانه في ظنهم وطمعهم، وهذه الآية نزلت عام الفتح، وفيها استتلاف من الله سبحانه للعرب، ولطف بهم؛ لتبسط النفوس؛ بتدخل الناس، ويردّون المومنين، فيسمعون القرآن، ويدخل الإيمان في قلوبهم، وتقوم عليهم الحجة؛ كالذي كان، ثم نسخ الله ذلك كله بعد عام في سنة تسع؛ إذ حجّ أبو بكر (رضي الله عنه)، ونودي في الناس بسورة «براءة».

١٤١ ب وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾: مجيء / إباحة الصيد عقب التشديد فيه حسن في فصاحة القول.

وقوله سبحانه: ﴿فَاصْطَادُوا﴾: أمر، ومعناه الإباحة؛ بإجماع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: معناه: لا يكسبنكم، وجرم الرجل: كسب، وقال ابن عباس: معناه: لا يحملنكم^(١)، والمعنى: متقارب، والتفسير الذي يخص اللفظة هو معنى الكسب.

وقوله تعالى: ﴿شَنَّانَ قَوْمٍ﴾: الشنآن: هو البغض، فأما من قرأ شَنَّان - بفتح النون -، فالأظهر فيه أنه مصدر؛ كأنه قال: لا يكسبنكم بغض قوم من أجل أن صدوكم عدواناً عليهم وظلماً لهم، وهذه الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، حين أراد المسلمون أن يستطيلوا على قريش، وألفافها المتظاهرين على صد رسول الله ﷺ، وأصحابه عام الحديبية، وذلك سنة ست من الهجرة، فحصلت بذلك بغضة في قلوب المؤمنين، وحيلة للكفار، فنهى المؤمنون عن مكافأتهم، وإذ لله فيهم إرادة خير، وفي علمه أن منهم من يؤمن كالذي كان. وقرأ أبو عمرو^(٢)، وابن كثير: «إِنْ صَدُّوكُمْ»، ومعناه: إن وقع مثل ذلك في

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٢/٤) برقم (١٠٩٩٣)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٨/٢)، وابن عطية في «تفسيره» (١٤٨/٢).

(٢) وحجتهما: أن الآية نزلت قبل فعلهم وصددهم، قال اليزيدي: معناه: لا يحملنكم بغض قوم أن تعتدوا إن صدوكم.

ينظر: «السبعة» (٢٤٢)، و«الحجة» (٢١٢/٣)، و«حجة القراءات» (٢٢٠)، والعنوان، «إعراب القراءات» (١٤٢/١)، و«شرح شعلة» (٣٤٧)، و«شرح الطيبة» (٢٢٥)، و«إتحاف» (٥٢٩/١)، و«معاني القراءات» (٣٢٥/١).

المُسْتَقْبَل، وقراءة الجمهور أَمْكَنُ.

ثم أمر سبحانه الجَمِيعَ بالتعاونِ عَلَى الْبِرِّ والتقوى، قال قوم: هما لَفْظَانِ بمعنى، وفي هذا تَسَامُحٌ، والعُرْفُ في دلالة هَذَيْنِ؛ أَنَّ الْبِرَّ يَتَنَاوَلُ الْوَاجِبَ وَالْمَثْدُوبَ، والتقوى: رعايته الْوَاجِبِ، فَإِنْ جَعَلَ أَحَدُهُمَا بَدَلَ الْآخَرِ، فبِتَجَوُّزٍ.

قُلْتُ: قال أحمدُ بْنُ نَصْرِ الدَّاوُدِيِّ: قال ابنُ عباس: الْبِرُّ ما أُمِرْتُ بِهِ، والتقوى ما نُهِيتَ عَنْهُ^(١). انتهى، وقد ذكرنا في غَيْرِ هذا الموضع؛ أَنَّ لفظَ التقوى يُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ، وقد بَيَّنَّاها في آخر «سُورَةِ التَّوْرَةِ»، وفي الحديثِ الصَّحِيحِ: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٢)، قال ابنُ الْفَاكَهَانِيِّ: عند شرحه لهذا الحديث: وقد رُوِيَنا في بعضِ الْأَحَادِيثِ: «مَنْ سَعَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، قُضِيَتْ لَهُ أَوْ لَمْ تُقْضَ - غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَكُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ الثَّقَاقِ»^(٣)، انتهى مِنْ «شَرْحِ الْأَرْبَعِينَ» حديثاً.

ثم نَهَى تَعَالَى عَنِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ والعُدْوَانِ، ثم أمر بالتقوى، وتوعَّد توعُّداً

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٤)، كتاب «الذكر والدعاء»، باب/فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث (٣٨/٢٦٩٩)، والترمذي (٤/٢٦) كتاب «الحدود»، باب ما جاء في الستة على المسلم، حديث (١٤٢٥)، (٤/٢٨٧-٢٨٨) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الستة على المسلم، حديث (١٩٣٠)، وأبو داود (٢/٧٠٤) كتاب «الأدب»، باب في المعونة للمسلم، حديث (٤٩٤٦)، وابن ماجه (٨٢/١) المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث (٢٢٥)، وأحمد (٢/٢٠٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/١١٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (١/٢٢١- بتحقيقنا) كلهم من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً.

قال النووي في «شرح مسلم» (٩/٢٨).

ومعنى (نفس الكربة): أزالها.

وفيه: فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك، وفضل الستة على المسلمين، وقد سبق تفصيله، وفضل إِنْظَارِ الْمَعْسَرِ، وفضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي، بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن كان هذا شرطاً في كل عبادة، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به؛ لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس، ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم.

(٣) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢/١٤٣)، وعزاه للمنذري في «جزء غفران الذنوب» من حديث ابن عباس وقال: فيه أحمد بن بكر المصيصي، قال الحافظ في «اللسان»: عندي أنه أحمد بن بكر البالسي خبطوا في نسبه، والحديث موضوع.

مجملاً، قال النووي: وَعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبِدٍ^(١): «أَنَّه أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: جِئْتُ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: اسْتَفْتِ قَلْبَكَ؛ الْبِرُّ: مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَأَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»^(٢) حديث حسن رَوَيْنَاهُ فِي مَسْنَدِ أَحْمَدَ، يَعْنِي: ابْنُ حَنْبَلٍ، وَالِدَارِمِي وَغَيْرُهُمَا، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ الثَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(٣). انتهى.

﴿حَرَمْتَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ. وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمُفَوِّدَةُ وَالْمَرَدِيَّةُ وَالنَّطِيطَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّنْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقِيَ الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَضْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمِي

(١) وابصة بن معبد بن مالك بن عبيد. وقيل: وابصة بن معبد بن عتبة بن الحارث. أبو سالم. الأسدي. قال ابن الأثير: له صحبة، سكن الكوفة ثم تحول إلى الرقة فأقام بها إلى أن مات بها. روى عن النبي ﷺ أحاديث. روى عنه ابنه عمرو، وسالم، والشعبي، وزيد بن أبي الجعد وغيرهم... وتوفي وابصة بالرقة، وقبره عند منارة المسجد الجامع بالرافقة.

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٥/٤٢٧)، «الإصابة» (٦/٣٠٩)، «الثقات» (٣/٤٣١)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢/١٢٥)، «الاستيعاب» (٤/١٥٦٣)، «بقي بن مخلد» (١٧٩)، «تقريب التهذيب» (٢/٣٢٨)، «تهذيب التهذيب» (١١/١٠٠)، «تهذيب الكمال» (٣/١٤٥٧)، «الكاشف» (٣/٢٣٢)، «الجرح والتعديل» (٩/٤٧)، «الطبقات الكبرى» (١/٢٩٢٨)، «التاريخ الكبير» (٨/١٨٧)، «حلية الأولياء» (٢/٢٣)، «البداية والنهاية» (٥/٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٢٨)، والدارمي (٢/٢٤٥-٢٤٦) كتاب «البيع»، باب دع ما يربك إلى ما لا يربك، والطبراني في «الكبير» (٢٢/١٤٧-١٤٨) رقم (٤٠٢) من حديث وابصة.

(٣) أخرجه مسلم (٤/١٩٨١)، كتاب «البر والصلة»، باب تفسير البر والإثم، حديث (١٤/٢٥٥٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢٩٥)، والترمذي (٤/٥٩٧)، كتاب «الزهد»، باب ما جاء في البر والإثم، حديث (٢٣٨٩)، وأحمد (٤/١٨٢)، وابن حبان (٢٣٩٧)، والبيهقي (١٠/١٩٢)، وفي «شعب الإيمان»، (٥/٤٥٧) رقم (٧٢٧٢)، والبخاري في «شرح السنة» (٦/٤٧٤) بتحقيقنا كلهم من طريق معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، عن أبيه، عن الثَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ بِهِ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (٤/١٨٢)، والدارمي (٢/٣٢٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/٤٥٧) رقم (٧٢٧٣) من طريق صفوان بن عمرو، عن يحيى بن جابر القاضي، عن الثَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ بِهِ.

وللحديث شاهد من حديث أبي ثعلبة الخشني: أخرجه أحمد (٤/١٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/٢١٩) عنه مرفوعاً بلفظ: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب».

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَضَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ...﴾ الآية: تعديد لما يثلى على الأمة مما استثنى من بهيمة الأنعام، ﴿وَالْدَّمُ﴾: معناه: المسفوح، ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾: مقتض لسخيمه؛ بإجماع، ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: قد تقدم، ﴿وَالْمُنْحَنِقَةُ﴾: معناه: التي تُموت خنقاً، ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾: التي ترمى أو تُضرب بعصاً، وشبهها، ﴿وَالْمُتْرَدِيَةُ﴾: هي التي تتردئ من علو إلى سفلى، فتموت، ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾: فعيلة بمعنى مفعولة، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾: يريد كل ما افترسه ذو ناب، وأظفار من الحيوان، وكانت العرب تأكل هذه المذكورات، ولم تعتقد ميتة إلا ما مات بالوجع ونحو ذلك.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، فقال ابن عباس، وجمهور العلماء: الاستثناء من هذه المذكورات، فما أدرك منها يطرف بعين أو يحرك ذنباً^(١)، وبالجمله: ما يتحقق أنه لم تفيض نفسه، بل له حياة، فإنه يذكى على سنة الذكاة، ١١٤٢ ويؤكل، وما قاضت نفسه، فهو الميتة، وقال مالك مرة بهذا القول، وقال أيضاً، وهو المشهور عنه، وعن أصحابه من أهل المدينة: إن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾: معناه: من هذه المذكورات في وقت يصح فيه ذكاتها، وهو ما لم تنفذ مقاتلها، ويتحقق أنها لا تعيش، ومتى صارت في هذا الحد، فهي في حكم الميتة، فالاستثناء عند مالك متصل؛ كقول الجمهور، لكنه يخالف في الحال التي يصح فيها ذكاة هذه المذكورات وأختج لمالك؛ بأن هذه المذكورات لو كانت لا تحرم إلا بموتها، لكان ذكر الميتة أولاً يغني عنها، ومن حجة المخالف أن قال: إنما ذكرت بسبب أن العرب كانت تعتقد أن هذه الحوادث كالذكاة، فلو لم يذكر لها غير الميتة، لظن أنها ميتة الوجع؛ حسبما كانت عليه، والذكاة في كلام العرب: الذبح.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾: عطف على المحرمات المذكورة، والنُّصُب: حجارة تُنصب، يذبحون عليها، قال ابن جرير: وليس النُّصُب بأصنام؛ فإن الصنم يصور ويُنقش، وهذه حجارة تُنصب، وكانت العرب تعبدها^(٢)، قال ابن زيد: ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ: شيء واحد^(٣).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١١/٤) برقم (١١٠٣٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٥١/٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١٤/٤) برقم (١١٠٥٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٥٢/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١٥/٤) برقم (١١٠٦١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٥٢/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٣/٢).

قال ع * : ما ذُبِحَ على النصبِ جُزءٌ ممَّا أهْلٌ به لغير الله، لكنْ خُصَّ بالذكر بعد جنسه؛ لشهرة أمره.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾: حرَّم سبحانه طَلَبَ القسم، وهو النَّصِيبُ، أو الْقِسْمُ - بفتح القاف -، وهو المصدَّرُ؛ بالأزلام، وهي سهامٌ، قال صاحب «سلاح المؤمن»: وَالْأَسْتَقْسَامُ: هُوَ الضَّرْبُ بِهَا؛ لإِخْرَاجِ مَا قُسِمَ لَهُمْ، وَتَمْيِيزِهِ بَزَعْمِهِمْ. انتهى، وَأَزْلَامُ الْعَرَبِ عَلَى أَنْوَاعٍ؛ مِنْهَا الثَّلَاثَةُ الَّتِي كَانَ يَتَّخِذُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ لِنَفْسِهِ عَلَى أَحَدِهَا «أَفْعَلُ»، وَعَلَى الْآخَرِ «لَا تَفْعَلُ»، وَثَلَاثٌ مَهْمَلٌ؛ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ، فَيَجْعَلُهَا فِي خَرِيطَةٍ مَعَهُ، فَإِذَا أَرَادَ فِعْلَ شَيْءٍ أَدْخَلَ يَدَهُ، وَهِيَ مُتَشَابِهَةٌ فَأَخْرَجَ أَحَدَهَا، وَأَتَمَرَ لَهُ، وَانْتَهَى بِحَسَبِ مَا يَخْرُجُ لَهُ، وَإِنْ خَرَجَ الْقِدْحُ الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ، أَعَادَ الضَّرْبَ.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ فَسَقٌ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْإِسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَتَسَاءَلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾: معناه؛ عند ابن عباس وغيره: مِنْ أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى دِينِهِمْ^(١)، وَظَاهَرُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمْرُ أَصْحَابِهِ، وَظُهُورُ الدِّينِ يَقْتَضِي أَنَّ يَأْسَ الْكُفَّارِ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَى دِينِهِمْ قَدْ كَانَ وَقَعَ مُنْذُ زَمَانٍ، وَإِنَّمَا هَذَا الْيَأْسُ عِنْدِي مِنْ أَضْمَحَلَالِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ، وَقَسَادِ جَمْعِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ كَانَ يَتَرَجَّاهُ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْكُفَّارِ؛ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَخِي صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ^(٢) فِي يَوْمِ هَوَازَنَ حَتَّى انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، وَظَنُّهَا هَزِيمَةٌ: «أَلَا بَطَلَ السَّخَرُ الْيَوْمَ»، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنَ الْأَمْثَلَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ؛ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ^(٣) وَغَيْرِهِ: نَزَلَتْ فِي عَشِيَّةِ يَوْمِ عَرْفَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمَحَى أَمْرُ الشِّرْكِ مِنْ مَسَاعِرِ الْحَجِّ، وَلَمْ يَحْضُرْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمَوْسِمَ بَشَرٌ، فَيَحْتَمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ﴾: أَنْ تَكُونَ إِشَارَةٌ إِلَى الْيَوْمِ بَعِينَهُ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ إِشَارَةٌ إِلَى الزَّمَنِ وَالْوَقْتِ، أَيْ: هَذَا الْأَوَانُ يَتَسَاءَلُونَ الْكُفَّارَ مِنْ دِينِكُمْ.

١٤٢ ب وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾/ : يعمُّ سائر الكفار من العرب وغيرهم؛ وهذا يقوي أنَّ اليأس إنما هو من انحلال أمر الإسلام، وأمر سبحانه بخشيته التي هي رأس كل عبادة؛ كما قال ﷺ: «وَمِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١٨/٤) برقم (١١٠٧٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٤/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٢/٢).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٢/٢).

وقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾: تحتمل الإشارة بـ «اليوم» ما قد ذكرناه، حكى الطبري^(١)؛ أن النبي - عليه السلام - لم يعيش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة، والظاهر أنه عاش ﷺ أكثر بأيام يسيرة، قلت: وفي سماع ابن القاسم، قال مالك: بلغني أن رسول الله ﷺ قال في اليوم الذي توفي فيه، وقف على بابي، فقال: «إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه، يا فاطمة بنت رسول الله، ويا صفيّة عمّة رسول الله، أعملاً لما عند الله؛ فإنني لا أغني عنكما من الله شيئاً»، قال ابن رشد: هذا حديث يدل على صحته قول الله عز وجل: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿تبياناً لكل شيء﴾ [النحل: ٨٩]، فالمعنى في ذلك: أن الله عز وجل نصّ على بعض الأحكام، وأجمل القول في بعضها، وأحال على الأدلة في سائرها بقوله: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء: ٨٣] فبين النبي ﷺ ما أجمله الله في كتابه؛ كما أمره؛ حيث يقول: ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: ٤٤]، فما أحل ﷺ، أو حرم، ولم يوجد في القرآن نصاً، فهو مما بين من مجمل القرآن، أو علمه بما نصّب من الأدلة فيه، فهذا معنى الحديث، والله أعلم، فما ينطق ﷺ عن الهوى؛ إن هو إلا وخي يوحى. انتهى من «البيان والتحصيل».

وفي «الصحيح»؛ «أن عمر بن الخطاب، قال له يهودي: آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال له عمر: أي آية هي؟ فقال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾، فقال له عمر: قد علمنا ذلك اليوم؛ نزلت على رسول الله ﷺ، وهو واقف بعرفة يوم الجمعة^(٢).

(١) ينظر: الطبري (٤١٨/٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩/١) كتاب «الإيمان»، باب زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٥)، وفي (٧/٧١٢) كتاب «المغازي»، باب حجة الوداع، حديث (٤٤٠٧)، وفي (١١٩/٨) كتاب «التفسير»، باب «اليوم أكملت لكم دينكم»، حديث (٤٦٠٦)، وفي (٢٥٩/١٣) كتاب «الاعتصام»: حديث (٧٢٦٨)، ومسلم (٤/٢٣١٢-٢٣١٣) كتاب «التفسير»، حديث (٣- ٣٠١٧/٥)، والترمذي (٢٥٠/٥) كتاب «التفسير»، باب سورة المائدة، حديث (٣٠٤٣)، والنسائي (٢٥١/٥) كتاب «الحج»، باب ما ذكر في يوم عرفة، و (١١٤/٨) كتاب «الإيمان»، باب زيادة الإيمان، وأحمد (٢٨/١)، والحميدي (٣١)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص - ٤٠) رقم (٣٠)، والطبري في «تفسيره» (٤/٤٢١) رقم (١١٠٩٨)، وابن حبان (١٨٥)، والآجري في «الشرعة» (ص ١٠٥)، والبيهقي (١١٨/٥) كتاب «الحج»، كلهم من طريق قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب به. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

والحديث: ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٤٥٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

قال * ع^(١) : ﴿ في ذلك اليوم عيدان للإسلام، إلى يوم القيامة، وإتمام النعمة هو في ظُهور الإسلام، ونُور العقائد، وكمال الدين، وسعة الأحوال، وغير ذلك مما أشتملت عليه هذه المِلَّة الحنيفية إلى دخول الجنة، والخلود في رَحمة الله سبحانه، جَعَلَنَا اللهُ مِمَّنْ شَمِلَتْهُ هذه النعمة.

وقوله سبحانه: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾: يحتمل الرضا في هذا الموضع؛ أن يكون بمعنى الإرادة، ويحتمل أن يكون صفة فعل عبارة عن إظهار الله إياه؛ لأن الرضا من الصفات المترددة بين صفات الذات وصفات الأفعال، والله تعالى قد أراد لنا الإسلام، وَرَضِيَهُ لَنَا، وَثَمَّ أشياء يريد الله وقوعها ولا يَرْضاها.

وقوله سبحانه: ﴿فمن أضطرَّ في مخمصة﴾، يعني: مَنْ دَعَتْهُ ضرورة إلى أكل الميتة، وسائر تلك المحرمات، وسُئِلَ ﷺ، مَتَى تَحِلُّ الميتة للناس؟ فَقَالَ: «إِذَا لَمْ يَضْطَرُّوا، وَلَمْ يَغْتَبِقُوا»^(٢)، وَلَمْ يَخْتَفِقُوا^(٣) بقلا^(٤)». والمخمصة: المجاعة التي تخمض فيها البطون، أي: تَضْمُرُ.

وقوله سبحانه: ﴿غير متجانف لإثم﴾ هو بمعنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقد تقدّم تفسيره.

قال * ص : متجانف: أي: مائل منحرف. انتهى، وقد تقدّم في «البقرة».

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ وَأَقْوُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

وقول تعالى: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾: سبب نزولها أن النبي ﷺ/ لما أمر بقتل

١٤٣ ب

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٥٤).

(٢) تفتلوا من الغبوق، وهو شرب آخر النهار مقابل الصُّبُوح.

ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٤١).

(٣) قال أبو عبيد: هو من الحفا، مهموز مقصور، وهو أصل البردي الأبيض الرطب منه، وقد يؤكل. يقول: ما لم تقتلوا هذا بعينه فتأكلوه. ينظر: «النهاية» (١/ ٤١١).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والحاكم (٤/ ١٢٥)، والبيهقي (٩/ ٣٥٦) من طريق حسان بن عطية، عن أبي واقد الليثي به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ولم يخرجاه.

وقال الذهبي: فيه انقطاع.

الكلاب. سألَه عاصمُ بنُ عديٍّ وغيره، مَاذَا يَحِلُّ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْكِلَابِ^(١).

قال * ع^(٢): * وظاهر الآية أن سائلاً سألَ عما يحلُّ للناس من المَطَاعِم؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَحَلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ليس بجوابٍ عما يحلُّ للناس اتِّخَاذُهُ مِنَ الْكِلَابِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ إِجَابَةِ السَّائِلِ بِأَكْثَرِ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيراً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَالطَّيِّبُ: الْحَلَالُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾: أي: وصنِّد ما علِّمتم، قال الضَّحَّاك وغيره: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: هي الكلابُ خاصَّةً.

قال العِراقِيُّ في «مُكَلِّبِينَ»: أصحاب أَكْلِبٍ لَهَا مُعَلِّمِينَ. انتهى، وأعلى مراتب التَّعْلِيمِ، أَنْ يُشَلَّى الْحَيَوَانُ فَيُشَلِّي، وَيُدْعَى فَيُجِيبُ، وَيُزَجَّرُ بَعْدَ ظَفَرِهِ بِالصَّيْدِ، فَيَنْزَجِرُ، وَجَوَارِحُ: جمع جَارِح، أي: كاسب، يقال: جَرَحَ فلانٌ، وَأَجْتَرَحَ؛ إِذَا أَكْتَسَبَ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، أي: ما كَسَبْتُمْ مِنْ حَسَنَةٍ وَسَيِّئَةٍ.

قال * ع^(٣): * وقرأ^(٤) جمهورُ النَّاسِ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ - بفتح العين واللام -، وقرأ ابنُ عَبَّاسٍ ومحمَّدُ ابنُ^(٥) الحنفية: «عُلِّمْتُمْ» - بضم العين وكسر اللام -: أي: من أمرِ الجوارح، والصَّيْدُ بِهَا، وقرأ جمهورُ النَّاسِ: «مُكَلِّبِينَ» - بفتح الكاف وشد اللام -، والمُكَلِّبُ: معلِّم الكلاب، ومُضَرِّيها، ويقال لِمَنْ يَعْلَمُ غَيْرَ كَلْبٍ: مُكَلِّبٌ؛ لَأَنَّهُ يَرُدُّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ كَالْكَلْبِ.

وقوله سبحانه: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾: أي: تعلمونهنَّ الحيلةَ في الإِصْطِيادِ، والتَّائِي لِتَحْصِيلِ الْحَيَوَانِ، وهذا جزءٌ مما علَّمَهُ اللَّهُ الْإِنْسَانَ، ف «مِنْ»: للتَّبْعِيضِ.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾: يحتملُ: ممَّا أَمْسَكْنَ، فلم يأكلنَّ منه شيئاً، ويحتملُ: ممَّا أَمْسَكْنَ، وإن أكلنَّ منه، وبَحَسَبِ هَذَا الْإِحْتِمَالِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِ أَكْلِ الصَّيْدِ، إِذَا أَكَلَ مِنْهُ الْجَارِحُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: أمر بالتسمية عند الإِرسالِ، وذهب مالكٌ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٨/٤) برقم (١١٣٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٥٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٨/٢)، وعزاه لابن جرير عن عكرمة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٦/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٧/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٧/٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٧/٢)، و «البحر المحيط» (٤٤٥/٣)، و «الدر المصون» (٤٨٩/٢).

وجمهور العلماء؛ أن التسمية واجبة، مع الذكر، ساقطة مع الشبان، فمن تركها عامداً، فقد أفسد الذبيحة والصيد، ومن تركها ناسياً، سمى عند الأكل، وكانت الذبيحة جائزة، وفقه الصيد والذبح في معنى التسمية - واحد.

ثم أمر سبحانه بالتقوى على الجملة، والإشارة إلى ما تضمنته هذه الآيات من الأوامر والنواهي، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: وعيد وتحذير.

﴿الْيَوْمَ أَحْلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْحَصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُخْذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾

وقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَحْلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾: إشارة إلى الزمن والأوان، والخطاب للمؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾: الطعام في هذه الآية: الذبائح؛ كذا قال أهل التفسير.

واختلفوا في لفظة ﴿طَعَامُ﴾.

فقال الجمهور: هي الذبيحة كلها، وقالت جماعة: إنما أحل لنا طعامهم من الذبيحة، أي: الحلال لهم منها لا ما لا يحل لهم؛ كالطريف، والشحوم المحضبة. واختلف في لفظة ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

فقال طائفة: إنما أحل لنا ذبائح الصرحاء منهم، لا من كان دخیلاً في هذين الدينين، وقال جمهور الأمة؛ ابن عباس، والحسن، ومالك، وغيرهم: إن ذبيحة كل نصراني حلال، كان من بني تغلب أو غيرهم^(١)، وكذلك اليهود، وتأولوا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ﴾: أي: ذبائحكم، فهذه رخصة للمسلمين، لا لأهل الكتاب، لما كان الأمر يقتضي أن شيئاً قد تشرعنا فيه بالتذكير ينبغي لنا أن نحيمه منهم، رخص الله تعالى لنا في ذلك؛ دفعاً للمشقة بحسب التجاور.

وقوله سبحانه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾: عطف على الطعام المحلل، ذهب جماعة منهم

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/٤٤١) برقم (١١٢٣١) عن ابن عباس، (١١٢٣٢) عن الحسن، وذكره

مالكٌ إلى أنَّ المحصنات في هذه الآية الحرائر^(١)، فمنعوا نكاح الأمة الكتابية، / وذهب ١١٤٤ جماعة إلى أنهم العفائف، فأجازوا نكاح الأمة الكتابية، والأجوز في الآية: المهور، وانتزع بعض العلماء من لفظ: ﴿آتيتموهن﴾؛ أنه لا ينبغي أن يدخل زوج بزوجه إلا بعد أن يندل من المهر ما يستحلها به، و ﴿مُحْصِنِينَ﴾: معناه: متزوجين على السنة.

وقوله سبحانه: ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾: أي: بالأمور التي يجب الإيمان بها، وباقي الآية بين.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ يَجْعَلُ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية: قال ابن العربي: في «أحكامه»^(٢): لا خلاف بين العلماء أن هذه الآية مدنية؛ كما أنه لا خلاف أن الوضوء^(٣) كان مفعولاً قبل نزولها غير مثلو؛ ولذلك قال علماؤنا: إنَّ الوضوء كان بمكة سنة، ومعناه: كان مفعولاً بالسنة، وقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾: معناه: إذا أردتم القيام

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٥٩/٢).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٥٥٨/٢).

(٣) والوضوء بضم الواو: الفعل، ويفتحها: الماء المتوضأ به، هذا هو المشهور، وحكي الفتح في الفعل، والضُم في الماء، وهو في اللغة: عبارة عن النظافة والحسن والنقاوة.

ينظر: «لسان العرب» (٤٨٥٤/٦)، «تهذيب اللغة» (٩٩/١٢)، «ترتيب القاموس المحيط» (٤/٦٢٢).

واصطلاحاً:

عرفه الحنفية بأنه: الغسل والمسح في أعضاء مخصوصة.

وعرفه الشافعية: استعمال الماء في أعضاء مخصوصة مفتتحاً بنية.

وعرفه المالكية بأنه: إزالة النجس، أو هو رفع مانع الصلاة.

وعرفه الحنابلة بأنه: استعمال الماء الطهور في الأعضاء المخصوصة، على صفة مفتحة بالنية.

ينظر: «الاختيار» (٧/١)، «مغني المحتاج» (٤٧/١)، «الخرشي» (٢٠/١)، «المبدع» (١١٣/١).

ولما كان العبد مكلفاً بالصلاة التي هي ركن من أركان الدين، والصلاة متاجرة بين العبد وربه، ومن أجل ذلك يكون اللائق بحال من يخاطب ربه، ويناجيه أن يكون متطهراً من الأذران والأوزار.

وقد ورد في كثير من الأحاديث أن الذنوب تنزل عن صاحبها مع كل قطرة من قطرات الوضوء، لذلك شرع الوضوء قبل الصلاة.

إلى الصلاة. انتهى.

قال زيد بن أسلم والسُدِّي: معنى الآية: إذا قمتم من المضاجع، يعني النوم^(١)، والقصد بهذا التأويل أن يعم الأحداث بالذكر، وفي الآية على هذا التأويل تقديم وتأخير، تقديره: يأبها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة من النوم، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء، يعني: الملامسة الصغرى فأغسلوا، وهنا تمت أحكام الحديث الأصغر، ثم قال: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾، فهذا حكم نوع آخر، ثم قال للنوعين جميعاً: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾، وقال بهذا التأويل محمد بن مسلمة^(٢) من أصحاب مالك وغيره^(٣).

وقال جمهور أهل العلم: معنى الآية: إذا قمتم إلى الصلاة مُخْدِثِينَ، وليس في الآية على هذا تقديم ولا تأخير، بل ترتب في الآية حكم واجد الماء إلى قوله: ﴿فَاطْهَرُوا﴾، ودخلت الملامسة الصغرى في قولنا: «مُخْدِثِينَ»، ثم ذكر بعد ذلك بقوله: ﴿وإن كنتم مرضى . . .﴾ إلى آخر الآية حكم عادم الماء من النوعين جميعاً، وكانت الملامسة هي الجماع.

وقال ص * : ﴿إذا قمتم﴾ أي: إذا أردتم، وعبر بالقيام عن إرادته؛ لأنه مُسَبَّب عنها. انتهى.

ومن أحسن الأحاديث وأصحها في فضل الطهارة والصلاة: ما رواه مالك في «الموطأ»، عن العلاء بن عبد الرحمن^(٤)، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ

= وقد فرض الوضوء ليلة الإسراء مع الصلاة، قبل الهجرة، وكان الوضوء أول الأمر واجباً لكل صلاة، ثم نُسِخ ذلك يوم غزوة «الحندي»، وصار واجباً من الحديث. الباجوري (٢٠/١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٥٢/٤) برقم (١١٣٢٢) عن زيد بن أسلم، (١١٣٢٤) عن السدي، وذكره ابن عطية (١٦٠/٢).

(٢) هو محمد بن مسلمة بن هشام بن إسماعيل أبو هشام، وهشام هذا هو أمير المدينة الذي نسب إليه مد هشام، كان ابن مسلمة من الطبقة الوسطى من أهل المدينة، وكان أفقه فقهاء المدينة من أصحاب مالك فكان ثقة مأمون حجة، جمع العلم والورع، روى عن مالك وتفقه عنده، توفي سنة ست ومائتين هجرية. ينظر: الديباج المذهب ص ٢٢٧.

(٣) ينظر: ابن عطية (١٦١/٢).

(٤) العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الجهني مولى الحرة المدني، أحد الأعلام. عن أبيه وأنس وعكرمة. وعنه ابن جريج وابن إسحاق ومالك وخلق. وثقة أحمد. وقال يحيى بن معين: ليس بذلك. وقال النسائي: ليس به بأس. وقال أبو حاتم: صالح أنكر من حديثه أشياء. قال الواقدي: توفي في خلافة المنصور. ينظر: الخلاصة (٣١٢/٢).

قَالَ: «أَلَا أَخْبَرْتُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَاتِّبَاطُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»^(١).

قال أبو عمر في «التمهيد»: هذا الحديث مِنْ أَحْسَنِ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي فُضَائِلِ الْأَعْمَالِ.

قال صاحب «كتاب العين»: الرِّبَاطُ: ملازمة الثُّغُور، قال: والرِّبَاطُ مواظبة الصلاة أيضاً انتهى.

والغُسْلُ، في اللغة^(٢): إِيجَادُ الْمَاءِ فِي الْمَغْسُولِ، مع إمرار شَيْءٍ عَلَيْهِ كَالْيَدِ، وَالْوَجْهِ

(١) أخرجه مسلم (٢١٩/١) في الطهارة: باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١/٤١)، والترمذي (٧٢/١ - ٧٣) في أبواب الطهارة: باب ما جاء في إسباغ الوضوء (٥١)، والنسائي (٨٩/١) في الطهارة: باب الفضل في إسباغ الوضوء، وابن ماجه (١٤٨/١) في الطهارة: باب ما جاء في إسباغ الوضوء (٤٢٨)، وأحمد (٢٧٧/٢، ٣٠٣)، وأبو عوانة في «المستند» (٢٣١/١)، وأبو يعلى (٦٥٠٣)، وابن خزيمة (٦/١) برقم (٥)، ومالك (١٦١/١) في قصر الصلاة في السفر (٥٥)، والبيهقي في «شرح السنة» (٢٥١/١) برقم (١٤٦) من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وفي الباب عن أبي سعيد الخدري رواه ابن ماجه في المصدر السابق (٤٢٧)، وفي المساجد: باب المشي إلى الصلاة (٧٧٦)، وأحمد (١٦/٣)، والدارمي (١٧٧/١، ١٧٨) في الوضوء: باب ما جاء في إسباغ الوضوء، وابن خزيمة برقم (١٧٧، ٣٥٧)، وابن حبان (٣٩٤)، والحاكم في «المستدرک» (١/١٩١ - ١٩٢)، وأبو يعلى (١٣٥٥)، وعبد بن حميد في مسنده (٩٨٤).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٩٥-٩٦): رواه أحمد بطوله، وأبو يعلى أيضاً... وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل، وفي الاحتجاج به خلاف، وقد وثقه غير واحد. وفي الباب أيضاً عن جابر رواه البزار (٢٢٣/١) برقم (٤٤٩، ٤٥٠)، وابن حبان (١٦١- موارد).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٤٠): رواه البزار... وإسناد الأول فيه شرحبيل بن سعد، وهو ضعيف عند الجمهور. وذكره ابن حبان في «الثقات»، وأخرج له في «صحيحه» هذا الحديث، وإسناد الثاني فيه يوسف بن ميمون الصباغ، ضعفه جماعة، ووثقه ابن حبان، وأبو أحمد بن عدي، وقال البزار: صالح الحديث.

(٢) قال الجَوْهَرِيُّ: غَسَلْتُ الشَّيْءَ غَسْلًا بِالْفَتْحِ، وَالْإِسْمُ الْغُسْلُ بِالضَّمِّ: وَيُقَالُ: غَسَلَ: كَعَسَرَ وَعَسَرَ. قال الإمام أبو عبد الله بن مالك في «مثلته»: والغسل، يعني بالضم: الاغْتِسَالُ، والماء الذي يُغْتَسَلُ بِهِ. وقال القاضي عِيَّاضٌ: الْغُسْلُ بِالْفَتْحِ: الماء.

وَالْغُسْلُ: الْإِسَالَةُ، وَالْغَسَالَةُ: مَا غَسَلْتُ بِهِ الشَّيْءَ، وَالْغُسُولُ: الْمَاءُ الَّذِي يُغْتَسَلُ بِهِ، وَكَذَلِكَ الْمُغْتَسَلُ، وَالْمُغْتَسَلُ أَيْضاً: الَّذِي يُغْتَسَلُ فِيهِ. وَالْغُسْلُ بِالْكَسْرِ: مَا يُغْسَلُ بِهِ الرَّأْسُ مِنْ خُطْمِيٍّ وَغَيْرِهِ، وَمِنْهُ الْغَسْلِيُّ، وَهُوَ مَا انْتَسَلَ مِنْ لُحُومِ أَهْلِ النَّارِ وَدِمَائِهِمْ.

ما وَاجَهَ النَّاظِرَ وَقَابِلَهُ، وَالنَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى أَنَّ دَاخِلَ الْعَيْنَيْنِ لَا يَلْزَمُ غَسْلَهُ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمرَ؛ أَنَّهُ كَانَ يَنْضَحُ^(١) الْمَاءَ فِي عَيْنَيْهِ^(٢). وَالْيَدُ لَغَةً تَقَعُ عَلَى الْعُضْوِ مِنَ الْمَنْكِبِ إِلَى أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، وَحَدَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَوْضِعَ الْغُسْلِ مِنْهُ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَى الْمِرْفَقِ﴾.

واختلف العلماء، هل تدخل المرافق في الغسل أم لا، وتحريز العبارة في هذا المعنى: أَنْ يَقَالَ: إِذَا كَانَ مَا بَعْدَ إِلَى لَيْسَ مِمَّا قَبْلَهَا، فَالْحَدُّ أَوَّلُ الْمَذْكُورِ بَعْدَهَا، وَإِذَا كَانَ ١٤٤ ب مَا بَعْدَهَا مِنْ جُمْلَةٍ مَا قَبْلَهَا/، فَالْإِحْتِيَاظُ يُعْطَى أَنَّ الْحَدَّ آخِرُ الْمَذْكُورِ بَعْدَهَا؛ وَلِذَلِكَ يَتَرَجَّحُ دُخُولُ الْمِرْفَقَيْنِ فِي الْغُسْلِ، وَالرَّوَايَتَانِ عَنْ مَالِكٍ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٣)، وَقَدْ رَوَى الدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لَمَّا تَوَضَّأَ أَذَارَ الْمَاءَ عَلَى مِرْفَقَيْهِ^(٤). انتهى.

= وفي «المغرب»: غَسَلَ الشَّيْءَ: إِزَالَةُ الْوَسَخِ وَنَحْوَهُ عَنْهُ، بِإِجْرَاءِ الْمَاءِ عَلَيْهِ. وَالْغُسْلُ بِالضَّمِّ: اسْمٌ مِنَ الْأَغْتِسَالِ، وَهُوَ غَسْلُ تَمَامِ الْجَسَدِ، وَاسْمٌ لِلْمَاءِ الَّذِي يُغْتَسَلُ بِهِ أَيْضًا. ينظر: «الصحاح» (١٧٨١/٥)، «تهذيب اللغة» (٣٥/٨)، «لسان العرب» (٣٢٥٦/٥)، (٣٢٥٧). واصطلاحاً:

عرفه الحنفية بأنه: غَسْلُ الْبَدَنِ.

وعند الشافعية: سَيْلَانُ الْمَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْبَدَنِ.

وعند المالكية: إِصْصَالُ الْمَاءِ لَجَمِيعِ الْجَسَدِ بِنِيَّةِ اسْتِبَاحَةِ الصَّلَاةِ مَعَ ذَلِكَ.

وعند الحنابلة: اسْتِعْمَالُ مَاءٍ طَهُورٍ فِي جَمِيعِ بَدَنِهِ، عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ.

ينظر: «الدور» (١٧/١)، «الحُرْشِي» (١٦١/١)، «كشاف القناع» (١٣٩/١).

(١) أصل النضح: الرِّشْح، وَهُوَ هُنَا الرِّشْ، يَعْنِي كَانَ يَغْسِلُ بَاطِنَ عَيْنَيْهِ بِالْمَاءِ.

ينظر: «النهاية» (٧٠/٥)، و «لسان العرب» (٤٤٥٠).

(٢) ذكره ابن عطية (١٦١/٢).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٥٦٧/٢).

(٤) أخرجه الدارقطني (٨٣/١) كتاب «الطهارة»، باب وضوء رسول الله ﷺ، حديث (١٥)، والبيهقي (١/٥٦) كتاب «الطهارة»، كلاهما من طريق عباد بن يعقوب، عن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عقيل،

عن جده عن جابر به.

قال الدارقطني: ابن عقيل ليس بقوي.

وقال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣٨٣/١).

وهو حديث ضعيف، فعباد بن يعقوب: هو الرواجني، متكلم فيه، روى عنه البخاري مقروناً بآخر،

وقال ابن حبان فيه: رافضي داعية، يروي المناكير عن المشاهير، فاستحق الترك. انتهى.

وعبد الله بن محمد بن عقيل أيضاً فيه مقال، وكذلك ابن ابنه القاسم بن محمد بن عبد الله بن عقيل،

قال فيه ابن معين: ليس بشيء، وذكر ابن أبي حاتم عن أبيه قال: كان متروك الحديث، وذكر عن أبي

زرعة أنه قال: أحاديثه منكورة، وهو ضعيف الحديث أيضاً، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: يروي عن =

واختلفَ في رَدِّ اليَدَيْنِ في مَسْحِ الرَّأْسِ، هل هو فرضٌ أو سُنَّةٌ، بعد الإجماع على أنَّ الْمَسْحَةَ الْأُولَى فَرَضٌ، فالجمهورُ على أَنَّهُ سُنَّةٌ.

وقيل: هو فرضٌ، والإجماع على استحسانِ مَسْحِ الرَّأْسِ باليَدَيْنِ جميعاً، وعلى الإجزاء بواحدة، واختلفَ فِيمَنْ مَسَحَ بِأَصْبُعٍ واحدةٍ، والمشهورُ الإجزاء؛ ويدرِّجُ عدم الإجزاء؛ لأنه خروجٌ عن سُنَّةِ الْمَسْحِ، وكأنه لَعِبٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَنْ ضَرَرٍ مَرَضٍ ونحوه، فينبغي ألاَّ يُخْتَلَفَ في الإجزاء.

والبَاءُ في قوله تعالى: ﴿بِرءوسِكُمْ﴾ مؤكدة زائدة عند مَنْ يَرَى عمومَ الرَّأْسِ، والمعنى، عنده: وأمسحوا رءوسكم، وهي للإلصاقِ الْمَحْضِ عند مَنْ يَرَى إجزاء بعض الرأس؛ كأنَّ المعنى: أوجدوا مسحاً برءوسكم، فَمَنْ مَسَحَ، ولو شعرةً فقد فَعَلَ ذلك.

* ت * : قال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»^(١): وقد ثَبَتَ عن النبي ﷺ في صِفَةِ مَسْحِ الرَّأْسِ؛ «أَنَّهُ أَقْبَلَ بِيَدِهِ، وَأَذْبَرَ، بَدَأَ بِمُقَدِّمِ رَأْسِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ»^(٢)، وفي البخاري: «فَأَذْبَرَ بِهِمَا، وَأَقْبَلَ»، وهما صحيحان متوافقان،

= جده عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر. وروى عنه إسحاق بن محمد العزمي. انتهى. ذكره في أتباع التابعين من كتابه.

ورواه البيهقي أيضاً من حديث سويد بن سعيد، عن القاسم بن محمد العقيلي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر، أما القاسم وجده فتقدما، وأما سويد بن سعيد فهو، وإن أخرج له مسلم، فقد قال ابن معين: هو حلال الدم، وقال ابن المديني: ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: صدوق إلا أنه كثير التدليس، وقيل: إنه عمي في آخر عمره، فربما لقن ما ليس في حديثه، فمن سمع منه وهو بصير فحديثه عنه حسن، وسكت عنه البيهقي هنا، وقال في باب: من قال لا يقرأ: تغير بآخره، فكثر الخطأ في روايته. انتهى.

والعجب من البيهقي كيف سكت عن القاسم هنا، وقد قال في باب: لا يظهر بالمستعمل: لم يكن بالحافظ، وأهل العلم مختلفون في الاحتجاج بروايته.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ٥٧٥).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٨)، كتاب «الطهارة»، باب العمل في الوضوء، الحديث (١)، وعبد الرزاق في المصنف (٦/ ١)، كتاب «الطهارة»، باب المسح بالرأس، الحديث (٥)، وأحمد (٤/ ٣٨)، والبخاري (١/ ٢٨٩)، كتاب «الوضوء»، باب مسح الرأس، الحديث (١٨٥)، ومسلم (١/ ٢١٠-٢١١)، كتاب «الطهارة»، باب في وضوء النبي ﷺ، الحديث (١٨)، وأبو داود (١/ ٨٦-٨٧)، كتاب «الطهارة»، باب صفة وضوء النبي ﷺ، الحديث (١٨)، والترمذي (٤٧/ ١)، كتاب «الطهارة»، باب ما جاء في مسح الرأس، الحديث (٣٢)، والنسائي (٧٢/ ١)، كتاب «الطهارة»، باب صفة مسح الرأس، وابن ماجه (١/ ١٤٩-١٥٠)، كتاب «الطهارة»، باب ما جاء في مسح الرأس، الحديث (٤٣٤)، وابن الجارود في «المنتقى» (ص ٣٥)، باب صفة وضوء رسول الله ﷺ، والحميدي =

وهي مسألة من «أصول الفقه»؛ في تسمية الفعل بابتدائه أو بغايته. انتهى.

وقرأ حمزة^(١) وغيره: «وَأَرْجُلُكُمْ» - بالخفض -، وقرأ نافع وغيره بالتَّصْب، والعامل: «أَغْسِلُوا»، ومن قرأ بالخفض، جعل العامل أَقْرَبَ العاملين، وجمهور الأئمة من الصحابة والتابعين على أن الفَرْصَ في الرجلين الغَسْلُ، وأنَّ الْمَسْحَ^(٢) لا يجزئ، وفي الصحيح: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ^(٣) مِنَ النَّارِ» إذ^(٤) رَأَى ﷺ أَعْقَابَهُمْ تَلُوحٌ، قال ابن العربي في «الْقَبَسِ»: «

= (٢٠٢/١)، وابن خزيمة (٨٠/١، ٨٧، ٨٨)، وابن حبان (٢٩٦/٢، ٢٩٧ - الإحسان)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٠/١)، والبيهقي (٥٩/١) كتاب «الطهارة»، باب الاختيار في استيعاب الرأس بالمسح والغوي في «شرح السنة» (١/ ٣١٦ - بتحقيقنا) عن عبد الله بن زيد. وله شاهد من حديث معاوية، أخرجه أبو داود (٨٩/١)، كتاب «الطهارة»، باب صفة وضوء النبي ﷺ، الحديث (١٢٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٠/١)، كتاب «الطهارة»، باب فرض مسح الرأس في الوضوء.

وشاهد آخر عن المقدم أخرجه أبو داود (٨٨/١) كتاب «الطهارة»، باب صفة وضوء النبي ﷺ، الحديث (١٢٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٢/١)، باب حكم الأذنين في وضوء الصلاة. (١) ينظر: «السبعة» (٢٤٢ - ٢٤٣)، و «الحجة» (٣/ ٢١٤)، و «حجة القراءات» (٢٢١)، و «العنوان» (٨٧)، و «إعراب القراءات» (١/ ١٤٣)، و «شرح شعلة» (٣٤٨)، و «شرح الطيبة» (٤/ ٢٢٦)، و «إتحاف» (١/ ٥٣٠)، و «معاني القراءات» (١/ ٣٢٦).

(٢) أجمع المسلمون على وجوب غسل الرجلين، ولم يخالف في ذلك من يعتد به في الإجماع - كما صرح بذلك الشيخ أبو حامد وغيره - وعليه الأئمة الأربعة، وجمهور الفقهاء. وتنتصر أقوال المخالفين في ثلاثة أقوال: الأول: أن الواجب مسحهما؛ وبه قالت الإمامية من الشيعة. الثاني: أن المتوضئ يميز بين غسلهما ومسحهما، وعليه الحسن البصري وحكاه الخطابي عن الجبائي المعتزلي. الثالث: أن الواجب غسلهما ومسحهما جميعاً، وعليه بعض أهل الظاهر كداود. والصواب هو مذهب الأئمة الأربعة، والجمهور.

ينظر: «المسح على الخفين» لشيخنا/ محمد سيد أحمد.

(٣) الأعقاب: جمع عَقَب. وهو مؤخر القدم. ينظر: «لسان العرب» (٣٠٢٢).

(٤) ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة، وهم أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وجابر، وعبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي، ومعيقب، وأبو ذر، وخالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو أمامة، وأخوه.

١ - حديث أبي هريرة:

أخرجه البخاري (١٤٣/١) كتاب «الوضوء»، باب غسل الأعقاب، حديث (١٦٥)، ومسلم (٢١٤/١) كتاب «الطهارة»، باب وجوب غسل الرجلين، حديث (٢٨/ ٢٤٢) وعبد الرزاق (٢١/١) رقم (٦٢) والنسائي (٧٧/١) كتاب «الطهارة»، باب إيجاب غسل الرجلين. والدارمي (١٧٩/١) كتاب «الطهارة»، باب ويل للأعقاب من النار. وأحمد (٢٢٨/٢، ٢٨٤، ٤٠٦، ٤٠٩، ٤٦٧، ٤٨٢) وابن الجارود في «المتقى» رقم (٧٨، ٧٩)، وأبو عبيد في «كتاب الطهور» (ص ٧٥) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٨/١) كتاب «الطهارة»، وابن المنذر في «الأوسط» (٤٠٦/١)، وأبو عوانة (١/ ٢٥١ - ٢٥٢) =

= والبيهقي (٦٩/١) كتاب «الطهارة»، باب الدليل على أن فرض الرجلين الغسل كلهم من طريق محمد بن زياد، عن أبي هريرة قال: أسبغوا الوضوء، فإن أبا القاسم قال: «ويل للأعقاب من النار». وأخرجه مسلم (٢١٤/١) كتاب «الطهارة»، باب وجوب غسل الرجلين، حديث (٢٤٢/٣٠)، والترمذي (٥٨/١) كتاب «الطهارة»، باب ما جاء في ويل للأعقاب من النار، حديث (٤١) وابن ماجه (١٥٤/١) كتاب «الطهارة»، باب غسل العراقيب حديث (٤٥٣) وابن خزيمة (٨٤/١) رقم (١٦٢) كلهم من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به. وللحديث عن أبي هريرة ألفاظ منها: ويل للعقب من النار وويل للعراقيب من النار. وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

٢ - حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه البخاري (١٧٣/١) كتاب «العلم»، باب من رفع صوته بالعلم، حديث (٦٠)، (٢٢٨/١) كتاب «العلم»، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم حديث (٩٦) ومسلم (٢١٤/١) كتاب «الطهارة»، باب وجوب غسل الرجلين حديث (٢٤١/٢٧)، وأبو داود (٧٢/١) كتاب «الطهارة»، باب في إسباغ الوضوء، حديث (٩٧) والنسائي (٧٨/١) كتاب «الطهارة» باب إيجاب غسل الرجلين، وابن ماجه (١/١٥٤) كتاب «الطهارة» باب غسل العراقيب، حديث (٤٥٠) وأحمد (١٩٣/٢)، (٢٠٥)، (٢١١) وابن خزيمة (٨٣/١ - ٨٤) رقم (١٦١) والبخاري (١/٣١٣ - بتحقيقنا) عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرها فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنأدى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً. لفظ البخاري.

٣ - حديث عائشة. وله طرق:

فأخرجه ابن ماجه (١٥٤/١) كتاب «الطهارة»، باب غسل العراقيب حديث (٤٥٢)، وأحمد (١٩١/٦ - ١٩٢)، وابن أبي شيبة (٢٦/١) وعبد الرزاق (٢٣/١) رقم (٦٩)، والحميدي (٨٧/١) رقم (١٦١) وأبو عوانة (٢٥١/١) والترمذي في «العلل الكبير» (ص ٣٥) رقم (٢٢) وابن المنذر في «الأوسط» (١/٤٠٦) وأبو عبيد في «كتاب الطهور» (ص ٣٧٦) وأبو يعلى (٤٠٠/٧) رقم (٤٤٢٦) وابن حبان (١٠٥٤ - الإحسان) والشافعي (٣٣/١) كتاب «الطهارة»، باب في صفة الوضوء، حديث (٨٢) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٨/١) كتاب «الطهارة»، والبيهقي في «معركة السنن والآثار» (١/١٦٧) رقم (٧٠) كلهم من طريق سعيد بن أبي سعيد عن أبي سلمة قال: توضأ عبد الرحمن عند عائشة فقالت: يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب من النار». ومن هذا الوجه صححه ابن حبان.

وقال البيهقي: قال أحمد: رواه عكرمة بن عمار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن سالم مولى المهري، عن عائشة، وهو من ذلك الوجه مخرج في كتاب مسلم. وقال الترمذي في «العلل»: سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: حديث أبي سلمة عن عائشة حديث حسن. اهـ.

فحديث عائشة من هذا الطريق حسنه البخاري، وصححه ابن حبان. والطريق الذي أشار إليه أحمد. أخرجه مسلم (٢١٣/١) كتاب «الطهارة»، باب وجوب غسل الرجلين حديث (٢٤٠/٢٥)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٨/١) كتاب «الطهارة»، وأبو عبيد في «كتاب الطهور» (ص ٣٨٢)، والبيهقي =

- = (٢٣٠/١) من طريق عكرمة بن عمار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن سالم مولى المهري، عن عائشة بمثل الطريق الأول، وقد خولف عكرمة بن عمار في هذا الحديث.
- خالفه الأوزاعي، وحرب بن شداد، وأبو معاوية النحوي، وعلي بن المبارك، وحسين المعلم، فرووه عن يحيى بن أبي كثير، عن سالم مولى المهري عن عائشة دون ذكر أبي سلمة، فانفرد عكرمة بن عمار بزيادة أبي سلمة في الإسناد.
- وكما هو معروف، فإن رواية عكرمة بن عمار عن يحيى مضطربة قال أحمد: عكرمة مضطرب الحديث عن يحيى بن أبي كثير.
- وقال ابن المديني: أحاديث عكرمة عن يحيى بن أبي كثير مناكير ليست بذاك كان يحيى بن سعيد يضعفها.
- وقال البخاري: مضطرب في حديث يحيى بن أبي كثير.
- وقال أبو داود: ثقة وفي حديثه عن يحيى بن أبي كثير فيه اضطراب.
- وقال النسائي: ليس به بأس إلا في حديث يحيى بن أبي كثير.
- ينظر: «التهذيب» (٢٢/٧).
- وقال الحافظ في «التقريب» (٣٠/٢): صدوق يغلط، وفي حديثه عن يحيى بن أبي كثير اضطراب. اهـ.
- ومخالفة الأوزاعي عند أبي عبيد في «كتاب الطهور» (ص ٣٧٧)، وأبو عوانة (٢٣٠/١).
- وابن أبي حاتم في «العلل» (٥٧/١) رقم (١٤٨).
- ومخالفة حرب بن شداد عن الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٨/١) ومخالفة أبي معاوية النحوي عند أبي عبيد في «كتاب الطهور» (ص ٣٨٢)، وابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٥٧ - ٥٨) رقم (١٤٨).
- ومخالفة علي بن المبارك عند أبي عوانة (٢٣٠/١).
- ومخالفة حسين المعلم عند ابن أبي حاتم في «العلل» (٥٧/١) رقم (١٤٨).
- فهؤلاء الخمسة الثقات خالفوا عكرمة بن عمار، فلم يذكروا أبا سلمة في الإسناد.
- وقد رجح أبو زرعة رواية الأوزاعي، وحسين المعلم، كما في «العلل» لابن أبي حاتم (٥٧/١ - ٥٨) رقم (١٤٨).
- ومما يدل على أن عكرمة بن عمار وهم في هذه الرواية أن جماعة تابعوا يحيى بن أبي كثير، فرووا الحديث عن سالم، عن عائشة، ولم يذكروا أبا سلمة.
- فأخرجه مسلم (٢١٤/١) كتاب «الطهارة»، باب وجوب غسل الرجلين، حديث (٢٤٠/٢٥)، وأبو عوانة (٢٣٠/١) والبيهقي (٦٩/١) كتاب «الطهارة»، باب الدليل على أن فرض الرجلين الغسل، من طريق مخرمة بن بكير عن أبيه عن سالم مولى شداد قال: دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ يوم توفي سعد بن أبي وقاص، فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر، فتوضأ عندها فقالت: يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب من النار».
- وأخرجه مسلم (٢١٤/١) كتاب «الطهارة»، باب وجوب غسل الرجلين، حديث (٢٤٠/٢٥) من طريق نعيم بن عبد الله المجرم، عن سالم، عن عائشة وأخرجه مسلم (٢١٤/١) كتاب «الطهارة»، باب =

= وجوب غسل الرجلين، حديث (٢٤٠/٢٥) من طريق محمد بن عبد الرحمن، عن سالم، عن عائشة وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٨/١) من طريق أبي الأسود يتيم عروة عن سالم عن عائشة.

وللحديث طريق آخر عن عائشة.

أخرجه ابن ماجه (١٥٤/١) كتاب «الطهارة»، باب غسل العراقيب حديث (٤٥١)، وأبو عوانة (١/٢٥٢)، والدارقطني (٩٥/١) كتاب «الطهارة»، من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة.

٤ - حديث جابر بن عبد الله:

أخرجه ابن ماجه (١٥٥/١) كتاب «الطهارة»، باب غسل العراقيب، حديث (٤٥٤) وابن أبي شيبة (١/٢٦)، وأحمد (٣/٣٦٩، ٣٩٣)، وأبو داود الطيالسي (١/٥٣ - منحة) رقم (١٧٨)، وأبو يعلى (٤/٥٢) رقم (٢٠٦٥) وفي «معجم شيوخه» (ص ٧٠) رقم (١٥) وأبو عبيد في «كتاب الطهور» (ص ٣٨٢، ٣٨٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/٥١٠) وابن المنذر في «الأوسط» (١/٤٠٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٨/١) من طريق الأحوص، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن أبي كريب عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعراقيب من النار».

قال البوصيري في «الزوائد» (١/١٨٢)، هذا إسناد رجاله ثقات. اهـ. وللحديث طريق آخر عن جابر. أخرجه الطبراني في «الصغير» (٧/٢) من طريق الوليد بن القاسم، عن الأعمش، عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للعراقيب من النار».

وقال الطبراني: لم يروه عن الأعمش إلا الوليد تفرد به حماد.

٥ - حديث عبد الله بن الحارث بن جزء.

أخرجه أحمد (٤/١٩١)، والحاكم (١/١٦٢) كتاب «الطهارة» وابن خزيمة (١/٨٤) رقم (١٦٣)، والدارقطني (١/٩٥) كتاب «الطهارة» باب وجوب غسل القدمين والعقبين رقم (١) وأبو عبيد في «كتاب الطهور» (ص ٣٧٥ - ٣٧٦) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٨/١) كتاب «الطهارة»، والبيهقي (١/٧٠) كتاب «الطهارة»، باب الدليل على أن فرض الرجلين الغسل وفي «معركة السنن والآثار» (١/١٦٩) رقم (٧٢) كلهم من طريق حيوة بن شريح، عن عقبة بن مسلم التميمي، عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار» وقال الحاكم: صحيح، ولم يخرجوا ذكر بطون الأقدام، ووافقه الذهبي، وصححه ابن خزيمة.

وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٢٤٥)، رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» ورجال أحمد والطبراني ثقات.

٦ - حديث معقيب:

أخرجه أحمد (٥/٤٢٥) والطبراني في «الكبير» (٢٠/٣٥٠) رقم (٨٢٢) من طريق أيوب بن عتبة، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن معقيب قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار». وعلقه الترمذي في «العلل الكبير» (ص ٣٥) عن أيوب بن عتبة به وقال الترمذي: سألت محمداً عن هذا الحديث، فقال: حديث أبي سلمة عن معقيب: ليس بشيء كان أيوب لا يُعرف صحيح حديثه من سقيم، فلا أحدث عنه، وضعف أيوب بن عتبة جداً. اهـ.

= والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٤٥/١) وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه أيوب بن عتبة، والأكثر على تضعيفه اهـ.

وأيوب بن عتبة ضعفه أحمد وابن معين، وابن المديني، والجوزجاني، ومسلم، والبخاري، والعجلي، وأبو حاتم وغيرهم، كما في «التهذيب» (٤٠٨/١ - ٤٠٩).

وقال الذهبي في «المغني» (٩٧/١)، ضعفه، لكثرة مناكيره.

وقال الحافظ في «التقريب» (٩٠/١)، ضعيف.

٧ - حديث أبي ذر الغفاري:

أخرجه عبد الرزاق (٢٢/١) رقم (٦٤) من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن رجل، عن أبي ذر قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ ونحن نتوضأ، فقال: «ويل للأعقاب من النار» فطفقنا نغسلها غسلًا، وندلكها دلكًا.

وزاد نسبه السيوطي في «الأزهار المتناثرة» (ص ٢٦) إلى سعيد بن منصور.

٨ - حديث خالد بن الوليد وشرجيل، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان:

أخرجه ابن ماجه (١٥٥/١) «كتاب الطهارة»، باب غسل العراقي، حديث (٤٥٥) من طريق أبي صالح الأشعري، حدثني أبو عبد الله الأشعري، عن خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وشرجيل بن حسنة، وعمرو بن العاص كل هؤلاء سمعوا رسول الله ﷺ يقول: «أتموا الوضوء ويل للأعقاب من النار».

والحديث قال البخاري كما في «علل الترمذي الكبير» (ص ٣٥): وحديث أبي عبد الله الأشعري «ويل للأعقاب من النار» حديث حسن اهـ. وصححه ابن خزيمة (٦٦٥).

وقال البوصيري في الزوائد (١٨٢/١)، هذا إسناد حسن، ما علمت في رجاله ضعفاء اهـ.

٩ - حديث أبي أمامة وأخيه:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٤٧/٨) رقم (٨١٠٩) من طريق علي بن مسهر، عن ليث بن أبي سليم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامة وأخيه قالا: أبصر رسول الله ﷺ قوماً يتوضئون، فقال: «ويل للأعقاب من النار».

وأخرجه الطبراني (٣٤٧/٨ - ٣٤٨) رقم (٨١١٠، ٨١١١، ٨١١٢، ٨١١٤، ٨١١٥) من طرق عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامة - وحده - به.

وأخرجه الدارقطني (١٠٨/١) كتاب «الطهارة»، باب ما روي في فضل الوضوء حديث (٤) والطبراني (٣٤٨/٨ - ٣٤٩) رقم (٨١١٦) من طريق عبد الواحد بن زياد عن ليث، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامة، أو عن أخي أبي أمامة فذكره.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٤٥/١)، رواه الطبراني في «الكبير» من طرق ففي بعضها عن أبي أمامة وأخيه، وفي بعضها عن أبي أمامة فقط، وفي بعضها عن أخيه فقط ومدار طرقه كلها عن ليث بن أبي سليم وقد اختلط اهـ.

وحديث «ويل للأعقاب من النار» صرح السيوطي بتواتره في «الأزهار المتناثرة» (ص ٢٦) رقم (١٦) وتبعه الشيخ أبو الفيض الكناني (ص ٦٨، ٦٩) وقال: ومن صرح بأنه متواتر الشيخ عبد الرؤوف المناوي في «شرح الجامع الصغير»، وشارح كتاب «مسلم الثبوت» في الأصول اهـ.

وَمَنْ قَرَأَ «وَأَزْجُلِكُمْ» - بِالْخَفْضِ -، فَإِنَّهُ أَرَادَ الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ^(١)؛ وَهُوَ أَحَدُ التَّأْوِيلَاتِ فِي الْآيَةِ. انْتَهَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي صَحَّحَهُ فِي «أَحْكَامِهِ».

وَالْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَغَيْرِهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ وُضُوئَهُ، ثُمَّ يَقُومُ، فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقُلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فَقُلْتُ: مَا أَجُودُ هَذِهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسَبِّحُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ

(١) المسح في اللغة إمرار اليد على الشيء تقول: مَسَحْتُ الشيءَ بالماءِ مسحاً إذا أمرتَ اليدَ عليه، والمسح على الخُفَّينِ شرعاً إصابةُ البلة للخف الشرعي على وَجْهِه مَخْصُوصٌ، فقولنا: «إصابة» يشمل ما لو كانت بيده بأن أمرَ يده وهي مُتَبَلِّغَةٌ على الخف، أو قطر الماء عليه منها، أو وضعها عليه من غير إمرار، وهي مبتلة، أو غيرها كأن أَصَابَ المطر الخُفَّ فَاثْبَلَّ مع نية لِإِبْسِهِ الْمَسْحَ بذلك. وقولنا: «للخف الشرعي» يخرج إصابتها لغيره، سواء كان ذلك الغير خفّاً غير شرعي، أو لم يكن خفّاً. وقولنا: «على وجه مخصوص» إشارة إلى الكيفية والشروط والمدة، وإلى النية، ولو حكماً بأن يقصد بمسحه رفع حدث الرجلين بَدَلًا عن غسلهما، فخرج ما لم يكن كذلك. والخف لغة مجمع فرس البعير «والفرس للبعير كالحافر للفرس» وقد يكون للنعام، سَوَّأَ بينهما لِلتَّشَابُهِ، وجمعه: أَخْفَافٌ كَقَفْلٍ وَأَقْفَالٍ، والخف أيضاً واحد الخِفَافِ التي تلبس، وجمعه: خِفَافٌ ككتاب للفرق بينه وبين ما للبعير، وفي «اللسان» أنه يجمع على خِفَافٍ وَأَخْفَافٍ أيضاً، ويقال: تَخَفَّفَ الرجل إذا لبس الخُفَّ في رجليه. وَخُفَّ الإنسان ما أَصَابَ الأرض من باطن قدميه، والخف أيضاً القطعة الغليظة من الأرض.

وشرعاً: السَّاتِرُ لِلْقَدَمَيْنِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ من كل رَجُلٍ من جلد ونحوه، والمُسْتَوْفِي للشروط. هذا وعبر النووي بالخف وعبر شيخ الإسلام بالخفين وقال: هو أولى من تعبيره بالخف، لأنه يومه جَوَازُ الْمَسْحِ على خف رجل، وغسل الأخرى، وليس كذلك، فكان الأولى أن يعبر بالخفين، ويمكن أن يوجه تعبيره بالخف بأن «أل» فيه للجنس، فيشمل ما لو كان له رجل واحدة لفقد الأخرى، وما لو كان له رجلان فأكثر، وكانت كلها أصلية، أو كان بعضها زائداً، أو اشتبه بالأصلي، أو سامت به، فيلبس كلاً منها خفّاً، ويمسح على الجميع.

وأما إذا لم يشته، ولم يسامت، فالعبرة بالأصلي دون الزائد، فيلبس الأول خفّاً دون الثاني، إلا أن توقف لبس الأصلي على الزائد، فيلبسه أيضاً. أو أنها لِلْعَهْدِ الشرعي، أي الخف المعهود شرعاً وهو الاثنان. قال علي الشبراملي: وهذا الجواب أولى من الأول؛ لأنه لا يدفع الإيهام؛ لأن الجنس كما يتحقق في ضمن الكل، كذلك يتحقق في ضمن واحدة منهما. أما تعبیر شيخ الإسلام بالخفين فإنه يرد عليه أيضاً أنه لا يشمل الخف الواحد فيما لو فقدت إحدى رجليه، إلا أن يُقَال: إنه نظر للغالب وقال القليوبي: ويطلق الخُفُّ على الفردتين، وعلى إحداهما. فعلى هذا استوت العبارتان.

ينظر: «المغرب» (٢/٢٦٦)، و«لسان العرب» (٦/٤١٩٦)، وينظر: «بدائع الصنائع» (١/٩٩)، و«المدونة» (١/٤١)، و«الأم» (١/٢٩)، و«المغني» (١/٢٦٨)، و«المحلى» (١/٩٢).

وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»، وأخرجه الترمذي من حديث أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ، عن عمر، زاد في آخره: «اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(١). انتهى مختصراً.

واختلف اللغويون في «الكعبيين»:

والجمهور على أنهما العظمان النابتان في جَنْبَيْهِ^(٢) الرجل.

(١) أخرجه مسلم كتاب «الطهارة»، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، حديث (٢٣٤)، وأحمد (١٩/١)، ٤/ ١٤٥ - ١٤٦، (١٥٣) وأبو داود (٢٩/١) كتاب «الطهارة»، باب ما يقول الرجل إذا توضأ حديث (١٦٩، ١٧٠)، والنسائي (١/ ٩٢-٩٣) كتاب «الطهارة»، باب القول بعد الفراغ من الوضوء، والدارمي (١٨٢/١) كتاب «الطهارة»، باب القول بعد الوضوء، وأبو يعلى (١٦٢/١) رقم (١٨٠).

(٢) والكعبان هما: العظمان النابتان، من جانبي القدمين، عند مفصل الساق والقدم. هذا مذهب الشافعية، وبه قال الجمهور من المفسرين، وأهل الحديث، وأهل اللغة، والفقهاء. وقال محمد: الكعب: هو موضع الشراك على ظهر القدم؛ وحكى هذا عن أبي يوسف، وبه قالت الإمامية من الشيعة، وقيل عنهم: قالوا: في كل رجل كعب واحدة «وهي عظم مستقر في وسط القدم». وقال الفخر الرازي: إن الكعب عند الشيعة: عبارة عن عظم مستدير، موضوع تحت عظم الساق، حيث يكون مفصل الساق والقدم.

ودلينا عليهم: الكتاب، والسنة، والإجماع، واللغة، والاشتقاق: أما الكتاب: فقوله تعالى: «وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» [المائدة: ٦] وهذا يقتضي أن يكون في كل رجل كعبان، وهو لا يكون إلا على مذهبنا، فلو كان في كل رجل كعب واحدة - كما قالوا - لقال: «إلى الكعاب» كما قال: «إلى المرافق» [المائدة: ٦].

وأما السنة: أولاً: ما رواه مسلم، عن عثمان - رضي الله تعالى عنه - في صفة وضوء رسول الله ﷺ قال: «فَعَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ ثُمَّ الْيُسْرَى كَذَلِكَ».

ثانياً: ما رواه أبو داود، والبيهقي، وغيرهما بأسانيد جيدة، عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ أقبل علينا بوجهه، وقال: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ مِمَّا يَلْصِقُ كَعْبَهُ بِكَعْبِ صَاحِبِهِ، ومنكبه بمنكبه، وموضع الدلالة منه: قوله: «يلصق كعبه بكعب صاحبه» وهذا لا يكون إلا في الكعب الذي قلنا.

ثالثاً: ما روي: أن النبي ﷺ قال لجابر بن سليم رضي الله عنه: «ارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين»، فدل على أن الكعبين أسفل الساق، لا ما قالوا من ظاهر القدم. وأما الإجماع: فما قال الشافعي في «الأم»: «ولم أسمع مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكر الله عز وجل: في الوضوء الكعبان النابتان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم».

وأما اللغة: فقال المأوردي: حكى عن قريش كلهم، ولا يختلف لسانهم - أن الكعب: اسم للناتئ بين الساق والقدم، قال: وهم أولى بأن يعتبر لسانهم في الأحكام من أهل «اليمن»؛ لأن القرآن نزل بلغتهم. وأما الاشتقاق: فهو أن الكعب: اسم لما استدار وعلاً، وهو مشتق من التكعب، وهو التواء مع الاستدارة؛ ولذلك قالوا: كعب ثدي الجارية، إذا استدار وعلاً، ويقال: جارية كاعب، إذا أنهد ثديها =

وألفاظ الآية تقتضي الموالاة بين الأعضاء، قال مالك: هو فرض مع الذكر، ساقط مع الشبان، وروى الدارقطني في سننه: «مَنْ تَوَضَّأَ، فَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَى وُضُوئِهِ، كَانَ طَهُوراً لَجَسَدِهِ، وَمَنْ تَوَضَّأَ، وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَى وُضُوئِهِ كَانَ طَهُوراً لِأَعْضَائِهِ»^(١). انتهى من «الكوكب الدرّي».

وكذلك تتضمن ألفاظ الآية الترتيب، و «أَطْهَرُوا» أمرٌ لواجد الماء عند الجمهور،

(أي: استدار وعلا)، ومنه سميت الكعبة كعبة؛ لاستدارتها، وهذه صفة الكعب الذي قلناه لا الذي قالوه.

فإن قيل: البهائم لها في كل رجل كعب واحد، فكذلك الآدمي، قلنا: خلقه الآدمي خلاف خلقه البهيمة؛ لأن كعب البهيمة فوق ساقها، وكعب الآدمي في أسفله، فلا يلزم اتفاقهما، فليس لهؤلاء المخالفين حجة تذكر. وإذا علم أن الكعبين ما ذكر، نقول: لا خلاف عندنا في أنه يجب إدخال الكعبين مع القدمين في الغسل، فهما من محل الفرض؛ وبه قال الجمهور، وخالف فيه زفر، وأبو بكر ابن داود، وقالوا: لا يجب غسل الكعبين.

ودليلنا: أولاً: قوله تعالى: «وَأَرْجِلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» [المائدة: ٦]، تقريره: أن «إلى» إن كانت بمعنى «مع»؛ كما في قوله تعالى: «وإذا خلوا إلى شياطينهم» [البقرة: ١٤]، أي: مع شياطينهم، وكقوله تعالى: «من أنصاري إلى الله» [آل عمران: ٥٢] أي: مع الله، فدخل الكعبين في محل الفرض ظاهر، وإن كانت حداً وغاية، فقد قال المبرد: إن الحد إذا كان من جنس المحدود، دخل في جملة، وإن كان من غير جنسه لم يدخل، ألا تراهم يقولون: بعثك الثوب من الطرف إلى الطرف، فيدخل الطرفان في المبيع؛ لأنهما من جنسه، وما معنا الحد فيه من جنس المحدود، فيكون الكعبان داخلين في محل الفرصة وأيضاً الإجماع، والاحتياط، وعدم إمكان بيان فاصل بين الكعبين والقدم - قرائن على دخولهما.

وثانياً: ما رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه توضع، فغسل يديه حتى أشرع في العضدين، وغسل رجليه حتى أشرع في الساقين، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، فثبت غسله ﷺ للكعبين، وفعله بيان للوضوء المأمور، ولم ينقل تركه ذلك.

واحتجوا أولاً: بأن «إلى» لانتهاه الغاية، وما يجعل غاية يكون خارجاً، ولذلك لم يدخل إمساك الليل في جملة الصيام في قوله تعالى: «ثم أتموا الصيام إلى الليل» [البقرة: ١٨٧] فلم يدخل غسل الكعبين في جملة الغسل.

قلنا أولاً: إنما لم يدخل إمساك الليل في جملة الصيام؛ لأنه ليس من جنس النهار، بخلاف ما معنا، وثانياً: قيام القرينة على خروج الليل، وهي عدم وجوب الوصال في الصوم.

واحتجوا ثانياً: بأن خروج الكعبين متيقن، ودخولهما مشكوك فيه، فيقدم اليقين على الشك.

قلنا أولاً: لا نسلم أن الشك موجود، فإنه قد رفع بالإجماع على وجوب غسل الكعبين، ولو سلم فالاحتياط أولى.

ينظر: «المسح على الخفين» لشيخنا/ محمد سيد أحمد.

(١) أخرجه الدارقطني (٧٤/١)، كتاب «الطهارة»، باب التسمية على الوضوء.

١٤ وقال عمرُ بْنُ الخطَّاب وغيره: لا يَتِيَمُ الجُنُبُ البَتَّة، بل يدع/ الصلاةَ حَتَّى يجد الماء^(١).

وقوله سبحانه: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ...﴾ الآية: الإرادة صفة ذات، وجاء الفعلُ مستقبلاً؛ مراعاةً للحوادث التي تَظْهَرُ عن الإرادة، والحرَجُ: الضيق، والحرَجَةُ: الشَّجَرُ المُلْتَفُّ المتضايق، وَبَجَرِي مع معْنَى هذه الآية قولُ النبي ﷺ: «دَيْنُ اللَّهِ يُسْرٌ»، وقوله - عليه السلام -: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(٢)، وجاء لَفْظُ الآية على العُموْم، والشَّيْءُ المذكورُ بقُرْبٍ هو أمر التيمُّم، والرُّخْصَةُ فيه، وزوالُ الحرَجِ في تحمُّلِ الماءِ أبداً؛ ولذلك قال أُسَيْدٌ: «مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ»^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يَرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ...﴾ الآية: إعلامٌ بما لا يُوَازِي بِشُكْرِ مَنْ عَظِيمٍ تَفَضُّلُهُ تبارك وتعالى، و ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تَرَجُّ في حقِّ البَشَرِ، وفي الحديث الصحيح عن أبي مالك الأشعري^(٤)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ، أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نَوْرٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا»، رواه مُسْلِمٌ، والترمذي، وفي رواية له: «التَّسْبِيحُ نِصْفُ الْمِيزَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُهُ، وَالتَّكْبِيرُ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»، وزاد في رواية أخرى: «وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَيْسَ لَهَا دُونَ اللَّهِ حِجَابٌ؛ حَتَّى تَخْلُصَ إِلَيْهِ»^(٥). انتهى.

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦٥/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره ابن عطية (١٦٥/٢).

(٤) كعب بن مالك، وقيل: كعب بن عاصم قال ابن حجر في الإصابة: قال سعيد البردعي: سمعت أبا بكر بن أبي شيبة يقول: أبو مالك الأشعري اسمه: عمرو.

تنظر ترجمته في: «الاستيعاب» (١٤٤٥/٤)، «تلفيح فهوم أهل الآثار» (٣٦٧)، «الكاشف» (٣٧٣/٣)، «الإصابة» (١٦٨/٧)، «تهذيب التهذيب» (٢١٨/١٢)، «الكنى والأسماء» (٥٢/١)، «تقريب التهذيب» (٤٦٨/٢)، «تهذيب الكمال» (١٦٤٣/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (١٩٩/٢)، «أسد الغابة» (٢٧٢/٦).

(٥) أخرجه مسلم (٢٠٣/١) كتاب «الطهارة»، باب فضل الوضوء، حديث (٢٢٣/١)، والنسائي (٥/٥) كتاب «الزكاة»، باب وجوب الزكاة، وابن ماجه (١٠٢/١ - ١٠٣) كتاب «الطهارة»، باب الوضوء شطر الإيمان، حديث (٢٨٠) والدارمي (١٦٧/١) كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في الطهور، وأبو عوانة (١/٢٢٣)، وابن أبي شيبة (٦/١) والطبراني في «الكبير» (٣٢٢/٣) رقم (٣٤٢٣، ٣٤٢٤) والبيهقي (١/٤٢) كتاب «الطهارة»، والبغوي في «شرح السنة» (٢٥٠/١، ٢٥١ - بتحقيقنا) عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، ولا إله إلا الله والله أكبر =

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وميثاقه...﴾ الآية: خطابٌ للمؤمنين، ونِعْمَةُ اللَّهِ: اسمُ جنسٍ، يجمع الإسلامَ، وحُسْنَ الحالِ، وحُسْنَ المَالِ، والميثاقُ: هو ما وقع للنبي ﷺ في بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ، وَبَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، وكلُّ موطنٍ قال الناسُ فيه: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، هذا قولُ ابنِ عَبَّاسٍ^(١) وجماعةٍ من المفسرين.

وقال مجاهدٌ: المرادُ: الميثاقُ المأخوذُ على التَّسَمُّ حينِ اسْتِخْرَاجِها مِنْ ظَهْرِ آدَمَ - عليه السلام -.

والأوَّلُ أَرْجَحُ وَأَلْيَقُ بِنَمَطِ الْكَلَامِ، وباقِي^(٢) الآيةِ بَيِّنٌ مُتَكَرِّرٌ، قال أبو عمر بنُ عَبْدِ الْبَرِّ في كتابه «بَهْجَةُ الْمَجَالِسِ»: رُوِيَ عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلٍ ثَوَابًا، فَهُوَ مُنْجَزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَابًا، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»^(٣)، وعن ابنِ عَبَّاسٍ مثله. انتهى

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم...﴾ الآية:

= يملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، وكل الناس يغدو فبعتها أو موبقها.

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦٥/٢).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٩/٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٦٦/٦) رقم (٣٣١٦) من حديث أنس، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢١٤/١٠) وقال: رواه أبو يعلى، والطبراني في «الأوسط»، وفيه سهيل بن أبي حزم، وقد وثق على ضعفه، وبقيته رجاله رجال الصحيح.

والحديث ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٠٤١٦)، وعزاه إلى أبي يعلى، والخراطي في «مكارم الأخلاق»، والبيهقي في «البعث»، وابن عساكر، عن أنس.

خطاب للنبي ﷺ، وأمته، والجمهور أن سبب هذه الآية أن النبي ﷺ، لما استعان بيهود في دية الرجلين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري، وصاحبه، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، أنزل حتى نضنع لك طعاماً، وننظر في معونتك، فنزل رسول الله ﷺ في ظل جدار وكان معه أبو بكر وعمر وعلي، فتأمرت يهود في قتله، وقالوا: من رجل يظهر على الحائط، فيصّب عليه حجراً يشدّخه، فجاء جبريل، فأخبر النبي ﷺ الخبر، فقام ﷺ من المكان، وتوجّه إلى المدينة، ونزلت الآية في ذلك؛ وترجع هذا القول بما يأتي بعد من الآيات في وصف غدر يهود، ونقضهم المواثيق.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾: هذه الآية المتضمنة للخبر عن نقضهم مواثيق الله تعالى - تقوي أن الآية المتقدمة في كف ١٤١ ب الأيدي، إنما كانت في/ أمر بني النضير، والإجماع على أن النقيب كبير القوم، القائم بأمورهم، قال قتادة وغيره: هؤلاء الثقباء قوم كبار من كل سبط، تكفل بكل واحد سبطه، بأن يؤمنوا ويلتزموا التقوى^(١).

قال ع^(٢): * ونحو هذا كانت النقباء ليلة بيعة العقبة، مع النبي ﷺ، والضمير في ﴿مَعَكُمْ﴾، لبني إسرائيل، أي: معكم بنصري، وجياطتي، واللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾: هي المؤذنة بمجيء القسم، ولام القسم هي قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾؛ والدليل على أن هذه اللام إنما هي مؤذنة: أنها قد يستغنى عنها أحياناً، ويتم الكلام دونها، ولو كانت لام قسم، لم يترتب ذلك، وإقامة الصلاة: توفية شروطها، والزكاة هنا: شيء من المال كان مفروضاً عليهم فيما قال بعض المفسرين، ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾: معناه: وقُرَّطُمُوهُمْ، وعظَّمْتُمُوهُمْ،

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره»، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٢/٢) وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة بنحوه.

(٢) ينظر ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦٨/٢).

وَنَصَرْتُمُوهُمْ، وقرأ عاصم^(١) الْجَحْدَرِيُّ: «وَعَزَزْتُمُوهُمْ» - خفيفة الزاي -؛ حيث وقع، وقرأ في «سورة الفتح»: «وَتَغْزِرُوهُ» - بفتح التاء، وسكون العين، وضَمُّ الزاي -، وسواء السَّيْلِ: وَسَطُهُ، وسائر ما في الآية بَيْنَ، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...﴾ الآية: أي: فبنقضِهِمْ، والقَسْوَةُ: غَلِظَ الْقَلْبُ، وَبُؤُهُ عَنِ الرَّقَّةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَصَلَابَتُهُ حَتَّى لَا يَنْفَعَلَ لَخَيْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: نَصَّ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، أي: قد كان لهم حظٌّ عظيمٌ فيما ذُكِّرُوا بِهِ، فَتَسَوَّهُ، وَتَرْكُوهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ - عليه السلام -؛ أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي مَسْتَأْنِفِ الزَّمَانِ يَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ، وَغَائِلَةٍ، وَأُمُورٍ فَاسِدَةٍ.

قالت فرقة: خَائِنَةٌ: مصدرٌ، والمعنى: عَلَى خِيَانَةٍ، وقال آخرون: معناه: عَلَى فِرْقَةٍ خَائِنَةٍ، فهي اسمُ فاعِلٍ صفةٌ لمؤنَّث.

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ﴾: منسوخٌ بما في «براءة»، وباقي الآية بَيْنَ.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤)

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾: «مِنْ»: متعلِّقة بـ ﴿أَخَذْنَا﴾، التقدير: وَأَخَذْنَا مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى مِيثَاقَهُمْ، ويحتملُ أَنْ تكون معطوفةً عَلَى ﴿خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾، والأوَّلُ أَرْجَحُ، وَعَلَّقَ قَوْلَهُمْ: «نَصَارَى» بقولهم ودعواهم؛ مِنْ حَيْثُ هُوَ اسْمٌ شَرْعِيٌّ يَقْتَضِي نَصَرَ دِينِ اللَّهِ، وَسَمَّوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ دُونَ اسْتِحْقَاقِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾: أي: أَثْبَتْنَاهَا بَيْنَهُمْ وَأَلْصَقْنَاهَا، وَالْإِغْرَاءُ: مَاخُذٌ مِنَ الْغِرَاءِ الَّذِي يُلْصَقُ بِهِ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: الْإِغْرَاءُ: التَّسْلِيطُ. انتهى.

والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يحتملُ أَنْ يعودَ عَلَى الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّ الْعَدَاوَةَ بَيْنَهُمْ موجودةٌ مستمرةٌ، ويحتملُ أَنْ يعودَ عَلَى النَّصَارَى فَقَطْ؛ لِأَنَّهَا أُمَّةٌ مُتَقَابِلَةٌ بَيْنَهَا الْفِتْنُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ؛ إِذْ صُنِعَ لَهُمْ كُفْرٌ يوجبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ.

(١) ورويت عن عمر بن الخطاب كما في الشواذ (ص ٣٨)، وينظر: «المحتسب» (١/٢٠٨)، و «المحرر الوجيز» (٢/١٦٨)، و «البحر المحيط» (٣/٤٦٠)، و «الدر المصون» (٢/٥٠٠).

واعلم (رحمك الله)؛ أنه قد جاءت آثارٌ صحيحةٌ في ذم الشحناء والتباعض والهجران لغير موجب شرعي، ففي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيَقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»، وفي رواية: «تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ خَمِيسٍ وَاِثْنَيْنِ، فَيُغْفَرُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِكُلِّ أَمْرِيءٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا...» الحديث^(١). انتهى.

وروى ابن المبارك في «واقعه» بسنده، عن النبي ﷺ، قال: «لَا يَحِلُّ لِأَمْرِيءٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَهَاجِرَ مُسْلِمًا فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَإِنَّهُمَا نَاكِبَانِ عَنِ الْحَقِّ مَا دَامَا عَلَى صِرَامِهِمَا، فَأُولَهُمَا قِيًا يَكُونُ سَبْقُهُ بِالْقِيَاءِ كَفَّارَةً لَهُ، وَإِنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ، وَرَدَّ عَلَيْهِ سَلَامَهُ، رَدَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، وَرَدَّتْ عَلَى الْآخِرِ الشَّيَاطِينُ، وَإِذَا مَاتَا عَلَى صِرَامِهِمَا، لَمْ يَدْخُلَا الْجَنَّةَ»، أَرَاهُ قَالَ: أَيْدًا^(٢). انتهى، وسنده جيد، ونصه قال ابن المبارك: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ عَنْ يَزِيدِ الرُّشَكِ^(٣)، عَنْ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ^(٤)، قَالَتْ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ عَامِرٍ^(٥) يَقُولُ: سَمِعْتُ

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٠٨/٢ - ٩٠٩)، كتاب «حسن الخلق»، باب ما جاء في المهاجرة، حديث (١٧) ومسلم (١٩٨٦/٤) كتاب «البر والصلة»، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، حديث (٢٥٦٥/٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٧١) رقم (٧٨٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٠٢)، وأحمد (٢٠/٤)، وابن حبان (٥٦٦٤) من طريق يزيد الرشك، عن معاذة العدوية، عن هشام بن عامر به.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٦٩/٨) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجال أحمد رجال الصحيح. (٣) يزيد بن أبي يزيد الضُّبَعِي بضم المعجمة مولاهم أبو الأزهر البصري الذارع القَسَامُ الرُّشَكُ بكسر المهملة وإسكان المعجمة. عن: مُطَرِّفِ بْنِ الشَّخِيرِ. وعنه: شعبة، ومُعَمَّر. وثقه أبو حاتم. قال ابن منجويه: مات سنة ثلاثين ومائة. له في (البخاري) فرد حديث.

ينظر: «الخلاصة» (١٧٩/٣).

(٤) معاذة بنت عبد الله العدوية أم الصُّهْبَاءِ البَصْرِيَّةِ العابدة، عن علي وعائشة، وعنها أبو قلابة ويزيد الرشك وأيوب وعاصم الأحوال وطائفة، قال ابن معين: ثقة حجة، قال الذهبي: بلغني أنها كانت تحيي الليل، وتقول: عجبت لعين تنام وقد علمت طول الرقاد في القبور، قال ابن الجوزي: توفيت سنة ثلاث وثمانين.

ينظر: «الخلاصة» (٣٩٣/٣)، «تهذيب الكمال» (١٦٩٨/٣)، «الكاشف» (٤٨١/٣)، «أعلام النساء» (٦٠/٥)، «سير الأعلام» (٥٠٨/٤).

(٥) هشام بن عامر بن أمية بن الحَسَنَاسِ بمهمات ابن مالك. عن عامر بن غنم بن عدي بن النُّجَّار الأنصاري النُّجَّاري، صحابي نزل البصرة، له أحاديث، انفرد له مسلم بحديث. وعنه ابنه سعد ومُعَاذَةُ الْعَدَوِيَّةِ.

النبي ﷺ، فذكر الحديث.

وقوله: «لَمْ يَدْخُلَا الْجَنَّةَ»: ليس على ظاهره، أي: لم يَدْخُلَا الْجَنَّةَ أَبَداً؛ حتى يقتصر لبعضهم من بعض، أو يقع العفو، أو تحلّ الشفاعة؛ حسبما هو معلوم في صحيح الآثار.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَاهِلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ الآية: أهل الكتاب: لفظ يعم اليهود والنصارى، ولكن نوازل الإخفاء؛ كالرجم وغيره، إنما حُفِظَتْ لليهود؛ لأنهم كانوا مجاوري رسول الله ﷺ في مهاجره، وفي إعلامه ﷺ يخفي ما في كتبهم، وهو أُمِّي لَا يَكْتُبُ، وَلَا يَضَحِبُ الْقُرْآنَ - دليل على صحة نبوته؛ لو ألهمهم الله للخير، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾: أي: لم يفضحهم فيه؛ إبقاء عليهم، والضمير في ﴿يَعْفُوا﴾ للنبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾: هو محمد ﷺ، و﴿كِتَابٌ مُبِينٌ﴾: هو القرآن، ويحتمل أن يريد موسى - عليه السلام -، والتوراة: أي: لو اتَّبَعْتُمُوهَا حَقَّ الْإِتِّبَاعِ، وَالْأَوَّلُ هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، وَ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: أي: طُرُقُ السَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «السَّلَام» هُنَا أَسْمَاءً مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَالْمَعْنَى: طُرُقُ اللَّهِ، وَ﴿الظُّلُمَاتِ﴾: الكُفْرُ، وَ﴿النُّورُ﴾: الْإِيمَانُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيْنَ مُتَكَرِّرٍ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ﴾: أي: لَا مَالِكَ، وَلَا رَادَّ لِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَسِيحِ، وَلَا فِي غَيْرِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى خَلْقِهِ الْمَسِيحَ فِي رَحِمِ مَرْيَمَ مِنْ غَيْرِ

والد، بل اختراعاً؛ كآدم - عليه السلام -.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: عموم معناه الخصوص فيما عدا الذات، والصفات، والمحالات.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلُوبَهُمْ فَلَمَّ يَعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ الآية: البُتُوَّة؛ في قولهم هذا: بنوهُ الحَنَانِ والرأفة، لأنهم ذكروا أن الله سبحانه أوحى إلى إسرائيل؛ أن أول أولادك يكرري؛ فضلوا بذلك، وقالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾، ولو صح ما رَوَوْا، لكان معناه: يكرراً في التشريف أو النبوة، ونحوه، وكانت هذه المقالة منهم عندما دعاهم النبي - عليه السلام - إلى الإيمان به، وخوفهم العذاب، فقالوا: نحن لا نخاف ما تقول؛ لأننا أبناء الله وأحباؤه؛ ذكر ذلك ابن عباس^(١)، وقد كانوا قالوا للنبي ﷺ في غير ما موطن: نحن ندخل النار، فنقيم فيها أربعين يوماً، فردَّ الله عليهم قولهم، فقال ب^{١٤٦} لنبيه - عليه السلام -: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ/ بذُنُوبِكُمْ﴾: أي: لو كانت منزلتكم منه فوق منازل البشر، لَمَا عَذَّبَكُمْ، وأنتم قد أفررتم أنه يعذبكم، ثم ترك الكلام الأول، وأضرب عنه غَيْرَ مفسدٍ له، ودخل في غيره، فقال: بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ كسائر الناس، والخلق أكرمهم عند الله أتقاهم، يهدي من يشاء للإيمان، فيغفر له ويورثه من يشاء في الكفر، فيعذبه، وله ملك السموات والأرض وما بينهما، فله بحق الملوك أن يفعل ما يشاء، ولا معقب لحكمه، وإليه مصير العباد بالحشر والمعاد.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

وقوله تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابَ﴾: يعني: اليهود والنصارى: ﴿قد جاءكم رسولنا﴾: محمد - عليه السلام -.

وقوله: ﴿على فترة من الرسل﴾: أي: على انقطاع من مجيئهم مدةً ما، والفترة:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠٥/٤) (١١٦١٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٧٢/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٦/٢)، وعزاه لابن إسحق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس.

سُكُونٌ بَعْدَ حَرَكَةٍ؛ فِي الْأَجْرَامِ، وَيَسْتَعَارُ ذَلِكَ لِلْمَعَانِي، وَقَدْ قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ»، وَفِي الصَّحِيحِ؛ أَنَّ الْفَتْرَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبَيْنَ عِيسَى سِتْمَائَةِ سَنَةٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِسَبَبِ قَوْلِ الْيَهُودِ: مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ بَعْدَ مُوسَى مِنْ شَيْءٍ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾: مَعْنَاهُ: حِذَارًا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فَهُوَ الْهَادِي وَالْمُضِلُّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يُقْوِمُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوهَا عَلَى أَذْيَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ...﴾ الْآيَةُ: الْمَعْنَى: وَادْكُرْ لَهُمْ، يَا مُحَمَّدٌ؛ عَلَى جِهَةِ إِعْلَامِهِمْ بِغَيْبِ كِتَابِهِمْ؛ لِيَتَحَقَّقُوا نَبُوءَتَكَ، ثُمَّ عَدَّدَ عَيُونََ تِلْكَ النِّعَمِ، فَقَالَ: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾: أَي: حَاطَةً، وَمُنْقَذُونَ مِنَ النَّارِ، وَشَرَّفَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، أَي: فِيكُمْ مُلُوكًا؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ شَرَفٌ فِي الدُّنْيَا، وَحَاطَةٌ فِي نَوَائِبِهَا، ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْمَنْ وَالسُّلُوبُ، وَالْحَجَرُ، وَالْعِمَامُ (٢)، وَقَالَ غَيْرُهُ: كَثْرَةُ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: فَالْعَالَمُونَ عَلَى الْعُمُومِ، وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُؤْتَى هُوَ آيَاتُ مُوسَى، فَالْعَالَمُونَ عَالَمُ زَمَانِهِمْ؛ لِأَنَّ مَا أُوتِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَ ﴿الْمَقْدَسَةَ﴾ مَعْنَاهُ: الْمَطْهَرَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ الطُّورُ وَمَا حَوْلَهُ (٣)، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ الشَّامُ (٤)،

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٠٧/٤) (١١٦١٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٧٣/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٧٦/٢) وَعِزَّاهُ لِابْنِ إِسْحَاقَ، وَابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «الدَّلَائِلِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١١/٤) (١١٦٤٢)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٤/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٧٨/٢) وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، عَنْ مُجَاهِدٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١١/٤) (١١٦٤٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٧٤/٢).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١٣/٤) (١١٦٥٠)، وَذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٧٨/٢)، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

قال^(١) الطبري: ولا يختلف أنها بين الفرات وعريش مضر.

قال ع*^(٢): وتظاهرت الروايات؛ أن «دمشق» هي قاعدة الجبارين، ثم حذرهم موسى الارتداد على الأدبار، وذلك هو الرجوع القهقري، والخاسر: الذي قد نقص حظّه، ثم ذكر عز وجل؛ أنهم تعتتوا ونكصوا، فقالوا: ﴿إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، والجبار: من الجبر؛ كأنه لقدرته وعشمه وبطشه يجبر الناس على إرادته، والنحلة الجبارة: العالقة التي لا تنال بيد، وكان من خبر الجبارين؛ أنهم كانوا أهل قوة، فلما بعث موسى الأنبياء عشرين نقيباً مطلقين من أمر الجبارين، وأحوالهم، رأوا لهم قوة وبطشاً وتخيلاً أن لا طاقة لهم بهم، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك من بني إسرائيل، وأن يعلموا به موسى؛ ليرى فيه أمر ربه، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل، خان منهم عشرة، فعرفوا قراياتهم، ومن وثقوا به، ففشا الخبر؛ حتى أعرج أمر بني إسرائيل، وقالوا: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولم يف من الثقباء إلا يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا، ويقال فيه: «كالوث» (بثاء مثله).

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكَبُوا عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣) ﴿قَالُوا يَمْوَسِيْنَا إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦)

وقوله تعالى: ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ أي: يخافون الله سبحانه؛ قال أكثر المفسرين: الرجلان يوشع بن نون، وهو ابن أخت موسى، وكالب بن يوفنا، ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالإيمان الصحيح، وربط الجأش، والثبوت، وقولهم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا...﴾ الآية: عبارة تقتضي كفراً، وقيل: المعنى: فاذهب أنت وربك يعينك، وأن الكلام معصية لا كفر، وذكر ابن إسحاق وغيره؛ أن النبي ﷺ كلم الناس يوم بدر، وقال لهم: «أشيروا علي، أيها الناس، فقال له المقداد بن الأسود: يا رسول الله، لسننا نقول؛ كما قالت بنو إسرائيل: ﴿أذهب أنت وربك فقاتلا﴾ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»، ولكن نقول: أذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ^(٣)، ثم تكلم سعد بن معاذ بنحو هذا المعنى، ولما

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥١٣/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٤/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢١/٤) (١١٦٨٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٥/٢)، وابن عطية في «تفسيره» (١٧٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٠/٢)، وعزاه لأحمد عن طارق بن شهاب.

سَمِعَ مُوسَى - عليه السلام - قولهم، ورأى عصيانهم، تبرأ إلى الله منهم، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾، يعني: هارون.

وقوله: ﴿فَأَفْرَقَ بَيْنَنَا﴾: دعاء حرج، والمعنى: فافرق بيننا وبينهم حتى لا نشقى بفسقهم، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قال الله، وحَرَّمَ الله تعالى على بني إسرائيل دخول تلك المدينة أربعين سنةً يتيهون في الأرض، أي: في أرض تلك النازلة، وهو فُحْص التيه؛ وهو؛ على ما يحكى: طول ثلاثين ميلاً^(١)، في عَرْضِ سِتَّةِ فَرَاسِخَ، ويروى أنه لم يدخل المدينة أحد من ذلك الجيل إلا يوشع، وكألوث، وروي أن يوشع نُبِيٌّ بعد كمال الأربعين سنةً، وخَرَجَ ببني إسرائيل من التيه، وقاتل الجبارين، وفتح المدينة، وفي تلك الحرب، وَقَفَتْ له الشمسُ ساعةً، حتى استمرَّ هزم الجبارين، والته: الذَّهَابُ في الأرض إلى غير مقصِدٍ معلوم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ معناه: فلا تحزن، والخطابُ بهذه الآية لموسى - عليه السلام -، قال ابن عباس: ندم موسى على دعائه على قومه، وحزن عليهم، فقال الله له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) ﴿لَبِئْسَ بَسَطَ إِلَهِكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٠)

وقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا...﴾ الآية: أتل: معناه: أسرُذُ وأسَمِغهم إياه، وهذه من علوم الكتب الأول، فهي من دلائل نبوة نبيِّنا محمد ﷺ؛ إذ هي من غامضِ كتب بني إسرائيل. قال الفخر^(٣): وفي الآية قولان:

أحدهما: أتل على الناس.

والثاني: أتل على أهل الكتاب. انتهى.

(١) الميل من الأرض: قدر منتهى مد البصر، وهو ثلث الفرسخ. وهو مقياس للطول قدر قديماً بأربعة آلاف ذراع، وحديثاً بستين وسبعمئة وألف ياردة. ينظر: «لسان العرب» (٤٣١١)، و «المعجم الوسيط» (٩٠١).

(٢) أخرجه الطبري بنحوه في «تفسيره» (٥٢٦/٤) (١١٧٠٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٧٧/٢).

(٣) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٦٠/١١).

و ﴿أَبْنَىٰ آدَمَ﴾: هما لصلبه، وهما هَابِيلُ وَقَابِيلُ، روت جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود؛ أَنَّ سبب هذا التقريب أَنَّ حَوَاءَ كانت تَلِدُ في كُلِّ بطن ذَكَراً وَأُنْثَى، وكان الذَّكَرُ يتزَوَّجُ أُنْثَى البطن الآخر، ولا تحلُّ له أخته توءمته، فولدت مع قابيلَ اختاً جميلةً، ومع هَابِيلَ اختاً ليست كذلك، فلما أراد آدم أن يزوجهَا من هَابِيلَ، قال قابيل: أنا أَحَقُّ بأختي، فأمره آدم، فلم يَأْتِمْز، فاتفقوا على التَّقريب، فتَقَبَّلَ قَربَانُ هَابِيلَ، ووجب أن يأخذ أخت قابيلَ؛ فحينئذٍ: ﴿قال لأقتلَنَّكَ﴾^(١)، وقولُ هَابِيلَ: ﴿إنما يتقبَّلَ الله من المتقين﴾: كلامٌ، قبله محذوفٌ، تقديره: وَلِمَ تقتلُنِي، وليس لي ذَنْبٌ في قبول الله قَربَانِي، وإنما يتقبَّلَ الله من المتقين؟! وإجماع أهل السُنَّةِ في معنى هذه الألفاظ: أنها اتقاء الشُّركِ، فمن اتقاه، وهو موحدٌ، فأعماله التي تُضَدِّقُ فيها نيَّتهُ مقبولةٌ، وأما المتَّقِي للشُّركِ وللمعاصي، فله الدرجة ١٤٧ ب العليا من القَبُولِ/ والختم بالرحمة، عَلمَ ذلك بإخبار الله تعالى لا أَنَّ ذلك يَجِبُ على الله تعالى عقلاً.

قلت:

قال *ع*: في معنى هذه الألفاظ (يعني حيث وقعت في الشرع)، وأما في هذه الآية، فليس باتقاء شرك؛ على ما سيأتي، وقولُ هَابِيلَ: ﴿ما أنا بياسط يدي إليك...﴾ الآية: قال عبد الله بن عمر، وجمهورُ النَّاسِ: كان هَابِيلُ أَشَدَّ قوَّةً من قابيلَ، ولكنه تَحَرَّجَ^(٢)، وهذا هو الأظهر.

قال *ع*^(٣): ومن هنا يَقَوَّى أن قابيلَ إنما هو عاصٍ، لا كافر؛ لأنه لو كان كافراً، لم يكن للتحرج هنا وجهٌ، و ﴿تَبَوَّأُ﴾: معناه: تمضي متحملاً، وقوله: ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾: قيل: معناه: بِإِثْمِ قَتْلِي وسائرِ آثامِكَ، وقيل: المعنى: بِإِثْمِي الذي يختصُّ بي فيما فَرَطَ لي، وهذا تأويلٌ يَغْضُدهُ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «يُؤْتَى بِالظَّالِمِ وَالْمَظْلُومِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْخَذُ مِنَ حَسَنَاتِ الظَّالِمِ، فَتُزَادُ فِي حَسَنَاتِ الْمَظْلُومِ حَتَّى يَنْتَصِفَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ»^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٩/٤) (١١٧١٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٨/٢)، وابن عطية (١٧٩/٢) والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨١/٢) وعزاه لابن جرير، عن ابن مسعود، عن ناس من الصحابة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٢/٤) (١١٧٣٠)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٩/٢)، وابن عطية (١٧٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٤/٢) وعزاه لابن جرير.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٩/٢).

(٤) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ يحتمل: أن يكون من قول هابيل لأخيه، ويحتمل: أن يكون إخباراً من الله تعالى لمحمد - عليه السلام -، قال الفخر: وقوله تعالى: ﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه﴾ قال المفسرون: معناه: سهّلت له نفسه قتل أخيه. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فأصبح من الخاسرين﴾: أضبح: عبارة عن جميع أوقاته، وهذا مَهْنَعُ كلام العرب؛ ومنه: [المنسرح]

أَضْبَحْتُ لَا أَخْمِلُ السَّلَاحَ

..... الْبَيْتُ^(١)

وقول سعد: فَأَضْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي^(٢)، إلى غير ذلك من استعمال العرب، ومن خسران قابيل ما صح، وثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا»^(٣)؛ وذلك لأنه أول من سنّ القتل.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْرَضْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نُورُنَا بِالْأَيْتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فبعث الله غراباً...﴾ الآية: قيل: أصبح في ثاني يوم قتله يطلب إخفاء أمر قتله، فلم يدر ما يصنع به، فبعث الله غراباً حياً إلى غراب ميت، فجعل يبحث

(١) صدر بيت للربيع بن ضبع الفزاري وعجزه: [المنسرح]

..... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

ينظر: «المعجم» (٣٢١/١)، «النوادر» (١٥٩)، «أمالى المرتضى» (٢٥٥/١)، و«حماسة البحرى» ص (٢٠١)، و«خزانة الأدب» (٣٨٤/٧)؛ و«شرح التصريح» (٣٦/٢)؛ و«الكتاب» (٨٩/١)؛ و«لسان العرب» (٢٥٩/١٣) (ضمن)؛ و«المقاصد النحوية» (٣٩٨/٣)؛ وبلا نسبة في «الرد على النحاة» ص (١١٤)؛ و«شرح المفصل» (١٠٥/٧)؛ و«المحتسب» (٩٩/٢)، «الدر المصون» (٢/١٧٨).

(٢) ذكره ابن عطية (١٨٠/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٩/٦)، كتاب «أحاديث الأنبياء» (٣٣٣٥) وفي (١٩٨/١٢) كتاب «الدييات»، باب قول الله تعالى: ﴿ومن أحياها...﴾ حديث (٦٨٦٧)، وفي (٣١٤/١٣) كتاب «الاعتصام»، باب إثم من دعا إلى ضلالة، حديث (٧٣٢١) ومسلم (١٣٠٣ - ١٣٠٤)، كتاب «القسامة»، باب بيان إثم من سن القتل، حديث (١٦٧٧/٢٧) من حديث ابن مسعود.

في الأرض، ويُلقَى التراب على الغُراب الميت، وظاهر الآية أنَّ هابيل هو أول مَيِّت من بني آدم، ولذلك جَهِلَّ سُنَّة المواراة؛ وكذلك حكى الطبري، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم بما في الكُتُب الأول، والسُّوءة: العورة، ويحتمل أن يراد الحالة التي تَسُوهُ النَّاطِر، ثم إن قابيل وَاَرَى أَخَاه، وَنَدِمَ عَلَى ما كان منه مِنْ معصية في قَتْلِهِ، حيث لا ينفعه الندم.

واختلف العلماء في قابيل، هل هو مِنَ الكُفَّار أو مِنَ العُصاة، والظاهر أنه من العُصاة، قال الفُخْر: ولم^(١) ينتفع قابيل بندمه؛ لأن نَدَمَهُ كان لأسبابٍ؛ منها: سَخَطُ أبويه وإخوته، وعدم انتفاعه بقتله، وَنَحْوُ ذلك، ولما كان ندمه لهذه الأسباب لا لأجلِ الخَوْف من الله تعالى، فلا جَرَمَ لم ينفعه هذا النَدَم.

وقوله تعالى: ﴿من أجل ذلك﴾ هو إشارة إلى ما تَضَمَّنَتْ هذه القِصَّة من أنواع المفاسدِ الحاصلة بسبب القَتْل الحرام، لا أنه إشارة إلى قصة قابيل وهابيل. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل...﴾ الآية: جمهورُ النَّاس على أن قوله: ﴿من أجل ذلك﴾: متعلِّق بقوله: ﴿كتبنا﴾ أي: من أجل هذه النازلة، وَمِنْ جَرَّاهَا؛ كتبنا، وقال قومٌ: بل هو متعلِّق بقوله: ﴿من النادمين﴾ أي: ندم؛ من أجل ما وقع، والوقوفُ؛ على هذا، على ﴿ذَلِكَ﴾، والناس على أن الوقفُ ﴿من النادمين﴾، ويقال: فعلتُ ذلك مِنْ أَجْلِكَ - بفتح الهمزة - وَمِنْ إِجْلِكَ - بكسرهما -.

١٤٨

وقوله سبحانه: ﴿بغير نفس﴾ أي: بغير أن تَقْتُلَ نَفْسَ نَفْسًا، والفسادُ في الأرض: يجمع الزنا، والارتداد، والحِرَابَة.

وقوله سبحانه: ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ روي عن ابن عباس؛ أنه قال: المعنى: مَنْ قَتَلَ نفساً واحدةً، وأنتَهَكَ حرمتها، فهو مِثْلُ مَنْ قَتَلَ الناس جميعاً، وَمَنْ ترك قَتْلَ نفس واحدةً، وصانَ حرمتها؛ مخافتي، وأستحيها، فهو كَمَنْ أَحْيَا الناسَ جميعاً^(٢)، قال الحسنُ وابنُ زيد: ﴿ومن أحيها﴾ أي: عفا عَمَّنْ وَجَبَ له قَتْلُهُ بعد القدرة^(٣)، وقيل غير هذا.

ثم أخبر تعالى عن بني إسرائيل؛ أنهم جاءتهم الرُّسُلُ بالبيِّنات في هذا وفي سِوَاه،

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٣٢/١١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤١/٤) (١١٧٧٥)، وذكره ابن عطية (١٨٢/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٠/٢) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٤/٤) برقم (١١٧٩٢) عن ابن زيد، (١١٧٩٣) عن الحسن، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٨٢/٢).

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كُلِّ عَصْرِ يَسْرِفُونَ﴾، ويتجاوزون الحدود.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية: رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وغيره: «أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ عُكْلٍ وَعَرِينَةٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَلَمُوا، ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْضُوءَا، وَاسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ؛ أَنْ يَكُونُوا فِي لِقَاحِ الصَّدَقَةِ، وَقَالَ: «أَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا»، فَخَرَجُوا فِيهَا، فَلَمَّا صَحُّوا، قَتَلُوا الرَّاعِي، وَاسْتَأْفُوا الْإِبِلَ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَهُمْ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ، فَأَخَذُوا، قَالَ جَمِيعُ الرُّوَاةِ: فَقَطَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خَلْفٍ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ^(١)، - وَيُرَوَّى: وَسَمَلَ^(٢) - وَتَرَكَهُمْ فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ، يَسْتَسْقُونَ، فَلَا يَسْقَوْنَ»، فَقِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِفَعْلِهِ ﷺ بِالْعَرَنِيِّينَ، وَوَقَّفَ الْأَمْرَ عَلَى هَذِهِ الْحُدُودِ.

وقال جماعة: إنها غير ناسخة لذلك الفعل؛ لأنَّ العرنيين مرتدون، لا سيمًا، وفي

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠/١) في الوضوء: باب أبوال الإبل (٢٣٣) و (٤٢٨/٣) في الزكاة، باب استعمال إبل الصدقة وألبانها لبناء السبيل (١٥٠١)، و (١٧٧/٦) في الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق؟ (٣٠١٨)، (٥٢٤/٧) في المغازي، باب قصة عكل وعرينة (٤١٩٢، ٤١٩٣)، (٨/١٢٣) في التفسير، باب ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾ (٤٦١٠)، و (١٤٩/١٠) في الطب، باب الدواء بأبوال الإبل (٥٦٨٦)، وباب من خرج من أرض لا تلايمه (٥٧٢٧)، و (١١١/١٢) في الحدود، باب المحاربين من أهل الكفر والردة (٦٨٠٢)، وباب لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا (٦٨٠٤) وباب سحر النبي ﷺ أعين المحاربين (٦٨٠٥)، وفي الديات، باب القسامة (٦٨٩٩)، ومسلم (٣/ ١٢٩٦-١٢٩٨) في القسامة، باب حكم المحاربين والمرتدين (١٤٠٩/ ١٦٧١)، وأبو داود (٥٣٤/٢) في الحدود، باب ما جاء في المحاربة (٤٣٦٤-٤٣٦٨)، والنسائي (١٥٨/١) في الطهارة، باب بول ما يؤكل لحمه، و (٧/ ٩٣-١٠٠) في تحريم الدم. باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾، باب اختلاف الناقلين لخبر حميد عن أنس بن مالك فيه. باب ذكر اختلاف طلحة بن مصرف ومعاوية بن صالح على يحيى بن سعيد في هذا الحديث، وأحمد (١٦٣/٣)، ١٧٠، ١٩٨، (٢٣٣).

(٢) أي: فقأها بحديدة مُخَمَّاة أو غيرها، وقيل: هو فَعَّقُهَا بالشوك.

ينظر: «النهاية» (٤٠٣/٢).

بعض الطُّرُق؛ أَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرَّعَاءِ، وقالوا: هذه الآية هي في المحارِبِ الْمُؤْمِنِينَ.

قال مالك: الْمُحَارِبُ عِنْدُنَا: مَنْ حَمَلَ عَلَى النَّاسِ السِّلَاحَ فِي مِصْرٍ أَوْ بَرِّيَّةٍ، فكَابَرَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، دُونَ نَائِزَةٍ^(١)، وَلَا دَخَلَ، وَلَا عِدَاوَةٍ؛ وَبِهَذَا الْقَوْلِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: وَالْإِمَامُ مُخَيَّرٌ فِيهِ بِأَنْ يَعاقِبَهُ بِمَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ، فَأَمَّا قَتْلُ الْمُحَارِبِ، فَبِالسَّيْفِ ضَرْبَةً لِلْعُنُقِ، وَأَمَّا صَلْبُهُ، فَبَعْدَ الْقَتْلِ عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ: بَلْ يُصَلَّبُ حَيًّا، وَيُقْتَلُ بِالطَّعْنِ عَلَى الْخَشْبَةِ، وَرَوَى هَذَا عَنْ مَالِكٍ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ مِنَ الْآيَةِ، وَهُوَ الْأَتَكِيُّ فِي النِّكَالِ، وَأَمَّا الْقَطْعُ، فَالْيَدِ الْيُمْنَى مِنَ الرَّشْخِ وَالرَّجُلَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَفْصِلِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾: الظاهر: أَنَّ الْأَرْضَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ أَرْضُ النَّازِلَةِ، وَقَدْ جَنَّبَ النَّاسَ قَدِيمًا الْأَرْضَ الَّتِي أَصَابُوا فِيهَا الذُّنُوبَ؛ وَمِنْهُ حَدِيثُ الَّذِي نَاءَ بِصُدْرِهِ نَحْوَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَيَنْبَغِي لِلْإِمَامِ، إِنْ كَانَ هَذَا الْمُحَارِبُ الْمَنْفِيُّ مَخُوفَ الْجَانِبِ، يَظُنُّ بِهِ أَنَّ يَعودُ إِلَى جِرَابَةٍ وَإِفْسَادٍ - أَنَّ يَسْجَنَهُ فِي الْبَلَدِ الَّذِي يَغْرِبُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَخُوفِ الْجَانِبِ، تَرَكَ مَسْرَحًا، وَهَذَا هُوَ صَرِيحُ مَذْهَبِ مَالِكٍ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا...﴾ الآية: إِشَارَةٌ إِلَى هَذِهِ الْحُدُودِ الَّتِي تُوقَعُ بِهِمْ، فَيَحْتَمِلُ الْخِزْيَ لِمَنْ عَوقِبَ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ لِمَنْ سَلِمَ فِي الدُّنْيَا، وَبِالْجُمْلَةِ فَهْمٌ فِي الْمَشِئَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا...﴾ الآية: اسْتثنَى عَزَّ وَجَلَّ التَّائِبَ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِسُقُوطِ حَقُوقِهِ عَنْهُ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وَالْعُلَمَاءُ ١٤٨ ب عَلَيَّ أَنَّ الْآيَةَ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْخَذُ الْمُحَارِبُ بِحَقُوقِ النَّاسِ، وَإِنْ تَابَ؛ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَكُم لَيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...﴾ الآية: هذه الآية

(١) النائرة: الحقد والعداوة. والدَّخَلَ: ما داخل الإنسان من فساد في عقل أو جسم.

ينظر: «لسان العرب» (١٣٤٢)، (٤٥٩٣).

وغَطَّ من الله تعالى بعقب ذكر العقوبات النازلة بالمحاربين، وهذا من أبلغ الوغظ؛ لأنه يرد على النفوس، وهي خائفة وجلَّة ﴿وَابْتَغُوا﴾: معناه: اطلبوا، و ﴿الْوَسِيلَةَ﴾: الزُبَّة، وأما الوسيلة المطلوبة لنبينا محمد ﷺ، فهي أيضاً من هذا؛ لأن الدعاء له بالوسيلة والفضيلة إنما هو أن يؤتاها في الدنيا، ويتَّصف بهما، ويكون ثمرة ذلك في الآخرة التشفيع في المقام المحمود، قلتُ: وفي كلامه هذا ما لا يخفى، وقد فسر النبي ﷺ الوسيلة التي كان يَرْجُوها من ربه، «وَأَنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَزْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ...»^(١) الحديث، وخص سبحانه الجهاد بالذكر، وإن كان داخلاً في معنى الوسيلة تشريفاً له؛ إذ هو قاعدة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ﴾: إخبار بأنهم يتمنون هذا، وقال الحسن بن أبي الحسن: إِذَا فَازَتْ بِهِمُ النَّارُ، قَرُبُوا مِنْ حَاشِيَتِهَا، فحِينَئِذٍ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ، وَيُطْمَعُونَ بِهِ^(٢)، وتأول هو وغيره الآية على هذا؛ قلتُ: ويؤيده ما خرَّجه البخاري في رؤية النبي ﷺ؛ «حِينَئِذٍ أَنَا آتِيَانِ، فَأَخْذًا بِيَدِهِ»، وفيه: «فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، رَمَى الرَّجُلَ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ»، وفيه أيضاً: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثُقُبٍ مِثْلِ التَّنُورِ أَغْلَاهُ ضَبِيقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ تَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارٌ، فَإِذَا اقْتَرَبَ، أَرْتَفَعُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ، رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عَرَاءٌ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَا: انْطَلَقَ...»^(٣) الحديث، وأخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار؛ أنهم ليسوا بخارجين من النار، بل عذابهم فيها مقيمٌ مؤبَّد.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣٨)
فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ^(٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٤٠) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...﴾ الآية: قلتُ^(٤):
المسروق: مال أو غيره.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (١٨٧/٢).

(٣) هو حديث المعراج الطويل، وسيأتي تخريجه في موضعه.

(٤) السرقة: بفتح السين، وكسر الراء، ويجوز إسكان الراء، مع فتح السين، وكسرها؛ يقال: سرق بفتح الراء، يسرق بكسرها سرقة، وسرقة، فهو سارق، والشيء مسروق، وصاحبه مسروق منه، فهي لغة: أخذ الشيء من الغير خفية، أي شيء كان.

فشرط المال: أن يكون نصاباً، بعد خروجه، مملوكاً لغير السارق، ملكاً محترماً،
تاماً، لا شبهة^(١) له فيه، مُحَرَّرًا، مُخَرَّجًا منه إلى ما ليس

= عرفها الشافعية: بأنها أخذ المال خفية؛ ظلماً، من غير حرز مثله بشروط.
وعرفها المالكية: بأنها أخذ مكلف حرّاً لا يعقل لصغره، أو مالاً محترماً لغيره نصاباً، أخرجه من حرزه،
بقصد واحد خفية لا شبهة له فيه.
وعرفها الحنفية: بأنها أخذ مكلف عاقل بالغ خفية قدر عشرة دراهم.
وعرفها الحنابلة: بأنها أخذ مال محترم لغيره، وإخراجه من حرز مثله.
ينظر: «المصالح» (١٤٩٦/٤)، «المغرب» (٣٩٣/١)، «المصباح» (٤١٩/١)، «تهذيب الأسماء»
للتنوي (١٤٨/٢)، «درر الحكام» (٧٧/٢)، «ابن عابدين» (٨٢/٤)، «مغني المحتاج» (١٥٨/٤)،
«المغني» لابن قدامة (١٠٤/٩)، «كشاف القناع» (١٢٩/٦)، «الخرشي على المختصر» (٩١/٨).
(١) وإلى ذلك ذهب جماهير الفقهاء فلا يقطع الوالد مثلاً من سرقته مال ولده.
وخالفهم الظاهرية، وأبو ثور، وابن المنذر فقالوا: يقطع السارق مطلقاً: كانت له شبهة في مال المسروق
منه أو لا.

استدل جمهور الفقهاء:

أولاً: بما رواه الترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «اذرءوا الحُدُودَ عَنِ
المُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ الإِمَامَ إِنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ
فِي الْعُقُوبَةِ».

وثانياً: بما روي من مسند أبي حنيفة للمارتي من طريق مقسم عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قَالَ: «اذرءوا
الحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ».

وثالثاً: بما رواه ابن ماجة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اذفَعُوا الحُدُودَ مَا وَجَدْتُمْ مَذْفَعاً»
فهذه الأحاديث صريحة في وجوب درء الحدود بالشبهات. والقطع حد فلا يجب مع وجودها.
واستدل الظاهرية ومن وافقهم: بعموم قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا»
[المائدة: ٣٨].

فإنه تعالى أوجب القطع من غير تفريق بين من له شبهة في مال المسروق منه، ومن لا شبهة له فيه.
وأجيب عنه بأن عموم الآية مخصوص بالأحاديث التي ذكرناها أدلة لجماهير الفقهاء.
هذا، والحق ما ذهب إليه جمهور الفقهاء فإن القطع عقوبة شديدة فيجب ألا تقام حتى يكون السبب تاماً،
والاعتداء ظاهراً. ومع وجود شبهة للسارق في مال المسروق منه لا يتحقق ما ذكر، فالقطع حينئذ لا
يناسب الجريمة. فوجوبه ظلم حاشا أن يوجد في أحكام الشريعة الإسلامية «وَمَا رُبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ»
[فصلت: ٤٦].

لذلك أوجبت الشريعة درء الحدود بالشبهات، ومنعت من إقامتها حتى تتحقق المناسبة بين الجرم،
والعقوبة.

غير أن جماهير الفقهاء اختلفوا فيما يعتبر شبهة دائرة للحد، وما لا يعتبر كذلك تبعاً لاختلافهم في اعتبار
قوة الشبه. وعدم اعتبارها، وإنبنى على ذلك اختلافهم في فروع كثيرة من هذا الباب فمثلاً: المالكية لا
يوجبون القطع في سرقة الأصول من الفروع، ويوجبونه في سرقة الفروع من الأصول؛ نظراً لقوة الشبهة
في الأولى دون الثانية.

يُحَرِّزُ^(١) له، أَسْتَسْرَارًا.

= والأئمة الثلاثة لا يفرقون بينهما في عدم القطع؛ نظراً لتحقيق الشبهة في كل منهما. وإن لم تكن قوية في البعض وأوسع المذاهب في هذا مذهب الحنفية. حتى إنهم لا يقطعون في سرقة ذوي الأرحام بعضهم من بعض مع أن الشبهة هنا ضعيفة. ينظر: «حد السرقة» لشيخنا إبراهيم الشهاوي.

(١) الحرز في اللغة: الموضع الحصين. ومنه: حديث الدعاء: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا فِي حَرَزِ حَارِزٍ». وفي اصطلاح الفقهاء: هو الموضع الذي يحفظ فيه المال عادة، بحيث لا يعد صاحبه مضيقاً له بوضعه فيه؛ كالدور والحوانيت والخيم. وهو يختلف باختلاف الأزمان والبلدان، ويتفاوت بتفاوت الأموال، وقوة السلطان وضعفه، وعدله وجوره ولهذا ترك الشارع بيانه، ولم ينص على تحديده؛ كما لم ينص على بيان القبض، والفرقة في البيع، وأشياء ذلك مما يختلف باختلاف العرف، ولو كان له حد معين لما ترك الشارع بيانه.

هذا وقد ذهب جماهير الفقهاء إلى أن أخذ المسروق من حرزه شرط في وجوب القطع، فلا يقطع السارق إلا إذا أخذ المسروق من حرزه.

وذهب أهل الظاهر، والخوارج، وجماعة من أهل الحديث إلى عدم اشتراطه، فيجب عندهم قطع السارق مطلقاً؛ أخذ المسروق من حرزه أو لا. استدلل الجمهور بالمنقول، والمعقول:

أما المنقول: فما رواه مالك في «الموطأ» عن عبد الله بن عبد الرحمن بن حسين المكي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا قطع من ثمر مُعَلَّقٍ؛ ولا في حريسة الجبل، فإذا آوَأ المراح أو الجرين، فالقطع فيما بلغ ثمن المَحْنِ».

ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ قد أثبت القطع في الثمر إذا سرق من جرينه، وفي الحريسة إذا أخذت من مراحها، ونفاه في سرقتهما قبل ذلك، فعلم أن المراح حرز للحريسة، والجرين حرز للثمر، وأن أخذهما من غير حرزهما لا قطع فيه وذلك يقضي باعتبار الأخذ من الحرز شرطاً لوجوب القطع فيهما. وحيث لا فرق بين مال ومال، كان الأخذ من الحرز شرطاً لوجوب القطع في سرقة كل مال.

وأما المعقول: فإن الله - تعالى - قد جعل الأموال مهياة للانتفاع بها، فكانت موضع أطماع الناس، وموطن رغباتهم، واقتضت حكمته جل شأنه اختصاص الناس بالملك؛ لأن ترك الأشياء مباحة للكل يجعل النفوس في جشع دائم، وحرص شديد لما جبلت عليه من الأثرة، وحب الذات، فيكون ذلك مثار الفتن، وسبب النزاع المستمر.

وإذا كانت رغبة النفوس في المال قوية وشغفها به أمر مطبوعة عليه، ووجد الاختصاص في الملكية، كان لا بد من شيء يحفظ المال على من اختص به. لذلك وجد النهي والزجر عن أخذ مال الغير بدون رضاه؛ ليرتدع بذلك أصحاب المروءة، والديانة؛ كما وجه الأمر للمالك بحفظ ماله حتى لا يكون طعمة لدوي الأطماع الخبيثة، والنفوس الدنيئة، الذين لا تؤثر فيهم الموعظة، ولا تفيدهم النصيحة حتى يروا العذاب رأي العين.

فإذا قام المالك بما طلب منه، ولم يفرط في صون المال من ناحيته. ثم اقتحم الغير عليه مأمته، وهتك ما به الصون، كان من الحكمة أن يعاقب بالقطع لارتكابه تلك الجريمة بعد توجيه النهي إليه، وزجره بالعقاب الأخروي.

فالنصاب: ربع دينار أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي ثلاثة^(١) دراهم، وقوله:

= وإذا لم يَقم المالك بما طلب منه، وقصر في الصون انتفى القطع؛ لعدم تمام الجريمة بتفريطه. واستدل الظاهرية ومن وافقهم بعموم قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

فإن الله - تعالى - قد رتب وجوب القطع على السرقة، فكانت هي العلة، فمتى تحققت السرقة وجب القطع مطلقاً أخذ المسروق من حرزه أو لا. وأجيب عنه: أن عموم الآية مخصوص بالسنة التي دلت على اعتبار الأخذ من الحرز شرطاً في وجوب القطع.

هذا والحق ما ذهب إليه الجمهور من القول بأن الأخذ من الحرز شرط في وجوب القطع لقوة دليله، وضعف دليل مخالفه، حتى قال ابن المنذر: إن اعتبار أخذ المسروق من حرزه شرطاً لوجوب القطع يكاد يكون أمراً مجمعاً عليه.

وأحقته من جهة النظر ظاهرة، فإن الأموال غير المحرزة شبيهة بالأموال الضائعة، فالاعتداء عليها ناقص، فلا يتناسب مع القطع.

أما الأموال المحرزة، فالاعتداء عليها كامل بمسارقة عين المالك وهتك الحرز، وإخراجها منه. فالتناسب ظاهر بينهما.

ينظر: «حد السرقة» لشيخنا إبراهيم الشبهاوي.

(١) يرى جمهور الفقهاء أن السارق لا يقطع إلا إذا سرق نصاباً.

ويرى أهل الظاهر، والخوارج، وطائفة من المتكلمين أنه يقطع في القليل والكثير، وليس هناك نصاب محدود لوجوب القطع في السرقة.

وعلم أن جمهور الفقهاء قد اتفقوا على اعتبار النصاب شرطاً لوجوب القطع. ومع اتفاقهم على هذا قد اختلفوا اختلافاً كثيراً في مقداره الذي لا يقطع السارق من أقل منه، ويقطع فيه وفيما زاد عليه.

فيرى الشافعي وأصحابه أنه ربع دينار، أو ما قيمته ربع دينار سواء أكان قيمة ثلاثة دراهم، أم أكثر، أم أقل منها. فلا قطع عندهم في أقل من ربع دينار - ولو كان قيمة ثلاثة دراهم. كما لا قطع في ثلاثة دراهم، إلا إذا كانت قيمتها ربع دينار.

ويرى مالك، وأصحابه في المشهور عنهم أنه ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما قيمته ثلاثة دراهم. فيقطع السارق عندهم في ربع دينار، وإن لم تكن قيمته ثلاثة دراهم، ويقطع في ثلاثة دراهم وإن لم تكن قيمة ربع دينار. ويقطع في غير النقيدين من العروض بما قيمته ثلاثة دراهم، وإن لم تكن قيمة ربع دينار. ويرى أحمد، وأصحابه في المشهور عنهم أنه ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما قيمته تساوي أحدهما. فيقطع السارق في ربع دينار، وإن لم يساو ثلاثة دراهم، ويقطع في ثلاثة دراهم، وإن لم تساو ربع دينار، ويقطع في سرقة غير النقيدين بما قيمته ربع دينار، أو ثلاثة دراهم.

ويرى أبو حنيفة، وأصحابه في المشهور عنهم أنه عشرة دراهم أو ما قيمته عشرة دراهم.

فلا قطع عندهم في أقل من عشرة دراهم، ولو كانت قيمة ربع دينار؛ كما لا قطع في غير الفضية من الذهب، أو العروض بما قيمته أقل من عشرة دراهم، ولو كانت قيمته تساوي ربع دينار. استدلل الشافعي، وأصحابه أولاً: بما رواه أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا».

= ووجه الدلالة من الحديث: أن النبي ﷺ أثبت القطع في ربع دينار، ونفاه عما دون ذلك؛ لأن الحديث قضية محصورة بالنفي، وإلا فتنحل إلى قضيتين: إحداها موجبة، وهي: تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً، سواء أكان قيمة ثلاثة دراهم، أم أقل أم أكثر. وثانيتهما: سالبة، وهي لا تقطع يد السارق في أقل من ربع دينار، سواء أكان ذلك الأقل قيمته ثلاثة دراهم، أم أقل أم أكثر.

فالقضية الأولى تثبت القطع في ربع دينار، وإن لم يكن قيمة عشرة دراهم، وفي ذلك رد على أبي حنيفة وأصحابه.

والثانية تقتضي نفي القطع في أقل من ربع دينار، ولو كان قيمة ثلاثة دراهم، وفي ذلك رد على مالك، وأحمد، وأصحابهما.

والحديث بجملته يدل على أن الذهب هو الأصل الذي يصار إليه في معرفة قيمة المسروق، فإنه تحديد من الشارع بالقول لا يجوز العدول عنه، وقوم ما عداه به، ولو كان المسروق فضة.

وثانياً: بما رواه النسائي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ فِيمَا دُونَ ثَمَنِ الْمَجْنَى» قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: رُبْعُ دِينَارٍ. فإن النبي ﷺ قد نفى القطع فيما ثمنه دون ربع دينار؛ وأثبت فيما ثمنه ربع دينار بنفيه القطع فيما دون ثمن المجن؛ إذ كان ثمن المجن ربع دينار ببيان السيدة عائشة رضي الله عنها.

والحديث صريح في أن العروض إنما تقوم بالذهب من غير نظر إلى الفضة أصلاً؛ لأن البيان من السيدة عائشة في حكم المرفوع، فهو تحديد من الشارع بالنص لا يجوز العدول عنه.

وأجيب عنه من قبل أبي حنيفة، وأصحابه: بأن التقويم أمر ظني تخميني، فيجوز أن تكون قيمة المجن عند عائشة - رضي الله عنها - ربع دينار، وتكون عند غيرها أكثر، فالاعتماد على قول عائشة يقتضي ثبوت القطع مع وجود شبهة.

ورد هذا الجواب: بأن السيدة عائشة - رضي الله عنها - لم تكن لتخبر بما يدل على مقدار ما يقطع فيه، إلا عن تحقيق لعظم أمر القطع.

واستدل مالك، وأحمد وأصحابهما، بما رواه مسلم عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ: «قَطَعَ فِي مَجْنَى قِيمَتُهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ» ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ قد قطع فيما قيمته ثلاثة دراهم، ولم يستفسر عن كون هذه الثلاثة تساوي ربع دينار، أو تقل عنه. وذلك يقضي باعتبار القطع في ثلاثة دراهم، وإن لم تساوي ربع دينار، وبذلك يخص مفهوم حديث عائشة - رضي الله عنها - ويكون مفهومه: حينئذ لا تقطع يد السارق في أقل من ربع دينار، إلا إذا ساوى ثلاثة دراهم فتقطع.

والحديث صريح في أن العروض تقوم بالدراهم من غير نظر إلى الذهب أصلاً. وأجيب عنه من قبل الشافعي، وأصحابه: بأن النبي ﷺ إنما ترك الاستفسار، لأن طرف الدينار في عهده ﷺ: كان اثني عشر درهماً، فمعلوم أن ثلاثة دراهم تساوي ربع دينار، وذلك لا يقتضي أن الدراهم الثلاثة معتبرة في القطع، وفي التقويم حتى ولو تغير صرف الدينار، فإنها قضية عين لا عموم لها.

واستدل أبو حنيفة وأصحابه، أولاً: بما رواه أحمد، والدارقطني عن الحجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا قَطْعُ إِلَّا فِي عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ».

ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ نفى القطع في أقل من عشرة دراهم، سواء أكان ذلك الأقل يساوي ربع دينار، أم يزيد أم يقل عنه، وفي ذلك رد على الأئمة الثلاثة، وأصحابهم وأثبتته في عشرة دراهم، وذلك =

﴿أَيديهما﴾ يعني: أَيْمَانُ النُّوعَيْنِ^(١)، وَالتَّكَالُ: العذابُ، وَالتَّكُلُ: القَيْدُ.

= يقتضي أن العشرة الدراهم هي المعتبرة في القطع.

وأجيب عنه: بأن الحديث لا يصلح للاستدلال، فإن الحجاج بن أرطاة مدلس، ولم يسمع هذا الحديث من عمرو بن شعيب.

وثانياً: بما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ فِيمَا دُونَ ثَمَنِ الْمَجْنُ» قال عبد الله: وكان ثمن المجن عشرة دراهم.

ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ نفى القطع فيما ثمنه دون عشرة دراهم بنفيه القطع فيما دون ثمن المجن؛ وأثبتته في عشرة دراهم؛ إذ كان ثمن المجن عشرة دراهم؛ كما قال عبد الله.

والحديث صريح في أن العروض تقوم بالدراهم من غير ملاحظة كون الذهب أصلاً؛ إذ قوم المجن بها وهو عرض، وأجيب عنه: بأنه لا يصلح للاستدلال؛ لأن في إسناده محمد بن إسحاق وقد عنعن، ولا يحتج بمثله إذا جاء بالحديث معنعناً، وبذلك لا يصلح لمعارضة حديث عائشة في تقدير ثمن المجن بربع دينار، وحديث ابن عمر في تقديره بثلاثة دراهم، ولو سلمت صلاحيته للمعارضة تعين طرحه هو، ومعارضة من الروايات الواردة في تقدير ثمن المجن لعدم ما يدفع به التعارض، ووجب العمل بما تفيدته رواية عائشة من إثبات القطع في ربع دينار، وهو دون عشرة دراهم.

ينظر: «حد السرقة» لشيخنا إبراهيم الشهراوي، «نيل الأوطار» (١٠٥/٧)، «المغني» لابن قدامة (١٠/٢٤٣).

(١) اختلف الفقهاء في محل القطع من السارق: فذهب الحنفية، والحنابلة إلى أنه اليد اليمنى، والرجل اليسرى وذهب المالكية، والشافعية: إلى أنه اليدان والرجلان، وذهب داود، وربيعة: إلى أنه اليدان فقط.

وذهب عطاء إلى أنه اليد اليمنى خاصة.

استدل الحنفية، والحنابلة بأدلة: منها ما يخص اليد اليمنى، ومنها ما يعم اليد اليمنى، والرجل اليسرى. أما ما يخص اليد اليمنى: فقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

ووجه الدلالة: أن المراد بأيديهما: أيماهما؛ لقراءة عبد الله بن مسعود: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا﴾، وهي خبر مشهور مقيد لإطلاق الآية، فالذي يقطع من السارق والسارقة بنص الآية اليد اليمنى، فاليد اليسرى خارجة من إطلاق الآية بهذه القراءة، ولم يثبت في السنة من طريق صحيح تعلق القطع بها في السرقة، فعلم من ذلك أنها ليست محللاً للقطع.

وأما ما يعم اليد اليمنى، والرجل اليسرى: فأولاً: ما رواه الدارقطني عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: إذا سرق السارق قطعت يده اليمنى، فإن عاد قطعت رجله اليسرى، فإن عاد ضمنته السجن حتى يحدث خيراً، إني لأستحي من الله أن أدعه ليس له يد يأكل بها، ويستنجي بها، ورجل يمشي عليها.

وثانياً: ما رواه ابن أبي شيبة أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن السارق، فكتب إليه بمثل قول علي. وثالثاً: ما رواه ابن أبي شيبة؛ أن عمر - رضي الله عنه - قال: «إذا سرق فاقطعوا يده، ثم إن عاد فاقطعوا رجله، وَلَا تَقْطَعُوا يَدَهُ الْأُخْرَى، وَذَرُوهُ يَأْكُلُ بِهَا وَيَسْتَنْجِي بِهَا».

ورابعاً: ما رواه ابن أبي شيبة؛ أن عمر - رضي الله عنه - استشار الصحابة في سارق، فأجمعوا على مثل =

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ...﴾ الآية:

= قول علي.

فهذه الآثار جميعها صريحة في أن ما يقطع من السارق إنما هو اليد اليمنى، والرجل اليسرى، ثم إن عاد إلى السرقة بعد قطعهما، أودع السجن حتى يظهر صلاح حاله.

واستدل المالكية، والشافعية بأدلة: منها ما يخص اليدين، ومنها ما يعم اليدين والرجلين.

أما ما يخص اليدين: فأولاً: قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] فإن اسم السيد يطلق على اليد اليسرى، كما يطلق على اليد اليمنى. . . وقد أمر الله - تعالى - بقطع يدي كل من السارق والسارقة، فظاهر النص قطعهما معاً لولا قيام الإجماع على عدم قطعهما معاً في سرقة واحدة، وعلى عدم الابتداء باليسرى.

وأجيب عنه بأن نص الآية لا يتناول اليد اليسرى لتقييده باليمنى من قراءة عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - .

وثانياً: ما رواه مالك في «الموطأ» عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه؛ أن رجلاً من اليمن أقطع اليد والرجل قدم فنزل على أبي بكر الصديق، فشكا إليه أن عامل اليمن ظلمه، فكان يصلي من الليل، فيقول أبو بكر - رضي الله عنه - وأبيك ما لي لك بليل سارق ثم إنهم غدوا عند أسماء بنت عميس امرأة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فجعل الرجل يطوف معهم، ويقول: اللهم عليك بمن بيت أهل هذا البيت الصالح، فوجدوا الحلبي عند صائغ زعم أن الأقطع جاء به، فاعترف الأقطع، أو شهد عليه، فأمر به أبو بكر فقطعت يده اليسرى. وقال أبو بكر: لدعاؤه على نفسه أشد عليه من سرقة فهذا أشد صريح في أن اليد اليسرى محل للقطع، وإلا لما صح لأبي بكر قطعها.

وأجيب عنه: بأن سارق حلبي أسماء لم يكن أقطع اليد، والرجل، بل كان أقطع اليد اليمنى فقط، فقد قال محمد بن الحسن في «موطئه»: قال الزهري: ويروى عن عائشة؛ قالت: إنما كان الذي سرق حلبي أسماء أقطع اليد اليمنى، فقطع أبو بكر رجله اليسرى، قال: وكان ابن شهاب أعلم بهذا الحديث من غيره.

وأما ما يعم اليدين، والرجلين: فما رواه الدارقطني من طريق الواقدي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَرَقَ السَّارِقُ فَاقْطَعُوا يَدَهُ، فَإِنْ عَادَ فَاقْطَعُوا رِجْلَهُ، فَإِنْ عَادَ فَاقْطَعُوا يَدَهُ، فَإِنْ عَادَ فَاقْطَعُوا رِجْلَهُ» فهذا الحديث صريح في أن القطع يتعلق بجميع أطراف السارق.

وأجيب عنه: بأنه لا يصلح للاحتجاج، فإن في طريقه الواقدي، وفيه مقال، وقد روي هذا المعنى من طرق كثيرة لم تسلم من الطعن. فقد قال الطحاوي: تتبعنا هذه الآثار، فلم نجد بشيء منها أصلاً ومما يدل على عدم صلاحيتها للحجة عدم استدلال الصحابة به حينما استشارهم علي - رضي الله عنه - في سارق أقطع اليد والرجل، فلم يقطعه، وجلده جلدأً شديداً، ودعوى الجهل به بعيدة، فإن مثل هذا لا يخفى على الصحابة - رضوان الله عليهم - فعدم احتجاجهم به ليس إلا لضعفه، أو نسخته، فإن الحدود كان فيها تغليب في الابتداء، ألا ترى أن النبي ﷺ قَطَعَ أَيْدِيَ الْعَزْزِينِ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ نَسِخَ ذَلِكَ. واستدل داود، ومن وافقه بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

ووجه الدلالة: أن الله - تعالى - قد نص على قطع اليدين، ولم ينص على قطع الرجلين، فلو كان قطع الرجلين مطلوباً لأمر به - تعالى - والسنة لم يرد فيها من طريق صحيح ما يفيد قطعهما في السرقة، والذي ورد في السنة صحيحاً جميعه يتعلق بقطع اليد، فقد قال - عليه الصلاة والسلام -: «لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بَنْتُ =

جمهور العلماء على أن توبة السارق لا تُسقط عنه القَطْع، وقال الشافعي: إذا تاب السارق قبل أن يتلبس الحُكَّام بأخذه، فتوبته تَدْفَع عنه حُكْم القَطْع؛ قياساً على توبة المُحَارِبِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: فلا معقَّب لحكمه سبحانه، ولا معترِض عليه، يفعل ما يشاء لا إله إلا هو.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَمِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْسُّخْتِ إِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعِزُّ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْزِ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَفَى بِحِكْمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

= مُحَمَّدٌ لَقِطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا. وقال ﷺ: «لَا تُقَطَّعُ الْيَدُ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً» وأمثال ذلك كثير كله متعلق بقطع اليد، ولم يرد الرجل فيها ذكر، وفي ذلك دليل صحيح على أن القطع إنما يتعلق باليدين دون الرجلين وأجيب عنه من قبل الحنفية، والحنابلة بأنه لا دلالة في الآية على أن اليد اليسرى محل للقطع، فإن المراد من قوله تعالى: «فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا» أيماهما. لقراءة عبد الله بن مسعود: «فَاقْطِعُوا أَيْمَانَهُمَا» وقطع الرجل اليسرى قد ثبت بالسنة الصحيحة، وإجماع الصحابة على ذلك مما يقطع بصحة السنة الواردة بقطع الرجل اليسرى بعد قطع اليد اليمنى.

واستدل عطاء بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. فإن المراد من قوله: «أَيْدِيَهُمَا» أيماهما لقراءة عبد الله: «فَاقْطِعُوا أَيْمَانَهُمَا»، فإنها مقيدة لإطلاق الآية، فاليد اليسرى ليست مرادة، ولم يثبت في السنة من طريق صحيح قطع غيرها من الأطراف، فوجب الاقتصاد عليها.

وأجيب عنه: بأن السنة الصحيحة قد أثبتت قطع الرجل اليسرى في السرقة، وقام الإجماع على ذلك. هذا والراجح ما ذهب إليه الحنفية والحنابلة، من أن محل القطع إنما هو اليد اليمنى، والرجل اليسرى، لقوة أدلته، أو لأن القطع إنما شرع للزجر لا للإتلاف، وفي استيفاء الأطراف الأربعة بالقطع إتلاف، أو شبهة إتلاف، وشبهة الإتلاف منزل منزلة الإتلاف فيما يدرأ بالشبهات، والزجر يتحقق بالقطع مرتين، فإن إزالة عضوين من الجسم لهما قيمتهما في البطش، والمشي لأبلغ عظة وأقوى زاجراً لمن خبث نفسه، ومال به هواه.

ينظر: «حد السرقة» لشيخنا إبراهيم الشهاوي.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...﴾ الآية: تسليّة
لنبيّه - عليه السلام - وتقويّة لنفسه؛ بسبب ما كان يلقى من طوائف المنافقين واليهود،
والمعنى: قد وعدناك النضرَ والظهورَ عليهم، فلا يحزنك ما يقع منهم، ومعنى المسارعة
في الكُفر: البدارُ إلى نضره، والسعي في كيد الإسلام، وإطفاء نوره، قال مجاهدٌ وغيره:
قوله تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ يراد به المنافقون^(١). / ١١٤٩

وقوله: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمِ آخِرِينَ﴾: يراد به اليهود، ويحتمل أن يراد
به اليهود مع المنافقين؛ لأن جميعهم يسمعون الكذب، بعضهم من بعض، ويقبلونه؛ ولذلك
جاءت عبارة سماعهم في صيغة المبالغة؛ إذ المراد أنهم يُقبلون ويستزيدون من ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمِ آخِرِينَ﴾: يحتمل أن يريد: يسمعون منهم، وذكر
الطبري^(٢) عن جابر؛ أن المراد بالقوم الآخِرِينَ يَهُودُ فَدَكَ^(٣)، وقيل: يهود خيبر، ويحتمل
أن يكون معنى ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمِ آخِرِينَ﴾ بمعنى: جواسيس مُستترقين الكلام؛ لينقلوه لقوم
آخِرِينَ، وهذا مما يمكن أن يتصف به المنافقون ويهود المدينة، قلت: وهذا هو الذي نصّ
عليه ابنُ إسحاق في السير^(٤).

قال * ع^(٥): * وقيل لسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: هل جرى للجاسوس ذكرٌ في كتاب الله
عزَّ وجلَّ؟ فقال: نعم، وتلا هذه الآية: ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمِ آخِرِينَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾: هذه صفة اليهود في معنى ما
حرّفوه من التوراة، وفيما يحرفونه من الأقوال عند كذبهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، أي: من
بعد أن وُضِعَ مواضعه، وقصدت به وجوهه القويمة، يقولون إن أوتيتم هذا، فخذوه، روي
أنَّ يهود فَدَكَ قالوا لليهود المدينة: اسْتَفْتُوا مُحَمَّدًا، فَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَلْدِ
والتَّجْبِيَةِ، فخذوه، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ، فَأَحْذَرُوا الرَّجْمَ؛ قاله الشعبي وغيره^(٦) وقيل غير
هذا من وقائعهم، فالإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ إلى التحميم والجلد في الزنا، على قول، ثم قال

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٤/٤) برقم (١١٩٣١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٩١/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٥٧٥/٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٤/٤) برقم (١١٩٣٣)، وذكره ابن عطية (١٩٢/٢).

(٤) ذكره ابن عطية، (١٩٢/٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٢/٢).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٧/٤) برقم (١١٩٤٠).

تعالى لنبئه - عليه السلام -؛ على جهة قطع الرجاء منهم: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ أي: محنته بالكفر، ﴿فَلَنْ تملك له مِنَ اللَّهِ شيئاً﴾، ثم أخبر تعالى عنهم؛ أنهم الذين سبق لهم في علمه ألا يطهر قلوبهم، وأن يكونوا مُدْنَسِينَ بالكفر، ﴿لهم في الدنيا خزي﴾؛ بالذلة والمسكنة التي ضربت عليهم في أقطار الأرض، وفي كل أمة.

قال * ص *: ﴿سَمَاعُونَ﴾، أي: هم سماعون، ومثله أكالون. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أَكَالُونَ لِلْشَّحْتِ﴾: فعالون؛ بناءً مبالغته، أي: يتكرر أكلهم، ويكثر، والشح: كل ما لا يحل كسبه من المال.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾: تخيير للنبي ﷺ، ولحكام أمته بعده، وقال ابن عباس وغيره: هذا التخيير منسوخ بقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^(١) [المائدة: ٤٩]، وقال كثير من العلماء: هي مُحْكَمَةٌ، وهذا هو الأظهر؛ إن شاء الله، وفقه هذه الآية أنَّ الأمة مُجْمَعَةٌ فيما علمت على أنَّ حاكم المسلمين يحكم بين أهل الذمة في تظالمهم، وأما نوازل الأحكام التي لا تظالم فيها، فالحاكم مخير، وإذا رضي به الخصمان، فلا بد من رضا أساقفتهم أو أبحارهم؛ قاله ابن القاسم في «العتبية»، قلت: وعبرة الداوودي قال مالك: ولا يحكم بينهم، إذا اختار الحكم إلا في المظالم، فيحكم بينهم بما أنزل الله، ولا يحكم فيهم في الزنا إلا أن يعلنوه، فيعاقبون بسبب إعلانه، ثم يردون إلى أساقفتهم، قال مالك: وإنما رجم النبي ﷺ اليهوديين قبل أن تكون لهم ذمة. انتهى.

وقال ابن العربي في «أحكامه»: إنما أنفذ النبي ﷺ الحكم بينهم؛ ليحقق تحريقهم، ١٤٩ ب وتبديلهم، وكذبهم، وكتمهم ما في التوراة، / ومنه صفته ﷺ فيها، والرجم على زناهم، وعنه أخبر الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]؛ فيكون ذلك من آياته الباهرة، وحججه البينة، وبراهينه القاطعة الدامغة للأمة المخزية اليهودية. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَرَّضْ عَنْهُمْ فَلْيُضْرَكْ شَيْئاً﴾: أمّن الله سبحانه نبئه من ضررهم، إذا أعرض عنهم، وحقر في ذلك شأنهم، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾، أي: اخترت الحكم في نازلة ما، ﴿فأحكم بينهم بالقسط﴾، أي: بالعدل، ثم قال سبحانه: ﴿وكيف

(١) ذكره ابن عطية (٢/١٩٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٠٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه»، والطبراني، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس.

يَحْكُمُونَكَ ﴿٤٣﴾ المعنى: وكيف يحكمونك بنية صادقة، وهم قد خالفوا حكم التوراة التي يصدقون بها، وتولوا عن حكم الله فيها؛ فأنت الذي لا يؤمنون بك - أحرى بأن يخالفوا حكمك، وهذا بين أنهم لا يحكمونه - عليه السلام - إلا رغبة في ميله إلى أهوائهم.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: مِنْ بَعْدِ كَوْنِ حُكْمِ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ فِي الرَّجْمِ وما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بالتوراة وبموسى.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى﴾، أي: إرشاد في المعتقد والشرائع، والنور: ما يستضاء به مِنْ أوامرها ونواهيها، و ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾: هم مَنْ بُعِثَ مِنْ لَدُنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ إِلَى مَدَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَأَسْلَمُوا: معناه أَخْلَصُوا وجوههم ومقاصدهم لله سبحانه، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾: متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾ أي: يَحْكُمُونَ بمقتضى التوراة لبني إسرائيل وعليهم، و﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾: عطف على النبيين، أي: ويحكم بها الربانيون، وهم العلماء، وقد تقدّم تفسير الرباني، والأخبار أيضاً: العلماء، واحدهم: جبر - بكسر الحاء، وفتحها -، وكثر استعمال الفتح؛ فرقا بينه وبين «الجبر» الذي يُكْتَبُ به، وإنما اللفظ عام في كلِّ خبرٍ مستقيم فيما مضى من الزمان قبل مبعث نبينا محمد - عليه السلام -.

وقوله سبحانه: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾، أي: بسبب استحفاظ الله تعالى إياهم أمر التوراة، وأخذه العهد عليهم؛ في العمل والقول بها، وعرفهم ما فيها، فصاروا شهداء عليه، وهؤلاء ضيعوا لما اسْتُحْفِظُوا؛ حتى تبدلت النوراة، والقرآن بخلاف هذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [السنجر: ٩].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾: حكاية لما قيل لعلماء بني إسرائيل.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: نهى عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم والتحيل للدنيا بالدين، وهذا المعنى بعينه يتناول علماء هذه الأمة وحكامها، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ...﴾ إلى آخر الآية - خطاباً لأمة نبينا محمد - عليه السلام ..

واختلف العلماء في المراد بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

فَقَالَتْ جَمَاعَةٌ: الْمُرَادُ: الْيَهُودُ بِالْكَافِرِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالْفَاسِقِينَ؛ وَرَوَى فِي هَذَا حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ طَرِيقِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ؛ قَالَ الْفَخْرُ^(١): وَتَمَسَّكَتِ الْخَوَارِجُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي التَّكْفِيرِ بِالذَّنْبِ، وَأَجِيبَ بِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، فَتَكُونُ مَخْتَصَّةً بِهِمْ، قَالَ الْفَخْرُ: ١٥٠. وَهَذَا^(٢) ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ الْأَعْتَابَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ، لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ/.

قُلْتُ: وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ خِلَافٍ فِي الْعَامِّ الْوَارِدِ عَلَى سَبَبٍ، هَلْ يَبْقَى عَلَى عُمُومِهِ، أَوْ يُقْصَرُ عَلَى سَبَبِهِ^(٣)؟ انْتَهَى.

وَقَالَتْ جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: الْآيَةُ مُتَنَازِلَةٌ كُلُّ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَكِنَّهَا فِي أَمْرٍ هَذِهِ الْأُمَّةُ - كُفْرُ مَعْصِيَةٍ؛ لَا يَخْرِجُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ^(٤)، وَهَذَا تَأْوِيلٌ حَسَنٌ،

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٦/١٢).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٦/١٢).

(٣) ينظر: «تفصيل مذاهب علماء الأصول في البحر المحيط» (٢١٢/٣).

(٤) قد ورد في القرآن آيات يؤخذ منها حكم ترك العلم بما أنزله الله تعالى من الأحكام. ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَحْكُمَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]. وفي الآيات الأولى وصف الله - تعالى - من لم يحكم بما أنزله بالكفر، والظلم والفسق، وفي الآية الأخيرة أقسم أنه لا يوجد الإيمان إلا إذا حكم الرسول في الشجار، ولم يوجد في النفوس حرج من حكمه، وسلم له كل التسليم. وذلك لأن الرسول لا يحكم إلا بما يشرعه الله له. فمن لم يرض بحكمه، فهو غير راض بشرعه، تعالى، وذلك يقتضي عدم الإيمان. ثم إن الكفر، والظلم والفسق التي وصف الله تعالى بها من لم يحكم بما أنزله واردة في تلك الآيات بمعناها اللغوية. وهي في اللغة تصدق على كل معصية، سواء كانت كفراً أو غيره، فمن فعل معصية دون الكفر صدق عليه لغة أنه كافر، وظالم، وفاسق. وكذلك من كفر بالله تعالى يصدق عليه في اللغة أنه كافر وظالم وفاسق. وعلى هذا فهذه الآيات محتملة لأن يراد منها الكفر الاصطلاحي وهو الخروج من الملة، ولأن يراد منها ما دون ذلك من المعاصي. ولهذا اختلفت أقوال المفسرين فيها؛ فمنهم: من حمل الكفر وغيره فيها على الاصطلاحي وقال: إنها حاصة بأهل الكتاب. ومنهم من قال: المراد من هذه الأوصاف ما دون الكفر الاصطلاحي من المعاصي الكبيرة، ومن هؤلاء ابن عباس، وعلي بن الحسين؛ فقد نقل عنهما أنهما قالَا فيها: كفر ليس بكفر الشرك، وظلم ليس كظلم الشرك، وفسق ليس كفسق الشرك. والمراد: أن عدم الحكم بما أنزل الله، وتركه إلى غيره ليس كفراً بمعنى الخروج من الدين، ولكنه من أكبر الذنوب. -

وقيل لحذيفة بن اليمان: أنزلت هذه الآية في بني إسرائيل، فقال: نِعَمَ الْإِخْوَةُ لَكُمْ بَنُو

= والمختار في ذلك التفصيل؛ وهو أن من ترك ذلك استقباحاً لحكمه تعالى، أو استهزاء به، أو ترجيحاً لغيره عليه فهو كافر بمعنى أنه خارج من الدين. ومن تركه لغلبة الهوى عليه، أو لعلّة أخرى غير الاستقباح والاستهزاء، والترجيح للغير فقد فعل ذنباً كبيراً لكنه دون الكفر. وكذلك يفصل في مفهوم الآية الأخيرة بأن يحمل النفي الوارد فيها على نفي أصل الإيمان إذا كان ترك تحكيم الرسول استقباحاً أو استهزاءً بشرعه، وعلى نفي كمال الإيمان إذا كان تركه لعلّة أخرى غير ذلك لا تُوجب الكفر، وهذا التفصيل في مفهوم الآيات إنما أخذه العلماء من قواعد الدين التي تفيد ذلك.

ومن هنا يعلم حكم العمل بالقوانين الوضعية، وهو أن من عمل بها مستقباحاً لحكمه تعالى أو مستهزاءً به فهو كافر بمعنى أنه خارج من الدين، ومن عمل بها لعلّة أخرى كغلبة الهوى، أو جهل أن الشريعة الإسلامية يوجد بها من القوانين ما يصلح لأن يتحاكم إليه، فقد ارتكب إثماً عظيماً، لكنه دون الكفر. وإذا علم هذا فعلى من تقع المسؤولية والإثم في ترك حكمه تعالى؟ والجواب: أن الإثم في ذلك يقع على جميع الأمة؛ لأن القيام بتنفيذ أحكامه - تعالى - من فروض الكفايات التي إن لم يقم بها البعض يَأثم الجميع، غير أن الإثم في ذلك يتفاوت بالنسبة لأقدار أفراد الأمة. فأصحاب الرأي والنفوذ الذين يمكنهم أن يطالبوا ويسعوا للعمل بحكمه تعالى إثمهم في ترك ذلك أعظم من أثم عامة الأمة الذين ليس لهم من الرأي والنفوذ مثلهم.

وليس الإثم خاصاً بالقاضي الذي يحكم بهذه القوانين؛ بل الإثم متعلق بكل الأمة كما قلنا. نعم إن القاضي يختص بإثم خاص غير الإثم الذي يشارك فيه الأمة، وهو إثم المساعدة على تنفيذ غير حكمه تعالى، فكان الواجب عليه، حيث لم يستطع الحكم بما أنزل الله تعالى ألاّ يحكم بغيره. وقد يكون العمل بهذه القوانين لا إثم فيه لا على الأمة، ولا على القاضي، وذلك إذا غلبت أمة مسلمة على أمرها، ولم يكن لها من الأمر شيء، وأجبرتها الدولة الغالبة على العمل بهذه القوانين الوضعية، بحيث لم تستطع العمل بقانون دينها، ففي هذه الحالة لا إثم على الأمة، ولا على القاضي إذا كان لا يمكن التنحي عن الحكم بهذه القوانين؛ بل قد يثاب على حكمه بها إذا كانت مصلحة أمته في قيامه هو بالحكم دون غيره؛ لأنه في مثل هذه الحالة لا تكون دار هذه الأمة المغلوبة دار إسلام بل دار حرب، ودار الحرب يجوز فيها التعامل بالعقود الفاسدة في المعاملات والحدود، ونحوها؛ لأن أغلبها موكل لاجتهاد الحاكم أما العبادات وما في معناها كالطلاق والنكاح؛ فلا يجوز العمل فيها بغير حكمه تعالى بأي حال من الأحوال. ثم إذا نظرنا للواقع عندنا في ديارنا المصرية نجد أن الدافع للعمل بهذه القوانين لم يكن استقباح حكمه تعالى، أو تفضيل غيره عليه حتى يكون كفراً بمعنى الخروج من الدين؛ وإنما الدافع إليه هو عدم العلم بما في التشريع الإسلامي من المزايا التي تجعله صالحاً لمسيرة أحوال المجتمع، وأن يستنبط منه ما يفوق هذه التنظيمات في إقامة العدل، وإصلاح النظام. بذلك على هذا أن الدولة العلية عندما أدخلت هذه القوانين في محاكمها كانت تقصد من ذلك تحقيق مصلحة الأمة، بدليل ما جاء في مرسوم العمل بهذه التنظيمات الذي أصدره السلطان عبد المجيد من أن الأخذ بها لا ينافي الدين؛ لأنه يبحث على الإصلاح والنظام، واستصدر فتوى من شيخ الإسلام حينئذ هناك بأن ذلك لا ينافي الإسلام، ثم تبعته مصر في العمل بتلك التنظيمات على ذلك القصد، ثم أدخلت فيها قوانين أوروبا الحديثة على اعتبار أنها نوع من ذلك الإصلاح.

فالدافع الحقيقي هو حب الإصلاح، والميل إلى تقليد أوروبا في أنظمة حكمها، لا كراهية أحكام الدين، =

إِسْرَائِيلَ، إِنْ كَانَتْ لَكُمْ كُلُّ حُلُوةٍ، وَلَهُمْ كُلُّ مُرَّةٍ، لَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَهُمْ قُدَّ الشَّرَاكِ^(١).

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالْيَسْنَ بِالْيَسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢٥)

وقوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ...﴾ الآية، أي: وكُتِبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: الْخَبَرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ فَرَضاً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً، فَيَجِبُ فِي ذَلِكَ أَخْذُ نَفْسِهِ، ثُمَّ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ الْمَذْكُورَةُ كَذَلِكَ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ هَذَا الْحُكْمُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِمَا عَلِمَ مِنْ شَرَعِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَرُخِّصَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَوُسِّعَ لَهَا بِالْذِّمَّةِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ دِيَّةً فِيمَا نَزَلَ عَلَى مُوسَى^(٢)»، وَالْجُمْهُورُ ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾: عَمُومٌ يَرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ فِي الْمَتَمَثِّلِينَ؛ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»^(٣)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾: عَمُومٌ

= ولولا تقاعس العلماء عن الجد في استنباط أنظمة من التشريع الإسلامي تساير هذه الأنظمة في سهولتها وترتيبها ما لجأت الحكومات الإسلامية إلى العمل بهذه القوانين. ويدل على هذا أن الخديوي إسماعيل باشا كان قد طلب من العلماء أن يستنبطوا له من الشرع الإسلامي قوانين مرتبة كترتيب قوانين أوروبا لتكون قانوناً للمحاكم المصرية: فاختلفوا وتكاسلوا؛ فما وسعه إلا العمل بهذه القوانين. هكذا رأيت في بعض الكتب. وعلى هذا، فالعمل بهذه القوانين في بلادنا ليس كفرةً لما تبين لك من الدافع إليه - اللهم إلا إذا كان بعض الحكام والقضاة يستقبح حكمه تعالى أو يستهزئ به - فإن من يفعل ذلك منهم يكون كافراً - وإنما العمل بها من الذنوب الكبيرة التي هي دون الكفر، وليس العمل بهذه القوانين إجبارياً من الدولة الإنجليزية المحتلة لبلادنا؛ لأن الأخذ بهذه التنظيمات كان من أيام تبعية الدولة العلية. والإنجليز بما عرف عنهم من عدم التعرض للشؤون الداخلية في البلاد التي يحكمونها لا يعارضون إذا أرادت الأمة العمل بقانون دينها فلا يقال: إنا مرغمون على العمل بها؛ فلا إثم علينا، فإذا أرادوا الخروج من الإثم فما عليهم إلا المبادرة بتأليف لجنة تقتبس من التشريع الإسلامي قانوناً منظماً كهذه القوانين، وما أيسر ذلك وأقربه، ثم إحلاله عند إتمامه محل هذه القوانين بالمحاكم. إنهم إن بادروا بذلك خرجوا من الإثم وأرضوا عنهم خالقهم وأمتهم، وكفلوا لأنفسهم السعادة في الدنيا والآخرة، ونسأله تعالى التوفيق.

ينظر: «قضاء الإسلام» لشيخنا علي سيد أحمد.

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٩٦/٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٩/٤) (١٢٠٧٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٩٧/٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٦٧٠/٤)، كتاب «الديات»، باب إيقاد المسلم بالكافر، حديث (٤٥٣١)، والترمذي

(٢٥/٤) كتاب «الديات»، باب دية الكافر، حديث (١٤١٣) وابن ماجه (٨٨٧/٢) كتاب «الديات»، باب

لا يقتل مسلم بكافر، حديث (٢٦٥٩) وأحمد (١٩٤/٢) والبيهقي (٢٩-٣٠) كتاب «الجنایات»،

باب لا قصاص باختلاف الدينين كلهم من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده به.

وقال الترمذي: حديث حسن.

يراد به الخصوص فيما لا يخاف منها على النفس، وكُتِبَ الفقه محل استيعاب الكلام على هذه المعاني.

قال * ص *: ﴿والجروح قصاص﴾، أي: ذات قصاص. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾، المعنى: أن من تصدق بجرحه أو دم وليه، وعفا، فإن ذلك العفو كفارة لذنبه يعظم الله أجره بذلك، قال ابن عمر وغيره^(١)، وفي معناه حديث مروي عن النبي ﷺ، قُلْتُ: وهو قوله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ فِي جَسَدِهِ فَتَصَدَّقَ بِهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةٌ»، رواه الترمذي^(٢). انتهى.

وقيل: المعنى: فذلك العفو كفارة للجراح عن ذلك الذنب؛ كما أن القصاص كفارة، فكذلك العفو كفارة وأما أجر العافي، فعلى الله تعالى؛ قاله ابن عباس وغيره^(٣).

وقيل: المعنى: إِذَا جَنَى جَانٍ، فَجُهِلَ، وَخَفِيَ أَمْرُهُ، فَتَصَدَّقَ هَذَا الْجَانِي؛ بَأَن اعْتَرَفَ بِذَلِكَ، وَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَذَلِكَ الْفِعْلُ كَفَّارَةٌ لَذَنْبِهِ.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمَأْتِيْنَهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَقِمْ وَالْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٠/٤) وعزاه لعبد الله بن عمر، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/١٩٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» بنحوه (٥١١/٢)، وعزاه للدلمي عن ابن عمر.

(٢) أخرجه الترمذي (١٤/٤ - ١٥)، كتاب «الديات»، باب ما جاء في العفو، حديث (١٣٩٣)، وابن ماجه (٢/٨٩٨) كتاب «الديات»، باب العفو في القصاص، حديث (٢٦٩٣) كلاهما من طريق يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السفر، عن أبي الدرداء به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولا أعرف لأبي السفر سماعاً من أبي الدرداء، وأبو السفر اسمه: سعيد بن أحمد ويقال: ابن محمد الثوري.

(٣) أخرجه الطبري (٦٠١/٤، ٦٠٢) برقم (١٢٠٩١، ١٢١٠٣)، وذكره ابن عطية (٢/١٩٨)، والسيوطي (٥١١/٢) وعزاه للفريايبي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن عباس.

أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَنْجِ أَمْوَالَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ
 اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ
 حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ الآية: الضمير في
 ﴿آثَارِهِم﴾ للنبيين.

وقوله: ﴿وَهَدَى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: خُصَّ المتقون بالذكر؛ لأنهم المقصود به في
 عِلْمِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ يُدْعَى إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَيَوْعَظُ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ الْمُتَّقِينَ
 عَمَى وَخَيْرَةً.

وقرأ حمزة^(١) وحده: «وَلْيَحْكَمْ» - بكسر اللام، وفتح الميم -؛ على «لام كني»،
 ونصب الفعل بها، والمعنى: وآتيناه الإنجيل؛ ليتضمن الهدى والنور والتصديق، وليحْكَمْ
 أهله بما أنزل الله فيه، وقرأ باقي السبعة: «وَلْيَحْكَمْ» - بسكون لام الأمر، وجزم الفعل -،
 ومعنى أمره لهم بالحكم: أي: هكذا يجب عليهم.

قُلْتُ: وإذ من لازم حكمهم بما أنزل الله فيه اتَّبَعُهُمْ لَنَبِينَا مُحَمَّدٍ - عليه السلام -
 والإيمان به؛ كما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، قال الفخر^(٢): قيل: المراد:
 وليحْكَمْ أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه؛ من الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ قيل:
 والمراد بالفاسقين: مَنْ لَمْ يَمَثِّلْ مِنَ النَّصَارَى. انتهى، وحسن عقِبَ ذلك التوقيف على
 ب وعيد/ مَنْ خَالَفَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾، أي: جعل الله القرآن مهيمناً على الكتب، يشهد بما
 فيها من الحقائق، وعلى ما نسبته المحرّفون إليها، فيصحّ الحقائق، وَيُبْطَلُ التحريف،
 وهذا هو معنى ﴿مُهَيِّمًا﴾، أي: شاهد، ومصدّق، ومؤمّن، وأمين؛ حسب اختلاف عبارة
 المفسرين في اللفظة، وقال المبرد: «مُهَيِّمٌ»: أصله «مُؤَيِّمٌ»؛ بُنِيَ من «أمين»؛ أبدلت

(١) وحجة الباقي في تسكين الميم: أن الله - سبحانه - أمرهم بالعمل بما في الإنجيل، كما أمر نبينا ﷺ في
 الآية التي بعدها بالعمل بما أنزل الله إليه في الكتاب بقوله: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾.

ينظر: «السبعة» (٢٤٤)، و «الحجة» (٢٢٧/٣)، و «حجة القراءات» (٢٢٧)، و «العنوان» (٨٧)،
 و «شرح شعلة» (٣٥١)، و «شرح الطيبة» (٢٣٠/٤)، و «إتحاف» (٥٣٦/١)، و «معاني القراءات»
 (٣٢٢/١).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٠/١٢).

هَمَزُهُ هَاءٌ؛ كَمَا قَالُوا: أَرَقْتُ الْمَاءَ، وَهَرَقْتُهُ؛ وَأَسْتَحْسِنُهُ الرَّجَاجَ.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾: المعنى؛ عند الجمهور: إِنْ اخْتَرْتَ أَنْ تَحْكُمَ، فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِنَاسِخَةٍ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢].

ثم حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ - عَلَيْهِ السَّلَام - مِنْ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، أَي: لِكُلِّ أُمَّةٍ؛ قَالَه الْجُمْهُورُ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ فِي الْأَحْكَامِ، وَأَمَّا فِي الْمَعْتَقَدَاتِ، فَالَّذِينَ وَاحِدٌ لِجَمِيعِ الْعَالَمِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ الْأَنْبِيَاءَ، لَا سَيِّمًا وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وَذَكَرَ مَا أَنزَلَ عَلَيْهِمْ، وَتَجِيءُ الْآيَةُ، مَعَ هَذَا الْإِحْتِمَالِ تَنْبِيهًا لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَام -، أَي: فَاحْفَظْ شُرْعَتَكَ وَمِنْهَاجَكَ؛ لِثَلَاثِ تَسْتَلِكَ الْيَهُودُ، أَوْ غَيْرُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، وَأَكْثَرُ الْمُتَأَوِّلِينَ عَلَى أَنَّ الشَّرْعَ وَالْمِنْهَاجَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَهِيَ الطَّرِيقُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: ﴿شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: سَبِيلًا وَسُتَّةً^(١)، ثُمَّ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ؛ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ، لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ اخْتِبَارَهُمْ وَأَبْتِلَاءَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ؛ كَذَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ^(٢) وَغَيْرُهُ.

ثم أَمَرَ سَبْحَانَهُ بِأَسْتِثْنَاءِ الْخَيْرَاتِ فِي أَمْتَالِ الْأَوَامِرِ، وَخَتَمَ سَبْحَانَهُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ بِالْمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، وَالْمَعْنَى: فَالْبِدَارُ الْبِدَارَ.

وقوله سبحانه: ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، مَعْنَاهُ: فِي الثُّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَتُخْبِرُونَ بِهِ إِخْبَارَ إِيقَاعٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ بَارِعَةُ الْفَصَاحَةِ، جَمَعَتِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةَ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ، وَكُلُّ كِتَابِ اللَّهِ كَذَلِكَ، إِلَّا أَنَّا بِقُصُورِ أَفْهَامِنَا يَبِينُ لَنَا فِي بَعْضِ أَكْثَرِ مِمَّا يَبِينُ لَنَا فِي بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ الْآيَةُ: الْهُوَى مَقْصُورٌ يَجْمَعُ عَلَى أَهْوَاءٍ، وَالْهُوَاءُ مَمْدُودٌ يُجْمَعُ عَلَى أَهْوِيَةٍ، ثُمَّ حَذَّرَ تَعَالَى نَبِيَّهٖ - عَلَيْهِ السَّلَام - مِنَ الْيَهُودِ؛ أَنْ يَفْتَنُوهُ؛ بِأَنْ يَضْرِفُوهُ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ؛

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦١١/٤) (١٢١٤٣)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٣/٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٠١/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْثَوْر» (٥١٣/٢)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَالْفَرَايِبِيِّ، وَابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ، وَابْنِ مَرْدُوَيْهِ، مِنْ طَرُقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦١٢/٤) بِرَقْمِ (١٢١٥٤).

لأنهم كانوا يريدون أن يخذعوا النبي ﷺ، فقالوا له مراراً: أَخْكُم لَنَا فِي نَازِلَةٍ كَذَا بَكْذَا، وَتَبْعَكَ عَلَى دِينِكَ.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، قبله محذوف، تقديره: فَإِنْ حَكَمُوا وَأَسْتَقَامُوا، فَنِعْمًا ذَلِكَ، وَإِنْ تَوَلَّوْا، ﴿فَاعْلَمْ...﴾ الآية، وخصَّص سبحانه إصابتهم ببغض الذنوب دون كلها؛ لأن هذا الوعيد إنما هو في الدنيا، وذئوبهم نوعان: نوع يخصهم، ونوع يتعدى إلى النبي ﷺ، والمؤمنين، وبه توعدهم الله في الدنيا، وإنما يعذبون بالكل في الآخرة.

وقال الفخر^(١): وجوزوا ببغض الذنوب في الدنيا، لأن مجازاتهم بالبغض - كافٍ في إهلاكهم وتدميرهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ...﴾ الآية: وعد للنبي ﷺ، وقد أنجزه بقصة بني قينقاع، وقصة قرينة الضير، وإجلاء عمر أهل خيبر وقدك وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾: إشارة إليهم، ويندرج في عموم الآية غيرهم. ١١٥١

وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ﴾: إشارة إلى الكهان الذين كانوا يأخذون الحُلُوان^(٢)، ويحكمون بحسب الشهوات، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، أي: لا أحد أحسن منه حكماً تبارك وتعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَذَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ فَدَمِيرٌ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خُسِرِينَ ﴿٥٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾: نهى الله سبحانه المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة، وحكم هذه الآية باقي، وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين، فله

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٤/١٢).

(٢) حُلُوان الكاهن: هو ما يعطاه من الأجر والرشوة على كهانته.

ينظر: «النهاية» (٤٣٥/١) (حلق).

حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَقْتِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾، وَسَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَمَّا انْقَضَتْ بَذْرُ وَشَجَرُ أَمْرِ بَنِي قَيْنِقَاعَ، أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَهُمْ، فَقَامَ دُونَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُبَيٍّ سَلُولَ مَخَاصِمًا، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ، فَإِنِّي أَمْرُؤُ أَحَافَ الدَّوَائِرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ وَهَبْتُهُمْ لَكَ^(١)، وَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: جُمْلَةٌ مَقْطُوعَةٌ مِنَ النَّهْيِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾: إِنْجَاءٌ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ﴾: الْمَعْنَى: فَتَرَى يَا مُحَمَّدُ، ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ إِشَارَةٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي حِمَايَةِ بَنِي قَيْنِقَاعَ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾: لَفْظٌ مَحْفُوظٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَدَائِرَةٌ: مَعْنَاهُ نَازِلَةٌ مِنَ الزَّمَانِ، وَإِنَّمَا كَانَ ابْنُ أَبِيٍّ يَظْهَرُ أَنَّهُ يَسْتَبْقِيهِمْ لِضُرَّةِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَأَنَّهُ الرَّأْيُ، وَكَانَ يَظُنُّ خِلَافَ ذَلِكَ.

وقوله سبحانه: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾، وَهُوَ ظُهُورُ نَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَعَلَوْ كَلِمَتِهِ، وَتَمَكُّيْنُهُ مِنْ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَقَرِيبَتَهُ وَالنَّضِيرِ، وَفَتْحُ مَكَّةَ، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يُهْلِكُ بِهِ أَعْدَاءَ الشَّرْعِ، وَهُوَ أَيْضًا فَتْحٌ لَا يَقَعُ فِيهِ لِلْبَشَرِ سَبَبٌ.

وقرأ ابن الزُّبَيْرِ^(٢): «فَيُضْبِحُ الْفُسَّاقُ عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ».

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولَ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، قَرَأَ^(٣) نَافِعٌ وَغَيْرُهُ: «يَقُولُ» - بَغِيرِ وَاوٍ -، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَغَيْرُهُ: «وَيَقُولُ»، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَخَدَهُ: «وَيَقُولُ» - بِالْوَاوِ، وَنَصَبِ اللَّامِ -؛ فَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِذَا جَاءَ الْفَتْحُ، وَحَصَلَتْ نَدَامَةُ الْمُنَافِقِينَ، وَفَضَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَحَيْثُ:

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ بِنَحْوِهِ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦١٥/٤) (١٢١٦٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٠٣/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثْنُورِ» (٥١٥/٢) وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَطِيَّةِ بْنِ سَعْدٍ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٢٠٥/٢)، وَ «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٥٢٠/٣).

(٣) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٢٤٥). وَ «الْحِجَّةُ» (٢٢٩/٣)، وَ «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (٢٢٩)، وَ «الْعَنْوَانُ» (٨٨)، وَ «شَرْحُ الطَّبِيَّةِ» (٢٣٠/٤)، وَ «شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٣٥١)، وَ «إِتْحَافٌ» (٣٧/١)، وَ «مَعَانِي الْقِرَاءَاتِ» (١/١).

يقول المؤمنون: ﴿أَهْؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا...﴾ الآية.

وتحتمل الآية أن تكون حكاية لقول المؤمنين في وقت قول الذين في قلوبهم مرض: ﴿نَحْشَى أَنْ تَصِينَا دَائِرَةً﴾: إذ فهم منهم أن تمسكهم باليهود إنما هو إرصاد لله ولرسوله، فمقتهم النبي - عليه السلام - والمؤمنون، وترك لهم النبي - عليه السلام - بني قَيْنُقَاعَ؛ رغبة في المصلحة والألفة، وأما قراءة أبي عمرو: «وَيَقُولُ» - بالنصب -، فلا يتجه معها أن يكون قول المؤمنين إلا عند الفتح، وظهور ندامة المنافقين، وفضيحتهم.

وقوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: نصب «جَهْدَ» على المصدر المؤكد، والمعنى: أهؤلاء هم المُقْسِمُونَ بأجتهادٍ منهم في الإيمان؛ إنهم لمعكم، قد ظهر الآن منهم من موالاة اليهود، وخذل الشريعة - ما يكذب أيمانهم.

١٥١ ب وقوله: ﴿حَبِطتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: يحتمل أن يكون/ إخباراً من الله سبحانه، ويحتمل أن يكون من قول المؤمنين، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿حَبِطَتْ﴾ دعاء، أي: بطلت أعمالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ مَنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ...﴾ الآية: خطاب للمؤمنين إلى يوم القيامة، ومعنى الآية: أن الله عز وجل وعد هذه الأمة أن من ارتد منها، فإنه يجيء سبحانه بقوم ينصرون الدين، ويغنون عن المرتدين.

قال الفخر^(١): وقدم الله تعالى محبته لهم على محبتهم له؛ إذ لولا حبه لهم، لما وفقهم أن صاروا محبين له. انتهى، وفي كتاب «القصص إلى الله سبحانه»؛ للمحاسبي، قلت للشيخ: فهل يلحق المحبين لله عز وجل خوف؟ قال: نعم، الخوف لازم لهم؛ كما لازم الإيمان لا يزول إلا بزواله، وهذا هو خوف عذاب التقصير في بدايتهم؛ حتى إذا صاروا

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٢١/١٢).

إِلَى خَوْفِ الْقَوْتِ، صاروا إلى الخوف الذي يَكُونُ في أعلى حالٍ، فكان الخوف الأولُ يطرقهم خطراتٍ، وصار خوفُ القَوْتِ وطناتٍ، قلتُ: فما الحالة التي تَكْشِفُ عن قلوبهم شِدِيدَ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ؟ قال: الرجاءُ بِحُسْنِ الظَّنِّ؛ لمعرفتهم بسعة فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَلُهُمْ منه أَنْ يظفروا بمرادهم، إِذَا وَرَدُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ لَا حُسْنُ ظَنِّهِمْ بربِّهِمْ، لَتَقَطَّعَتْ أَنفُسُهُمْ حَسَرَاتٍ، وماتوا كَمَدًا، قلتُ: أيُّ شيءٍ أَكْثَرَ شُغْلِهِمْ، وما الغالبُ على قلوبِهِمْ في جميع أحوالِهِمْ؟ قال: كثرةُ الذِّكْرِ لمحبوبِهِمْ على طريق الدوام والاستقامة، لا يَمَلُّونَ، ولا يَفْتُرُونَ، وقد أجمع الحكماءُ أَنَّ من أَحَبَّ شَيْئًا، أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، ثم قال: قال دُو الثَّوْنِ: مَا أَوْلَعَ أَحَدٌ بِذِكْرِ اللَّهِ إِلَّا أَفَادَ مِنْهُ حُبَّ اللَّهِ تَعَالَى. انتهى.

وفي الآية إنحاء على المنافقين، وعلى من أرتدَّ في مدة النبي ﷺ.

قال الفخر^(١): وهذه الآية إخبارٌ بغيِّبٍ، وقد وقع الخبرُ على وَفْقِهِ؛ فيكون معجزاً، وقد ارتدَّتِ العربُ وغيرهم أيام أبي بكرٍ، فَتَصَرَ اللَّهُ الدِّينَ، وَأَتَى بِخَيْرٍ مِنْهُمْ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، معناه: متذلِّلين مِنْ قِبَلِ أَنفُسِهِمْ، غَيْرَ مُتَكَبِّرِينَ، وهذا كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ وكقوله - عليه السلام -: «الْمُؤْمِنُ هَيِّنٌ لِّئِنْ»، وفي قراءة^(٢) ابن مسعودٍ: «أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ غُلْظَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَائِمَةً﴾: إشارةٌ إلى الرَّدِّ على المنافقين في أنَّهم يَعْتَدِرُونَ بِمَمَالَاةِ الْأَخْلَافِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْكُفَّارِ، ويراعُونَ أمرهم، قلتُ: وخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْخَطِيبِ بسنده على أبي ذرٍ، قال: «أَوْصَانِي النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعٍ: أَوْصَانِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي - يعني: فِي شَأْنِ الدُّنْيَا -، وَأَوْصَانِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالِدُّنُو مِنْهُمْ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَجُلِي وَإِنْ أَدْبَرْتُ، وَأَوْصَانِي أَلَّا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، وَأَوْصَانِي أَلَّا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَوْصَانِي أَنْ أَسْتَكْثِرَ مِنْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٣). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾: الإشارةُ بـ «ذلك» إلى كون القومِ يحبُّونَ اللَّهَ

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٢٠/١٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٨/٢)، و «البحر المحيط» (٥٢٤/٣)، و «الدر المصون» (٥٤٩/٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣/٥) وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٦/٣) وقال: ورجاله ثقات إلا أن الشعبي لم أجد له سماعاً من أبي ذر.

عَزَّ وَجَلَّ وَيُحِبُّهُمْ، وَوَاسِعَ: ذُو سَعَةٍ فِيمَا يَمْلِكُ وَيُعْطِي وَيَنْعَم بِهِ سُبْحَانَهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ الآية: «إنما» في هذه الآية حاصرة، ١١٥٢ وقرأ ابن مسعود^(١): «إِنَّمَا/ مَوْلَاكُمْ اللَّهُ»، والزكاة هنا: لفظٌ عامٌّ للزكاة المفروضة، والتطوُّع بالصدقة، ولكل أفعال البرِّ، إذ هي مُنَمِّيَةٌ للحسنات، مطهِّرةٌ للمرءِ مِنْ دَنَسِ السيئات، ثم وصفهم سبحانه بتكثير الركوع، وخُصَّ بالذكر؛ لكونه مِنْ أعظم أركان الصلاة، وهي هيئةٌ تواضع، فعبر عن جميع الصلاة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَالرُّكْعُ السُّجُودُ﴾ [الحج: ٢٦] هذا هو الصحيح.، وهو تأويل الجمهور، ولكن اتَّفَقَ مع ذلك أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ (رضي الله عنه) أُعْطِيَ خَاتَمَهُ، وهو رَاكِعٌ^(٢).

قال السُّدِّيُّ: وَإِنْ اتَّفَقَ ذَلِكَ لِعَلِيٍّ، فَالآيةُ عامَّةٌ في جميع المؤمنين^(٣).

ثم أخبر تعالى: أَنَّ مَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فإنه غالبٌ كُلِّ مَنْ نَاوَاهُ، وجاءتِ العبارةُ عامَّةٌ في أَنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، ثم نهى سبحانه المؤمنينَ عَنِ اتِّخَاذِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَنَا هُزُوًّا وَلَعِبًا، وقد ثبت استهزاء الكُفَّارِ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] وثبت استهزاء أهل الكتاب في لفظ هذه الآية، وثبت استهزاء الْمُتَافِقِينَ في قولهم لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

ثم أمر سبحانه بتقواه، ونَبَّهَ النفوسَ بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًّا وَلَعِبًا...﴾ الآية: إنحاءٌ على الْيَهُودِ، وتبيينٌ لسوء فعلهم.

وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾: معنى المحاورَةِ: هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا مجموعَ هذه الحالِ؛ مِنْ أَنَا مُؤْمِنُونَ، وَأَنْتُمْ فَاسِقُونَ؛ كما تقول لمن تخاصمه: هَلْ تَنْقِمُ مِنِّي إِلَّا أَنَّ صَدَقْتُ أَنَا، وَكَذَبْتَ أَنْتَ، وقال بعضُ المتأولين: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾: معطوفٌ على ﴿مَا﴾؛ كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا أَنَّ أَمَّا بِاللَّهِ وَيَكْتُمُهُ، وبأنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ، وهذا مستقيمٌ المعنى، وقال:

(١) ينظر: «الشواذ» ص (٣٩)، و«الكشاف» (١/٦٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٢/٢٠٨)، و«البحر المحيط» (٣/٥٢٥)، و«الدر المصون» (٢/٥٥١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/٦٢٨) (١٢٢١٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٠٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٢٠)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن عساكر عن سلمة بن كهيل.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/٦٢٨) (١٢٢١٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٠٨).

﴿أَكْثَرَكُمْ﴾، من حيث إنَّ فيهم مَنْ آمَنَ؛ كَأَبْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَلَئِنَّا لَنَذَرُهُمْ وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّسُولُ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً﴾، يعني: مرجعاً عند الله يوم القيامة؛ ومنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومشى المفسرون في هذه الآية على أنَّ الذين أُمِرَ - عليه السلام - أن يقول لهم: ﴿هل أنبئكم﴾ هم اليهود والكفار المتخذون ديننا هزواً ولعباً؛ قال ذلك^(١) الطبري^(٢)، وتويع عليه، ولم يُسند في ذلك إلى متقدم شيئاً، والآية تحتلُّ أن يكون القول للمؤمنين، أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، للمؤمنين: هل أنبئكم بشراً من حال هؤلاء الفاسقين في وقتِ المَرْجِعِ إلى الله؛ أولئك أسلافهم الذين لعنهم الله، وعَظِمَ عليهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ﴾، هي بمعنى «صَيَّرَ»، وقد تقدَّم قصص مَسْخِهِمْ قِرْدَةً في «البقرة»، و ﴿عَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾: تقديره: وَمَنْ عَبْدَ الطَّاغُوتِ، وقرأ حمزة وحده^(٣) «وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ» - بفتح العين، وضمِّ الباء، وكسرِ التاء من الطَّاغُوت -؛ وذلك أنَّ «عَبْدَ» لفظٌ مبالغٍ؛ كَقُدْسٍ.

قال الفخر: قيل: الطَّاغُوتُ هنا: العِجْلُ، وقيل: الطَّاغُوتُ أحبارهم، وكلُّ من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده. انتهى.

و ﴿مَكَانًا﴾: يحتمل أن يريد في الآخرة، فالمكان على وجهه، أي: المحلُّ إذ محلُّهم جهنَّم، ويحتمل أن يريد في الدنيا، فهي استعارةٌ للمكانة، والحالة.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ يعني: اليهود، وخاصَّةً المنافقين منهم؛ قاله ابن

(١) ينظر: «الطبري» (٤/٦٣٢).

(٢) ذكره الطبري في «تفسيره»، (٤/٦٣٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢١١).

(٣) ينظر: «السبعة» (٢٤٦)، و «الحجة» (٣/٢٣٦)، و «إعراب القراءات» (١/١٤٧)، و «المنوان» (٨٨)، و «حجة القراءات» (٢٣١)، و «شرح شُعْلة» (٣٥٣)، و «شرح الطيبة» (٤/٢٣٣)، و «إتحاف» (١/٥٣٩)، و «معاني القراءات» (١/٣٣٥).

عباس^(١) وغيره.

١٥٢ ب وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾: أي: من الكُفْر، والرؤية هنا تَحْتَمِلُ أَنْ تكون قلبيةً، وَأَنْ تكون بَصَرِيَّةً، و﴿فِي الْإِثْمِ﴾، أي: موجبات الإثم، واللام في: ﴿لَيْسَ﴾: لام قَسَم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُم الرِّبَايُونُ وَالْأَحْبَارُ﴾: تحضيض في ضمنه توبيخ لهم، قال الفخر^(٢): والمعنى: هَلَا يَنْهَاهُم. انتهى.

قال الطبري^(٣): كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية هي أَشَدُّ توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها.

وقال الضحاك بن مزاحم: ما في القرآن آية أخوف عندي منها^(٤)؛ أَنَا لَا نَنْهَى؛ وقال نحو هذا ابن عباس^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمُ﴾: ظاهره أَنَّ الإثم هنا يرادُ به الكُفْر، ويحتمل أن يراد سائر أقوالهم المُنْكَرَة في النبي ﷺ والمؤمنين، وقرأ^(٦) ابن عباس: «بِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ»؛ بغير لام قَسَم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْغِلَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ...﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾: هذه الآية تعدد كبيرة في أقوالهم وكُفْرهم، أي: فَمَنْ يقول هذه العظيمة، فلا

(١) أخرجه الطبري (٦٣٧/٤)، وابن عطية (٢/٢١٤).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٣٤/١٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٣٧/٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٨/٤) (١٢٢٤٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢١٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٢٤)، وعزاه لابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك بن مزاحم.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٨/٤) (١٢٢٤٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢١٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٢٤) وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٢١٤)، و«البحر المحيط» (٣/٥٣٢)، و«الدر المصون» (٢/٥٦٥).

يُسْتَنْكَرُ نِفَاقُهُ وَسَعْيُهُ فِي رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

قال ابن عباس وجماعة: معنى قولهم: التبخيل؛ وذلك أنهم لحققتهم سنة وجهد، فقالوا هذه المقالة، يغثون بها؛ أن الله بخل عليهم بالرزق والتوسعة، تعالى الله عن قولهم^(١)، وهذا المعنى يشبه ما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ فإن المراد: لا تبخل؛ ومنه قول النبي ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ...» الحديث، وذكر الطبري والقفاس؛ أن هذه الآية نزلت في فنحاص اليهودي، وأنه قالها^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: خبرٌ يحتمل في الدنيا، ويحتمل في الآخرة، فإن كان خبراً عن الدنيا، فالمعنى: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْخَيْرِ وَالْإِنْفَاقِ فِي وَجْهِ الْبِرِّ وَنَحْوِهِ، وإذا كان خبراً عن الآخرة، فالمعنى: غُلَّتْ فِي النَّارِ، قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ مَعاً.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: العقيدة في هذا المعنى: نفي التشبيه عن الله سبحانه، وأنه ليس بجسم، ولا له جارحة، ولا يشبهه، ولا يُكَيَّفُ، ولا يَتَحَيَّرُ، ولا تَحُلُّهُ الحوادث، تعالى عما يقول المبطلون علواً كبيراً، قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿يَدَاهُ﴾: نعمته^(٣)، ثم اختلفت عبارة الناس في تعيين^(٤) النعمتين:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» بنحوه (٦٤٠/٤) برقم (١٢٢٤٦)، وابن عطية (٢/٢١٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٠/٤) برقم (١٢٢٥١) عن عكرمة.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٠/٤)، ولم يعزه لأحد وذكره ابن عطية (٢/٢١٥).

(٤) أقول وبالله التوفيق: وإنما يجب أن يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿ليس كمثله شيء﴾ وهو السميع البصير» [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه، فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فيمن أثبت لله - تعالى - ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى - ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى فالاستواء على العرش صفة لله تعالى يجب الإيمان بها بلا كيف، ويكل العلم فيه إلى الله - عز وجل - وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق رأسه ملياً، وعلاه الرخصاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، وما أظنك إلا ضالاً، ثم أمر به فأخرج.

ينظر: «البغوي» (٢/١٦٥).

فَقِيلَ: نِعْمَةُ الدُّنْيَا، وَنِعْمَةُ الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: النِّعْمَةُ الظَّاهِرَةُ، وَالنِّعْمَةُ الْبَاطِنَةُ، وَالظَّاهِرُ أَنْ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ إِنْعَامِهِ عَلَى الْجَمْلَةِ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْيَدَيْنِ؛ جَرِيًّا عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ: فَلَا تَنْفَقُ بِكَلْتَا يَدَيْهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَشِيِّ: [الطَّوِيلُ]

يَذَاكَ يَدَا مَجْدٍ فَكَفَّ مُفِيدَةً وَكَفَّ إِذَا مَا ضُنَّ بِالْمَالِ تُنْفِقُ^(١)

وَيُؤَيَّدُ أَنَّ الْيَدَيْنِ هُنَا بِمَعْنَى الْإِنْعَامِ - قَرِينَةُ الْإِنْفَاقِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، يَعْنِي: الْيَهُودَ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، الْعَدَاوَةُ: أَخْصُصُ مِنَ الْبَغْضَاءِ؛ لِأَنَّ كُلَّ عَدُوٍّ، فَهُوَ يُبْغِضُ، وَقَدْ يُبْغِضُ مَنْ لَيْسَ بِعَدُوٍّ، وَالْبَغْضَاءُ: قَدْ لَا تَتَجَاوَزُ النُّفُوسَ، وَقَدْ أَلْقَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَمْرَيْنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قَالَ الْفَخْرُ^(٢): وَقَدْ أَوْقَعَ اللَّهُ بَيْنَ فِرْقَتَيْهِمُ الْخُصُومَةَ الشَّدِيدَةَ، وَانْتَهَى أَمْرُهُمْ إِلَى أَنْ يُكْفَرَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ...﴾ الْآيَةُ: قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ مَا بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنَ الْعَدَاوَةِ؛ لِأَنَّهُ جَرَى ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ:

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وَهَذَا/ قَوْلُ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ^(٣).

وَالثَّانِي: مَا وَقَعَ مِنَ الْعَدَاوَةِ بَيْنَ فِرْقَتَيْ الْيَهُودِ، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ جَبَرِيَّةٌ وَبَعْضُهُمْ قَدَرِيَّةٌ، وَبَعْضُهُمْ مُوَحَّدَةٌ، وَبَعْضُهُمْ مُشَبَّهَةٌ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ فِرْقَتَيْ النَّصَارَى؛ كَالْمَلَكَايِيَّةِ، وَالنُّسْطُورِيَّةِ، وَالْيَعْقُوبِيَّةِ^(٤). انْتَهَى.

(١) الْبَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ (٢٢٥)، وَ «الدَّر الْمَصُون» (٥٦٦/٢)، وَ «الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ» (٥٣٥/٣).

(٢) يَنْظُرُ: «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ» (٣٨/١٢).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٤٢/٤) بِرَقْمٍ (١٢٢٥٤) عَنْ مُجَاهِدٍ.

(٤) وَنَقَلَ عَنْ طَوَائِفِ النَّصَارَى الْقَوْلَ بِالْإِتِّحَادِ، وَعَنْ بَعْضِهِمُ الْقَوْلَ بِالْحُلُولِ، وَعَنْ بَعْضِهِمُ الْقَوْلَ بِأَنَّ عِيسَى ابْنَ اللَّهِ، وَعَنْ بَعْضَ طَوَائِفِ الْيَهُودِ الْقَوْلَ بِأَنَّ عَزِيرًا ابْنَ اللَّهِ. وَاخْتَلَفَ النُّقْلُ عَنِ النَّصَارَى فِي مَعْنَى الْإِتِّحَادِ. فَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ الْكَلِمَةَ وَهِيَ صِفَةُ الْعِلْمِ ظَهَرَتْ فِي عِيسَى وَصَارَتْ مَعَهُ هَيْكَلًا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْمَخَارِجَةُ بِمَعْنَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَلِمَةِ وَعِيسَى شَيْءٌ ثَالِثٌ - وَأَمَّا الْقَوْلُ بِالْحُلُولِ فَمَعْنَاهُ عَلَى رَأْيِ بَعْضِ فِرْقَتِهِمْ: أَنَّ الْكَلِمَةَ وَهِيَ صِفَةُ الْعِلْمِ حَلَّتْ فِي الْمَسِيحِ، وَعَلَى رَأْيِ الْبَعْضِ الْآخَرِ: أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ حَلَّتْ فِي الْمَسِيحِ. وَلَمَّا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ مُضْطَرَبًا وَغَيْرَ مُنْضَبِطٍ عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ، فَذَكَرَ الصُّوَرِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَتَأْتَى فِي الْإِتِّحَادِ وَالْحُلُولِ فَتَقُولُ: إِمَّا أَنْ يَقُولُوا بِاتِّحَادِ ذَاتِ اللَّهِ بِالْمَسِيحِ، أَوْ حُلُولِ ذَاتِهِ فِيهِ، أَوْ حُلُولِ صِفَتِهِ فِيهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ إِمَّا بِبَدَنِ عِيسَى أَوْ بِنَفْسِهِ وَإِمَّا أَلَّا يَقُولُوا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. وَحَيْثُذَ فَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا: أَعْطَاهُ اللَّهُ قُدْرَةَ عَلَى الْخَلْقِ وَالْإِبْجَادِ أَوَّلًا. وَلَكِنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْمُمِيزَاتِ، وَسَمَاهُ ابْنًا تَشْرِيفًا كَمَا سَمَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، فَهَذِهِ ثَمَانِيَّةُ احْتِمَالَاتٍ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ لِلْأَدَلَّةِ الَّتِي أَحَالَتْ حُلُولَ اللَّهِ وَاتِّحَادَهُ، وَالسَّابِعُ =

وقوله سبحانه: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾: استعارةً بليغة، قال

= باطل لما ثبت أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله، وبقي احتمال اتحاد الكلمة بذات المسيح، وهو باطل أيضاً؛ لأن الكلمة المراد منها عندهم صفة العلم والاتحاد بجميع معانيه وأفراده مستحيل على الله بالأدلة السابقة والشبهة التي أوقعت التصاري في هذه الكلمات هي ما جاء في الإنجيل في عدة مواضع من ذكر الله بلفظ الأب، وذكر عيسى بلفظ الابن، وذكر الاتحاد والحلول تصريحاً أو تلويحاً، فمن ذلك ما جاء في إنجيل (يوحنا) في الصحاح الرابع عشر (يا فيلسوف من يراني ويعينني، فقد رأى الأب، فكيف يقول: أنت أرى الأب، ولا تؤمن أني بأبي وأبي بي واقع واقع، وأن الكلام الذي أتكلم به ليس من قبل نفسي، بل من قبل أبي الحال في، وهو الذي يعمل هذه الأعمال التي أعمل آمن وصدق أني بأبي وأبي بي) هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربية المتداول عندهم، فأخذ بعضهم الاتحاد من قوله: (من يراني ويعينني فقد رأى الأب) وأخذ بعضهم الحلول من قوله: (أبي الحال في)، وأخذ النبوة من التصريح بلفظ الأب مرة بعد أخرى، وهذا لا يصلح دليلاً لوجهين:

الوجه الأول: توافرت الأدلة على حصول التغيير والتبديل في الإنجيل، فاحتمل أن يكون ذلك المذكور في إنجيل يوحنا مما حصل فيه التغيير والتبديل، فلا يصلح حينئذ أن يكون دليلاً، فلا يصح به الاستدلال.

الثاني: أن نتزل ونقول: لا تغيير ولا تبديل في ذلك المنقول، لكن دلالة على مدعاهم ليست يقينية لجواز أن يكون المراد من الاتحاد الذي فهمه بعضهم من الجملة الأولى لإتحاد في بيان طريق الحق، وإظهار كلمة الصدق كما يقال: أنا وفلان واحد في هذا القول، ولجواز أن يكون المراد من الحلول المصرح به في بعض الجمل حلول آثار صنع الله من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ولجواز أن يكون المراد من الأب المبدئ، فإن القدماء كانوا يطلقون الأب على المبدئ فمضى قوله: أبي مبدئي وموجدي وسمى عيسى ابناً تشریفاً له كما سمي إبراهيم خليلاً.

وأيضاً فمن كان متوجهاً لشيء ومقيماً عليه يقال له: ابنه كما يقال: أبناء الدنيا، وأبناء السبيل، فجاز أن يكون تسمية عيسى بالابن لتوجهه، في أكثر الأحوال إلى الحق، واستغراقه أغلب الأوقات في جناب القدس، ومما يؤكد ذلك أنه جاء في الصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا حيث دعا عيسى للحواريين ما لفظه: «وكما أنت يا أبي بي وأنا بك، فليكونوا هم أيضاً نفساً واحداً يؤمن أهل العلم، بأنك أنت أرسلتني، وأنا قد استودعتمهم بالمجد الذي مجدتني به، ودفعته إليهم ليكونوا على الإيمان، كما أنا وأنت أيضاً واحد، وكما أنت حال في كذلك أنا فيهم ليكون كمالهم واحداً» هذا لفظ الإنجيل، وقد تبين منه معنى الاتحاد والحلول على وجه مغاير لما فهموه، وجاء في الصحاح التاسع عشر ما لفظه: «إني صاعد إلى أبيكم وإلهي وإلهكم» وهذا يدل بواسطة العطف على أن المراد من الأب الإله، وعلى أنه مساو لهم في معنى النبوة والعبودية، فهذه النصوص تدحض حججهم، وتلزمهم إذا أرادوا الحق بالرجوع إلى ما قضت به الأدلة العقلية المتقدمة من استحالة الاتحاد والحلول والنبوة.

أما بعض اليهود الذين قالوا: أن عذيراً ابن الله، فقد أشار الله - تعالى - إليه بقوله: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ [التوبة: ٣٠] نسب الله ذلك القول إلى اليهود، مع أنه قول لطافة منهم، جرياً على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد والسبب الذي دعا هذه الطائفة إلى القول بأن عزيزاً ابن الله أن اليهود تركوا العمل بما في التوراة، وعملوا بغير الحق فعاقبهم الله تعالى بأن أنساهم التوراة، ونسخها من صدورهم، فتضرع عزيز إلى الله، وابتهل إليه، فعاد حفظ التوراة إلى قلبه فأنذر قومه به، فلما جربوه =

مجاهد: معنى الآية: كلما أوقدوا ناراً لحرب النبي ﷺ، أطفأها الله^(١)، فالآية بشارةً لنبينا محمد - عليه السلام - وللمؤمنين، وباقي الآية بين.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا...﴾ الآية: هذه الآية تحتل أن يراد بها معاصرو النبي ﷺ، وتحتل أن يراد بها الأسلاف، والمعاصرون.

وقوله سبحانه: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة﴾، أي: أظهروا أحكامها، فهي كإقامة السوق، وإقامة الصلاة.

وقوله سبحانه: ﴿والإنجيل﴾: يقتضي دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب؛ في هذه الآية، قلت: وقال مكِّي: معنى: ﴿أقاموا التوراة والإنجيل﴾: أي: عملوا بما فيهما، وأقروا بصفة النبي ﷺ وبنبوته. انتهى من «الهداية».

وقوله: ﴿وما أنزل إليهم من ربهم﴾: معناه: من وحي وسُنن على ألسنة الأنبياء - عليهم السلام -، واختلف في معنى: ﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾، فقال ابن عباس وغيره: المعنى: لأعطتهم السماء مطرها، والأرض نباتها بفضل الله تعالى^(٢)، وقال الطبري^(٣) وغيره: إن الكلام استعارة ومبالغة في التوسعة؛ كما يقال: فلان قد عمه الخير من قرنه إلى قدمه.

وقوله سبحانه: ﴿منهم أمة مقتصة﴾: معناه: معتدلة، والقصد والاقتصاد: الاعتدال والرفق والتوسط الحسن في الأقوال والأفعال، قال ابن زيد: وهؤلاء هم أهل طاعة الله من

= وجدوه صادقاً فيه، فقالوا: ما تيسر لهذا العزيز دون سواء إلا لأنه ابن الله، وهذه شبهة واهية لا يصح الاستناد إليها؛ لأن إجابة المطلب مرتبطة بالقبول والقرب من الله، والخضوع لأوامره، واجتناب نواهيه لا بالنبوة كما يزعمون.

ينظر: «الدرر السنية في تنزيه الحضرة الإلهية» لشيخنا أحمد المستكاوي.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٤/٤) برقم (١٢٢٥٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢١٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٥/٤) برقم (١٢٢٦١)، والسيوطي في «الدرر المثلثة» (٢/٥٢٧)،

وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس.

(٣) ينظر: الطبري (٦٤٥/٤).

أهل الكتاب^(١).

قال * ع^(٢) : وهذا هو الراجح.

﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧) قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَزِيدَ كَثِيرًا مِمَّنْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨)

وقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ الآية: هذه الآية أمرٌ مِنَ اللَّهِ تعالى لنبيه - عليه السلام - بالتبليغ على الاستيفاء والكمال؛ لأنه قد كان بَلِّغَ ﷺ، وإنما أمر في هذه الآية بالآتي توقُّفٌ عن شيء مخافة أحد؛ وذلك أن رسالته - عليه السلام - تضمنت الطعن على أنواع الكفرة، وبيان فساد حالهم، فكان يلقى منهم ﷺ عنتاً، وربما خافهم أحياناً قبل نزول هذه الآية، فقال الله تعالى له: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: كاملاً، ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قالت عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها): «مَنْ رَعِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْفَرِيَةَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ الآية»، وقال عبد الله بن شقيق: كان رسول الله ﷺ يتعقبه أصحابه يخرسونه، فلما نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، خرَّج، فقال: «يَأَيُّهَا النَّاسُ، الْحَقُّوا بِمَلاَحِقِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَنِي»^(٣)، قلت: وخرَّج الترمذي هذا الحديث أيضاً من طريق عائشة^(٤)، وكما وجب عليه التبليغ - عليه السلام -، وجب على علماء أمته، وقد قال - عليه السلام -: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(٥)، وعن زيد بن ثابت (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٦/٤) برقم (١٢٢٧١)، وابن عطية في «تفسيره» (٢١٧/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٧/٤) رقم (١٢٢٧٧) عن عبد الله بن شقيق.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٠/٢)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥١/٥) كتاب «التفسير»، باب سورة المائدة رقم (٣٠٤٦)، والحاكم (٣١٣/٢)،

والطبري (٦٤٧/٤) رقم (١٢٢٧٩) من طريق سعيد الجري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب وروى بعضهم هذا الحديث عن الجري، عن عبد الله بن شقيق

قال: كان النبي ﷺ يحرس، ولم يذكروا فيه عائشة.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢)

٥٢٩ وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وأبي نعيم، والبيهقي

كلاهما في «الدلائل».

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٢/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث (٣٤٦١)، =

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبْلَغَهُ؛ قَرُبَ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ لَيْسَ بِفَقِيهِهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»، رواه أبو داود، واللفظ له، ١٥٣ ب والترمذي والنسائي وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، وقال الترمذي: / هذا حديث حسن، ورواه من حديث ابن مسعود، وقال: حسن صحيح^(١). انتهى من «السلاح».

= والترمذي (٣٩/٥) كتاب «العلم»، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، حديث (٢٦٦٩) وقال: حسن صحيح.

(١) ورد من حديث ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وجبير بن مطعم.

فأما حديث ابن مسعود أخرجه الترمذي (٣٣/٥) في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وابن ماجه (٨٥/١) في المقدمة، باب من بلغ علماً (٢٣٢) والحميدي في «مسنده» (٨٨)، وأحمد (٤٣٧/١)، والشافعي في «مسنده» (١٦/١)، وأبو يعلى (٥٢٢٦، ٥٢٩٦)، وابن حبان (٧٤، ٧٥، ٧٦) موارد، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» برقم (٦، ٧، ٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٣١/٧). والخطيب في «الكفاية» ص (١٧٣)، وفي «شرف أصحاب الحديث» ص (١٨، ١٩)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» (١/١٥-١٦، ٤٣)، وفي «الدلائل» (٥٤٠/٦) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤١٩، ١٤٢٠)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/٢، ١٠) وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٠٤)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٩٠/٢)، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» ص (٣٢٢) من طرق عنه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأما حديث زيد بن ثابت أخرجه أبو داود (٣٤٦/٢) في العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦) وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (١٨٣/٥) وابن حبان (٧٢-٧٣) موارد، والدارمي (١/٧٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٣٢/٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٤)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١١/٢)، والرامهرمزي (٤٢٣) والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص ١٧، ١٨) والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٧١/٢).

وقال الترمذي: حديث حسن.

وأما حديث جبير بن مطعم فأخرجه ابن ماجه (٢٣١)، وأحمد (٨٠/٤، ٨٢) والدارمي (٧٤-٧٥) والطبراني في «الكبير» (١٥٤١)، وأبو يعلى في مسنده (٧٤١٣) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٢١) والطحاوي في «المشكل» (٢٣٢/٢) وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١٠/٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/٤-٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٩٥)، والحاكم في «المستدرک» (١/٨٧) من طرق عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه.

وأخرجه ابن ماجه (٢٣١)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤٢)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٢/٢) من طريق ابن إسحاق، عن عبد السلام بن أبي الجنوب، عن الزهري، عن محمد بن جبير به.

وقال البوصيري في «الزوائد» (٩٩/١): هذا إسناد ضعيف؛ لضعف عبد السلام..

وأخرجه الطبراني (١٥٤٣) وابن أبي حاتم (١٠/١) من طريق ابن إسحاق، عن عمرو بن أبي عمرو، عن محمد بن جبير، عن أبيه به.

وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت هذه الآية بسبب الأعرابي الذي أخترط سيف النبي ﷺ؛ ليقْتله به^(١).

قال ابن العربي: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعصَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: معناه: يَجْعَلُ بَيْنَكَ وبينهم حجاباً يمنع من وُضُولِ مكروههم إِلَيْكَ؛ كَعِصَامِ الْقِرْبَةِ الذي يَمْنَعُ سِيلَانَ الماءِ منها، ولعلمائنا في الآية تأويلات.

أصحها: أنَّ العصمة عامّة في كلِّ مكروه، وأنَّ الآية نزلت بعد أن شجَّ وجهه، وكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ﷺ^(٢).

وقيل: إنه أراد مِنَ القتل خاصّة، والأول أصحُّ، وقد كان ﷺ أُوْتِيَ بَعْضُ هذه الْعِصْمَةِ بِمَكَّةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] ثم كُمِلَتْ لَهُ الْعِصْمَةُ بِالْمَدِينَةِ، فَعُصِمَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ. انتهى من كتابه في تفسير أفعال الله الواقعة في القرآن.

ثم أمر تعالى نبيّه - عليه السلام -؛ أن يقول لأهل الكتاب الحاضرين معه: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، أي: على شيءٍ مستقيم؛ ﴿حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، وفي إقامتهما الإيمانُ بنبينا محمد - عليه السلام -، قُلْتُ: وهذه الآية عندي مِنْ أَخَوَفِ آيَةٍ في القرآن؛ كما أشار إلى ذلك سفيان، فتأملها حقَّ التأمل.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآية: يعني به القرآن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّابِقِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

= وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧٤١٤)، والحاكم (١/ ٨٧-٨٨) من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن أبي عمرو عن عبد الرحمن بن الحويرث عن محمد بن جبير به.

وتابعه عليه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو به، وأخرجه الدارمي في «سننه» (٧٤/١).

وأخرجه الطبراني (١٥٤٤)، والحاكم (١/ ٨٧) من طريق نعيم بن حماد قال: ثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن الزهري، عن محمد بن جبير. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٨/٤) (١٢٢٨١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ٢١٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٥٣٠)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٤١٧)، كتاب «الجهاد والسير»، باب غزوة أحد (١٠٤-١٧٩١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: الَّذِينَ آمَنُوا: لَفْظٌ عَامٌّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ
مِنْ مِلَّةٍ نَبِيَّنا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْمِلَلِ، فَكَأَنَّ أَلْفَاظَ الْآيَةِ حُصِرَ بِهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ،
وَبُيِّنَتِ الطَّوَائِفُ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَهَذَا هُوَ تَأْوِيلُ الْجُمْهُورِ، وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي «سُورَةِ
الْبَقَرَةِ»، فَرَاغَهُ هُنَاكَ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «وَالصَّابِثُونَ»، وَقَرَأَ خَارِجُ السَّبْعَةِ^(١):
«وَالصَّابِثِينَ»، وَهِيَ بَيِّنَةُ الْإِعْرَابِ، وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ، فَأَخْتَلَفَ فِي إِعْرَابِهَا، وَمَذْهَبُ
سِبْيَوِيٍّ، وَالْحَلِيلِ، وَنَحَاةِ الْبُصْرَةِ: أَنَّهُ مِنَ الْمَقْدَمِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّأْخِيرُ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ، وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَىٰ كَذَلِكَ.

قال * ص *: ووجه ثانٍ أَنَّ خبر «إِنَّ» محذوفٌ، أي: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَجْرُهُمْ،
وخبر «الصَّابِثِينَ»: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ وما بعده، قال ابنُ عُصْفُورٍ؛ وَهُوَ حَسَنٌ جَدًّا؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ
أَكْثَرُ مِنْ حَذْفِ خَبَرٍ «إِنَّ»؛ لِفَهْمِهِ، وَهُوَ جَائِزٌ فِي فَصِيحِ الْكَلَامِ. انتهى.

قلتُ: قال ابنُ مالِكٍ: وَهُوَ أَسْهَلُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَقِيلَ: إِنَّ الصَّابِثِينَ فِي
مَوْضِعِ نَصْبٍ، وَلَكِنَّهُ جَاءَ عَلَى لُغَةِ بَلْخَارِثِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ التَّثْنِيَةَ بِالْأَلِفِ عَلَى كُلِّ حَالٍ،
وَالْجَمْعَ بِالْوَاوِ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ قَالَهُ أَبُو الْبَقَاءِ، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا.

﴿وَحَسِبُوا إِلَّا تَكُونُوا فِتْنَةً فَهَمُّوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ
مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْمَاعِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَا وَهُدِيَ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٧) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَكَانَ
مِنْ إِلَهِهِ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(٧٨) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٩) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّا صِدْقُهُ كَأَنَّا يَاسْكُلَانِ الْطُعَامَ أَنْظَرُ كَيْفَ
نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنْ يُؤْفَكُوا﴾ (٨٠)

(١) وهي قراءة عثمان، وأبي بن كعب، وعائشة، وسعيد بن جبير، والجحدري، كما في «المحتسب» (١)
(٢١٧).

وينظر: «الكشاف» (١/٦٦٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٢١٩)، و«البحر المحيط» (٣/٥٤١)،
و«الدر المصون» (٢/٥٧٦).

وقوله سبحانه: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً﴾: المعنى في هذه الآية: وظن هؤلاء الكفرة بالله، والعصاة من بني إسرائيل ألا يكون من الله ابتلاء لهم وأخذ في الدنيا، فلجؤا في شهواتهم، وعموا فيها، إذ لم ينصروا الحق، وهذا كقوله ﷺ: «حُبُّكُ الشَّيْءِ يُغْمِي وَيُصِمُّ»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، قالت جماعة من المفسرين: هذه التوبة هي رُدُّهم إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بعد الإخراج الأول، ورُدُّ مُلْكِهِمْ وَحَالِهِمْ، ثم عموا وصموا بعد ذلك؛ حتى أخرجوا الخرجة الثانية، ولم ينجبروا أبداً، ومعنى: ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: رَجَعَ بهم إلى الطاعة والحق، ومن فصاحة القرآن: / أَسْتَنَادُ هَذَا الْفِعْلِ الشَّرِيفِ إِلَى اللَّهِ ١١٥٤ تَعَالَى، وَأَسْتَنَادُ الْعَمَى وَالصَّمَمِ اللَّذَيْنِ هُمَا عِبَارَةٌ عَنِ الضَّلَالِ؛ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ مُؤَكِّدًا بِلَامِ الْقَسَمِ عَنْ كُفْرِ الْقَائِلِينَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذا قول اليعقوبية من النَّصَارَى، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْمَسِيحِ لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...﴾ الآية، فضّلواهم، وكفروا؛ بسبب ما رأوا على يديه من الآيات.

(١) أخرجه أبو داود (٧٥٥/٢) كتاب «الأدب»، باب في الهوى حديث (٥١٣٠)، وأحمد (١٩٤/٥)، ٦/٤٥٠) والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٧٢/١/٢)، والدولابي في «الكنى» (١٠١/١) وابن عدي في «الكامل» (٤٧٢/٢) والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣٢٨/٢) وابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص ٢٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢١٩) كلهم من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن خالد بن محمد الثقفي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبيه مرفوعاً وهذا إسناد ضعيف؛ لاختلاط ابن أبي مريم. وأخرجه أحمد (١٩٤/٥) عن أبي اليمان، عن ابن أبي مريم به، إلا أنه رواه موقوفاً. قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص ١٨١ - ١٨٢).

وقد بالغ الصغاني فحكم عليه بالوضع، وكذا تعقبه العراقي، وقال: إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بكذب، إنما سرق له حلي فأنكر عقله، وقد ضعفه غير واحد، وكفينا سكوت أبي داود عليه، فليس بموضوع، بل ولا شديد الضعف، فهو حسن انتهى، وفي الباب مما لم يثبت عن معاوية، قال العسكري: أراد النبي ﷺ أن من الحب ما يعميك عن طريق الرشد ويصمك عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أو دين أصمه حبه عن العدل، وأعماه عن الرشد، وكذا قال بعض الشعراء.

وعين أخي الرضى عن ذاك تعمى

وقال آخر:

فعين الرضى عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا
وعن ثعلب قال: تعمى العين عن النظر إلى مساويه، وتصم الأذن عن استماع العذل فيه وأنشأ يقول:
وكذبت طرفي فيك والطرف صادق وأسمعت أذني فيك ما ليس تسمع
وقيل تعمى وتصم عن الآخرة، وفائدته النهي عن حب ما لا ينبغي الإغراق في حبه.

وقوله تعالى: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾، يحتمل أن يكون من قول عيسى - عليه السلام - لبني إسرائيل، ويحتمل أن يكون إخباراً من الله سبحانه لنبيه محمد - عليه السلام -.

وقوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد...﴾ الآية: إخبارٌ مؤكد؛ كالذي قبله، عن هذه الطائفة الناطقة بالتثليث، وهم فرقٌ، منهم الشُّطُورِيَّةُ وغيرهم، ولا معنى لذكر أقوالهم في كُتُب التفسير.

وقوله سبحانه: ﴿ثالث ثلاثة﴾: لا يجوزُ فيه إلا الإضافة، وخفض «ثلاثة»؛ لأن المعنى أحد ثلاثة، فإن قلت: زَيْدٌ ثَالِثُ اثْنَيْنِ، أَوْ رَابِعُ ثَلَاثَةٍ، جاز لك أن تضيف؛ كما تقدّم، وجاز ألا تضيف، وتُصِيب «ثلاثة»؛ على معنى: زَيْدٌ يَرْبِعُ ثَلَاثَةً.

وقوله سبحانه: ﴿وما من إله إلا إله واحد...﴾ الآية: خَبَرٌ صَادِقٌ بِالْحَقِّ، وهو سبحانه الخالقُ المُبْدِعُ المَتَّصِفُ بالصفات العُلا، سبحانه وتعالى عَمَّا يَقُول الظالمون علواً كبيراً، ثم توعدّهم، إن لم ينتهوا عما يقولون، ثم رَفَقَ جُلَّ وعلا بهم؛ بتحضيضه إيّاهم على التوبة، وطلبِ المَغْفرة، ثم وَصَفَ نفسه سبحانه بِالْغُفْرَانِ وَالرَّحْمَةِ؛ أَسْتِجْلَاباً لِلتَّائِبِينَ وتأنيساً لهم؛ ليكونوا على ثِقَةٍ من الانتفاع بتوبتهم.

قال * ص *: ﴿لَيْمَسَنَّ﴾: اللامُ فيه جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ قبل أداة الشرط. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وأمه صديقة﴾: بناءٌ مبالغٍ مِنَ الصِّدْقِ، ويحتملُ من التَّصْدِيقِ؛ وبه سُمِّيَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ (رضي الله عنه)؛ وهذه الصفة لمريم تدفع قولَ مَنْ قال: إنها نَبِيَّةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿كانا يأكلانِ الطَّعَامَ﴾: تنبيهٌ على نقص البشرية، وعلى حالٍ مِنَ الإحتياجِ إلى الغذاءِ تنتفي معها الألوهيةُ، و ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: معناه: يُضْرَفُونَ؛ ومنه قوله عز وجل: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٢٩]، والأرضُ المأفوكَةُ الَّتِي ضُرِفَتْ عن أن ينالها المَطَرُ، والمَطَرُ في الحقيقةِ هو المَضْرُوفُ، ولكن قيل: أرضٌ مأفوكَةٌ؛ لما كانت مأفوكاً عنها.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦) قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ أَصْنَانًا وَلَا تَعْلَمُونَ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

وقوله تعالى: ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو

السميع العليم... ﴿الآية: الضَّرُّ - بفتح الضاد -: المصدرُ، وبضمها الاسمُ، وهو عَدَمُ الخَيْرِ، و ﴿السَّمِيعُ﴾؛ لأقوالهم ﴿والعليمُ﴾ بنياتهم، والغُلُو: تجاوزُ الحدِّ؛ من غَلَا السُّهُمُ؛ إذا تجاوزَ الغَرَضَ المقصودَ، وتلك المسافةُ هي غُلُوتهُ، وهذه المخاطبةُ هي للنصارى الذي غَلَوْا في عيسى، والقوم الذين تُهَيَّي النصارى عن اتباع أهوائهم هو بنو إسرائيل، ووَصَفَ تعالى اليهودَ بأنهم ضَلُّوا قديماً، وأضلوا كثيراً من أتباعهم، ثم أكَّد الأمر بتكرار قوله تعالى: ﴿وضلوا عن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَزْرَكَ إِلَيْهِ مَا أَخَذُوهُمْ أُولَئِكَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾ الآية: قال ابن عباس (رضي الله عنه): لُعِنُوا بكلِّ لسانٍ؛ لُعِنُوا في التوراة، وفي الزبور، والإنجيل، والفرقان^(١).

وقوله سبحانه: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه...﴾ الآية: ذمَّ الله سبحانه هذه الفرقة الملعونة؛ بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، أي: أنهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي، / وإن نهى منهم ناه، لم يمتنع عن مواصلة العاصي، ومؤاكلته، وخلطته؛ ١٥٤ ب وروى ابن مسعود، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَانَ، إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى ذَنْبٍ، نَهَاهُ عَنْهُ، تَغْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِ، لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ؛ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ أَوْ خَلِيطَهُ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى»، قال ابن مسعود: وكان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، وَقَالَ: «لَا، وَاللَّهِ حَتَّى تَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، فَتَأْطُرُوهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا»^(٢)،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٥٦/٤) (١٢٣٠٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٢/٥) كتاب «التفسير»، باب سورة المائدة، حديث (٣٠٤٧) وأبو داود (٢/٥٢٤-٥٢٥) كتاب «الملاحم»، باب الأمر والنهي، حديث (٤٣٣٦) وابن ماجه (١٣٢٨/٢) كتاب «الفتن»، باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حديث (٤٠٠٦) من طريق علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث، عن محمد بن مسلم بن أبي الوضاح، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله، عن النبي ﷺ وبعضهم يقول عن أبي عبيدة، عن النبي ﷺ مرسلًا.

والإجماع على أن النهي عن المنكر - واجب لمن أطاقه، ونهى بمعروف، أي: برفق، وقول معروف، وأمن الضرر عليه، وعلى المؤمنين، فإن تعذر على أحد النهي؛ لشيء من هذه الوجوه، ففرض عليه الإنكار بقلبه، وألا يخالط ذا المنكر، وقال حذاق أهل العلم: ليس من شروط الناهي أن يكون سليماً من المعصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً.

وقوله سبحانه: ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾: اللام لام قسم، وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق»، أو قال: «كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر»^(١). انتهى.

وقوله تعالى لنبيه محمد - عليه السلام -: ﴿ترى كثيراً﴾ يحتمل أن تكون رؤية عين؛ فلا يريد إلا معاصريه، ويحتمل أن تكون رؤية قلب؛ وعلى هذا، فيحتمل أن يريد المعاصرين له، ويحتمل أن يريد أسلافهم، و ﴿الذين كفروا﴾: عبدة الأوثان.

وقوله سبحانه: ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم...﴾ الآية، أي: قدمته للآخرة، واجترحته، ثم فسّر ذلك قوله تعالى: ﴿أن سخط الله عليهم﴾؛ ف ﴿أن سخط﴾: في موضع رفع بدل من ﴿ما﴾، ويحتمل أن يكون التقدير: هو أن سخط الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿والنبي﴾ إن كان المراد الأسلاف، فالنبي: داود وعيسى، وإن كان المراد معاصري نبينا محمد ﷺ، فالمراد بـ «النبي» هو ﷺ.

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله سبحانه: ﴿ترى كثيراً منهم﴾ كلام منقطع من ذكر بني إسرائيل، وأنه يعني به المنافقين؛ ونحوه لمجاهد^(٢).

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَتِ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٢٧-٥٢٨)، كتاب «الملاحم»، باب الأمر والنهي، حديث (٤٣٤٤)، وابن ماجه (١٣٢٩/٢) كتاب «الفتن»، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث (٤٠١١) من طريق عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري به.

وأخرجه الحميدي (٧٥٢)، والحاكم (٤/ ٥٠٥ - ٥٠٦) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري به.

وقال الحاكم: تفرد به ابن جدعان، ولم يحتج به الشيخان وقال الذهبي في «التلخيص»: هو صالح الحديث.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ٢٢٥).

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَكَاةً مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأُنْهِمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَذَلْتُ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا...﴾ الآية: اللام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾: لام ابتداء، وقال الزجاج^(١): هي لام قسم، وهذا خبر مطلق منسحب على الزمان كله، وهكذا هو الأمر حتى الآن، وذلك أن اليهود مرثوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم، ومردوا على استشعار اللغنة، وضرب الذلة والمسكنة، فهم قد لجأت عداوتهم، وكثر حسدهم، فهم أشد الناس عداوة للمؤمنين؛ وكذلك المشركون عبدة الأوثان والثيران، وأما النصارى، فإنهم يعظمون من أهل الإسلام من استشعروا منه صحة دين، ويستهيئون من فهموا منه الفسق، فهم إن حاربوا، فإنما حربهم أنفة، لا أن شرعهم يأخذهم بذلك، وإذا سالموا، فسلمهم صاف، واليهود (لعنهم الله) ليسوا على شيء من هذه الخلال، بل شأنهم الخبث، واللي بالأسنة، والمكر، والغدر، ولم يصف الله تعالى النصارى بأنهم أهل ود، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين، وفي قوله سبحانه: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾: إشارة إلى معاصري نبينا محمد ﷺ من النصارى؛ ١٥٥ بأنهم ليسوا على حقيقة النصرانية، وإنما هو قول منهم، وزعم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا...﴾ الآية: معناه: ذلك بأن منهم أهل خشية وانقطاع إلى الله تعالى، وعبادة، وإن لم يكونوا على هدى، فهم يميلون إلى أهل العبادة والخشية، وليس عند اليهود ولا كان قط - أهل ديارت وصوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم معظمون لها، متطاولون في البنيان، وأمور الدنيا؛ حتى كأنهم لا يؤمنون بالآخرة؛ فلذلك لا يرى فيهم زاهد، قال الفخر^(٢): القس والقسيس: اسم رئيس النصارى، والجمع: قسيسون، وقال فطرط: القس والقسيس: العالم؛ بلغة الروم، وهذا مما وقع الوراق فيه بين اللغتين. انتهى.

ووصف الله سبحانه النصارى، بأنهم لا يستكبرون، وهذا موجود فيهم حتى الآن، واليهودي متى وجد عزاً، طعن وتكبر، ثم مدحهم سبحانه، فقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/١٩٩).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٢/٥٦).

إلى الرسول تَرَى أعينهم تفيض من الدمع... الآية: قال النووي: ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع؛ فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تشرح الصدور، وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تُحصَر، وأشهر من أن تُذكر، وقد بات جماعة من السلف يتلو الواحد منهم آية واحدة، ليلة كاملة، أو معظم ليلة يتدبرها، وصُعبَ جماعات منهم عند سماع القرآن، وقراءته، ومات جماعات منهم، ويستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء؛ فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عبَادِ اللَّهِ الصالحين، قال الله عز وجل: ﴿وَيَخْرُونَ لِلَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقد وردت آثار كثيرة في ذلك. انتهى من «الحلية» للنووي.

وذكر ابن عباس وابن جبير ومجاهد؛ أن هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ؛ ليرؤوه ويعرفوا حاله، فقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن، فبكوا وآمنوا، ورجعوا إلى النجاشي، فأمن، ولم يزل مؤمناً حتى مات، فصلى عليه النبي ﷺ^(١)، وروي أن نَفْسَ النجاشي كُثِفَ للنبي - عليه السلام -؛ فكان يراه من موضعه بالمدينة؛ وجاء الخبر بعد مدة أن النجاشي دُفِنَ في اليوم الذي صلى فيه النبي ﷺ عليه، قال أبو صالح: كانوا سبعة وستين رجلاً^(٢)، وقال ابن جبير: كانوا سبعين، عليهم ثياب الصوف، وكلهم صاحب صومعة؛ اختارهم النجاشي^(٣).

وصدُرَ الآية في قُرب المودة عامٍ فيهم، ولا يتوجّه أن يكون صدُر الآية خاصاً فيمن آمن، وإنما وقع التخصيص من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾، وجاء الضمير عاماً؛ إذ قد تُخمد الجماعة بفعل واحدٍ منهم، وفي هذا استدعاء للنصارى، ولطف من الله بهم؛ ليؤمنوا.

قال * ص * : ﴿مما عرفوا من الحق﴾ : «من» الأولى لايتداء الغاية.

قال أبو البقاء: ومعناها: من أجل الذي عرفوا، و «من» الثانية لبيان «ما» الموصولة.

انتهى.

-
- (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/٥) برقم (١٢٣١٩) عن مجاهد، (١٢٣١٨) عن سعيد بن جبير، (١٢٣٢٠) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية (٢/٢٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٣٧)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، عن سعيد بن جبير، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن مجاهد.
- (٢) أخرجه الطبري (٥/٥) برقم (١٢٣٢٦)، وذكره ابن عطية (٢/٢٢٦).
- (٣) أخرجه الطبري (٦/٥) برقم (١٢٣٢٨)، وذكره ابن عطية (٢/٢٢٦)، والسيوطي (٢/٥٣٧) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال العراقي: ﴿تفيض﴾، أي: تسيل منها العبرة، وفي الحديث: «أقرءوا القرآن، وأنبؤوا، فإن لم تنبؤوا، فتبأكوا»، خرجه البزار^(١). انتهى من «الكوكب الدرّي»، وفيه عن البزار أيضاً؛ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ مِنْ عَيْنَيْهِ مِثْلُ جَنَاحِ ذُبَابٍ دُمُوعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي ضَرْعِهِ». انتهى.

وقولهم: ﴿مع الشاهدين﴾، يعني: نبينا محمداً ﷺ، وأمه؛ قاله ابن عباس^(٢) وغيره، وقال^(٣) الطبري: لو قال قائل: معنى ذلك: «مع الشاهدين بتوحيديك من جميع العالم»، لكان صواباً، وهو كلام صحيح؛ وكأن ابن عباس خصص أمة محمد؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية، وقولهم: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾: توقيف لأنفسهم أو مُحَاجَّةٌ لِمَنْ عارضهم من الكفار، والقوم الصالحون: محمد ﷺ، وأصحابه؛ قاله ابن زيد وغيره^(٤) من المفسرين، ثم ذكر تعالى ما أثابهم به مِنَ النعيم على إيمانهم وإحسانهم، ثم ذكر سبحانه حال الكافرين المكذبين، وأنهم قراء الجحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُكُمْ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرتُ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩)

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره^(٥) نزلت بسبب جماعة من أصحاب النبي ﷺ بلغت منهم المواعظ، وخوف الله تعالى إلى أن حرّم بعضهم النساء، وبعضهم النوم بالليل، والطيب، وهم بعضهم بالأختصاص، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «أَمَا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَآتِي

(١) تقدم «تفسيره» في أول التفسير.

(٢) أخرجه الطبري (٧/٥) برقم (١٢٣٣٦)، وذكره ابن عطية (٢/٢٢٧).

(٣) ينظر: الطبري (٨/٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/٢) (١٢٣٣٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٢٦).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٥) (١٢٣٥١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٢٨)، و «صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس» (ص ٣٣٤ / ١٨٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٤٤) وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس.

النِّسَاءِ، وَأَنَالَ الطَّبِيبَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُتِّي، فَلَيْسَ مِنِّي، قال الطبري: كان فيما يتلى: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُتِّكَ، فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِكَ، وَقَدْ ضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»، والطيبات في هذه الآية: المستلذات؛ بدليل إضافتها إلى ما أحلَّ الله؛ وبقرينة ما ذُكِرَ من سبب الآية.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، قال عكرمة وغيره: معناه: في تحريم ما أحلَّ الله^(١)، وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: ولا تعتدوا، فَتَحِلُّوا ما حَرَّمَ الله^(٢)، فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين؛ كأنه قال: لا تشددوا؛ فتحرّموا حلالاً، ولا تترخّصوا؛ فتحلّوا حراماً، قلت: وروى مالك في «الموطأ»، عن أبي النضر، قال: قال رسول الله ﷺ، لَمَّا مَاتَ عِثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، وَمُرَّ بِجَنَازَتِهِ: «ذَهَبَتْ، وَلَمْ تَلْبَسْ مِنْهَا بَشْيَةً»^(٣).

قال أبو عمر في «التمهيد»: هذا الحديث في «الموطأ» مقطوع، وقد رُوِيَناه متصلاً مُسْنَداً من وجه صالح حسن، ثم أسند أبو عمر عن عائشة، قالت: «لَمَّا مَاتَ عِثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، كَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ الثُّوبَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَبَكَى بُكَاءً طَوِيلًا، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَى السَّرِيرِ، قَالَ: طُوبَى لَكَ يَا عِثْمَانُ! لَمْ تَلْبَسْكَ الدُّنْيَا وَلَمْ تَلْبَسْهَا»^(٤).

قال أبو عمر: كان عثمان بن مظعون أحد الفضلاء العبّاد الزاهدين في الدنيا من أصحاب رسول الله ﷺ المتبتلين منهم، وقد كان هو وعلي بن أبي طالب هما أن يترهباً ويتركاً النساء، ويُقبلاً على العبادة، ويحرّماً طيبات الطعام على أنفسهما، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ الآية. ونقل هذا معمر وغيره عن قتادة^(٥). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾: معناه: شدّدتم، وعقّد اليمين كعقّد الحبل والعهد؛ قال الخطيئة: [البسيط]

- (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/٥) (١٢٣٥٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٢٨).
- (٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/٥) (١٢٣٥٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٢٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٤٧) وعزاه لعبد بن حميد، عن الحسن.
- (٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/٢٤٢) كتاب «الجنائز»، باب جامع الجنائز، حديث (٥٤).
- (٤) أخرجه أبو داود (٣/٣٠١) كتاب «الجنائز»، باب في تقبيل الميت، حديث (٣١٦٣) والترمذي (٣/٣١٤-٣١٥) كتاب «الجنائز»، باب ما جاء في تقبيل الميت، حديث (٩٨٩) من حديث عائشة.
- وقال الترمذي: حسن صحيح.
- (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥) (١٢٣٤٦).

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْداً لِّجَارِهِمْ شَدُّوا الْعِجَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَ^(١)

قال^(٢) الفخر: وأما وجه المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها، فهو ما تقدّم من أنّ قوماً من الصحابة (رضي الله عنهم) حرّموا على أنفسهم المطاعم والملاذ، وحلفوا على ذلك، فلمّا نهاهم الله تعالى عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، فكيف نصنع بأيّماننا؟ فأنزل الله ١٥٦ تعالى هذه الآية. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَساكِينَ﴾، أي: إشباعهم مرة واحدة، وحكم هؤلاء ألاّ يتكرّر واحد منهم في كفّارة^(٣) يمين واحدة.

واختلف في معنى قوله سبحانه: ﴿مِنْ أَوْسَطٍ﴾، فرأى مالك وجماعة معه هذا التوسط في القدر، ورأى ذلك جماعة في الصنف، والوجه أن يُعمّ بلفظ «الوسط» القدر والصنف، فرأى مالك أن يُطعم المسكين بـ «المدينة» مدّاً بمدّ النبي ﷺ، وذلك رطل

(١) البيت للحطّية ص (١٥)، واللسان (عج).

وعقد الحبل والعهد يعقده عقداً، وأعقدت العسل والدواء أعقدتهما إقصاداً والعِجَاج: حبل يُشدّ أسفل الدلو إذا كانت ثقيلاً، ثم يُشدّ إلى العراقيّ، فإذا انقطعت الأودام، فانقلبت، أمسكها العِجَاج، يقال: قد عَنَجْتُ الدلو أغنيتها، واسم الحبل: العِجَاج. والكرب: عقد الرشاء الذي يُشدّ على العراقي، يقال: أَكْرَبْتُ الدلو أَكْرَبْتُهَا إِكْرَاباً، والعراقي: العودان المصلبان اللذان تُشدّ إليهما الأودام، فأراد أنهم إذا عقدوا لجارهم عقداً أحكموه.

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٦١/١٢).

(٣) لا نعلم خلافاً بين العلماء في أن المكفر بالإطعام يخرج عن عهد الكفارة بإطعام عشرة مساكين لكل مسكين ما وجب له.

كما لا نعلم خلافاً بينهم أيضاً في أنه لا يخرج عن عهدة الكفارة بدفعه ما وجب عليه من الطعام لمسكين واحد في يوم واحد دفعة واحدة؛ لأن ذلك لا يسمى إطعام عشرة مساكين لا حقيقة ولا حكماً. فهو مخالف لظاهر الآية. وليس في السنة ما يؤيده.

وإنما الخلاف بينهم في دفع ما وجب عليه من الطعام لمسكين واحد في عشرة أيام، أو في يوم واحد على دفعات متفرقة على سبيل التملك.

فجمهور العلماء، ومنهم الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور من مذهبه ذهبوا إلى أن ذلك لا يجوز، ولا يخرج به المكفر عن العهدة، ولا بد من إعطاء تسعة مساكين آخرين لكل واحد منهم ما وجب له، فعدد العشرة عندهم معتبر.

ومنهم من ذهب إلى أن ذلك جائز، ومسقط للعهدة، وهو الإمام أبو حنيفة وأصحابه، والإمام أحمد في رواية، غير أن الحنفية يجيزون دفعها لمسكين واحد في أيام متعددة من غير خلاف بينهم، وأمّا دفعها له في يوم واحد على دفعات على سبيل التملك، فذلك محل خلاف بينهم.

ينظر: «الكفارات» لشيخنا حسن علي حسن الكاشف.

وثُلُث، وهذا لضيق المعيشة بالمدينة، ورأى في غيرها أن يتوسّع، ورأى من يقول: إنَّ التوسُّط إنما هو في الصَّنْف أن يكون الرجلُ المكفّر يتجنب أدنى ما يأكل الناس في البلد، وينحطُّ عن الأعلى، ويكفّر بالوسَّط من ذلك، ومذهب «المدونة»؛ أن يراعي المكفّر عيش البلد، وتأويل العلماء في الحاث في اليمين بالله: أنه مخيّر في الإطعام، أو الكسوة، أو العتق، والعلماء على أن العتق أفضلُ ذلك، ثم الكسوة، ثم الإطعام، وبدأ الله تعالى عباده بالأيسر، فالأيسر، قال الفخر^(١): وبدأ سبحانه بالإطعام؛ لأنه أعمُّ وجوداً، والمقصودُ منه التنبيه على أنه سبحانه يُراعي التخفيف، والتسهيل في التكاليف، وثانيها: أن الإطعام أفضل، قلت: وهذا هو مشهورُ مذهب مالك. انتهى، ويجزىء عند مالك من الكسوة في الكفارة ما يجزىء في الصلاة^(٢).

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٢/٦٤ - ٦٥).

(٢) النوع الثاني من الأنواع المخيّر فيها في كفارة اليمين، هي كسوة عشرة مساكين، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]. اتفقت كلمة الفقهاء على أن المكفر إذا أعطى لكل مسكين من العشرة ثوبين فأكثر، كفاه ذلك، وسقطت عنه الكفارة.

ولكنهم اختلفوا في أقل ما يعطاه المسكين الواحد: فذهب الشافعي - رضي الله عنه -، وجمهور أهل الظاهر: إلى أن أقل ما يعطاه المسكين الواحد هو ما يطلق عليه اسم الكسوة، كالمنديل، أو العمامة، أو الإزار، ولا يشترط أن يكون صالحاً للمعطي، بل جائز أن يعطى ما يصلح للكبير للصغير، وما للرجل للمرأة وبالعكس، كما لا يشترط أن يكون جديداً.

وذهب الإمام مالك، وأصحابه إلى أن المجزىء من ذلك ثوب تصح فيه الصلاة، فإن كان المسكين رجلاً وجب أن يعطى ثوباً يستر جميع البدن، وإن كان امرأة وجب أن تعطى ثوباً تستر به جميع بدنها، وخماراً تغطي به رأسها، وفي ذلك يقول مالك في الموطأ: «أحسن ما سمعت في الذي يكفر عن يمينه بالكسوة أنه إن كسا الرجال كساهم ثوباً ثوباً، وإن كسا النساء كساهم ثوبين ثوبين درعاً وخماراً وذلك أدنى ما يجزىء كلاً في صلاته» وليس بلام أن يكون الثوب، أو ما معه جديداً، بل يكفي أن يكون صالحاً للبس؛ كما أنه ليس بلام أن يكون المسكين كبيراً، بل الصغير والكبير في الكسوة سواء.

وذهب أبو حنيفة، وأبو يوسف إلى أن المجزىء من ذلك هو ما يستر البدن، ويسمى به الشخص مكتسباً، وذلك كالقميص، أو الإزار السابغ، أو القباء، أو الكساء أو الملحفة، وخالفهما الإمام محمد حيث قال: يجزىء من ذلك ثوب تصح فيه الصلاة للرجل والمرأة، فيجوز عنده السراويل للرجل؛ لأنه يسمى لباساً شرعاً، ولا يجزىء عندهما؛ لأن لابساً لا يسمى مكتسباً عُرفاً.

وذهب الإمام أحمد إلى أن المجزىء من ذلك ثوب يصح للرجل أن يُلْبَسَ فيه، وللمرأة درع وخمار، وقال: لا يجزىء إزار وحده أو سروال.

ينظر: «الكفارات» لشيخنا حسن علي حسن الكاشف.

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾، أي: مؤمنة؛ قاله مالك^(١) وجماعة؛ لأن هذا المطلق راجع إلى المقيد في عتق الرقبة في قتل الخطأ.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾: معناه: لم يجد في ملكه أحد هذه الثلاث

(١) ذهب الجمهور، ومنهم مالك، والشافعي، وأحمد في مشهور مذهبه، والأوزاعي: إلى أن عتق الرقبة الكافرة في كفارة اليمين لا يجزىء، ولا تسقط الكفارة به.

وذهب الإمام أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وعطاء، وأبو ثور إلى أن ذلك مجزىء، ومسقط للكفارة، وهو رواية عن الإمام أحمد.

احتج الجمهور بما رواه مسلم، والنسائي عن معاوية بن الحكم قال: «كانت لي جارية فأتيت النبي ﷺ فقلت: علي رقبة. أفاعتقها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله؟ فقالت في السماء فقال: من أنا؟ فقالت: أنت رسول الله. فقال ﷺ: أعنتها، فإنها مؤمنة».

ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ أخر الجواب عن السائل، حتى علم ما عليه تلك الرقبة من الإيمان أو الكفر، فلما تأكد له إيمانها، أجابه ﷺ بأن يعتقها، وقال له: «فإنها مؤمنة». فلو لم يكن وصف الإيمان له دخل في إجزاء العتق، لما كان لهذا التأخير فائدة، ومثل ذلك يعمل عنه مقام الرسول ﷺ.

وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام علّق عتقها على الإيمان، وتعليق ذلك يدل على أن الإيمان علة الإجزاء؛ لأن تعلّق الحكم بالمشتق مؤذن بأن مبدأ الاشتقاق علة فيه.

وقالوا: إن الرقبة في الآية، وإن كانت مطلقة غير مقيدة بوصف الإيمان، إلا أن هذا الحديث يصلح أن يكون مقيداً لها، فيكون المقصود من الرقبة فيها: هي الرقبة المؤمنة أو يقال: إن كفارة اليمين قد اتحد الحكم فيها مع كفارة القتل، ففي كل وجب عتق رقبة، واختلف سببهما إذ كفارة اليمين سببها اليمين، وكفارة القتل سببها القتل، والمطلق والمقيد متى اتحد حكمهما حمل المطلق على المقيد، وإن اختلف سببهما متى وجدت علة جامعة بينهما، فتكون الرقبة في كفارة اليمين مَحْمُولَةً على الرقبة في كفارة القتل، فتقيد بالإيمان، كما قيدت به في كفارة القتل؛ لأن العلة التي تجمعهما: هي حرمة السبب.

واحتج الإمام أبو حنيفة، ومن معه بأن الآية غير مقيدة، فهي شاملة للرقبة المؤمنة، وللرقبة الكافرة، والمطلق يجب بقاءه على إطلاقه، حتى يرد من الشرع ما يقيد به، ولم يرد ما يقيد الرقبة بالإيمان ههنا، فكانت باقية على إطلاقها، فعنت الكافرة مجزىء كعتق المسلمة، وليس حمل المطلق على المقيد عند اتحاد الحكم مع اختلاف السبب أمراً متفقاً عليه، بل نحن لا نقول به، وبالنظر في وجهة كل نجد أن مذهب الجمهور هو الراجح، لأن الحديث المتقدم مقيد للآية، فلم تبق على إطلاقها؛ ولأن الكفارة عبادة يُتقرب بها إلى الله عز وجل، فوجب أن تكون خاصة بأهل عبادته من المؤمنين كمال الزكاة، وذبايح الشوك.

نعم، إن الإسلام دين الرحمة العامة، والصدقة فيه حتى على الكفار غير المحاربين مستحبة، ولكن فرقا بين الصدقة المطلقة، وبين العبادات المحددة المقيدة، فتكفير الذنب إنما يُرجى بما في العتق من إعانة العتق على طاعته تعالى، حتى من قال بإجزاء الكافرة لا يمكنه أن ينكر أن الاحتياط في إبراء الذمة إنما هو بإعتاق الرقبة المؤمنة، فتقديم المجمع عليه المتيقن إجزاؤه أولى بالاعتبار من المظنون المختلف فيه. ينظر: «الكفارات» لشيخنا حسن علي حسن الكاشف.

المذكورة. واختلف العلماء في حدّ هذا العادم، ومَتَى يصحُّ له^(١) الصيام؛ فقال الشافعي ومالك وجماعة من العلماء: إذا كان المكفّر لا يملك إلاّ قوته، وقُوّت عياله، يَوْمُهُ وليلته، فله أن يصوم، فإن كان عنده زائدٌ على ذلك ما يُطعم عشرةً مساكين، لزمه الإطعام، قال^(٢) الطبري: وقال آخرون: جائز لمن لم يكن له فضلٌ على رأس ماله الذي يتصرّف به في معاشه؛ أن يصوم، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ»، وقال بذلك جماعة.

وقال مالك وغيره: إن تابع، فحَسَنٌ، وإن فرق، أجزأ، وقوله: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، معناه: وأردتم الجَنّتَ، أو وَقَعْتُمْ فيه.

(١) من خصال كفارة اليمين هي صيام ثلاثة أيّام، والعلماء متفقون على أن تلك الخُصْلَةُ لا ينتقل إليها المكفّر إلا بعد العجز عن الخصال السابقة؛ لقوله تعالى: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» [المائدة: ٨٩]. ولكنهم مختلفون في شيء آخر وراء هذا، وهو: هل يجب التابع في صوم تلك الأيام الثلاثة؛ بحيث لا يتخللها فطر أو لا يجب ذلك فيه خِلافٌ.

ذهبت الشافعية في الراجح من مذهبهم، والمالكية، والظاهرية، وأحمد في رواية عنه: إلى عدم اشتراط التابع محتجين بأنه صوم نزل به القرآن غير مقيد بالتابع، فجاز متفرقاً ومتتابعاً؛ لأنه لم يوجد من السنة دليلٌ ثابتٌ يصح أن يقيد به هذا الإطلاق، فالتقييد بالتابع تقييدٌ بلا دليل.

وذهبت الحنفية، وأحمد في مشهور مذهبه، والثوري وأبو عبيد: إلى اشتراط التابع محتجين بقراءة أبي، وابن مسعود «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ» قائلين: إن ثبت القرآن بهذا كان حجة ووجب حمل المطلق على المقيد؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وإن لم تثبت القرآنية بهذا، فلا يخرج ذلك عن أن يكون رواية عن رسول الله ﷺ سمعها ابن مسعود، وأبي معه، فلها حكم الحديث المرفوع، وهو حجة، فيقيد به مطلق الكتاب، وأياً ما كان، فالتابع ثابت بهذا، فلا يصح التفريق في الصيام ونحن إذا نظرنا إلى وجهة كل نجد أن القول بالتابع هو الراجح، لأن القائلين بعدم التابع قد حملوا المطلق في تحرير الرقبة على المقيد فيها في كفارة القتل، حتى أوجبوا اعتبار وصف الإيمان في الرقبة مع أن السبب فيهما مختلف، وليس لهم مستند في ذلك إلا أن كلاً من الكفارتين تجمعهما علة واحدة هي: حرمة السبب، وهذه العلة بذاتها موجودة في الصوم في كفارة اليمين، وقراءة أبي، وابن مسعود: «فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ». فهذه القراءة، وإن لم تثبت قرآنية هذا اللفظ؛ لأن القرآن لا يثبت بالأحاديث إلا أنها رواية عن صحابي سمعها من الرسول ﷺ، فلا ينبغي أن يتقوّل عليه ما لم يقله؛ لأنه يعرف حق المعرفة معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» فتكون مقيدة للآية.

فقول من قال: إن الآية مطلقة، ولم يرد ما يقيدها لا يقبل بعد البيان السابق، وخصوصاً إذا أمكن حمل المطلق هاهنا على المقيد في كفارة القتل، أو الظهار، ولا مانع منه.

ينظر: «الكفارات» لشيخنا حسن علي حسنين الكاشف، «الخطيب على المنهاج» (٣٢٨/٤)، «الشرح الكبير» (١١٨/٢)، «المغني» (٢٧٣/١١)، «فتح القدير» (١٨/٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٠/٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ...﴾ الآية:

قال * ع^(١): ﴿وفي معنى الأزلام: الرُّجُزُ بالطير، وأخذُ الفألِ في الكتب ونحوه ممَّا يصنعه الناسُ، وأخبر سبحانه أنَّ هذه الأشياء رِجْسٌ، قال ابن عباس في هذه الآية: رِجْسٌ: سَخَطٌ^(٢)، وقال ابن زَيْد: الرِجْسُ^(٣) الشرُّ.

قال * ع^(٤): ﴿الرَّجْسُ: كلُّ مكروهٍ ذميم، وقد يقال للعذابِ والرَّجْزِ: العذابُ لا غير، والرُّكْسُ: العَذْرَةُ لا غير، والرَّجْسُ يقال للأمرين.

وقوله سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾: أمرٌ باجتنابه، فحرمت الخمر؛ بظاهر القرآن، ونصُّ الأحاديث، وإجماع الأمة، وأمرُ الخمر إنما كان بتدريج ونوازل كثيرة؛ كقصة حمزة، حين جَبَّ الأَسْنَمَةَ، وقوله: وهل أنتم إلا عبيدُ أبي، ثم أعلم سبحانه عباده أنَّ الشيطان إنما يريد أن تقع العداوة بسببِ الخمر، وما يعتري عليها بين المؤمنين، وبسببِ الميسر؛ إذ كانوا يتقَامَرُونَ عَلَى الأموال؛ حتى رُبَّمَا بَقِيَ المَقْمُورُ فقيراً، فَتَحَدَّثَ مِنْ ذَلِكَ ضَعَائِلٌ وعداواتٌ، فإن لم يصلِ الأمر إلى حَدِّ العداوة، كانت بغضاء، ولا تحسُنُ عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال ﷺ: «وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(٥)، ١٥٦ ب وباجتماع النفوس والكلمة يحمى الدين، ويجهَدُ العدو، والبغضاء تنقضُ عُرَى الدين، وتهدمُ عمادَ الحماية، وكذلك أيضاً يريدُ الشيطانُ أن يصدَّ المؤمنين عن ذكر الله، وعن الصلاة، ويشغلهم عنها باتباع الشهوات، والخمر والميسر والقمار كُلُّهُ مِنْ أعظم الآفات في ذلك، وفي قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾: وعيدٌ زائدٌ عَلَى معنى: «انتهاوا».

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٢٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣/٥) (١٢٥٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٣٢/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٦/٢) وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق علي، عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٣/٥) (١٢٥١٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٣٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٢٣٣).

(٥) تقدم تخريجه.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُوِبُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَلْوِكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٤)

وقوله سبحانه: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: يا رسول الله، كيف بمن مات ميتاً، وهو يشربها، ويأكل الميسر، ونحو هذا من القول، فنزلت هذه الآية^(١)، وهذا نظير سؤالهم عمن مات على القبلة الأولى، والجناح: الإثم والحرَج، والتكرار في قوله سبحانه: «اتَّقُوا» يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم، وليسَت الآية وقفاً على من عمل الصالحات كلها، واتقى كل التقوى، بل هي لكل مؤمن، وإن كان عاصياً أحياناً؛ إذا كان قد عمل من هذه الخصال الممدوحة ما استحق به أن يوصف بأنه مؤمن عامل للصالحات متى في غالب أمره، محسن، فليس على هذا الصنف جناح فيما طعم مما لم يحرم عليه، و﴿طَعِمُوا﴾: معناه: ذاقوا فصاعداً في رتب الأكل والشرب، وقد يستعار للنوم وغيره، وحقيقته في حاسة الذوق.

وقوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليلوكنم الله بشيء من الصيد﴾، أي: ليختبركنم ليرى طاعتكم من معصيتكم، وقوله: «بشيء» يقتضي تبعيضاً، و«من»: يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾: معناه: ليستمر علمه تعالى عليه، وهو موجود؛ إذ قد علم تعالى ذلك في الأزل، و﴿بالغيب﴾: قال الطبري^(٢): معناه: في الدنيا حيث لا يرى العبد ربه، فهو غائب عنه، والظاهر أن المعنى: بالغيب من الناس، أي: في الخلوة ممن خاف الله. انتهى، قلت: وقول الطبري أظهر، ثم توعد تعالى من اعتدى بعد النهي بالعذاب الأليم، وهو عذاب الآخرة.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨/٥) (١٢٥٢٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٣٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٧/٢)، وعزه لابن مردويه، من طريق العوفي، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤١/٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَرْجَاءً مُنْذِلَ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعْمِ بِحَرْمِهِ ذُو عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَيْحَلْ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَاءِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَأَنْفِقُوا لِلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُبَاةَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ...﴾ الآية: الصَّيْدُ: مصدرٌ عومِلَ معاملةَ الأسماء، فأوقع على الحيوانِ المَصِيدِ، ولفظُ الصيد هنا عامٌّ، ومعناه الخصوصُ فيما عدا ما استثنى، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «خَسَنُ فَوَاسِقٍ يُقْتَلَنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَاةُ، وَالْفَارَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(١)، وأجمع الناس على إباحة قتل الحيَّة، وبَسَطَ هذا في كُتُبِ الفقه، و ﴿حُرْمٌ﴾: جمع حرام، وهو الذي يدخل في الحرَم، أو في الإحرام، واختلف في قوله: ﴿مَتَعِدًا﴾، فقال مجاهد وغيره: معناه: متعمداً لقتله، ناسياً لإحرامه^(٢)، فهذا يُكْفَرُ، وأما إن كان ذاكرةً لإحرامه، فهو أعظمُ

(١) ورد هذا الحديث عن ابن عمر، وعائشة، وحفصة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وأبي رافع، وأبي هريرة.

أما حديث ابن عمر فله طرق.

فأخرجه مسلم (٨٥٨/٢) كتاب «الحج»، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرَم، حديث (١٢٠٠/٧٣) وأبو داود (٤٢٤/٢) كتاب «المناسك»، باب ما يقتل المحرم من الدواب، حديث (١٨٤٦)، والنسائي (١٩٠٠/٥) كتاب «الحج»، باب قتل الغراب، وأحمد (٨/٢) وابن الجارود رقم (٤٤٠) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٦٥/٢) والبيهقي (٢٠٩/٥) كتاب «الحج»، باب ما للمحرم قتله من دواب البر في الحل والحرَم، والحميدي (٢٧٩/٢) رقم (٦١٩) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٩٢-٢٩٣) وأبو يعلى (٣١١/٩) رقم (٥٤٢٨) من طريق الزهري عن سالم، عن أبيه مرفوعاً.

وأخرجه مالك (٣٥٦/١) كتاب «الحج»، باب ما يقتل المحرم من الدواب حديث (٨٨) والشافعي في «المسند» (٣١٩/١) كتاب «الحج»، باب فيما يباح للمحرم... (٧٣٥) والبخاري (٣٥٥/٦) كتاب «بدء الخلق»، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم... (٣٣١٥) ومسلم (٨٥٨/٢) كتاب «الحج»، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرَم، حديث (١١٩٩/٧٦) والنسائي (١٨٨ - ١٨٧) كتاب «الحج»، باب ما يقتل المحرم من الدواب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١/٥) برقم (١٢٥٥١)، وابن عطية في «تفسيره» (٢٣٧/٢).

مِنْ أَنْ يَكْفُرَ، وَقَدْ حَلَّ وَلَا رُخْصَةَ لَهُ.

وقال جماعة من أهل العلم، منهم ابن عباس ومالك والزُّهري وغيرهم: المتعمد: القاصد للقتل، الذَّاكِرُ لإحرامه^(١)، فهو يكفر، وكذلك الناسي والقاتل خطأ يكفران، وقرأ نافع^(٢) وغيره: «فَجَزَاءُ مِثْلٍ»، - بإضافة الجزاء إلى «مثل» -، وقرأ حمزة وغيره: «فَجَزَاءُ» - بالرفع -، «مِثْلٌ» - بالرفع أيضاً -، واختلف في هذه المماثلة، كيف تكون، فذهب الجمهور إلى أَنَّ الْحَكَمِينَ يَنْظُرَانِ إِلَى مِثْلِ الْحَيَوَانِ الْمَقْتُولِ فِي الْخِلْقَةِ، وَعَظَمَ الْمَرَأَى، ١٥٧ فيجعلان ذلك من النَّعَمِ جزاءً/، وذهب الشَّعْبِيُّ وغيره إلى أَنَّ الْمَمَاتِلَةَ إِنَّمَا هِيَ فِي الْقِيَمَةِ يُقَوِّمُ الصَّيْدَ الْمَقْتُولَ، ثُمَّ يَشْتَرِي بِقِيَمَتِهِ نَدًّا مِنَ النَّعَمِ، وَرَدَ الطَّبْرِيُّ^(٣) وغيره هذا القول، والنَّعَمُ: لفظ يقع على الإبل والبقر والغنم، إِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ، فَإِنْ أَنْفَرَدَ كُلُّ صِنْفٍ لَمْ يُقَلَّ «نَعَم» إِلَّا لِلإِبِلِ وَخُذَهَا، وَقَصَرَ الْقِرَاءُ هَذِهِ النَّازِلَةَ عَلَى حَكَمَيْنِ عَدْلَيْنِ عَالِمَيْنِ بِحُكْمِ النَّازِلَةِ، وَبِالتَّقْدِيرِ فِيهَا، وَعَلَى هَذَا جَمَهُورُ النَّاسِ.

قال ابن وهب في «العتبية»: من السنة أَنْ يُخَيَّرَ الْحَكَمَانِ مَنْ أَصَابَ الصَّيْدَ؛ كَمَا خَيَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَنْ يَخْرُجَ هَذِيأَ بِالْعِ كُفْبَةِ، أَوْ كِفَارَةَ طَعَامٍ مَسَاكِينَ، أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا، فَإِنْ اخْتَارَ الْهَدْيَ، حَكَمًا عَلَيْهِ بِمَا يَرِيَانِهِ نَظِيرًا لِمَا أَصَابَ مَا بَيْنَهُمَا وَيَبَيِّنُ أَنْ يَكُونَ عَدَلَ ذَلِكَ شَاءَ؛ لِأَنَّهَا أَدْنَى الْهَدْيِ، فَمَا لَمْ يَبْلُغْ شَاءَ، حَكَمًا فِيهِ بِالطَّعَامِ، ثُمَّ خُيِّرَ فِي أَنْ يَطْعَمَهُ أَوْ يَصُومَ مَكَانَ كُلِّ مَدَّةٍ يَوْمًا، وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ فِي «المدونة»: إِذَا أَرَادَ الْمَصِيبُ أَنْ يَطْعَمَ أَوْ يَصُومَ، فَإِنْ كَانَ لِمَا أَصَابَ نَظِيرٌ مِنَ النَّعَمِ، فَإِنَّهُ يَقَوِّمُ صَيْدَهُ طَعَامًا، لَا دَرَاهِمَ، قَالَ: وَإِنْ قَوِّمَاهُ دَرَاهِمَ، وَأَشْتَرِيَ بِهَا طَعَامًا، لَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ وَاسِعًا، وَالْأَوَّلُ أَضْوَبُ، فَإِنْ شَاءَ، أَطْعَمَهُ، وَإِلَّا صَامَ مَكَانَ كُلِّ مَدَّةٍ يَوْمًا، وَإِنْ زَادَ ذَلِكَ عَلَى شَهْرَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةَ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ عَمْرِو بْنِ أَصْحَابِنَا: إِنَّمَا يَقَالُ: كَمْ مِنْ رَجُلٍ يَشْبَعُ مِنْ هَذَا الصَّيْدِ، فَيَعْرِفُ الْعَدَدَ، ثُمَّ يَقَالُ: كَمْ مِنَ الطَّعَامِ يُشْبِعُ هَذَا الْعَدَدَ؟ فَإِنْ شَاءَ، أَخْرَجَ ذَلِكَ الطَّعَامَ، وَإِنْ شَاءَ، صَامَ عِدَّةَ أَمْدَادِهِ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ أَحْتَاطَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَكُونُ قِيَمَةُ الصَّيْدِ مِنَ الطَّعَامِ قَلِيلَةً، فَبِهَذَا النَّظَرِ يَكْثُرُ الْإِطْعَامُ.

(١) ابن عطية في «تفسيره» (٢٢٧/٢).

(٢) ينظر: «الحجة» (٢٥٤/٣)، و «حجة القراءات» (٢٣٥)، و «إعراب القراءات» (١٤٩/١)، و «العنوان» (٨٨)، و «شرح الطيبة» (٢٣٥/٤)، و «شرح شعلة» (٣٥٤)، و «إتحاف» (٥٤٢/١)، و «معاني القراءات» (٣٣٨/٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٨/٥).

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بِالْغِيبِ الْكَعْبَةُ﴾ ذكرت «الكعبة»؛ لأنها أم الحَرَم، والحَرَمُ كُلُّهُ مَنْحَرٌ لهذا الهَدي؛ ولا بد أن يجمع في هذا الهَدي بَيْنَ الْجِلِّ والحَرَمِ حَتَّى يَكُونَ بِالْغِيبِ الْكَعْبَةُ، فَالْهَدي لَا يَنْحَرُ إِلَّا فِي الْحَرَمِ.

واختلفَ فِي الطَّعامِ، فَقَالَ جَمَاعَةٌ: الإِطْعَامُ وَالصَّوْمُ حَيْثُ شَاءَ الْمُكْفَرُ مِنَ الْبِلَادِ، وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَغَيْرُهُ: الْهَدي وَالْإِطْعَامُ بِمَكَّةَ^(١)، وَالصَّوْمُ حَيْثُ شِئَتْ.

وقوله سبحانه: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِه﴾: الذُّوقُ هُنَا مُسْتَعَارٌ، وَالْوَبَالُ: سُوءُ الْعَاقِبَةِ، وَالْمَرْعَى الْوَيْلُ هُوَ الَّذِي يَتَأَذَّى بِهِ بَعْدَ أَكْلِهِ، وَعَبَّرَ بِـ ﴿أَمْرِهِ﴾ عَنْ جَمِيعِ حَالِهِ؛ مِنْ قَتْلِ وَتَكْفِيرٍ، وَحُكْمِ عَلَيْهِ، وَمُضِيِّ مَالِهِ، أَوْ تَعَبِهِ بِالصَّوْمِ، وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ...﴾ الآية: فَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَجَمَاعَةٌ: مَعْنَاهُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ مِنْ قَتْلِكُمُ الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ^(٢)، وَمَنْ عَادَ الْآنَ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنْ كَانَ مُسْتَحِلًّا، فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيَكْفُرُ فِي ظَاهِرِ الْحُكْمِ، وَإِنْ كَانَ عَاصِيًّا، فَالْنُقْمَةُ هِيَ فِي الزَّامِ الْكَفَّارَةُ فَقَطْ، قَالُوا: وَكُلَّمَا عَادَ الْمُخْرَمُ، فَهُوَ يَكْفُرُ.

قَالَ ﴿ع^(٣)﴾: وَيَخَافُ الْمُتَوَرَّعُونَ أَنْ تَبْقَى النُّقْمَةُ مَعَ التَّكْفِيرِ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ مَالِكٍ وَنُظَرَائِهِ، وَأَصْحَابِهِ (رَحِمَهُمُ اللَّهُ)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَمَّا الْمُتَعَمِّدُ، فَإِنَّهُ يَكْفُرُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَعَفَا اللَّهُ عَنْ ذَنْبِهِ، فَإِنْ اجْتَرَأَ، وَعَادَ ثَانِيًّا، فَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ لَهُ: يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْكَ^(٤)؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾: تَنْبِيْهُ عَلَى صِفَتَيْنِ تَقْتَضِيَانِ خَوْفَ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ، وَمَنْ خَافَ، أَزْدَجَرَ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَذْلَجَ»^(٥)، وَمَنْ

(١) ذكره ابن عطية (٢/٢٤٠).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/٥٩) (١٢٦٤٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٤٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٨٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن عطاء.

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٢٤٠).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/٦١) (١٢٦٥٥)، والبخاري في «تفسيره» (٢/٦٥)، وابن عطية (٢/٢٤٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٨٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٥) يقال: أَذْلَجَ - بالتخفيف -: إِذَا سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ.

ينظر: «النهاية» (٢/١٢٩).

أَذْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ^(١)، قلت: والصيد لِلْهَوِ مَكْرُوهُ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ، أَفْتِنَ»^(٢). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَحْلَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ...﴾ الآية: الْبَحْرُ: الْمَاءُ الْكَثِيرُ، مِلْحاً كَانَ أَوْ عَذْباً، وَكُلُّ نَهْرٍ كَبِيرٍ: بَحْرٌ، وَطَعَامُهُ: هُوَ كُلُّ مَا قَدَفَ بِهِ، وَمَا طَفَا عَلَيْهِ؛ قَالَه جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ.

و ﴿مَتَاعاً﴾: نَصَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَالْمَعْنَى: مَتَّعَكُمْ بِهِ مَتَاعاً تَتَفَعَّلُونَ بِهِ، وَتَأْتِيُمُونَ، وَ ﴿لَكُمْ﴾: يَرِيدُ حَاضِرِي الْبَحْرِ وَمُدْنِهِ، وَ ﴿لِلسَّيَّارَةِ﴾: الْمَسَافِرِينَ، وَاخْتَلَفَ فِي مَقْتَضَى قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دَمْتُمْ حَرَمًا﴾، فَتَلَقَّاهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْعُمُومِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ؛ فَقَالُوا: إِنَّ الْمُنْحَرَّمَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَصِيدَ، وَلَا أَنْ يَأْمَرَ مِنْ يَصِيدَ، وَلَا أَنْ يَأْكُلَ صَيْدًا صَيْدَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا مِنْ غَيْرِ أَجْلِهِ، وَأَنْ لَحْمَ الصَّيْدِ بَأْيٌ وَجْهٌ كَانَ حَرَامٌ عَلَى الْمُنْحَرَّمَ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لَا يَرَى بَأْساً لِلْمُنْحَرَّمَ أَنْ يَأْكُلَ مَا صَادَهُ حَلَالاً لِنَفْسِهِ، أَوْ لِحَلَالٍ مِثْلِهِ^(٣)، وَقَالَ بِمِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ - عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ^(٤)؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَكَلَ مِنَ الْجِمَارِ الَّذِي صَادَهُ أَبُو قَتَادَةَ، وَهُوَ حَلَالٌ، وَالنَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مُنْحَرَّمٌ^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (٥٤٦/٤) كتاب «صفة القيامة»، باب من خاف أدلج، حديث (٢٤٥٠) والحاكم (٤/٣٠٧ - ٣٠٨) من طريق هاشم بن القاسم، عن أبي عقيق الثقفي، عن يزيد بن سنان، عن بكير بن فيروز، عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود (١٢٤/٢) كتاب «الصيد»، باب في اتباع الصيد، حديث (٢٨٥٩)، والترمذي (٥٢٣)، كتاب «الفتن»، حديث (٢٢٥٦) والنسائي (١٩٥/٧ - ١٩٦) كتاب «الفرع والعتيرة»، باب اتباع الصيد، وأحمد (٣٥٧/١) وابن أبي شيبة (٣٣٦/١٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٧٢/٤) والبيهقي (١٠/١٠١)، والطبراني في «الكبير» (٥٦/١١ - ٥٧) رقم (١١٠٣٠) كلهم من طريق سفيان الثوري عن أبي موسى اليماني، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من حديث الثوري.

(٣) أخرجه الطبري بنحوه في «تفسيره» (٦٤/٥) (١٢٦٧١) وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٤٢).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٤٢).

(٥) أخرجه البخاري (٩٨/٦)، كتاب «الجهاد»، باب ما قيل في الرماح، حديث (٢٩١٤)، ومسلم (٢/٨٥٢)، كتاب «الحج»، باب تحريم الصيد للمحرم، حديث (١١٩٦/٥٧)، وأبو داود (٢/٤٢٨)، =

ثم ذَكَرَ سبحانه بأمر الحَشْرِ والقيامة، مبالغةً في التحذير؛ ولما بان في هذه الآيات تعظيمُ الحَرَمِ والحُرمةِ بالإحرام من أجل الكعبة، وأنها بَيْتُ اللَّهِ تعالى، وعنصر هذه الفَضَائِلِ ذَكَرَ سبحانه في قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكعبةَ الْبَيْتَ﴾؛ تنبيهاً سَنَّهُ في الناس، وهداهم إِلَيْهِ، وَحَمَلَ عليه الجاهليَّةُ الجَهلاءَ من التَّزَامِهِمْ أَنَّ الكعبةَ قِوَامٌ، والَهْدْيُ قِوَامٌ، والقلائد قِوَامٌ، أي: أمر يقوم للناس بالتَّأَمِينِ، وَوَضَعَ الحربِ أوزارها، وأَعْلَمَ تعالى أَنَّ التَّزَامَ النَّاسِ لذلك هو ممَّا شرعه وأرْتَضاهُ، و ﴿جَعَلَ﴾، في هذه الآية: بمعنى «صَبَّرَ»، والكعبةُ بَيْتُ مكة، وسمي كعبةً لتربيعه، قال أهلُ اللُّغَةِ: كُلُّ بَيْتٍ مَرَبَّعٌ، فهو مَكْعَبٌ، وكَعْبَةٌ، وذُهِبَ بعضُ المتأوِّلينَ إلى أَنَّ معنى قوله تعالى: ﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾، أي: موضعٌ وَجُوبُ قِيَامٍ بالمناسك والتَّعَبُّداتِ، وَضَبَطَ النفوسَ في الشهر الحرام، ومع الَهْدْيِ والقلائد، قال مَكِّيٌّ: معنى ﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾، أي: جعلها بمنزلة الرئيس الذي يَقُومُ به أمر أتباعه، فهي تحجزهم عَن ظُلْمِ بعضهم بعضاً، وكذلك الَهْدْيُ والقلائد جُعِلَ ذلك أيضاً قِيَاماً للناس؛ فكان الرَّجُلُ إذا دَخَلَ الحَرَمَ أَمِنَ مِنْ عدوه، وإذا ساق الَهْدْيَ كذلك، لم يعرض لهُ، وكان الرَّجُلُ إذا أراد الحجَّ، تَقَلَّدَ بقلادةٍ مِنْ شعر، وإذا رجع تَقَلَّدَ بقلادةٍ من لِحَاءِ شَجَرِ الحَرَمِ، فلا يعرض له، ولا يُؤَدِّي حَتَّى يَصِلَ إِلَى أهله، قال ابنُ زيد: كان الناسُ كُلُّهُمْ فيهم ملوكٌ تدفع بعضهم عن بعض، ولم يَكُنْ في العربِ ملوكٌ تدفع عن بعضهم ظُلْمَ بعضٍ، فجعل الله لهم الْبَيْتَ الحرامَ قِيَاماً يَدْفَعُ بعضهم عن بعض. انتهى من «الهداية».

والشَّهْرُ هنا: اسمُ جنسٍ، والمراد الأشهر الثلاثة بإجماع من العرب، وشَهْرٌ مُضَرٌّ، وهو رَجَبٌ، وأما الَهْدْيُ، فكان أماناً لمن يسوقه؛ لأنَّه يعلم أنه في عبادةٍ لم يَأْتِ لِحَرْبٍ، وأما القلائد، فكذلك كان الرَّجُلُ إذا خَرَجَ يريْدُ الحجَّ، تَقَلَّدَ مِنْ لِحَاءِ السَّمْرِ أو غيره ١٥٩٦

= (٤٢٩)، كتاب «المناسك» (الحج)، باب لحم الصيد للمحرم، حديث (١٨٥٢)، والترمذي (٢٠٤/٣)، (٢٠٥)، كتاب «الحج»، باب ما جاء في أكل الصيد للمحرم، حديث (٨٤٧)، والنسائي (١٨٢/٥)، كتاب «الحج»، باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد، وابن ماجه (١٠٣٣/٢)، كتاب «المناسك»، باب الرخصة في ذلك إذا لم يصد له، حديث (٣٠٩٣)، ومالك (٣٥٠/١)، كتاب «الحج»، باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد، حديث (٧٦)، وأحمد (٣٠٢/٥). والدارمي (٣٨/٢) كتاب «المناسك»، باب في أكل لحم الصيد للمحرم إذا لم يصد هو، والشافعي (٣٢١/١) كتاب «الحج»، باب فيما يباح للمحرم وما يحرم (٨٣٧)، والحميدي (٢٠٤/١) رقم (٤٢٤) وعبد الرزاق (٨٣٣٧، ٨٣٣٨)، وابن خزيمة (١٧٦/٤) رقم (٢٦٣٥) وابن الجارود (٤٣٥) والدارقطني (٢٩١/٢) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٧٣/٢ - ١٧٤) والبيهقي (١٨٩/٥) والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ١٥٧ - بتحقيقنا) من طرق عن أبي قتادة به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

شيئاً، فكان ذلك أماناً له، وكذلك إذا انصرفوا، تفلّدوا من شجر الحرّم، وقوله ﴿ذلك﴾: إشارة إلى أن جعل الله هذه الأمور قياماً.

وقوله سبحانه: ﴿بكل شيء عليم﴾: عامٌ عموماً تاماً في الجزئيات ودقائق الموجودات، والقول بغير هذا إلحاذ في الدين وكفر.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۚ﴾ (٩٩) ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُنْ أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١١٠) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ...﴾ الآية: إخبار للمؤمنين مضمّنه الوعيد، إن أنحرفوا، ولم يمتثلوا ما بلغ الرسول إليهم، ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾، قلت: قال الشيخ أبو مدين (رضي الله عنه): الحقّ تعالى مطلع على السرائر والظواهر في كل نفس وحال، فأیما قلب رآه مؤثراً له، حفظه من الطوارق والمحن ومضلات الفتن، وقال (رحمه الله): ما عرف الحق من لم يؤثّر، وما أطاعه من لم يشكره. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب...﴾ الآية: لفظ عام في جميع الأمور، فيتصوّر في المكاسب، وعدد الناس، والمعارف من العلوم ونحوها، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب، ولا تحسن له عاقبة، والطيب وإن قل: نافع جميل العاقبة، وينظر إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، والخبيث: هو الفساد الباطن في الأشياء حتّى يظن بها الصّلاح، وهي بخلاف ذلك. وقوله سبحانه: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾: تنبيه على لزوم الطيب في المعتقد والعمل، وخصّ أولو الألباب بالذكر؛ لأنهم المتقدّمون في ميز هذه الأمور، والذين لا ينبغي لهم إهمالها؛ مع ألبابهم وإدراكهم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ سؤُوكُمْ ۖ وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا جِن يُنَزَّلُ آفَئَةً ۚ إِنَّ بُدَّ لَكُمْ عَمَّا ءَلَّه عَنْهَا ۚ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١١١) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١١٢) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم...﴾ الآية: اختلف الرواة في سببها، والظاهر من الروايات أن رسول الله ﷺ ألحّت عليه الأعراب والجهال بأنواع من السؤالات، حسبما هو معلوم في الروايات، فزجرهم الله تعالى عن ذلك بهذه الآية، وأشياء: اسمٌ لجمع شيء، قال ابن عباس: معنى الآية: لا تسألوا عن

أشياء في ضمن الأنباء عنها مساءة لكم^(١)؛ إما بتكليف شرعي يلزمكم، وإما بخبر يسوءكم، ولكن إذا نزل القرآن بشيء، وأبتدأكم ربكم بأمر، فحينئذ إن سألتم عن تفصيله وبَيَانِهِ بَيِّنَ لكم، وأُبدِي، ويحتمل قوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾؛ أن يكون في معنى الوعيد؛ كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم، لقيتم غب ذلك وصعوبته، قال النووي: وعن أبي ثعلبة الخشني، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ؛ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا؛ فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ؛ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ؛ رَحْمَةً بِكُمْ، لَا عَنْ نِسْيَانٍ؛ فَلَا تَبَحْثُوا عَنْهَا»، ورؤيانه في «سنن الدارقطني»^(٢). انتهى، وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ، فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٣). انتهى.

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٤٦).

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/١٨٤) كتاب «الرضاع»، حديث (٤٢) والحاكم (٤/١١٥) والبيهقي (١٠/١٣) كتاب «الضحايا»، باب ما لم يذكر تحريمه، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/١٧) والخطيب في «الفيء» (٩/٢) كلهم من طريق داود بن أبي هند، عن مكحول، عن أبي ثعلبة الخشني به. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٧٤) وقال: رواه الطبراني، رجاله رجال الصحيح. وذكره أيضاً الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/٧٢) رقم (٢٩٠٩)، وعزاه لمسدد، وقال: رجاله ثقات، إلا أنه منقطع. وللحديث شاهد من حديث أبي الدرداء.

أخرجه الدارقطني (٤/٢٩٨) باب الصيد والذبائح والأطعمة، حديث (١٠٤) من طريق نهشل الخراساني عن الضحاك بن مزاحم، عن طاوس، عن أبي الدرداء، وقال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٤/٢٩٧): نهشل الخراساني. قال إسحاق بن راهويه: كان كذاباً، وقال أبو حاتم والنسائي: متروك. وقال يحيى، والدارقطني: ضعيف.

ويبدو أن للحديث طريقاً آخر، فقد ذكره الهيثمي في «المجمع» (١/١٧٤) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» و «الصغير»، وفيه أصرم بن حوشب، وهو متروك، ونسب إلى الوضع.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٠/٢٦٤) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»، باب الافتداء بسنة رسول الله ﷺ حديث (٧٢٨٨) ومسلم (٤/١٨٣١) كتاب «الفضائل»، باب توقيفه ﷺ، حديث (١٣٣٧/١٣١)، وأحمد (٢/٢٥٨) والحميدي (٢/٤٧٧) رقم (١١٢٥) وأبو يعلى (١١/١٩٥) رقم (٦٣٠٥) كلهم من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

ومن طريق أبي الزناد أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١/١٧٧ - بتحقيقنا) وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة.

فأخرجه مسلم (٢/٩٧٥) كتاب «الحج»، باب فرض الحج مرة في العمر حديث (٤١٢/١٣٣٧) =

و ﴿عفا الله عنها﴾: معناه: تركها، ولم يُعرف بها، ﴿قد سألها قوم من قبلكم...﴾ الآية: قال الطبري^(١): كقوم صالح؛ في سؤالهم الناقة؛ وكبني إسرائيل؛ في سؤالهم المائدة، أي: وكطلب الأمم قديماً التعمق في الدين من أنبيائها، ثم لم تف بما كُلِّفت.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١١٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١١٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام...﴾ الآية: ١٥٩ ب أي: لم يجعل سبحانه شيئاً من ذلك، ولا سئة لعباده، المعنى: ولكن الكفار فعلوا ذلك؛ / كعمرو بن لحي وغيره من رؤسائهم؛ ﴿يفترون على الله الكذب﴾؛ بقولهم: هذه قربة إلى الله، ﴿وأكثرهم﴾، يعني: الأتباع ﴿لا يعقلون﴾، بل يتبعون هذه الأمور تقليداً، و ﴿جعل﴾ في هذه الآية: لا يتجه أن تكون بمعنى «خلق»، ولا بمعنى «صير»، وإنما هي بمعنى: «ما سن ولا شرع».

قال * ص *: ﴿ما جعل﴾: ذهب ابن عطية والزمخشري^(٢) إلى أنها بمعنى: «شرع»،

= والنسائي (١١٠/٥) كتاب «الحج»، باب وجوب الحج، وأحمد (٤٤٧/٢ - ٤٤٨، ٤٥٧، ٤٦٧، ٥٠٨) وابن خزيمة رقم (٢٥٠٨) من طريق محمد بن زياد، عن أبي هريرة. وأخرجه عبد الرزاق (١١/ ٢٢٠) رقم (٢٠٣٧٤) ومسلم (١٨٣١/٤) كتاب «الفضائل»، باب توقيه ﷺ (١٣٣٧/١٣١) وأحمد (٣١٣/٢) والبخاري في «شرح السنة» (١/ ١٧٦ - بتحقيقنا) من طريق همام بن منه، عن أبي هريرة. وأخرجه أحمد (٢٤٧/٢، ٤٢٨، ٥١٧)، والحميدي (٤٧٧/٢) رقم (١١٢٥) وابن حبان (٢٠٩٧ - الإحسان) من طريق محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم (١٨٣١/٤) كتاب «الفضائل»، باب توقيه ﷺ حديث (١٣٣٧/١٣١)، والترمذي (٥/ ٤٥ - ٤٦) كتاب «العلم»، باب في الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ حديث (٢٦٧٩) من طريق همام بن منه، عن أبي هريرة به.

(١) ينظر: الطبري (٨٦/٥، ٨٧).

(٢) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، الزمخشري، جار الله أبو القاسم ولد سنة (٤٦٧هـ) في زمخشري (من قرى خوارزم)، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، سافر إلى مكة، فجاور بها زمناً، فلقب بجار الله. أشهر كتبه: «الكشاف» و «أساس البلاغة» و «المفصل» ومن كتبه: «المقامات» و «مقدمة الأدب» و «نوابغ الكلم» و «ربيع الأبرار». توفي بالجرجانية بخوارزم سنة (٥٣٨هـ).

ينظر: «وفيات الأعيان» (٨١/٢)، «لسان الميزان» (٤/٦)، «الجواهر المضية» (١٦٠/٢)، «آداب اللغة» (٤٦/٣)، «الأعلام» (١٧٨/٧).

قال ابن^(١) عطية: ولا تكون بمعنى «خلق»، لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها، ولا بمعنى «صير»؛ لعدم المفعول الثاني، قال أبو حيان^(٢): ولم يذكر النحويون لها هذا، وقد جاء حذف أحد مفعولي «ظن» وأخواتها قليلاً، فتحمل هذه على حذف المفعول الثاني، أي: ما صير الله بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حامياً - مشروعاً، وهو أولى من إثبات معنى لم يسمع فيها، وذكر أبو البقاء؛ أنها هنا بمعنى «سمى» انتهى.

قلت: وحاصل كلام أبي حيان؛ أنه شهادة على نفي، وعلى تقدير صحته، فيحمل كلام ابن عطية على أنه تفسير معنى، لا تفسير إعراب.

وبحيرة: فعليه بمعنى مفعولة، وبحر: شق، كانوا إذا توجبت الناقة عشرة بطون، شقوا أذنهما بنصفين طولاً، فهي مبخورة، وترك ترعى، وترد الماء، ولا ينتفع بشيء منها، ويحرم لحمها؛ إذا ماتت على النساء، ويحلل للرجال؛ وذلك كله ضلال، والسائبة: هي الناقة تسب للآلهة، والناقة أيضاً إذا تابعت ثنتي عشرة إناثاً ليس فيهن ذكر، سيئت، وكانت السوائب أيضاً في العرب؛ كالقربة عند المرض يبرأ منه، والقُدوم من السفر، وإذا نزل بأحدهم أمر يشكر الله تعالى عليه، تقرب بأن يسب ناقة، فلا ينتفع منها بلبن، ولا ظهر، ولا غيره، يرون ذلك كعتق بني آدم؛ ذكره^(٣) السدي وغيره، وكانت العرب تعتقد أن من عرز لهذه النوق، فأخذها أو أنتفع منها بشيء، فإنه تلحقه عقوبة من الله، والوصيلة: قال أكثر الناس: إن الوصيلة في الغنم، قالوا إذا ولدت الشاة ثلاثة بطون، أو خمسة، فإن كان آخرها جدياً، ذبحوه لبيت الآلهة، وإن كان عناقاً، استخيوها، وإن كان جدي وعناق، استخيوهما، وقالوا: هذه العناق وصلت أخاها، فمنعته من أن يذبح، وعلى أن الوصيلة في الغنم، جاءت الروايات عن أكثر الناس، وروي عن ابن المسيب؛ أن الوصيلة من الإبل، وأما الحامي؛ فإنه الفحل من الإبل، إذا ضرب في الإبل عشر سنين^(٤)، وقيل: إذا ولد من ضلبه عشر، وقيل: إذا ولد من ولد ولده، قالوا: حمى ظهره، فسيبوه، لا يركب، ولا يسخر في شيء، وعبارة الفخر^(٥): وقيل: الحامي: الفحل؛ إذا ركب ولد ولده. انتهى، قلت: والذي في «البخاري»: والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، وإذا قضى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٢٤٧).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٤/٣٨).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/٩١) (١٢٨٤٣).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/٩١) (١٢٨٤٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٤٨).

(٥) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٢/٩١).

ضِرَابِهِ، وَدَعْوُهُ لِلطَّوَاعِيتِ، وَأَعْفُوهُ مِنَ الْحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ شَيْءٌ عَلَيْهِ، وَسَمَّوْهُ الْحَامِيَّ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، يعني: لهؤلاء الكفار المستئين بهذه الأشياء: ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، يعني: القرآن الذي فيه التحريم الصحيح، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا﴾، معناه: كَفَانَا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾ الآية: قال أبو ثعلبة الخشني: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «أَتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ دُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَشُحًّا مُطَاعًا، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَوِصَّةِ نَفْسِكَ، / وَدَرْ عَوَامِهِمْ؛ فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ أَيَّامًا؛ أَجْرُ الْعَامِلِ فِيهَا كَأَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»^(١)، وَهَذَا التَّأْوِيلُ الَّذِي لَا نَظَرَ لِأَحَدٍ مَعَهُ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَوْفٍ لِلصَّلَاحِ صَادِرٌ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَجُمْلَةُ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذَا أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مُتَعَيَّنٌ، مَتَى رُجِيَ الْقَبُولُ، أَوْ رُجِيَ رُدُّ الظَّالِمِ، وَلَوْ بَعْنَفٍ مَا لَمْ يَخَفِ الْأَمْرُ ضَرَرًا يَلْحَقُهُ فِي خَاصَّتِهِ، أَوْ فِتْنَةً يُدْخِلُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ إِمَّا بِشَقِّ عَصَا، وَإِمَّا بِضَرَرٍ يَلْحَقُ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ، فَإِذَا خِيفَ هَذَا، فَ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾: مُحْكَمٌ وَاجِبٌ أَنْ يَوْقَفَ عِنْدَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، هَذَا تَذَكِيرٌ بِالْحَشَرِ وَمَا بَعْدَهُ، وَذَلِكَ مُسَلٍّ عَنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، مَكْرُوهِهَا وَمَحْبُوبِهَا، رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ؛ أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَيَجِيءُ الشَّيْطَانُ، فيقول: مَا تَأْكُلُ، وَمَا تَلْبَسُ، وَأَيْنَ تَسْكُنُ، فَأَقُولُ لَهُ: أَكُلُ الْمَوْتِ، وَأَلْبَسُ الْكَفَنَ، وَأَسْكُنُ الْقَبْرَ.

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٦/٢) في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤١) والترمذي (٢٤٠/٥) في التفسير: باب «من سورة المائدة» (٣٠٥٨) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٠-١٣٣١) في الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ (٤٠١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠/٢) والطبري (٩٧/٥) برقم (١٢٨٦٦-١٢٨٦٧)، والحاكم (٣٢٢/٤) وابن حبان (١٨٥٠ - موارد). والبيهقي في السنن (٩١/١٠) - (٩٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٨/٧) (٤٠٥١) عن عتبة بن أبي حكيم، حدثني عمرو بن جارية اللخمي، حدثنا أبو أمية الشعباني به.

قال * ع^(١) : * فَمَنْ فَكَرَ فِي مَرْجَعِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَبِذَا حَالَهُ، قُلْتُ: وَخَرَجَ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ الْمُنْتَحَبِ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «يَأْيُهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالًا تَعْرُزُ عَنْكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَتُوشِكُ الْعَوَازِبُ أَنْ تُثَوِّبَ إِلَى أَهْلِهَا، فَمَسْرُورٌ بِهَا، وَمَكْظُومٌ»^(٢). انتهى من «الكوكب الدرّي»، واللّه المستعان.

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللّٰهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا رُبٍّ وَلَا تَكْفُرُ شَهِدَةُ اللّٰهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيَقْسِمَانِ بِاللّٰهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِهِمَا وَمَا اَعْتَدْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهِدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَسْمِعُوا وَلِلّٰهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان...﴾ الآية، إلى قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ [المائدة: ١٠٩]: قال مكّي: هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكال ما في القرآن إعراباً، ومعنى، وحكماً.

قال * ع^(٣) : * وهذا كلام من لم يقع له التلخ في تفسيرها؛ وذلك بين من كتابه، وبالله نستعين.

لا نَعْلَمُ خلافاً أن سبب هذه الآية أن تميماً الدارّي^(٤)

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٤) رقم (١٤١٦) من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني، ثنا جعفر بن سليمان، عن أبي عبد الله الشامي، عن عائذ الله أبي إدريس، عن ثوبان مرفوعاً. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٣٤) وقال: رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني، وهو ضعيف.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢٥٠).

(٤) هو: تميم بن أوس بن حارثة (خارجة) ابن سود (سواد) ابن جذيمة بن دراع بن عدي بن الدار. أبو رقية. الدارّي. قال ابن حجر في الإصابة: مشهور في الصحابة، وكان نصرانياً، وقدم المدينة فأسلم، وذكر للنبي ﷺ قصة الجساسة والدجال، فحدث النبي ﷺ عنه بذلك على المنبر، وعد ذلك من مناقبه. قال ابن السكن: أسلم سنة تسع هو وأخوه نعيم ولهما صحبة.

وقال ابن إسحاق: قدم المدينة، وغزا مع النبي ﷺ.

وقال أبو نعيم: كان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين، وهو أول من أسرج السراج في المسجد =

وعَدِيّ بن بَدَاء^(١)، وكانا نصرانيَّين، سافرا إلى المدينة، يريدان الشام؛ لتجارتهما، وقَدِمَ المدينة أيضاً ابنُ أَبِي مَارية مولى عَمْرُو بنِ العاصي، يريد الشام تاجراً، قال الفخر^(٢): وكان مُسْلِماً، فخرَجُوا رفاقة، فمرض ابنُ أَبِي مَارية في الطريق، وأوصى إلى تميم وعديّ؛ أن يُوَدِّيَا رَحْلَهُ إلى أوليائه من بني سَهْم^(٣)، وروى ابنُ عباس عن تميم الداريّ؛ أنه قال: بِرِيءُ النَّاسِ من هذه الآية غيري وَعَيزُ عَدِيّ بنِ بَدَاء، وذكر القصة^(٤)، إلا أنه قال: وكان معه جَافُ فُضَّةٍ، يريد به المُلْكُ، فأخذته أنا وعديّ، فبُعِثَ بالفِ، وقَسَمْنَا ثمنه، فلما أَسَلَمْتُ بعد قُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المدينة، تَأَنَّمْتُ من ذلك، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ، فأخبرتهم الخبر، وأدَّيْتُ خمسَ مائة، فوثَبُوا إلى عَدِيّ فَأَتَوْا به رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وحَلَفَ عَمْرُو بنِ العاصي، ورجُلٌ آخر معه، ونَزَعَتْ من عَدِيّ حَمْسُمِائَةً^(٥).

قال ع*^(٦): واختلفت ألفاظ هذه القصة، وما ذكرته هو عمود الأمر، ولم تصحَّ لعديّ صُحْبَةٌ فيما عَلِمْتُ، ولا ثبت إسلامه، وقد صَنَّفَه في الصحابة بعضُ المتأخرين، ولا وجه

= رواه الطبراني من حديث أبي هريرة، وأول من قص ذلك في عهد عمر. رواه ابن إسحاق بن راهويه، وانتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان.

تنظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٥٦/١)، «الإصابة» (١٩١/١)، «الثقات» (٣٩/٣)، «الجرح والتعديل» (٤٤٠/٢)، «تقريب التهذيب» (١١٣/١)، «سير أعلام النبلاء» (٤٤٢/٢)، «جمهرة أنساب العرب» (٤٥٤)، (٤٢٢)، «المترددات والوحدان» (٦٢)، «مشاهير علماء الأمصار» (٥٢).

(١) عدي بن بَدَاء: بتشديد الدال قبلها موحدة مفتوحة.

قال ابن حبان: له صحبة، وأخرجه ابن منده، فأنكر عليه ذلك أبو نعيم، وقال: لا يعرف له إسلام. قال ابن عَطِيَّة: لا يصح لعدي عندي صحبة. وقد وضعه بعضهم في الصحابة، ولا وجه لذكره عندي فيهم، وقَوَّى ذلك ابن الأثير بأن السياق عند ابن إسحاق: فأمرهم رسولُ اللَّهِ ﷺ أن يستحلفوا عَدِيَّ بما يعظم على أهل دينه.

والذي عندي أن بَدَاء، بفتح الموحدة وتشديد الدال مقصور، وقيل: ممدود. ورأيت بخط الخطيب في سياق القصة عن تفسير مقاتل عَدِيّ بن بنداء، بنون بين الموحدة والدال.

ينظر ترجمته في: «الإصابة» (٣٨٧/٤)، «الثقات» (٣١٨/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣٧٦/١)، «أسد الغابة» ت (٣٦٥).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٩٥/١٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١٥/٥) (١٢٩٧٠)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٤/٢)، وابن عطية في «تفسيره» (٢٥٠/٢).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٥٠/٢).

(٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٥١/٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥١/٢).

عندي لذكره في الصحابة.

وأما معنى الآية مِنْ أولها إلى آخرها، فهو أن الله سبحانه أخبر المؤمنين أن حكمه في الشهادة عَلَى الْمُوصِي، إذا حضره الموت: أن تكون شهادة عَدْلَيْنِ، فإن كان في سَفَرٍ، وهو الضَّرْبُ في الأرض، ولم يكن معه من المؤمنين أحدٌ، فليُشْهِدْ شاهِدَيْنِ ممن حَضَرَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، فإذا قدما، وأدّيا الشهادة عَلَى وصيِّته، حَلَفًا بعد الصَّلَاة؛ أنهما ما كَذَبَا، ولا بَدَلًا، وَأَنْ ما شهدنا به حقٌّ ما كتمنا فيه / شهادة الله، وَحَكَمَ بشهادتهما، فإن عَثِرَ بعد ذلك ١٦٠ ب عَلَى أنهما كَذَبَا، أو خَانَا، أو نَحَوِ هذا ممَّا هو إثمٌ، حَلَفَ رُجُلَانِ مِنْ أولياءِ الْمُوصِي في السفر، وَغَرَّمَ الشاهِدَانِ ما ظَهَرَ عَلَيْهِمَا، هذا معنى الآية عَلَى مذهب أبي موسى الأشعري، وابن عباس، وسعيد بن المسيَّب، ويحيى بن يَغَمَر، وابن جُبَيْر، وأبي مَجْلَز، وإبراهيم، وشُرَيْح، وعَبِيدَةَ السَّلْمَانِي، وابن سِيرِينَ، ومجاهدٍ وَغَيْرِهِمْ^(١)، قالوا: ومعنى قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، أي: مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، ومعنى: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من الكافرين.

قال بعضهم: وذلك أن الآية نزلت، ولا مؤمن إلا بالمدينة، وكانوا يسافرون في التَّجَارَةِ مع أنواع الكُفْرَةِ، واختلفت هذه الجماعةُ المذكورة، فمذهب أبي موسى الأشعري وغيره؛ أن الآية مُحْكَمَةٌ، ومذهب جماعة منهم؛ أنها منسوخة؛ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]؛ وبما عليه إجماعُ جمهور النَّاسِ؛ أن شهادة الكُفَّار لا تجوزُ.

قال * ع^(٢) *: ولنرجع الآن إلى الإعراب، ولنقصِدِ الْقَوْلَ المفيد؛ لأن الناس خَلَطُوا في تفسير هذه الآية تخليطاً شديداً، وذكر ذلك والرَّدُّ عليه يطولُ، وفي تَبْيِينِ الْحَقِّ الذي تَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ بِالْقَبُولِ مَقْتَعٌ، والله المستعان.

فقوله تعالى: ﴿شهادة بينكم﴾، هي الشهادة^(٣) التي تُحَفَظُ لتؤدَّى، ورفعها بالإبتداء،

(١) ذكره ابن عطية (٢/٢٥١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٢٥٢).

(٣) الشهادات: جمع شهادة: وتجمع باعتبار أنواعها. وإن كانت في الأصل مصدرًا. تعريف الشهادة: للشهادة في اللغة معان: منها: الإخبار بالشيء خبراً قاطعاً. تقول: شهد فلان على كذا، أي أخبر به خبراً قاطعاً. ومنها: الحضور. تقول: شهد المجلس أي حضره قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال عليه الصلاة والسلام: «الغنيمة لمن شَهِدَ الرِّفْعَةَ» أي حضرها. ومنها: الاطلاع على الشيء، ومعابته، تقول: شهدت كذا. أي اطلعت عليه وعابته. ومنها: إدراك الشيء. تقول: شهدت الجمعة. أي أدركتها، ومنها: الحلف: تقول أشهد بالله لقد كان كذا. أي: أحلف. =

وَالْخَبَرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿اِنَّان﴾، وقوله تعالى: ﴿اِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾: إِذَا قَارَبَ الْحَضُورَ، وَالْعَامِلُ فِي «إِذَا» الْمَصْدَرُ الَّذِي هُوَ «شَهَادَةٌ»، وَهَذَا عَلَى أَنَّ تَجْعَلُ «إِذَا» بِمَنْزِلَةِ «حِينَ»، لَا تَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، وَلَكِنَّ أَنَّ تَجْعَلُ «إِذَا» فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَحْتَاجَةَ إِلَى الْجَوَابِ، لَكِنْ أَسْتَغْنِي عَنْ جَوَابِهَا بِمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ﴾؛ إِذِ الْمَعْنَى: إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُشْهِدَ، وَقَوْلُهُ: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾: ظَرْفُ زَمَانٍ، وَالْعَامِلُ فِيهِ ﴿حَضَرَ﴾، وَإِنْ شِئْتَ، جَعَلْتَهُ بَدَلًا مِنْ «إِذَا»، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾: صِفَةُ لِقَوْلِهِ: ﴿اِنَّان﴾، وَ﴿مَنْكُمْ﴾: صِفَةُ أَيْضًا بَعْدَ صِفَةٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ غَيْرِكُمْ﴾: صِفَةُ لـ ﴿آخَرَانِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿تَخْبِسُونَهُمَا﴾: صِفَةُ لـ ﴿آخَرَانِ﴾ أَيْضًا، وَاعْتَرَضَ بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾، إِلَى «الْمَوْتِ»، وَأَفَادَ الْإِعْتِرَاضُ أَنَّ الْعُدُولَ إِلَى آخَرَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْمَلَّةِ، إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ ضَرُورَةِ السَّفَرِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ فِيهِ، وَاسْتَغْنِي عَنْ جَوَابِ «إِنْ»؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، وَقَالَ جَمَاهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الصَّلَاةُ هُنَا صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا هِيَ صَلَاةُ الذَّمِّيَيْنِ^(١)، وَأَمَّا الْعَصْرُ، فَلَا حُزْمَةَ لَهَا عِنْدَهُمَا، وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَقْسِمَانِ﴾: عَاطِفَةٌ جُمْلَةً عَلَى جُمْلَةٍ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى تَمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ شَرْطٌ لَا يَتَجَهَّ تَحْلِيفُ الشَّاهِدَيْنِ إِلَّا بِهِ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِ الْحَالِفَيْنِ: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾: عَائِدٌ عَلَى الْقَسَمِ، أَوْ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ جَوَابٌ يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾؛ لِأَنَّ «أَقْسَمَ» وَنَحْوَهُ يَتَلَقَّى بِمَا تَتَلَقَّى بِهِ الْإِيمَانُ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّنَا﴾، أَي: ذَا ثَمَنِ، وَخُصَّ ذُو الْقُرْبَى بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ أُمِيلُ النَّاسِ إِلَى قَرَابَاتِهِمْ، وَأَسْتَسْهَلُ لَهُمْ فِي جَنْبِ نَفْعِهِمْ مَا لَا يُسْتَسْهَلُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، أَضَافَ الشَّهَادَةَ إِلَيْهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ هُوَ الْأَمْرُ بِإِقَامَتِهَا، النَّاهِي عَنْ كِتْمَانِهَا، وَرَوَى عَنِ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِ: «شَهَادَةٌ» - بِالتَّنْوِينِ -، «اللَّهُ» - بِقَطْعِ الْأَلْفِ دُونَ مَدٍّ وَخَفْضِ الْهَاءِ -، وَقَالَ أَيْضًا:

= ومنها: العلم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] أي عليم. والفعل من باب علم. وقد تسكن هاؤه فتقول: شهد فلان شهادة، وجمع الشاهد، شهد وشهود وأشهاد، والمشاهدة المعاينة. عرفها الشافعية بأنها: إخبار صادق بلفظ الشهادة لإثبات حق لغيره على غيره، في مجلس القضاء، ولو بلا دعوى.

عرفها المالكية بأنها: إخبار حاكم عن علم ليقضي بمقتضاه.

عرفها الحنفية بأنها: إخبار بحق للغير على آخر.

ينظر: «معاني المحتاج» (٤/٤٢٦)، «أدب القضاء» لابن أبي الدم (١/١٧٥)، «نهاية المحتاج» (٨/٢٧٧)، «حاشية الدسوقي» (٤/١٦٤)، «الدرر» (٢/٢٧٠)، «الفتاوى الهندية» (٣/٤٥٠).

(١) أخرجه الطبري بنحوه (١١١/٥) برقم (١٢٩٥٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٥٣).

يقف على الهاء من: «شهادة» بالسكون، ثم يقطع الألف المكتوبة من غير مدٍّ؛ كما تقدّم، ورُوِيَ عنه كان يقرأ: / «اللَّهُ» - بمد ألف الاستفهام في الوجهين -، أعني: بسكون الهاء من ١٦١ «شهادة»، وتحريكها منوثة منصوبة، ورُوِيَ هذه التي هي تنوين «شهادة»، ومدُّ ألف الاستفهام بعد عن علي بن أبي طالب، قال أبو الفتح: إنما تُسَكَّن هاء «شهادة» في الوقف عليها.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ عُرِثَ﴾: استعارة لما يُوقَع على علمه بعد خفائه، و ﴿أَسْتَحَقَّ﴾: معناه: أستوجباه من الله، وكنا أهلاً له؛ لأنهما ظلمًا وخانًا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَانِ﴾، أي: إذا عُرِثَ على خيانتهم، فالأُولَيَانِ باليمين وإقامة القضية: أَخْرَانِ من القوم الذين هُم ولاة الميِّت، واستَحَقَّ عليهم حُطُّهم، أو نصيبهم، أو مالهم، أو مَا شِئْتَ من هذه التقديرات، وقرأ نافع^(١) وغيره: «أَسْتَحَقَّ» - مضمومة التاء -، «والأُولَيَانِ»؛ على تشنية الأولي، ورُوِيَ عن ابن كثير: «أَسْتَحَقَّ» - بفتح التاء -؛ وكذلك روى حفص عن عاصم.

وفي قوله: ﴿أَسْتَحَقَّ﴾: استعارة؛ لأنه وَجِه لهذا الاستحقاق إلا الغلبة على الحال بحُكْم انفراد هذا الميِّت وعدمه لقربائه أو لأهل دينه، فاستَحَقَّ هنا كما تقول لظالم يظلمك: «هذا قد استَحَقَّ عليّ مالي أو منزلي بظلمه»، فتشبهه بالمستَحَقِّ حقيقة؛ إذ تصوّر تصوّره، وتملك تملكه؛ وهكذا هي «استحق» في الآية على كل حال، وإن أسندت إلى النصيب ونحوه.

وقرأ حمزة^(٢) وعاصم في رواية أبي بكر: «أَسْتَحَقَّ» - بضم التاء -، «الأُولَيْنِ»: على جَمْع أول؛ ومعناها: من القوم الذين استَحَقَّ عليهم أمرهم؛ إذ غلبوا عليه، ثم وصفهم بأنهم أولون، أي: في الذكر في هذه الآية، وذلك في قوله: ﴿إِثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، ثم بعد ذلك قال: ﴿أَوْ أَخْرَانِ من غيركم﴾، وقوله: ﴿فَيَقْسَمَانِ﴾، يعني: الآخرَيْنِ اللّذَيْنِ يَقُومَانِ مَقَامَ شَاهِدِي الزُّورِ، وقولهما: ﴿لَشَهِدَانَا﴾؛ أي: لَمَّا أَخْبَرْنَا نَحْنُ بِهِ، ودَكَرْنَاهُ مِنْ نَصِّ الْقِصَّةِ - أحق مما ذكرناه أولاً وحرّفناه، ﴿وَمَا أَعْتَدَيْنَا﴾؛ في قولنا هذا، وقولهما: ﴿إِنَّا

(١) ينظر: «السبعة» (٢٤٨، ٢٤٩)، و «الحجة» (٢٦٠/٣ - ٢٦١)، و «حجة القراءات» (٢٣٨)، و «العنوان» (٨٨)، و «إعراب القراءات» (١٤٩/١ - ١٥٠)، و «شرح شملة» (٣٥٥)، و «شرح الطيبة» (٢٣٧/٤)، و «إتحاف» (٥٤٣/١)، و «معاني القراءات» (٣٤١/١).

(٢) ينظر السابق.

إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ: تَبَرُّ فِي صِغَةِ الْأَسْتِعْظَامِ وَالْإِسْتِقْبَاحِ لِلظُّلْمِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْتَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ الآية: الإشارة بـ «ذلك» هي إلى جميع ما حَدَّ قَبْلُ؛ مِنْ حَسْبِ الشَّاهِدِينَ مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ لِلْيَمِينِ، ثُمَّ إِنَّ عِشْرَ عَلَى جَوْرِهِمَا، رُدَّتِ الْيَمِينُ، وَغَرِمَا، فَذَلِكَ كُلُّهُ أَقْرَبُ إِلَى أَعْتَدَالِ هَذَا الصَّنْفِ فِيمَا عَسَى أَنْ يَنْزِلَ مِنَ النَّوَازِلِ؛ لِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ الْفُضِيحَةَ، وَرَدَّ الْيَمِينِ؛ هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١)، وَجُمِعَ الضَّمِيرُ فِي «يَأْتُوا» وَ«يَخَافُوا»؛ إِذِ الْمُرَادُ صَنْفٌ وَنَوْعٌ مِنَ النَّاسِ، وَالْمَعْنَى: ذَلِكَ الْحُكْمُ كُلُّهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَنْ يَأْتُوا، وَأَقْرَبُ إِلَيَّ أَنْ يَخَافُوا، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنْكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّدُ النَّاسَ فِي آلِهَتِهِمْ وَكَهَلَا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَمْرِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَمْرِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأَمْرِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَمْرِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ بَآلِكَيْنِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٢١﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾؛ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنْ الْعَامِلَ فِي «يَوْمٍ»: مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَهْدِي﴾، وَذَلِكَ ضَعِيفٌ، وَرَضَفُ الْآيَةِ وَبِرَاعَتِهَا إِنَّمَا هُوَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مُسْتَأْنَفًا، وَالْعَامِلُ مُقَدَّرٌ، إِمَّا «أَذْكَرُ»، أَوْ: «تَذَكَّرُوا»، أَوْ «أَحْذَرُوا»، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا حَسُنَ اخْتِصَارُهُ؛ لِعِلْمِ السَّامِعِ بِهِ، وَالْإِشَارَةُ بِهَذَا الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَخُصَّ الرُّسُلُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمْ قَادَةُ الْخَلْقِ، وَهُمْ الْمَكْلُمُونَ أَوَّلًا، وَ «مَاذَا أُجِبْتُمْ»: مَعْنَاهُ: مَاذَا أَجَابْتُمْكَ الْأُمَمَ، وَهَذَا السُّؤَالُ لِلرُّسُلِ إِنَّمَا هُوَ لَتَقَوْمِ الْحُجَّةِ عَلَى الْأُمَمِ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِمْ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾: قَالَ الطَّبْرِيُّ^(٢): ذُهِلُوا عَنِ الْجَوَابِ، لَهُوَ الْمَطْلَعُ؛ وَقَالَ الْحَسَنُ^(٣)، وَعَنْ مُجَاهِدٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: يَفْزَعُونَ، فَيَقُولُونَ: لَا عِلْمَ لَنَا، وَضَعَفَ^(٤) بَعْضُ النَّاسِ هَذَا الْمُنْزَعُ؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: / ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾

(١) أخرجه الطبري بنحوه (١٢٣/٥) (١٢٩٨٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٥٦/٢).

(٢) ينظر الطبري (١٢٥/٥).

(٣) أخرجه الطبري بنحوه (١٢٦/٥) برقم (١٢٩٩١).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٦/٥) برقم (١٢٩٩٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٥٦/٢)، =

[الأنبياء: ١٠٣]، وقال ابن عباس: معنى الآية: لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا؛ أَنْتَ أَعْلَمَ بِهِ مِنَّا، وقول^(١) ابن عباس حَسَن، وهو أصوبُ هذه المناحي؛ لأنه يتخرَّج على التسليم لله تعالى، وردَّ الأمر إليه؛ إذ هو العالمُ بجميع ذلك؛ على التَّفْصِيل والكمال، فرأوا التسليم والخضوع لعلمه المحيط سبحانه، قال مكِّي: قال ابن عباس: المعنى: لا علم لنا إِلَّا عِلْمُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ^(٢) مِنَّا، وهو اختيار^(٣) الطبري، وقيل: لما كان السؤالَ عامًّا يقتضي بعمومه سؤالهم عن سِرِّ الأمم وعلايَتِها، رَدُّوا الأمر إليه؛ إذ ليس عندهم إِلَّا عِلْمُ الظاهر؛ قال مكِّي: وهذا القول أحبُّ الأقوالِ إليَّ، قال: ومعنى مسألة الله الرُّسُلَ عَمَّا أَجِيبُوا، إنما هو لمعنى التوبيخ لِمَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، انتهى من «الهداية».

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ...﴾ الآية: ﴿قَالَ﴾ هنا بمعنى يَقُولُ؛ لأن ظاهر هذا القول أنه في القيامة؛ تقدمة لقوله سبحانه: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾، أي: من قبورهم، وكفُّ بني إسرائيل عنه - عليه السلام - هو رَفْعُهُ حِينَ أَحَاطُوا بِهِ فِي الْبَيْتِ مع الحواريين، وكذلك مَنْعُهُ مِنْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى تِلْكَ النَّازِلَةِ الْآخِرَةِ، فهناك ظَهَرَ عِظَمُ الْكَفِّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾، هو مِنْ جُمْلَةِ تَعْدِيدِ النِّعَمِ عَلَى عِيسَى - عليه السلام -: و ﴿أُوحِيتُ﴾؛ في هذا الموضع: إما أَنْ يَكُونَ وَحْيَ الْإِلَهَامِ أَوْ وَحْيَ أَمْرِ، وبالجُمْلَةِ فهو إلقاءُ معْنَى في خفاءٍ، أَوْصَلَهُ سبحانه إِلَى نفوسهم، كيف شاء، والرسولُ في هذه الآية: عِيسَى، وقول الحواريين: ﴿وَأَشْهَدُ﴾: يحتملُ أَنْ يَكُونَ مخاطبةً مِنْهُمْ لِلَّهِ سبحانه، ويحتملُ أَنْ يَكُونَ لعِيسَى.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ

= والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٦/٢) وعزاه للفرابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٦/٥) برقم (١٢٩٩٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٥٧/٢) والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٧/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي، عن ابن عباس.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر: الطبري (١٢٦/٥).

أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ...﴾ الآية: اعتراض أثناء وصف حال قول الله لعيسى يوم القيامة، مضمن الاعتراض إخبار نبينا محمد ﷺ، وأمته بنازلة الحواريين في المائدة، إذ هي مثال نافع لكل أمة مع نبينا تقتدي بمحاسنه، وتزدجر عما ينفر منه من طلب الآيات ونحوه، وقرأ الجمهور: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» - بالياء ورفع الباء - من «رَبُّكَ»، والمعنى: هل يفعل ربك هذا، وهل تقع منه إجابة إليه، ولم يكن منهم هذا شكاً في قدرة الله سبحانه؛ إذ هم أعرف بالله من أن يشكوا في قدرته، وقرأ الكسائي^(١): «هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» - بالتاء ونصب الباء من «رَبُّكَ» -، والمعنى: هل تستطيع سؤال ربك، وأدغم اللام في التاء، أعني الكسائي، وقال قوم: قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يُبْرَى الأكمه والأبرص، ويُخَيِّي الموتى، ويظهر من قوله - عليه السلام -: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إنكار لقولهم، وأقتراجهم الآيات، والتعرض لسخط الله بها، وقلة طمأنينتهم إلى ما قد ظهر، ولما خاطبهم - عليه السلام - بهذه المخاطبة، صرّحوا بمقاصدهم التي حملتهم على طلب المائدة، فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾؛ فنشرف في العالم، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾، أي: تسكن فكرنا في أمرك بالمعينة لأمر نازل من السماء بأعيننا، ﴿ونعلم﴾ علم الضرورة والمشاهدة؛ ﴿أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾؛ فلا تعرضنا الشبهة التي تعرض في علم الاستدلال؛ وهذا يؤيد أن مقالته كانت في مبدأ أمرهم، ثم أستمروا على إيمانهم، وصبروا، وهلك من كفر، وقولهم: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: من الشاهدين بهذه النازلة، الثاقلين لها إلى غيرنا الداعين إلى هذا الشنع؛/ بسببها، وزوي أن الذي نحا بهم هذا المنحى من الاقتراح هو أن عيسى قال لهم مرة: «هَلْ لَكُمْ فِي صِيَامِ ثَلَاثِينَ يَوْماً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ حَاجَةً، قَضَاهَا»، فلما صاموها، قالوا: يا معلم الخير، إن حق من عمل عملاً أن يُطعم، فهل يستطيع ربك، فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم.

(١) والمعنى على هذه القراءة: هل تقدر يا عيسى أن تسأل ربك، فإنهم كانوا مؤمنين، وكانت عائشة تقول: كان القوم أعلم بالله من أن يقولوا: هل يستطيع ربك، إنما قالوا: هل يستطيع ربك.

ينظر: «السبعة» (٢٤٩)، و«الحجة» (٢٧٣/٣)، و«حجة القراءات» (٢٤٠-٢٤١)، و«العنوان» (٨٨)، و«إعراب القراءات» (١٥٠/١)، و«شرح الطيبة» (٢٣٩/٤)، و«شرح الشعلة» (٣٥٦)، و«إنحاف» (٥٤٥/١)، و«معاني القراءات» (٣٤٣/١).

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية، أي: أجبهم عيسى - عليه السلام - إلى ما سألوا، فَيُرَوِّى أَنَّهُ لَيْسَ جُبَّةً شَعْرٍ، ورداء شَعْرٍ، وقام يصلي، ويبكي، والعيد: المجتمع، وقوله: ﴿لأولنا وآخرنا﴾، رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ الْمَعْنَى: يَكُونُ مَجْتَمِعًا لِجَمِيعِنَا أَوَّلَنَا وَآخِرَنَا، قال: فأكل من المائدة حين وُضِعَتْ أَوَّلُ النَّاسِ؛ كما أَكَلَ آخِرُهُمْ، ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾، أي: علامة على صدقي، فأجاب الله تعالى دعوة عيسى - عليه السلام -، وقال: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ثم شَرَطَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ شَرْطَهُ الْمُتَعَارَفِ فِي الْأُمَمِ؛ أَنَّهُ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ آيَةِ الْاِقْتِرَاحِ، عَذَّبَ أَشَدَّ عَذَابٍ، والجمهور أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، واختلفوا في كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ، فقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: نَزَلَتْ الْمَائِدَةُ خُبْزًا وَسَمَكًا، وقال عطية: الْمَائِدَةُ سَمَكَةٌ فِيهَا طَعْمُ كُلِّ طَعَامٍ، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَ خُورَانٌ عَلَيْهِ خُبْزٌ وَسَمَكٌ يَأْكُلُونَ مِنْهُ أَيْنَمَا نَزَلُوا، إِذَا شَاءُوا^(١)، وقال عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: سَأَلُوا عِيسَى مَائِدَةً يَكُونُ عَلَيْهَا طَعَامٌ لَا يَنْقُذُ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّهَا مَقِيْمَةٌ لَكُمْ مَا لَمْ تُخَبِّثُوا، أَوْ تَخَوَّنُوا، فَإِنْ فَعَلْتُمْ، عُذِّبْتُمْ، قال: فَمَا مَضَى يَوْمٌ؛ حَتَّى خَبِّثُوا، وَخَانُوا، يَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمُسِخُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ^(٢)، وقال ميسرة: كَانَتْ الْمَائِدَةُ، إِذَا وُضِعَتْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ الْأَيْدِي بِكُلِّ طَعَامٍ إِلَّا اللَّحْمَ^(٣)، وَأَكْثَرَ النَّاسِ فِي قِصَصِ الْمَائِدَةِ مِمَّا رَأَيْتُ اخْتِصَارَهُ؛ لِعَدَمِ سَنَدِهِ.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٦١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/١٣٣) برقم (١٣٠١٠) وابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٦١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٦١٣)، وعزاه لابن جرير، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد» من طريق عكرمة، عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/١٣٤) برقم (١٣٠١٦)، وذكره ابن عطية (٢/٢٦١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/٦١٢)، وعزاه للترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد»، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن عمار.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/١٣٥) برقم (١٣٠٢٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٦١).

مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴿١٧٦﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْغَرِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ تَعْلِيمَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية: اختلف المفسرون في وَفَّتْ وقوع هذا القول، فقال السدي وغيره: لما رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، قَالَتِ النَّصَارَى مَا قَالَتْ، وَزَعَمُوا أَنَّ عِيسَى أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَسَأَلَهُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ، فَقَالَ: ﴿سَبِّحَانِكَ...﴾ ^(١) الآية، وَيَجِيءُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾، أَي: فِي التَّوْبَةِ مِنَ الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ هَذَا قَالَهُ، وَهُمْ أَحْيَاءُ فِي الدُّنْيَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَجَمُحُورُ النَّاسِ: هَذَا الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُهُ اللَّهُ لَهُ عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيَرَى الْكُفَّارَ تَبَرُّيَهُ مِنْهُمْ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كَانُوا فِيهِ بَاطِلًا، فَذَكَرَ ^(٢) قَالَ: عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ بِمَعْنَى: «يَقُولُ»؛ وَنُزِّلَ الْمَاضِي مَوْضِعَ الْمُسْتَقْبَلِ؛ لِدَلَالَتِهِ عَلَى كَوْنِ الْأَمْرِ وَثْبُوتِهِ، وَقَوْلُهُ آخِرًا: ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾: مَعْنَاهُ: إِنْ عَذَّبْتَ الْعَالَمَ كُلَّهُ، فَبِحَقِّكَ، فَهَمَّ عِبَادُكَ تَصْنَعُ بِحَقِّ الْمَلِكِ مَا شِئْتَ؛ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْكَ، وَإِنْ غَفَرْتَ وَسَبَقَ ذَلِكَ فِي عِلْمِكَ؛ فَلَأَنَّكَ أَهْلٌ لَذَلِكَ؛ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِكَ، وَلَا مُنَازَعَ لَكَ، فَيَقُولُ عِيسَى هَذَا عَلَى جِهَةِ التَّسْلِيمِ وَالتَّعْزِي عَنْهُمْ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا قَدْ حُتِمَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَهَذَا الْقَوْلُ عِنْدِي أَرْجَحُ؛ وَيَتَقَوَّى بِمَا يَأْتِي بَعْدُ، وَهُوَ قَوْلُهُ سَبِّحَانَهُ: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقوله: ﴿سَبِّحَانِكَ﴾، أَي: تَنْزِيهَاً لَكَ عَنْ أَنْ يُقَالَ هَذَا، وَيُنْطَقَ بِهِ؛ ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، أَي: مَا يَكُونُ/ لِبَشَرٍ مُحَدِّثٍ أَنْ يَدَّعِيَ الْأُلُوهِيَّةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾؛ لِأَنَّكَ أَحْطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَيْتَ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، فَوْقَ اللَّهِ عِيسَى لِهَذِهِ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، خَصَّ النَّفْسَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا مَظْنَةُ الْكُتْمِ وَالْإِنْطَوَاءِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ.

والمعنى: أَنَّ اللَّهَ - سَبِّحَانَهُ - يَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِ عِيسَى، وَيَعْلَمُ كُلَّ أَمْرِهِ مِمَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ فِي نَفْسِهِ.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣٧/٥) برقم (١٣٠٣١)، وذكره ابن عطية (٢/٢٦٢)، والسيوطي (٢/٦١٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٦٢).

وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾: معناه: ولا أعلم ما عندك من المعلومات، وما أَحْطَتْ به، وذكر «النفس» هنا مقابلةً لَفُظِيَّةً، في اللسان العربي؛ يقتضيها الإيجاز؛ وهذا ينظر من طَرْفٍ خَفِيِّ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٥٤]؛ و ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] فتسمية العقوبة باسم الذنب إنما قاد إليها طَلَبُ الْمُقَابَلَةِ اللفظية، إذ هي من فَصِيحِ الكلام، وبَارِعِ العبارة.

ثم أقر عيسى - عليه السلام - لله تعالى؛ بأنه - سبحانه - عَلَّامُ الْغُيُوبِ، أي: ولا عِلْمَ لي أنا بغيب.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾: أي: قبضتني بالرُّفْعِ، والتصيير في السَّمَاءِ، و ﴿الرَّقِيبَ﴾: الحافظ المراعي.

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾: أي: في قدرتك، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعالك.

والمعنى: إن يكن لك في النَّاسِ مُعَذِّبُونَ، فهم عبادك، وإن يكن مغفور لهم، فَعَزَّتْكَ وحكمتك تَقْتَضِي هذا كله.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ تَحْتِهَا أَلْأَنْهَرُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١٩) اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴿

﴿قال الله هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؛ فدخل تحت هذه العبارة كل مؤمن بالله - سبحانه -، وكل ما كان أَتَقَى، فهو أَدْخَلَ في العبارة، وجاءت هذه العبارة مُشِيرَةً إلى عيسى - عليه السلام - في حاله، وصدقه؛ فيحصل له بذلك في المَوْقِفِ شَرَفٌ عَظِيمٌ، وإن كان اللفظ يعمه وسواه.

ثم ذكر - تعالى - ما أعدَّه لهم برحمته، وطوله، جعلنا الله منهم بَمَنِّهِ، وَسَعَةِ جُودِهِ، لا رَبَّ غَيْرِهِ، ولا مرجو في الدَّارَيْنِ سِوَاهُ، وباقي الآية بَيَّنَّ. جعل الله ما كتبناه من هذه الأحرف نوراً يَسْعَى بين أيدينا بَمَنِّهِ. والحمد لله كما هو أَهْلُهُ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلَّم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

قال ابن عباس: نزلت سورة الأنعام، وحولها سبعون ألف ملك، لهم زجل يجارون بالتسبيح^(١).

قلت: وعن جابر بن عبد الله، قال: لما نزلت سورة الأنعام، سبّح رسول الله ﷺ وقال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق». رواه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین». وقال: صحيح على شرط مسلم^(٢). انتهى من «السلام».

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

قال علي بن عبد الرحمن اليفرنى في شرحه لـ «البرهانية»: قال الإمام الفخر^(٣): لفظ الحمد مَعْرِفًا لَا يُقَالُ إِلَّا فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: الحمد لِزَيْدٍ. قاله سيبويه.

وذكر ابن العربي في «القانون» عن أنس؛ أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْحَمْدِ، وَأَبْلَغُ الْحَمْدِ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(٤).

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٦٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣)، وعزاه لأبي عبيد، وابن الضريس، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٣١٤ - ٣١٥)، وعنه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٤٧٠) رقم (٢٤٣١) من طريق جعفر بن عون، ثنا إسماعيل بن عبد الرحمن، ثنا محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، فإن إسماعيل هذا هو السدي وتعقبه الذهبي فقال: ولم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣)، وزاد نسبه إلى الإسماعيلي في «معجمه».

(٣) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٢/١١٨، ١١٩).

(٤) أخرجه أبو يعلى (٧/٢٤٧ - ٢٤٨) برقم (٤٢٥٦) عن أنس بن مالك به.

قال ابن العربي: وفي بعض الآثار: «ما من نِعْمَةٍ عَظُمَتْ إِلَّا والحمد لله أعظم منها»^(١). انتهى.

قال ع* ع^(٢): * و ﴿جعل﴾ هاهنا بمعنى: «خلق»، ولا يجوز غير ذلك.

قال قتادة، والسُّدِّيُّ؛ وجمهور من المفسرين: الظلمات الليل، والنور النهار.

وقالت فرقة: الظلمات الكُفْرُ، والنور الإيمان.

قال/ ع* ع^(٣): * وهذا على جهة التشبيه صحيح، وعلى ما يفهمه عبَّاد الأوثان غير ١٦٣ جيد؛ لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطنٍ لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللُّغز الذي برىء القرآن منه، والنور أيضاً هنا لِلْجَنَسِ.

وقوله تعالى: ﴿ثم﴾ دالة على قُبْح فعل الذين كَفَرُوا؛ لأن المعنى: أن خلقه السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، وغيرها الموجبة لحمده، وتوحيده قد تقرر، وآياته قد سَطَعَتْ، وإنعامه بِذَلِكَ على العباد قد تَبَيَّنَ، فكان الواجب عليهم إخلاص التوحيد له، ثم هم بعد هذا كله يَرْبِّهِمْ يَغْدِلُونَ؛ أي: يُسَوِّونَ، ويمثلون، وعدل الشيء قرينه ومثيله.

و ﴿الذين كَفَرُوا﴾ في هذا المَوْضِع كل من عَبَدَ شَيْئاً سِوَى اللَّهِ إلا أن السَّابِق من حال النبي ﷺ أن الإشارة إلى عَبَدَةِ الأوثان من العرب؛ لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضاً يشير إلى المَانَوِيَّة العابدين للنور، القائلين: إن الخَيْر من فِعْلِ النور، والشر من فِعْلِ الظلام.

وقوله تعالى: ﴿هو الذي خَلَقَكُمْ من طِينٍ﴾ فالمعنى: خَلَقَ آدم من طِينٍ.

وقوله سبحانه: ﴿ثم قضى أَجَلاً وَأَجَلاً مسمى عنده﴾ اختلف في هذين الأَجَلَيْنِ، فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: ﴿أَجَلاً﴾ أَجَلُ الإنسان من لَدُنْ وَلَادَتِهِ إلى موته،

= وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢/٨) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (٣٥/٣) رقم (٢٨١٢) وعزاه إلى أبي بكر، وأحمد بن منيع، والحاثر، وأبي يعلى.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤٣/٥) برقم (١٣٠٤٣) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٦٦)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٦/٣)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «المحرر» (٢/٢٦٥).

(٣) ينظر: «المحرر» (٢/٢٦٦).

والأجل المسمى عنده من وقت موته إلى حشره، ووصفه بـ ﴿مسمى عنده﴾؛ لأنه استأثر - سبحانه - بعلم وقت القيامة. وقال ابن عباس: ﴿أجلاً﴾ الدنيا، ﴿وأجل مسمى﴾ الآخرة^(١).

وقيل غير هذا.

و ﴿تَمْتَرُونَ﴾ معناه: تشكون.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم﴾ قاعدة الكلام في هذه الآية: أن حلول الله في الأماكن مستحيل - تعالى - أن يخويه مكان، كما تقدس أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق المكان والزمان، وهو الآن على ما عليه كان.

وإذا تقرر هذا، فقالت فرقة من العلماء: تأويل ذلك على تقدير صفة محذوفة من اللفظ ثابتة في المعنى، كأنه قال: وهو الله المعبود في السموات، وفي الأرض. وعبر بعضهم بأن قدر: وهو الله المدبر للأمر في السموات والأرض.

وقال الزجاج: ﴿في﴾ متعلقة بما تضمنه اسم الله من المعاني، كما يقال: أمير المؤمنين الخليفة في المشرق والمغرب.

قال ع^(٢): * وهذا عندي أفضل الأقوال، وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ، وجزالة المعنى.

وإيضاحه: أنه أراد أن يدل على خلقه، وآثار قدرته، وإحاطته، واستيلائه، ونحو هذه الصفات، فجمع هذه كلها في قوله: ﴿وهو الله﴾ أي: الذي له هذه كلها في السموات، وفي الأرض، كأنه قال: وهو الله الخالق، الرازق، المحيي، المحيط في السموات وفي

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٦٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٢)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والحاكم، وصححه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر» (٢/٢٧١).

الأرض، كما تقول: زيد السلطان في المَشْرِقِ والمغرب و «الشام» و «العراق»، فلو قصدت ذَاتَ زَيْدٍ لَقُلْتَ مُحَالاً، وإذا كان مَقْصِدُ قولك الأَمِيرَ، النَّاهِيَّ، الناقض، المُبْرِمَ، الذي يعزل ويُوَلِّي في المشرق والمغرب، فأقامت السلطان مقام هذه، كان فصيحاً صحيحاً، فكذلك في الآية أقام لَفْظَةَ ﴿اللَّهُ﴾ مقام تلك الصِّفَاتِ المذكورة.

وقالت فرقة: ﴿وهو الله﴾ ابتداءً وَخَبَرٌ، تم الكلامُ عنده، ثم استأنف، وتعلق قوله: ﴿في السموات﴾ بمفعول ﴿يعلم﴾، كأنه قال: وهو الله يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وجهركم في السموات، وفي الأرض.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ خبر في ضمنه تَحْذِيرٌ وَرَجَرٌ، و ﴿تكسبون﴾ لفظ/ عام لجميع الاعتقادات، والأقوال، والأفعال. ب ١٦٣

وقوله سبحانه: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها مُعْرِضِينَ﴾ تضمنت هذه الآية مَذَمَّةً هؤلاء الذين يَغْدِلُونَ بالله سواء، بأنهم يُعْرِضُونَ عن كل آية، وكذبوا بالحق، وهو محمد - عليه السلام - وما جاء به.

قال * ص * : ﴿مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ «من» الأولى زَائِدَةٌ للاستغراق، وما بعدها فاعل بقوله: ﴿تأتيهم﴾.

و «من» الثانية للتبعية انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا وَعِيدٌ لهم شديد، وهذه الْعُقُوبَاتُ التي تُوعَدُوا بها تعمُ عُقُوبَاتِ الدنيا كِبَارٍ وغيرها، وعقوبات الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ هذا حَضُّ على الْعِبْرَةِ، والرؤية هنا رُؤْيَةُ القلب، والقَرْنُ: الأمة المقترنة في مُدَّةٍ من الزمن.

واختلف في مدة الْقَرْنِ ^(١) كم هي؟

فالأكثر على أنها مائة سَنَةٍ.

وقيل غير هذا.

(١) ينظر هذا الاختلاف في «لسان العرب» (٣٦٠٩) (قرن).

وقيل: الْقَرْنُ الزمنُ نَفْسُهُ، وهو على حَذْفِ مضاف، تقديره: من أهل قرن. قال عياض في «الإكمال»: واختلف في لَفْظِ الْقَرْنِ، وذكر الحربي^(١) فيه الاختِلَافَ من عشر سنين إلى مائة وعشرين، ثم قال يعني الحربي: وليس منه شيء وَاضِحٌ، وأرى القرن كُلَّ أمة هَلَكَتْ، فلم يَبْقَ منها أحد. انتهى.

والضمير في «مكناهم» عائد على الْقَرْنِ، والمخاطبة في «لكم» هي للمؤمنين، ولجميع الْمُعَاصِرِينَ لهم من سائر الناس، و «السماء» هنا الْمَطَرُ، و «مذراراً» بناء تكثير، ومعناه: يدرُّ عليهم بِحَسَبِ المنفعة.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

﴿أَنْشَأْنَا﴾: اخترعنا، وخلقنا، ويظهر من الآية أن الْقَرْنَ إنما هو وَقَاءُ الْأَشْيَاخِ، ثم وَلَادَةُ الْأَطْفَالِ.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (٨) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتُ﴾ (٩)

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ الآية.

لما أَخْبَرَ عنهم - سبحانه - بأنهم كذبوا بكل ما جَاءَهُمْ من آية أَتَبَعَ ذلك بِإِخْبَارٍ فيه مُبَالِغَةٍ، والمعنى: ولو نزلنا بِمَرَأَى منهم عليك كتاباً أي: كلاماً مَكْتُوباً في قِرْطَاسٍ، أي: في صحيفة.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يريد: أنهم بالغوا في مَنِيَرِهِ وتقليبيه؛ ليرتفع كل اِزْتِيَابٍ لعاندوا فيه، وتابعوا كُفْرَهُمْ وقالوا: هذا سحر مبين.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: يصدق محمداً في بُؤْءِهِ، ثم رَدَّ

(١) إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادي الحربي، أبو إسحاق، من أعلام المحدثين. أصله من مرو، واشتهر وتوفي ببغداد، ونسبته إلى محلة فيها. كان حافظاً للحديث عارفاً بالفقه بصيراً بالأحكام، قيماً بالأدب، زاهداً، أرسل إليه المعتضد ألف دينار فردها. تفقه على الإمام أحمد، وصنف كتاباً كثيرة منها «غريب الحديث» و «سجود القرآن» و «الهدايا والسنة فيها» و «الحمام وأدابه» و «دلائل النبوة» وكان عنده اثنا عشر ألف جزء، في اللغة وغريب الحديث، كتبها بخطه.

ينظر: «الأعلام» (١/٣٢)، «تذكرة الحفاظ» (٢/١٤٧)، و «إرشاد الأريب» (١/٣٧)، و «صفوة الصفوة» (٢/٢٢٨).

اللَّهُ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال ابن عَبَّاسٍ وغيره: في الكلام حَذَفٌ^(١)، تقديره: ولو أنزلنا ملكاً، فكذبوه لَقُضِيَ الأمر بعدأيهم، ولم يُنظَرُوا حسبما سَلَفَ في كل أمة افترحت بآية، وكذبت بعد أن أظهرت إليها.

وقالت فرقة: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لَمَاتُوا من هَوْلِ رؤية المَلَكِ في صورته، ويؤيد هذا التَأْوِيلُ ما بعده من قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ فإن أَهْلَ التَأْوِيلِ مُجْمِعُونَ أن ذلك؛ لأنهم لم يكونوا يُطِيقُونَ رؤية المَلَكِ في صورته، فإذا قد تَقَعَّدَ أنهم لا يطيقون رُؤْيَا المَلَكِ في صورته، فالأَوَّلَى في قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لَمَاتُوا؛ لِهَوْلِ رؤيته، ﴿ثم لا ينظرون﴾، أي: لا يُؤَخَّرُونَ.

ومما يؤيد هذا المعنى الْحَدِيثُ الْوَارِدُ عن الرجلين اللذين صَعَدَا على الْجَبَلِ يوم بُدِرَ ليريا ما يَكُونُ في حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ للمُشْرِكِينَ، فَسَمِعَا حِسَّ المَلَأَكَةِ، وَقَائِلًا يَقُولُ في السحاب: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَانْكَشَفَ قِتَاعُ قَلْبِ أَحدهما، فَمَاتَ لِهَوْلِ ذلك، فكيف برؤية مَلَكٍ في خَلْقَتِهِ.

﴿وَلَلْبَسْنَا﴾ أي: لَفَعَلْنَا لهم/ في ذَلِكَ فِعْلاً مُلْبَساً يَطْرُقُ لهم إلى أن يَلْبَسُوا به، وذلك ١٦٤ لا يحسن.

قلت: وفي البخاري^(٢): ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ﴾: لشبهنا.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ^(١٢) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْزٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(١٣)

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية تَسْلِيَّةٌ للنبي ﷺ بِالْأَسْوَةِ في الرسل، وتقوية لنفسه على مُحَاجَّةِ المُشْرِكِينَ، وإخبار يَتَضَمَّنُ وعيد مُكَذِّبِيهِ، والمستَهْزِئِينَ به.

و ﴿حَاقَ﴾ معناه: نزل، وأحاط، وهي مَخْصُوصَةٌ في الشر؛ يقال: حَاقَ يَحِيقُ حَقِيقًا.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حَضُّ على الاعتبار بِأَثَارِ مَنْ مَضَى مِمَّنْ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢/٢٧٠).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (١٣٦/٨) كتاب «التفسير»، باب سورة الأنعام.

فَعَلَّ مِثْلَ فَعَلِهِمْ .

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ .

قال بعض أهل التَّأْوِيلِ: تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا تَحِيرُوا فَلَمْ يُجِيبُوا قُلْ لِلَّهِ .

والصحيح من التَّأْوِيلِ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَ نَبِيَّه - عَلَيْهِ السَّلَام - أَنْ يَفْطَحَهُمْ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ، والبرهان القطعي الذي لا مُدَافَعَةَ فِيهِ عَنْهُمْ، وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ لِيَعْتَقِدَ هَذَا الْمَعْتَقَدَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَرَكَّبَ اخْتِجَاجُهُ عَلَيْهِ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لَهُمْ: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ الْعَادِلُونَ بِرَبِّهِمْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ سَبَقَهُمْ فَقَالَ: لِلَّهِ أَيْ لَا مُدَافَعَةَ فِي هَذَا عِنْدَكُمْ، وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ .

ثُمَّ ابْتَدَأَ يُخْبِرُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معناه: قَضَاهَا وَأَنْفَذَهَا . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ؛ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»؛ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةً جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفُعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ»^(١) .

وَلِمُسْلِمٍ فِي طَرِيقٍ آخَرٍ: «كُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طَبَاقٌ مَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»^(٢) .

وَخَرَجَ مُسْلِمٌ، وَابْنُ خَالٍ، وَغَيْرُهُمَا عَنْهُ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبَ غَضَبِي»^(٣) .

وَفِي طَرِيقٍ: «سَبَقَتْ غَضَبِي» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ . لِيَنْتَهَى .

قَالَ * ع^(٤) * : فَمَا أَشَقَى مَنْ لَمْ تَسْعُهُ هَذِهِ الرَّحِمَاتُ . تَعَمَّدَنَا اللَّهُ بِفَضْلٍ مِنْهُ .

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢١٠٨/٤) كِتَابَ «التَّوْبَةِ»، بَابُ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، حَدِيثٌ (٢٧٥٢/١٧) وَابْنُ خَالٍ (٤٤٦/١٠) كِتَابُ «الْأَدَبِ»، بَابُ جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِائَةِ جُزْءٍ، حَدِيثٌ (٦٠٠٠) وَفِي «الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ» (١٠٠)، وَالدَّارِمِيُّ (٣٢١/٢)، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ (٦١٤٨) كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ .
(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢١٠٩/٤) كِتَابَ «التَّوْبَةِ» بَابُ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، حَدِيثٌ (٢٧٥٣/٢١) مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ .

(٣) تَقْدِمْ تَخْرِيجَهُ .

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ» (٢٧١/٢) .

ويتضمن هذا الإخبار عن الله - سبحانه - بأنه كتب الرِّحْمَةَ لتأنيس الكفار، ونفي يأْسهم من رَحْمَةِ الله إِذَا أَنَابُوا.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَكُمْ﴾ لام قَسَم، والكلام مستأنف، وهذا أظهر الأقوال^(١) وأصحها.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿الذين﴾ رفع بالابتداء، وخبره: ﴿فهم لا يؤمنون﴾.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَسْجِدٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية.

﴿وله﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، و ﴿سكن﴾ هي من السُّكْنَى، ونحوه؛ أي: ما ثَبَّتَ وَتَقَرَّرَ. قاله السدي^(٢)، وغيره.

وقالت فرقة: هو من السُّكُونِ، وهو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

قال الطبري^(٣) وغيره: أُمِرَ - عليه السلام - أن يقول هذه المقالة لِلْكَفَرَةِ الذين دعوه إلى عبادة أوثانهم، فَتَجِيءُ الآية على هذا جواباً لكلامهم.

قال ع^(٤): ﴿وهذا يحتاج إلى سَنَدٍ، والفصيح أنه لما قَرَّرَ معهم أن الله - تعالى - له ما في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وله ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أُمِرَ أن يقول لهم على جِهَةِ التَّوْبِيخِ والتوقيف: أَغَيَّرَ الله الذي هذه أفعاله أَنَتَّخِذَ وَلِيًّا، بمعنى: أن هذا خطأ بَيِّنٌ/ ممن ١٦٤ يفعلُه.

والولي لفظ عام لِمَعْبُودٍ وغير ذلك.

(١) ينظر: «الدر المصون» (١٧/٣).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٧٢/٢).

(٣) ينظر الطبري (١٥٨/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧٣/٢).

ثم أخذ في صفات الله - تعالى - فقال: ﴿فَاطِرٌ﴾ بِخَفْضِ الرَّاءِ نَعَتْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قال * ص * : ﴿فَاطِرٌ﴾ الجمهور^(١) بِالْجَرِّ، وَوَجَّهَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ^(٢)، وغيره على أنه نَعَتْ ﴿لِلَّهِ﴾.

وأبو البقاء على أنه بَدَلٌ، وكأنه رَأَى الْفَضْلَ بَيْنَ الْبَدَلِ وَالْمَبْدَلِ أَسْهَلَ؛ لِأَنَّ الْبَدَلَ فِي الْمَشْهُورِ عَلَى نِيَّةِ تَكَرَّرِ الْعَامِلِ. انتهى.

و «فطر» معناه: ابتدع، وخلق، وأنشأ، وفطر أيضاً في اللُّغَةِ: شَقَّ، ومنه ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [المك: ٣] أي: من شُقُوقٍ.

و ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ المقصود به: يَزْرُقُ وَلَا يُزْرَقُ.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِيتُ...﴾ إِلَى ﴿عَظِيمٍ﴾.

قال المفسرون: المعنى أول من أَسْلَمَ من هذه الأمة، وبهذه الشَّرِيعَةِ، ولفظة ﴿عَصَيْتُ﴾ عامة في أنواعِ الْمَعَاصِي، ولكنها هاهنا إنما تُشِيرُ إِلَى الشَّرْكِ الْمَنْهِيِّ عنه. واليوم الْعَظِيمُ هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وقرأ نافع^(٣) وغيره «مَنْ يُصْرِفُ عَنْهُ» مسنداً إلى المفعول، وهو الضمير العائد على الْعَذَابِ.

وقرأ حمزة وغيره «مَنْ يَصْرِفُ» بِإِسْنَادِ الْفَعْلِ إِلَى الضمير العائد إلى «ربي»، ويعمل في ضَمِيرِ الْعَذَابِ الْمَذْكُورِ، ولكنه محذوف.

وقوله: ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى صَرْفِ الْعَذَابِ، وَخُصُولِ الرَّحْمَةِ، و ﴿الْقُوزُ﴾ النَّجَاءُ.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٩٠/٤) و «الدر المصون» (٢٠/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧٣/٢).

(٣) ينظر: «الدر المصون» (٢٢/٣)، و «حجة القراءات» (٢٤٣)، و «الكشاف» (١٠/٢)، و «النشر» (٢/

٢٥٧)، و «البحر المحيط» (٩١/٤)، و «السبعة» (٢٥٤)، و «التبيان» (٤٨٤/١) (٤٨٥)، و «الزجاج»

(٢٥٦/٢)، و «المشكل» (٢٤٧/٢)، و «معاني القراءات» (٣٤٦/١)، و «الحجة» (٢٨٥/٣)،

و «العنوان» (٩٠)، و «شرح الطيبة» (٢٤٢/٤)، و «إعراب القراءات» (١٥٢/١).

وَأُوحِيَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَاكُمْ لَنْتَشَهُدَنَّ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

يَمْسَسْكَ: معناه يُصِيبُكَ، وَيَنْلُكَ، والضُّرُّ بضم الضاد: سوء الحال في الجسم وغيره، وبفتوحها ضد النفع، ومعنى الآية: الإخبار أن الأشياء كلها بيد الله؛ إن ضرَّ فلا كاشِفَ لضره غيره، وإن أصاب بخير، فكَذلك أيضاً.

وعن ابن عباس قال: كنت خَلَفَ النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رَفَعْتَ الْأَقْلَامَ وَجَعَلْتَ الصُّحُفَ». رويناه في الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).

وفي رواية غير الترمذي زيادة: «أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَغْرِفْكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ...». وفي آخره: «واعلم أن الضرَّ مع الصبر، وأن الفرجَ مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(٢).

قال النووي: هذا حديث عَظِيمُ الموقع. انتهى من «الحلية».

وقرأت فرقة: «وَأُوحِيَ إِلَيْيَ هَذَا الْقُرْآنُ» على بناء الفعل للفاعل، ونصب «القرآن»، وفي «أوحى» ضمير يعود على الله تعالى.

وقوله: ﴿لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ معناه على قول الجمهور: بلاغ القرآن، أي: لِأَنْذِرْكُمْ وَأَنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ، ففي «بلغ» ضمير محذوف؛ لأنه في صلة «من» فحُذِفَ لِطُولِ الكلام.

(١) أخرجه الترمذي (٦٦٧/٤) كتاب «صفة القيامة»، باب (٥٩)، حديث (٢٥١٦) وأحمد (٣٠٧/١).

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المتنخب» (ص ٢١٤) رقم (٦٣٦) من طريق المثني بن الصباح، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس به. والمثني بن الصباح ضعيف.

وقالت فرقة: ومن بلغ الحُلم.

وروي في معنى التأويل الأوّل أحاديث. وظاهر الآية أنها في عبادة الأصنام.

وذكر الطبري^(١) أنه قد ورد من وجه لم تثبت صحته أنها في قوم من اليهود، قالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره، فقال لهم: «لا إله إلا الله وبذلك أمرت» فنزلت الآية. والله أعلم.

وأمر الله - سبحانه - نبيه - عليه السلام - أن يعلن بالتبرّي من شهادة الكفرة، والإعلان بالتوحيد لله - عز وجل - والتبرّي من إشراكهم.

قال الغزالي في «الإحياء». وينبغي للتألي أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر المنهي، والمأمور، وكذا إن سمع وعداً أو وعيداً، وكذا ما يقف عليه من القصص، فالمقصود به الاعتبار. قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقال: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل^(٢) انتهى.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمْعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

قال قتادة، وغيره: يعرفون محمداً - عليه السلام -^(٣).

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية؛ روي أن كل عبد له منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالمؤمنون ينزلون منازل أهل الكفر في الجنة، والكافرون ينزلون منازل أهل الجنة

(١) ينظر الطبري (١٦٣/٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦٢/٥) (١٣١٢٧) بلفظ: «من بلغه القرآن، فقد أبلغه محمد ﷺ»، وذكره البغوي (٨٨/٢) بلفظ: «من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمداً ﷺ، وسمع منه».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦٤/٥) برقم (١٣١٣٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٧٦/٢).

في النار، فهنا هي الخسارة البينة، والربح للآخرين. وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ المعنى: واذكر يوم نحشرهم.

﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) انظر كيف كذبوا على أنفسهم وصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٢٤) ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا أَبَدًا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَبْهَمُونَ عَنْهُ وَيَنْوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴿

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

الفتنة في كلام العرب لفظة مشتركة، تقال بمعنى حُب الشيء، والإعجاب به، وتقال بمعنى الاختيار. ومن قال: إن أصل الفتنة الاختيار من: فَتَنْتُ الذَّهَبَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُسْتَعَارُ بعد ذلك في غير ذلك، فقد أخطأ؛ لأن الاسم لا يُحْكَمُ عليه بمعنى الاستعارة حتى يقطع عليه باستحالة حقيقته في الموضع الذي استعير له، كقول ذي الرمة: [الطويل]

وَلَفَّ الثُّرَيَّا فِي مَلَأَتِهِ الْفَجْرُ^(١)

ونحوه، والفتنة لا يستحيل أن تكون حقيقة في كل موضع قبلت عليه، وباقي الآية مضى تفسيره عند قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فانظره هناك.

قال ع^(٢) * : وعبر فتادة عن الفتنة هنا بأن قال: معذرتهم^(٣).

وقال الضحاك^(٤) : كلامهم.

وقيل غير هذا مما هو في ضمن ما ذكرناه.

وقوله سبحانه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ والنظر نظر القلب، وقال: ﴿كذبوا﴾ في أمر لم يقع؛ إذ هي حكاية عن يوم القيامة، فلا إشكال في

(١) ينظر: «المحرر» (٢/٢٧٨).

(٢) ينظر: «المحرر» (٢/٢٧٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٦٦/٥) برقم (١٣١٤١)، وذكره ابن عطية (٢/٢٧٩) والسيوطي (٣/١٤)، وعزه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري (١٦٦/٥) برقم (١٣١٤٠)، وذكره ابن عطية (٢/٢٧٩).

اسْتِعْمَالِ الْمَاضِي فِيهَا مَوْضِعُ الْمُسْتَقْبَلِ، وَيُفِيدُنَا اسْتِعْمَالُ الْمَاضِي تَحْقِيقًا فِي الْفِعْلِ، وَإِثْبَاتًا لَهُ، وَهَذَا مَهَيِّعٌ فِي اللَّغَةِ.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ معناه: ذَهَبَ افْتِرَافُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَكَذِبَهُمْ عَلَى اللَّهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية.

«أَكِنَّةٌ» جمع: كَنَانٌ، وَهُوَ الْغِطَاءُ ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: يفهموه، وَالْوَقْرُ الثَّقُلُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾. الرؤية هنا رُؤْيَا الْعَيْنِ، يَرِيدُ كَانْشِقَاقَ الْقَمَرِ وَشَبِيهِه.

وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إشارة إلى القرآن، وَالْأَسَاطِيرُ جمع أسطَار، كَأَقْوَالٍ وَأَقَاوِيلٍ، وَأَسَاطِيرُ جمع سَطَرَ أَوْ سَطَّرَ. وقيل: أساطير جمع إسْطَارَة، وَهِيَ التَّرَهَاتُ.

وقيل: جمع أسطورة كَأَعْجُوبَةٍ، وَأَضْحُوكَةٍ. وقيل: هو اسم جمع، لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ كَعَبَادِيدَ وَشَمَاطِيطَ^(١)، وَالْمَعْنَى: إِبْخَارُ الْأَوَّلِينَ وَقَصَصُهُمْ وَأَحَادِيثُهُمْ الَّتِي تُسَطَّرُ، وَتُحْكَى، وَلَا تُحَقَّقُ كَالْتَوَارِيخِ، وَإِنَّمَا شَبَّهَهَا الْكُفَّارُ بِأَحَادِيثِ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، عَنْ رَسَمٍ وَنَحْوِهِ، وَمُجَادَلَةِ الْكُفَّارِ كَانَتْ مُرَادَتُهُمْ نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَالِهِمُ الْمُبْطَلَةِ.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال/ قتادة وغيره: المعنى: يَنْهَوْنَ عَنِ الْقُرْآنِ^(٢).

ب ١٦٠

وقال ابن عباس وغيره: يَنْهَوْنَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمَعْنَى: يَنْهَوْنَ عَنْهُمْ، وَيَبْعَدُونَ هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ^(٣)، وَالثَّأْيُ الْبُعْدُ.

(١) العباديد: الخيل المتفرقة في ذهابها ومجيئها، وَلَا وَاحِدَ لَهُ، وَلَا يَقَعُ إِلَّا فِي جَمَاعَةٍ. وَلَا يُقَالُ لِلوَاحِدِ: عَنَيْدٌ.

وكذلك الشمايط. قال الفراء: العباديد والشماطيط لَا يَفْرُدُ لَهُ وَاحِدٌ. ينظر: «اللسان العرب» (٢٣٢٧)، (٢٧٨٠).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧١/٥) برقم (١٣١٦٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩١/٢)، وابن عطية (٢٨٠/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٦/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (١٧١/٥) برقم (١٣١٦٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٨٠/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

قال * ص * : ﴿وَأَنْ يَهْلِكُونَ﴾ : إن نافية بمعنى «ما»، و ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ مفعول بـ ﴿يَهْلِكُونَ﴾ انتهى . ﴿وما يشعرون﴾ معناه : ما يَعْلَمُونَ عِلْمَ حَسٍّ ، وَتَقْيُ الشعور مذمةً بالغة ؛ إذ البهائم تشعر وتحس ، فإذا قلت : فلان لا يَشْعُرُ ، فقد تَقَيَّتْ عنه الْعِلْمَ النفي العام الذي يقتضي أنه لا يَعْلَمُ ولا الْمَحْسُوسَات .

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ إِيَّاكَ رَبَّنَا وَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾

وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ الآية : الْمُخَاطَبَةُ فيه للنبي ﷺ وجواب «لو» محذوف ، تقديره في آخر الآية : لرأيت هَوْلًا عظيمًا ونحوه .

و ﴿وقفوا﴾ معناه : حَسُّوا ، ويحتمل قوله : ﴿وقفوا على النار﴾ بمعنى «دخلوها» . قاله الطَّبْرِيُّ^(١) .

ويحتمل أن يكون أَسْرَفُوا عليها ، وعابوها .

وقولهم : ﴿يَا لَيْلَتَنَا نُرَدُّ﴾ معناه إلى الدنيا .

وقوله سبحانه : ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ لَكُمْ مَا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية : يَتَضَمَّنُ أنهم كانوا يُخْفُونَ أموراً في الدنيا ، فظهرت لهم يوم الْقِيَامَةِ ، أو ظهر وبأل ذلك وعاقبته ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

وقيل : إن الْكُفَّارَ كانوا إِذَا وَعَظَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ خافوا ، وَأَخْفَوْا ذلك الخوف لئلا يشعر بهم أتباعهم ، فظهر لهم ذَلِكَ يوم القيامة .

ويصح أن يكون مَقْصِدُ الآية الْإِخْبَارَ عن هَوْلٍ ما لقوه ، فعبر عن ذلك بأنهم ظَهَرَتْ لهم مَسْئُورَاتُهُمْ في الدنيا من مَعَاصٍ وغيرها ، فكيف الظَّنُّ بما كانوا يعلنونه من كُفْرٍ ونحوه . وينظر إلى هذا التأويل قوله تعالى في تَعْظِيمِ شَأْنِ يوم الْقِيَامَةِ : ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق : ٩] . وقوله سبحانه : ﴿ولو رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إخبار عن أَمْرٍ لا يكون كَيْفَ كان يُوجَدُ ، وهذا النوع مما اسْتَأْثَرَ اللَّهُ - تعالى - بعِلْمِهِ ، فإن أعلم بشيء منه علم ، وإلا لم يَتَكَلَّمْ فيه .

قال الفخر^(٢) : قال الْوَاحِدِيُّ : هذه الآية من الأدلة الظاهرة على فَسَادِ قول الْمُعْتَرِلَةِ ؛

(١) ينظر : الطبري (١٧٣/٥) بلفظ : حبسوا .

(٢) ينظر : «مفاتيح الغيب» (١٦٠/١٢) .

لأن الله - تعالى - حكى عن هؤلاء أنهم لو رُدُّوا لَعَادُوا لما نُهوا عنه، وما ذاك إلا لِلْقَضَاءِ السابق فيهم. انتهى.

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ هذا على تأويل الجمهور ابتداء كلام، وإخبار عنهم بهذه المقالة، و «إن» نافية، ومعنى الآية عنهم التكذيب بالحشر والعودة إلى الله.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ الإشارة بهذا إلى البعث الذي كذبوا به / في الدنيا، وقولهم: ﴿بلى وربنا﴾ أَيْمَانٌ، ولكنه حين لا ينفع.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ استعارة بليغة، والمعنى بآشروُهُ مُبَاشَرَةُ الذائق، و «بغته» معناه: فجأة، تقول: بَغَتْنِي الأمر؛ أي: فجأني، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَلَكِنَّهُمْ بَانُوا وَلَمْ أَخْشَ بَغْتَةً وَأَقْطَعُ شَيْءٍ حِينَ يَفْجَأُكَ الْبَغْتُ^(١)
ونصبها على المَصْدَرِ في موضع الحال.

وقولهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا قَرَّطْنَا فِيهَا﴾ نداء الحسرة على تعظيم الأمر، وتشنيعه. و «فرطنا» معناه: قَصَرْنَا، والضمير في قوله: ﴿فيها﴾ عائد على السَّاعَةِ؛ أي: في التَّقْدِمَةِ لها. قاله الحسن^(٢).

ويحتمل أن يعود الضمير على الدنيا، إذ المعنى يَقْتَضِيهَا، ومجيء الظرفية أمكن.

قلت: قال عبد الحق في «العاقبة»: لا يَعْرِفُ مِقْدَارَ الْحَيَاةِ إِلَّا الْمَوْتَى؛ لأنهم قد ظَهَرَتْ لَهُمُ الْأُمُورُ، وانكشفت لهم الْحَقَائِقُ، وَتَبَدَّتْ لَهُمُ الْمَنَازِلُ، وعلموا مِقْدَارَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ولما اسْتَبَانَ لَهُمْ ذَلِكَ، وعلموا مِقْدَارَ مَا ضَاعُوا، وقيمة ما فيه قَرَّطُوا، نَدِمُوا وَأَسْفُوا، وودُّوا أنهم إلى الدنيا رَجَعُوا، فالذي عمل صَالِحًا وَدَّ أَنْ لَوْ رَجَعَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَزِدَّ

(١) البيت ليزيد بن ضبة. اللسان (بغت).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/٢٨٤).

من عَمَلِهِ الصَّالِح، ويكثر من تَجَرُّهِ الرَّابِح، والمُقَصِّرُ يَوَدُّ أَنَّهُ لَوْ رُدَّ لِيَسْتَدْرِكَ مَا فِيهِ قَرَطٌ، وقد قال عليه السَّلَامُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ» قَالُوا: وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ إِلَّا يَكُونُ اِزْدَادًا، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ إِلَّا يَكُونُ نَزَعٌ» خرجه الترمذي^(١). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ﴾ الواو واو الحال، والأَوْزَارُ جمع وَزْر بكسر الواو، وهو الثَقْلُ من الذنوب، والوِزْرُ هنا تَجَوُّزٌ وَتَشْيِيْعٌ بِثَقْلِ الْأَحْمَالِ. ومن قال: إنه من الوِزْرِ، وهو الجَبَلُ الذي يُلْجَأُ إِلَيْهِ، فهو قول غير بَيِّن.

وقال الطبري^(٢) وغيره: هذا على جهة الْحَقِيقَةِ، وَرَوَوْا فِي ذَلِكَ خَبْرًا: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَلْقَاهُ عَمَلُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَفْوَحِهَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ طَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا وَأَجْهَدْتُكَ، فَارْكَبْنِي الْيَوْمَ. قال: فَيَحْمِلُهُ تِمْنَالُ الْعَمَلِ. وَإِنَّ الْكَافِرَ يَلْقَاهُ عَمَلُهُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ وَأَنْتَنِيهَا فَيَشْتِمُهُ، ويقول: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ طَالَمَا رَكِبْتَنِي فِي الدُّنْيَا بِشَهَوَاتِكَ فَأَنَا أَرْكَبُكَ الْيَوْمَ، قال: فَيَحْمِلُ تِمْنَالَ عَمَلِهِ الْخَبِيثِ وَأَوْزَارَهُ عَلَى ظَهْرِهِ.

قلت: والأحاديث الصحيحة في معنى ما ذَكَرَهُ الطبري كثيرة كأحاديث مَانِعِي الزَّكَاةِ، وغيرها.

قال مكي: وروى الْمُقْبِرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي حَدِيثٍ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَعَثَ اللَّهُ مَعَ كُلِّ امْرِئٍ مُؤْمِنٍ عَمَلَهُ، وَبَعَثَ مَعَ الْكَافِرِ عَمَلَهُ فَلَا يَرَى الْمُؤْمِنُ شَيْئًا يَرُوعُهُ، وَلَا شَيْئًا يُفْرِعُهُ وَيَخَافُهُ إِلَّا قَالَ لَهُ عَمَلُهُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ فَإِنَّكَ لَنْتَ بِالَّذِي يُرَادُ بِهَذَا. وَلَا يَرَى الْكَافِرُ شَيْئًا يُفْرِعُهُ وَيَرُوعُهُ وَيَخَافُهُ إِلَّا قَالَ لَهُ عَمَلُهُ: أَبَشِّرْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَنْتَ الَّذِي تُرَادُ بِهَذَا». انتهى.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَذْكُرُونَ﴾ (٣١) قَدْ نَعْلَمُ

(١) أخرجه الترمذي (٦٠٣/٤ - ٦٠٤) كتاب «الزهد» باب (٥٨)، حديث (٢٤٠٣) وابن المبارك في «الزهد» (ص ١١) رقم (٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٨/٨) والبيهقي في «الزهد» (ص ٢٧٩) رقم (٧١٦) كلهم من طريق يحيى بن عبيد الله قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبا هريرة يقول: فذكر الحديث.

وقال الترمذي: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، ويحيى بن عبيد الله تكلم فيه شعبة، وهو يحيى بن عبيد الله بن موهب مدني اهـ.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث يحيى.

(٢) ينظر: الطبري (١٧٨/٥).

إِنَّمَا لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ الآية. هذا ابتداء خبر عن حال الدنيا، والمعنى: أنها إذ كانت فانية لا طائل لها أشبهت اللعِبَ، واللغو الذي لا طائل له إذا تَقَضَّى. وهذه الآية تتضمن الردَّ على قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] وهو المقصود بها.

قال عبد الحق في «العاقبة»: اعلم - رحمك الله - أن حُبَّ الدُّنْيَا هو سَبَبُ طُولِ الْأَمَلِ، والإِكْبَابِ عليها يَمْنَعُ من الْفِكْرَةِ في الخروج عنها، والجهل بعَوَائِلِهَا يحمل على ١٦٦ ب الإِرَادَةِ لها، والازدياد منها؛ لأن من أَحَبَّ شَيْئًا أَحَبَّ الْكَوْنَ معه، والازدياد منه، ومن كان مُشْغُوفًا بالدنيا مُحِبًّا لها قد خَدَعَتْهُ بِرُخْرُفِهَا وَأَمَلَتْهُ بِرُؤُفِهَا كيف يحبُّ مفارقتها، أو يحبُّ مُزَايَلَتَهَا، هذا أمر لم تَجْرِ العادة به، ولا حَدَّثْنَا عنه، بَلْ نجد مَنْ كَانَ على هذه الصفة أَعْمَى عَنِ طَرِيقِ الْخَيْرِ، أَصَمَّ عَنِ دَاعِي الرُّشْدِ، أَفَنَ الرَّأْيِ، سَيِّئَ النَّظَرِ، ضَعِيفَ الْإِيمَانِ، لم تترك له الدُّنْيَا مَا يَسْمَعُ به، ولا ما يرى، إنما دِينُهُ وشغله وحديثه دُنْيَا، لها ينظر، ولها يَسْمَعُ، قد ملأت عينه وقلبه، ثم قال: واعلم أن أَهْلَ الْقُبُورِ إنما يَنْدُمُونَ على ما يتركون، ويفرحون بما يَنْدُمُونَ، فما عليه أَهْلُ الْقُبُورِ يندمون، أَهْلُ الدُّنْيَا عليه يَقْتَلُونَ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ...﴾ الآية: ﴿نَعْلَمُ﴾ إذا كانت من الله - تعالى - تَتَضَمَّنُ استمرار الْعِلْمِ وَقِدَمَهُ، فهي تعمُّ الماضي، والحال، والاستقبال.

قلت: ونحو هذا لأبي^(١) حَيَّانَ قال: وعبر هنا بِالْمُضَارِعِ؛ لأنَّ الْمُرَادَ الاتصاف بالعلم، واستمراره، ولم يلحظ فيه الزمان، كقولهم: فلان يعطي ويمنع. انتهى.

وقرأ نافع^(٢) وحده «لِيَحْزُنَكَ» من أَحْزَنَ.

وقرأ الباقون: «لِيَحْزُنَكَ» من حَزَنْتُ الرَّجُلَ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحزمة «لَا يَكْذِبُونَكَ»^(٣) - بتشديد

(١) ينظر: «البحر المحيط» (١١٥/٤).

(٢) ينظر: «حجة القراءات» ص (٢٤١)، «السبعة» ص (٢٥٧)، «النشر» (٢٥٧/٢)، «التيبان» (٤٩٠/١)، «المشكّل» (٢٥١/١)، «المصاحف» لابن أبي داود ص (٤٥)، «البحر المحيط» (١١٤/٤)، «الدر المصون» (٤٦/٣)، و «الحجة» (٣٠٤/٣)، و «العنوان» (٩٠).

(٣) ينظر: «الدر المصون» (٤٨/٣)، «البحر المحيط» (١١٦/٤)، «حجة القراءات» ص (٢٤٧)، «الكشاف» (١٨/٢)، «النشر» (٢٥٧/٢ - ٢٥٨)، «إتحاف فضلاء البشر» (١٠/٢)، و «السبعة» =

الذال، وفتح الكاف - وقرأها ابن عباس، ورَدَّهَا على قارىءٍ قرأ عليه «يُكذِّبونك» بضم الياء، وقال: إنهم كانوا يسمونه الأَمِين.

وقرأ نافع والكسائي - بسكون الكاف، وتخفيف الذال -، وهما قراءتان مشهورتان صحيحتان، وهما بمعنى واحد، فمعنى: لا يكذِّبونك، أي: لا يعتقدون كذبك، وإنهم يعلمون صدقك، ولكنهم يَجْحَدُونَ عناداً وظُلماً، وهذا تأويل قتادة والسُّدي وغيرهما^(١).

وحكي عن طائفة من الكُفَّارِ أنها كانت تَقُولُ: إنا لنعلم أن محمداً صادق، ولكن إذا آمنا به فضلنا بنو هاشم بالنبوة، فنحن لا نُؤْمِنُ به أبداً. رويت هذه المَقَالَةُ عن أبي جَهْلٍ^(٢)، ومن جرى مجراه.

وأَسَنَدَ الطَّبْرِيُّ^(٣): «أن جبريلَ وجد النبي ﷺ حَزِيناً فسأله، فقال: كذِبنِي هؤلاء، فقال: إنهم لا يكذِّبونك بل يعلمون أنَّكَ صَادِقٌ ولكن الظالمين بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» وَجَحَدَ الْعِنَادِ جَائِزُ الْوُقُوعِ بمقتضى النظر، وظواهر القرآن تعطيه، و «يَجْحَدُونَ»: حَقِيقَتُهُ في كلام العرب الإنكارُ بعد معرفة، وهو ضد الإقرار.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نِبَائِى الرُّسُلِ﴾ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اِسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلَغَنِي نَفَقًا

= (٢٥٧)، و «الحجة» (٣٠٢/٣)، و «إعراب القراءات» (١٥٥/١)، و «العنوان» (٩٠)، و «شرح الطيبة» (٢٤٨/٤)، و «شرح شعلة» (٣٦٠).

(١) أخرجه الطبري (١٨١/٥) رقم (١٣١٩٥، ١٣١٩٦)، بنحوه، وذكره البغوي (٩٣/٢، ٩٤) عن السدي، وذكره ابن عطية (٢٨٦/٢)، وذكره ابن كثير (١٢٩/٢، ١٣٠) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٨/٣) وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولابن أبي حاتم، عن الحسن بنحوه.

(٢) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي: أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وأحد سادات قريش، وأبطالها ودهاتها في الجاهلية، كان يقال له: أبو الحكم، كان عنيداً عنيفاً، حتى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهداها مع المشركين فكان من قتلها ستة ٢ هـ.

ينظر: «الكامل» (١٢٧/٢)، و «فتح الباري» (٧/ ٢٩٣-٢٩٦)، «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٠)، «السيرة الحلبية» (٣٣/٢)، «دائرة المعارف الإسلامية» (٣٢٢/١)، «إمتاع الأسماع» (١٨/١)، «الأعلام» (٥/ ٨٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٨٢/٥) رقم (١٣٢٠٢، ١٣٢٠٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٨٧/٢) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٩/٣)، وعزاه لابن جرير عن الضحاك، ولابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج بنحوه.

فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِنَاقَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا﴾ الآية.

قال ابن جُرَيْجٍ، والضحاك: عَزَى اللَّهُ بهذه الآية نَبِيَّهُ - عليه السلام - ^(١) ثم قَوَّى سبحانه رَجَاءَ نَبِيِّهِ فِيمَا وَعَدَهُ مِنَ النِّصْرِ، بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، أي: لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وكلماته السابقة بما يكون، فكأن المعنى: فاصبر كما صَبَرُوا، وانتظر ما يَأْتِي، وثِقْ بهذا الإخبار، فإنه لَا مُبَدِّلَ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾ الآية فيها إلزام الحجة للنبي ﷺ وتقسيم الأحوال عليه حتى يبين أَنَّ لَا وَجْهَ إِلَّا الصَّبْرُ، والمعنى: إن كنت تعظم تكذيبهم، وكفرهم على نَفْسِكَ، وتلتزم الحُزْنَ، فإن كنت تقدر على دُخُولِ سَرَبٍ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، أو على اِزْتِقَاءِ سُلَّمٍ فِي السَّمَاءِ، فافعل، أي: ولست بِقَادِرٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا، وَلَا بُدَّ لَكَ مِنَ التَّزَامِ الصَّبْرِ، واحتمال المشقة، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ في أَنَّ تَأَسَّفَ وَتَحَزَنَ عَلَى أَمْرِ أَرَادَهُ اللَّهُ، وَأَمْضَاهُ. وروى الدَّارَقُطْنِيُّ فِي «سُنَنِهِ» / عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ فَلْيَقِلَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ: اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ^(٢) انتهى من «الكوكب الدُّرِّي».

١٦٧

و «تَأْتِيهِمْ بآيَةٍ» أي: بعلامة.

وقال مَكِّي، والمَهْدَوِي: الْخِطَابُ بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ للنبي ﷺ والمُرَادُ أُمَّتُهُ، وهذا ضَعِيفٌ لَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظُ. قلت وما قاله * ع * : فيه عندي نَظَرٌ؛ لِأَنَّ هَذَا شَأْنُ التَّأْوِيلِ إِخْرَاجِ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ لِمَوْجِبٍ، عَلَى أَنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ مَكِّيًّا - رَحِمَهُ اللَّهُ - نَقَلَ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ غَيْرِهِ ثَقَلًا، وَلَفْظُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَجَمَعَ عَلَى الْهُدَىٰ جَمِيعَ خَلْقِهِ.

وقيل: معنى الخطاب لِأُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، والمعنى: فلا تكونوا من الجاهلين، ومثله في القرآن كثير. انتهى من «الهِدَايَةِ».

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ هذا من التَّمَطِّ الْمُتَقَدِّمِ فِي التَّسْلِيَةِ،

(١) ينظر: الطبري (١٧٨/٥).

(٢) ذكره الهندي في «كنز العمال» (١١٧/٢) رقم (٣٤١٠)، وعزاه للطبراني في «الأوسط».

أي: لا تحفل بمن أعرض، وإنما يَسْتَجِيبُ لداعي الإيمان الذين يَفْهَمُونَ الآيات، ويتلقون البراهين بالقُبُول، فعبر عن ذلك كله بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ إذ هو طريق العلم، وهذه لفظة تستعملها الصوفيَّة - رضي الله عنهم - إذا بلغت المَوْعِظَةُ من أحد مبلغاً شافياً، قالوا: سمع.

ثم قال تعالى: ﴿والموتى﴾ يُريدُ الكفار أي: هم بِمَنَابَةِ الموتى، فعبر عنهم بِضِدِّ ما عبر عن المؤمنين، وبالصفة التي تُشَبِّهُ حالهم في العَمَى عن نور الله، والصَّمَمِ عن وَغْيِ كلماته. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة^(١).

و ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يحتمل معنيين: قال الحسن: معناه يبعثهم بأن يؤمنوا حين يوقفهم^(٢)، وقراءة الحسن «ثم إليه تُرْجَعُونَ» بالتاء من فوق^(٣)، فَتَنَسَّبَتِ الآية.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿والموتى﴾ يريد الكفار ﴿يبعثهم الله﴾، أي: يَخْشَرهم يوم القيامة، «ثم إليه»، أي: إلى سَطْوَتِهِ، وعقابه يرجعون^(٤).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنْثَاكُمْ مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ «لَوْلَا» تحضيض بمعنى «هلا»، ومعنى الآية: هلا نزل على محمد بيان واضح كَمَلِّكَ يَشْهَدُ له، أو كُنْز، أو غير ذلك من تَسْطِطْهِمِ المَحْفُوظِ في هذا، ثم أَمِرَ - عليه السلام - بالرَّدِّ عليهم بأن الله - عز وجل - قَادِرٌ على ذلك، ولكن أكثرهم لا يَعْلَمُونَ أنها لو نَزَلَتْ، ولم يؤمنوا لَعُوْجِلُوا بالعَذَابِ، ويحتمل ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أنه - سبحانه - إنما جعل الإنذارَ في آيات معرضة للنظر، والتأمل ليهتدي قَوْمٌ ويضلُّ آخرون.

(١) أخرجه الطبري (١٨٥/٥) رقم (١٣٢٠٩، ١٣٢١١، ١٣٢١٢) وذكره ابن عطية (٢٨٩/٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٩/٣) وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن الحسن، ولعبد بن حميد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن مجاهد بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٨٩/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨٩/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٨٩/٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾^(١) المعنى: في هذه الآية التثنية على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته المنصوبة لمن فُكّر واعتبر؛ كالذباب والطير، ويدخل في هذين جميع الحيوان، وهي أمم أي: جماعات مماثلة للناس في الخلق، والرزق، والحياة، والموت، والحشر.

ويحتمل أن يريد بالممائلة في كونها أمماً لا غير، إلا أن الفائدة في هذه الآية بأن تكون الممائلة في أوصاف غير كونها أمماً.

قال الطبري^(١)، وغيره: والممائلة في أنها يُهْتَبَلُ بأعمالها، وتحاسب، ويقتصّر لبعضها من بغض، على ما روي في الأحاديث؛ أي: فإذا كان هذا يُفَعَّلُ بالبهائم، فأنتم أخرى إذ أنتم مُكَلَّفُونَ عُقْلًا.

١٦٧ ب وروى أبو ذر: أنه انْتَبَحَثَ عِزْرَانِ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فقال: «اتَّعْلَمُونَ فِيْمَا انْتَبَحَثَا؟/ قُلْنَا: لا، قال: فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا»^(٢).

وقال مكي: الممائلة في أنها تُعْرِفُ اللَّهَ، وتعبده.

وقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد، وبيان، وإزالة للاستعارة المُتَعَاهِدَةَ في هذه اللفظة؛ إذ يقال: طائر السَّعْدِ، والنَّحْسِ. وقال تعالى: ﴿الزَّمَنَاءُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ ([الإسراء: ١٣]، ويقال: طار لفلان طائر كذا، أي: سهمه في المقتسمات، فقوله تعالى: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ إخراج للطائر عن هذا كله.

وقوله سبحانه: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ التفريط: التقصير في الشيء مع القُدْرَةَ على ترك التقصير.

قال أبو حيان^(٣): أصل فَرَطْنَا يَتَعَدَّى بـ «في» ثم يضمن معنى أغفلنا، فيتعدى إلى مَفْعُولٍ به، وهو هنا كذلك، فيكون ﴿من شيء﴾ في موضع المفعول به. انتهى.

و ﴿الكتاب﴾: القرآن وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات.

وقيل: اللوح المحفوظ، ﴿ومن شيء﴾ على هذا القول عام في جميع الأشياء، وعلى

(١) ينظر الطبري (١٨٦/٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢/٥)، والطيلاسي (٤٨٠) من حديث أبي ذر.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٥٥/١٠)، وقال: وفيه راو لم يسم.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (١٢٦/٤).

القول بأنه القرآن خاص.

و ﴿يحشرون﴾؛ قالت فرقة من العلماء: حشُر البهائم بعُثُها، واحتجوا بالأحاديث المضمنة أن الله - تعالى - يفتَصِّرُ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقَرَئَاءِ، ومن قال: إنما هي كناية عن العدل، وليست بحقيقة، فهو قول مَرْدُودٌ ينحو إلى القول بالرموز ونحوها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَاءِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنِ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِنِّي تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُتْرَكُونَ ﴿٤١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ...﴾ الآية كأنه قال: وما من دابة، ولا طائر، ولا شيء، إلا وفيه آية منصوبة دالة على وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ - تعالى - ولكن الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ لا يتلقون ذلك، ولا يَقْبَلُونَهُ، وظاهر الآية أنها تعم كل مُكَذِّبٍ.

وقال النقاش: نزلت في بني عبد الدار.

قال * ع^(١): * ثم تَنَسَّجُبُ على سواهم.

وقوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يَتُوبُ عن عمي، وفي الظلمات أهول عبارة، وأفصح، وأوقع في النفس.

قال أبو حيان^(٢): ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر مبتدئ مَحْذُوفٍ، أي: هم في الظلمات، أو صفة لـ ﴿بِكُمْ﴾؛ أي: كائنون في الظلمات، أو حال من الضمير المقدر في الخبر، أي: ضالون في الظلمات. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ ابتداء احتِجَاجٍ على الكفار الجاعلين لله شركاء، والمعنى: أَرَأَيْتُمْ إِذَا خِفْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ، أو خِفْتُمْ هَلَاكًا، أو خِفْتُمْ السَّاعَةَ، أَتَدْعُونَ أَصْنَامَكُمْ وَتَلْجَأُونَ إِلَيْهَا فِي كُشْفِ ذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في قولكم: إنها آلهة، بل إنما تدعون الله الْخَالِقَ الرَّازِقَ، فيكشف ما خِفْتُمُوهُ، إِنْ شَاءَ، وتَسْأَلُونَ أَصْنَامَكُمْ، أي: تتركُونَهُمْ، فعبر عن التَرْكِ بأعظم وجوهه الذي هو مَعَ التَرْكِ ذَهُولٌ، وإغفال، فكيف يجعل إلهًا من هذه حَالُهُ في الشدائد والأَزْمَاتِ.

(١) ينظر: «المحرر» (٢/٢٩٠).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٤/١٢٧).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ في الكلام حذف، تقديره: فكذبوا فأخذناهم؟ أي: تابعناهم بالبأساء الآتية، والبأساء المصائب في الأموال، والضراء في الأبدان. هذا قول الأكثر.

وقيل: قد يوضع كل واحد بدل الآخر، والتضرع التذلل، والاستكانة، ومعنى الآية تواعد الكفار، وضرب المثل لهم، و ﴿لَوْلَا﴾ تحضيض، وهي التي تلي الفعل بمعنى: «هلا» وهذا على جهة المعاتبة لمُنْذِرٍ غائب، وإظهار سوء فعله مع تَحَسُّرٍ ما عليه. قلت: أي: مع تَحَسُّرٍ ما، باعتبار حالة البَشَرِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ الآية عبر عن الترك بالنسيان، و ﴿فتحنا عليهم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من النعم الدنيوية بعد الذي أصابهم من البأساء والضراء، و ﴿فرحوا﴾ معناه: بطروا، / وأعجبوا، وظنوا أن ذَلِكَ لا يبيد، وأنه ذالٌّ على رضا الله عنهم، وهو استِدْرَاجٌ من الله تعالى.

وقد رُوِيَ عن بعض العلماء: رحم الله عبداً تَدَبَّرَ هذه الآية ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾.

وروى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: إذا رأيت الله - تعالى - يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم، فذلك استِدْرَاجٌ ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ الآية^(١) كلها، و ﴿أخذناهم﴾ في هذا الموضع معناه: استأصلناهم بَغْتَةً أي: فجأة، والمبلس الحزين الباهت اليائس من الخير الذي لا يحير جواباً لشدة ما نَزَلَ به من سوء الحال.

وقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ...﴾ الآية.

(١) أخرجه أحمد (١٤٥/٤)، والدولابي في «الكنى» (١١١/١)، والطبري (١٩٤/٥) رقم (١٣٢٤٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٨/٤) رقم (٤٥٤٠)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٣٠ - ٣٣١) رقم (٩١٣)، وابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (ص ٩) من حديث عقبة بن عامر والحديث ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (١١٥/٤) وقال: رواه أحمد، والطبراني، والبيهقي في «الشعب» بسند حسن.

الدَّابَّر: آخر القوم الذي يَأْتِي من خَلْفِهِمْ، وهذه كناية عن استئصال شأفتهم، ومَحْوِ آثارهم، كأنهم وَرَدُوا الْعَذَابَ حتى ورد آخرهم الذي دَبَّرَهُمْ، وَحَسَنَ الْحَمْدُ عَقِبَ هَذِهِ الْآيَةِ لِجَمَالِ الْأَفْعَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي أَنْ أُرْسِلَ - سَبْحَانَهُ - الرِّسْلَ، وَلَطْفِ فِي الْأَخْذِ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ؛ لِيَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ، فِيرْحَمَ، وَيَنْعَمَ، وَقَطَعَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ دَابِرَ الظُّلْمَةِ، وَذَلِكَ حَسَنٌ فِي نَفْسِهِ، وَنِعْمَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَحَسَنَ الْحَمْدُ عَقِبَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ، وَبِحَمْدِهِ سَبْحَانَهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَمَ كُلُّ فِعْلٍ، وَكُلُّ مَقَالٍ، إِذْ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُهُ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ تُصِرُّوْنَ الْأَلْبَتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَنَا اللَّهُ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَّ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ...﴾ الآية ﴿أَخَذَ﴾ معناه أَذْهَبَ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَأْخُودِ، وَ ﴿يَصْدِفُونَ﴾ معناه: يَعْضِضُونَ، وَيَنْفِرُونَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [البسيط]

إِذَا ذَكَرْنَا حَدِيثًا قُلْنَا أَحْسَنَهُ
وَهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدْفُ^(١)
وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَنَا اللَّهُ بَغْتَةً...﴾ الآية وعيد وتهديد.

قال * ع^(٢): ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ عند سيبويه: تَنْتَزِلُ مَنْزِلَةً «أخبروني»؛ ولذلك لَا تَحْتَاجُ إِلَى مَفْعُولِينَ.

وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾: معناه: لَمْ يَتَقَدَّمْ عِنْدَكُمْ مِنْهُ عِلْمٌ، وَ ﴿جَهْرَةً﴾، معناه: تَبَدُّوْا لَكُمْ مَخَايِلُهُ وَمَبَادِيهِ، ثُمَّ يَتَوَالَى حَتَّى يَنْزِلَ.

(١) البيت لعدي بن الرقاع، وهو في «تفسير الطبري» (٣٦٦/١١)، «البحر» (١١٧/٤) و «الدر المصون» (٦٦/٣).

وَصُدْفٌ: جمع: صُدُوفٌ، كَصَبْرٌ فِي جَمْعِ صَبُورٍ. وَقِيلَ: مَعْنَى صَدَفَ: مَالٌ، مَأْخُودٌ مِنَ الصَّدْفِ فِي الْبَعِيرِ، وَهُوَ أَنْ يَمِيلَ خَفَهُ مِنَ الْيَدِ إِلَى الرَّجْلِ مِنَ الْجَانِبِ الْوَحْشِيِّ. وَالصَّدْفُ: جَمْعُ صَدْفَةٍ، وَهِيَ الْمَحَارَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الدَّرَّةُ، قَالَ: [البسيط]

وَزَادَهَا عَجَبًا أَنْ رُحْتُ فِي سَمَلٍ وَمَا ذَرْتُ ذُرًّا أَنْ الدَّرُّ فِي الصَّدْفِ
وَالصَّدْفُ وَالصَّدْفُ - بَفَتْحِ الصَّادِ وَالْدَّالِ وَضَمِّهِمَا، وَضَمِ الصَّادِ وَسُكُونِ الدَّالِ - نَاحِيَةُ الْجَبَلِ الْمَرْفُوعِ.

(٢) ينظر: «المحرر» (٢٩٣/٢).

قال الحسن بن أبي الحسن: ﴿بُعْتَهُ﴾ لَيْلًا، و ﴿جَهْرَةً﴾^(١): نهارًا.

وقال مجاهد: ﴿بُعْتَهُ﴾ فُجَاءَةٌ آمِنِينَ. و ﴿جَهْرَةً﴾: وهم ينظرون^(٢).

قال أبو حيان^(٣): ﴿هَلْ يَهْلِكُ؟﴾ «هل حَزَفُ استفهام، معناه هنا النَّفْيُ، أي: ما يهلك؛ ولذلك دَخَلْتُ «إِلَّا» على ما بعدها. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وما نرسل المرسلين إِلَّا مبشرين﴾، أي: إِلَّا لِيُبَشِّرُوا بِإِنْعَامنا وَرَحْمَتِنَا مَنْ آمَنَ، وَمُنْذِرِينَ بِعَذَابِنَا وَعِقَابِنَا مَنْ كَذَّبَ وَكَفَرَ، قال أبو حيان: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾: حال فيها معنى الْعِلْيَةِ، أي: أرسلناهم للتبشير والإنذار. انتهى.

ثم وَعَدَ سبحانه مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْبِشَارَةِ، فَأَمَّنَ وَأَصْلَحَ فِي أَمْتَالِ الطَّاعَةِ، وَأَوْعَدَ الْآخَرِينَ.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٥) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥٦) وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدُوَّةِ وَالْعَنِيتِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٨)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ...﴾ الآية: هذا مِنَ الرَّدِّ عَلَى الْقَائِلِينَ: ﴿لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ [الأنعام: ٣٧] وَالظَّالِمِينَ أَنْ يَنْزَلَ مَلَكٌ، أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ أَوْ كَنْزٌ، وَنَحْوُ هَذَا، وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ، وَهُوَ الْقُرْآنُ وَسَائِرُ مَا يَأْتِيهِ مِنَ اللَّهِ سبحانه، أي: وفي ذلك عِبَرٌ وَأَيَاتٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، أي: هل يستوي الْمُؤْمِنُ الْمُفَكِّرُ فِي الْآيَاتِ، مَعَ الْكَافِرِ الْمُغْرِضِ عَنِ النَّظَرِ؛ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة ١٦٨ ب العَرَضِ وَالتَّخْضِيسِ/.

(١) ذكره البغوي (٩٨/٢)، وذكره ابن عطية (٢٩٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٦/٥) برقم (١٣٢٥٣)، وذكره ابن عطية (٢٩٣/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤/٣)، وعزه لعبد بن حميد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (١٢٦/٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾، أي: وأنذر بالقرآن الذين هُمْ مَظَنَّةُ الْإِيمَانِ، وأهل
لِلْإِنْتِفَاعِ، والضميرُ في ﴿بِهِ﴾ عائِدٌ على ما يُوحَى.

وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: إخبارٌ من الله سبحانه عن
صفة الحالِ يَوْمَ الْحَشْرِ، قال الفخر^(١): قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: قال ابن عباس: معناه:
وأندزمهم لكي يخافوا في الدنيا، ويتنهدوا عن الكفر والمعاصي. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾: المراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾
ضَعْفَةُ الْمُؤْمِنِينَ في ذلك الوقت في أمور الدنيا؛ كِبَالًا. وَضَهْنِي، وَعَمَارٍ، وَخَبَابٍ^(٢)،
وَصَبْنِيحٍ، وَذِي الشَّمَالَيْنِ وَالْمَقْدَادِ، وَنَحْوِهِمْ، وَسَبَبُ الْآيَةِ أَنَّ بعضَ أَشْرَافِ الْكُفَّارِ قَالُوا
لِلنَّبِيِّ ﷺ: نَحْنُ لِمُشْرَفِنَا وَأَقْدَارِنَا لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَخْتَلَطَ بِهَؤُلَاءِ، فَلَوْ طَرَدْتَهُمْ، لَا تَبْعَانَا، وَرَدَّ
فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَظَاهِرُ الْأَمْرِ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْحَدِيثَةِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ،
و ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾: قال الحسن بن أبي الحسن^(٣): المراد به صلاة مكّة
الَّتِي كَانَتْ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، وَقِيلَ: قوله: ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾: عبارة عن
استمرار الفعل، وَأَنَّ الزَّمانَ مَعْمُورٌ بِهِ، وَالْمَرَادُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، قِيلَ: الصَّلَاةُ الْخَمْسُ؛
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٤)، وَقِيلَ: الدُّعَاءُ، وَذُكِرَ اللَّهُ، وَاللَّفْظَةُ عَلَى وَجْهِهَا، وَقِيلَ: الْقِرَاءَةُ
وَتَعْلُمُهُ؛ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ^(٥)، وَقِيلَ: الْعِبَادَةُ؛ قَالَ الضَّحَّاكُ^(٦).

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٢/١٩٣).

(٢) (خَبَاب) بن الأَزْت - بتشديد المنة - بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن
تميم التميمي، ويقال: الخزاعي، أبو عبد الله.
سبي في الجاهلية، فبيع بمكة، فكان مولى أم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك. ثم حالف بني زهرة،
وكان من السابقين الأولين.

وقال ابن سعد: بيع بمكة، ثم حالف بني زهرة. وأسلم قديماً؛ وكان من المستضعفين، روى البازري
أنه أسلم سادس ستة، وهو أول من أظهر إسلامه، وعُذِبَ عذاباً شديداً لأجل ذلك.

ينظر: «الإصابة» (٢/٢٢١)، «طبقات ابن سعد» (٣/١٦٤)، «تهذيب الكمال» (٣٧٣)، «تهذيب
التهذيب» (٣/١٣٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٢٩٥).

(٤) أخرجه الطبري (٥/٢٠١) برقم (١٣٢٦٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٢٩٥)، وذكره السيوطي في
«الدر المنثور» (٣/٢٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس
بنحوه.

(٥) ينظر الطبري (٥/٢٠٤).

(٦) أخرجه الطبري (٥/٢٠٣) رقم (١٣٢٩١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٢٩٥).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ قلت: قال العزالي في «الجواهر»: النية والعمل؛ بهما تمام العبادة، فالنية أحد جزأي العبادة، لكنها خير الجزأين، ومعنى النية إرادة وجه الله سبحانه بالعمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، ومعنى إخلاصها تصفية الباعث عن الشوائب، ثم قال العزالي: وإذا عرفت فضل النية، وأنها تحل حدة المقصود، فاجتهد أن تستكثر من النية في جميع أعمالك؛ حتى تنوي بعمل واحد ثبات كثيرة، ولو صدقت رغبتك، لهديت لطريق رشدك. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾، قال الحسن والجمهور: أي: من حساب عملهم، والمعنى: أنك لم تكلف شيئاً غير دعائهم^(١)، وقوله: ﴿فتطردهم﴾: هو جواب النفي في قوله: ﴿ما عليك﴾، وقوله: ﴿فتكون﴾: جواب النهي في قوله: ﴿ولا تطرد﴾.

و ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أي: ابتلينا، و ﴿لِيَقُولُوا﴾: معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا؛ على جهة الاستخفاف والهزء: ﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾، فاللام في ﴿ليقولوا﴾: لام الصيرورة.

وقوله سبحانه: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾، أي: يا أيها المستخفون، ليس الأمر أمر استخفاف، فالله أعلم بمن يشكر نعمه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْهُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَّةَ لِنُظْهِرَ لِكَرْبِ الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم...﴾ الآية: قال جمهور المفسرين: هؤلاء هم الذين نهى الله عن طردهم، وشفع ذلك بأن أمر سبحانه أن يسلم النبي - عليه السلام - عليهم، ويؤنسهم، قال خباب بن الارت: لما نزلت: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا...﴾ الآية، فكنا نأتي النبي ﷺ، فيقول لنا: سلام عليكم، ونفعد معه، فإذا أراد أن يقوم، قام، وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وأصبر نفسك مع الذين/ ١٦٩

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ... ﴿١﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، فكان يَفْعُدُ معنا، فإذا بَلَغَ الوقت الذي يقوم فيه، قُمْنَا وتركنا، حتى يقوم، و ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾: ابتداءً، والتقدير: سَلَامٌ ثابتٌ أو واجبٌ عليكم، والمعنى: أَمَنَةٌ لَكُمْ مِنْ عذابِ الله في الدنيا والآخرة، ولفظه لفظُ الحَبَرِ، وهو في معنى الدُّعاء، قال الفخر^(٢) قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾: النَّفْسُ ههنا: بمعنى الذات، والحقيقة، لا بمعنى الجسم، والله تعالى مقدس عنه. انتهى.

قلت: قال ابنُ العربي في كتاب «تفسير الأفعال الواقعة في القرآن»: قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، قال علماؤنا: كَتَبَ: معناه أَوْجَبَ، وعندي أنه كَتَبَ حقيقةً، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَكْتُبْ، فَكَتَبَ مَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣). انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٢/٢٩٦).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٣/٤).

(٣) ورد ذلك في حديث عبادة بن الصامت، وابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة.

فأما حديث عبادة فرواه أبو داود (٢/٦٣٧ - ٦٣٨) في السنة، باب في القدر (٤٧٠٠)، والترمذي (٤/٣٩٨) في القدر، باب (١٧) (٢١٥٥) وأحمد (٥/٣١٧)، والبخاري في «التاريخ» (٦/٩٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٢ - ١٠٥)، والبيهقي في «السنن» (١٠/٢٠٤)، من طرق عنه به مرفوعاً، وكذا رواه الطبري (١٢/١٧٧) (٣٤٥٤٣، ٣٤٥٤٨).

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وأما حديث ابن عباس فروي مرفوعاً أو موقوفاً.

فأما المرفوع فرواه أبو يعلى (٢٣٢٩)، والبيهقي في «السنن» (٩/٣)، وفي «الأسماء والصفات» ص (٣٧٨) من طريق عبد الله بن المبارك قال: «أخبرنا رباح بن زيد، عن عمرو بن حبيب، عن القاسم بن أبي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً. إن أول شيء خلقه الله القلم، وأمره فكتب كل شيء».

وكذا رواه الطبري (٣٤٥٤٤).

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/٤٣٣) (١٢٢٢٧) عن مؤمل بن إسماعيل، ثنا حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، عن ابن عباس مرفوعاً «إن أول ما خلق الله تعالى القلم والحوث قال: ما أكتب؟ قال: كل شيء كان إلى يوم القيامة» ثم قرأ ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القلم: ١] فالنون: الحوت. والقلم: القلم.

وقال الطبراني: لم يرفعه عن حماد بن زيد إلا مؤمل بن إسماعيل.

وقال في «المجمع» (٧/١٣١) ومؤمل ثقة كثير الخطأ، وقد وثقه ابن معين وغيره، وضعفه البخاري، وبقية رجاله ثقات.

وأما الموقوف فرواه الطبري (٣٤٥٢٨، ٣٤٥٣٠، ٣٤٥٣١) وابن منده في «التوحيد» (١/٩٤، ١٩٢)

برقم (١٥، ٦٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٩٧)، والمحاكم في «المستدرک» (٢/٤٩٨)، والبيهقي في =

وقرأ عاصم^(١)، وابن عامر أنه - بفتح الهمزة في الأولى - والثانية «فأنه»: الأولى بدل من «الرحمة»، و «أنه» الثانية: خبر ابتداء مضمر، تقديره: فأمره أنه عفور رحيم، هذا مذهب سيويته، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي «إنه» - بكسر الهمزة في الأولى والثانية -، وقرأ نافع بفتح الأولى وكسر الثانية، والجهالة في هذا الموضع: تعم التي تضاد العلم، والتي تشبه بها؛ وذلك أن المتعمد لفعل الشيء الذي قد بُهِيَ عنه تُسمَّى معصيته تلك جهالة، قال مجاهد: من الجهالة ألا يعلم حلالاً من حرام^(٢)، ومن جهالته أن يركب الأمر.

قلت: أي: يتعمده، ومن الجهالة التي لا تضاد العلم قوله ﷺ في استعادته: «أو أجهل أو يُجهل عليّ»^(٣)؛ ومنها قول الشاعر: [الوافر]

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(٤)

= «الأسماء والصفات» ص (٤٨١) من طرق عن الأعمش، عن أبي ظبيان عنه قال: أول ما خلق الله عز وجل القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب، ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة.
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وله طرق أخرى عند الطبري (٣٤٥٣٨)، والحاكم (٤٥٣ - ٤٥٤) وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر» (٣٨٧/٦) وزاد نسبه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، والخطيب في «تاريخه»، والضياء في «المختارة». وأما حديث ابن عمر فرواه ابن أبي عاصم (١٠٦)، والآجري في «الشرعية» (ص ١٧٥) عن بقية، حدثني أرطاة بن المنذر، عن مجاهد بن جبير عنه مرفوعاً به.
وأما حديث أبي هريرة فرواه الحكيم الترمذي كما في «الدر المنثور» (٣٨٨/٦).

(١) ينظر: «الدر المصون» (٦٨/٣)، «البحر المحيط» (١٣٩/٤)، «حجة القراءات» ص (٢٥١)، «النشر» (٢٥٨/٢)، «إتحاف فضلاء البشر» (١٢/٢ - ١٣)، و «إعراب القراءات» (١٥٧/١)، و «شرح شعلة» (٣٦٢، ٣٦٣)، و «العنوان» (٩١)، و «شرح الطيبة» (٢٥٣/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٧/٥) رقم (١٣٢٩٧) بنحوه، وذكره البغوي (١٠٠/٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٧/٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) البيت لعمر بن كلثوم بن مالك بن عتاب من بني تغلب أبو الأسود، وهو من معلقته المشهورة. ومعناه: نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله، فنسب الجهل إلى نفسه، وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ليزدوج اللفظتان، فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى، وهي تخالفها في المعنى؛ لأن ذلك أخف عن اللسان وأحضر من اختلافهما.

ينظر: «شرح القصائد العشر» للتبريزي (٢٨٨)، وينظر «البحر المحيط» (١٨٦/١)، و «الدر المصون» (١٢٦/١).

قال الفخر^(١): قال الحسن: كُلُّ مَنْ عَمِلَ معصيةً، فهو جاهلٌ، فقيل: المعنى أنه جاهلٌ بمقدار ما فاتته من الثواب، وما استحقه من العقاب، قلت: وأيضاً فهو جاهلٌ بقدر من عصاه. انتهى.

والإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤمنين، وبيان فساد منزع العارضين لذلك، وتفصيل الآيات: تبيينها وشرحها وإظهارها، قلت: ومما يناسب هذا المحل ذكر شيء مما ورد في فضل المصافحة، وقد أسند أبو عمر في «التمهيد»، عن عبد الرحمن بن الأسود^(٢)، عن أبيه وعلقمة؛ أنهما قالاً: «مَنْ تَمَامَ التَّحِيَّةِ الْمُصَافَحَةَ»، وروى مالك في «الموطأ»، عن عطاء الخراساني، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَصَافَحُوا؛ يَذْهَبِ الْغُلُّ، وَتَهَادُوا؛ تَحَابُّوا، وَتَذَهَّبِ^(٣) الشُّحْنَاءُ»، قال أبو عمر في «التمهيد»: هذا الحديث يتصل من وجوه شتى حسان كلها، ثم أسند أبو عمر من طريق أبي داود وغيره، عن البراء، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا»^(٤)، ثم أسند أبو عمر عن البراء بن عازب، قال: «لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُ لَأُحْسِبُ أَنَّ الْمُصَافَحَةَ لِلْعَجَمِ فَقَالَ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُصَافَحَةِ مِنْهُمْ؛ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، فَيَأْخُذُ أَحَدُهُمَا بِيَدِ صَاحِبِهِ مَوْدَّةً بَيْنَهُمَا، وَنَصِيحَةً، إِلَّا أَلْقِيَتْ ذُنُوبُهُمَا بَيْنَهُمَا»^(٥)، وأسند أبو عمر عن عمر بن الخطاب، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا لَتَقَى الْمُسْلِمَانِ، فَصَافَحَا، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا مِائَةَ رَحْمَةٍ؛ تَسْعُونَ مِنْهَا لِلَّذِي بَدَأَ بِالْمُصَافَحَةِ، وَعَشْرَةٌ لِلَّذِي صُوفِحَ، وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ أَحْسَنُهُمَا بَشْراً بِصَاحِبِهِ»^(٦). انتهى.

(١) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٣/٥).

(٢) عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد النخعي أبو حفص الفقيه. عن أبيه وعائشة. وعنه: الأعمش، وأبو إسحاق الشيباني. وثقه ابن معين. حج ثمانين حجة، واعتمر ثمانين عمرة. مات سنة ثمان وتسعين.
ينظر: «الخلاصة» (٢/١٢٥).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٠٨/٢) كتاب «حسن الخلق»، باب ما جاء في المهاجرة، حديث (١٦) عن عطاء مرسلاً.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٩/١٣٤ - ١٣٥) رقم (٢٥٣٦٨)، وعزاه للرويان، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان»، والضياء المقدسي في «المختارة».

(٦) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٩/١١٤) رقم (٢٥٢٤٥)، وعزاه للحكيم الترمذي، وأبي الشيخ عن عمر.

١٦٩ ب وقد ذكرنا/ طَرَفًا مِنْ آدَابِ الْمُصَافِحَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقِفْ عَلَيْهِ، وَأَعْمَلْ بِهِ، تَزِيدُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يَرَادُ لِلْعَمَلِ، وبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَحُصِّنَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ آثَرُوا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَهُوَ أَهَمُّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّهَا آيَاتٌ رَدُّ عَلَيْهِمْ.

وَأَيْضًا: فَتَبَيَّنَ سَبِيلُهُمْ يَتَضَمَّنُ بَيَانَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَأَوَّلَ ابْنُ زَيْدٍ؛ أَنَّ قَوْلَهُ: «الْمُجْرِمِينَ» مَعْنِيٌّ بِهِ الْأَمْزُورُونَ بِطَرْدِ الضَّعْفَةِ^(١).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ...﴾ الآية: أَمَرَ اللَّهُ سبحانه نَبِيَّه - عليه السلام -؛ أَنْ يَجَاهِرَهُمْ بِالتَّبَرُّيِّ مِمَّا هُمْ فِيهِ، وَ «تَدْعُونَ»: مَعْنَاهُ تَعْبُدُونَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: تَدْعُونَ فِي أُمُورِكُمْ، وَذَلِكَ مِنْ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَأَعْتَادَهُمُ الْأَصْنَامَ آلِهَةً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾: الْمَعْنَى: قُلْ إِنِّي عَلَى أَمْرٍ بَيِّنٍ، وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، الضَّمِيرُ فِي «بِهِ» عَائِدٌ عَلَى «بَيِّنٍ»، أَوْ عَلَى الرَّبِّ، وَقِيلَ: عَلَى الْقُرْآنِ، وَهُوَ جَلِيٌّ، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: الضَّمِيرُ فِي «بِهِ» الثَّانِي عَائِدٌ عَلَى «مَا»، وَالْمُرَادُ بِهَا الْآيَاتُ الْمُفْتَرَحَةُ؛ عَلَى مَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الْعَذَابُ، وَهُوَ يَتَرَجَّحُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: «وَكَذَّبْتُمْ بِهِ» يَتَضَمَّنُ أَنَّكُمْ وَقَعْتُمْ مَا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الْعَذَابَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي.

والآخر: مِنْ جِهَةِ لَفْظِ الْإِسْتِعْجَالِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا لِلْعَذَابِ.

وَأَمَّا اقْتِرَاحُهُمْ لِلآيَاتِ، فَلَمْ يَكُنْ بِاسْتِعْجَالٍ.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَكَمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، أَي: الْقَضَاءُ وَالْإِنْفَادُ، وَ «يَقْصُ الْحَقُّ»، أَي: يَخْبِرُ بِهِ، وَالْمَعْنَى: يَقْصُ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَقَرَأَ حَمْزَةً^(٢) وَالْكَسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا: «يَقْضِي الْحَقُّ»، أَي: يُنْفِذُهُ.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٧/٥) رقم (١٣٣٠٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٨/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد بنحوه.

(٢) ينظر: «الدر المصون» (٧٧/٣)، «البحر المحيط» (١٤٥/٤)، «حجة القراءات» ص (٢٥٤)، «النشر» (٢٥٨/٢)، «إتحاف فضلاء البشر» (١٤/٢)، «الكشاف» (٣٠/٢)، و «الحجة» (٣١٨/٣)، و «السبعة» (٢٥٩)، و «إعراب القراءات» (١٥٩/١)، و «معاني القراءات» (٣٥٩/١)، و «شرح الطيبة» (٢٥٤/٤)، و «شرح شعلة» (٣٦٣)، و «العنوان» (٩١).

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)
 ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: المعنى: لو كان عندي الآيات المُفْتَرَحَةُ، أو العذاب؛ على التأويل الآخر، لَفُضِّي الأمر، أي: لَوَقَعَ الانفصال، وتَمَّ النزاع؛ لظهور الآية المُفْتَرَحَةُ، أو لنزول العذاب؛ بحسب التأويلين، وقيل: المعنى: لَقَامَتِ القيامة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾: يتضمَّن الوعيد والتهديد.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾: مَفَاتِيحُ: جَمْعُ مِفْتَاحٍ، وهذه استعارة؛ عبارة عن التوصل إلى الغيوب؛ كما يتوصل في الشاهد بالمِفْتَاحِ إلى الْمَعْيَبِ، ولو كان جَمْعُ «مِفْتَاحٍ»، لقال: مَفَاتِيحُ، ويظهر أيضاً أَنَّ «مَفَاتِيحُ» جَمْعُ «مِفْتَاحٍ» - بفتح الميم -، أي: مواضع تَفْتَحُ عن المغيَّبات؛ ويؤيد هذا قول السُّدِّي وغيره: ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾: خزائن الْغَيْبِ، فأما مِفْتَاحٌ^(١) - بالكسر -، فهو بمعنى مِفْتَاحٍ، قال الزُّهْرَاوِيُّ: وَمِفْتَاحٌ أَفْصَحُ، وقال ابنُ عَبَّاسٍ وغيره: الإشارة بِمَفَاتِيحِ الْغَيْبِ هي إلى الْخَمْسَةِ في آخر لُقْمَانَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾^(٢) [لقمان: ٣٤] الآية، قلت: وفي «صحيح البخاري»، عن سالم بن عبد الله^(٣)، عَن أَبِيهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ

(١) أخرجه الطبري (٢١٠/٥) برقم (١٣٣٠٨)، وذكره ابن عطية (٢٩٩/٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري (٢١٠/٥)، برقم (١٣٣١٠)، وذكره ابن عطية (٢٩٩/٢). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨/٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس.

(٣) سالم بن عبد الله بن عُمَرَ العدوي المدني الفقيه أحد السبعة وقيل: السابع أبو سليمان بن عبد الرحمن. وقيل: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، قاله أبو الزناد. عن أبيه، وأبي هريرة، ورافع بن خديج، وعائشة. وعنه: ابنه أبو بكر، وعبيد الله بن عمر، وحظلة بن أبي سفيان. قال ابن إسحاق: أصبح الأسانيد كلها الزهري، عن سالم، عن أبيه. وقال مالك: كان يلبس الثوب بدرهمين. وعن نافع: كان ابن عمر يقبلُ سالمًا، ويقول: شيخ يقبل شيخاً. وقال البخاري: لم يسمع من عائشة. مات سنة ست ومائة على الأصح.

ينظر: «تهذيب الكمال» (٤٦٠/١)، «تهذيب التهذيب» (٤٣٦/٣)، «الكاشف» (٣/٣٤٤)، «الثقات» (٣٠٥/٤)، «سير الأعلام» (٤٥٧/٤).

وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾
[لقمان: ٣٤] انتهى (١).

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾، أي: من وَرَقِ النَّبَاتِ، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾، يريد: في أَشَدِّ حَالِ التَّغَيُّبِ، وَحَكَّى بَعْضُ النَّاسِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَوْلًا: / أَنَّ الْوَرَقَةَ يُرَادُّ بِهَا السَّقَطُ مِنْ أَوْلَادِ بَنِي آدَمَ، وَالْحَبَّةُ: يَرَادُّ بِهَا الَّذِي لَيْسَ بِسَقَطٍ، وَالرُّطْبُ يَرَادُّ بِهِ الْحَيُّ، وَالْيَابِسُ يَرَادُّ بِهِ الْمَيِّتُ، وَهَذَا قَوْلٌ جَارٍ عَلَى طَرِيقَةِ الرُّمُوزِ، وَلَا يَصُحُّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْتَفَتَ إِلَيْهِ (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، قيل: يعني كتاباً على الحقيقة، وَوَجْهُ الْفَائِدَةِ فِيهِ أَمْتَحَانٌ مَا يَكْتَبُهُ الْحَفَظَةُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ زُوِيَ أَنَّ الْحَفَظَةَ يَرْفَعُونَ مَا كَتَبُوهُ، وَيُعَارِضُونَهُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُسَارِّ إِلَيْهِ؛ لِيَتَحَقَّقُوا صِحَّةَ مَا كَتَبُوهُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾: عِلْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ.

قَالَ الْفَخْرُ (٣): وَهَذَا هُوَ الْأَصُوبُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: ذَكَرَ تَعَالَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْوَرَقَةِ وَالْحَبَّةِ؛ تَنْبِيْهًا لِلْمَكْلُفِينَ عَلَى أَمْرِ الْحِسَابِ. انتهى.

قَالَ مَكِّي: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ: مَا فِي الْأَرْضِ شَجَرٌ، وَلَا مَعَرَزٌ إِبْرَةٍ إِلَّا عَلَيْهَا مَلَكٌ، مُوَكَّلٌ، يَأْتِي اللَّهَ بِعِلْمِهَا بَيِّنَهَا إِذَا بَيَّنَّتْ، وَرُطُوبَتِهَا إِذَا رَطَبَتْ (٤).

وقيل: المعنى في كَتَبَهَا؛ أَنَّهُ لَتَعْظِيمِ الْأَمْرِ، وَمَعْنَاهُ: اْعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ - مَكْتُوبٌ؛ فَكَيْفَ مَا فِيهِ ثَوَابٌ أَوْ عِقَابٌ. انتهى من «الهداية».

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا لِمَا كَسَبْنَا مِنْ عَمَلِنَا وَيُرْسِلُ فِيهِ الرُّسُلَ أَنْذِرِينَ لَهُمْ نَارَ الْعَذَابِ﴾
ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً
حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ

(١) أخرجه البخاري (١٤١/٨) كتاب «التفسير»، باب «وعنده مفاتيح الغيب»، حديث (٤٦٢٧)، والطيالسي (٢/ ٢٢ - منحة) رقم (١٩٦٦)، وأبو يعلى (٣٤٥/٩) رقم (٥٤٥٦) كلهم من طريق الزهري، عن سالم، عن أبيه به.

وأخرجه البخاري (٦٠٩/٢) كتاب «الاستسقاء»، باب لا يدري متى يحيي المطر إلا الله، حديث (١٠٣٩) وأحمد (٢/ ٢٤، ٥٢، ٥٨)، من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر به.

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٠٠).

(٣) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٠/١٣).

(٤) أخرجه الطبري (٢١١/٥) برقم (١٣٣١١)، وذكره ابن كثير (١٣٧/٢).

الْحُكْمَ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجَلْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٦٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾، يعني به: النوم، و ﴿يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾، أي: مَا كَسَبْتُمْ بالنَّهَارِ، ويحتمل أن يكون ﴿جَرَحْتُمْ﴾ هنا من الجرح؛ كأن الذنْبَ جرح في الدين، والعرب تقول:

وَجُرِحَ اللِّسَانُ كَجُرِحِ الْيَدِ^(١)

و ﴿يَبْعَثُكُمْ﴾: يريد به الإيقاظ، والضمير في ﴿فيه﴾ عائذ على النهار؛ قاله مجاهد وغيره^(٢)، ويحتمل أن يعود الضمير على التوفي، أي: يوقظكم في التوفي، أي: في خلائه وتضاعيفه؛ قاله عبد الله بن^(٣) كثير.

و ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: المراد به آجال بني آدم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ يريد: بالبعث والنشور، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾، أي: يُعْلِمُكُمْ إِعْلَامَ تَوْقِيفٍ، ومحاسبة، ففي هذه الآية إيضاح الآيات المنصوبة للنظر، وفيها ضرب مثال للبعث من القبور؛ لأن هذا أيضاً إماتة وبعث على نحو ما.

وقوله سبحانه: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾: القاهرُ إِنْ أَخَذَ صِفَةً فِعْلٍ، أي: مظهر القَهْر بالصواعق والرياح والعذاب، فيصح أن تجعل ﴿فَوْقَ﴾ ظرفية للجهة؛ لأن هذه الأشياء إنما تعاهدها العباد من فوقهم، وَإِنْ أَخَذَ ﴿القَّاهِرُ﴾ صِفَةً ذَاتٍ، بمعنى القدرة والاستيلاء، فـ ﴿فَوْقَ﴾: لا يجوز أن تكون للجهة، وإنما هي لعلو القدر والشأن؛ على حد ما تقول: اليافوْتُ فَوْقَ الْحَدِيدِ، والأحرارُ فَوْقَ الْعَبِيدِ، و ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾: معناه: يَبْعَثُ فيكم، و ﴿حَفَظَهُ﴾: جمع حَافِظٍ، والمراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأعمال، وَرَوَى أَنَّهُم الملائكة الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَتَعَاقَبُ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ

(١) عجز بيت لامرئ القيس صدره: [المقارب]

ولو عن نسا غيره جاءني

ينظر: «ديوانه» (١٨٥)، «الخصائص» (٢١/١)، «الدر المصون» (١/٢٦٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٣/٥) برقم (١٣٣١٨)، وذكره ابن عطية (٣٠٠/٢)، وذكره ابن كثير (١٣٨/٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠/٣) وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٠٠/٢)، وذكره ابن كثير (١٣٨/٢) بنحوه.

بِالنَّهَارِ»^(١)؛ وقال السُّدِّيُّ وقتادة^(٢)، وقال بغض المفسرين: حَفَظَةً يَحْفَظُونَ الْإِنْسَانَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ حتى يأتي أجله، والأول أظهر.

وقرأ^(٣) حمزة وخده: «تَوَفَّاهُ».

وقوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾: يريد به؛ على ما ذكر ابن عباس، وجميع أهل التأويل: ملائكة مقترنين بملك الموت، يعاونونه ويأتمرون له^(٤)، ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾، أي: العباد، ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ﴾، وقوله: ﴿الْحَقُّ﴾: نعت لـ ﴿مَوْلَاهُمْ﴾، ومعناه: الذي ليس/ بباطل، ولا مجاز، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾: كلام مضمنه التنبيه، وهز النفوس، وهو أسرع الحاسبين: قيل لعلني (رضي الله عنه): كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟! قَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ الآية: هذا تَمَادٍ في توبيخ العادلين بالله الأوثان، وتركهم عبادة الرّحمن الذي يُنْجِي مِنَ الْهَلَكَاتِ، وَيُلْجَأُ إِلَيْهِ فِي الشَّدَائِدِ، وَدَفْعِ الْمَلَمَاتِ، و ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: يريد بها شدائدُهما، فهو لفظ عام يستغرق ما كان مِنَ الشَّدَائِدِ؛ بظلمة حقيقية، وما كان بغير ظلمة، والعَرَبُ تقول: عَامٌ أَسْوَدٌ، وَيَوْمٌ مُظْلِمٌ، وَيَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ، يريدون به الشَّدة، قال قتادة وغيره: المعنى: مِنْ كَرْبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَتَدْعُونَهُ: في موضع الحال، والتَّضَرُّعُ: صفةٌ باديةٌ على الإنسان، وَخُفْيَةً: معناه: الْإِخْتِفَاءُ^(٦)، وقرأ عاصم^(٧) في رواية أبي بكر: «وْخُفْيَةً»

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (٢١٤/٥) رقم (١٣٣٢٦، ١٣٣٢٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٠١/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠/٣) وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن السدي بنحوه، وكذلك عزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة بنحوه.

(٣) ينظر: «السبعة» (٢٥٩)، و «الحجة» (٣٢١/٣)، و «معاني القراءات» (٣٦١/١)، و «شرح شملة» (٣٦٣)، و «العنوان» (٩١)، و «حجة القراءات» (٢٥٤).

(٤) أخرجه الطبري (٢١٥/٥) برقم (١٣٣٣٢، ١٣٣٣٣، ١٣٣٣٨)، وذكره ابن عطية (٣٠١/٢)، وذكره ابن كثير (١٣٨/٢) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠/٣)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٥) ذكره ابن عطية (٣٠١/٢).

(٦) أخرجه الطبري (٢١٦/٥) برقم (١٣٣٤٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٠٢/٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣١/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة.

(٧) ينظر: «الحجة» (٣١٦/٣)، و «إعراب القراءات» (١٥٩/١)، و «حجة القراءات» (٢٥٥)، و «معاني» =

- بكسر الخاء -، وقرأ الأعمش: «وَحِيفَةً»؛ من الحَوْف^(١).

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا...﴾ الآية: سبق في المُجَادَلَة إلى الجَوَاب؛ إذ لا محيدَ عنه، ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾: لفظٌ عامٌ أيضاً، لِيُتَضَحَّ العُمُومُ الذي في «الظلمات»، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾، أي: ثم بَعْدَ معرفتكم بهذا كله، وَتَحَقُّقُكُمْ له، أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٦﴾ لِّكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ...﴾ الآية: هذا إخبارٌ يتضمَّن الوعيدَ، والأظهرُ مِنْ نَسَقِ الآيَاتِ: أنَّ هذا الخطابُ للكُفَّار الذين تَقَدَّمَ ذكْرهم، وهو مَذْهَبُ الطبري^(٢).

وقال أبيُّ بن كَعْبٍ، وجماعة: هو للمؤمنين، وهم^(٣) المراد.

وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يَظْهَرُ مِنْ أَنَّ الآيةَ تتناولُ معانيها المشركين والمؤمنين؛ وفي «البخاري» وغيره مِنْ حَدِيثِ جابر وغيره: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لما نَزَلَتْ الآيةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فلما نَزَلَتْ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فلما نَزَلَتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هذه أهونُ أو أيسر^(٤)؛ فَاتَّحَجَّ بهذا الحديثِ مَنْ قال: إِنَّهَا

= القراءات (٣٦٢/١)، و «العنوان» (٩١)، و «شرح الطيبة» (٢٥٨/٤)، و «شرح شاملة» (٣٦٤).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠٢/٢)، و «البحر المحيط» (١٥٤/٤)، و «الدر المصون» (٨٤/٣).

(٢) ينظر الطبري (٢٢٣/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٢١٣/٥) برقم (١٣٣٨٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٠٢/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٢/٣) وعزاه لابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم من طريق أبي العالية، عن أبي بن كعب بنحوه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٩/١٣) كتاب «الاعتصام»، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾، حديث (٧٣١٣) والترمذي (٢٦١/٥) كتاب «التفسير»، باب ومن سورة الأنعام، حديث (٣٠٦٧)، وأحمد (٣/٣٠٩) والحميدي (١٢٥٩)، وأبو يعلى (٣٦٢/٣) رقم (١٨٢٩) من طريق سفيان، عن عمرو بن دينار، عن جابر مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه البخاري (١٤٢/٨) كتاب «التفسير»، باب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، حديث (٤٦٢٨) من طريق حماد بن زيد، عن عمرو بن دينار، عن جابر.

نَزَلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ الطَّبْرِيُّ^(١) وَغَيْرُهُ: مُمْتَنِعٌ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ تَعَوُّذَ لَأَمَّتِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَوَعَّدَ بِهَا الْكُفَّارَ، وَهَوْنُ الثَّالِثَةِ؛ لِأَنَّهَا بِالْمَعْنَى هِيَ الَّتِي دَعَا فِيهَا، فَمَنْعَ حَسَبَ حَدِيثِ «الْمَوْطِئِ» وَغَيْرِهِ، وَ «مِنْ فَوْقَكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»: لَفْظٌ عَامٌّ لِلْمُنْطَبِقِينَ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ: «مِنْ فَوْقَكُمْ»: الرَّجْمُ، «أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»: الْحَشْفُ^(٢)؛ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَجَاهِدُ^(٣).

وقوله سبحانه: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا»: معناه: يَخْلُطُكُمْ فِرْقًا، وَالْبَأْسُ: الْقَتْلُ، وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ»: اسْتَرْجَاعُ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُهَا لَفْظَ تَعْجِيبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَمَضْمَنُهَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالِدَلَالِ؛ إِنَّمَا هِيَ لِاسْتِصْرَافِهِمْ عَنْ طَرِيقِ غِيَّتِهِمْ، وَالْفِقْهُ: الْفَهْمُ.

وقوله تعالى: «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ»، الضمير في «بِهِ» عائذٌ عَلَى الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ جَاءَ تَصْرِيفُ الْآيَاتِ؛ قَالَ السُّدِّيُّ^(٤)، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ إِلَى الْوَعِيدِ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ، وَنَحَا إِلَيْهِ الطَّبْرِيُّ^(٥)، وَقَوْلُهُ: «قُلْ لَسْتُ/ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ»: معناه: لَسْتُ بِمَدْفُوعٍ إِلَى أَخْذِكُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَى، وَهَذَا كَانَ قَبْلَ نَزُولِ آيَاتِ الْجِهَادِ وَالْأَمْرِ بِالْقِتَالِ، ثُمَّ نُسِخَ.

وقوله سبحانه: «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ»: أَي: غَايَةٌ يَعْرِفُ عِنْدَهَا صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَ «سَوْفَ تَعْلَمُونَ»: تَهْدِيدٌ مَحْضٌ وَوَعِيدٌ.

«وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾»

وقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي

(١) ينظر الطبري (٢٢٣/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٧/٥) برقم (١٣٣٤٧) بنحوه، (١٣٣٥٠) بنحوه وذكره ابن عطية (٣٠٣/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢١٧/٥) برقم (١٣٣٤٨)، (١٣٣٤٩) بنحوه وذكره ابن عطية (٣٠٣/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٢/٣) وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري (٢٢٤/٥) رقم (١٣٣٨٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٠٣/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن السدي بنحوه.

(٥) ينظر الطبري (٢٢٤/٥).

حديث غيره: ﴿ هذا خطابٌ للنبي ﷺ، والمؤمنون داخلون في الخطاب معه، هذا هو الصحيح؛ لأنَّ علَّةَ النهي، وهي سماعُ الخَوْضِ في آياتِ الله، تَشْمَلُهُمْ وإِيَّاه، فأمرُ النبي ﷺ هو والمؤمنون أنْ يَنَابِذُوا الكُفَّارَ بالقيامِ عنهم، إذا استهزؤا وخاضوا؛ ليتأدَّبوا بذلك، ويدْعُوا الخَوْضَ والإِسْتِهْزَاءَ، قلتُ: ويدلُّ على دخولِ المؤمنينَ مع النبي ﷺ في الخطاب - قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء: ١٤٠]. انتهى.

والخَوْضُ: أصله في الماء، ثم يستعملُ بعدُ في غمرات الأشياء التي هي مجاهلُ؛ تشبيهاً بغمرات الماء.

﴿وإِذَا يَنْسِيَنَّكَ﴾: «إِذَا»: شرط، وتلزمها النونُ الثقيلة في الأغلب، وقرأ ابن عامر^(١) وحده: «يُنْسِيَنَّكَ» - بتشديد السين، وفتح النونِ -، والمعنى واحدٌ إلا أن التشديد أكثرُ مبالغةً، و ﴿الذِّكْرَى﴾ والذَّكْرُ واحدٌ في المعنى، ووضفهم بـ ﴿الظالمين﴾ متمكنٌ؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، و ﴿أَعْرَضُ﴾؛ في هذه الآية: بمعنى المفارقة على حقيقة الإعراض، وأكمل وجوهه؛ ويدلُّ على ذلك: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾، وروي أنه لما نزلت: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] قال المؤمنون: إذا كنا لا نقرَّبُ المشركين، ولا نسمع أقوالهم، فلا يمكننا طَوَافٌ ولا قضاءً عبادةً في الحرم، فنزلت لذلك: ﴿وما على الذين يتقون...﴾ الآية.

قال * ع^(٢): * فالإباحة في هذا هي في القَدْر الذي يحتاجُ إليه من التصرف بين المشركين في عبادةٍ ونحوها، وقيل: إن هذه الآية الأخيرة ليستُ إباحةً بوجه، وإنما معناها: لا تَقْعُدُوا معهم، ولا تَقْرَبُوهم حتَّى تسمعوا أستهزاءهم وخوضهم، وليس نهيككم عن القعود؛ لأنَّ عليكم شيئاً من حسابهم، وإنما هو ذكرى لكم، ويحتملُ المعنى: ولكن ذكرى لعلَّهم إذا جانبتموهم، يتقون بالإِمساك عن الإستهزاء، ويحتملُ المعنى: ولكن

(١) وحجته ما جاء في البخاري: «ما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسي».

ينظر: «حجة القراءات» (٢٥٦)، و «السبعة» (٢٦٠)، و «الحجة» (٣/ ٣٢٤)، و «إعراب القراءات» (١/ ١٦٠)، و «معاني القراءات» (١/ ٣٦٣)، و «العنوان» (٩١)، و «شرح الطيبة» (٤/ ٢٥٩)، و «شرح شعلة» (٣٦٤).

(٢) ينظر: «المحرر» (٢/ ٣٠٤).

ذَكَرُوهُمْ ذِكْرِي، وَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَمَثُلَ حَكَمَ هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الْمُلْحِدِينَ، وَأَهْلِ الْجَدَلِ وَالْخَوْضِ فِيهِ، وَحَكَى الطَّبْرِيُّ^(١)، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْخُصُومَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ^(٢) اللَّهِ»، وَفِي الْحَدِيثِ، عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَا رَعِيمٌ بَيْنِي فِي رِبَاضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ؛ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْنِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ؛ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْنِي فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»، خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٣). انْتَهَى مِنَ «الْكُوكَبِ الدَّرِيِّ»، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ أَبِي دَاوُدَ بِلَفْظٍ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهَدَىٰ أَفَبِتْنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُدىً اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَأَمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنَّا الْعَنَبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾: هذا أمر بالمشاركة، وكان ذلك بحسب قلة المسلمين يومئذ، قال قتادة: ثم نسيخ ذلك، وما جرى مجراه بالقتال^(٤)، وقال مجاهد: الآية إنما هي للتهديد والوعيد، فهي كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾^(٥) [المدر: ١١]، وليس فيها نسخ؛ لأنها متضمنة خبراً، وهو التهديد، ﴿وَغَرَّتَهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أي: خدعتهم من الغرور، وهو الأطماع بما لا يتحصل فأغترؤا بنعم/الله

(١) ينظر الطبري (٥/٢٢٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥/٢٢٦) برقم (١٣٣٩٥)، وذكره ابن عطية (٢/٣٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي نعيم في «الحلية» عن أبي جعفر.

(٣) أخرجه أبو داود (٢/٦٦٨) كتاب «الأدب» باب في حسن الخلق، حديث (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة مرفوعاً.

(٤) أخرجه الطبري (٥/٢٢٨) برقم (١٣٤٠٧، ١٣٤٠٨) بنحوه، ذكره ابن عطية (٢/٣٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٩)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس عن قتادة بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري (٥/٢٢٨) برقم (١٣٤٠٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٣٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٩)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه.

وإمهاله، وطمعهم ذلك فيما لم يتحصّل من رحمته، وأعلم أنّ عقل العقلاء مؤمنٌ مقبلٌ على آخرته قد جعل الموت نصب عينيه، ولم يغترّ بزخارف الدنيا؛ كما أغترّ بها الحمقى، بل جعل همّة واحدًا همّ المعاد؛ وما هو صائرٌ إليه؛ وقد روى البزار في مسنده، عن النبي ﷺ؛ أنّه قال: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا؛ هَمَّ الْمَعَادِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ الدُّنْيَا، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ؛ هُمُومُ الدُّنْيَا، لَمْ يُبَالِ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ»^(١). انتهى من «الكوكب الدرّي».

وقوله سبحانه: ﴿وَذَكَرْ بِهِ﴾: أي بالقرآن، وقيل: الضمير في ﴿به﴾ عائذٌ على الدّين، و ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ في موضع المفعول له، أي: لئلاّ تُبْسَلَ، ومعناه: تُسَلِّمَ؛ قاله الحسن وعكرمة^(٢) وقال قتادة: تُخْبَسَ وتُرْهَنَ^(٣)، وقال ابن عباس: تُفْضَحَ^(٤)، وقال ابن زيد^(٥): تُجْزَى، وهذه كلّها متقاربة المعنى؛ ومنه قول الشّفّري^(٦): [الطويل]

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٥/١) المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث (٢٥٧) والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٣٠٩-٣١٠) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٥/٢) من طريق نهشل بن سعيد، عن الضحاك، عن الأسود، عن ابن مسعود به.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث الأسود لم يرفعه إلا الضحاك، ولا عنه إلا نهشل. وقال البوصيري: إسناده ضعيف، فيه نهشل بن سعيد قيل: إنه يروي المناكير. وقيل: بل الموضوعات. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر.

أخرجه الحاكم (٤٤٣/٢) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. (٢) أخرجه الطبري (٢٢٨/٥) برقم (١٣٤٠٩، ١٣٤١٠)، وذكره البغوي (١٠٦/٢) عن عكرمة، وذكره ابن عطية (٣٠٥/٢) وذكره ابن كثير (١٤٤/٢) عن الحسن، وعكرمة.

(٣) أخرجه الطبري (٢٢٩/٥) برقم (١٣٤١٥، ١٣٤١٦) بنحوه، وذكره البغوي (١٠٦/٢)، وذكره ابن عطية (٣٠٥/٢)، وذكره ابن كثير (١٤٤/٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠/٣)، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري (٢٢٩/٥) رقم (١٣٤١٨)، وذكره ابن عطية (٣٠٥/٢)، وذكره ابن كثير (١٤٤/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٩/٣) وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (٢٢٩/٥) برقم (١٣٤١٧) بنحوه، وذكره البغوي (١٠٦/٢)، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٠٥)، وذكره ابن كثير (١٤٤/٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد بنحوه.

(٦) عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان شاعر جاهلي، يمني، من فحول الطبقة الثانية. كان من فتاك العرب وعدائهم. وهو أحد الخلفاء الذين تبرأت منهم عشائره. قتله بنو سلامان. وهو صاحب «لامية العرب» التي مطلعها: [الطويل]

«أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل» =

هَئَالِكَ لَا أَزْجُو حَيَاةَ تَسْرُنِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبْسَلًا بِالْجَرَائِرِ^(١)
وباقِي الآية بَيِّن.

﴿وإن تعدل كل عدل﴾، أي: وإن تعط كل فدية، وإن عظمت، فتجعلها عدلاً لها، لا يُقبل منها، وقال أبو عُبَيْدَةَ: ﴿وإن^(٢) تعدل﴾، هو من العَدْلِ المضادُّ للجور؛ وردَّه الطبري^(٣) بالإجماع على أنَّ توبة الكافر مقبولة.

قال *ع^(٤): * ولا يلزم هذا الردُّ، لأنَّ الأمر إنما هو يوم القيامة، ولا تقبل فيه توبة، ولا عمل. قلتُ: وأجلِّي من هذا أن يحمل كلامُ أبي عُبَيْدَةَ على معنى أنَّه لا يقبل منها عدلُها؛ لاختلال شرطه، وهو الإيمان، و ﴿أُتْسِلُوا﴾: معناه: أُسْلِمُوا بما آجترحوه من الكُفْرِ، والحميم: الماء الحارُّ؛ ومنه: الحَمَام، والحَمَّة.

وقوله سبحانه: ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾، المعنى: قل في احتجاجك: أنطبع رأيكم في أن ندعو من دون الله، والدعاء: يعم العبادة وغيرها؛ لأنَّ مَنْ جعل شيئاً موضعَ دعائه، فإياه يعبُدُ، وعليه يتوكَّل، و ﴿ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾: يعني: الأصنام، ﴿ونزد على أعقابنا﴾: تشبيه بمشي القهقري، وهي المشية الدنيَّة؛ فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خيرٍ إلى شرٍّ.

وقوله سبحانه: ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾ في الكلام حذف، تقديره: ردًّا كَرَدَ الذي، و ﴿استهوته﴾: بمعنى: استدعتْ هواه وأمالته، و ﴿هدانا﴾: بمعنى: أرشدنا، فسباقُ هذا المثل كأنه قال: أَيْضَلُحُ أن نكون بعد الهدى نعبد الأصنام؛ فيكون ذلك مثلاً ارتداداً على العقب؛ فنكون كَرَجُلٍ على طريق واضح، فاستهوته عنه الشياطين، فخرج عنه إلى دعوتهم، فبقي حائراً.

= شرحها الزمخشري في «أعجب العجب».

ينظر: «الأعلام» (٨٥/٥)، «الأغاني» (٢١/ ١٣٤-١٤٣)، «المقتطف» (١٨٦/٦)، «خزانة الأدب» (٢/ ١٦-١٨).

(١) البيت في ديوانه (٣٦)، و «المفتالين» لابن حبيب (٨٧٣)، و «الحماسة» (٢٤٢)، «العقد الفريد» (١/ ٥٣)، «محاضرات الراغب» (١٢٨٧)، وابن أبي الحديد (٢/ ٢٩٤)، وفي «الحيوان» (١٥٣/٦) لتأبط شراً، وفي «المرضى» (١٥٨/٣)،

(٢) ذكره ابن عطية (٢/ ٣٠٦).

(٣) ينظر الطبري (٥/ ٢٣٠).

(٤) ينظر: «المحرر» (٢/ ٣٠٦).

وقوله: ﴿له أصحاب﴾: يريد: له أصحاب على الطريق الذي خَرَجَ منه، فيسبِّه بالأصحاب على هذا المؤمنون الذين يَدْعُونَ مَنْ أَرْتَدَّ إِلَى الرجوع إلى الهدى، وهذا تأويل مجاهد وابن عباس^(١)، و ﴿أَتَيْنَا﴾: من الإتيان، بمعنى المجيء، وقول من قال: إن المراد بـ ﴿الذي﴾؛ في هذه الآية: عبد الرحمن بن أبي بكرٍ: وبالأصحاب: أبواه - قول ضعيف؛ يرده قول عائشة في الصحيح: «مَا نَزَلَ فِينَا مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ إِلَّا بَرَاءَتِي»، قلت: تريد وقصة الغار؛ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ...﴾ [النور: ٢٢]؛ إذ نزلت في شأن أبي بكر، وشأن مسطح^(٢).

قال * ع^(٣): * حدثني أبي (رضي الله عنه) قال: سمعتُ الفقيه الإمام أبا عبد الله المعروف بالنخوي المجاور بمكة، يقول: مَنْ نازع أحداً من المُلْحِدِينَ، فإنما ينبغي أن يردَّ عليه بالقرآن والحديث؛ فيكون كَمَنْ يدعو إلى الهدى بقوله: ﴿أَتَيْنَا﴾، ومَنْ ينازعهم بالجدل، ويحلِّق عليهم به، فكأنه بُعد من الطريق الواضح أكثر، ليردَّ هذا الزائغ/، فهو ١٧٢ يخاف عليه أن يضلَّ.

قال * ع^(٤): * وهذا انتزاع حسن جداً، وباقى الآية يبيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾، أي: لم يخلقها باطلاً غير معنًى، بل لمعانٍ مفيدة، وحقائق بيَّنة.

وقوله سبحانه: ﴿ويوم يقول﴾ «يوم»: نصب على الظرف، وتقدير الكلام: وأذكر الخلق والإعادة يَوْمَ، وتحتل الآيات مع هذا أن يكون معناها، وأذكر الإعادة يَوْمَ يقول الله للأجساد: كوني معادةً.

وقوله تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور﴾، الجمهور أنَّ الصُّورَ هو القرن الذي قال فيه

(١) أخرجه الطبري (٢٣٣/٥) برقم (١٣٤٣١) بنحوه عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٣٠٧/٢).

(٢) مسطح بن أثانة: بن عباد بن المطلب بن عبد مناف بن قصي المطلبي. كان اسمه عوفاً، وأما مسطح فهو لقبه؛ وأمه بنت خالة أبي بكر، أسلدت، وأسلم أبوها قديماً؛ وكان أبو بكر يموّنه لقربته منه، ومات مسطح سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان؛ ويقال: عاش إلى خلافة علي، وشهد معه صفين، ومات في تلك السنة سنة سبع وثلاثين.

ينظر: «الإصابة» (٧٤/٦)، «طبقات ابن سعد» (٣٦/١/٣)، «أسد الغابة» (ت ٤٨٧٢)، «الاستيعاب» (ت ٢٥٧٩)، «حلية الأولياء» (٢/٢٠)، «تهذيب الأسماء واللغات» (٨٩/٢)، «العبر» (٣٥/١).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣٠٧/٢).

(٤) ينظر: «المحرر» (٣٠٨/٢).

النبي ﷺ: «إِنَّهُ يُنْفَخُ فِيهِ لِلصَّعِقِ ثُمَّ لِلْبَغْتِ»^(١)، وباقي الآية بين .

❖ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٦﴾
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيَكُوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ❖ ﴿٧٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، قال الطبري^(٢): نبه الله نبينا محمداً ﷺ على الاقتداء بإبراهيم في محابته قومه؛ إذ كانوا أهل أضنام، وكان قوم النبي ﷺ أهل أضنام، وقوله: ﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾: مفعولان، وذكر أن أزرأبا إبراهيم - عليه السلام - كَانَ تَجَارًا مَحْسَنًا، ومهندسًا، وكان تُمرود يتعلّق بالهندسة والنجوم، فَحَظِيَ عنده أزر لذلك، وكان عَلَى خُطَّةٍ عَمِلَ الْأَصْنَامُ تُعْمَلُ بأمره وتذبيره، وَيَطْبَعُ هو في الصنم بِخَتَمٍ معلوم عنده؛ وحيثُ يُغَبَّدُ ذلك الصنم، فلما نشأ إبراهيم أبْنُهُ على الصفة التي تأتي بغد، كَانَ أَبُوهُ يَكْلِفُهُ بيعها، فكان إبراهيم ينادي عليها: مَنْ يَشْتَرِي ما يضرُّه ولا ينفعه، ويستخفُّ بها، ويجعلها في الماء منكوسة، ويقول لها: أَشْرِبِي، فلما أَشْتَهَرَ أمره بذلك، وأخذ في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ، قال لأبيه هذه المقالة، و ﴿أَرَاكَ﴾؛ في هذا الموضع: يشترك فيها القلب والبصر، و ﴿مُبِينٍ﴾: بمعنى: ظاهر واضح.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الآية المتقدمة تقضي بهداية إبراهيم - عليه السلام -، والإشارة بـ «ذلك» هي إلى تلك الهداية، أي: وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكُفر، أريناه ملكوت، و ﴿نُرِي﴾: لفظها: الاستقبال، ومعناها: المضى، وهذه الرؤية قيل: هي رؤية البصر، ورؤي في ذلك؛ أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ فرج لإبراهيم - عليه السلام - السموات والأرض؛ حتَّى رأى ببصره الملكوت الأعلى، والملكوت الأسفل؛ وهذا هو قول مجاهد^(٣) قال: تفرَّجت له السموات والأرضون، فرأى

(١) أخرجه البخاري (١١٦/٨) كتاب «التفسير»، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ حديث (٤٦٠٤)، ومسلم (١٨٤٣/٤) كتاب «الفضائل»، باب من فضائل موسى عليه السلام، حديث (٢٣٧٣/١٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) ينظر: الطبري (٢٣٨/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٢٤٢/٥) بقرم (١٣٤٥٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١١/٢) وذكره ابن كثير (١٥٠/٢) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٤/٣) وعزاه لآدم بن أبي إياس، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي عن مجاهد بنحوه.

مكانه في الجنة، وبه قال سعيد بن جبير، وسلمان الفارسي^(١)، وقيل: هي رؤية بصر في ظاهر الملكوت، وقع له معها من الاعتبار ورؤية القلب: ما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بُعِثَ إليهم؛ قاله ابن عباس^(٢) وغيره، وقيل: هي رؤية قلب، رأى بها ملكوت السموات والأرض بفكرته ونظره، و ﴿مَلَكُوتٌ﴾: بناء مبالغية، وهو بمعنى الملك، والعرب تقول: لفلان مَلَكُوتُ اليمَن، أي: مُلْكُهُ، واللام في: ﴿لَيَكُونُ﴾: متعلقة بفعل مؤخر، تقديره: وليكون من الموقنين، أَرَيْنَاهُ، والموقن: العالم بالشيء علماً لا يمكن أن يطرأ له فيه شك، وروي عن ابن عباس في تفسير: ﴿وليكون من الموقنين﴾ قال: جَلَى له الأمور سرّها وعلايتها، فلم يَخَفْ عليه شيء من أعمال الخلائق^(٣)، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب، قال الله له: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ هذا، فَرَدَّهُ لا يَرَى أعمالهم.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي...﴾ الآية: جَنَّ اللَّيْلُ: سَتَرَ وغطى بظلامه، ذهب ابن عباس/ وناسٌ كثيرون إلى أنَّ هذه القصة وقعت في ١٧٢ ب حال صباه وقبل البلوغ والتكليف^(٤)، ويحتمل أن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلفاً، وحكى الطبري هذا عن فرقة، وقالت: إنه استفهم قومه؛ على جهة التوقيف والتوبيخ، أي: هذا ربي، وحكي أن النمرود جَبَّارٌ ذلك الزمان رأى له منجموه أن مولوداً يولد في سنة كذا في عمله يكون خرابُ الملك على يديه، فجعل يتتبع الحبالى، ويوكل بهن حُرَّاساً، فمن وضعت أنثى، تُركت، ومن وضعت ذكراً، حمل إلى الملك فذبَّحه، وأن أم إبراهيم حملت، وكانت شابة قوية، فسَترت حملها، فلما قربت ولادتها، بعثت أبا إبراهيم إلى

(١) أخرجه الطبري (٢٤٢/٥) رقم (١٣٤٥٥، ١٣٤٥٦) بنحوه، وذكره البغوي (١٠٨/٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١١/٢)، وذكره ابن كثير (١٥٠/٢) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٥/٣)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن سلمان.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤١/٥) رقم (١٣٤٤٥) بنحوه، وذكره البغوي (١٠٨/٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١١/٢)، وذكره ابن كثير (١٥٠/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٤٣/٥) رقم (١٣٤٦٤)، وذكره ابن عطية (٣١٢/٢)، وذكره ابن كثير (١٥٠/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٢٤٥/٥) رقم (١٣٤٦٨) بنحوه عن ابن عباس، وذكره ابن كثير (١٥١/٢) بنحوه.

سَفَر، وتحِيلَت لمضِيَّهِ إِلَيْهِ، ثُمَّ خَرَجَتْ هِيَ إِلَى غَارٍ، فَوَلَدَتْ فِيهِ إِبْرَاهِيمَ، وَتَرَكْتَهُ فِي الْغَارِ، وَكَانَتْ تَتَفَقَّدُهُ فَوَجَدَتْهُ يَتَغَدَّى بِأَنْ يَمَصَّ أَصَابِعَهُ، فَيَخْرُجُ لَهُ مِنْهَا عَسَلٌ وَسَمْنٌ وَنَحْوُ هَذَا، وَحِكْمِي: بَلْ كَانَ يَغْذِيهِ مَلَكٌ، وَحِكْمِي: بَلْ كَانَتْ أُمُّهُ تَأْتِيهِ بِالْبَلَانِ النِّسَاءِ الَّتِي ذُبِحَ أَبْنَاؤُهُنَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَيْ ذَلِكَ كَانَ، فَشَبَّ إِبْرَاهِيمَ أَضْعَافٌ مَا يَشَبُّ غَيْرُهُ، وَالْمَلِكُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ يَحْسُ بُولَادَتِهِ، وَيَشْدُدُّ فِي طَلَبِهِ، فَمَكَثَ فِي الْغَارِ عَشْرَةَ أَعْوَامٍ، وَقِيلَ: خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَنَّهُ نَظَرَ أَوَّلَ مَا عَقَلَ مِنَ الْغَارِ، فَرَأَى الْكَوَاكِبَ، وَجَرَتْ قِصَّةُ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

فَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّهُ وَقَعَتْ لَهُ الْقِصَّةُ فِي الْغَارِ فِي حَالِ الصَّبُوءِ، وَعَدِمَ التَّكْلِيفِ؛ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، وَيَحْتَمِلُهُ اللفظُ، فَذَلِكَ يَنْقَسِمُ عَلَى وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَجْعَلَ قَوْلَهُ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ تَصْمِيمًا وَأَعْتِقَادًا، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ لَمْ يَقَعْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -، وَإِمَّا أَنْ نَجْعَلَهُ تَعْرِيزًا لِلنَّظَرِ وَالْإِسْتِدْلَالِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَهَذَا الْمُنِيرُ الْبَهِيُّ رَبِّي؛ إِنْ عَصَدَتْ ذَلِكَ الدَّلَائِلُ.

وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْقِصَّةَ وَقَعَتْ لَهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ، وَهُوَ مَكْلَفٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ هَذَا مَصْمُومًا وَلَا مُعَرِّضًا لِلنَّظَرِ؛ لِأَنَّهَا رَتَبَةٌ جَهْلٍ أَوْ شَكٍّ، وَهُوَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَنْزَعٌ مَعْصُومٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَقُولَهَا عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيرِ لِقَوْمِهِ وَالتَّوْبِيخِ لَهُمْ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَهَذَا الْمُنِيرُ رَبِّي، وَهُوَ يَرِيدُ: عَلَى زَعْمِكُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [النحل: ٢٧]، أَيْ: عَلَى زَعْمِكُمْ، ثُمَّ عَرَضَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَرَكَةِ الْكَوْكَبِ وَأَفْوَلِهِ أَمَارَةَ الْحُدُوثِ، وَأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا، ثُمَّ فِي آخِرِ أَعْظَمِ مِنْهُ وَأُخْرَى كَذَلِكَ، ثُمَّ فِي الشَّمْسِ كَذَلِكَ؛ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَإِذَا بَانَ فِي هَذِهِ الْمُنِيرَاتِ الرَّفِيعَةِ؛ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ لِلرَّبُوبِيَّةِ، فَأَصْنَامُكُمْ الَّتِي هِيَ خَشَبٌ وَحِجَارَةٌ أُخْرَى أَنْ يَبِينَ ذَلِكَ فِيهَا؛ وَيَعْضُدُ عِنْدِي هَذَا التَّأْوِيلَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، قُلْتُ: وَإِلَى تَرْجِيحِ هَذَا أَشَارَ عِيَاضُ فِي «الشِّفَاءِ»؛ قَالَ: وَذَهَبَ مَعْظَمُ الْحُذَّاقِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَبْكَتًا لِقَوْمِهِ، وَمُسْتَدْلًا عَلَيْهِمْ.

قَالَ * ع^(٢) * : وَمَثَّلَ لَهُمْ بِهَذِهِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ عِلْمٍ نَجُومٍ وَنَظَرٍ فِي الْأَفْلَاقِ، وَهَذَا الْأَمْرُ كُلُّهُ إِنَّمَا وَقَعَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، رَأَى الْكَوْكَبَ، وَهُوَ الزُّهْرَةُ فِي قَوْلِ

(١) ذكره ابن عطية (٢/٣١٢).

(٢) ينظر: «المحرر» (٢/٣١٣).

قتادة^(١)، وقال السُّدِّيُّ: هو المشتري جانحاً إلى الغروب^(٢)، فلما أَقْلَ بزغ القمر، وهو أول طلوعه، فَسَرَى الليل أجمع، فلما بزغت الشمس، زال ضوء القمر قبلها؛ لانتشار الصباح، وخَفِيَ نوره، ودنا أيضاً مِنْ مغربه، فسمي ذلك أفولاً؛ لقربه من الأفول الثام؛ على تجوُّز في التسمية، وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عَشَرَ من الشهر إلى ليلة عشرين، وليس يترتب في ليلة واحدة؛ كما/ أجمع أهل التفسير، إلا في هذه الليالي، وبذلك يصح ١٧٣ أ التجوُّز في أفول القمر، «وأقْل»؛ في كلام العرب: معناه: غاب، وقيل: معناه: ذهب، وهذا خلاف في العبارة فقط، والبزوغ في هذه الأنوار: أول الطلوع، وما في كون هذا الترتيب في ليلة من التجوُّز في أفول القمر؛ لأن أفوله لو قدرناه مغيبه، لكان ذلك بعد بزوغ الشمس، وجميع ما قلناه يعطيه الاعتبار، و «يهديني»: يرشدني؛ وهذا اللفظ يؤيد قول من قال: إن القصة في حال الصُّغَر، والقوم الضالُّون هنا عبدة المخلوقات؛ كالأصنام وغيرها، ولما أَقْلَتِ الشمس، لم يبق شيء يمثل لهم به، فظهرت حُجَّتُه، وقوي بذلك على مناذتهم والتبري من إشراكهم، وقوله: «إني بريء مما تُشركون»: يؤيد قول من قال: إن القصة في حال الكبر والتكليف، و «وجَّهْتُ وجهي»، أي: أقبلت بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني للذي فطر السموات والأرض، أي: اخترعها و «حنيفاً»: أي مستقيماً، والحنف: الميل؛ فكانه مال عن كل جهة إلى القوام.

﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وحاجه قومه قال أحتاجوني في الله﴾، أي: أترجعوني في الحجة في توحيد الله، ﴿وقد هذان﴾، أي: قد أرشدني إلى معرفتي وتوحيده، ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾، الضمير في «به» يعود على «الله» والمعنى: ولا أخاف الأصنام التي تشركونها بالله في الربوبية، ويحتمل أن يعود على «ما»، والتقدير: ما تشركون بسببه، وقوله: ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾: استثناء ليس من الأول، و «شيئاً»: منصوب

(١) ذكره ابن عطية (٣١٣/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٦/٣) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٣١٣/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٦/٣) وعزاه لابن أبي حاتم، عن السدي بنحوه.

بـ ﴿يَشَاءُ﴾، ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضرراً، استثنى مشيئة ربه تعالى في أن يريد بضرّاً، و ﴿عِلْماً﴾: نصب على التمييز، وهو مصدر بمعنى الفاعل؛ كما تقول العرب: تَصَبَّبَ زَيْدٌ عَرَقاً، المعنى: تَصَبَّبَ عَرَقٌ زَيْدٌ؛ فكذلك المعنى هنا وسع علم ربي كُلَّ شَيْءٍ، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: توقيف وتنبية وإظهار لموضع التقصير منهم، وقوله: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم...﴾ الآية إلى ﴿تعلمون﴾، هي كلها من قول إبراهيم - عليه السلام - لقومه، وهي حجة القاطعة لهم، والمعنى: وكيف أخاف أصناماً لا خطب لها، إذ نبذتها، ولا تخافون أنتم الله عز وجل، وقد أشركتم به في الربوبية ﴿ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ والسلطان: الحجة، ثم استفهم؛ على جهة التقرير: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾، مني ومنكم ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾، قال أبو حيان^(١): ﴿وكيف﴾: استفهام، معناه التعجب والإنكار. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...﴾ الآية، قال ابن إسحاق، وابن زيد، وغيرهما: هذا قول من الله عز وجل ابتداء حكم فضله عام لوقت الحاجة إبراهيم وغيره، ولكل مؤمن^(٢) تقدّم أو تأخّر.

قال * ع^(٣) *: هذا هو البين الفصيح الذي يرتبط به معنى الآية، ويحسن رصفها، وهو خبر من الله عز وجل، و ﴿يلبسوا﴾: معناه: يخلطوا، والظلم؛ في هذا الموضع: الشرك؛ تظاهرت بذلك الأحاديث الصحيحة، وفي قراءة^(٤) مجاهد: «وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ» ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، أي: راشدون.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(٥٣)
 وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
 وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(٥٤)
 الصَّالِحِينَ^(٥٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ^(٥٦) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾: «تلك»: إشارة إلى هذه الحجة المتقدمة.

وقوله سبحانه: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾، «الدرجات»: أصلها في الأجسام، ثم

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ١٧٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٢٥٠) رقم (١٣٤٧٧، ١٣٤٧٨) بنحوه وذكره ابن عطية (٢/ ٣١٦).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣١٦).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣١٥)، و «البحر المحيط» (٤/ ١٧٥-١٧٦).

تستعملُ في المراتبِ والمنازلِ المعنويَّة.

وقوله سبحانه: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب...﴾ الآية: ﴿ووهبنا﴾: عطفٌ على «آتيناه» وإسحاق ابنُه من سارة، ويعقوبُ هو ابنُ إسحاق، وقوله: ﴿ومن ذريته﴾: المعنى: وهدينا من ذريته، والضميرُ في «ذريته» قال الزَّجَّاجُ^(١): جائزٌ أن يعود على إبراهيم، ويعترض هذا بذكرِ لوط - عليه السلام -؛ إذ ليس هو من ذرية إبراهيم، بل هو ابنُ أخيه، وقيل: ابنُ أختِهِ، ويتخرج ذلك عند مَنْ يرى الخالَ أباً، وقيل: يعود الضميرُ على نُوح، وهذا هو الجيد، ونضُبُ/ ﴿داود﴾: يحتملُ أن يكون بـ ﴿وهبنا﴾، ويحتملُ أن يكون ١٧٣ بـ ﴿هديناه﴾، وكذلك نجزي المحسنين: وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ لمن أحسنَ في عبادته، وترغيبٌ في الإحسان، وفي هذه الآية أن عيسى - عليه السلام - من ذرية نوح أو إبراهيم؛ بحسب الاختلاف في عود الضمير من «ذريته»، وهو ابنُ أخته؛ وبهذا يستدلُّ في الأحباس على أن ولد البنت من الذرية، ويونسُ هو ابنُ مَتَّى، ﴿وكلاً فضَّلنا على العالمين﴾: معناه: عالمي زمانهم.

﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَتْهُ قُلُوبُهُمْ لَا تَسْمَعُ لَهُمْ جَوَارِحُ رِقَابِهِمْ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن آبائهم وذرياتهم﴾: المعنى: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات، ف «مِن» للتبعيض، والمراد: مَنْ آمن منهم، نبياً كان أو غير نبى، و «اجتبييناهم»، أي: تخيرناهم وهديناهم، أي: أُرشدناهم إلى الإيمان، والفوز برضا الله عزَّ وجلَّ، والذرية: الأبناء، ويطلقُ على جميع البشر ذرية؛ لأنهم أبناء.

وقوله تعالى: ﴿ذلك هدى الله...﴾ الآية: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى النعمة في قوله: ﴿وآجبتيناهم﴾ و «أولئك»: إشارة إلى مَنْ تقدَّم ذكره، والكتابُ يراد به الصُّحُفُ والتوراة والإنجيل والزُّبور.

وقوله سبحانه: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾: إشارة إلى كفار قريش، وإلى كلِّ كافر في ذلك العصر؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢)، وقوله: ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾:

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/٢٦٩).

(٢) أخرجه الطبري (٥/٢٦٠) رقم (١٣٥٣٠)، وذكره البغوي (٢/١٤)، وذكره ابن عطية (٢/٣١٨)، =

هم مؤمنو أهل المدينة؛ قاله ابن عباس وغيره^(١)، والآية على هذا التأويل، وإن كان القصد بنزولها هذين الصنفين، فهي تعم الكفرة والمؤمنين إلى يوم القيامة، وقال الحسن وغيره: المراد بـ «القوم»: مَنْ تَقَدَّمَ ذكره من الأنبياء والمؤمنين^(٢)، وقال أبو رجاء: المراد: الملائكة^(٣).

قلت: ويحتمل أن يكون المراد الجميع.

وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فبهداهم آفَتْه﴾، والظاهر في الإشارة بـ «أُولَئِكَ» إلى المذكورين قبل من الأنبياء وَمَنْ معهم من المؤمنين المهديين، ومعنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه ﷺ بجميعهم في العقود، والإيمان، والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأما أعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وأعلم أن النبي ﷺ هو وغيره مخاطب بشرع مَنْ قبله في العقود والإيمان والتوحيد^(٤)؛ لأننا نجد شرعنا ينبيء أن الكفار الذين كانوا قبل النبي ﷺ كَأَبَوْنِهِ وغيرهما في النار، ولا يَدْخُلُ اللَّهُ تعالى أحداً النار إلا بترك ما كُلِّفَ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وغير ذلك، وقاعدة المتكلمين: أن العقل لا يوجب ولا يكلف، وإنما يوجب^(٥) الشزغ، فالوجه في هذا أن يقال: إن آدم - عليه السلام - فَمَنْ بعده، دعا إلى توحيد الله (عز وجل) دعاء عاماً، وأستمر ذلك على العالم، فواجب على الآدمي أن

= وذكره ابن كثير (١٥٥/٢) بنحوه. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس بنحوه.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٦/٥) رقم (١٣٥٣٠)، وذكره البغوي (١١٤/٢)، وذكره ابن عطية (٣١٦/٢)، وذكره ابن كثير (١٥٥/٢) بنحوه وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٣١٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦٠/٥) رقم (١٣٥٣١)، وذكره البغوي (١١٤/٢) وذكره ابن عطية (٣١٨/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢/٣)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن أبي رجاء بنحوه.

(٤) ينظر: «أحكام الآدمي» (١٢١/٤)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (١٣٩)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٤٤٢/١)، «حاشية البناني» (٣٥٢/٢)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٤/١٩١)، «حاشية المطار على جمع الجوامع» (٣٩٣/٢)، «المعتمد» لأبي الحسين (٣٣٦/٢)، «التحرير» لابن الهمام (٣٥٩)، «تيسير التحرير» لأمير بادشاه (١٢٩/٣).

(٥) تقدم الكلام على الحسن والقبح.

يبحث عن الشرع الأمر بتوحيد الله تعالى، وينظر في الأدلة المنصوبة على ذلك؛ بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ويؤمن، ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم بشرع أمر بتوحيد الله، وهو مع ذلك لم يكفر، ولا عبد صنماً، بل تخلّى، فأولئك أهل الفترات الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصّر في النظر والبحث، فعبد صنماً أو غيره، وكفر، فهو تارك للواجب عليه، مستوجب للعقاب بالنار، فالنبي ﷺ قبل مبعثه ومن كان معه من الناس وقبله - مخاطبون على ألسنة الأنبياء قبل بالتوحيد، وغير مخاطبين بفروع^(١) شرائعهم؛ إذ هي مختلفة، وإذ لم يدعهم إليها نبي؛ قال/ الفخر^(٢): واحتج العلماء بهذه الآية على أن محمداً ﷺ أفضل من جميع^{١٧٤} الأنبياء - عليهم السلام -؛ وتقريره: أنا بيّننا أن خصال الكمال وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم، ثم إنه تعالى، لما ذكر الكل، أمر محمداً ﷺ أن يجمع من خصال الطاعة والعبودية والأخلاق الحميدة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم، ولما أمره الله تعالى بذلك، امتنع أن يقال: إنه قصّر في تحصيلها؛ فثبت أنه حصلها، ومتى كان الأمر كذلك، ثبت أنه اجتمع فيه من خصال الخير ما كان فيهم مفرقاً بأسرهم، ومتى كان الأمر كذلك، وجب أن يقال: إنه أفضلهم بكلّيتهم؛ والله أعلم. انتهى.

وقرأ حمزة^(٣) والكسائي: «فِيهِدَاهُمْ أَقْتَدِ» - بحذف الهاء في الوصل، وإثباتها في الوقف -، وهذا هو القياس شبيهة بألف الوصل في أنها تقطع في الابتداء، وتسقط في الوصل.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: قل لهؤلاء الكفرة المعاندين: لا أسألكم على دعائي إياكم بالقرآن إلى عبادة الله تعالى - أجره؛ إن هو إلا موعظة وذكرى

(١) ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٣/٣٦)، «التمهيد» للأسنوي ص (٣٦٤)، و «نهاية السؤل» له (١/٣٥٩)، «زوائد الأصول» (ص ١٧٩)، «منهاج العقول» للبدخشي (١/٢٠٣)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (١/٣٢١)، «المنحول للغزالي» ص (٣١)، «الإبهاج» لابن السبكي (١/١٧٧)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (١/٢٨٥)، «تخريج الفروع على الأصول» للزنجاني (ص ٩٨)، «كشف الأسرار» للنسفي (١/١٣٧)، «شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (١/٢١٣)، «نسمات الأسحار» لابن عابدين (ص ٦٠)، «ميزان الأصول» للسمرقندي (١/٣٠٤)، «البرهان في أصول الفقه» (١/١٠٧)، «أصول الفقه» لمحمد أبي النور زهير (١/١٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٣/٥٨).

(٣) وحجة الباقيين بإثبات الهاء في الوصل أنها مثبتة في المصحف، فكروها إسقاط حرف من المصاحف.

ينظر: «حجة القراءات» (٢٦٠)، و «السبعة» (٢٦٢)، و «الحجة» (٣/٣٥٠، ٣٥١)، و «إعراب القراءات» (١/١٦٤)، و «العنوان» (٩١)، و «إتحاف» (٢/٢١).

ودعاء لجميع العالمين .

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية: قال ابن عباس: هذه الآية نزلت في بني إسرائيل^(١)، قال الثَّقَافُش: وهي آية مدنية، وقيل: المراد رجلٌ مخصوص منهم، يقال له مالكُ بنُ الصَّيْفِ؛ قاله ابن جُبَيْر^(٢)، وقيل: فنحاص؛ قاله السُّدِّي^(٣)، و﴿قَدَرُوا﴾: هو من توفية القدر والمنزلة، وتعليقه بقولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾: يقضي بأنهم جهلوا، ولم يعرفوا الله حق معرفته؛ إذ أحالوا عليه بعثة الرُّسل، قال الفُخْر^(٤): قال ابن عباس: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه^(٥)، وقال الأخفش: ما عَرَفُوهُ حق معرفته، وقال أبو العالية: ما وصفوه حق قدرته وعظمته، وهذه المعاني كلها صحيحة. انتهى، وروي أن مالك بن الصَّيْفِ كان سَمِيناً، فجاء يخاصم النبي ﷺ بزعمه، فقال له رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشُدُّكَ اللَّهُ، أَلَسْتَ تَقْرَأُ فِيمَا أَنزَلَ عَلَى مُوسَى: إِنَّ اللَّهَ يَنْغَضُ الْجَبَرِ السَّمِينِ»^(٦)، فغَضِبَ، وقال: «وَاللَّهِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ»، قال الفُخْر^(٧): وهذه الآية تدلُّ على أن النكرة في سياق النفي^(٨) تعم، ولو لم تفد العموم، لما كان قوله

(١) أخرجه الطبري (٢٦٣/٥) رقم (١٣٥٤٤) بنحوه، وذكره البغوي (١١٤/٢)، وذكره ابن عطية (٢/٣٢٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٣/٣) وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٢/٥) برقم (١٣٥٣٩) بنحوه، وذكره البغوي (١١٤/٢)، وذكره ابن عطية (٢/٣٢٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٣/٥) برقم (١٣٥٤١)، وذكره البغوي (١١٤/٢)، وذكره ابن عطية (٢/٣٢٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٣/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن السدي.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٦٠/١٣).

(٥) أخرجه الطبري (٢٦٤/٥) برقم (١٣٥٤٥) بنحوه.

(٦) ذكره الزبيلي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/٤٤٢-٤٤٣) رقم (٤٥٠)، وعزاه للطبري، والواحدي في «أسباب النزول».

(٧) ينظر: «تفسير الرازي» (٦٣/١٣).

(٨) «البحر المحيط» (٣/١١٠ - ١٢٢)، «تقريب الوصول إلى علم الأصول» (ص ٧٥)، «نهاية السؤل» =

تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ - إبطالاً لقولهم ونقضاً عليهم. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾، يعني: التوراة، و ﴿قِرَاطِيسَ﴾: جمع قِرْطَاس، أي: بطائق وأوراقاً، وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم أمر محمد ﷺ وجميع ما عليهم فيه حجة.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يقصد به الامتنان عليهم، وعلى آبائهم.

والوجه الثاني: أن يكون المقصود ذمهم، أي: وعلمتم أنتم وآبائكم ما لم تعلموه، فما أنفعتم به؛ لإعراضكم وضلالكم.

ثم أمره سبحانه بالمبادرة إلى موضع الحجة، أي: قل الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى، ثم أمره سبحانه بترك من كفر، وأعرض، وهذه آية منسوخة بآية القتال؛ إن تَوَلَّتْ موادة، ويحتمل ألا يدخلها نسخ إذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادة.

وقوله سبحانه: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾: «هذا»: إشارة إلى القرآن، وقوله: ﴿مصدق الذي بين يديه﴾، يعني: التوراة والإنجيل؛ لأن ما تقدم، فهو بين يدي ما تأخر، و ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾: مكة، ثم ابتدأ تبارك وتعالى بمذح قوم وصفهم، وأخبر عنهم؛ أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور، ويؤمنون بالقرآن، ويصدقون بحقيقته، ثم قوَّى عز وجل مدحهم بأنهم يحافظون على صلاتهم التي هي قاعدة العبادات، وأُمُّ الطاعات، وإذا أنصرفت الصلاة إلى ضمير، لم تكتب/ إلا بالالف، ولا تكتب في المصحف بواو إلا إذا لم تُضَفْ ١٧٤ ب إلى ضمير.

وقد جاءت آثار صحيحة في ثواب من حافظ على صلاته، وفي فضل المشي إليها؛ ففي «سنن أبي داود»، عن بُرَيْدَةَ، عن النبي ﷺ قَالَ: «بَشِّرِ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى

= (٣٢٩/٢)، «الحاصل من المحصول» (٥١٠/١)، «التمهيد» للأسنوي ص (٣١٨-٣٢٤)، «البدخشي على المنهاج» (٨٤/٣)، «الإبهاج في شرح المنهاج» (١٠٦/٢)، «الأحكام» (١٩٠/٢)، «ميزان الأصول» (ص ٤٠٢)، «البرهان» (٣٣٧-٣٣٩)، «تنقيح الفصول» (ص ١٨١)، «شرح الكوكب المنير» (٣/ ١٣٦-١٣٧) «نشر البنود» (٢١٠/١)، «شرح المنهاج» للأصفهاني (٣٥٤/١)، «التحرير» (ص ٧٠)، «كشف الأسرار» (١/ ١٨٥-١٨٦).

الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وروى أبو داود أيضاً بسنده، عن سعيد بن المسيّب، قال: حضر رجلاً من الأنصار الموت، فقال: إني محدثكم حديثاً ما أحدثكموه إلا احتساباً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ، فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، لَمْ يَرْفَعْ قَدَمَهُ الْيُمْنَى إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً، وَلَمْ يَضَعْ قَدَمَهُ الْيُسْرَى إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّئَةً، فَلْيَقْرُبْ أَوْ لِيُبْعِدْ، فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ، فَصَلَّى فِي جَمَاعَةٍ، غُفِرَ لَهُ، فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ، وَقَدْ صَلَّوْا بَعْضًا، وَبَقِيَ بَعْضٌ، صَلَّى مَا أَدْرَكَ وَأَتَمَّ مَا بَقِيَ - كَانَ كَذَلِكَ فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ، وَقَدْ صَلَّوْا، فَأَتَمَّ الصَّلَاةَ، كَانَ كَذَلِكَ»^(٢)، وأخرج أبو داود، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ رَاحَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا، أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلَّاهَا أَوْ حَضَرَهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجُورِهِمْ»^(٣) انتهى.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٣)

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٩/١) كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم، حديث (٥٦١)، والترمذي (٤٣٥/١) كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في جماعة، حديث (٢٢٣) والبخاري في «شرح السنة» (٢/ ١١٨ - بتحقيقنا) والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٧٥٢) من حديث بريدة.

وأخرجه ابن ماجه (٢٥٦/١) كتاب «المساجد»، باب المشي إلى الصلاة، حديث (٧٨٠) والحاكم (١/ ٢١٢) وابن خزيمة (١٤٩٨، ١٤٩٩)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٠٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وأخرجه ابن ماجه (١/ ٢٥٦ - ٢٥٧) كتاب «المساجد»، باب المشي إلى الصلاة، حديث (٧٨١) والحاكم (١/ ٢١٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٥١). من حديث أنس. وقال البوصيري في «الزوائد» (٢٧٦/١): هذا إسناد ضعيف سليمان بن داود قال فيه العقيلي: لا يتابع على حديثه.

وأخرجه أبو يعلى (٢/ ٣٦١) رقم (١١١٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٣/٢): رواه أبو يعلى، وفيه عبد الحكم بن عبد الله، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٩/١ - ٢١٠) كتاب «الصلاة»، باب ما جاء في الهدى في المشي إلى الصلاة، حديث (٥٦٣) وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى أبي داود.

(٣) أخرجه أبو داود (٢١٠/١) كتاب «الصلاة»، باب فيمن خرج يريد الصلاة، فسبق إليها، حديث (٥٦٤).

شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﷻ، هذه ألفاظ عامة، فكل من واقع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ، فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالى، وقال قتادة^(١) وغيره: المراد بهذه الآيات مُسَيِّمَةٌ^(٢)، والأسود العنسي^(٣).

قال عكرمة^(٤): أولها في مُسَيِّمَةٍ، والآخر في عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ^(٥)، وقيل: نزلت في النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وبالجملة فالآية تتناول من تعرض شيئاً من معانيها إلى يوم القيامة؛ كطليحة الأَسَدِيِّ^(٦)، والمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُيَيْدٍ وسواهما.

(١) أخرجه الطبري (٢٦٩/٥) رقم (١٣٥٦١، ١٣٥٦٢، ١٣٥٦٣) بنحوه، وذكره البغوي (١١٥/٢)، وذكره ابن عطية (٣٢٢/٢)، وذكره ابن كثير (١٥٧/٢) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٦)، وعزاه لأبي الشيخ عن قتادة.

(٢) أبو ثمامة مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي. متنبئ، من المعمرين، ولد ونشأ بـ «اليمامة» بوادي حنيفة، في نجد، تلقب في الجاهلية بـ «الرحمن»، وعرف بـ «رحمان اليمامة»، وقد أكثر مسيلمة من وضع أسجاع يضاهي بها القرآن، وكان مسيلمة ضئيل الجسم، قالوا في وصفه: «كان رُويحلاً، أصغر، أخنس»، ويقال: كان اسمه: «مسلمة»، وصغره المسلمون تحقيراً له. قتل سنة (١٢هـ) في معركة قادها خالد بن الوليد - في عهد أبي بكر الصديق - للقضاء على فتنته.

ينظر: «سيرة ابن هشام» (٧٤/٣)، و «الروض الأنف» (٣٤٠/٢)، و «الكامل» لابن الأثير (١٣٧/٢).

(٣) عييلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي، ذو الخمار: متنبئ مشعوذ، من أهل اليمن. كان بطاشاً جباراً. أسلم لما أسلمت اليمن، وارتد في أيام النبي ﷺ فكان أول مرتد في الإسلام. وادعى النبوة، وأرى قومه أعاجيب استهواهم بها، فاتبعته مذحج. وتغلب على نجران وصنعاء، واتسع سلطانه حتى غلب على ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن. وجاءت كتب رسول الله ﷺ إلى من بقي على الإسلام في اليمن، بالتحريض على قتله، فاغتاله أحدهم وكان مقتله قبل وفاة النبي ﷺ بشهر واحد. وقال البلاذري: سمي نفسه «رحمان اليمن» كما تسمى مسيلمة «رحمان اليمامة». ينظر: «الأعلام» (١١١/٥)، «جمهرة الأنساب» (٣٨١).

(٤) أخرجه الطبري (٢٦٨/٥) رقم (١٣٥٥٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٢/٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٦)، وعزاه لأبي الشيخ عن عكرمة.

(٥) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري، فاتح إفريقية، أسلم قبل الفتح، وهو من أهل «مكة»، كان من كتاب الوحي، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر. وكان والياً على «مصر». واعتزل الحرب التي دارت بين علي ومعاوية. مات بـ «عسقلان» وهو قائم يصلي، وأخباره كثيرة. ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (١٧٣/٣)، و «البداية والنهاية» (٢٥٠/٧)، و «الروض الأنف» (٢/٢٧٤)، و «الأعلام» (٨٨/٤ - ٨٩).

(٦) طليحة بن خويلد الأسدي، يقال له: «طليحة الكذاب»؛ لأنه ادعى النبوة، وله صيت في الشجاعة، وقد كان مسلماً ثم ارتد في حياة النبي ﷺ.

ينظر ترجمته في: «تهذيب ابن عساكر» (٨٩/٧)، و «الأعلام» (٢٣٠/٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...﴾ الآية: جواب «لو» محذوف، تقديره: «لَرَأَيْتَ عَجَبًا أَوْ هَوْلًا، ونَحْوُ هَذَا، وحَذَفُ هَذَا الجواب أبلغ في نفس السامع، و ﴿الظَّالِمُونَ﴾ لفظ عام في أنواع الظلم الذي هو كُفْر، و «الغَمَرَاتُ»: جمع غَمْرَة، وهي المَصِيبَةُ المَذْهِلَة، وهي مشبَّهة بغمرة الماء، والملائكة، يريد: ملائكة قَبَضُ الرُّوح، و ﴿بَاسَطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾: كناية عن مَدَّهَا بالمَكْرُوهِ، وهذا المكروه هو لا مَحَالَة أوائل العذاب، وأماراته، قال ابن عباس: يَضْرِبُونَ وجوههم وأدبارهم، وقوله: ﴿أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: حكاية لما تقولُه الملائكة^(١)، والتقدير: يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، وذلك على جهة الإهانة، وإذْخَال الرغبِ عليهم، ويحتمل: أخرجوا أنفسكم من هذه المصائب والمحن، إن كان ما زعمتموه حقًا في الدنيا، وفي ذلك توبيخٌ وتوقيفٌ على سالف فعلهم القبيح، قلت: والتأويل الأول هو الصحيح، وقد أسند أبو عمر في «التمهيد»، عن ابن وضاح، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، ثم ذكر سنده، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قَالَ: «الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحَ، قَالَتْ: أَخْرِجِي، أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرِجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، قَالَ: فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ، فَيَقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَذْخَلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ.، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، يَغْنِي: السَّابِعَة، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الشَّوْءَ، وَحَضَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ مَوْتِهِ، قَالَتْ: أَخْرِجِي، أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرِجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ...» وذكر الحديث^(٢). انتهى، و ﴿الهُونُ﴾: الهوان.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ...﴾ الآية: لفظ عام لأنواع الكفر، ولكنه يظهر منه الإنحاء على مَنْ قُرِبَ ذِكْرُهُ.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٩٤)

(١) ذكر ابن عطية (٣٢٣/٢) بنحوه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٢٣-١٤٢٤) كتاب «الزهد»، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٦٢) من حديث أبي هريرة.

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٣١٠-٣١١): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ الآية: هذه حكاية عما يقال لهم بعد قبض أرواحهم، وأعلم أيها الأخ؛ أن هذه الآية الكريمة ونحوها من الآي، وإن كان مساقها في الكفار، فللمؤمن الموقن فيها معتبر ومزجر، وقد قيل: إن القبر بخر الندامات، وقد روى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ»، قالوا: وَمَا نَدَامَتُهُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ مُحْسِنًا، نَدِمَ أَلَّا يَكُونُ أَزْدَادًا، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا، نَدِمَ أَلَّا يَكُونُ نَزَعٌ»^(١). انتهى.

و ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: تشبيهاً بالانفراد الأول في وقت الخلقة، و ﴿خَوَّلْنَاكُمْ﴾، معناه: أعطيناكم، و ﴿وراء ظهوركم﴾: إشارة إلى الدنيا؛ لأنهم يتركون ذلك موجوداً.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُم﴾: توقيف على الخطأ في عبادة الأصنام، واعتقادهم أنها تشفع وتقرّب إلى الله زلفى، قال^(٢) أبو حيان: ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾: لفظه لفظ المستقبل، وهو حكاية حال. انتهى.

وقرأ نافع^(٣) والكسائي: «بَيْنَكُمْ» - بالنصب -؛ على أنه ظرف، والتقدير: لقد تقطع الاتصال والارتباط بينكم، ونحو هذا، وهذا وجه واضح؛ وعليه فسر الناس؛ مجاهد وغيره^(٤)، وقرأ باقي السبعة: «بَيْنَكُمْ» - بالرفع -، وقرأ ابن مسعود^(٥) وغيره: «لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ»، و ﴿ضل﴾، معناه: تَلَفَ وَذَهَبَ، و ﴿ما كنتم تزعمون﴾، يريد: دعواهم أنها تشفع، وأنها تشارك الله في الألوهية، تعالى الله عن قولهم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٤/١٩٠).

(٣) وهي حفص عن عاصم، واستدلوا بقراءة ابن مسعود الآية: «لقد تقطع ما بينكم».

ينظر: «السبعة» (٢٦٣)، و «الحجة» (٣/٣٥٧)، و «إعراب القراءات» (١/١٦٤)، و «معاني القراءات» للأزهري (١/٣٧١)، و «حجة القراءات» (٢٦١)، و «العنوان» (٩٢)، و «شرح الطيبة» (٤/٢٦٤)، و «إتحاف» (٢٢/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٥/٢٧٤) رقم (١٣٥٧٨، ١٣٥٧٩) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٦٠)، وعزه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه.

(٥) ينظر: «الشواذ» (ص ٤٤)، و «الكشاف» (٢/٤٧)، و «المحرر الوجيز» (٢/٣٢٥) وزاد نسبتها إلى مجاهد والأعمش، وينظر: «البحر المحيط» (٤/١٨٦)، و «الدر المصون» (٣/١٢٨)، و «التخریجات النحوية والصرفية لقراءة الأعمش» (ص ٣٦٥).

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ تَوَفُكُونَ﴾ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ أَلَيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، هذا ابتداء تنبيه على العبرة والنظر، ويتصل المعنى بما قبله؛ لأن المقصد أن الله فالق الحب والنوى لا هذه الأصنام، قال قتادة وغيره: هذه إشارة إلى فعل الله سبحانه في أن يشق جميع الحب عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة منه^(١).

وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: الإشارة إلى إخراج الإنسان الحي من النطفة الميتة، وإخراج النطفة الميتة من الإنسان الحي^(٢)، وكذلك سائر الحيوان من الطير وغيره، وهذا القول أرجح ما قيل هنا.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ ابتداء وخبر متضمن التنبيه، ﴿فَأَنى تَوَفُكُونَ﴾، أي: تُضَرَفُونَ وتُصَدُّونَ، و ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، أي: شاقه ومظهره، والفلق: الصبح، و ﴿حُسْبَانًا﴾: جمع حساب، أي: يجريان بحساب، هذا قول ابن عباس^(٣) وغيره، وقال مجاهد^(٤) في «صحيح البخاري»: المراد بحُسبان كحسبان الرخى، وهو الدُّولاب والعود الذي عليه دَوْرانه.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ الآية: هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، والحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين متمكنة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا

(١) أخرجه الطبري (٢٧٥/٥) رقم (١٣٥٨٦)، بنحوه، وذكره البغوي (١١٧/٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٥/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٧٧/٥) برقم (١٣٥٩٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٥/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٧٩/٥) رقم (١٣٦٠٩، ١٣٦١٠) بنحوه وذكره ابن عطية (٣٢٦/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس بنحوه.

(٤) ذكره ابن عطية (٣٢٦/٢).

مُتْرَاجِكًا وَمِنْ أَلْخَلِّ مِنْ طَلْعِهَا قَنَازٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾، يريد: آدم - عليه السلام -، ﴿فمستقرٌ ومستودعٌ﴾، اختلف المتأولون في معنى هذا الاستقرار والاستيداع.

فقال الجمهور: مستقرٌ في الرحم، ومستودعٌ في ظهور الآباء حتى يفضي / الله ١٧٥ ب بخروجهم، قال ابن عَوْن: مشيتُ إلى منزل إبراهيم النَّحَعي وهو مريض، فقالوا: قد توفِّي، فأخبرني بعضهم أنَّ عبد الرحمن بن الأسود سأله عن: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، فقال: مستقرٌ في الرحم، ومستودع في الصُّلب^(١)، وقال ابن عباس: المستقرُّ: الأرض، والمستودعُ: عند الرحمن^(٢)، وقال ابن جُبَيْر: المستودعُ: في الصلب، والمستقرُّ في الآخرة^(٣)، قال الفخر: والمنقول عن ابن عباس في أكثر الروايات أنَّ المستقرَّ هو الأرحام، والمستودعُ الأصلاب^(٤)، ثم قرأ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [الحج: ٥] ومما يدلُّ على قوة هذا القول؛ أنَّ النطفة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً، والجنين في رحم الأم يبقى زماناً طويلاً، ولما كان المَكْت في الرحم أكثر مما في صلب الأب، كان حمل الاستقرار على المَكْت في الرحم أولى. انتهى.

قال * ع^(٥) * : والذي يقتضيه النظر أنَّ ابن آدم هو مستودعٌ في ظهر أبيه، وليس بمستقرٌ فيه استقراراً مطلقاً؛ لأنه يتنقل لا محالة، ثم ينتقل إلى الرحم، ثم ينتقل إلى الدنيا، ثم ينتقل إلى القبر، ثم ينتقل إلى المَخْشَر، ثم ينتقل إلى الجَنَّة أو النار، فيستقرُّ في أحدهما استقراراً مطلقاً، وليس فيها مستودعٌ؛ لأنه لا نُقْلَة له بعدُ، وهو في كلِّ رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مُسْتَقَرٌّ بالإضافة إلى التي قبلها، ومستودعٌ بالإضافة إلى التي بعدها؛ لأن لفظ الوديعَة يقتضي فيها نُقْلَة، ولا بُدَّ.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كلِّ شيء﴾،

(١) أخرجه الطبري (٢٨٥/٥) برقم (١٣٦٥٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٧/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٢/٥) برقم (١٣٦٢٧)، وذكره ابن عطية (٣٢٧/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٨٣/٥) رقم (١٣٦٣٠)، وذكره ابن عطية (٣٢٧/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٢٨٣/٥، ٢٨٤) رقم (١٣٦٣٨، ١٣٦٣٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٦٦)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والحاكم عن ابن عباس بنحوه.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٧/١).

﴿السماء﴾؛ في هذا الموضع: السحاب، وكلُّ ما أظْلَكَ فَهُوَ سماءٌ، وقوله: ﴿نبات كل شيء﴾، قيل: معناه: ممَّا يَنْبُتُ، وقال الطبري^(١): المراد بـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾: كلُّ ما ينمو مِنْ جميع الحيوان والنبات والمعادِن، وغير ذلك؛ لأن ذلك كله يتعدَّى وينمو بنزولِ الماء من السماء، والضمير في ﴿منه﴾ يعود على النبات، وفي الثاني يعود على الحَضِر، و﴿حَضِرًا﴾: بمعنى: أَخْضَرَ؛ ومنه قوله - عليه السلام -: «الدُّنْيَا حَضِرَةٌ حُلُوءَةٌ»^(٢)، بمعنى: خضراء؛ وكأنَّ حَضِرًا إِنَّمَا يَأْتِي أَبَدًا لمعنى النَّضَارَة، وليس لِلْوَن فيه مدخلٌ، وأخضر إِنَّمَا تَمَكَّنْهُ في اللون، وهو في النَّضَارَة تجوِّز، و﴿حَبًّا متراكبًا﴾: يعم جميع السَّنابل وما شاكلها؛ كالصَّنوبر، والرُّمَّان، وغير ذلك.

وقوله: ﴿ومن النخل﴾، تقديره: ونُخْرِجُ مِنَ النَّخْلِ وَالطَّلَعِ أَوَّلَ ما يخرج من النَّخْل، في أكمامه، و﴿قَنَوَانٌ﴾: جمع قَنَو، وهو العَذْق - بكسر العين -، وهي الكِبَاسَةُ، والعُرْجُونُ: عوده الذي فيه ينتظمُ التمر، و﴿ذَائِيَّةٌ﴾: معناه: قريبةٌ من التناول؛ قاله ابن عباس^(٣) وغيره.

وقرأ الجمهور: «وَجَنَاتٍ» - بالنصب -؛ عطفاً على قوله: «نَبَاتٌ»، وروي عن^(٤) عاصم: «وَجَنَاتٌ» - بالرفع -؛ على تقدير: وَلَكُمْ جَنَاتٌ أَوْ نَحْوَ هَذَا، و﴿الزيتونَ والرُّمَّانَ﴾ - بالنصب إجماعاً -؛ عطفاً على قوله: «حَبًّا»، و﴿مُشْتَبَهًا وغير متشابه﴾، قال قتادة: معناه يتشابه في اللَّوَرِّ وَتَبَائِنُ في الثَّمَرِ^(٥)، وقال الطبري^(٦): جائز أن يتشابه في الثَّمَرِ وَتَبَائِنُ في الطَّعْمِ، ويحتمل أن يريد يتشابه في الطَّعْمِ وَتَبَائِنُ في الْمَنْظَرِ، وهذه الأحوال موجودة

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٨٧/٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري (٢٨٨/٥) برقم (١٣٦٦٦)، وذكره ابن عطية (٢٢٨/٢)، وابن كثير (١٥٩/٢)، والسيوطي (٦٧/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: «حجة القراءات» (٢٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٣٢٨/٢)، وزاد نسبتها إلى محمد بن أبي ليلى، والأعمش.

وينظر: «البحر المحيط» (١٩٣/٤)، و«الدر المصون» (١٤٠/٢)، و«التخريجات النحوية» (ص ٢٠٠).

(٥) أخرجه الطبري (٢٨٩/٥) برقم (١٣٦٧٤)، وذكره البغوي (١١٨/٢)، وابن عطية (٢٢٨/٢)، وابن كثير (١٥٩/٢)، والسيوطي (٦٧/٣) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٨٩/٥).

بالاعتبار في أنواع الثمرات.

وقوله سبحانه: ﴿انظروا﴾، وهو نظْرٌ بَصَرٍ تتركَّب عليه فكرة قَلْبٍ، «والثمر»؛ في اللغة: جَنَى الشجر وما يطلع، وإن سمي الشجر: ثماراً، فبتجوُّز، وقرأ جمهور^(١) الناس: ﴿وَيَنْعِهِ﴾ - بفتح الياء -، وهو مصدر يَنْعَ يَنْعُ يَنْعُ؛ إذا نَضَجَ، وبالنضج فسرهُ ابن عباس، وقد يستعمل «يَنْع» بمعنى أَسْقَلْ وأخضرَّ ناضراً، قال الفخر^(٢): وقدَّم سبحانه الزَّرْع؛ لأنه غداء، والثَّمار فواكه وإِنما قدَّم النخل على الفواكه؛ لأن التمر يجري مجرى الغذاء/ بالنسبة ١٧٦ إلى العرب. انتهى.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْتَرِ عَلَيْهِمْ سُبْحَنَهُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ كُفُّوا إِلَهُ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾: ﴿جعلوا﴾: بمعنى صَيَّرُوا، و ﴿الجن﴾: مفعول، و ﴿شركاء﴾ مفعول ثانٍ.

قال * ص *: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾: ﴿جعلوا﴾: بمعنى: صَيَّرُوا، والجمهور على نَضْب «الجن»، فقال ابن عطية^(٤) وغيره: هو مفعول أول لـ ﴿جعلوا﴾، و ﴿شركاء﴾ الثاني، وجوِّزوا فيه أن يكون بدلاً من ﴿شركاء﴾، و ﴿لله﴾ في موضع المفعول الثاني، و ﴿شركاء﴾ الأول، وردَّه أبو حيان^(٥)؛ بأن البدل حينئذ لا يصحُّ أن يحل محلَّ المبدل منه؛ إذ لو قلَّت: وجعلوا لله الجن، لم يصحَّ، وشرط البدل أن يكون على نيَّة تكرار العامل؛ على الأشهر، أو معمولاً للعامل، في المُبدل منه؛ على قول، وهذا لا يصحُّ؛ كما ذكرنا، قلَّت: وفيه نظر. انتهى، قلَّت: وما قاله الشيخ أبو حيان عندي ظاهرٌ، وفي نظر الصِّفاقسيّ نَظَرٌ، وهذه الآية مشيرة إلى العادِلينَ بالله تعالى، والقائلين: إن الجنَّ تعلم الغيب، العابدين للجنِّ، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك، وتستجير بجنِّ الوادي

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٨/٢)، و «البحر المحيط» (١٩٥/٤)، و «الدر المصون» (١٤٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٠/٥) برقم (١٣٦٧٧، ١٣٦٧٨)، وذكره ابن عطية (٣٢٨/٢)، وابن كثير (٢/ ١٥٩)، والسيوطي (٦٧/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «الرازي» (٨٩/١٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٩/٢).

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (١٩٦/٤).

في أسفارها ونحو هذا، وأما الذين خَرَقُوا البنين، فاليهود في ذكر عُزَيْر، والنصارى في ذكر المسيح، وأما ذاكرو البنات، فالعرب الذين قالوا: الملائكة بناتُ الله، تعالى الله عن قولهم؛ فكأن الضمير في ﴿جَعَلُوا﴾ و ﴿خَرَقُوا﴾؛ لجميع الكفار؛ إذ فَعَلَ بعضهم هذا، وبعضهم هذا، وبنحو هذا فسر السدّي وابن^(١) زَيْد، وقرأ الجمهور^(٢): «وَخَلَقَهُمْ» - بفتح اللام -؛ على معنى: وهو خلقهم، وفي مصحف ابن^(٣) مسعود: «وَهُوَ خَلَقَهُمْ»، والضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ العودَةَ على الجاعلين، ويحتملها على المجعولين، وقرأ السبعة^(٤) سوى نافع: «وَخَرَقُوا» - بتخفيف الراء -؛ بمعنى اختلقوا وأفترّوا، وقرأ نافع: «وَخَرَقُوا» - بتشديد الراء -؛ على المبالغة، وقوله: ﴿بغير علم﴾ نصٌّ على قُبْحِ تَقْصُمِ المَجْهَلَةِ، وافتراءِ الباطلِ على عَمَى، و ﴿سبحانه﴾: معناه: تنزّه عن وصفهم الفاسدِ المستحيلِ عليه تبارك وتعالى، و ﴿بديع﴾: بمعنى: مُبدِع، و ﴿أُنّى﴾: بمعنى: كيف، وأين، فهي أَسْتَفْهَامٌ في معنى التوقيفِ والتقرير، وهذه الآية ردٌّ على الكفار بقياس الغائبِ على الشاهد.

وقوله سبحانه: ﴿وخلق كل شيء﴾ لفظٌ عامٌّ لكل ما يجوز أن يدخل تحته، ولا يجوز أن تدخل تحته صفاتُ الله تعالى، وكلامه، فليس هو عموماً مخصّصاً؛ على ما ذهب إليه قوم؛ لأن العموم المخصّص هو أن يتناول العموم شيئاً، ثم يخرج التخصيص، وهذا لم يتناول قطُّ هذه التي ذكرناها، وإنما هذا بمنزلة قول الإنسان: قَتَلْتُ كُلَّ فَارِسٍ، وَأَفْحَمْتُ كُلَّ خَصْمٍ، فلم يدخل القاتلُ قطُّ في هذا العموم الظاهر من لفظه، وأما قوله: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ فهو عمومٌ على الإطلاق؛ لأنه سبحانه يعلم كل شيء، لا ربَّ غيره، وباقي الآية بيّن.

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١١٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ (١١٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ

(١) أخرجه الطبري (٢٩٢/٥) برقم (١٣٦٩١) عن السدي، و (١٣٦٩٢) عن ابن رشد، وذكره ابن عطية (٣٢٩/٢)، وابن كثير (١٦٠/٢) عن السدي، والسيوطي (٦٨/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٩/٢).

(٣) ينظر السابق.

(٤) ومعنى القراءة بالتشديد أي: مرة بعد مرة، قال الزمخشري: وقرئ: وخَرَقُوا بالتشديد للتكثير؛ لقوله: ﴿بنين وبنات﴾.

ينظر: «الكشاف» (٥٣/٢)، و «السبعة» (٢٦٤)، و «الحجة» (٣٧٢/٣)، و «إعراب القراءات» (١/١٦٦)، و «معاني القراءات» (٣٧٦/١)، و «العنوان» (٩٢)، و «شرح الطيبة» (٢٦٦/٤)، و «شرح شملة» (٣٧١)، و «إتحاف» (٢٥/٢).

وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلْيُبَيِّنْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَلَيْسَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، أجمع أهل السنة على أن الله عز وجل يرى يوم القيامة، يراه المؤمنون، والوجه أن يبين جواز ذلك عقلاً، ثم يستند إلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز، واختصار تبیین ذلك: أن يعتبر بعلمنا بالله عز وجل؛ فمن حيث جاز أن نعلمه؛ لا في مكان، ولا متحيزاً، ولا مقابلاً، ولم يتعلّق علمنا بأكثر من الوجود، جاز أن نراه؛ غير مقابل، ولا محاذي، ولا مكيفاً، ولا محدداً، وكان الإمام أبو عبد الله النحوي يقول: مسألة العلم خلقت لحي المعتزلة، ثم ورد الشرح بذلك؛ / كقوله عز وجل: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ * إلى ربّها نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢، ٢٣]، ١٧٦ ب وتعديّة النَّظَر بـ «إلى» إنما هو في كلام العرب؛ لمعنى الرؤية لا لمعنى الانتظار؛ على ما ذهب إليه المعتزلة؛ ومنه قول النبي ﷺ فيما صح عنه، وتواتر، وكثر نقله: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَذْرِ»^(١)، ونحوه من الأحاديث الصحيحة على اختلاف ألفاظها، وأستمحل^(٢) المعتزلة الرؤية بآراء مجرّدة، وتمسّكوا بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وانفصال أهل السنة عن تمسّكهم؛ بأن الآية مخصوصة في الدنيا^(٣)، ورؤية الآخرة ثابتة بأخبارها؛ أيضاً فإننا نفرّق بين معنى الإدراك، ومعنى الرؤية، ونقول: إنه عز وجل تراه الأبصار، ولا تدركه؛ وذلك أن الإدراك يتضمّن الإحاطة بالشيء، والوصول إلى أعماقه وخزّيه من جميع جهاته، وذلك كلّه محال في أوصاف الله عز وجل، والرؤية لا تفتقر إلى أن يحيط الرائي بالمرئي، ويبلغ غايته، وعلى هذا التأويل يترتب العكس في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، ويحسن معناه، ونحو هذا روي عن ابن عباس وقتادة وعطية العوفي^(٤)؛ أنهم فرّقوا بين الرؤية والإدراك، و﴿اللّطِيفُ﴾: المتلطف في خلقه وأخترعه،

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٦٢-٤٦٣) كتاب «التفسير»، باب ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، حديث (٤٨٥١)، ومسلم (١/ ٤٣٩-٤٤٠) كتاب «المساجد»، باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث (٢١١، ٢١٢/ ٦٣٣) من حديث جرير.

(٢) يعني: استبعد. ينظر: «لسان العرب» (٤١٤٧، ٤١٤٨)، و«المعجم الوسيط» (٨٦٣).

(٣) تقدم الكلام على الرؤية مفصلاً.

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٢٩٤) برقم (١٣٦٩٨) عن ابن عباس (١٣٦٩٩) عن قتادة (١٣٧٠٠) عن عطية العوفي، وذكره البغوي (٢/ ١٢٠) عن ابن عباس، وابن عطية (٢/ ٣٣٠)، وابن كثير (٢/ ١٦١، ١٦٢)، والسيوطي (٣/ ٦٩)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي الشيخ عن قتادة، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي، وعطية هذا هو عطية بن سعد بن جُنَادَة العوفي الجدلي أبو الحسن =

والبَصَائِرُ: جمع بَصِيرَةٍ، فكأنه قال: قد جاءكم في القرآن والآيات طرائقُ إِبْصَارِ الحقِّ، والبصيرةُ للقلبِ مستعارةٌ من إِبْصَارِ العَيْنِ، والبصيرةُ أيضاً هي الْمُعْتَقَدُ.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾، و ﴿مَنْ عَمِيَ﴾: عبارةٌ مستعارةٌ فيمن أهدى، وَمَنْ ضَلَّ، وقوله: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ - كان في أول الأمر وَقَبْلَ ظهور الإسلام، ثم بعد ذلك كان ﷺ حفيظاً على العالم، آخذاً لهم بالإسلام؛ أو السيف.

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أي: نرددها ونوضحها، وقرأ الجمهور^(١): «وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ» - بكسر اللام -: عَلَى أنها لَمْ كُنِي، وهي عَلَى هذا لَمْ الصيرورة، أي: لَمَّا صار أمرهم إلى ذلك، وقرأ نافع وغيره: «دَرَسْتَ»، أي: يا محمد دَرَسْتَ في الكتبِ القديمة ما تَجِئْنَا به، وقرأ ابن كثير وغيره: «دَارَسْتَ»، أي: دَارَسْتَ غيرك وناظرته، وقرأ ابن عامر: «دَرَسْتَ» - بإسناد الفعل إلى الآيات -: كأنهم أشاروا إلى أنها تَرَدَّدَتْ عَلَى أسماعهم؛ حتى بَلَّيَتْ في نفوسهم، وَأَمَحَتْ، واللام في قوله: ﴿لَيَقُولُوا﴾، وفي قوله: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾: متعلقان بفعلٍ متأخر، وتقديره: «صَرَفْنَاها»، وذهب بعض الكوفيَّين إلى أَنَّ «لا»: مضمرةٌ بعد «أَنَّ» المقدَّرة في قوله: ﴿وَلَيَقُولُوا﴾، فتقدير الكلام عندهم: وَلَإِنَّ لَا يَقُولُوا دَرَسْتَ؛ كما أضمرها في قوله: ﴿يُبَيِّنَنَّ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦].

قال *ع^(٢): وهذا قَلْبٌ، ولا يجيز البصريُّون إضمار «لا» في موضعٍ من المواضع.

قلت: ولكنه حسن جداً من جهة المعنى؛ إذ لا يعلمون أنه دَرَسَ أو دَارَسَ أحداً ﷺ، فتأمل.

وقوله سبحانه: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ الآية: هذه الآية فيها موادعةٌ، وهي منسوخةٌ.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ

= الكوفي، عن: أبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وعنه: ابنه عمر، والحسن. ينظر: «الخلاصة» (٢/٢٣٣).

(١) ينظر: «السبعة» (٢٦٤)، و «الحجة للقراء السبعة» (٣/٣٧٢)، و «إعراب القراءات» (١/١٦٦)، و «معاني القراءات» (١/٣٧٦)، و «شرح الطيبة» (٤/٢٦٦)، و «شرح شعلة» (٣٧٢)، و «حجة القراءات» (٢٦٤)، و «العنوان» (٩٢)، و «إتحاف فضلاء البشر» (٢/٢٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٣٣١).

عَلِمَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَبِئْسَ لَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلَبْ أَوْدَانَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله...﴾ الآية: مخاطبة للمؤمنين والنبى ﷺ قال ابن عباس: سبها أن كفار قريش قالوا لأبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سب آلهمنا والغص منها، وإما أن نسب إلهه ونهجو^(١)، فنزلت الآية، وحكمها على كل حال باق في الأمة/، فلا يحل لمسلم أن يتعرض إلى ما يؤدي إلى سب الإسلام أو النبى ﷺ، أو الله عز وجل، وعبر عن الأصنام بالذين، وهي لا تعقل، وذلك على معتقد الكفرة فيها، وفي هذه الآية ضرب من المودعة، و ﴿عدوا﴾: مصدر من الاعتداء، و ﴿بغير علم﴾: بيان لمعنى الاعتداء.

وقوله تعالى: ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾: إشارة إلى ما زين لهؤلاء من التمسك بأصنامهم، وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه سبحانه في النفوس من المحبة للخير والشر، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء، وقوله: ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم...﴾ الآية: تتضمن وعداً جميلاً للمحسنين، ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

وقوله سبحانه: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾: اللام في قوله: ﴿لئن﴾ لام توطئة للقسم، وأما المتلقيئة للقسم فهي قوله: ﴿ليؤمنن بها﴾، و ﴿آية﴾: يريد: علامة، وحكي أن الكفار لما نزلت: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، أقسموا حينئذ؛ أنها إن نزلت، آمنوا، فنزلت هذه الآية، وحكي أنهم اقترحوا أن يعود الصفا ذهباً، وأقسموا على ذلك، فقام النبى ﷺ يدعوا في ذلك، فجاءه جبريل، فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يؤمنوا، هلكوا عن آخرهم معاجلة؛ كما فعل بالأمم المفتوحة، وإن شئت، أخروا حتى يتوب تائبهم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: بل حتى يتوب تائبهم^(٢)، ونزلت الآية.

(١) أخرجه الطبري (٣٠٤/٥) برقم (١٣٧٤٢)، وذكره البغوي (١٢١/٢)، وابن عطية (٣٣٢/٢)، وابن كثير (١٦٤/٢)، والسيوطي (٧١/٣) وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٦/٥) عن محمد بن كعب القرظي به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٢/٣)، وعزاه لابن جرير.

قال ابنُ العربي: قوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، يعني: غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وأنتهت إليها قدرتهم. انتهى من «الأحكام».

ثم قال تعالى: قل لهم، يا محمد؛ على جهة الردِّ والتخطئة: إنما الآيات عند الله وليست عندي، فَنُقْتَرَحَ عَلَيَّ، ثم قال: ﴿وما يشعركم﴾، قال مجاهد: وابن زيد: المخاطب بهذا الكفار^(١)، وقال الفراء وغيره: المخاطب بهذا المؤمنون، ﴿وما يُشْعِرُكُمْ﴾: معناه: وما يُعْلِمُكُمْ وما يُذَرِّبُكُمْ، وقرأ ابن كثير^(٢) وغيره: «إِنَّهَا» - بكسر الألف -، على القطع، واستئناف الأخبار، فمن قرأ «تُؤْمِنُونَ»^(٣) - بالتاء -، وهي قراءة ابن عامر وحمزة؛ استقامت له المخاطبة، أولاً وآخرًا، للكفار، ومن قرأ بالياء، وهي قراءة عامر وحمزة؛ فيحتمل أن يخاطب، أولاً وآخرًا، المؤمنين، ويحتمل أن يخاطب بقوله: ﴿وما يشعركم﴾ الكفار، ثم يستأنف الإخبار عنهم للمؤمنين، وقرأ نافع وغيره: «أَنَّهَا» - بفتح الألف -، فقل: إِنَّ «لا» زائدة في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ كما زيدت في قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى، لأنها لو لم تكن زائدة، لعاد الكلام عذراً للكفار، وفسد المراد بالآية، وضعف الرجاء وغيره زيادة «لا»، ومنهم من جعل «أنها» بمعنى لعلها، وحكاها سيبويه عن الخليل، وهذا التأويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة، «لا»، وحكى الكسائي: أنه كذلك في مضعف أبيي «وما أدراكم لعلها إذا جاءت»، ورجع أبو علي أن تكون «لا» زائدة، وبسط شواهد في ذلك. ١٧٧ ب

وقوله سبحانه: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، فالمعنى؛ على ما قالت فرقة: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في النار، وفي لهبها في الآخرة، لما لم يؤمنوا في الدنيا، ثم استأنف على هذا: ونذرهم في الدنيا في طغيانهم يعمهون، وقالت فرقة: إنما المراد بالتقليب التحويل عن الحق والهدى والتزك في

(١) أخرجه الطبري (٣٠٦/٥) برقم (١٣٧٤٨) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٣٣٣/٢)، والسيوطي (٣/٧٢) وعزه لابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) ينظر: «السبعة» (٢٦٥)، و«الحجة» (٣٧٥/٣)، و«إعراب القراءات» (١/١٦٧)، و«معاني القراءات» (١/٣٧٨)، و«حجة القراءات» (٢٦٥)، و«شرح الطيبة» (٤/٢٦٨)، و«العنوان» (٩٢)، و«شرح شعلة» (٣٧٢)، و«إنحاف» (٢/٢٦).

(٣) ينظر: «السبعة» (٢٦٥)، و«الحجة» (٣٨٢/٣)، و«إعراب القراءات» (١/١٦٧)، و«معاني القراءات» (١/٣٧٩)، و«حجة القراءات» (٢٦٧)، و«العنوان» (٩٢)، و«شرح الطيبة» (٤/٢٦٨)، و«شرح شعلة» (٣٧٣)، و«إنحاف» (٢/٢٦).

الضلالة والكفر، ومعنى الآية: أن هؤلاء الذين أقسموا أنهم يؤمنون إن جاءت آية - نحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم؛ أن لو جاءت فلا يؤمنون بها؛ كما لم يؤمنوا أول مرة بما دُعوا إليه من عبادة الله تعالى، فأخبر الله عز وجل على هذا التأويل بصورة فعله بهم، وقالت فرقة: قوله: ﴿كما﴾؛ في هذه الآية: إنما هي بمعنى المجازاة، أي: لما لم يؤمنوا أول مرة، نجازيهم، بأن نقلب أفئدتهم عن الهدى، ونطبع على قلوبهم، فكأنه قال: ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم، جزاء لما لم يؤمنوا أول مرة بما دُعوا إليه من الشرع، والضمير في ﴿به﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل، أو على القرآن، أو على النبي ﷺ ونذرتهم: معناه: نتركهم، والطغيان: التخبط في الشر، والإفراط فيما يتناوله المرء، و﴿يغمهون﴾: معناه: يترددون في حيرتهم.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى...﴾ الآية: أخبر سبحانه أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال ملائكة وإحياء سلفهم حسبما اقترحه بعضهم؛ أن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصديق محمد - عليه السلام -، أو يحشر عليهم كل شيء قبلاً - ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه ويخترعه سبحانه في نفس من يشاء، لا رب غيره.

وقرأ نافع^(١) وغيره: «قبلاً»، ومعناه مواجهة ومعانئة؛ قاله ابن عباس^(٢) وغيره، ونصبه على الحال، وقال المبرد: معناه: ناحية؛ كما تقول: لي قبل فلان دين.

قال ع^(٣): فنصبه؛ على هذا: هو على الظرف، وقرأ حمزة^(٤) وغيره: «قبلاً» - بضم

(١) ينظر: «السبعة» (٢٦٥ - ٢٦٦)، و «المحجة» (٣٨٣ - ٣٨٧)، و «إعراب القراءات» (١٦٧/١)، و «معاني القراءات» (٣٨٠/١)، و «حجة القراءات» (٢٦٧)، و «شرح الطيبة» (٢٦٩/٤)، و «العنوان» (٩٢)، و «شرح شعلة» (٣٧٤)، و «إتحاف» (٢٧/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣١٢/٥) برقم (١٣٧٦١)، وذكره ابن عطية (٣٣٥/٢)، وابن كثير (١٦٥/٢)، والسيوطي (٧٣/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٣٥/٢).

(٤) ينظر مصادر القراءات السابق.

القاف والباء ـ، وأختلف في معناه، فقال بعضهم: هو بمعنى «قَبْل» بكسر القاف، أي: مواجهة؛ كما تقول: قُبِلَ ودُبِرَ.

وقال الزَّجَّاج والفَرَّاء: هو جَمْعُ قَبِيلٍ، وهو الكفيل، أي وحشرنا عليهم كل شيء كَفَلَاءً بصديقِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وقال مجاهد وغيره: هو جمع قَبِيلٍ، أي: صنفًا صنفًا، ونوعًا نوعًا^(١)، والنصب في هذا كله على حاله، «ولكن أكثرهم يجهلون»، أي: يجهلون في اعتقادهم أن الآية تقتضي إيمانهم، ولا بُدَّ، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل، فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت لم يؤمن إلا مَنْ شاء الله منه ذلك، قُلْتُ: وقال مكِّي: «ولكن أكثرهم يجهلون»، أي: في مخالفتك، وهم يعلمون أنك نبي صادق فيما جئتكم به، وروي أن النبي ﷺ كَانَ يُدَاعِبُ أَبَا سُفْيَانَ بَعْدَ الْفَتْحِ بِمُخَصَّرَةٍ فِي يَدِهِ، وَيَطْعُنُ بِهَا أَبَا سُفْيَانَ، فَإِذَا أَخْرَفْتُهُ، قَالَ: نَحْ عَنِّي مُخَصَّرَتُكَ، قَوْلَاللهِ، لَوْ أَسْلَمْتُ إِلَيْكَ هَذَا الْأَمْرَ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْكَ فِيهِ اثْنَانِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَسَأَلْتُكَ بِالَّذِي أَسْلَمْتَ لَهُ، قِتَالِكَ إِيَّايَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو/ سُفْيَانٌ: تَظُنُّ أَنِّي كُنْتُ أَقَاتِلُكَ تَكْذِيبًا مِنِّي لَكَ، وَاللهِ، مَا شَكَكْتُ فِي صَدَقِكَ قَطُّ، وَمَا كُنْتُ أَقَاتِلُكَ إِلَّا حَسَدًا مِنِّي لَكَ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَزَعَ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِي، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَهِي ذَلِكَ مِنْهُ، وَيَتَبَسَّمُ». انتهى من «الهداية».

١٧٨

وقوله سبحانه: «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا شياطينَ الإنس والجن». الآية: تتضمن تسلية النبي ﷺ وعَرْضُ الْقُدُوةِ عليه، أي: هذا الذي أمتحت به، يا مُحَمَّدُ، من الأعداء قد أمتحنَ به غَيْرُكَ من الأنبياء؛ ليبتلِيَ اللهُ أُولِي الْعَزْمِ منهم، و «شياطينَ الإنس والجن»: يريد: المتمردين من النوعين، و «يُوحِي»: معناه: يلقيه في اختفاء، فهو كالمناجاة والسَّرَارِ، و «زُخْرَفُ الْقَوْلِ»: محسَّنه ومُزَيَّنُه بالأباطيل؛ قاله عكرمة ومجاهد^(٢)، والزخرفة؛ أكثر ما تستعمل في الشرِّ والباطل، و «عُرُورًا»: مصدر، ومعناه يغترون به المضللين، والضمير في «فعلوه» عائذ على اعتقادهم العداوة، ويحتملُ على «الوحي» الذي تضمنه «يُوحِي».

وقوله سبحانه: «فذرهم وما يفترون»: لفظٌ يتضمنُ الأمرَ بالموادعة، وهو منسوخ؛

(١) أخرجه الطبري (٣١٢/٥، ٣١٣) برقم (١٣٧٦٤، ١٣٧٦٥)، وذكره ابن عطية (٣٣٥/٢)، وابن كثير (١٦٥/٢)، والسيوطي (٧٣/٣) وعزاه لأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٣١٥/٥، ٣١٦) برقم (١٣٧٧٨) عن عكرمة، وبرقم (١٣٧٨٠، ١٣٧٨١) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٣٣٦/٢)، والسيوطي (٧٤/٣)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي نصر السجزي في «الإبانة»، وأبي الشيخ عن مجاهد.

قال قتادة: كُلُّ «ذَرٍّ» فِي كِتَابِ اللَّهِ - مَنْسُوحٌ بِالْقِتَالِ^(١).

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْرِئُوا مَا هُمْ مُنْقَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ اتَّبَعْتُمْ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾: معناه: لِيَتِمَّلَ، قال^(٢) الفخر: والضمير في قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾ إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة - يعود على زُخْرِفِ القول، وكذلك في قوله: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ والافتراق: معناه الإكتساب.

وقال الزجاج: و ﴿ليقترفوا﴾، أي: يختلفوا ويكذبوا، والأول أفصح. انتهى.

والقراء على كسر اللام في الثلاثة الأفعال؛ على أنها لام كي معطوفة على غُرُوراً و ﴿حَكْمًا﴾ أبلغ من حاكم؛ إذ هي صيغة للعَدَلِ من الحكام، والحاكم جَارٍ على الفعل، فقد يقال للجائر، و ﴿مُفَصَّلًا﴾: معناه: مزالُ الإشكال، والكتاب أولاً هو القرآن، وثانياً أَسْمُ جنسٍ للتوراة والإنجيل والزبور والصحُف.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: تثبَّتْ ومبالغة وطعنٌ على الممترين.

قلت: وقد تقدَّم التنبيه على أنه ﷺ مَعْصُومٌ، وأن الخطاب له، والمراد غيره ممَّنْ يُمَكِّنُ منه الشُّكَّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...﴾ الآية: ﴿تَمَّتْ﴾؛ في هذا الموضع: بمعنى: أَسْتَمَرَّتْ وصَحَّتْ في الأزل صدقاً وعدلاً، وليس بتمام من نقص، ومثله ما وقَّع في كتب «السيرة» من قولهم: وَتَمَّ حَمَزُهُ عَلَى إِسْلَامِهِ، في الحديث مع أبي جهل، والكلمات: ما أنزل على عباده، و ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: معناه: في معانيها.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

(١) ذكره ابن عطية (٣٣٦/٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٢٩/١٣).

وقوله سبحانه: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض...﴾ الآية: المعنى: فأمض، يا محمد لما أُمِرْتَ به، وبلغ ما أُرْسِلْتَ به، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك، قال ابن عباس^(١): الأرض هنا: الدنيا، وحكي أن سبب هذه الآية أن المشركين جادلوا النبي ﷺ في أمر الذبائح، وقالوا: أأكل ما تقتل، وتترك ما قتل الله، فنزلت الآية، ثم وصفهم تعالى بأنهم إنما يقتدون بطئونهم ويتبعون تخرضهم، والخرض: الحرز والظن، وهذه الآية/ خبر في ضمنه وعيد للضالين، ووعد للمهتدين، وقوله سبحانه: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين...﴾ الآية: القصد بهذه الآية النهي عما ذبح للثُعب وغيرها، وعن الميتة وأنواعها، ولا قصد في الآية إلى ما نسي المؤمن فيه التسمية أو تعمدها بالترك.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَآ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمْهُمْ لِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما لكم ألا تأكلوا...﴾ الآية: «ما»: استفهام يتضمن التقرير، ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾، أي: فصل الحرام من الحلال، وأنتزعه بالبيان، و «ما» في قوله: ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾، يريد بها: من جميع ما حرم؛ كالميتة وغيرها، وهي في موضع نصب بالاستثناء، والاستثناء منقطع.

وقوله سبحانه: ﴿وإن كثيراً﴾ يريد الكفرة المحاذين المجادلين، ثم توعدهم سبحانه بقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾.

وقوله جلّت عظمتة: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ - نهى عام، والظاهر والباطن: يستوفيان جميع المعاصي، وقال قوم: الظاهر: الأعمال، والباطن: المعتقد، وهذا أيضاً حسن؛ لأنه عام، وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده، عن أبي أمامة، قال: سأل رجل النبي ﷺ: ما الإثم؟ قال: «ما حك في صدرك، فدغّه»^(٢)، وروى ابن المبارك أيضاً بسنده؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما يحل لي مما يحرم علي؟ فسكت رسول الله ﷺ.

(١) ذكره ابن عطية (٢/٣٣٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٨٤) رقم (٨٢٥).

فَرَدَّ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَسْكُتُ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ» فَقَالَ: أَنَا ذَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا أَتَكَرَّرَ قَلْبُكَ، فَدَعُهُ»^(١). انتهى، وقد ذكرنا معناه مِنْ طَرُقٍ فِي غير هذا الموضع، فَأَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

ثم تَوَعَّدَ تَعَالَى كَسْبَةَ الْإِثْمِ بِالْمَجَازَةِ عَلَى مَا أَكْتَسَبُوهُ مِنْ ذَلِكَ، وَالْإِقْتِرَافُ: الْاِكْتِسَابُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ...﴾ الآية: مقصد الآية النهي عن الميتة؛ إذ هي جواب لقول المشركين: تَتْرَكُونَ مَا قَتَلَ اللَّهُ، ومع ذلك، فلفظها يعم ما تُرِكَتِ التسمية عليه من ذبائح الإسلام^(٢)، وبهذا العموم تعلّق ابن عمر وابن سيرين والشَّعْبِيُّ وغيرهم؛ فقالوا: ما تُرِكَتِ التسمية عليه، لم يؤكَّلْ، عمداً كان أونسياناً^(٣)، وجمهور العلماء على أنه يؤكل إن كان تركها نسياناً؛ بخلاف العمد، وقيل: يؤكل، سواء تركت عمداً أو نسياناً، إلا أن يكون مستخفّاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ...﴾ الآية: قال عكرمة: هم مَرَدَّةُ الْإِنْسِ مِنْ مَجُوسٍ

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٨٣-٢٨٤) رقم (٨٢٤).

(٢) أجمع الفقهاء على مشروعية التسمية عند الذبح، وعند الإرسال: والرمي إلى الصيد... ولكنهم اختلفوا في كونها شرطاً في حل الأكل: فذهب الشافعي وأصحابه إلى أنها سنة، فلو تركها عمداً أو سهواً، حل الصيد والذبيحة. وهي رواية عن «مالك»، و«أحمد».

وروي ذلك عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء، وسعيد بن المسيب والحسن، وجابر بن زيد، وعكرمة، وأبي عياض، وأبي رافع، وطاوس، وإبراهيم النخعي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وقتادة. وذهب أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - إلى أن التسمية شرط للإباحة مع الذكر دون النسيان، فإن تركها عمداً، فالذبيحة ميتة.

وهو مذهب جماهير العلماء، والصحيح من مذهب مالك - رضي الله عنه -، والمشهور عن أحمد في الذبيحة.

وقال أهل الظاهر: إن تركها عمداً، أو سهواً لم يحل.

وهو الصحيح عن أحمد في الصيد.

وروي عن ابن سيرين، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ونافع، وعبد الله بن يزيد الخطمي، والشعبي، وأبي ثور.

ينظر: «الزكاة»، لشيخنا عبد الله حمزة.

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٩/٥) عن ابن سيرين برقم (١٣٨٣٢)، وذكره البغوي (١٢٧/٢)، وابن عطية (٢/

٣٤٠)، وابن كثير (١٦٩/٢) والسيوطي (٨٠/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، عن محمد بن سيرين.

فَارِس^(١)، وذلك أنهم كانوا يوالُونَ قُرَيْشاً على عداوة النبي ﷺ: ﴿لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾؛ من قريش ﴿لِيَجَادِلُوَكُمْ﴾؛ بقولهم: تَأْكُلُونَ مَا قَتَلْتُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مَا قَتَلَ اللَّهُ؛ فذلك من مخاطبتهم هو الوحي، والأولياء هم قريش، وقال ابن زَيْد وعبد الله بن كثير: بل الشياطين الجن، واللفظة على وجهها، وأولياؤهم: كَفَرَةُ قريش، ووحيهم بالوسوسة، وعلى السنة الكُفَّان.

ثم نهى سبحانه عن طاعتهم بلفظ يتضمَّن الوعيدَ وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بالمُشْرِك، قال ابن العربي^(٢): قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾، سَمَّى اللَّهَ تَعَالَى مَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِلْهَامِ وَحِيًّا، وهذا مما يطلقه شیوخُ المتصوفة، وينكره جُهَالُ المتوسمين بالعلم، ولم يعلموا أن الوحي على ثمانية أقسام، وأن إطلاقه في جميعها جائز في دين الله. انتهى من «أحكام القرآن».

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُّجْرِمِينَ لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِصْبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِّمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، لما تقدَّم ذكر المؤمنين، وذكر الكافرين، مثل سبحانه في الطائفتين بأنَّ شَبَّهَ الذين آمنوا بعد كفرهم بأموالٍ أُخِيُوا، هذا معنى قول ابن عباس^(٣) ومجاهد وغيرهما، وشَبَّهَ الكافرين وخيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها، ولا يمكنهم الخروج منها؛ ليبين عز وجل الفرق بين الطائفتين، والبؤن^(٤) بين المنزلتين، و ﴿نُورًا﴾ أمكن ما يعني به الإيمان، قيل: ويحتمل أن يراد به النور الذي يؤتاه المؤمن يوم القيامة، و ﴿جَعَلْنَا﴾؛ في هذه الآية: بمعنى صَيَّرْنَا، فهي تتعدى إلى

(١) ذكره ابن عطية (٢/٣٤٠).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/٧٤٧).

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٢/٥) برقم (١٣٨٤٣، ١٣٨٤٤، ١٣٨٤٥) عن مجاهد وبرقم (١٣٨٤٦، ١٣٨٤٧) عن ابن عباس، وبرقم (١٣٨٤٩) عن السدي، وبرقم (١٣٨٥٠) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (٢/٣٤١)، والسيوطي (٨١/٣) وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن عباس، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٤) البؤن والبؤن: مسافة ما بين الشيئين. ينظر: «لسان العرب» (٣٩١).

مفعولين، الأول: «مُجْرِمِهَا»، والثاني: «أَكْبَرُ»، وفي الكلام؛ على هذا: تقديم وتأخير، وتقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أَكْبَرُ، وقَدَّم الأَهمَّ؛ إذ لعلَّ كِبَرهم أَجرموا، ويصح أن يكون المفعول الأول: «أَكْبَرُ»، و«مُجْرِمِهَا»^(١)؛ مضاف، والمفعول الثاني: في قوله: «في كل قرية»، و«لِيَمَكِّرُوا»: نصب بلام الصيرورة؛ والأَكْبَرُ: جمع أَكْبَرُ؛ كما الأفاضلُ جمع أَفْضَلُ، قال الفَخْر^(٢): وإنما جعل المجرمين أَكْبَرُ؛ لأنهم لأجل

(١) اختلف في تقديرهما، والصحيح: أن يكون «في كل قَرْيَةٍ» مفعولاً ثانياً قدم على الأول، والأول «أَكْبَرُ» مضافاً لـ «مُجْرِمِهَا».

والثاني: أن يكون «في كل قَرْيَةٍ» مفعولاً ثانياً أيضاً مقدماً، و«أَكْبَرُ» هو الأول، و«مُجْرِمِهَا» بدل من «أَكْبَرُ» ذكر ذلك أبو البقاء.

الثالث: أن يكون «أَكْبَرُ» مفعولاً ثانياً قدم، و«مُجْرِمِهَا» مفعول أول آخر، والتقدير: جعلنا في كل قرية مجرميها أَكْبَرُ - فيتعلق الجار بنفس الفعل قبله، ذكر ذلك ابن عطية.

قال الشيخ: «وما أجازاه - يعني أبا البقاء وابن عطية - خطأ وذهول عن قاعدة نحوية، وهو أن «أَفْعِلَ» التفضيل إذا كان بـ «مِنْ» ملفوظاً بها أو مقدرة، أو مضافة إلى نكرة كانت مفردة مذكرة على كل حال، سواء كانت لمذكر أم مؤنث مفرد أو مثني أم مجموع. وإذا ثبت أو جمعت أو أنثت، طابقت ما هي له، ولزمها أحد أمرين: إمَّا الألف واللام، وإمَّا الإضافة لمعرفة. وإذا تقرر ذلك، فالقول بكون «مُجْرِمِهَا» بدلاً، وبكونه مفعولاً أول، و«أَكْبَرُ» مفعول ثانٍ خطأ، لاستلزام أن يبقى «أَكْبَرُ» مجموعاً، وليست فيه ألف ولام، ولا هي مضافة لمعرفة. قال: وقد تنبه الكرمانى إلى هذه القاعدة فقال: «أضاف «أَكْبَرُ» إلى «مُجْرِمِهَا» لأن «أَفْعِلَ» لا يجمع إلا مع الألف واللام، أو مع الإضافة». قال الشيخ: وكان ينبغي أن يقيد بالإضافة إلى معرفة. قُلْتُ: أما هذه القاعدة أمسلة ولكن قد ذكر مكى ما ذكر ابن عطية سواء، وما أظنه أخذ إلا منه، وكذلك الواحدى أيضاً، ومنع أن يجوز إضافة «أَكْبَرُ» إلى «مُجْرِمِهَا». قال الواحدى - رحمه الله -: «والآية على التقديم والتأخير، تقديره: جَعَلْنَا مُجْرِمِهَا أَكْبَرُ، ولا يجوز أن يكون «الأَكْبَرُ» مضافة، لأنه لا يتم المعنى، ويحتاج إلى إضمار المفعول الثاني للجعل، لأنك إذا قلت: جعلت زيدا، وسكت، لم يفد الكلام حتى تقول: رئيساً أو ذليلاً أو ما أشبه ذلك، ولأنك إذا أضفت «الأَكْبَرُ» فقد أضفت النعت إلى المنعوت، وذلك لا يجوز عند البصريين». قُلْتُ: هذان الوجهان اللذان رَدَّ بهما الواحدى ليسا بشيء. أما الأول فلا نسلم أنا نضم المفعول الثاني، وأنه يصير الكلام غير مفيد، وما أورده من الأمثلة فليس مطابقاً، لأننا نقول: إنَّ المفعول الثاني هنا مذكور مصرح، وهو الجار والمجرور السابق. وأما الثاني فلا نسلم أنه من باب إضافة الصفة لموصوفها، لأن المجرمين: أَكْبَرُ، وأصاغر، فأضاف للبيان، لا لقصد الوصف.

الرابع: أن المفعول الثاني محذوف. قالوا: وتقديره: جَعَلْنَا في كل قَرْيَةٍ أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا فُسَاقاً لِيَمَكِّرُوا. وهذا ليس بشيء؛ لأنه لا يحذف شيء، إلا الدليل، والدليل على ما ذكره غير واضح. وقال ابن عطية: ويقال: أَكْبَرُ، كما يقال: أحمر وأحامرة.

ينظر: «الدر المصون» (٣/ ١٧١ - ١٧٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٣/ ١٤٣).

رياستهم أَقْدَرُ عَلَى الْعَذْرِ وَالْمَكْرِ وَرُكُوبِ الْبَاطِلِ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ وَلأن كثرة المال والجاه يَحْمِلَانِ الْإِنْسَانَ عَلَى الْمَبَالِغَةِ فِي حِفْظِهِمَا؛ وَذَلِكَ الْحِفْظُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجَمِيعِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ؛ كَالْعَذْرِ وَالْمَكْرِ وَالْكَذِبِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْأَيْمَانَ الْكَاذِبَةِ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَالِ وَالْجَاهِ سِوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّهُ إِنَّمَا وَصَفَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الذَّمِيمَةِ مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَجَاهٌ، لَكَفَى ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى خَسَاسَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ. انْتَهَى، وَمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ هُوَ الْأَغْلَبُ.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أَي: مَا يَعْلَمُونَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾، أَي: عَلَامَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الشَّرْعِ، تَشْتَطُّوا، وَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى يُفَلِّقَ لَنَا الْبَحْرُ، وَيَخَيِّئَ لَنَا الْمَوْتَى، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ فَيَمْنُ أَصْطَفَاهُ، وَأَنْتَخَبَهُ، لَا فَيَمْنُ كَفَرٍ، وَجَعَلَ يَتَشَطَّطُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، قَالَ الْفَخْرُ^(١): قَالَ الْمَفْسُورُونَ: قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ^(٢): لَوْ كَانَتْ النَّبِيُّهَ حَقًّا، لَكُنْتُ أَوْلَى بِهَا، قَالَ الضُّحَّاكُ: أَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ أَنَّ يُخَصَّصَ بِالْوَخِي وَالرِّسَالَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوْتَى صُحُفًا مَنَشُورَةً﴾ [المدثر: ٥٢] انْتَهَى.

ثم تَوَعَّدَ سُبْحَانَهُ بِأَن هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ الْأَكْبَارِ فِي الدُّنْيَا سَيَصِيبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ صَغَارٌ وَذَلَّةٌ.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطٌ

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤٣/١٣).

(٢) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس: من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. يقال له «العدل»؛ لأنه كان عدل قريش كلها: كانت قريش تكسو «البيت» جميعها، والوليد يكسو وحده. وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وضرب ابنه هشاماً على شربها. وأدرك الإسلام، وهو شيخ هرم، فعاده وقاوم دعوته. قال ابن الأثير: وهو الذي جمع قريشاً، وقال: «إن الناس يأتونكم أيام الحج، فيسالونكم عن محمد، فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: كاهن؛ ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون؛ وليس يشبه واحداً مما يقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه: «ساحر»؛ لأنه يفرق بين المرء وأخيه، والزوج وزوجته! وهلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون. وهو والد سيف الله خالد بن الوليد.

ينظر: «الأعلام» (١٢٢/٨)، «الكامل» لابن الأثير (٢٦/٢)، «اليعقوبي» (٢١٥/١).

رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ هَلَمْ دَارُ السَّكْرِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا لِنَمْعَشَرَ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّهِ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام...﴾ الآية: ﴿من﴾: شرط، و ﴿يشرح﴾ جواب الشرط.

والآية نص في أن الله تعالى يريد هدى المؤمن، وضلال الكافر، وهذا عند جميع أهل السنة بالإرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالى، والهدى هنا: هو خلق الإيمان في القلب، وشرح الصدر: هو تسهيل الإيمان، وتحييه، وإعداد القلب لقبوله وتحصيله، والصدر: عبارة عن القلب، وفي ﴿يشرح﴾ ضمير يعود على اسم الله عز وجل / يغضده ١٧٩ ب اللفظ والمعنى، ولا يختل غيرُه، والقول بأنه عائد على «المهدي» - قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأعمال، ويجب أن يعتقد ضعفه، والحد من، وروي عن النبي ﷺ «أنه لما نزلت هذه الآية، قالوا: يا رسول الله، كيف يشرح الصدر؟ قال: إذا نزل الثور في القلب، أنشرح له الصدر، وأنفسح، قالوا: وهل لذلك علامة، يا رسول الله؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت، قبل الموت»، والقول^(١) في قوله: ﴿ومن يرد أن يضلّه﴾ كالقول في قوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾، وقرأ حمزة وغيره: «حرجاً» - بفتح الراء -، وروي أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قرأها يوماً بفتح الراء، فقرأها له بعض الصحابة بكسر الراء، فقال: أبغوني رجلاً من كنانة، وليكن راعياً، وليكن من بني مدلج، فلما جاء، قال له: يا فتى، ما الحرجة عندكم؟ قال الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وخشية، قال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿كأنما يصعد في السماء﴾، أي: كأن هذا الضيق الصدر متى حاول

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨٣/٣) عن ابن مسعود. وعزه إلى ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في «الشعب» وعزه إلى عبد بن حميد، عن الفضيل بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٧/٥) برقم (١٣٨٦٥)، وذاتره البخوي (١٢٩/٢) وابن عطية (٣٤٣/٢)، وابن كثير (١٧٥/٢)، والسيوطي (٨٤/٣) وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن أبي الصلت الثقفى، عن عمر بن الخطاب.

الإيمان أو فُكِّر فيه، يجد صعوبته عليه، والعياذُ بالله، كصعوبة الصُّعود في السماء، قاله ابن جُرَنيج وغيره^(١)، و ﴿في السماء﴾، يريد: مِنْ سفل إلى علو، وتحتل الآية أن يكون التشبيهُ بالصَّاعدِ في عَقَبَةِ كُتود؛ كأنه يَصْعَدُ بها في الهواء، وَيَصْعَدُ: معناه: يعلو، وَيَصْعَدُ: معناه: يتكلَّف من ذلك ما يشقُّ عليه.

وقوله: ﴿كذلك يجعل الله الرجس﴾، أي: وكما كان الهدى كله من الله، والضلال بإرادته تعالى ومشيته؛ كذلك يجعل الله الرجس، قال أهل اللغة: الرجس يأتي بمعنى العذاب، ويأتي بمعنى النَّجس.

وقوله تعالى: ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً...﴾ الآية: هذا إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به نبينا محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس، و ﴿فصلنا﴾، معناه: بيَّنا وأوضحنا^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿لقوم يذكرون﴾، أي: للمؤمنين، والضمير في قوله: ﴿لهم دار السلام﴾ عائد عليهم، والسلام: يتجه أن يكون اسماً من أسماء الله عز وجل، ويتجه أن يكون مصدراً بمعنى السلامة.

وقوله تعالى: ﴿عند ربهم﴾ يريد في الآخرة بعد الحشر، ولئهم، أي: ولي الإنعام عليهم، و ﴿بما كانوا يعملون﴾، أي: بسبب ما كانوا يُقدِّمون من الخير، ويفعلون من الطاعة والبر.

وقوله سبحانه: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجنِّ قد استكثرتم من الإنس﴾، والمعنى: وأذكر يوم، وفي الكلام حذف، تقديره: نقول: يا معشر الجنِّ، وقوله: ﴿قد استكثرتم﴾: معناه: أفرطتم، و ﴿من الإنس﴾: يريد: في إضلالهم وإغوائهم؛ قاله ابن عباس وغيره^(٣)، وقال الكُفَّار من الإنس، وهم أولياء الجنِّ الموبِّخين؛ على جهة الاعتذار عن الجنِّ: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾، أي: انتفع؛ وذلك كاستعازتهم بالجنِّ؛ إذ كان العربي إذا نزل وادياً، ينادي: يا رَبَّ الوادي، إنِّي أستجير بك في هذه الليلة، ثم يرى سلامته إنما هي بحفظ جنِّي ذلك الوادي، ونحو ذلك، وبلوغ الأجلِ المؤجلِ: هو

(١) أخرجه الطبري (٣٤٠/٥) برقم (١٣٨٧٨، ١٣٨٧٩)، وذكره ابن عطية (٣٤٣/٢)، وابن كثير (٢/١٧٥)، والسيوطي (٨٤/٣)، وعزاه لأبي الشيخ عن ابن جريج.

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٢/٥) برقم (١٣٨٨٦)، وذكره ابن عطية (٣٤٤/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤٤٢/٥) برقم (١٣٨٨٨)، وذكره ابن عطية (٣٤٥/٢)، والسيوطي (٨٥/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن عباس.

الموت، وقيل: هو الحشر.

وقوله تعالى: ﴿قال النار مثواكم...﴾ الآية: إخبار من الله تعالى/ عما يقول لهم ١٨٠ يوم القيامة إثر كلامهم المتقدم، و ﴿مثواكم﴾، أي: مَوْضِعُ ثَوَائِكُمْ؛ كَمَقَامِكُمْ الذي هو مَوْضِعُ الإِقَامَةِ؛ قاله الرَّجَّاجُ، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قالت فرقة: «مَا» بمعنى «مَنْ»، فالمراد: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِمَّنْ آمَنَ في الدنيا بعد، إِنْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ، وقال الطبري^(١): إِنْ الْمُسْتَثْنَى هِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي بَيْنَ حَشْرِهِمْ إِلَى دُخُولِهِمُ النَّارَ، وقال الطبري^(٢)، عن ابن عباس: إِنَّهُ كَانَ يَتَأَوَّلُ فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ؛ أَنَّهُ مَبْلَغُ حَالِ هَؤُلَاءِ فِي عِلْمِ اللَّهِ^(٣)، ثُمَّ أَسْنَدَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةٌ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى اللَّهِ فِي خَلْقِهِ لَا يُنْزِلُهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا.

قال * ع^(٤) *: والإجماع على التخليد الأبدي في الكفار، ولا يصح هذا عن ابن عباس (رضي الله عنه).

قال * ص *: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: قيل: استثناء منقطع، أي: لَكِنْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَذَابِ الزَّائِدِ عَلَى النَّارِ، وقيل: متصل، واختلفوا في تقديره، فقيل: هو استثناء من الأشخاص، وهم مَنْ آمَنَ في الدنيا، وَرَدَّ بِأَنَّهُ يَخْتَلِفُ زَمَانُ الْمُسْتَثْنَى وَالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، فَيَكُونُ مَنْقُطَعًا لَا مُتَّصِلًا؛ لِأَنَّ مِنْ شَرْطِ الْمُتَّصِلِ اتِّحَادُ زَمَانِي الْمُخْرَجِ وَالْمُخْرَجِ مِنْهُ. انتهى، وقيل غير هذا.

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾، قال قتادة^(٥): معناه: نجعل بعضهم وليَّ بعض في الكفر والظلم، وقال أيضاً: المعنى نجعل بعضهم يلي بعضاً في دخول النار، وقال ابن زيد: معناه: نسلط بعض الظالمين على بعض، ونجعلهم أولياء النعمة^(٦) منهم.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٤٣/٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٤٣/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٤٣/٥) برقم (١٣٨٩٥)، وذكره البغوي (١٣١/٢)، وابن عطية (٣٤٥/٢)، وابن كثير (١٧٦/٢)، والسيوطي (٨٥/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٤٦/٢).

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٤/٥) برقم (١٣٨٩٦)، وذكره البغوي (١٣١/٢)، وابن عطية (٣٤٦/٢)، وابن كثير (١٧٦/٢)، والسيوطي (٨٥/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري (٣٤٤/٥) برقم (١٣٨٩٨)، وذكره ابن عطية (٣٤٦/٢)، وابن كثير (١٧٦/٢)، والسيوطي (٨٥/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن زيد.

قال * ع^(١) * : وقد حفظ هذا في استعمال الصحابة والتابعين؛ كقول ابن الزبير: أَلَا إِنَّ قَمَ الذَّبَّانِ قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ^(٢)؛ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَغْضَ الظَّالِمِينَ بَغْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنبَغِي وَيُذَرُّونَكُمُ لِقَاءَ رَبِّكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ...﴾ الآية: هذا الكلام داخل في القول يَوْمَ الْحِشْرِ.

قال الفخر^(٣): قال أهل اللغة: المَعْشَر: كل جماعة أمرهم واحد، وتَخَصَّلَ بينهم معايشة ومخالطة، فالمَعْشَر: المعاشير. انتهى، و ﴿مِنْكُمْ﴾: يعني: مِنَ الْإِنْسِ؛ قاله ابن جُزَيْج^(٤) وغيره، وقال ابن عباس: من الطائفتين^(٥)، ولكن رسل الجن هم رسل رُسُلِ الْإِنْسِ، وهم النُّذُر، و ﴿يَقُصُّونَ﴾: من الْقَصَصِ، وقولهم: ﴿شَهِدْنَا﴾: إقرار منهم بالكفر.

وقوله سبحانه: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: أَلْتَفَاتَةٌ فصيحةٌ تَضَمَّنَتْ أَنَّ كُفْرَهُمْ كَانَ بِأَدَمِ الْوُجُوهِ لَهُمْ، وهو الْإِغْتِرَارُ الذي لا يواقعه عاقل، وَيَحْتَمِلُ ﴿غَرَّتْهُمْ﴾: أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى: أَشْبَعَتْهُمْ وَأَطْعَمَتْهُمْ بِحُلُومِهَا؛ كما يقال: غَرَّ الطَّائِرُ فَرَحَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾: الجمع بين هذه الآية وبين الآي التي تقتضي إنكار المشركين الإِشْرَاكَ هو إِمَّا بِأَنَّهَا طَوَائِفُ، وإِمَّا بِأَنَّهَا طَائِفَةٌ واحدةٌ في مواطنٍ شَتَّى.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ﴾، أي: ذَلِكَ الْأَمْرُ، و ﴿الْقُرَى﴾: المَدُن، والمراد: أهل

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٤٦/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٤٦/٢).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥٩/١٣).

(٤) أخرجه الطبري (٣٤٥/٥) برقم (١٣٩٠٠) نحوه، وذكره ابن عطية (٣٤٦/٢) نحوه، وابن كثير (٢/١٧٧)، والسيوطي (٨٦/٣) وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج بنحوه، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٥/٥) برقم (١٣٩٠٠)، وذكره ابن عطية (٣٤٦/٢)، وابن كثير (١٧٧/٢) بنحوه.

الْقُرَى، و ﴿بِظَلَمٍ﴾: يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه لم يكن سبحانه لِيُهْلِكْهُمْ دون نَذَارَةٍ، فيكون ظُلماً لهم، واللّه تعالى ليس بظلاماً للعبيد.

والآخر: أن اللّه عزّ وجلّ لم يُهْلِكْهُمْ بظلمٍ واقعٍ منهم دون أن ينذرهم، وهذا هو البين القوي، وذكر الطبري (رحمه الله) التأويلين.

وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا...﴾ الآية: إخبارٌ من اللّه سبحانه أن المؤمنين في الآخرة على درجاتٍ من التفاضل بحسب أعمالهم، وتفضل المولى سبحانه عليهم، ولكن كل راضٍ بما أُعطي غاية الرضا، / والمشركون أيضاً على درجاتٍ من العذاب، قلت: وظاهر الآية أن الجنّ يشابون وينالون الدَرَجاتِ والدَرَكاتِ، وقد ترجم البخاريّ على ذلك، فقال: ذَكَرَ الْجَنُّ وَثَوَابَهُمْ وَعِقَابَهُمْ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ...﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، قال الداوودي: قال الضحاك: مِنَ الْجَنِّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ^(١). انتهى.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مَّآخِرٍ ﴿١٣٢﴾ إِنْ مَا تَوَعَّدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ الآية متضمنةٌ وعيداً وتحذيراً من بطش اللّه عزّ وجلّ في التعجيل بذلك، وإمّا مع المهلة ومرور الجديدين؛ فذلك عادته سبحانه في الخلق بإذهاب خلقٍ واستخلافٍ آخرين.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ﴾، هو من الوعيد؛ بقريضة: ﴿وما أنتم بمعجزين﴾، أي: وما أنتم بناجين هرباً فتعجزوا طالبكم، ثم أمر سبحانه نبيه - عليه السلام - أن يتوعدّهم بقوله: ﴿اعملوا﴾، أي: فسترون عاقبة عملكم الفاسد، وصيغة «أفعل» هنا: هي بمعنى الوعيد والتهديد، و ﴿على مكانتكم﴾: معناه: على حالكم وطريقتكم، و ﴿عاقبة الدار﴾، أي: مآل الآخرة، ويحتمل مآل الدنيا؛ بالنصر والظهور، ففي الآية إعلام بغيب.

(١) ذكره السيوطي (٨٧/٣)، وعزه لابن المنذر، وأبي الشيخ في «المعظمة» عن الضحاك.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ لِمَا وَفَّ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٢٣﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ جِجَرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

وقوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾، يعني: مشركي العرب الذين تقدّم الردّ عليهم من أول السورة، و ﴿ذرأ﴾: معناه: خلق وأنشأ وبث، وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من غلاتها وزروعها وثمارها وأنعامها جزءاً تسميه لله، وجزءاً تسميه لأصنامها، وكانت عاداتها التحفي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله؛ إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر، وليس ذلك بالله سبحانه، فكانوا إذا جمعوا الزرع، فهبت الريح، فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم، أقروه، وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الذي لله، ردّوه، وإذا لم يُصِيبُوا في نصيب شركائهم شيئاً، قالوا: لا بُدَّ لِلْآلِهَةِ مِنْ نَفَقَةٍ، فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك؛ قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم^(١)؛ أنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل؛ وكذلك في الأنعام؛ كانوا إذا أصابتهم السنّة، أكلوا نصيب الله، وتحاموا نصيب شركائهم.

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾، الكثير هنا يراؤ به من كان يئد^(٢) من مشركي العرب، والشركاء؛ ههنا: الشياطين الأمرون بذلك، المزينون له، والحاملون عليه أيضاً من بني آدم، ومقصد الآية الذم للوأد والإنحاء على فعلته، و ﴿ليُرْدُوهُمْ﴾: معناه: ليهلكوهم من الرّدّي، و ﴿ليلبسوا﴾: معناه: ليخطئوا.

وقوله سبحانه: ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ يقتضي أن لا شيء إلا بمشيئة الله

(١) أخرجه الطبري (٣٥٠/٥) برقم (١٣٩٠٢) عن ابن عباس، وبرقم (١٣٩٠٥) عن مجاهد، وبرقم (١٣٩٠٩) عن السدي، وذكره ابن عطية (٣٤٩/٢)، وابن كثير (١٧٩/٢) عن ابن عباس، والسيوطي (٨٩/٣) وعزاه لابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) وأد البنات، أي: قتلهن، قال المفسرون: كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت له بنت، دفنها حين تضعها والدتها حية؛ مخافة العار والحاجة.

ينظر: «لسان العرب» (٤٧٤٥).

عَزَّ وَجَلَّ، وفيها ردُّ على من قال بأن المرء يَخْلُقُ أفعاله، وقوله: ﴿فذرهم﴾: وعيدٌ محضٌ.

وقوله سبحانه: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حُرِّمَتْ ظُهورها﴾ الآية تتضمن ما شرعوه لأنفسهم وألتزموه على جهة القرينة كذباً منهم على الله سبحانه، و ﴿حَجَرٌ﴾: معناه: التحجير، وهو المنع والتحريم، ﴿وأنعام لا يذكرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾: قال جماعة من المفسرين: إنهم كانت لهم سُنة في أنعام ما؛ ألا يُحَجُّ عليها، فكانت تُركَّب في كل وجه إلا في الحج، وقالت فرقة: بل ذلك في الذبائح، جعلوا لآلهتهم نصيباً منها لا يذكرُونَ الله على ذبحها.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّنَّ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا...﴾ الآية: كان/ مِنْ مذهبهم الفاسدة في بغض الأنعام أن يحرموا ما وَلَدَتْ على ١٨١ نسائهم، ويخصصونه لذكورهم، ف ﴿أَزْوَاجِنَا﴾: يراد به جماعة النساء التي هي معدة أن تكون أزواجاً؛ قاله مجاهد^(١)، وقوله: ﴿وإن يكن مِثْنَةً﴾، يعني: أنه كان من سُنتهم أن ما خرج من الأجنة مِثْناً مِنْ تلك الأنعام الموقوفة، فهو حلال للرجال والنساء جميعاً، وكذلك ما مات مِنْ الأنعام الموقوفة نَفْسِهَا، ثم أعقب تعالى بوعيدهم على ما وصفوا أنه من القربات.

وقوله سبحانه: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم...﴾ الآية: تتضمن التشنيع بسوء فعلهم، والتعجيب مِنْ سوء حالهم فيما ذُكِر، قال عكرمة: وكان الوادُ في رَيْبَةٍ وفي مُضَرٍّ^(٢).

قال * ع^(٣): وكان جمهورُ العرب لا يفعلُه، ثم إن فاعليه كان منهم مَنْ يفعلُه

(١) أخرجه الطبري (٣٥٨/٥) برقم (١٣٩٤٤)، وذكره البغوي (١٣٤/٢)، وابن عطية (٣٥٢/٢)، والسيوطي (٩٠/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٠/٥) برقم (١٣٩٥٣)، وذكره البغوي (١٣٤/٢)، وابن عطية (٣٥٢/٢)، والسيوطي (٩١/٣)، وعزاه لابن المنذر، وأبي الشيخ عن عكرمة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٥٢/٢).

خَوْفَ الْعَيْلَةِ وَالْإِفْتِقَارِ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ غَيْرَةً؛ مَخَافَةَ السَّبَاءِ، وَ ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾: إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِالْحَيْرَةِ، ﴿وَمَا كَانُوا﴾: يَرِيدُ فِي هَذِهِ الْفَعْلَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: وَمَا كَانُوا قَبْلَ ضَلَالِهِمْ بِهَذِهِ الْفَعْلَةِ مُهْتَدِينَ، وَلَكِنَّهُمْ زَادُوا بِهَذِهِ الْفَعْلَةِ ضَلَالًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ...﴾ الآية: تَنْبِيْهُ عَلَىٰ مَوَاضِعِ الْإِعْتِبَارِ، وَ ﴿أَنْشَأَ﴾: مَعْنَاهُ: خَلَقَ وَأَخْرَجَ، وَ ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَلِكَ فِي ثَمَرِ الْعَنْبِ، مِنْهَا: مَا عَرِشَ وَسَمَكُ، وَمِنْهَا: مَا لَمْ يَعْرِشْ^(١)، وَ ﴿مُتَشَابِهًا﴾: يَرِيدُ: فِي الْمَنْظَرِ، وَ ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾: فِي الطَّعْمِ؛ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُ^(٢)، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾: نَصٌّ فِي الْإِبَاحَةِ، وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ: هِيَ فِي الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ^(٣).

قَالَ * ع^(٤) * : وَهَذَا الْقَوْلُ مُعْتَرِضٌ بِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ؛ وَبِأَنَّهُ لَا زَكَاةَ فِيهَا ذِكْرٌ مِنَ الرُّمَانِ، وَمَا فِي مَعْنَاهُ، وَحَكَى الزَّجَّاجُ؛ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قِيلَ فِيهَا: إِنَّهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُهُ: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾: نَذْبٌ إِلَىٰ إِعْطَاءِ حَقَّقٍ مِنَ الْمَالِ غَيْرِ الزَّكَاةِ^(٥)، وَالسُّنَّةُ أَنْ يُعْطِيَ الرَّجُلُ مِنْ زَرْعِهِ عِنْدَ الْحَصَادِ، وَعِنْدَ الدَّزْوِ، وَعِنْدَ تَكْدِيسِهِ فِي الْبَيْدَرِ^(٦)، فَإِذَا صَفَّى وَكَالَ، أَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ الزَّكَاةَ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٦١/٥) بِرَقْم (١٣٩٦١)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١٣٥/٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٥٣/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١٨١/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ (٩٢/٣)، وَغَزَاهُ الْأُمِّيُّ الشَّيْخُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٦٢/٥) بِرَقْم (١٣٩٦٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٥٣/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١٨١/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ (٩٢/٣)، وَغَزَاهُ لَابِنُ الْمُنْذَرِ، وَأَبِي الشَّيْخِ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٦٣/٥) بِرَقْم (١٣٩٧٤)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١٣٥/٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٥٣/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١٨١/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ (٩٤/٣)، وَغَزَاهُ لَابِنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٥٣/٢).

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٦٥/٥) بِرَقْم (١٣٩٩٦)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١٣٥/٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٥٣/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١٨١/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ (٩٢/٣) وَغَزَاهُ لِسَعِيدِ بْنِ مُنْصُورٍ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ وَابْنُ بَيْهَقٍ عَنْ مُجَاهِدٍ.

(٦) الْبَيْدَرُ: الْأَنْدَرُ (شَامِيَّةٌ) وَأَنْدَرُ الْقَمْحِ الْكَدْسُ مِنْهُ خَاصَّةٌ. وَفِي الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ: الْبَيْدَرُ: الْجُزْنُ، وَالْقَمْحُ =

وقالت طائفة: هذا حكم صدقات المسلمين؛ حتى نزلت الزكاة المفروضة، فنسختها.

قال * ع^(١): والنسخ غير مترتب في هذه الآية، ولا تعارض بينها وبين آية الزكاة، بل تنبيي هذه على التدب، وتلك على الفرض.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ النهي عن الإسراف: إما للناس عن التمتع عن أدائها؛ لأن ذلك إسراف من الفعل، وإما للولاة عن التشطط على الناس والإذاء لهم، وكل قد قيل به في تأويل الآية.

وقوله سبحانه: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ حمولة: عطف على جنات معروشات. التقدير: وأنشأنا من الأنعام حمولة، والحمولة: ما تحمل الأثقال من الإبل والبقر عند من عاداته أن يحمل عليها، والفرش: ما لا يحمل ثقلًا؛ كالغنم وصغار البقر والإبل، وهذا هو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن^(٢) وغيرهم، ولا مدخل في الآية لغير الأنعام، وقوله: ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ نص إباحة، وإزالة ما سته الكفرة من البحيرة والسائبة وغير ذلك، ثم تابع النهي عن تلك السنن / الآفة؛ بقوله سبحانه: ﴿ولا ١٨١ ب تتبعوا خطوات الشيطان﴾، وهي جمع خطوة، أي: لا تمشوا في طريقه، قلت: ولفظ البخاري: ﴿خطوات﴾ من الخطو، والمعنى: آثاره. انتهى.

﴿تَمَنِّيَ أَزْوَاجَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ الْعَمَلِ أَثْنَيْنِ قُلْ ءَالِ الْكَافِرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْإِنثَيْنِ نَبِغُونِ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالِ الْكَافِرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا

= ونحوه بعد دياسه وتقويمه.

ينظر: «لسان العرب» (٢٢٩، ٤٣٨٢)، و«المعجم الوسيط» (٧٨).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٧٢/٥، ٣٧٣) برقم (١٤٠٥٠، ١٤٠٥٥، ١٤٠٥٦، ١٤٠٥٧) عن ابن مسعود، (١٤٠٥١، ١٤٠٦٠، ١٤٠٦١) عن ابن عباس، و (١٤٠٥٨، ١٤٠٥٩، ١٤٠٦٧) عن الحسن، وغيرهم منهم (١٤٠٥٢، ١٤٠٥٣، ١٤٠٥٤) عن مجاهد، و (١٤٠٦٣، ١٤٠٦٤) عن قتادة، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٥٤)، وابن كثير (٢/ ١٨٢)، والسيوطي (٣/ ٩٤) وعزاه للقرطبي، وعبد بن حميد، وأبي عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والطبراني، والحاكم، وصححه عن ابن مسعود.

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثمانية أزواج﴾، واختلف في نَصْبِهَا فَقِيلَ: على البدل من «مَا» في قوله: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، وقيل: على الحال، وقيل: على البدل من قوله: ﴿حُمُولَةٌ وَنَرَسَاءٌ﴾، وهذا أصوب الأقوال، وأجراها على^(١) معنى الآية، والزَّوْجُ: الذكر، والزَّوْجُ الأنثى، فكل واحدٍ منهما زَوْجٌ صاحبه، وهي أربعة أنواع؛ فتجيء ثمانية أزواج، والضَّان: جمع ضَائِنَةٍ وضَائِن.

وقوله سبحانه: ﴿قل الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أمِ الْاُنْثَيْنِ﴾، هذا تقسيمٌ على الكفَّار؛ حتَّى يَتَبَيَّنَ كَذِبُهُمْ عَلَى اللَّهِ، أي: لا بد أن يكون حَرَّمَ الذَّكَرَيْنِ؛ فيلزمكم تحريمُ جميع الذُّكُور، أو الْاُنْثَيْنِ؛ فيلزمكم تحريمُ جميع الْاِنَاث، ﴿أما أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْاُنْثَيْنِ﴾، فيلزمكم تحريمُ الجميع، وأنتم لم تلتزموا شيئاً يوجبُه هذا التقسيمُ، وفي هذه السُّؤَالَاتِ تَقْرِيعٌ وتوبيخٌ، ثم أَتْبَعَ تَقْرِيعَهُمْ بقوله: ﴿تَبْثُونِي﴾، أي: أخبروني ﴿بعلم﴾، أي: من جهة نبوة أو كتابٍ من كتب الله ﴿إن كنتم صادقين﴾، و ﴿إن﴾ شرطٌ، وجوابه في ﴿تَبْثُونِي﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ومن الْاِبِلِ اثْنَيْنِ ومن الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قل الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ... الآية: القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم؛ كما تقدَّم، فكأنه قال: أنتم الذين تدعون أن الله حرم خصائص من هذه الأنعام لا يخلو تحريمه من أن يكون في الذَّكَرَيْنِ أو في الْاُنْثَيْنِ، أو فيما أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْاُنْثَيْنِ، لكنه لم يُحَرِّمْ لا هذا ولا هذا ولا هذا؛ فلم يَبْقَ إِلَّا أنه لم يَقَعْ تحريمٌ، قال الْفَخْرُ^(٢): والصحيحُ عندي أن هذه الآية لم ترد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم، بل هي استفهامٌ على سبيل الإنكار، وحاصل الكلام: أنكم لا تعترفون بنبوة أحد من الأنبياء، فكيف تثبتون هذه الأحكام المختلفة. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾: استفهامٌ؛ على سبيل التوبيخ، و ﴿شهداء﴾: جمعٌ شهيد، وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالى: ﴿قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعمٍ يطعمه إلا أن يكون ميتة... الآية: هذه الآية نزلت بمكة، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيء محرَّم

(١) في أ: علي.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٣/١٧٨).

غير هذه الأشياء، ثم نزلت، سورة المائدة بالمدينة، وزيد في المحرمات؛ كالخمر، وكأكل كل ذي نابٍ من السباع ممّا وردت به السنة.

قال * ع^(١): ولفظة التحريم، إذا وردت على لسان رسول الله ﷺ، فإنها صالحة أن تنتهي بالشيء المذكور غاية المنع والحظر، وصالحة بحسب اللغة أن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها، فما أقرنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين، وأجمع عليه الكل منهم، ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث، وأمضاه الناس - وجب بالشروع أن يكون تحريمه قَدْ وصل الغاية من الحظر والمنع، ولحق بالخنزير والميتة، وهذه صفة تحريم الخمر، وما أقرنت به قرينة اضطراب ألفاظ الحديث، واختلف الأمة فيه، مع علمهم بالأحاديث؛ كقوله - عليه السلام -: «كُلْ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ حَرَامٌ»^(٢)، وقد روي عنه

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٥٦/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧/٩) كتاب «الذبايح والصيد»، باب أكل كل ذي ناب من السباع. حديث (٥٥٣٠)، ومسلم (١٥٣٣/٣) كتاب «الصيد والذبايح»، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، حديث (١٣)، ١٤ / (١٩٣٢)؛ ومالك (٤٩٦/٢) رقم (١٣) والطياشي ص (١٣٦)، حديث (١٠١٦)، وأحمد (١٩٣/٤) والدارمي (٨٤ / ٢) كتاب «الأضاحي»، باب ما لا يؤكل من السباع وأبو داود (١٥٩/٤) كتاب «الأطعمة»، باب النهي عن أكل السباع حديث (٣٨٠٢)، والترمذي (٤/ ٧٣)، كتاب «الأطعمة»، باب ما جاء في كراهية كل ناب، حديث (١٤٧٧)، والنسائي (٧/ ٢٠٠-٢٠١) وابن ماجه (١٠٧٧/٢) كتاب «الصيد»، باب أكل ذي ناب من السباع، حديث (٣٢٣٢).

وابن الجارود (٨٨٩) والشافعي (١٧٢- ١٧٣) كتاب «الصيد والذبايح»، رقم (٦٠٤، ٦٠٥) والحميدي (٣٨٦/٢) رقم (٨٧٥)، وابن حبان (٥٢٥٥- الإحسان) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٩٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨/٩) والبيهقي (٣٣١/٩) والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٣١). بتحقيقنا من طريق أبي إدريس الخولاني، عن أبي ثعلبة به.

وقال الترمذي: حديث مشهور من حديث أبي ثعلبة حسن صحيح.

وأما حديث أبي هريرة:

أخرجه مسلم (١٥٣٤/٣) كتاب «الصيد والذبايح»، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، حديث (١٩٣٤/١٦)، ومالك (٤٩٦/٢) كتاب «الصيد»، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، حديث (١٤) والشافعي (١٧٢/٢) كتاب «الصيد والذبايح»، حديث (٦٠٣) وأحمد (٢٣٦/٢)، والترمذي (٤/ ٧٤) كتاب «الأطعمة»، باب ما جاء في كراهية كل ذي ناب وذي مخلب، حديث (١٤٧٩) والنسائي (٧/ ٢٠٠) كتاب «الصيد والذبايح»، باب تحريم أكل السباع، وابن ماجه (١٠٧٧/٢) كتاب «الصيد»، باب أكل كل ذي ناب من السباع، حديث (٣٢٣٣) والبيهقي (٣١٥/٩) كتاب «الضحايا» باب ما يحرم من جهة ما لا تأكل العرب. بلفظ أكل كل ذي ناب من السباع حرام، أما حديث جابر بن عبد الله قال: «حرم رسول الله ﷺ يوم خيبر الحمر الأنسية، ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وذي مخلب من الطير».

«نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ»^(١)، ثم اختلفت الصحابة وَمَنْ بعدهم في تحريم ذلك، فجاز لهذه الوجوه لِمَنْ يَنْظُرُ أَنْ يَحْمَلَ لَفْظَ التَّحْرِيمِ عَلَى الْمَنْعِ الذي هو على الكراهية ونحوها، وما اقترنت به/ قرينته التأويل؛ كتحريمه - عليه السلام -

= أخرجه أحمد (٣/٣٢٣)، والترمذي (٤/٧٣) كتاب «الأطعمة» باب ما جاء في كراهية كل ذي ناب وذي مخلب.

حديث (١٤٧٨)، والبخاري، والطبراني في «الأوسط»؛ كما في «مجمع الزوائد» (٥/٤٧).

وقال الترمذي: حسن غريب.

أما حديث خالد بن الوليد قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ خيبر، فأنت اليهود، فشكوا أن الناس قد أسرعوا إلى حظائرهم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم حمر الأهلية وخيلها وبغالها وكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير».

أخرجه أحمد (٤/٨٩، ٩٠) وأبو داود (٤/١٦٠ - ١٦١) كتاب «الأطعمة»، باب النهي عن أكل السباع، حديث (٣٨٠٦) والنسائي (٧/٢٠٢) كتاب «الصيد والذباح»، باب تحريم أكل لحوم الخيل، والدارقطني (٤/٢٨٧) باب الصيد والذباح والأطعمة، حديث (٦٠، ٦١، ٦٣)، والبيهقي (٩/٣٢٨) كتاب «الضحايا»، باب بيان ضعف الحديث الذي روي في النهي عن لحوم الخيل.

وقال النسائي في الحديث (يشبه أن يكون صحيحاً، ولكنه منسوخ بإباحة الخيل بعد ذلك).

أما حديث المقدم بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: «لا يحل ذو ناب من السباع، ولا الحمار الأهلي، ولا اللقطة، من مال معاهد».

أخرجه أحمد (٤/١٣١)، وأبو داود (٤/١٦٠) كتاب «الأطعمة» باب النهي عن أكل السباع، حديث (٣٨٠٤) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/٢٠٩) كتاب «الصيد والذباح»، باب أكل لحوم الحمر الأهلية، والدارقطني (٤/٢٨٧)، باب الصيد والذباح، حديث (٥٩) والبيهقي (٩/٣٣٢) كتاب «الضحايا»، باب ما جاء في أكل لحوم الحمر الأهلية.

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٤٣) كتاب «الصيد والذباح»، باب تحريم أكل كل ذي ناب، حديث (١٦/١٩٣٤) وأبو داود (٢/٣٨٣) كتاب «الأطعمة»، باب النهي عن أكل السباع، حديث (٣٨٠٣) والدارمي (٢/٨٥) كتاب «الأضاحي»، باب ما لا يؤكل من السباع وأحمد (١/٢٤٤، ٢٨٩، ٣٠٢، ٣٧٣)، وابن الجارود (٨٩٢) وابن حبان (٥٢٥٦ - الإحسان)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/١٩٠) والبيهقي (٩/٣١٥) كتاب «الضحايا»، باب ما يحرم من جهة ما لا تأكل العرب، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٩٥) والبغوي في «شرح السنة» (٦/٣٢ - بتحقيقنا). من طريق أبي بشر - والحكم عند بعضهم - عن ميمون بن مهران عن ابن عباس به.

وقد رواه ميمون بن مهران، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس أخرجه أبو داود (٢/٣٨٣) كتاب «الأطعمة»، باب النهي عن أكل السباع، حديث (٣٨٠٥) والنسائي (٧/٢٠٦) كتاب «الصيد والذباح»، باب إباحة أكل لحوم الدجاج، وابن ماجه (٢/١٠٧٧) كتاب «الصيد»، باب أكل كل ذي ناب من السباع حديث (٣٢٣٤) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/١٩٠) وأحمد (١/٣٣٩) والبيهقي (٩/٣١٥) كتاب «الضحايا»، باب ما يحرم من جهة ما لا تأكل العرب، وابن الجارود (٨٩٣) من طريق علي بن الحكم، عن ميمون بن مهران، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس.

لَحُومِ الْخُمْرِ الْأَنْسِيَّةِ^(١)، فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك؛ لأنها لم تخمس، وتأول بعضهم أن ذلك لئلا تفتنى حمولة الناس، وتأول بعضهم التحريم المخص، وثبت في الأمة الاختلاف في لخمها، فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهية أو نحوها، وباقي الآية بين.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرِّمْنَا عَلَيْهِمُ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ...﴾ الآية: هذا خبر من الله سبحانه يتضمن تكذيب اليهود في قولهم: «إن الله لم يحرم علينا شيئاً، وإنما حرّمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه»، و ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾: يراد به الإبل، والنعام، والإوز ونحوه من الحيوان الذي هو غير مُنفرج الأصابع، وله ظفر، وأخبرنا سبحانه في هذه الآية بتحريم الشحوم عليهم، وهي الثروب وشحم الكلى، وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية، واختلف في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائحهم، فعن مالك: كراهية شحومهم من غير تحريم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾، يريد: ما اختلط باللحم في الظهر والأجناب ونحوه، قال السدي وأبو صالح: الأليات مما حملت ظهورهما^(٢)، والحوايا: ما تحوَّى في البطن، وأستدار، وهي المصارين والحشوة ونحوها، وقال ابن عباس وغيره: هي المبايع^(٣)، وقوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، يريد: في سائر الشخص.

(١) في أ: الأهلية.

(٢) أخرجه الطبري (٣٨٤/٥) برقم (١٤١١٢) عن السدي، و (١٤١١٣) عن أبي صالح، وذكره ابن عطية (٣٥٨/٢)، والسيوطي (١٠١/٣) وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن أبي صالح.

(٣) أخرجه الطبري (٣٨٤/٥) برقم (١٤١١٤، ١٤١٢٤) عن ابن عباس، وبرقم (١٤١١٥، ١٤١١٦، ١٤١١٧) عن مجاهد، وبرقم (١٤١٢٠، ١٤١٢١) عن قتادة (١٤١١٩)، (١٤١٢٠) عن سعيد بن =

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ يقتضي أنَّ هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على بغْيهم، وأستعصائهم على أنبيائهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾: إخبار يتضمَّن التعريض بكذبهم في قولهم: ما حرَّم الله علينا شيئاً.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: أي: فيما أخبرت به؛ أنَّ الله حرَّمه عليهم، ﴿فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي في إِمهاله؛ إذ لم يعاجلكم بالعقوبة، مع شدة جُرمِكم، ولكن لا تغتروا بسعة رحمته؛ فإن له بأساً لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذه الآية وما جانسها من آيات مكية مرتفع حكمها بآية القتال، ثم أخبر سبحانه نبيه - عليه السلام - بأن المشركين سيحتجون؛ لتصويب ما هم عليه من شركهم وتدينهم: بتحريم تلك الأشياء بإمهال الله تعالى لهم، وتقريره حالهم، وأنه لو شاء غير ذلك، لما تركهم على تلك الحال، ولا حجة لهم فيما ذكروه؛ لأنه سبحانه شاء إشراكهم وأقدرهم على الإكتساب، ويلزمهم على احتجاجهم أن تكون كل طريقة وكل نحلة صواباً، إذ كلها لو شاء الله لم تكن، وفي الكلام حذف يدلُّ عليه تناسق الكلام؛ كأنه قال: سيقول المشركون كذا وكذا، وليس في ذلك حجة لهم، ولا شيء يقتضي تكذيبك، ولكن، ﴿كذلك كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم، وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا﴾: وعيد بين.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾. أي: من قبل الله، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، يريد البالغة غاية المقصد في الأمر الذي يحتج له، ثم أعلم سبحانه أنه لو شاء، لهدى العالم بأسره، و ﴿هَلُمُّ﴾: معناها: هات؛ وهي حينئذ متعديّة، وقد تكون بمعنى: «أقبل»؛ فلا تتعدى، وبعض العرب يجعلها اسم فعل؛ كـ «رُوَيْدُكَ»، وبعضهم يجعلها فعلاً، ومعنى الآية: قل هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم ما زعمتم تحريمه، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾، أي: فإن افتري لهم أحد أو زور شهادة أو خبراً عن نبوة ونحو ذلك، ب ١٨٢ فجئت أنت ذلك، ولا تشهد معهم، قلت: وهذه الآية/ والتي بعدها من نوع ما تقدّم من أن الخطاب له ﷺ، والمراد غيره ممن يمكن ذلك منه، ﴿وهم بربهم يعدلون﴾، أي: يجعلون له أنداداً يسوونهم به، تعالى الله عن قولهم.

= جبير، (١٤١٢٥) عن السدي، وذكره ابن عطية (٣٥٨/٢)، والسيوطي (١٠٠/٣) وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: هذا أمر من الله عز وجل لنبيه - عليه السلام - أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حَرَّمَ الله بشَرْع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر، و ﴿ما﴾ نصبت بقوله: ﴿أَتْلُ﴾، وهي بمعنى «الذي»، و «أَنَّ»، في قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ في موضع رفع، التقدير: الأمر أن، أو ذاك أن، وقال كعب الأحبار: هذه الآية هي مفتتح التوراة: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي...» إلى آخر الآيات^(١)، وقال ابن عباس: هذه الآيات هي المحكمات المذكورة في آل عمران، اجتمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في^(٢) ملة، وقد قيل: إنها العشر الكلمات المنزلة على موسى، والإملاق: الفقر وعدم المال؛ قاله ابن عباس وغيره، قال القشيري: خوف الفقر قرينة الكفر، وحسن الثقة بالرب سبحانه نتيجة الإيمان. انتهى من «التحبير».

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، قال مجاهد: ﴿التي هي أحسن﴾: التجارة فيه^(٣)، والأشدُّ هنا: الحزم والنظر في الأمور وحسن التصرف فيها، وليس هذا بالأشدَّ المقرون بالأربعين، بل هذا يكون مع صغر السن في ناسٍ كثير.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾: أمر بالاعتدال.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز.

(١) ذكره ابن عطية (٣٦١/٢)، والسيوطي (١٠٣/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن المنذر عن كعب.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٦١/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٩٣/٥) برقم (١٤١٥٢)، وذكره البغوي (١٤١/٢)، وابن عطية (٣٦٢/٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾: يتضمّن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك، أي: ولو كان ميل الحق على قراباتكم.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾: الإشارة بـ «هذا» هي إلى الشرع الذي جاء به نبينا محمد ﷺ، وقال الطبري^(١): الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدّمت من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾، وقال ابن مسعود: إن الله سبحانه جعل طريقه صراطاً مستقيماً طرفه محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعب منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار^(٢)، وقال أيضاً: خطأ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطأ، فقال: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِ ذَلِكَ وَعَنْ شِمَالِهِ خُطُوطًا، فَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهَا»، ثم قرأ هذه^(٣) الآية.

قال * ع^(٤): * وهذه الآية تعم أهل الأهواء والبِدَع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدَل، والخوض في الكلام، هذه كلها عُزْضَةٌ للزلزل، ومُظَنَّةٌ لسوء المعتقد، و «لعلكم» ترجّ بحسبنا، ومن حيث كانت المحرّمات الأولى لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله، جاءت العبارة: «لعلكم تعقلون»، والمحرّمات الأخر شهوات، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكّر، وركوب الجادة الكاملة يتضمّن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٥٥) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَلغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا لَفَقَدْ رَبَّهِنَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَلغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا لَفَقَدْ رَبَّهِنَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

(١) ينظر الطبري (٣٩٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٧/٥) برقم (١٤١٧٥)، وذكره البغوي (١٤١/٢) نحوه، وابن عطية (٣٦٤/٢)، وابن كثير (١٩٠/٢) نحوه، والسيوطي (١٠٦/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه أحمد (٤٣٥/١)، (٤٦٥)، والنسائي في «التفسير» (٤٨٥/١) رقم (١٩٤)، والطيالسي (٢٤٤) والطبري (٦٥/٨)، وابن أبي عاصم في «السنن» (١٧)، والبخاري (٢٢١٠-كشف)، والدارمي (٦٧/١)-٦٨، وابن حبان (١٧٤١-موارد)، والحاكم (٣١٨/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٣/٦) عن ابن مسعود مرفوعاً.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٦/٣) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٤/٢).

الْكِتَابِ لَكُمْ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
يَعَادَتِ اللَّهُ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾، ﴿ثم﴾؛ في هذه الآية: إنما مُهَلَّتْها في ترتيب القول الذي أمر به نبينا محمد ﷺ؛ كأنه قال: ثم ممّا قضيناه أنا آتينا موسى الكتاب؛ ويدعو إلى ذلك أن موسى - عليه السلام - /- متقدّم بالزمان على نبينا ﷺ ١٨٣ محمد ﷺ وتلاوته ما حرّم الله، و ﴿الكتاب﴾: التوراة، و ﴿تماماً﴾: مصدر، وقوله: ﴿على الذي أحسن﴾: مختلف في معناه، فقالت فرقة: ﴿الذي﴾ بمعنى الَّذِينَ و ﴿أحسن﴾: فعلٌ ماضٍ صلّة «الذين»، وكأن الكلام: وآتينا موسى الكتاب تفضلاً على المحسنين من أهل ملّته، وإتماماً للنعمة عليهم، وهذا تأويل مجاهد^(١)؛ ويؤيده ما في مصحف ابن^(٢) مسعود: «تَمَاماً عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا»، وقالت فرقة: المعنى: تماماً على ما أحسنَ هو مِنْ عبادة ربّه، يعني: موسى - عليه السلام - وهذا تأويل الربيع وقتادة^(٣)، وقالت فرقة: المعنى: تماماً على الذي أحسن الله فيه إلى عباده من النبؤات وسائر النعم؛ و ﴿ب لقاء ربهم﴾، أي: بالبعث.

وقوله سبحانه: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾، ﴿هذا﴾ إشارة إلى القرآن، و ﴿مبارك﴾: وصف بما فيه من التوسّعات وأنواع الخيرات، ومعناه: مُنَمَّى خيره مُكَثَّر، والبركة: الزيادة والنمو، ﴿فاتبعوه﴾: دعاء إلى الدين، ﴿واتقوا﴾: أمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء؛ بقرينة قوله: ﴿لعلكم ترحمون﴾، و «أن» في قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع نصب، والعامل فيه: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، والتقدير: وهذا كتاب أنزلناه؛ كراهية أن تقولوا، والطائفتان: اليهود والنصارى بإجماع المتأولين، والدّراسة: القراءة والتعلّم بها، ومعنى الآية: إزالة الحجة من أيدي قريش وسائر العرب، ولما تقرّر أن البيئة قد جاءتهم والحجّة قد قامت عليهم - حسنَ بعد ذلك أن يقع التقرير بقوله سبحانه: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾، أي: حادّ عنها، وزاع، وأعرض، و ﴿سنجزي الذين﴾: وعيد.

(١) أخرجه الطبري (٣٩٨/٥) برقم (١٤١٧٦، ١٤١٧٧)، وذكره ابن عطية (٣٦٤/٢)، وابن كثير (٢/ ١٩٢)، والسيوطي (١٠٦/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) ينظر: «الشواذ» (ص ٤٧)، و «الكشاف» (٨٠/٢)، و «المحرر الوجيز» (٣٦٤/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٩٩/٥) برقم (١٤١٧٨) عن الربيع، وبرقم (١٤١٧٩، ١٤١٨٠)، عن قتادة، وذكره ابن عطية (٣٦٤/٢)، والسيوطي (١٠٦/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن قتادة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٥٨)

وقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون﴾، أي: ينتظرون، يعني: العرب المتقدم الآن ذكرهم، و﴿الملائكة﴾ هنا: هم ملائكة الموت الذين يصحبون^(١) عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح، قاله مجاهد وقتادة وابن جريج^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أو يأتي ربك﴾، قال الطبري^(٣): لموقف الحساب يوم القيامة، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين^(٤)، وقال الزجاج^(٥): إن المراد: «أو يأتي عذاب ربك».

قال ع*^(٦): * وعلى كل تأويل فإنما هو بحذف مضاف، تقديره: أمر ربك، أو بطش ربك، أو حساب ربك، وإلا فالإتيان المفهوم من اللغة مستحيل على الله تعالى؛ ألا ترى أن الله عز وجل يقول: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢٢]؛ فهذا إتيان قد وقع، وهو على المجاز، وحذف المضاف.

قال الفخر^(٧): والجواب المعتمد عليه هنا أن هذا حكاية مذهب الكفار، واعتقادهم، فلا يفتقر إلى تأويله، وأجمعوا على أن المراد بهذه الآيات علامات القيامة. انتهى.

قلت: وما ذكره الفخر من أن هذا حكاية مذهب الكفار هي دغوى تفتقر إلى دليل.

وقوله سبحانه: ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾، قال مجاهد وغيره هي إشارة إلى طلوع

(١) ولا يصح تسميته ملك الموت بهذا حيث لم يرد عندنا أثر صحيح بذلك.

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٤/٥، ٤٠٥) برقم (١٤٢٠٠) عن مجاهد، وبرقم (١٤٢٠١، ١٤٢٠٢) عن قتادة، و (١٤٢٠٥)، عن ابن جريج، وذكره ابن عطية (٣٦٦/٢)، والسيوطي (١٠٨/٣) وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٠٤/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٤٠٤/٥، ٤٠٥) برقم (١٤٢٠١، ١٤٢٠٢) عن قتادة، و (١٤٢٠٠) عن مجاهد، و (١٤٢٠٥) عن ابن جريج، وذكره ابن عطية (٣٦٦/٢)، والسيوطي (١٠٨/٣) وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٣٠٧/٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٦/٢).

(٧) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥٩/١٤).

الشمس من مغربها؛ بدليل التي بعدها.

قال * ع^(١) : * ويصح أن يريد سبحانه بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضَ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ جميع ما يُقَطَّعُ بوقوعه من أشراف الساعة، ثم خَصَّصَ سبحانه بعد ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضَ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية التي ترتفع التوبة معها، وقد بيَّنت الأحاديثُ الصَّحاح في البخاري ومسلم؛ أنها طلوع الشمس من مغربها، ومقصدُ الآية تهديدُ الكفار بأحوالٍ لا يخلون منها، وقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾؛ يريد: جميع أعمال البر، وهذا الفضل هو للعصاة من المؤمنين؛ كما أن قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ هو للكافرين، / فالآية المشارُ إليها ١٨٣ ب تقطعُ توبة الصَّنفَيْنِ، قال الداودي: قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾، يريد أن النفس المؤمنة التي أرتكبت الكبائر لا تُقبلُ منها التوبة يومئذ، وتكون في مشيئة الله تعالى؛ كأن لم تتب، وعن عائشة (رضي الله عنها): إذا خرجت أول الآيات، طُرِحَتِ الأفلام، وَحِسَّتِ الحَفَظَةُ، وشهدت الأجساد على الأعمال. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾: لفظٌ يتضمن الوعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَافِلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خَيْرًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، قال ابن عباس وغيره: المراد بـ «الذين» اليهود والنصارى^(٢)، أي: فَرَّقُوا دين إبراهيم، وَوَصَّفَهُم بـ «الشَّيْع»؛ إذ كل طائفة منهم لها فرق وأختلافات، ففي الآية حضٌّ للمؤمنين على الإئتلاف وترك الاختلاف، وقال أبو الأحوص وأم سلمة زوجُ النبي ﷺ: الآية في أهل البدع والأهواء والفتن، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ من أمة نبينا محمد ﷺ^(٣)، أي: فَرَّقُوا دين

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٧/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤١٣/٥، ٤١٤) برقم (١٤٢٦٦) عن ابن عباس، و (١٤٢٦٣، ١٤٢٦٤) عن قتادة، (١٤٢٦٧) عن الضحاك.، وذكره البغوي (١٤٥/٢)، وابن عطية (٣٦٧/٢)، وابن كثير (١٩٦/٢) عن مجاهد، و قتادة، والضحاك، والسدي، والسيوطي (١١٧/٣) وعزاه للنحاس في «ناسخه» عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤١٥/٥) برقم (١٤٢٧٣) عن أبي الأحوص، و (١٤٢٧٥) عن أم سلمة، وذكره ابن عطية (٣٦٧/٢)، والسيوطي (١١٨/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن أبي الأحوص، وعزاه لابن منيع في «مستدله»، وأبي الشيخ عن أم سلمة.

الإسلام، وقرأ حمزة^(١) والكسائي: «فَارْقُوا»، ومعناه: تركوا.

وقوله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾: أي: لا تشفع لهم، ولا لهم بك تعلق، وهذا على الإطلاق في الكفار، وعلى جهة المبالغة في العصاة.

وقوله سبحانه: ﴿إنما أمرهم إلى الله...﴾ الآية: وعيد محض، وقال السدي: هذه آية لم يؤمر فيها بقتال، فهي منسوخة بالقتال^(٢).

قال * ع^(٣) *: الآية خبر لا يدخله نسخ، ولكنها تضمنت بالمعنى أمراً بموادة، فيشبه أن يقال: إن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي قد تقرّر نسخه في آيات أخرى.

وقوله سبحانه: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها...﴾ الآية: قال ابن مسعود وغيره: ﴿الحسنة﴾ هنا: «لا إله إلا الله»، و ﴿السيئة﴾: الكفر^(٤).

قال * ع^(٥) *: وهذه هي الغاية من الطرفين، وقالت فرقة: ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات، وهذا هو الظاهر، وتقدير الآية: من جاء بالحسنة، فله ثواب عشر أمثالها، وقرأ^(٦) يعقوب وغيره: «قُلَّةُ عَشْرٍ» - بالتثنية - «أمثالها» - بالرفع ..

وقوله تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم...﴾ الآية: في غاية الوضوح والبيان، و ﴿قيماً﴾: نعت للدين، ومعناه: مستقيماً، و ﴿ملة﴾: بدل من الدين.

(١) وحجة الباين قوله بعد: «وكانوا شيعاً» أي: صاروا أحراباً وفرقاً.

ينظر: «السبعة» (٢٧٤)، و «الحجة» (٤٣٧/٣، ٤٣٨)، و «إعراب القراءات» (٧٣/١)، و «معاني القراءات» (٣٩٦/١)، و «حجة القراءات» (٢٧٨)، و «العنوان» (٩٣)، و «شرح الطيبة» (٢٨٨/٤)، و «شرح شعلة» (٣٨٥)، و «إتحاف» (٣٩/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤١٤/٥) برقم (١٤٢٧٢)، وذكره ابن عطية (٣٦٨/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٨/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٤١٦/٥) برقم (١٤٢٧٨)، وذكره ابن عطية (٣٦٨/٢)، وابن كثير (١٩٧/٢)، والسيوطي (١١٨/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٨/٢).

(٦) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر» (٣٩/٢)، و «المحرر الوجيز» (٣٦٨/٢)، وزاد نسبتها إلى الحسن، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، والأعمش.

وينظر: «البحر المحيط» (٢٦١/٤)، و «الدر المصون» (٢٢٧/٣)، و «شرح الطيبة» (٢٨٨/٤).

﴿قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِي رَبِّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنْفِكُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي...﴾ الآية: أمر من الله عز وجل لنبيه عليه السلام - أن يعلن بأن مقصده في صلاته، وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من إخلاص وإيمان عند مماته - إنما هو لله عز وجل، وإرادة وجهه، وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به؛ حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قُضد وجه الله عز وجل، ويحتمل أن يريد بهذه المقالة؛ أن صلاته ونسكه وحياته ومماته ^(١) بيد الله عز وجل، والله يصرفه في جميع ذلك كيف شاء سبحانه، ويكون قوله: ﴿وبذلك أُمِرْتُ﴾؛ على هذا التأويل - راجعاً إلى قوله: ﴿لا شريك له﴾ فقط، أو راجعاً إلى القول؛ وعلى التأويل الأول، يرجع إلى جميع ما ذُكر من صلاة وغيرها، وقالت فرقة: التُّسْكُ؛ في هذه الآية: الذبائح.

قال * ع ^(٢) : * وَيُحَسِّنُ تَخْصِيصَ الذَّبِيحَةِ بِالذِّكْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ أَنَّهَا نَازِلَةٌ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا، وَالْجَدَلُ فِيهَا فِي السُّورَةِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: النَّسْكُ؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: جَمِيعُ أَعْمَالِ الطَّاعَاتِ؛ مِنْ قَوْلِكَ: نَسَكَ فُلَانٌ، فَهُوَ نَاسِكٌ؛ إِذَا تَعَبَّدَ، وَقَرَأَ السَّبْعَةَ سِوَى نَافِعِ: «وَمَحْيَايَ» - بفتح الياء -، وَقَرَأَ نَافِعِ ^(٣) وحده: «وَمَحْيَايَ» - بسكون/ الياء -، قَالَ أَبُو ١٨٤ حَيَّانَ ^(٤): وَفِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ سَاكِنَيْنِ، وَسَوْغَ ذَلِكَ مَا فِي الْأَلْفِ مِنَ الْمَدِّ الْقَائِمِ مَقَامَ الْحَرَكَةِ. انْتَهَى، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، أَي: مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبِّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ الآية: حكى

(١) في أ: وموته.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٩/٢).

(٣) ينظر: «السبعة» (٢٧٤)، و «الحجة» (٤٤٠/٣)، و «إعراب القراءات» (١٧٤/١)، و «معاني القراءات» (٣٩٨/١)، و «المنوان» (٩٤)، و «شرح الطيبة» (٢٨٩/٤)، و «شرح شعلة» (٣٨٦)، و «حجة القراءات» (٢٧٩)، و «إتحاف» (٤٠/٢).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٢٦٢/٤).

النَّشَّاشُ أَنَّهُ رَوَى أَنَّ الْكُفَّارَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَرْجِعْ يَا مُحَمَّدُ إِلَى دِينِنَا، وَأَعْبِدْ آلِهَتِنَا، وَأَتْرُكْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، وَنَحْنُ نَتَكْفَّلُ لَكَ بِكُلِّ تَبَاعَةٍ تَتَوَقَّعُهَا فِي دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(١)، وَهِيَ أَسْتَفْهَامٌ يَقْتَضِي التَّوْبِيخَ لَهُمْ، وَ﴿أَبْغِي﴾: مَعْنَاهُ أَطْلُبْ؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَفَيُحْسِنُ عِنْدَكُمْ أَنْ أَطْلُبَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ كَفَالَتِكُمْ بَاطِلٌ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَظُنُّونَ، فَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ مِنَ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ إِلَّا عَلَيْهَا وَخُذْهَا، ﴿وَلَا تَزِرُ﴾، أَي: تَحْمِلُ ﴿وَاِزْرَةً﴾، أَي: حَامِلَةً حَمْلَ أُخْرَى وَثَقْلَهَا، وَ«الْوِزْرُ»: أَصْلُهُ الثَّقَلُ، ثُمَّ أَسْتَعْمَلَ فِي الْإِثْمِ؛ تَجَوُّزًا وَاسْتِعَارَةً، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾: تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أَي: فِي أَمْرِي فِي قَوْلِ بَعْضِكُمْ: هُوَ سَاحِرٌ، وَبَعْضِكُمْ: هُوَ شَاعِرٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ قَالَهُ بَعْضُ الْمَتَأَوِّلِينَ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ يَحْسُنُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ يَعْمُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْأَخْتِلَافِ بَيْنَ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ وَالْمَذَاهِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَ﴿خَلَّافٌ﴾: جَمْعُ خَلِيفَةٍ، أَي: يَخْلَفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا؛ لِأَنَّ مَنْ أَتَى خَلِيفَةً لِمَنْ مَضَى، وَهَذَا يَتَصَوَّرُ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ يَحْسُنُ فِي أُمَّةٍ نَبَّيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَسْمَى أَهْلُهَا بِجَمَلَتِهِمْ خَلَائِفَ لِلْأُمَمِ، وَلَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَخْلَفُهُمْ؛ إِذْ هُمْ آخِرُ الْأُمَمِ، وَعَلَيْهِمْ تَقَوْمُ السَّاعَةِ، وَرَوَى الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وَيُرْوَى: «أَنْتُمْ آخِرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ».

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾: لَفْظٌ عَامٌّ فِي الْمَالِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْجَاهِ، وَجُودَةِ النُّفُوسِ وَالْأَذْهَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ لِيُخْتَبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْخَلْقَ، فَيَرَى الْمَخْسِينَ مِنَ الْمُسِيِّءِ، وَلَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا، فَفَسَحَ لِلنَّاسِ مَيْدَانَ الْعَمَلِ، وَحَضَّاهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَى الْأَسْتَبَاقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، تَوَعَّدَ وَوَعَدَ؛ تَخْوِيفًا مِنْهُ وَتَرْجِيَةً، فَقَالَ: ﴿إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إِمَّا بِأَخْذَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا بِعِقَابِ الْآخِرَةِ، وَحَسُنَ أَنْ يُوصَفَ عِقَابُ الْآخِرَةِ بِ«سَرِيعٍ»؛ لِمَا كَانَ مُتَحَقِّقًا مَضمُونِ الْإِتْيَانِ وَالْوُقُوعِ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: تَرْجِيَةً لِمَنْ أَذْنَبَ وَأَرَادَ التَّوْبَةَ، وَهَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ، وَهُوَ اقْتِرَانُ الْوَعِيدِ بِالْوَعْدِ؛ لَطْفًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ شَمَلَتْهُ رَحْمَتُكَ وَغُفِرَ لَكَ، بِجُودِكَ وَإِحْسَانِكَ، وَمِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ الْوَلِيِّ الْعَارِفِ أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ (رَحِمَهُ اللَّهُ) قَالَ: مَنْ أَرَادَ الْأَلَّ يَضْرَهُ ذَنْبٌ، فَلْيَقُلْ: رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَاجِلِ الْعَذَابِ، وَمِنْ سُوءِ الْحِسَابِ، فَإِنَّكَ لَسَرِيعُ الْحِسَابِ، وَإِنَّكَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

(١) ذكره ابن عطية (٢/٣٧٠).

نَفْسِي ظُلُمًا كَثِيرًا، فَأَغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.
انتهى، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَهُ بِهِ نَاطِرَهُ وَأَنْ يَجْعَلَهُ لَنَا ذَخْرًا وَنُورًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِينَا يَوْمَ لِقَائِهِ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
تسليماً/.

ب ١٨٤

انتهى هذا الجزء مصححاً بالمقابلة على خط مؤلفه

شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ، وَقَدَّسَ سِرَّهُ

ويليه الجزء الثالث وأوله

سورة الأعراف

ولله الحمد والمنة

محتوى الجزء الثاني من تفسير الثعالبي

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---------------|
| ٥ | سورة آل عمران |
| ١٥٩ | سورة النساء |
| ٣٣٤ | سورة المائدة |
| ٤٤٢ | سورة الأنعام |

طَبَعَ عَلَى مَطَابَعِ
وَلِزَامِيَّاتِ الزَّيْتُونِ الْعَرَبِيِّ

تفسير الثعالبی

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زهير الثعالبی المالکی

(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

حقق النصّ على أربع نسخ خطية وعلم عليه ورتّب أهاريشه

الشيخ علي محمد معوض
والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

ومشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

خبير التحقيق بمجمع البحوث الإسلامية
ومفتي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
ومفتي جامعة القاهرة بالازهر الشريف

الجزء الثامن

دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836766 - 836696 - 836551

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الثعالبى
الجزء الثالث

سورة الأعراف

مَكِّيَّةٌ، كلها. قاله الضحاك^(١)، وغيره.

وقال مقاتل: هي مَكِّيَّةٌ، إلا قوله سبحانه: «وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ» إلى قوله: «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» فإن هذه الآيات مدنية^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿الْمَصَّ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم القول في تَفْسِيرِ الحروف المقطعة في أوائل السور، والْحَرَجُ: الضيقُ ومنه: الْحَرَجَةُ؛ الشجر الملتف الذي قد تَضَايَقَ، والْحَرَجُ هاهنا يعم الشُّكَّ، والخوف، والهَم، وكلُّ ما يَضِيقُ الصدر، والضمير في «منه» عائد على الكتاب، أي: بسبب من أسبابه.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ اعتراض في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس: إن فيه تَقْدِيمًا وتأخيرًا.

وقوله: ﴿وَذِكْرَى﴾ معناه تَذَكُّرٌ وإرشاد.

وقوله سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَمْرٌ يعمُّ جَمِيعَ الناس، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ﴾، أي: من دون ربِّكُمْ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يريد: كل مَنْ عُبِدَ، واتَّبَعَ من دون الله، و﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر نصب بفعل مُضْمَر.

وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بَعْدَهُ، و«ما»^(٣) في قوله: ﴿ما تذكرون﴾

مصدرية.

(١) ذكره ابن عطية (٢/٣٧٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/٣٧٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٣٧٣).

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ قالت
فرقة: المراد وكم من أهل قرية.

وقالت فرقة: اللفظ يَتَضَمَّنُ هَلَاكَ القرية وأهلها، وهو أعظم العُقُوبَةِ، و«الفاء» في
قوله سُبْحَانَهُ: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ لترتيب القول فقط.

وقيل: المعنى أَهْلَكْنَاهَا بالخذلان، وعدم التوفيق، فجاءها بَأْسُنَا بعد ذَلِكَ و﴿بَيِّنًا﴾،
نصب على المصدر في مَوْضِع الحال، و﴿قَائِلُونَ﴾ من القائلة، وإنما حَصَرَ وَقْتِي
الدَّعْوَةِ^(١) والسكون؛ لأن مجيء العَذَابِ فيهما أَقْطَعُ وَأَهْوَلُ؛ لما فيه من البَغْتَةِ والفَجْأَةِ.

قال أبو^(٢) حيان: أو للتفصيل، أي: جاء بعضهم بَأْسُنَا لَيْلًا، وبعضهم نَهَارًا^(٣) انتهى.
وقوله عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هذه
الآية يَتَبَيَّنُ منها أن المراد في الآية قبلها أهل القَرْيِ، والدعوى^(٤) في كلام العرب تأتي
لمعنيين:

أحدهما: الدعاء، ومنه قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥].

والثاني: الادِّعَاءُ، وهذه الآية تَحْتَمِلُ المعنيين، ثم استثنى سُبْحَانَهُ من غير الأول كأنه
قال: لم يكن منهم دُعَاءٌ أو ادِّعَاءٌ إِلَّا الإقرار^(٥)، والاعتراف، أي: هذا كان بَدَلُ الدعاء،

(١) الدَّعْوَةُ: الخفض من العيش والراحة، والهاء عوض من الواو.

ينظر: «لسان العرب» (٤٧٩٥) (ودع).

(٢) ينظر «البحر المحيط» (٢٦٩/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٤/٢) بنحوه.

(٤) هي قول مقبول يقصد به الإنسان إيجاب حق له على غيره، سواء كان ذلك حال المنازعة أو لا، وتقول
العرب: ادعى كذا ادعاءً: زعم أن له حقاً أو باطلاً، والاسم منه الدعوى، والجمع: دعاوى بالفتح،
ودعاوى بالكسر، وهو الراجح عند سيبويه عند الإضافة إلى الضمير، وغلب الكسر في دعوى النسب،
والفتح في المأدبة، واسم المدعي يتناول في العرف من لا حجة له، ولا يتناول من له حجة، ولذا يقال
لمسيئمة الكذاب: مدعي النبوة، ولا يقال ذلك بالنسبة للنبي ﷺ؛ لأن نبوته ثبتت بالمعجزة، فالمطالب
بحقه قبل قيام حجته يسمى مدعياً، وبعدها يسمى محقاً.

ينظر: «الدعوى» لشيخنا: عبد الحميد سليمان الدسوقي.

(٥) الإقرار لَعَنَةً: إفعال، من قرَّ الشيء: إذا ثبت - يقر، من باب ضرب وعلم وثبت وسكن، وأقره في مكانه: أثبت =

والادعاء، واعترافهم.

وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هو في المدة التي ما بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة، وغيرها.

وروى ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»^(١).

﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ ﴿٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآية وعيد من الله عز وجل لجميع العالم أخبر سبحانه أنه يسأل الأمم أجمع عما بلغ إليهم عنه وعن جميع أعمالهم، ويسأل النبيين عما بلغوا، وهذا هو سؤال التقرير، فإن الله سبحانه قد أحاط علماً بكل ذلك قبل السؤال، فأما الأنبياء والمؤمنون، فيعقبهم جوابهم رحمة وكرامة،

= بعد أن كان مُزَلَّزلاً، وأقر له بحقه: أدعَى واعترف، إذاً فالإقرار إثبات لما كان متزلزلاً بين الإقرار والوجود.

ينظر: «المصاح» (٧٨٨/٢)، «لسان العرب» (٣٥٨٢/٥)، «أنيس الفقهاء» ص: (٢٤٣). واصطلاحاً:

عرفه الشافعية بأنه: إخبار بحق على المقر.

وعرفه المالكية بأنه: خبر يوجب حكم صدقه على قائله فقط بلفظه، أو لفظ نائبه.

وعرفه الحنفية بأنه: إخبار بحق لآخر، لا إثبات له عليه.

وعرفه الحنابلة بأنه: إظهار مكلف مختار ما عليه بلفظ أو كتابة، أو إشارة أخرس، أو على موكله، أو موليه، أو مورثه بما يمكن صدقه.

ينظر: «حاشية الباجوري» (٢/٢)، «الخرشي» (٨٦/٦ - ٨٧)، «الدرر» (٣٥٧/٢)، «متهى الإرادات» (٦٨٤/٢).

وَمَحَابِسُ الإِقْرَارِ كثيرة منها ما يأتي:

(أ) إسقاط واجب الناس عن ذمته، وقطع الستهم عن مدمته.

(ب) إيصال الحق إلى صاحبه، وتبليغ المكسوب إلى كاسبه، فكان فيه إنفاع صاحب الحق، وإرضاء خالق الخلق.

(ج) إحماد الناس المقر بصدق القول، ووصفهم بإيائه بوفاء العهد، وإنالة النول.

(د) حسنُ المعاملة بينه وبين غيره.

(١) أخرجه الطبري (٤٢٩/٥) برقم: (١٤٣٢٨)، وذكره ابن عطية (٣٧٤/٢)، وابن كثير (٢٠١/٢) ط:

«دار إحياء الكتب العربية»، والسيوطي (١٢٦/٢).

وأما الكفار، ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة، فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً.

* ت * : وروى أبو عمر بن عبد البر^(١) في كتاب «فَضْلِ الْعِلْمِ» بِسَنَدِهِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: بلغني أن العلماء يُسألون يوم القيامة كما تُسأل الأنبياء يعني عن تبليغ العلم/ انتهى.

وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش، عن النبي ﷺ: «ما من عبد يخطو خطوة إلا يُسأل عنها ما أَرَادَ بها»^(٢).

وقد ذكرنا حديث مسلم عن أبي برزة في غير هذا الموضع. وخرج الطبراني بسنده عن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَعَا اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ»^(٣). انتهى.

وروى مالك عن يحيى بن سعيد، قال: بلغني أن أول ما ينظر فيه من عمل المرء، الصلاة، فإن قيلت منه نُظِرَ فيما بقي من عمله، وإن لم تُقبل منه لم يُنظر في شيء من عمله.

وروى أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه معنى هذا الحديث مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أول ما يُحاسبُ به النَّاسُ يوم الْقِيَامَةِ من أعمالهم الصَّلَاةُ» قال: يقول رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ للملائكة انظروا في صَلَاة عَبْدِي أَنَّمَهَا أَمْ نَقَصَهَا، فإن كانت تَامَةً كتبت تَامَةً، وإن كان انتقص منها شيء، قال الله: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضة من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال^(٤) على ذلك. انتهى.

واللفظ لأبي داود.

وقال النسائي: ثم سائر الأعمال تجري على ذلك انتهى من «التذكرة»^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَقْصُرَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ أي: فلنسردهن عليهم أعمالهم قصّة قصة، ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: بحقيقة ويقين ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾  وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٤٩٣/١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٢/٨)، عن الأعمش مرسلًا.

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٩/١٠)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير»، وفيه يوسف بن يونس أخو أبي مسلم الأفسس، وهو ضعيف جداً.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ينظر: «التذكرة» (٣٧٩/١).

فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ التقدير: والوزن الحق ثابت، أو ظاهر يومئذ، أي يوم القيامة.

قال جمهور الأمة: إِنَّ اللَّهَ عز وجل أراد أن يبين لعباده أن الحِسَابَ والنظر يوم الْقِيَامَةِ هو في غَايَةِ التحرير، ونهاية الْعَدْلِ بِأَمْرِ قد عرفوه في الدُّنْيَا، وعهدته أفهامهم، فميزان الْقِيَامَةِ له عمود وَكِفَّتَانِ على هيئة مَوَازِينِ الدنيا، جَمَعَ لفظ «المَوَازِين»؛ إذ في الميزان مَوَزُونَاتٌ كثيرة، فكأنه أراد التَّنْبِيهَ عليها.

قال الفخر^(١): والأَظْهَرُ إثبات مَوَازِينٍ في يوم القيامة لا ميزان واحد، لظواهر الآيات، وحمل الموازين على الموزونات، أو على الميزان الواحد يوجبان الْعُدُولَ عن ظَاهِرِ اللفظ، وذلك إِنَّمَا يُصَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ تَعَدُّلِ حَمْلِ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ، ولا مانع هاهنا منه، فوجب إِجْرَاءُ اللفظ على حقيقته، فكما لم يمتنع إثبات ميزانٍ له كِفَّتَانِ، فكذلك لا يمتنع إِثْبَاتُ موازين بهذه الصِّفَةِ، وما الموجب لثَرْكِهِ، والمصير إلى التَّأْوِيلِ. انتهى. قال أَبُو حَيَّان^(٢): موازينه جُمِعَ باعتبار المَوَزُونَاتِ^(٣)، وهذا على مذهب الجمهور؛ في أَنَّ المِيزَانَ واحد.

وقال الحسن: لكل واحدٍ مِيزَانٌ^(٤)، فالجمع إذن حَقِيقَةٌ انتهى.

والآيات هُنَا الْبَرَاهِينُ والأوامر والنواهي.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ...﴾ الآية خطاب لجميع الناس، والمعاش: بكسر الياء دون هَمْزٍ جمع معيشة، وهي لفظة تعمُ جَمِيعَ المأكول الذي يُعَاشُ به، والتحرّف الذي يُؤَدِّي إِلَيْهِ، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب بـ ﴿تَشْكُرُونَ﴾ ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ مع الفعل بتأويل الْمَضْدَرِّ، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لِمَضْدَرٍ محذوف، تقديره: شكرًا قليلًا شكركم، أو شكرًا قليلًا تشكرون.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٣/١٤).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٢٧١/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٦/٢) بنحوه.

(٤) ذكره ابن عطية (٣٧٦/٢) بنحوه.

مِنَ السَّجْدِ ۖ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ مِنْ أَلَدِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم...﴾ الآية: هذه الآية معناها التثنية على مواضع العبرة، والتعجب من غريب الصنعة، وإسداء النعمة.

واختلف العلماء في ترتيب هذه الآية؛ لأن ظاهرها/ يَقْتَضِي أَنْ الْخَلْقَ وَالتَّصْوِيرَ لِبَنِي آدَمَ قَبْلَ الْقَوْلِ لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ يَسْجُدُوا، وقد صححت الشريعة أن الأمر لم يكن كذلك، فقالت فرقة: المراد بقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ آدم، وإن كان الخطاب لبنيه.

وقال مجاهد: المعنى: ولقد خلقناكم، ثم صورناكم في صلب آدم، وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أمثال الذر في صورة البشر^(١)، ويترتب في هذين القولين أن تكون «ثم» على بابها في الترتيب، والمهلة.

وقال ابن عباس، والربيع بن أنس: أما «خلقناكم» فآدم، وأما «صورناكم» فذريته في بطن الأمهات^(٢).

وقال قتادة، وغيره: بل ذلك كله في بطن الأمهات من خلق، وتصوير^(٣)، و«ثم» لترتيب الأخبار بهذه الجملة لا لترتيب الجمل في أنفسها.

وقوله سبحانه: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ * قال ما مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قال فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قال أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قال إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قال فبما أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * تقدم الكلام على قِصَصِ الآية في «سورة البقرة».

(١) أخرجه الطبري (٤٣٧/٥) برقم: (١٤٣٥٦) بلفظ: «في صلب آدم»، وذكره ابن عطية (٣٧٨/٢)، وذكر نحوه البغوي (١٥٠/٢) بلا نسبة.

(٢) أخرجه الطبري (٤٣٦/٥)، برقم: (١٤٤٣ - ١٤٤٤)، وذكره ابن عطية (٣٧٨/٢)، وذكره ابن كثير (٢٠٣/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٤/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٨/٢).

«وما» في قوله: ﴿ما منعك﴾ استفهام على جهة التوبيخ والتقريع، و«لا» في قوله: ﴿ألا تسجد﴾ قيل: هي زائدة، والمعنى: ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ، وكذلك قال أبو حَيَّان^(١): إنها زائدة^(٢)، كهي في قوله تعالى: ﴿لثَلَا يَغْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩].

قال: ويدل على زيادتها سُقُوطُهَا في قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] في «ص» انتهى. وجواب إبليس اللعين ليس بمُطَابِق لما سئل عنه، لكن [لما] جاء بِكَلَامٍ يتضمن الجَوَابَ والحجة، فكأنه قال: منعني فَضْلِي عليه، إذ أنا خير منه، وظن إبليس أن النار أَفْضَلُ من الطين، وليس كذلك بل هما في دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ من حيث إنهما جَمَادٌ مخلوق، ولما ظن إبليس أن صُعودَ النار، وَخِفَتَهَا يقتضي فَضْلاً على سُكُونِ الطين وبلادته، قَاسَ أن ما خُلِقَ منها أَفْضَلُ مما خُلِقَ من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي نُفِخَ في آدم ليس من الطين.

وقال الطبري^(٣): ذهب عليه ما في الثَّارِ من الطَّيْنِ، والخِفَّةِ، والاضطراب، وفي الطين من الوَقَارِ، والأَنَاءِ والجَلَمِ، والتثبُّت وروي عن الحسن، وابن سيرين أنهما قالوا: أول مَنْ قَاسَ إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالقياس^(٤)، وهذا القولُ منهما ليس هو بإنكار للقياس^(٥). وإنما خُرِجَ كلاهما نَهياً عما كان في زمانهما من مَقَائِيسِ الخَوَارِجِ

- (١) ينظر: «البحر المحيط» (٢٧٣/٤).
 - (٢) ذكره ابن عطية (٣٧٨/٢)، ولم يعزه لأحد.
 - (٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٤٠/٥).
 - (٤) أخرجه الطبري (٤٤١/٥)، برقم: (١٤٣٦٠)، وبرقم: (١٤٣٦١)، بلفظ: «قاس إبليس، وهو أول من قاس»، وذكره ابن عطية (٣٧٩/٣)، والبغوي (١٥٠/٢)، وذكره ابن كثير (٢٠٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٤/٣) عن الحسن نحوه.
 - (٥) ينظر: الكلام على القياس في:
- «البرهان» لإمام الحرمين (٧٤٣/٢)، «البحر المحيط» للزركشي (٥/٥)، «الإحكام في أصول الأحكام للآمدي» (١٦٧/٣)، «سلاسل الذهب» للزركشي ص: (٣٦٤)، «التمهيد» للأسنوي ص: (٤٦٣)، «نهاية السؤل» له (٢/٤)، «زوائد الأصول» له ص: (٣٧٤)، «منهاج العقول» للبدخشي (٣/٣)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري ص: (٢١١)، «التحصيل من المحصول» للأزموي (١٥٥/٢)، «المنحول» للغزالي ص: (٣٢٣)، «المستصفى» له (٢٢٨/٢)، «حاشية البناني» (٢٠٢/٢)، «الإبهاج» لابن السبكي (٣/٣)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٤)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (٢٣٩/٢)، «المعتمد» لأبي الحسين (١٩٥/٢)، «إحكام الفصول من أحكام الأصول» للباغي ص: (٥٢٨)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٣٦٨/٧)، «أعلام الموقعين» لابن القيم (١٠١/١)، «التحرير» لابن الهمام ص: (٤١٥)، «تيسير التحرير» لأمير باد شاه (٢٦٣/٣) «التقرير والتجوير» لابن أمير الحاج (١١٧/٣).

وغيرهم، فأرادا حمل الناس على الجادة.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَخِطَ مِنْهَا﴾ الآية: يظهر منه أنه أهبط أولاً، وأخرج من الجنة، وصار في السماء؛ لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجنة، ثم أُمِرَ آخرًا بالهبوط من السماء مع آدم، وحواء، والحية. وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ حكم عليه بضد معصيته التي عصى بها، وهي الكبرياء، فعوقب بالحمل عليه، بخلاف شهوته، وأمله والصغار: الذل قاله السدي.

ب ١٨٥ ومعنى: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أخزني^(١) فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظِرَةَ إِلَى النَفْخَةِ الْأُولَى. قاله/ أكثر الناس^(٢) وهو الأصح والأشهر في الشرح.

وقوله: ﴿فَبِمَا﴾ يريد به القَسَمَ، كقوله في الآية الأخرى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢] و﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قال الجمهور: معناه: أضللتني من الغي، وعلى هذا المعنى قال محمد بن كعب القرظي: قاتل الله القدريّة لِإِبْلِيسَ أعلم بالله منهم، يُريدُ في أنه علم أن الله يَهْدِي وَيُضِلُّ^(٣).

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾ المعنى: لاعترضنَّ لهم في طريق شرعك، وعبادتك، ومنهج النجاة، فَلَأُضِدَّنْهُمْ عنه.

ومنه قوله عليه السلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ»^(٤) نَهَاةً عَنِ الْإِسْلَامِ، وقال: تَتْرُكُ دِينَ آبَائِكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، فَنَهَاةً عَنِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ: تَدْعُ أَهْلَكَ وَبَلَدَكَ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، فَنَهَاةً عَنِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُقْتَلُ وَتَتْرَكَ وَلَدَكَ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ^(٥)... الحديث.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا

(١) وذكره ابن عطية (٣٧٩/٢)، والبغوي (١٥١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٢/٥)، برقم: (١٤٣٦٥) نحوه، وذكره ابن عطية (٣٧٩/٢)، والبغوي (١٥١/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤٤٤/٥)، برقم: (١٤٣٦٨)، وذكره ابن عطية (٣٨٠/٢).

(٤) هي جمع طريق على التانيث؛ لأن الطريق تذكر وتؤنث، فجمعها على التذكير: أطْرِقة: كَرِغِف وأرغفة، وعلى التانيث: أطْرُق، كيمين وأيمن.

ينظر: «النهاية» (١٣٣/٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبه (٢٩٣/٥)، والنسائي (٢١/٦ - ٢٢)، كتاب «الجهاد»، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، وابن حبان (١٦٠١ - موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٣٨/٧)، من حديث سبرة بن أبي الفاكه.

تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُورًا لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ مقصد الآية أن إبليس أَخْبَرَ عن نفسه أنه يأتي إِضْلَالًا بني آدم من كُلِّ جهة، فعبر عن ذلك بِالْفَافِ تَقْتَضِي الإِخَاطَةِ بِهِمْ، وفي اللفظ تَجَوُّزٌ، وهذا قَوْلُ جَمَاعَةٍ من المفسرين.

قال الفخر^(١): وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: على صِرَاطِكَ. أجمع النحاة على تقدير «على» في هذا الموضع. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أخبر اللعين أن سَعَايَتَهُ تفعل ذلك ظَنًّا منه، وتوسُّمًا في خِلْقَةِ آدم حين رأى خِلْقَتَهُ من أشياء مختلفة، فعلم أنه سَتَكُونُ لَهُمْ شَيْئًا تَقْتَضِي طَاعَتَهُ، كَالْغُلِّ، وَالْحَسَدِ، وَالشَّهَوَاتِ، ونحو ذلك.

قال ابن عباس، وقتادة: إلا أن إبليس لم يَقُلْ: إنه يأتي بني آدم من فَوْقِهِمْ، ولا جعل الله له سبيلًا إلى أن يَحُولَ بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومَنِّهِ، وما ظنه إبليس صدقه الله عز وجل^(٢).

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] فجعل أكثر العالم كَفَرَةً، وَيُبَيِّنُهُ قوله ﷺ في الصَّحِيح: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ، فيقول: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارِ، فيقول: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتَسْعِينَ إِلَى النَّارِ، وواحدًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٣).

ونحوه مما يخصُّ أمة نبينا محمد ﷺ: «ما أنتم في الأمم إلا كالشُّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ»^(٤) و﴿شَاكِرِينَ﴾ معناه: مُؤْمِنِينَ؛ لأن ابن آدم لا يَشْكُرُ نعمة الله إلا بَأَن يُؤْمِنَ. قاله ابن عباس وغيره^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿مَذْذُورًا﴾ أي مَعِيْبًا ﴿مَذْذُورًا﴾؛ أي: مقصيًا مبعداً.

﴿لِمَنْ تَبِعَكَ﴾ بفتح اللام هي لام قَسَمٍ.

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/١٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ذكره ابن عطية (٣٨١/٢).

وقال أبو حيان^(١): الظاهر أنها الموطئة للقسم^(٢)، و«من» شرطية في موضع رفع بالابتداء، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه، ويجوز أن تكون لام ابتداء، و«من» موصولة في موضع رفع بالابتداء، والقسم المحذوف، وجوابه، وهو «لأملأن» في موضع خبرها. انتهى.

وقال الفخر^(٣): وقيل/ : ﴿مَذْمُومًا﴾، أي: محقوراً؛ فالمذموم المحقر. قاله الليث.

١١٨٦

وقال ابن الأنباري^(٤): المذموم المذموم.

وقال الفراء: أذأمتُهُ إذا عَيَّنتُهُ. انتهى.

وباقى الآية بَيِّن. اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، وسوء القضاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء.

﴿وَبَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فَوَسَّوْا لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾

وقوله جل وعلا: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾

إذا أمر الإنسان بشيء، وهو متلبس به، فإنما المقصد من ذلك أن يستمر على حاله، ويتمادى في هيئته.

وقوله سبحانه لآدم: ﴿اسكن﴾ هو من هذا الباب، وقد تقدّم الكلام في «سورة البقرة» على «الشجرة» وتعيينها، وقوله سبحانه: «هذه» قال (م): الأضل هذي، والهاء بدل من الياء، ولذلك كسرت الذال، إذ ليس في كلامهم هاء تأنيث قبلها كسرة انتهى.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٢٧٨/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٨٢/٢).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٧/١٤).

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، كمال الدين الأنباري، ولد في ٥١٣هـ، من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال، كان زاهداً عفيفاً، لا يقبل من أحد شيئاً، له مصنفات منها: «نزهة الألباء في طبقات الأدباء»، «لمعة الأدلة»، «الميزان»، توفي في ٥٧٧هـ.

ينظر: «الفوات» (٢٦٢/١)، «بغية الوعاة» (٣٠١)، «الوفيات» (٢٧٩/١)، «أدب اللغة» (٤١/٣)، «الأعلام» (٣٢٧/٣).

وقوله عز وجل: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمَهُمَا﴾^(١) الوَسْوَسَةُ الحديث في إخفاء همساً وإسراراً من الصوت، والوسواس صَوْتُ الحَلِيِّ، فشبه الهمس به، وسمى إلقاء الشيطان في نفس ابن آدم وَسْوَسَةً، إذ هي أَبْلَغُ الإسرار وأخفاه. هذا في حال الشيطان معنا الآن، وأما مع آدم، فممكّن أن تكون وَسْوَسَةً بِمُحَاوَرَةٍ خفية، أو بإلقاء في نَفْسٍ، واللام في «ليبدى» هي في قول الأكثرين لام الصَّيْرُورَةِ والعاقبة، ويمكن أن تكون لام «كي» على بابها^(٢).

وما ﴿وُورِيَ﴾ معناه ما ستر من قولك: وارى يُورِي إذا ستر، والسَّوَاةُ القَرْجُ والدُّبَرُ، ويشبه أن يسمى بذلك؛ لأن منظره يسوء.

وقالت طائفة: إن هذه العبارة إنما قصد بها أنها كُشِفَتْ لهما مَعَاتِيُهُمَا، وما يسوءهما، ولم يقصد بها العورة، وهذا القول محتمل، إلا أن ذَكَرَ خُصِفَ الِوَرَقِ يَرُدُّهُ إِلَّا أَنْ يُقَدَّرَ الضمير في ﴿عليهما﴾ عائد على بدنيهما فيصح.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا...﴾ الآية، هذا القول المَخْكِيُّ عن إبليس يدخله من التأويل ما دَخَلَ الوَسْوَسَةُ، فممكّن أن يقول هذا مخاطبةً وَجَوَّاراً، وممكن أن يقولها إلقاءً في النفس، وَوَحْياً.

و﴿إلا أن﴾ تقديره عند سبويه والبصريين: إلا كراهية أن، وتقديره عند الكوفيين: ^(٢) «إلا أن لا» على إضمار «لا»، ويرجح قولُ البصريين أن إضمار الأسماء أَحْسَنُ من إضمارِ الحروف.

وقرأ جمهور الناس «مَلَكَيْنِ» بفتح اللام.

وقرأ ابن عباس: «مَلِكَيْنِ»^(٣) بكسرهما، ويؤيده قوله: ﴿وَمُلْكٌ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]

(١) في هذه اللام قولان:

أظهرهما أنها لام العلة على أصلها، لأن قصد الشيطان ذلك. وقال بعضهم: اللام للصيرورة والعاقبة، وذلك أن الشيطان لم يكن يعلم أنهما يعاقبان بهذه العقوبة الخاصة، فالمعنى: أن أمرهما آيل إلى ذلك. والجواب أنه يجوز أن يعلم ذلك بطريق من الطرق.
ينظر: «الدر المصون» (٢٤٧/٣).

(٢) وقول البصريين أولى: لأن إضمار الاسم أحسن من إضمار الحرف.

(٣) وقرأ بها يحيى بن أبي كثير، والضحاك، والحسن بن علي، والزهرى، وابن حكيم.
ينظر: «الشواذ» ص: (٤٨) و«البحر المحيط» (٢٨٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٤٨/٣).

وقال بعض الناس: يؤخذ من هذه الألفاظ أن الملائكة أفضل من البشر، وهي مسألة اختلف الناس فيها، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

و﴿قاسمهما﴾ أي: حلف لهما بالله، وهي مفاعلة، إذ قبول المحلوف له اليمين كالقسم.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا نَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِ وَلَوْ أَنَّ لَنَا وَرَثَةً مِمَّا نَكَوْنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ قال: * ع^(١) * : يشبه عندي أن تكون هذه استعارة من الرجل يدلي آخر من هوة بحبل قد أرم أو سبب ضعيف يغتر به، فإذا تدلَّى به، وتورك عليه، انقطع به، وهلك، فيشبه الذي يغتر بالكلام حتى يصدقه، فيقع في مصيبة بالذي يذلي من هوة بسبب ضعيف.

وقوله سبحانه: ﴿بَدَتْ﴾ قيل: تمزقت عنهما ثياب الجنة وملابسها، وتطَايَرَتْ تَبَرِيًّا منهما، و﴿يَخْصِفَانِ﴾ معناه: يلصقانهما، والمخصف الإشفى^(٢) وضم الورق بعضه إلى بعض أشبه بالخِرَز منه بالخياطة.

قال البخاري: يَخْصِفَانِ يُولفَانِ الْوَرَقَ بعضه إلى بعض / انتهى. وهو معنى ما تقدم.

١٨٦ ب

وروى أبي عن النبي ﷺ أن آدم عليه السلام كان يَمْشِي في الجنة كأنه النخلة السَّحُوقُ^(٣) فلما أَكَلَ من الشجرة وَبَدَتْ له حاله قَرَّ على وَجْهِهِ، فأخذت شجرة بِشَعْرِ رَأْسِهِ، فقال لها: «أرسليني» فقالت: ما أنا بمرسلتك، فناداه ربه جَلَّ وَعَلَا أَمْنِي تَفَرُّ يا آدم؟ فقال: لا يَا رَبِّ، ولكن أَسْتَحْيِيكَ، فقال: أما كان لك فيما مَنَحْتُكَ من الجنة مندوحة عما حرمت عليك. قال: بلى يا رب، ولكن وَعِزَّتْكَ مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحْدَا يَخْلِفُ بِكَ كَاذِبًا، قال:

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٣٨٥).

(٢) الإشفى: فغلى، وهو أداة للإسكاف، والجمع: أشافي.

ينظر: «لسان العرب» (٨٥) (أشف).

(٣) أي: الطويلة التي بَعْدَ ثمرها على الْمُجْتَنِي. ينظر: «النهاية» (٢/٣٤٧).

فبِعِزَّتِي لأهبطنك إلى الأَرْضِ، ثم لا تنال العِيشَ إلا كدًّا^(١).

وقوله: ﴿عن تلكما﴾ بِحَسَبِ اللفظ أنه إنما أشار إلى شَجَرَةٍ مخصوصة، ﴿وأقل لكما: إن الشيطان لَكَمَا عدو مُبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في «طه» في قوله: ﴿فلا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] وهذا هو العهد الذي نَسِيَهُ آدَمُ على مَذْهَبٍ من جعل النسيان على بابه، وقولهما: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ اعتراف من آدَمَ وحواء عليهما السلام وطلَّبَ للتوبة، والستر، والتغمد بالرحمة، فطلب آدم هذا، فأجيب، وطلب إبليس النِّظَرَةَ، ولم يطلب التَّوْبَةَ، فوكل إلى سوء رأيه.

قال الضحاك وغيره: هذه الآية هي الكَلِمَاتُ التي تلقى آدَمُ من رَبِّهِ، وقوله عز وجل: ﴿قال اهبطوا بغضكم لبغض عدو﴾ المَخَاطَبَةُ بقوله: ﴿اهبطوا﴾.

قال: أبو صالح، والسدي، والطبري، وغيرهم: هي لآدم، وحواء، وإبليس، والحية.

وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدم وذريته، وإبليس وذريته.

قال ع *^(٢): وهذا ضَعِيفٌ لعدمهم في ذلك الوقت.

* ت * : وما ضعفه رحمه الله صَحَّحَهُ في «سورة البقرة»، فتأمله هناك، وعداوة الحية معروفة.

روى قتادة عن النبي ﷺ: «ما سألتمَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْتَاهُنَّ»^(٣).

﴿يَبْنِيْ آدَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّوْرِي سَوْءَ تَكْمُ وَرِدْسًا وَلِبَاسُ النَّفْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُوْنَ﴾ (٢٦)

وقوله سبحانه: ﴿يا بني آدَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّوَارِي سَوْءَ تَكْمُ﴾ الآية خِطَابٌ لجميع الأمم وَفَتَى النبي ﷺ والسَّبَبُ والمراد: قريش، وَمَنْ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ يَتَعَرَّى فِي طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ.

(١) تقدم تخريجه في أوائل سورة البقرة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٧/٢).

(٣) ورد هذا الحديث مسنداً من حديث أبي هريرة، وابن عباس.

حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٧٨٥/٢)، كتاب «الأدب»، باب: في قتل الحيات، حديث (٥٢٤٨)،

وأحمد (٢٣٢/٢، ٢٤٧، ٥٢٠)، وابن حبان (١٠٧٩ - موارد)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، والدارمي (٨٨/٢ -

٨٩)، والبيهقي (٣١٧/٩). أما حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود (٧٨٥/٢): كتاب «الأدب»، باب:

في قتل الحيات، حديث (٥٢٥٠)، وعبد الرزاق (٤٣٤/١٠) برقم: (١٩٦١٧).

قال مجاهد: ففهم نَزَلَتْ هذه الأربع آيات^(١).

وقوله: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ يحتمل التذريج أي: لما أنزل المَطَرُ، فكان عنه جميع ما يلبس، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ خلقنا، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] و﴿لِبَاسًا﴾ عام في جميع ما يُلبَسُ، و﴿يُؤَارِي﴾: يستر.

وقرأ الجمهور: «وريشاً»، وقرأ عاصم، وأبو عمرو «وريشاً» وهما عِبَارَتَانِ عن سَعَةِ الرزق، ورفاهة العيش، وَجُودَةِ الملبس والتمتع.

وقال البخاري: قال ابن عباس: وریشاً: المال انتهى^(٢).

وقرأ نافع^(٣)، وغيره: «ولباس» بالنصب.

وقرأ حمزة، وغيره بالرفع. وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى جَمِيعِ ما أنزل الله من اللباس والریش. وحكى النَّقَّاشُ: أن الإِشَارَةَ إلى لِبَاسِ التَّقْوَى؛ أي: هو في العبد آية؛ أي: علامة وأمرة من الله تعالى أنه قد رَضِيَ عنه، ورحمه.

وقال ابن عَبَّاسٍ: لباس التقوى هو السَّمْتُ الْحَسَنُ^(٤) في الْوَجْهِ. وقاله عثمان بن عفان على المنبر.

وقال ابن عَبَّاسٍ أيضاً: هو الْعَمَلُ الصَّالِحُ^(٥).

وقال عُرْوَةُ بن الزبير: هو حَشِيَّةُ اللَّهِ^(٦) وقيل: هو لباس الصوف، وكل ما فيه تواضع لله عز وجل.

(١) أخرجه الطبري (٤٥٥/٥) برقم: (١٤٤٢٥)، وذكره ابن عطية (٣٨٨/٢).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٤١٦/٦): كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب: «خلق آدم وذريته»، وقال ابن حجر: «هو قول ابن عباس، ووصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه»، والطبري (٤٥٧/٥) برقم: (١٤٤٣٣)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والبغوي (١٥٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤١/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) وقرأ بها ابن عامر والكسائي. عطفوا على الریش، والمعنى: وأنزلنا عليكم لباس التقوى. ينظر: «السبعة» (٢٨٠)، و«الحجة» (١٢/٤)، و«حجة القراءات» (٢٨٠)، و«إعراب القراءات» (١/١٧٨)، و«العنوان» (٩٥)، «شرح الطيبة» (٢٩٣/٤)، «شرح شعلة» (٣٨٧)، «إتحاف» (٤٦/١)، «معاني القراءات» (٤٠٣/١).

(٤) أخرجه الطبري (٤٥٨/٥٠) برقم: (١٤٤٤٩)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والسيوطي (١٤٢/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٤٥٨/٥) برقم: (١٤٤٤٩) وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والبغوي (١٥٥/٢).

(٦) أخرجه الطبري (٤٥٩/٥) برقم: (١٤٤٥٢)، وذكره ابن كثير (٢٠٧/٢).

وقال الحسن^(١): هو الورع.

وقال معبد الجهني: هو^(٢) الحياء.

وقال ابن عباس أيضاً: لباس التقوى العفة^(٣).

قال ع* * (٤) وهذه كلها مثل، وهي من لباس التقوى، و﴿لعلهم﴾ ترجح بحسبهم، ومبلغهم من المعرفة.

﴿يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَئِهِمَا إِنَّمَا بَرَكْتُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم/ لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ ١٨٧ الآية: خطاب لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوقت من كان يطوف من العرب بالبيت عززانياً.

قيل: كانت العرب تطوف عراً إلا الخمس^(٥)، وهم قريش، ومن والآها، وهذا هو الصحيح، ثم نودي بـ «مكة» في سنة تسع: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(٦) والفتنة في هذه الآية الاستهواء، والغلبة على النفس، وأضاف الإخراج في هذه الآية إلى إبليس تجوذاً لما كان هو السبب في ذلك.

قال أبو حيان^(٧): ﴿كما أخرج﴾ «كما» في موضع نصب، أي: فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٣٨٩/٢) وزاد فيه: «والسمت والحسن في الدنيا».

(٢) أخرجه الطبري (٤٥٨/٥) برقم: (١٤٤٤٦)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٢)، والسيوطي (١٤٢/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٨٩/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٩/٢).

(٥) الخمس: جمع الأحمس، وهم قريش ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قبس، سُموا حمساً لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا. والحماسة: الشجاعة. ينظر: «النهاية» (٤٤٠/١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٣/٣): كتاب «الحج»، باب: لا يطوف بالبيت عريان، الحديث (١٦٢٢)، ومسلم (٩٨٢/٢): كتاب «الحج»، باب: لا يحج البيت مشرك، الحديث (١٣٤٧/٤٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الحجّة التي أمره عليها رسول الله ﷺ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

(٧) ينظر: «البحر المحيط» (٢٨٤/٤).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ﴾ الآية زيادة في التحذير، وإعلام بأن الله عز وجل قد مَنَّ إبليس من بني آدم في هذا القدر، وبحسب ذلك يَجِبُ أن يكون التَّحَرُّ بِطَاعَةِ اللَّهِ عز وجل وَقَبِيلُ الشَّيْطَانِ يُرِيدُ نوعه، وصنفه، وذريته، والشيطان مُوجُودٌ، وهو جسم.

قال النووي^(١): وروينا في كتاب ابن السني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ستر ما بين أعين الجنِّ وَعَوَزَاتِ بَنِي آدَمَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَطْرَحَ ثِيَابَهُ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»^(٢) انتهى.

وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ستر ما بين الجنِّ وَعَوَزَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلُوا الْكُتْفَ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ».

رواه الترمذي، وقال: إسناده ليس بالقوي^(٣).

قال النووي: قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز وَيُسْتَحَبُّ الْعَمَلُ فِي الْقَضَائِلِ، والترغيب، والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً وأما الأحكام كَالْحَلَالِ، والحرام، والبيع، والنكاح، والطلاق، وغير ذلك فلا يُعْمَلُ فيها إلا بالحديث الصحيح^(٤)، أو الحسن^(٥) إلا أن يكون في احتياطٍ في شيء من ذلك، كما إذا ورد حديث

(١) ينظر: «الأذكار» ص: (٥١).

(٢) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٢٧٤) من حديث أنس مرفوعاً به.

(٣) أخرجه الترمذي (٥٠٣/٢ - ٥٠٤): كتاب «الصلاة»، باب: ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء، حديث (٦٠٦)، وابن ماجه (١٠٩/١): كتاب «الطهارة»، باب: ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، حديث (٢٩٧) من حديث علي، وقال الترمذي: إسناده ليس بالقوي.

(٤) الصحيح: في اللغة فَعِيل بمعنى فاعل من الصحة، وهي ذهاب المرض والبراءة من كل عيب.

وفي اصطلاح المحدثين يختلف عند المتقدمين وعند المتأخرين.

أما عند المتقدمين فقال الخطابي: الصحيح: ما اتصل سنده وعدلت نقلته.

وأما الصحيح لذاته عند المتأخرين، فقال ابن الصلاح: هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى متناه، ولا يكون شاذاً ولا معللاً.

والصحيح لغيره: هو الحديث الذي لم يكن صحيحاً لذاته وارتقى إلى درجة الصحيح بجابر يجبر القصور فيه، وذلك هو الحديث الحسن لذاته إذا جبر بجابر بأن تقوى بمتابع أو شاهد مساوٍ أو راجح أو بأكثر من طريق إن كان أدنى. وعليه فنقول إنه:

هو ما اتصل سنده بنقل عدل قل ضبطه عن الدرجة العليا للضبط وتوبع بطريق آخر مساوٍ أو راجح أو بأكثر من طريق إن كان أدنى وكان غير شاذ ولا معل.

ينظر: «غيث المستغيث» ص: (٣٢، ٣٣، ٣٥).

(٥) الحُسن: في اللغة الجمال، والحسن الجميل.

ضعيف بكَرَاهَةٍ بعض البيوع، أو الأنكحة، فإن المستحب أن يتنزّه عنه، ولكن لا يَجِبُ انتهى.

ونحوه لأبي عمر بن عبد البر في كتاب «فضل العلم»: ثم أخبر عز وجل أنه صَيَّر الشياطين أولياء، أي: صحابة، ومتداخلين للكفرة الذين لا إيمان لهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله: وَإِذَا فَعَلُوا وما بعده دَاخِلٌ في صفة الذين لا يؤمنون، والفاحشة في هذه الآية، وإن كان اللفظ عامًا هي كَشَفُ الْعَوْرَةِ عند الطَّوَافِ، فقد روي عن الزهري أنه قال: إن في ذلك نزلت هذه الآية. وقاله ابن عَبَّاسٍ ومجاهد^(١).

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ تضمن معنى اقسطوا، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ حملاً على المعنى، والقِسْطُ الْعَدْلُ واختلف في قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فقال مجاهد، والسدي: أراد إلى الكعبة^(٢)، والمقصد على هذا

وفي الاصطلاح: لهم فيه عبارات كثيرة؛ لعدم ضبط الأقدمين له حتى قال البلقيني: الحسن لما توسط بين الصحيح والضعيف عند الناظر كان شيئاً ينقدح في نفس الحافظ. وقد تقصر عبارته عنه كما قيل في الاستحسان، فلهذا صعب تعريفه لكن استقر الرأي أخيراً على أنه: هو الحديث الذي اتصل سنده بنقل العدل الضابط الذي قصر به حفظه وإتقانه عن درجة رجال الصحيح غير شاذ ولا معل.

والحسن لغيره: هو الحديث الذي يكون في أصله غير حسن، ثم يرتقي بالجابر حتى يكون في درجة الحسن، وذلك أن الحديث إذا فقد أحد الشروط الخمسة المعتبرة في الصحيح لذاته والحسن لذاته ينزل إلى درجة الضعيف، لكن الضعيف منه ما يقبل الجبر، ومنه ما لا يقبل الجبر بحال، فتوقفت معرفة الحسن لغيره على معرفة ما يقبل الجبر من الضعيف - ويسمى عندهم ما يعتبر به أي حديث يكتب للاعتبار به في المتابعات والشواهد - ومعرفة ما لا يقبل الجبر منه - ويسمى عندهم ما لا يعتبر به.

ينظر: «الغيث المستغيث» ص: (٣٤، ٣٥).

(١) أخرجه الطبري (٤٦٣/٥) برقم: (١٤٤٦٧ - ١٤٤٦٨ - ١٤٤٦٩ - ١٤٤٧٣ - ١٤٤٧٤)، وابن عطية (٢/

٣٩١)، والبعوي (١٥٥/٢)، وابن كثير (٢٠٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٣/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٤/٥) برقم: (١٤٤٧٨) وبرقم: (١٤٤٧٩)، وذكره ابن عطية (٣٩١/٢)، والبعوي

(١٥٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٣/٣)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر،

وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

شَرَعَ القبلة والتزامها.

وقيل: أراد الأمر بإحضار النية لله في كُلِّ صَلَاةٍ، والقصد نحوه، كما تقول: وَجَّهْتُ وَجْهِي لله قاله الربيع^(١).

وقيل: المراد إِبَاحَةُ الصلاة في كُلِّ موضع من الأرض، أي: حيث ما كنتم فهو مَسْجِدٌ لكم تلزمكم عند الصَّلَاةِ إقامة وجوهكم فيه لله عز وجل. وقوله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال ابن عَبَّاسٍ، وقتادة، ومجاهد: المعنى: كما أوجدكم، واخترعكم، كذلك يعيدكم بعد الموت^(٢)، والوقف على هذا التأويل تعودون و«فريقاً» نصب بـ «هدى» والثاني منصوب بفعل تقديره: وعذب فريقاً.

وقال جابر بن عبد الله/ وغيره: وروي معناه عن النبي ﷺ أن المُرَادَ الإعلام بأن مَنْ سَبَقَتْ له من الله الحُسْنَى، وكتب سعيداً كان في الآخِرَةِ سَعِيداً، ومن كتب عليه أنه من أَهْلِ الشَّقَاءِ، كان في الآخرة شَقِيّاً، ولا يتبدّل من الأمور التي أحكمها وَدَبَّرَهَا، وأنفذها شيء، فالوقف في هذا التأويل في قوله: ﴿تعودون﴾ غير حسن و«فريقاً» على هذا التأويل نصب على الحال، والثاني عطف على الأول.

ب ١٨٧

﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ معناه: يظنون.

قال الطبري^(٣): وهذه الآية دَلِيلٌ على خَطَاٍ من زَعَمَ أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها على عِلْمٍ منه بموضع الصواب.

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

وقوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية: هذا خطاب عام لجميع العالم كما تقدم، وأمرُوا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مُشْرِكِي الْعَرَبِ فيها، والزينة الثياب الساترة. قاله مجاهد وغيره^(٤). و«عند كل مسجد»

(١) أخرجه الطبري (٤٦٥/٥) برقم: (١٤٤٨٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩١/٢)، وابن كثير (٢٠٨/٢) بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٩٦٧/٥) برقم: (١٤٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٣٩٢/٢)، والبغوي (١٥٦/٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٦٩/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٠/٥) برقم: (١٤٥٢٠ - ١٤٥٢١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩٢/٢)، والبغوي (١٥٧/٢)، وابن كثير (٢١٠/٢)، والسيوطي (١٤٥/٣) بنحوه.

أي: عند كل مَوْضِعِ سُجُودٍ، فهي إشارة إلى الصلوات، وستر العورة فيها.

* ت *: ومن المستحسن هنا ذكر شيء مما جاء في اللباس، فمن أحسن الأحاديث في ذلك، وأصحها ما رواه مالك في «الموطأ» عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَرْزَةَ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، مَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي النَّارِ» قال ذلك ثلاث مرات: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَنْ جَرَّ إِرَازَهُ بَطَرًا»^(١).

وحدث أبو عمر في «التمهيد» بسنده عن ابن عمر قال: فيما قال رسول الله ﷺ في الإِرَارِ فهو في القَمِيصِ يعني ما تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْقَمِيصِ في النار^(٢)، كما قال في الإِرَارِ، وقد روى أبو خيثمة زهير بن معاوية^(٣) قال: سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول: أدرکتهم وقمصهم إلى نصف الساق أو قريب من ذلك، وكُم أحدهم لا يُجَاوِزُ يَدَهُ انتهى. وروى أبو داود عن أسماء بنت يزيد قالت: كانت يدُ كُم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ^(٤)، وأما أحب اللباس فما رواه أبو داود عن أم سلمة؛ قالت: كان أحب الثياب إلى رسول

(١) أخرجه مالك (٩١٤/٢ - ٩١٥): كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في إسبال الرجل ثوبه، حديث (١٢)، وأبو داود (٤٥٧/٢) كتاب «اللباس»، باب: في قدر موضع الإزار، حديث (٤٠٩٣)، وابن ماجه (٢/١١٨٣): كتاب «اللباس»، باب: موضع الإزار أين هو؟، حديث (٣٥٧٣) من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري به.

(٢) روي هذا المعنى أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما أسفل الكعبين من الإزار فهو في النار». أخرجه البخاري (٢٦٨/١٠)، في كتاب «اللباس»، باب: «ما أسفل من الكعبين فهو في النار» (٥٧٨٧)، والنسائي في «المجتبى» (٢٠٧/٨)، في كتاب: «الزينة»، وابن ماجه (٣٥٧٣)، وأحمد في «المسند» (٤٦١/٢)، (٩/٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٠٤/٨).

(٣) زهير بن معاوية بن حُذَيْج بضم المهملة الأولى مصغراً، وآخره جيم ابن الرُّجَيْل بجيم مصغراً ابن زُهَيْر بن خَيْثَمَةَ الجُفَيفِي أَبُو خَيْثَمَةَ الكُوفِي أحد الحفاظ والأعلام. عن سِمَاك بن حَرْب والأسود بن قَيْس، وزِيَاد بن عِلَاقَةَ، وأبي الزُّبَيْر، وخلق، وعنه القُطَان، وابن مَهْدِي، وأبو نُعَيْم، والأسود بن عامر، وعمر بن خالد، وخلق.

قال شعيب بن حرب: زهير أحفظ من عشرين مثل شعبة.

وقال أحمد: زهير ثبت سمع من أبي إسحاق بآخه.

قال الخطيب: حدث عنه ابن جريج، وعبد الغفار الحراني، وبين وفاتيهما بضع وستون سنة، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة، ومولده سنة مائة.

ينظر: «الخلاصة» (٣٤٠/١)، «تهذيب الكمال» (٤٣٦/١)، «تهذيب التهذيب» (٣٥١/٣)، «الكاشف» (٣٢٧/١)، «الثقات» (٣٣٧/٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٤١/٢): كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (٤٠٢٧).

اللَّهُ ﷻ القميص^(١). انتهى.

وجاء في المُسْبِلِ وَعَيْدٌ شَدِيدٌ؛ وَعَنْهُ ﷻ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ أَسْبَلَ إِزَارَهُ: «إِنْ هَذَا كَانَ يَصْلِي وَهُوَ مُسْبِلٌ إِزَارَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ رَجُلٍ مَسْبِلٍ إِزَارَهُ» رواه أبو داود^(٢). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ إباحة لما التزموه من تَحْرِيمِ اللحم، والودك^(٣) في أيام المواسم. قاله ابن زَيْدٍ وغيره، ويدخل في ذلك^(٤) البَحِيرَةُ والسَّائِبَةُ، ونحو ذلك نص على ذلك قَتَادَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ معناه: لا تفرطوا. قال أهل التأويل: يريد تُسْرِفُوا بأن تحرموا ما لم يُحَرِّمِ اللَّهُ عز وجل واللفظة تَقْتَضِي النهي عن السَّرْفِ مُطْلَقاً، ومن تَلَبَّسَ بفعلٍ مباح، فإن مشى فيه على القَصْدِ، وأوسط الأمور، فحسن، وإن أَفْرَطَ جعل أيضاً من المسرفين.

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٠/٢) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (٤٠٢٦، ٤٠٢٥)، والترمذي (٢٣٨ - ٢٣٧/٤) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في القميص، حديث (١٧٦٢)، وفي «الشمائل» رقم: (٥٥)، وابن ماجه (١١٨٣/٢) كتاب «اللباس»، باب: لبس القميص، حديث (٣٥٧٥)، وأحمد (٣١٧/٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» برقم: (١٥٤٠)، وأبو يعلى (٤٤٥/١٢) رقم (٧٠١٤)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص: (١٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/٤٢١) برقم: (١٠١٨)، والحاكم (١٩٢/٤)، والبيهقي (٢٣٩/٢)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤٦/٦) - بتحقيقنا). كلهم من طريق عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بريدة، عن أم سلمة به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث عبد المؤمن بن خالد، تفرد به وهو مروزي، وروى بعضهم هذا الحديث عن أبي تميلة عن عبد المؤمن بن خالد، عن عبد الله بن بريدة، عن أمه، عن أم سلمة.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٢٨/١) كتاب «الصلاة»، باب: الإسبال في الصلاة، حديث (٦٣٨)، وفي (٢/٤٥٥) كتاب «اللباس»، باب: ما جاء في إسبال الإزار، حديث (٤٠٨٦)، والبيهقي (٢٤١/٢) كتاب «الصلاة»، من حديث أبي هريرة، وهذا الحديث لم يخرج سوى أبي داود من أصحاب الكتب الستة.

(٣) الودك: دسم اللحم، ودهنه الذي يستخرج منه. ينظر: «النهاية» (١٦٩/٥).

(٤) البحيرة: أنهم كانوا إذا ولدت إبلهم سَقِيًّا (يعني ولد الناقة) بحروا أذنه: أي شقوها، وقالوا: اللهم إن عاش ففتني وإن مات فذكى، فإذا مات أكلوه وسموه البحيرة، وقيل: البحيرة: هي بنت السائبة، كانوا إذا تابعت الناقة بين عشر إناث لم يركب ظهرها ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو ضيف، وتركوها مَسِيَّةً لسبيلها وسموها السائبة، فما ولدت بعد ذلك من أنثى شقوا أذنها، وخلوا سبيلها، وحرم منها ما حرم من أمها، وسموها البحيرة.

ينظر: «النهاية» (١٠٠/١).

وقال ابن عباس في هذه الآية: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة^(١).

قال ابن العربي^(٢): قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الإسراف تعدي الحد، فنهاهم سبحانه عن تعدي الحلال إلى الحرام.

وقيل: لا يزيد على قدر الحاجة، وقد اختلف فيه على قولين؛ فقيل/ حرام. وقيل: مكروه، وهو الأصح.

فإن قدر الشبع يختلف باختلاف البلدان، والأزمان، والإنسان، والطعمان. انتهى من «أحكام القرآن».

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: قل لهم على جهة التوبيخ. وزينة الله هي ما حسنته الشريعة، وقررت، وزينة الدنيا كل ما اقتضته الشهوة، وطلب العلو في الأرض كالمال والبنين.

و«الطيبات» قال الجمهور: يريد المحللات.

وقال الشافعي وغيره: هي المستلذات أي: من الحلال، وإنما قاد الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ^(٣) ونحوها، فإنه يقول: هي من الخبائث.

* ت *: وقال مكي: المعنى قل مَنْ حَرَّمَ زينة الله، أي: اللباس الذي يزين الإنسان بأن يستر عورته، ومن حرم الطيبات من الرزق المباحة.

وقيل عنى بذلك ما كانت الجاهليّة تحرمه من السوائب والبخائير. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ابن

(١) أخرجه ابن جرير (٤٧٢/٥) برقم: (١٤٥٣٥)، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٢)، وابن كثير (٢١٠/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٦/٣).

(٢) ينظر: «الأحكام» (٧٨١/٢).

(٣) الوزغ: دوية، وهي سوام أبزص.

ينظر: «اللسان» (٤٨٢٦).

جُبَيْر: المعنى: قل هي للذين آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا يَنْتَفِعُونَ بها في الدُّنْيَا، ولا يتبعهم إثمها يوم الْقِيَامَةِ^(١).

وقال ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغيرهم: المعنى هو أن يخبر ﷺ أن هذه الطَّيِّبَاتِ الْمَوْجُودَاتِ هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا، وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم، وهي يوم القيامة خالصة لهم، أي: لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة^(٢).

وقرأ نافع^(٣) وحده «خالصة» بالرفع، والباقون بالتَّضْب.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَفْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما فَضَّلْنَا هذه الأشياءَ المتقدمة الذكر ﴿نَفْضِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبين الْأَمَارَاتِ، وَالْعَلَامَاتِ، وَالْهَدَايَاتِ لِقَوْمٍ لَهُمْ عِلْمٌ يَنْتَفِعُونَ بِهِ.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾ الآية: لما تقدم إنكار ما حرمه الْكُفَّارُ بِآرَائِهِمْ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ ما حرم الله عز وجل.

وَالْفَوَاحِشُ في اللغة ما فَحُشَ وشنع، وأصله من الْقُبْحِ في النظر، وهي هنا إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه، فكل ما حرمه الشَّرْعُ، فهو فاحش، والإِثْمُ لفظ عام في جَمِيعِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِمَرْتَكِبِهَا إِثْمٌ. هذا قول الجمهور.

وقال بعض الناس: هي الْخَمَرُ وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مَكِّيَّة، وإنما حرمت الْخَمْرُ بـ «المدينة» بعد أحد ﴿وَالْبَغْيِ﴾ التعدي، وتجاوز الحد.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه حرم الْبَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ ونحوه.

(١) أخرجه الطبري (٤٧٥/٥) برقم: (١٤٥٥٦)، وابن عطية (٣٩٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٧٣/٥) - ٤٧٤ - ٤٧٥ برقم: (١٤٥٥٥ - ١٤٥٤٦)، وذكر البغوي (١٥٧/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المشور» (١٥٠/٣).

(٣) والتقدير على قراءة الرفع أي: هي خالصة للذين آمنوا.

ينظر: «السبعة» (٢٨٠) و«الحجة» (١٣/٤)، و«حجة القراءات» (٢٨١)، و«العنوان» (٩٥) و«إعراب القراءات» (١٨٠/١)، و«شرح الطيبة» (٢٩٤/٤)، و«شرح شعلة» (٣٨٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٤٧/٢) و«معاني القراءات» (٤٠٤/١).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤) ﴿يَبْقَىٰ مَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنْ آتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦)

وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ المعنى: ولكل أمة أجل مؤقَّت لمجيء العذاب إذا كفروا، وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيها الأمة كذلك. قاله الطبري^(١) وغيره.

وقوله: ﴿سَاعَةً﴾ لفظ عين به الجزء القليل من الزمان، والمراد جميع أجزائه، والمعنى: لا يستأخرون سَاعَةً، ولا أقل منها، ولا أكثر.

وقوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنْ آتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك / أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الخطاب في هذه الآية لجميع العالم، و«إن» هي ١٨٨ ب الشرطية دخلت عليها «ما» مؤكدة، وكان هذا الخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها هو متمكن لهم، ومتحصل منه لحاضري نبينا محمد ﷺ أن هذا حُكْمُ اللَّهِ في العالم منذ أنشأه، ﴿وَيَأْتِيَنَّكُمْ﴾ مستقبل وُضِعَ موضع ماضٍ ليفهم أن الإتيان باقٍ وَقْتُ الخطاب، لِتَقْوَى الإشارة بصحة النبوة إلى نبينا محمد ﷺ وهذا على مُرَاعَاةٍ وَقْتِ نزول الآية.

وأُسند الطبري إلى أبي سيار السلمي قال: «إن الله سبحانه خاطب آدم وذريته، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ...﴾ الآية: قال: ثم نظر سبحانه إلى الرسل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرسل كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ...﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢] الحديث^(٢).

قال ع * ع^(٣): «ولا محالة أن هذه المخاطبة في الأزل.

وقيل: المراد بالرسول نبينا محمد ﷺ ذكره النقاش ﴿ويقصون﴾ أي: يسردون، ويوردون، «والآيات» لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة، وللعلامات التي تقتنر بالأنبياء، ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكادها.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٧٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧٧/٥) برقم: (١٤٥٦٠) من حديث أبي سيار السلمي، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٣/٣) وعزه لابن جرير.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٦/٢).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَنَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ...﴾ الآية: هذه الآية وَعِيدٌ واستفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أظلم منه، والكتاب هو اللوح المحفوظ في قول الحسن وغيره.

وقيل: ما تكتبه الحَفَظَةُ، ونصيبهم من ذلك هو الكُفْرُ وَالْمَعَاصِي. قاله مجاهد، وغيره.

وقيل: هو القرآن، وحَظُّهم فيه سَوَادُ الوجوه يوم القيامة.

وقال الربيع بن أنس، وغيره: المعنى بالنصيب مَا سَبَقَ لَهُمْ فِي أَمِ الْكِتَابِ مِنْ رِزْقٍ، وعمر، وخير، وشر في الدنيا، ورجحه^(١) الطبري.

واحتمل له بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: عند انقضاء ذلك، فكان معنى الآية على هذا التأويل: أولئك يتمتعون، ويتصرفون في الدنيا بِقَدَرِ ما كتب لهم حتى إذا جاءتهم رُسُلُنَا لموتهم؛ وهذا تأويل جَمَاعَةٍ، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري.

وقالت فرقة: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد بهم مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ يوم القيامة، ﴿وَيَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ معناه عندهم يستوفونهم عَدَدًا في السوق إلى جهنم.

وقوله سبحانه حكاية عن الرسل ﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ استفهام تقرير، وتوبيخ، وتوقيف على خِزْيٍ، ﴿وتدعون﴾ معناه: تعبدون، وتؤمنون.

وقولهم: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ معناه: هلكوا، وتلفوا، وفقدوا.

ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا أَحْبَبْنَا حَتَّىٰ إِذَا آذَكُمُوهَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُ لَأُدْنِيَهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمُ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/٤٨١).

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ .

قوله سبحانه: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلّت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ هذه حكاية ما يقول الله سبحانه لهم يوم القيامة، بواسطة ملائكة العذاب، نسال الله العافية. وعبر عن يقول ب «قال» لتحقق وقوع ذلك، وصدق القصة، وهذا كثير، و﴿خلّت﴾ حكاية عن حال الدنيا، أي: ادخلوا في النار في جملة الأمم السابقة لكم في الدنيا الكافرة.

* ت *: وكذا قدره ^(١) أبو حيان في جملة «أمم»، قال: وقيل: «في» بمعنى «مع» أي: مع أمم، وتقدم له في «البقرة» أن «في» تجيء للمصاحبة، كقوله تعالى: ﴿ادخلوا في أمم قد خلّت﴾ انتهى.

وقدم ذكر الجن؛ لأنهم أغرقوا في الكفر، وإبليس أضلّ الضلال والإغواء، وهذه ١١٨٩ الآية نص في أن كفر الجن في النار، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنهم في الجنة؛ لأنهم عقلاء، مكلفون، مبعوث إليهم، آمنوا وصدقوا، وقد بوب البخاري رحمه الله باباً في ذكر الجن، وثوابهم، وعقابهم.

وذكر عبد الجليل: أن مؤمني الجن يكونون ثراباً كالبهائم، وذكر في ذلك حديثاً مجهولاً، وما أراه يصح. والله أعلم. والإخوة في هذه الآية إخوة الملة.

قال * ص *: في «النار» متعلق ب «خلّت»، أو بمحذوف، وهو صفة ل «أمم» أي: في أمم سابقة، في الزمان كائنة، من الجن والإنس كائنة في النار، ويحتمل أن يتعلق ب «ادخلوا» على أن «في» الأولى بمعنى «مع»، والثانية للظرفية، وإذا اختلف مذكول الحرفين، جاز تعلقهما بمحل واحد. انتهى.

﴿واداركوا﴾ معناه: تلاحقوا، أصله: تداركوا أدغم، فجلبت ألف الوصل.

وقال البخاري: ﴿إِذَا رَكُوتَا﴾ اجتمعوا. انتهى. وقوله سبحانه: ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمُ الْأُولَاهُمْ﴾ معناه: قالت الأمم الأخيرة التي وجدت ضلالات متقررة، وسنناً كاذبة مستعملة للأولى التي شرعت ذلك، وافترت على الله، وسلكت سبيل الضلال ابتداءً ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾، أي: طرّفوا لنا طرُق الضلال، ﴿قال لكل ضعف﴾ أي: عذاب مشدّد على الأول والآخِر ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أي المقادير، وصور التضعيف.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/٢٩٧).

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: قد استوثق حالنا وحالكم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ باجترامكم، وهو من كلام الأمة المتقدمة للمتأخرة.

وقيل: قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ هو من كلام الله عز وجل لجميعهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ الآية، هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديمهم وحديثهم.

قرأ نافع^(١) وغيره: «تُفْتَح» بتشديد التاء الثانية، وقرأ أبو عمرو: «تُفْتَح» بالتاء أيضاً وسكون الفاء، وتخفيف الثانية، وقرأ حمزة «يفتح» بالياء من أسفل، وتخفيف التاء، ومعنى الآية: لا يرتفع لهم عمل، ولا روح، ولا دعاء، فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين. قاله ابن عباس، وغيره.

ثم نفى سبحانه عنهم دخول الجنة، وعلق كونه بكون محال، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط، والجمل كما عهد، والسّم كما عهد، وقرأ جمهور^(٢) المسلمين «الجمل» واحد الجمال، وقرأ ابن عباس وغيره^(٣) «الجمل» بضم الجيم وتشديد الميم، وهو حبل السفينة^(٤) والسّم: الثقب من الإبرة وغيرها، وكذلك أي: وعلى هذه

(١) والتشديد أي: مرة بعد مرة. وحجة هؤلاء قوله تعالى: «مفتحة لهم الأبواب» [ص: ٥٠].

ينظر: «السبعة» (٢٨٠)، و«الحجة» (١٨/٤)، و«حجة القراءات» (٢٨٢)، و«إعراب القراءات» (١/١٨٠)، و«العنوان» (٩٥)، و«شرح الطيبة» (٢٩٤/٤)، و«شرح شعلة» (٣٨٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٤٨/٢)، و«معاني القراءات» (٤٠٥/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٠/٢)، و«البحر المحيط» (٣٠٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٦٩/٣).

(٣) وقرأ بها سعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وأبي العلاء بن الشخير، ورويت عن أبي رجا. ينظر: «الشواذ» (٤٨)، و«المحتسب» (٢٤٩/١)، و«الكشاف» (١٠٣/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٠٠)، وزاد نسبتها إلى عكرمة، وينظر: «البحر المحيط» (٣٠٠/٤)، وزاد في نسبتها إلى ابن يعمر، وأبي مجلز، وأبي رزين، وابن محيصن، وأبان عن عاصم، وينظر: «الدر المصون» (٢٧٠/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٤٨٧/٥)، وابن كثير (٢١٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٧/٣).

الصفة، وبمثل هذا الحتم، وغيره نجزي الكفرة وأهل الجرائم على الله.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، ومسكن، ومضجع يتمهّدونه، وهي لهم غَوَاشٍ جمع غاشية، وهي ما يَغْشَى الإنسان أي: يغطيه، ويستره من جهة فوق.

وقوله سبحانه: ﴿لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذه آية وعد مخبرة أن جميع المؤمنين هم أَصْحَابُ الجنة، ولهم الخُلْدُ فيها، ثم اعترض فيها القول بعقب الصِّفَةِ التي شرطها في المؤمنين باعتراض يُخَفِّفُ الشرط، ويرجي في رحمة الله، ويعلم أن دينه يُسر، وهذه الآية نص في أن الشريعة لا تَتَقَرَّرُ من تكاليفها شيء لا يُطَاق، وقد / تقدم ذلك في «سورة البقرة».

ب ١٨٩

«والوُسْعُ» معناه: الطاقة، وهو القدر الذي يَتَّسِعُ له البشر.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تَتَكَلَّمُ الْجَنَّةُ أَوْ رُسُلُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ هذا إخبار من الله عز وجل أنه ينقي قُلُوبَ ساكني الجنة من الغِلِّ، والحِقْدِ، وذلك أن صاحب الغل مُعَذَّبٌ به، ولا عذاب في الجنة.

وورد في الحديث: «الغلُّ على باب الجنة كَمَبَارِكِ الْإِبِلِ قَدْ نَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

والغل: الحِقْدُ والإحنة الخَفِيَّةُ في النفس. ﴿وقالوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ الإشارة بـ «هذا» يتجه أن تكون إلى الإيمان، والأعمال الصالحات المؤدية إلى الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نَفْسِهَا، أي: أرشدنا إلى طرقها.

وقرأ ابن عامر^(٢) وَخَذَهُ: «ما كنا لنهتدي» بسقوط الواو، وكذلك هي في مَصَاحِف أهل «الشام»، ووجهها أن الكلامَ مُتَّصِلٌ، مرتبط بما قبله.

ولما رأوا تصديق ما جاءت به الأنبياء عن الله سبحانه، وَعَايَنُوا إنجاز المواعيد قالوا:

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠٨/٧).

(٢) ينظر: «شرح طيبة النشر» (٢٩٥/٤)، و«شرح شملة» (٣٨٩)، و«العنوان» (٩٥)، و«معاني القراءات» (٤٠٧/١)، و«إتحاف» (٤٩/٢).

﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِالْحَقِّ وَتُودُوا﴾ أي: قيل لهم بِصِيَّاحٍ، وهذا النداء من قِبَلِ اللَّهِ، «وَأَنْ» مفسرة لمعنى النداء، بمعنى: أي.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا على طَرِيق وجوب ذلك على اللَّهِ تعالى لكن بقرينة رحمته، وتغمده، والأعمال أماره من اللَّهِ سبحانه وطريق إلى قوة الرَّجَاءِ، ودخولِ الْجَنَّةِ إنما هو بِمُجَرَّدِ رحمته، وَالْقَسْمُ فيها على قدر الأعمال. «وأورثتم» مشيرة إلى الأقسام.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾ الآية.

هذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تَفْرِيعٌ، وتوبيخ، وزيادة في الكَرْبِ، وهو بأن يشرفوا عليهم، ويخلق الإدراك في الأسماع والأبصار.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم، والظالمون هنا هم الكافرون.

* ت *: حكي عن غير واحد أن طاوس دخل على هشام بن عبد الملك^(١) فقال له: اتق الله، واخذز يوم الأذان، فقال: وما يوم الأذان؟ فقال قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فصعق هشام، فقال طاوس: هذا ذلُّ الوَضْفِ، فكيف ذلُّ الْمُعَايَنَةِ انتهى.

﴿ويبغونها عِوَجًا﴾ أي: يطلبونها، أو يطلبون لها، والضمير في ﴿يبغونها﴾ عائد على السَّيْلِ.

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان: من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ، خرج عليه زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٠هـ بأربعة عشر ألفاً من أهل الكوفة، فوجه إليه من قتله وقتل جمعه، نشبت في أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك في ما وراء النهر، كان حسن السياسة، يقطاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. ولد سنة ٧١هـ، وتوفي في سنة ١٢٥هـ. انظر: «ابن الأثير» (٩٦/٥) «الطبري» (٢٨٣/٨)، «اليعقوبي» (٥٧/٣)، «ابن خلدون» (٨٠/٣)، «الأعلام» (٨٦/٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

﴿وبينهما﴾: أي: بين الجنة والنار، ويحتمل بين الجمعين، والحجاب هو السور الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣].

قال ابن عباس، وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار^(١).

وقال ابن عباس أيضاً: هو تل بين الجنة والنار^(٢).

وذكر الزهراوي حديثاً أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنْ أُحْدَا جَبَلٌ يَحْبُنَا وَنَحْبُهُ، وَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَثُلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَحْتَسِبُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ، يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، هُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣).

والأعراف جمع عرف، وهو المرتفع من الأرض، ومنه عُرفُ الفرس، وعرف الديك لعلوهما.

وقال بعض الناس: سُمِّيَ الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

قال * ع^(٤): * وهذه عُجَمَةٌ، وإنما المراد على أعراف ذلك الحجاب، أي أعاليه.

وقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ قال الجمهور: إنهم رِجَالٌ مِنَ الْبَشَرِ، ثم اختلفوا في تعيينهم، فقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهدون في سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ خَرَجُوا عُصَاةً لِأَبَائِهِمْ^(٥).

وذكر الطبري في ذلك / حديثاً عن النبي ﷺ وأنه تعادل عُقُوفَهُمْ، واستشهادهم^(٦). ١٩٠

وقال ابن عباس، وغيره: هم قوم اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ^(٧)، ووقع في «مسند

(١) أخرجه الطبري (٤٩٨/٥) برقم: (١٤٦٨٧)، (١٤٦٨٨) وبرقم: (١٤٦٨٦)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٤)، وابن كثير (٢/٢١٦)، وذكره السيوطي (٣/١٦٠)، (٣/١٦١).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٨/٥) برقم: (١٤٦٨٥)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٤)، وابن كثير (٢/٢١٦)، والسيوطي (٣/١٦١).

(٣) الحديث بهذا اللفظ لم أجده أما قوله ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه» ثابت من قول النبي ﷺ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٠٤).

(٥) أخرجه الطبري (٥٠١/٥) برقم: (١٤٧١١)، وابن عطية (٢/٤٠٤)، والبغوي (٢/١٦٢) بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠١/٥) برقم: (١٤٧١٣) والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٦٣)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأحمد بن منيع، والحاثر بن أبي أسامة، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد»، والخرائطي في «مساوىء الأخلاق»، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٧) أخرجه الطبري (٥٠٠/٥) برقم: (١٤٧٠٠ - ١٤٧٠٥ - ١٤٧٠٦)، وذكره ابن عطية (٢/٤٠٤)، والبغوي (٢/١٦٢)، وابن كثير (٢/٢١٦)، والسيوطي (٣/١٦٣).

خيثمة^(١) بن سليمان» في آخر الجزء الخامس عشر عن جابر بن عبد الله؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَوَضَّعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ ضَوْأَةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ مِثْقَالَ ضَوْأَةٍ دَخَلَ النَّارَ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَمَنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؟ قَالَ: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ»^(٢).

وقيل غير هذا من التأويلات.

قال ع^(٣): «واللازم من الآية أن على أعراف ذلك الشُّور، أو على مواضع مرتفعة عن الْفَرِيقَيْنِ حيث شاء الله تعالى رِجَالاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَأَخَّرُ دُخُولُهُمْ، وَيَقَعُ لَهُمْ مَا وَصَفَ مِنَ الْإِعْتِبَارِ».

و«يعرفون كلاً بِسِيمَاهُم»، أي: بِعَلَامَاتِهِمْ من بياض الوجوه، وَحُسْنِهَا في أهل الجنة، وَسَوَادِهَا وقبحها في أهل النَّارِ إلى غير ذلك في حَيَزِ هَؤُلَاءِ، وحيز هَؤُلَاءِ.

وقوله: «لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ» المراد به: أهل الأعراف فقط، وهو تأويل ابن مَسْعُودٍ، والسدي، وقتادة، والحسن^(٤) وقال: «والله ما جعل الله ذلك الطَّمَعِ في قلوبهم إلا لخير أَرَادَهُ بِهِمْ».

قال ع*^(٥): «: وهذا هو الأظهر الأليق مما قيل في هذه الآية، ولا نَظَرَ لِأَحَدٍ مَعَ قول النبي ﷺ».

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ إِلَيْكَ أَمْحَبَ النَّارَ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) وَكَادَتْ أَمْحَبُ الْأَعْرَافُ رِجَالاً يَمُرُّونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهْتَوْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴿

(١) الإمام الثَّقَةُ الْمُعَمَّرُ، محدث الشام، أبو الحسن، خَيْثَمَةُ بن سليمان بن خَيْدَرَةَ بن سليمان، الْفَرَشِيُّ، الشَّامِيُّ، الْأَطْرَابُلسِيُّ، مصنف «فضائل الصحابة».

كان رَحَالاً جَوَالاً صاحب حديث. وثَقَّة الخطيب، وقال: ثقة ثقة.

ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٤١٢/١٥ - ٤١٣)، «المعبر» (٢/٢٦٢)، «النجوم الزاهرة» (٣/٣١٢).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٦٢)، وعزاه إلى ابن عساكر، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٠٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢/٤٠٥).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٠٥).

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصار أصحاب الأعراف، فهم يسلمون على أصحاب الجنة، وإذا نظروا إلى النار، وأهلها، قالوا: ﴿رَبِّنا لَا تَجْعَلْنا مع الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قاله ابن عباس^(١)، وجماعة من العلماء.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَغْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يريد من أهل النار.

﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ «ما» استفهام بمعنى التقرير، والتوبيخ، و«ما» الثانية مصدرية، و«جمعكم» لفظ يعم المال والأجناد والخول.

وقوله سبحانه: ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أهل الأعراف هم القائلون: «أهواء» إشارة إلى أهل الجنة، والذين خوطبوا هم أهل النار، والمعنى: أهواء الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يغبؤ بهم، قيل لهم: ادخلوا الجنة.

وقال النقاش: أقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف داخلون النار^(٢) معهم، فنادتهم الملائكة: أهواء، ثم نادى أصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة.

وقرأ عكرمة^(٣): «ادخلوا الجنة» على الإخبار بفعل ماض.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْغَيَّةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوُا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرُدُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ...﴾ الآية: لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وقَّع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم،

(١) أخرجه الطبري (٥٠٥/٥) برقم: (١٤٧٤٣) بلفظ: «إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ﴿رَبِّنا لَا تَجْعَلْنا مع الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وذكره ابن عطية (٤٠٥/٢) بمثله، وابن كثير (٢١٨/٢) بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٠٦/٢)، والبغوي (١٦٣/٢) بنحوه، والسيوطي (١٦٦/٣) بنحوه، وعزاه للربيع.

(٣) ينظر: «الشواذ» (٤٩)، و«الكشاف» (١٠٧/٢)، و«المحتسب» (٢٤٩/١)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٠٦)، و«البحر المحيط» (٣٠٦/٤)، و«الدر المصون» (٢٧٦/٣).

وجائز أن يكون ذلك، وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم على بُعد السفل من العلو، وجائز أن يكون ذلك، وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر.

وروي أن ذلك النداء هو عند اطلاع أهل الجنة عليهم.

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى الطعام. قاله السدي^(١).

فيقول لهم أهل الجنة: إن الله حرّم طعام الجنة وشرابها على الكافرين، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي بالإغراض والاستهزاء. يَمَن يدعوهم إلى الإسلام.

﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها، واعتقادهم أنها الغاية القصوى.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ هو من إخبار الله عز وجل عما يفعل بهم والنسيان هنا

بمعنى التزك، أي: نتركهم في العذاب، كما تركوا النظر/ للقاء هذا اليوم. قاله ابن عباس^(٢) وجماعة.

«وما كانوا» عطف على «ما» من قوله: «كما نسوا»، ويحتمل أن تقدر «ما» الثانية زائدة، ويكون قوله: «وكانوا» عطفًا على قوله: «نسوا».

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الضمير في «جئناهم» لمن تقدّم ذكره، و«الكتاب» اسم جنس، واللام في «لقد» لام قسم.

وقال يحيى بن سلام: بل الكلام تم في «يجحدون»، وهذا الضمير لمكذبي نبينا مُحَمَّد ﷺ^(٣) وهو ابتداء كلام آخر، والمراد بالكتاب القرآن، و﴿على علم﴾ معناه: على بصيرة.

وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، أي مآله وعاقبته يوم القيامة. قاله ابن عباس^(٤) وغيره.

(١) أخرجه الطبري (٥٠٩/٥) برقم: (١٤٧٥٧)، وذكره ابن عطية (٤٠٦/٢)، وابن كثير (٢١٩/٢)، والسيوطي (١٦٦/٣)، وعزاه للسدي.

(٢) أخرجه الطبري (٥١٠/٥) برقم: (١٤٧٦٦ - ١٤٧٦٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٠٧/٢)، وابن كثير (٢١٩/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٠٧/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٥١٢/٥) برقم: (١٤٧٧٥)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٢)، وابن كثير (٢٢٠/٢)، والسيوطي (١٦٨/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال السدي: مآله في الدنيا وقعة بذلٍ وغيرها، ويوم القيامة^(١) أيضاً، ثم أخبر تعالى أن مآل حال هذا الدين يوم يأتي يَقَعُ معه نَدْمُهُمْ، ويقولون تأسفاً على ما فاتهم من الإيمان: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، فالتأويل على هذا من آل يؤول، ﴿ونسوه﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الترك، وباقي الآية بيّن.

* ت *: وهذا التقرير يُرْجَحُ تأويل ابن سلام المتقدم.

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ الآية خطاب عام يقتضي التوحيد، والحجة عليه بدلائله، وجاء في التفسير والأحاديث أن الله سبحانه ابتداء الخلق يوم الأحد، وكملت المخلوقات يوم الجمعة، وهذا كله والساعة اليسيرة في قُدْرَةِ اللَّهِ سبحانه سواء.

قال * م *: ﴿في ستة أيام﴾ «سته» أصلها سِدْسَةٌ، فأبدلوا من السَّيْنِ تاء، ثم أَدْعَمُوا الدال في التاء، وتصغيره سديس وسديسة. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من خُذَّاق المتكلمين: الملك، والسلطان^(٢)، وخص العرش بالذكر تشريفاً له؛ إذ هو أَعْظَمُ المخلوقات.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ «ألا»: استفتاح كلام. وأخذ المفسرون «الخلق» بمعنى المخلوقات، أي: هي كلها مِلْكُهُ، واختراعه، وأخذوا الأمر مَصْدَرًا من أمر يأمر.

قال * ع^(٣) *: ويحتمل أن تؤخذ لفظة «الخلق» على المصدر من: خلق يخلق خَلْقًا، أي: له هذه الصفة؛ إذ هو المَوْجِدُ للأشياء بعد العَدَمِ، ويؤخذ الأمر على أنه واحد

(١) أخرجه الطبري (٥١٢/٥) برقم: (١٤٧٧٣)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٢)، والبغوي (١٦٤/٢) بلفظ: «عاقبته»، والسيوطي (١٦٨/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٠٨/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٩/٢).

الأمور، فيكون بمنزلة قوله: ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ [هود: ١٢٣] ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ [البقرة: ٢١٠].

وكيف ما تأولت الآية، فالجميع لله سبحانه.

و﴿تبارك﴾ معناه: عظم، وتعالى، وكثرت بركاته، ولا يوصف بها إلا الله سبحانه.

و﴿تبارك﴾ لا يتصرف في كلام العرب، فلا يقال منه: يتبارك، و﴿العالمين﴾ جمع عالم.

قوله عز وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ هذا أمر بالدعاء، وتعبده به، ثم قرن سبحانه بالأمر به صفات تحسن معه. وقوله: ﴿تضرعاً﴾ معناه بخشوع، واستكانة، والتضرع لفظة تقتضي الجهر، لأن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترب بالطلب، و﴿خفية﴾ يريد في النفس خاصة، وقد أثنى الله سبحانه على ذلك في قوله سبحانه: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ [مريم: ٣]، ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خير الذكر الخفي»^(١) والشريعة مقررة أن السر فيما لم يفرض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر.

* ت *: ونحو هذا لابن العربي لما تكلم على هذه الآية، قال: الأصل في الأعمال الفرضية الجهر، والأصل في الأعمال الثقلية السر، وذلك لما يتطرق إلى النفل من الرياء، والتظاهر بذلك في الدنيا، والتفاخر على الأصحاب بالأعمال، وقلوب الخلق جبلت بالميل إلى أهل الطاعة. انتهى/ من «الأحكام».

وقوله سبحانه: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ يريد في الدعاء، وإن كان اللفظ عاماً، والاعتداء في الدعاء على وجوه منها: الجهر الكثير، والصياح، وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «أيها الناس ازعجوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (١٨٧/١)، وفي «الزهد» ص: (١٠)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» ص: (٧٦) برقم: (١٣٧)، وأبو يعلى (٨١/٢ - ٨٢) برقم: (٧٣١)، وابن حبان (٢٣٢٣ - موارد)، من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن أبي وقاص به. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨٤/١٠) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة، وقد وثقه ابن حبان، وقال: روى عن سعد بن أبي وقاص. قلت: وضعفه ابن معين، وبقي رجالهما رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧/٧) كتاب «المغازي»، باب: غزوة خيبر، حديث (٤٢٠٥)، وفي (١١/١٩١) كتاب «الدعوات»، باب: الدعاء إذا علا عقبه، حديث (٦٣٨٤)، وفي (٢١٧/١١) كتاب «الدعوات»، =

ومنها: أن يدعو في مُحَالٍ، ونحو هذا من التشطُّط؛ وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَغْتَدُونَ فِي الدَّعَاءِ، وَحَسْبُ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ»^(١).

وقال البخاري: «إنه لا يحب المعتدين» أي: في الدعاء وغيره. انتهى.

* ت *: قال الخطابي: وليس معنى الاغْتِدَاءِ الإكثار، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلْحِينَ فِي الدَّعَاءِ»^(٢)، وقال: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ، فَإِنَّمَا هُوَ يَسْأَلُ رَبَّهُ»^(٣). انتهى.

وروى أبو داود في «سُنَنِهِ» عن عبد الله بن مَعْقِلٍ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَغْتَدُونَ فِي الطُّهْرِ وَالِدَّعَاءِ»^(٤) انتهى.

= باب: قول لا حول ولا قوة إلا بالله، حديث (٦٤٠٩)، وفي (٣٨٤/١٣) كتاب «التوحيد»، باب: «وكان الله سمياً بصيراً»، حديث (٧٣٨٦)، ومسلم (٢٠٧٦/٤) كتاب «الذكر والدعاء»، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث (٤٤ - ٤٥/٢٧٠٤)، وأبو داود (٤٧٨/١) كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، حديث (١٥٢٦)، و(١٥٢٧)، و(١٥٢٨)، والترمذي (٤٥٧/٥)، كتاب «الدعوات» باب: (٣)، حديث (٣٣٧٤)، وابن ماجه (١٢٥٦/٢) كتاب «الأدب» باب: ما جاء في لا حول ولا قوة إلا بالله، حديث (٣٨٢٤)، وأحمد (٤٠٢/٤)، وأحمد (٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩)، وأبو يعلى (١٣/٢٤١) برقم: (٧٢٥٢)، وابن حبان (٧٩٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٥٢١) كلهم من طريق أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد (١٧٢/١)، وأبو داود (٤٦٦/١ - ٤٦٧) كتاب «الصلاة» باب: الدعاء، حديث (١٤٨٠)، والطبراني في «الدعاء» (٥٥)، وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠)، وأبو يعلى (٧١/١٠) برقم: (٧١٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٤٥٢/٤) من طريق يوسف بن السفر عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً.

وأسنَد العقيلي عن البخاري قوله في يوسف بن السفر: منكر الحديث، والحديث موضوع؛ آفته يوسف هذا.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٤/١١) كتاب «الدعوات» باب: ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، حديث (٦٣٣٨) ومسلم (٢٠٦٣/٤) كتاب «الذكر والدعاء» باب: العزم، حديث (٢٦٧٩/٩)، وأحمد (٤٨٦/٢) وأبو داود (٤٦٧/١) كتاب «الصلاة»، باب: الدعاء، حديث (١٤٨٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٢/١) كتاب «الطهارة» باب: الإسراف في الماء، حديث (٩٦)، وابن ماجه (٢/١٢٧١) كتاب «الدعاء» باب: كراهية الاعتداء في الدعاء، حديث (٣٨٦٤)، وأحمد (٨٧/٤) (٥٥/٥)، وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠)، والحاكم (١٦٢/١)، وابن حبان (٦٧٦٤)، والطبراني في «الدعاء» (٥٩) =

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية ألفاظها عامة تتضمن كل فساد قلّ أو كثر بعد صلاح قل أو كثر، والقصد بالنهي هو [على] العموم، وتخصيص شيء دون شيء، في هذا تحكّم إلا أن يُقال على جهة المثال.

وقوله سبحانه: ﴿وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة تقرب، وتحرز، وتأميل لله عز وجل حتى يَكُون الخَوْفُ والرجاء كالجَنَاحَيْنِ للطير يَحْمِلَانِهِ في طريق استقامة، وإن انفرد أحدهما هَلَكَ الإنسان.

وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يَغْلِبَ الخَوْفُ الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموتُ غلب الرجاء.

وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخَوْفُ أغلب على المرء بكثير، وهذا كله طريق احتياط، ومنه تَمَتَّى الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخِرُ مَنْ يدخل (١) الجنة، وتَمَنَّى سَالِمُ مولى أبي حذيفة أن يكون من أَصْحَابِ الْأَغْرَافِ (٢).

ثم آنَسَ سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلَّذِي آمَنَ بِآيَاتِنَا بِهِ الْآمَنَاءَ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تَخْرُجُ الْمَوَاقِدُ لَكُمْ تُكَذِّرُونَ (٥٧)﴾
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وهو الذي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا...﴾ الآية: هذه آية اعتبار، واستدلال. وقرأ عاصم (٣) «الرياح» بالجمع، «بُشْرًا»

= كلهم من طريق حماد بن سلمة، عن سعيد الجريري، عن أبي دغامة، عن عبد الله بن مغفل به. وأخرجه أحمد (٨٦/٤) من طريق حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أبي دغامة، عن ابن المغفل به.

(١) ذكره ابن عطية (٤١١/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٤١١/٢).

(٣) ينظر: «السبعة» (٢٨٣)، و«الحجة» (٣١/٤، ٣٢)، و«حجة القراءات» (٢٨٥)، و«إعراب القراءات» (١٨٦/١)، و«شرح شملة» (٣٩١)، و«شرح الطيبة» (٢٩٩/٤)، و«العنوان» (٩٦)، و«إتحاف» (٢/٥٣)، و«معاني القراءات» (٤٠٨/١، ٤٠٩).

بالباء المضمومة والشين الساكنة، وروي عنه «بُشْرًا» بضم الباء والشين، ومن جمع الريح في هذه الآية، فهو أسعد؛ وذلك أن الرِّيحَ حيث وَقَعَتْ في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وأكثر ذِكرِ الريح مفردة إنما هو بقرينة عَذَابٍ، كقوله سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وقد تقدم إيضاح هذا في «سورة البقرة».

ومن قرأ في هذه الآية «الريح» بالإنفراد، فإنما يريد به اسم الجنس، وأيضاً فتقيدها بـ «بشراً» يزيل الاشتراك.

والإِزْسَالُ في الريح هو بمعنى الإجراء، والإطلاق، وبُشْرًا، أي: تَبَشُّرُ السحابِ، وأما «بُشْرًا» بضم الباء والشين، فجمع بَشِيرٍ، كَنَذِيرٍ وَنَذُورٍ، والرحمة في هذه الآية الْمَطَرُ، و﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾، أي: أمام رحمته وقدامها، و﴿أَقَلَّتْ﴾ معناه: رفعت من الأرض، واستَقَلَّتْ به، و﴿ثِقَالًا﴾ معناه من الماء، والعَرَبُ تَصِفُ السحابَ بِالثَّقَلِ، والرَّيحُ تَسُوقُ السحابَ من ورائه فهو سوق حقيقة، والضمير في «سُقْنَاهُ» عائد على السحاب، ووصف البلد بالمَوْتِ استعارة بسبب شعثه وجدوبته.

والضمير في قوله «فأنزلنا به» يحتمل أن يَعُودَ على السحاب، أي منه، ويحتمل أن يعود على البلد، ويحتمل أن يعود على الريح.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ يحتمل مقصدين:

أحدهما: أن يراد كهذه/ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ هي القدرة على إحياء الموتى، وهذا مثال ١٩١ ب لها.

الثاني: أن يراد أن هكذا نَصْنَعُ بالأموات من نزول الْمَطَرِ عليهم، حتى يحيوا به، حَسَبَ ما وردت به الآثار، فيكون الكلامُ خبراً لا مثلاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ...﴾ آية مُتَمِّمَةٌ للمعنى الأول في الآية قبلها، معرفة بِعَادَةِ اللَّهِ سبحانه في إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مثلاً لقلب المؤمن، وقلب الكافر، كما هو محكي عن ابن عَبَّاسٍ، ومجاهد، وقتادة، والسدي^(١)، فذلك مترتب، لكن أَلْفَاظُ الآية لا تقتضي أن المَثَلُ قصد به ذلك، والطيب: هو الْجَيِّدُ التُّرَابِ الْكَرِيمِ الْأَرْضِ وَخَصَّ بِإِذْنِ رَبِّهِ مَذْحًا وَتَشْرِيفًا، وهذا كما تقول لمن تغضُّ منه: أنت

(١) أخرجه الطبري (٥١٩/٥) برقم: (١٤٧٩٤)، وذكره ابن عطية (٤١٤/٢)، وذكره ابن كثير (٢٢٢/٢).

كما شاء الله، فهي عبارة تعطي مُبَالَغَةً في مَذْحٍ أو ذم. والخبيث هو السَّبَاحُ ونحوها من رَدِيءِ الأرض.

والتَّكْذُ الْعَسِيرُ القليل. ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي هكذا نبين الأمور، و﴿يَشْكُرُونَ﴾ معناه: يؤمنون ويشنون بآلاءِ الله سبحانه.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقِرُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَفْقِرُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ يَنْصَرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْتَبَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَاقِبِينَ ﴿٦٤﴾

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اغْبُدُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

قال الطبري^(١): أقسم الله تعالى أنه أرسل^(٢) نوحاً، وكذا قال أبو حيان^(٣): «لقد» اللام جواب قسم محذوف. انتهى.

و«غَيْرُهُ» بالرفع بدلٌ من قوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾؛ لأنه في موضع رفع، ويجوز أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأن التقدير؛ ما لكم إله غيره، والمَلَأُ الجماعة من الأشراف.

قيل: إنهم مأخوذون من أنهم يملئون النفوس والعين، ويحتمل من أنه إذا تمالؤوا على أمرٍ تم.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ يحتمل من رُؤْيَةِ البصر، ويحتمل من رؤية القلب، وهو أظهر.

و﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي في تَلَفٍ وجهالة بما تسلك.

وقوله لهم جَوَابٌ عن هذا:

(١) ينظر: الطبري في «تفسيره» (٥/٥٢٠).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/٤١٤).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٤/٣٢٣).

﴿ليس بي ضلالة﴾ مبالغة في حُسْنِ الأدب، والإعراض عن الجَفَاءِ منهم، وتناول رفيق، وسعة صدر حَسَبَ ما تقتضيه خُلُقُ النبوة.

وقوله: ﴿ولكنِّي رَسُولٌ﴾ تعرض لمن يريد النظر، والبَحْثَ، والتأمل في المعجزة.

وقوله عليه السلام: ﴿وأعلم مِنَ اللَّهِ ما لَا تَعْلَمُونَ﴾ لفظ مُضْمَنُ الوَعِيد، لا سيما وهم لم يسمعوا قَطُّ بأمة عذبت.

وقوله: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ.

الاستفهام هنا على جِهَةِ التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿على رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ قيل: «على» بمعنى «مع».

وقيل: هو على حَذَفِ مضاف، تقديره: على لسان رجل، ويحتمل أن يكون معناه منزل على رَجُلٍ مِنْكُمْ؛ إذ كل ما يأتي من اللَّهِ سبحانه فله حُكْمُ النزول، و﴿لعلكم﴾ تَرْجُ بحسب حال نوح ومعتقده.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ...﴾ الآية.

وفي التفسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رجلاً.

وقيل: ثمانون رجلاً وثمانون امرأة وقيل: عشرة وقيل: ثمانية. قاله قتادة.

وقيل: سبعة. والله أعلم.

وفي كثير من كتب الحديث؛ التزمذي وغيره أن جَمِيعَ الْخَلْقِ الْآنَ مِنْ ذُرِّيَةِ نوح عليه السلام وقوله: ﴿عمين﴾ جمع عَمٍ، ويريد عَمِيَّ البَصَائِر، وأتى في حديث الشفاعة وغيره أن نُوحًا أَوَّلُ الرسل^(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ إِنَّكَ لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُنِيفُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ

أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزْنَا بِمَا كُنَّا نَكُنُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهِ﴾ ١٩٢ / أَفَلَا تَتَّقُونَ * قال المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَادِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أبلغكم رسالاتِ رَبِّي وأنا لكم ناصحٌ أَمِينٌ ﴿عاد اسم الحي، وهم عربٌ فيما يذكر، وأخاهم﴾ نصب بـ «أرسلنا» وهو معطوف على نوح، وهذه أيضاً نذارة من هود عليه السلام.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقوى، والإيمان.

وقوله: ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * قالوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزْنَا بِمَا كُنَّا نَكُنُ مِنَ الصَّادِقِينَ *.

قوله: ﴿وزادكم في الخلق﴾ أي في الخلقة، والبسطة الكمال في الطول والعرض.

وقيل: زادكم على أهل عصركم.

وقال الطبري: زادكم على قوم نوح. وقاله قتادة^(١).

قال * ع^(٢): * واللفظ يقتضي أن الزيادة على جميع العالم، وهو الذي يقتضيه ما يذكر عنهم.

وروي أن طُولَ الرجل منهم كان مائة ذِرَاعٍ، وطول أقصرهم سِتُّونَ ونحوها. والآلاء جمع «إلى» على مثل «معى»، وهي النعمة والمنة.

قال الطبري: وعاد هؤلاء فيما حدث ابن إسحاق من ولد عاد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح، وكانت مساكنهم «الشحر» من أرض «اليمن» وما وإلى «حَضْرَمَوْت» إلى «عمان»^(٣).

(١) ذكره ابن عطية (٤١٧/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٢٤/٥) برقم: (١٤٨٠٩)، وذكره ابن عطية (٤١٨/٢).

قال السدي: وكانوا بالأخفاف، وهي الرمال، وكانت بلادهم أخصب بلاد، فردها الله صحارى^(١).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن قبر هود عليه السلام هنالك في كثير أحمر تحالطه مدرة ذات أراك وسدر، وكانوا قد فشوا في جميع الأرض، وملكوا كثيراً بقوتهم وعدديهم، وظلموا الناس وكانوا ثلاثة عشر قبيلة، وكانوا أصحاب أوثان، فبعث الله إليهم هوداً من أفضلهم وأوسطهم نسباً، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وإلى ترك^(٢) الظلم.

قال ابن إسحاق: ولم يأمرهم فيما يذكر بغير^(٣) ذلك، فكذبوه وعتوا، واستمروا على ذلك إلى أن أراد الله إنفاذ أمره أمسك عنهم المطر ثلاث سنين، فشقوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا دهمهم أمر، فزعدوا إلى المسجد الحرام بـ «مكة» فدعوا الله فيه تعظيماً له مؤمنهم وكافرهم، وأهل «مكة» يومئذ العماليق، وسيدهم رجل يسمى معاوية بن بكر، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفداً إلى «مكة» يستسقون الله لهم، فبعثوا قيل بن عتر، ولقيم بن هزال، وعثيل بن ضد بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد، وكان هذا مؤمناً يكتم إيمانه، وجلهمة بن الخير في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا «مكة» نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر «مكة» خارج الحرم، فأنزلهم، وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان قينتا معاوية، ولما رأى معاوية إقامتهم، وقد بعثهم عاد للغوث أشفق على عاد، وكان ابن أختهم أمه: كلهدة ابنة الخير أخت جلهمة، وقال: هلك أخوالي، وشق عليه أن يأمر أضيافه بالانصراف عنه، فشكا ذلك إلى قينتيه، فقلتا: اصنع شغراً نغني به، عسى أن ننبههم، فقال: [الوافر]

أَلَا يَا قَيْلُ وَيَحَكَ قُمْ فَهَيْنِمَ لَعَلَّ اللَّهَ يُضْبِحُنَا غَمَامَا
فَيْسَقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادًا قَدْ أَمْسَوْا لَا يَبِينُونَ الْكَلَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَزْجُو بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغُلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ عِيَامَا

(١) أخرجه الطبري (٥٢٤/٥) برقم: (١٤٨١٠)، وذكره ابن عطية (٤١٨/٢)، والسيوطي (١٧٨/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٤١٨/٢)، وابن كثير (٢٢٤/٢) بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٥٢٤/٥) برقم: (١٤٨١٢)، وذكره ابن عطية (٤١٨/٢)، والسيوطي (١٧٨/٣)، وعزاه لإسحاق بن بشر، وابن عساكر.

وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ وَلَا تَخْشَى لِعَادِي سِهَامَا
فَقُبِّحَ وَفَدُكُم مِّنْ وَفْدِ قَوْمٍ نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَا
وَلَا لُقُّوا التَّجِيَّةَ وَالسَّلَامَا^(١)

فغنت به الجَرَادَاتَانِ، فلما سمعه القَوْمُ قال بعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومكم لما حلَّ بهم، فادخلوا هذا الحَرَمَ، وادعوا لَعْلَ الله يغيثهم فخرجوا لذلك، فقال لهم مرثد بن سعد: إنكم والله ما تسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وآمتهم سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذٍ، فَخَالَفَهُ الْوَفْدُ، وقالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسا عنا مرثداً، ولا يدخل معنا الحَرَمَ، فإنه قد اتبع هوداً، وَمَضُوا إِلَى الْحَرَمِ، فاستسقى قيل بن عذر، وقال: يا إلهنا إن كان هود صادقاً، فاسقنا، فإننا قد هلكنا، فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: يَا قَيْلُ اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ما شِئْتَ، فقال قيل: قد اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماءً، فنودي:

قَدْ اخْتَرْتَ رَمَاداً رَمَدَدَا لَا تُنْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدَا
لَا وَإِلْدَاً وَلَا وَلْدَا إِلَّا جَعَلْتَهُمْ هَمْدَا

وساق الله السَّحَابَةَ السوداء التي اختارها قيل إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: الْمُغِيثُ، فلما رأوها، قالوا هذا عَارِضٌ ممطرنا، حتى عرفت أنها ريح امرأة منهم يقال لها: مهدر، فصاحت وصعقت، فلما أفاقت قيل لها: ما رأيت؟ قالت: ريحاً فيها كُشْبُ النّارِ، أمامها رجال يَقُودُونَهَا، فسخرها الله عليهم سَبْعَ لَيَالٍ، وثمانية أيام حُسُوماً، وَالْحُسُومُ: الدائمة، فلم تَدَعْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، فاعتزل هود، ومن معه من الْمُؤْمِنِينَ فِي حَظِيرَةٍ ما يصيبه من رِيحٍ إِلَّا ما يَلْتَدِ بِهِ.

قال * ع^(٢) * : وهذا قصص وقع في «تفسير الطبري» مطولاً، وفيه اختلاف، فاقتضيت عيون ذلك بحسب الإيجاز، وفي خبرهم: أن الريح كانت تَذْمَعُهُمْ بِالْحِجَارَةِ، وترفع الظَّعِينَةَ عليها المرأة حتى تلقىها في البحر.

وفي خبرهم: أن أقوياءهم كان أحدهم يسدّ بنفسه مَهَبَّ الرِّيحِ حتى تَغْلِبَهُ فتلقيه في الْبَحْرِ، فيقوم آخر مكانه حتى هَلَكَ الْجَمِيعُ. وقال زيد بن أسلم: بلغني أن ضُبْعاً رَبَّثَ

(١) الآيات في «الكامل» (٨٦/١)، و«تاريخ الطبري» (٢٢٠/١)، و«المحرر الوجيز» (٤١٨/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٩/٢).

أولادها في حِجَاجٍ عَيْنِ رَجُلٍ مِنْهُمْ. وفي خبرهم: أن الله سبحانه لما أهلكهم بَعَثَ طيراً، فنقلت جِيفَهُمْ حَتَّى طَرَحَتْهَا فِي الْبَحْرِ، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وفي بعض ما رُوِيَ من شأنهم أن الريح لم تُبْعَثْ قط إِلَّا بِمَكْيَالٍ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، فَإِنِهَا عَثَّتْ عَلَى الْخَزَنَةِ، فغلبتهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صِرَاصِرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وروي أن هوداً لما هلك عاد نزل بمن آمنَ معه إلى «مكة» فكانوا بها حتى مَاتُوا، فالله أعلم أي ذلك كَانَ.

وقولهم: ﴿أَجِئْنَا لِتُعْبَدَ اللَّهُ وَخَدَهُ...﴾ الآية: ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم، ويفردون العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، وهذا هو الأظهر فيهم، وفي عباد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكُفْرَةِ إِلَّا مَنْ أَفْرَطَتْ غباوته.

وقولهم: ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: تَضْمِينٌ عَلَى التَّكْذِيبِ، واستعجالٌ للعقوبة.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧١) ﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢)

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ * ﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ الآية: أعلمهم بأن القضاء قد نفذ، وحل عليهم الرجز، وهو السخط والعذاب.

/ وقوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أي: في مسميات سميتوها آلهة، ١١٩٣ ﴿وقطعنا دابر﴾ استعارة تُسْتَعْمَلُ فِيمَنْ يُسْتَأْصَلُ بِالْهَلَاكِ، والدابر: الذي يَدْبُرُ القوم، ويأتي خَلْفَهُمْ، فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك، فلم يبق أحد.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دالٌّ على المعجزة، وإن لم تتعين.

* ت * ومن مُعْجَزَاتِهِ قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ [هود: ٥٥] على ما سيأتي إن شاء الله في موضعه.

﴿وَالَّذِي تُمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحاً قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها يسوء فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قرأ الجمهور: «وإلى ثمود» بغير ضَرْفٍ^(١)؛ على إرادة القبيلة، وقرأ يحيى بن وثاب^(٢) والأعمش: «وإلى ثمود» بالصرف؛ على إرادة الحي والقراءتان فصيحتان، مستعملتان، وقد قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ ثُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]، و﴿أَخَاهُمْ﴾ عطف على «نوح»، والمعنى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، وهي أخوة نسب، وهم قوم عرب، فهود وصالح عربيان، وكذلك إسماعيل وشعيب؛ كذا قال الناس، وفي أمر إسماعيل نظر.

* ت * : النظر الذي أشار إليه لا يخفى عليك؛ وذلك أن إسماعيل والد إبراهيم عليه السلام أعجمي، وتعلم إسماعيل العربية من العرب الذين نزلوا عليه بمكة؛ حسب ما ذكره أهل السيرة فهذا وجه النظر الذي أشار إليه، وفي نظره رحمه الله نظر يمنعني من البحث معه ما أنا له قاصد من الإيجاز والاختصار، دون البسط والانتشار، نعم خرج أبو بكر الأجرئي من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وأزبعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح ونبئك، يا أبا ذر» انتهى، ولم يذكر إسماعيل، فهذا الحديث قد يغضد ما قاله * ع * : وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم بن سام بن نوح؛ كذا ذكر^(٣) مكِّي.

قال وهب^(٤): بعثه الله حين راهق الحلم، ولما هلك قومه، ارتحل بمن معه إلى مكة، فأقاموا بها حتى ماتوا فقبورهم بين دار الندوة والجحر، أي: كما ارتحل هود بمن معه إلى مكة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(١) ينظر: «الكشاف» (١٢٠/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٢٠/٢)، و«البحر المحيط» (٣٣٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٩٢/٣).

(٢) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٤٢٠/٢)، و«البحر المحيط» (٣٣٠/٤)، و«الدر المصون» (٢٩٢/٣)، و«التخریجات النحویة» (١٥٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٢١/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٢١/٢)، وابن كثير (٢٣٠/٢) بنحوه، والسيوطي (١٨٥/٣) بنحوه، وعزاه لوهب.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: آية أو حجة أو موعظة بينة من ربكم، قال بعض الناس: إن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نفسه.

وقال الجمهور: بل كانت مفترحة، وهذا اليقن بما ورد في الآثار من أمرهم، روي أن قومه طلبوا منه آية تضطرهم إلى الإيمان، وقالوا: يا صالح، إن كنت صادقاً، فأذع لنا ربك يخرج لنا من هذه الهضبة، وفي بعض الروايات من هذه الصخرة - لصخرة بالحجر - ناقة عسراء، فدعا الله، فتمخضت تلك الهضبة، وأنشقت عن ناقة عظيمة، وروي أنها كانت حاملاً، فولدت سقبا المشهور.

وروي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة.

وقيل لها: ﴿ناقة الله﴾؛ تشريفاً لها، وتخصيصاً، وهي إضافة خلق إلى خالق، وجعل الله لها شرباً يوماً، ولهم شرب يوم، وكانت آية في شربها وحلبها.

قال المفسرون: كانت خلقاً عظيماً تأتي إلى الماء بين جبلين، فيزحمانها من العظم، وقاسمت ثمود في الماء يوماً بيوم، فكانت الناقة ترد يومها، فتستوفي ماء بثرهم شرباً، ويحلبونها ما شاؤوا من لبن، ثم تمكث يوماً، وترد بعد ذلك غباً، فاستمر ذلك ما شاء الله حتى ملتها ثمود، وقالوا: ما نضغ باللبن؛ الماء أحب إلينا منه، وكان سبب الملل فيما روي: أنها كانت تصيف في بطن الوادي، وادي الحجر / وتشتو في ظاهره، فكانت ١٩٣ ب مواشيهم تفر منها، فتمالؤوا على ملل الناقة، وروي أن صالحاً أوحى الله إليه أن قومك سيغفرون الناقة، وينزل بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك، فقالوا: عياداً بالله أن نفعل ذلك، فقال: إن لم تفعلوا أنتم أو شك أن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم صفة عاقبها: أحمراً، أشقر، أزرق، فولد قدار على الصفة المذكورة، فكان الذي عقرها بالسيف، وقيل: بالسهم في ضرعها، وهرب فصيلها عند ذلك؛ حتى صعد على جبل يقال له القارة، فرعاً ثلاثاً، فقال: يا صالح، هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب، وأمرهم قبل رغاء الفصيل أن يطلبوه عسى أن يصلوا إليه، فيندفع عنهم العذاب به، فرأوا الصعود إليه في الجبل فارتفع الجبل في السماء؛ حتى ما تناله الطير؛ وحينئذ رغا الفصيل، وروي أن صالحاً عليه السلام قال لهم، حين رغا الفصيل: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول، وتحمر في الثاني، وتسود في الثالث، فلما ظهرت العلامات التي قال لهم، أيقنوا بالهلاك، وأستعدوا، ولطخوا أبدانهم بالمر، وحفروا القبور، وتحنطوا وتكفّنوا في الأنطاع، فأخذتهم الصيحة، وخرج صالح ومن آمن معه؛ حتى نزل زملة فلسطين، وقد أكثر الناس في هذا القصص، وهذا القدر

كافٍ، وَمِنْ أَرَادَ أَسْتِيفَاءَ هَذَا الْقَصَصِ، فليطالعِ الطبري^(١).

قال * ع^(٢) : * وبلادُ ثُمُودَ هِيَ بَيْنَ الشَّامِ وَالْمَدِينَةِ، وَهِيَ الَّتِي مَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ^(٣) فقال: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ أَعْتَجَرَ^(٤) بِعِمَامَةٍ»، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ، حَتَّى جَاَزَ الْوَادِي ﷺ.

* ت * : وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ: ثُمَّ قَتَعَ رَأْسَهُ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ... الْحَدِيثُ^(٥).

(١) ينظر: الطبري في «تفسيره» (٥٣٠/٥)، (٥٣١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٢/٢).

(٣) «غزوة تبوك»: في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة - لما رجع رسول الله ﷺ من حصار الطائف إلى المدينة ببلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من منتصرة العرب قد حشدوا له جمعاً كثيراً يريدون غزوه في عقر داره، فأراد أن يلاقيهم على حدود بلادهم قبل أن يغشوه على غرة، فسار بجيشه حتى وصل تبوك، وكانت الروم قد بلغنها أمر هذا الجيش وقوته، فأثرت الانسحاب بجيشها، لتحصن في داخل بلاد الشام، فرأى النبي ﷺ أن من الحكمة ألا يتبعهم داخل بلادهم، فلم يتبعهم. وهناك جاء يوحنا بن روبة، فصالحه على الجزية كما صالحه أهل «جرباء» وأهل «أذرح» من بلاد الشام، وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب «دومة الجندل»، فأتى به خالد أسيراً بعد أن قتل أخاه، فحقن رسول الله ﷺ دمه، وصالحه على الجزية وأخلى سبيله. وأقام بضع عشرة ليلة لم يقدم عليه الروم ولا العرب المنتصرة فعاد إلى المدينة.

ولما بلغ ملك الروم ما فعله يوحنا أمر بقتله، وصلبه عند قريته. لم يكن من المعقول بعد ذلك أن يتهاون المسلمون فيما أصابهم من قتل رسولهم وأبطالهم ومُعَاهِدِهِمُ الَّذِي أَمْنُوهُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ بِأَخْذِ الْجَزْيَةِ، وَإِعْطَاءِ الْعَهْدِ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْقُولاً أَنَّ الرُّومَ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا حُضُورَ الْمُسْلِمِينَ لِلْقَصَاصِ يَكْفُونَ عَنْ مَنَاجِزَتِهِمْ وَالْإِيقَاعِ بِهِمْ أَيْنَمَا وَجَدُوا لِذَلِكَ سَبِيلاً.

لهذا عاد النبي ﷺ في آخر حياته إلى تجهيز جيش آخر تحت إمرة أسامة بن زيد، ولكن لم يكد يتم أمره حتى قبض الرسول صلوات الله عليه، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، وتولى أمر المسلمين بعده صاحبه أبو بكر، فارتأى رضي الله عنه أن الحزم في إنفاذ هذا الجيش حتى لا يطمع في الإسلام أعداؤه، ويتألب عليه خصومه، وتوات بعد ذلك حروب الروم حتى فتح المسلمون بلادهم في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بعد نضال عنيف، وحروب كثيرة.

(٤) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه، وَيَرْدُ طرفها على وجهه، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. ينظر: «النهاية» (١٨٥/٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧٣١/٧) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤١٩)، ومسلم

(٢٢٨٦/٤) كتاب «الزهد والرقائق» باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، حديث (٣٩/

٢٩٨٠)، وأبو يعلى (٩/٤٢٥) رقم (٥٥٧٥) كلهم من طريق الزهري عن سالم، عن أبيه. وأخرجه

البخاري (٧٣١/٧) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤٢٠)، ومسلم (٤/

٢٢٨٥) كتاب «الزهد والرقائق» باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، حديث (٣٨/٢٩٨٠)، =

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَذَكَّرُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا وَلَتَجْنُونَ الْجِبَالَ يُبُوءًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آثِنًا بِمَا نَعُدُّكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَوِرَ لَقَدْ أَبْلَغْنَكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَفَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَبُونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض...﴾ الآية: ﴿بَوَّأَكُمْ﴾: معناه مكّنكم، وهي مستعملة في المكان وظروفه، و«القُصُور»: جمع قصر، وهي الديار التي قصرت على بقاع من الأرض مخصوصة؛ بخلاف بيوت العمود، وقُصِرَتْ على الناس قصرًا تامًا، و«النحت»: النجر والقشر في الشيء الصلب؛ كالحجر والعود، ونحوه، وكانوا ينتحون الجبال لطول أعمارهم، و«تَعْتُوا» معناه تُفْسِدُوا. قال أبو حيان^(١): و«مُفْسِدِينَ»: حال مؤكدة. انتهى.

و«الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» هم الأشراف والعظماء الكفرة، و«الَّذِينَ اسْتَضَعُوا»: هم العامة والأغفال في الدنيا، وهم أتباع الرسل، وقولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾: استفهام؛ على معنى الاستهزاء والاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله، فحملت الأنفة الأشراف على مناقضة المؤمنين في مقالتهم، واستمروا على كفرهم.

وقوله سبحانه: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ يقتضي بتشريكتهم أجمعين في الضمير أن عقر الناقة كان على تَمَالُؤٍ منهم واتفاق، وكذلك رُوِيَ أَنَّ قُدَارًا لَمْ يَعْقُرْهَا حَتَّى كَانَ يَسْتَشِيرُ، و«عَتَوْا»: معناه: خَسَنُوا وَصَلَبُوا، ولم يذعنوا للأمر والشرع، وصمّموا على تكذيبه، وأستعجلوا النّقمة بقولهم: ﴿أَتُنْتِنَا بِمَا نَعُدُّكَ﴾، فحلّ بهم العذاب، و«الرجفة»: ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يَرْجِفُ بها الإنسان، وهو أن يتحرك ويضطرب، ويرتعد؛ ومنه: «فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فَوَّادُهُ» وروي أَنَّ صِيحَةً ثُمُودَ كَانَ فِيهَا مِنْ كُلِّ صَوْتٍ مَهُولٍ، وَكَانَتْ مُفْرَطَةً شَقَّتْ قُلُوبَهُمْ، فَجَثَمُوا عَلَى صُدُورِهِمْ، وَالْجَاثِمُ اللَّاطِيءُ^(٢) بِالْأَرْضِ

وأحمد (٢/٩، ٥٨)، والحميدي (٢/٢٩٠) برقم: (٦٥٣) كلهم من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/٣٣٢).

(٢) لَطَأَتْ بِالْأَرْضِ وَلَطِئَتْ أَي: لَزِقَتْ.

ينظر: «اللسان» (٤٠٣٨) (لطا).

على صدره، ف﴿جاثمين﴾: معناه: باركين قد ضُعن بهم، وهو تشبيه بجثوم الطير، وجثوم الرماح، وقال بعض المفسرين: معناه: حميماً محترقين؛ كالرماد الجاثم، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة أقرن بها صواعق مُخرقة، وروي أن الصيحة أصابت كل من كان منهم في شرق الأرض وغربها إلا رجلاً كان في الحرم، فمنعه الحرم ثم هلك بعد خروجه من الحرم؛ ففي «مُصنَّف أبي داود»، قيل: يا رسول الله؛ مَنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: أَبُو رُغَالٍ^(١)، وذكره الطبري أيضاً عن النبي ﷺ، وهذا الخبر يرد ما في السير من أن أبا رُغَالٍ هو دليل الفيل، وقوله: ﴿فتولّى عنهم﴾، أي: تولّى عنهم وقت عُقر الناقة، وذلك قبل نزول العذاب؛ وكذلك روي أنه عليه السلام خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، ويحتمل أن يكون خطابُهُ لهم وهم موتى؛ على جهة التفجع عليهم، وذكر حالهم أو غير ذلك؛ كما خاطب النبي ﷺ أهل قليب بذر. قال الطبري؛ وقيل: إنه لم تهلك أمة، ونبيها^(٢) معها، وروي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة، فأقام بها حتى مات، ولفظ التولي يقتضي اليأس من خيرهم، واليقين في إهلاكهم، وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾: عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي السديد؛ إذ كلام الناصح صعبٌ مُضادٌ لشهوة الذي ينصح، ولذلك تقول العرب: أَمَرُ مُبْكِيَاتِكَ لَا أَمْرُ مُضْجِكَاتِكَ.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ (٨١) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا﴾ (٨٤) ﴿كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٥)

وقوله سبحانه: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فأنظر كيف كان عاقبة المجرمين *.

لوط عليه عليه السلام بعثه الله سبحانه إلى أمة تسمى «سدوم» وروي أنه ابن أخي

(١) أخرجه أبو داود (١٩٨/٢) كتاب «الإمارة» باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال، حديث (٣٠٨٨)، والبيهقي (١٥٦/٤)، وفي «الدلائل» (٢٩٧/٧) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) ذكره الطبري (٥٣٩/٥)، وابن عطية (٤٢٤/٢)، وابن كثير (٢٣٠/٢)، والسيوطي بنحوه (١٨٥/٣).

إبراهيم عليه السلام ونُصِبُهُ: إما بـ «أرسلنا» المتقدم في الأنبياء، وإما بفعل محذوف، تقديره: وأذكر لوطاً، و﴿الفاحشة﴾: إتيان الذكور في الأذبار، وروِيَ أنه لم تكن هذه المعصية في أمة قبلهم، وحُكِمَ هذه الفاحشة؛ عند مالك وغيره: الرجم، أُخْصِنَ أم لم يُخْصِنَ^(١)، وحرَّقَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلاً عَمِلَ عَمَلِ قوم لوط^(٢)، وقرأ نافع وغيره: «أَنْتُمْ»؛ على الخبر؛ كأنه فُسِّرَ الفاحشة، والإسرافُ: الزيادةُ الفاسدةُ، ولم تكن مراجعةُ قومه بأحتجاج منهم، ولا بمدافعة عقلية، وإنما كانت بكُفْرٍ وخِذْلانٍ، و﴿يتطهرون﴾: معناه: يتنزهون عن حالنا وعاداتنا.

قال قتادة: عَابُوهم بِغَيْرِ عَيْبٍ، وذمُّهم بغير ذمٍّ^(٣) واستثنى الله سبحانه امرأة لوط عليه السلام من الناجين، وأخبر أنها هَلَكَتْ، والغايِرُ: هو الباقي؛ هذا هو المشهور في اللغة، وقد يجيء الغايِرُ بمعنى الماضي، وكذلك حَكَى أهل اللغة «غَبَرَ» بمعنى بَقِيَ، وبمعنى «مضى»، وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا...﴾ الآية، أي: بحجارة، وروِيَ أَنَّ الله تعالى بعث جبريل، فأقتلها بجناحه، وهي سِتُّ مدن.

/ وقيل خمسٌ، وقيل: أربع، فرفعها حتَّى سمع أهل السماء الدنيا صُراخَ الدِّيْكةِ، ١٩٤ ب وَنُبَّاحِ الْكِلَابِ، ثم عَكَّسَهَا، وَرَدَّ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا، وأرسلها إلى الأرض، وتبعتهم الحِجَارَةُ مع هذا، فأهلكَتْ مَنْ كان منهم، مَنْ كان في سَفَرٍ، أو خارجاً من البقع المرفوعة، وقالت امرأة لوط، حين سَمِعَتْ الرَّجْمَ: وَاقْوَمَاهُ، وَالتَفَتَتْ، فأصابتها صَخْرَةٌ فَقَتَلَتْهَا.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ

(١) حكم الإمام مالك في اللواط بالرجم، وهو مذهب الشعبي، والزهري، ومالك، وأحمد، وإسحاق، والشافعي، في قول له، وذهب جمع أنه يحرق بالنار منهم: أبو بكر، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الله.

وذهب سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والحسن والثوري، والأوزاعي، والإمام يحيى، والشافعي في قول له أنه كالزنا.

وذهب أبو حنيفة، والشافعي في قول له، والمرتضى، والمؤيد بالله إلى أنه يعزr اللوطي فقط. ولم يشترط ما اشترطه في الرجم في الزنا من الإحصان والإسلام والحرية، واختلفوا في الفاعل المكروه، فقيل: يرجم على المشهور من أن الانتشار اختيار. وقيل: لا يرجم؛ لأن الإكراه شبهة تدرأ الحد، أما المفعول المكروه فينبغي ألا يرجم قولاً واحداً؛ إذا كان المرتكب لهذه الجريمة ممن لم يبلغوا الحلم، وقد كان مميزاً فعقابه التأديب بما يراه الإمام زاجراً.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٢٥/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٤١/٥) برقم: (١٤٨٤٩)، وذكره ابن عطية (٤٢٥/٢)، وابن كثير (٢٣٠/٢)، والسيوطي (١٨٦/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْذِرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَلَافُكُمْ مِنْكُمْ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَلَّامَةً لَوْ يَوْمِنَا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرْبَيْنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي وَلِيَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ لَمْ يَنْقُضْ شُعَيْبٌ لَكُمْ إِذَا لَخِيرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِي مِمَّا فُكِّمْتُ عَلَيْكُمْ فَكَيْفَ ءَامِنُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها...﴾ الآية: قيل في ﴿مدين﴾ إنه اسم بلد وقطير، وقيل: اسم قبيلة، وقيل: هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل، وهذا بعيد، وزوي أن لوطاً هو جد شعيب لأمه.

وقال مكِّي: كان زوج بنت لوط، و﴿أخاهم﴾: منصوب بـ «أرسلنا» في أول القصص، و﴿البينة﴾: إشارة إلى معجزته، و﴿ولا تبخسوا﴾ معناه ولا تظلموا؛ ومنه قولهم: تخسبها حُمَقَاءَ، وهي باخس، أي: ظالمة خادعة، وقال في «سورة هود»: البخس: النقص.

* ت * : ويحتمل والله أعلم أن البخس هو ما اعتاده الناس من دَمِّ السِّلَعِ؛ ليتوصلوا بذلك إلى رخصها، فتأمل، والله أعلم بما أراد سبحانه.

قال أبو حيان: ولا تبخسوا: متعد إلى مفعولين، تقول: بخست زيدا حقاً، أي: نقصته إياه. انتهى.

و﴿أشياءهم﴾: يريد أمتعتهم وأموالهم، و﴿ولا تفسدوا﴾: لفظ عام في دقيق الفساد وجليله؛ وكذلك الإصلاح عام، ﴿ذلكم خير لكم﴾، أي: عند الله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾،

أي: بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عَمَلٌ دون إيمان، ﴿لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ...﴾ الآية: قال السدي: هذا نهْيٌ عن العَشَّارين والمتغلبين ونحوه مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ^(١)، و«الصِّرَاطُ»: الطريق، وذلك أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْثُرُونَ مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ بَخْسِهِمْ وَتَقْصُصِهِمُ الْكِيلَ وَالْوَزْنَ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُوَ نَهْيٌ عَنِ السَّلْبِ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ^(٢)، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ فَعْلِهِمْ، وَرَوَى فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَةِ يُؤَيِّدُ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ نَهْيٌ لَهُمْ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ رَدِّ النَّاسِ عَنْ شُعَيْبٍ^(٣) وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْعُدُونَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ الْمَفْضِيَةِ إِلَى شُعَيْبٍ، فَيَتَوَعَّدُونَ مَنْ أَرَادَ الْمَجِيءَ إِلَيْهِ، وَيَصُدُّونَهُ، وَمَا بَعْدَ هَذَا مِنَ الْأَلْفَافِ يُشَبِّهُ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ، وَالضَّمِيرُ فِي «بِهِ» يَحْتَمِلُ أَنَّ يَعُودَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَأَنْ يَعُودَ عَلَى شُعَيْبٍ فِي قَوْلِ مَنْ رَأَى الْقَعُودَ عَلَى الطَّرِيقِ لِلرَّدِّ عَنْ شُعَيْبٍ، قَالَ الدَّوْدِيُّ: وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: يَلْتَمِسُونَ^(٤) لَهَا الزَّيْغَ. انْتَهَى.

ثُمَّ عَدَّدَ عَلَيْهِمْ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ كَثَّرَهُمْ بَعْدَ قَلَّةٍ عَدِدٍ.

وَقِيلَ: أَغْنَاهُمْ بَعْدَ فَقْرٍ، ثُمَّ حَذَّرَهُمْ وَمَثَّلَ لَهُمْ بِمَنْ امْتَحَنَ مِنَ الْأُمَمِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا...﴾ الآية: قَوْلُهُ: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ تَهْدِيدٌ لِلطَّائِفَةِ الْكَافِرَةِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ مَعْنَاهُ: أَوْ لَتَصِيرُنَّ، وَ«عَادَ» فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى / وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَادَ الشَّيْءُ إِلَى حَالٍ قَدْ كَانَ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَهِيَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لَا تَعُدُّ، فَإِنْ عُدَّتْ، فَبِحَرْفٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الشَّبَابِ جَدِيدُ وَعُمْرًا تَوَلَّى يَا بُثَيْنُ يَعُودُ^(٥)

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٤٤/٥) بِرَقْمٍ: (١٤٨٦٠)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٦/٢) بِمِثْلِهِ، وَابْنُ الْبُيُوتِيِّ (١٨٠/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢٣١/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (١٩٠/٣)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٤٤/٥) بِرَقْمٍ: (١٤٨٦١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٦/٢).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٤٤/٥) بِرَقْمٍ: (١٤٨٥٦) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٧/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢٣١/٢) وَالسَّيُوطِيُّ (١٩٠/٣)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٤٥/٥) بِرَقْمٍ: (١٤٨٦٢).

(٥) رَوَى الْبَيْتَ هَكَذَا:

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّفَاءِ جَدِيدُ وَعَهْدًا تَوَلَّى يَا بُثَيْنُ يَعُودُ

وَهُوَ لَجَمِيلٍ بَشِينَةٌ فِي «دِيوانه» ص: (٦١)، وَ«الأغاني» (٣٥٠/٢)، وَ«الْقَالِي» (٢٧٢/١)، ٢/ =

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والوجه الثاني: أن تكون بمعنى «صار»، وعاملة عملها، ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانٍ مِنْ لَبَنِ شَيْبَاءٍ بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً^(١)
ومنه قول الآخر:

وَعَادَ رَأْسِي كَالثُّغَامَةِ...^(٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، على أن هذه محتملة بقوله في الآية: ﴿أَوْ لَتَعْدُوذُونَ﴾، وشعيب عليه السلام لَمْ يَكْ قَطُّ كَافراً، فيقتضي أنها بمعنى «صار»، وأما في جهة المؤمنين به بَعْدَ كُفْرِهِمْ، فيترتب المعنى الآخر، ويخرج عنه شعيب، وقوله: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ توقيفٌ منه لهم على شِنْعَةِ المعصية، وطلب أن يقرؤا بالسنتهم بإكراه المؤمنين على الإخراج ظُلماً وغشماً.

قال * ص * : ﴿قد افترينا﴾: هو بمعنى المستقبل؛ لأنه سَدَّ مسد جواب الشرط، وهو: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ أو هو جوابه، على قول. انتهى.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ يحتمل أن يريد إلا أن يسبق علينا في ذلك مِنَ اللَّهِ سابقُ سوء، وينفذ منه قضاء لا يُرَدُّ.

قال * ع *^(٣): والمؤمنون هم أَلَمْجُوزُونَ لذلك، وأما شُعَيْبٌ، فقد عصمته النبوة، وهذا أظهر ممَّا يحتمل القول، ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبَّدَ اللَّهُ به المؤمنين ممَّا يفعله الكُفَّارُ مِنَ القربات.

= ٢٩٩؛ و«الحماسة البصرية» (١٠٥/٢)؛ و«خزانة الأدب» (٤٥٠/١٠)؛ و«شرح عمدة الحافظ» ص: (٥٠٥)، و«مجالس ثعلب» ص: (٥٩٧، ٥٩٨).

(١) روي البيت هكذا:

هَذَا الْمَفَاخِرُ لَا قَعْبَانٍ مِنْ لَبَنِ شَيْبَاءٍ بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً
هو لأبي الصلت الثقفي والد أُمَيَّة في «الشعر والشعراء» ص: (٤٦٩)، و«المقد الفريد» (٢٣/٢)؛ ولأُمَيَّة بن أبي الصلت في «ديوانه» ص: (٥٢)، وللنابغة الجعدي في «ديوانه» ص: (١١٢)، وللتقفي في «شرح المفصل» (١٠٤/٨).

(٢) وهو من شواهد «المحرر الوجيز» (٤٢٩/٢). ويروى في «اللسان»: [ثغم] برواية: وصار رأس الشيخ كثغامة وعليه يكون من بحر الرجز، وفي «القاموس»: والرأس صار كالثغامة بياضاً.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٨/٢).

وقيل: إِنَّ هذا الاستثناء إنما هو تَسْنُنٌ وَتَأْدُبٌ، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: معناه: وَسِعَ عِلْمُ رَبِّنَا كُلَّ شَيْءٍ؛ كما تقول: تَصَبَّبَ زَيْدٌ عَرَقًا أَي: تَصَبَّبَ عَرَقُ زَيْدٍ، وَوَسِعَ بِمَعْنَى «أَحَاطَ»، وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ معناه: أَخْكَمْ، وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أَسْتَسْلِمُ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، وَتَمَسَّكَ بِلَطْفِهِ؛ وذلك يُؤَيِّدُ التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾. وقوله سَبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتُنْتَ أَتْبَعْتُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآية: أَي: قَالَ الْمَلَأُ لِتَبَاعُهُمْ وَمُقَلَّدِيهِمْ، وَ«الرَّجْفَةُ»: الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي يَنَالُ الْإِنْسَانُ مَعَهَا اهْتِرَازٌ وَارْتِعَادٌ وَأَضْطِرَابٌ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ فَرَقَةً مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ هَلَكَتْ بِالرَّجْفَةِ، وَفَرَقَةٌ بِالظُّلَّةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ الظُّلَّةَ وَالرَّجْفَةَ كَانَتَا فِي جِهَيْنٍ وَاحِدٍ.

* ت * : والرَّجْفَةُ هِيَ الصَّيْحَةُ يَرْجُفُ بِسَبَبِهَا الْفُؤَادُ؛ وَكَذَلِكَ هُوَ مُصْرَحٌ بِهَا فِي قِصَّةِ قَوْمِ شُعَيْبٍ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَأَخَذْتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ...﴾ الآية [هود: ٩٤]، وقوله سَبْحَانَهُ: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ «فِيهَا» عَائِدٌ عَلَى دَارِهِمْ، وَيَغْنَوْنَ: مَعْنَاهُ يَقِيمُونَ بِنِعْمَةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ، وَهَذَا اللَّفْظُ فِيهِ قُوَّةُ الْإِخْبَارِ عَنْ هَلَاكِهِمْ، وَنَزُولِ النِّقْمَةِ بِهِمْ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْعِبَرَةِ وَالْإِتْعَازِ بِهِمْ، وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ^(١)
قال * ع *^(٢): فَعَنَيْتُ فِي الْمَكَانِ، إِنَّمَا يَقَالُ فِي الْإِقَامَةِ الَّتِي هِيَ مُقْتَرَنَةٌ بِتَنْعَمَ وَعَيْشٍ مَرْضِيٍّ، وَقَوْلُهُ: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: كَلَامٌ يَقْتَضِي حَزَنًا وَإِشْفَاقًا؛ لَمَّا رَأَى هَلَاكَ قَوْمِهِ، إِذْ كَانَ أَمَلُهُ فِيهِمْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَمَّا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ،

(١) وهو لعمر بن الحارث بن مضاض أو للحارث الجهمي في «لسان العرب» (١٣/١٠٩) (جحن)؛ وبلا نسبة في «شرح قطر الندى» ص: (١٥٩).

واستشهد بقوله: «كَانَ لَمْ يَكُنْ» حَيْثُ خَفَّفَ «كَانَ» فَحَذَفَ اسْمَهَا، وَأَتَى بِخَبَرِهَا جُمْلَةً فَعَلِيَّةً. وَذَكَرَ يَاقُوتُ فِي «مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ» (٢/٢٦٠) (الحجون)، وَنَسَبَهُ إِلَى مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو الْجَرَهْمِيِّ بِشَوْقِ مَكَّةَ لَمَّا أَجْلَتْهُمْ عَنْهَا خِرَازَةٌ:

كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا
بَلَى! نَحْنُ كُنَّا أَهْلُهَا، فَأَبَادَنَا
فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا الْمَلِكَ بِقُدْرَةٍ،
فَصَرْنَا أَحَادِيثًا وَكُنَّا بِغِبْطَةٍ،
وَبَذَلْنَا كَعْبَ بَهَا دَارَ غُرْبَةٍ،
فَسَحَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ تَجْرِي لِبَلَدَةٍ،
يَنْظُرُ: «المعجم» (١/٣٧٥).

(٢) يَنْظُرُ: «المحرر الوجيز» (٢/٤٣٠).

مثالاً، أي: قد أصاب هذا آباءنا، فلا ينبغي لنا أن نُنكره، ثم أخبر سبحانه؛ أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها، وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً وأخذةً أَسْفٍ، وبَطْشاً؛ للشقاء السابق لهم في قديم علمه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: مِنْ بَرَكَاتِ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، وتسخير الرياح والشمس والقمر في مصالح العباد؛ وهذا بحسب ما يدرُّه نَظَرُ الْبَشَرِ، ولله سبحانه خُدامٌ غير ذلك لا يُحصى عددهم، وما في عِلْمِ اللَّهِ أَكْثَرُ.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَلْتَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعُهُمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون...﴾ الآية تتضمن وعيداً للكافرين المعاصرين لنبيِّنا محمد ﷺ، لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية، قال: وهل يأمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، وهذا استفهام على جهة التوقيف، والبأس: العذاب، و﴿مكر الله﴾ هي إضافة مخلوق إلى خالق، والمراد فِعْلُ يعاقب به مَكْرَةُ الْكُفْرَةِ، والعربُ تسمي العقوبة باسم الذنب.

وقوله سبحانه: ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها...﴾ الآية: هذه أَلِفُ تَقْرِيرٍ دَخَلَتْ عَلَى وَائِ الْعُطْفِ، و﴿يَهْدِي﴾: معناه: يبيِّن، فيحتمل أن يكون المبيِّن الله سبحانه، ويحتمل أن يكون المبيِّن قوله: ﴿أن لو نشاء﴾، أي عِلْمُهُمْ بِذَلِكَ، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: يَهْدِي: معناه: يبيِّن، وهذه أيضاً آية وعيد، أي: أَلَمْ يَظْهَرْ لَوَارِثِي الْأَرْضِ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَقَدَّمْ ذِكْرُهُمْ، وما حَلَّ بِهِمْ - أنا نُقَدِّرُ لو شئنا أصبناهم بذنوبهم؛ كما فعلنا بمن تقدَّم، وفي العبارة غُظٌّ بِحَالِ مَنْ سَلَفَ مِنَ الْمُهْلَكِينَ.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ جَعَلْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُونَ فِي رَسُولٍ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

قَالَ إِنْ كُنْتَ حِثَّتْ رِيَاسَتُ قَاتٍ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ «تلك» ابتداءً، و«الْقُرَى» قال قوم: هو نغش، والخبر «نَقِصُ»، وعندي: أن «أهل القرى» هي خبر الابتداء، وفي ذلك معنى التعظيم لها، وَلِمُهْلِكِهَا؛ وهذا كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وكما قال عليه السلام: «أُولَئِكَ الْمَلَأَ» وكقول ابن أبي الصلت: [البسيط]

تِلْكَ الْمَكَارِمُ..... (١).....

وهذا كثير.

ثم ابتدأ سبحانه الخبر عن جميعهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، هذا الكلام يحتمل وجوهاً من التأويل:

أحدها: / أن يريد أن الرسول جاء لكل فريق منهم، فكذبوه لأول أمره، ثم استبانت حجته، وظهرت الآيات الدالة على صدقه، مع استمرار دعوته، فلجأوا هم في كفرهم، ولم يؤمنوا بما سبق به تكذيبهم. ١١٩٦

والثاني: من الوجوه: أن يريد: فما كان آخرهم في الزمن ليؤمن بما كذب به أولهم في الزمن، بل مشى بعضهم على سنن بعض في الكفر؛ أشار إلى هذا التأويل الثَّقَاشُ (٢).

والثالث: أن هؤلاء لو رُدُّوا من الآخرة إلى الدنيا، لم يكن منهم إيمان؛ قاله مجاهد (٣)، وقرنه بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والرابع: أنه يحتمل: فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم الله سبحانه؛ أنهم مكذبون به؛ وذكر هذا التأويل المفسرون.

(١) تقدم قريباً.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٧/٢)، و«البحر المحيط» (٣٥٩/٤) و«الدر المصون» (٣١٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/٦) برقم: (١٤٩١٢)، وذكره ابن عطية (٤٣٤/٢)، والبغوي (١٨٤/٢)، وابن كثير (٢٣٥/٢)، والسيوطي (١٩٤/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد...﴾ الآية: أخبر سبحانه أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه سبحانه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره؛ قاله أبو العالية^(١) عن أبي بن كعب، ويحتمل أن يكون المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد، وقبول وصاة مما جاءتهم به الرسل عن الله، ولا شكروا نعم الله عز وجل.

قال * ص * : ﴿لأكثرهم﴾: يحتمل أن يعود على «الناس» أو على «أهل القرى» أو «الأمم الماضية». انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها...﴾ الآيات؛ في هذه الآية: عام في التسع وغيرها، والضمير في «من بعدهم» عائذ على الأنبياء المتقدم ذكرهم، وعلى أممهم.

وقوله سبحانه: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾: فيه وعيد، وتحذير للكفرة المعاصرين لنبينا محمد ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾، قرأ نافع^(٢) وحده: «عَلَيَّ» بإضافة «عَلَيَّ» إليه، وقرأ الباقون: «عَلَى» بسكون الياء.

قال الفارسي: معنى هذه القراءة أن «عَلَى» وضعت موضع الباء؛ كأنه قال: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، وقال قوم: «حقيق» صفة لـ «رَسُولٍ»، تم عندها الكلام، و«عَلَيَّ»: خبر مقدم و«ألا أقول»: ابتداء، وإعراب «أَنْ»، على قراءة مَنْ سَكَنَ الياء خَفَضَ، وعلى قراءة مَنْ فَتَحَهَا مُشَدَّدَةٌ: رَفَعَ، وفي قراءة عبد الله: «حقيق أن لا أقول»، وهذه المخاطبة - إذا تأملت - غاية في التلطف، ونهاية في القول اللين الذي أُمِرَ به عليه السلام، وقوله: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين﴾ «البينة»؛ هنا إشارة إلى جميع آياته، وهي على المعجزة منها أدل، وهذا من موسى عليه السلام عرض نبوته، ومن فرعون استدعاء خرق العادة الدال على الصدق، وظاهر هذه الآية وغيرها أن موسى عليه السلام لم تثبت شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكره: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

(١) أخرجه الطبري (١٤/٦) برقم: (١٤٩١٥)، وذكره ابن عطية (٢/٤٣٤)، وابن كثير (٢/٢٣٥)، والسيوطي (٣/١٩٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، ولابن جرير.

(٢) ينظر: «الحجة» (٤/٥٦)، و«السبعة» (٢٨٧)، و«حجة القراءات» (٢٨٩) و«إعراب القراءات» (١/١٩٦)، و«العنوان» (٩٦)، و«شرح شملة» (٣٩٣)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٠٣)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/٥٥)، و«معاني القراءات» (١/٤١٤).

يَخْشَى ﴿طه: ٤٤﴾. وقوله: ﴿فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾، روي أن موسى قَلَبَ به، وبمجاورته فرعون، فقال لأَعْوَانِهِ: خذوه، فالتقى موسى العصا، فصارت ثُعْبَانًا، وهَمَّت فرعون، فَهَرَبَ مِنْهَا.

وَقَالَ السَّدِيُّ: إِنَّهُ أَحَدَثَ، وقال: يا موسى كُفِّهِ عَنِّي^(١)، فَكَفَّهُ، وقال نحوه سعيدُ بْنُ^(٢) جبير، ويقال: إن الثُعْبَانَ وضع أسفل لَخْيَيْهِ في الأرض وأَعْلَاهُمَا في أعلى ب ١٩٦ شرفات القصر. والثُعْبَان: الْحَيَّةُ الذَّكْرُ/ وهو أَهْوَلُ وَأَجْرَأُ؛ قاله الضحَّاك^(٣)، وقال قتادة: صَارَتْ حَيَّةٌ أَشْعَرُ ذَكَرًا^(٤)، وقال ابن عباس: غَرَزَتْ ذَنْبَهَا في الأرض، وَرَفَعَتْ صَدْرَهَا إِلَى فرعون، وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ معناه: لَا تَخْيِيلَ فِيهِ، بل هو بَيِّنٌ؛ أَنَّهُ ثُعْبَانٌ حَقِيقَةٌ، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾: معناه: مِنْ جِيهِ، أو مِنْ كُمِّهِ؛ حسب الخلافِ في ذلك.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، قال مجاهد: كاللبن أو أَشَدَّ بَيَاضًا^(٥)، وروي أَنهَا كانت تظهر منيرةً شَفَافَةً كَالشَّمْسِ تَأْتَلِقُ، وكان موسى عليه السلام آدَمَ أَحْمَرَ إِلَى السَّوَادِ، ثم كان يَرُدُّ يَدَهُ، فترجع إلى لون بَدَنِهِ.

قال * ع^(٦) *: فهاتان الآيتان عرضهما عليه السلام للمعارضة، ودعا إلى الله بهما، وَخَرَقَ الْعَادَةَ بِهِمَا.

* ت *: وظاهر الآية كما قال، وليس في الآية ما يَدُلُّ على أَنَّهُ أَرَادَ بِإِلْقَاءِ الْعَصَا الْإِنْتِصَارَ وَالتَّخْوِيفَ؛ كما يعطيه ما تقدَّم ذَكَرُهُ مِنَ الْقَصَصِ.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٩٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ﴿٢٠٠﴾ قَالُوا أَزِجَّةٌ وَآخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٢٠١﴾ يَا تَوَكُّلْ سَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٢﴾ وَجَاءَ

(١) أخرجه الطبري (١٦/٦) برقم: (١٤٩١٩)، وذكره ابن عطية (٤٣٦/٢)، والبغوي (١٨٥/٢)، وابن كثير (٢٣٦/٢)، والسيوطي (١٩٧/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١٦/٦) برقم: (١٤٩٢١)، وذكره ابن عطية (٤٣٦/٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٦/٦) برقم: (١٤٩٢٥)، وذكره ابن عطية (٤٣٦/٢)، وابن كثير (٢٣٦/٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٥/٦) برقم: (١٤٩١٧) بلفظ: «تحولت حية عظيمة»، وذكره ابن عطية (٤٣٦/٢)، والسيوطي (١٩٧/٣) نحوه، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (١٧/٦) برقم: (١٤٩٢٨) بلفظ: «نزع يده من جيبه بيضاء من غير برص»، وذكره ابن عطية (٤٣٦/٢)، وابن كثير (٢٣٦/٢) بنحوه.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٦/٢).

السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَكْفُوسُ إِيمَانُ أَنْ تُلْقَى وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمَلِيقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

وقوله عز وجل: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾ لا محالة أنهم خافوا أمر موسى، وجالت ظنونهم كل مجال، وقوله: ﴿فماذا تأمرون﴾ الظاهر أنه من كلام الملأ بعضهم لبعض، وقيل: إنه من كلام فرعون لهم، وزوى كزدم عن نافع: ﴿تأمرون﴾^(١) بكسر النون وكذلك في «الشعراء» [الشعراء: ٣٥].

و«ما»: استفهام، و«ذا»: بمعنى الذي، فهما ابتداء وخبر، وفي «تأمرون»: ضمير عائذ على الذي، تقديره: تأمرون به، ويجوز أن تجعل «ماذا» بمنزلة اسم واحد في موضع نصب بـ «تأمرون» ولا يضر فيه؛ على هذا، وقوله: ﴿قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المداين حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أشار الملأ على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون، ويدع النظر في أمرهما، ويجمع السحرة، وحكى الثقات؛ أنه لم يكن يجالس فرعون ولذ غية، وإنما كانوا أشرفاً؛ ولذلك أشاروا بالإرجاء، ولم يشيروا بالقتل، وقالوا: إن قتلته، دخلت على الناس شبهة، ولكن أغلبه بالحجة^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾: «الأجر» هنا: الأجرة.

واختلف الناس في عدد السحرة على أقوال كثيرة ليس لها سند يوقف عنده^(٣)، والحاصل من ذلك أنهم جمع عظيم، وقوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس﴾، وخير السحرة موسى في أن يتقدم في الإلقاء أو يتأخر، وهذا فعل المدلل الواثق بنفسه، والظاهر أن التقدم في التخيلات والمخاريق أنجح؛ لأن بديتها تمضي بالنفوس، فليظهر الله أمر نبوة موسى، قوئ نفسه ويقينه، وثق بالحق، فأعطاهم التقدم، فنشطوا وسرؤا حتى أظهر الله الحق،

(١) ذكره ابن عطية (٤٣٧/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٤٣٨/٢).

(٣) انظر كيف كان المؤلف عليه رحمة الله يتحرى الدقة في النقل واهتمامه بالسند انطلاقاً منه بأن السند من الدين !!.

وَأَبْطَلَ سَعِيهِمْ، وقوله سبحانه: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾: نصّ في أن لهم فعلاً ما زائداً على ما يُخَدِّثُونَهُ من التزييق، ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ بمعنى: أُرْهِبُوهُمْ، أي: فزَعَوْهُمْ، ووصف الله سبحانه سَحَرَهُمْ بـ «العَظِيم»، ومعنى ذلك من كثرته، وروى أنهم جَلَبُوا ثَلَاثِمِائَةَ وَسِتِّينَ بَعيراً مَوْفُورَةً بِالْحِبَالِ، والعِصْيِ، فلما أَلْقَوْهَا، تحرّكت، ومَلَأَتِ الْوَادِيَّ، يركب بعضها بعضاً فاستهول الناس ذلك، واسترهبهم، قال الزّجاج: قيل: إنهم جعلوا فيهم الزُّنْبُقَ، فكانت لا تستقر^(١).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧) ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨) ﴿فَغَلَبُوا هَٰذَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ (١١٩)

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾: وروى أن موسى عليه السلام لما كان يوم الجمع، خَرَجَ مَتَكِئاً عَلَىٰ عَصَاهُ، وَيُدُّهُ فِي يَدِ أَخِيهِ، وقد صُفِّ له السحرة في عَدَدٍ عَظِيمٍ/، حَسْبَمَا ذُكِرَ، فلما أَلْقَوْا واسترهبوا، أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ؛ أَنْ أَلْقِ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ، فَعَظُمَ حَتَّىٰ كَانَ كَالْجَبَلِ. ١١٩٧

وروي أن السحرة، لَمَّا أَلْقَوْا، وَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ، جعلوا يَرْقُونَ، وَجَعَلَتْ حِبَالُهُمْ تَغْظُمُ وَجَعَلَتْ عَصَا مُوسَىٰ تَغْظُمُ حَتَّىٰ سَدَّتِ الْأَفْقَ، وَابْتَلَعَتْ الْكُلَّ، وَرَوَى أَن الثَّعْبَانَ اسْتَوْفَىٰ تِلْكَ الْجِبَالَ وَالْعِصْيَ أَكْلًا، وَأَغْدَمَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَدَّ مُوسَىٰ يَدَهُ إِلَىٰ فَمِهِ، فَعَادَ عَصَا كَمَا كَانَ، فَعَلِمَ السَّحَرَةُ حِينَئِذٍ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ الْبَشَرِ، فَخَرُّوا سُجَّدًا مُّؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَ﴿تَلْقَفُ﴾ معناه: تبتلع وتزدد، وقرأ ابن جبير^(٢): «تَلْقُم» بالميم.

وقوله سبحانه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ...﴾ الآية: أَي: نَزَلَ وَوُجِدَ، وقال أبو حيان^(٣): فوقع، أي: فظهر، و«الْحَقُّ»: يريد به سطوع البرهان، وظهور الإعجاز، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لفظٌ يعمُ سحر السحرة، وسغي فرعون، وشيعته، والضمير في قوله: «فغلبوا»: عائدٌ على جميعهم أيضاً، وفي قوله: ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾، إِنَّ قَدَرَنَا انْقِلَابَ الْجَمْعِ قَبْلَ إِيمَانِ السَّحَرَةِ، فهم في الضمير، وَإِنْ قَدَرْنَاهُ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، فليسوا في الضمير، ولا لحقهم صَغَارٌ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا وَاسْتَشْهَدُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَيْنَ﴾ (١٢٠) ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (١٢٢) قَالَ

(١) ذكره ابن عطية (٤٣٩/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٩/٢)، وقال أبو عبيد: ويقال: لفق ولقم ولهم بمعنى واحد.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٣٦٤/٤).

فَرَعَوْنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَّنَ لَكُمْ إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٠﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٢﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أُنْفِ عَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَقَالَ الْفُلَّاءُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَرِّبُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون آمنت به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * لما رأى السحرة من عظيم القدرة مايقنوا به نبوة موسى، آمنوا بقلوبهم، وأنضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفرع من قدرة الله عز وجل، فخرؤوا لله سبحانه متطارحين قائلين بالسيتهم: ﴿آمنا برب العالمين﴾ * رب موسى وهارون.

قال * ع^(١): * وهارون أخو موسى أسن منه بثلاث سنين، وقول فرعون: ﴿آمنت به قبل أن أذن لكم﴾: دليل على وهنه، وضعف أمره؛ لأنه إنما جعل ذنبهم عدم إذنه، والضمير في «به» يحتمل أن يعود على اسم الله سبحانه، ويحتمل أن يعود على موسى عليه السلام، وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إذنه، ثم ألزمهم أن هذا كان عن اتفاق منهم، وروي في ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، أن موسى أجمع مع رئيس السحرة، واسمه شمعون، فقال له موسى: أَرَأَيْتَ إِنْ غَلَبْتُكُمْ؛ أَتُؤْمِنُونَ بي، فقال: نَعَمْ، فَعَلِمَ بذلك فرعون؛ فلهذا قال: إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ، ثم توعدهم^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا. الآية: هذا استسلام من مؤمني السحرة، واتكال على الله سبحانه، وثقة بما عنده، وقرأ الجمهور^(٣): «تَنَقَّم» - بكسر القاف -، ومعناه: وما تعد علينا ذنباً تؤاخذنا به إلا أن آمنا، قال ابن عباس وغيره فيهم: أَصْبَحُوا سَحَرَةً، وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ^(٤)، قال ابن عباس: لما آمنت السحرة أتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل^(٥)، وقول ملاي فرعون: ﴿أَنْذَرُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٦) برقم: (١٤٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٢/ ٤٤٠)، وابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤١)، و«البحر المحيط» (٤/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٥/ ٦) برقم: (١٤٩٦٥)، وذكره ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(٥) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٤١)، والبغوي (٢/ ١٩٠).

موسى وقومه... الآية: مقالة تتضمن إغراء فرعون وتحريضه، وقولهم: ﴿ويزدرك وألهتك﴾، روي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة من بقر، وأصنام، وغير ذلك، وكان فرعون قد شرع ذلك، وجعل نفسه الإله الأعلى فقوله على هذا ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] إنما يريد: بالنسبة إلى تلك المعبودات.

١٩٧ ب وقيل: إن فرعون كان يعبد حجراً يعلقه في صدره. كأنه/ ياقوتة أو نحوها، وعن الحسن نحوه، وقوله: ﴿سنقتل أبناءهم﴾، المعنى: سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم، وقوله: ﴿وإننا فوقهم﴾، يريد: في المنزلة، والتمكّن من الدنيا، و﴿قاهرون﴾: يقتضي تحقيق أمرهم، أي: هم أقل من أن يهتم بهم. قلت: وهذا من عدو الله تجلّد، وإلا فقد قال فيما أخبر الله سبحانه به عنه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥، ٥٦].

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨) قَالُوا أَوَإِذَا نَأْتَيْنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَسَتُخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

وقوله سبحانه: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله وأصابوا... الآية: لما قال فرعون ﴿سنقتل أبناءهم﴾، وتوعدهم، قال موسى لبني إسرائيل، يثبتهم، ويعددهم عن الله تعالى: ﴿استعينوا بالله﴾، والأرض هنا: أرض الدنيا، وهو الأظهر.

وقيل: المراد هنا أرض الجنة، وأما في الثانية، فأرض الدنيا لا غير، والصبر في هذه الآية: يعم الانتظار الذي هو عبادة، والصبر في المناجيات، والبأس، وقولهم: ﴿أوذيئنا من قبل أن تأتينا﴾، يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أن يولد المولود الذي يخرب ملكه، ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾، يعنون به وعيد فرعون، وسائر ما كان خلال تلك المدة، من الإخافة لهم.

وقال ابن عباس^(١) والسدي^(٢): إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة، حين اتبعهم

(١) أخرجه الطبري (٢٩/٦) برقم: (١٤٩٨٤)، وذكره ابن عطية (٤٤٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/٦) برقم: (١٤٩٨٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٤٢/٢).

فرعون، واضطَرُّهم إلى البحر.

قال * ع^(١): وبالجمله فهو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل؛ من اضطرابهم على أنبيائهم، وقلة يقينهم، وأستعطف موسى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَيْكُم أَن يَهْلِكَ عِذْوُكُمْ﴾، ووعدهم بالاستخلاف في الأرض، يدل على أنه يستدعي نفوساً نافرة؛ ويقوي هذا الظن في جهة بني إسرائيل سلوكهم هذا السبيل في غير ما قصّة، وقوله: ﴿فَيَنْظُرْ كَيْفَ يَعْمَلُونَ﴾ تنبيه وحض على الاستقامة، ولقد استخلفوا في مضر في زمن داود وسليمان، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾، أي: بالجُذوب والقُحوط، وهذه سيرة الله في الأمم، وقوله: ﴿ونقص من الثمرات﴾، أي: حتى روي أن النخلة من نخلهم لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوه رجاء بن حنيفة^(٢) وفعل الله تعالى بهم هذا؛ لينبؤا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر؛ إذ أحوال الشدة ترق معها القلوب، وترغب فيما عند الله سبحانه.

وقوله عز وجل: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه...﴾ الآية: كان القصد في إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينبؤا ويرجعوا، فإذا هم قد ضلوا، وجعلوها تشاؤماً بموسى، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها، قالوا: هذه لنا، وبسببنا، وإذا نالهم ضرر، قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه؛ قاله مجاهد^(٣) وغيره، وقرأ الجمهور^(٤) «يَطِيرُوا» - بالياء وشدة الطاء والياء الأخيرة -، وقرأ طلحة بن مصرف^(٥) وغيره: «تَطِيرُوا» - بالتاء وتخفيف الطاء -، وقرأ مجاهد: «تَشَاءُوا بِمُوسَى» - بالتاء من فوق - ولفظ الشؤم.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/٦ - ٣٠) برقم: (١٤٩٨٨)، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٢)، وابن كثير (٢٣٩/٢)، والسيوطي (٢٠٢/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٣٠/٦) برقم: (١٤٩٩٢)، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٢)، والسيوطي (٢٠٢/٣)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٣/٢)، و«البحر المحيط» (٣٧٠/٤)، و«الدر المصون» (٣٢٧/٣).

(٥) وهي قراءة عيسى بن عمر.

ينظر: «الشواذ» (٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٤٤٣/٢)، و«البحر المحيط» (٣٧٠/٤)، و«الدر المصون» (٣٢٧/٣).

(٦) قال أبو حيان: فينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لا على أنه قرآن؛ لمخالفته سواد المصحف.

ينظر «البحر المحيط» (٣٧٠/٤)، و«المحرر الوجيز» (٤٤٣/٢).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ معناه: حظهم ونصيبهم؛ قاله ابن عباس^(١)، وهو مأخوذ من زَجَرَ الطَّيْرَ فُسْمِيَّ ما عند الله من القدر للإنسان طائراً؛ لما كان الإنسان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطَّائِرِ، فهي لفظة مستعارة، ومهما أصلها عند الخليل؛ مَما/، فأبدلت الألف الأولى هاء، وقال سيبويه: هي «مَ ما»؛ خُلِطَتَا، وهي حَزَفٌ واحدٌ لمعنى واحد.

وقال غيره: معناها: «مَ»، أي: كُفٌّ، و«ما»: جزاء، ذكره الزَّجَّاجُ، وهذه الآية تتضمن طغيانهم، وعتوهم، وقطعهم على أنفسهم بالكفر بالبحث.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنَ مَفْصَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (١٢٢) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْشَى آدَمُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٣﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٢٤﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٢٥﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَسَدَرٍ الْأَرْضِ وَمَنْدَرِبَهَا أَتَنَّى بَرْكَنَّا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا بِعِرْشُونِ ﴿١٢٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ...﴾ الآية: الطُّوفَانُ: مُضَدَّرٌ مِنْ قَوْلِكَ: طَافَ يَطُوفُ، فهو عَامٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَطُوفُ إِلَّا أَنْ أَسْتَعْمَلَ الْعَرَبُ لَهُ كَثِيرٌ فِي الْمَاءِ وَالْمَطَرِ الشَّدِيدِ، قال ابن عباس وغيره: الطُّوفَانُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، أَصَابَهُمْ وَتَوَالَى عَلَيْهِمْ حَتَّى هَدَمَ بَيُوتَهُمْ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ^(٢)، وقيل: طَمَّ فَيَضُّ النَّبِيلَ عَلَيْهِمْ، وَرُوي فِي كَيْفِيَّتِهِ قِصَصٌ كَثِيرَةٌ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الطُّوفَانَ الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْمَوْتُ»^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٣١/٦) برقم: (١٤٩٩٥) بلفظ: «مصائبهم عند الله»، برقم: (١٤٩٩٦) بلفظ: «الأمم من قبل الله»، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٢)، والبعوي (١٩٠/٢) بنحوه، وابن كثير (٢٣٩/٢) بلفظ: «أي من قبل الله»، والسيوطي (٢٠٢/٣)، وعزاه لابن جرير، عن ابن عباس بلفظ: «مصائبهم»، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٣١/٦) برقم: (١٤٩٩٨)، (٣٦/٦) برقم: (١٥٠٢٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٤٤)، وابن كثير (٢٤٠/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٠٣/٣) بسندين، الأول: لأبي الشيخ، والثاني: لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٢/٦) برقم: (١٥٠٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٣/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

قُلْتُ: ولو صَحَّ هذا النقل، لم يبق مُجَمَلًا وروي أن الله عز وجل لما والى عليهم المطر، غَرَقَتْ أَرْضُهُمْ، وامتنعوا من الزراعة قالوا: يا موسى أدع لنا ربك في كَشَفِ هذا الغَرَقِ، ونحن نؤمن، فدعا، فَكَشَفَهُ اللهُ عَنْهُمْ، فَأَنْبَتِ الْأَرْضُ أَنْبَاتًا حَسَنًا، فَنَكَّثُوا، وقالوا: ما نوذُ أُنَّا لَمْ نُمَطَّرْ، وما هذا إِلَّا إِحْسَانٌ مِنَ اللهِ إِلَيْنَا، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ حِينَئِذٍ الْجَرَادَ، فَأَكَلَ جَمِيعَ مَا أَنْبَتِ الْأَرْضُ، فَرَوَى ابْنُ وَهَبٍ، عَنْ مَالِكٍ؛ أَنَّهُ أَكَلَ حَتَّى أَبْوَابَهُمْ، وَأَكَلَ الْحَدِيدَ وَالْمَسَامِيرَ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ غَايَةَ التَّضْيِيقِ، وَتَرَكَ اللهُ مِنْ نَبَاتِهِمْ مَا يَقُومُ بِهِ الرَّمَقُ^(١)، فَقَالُوا لِمُوسَى: ادع لنا ربَّكَ في كشف الجراد، ونحن نؤمن، فدعا الله فَكَشَفَهُ^(٢)، وَرَجَعُوا إِلَى كَفَرِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِ الْقُمَّلَ، وَهِيَ الدُّبِّيُّ صَغَارُ الْجَرَادِ، الَّذِي يَثْبُ وَلَا يَطِيرُ؛ قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣) وَغَيْرُهُ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ: «الْقُمَّلُ»^(٤) - بفتح القاف، وسكون الميم - فَهِيَ عَلَى هَذَا الْقُمَّلِ الْمَعْرُوفُ، وَرَوَى أَنَّ مُوسَى مَشَى بِعَصَاهُ إِلَى كَثِيبٍ أَهِيلٍ^(٥)، فَضَرَبَهُ، فَأَنْتَشَرَ كُلُّهُ قُمَّلًا فِي مِضْرٍ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَالُوا: ادع في كَشَفِ هذا، فدعا فَرَجَعُوا إِلَى طُغْيَانِهِمْ، وَكُفَرِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ، فَكَانَتْ تَدْخُلُ فِي قُرُوشِهِمْ، وَبَيْنَ ثِيَابِهِمْ، وَإِذَا هُمْ الرَّجُلُ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَتَبَّ ضَفْدَعٌ فِي قِمِهِ.

قال ابن جُبَيْرٍ: كَانَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى ذَقْنِهِ فِي الضَّفَادِعِ^(٦).

وقال ابنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أُزِيلَتِ الضَّفَادِعُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ بَرِيَّةً، سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ، فَجَعَلَتْ تَقْدِفُ أَنْفُسَهَا فِي الْقُدُورِ، وَهِيَ تَغْلِي، فَأَثَابَهَا اللهُ بِحُسْنِ طَاعَتِهَا بَرْدَ^(٧) الْمَاءِ، فَقَالُوا: يَا مُوسَى، ادع في كَشَفِ هذا فدعا، فَكَشَفَ، فَرَجَعُوا إِلَى كُفَرِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ، فَارْجَعُوا مَاؤُهُمُ الَّذِي يَسْتَقُونَهُ، وَيَخْضُلُ عَنْدهُمْ دَمًا، فَرَوَى أَنَّهُ كَانَ يَسْتَقِي

(١) الرَّمَقُ: بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ. وَفِي «الصَّحاحِ»: بَقِيَّةُ الرُّوحِ. وَقِيلَ: هُوَ آخِرُ النَّفْسِ.

يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (١٧٣٢).

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٠٣٠) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢)، وَابْنُ الْبُغْيِيِّ (١٩٢/٢) بِلَفْظٍ: «الْقُمَّلُ: السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحَنْطَةِ»، وَالسِّيُوطِيُّ (٢٠٦/٣) بِلَفْظٍ: «الْقُمَّلُ: الدُّبَا».

(٤) يَنْظُرُ: «الشَّوَادِ» (٥٠)، وَ«الْمَحْتَسِبُ» (٢٥٧/١)، وَ«الْكَشَافُ» (١٤٨/٢)، وَ«الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٢/٤٤٤)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٣٧٣/٤)، وَ«الدَّرُّ الْمَصُونُ» (٣٣٠/٣).

(٥) أَيُّ: مُنْهَالٌ لَا يَنْبُتُ.

يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (٤٧٣٩).

(٦) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٤/٦ - ٣٥) بِرَقْمٍ: (١٥٠٢٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢).

(٧) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٠٣١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٤٤/٢)، وَابْنُ الْبُغْيِيِّ (١٩٢/٢)، وَالسِّيُوطِيُّ (٢٠٦/٣)، وَعَزَاهُ لَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

القَبْطِيُّ والإِسْرَائِيلِيُّ بِإِنَاءٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا خَرَجَ الْمَاءُ، كَانَ الَّذِي يَلِي الْقَبْطِيَّ دَمًا، وَالَّذِي يَلِي الإِسْرَائِيلِيَّ مَاءً إِلَى نَحْوِ هَذَا، وَشَبِهُهُ، مِنَ الْعَذَابِ بِالدَّمِ الْمُنْقَلَبِ عَنِ الْمَاءِ، هَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: إِنَّمَا سَلَطَ عَلَيْهِمُ الرُّعَافُ^(١)، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَالدَّمَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿آيَاتٍ مَفْصَّلَاتٍ﴾ التَّفْصِيلُ: أَصْلُهُ فِي الْأَجْرَامِ: إِزَالَةُ آلَاتِصَالٍ، فَهُوَ تَفْرِيقُ شَيْئَيْنِ، فَإِذَا اسْتَعْمَلَ فِي الْمَعَانِي، فَيَرَادُ بِهِ أَنَّهُ فُرِقَ بَيْنَهَا، وَأُزِيلَ أَشْتَبَاكُهَا وَإِشْكَالُهَا، فَيَجِيءُ مِنْ ذَلِكَ بَيَانُهَا.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: ﴿مَفْصَّلَاتٍ﴾ يَرَادُ بِهَا: مَفْرَقَاتٌ فِي الزَّمَنِ.

قَالَ الْفَخْرُ: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: كَانَ الْعَذَابُ يَبْقَى عَلَيْهِمْ مِنَ السَّبْتِ إِلَى السَّبْتِ، وَيَبْقَى الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ شَهْرًا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿آيَاتٍ مَفْصَّلَاتٍ﴾، عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، أَيُّ: فَصَّلَ بَيْنَ بَعْضِهَا وَبَعْضِهَا بِزَمَانٍ تَمْتَحِنُ فِيهِ أَحْوَالُهُمْ، وَيُنْتَظَرُ؛ أَيْقَبُلُونَ الْحُجَّةَ وَالِدَلِيلَ، أَمْ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى الْخِلَافِ وَالتَّقْلِيدِ. انْتَهَى.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعِ لَنَا رَبَّكَ/ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ...﴾ الْآيَةُ: «الرِّجْزُ»: الْعَذَابُ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرِّجْزِ هُنَا الْعَذَابُ الْمَتَقَدِّمُ الذِّكْرَ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَغَيْرِهِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: [إِنَّ] الرِّجْزَ هُنَا طَاعُونَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى سَنَدٍ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ لَفْظٌ يَعُمُّ جَمِيعَ الْوَسَائِلِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ مُوسَى مِنْ طَاعَةِ مُوسَى، وَنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى جِهَةِ الْقَسَمِ عَلَى مُوسَى، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ﴾ أَيُّ: بِدَعَائِكَ، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾ قَسَمٌ وَجَوَابُهُ، وَهَذَا عَهْدٌ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا انْكَشَفَ الْعَذَابُ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: اذْهَبْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ حَيْثُ شِئْتَ، فَخَالَفَهُ بَغْضُ مَلَئِهِ، فَرَجَعَ وَنَكَثَ، وَ«إِذَا» هُنَا لِلْمُفَاجَأَةِ، وَالْأَجَلُ: يَرَادُ بِهِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا يَخْصُهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْمَوْتِ؛ كَمَا تَقُولُ: أَخْرَجْتُ كَذَا إِلَى وَقْتٍ، وَأَنْتَ لَا تَرِيدُ وَقْتًا بَعِينَهُ، فَالْفَرْقُ مَتَضَمِّنٌ تَوْعُدًا مَّا، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أَيُّ: غَافِلِينَ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَاتُ مِنَ النِّجَاةِ وَالْهَدْيِ.

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٤٤٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢/٢٤٢)، وَالسِّيُوطِيُّ (٣/٢٠٦)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا...﴾ الآية: ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ كناية عن بني إسرائيل، و﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾. قال الحسن وغيره: هي الشام^(١). وقالت فرقة: يريد الأرض كلها؛ وهذا يتجه إما على المجاز؛ لأنه ملكهم بلاداً كثيرة، وإما على الحقيقة في أنه ملك ذريتهم، وهم سليمان بن داود، وبترجيح التأويل الأول بوضف الأرض بأنها التي بآرك فيها سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَسَنَى﴾، أي: ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم، والظهور عليه؛ قاله مجاهد^(٢)، و﴿يَغْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس^(٣) ومجاهد^(٤): معناه: يبنون.

قال ع^(٥): * رأيت للحسن البصري رحمه الله؛ أنه احتج بقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾ إلى آخر الآية؛ على أنه ينبغي ألا يخرج عن ملوك السوء، وإنما ينبغي أن يضرب عليهم؛ فإن الله سبحانه^(٦) يدمرهم، ورأيت لغيره؛ أنه إذا قابل الناس البلاء بمثله، وكَلَّمَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وإذا قابله بالصبر، وانتظار الفرج، أتى الله بالفرج، وزوي هذا أيضاً عن الحسن^(٧).

﴿وَجَنُوزًا يَبَيِّنُ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَوًّا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ (١٧٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ كَانُوا

(١) أخرجه الطبري (٤٣/٦ - ٤٤) برقم: (١٥٠٥٣)، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٢)، وابن كثير (٢٤٢/٢)، والسيوطي (٢٠٨/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن عساكر.

(٢) أخرجه الطبري (٤٤/٦) برقم: (١٥٠٥٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٢)، وابن كثير (٢٤٢/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٤٥/٦) برقم: (١٥٠٦٠)، وذكره ابن عطية (٤٤٧/٢)، وابن كثير (٤٤٢/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٤٥/٦) برقم: (١٥٠٦١)، وذكره ابن عطية (٤٤٧/٢)، والبغوي (١٩٤/٢)، وابن كثير (٢٤٢/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٧/٢).

(٦) ذكره ابن عطية (٤٤٧/٢)، والسيوطي (٢١٢/٣)، وعزاه لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٧) ذكره ابن عطية (٤٤٧/٢).

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَعِيَزَ اللَّهُ أَنْبِيَاكُمْ إِلَهِهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْآلِهَاتِ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أُنْجِيتُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾: أي: بَحْرَ الْقُلُزْمِ، ﴿فأتوا على قوم﴾، قيل: هم الْكَنْعَانِيُّونَ.

وقيل: هم مِنْ لَحْمٍ وَجُذَامٍ، وَالْقَوْمُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: هم الرِّجَالُ خَاصَّةً ﴿يَعْكُفُونَ﴾، الْعُكُوفُ: المِلَازِمَةُ ﴿على أصنام لهم﴾، قيل كانت بقرًا.

وقال ابن جُرَيْج: كانت تماثيل بقرٍ من حجارةٍ وعيدانٍ ونحوها، وذلك كان أوَّلَ فتنةِ الْعِجْلِ، وقولهم: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، يظهر منه استحسانهم لِمَا رَأَوْه من تلك الآلهة؛ بجهلهم؛ فأرادوا أن يكون ذلك في شَرْعِ مُوسَى، وفي جملة ما يُتَقَرَّبُ به إِلَى اللَّهِ، وَإِلَّا فَبَعِيدٌ أَنْ يَقُولُوا لِمُوسَى: اجعل لنا صنماً نُفَرِّدُهُ بِالْعِبَادَةِ، وَنُكْفِرَ بِرَبِّكَ؛ وَعَلَى هَذَا الَّذِي قُلْتُ يَقَعُ التَّشَابُهُ الَّذِي نَصَّه النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِ أَبِي وَقْدٍ اللَّيْثِيُّ أَجْعَلْ لَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَاتَ أَنْوَاطٍ؛ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ^(١)، فَأَنْكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! قُلْتُمْ وَاللَّهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ؛ ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ: لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ...﴾» الْحَدِيثُ^(٢)، وَلَمْ يَقْصِدْ أَبُو وَقْدٍ بِمَقَالَتِهِ فُسَادًا، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ؛ كَانَ ذَلِكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُفْرًا، وَلَفْظَةُ «الْإِلَه» تَقْتَضِي ذَلِكَ، وَهَذَا مُحْتَمَلٌ، وَمَا ذَكَرْتُهُ أَوَّلًا أَصَحُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قُلْتُ: وقولهم: ﴿هذا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، وجواب مُوسَى هُنَا يَقْوِي أَلْحَتِمَالِ الثَّانِي، نَعَمْ: الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْتَقَدَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ إِنَّمَا صَدَرَتْ مِنْ

(١) هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، فنهاهم عن ذلك. وأنواط: جمع نَوَط، وهو مصدر سمي به المنوط. ينظر: «النهاية» (١٢٨/٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٥/٤) كتاب «الفتن» باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٨/٥)، والنسائي في التفسير (٤٩٩/١ - ٥٠٠)، والحميدي (٨٤٨)، والطبراني (١٣٤٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وأبو يعلى (٣٠/٣) برقم: (١٤٤١)، وابن حبان (١٨٣٥ - موارد)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٦)، والطبراني (٣٢٩٠، ٣٢٩٤) كلهم من طريق سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢١٣/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

أشرارهم وقريبي العهد بالكفر، قال الشيخ الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله / الخنممي ثم السهلي ذكر النقاش في قوله تعالى: ﴿فَاتُوا عَلَى قوم يعكفون على أصنام ١١٩٩ لهم﴾؛ أنهم كانوا من لحم، وكانو يعبدون أصناماً على صور البقر، وأن السامري كان أصله منهم، ولذلك نزع إلى عبادة العجل. انتهى، والله أعلم، وهذا هو معنى ما تقدم من كلام * ع ^(١)، وقوله: ﴿إِنْ هؤُلاءِ مُتَبَّر ما هم فيه﴾، أي: مُهْلَك، مُدْمَر، رديء العاقبة، والتَّبار: الهلاك، وإِناءٌ مُتَبَّر، أي: مكسور، وكسارته تَبَرُّ؛ ومنه: تَبَرَّ الذَّهَبُ؛ لأنه كساره، وقوله: ﴿ما هم فيه﴾ يعمُّ جميع أحوالهم و﴿باطل﴾: معناه: فاسدٌ ذاهبٌ مضحَّلٌ، و﴿أبغىكم﴾ معناه: أطلب.

ثم عدَّد عليهم سبحانه في هذه الآية النِّعم التي يجب من أجلها ألا يكفروا به، ولا يزعموا في عبادة غيره، فقال: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية، و﴿يسومونكم﴾ معنا: يحملونكم، ويكلفونكم، ومساومة البيع تنظر إلى هذا؛ فإن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته، ثم فسَّر سوء العذاب بقوله: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْناءَكُم...﴾ الآية.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَّتْ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَمْوَسِي إِلَى أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ يُرْسَلَنِي وَيَكَلِّمُنِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

وقوله سبحانه: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة، وأن العشر هي عشر ذي ^(٢) الحجة، وروي أن الثلاثين إنما وعد بأن يصومها، وأن مدة المناجاة هي العشر، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة، فذلك إخبار بجملته الأمر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله، والمعنى في قوله: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: أنه خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٨/٦) برقم: (١٥٠٧٦)، وذكره ابن عطية (٤٤٩/٢)، وابن كثير (٢٤٣/٢)، والسيوطي (٢١٤/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

الذي هو صفة ذات، وكلام الله سبحانه لا يشبه كلام المخلوقين^(١)، وليس في جهة من الجهات، وكما هو موجود لا كالموجودات، ومعلوم لا كالمعلومات؛ كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث، وجواب «لَمَّا» في قوله: ﴿قَالَ﴾، والمعنى أنه لما كلمه الله عز وجل، وخصه بهذه المرتبة، طمحت همته إلى رتبة الرؤية، وتشوق إلى ذلك، فسأل ربه الرؤية، ورؤية الله عز وجل عند أهل السنة جائزة عقلاً؛ لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته؛ قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالاً، وإنما سألَه جائزاً، وقوله سبحانه: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ...﴾ الآية: ليس بجواب من سأل محالاً، و«لَنْ» تنفي الفعل المستقبل، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده، لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً، ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى بالحديث المتواتر: أن أهل الإيمان يرون الله يوم القيامة، فموسى عليه السلام أحرق برؤيته، قلت: وأيضاً قال تعالى: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهو نص في الرؤية بيّنه ﷺ؛ ففي «الترمذي» عن ابن عمر، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ لِّمَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ جَنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرَرِهِ مَسِيرَةً أَلْفَ سَنَةٍ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ وَجْهِهِ غَدَوَةً وَعَشِيَّةً»، ثم

(١) لا خلاف لأرباب الملل جميعاً في كون الباري تعالى متكلماً، وإنما الخلاف في معنى كلامه، وهل هو قديم أو حادث، وقد قام الدليل السمعي على إثبات الكلام لله تعالى، وهو ما نقل تواتراً عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أنه تعالى أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأخبر بكذا. وكل هذا من أقسام الكلام، وليس في إثبات الكلام للواجب تعالى بما نقل تواتراً عن الأنبياء دور؛ لأن ظهور المعجزة كافٍ في الدلالة على صدقهم في دعواهم النبوة، وليس تصديقه تعالى لهم كلاماً حتى يجيء الدور، بل تصديقه لهم بإظهار المعجزة على صدق دعواهم، سواء كانت المعجزة من جنس الكلام من حيث كونه معجزاً، كالقرآن أو كانت شيئاً آخر.

والأشاعرة يقولون: كلام الواجب وصف له، ووصف القديم قديم. ويريدون من «الكلام» المعنى النفسي.

فكلامه تعالى صفة أزلية قائمة بذاته تعالى منافية للسكوت والآفة كما في الخرس والطفولية، ليست من جنس الأصوات والحروف، هو بها أمر ناه. وتلك الصفة واحدة في ذاتها وإن اختلفت العبارات الدالة عليها كما إذا ذكر الله تعالى بالاسم مختلفة.

وخالفت الفرق جميعها الأشاعرة فيما ذكر، فقد اتفقوا على نفي كونه صفة نفسية. حيث قالوا: هو اللفظ المنتظم من الحروف المسموعة الدالة على المعاني المقصودة. وافتقرت هذه الطوائف إلى ثلاثة فرق، وزعموا أنه لا معنى للكلام إلا المنتظم من الحروف المسموعة الدالة على المعاني المقصودة، وأن الكلام النفسي غير معقول.

ينظر: «تحقيق صفة الكلام» لشيخنا حافظ محمد مهدي.

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]^(١)، قال أبو عيسى: وقد روي هذا الحديث من غير وجه مرفوعاً، وموقوفاً. انتهى.

قال مجاهد وغيره: إن الله عز وجل قال له: يا موسى، لن تراني، ولكن سأتجلى للجبل، وهو أقوى منك، وأشد؛ فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي، فستمكثك أنت رؤيتي^(٢).

قال * ع^(٣): فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثلاً، قلت: وقول * ع^(٤): * ولو بقينا مع هذا النفي بمجرد، لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً ولا في الآخرة، قول مرجوح لم يفتن له رحمه الله، والحق الذي لا شك فيه أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (٤٣١/٥) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة القيامة»، حديث (٣٣٣٠)، والطبري في «تفسيره» (٣٤٤/١٢) برقم: (٣٥٦٦٦) كلاهما من طريق إسرائيل عن ثوير عن عبد الله بن عمر به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد رواه غير واحد عن إسرائيل مثل هذا مرفوعاً، ورواه عبد الملك بن أبيجر، عن ثوير، عن ابن عمر من قوله، ولم يرفعه. اهـ. قلت: بل رواه عبد الملك بن أبيجر، عن ثوير، عن ابن عمر مرفوعاً. أخرجه الحاكم (٥٠٩/٢) من طريق عبد الملك به وقال: تابعه إسرائيل بن يونس، عن ثوير، عن ابن عمر.

وقال أيضاً: وثوير بن أبي فاختة، وإن لم يخرجاه، فلم ينقم عليه غير التشيع. وتعقبه الذهبي فقال: بل هو واهي الحديث. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٠/٦)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والآجري في «الشرعية»، والدارقطني في «الرؤية»، وابن مردويه، واللالكائي في «السنة».

(٢) أخرجه الطبري (٥٤/٦) برقم: (١٥١٠٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٥٠/٢)، والسيوطي (٢٢١/٣)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٠/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٠/٢).

(٥) لن: لا يلزم من نفيها التأيد، وإن كان بعضهم فهم ذلك، حتى إن ابن عطية قال: فلو بقينا على هذا النفي بمجرد لتضمن أن موسى لا يراه أبداً، ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى الحديث المتواتر أن أهل الجنة يرونه، قلت: وعلى تقدير أن «لن» ليست مقتضية للتأيد، فكلام ابن عطية وغيره ممن يقول: إن نفي المستقبل بعدها يُعم جميع الأزمنة المستقبلية صحيح، لكن لمدرك آخر، وهو أن الفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تُعم، وللبحث فيه مجال. والاستدراك في قوله: «ولكن أنظر» واضح. وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله: «ولكن أنظر»؟ قلت: اتصل به على معنى أن النظر إليّ محال فلا تطلبه، ولكن اطلب نظراً آخر، وهو أن تنظر إلى الجبل. وهذا على رأيه من أن الرؤية محال مطلقاً في الدنيا والآخرة.

ينظر: «الدر المصون» (٣٣٨/٣ - ٣٣٩).

١٩٩ ب قال بذر الدين أبو عبد الله بن مالك/ في شرح التسهيل: «ولن» كغيرها من حروف النفي في جواز كون استقبال المنفي بها منقطعاً عند حدٍّ وغير منقطع، وذكر الزمخشري في «أنموذج»؛ أن «لن» لتأبيد النفي، وحامله على ذلك اعتقاده أن الله تعالى لا يُرى، وهو اعتقاد باطل؛ لصحة ثبوت الرؤية عن رسول الله ﷺ؛ وأستدل على عدم اختصاصها بالتأبيد بمحيي استقبال المنفي بها مُعَيّاً إلى غاية ينتهي بآنتهاها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١]، وهو واضح. انتهى، ونحوه لابن هشام، ولفظه: ولا تفيّد «لن» توكيد المنفي؛ خلافاً للزمخشري في «كشافه»، ولا تأبيده، خلافاً له في «أنموذج»، وكلاهما دعوى بلا دليل؛ قيل: ولو كانت للتأبيد، لم يقيد منفيها بـ «اليوم» في ﴿فَلَنْ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] ولكان ذكره «الأبد» في ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] تكراراً، والأصل عدمه. انتهى من «المعني».

وقوله سبحانه: ﴿فلما تجلّى ربه للجبل﴾: التجلي: هو الظهور من غير تشبيه ولا تكييف، وقوله: ﴿جعلهُ دكاً﴾، المعنى: جعله أرضاً دكاً، يقال: ناقةٌ دكاء، أي: لا سنام لها، ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾، أي: مغشياً عليه، قاله جماعة من المفسرين.

قال * ص * : ﴿وَحَرَّ﴾ معناه سقط، وقوله: ﴿سبحانك﴾، أي: تنزيهاً لك؛ كذا فسره النبي ﷺ، وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، معناه: من أن أسألك الرؤية في الدنيا، وأنت لا تبيحها فيها.

قال * ع * ^(١): ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه السلام؛ لشدة هول المَطْلَع، ولم يعن التوبة من شيء معيّن، ولكنه لفظ لائق بذلك المقام، والذي يتحرّز منه أهل السنة أن تكون توبة من سؤال المُحَال؛ كما زعمت المعتزلة، وقوله: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾، أي: من قومه؛ قاله ابن عباس ^(٢) وغيره، أو من أهل زمانه؛ إن كان الكُفْر قد طبّق الأرض، أو أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا؛ قاله أبو العالية ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ فيه تأديب، وتقنيع، وحمل على جادة السلامة، ومثال لكل أحد في حاله، فإن جميع النعم من عند الله سبحانه بمقدار،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٥٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٦/٦) برقم: (١٥١١٠)، وبرقم: (١٥١١١) وذكره ابن عطية (٢/٤٥٢)، وابن كثير (٢/٢٤٥)، والسيوطي (٣/٢٢٢)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه.

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٤٥٢)، وابن كثير (٢/٢٤٥)، والسيوطي (٣/٢٢٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي الشيخ.

وَكُلُّ الْأُمُورِ بِمَرَأَى مِنْهُ وَمَسْمَعٌ، ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَنْفَعُ فِي مَعْنَى الشَّرْعِ، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مثله، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بِجَدِّ وَصَبْرِ عَلَيْهِ؛ قاله ابن عباس^(١)، وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ يحتمل معنيين.

أحدهما: التفضيل؛ كما إذا عرض مثلاً مباحين؛ كالعفو والقصاص، فيأخذون بالأحسنِ منهما.

والمعنى الثاني: يأخذون بحسن وصف الشريعة بجمالها؛ كما تقول: الله أكبر، دون مقايضة.

وقوله سبحانه: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، الرؤية هنا: رؤية عين؛ هذا هو الأظهر إلا أن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين، والوعيد للفاستقين، ودارُ الفاسقين: قيل: هي مضر، والمراد آل فرعون، وقيل: الشام، والمراد العماليقة وقيل: جهنم، والمراد الكفرة بموسى، وقيل غير هذا مما يفتقر إلى صحة إسناد.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآءِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِي يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: المعنى: سأمنع وأصد، قال سفيان بن عيينة: الآيات هنا كل كتاب منزل^(٢).

قال * ع^(٣): والمعنى عن فهمها وتصديقها، وقال ابن جريج: الآيات: العلامات المنصوبة الدالة على الوحداية، والمعنى: عن النظر فيها، والتفكر والاستدلال بها، واللفظ يعلم الوجهين^(٤)، والمتكبرون في الأرض بغير الحق: هم الكفار، قلت: ويدخل في هذا ١٢٠٠

(١) أخرجه الطبري (٥٨/٦) برقم: (١٥١٢٢)، وذكره ابن عطية (٢/٤٥٢)، والسيوطي (٣/٢٣٣)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٦٠/٦) برقم: (١٥١٣٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٥٤)، والبغوي (٢/٢٠٠) بنحوه، وابن كثير (٢/٢٤٧)، والسيوطي (٣/٢٣٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٥٤).

(٤) أخرجه الطبري (٦١/٦) برقم: (١٥١٣٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٥٤)، والبغوي (٢/٢٠٠)، والسيوطي (٣/٢٣٤)، وعزاه لابن المنذر، وأبي الشيخ.

المعنى مَنْ تشبَّه بهم من عُصاة المؤمنين، والمعنى في هذه الآية: سأجعل الصَّرف عن الآيات؛ عقوبةً للمتكبرين على تكبرهم، وقوله: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ حتم من الله على الطائفة التي قدر عليهم ألا يؤمنوا، وقوله: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى الصَّرف المتقدم. وقوله سبحانه: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة...﴾ الآية: هذه الآية مؤكدة للتي قبلها، وفيها تهديد.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَّهُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ذُرَاؤُا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَتَغَيَّرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمَ خَلَقْتُونِي مِنْ بَعِيدٍ أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من خُلَيْهِمْ عَجَلًا جسدًا له خُورٌ﴾: الخُور: صَوْتُ البقر، وقرأت فرقة: «لَهُ جُورٌ» - بالجيم -، أي: صياح، ثم بين سبحانه سوءَ فطرهم، وقرّر فساد اعتقادهم بقوله: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم...﴾ الآية: وقوله: ﴿وكانوا ظالمين﴾: إخبار عن جميع أحوالهم؛ ماضياً، وحالاً، ومستقبلاً، وقد مر في «البقرة» قصة العجل؛ فأغنى عن إعادته.

قال أبو عبيدة: يقال لمن ندم على أمر، وعجز عنه: سقط في يده، وقول بني إسرائيل: ﴿لئن لم يرحمنا ربنا﴾، إنما كان بعد رجوع موسى، وتغيّره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرّجوا من الدين، ووقعوا في الكفر.

وقوله سبحانه: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾، يريد: رجع من المناجاة، والأسف: قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتبان هنا.

وعبارة * ص * : ﴿غضبان﴾: صفة مبالغة، والغضب غَلَيَانُ القلب؛ بسبب ما يؤلم و﴿أسفا﴾: من أسف، فهو أسف، كَفَرَقَ فهو فَرَقَ، يدل على ثبوت الوصف، ولو ذهب به مذهب الزمان، لقليل: أسف؛ على وزن فاعل، والأسف: الحزن. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أعجلتم﴾، معناه: أسابقتم قضاء ربكم، وأسعجلتهم إتياني قبل الوقت الذي قدر به، قال سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: كان سبب إلقائه الألواح - غضبه على

قومه في عبادتهم العجل، وَغَضِبَهُ عَلَى أَخِيهِ فِي إِهْمَالِ أَمْرِهِمْ^(١).

قال ابن عباس: لَمَّا أَلْقَاهَا، تَكَسَّرَتْ، فَرَفَعَ أَكْثَرُهَا الَّذِي فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَقِيَ الَّذِي فِي نُسْخَتِهِ الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ، وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ^(٢) بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ الْأَلْوَحُ مِنْ زُمْرِدٍ، وَقِيلَ: مِنْ يَاقُوتٍ، وَقِيلَ: مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَقِيلَ: مِنْ خَشَبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ استعطافٌ بِرَحْمِ الْأُمِّ؛ إِذْ هُوَ الْأَصْقُ الْقَرَابَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَادُوا﴾، مَعْنَاهُ: قَارَبُوا، وَلَمْ يَفْعَلُوا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يَرِيدُ: عَبْدَ الْعَجَلِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ (١٥٤) وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا يَلْبِقُنُنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُو أَسْمَاءَهُمْ إِنَّمَا فَعَلَ الْمَظْهَرُ بَيِّنًا إِنَّ مِنْ إِيَّائِكَ تَنْزِيلَهَا مِنْ شَاءَ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ النَّيْلُ بِهِمْ فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْغَضَبُ وَالذَّلَّةُ هُوَ أَمْرُهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: الذَّلَّةُ: الْجِزْيَةُ، وَوَجْهُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْغَضَبَ وَالذَّلَّةَ بَقِيَتْ فِي عَقِبِ هَؤُلَاءِ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: الْإِشَارَةُ إِلَى مَنْ مَاتَ مِنْ عَبْدَةِ الْعَجَلِ قَبْلَ التَّوْبَةِ بِقَتْلِ الْأَنْفُسِ، وَإِلَى مَنْ فَرَّ، فَلَمْ يَكُنْ حَاضِرًا وَقْتُ الْقَتْلِ^(٤)، وَالْغَضَبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ أَخَذَ بِمَعْنَى الْإِرَادَةِ، فَهُوَ صِفَةُ ذَاتٍ، وَإِنْ أَخَذَ بِمَعْنَى الْعُقُوبَةِ وَإِحْلَالِ النُّقْمَةِ، فَهُوَ صِفَةُ فِعْلٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، الْمُرَادُ أَوَّلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ

(١) أخرجه الطبري (٦٥/٦) برقم: (١٥١٣٨)، وذكره ابن عطية (٤٥٧/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٦٧/٦) برقم: (١٥١٤٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٥٧/٢)، والسيوطي (٢٣٥/٣)، وعزاه لأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٦٧/٦) برقم: (١٥١٤٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٥٢/٢)، والبغوي (١٩٩/٢)، والسيوطي (٢٢٥/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٧٠ - ٧١) برقم: (١٥١٥٧)، وذكره ابن عطية (٤٥٨/٢).

في عبادة العجل، وتكون قوة اللفظ نَعْمُ كُلُّ مَفْتَرٍ إلى يوم القيامة، وقد قال سفيان^(١) بن ٢٠٠ ب غَيِّنَ وَأَبُو قِلَابَةَ^(٢) وغيرهما/ : كُلُّ صَاحِبِ بَدْعَةٍ أَوْ فِرْيَةٍ، ذَلِيلٌ؛ وَأُسْتَدْلُوا بِالْآيَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية تَضَمَّنَتْ وعداً بأن الله سبحانه يغفرُ للتائبين؛ وقرأ معاوية بنُ قُرَّة^(٣) «وَلَمَّا سَكَنَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ».

قال أبو حَيَّان^(٤): واللام في ﴿لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ مُقَوِّية لوصولِ الفعلِ، وهو ﴿يَزْهَبُونَ﴾ إلى مفعوله المتقدِّم.

وقال الكوفيون: زائدة^(٥).

وقال الأخفش: لام المفعول له، أي: لأجل ربهم. انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٧٢/٦) برقم: (١٥١٦١)، وذكره ابن عطية (٤٥٨/٢)، والبغوي (٢٠٢/٢)، وابن كثير (٢٤٨/٢)، والسيوطي (٢٣٦/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٧١/٦) برقم: (١٥١٥٩)، وذكره ابن عطية (٤٥٨/٢)، والبغوي (٢٠٢/٢)، وابن كثير (٢٤٨/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٣٦/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) معاوية بن قُرَّة بن إِيَّاس المُرَني أبو إِيَّاس البَصْري. عن علي مرسلاً، وابن عباس، وابن عمر. وعنه قتادة وشعبة وأبو عَوَّانة وخلق، وثقه ابن معين وأبو حاتم.

قال خليفة: مات سنة ثلاثة عشرة ومائة، ومولده يوم الجمل. ينظر: «الخلاصة» (٤١/٣ - ٤٢)، «التقريب»: (٢٦١/٢)، «الثقات» (٤١٢/٥).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٣٩٦/٤).

(٥) وفي اللام أقوال:

أحدها أن اللام مقوية للفعل، لأنه لما تقدم معموله ضَعُفَ فقوي باللام، كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اللام تكون مقوية حيث كان العامل مؤخرًا، أو فرعًا، نحو: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، ولا تزداد في غير هذين إلا ضرورة عند بعضهم، كقوله:

فَلَمَّا أَنْ تَرَأَيْنَا قَلِيلًا أَنْخَا لِلْكَلاَهِلِ فَازْتَمَيْنَا
أو في قليل من الكلام عند آخرين، كقوله تعالى: ﴿زِدْ لَكُمْ﴾.

والثاني: أن اللام لام العلة، وعلى هذا فمفعول «يَزْهَبُونَ» محذوف، تقديره: يَزْهَبُونَ عقابه لأجله، وهذا مذهب الأخفش.

الثالث: أنها متعلقة بمصدر محذوف، تقديره: الذين هم رهبتهم لربهم، وهو قول المبرد، وهذا غير جارٍ على قواعد البصريين، لأنه يلزم منه حذف المصدر، وإبقاء معموله، وهو ممتنع إلا في شعر. وأيضاً فهو تقديره مُخْرِجٌ للكلام عن وجه فصاحته.

الرابع: أنها متعلقة بفعل مقدر أيضاً، تقديره: يخشعون لربهم، ذكره أبو البقاء، وهو أولى مما قبله. ينظر: «الدر المصون» (٣٥٠/٣).

قُلْتُ: قال ابن هشام في «المُغني» ولام التَّقْوِيَّة هي المَزِيدَةُ لتقوية عامل ضَعْف؛ إما لتأخير؛ نحو: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، و﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] أو لَكُونِهِ فرعاً في العمل؛ نحو: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقد اجتمع التأخير والفرعية في: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. انتهى.

وقوله: ﴿واختارَ موسى قومه...﴾ الآية: قال الفَخْر^(١): قال جماعة النحويين: معناه: وأختارَ موسى مِنْ قومه، فحذف «مِنْ»، يقال: أختَرْتُ مِنَ الرِّجَالِ زَيْدًا، واختَرْتُ الرِّجَالَ زَيْدًا. انتهى.

قال * ع^(٢): * معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار مِنْ قومه هذه العِدَّة؛ لِيَذْهَبَ بِهِمْ إِلَى مَوْضِعِ عِبَادَةٍ وَابْتِهَالٍ وَدَعَاءٍ، فيكون منه ومنهم أَعْتَدَارٌ إِلَى اللَّهِ سبحانه مِنْ خَطِئِ بني إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وقد تقدَّم في «سورة البقرة» [البقرة: ٥١] قصصهم، قالت فرقة من العلماء: إِنَّ موسى عليه السلام لَمَّا أَعْلَمَهُ اللَّهُ سبحانه بعبادة بني إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ، وبصفته، قال موسى: أَيُّ رَبِّ، وَمَنْ اخْتَارَهُ؟ قَالَ: أَنَا، قال موسى: فَأَنْتَ، يَا رَبِّ، أَضَلَلْتَهُمْ، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ أَيُّ: إِنَّ الْأُمُورَ بِيَدِكَ تَفْعَلُ مَا تَرِيدُ.

﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُدْنًا﴾ أَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْيَاءٍ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ بَرَأَ أَمْثَلُهُمْ وَعَزَّوهُمْ وَنَصَرَهُمْ وَأَتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة...﴾ الآية: ﴿اكتب﴾: معناه: أثبت وأقضى، والكتب: مستعمل في كل ما يخلد، و﴿حسنة﴾: لفظ عام في كل ما يحسن في الدنيا من عاقبة وطاعة لله سبحانه، وغير ذلك، وحسنة الآخرة: الجنة، لا حسنة دونها، ولا مَرَمَى وراءها، و﴿هَذَا﴾ - بضم الهاء -: معناه: ثَبَاتًا.

وقوله سبحانه: ﴿قال عذابي أصيب به من أشياء﴾، يحتمل أن يريد بـ «العذاب»

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/١٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٥٩).

الرجفة التي نزلت بالقوم، ثم أخبر سبحانه عن رحمته، ويحتمل؛ وهو الأظهر: أن الكلام قصد به الخبر عن عذابه، وعن رحمته، وتصريف ذلك في خليفته؛ كما يشاء سبحانه، ويندرج في عموم العذاب أصحاب الرجفة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وطائوس، وعمرو^(١) بن فائد: «مَنْ أَسَاءَ»^(٢) من الإساءة، ولا تعلق فيه للمعتزلة، وأطنب القراء في التحفظ من هذه القراءة، وَحَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ شُحُّهُمْ^(٣) على الدين.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قال بعض العلماء: هو عموم في الرحمة، وخصوص في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾، والمراد: مَنْ قد سبق في عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَرْحَمَهُمْ، وقوله سبحانه: ﴿فَسَأَكْتِبُهَا﴾، أي: أَقْدَرُهَا وَأَقْضِيهَا.

وقال تَوْفُّ الْبِكَالِيِّ^(٤): إِنْ مَوَسَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، جَعَلْتَ وَفَادَتِي لَأَمَّةٍ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: الظاهر: أَنَّهَا الزَّكَاةُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْمَالِ، وروى عن ابن عباس؛ أَنَّ الْمَعْنَى: يُؤْتُونَ الْأَعْمَالَ الَّتِي يَزْكُونُ بِهَا أَنْفُسُهُمْ^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ الآية: هذه ألفاظٌ أُخْرِجَتْ

(١) عمرو بن فائد، أبو علي الأسواري التميمي: معتزلي قدري، من القراء القُصَّاص، من أهل البصرة، كان منقطعاً إلى أميرها محمد بن سليمان، أخذ عن عمرو بن عبيد، وله معه مناظرات، وكان متروك الحديث، ليس بثقة، ولا يكتب حديثه، وقيل: له «تفسير» كبير.

قال ابن حجر: مات بعد المائتين بيسير.

ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٨٣/٥) (٥٤٠).

(٢) وقد حسنها أبو الفتح على مذهبه من الاعتزال.

ينظر: «المحتسب» (٢٦١/١)، و«الشواذ» (٥١)، و«الكشاف» (١٦٥/٢) و«المحرر الوجيز» (٢/٤٦١)، و«البحر المحيط» (٤٠٠/٤)، وزاد أبو حيان نسبتها إلى زيد بن علي، ثم قال: وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطائوس، وعمرو بن فائد رجل سوء، وقرأ بها سفيان بن عيينة مرة واستحسنها، فقام إليه عبد الرحمن المقرئ وصاح به، وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر، ولم أظن لما يقول أهل البدع.

ينظر: «الدر المصون» (٣٥٣/٣).

(٣) الشُّعْ في الأصل هو: البخل، وتشاحوا في الأمر وعليه: شح بعضهم على بعض، وتبادروا إليه حذر فوته، وكان المعنى هنا مأخوذ من الحرص على المحافظة على أساس الدين.

ينظر: «لسان العرب» (٢٢٠٥).

(٤) نوف بن فضالة الحميري البكالي: إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في «الصحيحين» وكان راوياً للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، ذكره البخاري في فصل: من مات ما بين التسعين إلى المئة.

ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٥٤/٨) (٥١١).

(٥) أخرجه الطبري (٨٢/٦) برقم: (١٥٢٢٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٦١/٢).

اليهود والنصارى من أَلْشَرِّكَ الَّذِي يَظْهَرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَاكِبْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وَخَلَصَتْ هَذِهِ الْعِدَّةُ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(١) وَغَيْرُهُ. قُلْتُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُغْلِمَةٌ بِشَرَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْعُمُومِ فِي كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَقْرَبُ بَرَسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ هُمْ يَتَفَاوَتُونَ بَعْدُ فِي الشَّرَفِ؛ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي حَقِيقَةِ الْإِتِبَاعِيَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ الْعَزَّائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْإِحْيَاءِ»: «وَأَمَّا أُمَّتُهُ ﷺ مَنِ اتَّبَعَهُ، وَمَا اتَّبَعَهُ إِلَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا دَعَا إِلَّا إِلَى اللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا صَرَفَ إِلَّا عَنِ الدُّنْيَا وَالْحَظْوِظِ الْعَاجِلَةِ، فَبَقَدَّرَ مَا تُعْرِضُ عَنِ الدُّنْيَا، وَتُقْبِلُ عَلَى الْآخِرَةِ، تَسْلُكُ سَبِيلَهُ الَّذِي سَلَكَهُ ﷺ، وَبَقَدَّرَ مَا سَلَكَتُ سَبِيلَهُ، فَقَدْ اتَّبَعْتَهُ، وَبَقَدَّرَ مَا اتَّبَعْتَهُ، صِرْتَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَبَقَدَّرَ مَا أَقْبَلْتَ عَلَى الدُّنْيَا، عَدَلْتَ عَنْ سَبِيلِهِ، وَرَغَبْتَ عَنْ مُتَابَعَتِهِ، وَالتَّحَقَّقْتَ بِالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النَّازِعَات: ٣٧، ٣٨، ٣٩]. انْتَهَى، فَإِنْ أَرَدْتَ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَأَقْتَفَاءَ أَثَرِهِ، فَابْتَهِجْ عَنْ سِيرَتِهِ وَخُلُقِهِ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ.

قَالَ ابْنُ الْقَطَّانِ فِي تَصْنِيفِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي «الْآيَاتِ وَالْمَعْجَزَاتِ»: وَالْقَوْلُ الْوَجِيزُ فِي زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَسَائِرِ خُلَاةٍ وَمَعَالِيهِ ﷺ: أَنَّهُ مَلَكَ مِنْ أَفْصَى الْيَمَنِ إِلَى صَحْرَاءِ عُمَانَ إِلَى أَفْصَى الْحِجَازِ، ثُمَّ تُوفِّيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ فِي طَعَامِ لَأَهْلِهِ، وَلَمْ يَتْرِكْ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا شَيْءَ قَضْرًا، وَلَا غَرَسَ نَخْلًا، وَلَا شَقَّقَ نَهْرًا، وَكَانَ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَلْبَسُ الْعَبَاءَ، وَيَجَالِسُ الْمَسَاكِينَ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَتَوَسَّدُ يَدَهُ، وَيَلْعَقُ أَصَابِعَهُ، وَيُرْقِعُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيُضْلِحُ خُصَّهَ، وَيَمَهِّنُ لَأَهْلِهِ، وَلَا يَأْكُلُ مَتَكِنًا، وَيَقُولُ: «أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ»، وَيَقْتَصِرُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يَرَى ضَاحِكًا مِلءَ فِيهِ وَلَوْ دُعِيَ إِلَى ذِرَاعٍ، لِأَجَابَ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ كُرَاعٌ لَقَبِلَ، لَا يَأْكُلُ وَحْدَهُ، وَلَا يَضْرِبُ عَبْدَهُ، وَلَا يَمْنَعُ رَفْدَهُ وَلَا ضَرْبَ قَطْ بِيَدِهِ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَامَ لِلَّهِ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»، وَكَانَ يُسْمَعُ لِحَجْوَةِ أَرْزِيْزٍ؛ كَأَرْزِيْزِ الْمِرْجَلِ^(٢) مِنَ الْبُكَاءِ؛ إِذَا قَامَ بِاللَّيْلِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَاتِّبَاعِهِ صَلَاةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. انْتَهَى.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٨٣/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٢٢٥)، وَبِرَقْمٍ: (١٥٢٢٦) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٦٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٤١/٣)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) الْمِرْجَلُ: الْقَدْرُ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْثَّحَاسِ. مَذْكُورٌ.

يَنْظُرُ: «لِسَانُ الْعَرَبِ» (١٦٠١).

وقال^(١) الفخر: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ...﴾ الآية: قال بعضهم: الإشارة بذلك إلى مَنْ تقدّم ذكره من بني إسرائيل، والمعنى: يتبعونه بأعتقاد نبوته؛ من حيث وجدوا صفتَه في التوراة، وسيجدونه مكتوباً في الإنجيل.

وقال بعضهم: بل المراد مَنْ لحق مِنْ بني إسرائيل أيام النبي ﷺ، فبيّن تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا تكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوا النبي الأمي.

قال الفخر^(٢): وهذا القول أقرب. انتهى. وقوله: ﴿يجدونَه﴾، أي: يجدون صفة نبينا محمد ﷺ ونعته؛ ففي «البخاري» وغيره، عن عبد الله بن عمرو؛ أن في التوراة مِنْ صفة النبي ﷺ «يَأْيَاهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً/ وَنَذِيراً وَحِزْزاً لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِقَظٍّ، وَلَا عَلِيْظٍ، وَلَا سَخَابٍ^(٣) فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءُ؛ بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَتُقِيمَ بِهِ قُلُوباً غُلْفاً، وَأَذَاناً صُمّاً، وَأَعْيُناً غُمِيّاً»، وفي «البخاري»: «فَيَفْتَحَ بِهِ عُيُوناً غُمِيّاً، وَأَذَاناً صُمّاً، وَقُلُوباً غُلْفاً^(٤)»، ونصّ كعب الأحبار نحو هذه الألفاظ إلا أنه قال: «قُلُوباً غُلُوفاً، وَأَذَاناً صُومَماً».

وقوله سبحانه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية: يحتمل أن يكون ابتداء كلام وُصِفَ به النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون متعلقاً بـ «يجدونَه» في موضع الحال على تجوُّز، أي: يجدونه في التوراة أمراً؛ بشرط وجوده، والمعروف: ما عُرف بالشرع، وكلُّ معروف من جهة المروءة، فهو معروف بالشرع، فقد قال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ^(٥)» و﴿الْمُنْكَرُ﴾: مقابله، و﴿الطَّيِّبَاتِ﴾؛ عند مالك: هي المحللات، و﴿الْخَبَائِثِ﴾ هي المحرّمات، وكذلك قال ابن عباس، والإضر الثقل^(٦)، وبه فسّر هنا قتادة^(٧) وغيره،

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/١٥).

(٣) السَّخْبُ وَالصَّخْبُ: الصياح.

ينظر: «النهاية» (٣٤٩/٢).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه الطبري (٨٥/٦ - ٨٦) برقم: (١٥٢٤١) بلفظ: «عهدهم»، وبرقم: (١٥٢٤٧) بنحوه، وذكره

ابن عطية (٤٦٣/٢)، والبغوي (٢٠٦/٢)، والسيوطي (٢٤٨/٣).

(٧) أخرجه الطبري (٨٦/٦) برقم: (١٥٢٤٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٦٣٠/٢)، والبغوي (٢٠٦/٢)،

والسيوطي بنحوه (٢٤٨/٣)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

والإضر أيضاً: العهد، وبه فسر ابن عباس وغيره^(١)، وقد جمعت هذه الآية المعنيين؛ فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم العهد بأن يقوموا بأعمال ثقال، فَوَضَعَ عنهم نبينا محمد ﷺ، وقال ابن جبير: الإضر: شدة العبادة^(٢)، وقرأ ابن عامر^(٣): «أَصَارَهُمْ» بالجمع فمن وحد «الإضر»؛ فإنما هو اسم جنس عنده، يراد به الجمع، ﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأثقال، كَقَطْعِ الْجِلْدِ من أثر البول، وأن لا دية، ولا بد من قتل القاتل، إلى غير ذلك، هذا قول جمهور المفسرين، وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بـ ﴿الْأَغْلَالُ﴾ قول الله عز وجل في اليهود: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فمن آمن بنبينا محمد ﷺ، زالت عنه الدعوة، وتغلبها^(٤)، ومعنى ﴿عَزَّوْهُ﴾: أي: وقروه، فالتغزير والنصر: مشاهدة خاصة للصحابة، وأتباع النور: يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة، والثور: كناية عن جملة الشرع، وشبه الشرع والهدى بالنور، إذ القلوب تستضيء به؛ كما يستضيء البصر بالنور.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَاقَ عَشْرَةٍ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عِتًّا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرُّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً﴾ هذا أمر من الله

(١) أخرجه الطبري (٨٥/٦) برقم: (١٥٢٤١)، وذكره ابن عطية (٤٦٣/٢)، والسيوطي (٢٤٨/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٦٣/٢)، والسيوطي (٢٤٨/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) وحجته أنه لم يختلف في جمع «الأغلل»، وهي نسق على الإضر، وحجة الباقي قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ [آل عمران: ٨١].
ينظر: «السبعة» (٢٩٥)، و«الحجة» (٩٣/٤)، و«إعراب القراءات» (٢١٠/١)، و«حجة القراءات» (٢٩٨)، و«تحاف» (٦٥/٢)، و«معاني القراءات» (٤٢٥/١)، و«شرح شعلة» (٣٩٧ - ٣٩٨)، و«شرح الطيبة» (٣١/٤) و«العنوان» (٩٨).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٦٤/٢).

سبحانه لنبيه بإشهار الدعوة العامة، وهذه من خصائصه ﷺ مِنْ بين سائر الرسل؛ فإنه ﷺ بُعِثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَإِلَى الْجَنِّ، وَكُلُّ نَبِيٍّ إِنَّمَا بُعِثَ إِلَى فِرْقَةٍ دُونَ الْعُمُومِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: حُضُّ عَلَى اتِّبَاعِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، أي: يصدق بالله وكلماته، والكلمات هنا: الآيات المنزلة مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ كالتوراة والإنجيل، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ لفظ عامٌ يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة، جعلنا الله مِنْ مُتَّبِعِيهِ عَلَى مَا يُلْزِمُ بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ.

قُلْتُ: فَإِنْ أَرَدْتُ الْفَوْزَ أَيُّهَا الْأَخُّ، فَعَلَيْكَ بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَتَعْظِيمِ جَمِيعِ أَسْبَابِهِ.

قال عِيَّاضٌ: وَمِنْ إِعْظَامِهِ ﷺ وَإِكْبَارِهِ إِعْظَامُ جَمِيعِ أَسْبَابِهِ وَإِكْرَامُ مَشَاهِدِهِ وَأَمْكِنَتِهِ، وَمَعَاهِدِهِ، وَمَا لَمَسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ عُرِفَ بِهِ، حُدُثُ أَنْ أَبَا الْفَضْلِ الْجَوْهَرِي، لَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ زَائِرًا، وَقَرَّبَ مِنْ بَيْوتِهَا، تَرَجَّلَ، وَمَشَى بِأَكْيَأَ مُنْشَدًا: [الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعَ لَنَا فُوَادًا لِعِرْفَانٍ / الرُّسُومُ^(١) وَلَا لُبًّا^(٢)
نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ^(٣) تَمْشِي كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نَلْمَ بِهِ رَكْبًا
وَحُكِّيَ عَنْ بَعْضِ الْمُرِيدِينَ؛ أَنَّهُ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْشَأَ يَقُولُ: [الكامل]

رَفَعَ الْحِجَابَ^(٤) لَنَا فَلَاخَ لِنَاطِرِي فَمَرْتُ قَطْعُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ^(٥)
وَإِذَا الْمَطْيُ^(٦) بِنَا بَلَفَنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ^(٧) عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

(١) الرسم: آثار الديار الدارسة، والمراد آثاره ﷺ في معاهده ومساكنه، والفؤاد: القلب، والعرفان: المعرفة، واللُبُّ: العقل.

(٢) الأبيات للمتنبي (٥٦/١)، ينظر: الأبيات في «الشفاء» ص: (٦٢١).

(٣) الأكوار: جمع كور، وهو للإبل بمنزلة السرج للفرس، بان: بعد، نَلْمٌ: نأتيه لزيارته، والإلمام: الإتيان قليلاً.

(٤) المراد برفع الحجاب في الشعر: رفع ستائر أبواب الملوك والعظام، وهو هنا، بمعنى انقضاء المسافة، والقرب من المدينة، والقمر: الممدوح، وقطع: تضمحل.

(٥) الأبيات لأبي نواس في مدح محمد الأمين. ينظر: «ديوانه» ص: (٤٠٨)، وتنظر الأبيات في: «الشفاء» (٦٢٢).

(٦) المطي: جمع مطية: ناقة تمتطي وتركب، ولاخ: بدا وظهر، دونه: قريباً منه.

(٧) فظهورهن على الرجال حرام، أي: إذا أوصلتهم لمقاصدهم، كانت لها حرمة تقتضي رعايتها وراحتها، =

قَرَأْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى^(١) فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامٌ
وَحُكْمِي عَنْ بَعْضِ الْمَشَايخ؛ أنه حجٌّ ماشياً، فقليل له في ذلك، فقال: الْعَبْدُ الْآبِقُ
يَأْتِي إِلَى بَيْتِ مَوْلَاهُ رَاكِباً؟ لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى رَأْسِي، مَا مَشَيْتُ عَلَى قَدَمِي.

قال عياض: وجديرٌ لمواطنٍ عُمِرَتْ بالوخِي، والتنزيل؛ وتردّد فيها جبريلٌ وميكائيل،
وَعَرَجَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ؛ وَضَجَّتْ عَرَصَاتُهَا^(٢) بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ، وَاشْتَمَلَتْ تَرْبَتَهَا
عَلَى جَسَدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ؛ وَأَنْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَسَنَةُ رَسُولِهِ مَا أَنْتَشَرَ، مَدَارِسُ وَآيَاتُ؛
وَمَسَاجِدُ وَصَلَوَاتُ؛ وَمَشَاهِدُ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ؛ وَمَعَاهِدُ الْبِرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ - أَنْ تَعْظُمَ
عَرَصَاتُهَا؛ وَتُنْتَشِمَ نَفَحَاتُهَا؛ وَتُقْبَلَ رُبُوعُهَا وَجَدْرَاتُهَا: [الكامل]

يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ هَذِي الْأَنَامُ^(٣) وَخُصَّ بِالْآيَاتِ^(٤)
عِنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةٌ^(٥) وَصَبَابَةٌ وَتَشْوُقٌ مُتَوَقِّدٌ الْجَمَرَاتِ
الآيَات. انتهى من «الشفاء».

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُ﴾، أي: يَرشُدُونَ أنفسهم، وهذا الكلام
يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ وَضَفَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، عَلَى عَهْدِ مُوسَى، وَمَا وَالَاهُ مِنَ الزَّمَنِ، فَأَخْبَرَ
سُبْحَانَهُ، أَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى عَتْوِهِمْ وَخِلَافِهِمْ مِنْ أَهْتَدَى وَاتَّقَى وَعَدَلْ، وَيَحْتَمِلُ
أَنْ يَرِيدَ الْجَمَاعَةَ الَّتِي آمَنَتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، عَلَى جَهَةِ الْاسْتِجْلَابِ لِإِيمَانِ
جَمِيعِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَسْبَاطًا﴾: بَدَلٌ مِنْ «أَنْتَنِي»، وَالتَّمْيِيزُ الَّذِي بَيْنَ الْعَدَدِ مَحْذُوفٌ
تَقْدِيرُهُ: أَنْتَنِي عَشْرَةَ فِرْقَةٍ أَوْ قِطْعَةً أَسْبَاطًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاه قَوْمَهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

= فلا يركبها بعد ذلك رجل، ولا يوضع على ظهرها شيء، بل تترك سارحة منعمة في مرعاها.

(١) روي البيت في «الشفاء» من «... من وطئ الثرى». وخير من وطئ الثرى: النبي، فهو خير الناس،
والحرمة: الحق الذي يلزم احترامه، والذمام: ما يلزم احترامه، أو جمع ذمة، وهي العهد، وما يجب
الوفاء به.

(٢) العَرْصَةُ: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

ينظر: «لسان العرب» (٢٨٨٣).

(٣) الأنام: الخلق، خصّ بالآيات: القرآن، أو جميع المعجزات.

(٤) الشعر للقاضي عياض، ينظر الآيات في: «الشفاء» (٦٢٣)، و«نسيم الرياض» (٤٨٨/٣)، وقال القاري:

(١٠٢/٢): قال الحلبي: الذي يظهر أن هنا الشعر من قول عياض رحمه الله.

(٥) اللوعة: شدة الحب وحرقة، والصبابة: رقة الشوق.

فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ . . . ﴿١٦٥﴾ الْآيَةُ: ﴿أَنْبَجَسَتْ﴾: بمعنى أَفْجَرَتْ، وقد تقدّم الكلام على هذه المعاني في «البقرة».

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ * فبدل الذي ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون: الْقَرْيَةُ هي بَيْتُ الْمَقْدِسِ.

وقيل: أَرِيحَاءُ، و«بَدَّلَ»: معناه غَيَّرَ اللفظ.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَّائُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ يُعَذِّبُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٠﴾ فَلَمَّا عَوَّا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٧١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ . . .﴾ الآية: قال بعض المتأولين: إن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ قالوا: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عضيان، ولا معاندة لما أمروا به، فنزلت هذه الآية موبخة لهم، فسألهم إنما هو على جهة التوبيخ، والقرية هنا: أَيْلَةُ، قاله^(١) ابن عباس وغيره، وقيل: مَذِين، و«حاضرة البحر»، أي: البحر فيها حاضر، ويحتمل أن يريد معنى «الحاضرة»؛ على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرة في مُدُنِ الْبَحْرِ، و«يَعْدُونَ»: معناه: يخالفون الشرع؛ مِنْ عَدَا يَعْدُو، و«شُرْعًا»، أي: مقابلة إلههم مُصْطَفَةً، كما تقول: شَرَعْتَ الرِّمَاحَ إِذَا مُدَّتْ مُصْطَفَةً، ٢٠٢ ب وعبارة البخاري / «شُرْعًا»: أي: شوارع انتهى.

والعامل في قوله: ﴿ويوم لا يسبئون﴾ قوله: ﴿لا تأتِيهِمْ﴾، وهو ظرفٌ مقدَّم،

(١) أخرجه الطبري (٩١/٦) برقم: (١٥٢٦٣)، وذكره ابن عطية (٤٦٧/٢)، والبغوي (٢٠٨/٢)، وابن كثير (٢٥٧/٢)، والسيوطي (٢٥١/٣)، وعزه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

ومعنى قوله ﴿كَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى أمر الحوت، وفتنتهم به، هذا غلى من وقف على ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ومن وقف على ﴿كَذَلِكَ﴾، فالإشارة إلى كثرة الحيتان شراً، أي: فما أتى منها يوم لا يسبئون، فهو قليل، و﴿نبلوهم﴾، أي: نمتحنهم بفسقهم وعصيانهم، وقد تقدم في «البقرة» قصصهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل أفرقت ثلاث فرق: فرقة عصت، وفرقة نهت، وجاهرته وتكلمت وأعتزلت، وفرقة أعتزلت، ولم تغص ولم تنه، وأن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية، وطغيان العاصية وعتوها، قالت للناحية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾، يريدون: العاصية ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله، أي: إقامة عذر، ومعنى ﴿مهلكهم﴾، أي: في الدنيا، ﴿أو معذبهم﴾، [أي]: في الآخرة، والضمير في قوله: ﴿نسوا﴾ للمنهيين، وهو ترك سمي نسياناً مبالغاً، و«ما» في قوله: ﴿ما ذكروا به﴾ بمعنى الذي، و﴿السوء﴾: لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية هو صيد الحوت، و﴿الذين ظلموا﴾: هم العاصون، وقوله: ﴿بعذاب يئس﴾ معناه: مؤلم موجع شديد، واختلف في الفرقة التي لم تغص ولم تنه، ف قيل: نجث مع الناجين، وقيل: هلكث مع العاصين.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: لأجل ذلك، وعقوبة عليه، والعنوة الاستعصاء وقلة الطوعية.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾، يحتمل أن يكون قولاً بلفظ من ملك أسمعه؛ فكان أذهب في الإعراب والهول والإصغار، ويحتمل أن يكون عبارة عن القدرة المكونة لهم قردة، و﴿خاسئين﴾: معناه مبعدين ف«خاسئين» خبر بعد خبر، فهذا اختيار أبي الفتح، وضعف الصفة، فروي أن الشباب منهم مسخوا قردة، والرجال الكبار مسخوا خنازير.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَطَقَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَيَكُونُهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ معنى هذه الآية: وإذ علم الله ليعتثن، وتقتضي قوة الكلام؛ أن ذلك العلم منه

سبحانه مقتَرَنَ بإنفاذ وإيضاء؛ كما تقول في أمر عَزَمْتَ عليه: عَلِمَ اللَّهُ لَأَفْعَلَنَّ.

وقال الطبري^(١) وغيره: ﴿تَأَذَّنْ﴾ معناه: أَعْلَمَ، وقال مجاهد: ﴿تَأَذَّنْ﴾ معناه: أَمَرَ^(٢) وقالت فرقة: معنى ﴿تَأَذَّنْ﴾: تَأَلَّى، والضمير في ﴿عليهم﴾، لبني إسرائيل، وقوله: ﴿من يسومهم﴾ قال ابن عباس: هي إشارة إلى مُحَمَّد ﷺ وأُمَّتِهِ، يسومون اليهود سوء العذاب^(٣).

قال * ع^(٤): * والصحيح أن هذا حالهم في كل قُطر، وَمَعَ كُلِّ مِلَّةٍ، و﴿يسومهم﴾: معناه: يَكْلِفُهُمْ وَيَحْمِلُهُمْ، و﴿سوء العذاب﴾: الظاهر منه: أنه الجَزِيَّةُ، والإذلالُ، وقد حتم الله عليهم هذا، وَحَطَّ مُلْكَهُمْ، فليس في الأرض رايةً ليهوديٍّ، ثم حَسَنَ في آخر الآية التنبؤ على سرعة العقاب، والتخويف لجميع الناس، ثم رَجَى سبحانه بقوله: ﴿وإنه لغفور رحيم﴾؛ لطفاً منه بعباده جلَّ وعلا، و﴿قطعتهم في الأرض﴾، معناه: فَرَّقَنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ.

قال الطبري^(٥) عن جماعة من المفسرين: ليس في الأرض بقعة إلا وفيها مَعَشَرٌ من اليهود، والظاهر في المُشَارِ إليهم بهذه الآية؛ أنهم الذين بعد سُلَيْمَانَ وَقَتَّ زَوَالِ مُلْكِهِمْ، والظاهر أنهم قبل مُدَّةٍ عِيسَى عليه السلام؛ لأنهم لم يَكُنْ فيهم صالحٌ/ بعد كُفْرِهِمْ بعِيسَى ﷺ و﴿يَلُونَاهُمْ﴾، معناه: أَمْتَحَنَاهُمْ ﴿بالحسنات﴾، أي: بالصُّحَّةِ والرخاء، ونحو هذا ممَّا هو بِحَسَبِ رَأْيِ ابْنِ آدَمَ وَنَظَرِهِ، و﴿السيئات﴾: مقابلات هذه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الطاعة.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوا أَلَّا يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِثْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَدَارُ الْأَخْرَجَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٢/٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٠٢/٦) برقم: (١٥٣٠٨ - ١٥٣٠٩)، وذكره ابن عطية (٤٧١/٢)، والبغوي (٢/ ٢٠٩)، وابن كثير (٢/٢٥٩)، والسيوطي (٣/٢٥٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٢/٦) برقم: (١٥٣١٠)، وذكره ابن عطية (٤٧١/٢)، وابن كثير (٢/٢٥٩).

(٤) ينظر: «تفسير المحرر الوجيز» (٤٧١/٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٤/٦).

وقوله سبحانه: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ...﴾ الآية: خَلَفَ معناه: حَدَّثَ خَلَفَهُمْ وبعدهم، و﴿خَلَفَ﴾ - بِاسْكَان اللام - يستعمل في الأشهر: في الدُّم.

وقوله سبحانه: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ إشارة إلى الرُّشَا والمكاسب الخبيثة، والعَرَضُ: ما يَغْرَضُ وَيَعْنُ، ولا يَثْبُتُ، والأَدْنَى: إشارة إلى عيش الدنيا، وقولهم: ﴿سَيَغْفِر لَنَا﴾ ذَمٌّ لَهُمْ بِأَغْتِرَارِهِمْ، وقولهم ﴿سَيَغْفِر لَنَا﴾، مع علمهم بما في كتاب الله، مِنَ الوعيد على المعاصي، وإِصْرَارِهِمْ، وَأَنَّهُمْ بِحَالٍ إِذَا أَمَكَّنْتَهُمْ ثَانِيَةً أَرْتَكِبُوهَا، فَهَؤُلَاءِ عَجَزَةٌ؛ كما قال النبي ﷺ: «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(١)، فَهَؤُلَاءِ قَطَعُوا بِالْمَغْفِرَةِ وَهُمْ مُصِرُّونَ، وَإِنَّمَا يَقُولُ: ﴿سَيَغْفِر لَنَا﴾ مَنْ أَقْلَعَ وَنَدِمَ.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ...﴾ الآية: تشديدٌ في لزوم قول الحقِّ على الله في الشَّرْع والأحكام، وقوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ﴾؛ لأنه بمعنى المُضِيِّ، والتقدير: أَلَيْسَ قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ، وَبِهَذَيْنِ الْفَعْلَيْنِ تَقْوَمُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمُ الْبَاطِلَ، وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: «وَأَدَارَسُوا مَا فِيهِ».

ثم وعظ وذكر تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقرأ أبو عمرو: «أَفَلَا يَفْقِلُونَ» - بالياء^(٣) من أسفل - .

(١) أخرجه الترمذي (٦٣٨/٤) كتاب «صفة القيامة» باب: (٢٥)، حديث (٢٤٥٩)، وابن ماجه (١٤٢٣/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٧١٤٣)، وأحمد (١٢٤/٤)، والحاكم (١/٥٧)، وابن المبارك في «الزهد» ص: (٥٦) برقم: (١٧١)، والبيهقي (٣٦٩/٣) كتاب «الجنائز» باب: ما ينبغي لكل مسلم أن يستعمله من قصر الأمل، وفي «شعب الإيمان» (٣٥٠/٧) برقم: (١٠٥٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٣٤١/٧) برقم: (٧١٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٧/١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥٠/١٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» برقم: (١٨٥)، كلهم من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن أوس مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: لا والله، أبو بكر وإي.

(٢) وهي قراءة علي بن أبي طالب كما في «الشواذ» ص: (٥٢).
وينظر: «المحتسب» (٢٦٧/١)، و«المحرر الوجيز» (٤٧٣/٢)، و«البحر المحيط» (٤١٥/٤)، و«الدر المصون» (٣٦٧/٣).

(٣) وقرأ بها حمزة والكسائي، وابن كثير.
ينظر: «حجة القراءات» (٣٠١)، و«المحرر الوجيز» (٤٧٣/٢)، و«البحر المحيط» (٤١٥/٤)، و«الدر المصون» (٣٦٧/٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسْكُونُ بِالْكِتَابِ﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾،
وقرأ عاصم وخده؛ في رواية أبي بكر «يُمَسْكُونُ»^(١) - بسكون الميم، وتخفيف السين -،
وقرأ الأعمش^(٢): «وَالَّذِينَ أَسْتَمْسَكُوا».

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَافِقٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا
فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٧٦) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٧﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٧٩﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، ﴿نَتَّقْنَا﴾: معناه: أقتلغنا
ورفغنا، وقد تقدم قصص الآية في «البقرة»، وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي:
تدبروه وأحفظوا أوامره ونواهيه، فما وقوا.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ الآية، قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ قال النحاة: هو
بدل أستمالي من قوله: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن
النبي ﷺ من طريقي: «أن الله عز وجل أخرج من ظهر آدم عليه السلام نسمة بنيه، ففي
بعض الروايات كالدَّرِّ، وفي بعضها: كالخَزْدَلِ».

وقال محمد بن كعب: إنها الأرواح^(٣) جعلت لها مثالات، وروي عن عبد الله بن
عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَخْذُوا مِنْ ظَهْرِ آدَمَ؛ كَمَا يُؤْخَذُ بِالْمُشِطِ مِنَ الرَّأْسِ»^(٤)،

(١) وقراءة أبي بكر من الإمساك، أي: يأخذون بما فيه من حلال وحرام. وحجته قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا
أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولم يقل: مَسَكْ.
ينظر: «السبعة» (٢٩٧)، و«الحجة» (١٠٢/٤ - ١٠٣)، و«إعراب القراءات» (١/٢١٤)، و«حجة
القراءات» (٣٠١)، و«شرح الطيبة» (٣١٤/٤)، و«العنوان» (٩٨)، و«معاني القراءات» (١/٤٢٨)،
و«شرح شملة» (٣٩٨).

(٢) وقرأ بها عبد الله، كما في «الكشاف» (١٧٥/٢)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٣/٢)، و«البحر
المحيط» (٤١٦/٤)، و«الدر المصون» (٣٦٨/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١١٦/٦) برقم: (١٥٣٨٧)، والسيوطي (٢٥٩/٣).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٢٥٩/٣)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، واللالكائي في «السنة».

وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَقُولًا كَنَمَلَةٍ سَلِيمَانَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ، وَالتَّزَمُوهُ؛ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ سَيَبْعُثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ مُذَكِّرَةً وَدَاعِيَةً، فشهد بعضهم على بعض، وشهد الله عليهم وملائكته^(١) قال الضحَّاك بن مَرْجَم: من مات صَغِيرًا، فهو على الْعَهْدِ الْأَوَّلِ، وَمَنْ بَلَغَ، فَقَدْ أَخَذَهُ الْعَهْدُ الثَّانِي، يعني الَّذِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَعْقُولَةِ الْآنَ.

وقوله / ﴿شَهِدْنَا﴾ يحتملُ أن يكون مِنْ قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ لِبَعْضٍ، فَلَا يَحْسُنُ الْوَقْفُ ٢٠٣ ب على قوله: ﴿بَلَى﴾، ويحتملُ أن يكون قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، فيحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَى﴾.

قال السدي: المعنى: قال الله وملائكته^(٢): شَهِدْنَا ورواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمرَ، عن النَّبِيِّ ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ...﴾ الآية: المعنى: لِئَلَّا تَقُولُوا، أَوْ مَخَافَةً أَنْ تَقُولُوا، والمعنى في هذه الآية: أَنَّ الْكَفَرَةَ لَوْ لَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ عَهْدٌ، وَلَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُذَكِّرٌ بِمَا تَضَمَّنَهُ الْعَهْدُ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، لَكَانَتْ لَهُمْ حُجَّتَانِ:

إحدهما: أَنْ يَقُولُوا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ.

والأخرى: كُنَّا تَبَاعًا لِأَسْلَافِنَا، فَكَيْفَ نَهْلِكُ، وَالذَّنْبُ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ طَرَّقَ لَنَا وَأَضَلَّنَا، فَوَقَعَ شَهَادَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَشَهَادَةُ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، لَتَنْقُطَ لَهُمْ هَذِهِ الْحُجَّةُ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمَخْلُوعِينَ﴾^(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَصَّعُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ^(١٧٧)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾.

(١) أخرجه الطبري (١١١/٦ - ١١٢) برقم: (١٥٣٦٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٥/٢)، وابن كثير (٢/ ٢٦٢)، والسيوطي (٢٦١/٣ - ٢٦٢)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (١١٦/٦) برقم: (١٥٣٨٤)، وذكره ابن عطية (٤٧٦/٢)، والبيهقي (٢/ ٢١٢).

قال ابن عباس: هو رجلٌ من الكِنَعَانِيِّينَ الجَبَّارِينَ، أَسْمُهُ بَلْعَمُ بْنُ بَاغُورَاءَ^(١)، وقيل: بَلْعَامُ بْنُ بَاعِرٍ.

وقيل: غير هذا، وكان في جملة الجَبَّارِينَ الذي غَزَاهُمْ مُوسَى عليه السلام، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْهُمْ مُوسَى، لَجَّؤُوا إِلَى بَلْعَامَ، وَكَانَ صَالِحاً مُسْتَجَابَ الدُّعْوَةِ، وقيل: كان عنده عِلْمٌ مِنْ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَنَحْوِهَا.

وقيل: كان يعلم أَسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ، قاله ابنُ عَبَّاسٍ^(٢) أيضاً، وهذا الخلاف هو في المراد بقوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، فقال له قومه: أَدْعُ اللَّهَ عَلَى مُوسَى وَعَسْكَرِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَكَيْفَ أَدْعُو عَلَى نَبِيِّ مُرْسَلٍ، فَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّى قَتَلُوهُ، فَخَرَجَ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى جَبَلٍ يَرَى مِنْهُ عَسْكَرَ مُوسَى، وَكَانَ قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ: لَا أَفْعَلُ حَتَّى أَسْتَأْمِرَ رَبِّي، فَفَعَلَ، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ نُهَيْتُ، فَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّى قَالَ: سَأَسْتَأْمِرُ ثَانِيَةً، ففعل، فسكت عنه، فأخبرهم، فقالوا له: إِنْ اللَّهُ لَمْ يَدْعُ نَهَيْكَ إِلَّا وَقَدْ أَرَادَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْعَسْكَرِ، جَعَلَ يَدْعُو عَلَى مُوسَى، فَتَحَوَّلَ لِسَانُهُ بِالْدَّعَاءِ لِمُوسَى، وَالْدَّعَاءِ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَقُولُ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَطْلِكُ هَذَا، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ، فَرُوي أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: إِنِّي قَدْ هَلَكْتُ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ إِلَّا الْحِيلَةُ، فَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ إِلَى عَسْكَرِ مُوسَى عَلَى جِهَةِ التَّجَرِّ وَغَيْرِهِ، وَمُرُوءُهُنَّ أَلَّا تَمْتَنِعَ أَمْرَأَةٌ مِنْ رَجُلٍ، فَإِنَّهُمْ إِذَا زَنَوْا هَلَكُوا، ففعلوا، فخرج النساء، فَرَزَنَ بَهْنَ رَجَالًا [مِنْ] بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَجَاءَ فَنَحَاصُ بْنُ الْعِيزَارِ بْنِ هَارُونَ، فَانْتَضَمَ بِرُومِحِهِ أَمْرَأَةٌ وَرَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَفَعَهُمَا عَلَى الرَّمْحِ، فَوَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الطَّاعُونَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ [وَاحِدَةٍ] سَبْعُونَ أَلْفًا، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُعْتَمِرُ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْمُتَسَلِّخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ.

قال المَهْدَوِيُّ: رُوي أَنَّهُ دَعَا عَلَى مُوسَى أَلَّا يَدْخُلَ مَدِينَةَ الْجَبَّارِينَ؛ فَأَجِيبَ، وَدَعَا عَلَيْهِ مُوسَى أَنْ يَنْسَى أَسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ؛ فَأَجِيبَ، وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى صَحَّةِ إِسْنَادٍ، وَ﴿أَنْسَلِخَ﴾: عِبَارَةٌ عَنِ الْبَرَاءَةِ مِنْهَا، وَالْإِنْفِصَالِ وَالْبُعْدِ، كَالْمُنْسَلِخِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْجِلْدِ، وَ﴿أَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، أَيُّ: صَيَّرَهُ تَابِعاً؛ كَذَا قَالَ الطَّبْرِيُّ: إِمَّا لَضَلَالَةٍ رَسَمَهَا لَهُ، وَإِمَّا لِنَفْسِهِ، وَ﴿مِنَ الْعَاوِينَ﴾، أَيُّ: ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، قَالَ ابْنُ

(١) أخرجه الطبري (١١٩/٦) برقم: (١٥٣٩٨، ١٥٤٠١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٧٦/٢)، والبغوي (٢١٣/٢) بنحوه، وابن كثير (٢٦٤/٢)، والسيوطي (٢٦٦/٣)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١٢١/٦) برقم: (١٥٤٢٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٧/٢)، والبغوي (٢١٥/٢).

عباس وجماعة: معنَى «لرفعناه» لشرفنا/ ذكره، ورفعنا منزلته لدينا؛ بهذه الآيات^(١) التي ١٢٠٤ آتيناه، ولكنه أخلد إلى الأرض، أي: تقاعس إلى الحضيض الأسفل الأخس من شهوات الدنيا ولذاتها؛ وذلك أن الأرض وما أرتكن فيها: هي الدنيا وكل ما عليها فإن، ومن أخلد إلى الفاني، فقد حرم حظ الآخرة الباقية.

* ت * قال الهروي: قوله: «أخلد إلى الأرض»: معناه: سكن إلى لذاتها، وأتبع هواه، يقال: أخلد إلى كذا، أي: ركن إليه واطمأن به. انتهى.

قال عَبْدُ الْحَقِّ الإِسْبِيلِيُّ رحمه الله في «العاقبة»: واعلم رحمك الله؛ أن لسوء الخاتمة أعاذنا الله منها أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها: الإكباب على الدنيا، والإعراض عن الآخرة، وقد سَمِعْتُ بقصة بُلْغَامَ بْنِ بَاعُورَاءَ، وما كان آتاه الله تعالى من آياته؛ وأطلعه عليه من بيناته؛ وما أراه من عجائب ملكوته، أخلد إلى الأرض، وأتبع هواه؛ فسلبه الله سبحانه جميع ما كان أعطاه؛ وتركه مع من استماله وأغواه. انتهى.

وقوله: «فمثلته كمثل الكلب»، شبه به في أنه كان ضالاً قبل أن يؤتى الآيات، ثم أوتيها، فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق الله في كل حال؛ هذا قول الجمهور.

وقال السدي وغيره: إن هذا الرجل عُوقِبَ في الدنيا، فإنه كان يلهث كما يلهث الكلب، فشبه به صورة^(٢) وهيئة، وذكر الطبري، عن ابن عباس؛ أن معنى: «إن تخيل عليه»: إن تطرده^(٣).

وقوله: «ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا»، أي: هذا المثل، يا محمد، مثل هؤلاء الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة، ثم جثتهم بها، فبقوا على ضلالتهم، ولم يتففعوا بذلك، فمثلهم كمثل الكلب.

وقوله: «فأقصص القصص»، أي: أسرد عليهم ما يعلمون أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أهل الكتب الماضية ولست منهم؛ «لعلهم يتفكرون» في ذلك؛ فيؤمنوا.

(١) أخرجه الطبري (١٢٥/٦) برقم: (١٥٤٣٦)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٢)، والبغوي (٢١٥/٢ - ٢١٦).

بنحوه، والسيوطي (٢٦٧/٣) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٢٨/٦) برقم: (١٥٤٥٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٢٧/٦) برقم: (١٥٤٤٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٢).

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، القول فيه: أن ذلك كله من عند الله: الهداية منه وبخلقه واختراعه؛ وكذلك الإضلال، وفي الآية تعجيب من حال المذكورين.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، هذا خبر من الله تعالى أنه خلق لسكنى جهنم وألحراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار، «وذراً»: معناه: خلق وأوجد، مع بثّ ونشر.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾ الآية: لما كانت هذه الطائفة الكافرة المغرصة عن النظر في آيات الله، لم ينفعهم النظر بالقلب، ولا بالعين، ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ، استوجبوا الوصف بأنهم لا يفقهون، ولا يبصرون، ولا يسمعون، والفقه: الفهم، ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في أن الأنعام لا تفقه الأشياء، ولا تعقل المقاييس، ثم حكّم سبحانه عليهم بأنهم أضل؛ لأن الأنعام تلك هي بنيتها وخلقتها، وهؤلاء معدون للفهم والنظر، ثم بيّن سبحانه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الطريق الذي به صاروا أضل من الأنعام، وهو الغفلة والتقصير.

قال الفخر^(١): أمّا قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، فتقريه: أن الإنسان وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة؛ الغاذية، والنامية، والمولدة، ومتشاركة أيضاً في منافع الحواس الخمس؛ الباطنة والظاهرة، وفي أحوال التخيل، والتفكير، والتذكر، وإنما حصل ألامتياز بين الإنسان، وسائر الحيوانات؛ في القوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق، فلما أعرض الكفار عن أحوال العقل والفكر، ومعرفة الحق، كانوا كالأنعام، بل هم أضل؛ لأن الحيوانات لا قدرة لها على تخصيل هذه الفضائل، وقد قال حكيم الشعراء: [البسيط]

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/٥٣).

الرُّوحُ مِنْ عِنْدَ رَبِّ الْعَرْشِ مَبْدُوءُهُ وَتُزَيِّنُ الْأَرْضَ أَضْلُ الْجِسْمِ وَالْبَدَنِ
قَدْ أَلْفَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ بَيْنَهُمَا لِيَضْلَحَا لِقَبُولِ الْأَمْرِ وَالْمِحَنِ
فَالرُّوحُ فِي غُرْبَةٍ وَالْجِسْمُ فِي وَطْنٍ فَلَتَعْرِفَنَّ ذِمَامَ النَّازِحِ الْوَطْنِ
انتهى .

وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ الآية: السبب في هذه الآية على ما روي، أن أبا جهل سمع بغض أصحاب النبي ﷺ يقرأ، فيذكر الله تعالى في قراءته، ومرة يذكر الرخمن، ونحو ذلك، فقال: محمّد يزعم أن إلهه واحد، وهو إنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه الآية، ومن أسماء الله تعالى ما ورد في القرآن، ومنها ما ورد في الحديث وتواتر، وهذا هو الذي ينبغي أن يُعتمد عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾، قال ابن زيد: معناه: أتركوهم^(١)، فالآية على هذا منسوخة، وقيل: معناه: الوعيد؛ كقوله سبحانه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [المدر: ١١] و﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣] يقال: أَلَحَدَ وَلَحَدَ بمعنى جَارَ، وَمَالَ، وَأَنَحَرَ، و«أَلَحَدَ»: أشهر؛ ومنه لَحَدُ الْقَبْرِ، ومعنى الإلحاد في أسماء الله عز وجل: أن يسموا اللات نظيرَ اسمِ الله تعالى؛ قاله ابن عباس^(٢)، والعزى نظير العزيز؛ قاله مجاهد^(٣)، ويسمون الله أبا، ويسمون أوثانهم أرباباً.

وقوله سبحانه: ﴿سيعجزون ما كانوا يعملون﴾: وعيد محض.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمَلِّ لَهُمْ إِنَّا كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ * والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، الآية تتضمن الإخبار عن قوم أهل إيمان واستقامة وهداية، وظاهرها، يقتضي كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، ورؤي عن كثير من المفسرين: أنها في أمة نبينا محمد ﷺ، ورؤي في ذلك حديث أن النبي ﷺ

(١) أخرجه الطبري (١٣٣/٦) برقم: (١٥٤٦٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٢/٦) برقم: (١٥٤٦٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨١/٢)، والبغوي (٢١٨/٢)، وابن كثير (٢٦٩/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٧١/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٢/٦) برقم: (١٥٤٦٥)، وذكره ابن عطية (٤٨١/٢)، والبغوي (٢١٨/٢)، وابن كثير (٢٦٩/٢).

قَالَ: «هَذِهِ الْآيَةُ لَكُمْ».

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ الآية وعيد، والإشارة إلى الكُفَّار، و﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ معناه: سنُسوقهم شيئاً بعد شيءٍ ودرجةً بعد درجةٍ؛ بالنَّعم عليهم والإمهال لهم؛ حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقابٌ، وقوله: ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من حيث لا يَعْلَمُونَ أنه أَسْتَدْرَاجٌ لهم، وهذه عقوبةٌ لهم مِنَ اللَّهِ سبحانه عَلَى التَّكْذِيبِ لِمَا حَتَمَ عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ، أَمَلَى لَهُمُ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا.

وقوله: ﴿وَأْمَلِي﴾: معناه: أَوْخَرُ مِلَاوَةً مِنَ الدَّهْرِ، أي: مُدَّةٌ و﴿مَتَيْنِ﴾: معناه: قويٌّ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨١) ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِي لَمْ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ...﴾ الآية: تقريرٌ يقارنه ب٢٠٤ توبيخٌ للكُفَّار، والوقوف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ثم ابتداء القول بنفي ما ذكره، فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ويحتمل أن يكون المعنى: أو لم يتفكروا أنه ما بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ، ويظهر من رصف الآية أنها باعثة لهم على الفكرة في أمره ﷺ وأنه ليس به جِنَّةٌ كما أحالهم بعد هذه الآية على النَّظَرِ.

وقال الفَخْر^(١): قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أمر بالفكر والتأمل والتدبر، وفي اللفظ محذوفٌ، والتقدير: أو لم يتفكروا فيعلموا ما بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ، والجِنَّةُ: حالةٌ مِنَ الْجُنُونِ، كَالْجِلْسَةِ، ودخول «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ ينفي أنواع الجنون. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: النَّظَرُ هنا بِالْقَلْبِ عِبْرَةً وفكراً، و﴿مَلَكُوتٍ﴾: بناءٌ عظيمةٌ ومبالغةٌ.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾: لفظٌ يعُمُّ جميع ما ينظر فيه، ويستدل به من الصنعة الدالة على الصانع، وَمِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَحَوَاسِهِ وَمَوَاضِعِ رِزْقِهِ، وَالشَّيْءُ: واقعٌ على الموجودات، ﴿وَأَنْ عَسَى﴾: عطفٌ على قوله: ﴿فِي مَلَكُوتٍ﴾، والمعنى: توقُّعُهُمْ عَلَى أَنْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ نَظَرٌ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا، ولا في أنهم قَرَّبَتْ آجَالُهُمْ، فمَاتُوا فَقَاتَ أَوَانٌ

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/٦٢).

التَّذَارُكُ، وَوَجِبَ عَلَيْهِمُ الْمَحْذُورُ، ثُمَّ وَقَفَهُمْ «بِأَيِّ حَدِيثٍ» أَوْ أَمْرٍ يَقَعُ إِيمَانُهُمْ وَتَضَدُّيقُهُمْ؛ إِذَا لَمْ يَقَعْ بِأَمْرٍ فِيهِ نَجَاتُهُمْ، وَدَخُولُهُمُ الْجَنَّةَ؛ وَنَحْوُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

وَعَنْ أَيِّ نَفْسٍ دُونَ نَفْسِي أَقَاتِلُ^(١)

والضمير في ﴿بعده﴾ يراد به القرآن.

وقيل: المراد به النبي ﷺ وقصته وأمره أجمع، وقيل: هو عائد على الأجل، أي: بعد الأجل، إذ لا عمل بعد الموت.

وقوله سبحانه: ﴿من يضلل الله فلا هادي له...﴾ الآية: هذا شرط وجواب، مضمته اليأس منهم، والمقت لهم؛ لأن المراد أن هذا قد نزل بهم، والطغيان: الإفراط في الشيء، وكأنه مستعمل في غير الصلاح، والعمة: الخيرة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضُ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يسألونك عن الساعة﴾، قال قتادة: السائلون: هم قريش^(٢).

وقال ابن عباس: هم أحبار اليهود^(٣).

* ت * وفي «السيرة» لابن هشام: أن السائلين من أحبار اليهود: حمل بن أبي قشير، وسموئل بن زيد. انتهى.

والساعة: القيامة موت كل من كان حيًا حينئذ، وبُعث الجميع، و﴿أيان﴾: معناه متى، وهي مبنية على الفتح، قال الشاعر: [الرجز]

(١) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٤٨٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٦/٦) برقم: (١٥٤٧٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨٤/٢)، والبخاري (٢١٩/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٧٤/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٦/٦) برقم: (١٥٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨٤/٢)، والسيوطي (٣/٢٧٤)، وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير، وأبي الشيخ.

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا أَمَا تَرَى لِفَعْلِهَا أَبَانًا^(١)
و﴿مَرْسَاهَا﴾ معناه: مُثَبَّتُهَا وَمُنْتَهَاهَا؛ مأخوذٌ من: أَرْسَى يُرْسِي، فـ «مَرْسَاهَا»: رَفَعَ
بِالْإِتْدَاءِ، والخَبَرُ «أَيَّانَ»، وعِبَارَةُ الْبَخَارِيِّ: ﴿أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾: مَتَى خَرُوجُهَا. انْتَهَى،
و﴿يُجَلِّيْهَا﴾: معناه يُظْهِرُهَا.

وقوله سبحانه: ﴿تُقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قيل: معناه: ثَقُلَ أَنْ تُعْلَمَ وَيُوقَفَ
١٢٠٥ عَلَى حَقِيقَةِ وَقْتِهَا، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: معناه: ثَقُلَتْ هَيْئَتُهَا وَالْفَزَعُ عَلَى أَهْلِ
السَّمَوَاتِ^(٢) وَالْأَرْضِ، ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، أَي: فَجَاءَةً.

وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْمَعْنَى
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ، أَي: مُتَحَفٍّ وَمُهْتَبِلٌ^(٣) بِهِمْ، وَهَذَا يَنْحُو إِلَى مَا قَالَتْ قَرِيشٌ: يَا
مُحَمَّدُ، إِنَّا قَرَابَتُكَ، فَأَخْبِرْنَا بِوَقْتِ السَّاعَةِ.

وقال ابن زَيْدٍ وَغَيْرُهُ: معناه: كَأَنَّكَ حَفِيٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهَا، وَالِاشْتِغَالُ بِهَا، حَتَّى
حَصَلَتْ عِلْمُهَا^(٤).

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥) فِيمَا ذَكَرَ أَبُو حَاتِمٍ: «كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا».

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ الْطَّبْرِيُّ: معناه: لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
هَذَا الْأَمْرَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، بَلْ يَظُنُّ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ الْآيَةُ: هَذَا
أَمْرٌ بِأَنْ يَبَالِغَ فِي الْإِسْتِسْلَامِ، وَيَتَجَرَّدَ مِنَ الْمِشَارَكَةِ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَيْنِيهِ، وَأَنَّ يَصِفَ نَفْسَهُ
لِهَؤُلَاءِ السَّائِلِينَ؛ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ مَنَافِعِ نَفْسِهِ وَمَضَارِّهَا إِلَّا مَا سَأَى اللَّهُ وَشَاءَ وَيَسَّرَ، وَهَذَا

(١) الْبَيْتُ فِي «تَهْذِيبِ الْأَزْهَرِيِّ» (٦٥٣/١٥) [أَي]، وَ«الدَّر الْمَصُون» (٣/٣٧٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٣٧/٦ - ١٣٨) بِرَقْمٍ: (١٥٤٨٥) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٤٨٤)، وَابْنُ الْبُغْيِ (٢/٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٣٩/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٤٩١) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٤٨٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢/٢٧١)، وَالسَّيُوطِيُّ (٣/٢٧٥)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدُودِيَةٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٤٠/٦) بِرَقْمٍ: (١٥٥٠٣) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢/٤٨٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢/٢٧١).

(٥) وَقَرَأَ بِهَا ابْنُ مَسْعُودٍ كَمَا فِي «الشَّوَاذِ» ص: (٥٣).

وَيَنْظُرُ: «الْمَحْتَسِبُ» (١/٢٦٩)، وَ«الْكَشَافُ» (٢/١٨٥) وَ«الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٢/٤٨٤ - ٤٨٥)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤/٤٣٣)، وَ«الدَّر الْمَصُون» (٣/٣٨١).

الاستثناء منقطع، وأخبر أنه لو كان يَعْلَمُ الْغَيْبَ، لعمل بِحَسَبِ ما يَأْتِي، وأَسْتَعِدَّ لكل شيءٍ أَسْتَعْدَادَ مَنْ يَعْلَمُ قَدْرَ ما يَسْتَعِدُّ له، وهذا لفظٌ عامٌ في كل شيءٍ.

وقوله: ﴿وما مسني السوء﴾ يحتمل وجهين، وبكليهما قيل.

أحدهما: أن «ما» معطوفةٌ على قوله: ﴿لاستكثرث﴾ أي: وَلَمَّا مسني السوء.

والثاني: أن يكون الكلامُ مقطوعاً تَمَّ في قوله: ﴿لاستكثرث من الخير﴾ وابتدأ يخبرُ بِنَفْيِ السوءِ عنه، وهو الجنون الذي رَمَوْهُ به.

قال مؤرِّجُ السَّدُوسِيِّ^(١): ﴿السوء﴾ الجنون؛ بدلة هُذِلَ.

* ت *: وأما على التأويل الأول، فلا يريد بـ «السوء» الجنون، ويدرِّجُ الثاني بنحو قوله سبحانه: ﴿ما بصاحبكم من جنةٍ إن هو إلا نذير لكم...﴾ [سبأ: ٤٦] الآية، و﴿لقوم يؤمنون﴾: يحتملُ معنيين:

أحدهما: أن يريد: لقومٍ يُطَلَّبُ منهم الإيمانُ، رهؤلاء الناسُ أجمع.

والثاني: أن يخبر أنه نذير، ويتمُّ الكلام، ثم يبتدئ يخبر أنه بشيرٌ للمؤمنين به، ففي هذا وعدٌ لمن حصل إيمانه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ. فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَبَلاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَبَلاً لَمْ يَشْرَكَهُمَا فَمَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَبَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُظْلَمُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَعْوُنُهُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

وقوله: جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وهو الذي خلقكم من نفس واحدة...﴾ الآية.

قال جمهورُ المفسرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم عليه السلام، وبقوله: ﴿وجعل منها زوجها﴾ حواء، وقوله: ﴿منها﴾ هو ما تقدَّم ذكره مِنْ أَنَّ آدَمَ نام، فَاسْتَخْرِجَتْ قُضْرَى أَضْلَاعِهِ، وَخُلِقَتْ مِنْهَا حَوَاءُ.

(١) مؤرِّج بن عمرو بن الحارث، من بني سدوس بن شيان، أبو فيد: عالم بالعربية والأنساب، من أعيان أصحاب الخليل بن أحمد، من أهل «البصرة». كان له اتصال بالمأمون العباسي، ورحل معه إلى خراسان، فسكن مدة، بـ «مرو»، وانتقل إلى «نيسابور». من كتبه «جماهير القبائل» و«حذف من نسب قريش»، و«غريب القرآن» و«الأمثال» و«المعاني» وله شعر جيد. ينظر: ترجمته في «الأعلام» (٣١٨/٧) (٢٥٦٩).

وقوله: ﴿لَيْسَ كُنْهَ الْإِلَهِ﴾، أي: ليأنس، ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة.

ثم ابتداء بحالة أخرى، وهي في الدنيا بعد هبوطهما، فقال: ﴿فَلَمَّا تَخَشَّاهَا﴾، أي: غشيها، وهي كناية عن الجماع، والحمل الخفيف: هو المنى الذي تحمله المرأة في رحمها.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: أستمرت به، وقرأ ابن عباس: «فَأَسْتَمَرَّتْ بِهِ»، وقرأ ابن^(١) مسعود: «فَأَسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهَا» وقرأ عبد الله بن عمرو بن^(٢) العاص: «فَمَارَتْ بِهِ»، أي: جاءت به، وذهبت، وتصرفت؛ كما تقول: مَارَتْ الرِّيحُ مَوْراً، و﴿أَثْقَلَتْ﴾: دخلت في الثقل، كما تقول: أَصْبَحَ وَأَمْسَى، والضمير في قوله ﴿دَعَوَا﴾، على هذا التأويل: عائد ب ٢٠٥ على آدم وحواء، وروي في قصص ذلك؛ أن الشيطان أشار على حواء، أن تُسَمِّيَ هذا المولود «عَبْدَ الْحَارِثِ»، وهو اسم إبليس، وقال لها: إن لم تفعلني قَتَلْتُه، فزعموا أنهما أطاعاه؛ حزناً على حياة المولود، فهذا هو الشرك الذي جَعَلَ لِلَّهِ، في التسمية قَفْطُ.

وقال الطبري والسدي^(٣) في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كلام منفصل من خبر آدم وحواء، يراد به مشركو العرب^(٤).

* ت *: وينزه آدم وحواء عن طاعتهما لإبليس، ولم أقِفْ بَعْدُ عَلَى صَحَّةِ مَا رُوِيَ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ، وَلَوْ صَحَّ، لَوَجِبَ تَأْوِيلُهُ، نَعَمْ؛ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ سَمُرَةَ بِنِ جُنْدُبٍ^(٥)، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَمَّا حَمَلَتْ حَوَاءُ، طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعْيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ لَهَا: سَمِّهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَسَمَّتهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ ذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٨٦)، و«البحر المحيط» (٤/٤٣٧).

(٢) قال أبو الفتح: والمعنى واحد.

ينظر: «المحتسب» (١/٢٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٨٦)، و«البحر المحيط» (٤/٤٣٧)، وزاد نسبتها إلى الجحدري، وينظر: «الدر المصون» (٣/٣٨٢). وقد نسبها ابن خالويه في «مختصره» ص: (٥٣) إلى ابن أبي عمار.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/١٤٦).

(٤) أخرجه الطبري (٦/١٤٨) برقم: (١٥٥٤٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٤٨٧)، والسيوطي (٣/٢٧٩)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٥) هو: سمرة بن جندب بن هلال بن خريج بن مرة بن حرب بن عمرو بن جابر أبو سليمان الفزاري، سكن «البصرة»، قدمت به أمه المدينة بعد موت أبيه، فتزوجها رجل من الأنصار اسمه: مري بن سنان بن ثعلبة، وكان في حجره إلى أن صار غلاماً، وكان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار كل سنة، فمَرَّ به غلام فأجازه في البعث، وعرض عليه سمرة بعده فردته، فقال سمرة: لقد أجزت هذا وزددتني، ولو صارعت لصرعته قال: فدونكه فصارعته، فصارعته سمرة، فأجازه من البعث. قيل: أجازه يوم أحد، والله أعلم...

وَحِي الشَّيْطَانُ، وَأَمْرِهِ، قال الترمذي: هذا حديث حسن^(١) غريب، انفرد به عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ^(٢)، عن قَتَادَةَ، وعمرُ شَيْخٍ بَصْرِيٍّ. انتهى.

وهذا الحديث ليس فيه أنهما أطاعاه، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: الواجب التوقف، والتتريز لِمَنْ أَجْتَبَاهُ اللَّهُ، وَحُسْنُ التَّأْوِيلِ مَا أَمَكُنْ، وقد قال ابنُ العربي في توهينِ هذا القول وتزييفه: وهذا القول ونحوه مذکور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات التي لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ، ولا يعول عليها مَنْ لَهُ قَلْبٌ، فَإِنَّ آدَمَ وَحَوَاءَ - وَإِنْ كَانَا غَرَّهُمَا بِاللَّهِ الْعَزَّوَزُ - فلا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ، وما كانا بعد ذلك لِيَقْبَلَا لَهُ نُصْحًا، ولا يسمعا له قولاً، والقول الأشبه بالحَقِّ: أن المراد بهذا جنسُ الآدميين. انتهى من «الأحكام».

قال^(٣) ع * * وقوله ﴿صَالِحًا﴾: قال الحَسَنُ: معناه: عَلَامًا^(٤)، وقال ابن عباس؛ وهو الأظهر: بَشَرًا سَوِيًّا^(٥) سليماً.

وقال قومٌ: إنما الغَرَضُ من هذه الآية تعديدُ النعمة في الأزواج، وفي تسهيل النسل والولادة، ثم ذكر سوءَ فَعْلِ المُشْرِكِينَ المُوجِبِ للعقابِ، فقال مخاطباً لجميع الناس: ﴿هو الذي خلقكم مِنْ نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ يريد: آدم وحواء، أي: وأستمرت

توفي قيل: سنة ٥٥٨ هـ، وقيل: ٥٩ هـ ب «البصرة».

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٤٥٤/٢)، «الإصابة» (١٣٠/٣)، «الثقات» (١٧٤/٣)، «الاستيعاب» (٦٥٣/٢)، «الإكمال» (٦٧/٢)، «الأعلام» (١٣٩/٣)، «العبر» (٦٥/١)، «الكاشف» (٤٠٣/١)، «بقي بن مخلد» (٣٥)، «الرياض المستطابة» (١٠٧)، «التاريخ الكبير» (١٧٦/٤)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢٣٩/١)، «التاريخ الصغير» (١٠٦/١ - ١٠٧)، «الوافي بالوفيات» (٦١١/١٥)، «تاريخ جرجان» (٢٣٩)، «التحفة اللطيفة» (١٩٣)، «الطبقات الكبرى» (٨٩/٩)، «سير أعلام النبلاء» (٣/١٨٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧/٥ - ٢٦٨) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة الأعراف»، حديث (٣٠٧٧)، من طريق عمر بن إبراهيم، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه؛ عمر بن إبراهيم شيخ بصري.

(٢) عمر بن إبراهيم العبدي أبو حفص البصري، صاحب الهروي بفتح الهاء. عن قتادة، وعنه ابنه الخليل وعباد بن القوام، وثقه ابن معين في رواية الدارمي، وقال ابن عدي: حديثه عن قتادة مضطرب. ينظر ترجمته في: «الخلاصة» (٢٦٥/٢) (٥١٢٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٦/٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٤٣/٦) برقم: (١٥٥١٧)، وذكره ابن عطية (٤٨٦/٢)، وابن كثير (٢٧٤/٢)، والسيوطي (٢٧٨/٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية (٤٨٦/٢)، وابن كثير (٢٧٤/٢).

حَالِكُمْ واحداً واحداً كذلك، فهذه نعمة يختص كل واحد بجزء منها، ثم جاء قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا...﴾ إلى آخر الآية، وصفاً لحال الناس واحداً واحداً، أي: هكذا يفعلون، فإذا آتاهم الله ولداً صالحاً سليماً كما أرادوه، صرفوه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين.

قال ابن العربي في «أحكامه» وهذا القول هو الأشبه بالحق وأقرب للصدق، وهو ظاهر الآية، وعمومها الذي يشمل جميع متناولاتها، ويسلم فيها الأنبياء عن التقص الذي لا يليق بجهاال البشر، فكيف بساداتهم، وأنبيائهم؟! انتهى، وهو كلام حسن؛ وبالله التوفيق.

وقرأ نافع^(١)، وعاصم؛ في رواية أبي بكر: «شركاً» - بكسر الشين، وسكون الراء -؛ على المصدر، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «شركاء» على الجمع، وهي بينة؛ على هذا التأويل الأخير، وقلقة على قول من قال: إن الآية الأولى في آدم وحواء، وفي مضعف أبي بن كعب^(٢): «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً أَشْرَكَ فِيهِ».

وقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً...﴾ الآية: ذهب بعض من قال بالقول الأول إلى أن هذه الآية في آدم وحواء على ما تقدم، وفيه قلق وتعسف من التأويل/ في المعنى وإنما تنسق هذه الآيات، ويروى نظمها، ويتناصر معناها على التأويل الأخير، فإنهم قالوا: إن الآية في مشركي الكفار الذي يُشْرِكُونَ الأصنام في العبادة، وإياها يراد في قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، وعبر عن الأصنام بـ «هُم»؛ كأنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها؛ وبحسب أسمائها، و﴿يُخْلَقُونَ﴾: معناه: يُنَحَّثُونَ وَيُضَعَّفُونَ، يعني: الأصنام، ويحتمل أن يكون المعنى، وهؤلاء المشركون يُخْلَقُونَ؛ أي: فكان حقهم أن يعبدوا خالقهم، لا من لا يخلق شيئاً، وقرأ أبو عبد الرحمن: «عَمَّا تُشْرِكُونَ»^(٣) بالتاء من فوق «أَتَشْرِكُونَ».

وقوله سبحانه: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْتُمُوهم أم أُنْتُمْ صَامِتُونَ﴾، من قال: إن الآيات في آدم عليه السلام، قال: هذه مخاطبة مستأنفة

(١) ينظر: «السبعة» (٢٩٩)، و«الحجة» (١١١/٤)، و«إعراب القراءات» (٢/٢١٦)، و«حجة القراءات» (٣٠٤)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٧١/٢)، و«العنوان» (٩٨) و«شرح الطيبة» (٤/٣١٨)، و«شرح شملة» (٤٠)، و«معاني القراءات» (١/٤٣١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٤٨٧)، و«البحر المحيط» (٤/٤٣٨).

(٣) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٨٨)، و«البحر المحيط» (٤/٤٣٨)، و«الدر المصون» (٣/٣٨٣).

للنبي ﷺ، وأمته في أمر الكُفَّار المعاصرين للنبي ﷺ وَمَنْ قَالَ بِالْقَوْلِ الْآخَرِ، قال: إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكُفَّار؛ على قراءة مَنْ قرأ: «أُشْرِكُونَ» - بالياء من تحت -، وللکُفَّار فقط على قراءة مَنْ قرأ بالتاء من فوق على جهة التوقيف، أي: هذا حال الأصنام معكم؛ إن دعوتموهم، لم يجيبوكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَيْنَاكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤) أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَيْنَاكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾ الآية مخاطبة للکُفَّار في تحقير شأن أصنامهم، وقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: فأخبروا، فإن لم يستجيبوا، فهم كما وصفنا.

وقوله سبحانه: ﴿أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ الآية. الغرض من هذه الآية ﴿أَلْهَمَ﴾ حواس الحي وأوصافه، فإذا قالوا: «لا»، حكموا بأنها جمادات من غير شك، لا خَيْرَ عندها.

قال الزهراوي: المعنى: أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة؛ فكيف تعبدونهم، ثم أمر سبحانه نبيه عليه السلام أن يعجزهم بقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾، أي: استنجدوهم واستنصروهم إلى إضراري وكَيْدِي، ولا تؤخروني، المَعْنَى: فإن كانوا آلهة، فسيظهر فعلكم، ولَمَّا أحالهم على الاستنجاد بالهتهم في ضَرَره، وأراهم أَنَّ اللَّهَ سبحانه هو الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا تِلْكَ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِالِاسْتِنَادِ إِلَى اللَّهِ سبحانه، والتوكُّلِ عليه، والإعلام بأنه وليه وناصره، فقال: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾؛ إنما تكرر القول في هذا، وتردَّدت الآيات فيه؛ لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً من نفوس العرب في ذلك الزمان، ومستولياً على عقولها، فأوعب القول في ذلك؛ لطفاً منه سبحانه بهم.

وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون...﴾ الآية: قالت فرقة: هذا خطاب

للنبي ﷺ، وأمته في أمر الكُفَّار، والهَاءُ والمِيمُ في قوله: «تدعوهم» للكُفَّار، ووصفهم بأنهم لا يَسْمَعُونَ، ولا يبصرون؛ إذ لم يتحصَّل لهم عن النَّظَرِ والاستماع فائدة؛ قاله مجاهد^(١) والسَّدي^(٢) :

وقال الطبري^(٣): المراد بالضمير المذكور: الأصنام، ووصفهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة؛ ولَمَّا فيها من تخيل النَّظَر؛ كما تقول: دَارَ فُلَانٌ نَظْرًا إِلَى دار فلان.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ الآية: وصية من الله سبحانه لنبيه ﷺ عليه السلام تعم جميع أمته، وأخذ بجميع / مكارم الأخلاق.

قال الجمهور: معنى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفوًا، دون تكلف، فالعفو هنا: الفضل والصفو، قال مكِّي؛ قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ الآية.

قال بعض أهل المعاني، في هذه الآية بيان قول النبي ﷺ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»^(٤)؛ فهذه الآية قد جمعت معاني كثيرة، وفوائد عظيمة، وجمعت كلَّ خُلُقٍ حَسَنٍ؛ لأنَّ في أخذ العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالمعروف نَفْيُ اللّهِ وطاعته، وصلة الرِّجَم، وصون الجوارح عن المحرمات، وسَمَى هذا ونحوه عُرْفًا؛ لأنَّ كلَّ نَفْسٍ تعرفه، وتركنَ إليه، وفي الإعراض عن الجاهلين: الصبر، والجلُم، وتنزيه النفس عن مخاطبة السفه، ومنازعة اللُّجوج، وغير ذلك من الأفعال المرضية. انتهى من «الهداية».

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾: معناه: بكلِّ ما عرفته النفوس ممَّا لا ترثه الشريعة؛ ومن ذلك: «أَنْ تُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَغْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ...» الحديث^(٥)،

(١) أخرجه الطبري (١٥١/٦) برقم: (١٥٥٤٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٩٠/٢)، وابن كثير (٢٧٧/٢) طرفاً منه، والسيوطي (٢٨٠/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٥١/٦) برقم: (١٥٥٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٩٠/٢)، وابن كثير (٢٧٧/٢) بنحوه، والسيوطي (٢٨٠/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥١/٦).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

فَالْعُرْفُ بِمَعْنَى الْمَعْرُوفِ .

وقوله عز وجل: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾، هذه الآية وصية من الله سبحانه لنبيه ﷺ تعم أمته رجلاً رجلاً، والنزغ: حركة فيها فساد قلماً تستعمل إلا في فعل الشيطان؛ لأن حركته مسرعة مفسدة؛ ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسَّلاحِ؛ لَا يَنْزِعَ الشَّيْطَانُ فِي يَدِهِ»، فالمعنى في هذه الآية: فإِذَا تَلَمَّنَ بك لَمَّةً من الشيطان، فاستعذ بالله، وعبارة البخاري: يَنْزِعُكَ: يَسْتَحْفَنُكَ . انتهى .

وَنَزَعَ الشيطان عام في الْعَصَبِ، وتحسين المعاصي، واكتساب الغوائل، وغير ذلك وفي «جامع الترمذي» عن النبي ﷺ قَالَ: «إِنْ لِمَلِكٍ لَمَّةٌ، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ...»^(١) الحديث .

قال * ع^(٢) * : عن هاتين اللَّمَّتَيْنِ: هي الخواطر من الخير والشر، فالآخذ بالواجب يلقي لَمَّةَ الْمَلِكِ بِالْإِمْتِثَالِ وَالْإِسْتِدَامَةِ، وَلَمَّةَ الشَّيْطَانِ بِالرَّفْضِ وَالْإِسْتِعَاذَةِ، وَأَسْتَعَاذَ: معناه: طَلَبَ أَنْ يُعَادَ، وَعَادَ: معناه: لاذَ، وَأَنْصَوَى، وَأَسْتَجَارَ .

قال الفخر^(٣): قال ابن زید: لما نزل قوله تعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ قال النبي ﷺ: «كَيْفَ يَا رَبِّ، وَالْعَصَبُ؟ فَتَزَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾»^(٤)، وقوله: ﴿إنه سميع عليم﴾ يدل على أن الاستعاذة لا تفيد إلا إذا حضر في الْقَلْبِ الْعِلْمُ بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: أَذْكَرُ لَفْظَ الْإِسْتِعَاذَةِ بِلِسَانِكَ؛ فَإِنْ سَمِعَ، وَأَسْتَحْضِرَ معاني الاستعاذة بِعَقْلِكَ وَقَلْبِكَ؛ فَإِنِّي عَلِيمٌ بِمَا فِي صَمِيرِكَ، وفي الحقيقة: القول اللساني دون المعارف العقلية، عديم الفائدة والأثر . انتهى .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٧١﴾﴾
وَلِخَوَانَتِهِمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا...﴾ الآية خَرَجَتْ مَخْرَجَ الْمَدْحِ لِلْمُتَّقِينَ، وَالتَّقَوَى ههنا عامة في اتقاء الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي، وَقَرَأَ ابْنُ ١٢٠٧

(١) تقدم تخريجه .

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٩١) .

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٧٩) .

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٥٥) برقم: (١٥٥٦٤) .

كثير^(١) وغيره: «طَيْفٌ».

قال أبو علي الطائف كالخاطر، والطيف كالخُطرة، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾: إشارة إلى الاستعاذة بالمأمور بها، وإلى ما لله عز وجل من الأوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها، وقرأ ابن الزبير^(٢): «مِنَ الشَّيْطَانِ تَأَمَّلُوا فَإِذَا هُمْ»، وفي مُضَحَف^(٣) أبي بن كعب: «إِذَا طَافَ مِنَ الشَّيْطَانِ طَائِفٌ تَأَمَّلُوا»، وقوله: ﴿مُبْصِرُونَ﴾: من البصيرة، أي: فإذا هم قد تبينوا الحق، ومالوا إليه، والضمير في ﴿إِخْوَانِهِمْ﴾، عائذ على الشياطين، وفي ﴿يَمْدُونَهُمْ﴾ عائذ على الكفار، وهم المراد بـ «الإخوان»، هذا قول الجمهور.

قال * ع^(٤): * : «وَقَرَأَ جَمِيعُ السَّبْعَةِ»^(٥) غير نافع: «يَمْدُونَهُمْ»؛ من مَدَدْتُ، وقرأ نافع: «يَمْدُونَهُمْ»، من أَمَدَدْتُ.

قال الجمهور: هما بمعنى واحد، إلا أن المستعمل في المحبوب «أَمَدٌ»، والمستعمل في المكروه «مَدٌ»، فقراءة الجماعة جارية على المنهاج المستعمل، وقراءة نافع هي مقيدة بقوله: ﴿فِي الْغِي﴾؛ كما يجوز أن تقيد البشارة، فتقول: بَشَّرْتُهُ بِشَرٍّ وَمَدَّ الشَّيَاطِينُ لِلْكَفَرَةِ، أي: ومن نحا نحوهم: هو بالتزيين لهم، والإغواء المتتابع، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾؛ من أَقْصَرَ، والضمير عائذ على الجميع، أي: هؤلاء لا يقصرون عن الإغواء، وهؤلاء لا يُقْصِرُونَ في الطاعة للشياطين.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَذِي رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾، سببها فيما روي أن الوحي

-
- (١) ينظر: «السبعة» (٣٠١)، و«الحجة» (١٢٠/٤)، و«حجة القراءات» (٣٠٥)، و«إعراب القراءات» (١) / (٢١٧)، و«إتحاف» (٧٣/٢)، و«العنوان» (٩٩)، و«معاني القراءات» (٤٣٣/١)، و«شرح الطيبة» (٤) / (٣٢١)، و«شرح شملة» (٤٠٣).
- (٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٢/٢)، و«البحر المحيط» (٤٤٦/٤).
- (٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.
- (٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٣/٢).
- (٥) ينظر: «السبعة» (٣٠١)، و«الحجة» (١٢٢/٤)، و«إعراب القراءات» (٢١٩/١)، و«حجة القراءات» (٣٠٦)، و«إتحاف» (٧٣/٢)، و«معاني القراءات» (٤٣٤/١)، و«شرح الطيبة» (٣٢١/٤)، و«شرح شملة» (٤٠٣)، و«العنوان» (٩٩).

كان يتأخر أحياناً، فكان الكفار يقولون: هَلَا أَجْتَبَيْتَهَا، أي: اخترتها، فأمره الله عز وجل؛ أن يجيب بالتسليم لله، وأن الأمر في الوحي إليه ينزله متى شاء، ثم أشار بقوله: ﴿هذا بصائر﴾ إلى القرآن، أي: علامات هدى، وأنوار تستضيء القلوب به.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ذكر الطبري وغيره؛ أن أصحاب النبي ﷺ كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم، فنزلت الآية أمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة، وأما قول من قال: إنها في الخطبة، فضعيف، لأن الآية مكّية، والخطبة لم تكن إلا بعد الهجرة، وألفاظ الآية على الجملة تتضمن تعظيم القرآن وتوقيره، وذلك واجب في كل حالة، والإنصات: السكوت.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، أي: أعملوا بما فيه، ولا تجاوزوه.

قال ابن العربي في «أحكامه»: روى الترمذي، وأبو داود، عن عبادة بن الصامت، قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَقُلْتُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ، قَالَ: «إِنِّي لَأَرَاكُمْ تَقْرَءُونَ وَرَاءَ إِمَامِكُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَاللَّهِ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا»^(١) وقد روى الناس في قراءة المأمومين خلف الإمام بفاتحة الكتاب أحاديث كثيرة، وأعظمهم في ذلك أهبالاً الدارقطني، وقد جمع البخاري في ذلك جزءاً^(٢)، وكان رأيه قراءة الفاتحة خلف الإمام في الصلاة الجهرية، وهي إحدى روايات مالك، وهو اختيار الشافعي. انتهى، وقد تقدم أول الكتاب ما اختاره ابن العربي.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ...﴾ الآية: مخاطبة للنبي ﷺ، وتعم ٢٠٧ ب جميع أمته، وهو أمر من الله تعالى بذكره وتسبيحه وتقديسه، والثناء عليه بمحامده، والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة اللسان، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: ﴿ودون الجهر من القول﴾، وهذه مرتبة السر، والمخافة.

وقال الفخر^(٣): المراد بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، كونه عارفاً بمعاني

(١) تقدم.

(٢) أسماه القراءة خلف الإمام.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٨٦/١٥).

الأذكار التي يقولها بلسانه، مستحضراً لصفات الجلال والعظمة، وذلك أن الذكر باللسان، إذا كان عارياً عن الذكر بالقلب، كان عديم الفائدة، ألا ترى أن الفقهاء أجمعوا على أن الرجل، إذا قال: بِغَتْ وَأَشْتَرَيْتُ مع أنه لا يعرف معاني هذه الألفاظ، ولا يفهم منها شيئاً، فإنه لا ينقصد البَيْع والشراء، فكذلك هنا، قال المتكلمون: وهذه الآية تدل على إثبات كلام النفس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾، يدل على أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائماً، وألا يغفل الإنسان لحظة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية، وتحقيق القول في هذا أن بين الروح والبدن علاقة عجيبة؛ لأن كل أثر يحصل في البدن ينعكس منه نتائج إلى الروح؛ ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض، ضرس منه، وإذا تخيل حالة مكروهة، أو غضب، سخن بدنه. انتهى. و﴿تضرعاً﴾: معناه: تدللاً وخضوعاً، البخاري: ﴿وخيفة﴾، أي: خوفاً. انتهى.

وقوله: ﴿بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: معناه: دأباً، وفي كل يوم، وفي أطراف النهار، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: تنبيه منه عز وجل، ولما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: جعل بعد ذلك مثلاً من أجتهد الملائكة؛ لِيُبَعَثَ على الجد في طاعة الله سبحانه.

* ت * قال صاحب «الكلم الفارقية»: غفلة ساعة عن ربك مكذرة لمرآة قلبك؛ فكيف بغفلة جميع عمرك. انتهى.

قال ابن عطاء الله رحمه الله: لا تترك الذكر، لعنم حضورك مع الله فيه؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فحسب أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز. انتهى، قال ابن العربي في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: أي: فيما أمرت به، وكلفته، وهذا خطاب له عليه السلام، والمراد به جميع أمته. انتهى.

وقوله: ﴿الَّذِينَ﴾، يزيد به الملائكة:

وقوله: ﴿عند﴾، إنما يريد به المنزل، والتشريف، والقرب في المكانة، لا في المكان، فهم بذلك عنده، ثم وصف سبحانه حالهم؛ من تواضعهم، وإدمانهم العبادة، والتسبيح والسجود، وفي الحديث: «لَطَّيْتُ السَّمَاءَ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعَ شِبْرِ

إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ^(١) وهذا موضع سجدة.

/ قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ عفا الله عنه: كَمُلَ ما أَنْتَخِبْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ، ١٢٠٨
والحمد لله على ما به أنعم، وصَلَّى اللهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

(١) أخرجه الترمذي (٥٥٦/٤) كتاب «الزهد» باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، حديث (٢٣١٢)، وابن ماجه (١٤٠٢/٢) كتاب «الزهد» باب: الحسن والبكاء، حديث (٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢) من طريق مجاهد، عن مورك العجلي عن ابن ذر به.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

سورة الأنفال

مَدِينَةُ كُلِّهَا

قال مجاهد: **إِلَّا آيَةً وَاحِدَةً**، وهي قوله: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾** الآية: ولا خلاف أن هذه السورة نَزَلَتْ في شأن بدر، وأمر غنائمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١)

قوله عز وجل: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾** الآية، الثَّقَلُ والثَّاقِلَةُ، في كلام العرب: الزَّيَادَةُ على الواجب، والأكثر في هذه الآية أَنَّ السؤال إنما هو عَنْ حُكْمِ الْأَنْفَالِ، وقالت فرقة: إنما سأله الأنفالَ نَفْسَهَا؛ محتجّين بقراءة سعد بن أبي وقاص وغيره: **﴿يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ﴾** (١) وعن أبي أمامة الباهلي، قال: سَأَلْتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَنِ الْأَنْفَالِ، فَقَالَ: فِينَا - أَهْلُ بَدْرٍ - نَزَلَتْ، حِينَ اخْتَلَفْنَا، وَسَاءَتْ أَخْلَاقُنَا (٢)، فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا، وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ وَقَسَمَهُ عَلَيْهِ السَّلَام - بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَوَاءٍ - يريد: على سَوَاءٍ - فكان في ذَلِكَ تَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ، وَصَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ.

قال * ع (٣): ويجيء مِنْ مجموع الآثار المذكورة هنا؛ أَنَّ نفوسَ أَهْلِ بَدْرٍ تَنَافَرَتْ، ووقع فيها ما يَقَعُ في نفوس البَشَرِ؛ مِنْ إِرَادَةِ الأَثَرِ، لَا سِيَّمَا مَنْ أَبْلَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَةَ، فَرَضِيَ الْمُسْلِمُونَ، وَسَلَّمُوا، فَأُصْلِحَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَرُدَّ عَلَيْهِمْ غَنَائِمُهُمْ.

(١) وقرأ بها ابن مسعود، وعلي بن الحسين، وأبو جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وطلحة بن مصرف.

ينظر: «الشواذ» ص: (٥٤)، و«المحتسب» (١/٢٧٢)، و«الكشاف» (٢/١٩٥) و«المحرر الوجيز» (٢/٤٩٦)، وزاد نسبتها إلى عكرمة، والضحاك، وعطاء. وينظر: «البحر المحيط» (٤/٤٥٣)، و«الدر المصون» (٣/٣٩٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٢/٤٩٧).

(٣) ينظر «المحرر الوجيز» (٢/٤٩٧).

قال بعض أهل التأويل؛ عكرمة، ومجاهد: كان هذا الحُكْمُ من الله سبحانه ليرفع الشَّعْبَ ثم نُسِخَ بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. وهذا أولى الأقوال وأصحها.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: تصريح بأنه شَجَرَ بينهم اختلافٌ، ومالت النفوس إلى التَّشَاخُ، و﴿ذَاتَ﴾ في هذا المَوْضِعِ يُرَادُ بها نَفْسُ الشَّيْءِ وحقيقته، والذي يُفْهَمُ ﴿من بينكم﴾ هو معنى يعم جميع الوُصُلِ، والالتِحَامَاتِ، والمَوَدَّاتِ، وذات ذلك هو المأمور بإصلاحها، أي: نفسه وعينه، وباقي الآية يَبَيِّنُ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآية، ﴿إِنَّمَا﴾ لفظ لا تُفَارِقُهُ الْمُبَالِغَةُ والتأكيد؛ حيث وقع، ويصلح مع ذلك لِلْحَضَرِ، بحسب القرينة، فقوله هنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط، أي الكاملون.

قال الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدِ الْأَنْصَارِيِّ السَّاحِلِيِّ الْمَالِقِيِّ فِي كتابه الذي أَلْفَهُ فِي «السلوك»: واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه، وتركيتها، وطُرُقُ التزكية وإن كَثُرَتْ، فطريق الذِّكْرِ أسرع نفعاً، وأقرب مَرَاماً، وعليه دَرَجٌ أكثر مشائخ التربية، ثم قال: والذِّكْرُ ضد النسيان، والمطلوب منه عِمَارَةُ الْبَاطِنِ بِاللَّهِ تعالى في كل زمان، ومع كل حال؛ لأن الذِّكْرَ يَدُلُّ على المذكور لا محالة، فذكره ديدناً يوجب المَحَبَّةَ له، والمعرفة به، والذكر وإن اختلف ألفاظه ومعانيه، فلكل معنى [من] معانيه اختصاص بنوع من التَّحْلِيلَةِ والتخلية، والتزكية، ثم قال: والذِّكْرُ على / قسمين: ذكر العامة، وذِكْرُ الْخَاصَّةِ. أما ذِكْرُ ٢٠٨ ب العامة، وهو ذِكْرُ الْأَجُورِ، فهو أن يذكر الْعَبْدُ مَوْلَاهُ بما شاء من ذِكْرِهِ لا يقصد غير الأجور والثواب، وأما ذكر الْخَاصَّةِ، فهو ذِكْرُ الْحُضُورِ، وهو أن يذكر الْعَبْدُ مَوْلَاهُ بِأَذْكَارِ مَعْلُومَةٍ، على صفة مَخْصُوصَةٍ؛ لينال بذلك الْمَعْرِفَةَ بِاللَّهِ سبحانه بطهارة نَفْسِهِ من كل خُلُقٍ دَمِيمٍ، وتحليتها بكل خُلُقٍ كريم. انتهى.

و﴿وجلت﴾: معناه: فَرِغَتْ، وَرَقَّتْ، وخافت، وبهذه المعاني فسرتها الْعُلَمَاءُ.

و﴿تليت﴾ معناه: سُرِدَتْ، وقرئت، والآيات هنا: القرآن المثلَّو.

ومن كلام صاحب «الكلم الفارقة»: إِنْ تَبَقَّظْتَ يَقْظَةً قَلْبِيَّةً، وَانْتَبَهْتَ أَنْتِبَاهَةً حَقِيقَةً لَمْ تَرِ فِي وَفِّكَ سَعَةً لَغَيْرِ ذِكْرِ رَبِّكَ، واستشعار عظمته، ومهابته، والإقبال على طاعته، ما في

وَقَتِ الْعَاقِلُ فَضْلَةً فِي غَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ خَالِقِهِ، وَالْإِهْتِمَامِ بِمَصَالِحِ آخِرَتِهِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِمَعَادِهِ، أَعْرِفَ الْعَبِيدَ بِجَلَالِ مَوْلَاهُ أَخْلَاهُمْ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَكْثَرَهُمْ لَهْجًا بِذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمًا لَأَمْرِهِ، وَأَحْسَنَهُمْ تَأْمُلًا لِآثَارِ صُنْعَتِهِ، وَبِدَائِعِ حِكْمَتِهِ، وَأَشْدَّهُمْ شَوْقًا إِلَى لِقَائِهِ، وَمُشَاهَدَتِهِ أَنْتَهَى.

وزيادة الإيمان على وجوه كلها خَارِجٌ، عَنْ نَفْسِ التَّصَدِيقِ: مِنْهَا أَنْ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ لَمْ يَسْمَعْ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ، فَتَنَزَّلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَهُ، فَأَمِنَ بِهِ، زَادَ إِيمَانًا إِلَى سَائِرِ مَا قَدْ آمَنَ بِهِ؛ إِذْ لِكُلِّ حُكْمٍ تَصَدِيقٌ خَاصٌّ، وَهَذَا يَتَرْتَّبُ فِيْمَنْ بَلَغَهُ مَا لَمْ يَكُنْ عَنْده مِنَ الشَّرْعِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَتَرْتَّبَ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِزِيَادَةِ الدَّلَائِلِ، وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَيَتَرْتَّبُ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ الْبَرَّةِ عَلَى قَوْلٍ مِنْ يَرَى أَنَّ لَفْظَةَ الْإِيمَانِ وَاقِعَةٌ عَلَى التَّصَدِيقِ وَالطَّاعَاتِ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عبارة جامعة لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِذَا اعْتَبَرْتَ، وَعَمِلَ بِحَسَبِهَا فِي أَنْ يَمْتَثِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَبْلُغَ فِي ذَلِكَ أَفْصَى جَهْدِهِ دُونَ عَجْزٍ، وَيَنْتَظِرُ بَعْدَ مَا وَعَدَ بِهِ مِنْ نَصْرِ، أَوْ رِزْقٍ، أَوْ غَيْرِهِ، وَهَذِهِ أَوْصَافٌ جَمِيلَةٌ وَصَفَ اللَّهُ بِهَا فَضْلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَجَعَلَهَا غَايَةً لِلْأُمَّةِ يَسْتَبِقُ إِلَيْهَا الْأَفْاضِلُ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ وَعَدَهُمْ وَوَسَّعَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَمَدَحَهُمْ بِهَا حَضًّا عَلَى ذَلِكَ.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هِيَ الزَّكَاةُ وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ اقْتِرَانُ الْكَلَامِ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا فَهُوَ لَفْظٌ عَامٌّ فِي الزَّكَاةِ، وَنَوَافِلِ الْخَيْرِ، وَصِلَاتِ الْمُسْتَحَقِّينَ، وَلَفْظُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُحْتَمَلٌ.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ ظَاهِرُهُ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ مَرَاتِبُ الْجَنَّةِ، وَمَنَازِلُهَا، وَدَرَجَاتُهَا عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يَرِيدُ مَأْكِلَ الْجَنَّةِ، وَمَسَارِبَهَا، وَ﴿كَرِيمٌ﴾ صِفَةُ تَقْتَضِي رَفْعَ الْمَدَامِ، كَقَوْلِهِ: ثَوْبٌ كَرِيمٌ.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٥﴾ يُجَدِّدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ...﴾ الآية: اختلف في معنى

١٢٠٩ هذه الآية، فقال القراء: التقدير افض لأمرِك/ في الغنائم، وإن كرهوا كما أخرجك ربُّك.

قال ع^(١): * وتحرير هذا المعنى عندي أن يقال: هذه الكاف شَبَّهَتْ هَذِهِ الْقِصَّةَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٢/٢).

التي هي إخراجُه من بيته بالقِصَّةِ المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، كأنهم سألوا عن الثفل، وتشاجروا، فأخرج الله ذلك عنهم، فكانت فيه الخيرة، كما كرهوا في هذه القصة انبعاث النبي ﷺ فأخرجه الله من بيته، فكانت في ذلك الخيرة، وعلى هذا التأويل يُمكن أن يكون قوله: ﴿يجادلونك﴾ كلاماً مُستأنفاً يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها، كأنما يساقون إلى الموت في الدُّعاء إلى الإيمان، وهذا الذي ذكرت من أن ﴿يجادلونك﴾ في الكفار منصوص.

وقال مجاهد وغيره: المعنى في الآية: كما أخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم، كذلك يُجَادِلُونكَ في قتال كفار «مكة»، ويؤدون غير ذات الشؤكة من بعد ما تبين لهم أنك إنما تفعل ما أمرت به لا ما يريدون^(١) هم، وقائل هذه المقالة يقول: إن المجادلين هم المؤمنون، وقائل المقالة الأولى يقول: إن المُجَادِلِينَ هم المشركون، وهذان القولان يتم بهما المعنى، ويحسن رصف اللفظ.

وقيل غير هذا.

وقوله: ﴿من بيتك﴾ يريد من «المدينة» «يثرب» قاله الجمهور.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّدُ مَا بَالِغٌ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرْسِدٌ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا نَظْمِينَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ...﴾ الآية: في هذه الآية قَصَصٌ حَسَنٌ، محل استيعابه «كتاب سيرة رسول الله ﷺ» لابن هشام، واختصاره: أن رسول الله ﷺ لما بلغه، وقيل: أوحى إليه أن أبا سُفْيَانَ بن حَرْبٍ، قد أقبل من «الشام» بالعبير التي فيها تجارة قُرَيْشٍ وأموالها قال لأصحابه: إن عير قريش قد عثت لكم، فأخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها. قال: فانبعث معه من خف، وثقل قوم، وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله ﷺ لا يلوي على من تعذر، ولا ينظر من غاب ظهره، فسار في ثلاث

(١) أخرجه الطبري (٦/ ١٨٠ - ١٨١) برقم: (١٥٧١٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/ ٥٠٢)، وابن كثير (٢/ ٢٨٧) بنحوه، والسيوطي (٣/ ٣٠٠)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

مائة وثلاثة عشر، أو نحو ذلك من أصحابه بين مُهاجِرِيٍّ وَأَنْصَارِيٍّ، وقد ظَنَّ الناس بأجمعهم أن رسول الله ﷺ لا يلقي حَرْباً، فلم يكثر اسْتِغْذَاؤُهُمْ، وكان أبو سُفْيَانٍ في خلال ذلك يَسْتَفْصِي، ويحذر، فلما بلغه خُرُوجُ رسول الله ﷺ بعث ضَمُضَمَ بْنَ عَمْرِو الغفاري إلى «مكة» يَسْتَنْفِرُ أَهْلَهَا، ففعل ضمضم، فخرج أهل «مكة» في ألف رَجُلٍ، أو نحو ذلك، فلما بلغ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خروجهم أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَخِياً غير مَثْلُو يَعْذُهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، فَعَرَفَ رسول الله ﷺ أصحابه بذلك، فَسَرُوا، وَوَدُّوا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْعِيْرُ التي لا قِتَالَ معها، فلما علم أبو سفيان بِقُرْبِ رسول الله ﷺ منه أخذ طَرِيقَ السَّاحِلِ، وأبعد وفات، ولم يبق إلا لقاء أهل «مكة»، وأشار بعض الكُفَّارِ على بَعْضِ الْأَنْصَارِ، وقالوا: هذه عَيْرُنَا قد نَجَتْ، فلننصرف/ فحرش^(١) أبو جهل وَلَجٌ، حتى كَانَ أَمْرُ الْوَاقِعَةِ. وقال بعض المؤمنين: نحن لم نخرج لِقِتَالٍ، ولم نَسْتَعِذْ لَهُ، فجمع رسول الله ﷺ أَصْحَابَهُ، وهو بَوَادٍ يَسْمَى «ذَقْرَان» وقال: أَسِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فقام أبو بَكْرٍ، فتكلم، وأحسن، وَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ، فأعاد رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الاسْتِشَارَةَ، فَقَامَ عُمَرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فأعاد رسول الله ﷺ الاسْتِشَارَةَ، فتكلم المَقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكَنْدِيُّ^(٢)، فقال: لا نقول لك يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، ولكن نَقُولُ: إِنَّا مَعَكُمْ مَقَاتِلُونَ، وَاللَّهُ لَوْ أَرَدَتْ بَنَا بَرَكِ الْغَمَادِ يَعْنِي مَدِينَةَ «الْحَبِشَةِ» لَقَاتَلْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهَا، فسر رسول الله ﷺ بكلامه، ودعا له بخير، ثم قال: أَسِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فكلمه سعد بْنُ مُعَاذٍ، وقيل: سعد بن عبادَةَ، ويحتمل هما معاً؛ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ إِيَّانَا تُرِيدُ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، فقال النبي ﷺ: أَجَلْ، فقال: إِنَّا قَدْ آمَنَّا بِكَ، وَاتَّبَعْنَاكَ،

(١) التحريش: الإغراء بين القوم.

ينظر: «لسان العرب» (٨٣٤).

(٢) هو: المقداد بن عمرو (الأسود الكندي) بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود بن عمرو بن سعد... أبو الأسود البهراوي.

الشهرة: المقداد بن الأسود الكندي، قال ابن حجر: أسلم قديماً وتزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، وكان فارساً يوم بدر حتى أنه لم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره، وروى المقداد عن النبي أحاديث كثيرة، توفي سنة ٣٣ في خلافة عثمان وله ٧٠ سنة.

ينظر: «الثقات» (٣/٣٧١)، «أسد الغابة» (٥/٢٥١)، «التاريخ الصغير» (١/٨٣)، «معجم الثقات» (١٢٣)، «الاستبصار» (١٤٥، ٢٠٨)، «تقريب التهذيب» (٢/٢٧٢)، «المنق» (٤٥٣، ٥١٣، ٥١٤)، «تراجم الأخبار» (٣/٣٥١، ٣٧٠)، «الإصابة» (٦/١٣٣)، «الأعلام» (٧/٢٨٢)، «أصحاب بدر» (٨٥)، «تجريد أسماء الصحابة» (٢/٩٢)، «الجرح والتعديل» (٨/٤٢٦)، «الطبقات» (١٦/١٢٠).

وَبَايَعْنَاكَ، فامض لأمر الله، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، فقال النبي ﷺ: «امضوا على بركة الله، فكأنني أنظر إلى مصارع القوم» فالتقوا وكانت وقعة بدر.

* ت * : وفي «صحيح البخاري» من حديث عائشة، في خروج أبي بكر من «مكة» فلقه ابن الدغنة عند برك الغماد^(١) الحديث، وليست بمدينة «الحبشة» من غير شك. فالله أعلم، ولعلمهما موضعتان. انتهى.

و﴿الشُّوْكَةُ﴾ عبارة عن السِّلَاحِ والِحِدَّةِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ المعنى: ويريد الله أن يظهر الإسلام، ويعلي دعوة الشَّرع بكلماته التي سَبَقَتْ في الْأَزَلِّ، والدابر الذي يدبر القوم، أي يأتي آخرهم، وإذا قطع فقد أتى على آخرهم بشرط أن يبدأ الإهلاك من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الهلاك عليه.

وقوله سبحانه: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي: ليظهر الحق الذي هو دين الإسلام، و﴿يَبْطُلُ الْبَاطِلُ﴾، أي: الكفر، و﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ معناه: تَطْلُبُونَ الْغَوْثَ، و﴿مَمْدُكُم﴾ أي: مكثركم، ومقويكم من: أَمْدَدْتُ، و﴿مُرْدِفِينَ﴾ معناه: متبعين.

وقرأ سائر السبعة^(٢) غير نافع: «مردفين» - بكسر الدال -، ونافع بفتحها، وروي عن ابن عباس: خَلَفَ كُلُّ مَلِكٍ مَلِكًا^(٣)، وهذا معنى التتابع، يقال: رَدَفَ وَأَزْدَفَ؛ إذا اتبع، وجاء بعد الشيء، ويحتمل أن يُرَادَ مُرْدِفِينَ للمؤمنين، ويحتمل أن يُرَادَ مردفين بعضهم بعضاً، وأنشد الطبري^(٤) شَاهِدًا على أن أَزْدَفَ بمعنى جاء تَابِعًا قَوْلَ الشاعر: [الوافر]

إِذَا الْجَوْرَاءُ أَزْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا^(٥)
والثريّا تطلع قبل الجوراء.

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥/٤ - ٥٥٦) كتاب «الكفالة» باب: جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، حديث (٢٢٩٧).

(٢) ورويت عن أبي عمرو كما في «الكشاف» (١/٢ - ٢)، و«المحرر الوجيز» (٥٠٤/٢)، و«البحر المحيط» (٤٦٠/٤)، و«الدر المصون» (٣٩٨/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٨٩/٦) برقم: (١٥٧٥٨)، وذكره ابن عطية (٥٠٤/٢)، وابن كثير (٢٩٠/٢)، والسيوطي (٣١٠/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩٠/٦).

(٥) البيت لخزيمة بن مالك. ينظر: «تفسير الطبري» (١٩٠/٦)، وينظر: «اللسان» (ردف)، و«الدر المصون» (٤٠٠/٣).

وروي في «الصحيح»: الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر.

واختلف في غيره؛ قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر؛ أنه حدث عن ابن عباس، أنه قال: حدثني رجل من بني غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى صعدنا في جبل يُشرف بنا على بدر، ونحن مشرکان ننتظر الوقعة على من تكون، فَنُتْهِبُ مع من يَنْتْهِبُ. قال: فبينما نحن في الجبل، إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمممة الخيل، / فسمعت قائلاً يقول: أقدم خيزوم، فأما ابن عمي، فانكشف قناع قلبه، فمات مكانه، وأما أنا فكذت أهلك، ثم تماسكت^(١).

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة عن أبي سعيد مالك بن ربيعة، وكان شهد بدرًا، قال بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر، ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى. انتهى من «سيرة ابن هشام».

وقوله سبحانه: ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم﴾ الضمير في «جعله» عائذ على الوعد، وهذا عندي أمكن الأقوال من جهة المعنى.

وقيل: عائذ على المدد، والإمداد.

وقيل: عائذ على الإرداف.

وقيل: عائذ على الألف، وقوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾ توقيف على أن الأمر كله لله وأن تكسب المزم لا يغني، إذا لم يساعده القدر، وإن كان مطلوباً بالجد، كما ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُزِيلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِيحَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَنِيَّتُوا اللَّيْلَ آمَنُوا سَالَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمانة منه﴾. القصد تعديد نعيمه سبحانه على

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٢/٢٩٦) ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (٢/٤٥٣)، وذكره ابن كثير في «البدية والنهاية» (٣/٢٧٩ - ٢٨٠).

المؤمنين في يوم بَدْرٍ، والتقدير: اذكروا إذ فعلنا بكم كذا، وإذ فعلنا كذا، والعامل في «إذ» «اذكروا» وقرأ نافع: «يُغْشِيكُمْ» - بضم ^(١) الياء، وسكون الغين - وقرأ حمزة وغيره: «يُغْشِيَكُمْ» - بفتح الغين وَشَدَّ الشين المكسورة، وقرأ بن كثير وغيره: «يُغْشَاكُمْ» - بفتح الياء وألف بعد الشين - «التَّعَاسُ» بالرفع، ومعنى «يغشيكُم»: يغطيكم، والتَّعَاسُ أَخَفُّ النوم، وهو الذي يصيب الإنسان، وهو واقف أو ماشٍ، وينص على ذلك قَصَصُ هذه الآية؛ أنهم إنما كان بهم خَفَقُ الرُّؤُوسِ، وقوله: «أَمَنَّا» مصدر من أَمِنَ يَأْمُنُ أَمْنًا وَأَمَنَةً وَأَمَانًا، والهاء فيه لتأنيث المصدر، كما هي في الْمَسَاءَةِ وَالْحَمَاقَةِ وَالْمَسَقَّةِ.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: التَّعَاسُ عند حضور القتالِ عَلَامَةٌ أَمِنَ، وهو من الله، وهو في الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ ^(٢).

قال ع ^(٣) * : وهذا إنما طريقه الْوَحْيُ، فهو لا مَحَالَةَ يسنده وقوله سبحانه: ﴿وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾. وذلك أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِحَقَّتْهُمْ جَنَابَاتٌ فِي سَفَرِهِمْ، وَعَدَمُوا الْمَاءَ قَرِيبَ بَدْرٍ، فَصَلُّوا كَذَلِكَ، فَزَسَّ الشَّيْطَانُ فِي نَفُوسِ بَعْضِهِمْ مَعَ تَخْوِيفِهِ لَهُمْ مِنْ كَثَرَةِ الْعَدُوِّ وَقِلَّتِهِمْ، وَأَيْضًا فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَاءِ بَدْرٍ مَسَافَةٌ، مِنْ رَمَلٍ دَهَسٍ ^(٤) تَسْوُخٌ ^(٥) فِيهَا الْأَزْجُلُ، فَكَانُوا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَسْبِقَهُمُ الْكُفَّارُ إِلَى مَاءِ بَدْرٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تِلْكَ الْمَطَرَةَ فَسَالَتِ الْأَوْدِيَةُ، فَاعْتَسَلُوا، وَطَهَّرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَذَهَبَ رِجْزُ الشَّيْطَانِ، وَتَدَمَّتْ ^(٦) الطَّرِيقُ، وَتَلَبَّدَتْ ^(٧) تِلْكَ الرَّمَالُ، فَسَهَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ السَّيْرَ، وَأَمَكْنَهُمُ الْإِسْرَاعَ

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠٤)، «الحجة» (١٢٥/٤)، «إتحاف فضلاء البشر» (٧٧/٢)، «حجة القراءات» (٣٠٨)، «إعراب القراءات» (٢٢٢/١)، «النشر» (٢٧٦/٢)، «شرح الطيبة» (٣٢٤/٤)، و«شرح شعلة» (٤٠٥)، و«معاني القراءات» (٤٣٧/١).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٢/٦) برقم: ١٥٧٧١ - ١٥٧٧٢ - ١٥٧٧٣، وذكره ابن عطية (٥٠٦/٢)، والبغوي (٢٣٤/٢)، وابن كثير (٢٩١/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٦/٢).

(٤) رمل أدهس بَيَّنَّ الدَّهَسَ، والدَّهَاسُ مِنَ الرَّمْلِ: مَا كَانَ كَذَلِكَ، لَا يَنْبَتُ شَجَرًا، وَتَغَيَّبَ فِيهِ الْقَوَائِمُ... وقيل: مَا سَهْلٌ وَلَا نِجْلٌ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَكُونَ رَمْلًا.

ينظر: «لسان العرب» (١٤٤١)، و«النهاية» (١٤٥/٢).

(٥) أي: غاصت في الأرض. ينظر: «اللسان» (٢١٤١).

(٦) الدَّمَتْ: السَّهُولُ مِنَ الْأَرْضِ، الْوَاحِدَةُ دَمِيَّةٌ، وَهُوَ أَيْضًا الْمَكَانُ اللَّيِّنُ ذُو رَمَلٍ، وَدَمَّتْ الشَّيْءُ: إِذَا مَرَسَهُ حَتَّى يَلِينُ.

ينظر: «لسان العرب» (١٤١٨ - ١٤١٩).

(٧) أي: صارت قوية لا تسوخ فيها الأرجل.

ينظر: «لسان العرب» (٣٩٨٤).

حتى سبقوا إلى ماء بذر، وأصاب المشركين من ذلك المطر ما صعب عليهم طريقهم، فسر المؤمنون، وتبينوا من فعل الله بهم ذلك قصد المعونة لهم، فطابت نفوسهم، واجتمعت، وتنجست، فذلك الربط على قلوبهم، وتثبت أقدامهم على الرملة اللينة.

والضمير في «به» على هذا الاحتمال عائد على الماء، ويحتمل عودته على ربط القلوب، ويكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحزب، ونزول الماء كان في الزمن قبل تغشية الناس، ولم يترتب كذلك في الآية، إذ القصد فيها تعديد النعم فقط.

وقوله سبحانه: ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ وتثبيتهم يكون بقتالهم، وبحضورهم، وبأقوالهم المؤنسة، ويحتمل أن يكون التثبيت بما يلقيه الملك في القلب بلمته من توههم الظفر، واحتقار الكفار، وبخاطر تشجعه.

قال ع^(١): * ويقوي هذا التأويل مطابقة قوله تعالى: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ وعلى هذا التأويل يجيء قوله: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ مخاطبة للملائكة، ويحتمل أن يكون مخاطبة للمؤمنين. وقوله سبحانه: ﴿فأضربوا فوق الأعناق﴾ قال عكرمة: هي على بابها، وأراد الرؤوس^(٢)، وهذا أنبل الأقوال.

قال ع^(٣): * ويحتمل عندي أن يريد وصف ضربات العنق وأحكامها، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق دون عظم الرأس في المفصل، كما وصف دريد بن الصمة^(٤)، فيجيء على هذا فوق الأعناق متمكناً.

والبيان: قالت فرقة: هي المفاصل؛ حيث كانت من الأعضاء.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٧/٦) برقم: (١٥٨٠٠) نحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٨/٢)، والبغوي (٢٣٥/٢)، والسيوطي في «الدر المشور» (٣١٣/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٨/٢).

(٤) دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن: شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها، وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية «يوم حنين»، وكانت هوازن خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته معها تيمناً به، وهو أعمى، فلما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله، له أخبار كثيرة، والصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث.

ينظر ترجمته في: «الأعلام» (٣٣٩/٢) (٤١٦٤).

وقال فرقة: البنان الأصابع، وهذا هو الصحيح؛ لأنه إذا قطع البنان لم ينتفع صاحبه بشيء من أعضائه واستأسر.

و﴿شاقوا﴾: معناه خالفوا ونابذوا، وقطعوا، وهو مأخوذ من الشق، وهو القطع والفضل بين شيئين، وعبر المفسرون عن قوله: ﴿شاقوا﴾ أي: صاروا في شق غير شقه.

قال * ع^(١) *: وهذا وإن كان معناه صحيحاً، فتنحيز الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه، وقوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ جواب للشرط، تضمن وعيداً وتهديداً.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (١٥) ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنٍ فَإِنَّهُ بِكُفْرِهِمْ مِنْكُمْ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦)

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم فذوقوه﴾ المخاطبة للكفار، أي ذلكم الضرب والقتل، وما أوقع الله بهم يوم بدر، فكانه قال: الأمر ذلكم فذوقوه، وكذا قرره سيويه.

وقال بعضهم: يحتمل أن يكون «ذلكم» في موضع نصب، كقوله: زيداً فاضربه، وقوله سبحانه: ﴿يأيتها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً...﴾ الآية: ﴿زحفاً﴾ يراد به متقابل الصفوف والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأصل الزحف الاندفاع على الألية، ثم سمي كل ماشٍ إلى آخر في الحرب رؤيداً زاحفاً، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف، وفي هذا المعنى شواهد من كلام العرب، ونهى الله سبحانه في هذه الآية عن تولي الأذبار، وهذا مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين، والفرار هنالك كبيرة موبقة بظاهر القرآن، والحديث، وإجماع الأكثر من الأمة.

وقوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره...﴾ الآية. قال جمهور الأمة: الإشارة بـ﴿يومئذ﴾ إلى يوم اللقاء الذي يتضمنه قوله: ﴿إذا لقيتم﴾ وحكم الآية باقي إلى يوم القيامة، بشرط الضعف الذي بيّنه الله سبحانه.

* ت *: قال ابن رشد: وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، فإن بلغ ١٢١١ حرم الفرار، وإن زاد المشركون على الضعف للحديث «لن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»، فإن أكثر أهل العلم خصصوا بهذا الحديث عموم الآية.

وعن مالك مثله. انتهى.

وفهم * ع^(١) : الحديث على التَّعَجُّبِ، ذكره عند قوله: ﴿ويوم حنين﴾ [التوبة: ٢٥]، وما قاله ابنُ رشيد هو الصواب. والله أعلم.

و﴿متحرفاً لقتال﴾ يراد به الذي يَرَى: أن فعله ذلك أنكى للعدو، ونصبه على الحال، وكذلك نصب ﴿متحيزاً﴾، وأما الاستثناء، فهو من المولين الذين تضمنهم «من».

والفئة هنا الجماعةُ الحاضرة لِلْحَرْبِ، هذا قول الجمهور.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَئِنْ حَسِبْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدُجَاءُكُمْ الْفِتْنَةُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدٌ وَلَنْ تُنْفَى عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ هذه الألفاظ ترد على من يزعم أن أفعال العباد خلقت لهم، ومذهب أهل السنة أنها خلق للرب سبحانه كسب للعبد؛ روي أن النبي ﷺ أخذ يومئذ ثلاث قبضاتٍ من حصي وتراب، فرمى بها في وجوه القوم، فانهزموا عند آخر رمية، ويروى أنه قال يوم بدر: «شَهِتِ الْوُجُوهُ»^(٢) وهذه الفعلة أيضاً كانت يوم «حُتَيْن» بلا خلاف.

و﴿ليلي المؤمنين﴾ أي: ليصيبهم ببلاء حسن، وظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة، والظفر، والعزة.

﴿إن الله سميع﴾ لاستغاثتكم، ﴿عليم﴾ بوجوه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو.

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتل الله لهم، ورميه إياهم، وموضع ﴿ذلكم﴾ من الإعراب رفع.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٠٣، ٣٦٨)، والحاكم (٣/١٥٧)، وابن حبان (٢٥٠٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٤٠/٦) من طريق ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وصححه الحاكم وابن حبان. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٢٢٨)، وقال: رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما: رجال الصحيح.

قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم، و﴿موهن﴾ معناه مضعف مبطل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ...﴾ الآية: قال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة لكفار «مكة»؛ روي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حِمَاةِ الْعَبِيرِ، تعلقوا بأستار الكعبة، واستفتحوا، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر: اللهم أَنْصُرْ أَحَبَّ الْفَتَنِ إِلَيْكَ، وأظهر خَيْرَ الدِّينَيْنِ عندك، اللهم أَفْطِنَا لِلرَّحِمِ فَأَخِيهِ الْغَدَاةَ، ونحو هذا فقال الله لهم: إِنْ تَطْلُبُوا الْفَتْحَ فَقَدْ جَاءَكُمْ، أي: كما ترونه عليكم لَا لَكُمْ، وفي هذا توبيخ لهم، وَإِنْ تَنْتَهُوا عَنْ كُفْرِكُمْ وَغِيكُم فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا لِلِاسْتِفْتَاكِ نَعُدُّ بِمِثْلِ وَقْعَةٍ بِدَرْ، وباقِي الآية بَيِّنٌ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية: قيل: إنها نزلت بسبب اختلافهم في الثَّغْلِ، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج النبي ﷺ، و﴿تولوا﴾ أصله: تتولوا.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ يريد دُعَاءَهُ لَكُمْ بِالْقُرْآنِ وَالْمَوَاعِظِ.

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار؛ إما من قريش لقولهم: ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، وإما الكفار على الإطلاق.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمُ﴾ مَقْصِدُ الْآيَةِ بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ الصَّنِيفَةَ الْعَاتِيَةَ مِنَ الْكُفَّارِ هِيَ شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ سبحانه وَأَنَّهَا فِي أَحْسَنِ الْمَنَازِلِ لَدَيْهِ، ٢١١ ب وعبر بالدواب ليتأكد ذمهم، وقوله: ﴿الصَّمُّ الْبِكْمُ﴾ عبارة عما في قلوبهم، وعدم انشراح صدورهم، وإدراك عقولهم.

وقوله: ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي سماع هدى، وَتَقَهُمْ، و﴿ولو أسمعهم﴾ أي: ولو فهمهم ﴿لتولوا﴾ بحكم القضاء السابق فيهم، ولأعرضوا عما تبين لهم من الهدى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ. وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُعْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَاتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَتَأْتِيَكُمْ بُرْصُهُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِمْ وَزَادَكُمْ مِنْ الْطِينِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾ الآية: ﴿استجيبوا﴾ بمعنى: أجبوا وقوله: ﴿لما يحييكم﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى للطاعة^(١)، وما يتضمنه القرآن، وهذا إحياء مستعار؛ لأنه من مَوْتِ الكفر والجهل، والطَّاعَةُ تؤدي إلى الْحَيَاة الدائمة في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿واعلموا أن الله يَحُولُ بين المرء وقلبه﴾ يحتمل وجوهاً:

منها: أنه لما أمرهم سبحانه بالاستجابة في الطاعة، حَضَّهم على المبادرة والاستعجال، وأعلمهم أنه يحول بين المرء وقلبه بالموت والقبض، أي: فبادروا الطاعات، ويلتزم مع هذا التأويل قوله: ﴿وأنه إليه تحشرون﴾، أي: فبادروا الطاعات، وتزودوها ليوم الحشر.

ومنها: أن يقصد إعلامهم أن قُدْرَةَ اللَّهِ وعلمه وإحاطته حائلة بين المرء وقلبه، فكان هذا المعنى يحضُّ على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر؛ حَكِيَّ هذا التأويل عن قتادة^(٢) ويحتمل أن يريد تخويفهم؛ إن لم يمثلوا الطاعات، ويستجيبوا لله وللرسول؛ أن يَحُلَّ بهم ما حل بالكفار الذين أرادهم بقوله: ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ لأن حَتْمَهُ عليهم بأنهم لو سَمِعُوا لم ينتفعوا يقتضي أنه كان قد حال بينهم وبين قلوبهم.

ومنها: أن يكون المعنى ترجية لهم بأن الله يبذل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو، فيجعله جراءة وقوة، وبضد ذلك للكفار، أي: فإن الله تعالى هو مقلب القلوب؛ كما كان قسم النبي ﷺ، وقيل غير هذا.

قال مكِّي، وقال الطبري^(٣): هذا خبر من الله عز وجل؛ أنه أَمَلَكُ بقلوب العباد منهم لها، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يُدْرِكَ الإنسان شيئاً من إيمان ولا كفر، ولا يعي شيئاً، ولا يفهم شيئاً إلا بإذنه ومشيئته سبحانه، وقد كان النبي ﷺ كثيراً ما يقول في

(١) ذكره ابن عطية (٥١٤/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٥/٦) برقم: (١٥٩١٦) بنحوه.

(٣) ينظر: «الطبري» (٢١٥/٦).

دعائه: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١) انتهى من «الهداية».

وروى مالك بن أنس والنسائي، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ وهو في الصَّلَاةِ، فَلَمْ يُجِبْهُ، وَأَسْرَعَ فِي بَقِيَّةِ صَلَاتِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ جَاءَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ قَالَ أَبِيٌّ: لَا جَرَمَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَدْعُونِي أَبَدًا إِلَّا أَجَبْتُكَ...^(٢) الحديث بطوله، واختلاف ألفاظه، وفي «البخاري ومسلم»؛ أن ذلك / وقع مع أبي سَعِيدٍ بنِ الْمُعَلَّى^(٣)، وروي أنه وقع نحوه ١٢١٢ مع حَذِيفَةَ بنِ الِيمَانِ^(٤) في غزوة الخَنْدَقِ.

وقوله: عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ في الآية تأويلات، أسبقها إلى النفس، أن الله سبحانه حذَّر جميع المؤمنين من فتنةٍ إن أصابَتْ لم تخصَّ الظلمة فقط، بل تصيبُ الكلَّ من ظالمٍ وبريء، وهذا تأويلُ الزُّنْبَيْرِ بنِ الْعَوَّامِ، والحسنِ البَصْرِيِّ^(٥)، وكذلك تأويل ابن عباس؛ فإنه قال: أمر الله المؤمنين في هذه الآية ألا يقرؤا المُتَكَرِّرَ بين أظهرهم، فيعمَّهم العذاب^(٦) و﴿خَاصَّةً﴾: نعت لمصدرٍ محذوف، تقديره إصابةٌ خاصةٌ، فهي نصب على الحال، وقرأ علي^(٧) بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره: «لِتُصِيبَنَّ» - باللام - على جواب قسم، والمعنى على هذا: وعيدٌ للظلمة فقط.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ...﴾ الآية: هذه الآية تتضمن تعديد نعم الله على المؤمنين، و«إذ»: ظرفٌ لمعمول، «وَأَذْكُرُوا»: تقديره: وأذكروا حالكم الكائنة، أو

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه في سورة «الفاتحة».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه في سورة «الفاتحة».

(٥) أخرجه الطبري (٢١٦/٦ - ٢١٧) برقم: (١٥٩١٧) وبرقم: (١٥٩١٨ - ١٥٩١٩ - ١٥٩٢٠)، وذكره ابن عطية (٥١٥/٢)، وذكر نحوه البغوي (٢٤١/٢)، وابن كثير (٢٩٩/٢) بنحوه أيضاً، والسيوطي (٣٢١/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٢١٧/٦) برقم: (١٥٩٢٣)، وذكره ابن عطية (٥١٥/٢)، والبغوي (٢٤١/٢)، وابن كثير (٢٩٩/٢)، والسيوطي (٣٢٢/٣).

(٧) وقرأ بها ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو العالية، وأبو جعفر محمد بن علي، والربيع بن أنس، وابن جُمَار.

ينظر: «الشواذ» ص: (٥٤)، و«المحتسب» (٢٧٧/١)، و«الكشاف» (٢١٢/٢) و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٦)، و«البحر المحيط» (٤٧٨/٤)، و«الدر المصون» (٤١٢/٣).

الثابتة إذ أنتم قليل، ولا يجوز أن تكون «إذ» ظرفاً للذكر.

وإنما يعمل الذكر في «إذ» لو قدرناها مفعولة، واختلف في الحال المشار إليها بهذه الآية.

فَقَالَتْ فِرْقَةٌ؛ وهي الأكثر: هي حال المؤمنين بمكة في وقت بدء الإسلام، والناس الذين يُخَافُ تَخَطُّفُهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ، والمأوى: المدينة، والتأييد بالنصر: وَقَعَةُ بَذْرٍ وما أَتَجَرَ معها في وقتها، والطيبات: الغنائم وسائر ما فتح الله عليهم به، وقالت فرقة: الحال المشار إليها هي حالهم في غزوة بَذْرٍ، والناس الذين يُخَافُ تَخَطُّفُهُمْ، على هذا: عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، فإن النبي ﷺ كان يتخوف من بعضهم، والمأوى على هذا، والتأييد بالنصر: هو الإمداد بالملائكة والتغليب على العدو، والطيبات: الغنيمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمَوْلَكُمْ وَأَوَّلَدَكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلاً وكثيراً، والخيانة: التنقص للشيء باختفاء، وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمر ما، مالا كان أو سراً أو غير ذلك، والخيانة لله عز وجل: هي في تنقص أوامره في سر.

وقوله: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾.

قال الطبري^(١): يحتمل أن يكون داخلاً في النهي؛ كأنه قال: لا تخونوا الله والرسول، ولا تخونوا أماناتكم، ويحتمل أن يكون المعنى: لا تخونوا الله والرسول؛ فذلك خيانة لأماناتكم.

وقوله: ﴿فتنة﴾، يريد: محنة واختباراً وأمتحاناً؛ ليرى كيف العمل في جميع ذلك.

وقوله: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾، يريد: فوز الآخرة، فلا تدعوا حظكم منه؛ للحيلة على أموالكم وأبنائكم؛ فإن المذخور للآخرة أعظم أجراً.

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ...﴾ الآية: وغد للمؤمنين بشرط

(١) ينظر: «الطبري» (٢٢١/٦).

التقوى والطاعة لله سبحانه، و﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾: معناه: فزقاً بين حقكم، وباطل من ينازعكم؛ بالنصر والتأييد، وعبر قتادة، وبعض المفسرين عن «الفرقان» ههنا بالنجاة^(١)، وقال مجاهد والسدي: معناه: مخرجاً^(٢)، ونحو هذا مما يعمله ما ذكرناه، وقد يوجد للعرب استعمال «الفرقان»، كما ذكر المفسرون؛ وعلى ذلك شواهد؛ منها قول الشاعر:

[الطويل]

وَكَيْفَ أَرْجِي الْخُلْدَ وَالْمَوْتَ طَالِبِي وَمَالِي مِنْ كَأْسِ الْمَنِيَةِ فُرْقَانُ^(٣)

* ت * : قال ابن رشد: وأحسن ما قيل في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ أي: فضلاً بين الحق والباطل؛ حتى يعرفوا ذلك بقلوبهم، ويهتدوا إليه. انتهى من «البيان».

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية: تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة، وجميل صنع الله تعالى في جميع ذلك، والمكر: المخاتلة والتداهي؛ تقول: ب^{٢١٢} فلان يَمْكُرُ بفلان؛ إذا كان يستدرجه، وهذا المكر الذي ذكر الله تعالى في هذه الآية هو بإجماع من المفسرين: إشارة إلى اجتماع قريش في «دار الندوة» بمخضر إبليس في صورة شيخ نجدى على ما نص ابن إسحاق في «سيره» الحديث بطوله، وهو الذي كان خروج رسول الله ﷺ بسببه، ولا خلاف أن ذلك كان بعد موت أبي طالب، ففي القصة: أن أبا جهل قال: الرأي أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى قوياً جليداً، فيجتمعون ثم يأخذ كل واحد منهم سيفاً، ويأتون محمداً في مضجعه، فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا تقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها، فيأخذون العقل، ونستريح منه، فقال النجدي: صدق الفتى؛ هذا الرأي: لا رأي غيره، فأفترقوا على ذلك، فأخبر الله تعالى بذلك نبيه ﷺ، وأذن له في الخروج إلى المدينة، فخرج رسول الله ﷺ من ليلته، وقال لعلي بن أبي

(١) أخرجه الطبري (٢٢٤/٦) برقم: (١٥٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٥١٨/٢)، والبغوي عن عكرمة (٢/٢٤٣)، وابن كثير (٣٠١/٢)، والسيوطي. (٣٢٤/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٣) برقم: (١٥٩٥٨، ١٥٩٠)، وذكره ابن عطية (٥١٨/٢).

(٣) ينظر البيت في: «البحر المحيط» (٤٨١/٤)، و«الدر المصون» (٤١٤)، و«القرطبي» (٣٩٦/٧).

طالب: «أَلْتَفَّ فِي بُرْدِي الْحَضْرَمِيِّ، وَأَضْطَجَعَ فِي مَضْجَعِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَضْرُكُ شَيْءً، فَفَعَلَ»، فجاء فتيانُ قُرَيْشٍ، فجعلوا يَرْضُدُونَ الشَّخْصَ، ويَتَنَظَّرُونَ قِيَامَهُ، فيثورون به، فلما قام رَأَوْا عَلِيًّا، فقالوا له: أَيْنَ صَاحِبُكَ؟ فقال: لا أَذْرِي، وفي «السِّير»؛ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ فِي طَرِيقِهِ، فَطَمَسَ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ عَنْهُ، وجعل عَلَى رَأْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تَرَابًا، وَمَضَى لَوَجْهِهِ، فجاءهم رَجُلٌ، فقال: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ قَالُوا: مُحَمَّدًا، قال: إِنِّي رَأَيْتُهُ الْآنَ جَائِيًا مِنْ نَاحِيَتِكُمْ، وَهُوَ لَا مَحَالَةَ، وَضَعَ التَّرَابَ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، فَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ يَدَهُ إِلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا عَلَيْهِ التَّرَابُ، وَجَاؤُوا إِلَيَّ مُضْجِعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدُوا عَلِيًّا، فركبوا وراءه حِينَئِذٍ كُلُّ صَغَبٍ وَذُلُولٍ، وَهُوَ بِالْغَارِ، ومعنى: ﴿لِيَسْجُتْ﴾: لِيَسْجُتْكُمْ؛ قاله عطاء وغيره^(١) وقال ابنُ عَبَّاسٍ وغيره: لِيُوثِقُوكَ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، يعني: القرآن، ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: قَصَصُهُمُ الْمَكْتُوبَةُ الْمُسْطَوْرَةُ، وَأَسَاطِيرُ: جمع «أُسْطُورَةٍ»، ويَحْتَمِلُ جمع: «أَسْطَارٌ»، وتَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ وغيره: أن قَاتَلَ هذه المقالة هو النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ؛ وذلك أنه كَانَ كَثِيرَ السَّفَرِ إِلَى قَارَسَ وَالْحِجِرَةِ، فَكَانَ قَدْ سَمِعَ مِنْ قِصَصِ الرِّهْبَانِ وَأَخْبَارِ رُسْتَمٍ وَإِسْفَنْدِيَارٍ، فلما^(٣) سَمِعَ الْقُرْآنَ، وَرَأَى فِيهِ أَخْبَارَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ، قال: لو شِئْتُ لَقُلْتُ مِثْلَ هَذَا، وَكَانَ النَّضْرُ مِنْ مَرَدَةِ قَرِيشَ النَّائِلِينَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَكَنَ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَتْلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَبْرًا بِالصَّفْرَاءِ مُنْصَرَفُهُ مِنْ بَدْرِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْأَثِيلُ»، وَكَانَ أَسْرَهُ الْمَقْدَادُ، فلما أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهِ، قال المقداد: أَسِيرِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فقال/ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ»، ثُمَّ أَعَادَ الْأَمْرَ بِقَتْلِهِ، فَأَعَادَ الْمَقْدَادُ مَقَالَتَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ، أَعْنِ الْمَقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ»، فَقَالَ الْمَقْدَادُ: هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ، فَضَرَبَتْ عُنُقُ النَّضْرِ^(٤).

١٢١٣

- (١) أخرجه الطبري (٢٢٥/٦) برقم: (١٥٩٧٥)، وذكره ابن عطية (٥١٩/٢)، والبغوي (٢٤٤/٢)، وابن كثير (٣٠٢/٢) نحوه.
- (٢) أخرجه الطبري (٢٢٥/٦) برقم: (١٥٩٧١)، وذكره ابن عطية (٥١٩/٢)، والبغوي (٢٤٤/٢)، وابن كثير (٢٠٣/٢)، والسيوطي (٣٢٦/٣).
- (٣) أخرجه الطبري (٢٢٩/٦) برقم: (١٥٩٩١)، وذكره ابن عطية (٥٢٠/٢)، والبغوي (٢٤٥/٢)، وابن كثير (٣٠٤/٢)، والسيوطي (٣٢٧/٣).
- (٤) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ٢٤٨ - ٢٤٩) برقم: (٣٣٧) عن سعيد بن جبيرة مرسلًا.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أِثْنًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُٗٓ إِن أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُشْكُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية: رُوي عن مجاهد وغيره: أن قائل هذه المقالة هو النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْمَذْكُورُ، وفيه نزلت هذه الآية^(١).

قال * ع^(٢) * : وترتب أن يقول النَّضْرُ مقالةً، وينسبها القرآن إلى جميعهم؛ لأن النضر كان فيهم موسوماً بالثبُل والفهم، مسكوناً إلى قوله، فكان إذا قال قولاً قاله منهم كثير، وأتبعوه عليه؛ حسب ما يفعله الناس أبداً بعلمائهم وفقهائهم.

* ت * : وخرج البخاري بسنده، عن أنس بن مالك، قال: قال أبو جهل: اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ، فأمر علىنا حجارة من السماء أو أثنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾، إلى: ﴿عن المسجد الحرام﴾^(٣) هـ، والمشار إليه بـ ﴿هذا﴾ هو القرآن وشرع محمد ﷺ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحسد، فعميث بصائرهم عن الهدى، وصمموا على أن هذا ليس بحق، نعوذ بالله من جهد البلاء، وسوء القضاء، وحكى ابن فورك: أن هذه المقالة خرجت منهم مخرج العناد، وهذا بعيد في التأويل، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل، وقراءة الناس إنما هي بتضبط^(٤) «الحق»؛ على أنه خبر «كان»، ويكون «هو» فصلاً، فهو حينئذ اسم، و«أَمْطِرْ» إنما تستعمل غالباً في المكروه، و«مَطَرٌ» في الرحمة؛ قاله أبو عبيدة^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم...﴾ الآية: قالت فرقة: نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقالت فرقة: نزلت كلها بعد وقعة بدر؛ حكاية عما مضى.

(١) أخرجه الطبري (٢٣٠/٦ - ٢٣١) برقم: (١٥٩٩٥، ١٥٩٩٩)، وذكره ابن عطية (٥٢٠/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٠/٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٦٠/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ برقم: (٤٦٤٩).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢١/٢)، و«البحر المحيط» (٤٨٢/٤)، و«الدر المصون» (٤١٤/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٥٢١/٢).

وقال ابنُ أبزى^(١): نَزَلَ قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ، وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ بمكة إثر قولهم: ﴿أَوْ أَتَنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾، ونزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، عند خروج النبي ﷺ من مكة في طريقه إلى المدينة، وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونَزَلَ قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ...﴾ إلى آخر الآية، بعد بذر عند ظهور العذاب عليهم.

* ت * : وهذا التأويل بيّن، وعليه اعتمد عياض في «الشفا» قال: وفي الآية تأويل آخر، ثم ذكر حديث الترمذي، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمُتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَإِذَا مَضَيْتُ، تَرَكْتُ فِيهِمْ أَلَا سَتِغْفَارَ». انتهى.

قال * ع^(٢) * : وأجمع المتأولون على أن معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أن الله عز وجل لم يعذب قط أمةً ونبياً بين أظهرها، أي: فما كان الله ليعذب هذه الأمة، وأنتَ فيها، بل كرامتك لديه أعظم.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ تُوعَد بعذاب الدنيا، والضمير في قوله: ﴿أُولِيَاءَهُ﴾: عائذ على الله سبحانه، أو على المسجد الحرام، كل ذلك جيد، وروى الأخير عن الحسن^(٣).

وقال الطبري^(٤): عن الحسن بن أبي الحسن أن قوله سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ ناسخ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قال * ع^(٥) * : وفيه نظر؛ لأنه خبر لا يدخله نسخ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْكَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ

(١) عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي مولى نافع بن عبد الحارث، روى اثني عشر حديثاً، وعن أبي بكر، وأبي، وعن عمار.

قال البخاري: له صحبة، وقال ابن أبي داود: تابعي.

ينظر: «تهذيب الكمال» (٧٧٢/٢)، «تهذيب التهذيب» (١٣٢/٦)، «خلاصة تهذيب الكمال» (٢/١٢٣)، «الكاشف» (١٥٤/٢)، «الجرح والتعديل» (٢٠٠٩/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢١/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٢٢/٢).

(٤) ينظر: «الطبري» (٢٣٢/٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٣/٢).

عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ^١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُحْتَرُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة﴾ المكاء: الصّفير؛ ٢١٣ ب قاله ابن عباس^(١) والجمهور، والتصدية: عبّر عنها أكثر الناس؛ بأنها التصفيق، وذهب أكثر المفسرين إلى أن المكاء والتصدية إنما أحدثهما الكفار عند مبعث النبي ﷺ؛ لِنَقْطَعُ عليه وعلى المؤمنين قراءتهم وصلاتهم، وتخلط عليهم، فلما نفى الله تعالى ولايتهم للبيت، أمكن أن يعترض منهم معترض بأن يقول: وكيف لا نكون أولياءه، ونحن نسكنه، ونصلي عنده؛ فقطع سبحانه هذا الاعتراض بأن قال: وما كان صلاتهم عند البيت إلا المكاء والتصدية.

قال ع*^(٢): * والذّي مرّ بي من أمر العرب في غير ما ديوان؛ أن المكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديماً قبل الإسلام على جهة التقرب به والتشروع؛ وعلى هذا يستقيم تغييرهم وتنقصهم بأن شرعهم وصلاتهم لم تكن رهبة ولا رغبة، وإنما كانت مكاءً وتصدية من نوع اللعب، ولكنهم كانوا يتزيدون فيهما وقت النبي ﷺ ليشغلوه هو وأمته عن القراءة والصلاة.

وقوله سبحانه: ﴿فذوقوا العذاب...﴾ الآية: إشارة إلى عذابهم ببذر بالسيف؛ قاله الحسن وغيره^(٣)؛ فيلزم أن هذه الآية الآخرة نزلت بعد بذر، ولا بد.

قال ع*^(٤): * والأشبه أن الكل نزل بعد بذر؛ حكاية عما مضى.

وقوله سبحانه: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله...﴾ الآية: لما قُتِلَ من قُتِلَ ببذر، اجتمع أبناؤهم وقرباتهم، فقالوا لِمَنْ خَلَصَ ماله في العير: إن محمداً قد نال ممّا ما تزوّن، ولكن أعينونا بهذا المال الذي كان سبب الوقعة، فلعلنا أن ننال منه ثأراً، يريدون نفقته في غزوة أحد.

وقوله سبحانه: ﴿فسينفقونها ثم تكون حسرةً ثم يغلبون﴾، الحسرة: التلهّف

(١) أخرجه الطبري (٢٣٨/٦) برقم: (١٦٠٣٧ - ١٦٠٣٨)، وذكره ابن عطية (٥٢٣/٢)، والبيهقي (٢/٢٤٧)، وابن كثير (٣٠٦/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣/٣٣٢)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم،

وأبي الشيخ، وابن مردويه والضياء.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٢٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٥٢٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٢٥).

على فائت، وهذا من أخبار القرآن بالغيوب قبل أن تكون، فكان كما أخبر، ثم أخبر سبحانه عن الكافرين، وأنهم يُجمَعُونَ إلى جهنم، والحشر: الجمع.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُوا لِلَّذِينَ كَلَّمُوا لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَقَمُ الْمَوْلَى وَيَقَمُ النَّصِيرُ (٤٠)﴾

وقوله سبحانه: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾، وقرأ حمزة والكسائي^(١): «لِيَمِيزَ اللَّهُ» - بضم الياء، وفتح الميم، وشد الياء -، قال ابن عباس وغيره: المعنى بـ «الْخَبِيثِ»: الكفار، وبـ «الطَّيِّبِ»: المؤمنون^(٢)، وقال ابن سلاّم والزجاج: «الْخَبِيثُ»: ما أنفقه المشركون في الصدّ عن سبيل الله، و«الطَّيِّبُ»: هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله^(٣).

قال * ع^(٤): ﴿رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يُخْرِجُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا كَانَ صَدَقَةً أَوْ قُرْبَةً، ثُمَّ يَأْمُرُ بِسَائِرِ ذَلِكَ، فَيُلْقِي فِي النَّارِ: وَعَلَى التَّوْبِلِينَ: فَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾، إِنَّمَا هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ جَمْعِ ذَلِكَ، وَضَمِّهِ، وَتَأْلِيفِ أَشْتَاتِهِ، وَتَكَائِفِهِ بِالْاجْتِمَاعِ، وَبِرُكْمِهِ؛ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: يُكْتَفَى؛ وَمِنْهُ ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] وعبارة البخاري: فيركمه: فَيَجْمَعُهُ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾، يعني: عن الكفر، «يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ»؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يُجِبُّ مَا قَبْلَهُ، و«إِنْ يَعُودُوا»، يَرِيدُ بِهِ: إِلَى الْقِتَالِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُتَأَوَّلَ: وَإِنْ يَعُودُوا إِلَى الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْفَصَلُوا عَنْهُ.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: عِبَارَةٌ تَجْمَعُ الْوَعِيدَ وَالتَّهْدِيدَ وَالتَّمْثِيلَ بِمَنْ هَلَكَ مِنَ الْأُمَمِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ بِعَذَابِ اللَّهِ؛ حِينَ صَدَّ فِي وَجْهِ نَبِيِّهِ مَنْ هَلَكَ فِي يَوْمٍ بَدْرٍ بِسَيْفِ الْإِسْلَامِ. ١٢١٤

وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قال ابن عباس، وابن عمر،

(١) ينظر: «السبعة» (٣٠٦)، و«الحجة» (١٥٢/٤)، و«إعراب القراءات» (٢٢٩/١)، و«إتحاف» (٧٩/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٥٢٦/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٢٦/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٦/٢).

وغيرهما: الفِتْنَةُ: الشُّرْكُ^(١).

قال * ع^(٢): * وهذا هو الظاهر، ويفسر هذه الآية قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...»^(٣) الحديث.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٥/٦) برقم: (١٦٠٩٠)، وبرقم: (١٦٠٩٢) عن قتادة، وبرقم: (١٦٠٩٣) عن السدي، وذكره ابن عطية (٥٢٧/٢) عن ابن عباس وغيره، وابن كثير (٣٠٩/٢).
(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٥٢٨/٢).

(٣) هذا الحديث متواتر، رواه جماعة من أصحاب النبي ﷺ وهم: أبو هريرة وابن عمر، وجابر، وأنس بن مالك، وأبو بكر، وعمر، وجري، وسهل بن سعد، وأبو بكر، وأبو مالك الأشجعي، وعياض الأنصاري، والنعمان بن بشير، وسمرة بن جندب، ومعاذ، وأوس بن أوس، ورجل من بلقين، وابن عباس. حديث أبي هريرة:

أخرجه البخاري (٢٦٢/٣) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٩)، ومسلم (٥٢/١) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وأبو داود (١٠١/٣)، كتاب «الزكاة» باب: على ما يقاتل المشركون، حديث (٢٦٤٠)، والترمذي (١١٧/٤)، كتاب «الإيمان» باب: ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، حديث (٢٧٣٣)، والنسائي (١٤/٥)، كتاب «الزكاة» باب: مانع الزكاة، وابن ماجه (١٢٩٥/٢) كتاب «الفتن» باب: الكف عن من قال: لا إله إلا الله، حديث (٣٩٢٧)، والشافعي (١٣/١) باب: الإيمان والإسلام، وعبد الرزاق (٦٧/٦) كتاب «أهل الكتاب» باب: أقاتلهم حتى يقولوا: لا إله إلا الله، حديث (١٠٠٢٢)، وأحمد (٣٤٥/٢)، وابن الجارود ص: (٣٤٣) باب: في ما أمر رسول الله ﷺ بالدعاء إلى توحيد الله عز وجل والقتال عليها، حديث (١٠٣٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢١٣/٣) كتاب «السير» باب: ما يكون الرجل به مسلماً، وابن سعد في «الطبقات»، والدارقطني (٢٣١/١ - ٢٣٢)، كتاب «الصلاة» باب: تحريم دماهم وأموالهم إذا شهدوا بالشهادتين، حديث (٢)، والحاكم (٣٨٧/١) كتاب «الزكاة»، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٦/٣)، وابن حبان (١٧٤) من طرق عن أبي هريرة.

أما حديث ابن عمر:

أخرجه البخاري (٢٢/١) كتاب «الإيمان» باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، حديث (٢٥). ومسلم (٥٣/١) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله... (٢٢/٣٦)، والدارقطني (٢٣٢/١)، والبيهقي (٩٢/٣).

حديث جابر:

أخرجه مسلم (٥٣/١) كتاب «الإيمان» باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله... (٢٢/٣٥)، وابن ماجه (١٢٩٥/٢) كتاب «الفتن» باب: الكف عن من قال: لا إله إلا الله (٣٩٢٨)، والترمذي (٤٠٩/٥) كتاب «التفسير» باب: تفسير سورة الغاشية (٣٣٣٨)، وأحمد (٣/٢٩٥)، وأبو حنيفة في «مسنده» (٦)، وأبو يعلى (١٩٠/٤) برقم: (٢٢٨٢) من طرق عنه.
وقال الترمذي: حسن صحيح.

- حديث أنس:

أخرجه البخاري (٥٩٤/١) كتاب «الصلاة» باب: فضل استقبال القبلة، حديث (٣٩٢)، وأحمد (٣/١٩٩، ٢٢٤)، وأبو داود (٥٠/٢ - ٥١) كتاب «الجهاد» باب: على ما يقاتل المشركون، حديث =

وقال ابن إسحاق: معناها: حتى لا يفتن أحدٌ عن دينه؛ كما كانت قريشٌ تفعلُ بمكة بمن أسلمَ.

(٢٦٤١) والترمذي (٤/٥) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: أمرت بقتالهم... (٢٦٠٨)، والدارقطني (٢٣٢/١) كتاب «الصلاة» باب: تحريم دمائهم وأموالهم إذا شهدوا بالشهادتين (٢)، وأحمد (١٩٩/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٣/٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/٢١٥)، والبيهقي (٩٢/٣)، والخطيب (٤٦٤/١٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٩٦/١) - بتحقيقنا، من طريق حميد الطويل، عن أنس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

حديث أبي بكر وعمر: ويرويه عنهما أنس بن مالك قال: قال عمر لأبي بكر في الردة: ألم يقل رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.

قال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة...

أخرجه النسائي (٧٦/٧-٧٧)، وأبو يعلى (٦٩/١) رقم: (٦٨)، وابن خزيمة (٧/٤) رقم: (٢٤٤٧)، والحاكم (٣٦٨/١) من طريق عمران القطان، عن معمر، عن الزهري، عن أنس به. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠/١)، وقال: رواه البزار وقال: لا أعلمه يروي عن أنس، عن أبي بكر إلا من هذا الوجه وأحسب أن عمران أخطأ في إسناده.

وقال الترمذي بعد الحديث (٢٦١٠): وقد روى عمران القطان هذا الحديث عن معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن أبي بكر وهو حديث خطأ.

وقد حكم عليه بالخطأ أيضاً الإمام أبو زرعة الرازي فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١٥٩/٢) رقم: (١٩٧٠): سئل أبو زرعة عن حديث رواه عمرو بن عاصم، عن عمران القطان، عن معمر، عن الزهري، عن أنس... فذكر الحديث.

قال أبو زرعة: هذا وهم إنما هو الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي هريرة. أما الحاكم فله مع هذا الحديث شأن آخر فقال بعد إخراجه: صحيح الإسناد غير أن الشيخين لم يخرجاه عمران القطان وليس لهما حجة في تركه فإنه مستقيم الحديث، ووافقه الذهبي.

وعمران روى له البخاري تعليقاً والأربعة، وقال الحافظ في «التقريب» (٨٣/٢): صدوق يهم. حديث جرير: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٧/٢) رقم: (٢٢٧٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩/١)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وفي إسناده إبراهيم بن عيينة وقد ضعفه الأكثرون، قال ابن معين: كان مسلماً صدوقاً. اهـ.

وقال النسائي: ليس بالقوي.

وقال أبو حاتم: أتى بمناكير.

ينظر «المغني» (٢١/١).

حديث سهل بن سعد: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٢/٦) رقم: (٥٧٤٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠/١) وقال: رواه الطبراني وفي إسناده مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان والأكثر على تضعيفه اهـ. ضعفه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وقال الحافظ: لين الحديث.

وقوله: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، أي: لا يُشْرَكَ معه صَنَمٌ، ولا وَتَنٌ، ولا يُعْبَدُ غَيْرُهُ

ينظر «المغني» (٢/٦٦٠)، و«التقريب» (٢/٢٥١).

حديث أبي بكرة: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣٠) وقال: رواه الطبراني في «الكبير والأوسط» وفيه عبد الله بن عيسى الخزاز وهو ضعيف لا يحتج به اهـ، وذكره الذهبي في «المغني» (١/٣٥٠) وقال: عبد الله بن عيسى أبو خلف الخزاز، عن يونس بن عبيد ضعفه.

حديث أبي مالك الأشجعي: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/٣٨٢) رقم: (٨١٩١)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/٣٠) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون.

حديث عياض الأنصاري: أخرجه البزار (١/١٠ - كشف) رقم: (٤) من طريق عبد الرحمن القرشي عن عياض مرفوعاً: بلفظ: إن لا إله إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة من قالها صادقاً أدخله الله بها الجنة، ومن قالها كاذباً حقت دمه وأحرزت ماله ولقي الله غداً فحاسبه. قال البزار: ولا نعلم أسند عياض إلا هذا.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣١) وقال: رواه البزار، ورجاله موثقون إن كان تابعه عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

حديث النعمان بن بشير: أخرجه البزار (١/١٥ - كشف) رقم: (١٥) من طريق أسود بن عامر، ثنا إسرائيل، عن سماك، عن النعمان بن بشير به.

وقال البزار: وهذا خطأ فيه أسود. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣١): رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح.

حديث سمرة بن جندب: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣٠) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه مبارك بن فضالة واختلف في الاحتجاج به.

حديث معاذ بن جبل: أخرجه ابن ماجه (١/٢٨): المقدمة: باب في الإيمان، حديث (٧٢)، والدارقطني (١/٢٣٣) كتاب «الصلاة»: باب تحريم دماهم وأموالهم... من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ به.

قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (١/٥٦) هذا إسناد حسن. اهـ.

وفيه شهر بن حوشب وقد اختلف في الاحتجاج به.

حديث أوس بن أوس: أخرجه الدارمي (٢/٢١٨) كتاب «السير» باب: في القتال على قول النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وابن ماجه (٣٩٢٩)، وأحمد (٤/٨)، وعزاه السيوطي في «الأزهار المتناثرة» ص: (٢٠) رقم: (٤) إلى ابن أبي شبة.

حديث الرجل من بلقين: أخرجه أبو يعلى (١٣١/١٣٢)، والبيهقي (٦/٣٣٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٥٣ - ٥٤)، وقال: رواه أبو يعلى وإسناده صحيح.

وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٢/١٨٥) رقم: (٢٠١٠)، وعزاه إلى أحمد بن منيع، وذكره برقم: (٢٠١١)، وعزاه إلى أبي يعلى.

حديث ابن عباس: ذكره الهيثمي في «المجمع» (١/٣٠)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله موثقون إلا أن فيه إسحاق بن يزيد الخطابي، ولم أعرفه. وهذا الحديث قد صرح الحافظ السيوطي بتواتره فأورده في «الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة» ص: (١٩ - ٢٠) رقم: (٤) وعزاه إلى الشيخين عن ابن عمر وأبي هريرة ومسلم عن جابر وابن أبي شبة في «المصنف» عن أبي بكر الصديق، وعمر وأوس وجريير =

سبحانه، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾، عن الكفر، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ﴾ بِعَمَلِهِمْ، مُجَازٍ عليه، عنده ثوابه، وجميل المقارضة عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعِمَ الْمَوْلَى وَنَعِمَ النَّصِيرُ﴾: معادل لقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾، المعنى: وإن تولَّوا، ولم ينتهوا، فأعلموا أن الله تعالى ينصركم عليهم، وهذا وعدٌ مخضٌ بالنصر والظفر، و﴿الْمَوْلَى﴾؛ ههنا الموالى والمُعِين، والمَوْلَى في اللغة على معانٍ، هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها، والمَوْلَى: الذي هو السيد المقترن بالعبد يعم المؤمنين والمشركين.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوفِ وَالرَّكْبُ أَهْلُ سَفَلٍ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافَةٍ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتَهُمْ وَلَتَنْزَعْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَكَنَّا سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي آغِيثِكُمْ قَلِيلًا وَقَوْلُكُمْ فِي آغِيثِهِمْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤)

وقوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ الآية: الغنيمَةُ؛ في اللغة: ما يناله الرجل بسغي؛ ومنه قوله ﷺ: «الصَّيَامُ فِي الشَّتَاءِ هِيَ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ»^(١)،

البجلي، والطبراني، عن أنس وسمرة بن جندب وسهل بن سعد وابن عباس، وأبي بكر، وأبي مالك الأشجعي، والبخاري عن عياض الأنصاري والنعمان بن بشير.

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣/٣) كتاب «الصوم»، باب: ما جاء في الصوم في الشتاء، حديث (٧٩٧)، وأحمد (٣٣٥/٤)، وابن أبي شيبه (١٠٠/٣)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٢٣)، والبيهقي (٢٩٦/٤ - ٢٩٧) كتاب «الصيام»، باب ما ورد في صوم الشتاء، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٣١) كلهم من طريق نمير بن عريب، عن عامر بن مسعود مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث مرسل، عامر بن مسعود لم يدرك النبي ﷺ.

وقال البيهقي: هذا مرسل.

قال ابن أبي حاتم في «المراسيل» ص: (١٦٠): قال أبو زرعة: عامر بن مسعود من التابعين.

وقال الترمذي في «العلل الكبير» ص (١٢٧) رقم: (٢١٨): سألت محمداً عن حديث أبي إسحاق، عن

نمير بن عريب، عن عامر بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الغنيمَةُ الْبَارِدَةُ الصَّوْمُ فِي الشَّتَاءِ».

فقال: هو حديث مرسل، وعامر بن مسعود لا صحبة له، ولا سماع من النبي ﷺ اهـ.

وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص، فأما النَّاضُ^(١) والمتاع والأطفال والنساء وما لا يؤكل [لحمه] من الحيوان ويَصِحُّ تملكه، فالإمام يأخذ حُمْسَهُ، وَيَقْسِمُ الباقي في الجيش، وأما الأرض، فقال فيها مالك: يقسمها الإمام؛ إن رأى ذلك صواباً؛ كما فعل النبي ﷺ بِخَيْبَرَ، أَوْ لَا يَقْسِمُهَا، بل يتركها لنواب المسلمين؛ إن أداها أجتهدُهُ إلى ذلك؛ كما فعل عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه بِأَرْضِ مِصْرٍ وبَسْوَادِ الْكُوفَةِ، وأما الرجال، وَمَنْ شارفَ الْبُلُوغَ مِنَ الصُّبْيَانِ، فالإمام؛ عند مالك وجمهور العلماء، مُخَيَّرٌ فيهم على خمسة أوجه^(٢):

وقال يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١٢٧/٣): ليس لعامر صحة. =
وقد جزم بعدم صحبته أيضاً أبو داود، وابن حبان، والبغوي، وابن السكن. ينظر: «الإصابة» (٤٨٩/٣) بتحقيقنا اهـ.

لكن لهذا الحديث شاهد من حديث أنس: أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٥٤/١)، وابن عدي في «الكامل» (١٢١٠/٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٦/٣) رقم: (٣٩٤٣) من طريق الوليد بن مسلم، ثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً.

وقال الطبراني: لم يروه عن قتادة إلا سعيد، تفرد به الوليد. وقال ابن عدي: لا يرويه عن قتادة غير سعيد، وعن سعيد غير الوليد. والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٠٣/٣) وقال: رواه الطبراني في «الصغير»، وفيه سعيد بن بشير، وهو ثقة لكنه اختلط اهـ.

وللحديث شاهد آخر من حديث جابر: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٠٧٥/٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٦/٣) رقم: (٣٩٤٢) من طريق عبد الوهاب بن الضحاك: نا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن ابن المنكدر، عن جابر مرفوعاً.

وعبد الوهاب بن الضحاك: قال الحافظ في «التقريب» (٥٢٨/١): متروك؛ كذبه أبو حاتم.

(١) النَّاضُ: أَهْلُ الْحِجَازِ يُسَمُّونَ الدَّرَاهِمَ وَالذَّنَانِيرَ: النَّاضُ وَالنَّضُّ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: إِنَّمَا يُسَمُّونَهَا نَاضاً إِذَا تَحَوَّلَ عَيْنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَتَاعاً؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: مَا نَضَّ بِيَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، وَخُذْ مَا نَضَّ لَكَ مِنْ دِينَ، أَيْ: تَيْسَرَ وَهُوَ يَنْتَضِضُ حَقُّهُ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ: يَسْتَنْجِزُهُ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ. مَاخُودٌ مِنْ نَضَاضَةِ الْمَاءِ وَهِيَ: بَقِيَّتُهُ، وَكَذَلِكَ النُّضِضَةُ، وَجَمْعُهَا: نَضَائِضٌ. ذَكَرَهُ الْأَزْهَرِيُّ. ينظر: «النظم» (١٥٤/١).

(٢) الأسرى: إما أن يكونوا من الرجال العقلاء البالغين، أو يكونوا من النساء، والصبيان، ومن في حكمهم، فإذا كانوا من هؤلاء فالمشهور عند عامة الفقهاء أنهم يصيرون أرقاء بنفس الأسر، ولا يجوز قتلهم اتفاقاً، لأن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان في حديث متفق عليه. أما إذا كانوا من الرجال البالغين العقلاء، فالإمام مخير فيهم بين خصال بعضها متفق عليه، وبعضها مختلف فيه، وهي كما يأتي: «الْقَتْلُ»: ثبت عند فقهاء الأمصار أنه يجوز للإمام قتل المحارب الكافر بعد أسره، والاستيلاء عليه، وحكي عن الحسن البصري وعطاء، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن عمر كراهته.

«الْمَنْ»: ويكون بتخليه سبيل الأسرى من غير عوض، وقال به الشافعية والمالكية في المشهور عنهم والحنابلة، وزهد الحنفية إلى عدم جوازه.

منها: القتل، وهو مستحسن في أهل الشجاعة والنكابة.

ومنها: الفداء، وهو مستحسن في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يخاف منه رأي ومكيدة؛ لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه.

ومنها: المَن، وهو مستحسن فيمن يرجى أن يحنو على أسرى المسلمين، ونحو ذلك من القرائن.

ومنها: الاسترقاق.

ومنها: ضرب الجزية، والتَّرك، في الذمة.

وأما الطعام، والغَنَم، ونحوها مما يؤكل، فهو مباح في بلد العدو أكله، وما فضل منه كان في المَغَنَم.

ومحل استيعاب فُرُوع هذا الفضل كتب الفقه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾، أي: من النصر والظهور الذي أنزله الله

«الفداء»: ذهب جمهور الفقهاء ومعهم أبو يوسف، ومحمد من علماء الحنفية إلى جواز الفداء بالأسرى، وجاء ذلك رواية عن أبي حنيفة، وجاءت عنه رواية أخرى بمنعه.

وأما الفداء بالمال فالجمهور على جوازه، والمشهور من مذهب الحنفية عدم الجواز، وقد جاء في «السير الكبير» أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة إليه.

«الاسترقاق»: اتفق الفقهاء على أن الأسير إذا كان مرتدلاً لا يجوز ضرب الرق عليه، فلا بد أن يسلم أو يقتل؛ لأنه كفر بربه بعد ما هدي إلى الإسلام.

واختلفوا في غيره من الأسرى، فذهب المالكية، والشافعية والحنابلة إلى جواز استرقاقهم لا فرق بين عربي منهم أو عجمي، وذهب الحنفية إلى عدم جواز استرقاق المشركين من العرب. وإذا قلنا: إن الإمام مخير في الأسرى، فليس معناه أن يجعل التصرف فيهم تبعاً لعاطفته وميل هواه، وإنما معناه أن يتحرى فيهم ما تقتضيه مصلحة المسلمين ثم ينفذها، فإذا كان الأسير شديد الدهاء، كثير التأليب على المسلمين والكيد لهم، ولا يؤمن مكره، أو تكرر نقضه لعهدهم قتله الإمام كفاية لشره وقطعاً لدابره.

ويظهر ذلك للإمام من اطلاع على أحواله أو علمه بأخباره، وإذا ظهر له أن الأسير مأمون الجانب، ويتألف بإطلاقه طائفة عظيمة على الإسلام، أو يتوسم أن تطلق عشيرته ما عندها من أسرى الحرب من عليه، وكذلك إذا كان الأسير من ذوي العلل والعاهات، أو الضعفاء والزمنى الذين لا يرجى منهم منفعة للمسلمين، أو كان للأسير قيمة، وترجح عند الإمام الحاجة إلى المال لمصالح المسلمين جعل نظير كل رقبة يطلقها مقداراً من المال يختلف بحسب مكانة الأسير في قومه، وإن رأى أن في استرقاقه عزة ومهابة للمسلمين اختار من بينهم من يضرب الرق عليه، وهكذا.

سبحانه يَوْمَ بَدْرٍ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن/ نَزَلَ يَوْمَ بَدْرٍ، أو في قِصَّةِ يومِ بَدْرٍ، ٢١٤ ب ويومَ الْفُرْقَانِ: معناه: يَوْمُ الْفُرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ بِإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَإِذْلالِ الشَّرِكِ، وَالْجَمْعَانِ: يريد: جَمَعَ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَعَ الْكُفَّارَ، وهو يوم بَدْرٍ، ولا خلاف في ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يَغْضُذُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا﴾، يراد به النَّصْرُ وَالظَّفَرُ، أي: الْآيَاتِ وَالْعِظَائِمِ مِنْ غَلْبَةِ الْقَلِيلِ لِلْكَثِيرِ، وذلك بقُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، الْعُدُوَّةُ: شَفِيرُ الْوَادِي، وَحَزْفُهُ الَّذِي يَتَعَذَّرُ الْمَشْيُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ رَجَا الْبُثْرِ؛ لِأَنَّهَا عَدَتْ مَا فِي الْوَادِي مِنْ مَاءٍ وَنَحْوِهِ؛ أَنْ يَتَجَاوَزَ الْوَادِيَّ، أي: مَنَعَتْهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الوافر]

عَدَتْني عَنْ زِيَارَتِكَ الْعَوَادِي وَحَالَتْ دُونَهَا حَزْبُ رُبُون^(١)
وَقَرَأَ ابْنُ كَثِير^(٢)، وَأَبُو عَمْرٍو: ﴿بِالْعُدُوَّةِ﴾ - بِكَسْرِ الْعَيْنِ -، وَقَوْلُهُ: ﴿الدُّنْيَا﴾، وَ﴿الْقُصْوَى﴾، إِنَّمَا هُوَ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ وَوَادِي بَدْرٍ مَوْضِعُ الْوُقُوعِ مَزْحَلَتَانِ، وَالدُّنْيَا: مِنَ الدُّنُوِّ، وَالْقُصْوَى: مِنَ الْقُصُوءِ، وَهُوَ الْبُعْدُ، ﴿وَالرُّكْبُ﴾، بِإِجْمَاعِ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ: عَيْرُ أَبِي سَفْيَانَ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَسْفَلَ﴾، فِي مَوْضِعِ خَفَضٍ، تَقْدِيرُهُ: فِي مَكَانٍ أَسْفَلَ كَذَا.

قال سَيِّوْنِي: وَكَانَ الرُّكْبُ، وَمُدَبِّرُ أَمْرِهِ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَزْبٍ، قَدْ نَكَبَ عَنْ بَدْرٍ حِينَ نَذَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَأَخَذَ سَيْفَ الْبَحْرِ، فَهُوَ أَسْفَلُ؛ بِالإِضَافَةِ إِلَى أَعْلَى الْوَادِي.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ﴾، الْمَقْصِدُ مِنَ الْآيَةِ: تَبَيُّنُ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِ قِصَّةِ بَدْرٍ، وَتَسْيِيرِهِ سُبْحَانَهُ مَا يَسَّرَ مِنْ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ بِسَبَبِ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَغْرُضُ لِلنَّاسِ، إِلَّا مَعَ تَسْيِيرِ اللَّهِ الَّذِي تَمَّ ذَلِكَ، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ فِي أَمْرِ سَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ تَعَبٍ كَثِيرٍ: لَوْ بَيَّنَّا عَلَى هَذَا، وَسَعَيْنَا فِيهِ، لَمْ يَتِمَّ هَكَذَا، ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، أي: لِيُنْفِذَ وَيُظْهِرَ أَمْرًا قَدْ قُدِّرَ فِي الْأَزَلِ مَفْعُولًا لَكُمْ؛ بِشَرَطِ وَجُودِكُمْ فِي وَقْتِ وَجُودِكُمْ، وَهَذَا كُلُّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَهُ عَزَّ وَجَلَّ

(١) ينظر «الدر المثور» (٣/٤٢١).

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٠٦)، و«الحجة» (٤/١٢٨)، و«حجة القراءات» ص: (٣١٠ - ٣١١)، و«إعراب القراءات» (١/٢٢٤)، و«إتحاف» (٢/٧٩)، و«معاني القراءات» (١/٤٤٠)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٢٧)، و«شرح شملة» (٤٠٦).

لم يتجدد له به علم، وقوله عز وجل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، قال الطبري^(١): المعنى: لِيُقْتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ؛ بَيِّانٍ مِنَ اللَّهِ وَإِعْذَارٍ بِالرِّسَالَةِ، وَيَحْيَا أَيْضاً وَيَعِيشَ مَنْ عَاشَ؛ عَنْ بَيِّانٍ مِنْهُ أَيْضاً وَإِعْذَارٍ؛ لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ.

* ت * : قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «فضل العلم» في قوله عز وجل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ...﴾ الآية: البيِّنَةُ: ما بان به الحق. انتهى.

وقال ابن إسحاق وغيره: معنى «لِيَهْلِكَ»، أي: لِيَكْفُرَ، و«يَحْيَا» أي: لِيُؤْمِنَ؛ فَالْحَيَاةُ وَالْهَلَاكُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: مُسْتَعَارَتَانِ.

١٢١٥ وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ / قَلِيلاً...﴾ الآية: وتظاهرت الروايات؛ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رُؤْيَا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِيهَا عَدَدَ الْكُفَّارِ قَلِيلاً، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ، فَقَوَّيْتُ نَفْسَهُمْ، وَحَرِّصُوا عَلَى الْلِقَاءِ؛ قَالَه مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ رَأَاهُمْ ﷺ فِي نَوْمِهِ قَلِيلاً قَدَرَهُمْ وَبَأْسَهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ رَأَاهُمْ قَلِيلاً عَدَدَهُمْ، فَكَانَ تَأْوِيلُ رُؤْيَاهُ أَنْهَزَامَهُمْ، وَالْفَسْلُ: الْخَوَرُ عَنِ الْأَمْرِ، وَ«لَتَنَازَعْتُمْ»، أي: لَتَخَالَفْتُمْ فِي الْأَمْرِ، يَرِيدُ: فِي الْلِقَاءِ وَالْحَرْبِ. و«سَلَّمَ»: لَفْظٌ يَعْنِي كُلَّ مَتَخَوِّفٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنَ...﴾ الآية، وهذه الرؤية هي في اليقظة بإجماع، وهي الرؤية التي كَانَتْ حِينَ التَّقَوُّ، وَوَقَعَتْ الْعَيْنُ عَلَى الْعَيْنِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى؛ لِمَا أَرَادَهُ مِنْ إِنْفَازِ قَضَاءِهِ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ، قَلَّلَ كُلَّ طَائِفَةٍ فِي عُيُونِ الْأُخْرَى، فَوْقَ الْخَلَلِ فِي التَّخْمِينِ وَالْحَزَرِ الَّذِي يَسْتَعْمَلُهُ النَّاسُ فِي هَذَا؛ لَتَجَسَّرَ كُلُّ طَائِفَةٍ عَلَى الْأُخْرَى، وَتَتَسَبَّبُ أَسْبَابُ الْحَزَبِ، وَالْأَمْرُ الْمَفْعُولُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَتَيْنِ هُوَ الْقِصَّةُ بِأَجْمَعِهَا.

وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾: تَنْبِيْةٌ عَلَى أَنَّ الْحَوْلَ بِأَجْمَعِهِ لِلَّهِ، وَأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ، قَلَهُ وَإِلَيْهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ يُخِيطُ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا... ﴿الآية: هذا أمرٌ من الله سبحانه بما فيه داعيةُ النَّصْر، وسببُ العِزِّ، وهي وصيةٌ منه سبحانه بِحَسَبِ التَّقْيِيدِ الذي في آية الضَّعْفِ، والفِئَةُ الجماعة، أصلها: «فِئَةٌ»، وهي مِنْ: «فَأَوْتُ»، أي: جمعتُ، ثم أمر سبحانه بِإِكْثَارِ ذِكْرِهِ هناك؛ إذ هو عصمةُ المستنجد، وَوَزَّرَ المستعين.

قال قتادة: افترض الله ذِكْرَهُ عند أَشْغَلٍ ما يكون؛ عند الضَّرَابِ والسيوف.

قال * ع^(١): * وهذا ذِكْرٌ خَفِيٌّ؛ لَأَن رَفَعَ الصَّوْتُ في موطن القتال رديءٌ مكروهٌ؛ إِذَا كَانَ أَلْغَاطًا، فأما إِنْ كَانَ مِنَ الْجَمِيعِ عند الحَمْلَةِ، فَحَسَنٌ فَأَتَى فِي عَضْدِ الْعَدُوِّ؛ قَالَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ^(٢): كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَكْرَهُونَ الصَّوْتُ عند ثَلَاثٍ؛ عند قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وعند الجَنَازَةِ، وعند القتال^(٣)، وقال النبي ﷺ: «أَطْلُبُوا إِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَإِقَامَةَ الصَّلَاةِ، وَزُكُورِ الْغَيْثِ»^(٤) وكان ابن عباس يَكْرَهُ التَّلُمُّ عند القتال^(٥).

قال الثَّوَوِيُّ: وَسُئِلَ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الصَّلَاحِ^(٦)، عَنِ الْقَدْرِ الذي يَصِيرُ بِهِ المرءُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٦/٢).

(٢) قيس بن عباد، القينسي الضُّبَيْعِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ البصري مخضرم، عن عمر وعلي وعُمَار، وعنه ابنه عبد الله والحسن البصري، وابن سيرين مات بعد الثمانين.

ينظر ترجمته في: «الخلاصة» (٣٥٧/٢) (٥٨٨٦).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٣٦/٢).

(٤) ذكره الهندي في «كنز العمال» (١٠٢/٢) رقم: (٣٣٣٩)، وعزاه للشافعي، والبيهقي في «المعرفة» عن مكحول مرسلًا.

(٥) ذكره ابن عطية (٥٣٥/٢).

(٦) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام العلامة مفتي الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو بن الإمام البارِع صلاح الدين أبي القاسم، النصري - بالنون والصاد المهملة، نسبة إلى جده أبي نصر - الكردي، الشهرزوري الأصل، الموصلي المربا، الدمشقي الدار والوفاة، ولد سنة سبع وسبعين - بتقديم السين فيهما - وخمسائة بشهرزور، وتفقه على والده، ثم نقله إلى الموصل فاشتغل بها مدة وبرع في المذهب.

ينظر ترجمته في «الأعلام» (٣٦٩/٤) و«طبقات الشافعية» للسبكي (١٣٧/٥) و«وفيات الأعيان» (٢/٤٠٨) و«البداية والنهاية» (١٦٨/١٣) و«طبقات الشافعية» لابن هداية ص: (٨٤) و«النجوم الزاهرة» (٦/٣٥٤) و«شذرات الذهب» (٥/٢٢١) و«مفتاح السعادة» (١/٣٩٧)، (٢/٢١٤) و«مرآة الزمان» (٨/٥٠٢) و«مرآة الجنان» (٤/١٠٨).

من الذاكرين الله كثيراً، فقال: إذا واطب على الأذكارِ الماثورة المُثَبِّتة؛ صباحاً ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة؛ ليلاً ونهاراً - وهي مبيّنة في كتب «عمل اليوم والليلة» - كان من الذاكرين الله كثيراً؛ والله سبحانه أعلم. انتهى من «الحلية».

* ت * : وأحسن من هذا جوابه ﷺ حَيْثُ قَالَ: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ! قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذاكِرُونَ الله كثيراً والذاكِراتُ»، رواه مسلم/، والترمذي، وعنده: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُفْرَدُونَ؟ قَالَ: الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ؛ يَضَعُ عَنْهُمْ الذِّكْرَ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَفَافًا»^(١)، قال صاحب «سلاح المؤمن»: المستهترون في ذكر الله، - هو بفتح التاءين المُتَنَائِنِينَ - يعني: الذين أولعوا به؛ يقال: اسْتَهْتَرَ فلان بكذا، أي: أولع به، والله أعلم. انتهى.

فَقَدْ بَيَّنَّ ﷺ هنا صفة الذاكرين الله كثيراً، وقد نقلنا في غير هذا المَحَلِّ بيانَ صفة الذاكرين الله كثيراً، بنحو هذا من طريق ابن المبارك، وإذا كان العبد مُسْتَهْتَرًا بِذِكْرِ مولاه، أُنِسَ به، وأَحَبَّه، وأَحَبَّ لقاءه؛ فلم يبال بقاء العدو، وإن هي إلا إحدى الْحُسْنَيْنِ: إما النضر؛ وهو الأغلب لمن هذه صفته، أو الشهادة؛ وذلك منه، ومطلبه. انتهى.

و﴿تفلحون﴾: تنالون بغيتكم، وتنالون آمالكم، والجمهور على أن الرِّيح هنا مستعارة.

قال مجاهد: الرِّيح: النضر والقوة، وذَهَبَ رِيحُ أصحاب محمد ﷺ حِينَ نَازَعُوهُ يَوْمَ أَحَدٍ^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿واصبروا...﴾ إلى آخر الآية: تَتِمُّمٌ فِي الوصية وَعِدَّةٌ مُؤَسَّسة، وقوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم...﴾ الآية: الإشارة إلى كفار قريش، والْبَطَرُ: الْأَشْرُ وَعَمُطُ الثَّغْمَةِ، وَرُؤْيِي أَن أَبَا سَفْيَانَ، لَمَّا أَحْرَزَ عَيْرَهُ، بَعَثَ إِلَى قَرِيشٍ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَّمَ عَيْرَكُمْ، فَأَرْجِعُوا، فَأَتَى رَأْيِي الْجَمَاعَةَ عَلَى ذَلِكَ، وَخَالَفَ أَبُو جَهْلٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ، لَا نَفْعَ لِحَتِّي نَأْتِي بِذَرَأٍ - وَكَانَتْ بَذْرُ سَوْقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ لَهَا يَوْمٌ مُوسِمٌ - فَتَنَحَّرَ عَلَيْهَا الْإِبِلَ، وَتَشَرَّبَ الْخَمْرَ، وَتَغَرَّفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبُ، وَيَهَابُنَا النَّاسُ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ورثاء الناس﴾.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦١/٦) برقم: (١٦١٧٨ - ١٦١٧٩) بنحوه، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٣٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٤٣)، وعزاه إلى الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُوَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَلْأَبَىٰ أَلَفًا وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾، الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على الكفار، و﴿الشَّيْطَانُ﴾: إبليس نفسه، والذي عليه الجمهور، وتظاهرت به الروايات أن إبليس جاء كفار قريش، ففي «السيرة» لابن هشام: أنه جاءهم بمكة، وفي غيرها: أنه جاءهم، وهم في طريقهم إلى بدر، وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة؛ لحروب كانت بينهم، فجاءهم إبليس في صورة سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، وهو سيد من ساداتهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، ولن تخافوا من قومي، وهم لكم أعوان على مفصديكم، ولكن يغلبكم أحد، فروي أنه لما ألتقى الجمعان، كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة، نكص، فقال له الحارث: أَتَفِرُّ يَا سُرَاقَةُ؟! فلم يَلُوْا عليه، وَيُزَوِّى أَنَّهُ قَالَ لَهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ، وروي أن عُمَيْرَ بْنَ وَهَبٍ، أو الحارث بْنَ هِشَامٍ قَالَ لَهُ: أَتَيْنَ يَا سُرَاقُ؟ فلم يَلُوْا مِثْلَ عَدُوِّ اللَّهِ، فذهب، ووقعت/ الهزيمة، فتحدثوا ١٢١٦ أَنَّ سُرَاقَةَ قَرَّ بِالنَّاسِ، فبلغ ذلك سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ، فأتى مكة، فقال لهم: واللَّهِ، مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِكُمْ حَتَّى بَلَغْتَنِي هَزِيمَتُكُمْ، وَلَا رَأَيْتُكُمْ، وَلَا كُنْتُ مَعَكُمْ.

* ت: قال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم كانوا يروونه في كل منزل في صورة سُرَاقَةَ لَا يُنْكِرُونَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَأَلْتَقَى الْجَمْعَانِ، نَكَصَ عَدُوُّ اللَّهِ عَلَى عَقَبَيْهِ، فَأُورِدَهُمْ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ. انتهى من «السيرة» لابن هشام.

وقوله: ﴿إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: أنتم في ذمتي وجمائي، و«تراءت»: تفاعلت من الرؤية، أي: رأى هؤلاء هؤلاء.

قوله: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾، أي: رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، وَأَضْلَ التُّكُوصُ؛ فِي اللُّغَةِ: الرَّجُوعُ الْقَهْرِيُّ.

وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، يريد: الملائكة، وهو الخبيث، إنما شرط أَنْ لَا غَالِبَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ، فلما رأى الملائكة، وَخَزَقَ الْعَادَةَ، خَافَ وَقَرَّ.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، قال الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ: خَافَ مِمَّا رَأَى مِنَ الْأَمْرِ، وَهَوْلِهِ؛ أَنَّهُ يَوْمُهُ الَّذِي أَنْظَرَ إِلَيْهِ؛ وَيَقْوَى هَذَا أَنَّهُ رَأَى خَزَقَ الْعَادَةِ، وَنَزُولَ الْمَلَائِكَةِ لِلْحَزْبِ.

﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَكُتُكَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَبْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ...﴾ الآية: قال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالبنفاق، إنما هم من أهل عسكر الكفار ممن كان الإسلام داخل قلوبهم، خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم مكره وغير مكره، فلما أشرفوا على المسلمين، ورأوا قتلهم، أرتأبوا، وقالوا مشيرين إلى المسلمين: غر هؤلاء دينهم.

قال * ع^(١): * ولم يذكر أحد ممن شهد بدرًا بنفاقٍ إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب ابن قُشير؛ فإنه القائل يوم أحد: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة، لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة، قالوا هذه المقالة، ثم أخبر الله سبحانه بأن من توكل عليه، وفوض أمره إليه، فإن عزته سبحانه وحكمته كفيلاً بنصره، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ...﴾ الآية: هذه الآية تتضمن التعجب مما حل بالكفار يوم بدر؛ قاله مجاهد وغيره، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم، وقوله: ﴿وَأَذْبَارَهُمْ﴾، قال جل المفسرين: يريد أسنأهم، ولكن الله كريم كئي^(٢)، وقال ابن عباس، والحسن: أراد ظهورهم وما أذبر منهم^(٣) وباقي الآية بين.

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكْ مُعْتِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعْذِرُوا مَا بَأْسُ بِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ...﴾ الآية: الذأب: العادة في كلام العرب، وهو مأخوذ من ذأب على العمل، إذا لازمه.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٥٣٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٦٧/٦) برقم: ١٦٢١٥ - ١٦٢١٦ - ١٦٢١٧ برقم: (١٦٢١٨) عن سعيد بن جبیر، وذكره ابن عطية (٢/٥٤٠)، وعزاه إلى جمهور المفسرين، والبخاري في «تفسيره» (٢/٢٥٦) عن سعيد بن جبیر ومجاهد برقم: (٥٠)، وابن كثير (٢/٣١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٤٦)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وأبي الشيخ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره ابن عطية (٢/٥٤٠).

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ لَمْ يَكْ مَغِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية: معنى هذه الآية إخبار من الله سبحانه، إذا أنعم على قوم نعمة، فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكيدها، حتى يجيء ذلك منهم؛ بأن يغيروا حالهم التي تَرَادُّ، أو تَحْسُنُ منهم، فإذا فعلوا ذلك، غيّر الله نعمته عندهم بنقمتهم منهم، ومثال هذه نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى قُرَيْشٍ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَفَرُوا بِهِ، فغَيَّرَ اللَّهُ تِلْكَ النِّعْمَةَ، بِأَنْ نَقَلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَحْلَلَ بِهِمْ عَقوبَتَهُ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ٢١٦﴾ بذنوبهم، هذا التكرير هو لمعنى ليس للأول؛ إذ الأول ذَابَ فِي أَنْ هَلَكُوا؛ لِمَا كَفَرُوا، وهذا الثاني ذَابَ فِي أَنَّهُ لَمْ يَغَيِّرْ نِعْمَتَهُمْ؛ حَتَّى غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، إِلَى قَوْمِ شَعِيبٍ وَصَالِحٍ وَهودٍ وَنوحٍ وَغَيْرِهِمْ.

﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوَرٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِزُونَ ٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، أَجْمَعَ الْمُتَاوَلُونَ؛ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، وَهِيَ بَعْدَ تَعْمُ كُلِّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فِي كُلِّ مِرَّةٍ﴾: يَقْتَضِي أَنَّ الْعَذْرَ قَدْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ.

وحديث قُرَيْظَةَ هُوَ أَنَّهُمْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ؛ عَلَى الْأَ يَحَارِبُوهُ، وَلَا يَعِينُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَلَمَّا أَجْتَمَعَتِ الْأَحْزَابُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، غَلَبَ عَلَى ظَنِّ بَنِي قُرَيْظَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَغْلُوبٌ وَمُسْتَأَصِلٌ، وَخَدَعَ خِيَّتِي بَنُ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ كَعَبَ بْنَ أَسَدِ الْقُرَظِيِّ صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَعَهْدِهِمْ، فَغَدَرُوا وَوَالُوا قُرَيْشًا، وَأَمْدَوْهُمْ بِالسَّلَاحِ وَالْأَذْرَاعِ، فَلَمَّا أُنْجِلَتْ تِلْكَ الْحَالُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ وَحَرْبِهِمْ، فَاسْتَنْزَلُوا، وَضَرَبَتْ أَعْنَاقَهُمْ بِحُكْمِ سَعْدٍ، وَأَسْتَيْعَابُ قَصَّتْهُمْ فِي «السَّيْرِ» وَإِنَّمَا أَقْتَضَتْ مِنْهَا مَا يُخْصُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ...﴾ الآية: معنى ﴿تَتَّقَنَّهُمْ﴾ تَأْسَرُهُمْ، وَتَحْصُلُهُمْ فِي ثِقَافِكَ، أَوْ تَلْقَاهُمْ بِحَالٍ تَقْدَرُ عَلَيْهِمْ فِيهَا، وَتَغْلِبُهُمْ، وَمَعْنَى: ﴿فَشَرَّدَ﴾ أَي:

طَرَدُ، وَأَبْعَدُ، وَخَوْفٌ. والشريدُ: أَلْمَبْعَدُ عن وَطَنِ ونحوه، ومعنى الآية: فَإِنْ أَسْرَتْ هَؤُلَاءِ الناقضين في حريك لهم، فَأَفْعَلْ بهم من النعمة ما يَكُونُ تشريداً لمن يَأْتِي خَلْفَهُمْ في مثْلِ طريقتهم، وعبارَةُ البخاري: «فَشَرَّدَ» فَرَّقَ. انتهى.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائِدٌ على الفرقة المشردة، وقال ابن عباس: المعنى: نكل بهم مَن خلفهم^(١).

وقالت فرقة: معناه: سَمِعَ بهم، والمعنى متقاربٌ، ومعنى: ﴿خَلَفَهُمْ﴾ أي: بعدهم، و﴿يَذْكُرُونَ﴾، أي: يتعظون.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾ الآية: قال أكثر المفسرين: إن الآية في بني قُرَيْظَةَ، والذي يظهر من ألفاظ الآية أَنَّ أَمْرَ بني قريظة قد أَنْقَضِيَ عند قوله: ﴿فَشَرَّدَ﴾ بهم مَن خلفهم، ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بما يَصْنَعُهُ في المستقبل، مع مَن يخافُ منه خيانةً إلى آخر الدهر، ويَبْنُو قريظة لم يَكُونُوا في حَدٍّ مَن تَخَافُ خيانتَهُ، وقوله: ﴿فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: أَلْقِ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ، وقوله: ﴿عَلَى سِوَاءٍ﴾، قيل: معناه: حتى يَكُونَ الأَمْرُ في بَيَانِهِ والعِلْمُ به، عَلَى سِوَاءٍ مِنْكَ ومنهم؛ فَتَكُونُونَ في أَسْتِشْعَارِ الْحَرْبِ سِوَاءٍ، وَذَكَرَ الْقَرَاءُ؛ أَنَّ الْمَعْنَى: فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى أَعْتِدَالٍ وَسِوَاءٍ مِنَ الأَمْرِ، أي: بَيِّنْ لَهُمْ عَلَى قَدَرٍ ما ظهر منهم، لَا تُفَرِّطْ، وَلَا تُفَجِّأْ بِحَرْبٍ، بَلْ أَفْعَلْ بِهِمْ مِثْلَ ما فَعَلُوا بِكَ، يعني: موازنةً ومقايسةً، وقرأ نافع وغيره: «وَلَا تَخْسَبَنَّ» - بالتاء - مخاطبةً للنبي ﷺ، و﴿سَبِّحُوا﴾: معناه: فَاتُوا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنْجِزْهَا، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: لَا يُفْلِتُونَ، وَلَا يُعْجِزُونَ طَالِبَهُمْ، وَرُوِيَ أَنَّ الآية نَزَلَتْ فِيمَنْ أَفْلَتَ مِنَ الْكُفَّارِ فِي بَذْرِ وَغَيْرِهِ فَالْمَعْنَى: لَا تَنْظَنَّهُمْ نَاجِينَ، بَلْ هُمْ مُذْرَكُونَ، وقرأ حمزة وغيره: «وَلَا يَخْسَبَنَّ» - بالياء مِنْ تَحْتِ، وبفتح السين^(٢).

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

(١) أخرجه الطبري (٢٧١/٦) برقم: (١٦٢٢٧ - ١٦٢٢٨)، وذكره ابن عطية (٥٤٢/٢)، والبهوي (٢/٢٥٧).

(٢) بنحوه، وابن كثير (٣٢٠/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٤٧).

(٢) وقرأ بها ابن عامر وحفص عن عاصم.

ينظر: «السبعة» ص: (٣٠٧)، «الحجّة» (١٥٤/٤ - ١٥٥)، «حجة القراءات» (٣١٢)، «إعراب

القراءات» (١/٢٣٠)، و«إتحاف» (٨١/٢ - ٨٢)، و«معاني القراءات» (١/٤٤١)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٢٩)، و«المنوان» (١٠١).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا/ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ الآية: المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين، وفي «صحيح مسلم»: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ»^(١) ولما كانت الخيل هي أضل الحرب، وأوزارها، والتي عُقِدَ الخير في نواصيها^(٢)، حَصَّهَا اللَّهُ تعالى بالذكر، تشريفاً لها، ولما كانت السهام من أنجع ما يُتَعَاطَى

(١) أخرجه مسلم (١٥٢٢/٣) كتاب «الإمارة»، باب: فضل الرمي والحث عليه، حديث (١٩١٧/١٦٧)، وأبو داود (١٧/٢) كتاب «الجهاد» باب: في الرمي، حديث (٢٥١٤)، وابن ماجه (٩٤٠/٢)، كتاب «الجهاد»، باب: الرمي في سبيل الله، حديث (٢٨١٣)، وأحمد (١٥٧/٤)، وأبو يعلى (٢٨٣/٣) رقم: (١٧٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤/٤) رقم: (٤٢٩٩)، كلهم من طريق عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شفي، عن عقبة بن عامر به. وأخرجه الدارمي (٢٠٤/٢)، كتاب «الجهاد»، باب: في فضل الرمي والأمر به، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤/٤) رقم: (٤٢٩٨)، كلاهما من طريق سعيد بن أبي أيوب: ثنا يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله، عن عقبة به.

وأخرجه الترمذي (٢٧٠/٥ - ٢٧١) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة الأنفال»، حديث (٣٠٨٣) من طريق صالح بن كيسان، عن رجل لم يسمه، عن عقبة بن عامر. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٨/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم القراب في كتاب «فضل الرمي». ورد عن جماعة من الصحابة: منهم: عروة البارقي، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وأبو كبشة، وابن مسعود، وجابر:

أما حديث عروة البارقي، فأخرجه البخاري (٦٤/٦) في «الجهاد والسير»؛ باب الخير معقود في نواصيها الخيل (٢٨٥٠)، و (٦٦/٦)؛ باب: الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٨٥٢) و (٢٥٣/٦) في فرض الخمس (٣١١٩)، (٧٣١/٦) في المناقب (٣٦٤٣)، ومسلم (١٤٩٣/٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٨، ٩٩، ٨٧٣)، والنسائي (٢٢٢/٦) في «الجهاد» باب: قتل ناصية الفرس، وابن ماجه (٩٢٣/٢) في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٦)، وأحمد (٤/٣٧٥ - ٣٧٦)، وأبو يعلى (٦٨٢٨)، والحميدي في «مسنده» (٢٧٢/٢ - ٢٧٣) برقم: (٨٤١ - ٨٤٢)، والدارمي (٢١١/٢ - ٢١٢) في «الجهاد» باب: فضل الخيل في سبيل الله، وسعيد بن منصور في «سننه» (١٩٨/٢) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٦)، والطالسي في «الجهاد» (٢٤١/١) برقم: (١١٨٤ - ١١٨٥) والطبراني (١٥٥/١٧) برقم (٣٩٦ - ٤٠٠)، والبيهقي (٦/١١٢) في «القراض»: باب المضارب يخالف بما فيه زيادة لصاحبه، و (٣٢٩/٦) في قسم «الفيء» باب: الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، و (٥٢/٩) في «السير» باب: تفضيل الخيل و (١٥/١٠) في كتاب «السبق والرمي» باب: ارتباط الخيل عدة في سبيل الله عز وجل، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/٢٧٤ - ٢٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٢٧/٨)، والبعوي في «شرح السنة» بتحقيقنا (٥/٥٣٠) في «السير والجهاد» باب: اتخاذ الخيل للجهاد (٢٦٣٩) من طرق عنه به.

وأما حديث ابن عمر، فأخرجه البخاري (٦٤/٦) في «الجهاد والسير» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٤٩)، و (٧٣١/٦) في «المناقب» (٣٦٤٤) ومسلم (١٤٩٢/٣ - ١٤٩٣) في =

في الحرب وأتكاها في العدو وأقربه تناولاً للأرواح، خَصَّها ﷺ بالذكر والتنبيه عليها.

«الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧١/٩٦)، والنسائي (٢٢١/٦ - ٢٢٢) في الخيل: باب قتل ناصية الفرس، وابن ماجه (٩٢٣/٢)، في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٧)، ومالك (٤٦٧/٢) في «الجهاد» باب: ما جاء في الخيل والمسابقة (٤٤)، وأحمد (١٠١/١) و (٤٩/٢)، والطحاوي (٢٧٣/٣ - ٢٧٤)، وأبو يعلى (٢٦٤٢)، والبيهقي (٣٢٩/٦) في «الفء» باب: الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، والخطيب في «التاريخ» (٣٩٤/١٢)، والبغوي في «شرح السنة» بتحقيقنا (٥٣٠/٥) برقم: (٢٦٣٨) من طريق نافع عن ابن عمر رفعه بنحوه.

وأما حديث أنس، فأخرجه البخاري (٦٤/٦) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥١)، (٧٣١/٦) في «المناقب» (٣٦٤٥)، ومسلم (١٤٩٤/٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٤/١٠٠)، والنسائي (٢٢١/٦) في «الخيّل» باب: بركة الخيل، وأحمد (١٢٧/٣)، وسعيد بن منصور (١٩٩/٢) في «الجهاد» باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٧٣، ٤١٧٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٥٢٩/٥) برقم: (٢٦٣٧) بتحقيقنا من طريق شعبة عن أبي التياح قال: سمعت أنس بن مالك يحدث عن النبي ﷺ قال: «البركة في نواصي الخيل».

وأما حديث أبي هريرة، فأخرجه مسلم (٦٨٢/٢) في «الزكاة»، باب: إثم مانع الزكاة (٢٤ - ٩٨٧)، والترمذي في «الجهاد» باب: ما جاء في فضل من ارتبط فرساً في سبيل الله (١٦٣٦)، وابن ماجه (٢/٩٢٣) في «الجهاد» باب: ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٨)، وأحمد (١٠١/٢)، وأبو يعلى (٢٦٤١ - ٢٦٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦١/٨)، والخطيب في «التاريخ» (١٩٦/٥)، والبيهقي (٨١/٤) في الزكاة، باب ما ورد في الوعيد فيمن كثر مال زكاة ولم يؤد زكاته، من طرق عن أبي هريرة.

وأما حديث جرير، فأخرجه مسلم (١٤٩٣/٣) في «الإمارة» باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٩٧٢/٩٧)، والنسائي (٢٢١/٦) في الخيل، باب: قتل ناصية الفرس، وأحمد (٣٦١/٤)، والطحاوي (٢٧٤/٣)، والبغوي في «شرح السنة» بتحقيقنا (٥٣٠/٥) برقم: (٢٦٤٠) من طريق يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي زرعة، عن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه وهو يقول: «الخيّل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة».

وأما حديث أبي كبشة، فأخرجه الطبراني (٣٣٩/٢٢) برقم: (٨٤٩)، وابن حبان (١٦٣٥) - موارد، والطحاوي (٢٧٤/٢)، والحاكم (٩١/٢) من طريق ابن وهب: حدثني معاوية بن صالح، حدثني نعيم بن زيادة، أنه سمع أبا كبشة صاحب النبي ﷺ يقول: الخيل معقود في نواصيها الخير، وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه الزيادة، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٢/٥) رجاله ثقات.

وأما حديث ابن مسعود فهو عند أبي يعلى (٥٣٩٦)، قال: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا بقية بن الوليد، عن علي بن علي حدثني يونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود قال: جاءه =

* ت * وفي «صحيح مسلم»، عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ، وَتَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى»^(١)، وفي «سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي»، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ أَنْفُسِ الْجَنَّةِ؛ صَانِعُهُ يَخْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَمُنْبِلُهُ، فَأَرْمُوا وَأَرْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، كُلُّ شَيْءٍ يُلْهُو بِهِ الرَّجُلُ، بَاطِلٌ إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ قَرْسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَمْرَاتِهِ»^(٢). انتهى.

ورباط الخيل: مصدرٌ مِنْ رَبَطَ، وَلَا يَكْثُرُ رَبْطُهَا إِلَّا وَهْيَ كَثِيرَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

رجل فقال: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في الخيل شيئاً؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيال معقود...» فذكره مطولاً.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٨٠/٥) وقال: رواه أبو يعلى. وفيه بقية بن الوليد، وهو مدلس. وبقية رجاله ثقات.

وأما حديث جابر، فأخرجه أحمد (٣/٣٥٢) من طريق إبراهيم بن إسحاق، وعلي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، عن عتبة بن أبي حكيم، حدثني حصين بن حرملة، عن أبي مصبح، عن جابر به.

وأخرجه أبو يعلى في «معجم شيوخه» (١٩٥) من طريق يحيى بن سعيد الأموي، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر، عن النبي ﷺ مرفوعاً.

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/٢٥٥٧) من طريق الحسن بن سفيان، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا علي بن ثابت عن الوازع، عن أبي سلمة، عن جابر.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٦١) وقال: رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط» باختصار، ورجال أحمد ثقات.

وقال الحافظ في «الفتح» (٦/٦٧): روى حديث «الخيال معقود في نواصيها الخير» جمع من الصحابة غير من تقدم ذكره، وهم: ابن عمر، وعروة، وأنس، وجابر، وممن لم يتقدم سلمة بن نفيل (٦/٢١٤)، وأبو هريرة عند النسائي، وعتبة بن عبد عند أبي داود (٢٥٤٢)، وجابر، وأسماء بنت يزيد (٦/٤٥٥)، وأبو ذر (٥/١٨١) عند أحمد، وابن مسعود عند أبي يعلى، وأبو كبشة عند أبي عوانة، وابن حبان في «صحيحهما»، وحذيفة عند البزار، وأبو أمامة، وعريب. - (وهو بفتح المهملة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ثم موحدة) - المليكي، والنعمان بين بشير وسهل بن الحنظلية عند الطبراني. وعن علي، عند ابن أبي عاصم في «الجهاد»...

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٢٢ - ١٥٢٣) كتاب «الإمارة» باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث (١٦٩/١٩١٩)، وابن ماجه (٢/٩٤٠ - ٩٤١) كتاب «الجهاد» باب: الرمي في سبيل الله، حديث (٢٨١٤) من حديث عقبة بن عامر.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/١٦ - ١٧) كتاب «الجهاد» باب: في الرمي، حديث (٢٥١٣)، والترمذي (٤/١٧٤) كتاب «فضائل الجهاد» باب: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، حديث (١٦٣٧)، والنسائي (٦/٢٢٢ - ٢٢٣) كتاب «الخيال» باب: تأديب الرجل فرسه، حديث (٣٥٧)، والحاكم (٢/٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/٤٤ - ٤٥) رقم: (٤٣٠١) من حديث عقبة بن عامر.

مصدراً من رَابَطَ، وَإِذَا رَبَطَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِرْساً لِأَجْلِ صَاحِبِهِ، فَقَدْ حَصَلَ بَيْنَهُمْ رِبَاطٌ، وَذَلِكَ الَّذِي حَضَّ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَرْتَبَطَ فِرْساً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ كَالْبَاسِطِ يَدَهُ بِالْصَّدَقَةِ لَا يَقْبِضُهَا»^(١)، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

* ت * : وَقَدْ ذَكَرْنَا بَعْضَ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الرِّبَاطِ فِي آخِرِ «آلِ عِمْرَانَ»؛ قَالَ صَاحِبُ «التَّذَكُّرَةِ»^(٢) : وَعَنْ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَتْ لَهُ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ؛ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»^(٣)، وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُخْتَصِباً مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَغْظَمُ أَجْراً مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ؛ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا، وَرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْراً - أَرَاهُ قَالَ: مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِي سَنَةٍ؛ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا - فَإِنْ رَدَّ اللَّهُ إِلَى أَهْلِهِ سَالِماً، لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ سِتَّةٌ أَلْفَ سَنَةٍ، وَيُكْتَبَ لَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَيَجْزِي لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤)، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ^(٥) فِي «تَذَكُّرَتِهِ»: فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ رِبَاطَ يَوْمٍ فِي رَمَضَانَ يَحْصُلُ لَهُ هَذَا الثَّوَابُ الدَّائِمُ، وَإِنْ لَمْ يَمُتْ مُرَابِطاً. خَرَجَ هَذَا الْحَدِيثُ، وَالَّذِي قَبْلَهُ ابْنُ مَاجَةٍ. انْتَهَى مِنَ «التَّذَكُّرَةِ».

و﴿تَرْهِيْبُونَ﴾: مَعْنَاهُ: تَخَوُّفُونَ وَتَفْزَعُونَ، وَالرَّهْبَةُ: الْخَوْفُ؛ وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخْرَجِينَ مِنْ

- (١) ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (١٩٦/٣) وَعِزَّاهُ لِابْنِ سَعْدٍ.
- (٢) يَنْظُرُ: «التَّذَكُّرَةُ» (٢٠٩/١).
- (٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةٍ (٩٢٤/٢) كِتَابُ «الْجِهَادِ» بَابُ: فَضْلُ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَدِيثُ (٢٧٦٦) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مَصْعَبِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ، عَنْ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ بِهِ.
- وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «الزَّوَائِدِ» (٣٩٠/٢): هَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ؛ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ ضَعَفَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَابْنُ الْمَدِينِ وَالنَّسَائِيُّ.
- وَقَالَ الْحَاكِمُ: رَوَى عَنْ أَبِيهِ أَحَادِيثُ مَوْضُوعَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَجْمَعُوا عَلَى ضَعْفِهِ.
- قَالَ الْمُنْذَرِيُّ فِي «الْتَّرْغِيبِ» (٢٠٣/٢): وَأَثَارُ الْوَضْعِ ظَاهِرَةٌ عَلَيْهِ هـ.
- وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «الزَّوَائِدِ» (٣٩٢/٢ - ٣٩٣): هَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ، لَضَعْفِ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْلَى وَشَيْخِهِ عَمْرِو بْنِ صَبِيحٍ، وَمَكْحُولِ لَمْ يَدْرِكْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ مَدْلَسٌ.
- (٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةٍ (٩٢٤/٢ - ٩٢٥) كِتَابُ «الْجِهَادِ» بَابُ: فَضْلُ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَدِيثُ (٢٧٦٨) مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْلَى السَّلْمِيِّ، ثَنَا عَمْرِو بْنُ صَبِيحٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ مَرْفُوعاً.
- (٥) يَنْظُرُ: «التَّذَكُّرَةُ» (٢٠٩/١).

دونهم، فيه أقوال: قيل: هم المنافقون، وقيل: فارس، وقيل: غير هذا.

قال * ع^(١) *: ويحسن أن يقدر قوله: ﴿لا تعلمونهم﴾، بمعنى: لا تعلمونهم فازعين راهبين.

وقال * ص *: لا تعلمونهم بمعنى: لا تعرفونهم، فيتعدى لواحد، ومن عداه إلى اثنين، قدره: محاربين، واستبعد؛ لعدم تقدم ذكره، فهو ممنوع عند بعضهم، وعزيز جداً عند بعضهم انتهى.

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ (٦١) وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بضربه وبالمؤمنين ﴿وآلف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله آلف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ (٦٢)

وقوله سبحانه: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ جنح الرجل إلى الأمر؛ إذا مال إليه، وعاد الضمير في «لها» مؤنثاً؛ إذ «السلم» بمعنى المسالمة والهدنة، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة، والضمير في «جنحوا» هو للذين نُبذ إليهم على سواء.

وقوله سبحانه: ﴿وإن يريدوا﴾ أن يخدعوك فإن حسبك الله... الآية: الضمير في ٢١٧ ب قوله: «وإن يريدوا» عائذ على الكفار الذين قال فيهم: ﴿وإن جنحوا﴾، أي: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾، بأن يظهروا السلم، ويُبطنوا العذر والخيانة، ﴿فإن حسبك الله﴾، أي: كافيك ومعطيك نصره، و﴿أيدك﴾: معناه: قواك ﴿وبالمؤمنين﴾، يريد الأنصار، بذلك تظاهرت أقوال المفسرين.

وقوله: ﴿وآلف بين قلوبهم...﴾ الآية: إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج.

قال * ع^(٢) *: ولو ذهبَ ذاهبٌ إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وجعل التأليف ما كان بين جميعهم من التحاب، لساغ ذلك، وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله^(٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٧/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨١/٦) برقم: (١٦٢٧٥)، وابن كثير (٣٢٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦١/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان»، والنسائي، والبزار، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والحاكم، وصححه.

وقال مجاهد: إِذَا تَرَأَى الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ، وَتَصَافَحَا، تَحَاثَّتْ خَطَايَاهُمَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ^(١): إِنَّ هَذَا لَيْسِيرٌ، فَقَالَ لَهُ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، قَالَ عَبْدَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ أَفْقَهُ مِنِّي^(٢).

قال * ع^(٣): * وهذا كله تمثيل حسن بالآية، لا أن الآية نزلت في ذلك، وقد روى سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ مَأْلَفَةٌ لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ»^(٤).

قال * ع^(٥): * والتشابه سبب الألفة، فمن كان من أهل الخير، ألفت أشباهه وألفوه.

* ت * وفي «صحيح البخاري»: «الْأَزْوَاجُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا أَتَنَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»^(٦). انتهى، وروى مالك في «الموطأ»، عن أبي هريرة قال: قَالَ

(١) عبدة بن أبي لبابة الأسدي الغاضري بمعجمتين مولا هم أبو القاسم البراز الكوفي الفقيه نزيل دمشق. عن عمر في مسلم مراسلاً وابن عمر وعبد الله بن عمرو وجماعة، وعنه حبيب بن أبي ثابت والأعمش وابن جريج والسفيانان، وثقه أبو حاتم.

قال الأوزاعي: لم يقدم علينا أفضل منه.

قال ابن عيينة: جالسته سنة ثلاث وعشرين ومائة.

ينظر: «الخلاصة» (١٨٩/٢)، «طبقات خليفة» (١٦٠)، «التاريخ الكبير» (١١٤/٦)، و«تهذيب التهذيب» (٤٦١/٦).

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٠/٦) برقم: (١٦٢٧٤)، وذكره ابن عطية (٥٤٨/٢)، وابن كثير (٣٢٣/٢).

(٣) ينظر: «المحور الوجيز» (٥٤٨/٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣٣٥/٥)، والطبراني في «الكبير» (١٣١/٦) رقم: (٥٧٤٤)، والخطيب (٣٧٦/١١) من طريق مصعب بن ثابت، عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي به.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٠/٨) وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقي رجاله ثقات اهـ.

وذكره أيضاً في (٢٧٦/١٠) وقال: وإسناده جيد.

(٥) ينظر: «المحور الوجيز» (٥٤٩/٢).

(٦) أخرجه مسلم (٢٠٣١/٤) في البر والصلة، باب: الأرواح جنود مجنّدة، (٢٦٣٨/١٥٩)، وأحمد (٢/٢٩٥، ٥٢٧)، والخطيب في «التاريخ» (٣٢٩/٣) (٣٥٢/٤) من طريق سهل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به. وكذا أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٨).

وأخرجه أبو داود (٦٧٥/٢) في «الأدب» باب: من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٤)، وأحمد (٥٣٩/٢) من طريق جعفر بن يرقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة به.

وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤٦٠/٦) برقم: (٣٣٦٥) بتحقيقنا من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

ويشهد له حديث عائشة، رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٦ - ٩٠٧)، وأبو يعلى (٤٣٨١)، =

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيُّنَ الْمُتَحَابُّونَ لَجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(١).

قال أبو عمر بن عبد البرّ في «التمهيد»: وروينا عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، أَتَذَرِي، أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَغْلَمُ، قَالَ: الْوَلَايَةُ فِي اللَّهِ: الْحُبُّ وَالْبُغْضُ فِيهِ»^(٢)، ورواه البراء بن عازب، عن النبي ﷺ أيضاً^(٣)، وعن عبد الله في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنِهِمْ﴾، قال: نزلت في المتحابين في الله^(٤) قال أبو عمر: وأما قوله: الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي، فإنه أراد - والله أعلم - في ظلّ عرشه، وقد يكون الظل كناية عن الرحمة؛ كما قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]، يعني: بذلك ما هم فيه من الرحمة والنعيم. انتهى.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى

والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٧٤) عن يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة مرفوعاً به.

وعلقه البخاري (٤٢٦/٦) في أحاديث الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجتدة (٣٣٣٦). بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩١/٨): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

ويشهد له حديث علي رواه أبو نعيم في «الحلية» (١١٠/٤ - ١١١) عن الأعمش، عن أبي وائل عنه وقال: غريب من حديث الأعمش لم نكتبه إلا بهذا الإسناد.

وأخرجه العقيلي (١٣٥/١) من طريق سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عنه به.

وقال العقيلي: هذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي موقوف، كما يشهد له حديث سلمان. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٩٨/١)، وينظر: «مجمع الزوائد»

(٩١/٨) وحديث ابن عباس رواه السهمي في «تاريخ جرجان» ص: (٢٤٤)، وحديث ابن مسعود رواه الطبراني في «الكبير» (٢٨٣/١٠) برقم: (١٠٥٥٧) وفيه عن عبد الله بن مسعود أو غيره.

(١) أخرجه مالك (٩٥٢/٢) كتاب «الشعر» باب: ما جاء في المتحابين في الله، حديث (١٣)، ومسلم (٤/

١٩٨٨) كتاب «البر والصلة» باب: فضل الحب في الله، حديث (٢٥٦٦/٣٧)، وأحمد (٢٣٧/٢،

٥٣٥)، والطيالسي (٢٣٣٥)، والدارمي (٣١٢/٢)، وابن حبان (٣٣٤/٢) رقم: (٥٧٤) من حديث

أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٣٧٨)، والحاكم (٤٨٠/٢) من طريق الصعق بن حزن، عن عقيل الجعد، عن أبي

إسحاق، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي فقال: ليس بصحيح، فإن الصعق وإن كان موثقاً فإن شيخه منكر الحديث. قاله البخاري.

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٦/٤) من حديث البراء بن عازب.

(٤) تقدم.

أَلْقَتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَادِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتُهُ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتُهُ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال الثَّقَاش: نزلت هذه الآية بالبَيْدَاء^(١) في غزوة بَذْر، وَحُكِّيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ.

وقيل: إنها نزلت حين أسلم عمر وكمَل المسلمون أَرْبَعِينَ. قاله ابن عمر، وأنس؛ فهي على هذا مَكِّيَّة: وَ«حَسْبُكَ»؛ في كلام العرب، وَشَرَعَكَ: بمعنى كافيك وَيَكْفِيكَ، والمحسب: الكافي، قالت فرقة: معنى الآية: يَكْفِيكَ اللَّهُ، وَيَكْفِيكَ مَنِ اتَّبَعَكَ، فـ «مَنْ» في موضع رفع.

وقال الشَّعْبِيُّ وابن زَيْد: معنى الآية: حَسْبُكَ اللَّهُ وَحَسْبُ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فـ «مَنْ» في موضع نَصْبٍ عطفاً على موضع الكاف؛ لأن موضعها نَصْبٌ على المعنى بـ «يَكْفِيكَ» التي سَدَّتْ «حَسْبُكَ» مسدّها.

قال * ص *: ورد بأن الكاف لَيْسَ موضعها نَصْبٌ لأن إضافة حسب إليها إضافة صحيحة انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ الآية: ﴿حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: حُثُّهُمْ وَحُضُّهُمْ، وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ...﴾ إلى آخر الآية، لفظٌ خبر، مضمَّنُهُ وعدٌ بشرط؛ لأن قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ/ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ﴾، بمنزلة أن يقال: إِنْ يَضْبِرْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ يَغْلِبُوا، وفي ضمنه الأمر بالصَّبر، قال الفخر: وَحَسَنَ هَذَا التَّكْلِيفُ لما كان مسبوقاً بقوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فلما وعد الله المؤمنين بالكِفَايَةِ والنصر، كان هذا التَّكْلِيفُ سهلاً؛ لأن مَنْ تَكَلَّفَ اللَّهُ بنصره، فإن أهلَ الْعَالَمِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِدَاءَتِهِ انتهى، وتظاهرت الروايات عن ابن عَبَّاسٍ وغيره من الصحابة؛ بأن ثبوت الواحدٍ لِلْعَشْرَةِ، كان فرضاً على المؤمنين، ثم لما شَقَّ ذلك عليهم، حَطَّ اللَّهُ

(١) البیداء: اسم الأرض بين مكة، والمدينة، وهي إلى مكة أقرب، تُعَدُّ من الشرف أمام ذي الحليفة. ينظر: «مرصد الاطلاع» (١/٢٣٩).

الْقَرْضَ إِلَى ثُبُوتِ الْوَاحِدِ لِلثَّانِي، وَهَذَا هُوَ نَسْخُ الْأَثْقَلِ بِالْأَخْفِ^(١)، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: مَعْنَاهُ: لَا يَفْهَمُونَ مَرَاثِدَهُمْ، وَلَا مَقْصِدَ قِتَالِهِمْ، لَا يَرِيدُونَ بِهِ إِلَّا الْغَلْبَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ، فَهَمْ يَخَافُونَ الْمَوْتَ؛ إِذَا صَبَرُ لَهُمْ، وَمَنْ يِقَاتِلُ؛ لِيُغْلِبَ، أَوْ يُسْتَشْهِدَ، فَيَصِيرَ إِلَى الْجَنَّةِ، أَتَبَّتْ قَدَمًا لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: لَفْظُ خَبَرٍ فِي ضَمْنِهِ وَغَدٌّ وَحُضٌّ عَلَى الصَّبْرِ، وَيُلْحَظُ مِنْهُ وَعِيدٌ لِمَنْ لَمْ يَصْبِرْ؛ بِأَنَّهُ يُغْلَبُ.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧) ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٨) ﴿فَلَا تُكَلِّمُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا وَلَا طَيْبًا وَأَقْفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩)

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى...﴾. الْآيَةُ: قَالَ * ع^(٢): * هَذِهِ آيَةٌ تَتَضَمَّنُ عِنْدِي مَعَانِيَةً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَصْحَابِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمَعْنَى: مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا هَذَا الْفِعْلَ الَّذِي أَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ أُسْرَى قَبْلَ الْإِثْنَانِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَمَرَّ الْخُطَابُ لَهُمْ بِـ ﴿تُرِيدُونَ﴾ وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ بِاسْتِيفَاءِ الرِّجَالِ وَقَتَ الْحَرْبِ، وَلَا أَرَادَ ﷺ قَطُّ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا فَعَلَهُ جَمْعُهُمْ مُبَاشِرِي الْحَرْبِ، وَجَاءَ ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْآيَةِ؛ مُشِيرًا إِلَى دُخُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْعَتَبِ؛ حِينَ لَمْ يَنْهَ عَنْ ذَلِكَ حِينَ رَأَاهُ مِنَ الْعَرِيشِ، وَأَنْكَرَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَلَكِنَّهُ ﷺ شَغَلَهُ بَغْتُ الْأَمْرِ، وَظَهُورُ النُّصْرَةِ؛ عَنِ النَّهْيِ وَمَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ؛ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّوْبِيخَ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ إِشَارَةِ مَنْ أَشَارَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ بِأَخْذِ الْفُذْيَةِ، حِينَ اسْتَشَارَهُمْ فِي شَأْنِ الْأُسْرَى، وَالتَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ أَحْسَنُ، وَالْإِثْنَانُ: هُوَ الْمُبَالِغَةُ فِي الْقَتْلِ وَالْجِرَاحَةِ، ثُمَّ أَمَرَ مَخَاطَبَةَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، أَيُّ: مَالِهَا الَّذِي يَعْزُ وَيَغْرِضُ، وَالْمُرَادُ: مَا أَخَذَ مِنَ الْأُسْرَى مِنَ الْأَمْوَالِ، ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، أَيُّ: عَمَلَ الْآخِرَةِ، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاسِ: «إِنْ

(١) اتَّفَقَ الْأَصُولِيُّونَ عَلَى جَوَازِ نَسْخِ الْحُكْمِ بِأَخْفٍ أَوْ مَسَاوٍ. وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِهِ بِأَثْقَلٍ. فَالْجَمْعُ هُوَ ذَهَبٌ إِلَى جَوَازِهِ عَقْلًا وَوُقُوعُهُ شَرْعًا وَمَنْعُ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَفْتَرِقِينَ إِلَى فَرْقَتَيْنِ. فَرَقَةُ مَنْعَتْ جَوَازَهُ عَقْلًا وَوُقُوعُهُ شَرْعًا، وَفَرَقَةُ مَنْعَتْ وَوُقُوعُهُ شَرْعًا فَقَطْ.

يَنْظُرُ: «الْمُعْتَمَدُ» (٤١٦/١) «الْمَحْصُولُ» (٧٦٦) (٤٨٠/٣) «الْمُسْتَصْفَى» (١٢٠/١) «التَّبَصُّرَةُ» (٢٥٨)، «شَرْحُ الْكُوكَبِ» (٥٥٠/٣) «الْعِلَّةُ» (٧٨٥/٣) «الْإِحْكَامُ لِلْأَمْدِيِّ» (١٢٦/٣) «مِيزَانُ الْأَصُولِ» (١٠٠/٢) «كَشْفُ الْأَسْرَارِ» (١٨٧/٣) «التَّلْوِيحُ» (٣٦/٢) «فَتْحُ الْغَفَارِ» (١٣٤/٢) «إِرْشَادُ الْفُحُولِ» (١٨٨) «الْإِبْهَاجُ» (٢٣٨/٢).

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥٥١/٢).

سِثْتُمْ، أَخَذْتُمْ فِدَاءَ الْأَسْرَى، وَيُقْتَلُ مِنْكُمْ فِي الْحَرْبِ سَبْعُونَ عَلَى عَدَدِهِمْ، وَإِنْ سِثْتُمْ، قُتِلُوا وَسَلِمْتُمْ، فَقَالُوا: نَأْخُذُ الْمَالَ، وَيُسْتَشْهَدُ مِنَّا^(١)، وذكر عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ^(٢) بسنده؛ أَنَّ جَبْرِيلَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِتَخْيِيرِ النَّاسِ هَكَذَا؛ وَعَلَى هَذَا، فَلَا أَمْرَ فِي هَذَا التَّخْيِيرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ إِعْلَامٌ بِغَيْبٍ، وَإِذَا خُيِّرُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ يَقَعُ التَّوْبِيخُ بَعْدَ بَقُولِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ﴾؛ فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَدَّمْنَاهُ، أَنَّ الْعَتَبَ لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ وَقَتِ الْهَزِيمَةِ؛ رَغْبَةً فِي اخْتِذِ الْمَالِ، وَهُوَ الَّذِي أَقُولُ بِهِ، وَذَكَرَ الْمَفْسُورُونَ أَيْضاً فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَحْلِيلَ/ الْمَغَانِمِ، وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ؛ لِأَن تَحْلِيلَ الْمَغَانِمِ قَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ بَذْرِ فِي السَّرِيَّةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا ابْنُ الْحَضَرَمِيِّ، وَإِنَّمَا الْمُبْتَدِعُ فِي بَذْرِ اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ؛ لِأَجْلِ الْمَالِ، وَالَّذِي مَنَّ اللَّهُ بِهِ فِيهَا: إِلْحَاقُ فِدْيَةِ الْكَافِرِ بِالْمَغَانِمِ الَّتِي تَقَدَّمَ تَحْلِيلُهَا، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾ الْآيَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُهُمْ: الْكِتَابُ: هُوَ مَا كَانَ اللَّهُ قَضَاءً فِي الْأَزَلِ مِنْ إِحْلَالِ الْغَنَائِمِ وَالْفِدَاءِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: الْكِتَابُ السَّابِقُ: مَغْفَرَةُ اللَّهِ لِأَهْلِ بَدْرٍ، وَقِيلَ: الْكِتَابُ السَّابِقُ: هُوَ أَلَّا يَعْذِبَ اللَّهُ أَحَدًا بِذَنْبٍ إِلَّا بَعْدَ التَّهْنِئَةِ عَنْهُ، حَكَاهُ^(٣) الطَّبْرِيُّ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِ الْقُرْآنِ»: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ مُمَكَّنَةٌ، لَكِنْ أَقْوَاهَا مَا سَبَقَ مِنْ إِحْلَالِ الْغَنِيمَةِ، وَقَدْ كَانُوا عَنِمُوا أَوَّلَ غَنِيمَةٍ فِي الْإِسْلَامِ حِينَ أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ^(٤). انْتَهَى، وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ نَزَلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ عَذَابٌ، لَنَجَا مِنْهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»^(٥)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ»؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَأْيَهُمَا كَانَ

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (٦/٢٩٢).

(٢) عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ بْنُ نَصْرِ الْكَشِّي أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ مُؤَلِّفُ «الْمُسْنَدِ وَالتَّفْسِيرِ» عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَاصِمٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ بَشْرِ الْعَبْدِيِّ، وَعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَالنَّضَرِ بْنِ شُمَيْلٍ، وَخَلَاتِقٍ، وَعَنْهُ مُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَخَلْقٌ. قَالَ الْبُخَارِيُّ وَقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ: أَبْنَاءُ عُثْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حَدِيثًا، قِيلَ: عَبْدُ الْحَمِيدِ هُوَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، قُلْتُ: رَوَى الْحَدِيثَ مُسْلِمٌ، عَنْ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ.

قَالَ ابْنُ حَبَانَ: مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ. قَالَ فِي «الْخُلَاصَةِ» (٢/١٨٨).

(٣) يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٦/٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ الْأَسَدِيُّ بْنُ رِيَابٍ - بَرَاءٌ تَحْتَانِيٌّ وَآخِرُهُ مُوَحَّدَةٌ - ابْنُ يَعْمَرَ الْأَسَدِيُّ: حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَحَدُ السَّابِقِينَ.

قَالَ ابْنُ حَبَانَ: لَهُ صَحْبَةٌ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: هَاجَرَ إِلَى الْحَبْشَةِ، وَشَهِدَ بَدْرًا، وَدُفِنَ هُوَ وَحُمَزَةُ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ، وَكَانَ لَهُ يَوْمَ قَتْلِ نَيْفٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً. يَنْظُرُ: «الْإِصَابَةُ» (٤/٣١، ٣٣)، «أَسَدُ الْغَابَةِ» (٢٨٥٨) بِتَحْقِيقِنَا، «الْتِقَاتُ» (٣/٢٣٧)، «صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ» (١/٣٨٥)، «حَلِيَةُ الْأَوْلِيَاءِ» (١/١٠٨ - ١٠٩).

(٥) ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَرِ الْمَشْهُورِ» (٣/٢٠٣)، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ الْمُنْذَرِ، وَأَبِي الشَّيْخِ، وَابْنِ مَرْدَوَيْهِ.

أَنْ تُقْتَلَ الْأَسْرَى، وقوله سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ...﴾ الآية: نصٌّ على إباحة المال الذي أُخِذَ من الأسرى، وإلحاق له بالغنيمة التي كان تقدّم تحليلها.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، روي أنَّ الأسرى ببذرٍ أعلموا رسول الله ﷺ؛ أنَّ لهم مَيْلًا إلى الإسلام، وأنهم إن رجعوا إلى قومهم، سَعَوْا في جلبهم إلى الإسلام، قال ابن عباس: الأسرى في هذه الآية: عبَّاسٌ وأصحابه^(١)، قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد إنك لرسول الله، ولتَنصَحَنَّ لك على قومنا، فنزلت هذه الآية، ومعنى الكلام: إن كان هذا عن جد منكم، وعَلِمَ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمُ الْخَيْرَ وَالْإِسْلَامَ، فإنه سيجبر عليكم أفضل مما أعطيتكم فدية، ويغفر لكم جميع ما أجترتموه، وروي أنَّ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: في وفي أصحابي نزلت هذه الآية، وقال حين أعطاه رسول الله ﷺ مِنْ مَالِ الْبَحْرَيْنِ ما قُدِّرَ أَنْ يَقُولَ: هذا خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنِّي، وأنا بغد أرجو أن يغفر الله^(٢) لي، وروي عنه؛ أنه قال: ما أودُّ أنَّ هذه الآية لَمْ تَنْزِلْ^(٣)، ولي الدنيا بأجمعها؛ وذلك أن الله تعالى قد أتاني خَيْرًا مما أُخِذَ مِنِّي، وأنا أرجو أن يغفر لي، وقوله: ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بالكفر، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: بأن جعلهم أسرى، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيما يظنون، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازيهم به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَعَةٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْرَكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينُكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) أخرجه الطبري (٢٩٢/٦) برقم: (١٦٣٤٠)، وذكره ابن عطية (٥٥٤/٢)، والبغوي (٢٦٣/٢) ولم يعزه لأحد، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٩/٣)، وزاد نسبه لأبي نعيم في «الدلائل».

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩٢/٦) برقم: (١٦٣٣٨) نحوه، وذكره ابن عطية (٥٥٥/٢)، والبغوي (٢٦٣/٢) نحوه، والسيوطي (٣٧٠/٣) بنحوه، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، وابن عساكر.

(٣) ذكره ابن عطية (٥٥٥/٢).

والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴿١﴾، مَقْصِدُ هذه الآية وما بعدها: تبيينُ منازل المهاجرين والأنصار، والمؤمنين الذين لم يُهاجِرُوا، وذكر المهاجرين بَعْدَ الحديبية، فَقَدْ أَوَّلًا ذَكَرَ المهاجرين، وَهُم أصل الإسلام، وتَأَمَّلْ تقديمَ عَمَرَ لَهُم في الاستشارة، وَهَاجَرَ: معناه/ : هَجَرَ أَهْلَهُ وقربته، وَهَجَرُوهُ، ﴿والذين آوُوا ونصروا﴾: هم الأنصار، فَحَكَمَ سبْحَانَهُ عَلَى هَاتَيْنِ الطائفتين؛ بَأَن بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ، فقال كثيرٌ من المفسرين: هذه الموالاة: هي المؤازرة، والمعانة، وأتصال الأيدي، وعليه فَسَّرَ الطبريُّ الآية، وهذا الذي قالوه لازم من دلالة لفظ الآية، وقال ابن عباس وغيره: هذه الموالاة هي في الموارث^(١)؛ وذلك أَن النَّبِيَّ ﷺ آخَى بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري إذا مات، ولم يكن له بالمدينة وليٌّ مهاجريٌّ، ورثه أخوه الأنصاريُّ، وكان المسلم الذي لم يُهاجِرْ لا ولايةَ بينه، وَبَيْنَ قَرِيْبِهِ المهاجريِّ، ولا يرثه، ثم نُسخَ ذلك بقوله سبْحَانَهُ: ﴿وأولوا الأرحام...﴾ الآية [الأنفال: ٧٥]؛ وعلى التأويلين، ففي الآية حُضْرٌ على الهجرة، قال أبو عُبَيْدَةَ: الولاية بالكسر - من وَلِيْتُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، فهي في السلطان، وبِالْفَتْحِ هي من المَوْلَى؛ يقال: مَوْلَى بَيْنَ الْوَلَايَةِ - بفتح الواو ..

وقوله سبْحَانَهُ: ﴿وإن استنصروكم﴾، يعني: إن استدعى هؤلاء - المؤمنون الذين لم يُهاجِرُوا نَصْرَكُمْ - ﴿فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾؛ فلا تنصروهم عليهم؛ لأنَّ ذلك عَذْرٌ ونَفْضٌ للميثاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

وقوله سبْحَانَهُ: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾؛ وذلك يجمع الموارثة والمعانة والنصرة، وهذه العبارة تحريض وإقامة لنفوس المؤمنين؛ كما تقول لمن تريد تحريضه: عَدُوُّكَ مُجْتَهِدٌ أَي: فَأَجْتَهِدْ أَنْتَ، وحكى الطبريُّ في تفسير هذه الآية^(٢)، عن

(١) أخرجه الطبري (٢٩٤/٦) برقم: (١٦٣٤٥)، وابن عطية (٥٥٥/٢)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٤٦٤)، وابن كثير (٣٢٨/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧١/٣) نحوه، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٩٧/٦).

قتادة؛ أنه قال: أبى الله أن يقبل إيماناً من آمن ولم يُهاجز، وذلك في صدر الإسلام، وفيهم قال النبي ﷺ «أنا بريء من مسلم أقام بين المشركين لا تترأى نارهما»^(١) الحديث على اختلاف ألفاظه، وقول قتادة، إنما هو فيمن كان يُقيم متربصاً يقول: من غلب، كُنْتُ معه؛ وكذلك ذُكر في كتاب^(٢) «الطبري»، وغيره، والضمير في قوله: «إلا تفعلوه»، قيل: هو عائذ على المؤازرة والمعاونة، ويحتمل على الميثاق المذكور، ويحتمل على النضر للمسلمين المستنصرين، ويحتمل على الموارثة والتزامها، ويجوز أن يعود مجملاً على جميع ما ذُكر، والفتنة: الميخنة بالحرب وما آنجر معها؛ من الغارات، والجلاء، والأسر، والفساد الكبير: ظهور الشرك.

وقوله سبحانه: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا﴾، تضمنت الآية تخصيص المهاجرين والأنصار، وتشريفهم بهذا الوصف العظيم.

* ت * وهي مع ذلك عند التأمل يلوح منها تأويل قتادة المتقدم، فتأمله، والرزق الكريم: هو طعام الجنة؛ كذا ذكر الطبري وغيره^(٣).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): وإذا كان الإيمان في القلب حقاً، ظهر ذلك في

(١) أخرجه أبو داود (٥٢/٢) كتاب «الجهاد» باب: النهي عن قتل من انتصم بالسجود، حديث (٢٦٤٥)، والترمذي (١٣٢/٤ - ١٣٣) كتاب «السير» باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث (١٦٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٣/٢) رقم: (٢٢٦٤)، والبيهقي (١٣١/٨) كتاب «القسامة» باب: ما جاء في وجوب الكفارة في أنواع قتل الخطأ، من طريق أبي معاوية، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير به. وقد أعله أبو داود بالإرسال فقال: رواه هشيم ومعمّر وخالد الواسطي وجماعة لم يذكروا جريراً.

وقد أخرجه مرسلاً الترمذي (١٣٣/٤) كتاب «السير» باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث (١٦٠٥)، والنسائي (٣٦/٨) كتاب «القسامة» باب: القود بغير حديدة، والبيهقي (١٣٠/٨) كتاب «القسامة»، كلهم من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم مرسلاً. وقال الترمذي: وهذا أصح وأكثر أصحاب إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله ﷺ بعث سرية ولم يذكروا فيه عن جرير، ورواه حماد بن سلمة، عن الحجاج بن أروطة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس عن جرير مثل حديث أبي معاوية. قال: وسمعت محمداً يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ اهـ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٩٨/٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٩٩/٦).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٨٨٩/٢).

استقامة الأعمال؛ بأمثال الأمر وأجتناب المنهي عنه، وإذا كان مجازاً، قصرت الجوارح في الأعمال؛ إذ لم تبلغ قوته إليها. انتهى.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم﴾: قوله: «من بعد»، يريد به من بعد الحذيبية؛ وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة قبل ذلك، وكان يقال ب ٢١٩ لها الهجرة الثانية، ﴿وجاهدوا معكم﴾: لفظ يقتضي / أنهم تبع لا صدر.

وقوله سبحانه: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، قال من تقدم ذكره: هذه في الموارث، وهي ناسخة للحكم المتقدم ذكره.

وقالت فرقة، منها مالك: إن الآية ليست في الموارث، وهذا قرار من توريث الخال والعمة ونحو ذلك.

وقالت فرقة: هي في الموارث، إلا أنها نسخت بآية الموارث المبيته، وقوله: ﴿في كتاب الله﴾: معناه: القرآن، أي: ذلك مثبت في كتاب الله.

وقيل: في اللوح المحفوظ.

كَمَل تَفْسِيرُ السُّورَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
تسليماً.

تفسير سورة التوبة

وهي مدنية إلا آيتين

قوله سبحانه: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم...﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها؛ وتسمى «سورة التوبة»؛ قاله حذيفة وغيره، وتسمى «الفاضحة»؛ قاله ابن عباس، وقال: ما زال ينزل: وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ، وهي من آخر ما أنزل على النبي ﷺ. قال علي رضي الله عنه لابن عباس: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أمان وبشارة، وبراءة نزلت بالسيف وتبذ العهود؛ فلذلك لم تبدأ بالأمان^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عِزٌّ مُّعْزَى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (٢)

قوله عز وجل: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾، التقدير: هذه الآيات براءة، ويصح أن يرتفع «براءة»؛ بالابتداء، والخبر في قوله: ﴿إلى الذين﴾. و«براءة» معناه: تخلص وتبر من العهود التي بينكم، وبين الكفار البادين بالنقض. قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): تقول: برأت من الشيء أبرأ براءة، فأنا منه بريء؛ إذا أنزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه. انتهى.

ومعنى السياحة في الأرض: الذهاب فيها مسرحين آمنين؛ كالسباح في الماء، وهو الجاري المنبسط؛ قال الضحاك، وغيره من العلماء: كان من العرب من لا عهد بينه وبين النبي ﷺ جملة، وكان منهم من بينه وبينهم عهد، وتحسن منهم نقض، وكان منهم من بينه وبينهم عهد ولم ينقضوا، فقوله: ﴿فيسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ هو أجل ضربته الله

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٧٧)، وزاد نسبه إلى أبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٨٩٣).

لِمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ، وَتَحَسَّسَ مِنْهُمْ نَفَضَهُ، وَأَوَّلَ هَذَا الْأَجَلَ يَوْمَ الْأَذَانِ، وَآخِرَهُ أَنْقِضَاءُ الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ، وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] حُكْمٌ مُبَايِنٌ لِلأَوَّلِ، حَكَمَ بِهِ فِي الْمَشْرِكِينَ الَّذِي لَا عَهْدَ لَهُمْ أَلَبَتَهُ، فَجَاءَ أَجَلُ تَأْمِينِهِمْ خَمْسِينَ يَوْمًا، أَوَّلُهَا يَوْمُ الْأَذَانِ، وَآخِرُهَا أَنْقِضَاءُ الْمُحَرَّمِ.

وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾، يريد به الذين لَهُمْ عَهْدٌ، وَلَمْ يَنْقُضُوا، وَلَا تُحَسَّسَ مِنْهُمْ نَفَضٌ، وَهَمَّ فِيهِمَا رَوِي بَنُو ضَمْرَةٍ مِنْ كِنَانَةَ، كَانَ بَقِيَ مِنْ عَهْدِهِمْ يَوْمَ الْأَذَانِ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، أي: لَا تَفْلُتُونَ اللَّهَ، وَلَا تَعْجِزُونَهُ هَرَبًا.

﴿وَأَذَّنَ رَبُّكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُمْ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِقَابَهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)

وقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: أي: إِعْلَامٌ، وَ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ قَالَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ: هُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ^(١)، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَمَاعَةٌ: هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ^(٢)، وَتَظَاهَرَتِ الرِّوَايَاتُ؛ أَنْ عَلِيًّا أَذَّنَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِثْرَ خُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَعْمَ النَّاسُ بِالْإِسْتِمَاعِ، فَتَتَبَعَهُمْ بِالْأَذَانِ بِهَا يَوْمَ النَّحْرِ^(٣)، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ مَنْ يَعِينُهُ فِي الْأَذَانِ بِهَا؛ كَأَبِي هُرَيْرَةَ^(٤) وَغَيْرِهِ، وَتَتَبَعُوا بِهَا أَيْضًا أَسْوَاقَ الْعَرَبِ، كَذِي الْمَجَازِ وَغَيْرِهِ؛ وَهَذَا هُوَ سَبَبُ الْخِلَافِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ: عَرَفَةُ؛ حَيْثُ وَقَعَ أَوَّلُ الْأَذَانِ.

وَقَالَتْ أُخْرَى: هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ؛ حَيْثُ وَقَعَ إِكْمَالُ الْأَذَانِ.

وَقَالَ سَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْمُرَادُ بِالْيَوْمِ أَيَّامُ الْحَجِّ كُلُّهَا؛ كَمَا تَقُولُ: يَوْمُ صَفِينٍ، وَيَوْمُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣١٠/٦) رَقْمًا: (١٦٤٠٠)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣)، وَابْنُ الْبُغْوِيِّ (٢٨٦/٢) رَقْمًا: (٣).

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٠٤/٦) رَقْمًا: (١٦٣٧٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٠٥/٦ - ٣٠٦) بِرَقْمٍ: (١٦٣٨٣ - ١٦٣٨٤) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٣).

الْجَمَلِ؛ ويتجه أن يوصف بـ «الأكبر»؛ على جهة المدح، لا بالإضافة إلى أصغر معين، بل يكون المعنى: الأكبر من سائر الأيام، فتأمله.

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية؛ على ما ذكر مجاهد وغيره من صورة تلك الحال: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَفْتَتَحَ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا عَتَّابَ بْنِ أَسِيدٍ، وَقَضَى أَمْرَ حُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ، وَأَنْصَرَفَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَقَامَ بِهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ مِنْ تَبُوكَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ، فَأَرَادَ الْحَجَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَنَّ الْمَشْرِكِينَ يَحْجُونَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، وَيَطُوفُونَ عَرَاءً، فَقَالَ: لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الْحَجِّ بِالنَّاسِ، وَأَنْفَذَهُ، ثُمَّ اتَّبَعَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى نَاقَتِهِ الْعُضْبَاءِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤْذَنَ فِي النَّاسِ بِأَرْبَعِينَ آيَةً: صَدْرُ سُورَةِ «بَرَاءة»، وَقِيلَ: ثَلَاثِينَ، وَقِيلَ: عَشْرِينَ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: عَشْرَ آيَاتٍ، وَفِي بَعْضِهَا: تِسْعَ آيَاتٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤْذَنَ النَّاسَ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ، وَهِيَ: أَلَّا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكًا، وَلَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرًا، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عَزِيَانًا، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ عَهْدٌ، فَهُوَ إِلَى مَدَّتِهِ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَهْدٌ، فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَسِيحُ فِيهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ، فَإِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ.

قال * ع^(١) * : وأقول: إنهم كانوا ينادون بهذا كله، فأربعة أشهر؛ للذين لهم عهدٌ وتُحَسِّنَ منهم نقضه، والإبقاء إلى المدة لمن لم يخبر منه نقض، وذكر الطبري أن العرب قالت يومئذ: نَحْنُ نَبْرَأُ مِنْ عَهْدِكَ، ثُمَّ لَامَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَالُوا: مَا تَضَنُّعُونَ، وَقَدْ أَسْلَمْتُمْ قَرِيشًا؟ فَاسْلُمُوا كُلُّهُمْ، وَلَمْ يَسِخْ أَحَدٌ.

قال * ع^(٢) * : وَحِينَئِذٍ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.

وقوله سبحانه: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ورسوله بريء منهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾، أي: عن الكفر.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ﴾، هذا هو الاستثناء الذي تقدّم ذكره، وقرأ عكرمة وغيره: «يَنْقُضُوكُمْ»^(٣) - بالضاد المعجمة -، و«يُظَاهَرُوا»: معناه: يعاونوا،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٧/٣).

والظهير: المعين.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: تنبيه على أَنَّ الوفاء بالعهد من التقوى.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمِنٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾: الأَسْلَاحُ: خروج الشيء عن الشيء المتلبس به؛ كَأَسْلَاحِ الشاة عن الجلد، فشبه أنصرام الأشهر بذلك.

وقوله سبحانه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...﴾ الآية: قال ابن زيد: هذه الآية، وقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]: هما مُحْكَمَتَانِ؛ أي: ليست إحداهما بناسخة للأخرى.

قال * ع^(١): هذا هو الصواب.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ معناه: الأسر.

وقوله: ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: معناه: مواضع الغرة؛ حيث يرصدون ونصب «كُلَّ» على الظرف أو بإسقاط الخافض، التقدير: في كُلِّ مَرْصَدٍ.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَابُوا﴾، أي: عن الكفر.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾، أي: جَلَبَ مِنْكَ عَهْدًا ب ٢٢٠ وجواراً/ يأمن به، ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، يعني القرآن، والمعنى: يفهم أحكامه، قال الحسن: وهذه آية محكمة؛ وذلك سُنَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ الآية: قال ابن إسحاق: هي قبائل بني بكر؛ كانوا دخلوا وقت الحديبية في العهد، فأمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض منهم.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٣).

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرِثُوكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ أَشْرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَلِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصِ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ...﴾ الآية: في الكلام حذف، تقديره: كيف يكون لهم عهد ونحوه، وفي «كيف» هنا تأكيد للاستبعاد الذي في الأولى، و﴿لا يرقبوا﴾ معناه: لا يراعوا، ولا يحفظوا، وقرأ الجمهور^(١): «إِلَّا»، وهو الله عز وجل؛ قاله مجاهد، وأبو مجليز، وهو اسمه بالسريانية^(٢)، وعُرب، ويجوز أن يراد به العهد، والعرب تقول للعهد والحلف والجوار ونحو هذه المعاني: «إِلَّا»، والذمة أيضاً: بمعنى الحلف والجوار ونحوه.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ...﴾ الآية، ويليق هنا ذكر شيء من حُكْم طعن الذمي في الدين، والمشهور من مذهب مالك: أنه إذا فعل شيئاً من ذلك؛ مثل تكذيب الشريعة، وسب النبي ﷺ قُتِلَ.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أي: رؤوسهم وأعيانهم الذين يقودون الناس إليه، وأصوب ما يقال في هذه الآية: أنه لا يُعْنَى بها معين وإنما وَقَعَ الأمر بقتال أئمة الناكثين للعهد من الكفرة إلى يوم القيامة، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي النبي ﷺ؛ أن تكون الإشارة إليهم أولاً، ثم كُلٌّ مَنْ دَفَعَ فِي صدر الشريعة إلى يوم القيامة فهو بمنزلتهم.

وقرأ الجمهور^(٣): «لَا أَيْمَانَ لَهُمْ» (جمع يمين)، أي: لا إيمان لهم يُوقَى بها وتُبرأ، وهذا المعنى يشبه الآية، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: «لَا إِيْمَانَ لَهُمْ»، وهذا يحتمل وجهين:

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (١٠/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢/٣)، و«البحر المحيط» (١٧/٥).

أحدهما: لا تصديق لهم، قال أبو علي: وهذا غَيْرُ قَوِيٍّ؛ لأنه تكريرٌ، وذلك أنه وَصَفَ أئمةَ الكُفْرِ بأنهم لا إيمان لهم، والوجه في كَسْرِ الألفِ أنه مضدٌّ من آمَنَتْهُ إيماناً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّنْهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] فالمعنى: أنهم لا يُؤمَّنُونَ كما يُؤمَّنُ أهلُ الذمَّةِ الكتابِيُّونَ؛ إذ المشركون ليس لهم إلا الإسلام أو السَّيفُ، قال أبو حاتم: فَسَّرَ الحَسَنُ قراءته: لا إسلام لهم.

قال *ع^(١): * والتكرير الذي قرأ أبو علي منه متَّجَةً، لأنه بيانُ المهم الذي يوجب قتلهم.

وقوله عز وجل: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ...﴾ الآية «ألا»: عَرَضٌ وتحضيضٌ، قال الحسن: والمراد بـ «إِخْرَاجِ الرَّسُولِ»: إخراجُه من المدينة، وهذا مستقيمٌ؛ كغزوة أُحُدٍ والأحزاب^(٢). وقال السدي: المرادُ مِنْ مَكَّةَ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ بَدَعُوكُمْ أُولَٰمَرَّةٍ﴾، قيل: يراد أفعالهم بمَكَّةَ بالنبي ﷺ، وبالمؤمنين.

وقال مجاهد: يراد به ما بدأت به قريش من معونة بني بكر حلفائهم، على خُرَاعَةِ حلفاء النبي ﷺ، فكان هذا بدءُ النقض^(٤).

وقال الطبري^(٥): يعني فعلهم يَوْمَ بدر.

قال الفخر^(٦): قال ابن إسحاق والسُّدِّيُّ والكَلْبِيُّ: نزلت هذه الآية في كفار مَكَّةَ؛ نكثوا أيمانهم بعد عهد الحديبية، وأعانوا بني بكر على خُرَاعَةِ^(٧). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿أَتُخْشَوْنَهُمْ﴾: استفهامٌ على معنى التقرير والتوبيخ، ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: كَامِلِي الإيمان.

﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِصُورِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (١٣/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (١٣/٣).

(٤) ذكره ابن عطية (١٣/٣).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٣١/٦).

(٦) ينظر: «تفسير الرازي» (١٨٧/١٥).

(٧) أخرجه الطبري (٣٣١/٦) برقم: (١٦٥٥٣)، وذكره ابن عطية (١٣/٣) بنحوه.

وَيَذْهَبَ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾، قررت الآيات قبلها أفعال الكفرة، ثم حضت على القتال مقترباً بذنوبهم؛ لتنبعث الحمية مع ذلك، ثم جزم الأمر بقتالهم في هذه الآية مقترباً بوعيد وكيد يتضمن النصر عليهم، والظفر بهم.

وقوله سبحانه: ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾، معناه: بالقتل والأسر، و﴿ويخزهم﴾، معناه: يذلهم على ذنوبهم، يقال: خزى الرجل يخزى خزياً، إذا ذل من حيث وقع في عار، وأخزاه غيره، وخزى يخزى خزاية/ إذا استخى، وأما قوله تعالى: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، فيحتمل أن يريد جماعة المؤمنين، لأن كل ما يهد من الكفر هو شفاء من هم صدور المؤمنين، ويحتمل أن يريد تخصيص قوم من المؤمنين، وروي أنهم خزاعة؛ قاله مجاهد والسدي^(١)، ووجه تخصيصهم أنهم الذين نقض فيهم العهد، ونالهم الحرب، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير؛ ويقتضي ذلك قول الخزاعي المستنصر بالنبي ﷺ: [الرجز]

ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدًا

وفي آخر الرجز:

وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدًا^(٢)

- (١) أخرجه الطبري (٣٣٢/٦) برقم: (١٦٥٥٤ - ١٦٥٥٧ - ١٦٥٥٨ - ١٦٥٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/ ١٣)، والبقوي (٢٧٣/٢) رقم: (١٤)، وابن كثير (٣٣٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٩)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
- (٢) والآيات:

| | |
|---|---|
| يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا | جَلَفَ أَبِيْنَا وَأَبِيهِ الْأَثَلَدَا |
| كُنْتُ لَنَا أَبَا وَكُنَّا وَلَدَا | ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا |
| فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا عَبْدَا | وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا |
| فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا | أَبْيَضَ مِثْلَ الشَّمْسِ يَنْمُو صَعْدَا |
| إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا | فِي قَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزَبَّدَا |
| إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا | وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا |
| وَرَعِمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا | وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا |
| هُمْ بَيِّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجْدَا | وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا |

ذكر السيوطي في هذه الآيات (٢١٥/٣) نقلاً عن ابن إسحاق والبيهقي في «الدلائل»، وانظر القرطبي (٤٣/٨)، و«روح المعاني» (٤٤/١٠)، و«البحر المحيط» (٧/٥)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٨١ - ٤٨٢)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٦١/٤)، وعزاه لأبي يعلى، وينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٣/ ١١٧٥).

وقرأ جمهور الناس: «يَتُوبُ»^(١) - بالرفع -، على القطع مما قبله، والمعنى أن الآية استأنفت الخبر بأنه قد يَتُوبُ على بعض هؤلاء الكفرة الذين أَمَرَ بقتالهم.

وعبارة * ص *: «يَتُوبُ»، الجمهورُ بالرفع على الاستئناف، وليس بداخل في جواب الأمر؛ لأن توبته سبحانه على مَنْ يشاء لَيْسَتْ جزاءً على قتال الكفار. انتهى.

﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَتَّخِذْ إِلَّا اللَّهَ قَعَسًا أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨).

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ...﴾ الآية: خطاب للمؤمنين؛ كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٢] ومعنى الآية: أظننتم أن تتركوا دون اختبار وامتحان، والمراد بقوله: ﴿ولما يعلم الله﴾، أي: لم يعلم الله ذلك موجوداً؛ كما عَلِمَهُ أَوَّلاً بشرط الوجود، وليس يَخْدُثُ له علم تبارك وتعالى عن ذلك، و﴿ولِيجَةً﴾: معناه: بِطَانَةٌ وَدَخِيلَةٌ، وهو مأخوذ من الوُلُوج، فالمعنى: أَمَرُوا باطناً مما يُنْكَرُ، وفي الآية طَعْنٌ على المنافقين الذين اتَّخَذُوا الْوَلَائِجَ، قال الفخر^(٢): قال أبو عُبَيْدَةَ: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه، فهو وَلِيجَةٌ، وأصله من الوُلُوج، قال الواحدي يقال: هو وَلِيجَةٌ، للواحد والجمع. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾ الآية، لفظ هذه الآية الْخَبَرُ، وفي ضمنها أمر المؤمنين بِعِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ، وروى أبو سعيد الْخُدْرِيُّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَغْتَاذُ الْمَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»^(٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤/٣)، و«البحر المحيط» (١٩/٥)، و«الدر المصون» (٤٥٢/٣).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٦/١٦).

(٣) أخرجه الترمذي (١٢/٥) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٧)، وفي (٥/٢٧٧) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة التوبة»، حديث (٣٠٩٣)، وابن ماجه (٢٦٣/١) كتاب «المساجد» باب: لزوم المساجد وانتظار الصلاة، حديث: (٨٠٢)، وأحمد (٦٨/٣)، والدارمي (١/٢٧٨) كتاب «الصلاة» باب: المحافظة على الصلوات، وابن خزيمة (٣٧٩/٢) رقم: (١٥٠٢)، وابن حبان (١٧٢١)، والحاكم (٣٣٢/٢)، والبيهقي (٦٦/٣) كتاب «الصلاة» باب: فضل المساجد، =

* ت * : زاد ابن الخطيب في روايته: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَغُمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. انتهى من ترجمة محمد بن عبد الله، وفي الحديث عنه ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ ضَمِنَ لِمَنْ كَانَتْ الْمَسَاجِدُ بَيْنَهُ الْأَمْنُ، وَالْأَمَانُ، وَالْجَوَازُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» خَرَّجَهُ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ الْمُتَّخَبِ» لَهُ، وَرَوَى الْبَغَوِيُّ أَيْضاً فِي هَذَا «الْمُسْنَدِ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَوْطَنَ الرَّجُلُ الْمَسَاجِدَ بِالصَّلَاةِ، وَالذِّكْرِ، تَبَشَّشَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ لِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ». انتهى من «الكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ»، قيل: ومعنى «يَتَبَشَّشُ»: أي يفرح به.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، يريد: خشية التعظيم والعبادة، وهذه مرتبة العدل من الناس، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره، ويخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِلرَّامِلِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نَقِيرٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...﴾ الآية: ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾: كَانَتْ فِي بَنِي هَاشِمٍ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ يَتَوَلَّاهَا، قَالَ الْحَسَنُ: وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ الْعَبَّاسُ: مَا أَرَانِي إِلَّا أَتَرَكُ السَّقَايَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَقِيمُوا عَلَيْهَا فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ»^(١) ﴿وعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: قِيلَ: هِيَ حِفْظُهُ مِمَّنْ يَظْلِمُ فِيهِ، أَوْ يَقُولُ هُجْرًا، وَكَانَ ذَلِكَ إِلَى الْعَبَّاسِ، وَقِيلَ: هِيَ السَّدَانَةُ^(٢) وَخِدْمَةُ الْبَيْتِ خَاصَّةً، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَكَانَ يَتَوَلَّاهَا عِثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، وَابْنُ عَمِّهِ شَيْبَةَ، وَأَقْرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ لهما ثَانِي يَوْمَ الْفَتْحِ، وَقَالَ: «خُذَاهَا خَالِدَةً تَالِدَةً

وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٧/٨) كلهم من طريق عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري به.

وقال الترمذي: حديث غريب حسن. وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي. وأخرجه أحمد (٧٦/٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» ص: (٢٨٩) رقم: (٩٢٣)، عن الحسن بن موسى، ثنا ابن لهيعة عن دراج به.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٩١)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٩٦)، وعزاه لأبي الشيخ عن الحسن.

(٢) سيدانة الكعبة: خدمتها، وتولي أمرها، وفتح بابها وإغلاقه. ينظر: «النهاية» (٢/٣٥٥).

لَا يُتَارَعُكُمْوهَا إِلَّا ظَالِمٌ.

اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد: أمروا بالهجرة، فقال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال عثمان بن طلحة: أنا حاجب الكعبة، وقال محمد بن كعب: إن العباس وعليًا وعثمان بن طلحة تفاخروا فنزلت الآية، وقيل غير هذا.

ب ٢٢١

/ وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية: لما حكم سبحانه في الآية المتقدمة بأن الصنفين لا يستوون، بين ذلك في هذه الآية الأخيرة، وأوضحه، فعُدَّ الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، وحكم على أن أهل هذه الخصال أعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالقوز برحمته ورضوانه، والقوز: بلوغ البغية، إما في نيل رغبة، أو نجاة من هلكة، وينظر إلى معنى هذه الآية الحديث: «دَعُوا لِي أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَفَقَّ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١)؛ ولأن أصحاب هذه الخصال على سيوفهم أنبى الإسلام، وتمهد الشروع.

وقوله سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾، هذا وغد كريم من رب رحيم، وفي الحديث الصحيح: «إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَكَيْفَ لَا نَرْضَى، يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: إِنِّي سَأَعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ! رِضْوَانِي أَرْضَى عَلَيْكُمْ؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا...»^(٢) الحديث.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُمْ هُمْ أَظْلُمُونَ﴾ (٢٣) قَدْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ

- (١) ورد ذلك من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس بن مالك:
فأما حديث أبي سعيد، فرواه البخاري (٢٥١٧) في «فضائل الصحابة» باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً» (٣٦٧٣)، ومسلم (١٩٦٧/٤) في «فضائل الصحابة» باب: تحريم سب الصحابة (٢٢٢/ ٢٥٤١)، وأبو داود (٦٢٦/٢) في «السنة» باب: في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (٤٦٥٨)، والترمذي (٦٥٣/٥) في المناقب (٣٨٦١)، وأحمد (١١/٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧٨/٢ - ٤٧٩) (٩٩٠ - ٩٩١)، والبيهقي (٢٠٩/١٠) والخطيب في «التاريخ» (١٤٤/٧) عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وأما حديث أبي هريرة، فرواه مسلم (٢٢١ - ٢٥٤٠)، وابن ماجه (٥٧/١) في «المقدمة» باب: فضل أهل بدر (١٦١) عن الأعمش، عن أبي صالح عنه مرفوعاً به.
وأما حديث أنس فرواه أحمد (٢٦٦/٣).
- (٢) تقدم تخريجه.

وَأَزْجَكُ وَعَشِيرَتُكَ وَأَتَوَلَّ أَقْرَبْتُمُوهَا وَبَحَرَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، ظاهر هذه المخاطبة: أنها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، وروث فرقة أنها نزلت في الحَضُّ على الهجرة، ورفض بلاد الكُفر.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ...﴾ الآية: هذه الآية تقوي مذهب مَنْ رَأَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَالَّتِي قَبْلَهَا إِنَّمَا مَقْصُودُهُمَا الْحَضُّ عَلَى الْهَجْرَةِ، وَفِي ضَمْنِ قَوْلِهِ: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾: وَعَيْدٌ بَيْنَ.

وقوله: ﴿بَأْمْرِهِ﴾، قَالَ الْحَسَنُ: الْإِشَارَةُ إِلَى عَذَابٍ أَوْ عِقَابٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ^(١).

وقال مجاهد: الْإِشَارَةُ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ ^(٢)، وَذَكَرَ الْأَبْنَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دُونَ الَّتِي قَبْلَهَا، لَمَّا جَلِبَتْ ذِكْرَهُمُ الْمَحَبَّةَ، وَالْأَبْنَاءَ: صَدْرٌ فِي الْمَحَبَّةِ وَلَيْسُوا كَذَلِكَ، فِي أَنْ تَتَّبِعَ آرَأُوهُمْ؛ كَمَا فِي الْآيَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ، وَاقْتَرَفْتُمُوهَا: مَعْنَاهُ: أَكْتَسَبْتُمُوهَا، وَمَسَاكِينُ: جَمْعُ مَسْكِينٍ - بَفَتْحِ الْكَافِ:، مَفْعَلٌ مِنَ السُّكْنَى، وَمَا كَانَ مِنْ هَذَا مَعْتَلِّ الْفَاءِ، فَإِنَّمَا يَأْتِي عَلَى مَفْعَلٍ (بِكسْرِ الْعَيْنِ)؛ كَمَوْعِدٍ وَمَوْطِنٍ.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوسُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ صَنِيعًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، هَذِهِ مَخَاطَبَةٌ لَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ يَعِدُّ اللَّهُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ، وَالْمَوَاطِنُ الْمُسَارُ إِلَيْهَا بَدْرُ وَالْخَنْدَقُ وَالْتَّضِيرُ وَقَرْيُظَةُ وَخَيْبَرُ وَغَيْرَهَا، وَحُنَيْنٌ وَادٌّ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ.

وقوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوسُكُمْ﴾، رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ حِينَ رَأَى جَمَلَتَهُ اثْنِي عَشَرَ

(١) ذكره ابن عطية (١٨/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٩/٦) برقم: (١٦٥٨٤)، وذكره ابن عطية (١٨/٣)، والبغوي (٢٧٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٣/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

ألفاً: «لَنْ تُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ»^(١)، وروي أَنَّ رجلاً من أصحابه قالها فأراد الله تعالى إظهار العجز؛ فظهر حين قرأ الناس.

* ت * : العَجَبُ جائزٌ في حقِّ غير النبي ﷺ، وهو معصومٌ منه ﷺ، والصوابُ في فهم الحديث، أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الإِخْبَارِ، لَا عَلَى وَجْهِ العُجْبِ؛ وعلى هذا فَهْمُهُ ابْنُ رُشْدٍ وغيره، وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا حُرِّمَ الْفِرَارُ، وَإِنْ زَادَ عَدَدُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الضَّعْفِ؛ وَعَلَيْهِ عَوَّلَ فِي الْفَتْوَى، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، معناه: بِرُخْبِهَا؛ كَأَنَّهُ قَالَ: عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهَا رَحْبَةً وَاسِعَةً، لَشِدَّةِ الْحَالِ وَضَعُوبَتِهَا؛ فـ «مَا»: مصدرية.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ وَلِيْتُم مَدْبِرِينَ﴾، أي: فراراً عن النبي ﷺ وأختصاراً هذه القصة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ، وَكَانَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَنْضَافَ إِلَيْهِمْ أَلْفَانِ مِنَ الطُّلُقَاءِ، فَصَارَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، سَمِعَ بِذَلِكَ كُفَّارُ الْعَرَبِ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَتْ لَهُ هَوَازُنُ وَأَلْفَافُهَا، وَعَلَيْهِمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ، وَثَقِيفٌ، وَعَلَيْهِمْ عَبْدُ يَالِيلَ بْنِ عَمْرٍو/ وَأَنْضَافَ إِلَيْهِمْ أَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى كَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَجْتَمَعُوا بِحُنَيْنٍ، فَلَمَّا تَصَافَّ النَّاسُ، حَمَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَحَافِي الْوَادِي، وَأَنْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ الطُّلُقَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فُرُوا، وَقَصَدُوا إِلْقَاءَ الْهَزِيمَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ^(٢)، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ قَدْ اكْتَنَفَهُ الْعَبَّاسُ عُمُهُ، وَابْنُ عُمَةَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَيْمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنَ، وَثُمَّ قَتَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَالنَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

فلما رأى نبيُّ اللَّهِ ﷺ شِدَّةَ الْحَالِ، نَزَلَ عَنْ بَغْلَتِهِ إِلَى الْأَرْضِ؛ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ^(٣)، وَاسْتَنْصَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تَرَابٍ وَحَصَى، فَرَمَى بِهَا فِي وَجْهِ الْكُفَّارِ، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»، وَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَنْصَارِ، وَأَمَرَ الْعَبَّاسَ أَنْ يَنَادِيَ: «أَيْنَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ؟ أَيْنَ أَصْحَابُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؟» فَرَجَعَ النَّاسُ عَنَقًا وَاحِدًا لِلْحَرْبِ، وَتَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ وَالطُّغْنِ وَالضَّرْبِ، وَهَنَّاكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الآنَ حِمِي الْوَطِيسُ»^(٤)

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٤/٣)، وعزاه للبيهقي في «دلائل النبوة».

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٠/٦) برقم: (١٦٥٨٨) نحوه، وذكره ابن عطية (١٩/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٤٣/٦) برقم: (١٦٥٩٥) وذكره ابن عطية (١٩/٣).

(٤) تقدم في: سورة الأنفال.

وهزم الله المشركين، وأغلى كلمة الإسلام إلى يوم الدين، قال يعلی بن عطاء: فحدثني أبناء المنهزمين عن آبائهم، قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل عينيه من ذلك التراب واستيعاب هذه القصة في كتب «السيرة».

﴿مُذْبِرِينَ﴾: نصب على الحال المؤكدة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]، والمؤكد هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التولي على الإدبار.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ...﴾ الآية: السكينة: الضر الذي سكنت إليه ومعه النفوس، والجنود: الملائكة، والرغب؛ قال أبو حازم يزيد بن عامر: كان في أجوافنا مثل ضربة الحجر في الطست من الرغب، ﴿وعذب الذين كفروا﴾، أي: بالقتل والأسر، وروى أبو داود، عن سهل بن الحنظلية^(١) أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير حتى كان عشيّة، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله، إني أنطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعيمهم، وشياهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً، إن شاء الله...» الحديث. انتهى^(٢)، فكانوا كذلك غنيمة بحمد الله، كما أخبر ﷺ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

(١) هو: سهل بن الربيع بن عمرو بن عدي بن زيد، الأوسي، الأنصاري.

قال ابن الأثير في «الأسد»: كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان فاضلاً معتزلاً عن الناس، كثير الصلاة والذكر، كان لا يزال يصلي مَهْمَا هو في المسجد، فإذا انصرف لا يزال ذاكرةً، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه أبو كيشة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢/٤٦٩)، «الإصابة» (٣/١٣٨)، «الثقات» (٣/١٧٠)، «نقعة الصديان» (١٩٢)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/٢٤٣)، «الاستيعاب» (٢/٦٦٢)، «بقي بن مخلد» (٣٩١)، «تقريب التهذيب» (١/٣٣٦)، «تهذيب التهذيب» (٤/٢٥١)، «تهذيب الكمال» (١/٥٥٤)، «الجرح والتعديل» (٤/٨٤١)، «التاريخ الكبير» (٤/٩٨)، «الطبقات الكبرى» (٨/٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/١٢ - ١٣) كتاب «الجهاد» باب: في فضل الحرس في سبيل الله عز وجل، حديث (٢٥٠١)، والحاكم (٢/٨٣ - ٨٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/١٢٥ - ١٢٦)، والطبراني في «الكبير» (٦/٩٦)، رقم: (٥٦١٩) من حديث سهل بن الحنظلية.

وقوله عز وجل: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، قال ابن عباس وغيره: معنى الشُّرْكُ هو الذي نَجَسَهُمْ؛ كنجاسة الخمر^(١)، ونَصَّ اللَّهُ سبحانه في هذه الآية على المُشْرِكِينَ، وعلى المُسَجِدِ الحرام، فقاسَ مالكٌ رحمه الله وغيره جَمِيعَ الكُفَّارِ من أَهْلِ الكتاب وغيرهم؛ على المشركين، وقاسَ سائرَ المساجِدِ على المُسَجِدِ الحرام، وَمَنَعَ مِنْ دُخُولِ الجَمِيعِ في جَمِيعِ المساجِدِ، وقوَّةُ قوله سبحانه: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ يقتضي أَمْرَ المسلمين بِمَنَعِهِمْ.

وقوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾، يريد: بعد عامِ تَسْعٍ من الهجرة، وهو عامُ حِجَّ أبو بكرٍ بالنَّاسِ.

وقوله سبحانه: ﴿وإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾، أي: فقراً، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، وكان المسلمون، لَمَّا مَنَعَ المشركون من المَوَسِمِ، وهم كانوا يجلبون الأَطْعَمَةَ والتجاراتِ، قَذَفَ الشَّيْطَانُ في نفوسهم الخَوْفَ من الفقر، وقالوا: مِنْ أَيْنَ نعيش؟ فوعَدَهُم الله سبحانه بأنَّ يغنيهم مِنْ فَضْلِهِ، فكان الأمرُ كما وعد الله سبحانه، فأسَلَمَتِ العربُ، فتمادى حُجُّهُمْ وَتَجَرُّهُمْ، وأغنى الله من فضله بالجهادِ والظهورِ على الأُمَمِ.

وقوله سبحانه: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر...﴾ الآية: هذه الآيةُ تَضَمَّنَتْ قِتَالَ أَهْلِ الكتاب، قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في غَزْوِ الرُّومِ، ومَشَى نحو تَبُوكَ، ونَفَى سبحانه عن أَهْلِ الكتاب الإيمانَ بالله واليوم الآخر؛ حيث تركوا شَرْعَ الإسلام؛ وأيضاً فكأنَّ اعتقاداتهم غَيْرَ مستقيمة، لأنَّهم تشعَّبوا، وقالوا: عَزَّيْزُ ابْنِ اللَّهِ، واللَّهِ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ؛ ولهم أيضاً في البعثِ آراءٌ فاسدة؛ كشراء منازلِ الجَنَّةِ من الرُّهْبَانِ؛ إلى غير ذلك من الهَذَيَانِ، ﴿ولا يدينون دين الحق﴾، أي: لا يطيعون، ولا يمتثلون؛ ومنه قولُ عائشة: «مَا عَقَلْتُ أَبُويَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ»، والَّذِينَ هُنَا: الشَّريعةُ، قال ابن القاسمِ وأشهبُ وسخَّون: وتؤخذ الجزيةُ من مجوس العرب والأُمَمِ كُلِّهَا، وأما عِبْدَةُ الأوثان والنِّيران وغير ذلك، فجمهور العلماء على قبولِ الجزيةِ منهم، وهو قولُ مالكٍ في «المدونة».

وقال الشافعيُّ وأبو ثور: لا تؤخذ الجزيةُ إِلَّا مِنَ اليهودِ والنصارى والمجوسِ فقط، وأما قَدَرُهَا في مذهبِ مالك وغيره، فأربعةُ دنانيرٍ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ، وأربعون دهماً عَلَى أَهْلِ الفِضَّةِ، وهذا في العنوة، وأما الصُّلْحُ، فهو ما صالحوا عَلَيْهِ، قَلِيلٌ أو كَثِيرٌ.

وقوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ يحتمل وجوهاً:

(١) أخرجه الطبري (٣٤٥/٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢/٢٠).

منها: أن يريد عن قُوَّة منكم عليهم، وقَهْر، واليدُ في كلام العرب: القُوَّة.
ومنها: أن يريد سَوَقَ الذَّمِّي لها يَبْدِه، لا أن يبعثها مع رَسُول؛ ليكون في ذلك إِذْلالَ لهم.

ومنها: أن يريد تَقْدَها ناجزًا، تقول: بَعَثَهُ يَدًا يَبْدِ، أي: لا يؤخروا بها.

ومنها: أن يريد عن أَسْتِسْلَامٍ، يقال: أَلْقَى فلانٌ بيده، إِذَا عَجَزَ واستسلم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا أَنَّهُمْ أَجْبَارُهُمْ وَرَفَعْنَاهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقالت اليهود عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ﴾: الذي كثر في كُتُب أهل العلم؛ أن فرقةً من اليهود قالت هذه المقالة وروي أنه قالها نَفَرٌ يسير منهم فَنَحَاصٍ وغيره، قال النَّقَّاش: ولم يبق الآن يهودي يقولها، بل انقرضوا.

قال * ع^(١): ﴿فإذا قالها ولو واحدٌ من رؤسائهم، توجَّهت شناعة المقالة على جماعتهم، وحكى الطبري وغيره؛ أن بني إسرائيل أصابتهم فتن وجلاء، وقيل: مَرَضٌ، وأذهب الله عنهم التَّوراة في ذلك، ونسوها، وكان علماءهم قد دَفَنُوا أول ما أحسوا بذلك البلاء، فلما طالت المدة، فُقِدَت التَّوراة جملةً، فحفظها الله عِزِّيْرًا؛ كرامةً منه له، فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التَّوراة، فجعلوا يَدْرُسُونَهَا من عنده، ثم إن التَّوراة المذفونة وَجَدَتْ، فإذا هي مساوية لما كان عِزِّيْرٌ يدرس، فضَّلُوا عند ذلك، وقالوا: إن هذا لم يتهيأ لعِزِّيْرِ إِلَّا وهو ابن الله، نعوذ بالله من الضَّلال.

وقوله: ﴿بأفواههم﴾، أي: بمجرَّد الدعوى من غير حُجَّة ولا برهان، و﴿يضاهئون﴾، قراءة الجماعة^(٢)، ومعناه: يحاكئون ويمائلون، والإشارة بقوله: ﴿الذين كفروا من قبل﴾:

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣/٣).

(٢) وقرأ عاصم وحده من «السبعة» «يضاهئون»، وكذلك طلحة بن مصرف. وهي من «ضاهأ» بمعنى «ضاهى»، وهي لغة ثقيف. ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥/٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (١٠٢)، و«الحجة» (١٨٦/٤)، و«السبعة» (٣١٤)، و«معاني القراءات» (٤٥١/١).

إِما لمشركي العرب؛ إِذ قالوا: الملائكة بناتُ اللَّهِ؛ قاله الضَّحَّاك، وإِما لأُمم سالفَةٍ قبلها، وإِما للصُّدْرَ الأول من كُفْرَةِ اليهود والنَّصارَى، ويكون ﴿بِضَاهُتُون﴾ لمعاصِرِي النَّبِيِّ ﷺ، وإِن كان الضمير في ﴿بِضَاهُتُون﴾ للنصارَى فقط، كانت الإِشارة بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ إِلى اليهود؛ وعلى هذا فُسِّر الطبريُّ، وحكاه غيره عن قتادة^(١).

وقوله: ﴿قاتلهم اللَّهُ﴾: دعاءٌ عليهم عامٌّ لأنواع الشُّر، وعن ابن عباس؛ أَن المعنى: لعنهم اللَّهُ^(٢). قال الداودِي: وعن ابن عباس قاتلهم اللَّهُ: لعنهم اللَّهُ، وكلُّ شيء في القرآن: قتل، فهو لَعَن. انتهى. و﴿أَيُّ يَوْفُكُون﴾، أَي: يُضَرَّفُونَ عن الخَيْر.

وقوله سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ...﴾ الآية: هذه الآية يفسرها ما حكاه الطبري^(٣)؛ أَن عدي بن حاتم قال: «جئتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ، وفي عُثْقِي صَليبٌ دَهَب، فَقَالَ: يَا عَدِي/ أَطْرَحَ هَذَا الصَّليبَ مِنْ عُثْقِكَ، فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَمْ نَعْبُدْهُمْ؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ تَسْتَجِلُّونَ مَا أَحَلُّوا وَتَحَرِّمُونَ مَا حَرَّمُوا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَذَلِكَ^(٤)».

ومعنى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له، و﴿نورَ اللَّهِ﴾؛ في هذه الآية: هُذاه الصادرُ عن القرآن والشُّرع.

وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ عبارةٌ عن قَلَّةٍ حيلتهم وضعفها.

وقوله: ﴿بِالْهُدَى﴾: يعم القرآن وجميع الشُّرع.

وقوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾، وقد فعل ذلك سبحانه، فالضمير في ﴿ليظهره﴾: عائِدٌ على الدِّين، وقيل: على الرسول، وهذا وإن كان صحيحاً، فالتأويل الأول أُنْبَرُ منه، وأَلْيَقُ بنظامِ الآية.

(١) أخرجه الطبري (٣٥٢/٦) برقم: (١٦٦٣٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٢٥/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤١٥/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٣/٦) برقم: (١٦٦٤٣)، وذكره ابن عطية (٢٥/٣)، وابن كثير (٣٤٨/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤١٥/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٥٤/٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٧٨/٥) كتاب «التفسير» باب: «ومن سورة التوبة»، حديث (٣٠٩٥) من طريق عبد السلام بن حرب، عن غطفان بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن عدي بن حاتم به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطفان بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُوَفُّوْنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوِّدُ بِهَا بَاطِلَهُمْ وَجُورَهُمْ وَيُظْهِرُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، المراد بهذه الآية: بيان نقائص المذكورين، ونَهْيُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تِلْكَ النِّقَاصِ مَتَرْتَّبِ ضِمْنِ ذَلِكَ، وَاللَّامُ فِي ﴿لِيَأْكُلُوا﴾: لَامُ التَّوَكِيدِ، وَصُورَةُ هَذَا الْأَكْلِ هِيَ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْ أَمْوَالِ أَتْبَاعِهِمْ ضَرَائِبَ وَفُرُوضًا بِأَسْمِ الْكُنَاسِ وَالْبَيْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُوْهِمُونَهُمْ أَنَّ النِّفْقَةَ فِيهِ مِنَ الشَّرْعِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ، وَهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ يَحْتَاجُونَ تِلْكَ الْأَمْوَالَ، كَالَّذِي ذَكَرَهُ سَلْمَانُ فِي كِتَابِ «السَّيْرِ»، عَنِ الرَّاهِبِ الَّذِي اسْتَخْرَجَ كَنْزَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أَي: عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ﴾ ابتداءً، وخبره ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ والذي يظهر من ألفاظ الآية: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ نَقْصَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الْآكِلِينَ لِلْمَالِ بِالْبَاطِلِ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلٍ عَامٍّ نَقْصَ الْكَانِزِينَ الْمَانِعِينَ حَقَّ الْمَالِ، وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ: «الَّذِينَ يَكْنِزُونَ»^(١) بغير واو،؛ وَعَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ يَجْرِي قَوْلُ مُعَاوِيَةَ: أَنَّ الْآيَةَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَخَالَفَهُ أَبُو ذَرٍّ، فَقَالَ: بَلْ هِيَ فِينَا.

و﴿يَكْنِزُونَ﴾: مَعْنَاهُ: يَجْمَعُونَ وَيَحْفَظُونَ فِي الْأَوْعِيَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شَرَطِ الْكَنْزِ: الدَّفْنُ، وَالتَّوَعُّدُ فِي الْكَنْزِ، إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى مَنَعَ الْحَقُوقِ مِنْهُ، وَعَلَى هَذَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي رَافِعٍ: أَرْبَعَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ فَمَا دُونَهَا نِفْقَةٌ، وَمَا زَادَ عَلَيْهَا فَهُوَ كَنْزٌ، وَإِنْ أَذْيَتَ زَكَاتَهُ.

وقال أَبُو ذَرٍّ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ: مَا فَضَلَ مِنْ مَالِ الرَّجُلِ عَلَى حَاجَةِ نَفْسِهِ، فَهُوَ كَنْزٌ، وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ يَقْتَضِيَانِ أَنَّ الدِّمَّ فِي حِسْبِ الْمَالِ، لَا فِي مَنَعِ زَكَاتِهِ فَقَطْ.

* ت * وَحَدَّثَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْخَطِيبِ بِسَنَدِهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ قَدْرَ مَا يَسْعُهُمْ، فَإِنْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧/٣)، و«البحر المحيط» (٣٨/٥)، و«الدر المصون» (٤٦٠/٣).

مَنْعُوهُمْ حَتَّى يَجُوعُوا وَيَغْرَوْا وَيَجْهَدُوا، حَاسِبَهُمُ اللَّهُ حِسَابًا شَدِيدًا، وَعَذَّبَهُمْ عَذَابًا نَكْرًا» انتهى^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ...﴾ الآية: قال ابن مسعود: والله، لَا يَمَسُّ دِينَارٌ دِينَارًا، بَلْ يُمَدُّ الْجِلْدُ حَتَّى يَكْوَىٰ بِكُلِّ دِينَارٍ، وَبِكُلِّ دِرْهَمٍ^(٢) قَالَ الْفَخْرُ^(٣): قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: وَخُصِّتْ هَذِهِ الْمَوَاضِعُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْمَالِ، إِذَا رَأَى الْفَقِيرَ، قَبَضَ جَيْبَهُ، وَإِذَا جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ، تَبَاعَدَ عَنْهُ، وَوَلَّاهُ ظَهْرَهُ. انتهى.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الْدِينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، هذه الآية والتي بعدها تتضمن ما كانت العرب عليه في جاهليتها من تحريم شهور الحل، وتحليل شهور الحرم، وإذا نص ما كانت العرب تفعله، تبين معنى الآيات، فالذي تظاهرت به الروايات، ويتخلص من مجموع ما ذكره الناس: أن العرب كانت لا عيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحيها، فكانوا إذا توالث عليهم حُرمة الأشهر الحرم، صعب عليهم، وأملقوا^(٥) / وكان بنو فقيم من كنانة أهل دين في العرب، وتمسك بشرع إبراهيم عليه السلام، فانتدب منهم القلمس، وهو حذيفة بن عبد فقيم، فتسي الشهور للعرب، ثم خلفه على ذلك بنوه، وذكر الطبري وغيره؛ أن الأمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة، وكانت صورة فعلهم: أن العرب كانت إذا فرغت من حجبها، جاء إليه من شاء منهم مجتمعين، فقالوا: أنسأنا شهراً، أي: أخز عنا حرمة المحرم، فأجعلها في صفر، فيحل لهم المحرم، فيغيرون فيه، ثم يلتزمون حرمة صفر؛ ليوافقوا عدّة الأشهر الحرم الأربعة قال مجاهد: ويسمون ذلك الصفر المحرم، ثم يسمعون ربيعاً الأول صفرأ وريعاً الآخر ربيعاً الأول، وهكذا في سائر الشهور، وتجيء السنة من ثلاثة عشر شهراً أولها: المحرم

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٣٠٨/٥) عن علي وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٥٨٢٣) وقال: وفيه محمد بن سعيد البورقي، كذاب يضع.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٣/٦، ٣٦٤) برقم: (١٦٦٩٧ - ١٦٦٩٨) نحوه، وابن عطية (٢٩/٣)، والبغوي (٢٨٩/٢) نحوه، وابن كثير (٣٥٢/٢) نحوه.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٩/١٦).

(٤) يعني: افتقروا، وضربهم الإملاق، وهو الافتقار. ينظر: «لسان العرب» (٤٢٦/٥).

المُحَلَّل، ثم المحرَّم الذي هو في الحقيقة صَفَرٌ^(١)، وفي هذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، أي: ليست ثلاثة عَشَرَ، ثم كانت حِجَّةُ أَبِي بَكْرٍ في ذي القعدة حقيقةً، وهم يسمونه ذَا الحِجَّةِ، ثم حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَنَةَ عَشْرِ فِي ذِي الحِجَّةِ حقيقةً، فذلك قوله عليه السلام: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ مُضَرٌّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»^(٢).

وقوله في ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾، أي: فيما كتبه، وأثبتته في اللُّوحِ المحفوظ، أو غيره، فهي صفةٌ فِعْلٍ مثل خَلَقِهِ وَرَزَقِهِ، وليست بمعنى قضاءه وتقديره؛ لأن تلك هي قَبْلَ خَلْقِ السموات والأرض.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: نصٌّ على تفضيل هذه الأربعة وتشريفها، قال قتادة: «أَصْطَفَى اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ رُسُلًا، وَمِنَ الشُّهُورِ الْمُحَرَّمَ وَرَمَضَانَ، وَمِنَ الْبُقَعِ الْمَسَاجِدِ، وَمِنَ الْأَيَّامِ الْجُمُعَةَ، وَمِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَمِنَ الْكَلَامِ ذِكْرَهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْظُمَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ»^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الدِّينَ الْقِيمَ﴾، قالت فرقة: معناه: الحسابُ المُستَقِيم، وقال ابن عباس، فيما حكى المَهْدَوِيُّ: معناه: القضاء المستقيم.

(١) ذكره ابن عطية (٣٠/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨/٦) في بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٧)، و (٧١١/٧) في «المغازي» باب: حجة الوداع (٤٤٠٦)، و (١٧٥/٨) في «التفسير» باب: «إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا» (٤٦٦٢)، و (١٠/١٠) في الأضاحي باب: من قال: الأضحى يوم النحر (٥٥٥٠)، و (٤٣٣/١٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَجْهَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرًا إِلَى رَبِّهَا نَاطِرًا﴾، (٧٤٤٧)، ومسلم (١٣٠٥/٣)، في القسامة باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩/٢٩)، وأبو داود (٥٩٩/١) في: المناسك، باب: الأشهر الحرم (١٩٤٨)، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن ابن أبي بكرة به.

وأخرجه أبو داود برقم: (١٩٤٧)، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي بكرة به، بدون ذكر ابن أبي بكرة، وقال أبو داود: وسماه ابن عون فقال: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبي بكرة في هذا الحديث.

ويشهد له حديث أبي هريرة عند البزار (١١٤٢) - «كشف الأستار»، عن شعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رفعه.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٧١/٣) فيه أشعث بن سوار، وهو ضعيف، وقد وثق.

(٣) ذكره ابن عطية (٣١/٣).

قال * ع^(١) * : والأصوب عندي أن يكون ﴿الدين﴾ ههنا على أشهر وجوهه، أي : ذلك الشَّرْع والطَّاعة .

وقوله : ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ ، أي : في الأثني عشر شهراً ، أي : لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في الزمان كله ، وقال قتادة : المراد الأربعة الأشهر ، وخُصِّصَتْ تشریفاً لها .

قال سعيد بن المسيَّب : كان النبي ﷺ يحرم القتال في الأشهر الحرم ؛ بما أنزل الله في ذلك ؛ حتَّى نزلت «براءة» .

وقوله تعالى : ﴿وقاتلوا المشركين﴾ ، معناه : فيهن فأخزى في غيرهن ، وقوله : ﴿كافة﴾ ، معناه : جميعاً .

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّجُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا بِمُذْنَبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

وقوله سبحانه : ﴿إنما النسيء﴾ ، يعني : فغل العرب في تأخيرهم الحُرْمَةَ ، «زيادة في الكفر» ، أي : جارٍ مع كفرهم بالله ، وخلافهم للحق ، فالكفر متكرر بهذا الفعل الذي هو باطل في نفسه ؛ ومما وجد في أشعارهم قول جذل الطَّعَانِ : [الوافر]

وَقَدْ عَلِمْتُ مَعَدَّ أَنْ قَوْمِي كِرَامُ النَّاسِ إِنْ لَهُمْ كِرَامًا
أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدَّ شُهُورِ الْجِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامًا^(٢)
وقوله سبحانه : ﴿يحلونهُ عاماً ويحرمونه عاماً﴾ ، معناه : عاماً من الأعوام ، وليس يريد أن تلك كانت مداولة .

وقوله سبحانه : ﴿ليؤاطوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله﴾ ، معناه : ليوافقوا ، والمواطأة : الموافقة .
وقوله سبحانه : ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أنا قُلْتُمْ

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١) .

(٢) الشعر لعمر بن قيس ، ينظر : «أمالي القاضي» (٤/ ١) ، «التهذيب» ، و«اللسان» (نسا) ، و«الدر المصون» (٤٦٣/ ٣) .

إلى الأرض»، هذه الآية بلا خلاف أنها نزلت عتاباً على تخلف من تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد/ الفتح بعام، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكبٍ وراجلٍ، والثَّفر: هو التنقل بسرعة من مكانٍ إلى مكانٍ، وقوله: «أناقلتم» أصله تَنَاقَلْتُمْ، وكذلك قرأ الأعمش^(١) وهو نحو قوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ﴾ تقريرٌ، والمعنى: أرضيتُمْ نَزَرَ الدنيا، على خطير الآخرة، وحَظَّها الأَسْعَدُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي «مِنْ» مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ الْآخِرَةِ﴾ لِلْبَدَلِ. انْتَهَى. ثُمَّ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ، أَنَّ الدُّنْيَا بِالإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرَةِ قَلِيلٌ نَزَرَ، فَتَعْطِي قُوَّةَ الْكَلَامِ التَّعَجُّبُ مِنْ ضَلَالِ مَنْ يَرْضَى النَّزَرَ الْفَائِي بِدَلِّ الْكَثِيرِ الْبَاقِي.

* ت * : وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَ«الْتَرْمِذِيِّ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِضْبَعَةً فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا تَرْجِعُ». قَالَ أَبُو عَيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. انْتَهَى^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَتَفَرَّوْا يَعْذِبْكُمْ﴾: شَرْطٌ وَجَوَابٌ، وَلَفْظُ «الْعَذَابِ» عَامٌّ يَدْخُلُ تَحْتَهُ أَنْوَاعُ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: تَوَعَّدُ بَأَن يَبْدِلَ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمًا لَا يَقْعُدُونَ عِنْدَ اسْتِنْفَارِهِ إِيَّاهُمْ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ هُوَ أَلْيَقُ.

﴿إِلَّا نَضْرِبْهُ فَوَءَ نَصْرِهِ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُثُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيْبَةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

(١) ينظر: «الشواذ» ص: (٥٧)، و«الكشاف» (٢/ ٢٧١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤) و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣)، و«الدر المصون» (٣/ ٤٦٤)، و«التخریجات النحویة» (٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣) كتاب «الجنة» باب: فناء الدنيا، حديث (٥٥/ ٢٨٥٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٦) كتاب «الزهد» باب: هوان الدنيا، حديث (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦) كتاب «الزهد» باب: مثل الدنيا، حديث (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨، ٢٣٠)، وابن حبان (٤٣٣٠)، و الحاكم (٤/ ٣١٩) من طريق قيس بن أبي حازم، عن المستورد بن شداد به.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ هذا أيضاً شرطٌ وجوابٌ، ومعنى الآية: إنكم إن تركتم نصره، فالله متكفل به؛ إذ قد نصره في موضع القلة والانفراد وكثرة العدو، ولكن يترك نصره الآن.

وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أسند الإخراج إليهم؛ تذنباً لهم، ولما كان مقصداً أبي سفيان بن الحارث الفخري في قوله: من طردت كل مطرد، لم يقره النبي ﷺ على ما عليم في كتب «السيرة»، والإشارة إلى خروج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وفي صحبته أبو بكر، واختصار القصة أن رسول الله ﷺ كان ينتظر إذن الله سبحانه في الهجرة من مكة، وكان أبو بكر حين ترك ذمة ابن الدغنة قد أراد الخروج، فقال له النبي ﷺ: «أَصْبِرْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُسَهِّلَ الصُّحْبَةَ» فَلَمَّا أذن الله لنبيه في الخروج، تجهز من دار أبي بكر، وخرجا، فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليالٍ، وخرج المشركون في إثرهم؛ حتى انتهوا إلى الغار، فطمس الله عليهم الأثر، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى قَدَمِهِ، لَرَأَانَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ تَالِثُهُمَا»^(١) هكذا في الحديث الصحيح، ويروى أن العنكبوت نسجت على باب الغار.

ويروى أن الحمامة عششت عند باب الغار، وكان يروح عليهما باللبن عامر بن فهيرة^(٢).

وقوله: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾، معناه: أحد اثنين، وقوله: ﴿إِنْ اللَّهَ مَعَنَا﴾، يريد: بالنصر والنجاة واللطف.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، قيل: يريد: لا إله إلا الله، وقيل: الشزع بأسره.

(١) تقدم تخريجه في: سورة آل عمران.

(٢) عامر بن فهيرة التيمي، مولى أبي بكر الصديق، أحد السابقين، وكان ممن يعذب في الله. له ذكر في «الصحيح»، حديثه في الهجرة عن عائشة قالت: خرج معهم عامر بن فهيرة، وعنها: لما قدمنا المدينة اشتكى أصحاب النبي ﷺ، منهم: أبو بكر، وبلال، وعامر بن فهيرة... الحديث. وفيه: وكان عامر بن فهيرة إذا أصابه الحمى يقول: [الرجز]

إِنِّي وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَشَفُهُ مِنْ فَوْقِهِ
كُلُّ أَمْرٍ مُجَاهِدٌ بِطَوِّقِهِ كَالثَّوْرِ يَخِمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ
وقال ابن إسحاق في «المغازي» عن عائشة: كان عامر بن فهيرة مولداً من الأزد، وكان للطفيل بن عبد الله بن سخيصة، فاشتراه أبو بكر منه فأعتقه، وكان حسن الإسلام. ينظر ترجمته في: «الإصابة» (٣/٤٨٢)، (٤٤٣٣).

وقوله سبحانه: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ معنى الخِفَّةِ والثَّقَلِ ههنا: مستعار لمن يمكنه السَّفَرُ بسهولة، ومن يمكنه بضَعُوبة، وأما من لا يمكنه، كالْعُمِّي ونحوهم، فخارج عن هذا.

وقال أبو طلحة^(١): ما سمع الله عذر أحد، وخرج إلى الشام، فجاهد حتى مات.

وقال أبو أيوب: ما أجدني أبداً إلا خفيفاً أو ثقيلاً^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾: تنبيه وهز للنفوس.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّاتَبَ قُلُوبُهُمْ فَأَهَمُّ فِي رَيْبِهِمْ يَرُدُّونَ﴾ (٤٥)

وقوله سبحانه: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾، هذه الآية في المنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وكشف ضمائرهم، وأما الآيات التي قبلها، / فعامة ٢٢٤ ب فيها وفي غيرهم، والمعنى: لو كان هذا الغزو لعرض، أي: لمال وغنيمة تنال قريباً؛ بسفر قاصد يسير، لبادروا لا لوجه الله، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ وهي المسافة الطويلة.

وقوله: ﴿وسيحلفون بالله﴾، يريد: المنافقين، وهذا إخبار بغيب.

وقوله عز وجل: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾، هذه الآية هي في صنف مبالغ في النفاق، استأذنوا دون اعتذار، منهم: الجذ بن قيس ورفاعة بن الثأبوت ومن اتبعهم؛ قال مجاهد: وذلك أن بعضهم قال: نستأذنه، فإن أذن في القعود قعدنا^(٣)، وإلا قعدنا، وقدم له العفو قبل العتاب: إكراماً له ﷺ، وقالت فرقة: بل قوله سبحانه ﴿عفا الله عنك﴾: استفتاح كلام كما تقول: أضلحك الله، وأعزك الله، ولم يكن منه عليه السلام ذنب يعفى عنه؛ لأن صورة الاستنفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهاده.

(١) أخرجه الطبري (٣٧٦/٦) برقم: (١٦٧٥١)، وذكره ابن عطية (٣٧/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٣٨١/٦) برقم: (١٦٧٧٨)، وذكره ابن عطية (٣٨/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣).

(٤٤١)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾، يريد: في استئذانك، وأنت لو لم تأذن لهم، خرجوا معك.

وقوله: ﴿وتعلم الكاذبين﴾، أي: بمخالفتك، لو لم تأذن؛ لأنهم عزموا على العُصيان، أذنت لهم أو لم تأذن، وقال الطبري: معناه: حتى تعلم الصادقين؛ في أن لهم عُذراً، والكاذبين، في أن لا عُذر لهم، والأول أضوب، والله أعلم، وأما قوله سبحانه: في سورة النور: ﴿فإذا استأذنتك لبغض شأنهم...﴾ [النور: ٦٢] الآية، ففي غزوة الخندق نزلت: ﴿وأرتابت قلوبهم﴾، أي: شكّت و﴿يرددون﴾، أي: يتحيرون؛ إذ كانوا تخطر لهم صيحة أمر النبي ﷺ أحياناً، وأنه غير صحيح أحياناً، فهم مذبذبون.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقُلُوبِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَنَاقُورٌ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ اتَّخَذُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا نَفِيئُ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾، أي: لو أرادوا الخروج بنياتهم، لنظروا في ذلك وأستعدوا له.

وقوله: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾.

* ص *: و﴿لكن﴾: أصلها أن تقع بين نقيضين أو ضدّين، أو خلافتين، على خلاف فيه. انتهى. و﴿انبعاثهم﴾: نفوذهم لهذه الغزوة، والتثبيط: التّكسيل وكسر العزم.

وقوله سبحانه: ﴿وقيل أقدوا﴾، يحتمل أن يكون حكاية عن الله، أي: قال الله في سابق قضايته: أقدوا مع القاعدین، ويحتمل أن يكون حكاية عنهم، أي: كانت هذه مقالة بغضهم لبعض، ويحتمل أن يكون عبارة عن إذن النبي ﷺ لهم في القعود، أي: لما كره الله خروجهم، يَسُرُّ أن قلت لهم: أقدوا مع القاعدین، والقعود؛ هنا: عبارة عن التخلف، وكراهية الله انبعاثهم: رفق بالمؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ الخبال: الفساد في الأشياء المؤتلفة؛ كالمَوَدَّات، وبغض الأجرام، ﴿لأَوْضَعُوا﴾ معناه: لأسرعوا السَّير،

﴿خَالَكُم﴾ معناه: فيما بينكم.

قال * ص * : ﴿خَالَكُم﴾ جمع خَلَّ، وهو الفُرْجَة بين الشيئين، وَأَنْتَصَبَ عَلَى الظَّرْفِ بـ ﴿لَا أَوْضَعُوا﴾، و﴿يَبْغُونَكُمْ﴾: حَالٌ، أَي: بَاغِينَ. انتهى. والإيضاع: سُرْعَةُ السير، ووقعت ﴿لَا أَوْضَعُوا﴾ بآلف بَعْدَ «لا» في المصحف، وكذلك وقعت في قوله: ﴿أَوْ لَاذْبَحْنَهُ﴾ [النمل: ٢١] ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾، أَي: يطلبون لكم الفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾، قال مجاهد وغيره: معناه: جواسيسُ يسمعون الأخبار، وَيَنْقُلُونَهَا إِلَيْهِمْ^(١)، وقال الجمهور: معناه: وفيكم مُطِيعُونَ سامعون لهم.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَتَبَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾، في هذه الآية تحقيقٌ لشأنهم، ومعنى قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: ما كان من حالهم في أخذٍ وغيرها، ومعنى قوله: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: دَبَّرُوا ظَهراً لبطن، وسعوا بكلِّ حيلةٍ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾، نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ، وَأَسْنَدَ الطَّبْرِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَغْرَوْا تَبُوكَ، تَغْنَمُوا ١٢٢٥ بَنَاتِ الْأَصْفَرِ» فَقَالَ الْجَدُّ: أَئِذْنَ لَنَا وَلَا تَفْتِنَا^(٢) بِالنِّسَاءِ، وقال ابن عباس: إِنَّ الْجَدَّ قَالَ: وَلَكِنِّي أُعِينُكَ بِمَالِي^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، أَي: في الذي أَظْهَرُوا الْفِرَارَ منه.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَغْلِبُوا بِهِمْ فَرِحُوا ٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاتِ إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْذِيَنَا فَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِضُونَ ٥٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ...﴾ الآية: الحسنة هنا بحسب الغزوة: هي الغنيمة والظفر، والمصيبة: الهزيمة والخيبة، واللفظ عامٌ بعد ذلك في كلِّ محبوب ومكره، ومعنى قوله: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾، أَي: قد أخذنا بالحزم في تخلفنا

(١) أخرجه الطبري (٣٨٤/٦) برقم: (١٦٧٩٢ - ١٦٧٩٣) نحوه، وذكره ابن عطية (٤١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢٩٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٣/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٣/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم في «المعرفة».

(٣) ذكره ابن عطية (٤٢/٣).

وَنَظَرْنَا لِأَنفُسِنَا، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهٖ، فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، وَهُوَ إِمَّا ظَفَرًا وَسُرُورًا عَاجِلًا، وَإِمَّا أَنْ نَسْتَشْهَدَ فَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾، أَي: قُلْ لِلْمُنَافِقِينَ، وَ﴿الْحُسَيْنَيْنِ﴾: الظَّفَرُ، وَالشَّهَادَةُ.

وقوله: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، يَرِيدُ: الْقَتْلَ.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٦) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٧)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الْآيَةُ: سَبَبُهَا أَنَّ الْجَدُّ بْنَ قَيْسٍ حِينَ قَالَ: أَتَذُنُّ لِي وَلَا تَفْتُنِّي، قَالَ: إِنِّي أَعِينُكَ بِمَالِي^(١)، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِ، وَهِيَ عَامَّةٌ بَعْدَهُ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ ثَوَابَ الْكَافِرِ عَلَى أَفْعَالِهِ الْبِرَّةِ هُوَ فِي الطَّعْمَةِ يَطْعَمُهَا»^(٢) وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَهَذَا مَقْنَعٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى نَظَرٍ، وَأَمَّا أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ فَلَا، وَ﴿كُسَالَى﴾: جَمْعُ كَسَلَانَ.

﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٨) وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُنْكَرٍ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ (٥٩) لَوْ يَخْتِذُونَ مَلَجَأً أَوْ مَفْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٦٠)

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الْآيَةُ: حَقَّرَ فِي الْآيَةِ شَأْنَ الْمُنَافِقِينَ، وَعَلَّلَ إِعْطَاءَ اللَّهِ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ؛ بِإِرَادَتِهِ تَعْذِيبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ.

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ: تَعْذِيبُهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا هُوَ بِمَصَائِبِهَا وَرِزَايَاهَا، هِيَ لَهُمْ عَذَابٌ؛ إِذْ لَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا، وَمِنْ ذَلِكَ قَهْرُ الشَّرْعِ لَهُمْ عَلَى آدَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم.

قال الفخر^(١): أما كون كثرة الأموال والأولاد سبباً للعذاب في الدنيا، فحاصل من وجوه: منها: أن كلما كان حُب الإنسان للشيء أشد وأقوى، كان حزنه وتألم قلبه على فراقه أعظم وأصعب، ثم عند الموت يَعْظُمُ حزنه، وتشتد حسرته، لمفارقتها المحبوب، فالمشغوف بحُب المال والولد لا يزال في تعب، فيحتاج في اكتساب الأموال وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة، ثم عند حصولها يحتاج إلى متاعب أشد وأصعب في حفظها وصونها؛ لأن حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه، ثم إنه لا ينتفع، إلا بالقليل من تلك الأموال، فالتعب كثير، والنفع قليل، ثم قال: وأعلم أن الدنيا حلوة خضرة، والحواس الخمس مائلة إليها، فإذا كثرت وتوالت استغرقت فيها، وأنصرف الإنسان بكليته إليها، فيصير ذلك سبباً لحرمانه من ذكر الله، ثم إنه يخلص في قلبه نوع قسوة وقوة وقهر، وكلما كان المال والجاه أكثر، كانت تلك القسوة أقوى، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦، ٧] فظهر أن كثرة الأموال والأولاد سبب قوي في زوال حُب الله تعالى وحُب الآخرة مِنَ الْقَلْبِ، وفي حصول الدنيا وشهواتها في الْقَلْبِ، وعند الموت: كأن الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن، ومن مجالسة الأقرباء والأحبة إلى موضع الغربة والكربة، فيعظم تألمه، ويقوى حزنه، ثم عند الحشر: حلالها حساب، وحرامها عقاب، فثبت أن كثرة الأموال والأولاد سبب لحصول العذاب في الدنيا والآخرة. انتهى.

ثم أخبر سبحانه؛ أنهم ليسوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، / وإنما هم يَفْزَعُونَ مِنْهُمْ، والْفَرْقُ: ٢٢٥ ب الخوف.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾: الملجأ مِنْ لَجَأٍ يَلْجَأُ، إِذَا أَوَى وَاعْتَصَمَ، وقرأ الجمهور: «أَوْ مَعَارَاتٍ» - بفتح الميم^(٢)، - وهي الغيران في أعراض الجبال، ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾، معناه: السَّرْبُ والثَّقُوقُ في الأرض، وهو تفسير ابن عباس^(٣) في هذه الألفاظ، وقرأ جمهور الناس: «يَجْمَعُونَ»: ومعناه يُسْرِعُونَ.

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/٧٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٦)، و«البحر المحيط» (٥/٥٦)، و«الدر المصون» (٣/٤٧٤).

(٣) أخرجه الطبري (٦/٣٩٢) برقم: (١٦٨٢٣ - ١٦٨٢٤)، وابن عطية (٣/٤٦)، وذكره ابن كثير (٢/٣٦٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣/٤٤٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

قال الفخر^(١): قوله: ﴿وهم يجمعون﴾ أي: يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء، ومن هذا يقال: جَمَعَ الفَرَسُ، وفَرَسَ جَمُوحٌ، وهو الذي إذا حَمَلَ، لم يردّه اللجام، انتهى.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨)
وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ...﴾ الآية: أي: ومن المنافقين مَن يلمزك، أي: يعيبك ويأخذ منك في الغيبة؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مَكَاشِرَةً وَإِنْ أَغِيبُ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللَّمَزَةُ^(٢)

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَنِلْ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ [الهمزة: ١] وقوله سبحانه: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله...﴾ الآية: المعنى: لو أن هؤلاء المنافقين رضوا قِسْمَةَ اللَّهِ الرِّزْقَ لهم، وما أعطاهم على يد رسوله، وأقروا بالرغبة إلى الله، لكان خيراً لهم، وحذف الجواب، لدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُعَلِّمِينَ عَلَيْهِمُ وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَسِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٠)

وقوله سبحانه: ﴿إنما الصدقات للفقراء...﴾ الآية: ﴿إنما﴾ في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف، وإنما أُخْتَلِفَ في صورة القِسْمَةِ، ومذهب مالك وغيره؛ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ أَلْجَتِهَادِ، وبحسب الحاجة، وأما الفقير والمُسْكِين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد والزُّهْرِيُّ وابن زَيْد وغيرهم: الْمَسَاكِينُ: الَّذِينَ يَسْعَوْنَ وَيَسْأَلُونَ، والفقراء: الَّذِينَ يَتَصَاوَتُونَ^(٣)، وهذا القول أحسن ما قيل في هذا، وتحريره أن الفقير هو الذي لا مال له إلا أنه لم يذل نفسه، ولا يذل وجهه؛ وذلك إما لتعفف مفرط،

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/٧٧).

(٢) البيت لزباد الأعجمي، ينظر: «الكشاف» (٤/٧٩٥)، «البحر المحيط» (٨/٥٠٩)، و«القرطبي» (٢٠/١٢٤)، و«الدر المصون» (٦/٥٦٨)، و«فتح القدير» (٥/٤٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/٣٩٥) برقم: (١٦٨٣٤ - ١٦٨٣٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/٤٨)، والبخاري في «تفسيره» (٢/٣٠٢)، والسيوطي (٣/٤٤٩)، عن ابن عباس نحوه، وزاد نسبته إلى ابن المنذر والنحاس (٣/٤٥٠) عن الزهري بنحوه، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة.

وإِذَا يُبْلَغَةُ تَكُونُ لَهُ، كَالْحَلُوبَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا، وَالْمَسْكِينُ هُوَ الَّذِي يَقْتَرِنُ بِفَقْرِهِ تَذَلُّ وَخُسُوعٌ وَسَوْأَلٌ، فَهَذِهِ هِيَ الْمَسْكَنَةُ؛ وَيَقْوَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ وَصَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْمَسْكَنَةِ، وَقَرَّنَهَا بِالذَّلَّةِ مَعَ غَنَاهُمْ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قُلْنَاهُ، بَانَ أَنَّهُمَا صِنْفَانِ مَوْجُودَانِ فِي الْمُسْلِمِينَ.

* ت * : وقد أكثر الناس في الفرق بين الفقير والمسكين، وأولى ما يعول عليه ما ثبت في ذلك عن النبي ﷺ، وقد روى مالك، عن أبي الزناد^(١) عن الأعرج^(٢) عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترذه اللقمة واللقمتان، والتمرمة والتمرتان، إنما المسكين الذي ليس له غنى يغنيه، ولا يفتن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»^(٣)، انتهى. وأول أبو عمر في «التمهيد» هذا الحديث، فقال: كأنه أراد - والله أعلم - ليس المسكين على تمام المسكنة، وعلى الحقيقة، إلا الذي لا يسأل الناس. انتهى.

(١) عبد الله بن ذكوان الأموي، مولاهم، أبو الزناد المدني، يكنى: أبا عبد الرحمن، كان أحد الأئمة، عن أنس، وابن عمر، وعمر بن أبي سلمة مرسلًا. قال البخاري: أصح الأسانيد أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة. قال الواقدي: مات فجأة سنة ثلاثين ومائة. قال الحافظ شمس الدين الذهبي: ولي بعض أمور بني أمية فتكلم فيه لأجل ذلك، وهو ثقة حجة لا يعلق به جرح. ينظر: «الخلاصة» (٥٣/٢)، «تهذيب الكمال» (٦٧٩/٢)، «تهذيب التهذيب» (٢٠٣/٥) و«تقريب التهذيب» (٤١٣/١)، «الكاشف» (٨٤/٢)، «الثقات» (٦/٧).

(٢) عبد الرحمن بن هزيم الهاشمي، مولاهم، أبو داود المدني الأعرج، القاري عن أبي هريرة، ومعاوية، وأبي سعيد، وعنه الزهري، وأبو الزبير، وأبو الزناد، وخلق، وثقه جماعة. قال أبو عبيد: توفي سنة سبع عشرة ومائة بالإسكندرية. ينظر ترجمته في: «الخلاصة» (٥٣/٢ - ٥٤) (٣٤٨٠).

(٣) ورد ذلك من حديث أبي هريرة، وابن مسعود: فأما حديث أبي هريرة، فأخرجه البخاري (٣٩٨/٣) في «الزكاة» باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (١٤٧٦، ١٤٧٩)، و (٥٠/٨) في «التفسير»؛ باب: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (٤٥٣٩)، ومسلم (٧١٩/٢ - ٧٢٠) في «الزكاة»، باب: المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفتن له، فيتصدق عليه (١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣٩)، وأبو داود (٥١٣/١) في «الزكاة» باب: من يعطي من الصدقة وحد الغنى (١٦٣١ - ١٦٣٢)، والنسائي (٨٦/٥) في «الزكاة» باب: تفسير المسكين، ومالك (٩٢٣١٢) في صفة النبي ﷺ باب: ما جاء في المساكين (٧)، وأحمد (٣١٦، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٥٧، ٤٦٩)، والدارمي (٣٧٩/١) في «الزكاة»، باب: المسكين الذي يتصدق عليه، وأبو يعلى (٦٣٣٧)، والحميدي (١٠٥٩)، والبيهقي (١١/٧) من طرق عنه. وأما حديث ابن مسعود، فأخرجه أحمد (٣٨٤/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٨/٧)، وأبو يعلى (٥١١٨) عن إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود مرفوعاً به. قال الهيثمي (٩٥/٣): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

وأما العاملون: فهم جُباتها يستنيبهم الإمام في السغي على الناس، وجمع صدقاتهم، قال الجمهور: لهم قدر تعبهم ومؤنتهم، وأما ﴿المؤلفة قلوبهم﴾، فكانوا مسلمين وكافرين مستترين مظهرين للإسلام؛ حتى وثقه الاستتلاف في أكثرهم، واستتلافهم إنما كان لئلا يجلب إلى الإسلام منفعة، أو تدفع عنه مضرّة، والصحيح بقاء حكمهم؛ إن احتيج إليهم، وأما ﴿الرقاب﴾، فمذهب مالك وغيره هو ابتداء عتق مؤمن، وأما الغارم: فهو الرجل يزكبه دين في غير معصية ولا سفة، كذا قال العلماء، وأما ﴿في سبيل الله﴾، فهو الغازي، وإن كان ملياً ببلده، وأما ﴿ابن السبيل﴾، فهو المسافر، وإن كان غنياً ببلده، وسمي المسافر ابن السبيل لملازمته السبيل.

١٢٢٦ وَمَنْ أَدْعَى الْفَقْرَ صَدَّقَ إِلَّا لَرَبِيهِ؛ فَيَكْلَفُ حِينَئِذٍ الْبَيِّنَةَ، وَأَمَّا إِنْ أَدْعَى أَنَّهُ غَارِمٌ أَوْ ابْنُ السَّبِيلِ أَوْ غَازٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنْهُ، فَلَا يُعْطَى إِلَّا بَيِّنَةٌ، وَأَهْلُ بِلَدِ الصَّدَقَةِ أَحَقُّ بِهَا إِلَّا أَنْ تَفْضُلُ فَضْلَةً، فَتَنْقُلَ إِلَى غَيْرِهِمْ.

قال ابن حبيب: وينبغي للإمام أن يأمر السعاة بتفريقها في المواضع التي جُيِّت فيها، ولا يحمل منها شيء إلى الإمام، وفي الحديث: «تُؤَخَّذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾: أي: موجبة محدودة.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٦١/٣) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٥)، ومسلم (٥٠/١) كتاب «الإيمان» باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث (١٩/٢٩)، وأبو داود (٢٤٢/٢)، (٢٤٣) كتاب «الزكاة» باب: في زكاة السائمة، حديث (١٥٨٤)، والترمذي (٦٩/٢) كتاب «الزكاة» باب: ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة، حديث (٦٢١)، والنسائي (٥/٢) كتاب «الزكاة» باب: وجوب الزكاة، وابن ماجه (٥٦٨/١)، كتاب «الزكاة» باب: فرض الزكاة، حديث (١٨٧٣)، وأحمد (٢٣٣/١)، من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وقول سبحانه: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾: أي: ومن المنافقين، و﴿يؤذون﴾: لفظ يعم أنواع إذاءتهم له ﷺ، وخص بعد ذلك من قولهم: ﴿هو أذن﴾، وروي أن قاتل هذه المقالة نبئ بن الحارث، وكان من مردة المنافقين، وفيه قال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبِّئِ بْنِ الْحَارِثِ»^(١)، وكان نائر الرأس، منتفش الشَّعر، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوهاً.

قال الحسن البصري ومجاهد: قولهم: ﴿هو أذن﴾: أي: يسمع معاذيرنا ويقبلها^(٢)، أي: فتحن لا بُالي من الوقوع فيه، وهذا تنقص بقلة الحزم، وقال ابن عباس وغيره: إنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾: أي: يسمع كل ما ينقل إليه عنا، ويصغي إليه^(٣) ويقبله، فهذا تشكك منه عليه السلام، ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾: سماع، وهذا من باب تسمية الشيء بالشيء، إذا كان منه بسبب؛ كما يقال للرؤية: عين؛ وكما يقال للمسنة من الإبل التي قد بزل نابها: ناب.

وقيل: معنى الكلام: ذو أذن، أي: ذو سماع، وقيل: إنه مشتق من قولهم: أَدَّنَ إِلَى شَيْءٍ؛ إذا أَسْتَمَعَ؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وقرأ نافع: «أذن» - بسكون الذال فيهما -، وقرأ الباقون^(٤) بضمها فيهما، وكلهم قرأ بالإضافة إلى «خير» إلا ما روي عن عاصم، وقرأ الحسن^(٥) وغيره: «قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ» - بتنوين

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١٦/١٠) بسنده عن ابن إسحاق، فذكره بلاغاً. وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٢٥٣/٣)، عن ابن عباس موصولاً.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٦/٦) برقم: (١٦٩١٧ - ١٦٩١٨ - ١٦٩١٩) نحوه، وذكره ابن عطية (٥٢/٣)، وابن كثير (٣٦٦/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٤/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي شيبه.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٥/٦ - ٤٠٦) برقم: (١٦٩١٦)، وذكره ابن عطية (٥٢/٣)، وابن كثير (٣٦٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٤/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) وكان نافعاً استقل ثلاث ضمات فسكن.

ينظر: «السبعة» (٣١٥)، «الحجة للقراء السبعة» (١٩٨/٤، ٢٠٣)، «حجة القراءات» ص: (٣١٩)، «إعراب القراءات» (٢٥٠/١)، «إتحاف» (٩٤/٢)، و«العنوان» (١٠٢)، و«شرح شلعة» (٤١٢).

(٥) قرأ بها عاصم في رواية الأعشى عن أبي بكر عنه. والمعنى حينئذ: «قل يا محمد فمن يستمع منك ويكون قريباً منكم قابلاً للعذر خير لكم».

«أذن»، ورفع «خير» -، وهذا جار على تأويله المتقدم، والمعنى: من يقبل معاذيركم خير لكم، ورويت هذه القراءة عن عاصم، ومعنى «أذن خير» على الإضافة: أي سَمَاعُ خَيْرٍ وحق، و﴿يؤمن بالله﴾: معناه: يصدق بالله، ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾: قيل: معناه: ويصدق المؤمنين، واللام زائدة، وقيل: يقال: آمنتُ لك، بمعنى: صدقتك؛ ومنه: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ [يوسف: ١٧].

قال * ع^(١) * : وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها بَاءٌ، فالمعنى: ويصدق للمؤمنين بما يخبرونه به، وكذلك قوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ بِمَا نَقُولُهُ.

* ت * : ولما كانت أخبار المنافقين تصل إلى النبي ﷺ تارة بإخبار الله له، وتارة بإخبار المؤمنين، وهم عدول، ناسب اتّصال قوله سبحانه: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾؛ بما قبله، ويكون التصديق هنا خاصاً بهذه القضية، وإن كان ظاهر اللفظ عاماً؛ إذ من المعلوم أنه ﷺ لم يزل مصدقاً بالله، وقرأ جميع السبعة إلا حمزة و«رَحْمَةً» - بالرفع -؛ عطفاً على «أذن»، وقرأ حمزة وخده: و«رَحْمَةً» - بالخفض -؛ عطفاً على «خَيْرٍ»، وخصّص الرحمة للذين آمنوا؛ إذ هم الذين فازوا ونجوا بالرسول عليه السلام، يحلفون بالله لكم: يعني: المنافقين.

وقوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾: التقدير عند سيّونه: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، فحذف الخبر من الجملة الأولى، لدلالة الثانية عليه.

وقيل: الضمير في «يرضوه» عائذ على المذكور؛ كما قال زُوبَةُ: [الرجز]

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقَ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ^(٢)
أي: كأن المذكور.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقُوا لَمْ تَأْرَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ

= ينظر: مصادر القراءة السابقة، و«معاني القراءات» (٤٥٧/١)، و«المحرر الوجيز» (٥٣/٣)، و«البحر المحيط» (٦٤/٥)، وزاد نسبتها إلى مجاهد، وزيد بن علي، وهي في «الدر المصون» (٤٧٧/٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣/٣).

(٢) ينظر: «ديوانه» ص: (١٠٤)، و«أساس البلاغة» ص: (٥٠٩) (ولع)؛ و«الأشياء والنظائر» (٦٣/٥)، و«تخليص الشواهد» ص: (٥٣)؛ و«خزانة الأدب» (٨٨/١)، و«شرح شواهد المغني» (٧٦٤/٢)، و«لسان العرب» (٤١١/٨) (ولع)، (٢٩/١٠) (بهق)، و«المحتسب» (١٥٤/٢)، و«مغني اللبيب» (٢/٦٧٨) وبلا نسبة في «شرح شواهد المغني» (٩٥٥/٢).

الْمُظْلِمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَغْنُوا إِنَّ اللَّهَ كَخُجْرٍ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يَحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: ﴿يُحَادِدِ﴾: معناه: يخالف ويشاق.

وقوله سبحانه: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: ﴿يَحْذَرُ﴾: خبر عن حال قلوبهم.

وقال الزَّجَّاجُ^(١) وغيره: «يَحْذَرُ»: الأمرُ، وإن كان لفظه لَفْظُ الْخَبَرِ؛ كأنه قال: «لِيَحْذَرُ».

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ اسْتَغْنُوا﴾: لفظه لَفْظُ الْأَمْرِ، / ومعناه التهديدُ، ثم أخبر ٢٢٦ ب سبحانه؛ أَنَّهُ مَخْرُجٌ لَهُمْ مَا يَحْذَرُونَهُ إِلَى حِينِ الْوُجُودِ، وقد فعل ذلك تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي «سُورَةِ بَرَاءَةِ»، فهي تُسَمَّى «الْفَاضِحَةِ»؛ لأنها فَضَحَتْ الْمُنَافِقِينَ.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ...﴾ الآية: نَزَلَتْ على ما ذكر جماعة من المفسرين في ودیعة بن ثابت؛ وذلك أَنَّهُ مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَسِيرُونَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فقال بعضهم: هذا يريد أن يَفْتَحَ قُصُورَ الشَّامِ، ويأخذ حصون بني الْأَصْفَرِ، هِنَهَاتَ هِنَهَاتٍ! فوقفهم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على ذلك، وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وذكر الطبري^(٢) عن عبد الله بن عمر؛ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ قَاتِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ «ودیعة» متعلقاً بحَقْبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَمَاشِيهَا، وَالْحِجَارَةُ تَنْكُبُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُهُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، ثم حكم سبحانه عَلَيْهِم بِالْكَفْرِ، فقال لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ﴾^(٣) الآية.

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٤٥٩/٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٠٩/٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٩/٦) برقم: (١٦٩٢٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/

٤٥٥)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾، يريد؛ فيما ذكره المفسرون، رجلاً واحداً، قيل: اسمه مَخْشِي بْنُ حِمَيْرٍ، قاله ابنُ إِسْحَاقَ، وذكر جميعهم أَنَّهُ أَستشهد بِالْيَمَامَةِ، وقد كان تَابَ، وتسمَّى عبد الرحمن، فدعا الله أَن يَسْتَشْهِدَ، ويُجْهَلَ أمره، فكان كذلك، ولم يوجَدْ جَسَدَه، وكان مَخْشِيٌّ مع المنافقين الذين قالوا: إِنما كنا نخوض ونَلْعَبُ، فقيل: كان منافقاً، ثم تاب توبةً صحيحةً، وقيل: كان مسلماً مُخْلِصاً إِلا أَنه سمع المنافقين، فَضَحِكَ لهم، ولم يُنْكَزْ عليهم، فعفا الله عنه في كلا الوجهَيْن، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الَّذِينَ قالوا ما تَقَدَّمَ.

﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَتَذَكَّرُونَ فِي الْمَنَاسِكِ وَيَذَكَّرُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: يريد: في الحُكْم والمَنْزِلَة في الكُفْر، وَلَمَّا تَقَدَّمَ قَبْلُ: ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] حَسُنَ هَذِهِ الْإِخْبَارُ، وَ﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أَي: عَنِ الصَّدَقَةِ، وَفَعَلَ الْخَيْرَ، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: أَي: تَرَكُوهُ؛ حِينَ تَرَكُوا أَتْبَاعَ نَبِيِّهِ وَسُرْعِهِ، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: أَي: فَتَرَكَهُمْ حِينَ لَمْ يَهْدِهِمْ، وَالْكُفَّارُ؛ فِي الْآيَةِ: الْمُغْلَوْنَ، وَقَوْلُهُ: ﴿هِيَ حَسِبُهُمْ﴾: أَي: كَافَيْتُهُمْ.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدُوا فَاسْتَغْنَوْا فَإِخْلَفَهُمُ
فَاسْتَغْنَتْهُمْ إِخْلَافُكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضُّمٌ كَالَّذِي خَاصُوا أَوْلَئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفَكِّينَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَاجِبِئَتِ
فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٨١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: أي: أنتم، أيها المنافقون، كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة، فَعَصَوْا؛ فاهلكوا؛ فأنتم أولى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم، والخَلَاقُ: الحَظُّ من القَدَرِ والدين وجميع حال المَرءِ، فخلأقُ المَرءِ: الشيء الذي هو به خَلِيقٌ، والمعنى: عَجَلُوا حَظَّهُمْ في دنياهم، وتركوا الآخِرَةَ، فَاتَّبَعْتُمُوهُ أَنْتُمْ، ﴿أَوَّلُكَ

حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة: المعنى: وأنتم أيضاً كذلك، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أولئك﴾: المنافقين.

وقوله سبحانه: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود...﴾ الآية: المعنى ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السالفة التي عصت الله؛ بتكذيب رسله، فأهلكها، و﴿قوم إبراهيم﴾: ثَمُود وأصحابه وأتباع دولته، ﴿وأصحاب مدين﴾ قوم شُعَيْب، و﴿المؤتفكات﴾: أهل القرى الأربعة أو السبعة التي بعث إليهم لوط عليه السلام، ومعنى ﴿المؤتفكات﴾: المنصرفات والمنقلبات أَفَكْتُ فَأَتَفَكْتُ لأنها جعل عاليها سافلها، ولفظ البخاري: ﴿المؤتفكات﴾: اتفكت: انقلبت بهم الأرض. انتهى.

والضمير في ﴿أتتهم رسلهم﴾: عائذ على هذه الأمم المذكورة، ثم عَقَّب سبحانه بذكر المؤمنين، وما مَنَّ به عليهم مِنْ حُسْن الأعمال؛ ترغيباً وتنشيطاً؛ لمبادرة ما به أمر؛ لطفاً منه بعباده سبحانه، لا رَبَّ غَيْرُهُ، ولا خَيْرَ إِلَّا خيره.

وقوله سبحانه: ﴿ويقيمون الصلاة﴾: قال ابن عباس: هي الصلوات الخمس^(١).

قال * ع^(٢): وبحسب هذا تكون الزكاة هي المفروضة، والمدح عندي بالنوافل أبلغ؛ إذ من يقيم النوافل أخرى بإقامة / الفرض، والسين في قوله: ﴿سيرهمهم﴾: مُدْخِلَةٌ ١٢٢٧ في الوعد مهلة؛ لتكون النفوس تنعم برجائه سبحانه، وفضله سبحانه زعيم بالإنجاز، وذكر الطبري^(٣) في قوله تعالى: ﴿ومساكن طيبة﴾، عن الحسن أنه سأل عنها عمران بن حصين وأبا هريرة، فقالا: على الخبر سقطت! سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قَصُرَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ اللَّوْلُؤِ، فِيهِ سَبْعُونَ دَاراً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً مِنْ زُمُرُودٍ خَضْرَاءَ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَريراً»^(٤) ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ، ويقرب منها، فأختصرتها طَلَبَ الإيجاز.

* ت: وتمام الحديث من «الإحياء»، وكتاب الأجرى المعروف بـ «كتاب النصيحة»، عن الحسن عن عمران بن حصين وأبي هريرة، قالوا: «على كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشاً مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَفِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً،

(١) أخرجه الطبري (٤١٥/٦) برقم: (١٩٦٥)، وذكره ابن عطية (٥٨/٣).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٥٨/٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤١٦/٦).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٦١/٣)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً، وَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ عَدَاةٍ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعُ^(١)، وأما قوله سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، ففي الحديث الصحيح؛ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِعِبَادِهِ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي الْجَنَّةِ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟! فَيَقُولُونَ: وَكَيْفَ لَا نَرْضَى، يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: إِنِّي سَأُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، رِضْوَانِي، أَرْضَى عَنْكُمْ؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَداً...»^(٢) الحديث، وقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾: يريد: أَكْبَرُ من جميع ما تقدَّم، ومعنى الآية والحديث مُتَّفَقٌ، وقال الحسن بن أبي الحسن: وصل إلى قلوبهم برِضْوَانِ اللَّهِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ ما هو أَلَدُّ عندهم وأَقْرُّ لأعينهم من كل شيء أصابوه من لَذَّةِ الْجَنَّةِ، قال الإمام^(٣) الفخر: وإنما كان الرضوان أَكْبَرَ؛ لأنه عند العارفين نعيم رُوحانيّ، وهو أشرف من النعيم الجِسْمانيّ. انتهى. أَنْظَرُهُ فِي أَوَائِلِ «آلِ عِمْرَانَ».

قال * ع^(٤) *: ويظهر أن يكون قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إشارة إلى منازل المقرَّبين الشارِبِينَ مِنْ تَسْنِيمٍ، والَّذِينَ يُرَوَّنَ كَمَا يُرَى التَّجْمُ الْعَايِرُ فِي الْأَفْقِ، وجميع من في الجنة رَاضٍ، والمنازل مختلفة، وفضلُ اللَّهِ مُتَّسِعٌ، و﴿الفوزُ﴾: النجاة والخلاص، ومن أَدْخَلَ الجنة فقد فاز، والمقرَّبُونَ هم في الفوز العظيم، والعبارة عندي بـ «سرور وكمال» أجود من العبارة عنها بـ «لذة»، واللذة أيضاً مستعملة في هذا.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾^(٧٦)
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْذِبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٧٧)

وقوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدَ الْكُفَّارَ﴾: أي: بالسيف و﴿المنافقين﴾، أي: باللسان والتعنيف والأكْثْفَارِ في الوجه، وإقامة الحدود عليهم.

قال الحسن: وأكثر ما كَانَتْ الحدودُ يومئذٍ تصيبُ المنافقين، ومذهبُ الطبري؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يعرفهم ويستترهم، وأما قوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، فلفظة عامة في الأفعال والأقوال، ومعنى الغلظ: حَسَنُ الْجَانِبِ، فهو ضدُّ قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٠٦/١٦).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٩/٣).

لِمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الشعراء: ٢١٥]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية، نزلت في الجلاس بن سويد، وقوله: لَيْتَن كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدَ حَقًّا، لَتَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحُمْرِ، فسمعها منه ربيبه أو رجل آخر، فأخبر النبي ﷺ، فجاء الجلاس، فَحَلَفَ بِاللَّهِ؛ مَا قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، فنزلت الآية، فكلمة الكُفْرِ: هي مقالته هذه؛ لأن مضمونها قَوِيٌّ في التكذيب، قال مجاهد: وقوله: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾: يعني: أن الجلاس قد كان هَمَّ بِقَتْلِ صاحبه الذي أخبر النبي ﷺ، وقال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي آبن سلول، وقوله في غزوة المُرَيْسِيعِ: مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُهُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: سَمْنُ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، و﴿لَيْتَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فوقفه، فَحَلَفَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، فنزلت الآية مكذبة له.

* ت * : وزاد ابن العربي في «أحكامه»^(١) قولاً ثالثاً؛ أَنَّ الآية نزلت في جماعة المنافقين؛ قاله الحسن، وهو الصحيح؛ / لعموم القول ووجود المعنى فيه، وفيهم، انتهى. ٢٢٧ ب

وحدث أبو بكر بن الخطيب بسنده، قال: سئل سفيان بن عيينة عن الهَمِّ: أَيُؤَاخِذُ بِهِ صَاحِبُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَانَ عَزْماً؛ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وهموا بما لم ينالوا...﴾ الآية، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ﴾، فجعل عليهم فيه التَّوْبَةَ، قال سفيان: الهَمُّ يَسُودُ الْقَلْبَ انتهى.

قال * ع^(٢) * : وعلى تأويل قتادة، فالإشارة بـ ﴿كَلِمَةُ الْكُفْرِ﴾ إِلَى تَمَثِيلِ ابْنِ أَبِي سَمْنٍ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ^(٣).

قال قتادة: والإشارة بـ ﴿وهموا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْتَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾^(٤) [المنافقون: ٨].

وقال الحسن: هُمُ الْمَنَافِقُونَ من إظهار الشرك ومكابرة النبي ﷺ بما لم ينالوا^(٥)، وقال تعالى: ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، ولم يقل: «بعد إيمانهم»؛ لأن ذلك لم يتجاوز ألسنتهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ...﴾ الآية: كَأَنَّ الْكَلَامَ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا مَا حَقَّهُ أَنْ يُشْكِرَ، وَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ فِي إِغْنَائِهِمْ مِنْ حَيْثُ كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ،

(١) ينظر: «الأحكام» (٩٧٩/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٠/٣).

(٣) (٤) أخرجه الطبري (٤٢٢/٦) برقم؛ (١٦٩٨٩)، وذكره ابن عطية (٦٠/٣)، وابن كثير (٣٧١/٢).

(٥) ذكره ابن عطية (٦٠/٣).

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبَبٌ فِي ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْأَنْصَارِ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ: «كُنْتُمْ عَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ»، قَالَ الْعِرَاقِيُّ: «نَقَمُوا»: أَي: أَنْكَرُوا.

وقال * ص * : «إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ»: إِنْ وَصَلَتْهَا: مَفْعُولٌ «نَقَمُوا»: أَي: مَا كَرِهُوا إِلَّا إِغْنَاءَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وَقِيلَ: هُوَ مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ مَحْذُوفٌ، أَي: مَا كَرِهُوا الْإِيمَانَ إِلَّا لِلْإِغْنَاءِ. انْتَهَى.

ثم فتح لهم سبحانه باب التَّوْبَةِ؛ رَفَقًا بِهِمْ وَلُطْفًا، فَرَوَى أَنَّ الْجُلَاسَ تَابَ مِنَ النِّفَاقِ، وَقَالَ: إِنْ اللَّهُ قَدْ تَرَكَّ لِي بَابَ التَّوْبَةِ، فَأَعْتَرَفَ وَأَخْلَصَ، وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ ^(١).

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في ثُعَلْبَةَ بْنِ حَاطِبِ الْأَنْصَارِيِّ ^(٢)، قَالَ الْحَسَنُ: وَفِي مُعْتَبَرٍ بْنِ قُشَيْرٍ مَعَهُ،

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٢٤/٦) بِرَقْم: (١٦٩٩٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٦١/٣)، وَالبُغَوِيُّ (٣١١/٢).

(٢) جَاءَتْ فِي «الإِصَابَةِ» تَرْجُمَةُ ثُعَلْبَةَ بْنِ حَاطِبٍ أَوْ ابْنِ أَبِي حَاطِبِ الْأَنْصَارِيِّ بَعْدَ تَرْجُمَةِ ثُعَلْبَةَ بْنِ حَاطِبِ بْنِ عَمْرِو وَقَالَ فِي ثُعَلْبَةَ بْنِ حَاطِبٍ أَوْ ابْنِ حَاطِبِ الْأَنْصَارِيِّ: ذَكَرَهُ أَبُو إِسْحَاقَ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدَ الضَّرَارِ، وَرَوَى الْبَاوَزْدِيُّ وَابْنُ السَّكَنِ وَابْنُ شَاهِينَ وَغَيْرُهُمْ فِي تَرْجُمَةِ الَّذِي قَبْلَهُ مِنْ طَرِيقِ مُعَانَ بْنِ رِفَاعَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ - أَنَّ ثُعَلْبَةَ بْنَ حَاطِبِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطِيقُهُ...». فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ فِي دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ وَكَثْرَةِ مَالِهِ وَمَنْعَةِ الصَّدَقَةِ وَنَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ...﴾. وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ وَلَمْ يَقْبِضْ مِنْهُ الصَّدَقَةُ، وَلَا أَبُو بَكْرٍ، وَلَا عُمَرُ، وَأَنَّهُ مَاتَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَفِي كَوْنِ صَاحِبِ هَذِهِ الْقِصَّةِ - إِنْ صَحَّ الْخَبَرُ وَلَا أَظُنُّهُ يَصَحُّ - وَهُوَ الْبَذَرِيُّ الْمَذْكُورُ قَبْلَهُ - نَظَرُ، وَقَدْ تَأَكَّدْتُ الْمَغَايِرَةَ بَيْنَهُمَا، يَقُولُ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: إِنَّ الْبَذَرِيَّ اسْتَشْهَدَ بِأَحَدٍ، وَيَقْوِي ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ رَوَى فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ طَرِيقِ عَطِيَّةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ الْمَذْكُورَةِ. قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ ثُعَلْبَةُ بْنُ أَبِي حَاطِبٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى مَجْلِسًا فَأَشْهَدَهُمْ فَقَالَ: «لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ» [التَّوْبَةُ: ٧٥] آيَةِ فَذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطَوْلِهَا، فَقَالَ: إِنَّهُ ثُعَلْبَةُ بْنُ أَبِي حَاطِبٍ، وَابْنُ أَبِي حَاطِبٍ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ ثُعَلْبَةُ بْنُ حَاطِبٍ؛ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَذْرًا وَالحَدِيثِيَّةَ».

وَحَكَى عَنْ رَبِّهِ أَنَّهُ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فَمِنْ يَكُونُ بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ كَيْفَ يُغْفَبُ اللَّهُ نِفَاقًا فِي قَلْبِهِ، وَيَنْزِلُ فِيهِ مَا نَزَلَ؟ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ غَيَّرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وأختصار ما ذكره الطبري^(١) وغيره من أمره: أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مَالًا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ ذَا مَالٍ، لَقَضَيْتُ حَقُّوقَهُ، وَفَعَلْتُ فِيهِ الْخَيْرَ، فَرَادَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ» فَعَاوَدَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ أَنْ يُسَيِّرَ الْجِبَالَ مَعِيَ ذَهَبًا، لَسَارَتْ» فَأَعَادَ عَلَيْهِ حَتَّى دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَاتَّخَذَ غَنَمًا، فَتَمَتَّ كَمَا يَنْمُو الدُّودُ؛ حَتَّى ضَاقَتْ بِهِ الْمَدِينَةُ، فَتَنَحَّى عَنْهَا، وَكَثُرَتْ غَنَمُهُ، حَتَّى كَانَ لَا يُصَلِّي إِلَّا الْجُمُعَةَ، ثُمَّ كَثُرَتْ حَتَّى تَنَحَّى بَعِيدًا، فَتَرَكَ الصَّلَاةَ، وَنَجَّمَ نِفَاقَهُ، وَنَزَلَ خِلَالِ ذَلِكَ فَرَضَ الزَّكَاةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُصَدِّقَيْنِ بِكِتَابِهِ فِي أَخْذِ زَكَاةِ الْغَنَمِ، فَلَمَّا بَلَغُوا ثَغْلَبَةَ، وَقَرَأَ الْكِتَابَ، قَالَ: هَذِهِ أُخْتُ الْجَزْيَةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: دَعُونِي حَتَّى أَرَى رَأْيِي، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرُوهُ، قَالَ: «وَيْحَ ثَغْلَبَةَ ثَلَاثًا، وَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِ، فَحَضَرَ الْقِصَّةَ قَرِيبٌ لثَغْلَبَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَذْرُكَ أَمْرَكَ، فَقَدْ نَزَلَ فِيكَ كَذَا وَكَذَا، فَخَرَجَ ثَغْلَبَةُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَرَغِبَ أَنْ يُؤَدِّيَ زَكَاتَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَلَّا أَخْذَ زَكَاتَكَ»، فَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وَرَدَ ثَغْلَبَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ عَلَى عُمَرَ، ثُمَّ عَلَى عَثْمَانَ، يَرْغَبُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الزَّكَاةَ، فَكُلُّهُمْ رَدَّ ذَلِكَ وَأَبَاهُ؛ أَقْتَدَاءُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَبَقِيَ ثَغْلَبَةُ كَذَلِكَ حَتَّى هَلَكَ فِي مَدَّةِ عَثْمَانَ^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: نص في العقوبة على الذنب بما هو أشد منه.

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾: يقتضي موافاتهم على التفاق، قال ابن العربي: في ضمير

= ينظر في: «أسد الغابة» (٤٨/٥)، «الإصابة» (٣٣/٦)، «تهذيب مستمر الأوهام» (ب ١٤٤)، «الاستيعاب» (١٣٥٨/٣)، «الجرح والتعديل» (٢١٥/٨)، «تجريد أسماء الصحابة» (٦٨/٢)، «الطبقات الكبرى» (٥٣٠/٥)، (٢٩/٦)، «الأنساب» (١٠٨/٣).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٥/٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٥/٦ - ٤٢٦) رقم (١٧٠٠٢) والواحدي في «الوسيط» (٥١٣/٢) بتحقيقنا، وفي «أسباب النزول» ص: (١٩١ - ١٩٢) من طريق معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة الباهلي به.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٤/٧)، وعزاه للطبراني. وقال: وفيه علي بن يزيد الألهماني، وهو ضعيف وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (١٣٥/٣) سنده ضعيف، والحديث ضعفه الحافظ في «تخريج الكشاف» (٧٧) وقال: إسناده ضعيف جداً.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٧/٣)، وعزاه إلى الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في «الأمثال»، والطبراني وابن منده والباوردي وأبو نعيم في «معركة الصحابة» وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر.

﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ قولان:

أحدهما: أنه عائد على الله / تعالى. ١٢٢٨

والثاني: أنه عائد على النفاق مجازاً؛ على تقدير الجزاء؛ كأنه قال: فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقون جزاءً. انتهى من «الأحكام».

﴿يلمزون﴾: معناه: ينالون بالسنتهم، وأكثر الروايات في سبب نزول الآية أن عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف، وأمسك مثلها.

وقيل: هو عمر بن الخطاب تصدق بنصف ماله، وقيل: عاصم بن عدي^(١) تصدق بمائة وسقي^(٢)، فقال المنافقون: ما هذا إلا رياء، فنزلت الآية في هذا كله، وأما المتصدق بقليل، فهو أبو عقيل تصدق بصاع من تمر، فقال بعضهم: إن الله غني عن صاع أبي عقيل، وخرجه البخاري^(٣)، وقيل: إن الذي لُمِر في القليل هو أبو خنيمته؛ قاله كعب بن مالك^(٤).

﴿فيسخرون منهم﴾: معناه: يستهزئون ويستخفون وروى مسلم عن جرير بن

(١) هو: عاصم بن عدي بن الجد بن العجلان بن حارثة بن ضبيعة بن حرام بن جعل بن عمرو بن ودم بن ذبيان، أبو عبد الله، قال ابن الأثير:

شهد بدرأً وأحدأً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقيل: لم يشهد بدرأً بنفسه لأن رسول الله ﷺ رده من الروحاء واستخلفه على العالية من المدينة، قاله محمد بن إسحاق وابن شهاب وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره. توفي سنة ٤٥ وله ١١٥ سنة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٣/ ١١٤)، «الإصابة» (٤/ ٥)، «الثقات» (٣/ ٢٨٦)، «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٢٨٢)، «الاستيعاب» (٢/ ٧٨١)، «الاستبصار» (٢٩٨)، «بقي بن مخلد» (٢٥٦)، «الجرح والتعديل» (٦/ ٣٤٥)، «أصحاب بدر» (١٥٨)، «تهذيب التهذيب» (٥/ ٤٩)، «تهذيب الكمال» (٢/ ٦٣٦)، «الأعلام» (٣/ ٢٤٨)، «التحفة اللطيفة» (٢/ ٢٧٠)، «شذرات الذهب» (١/ ٥٤).

(٢) الوُسْق: ستون صاعاً وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز، وأربعمائة وثلاثون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمد.

ينظر: «لسان العرب» (٤٨٣٦).

(٣) ورد هذا في حديث أخرجه البخاري (١٨١/ ٨) كتاب «التفسير» باب: «الذين يلمزون المطوعين في

الصدقات» برقم: (٤٦٦٨ - ٤٦٦٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن ابن عباس أخرجه الطبري (٢/ ٣٧٥)، برقم: (١٧٠١٨) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٦٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٧٥)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٠)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٣٢) برقم: (١٧٠٣١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/ ٦٣)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٠).

عبد الله، قال: كُنْتُ عند رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قَوْمٌ حُفَاءَ عُرَاةٍ مُجْتَابِي النَّمَارِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامِّيهِمْ مِنْ مُضَرٍّ، بِلِ كُلِّهِمْ مِنْ مُضَرٍّ، فتمتعر وجهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فدخل ثُمَّ خرج، فأمر بلالاً، فأذن وأقام، فصلى ثُمَّ خَطَبَ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] والآية التي في سورة الحشر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] تَصَدَّقَ رَجُلٌ؛ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ؛ حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ؛ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١). انتهى.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠) فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

وقوله سبحانه: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾: المعنى: أَلِلَّهِ خَيْرُ نَبِيٍّ فِي هَذَا، فَكَانَهُ قَالَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ لَا تَسْتَغْفِرْ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ، وَإِنْ أَسْتَغْفَرَ سَبْعِينَ مَرَّةً، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِعُمَرَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ خَيْرَنِي فَأَخْتَرْتُ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنِّي إِذَا زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُمْ لَزِدْتُ...»^(٢) الحديث، وظاهر لفظ الحديث رفض إلزام دليل الخطاب، وظاهر صلاته ﷺ عَلَى ابْنِ أَبِي أَنَّهُ كَفَرَهُ لَمْ يَكُنْ يَقِينًا عِنْدَهُ، وَمَحَالٌ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى كَافِرٍ، وَلَكِنَّهُ رَاعَى ظَوَاهِرَهُ مِنَ الْإِقْرَارِ

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٠٤ - ٧٠٥) كتاب «الزكاة» باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، حديث (١٠١٧/٦٩)، والنسائي (٧٥/٥) كتاب «الزكاة» باب: التحريض على الصدقة، حديث (٢٥٥٤) من حديث جرير.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٥/٦) برقم: (١٧٠٤٥) عن ابن عباس. وأخرجه عن مجاهد أيضاً (٤٣٤/٦) برقم: (١٧٠٤٠، ١٧٠٤٣) بنحو حديث ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٢/٣) وعزاه إلى ابن جرير وابن أبي شيبه وابن المنذر.

وَوَكَّلَ سِرِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَى هَذَا كَانَ سَتْرُ الْمُنَافِقِينَ، وَإِذَا تَرْتَّبَ كَمَا قُلْنَا التَّخْيِيرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، صَحَّ أَنَّ ذَلِكَ التَّخْيِيرَ هُوَ الَّذِي نُسَخَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي «سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ»: [٦]: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

* ت * : والظاهر أن الآيتين بمعنى، فلا نُسَخ، فتأمل، ولولا الإطالة لأَوْضَحْتُ ذلك.

قال * ع ^(١) * : وأما تمثيله بالسبعين دُونَ غيرها من الأعداد، فلأنه عددٌ كثيراً ما يجيء غايةً ومقنعاً في الكثرة.

وقوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى أمتناع العُفْرَانِ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ الآية: هذه آية تتضمَّن وصف حالهم، على جهة التوبيخ، وفي ضمنها وعيدٌ، وقوله: ﴿المُخَلَّفُونَ﴾: لفظٌ ب ٢٢٨ يقتضي تحقيرهم، وأنهم الذين أبعدهم الله مِنْ رضاه / و«مَقْعَدٌ»: بمعنى القُعود، و«خِلَافٌ»: معناه: «بَعْدٌ»؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

فَقُلْ لِلَّذِي يَنْبَغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَأْهَبُ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنَّ قَدْ يَرِيدُ: بعد الذي مَضَى.

وقال الطبري ^(٢): هو مصدرٌ: خَالَفَ يُخَالِفُ، وقولهم: ﴿لا تنفروا في الحر﴾: كان هذا القول منهم؛ لأن غزوة تبوك كَانَتْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَطِيبِ الثَّمَارِ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَنْذَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ (٨٣) وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَوْفِيقِي هُمْ فَنَقِصُوا (٨٤)

وقوله سبحانه: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾؛ إشارة إلى مدة العُمر في الدنيا.

وقوله: ﴿وليبيكوا كثيراً﴾؛ إشارة إلى تأييد الخلود في النَّارِ، فجاء بلفظ الأمر، ومعناه الخبر عن حالهم، وتقدير الكلام: لِيَبْكُوا كثيراً؛ إذ هم معذبون، جزاء بما كانوا يكسبون،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٤/٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٥/٦).

وخرج ابن ماجه بسنده، عن يزيد الرقاشي^(١)، عن أنس، قال: قال النبي ﷺ: «يُرْسَلُ الْبُكَاءُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى تَصِيرَ فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأَخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ»^(٢)، وخرجه ابن المبارك أيضاً عن أنس، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَبْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ تَسِيلُ دُمُوعُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ، كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، فَتَسِيلَ الدَّمَاءُ، فَتَفْرَحَ الْعُيُونُ، فَلَوْ أَنَّ سُفُنًا أُجْرِيتَ فِيهَا، لَجَرَتْ»^(٣)، انتهى من «التذكرة».

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ...﴾ الآية: يشبه أن تكون هذه الطائفة قد حُتِمَ عليها بالموافاة على النفاق، وعُيِّنُوا للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾: نص في موافاتهم على ذلك؛ ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ عَيَّنَهُمْ لحذيفة بن اليمان، وكان الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة، تأخروا هم عنها، وروي عن حذيفة؛ أنه قال يوماً: بَقِيَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَذَا وَكَذَا^(٤).

وقوله: ﴿أَوَّلُ﴾ هو بالإضافة إلى وَفَّتِ الْإِسْتِثْنَانِ، و«الخالفون»: جَمْعٌ مَنْ تَخَلَّفَ مِنْ نِسَاءٍ، وَصِبْيَانٍ، وَأَهْلِ عَذَرٍ، وَتَظَاهَرَتِ الرِّوَايَاتُ أَنَّهُ ﷺ صَلَّى عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَبْنٍ سَلُولٍ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ نَزَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ خَرَجَ ذَلِكَ الْبَخَارِيُّ مِنْ رَوَايَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. انتهى^(٥).

﴿وَلَا تَجْعَلْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذِلَّةً أَوْ قُلُوبًا مَلِيَّةً وَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ

(١) يزيد بن أبان الرقاشي أبو عمرو البصري الزاهد، عن أبيه، وأنس، وعنه الأعمش، وأبو الزناد من أقرانه، تكلم فيه شعبة.

وقال الفلاس: ليس بالقوي، وضعفه ابن معين وله أخبار في المواعظ والخوف والبكاء. ينظر ترجمته في «الخلاصة» (١٦٦/٣) (٨٠٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٦/٢) كتاب «الزهد» باب: صفة النار، حديث (٤٣٢٤).

وقال البوصيري في «الزوائد» (٣٢٣/٣) هذا إسناد فيه يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أبو يعلى (١٦٢/٧) برقم: (٤١٣٤) من طريق يزيد عن أنس به.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٩٤/١٠) وقال: روى ابن ماجه بعضه، رواه أبو يعلى، وأضعف من فيه يزيد الرقاشي وقد وثق على ضعفه.

(٤) ذكره ابن عطية (٦٦/٣).

(٥) تقدم تخريجه.

الْحَيَرَاتِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾: تقدم تفسير مثل هذه الآية، والطول في هذه الآية المال؛ قاله ابن عباس وغيره^(١)، والإشارة بهذه الآية إلى الجد بن قيس ونظرائه، و«القاعدون»: الرُّمَى وأهل العُدْر في الجملة، و«الخوالف»: النساء جمع خالفة؛ هذا قول جمهور المفسرين.

وقال أبو جعفر النحاس: يقال للرجل الذي لا خَيْرَ فيه: خَالِفَةٌ، فهذا جمعه بحسب اللفظ، والمراد أخسُّ الناس وأخلافهم؛ ونحوه عن النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ، وقالت فرقة: الخوالف: جمع خَالِفٍ؛ كَفَارِسٍ وَفَوَارِسٍ.

﴿وطبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي: لا يفهمون، و«الخيرات»: جمع خَيْرَةٍ، وهو المستحسن من كل شيء.

وقوله سبحانه: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: ﴿أَعَدَّ﴾: معناه يَسِّرَ وَهَيَّأَ، وباقي الآية بين.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلُوبٌ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنَهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُومَ مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: هؤلاء كانوا مؤمنين، وكانت أعذارهم صادقة^(٢)، وأصل اللفظة: «المُعَذِّرُونَ»، فقلبت التاء ذالاً وأدغمت، وقال قتادة، وفرقة معه: بل الذين جاؤوا كفر^(٣)، وقولهم وعُدْرهم كَذِبٌ. قال * ص *: والمعنى: تكلفوا العُدْر، ولا عذر لهم، و﴿كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾،

(١) أخرجه الطبري (٤٤١/٦) برقم: (١٧٠٧٦)، (١٧٠٧٧) نحوه، وذكره ابن عطية (٦٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٦/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) ذكره ابن عطية (٦٩/٣)، والبغوي (٣١٨/٢)، وابن كثير (٣٨١/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٤/٦) برقم: (١٧٠٨٩ - ١٧٠٩٠)، وذكره ابن عطية (٧٠/٣)، وابن كثير (٣٨١/٢) نحوه.

أي: في إيمانهم. انتهى.

وقوله: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ...﴾ الآية / قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يؤيد أن ١٢٢٩
المعذرين كانوا مؤمنين، فتأمل، قال ابن إسحاق: المعذرون: نَفَرٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ؛ وهذا
يقتضي أنهم مؤمنون.

وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى...﴾ الآية: يقول:
ليس على أهل الأعداء مِنْ ضَعْفِ بَدَنِ أَوْ مَرَضٍ أَوْ عَدَمِ نَفَقَةٍ إِيَّاهُمْ؛ وَالْحَرَجُ: الإثم.

وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾: يريد: بِنِيَّاتِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ سَرًّا وَجَهْرًا، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ
سَبِيلٍ﴾: أي: من لائمةٍ تناطُ بِهِمْ، ثم أكد الرجاء بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾،
وقرأ ابن عباس^(١): «وَاللَّهُ لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، وهذا على جهة التفسير أشبه منه
على جهة التلاوة؛ لخلافه الْمُضْحَفُ، واختلف في مَنْ المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يَنْفَقُونَ﴾: فقالت فرقة: نَزَلَتْ فِي بَنِي مُقَرِّنٍ: سِتَّةٌ إِخْوَةٌ، وليس في الصحابة سِتَّةٌ إِخْوَةٌ
غيرهم، وقيل: كانوا سبعة.

وقيل: نَزَلَتْ فِي عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو الْمُزَنِيِّ؛ قاله قتادة^(٢)، وقيل: فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ
الْمَزَنِيِّ^(٣). قاله ابن عباس^(٤).

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ هذه الآية نزلت في
الْبَكَّائِينَ، واختلف في تعيينهم، فقيل: فِي أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَرَهْطِهِ، وقيل: فِي بَنِي
مُقَرِّنٍ؛ وعلى هذا جمهور المفسرين، وقيل: نزلت في سبعة نَفَرٍ مِنْ بَطُونِ شَتَّى، فهم

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٠/٣)، و«البحر المحيط» (٨٨/٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٥/٦) يرقم: (١٧٠٩٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٤٧٨)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) عبد الله بن معقل بن مقرن، أبو الوليد المزني، قال ابن حجر في «الإصابة»:
ذكره ابن فتحون في «ذيل الاستيعاب» ولم يذكر مستنداً لذكره في الصحابة، وقد قال ابن قتيبة: ليست
له صحبة ولا إدراك، وذكره في التابعين ابن سعد، والعجلي، والبخاري، وابن حبان وغيرهم، وله
رواية عند أبي داود في «المراسيل»، وقال بعده: ابن معقل لم يدرك النبي ﷺ.
قال العجلي: تابعي ثقة من خيار التابعين. توفي سنة ٨٨ تقريباً.

ينظر ترجمته في «الإصابة» (١٤٤/٥)، «الثقات» (٣٥/٥)، «بقي بن مخلد» (٦٤٤)، «الجرح والتعديل»
(١٦٩/٥)، «تقريب التهذيب» (٤٥٣/١)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠٦/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٤٤٥/٦) يرقم: (١٧٠٩٤)، وذكره ابن عطية (٧٠/٣).

الْبَكَاؤُونَ، وقال مجاهد: الْبَكَاؤُونَ هم بنو مُقَرَّن من مُزَيْنَةَ^(١)، ومعنى قوله: ﴿لَتَحْمِلَهُمْ﴾: أي: عَلَى ظَهْر يُرَكَّبُ، وَيُحْمَلُ عَلَيْهِ الْأَثَاثُ.

* ت * : وقصة أبي موسى الأشعريّ ورَهْطِهِ مذكورة في الصَّحِيح، قال ابنُ العربيّ في «أحكامه»^(٢): القول بأن الآية نزلت في أبي موسى وأصحابه هو الصحيح، انتهى.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣) يَسْتَأْذِنُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَنَى اللَّهُ مِنْ آبَائِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرهم: عبد الله بن أبيّ، والجُدُّ بن قيس، ومُعْتَبٌ، وغيرهم.

وقوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: يريد: مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، ومعنى: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾: لن نصدقكم، والإشارة بقوله: ﴿قَدْ بَنَى اللَّهُ مِنْ آبَائِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، ونحوه من الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿وسيرى الله عملكم﴾: توعد، والمعنى: فيقع الجزاء عليه، قال الأستاذ أبو بكر الطرطوشي: أَعْمَلُ لِلدُّنْيَا بِقَدْرِ مُقَامِكَ فِيهَا، وَأَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ بِقَدْرِ بَقَائِكَ فِيهَا، وَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَأَطْفَعُهُ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ، وَخَفَعُهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَأَغْصِيهِ بِقَدْرِ صَبْرِكَ عَلَى النَّارِ. انتهى من «سراج الملوك».

وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾: يريد الْبَغْتَ من القبور.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَيَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَرَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَيَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَلَا تَنْزِلَ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧)

وقوله عز وجل: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ الآية: قيل: إن هذه

(١) أخرجه الطبري (٤٤٦/٦) برقم: (١٧٠٩٥، ١٧٠٩٨)، وذكره ابن عطية (٧١/٣)، وابن كثير (٢/٣٨١).

(٢) ينظر: «الأحكام» (٩٩٣/٢).

الآية من أول ما نَزَلَ في شأن المنافقين في غزوة تبوك.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾: أي: نَتَنَ وَقَدَّرَ، وناهيك بهذا الوَصفَ مَحَطَّةً دنيويةً، ثم عطف بمَحَطَّةِ الآخِرَةِ، فقال: ﴿وَمَا وَاهِمُ جَهَنَّمَ﴾، أي: مسكنهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا...﴾ إلى آخر الآية: شَرَطُ يَتَضَمَّنُ النِّهْيَ عن الرضا عنهم، وحُكْمُ هذه الآية يستمرُّ في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها.

وقوله سبحانه: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: هذه الآية نزلت في منافقين كانوا في البوادي، ولا محالة أنَّ خوفهم هناك كان أقلَّ من خوف منافقي المدينة، فالستهم لذلك مُطْلَقَةً، ونفاقهم أُنْجَمَ، و﴿أَجْدَرُ﴾: معناه أخرى.

وقال * ص * : معناه / أحمق، والحدود هنا: السُّنن والأحكام.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَكْرِهُهُ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ ذَاكِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا...﴾ الآية نصٌّ في المنافقين منهم، و«الدوائر»: المصائب، ويحتمل أن تشتقَّ من دَوْرَانِ الزمان، والمعنى: ينتظر بكم ما تأتي به الأيام، وتدور به، ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عليهم دائرة السَّوْءِ﴾، وكلُّ ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عزَّ وجلَّ، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأنَّ الله لا يَدْعُو على مخلوقاته، وهي في قبضته؛ ومن هذا ﴿وَنِلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَنِلَّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، فهي كلها أحكام تامَّة تضمَّنْها خبره تعالى.

* ت * : وهذه قاعدة جيِّدة، وما وقع له رحمه الله مما ظاهره مخالفٌ لهذه القاعدة، وجب تأويله بما ذكَّره هنا، وقد وقَّع له ذلك بعد هذا في قوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، قال: يحتمل أن يكون دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، أي: استوجبوا ذلك، وقد أوضح ذلك عند قوله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْذُودِ﴾ [البروج: ٤]، فأنظره هناك.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُمْ سُبْحَانَهُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [٩٩] وَالسَّائِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١٠٠]

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ قال قتادة: هذه ثنية الله تعالى من

الأعراب، وروي أن هذه الآية نزلت في بني مُقَرَّن؛ وقاله مجاهد^(١) ﴿ويتخذ﴾؛ في الآيتين بمعنى: يَجْعَلُهُ قَصْدَهُ، والمعنى: ينوي بنفخته ما ذكره الله عنهم، و﴿صَلَّوات الرسول﴾: دعاؤه، ففي دعائه خَيْرُ الدنيا والآخرة، والضَّمير في قوله: ﴿إنها﴾: يحتملُ عودَهُ على النَفَقَةِ، ويحتملُ عودَهُ على الصَّلوات، وباقي الآية بَيِّن.

وقوله سبحانه: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار...﴾ الآية: قال أبو موسى الأشعري وغيره: السابقون الأولون مَنْ صَلَّى القِبْلَتَيْنِ^(٢)، وقال عطاء: هم مَنْ شَهِدَ بَدْرًا^(٣).

وقال الشَّعْبِيُّ: مَنْ أدرك بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ^(٤)، والذين اتَّبَعُوهم بإحسان: يريد: سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ: التَّابِعُونَ وسائر الأمة، لكن بشرطة الإحسان، وقرأ عمر بن الخطَّاب وجماعة: و«الأنصار»^(٥) - بالرفع -؛ عطفًا على «والسابقون»، وقرأ ابن كثير: «مِنْ تَحْتِهَا الأنهار»، وقرأ الباقر^(٦): «تَحْتَهَا»، بإسقاط «مِنْ».

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١١)

وقوله سبحانه: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾: الإشارة بـ «مَنْ حولكم» إلى جُهَنَّة، ومُرْزَنَة، وأُسْلَم، وغِفَار، وعُصَيَّة، ولِحْيَان، وغيرهم مِنَ القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر الله سبحانه عن منافقيهم، وتقدير الآية: ومن أهل المدينة قومٌ أو منافقون، هذا أحسن ما حُمِلَ اللفظ، ﴿ومردوا﴾: قال أبو عُبَيْدَة معناه:

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٥٤/٦) برقم: (١٧١٢٣)، وذكره ابن عطية (٧٥/٣)، والبيهقي (٣٢١/٢) برقم:

(١٠٠)، وذكره ابن كثير (٣٨٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٣/٣) وزاد نسبه إلى أبي

الشيخ، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «المعرفة».

(٣) ذكره ابن عطية (٧٥/٣)، والبيهقي (٣٢١/٢) برقم: (١٠٠).

(٤) أخرجه الطبري (٤٥٣/٦) برقم: (١٧١١٦، ١٧١١٨، ١٧١٢٠، ١٧١٢١)، وذكره ابن عطية (٧٥/٣)

(٧٥)، والبيهقي (٣٢١/٢) برقم: (١٠٠)، وابن كثير (٣٨٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٤/٣)

(٤٨٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبَة وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي الشيخ.

(٥) وقرأ بها الحسن وقتادة، وسلام بن سليمان الطويل، وسعيد بن أسعد، ويعقوب بن طلحة، وعيسى الكوفي.

ينظر: «الشواذ» (٥٩)، و«المحتسب» (٣٠٠/١)، و«الكشاف» (٣٠٤/٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/

٧٥)، و«البحر المحيط» (٩٦/٥)، و«الدر المصون» (٤٩٧/٣).

(٦) وهي كذلك في مصاحف أهل مكة خاصة.

ينظر: «معاني القراءات» (٤٦٣/١)، و«حجة القراءات» (٣٢٢)، و«العنوان» (١٠٣)، و«شرح الطيبة»

(٣٤٠/٤)، و«شرح شملة» (٤١٤)، و«إتحاف» (٩٧/٢).

مَرْتَوْا عَلَيْهِ، وَلَجُّوا فِيهِ^(١)، وقيل غير هذا ممّا هو قريب منه .

وقال ابن زَيْد: قاموا عليه، لَمْ يَتُوبُوا؛ كما تاب الآخَرُونَ، والظاهر مِنَ اللفظة أَنَّ التمرُّد في الشيء أو المُرُود عليه إنما هو اللَّجَاج وَالْإِشْتِهَارُ بِهِ، والعتوّ على الزاجر، وَرُكُوبُ الرَّأْسِ فِي ذَلِكَ، وهو مستعملٌ في الشر لا في الخير؛ ومنه: شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ، وقال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): ﴿مَرَدُوا عَلَى التَّفَاقِ﴾: أي: أستمروا عليه، وتحقّقوا به . انتهى، ذكره بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة: ١٠٧].

ثم نفى عزَّ وجلَّ علَمَ نبيّه لهم على التّغيين .

وقوله سبحانه: ﴿سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذابٍ عظيمٍ﴾: لفظ الآية يقتضي ثَلَاثَ مَوَاطِنَ مِنَ الْعَذَابِ، ولا خَلاَفَ بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يُرَدُّونَ إِلَيْهِ هو عذاب الآخرة، وأكثرُ النَّاسِ أن العذاب المتوسط / هو عذاب^(٣) القبر، واختلِفَ في ٢٣٠ ب عذاب المَرَّةِ الْأُولَى: فقال ابنُ عَبَّاسٍ: عذابهم بإقامة حدود الشَّرْعِ عليهم، مع كراهيتهم فيه^(٤).

وقال إسحاق: عذابهم: هو هَمُّهم بظهور الإسلام، وَعُلُوُّ كَلِمَتِهِ^(٥). وقال ابنُ عَبَّاسٍ أيضاً - وهو الأشهر عنه -: عذابهم هو فَضِيحَتُهُمْ وَوَضُمُّهُمْ بِالْتَّفَاقِ^(٦). وقيل غيرُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَالْآخِرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿وآخرون أعترفوا بذنوبهم﴾ الآية. قال ابنُ عَبَّاسٍ، وأبو عُثْمَانَ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٥).

(٢) ينظر: «الأحكام» (٢/ ١٠١٢).

(٣) استدل على عذاب القبر من القرآن بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُغْرِضُونَ عَلَيْهَا غُذُوًا وَعُشْبًا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عطف عذاب يوم القيامة على عرض النار صباحاً ومساءً، فَعَلِمَ أَنَّهُ غيره، وما هو إلا عذاب القبر، لأن الآية وردت في حق الموتى، والأحاديث الصحيحة الدالة على عذاب القبر أكثر من أن تحصى بحيث تواتر القدر المشترك بينها في إثباته . ينظر: «نشر الطوالع» (٣٧١).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٦).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٥٨) برقم: (١٧١٥٠)، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٦).

(٦) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٦).

الأغراب، وهي عاتمة في الأمة إلى يوم القيامة^(١). قال أبو عثمان: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة منها^(٢). وقال مجاهد: بل نزلت هذه الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة لما أشار لهم إلى حلقه، ثم ندم وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد^(٣)، وقالت فرقة عظيمة: بل نزلت هذه الآية في شأن المخلفين عن غزوة تبوك.

* ت * : وخَرَجَ «البخاري» بسنده عن سُمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة آتيان، فأبتعاني فأنتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فلقنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء. وشرط كأقبح ما أنت راء، قالاً لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالاً لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك، قالاً: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشرط منهم قبيح خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم». انتهى^(٤).

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ...﴾ الآية: روي أن الجماعة الثابتة لما تيب عليها، قالوا: يا رسول الله! إنا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال لهم ﷺ: «إني لا أعرض لأموالكم إلا بأمر من الله»^(٥)، فتركهم حتى نزلت هذه الآية، فهم المراد بها، فروي أنه ﷺ أخذ ثلث أموالهم، مراعاة لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾،

(١) أخرجه الطبري (٤٦٢/٦) برقم: (١٧١٦٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٧٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٢/٦) برقم: (١٧١٦٦)، وذكره ابن عطية (٧٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٤٦١/٦) برقم: (١٧١٥٦، ١٧١٥٧، ١٧١٥٩)، وذكره ابن عطية (٧٧/٣)، وابن كثير (٣٨٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٨/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٢/٨) كتاب «التفسير» باب: «وآخرهم اعترفوا بذنوبهم»، حديث (٤٦٧٤)، ومسلم (١٧٨١/٤) كتاب «الرؤيا» باب: «رؤيا النبي ﷺ»، حديث (٢٣/٢٣٧٥)، والترمذي (٥٤٣/٤) كتاب «الرؤيا» باب: «ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو»، حديث (٢٢٩٤)، وأحمد (٨/٥)، (١٤٠٩)، وابن حبان (٤٢٧/٢، ٤٣١) برقم: (٦٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٩٨٦، ٦٩٨٧)، (٦٩٨٨، ٦٩٨٩)، والبيهقي (١٨٧/٢ - ١٨٨)، والبعوي في «شرح السنة» (٤/٢٣٧ بتحقيقنا) كلهم من طريق أبي رجاء العطاردي عن سمرة بن جندب به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) ينظر: حديث توبة كعب بن مالك، وأصحابه، وقد تقدم تخريجه.

فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين، وقالت جماعة من الفقهاء: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة، وقوله تعالى: ﴿تَطَهَّرْهُمْ وَتَزَكِّهِمْ بِهَا﴾: أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندة إلى ضمير النبي ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: معناه: أدع لهم، فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً، فهي عبارة عن صلاح المعتقد، والضمير في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ قال ابن زَيْد: يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين^(١)، ويحتمل أن يراد به الذين تابوا، وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ قال الزُّجَاج^(٢): معناه: ويقبل الصدقات^(٣)، وقد جاءت أحاديث صحاح في معنى الآية؛ منها حديث أبي هريرة: «إِنَّ الصَّدَقَةَ قَدْ تَكُونُ قَدْرَ اللُّقْمَةِ يَأْخُذُهَا اللَّهُ بِمِيزَانِهِ، فَيَرْبِّيَهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ قَلْوَهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٤)، ونحو هذا من الأحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفّي بصدقة العبد.

وقوله: ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾: هي بمعنى «مِنْ».

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَی اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسِرَدُونَ إِلَى عَلِيٍّ الْعَلِيِّ وَالْمُهَدَّةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (١٠٥) وَأَخْرُوجَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (١٠٦) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ (١٠٧) لَا نَقَمُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ۝ (١٠٨) أَقَمْنَ أَكْسَسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَكْسَسَ بُيُوتَهُ عَلَى

(١) أخرجه الطبري (٤٦٦/٦) برقم: (١٧١٧٧)، وذكره ابن عطية (٧٩/٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤٦٧/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٧٩/٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٦/٣) كتاب «الزكاة» باب: الصدقة من كسب طيب، حديث (١٤١٠)، ومسلم (٧٠٢/٢) كتاب «الزكاة» باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث (٦٣)، (١٠١٤/٦٤)، والترمذي (٤٠/٣ - ٤١) كتاب «الزكاة» باب: ماء جاء في فضل الصدقة، حديث (٦٦١ - ٦٦٢)، والنسائي (٥٧/٥) كتاب «الزكاة» باب: الصدقة من غلول، وابن ماجه (٥٩٠/١) كتاب «الزكاة» باب: فضل الصدقة، حديث (١٨٤٢)، وأحمد (٣٣١/٢، ٣٨٢، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١)، والدارمي (٣٩٥/١) كتاب «الزكاة» باب: فضل الصدقة، وابن خزيمة (٩٣/٤) برقم: (٢٤٢٦)، وابن حبان (٣٣١٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وللحديث شاهد من حديث عائشة.

أخرجه أحمد (٢٥١/٦)، وابن حبان (٨١٩ - «موارد»)، والبخاري (٤٤١/١ - «كشف»)، حديث (٩٣١). والهيتمي في «المجمع» (١١٥/٣) وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات.

شَفَا جُرْبِي هَارٍ فَأَتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة...﴾ الآية: هذه الآية صيغتها صيغة أمر مضمّنها الوعيد.

وقال الطبري^(١): المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا.

قال * ع^(٢) *: والظاهر أن المراد بها الذين اعتذروا، ولم يتوبوا وهم المتوعدون، وهم الذين في ضمير ﴿ألم يعلموا﴾، ومعنى: ﴿فسيرى الله عملكم﴾، أي: موجوداً معرضاً للجزاء عليه بخير أو بشر.

وقال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: قوله سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ هذه الآية نزلت بعد ذكر المؤمنين، ومعناها: الأمر، أي: أعملوا بما يرضي الله سبحانه، وأمّا الآية المتقدمة، وهي قوله تعالى: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ [التوبة: ٩٤]؛ فإنها نزلت بعد ذكر المنافقين، ومعناها: التهديد؛ وذلك لأن / النفاق موضع ترهيب، والإيمان موضع ترغيب، فقبول أهل كل محل من الخطاب بما يليق بهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وآخرون مَرْجُونَ لأمر الله﴾: عطف على قوله أولاً: ﴿وآخرون اعترفوا﴾: ومعنى الإرجاء: التأخير، والمراد بهذه الآية فيما قال ابن عباس وجماعة: الثلاثة الذين خلفوا، وهم كعب بن مالك، وصاحبه؛^(٤) على ما سيأتي إن شاء الله، وقيل: إنما نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم منسجدة الضرار، وعلى هذا: يكون ﴿الذين آخذوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلاً من ﴿آخرون﴾، أو خبر مبتدأ، تقديره: هم الذين، وقرأ عاصم^(٥) وعوام القراء، والناس في كل قطر إلا ب «المدينة»:

(١) ينظر: «الطبري» (٦/٤٦٧).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٨٠).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/٩٩٦).

(٤) سيأتي إن شاء الله تعالى.

(٥) وكذلك هي في مصاحف أهل الشام.

ينظر: «معاني القراءات» (١/٤٦٤)، و«إعراب القراءات» (١/٢٥٦)، و«العنوان» (١٠٣)، و«شرح

الطبية» (٤/٣٤١)، و«شرح شملة» (٤١٥)، و«إتحاف» (٢/٩٨).

﴿والذين اتخذوا﴾، وقرأ أهل المدينة، نافع وغيره الَّذِينَ اتَّخَذُوا - بإسقاط الواو -؛ على أنه مبتدأ، والخبر: ﴿لا يزال بُنيائهم﴾ وأما الجماعة المرادة بـ ﴿الذين اتخذوا مسجداً﴾، فهم منافقو بني عُمَ بن عَوْف، وبني سالم بن عَوْف، وأسند الطبري^(١)، عن ابن إسحاق، عن الزُّهري وغيره، أنه قال: أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ من غزوة تبوك، حتى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ - بلدٌ بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحابُ مسجدِ الضَّرَارِ، قد أتوه ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إنا قد بَنَيْنَا مَسْجِداً؛ لِدِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ، وَإِنَّا نَحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ، فقال: «إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ، وَحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ، فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ»، فَلَمَّا قَفَلَ، وَنَزَلَ بِذِي أَوَانَ، نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي شَأْنِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّخَشَنِ وَمَعْن بْنَ عَدِيٍّ، أَوْ أَخَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، فَقَالَ: «انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَأَهْدِمَاهُ، وَحَرِّقَاهُ» فَانْطَلَقَا مُسْرِعِينَ فَفَعَلَا وَحَرَّقَاهُ^(٢)، وَذَكَرَ الثَّقَافُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ لِهَدمِهِ وَتَحْرِيقِهِ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ وَوَخْشِيًّا مَوْلَى الْمُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ، وَكَانَ بَأَثُوهُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، مِنْهُمْ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، وَمُعْتَبُ بْنُ قُسَيْرٍ، وَتَبْتَلُ بْنُ الْحَارِثِ وَغَيْرُهُمْ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا بَنَى ﷺ مَسْجِداً فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَفَتَ الْهَجْرَةَ، وَهُوَ مَسْجِدُ «قُبَاءٍ» وَتَشَرَّفَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ، حَسَدَهُمْ حِينَئِذٍ رَجَالٌ مِنْ بَنِي عَمَّهُمْ مِنْ بَنِي عُمَ بْنِ عَوْفٍ، وَبَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَكَانَ فِيهِمْ نِفَاقٌ، وَكَانَ مَوْضِعُ مَسْجِدِ «قُبَاءٍ» مَرْبِطاً لِحِمَارِ أَمْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَسْمُهَا: لَيْثٌ، فَكَانَ الْمَنَافِقُونَ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ لَا نَضْبِرُ عَلَى الصَّلَاةِ فِي مَرْبِطِ حِمَارٍ لَيْثٌ، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ، وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ الْمَعْرُوفُ بِالرَّاهِبِ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَبُو حَنْظَلَةَ غَسِيلِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ سَيِّداً مِنْ نَظَرَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَيْنٍ سَلُولٍ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، نَافَقَ، وَلَمْ يَزَلْ مُجَاهِراً بِذَلِكَ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَاسِقَ، ثُمَّ خَرَجَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَنَافِقِينَ، فَحَزَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْأَحْزَابَ، فَلَمَّا رَدَّهُمُ اللَّهُ بِغَيْظِهِمْ، أَقَامَ أَبُو عَامِرٌ بـ «مَكَّةَ» مَظْهَراً لِعِدَاوَتِهِ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ «مَكَّةَ»، هَرَبَ إِلَى «الطَّائِفِ»، فَلَمَّا أَسْلَمَ أَهْلُ الطَّائِفِ، خَرَجَ هَارِباً إِلَى الشَّامِ، يَرِيدُ قَيْصَرَ مُسْتَنْصِراً بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَتَبَ إِلَى الْمَنَافِقِينَ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ أَتَوْا مَسْجِداً، مَقَامَةً لِمَسْجِدِ «قُبَاءٍ»، وَتَحْقِيراً لَهُ، فَإِنِّي سَأَتِي بِجَيْشٍ مِنَ الرُّومِ، أَخْرِجُ بِهِ مُحَمَّدًا، وَأَصْحَابَهُ مِنَ «الْمَدِينَةِ»، فَبَنُوهُ وَقَالُوا: سَيَأْتِي أَبُو عَامِرٍ وَيُصَلِّي فِيهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَارْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يَعْنِي: أَبَا عَامِرٍ، وَقَوْلُهُمْ: سَيَأْتِي أَبُو عَامِرٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿ضُرَاراً﴾ أَي: دَاعِيَةً لِلتُّضَارِ مِنْ / جَمَاعَتَيْنِ.

(١) أخرجه الطبري (٤٦٩/٦) برقم: (١٧٢٠٠)، وذكره ابن عطية (٨١/٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٩/٦ - ٤٧٠) برقم: (١٧٢٠٠) من طريق ابن إسحاق به.

وقوله: ﴿تفريقاً بين المؤمنين﴾: يريد: تفريقاً بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد «قباء»، فإن من جاور مسجدهم كانوا يضربونه إليه، وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان، وقيل: أراد بقوله: ﴿بين المؤمنين﴾ جماعة مسجد رسول الله ﷺ، وروي: أن مسجد الضرار، لما هدم وأحرق، اتخذ مذبلة ترمى فيه الأقدار والقممات، وروي: أن النبي ﷺ لما نزلت: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ كان لا يمر بالطريق التي هو فيها.

وقوله: ﴿لمسجد﴾: قيل: إن اللام لام قسم، وقيل: هي لام ابتداء، كما تقول: لزيد أحسن الناس فعلاً وهي مقتضية تأكيداً، وذهب ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين إلى أن المراد بـ «مسجد أسس على التقوى»: مسجد «قباء»^(١) وروي عن ابن عمر وأبي سعيد وزيد بن ثابت؛ أنه مسجد النبي ﷺ^(٢) ويليق القول الأول بالقصة إلا أن القول الثاني مروى عن النبي ﷺ ولا نظير مع الحديث، قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: وقد روى ابن وهب وأشهب، عن مالك؛ أن المراد بـ «مسجد أسس على التقوى»: مسجد النبي ﷺ حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿وتركوك قائماً﴾ [الجمعة: ١١] وكذلك روى عنه ابن القاسم، وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد «قباء»، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدني هذا». قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، وخرجه مسلم^(٤) انتهى.

ومعنى: ﴿أن تقوم فيه﴾: أي: بصلاتك وعبادتك.

(١) أخرجه الطبري (٤٧٤/٦) برقم: (١٧٢٢٦ - ١٧٢٢٧)، وذكره ابن عطية (٨٢/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٧٣/٦) برقم: (١٧٢١٦ - ١٧٢١٧)، وذكره ابن عطية (٨٢/٣)، والبخاري (٢/٣٢٧).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٤/٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٠١٥/٢) كتاب «الحج» باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، حديث (١٣٩٨/٥١٤)، والترمذي (١٤٤/٢ - ١٤٥) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في المسجد الذي أسس على التقوى، حديث (٣٢٣)، وفي (٢٨٠/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٩)، وأحمد (٨/٣)، ٢٣، ٢٤، ٩١)، وابن أبي شيبة (٣٧٢/٢ - ٢٧٣)، وأبو يعلى (٢٧٢/٢ - ٣٧٣) برقم: (٩٨٥)، وابن حبان (١٦٠٦)، والحاكم (٣٣٤/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥٤٤/٢ - ٥٤٥) من طرق عن أبي سعيد الخدري به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وقوله: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ اُخْتَلِفَ فِي الضَّمِير أَيْضاً، هَلْ يَعُودُ عَلَى مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ عَلَى مَسْجِدِ «قُبَاء»؟ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ أَنْتَنِي عَلَيْكُمْ بِالطُّهُورِ، فَمَاذَا تَفْعَلُونَ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا رَأَيْنَا جِيرَانَنَا مِنَ الْيَهُودِ يَتَطَهَّرُونَ بِالمَاءِ يُرِيدُونَ أَلَّا يَسْتَنْجَاءَ، فَفَعَلْنَا نَحْنُ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، لَمْ نَدْعُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَا تَدْعُوهُ إِذَنْ»^(١).

والبنيان الذي أُسِّسَ عَلَى شِفَا جُرْفٍ: هُوَ مَسْجِدُ الضَّرَارِ؛ بِإِجْمَاعٍ، وَ«الشَّفَا»: الْحَاشِيَةُ وَالشَّقِيرُ، وَ«هَارٍ»: مَعْنَاهُ مُتَهَدِّمٌ بِالٍ، وَهُوَ مِنْ: هَارَ يَهْوِرُ^(٢) الْبَخَارِيُّ: هَارَ هَائِرٌ تَهَوَّرَتِ الْبِثْرُ، إِذَا تَهَدَّمتِ وَأَنْهَارَتْ مِثْلَهُ. انْتَهَى.

وَتَأْسِيسُ الْبِنَاءِ عَلَى تَقْوَى؛ إِنَّمَا هُوَ بِحُسْنِ النِّيَّةِ فِيهِ وَقَصْدِ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِظْهَارِ شَرْعِهِ؛ كَمَا صَنَعَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي مَسْجِدِ «قُبَاء»، وَالتَّأْسِيسُ عَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِفَسَادِ النِّيَّةِ وَقَصْدِ الرِّيَاءِ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذِهِ تَشْبِيهَاتٌ صَحِيحَةٌ بَارِعَةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿فَانْهَارْ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: الظَّاهِرُ مِنْهُ أَنَّهُ خَارِجٌ مَخْرَجَ الْمَثَلِ، وَقِيلَ: بَلْ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ بَعِينُهُ أَنْهَارُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؛ قَالَه قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٣)، وَرَوَى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِ؛ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ الدُّخَانَ يَخْرُجُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٤)، وَرَوَى فِي بَعْضِ الْكُتُبِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ حِينَ أَنْهَارَ بَلَّغَ الْأَرْضَ السَّابِعَةَ، فَقَرَعَ لَذَلِكَ ﷺ، وَرَوَى أَنَّهُمْ لَمْ يُصَلُّوا فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَهَذَا كُلُّهُ بِإِسْنَادٍ لَيِّنٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَسْنَدُ الطَّبْرِيِّ عَنْ خُلْفِ بْنِ يَاسِينَ، أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَسْجِدَ الْمَنَافِقِينَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، فَرَأَيْتُ فِيهِ مَكَاناً يَخْرُجُ مِنْهُ الدُّخَانُ^(٥) وَذَلِكَ فِي زَمَنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ، وَرَوَى شَيْبَةَ بِهَذَا أَوْ نَحْوَهُ عَنْ أَبِي جُرَيْجٍ^(٦): أَسْنَدُهُ الطَّبْرِيُّ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٤/٨) كتاب «التفسير» باب: سورة التوبة.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٧٩/٦) برقم: (١٧٢٦٠ - ١٧٢٦١)، وذكره ابن عطية (٨٥/٣)، والبخاري (٣٢٨/٣)، وابن كثير (٣٩١/٢)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٤٩٩/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٩/٦) برقم: (١٧٢٦٢)، وذكره ابن عطية (٨٥/٣)، والبخاري (٣٢٨/٢)، وابن كثير (٣٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٩/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٥) ذكره ابن عطية (٨٦/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٤٧٩/٦) برقم: (١٧٢٦١).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١) وفي قوله تعالى: ﴿فَأَنهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، مع قوله: ﴿فَأَمُّهُ هَاوِيَّةٌ﴾ [القارة: ٩] إشارَةً إِلَى أَنَّ النَّارَ تَحْتَ؛ كما أَنَّ الْجَنَّةَ فَوْقَ. انتهى.

والرَّيْبَةُ: الشُّكُّ، وقد يُسَمَّى رَيْبَةً فسادُ المعتقدِ، ومعنى الرَّيْبَةِ، في هذه الآية: أمرٌ يعمُّ الغيظَ والحَقَّ، ويعمُّ اعتقادَ صَوَابِ فعلهم ونحو هذا ممَّا يُؤدِّي كُلُّهُ إِلَى أَلَرْتِيَابِ فِي الإسلامِ، فمقصودُ الكلام: لَا يَزَالُ هَذَا الْبِنْيَانُ الَّذِي هُدْمَ لَهُمْ، يَبْقَى فِي قُلُوبِهِمْ حَزَازَةً وَأَثَرَ سُوءٍ، وبالشُّكِّ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ الرَّيْبَةَ هُنَا^(٢).

وبالجملة إن الريبة هنا تعم معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق. وقوله: «إِلَّا أَنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» - بضم التاء - يعني: بالموت، قاله ابن عباس وغيره^(٣) وفي مُضَحَفٍ^(٤) أَبِي: «حَتَّى الْمَمَاتِ»، وفيه: «حَتَّى تُقَطَّعَ».

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلُونَ وَيَقْلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا سَيَكُونُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَن يَصْرِفْ سِرَّهُ وَخَيْبَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَآتِيهِ مَالٌ كَثِيرٌ مِّنْ دُونِهِ سَيُعَذِّبُ اللَّهُ النَّاسَ فِي الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة، وهي بيعَةُ الْعَقْبَةِ الْكُبْرَى، وهي التي أَنَافَ فِيهَا رِجَالُ الْأَنْصَارِ عَلَى السَّبْعِينَ؛ وذلك أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ الْعَقْبَةِ، فَقَالُوا: اشْتَرِ لَكَ، وَلَرَبِّكَ، وَالمَتَكَلَّمُ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ^(٥) فاشترط نبيُّ اللَّهِ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٠/٦) برقم: (١٧٢٦٥)، وذكره ابن عطية (٨٦/٣)، والبيهقي في «تفسيره» (٢/٣٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٠/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٠/٦) برقم: (١٧٢٦٥)، وذكره ابن عطية (٨٦/٣)، وابن كثير (٣٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٠/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٦/٣)، و«البحر المحيط» (١٠٥/٥).

(٥) هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر... أبو محمد الأنصاري، الخزرجي.

كان ممن شهد العقبة، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج، وشهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، =

حمايته ممّا يحْمُونَ منه أنفسهم، وَأَشْطَرْتُ لِرَبِّهِ الْأَتْرَامَ الشَّرِيعَةَ، وَقَتَالَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ فِي الدَّفْعِ عَنِ الْحُوزَةِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا عَلَى ذَلِكَ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ فَقَالَ: الْجَنَّةُ، فَقَالُوا: نَعَمْ، رَيْحَ الْبَيْعِ، لَا تَقِيلُ وَلَا تُقَالُ، وفي بعض الروايات: «وَلَا نَسْتَقِيلُ» فنزلت الآية في ذلك.

وهكذا نقله ابن العربي في «أحكامه»^(١)، عن عبد الله بن رَوَاحَةَ، ثم ذكر من طريق الشعبي، عن أبي أمامة أسعد بن زُرارة نحو كلام ابن رَوَاحَةَ.

قال ابن العربي^(٢): وهذا وإن كان سنده مقطوعاً، فإن معناه ثابتٌ مِنْ طرق. انتهى.

ثم الآية بَعْدَ ذلك عامة في كُلِّ مَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أمة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة، قال بعضُ العلماء: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِي عُنُقِهِ هذه الْبَيْعَةُ، وَفِي يَدَيْهِ أَوْ لَمِ يَفِ، وفي الحديث: «إِنَّ فَوْقَ كُلِّ بِرٍّ بِرٌّ حَتَّى يَنْزِلَ الْعَبْدُ دَمَهُ، فَإِذَا فَعَلَ، فَلَا بِرٌّ فَوْقَ ذَلِكَ». وأسد الطبري عن كثير من أهل العلم؛ أنهم قالوا: ثَامَنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هذه الآية عِبَادَهُ، فَأَعْلَى لَهُمْ؛ وقاله ابن عباس وغيره^(٣)، وهذا تأويل الجمهور.

وقال ابن عُيَيْنَةَ: معنى الآية: أَشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَلَّا يُعْمِلُوهَا إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، وَأَمْوَالَهُمْ أَلَّا يُفَقُّوهَا إِلَّا فِي سَبِيلِهِ، فالآية على هذا: أَعْمُ مِنَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وقوله: «يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» على تأويل ابن عُيَيْنَةَ: مقطوعٌ، ومستأنفٌ، وأما على تأويل الجمهور مِنْ أَنَّ الشراء والبيع إنما هو مع المجاهدين، فهو في موضع الحال.

وقوله سبحانه: «وَعِدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»: قال المفسرون: ب ٢٣٢ يظهر من قوله: «فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» أَنَّ كُلَّ أمة أَمِرتُ بِالْجِهَادِ، وَوَعِدَتْ عَلَيْهِ.

قال * ع^(٤) *: ويجتملُ أَنَّ ميعاد أمة نبينا محمد ﷺ، تقدّم ذكره في هذه الكُتُبِ، واللّه أعلم.

= والحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا الفتح وما بعده، فإنه كان قد قتل قبله، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة.

ينظر ترجمته في: «أسد الغابة» (٢٣٤/٣)، «الإصابة» (٦٦/٤)، «النفات» (٢٢١/٣)، «تجريد أسماء الصحابة» (٣١٠/١)، «الاستبصار» (٥٣، ٥٦)، «الاستيعاب» (٢٩٨/٣)، «بقي بن مخلد» (٨٨٥)، «تقريب التهذيب» (٤١٥/١)، «تهذيب التهذيب» (٢١٢/٥)، «تهذيب الكمال» (٦٨١/٢).

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٨/٢).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠١٩/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٢/٦) برقم: (١٧٢٨١) نحوه، وذكره ابن عطية (٨٧/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٧/٣).

قال * ص * : وقوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾: ليس للطلب، بل بمعنى: أُنَبِّشُوا؛ كَأَسْتَوْقَدَ، قال أبو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ في كتابه المسمَّى بـ «بَهْجَةِ الْمَجَالِسِ»: وروى عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلٍ ثَوَاباً، فَهُوَ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَاباً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»^(١). وعن ابن عباس مثله. انتهى. وباقي الآية يَبَيِّنُ.

قال الفَخْر: وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ التَّأْكِيدَاتِ:

فأولها: قوله سبحانه: ﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، فكون المشتري هو الله المقدس عن الكذب والحيلة مِنْ أَذَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى تَأْكِيدِ هَذَا الْعَهْدِ.

والثاني: أنه عبر عن إِيصَالِ هَذَا الثَّوَابِ بِالْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ، وَذَلِكَ حَقٌّ مُؤَكَّدٌ.

وثالثها: قوله: ﴿وَعَدَا﴾، ووعد الله حقاً.

ورابعها: قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾، وكلمة «على» للوجوب.

وخامسها: قوله: ﴿حَقًّا﴾، وهو تأكيد للتحقيق.

وسادسها: قوله: ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، وذلك يَجْرِي مَجْرَى إِشْهَادِ جَمِيعِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى هَذِهِ الْمُبَايَعَةِ.

وسابعها: قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، وهو غَايَةُ التَّأْكِيدِ.

وثامنها: قوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾، وهو أَيْضاً مَبَالِغَةٌ فِي التَّأْكِيدِ.

وتاسعها: قوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ﴾.

وعاشرها: قوله: ﴿الْعَظِيمُ﴾.

فثبت اشْتِمَالُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الْعَشْرَةِ فِي التَّأْكِيدِ وَالتَّقْرِيرِ وَالتَّحْقِيقِ. انتهى.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هَذِهِ الْأَوْصَافُ هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ اشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَمَعْنَى الْآيَةِ، عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ وَالشُّرَعِ: أَنَّهَا أَوْصَافُ الْكَمَلَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ذَكَرَهَا سُبْحَانَهُ، لِيَسْتَبَيِّنَ إِلَيْهَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ؛ حَتَّى يَكُونُوا فِي أَعْلَى رَتَبَةٍ، وَالْآيَةُ الْأُولَى مُسْتَقْلَلَةٌ

(١) تقدم تخريجه من حديث عبادة بن الصامت.

بنفسها، يقع تَحْتَ تلك المبايعة كُلُّ مَوْحِدٍ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العليا، وإنَّ لم يَتَّصَفْ بهذه الصفات التي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها، وقَالَتْ فرقةٌ: بل هذه الصفات جاءت على جهة الشَّرْطِ، والآيتان مرتبطتان، فلا يَدْخُلُ في المبايعة إلا المؤمنون الذين هُم على هذه الأوصاف، وهذا تحريجٌ وتضييقٌ، والأول أصوبُ، والله أعلم.

والشهادة ماحيةٌ لكلِّ ذنبٍ إلا لمظالمِ العبادِ، وقد روي أن الله عزَّ وجلَّ يحمل على الشهيدِ مَظَالِمَ العبادِ، ويجازيهِم عنه، خَتَمَ اللَّهُ لَنَا بالحسنى.

و﴿السَّائِحُونَ﴾: معناه: الصائمون، وروي عن عائشة، أنها قالت: سَيَاحَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصَّيَّامِ^(١)؛ أسنده الطبري^(٢)، وروي أنه من كلامِ النبي ﷺ^(٣).

قَالَ الْفَخْرُ: ولما كان أصلُ السياحة الاستمرارَ على الذَّهابِ في الأرض، سُمِّي الصائم سائحاً؛ لاستمراره على فِعْلِ الطاعة وتركِ المنهيِّ عنه مِنَ المفطرات.

قال الْفَخْرُ^(٤): عندي فيه وجهُ آخر، وهو أن الإنسان إذا أَمْتَنَعَ مِنَ الأكلِ والشُّربِ والوَقَاقِ، وسَدَّ عَلَى نفسه بَابَ الشهواتِ، أُنْفَتَحَتْ له أبوابُ الحكمة وتَجَلَّتْ له أنوار عالمِ الجلالِ؛ ولذلك قال ﷺ: «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(٥) فَيَصِيرُ مِنَ السَّائِحِينَ فِي عَالَمِ جلالِ اللَّهِ المُنْتَقلينِ مِنْ مقامٍ إلى مقامٍ، ومن

(١) أخرجه الطبري (٤٨٦/٦) برقم: (١٧٣٢٧)، وذكره ابن عطية (٨٩/٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٤/٦) برقم: (١٧٣٠٠ - ١٧٣٠١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٤/٦) برقم: (١٧٣٠٠) عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين؟ فقال: هم الصائمون. وأخرجه برقم: (١٧٣٠١) عن أبي هارون قال: قال لي رسول الله ﷺ: السائحون هم: الصائمون.

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٦١/١٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٨٩/٥) من طريق محمد بن إسماعيل، ثنا أبو خالد يزيد الواسطي أنبأنا الحجاج عن مكحول عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً.

وقال أبو نعيم: كذا رواه يزيد الواسطي متصلاً، ورواه أبو معاوية عن الحجاج فأرسله.

ومن طريق أبي نعيم أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/٣).

وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ففيه يزيد الواسطي وهو يزيد بن عبد الرحمن.

قال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، خالف الثقات في الروايات لا يجوز الاحتجاج به، وحجاج مجروح، ومحمد بن إسماعيل مجهول، ولا يصح لقاء مكحول لأبي أيوب، وقد ذكر

محمد بن سعد أن العلماء قدحوا في رواية مكحول وقالوا: هو ضعيف في الحديث اهـ.

والحديث قد روي عن مكحول مرسلاً كما أشار إلى ذلك الحافظ أبو نعيم.

درجة إلى درجة». انتهى.

قال * ع^(١) : وقال بعض الناس، وهو في كتاب النقاش : «السَّائِحُونَ» : هم الجائلون بأفكارهم في قُدرة الله ومَلَكُوتِه وهذا قولٌ حَسَنٌ، وهو من أفضل العبادات، و«الراكون الساجدون» : هم المصلُّون الصَّلوات؛ كذا قال أهل العلم، ولكن لا يختلف في أنَّ من يكثر التَّوافل هو أَدْخَلَ في الأسم، وأَغْرَق في الاتصاف.

وقوله : «والحافظون لحدود الله» لفظٌ عامٌ تحته / التَّزَامُ الشريعة. ١٢٣٣

* ت : قال البخاريُّ : قال ابن عباس : الحدود : الطاعة^(٢).

قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»، وقوله : «والحافظون لحدود الله» خاتمةُ البيان، وعمومُ الاشتمال لكلِّ أمر ونهي. انتهى.

والمرسل أخرجه هُثَّاد بن السري في «الزهد» برقم : (٦٧٨)، وابن أبي شيبة (٢٣١/١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٨٩/٥) من طريق الحجاج عن مكحول مرسلًا.

وسنده ضعيف لضعف الحجاج مع إرساله. وللحديث شواهد من حديث أبي موسى وابن عباس. حديث أبي موسى : أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٩٤٥/٥)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/٣) من طريق عبد الملك بن مهران الرفاعي، حدثنا معن بن عبد الرحمن، عن الحسن، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «من زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها لله أخرج الله على لسانه ينابيع الحكمة من قلبه». وقال ابن عدي : هو منكر، وعبد الملك مجهول وأقره ابن الجوزي في «الموضوعات».

حديث ابن عباس : أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٤٤/٣ - ١٤٥) من طريق سوار بن مصعب، عن ثابت، عن مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ : «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه».

وقال ابن الجوزي : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال أحمد ويحيى والنسائي : سوار بن مصعب متروك الحديث، وقال يحيى : ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وقال أيضاً : وقد عمل جماعة من المتصوفة، والمتزهدين على هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوماً، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه، ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين فيهدي ويتخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحاً فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن فلله دُرُ العلم اهـ.

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٨٩/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥/٦) كتاب «الجهاد والسير» باب : فضل الجهاد والسير عن ابن عباس موقوفاً. وقال الحافظ في «الفتح» (٦/٦) : وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه، قلت : وعلي بن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس، وفي ذلك رد على من يجزم أن تعليقات البخاري المجزومة كلها صحيحة.

(٣) ينظر : «أحكام القرآن» (١٠٢٠/٢).

وقوله سبحانه: ﴿ويبشر المؤمنين﴾: قيل: هو لفظ عام، أمر ﷺ أن يبشر أمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الألفاظ خاصة لمن لم يغز، أي: لما تقدم في الآية وغد المجاهدين وفضلهم، أمر ﷺ، أن يبشر سائر المؤمنين ممن لم يغز بأن الإيمان مخلص من النار، والحمد لله رب العالمين.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّتَ لَهُمْ أَنَّهم أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٢) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَآوَاهُ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ يَكُلِّ شَيْئًا عَلَيْهِ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...﴾ الآية: جمهور المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل عليه حين احتضر، فوعظه، وقال: «أني عم؛ قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، وكان بالحضرة أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقالا له: يا أبا طالب؛ أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال أبو طالب: يا محمد، والله، لولا أنني أخاف أن يُعَيَّرَ بها ولدي من بعدي، لأقرزت بها عينك، ثم قال: هو على ملة عبد المطلب، ومات على ذلك؛ إذ لم يسمع منه ﷺ ما قال العباس، فنزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فقال رسول الله ﷺ: «والله، لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عَنْكَ»، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية^(١)، فترك نبي الله ﷺ الاستغفار لأبي طالب، وروي أن المؤمنين لما رأوا نبي الله يستغفر لأبي طالب، جعلوا يستغفرون لموتاهم، فلذلك دخلوا في النهي، والآية على هذا ناسخة

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣/٣) كتاب «الجنائز» باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠)، وفي (٢٣٢/٧) كتاب «مناقب الأنصار» باب: قصة أبي طالب، حديث (٣٨٨٤)، وفي (٨/١٩٢) كتاب «التفسير» باب: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾، حديث (٤٦٧٥) وفي (٨/٣٦٥) كتاب «التفسير» باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ولكن الله يهدي من يشاء، حديث (٤٧٧٢) وفي (١١/٥٧٥) كتاب «الآيمان والذنوب»، حديث (٦٦٨١)، ومسلم (١/٢٤٤ - ٢٤٥). شرح النووي، كتاب «الآيمان» باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، حديث (٢٤/٣٩)، والنسائي (٤/٩٠ - ٩١) كتاب «الجنائز» باب: النهي عن الاستغفار للمشركين، حديث (٢٠٣٥)، وأحمد (٥/٤٣٣)، والطبري (٦/٤٨٨) رقم: (١٧٣٣٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٣٤٢ - ٣٤٣) كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبيه به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٥) وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وابن مردويه.

لفعله ﷺ؛ إذ أفعاله في حُكْم الشرع المستقرّ، وقال ابن عباس وقتادة^(١) وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نَسْتَغْفِرُ لموتانا؛ كما أَسْتَغْفِرُ إبراهيم عليه السلام، فنزلت الآية في ذلك، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَغْفِرُ إبراهيم لأبيه...﴾ الآية: المعنى: لا حجة أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم عليه السلام، فإن ذلك لم يكن إلا عن موعدة، واختلف في ذلك، فقيل: عن موعدة من إبراهيم، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مریم: ٤٧] وقيل: عن موعدة من أبيه له في أنه سيؤمن، فقوي طمعه، فحمله ذلك على الاستغفار له؛ حتى نُهي عنه، وموعدة من الوعد، وأما تبينه أنه عدو لله، قيل: ذلك بموت آزر على الكفر، وقيل: ذلك بأنه نُهي عنه، وهو حي، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إبراهيم لأواه حلیم﴾ ثناء من الله تعالى على إبراهيم، و«الأواه» معناه الخائف الذي يُكْثِرُ التَّأَوُّهَ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، والتَّأَوُّه: التوجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه بـ «أوه»؛ ومن هذا المعنى قول المُثَقَّب العَبْدِي: [الوافر]

إِذَا مَا قُمْتُ أَزْحُلُّهَا بِلَيْلٍ تَأَوُّهُ أَهْمَةُ الرَّجُلِ الْحَزِينِ^(٢)
ويروى: آهة.

وروي أن إبراهيم عليه السلام كان يُسْمَعُ وَجِيبُ قَلْبِهِ^(٣) من الخشية، كما تُسْمَعُ أجنحة الثُّسُور، وللمفسرين في «الأواه» عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته.

* ت * روى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا عبد الحميد بن بهرام، قال: حَدَّثَنَا شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْأَوَاهُ؟ قَالَ: «الْأَوَاهُ الْخَاشِعُ الدَّعَاءُ الْمُتَضَرِّعُ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ إبراهيم لأواه حلیم﴾»^(٤) انتهى.

و«حلیم» معناه: صابر، محتمل، عظيم العقل، والجلم: العقل. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ...﴾ الآية: معناه التأنيس للمؤمنين، وقيل: إن

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٦/٣)، وعزاه أيضاً لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩١/٣).

(٣) وجب القلب يَجِبُ: وَجِباً وَجُوباً، وَوَجِبَاناً: خفق واضطرب.

ينظر: «لسان العرب» (٤٧٦٧).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٨/٦) برقم: (١٧٤٣١) من حديث عبد الله بن شداد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٩/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

بعضهم خَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ، فنزلت الآيةُ مُؤنِسةً، أي: ما كان اللهُ بَعْدَ / أَنْ هَدَى إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَنْقَذَ مِنَ النَّارِ لِيُخَيِّطَ ذَلِكَ، وَيُضِلَّ أَهْلَهُ؛ لِمَوَاقِعَتِهِمْ ذَنْبًا لَمْ يَتَقَدَّمْ مِنَ اللَّهِ عَنْهُ نَهْيٌ، فَأَمَّا إِذَا بَيَّنَّ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ مِنَ الْأُمُورِ، وَيَتَجَنَّبُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَحِينَئِذٍ مَنْ وَاقِعَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ النَّهْيِ، اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَفَّأَ يَدَ الَّذِينَ يُرِيدُ قُلُوبُ فِرَاقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُدُّوا رَجِيعٌ ۖ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝﴾

وقوله سبحانه: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار...﴾ الآية: التوبة من الله تعالى هو رُجُوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رُجُوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته سبحانه في هذه الآية على نبيه عليه السلام، وأما توبته على المهاجرين والأنصار، فمعرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي نادى بزيغ، فَرُجُوعٌ من حالة محطوطة إلى حال غفران ورضا؛ وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: في هذه الآية ذكر الله سبحانه توبة من لم يذنب لئلا يستوحش من أذنب؛ لأنه ذكر النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب، انتهى من «لطائف الجن».

و﴿ساعة العسرة﴾ يريد: وقت العسرة، والعسرة الشدة، وضيق الحال، والعُدْم، وهذا هو جيش العسرة الذي قال فيه ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، فَلَهُ الْجَنَّةُ»^(١)، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف جمل، وألف دينار، وجاء أيضاً رجل من الأنصار بسبعمائة وِسْقٍ مِنْ تَمَرٍ، وهذه غزوة تبوك.

* ت * وعن ابن عباس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَتَزَلْنَا مِنْزَلاً أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ، حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْخَرُ بِعَيْرِهِ، فَيَغْصِرُ قَرْعَهُ^(٢) فَيَشْرِبُهُ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧/٥) كتاب «الوصايا» باب: إذا وقف أرضاً أو بئراً، حديث (٢٧٧٨) عن عثمان بن عفان به، وأخرجه معلقاً (٦٥/٧) كتاب «فضائل الصحابة» باب: مناقب عثمان بن عفان.

(٢) القَرْعُ: السَّرْجِينُ ما دام في الكَرْشِ. ينظر: «اللسان العرب» ص: (٣٣٦٩).

عَلَى كَبْدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدَّعَاءِ خَيْرًا، فَأَذْعُ اللَّهَ، فَقَالَ: «أَتَجِبُ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَزِجْهُمَا حَتَّى مَالَتْ السَّمَاءُ، فَأَظْلَلَتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَّوْا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ، فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتْ الْعَسْكَرَ، رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ عَلَى الصَّحِيحِينَ»، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، يَعْنِي: مُسْلِمًا وَابْنُ الْبَخَارِيِّ^(١) انْتَهَى فِي «السَّلَاحِ»، وَوَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ إِلَى أَوَائِلِ بَلَدِ الْعَدُوِّ فَصَالِحُهُ أَهْلُ أَدْرَحَ وَأَيْلَةَ وَغَيْرَهُمَا عَلَى الْجِزْيَةِ وَنَحْوِهَا، وَأَنْصَرَفَ، وَالزَّيْغُ الْمَذْكُورُ هُوَ مَا هَمَّتْ بِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَنْصَرَفِ؛ لِمَا لَقُوا مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعُسْرَةِ. قَالَهُ الْحَسَنُ^(٢).

وقيل: زيغها إنما كان بظُنُونٍ لَهَا سَاءَتْ فِي مَعْنَى عَزَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى تِلْكَ الْغَزْوَةِ، لَمَّا رَأَتْهُ مِنْ شِدَّةِ الْحَالِ وَقُوَّةِ الْعَدُوِّ وَالْمَقْصُودِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ؛ أَنَّهُ تَابَ أَيْضًا عَلَى هَذَا الْفَرِيقِ، وَرَاجَعَ بِهِ، وَأَنْسَ بِإِعْلَامِهِ لِلْأُمَّةِ بِأَنَّهُ رَوْفٌ رَحِيمٌ، وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِفُوا هُمُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَهَلَالُ بْنُ أُمِيَّةِ الْوَاقِفِيُّ وَمُرَّارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ، وَقَدْ خَرَجَ حَدِيثُهُمْ بِكَمَالِهِ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٣)، وَهُوَ فِي السَّيْرِ؛ فَلِذَلِكَ اخْتَصَرْنَا سَوَقَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ تَقَدَّمَ فِيهِمْ: «وَأَخْرَاجُ مَزْجُونٌ لِأَمْرِ اللَّهِ» [التوبة: ١٠٦]، وَمَعْنَى «خُلِفُوا» أَخْرَوْا، وَتَرِكَ النَّظْرُ فِي أَمْرِهِمْ، قَالَ كَعْبٌ: وَلَيْسَ بِتَخْلُفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَهُوَ بَيِّنٌ مِنْ لَفْظِ الْآيَةِ.

وقوله: «وَضَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ»، «ظَنُوا»؛ هُنَا بِمَعْنَى: أَيْقَنُوا، قَالَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٠٢/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٤٤٣) وَابْنُ الْبَزَارِ (٣٥٤/٢ - ٣٥٥ - كَشَفَ)، وَالْحَاكِمُ (١٥٩/١)، وَابْنُ حَبَانَ (١٣٨٣)، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٢٣١/٥) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَقَالَ الْبَزَارُ: لَا نَعْلَمُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ عُمَرَ بِهَذَا اللَّفْظِ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَاقِفُهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَبَانَ. وَالحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/١٩٨) وَقَالَ: رَوَاهُ الْبَزَارُ وَالتَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» وَرِجَالُ الْبَزَارِ ثَقَاتٌ. ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٩٣/٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٧١٧/٧، ٧١٩) كِتَابُ «الْمَغَازِي» بَابُ: حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، حَدِيثُ (٤٤١٨)، وَمُسْلِمٌ (٢١٢٠/٤، ٢١٢٨) كِتَابُ «التَّوْبَةِ» بَابُ: حَدِيثِ تَوْبَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَصَاحِبِيهِ، حَدِيثُ (٥٣/٢٧٦٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٨١/٥ - ٢٨٢) كِتَابُ «التَّفْسِيرِ» بَابُ: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، حَدِيثُ (٣١٠٢)، وَابْنُ حَبَانَ (٣٣٧٠) وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٢٧٣/٥، ٢٧٩) مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ بِهِ مَطْوَلًا.

وقد أخرج جزءاً من هذا الحديث البخاري برقم: (٢٧٥٧، ٢٩٤٧، ٢٩٤٨، ٢٩٤٩، ٢٩٥٠، ٣٠٨٨، ٣٥٥٦، ٣٨٨٩، ٣٩٥١، ٤٦٧٣، ٤٦٧٦، ٤٦٧٧، ٤٦٧٨، ٦٢٥٥، ٦٦٩٠، ٧٢٢٥)، وأيضاً أبو داود (٣٣٢٠)، والنسائي (٥٣/٢ - ٥٤)، وابن ماجه (١٣٩٣)، وأحمد (٣٩٠/٦)، وابن أبي شيبة (٥٣٩/١٤) كلهم من طريق الزهري بهذا الإسناد مختصراً.

الشيخ ابن أبي جَمْرَةَ رحمه الله: قال بعضُ أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلةٌ ما من أي نوع كانت، فألهمتُ فيها اللجأ، فلا أبالي بها، / واللجأ على وجوه؛ منها: الاشتغال بالذكر ١٢٣٤ والتعبد وتفريض الأمر له عز وجل، لقوله تعالى على لسان نبيه: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(١)، ومنها: الصدقة، ومنها: الدعاء، فكيف بالمجموع. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ لما كان هذا القول في تعديد النعم، بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل؛ ليكون ذلك منها على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان هذا القول في تعديد ذنب، لكان لأبتداء بالجهة التي هي على المذنب، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ليكون ذلك أشدّ تقريراً للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومُعْجَزِ آتِاقه.

وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خَلَفُوا في الكُتُب المذكورة، فأنظره، وإنما عَظُمَ ذنبهم، وأَسْتَحَقُّوا عليه ذلك، لأن الشرع يطلبهم من الجِدِّ فيه بحسب منازلهم منه، وتقدّمهم فيه؛ إذ هم أَسْوَةٌ وَحُجَّةٌ للمنافقين، والطاعنين، إذ كان كعَبٍّ من أهل العقبة، وصاحبه من أهل بدر، وفي هذا ما يقتضي أَنَّ الرجلَ العالِمَ والمُفْتَدَى به أَقلُّ عذراً في السقوط من سواه، وكَتَبَ الأوزاعي رحمه الله إلى أبي جَعْفَر المنصور في آخر رسالة: وَأَعْلَمُ أَنَّ قَرَابَتَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَنْ تَزِيدَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْكَ إِلَّا عَظَمًا، وَلَا طَاعَتَهُ إِلَّا وَجُوبًا، وَلَا النَّاسَ فِيمَا خَالَفَ ذَلِكَ مِنْكَ إِلَّا إِنكَارًا، والسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَفِيضُ الْكَفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يَنْفَعُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصَّادِقِينَ حَسَنٌ بعد قِصَّةِ الثلاثة حين نَفَعَهُمُ الصَّدَقُ، وَذَهَبَ بِهِمْ عَنْ مَنَازِلِ الْمَنَافِقِينَ،

وكان ابن مسعود يتأول الآية في صدق الحديث^(١)، وإليه نحا كعب بن مالك.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ الآية؛ هذه الآية معاتبَةٌ للمؤمنين من أهل يَثْرَبَ وقبائل العرب المُجاورة لها، على التخلّف عن النبي ﷺ في غزوة، وقُوَّةُ الكلام تعطي الأمر بِصُخْبِهِ أَيْنَ ما توجّه غازياً وبَذَلِ النفوس دونه، و«المُخَمَّصَة» مَفْعَلَةٌ من خُمِصَ البَطْن، وهو ضُمُوره وأستعير ذلك لحالة الجوع، إذ الخُمُوص ملازمٌ له، ومن ذلك قول الأعشى: [الطويل]

تَبِيتُون فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بَطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَزَى^(٢) يَبْشَنَ خَمَائِصًا^(٣)

وقوله: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾: لفظ عامٌ لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكُفْرَة - من أخذ مال، أو إيراد هوان - وكثيره و﴿نِيْلًا﴾: مصدر نَال يَنَال؛ وفي الحديث: «مَا أَزْدَادَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بُغْدًا إِلَّا أَزْدَادُوا مِنَ اللَّهِ قُرْبًا».

* ت * وروى أبو داود في «سننه»، عن أبي مالك الأشعري، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ فَصَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَاتَ، أَوْ قُتِلَ، فَهُوَ شَهِيدٌ، أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَةٌ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَيِّ حَتَفٍ شَاءَ اللَّهُ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ، وَإِنْ لَهُ الْجَنَّةُ»، انتهى^(٤).

قال ابن العربي^(٥) في «أحكامه»: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾: يعني إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ثَوَابُهُ، وكذلك قال في المجاهد: «إِنَّ أَزْوَاثَ دَوَابِّهِ وَأَبْوَالَهَا حَسَنَاتٌ لَهُ» وَكَذَلِكَ أُعْطِيَ سَبْحَانَهُ لِأَهْلِ الْعُذْرِ مِنَ الْأَجْرِ مَا أُعْطِيَ لِلْقَوِيِّ الْعَامِلِ بِفَضْلِهِ،

(١) أخرجه الطبري (٥٠٩/٦ - ٥١٠) برقم: (١٧٤٧٠ - ١٧٤٧١)، وذكره ابن عطية (٩٥/٣)، والبغوي (٣٣٧/٢) نحوه، وابن كثير (٣٩٩/٢) نحوه.

(٢) جمع غَزَى وَغَزَانَةً، وَالْعَرْتُ: أيسر الجوع. ينظر: «لسان العرب» (٣٢٣١).

(٣) البيت للأعشى ينظر: «ديوانه» (١٤٩)، «الدر المصون» (٨٧/٢).

(٤) أخرجه أبو داود (١٢/٢) كتاب «الجهاد» باب: فيمن مات غازياً، حديث (٢٤٩٩)، والحاكم (٧٨/٢)، والبيهقي (١٦٦/٩) كتاب «السير» باب: فضل من مات في سبيل الله، والطبراني في «الكبير» (٣٢٠/٣) رقم: (٣٤١٨) كلهم من طريق ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: ابن ثوبان: لم يحتج به مسلم وليس بذلك، وعبد الرحمن بن غنم لم يدركه مكحول فيما أظن.

(٥) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٢٩/٢).

ففي الصحيح، بأن النبي ﷺ قال في هذه الغزوة بعينها: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ قَوْمًا مَا سَلَكَتُمْ وَادِيًا وَلَا قَطَعْتُمْ شَيْعًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»^(١) انتهى.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبًا نَّفَرَتْ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْفَحُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢)

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبًا نَّفَرَتْ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْفَحُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الآية: قالت فرقة: إن المؤمنين الذين / كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشَّرع، لما سمعوا قول الله عزَّ ٢٣٤ ب وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، أهمهم ذلك، فنفروا إلى النبي ﷺ؛ خشية أن يكونوا عُصاة في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفريهم ذلك.

وقالت فرقة: سَبَبُ هذه الآية أن المنافقين، لما نزلت الآيات في المتخلفين، قالوا: هَلْكَ أَهْلُ الْبَوَادِي، فنزلت هذه الآية مقيمة لُعْذِرِ أَهْلِ الْبَوَادِي.

قال * ع^(٢) *: فيجيء قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: عموم في اللفظ، والمراد به في المعنى الجمهور والأكثر، وتجيء هذه الآية مبينة لذلك.

وقالت فرقة: هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة الثَّفير والقتال، وقال ابن عباس ما معناه: أَنَّ هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا^(٣) والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسول الله ﷺ في الغزو، وَقَالَتْ فرقة: يشبه أن يكون التفقه في الغزو وفي

(١) أخرجه مسلم (١٥١٨/٣) كتاب «الإمارة» باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر، حديث (١٩١١/١٥٩)، وابن ماجه (٩٢٣/٢) كتاب «الجهاد»، باب: من حبسه العذر عن الجهاد حديث (٢٧٦٥)، وأحمد (٣٠٠/٣) وأبو يعلى (١٩٣/٤) رقم (٢٢٩١) كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر مرفوعاً.

وله شاهد من حديث أنس بن مالك. أخرجه البخاري (٧٣٢/٧) كتاب «المغازي» باب: نزول النبي ﷺ الحجر، حديث (٤٤٢٣)، ومسلم (١٥١٨/٣) كتاب «الإمارة» باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض، حديث (١٩١١/٥٩)، وأحمد (١٠٣/٣)، وابن ماجه (٩٢٣/٢)، كتاب «الجهاد»، باب: من حبسه العذر عن الجهاد حديث (٢٧٦٤)، وأبو يعلى (٤٥٠/٦ - ٤٥١) رقم: (٣٨٣٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٥٢٤/٥) - بتحقيقنا.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥١٤/٦) برقم: (١٧٤٨٥) نحوه، وذكره ابن عطية (٩٦/٣ - ٩٧)، والبيهقي في «تفسيره» (٣٣٩/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٢١/٣) نحوه، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «المدخل».

السرايا، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ نُصْرَةِ اللَّهِ لِدِينِهِ، وإظهارِهِ الْعَدَدَ الْقَلِيلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَعَلِمَهُمْ بِذَلِكَ صَحَّةَ دِينِ الْإِسْلَامِ وَمَكَاتِيهِ.

* ع^(١) : والجمهور على أن التفقه إنما هو بمشاهدة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصُحْبَتِهِ، وقيل غير هذا.

* ت * وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفِزْتُمْ فَاغْزَوْا»^(٢)، وَقَدْ اسْتَنْفِزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَعْلَنَ بِهَا حَسَبَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٧/٣).

(٢) ورد ذلك من حديث ابن عباس، وعائشة، ومجاشع بن مسعود، وصفوان بن أمية، ويعلى بن أمية التيمي، وقول ابن عمر، وقول عمر، وحديث أبي سعيد الخدري.
فأما حديث ابن عباس: فأخرجه البخاري (٤٥/٦) في «الجهاد» باب: وجوب النفي (٢٨٢٥)، (٦/٢١٩) باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٧)، ومسلم (١٤٨٧/٣) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد، والخير، وبيان معنى: لا هجرة بعد الفتح (١٣٥٣/٨٥)، وأبو داود (٦/٢) في «الجهاد» باب: في الهجرة، هل انقطعت؟ (٢٤٨٠)، والنسائي (١٤٦/٧) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، والترمذي (١٥٩٠)، وأحمد (١/٢٦٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣٤٤)، وعبد الرزاق (٥/٣٠٩) برقم: (٩٧١٣)، والدارمي (٢٣٩/٢) في «السير» باب: لا هجرة بعد الفتح، وابن حبان (٧/٤٨٤٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٠/١١ - ٣١) برقم: (١٠٩٤٤)، وابن الجارود في «المتقى» (١٠٣٠)، والبيهقي (١٩٥/٥)، (١٦/٩)، وفي «دلائل النبوة» (١٠٨/٥)، والبخاري في «شرح السنة» بتحقيقنا (١٧٩/٤) برقم: (١٩٩٦)، و (٥٢٠/٥) برقم: (٢٦٣٠) من طريق منصور، عن مجاهد، عن طاووس، عن ابن عباس مرفوعاً به.

وتابعه إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، أخرجه الطبراني (١٨/١١) برقم: (١٠٨٩٨).

وأخرجه الطبراني (٤١٣/١٠) برقم: (١٠٨٤٤) عن شيبان، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأما حديث عائشة: فأخرجه البخاري (٢٢٠/٦) في «الجهاد» باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٨٠)، (٧/٢٦٧) في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٠)، وفي (٦٢٠/٧) في «الغازي» باب: (٥٣) برقم: (٤٣١٢)، ومسلم (١٤٨٨/٣) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد، والخير... (٨٦ - ١٨٦٤)، وأبو يعلى (٤٩٥٢)، واللفظ لمسلم، ولأبي يعلى من طريق عطاء، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة؟ فقال: «لا هجرة بعد الفتح...» الحديث، وفي لفظ البخاري عن عطاء قال: زرت عائشة مع عبيد بن عمير فسألتهما عن الهجرة؟ فقالت: «لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية». وهكذا أخرجه البيهقي (١٧/٩).
وأما حديث مجاشع بن مسعود فأخرجه البخاري (١٣٧/٦) في «الجهاد» باب: البيعة في الحرب ألا

ما هو مصرّح به في حديث كُفِّ بن مالك في «الصَّحاح»، فكان العَتَبُ متوجّهاً على مَنْ

يفروا.. (٢٩٦٢، ٢٩٦٣)، و (٢١٩/٦) باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٨ - ٣٠٧٩)، و (٦١٩/٧) في «المغازي» باب: (٥٣) (٤٣٠٥ - ٤٣٠٨)، ومسلم (١٤٨٧/٣) في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، والجهاد والخير، (٨٣ - ١٨٦٣/٨٤)، وأحمد (٤٦٨/٣ - ٤٦٩)، و (٧١/٥)، والحاكم (٣١٦/٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٥٢/٣)، والبيهقي (١٦/٩)، وفي «الدلائل» (١٠٩/٥) من طريق أبي عثمان النهدي: حدثني مجاشع قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقلت: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام، والإيمان، والجهاد»، فلقيت معبداً بعد - وكان أكبرهما - فسألته، فقال: صدق مجاشع..

وأما حديث صفوان بن أمية: فأخرجه النسائي (١٤٥/٧) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٤٠١/٣) عن وهب بن خالد، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن صفوان بن أمية قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يقولون إن الجنة لا يدخلها إلا مهاجر، قال: «لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، فإذا استنفرتم فانفروا».

وأخرجه أحمد (٤٠١/٣)، (٤٦٥/٦) عن الزهري، عن صفوان بن عبد الله بن صفوان، عن أبيه أن صفوان بن أمية بن خلف قيل له: هلك من لم يهاجر، قال: فقلت: لا أصل إلى أهلي حتى آتي رسول الله ﷺ، فركبت راحلتي، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله زعموا أنه هلك من لم يهاجر، قال: «كلا أبا وهب، فارجع إلى أباطح مكة».

وأما حديث يعلى بن أمية: فأخرجه النسائي (١٤١/٧) في «البيعة» باب: البيعة على الجهاد، (١٤٥/٧) في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٣٢٣/٤ - ٣٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٥٧/٢٢) رقم: (٦٦٤ - ٦٦٥)، والبيهقي (١٦/٩) من طريق ابن شهاب، عن عمرو بن عبد الرحمن بن أمية أن أباه أخبره أن يعلى قال: جئت إلى رسول الله ﷺ بأبي يوم الفتح، فقلت: يا رسول الله: بايع أبي على الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «أبايعه على الجهاد، وقد انقطعت الهجرة».

وأما حديث أبي سعيد الخدري: فأخرجه أحمد (٢٢/٣) (١٨٧/٥)، والطيلوسي (٦٠١، ٩٦٧، ٢٢٠٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٠٩/٥) عن أبي البخري الطائي، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ...﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها وقال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز»، وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»، فحدثت به مروان بن الحكم وكان على المدينة، فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت، وهما قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه من عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فسكتا، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رأيا ذلك، قالوا: صدق.

أما قول ابن عمر: فأخرجه البخاري (٢٦٧/٧) في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٨٩٩)، و (٦٢٠/٧) في «المغازي» باب: (٥٣)، و (٤٣٠٩، ٤٣١١) من طريق عطاء، عن ابن عمر كان يقول: لا هجرة بعد الفتح.

وفي لفظ آخر: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: إني أريد أن أهاجر إلى الشام، قال: لا هجرة، ولكن جهاد، فانطلق فاعرض نفسك، فإن وجدت شيئاً وإلا رجعت.

وأما قول عمر: فأخرجه النسائي (١٤٦/٧) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأبو يعلى =

تأخر عنه بعد العلم، فيظهر والله أعلم، أن الآية الأولى باقي حكمها؛ كما قال ابن عباس، وتكون الثانية ليست في معنى الغزو، بل في شأن التفقه في الدين على الإطلاق^(١) وهذا هو الذي يفهم من استدلالهم بالآية على فضل العلم، وقد قالت فرقة: إن هذه الآية ليست في معنى الغزو، وإنما سببها قبائل من العرب أصابتهم مجاعة، فنفzوا إلى المدينة لمعنى المعاش، فكادوا يفسدونها، وكان أكثرهم غير صحيح الإيمان، وإنما أضرعه الجوع، فنزلت الآية في ذلك، والإنذار في الآية عام للكفر والمعاصي، والحذر منها أيضاً؛ كذلك قال ابن المبارك في «رقائقه» أخبرنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، قال: إذا أراد الله تبارك وتعالى بعبد خيراً، جعل فيه ثلاث خصال: فقها في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصره بعيوبه^(٢). انتهى.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَلِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣) وَإِذَا مَا أَنُزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَيْكُمُ زَادَتْهُ هَٰذِهِ ءِيمَنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ ءِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَأْوَاهُمُ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنُزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال الكفار كافة، فهي من التدرج الذي كان في أول الإسلام. قال ع^(٣) * : وهذا ضعيف فإن هذه السورة من آخر ما نزل.

وقالت فرقة: معنى الآية أن الله تبارك وتعالى أمر فيها المؤمنين أن يقاتل كل فريق منهم الجنس الذي يليه من الكفرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: أي: خشونة وبأساً، ثم وعد سبحانه في آخر الآية وحض على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا، وبها يلقي العدو، وقد قال

في «مسنده» (١٨٦)، عن شعبة، عن يحيى بن هاني، عن نعيم بن دجاجة قال: سمعت عمر يقول: لا هجرة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه الطبري (٥١٤/٦) برقم: (١٧٤٨٨)، وابن كثير (٤٠١/٢)، والبيهقي في «تفسيره» (٥٢٢/٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٩٥ - ٩٦) رقم: (٢٨٢) ومن طريقه أبي نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٣/٣).

(٣) ينظر: «المحور» (٩٧/٣).

بعض الصحابة: إنما تُقَاتِلُونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِكُمْ، وَوَعَدَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ، فَلَنْ يُغْلَبَ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا...﴾ الآية: هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، وقولهم: ﴿أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم، أو لقوم من قراباتهم؛ على جهة الاستخفاف والتحقير لشأن السورة، ثم ابتداء عز وجل الرد عليهم بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا﴾ وذلك أنه إذا نزلت سورة، حَدَّثَ للمؤمنين بها تصديق خاص، لم يكن قبل، فتصديقهم بما تضمنته السورة من أخبار وأمر ونهي أمر زائد على الذي كان عندهم قبل، وهذا وجه من زيادة الإيمان.

ووجه آخر؛ أن السورة ربما تضمنت دليلاً أو تنبيهاً على دليل، فيكون المؤمن قد عَرَفَ الله بعدة أدلة، فإذا نزلت السورة، زادت في أدلته، وَوَجْهٌ آخَرُ مِنْ وَجْهِ الزيادة أن الإنسان ربما عرضه شك يسير، أو لاحث له شبهة مشعبة، فإذا نزلت السورة، ارتفعت تلك الشبهة، وَقَوِيَ إِيْمَانُهُ وَارْتَقَى اعتقاده عن معارضة الشبهات، و﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المنافقون، و﴿الرجس﴾؛ في اللغة: بجيء بمعنى القدر، وبجيء بمعنى العذاب، وحال هؤلاء المنافقين هي قَدَرٌ، وهي عذاب عاجل، كقيل بآجل، وإذا تجدد كفرهم بسورة، فقد زاد كفرهم، فذلك زيادة رجس إلى رجسهم.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين، وقرأ حمزة: «أَوَلَا تَرَوْنَ» - بالتاء من فوق -؛ على معنى: أَوَلَا تَرَوْنَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ؟ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، أي: يُخْتَبَرُونَ، وقرأ مجاهد: «مَرَضَةٌ أَوْ مَرَضَتَيْنِ»، والذي يظهر مما قبل الآية، ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله أسرارهم وإفشائه عقائدهم؛ إذ يعلمون أن ذلك من عند الله، وبهذا تقوم الحجة عليهم، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ﴾: المعنى: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أسرار المنافقين، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾: أي: هل معكم مَنْ يَنْتَهِلُ عَنْكُمْ، هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم، ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عن طريق الاهتداء؛ وذلك أنهم وقت كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم، يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر، فلو أريد بهم خير، لكان ذلك الوقت مظنةً لاهتداء، وقد تقدم بيان قوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

وقوله عز وجل: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم...﴾ الآية مخاطبة للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم؛ إذ جاءهم بلسانهم، وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة، وشرفوا به غابر الدهر.

وقوله: ﴿من أنفسكم﴾: يقتضي مدحاً لنسبه ﷺ، وأنه من صميم العرب، وشرفها، قرأ عبد الله بن قُسيط المكي: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» - بفتح الفاء -؛ من الثَّقَاسَة، ورويت عن النبي ﷺ، وقوله: ﴿ما عنتم﴾: معناه عنتكم؛ ف «ما» مصدرية، والعنت: المشقة، وهي هنا لفظة عامة، أي: عزيز عليه ما شق عليكم: من قتل وإسار وأمتحان؛ بحسب الحق وأعتقادكم أيضاً معه، ﴿حريصٌ عليكم﴾ أي: على إيمانكم وهداكم.

وقوله: ﴿بالمؤمنين رءوف﴾ أي: مبالغٌ في الشفقة عليهم، قال أبو عبيدة: الرأفة أرق الرحمة.

ثم خاطب سبحانه نبيه بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: أعرضوا، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: هذه الآية من آخر ما نزل، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تفسير سورة يونس

/ بعضها نزل بمكة، وبعضها بالمدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾
 قوله عز وجل: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ المراد بـ ﴿الكتاب﴾: القرآن، و﴿الحكيم﴾: بمعنى مُحْكَم، ويمكن أن يكون: «حكيم» بمعنى ذي حكمة، فهو على النسب.

وقوله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: سبب هذه الآية استبعاد قُرَيْشٍ أَنْ يبعث الله بشراً رسولاً^(١)، والقَدَمُ هنا مَا قُدِّمَ، واختلف في المراد بها ههنا، فقال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم: هي الأعمال الصالحات من العبادات^(٢). وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: هي شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٣)، وقال ابن عباس أيضاً وغيره: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ^(٤)، وهذا أليق الأقوال

(١) أخرجه الطبري (٥٢٧/٦) برقم: (١٧٥٤٢) وبرقم: (١٧٥٤٣) عن ابن جريج، وذكره ابن عطية (٣/١٠٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠٦/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٥/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٥٢٧/٦) برقم: (١٧٥٤٤، ١٧٥٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/١٠٣)، والبغوي (٣٤٣/٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠٦/٢) كلهم بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٥٢٨/٦) برقم: (١٧٥٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/١٠٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤٠٦) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٦/٣)، وزاد نسبه إلى أبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٥٢٨/٦) برقم: (١٧٥٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/١٠٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٣٤٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠٦/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٥/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

بالآية؛ ومن هذه اللفظة قَوْلُ حَسَّانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١): [الطويل]

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا لِأَوْلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ^(٢)

ومن هذه اللفظة قوله ﷺ: «حَتَّى يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ»^(٣) أَي مَا قَدَّمَ لَهَا، هَذَا عَلَى أَنَّ الْجَبَّارَ أَسْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَ«الصُّدُق» هُنَا بِمَعْنَى الصَّلَاحِ، وَقَالَ الْبَخَارِيُّ: قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿قَدَّمَ صِدْقِي﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ^(٤). انْتَهَى.

وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ مَبِينٌ﴾: إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ أَنَّهُ فَرَّقَ بِذَلِكَ كَلِمَتَهُمْ، وَحَالَ بَيْنَ الْقَرِيبِ وَقَرِيبِهِ؛ فَاشْبَهَ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ السَّاحِرُ فِي ظَنِّهِمُ الْقَاصِرِ؛ فَسَمَّوْهُ سَاحِرًا.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ. ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٥) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٦)

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾^(٧) الآية: هَذَا أَبْتَدَأَ دَعَاءً إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوْحِيدِهِ، وَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي مُدَّةٍ مَحْدُودَةٍ مَمْتَدَّةٍ، وَفِي الْقُدْرَةِ أَنْ يَقُولَ لَهَا: كُنْ؛ فَتَكُونُ، إِنَّمَا هِيَ لِيُعْلَمَ عِبَادَةُ التَّوَدَّةِ وَالتَّمَاهُلَ فِي الْأُمُورِ، قَالَ * ع^(٨): * وَهَذَا مِمَّا لَا يُوَصَّلُ إِلَى تَعْلِيلِهِ، وَعَلَى هَذَا هِيَ الْأَجَنَّةُ فِي الْبُطُونِ، وَخَلَقَ الثَّمَارَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَهُوَ أَعْلَمُ بِوَجْهِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ.

(١) ذكره ابن عطية (١٠٣/٣).

(٢) البيت في «ديوانه» (٢٤١)، والطبري (٢٠٩/١٣)، و«البحر» (١٢٤/٥)، و«الدر المصون» (٣٦٦/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠٣/٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٠/٨) كتاب «التفسير» باب: وتقول: «هل من مزيد»، حديث (٤٨٤٨)، ومسلم (٢١٨٧/٤) كتاب «الجنة» باب: النار يدخلها الجبارون، حديث (٢٨٤٨/٣٧)، والترمذي (٣٩٠/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة ق، حديث (٣٢٧٢)، وأحمد (٣/١٣٤، ١٤١، ٢٣٤)، وأبو يعلى (٤٣٨/٥ - ٤٣٩)، رقم: (٣١٤٠)، وابن حبان (٢٦٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص: (٣٤٩) من حديث أنس.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٦/٨) كتاب «التفسير» باب: «سورة يونس»، وذكر معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير من طريق ابن عيينة، عنه بهذا الحديث. كما قال ابن حجر، والطبري (٥٢٩/٦) برقم: (١٧٥٥٧)، وذكره ابن عطية (١٠٣/٣) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٦/٣).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٤/٣).

وقوله سبحانه: ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يصحُّ أن يريد بالأمر أَسْمَ الجنس من الأمور، ويصحُّ أن يريد الأمر الذي هو مُضَدَّر أمر يأْمُرُ، وتدبيره لا إلَه إلا هو إنما هو الإنفاذ؛ لأنه قد أحاط بكلِّ شيء عِلْماً، قال مجاهد: ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: معناه: يَقْضِيهِ وحده^(١).

وقوله سبحانه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾؛ رَدُّ عَلَى الْعَرَبِ فِي أَعْتِقَادِهَا؛ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: الذي هذه صفاته فأعبدوه، ثم قرَّره على هذه الآيات والعبر، فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾... الآية إنباء بالبعث.

وقوله: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ يريد: النشأة الأولى، والإعادة: هي البعث من القبور.

﴿ليجزي﴾: هي لام كنى، والمعنى: أنَّ الإعادة إنما هي ليقع الجزاء على الأعمال.

وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أى: بالعدل.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ابتداءً، وَالْحَمِيمُ الحارُّ المسخَّن، وَحَمِيمُ النَّارِ فيما ذُكِرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا أَدْنَاهُ الْكَافِرُ مِنْ فِيهِ، تَسَاقَطَتْ قَرَوَةٌ رَأْسِهِ»^(٢) وهو كما وصفه سبحانه: ﴿يَسْئَلُ الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ لَنَا بِشَيْءٍ كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُ بِهِمْ بِأِيْمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (٥٣٠/٦) برقم: (١٧٥٥٩، ١٧٥٦٢)، وذكره ابن عطية (١٠٤/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٦/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبى الشيخ.

(٢) أخرجه الترمذي (٧٠٦/٤) كتاب «صفة جهنم» باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار، حديث (٢٥٨٤)، وفي (٤٢٦/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة سأل سائل، حديث (٣٣٢٢)، وأحمد (٣/٧٠ - ٧١)، وأبو يعلى (٥٢٠/٢) رقم: (١٣٧٥)، والحاكم (٦٠٢/٤) من حديث أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا...﴾ الآية: هذا استمرارٌ على وَصْفِ آيَاتِهِ سبحانه، والتنبيه على صنعته الدالة على وحدانيته، وعظيم قُدْرته.

وقوله: ﴿قَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾: يحتمل أن يعود الضمير على «القمر» وحده؛ لأنه المراعى في معرفة عَدَدِ السَّنِينَ وَالْحِسَابِ عند العرب، ويحتمل أن يريدَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ معاً، لكنه أَجْتَرَأُ بذكر أحدهما؛ كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقوله: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ أي: رفقا بكم، ورفعا للالتباس في معاشيكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ.

وقوله: ﴿لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾: إنما خصهم، لأن نفع هذا فيهم ظهر.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: آية اعتبار وتنبيه، والآيات: العلامات، وخصص القوم المتيقين؛ تشريفاً لهم؛ إذ أُلْعِبُوا فيهم يقع، ونسبتهم إلى هذه الأشياء المنظورة فيها أفضل من نسبة من لم يَهْتَدِ ولا اتقى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...﴾ الآية: قال أبو عبيدة^(١) وغيره: ﴿يَرْجُونَ﴾، في هذه الآية: بمعنى يخافون^(٢)؛ وأحتجوا ببَيِّنَاتٍ أَبِي دُوَيْبٍ: [الطويل]

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَحَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوْبٍ عَوَامِلٍ^(٣)
وقال ابن سيده والفرّاء: لفظة الرجاء، إذا جاءت منفية، فإنها تكون بمعنى الخوف، فعلى هذا التأويل معنى الآية: إن الذين لا يخافون لقاءنا، وقال بعض أهل العلم: الرجاء، في هذه الآية: على بابه؛ وذلك أن الكافر المكذب بالبعث لا يُحْسِنُ ظَنًّا بأنه يَلْقَى اللَّهَ، ولا له في الآخرة أمل؛ إذ لو كان له فيها أمل؛ لقارنه لا محالة خوف، وهذه الحال من الخوف المقارن هي القائدة إلى النجاة.

قال * ع^(٤): * والذي أقول به: إن الرجاء في كل موضع هو على بابه، وأن بيت

(١) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢٧٥/١).

(٢) ذكره ابن عطية (١٠٦/٣).

(٣) البيت لأبي ذؤيب كما ذكر المصنف، ينظر: «ديوان الهذليين» (١٤٣/١)، «الكشاف» (٤٩٩/٤)، و«الدر المصون» (٥٣٤/١) و«جمهرة الشعراء» (٩).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٧/٣).

الهُدَلِيِّ معناه: لَمْ يَزُجْ فَقَدْ لَسَعَهَا، قال ابن زَيْد: هذه الآية في الْكُفَّارِ^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: يريد: كَانَتْ مُنْتَهَى غَرَضِهِمْ، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: إِذَا شَتَّتْ رَأَيْتَ هَذَا الْمَوْصُوفَ صَاحِبَ دُنْيَا، لَهَا يَغْضَبُ، وَلَهَا يَرْضَى، وَلَهَا يَفْرَحُ، وَلَهَا يَهْتَمُّ وَيَحْزَنُ، فَكَأَنَّ قَتَادَةَ صَوَّرَهَا فِي الْعَصَا^(٢)، وَلَا يَتَرْتَبِ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ تَأْوِيلِ الرَّجَاءِ عَلَى بَابِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَاصِيَ مُسْتَوْجِبٌ مِنْ آخِرَتِهِ، فَأَمَّا عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ، فَمَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ، فَهُوَ كَافِرٌ.

وقوله: ﴿وَاطْمَأْنَوْا بِهَا﴾: تَكْمِيلٌ فِي مَعْنَى الْقَنَاعَةِ بِهَا، وَالرَّفْضُ لغيرها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَبْتَدَاءُ إِشَارَةٍ إِلَى فِرْقَةٍ أُخْرَى، ثُمَّ عَقَّبَ سَبْحَانَهُ بِذِكْرِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ...﴾ الآية، الْهَدَايَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَرِيدَ أَنَّهُ يَهْدِيهِمْ وَيُسَبِّتُهُمْ.

الثَّانِي: أَنْ يَرِيدَ أَنَّهُ يَرْشُدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَانِ فِي الْآخِرَةِ.

وقوله: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِيْمَانُ هُوَ نَفْسُ الْهُدَى، أَيْ، يَهْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ بِنُورِ إِيْمَانِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَكُونُ لَهُمْ إِيْمَانُهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ، وَيَتَرَكَّبُ هَذَا التَّأْوِيلُ، عَلَى مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ، إِذَا قَامَ مِنْ قَبْرِهِ لِلْحَشْرِ تَمَثَّلَ لَهُ رَجُلٌ جَمِيلُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُودُهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَبِعَكْسِ هَذَا فِي الْكَافِرِ، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا أَسْنَدَهُ الطَّبْرِيُّ^(٣) وَغَيْرُهُ.

﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾

وقوله سبحانه: ﴿دَعَاوَهُمْ﴾: أَيْ: دَعَاوَهُمْ فِيهَا ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾: تَقْدِيسٌ وَتَسْبِيحٌ

وَتَنْزِيَةٌ لِجَلَالِهِ سَبْحَانَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي ذَلِكَ: هِيَ

كَلِمَاتٌ رَضِيَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ^(٤)، وَقَالَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/١٠٦)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَرِ الْمَثُورِ» (٣/٥٣٧)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى أَبِي الشَّيْخِ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/١٠٧).

(٣) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦/٥٣٦) بِرَقْمٍ: (١٧٥٨٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/١٠٧).

مَعْنَى سُبْحَانَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: مَعْنَاهَا: «تَنْزِيهَاً لِلَّهِ مِنَ السُّوءِ»، وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّهُمْ رَوَوْا أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِنَّمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُ عِنْدَ مَا يَشْتَهِي الطَّعَامَ، فَإِنَّهُ إِذَا رَأَى طَائِئِراً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، قَالَ: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، فَنَزَلَتْ تِلْكَ الْإِرَادَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَوْقَ مَا أَشْتَهَى. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَسَفِيَّانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَعَبَارَةُ الدَّادُودِيِّ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ: «دَعَاؤُهُمْ فِيهَا»: قَالَ: إِذَا مَرَّ بِهِمُ الطَّائِرُ يَشْتَهُونَهُ، كَانَ دَعَاؤُهُمْ بِهِ ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، فَيَأْكُلُونَ مِنْهُ مَا يَشْتَهُونَ، ثُمَّ يَطِيرُ، وَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ بِمَا يَشْتَهُونَ، سَلَّمُوا عَلَيْهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، وَإِذَا أَكَلُوا حَاجَتَهُمْ، قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَخَّرَ دَعَاؤُهُمْ أَنْ يَحْمَدُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: يريد تسليم بعضهم على بعض، والتحية مأخوذة مِنْ تَمَنَّى الحَيَاةَ لِلْإِنْسَانِ والدُّعَاءِ بِهَا، يُقَالُ: حَيَّاهُ وَيُحْيِيهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ جَنَابٍ: [الكمال]

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلْتُهُ إِلَّا التَّحِيَّةَ^(١)

يريد: دعاء الناس للملوك بالحياة، وقال بعض العلماء: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ يريد: تسليم الله تعالى عليهم، والسلام: مأخوذ من السلامة، ﴿وَأَخَّرَ دَعَاؤُهُمْ﴾: أي: خاتمة دعائهم وكلامهم في كل موطن حمد الله وشكره، على ما أسبغ عليهم من نعمه، وقال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): في تفسير هذه الآية قولان:

الأول: أَنَّ الْمَلَكَ يَأْتِيهِمْ بِمَا يَشْتَهُونَ، فيقول: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، أي: سَلِمْتُمْ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَكَلُوا، قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الثاني: أَنَّ مَعْنَى «تَحِيَّتُهُمْ»: أي: تحية بعضهم بعضاً، فقد ثبت في الخبر: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ، وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣)، وَبَيَّنَّ فِي الْقُرْآنِ هُنَا أَنَّهَا تَحِيَّتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ،

(١) البيت لزهير بن جناب في «إصلاح المنطق» ص: (٣١٦)، و«الأغاني» (٣٠٧/١٨)، و«الشعر والشعراء» (٣٨٦/١)، و«لسان العرب» (٤٦/١١) (بجل)، (٢١٦/١٤) (حيا)، و«المؤتلف والمختلف» ص: (١٣٠)، وبلا نسبة في «خزانة الأدب» (٢٩٩/٥)، و«شرح التصريح» (٣٢٦/١)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي: ص (١٠٠)، و«لسان العرب» (٢١٧/١٤) (حيا).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٥٠/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

فهي تحية موضوعة من أول الخلقة إلى غير نهاية، وقد روى ابن القاسم، عن مالك في قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: هذا السلام الذي بين أظهركم، وهذا أظهر الأقوال، والله أعلم. انتهى.

وقرأ الجمهور^(١): «أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»، وهي عند سيبويه^(٢) «أَنْ» المخففة من الثقيلة؛ قال أبو الفتح: فهي بمنزلة قول الأعشى: [البسيط]:

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَخْفَى وَيَسْتَعِجِلُ^(٣)
﴿وَلَوْ يَعْلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْرَرَ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم...﴾ الآية: هذه الآية نزلت، في دعاء الرجل على نفسه أو ولده، أو ماله، فأخبر سبحانه أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريد فعله معهم في إجابته إلى الخير، لأهلكهم، وحذف بعد ذلك جملة يتضمنها الظاهر، تقديرها: فلا يفعل ذلك، ولكن يندُر ﴿الذين لا يرجون لقاءنا...﴾ الآية، وقيل: إن هذه الآية نزلت في قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِمَارًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقيل: نزلت في قولهم: ﴿أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [هود: ٣٢]، وما جرى مجراه، والعمّة: الخطب في ضلال.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه...﴾ الآية: هذه الآية أيضاً

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٨/٣)، و«البحر المحيط» (١٣٢/٥).

(٢) ينظر: «الكتاب» (٤٨٠/١).

(٣) ينظر: «ديوانه» ص: (١٠٩)، و«الأزمية» ص: (٦٤)، و«الإنصاف» ص: (١٩٩)، و«تلخيص الشواهد» ص: (٣٨٢)، و«خزانة الأدب» (٤٢٦/٥)، (٣٩٠/٨)، (٣٩٣/١٠)، (٣٥٣/١١ - ٣٥٤)، و«الدرر» (١٩٤/٢)، و«شرح أبيات سيبويه» (٧٦/٢)، و«الكتاب» (١٣٧/٢)، (٧٤/٣)، (١٦٤، ٤٥٤)، و«المحتسب» (٣٠٨/١)، و«مغني اللبيب» (٣١٤/١)، و«المقاصد النحوية» (٢٨٧/٢)، و«المنصف» (١٢٩/٣)، وبلا نسبة في «خزانة الأدب» (٣٩١/١٠) و«وصف المباني» ص: (١١٥)، و«شرح المفصل» (٧١/٨)، و«المقتضب» (٩/٣)، و«همع الهوامع» (١٤٢/١).

عتاب على سوء الخُلُق من بعض الناس، ومضمّنه النهي عن مثل هذا، والأمر بالتسليم إلى الله والصّراعة إليه في كلِّ حال، والعلم بأنّ الخير والشر منه، لا ربّ غيره، وقوله: ﴿لجنبه﴾، في موضع الحال؛ كأنه قال: مُضْطَجِعاً، والصّر عامٌ لجميع الأمراض والرزايا.

وقوله: ﴿مر﴾ يقتضي أن نزولها في الكفار، ثم هي بعد تتناول كل من دَخَلَ تحت معناها من كافر وعاصٍ.

١٢٣٧ وقوله سبحانه: ﴿ولقد أهلكنا القرون من / قبلكم . . .﴾ الآية: آية وعيد للكفار، وضرب أمثال لهم، و﴿خلائف﴾: جمع خليفة.

وقوله: ﴿لننظر﴾: معناه: لنبيّن في الوجود ما علمناه أولاً، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة والمجاز، وقال عمر رضي الله عنه: إنّ الله تعالى إنما جعلنا خلفاء؛ لينظر كيف عملنا؛ فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية^(١).

﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِفَرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسٍ إِنْ أَشِئْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ أَفَلَا تَوَدُّ أَنْ تَقُولَ اللَّهُ مَا تُلَوِّثُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَذْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُبْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْفَعُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَالُوا عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني: بغض كفار قريش: ﴿أَنْتَ بِفَرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾، ثم أمر سبحانه نبيه أن يردّ عليهم بالحق الواضح، فقال: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ ولا أعلمكم به، و﴿أدراكم﴾ بمعنى: أعلمكم، تقول: ذرّيت بالأمر، وأذريت به غيري، ثم قال: ﴿فقد لبثت فيكم عُمُرًا من قبله﴾ يعني: الأربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، أي: فلم تجربوني في كذب، ولا تكلمت في شيء من هذا ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أن ولّى عمره، وتقاصر أمله، واشتدّت جنكته وخوفه لربه.

(١) أخرجه الطبري (٥٣٩/٦) برقم: (١٧٥٩٤)، وذكره ابن عطية (١١٠/٣)، والسيوطي (٥٤٠/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن قتادة.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: أَسْتَفْهَامٌ وتقرير، أي: لا أحد أظلم ممن أفتري على الله كذباً، أو ممن كذب بآياته؛ بعد بيانها، والضمير في ﴿يعبدون﴾ لكفار قريش، وقولهم: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾: هذا قول النبلاء منهم، ثم أمر سبحانه نبيه أن يقرّرهم ويوبّخهم بقوله: ﴿اتَّبِعُوا اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وذكر السموات؛ لأن من العرب من يعبد الملائكة والشُّعْرَى، وبحسب هذا حسن أن يقول: ﴿هؤلاء شفعاؤنا﴾، وقيل: ذلك على تجوُّز في الأصنام التي لا تعقل.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَنَصْنَعُ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ صَرٍّ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلَفوا﴾ قالت فرقة: المراد آدم كان أمة وحده، ثم اختلف الناس بعده، وقالت فرقة: المراد آدم وبنوه من لدن نزوله إلى قتل أحد أبنيه الآخر، ويحتمل أن يريد: كان الناس صنفاً واحداً بالفطرة معداً للاهتداء، وقد تقدّم الكلام على هذا في قوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله سبحانه: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يريد: قضاءه وتقديره لبني آدم بالآجال المؤقّته، ويحتمل أن يريد: الكلمة في أمر القيامة، وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ.

وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: إن شاء فعَل، وإن شاء لَمْ يَفْعَل.

وقوله: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾: وعيد.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ...﴾ الآية: هذه الآية في الكفار، وهي بغدٌ تتناول من العصاة مَنْ لا يؤدي شكر الله عند زوال المَكْرُوه عنه، ولا يرتدّع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير، والرحمة هنا بعد الضراء؛ كالمنطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف ونحو هذا ممّا لا ينحصر، والمَكْرُ: الاستهزاء والطعن عليها من الكفار وأطراح الشكر والخوف من العصاة.

وقال أبو علي: ﴿أَسْرَعُ﴾ من «سَرَعَ» لا من «أَسْرَعَ يُسْرِعُ»، إذ لو كان من «أَسْرَعَ»، لكان شاذاً.

قال * ع^(١) * وفي الحديث في نار جهنم: «لَهَيَ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ»^(٢) وما حفظ للنبي ﷺ، فليس بشاذ. * ص: * وَرَدَّ بَأَن «أَسْوَدُ» مِنْ «فِعْلٍ» لَا مِنْ «أَفْعَلٍ»: تقول: سَوِدَ فَهُوَ أَسْوَدُ، وَإِنَّمَا أَمْتَنَعَ مِنْ «سَوِدَ» وَنَحْوِهِ عِنْدَ الْبَصَرِيِّينَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ نَ . انتهى .

﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِمِمْ يَرْبِجَ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْغَزَاةِ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَغَدَّتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا أُنْزِلْنَا لِيلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْصَ بِالْأَلَمِيِّ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ الْأَمْثَالَ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ الآية: تعيدُ نِعَمٍ مِنْهُ سبحانه على عباده .

وقوله سبحانه: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي: نسوا الأصنام والشركاء، وأفردوا الدعاء لله سبحانه، وذكر الطبري في ذلك، عَنْ بعض العلماء حكاية قول العَجَم: «ها شرا هيا»، ومعناه: يا حَيَّ يَا قَيُّوْمُ، و﴿يَبْغُونَ﴾: معناه: يُفْسِدُونَ .

وقوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متاع: خبر مبتدأ محذوف، تقديره هو متاع، أو ذلك ب ٢٣٧ متاع، ومعنى الآية: إِنَّمَا بِغْيِكُمْ وَإِفْسَادُكُمْ / مُضِرُّكُمْ لَكُمْ، وهو في حالة الدنيا، ثُمَّ تَلْقَوْنَ عقابه في الآخرة، قال سفيان بن عُيَيْنَةَ: إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أي تُعَجِّلُ لَكُمْ عِقَابَهُ؛ وَعَلَى هَذَا قَالُوا: الْبَغْيُ يَضُرُّ أَهْلَهُ .

قال * ع^(٣) * : وقالوا: الْبَاغِي مُصْرُوعٌ: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَغْيِي عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، وقال النبي عليه السلام: «مَا دُتِبَ أَسْرَعُ عُقُوبَةٍ مِنْ بَغْيٍ» .

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تَفَاخُرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا بِالْمَالِ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٢/٣) .

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٩٤/٢) برقم: (٢) عن أبي هريرة موقوفاً .

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٤/٣) .

وَالْبَيْنِينَ، إِذْ مَصِيرُ ذَلِكَ إِلَى الْقَنَاءِ؛ كَمَطَرٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: اختلف النباتُ بعضُهُ ببعضِ الماء، ولفظ البخاري: قال ابن عباس: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: فنبت بالماء مِنْ كُلِّ لَوْنٍ^(١) انتهى. و﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ﴾ لَفْظَةٌ كَثُرَتْ فِي مِثْلِ هَذَا، كَقَوْلِهِ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] وَالزُّخْرُفُ: التَّزْيِينُ بِالْأَلْوَانِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(٢) وَغَيْرُهُ: «وَتَزَيَّنْتُ»، وَهَذِهِ أَصْلُ قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ.

وقوله: ﴿وَضُنَّ أَهْلُهَا﴾: عَلَى بَابِهَا، وَهَذَا الْكَلَامُ فِيهِ تَشْبِيهُ جَمْلَةً أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمَوْصُوفَةِ أَحْوَالِهَا، وَ﴿حَتَّى﴾ غَايَةٌ، وَهِيَ حَرْفُ أَبْتَدَاءٍ؛ لِدُخُولِهَا عَلَى «إِذَا»، وَمَعْنَاهُمَا مُتَّصِلٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾، وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بَدَأَ الْجَوَابُ، وَالْأَمْرُ الْآتِي: وَاحِدُ الْأُمُورِ؛ كَالرَّيْحِ، وَالصَّرِّ، وَالسُّمُومِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَتَقْسِيمُهُ ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، تَنْبِيهُ عَلَى الْخَوْفِ وَارْتِفَاعِ الْأَمْنِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَ﴿حَصِيدًا﴾، بِمَعْنَى مُحْصُودٍ، أَي: تَالِفًا مُسْتَهِلِكًا، ﴿كَأَنَّهُمْ لَمْ تَعْنُ﴾: أَي: لَمْ تَنْضُرْ، وَلَمْ تَنْعَمْ، وَلَمْ تَعْمَرْ بِغَضَارَتِهَا، وَمَعْنَى الْآيَةِ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا؛ إِذْ هِيَ مَعْرُوضَةٌ لِلتَّلَفِ؛ كَنَبَاتِ هَذِهِ الْأَرْضِ وَحَصِّ الْمُتَفَكِّرِينَ بِالذِّكْرِ؛ تَشْرِيفًا لِلْمُتَزَلِّةِ؛ وَلِيَقَعَ التَّسَابُغُ إِلَى هَذِهِ الرِّبَّةِ.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ...﴾ الْآيَةُ: نَصٌّ أَنَّ الدَّعَاءَ إِلَى الشَّرْعِ عَامٌّ فِي كُلِّ بَشَرٍ، وَالْهُدَايَةُ الَّتِي هِيَ الْإِرْشَادُ مُخْتَصَّةٌ بِمَنْ قَدَّرَ إِيمَانَهُ، وَ﴿السَّلَامُ﴾؛ هُنَا: قِيلَ: هُوَ أَسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمَعْنَى: يَدْعُو إِلَى دَارِهِ الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ، وَقِيلَ: ﴿السَّلَامُ﴾ بِمَعْنَى السَّلَامَةِ.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنٍ وَزِيَادَةٍ وَلَا يَرْهَقُهُمْ نُقْرٌ وَلَا ذُلٌّ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَصْبُودُونَ (٣٨) فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٣٩) هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَا

(١) أخرجه البخاري (١٩٦/٨) كتاب «التفسير» باب: «سورة يونس» وذكره معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير من طريق آخر عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس «إنما مثل الحياة الدنيا...»، قال الحافظ: اختلط فنبت بالماء كل لون مما يأكل الناس كالحنطة والشعير وسائر حبوب الأرض، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٦/٦) برقم: (١٧٦/٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٣٤١/٢)، و«المحرر الوجيز» (١١٤/٣)، وزاد نسبتها إلى الأعمش وأبي بن كعب، وينظر: «البحر المحيط» (١٤٥/٥)، وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، وهي في «الدر المصون» (٢١/٤).

أَسَلَفْتُ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾: قال الجمهور: ﴿الحُسْنَى﴾: الجنة، وال ﴿زِيَادَةٌ﴾: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وفي «صحيح مسلم» من حديث ضَهَبٍ: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، وفي رواية: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وأخرج هذه الزيادة النَّسَائِيُّ عن ضَهَبٍ، وَأَخْرَجَهَا عَنْ ضَهَبٍ أَيْضاً أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ ^(١) انتهى من «التذكرة» ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ...﴾ الآية. و﴿يَرْهَقُ﴾ معناه: يَغْشَى مع غلبة وتضييق، وال ﴿قَتَرٌ﴾: الغَبَارُ الْمُسْوَدُّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ قالت فِرْقَةٌ: التقدير لهم جزاء سيئة بمثلها، وقالت فرقة: التقدير جزاء سيئة مثلها، والباء زائدة، وتعم السيئات ههنا الكُفْرَ والمعاصي، وال ﴿عَاصِمٌ﴾: المنجِّي والمُجِير، و﴿أَغْشَيْتُ﴾: كُسَيْتُ، و«القطع»: جمع قِطْعَةٍ، وقرأ ابن كثير والكسائي: «قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ» - بسكون الطاء - ^(٣)، وهو الجزء من الليل، والمراد: الجزء من سواده، وباقي الآية بين.

و﴿مَكَانُكُمْ﴾: أَسْمُ فِعْلِ الْأَمْرِ، ومعناه: قِفُوا وَاسْكُنُوا، * ت * قال * ص * : وقَدْزُ بـ «اثبتوا» وأما من قَدَرَهُ بـ «أَلْزَمُوا مَكَانَكُمْ»، فمردودٌ، لأن «الزموا» متعدٌ، و﴿مَكَانُكُمْ﴾: لا يتعدى، فلا يقدر به، وإلا لكان متعدياً، واسم الفعل عَلَى حَسَبِ الْفِعْلِ إِنْ مُتَعَدِّياً فَمُتَعَدٌّ، وَإِنْ لَازِماً فَلَا زِمَ، ثُمَّ أَعْتَذَرَ بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ بـ «أَلْزَمُوا» تَقْدِيرَ مَعْنَى، لا تَقْدِيرَ إِعْرَابٍ، فلا أَعْتَرَضَ، انتهى.

قال * ع * ^(٤): فأخبر سبحانه عن حالة تكون لعبدة الأوثان يوم القيامة يُؤْمَرُونَ

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤ - ٥٥٥)، كتاب «الإيمان» باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، حديث (٢٩٧ - ٢٩٨/ ١٨١)، والنسائي في «التفسير» (٢٥٤)، وابن ماجه (١٨٧)، والترمذي (٢٥٥٢).

(٢) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢/ ٦٥٣).

(٣) وتحتل هذه القراءة أن تكون مفرداً من الجمع، أو تخفيفاً من قِطْعٍ مثل نِطْعٍ، ونِطْعٍ.

ينظر: «الدر المصون» (٤/ ٢٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١١٧).

بالإقامة في موقف الخِزْي مع أصنامهم، ثم يُنطقُ الله شركاءهم بالتبري منهم.

وقوله: ﴿فزيلنا بينهم﴾: معناه: فرّقنا في الحُجّة، والمذهب / روي عن النبي ﷺ، ١٢٣٨
أَنَّ الْكُفَّارَ، إِذَا رَأَوْا الْعَذَابَ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ،
فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، فَتَقُولُ الْأَصْنَامُ: وَاللَّهِ، مَا كُنَّا نَسْمَعُ، وَلَا نَعْمَلُ، وَمَا كُنْتُمْ إِيَّانَا
تَعْبُدُونَ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ، لِإِيَّاكُمْ كُنَّا نَعْبُدُ، فَتَقُولُ الْإِلَهَةُ: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ...﴾^(١) الآية، وظاهر الآية أَنَّ محاورتهم إِنما هي مَعَ الْأَصْنَامِ دُونَ الْمَلَائِكَةِ
وَعِيسَى؛ بدليل القول لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾، ودون فِرْعَوْنَ وَمَنْ عُبِدَ مِنْ
الْجِنِّ؛ بدليل قولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾، و«إِنْ» هذه عند سَيِّوَيْهِ^(٢) الْمُخَفَّفَةُ
مِنَ الثَّقِيلَةِ مَوْجِبَةً، ولزمتها اللام، فرقاً بينها وبين «إِنْ» النافية، وعندَ الْفَرَاءِ: «إِنْ» نافيةٌ
بمعنى «مَا»، واللامُ بمعنى «إِلَّا»، وقرأ نافع^(٣) وغيره: «تَبَلَّوْا» - بالباء الموحدة -؛ بمعنى:
تختبر، وقرأ حمزة والكسائي: «تَتَلَّوْا» - بتاءين -؛ بمعنى تَتَّبِعْ وتطلب ما أَسْلَفْتَ مِنْ أَعْمَالِهَا
* ت * قال * ص * كقوله: [الرجز]

إِنَّ الْمُرِيبَ يَثْبَعُ الْمُرِيبَا كَمَا رَأَيْتَ الذَّيْبَ يَثْلُو الذَّيْبَا^(٤)
أي: يتبعه. انتهى. ويصحُّ أَنْ يكون بمعنى تَقَرَّأَ كُتُبَهَا التي تَدْفَعُ إِلَيْهَا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَدَّبِّرُ الْأَمْرَ...﴾ الآية: تدبِّرُ الْأَمْرَ عامٌّ في جميع الأشياء، وذلك
أَسْتِقَامَةُ الْأُمُور كُلِّهَا عَلَى إِرَادَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وليس تدبيره سبحانه بفكرٍ ورويةٍ وتغييراتٍ
- تعالى عن ذلك - بل علمه سبحانه محيطٌ كاملٌ دائمٌ.

﴿فسيقولون الله﴾: أي: لا مَنَدُوْحَةً لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، ولا تُمَكِّنُهُمُ الْمِبَاهَتَةُ بِسِوَاهِ، فإذا
أَقْرَأُوا بِذَلِكَ، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في أَقْرَائِكُمْ، وَجَعَلَكُمْ الْأَصْنَامَ آلِهَةً.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الصَّلَاحُ فَإِنَّ نُفُورَكُمْ﴾ (٢٦) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٥٠)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه.

(٢) ينظر: «الكتاب» (١/ ٤٨٠).

(٣) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٥)، و«الحجة» (٤/ ٢٧١)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١)، «إعراب
القراءات» (١/ ٢٦٧)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ١٠٨ - ١٠٩)، و«معاني القراءات» (٢/ ٤٣)،
و«العنوان» (١٠٥)، و«شرح الطيبة» (٤/ ٣٥٠)، و«شرح شعلة» (٤٢١).

(٤) البيت من شواهد «البحر» (٥/ ١٥٥)، والقرطبي (٨/ ٣٣٤)، و«الدر المنثور» (٤/ ٢٨).

رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

وقوله: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ...﴾ الآية: يقول: فهذا الذي هذه صفاته ربُّكم الحقُّ، أي: المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان كذلك، فتشريك غيره ضلالٌ وغيرُ حقٍّ.

قال * ع^(١): وعبرة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً ووضوحاً، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلةً ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها من مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنما في تقرير وجود ذات كَيْفَ هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿فَأَنِّي تَصْرَفُونَ﴾: تقرير؛ كما قال: ﴿فَأَنِّي تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦] ثم قال: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقرّر، وأنصرف هؤلاء كما قدّر عليهم، ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ...﴾ الآية، وقرأ أبو عمرو^(٢) وغيره: «كَلِمَةً»؛ على الأفراد الذي يُرادُ به الجمع؛ كما يقال للقسيصة «كَلِمَةً» فعبر عن وعيد الله تعالى بـ «كَلِمَةً».

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبَدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تَوْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَجَّ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾ الآية توقيف على قصور الأصنام وعجزها، وتنبيه على قدرة الله عز وجل، و﴿تَوْفَكُونَ﴾: معناه: تُضْرَقُونَ وتُخْرَمُونَ، وأرض مأفوكّة؛ إذا لم يُصَبَّها مطرٌ، فهي بمعنى الخيبة.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٨/٣)

(٢) وحجة من جمع أنها والتي بعدها كتبنا في المصاحف بالتاء. وحجة الباقي: إجماع الكل على التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٦)، «الحجة» (٢٧٢/٤ - ٢٧٣)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١)، «إعراب القراءات» (٢٦٧/١)، «إنحاف» (١٠٩/٢)، «العنوان» (١٠٥).

وينظر: «المحرر الوجيز» (١١٨/٣)، و«البحر المحيط» (١٥٦/٥)، و«الدر المصون» (٣٠/٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾: أي: يبين طرق الصواب، ثم وصف الأصنام بأنها لا تَهْدِي إِلَّا أَنْ تُهْدَى.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾: فيه تَجَوُّزٌ، لأننا نجدها لا تُهْدَى وَإِنْ هُودِيَتْ، وقال بعضهم: هي عبارة عن أنها لا تنتقل إِلَّا أَنْ تُنْقَلَ، ويحتمل أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ تَسْبِيح الجماداتِ هو أَهْتَادُهَا، وقرأ نافع وأبو عمرو: «يَهْدِي»^(١) - بسكون الهاء، وتشديد الدال -، وقرأ ابن كثير وابن عامر: يَهْدِي - بفتح الياء / والهاء، وتشديد الدال^(٢) - وهذه ٢٣٨ ب رواية ورش عن نافع، وقرأ حمزة والكسائي: «يَهْدِي» - بفتح الياء، وسكون الهاء^(٣) - ومعنى هذه القراءة: أَمَنْ لَا يَهْدِي أَحَدًا إِلَّا أَنْ يُهْدَى ذَلِكَ الْأَخْذُ، ووقف القراء: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾، ثم يبدأ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا...﴾ الآية: أخبر الله سبحانه عن فساد طريقتهم، وَضَعِفَ نَظَرُهُمْ، وأنه ظَنٌّ، ثم بيّن منزلة الظن من المعارف، وَبُعْدَهُ عَنِ الْحَقِّ.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ (٢٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٣٠)

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: هذا رد لقول من يقول: إِنَّ مُحَمَّدًا يُفْتَرِي الْقُرْآنَ، و﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: التوراة والإنجيل، وهم يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب، ولا هي في بلده، ولا في قومه، و﴿تفصيل الكتاب﴾ هو تبينه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ...﴾ الآية: «أم» هذه ليست بالمعادلة لهمزة الاستفهام،

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٦)، «الحجة» (٢٧٤/٤ - ٢٧٥)، «حجة القراءات» ص: (٣٣١ - ٣٣٢)، «إعراب القراءات» (٢٦٨/١)، و«إنحاف» (١٠٩/٢)، و«معاني القراءات» (٤٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٣٥١/٤)، و«العنوان» (١٠٥)، «شرح شعلة» (٤٢٢): ينظر السابق.

وذكره ابن عطية (١١٩/٣)، وذكر أنها قراءة شيبه والأعرج، وأبي جعفر.

(٢) ذكره ابن عطية (١١٩/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (١١٩/٣).

في قوله: أزيّد قام أم عمرو؟ ومذهبُ سيبويه: أنها بمنزلة «بَلْ» ثم عَجَّزهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية: والتحدي في هذه الآية عند الجمهور وقع بجهتي الإعجاز اللّتين في القرآن:

إحدهما: النّظم والرّصف والإيجاز والجَزالة، كلّ ذلك في التعريف.

والأخرى: المعاني مِنَ الغَيْبِ لِمَا مَضَى، ولما يُسْتَقْبَلُ.

وحين تحدّاهم بـ «عَشْرِ مَفْتَرِيَّاتٍ» إنما تحدّاهم بالنّظم وخده، ثم قال * ع^(١) *: هذا قول جماعة المتكلّمين، ثم اختار أن الإعجاز في الآيتين إنما وقع في النّظم لا في الإخبار بالغيوب.

* ت *: والصواب ما تقدّم للجمهور، وإليه رجّع في «سورة هود» وأوجّه إعجاز القرآن أكثر من هذا وأنظر «الشفا».

وقوله: ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾: إحالة على شركائهم.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ...﴾ الآية: المعنى: ليس الأمر كما قالوا من أنه مفترى، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، أي: تفسيره، وبيانه، ويحتمل أن يريد بما لم يأتهم تأويله، أي: ما يؤول إليه أمره؛ كما هو في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وعلى هذا، فالآية تتضمن وعيداً، و﴿الذين من قبلهم﴾: من سلف من أمم الأنبياء.

وقوله سبحانه: ﴿ومنهم من يؤمن به...﴾ الآية: أي: ومن قريش من يؤمن بهذا الرسول، ولهذا الكلام معنيان:

قالت فرقة: معناه: من هؤلاء القوم من سيؤمن في المستقبل، ومنهم من حتم الله عليه أنه لا يؤمن به أبداً.

وقالت فرقة: معناه: ومنهم من يؤمن بهذا الرسول إلا أنه يكتُم إيمانه حفظاً لرياسته، أو خوفاً من قومه، كالفتية الذين قتلوا مع الكفار يذّر.

قال * ع^(٢) *: وفائدة الآية على هذا التأويل: التفريق لكلمة الكفار، وإضعاف

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢٢).

نفوسهم، وفي قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ تهديدٌ ووعدٌ.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ سَمِيعٌ أَلَمْ تَكُنْ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٣﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّهُمْ بَلَدٌ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الآية فيها منابذة ومتاركة، قال كثير من المفسرين، منهم ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ...﴾ الآية: وعيدٌ بالحشر وخزيهم فيه، وتعازفهم على جهة التلاؤم والخزي من بغضهم لبعض، حيث لا ينفع ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...﴾ إلى آخرها: حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمَكْذِبِينَ بِالْخُسْرَانِ، وفي اللفظ إغلاظٌ، وقيل: إن هذا الكلام من كلام المحشورين، على جهة التوبيخ لأنفسهم.

* ت * : والأول أثبت.

﴿وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَوَدُّهُ أَوْ نَتَوَقَّعُ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أَتَمِّ رَسُولٍ إِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله: ﴿وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ...﴾ الآية: «إما» شرطٌ، وجوابه: ﴿فإلينا﴾، والرؤية في «نُرِيَنَّكَ» بصرية، ومعنى هذه الآية: الوعد بالرجوع إلى الله تعالى، أي: إن أَرَيْنَاكَ عقوبتهم، أو لم نَرِكْهَا، فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك، فالله شهيدٌ من أول تكليفهم على جميع أعمالهم، و«ثم» لترتيب الأخبار / لا لترتيب القصص في أنفسها، و«إما» هي «إن»، زيدت عليها «ما»، ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت «إن» وحدها، لم يجز.

* ص * : وأغترض بأن مذهب سيبويه^(١) جواز دخولها، وإن لم تكن «ما» انتهى.

(١) ينظر: «الكتاب» (١٥٢/٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾: قال مجاهد وغيره: المعنى: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم، صُيِّرَ قَوْمٌ لِلجَنَّةِ، وقَوْمٌ لِلنَّارِ، فذلك القضاء بينهم بالقسط^(١).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ عَذَابٌ بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَنتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَمْ تَكُنْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون... الآية: الضمير في ﴿يقولون﴾ لكفار قريش، وسؤالهم عن الوعد تحريز منهم - بزعمهم - للحجة أي: هذا العذاب الذي تؤعدنا به، حذذ لنا وقته؛ لِنَعْلَمَ الصَّدَقَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَذِبِ، ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول على جهة الرد عليهم: ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾، ولكن ﴿لكل أمة أجل﴾ انفرد الله بعلم حده ووقته، وباقي الآية بين.

وقوله: ﴿مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: أي: فما تستعجلون منه، وأنتم لا قيل لكم به، والضمير في «منه» يحتمل أن يعود على الله عز وجل، ويحتمل أن يعود على العذاب.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ المعنى: إذا وقع العذاب وعايتموه، آمتم حينئذ، وذلك غير نافعكم، بل جوابكم: الآن وَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَهُ مَكْذِبِينَ بِهِ، ﴿وَيَسْتَأْذِنُكَ﴾: معناه: يستخبرونك، وهي على هذا تتعدى إلى مفعولين؛ أحدهما: الكاف، والآخر: الجملة، وقيل: هي بمعنى يَسْتَعْلِمُونَكَ؛ فعلى هذا تحتاج إلى ثلاثة مفاعيل.

* ص * وَرُدُّ بَأْنِ الْأَسْتَبَاءِ لَا يُحْفَظُ تَعْدِيهِ إِلَى ثَلَاثَةٍ، وَلَا اسْتَعْلَمَ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَاهُ.

انتهى.

﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ قيل: الإشارة إلى الشرع والقرآن، وقيل: إلى الوعيد؛ وهو أظهر.

وقوله: ﴿إِي وَرَبِّي﴾: أي: بمعنى «نعم»، وهي لفظة تتقدم القسم، ويجيء بعدها

(١) أخرجه الطبري (٥٦٥/٦) برقم: (١٧٦٨١-١٧٦٨٢) نحوه، وذكره ابن عطية (١٢٣/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٥٦/٢).

حَزَفُ الْقِسْمِ، وَقَدْ لَا يَجِيءُ؛ تَقُولُ: إِي وَرَبِّي، وَإِي رَبِّي، ﴿وَمُعْجِزِينَ﴾: معناه مفلتين.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة...﴾ الآية، و﴿أسروا﴾: لفظة تجيء بمعنى «أخفوا»، وهي حينئذ من السر، وتجيء بمعنى «أظهروا»، وهي حينئذ من أسارى الوجه.

* ص *: قال أبو البقاء: وهو مستأنف، وهو حكاية ما يكون في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، «أَلَا» استفتاح وتنبية، وباقي الآية بين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَجَعَلَهُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩)

وقوله سبحانه: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم...﴾ الآية: هذه آية خُوطِبَ بها جميع العالم، وال «موعظة»: القرآن؛ لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويرقق القلوب، ويعدو ويوعد، وهذه صفة «الكتاب العزيز»، وقوله: ﴿من ربكم﴾ يريد: لم يخلقها محمد ولا غيره، و﴿ما في الصدور﴾: يريد به الجهل ونحوه، وجعله موعظة بحسب الناس أجمع، وجعله هدى ورحمة بحسب المؤمنين فقط، وهذا تفسير صحيح المعنى، إذا تؤمل، بان وجهه.

وقوله سبحانه: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾، قال ابن عباس^(١) وغيره: الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن، وقال أبو سعيد الخدري: الفضل: القرآن، والرحمة: أن جعلهم من أهله.

وقال زيد بن أسلم والضحاك: الفضل: القرآن، والرحمة: الإسلام.

(١) أخرجه الطبري (٥٦٩/٦) برقم: (١٧٦٩٥)، وذكره ابن عطية (١٢٦/٣)، والسيوطي (٥٥٤/٣)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

قال * ع^(١) * : ولا وجه عندي لشيء من هذا التخصيص إلا أن يستند شيء منه إلى النبي ﷺ، وإنما الذي يقتضيه اللفظ، ويلزم منه أن الفضل : هو هداية الله تعالى إلى دينه، والتوفيق إلى اتباع شرعه، والرحمة هي عفوهُ وسكُنَى جَنَّتِهِ التي جعلها جزاءً على التشريع ب ٢٣٩ بالإسلام والإيمان به، ومعنى / الآية : قل، يا محمد، لجميع الناس : بفضل الله ورحمته فَلْيَقْعُ الفَرْحُ منكم، لا بأمور الدنيا وما يُجْمَعُ من حُطَامِهَا، فإن قيل : كيف أمر الله بالفَرْح في هذه الآية، وقد وَرَدَ ذمُّهُ في قوله : ﴿فَرِحَ فُحُورٌ﴾ [هود : ١٠] وفي قوله : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص : ٧٦].

قيل : إن الفرح إذا ورد مقيداً في خير، فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيداً في شر، أو مطلقاً لِحَقِّهِ ذمٌّ، إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حُزْنُهُ على دينه، وخوفه لرَبِّهِ.

وقوله : ﴿مما يجمعون﴾ : يريد : مآل الدنيا وحُطَامُهَا الفاني المُرْدِي في الآخرة.

وقوله سبحانه : ﴿قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً...﴾ الآية.

قال * ص * : ﴿أرايتم﴾ : مضمَّن معنى : أخبروني، و«ما» موصولة.

قال * ع^(٢) * : هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسوائب وغير ذلك، وقوله : ﴿أنزل﴾ : لفظة فيها تجوز.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْعَلُونَ فِيهِ وَمَا يَنْصُرُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

وقوله : ﴿وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ آية وعيد - لما تحقق عليهم بتقسيم الآية التي قبلها؛ أنهم مفترون على الله - عَظَّمَ في هذه الآية جُزْمَ آلافتراء، أي : ظَهِم في غاية الرداءة؛ بحسب سوء أفعالهم، ثم تُثْبِتُ بذكر الفضل على الناس في الإمهال لهم مع آلافتراء والعصيان؛ إذ الإمهال لهم داعية إلى التوبة والإنابة، ثم الآية تُعَمِّمُ

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (١٢٦/٣).

(٢) ينظر : «المحرر الوجيز» (١٢٧/٣).

جميع فضل الله سبحانه، وجميع تقصير الخلق.

وقوله سبحانه: ﴿وما تكون في شأن...﴾ الآية: مَقْصِدُ هذه الآية وضف إحاطة الله عز وجل بكل شيء، لا رب غيره، ومعنى اللفظ: وما تكون يا محمد، والمراد هو وَغَيْرُهُ في شأن من جميع الشؤون، ﴿وما تتلو منه﴾: الضمير عائذ على شأن أي: فيه وبسببه «من قرآن»، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن.

وقال * ص *: ضمير «منه» عائذ على «شأن» و﴿من قرآن﴾: تفسير للضمير. انتهى. وهو حسن، ثم عم سبحانه بقوله: ﴿ولا تعملون من عمل﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ تحذير وتنبية.

* ت *: وهذه الآية عظيمة الموقع لأهل المراقبة تثير من قلوبهم أسراراً، ويغترفون من بحر فيضها أنواراً، و﴿تفيضون﴾ معناه: تأخذون وتنهضون بجهد، ﴿وما يعزب﴾: معناه: وما يغيب ﴿عن ربك من مثقال ذرة﴾ والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ، ويحتمل ما كتبه الحفظة.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألا إن أولياء الله...﴾ الآية: «ألا» استفتاح وتنبية، و﴿أولياء الله﴾: هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يُعْطِي ظاهرها أن مَنْ آمَنَ واتقى الله، فهو داخل في أولياء الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي، وروي عن النبي ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ، مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «الَّذِينَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ذَكَرْتَ اللَّهَ»^(١).

قال: * ع ^(٢): وهذا وصف لازم للمتقين؛ لأنهم يَخْشَعُونَ وَيُخْشَعُونَ، وروي عنه ﷺ أيضاً أَنَّهُ قَالَ: «أَوْلِيَاءُ اللَّهِ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ، وَاجْتَمَعُوا فِي دَاتِهِ، لَمْ تَجْمَعْهُمْ قَرَابَةٌ وَلَا مَالٌ يَتَعَاطَوْنَهُ». وروى الدارقطني في «سننه» عن النبي ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «خِيَارُ عِبَادِ

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٨١) وقال: رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه، وذكره السيوطي في «الدر المشور» (٣/٥٥٦)، وزاد في نسبه إلى ابن المبارك، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/١٢٨).

اللَّهُ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللَّهُ، وَشَرُّ عِبَادِ اللَّهِ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلزُّبَرَاءِ الْعَيْبِ»^(١). انتهى من «الكوكب الدرّي».

وقوله: ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني: في الآخرة، ويحتمل في الدنيا لا يخافون أحداً من أهل الدنيا، ولا من أعراسها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأول أظهر، والعموم في ذلك صحيح: لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنيوي.

١٢٤٠ وذكر الطبري عن جماعة / من العلماء مثل ما في الحديث في الأولياء؛ أنهم هم الَّذِينَ إِذَا رَأَهُمْ أَحَدٌ، ذَكَرَ اللَّهَ، وروي فيهم حديث؛ «أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ قَوْمٌ يَتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ وَيَجْعَلُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، وَتُنِيرُ وُجُوهُهُمْ، فَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ لَا يَخَافُونَ وَلَا يَحْزَنُونَ»^(٢) وروى عمر بن الخطاب؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَاداً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ؛ لِمَكَاتِبِهِمْ مِنَ اللَّهِ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ، وَلَا أَمْوَالٍ...» الحديث، ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

* ت * وقد خرَّج هذا الحديث أبو داود والنسائي، قال أبو داود في هذا الحديث: قَوْلَ اللَّهِ، إِنَّ وَجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ، ذكره بإسناد آخر. انتهى.

ورواه أيضاً أبْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ» بِسَنَدِهِ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَأَعْقِلُوا، وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: انْعَتَهُمْ لَنَا، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَقَالَ: هُمْ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِ النَّاسِ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ، وَتَصَافَوْا فِيهِ، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيَجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُوراً وَيُنِيرُ بِهِمُ نُوراً، يَفْرَحُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ لَا يَفْرَعُونَ، وَهُمْ

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧/٤)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٦/٨)، وقال: رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد وبقية رجال أحمد أسانيد رجال الصحيح.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٠/٢ - ٣١١) كتاب «البيع» باب: في الرهن، حديث (٣٥٢٧)، وهناد بن السري في «الزهد» رقم: (٤٧٥)، والطبري في «تفسيره» (٩٢/١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٩٨ - ٨٩٩٩)، من حديث عمر بن الخطاب، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». انتهى^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى...﴾ الآية: أمّا بُشْرَى الآخرة، فهي بالجنّة؛ بلا خلاف قولاً واحداً، وذلك هو الفضل الكبير، وأمّا بُشْرَى الدنيا، فَتَظَاهَرَتِ الأحاديث من طرق، عن النبي ﷺ؛ أَنَّهَا «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ»^(٢)، وقال قتادة والضّحّاك: البُشْرَى في الدنيا: هي ما يُبَشِّرُ به المؤمنُ عند موته، وهو حيٌّ عند المعاينة، ويصح أن تكون بُشْرَى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبيّرات؛ ويقوَّى ذلك بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، ويؤوّل قوله ﷺ: «هي الرؤيا» أنه أعطى مثلاً يعم جميع الناس.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: يريد: لا خُلفَ لمواعيده، ولا ردّ في أمره، وقد أخذ ذلك ابنُ عُمَرَ على نحو غير هذا، وجعلَ التبديلَ المنفيَّ في الألفاظ، وذلك أنّه روي أنّ الحجاجَ خَطَبَ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ بَدَّلَ كِتَابَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣)، وأبو يعلى (١٢/٢٣٣ - ٢٣٤) رقم: (٦٨٤٢)، والطبري (١١/٩٢)، وابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٤٨ - ٢٤٩) رقم: (٧١٤)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٦)، والطبراني في «الكبير» (٣٤٣٣ - ٣٤٣٤ - ٣٤٣٥) من طريق شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري به، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٧٩ - ٢٨٠) وقال: رواه أحمد، والطبراني، ورجاله وثقوا.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٨)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه. (٢) أخرجه الترمذي (٤/٥٣٤ - ٥٣٥) كتاب «الرؤيا» باب: قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى في الحياة الدنيا﴾، حديث (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٢/١٢٨٣) كتاب «تعبير الرؤيا» باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٨)، والدارمي (٢/١٢٣) كتاب «الرؤيا» باب: في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى في الحياة الدنيا﴾، وأحمد (٥/٣١٥) والطبري في «تفسيره» (٦/٥٧٧) رقم: (١٧٧٣٣ - ١٧٧٣٤)، والحاكم (٢/٣٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/١٨٥ - ١٨٦) رقم: (٤٧٥٣)، والطيالسي (٢/١٩ - منحة) رقم: (١٩٥٥)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم: (٢٣٨) كلهم من طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن عباد بن الصامت به، وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٩)، وزاد نسبه إلى الهيثم بن كليب، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وأخرجه الترمذي (٤/٥٣٤) كتاب «الرؤيا» باب: قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى في الحياة الدنيا﴾، حديث (٢٢٧٣)، وأحمد (٦/٤٥٢)، وابن أبي شيبه (١١/٥١)، والطبري في «تفسيره» (٦/٥٧٧ - ٥٧٨) رقم: (١٧٧٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/١٨٥) رقم (٤٧٥٢) كلهم من طريق عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٥٩)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ أَنْتَ، وَلَا أَبْنُ الزُّبَيْرِ؛ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا النَّظَرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي غَيْرِ مُقَاوَلَةِ الْحَجَّاجِ، ذَكَرَهُ الْبَخَارِيُّ^(١).

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥) ﴿إِنَّكَ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنَ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾: أي: قول قُرَيْشٍ، فهذه الآية تسليّة للنبي ﷺ، ولفظة القول تعمّ جحودهم واستهزاءهم وخداعهم وغير ذلك، ثم ابتداء تعالى، فقال ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: لا يقدرُونَ لَكَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا يُوْذُونَكَ، إِلَّا بِمَا شَاءَ اللَّهُ، ففِي الْآيَةِ وَعِيدٌ لَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَفْتَحَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بِالْمُلْكِ وَالْإِحَاطَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾: يصح أن تكون «ما» استفهاماً، ويصح أن تكون نافيةً.

* ت * : ورجح هذا الثاني.

وقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ «إِنْ»: نافية، و﴿يَخْرُصُونَ﴾: معناه: يَخْدِسُونَ وَيُخَمِّنُونَ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾ الآية: فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ إِيجَازٌ وَإِحَالَةٌ عَلَى ذِهْنِ السَّامِعِ؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ فِي أَنَّ اللَّيْلَ مُظْلِمٌ يُسْكِنُ فِيهِ، وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ يُتَصَرَّفُ فِيهِ، فَذَكَرَ طَرَفًا مِنْ هَذَا وَطَرَفًا مِنَ الْجِهَةِ الثَّانِيَةِ، وَدَلَّ الْمَذْكُورَانِ عَلَى الْمَتْرُوكَيْنِ.

وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾/ يريد: يوعون، والضمير في ﴿قَالُوا﴾ لكفار العرب، ثم الآية

ب ٢٤٠

بعدُ تعمُّ كلَّ من قال نحو هذا القول؛ كالتَّصَارَى، و﴿سبحانه﴾ معناه: «تنزيهاً له، وبراءةً من ذلك»؛ فسره بهذا النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ «إِنْ» نافيةٌ، والسلطانُ: الحُجَّةُ، وكذلك معناه حيث تكرر في القرآن، ثم وبَّخهم تعالى بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ...﴾ الآية: توعدُّ لهم بأنهم لا يظفرون ببُغْيَةٍ، ولا يَبْقَوْنَ في نعمة، إذ هذه حالُ مَنْ يصير إلى العذاب، وإنَّ نَعَمَ في دنياه يسيراً.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)
 ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ نَارًا تُوقِعُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا كَانَتْ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (٧١)
 ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ فَمَا سَاءَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢)

وقوله تعالى: ﴿متاع﴾ مرفوعٌ على خبر ابتداء؛ أي: ذلك متاعٌ.

قال * ص *: ﴿متاع﴾ جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنه قيل: كيف لا يُفْلَحُونَ، وهُم في الدنيا مفلحون بأنواعِ التلذذات؟! فقيل: ذَلِكَ مَتَاعٌ، فهو خبر مبتدئٍ محذوف. انتهى، وهذا الذي قدره * ص *: يُفْهَمُ من كلام * ص * (١).

وقول نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي...﴾ الآية: المَقَامُ: وقوف الرجل لكلام أو خطبة أو نحوه، والمَقَام - بضم الميم -: إقامته ساكناً في موضع أو بليد، ولم يقرأ هنا بضمِّ الميم فيما علمت، وتذكيره: وعظه وزجره، وقوله: ﴿فأجمعوا﴾: من أَجْمَعَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّيْءِ، إذا عزم عليه؛ ومنه الحديث: ما لم يجمع مكشاً، و﴿أمركم﴾: يريد به: قُدِّرْتُكُمْ وَجِلَّتْكُمْ، ونصب «الشركاء» بفعل مضمر؛ كأنه قال: وَاذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ؛ فهو مِنْ باب: [الرجز]

عَلَفْتُهَا تَبْنَأُ وَمَاءٌ بَارِداً حَتَّى شَتَّتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا (٢)

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣١/٣).

(٢) ينظر: البيت بلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (١٠٨/٢)، و«الخصائص» (٤٣١/٢)، و«الدرر» (٦/٧٩)، و«شرح الأشموني» (٢٢٦/١)، و«شرح التصريح» (٣٤٦/١)، و«شرح ديوان الحماسة للمرزوقي» ص: (١١٤٧)، و«شرح شذور الذهب» ص: (٣١٢)، و«شرح شواهد المغني» (٥٨/١)، (٩٢٩/٢)، =

وفي مصحف أبي: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» قال الفارسي^(١): وقد يتصب «الشركاء» بـ«واو مع»؛ كما قالوا: جَاءَ الْبَرْدُ وَالطَّيَالِسَةُ^(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: أي: ملتبساً مشكلاً؛ ومنه قوله عليه السلام في الهلال: «فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ».

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾: أي: أنفذوا قضاءكم نحوي، ولا تؤخروني، والنَّظَرَةُ: التأخير.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَةً وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥)

وقوله سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَةً﴾: مضى شرح هذه المعاني.

وقوله سبحانه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾: مخاطبة للنبي ﷺ يشاركه في معناها جميع الخلق.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾: الضمير في ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ عائذ على نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾: معنى هذه الآية ضَرْبُ المثل لحاضري نبينا محمد عليه السلام؛ ليعتبروا بمن سلف، و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات، والضمائر في ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وفي ﴿كَذَّبُوا﴾ تعود الثلاثة على قوم الرسل، وقيل: الضمير في كَذَّبُوا يعود على «قوم نوح» وقد تقدّم تفسير نظيرها «في الأعراف».

= وشرح ابن عقيل ص: (٣٠٥)، و«لسان العرب» (٢٨٧/٢) (زجج)، (٣٦٧/٣) (قلد)، (٢٥٥/٩) (علف)، و«مغني اللبيب» (٦٣٢/٢)، و«المقاصد النحوية» (١٠١/٣)، و«معجم الهوامع» (١٣٠/٢).

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٢٨٩/٤).

(٢) الطَّلَسَانُ: ضَرْبٌ مِنَ الْأَكْسِيَةِ.

ينظر: «لسان العرب» (٢٦٨٩) (طلس).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمْ الْكِبَرِيَّةَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ الآية: يريد بـ ﴿الحق﴾ آتِي العَصَا واليد.

وقوله: ﴿أسخر هذا﴾: قالت فرقة: هو حكاية عن موسى عنهم، ثم أخبرهم موسى عن الله؛ أَنَّ السَّاحِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ، ثم اختلفوا في معنى قول قوم فرعون، فقال بعضهم: قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأمر، فهو يسأل عنه، وهذا ضعيف، وقال بعضهم: بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأوه، وقالت فرقة: ليس ذلك حكاية عن موسى عنهم، وإنما هو من كلام موسى، وتقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم سحر، ثم ابتداء يوقفهم بقوله: ﴿أسخر / هذا﴾ على جهة التوبيخ.

١٢٤١

وقولهم: ﴿لتلفتنا﴾: أي: لتصرفنا وتلوينا وتردنا عن دين آبائنا، يقال: لفت الرجل عُنُقَ الآخر؛ إذا ألواه، ومنه قولهم: أَلْتَفَتَ؛ فَإِنَّهُ أَفْتَعَلَ مِنْ لَفَتَ عُنُقَهُ إِذَا أَلَوَاهُ، و﴿الكبرياء﴾: مضدر من الكبر، والمراد به في هذا الموضع المُلْك؛ قاله أكثر المتأولين؛ لأنه أعظم تكبر الدنيا، وقرأ أبو عمرو وحده: «به السُّخْرُ» - بهمزة أستفام ممدودة -، وفي قراءة^(١) أبي: «مَا أَتَيْتُمْ بِهِ سِحْرٌ»، والتعريف هنا في السُّخْرِ أَرْزَبُ؛ لأنه تقدّم منكرًا في قولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ﴾، فجاء هنا بلام العهد.

قال * ص *: قال الفراء: إنما قال: «السُّخْرُ» بـ «أل»، لأن النكرة إذا أعيدت، أعيدت بـ «أل»، وتبعه ابن عطية^(٢)، وردّ بأن شرط ما ذكره اتّحَاد مدلول النكرة المعادة؛ كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥]، وهنا السُّخْر المنكر هو ما أتى به موسى، والمعروف ما أتوا به هم، فأخْتَلَفَ [١٦]

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٢٨)، «الحجة» (٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠)، «حجة القراءات» ص: (٣٣٥)، «إعراب

القراءات» (١/ ٢٧٢)، و«إنحاف فضلاء البشر» (٢/ ١١٨)، و«شرح شعله» (٤٢٣)، و«إنحاف» (٢/

١١٨)، و«العنوان» (١٠٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٣٥).

مدلولهما، وألاستفهامُ هنا: على سبيل التحقير. انتهى. وهو حسن.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيِّطِلُهُ﴾: إيجاب عن عِدَّةٍ من الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمَفْسِدِينَ﴾: يحتمل أن يكون ابتداءً خَبَرٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ويحتملُ أن يكون من كلام موسى عليه السلام، وكذلك قوله: ﴿وَيَحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ...﴾ الآية، محتملٌ للوجهين، وكون ذلك كله من كلام موسى أقرب، وهو الذي ذكر^(١) الطبري، وأما قوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾: فمعناه بكلماته السابقة الأزليَّة في الوعد بذلك.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾: اختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿قومه﴾، فقالت فرقة: هو عائذ على موسى، وذلك في أول مبعثه، ومَلَأُ الذُّرِّيَّةَ، هم أشراف بني إسرائيل.

قال * ص *: وهذا هو الظاهر، وقالت فرقة: الضمير في ﴿قومه﴾ عائذ على ﴿فرعون﴾، وضمير ﴿مَلَأْنَاهُمْ﴾ عائذ على الذرِّيَّة.

قال * ع *: ومما يضعفُ عودَ الضميرِ على موسى: أَنَّ المعروفَ مِن أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قومًا تقدَّمت فيهم النبوءات، ولم يُحْفَظْ قَطُّ أَنَّ طائفةً من بني إسرائيل كَفَرَتْ به، فدلَّ على أن الذرِّيَّةَ مِن قوم فرعون.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا...﴾ الآية: هذا ابتداءً حكاية قول موسى لجماعة بني إسرائيل؛ مُؤَسِّسًا لَهُمْ، وندابًا إلى التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ الذي بيده النصرُ قال المُحَاسِبِيُّ: قُلْتُ لأبي جعفرٍ محمد بن موسى: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] فما السَّبِيلُ إِلَى هذا التوكُّل الذي نَدَبَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وكيف دُخُولُ النَّاسِ فِيهِ؟ قال: إِنَّ النَّاسَ مُتَفَاوِثُونَ فِي التَّوَكُّلِ، وَتَوَكَّلُهُمْ عَلَى قَدَرِ إِيْمَانِهِمْ وَقُوَّةِ عُلُومِهِمْ، قُلْتُ: فما معنى إِيْمَانِهِمْ؟ قال: تصديقُهُمْ بِمَوَاعِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَثِقَتُهُمْ بِضَمَانِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قُلْتُ: مِنْ أَيِّنَ فَضَلَّتِ الْخَاصَّةُ

منهم على العامة، والتوكل في عقد الإيمان مع كل من آمن بالله عز وجل؟ قال: إن الذي فضلت به الخاصة على العامة دوام سكون القلب عن الاضطراب والهدوء عن الحركة، فعندها، يا فتى، استراحوا من عذاب الجزص، وفكوا من أسر الطمع، وأغثقوا من عبودية الدنيا، وأبنايها، وحطوا بالروح في الدارين جميعاً، فطوبى لهم وحسن مآب، قلت: فما الذي يولد هذا؟ قال: حالتان:

دوام لزوم المعرفة، والأعتماد على الله عز وجل، وترك الحيل.

والثانية: الممارسة حتى يألّفها إنفاً، ويختارها اختياراً، فيصير التوكل والهدوء والسكون والرضا والصبر له شعاراً وداراً. انتهى من «كتاب القصد إلى الله سبحانه».

وقولهم: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾: المعنى: لا تنزل بنا بلاء بأيديهم أو بغير ذلك / مدة محاربتنا لهم؛ فيفتنون لذلك، ويعتقدون صلاح دينهم، وفساد ديننا؛ قاله ٢٤١ ب مجاهد وغيره، فهذا الدعاء على هذا التأويل يتضمن دفع فصلين:

أحدهما: القتل والبلاء الذي توقعه المؤمنون.

والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق.

ونحو هذا قوله ﷺ: «بئس الميث أبو أمانة لليهود والمشرّكين يقولون: لو كان نبياً لم يمت صاحبه»^(١).

ورجح * ع^(٢) في «سورة الممتحنة: ٥» قول ابن عباس: إن معنى: ﴿لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾: لا تسلطهم علينا؛ يفتنونا؛ أنظره هناك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَنذَرْنَا أَن تَبَوَّأَ لِقَوْمِكَ بِعِصْرٍ بِيُونَا وَاجْعَلُوا يُونَا قِتْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴿ وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلَقْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ

(١) أخرجه أحمد (٤/١٣٨)، والحاكم (٤/٢١٤)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٩٦).

مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا﴾ رُوي: أَنْ فرعون أَخَافَ بني إِسْرَائِيلَ، وَهَدَّمْ لَهُمْ مَوَاضِعَ كَانُوا اتَّخَذُوهَا لِلصَّلَاةِ، وَنَحْنُ هَذَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، أَنْ تَبَوَّءَا أَيَّ: اتَّخَذَا وَتَحَيَّرَا لبني إِسْرَائِيلَ بِمِصْرَ بَيْوتًا، قَالَ مجاهد: مِصْرُ؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ^(١)، وَمِصْرُ مَا بَيْنَ أَسْوَانَ^(٢) وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: قِيلَ: مَعْنَاهُ: مَسَاجِدُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ^(٤)، قَالُوا: خَافُوا، فَأَمَرُوا بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِهِمْ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُوْجَّهَةٌ إِلَى الْقِبْلَةِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥)، وَمِنْ هَذَا حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ بُيُوتِكُمْ مَا اسْتَقْبَلَ بِهِ الْقِبْلَةَ»^(٦).

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: خُطَابُ لبني إِسْرَائِيلَ، وَهَذَا قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ إِلَّا بَعْدَ إِجَازَةِ الْبَحْرِ.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَمْرٌ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ وَمَكِّيٌّ: هُوَ أَمْرٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا غَيْرُ مُتِمِّكِنٍ.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ زِينَةً...﴾ الْآيَةُ: هَذَا

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٩٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٨٢٩) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٣٨/٣)، وَالبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٥/٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٢٨/٢) نَحْوَهُ، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٥٦٦/٣) وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

(٢) بِالضَّمِّ، ثُمَّ السَّكُونُ، وَوَاوٌ وَأَلْفٌ وَنُونٌ. وَيُقَالُ: بِغَيْرِ هَمْزَةٍ: مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ، وَكَوْرَةٌ فِي آخِرِ الصَّعِيدِ. وَأَوَّلُ بِلَادِ الثُّوبَةِ، عَلَى النَّيْلِ فِي شَرْقِيَّتِهِ، فِي جِبَالِهَا مَقَطَعُ الْعَمَدِ الَّتِي بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، يَنْظُرُ: «مَرَاصِدُ الْإِطْلَاعِ» (٧٨/١).

(٣) بَنَى الْإِسْكََنْدَرُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَدِينَةً وَسَمَّاها كُلَّهَا بِاسْمِهِ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ أَسْمَاؤها بَعْدَهُ، وَالْمَشْهُورُ بِهَذَا الْأَسْمِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ الْعَظْمَى فِي بِلَادِ مِصْرَ. يَنْظُرُ: «مَرَاصِدُ الْإِطْلَاعِ» (٧٦/١).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٩٦/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٨٠٨ - ١٧٨٠٩ - ١٧٨١٠)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٣٨/٦)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٥٦٦/٣)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى الْفَرَيَابِيِّ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ، وَابْنَ مَرْدُوَيْهِ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٩٧/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٨٢٤) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٣٨/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٥٦٦/٣) بِنَحْوِهِ، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ مَرْدُوَيْهِ.

(٦) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ بِلَفْظٍ: خَيْرُ مَجَالِسِكُمْ مَا اسْتَقْبَلَ بِهِ الْقِبْلَةَ.

غَضِبَ من موسى على القبط، ودعاء عليهم، لَمَّا عَتَوْا وعاندوا، وقَدَّم للدعاء تقريرَ نعم الله عليهم وكُفِّرهم بها، و﴿آتَيْنَ﴾ معناه: أَعْطَيْنَ، واللام في ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ لام كُنْي، ويحتمل أن تكون لامَ الصَّيْرورة والعاقبة، المعنى: آتَيْتَهُمْ ذَلِكَ، فصار أمرهم إلى كذا، وقرأ حمزة وغيره: «لِيُضِلُّوْا» (بضم الياء)؛ على معنى: لِيُضِلُّوْا غيرهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾: هو من طُمُوسِ الأثر والعين؛ وَطَمَسُ الوجوه منه، وتكرير قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ استغاثته؛ كما يقول الداعي: يا الله، يا الله، روي أنهم حين دعا موسى بهذه الدعوة، رَجَعَ سَكْرُهُمْ حجارة، ودراهمهم ودنانيرهم وَخُبُوبُ أطعمتهم، رَجَعَتْ حجارة؛ قاله قتادة وغيره^(١)، وقال مجاهد وغيره: معناه: أَهْلِكْهَا ودمرها^(٢).

وقوله: ﴿واشدد على قلوبهم﴾: بمعنى: أَطْبَعْ وَأَخْتِمَ عليهم بالكفر؛ قاله مجاهد والضَّحَّاك^(٣).

وقوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُوا﴾: مذهب الأخفش وغيره: أَنَّ الفعل منصوب؛ عطفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّوْا﴾، وقيل: منصوبٌ في جواب الأمر، وقال الفراء والكسائي: هو مجزومٌ على الدعاء، وجعل رؤية العذاب نهايةً وغايةً؛ وذلك لِعِلْمِهِ من الله أَنَّ المؤمن عند رؤية العَذَاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت، ولا يُخْرِجُهُ من كُفْرِهِ، ثم أجاب الله دعوتهما، قال ابن عباس: العَذَابُ هنا: العَرَقُ^(٤)، وروي أن هارون كان يُؤْمِنُ على دعاء موسى؛ فلذلك نَسَب الدعوة إليهما؛ قاله محمد بن كَعْب القُرْظِيُّ^(٥)، قال البخاري: ﴿وَعَذُوا﴾: من العُدْوَان. انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٦٠٠/٦) برقم: (١٧٨٣٨، ١٧٨٤٠) نحوه، وبرقم: (١٧٨٣٤، ١٧٨٣٥)، عن محمد بن كعب القرظي (١٧٨٣٦) عن أبي العالية بنحوه، وبرقم: (١٧٨٤٠)، عن سفيان، برقم: (١٧٨٤١)، عن أبي صالح، نحوه، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٣٦٥ - ٣٦٦)، عن قتادة، ومحمد بن كعب، وابن عباس نحوه، وابن كثير (٤٢٩/٢) نحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٦٧).

(٢) أخرجه الطبري (٦٠٠/٦ - ٦٠١) برقم: (١٧٨٤٥ - ١٧٨٤٦، ١٧٨٤٧، ١٧٨٤٨)، عن ابن عباس نحوه، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٣٦٥)، عن مجاهد نحوه، وابن كثير (٤٢٩/٢)، عن ابن عباس، ومجاهد، نحوه، والسيوطي في (٣/٥٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (٦٠١/٦) برقم: (١٧٨٥١، ١٧٨٥٤)، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦٠١/٦) برقم: (١٧٨٤٩، ١٧٨٥٠) نحوه، وذكره ابن عطية (١٣٩/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٦٠٣/٦) برقم: (١٧٨٦٣ - ١٧٨٦٤) نحوه، وذكره ابن عطية (٣/١٤٠)، وابن كثير (٤٢٩/٢) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/٥٦٧) نحوه.

وقول فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية: روي عن النبي ﷺ «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَا أَبْغَضْتُ أَحَدًا قَطُّ بُغْضِي لِفِرْعَوْنَ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿آمَنْتُ...﴾ الآية، فَأَخَذْتُ مِنْ حَالِ النَّحْرِ، فَمَلَأْتُ فَمَهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ تَلْحَقَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ»، وفي بعض الطرق: «مَخَافَةَ أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَتَلْحَقَهُ الرَّحْمَةُ»^(١).

قال ع*^(٢): فانظر إلى كلام فرعون، ففيه مَجْهَلَةٌ وَتَلَعُثْمٌ، وَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِي جَهْلٍ هَذَا، وَإِنَّمَا الْعُذْرُ فِيمَا لَا سَبِيلَ / إِلَى عِلْمِهِ، كَقَوْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَهْلَلْتُ بِإِهْلَالِكِ كَاهِلَالِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْحَالُ: الطَّيْنُ، وَالْآثَارُ بِهَذَا كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْفَاظِ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ﴾، وهذا على جهة التوبيخ له، والإعلان بالنقمة منه، وهذا الكلام يحتمل أن يكون مِنْ مَلِكٍ مُوَصَّلٍ عَنِ اللَّهِ، أَوْ كَيْفَ شَاءَ اللَّهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مَعْنَى حَالِهِ وَصُورَةِ خِزْيِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي رَدِّ تَوْبَةِ الْمُعَايِنِ.

﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِيكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْآلَمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٩٣)

وقوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِيكَ بِدَنِكَ...﴾ الآية: يَقْوِي أَنَّهُ صُورَةٌ حَالِهِ؛ لِأَنَّهُ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِنَّمَا يَظْهَرُ أَنَّهَا قِيلَتْ بَعْدَ غَرَقِهِ، وَسَبَبُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ؛ عَلَى مَا رَوَى: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعُدَ عَنْهُمْ غَرَقُ فِرْعَوْنَ وَهَلَاكُهُ، لِعِظَمِهِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَكَذَّبَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ فِرْعَوْنُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٧) من طريق علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: حديث حسن. ومن طريق علي أخرجه الطبري (٦٠٥/٦) رقم: (١٧٨٧٥).

وأخرجه الترمذي (٢٨٧/٥ - ٢٨٨) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٨)، والحاكم (٣٤٠/٢)، والطبري (٦٠٥/٦) رقم: (١٧٨٧٢ - ١٧٨٧٣)، من طريق شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤١/٣).

يموت، فَنجِّي عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، حتى رآه جميعهم ميتاً؛ كأنه نُورٌ أحمر، وتحققوا غَرْقَهُ.

والجمهور^(١) على تشديد ﴿نُنَجِّيكَ﴾؛ فقالت فرقة: معناه: من النجاة، أي: من غمرات البحر والماء، وقال جماعة: معناه: نُلقِيكَ على نجوة من الأرض، وهي: ما ارتفع منها، وقرأ يعقوب^(٢) بسكون النون وتخفيف الجيم، وقوله: ﴿يَبْدِنَكَ﴾ قالت فرقة: معناه: بشخصيك، وقالت فرقة: معناه: يبرزك، وقرأ الجمهور^(٣): «خَلَقَكَ»، أي: من أتى بعدك، وقرأ شاذاً: «لِمَنْ خَلَقَكَ»^(٤) - بفتح اللام -، والمعنى: ليجعلك الله آية له في عباده، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل موباً صدقٍ ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾: المعنى: ولقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار، وأحللناهم من الأماكن أحسن محل، و﴿موباً صدق﴾: أي: يصدق فيه ظن قاصده وساكنته، ويعني بهذه الآية إحلالهم بلاد الشام وبيت المقدس؛ قاله قتادة وابن زيد، وقيل: بلاد الشام ومصر، والأول أصح، وقوله سبحانه: ﴿فما اختلفوا﴾ أي: في نبوة نبينا محمد عليه السلام، وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأولين كلهم، وهو تأويل يحتاج إلى سند، والتأويل الثاني الذي يحتمله اللفظ: أن بني إسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى في أول حاله، فلما جاءهم العلم والأوامر، وعرق فرعون، اختلفوا، فالآية دائمة لهم.

* ت * : قرَّ رحمہ اللہ من التخصيص، فوقع فيه، فلو عمم اختلافهم على أنبيائهم موسى وغيره، وعلى نبينا، لكان أحسن، وما ذهب إليه المتأولون من التخصيص أحسن لقرينة قوله: ﴿فإن كنت في شك﴾، فالربط بين الآيتين واضح، والله أعلم.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٢/٣)، و«البحر المحيط» (١٨٩/٥)، و«الدر المصون» (٦٧/٤).

(٢) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر» (١٢٠/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٤٢/٣)، و«البحر المحيط» (١٨٩/٥)، و«الدر المصون» (٦٧/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٢/٣).

(٤) قرأ بها إسماعيل المكي، كما في «الشواذ» ص: (٦٣) وينظر: «البحر المحيط» (١٨٩/٥).

حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ...﴾ الآية: الصواب في معنى الآية: أنها مخاطبة للنبي ﷺ، والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض.

* ت * : ورؤينا عن أبي داود سليمان بن الأشعث، قال: حدثنا أحمد بن حنبل، قال: حدثنا يزيد بن هارون، قال: حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «المراء في القرآن كفر»^(١)، قال عياض في «الشفاء»: تأول بمعنى «الشك»، وبمعنى «الجدال». انتهى.

«والذين يقرءون الكتاب من قبلك»: من أسلم من أهل الكتاب، كآبَن سَلَام وغيره، وروي عن النبي ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية: «أَنَا لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ»^(٢)، ثم جزم سبحانه الخبر بقوله: «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ»، واللام في «لَقَدْ» لام قسم.

وقوله: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يريد به: من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في أمره إلا من بعد مجيئه عليه السلام؛ هذا قول أهل التأويل قاطبة.

قال * ع *^(٣): وهذا هو الذي يشبه أن تُرَجَى إزالة الشك فيه من قبل أهل الكتاب،

(١) أخرجه أبو داود (٦١٠/٢) كتاب «السنة» باب: النهي عن الجدال في القرآن، حديث (٤٦٠٣)، وأحمد (٢٨٦/٢)، ٤٢٤، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨، وابن حبان (٥٩ - موارد)، والحاكم (٢٢٣/٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٣/٨)، وفي «أخبار أصبهان» (١٢٣/٢) كلهم من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به، وأخرجه أحمد (٢٥٨/٢)، وابن أبي شيبه (٥٢٩/١٠)، وأبو يعلى (١٠/٣٠٣) رقم: (٥٨٩٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨١/٤)، من طريق سعد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة به. وأخرجه أحمد (٤٧٨/٢)، (٤٩٤)، والحاكم (٢٢٣/٢) كلاهما من طريق سعد بن إبراهيم، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

وأخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٧٤/١) من طريق شعيب بن أبي حمزة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به. قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٧٤/٢) رقم: (١٧١٤)، عن أبيه: هذا حديث مضطرب، ليس هو صحيح الإسناد اهـ.

وفي الباب عن عمرو بن العاص: أخرجه أحمد (٢٠٤ - ٢٠٥)، وعن عبد الله بن عمرو: أخرجه الطيالسي (٦/٢ - منحة) رقم: (١٩٠٢).

وعن زيد بن ثابت: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٥٢/٥) رقم: (٤٩١٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦١٠/٦) برقم: (١٧٩٠٧) عن قتادة مرسلاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧١/٣)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٣/٣).

وَيَحْتَمِلُ اللَّفْظُ أَنْ يَرِيدَ بـ ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ / جميعَ الشرع.

ب ٢٤٢

* ت * : وهذا التأويلُ عندي أُبَيِّنُ إِذَا لُخِصَ، وإن كان قد أَسْتَبَعَدَهُ * ع^(١) * :
ويكون المراد بـ ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ : مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ قِصَصِهِمْ، وَذَكَرَ صِفَتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَذَكَرَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصِفَتِهِمْ وَسِيرَهُمْ وَسَائِرَ أَخْبَارِهِمُ الْمَوَافِقَةَ لِمَا فِي كِتَابِهِمُ الْمُنْزَلَةَ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ؛
كَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالصُّحُفِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ تَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿مَا كَانَ
حَدِيثًا يَفْتَرِي وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ [يوسف: ١١١]، فَتَأْمَلْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وأما قوله: هذا قولُ أهلِ التأويلِ قاطبةً، فليس كذلك، وقد تكلَّم صاحبُ «الشفاء»
على الآية، فَأَحْسَنَ، وَلَفْظُهُ: واختلف في معنى الآية، فَقِيلَ: المرادُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلشَّاكِّ:
﴿إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ...﴾ الآية، قالوا: وفي السورة نَفْسُهَا مَا دُلَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَهُوَ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي...﴾ الآية [يونس: ١٠٤]، ثُمَّ
قَالَ عِيَّاضٌ: وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الشَّكَّ: الَّذِي أَمَرَ غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِسُؤَالِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ
عَنْهُ، إِنَّمَا هُوَ فِي مَا قَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ، لَا فِيمَا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ
وَالشَّرِيعَةِ. انْتَهَى.

وقوله سُبْحَانَهُ : ﴿فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ...﴾ الآية: مِمَّا خَوِطَبَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَالْمُرَادُ سِوَاهُ.

قال * ع^(٢) * : وَلِهَذَا فَائِدَةٌ لَيْسَتْ فِي مَخَاطَبَةِ النَّاسِ بِهِ، وَذَلِكَ شِدَّةُ التَّخْوِيفِ؛ لِأَنَّهُ
إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَذِّرُ مِنْ مِثْلِ هَذَا، فَغَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ أَوْلَى أَنْ يَحْذَرَ وَيَتَّقَى عَلَى
نَفْسِهِ.

وقوله سُبْحَانَهُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ : أَي: حَقٌّ عَلَيْهِمْ فِي الْأَزَلِ
وَخَلَقِهِمْ لِعَذَابِهِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ إِلَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَنْفَعُهُمْ فِيهِ
الْإِيمَانُ؛ كَمَا صَنَعَ فِرْعَوْنُ وَأَشْبَاهُهُ، وَذَلِكَ وَقْتُ الْمُعَايَنَةِ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِطَابَ الْخِزْيِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ
النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٣/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٣/٣).

الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ ﴿﴾

وقوله سبحانه: ﴿فلولا كانت قرية آمنت...﴾ الآية: وفي مصحف أبي وابن مسعود: «فَهَلَّا»، والمعنى فيهما واحد، وأصل «لولا» التحضيض، أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره، ومعنى الآية: فَهَلَّا آمَنَ أَهْلُ قَرْيَةٍ، وهم على مَهَلٍ لم يتلبس العذاب بهم، فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذا الحال، ثم استثنى قوم يونس، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وهو بحسب المعنى متصل لأن تقديره: ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس، وروي في قصة قوم يونس: أن القوم لما كفروا، أي: تماذوا على كفرهم، أوحى الله تعالى إليه؛ أن أنذرهم بالعذاب لثالثه، ففعل، فقالوا: هو رجل لا يكذب، فأزقوه فإن أقام بين أظهركم، فلا عليكم، وإن أرتحل عنكم، فهو نزول العذاب لا شك فيه، فلما كان الليل، تزود يونس، وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله، وآمنوا، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وكان العذاب فيما روي عن ابن عباس: على ثلثي ميل منهم^(٢)، وروي: على ميل^(٣)، وقال ابن جبير^(٤): غشيهم العذاب؛ كما يغشى الثوب القبر، فرفع الله عنهم العذاب، فلما مضت الثالثة، وعلم يونس أن العذاب لم ينزل بهم، قال: كيف أنصرف، وقد وجدوني في كذب، فذهب مغاضباً؛ كما ذكر الله سبحانه في غير هذه الآية، وذهب^(٥) الطبري إلى أن قوم يونس خضوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاناة العذاب، وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وليس كذلك، والمعاناة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أو الموت بشخص الإنسان، كقصة فرعون، وأما قوم يونس فلم يصلوا هذا الحد.

* ت * : وما قاله الطبري عندي أبين، ﴿ومتعناهم إلى حين﴾: يريد: إلى آجالهم المقدرة في الأزل، وروي أن قوم يونس / كانوا بـ«نينوى» من أرض الموصل.

وقوله سبحانه: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾: المعنى: أفأنت تكره

(١) ينظر: «الكشاف» (٣٧١/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٤٣/٣)، و«البحر المحيط» (١٩٢/٥)، و«الدر المصون» (٦٩/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٦١٣/٦) برقم: (١٧٩١٥)، وذكره ابن عطية (١٤٤/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٥٧٣/٣)، وعزاه لأحمد، وابن جرير.

(٣) ذكره ابن عطية (١٤٤/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦١٣/٦) برقم: (١٧٩١٤)، وذكره ابن عطية (١٤٤/٣) والسيوطي في «الدر المثور» (٥٧٣/٣)، وعزاه لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦١٤/٦) بنحوه.

الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم، والله عز وجل قد شاء غير ذلك، و﴿الرَّجْسُ﴾ هنا بمعنى العذاب.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: هذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع من آيات السموات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: أنظروا في ذلك بالواجب، فهو ينهيكم إلى المعرفة بالله وبوحدانيته، ثم أخبر سبحانه أن الآيات والنذر - وهم الأنبياء - لا تغني إلا بمشيئته؛ ف«ما»؛ على هذا: نافية، ويجوز أن تكون استفهاماً في ضمنه نفي وقوع العنى، وفي الآية على هذا: توبيخ لحاضري النبي ﷺ.

قال * ص * : و﴿النُّذُرُ﴾: جمع نذير، إما مصدر بمعنى الإنذارات، وإما بمعنى مُنْذِر. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية: وعيد إذا لجؤا في الكفر، حل بهم العذاب.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي: عادة الله سَلَفَتْ بإنجاء رسله ومتبعيهم عند نزول العذاب بالكفرة ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال * ص * : أي: مثل ذلك الإنجاء الذي نجينا الرسل ومؤمنيهم نُنجي من آمن بك. انتهى، وخط المصحف في هذه اللفظة «نُنج» بجيم مطلقة دون ياء، وكلهم قرأ «نُنج» - مشددة الجيم - إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم؛ فإنهما قرأ بسكون النون وتخفيف الجيم^(١).

﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(١) ينظر: «السبعة» ص: (٣٣٠)، «الحجة للقراء السبعة» (٤/٣٠٥)، «حجة القراءات» ص: (٣٣٧)، و«إعراب القراءات» (١/٢٧٥ - ٢٧٦)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/١٢٠)، و«شرح شعلة» (٤٢٥)، و«العنوان» (١٠٦).

﴿١٥٠﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل يأَيها الناس إن كنتم في شك من ديني . . .﴾ الآية، مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ للدين . . .﴾ الآية: الوجه في هذه الآية بمعنى المنحى والمقصد، أي: أجعل طريقك وأعتمالك للدين والشرع.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكوننَّ من المشركين * ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك . . .﴾ الآية، قد تقدّم أن ما كان من هذا النوع، فالخطاب فيه للنبي ﷺ، والمراد غيره.

وقوله سبحانه: ﴿وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو . . .﴾ الآية: مقصود هذه الآية أن الحول والقوة لله، والـ ﴿ضرٌّ﴾ لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان.

وقوله: ﴿وإن يردك بخيرٍ﴾ لفظ تام العموم.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٥٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿قل يأَيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾: هذه مخاطبة لجميع الكفار ومستمرّة مدى الدهر، و﴿الحق﴾: هو القرآن والشرع الذي جاء به النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾: منسوخة بالقتال.

وقوله سبحانه: ﴿واتبع ما يوحي إليك وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾. قوله: ﴿حتى يحكم الله﴾: وعد للنبي ﷺ بأن يغلبهم، كما وقع، وهذا الصبر منسوخ أيضاً بالقتال، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمداً وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

تفسير سورة هود

مكية

إلا نحو ثلاث آيات

قال الداوددي: وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أُسْرِعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ؟! قَالَ: «شَيْبَتَنِي «هُودٌ» وَ«الْوَاقِعَةُ» وَ«الْمُرْسَلَاتُ» وَ«عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» وَ«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»^(١)، وفي رواية عن ابن عباس: «هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا». انتهى^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَنَدَبُ أَهَكَتَ ءَايَتُهُ ثُمَّ قُفِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُر مِّنْهُ نَذِيرٌ وَيَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا ذِكْرًا ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَمُنَّكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٢/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الواقعة، حديث (٣٢٩٧)، والحاكم (٣٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٥٠/٤)، كلهم من طريق شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر الصديق به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه. وذكره من هذا الوجه السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور».

وأخرجه أبو يعلى (١٠٢/١ - ١٠٣) رقم: (١٠٨ - ١٠٧) من طريق أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن أبي بكر به، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى إلا أن عكرمة لم يدرك أبا بكر.

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (١١٠/٢) رقم: (١٨٢٦): سئل أبي عن حديث أبي إسحاق عن عكرمة، عن ابن عباس، قال أبو بكر للنبي ﷺ: ما شيبك؟ قال: «شيبتنني هود». والحديث متصل أصح، كما رواه شيبان، أو مرسلًا كما رواه أبو الأحوص مرسل قال: مرسل أصح، قلت لأبي: روى بقية عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر، عن النبي ﷺ؟ فقال: هذا خطأ ليس فيه ابن عباس هـ.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٦/٣) من وجه آخر عن أبي بكر، وعزاه إلى ابن المنذر، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر من طريق مسروق عن أبي بكر وعزاه أيضاً إلى البزار، وابن مردويه، من طريق أنس، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٧/٣)، وعزاه إلى ابن عساكر من طريق عطاء، عن ابن عباس.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْآيَاتُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا أَزْطَلُّ فِي الْآيَاتِ﴾، ثم فُصِّلَ بتقطيعه، وتبيين أحكامه وأوامره على محمد نبيه عليه السلام في أزمنة مختلفة؛ فـ «ثُمَّ» على بابها، / فالإحكام صفة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له، والكتاب بأجمعه محكم ومفصل، والإحكام الذي هو ضد النسخ، والتفصيل الذي هو خلاف الإجمال، إنما يقالان مع ما ذكرناه بأشتراك.

قال ص * : ﴿ثُمَّ فُصِّلْتُ﴾: «ثُمَّ» لترتيب الأخبار؛ لا لترتيب الوقوع في الزمان، و«لَدُنْ» بمعنى: «عند». انتهى.

قال الداودي: وعن الحسن: ﴿أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ﴾: قَالَ: أَحْكَمْتُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، ثُمَّ فُصِّلْتُ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وعنه: فُصِّلْتُ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. انتهى. وقدم الـ «نَذِيرُ»؛ لأنَّ التَّحذِيرَ مِنَ النَّارِ هُوَ الْأَهَمُّ. ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا مِنْكُمْ﴾، أي: أَطْلَبُوا مَغْفِرَتَهُ؛ وذلك بطلب دخولكم في الإسلام، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا﴾ مِنَ الْكُفْرِ ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾، ووصف المتاع بالحسن؛ لطيب عيش المؤمن برجائه في ثواب ربه، وفَرَحِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ مَفْتَرَضَاتِهِ، والسُّرُورِ بِمَوَاعِيدِهِ سُبْحَانَهُ، والكافِرُ ليس في شيء مِنْ هَذَا، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾، أي: كُلَّ ذِي إِحْسَانٍ ﴿فَضْلَهُ﴾، فيحتملُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ مِنْ «فَضْلِهِ» عَلَى «ذِي فَضْلٍ» أي: ثَوَابِ فَضْلِهِ، ويحتملُ أَنْ يَعُودَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أي: يُؤْتِي اللَّهُ فَضْلَهُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَحْنُ هَذَا الْمَعْنَى مَا وَعَدَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ تَضْعِيفِ الْحَسَنَاتِ، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: فَقُلْتُ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ شَبَّاهُمْ يَعْلَمُ مَا يَكْسِبُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْعَبُكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَمَلَاءُ وَلَكِنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٧﴾ وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَنْتُمْ مَعْدُودَةٌ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْهَشُونَ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ...﴾ الآية: قيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم النبي ﷺ تَطَامَنُوا وَتَوَلَّوْا صُدُورَهُمْ؛ كَالْمَتَسَرِّ، وَرَدُّوا إِلَيْهِ ظُهُورَهُمْ، وَغَشَّوْا وَجُوهَهُمْ بِشِبَاهِهِمْ، تَبَاعَدًا مِنْهُمْ، وَكَرَاهِيَةً لِلِقَائِهِ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يَخْفَى عَلَيْهِ، أَوْ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيلَ: هِيَ أَسْتِعَارَةٌ لِلْغُلِّ وَالْحَقْدِ الَّذِي كَانُوا يَنْطَوُّونَ

عليه، فمعنى الآية: أَلَا إِنَّهُمْ يُسِرُّونَ العداوةَ، وَيَتَكْتُمُونَ بها، لِتَخْفَى فِي ظَنِّهِمْ عَنِ اللَّهِ وَهُوَ سَبْحَانَهُ حِينَ تَغْشِيهِمْ بِثِيَابِهِمْ، وَإِبْلَاغِهِمْ فِي التَّسْتُرِ، يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، وَ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: معناه يجعلونها أغشيةً وأغطيةً.

قال * ص * : ﴿قرأ^(١) الجمهور: «يَتُونُونَ» - بفتح الياء -؛ مضارع تَوَّى الشَّيْءُ تَوْنِيًا: طَوَّاهُ. انتهى، وقرأ ابن عباس^(٢) وجماعة: «تَتُونُونِي صُدُورُهُمْ» - بالرفع -؛ على وزن «تَفْعُولُ»، وهي تحتمل المعنيين المتقدمين، وحكى الطبري عن ابن عباس على هذه القراءة. أَنَّ هذه الآية نزلت في قوم كانوا لا يأتون النساء والحَدَثَ إِلَّا وَيَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ؛ كراهيةً أَنْ يُفْضُوا بِفروجهم إِلَى السَّمَاءِ^(٣).

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ الآية، المراد جميعُ الحيوانِ المحتاجِ إِلَى رِزْقٍ، والمستقر: صُلْبُ الْأَبِ، و«المستودع»: بَطْنُ الْأُمِّ، وقيل غير هذا، وقد تقدَّم.

وقوله: ﴿في كتاب﴾: إشارةً إِلَى اللوحِ المحفوظ.

قال * ص * : ﴿لَيَبْلُوكُمْ﴾ اللام متعلِّقة بـ«خَلَقَ» وقيل: بفعلٍ محذوفٍ، أي: أَعْلَمَ بذلك لَيَبْلُوكُمْ، انتهى.

﴿وَلَيْنَ قُلْتَ﴾: اللام في «لَيْنَ»: مُؤَدَّةٌ بِأَنَّ اللام في «لَيَقُولُنَّ» لَامٌ قَسَمٌ، لا جوابٍ شرطٍ، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تناقضٌ منهم؛ لأنهم مَقْرُونُونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وهم مع ذلك ينكرون ما هو أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ، وهو الْبَغْثُ مِنَ الْقُبُورِ، وَإِذْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٢٠٣/٥) و«الدر المصون» (٧٨/٤).

(٢) وممن قرأ بها مجاهد، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعبد الرحمن بن أبيزي، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وأبو رزين، وأبو جعفر محمد بن غلي، وعلي بن حسين، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، والضحاك، وأبو الأسود الدؤلي.

ينظر: «الشواذ» ص: (٦٤)، و«المحتسب» (٣١٨/١)، و«المحرر الوجيز» (١٥٠/٣)، و«البحر المحيط» (٢٠٣/٥)، و«الدر المصون» (٧٨/٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢٦/٦) برقم: (١٧٩٦٥) بنحوه، وللحديث طريق آخر عن ابن عباس، وأخرجه البخاري (٦٢٦/٨) برقم: (٤٦٨١ - ٤٦٨٢)، وذكره ابن عطية (١٥١/٣)، والبخاري في «تفسيره» (٣٧٤/٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٣٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٩/٣)، وعزاه إِلَى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، كلهم بنحوه.

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾، أي: المتوعد به ﴿إلى أمة معدودة﴾، أي مدّة معدودة ﴿ليقولنّ ما يحسه﴾، أي: ما هذا الحابس لهذا العذاب؛ على جهة التكذيب، ﴿وحاق﴾: معناه: حلّ وأحاط. البخاري: حاق: نزل.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافُورًا ۖ وَلَئِنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَّسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ۖ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة...﴾ الآية: «الرحمة» هنا: تعمّ جميع ما ينتفع به من مطعم وملبوس وجاء وغير ذلك، و﴿الإنسان﴾ هنا اسم جنس، والمعنى: إن هذا الخلق في سجيّة الإنسان، ثم أستثنى منهم الذين ردّتهم الشرائع والإيمان / إلى الصبر والعمل الصالح، و﴿كفور﴾ هنا: من كفر النعمة، وال «نعمة»: تشمل الصحة والمال، وال «ضراء»: من الضر، وهو أيضاً شامل؛ ولفظة «ذهب السيئات عني»: يقتضي بطراً وجهلاً أنّ ذلك بإنعام من الله تعالى، و﴿السيئات﴾ هنا: كل ما يسوء في الدنيا، وال «فرح»: هنا: مطلق؛ فلذلك دُم، إذ الفرح أنهمال النفس، ولا يأتي الفرح في القرآن ممدوحاً إلا إذا قيد بأنه في خير.

وقوله: ﴿إلا الذين صبروا﴾: استثناء متصل؛ على ما قدّمنا من أنّ الإنسان عام يراد به الجنس؛ وهو الصواب، ومن قال: إنه مخصوص بالكافر قال: ههنا الاستثناء منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى، لا من جهة اللفظ؛ لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس؛ كما تقتضي لفظة الإنسان وأستثنى الله تعالى من الماثبين على سجيّة الإنسان هؤلاء الذين حملتهم الأديان على الصبر على المكاره، والمثابرة على عبادة الله، وليس شيء من ذلك في سجيّة البشر، وإنما حمل على ذلك خوف الله وحُب الدار الآخرة، والصبر على العمل الصالح لا ينفع إلا مع هداية وإيمان، ثم وعد تعالى أهل هذه الصفة بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأجر والنعيم.

وقوله سبحانه: ﴿فلعلّك تاركٌ بغضٍ ما يوحي إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كُتْرٌ﴾: سبب هذه الآية: أنّ كفّار قريش قالوا: يا محمد، لو تركت سبّ آلهتنا، وتسفيه آبائنا، لجألسناك وأتبعناك، وقالوا له: أثبت بقرآن غير هذا أو بدله، ونحو هذا من

الأقوال، فخاطب الله تعالى نبيه عليه السلام على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفاً راداً على أقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنى أنه عليه السلام هم بشيء من ذلك، فزجر عنه، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوجي إليه، ولا ضاق صدره به، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبغدهم عن الإيمان.

قال * ص، وع^(١) * : وعبر بـ ﴿ضائق﴾ وإن كان أقل استعمالاً من «ضيق» لمناسبة ﴿تارك﴾؛ ولأن ﴿ضائق﴾ وصف عارض؛ بخلاف «ضيق»؛ فإنه يدل على الثبوت، والصالح هنا الأول بالنسبة إليه ﷺ، والضمير في «به» عائذ على البغض، ويحتمل أن يعود على «ما» و﴿أن يقولوا﴾ أي: كراهة أن يقولوا، أو لثلاً يقولوا، ثم أنسه تعالى بقوله: ﴿إنما أنت نذير﴾، أي: هذا القدر هو الذي فوض إليك، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإيمان من شاء، وكفر من شاء ﴿أم يقولون﴾ افتراه: «أم» بمعنى: «بل»، والافتراء أخص من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكأبر.

وقوله سبحانه: ﴿قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ تقدم تفسير نظيرها، وقال بعض الناس: هذه الآية متقدمة على التي في يونس؛ إذ لا يصح أن يعجزوا في واحدة، ثم يكلفوا عشراً.

قال * ع^(٢) * : وقائل هذا القول لم يلحظ ما ذكرناه من الفرق بين التكليفين، في كمال المماثلة مرة كما هو في «سورة يونس»، ووقوفها على النظم مرة كما هو هنا، وقوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾: يريد في أن القرآن مفترى.

﴿فَلَا تَمَسُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَتَّبِعُوا هَوْلًا﴾ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَدِّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينِ رَبِّهِ وَقِيلَ لَهُ قَاتِلْهُ فَاتَّخَذَ مِنْهُ وَلِيًّا أَمْ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِحُجَّتٍ أُولَئِكَ لَنْ يُخْلَفُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٥٥).

الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَالِمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾، لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: أن تكون المخاطبة من النبي ﷺ للكفار، أي: ويكون ضمير ﴿يَسْتَجِيبُوا﴾؛ على هذا التأويل عائدًا على معبوداتهم.

والثاني: أن تكون المخاطبة من الله تعالى للمؤمنين، ويكون قوله؛ على هذا ﴿فَاعْلَمُوا﴾ بمعنى: دُومُوا عَلَى عِلْمِكُمْ قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: هو لأصحاب محمد عليه السلام^(١).

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآية: قالت قتادة وغيره: هي في الكفرة^(٢)، وقال مجاهد: هي في الكفرة وأهل الرياء من المؤمنين^(٣).

٢٤٤ ب / وإليه ذهب معاوية، والتأويل الأول أَرْجَحُ؛ بحسب تقدم ذكر الكفار، وقال ابن العربي في «أحكامه»: بل الآية عامة في كل من ينوي غير الله بعمله، كان معه إيمان أو لم يكن، وفي هذه الآية بيان لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٤)، وذلك أَنَّ الْعَبْدَ لَا يُعْطَى إِلَّا عَلَى وَجْهِ قَصْدِهِ، وبحكم ما ينعقد في ضميره، وهذا أمر متفق عليه.

وقوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾: قيل: ذلك في صحة أبدانهم وإدراج أرزاقهم، وقيل: إن هذه الآية مطلقة، وكذلك التي في «حَمَّ عَسَى»: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية [الشورى: ٢٠] إلى آخرها، قيدتهما وفسرتهما الآية التي في «سورة سبحان»، وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ...﴾ الآية [الإسراء: ١٨]، فأخبر سبحانه أَنَّ الْعَبْدَ يَنْوِي ويريد، والله يحكم ما يريد، ثم ذكر ابن العربي الحديث الصحيح في الثفر الثلاثة الذين كانت أعمالهم رياء، وهم رجل جمع القرآن، ورجل قُتِلَ في سبيل الله، ورجل كثير المال، وقول الله لكل واحد منهم: «مَاذَا عَمِلْتَ؟» ثم قال في آخر الحديث: ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْبَتَيْي، وَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،

(١) أخرجه الطبري (١٢/٧) برقم: (١٨٠٢٢، ١٨٠٢٤، ١٨٠٢٥)، وذكره ابن عطية (١٥٦/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٣/٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (١٥٦/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (١٥٦/٣).

(٤) تقدم تخريجه.

أَوَّلِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ، ثُمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿أَوَّلِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾^(١)، أي: في الدنيا وهذا نص في مراد الآية، والله أعلم. انتهى.

و﴿حَبِطَ﴾: معناه: بَطَلَ وَسَقَطَ، وهي مستعملة في فساد الأعمال.

قال * ص *: قوله: ﴿مَا صَنَعُوا﴾: «ما» بمعنى: «الَّذِي»، أو مصدرية، و«فيها»: متعلق بـ «حَبِطَ»، والضمير في «فيها» عائد على الآخرة، أي: ظهر حبوط ما صَنَعُوا في الآخرة، أو متعلق بـ «صَنَعُوا»؛ فيكون عائداً على الدنيا. انتهى.

وال «باطل»: كُلُّ مَا تَقْتَضِي ذَاتُهُ أَلَّا تُتَّالَ بِهِ غَايَةً فِي ثَوَابٍ وَنَحْوِهِ، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾: في الآية تأويلات.

قال * ع ^(٢): والراجعُ عندي مِنَ الأقوال في هذه الآية: أَنْ يَكُونَ «أَفَمَنْ» للمؤمنين، أو لهم وللنبي ﷺ معهم، وال «بَيْنَةٍ»: القرآن وما تضمن، وال «شاهد»: الإنجيل، يريد: أو إعجاز القرآن في قول، والضمير في «يتلوه» للبينة، وفي «منه» للرب، والضمير في «قبله» للبينة أيضاً، وغير هذا مما ذَكَرَ محتمل، فإن قيل: إذا كان الضمير في «قبله» عائداً على القرآن، فَلِمَ لَمْ يَذَكَرِ الإنجيل، وهو قبله، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ كِتَابِ مُوسَى؟، فالجواب: أنه خَصَّ التوراة بالذكر؛ لأنه مجمَع عليه، والإنجيل ليس كذلك؛ لأن اليهود تخالف فيه، فكان ألاستشهاد بما تقوم به الحجة على الجميع أولى، وهذا يجري مَعَ قول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠] و﴿الأحزاب﴾؛ ههنا يُراد بهم جميع الأمم، وروى سعيد بن جبير، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ؛ أنه قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»^(٣)، قال سعيد: فَقُلْتُ: أَيْنَ مُضْدَاقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ حَتَّى وَجَدْتُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ طَلَبْتُ مُضْدَاقَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٤)، وقرأ

(١) أخرجه الترمذي (٥٩١/٤، ٥٩٣) كتاب «الزهد» باب: ما جاء في الرياء والسمة، حديث (٢٣٨٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٧/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره من هذا الوجه السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٧/٣)، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه.

الجمهور: «في ميزية»^(١) - بكسر الميم -، وهو الشك، والضمير في «منه» عائذ على كون الكفرة موعدهم النار، وسائر الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿ويقول الأشهاد﴾: قالت فرقة: يريد الشهداء من الأنبياء والملائكة، وقالت فرقة: الأشهاد: بمعنى المشاهدين، ويريد جميع الخلائق، وفي ذلك إشادة بهم وتشهير لخزيهم، وروي في نحو هذا حديث: «أنه لا يخزي أحد يوم القيامة / إلا وتعلم ذلك جميع من شهد المحشر»، وباقي الآية بين مما تقدم في غيرها.

قال * ص *: وقوله: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ يحتمل أن يكون داخلا في مفعول القول، وإليه نحا بعضهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾: يختمل وجوها: أحدها: أنه وصف سبحانه هؤلاء الكفار بهذه الصفة في الدنيا؛ على معنى أنهم لا يسمعون سماعاً يتفهمون به، ولا يبصرون كذلك.

والثاني: أن يكون وصفهم بذلك من أجل بغضتهم في النبي ﷺ فهم لا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على السمع منه، والنظر إليه. «وما»؛ في هذين الوجهين: نافية.

الثالث: أن يكون التقدير: يضاعف لهم العذاب بما كانوا، أي: بسبب ما كانوا؛ فـ «ما» مصدرية، وباقي الآية بين.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَىٰ وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالْأَسْمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

وقوله سبحانه: ﴿لَا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم... الآية: ﴿لَا جرم﴾ تقدم بيانها، ﴿وأخبتوا﴾: قال قتادة: معناه: خشعوا^(٢)، وقيل: معناه أنابوا؛ قاله ابن عباس^(٣)،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٩/٣) و«البحر المحيط» (٢١٢/٥)، و«الدر المصون» (٨٦/٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٦/٧) برقم: (١٨١١٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦١/٣)، والبلغري في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٠/٣)، وعزاه إلى عبد الرزاق وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٥/٧) برقم: (١٨١٠٩)، وذكره ابن عطية في تفسيره (١٦١/٣)، والبلغري في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٠/٣).

وقيل: أطمأثوا؛ قاله مجاهد^(١) وقيل: خافوا؛ قاله ابن عباس^(٢) أيضاً، وهذه أقوال بعضها قريب من بعض.

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ...﴾ الآية، «الفريقان» الكافرون والمؤمنون، شبه الكافر بالأعمى والأصم، وشبه المؤمن بالبصير والسميع، فهو تمثيل بمثالين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين * ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً...﴾ الآية: فيها تمثيل لقريش وكفار العرب، وإعلام بأن محمداً عليه السلام ليس ببذع من الرسل، و«الأراذل» جمع الجمع، فقيل: جمع أزدل، وقيل: جمع أزدال، وهم سفلة الناس، ومن لا خلاق له ولا يبالي ما يقول، ولا ما يقال له، وقرأ الجمهور^(٣): «بَادِي الرَّأْيِ» - بياء دون همز -؛ من بدأ يبدؤ، فيحتمل أن يتعلق «بَادِي الرَّأْيِ» بـ «نَرَاكَ»، أي: وما نراك بأول نظر وأقل فكرة، وذلك هو بادي الرأي إلا ومتبعوك أراذلنا، ويحتمل أن يتعلق بقوله: «اتَّبَعَكَ»، أي: وما تراك اتبعك بادي الرأي إلا الأراذل، ثم يحتمل على هذا قوله: «بَادِي الرَّأْيِ» معنيين:

أحدهما: أن يريدوا: اتَّبَعَكَ في ظاهر أمرهم، وعسى أن بواطنهم ليست معك.

والثاني: أن يريدوا: اتَّبَعُوكَ بأول نظر، وبالرأي البادي، دون تثبت.

ويحتمل أن يكون قولهم: «بَادِي الرَّأْيِ» وضفاً منهم لنوح، أي: تدعي عظيماً وأنت مكشوف الرأي، لا خصافة لك، ونصبه على الحال، أو على الصفة لـ «بَشَرًا».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٥/٧) برقم: (١٨١١٢ - ١٨١١٣ - ١٨١١٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، والسيوطي (٥٩٠/٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٥/٧) برقم: (١٨١١١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١٦١/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٧٩/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٩/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٣/٣) و«البحر المحيط» (٢١٥/٥)، و«الدر» (٩١/٤).

﴿قَالَ يَقْوِيهِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَهَذَا الَّذِي رَحِمَهُ مِنْ عِنْدِهِ فَقُمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْ هَؤُلَاءِ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨) وَيَقْوِيهِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ أَنْزَلْتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَقْوِيهِ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَيْنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْيِكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَفْعَلُكُمْ تَصْحِيحًا إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُقْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده... الآية: كانه قال: أرايتم إن هداني الله وأصلكم أجبركم على الهدى، وأنتم له كارهون، وعبارة نوح عليه السلام كانت بلغته دالة على المعنى القايم بنفسه، وهو هذا المفهوم من هذه العبارة العربية، فبهذا استقام أن يقال: قال كذا وكذا؛ إذ القوم ما أفاد المعنى القايم في النفس، وقوله: ﴿على بينة﴾ أي: على أمر بين جلي، وقرأ الجمهور: ﴿فَعَمِيَّتْ﴾^(١) ولذلك وجهان من المعنى:

أحدهما: خَفِيَّتْ.

والثاني: أن يكون المعنى: فَعَمِيَّتُمْ أَنْتُمْ عنها.

وقوله: ﴿أنزلتكموها﴾: يريد: إلزام جبر؛ كالقتال ونحوه، وأما إلزام الإيجاب، فهو حاصل.

وقوله: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾: يقتضي أن قومه طلبوا طرد الضعفاء الذين بادروا إلى الإيمان به نظير ما اقترحت قريش، و﴿تزدري﴾: أصله: تَزَرِّي؛ تَفْتَعِلُ مِنْ زَرَى يَزْرِي، ومعنى: ﴿تزدري﴾: تحقر، و«الخير»؛ هنا: يظهر فيه أنه خير الآخرة، اللهم إلا أن يكون أذراؤهم من جهة الفقر، فيكون الخير المال؛ وقد قال بعض المفسرين: حيث ما ذَكَرَ اللَّهُ الْخَيْرَ / في القرآن، فهو المَالُ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٤/٣)، و«البحر المحيط» (٢١٧/٥)، و«الدر المصون» (٩٣/٤). وقد قرأ الأخوان، وحقق بالتشديد، هكذا «فَعَمِيَّتْ»، وحجتهم في حرف عبد الله: «فَعَمَّاها عليكم». ينظر: «حجة القراءات» (٣٣٨)، و«السبعة» (٣٣٢)، و«الحجة» (٣٢٢/٤)، و«إعراب القراءات» (١/٢٧٩)، و«شرح شملة» (٤٢٦)، و«العنوان» (١٠٧)، و«إتحاف» (١٢٤/٢).

قال * ع^(١) * : وفي هذا الكلام تحاملٌ، والذي يشبه أن يقال: إنه حيث ما ذُكر الخير، فإنَّ المالَ يدخل فيه.

* ت * : وهذا أيضاً غير ملخص، والصواب: أنَّ الخيرَ أعمُّ من ذلك كله، وانظر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] فإنه يشمل المال وغيره، ونحوه: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وانظر قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]، فههنا لا مدخل للمال إلا على تجوُّز، وقد يكون الخير المراد به المال فقط؛ وذلك بحسب القرائن، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا...﴾ الآية [البقرة: ١٨٠].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: تسليمٌ لله تعالى، وقال بعض المتأولين: هي ردُّ على قولهم: اتبعك أراذلنا في ظاهر أمرهم؛ حسب ما تقدَّم في بعض التأويلات، ثم قال: ﴿إِنِّي إِذَا﴾ لو فعلت ذلك، ﴿لمن الظالمين﴾، وقولهم: ﴿قد جادلنا﴾: معناه: قد طال منك هذا الجدال، والمراد بقولهم: ﴿بما تعدنا﴾ العذاب والهلاك، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾، أي: بمفلتين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرُونَ﴾ (٣٥) وأوحى إلی نوح أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ (٣٧) وَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَىٰ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُغْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَهْرَاقًا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا اجْعَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ...﴾ الآية: قال الطبري^(٣) وغيره: هذه الآية اعترضت في قصة نوح، وهي في شأن النبي ﷺ مع قُرَيْشٍ.

قال * ع^(٤) * : ولو صحَّ هذا بسندٍ، لوجب الوقوف عنده، وإلا فهو يختمل أن

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٦/٣).

(٢) أخرجه البخاري (١/٦٢٤) كتاب «الصلاة» باب: هل تنش قبر مشركي الجاهلية، حديث (٤٢٨)، ومسلم (٣/١٤٣١) كتاب «الجهاد» باب: غزوة الأحزاب، حديث (١٨٠٥/١٢٧) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٣/٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٧/٣).

يكون في شأن نوح عليه السلام، وَتَسْقُ الْآيَة، ويكون الضمير في «افتراه» عائداً على ما توعدهم به، أو على جميع ما أخبرهم به، و«أم» بمعنى «بل».

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحِي إِلَى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن...﴾ الآية، قيل لنوح هذا بعد أن طال عليه كُفْر الْقَرْن بعد الْقَرْن به، وكان يأتيه الرجلُ بِأَبْنِهِ، فيقول: يا بُنَيَّ، لا تُصَدِّقْ هذا الشيخ، فهكذا عَهْدُهُ أَبِي وَجَدِّي كَذَاباً مَجْنُوناً، رَوَاهُ عُيَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وغيره، فروي أنه لما أُوحِيَ إِلَيْهِ ذَلِكَ، دَعَا، فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]، و«تبتس» من البؤس، ومعناه: لا تَحْزَنْ.

وقوله: ﴿بَاعِينَا﴾: يمكن أن يريد بمرأى منا، فيكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ، ويكون جَمْعُ الْأَغْنِي، للعظمة لا للتكثير؛ كما قال عز وجل: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، والعقيدة أنه تعالى منزّه عن الحواس، والتشبيه، والتكليف، لا ربّ غيره، ويحتملُ قوله: ﴿بَاعِينَا﴾ أي: بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حِفْظِكَ وَمَعُونَتِكَ، فيكون الجَمْعُ على هذا التأويل: للتكثير.

وقوله: ﴿وَوَحِينَا﴾ معناه: وتعليمنا له صُورَةَ الْعَمَلِ بِالْوَحْيِ، وَرُوي في ذلك: «أن نوحاً عليه السلام لما جهل كَيْفِيَّةَ صُنْعِ السَّفِينَةِ، أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، أَنْ أَصْنَعَهَا عَلَى مِثَالِ جُؤْجُؤٍ^(١) الطَّائِرِ» إلى غير ذلك ممّا عَلَّمَهُ نوحٌ من عملها. وقوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا...﴾ الآية، قال ابنُ جُرَيْجٍ في هذه الآية: تقدّم الله إلى نوحٍ أَلَّا يَشْفَعَ فِيهِمْ^(٢).

وقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾: التقدير: فشرع يصنع، فحكيت حالاً أَلَاستقبال، وال ﴿مَلَأ﴾ هنا: الجماعة.

وقوله: ﴿سَخَرُوا مِنْهُ...﴾ الآية: السُّخْرُ: أَلَاستجهال مع استهزاء، وإنما سَخَرُوا مِنْهُ فِي أَنْ صَنَعَهَا فِي بَرِّيَّةٍ.

وقوله: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ قال^(٣) الطبري: يريد في الآخرة.

قال * ع^(٤): * ويحتمل الكلام - وهو الأرجح - أن يريد: إِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ الْآنَ،

(١) الْجُؤْجُؤُ: عظام صدر الطائر. ينظر: «لسان العرب» (٥٢٨) (جأجا).

(٢) أخرجه الطبري (٣٥/٧) برقم: (١٨١٤٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (١٦٩/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٢/٧)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٥/٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٠/٣).

والعذابُ الْمُخْزِي: هو العَرَق، وال ﴿مُقِيمٌ﴾: هو عذاب الآخرة، و«الأمر»: واحد الأمور، ويحتملُ أن يكون مصدر «أمر»، فمعناه: أَمَرْنَا للماءِ بِالْفَوْرَانِ، ﴿وَفَارَ﴾ معناه: أُنْبَعَثَ بِقُوَّةٍ، وأختلف الناس في الثُّور، والذي عليه الأكثرُ، منهم ابنُ عباس وغيره: أنه هو ثُورُ الْخَبَزِ الذي يُوقَدُ فيه^(١)، وقالوا: كَانَتْ هذه أَمَارَةً، جعلها الله لِنُوحٍ، أي: إذا فَرَّ الثُّورُ، فَارْكَبْ في السفينة.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ...﴾ الآية، الزَّوْجُ: يقال في مشهور كلام العرب: للواحد مما له ازدواج، فيقال: هذا زَوْجٌ / هذا، وهما زَوْجَانِ، والزَّوْجُ أيضاً في كلام العرب: الثَّنُوعُ، وقوله: ١٢٤٦ ﴿وَأَهْلَكَ﴾: عَطَفَ عَلَى ما عَمِلَ فِيهِ ﴿أَحْمِلْ﴾ والأهل، هنا: القرابة، وبشَرَطَ مَنْ آمَنَ منهم، خُصَّصُوا تَشْرِيفاً، ثم ذكر ﴿مَنْ آمَنَ﴾، وليس من الأهل، واختلف في الذي سبق عليه القولُ بِالْعَذَابِ، فقليل: ابْنُهُ يَامُ، أو كنعان، وقيل: امرأته وَالْعَتَّةُ - بالعين المهملة -، وقيل: هو عمومُ فِيمَنْ لم يؤمن مِنْ أَهْلِ نوحٍ، ثم قال سبحانه إخباراً عن حالهم: ﴿وما آمن معه إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّنْهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وَهِيَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَتَّبِعُ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

وقوله تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها﴾: أي: وقال نوحٌ لمن معه: اركبوا فيها، وقوله: ﴿باسم الله﴾ يصحُّ أن يكون في موضع الحال في ضمير «ارْكَبُوا»، أي: اركبوا متبركين باسم الله، أو قائلين: باسم الله، ويجوز أن يكون: ﴿باسم الله مجراها ومرساها﴾ جملة ثانية من مبتدأ وخبر، لا تعلق لها بالأولى كأنه أمرهم أولاً بالركوب، ثم أخبر أن مجراها ومرساها باسم الله. قال الضَّحَّاك: كان نوحٌ إذا أراد جَزِي السفينة، جَرَتْ، وإذا أراد وقوفها، قال: باسم الله، فتقف^(٢)، وقرأ الجمهور^(٣) بضم الميم من «مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا»

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥/٧) برقم: (١٨١٦٩ - ١٨١٧٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/١٧٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣٨٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٥/٧) برقم: (١٨٢٠١)، وذكره ابن عطية (١٧٢/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/٣٨٥) برقم: (٤١).

(٣) وحجة من فتح الميم قوله سبحانه بعدها: «وهي تجري بهم في موج كالجبال»، ولم يقل: تُجْرَى. =

على معنى إجرائها وإرسائها، وقر الأخوان حمزة والكسائي وحفص بفتح ميم «مَجْرِيهَا» وكسر الراء، وكلُّهم ضمَّ الميم في «مُرْسَاهَا».

* ت * قوله: «وكسر الراء»: يريد إمالتها، وفي كلامه تسامُح، ولفظ البخاري: مُجْرَاهَا: مَسِيرُهَا، وَمُرْسَاهَا: مَوْقِفُهَا، وهو مصدر: أُجْرِيتُ وَأُرْسِيتُ. انتهى.

قال النووي: وَرَوَيْنَا فِي «كِتَابِ ابْنِ السَّنِيِّ» بِسَنَدِهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَّا لَأَمْتِي مِنَ الْغَرَقِ، إِذَا رَكِبُوا أَنْ يَقُولُوا: ﴿بِأَسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ [الأنعام: ٩١]»^(١)، هَكَذَا هُوَ فِي النَّسَخ: «إِذَا رَكِبُوا»، وَلَمْ يَقُلْ: «فِي السَّفِينَةِ» انتهى.

وقوله: ﴿وَكَانَ فِي مَغْرَلٍ﴾ أي: فِي نَاحِيَةٍ، أي: فِي بُعْدٍ عَنِ السَّفِينَةِ، أَوْ عَنِ الدِّينِ، وَاللَّفْظُ يَعْهُمَا.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَهْيًا مُحْضًا مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيٍّ عَلَيْهِ كُفْرُهُ؛ وَالْأَوَّلُ أَثْبَتُ.

وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: الظاهر أن ﴿لَا عَاصِمَ﴾ اسْمُ

= حجة الجمهور في الضم إجماع الجميع على ضم الميم في «مُرْسَاهَا»، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٣/٣)، و«البحر المحيط» (٢٢٥/٥)، و«الدر المصون» (٩٩/٤)، و«السبعة» (٣٣٣)، و«الحجة» (٣٢٩/٤)، و«إعراب القراءات» (٢٨١/١) و«شرح الطيبة» (٣٦٣/٤)، و«العنوان» (١٠٧)، و«شرح شعلة» (٤٢٧)، و«إتحاف فضلاء البشر» (١٢٥/٢).

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٠١) من حديث الحسين بن علي. وفي سنده جبارة بن المغلس، ويحيى بن العلاء، ومروان بن سالم، والأول: ضعيف، والثاني والثالث: متهمان بالوضع.

وأخرجه أبو يعلى (١٥٢/١٢) رقم: (٦٧٨١): حدثنا جبارة، ثنا يحيى بن العلاء، عن مروان بن سالم، عن طلحة بن عبيد الله، عن الحسين بن علي به.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٥/١٠) وقال: رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن المغلس، وهو ضعيف هـ. وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (٢٣٧/٣) رقم: (٣٣٦٥)، وعزاه لأبي يعلى، وقال: فيه ضعف.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٢/٣)، وزاد نسبه إلى الطبراني، وابن عدي، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس بلفظ حديث الحسين بن علي، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٣ - ٦٠٢/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

فاعِلٌ على بابه، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: يريد: إِلَّا اللَّهَ الرَّاحِمَ، ف «مَنْ» كنايةٌ عن الله، المعنى: لا عاصِمَ اليوم إِلَّا الذي رَحِمَنَا.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَكَسِمَاهُ أَفْلَیْ وَغِصَصَ الْمَاءَ وَنَفِثَ الَّامْرُؤُ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّمَّ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَّ عَمَلٌ عَبْرٌ صَالِحٌ فَلَا تُشْغِلْكَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْغَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك...﴾ الآية: البَلْعُ: تجرُّع الشيء؛ وأزْدَرَأْدُهُ، والإقْلَاعُ عن الشيء: تركُّه، و﴿غِصَصَ﴾ معناه: نَقَصَ، وأكْثُرُ ما يجيء فيما هو بمعنى الجُفُوف، وقوله: ﴿وقضي الأمر﴾: إشارة إلى جميع القصَّة: بعث الماء، وإهلاك الأُمَم، وإنجاء أهل السفينة.

قال * ع^(١): وتظاهرت الروايات وكُتِبُ التفسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض، وعمَّ الماء جميعها؛ قاله ابن عباس وغيره، وذلك بين من أمر نوح بحمل الأزواج من كل الحيوان، ولولا خوف فنائها من جميع الأرض، ما كان ذلك، وروي أن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عَيْنِ الوَزْدَةِ بالشام أولَ يومٍ من رَجَبٍ، واستَوَتْ [السفينة] على الجودي في ذي الحِجَّة، وأقامت عليه شهراً، وقيل له: ﴿أهبط﴾ في يوم عاشوراء، فصامه هو ومن معه، وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال: أن السفينة ترسي على واحد منها، فتطاوَلَتْ كلها، وبقي الجودي، وهو جبل بالمَوْصِل في ناحية الجزيرة، لم يتطاوَلْ؛ تواضعاً لله؛ فاستوت السفينة بأمر الله عليه، وقال^(٢) الزَّجَّاجُ: الجودي: هو بناحية «أمد»، وقال قوم: هو عند باقردي، وأكثر النَّاسُ في قصص هذه الآية، والله أعلم بما صحَّ من ذلك.

وقوله: ﴿وقيل بعداً﴾: يحتمل أن يكون من قول الله عزَّ وجلَّ؛ عطفاً على قوله: ﴿وقيل الأول﴾، ويحتمل أن يكون من قول نوح والمؤمنين، والأول أظهر.

وقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ الآية: احتجاج من نوح عليه السلام أن الله أمره

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٥/٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥٥/٣).

بَحْمَلٍ أَهْلُهُ، وَأَبْنُهُ مِنْ أَهْلِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ، فَأُظْهِرَ اللَّهُ لَهُ أَنَّ الْمُرَادَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْأَهْلِ،
٢٤٦ ب وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام ظَنَّ أَنَّ ابْنَهُ مُؤْمِنٌ/.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين عَمَّهم الوعد؛ لأنه ليس على دينك، وإن كان أَبْنُكَ بِالْوِلَادَةِ.

وقوله: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾: جعله وصفاً له بالمصدر؛ على جهة المبالغة في وصفه بذلك؛ كما قالت الْخَنَسَاءُ تَصِفُ نَاقَةً ذَهَبَ عَنْهَا وَلَدُهَا: [البسيط]

تَزَنَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا أَذْكَرَتْ فَلِئَمَّا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(١)
أي: ذات إقبال وإدبار؛ ويبين هذا قراءة الكسائي «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ» فعلاً ماضياً، ونصب «غير» على المفعول لـ «عَمِلَ»، وقول من قال: «إِنَّ الْوَلَدَ كَانَ لِغِيَّةٍ» خطأ محض، وهذا قول ابن عباس^(٢) والجمهور؛ قالوا: وأما قوله تعالى: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ [التحریم: ١٠] فإن الواحدة كانت تقول للناس: هو مجنون، والأخرى كانت تنبئه على الأضياف، وأما خيانة غَيْرُ هذا، فلا؛ وَيَغْضُدُهُ الْمَعْنَى، لشرف النبوة، وجوز المهدوي أن يعود الضمير في «إِنَّهُ» على السؤال، أي: إن سؤالك إِيَّايَ ما ليس لك به علم عَمِلَ غَيْرُ صَالِحٍ؛ قاله النَّخَعِيُّ وغيره. انتهى. والأول أبين؛ وعليه الجمهور، وبه صدر المهدوي، ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: إِذَا وَعَدْتُكَ، فأعلم يقيناً؛ أَنَّهُ لَا خُلْفَ فِي الْوَعْدِ، فإذا رَأَيْتَ وَلَدَكَ لَمْ يُحْمَلْ، فكان الواجب عليك أن تقف، وتعلم أَنَّ ذَلِكَ بِحَقِّ وَاجِبٍ عِنْدَ اللَّهِ.

قال ع^(٣): * ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة الأبوة وسجية البشر على التعرض لنفحات الرحمة، وعلى هذا القدر وقع عتابه؛ ولذلك جاء بتلطّف وترفع في قوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ويحتمل قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تطلب مني أمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين، ونحنا إلى هذا أبو علي

(١) ينظر: «ديوانها» ص: (٣٨٣)، و«الأشباه والنظائر» (١/١٩٨)، و«خزانة الأدب» (١/٤٣١)، (٢/٣٤)، و«شرح أبيات سيبويه» (١/٢٨٢)، و«الشعر والشعراء» (١/٣٥٤) و«الكتاب» (١/٣٣٧) و«لسان العرب» (٧/٣٠٥) (رهمط) (١١/٥٣٨) (قبل)، (١٤/٤١٠) (سوا)، و«المقتضب» (٤/٣٠٥)، و«المنصف» (١/١٩٧)، بلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (٢/٣٨٧)، (٤/٦٨) و«شرح الأشموني» (١/٢١٣)، و«شرح المفصل» (١/١١٥)، و«المحتسب» (٢/٤٣).

(٢) ذكره البغوي (٢/٣٨٧)، وابن عطية (٣/١٧٧) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/١٧٧ - ١٧٨).

الفارسي، وهذا الأول في المعنى واحد.

وقوله: ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾: إجابة منه عليه السلام، وتسليم لأمر ربه، والسؤال الذي وقع النهي عنه، إنما هو سؤال العزم الذي معه حاجة وطيلة ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأما السؤال؛ على جهة الاسترشاد والتعلم، فغير داخل في هذا، ثم قيل له: ﴿أنايط بسلام﴾، وذلك عند نزوله من السفينة، وال ﴿سلام﴾؛ هنا: السلامة والأمن، وال ﴿بركات﴾ الخير والنمو في كل الجهات، وهذه العدة، تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي، ثم قطع قوله: ﴿وأُمم﴾ على وجه الابتداء، وهؤلاء هم الكفار إلى يوم القيامة^(١).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُغْنِيكِ﴾ (٤٩) ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (٥٠) ﴿يَقَوْمِ لَا أَشْكُرَ عَلَيْهٖ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١) وقوله سبحانه: ﴿تلك﴾ إشارة إلى القصة، وباقي الآية بين.

وقوله عز وجل: ﴿والى عاد أخاهم هوداً...﴾ الآية: عطف على قوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ [هود: ٢٥].

﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبِزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾ (٥٢) ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣) ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ (٥٥) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦) ﴿فَإِنْ قَوْلُوا فَقَدْ أَتَلَفْتُمْ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَنُخَلِّفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ (٥٧) ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِيَّتِنَا هُودًا وَقَالُوا آمَنُوا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِنَا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨) ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩)

وقوله: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم...﴾ الآية: الاستغفار: طلب المغفرة، فقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإجابة القلب وطلب الاسترشاد.

وقوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾، أي: بالإيمان من كفركم، والتوبة: عقد في ترك متوب

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٧٩)، والبغوي في تفسيره (٢/ ٣٨٧) برقم: (٤٨) بلا نسبة.

منه، يتقدمها علمُ بفساد المَثُوبِ مِنْهُ، وصلاح ما يَزِجُغُ إليه، ويقترب بها نَدَمٌ على فَارِطِ المَثُوبِ مِنْهُ، لا يَنْفُكُ مِنْهُ، وهو من شروطها و﴿مَذَرَارًا﴾ بناءً تكثير، وهو مِنْ دَرٍّ يَدُرُّ، وقد تقدّمت قصة «عاد».

وقوله سبحانه: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ ظاهره العمومُ في جميع ما يُحْسِنُ اللَّهُ تعالى فيه إلى العباد، ويحتملُ أَنْ خَصَّ القوةَ بالذكرِ، إذ كانوا أَقْوَى الْعَوَالِمِ، فَوَعِدُوا بالزيادة فيما بَهَرُوا فيه، ثم نهاهم عن التوَلَّى عن الحقِّ، وقولهم: ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾، أي: لا يكونُ قولُكَ سَبَبَ تَرْكِنا، وقال * ص * : ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾: حالٌ من الضمير في «تاركي»، أي: صَادِرِينَ عن قولك، وقيل: «عن»: للتعليل، كقوله: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾ [التوبة: ١١٤] وقولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ...﴾ الآية: معناه: ما نَقُولُ إِلَّا أَنْ بعضَ آلهتنا التي ضَلَلْتَ عَبْدَتَهَا أَصَابَكَ بِجُنُونٍ، يقال: / عَرَّ يَعُرُّ، وَأَعْتَرَى يَعْتَرِي؛ إِذَا أَلَمَ بِالشَّيْءِ. ١٢٤٧

وقوله: ﴿فكيدوني جميعاً﴾: أي: أنتم وأصنامكم، ويذكر أن هذه كانت له عليه السلام معجزة، وذلك أنه حرَّض جماعتهم عَلَيْهِ مع أنفاده وقوتهم وكُفْرهم، فلم يَقْدِرُوا على نيله بسوء، و﴿تَنْظُرُونَ﴾: معناه: تؤخروني، أي: عاجلون بما قَدَرْتُمْ عليه.

وقوله: ﴿إِنْ ربي على صراط مستقيم﴾ يريد: إِنْ أفعالَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في غاية الإحكام، وقوله الصَّدُقُ ووعده الحقُّ، و﴿عَنَيْدٍ﴾: من «عند» إِذَا عَنَّا.

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ١٥﴾
 ﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَغْنُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ إِنْ ربي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ١٦﴾
 ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ١٧﴾
 ﴿قَالَ يَنْفَقِرُ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْفِيرٍ ١٨﴾
 ﴿وَيَنْفَقِرُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ١٩﴾
 ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ٢٠﴾
 ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَهْرَافًا بَنَيْنَا صَلْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَازِلٍ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ٢١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ...﴾ الآية: حَكَمَ عليهم سبحانه بهذا؛ لموافاتهم على الكُفْرِ، ولا يُلْعَنُ مَعِينٌ حَيٌّ: لا مِنْ كَافِرٍ، ولا مِنْ فَاسِقٍ، ولا مِنْ بَهِيمَةٍ،

كُلْ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ بِالْأَحَادِيثِ^(١).

* ت * : وتعبيره بالكراهة، لعلّه يريد التحريم، ﴿وَيَوْمَ﴾: ظُرفٌ، ومعناه: إن اللعنة عليهم في الدنيا، وفي يوم القيامة، ثم ذكر العلة الموجبة لذلك، وهي كُفْرهم بربهم، وباقي الآية يبين.

وقوله عز وجل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً...﴾ الآية: التقدير: وأرسلنا إلى ثمود و﴿أنشأكم من الأرض﴾: أي: اخترعكم، وأوجدكم، وذلك بآختر آدم عليه السلام.

وقال * ص * : ﴿من الأرض﴾: لا ابتداءً الغاية باعتبار الأصل المتولد منه النبات المتولد منه الغذاء المتولد منه المني ودم الطمث المتولد عنه الإنسان. انتهى.

وقد نقل * ع^(٢) * : في غير هذا الموضع نحو هذا، ثم أشار إلى مرجوحيته، وأنه داع إلى القول بالتولد، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْمِرْكُمْ فِيهَا﴾: أي: خلَقكم لعمارتها، ولا يصح أن يقال: هو طَلَب من الله لعمارتها؛ كما زعم بعض الشافعية.

* ت * : والمفهوم من الآية أنها سيقَّت مساق ألامتان عليهم. انتهى. وقولهم: ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾، قال جمهور المفسرين: معناه: مسوداً تؤمِّل فيك أن تكون سيِّداً ساداً مسدّاً الأكابر، وقولهم: ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾، معنى: ﴿مريب﴾: مُلبس متهم، وقوله: ﴿أرايتم﴾: أي: أتدبرتم، فالرؤية قلبيةَّة، و﴿أتاني منه رحمة﴾، يريد: النبوة وما أنضاف إليها.

(١) قد ورد في تحريم اللعن عدة أحاديث منها، قول النبي ﷺ: «من لعن مؤمناً فهو كقتله». أخرجه البخاري (٤٧٩/١٠) كتاب «الأدب» باب: ما ينهى من السباب واللعن، حديث (٦٠٤٧). ومنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً». أخرجه مسلم (٢٠٠٥/٤) كتاب «البر والصلة» باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث (٨٤/٢٥٩٧)، وأحمد (٣٣٧/٢)، والبيهقي (١٩٣/١٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٣١٥/٦ - بتحقيقنا). ومنها أيضاً حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذيء».

أخرجه الترمذي (٣٠٨/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في اللعنة، حديث (١٩٧٧)، وأحمد (١/٤٠٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٧)، والحاكم (١٢/١) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٣/٣).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٥٩/٣).

وقال * ص * : قد تقرر في ﴿أرأيتم﴾ ؛ أنها بمعنى أخبروني . انتهى .

والـ ﴿تخسير﴾ هو من الخسارة ، وليس التخسيرُ في هذه الآية إلا لهم ، وفي حيزهم ، وهذا كما تقول لمن توصيه : أنا أريد بك خيراً ، وأنت تريد بي شراً .

وقال * ص * : ﴿غَيْرُ تَخْسِيرٍ﴾ : من خسر ، وهو هنا للنسبية كـ «فَسَقَتْهُ وَفَجَّرَتْهُ» ؛ إذا نسبته إليهما .

* ت * : ونقل الثعلبي عن الحسين بن الفضل ، قال : لم يكن صالح في خسارة ، حين قال : ﴿فما تزيدوني غير تخسير﴾ ، وإنما المعنى : ما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إياكم للخسارة ، وهو من قول العرب : فسقته وفجرتُهُ ؛ إذا نسبته إلى الفسوق والفجور . انتهى . وهو حسن . وباقي الآية بين قد تقدم الكلام في قصصها .

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٦٧﴾ كَانَ لَمْ يَنْفَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا نُمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِمُؤَدِّ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَسَرَّزْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُولاَنِي مَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْتَجِدِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعَ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ : قال أبو البقاء : في حذف التاء من «أخذ» ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه فصل بين الفعل والفاعل .

والثاني : أن التانيث غير حقيقي .

والثالث : أن الصيحة بمعنى الصباح ، فحوّل على المعنى ، انتهى .

وقد أشار * ع ^(١) : إلى الثلاثة ، واختار الأخير .

وقوله سبحانه : ﴿ولقد جاءك رسلنا إبراهيم بالبري﴾ : الرسل : الملائكة ، قال المهدوي : ﴿بالبري﴾ يعني : بالولد ، وقيل : البري بهلاك قوم لوط انتهى .

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (١٨٦/٣) .

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾: أي: سَلَمْنَا عَلَيْكَ سَلَامًا، وقرأ حمزة^(١) والكسائي: «قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَمٌ»، فيحتمل أن يريد بـ «السَّلَم» السَّلام، ويحتمل أن يريد بـ «السَّلَم» ضدَّ الحرب، و﴿حَنِيدٌ﴾: بمعنى: محنود، ومعناه: بعجل مشوي نَضِج، يَفْطَرُ ماؤه، وهذا القطر يفصل الحَنِيدَ من جملة المشويات، وهيئة المحنود في اللغة: / الذي يُعْطَى بحجارة أو رَمَلٍ مُحْمًى^٢ ب أو حائل بينه وبين النار يغطى به، والمُعْرَض: من الشَّواء الذي يُصَفَّف على الجَمَر، والمُضْهِب: الشَّواء الذي بينه وبين النار حائل، ويكون الشَّواء عليه، لا مَدْفُونًا به، والتَّحْنِيدُ في تضمير الخيل: هو أن يغطى الفرس بِجِلٍّ على جُلٍّ؛ ليتصبَّ عَرَفُهُ، و﴿تَكَرَّهُمْ﴾ على ما ذكر كثير من النَّاس، معناه: أَتَكَرَّهُمْ «وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً»؛ من أجل أمتناعهم من الأكل؛ إذ عُرِفَ مَنْ جَاءَ بِشَرٍّ أَلَّا يَأْكُلَ طَعَامَ الْمُنْزُولِ بِهِ، قال ابنُ العربي في «أحكامه»^(٣): ذهب الليث بن سَعْدٍ إلى أَنَّ الضِّيَافَةَ واجِبَةٌ، لقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ صَدَقَةٌ»^(٤)، وفي رواية: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِي»^(٥) عنده حتَّى يُخْرِجَهُ»^(٥) وهذا حديثٌ صحيحٌ، خرَّجه الأئمة، واللفظ للترمذي، وذهب علماء الفقه إلى: أن الضيافة لا تجب، وحملوا الحديث على التَّذَبُّبِ.

قال ابنُ العربي: والذي أقولُ به أن الضيافة فَرَضٌ على الكفاية، ومن الناس مَنْ قال: إنها واجبة في القَرَى حيث لا مَأْوَى ولا طَعَامٌ؛ بخلاف الحواضر؛ لتيسر ذلك فيها.

(١) ينظر: «السبعة» (٣٣٧ - ٣٣٨)، و«الحجة» (٣٥٩/٤)، و«إعراب القراءات السبع» (٢٨٨/١) و«حجة القراءات» (٣٤٦)، و«الإتحاف» (١٣٠/٢) و«المحرر الوجيز» (١٨٧/٣)، و«البحر المحيط» (٥/٢٤٢)، و«الدر المصون» (١١٢/٤)، و«المنوان» (١٠٨)، و«شرح شعلة» (٤٣١).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٦١/٣).

(٣) ينظر: الحديث الآتي.

(٤) الثَّوَاء: طول المَقَام. ينظر: «لسان العرب» (٥٢٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٦٠/١٠) كتاب «الأدب» باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٩)، وباب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٦١٣٥)، و (٣١٤/١١) الرقاق باب: حفظ اللسان (٦٤٧٦)، ومسلم (١٣٥٣/٣) في اللقطة، باب: الضيافة ونحوها (٤٨/١٦)، وأبو داود (٢/٣٦٩) كتاب «الأطعمة» باب: ما جاء في الضيافة (٣٧٤٨)، والترمذي في «البر والصلة» باب: ما جاء في الضيافة، وغاية الضيافة كم هو؟ (١٩٦٧)، وابن ماجه (١٢١٢/٢) في «الأدب» باب: حق الضيف (٣٦٧٥)، وأحمد (٣١/٤) (٣٨٥/٦)، ومالك (٩٢٩/٢) في كتاب «صفة النبي ﷺ» باب: جامع ما جاء في الطعام، والشراب (٢٢)، والبيهقي (١٩٧/٩)، والدارمي (٩٨/٢)، والحميدي (٢٦٢/٢) برقم: (٥٧٦)، والبغوي في شرح السنة (١٠٤/٦) برقم: (٢٨٩٦) من طريق سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي شريح العدوي به مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال ابن العربي: ولا شك أن الضيف كريم، والضيافة كرامة، فإن كان عديماً، فهي فريضة انتهى، و﴿أوجس﴾ معناه: أحس والتوجيس: ما يعتري النفس عند الحذر، وأوائل الفرع.

وقوله سبحانه: ﴿فَضَحِكْتُ﴾ قال الجمهور: هو الضحك المعروف، وذكر الطبري^(١) أن إبراهيم عليه السلام لما قدم العجل، قالوا له: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، فقال لهم: ثمثه: أن تذكروا الله تعالى عليه في أوله، وتحمده في آخره، فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلاً، ثم بشر الملائكة سارة بإسحاق، وبأن إسحاق سيولد يعقوب، ويسمى ولد الولد وراء، وهو قريب من معنى «وراء» في الظرف، إذ هو ما يكون خلف الشيء ويغده.

وقال * ص * : «وراء» ؛ هنا: استعمل غير ظرف، لدخول «من» عليه، أي: ومن بعد إسحاق. انتهى.

وقولها: ﴿يَا وَيَلْتِي﴾: الألف بدل من ياء الإضافة، أصلها: يَا وَيَلْتِي، ومعنى: «يَا وَيَلْتَا» في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز، و﴿من أمر الله﴾: واحد الأمور.

وقوله سبحانه: ﴿رَحِمْتَ اللَّهَ وَبَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: يحتمل أن يكون دعاء، وأن يكون خبراً.

* ص * : ونصب ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على النداء أو على الاختصاص، أو على المدح، انتهى. وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته.

* ت * : وهي هنا من أهل البيت على كل حال، لأنها من قرابته، وأبنة عمه، و«البيت»، في هذه الآية، وفي «سورة الأحزاب» بيت السكنى.

وقوله: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الرزق وجاءته البشري يجادلنا﴾: أي: أخذ يجادلنا «في قوم لوط».

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ ۖ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۖ﴾ (٧٥) يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَانِهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ وَصِفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْجَلَمِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَغْضَبْ قَطُّ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ يَغْضَبَ لِلَّهِ، وَأَمْرُهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُجَادَلَةِ يَقْتَضِي أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْكُفْرَةِ، حَرَصًا عَلَى إِسْلَامِهِمْ، وَ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وَاحِدُ الْأُمُورِ، أَي: نَفَذَ فِيهِمْ قَضَاؤَهُ سُبْحَانَهُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُقْتَضِيَةٌ أَنَّ الدُّعَاءَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ يُوَفَّقَ اللَّهُ الدَّاعِيَ إِلَى طَلَبِ الْمَقْدُورِ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ فِي طَلَبِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ، فَغَيْرُ مُجْدٍ وَلَا نَافِعٍ.

* ت * والكلام في هذه المسألة مَتَّسِعٌ رَخْبٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِيهَا قَوْلُ الْعَزَّالِيِّ فِي «الْإِحْيَاءِ»: فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ الدُّعَاءِ، وَالْقَضَاءُ لَا يُرَدُّ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ مِنَ الْقَضَاءِ رَدَّ الْبَلَاءِ بِالْدُّعَاءِ، فَالدُّعَاءُ سَبَبٌ لِرَدِّ الْبَلَاءِ، وَأَسْتَجْلَابُ الرَّحْمَةِ؛ كَمَا أَنَّ التُّرْسَ سَبَبٌ لِرَدِّ السَّهْمِ، وَالْمَاءُ سَبَبٌ لَخُرُوجِ النَّبَاتِ، انْتَهَى. وَقَدْ أَطَالَ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَلَوْلَا الْإِطَالَةُ لَأَتَيْتُ بِنَبَذٍ يَثْلُجُ لَهَا الصَّدْرُ، وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ أَبِي خَزَامَةَ، وَاسْمُهُ رِفَاعَةُ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقِيَ نَسْرَقِيهَا، وَدَوَاءٌ نَتَدَاوَى بِهِ، وَثِقَاةٌ نَتَّقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ»^(١)، قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي بَعْضِ نُسَخِهِ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، انْتَهَى. فَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ السَّيِّدِ الْمَعْصُومِ مَرْمَى لِأَحَدٍ، وَتَأَمَّلْ جَوَابَ الْفَارُوقِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ، حِينَ هَمَّ بِالرَّجُوعِ مِنْ أَجْلِ الدُّخُولِ عَلَى أَرْضٍ بِهَا الطَّاعُونَ، وَهِيَ الشَّامُ^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٤/٣٩٩ - ٤٠٠) كِتَابُ «الطَّبِّ» بَاب: مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالْأَدْوِيَةِ، حَدِيثٌ (٢٠٦٥)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢/١١٣٧) كِتَابُ «الطَّبِّ» بَاب: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، حَدِيثٌ (٣٤٣٧)، كِلَاهُمَا مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي خَزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ، بِهِ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَلَا نَعْرِفُ لِأَبِي خَزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (٤/٤٠٢)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٣/٢١٤ - ٢١٥) رَقْمًا: (٣٠٩٠) مِنْ طَرِيقِ صَالِحِ بْنِ أَبِي الْأَخْضَرِ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامَ بِهِ، وَسَكَتَ عَنْهُ الْحَاكِمُ وَالذَّهَبِيُّ، وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٥/٨٨)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَفِيهِ صَالِحُ بْنُ أَبِي الْأَخْضَرِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، يَعْتَبَرُ حَدِيثُهُ.

(٢) هَذَا الْقَوْلُ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٠/١٨٩) كِتَابُ «الطَّبِّ» بَاب: «مَا يَذْكُرُ فِي الطَّاعُونَ» رَقْمًا: (٥٧٢٩).

مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَسْرِعُ لِقَاةِ أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ، أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: «إِدْعَ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرِ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَدِيقِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَيَّ رَجُلٌ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾: الرسل هنا: الملائكة أضياف إبراهيم.

قال المهدوي: والرسل هنا: جبريل وميكائيل وإسرافيل، ذكره جماعة من المفسرين. انتهى، والله أعلم بتعيينهم، فإن صحَّ في ذلك حديث، صير إليه، وإلا فالواجب الوقف، و﴿سِيقَهُمْ﴾ أي: أصابه سوء، و﴿الذرع﴾: مصدر مأخوذ من الذراع، ولما كان الذراع موضع قوة الإنسان، قيل في الأمر الذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأمر ذراع فلان، وذرع فلان، أي: حيلته بذراعه، وتوسَّعوا في هذا حتى قلبوه، فقالوا: فلان رخب الذراع، إذا وصفوه باتساع القدرة، و﴿عصيب﴾: بناء اسم فاعل، معناه: يعصب

وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ. ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوه لهم فسلخوا سبل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوه فلم يختلف عليه منهم رجلان.

قالوا: نرى أن نرجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنأدى عمر في الناس: «إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه». قال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خضبة، والأخرى جذبة، أليس إن رعيت الخضبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجذبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان غائباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه»، قال: فحمد الله ثم انصرف.

وأخرجه مسلم (١٧٤٠/٤) كتاب «السلام» باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٩/٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٧/٧ - ٢١٨) كتاب «النكاح» باب: ولا يورد ممرض على مصح فقد يجعل الله تعالى بمشيئته مخالطته إياه سبباً لمرضه، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٠٤ - ٣٠٣/٤) كتاب «الكراهية» باب: الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا؟، وعبد الرزاق (١٤٧/١١) كتاب «الجامع» باب: الوباء والطاعون، رقم: (٢٠١٥٩) نحوه

النَّاسَ بِالشَّرِّ، فهو من العِصَابَةِ، ثم كَثُرَ وصفهم لليَوْمِ بعصيبٍ؛ ومنه: [الوافر]

..... وَقَدْ سَلَكَوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبٍ^(١)

وبالجملة فـ «عصيب»: في موضع شديد وصعب الوطأة، و﴿يُهَرَّعُونَ﴾ معناه: يُسْرِعُونَ، و﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: أي: كَانَتْ عَادَتُهُمْ إِتْيَانُ الْفَاحِشَةِ فِي الرِّجَالِ.

وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: يعني: بالتزويج، وقولهم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إشارة إلى الأضياف، فلما رأى لوطُ أَسْتَمْرَارَهُمْ فِي غَيْبِهِمْ، قال: على جهة التفجّع وألّا سَكَانَةً: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾.

قال * ع^(٢): ﴿لَوْ أَنَّ﴾: جوابها محذوف، أي: لَفَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَيُرْوَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَجَدَتْ عَلَيْهِ؛ حِينَ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَقَالُوا: إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَزْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(٣) فَالْعَجَبُ مِنْهُ لَمَّا أَسْتَكَانَ.

قال * ع^(٤): ﴿وَإِنَّمَا خَشِيَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَمْهَلَ اللَّهُ أَوْلَئِكَ الْعِصَابَةَ حَتَّى يَغْضُوهُ فِي الْأَضْيَافِ، كَمَا أَهْلَهُمْ فِيمَا قَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ الْقَوْمَ بِجَنَاحِهِ، فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ أَمَرُوا لُوطًا بِالسَّرَى، وَأَعْلَمُوهُ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِالْقَوْمِ، فَقَالَ لَهُمْ لُوطٌ: فَعَذَّبُوهُمْ السَّاعَةَ، فَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، أي: بِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ، ثُمَّ أَنْسَوهُ فِي قَلْبِهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، و«الْقَطْعُ»: الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّيْلِ.

قال * ص: ﴿إِلَّا أَمْرًا تَكُ﴾: ابن كثير وأبو عمرو بالرفع، والباقون بالتَّضْبِيبِ^(٥)، فْقِيلَ: كِلَاهُمَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ «أَخَذَ»، وَقِيلَ: النَّصْبُ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ «أَهْلَكَ» أَنْتَهَى.

(١) عجز بيت وصدرة:

وكننت لزاز خصمك ام أعرُد

ينظر: «مجاز القرآن» (٢٩٤/١)، «تفسير الطبري» (٤٧/١٢) «الدر المصون» (١١٧/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٥/٣).

(٣) تقدم تخريجه وهو حديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، الحديث.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٥/٣).

(٥) ينظر: «الحجة» (٣٦٩/٤)، و«إعراب القراءات السبع» (٢٩٢/١)، و«حجة القراءات» (٣٤٧)،

و«الإتحاف» (١٣٣/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٩٦/٣)، و«البحر المحيط» (٢٤٨/٥)، و«الدر المصون»

(١١٩/٤)، و«السبعة» (٣٣٨)، و«إعراب القراءات» (٢٩٢/١)، و«شرح الطيبة» (٣٧٠/٤)، و«شرح

شعلة» (٤٣١).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ذهبت فرقة، منهم ابن عباس إلى أن الحجارة التي رُمُوا بها كَانَتْ كَالْأَجْرِ الْمَطْبُوحِ^(١)، كَانَتْ مِنْ طِينٍ قَدْ تَحَجَّرَ، وَأَنْ سِجِّيلًا مَعْنَاهَا: مَاءٌ وَطِينٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «مِنْ سِجِّيلٍ»: مَعْنَاهُ: مِنْ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: سِجِّيلٌ وَسِجِّينٌ، حَفِظَ فِيهَا بَدَلُ الثُّونِ لَمَاءً، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا ﴿وَمَنْزُودٍ﴾: مَعْنَاهُ: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، مُتَابِعٌ، وَ﴿مُسَوِّمَةٍ﴾: أَي: مُعَلِّمَةٌ بِعَلَامَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْحِجَارَةِ، وَالظَّالِمُونَ: قِيلَ: يَعْنِي قَرِيشًا، وَقِيلَ: يَرِيدُ عَمُومَ كُلِّ مَنْ اتَّصَفَ بِالظُّلْمِ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْحَحُ، وَقِيلَ: يَعْنِي بِهَذَا الْإِعْلَامَ بَأَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَكَّةَ، وَمَا تَقَدَّمَ أَبَيَّنَ.

﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُخِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْفَوْرُ أَوْفُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ...﴾ الآية: قوله: ﴿بخير﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ: فِي رُخْصٍ مِنَ الْأَسْعَارِ^(٢)، وَقِيلَ: قوله: ﴿بخير﴾: عَامٌّ فِي جَمِيعِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ﴿تَعْتُوا﴾: مَعْنَاهُ تَسْعُونَ فِي فِسَادٍ، يُقَالُ: عَتَا يَغْتُو، وَعَتَى يَغْيِي؛ إِذَا أَفْسَدَ.

﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيفُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْفَوْرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْفَوْرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْفَوْرُ ارْهَقْطِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذْكُمْ ذُرِّيًّا طَاهِرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْفَوْرُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ

(١) ذكره ابن عطية (١٩٨/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٩٧/٧) برقم: (١٨٤٨١)، وابن عطية (١٩٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/

٦٢٦)، وعزاه إلى أبي الشيخ.

يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾

وقوله: ﴿بَقِيتَ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾: قال ابن عباس: معناه: الذي يُبْقِي اللَّهَ لَكُمْ من أموالكم بَعْدَ توفيتكم / الكَيْلَ وَالْوَزْنَ خَيْرَ لَكُمْ مما تستكثرونَ به على غير وجهه^(١)، وهذا ٢٤٨ ب تفسير يليق بلفظ الآية، وقال مجاهد: معناه: طاعةُ اللَّهِ^(٢)، وهذا لا يعطيه لفظ الآية.

قال * ص * : ﴿وَقَرَأَ الْحَسَنُ^(٣) : «تَقِيَّةُ اللَّهِ»، أَي : تقواه.

قال * ع^(٤) * : ﴿وإنما المعنى عندي : إبقاءُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِن أَطعتم، وقولهم : «أصلواتك تأمرُك أَنْ تترك ما يعبد آباؤنا﴾ : قالت فرقة : أرادوا الصلوات المعروفة، وروي أن شعيباً عليه السلام كان أَكْثَرَ الأنبياء صلاةً، وقال الحسنُ : لم يَنْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فرضَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ والزَّكَاةَ^(٥)، وقيل : أرادوا : أدعواؤك، وذلك أَنَّ من حَصَلَ في رتبةٍ من خير أو شَرٍّ، ففي الأكثرِ تَدْعُوهُ رتبته إلى التزُّيد من ذلك النوع، فمعنى هذا : لما كُنْتُ مصلِّياً، تجاوزتُ إلى ذمٍّ شرعنا وحالنا، فكان حاله من الصلاة جَسَرْتَهُ عَلَى ذلك، فقليل : أَمَرْتُهُ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥].

قال * ص، وع^(٦) * : ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ﴾ : معطوفٌ على ﴿ما يعبد﴾، و«أو» للتنويع، انتهى. وظاهر حالهم الذي أشاروا إليه هو بَخْسُ الكيل والوزن الذي تقدَّم ذكره، وروي أن الإشارةَ إلى قَرْضِهِم الدِّينَارَ والدَّرْهَمَ، وإجراء ذلك مع الصَّحِيح على جهة التذليل؛ قاله مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ^(٧)، وتوَوَّلَ أيضاً بمعنى تبديل السَّكِّكَ التي يقصد بها أَكْلُ أموالِ الناس، قال ابنُ العربي^(٨) : قال ابن المسيَّب : قطع الدنانير والدراهم مِنَ الفساد في

(١) ذكره ابن عطية (١٩٩/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣٩٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٩٩/٧) برقم : (١٨٤٩٦، ١٨٤٩٦)، وذكره ابن عطية (١٩٩/٣)، والبغوي (٨٦١/٢) بنحوه، وابن كثير (٤٥٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٦/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر : «البحر المحيط» (٢٥٣/٥).

(٤) ينظر : «المحرر الوجيز» (١٩٩/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٠٠/٣).

(٦) ينظر : «المحرر الوجيز» (٢٠٠/٣).

(٧) أخرجه الطبري (١٠٠/٧) برقم : (١٨٥٠٣ - ١٨٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٢٠١/٣)، والسيوطي في

«الدر المنثور» (٦٢٧/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٨) ينظر : «أحكام القرآن» (١٠٦٤/٣).

الأرض؛ وكذلك قال زيد بن أسلم في^(١) هذه الآية، وقسرها به، ومثله عن يحيى بن سعيد من رواية مالك، قال ابن العربي: وإذا كان قُطِعَ الدنانير والدراهم وقُرْضُها من الفساد، عُوقِبَ مَنْ فَعَلَ ذلك، وقُرْضُ الدراهم غَيْرُ كَسْرِها؛ فَإِنِ الكسر: فساد الوصف، والقَرْض: تنقيصُ للقدر، وهو أَشدُّ من كَسْرِها، فهو كالسرقة. انتهى من «الأحكام» مختصراً، وبعضه بالمعنى، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الحليم الرشيد﴾: قيل: إنهم قالوه؛ على جهة الحقيقة، أي: أنت حليم رشيد، فلا ينبغي لك أن تُثْهِنَا عن هذه الأحوال، وقيل: إنما قالوا هذا؛ على جهة الاستهزاء.

وقوله: ﴿وزرقتني مِنْهُ رزقاً حسناً﴾: أي: سالماً من الفساد الذي أَدْخَلْتُم في أموالكم، وجوابُ الشَّرْط الذي في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ محذوف، تقديره: أَضِلُّ كما ضَلَلْتُم، أو أتركُ تَبْلِيغَ رِسَالَةِ رَبِّي، ونحو هذا.

وقوله: ﴿لا يجرمَنَّكُمْ﴾: معناه: لا يُكْسِبَنَّكُمْ، و﴿شِقَاقِي﴾: معناه: مُسَاقَتِي، وَعَدَاوَتِي و﴿أَنْ﴾: مفعولة بـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

قال * ص، وع^(٢) * : ﴿وما قوم لوطٍ منكم ببعيد﴾: أي: بزمانٍ بعيد، أو بمكان.

قال * ص * : ﴿ودود﴾ بناءً مبالغةً مِنْ وَدَّ الشَّيْءَ، إِذَا أَحَبَّهُ، وآثره.

* ع^(٣) * : ومعناه: أن أفعاله سُبْحَانَهُ وَلُطْفُهُ بعباده لَمَّا كَانَتْ في غاية الإحسان إليهم، كَانَتْ كَفَعْلٍ مَنْ يَتَوَدَّدُ وَيَوَدُّ المصنوعَ له، وقولهم: ﴿مَا نَفَقَهُ﴾: كقول قريش: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةِ﴾ [فصلت: ٥]، والظاهر من قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾: أنهم أرادوا ضَعْفَ الْإِنْتِصَارِ والقُدْرَةِ، وَأَنْ رَهْطَهُ الْكُفْرَةُ يُرَاعَوْنَ فِيهِ، والرَّهْطُ: جماعةُ الرَّجُلِ، وقولهم: ﴿لرجمناك﴾ أي: بالحجارة؛ قاله ابن زيد، وقيل^(٤): بالسَّبِّ باللسان، وقولهم: ﴿بعزيز﴾: أي: بذي منعةٍ وعِزَّةٍ، ومنزلةٍ، و﴿الظَّهْرِيُّ﴾: الشيء الذي يكون وراء الظهر، وذلك يكون في الكلام على وجهين: إما بمعنى الأطراح؛ كما تقول: جَعَلْتُ كَلَامِي وَرَاءَ

(١) أخرجه الطبري (١٠٠/٧) برقم: (١٨٥٠١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٧/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠١/٣ - ٢٠٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٢/٣).

(٤) أخرجه الطبري (١٠٤/٧) برقم: (١٨٥٢٧)، وذكره ابن عطية (٢٠٢/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٠/٣)، وعزاه لأبي الشيخ.

ظَهَرَكَ، وَذَبَرَ أُذُنَكَ، وعلى هذا المعنى حمل الجمهور الآية، أي: اتخذتم أمر الله وشريعته وراء ظهوركم، أي: غير مراعى، وإما بأن يستند إليه ويلجأ؛ كما قال عليه السلام: «وَالْجَاثُ ظَهْرِي إِلَيْكَ»^(١)؛ وعلى هذا المعنى حمل الآية قوم: أي: وأنتم تتخذون الله سنداً ظهوركم وعماد آمالكم.

وقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه: على حالاتكم، وفيه تهديد.

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: والصحيح: أن الوقف في قوله: ﴿إِنِّي عاملٌ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ...﴾ الآية: ﴿الصَّيْحَةُ﴾: هي صَيْحَةٌ / جبريل عليه السلام.

١٢٤٩

﴿كَانَ لَرَّ يَنْتَوِي فِيهَا لَا بَعْدًا لِمَنْ كَمَا بَعَدَتْ شُعُودٌ﴾ (٩٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِتَابِعِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَشْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشْسُ الْوَرْدُ الْمَرُودُ (٩٩)

وقوله سبحانه: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا...﴾ الآية: ﴿يَغْنُوا﴾: معناه: يقيمون بِنِعْمَةٍ وَخَفُضٍ عِيشٍ؛ ومنه المغانى، وهي المنازل المعمورة بالأهل، وضمير «فيها» عائد على الديار.

وقوله: ﴿بُعْدًا﴾: مصدر دعا به؛ كقولك: سُخْقًا للكافرين، وفارقت هذه قولهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢]؛ لأن ﴿بُعْدًا﴾ إخبار عن شيء قد وجب وتحصل، وتلك إنما هي دعاء مرتجى، ومعنى البُعْد في قراءة: «بَعْدَتْ» - بكسر العين -: الهلاك، وهي قراءة الجمهور^(٢)؛ ومنه قول خزيم بن هفان: [الكامل]

لَا يَبْعَدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ^(٣)

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٤/٣)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٥)، و«الدر المصون» (١٢٧/٤).

(٣) البيت في «ديوانها» ص: (٤٣)، و«الأشباه والنظائر» (٢٣١/٦)، و«أمالى المرتضى» (٢٠٥/١)، و«الإنصاف» (٤٦٨/٢)، و«أوضح المسالك» (٣١٤/٣)، و«الحماسة البصرية» (٢٢٧/١)، و«خزانة الأدب» (٤١/٥ - ٤٢، ٤٤)، و«الدر» (١٤/٦)، و«سمط اللآلي» ص: (٥٤٨)، و«شرح أبيات سيويه» (١٦/٢)، و«شرح التصريح» (١١٦/٢)، و«الكتاب» (٢٠٢/١)، (٥٧/٢ - ٥٨، ٦٤)، =

ومنه قول مالك بن الرِّبيع: [الطويل]

يَقُولُونَ لَا تَبْعِدْ وَهُمْ يَذْفِئُونَنِي وَأَيِّنْ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا^(١)
وأما من قرأ: «بَعْدَتْ»، وهو السُّلَمِيُّ وأبو حَيَوَةَ^(٢) فهو من الْبُعْدِ الذي هو ضدُّ
القُرْبِ، ولا يُدْعَى به إلا على مَبْغُوضٍ.

قال * ص * : وقال ابنُ الأنباري: من العرب مَنْ يُسَوِّي بين الْهَلَاكِ وَالْبُعْدِ الَّذِي هو
ضِدُّ الْقُرْبِ، فيقولون فيهما: بَعْدَ يَبْعُدُ، وَبَعْدَ يَبْعُدُ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾: أي: وخالفوا أَمْرَ مُوسَى، ﴿وما أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ﴾، أي: بمرشِدٍ إلى خير.

وقال * ع^(٣) * : ﴿برشيد﴾: أي: بمصيب في مَذْهَبِهِ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾: أي: يقدمهم
إلى النار، و﴿الورد﴾، في هذه الآية: هو ورودُ دُخُولٍ.

قال * ص * : و﴿الْوَزْدُ﴾: فاعلٌ «بِشَسْ»، و﴿الْمَوْزُودُ﴾: المخصوصُ بالدِّمِّ، وفي
الأول حذف، أي: مَكَانُ الْوَزْدِ، ليطابق المخصوص بالدِّمِّ.

وجوز * ع^(٤) * : وأبو البقاء أن يكونَ «الْمَوْزُودُ» صفةً لمكان الْوَزْدِ، والمخصوص
محذوفٌ، أي: بِشَسْ مَكَانُ الْوَزْدِ المورودُ النارُ، و﴿الْوَزْدُ﴾: يجوز أن يكونَ مضدراً بمعنى
الْوُزْدِ، أو بمعنى الْوَارِدَةِ من الإبل، وقيل: الْوَزْدُ: بمعنى الْجَمْعِ للوَارِدِ، والمَوْزُودُ: صفةٌ
لهم، والمخصوصُ بالدِّمِّ ضميرٌ محذوفٌ، أي: بِشَسْ القومِ الْمَوْزُودِ بهم هُمُ، انتهى.

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾: يريد: دارَ الدنيا.

وقوله: ﴿بِشَسْ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾: أي: بِشَسْ الْعَطَاءُ الْمَعْطَى لهم، وهو الْعَذَابُ، وَالرِّفْدُ

= «لسان العرب» (٢١٤/٥) (نضر)، و«المحتسب» (١٩٨/٢)، و«المقاصد النحويّة» (٦٠٢/٣)، (٤/٧٢)، وبلا نسبة في «رصف المياني» ص: (٤١٦)، و«شرح الأشموني» (٣٩٩/٢).

(١) البيت من الطويل، وهو لمالك بن الرِّبيع في «ديوانه» ص: (٤٦)، و«خزانة الأدب» (٣٣٨/٢)، (٥/٤٦)، و«شرح شواهد المغني» (٦٣٠/٢)، و«لسان العرب» (٩١/٣) (بعد)، وبلا نسبة في «مغني اللبيب» (٢٤٧/١).

(٢) ينظر: «مصادر القراءة السابقة»، و«الشواذ» ص: (٦٥)، و«المحتسب» (٣٢٧/١)، و«الكشاف» (٢/٤٢٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٤/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٥/٣).

في كلام العرب: العطية.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيهٌ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقْتُ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَنْجِيرٌ وَسَهيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذلك من أنباء الفرى...﴾ الآية: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأمم المذكورة، ﴿منها قائمٌ وحصيدٌ﴾: أي: منها قائم الجذرات، ومتهدم دائر، والآية بجملة متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم، وال: ﴿تنبيه﴾: الحسran؛ ومنه: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [المسد: ١].

وقوله: ﴿وكذلك﴾: الإشارة إلى ما ذكر من الأخذات في الأمم، وهذه آية وعيد يعمر قري المؤمنين والكافرين، فإن «ظالمة»: أعم من «كافرة»، وقد يمهل الله تعالى بغض الكفرة، وأما الظلمة، فمعاجلون في العالب، وقد يُملي لبغضهم، وفي الحديث، من رواية أبي موسى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ، لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة...﴾ الآية^(١)، وهذه قراءة الجماعة، وهي تعطي بقاء الوعيد، واستمراره في الزمان؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً»: أي: لعلبة علامة اهتداء، ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾، ثم عظم الله أمر الآخرة، فقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾، وهو يوم الحشر، «وذلك يوم مشهود» يشهده الأولون والآخرون؛ من الملائكة، والإنس، والجن والحيوان؛ في قول الجمهور، ﴿وما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ﴾ لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥/٨) كتاب «التفسير» باب: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، حديث (٤٦٨٦)، ومسلم (١٩٩٧/٤ - ١٩٩٨) كتاب «البر والصلة» باب: تحريم الظلم، حديث (٦١/٢٥٨٣)، والترمذي (٢٨٨/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة هود، حديث (٣١١٠)، وابن ماجه (١٣٣٢/٢) كتاب «الفتن» باب: العقوبات، حديث (٤٠١٨)، والنسائي في «التفسير» رقم: (٢٦٥)، من حديث أبي موسى الأشعري.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٢/٣)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

قال * ص * : والظاهر أن ضمير فاعل: «يأت»: يعود على ما عاد عليه ضمير «تؤخره»، والناصب لـ «يؤم» «لا تكلم»، والمعنى: لا تكلم نفسك يوم يأتي ذلك اليوم إلا بإذنه سبحانه. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فمنهم﴾: عائد على الجمع الذي يتضمنه قوله: ﴿نفس﴾، إذ هو اسم جنس يراد به الجمع ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ وهي أصوات المكروبين والمخزونين والمعذبين، ونحو ذلك، قال قتادة: الزفير: أول صوت الجمار، والشهيق: آخره^(١)، فصياح أهل النار كذلك، وقال أبو العالية: «الزفير»: من الصدر، و«الشهيق»: من الحلق^(٢)، والظاهر ما قال أبو العالية.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١٧٧)
 ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوفٍ﴾^(١٧٨) فلا تك في مرتبة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإننا لموفونهم نصيبتهم غير متفوس^(١٧٩) ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لغنى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب^(١٨٠) وإن كلاً لئما يوفيتهم ربك أعمالهم إنهم بما يعملون خبير^(١٨١) فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنهم بما تعملون بصير^(١٨٢)

وقوله سبحانه: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾: يزوي عن ابن عباس: ب ٢٤٩ أن الله خلق السموات والأرض من نور العرش، ثم يردهما إلى هنالك / في الآخرة^(٣)، فلهما ثم بقاء دائم، وقيل: معنى: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾: العبارة عن التأييد بما تفهده العرب، وذلك أن من فصيح كلامها، إذا أرادت أن تخبر عن تأييد شيء أن تقول: لا أفعل كذا وكذا أمد الدهر، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، وقيل غير هذا.

قال * ص * : وقيل: المراد سموات الآخرة، وأرضها؛ يدل عليه قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ [إبراهيم: ٤٨] انتهى. وأما قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾: في الاستثناء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه متصل، أي: إلا ما شاء ربك من إخراج الموحدين؛ وعلى هذا يكون قوله: ﴿فأما الذين شقوا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من ﴿خالدين﴾،

(١) أخرجه الطبري (١١٤/٧) برقم: (١٨٥٨٢)، وابن عطية (٢٠٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١١٤/٧) برقم (١٨٥٨٠، ١٨٥٨١)، وذكره ابن عطية (٢٠٧/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٠٨/٣).

وهذا قول قتادة وجماعة^(١).

الثاني: أن هذا الاستثناء ليس بمتصل ولا منقطع، وإنما هو على طريق الاستثناء الذي ندب إليه الشنغ في كل كلام؛ فهو على نحو قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧].

الثالث: أن «إلا» في هذه الآية بمعنى «سوى»، والاستثناء منقطع، وهذا قول الفراء، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بـ «سوى» وسيؤيّه يقدره بـ «لكن»، أي: سوى ما شاء الله زائداً على ذلك؛ ويؤيد هذا التأويل قوله بعد: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾، وقيل: سوى ما أعد الله لهم من أنواع العذاب، وأشد من ذلك كله سخطه سبحانه عليهم، وقيل: الاستثناء في الآيتين من الكون في النار والجنة، وهو زمان الموقف، وقيل: الاستثناء؛ في الآية الأولى: من طول المدة، وذلك على ما روي أن جهنم تخرب، ويُعَدَّم أهلها، وتخفق أبوابها، فهم على هذا يخلدون حتى يصير أمرهم إلى هذا.

قال * ع^(٢): * وهذا قول محتمل، والذي روي ويُقِل عن ابن مسعود وغيره أن ما يخلى من النار إنما هو الدرك الأعلى المختص بعصاة المؤمنين^(٣)، وهذا الذي يسمّى جهنم، وسمي الكل به تجوزاً.

* ت: * وهذا هو الصواب - إن شاء الله - وهو تأويل صاحب «العاقبة»؛ أن الذي يخرب ما يخص عصاة المؤمنين، وتقدم الكلام على نظير هذه الآية، وهو قوله في «الأنعام»: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال * ع^(٤): * والأقوال المترتبة في الاستثناء الأول مرتبة في الاستثناء الثاني في الذين سعدوا إلا تأويل من قال: هو استثناء المدة التي تخرب فيها جهنم؛ فإنه لا يترتب هنا، والـ ﴿مَجْذُودٌ﴾: المقطوع، والإشارة بقوله: ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ إلى كفار العرب، ﴿وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ معناه: من العقوبة، وقال الداوديني عن ابن عباس: ﴿وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾: قال: ما قدر لهم من خير وشر انتهى^(٥).

(١) أخرجه الطبري (١١٥/٧) برقم: (١٨٥٨٥ - ١٨٥٨٦) نحوه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٨/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٠٨/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٨/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٢٠/٧) برقم: (١٨٦٠٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٦/٣)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾: أي: اختلف الناس عليه، فلا يَغْظُم عليك، يا محمد، أمر من كذبك.

وقال * ص * : «فيه»: الظاهر عودُه على الكتاب، ويجوز أن يعود على موسى، وقيل: «في» بمعنى «على»، أي: عليه، انتهى.

وال (كلمة)؛ هنا عبارة عن الحكم والقضاء لقضي بينهم: أي: لفصل بين المؤمن والكافر؛ بنعيم هذا وعذاب هذا، ووصف الشك بالريب؛ تقوية لمعنى الشك، فهذه الآية يحتمل أن يكون المراد بها أمة موسى، ويحتمل أن يراد بها معاصرو النبي ﷺ، وأن يعمم اللفظ أحسن، ويؤيده قوله: ﴿وَإِنْ كُلاُ﴾، وقرأ نافع^(١) وابن كثير: «وَإِنْ كُلاُ لَمَّا» وقرأ أبو عمرو، والكسائي بتشديد «إِنْ»، وقرأ حمزة وحفص بتشديد «إِنْ»، وتشديد «لَمَّا»، فالقراءتان المتقدمتان بمعنى «إِنْ» فهما على بابها، و«كُلاُ»، اسمها، وعرفها أن تدخل على خبرها لام، وفي الكلام قسم تدخل لامة أيضاً على خبر «إِنْ»، فلما اجتمع لآمان، فصل بينهما ب «ما»؛ هذا قول أبي علي، والخبر في قوله: ﴿لِيُؤْفِكَهُمْ﴾، وهذه الآية وعيد، ومعنى الآية: أن كل الخلق موافق في عمله.

وقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾: أمر النبي ﷺ بالاستقامة، ١٢٥٠ / وهو عليها إنما هو أمر بالدوام والثبوت، وهو أمر لسائر الأمة، وروي أن بعض العلماء رأى النبي ﷺ في النوم، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَعْنَا عَنْكَ أُنْكَ قُلْتَ: «شَيْبَتِي هُوْدُ وَأَخَوَاتُهَا»، فَمَا الَّذِي شَيْبَكَ مِنْ هُوْدٍ؟ فَقَالَ لَهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(٢).

قال * ع^(٣) * : والتأويل المشهور في قوله عليه السلام: «شَيْبَتِي هُوْدُ وَأَخَوَاتُهَا» أنه إشارة إلى ما فيها مما حلَّ بالأُمم السالفة، فكان حذرُه على هذه مثل ذلك شيبه عليه السلام.

﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَنْسَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرُوا لِلذَّكْرِ (١١٤) وَأَسْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيحُ أَعْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾

(١) ينظر: «السبعة» (٣٣٩)، و«الحجة» (٣٨١/٤)، و«إعراب القراءات» (٢٩٤/١)، و«شرح الطيبة» (٤/

٣٧٣)، و«العنوان» (١٠٨)، و«شرح شعلة» (٤٣٢ - ٤٣٣)، و«الإتحاف» (١٣٥/٢).

(٢) تقدم تخريجه في سورة «هود» دون قول: «فاستقم كما أمرت».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٩/٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ الآية: الرُّكُونُ: السُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ، والرضا به، قال أبو العالية: الرُّكُونُ: الرُّضَا. قال ابنُ زَيْدٍ: الرُّكُونُ: أَلَا دَهَانَ^(١).

قال * ع^(٢): ﴿فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره، والنهْيُ هنا يترتب من معنى الرُّكُونِ عَلَى الْمَيْلِ إِلَيْهِمْ بِالشُّرْكَ مَعَهُمْ إِلَى أَقْلِ الرُّتْبِ مِنْ تَرْكِ التَّغْيِيرِ عَلَيْهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هنا: هم الكُفَرَةُ، ويدخلُ بالمعنى أَهْلُ الْمَعَاصِي.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ...﴾ الآية: لا خلاف أن ﴿الصَّلَاةَ﴾ في هذه الآية يرادُ بها الصَّلَوَاتُ الْمَفْرُوضَةُ، واختلفَ في طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلْفَى اللَّيْلِ، فقيل: الطَّرَفُ الْأَوَّلُ: الصُّبْحُ، والثَّانِي: الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، والزُّلْفَى: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ؛ قاله مجاهد وغيره^(٣)، وروي عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ: «هُمَا زُلْفَتَا اللَّيْلِ»^(٤) وقيل: الطَّرَفُ الْأَوَّلُ: الصُّبْحُ، والثَّانِي: الْعَصْرُ؛ قاله الحسن وقتادة^(٥)، والزُّلْفَى: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، وليست الظهر في هذه الآية على هذا القول، بل هي في غيرها.

قال * ع^(٦): ﴿والأول أحسن الأقوال عِنْدِي، وَرَجَّحَ الطَّبْرِيُّ^(٧) الْقَوْلَ بِأَنَّ الطَّرَفَيْنِ الصُّبْحَ وَالْمَغْرِبَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، وَإِنَّهُ لَظَاهِرٌ، إِلَّا أَنَّ عُمُومَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِالْآيَةِ أَوَّلَى، وَالزُّلْفَى: السَّاعَاتُ الْقَرِيبُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، ذهب جمهورُ المتأولين من صَحَابَةِ وَتَابِعِينَ إِلَى أَنَّ الْحَسَنَاتِ يَرَادُ بِهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَإِلَى هَذِهِ الْآيَةِ ذَهَبَ عِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَضُوئِهِ عَلَى الْمَقَاعِدِ، وَهُوَ تَأْوِيلُ مَالِكٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿الْحَسَنَاتِ﴾:

(١) أخرجه الطبري (١٢٤/٧) برقم: (١٨٦٢٠)، وذكره ابن عطية (٢١٢/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٢٤/٧) برقم: (١٨٦٢١ - ١٨٦٢٢ - ١٨٦٢٣)، عن مجاهد برقم: (١٨٦٢٤)، عن محمد بن كعب القرظي، وبرقم: (١٨٦٢٦)، عن الضحاك، وذكر طرفاً منه، وأخرج طرفه الآخر (٧/١٢٧) برقم: (١٨٦٤٩ - ١٨٦٥٠ - ١٨٦٥١)، عن مجاهد وبرقم: (١٨٦٤٦ - ١٨٦٤٧ - ١٨٦٤٨)، عن الحسن، وذكره ابن عطية (٢١٢/٣)، والبغوي (٤٠٤/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٧/٣).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٨/٧) برقم: (١٨٦٥٢) عن الحسن مرسلاً، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٧/٣)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (١٢٥/٧) برقم: (١٨٦٣٢ - ١٨٦٣٣ - ١٨٦٣٤ - ١٨٦٣٥)، وذكره ابن عطية (٣/٢١٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤٠٤/٢ - ٤٠٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٧/٣) بنحوه.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٢/٣).

(٧) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢٤/٧ - ١٢٥).

قول الرجل: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ^(١).

قال * ع^(٢): وهذا كله إنما هو على جهة المِثَال في الحسنات، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي معظم الأعمال، والذي يظهر أن لفظ الآية عام في الحسنات، خاص في السيئات؛ بقوله عليه السلام: «مَا أَجْتَنِبَتِ الْكِبَائِرُ»، وروي أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار، وهو أبو اليسر بن عمرو، وقيل: اسمه عبّاد، خلا بامرأه، فقَبِلَهَا، وتلذذ بها فيما دون الجَمَاع، ثم جاء إلى عمر، فشكا إليه، فقال له: قَدْ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَاسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ، فَقَلِقَ الرَّجُلُ، فجاء أبا بكر، فشكا إليه، فقال له مثل مقالة عمر، فَقَلِقَ الرَّجُلُ، فأتى النبي ﷺ، فَصَلَّى مَعَهُ، ثم أخبره، وقال: أَقْضُ فِيَّ مَا شِئْتَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَلَّهَا زَوْجَةُ عَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟!» قَالَ: نَعَمْ، فَوَبَّخَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «مَا أَذْرِي»، فنزلت هذه الآية، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ، فَتَلَاهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَهَذَا لَهُ خَاصَّةٌ؟ فَقَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ»^(٣).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): وهذا الحديث صحيح، رواه الأئمة كلهم، انتهى.

قال * ع^(٥): وروى: أن الآية قد كانت نزلت قبل ذلك، واستعملها النبي ﷺ في ذلك الرجل، وروي أن عمر قال ما حكي عن معاذ، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «الْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا؛ إِنْ أَجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرَ»^(٦).

(١) أخرجه الطبري (١٣١/٧) برقم: (١٨٦٨)، وذكره ابن عطية (٣١٣/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٣/٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٢/٢) كتاب «مواقيت الصلاة» باب: «وأقم الصلاة طرفي النهار»، حديث (٥٢٦)، وفي (٢٠٦/٨) كتاب «التفسير» باب: «وأقم الصلاة طرفي النهار»، حديث (٤٦٨٧)، ومسلم (٤/٢١١٥، ٢١١٧) وكتاب «التوبة» باب: قوله تعالى: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، حديث (٣٩)، (٢٧٦٣/٤١)، والترمذي (٢٩١/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة هود، حديث (٣١١٤)، والنسائي في «التفسير» (٢٦٧)، وابن ماجه (٤٤٧/١) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة، حديث (١٣٩٨)، وفي (١٤٢١/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر التوبة، حديث (٤٢٥٤)، وأحمد (٤٤٥/١)، وابن خزيمة (٣١٣)، وابن حبان (١٧٢٩ - ١٧٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨٦٧٦)، والبيهقي (٨/٢٤١) من طرق عن عبد الله بن مسعود.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٧٣/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٢٥/٧ - ١٢٦) برقم: (١٨٦٣٢ - ١٨٦٣٣ - ١٨٦٣٤)، وذكره البغوي (٤٠٥/٢)، وذكره ابن عطية (٢١٢/٣) بنحوه.

(٦) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿ذلك ذكرى﴾: إشارة إلى الصلوات، أي: هي سبب الذكرى، وهي العظة، ويحتمل أن تكون إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يُذهبن السيئات.

/ ويحتمل أن تكون إشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي والقصاص في هذه ٢٥٠ ب السورة، وهو تفسير الطبري.

﴿قُلْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَعُوا مَا أُتُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿قلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية... الآية﴾: هي التي للتحضيض، لكن، يقترون بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد، وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، والقرون من قبلنا قوم نوح وعاد وثمود، ومن تقدم ذكره.

وقوله: ﴿أولوا بقية﴾: أي: أولو بقية من عقل وتمييز ودين، ﴿ينهون عن الفساد﴾ وإنما قيل: ﴿بقية﴾؛ لأن الشرائع والدول ونحوها، قوتها في أولها، ثم لا تزال تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف، فهو بقية الصذر الأول.

و﴿الفساد في الأرض﴾: هو الكفر وما اقترن به من المعاصي، وهذه الآية فيها تنبيه لهذه الأمة وحض على تغيير المنكر، ثم استثنى عز وجل القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم، وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم، و﴿قليلاً﴾ استثناء منقطع، أي: لكن قليلاً ممن أنجينا منهم، نهوا عن الفساد، و﴿المُتَرَف﴾: المنعم الذي شغلته نزفته عن الحق حتى هلك؛ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم﴾ منه سبحانه وتعالى عن ذلك، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾: أي مؤمنة لا يقع منهم كفر؛ قاله قتادة^(١)، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء والملل، هذا تأويل الجمهور، ﴿إلا من رحم ربك﴾، أي: بأن هداه إلى الإيمان؛ وقوله تعالى: ﴿ولذلك خلقهم﴾: قال الحسن: أي: وللاختلاف خلقهم^(٢).

(١) أخرجه الطبري (١٣٧/٧) برقم: (١٨٧١٢) نحوه، وذكره ابن عطية (٢١٥/٣)

(٢) أخرجه الطبري (١٣٩/٧) برقم: (١٨٧٣٣)، وذكره ابن عطية (٢١٥/٣) نحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٥/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

قال * ع^(١) : * وذلك أن الله تعالى خلق خلقاً للسعادة، وخلقاً للشقاوة، ثم يسّر كلاً لما خلق له، وهذا نص في الحديث الصحيح، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أمانة الشقاوة، وبه علق العقاب، فيصح أن يُحمَلَ قول الحسن هنا: وللإختلافِ خلقَهُم، أي: لثمرة الاختلاف، وما يكون عنه من شقاوة أو سعادة، وقال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية، فقال: خلقَهُم؛ ليكون فريق في الجنة، وفريق في السعير، وقيل غير هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: نفذ قضاؤه، وحق أمره، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: لام قسم.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنِثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنِثِي بِهِ فُؤَادَكَ﴾، و«كلًا» مفعول مقدم بـ «نَقُصُّ»، و«ما» بدل من قوله: «وكلًا»، و«نُثِيت به فؤادك» أي: نؤنسك فيما تلقاه، ونجعل لك الإِسْوَة.

﴿وجاءك في هذه الحق﴾ قال الحسن: ﴿هذه﴾ إشارة إلى دار الدنيا^(٢)، وقال ابن عباس: ﴿هذه﴾، إشارة إلى السورة^(٣)، وهو قول الجمهور.

قال * ع^(٤) : * ووجه تخصيص هذه السورة بوضفها بحق، والقرآن كله حق أن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة، والتنبيه للنَّاظر، أي: جاءك في هذه السورة الحق الذي أصاب الأمم الماضية، وهذا كما يقال عند الشدائد: جاء الحق، وإن كان الحق يأتي في غير الشدائد، ثم وصف سبحانه أن ما تضمنته السورة هو موعظة وذكرى للمؤمنين.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٤٢/٧ - ١٤٣) برقم: (١٨٧٥٧، ١٨٧٦١)، وذكره ابن عطية (٢١٦/٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤٠٧/٢)، وابن كثير (٤٦٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٤٤/٧) برقم: (١٨٧٧٧)، وذكره ابن عطية (٢١٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٦/٣)، وعزاه إلى عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٦/٣).

وقوله سبحانه: ﴿وقل للذين لا يؤمنون...﴾ الآية: آية وعيد.

وقوله تعالى: ﴿ولله غيب السموات والأرض...﴾ الآية: أية تعظيم وأنفراد بما لا حظ لمخلوق فيه، ثم أمر سبحانه العبد بعبادته، والتوكل عليه، وفيهما زوال همة وصلاحه، ووضوئه إلى رضوان الله تعالى، فقال: ﴿فأعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾، اللهم أجعلنا ممن توكل عليك، ووفقتك لعبادتك كما ترضى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله على جزيل ما به أنعم.

تفسير سورة يوسف

هذه السورة مكيّة، والسبب في نزولها أن اليهود أمروا كفّار مكّة؛ أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحلّ بني إسرائيل بمصر، فنزلت السورة.

وقيل: سبب نزولها تسليّة النبي ﷺ عمّا / يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وسورة يوسف لم يتكرّر من معانيها في القرآن شيء؛ كما تكرّرت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من أعترض بأن الفصاحة تمكّنت بتزاد القول، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه: لو كرّرت، لفترت فصاحتها. ١٢٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَفْلِيلِ ﴿٣﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الكتاب المبين؛ هنا القرآن، ووصفه بـ ﴿المبين﴾ من جهة بيان أحكامه وحلاله وحرامه ومواعظه وهُداه ونوره، ومن جهة بيان اللسان العربيّ وجوديّة، والضمير في ﴿أنزلناه﴾: للكتاب، و﴿قرآنًا﴾ حال، و﴿عربيًّا﴾: صفة له، وقيل: ﴿قرآنًا﴾: توطئة للحال، و﴿عربيًّا﴾ حال.

وقوله سبحانه: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص...﴾ الآية: روى ابن مسعود، أن أصحاب النبي ﷺ ملّوا ملّة، فقالوا: لو قصصت علينا، يا رسول الله! فنزلت هذه الآية، ثم ملّوا ملّة أخرى، فقالوا: لو حدّثتنا، يا رسول الله، فنزلت: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾^(١)... الآية [الزمر: ٢٣] و﴿القصص﴾: الإخبار بما جرى من الأمور.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤)، وعزاه لابن جرير عن عون بن عبد الله.

وقوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: أي: بوحينا إليك هذا، و﴿القرآن﴾: نعت لـ «هذا» ويجوز فيه البدل، والضمير في «قبله»: للقصص العام؛ لما في جميع القرآن منه، و﴿من الغافلين﴾، أي: عن معرفة هذا القصص، وعبارة المهدوي: قال قتادة: أي: نقص عليك من الكتب الماضية، وأخبار الأمم السالفة أحسن القصص؛ بوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين عن أخبار الأمم، انتهى.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: قيل: إنه رأى كواكب حقيقة، والشمس والقمر، فتأولها يعقوب إخوته وأبويه، وهذا هو قول الجمهور، وقيل: الإخوة والأب والخالة؛ لأن أمه كانت ميتة، وروي أن رؤيا يوسف خرجت بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين سنة.

وقوله: ﴿يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ من هنا ومن فعل إخوة يوسف بيوسف: يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت، وما وقع في «كتاب الطبري» لابن زيد؛ أنهم كانوا أنبياء يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء، وتعرض مؤمن للهلاك، والتأمر في قتله.

﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾: أي: يختارك ويصطفيك.

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد وغيره: هي عبارة الرؤيا^(١) وقال الحسن: هي عواقب الأمور^(٢) وقيل: هي عامة لذلك وغيره من المعانيات.

﴿ويتم نعمته عليك...﴾ الآية: يريد بالنبوة وما أنضاف إليها من سائر النعم، ويروي: أن يعقوب علم هذا من دغوة إسحاق له حين تشبه بـ «عيسو»، وباقى الآية بين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْمُتَسَاءِلِينَ ﴿٧﴾﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ أَفْتَلَوْا يُوسُفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَوْضًا يَحُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُم

(١) أخرجه الطبري (١٥١/٧) برقم (١٨٨٠٣)، وذكره ابن عطية (٢٢٠/٣)، وابن كثير (٤٦٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/٤)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٢٠/٣).

وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾؛ إذ كلُّ أحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذا القصص، إذ هي مَقَرُّ العبر والآلِعاظ؛ وقولهم: ﴿وأخوه﴾: يريدون به «يَاسِينَ»، وهو أصغر من يوسف، ويقال له: «بَنِيَامِينَ» قيل: وهو شقيقه، ﴿أحبُّ إلى أينا منَّا﴾: أي: لصغيرهما وموتُ أهمما، وهذا مِنْ حُبِّ الصغير هي فطرة البَشَر، وقولهم: ﴿ونحن عصبه﴾: أي: جماعة تضرُّ وتنفع، وتحمي وتخذل، أي: لنا كَانَتْ تنبغي المحبة والمراعاة، والعُصبة في اللغة: الجماعة، وقولهم: ﴿لفي ضلال مبين﴾، أي: لفي أنتلاف وخطإ في محبة يوسف وأخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإنما يصغر قدره، ويعظم بحسب الشيء الذي فيه يَقَعُ أنتلاف، و﴿مبين﴾: معناه: ظاهر للمتأمل، وقولهم: ﴿أو أطرحوه أرضاً﴾: أي: بأرض بعيدة؛ ف «أَرْضاً» مفعول ثانٍ بإسقاط حرف الجر، والضمير في «بعده» عائد على يوسف، أو قتله، أو طرحه، ﴿وصالحين﴾: قال مقاتل وغيره: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم^(١)، والقائل منهم: «لا تقتلوه» هو: «رُوبِيلُ» أسئهم؛ قاله قتادة^(٢) وابن إسحاق، وقيل: هو شَمْعُون؛ قاله مجاهد^(٣)، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة؛ لما أراد الله من إنفاذ قضائه، و«الغيابة»: ما غاب عنك، و﴿الجُبِّ﴾ البئر التي لم تُطَوَّ؛ لأنها جُبَّتْ من الأرض فقط، قال المَهْدَوِيُّ: والجُبُّ؛ في اللغة: البئر المقطوعة التي لم تُطَوَّ، انتهى. وال «سيارة»: جمع سَيَّار، وروي أن جماعة من الأعرابِ أَلْقَطَتْ يوسف عليه السلام.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِيظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَخَزَنَتِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَآجَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون...﴾ الآية المتقدمة تقتضي أن أباهم قد كان عليمٌ منهم إرادتهم السوء في جهة يوسف، وهذه

(١) ذكره ابن عطية (٢٢٢/٣)

(٢) أخرجه الطبري (١٥٣/٧) برقم: (١٨٨١١)، ويرقم: (١٨٨١٢)، وذكره ابن عطية (٢٢٢/٣)، والبعوي (٤١٢/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٢٢/٣).

الآية تقتضي أنهم علموا هُم منه بعلمه ذلك، وقرأ أبو عامر^(١) وابن عمرو: «نَزَعَ وَنَلَعَبَ» - بالنون فيهما وإسكان العين والباء -، و«نَزَعَ»؛ على هذا: من الرثوع، وهي الإقامة في الخضب والمرعى في أكلٍ وشربٍ، وقرأ ابن كثير: «نَزَعَ وَنَلَعَبَ» - بالنون فيهما وكسر العين وإسكان الباء -، وقد رُوِيَ عنه «وَيَلَعَبَ» - بالياء - و«نَزَعَ» على هذا: من رعاية الإبل. وقال مجاهد: من المُرَاعاة، أي: يرعى بعضنا بعضاً، ويحرسه^(٢)، وقرأ عاصم وحمة والكسائي: «يَرْتَع وَيَلَعَبَ» بإسناد ذلك كله إلى يوسف، وقرأ نافع «يَزَعَ وَيَلَعَبَ»، فـ «يَزَعَ»؛ على هذا: من رعاية الإبل، قال أبو علي: وقراءة ابن كثير «نَزَعَ» - بالنون - و«يَلَعَبَ» - بالياء -: منزعا حسنٌ؛ لإسناد النظر في المال، والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف لصباه، ولعبهم هذا داخل في اللعب المباح والمندوب كاللعب بالخيول والرمي؛ وعلّلوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسفَ لصباه من الرثوع واللعب والنشاط، وإنما خاف يعقوب عليه السلام الذئب دون سواه، وخصّصه؛ لأنه كان الحيوان العادي المنبث في القطر، ولصغر يوسف، و«أجمعوا»: معناه: عزّموا.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَيْهِ﴾ يحتمل أن يكون الوحي إلى يوسف حينئذٍ برسول، ويحتمل أن يكون بالهام أو بنوم، وكل ذلك قد قيل، وقرأ الجمهور^(٣): «لَتُنَبِّئَهُمْ» بالتاء من فوق.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: قال ابن جُرَيج: معناه: لا يشعرون وقت النبوة؛ أنك يوسف^(٤)، وقال قتادة: لا يشعرون بوخينا إليك^(٥).

(١) الصواب فيهما أبو عمرو، وابن عامر، ولعله سبق قلم من المصنف أو الناسخ. وقد قرأ بقراءتهما ابن كثير، وحجتهم هي قولهم بعد: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، فكانهم أسندوا جميع ذلك إلى جماعتهم إذا أسندوا الاستباق، فقيل لأبي عمرو: فكيف يلعبون وهم أنبياء الله؟ فقال: إذ ذاك لم يكونوا أنبياء الله.

ينظر: «السبعة» (٣٤٥ - ٣٤٦)، و«الحجة» (٤٠٢/٤ - ٤٠٣)، و«إعراب القراءات» (٣٠٣/١)، و«شرح الطيبة» (٣٧٧ - ٣٧٨)، و«العنوان» (١١٠)، و«إتحاف» (١٤١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٥٦/٧) برقم: (١٨٨٣٨)، وذكره ابن عطية (٢٤٤/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٥/٣)، و«البحر المحيط» (٢٢٨/٥)، و«الدر المصون» (١٦٢/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٥٩/٧) برقم: (١٨٨٥٠)، وذكره ابن عطية (٢٢٦/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٥/٤).

(٥) أخرجه الطبري (١٥٨/٧) برقم: (١٨٨٤٨)، وذكره ابن عطية (٢٢٦/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤٧١)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٤/٤)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَانْكَرَ الْذَنْبَ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ يَدْمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَبِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨)

وقوله: ﴿وجاءوا وأباهم عشاء يبكون﴾: أي: وقت العشاء، وقرأ الحسن: «عُشَى»^(١)؛ على مثال «دُجِي»، جمع «عاش»، ومعنى ذلك: أصابهم عشى من البكاء أو شبه العشى، إذ كذلك هي عين الباكي؛ لأنه يتعاشى، ومثل شُرَيْحَ امرأة بَكَّتْ، وهي مبطلّة ببكاء هؤلاء؛ وقرأ الآية، و﴿نَسْتَبِقُ﴾: معناه: على الأقدام، وقيل: بالرمي، أي: ننتضل، وهو نوع من المسابقة؛ قاله الزّجاج، وقولهم: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾: أي بمصدق لنا، ﴿ولو كنا صادقين﴾، أي: ولو كنا موصوفين بالصدق، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿ولو كنا صادقين﴾: بمعنى: وإن كنا صادقين في معتقدينا.

وقوله سبحانه: ﴿وجاءوا وعلى قميصه بدم كذب﴾: روي أنهم أخذوا سَخْلَةً أَوْ جَذِيًّا، فذبحوه، ولَطَّخُوا به قميصَ يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأخذه وبكى ثم تأمله، فلم يرَ خَرَقًا، ولا أثر ناب؛ فاستدلّ بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذنب حليماً يأكلُ يوسف، ولا يخرق قميصه؛ قصّ هذا القصص ابن عباس وغيره^(٢)، وأجمعوا على أنه استدلّ على كذبهم بصحة القميص، واستند الفقهاء إلى هذا في إعمال الأمارات في مسائل؛ كالقسامة^(٣) بها في قول مالك إلى غير ذلك. قال الشعبي: كان في القميص ثلاث

(١) قال أبو الفتح: وكان قياسه عشاءً كماش ومشاء، إلا أنه حذف الهاء تخفيفاً وهو يريد بها، كقوله: أبلغ النعمان عني مألكا أنه قد طال حبسي وانتظار أراد مألكة، فحذف الهاء.

ينظر: «المحتسب» (١/٣٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/٢٢٦)، و«البحر المحيط» (٥/٢٨٨)، و«الدر المصون» (٤/١٦٢). وهي من «شواذ ابن خالويه» ص: (٦٧)، «عشاء» بالمد منسوبة للحسن والأعمش.

(٢) أخرجه الطبري (٧/١٦١) برقم: (١٨٨٧١)، ورقم: (١٨٨٦٥ - ١٨٨٦٦ - ١٨٨٦٧)، وبرقم: (١٨٨٦٨)، وذكره ابن عطية (٣/٢٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦)، وعزاه إلى الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) القسامة: في اللغة مأخوذة من القسم، وهو اليمين، والقسامة الأيمان تقسم على أولياء القتل إذا ادعوا الدم، يقال: قتل فلان بالقسامة إذا اجتمعت جماعة من أولياء القتل، فادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم، ومعهم دليل دون التينة فكلفوا خمسين يميناً أن المدعى عليه قتل صاحبهم. وفي اصطلاح الفقهاء هي الأيمان المكررة في دعوى القتل.

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن القسامة مشروعة، وقد استدّلوا على ذلك بأحاديث منها: ما روي عن سهل بن أبي حثمة قال: انطلق عبد الله بن سهل، ومحبيته بن مسعود إلى «خير» وهي يومئذ صلح،

آيات: دلائله على كذبهم، وشهادته في قده، وردُّ بَصَرِ يَعْقُوبَ به، ووصف الدَّم بالكذِبِ الذي هو مَضْدَرٌ على / جهة المبالغة، ثم قال لهم يعقوب: ﴿بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾، أي: ١٢٥٢ رَضِيَتْ وَجَعَلَتْ سَوْلاً ومراداً ﴿أمرأ﴾، أي: صنعاً قبيحاً بيوسف^(١).

وقوله: ﴿فصبر جميل﴾: إما على حذف المبتدأ، أي: فشأنِي صَبْرٌ جميلٌ، وإما على حذف الخبر، تقديره: فصبرٌ جميلٌ أمثلٌ، وجميل الصَّبْرِ: ألا تقع شكوى إلى البشر، وقال النبي ﷺ: ﴿مَنْ بَثَّ، لَمْ يَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٢).

وقوله: ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾: تسليم لأمر الله تعالى، وتوكل عليه.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) وَشَرُّهُ بِشْرٍ بِخَسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم﴾: قيل: إن السيارة جاءت في اليوم الثاني من طرحه، و«السيارة»: بقاء مبالغة للذين يرددون السير في الطرق.

قال * ص * : و«السَّيَّارَةُ»: جمع سَيَّار، وهو الكثير السَّيْرِ في الأرض. انتهى.
و«الوارد»: هو الذي يأتي الماء يستقي منه لجماعته، وهو يَقَعُ على الواحد وعلى الجماعة.

فتفرقا، فأتى محبصة إلى عبد الله بن سهل وهو ينشط في ذمِّه قليلاً، فدفنه، ثم قدم «المدينة» فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومحبصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فذهب عبد الرحمن يتكلم فقال ﷺ: «كبر كبر» وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما، فقال: «أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم»، فقالوا: كيف نحلف ولم نشهد ولم نر، قال: «فتبرئكم يهود بخمسين يمينا»، فقالوا له: كيف نأخذ بأيمان قوم كفار، فعقله النبي ﷺ من عنده.

وفي رواية متفق عليها قال ﷺ: «يقسم خمسون منكم على رجلٍ منهم، فيدفع برمته»، فقالوا: أمر لم نشهده كيف نحلف؟، قال: «فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم»، قالوا: يا رسول الله قوم كفار، الحديث. فقله ﷺ: «أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم» دليل على مشروعية القَسَامَةِ، وإلى هذا ذهب جمهور الصحابة والتابعين، والعلماء من «الحجاز» و«الكوفة» و«الشام»، كما حكى ذلك القاضي عياض، ولم يختلفوا في الجملة، ولكن اختلفوا في التفاصيل.

(١) أخرجه الطبري (١٦١/٧ - ١٦٢)، برقم: (١٨٨٧٢ - ١٨٨٧٣ - ١٨٨٧٤)، وذكره ابن عطية (٣/

٢٢٧)، وعزاه للشافعي.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/٢٨٤) برقم: (١٩٧٣٨)، عن مسلم بن يسار به وذكره السيوطي في =

وروي أَنَّ مُذْلِيَّ الدَّلُوْ كَانَ يَسْمَى مَالِكَ بَنَ دَعْرَ، وَيُرَوَّى أَنَّ هَذَا الْجُبَّ كَانَ بِالْأَزْدَنْ عَلَى ثَلَاثَةِ فَرَاسَخٍ مِنْ مَنْزِلِ يَعْقُوبَ، وَيَقَالُ: أَدْلَى دَلْوُهُ؛ إِذَا أَلْقَاهُ لِيَسْتَقِيَّ الْمَاءَ، وَفِي الْكَلَامِ حَذَفَ، تَقْدِيرُهُ: فَتَعَلَّقَ يَوْسُفُ بِالْحَبْلِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ الْمُذْلِي، قَالَ: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾، وَرَوَى أَنَّ يَوْسُفَ كَانَ يَوْمِئِذٍ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ؛ وَرَجَّحَ هَذَا لَفْظُهُ ﴿غَلَامٌ﴾؛ فَإِنَّهَا لِمَا بَيْنَ الْحَوْلَيْنِ إِلَى الْبُلُوغِ، فَإِنْ قِيلَتْ فِيمَا فَوْقَ ذَلِكَ، فَعَلَى أَسْتَصْحَابِ حَالٍ، وَتَجَوُّزٍ، وَقَرَأَ نَافِعٌ^(١) وَغَيْرُهُ: «يَا بُشْرَايَ» بِإِضَافَةِ الْبُشْرَى إِلَى الْمُتَكَلِّمِ، وَبِفَتْحِ الْيَاءِ عَلَى نَدَائِهَا؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَخْضُرِي، فَهَذَا وَفَتْكَ، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي: «يَا بُشْرَى»، وَبِمِيلَانٍ وَلَا يَضِيفَانِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَفْتَحُ الرَّاءَ وَلَا يُمِيلُ، وَاخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ السُّدِّي: كَانَ فِي أَصْحَابِ هَذَا الْوَارِدِ رَجُلٌ أَسَمَهُ «بُشْرَى»؛ فَنَادَاهُ، وَأَعْلَمَهُ بِالْغَلَامِ^(٢)، وَقِيلَ: هُوَ عَلَى نَدَاءِ الْبُشْرَى؛ كَمَا قَدَّمْنَا.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْرَوْهُ بَضَاعَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَذَلِكَ أَنَّ الْوُرَادَ خَشُّوا مِنْ تُجَّارِ الرِّفْقَةِ، إِنْ قَالُوا وَجَدْنَاهُ؛ أَنَّ يَشَارِكُوهُمْ فِي الْغَلَامِ الْمَوْجُودِ، يَعْنِي: أَوْ يَمْنَعُوهُمْ مِنْ تَمْلُكِهِ^(٣)، إِنْ كَانُوا أَخْيَارًا، فَأَسْرَوْا بَيْنَهُمْ أَنَّ يَقُولُوا: أَبْضَعُهُ مَعَنَا أَهْلُ الْمَضَرِّ، وَ«بَضَاعَةٌ»: حَالٌ، وَالبَضَاعَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الْمَالِ يُتَجَرُّ فِيهَا بِغَيْرِ نَصِيبٍ مِنَ الرِّبْحِ؛ مَا خُوذَ مِنْ قَوْلِهِمْ: «بَضْعَةٌ»؛ أَي: قِطْعَةٌ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي «أَسْرَوْهُ» يَعُودُ عَلَى إِخْوَةِ يَوْسُفَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: «شَرَوْهُ»؛ هُنَا: بِمَعْنَى بَاعُوهُ، قَالَ الدَّائِدِيُّ: وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أَي: بَاعُوهُ، فَإِذَا أَبْتِغَتْ أَنْتَ، قُلْتَ: أَشْتَرَيْتُ

== «الدَّرُ الْمَثْوُورُ» (٥٩/٤)، وَزَادَ نَسَبَهُ إِلَى عَبْدِ الرَّزَاقِ. وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ، بِلَفْظٍ: «مَنْ كُنُوزَ الْبَرِّ إِخْفَاءَ الصَّدَقَةِ وَكُتْمَانَ الْمَصَائِبِ وَالْأَمْرَاضِ وَمَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ»، ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِ الْمَثْوُورِ»، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ عَدِيٍّ، وَابْيَهَقِي فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ».

(١) وَقِرَاءَةُ الْبَاقِينَ فِيهَا وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ اسْمَ رَجُلٍ، فَيَكُونُ دَعَا إِنْسَانًا اسْمُهُ بُشْرَى. وَحُجَّتُهُمْ مَا قَدْ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَانَ اسْمُهُ «بُشْرَى»، فَدَعَاهُ الْمُسْتَقِي بِاسْمِهِ. وَالثَّانِي: أَنَّ يَكُونُ أَضَافَ الْبُشْرَى إِلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ حَذَفَ الْيَاءَ، كَمَا تَقُولُ: يَا غُلَامُ لَا تَفْعَلْ، يَكُونُ مَفْرَدًا بِمَعْنَى الْإِضَافَةِ.

يَنْظُرُ: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٥٧)، وَ«السَّبْعَةُ» (٣٤٨)، وَ«الْحِجَّةُ» (٤١٠/٤)، وَ«إِعْرَابُ الْقِرَاءَاتِ» (١/٣٠٦)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيَّةِ» (٣٨٠/٤)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١١٠)، وَ«شَرْحُ شَمْلَةٍ» (٤٣٧)، وَ«إِتْحَافٌ» (٢/١٤٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦٤/٧) بِرَقْمٍ: (١٨٨٩١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٢٩/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٦٥/٧ - ١٦٦) بِرَقْمٍ: (١٨٨٩٩، ١٨٩٠٢)، وَابْنُ الْبُيُوتِيِّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤١٥/٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٢٩/٣).

انتهى، وقال ابن العربي في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: يقال: أَشْتَرَيْتُ بِمَعْنَى بَعْتُ، وَشَرَيْتُ بِمَعْنَى أَشْتَرَيْتُ؛ لغة انتهى، وعلى هذا، فلا مانع من حمل اللفظ على ظاهره، ويكون «شَرَوْهُ» بمعنى: «أَشْتَرَوْهُ».

قال ع^(٢): * روي أن إخوة يُوسُفَ لَمَّا علموا أن الوُرَادَ قد أخذوه جاؤوهم، فقالوا: هذا عَبْدٌ قد أَبَقَ منا، ونحن نبيعه منكم، فقارهم يوسف على هذه المقالة؛ خوفاً منهم، ولينفذ الله أمره، وال «بَخْسٍ»: مصدر وُصِفَ به الثمن، وهو بمعنى التَّقْصِصِ.

وقوله: ﴿دراهم معدودة﴾: عبارة عن قلة الثمن؛ لأنها دراهم، لم تبلغ أن توزن لقلتها، وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما كان دون الأوقية، وهي أربعون درهماً.

وقوله سبحانه: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾: وصف يترتب في إخوة يوسف، وفي الوُرَادَ، ولكنه في إخوة يوسف أرتب؛ إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حبه من القلب ورفضه من اليد، وهذه كانت حال إخوة يوسف في يوسف، وأما الوُرَادَ، فإن تمسكهم به وتجرهم يمانع زهدهم إلا على تجوز، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾: أي: إخوته والواردة، أما إخوته؛ فلأن مقصودهم زوال عيئه، وأما الواردة، فلأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾: روي أن مبتاع يوسف ورد به مضر البلد المعروف؛ ولذلك لا ينصرف، فعرضه في السوق، وكان أجمل الناس، فوقعت فيه مزيدة / حتى بلغ ثمناً عظيماً، ف قيل: وزنه من ذهب، ومن ٢٥٢ ب فضة، ومن حرير، فأشتره العزيز، وهو كان حاجب المليك وخازنه، وأسم المليك الرئان بن الوليد، وقيل: مضعب بن الرئان، وهو أحد الفراعنة، وأسم العزيز المذكور: «قطيفين»؛ قاله ابن عباس، وقيل: «أظفير»، وقيل: «قنطور»، وأسم امرأته: «زاعيل»، قاله ابن إسحاق، وقيل: «زليخا»، قال البخاري؛ و﴿مثواه﴾: مقامه.

وقوله: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي: نتبأه، وكان فيما يقال: لا ولد له، ثم قال تعالى: ﴿وكذلك﴾، أي: وكما وصفنا ﴿مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه﴾ فعلنا ذلك، و﴿الأحاديث﴾: الرؤيا في النوم؛ قاله مجاهد، وقيل: أحاديث الأنبياء والأمم، والضمير

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٠٧٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٢٩).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٠٧٩).

في «أمره» يحتمل أن يعود على يوسف؛ قاله الطبري^(١)، ويحتمل أن يعود على الله عز وجل؛ قاله ابن جني، فيكون إخباراً منبهاً على قدرة الله عز وجل ليس في شأن يوسف خاصة، بل عاماً في كل أمر، و«الأشد»: استكمال القوة وتناهي بنية الإنسان، وهما أشدان: أولهما، البلوغ، والثاني: الذي يستعمله العرب.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾: يحتمل أن يريد بالحُكم: الحكمة والنبوة، وهذا على الأشد الأعلى، ويحتمل أن يريد بالحُكم: السلطان في الدنيا وحكماً بين الناس، وتدخل النبوة وتأويل الأحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وَعِلْماً﴾، وقال ابن^(٢) العربي: ﴿وَأَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾: الحُكم: هو العمل بالعلم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: عبارة فيها وعد للنبي ﷺ، أي: فلا يهولئك فعل الكفرة وعتوهم عليك، فالله تعالى يصنع للمحسنين أجمل صنع.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَوَّفَ عَنْهُ الشَّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾: المرادة: الملاطفة في السوق إلى غرض، و«التي هو في بيتها» هي زليخا امرأة العزيز، وقوله: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾: كناية عن غرض الواقعة، وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن ينبأ عليه السلام، وقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: معناها: الدعاء، أي: تعال وأقبل على هذا الأمر، قال الحسن: معناها: هلم، قال البخاري: قال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بالخورانية: هلم.

وقال ابن جبير: تعال، انتهى.

وقرأ هشام عن ابن عامر^(٣): «هَيْتُ لَكَ» - بكسر الهاء والهمز وضم التاء -، ورويت عن أبي عمرو، وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يهيء، إذا حسن هيئته، ويحتمل أن يكون بمعنى: تهيأت، و«معاذ»: نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أعوذ بالله، ثم

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧٤/٧).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٨٢/٣).

(٣) ينظر: «السبعة» (٣٤٧)، و«الحجة» (٢٣/٤)، و«إعراب القراءات» (٣٠٧/١)، و«شرح الطيبة» (٤/

٣٨٠)، و«العنوان» (١١٠)، و«شرح شملة» (٤٣٨)، و«إتحاف» (١٤٣/٢)، و«حجة القراءات» (٣٥٨).

قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، فيحتمل أن يعود الضمير في «إِنَّهُ» على الله عز وجل، ويحتمل أن يريد العزيز سيده، أي: فلا يصلح لي أن أخونه، وقد أكرم مَثْوَايَ، وأتَمَنَّنِي، قال مجاهد وغيره: «رَبِّي» معناه سيدي^(١) وإذا حفظ الآدمي لإحسانه فهو عمل زاك، وأحرى أن يحفظ ربه، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَلْفَحُ﴾ مراد به الأمر والشأن فقط، وحكى بعض المفسرين أن يوسف عليه السلام لما قال: مَعَاذَ اللَّهِ، ثم دافع الأمرَ بِأَحْتِجَاجٍ وملاينة، أمتحنه الله تعالى بالهم بما هم به، ولو قال: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ودافعَ بِعُتْفٍ وتغيير، لم يَهِمَّ بشيء من المَكْرُوهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُم بِهَا﴾: اختلف في هم يوسف.

قال * ع^(٢): * والذي أقول به في هذه الآية: أَنَّ كَوْنَ يوسف عليه السلام نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية، فإذا كان ذلك، فهو مؤمن قد أوتي حكماً وعلماً، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقفته، وأن يستصحب الخاطر الرديء؛ على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت، فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو الخاطر، ولا يصح عندي شيء مما ذكر من حل تكفة، ونحو ذلك؛ لأن العِصْمَةَ مع النبوة، وللهم بالشيء مرتبتان، فالخاطر المجرد دون استصحاب يجوز عليه، ومع استصحاب لا يجوز عليه؛ إذ الإجماع منعقد أن الهم بالمعصية واستصحاب التلذذ بها غير جائز، / ولا داخل في التجاوز.

١٢٥٣

* ت: * قال عياض: والصحيح إن شاء الله تنزيههم أيضاً قبل النبوة من كل عيب، وعصمتهم من كل ما يوجب الرئب، ثم قال عياض بعد هذا: وأما قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بَرهَانَ رَبِّهِ﴾، فعلى طريق كثير من الفقهاء والمحدثين؛ أن هم النفس لا يؤاخذ به، وليس بسيئة، لقوله عليه السلام عن ربه: «إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»^(٣)؛ فَلَا مَعْصِيَةَ فِي هَمِّهِ إِذْنٌ، وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين، فإن الهم إذا وُطِنَتْ عليه النفس سيئة، وأما ما لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها، فهو المعفو عنه، وهذا هو الحق، فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا، ويكون قوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي...﴾ الآية [يوسف: ٥٣]: أي:

(١) أخرجه الطبري (١٨٠/٧) برقم: (١٩٠١٤ - ١٩٠١٥ - ١٩٠١٦)، وذكره ابن عطية (٢٣٣/٣)، والسيوطي (٢٢/٤)، وعزاه لابن أبي شبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣٤/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

من هذا الهم، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع. انتهى.

واختلف في البرهان الذي رآه يوسف، فقيل: ناداه جبريل: يا يوسف، تكون في ديوان الأنبياء، وتفعل فعل السفهاء، وقيل: رأى يعقوب عاضاً على إبهامه، وقيل غير هذا، وقيل: بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية، والبرهان في كلام العرب: الشيء الذي يُعْطِي القطع واليقين، كان مما يعلم ضرورة أو بخبر قطعي أو بقياس نظري «وأن» في قوله: ﴿لولا أن رأى﴾ في موضع رفع، تقديره: لولا رؤيته برهان ربه، لفعل، وذهب قوم إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿ولقد همّت به﴾، وأن جواب «لولا» في قوله: ﴿وهم بها﴾، وأن المعنى: لولا أن رأى البرهان لهم، أي: فلم يهّم عليه السلام، وهذا قول يردّه لسان العرب، وأقوال السلف * ت * : وقد ساق عياض هذا القول مساق الاحتجاج به متصلاً بما نقلناه عنه آنفاً، ولفظه: فكيف، وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة، أن يوسف لم يهّم، وأن الكلام فيه تقديم وتأخير، أي: ولقد همّت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وقد قال الله تعالى عن المرأة: ﴿ولقد راودته عن نفسها فاستغصم﴾، [يوسف: ٢٣] وقال تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾، وقال: ﴿معاذ الله...﴾ الآية. انتهى. وكذا نقله الداودي ولفظه: وقد قال سعيد بن الحذاد: في الكلام تقديم وتأخير، ومعناه: أنه لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فلما رأى البرهان لم يهّم، انتهى. قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): وقد أخبر الله سبحانه عن حال يوسف من حين بلوغه بأنه آتاه حكماً وعلماً، والحكم: هو العمل بالعلم، وكلام الله صادق، وخبره صحيح، ووصفه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا، وتحريم خيانة السيد في أهله، فما تعرض لأمرأة العزيز، ولا أناب إلى المراودة، بل أذبر عنها، وفّر منها؛ حكماً خص بها، وعمل بما علمه الله تعالى، وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والعقلاء من العلماء في نسبتهم إلى الصديق ما لا يليق، وأقل ما اقتحموا من ذلك هتك السراويل، والهم بالفتك فيما رآوه من تأويل، وحاشاه من ذلك، فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثاً؛ يقولون: فعل فعل، والله تعالى إنما قال هم بها، قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً...﴾ [يوسف: ٢٢] أن الله عز وجل أعطاه العلم والحكمة؛ بأن غلب الشهوة؛ ليكون ذلك سبباً للعضمة، انتهى.

والكاف من قوله تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء﴾: متعلقة بمضمر، تقديره: جرّث أفعالنا وأقدارنا كذلك؛ لنصرف، ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٨٢).

عَصَمْتُنَا لَهُ كَذَلِكَ، وقرأ ابن كثير وغيره: «المُخْلِصِينَ» - بكسر اللام^(١) - في سائر القرآن، ونافع وغيره بفتحها.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ...﴾ الآية: معناه: سَابَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ إِلَى الْبَابِ، هِيَ لَتَرَدَّهُ إِلَى نَفْسِهَا، وَهُوَ لِيَهْرُبَ عَنْهَا، فَقَبَضَتْ فِي أَعْلَى قَمِيصِهِ، فَتَخَرَّقَ الْقَمِيصُ عِنْدَ طَوْفِهِ، وَنَزَلَ التَّخْرِيقُ إِلَى أَسْفَلِ الْقَمِيصِ، قَالَ الْبَخَارِيُّ: ﴿وَأَلْفَيَا﴾: أَي: وَجَدَا؛ ﴿أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ﴾ [الصفافات: ٦٩]: وَجَدُوهُمْ. انتهى، و«الْقَدْ»: الْقَطْعُ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِيهَا كَانَ طَوْلًا، وَالْقَطُّ: يَسْتَعْمَلُ فِيهَا كَانَ / عَرْضًا، و«أَلْفَيَا»: وَجَدَا، وَالسَّيِّدُ: ٢٥٣ ب الزَّوْجُ؛ قَالَه زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَمُجَاهِدٌ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا...﴾ الآية: قَالَ تَوْفُ الشَّامِيِّ: كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُبَيِّنْ عَلَى كَشْفِ الْقِصَّةِ، فَلَمَّا بَعَثَ عَلَيْهِ، غَضِبَ، فَقَالَ الْحَقُّ، فَأَخْبَرَ أَنَّهَا هِيَ رَاوَدَّتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَرَوِيَ أَنَّ الشَّاهِدَ كَانَ أَبْنَى عَمِّهَا، قَالَ: انظُرُوا إِلَى الْقَمِيصِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ رَجُلًا مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ^(٣)؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ^(٤) وَغَيْرُهُ، وَالضَّمِيرُ فِي «رَأَى» هُوَ لِلْعَزِيزِ، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ﴾؛ قَالَ الطَّبْرِيُّ^(٥)، وَقِيلَ: بَلْ

(١) وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو وَابْنِ عَامِرٍ، وَجَعَلُوهَا اسْمَ فَاعِلٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].
يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٣٤٨)، و«الْحَجَّةُ» (٤٢١/٤)، و«إِعْرَابُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٠٩/١)، و«حُجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (٣٥٨)، و«الْعُنْوَانُ» (١١٠)، و«إِشْرَاحُ الطَّيْبَةِ» (٣٨٢/٤)، و«إِشْرَاحُ شَعْلَةٍ» (٤٣٩)، و«إِتْحَافٌ» (٢/١٤٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٠/٧) بِرَقْمٍ: (١٩١٠٣) وَبِرَقْمٍ: (١٩١٠٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٣٥/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٥/٤). وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٢/٧) بِرَقْمٍ: (١٩١٢٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٣٦/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٤٧٥/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٢٦/٤)، وَعَزَاهُ لِلْفَرَايِبِيِّ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٢/٧) بِرَقْمٍ: (١٩١٢٥ - ١٩١٢٦ - ١٩١٢٧)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٤٢٢/٢)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٣٦/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٤٧٥/٢).

(٥) يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (١٩٤/٧).

الشاهد، قال ذلك، ونَزَعَ بهذه الآية مَنْ يرى الْحُكْمَ بالإمارة من العلماء؛ فإنها معتمدتهم، و«يوسف» في قوله: ﴿يوسفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾: مناذى، قال ابن عباس: ناداه الشاهد، وهو الرجل الذي كان مَعَ الْعَزِيزِ^(١)، و﴿أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾: معناه: عن الكلام بِهِ، أي: أكتمه، ولا تتحدث به، ثم رَجَعَ إِلَيْهَا، فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لَذَنْبِكَ﴾، أي: أَسْتَغْفِرِي رَوْجَكَ وَسَيْدَكَ، وقال: ﴿مَنْ الْخَاطِئِينَ﴾، ولم يقل «من الخاطئات»؛ لأن الخاطئين أعم.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَى عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتِ فَذَلِكَ الَّذِي لُتْمُنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفُ عَنْيَ كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْغَالِبِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَهُ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُونَ أَلَعَلَّكُمْ (٣٤)

وقوله سبحانه: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾: ﴿نسوة﴾: جمع قلة، وجمع التكثير نساء، ويروى أن هؤلاء النسوة كن أربعاً: امرأة خبازة، وأمرأة ساقية، وأمرأة بوابة، وأمرأة سجانة، والعزير: الملك، والفتى: الغلام، وعزفه في المملوك، ولكنه قد قيل في غير المملوك؛ ومنه: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، وأصل الفتى، في اللغة: الشاب، ولكن لما كان جُلُ الخَدَمَةِ شَبَاباً، أستعير لهم أَسْمُ الفتى، و﴿شَغَفَهَا﴾: معناه بَلَغَ حَتَّى صار مِنْ قلبها موضع الشَّغَافِ، وهو؛ على أكثر القول: غِلَافٌ من أغشية القلب.

وقيل: الشَّغَاف: سويداء القلب.

وقيل: الشَّغَاف: داء يصل إلى القلب.

﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن﴾؛ ليحضرن.

﴿وأعدت لهن متكا﴾: أي: أعدت ويسرت ما يُتَكَا عليه من فُرُشٍ ووسائد وغير ذلك، وقرأ ابن عباس^(٢) وغيره: «مُتَكًا» - بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف -،

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٣٧).

(٢) وقرأ بها ابن عمر، والجحدري، وقناة، والضحاك، والكلبي، وأبان بن تغلب، ورويت عن الأعمش. وأما معنى هذه القراءة - كما حكى المصنف -: هو الأثرُج، وقيل: أيضاً: هو الرُّمَازُذ، وهو طعام من اللحم والبيض.

واختلف في معناها، فقليل: هو الأثرُج^(١)، وقيل: هو اسمٌ يعُمُّ جميع ما يُقَطَّع بالسَّكين، وقولها: ﴿أَخْرِجْ عليهن﴾: أمر ليوسف، وأطاعها بحسب المُلْك.

وقوله: ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾: معناه: أعظمته وأستهوَلَنَ جَمَاله، هذا قول الجمهور.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: أي: كَتَرْنَ الحَزَّ فيها بالسَّكاكين، وقرأ أبو عمرو^(٢) وحده: «حَاشَى لِلَّهِ»، وقرأ سائر السبعة: ﴿حَاشَى لِلَّهِ﴾، فمعنى «حَاشَى لِلَّهِ»: أي: حَاشَى يَوْسُفَ؛ لطاعته لله، أو لمكانه من الله أَنْ يَرْمَى بِمَا رَمَيْتَهُ به، أو يدعى إلى مثله، لأنَّ تِلْكَ أفعال البشر، وهو لَيْسَ منهم، إنما هو مَلِكٌ، هكذا رَتَّب بعضهم معنى هذا الكلام على القراءتين، وقرأ الحسن^(٣) وغيره: «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ» - بكسر اللام من «مَلِكٌ»؛ وعلى هذه القراءة، فالكلامُ فصيحٌ: لَمَّا اسْتَعْظَمْنَ حُسْنَ صورته، قُلْنَ ما هذا مما يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مما يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا كَرِيمًا.

* ت *: وفي «صحيح مسلم» من حديث الإسراء: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ»^(٤) انتهى.

وقولها: ﴿فَذَلِكُنَ الَّذِي لِمْتَنَنِي فِيهِ﴾: المعنى: فهذا الذي لُمْتَنَنِي فِيهِ، وقطعتُ أَيْدِيَكُنَّ بسببه: هو الذي جَعَلَنِي ضَالَّةً في هواه، ثم أَقَرَّتْ أَمْرًا العزيزِ للنِّسوة بالمرادة،

= ينظر: «المحتسب» (٣٣٩/١ - ٣٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٢٣٨/٣)، و«البحر المحيط» (٢٠٢/٥)، و«الدر المصون» (١٧٤/٤).

(١) هو شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، حامض الماء.

قال في «اللسان»: الأثرُج: معروف... والعامة تقول: أثْرُج، وتُثْرُج، والأول كلام الفصحاء.

ينظر: «المعجم الوسيط» (٤)، و«لسان العرب» (٤٢٥) (ترج).

(٢) وحجته أنه ليس أحد من العرب يقول: حاشك، ولا حاش لك. وإنما يقال: حاشاك، وحاشالك. وحجة الباقي: أنها هكذا في المصحف.

ينظر: «السبعة» (٣٤٢)، و«الحجة» (٤٢٢/٤)، و«إعراب القراءات» (٣٠٩/١)، و«شرح الطيبة» (٤/٣٨٣)، و«العنوان» (١١٠)، و«شرح شعلة» (٤٣٩)، و«إتحاف فضلاء البشر» (١٤٦/٢)، و«حجة القراءات» (٣٥٩).

(٣) وهي قراءة أبي الحويرث الحنفي، وعبد الوارث عن أبي عمرو.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٠/٣)، و«البحر المحيط» (٣٠٤/٥)، و«الدر المصون» (١٧٩/٤).

(٤) سيأتي تخريجه في سورة الإسراء.

وَأَسْتَأْمَنْتُ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ عَلِمْتُ أَنَّهُنَّ قَدْ عَذَّرْنَهَا.

و﴿استعصم﴾ معناه طلب العِصْمة، وتمسك بها، وعَصَانِي، ثم جعلت تتوَعَّده، وهو يسمع بقولها.

﴿ولئن لم يفعل ما أمره...﴾ إلى آخر الآية.

* ت * : واعترض * ص * : بأنَّ تفسير «أستعصم» بـ «اعتصم» أولى من جعله للطلب، إذ لا يلزم من طلب الشيء حصوله. انتهى، واللام في «لَيْسَجَنَّ»: لام قَسَم، واللام الأولى هي المؤدَّنة بالمجيء بالقَسَم، و«الصاغرون»: الأذلاء، وقَوْلُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ إلى قوله: ﴿من الجاهلين﴾، كلامٌ يتضمَّن التشكي إلى الله تعالى من حاله معهن، / و﴿أضْبُ﴾: مأخوذ من الصَّبْوة، وهي أفعال الصُّبا، ومن ذلك قولُ دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ: [الطويل]

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاةَ قَالَ لِلْبَاطِلِ أَبْعِدِ^(١)
قال * ص * : «أضْبُ» معناه: أَمِلْ، وهو جوابُ الشرط، والصُّبابة: إفراط الشوق. انتهى.

﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أجابه إلى إرادته، وصَرَفَ عنه كَيْدَهُنَّ؛ في أنَّ حالَ بَيْتِهِ وبين المَعْصية.

(١) البيت في «ديوانه» (٦٩)، و«التعازي والمراثي» (٥/٢٢)، و«نور القبس» (٥٣).
معنى: صبا ما صبا: قال المرزوقي (٢/٨٢١) قوله: «صبا ما صبا» يجوز أن يكون صبا الأول من الصُّبا واللهو، وصبا الثاني من الصُّبَاء بمعنى الفَتَاء فيكون المعنى:
تعاطى اللهو والصبا ما دام صبيّاً، فلما اكتمل وظهر في رأسه الشيب، فاشتعل، نحى الباطل عن نفسه زاهداً فيه، ورجوعاً إلى الحق ورغبة فيما يكسبه الأحداث الجميلة من أبواب الصلاح، ويجوز أن يكون المعنى: تعاطى الصبا ما تعاطاه إلى أن علاه المشيب فيسقط التّجنيس من البيت وهو يحسن به.
وقال العلوي في الطراز (٢/٨٤): «فقوله: صبا ما صبا فيه من الإبهام البالغ ما لو تناهت في تفسيره فإنك لا تجد له من البيان مثل ما تجده في إبهامه».
ابعد: قال المرزوقي قوله: (ابعد) (٢/٨٢١) قوله (ابعد) من بعد يَبْعُدُ إذا هلك ولو أراد البُعْدَ لقال أَبْعُدُ بضم العين.
وقال في «جمهرة اللغة» (١/٢٤٥) (ب ع د) «يَبْعُدُ يَبْعُدُ بُعْداً من النأي فإذا أمرت قلت: أَبْعِدْ، قال دريد: «البيت».

ويشتد إعجاب يونس بن حبيب بالبيت، ويراها أشعر بيت قالته العرب انظر: «نور القبس» (٥٣)، ينظر: «ديوان دريد بن الصمة» (٦٩)، تحقيق الدكتور عمر.

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٣٥)

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾: ﴿بَدَأْ﴾ معناه: ظهر، ولما أبى يوسف عليه السلام من المعصية، وَيَسَّسَتْ مِنْهُ أَمْرًا الْعَزِيزُ، طالبتَه بِأَنْ قَالَ لِرُجُوعِهَا: إِنَّ هَذَا الْعُلَامَ الْعِبْرَانِيَّ قَدْ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ، وَهُوَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِمْ، وَيَصِفُ الْأَمْرَ بِحَسَبِ اخْتِيَارِهِ، وَأَنَا مَحْبُوسَةٌ مَحْبُوبَةٌ، فِيمَا أَذْنْتُ لِي، فَخَرَجْتُ إِلَى النَّاسِ، فَاعْتَذَرْتُ وَكَذَّبْتُهُ، وَإِمَّا حَبَسْتَهُ كَمَا أَنَا مَحْبُوسَةٌ، فَحِينَئِذٍ بَدَأَ لَهُمْ سَجْنُهُ.

* ع^(١): ﴿وَلَيْسَجْنُهُمْ﴾: جملة دَخَلَتْ عَلَيْهَا لَامُ قَسَمٍ، و﴿الآيَاتِ﴾: ذكر فيها أهلُ التفسير؛ أنها قَدْ الْقَمِيصُ، وَخَمَشُ الْوَجْهِ، وَخَزُّ النِّسَاءِ أَيْدِيَهُنَّ، وَكَلَامُ الصَّبِيِّ؛ عَلَى مَا رُوِيَ.

قال * ع^(٢): ﴿وَمَقْصِدُ الْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ أَنَّهُمْ رَأَوْا سَجْنَهُ بَعْدَ ظُهُورِ الْآيَاتِ الْمُبَرِّئَةِ لَهُ مِنَ التَّهْمَةِ، فَهَكَذَا يَبِينُ ظُلْمُهُمْ لَهُ وَالْـ﴿حِينِ﴾؛ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْوَقْتُ مِنَ الزَّمَانِ غَيْرَ مَحْدُودٍ يَقَعُ لِلْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَذَلِكَ يَبَيِّنُ مِنْ مَوَارِدِهِ فِي الْقُرْآنِ.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آخِزًا بِإِثْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّلِيءَ مِنْهُ نَبْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦) قَالَ لَا بِأَيِّكُمْ طَعَامٌ تَرْزُقَانِيهِ إِلَّا بِنَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨)

وقوله سبحانه: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ...﴾ الآية: المعنى: فسَجْنُوهُ، فَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ، غَلَامَانِ سُجِنَا أَيْضًا، وَرُوِيَ أَنَّهُمَا كَانَا لِلْمَلِكِ الْأَعْظَمِ الْوَلِيدِ بْنِ الرَّيَّانِ؛ أَحَدُهُمَا: خُبَّازُهُ، وَأَسْمُهُ مَجْلَثُ، وَالْآخَرُ: سَاقِيهِ، وَاسْمُهُ نَبُو، وَرُوِيَ أَنَّ الْمَلِكَ أَتَاهُمَا بِأَنْ الْخُبَّازُ مِنْهُمَا أَرَادَ سَمَّهُ، وَوَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ السَّاقِي، فَسَجْنَهُمَا، قَالَهُ السَّدِيُّ^(٣)، فَلَمَّا دَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ، اسْتَمَالَ النَّاسَ فِيهِ بِحُسْنِ حَدِيثِهِ وَفَضْلِهِ وَنَبْلِهِ، وَكَانَ يُسَلِّي حَزِينَهُمْ، وَيَعُودُ مَرِيضَهُمْ، وَيَسْأَلُ لِفَقِيرِهِمْ، وَيَنْدُبُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، فَأَحْبَبَهُ الْفَتَيَانِ، وَلَزَمَاهُ، وَأَحْبَبَهُ صَاحِبُ السِّجَنِ، وَالْقَيْمُ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَالَ لِأَهْلِ السِّجَنِ: إِنِّي أَغْبَرُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢١٢) برقم: (١٩٢٧٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٤٣)، وابن كثير (٢/ ٤٧٧).

الرؤيا، وأجيد، فروي عن ابن مسعود: أن الفتيتين استعملتا هاتين المتامنتين ليَجرباه^(١). وروي عن مجاهد: أنهما رأيا ذلك حقيقة^(٢)، فقال أحدهما: إني أراني أعصرُ خمرًا: قيل فيه: إنه سُمي العنبُ خمرًا، بالمآل، وقيل: هي لغةُ أزدِ عُمَا؛ يسمون العنبَ خمرًا، وفي قراءة أبي وأبن مسعود: «أعصرُ عنبًا»^(٣).

وقوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾: قال الجمهور: يريدان في العلم، وقال الضحَّاك وقتادة: المعنى: من المحسنين في جزيه مع أهل السُّجن وإجماله معهم^(٤).

وقوله عز وجل: ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾: روي عن السُّدي وابن إسحاق: أن يوسف عليه السلام لما عَلِمَ شدةَ تعبٍ مَمَامَةِ الرَّائِي الخُبز، وأنها تُؤذِنُ بقتله، ذهب إلى غير ذلك من الحديث عَسَى أَلَّا يَطَالِبَاهُ بالتعبير، فقال لهما: مُعْلِمًا بِعَظِيمِ عِلْمِهِ للتعبير: إنه لا يجيئكما طعامٌ في نومكما تَرَيَانِ أنكما رُزِقْتُمَا إِلَّا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام، أي: بما يُؤوِلُ إِلَيْهِ أمره في الیقظة قَبْلَ أن يظهر ذلك التأويل الذي أُعْلِمْتُكُمَا به^(٥)، فروي أنهما قالا: وَمِنْ أَيْنَ لَكَ مَا تَدْعِيهِ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَنْتَ لَسْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَنْجَمٍ؟! فقال لهما: ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، ثم نهض يُنْجِي لهما على الكُفْرِ ويقبّحه، ويحسن الإيمان بالله، فروي أنه قصد بذلك وجهين؛ أحدهما: تنسيتهما أمرَ تعبٍ ما سألَا عنه؛ إذ في ذلك النذارة بقتل أحدهما، والآخر: الطماعية في إيمانهما؛ لياخذ المقتول بحظه من الإيمان، وتسلم له آخرته، وقال ابن جريج: أراد يوسف عليه السلام لا يأتيكما طعامٌ في / الیقظة^(٦).

(١) أخرجه الطبري (٢١٢/٧) برقم: (١٩٢٧٧)، وذكره البغوي (٤٢٥/٢)، وابن عطية (٢٤٣/٣)، وابن كثير (٤٧٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٢/٧) برقم: (١٩٢٧٩)، وذكره البغوي (٤٢٥/٢).

(٣) ينظر: «المحتسب» (٢٤٣/١)، و«الكشاف» (٤٦٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٤/٢)، و«البحر المحيط» (٣٠٨/٥)، و«الدر المصون» (١٨٣/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٢١٤/٧) برقم: (١٩٢٨٧ - ١٩٢٨٨) ويرقم: (١٩٢٨٨)، وذكره البغوي (٤٢٥/٢) - (٤٢٦)، وابن عطية (٢٤٤/٣)، والسيوطي (٣٤/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ، عن قتادة، وعزاه أيضاً لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٥) أخرجه الطبري (٢١٥/٧) برقم: (١٩٢٩١ - ١٩٢٩٢)، وذكره ابن عطية (٢٤٤/٣)، وابن كثير (٤٧٨).

(٦) أخرجه الطبري (٢١٦/٧) برقم: (١٩٢٩٣)، وذكره ابن عطية (٢٤٤/٣)، والسيوطي (٣٤/٤)، وعزاه لأبي عبيدة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال * ع^(١): فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيبات لا تعلق لها برؤيا، وقصد بذلك أحد الوجهين المتقدمين، وهذا على ما روي أنه نبيء في السجن فأخبره كإخبار عيسى عليه السلام.

وقوله: ﴿تركت﴾، مع أنه لم يتشبث بها جائز صحيح؛ وذلك أنه أخبر عن تجنبه من أول بالترك، وساق لفظ التَّرك استجلاباً لهما عسى أن يتركا التَّرك الحقيقي الذي هو بُعد الأخذ في الشيء، والقوم المتروك ملتهم: المَلِك وأتباعه.

وقوله: ﴿وأتبعث...﴾ الآية: تماد من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملة الحنيفة.

وقوله: ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾، «مِنْ»: هي الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجُحود.

وقوله: ﴿لا يشكرون﴾: يريد: الشكر التَّام الذي فيه الإيمان بالله عز وجل.

﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَتَيِّئُوها أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّلِيرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ لِلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنْهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وقوله: ﴿يا صاحبي السجن﴾ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار: وصفه لهما بـ ﴿صاحبي السجن﴾ من حيث سكناه؛ كما قال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ونحو ذلك، ويحتمل أن يريد صُحبتَهُما له في السِّجْنِ، كأنه قال: يا صاحِبَيَّ في السِّجْنِ، وعرضه عليهما بطلان أمر الأوثان بأن وصفها بالتفرق، ووصف الله تعالى بالوَحدة والقهر تلطف حسن، وأخذ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته، وهكذا الوجه في محااجة الجاهل: أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها، لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك أبداً حتى يصل إلى الحق، وإن أخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إليه دفعة أباه للحين وعاندته، ولقد أثبت لي بأرباب

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٤٤).

متفرقين مَنْ يَخْدُمُ أبناء الدنيا ويؤمِّلهم.

وقوله: ﴿ما تعبدون من دونِ إلَّا أسماء﴾: أي: مسميات، ويحتمل - وهو الراجح المختار - أن يريد: ما تُعْبُدُونَ من دونه ألوهية، ولا لَكُمْ تعلقُ بإلهٍ إلَّا بحَسَبِ أن سَمَّيْتُمْ أصنامكم آلهة، فليست عبادتكم لا لله إلَّا بالاسم فقط لا بالحقيقة، وأما الحقيقة: فَهِيَ وسائر الحجارة والخشب سواء، وإنما تعلقت عبادتكم بحَسَبِ الاسم الذي وضعتم، فذلك هو معبودكم، ومفعول «سميتم» الثاني محذوف، تقديره: آلهة؛ هذا على أن الأسماء يراد بها ذوات الأصنام، وأما على المعنى المُختار من أن عبادتهم إنما هي لمعانٍ تعطيهما الأسماء، وليست موجودة في الأصنام، فقله: ﴿سميتموها﴾ بمنزلة وضَعْتُمُوهَا، ﴿إن الحكم إلَّا لله﴾: أي ليس لأصنامكم، و﴿القيَم﴾: معناه المستقيم، و﴿أكثر الناس لا يعلمون﴾؛ لجهالتهم وكُفْرهم، ثم نادى: ﴿يا صاحِبِي السَّجْنِ﴾ ثانية؛ لتجتمع أنفسهما، لسماع الجواب، فروي أنه قال لنبو: أَمَا أَنْتَ، فتعود إلى مرتبتك وسقاية ربك، وقال لمجلت: أَمَا أَنْتَ، فتُضَلَّب، وذلك كله بعد ثلاث، فروي أنهما قالا له: ما رَأَيْنَا شيئاً، وإنما تحالمتا لنجربك، وروي أنه لم يَقُلْ ذلك إلَّا الذي حَدَّثَهُ بالصلب، وقيل: كانا رَأَيْنَا، ثم أنكرنا، ثم أخبرهما / يوسف عَنْ غَيْبِ عِلْمِهِ من الله تعالى، أن الأمر قد قُضِيَ ووافقَ القدر.

وقوله: ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما...﴾ الآية: الظَّنُّ؛ هنا: بمعنى اليقين؛ لأن ما تقدّم من قوله: ﴿قُضِيَ الأمر﴾ يلزم ذلك، وقال قتادة: الظَّنُّ هنا على بابهِ؛ لأن عبارة الرؤيا^(١) ظَنٌّ.

قال * ع^(٢): * وقول يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الأمر﴾: دالٌّ على وخي، ولا يترتب قول قتادة إلَّا بأن يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ الأمر﴾: أي: قُضِيَ كلامي، وقلْتُ ما عِنْدِي، وَتَمَّ، والله أعلم بما يَكُونُ بَعْدُ، وفي الآية تأويل آخر: وهو أن يكون «ظَنٌّ» مسنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربه خمرأ؛ لأنه داخله السرور بما بُشِّرَ به، وغلبَ على ظَنِّهِ ومعتقدِهِ أنه ناج.

وقوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾: يحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل: أن يذكره بِمَظَالِمَتِهِ، وما أمتحن به بغيرِ حَقٍّ، أو يذكره بِجُمْلَةِ ذلك، والضميرُ في ﴿أَنْسَاكَ﴾

(١) أخرجه الطبري (٢٢٠/٧) برقم: (١٩٣١٧)، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٦/٣).

قيل: هو عائذ إلى يوسف، أي: نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله، فروي أن جبريل جاءه، فعائبه عن الله عز وجل في ذلك، قيل: أوجي إليه: يا يوسف، اتخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن سجنك، والله أعلم بصحته، وقيل: الضمير في ﴿أنساه﴾ عائذ على الساقى، قاله ابن إسحاق، أي: نسي ذكر يوسف عند ربه، وهو المليك^(١)، وال ﴿بضع﴾: اختلف فيه، والأكثر أنه من الثلاثة إلى العشرة؛ قاله ابن عباس^(٢): وعلى هذا فقه مذهب مالك في الدعاوى والأيمان، وقال قتادة: ال ﴿بضع﴾: من الثلاثة إلى التسعة^(٣)، ويقوي هذا قوله ﷺ لأبي بكر الصديق في قصة خطره مع قريش في غلبة الروم لفارس: «أما علمت أن البضع من الثلاث إلى التسع^(٤)».

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) ﴿قَالُوا أَضَعَتْ أَحْلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥)

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف﴾: روي أنه قال: رأيتهما خارجة من نهر، وخرجت وراءها سبع عجاف، فأكلت تلك السمان، وحصلت في بطونها، ورأى السنبال أيضاً؛ كما ذكر، وال ﴿عجاف﴾: التي بلغت غاية الهزال، ثم قال لحاضريه: ﴿يأيتها الملاء أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾، وعبرة الرؤية: مأخوذة من عبر النهر، وهو تجاوزه من شط إلى شط، فكأن عابر الرؤيا ينتهي إلى آخر تأويلها.

قال * ص *: وإنما لم يصف «سبع» إلى عجاف؛ لأن اسم العدد لا يضاف إلى الصفة إلا في الشعر، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿قالوا أضغاث أحلام...﴾ الآية: «الضغث»؛ في كلام العرب: أقل من الحزمة، وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان ذلك من جنس

(١) أخرجه الطبري (٢٢٢/٧) برقم: (١٩٣٢٩)، وذكره ابن عطية (٢٤٧/٣)، والسيوطي (٣٧/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٢/٧) برقم: (١٩٣٣٦)، والسيوطي (٣٨/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٢٢/٧) برقم: (١٩٣٣٤)، وذكره ابن عطية (٢٤٧/٣)، وابن كثير (٤٧٩/٢)، والسيوطي (٣٨/٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٢/٥ - ٣٤٣) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الروم، حديث (٣١٩١) من طريق الزهري، عن عبيد الله بن عتبة، عن ابن عباس به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس.

واحد، وربما كان من أخلاط النبات، والمعنى: أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم بما هو مختلط ورديء، و﴿الأحلام﴾: جمع حلم، وهو ما يخيّل إلى الإنسان في منامه، والأحلام والرؤيا ممّا أثبتته الشريعة، وقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا من الله، وهي من المبشرة والحلم المخزن من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليستقل عن يساره / ثلاث مرّات، وليقل: أعوذ بالله من شرّ ما رأيت، فإنّها لا تضره»^(١). وما كان عن حديث النفس في اليقظة، فإنه لا يلتفت إليه، ولما سمع الساقى الذي نجا هذه المقالة من المملك، ومراجعة أصحابه، تذكّر يوسف، وعلمه بالتأويل، فقال مقالته في هذه الآية، «واذكر»: أصله: «أذكر» من الذكر، فقلبت التاء دالاً، وأدغم الأول في الثاني، وقرأ جمهور الناس^(٢): «بَعْدَ أُمَةٍ»، وهي المدة من الدهر، وقرأ ابن عباس^(٣) وجماعة: «بَعْدَ أُمَةٍ»، وهو النسيان، وقرأ مجاهد^(٤) وشبل: «بَعْدَ أُمَةٍ» - بسكون الميم -، وهو مضدّ من «أُمَةٍ»؛ إذا نسي، ويقول: «أذكر» يقوي قول من قال: إن الضمير في «أنساه» عائذ على الساقى، والأمر محتمل، وقرأ الجمهور^(٥): «أنا أنبئكم»، وقرأ

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٥٧/٢) كتاب «الرؤيا» باب: ما جاء في الرؤيا، حديث (٢)، والبخاري (٣٣٨/٦) كتاب «بدء الخلق» (باب: صفة إبليس وجنوده، حديث (٣٢٩٢)، ومسلم (١٧٧٢/٤)، كتاب «الرؤيا»، حديث (٢٢٦١/٢)، وأبو داود (٧٢٤/٢) كتاب «الأدب» باب: ما جاء في الرؤيا، حديث (٥٠٢١)، والترمذي (٥٣٦ - ٥٣٥/٤) كتاب «الرؤيا» باب: إذا رأى في المنام ما يكره ما يصنع، حديث (٢٢٧٧)، وابن ماجه (١٢٨٦/٢) كتاب «تعبير الرؤيا» باب: من رأى رؤيا يكرهها، حديث (٣٩٠٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٩٧، ٩٠٠ - ٩٠١)، وأحمد (٣١٠/٥)، وابن أبي شيبة (٧٠/١١)، والدارمي (١٢٤/٢)، وابن حبان (٤٢٣/١٣ - ٤٢٤) برقم: (٦٠٥٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٢٩٤/٦ - بتحقيقنا)، كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي قتادة به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣).

(٣) وقرأ بها ابن عمر، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وأبو رجاء، وقتادة، وشيّل بن عزة الضبعي، وربيعة بن عمرو، وزيد بن علي.

ينظر: «الشواذ» (٦٨)، و«المحتسب» (٣٤٤٨)، و«البحر المحيط» (٣١٣/٥)، و«الدر المصون» (٤/١٨٨).

(٤) قال الزمخشري: ومن قرأ بسكون الميم فقد خطيء. (يعني: أثم) وقال مثله أبو عبيد كما في «اللسان» (أمه).

ينظر: «الكشاف» (٤٧٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣)، و«البحر المحيط» (٣١٣/٥)، و«الدر المصون» (٤/١٨٨).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣).

الحسن بن أبي الحسن^(١): «أَنَا آتِيكُمْ»، وكذلك في مُضْحَف أَبِي.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلُون﴾: أَسْتَذَان في الْمُضْي.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَنَا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ فِيهِ يَصْرِفُونَ (٤٩)

وقوله: ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا﴾: المعنى: فجاء الرسول، وهو الساقى، إلى يوسف، فقال له: يوسف أيها الصديق، وسماء صديقاً من حيث كَانَ جَرَّبَ صدقه في غَيْرَ مَا شَيْءٍ، وهو بناء مبالغة مِنَ الصَّدَق، ثم قال له: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾، أي: فيمَن رَأَى في المنام سَبْعَ بَقَرَاتٍ.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: تأويل هذه الرؤيا، فيزول هُم المَلِكِ لذلك، وهُم الناس، وقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مكائِكَ من العلم، وكُنْهَ فضلك؛ فيكون ذلك سبباً لتخلُّصك و﴿دَابًّا﴾: معناه: ملازمةً لعادَتِكُم في الزَّراعة.

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾: إشارة برأى نافع؛ بحسب طعام مِضْرٍ وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجهٍ إِلَّا بحيلةٍ إبقائها في السُّنْبُلِ، والمعنى: أتركوا الزرع في السُّنْبُلِ إِلَّا ما لا غنى عنه للأكل فيجتمع الطعام هكذا، وبتربُّب ويؤكل الأقدَمُ فالأقدم، وروي أَنَّ يوسف عليه السلام لَمَّا خَرَجَ وَوَصَفَ هذا الترتيب للمَلِكِ، وأعجبه أمره، قال له المَلِكُ: قَدْ أَسْنَدْتُ إِلَيْكَ تَوَلَّى هذا الأمرِ في الأَطْعِمَةِ هذه السنينَ المُقْبِلَةَ، فكان هذا أَوَّلَ ما وَلَّى يوسف، و﴿تُحْصِنُونَ﴾ معناه: تحرزون وتخزنون؛ قاله ابن عباس^(٢)، وهو مأخوذٌ من الحِصْنِ، وهو الحِرْزُ والمَلَجَا؛ ومنه: تحصن النساء؛ لأنه بمعنى التحرز.

وقوله: ﴿يَغَاثُ النَّاسُ﴾: جائز أن يكون من الغَيْث، وهو قول ابن عباس^(٣)،

(١) وقرأ بها الحجاج، والحسن، ويحيى بن يعمر.

ينظر: «الشواذ» (٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٩/٣)، و«الكشاف» (٤٧٦/٢)، و«البحر المحيط» (٥/٣١٤)، و«الدر المصون» (١٨٩/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٩/٧) برقم: (١٩٣٨١)، وذكره البغوي (٤٢٩/٢)، وابن عطية (٢٥١/٣)، والسيوطي (٤١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٢٣٠/٧) برقم: (١٩٣٨٧)، وذكره البغوي (٤٣٠/٢)، بلا نسبة، وابن عطية (٣/٢٥١)، والسيوطي (٤١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وجمهور المفسرين، أي: يُمَطَّرُونَ، وجائز أن يكون من أغاثهم الله: إذا فَرَجَ عنهم؛ ومنه العَوْتُ، وهو الفَرَجُ، ﴿وفيه يَغْصِرُونَ﴾: قال جمهور المفسرين: هي من عَصَرَ النباتات، كالزيتون، والعنب، والقصب، والسَّمْسِم، والفجل، ومِضْرُ بَلَدٍ عَصِرَ لأشياء كثيرة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ؟ إِذْ رَوَدَتْهُنَّ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ. قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ هَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَايِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقال الملك أتتوني به فلما جاءه الرسول...﴾ الآية: لَمَّا رَأَى الْمَلِكُ وحاضروه نُبِلَ التَّغْيِيرَ وَحُسْنَ الرَّأْيِ، وتضمن الغيب في أمر العام الثامن، مع ما وُصِفَ به من الصَّدْقِ عَظَمَ يَوْسُفُ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ، وقال: ﴿أتتوني به فلما جاءه الرسول قال أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾: يعني: الْمَلِكُ، ﴿فَأَسْأَلُهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وقضده عَلَيْهِ السَّلام بيان براءته، وتحقق منزلته من العِفَّةِ وَالْخَيْرِ، فرسم القصة بطرف منها، إذا وقع النظر عَلَيْهِ، بان الأمر كله، وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ أَمْرَةِ الْعَزِيزِ؛ حُسْنَ عِشْرَةٍ وَرِعَايَةٍ لِدِمَامِ مُلْكِ الْعَزِيزِ لَهُ، وفي «صحيح البخاري»، عن عبد الرحمن / بن القاسم صاحب مَالِكٍ، عن النَّبِيِّ ﷺ: «وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السُّجْنِ لَبِثْتُ يَوْسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»^(١): الْمَعْنَى: لو كُنْتُ أَنَا، لَبَادَرْتُ بالخروج، ثم حاولتُ بيان عُذْرِي بَعْدَ ذَلِكَ؛ وذلك أَنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ وَالنَّوَازِلَ، إِنَّمَا هِيَ مَعْرُضَةٌ لِيَقْتَدِيَ النَّاسُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فأراد ﷺ حَمَلَ النَّاسِ عَلَى الْأَحْزَمِ مِنَ الْأُمُورِ؛ وذلك أَنَّ التَّارِكَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ رَبُّمَا نَتَجَّ لَهُ بِسَبَبِ التَّأَخِيرِ خِلَافٌ مَقْصُودُهُ، وَإِنْ كَانَ يَوْسُفُ قَدْ أَمِنَ ذَلِكَ؛ بِعِلْمِهِ مِنَ اللَّهِ، فغیره من النَّاسِ لَا يَأْمَنُ ذَلِكَ، فَالْحَالَةُ الَّتِي ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَفْسِهِ إِلَيْهَا حَالَةٌ حَزَمٍ وَمَدَحٍ؛ لِيَقْتَدِيَ بِهِ، وَمَا فَعَلَهُ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ حَالَةً صَبْرٍ وَتَجَلُّدٍ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٢): وَأَنْظِرْ إِلَى عَظِيمِ حِلْمِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَوُفُورِ أَدْبِهِ، كَيْفَ قَالَ: ﴿مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، فذكر النساء جملة؛ لتدخل فيهنَّ امرأة الْعَزِيزِ مَذْخَلُ الْعُمُومِ؛ بِالتَّلْوِيجِ دُونَ التَّصْرِيحِ. انتهى. وهذه كَانَتْ أَخْلَاقُ نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ، لَا يَقَابِلُ أَحَدًا بِمَكْرُوهِهِ، وَإِنَّمَا يَقُولُ: «مَا بَالَ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا»، مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ، وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ خُضْلَةٍ حَمِيدَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ اتَّصَفَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَصْفِيَاءُ، فَقَدْ

(١) تقدم تخريجه وهو حديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم».

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٠٩١).

أَتَصَفَّ بِهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، إِذْ كَانَ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ، كَمَا رَوَتْهُ عَائِشَةُ فِي الصَّحِيحِ، وَكَمَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] انتهى.

وقوله: ﴿إِنْ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ﴾، فِيهِ وَعِيدٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾: الْمَعْنَى: فَجَمَعَ الْمَلِكُ النِّسْوَةَ، وَأَمْرًا الْعَزِيزِ مَعَهُنَّ، وَقَالَ لَهُنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ...﴾ الْآيَةُ: أَي: أَيُّ شَيْءٍ كَانَتْ قَصَصُكُنَّ، فَجَاوَبَ النِّسَاءُ بِجَوَابٍ جَيِّدٍ، تَظْهَرُ مِنْهُ بَرَاءَةُ أَنْفُسِهِنَّ، وَأَعْطَيْنَ يَوْسُفَ بَعْضَ بَرَاءَةٍ، فَقُلْنَ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، فَلَمَّا سَمِعَتْ أَمْرًا الْعَزِيزِ مَقَالَتَهُنَّ وَحَيْدَتَهُنَّ، حَضَرَتْهَا نِيَّةٌ وَتَحْقِيقٌ، فَقَالَتْ: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، أَي: تَبَيَّنَ الْحَقُّ بَعْدَ خَفَائِهِ؛ قَالَ الْخَلِيلُ وَغَيْرُهُ، قَالَ الْبَخَارِيُّ: حَاشَ وَحَاشَى: تَنْزِيهٌ وَأَسْتِثْنَاءٌ، وَحَصْحَصَ: وَضَحَ. انتهى.

ثُمَّ أَقْرَأَتْ عَلَى نَفْسِهَا بِالْمَرَاوِدِ، وَالتَّرَمَّتِ الذَّنْبَ، وَأَبْرَأَتْ يَوْسُفَ الْبَرَاءَةَ التَّامَّةَ. وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: اختلفَ فِيهِ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، هَلْ هُوَ مِنْ قَوْلِ يَوْسُفَ أَوْ مِنْ قَوْلِ أَمْرَةِ الْعَزِيزِ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ ٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ٥٧﴾

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾: الْمَعْنَى: أَنْ الْمَلِكَ، لَمَّا تَبَيَّنَتْ لَهُ بَرَاءَةُ يَوْسُفَ وَتَحَقَّقَ فِي الْقِصَّةِ أَمَانَتُهُ، وَفَهُمْ أَيْضًا صَبْرُهُ وَعُلُوُّ هِمَّتِهِ، عَظُمَتْ عَنْدهُ مَنْزِلَتُهُ، وَتَيَقَّنَ حُسْنَ خِلَالِهِ، فَقَالَ: ﴿أَتُؤْتِنِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾، فَلَمَّا جَاءَهُ وَكَلَّمَهُ قَالَ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(١): قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أَي: مَتَمَكَّنْ مِمَّا أَرَدْتُ، أَمِينٌ عَلَى مَا أَتَمَّنْتَ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ؛ أَمَّا أَمَانَتُهُ فَلِظْهَرِ بَرَاءَتِهِ، وَأَمَّا مَكَانَتُهُ، فَلِثَبُوتِ عَقْدَتِهِ وَنِزَاهَتِهِ / انْتَهَى، وَلَمَّا فَهِمَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٥٦ بَ مِنْ الْمَلِكِ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى تَصْرِيفِهِ وَالْإِسْتِعَانَةَ بِنَظَرِهِ، قَالَ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾، لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادَةِ.

قال * ع^(٢): وَطِلْبَةُ يَوْسُفَ لِلْعَمَلِ إِنَّمَا هِيَ جِسْبَةُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رَغْبَتِهِ فِي أَنْ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٩١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦).

يقع العدل، وجائز أيضاً للمرء أن يُثني على نفسه بالحق، إذا جهل أمره، وال «خزائن»: لفظ عام لجميع ما تحتزنه المملكة من طعام ومال وغيره.

وقوله سبحانه: «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض»: الإشارة ب «ذلك» إلى جميع ما تقدم من جميل صنع الله به، فروي أن العزيز مات في تلك الليالي، وقال ابن إسحاق: بل عزله الملك^(١)، ثم مات أظفير، فولاه الملك مكانه، وزوجه زوجته، فلما دخلت عليه عروساً، قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت أردت، فدخل يوسف بها، فوجدها بكرًا، وولدت له ولدَيْن، وروي أيضاً: أن الملك عزل العزيز، وولى يوسف موضعه، ثم عظم ملك يوسف وتغلب على حال الملك أجمع، قال مجاهد: وأسلم الملك آخر أمره^(٢)، ودرس أمر العزيز، وذهبت دنياه، ومات، وأفتقرت زوجته، وشاخت، فلما كان في بعض الأيام، لقيت يوسف في طريق، والجنود حوله ووراءه، وعلى رأسه بُنود عليها مكتوب: «هذه سبيلى أذغو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين» [يوسف: ١٠٨] فصاحت به، وقالت: سبحان الله من أعز العبيد بالطاعة، وأذل الأرباب بالمعصية، فعرفها، وقالت له: تعطف عليّ وأرزقني شيئاً، فدعا لها، وكلمها، وأشفق لحالها، ودعا الله تعالى فرد عليها جمالها، وتزوجها، وروي في نحو هذا من القصص ما لا يُوقف على صحته، ويطول الكلام بسوقه، وباقي الآية بين واضح للمستبصرين، ونور وشفاء لقلوب العارفين.

وقوله: «ليوسف»: أبو البقاء: اللام زائدة، أي: مكنا يوسف، ويجوز ألا تكون زائدة، فالمفعول محذوف، أي: مكنا ليوسف الأمور. انتهى.

«وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» (٥٨) ولما جهزهم بمهازهم قال أتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين (٥٩) فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون (٦٠) قالوا سرود عنه أباه وإنا لنعملون (٦١) وقال ليعنيته اجعلوا بضعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون (٦٢) فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يتأبأنا مع من الكيل فأرسل معنا أخانا نكمل ولنا له لحفظون (٦٣) قال هل أمكنكم عليه إلا كما أمكنكم على أخيه من قبل قاله سير حفظاً وهو أرحم الراحمين (٦٤) ولما فتحوا

(١) أخرجه الطبري (٢٤٢/٧) برقم: (١٩٤٦٦)، وذكره البغوي (٤٣٣/٢)، وابن عطية (٢٥٦/٣)، وابن كثير ((٤٨٢/٢))، والسيوطي (٤٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٢/٧) برقم: (١٩٤٦٩)، وذكره البغوي (٤٣٣/٢)، وابن عطية (٢٥٦/٣)، والسيوطي (٤٤/٤)، وعزاه لابن جرير.

مَتَّعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيدٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْفِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْفِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِن آيَاتٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

وقوله عز وجل: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾، قال السدي^(١) وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة اتصلت ببلاؤهم، وكان الناس يمتارون من عند يوسف، وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من جمل بعير يسوي بين الناس، فلما ورد إخوته، عرفهم، ولم يعرفوه لبُعْد العهد وتغير سنه، ولم يقع لهم بسبب ملكه ولسانه القبطي ظن عليه، وروي في بعض القصص، أنه لما عرفهم أراد أن يخبروه بجميع أمرهم، فباحثهم بأن قال لهم بترجمان: «أظنكم جواسيس»، فأحتاجوا حينئذ إلى التعريف بأنفسهم، فقالوا: نحن أبناء رجل صديق، وكنا اثني عشر ذهب منا واحد في البرية، وبقي أصغرنا عند أبينا، وجئنا نحن للميرة، وسقنا بعير الباقي منا، وكنا عشرة، ولهم أحد عشر بعيراً، فقال لهم يوسف: ولم تخلف أحدكم؟ قالوا: لمحبة أبينا فيه، قال: فاتوا بهذا الأخ؛ حتى / أعلم حقيقة قولكم، وأرى لِمَ أحبه أبوكم أكثر منكم؛ إن كنتم صادقين، وروي في القصص أنهم وزدوا مضراً وأستاذنوا على العزيز، وأنتسبوا في الاستئذان، فعرفهم، وأمر بإنزالهم وأدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لملكه، وروي أنه كان مثلثاً أبداً سترأ لجماله، وأنه كان يأخذ الصواع، فينقره، ويفهم من طينه صدق الحديث من كذبه، فسئلوا عن أخبارهم، فكلموا صدقوا، قال لهم يوسف: صدقتم، فلما قالوا: وكان لنا أخ أكله الذئب، أظن يوسف الصواع، وقال: كذبتهم، ثم تغير لهم، وقال: أراكم جواسيس، وكلفهم سوق الأخ الباقي؛ ليظهر صدقهم في ذلك؛ في قصص طويل، جاءت الإشارة إليه في القرآن، «والجهاز» ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع.

وقوله: ﴿بأخ لكم﴾ * ص: * نكره، ليربهم أنه لا يعرفه، وفرق بين غلام لك، وبين غلامك، ففي الأول أنت جاهل به، وفي الثاني أنت عالم، لأن التعريف به يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب، انتهى.

وقول يوسف: ﴿ألا ترون أنني أوفي الكيل...﴾ الآية: يرغبهم في نفسه آخراً

(١) أخرجه الطبري (٢٤٣/٧) برقم: (١٩٤٧١)، وذكره ابن عطية (٢٥٧/٣ - ٢٥٨).

وَيُؤْتِسْهِمْ وَيَسْتَمِيلُهُمْ، و﴿الْمُزْلِينَ﴾: يعني: المُضْيِفِينَ، ثم تَوَعَّدَهُمْ بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون﴾، أي: في الْمُسْتَأْنَفِ، وروي عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ يُوسُفُ يُلْقِي حَصَاةً فِي إِنَاءٍ فُضَّةٍ مَخُوصٍ بِالذَّهَبِ فَيَطْرُقُ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْإِنَاءَ يُخْبِرُنِي أَنَّ لَكُمْ أَبَا شَيْخَا»، وَرُوِيَ أَنَّ ذَلِكَ الْإِنَاءَ بِهِ كَانَ يَكِيلُ الطَّعَامَ، إِظْهَاراً لِعِزَّتِهِ بِحَسَبِ غَلَاثِهِ، وَرُوِيَ أَنَّ يوسُفَ اسْتَوْفَى فِي تِلْكَ السَّنِينَ أَمْوَالَ النَّاسِ، ثُمَّ أَمْلَاكَهُمْ، وَظَاهَرَ كُلُّ مَا فَعَلَهُ يوسُفُ مَعَهُمْ أَنَّهُ بُوخِي وَأَمِيرٌ، وَإِلَّا فَكَانَ يَرَى يَعْقُوبَ يَقْتَضِي أَنْ يَبَادِرَ إِلَيْهِ وَيَسْتَدْعِيهِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَهُ بِمَا يَصْنَعُ؛ لِيَكْمَلَ أَجْرَ يَعْقُوبَ وَمِخْنَتَهُ، وَتَنْفَسَرَ الرُّؤْيَا الْأُولَى.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾: يريد: لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَ لَهَا يَدَا وَتَكْرِمَةً يَرَوْنَ حَقَّهَا؛ فِيرْغَبُونَ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْنَا، وَأَمَّا مِيزُ الْبِضَاعَةِ، فَلَا يُقَالُ فِيهِ: «لَعَلٌّ» وَقِيلَ: قَصْدُ يوسُفَ بِرَدِّ الْبِضَاعَةِ أَنْ يَتَحَرَّجُوا مِنْ أَخْذِ الطَّعَامِ بِلَا ثَمَنِ، فِيرْجِعُوا لِدَفْعِ الثَّمَنِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَسَرُورُهُمْ بِالْبِضَاعَةِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يَكْشِفُ أَنَّ يوسُفَ لَمْ يَقْصِدْ هَذَا، وَإِنَّمَا قَصْدُ أَنْ يَسْتَمِيلَهُمْ، وَيَصْلَهُمْ، وَيُظْهِرُ أَنَّ مَا فَعَلَهُ يوسُفَ مِنْ صَلَاتِهِمْ وَجَبَرَهُمْ فِي تِلْكَ الشَّدَّةِ كَانَ وَاجِباً عَلَيْهِ، وَقِيلَ: عَلِمَ عَدَمَ الْبِضَاعَةِ وَالْدَّرَاهِمِ عِنْدَ أَبِيهِ؛ فَردَّ الْبِضَاعَةَ إِلَيْهِمْ؛ لِئَلَّا يَمْنَعَهُمُ الْعُدْمُ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: جَعَلَهَا تَوَطُّةً لَجْعَلِ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ، لِيَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَسْرِقْ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ الْقِصَّةَ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْقِصَّةِ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ الْإِسْتِثْلَافَ وَصِلَةَ الرَّجَمِ، وَأَضْلُ «نَكْتَلُ»: «نَكْتَلِلُ»، وَقَوْلُهُمْ: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾: ظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾، فَهُوَ خَوْفٌ فِي الْمُسْتَأْنَفِ، وَقِيلَ: أَشَارُوا إِلَى بَعِيرِ يَامِينَ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ، ثُمَّ تَضَمَّنُوا لَهُ حِفْظَهُ وَحَيْطَتَهُ، وَقَوْلُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ آمَنَ كُمْ عَلَيْهِ...﴾ الْآيَةُ: «هَلْ» تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ / وَلَمْ يَصْرَحْ بِمَنْعِهِمْ مِنْ حَمَلِهِ؛ لِمَا رَأَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، لَكِنَّهُ أَعْلَمَهُمْ بِقَلَّةِ طَمَأْنِينَتِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنْ ظَاهِرُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَانْتَقَلَتْ حَالُهُمْ، فَلَمْ يَخَفْ عَلَى يَامِينَ، كَخَوْفِهِ عَلَى يوسُفَ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَغَيْرُهُ^(١): «خَيْرٌ حَفْظاً»، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَغَيْرُهُ: «خَيْرٌ حَافِظاً»، وَنَصَبَ ذَلِكَ فِي الْقَرَاءَتَيْنِ؛ عَلَى التَّمْيِيزِ وَالْمَعْنَى: أَنَّ حَفْظَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَفْظِكُمْ، فَاسْتَسْلَمَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ

ب ٢٥٧

(١) وَحِجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُمْ قِيلَ: «وَنَحْفِظُ أَخَانَا»، فَلَمَّا أَضَافُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، قَالَ يَعْقُوبُ: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفْظاً» أَيَّ مَنْ حَفِظَكُمْ الَّذِي نَسْتَمِوهُ إِلَى أَنْفُسِكُمْ.

وَحِجَّةُ الْبَاقِينَ: قَوْلُهُمْ قِيلَ: «وَرَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ»، فَقَالَ يَعْقُوبُ رَادًّا عَلَيْهِمْ: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً».

يَنْظُرُ: «الْعُنْوَانُ» (١١١)، وَ«شَرْحُ الطَّيْبَةِ» (٣٨٦/٤)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٤٤٠)، وَ«إِعْرَابُ الْقَرَاءَاتِ» (١/٣١٤).

السلام لله، وتوكل عليه، وقولهم: ﴿ما نبغي﴾: يحتمل أن تكون «ما» استفهاماً؛ قاله قتادة: و﴿نبغي﴾: من البُغْيَة، أي: ماذا نَطْلُبُ بَعْدَ هذه التَّكْرَمَةِ؛ هذا مَالُنَا رُدُّ إلينا مع مِيرَتِنَا، قال الزُّجَّاجُ^(١): ويحتمل أن تكون «ما» نافية، أي: ما بقي لنا ما نَطْلُبُ، ويحتمل أن تكون أيضاً نافية، و﴿تَبْغِي﴾ من البَغْيِ، أي: ما تَعَدَّيْنَا فَكَذَّبْنَا على هذا المَلِكِ، ولا في وَصْفِ إجماله وإكرامه، هذه البضاعة رُدَّتْ إلينا، وقرأ أبو حنيفة^(٢): «ما تَبْغِي»؛ على مخاطبة يعقوب، وهي بمعنى ما تُرِيدُ، وما تطلب وقولهم: ﴿ونزداد كيلَ بعيرٍ﴾ يريدون بَعِيرَ أخيه؛ إذ كان يوسفُ إنما حمل لهم عَشْرَةَ أَبْعَرَةٍ، ولم يحملِ الحادي عشر؛ لغيب صاحبه، وقولهم: ﴿ذلك كيلٌ يسير﴾: قيل: معناه: يسيرٌ على يوسف أن يعطيه.

وقال السدي: ﴿يسير﴾، أي: سريع لا تُحْبَسُ فيه ولا تُمَطَّلُ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ الآية: أي لما عاهدوه، أشهد الله بينه وبينهم بقوله: ﴿الله على ما نقول وكيل﴾، و«الوكيل»: القيم الحافظ الضامن.

وقوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾: لفظ عام لجميع وجوه الغلبة، وأنظر أن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة، وأشهد الله تعالى، ووصى بنيه، وأخبر بعد ذلك بتوكله، فهذا توكل مع سبب، وهو توكل جميع المؤمنين إلا من شذ في رفض السغي بالكلية، وقنع بالماء وبقل البرية، فتلك غاية التوكل، وعليها بعض الأنبياء عليهم السلام، والشارعون منهم مثبتون سنن التسبب الجائر، قال الشيخ العارف بالله عبد الله بن أبي جمرة رضي الله عنه: وقد أشتمل القرآن على أحكام عديدة، فمنها: التعلق بالله تعالى، وترك الأسباب، ومنها: عمل الأسباب في الظاهر، وخلو الباطن من التعلق بها، وهو أجلها وأزكاها؛ لأن ذلك جمع بين الحكمة وحقيقة التوحيد، وذلك لا يكون إلا للأفذاذ الذين من الله عليهم بالتوفيق؛ ولذلك مدح الله تعالى يعقوب عليه الصلاة والسلام في كتابه، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨] لأنه عمل الأسباب، وأجتهد / في توفيتها، وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى، وأستسلم إليه، وهو حقيقة^{١٢٥٨} التوحيد، فقال: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ...﴾ الآية، فأثنى

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٣/١١٨).

(٢) وهي قراءة ابن مسعود كما في «الكشاف» (٢/٤٨٦)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٢٦٠)، و«البحر المحيط» (٥/٣٢١)، و«الدر المصون» (٤/١٩٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/٢٦١).

اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ جَمْعِهِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ .

وقوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾: قيل: خَشِيَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ، لكونهم أَحَدَ عَشَرَ لرجلٍ واحدٍ، وكانوا أَهْلَ جَمَالٍ وَبَسْطَةٍ؛ قاله ابن عباس وغيره^(١).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنَّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولما دخلوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾، روي أَنَّهُ لَمَّا ودَّعُوا أَبَاهُمْ، قال لهم: بَلَّغُوا مَلِكَ مُضَرَ سَلَامِي، وقولوا له: إِنَّ أَبَانَا يَصْلِي عَلَيْكَ، وَيَدْعُو لَكَ، وَيَشْكُرُ صَنِيعَكَ مَعَنَا، وفي كتاب أَبِي مَنْصُورِ الْمِهْرَانِيِّ أَنَّهُ خَاطَبَهُ بِكِتَابِ قُرَيْءٍ عَلَى يَوْسُفَ، فَبَكَى.

وقوله سبحانه: ﴿ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾: بمثابة قولهم: لم يَكُنْ في ذلك دَفْعٌ قَدَّرَ اللَّهُ، بل كان أَرْبَاباً ليعقوب قضاها، فالاستثناء ليس من الأول، والحاجة هي أَنْ يكون طَيِّبَ النَّفْسِ بدخولهم من أبواب متفرقة؛ خَوْفَ الْعَيْنِ، ونظير هذا الفعل أَنْ النَّبِيَّ ﷺ سَدَّ كُوَّةَ فِي قَبْرِ بِحَجَرٍ، وقال: «إِنَّ هَذَا لَا يُغْنِي شَيْئاً، وَلَكِنَّهُ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِ الْحَيِّ»، ثم أَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَعْقُوبَ؛ بِأَنَّهُ لَقِّنَ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَأَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَيْسَ كَذَلِكَ، وقال قتادة: معناه: لِعَامِلٍ بِمَا عَلَّمَنَاهُ^(٢)، وقال سفيان: من لا يعمل لَا يَكُونُ عَالِماً^(٣).

قال * ع^(٤): ﴿ وهذا لا يعطيه اللفظ، أمّا أَنَّهُ صحيحٌ في نفسه يرجّحه المعنى وما تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام. ﴾

وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال ابنُ إِسْحَاقَ وغيره: أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ أَخُوهُ حَقِيقَةً، وَأَسْتَكْتَمَهُ، وقال له: لَا تَبالَ بِكُلِّ مَا تَرَاهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ فِي تَحْلِيلِي فِي أَخْذِكَ مِنْهُمْ، وَكَانَ

(١) أخرجه الطبري (٢٤٩/٧) برقم: (١٩٤٩٦)، وذكره ابن عطية (٢٦١/٣)، وابن كثير (٤٨٤/٢)، والسيوطي (٤٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٠/٧) برقم: (١٩٥٠٦)، وذكره ابن عطية (٢٦٢/٣)، وابن كثير (٢٨٤/٢)، والسيوطي (٤٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٢٥٠/٧) برقم: (١٩٥٠٨)، وذكره ابن عطية (٢٦٢/٣).

(٤) ينظر: «المحور الوجيز» (٢٦٢/٣).

يَامِينُ شَقِيقَ يُوسُفَ.

وقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: يحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة، ويحتمل الإشارة إلى ما عمله فتیان يُوسُفَ من أمر السقاية، ونحو ذلك، و﴿تَبْتَئِسْ﴾: من البؤس، أي: لا تَحْزَنْ، ولا تَهْتَمَّ، وهكذا عبّر المفسرون.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِيرٍ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾: هذا من الكيد الذي يَسَّرَهُ اللَّهُ ليُوسُفَ عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يَغْقُوبَ؛ أن يُسْتَبْعَدَ السَّارِقُ، وكان في دين مِصْرَ؛ أن يُضْرَبَ، وَيُضَعَّفَ عليه العُزْمُ، فعلم يوسف أن إخوته لثقتهم ببراءة سَاحَتِهِمْ سَيَذْعُونُ في السَّرْقَةِ إلى حكمهم، فتحيل لذلك، وأستسهل الأمر على ما فيه من رَمِي أبرياء وإدخال الهَمَّ على يَغْقُوبَ وَعَلَيْنِهِمْ؛ لِمَا علم في ذلك من الصَّلاح في الآجِلِ، وبِوَحْيٍ لا محالة، وإرادة مِنَ اللَّهِ مُحْتَنُهُمْ بذلك، و﴿السَّقَايَةَ﴾: الإِنَاء الذي به يَشْرَبُ الْمَلِكُ؛ وبه كان يَكِيلُ الطعام للنَّاسِ؛ هكذا نصَّ جمهور المفسرين ابنُ عباس وغيره، وروي أنه كان من فَضَّةٍ^(١)، وهذا قول الجمهور، وكان هذا الْجُغَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ من «يَامِينٍ»؛ / قاله السُّدِّيُّ^(٢) وهو الظاهر، «فلما ب ٢٥٨ فَصَلَّتِ الْعِيرُ» بأوقارها، وخرجت من مصر فيما رُوِيَ أمر بهم فَحَبِسُوا، وأذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون، ومخاطبة العير مجاز، والمراد أربابها.

* ت * قال الهَرَوِيُّ: قوله تعالى: ﴿أَتَتْهَا الْعِيرُ﴾: «الْعِيرُ»: الإِبِلُ والحُمير التي يحمل عليها الأحمال، وأراد أصحاب العير؛ وهذا كقوله ﷺ: «يَا خَيْلَ اللَّهِ، أَزْكَبِي»^(٣) أراد: يَا أَصْحَابَ خَيْلِ اللَّهِ أَزْكَبِي، وأنت «أَيَّا»؛ لَأَنَّهُ لِلْعِيرِ، وهي جماعة، انتهى. فلما

(١) أخرجه الطبري (٢٥٥/٧) برقم: (١٩٥٣٢)، وذكره ابن كثير (٤٨٥/٢)، والسيوطي (٥٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وأبي الشيخ، وابن منده في «غرائب شعبة»، وابن مردويه، والضياء.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٣/٧) برقم: (١٩٥٢٧)، وذكره البغوي (٤٣٨/٢).

(٣) قال السخاوي في «المقاصد» ص: (٤٧٣ - ٤٧٤): أخرجه أبو الشيخ في النسخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكري عن عبد الكريم حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين، قال: كان ناس أنوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام، فذكر القصة وفيها فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً، وللعسكري من حديث عبد الله بن المثنى، عن ثمامة، عن أنس =

سمع إخوة يوسف هذه المقالة، أقبلوا عليهم، وساءهم أن يَرْمُوا بهذه المثلبة، وقالوا: ماذا تَفْقِدُونَ، ليقع التفتيش، فتظهر براءتهم، ولم يلودوا بالإنكار من أول، بل سألوا إكمال الدعوى؛ عسى أن يكون فيها ما تبطل به، فلا يحتاج إلى خصام، قالوا: نفقد صَوَاع المَلِك، وهو المِكْيَال، وهو السَّقَايَة، قال أبو عُبَيْدَة: يُوْنُث الصُّوَاع؛ مِنْ حَيْثُ سَمِي سِقَايَة، ويذكر من حيث هو صَاع.

* ت *: ولفظ أبي عُبَيْدَة الهَرَوِيُّ قال الأَخْفَش: الصَّاع: يذْكَر ويُوْنُث، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فَأَنْتَ، وَقَالَ: ﴿لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ فذَكَرَ لَأَنَّهُ عَنِ بِهِ الصُّوَاع. انتهى.

وقوله: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾: أي: لمن دَلَّ على سارقه، وَجَبَرَ الصُّوَاع، وهذا جُعْل.

وقوله: ﴿وأنا به زعيم﴾: حَمَالَة، قال مجاهد: «الزَّعِيم»: هو المُوْذَن الذي قال أَيْتُهَا الْعَيْر^(١) و«الزَّعِيم»: الضامن في كلام العرب.

في حديث ذكره، قال: فنادى منادي رسول الله ﷺ: يا خيل الله اركبي، ومن حديث يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان؟ كيف أصبحت: الحديث وفيه أنه قال: يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة فدعا له قال: فنودي يوماً بالخيل: يا خيل الله اركبي، قال: فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد، ولابن عائذ في «المغازي»، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يومئذ يعني: يوم قريظة يوم الأحزاب منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي وعزى السهيلي في غزوة حنين من «الروض» هذه اللفظة «لصحيح مسلم» فيحمر، نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ إلى بني لحيان، فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي ﷺ صرخ في المدينة: يا خيل الله اركبوا، وجاءت أحاديث عن علي وخالد بن الوليد، ففي «المستدرک» للحاكم في قصة أويس من حديث أبي نضرة، عن أسير بن جابر، فذكر القصة وقال في آخرها: فنادى علي: يا خيل الله اركبي، وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة: يا خيل الله اركبي، فركبوا وساروا إلى بني حنيفة، وقال أبو داود في «السنن»: باب: النداء عند النفر: يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سَمَى خيلنا خيل الله، وللعسكري من حديث موسى بن نفع الحارثي عن مشيخة من قومه أن النبي ﷺ قال: الأناة في كل شيء خير إلا في ثلاث: إذا صبح في خيل لله فكونوا أول من يشخص. وذكر حديثاً، قال العسكري قوله: يا خيل الله اركبي، هذا على المجاز والتوسع، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصر لعلم المخاطب بما أراد.

(١) أخرجه الطبري (٢٥٦/٧) برقم: (١٩٥٥٠ - ١٩٥٥١)، وذكره البيهقي (٤٣٩/٢)، وابن عطية (٣/٢٦٤)، والسيوطي (٥١/٤)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٢) ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦)

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾: روي أن إخوة يوسف كانوا رذوا البضاعة الموجودة في الرحال، وتخرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن؛ فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾؛ أي: لقد علمتكم منا التحري، وروي أنهم كانوا قد أشتهروا بمضرب صلاح وتعفف، وكانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم، لئلا تنال زروع الناس؛ فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾، والتاء في «تَاللَّهِ» بدل من الواو، ولا تدخل التاء في القسم إلا في هذا الاسم.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): قال الطبري^(٢): قوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ على حذف مضاف، تقديره: جزاؤه استعباد أو استرقاق من وجد في رحله. انتهى.

وقولهم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾: أي: هذه سُنَّتُنَا وَدِينُنَا في أهل السرقة؛ أن يتملك السارق؛ كما تملك هو الشيء المسروق.

وقوله سبحانه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ...﴾ الآية: بدؤه أيضاً من أوعيتهم تمكين للحيلة، وإبعاداً لظهور أنها حيلة، وأضاف الله سبحانه الكيد إلى ضميره؛ لما خرج القدر الذي أباح به ليوسف أخذ أخيه مخرج ما هو في اعتقاد الناس كيد، وقال السدي والضحاك: ﴿كِدْنَا﴾: معناه: صَنَعْنَا^(٣)، و«دين الملك»: فسره ابن عباس بسُلْطَانِهِ^(٤)، وفسره قتادة بالقضاء والحكم^(٥)، وهذا متقارب، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٦): قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٩٨/٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٥٨/٧).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦١/٧) برقم: (١٩٥٧٣)، وبرقم: (١٩٥٧٤)، والبغوي (٤٤٠/٢)، وابن عطية (٢٦٥/٣)، والسيوطي (٥١/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٢٦١/٧) برقم: (١٩٥٧٥)، وذكره البغوي (٤٤٠/٢)، وابن عطية (٢٦٦/٣)، والسيوطي (٥١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (٢٦١/٧) برقم: (١٩٥٧٧ - ١٩٥٧٨)، وذكره ابن عطية (٢٦٦/٣)، والسيوطي (٤/٥٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٦) ينظر: «أحكام القرآن» (١٠٩٩/٣).

كذنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك»، إذ كان المَلِكُ لا يَرى أَسْتَرْقَاقَ السَّارِقِ،
٢٥٨ ب وإنما كان دِينُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمُجْنِي / عليه من السارقِ مِثْلِي السَّرْقَةِ. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: أَلْتَرَامُ
الإِخْوَةَ لَدَيْنَ يَعْقُوبَ بِأَلَا سَرَقَاقٍ، فَقَضَى عَلَيْهِمْ بِهِ، انْتَهَى.

قال * ع^(١): * وَالْأَسْتِثْنَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حِكَايَةُ حَالِ التَّقْدِيرِ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ مَا وَقَعَ
من هذه الحيلة، وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده، عن مالك، عن زيد بن أسلم؛ أنه قال
في قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءٍ﴾: قال: بالعلم، انتهى من «كتاب العلم».

وقوله سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، المعنى: أَنَّ الْبَشَرَ فِي الْعِلْمِ دَرَجَاتٌ،
فكُلُّ عَالِمٍ فَلَا بُدَّ مِنْ أَعْلَمَ مِنْهُ، فَإِمَّا مِنَ الْبَشَرِ، وَإِمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَذَا تَأْوِيلُ الْحَسَنِ
وَقَتَادَةَ وَأَبْنِ عَبَّاسٍ^(٢) وروى أيضاً عن ابن عباس: إِنَّمَا الْعَلِيمُ اللَّهُ، وَهُوَ فَوْقَ كُلِّ^(٣) ذِي
علم.

قال ابن عطاء في «التنوير»: أَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ حَيْثُ مَا تَكَرَّرَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، أَوْ فِي
السُّنَّةِ، فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي تَقَارَنُهُ الْخَشْيَةُ، وَتَكْتَفِيهِ الْمَخَافَةُ. انْتَهَى.

قال الشيخ العارف أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي رحمه الله: إِذَا كَمَلَتْ
لِلْعَبْدِ ثَلَاثُ خِصَالٍ، وَصَدَّقَ فِيهَا، تَفَجَّرَ الْعِلْمُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ، وَهِيَ الزُّهْدُ،
وَالْإِخْلَاصُ، وَالتَّقْوَى، قال: وَلَا مَطْمَعٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ الْمَذْكُورِ إِلَّا بَعْدَ مَعَالِجَةِ الْقَلْبِ مِنْ
عِلَلِهِ الَّتِي تَشِينُهُ، كَالْكِبَرِ، وَالْحَسَدِ، وَالْغَضَبِ، وَالرِّيَاءِ، وَالسُّمْعَةِ، وَالْمَحْمَدَةِ وَالْجَاهِ،
وَالشَّرَفِ، وَعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ، وَالطَّمَعِ، وَالْجِرْصِ، وَالْقَسْوَةِ، وَالْمُدَاهَنَةِ، وَالْحِقْدِ، وَالْعَدَاوَةِ،
وَكُلِّ مَا عَدَدْنَاهُ مِنَ الْعِلَلِ، وَمَا لَمْ نَعُدَّهُ رَاجِعٌ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ حُبُّ الدُّنْيَا، لِأَنَّ حُبَّهَا
عَنْهُ يَتَفَرِّغُ كُلُّ شَرٍّ، وَعَنْهُ يَتَشَعَّبُ كُلُّ قَبِيحٍ، فَإِذَا زَالَتْ هَذِهِ الْعِلَلُ ظَهَرَ الصُّدُقُ،
وَالْإِخْلَاصُ، وَالتَّوَاضُّعُ، وَالْجَلْمُ، وَالْوَرَعُ، وَالْقَنَاعَةُ، وَالزُّهْدُ، وَالصَّبْرُ، وَالرِّضَا، وَالْأُنْسُ،
وَالْمَحَبَّةُ، وَالشُّوقُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْحُزْنُ، وَقَصْرُ الْأَمَلِ، وَمِزَاجُ النِّيَّةِ بِالْعَمَلِ، فَيَنْبُغُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٥ - ٢٦٦).

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦٣ - ٢٦٤) برقم: (١٩٥٩٨ - ١٩٥٩٩ - ١٩٦٠٠) وبرقم: (١٩٥٩٠)،
وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٦)، وابن كثير (٢/ ٤٨٦)، والسيوطي (٤/ ٥٣)، وعزاه لابن جرير، وأبي
الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٢٦٣) برقم: (١٩٥٨٧ - ١٩٥٨٨)، وذكره ابن عطية (٣/ ٢٦٦)، وابن كثير (٢/ ٤٨٦)،
والسيوطي (٤/ ٥٢)، وعزاه للفريايبي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي
في «الأسماء والصفات».

العِلْمُ، وينتفي الجَهْلُ، ويضيء القلب بنور إلهي، ويتلأل الإيمان، وتوضح المعرفة، ويتسّع اليقين، ويتقوى الإلهام، وتبدو الفرائد، ويصفى السر، وتتجلى الأسرار، وتوجد الفوائد. قال رحمه الله: وليس بين العبد والترقي من سفلى إلى علو إلا حب الدنيا؛ فإن الترقي يتعذر من أجل حبها؛ لأنها جاذبة إلى العالم الظلماني، وطباع النفوس لذلك مائلة، فإن أردت أن تقتفي أثر الذاهبين إلى الله تعالى، فاستخف بدنياك، وأنظرها بعين الزوال، وأنزل نفسك عند أخذ القوت منها منزلة المضطر إلى الميتة، والسلام. انتهى.

وروي أن المفتش كان إذا فرغ من رخل رخل، فلم يجد فيه شيئا، استغفر الله عز وجل من فعله ذلك، وظاهر كلام قتادة وغيره؛ أن المستغفر هو يوسف حتى انتهى إلى رخل بنيامين، فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أخذ شيئا، فقال له إخوته: والله، لا تبرح حتى تفتشه، فهو أطيّب / لنفسك ونفوسنا، ففتش حينئذ، فأخرج السقاية، وروي ١٢٥٩ أن أخوة يوسف لما رأوا ذلك، عثفوا بنيامين، وقالوا له: كيف سرقت هذه السقاية؟ فقال لهم: والله، ما فعلت، فقالوا له: فمن وضعها في رخلك؟ قال: الذي وضع البضاعة في رخلكم، والضمير في قوله: ﴿استخرجها﴾: عائد على السقاية، ويحتمل على السرقة.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (VII) قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَهُ أَبًا شَيْعًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (VIII) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا تَبَوُّنَ﴾ (IX)

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ أي: قالوا إخوة يوسف: إن كان هذا قد سرق، فغير بدع من أبني راحيل؛ لأن أخاه يوسف قد كان سرق، فهذا من الإخوة إنحاء على أبني راحيل يوسف وبنيامين، وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كانت بحسب الظاهر، وموجب الحكم في النازلتين، فلم يغنوا في غيبة ليوسف، وإنما قصدوا الإخبار بأمر جرى؛ ليزول بعض المعرفة عنهم، ويختص بها هذان الشقيقان، وأما ما روي في سرقة يوسف، فالجمهور على أن عمته كانت ربته، فلما شب، أراد يعقوب أخذه منها، فولعت به، وأشفقت من فراقه، فأخذت منطقة إسحاق، وكانت متوارثة عندهم، فنطقت بها من تحت ثيابه، ثم صاحت، وقالت: إني قد فقدت المنطقة، ويوسف قد خرج بها، ففتشت، فوجدت عنده، فاسترقته، حسب ما كان في شرعهم، وبقي عندها حتى ماتت، فصار عند أبيه.

وقوله: ﴿فأسرها يوسف﴾: يعني: أسر الحرة التي حدثت في نفسه من قول الاخوة.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا...﴾ الآية: الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً؛ كأنه أسرَّ لهم كراهيةً مقابلتهم، ثم نَجَّهَهُمْ بقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾: أي: لسوء أفعالكم، واللَّهِ أعلم؛ أن كان ما وصفتُموه حقاً، وفي اللفظ إشارةً إلى تكذيبهم؛ ومِمَّا يَقْوِي هذا عِنْدِي أَنَّهُمْ تَرَكُوا الشَّفَاعَةَ بأنفسهم، وعدَلُوا إلى الشَّفَاعَةِ بأبيهم عليه السلام، وقالت فرقة: لم يَقُلْ هذا الكلام إلا في نفسه، وإنه تفسيرٌ للذي أسرَّ في نفسه، فكأنَّ المراد: قال في نفسه: أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا، وذكر الطبري هنا قصصاً أَخْتَصَرَهُ أَنَّهُ لما أَسْتَخْرَجَتِ السَّقَايَةُ مِنْ رَحْلِ يَامِينَ، قال إخوته: يَا بَنِي رَاحِيلَ، لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ يَنَالُنَا مِنْ جِهَتِكُمْ، فقال يَامِينَ: بَلْ بَنُو رَاحِيلَ يَنَالُهُمُ الْبَلَاءُ مِنْكُمْ، ذَهَبْتُمْ بِأَخِي، فَأَهْلَكْتُمُوهُ، ووضع هذا الصُّوعَ في رَحْلِي الذي وَضَعَ الدَّرَاهِمَ في رَحَالِكُمْ، فقالوا: لَا تَذْكُرِ الدَّرَاهِمَ، لَنَلَّا نُوْخِذَ بِهَا، ثم دَخَلُوا على يوسُفَ، فأخذ الصُّوعَ، فَتَقَرَّه، فَطَنَ، فقال: إِنَّهُ يَخْبِرُ أَنْكُمْ ذَهَبْتُمْ بِأَخٍ لَكُمْ، فَبِعْتُمُوهُ، فَسَجَدَ يَامِينَ، وقال: أَيُّهَا الْعَزِيزُ، سَلْ صُوعَاكَ هَذَا يُخْبِرُكَ بِالْحَقِّ، في قِصَصِ يَطُولُ أَثَرُنَا أَخْتَصَرَهُ.

وروي أن رُوبِيلَ غَضِبَ، وَقَفَّ شَعْرَهُ، حتى خرج من ثِيَابِهِ، فأمر يوسُفَ بنياً له، فَمَسَّهُ فسَكَنَ غَضَبُهُ، فقال رُوبِيلُ: لَقَدْ مَسَّنِي أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ، ثم إنهم تَشَاوَرُوا في مُحَارَبَةِ يوسُفَ، وكانوا أَهْلَ قُوَّةٍ، لَا / يُدَانُونَ في ذلك، فلما أَحَسَّ يوسُفَ بذلك، قام إلى رُوبِيلَ، فَلَبَّيْهِ وَصَرَعَهُ، فَرَأَوْا مِنْ قُوَّتِهِ مَا أَسْتَغْطَمُوهُ، وقالوا: ﴿يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ...﴾ الآية، وخاطبوه بِأَسْمِ الْعَزِيزِ، إذ كان في تِلْكَ الْحُطَّةِ بَعَزَلِ الْأَوَّلِ أو موته، على ما رُوي في ذلك، وقولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ يحتمل أن يكون ذلك منهم مجازاً، ويحتمل أن يكون حقيقةً على طريقِ الْحَمَالَةِ؛ حتى يَصِلَ يَامِينَ إلى أبيه، ويعرف يعقوبُ جليَّةَ الأمرِ، فَمَنَعَ يوسُفَ من ذلك، وقال: ﴿مَعَادَ اللَّهِ...﴾ الآية.

﴿لَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾ ارْجِعُوا إِلَيَّ أَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعًا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٦﴾ وَسَلَى الْقَرِيْبَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْغَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسُفِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَنْهُ مِنْ الْغُرْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ...﴾ الآية: يقال: يَيْسَسُ وَاسْتَيْسَسَ بمعنى واحدٍ، قال البخاري: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾: اعتزلوا، والجَمْعُ أَنْجِيَّةٌ، وللاثْنين والجمع نَجِيٌّ

وَأُنْجِيَةَ انْتَهَى.

وقال الهَرَوِيُّ: ﴿خَلَّصُوا نَجِيًّا﴾: أي تَمَيَّزُوا عن الناس متناجين انتهى.

و﴿كَبِيرُهُمْ﴾: قال مجاهدٌ هو شَمْعُونُ، كان كبيرهم رَأْيَا وَعِلْمًا، وَإِنْ كَانَ رُوبِيلُ أَسْنَهُم^(١)، وقال قتادة: هو رُوبِيلُ، لَأَنَّهُ أَسْنَهُم^(٢)، وهذا أَظْهَرُ وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ^(٣)، وذكرهم أَخُوهم مِثْقَالَ أَيْبِهِمْ: ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

وقوله: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ﴾: قال: * ص * : «بَرَحَ» التَّامَّةُ بِمَعْنَى ذَهَبَ وَظَهَرَ؛ وَمِنْهُ: بَرَحَ الْخَفَاءُ، أَي: ظَهَرَ، وَالتَّوَجَّهَ هُنَا: مَعْنَى «ذَهَبَ»، لَكِنَّهُ لَا يَنْصَبُ الظَّرْفَ الْمَكَانِيَّ الْمُخْتَصَّ إِلَّا بِوَاسِطَةٍ، فَاحْتِيجُ إِلَى تَضْمِينِهِ مَعْنَى «فَارَقَ»، وَالْأَرْضُ مَفْعُولٌ بِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «أُبْرَحَ»: نَاقِصَةٌ انْتَهَى.

وقوله: ﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبِيكُمْ﴾: الْأَمْرُ بِالرُّجُوعِ قِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ كَبِيرِهِمْ، وَقِيلَ: مِنْ قَوْلِ يَوْسُفَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ أَنَّ يَوْسُفَ قَالَ لَهُمْ: إِذَا أَتَيْتُمْ آبَاكُمْ فَأَقْرَؤُوا عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولُوا لَهُ: إِنَّ مَلِكَ مِصْرَ يَدْعُو لَكَ الْأَلَمُوتَ حَتَّى تَرَى وَلَدَكَ يَوْسُفَ، لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي أَرْضِ مِصْرَ صَدِيقَيْنِ مِثْلِهِ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «سَرَقَ»، وَرَوَى عَنِ الْكَسَائِيِّ^(٤) وَغَيْرِهِ: «سُرِقَ» - بَيْنَاثَهُ لِلْمَفْعُولِ ..

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾: أَي: بِأَعْتَابِ الظَّاهِرِ، وَالْعِلْمُ فِي الْغَيْبِ إِلَى اللَّهِ، لَيْسَ ذَلِكَ فِي حِفْظِنَا، هَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ إِسْحَاقَ، ثُمَّ اسْتَشْهَدُوا بِالْقَرِيَةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، وَهِيَ مِصْرُ؛ قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥)، وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا، قَالَ الْبُخَارِيُّ: ﴿سَوَّلْتُ﴾: أَي: زَيَّنْتُ، وَقَوْلُ يَعْقُوبَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي بِيَوْسُفَ وَيَأْمِينَ وَرُوبِيلَ الَّذِي لَمْ يَبْرَحِ الْأَرْضَ،

(١) أخرجه الطبري (٢٦٩/٧) برقم: (١٩٦٢٧)، وذكره البغوي (٤٤٢/٢)، وابن عطية (٢٦٩/٣)، والسيوطي (٥٤/٤ - ٥٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٢٧٠/٧) برقم: (١٩٦٣٠)، وذكره البغوي (٤٤٢/٢)، وابن عطية (٢٦٩/٣)، والسيوطي (٥٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧٠/٧) برقم: (١٩٦٣٠ - ١٩٦٣١).

(٤) وقرأ بها أبو ذر وابن عباس، كما في «الشواذ» ص: (٦٩)، وقرأها مبنية للمفعول مشددة الكسائي في رواية ابن أبي شريح عنه، وقرأ بها أحمد بن جبير المكي، والوليد بن حسان، عن يعقوب، وغيرهم.

ينظر: «البحر المحيط» (٣٢٩/٥)، و«الدر المصون» (٢٠٣/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٢٧٣/٧) برقم: (١٩٦٤٧)، وذكره ابن عطية (٢٧١/٣).

ورجاؤه هذا مِنْ جِهَاتٍ، منها: حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللَّهِ سبحانه في كُلِّ حَالٍ، ومنها: رؤْيَا يوسُفَ المتقدِّمة؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَنْتَظَرُهَا، ومنها: ما أَخْبَرُوهُ عَنْ مَلِكٍ مُضِرٍّ؛ أَنَّهُ يَدْعُو لَهُ بِرُؤْيَا أَبْنَيْهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾: أَي: زَالَ بَوَاجِهُ عَنْهُمْ مُلْتَجِئًا إِلَى اللَّهِ: ﴿وَقَالَ: يَا أَسْفَى عَلَى يوسُفَ﴾.

قال الحسن: خُصَّتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِالْأَسْتِرْجَاعِ؛ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ: ﴿يَا أَسْفَى﴾^(١).

قال * ع^(٢): * والمراد يا أسفي، لكن هذه لَعْنَةٌ مَنْ يَرُدُّ يَاءَ الْإِضَافَةِ أَلْفًا؛ نَحْو: يَا غُلَامًا، وَيَا أَبْنَا، وَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَجْتَمَعَ الْأَسْتِرْجَاعُ، وَيَا أَسْفَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَوَى أَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ / حَزَنَ حُزْنَ سَبْعِينَ ثَكْلَى، وَأُعْطِيَ أَجْرَ مِائَةِ شَهِيدٍ، وَمَا سَاءَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ قَطُّ، رَوَاهُ الْحَسَنُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣)، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بِمَعْنَى: كَاطِمٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وَوَصَفَ يَعْقُوبَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَشْكُ إِلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا كَانَ يَكْمُدُ فِي نَفْسِهِ، وَيُمْسِكُ هَمَّهُ فِي صَدْرِهِ، فَكَانَ يَكْظِمُهُ، أَي: يَرُدُّهُ إِلَى قَلْبِهِ.

* ت * وهذا ينظر إلى قول النبي ﷺ: «الْقَلْبُ يَخْزَنُ وَالْعَيْنُ تَذْمَعُ وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ . . .» الحديث، ذكر هذا ﷺ عِنْدَ مَوْتِ وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ^(٤)، قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «وَقَائِقِهِ»: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، قَالَ: كَظِمَ عَلَى الْحُزَنِ، فَلَمْ يَقُلْ إِلَّا خَيْرًا^(٥)، انْتَهَى، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»: وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ فِي أَبْنَيْهِ إِبْرَاهِيمَ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَذْمَعُ، وَالْقَلْبُ يَخْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَخْزُونُونَ»، وَقَالَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِذَمِّ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزَنِ الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ»^(٦)، انْتَهَى. خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

(١) ذكره ابن عطية (٢٧٢/٣) بنحوه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨١/٧) برقم: (١٩٧٢٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه الطبري (٢٧٦/٧) برقم: (١٩٦٧٧)، وذكره البغوي (٤٤٤/٢) نحوه.

(٦) أخرجه البخاري (٢٠٩/٣) كتاب «الجنائز» باب: البكاء عند المريض، حديث (١٣٠٤)، ومسلم (٢/ =

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا نَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٨٥) قَالَ
إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّزَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ
يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَا يَأْتِسُونَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَاؤْفَ لَنَا الْكِيلَ وَنَصَدَقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا﴾ الآية: المعنى: تالله لا تفتأ فتحدف «لا» في هذا
الموضع من القسم؛ لدلالة الكلام عليها؛ فمن ذلك قول امرئ القيس: [الطويل]

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحَ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(١)
ومنه قول الآخر: [البسيط]

تَاللَّهِ يَبْقَى عَلَى الْإِيَّامِ دُو حَيْدٍ^(٢)

٦٣٦ كتاب «الجنائز» باب: البكاء، حديث (٩٢٤/١٢)، والبيهقي (٦٩/٤) من حديث عبد الله بن
عمر به، والحديث أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٢٨٥/٣ - بتحقيقنا)، وقال: هذا حديث متفق على
صحته.

(١) ينظر البيت في: «ديوانه» ص: (٣٢)، و«خزانة الأدب» (٢٣٨/٩ - ٢٣٩)، (١٠/٤٣ - ٤٤ - ٤٥)،
و«الخصائص» (٢٨٤/٢)، و«الدرر» (٢١٢/٤)، و«شرح أبيات سيويه» (٢٢٠/٢)، و«شرح التصريح»
(١٨٥/١)، و«شرح شواهد المغني» (٣٤١/١)، و«شرح المفصل» (١١٠/٧)، (٣٧/٨)، (١٠٤/٩)،
و«الكتاب» (٥٠٤/٣)، و«لسان العرب» (٤٦٣/١٣) (يمن)، و«اللمع» ص: (٢٥٩)، و«المقاصد
النحوية» (١٣/٢)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (٢٣٢/١)، و«خزانة الأدب» (٩٣/١٠ - ٩٤)،
و«شرح الأشموني» (١١٠/١)، و«مغني اللبيب» (٦٣٧/٢)، و«المقتضب» (٣٦٢/٢)، و«همع الهوامع»
(٣٨/٢).

(٢) صدر بيت وعجزه:

بِمُشْمَخِرٍ بِهِ الظُّيَّانُ وَالْأَسْ

وهو لأبي ذؤيب الهذلي في «شرح شواهد الإيضاح» ص: (٥٤٤)، و«شرح شواهد المغني» (٥٧٤/٢)،
و«لسان العرب» (٢٧٥/١٣) (ظن) ولأمية بن أبي عائذ في «الكتاب» (٤٩٧/٣)، ولمالك بن خالد
الخناعي في «جمهرة اللغة» ص: (٥٧)، و«شرح أبيات سيويه» (٤٩٩/١)، و«شرح أشعار الهذليين»
(٤٣٩/١)، و«شرح شواهد الإيضاح» ص: (٣٠٤)، و«لسان العرب» (جيد)، (قرنس)، (ظبا)، ولعبد مائة
الهذلي في «شرح المفصل» (٩٨/٩) ولأبي ذؤيب أو لمالك في «شرح أشعار الهذليين» (٢٢٨/١)،
ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية في «خزانة الأدب» (٩٥/١٠)، ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية أو لعبد
مناف الهذلي أو للفضل بن عباس أو لأبي زيد الطائي في «خزانة الأدب» (١٧٦/٥ - ١٧٧ - ١٧٨)،
ولأبي ذؤيب أو لمالك أو لأمية أو لعبد مناف في «الدرر» (١٦٢/٤، ١٦٥)، ولأمية أو لأبي ذؤيب أو
للفضل بن العباس في «شرح المفصل» (٩٩/٩)، وللهمذلي في «جمهرة اللغة» ص: (٢٣٨)، وبلا نسبة =

أراد: لا أبرحُ، ولا يَبْقَى، و«فَتَى»: بمنزلة زَالٍ وَبَرَحَ في المعنى والعمل؛ تقول: واللّه، لا فِتْنَتَ قَاعِدًا؛ كما تقول: لا زِلْتُ وَلَا بَرَحْتُ، وعبارة الداودي: وعن ابن عباس: تَفْتَأُ أي: لا تزالُ تَذْكُرُ يوسُفَ، ﴿حتى تكونَ حرصاً﴾^(١). انتهى، والحرصُ: الذي قد نهاء الهَرَمُ أو الحُبُّ أو الحُزْنُ إلى حالِ فسادِ الأَعْضاءِ وَالْبَدَنِ والحسُّ، يقال: رجلٌ حَارِصٌ، أي: ذو همٍّ وحزنٍ؛ ومنه قول الشاعر: [البيسط]

إِنِّي أَمَرُوكَ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَخْرَضَنِي حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ^(٢)
والحرصُ بالجملة الذي فسدَ ودنا موته، قال مجاهد: الحرصُ: ما دون الموت^(٣)؛ وفي حديث النبي ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمْرُضُ حَتَّى يُخْرِضَهُ الْمَرَضُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ»^(٤) انتهى من «رقائق ابن المبارك».

ثم أجابهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: أي: إني لست ممَّنْ يَجْزَعُ وَيَضْجَرُ، وَإِنَّمَا أَشْكُو إِلَى اللَّهِ، وَالبَثُّ: ما في صَدْرِ الْإِنْسَانِ مما هو مُعْتَرِمٌ أَنْ يَبْثَهُ وينشره.

وقال أبو عُبَيْدَةَ وغيره: البَثُّ: أشدُّ الحزن^(٥) قال الداودي عن ابن جُبَيْر، قال: مَنْ بَثَّ، فلم يصبر، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ...﴾ الآية: «الرَّوْحُ»: الرحمة، ثم جعل اليأسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وتفريجه مِنْ صِفَةِ الْكَافِرِينَ؛ إذ فيه إما التَكْذِيبُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وإما الجهْلُ بصفاتِ اللَّهِ تعالى، / وال«بِضَاعَةُ»: الْقِطْعَةُ مِنَ الْمَالِ يُقْصَدُ بِهَا شَرَاءُ شَيْءٍ، ولزَمَها عُرْفُ الْفَقْهِ فِيمَا لَا حَظَّ لِحَامِلِهَا مِنَ الرِّبْحِ، وال«مُزْجَاةُ»: معناها: المدفوعة المتحيّل لها،

= في «الأشباه والنظائر» (٢٣/٦)، و«الجنى الداني» ص: (٩٨)، و«جواهر الأدب» ص: (٧٢)، و«الدرر» (٢١٥/٤)، و«رصف المياني» ص: (١١٨، ١٧١)، و«شرح الأشموني» (٢٩٠/٢)، والصاحبي في «فقه اللغة» ص: (١١٤)، و«اللامات» ص: (٨١)، و«مغني اللبيب» (٢١٤/١)، و«المقتضب» (٢/٣٢٤)، و«معجم الهوامع» (٣٢/٢)، (٣٩).

(١) أخرجه الطبري (٢٧٧/٧) برقم: (١٩٦٨٦)، وذكره السيوطي (٥٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) البيت للعرجي ينظر: «أمالي ابن الشجري» (٣٦٩/١)، و«الطبري» (٢٢٢/١٦)، و«مجاز القرآن» (١/٣١٧)، و«الصحيح» و«التاج» و«اللسان» (حرض)، «روح المعاني» (١٩/٥)، «القرطبي» (٢٥٠/٩).

(٣) أخرجه الطبري (٢٧٨/٧) برقم: (١٩٦٩٠)، وذكره ابن عطية (٢٧٣/٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠/١).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٧٣/٣).

وبالجملة؛ فَمَنْ يَسوق شيئاً، ويتلطف في تسييره، فقد أجزاه، فإذا كانت الدراهم مدفوعة نازلة القدر، تحتاج أن يُعْتَدَر معها، ويُشْفَع لها، فهي مزجاة، فقل: كان ذلك لأنها كانت زيوفاً، قاله ابن عباس^(١).

وقيل: كانت بضاعتهم عروضاً، وقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: معناه ما بين الدراهم الجياد وبين هذه المزجاة، قاله السدّي وغيره^(٢) وقال الداودي عن ابن جريج: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: قال: أزدّد علينا أخانا، انتهى^(٣)، وهو حسن.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩) ﴿قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَى وَصِيِّكَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ (٩١) ﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢)

وقوله تعالى: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾، روي أن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته: ﴿مَسْنَا وأهلنا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، واستعطفوه رَقَّ ورحمهم، قال ابن إسحاق: وأرفض دمه باكياً، فشرع في كشف أمره إليهم، فروي أنه حَسَرَ قناعه، وقال لهم: ﴿هل علمتم...﴾^(٤) الآية، و﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾: أي: التفريق بينهما في الصغر وما نالهما بسببكم من المحن؛ ﴿إذ أنتم جاهلون﴾، نسبهم إمّا إلى جهل المعصية، وإمّا إلى جهل الشباب وقلة الحنكة، فلما خاطبهم هذه المخاطبة، تنبهوا، ووقع لهم من الظن القوي وقرائن الحال؛ أنه يوسف فقالوا: ﴿أنتك لآئت يوسف﴾؛ مستفهمين، فأجابهم يوسف كاشفاً عن أمره، ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾: هذا منهم استنزال ليوسف، وإقرار بالذنب في ضمته استغفار منه، و﴿آثرك﴾: لفظ يعم جميع التفضيل.

(١) أخرجه الطبري (٢٨٦/٧) برقم: (١٩٧٤٨) نحوه، وذكره البغوي (٤٤٦/٢)، وابن عطية (٢٧٥/٣)، وابن كثير (٤٨٨/٢)، والسيوطي (٦٢/٤)، وعزاه لأبي عبيد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٩/٧) برقم: (١٩٧٨٩)، وذكره ابن عطية (٢٧٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٢٨٩/٧) برقم: (١٩٧٩٣)، وذكره البغوي (٤٤٦/٢)، وابن عطية (٢٧٦/٣)، والسيوطي (٦٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٢٩١/٧) برقم: (١٩٧٩٧)، وذكره البغوي (٤٤٦/٢)، وابن عطية (٢٧٦/٣).

وقوله: ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمْ﴾ عفو جميل، وقال عكرمة: أوحى الله إلى يوسف بعفوك عن إخوانك، رَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ^(١)، و«التريب»: اللوم والعقوبة وما جرى معهما من سوء مُعْتَقَدٍ ونحوه، وعبر بعض الناس عن التريب بالتعير، ووقف بغض القرأة ﴿عليكم﴾، وابتدا^(٢): ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ووقف أكثرهم: ﴿اليوم﴾ وابتدا: ﴿يغفر الله لكم﴾ على جهة الدعاء وهو تأويل ابن إسحاق^(٣) والطبري، وهو الصحيح الراجح في المعنى؛ لأن الوقف الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ^(٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْعَمِيهِ^(٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٩٦)

وقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾: قال النقّاش: روي أن هذا القميص كان من ثياب الجنة، كساه الله إبراهيم، ثم توارثه^(٤) بنوه.

قال *ع^(٥): * هذا يحتاج إلى سند والظاهر أنه قميص يوسف كسائر القمص، وقول يوسف: ﴿يأت بصيراً﴾ فيه دليل على أن هذا كله بوحي وإعلام من الله تعالى، وروي أن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام؛ قاله ابن عباس^(٦)، وقال: هاجت ريح، فحملت عرقه، وقول يعقوب: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾: مخاطبة لحاضريه، فروي أنهم كانوا حَقَدَتُهُ، وقيل: كانوا بغض بنيه، وقيل: كانوا / قرابته و﴿تَفَنِّدُونَ﴾ معناه: تردون رأيي، وتذفعون في صدره، وهذا هو التفنيد لغة، قال مُنْذِرُ بن سَعِيدٍ: يقال: شَيْخٌ مُفَنِّدٌ، أي: قد فسد رأيه^(٧) والذي يشبه أن تفنيدهم ليعقوب؛ إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أن هواه قد غلبه في جانب يوسف.

(١) ذكره ابن عطية (٢٧٧/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧٨/٣)، و«البحر المحيط» (٣٣٨/٥)، و«الدر المصون» (٢١٤/٤).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢٩١/٧).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٧٨/٣).

(٥) ينظر: «المحرر» (٢٧٨/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٢٩٣/٧) برقم: (١٩٨١٣)، وذكره البغوي (٤٤٨/٢)، وابن عطية (٢٧٨/٣)، والسيوطي (٦٦/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٧) ذكره ابن عطية (٢٧٨/٣).

وقال * [ص] *: معنى ﴿تفندون﴾: تسفهون، انتهى، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾: يريدون: لفي أتلافك في محبة يوسف، وليس بالضلال الذي هو في العرف ضد الرشاد؛ لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به.

وقوله سبحانه: ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً﴾: روي عن ابن عباس؛ أن البشير كان يهوداً؛ لأنه كان جاء بقميص الدم^(١) و﴿بصيراً﴾: معناه: مُبصراً، وروي أنه قال للبشير: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام؛ قال: الحمد لله؛ الآن كملت النعمة.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَيْنَ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

وقوله تعالى: ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا...﴾ الآية: روي أن يوسف عليه السلام لما غفر لإخوته، وتحققوا أن أباهم يغفر لهم، قال بعضهم لبعض: ما يُغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا، فطلبوا حينئذ من يعقوب عليه السلام أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، وأعترفوا بالخطأ، فقال لهم يعقوب: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾.

* [ت] *: وعن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنَّهَا سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ وَالِدُعَاءِ فِيهَا مُسْتَجَابٌ، وَقَدْ قَالَ أَخِي يَعْقُوبُ لِبْنِهِ: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾، يقول: حَتَّى تَأْتِيَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ...»^(٢) وذكر الحديث، رواه الترمذي، وقال: حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، ورواه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین»، وقال: صحيحٌ

(١) ذكره ابن عطية (٣/٢٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٦٣/٥، ٥٦٥) كتاب «الدعوات» باب: دعاء الحفظ، حديث (٣٥٧٠)، والحاكم (٣١٦/١) من طريق الوليد بن مسلم، عن ابن جريج، عن عطاء، وعكرمة، عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

وقال الذهبي: هذا حديث منكر شاذ، أخاف ألا يكون موضوعاً، وقد حيرني والله جودة إسناده.

على شرط الشيخين، يعني البخاري ومسلماً انتهى من «السلاح».

وقوله سبحانه: ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ﴾ قال ابن إسحاق، والحسن: أراد بالأبوين: أباه وأمه^(١)، وقيل: أراد؛ أباه وخالته.

قال * ع^(٢): والاول أظهر؛ بحسب اللفظ، إلا أن يثبت بسند أمه قد كانت ماثت.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا الاستثناء هو الذي ندب القرآن إليه؛ أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه في المستقبل، و﴿العرش﴾: سرير الملك، و﴿خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾: أي: سجدوا تَحِيَّةً، ف قيل: كان كالسجود المعهود عندنا من وَضَعَ الوجه بالأرض.

وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه ممّا كان سيرة تَحِيَّاتِهِم للملوك في ذلك الزمان، وأجمع المفسرون؛ أنه كان سُجُودَ تَحِيَّةٍ لا سُجُودَ عِبَادَةٍ، وقال الحسن: الضمير في «له» لله عز وجل، ورُدَّ هذا القول على الحسن.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾: المعنى: قال يوسف ليعقوب، هذا السجود الذي كَانَ مِنْكُمْ هو ما آتَى إِلَيْهِ رُؤْيَايَ قديمًا في الْأَخْدَ عَشَرَ كَوَكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ ثم أخذ عليه السلام يعدّد نعم الله عَلَيْهِ، وقال: وقد أخرجني من السجن، وترك ذكر إخراجي من الجُبِّ؛ لأنّ في ذكره تجلّيد فعلٍ / إخوته وخزّئهم، وتَحْرِيكِ تِلْكَ الْغَوَائِلِ، وتخييب النفوس، ووجه آخر أنه خَرَجَ مِنَ الْجُبِّ إِلَى الرَّقِّ، ومن السّجْنِ إِلَى الْمُلْكِ، فالنعمه هنا أَوْضَحُ، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، أي: من الأمور أن يفعله؛ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

قال * ع^(٣): ولا وَجْه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله مُنْذُ خَرَجَ مِنَ السّجْنِ إِلَى الْعِزِّ إِلَّا الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ بِهِ يَعْقُوبَ وَبْنِيهِ، وَأَرَادَ مِنْ صُورَةٍ جَمْعِهِمْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وقال الثّقّاش: كان ذلك الوحي في الجُبِّ، وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، وهذا محتمل.

(١) أخرجه الطبري (٣٠٢/٧) برقم: (١٩٨٨٨)، عن ابن إسحاق.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣/٢٨١).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣/٢٨٢ - ٢٨٣).

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

وقوله: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث...﴾ الآية: ذكر كثير من المفسرين أن يوسف عليه السلام لما عدّد في هذه الآية نعم الله عنده، تشوّق إلى لقاء ربه ولقاء الجلّة وصالحه سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأى أن الدنيا قليلة فتمنّى الموت في قوله: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

وقال ابن عباس: لم يتمنّ الموت نبيّ غير يوسف^(١)، وذكر المهدوي تأويلاً آخر، وهو الأقوى عندي: أنه ليس في الآية تمنّي موت، وإنما تمنى عليه السلام الموافاة على الإسلام لا الموت، وكذا قال القرطبي^(٢) في «التذكرة»؛ أن معنى الآية: إذا جاء أجلي، توفني مسلماً، قال: وهذا القول هو المختار عند أهل التأويل، والله أعلم، انتهى، وقوله ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَ نَزْلَ بِهِ»^(٣)؛ إنّما يريد ضرر الدنيا؛ كالفقّر، والمرّض ونحو ذلك، ويبقى تمنّي الموت؛ مخافة فساد الدين مباحاً، وقد قال ﷺ في بعض أدعيته: «وَإِذَا أَرَدْتُ بِالنَّاسِ فِتْنَةً، فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»^(٤).

وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيّ﴾: أي القائم بأمرى، الكفيل بضرتي ورخصتي.

وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: ﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما تقدّم من قصّة يوسف، وهذه الآية تعريض لقريش، وتنبيه على آية صدق نبينا محمد ﷺ، وفي

(١) أخرجه الطبري (٣٠٨/٧) برقم: (١٩٩٤٢)، وذكره ابن عطية (٢٨٣/٣)، وابن كثير (٤٩٢/٢)، والسيوطي (٧٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١٨/١).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٢/١٠) كتاب «المرض» باب: تمنى المريض الموت، حديث (٥٦٧١)، ومسلم (٢٠٦٤/٤) كتاب «الدعاء والذكر» باب: كراهة تمنى الموت لضرر نزل به، حديث (٢٦٨٠/١٠)، وأبو داود (٢٠٥/٢) كتاب «الجنائز» باب: في كراهية تمنى الموت برقم: (٣١٠٨ - ٣١٠٩)، والنسائي (٤/٤٥٣) كتاب «الجنائز» باب: تمنى الموت، والترمذي (٢٩٣/٣) كتاب «الجنائز»، باب: ما جاء في النهي عن التمني للموت، حديث (٩٧١)، وابن ماجه (١٤٢٥/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٦٥)، وأحمد (١٠١/٣)، وابن حبان (٩٦٨)، والبيهقي (٣٧٧/٣).

(٤) هو جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي (٣٤٢/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة ص، حديث (٣٢٣٣)، وأحمد (٦٦/٤).

ضمن ذلك الطغف على مكذبيه، والضمير في ﴿لديهم﴾: عائذ على إخوة يوسف، و﴿أجمعوا﴾: معناه: عزموا، و﴿الأمر﴾، هنا: هو إلقاء يوسف في الحب، وحكى الطبري^(١) عن أبي عمران الجوني؛ أنه قال: واللّه ما قصّ الله نبأهم؛ ليغيرهم؛ إنهم الأنبياء من أهل الجنة، ولكن الله قصّ علينا نبأهم؛ لئلا يفتن عبده.

وقوله سبحانه: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين...﴾ الآية خطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر...﴾ الآية توبيخ للكفرة، وإقامة للحجة عليهم، ثم ابتدأ الإخبار عن كتابه العزيز؛ أنه ذكر وموعظة لجميع العالم، نفعا الله به، ووفر حظنا منه.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض﴾: يعني بـ﴿الآية﴾؛ هنا: المخلوقات المنصوبة للاعتبار الدالة على توحيد خالقها سبحانه، وفي مضمحف عبد الله^(٢): «يَمْشُونَ / عَلَيْهَا».

وقوله سبحانه: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾: قال ابن عباس: هي في أهل الكتاب^(٣)، وقال مجاهد وغيره: هي في العرب^(٤)، وقيل: نزلت بسبب قول قريش في الطواف، والتلبية: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكاً هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكٌ»، وروي أن النبي ﷺ كان إذا سمع أحدهم يقول: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، يقول له: قط قط، أي: قف هنا، ولا تزدد إلا شريكاً هو لك، والـ﴿غاشية﴾: ما يغشى ويغطي ويغمر، و﴿بغته﴾: أي: فجأة، وهذه الآية من قوله: ﴿وكأين من آية﴾، وإن كانت في الكفار، فإن العصاة يأخذون من ألفاظها بحظ ويكون الإيمان حقيقة، والشرك لغوياً، كالرياء، فقد قال

(١) ينظر: «الطبري» (٣١٠/٧ - ٣١١).

(٢) ينظر: «المحتسب» (٣٥٠/١)، و«الكشاف» (٥٠٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٨٥/٣)، و«البحر المحيط» (٣٤٥/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٣/٧) برقم: (١٩٩٧٠) بلفظ: يعني النصارى، وذكره ابن عطية (٢٨٥/٣).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٨٥/٣).

عليه السلام: «الرِّيَاءُ الشُّرْكُ الْأَصْغَرُ»^(١).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسَخَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ^(١١٠) لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(١١١)﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية: إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة بأسرها، قال ابن زيد: المعنى هذا أمري وسُنَّتِي وَمِنْهَا جِي (٢) وال «بصيرة»: أَسْمُ لِمَعْتَقِدِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَمْرِ مِنَ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ.

وقوله: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: يحتمل أن يكون «أنا» تأكيداً للضمير المستكن في «أدعو» و«مَنِ» معطوف عليه؛ وذلك بأن تكون الأمة كلها أُمِرَتْ بالمعروف داعية إلى الله الكفرة والعصاة.

قال * ص *: ويجوز أن يكون «أنا» مبتدأ، و«على بصيرة» خبر مقدم، و«مَنِ» معطوف عليه انتهى، «وَسُبْحَانَ اللَّهِ» تنزيه لله، أي: قل: سبحان الله متبرئاً من الشُّرْكِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية: تتضمن الرد على من استغرب إرسال الرُّسُل من البَشَرِ، و«الْقُرَى»: المَدُن. قال الحسن: لم يَبْعَثِ اللَّهُ رَسُولًا قَطُّ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ^(٣).

قال * ع^(٤) *: وَالتَّبْدِي مَكْرُوهُ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ، وَحِينَ يُفَرُّ بِالْدِينِ، وَلَا يَعْتَرِضُ هَذَا بُدُو يَعْقُوبَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْبُدُو لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ عَمُودٍ، بَلْ هُوَ بِتَقَرٍّ، وَفِي مَنَازِلَ وَرَبُوعٍ؛ وَأَيْضاً إِنَّمَا جَعَلَهُ بُدُوّاً بِالْإِضَافَةِ إِلَى مُضَرٍّ؛ كَمَا هِيَ بَنَاتُ الْحَوَاضِرِ بُدُوٌّ بِالْإِضَافَةِ إِلَى

(١) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٤٣/٧) - بتحقيقنا)، من حديث محمود بن لبيد، والحديث ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (٢٩٤/٣)، وعزاه لأحمد، والبيهقي، وقال: رجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبري (٣١٥/٧) برقم: (١٩٩٨٣)، وذكره ابن عطية (٢٨٥/٣)، والسيوطي (٧٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٦/٣).

(٤) ينظر: «المحرر» (٢٨٦/٣).

الحواضر، ثم أحال سبحانه على الاعتبار في الأمم السالفة، ثم حَضَّ سبحانه على الآخرة، وألاستعداد لها بقوله: ﴿ولدار الآخرة خير...﴾ الآية.

قال * ص * : ﴿ولَدارُ الآخرة﴾: خرَّجه الكوفيون على أنه من إضافة الموصوف لصفته، وأصله: «ولَدارُ الآخرة»، والبصريون على أنه عن حذف الموصوف، وإقامة صفته مُقَامَهُ، وأصله: «ولَدارُ المُدَّةِ الآخرة أو النَّشْأَةِ الآخرة». انتهى.

ويتضمَّن قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؛ أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى، دَعَوْا أممهم، فلم يؤمنوا بهم، حتى نزلت بهم المثلثات، فصاروا في حَيْرٍ مَن يُعْتَبَرُ بعاقبته، فلهذا المضمَّن حَسُنَ أَنْ تدخل «حتى» في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾.

وقرأ نافع وابن كثير^(١) وأبو عمرو وابن عامر: «وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا» - بتشديد الذال -، وقرأ الباقون: «كُذِّبُوا» - بضم الكاف، وكسر الذال المخففة، فأما الأولى، فمعناها أن الرسل ظَنُّوا أن أممهم قَدْ كَذَّبَتْهم، و«الظَّنُّ»؛ هنا: يحتمل أن يكون بمعنى اليقين، ويحتمل أن يكون الظَّنُّ على بابهِ، ومعنى القراءة الثانية؛ على المشهور من قول ابن عباس وابن جُبَيْر: أي: حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ من إيمان قومهم^(٢)، وظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قد كَذَّبُوهُمْ فيما أدَّعَوْهُ من النبوة، أو فيما توعدوهم به من العذاب، لما طال الإمهال، وأتصَلَت العافية، جاءهم نَصْرنا.

وأَسَد الطبري^(٣) أنَّ مسلم بن يسار، قال لسعيد بن جبَّير: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، آيَةُ بَلَغَتْ مِنِّي كُلَّ مَبْلَغٍ: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا»؛ فهذا هو الموت أن تظَنَّ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا - مخففة -، فقال له ابن جبَّير: يا أبا عبد الرحمن، إنما يَتَسَّسُ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ؛ أن يجيبوهم، وظَنَّ قومهم أن الرسل قد كَذَّبَتْهُمْ، فقام مُسْلِمٌ إلى سعيد،

(١) ينظر: «السبعة» (٣٥١)، و«الحجة» (٤٤١/٤)، و«إعراب القراءات السبعة» (٣١٧/١)، و«حجة القراءات» (٣٦٦ - ٣٦٧)، و«الإتحاف» (١٥٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٨٧/٣)، و«البحر المحيط» (٣٤٧/٥)، و«الدر المصون» (٢١٨/٤).

وينظر: «معاني القراءات» (٥٢/٢)، و«شرح الطيبة» (٣٨٨/٤)، و«العنوان» (١١١)، و«شرح شعلة» (٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣١٦/٧، ٣١٨) برقم: (١٩٩٨٨) ويرقم: (٢٠٠٠٨)، وذكره ابن عطية (٢٨٨/٣)، والسيوطي (٧٧/٤)، وعزاه لأبي عبيد، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري (٣١٩/٧) برقم: (٢٠٠١٠).

فَاعْتَنَقَهُ، وَقَالَ: فَرَجَّتْ عَنِّي، فَرَجَّ اللَّهُ عَنْكَ^(١).

قال * ع^(٢) *: فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كَيْفَ كَانَ خُلُقُهُمْ فِي الْعِلْمِ، وَقَالَ بِهَذَا التَّأْوِيلِ جَمَاعَةٌ، وَهُوَ الصَّوَابُ، وَأَمَّا تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَعْنَى: وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبَهُمْ مَنْ أَخْبَرَهُمْ عَنِ اللَّهِ، فَغَيْرُ صَحِيحٍ، وَلَا يَجُوزُ هَذَا عَلَى الرَّسْلِ، وَأَيْنَ الْعِصْمَةُ وَالْعِلْمُ.

* ت *: قَالَ عِيَاضٌ: فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾؟ عَلَى قِرَاءَةِ التَّخْفِيفِ؟ قُلْنَا: الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَعَاذَ اللَّهِ، أَنَّ تَظَنُّ الرُّسُلُ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ، لَمَّا اسْتَيْأَسُوا، ظَنُّوا أَنَّ مَنْ وَعَدَهُمُ النَّصْرَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، كَذَّبُوهُمْ^(٣)؛ وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي «ظَنُّوا» عَائِدٌ عَلَى الْأَتْبَاعِ وَالْأُمَمِ، لَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالنَّخَعِيِّ وَابْنِ جُبَيْرٍ^(٤) وَجَمَاعَةٍ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى قَرَأَ مُجَاهِدٌ: «كَذَّبُوا» بِالْفَتْحِ، فَلَا تَشْغَلُ بِالنَّظَرِ فِي شَاذِ التَّفْسِيرِ بِسِوَاهِ مَا لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِ الْعُلَمَاءِ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ، انْتَهَى مِنَ «الشَّافِعِ».

وقوله سبحانه: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: أَي: بِتَعْذِيبِ أُمَّهَاتِهِمُ الْكَافِرَةِ.

﴿فَنَجَّيْنَا مِنْ نِشَاءٍ﴾: أَي: مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ.

﴿وَلَا يَرِدُ بِأَسْنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ﴾: أَي: الْكَافِرِينَ، وَ«الْبَأْسُ»: الْعَذَابُ.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أَي: فِي قِصَصِ يَوْسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَسَائِرِ الرُّسُلِ الَّذِينَ ذُكِرُوا عَلَى الْجُمْلَةِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ عَنْهُ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، وَ«الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ.

* ت *: كُنْتُ فِي وَقْتٍ أَنْظُرُ فِي «السِّيَرَةِ» لِابْنِ هِشَامٍ، وَأَتَأَمَّلُ فِي خُطْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ أَوَّلُ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا بِالْمَدِينَةِ، فَإِذَا هَاتِفٌ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، وَقَدْ كَانَ حَصَلَ فِي الْقَلْبِ عِبْرَةٌ فِي أَمْرِ ﷺ وَأَفْاضِلِ أَصْحَابِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَسَلَكَ بِنَا مَنَاجِجَهُمُ الْمَرْضِيَّةَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى / وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا. ١٢٦٣

(١) ذكره ابن عطية (٢٨٨/٣)، وابن كثير (٤٩٧/٢)، والسيوطي (٧٧/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر» (٢٨٨/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٨/٣).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٨٨/٣).

تفسير سورة الرعد

قيل: مَكِّيَّةٌ إِلَّا بَعْضَ آيَاتِ، وقيل: مدنية، والظاهر أَنَّ المدنيَّ فيها كثيرٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: قال ابن عباس: هذه الحروفُ هي مِنْ قوله: «أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ وَأَرَى»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ...﴾ الآية: قال جمهور الناس: لَا عَمَدَ لِلسَّمَوَاتِ أَلْبَنَّةَ، وهذا هو الْحَقُّ و«العمدُ»: اسم جَمْع.

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: «ثم»؛ هنا: لعطفِ الْجُمْلِ، لا للترتيب؛ لأنَّ الِاسْتِواءَ عَلَى الْعَرْشِ قَبْلَ رَفْعِ السَّمَوَاتِ، ففي الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»^(٢) وقد تقدَّم القول في هذا، وفي معنى الِاسْتِواءِ.

* ت * : والمعْتَقْدُ في هذا: أَنَّهُ سبحانه مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قَالَه، وبِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَه أَسْتِواءً مَنْزَهاً عَنِ الْمَمَاسَّةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالتَّمَكُّنِ وَالْحُلُولِ وَالْإِنْتِقَالِ، لَا

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٣٠ - ٣٣١) كتاب «بدء الخلق» باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، حديث (٣١٩١)، وفي (١٣/ ٤١٤ - ٤١٥) كتاب «التوحيد» باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، حديث (٧٤١٨)، وأحمد (٤/ ٤٢٦، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦)، والترمذي مختصراً (٥/ ٧٣٢ - ٧٣٣) كتاب «المناقب» باب: مناقب في ثقيف وبني حنيفة، حديث (٣٩٥١)، وابن حبان (١٤/ ١١) برقم: (٦١٤٢)، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص: (١٤)، والبيهقي (٩/ ٢ - ٣)، وفي «الأسماء والصفات» ص: (٢٣١) كلهم من طريق الأعمش عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين به.

يَحْمِلُهُ الْعَرْشُ، بل العرشُ وَحَمَلَتْهُ مَحْمُولُونَ بِلُطْفِ قُدْرَتِهِ، وَمَقْهُورُونَ فِي قَبْضَتِهِ، كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، كَانَ سَبْحَانَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: تنبيه على القدرة، وفي ضَمَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الْكَوَاكِبُ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ أي: كُلُّ مَا هُوَ فِي مَعْنَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَ«الْأَجَلَ الْمَسْمَى»: هُوَ أَنْقِضَاءُ الدُّنْيَا، وَفَسَادُ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ.

﴿يَدْبُرُ الْأَمْرَ﴾: مَعْنَاهُ: يُبْرِمُهُ وَيَنْفِذُهُ، وَعَبَّرَ بِالتَّدْبِيرِ، تَقْرِيبًا لِلْإِفْهَامِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَدْبُرُ الْأَمْرَ﴾: مَعْنَاهُ يَقْضِيهِ وَخَدُّهُ.

و﴿لَعَلَّكُمْ بَلَقَاءَ رَبِّكُمْ تَوْفَنُونَ﴾: أي: تَوْفَنُونَ بِالْبَغْيِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّغَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْأَیْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِزَةٌ وَجَعَلَتْ مِنْ أَغْطَبٍ وَرَزَقَ وَخَيْلٍ صِنُونًا وَغَيْرَ صِنُونٍ يَسْتَفِي بِمَاءٍ وَحِدٍ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: لَمَّا فَرَعَتْ آيَاتُ السَّمَاءِ، ذُكِرَتْ آيَاتُ الْأَرْضِ، وَالْـ ﴿رَوَاسِيَ﴾: الْجِبَالُ الثَّابِتَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: «الزَّوْجُ»؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الصَّنْفُ وَالنُّوعُ، وَلَيْسَ بِالزَّوْجِ الْمَعْرُوفِ فِي الْمُتَلَازِمِينَ الْفَرْدَيْنِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ...﴾ [الآية: ٣٦]، وَمِنْهُ: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي أَنْ كُلَّ ثَمَرَةٍ، فَمَوْجُودٌ مِنْهَا نَوْعَانِ، فَإِنْ أَتَفَقَ أَنْ يَوْجَدَ مِنْ ثَمَرَةٍ أَكْثَرُ مِنْ نَوْعَيْنِ، فَغَيْرُ ضَارٍّ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، وَ﴿قِطْعٌ﴾: جَمْعُ قِطْعَةٍ، وَهِيَ الْأَجْزَاءُ، وَقِيدَ مِنْهَا فِي هَذَا الْمَثَالِ مَا جَاوَزَ وَقَرُبَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ؛ لِأَنَّ اخْتِلَافَ ذَلِكَ فِي الْأَكْلِ أَغْرَبُ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ^(١): «وَجَعَلَتْ» - بِالرَّفْعِ -؛ عَطْفًا عَلَى «قِطْعٍ»، وَقَرَأَ نَافِعٌ^(٢) وَغَيْرُهُ: «وَرَزَقَ وَخَيْلٍ صِنُونًا وَغَيْرِ صِنُونٍ»

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٣/٣)، و«البحر المحيط» (٣٥٦/٥)، و«الدر المصون» (٢٢٥/٤).

(٢) ينظر: «الحجة» (٥/٥ - ٦)، و«إعراب القراءات السبع» (٣٢٠/١)، و«حجة القراءات» (٣٦٩)،

و«الإتحاف» (١٦٠/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٩٣/٣)، و«البحر المحيط» (٣٥٦/٥)، و«الدر المصون»

(٢٢٥/٤)، و«شرح الطيبة» (٣٩١/٤)، و«العنوان» (١١٣)، و«شرح شملة» (٤٤٤)، و«معاني

القراءات» (٥٥).

٢٦٣ ب ١: بالخفض في الكل -: عطفاً على «أعنان»، وقرأ ابن كثير وغيره: / «وزرع» - بالرفع في الكل -: عطفاً على «قطع»، و«صنوان»: جمع صنو، وهو الفرع يكون مع الآخر في أصل واحد، قال البراء بن عازب: «الصُّنَوَان»: المجتمع، و«غَيْرُ الصُّنَوَان»: المفترق فرداً فرداً^(١) وفي «الصحيح»: «الْعَمُّ صِنُو الْأَب»، وإنما نص على الصُّنَوَان في هذه الآية؛ لأنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابة اختلاف الأكل، و«الأكل»: بضم الهمزة -: أَسْمُ ما يؤكل، والأكل المَصْدَر، وحكى الطبري^(٢) عن ابن عباس وغيره: «قَطَعَ مُتَجَاوَرَات»: أي: واحدة سبخة، وأخرى عذبة، ونحو هذا من القول^(٣)، وقال قتادة: المعنى: قُرِيَ مُتَجَاوَرَات^(٤).

قال * ع^(٥): * وهذا وجه من العبرة، كأنه قال: وفي الأرض قِطَعٌ مختلفات بتخصيص الله لها بمعانٍ فهي تُسْقَى بماءٍ واحدٍ، ولكن تختلف فيما تُخْرِجُهُ، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور؛ أنها من تَرْبِيَةٍ واحدة، ونوع واحد، وموضع العبرة في هذا أبين، وعلى المعنى الأول قال الحسن: هذا مَثَلٌ ضربه الله لقلوب بني آدم: الأرض واحدة، وينزل عليها ماء واحد من السماء، فتخرج هذه زهرة وثمره، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً، وكذلك الناس خُلِقُوا من آدم، فنزلت عليهم من السماء تذكرة، فَرَقَّتْ قُلُوبٌ وَخَشَعَتْ، وَقَسَّتْ قُلُوبٌ وَلَهَتْ.

قال الحسن: فوالله، ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٦) [الإسراء: ٨٢].

❖ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْذَا كُنَّا تُرْبًا أَوَّنَا لَنِي خَلَقِي جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

- (١) أخرجه الطبري (٣٣٤/٧) برقم: (٢٠٠٨٧)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٣)، والسيوطي (٨٣/٤)، وعزاه للفرجاني، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.
- (٢) ينظر: «الطبري» (٣٣٢/٧).
- (٣) أخرجه الطبري (٣٣٢/٧) برقم: (٢٠٠٧١ - ٢٠٠٧٢)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٣)، والسيوطي (٨٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
- (٤) أخرجه الطبري (٣٣٢/٧) برقم: (٢٠٠٧٨)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٣)، والسيوطي (٨٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.
- (٥) ينظر: «المحرر» (٢٩٤/٣).
- (٦) أخرجه الطبري (٣٣٦/٧) برقم: (٢٠١١٣)، وذكره ابن عطية (٢٩٥/٣)، والسيوطي (٨٤/٤)، وعزاه لابن جرير.

يَرْبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِيْ أَغْنَانِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَنَسْتَعِجْلُونَكَ بِالسَّيْنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيُّدَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَنَفِيْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، المعنى: وإن تعجب، يا محمد، من جهالتهم وإعراضهم عَنِ الْحَقِّ، فهم أهلٌ لذلك، وَعَجَبٌ غَرِيبٌ قَوْلُهُمْ: أُنَعُودُ بَعْدَ كَوْنِنَا تُرَابًا، خَلْقًا جَدِيدًا؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾؛ لتصميمهم على الجُحود وإنكارهم للْبَغْثِ، ﴿وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِيْ أَغْنَانِهِمْ﴾: أي: في الآخرة، ويحتملُ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا عَنْ كَوْنِهِمْ مَغْلَلِينَ عَنِ الْإِيمَانِ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَغْنَانِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْحَمُونَ﴾ [يس: ٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَنَسْتَعِجْلُونَكَ بِالسَّيْنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ...﴾ الآية: تَبَيَّنَ لِحُطْطِهِمْ كَطَلْبِهِمْ سَقُوطَ كِسْفٍ مِنَ السَّمَاءِ، وقولهم: ﴿أَنْظِرْ عَلَيْنَا جَارَةَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو هذا مع نزول ذلك بأناس كثير، وقرأ الجمهور^(١): ﴿الْمَثَلَاتُ﴾ - بفتح الميم وضم الثاء -، وقرأ مجاهد^(٢) «الْمَثَلَاتُ» - بفتح الميم والطاء - أي: الأخذة القُدَّة بالعقوبة، ثم رَجَى سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾، ثم خَوْفٌ بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: قال ابن المسيَّب: لما نَزَلَتْ هذه الآية، قال رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ وَمَغْفِرَتُهُ مَا تَهَأَّأَ أَحَدٌ عَيْشًا، وَلَوْلَا عِقَابُهُ لَا تُكَلِّ كُلُّ أَحَدٍ»^(٣)، وقال ابن عباس: ليس في القرآن أَرْجَى من هذه الآية^(٤): ﴿وَالْمَثَلَاتُ﴾: هي العقوبات المنكُلات التي تجعل الإنسان مثلاً يَتَمَثَّلُ به؛ ومنه التمثيلُ بِالْقَتْلِ؛ ومنه: المَثَلَةُ بالعبيد.

ويقولون: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: هذه من أقتراحتهم، / والآية هنا يرادُ بها ١٢٦٤ الأشياء التي سَمَّيْتُهَا قَرِيشٌ؛ كَالْمُلْكِ، وَالكَثْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثم أخبر تعالى بأنه منذر وهاد، قال عكرمة، وأبو الضُّحَى: المرادُ بـ «الهادي» مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فـ «هَادٍ» عَطْفٌ عَلَى «منذر»؛

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٦/٣)، و«الدر المصون» (٢٢٨/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٦/٣)، و«البحر المحيط» (٣٥٩/٥)، وزاد نسبتها إلى الأعمش، وهي في «الدر المصون» (٢٢٨/٤).

(٣) ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (١٤٧/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، والثعلبي.

(٤) ذكره ابن عطية (٢٩٦/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٢/٧) بـ رقم: (٢٠١٣٩)، وذكره البغوي (٨/٣)، وابن عطية (٢٩٧/٣).

كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَهَادٍ لِكُلِّ قَوْمٍ، و«هادٍ»؛ على هذا التأويل: بمعنى دَاعٍ إِلَى طَرِيقِ الْهُدَى، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ: الْمَعْنَى: إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ سَلَفَتْ هَادٍ، أَي: نَبِيٌّ يَدْعُوهُمْ^(١)، أَي: فَلَيْسَ أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدٌ بِبَذْعٍ، وَلَا مُنْكَرٍ، وَهَذَا يَشْبَهُ غَرَضَ الْآيَةِ، وَقَالَتْ فَرَقَةُ: «الْهَادِي» فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْأَلْفَاظُ تَقْلُقُ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَيَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْهَادِي مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَالْقَوْلَانِ الْأَوَّلَانِ أَرْجَحُ مَا تُؤَوَّلُ فِي الْآيَةِ.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٨) عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١١﴾

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ﴾: هَذِهِ الْآيَاتُ أَمْثَالُ مَنْبِهَاتٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْقَاضِيَةِ بِتَجْوِيزِ الْبَغْثِ، ﴿وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ﴾: مَعْنَاهُ: مَا تَنْقُصُ، ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُتَأَوَّلُونَ فِي صُورَةِ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، وَجَمْهُورُ الْمُتَأَوَّلِينَ عَلَى أَنَّ غِيْضَ الرَّحِمِ هُوَ نَقْصُ الدَّمِ عَلَى الْحَمْلِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: غِيْضُ الرَّحِمِ: أَنْ تَسْقُطَ الْمَرْأَةُ الْوَلَدَ، وَالزِّيَادَةُ أَنْ تَضَعَهُ لِمَدَّةٍ كَامِلَةٍ، وَنَحْوُهُ لِقِتَادَةِ^(٢).

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾: عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يَدْخُلُهُ التَّقْدِيرُ، وَ﴿الْغَيْبُ﴾: مَا غَابَ عَنِ الْإِدْرَاكَاتِ، وَ﴿الشَّهَادَةُ﴾: مَا شُوْهِدَ مِنَ الْأُمُورِ.

وقوله: ﴿الْكَبِيرُ﴾: صِفَةُ تَعْظِيمٍ، وَ﴿الْمُتَعَالِ﴾: مِنَ الْعُلُوِّ.

وقوله سبحانه: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ...﴾ الْآيَةُ: أَي: لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ، وَالْـ﴿سَارِبُ﴾: فِي اللُّغَةِ: الْمُتَصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: الْمَعْنَى: جَعَلَ اللَّهُ لِلْعَبْدِ مُعَقَّبَاتٍ يَحْفَظُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ كُلِّ مَا جَرَى الْقَدَرُ بِأَنْدَافِعِهِ،

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٤٣/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠١٤٩، ٢٠١٥٤) وَبِرَقْمٍ: (٢٠١٥٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٢٩٧)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٠١/٢).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٤٧/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠١٩٤) وَبِرَقْمٍ: (٢٠١٨٨) بِلَفْظٍ مُخْتَلَفٍ فَقَالَ: ﴿مَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ﴾ مَا تَنْقُصُ مِنَ التَّسْعَةِ (وَمَا تَزْدَادُ) أَي: مَا فَوْقَ التَّسْعَةِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٢٩٨)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٠٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ (٨٧/٤ - ٨٨)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

فإذا جاء المَقْدُورُ الواقعُ، أسلم المَرْءُ إليه، وال «معقبات»؛ على هذا التأويل: الحَقْفَةُ على العبادِ أعمالهم، والحَقْفَةُ لهم أيضاً؛ قاله الحسن^(١)، وروى فيه عن عثمان بن عفان حديثاً عن النبي ﷺ، وهذا أقوى التأويلات في الآية، وعبارة البخاري: «معقبات»: ملائكة حَقْفَةُ يَعْقُبُ الأوَّل منها الآخر. انتهى.

وقالت فرقة: الضمير في «له» عائذ على أسمِ الله المتقدم ذكره، أي: لله معقبات يحفظون عبده، والضمير في قوله: «يديه» وما بعده من الضمائر عائذ على العبد، ثم ذكر سبحانه أنه لا يغير هذه الحالة من الحفظ للعبد؛ حتى يغير العبد ما بنفسه، وال «معقبات»: الجماعات التي يعقب بعضها بعضاً، وهي الملائكة، وينظر هذا إلى قول النبي ﷺ: «يَتَعَاقَبُ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ...»^(٢) الحديث، وفي قراءة أبي بن كعب: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ / وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ»، وقرأ ابن عباس^(٣): «وَرُقَبَاءُ مِنْ خَلْفِهِ ب ٢٦٤ يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ»، وقوله: «يَحْفَظُونَهُ»: أي: يحرسونه ويذُبُّون عنه، ويحفظون أيضاً أعماله، ثم أخبر تعالى؛ أنه إذا أراد بقوم سوءاً، فلا مردَّ له، ولا حِفْظَ منه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢﴾ وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ. وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُحَدِّثُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ ۝١٣﴾ لَمْ دَعُوهُ لِحَقِّهِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى آثَارِهِ لِيَلْغَ قَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ وَمَا دُعَاةُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤﴾

وقوله سبحانه: «هو الذي يريكم البرق» الآية: قد تقدّم في أول البقرة تفسيره، والظاهر أن الخوف إنما هو من صَوَاعِقِ البرق، والطَّمَعُ في الماء الذي يكون معه، وهو قول الحسن^(٤)، و«السحاب»: جمع سحابة؛ ولذلك جمع الصفة، و«الثقال»: معناه: يحمل الماء، قاله قتادة ومجاهد^(٥)، والعرب تصفها بذلك، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرِّعْدَ، قَالَ: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ»^(٦)، وقال ابن أبي

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣٠٠)، والسيوطي (٤/٩٠)، وعزاه لابن جرير.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٠٢)، و«البحر المحيط» (٥/٣٦٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/٣٠٣).

(٥) أخرجه الطبري (٧/٣٥٩) برقم: (٢٠٢٥٣) وبرقم: (٢٠٢٥٤، ٢٠٢٥٨)، وذكره ابن عطية (٣/

٣٠٣)، وابن كثير (٢/٥٠٥)، والسيوطي (٤/٩٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

حاتم، وأبي الشيخ.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/٣٦٠) برقم: (٢٠٢٦٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٩٧)، =

زكرياء: مَنْ قَالَ إِذَا سَمِعَ الرِّغْدَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَبِحَمْدِهِ، لَمْ تُصَبِّهِ صَاعِقَةٌ.

* ت * وعن عبد الله بن عمر، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَمِعَ الرِّغْدَ وَالصَّوَاعِقَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ، لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»^(١)، رواه الترمذي والنسائي والحاكم في «المستدرک»، ولفظهم واحد انتهى من «السلام»، قال الداودي: وعن ابن عباس، قال: مَنْ سَمِعَ الرِّغْدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرِّغْدَ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، فَإِنْ أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ، فَعَلِيَ دَيْتُهُ، انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ...﴾ الآية: قال ابن جريج: كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا قِصَّةُ أَزِيدَ، وَعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ لِعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ، وَيَدْخُلَا فِي دِينِهِ، فَأَبَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ تَأَمَّرَا فِي قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ عَامِرٌ لِأَزِيدَ: أَنَا أَشْغَلُهُ لَكَ بِالْحَدِيثِ، وَأَضْرِبُهُ أَنتَ بِالسَّيْفِ، فَجَعَلَ عَامِرٌ يَحْدِثُهُ، وَأَزِيدُ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا، فَلَمَّا أَنْصَرَفَا، قَالَ لَهُ عَامِرٌ: وَاللَّهِ، يَا أَزِيدُ، لَا خِفْتُكَ أَبَدًا، وَلَقَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ قَبْلَ هَذَا، فَقَالَ لَهُ أَزِيدُ: وَاللَّهِ، لَقَدْ أَرَدْتُ إِخْرَاجَ السَّيْفِ، فَمَا قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَاكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، أَفَأَضْرِبُكَ، فَمَضِيًا لِلْحَشْدِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَصَابَتْ أَرْبَدُ صَاعِقَةٌ، فَقَتَلَتْهُ، وَ﴿الْمِحَالُ﴾: الْقُوَّةُ وَالْإِهْلَاكُ.

* ت * وفي «صحيح البخاري»: ﴿الْمِحَالُ﴾: الْعُقُوبَةُ.

وقوله عز وجل: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: الضمير في «له» عائذ على أسمِ اللَّهِ عز وجل.

قال ابن عباس: ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢)، يريد: وما كان من الشريعة في معناها.

وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(١) أخرجه الترمذي (٤٦٩/٥٠) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا سمع الرعد، حديث (٣٤٥٠)، وأحمد (١٠٠/٢)، والنسائي في «الكبرى» (٢٣٠/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق، حديث (١٠٧٦٣ - ١٠٧٦٤)، والحاكم (٢٨٦/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٢٩٨) من حديث ابن عمر، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩٧/٤)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ، والخرائطي في «مكارم الأخلاق».

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٣/٧ - ٣٦٤) برقم: (٢٠٢٨٠ - ٢٠٢٨١)، وذكره البغوي (١٢/٣)، وابن عطية (٣٠٥/٣)، وابن كثير (٥٠٧/٢)، والسيوطي (١٠١/٤)، وعزه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾: يراد به ما عُبدَ من دون الله، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ لكفار قريش وغيرهم، ومعنى الكلام: والذين يدعونهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم ﴿لَا يَجِيبُونَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا﴾، ثُمَّ مَثَلُ سُبْحَانَهُ مَثَالاً لِإِجَابَتِهِم بِالَّذِي يَنْسُطُ كَفَيْهِ نَحْوُ الْمَاءِ، وَيَشِيرُ إِلَيْهِ بِالِاقْبَالِ إِلَى فِيهِ، فَلَا / يَبْلُغُ قَمَهُ أَبَدًا، فَكَذَلِكَ إِجَابَةُ هَؤُلَاءِ وَالِانْتِفَاعُ بِهِمْ لَا يَقَعُ.

١٢٦٥

وقوله: ﴿هُوَ﴾: يريد به الماء، وهو البالغ، والضمير في ﴿بِالْغَةِ﴾ للفم، ويصح أن يكون هو يراد به الفم، وهو البالغ أيضاً، والضمير في ﴿بِالْغَةِ﴾ للماء؛ لأن الفم لا يبلُغ الماء أبداً على تلك الحال، ثم أخبر سبحانه عن دعاء الكافرين؛ أنه في أنتلاف وضلال لا يفيد.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا هُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَأَعِزُّكُمْ مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْسًا وَلَا ضَرْأً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا قَاتِحَتُ السَّيْلِ زَيْدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعْمُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمُ ۝١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: تنبيه على قدرته وعظمته سبحانه، وتسخير الأشياء له، والطعن على الكفار التاركين للسجود، و﴿مَنْ﴾: تقع على الملائكة عموماً، و﴿سُجُودُهُمْ﴾: طوع، وأما أهل الأرض، فالمؤمنون داخلون في ﴿مَنْ﴾، وسجودهم أيضاً طوع، وأما سجود الكفرة، فهو الكره، وذلك على معنيين، فإن جعلنا السجود هذه الهيئة المعهودة، فالمراد من الكفرة مَنْ أسلم، خَوْفَ سَيْفِ الْإِسْلَام؛ كما قاله قتادة^(١)، وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل، حَسَبَ مَا هُوَ فِي اللُّغَةِ، فَيَدْخُلُ الْكُفَّارُ أَجْمَعُونَ فِي ﴿مَنْ﴾؛ لأنه ليس من كافرٍ إِلَّا ويلحقه من التذلل والاستكانة لقدرة الله تعالى أنواع أكثر من أن تحصي بحسب رزآياه، وأعتباراته.

وقوله سبحانه: ﴿وَضَلَّالَهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: إخبار عن أن الظلال لها سُجُودٌ لِلَّهِ

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣٠٦)، والسيوطي (٤/١٠١)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ...﴾ الآية [النحل: ٤٨]، وقال مجاهد: ظلُّ الكافر يسجدُ طوعاً، وهو كاره^(١) ورؤي أن الكافر إذا سجدَ لصنمه، فإن ظلَّهُ يسجدُ لله حينئذٍ، وباقي الآية بين، ثم مثل الكفار والمؤمنين بقوله: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾، وشبه الكافر بالأعمى، والكفر بالظلمات، وشبه المؤمن بالبصير، والإيمان بالنور.

وقوله سبحانه: ﴿قل الله خالق كل شيء﴾: لفظ عامٌ يراد به الخصوص؛ كما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.

وقوله سبحانه: ﴿أنزل من السماء ماء﴾: يريد به المطر، ﴿فسالَتْ أوديةً بقدرها﴾: «الأودية»: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله: ﴿بِقَدْرِهَا﴾: يحتمل أن يريد بما قُدِّرَ لها من الماء، ويحتمل أن يريد بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها.

* ت * وقوله: ﴿فأحتمل﴾ بمعنى: حمل، كأفتدَر وقَدَّر قاله * [ص] *.

و﴿الزَّيْدُ﴾ ما يحمله السيل من غُثاء ونحوه، و«الرابي»: المنتفخ الذي قد ربا، ومنه الرَبْوَة.

وقوله سبحانه: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله﴾: المعنى: ومن الأشياء التي توقدون عليها ابتغاء الحلي، وهي الذهب والفضة، أو ابتغاء الاستمتاع بها في المرافق، وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأشياء التي توقدون عليها، فأخبر تعالى أن من هذه أيضاً إذا أحمر عليها يكون لها زبد مماثل للزبد الذي يحمله السيل، ثم ضرب سبحانه ذلك مثلاً للحق والباطل، أي: إن الماء الذي تشربه الأرض من السيل، فيقع النفع به هو كالحق، والزبد الذي يخدم وينفث ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوه هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل.

وقوله: ﴿جُفَاءً﴾: مصدر من قولهم: «أَجْفَأَتِ القُدْرُ» إذا غلَتْ حتى خرَجَ زَبْدُهَا وذهب.

وقال * ص * : ﴿جُفَاءً﴾: حال، أي: مضمحلاً متلاشياً، أبو البقاء: وهمزته منقلبة

(١) أخرجه الطبري (٣٦٧/٧) برقم: (٢٠٣٠٢)، وذكره البغوي (١٢/٣)، وابن عطية (٣٠٦/٣)، والسيوطي (١٠٢/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ بنحوه.

عن واو، وقيل: أصل. انتهى.

وقوله: ﴿ما ينفع الناس﴾: يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار.

وقوله سبحانه: ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾: ابتداء كلام، و﴿الحسنى﴾: الجنة. ﴿والذين لم يستجيبوا﴾: هم الكفرة، و﴿سوء الحساب﴾: هو التقصّي على المحاسب، وألاً يقع في حسابه من التجاوز شيء؛ قاله شهر بن حوشب والنخعي وقرئ السبخي وغيرهم^(١).

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْعَيْثُ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

وقوله سبحانه: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى...﴾ المعنى: أسوأ من هداه الله، فعلم صدق نبوتك، وأمن بك؛ كمن هو أعمى البصيرة باق على كفره؛ روي أن هذه الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وأبي جهل، وهي بعد هذا مثال في جميع العالم، ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾: «إنما»؛ في هذه الآية: حاصرة، أي: إنما يتذكر، فيؤمن ويراقب الله من له لب، ثم أخذ في وصفهم، فقال: ﴿الذين يوفون بعهد الله...﴾ الآية: قال الثعلبي: قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مسيرة إلى ثمانية أبواب الجنة^(٢)، وقال أبو بكر الوراق: هذه ثمان جسور، فمن أراد القربة من الله عبّر بها. انتهى. وباقي الآية ألفاظها واضحة، وأنوارها لذوي البصائر لائحة.

﴿ويدرءون﴾: يدفعون.

قال الغزالي: لما ذكر هذه الآية: والذي أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة، فليس من

(١) أخرجه الطبري (٣٧٣/٧) برقم: (٢٠٣٢٦)، وذكره البغوي (١٤/٣)، وابن عطية (٣٠٨/٣)،

والسيوطي (١٠٥/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

ولسعيد بن منصور، وابن جرير، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره البغوي (١٦/٣).

ذوي الألباب، ولذلك لا تَنَكِّشُفُ له أسرارُ الكتاب، انتهى.

و﴿جنات﴾: بدل من ﴿عُفْبَى﴾ وتفسيرُ لها، و﴿عدن﴾: هي مدينةُ الجنةِ ووَسَطُها، ومعناها: جناتُ الإقامة؛ مِنْ عَدَنٍ فِي الْمَكَانِ، إِذَا أَقَامَ فِيهِ طَوِيلًا، وَمِنْهُ الْمَعَادِنُ، و﴿جناتِ عَدْنٍ﴾: يقال: هي مَسْكَنُ الْأَنْبِيَاءِ وَالشُّهَدَاءِ وَالْعُلَمَاءِ فَقَطْ؛ قاله عبد الله بن عمرو بن العاص^(١)، ويروى أَنَّ لها خَمْسَةَ آلَافِ بَابٍ، وقوله: ﴿ومن صلح﴾: أي: عمل صالحًا، و﴿الملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ * سلام عليكم: أي: يقولون: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، والمعنى: هذا بما صَبَرْتُمْ، وباقي الآية واضح.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ...﴾ الآية: هذه صفةُ حالٍ مضادةٍ للمتقدمة - نعوذ بالله من سَخَطِهِ -.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي الْقُرْآنِ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية: لما أخبر عَمَّنْ تَقَدَّمَ وصفه ب٢٦٥ بأن لهم اللعنة وسوء الدار، أتى بعد ذلك على أغنيائهم، / وحَقَّرَ شأنهم وشَأْنَ أموالهم، المعنى: إِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ يَهَبُ الْكَافِرَ الْمَالَ؛ لِيَهْلِكَ بِهِ، وَيَقْدِرُ عَلَى الْمُؤْمِنِ؛ لِيُعْظِمَ ذَلِكَ أَجْرَهُ وَدُخْرَهُ.

وقوله: ﴿ويقدر﴾: من التَّقْدِيرِ الْمُنَاقِضِ لِلْبَسْطِ وَالْإِتْسَاعِ.

﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء...﴾ الآية: رد على مقترحي الآيات من كفار قريش؛ كما تقدّم.

وقوله سبحانه: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾: «الذين»: بدل من «مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ أُنَابَ﴾، وطَمَأْنِينَةُ الْقُلُوبِ هِيَ الْإِسْتِكَانَةُ وَالسُّرُورُ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَالسُّكُونُ بِهِ، كَمَا لَا بِهِ، وَرِضًا بِالشَّوَابِ عَلَيْهِ، وَجُودَةُ الْيَقِينِ، ثُمَّ قَالَ سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: أي: لا بِالْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ الَّتِي رُبَّمَا كُفِّرَ بِعَدهَا؛ فَتَزُلُ الْعَذَابُ، «والذين» الثاني:

(١) أخرجه الطبري (٣٧٦/٧) برقم: (٢٠٣٤١)، وذكره ابن عطية (٣/٣١٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/١٥٠).

مبتدأ، وخبره ﴿طوبى﴾ لهم.

واختلف في معنى ﴿طوبى﴾، فقال ابن عباس: ﴿طوبى﴾: اسمُ الجنةِ بالحَبَشِيَّة^(١)، وقيل: ﴿طوبى﴾: اسمُ الجنةِ بالهنديَّة، وقيل: ﴿طوبى﴾: اسمُ شجرةٍ في الجنة، وبهذا تواترت الأحاديث؛ قال رسولُ الله ﷺ: «طوبى أَسْمُ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّابِطُ الْمُجِدُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا...»^(٢) الحديث.

قال * ص * : ﴿طوبى﴾: «فعلَى» من الطيب، والجمهور أنها مفردٌ مضمرٌ؛ كـ «سُقيا وبُشْرَى».

قال الضَّحَّاكُ: ومعناها: غِبْطَةٌ لهم^(٣)، قال الفرطبي^(٤): والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع. انتهى.

* ت * : وروى الشيخُ الحافظ أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عليٍّ بنِ ثابتٍ بنِ الخطيبِ البغداديُّ في «تاريخه»، عن شيخه أبي نُعَيْمٍ الأصبهانيِّ بسنده عن أبي سَعِيدٍ الخدرِيِّ، عن النبي ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِمَنْ رَأَىكَ وَأَمَّنَ بِكَ! قَالَ: «طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَأَمَّنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرِنِي»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، يُنَابُ أَهْلُ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»^(٥). انتهى من ترجمة «أحمد بن الحسن».

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا سِيرَتْ بِهِنَّ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِنَّ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ لَلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِفِ الْذِّبَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ رَسُولُ رَبِّكَ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

(١) أخرجه الطبري (٣٨١/٧) برقم: (٢٠٣٧٣)، وذكره البغوي (١٨/٣)، وابن عطية (٣١٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٢/٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٨١/٧) برقم: (٢٠٣٦٥)، وابن عطية (٣١٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١١/٤)، وعزاه لابن جرير، وأبي الشيخ.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٠٨/٩).

(٥) تقدم تخريجه.

وقوله تعالى: «كذلك أرسلناك في أمة قد خَلَتْ من قبلها أمم»: أي: كما أجرينا عَادَتَنَا، ﴿كذلك أرسلناك...﴾ الآية.

وقوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾: قال قتادة: نزلت في قريش: لما كُتِبَ في الكتاب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في قصّة الحُدَيْبِيَّةِ، فقال قائلهم: نَحْنُ لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ^(١).

قال * ع^(٢): * وذلك منهم إِبَاءُ أَسْمٍ فقط، وهروبٌ عن هذه العبارة التي لم يَعْرِفُوها إِلَّا مِنْ قِبَلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والـ ﴿مَتَابُ﴾: المرجعُ؛ كـ «المآب» لأن التوبة هي الرجوعُ.

وقوله سبحانه: ﴿ولو أن قرآنًا سِيرَتْ به الجبال أو قطعت به الأرض...﴾ الآية: قال ابن عباس وغيره: إِنَّ الْكُفَّارَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَرْخِ عَنَّا وَسَيِّرْ جَبَلِي مَكَّةَ، فَقَدْ ضَيَّقَا عَلَيْنَا، وَأَجْعَلْ لَنَا أَرْضًا قِطْعَ غِرَاسَةٍ وَحَرْثٍ، وَأَخِي لَنَا آبَاءَنَا وَأَجْدَادُنَا، / وَفُلَانًا وَفُلَانًا، ١٢٦٦ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ مَعْلَمَةً أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، ولو كان ذلك كله^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَتَنَسَّ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية: «يَتَنَسَّ»: معناه: يعلم، وهي لغة هَوَازَنَ، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وجماعة: «أَفَلَمْ يَتَبَيَّنْ»، ثم أخبر سبحانه عن كُفَّارِ قريش والعرب؛ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ تَصِيْبُهُمْ قَوَارِعُ مِنْ سَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ وَغَزَوَاتِهِ، ثم قال: «أَوْ تَحُلْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ». [هذا تأويلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وغيره^(٤)].

وقال الحسنُ بن أبي الحسن: المعنى: أو تَحُلْ القارعةُ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ^(٥)، و﴿وعد الله﴾؛ على قول ابن عباس وغيره: هو فَتْحُ مَكَّةَ، وقال الحسن: الآيةُ عامَّةٌ فِي الْكُفَّارِ إِلَى

(١) أخرجه الطبري (٣٨٥/٧) برقم: (٢٠٣٩٦)، وذكره البغوي (١٩/٣) بنحوه، وابن عطية (٣١٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣١٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٣٨٦/٧) برقم: (٢٠٣٩٩)، وذكره ابن عطية (٣١٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥١٥) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٦/٤)، وعزاه للطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (٣٨٩/٧) برقم: (٢٠٤١٧)، وذكره البغوي (٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٣١٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٩/٤)، وعزاه للطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٥) أخرجه الطبري (٣٩١/٧) برقم: (٢٠٤٣٦)، وذكره ابن عطية (٣١٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٩/٤)، وعزاه لابن جرير.

يرم القيامة، وإنَّ حال الكفرة هَكَذَا هي إلى يوم القيامة، ﴿وَعَذَابُ اللَّهِ﴾: قيام الساعة، وال ﴿قَارِعَةً﴾: الرزية التي تقرع قلب صاحبها^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ...﴾ الآية: تأنيس وتسلية له عليه السلام، قال البخاري: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: أي: أطلت من ألملي والملاوة^(٢)؛ ومنه: مَلِيًّا، ويقال للواسع الطويل من الأرض: مَلَى من الأرض. انتهى.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظِهَرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: أهو أحق بالعبادة أم الجمادات.

وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾: أي: سَمُّوا من له صفات يستحقُّ بها الألوهية، و﴿مَكْرَهُمْ﴾: يعم أفعالهم وأفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة الشرع، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي: بالقتل والأسر والجُذُوب وغير ذلك، و﴿أَشَقُّ﴾: من المشقة، أي: أصعب، والواقي السائر على جهة الحماية من الوقاية.

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾: قد تقدم تفسير نظيره، وقوله: ﴿أُكْلُهَا﴾: معناه: ما يؤكل فيها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾﴾ وكذلك أُنزلته حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ...﴾ الآية: قال ابن زيد: المراد

(١) أخرجه الطبري (٣٩١/٧) برقم: (٢٠٤٣٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/٣١٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٦/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١١٩)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٨/٢٢١)، كتاب «التفسير» باب: سورة الرعد.

بالآية: مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ^(١) وغيره.

قال * ع^(٢) *: والمعنى مَذَحَهُمْ، وباقي الآية بَيَّنَّ.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٣٩ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ
أَوْ تَوَفِّيَتَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ٤٠ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ
يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٤١ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُهُ الْكُفْرَ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ٤٢ وَيَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا
قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ٤٣

وقوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾: المعنى أَنَّ اللَّهَ سبحانه يمحو من
الأُمُور ما يشاء، ويغيِّرُها عن أحوالها مما سَبَقَ في علمه مَحْوُهُ وتغيُّرُهُ، ويثبتها في الحَالَةِ
التي يَنْقُلُهَا إِلَيْهَا حَسَبَ مَا سَبَقَ في علمه.

قال * ع^(٣) *: وَأَصَوَّبَ مَا يَفْسِّرُ بِهِ ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أَنَّهُ كِتَابُ الْأُمُورِ الْمَجْزُومَةِ الَّتِي
قَدْ سَبَقَ الْقَضَاءُ فِيهَا بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَسَبَقَ الْأُتْبُدُّلُ وَيَبْقَى الْمَحْوُ وَالتَّثْبِيتُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي
سَبَقَ فِي الْقَضَاءِ أَنْ تَبْدُلَ وَتَمْحَى وَتُثَبِّتَ؛ قَالَ نَحْوَهُ قَتَادَةُ^(٤)، وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ مَا
نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ﴾: «إِنْ»: شَرْطٌ دَخَلَتْ عَلَيْهَا «مَا»، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَوَفِّيَتَكَ﴾، «أَوْ»
عَاطِفَةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنْ تُبْقِكَ يَا مُحَمَّدُ، لَنَرَى بَعْضَ
الَّذِينَ نَعِدُهُمْ، أَوْ تَوَفِّيَتَكَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعَلَى كُلِّ الْوَجْهَيْنِ، فَإِنَّمَا يَلْزِمُكَ الْبَلَاغُ فَقَطْ،
وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾: عَائِدٌ عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ؛ كَالَّذِي فِي ﴿نَعِدُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿نَأْتِي﴾: مَعْنَاهُ: بِالْقُدْرَةِ وَالْأَمْرِ. وَ﴿الْأَرْضُ﴾: يَرِيدُ بِهَا أَسْمَ الْجَنَسِ،
وَقِيلَ: يَرِيدُ أَرْضَ الْكُفَّارِ الْمَذْكُورِينَ، الْمَعْنَى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي أَرْضَ هَؤُلَاءِ بِالْفَتْحِ
/ عَلَيْكَ، فَتَنْقُصُهَا بِمَا يَدْخُلُ فِي دِينِكَ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ لَهُمْ، فَمَا يُؤْمِنُهُمْ أَنْ
نَمَكِّنُكَ مِنْهُمْ أَيْضًا؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَهَذَا عَلَى أَنَّ الْآيَةَ مَدْنِيَّةٌ^(٥)، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَرْضَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩٧/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٤٥٨) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ
الْمَنْشُورِ» (١٢١/٧)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَأَبِي الشَّيْخِ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحَرَّرُ» (٣/٣١٥).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحَرَّرُ» (٣/٣١٨).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٤/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٠٧) بِنَحْوِهِ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٨)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»
(٢/٥٢٠) بِنَحْوِهِ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَنْشُورِ» (٤/١٢٥)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٦/٧) بِرَقْمٍ (٢٠٥١٤) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٣/٢٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٩)،
وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/٩٢٢)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَنْشُورِ» (٤/١٢٧)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

أَسْمُ جَنَسٍ، جَعَلَ أَتَقَاصَ الْأَرْضِ بِتَخْرِيبِ الْعُمْرَانِ الَّذِي يُحِلُّهُ اللَّهُ بِالْكَفَّارِ، وَقِيلَ:
الْأَتَقَاصُ بِمَوْتِ الْبَشَرِ، وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ، وَقِيلَ: بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَخْيَارِ؛ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ أَيْضاً^(١)، وَكُلُّ مَا ذَكَرَ يَدْخُلُ فِي لَفْظِ الْآيَةِ، وَجُمْلَةُ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: الْمَوْعِظَةُ
وَضَرْبُ الْمَثَلِ، وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فِي
مَعْنَى «تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» قَالَ: بِذَهَابِ فَقَہَائِهَا، وَخِيَارِ أَهْلِهَا؛ وَعَنْ وَكِيعٍ^(٢) نَحْوَهُ.
وَقَالَ الْحَسَنُ: نَقْصَانُهَا: هُوَ بَظْهَرُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ^(٣).

قَالَ أَبُو عَمْرٍو: وَقَوْلُ عَطَاءٍ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ حَسَنٌ جِدًّا، تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ، وَقَوْلُ
الْحَسَنِ أَيْضاً حَسَنٌ. انْتَهَى.

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً»: أَيِ: الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَحْلَاهَا بِهِمْ، وَسَمَّاهَا مَكْرًا
عَلَى عَزْفِ تَسْمِيَةِ الْعُقُوبَةِ بِأَسْمِ الذَّنْبِ، وَبَاقِيَ الْآيَةِ تَحْذِيرٌ وَوَعِيدٌ.

«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا»: الْمَعْنَى: وَيَكْذِبُكَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةُ؛
وَيَقُولُونَ: لَسَتْ مُرْسَلًا. «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»: أَيِ: شَاهِدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، «وَمَنْ عِنْدَهُ
عِلْمُ الْكِتَابِ»: قَالَ قَتَادَةُ: يَرِيدُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ^(٤)، كَمَلْ تَفْسِيرُ
السُّورَةِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٦/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥١٩)، (٤٠٧/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٢٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٩)،
وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (١٢٧/٤)، وَعَزَاهُ
لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٨/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٣٣)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٢٤/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣١٩)،
وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (١٢٦/٤) وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ،
وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَنَعِيمِ بْنِ حَمَادٍ فِي «الْفَتَنِ»، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ
وَصَحَّحَهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٦/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥١٧)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٢/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ
الْمُنْتَوَرِ» (١٢٦/٤)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤١٠/٧) بِرَقْمٍ: (٢٠٥٤٢)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٢٥/٣) بِنَحْوِهِ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/٣٢٠)،
وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢١/٢) بِنَحْوِهِ، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (١٢٨/٤)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ،
وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

تفسير سورة إبراهيم

هذه السورة مكية إلا آيتين، وهما قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا...﴾ [إبراهيم: ٢٨] إلى آخر الآيتين، ذكره مكِّي والثَّقَاش.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ أُنزِلَتْهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَبِعُثُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ③﴾

قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ أُنزِلَتْهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ قال القاضي ابن الطيب، وأبو المعالي وغيرهما: إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، لكن بالمعاني التي أفهمها الله تعالى جبريل عليه السلام من الكلام. وقوله: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: في هذه اللفظة تشريف للنبي ﷺ وعم الناس؛ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، وقرأ نافع وابن عامر^(١): «اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» برفع اسم الله؛ على القطع والابتداء، وقرأ الباقون بخفض الهاء، ﴿وَوَيْلٌ﴾: معناه: وشدة وبلاء، وباقي الآية بين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ هَادُونَ ⑤ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑥ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

(١) ينظر: «الحجة» (٢٥/٥)، و«إعراب القراءات السبع» (٣٣٤/١)، و«حجة القراءات» (٣٧٦)، و«الإتحاف» (١٦٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٢٢/٣)، و«البحر المحيط» (٣٩٣/٥)، و«الدر المصون» (٢٥٠/٤)، و«السبعة» (٣٦٢)، و«معاني القراءات» (٦١/٢)، و«شرح الطيبة» (٣٩٦/٤)، و«العنوان» (١١٥)، و«شرح شعلة» (٤٤٩ - ٤٥٠).

وَيَذِّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبين لهم...﴾ الآية، هذه الآية طغى ورد على المستغربين أمر محمد ﷺ، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه لموسى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾: أي: عظمهم بالتهديد ينقم الله التي / ١٢٦٧ أحلها بالأمم الكافرة قبلهم، وبالتغديده لنعمه عليهم، وعبر عن النعم والثقم بـ «الأيام»؛ إذ هي في أيام، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المذكر بها، وفي الحديث الصحيح: «بينما موسى في قومه يذكرهم أيام الله...» الحديث، في قصة موسى مع الخضر.

قال عياض في «الإكمال»: «أيام الله»: نغماؤه وبلاؤه، انتهى. وقال الداوودي: وعن النبي ﷺ: «وذكرهم بأيام الله»: قال: ينعم الله وعن قتادة: «لآيات لكل صبار شكور»: قال: نعم، والله، العبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. انتهى^(١).

وقال ابن العربي في «أحكامه»: وفي «أيام الله» قولان: أحدهما: نعمه. والثاني: نقمه. انتهى.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾﴾

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لئن شكرتم لأزيدنكم...﴾ الآية: «تأذن»: بمعنى آذن، أي: أعلم.

قال بعض العلماء: الزيادة على الشكر ليست في الدنيا، وإنما هي من نعم الآخرة، والدنيا أهون من ذلك.

قال * ع^(٢): * وجائز أن يزيد الله المؤمنين على شكره من نعم الدنيا والآخرة، «والكفر»؛ هنا: يحتمل أن يكون على بابه، ويحتمل أن يكون كفر النعم، لا كفر الجحد،

(١) أخرجه الطبري (٤١٨/٧) برقم: (٢٠٥٨١)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥٢٣/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٢/٤)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٥/٣).

وفي الآية ترجية وتخويف، وحكى الطبري^(١) عن سفيان وعن الحسن؛ أنهما قالاً: معنى الآية: لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي.

قال * ع^(٢) *: وضعفه الطبري، وليس كما قال، بل هو قوي حسن، فتأمله.

* ت *: وتضعيف الطبري بين؛ من حيث التخصيص، والأصل التعميم^(٣).

وقوله: ﴿ألم يأتكم﴾: هذا أيضاً من التذكير بأيام الله، وقوله سبحانه: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾: قيل: معناه: ردوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم؛ إشارة على الأنبياء بالسكوت، وقال الحسن: ردوا أيدي أنفسهم في أفواه الرسل تسكيناً لهم، وهذا أشنع في الرد^(٤).

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُقَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَخْرِجَكُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرَنَّ عَنْ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَكُلُّكُمْ لَظْلَمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَسَكُنَّكُمْ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾: التقدير: أفي إلهية الله شك أو: أفي وحدانية الله شك، و«ما»؛ في قوله ﴿ما آذيتمونا﴾ مصدرية، ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى «الذي»، قال الداودي: عن أبي عبيدة ﴿لَمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: مجازه حيث أقيمته بين يدي للحساب انتهى^(٥). قال عبد الحق في «العاقبة» قال الربيع بن خثيم: مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ، قَرُبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدَ، وَمَنْ طَالَ أَمَلُهُ، سَاءَ عَمَلُهُ. انتهى، وباقي الآية بين.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٠/٧) برقم: (٢٠٥٨٥ - ٢٠٥٨٦).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٥/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٤٢٠/٧) برقم: (٢٠٥٨٧ - ٢٠٥٨٨)، وذكره ابن عطية (٣/٣٢٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٣/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ذكره البغوي (٢٧/٣)، وابن عطية (٣/٣٢٦).

(٥) ذكره ابن عطية (٣/٣٣٠).

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: ﴿أَسْتَفْتَحُوا﴾: أي: طلبوا الحُكْم، و«الْفَتْح» الحاكم، والمعنى: أن الرسل أَسْتَفْتَحُوا، أي: سألوا الله تبارك وتعالى إنفاذ الحُكْم بنصرهم.

وقيل: بَلِ اسْتَفْتَحَ الْكُفَّارُ عَلَىٰ نَحْوِ قَوْلِ قَرِيشٍ: ﴿عَجَلْ لَّنَا قِطْعًا...﴾ [ص: ١٦] وعلى نحو قول أبي جهل يوم بَذَر: اللَّهُمَّ، أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ، وَأَتَيْنَا بِمَا لَا نَعْرِفُ، فَأَخْبِهَ الْعِدَّةَ، وهذا قول ابن زيد^(١)، وقرأت فرقة: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾^(٢) - بكسر التاء -؛ على معنى الأمر للرسل، وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِنٍ: ﴿وَخَابَ﴾: معناه: خسر ولم ينجح، وال ﴿جَبَّارٌ﴾: المتعظم في نفسه، وال ﴿عَنِيدٌ﴾: الذي يعاند ولا يناقد.

وقوله: ﴿مِّنْ وَرَائِهِ﴾: قال الطبري^(٣) وغيره: مِنْ أَمَامِهِ، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وليس الأمر كما ذكروا، بل الْوَرَاءُ هنا وهنالك على بابه، أي: هو / ما يأتي بَعْدُ في الزمان، وذلك أن التقدير في هذه الْحَوَادِثِ ٢٦٧ بـ بِالْأَمَامِ والوراء، إنما هو بِالزَّمَانِ، وما تقدَّم فهو أَمَام، وهو بَيْنَ اليَدِ؛ كما نقول في التوراة والإنجيل: إنهما بَيْنَ يَدَيِ الْقُرْآنِ، والقرآن وراءهم، وعلى هذا فما تأخر في الزمان فهو وراء المتقدم، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾: «الصدید»: القَيْح والدم، وهو ما يسيل من أجساد أهل النار؛ قاله مجاهد^(٤) والضَّحَّاك.

﴿يَجْزَعُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيطٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

(١) أخرجه الطبري (٤٢٨/٧) برقم: (٢٠٦٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٣٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٦/٢) بنحوه.

(٢) وقرأ بها ابن عباس، ومجاهد، وابن مُحَيْصِنٍ. قال أبو الفتح: هو معطوف على ما سبق من قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾، أي: قال لهم: استفتحوا.

ينظر: «المحتسب» (٣٦٠/١)، و«الشواذ» ص: (٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٣٠/٣)، و«البحر المحيط» (٤١٠/٥)، و«الدر المصون» (٢٥٦/٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٨/٧ - ٤٢٩).

(٤) أخرجه الطبري (٤٢٩/٧) برقم: (٢٠٦٢٧)، ويرقم: (٢٠٦٣١) بنحوه، وذكر ابن عطية (٣٣١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث والنشور».

عَاصِفٌ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِينَ ﴿٢١﴾

وقوله: ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾: عبارة عن صعوبة أمره عليهم، وروي أن الكافر يؤتى بالشربة من شراب أهل النار، فيتكرهها، فإذا أدنىته منه، شوت وجهه، وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا شربها، قطعت أمعاءه، وهذا الخبر مفرق في آيات من كتاب الله عز وجل، ﴿ويأتية الموت من كل مكان﴾، أي: من كل شعرة في بدنه؛ قاله إبراهيم التيمي^(١)، وقيل: من جميع جهاته الست، ﴿وما هو بميت﴾: لا يراخ بالموت، ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ قال الفضيل بن عياض: العذاب الغليظ: حبس الأنفاس في الأجساد، وفي الحديث: «تخرج عنتك من النار تكلم بلسان طليق ذلي لها عَيْنَانِ تُبْصِرُ بِهِمَا، وَلَهَا لِسَانٌ تَكَلِّمُ بِهِ، فَتَقُولُ: إِنِّي أُمِرْتُ بِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَيَكُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ، وَبِمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَتَنْطَلِقُ بِهِمْ قَبْلَ سَائِرِ النَّاسِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، فَتَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، فَتَقْدُفُهُمْ فِي جَهَنَّمَ»، خرَّجه البزار^(٢)، انتهى من «الكوكب الدرّي».

وقوله: ﴿في يوم عاصف﴾ وصف اليوم بالعُصُوفِ، وهي من صفات الريح بالحقيقة؛ لما كانت في اليوم، كقول الشاعر: [الطويل]

وَنِمْتُ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمٍ

وباقى الآية بين.

(١) أخرجه الطبري (٤٣٠/٧) برقم (٢٠٦٣٦)، وذكره البغوي (٢٩/٣)، وابن عطية (٣٣١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٩/٣) وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الترمذي (٧٠١/٤) كتاب «صفة جهنم» باب: ما جاء في صفة النار، حديث (٢٥٧٤) بنحوه، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

(٣) عجز بيت وصدرة:

لقد لمتنا يا أم عيلان في السرى

والبيت لجرير في «ديوانه» ص: (٩٩٣)، و«خزانة الأدب» (٤٦٥/١)، (٢٠٢/٨)، و«الكتاب» (١/١٦٠)، و«لسان العرب» (٤٤٢/٢) (ريح)، وبلا نسبة في «الأشياء والنظائر» (٦٠/٨)، و«الإنصاف» (٢٤٣/١)، و«تخليص الشواهد» ص: (٤٣٩)، والصاحبي في «فقه اللغة» (٢٢٢)، و«المحتسب» (٢/١٨٤)، و«المقتضب» (١٠٥/٣)، (٣٣١/٤).

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: معناه: صاروا في البراز، وهي الأرض المتسعة، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾، وهم الأثباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم القادة وأهل الرأي، وقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيضٍ﴾: «المحيض»: المفرّ والملجأ مأخوذ من حَاصٍ يَحِيضُ؛ إذا نفر وفر؛ ومنه في حديث هِرَقْلَ: «فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ» وروى عن ابن زيد، وعن محمد بن كعب؛ أن أهل النار يقولون: إنما نال أهل الجنة الرخمة بالصبر على طاعة الله، فتعالوا فلنصبر، فيصبرون خمسمائة سنة، فلا ينتفعون، فيقولون: هلم فلننزع، فيصحبون ويصحبون ويصحبون خمسمائة سنة أخرى، فحينئذ يقولون هذه المقالة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا...﴾ الآية، وظاهر الآية أنهم إنما يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله عز وجل^(١).

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴿٢٣﴾

وقوله عز وجل: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر﴾: المراد هنا بـ «الشيطان» إبليس الأقدم، وروى عن النبي ﷺ من طريق عتبة بن عامر، أنه قال: يقوم يوم القيامة خطيبان؛ أحدهما: إبليس يقوم في الكفرة بهذه الألفاظ، والثاني: عيسى ابن مريم يقوم بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ...﴾ الآية [المائدة: ١١٧]، وروى في حديث؛ أن إبليس إنما يقوم بهذه الألفاظ في النار على أهلها عند قولهم: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيضٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] في الآية المتقدمة؛ فعلى هذه الرواية، يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، أي: حصل أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، وهو تأويل الطبري^(٢).

١٢٦٨

وقوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾: أي: من حجة بيّنة، و﴿إلا أن دعوتكم﴾؛ استثناء منقطع، ويحتمل أن يريد بـ «السلطان» في هذه الآية: الغلبة والقدرة والمُلك، أي: ما اضطرتكم، ولا خوفتكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئاً فأتى رأيكم عليه.

(١) أخرجه الطبري (٤٣٣/٧) برقم: (٢٠٦٤٠)، وبرقم: (٢٠٦٤١)، وذكره البغوي (٣٠/٣)، وابن عطية (٣٣٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «الطبري» (٤٣٣/٧).

وقوله: ﴿فلا تلوْموني﴾: يريد: بزعمه؛ إذ لا ذَنْبَ لي، ﴿ولوموا أنفسكم﴾، أي: في سوء نظركم في أتباعي، وقلة تثبتكم؛ ﴿ما أنا بمصرخكم﴾: «المُصرخُ»: المغيث، والصَّارِخُ: المستغيث، وأما الصَّريخ، فهو مصدرٌ بمنزلة البريح، وقوله: ﴿إني كَفَرْتُ بما أشركتمون﴾: «ما» مصدرية، وكأنه يقول: إني الآن كافرٌ بإشراككم إِيَّاي مع الله قَبْلَ هذا الوقتِ، فهذا تَبَرُّ منه، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله عز وجل: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم﴾: «الإذن»؛ هنا: عبارة عن القضاء والإمضاء.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦)

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: «أَلَمْ تَرَ»: بمعنى: أَلَمْ تعلم، قال ابن عباس وغيره: الكلمة الطيبة: هي لا إله إلا الله^(١)، مثلها الله سبحانه بالشجرة الطيبة، وهي النخلة في قول أكثر المتأولين، فكأن هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدُرُ عنها من الأفعال الزكية وأنواع الحسنات هو فَرْعُهَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ قَبْلِ الْعَبْدِ، وَالْحِينِ: القطعة من الزمان غير محدودة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقد تقتضي لفظة «الحين» بقرينتها تحديداً؛ كهذه الآية، و«الكلمة الخبيثة»: هي كلمة الكفر، وما قاربها من كلام السوء في الظلم ونحوه، و«الشجرة الخبيثة»: قال أكثر المفسرين: هي شجرة الحَنْظَل؛ ورواه أنس عن النبي ﷺ^(٢) وهذا عندي عَلَى جِهَةِ الْمَثَلِ، «اجْتُثَّتْ»: أي: أَقْتُلِعَتْ جثتها بنزع الأصول، وبقيت في غاية الوهن والضعف، فتقلبها أقل ريح، فالكافر يَرَى أَنَّ بيده شيئاً، وهو لا يستقر ولا يُغْنِي عنه؛ كهذه الشجرة الذي يُظَنُّ بها عَلَى بُعْدٍ أو للجهل بها أنها شيء نافع، وهي خبيثة الجني غير باقية.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُفَضِّلُ اللَّهُ

(١) أخرجه الطبري (٤٣٧/٧) برقم: (٢٠٦٥٩)، وذكره ابن عطية (٣/٣٣٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٣٠)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/١٤٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم عليه السلام، حديث (٣١١٩)، والطبري (١٣/٢٠٥)، وأبو يعلى (٧/١٨٢ - ١٨٣) برقم: (٤١٦٥)، والحاكم (٣/٣٥٢)، وابن حبان (٤٦٨) من حديث أنس مرفوعاً به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَكُوا الْفَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا
فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾:
﴿الْقَوْلُ الثَّابِتُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: كلمةُ الإخلاص والنجاة من النار: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»،
والإقرار بالنبوة، وهذه الآية تعمُّ العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة. قال
طاووس، وقتادة، وجمهور من العلماء: ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هي مدَّة حياة الإنسان، ﴿وفي
الآخرة﴾ وقت سؤاله في قبره^(١)، وقال البراء بن عازب وجماعة: ﴿في الحياة الدنيا﴾: هي
وقت سؤاله في قبره، ورواه البراء عن النبي ﷺ في لفظ متأول، وفي الآخرة: هو يوم
القيامة عند العرض، والأول أحسن، ورجَّحه الطبري.

* ت^(٢): * ولفظ البخاري عن البراء بن عازب / أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ
إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». انتهى، وحديث البراء خرَّجه
البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه^(٣)، قال صاحب «التذكرة»^(٤): وقد رَوَى
هذا الحديث أبو هريرة وابن مسعود وابن عباس وأبو سعيد الخدري قال أبو سعيد

(١) أخرجه الطبري (٤٥١/٧) برقم: (٢٠٧٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٣٧/٣)، وابن كثير في
«تفسيره» (٥٣٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٩/٧) برقم: (٢٠٧٦٣) بنحوه، وذكره البغوي (٣٤/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣)
٣٣٧، وابن كثير في «تفسيره» (٥٣٢/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٨/٤)، وعزاه لابن أبي
شيبه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٤/٣) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء في عذاب القبر، حديث (١٣٦٩)، وفي (٨/٢٢٩)
كتاب «التفسير» باب: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، حديث (٤٦٩٩)، ومسلم (٤/٢٢٠١)
كتاب «الجنة» باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، حديث (٢٨٧١/٧٣)، وأبو
داود (٦٥١/٢) كتاب «السنة» باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، حديث (٤٧٥٠)، والترمذي
(٢٩٥/٥ - ٢٩٦)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم، حديث (٣١٢٠)، والنسائي (١٠١/٤)
كتاب «الجنائز» باب: عذاب القبر، حديث (٢٠٥٧)، وابن ماجه (١٤٢٧/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر
القبر والبلوى برقم: (٤٢٦٩)، والطيالسي (٢٠/٢ - منحة) برقم: (١٩٥٩). كلهم من طريق سعد بن
عبيدة، عن البراء بن عازب به، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر
المنثور» (١٤٦/٤)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١/١٦٦).

الْخُدْرِيُّ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَإِذَا الْإِنْسَانُ ذُفِنَ وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، جَاءَهُ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ، فَأَقْعَدَهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ...» الحديث، وفيه: فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا أَحَدٌ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ إِلَّا هَبَلْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١) انتهى.

قال أبو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَرَوَيْنَا مِنْ طَرُقٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ: كَيْفَ بِكَ يَا عُمَرُ، إِذَا جَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، إِذَا مِتُّ، وَأَنْطَلَقَ بِكَ قَوْمُكَ، فَقَاسُوا ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا فِي ذِرَاعٍ وَشِبْرٍ، ثُمَّ غَسَلُوكَ، وَكَفَّنُوكَ، وَحَنَطُوكَ، ثُمَّ أَخْتَمَلُوكَ، فَوَضَعُوكَ فِيهِ، ثُمَّ أَهَالُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ، فَإِذَا أَنْصَرَفُوا عَنْكَ أَتَاكَ قَتَانَا الْقَبْرِ: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّغْدِ الْقَاصِفِ، وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ يَجْرَانِ شُعُورُهُمَا، مَعَهُمَا مِزْزَبَةٌ، لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ الْأَرْضِ لَمْ يَقْلِبُوهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ فَرَقْنَا فَحَقٌّ لَنَا أَنْ تَفَرَّقَ أَنْتَبَعْتُ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: إِذَنْ أَكْفَيْكُهُمَا، انتهى^(٢)، و«الظالمون»؛ في هذه الآية: الكافرون، ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾، أي: بحق الملك؛ فلا رادَّ لأمره، ولا معقَّب ليحكمه، وجاءت أحاديثٌ صحيحةٌ في مُسَاءَلَةِ الْعَبْدِ فِي قَبْرِهِ، وَجَمَاعَةُ السُّنَّةِ تَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَخْلُقُ لِلْعَبْدِ فِي قَبْرِهِ إدْرَاكَاتٍ وَتَحْصِيلًا: إما بحياة؛ كَالْمَتَعَارِفَةِ، وإما بحضورِ الْبُخْسِ، وَإِنْ لَمْ تَتَلَبَّسْ بِالْجَسَدِ كَالْعُرْفِ، كُلُّ هَذَا جَائِزٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى غَيْرَ أَنَّ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ؛ «أَنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ النَّعَالِ»، ومنها: أَنَّهُ يَرَى الضَّوءَ كَأَنَّ الشَّمْسَ دَنَتْ لِلْغُرُوبِ، وَفِيهَا أَنَّهُ يُرَاجِعُ، وَفِيهَا: «فَيَعَاذُ رُوحَهُ إِلَى جَسَدِهِ»، وَهَذَا كُلُّهُ يَتَضَمَّنُ الْحَيَاةَ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَهُ هَذِهِ الْقُدْرَةُ الْعَظِيمَةُ، وَقَوْلُهُ سَبَّحَانَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا؟﴾: المراد بـ ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: كَفَرُوا قُرَيْشَ، وَقَدْ خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مُسْنَدًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣) انتهى، وَالتَّقْدِيرُ: بَدَّلُوا شُكْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا، وَنِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى؛ فِي

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣/٣)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٤١٧/٢ - ٤١٨) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥١/٣)، وقال: رواه أحمد، والبخاري، ورجاله رجال الصحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٤٩/٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي الدنيا في ذكر الموت، وابن مردويه، والبيهقي في «عذاب القبر»، وقال السيوطي: سنده صحيح.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٣/٤)، وعزاه إلى ابن أبي داود في «البعث»، والحاكم في «التاريخ»، والبيهقي في «عذاب القبر».

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٠)، والطبري (٤٥٤/٧) برقم: (٢٠٧٩٦)، وذكره البغوي (٣٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٣٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٦/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

هذه الآية: هو محمد ﷺ ودينه، ﴿وَأَحْلُوا/ قومهم﴾، أي: مَنْ أطاعهم، وكأنَّ الإشارة ١٢٦٩ والتعنيف إنما هو للرؤوس والأغلام، و﴿البوار﴾: الهلاك، قال عطاء بن يَسَارٍ: نَزَلَتْ هذه الآية في قَتْلِي^(١) بذر، و﴿الأنداد﴾: جمع نِدْ، وهو المِثْلُ، والمراد: الأصنام، واللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ - بضم الياء -: لام كُنْي، وبفتحها: لامُ عاقبةٍ وصيرورةٍ، والقراءتان^(٢) سبعيتان.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١) **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْآبْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَمَاتَنُكُمْ مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾**

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية: «العباد»: جمع عبد، وعُرْفُهُ في التكرمة بخلاف العبيد، و«السِر»: صدقة التنفُّل، و«العلانية»: المفروضة؛ هذا هو مقتضى الأحاديث، وفسر ابن عباس هذه الآية بركة الأموال مجملًا، وكذلك فسَّر الصلاة؛ بأنها الخمسُ وهذا عندي منه تقريبٌ للمخاطب^(٣). و«الخلال»: مصدرٌ من «خَالَ»، إذا وادَّ وصافى؛ ومنه الخُلَّة والخَلِيل، والمراد بهذا اليوم يومُ القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: هذه الآية تذكيرٌ بآلائه سبحانه، وتبيينٌ على قدرته التي فيها إْحْسَانٌ إِلَى الْبَشَرِ؛ لتقوم الحُجَّةُ عليهم، وقوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾: مصدرٌ أَمَرَ يَأْمُرُ، وهذا راجعٌ إلى الكلام القديم القائم بالذات، و﴿دَائِبَيْنِ﴾: معناه: متماديَّين، ومنه قوله ﷺ لصاحب الجملِ

(١) أخرجه الطبري (٤٥٥/٧) برقم: (٢٠٨١٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٧/٦)، وعزاه لابن جرير.

(٢) وتفصيل هذه القراءة على ما يلي: قرأ أبو كثير وأبو عمرو: «ليضلوا» بفتح الياء، أي: ليصيروا هم ضلالًا.

وحجتهما: قوله تعالى: ﴿إِن رَّبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [النحل: ٣٠].

وقرأ الباقون: «ليضلوا» بضم الياء، أي: ليضلوا غيرهم، وحجتهم: أن الله سبحانه وصفهم قبل بأنهم ضالون في أنفسهم، فقال: ﴿وجعلوا لله أندادًا﴾، فكان الحال يقتضي زيادة معنى، وهو: أنهم لم يتوقفوا عن ضلالهم هم، بل عدوه إلى غيرهم.

ينظر: «شرح الطيبة» (٤/٣٩٦)، و«العنوان» (١١٥)، و«حجة القراءات» (٣٧٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (١٦٩/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٤٥٧/٧) برقم: (٢٠٨٢٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣٣٩).

الذي بَكَى وَأَجْهَشَ^(١) إِلَيْهِ: «إِنَّ هَذَا الْجَمَلَ شَكَا إِلَيَّ أَنْكَ تُجِيعُهُ وَتُدْثِبُهُ»^(٢)، أي: تديمه في الخِذْمَةِ وَالْعَمَلِ، وظاهر الآية أَنَّ معناه: دائِبِينَ فِي الطَّلُوعِ وَالْغُرُوبِ وما بينهما مِنَ الْمَنَافِعِ لِلنَّاسِ التي لَا تَحْصَى كَثْرَةً، وعن ابن عباس أَنَّهُ قَالَ: معناه: دائِبِينَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ^(٣)، وقوله سَبَّحَانَهُ: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ المعنى: أَنَّ جِنْسَ الْإِنْسَانِ بِجَمْلَتِهِ قَدْ أُوتِيَ مِنْ كُلِّ مَا شَأْنُهُ أَنْ يَسْأَلَ وَيَنْتَفِعَ بِهِ، وقرأ ابن عباس^(٤) وغيره: «مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» - بَتْنَوَيْنِ كُلِّ -، ورويت عن نافع، وقوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، أي: لكثرتها وعَظَمُهَا فِي الْحَوَاسِ وَالْقُوَى، والإِيجَادِ بَعْدَ الْعَدَمِ والهِدَايَةِ لِلإِيمَانِ وغيرِ ذَلِكَ، وقال طَلَّقَ بَنُ حَبِيبٍ: إِنَّ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى: أَثْقَلُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْعِبَادُ، وَنِعْمَةٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْصِيهَا الْعِبَادُ، وَلَكِنْ أَصْبَحُوا تَوَائِبِينَ، وَأَمْسُوا تَوَائِبِينَ.

* ت^(٥): * وَمِنْ «الْكَلِمِ الْفَارِقِيَّةِ»: أَيُّهَا الْخَرِيصُ عَلَى نَيْلِ عَاجِلِ حَظِّهِ وَمِرَادُهُ؛ الْغَافِلُ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِمَعَادِهِ تَنْبَهُ لِعَظَمَةِ مَنْ وَجُودُكَ بِإِيجَادِهِ؛ وَبِقَاوُكُ بِإِزْفَادِهِ؛ وَدَوَامُكَ بِإِمْدَادِهِ، وَأَنْتَ طِفْلٌ فِي حَجَرٍ لُطْفِهِ؛ وَمَهْدٌ عَطْفِهِ؛ وَحِصَانَةٌ حَفْظِهِ، يَغْذُكَ بِلَبَانٍ بَرٍّ؛ وَيَقْلِبُكَ بِأَيْدِي أَيْدِيهِ وَفَضْلِهِ؛ وَأَنْتَ غَافِلٌ عَنِ تَعْظِيمِ أَمْرِهِ؛ جَاهِلٌ بِمَا أَوْلَاكَ مِنْ لَطِيفِ سِرِّهِ؛ وَفَضْلِكَ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَذْكُرُ عَهْدَ الْإِيجَادِ، وَدَوَامَ الْإِمْدَادِ وَالْإِرْفَادِ؛ وَحَالَتِي الْإِضْطَارَّ وَالْإِيرَادِ؛ وَفَاتِحَةَ الْمَبْدِ وَخَاتِمَةَ الْمَعَادِ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾: يُرِيدُ بِهِ النُّوعَ وَالْجِنْسَ، الْمَعْنَى: تَوَجَّدَ فِيهِ هَذِهِ

(١) الْجَهْشُ وَالْإِجْهَاشُ: أَنْ يَفْزَعَ الْإِنْسَانُ إِلَى غَيْرِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَأَنَّهُ يَرِيدُ الْبُكَاءَ، كَالصَّبِيِّ يَفْزَعُ إِلَى أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْبُكَاءِ.

ينظر: «النهاية» (٣٢٢/١) و«لسان العرب» (٧١٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الخصائص الكبرى» (٩٥/٢)، وعزاه إلى ابن أبي شيبه، وأبي نعيم، والبيهقي كلاهما في «الدلائل».

(٣) أخرجه الطبري (٤٥٨/٧) برقم: (٢٠٨٢٦)، وذكره البغوي (٣٦/٤)، وابن عطية (٣٣٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن جرير.

(٤) وقرأ بها الحسن، وجعفر بن محمد، وسلام بن منذر، والضحاك، ومحمد بن علي، وعمرو بن فائد، ويعقوب، قال أبو الفتح: أما على هذه القراءة فالمفعول ملفوظ به، أي: وأتاكم ما سألتموه أن يؤتيكم منه، وأما قراءة الجماعة... على الإضافة، فالمفعول محذوف: أي: وأتاكم سؤلکم من كل شيء. ينظر: «المحتسب» (٣٦٣/١)، و«الشواذ» ص: (٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٣٤٠/٣)، و«البحر المحيط» (٤١٦/٥)، و«الدر المصون» (٢٧٢/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٤٥٩/٧) برقم: (٢٠٨٣٥)، وذكره ابن عطية (٣٤٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، والبيهقي في «الشعب».

الْخِلَالُ، وهي الظُّلُم والكُفْر، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْخِلَالُ مِنْ جَاحِدٍ، فَهِيَ بِصِفَةٍ، / وَإِنْ كَانَتْ ٢٦٩ ب
مِنْ عَاصٍ فَهِيَ بِصِفَةٍ أُخْرَى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾ رَبِّ
إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦ رَبَّنَا إِنِّي
أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُيُوتًا مِثْلَ دُزُجٍ خَالِدَةٍ لِّدَارٍ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣٧ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا
يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٣٨ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰ لِي عَلَى الْكَبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ٣٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ تقدّم تفسيره.

وقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: و﴿اجْنُبْنِي﴾: معناه: أَمْنَعْنِي، يقال:
جَنَّبَهُ كَذَا، وَاجْتَنَبَهُ؛ إِذَا مَنَعَهُ مِنَ الْأَمْرِ وَحَمَاهُ مِنْهُ.

* ت * : وكذا قال * ص * : و﴿اجْنُبْنِي﴾: معناه: أَمْنَعْنِي، أصله من الْجَانِبِ،
وعبارة المَهْدَوِيِّ: أي: اجْعَلْنِي جَانِبًا مِنْ عِبَادَتِهَا.

وقال الثعلبي: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾، أي: بَعْدْنِي وَاجْعَلْنِي مِنْهَا عَلَى جَانِبٍ بَعِيدٍ. انتهى،
وهذه الألفاظ كلها متقاربة المعاني، وأراد إبراهيم عليه السلام بَنِيَّ صُلْبِهِ، وَأَمَّا بَاقِي نَسْلِهِ،
فمَنْهُمْ مَنْ عُبِدَ الْأَصْنَامَ، وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراطَ خَوْفِهِ عَلَى نَفْسِهِ
وَمَنْ حَصَلَ فِي رَتْبَتِهِ، فَكَيْفَ يَخَافُ أَنْ يَعْبُدَ صَنَمًا، لَكِنْ هَذِهِ الْآيَةُ يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَدَى بِهَا فِي
الْخَوْفِ، وَطَلَبِ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، و﴿الْأَصْنَامَ﴾: هي المنحوتة على خَلْقَةِ الْبَشَرِ، وَمَا كَانَ
مَنْحُوتًا عَلَى غَيْرِ خَلْقَةِ الْبَشَرِ، فَهِيَ أَوْثَانٌ، قَالَ الطَّبْرِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ^(١)، وَنَسَبَ إِلَى الْأَصْنَامِ
أَنَّهُ أَضَلَّتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَجَوُّزًا، وَحَقِيقَةُ الْإِضْلَالِ إِنَّمَا هِيَ لِمَخْتَرَعِهَا سُبْحَانَهُ، وَقِيلَ:
أَرَادَ بِ﴿الْأَصْنَامِ﴾ هُنَا: الدَّنَانِيرُ وَالذَّرَاهِمُ.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾: ظَاهِرُهُ بِالْكَفْرِ؛ لِمَعَادِلَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾،
وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: معناه: بِتَوْبَتِكَ عَلَى الْكَفَرَةِ؛ حَتَّى
يُؤْمِنُوا لَا أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِكَافِرٍ، وَحَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ مَا كَانَ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِهِ مِنْ
الْقَوْلِ الْجَمِيلِ، وَالتُّطْقِ الْحَسَنِ، وَجَمِيلِ الْأَدَبِ ﷺ، قَالَ قَتَادَةُ: أَسْمَعُوا قَوْلَ الْخَلِيلِ ﷺ:
وَاللَّهُ مَا كَانُوا طَعَانِينَ وَلَا لَعَانِينَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ نَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ

(١) أخرجه الطبري (٧/٤٦٠) برقم: (٢٠٨٣٦)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤١).

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(١) [المائدة: ١١٨]، وأُسند الطبري^(٢) عن عبد الله بن عمرو حديثاً: أن النبي ﷺ، تلا هاتين الآيتين، ثم دعا لأُمته فبَشَّرَ فيهم^(٣)، وكان إبراهيم التيمي يقول: مَنْ يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ خَوْفِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

وقوله: ﴿وَمَنْ ذَرِيَّتِي﴾: يريد: إسماعيل عليه السلام، وذلك أَنَّ سَارَةَ لَمَّا غَارَتْ بِهَاجَرَ بَعْدَ أَنْ وَلَدَتْ إسماعيل، تشوَّشَ قَلْبُ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُمَا، فروي أَنَّهُ رَكِبَ الْبُرَاقَ هُوَ وَهَاجَرَ، وَالطِفْلُ، فَجَاءَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنَ الشَّامِ إِلَى بَطْنِ مَكَّةَ، فَتَرَكَهُمَا هُنَاكَ، وَرَكِبَ مَنْصُرفاً مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بُوخِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا وَلِيَ، دَعَا بِمَضْمَنِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ بَقَاءِ هَاجَرَ، وَمَا صَنَعَتْ، وَسَائِرُ خَبَرِ إسماعيل، فِي كِتَابِ الْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، وَفِي السِّيَرِ، ذُكِرَ ذَلِكَ كُلُّهُ مُسْتَوْعَباً.

* ت *: وفي «صحيح البخاري» من حديثه الطويل في قصة إبراهيم مع هاجر وولدها، لما حَمَلَهُمَا إِلَى مَكَّةَ، قَالَ: وَلَيْسَ / بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جَرَاباً فِيهِ تَمْرٌ، وَسَقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمَ مَنْطَلِقاً، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسماعيل، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمَ، أَيْنَ تَذْهَبُ، وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أُنْيَسٌ، وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَاراً، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يَضِيعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، أَسْتَقْبَلَ بُوْجْهَهُ النَّبْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذَرِيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ مُحَرَّمٍ^(٤)، حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾...» الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ^(٥) وَفِي طَرِيقٍ: «قَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا، قَالَ: إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: رَضِيتُ. انْتَهَى. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ لِأَرْبَابِ الْقُلُوبِ وَالمُتَوَكِّلِينَ وَأَهْلِ الثِّقَةِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا يَطُولُ بِنَا سُرْدُهَا، فَإِلَيْكَ أَسْتَخْرَاجُهَا، وَلَمَّا انْقَطَعَتْ هَاجَرُ وَأَبْنَاهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، آوَاهُمَا اللَّهُ، وَأَتْبَعَ لَهُمَا مَاءَ زَمْزَمَ الْمُبَارَكِ الَّذِي جَعَلَهُ غِذَاءً، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ»^(٥).

قال ابن العربي: ولقد كُنْتُ مقيماً بِمَكَّةَ سَنَةً سَنِعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ، وَكُنْتُ أَشْرَبُ

(١) أخرجه الطبري (٤٦١/٧) برقم: (٢٠٨٤٠)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٠)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «الطبري» (٤٦١/٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦١/٧) برقم: (٢٠٨٤١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦/٦، ٤٥٨) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: يزفون، حديث (٣٣٦٤).

(٥) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١١٢٤).

مَاءَ زَمْزَمَ كَثِيرًا، وَكَلَّمَا شَرِبْتَ، تَوَيْتَ بِهِ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ، وَنَسِيتُ أَنْ أَشْرِبَهُ لِلْعَمَلِ، فَفَتَحَ لِي فِي الْعِلْمِ، وَيَا لَيْتَنِي شَرِبْتُهُ لَهْمًا مَعًا؛ حَتَّى يُفْتَحَ لِي فِيهِمَا، وَلَمْ يَقْدَرْ، فَكَانَ صَغْوِي إِلَى الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَى الْعَمَلِ، انْتَهَى مِنْ «الْأَحْكَامِ».

و«من»؛ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّ إِسْحَاقَ كَانَ بِالشَّامِ، وَ«الْوَادِي»؛ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَاءٌ، وَجَمَعَهُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَقِيمُوا﴾؛ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْلَمَهُ أَنَّ ذَلِكَ الطُّفْلَ سَيُعْقِبُ هُنَاكَ، وَيَكُونُ لَهُ نَسْلٌ، وَاللَّامُ فِي ﴿لِيَقِيمُوا﴾؛ لَامٌ كِي؛ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَيَصُحُّ أَنْ تَكُونَ لَامُ الْأَمْرِ؛ كَأَنَّهُ رَغِبَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَنْ يُوقِفَهُمْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَ«الْأَفْنَدَةُ» الْقُلُوبُ جَمْعُ فَوَادٍ، سَمِّيَ بِذَلِكَ، لِاتِّقَادِهِ، مَاخُذٌ مِنْ «فَادٍ»، وَمِنْهُ: «الْمُقْتَادُ»، وَهُوَ مُسْتَوْدُ الثَّارِ حَيْثُ يُنْوَى لِلْحُمِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾: تَبْعِيضٌ، وَمُرَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾: دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَمْرٍ كَانَ مَثَابَرًا عَلَيْهِ، مَتَمَسِّكًا بِهِ، وَمَتَى دَعَا الْإِنْسَانَ فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّمَا الْمَقْصِدُ إِدَامَةُ ذَلِكَ الْأَمْرِ، وَأَسْتَمْرَارُهُ، قَالَ السَّهْلِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ بِحَرْفِ التَّبْعِيضِ، وَلِذَلِكَ أَسْلَمَ بَعْضُ ذُرِّيَّتِهِ دُونَ بَعْضٍ، انْتَهَى، وَفَاقًا لِمَا تَقَدَّمَ الْآنَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيْ﴾: اُخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ يَأْسِهِ مِنْ إِيْمَانِ أَبِيهِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، فَأَرَادَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتِ مُؤْمِنَةً، وَقِيلَ: أَرَادَ آدَمَ / وَنُوحًا عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، وَقَرَأَ الزُّهْرِيُّ^(١) وَغَيْرُهُ: «وَلِوَلَدَيْ»؛ عَلَى أَنَّهُ دُعَاءُ لِإِسْمَاعِيلَ ٢٧٠ ب وَإِسْحَاقَ، وَأَنْكَرَهَا عَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ، وَقَالَ: «إِنْ فِي مُضْحَفِ أَبِي بْنِ كَعْبٍ وَلِأَبَوَيْ»^(٢).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الْفَالِحُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٢﴾ مُهْلِكِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُكُمْ هَوَاءً﴾ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

(١) وَقَرَأَ بِهَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَأَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ.

يَنْظُرُ: «الْمَحْتَسَبُ» (٣٦٥/١)، وَ«الْكَشَافُ» (٥٦٢/٢)، وَفِيهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بَدَلًا مِنَ الْحُسَيْنِ،

وَيَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٤٣/٣)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤٢٣/٥)، وَ«الدَّرُ الْمَصُونُ» (٢٧٦/٤).

(٢) يَنْظُرُ: «مَخْتَصِرُ الشَّوَادِ» ص: (٧٣)، وَ«الْكَشَافُ» (٥٦٢/٢)، وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٤٣/٣)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤٢٣/٥)، وَ«الدَّرُ الْمَصُونُ» (٢٧٦/٤).

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٌ قَرِيبٌ تُجِبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ
مِن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

وقوله عز وجل: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم...﴾
الآية: هذه الآية بجملتها فيها وعيدٌ للظالمين، وتسليّةٌ للمظلومين، والخطابُ بقوله:
﴿تَحَسَّبَنَّ﴾ للنبي ﷺ، و﴿تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، معناه: تُجَدُّ النَظَرُ، لفرط الفزع ولقرط
ذلك يَشْخُصُ الْمُحْتَضَرُّ، و«المُهْطِعُ» المسرع في مشيه؛ قاله ابن جُبَيْر وغيره^(١)، وذلك بِذَلَّةٍ
وأستكانة، كإسراع الأسير ونحوه، وهذا أرجح الأقوال، وقال ابن عباس وغيره: الإهطاع
شدة النظر من غير أن يَطْرِفَ^(٢)، وقال ابن زَيْد: «المُهْطِعُ»: الذي لا يرفع رأسه^(٣)، قال
أبو عُبَيْدَةَ: قد يكون: الإهطاعُ للوجهين جميعاً: الإسراع، وإدَامَةُ النَّظَرِ^(٤)، و«المُفْنِعُ»: هو
الذي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَدَمًا بِوَجْهِهِ نحو الشيء، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الوافر]

يُبَاكِزْنَ الْعِضَاءَ بِمُقْتَنَعَاتٍ نَّوَاكِدُهُنَّ كَالْحَدِيدِ الْوَقِيعِ^(٥)
يصفُ الإِبِلَ عند رغيها أعالي الشَّجَرِ، وقال الحسن في تفسير هذه الآية: وجوهُ
الناس يوم القيامة إلى السماء لا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ^(٦)، وذكر المبرد فيما حَكَى عنه مَكِّي:
أن الإقناع يوجد في كلام العرب بمعنى: خَفَضِ الرَّأْسِ مِنَ الذَّلَّةِ.
قال * ع^(٧): * والأول أشهر.

وقوله سبحانه: ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: لا يَطْرِفُونَ مِنَ الْحَدَرِ والجَزَعِ وشدة
الحال.

وقوله: ﴿وأفئدتهم هواء﴾: تشبيه محض، وَجِهَةُ التشبيه يحتمل أن تكون في فراغ الأفئدة
من الخَيْرِ والرَّجَاءِ والطَّمَعِ في الرحمة، فهي متخرقة مُشْبِهَةٌ الهَوَاءِ في تَفَرُّغِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ،

(١) ذكره ابن عطية (٣/٣٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (٧/٤٦٨) برقم: (٢٠٨٧١)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤/١٦٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٧/٤٦٩) برقم: (٢٠٨٧٩)، وذكره ابن عطية (٣/٣٤٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣/٣٤٤).

(٥) البيت للشماخ ينظر: «ديوانه» ص: (٢٢٠)، و«اللسان» [قنع]، و«المخصص» (١/١٤٦)، و«التاج»
حداً، نجد، قنع. والحدأة: الفأس لها رأسان، و«مجاز القرآن» (١/٣٤٣)، والطبري
(١٣/١٤٢).

(٦) ذكره البغوي (٣/٣٩)، وابن عطية (٣/٣٤٤).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٤٤).

وأنخرأقه، ويحتمل أن تكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في صدورهم، وأنها تذهب وتجيء وتبلغ على ما روي حناجرهم، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب.

وقوله سبحانه: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾: المراد باليوم: يوم القيامة، ونصبه على أنه مفعول بـ «أنذر»، ولا يجوز أن يكون ظرفاً، لأن القيامة ليست بموطن إنذار، قال الشيخ العارف بالله عبد الله بن أبي جَمْرَة: يجب التصديق بكل ما أخبر الله ورسوله به، ولا يتعرض إلى الكيفية في كل ما جاء من أمر الساعة وأحوال يوم القيامة، فإنه أمر لا تسعه العقول، وطلب الكيفية فيه ضعف في الإيمان، وإنما يجب الجزم بالتصديق بجميع ما أخبر الله به، انتهى.

قال العزالي: فأعلم العلماء وأعرف الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله، ولا اختلج به ضميره، فلو لم يكن للعاقل هم ولا غم، إلا التفكير في خطر تلك الأحوال، وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة، أو سعادة دائمة / لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر، والعجب من غفلتنا، وهذه العظائم بين أيدينا. انتهى من «الإحياء».

وقوله: ﴿أو لم تكونوا...﴾ الآية: معناه: يقال لهم، وقوله: ﴿ما لكم من زوال﴾: هو المُقسَّم عليه، وهذه الآية ناظرة إلى ما حكى الله سبحانه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَنْعَتُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥) وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخَلَّفَ وَعِدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وسكنتم...﴾ الآية: المعنى: بقول الله عز وجل: وسكنتم أيها المغرضون عن آيات الله من جميع العالم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر من الأمم السالفة، فنزلت بهم المثالات، فكان حَقُّكم أَلَعْتَبَارٌ وَالْإِتْعَازُ. وقوله: ﴿وعند الله مكرهم﴾: أي: جزاء مكرهم، وقرأ السبعة سوى الكسائي^(١): «وإن كان مكرهم لتزول»

(١) ومعنى قراءة الكسائي حينئذ: وقد كان مكرهم يبلغ في المكيدة إلى إزالة الجبال، غير أن الله ناصر دينه، ومزيل مكر الكفار ومآحقه، وحجته قراءة علي وابن مسعود: «وإن كان مكرهم لتزول»، بالدال، واللام في قراءة الجمهور لام الجحود، والمعنى: ما كان مكرهم ليزول به أمر النبي ﷺ، وأمر دين الإسلام. وحجتهم ما روي عن الحسن: «كان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال».

ينظر: «السبعة» (٣٦٣)، و«الحجة» (٣١/٥)، و«معاني القراءات» (٦٥/٢)، و«إعراب القراءات» (١/١) =

- بكسر اللام من «لَتَزُولَ» وفتح الأخيرة -؛ وهذا على أن تكون «إِنْ» نافية بمعنى «مَا»، ومعنى الآية تحقير مَكْرِهِمْ، وأنه مَا كَانَ لَتَزُولَ منه الشرائع والنبؤات وإقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها، هذا تأويل الحَسَن وجماعة المفسرين^(١) وتحتملُ عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تَعْظِيم مَكْرِهِمْ، أي: وإن كان شديداً، وقرأ الكسائي: «وإن كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» - بفتح اللام الأولى من لَتَزُولَ، وضم الأخيرة -، وهي قراءة ابن عباس^(٢) وغيره، ومعنى الآية: تعظيم مَكْرِهِمْ وشِدَّتُهُ، أي: أنه مما يشقى به، ويزيلُ الجبالَ عن مستقرَّاتها، لقوته، ولكنَّ الله تعالى أبطله ونَصَرَ أوليائه، وهذا أشدُّ في العبرة، وقرأ علي وابن مسعود وعمر بن الخطاب وأبي: «وإنْ كَادَ مَكْرُهُمْ»، وذكر أبو حاتم أن في قراءة أبي: «وَلَوْلَا كَلِمَةُ اللَّهِ لَزَالِ مِنْ مَكْرِهِمُ الْجِبَالُ».

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مَخْلُوفَ عَدُوِّهِ رُسُلُهُ...﴾ الآية: تثبيت للنبي ﷺ ولغيره من أمته، ولم يكن النبي عليه السلام ممن يَحْسَبَنَّ مثل هذا، ولكن خَرَجَتِ العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزجرِ غَيْرُهُ؛ «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ»: لا يمتنع منه شيء، ﴿ذُو انتقام﴾: من الكفرة.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِزَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ يَبْرَزْنَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٦٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٦٩) سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَتَقَشَّى وَجُوهُهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥٢) وَلِيَذَّكَّرُ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ (٥٣)

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ...﴾ الآية: ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ للانتقام المذكور قبله، وروي في تبديل الأرض أخباراً منها في الصحيح: «يُبْدِلُ اللَّهُ هَذِهِ الْأَرْضَ بِأَرْضٍ عَفْرَاءَ بَيْضَاءَ كَأَنَّهَا قُرْصَةٌ نَقِيَّةٌ»، وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يُبْدِلُهَا خُبْرَةً يَأْكُلُ الْمُؤْمِنُ مِنْهَا مِنْ

= (٣٣٦)، و«شرح الطيبة» (٤/٤٠٢)، و«العنوان» (١١٥)، و«حجة القراءات» (٣٧٩)، و«شرح شعلة» (٤٥٢)، و«النشر» (٢/٣٠٠)، و«الشواذ» (٦٩)، و«إتحاف» (٢/١٧١).

(١) أخرجه الطبري (٧/٤٧٧) برقم: (٢٠٩٣٧)، وذكره البغوي (٣/٤٠)، وابن عطية (٣/٣٤٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٥)، وعزاه لابن جرير.

(٢) نعم، قرأها هكذا ابن عباس، وابن مسعود، وعلي، وعمر، وأبي، وأبو إسحاق السبيعي، ولكن بإبدال «كاد» مكان «كان».

ينظر: «الشواذ» ص: (٧٤)، و«المحتسب» (١/٣٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/٣٤٦)، و«البحر المحيط» (٥/٤٢٦)، و«الدر المصون» (٤/٢٨٠).

تَحْتَ قَدَمَيْهِ»^(١) وروى أنها تبدل أرضاً من فضة، وروى أنها أرض كالفضة من بياضها، وروى أنها تبدل من نار.

قال * ع^(٢): «وسمعت من أبي رحمه الله؛ أنه روي أن التبدل يقع في الأرض، ولكن تبدل لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته إليه، وفريق يكون على فضة، إن صحَّ السند بها، وفريق الكفرة يكونون على نار، ونحو هذا ممَّا كله واقع تحت قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأكثر المفسرين على أن التبدل يكون بأرض بيضاء عفراء لم يغص الله فيها، ولا سفك فيها دم، وليس فيها معلَّم لأحد، وروى عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «المؤمنون وقت التبدل في ظل العرش»، وروى عنه أنه قال: «الناس وقت التبدل / على الصراط»، وروى أنه قال: الناس حينئذ أضياف الله، فلا يعجزهم ما لديهم»^(٣) وفي «صحيح مسلم» من حديث ثوبان في سؤال الحبر، وقوله: يا محمد، أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسَّمَوَاتُ؟ فَقَالَ ﷺ: «هُنَّ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجسر»^(٤) الحديث بطوله، وخرجه مسلم وابن ماجه جميعاً، قالوا: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه، ثم أسنداً عن عائشة، قالت: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قَائِنٌ يَكُونُ النَّاسُ؟ قَالَ: عَلَى الصِّرَاطِ»^(٥)، وخرجه الترمذي من حديث عائشة، قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩/١١) كتاب «الرقاق» باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، حديث (٦٥١٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣/٣٤٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٣/٧) برقم: (٢٠٩٧٦)، عن أبي أيوب الأنصاري به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٩)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الدلائل».

(٤) أخرجه مسلم (٢/٢٣٠ - ٢٣١ - نووي)، كتاب «الحيض» باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة، حديث (٣٤/٣١٥)، والبيهقي (١/١٦٩) من حديث ثوبان به.

(٥) أخرجه مسلم (٤/٢١٥٠) كتاب «صفات المنافقين» باب: في البعث والنشور، حديث (٢٩/٢٧٩)، والترمذي (٥/٢٩٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة إبراهيم، حديث (٣١٢١)، وابن ماجه (٢/١٤٣٠) كتاب «الزهد» باب: ذكر البعث، حديث (٤٢٧٩)، وأحمد (٦/٣٥)، والدارمي (٢/٣٢٨)، وابن حبان (٣٣١)، والحاكم (٢/٣٥٢) من حديث عائشة به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قلت: وقد وهما في ذلك فقد أخرجه مسلم.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٦٧)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

مَطُورِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴿[الزمر: ٦٧]، فَأَيَّنَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ يَا عَائِشَةُ»^(١)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انتهى من «التذكرة»^(٢).

﴿وترى المجرمين﴾: أي الكفار، و﴿مقرنين﴾: أي: مربوطين في قرْنٍ، وهو الحَبْلُ الذي تُشَدُّ به رؤوس الإِبِلِ والبَقَرِ، و﴿الأَصْفَادُ﴾: هي الأغلال، واجدُها صَفْدٌ، والسَّرَابِيلُ: القُمُصُ، والـ ﴿قَطِرَانٌ﴾: هو الذي تهنأ به الإِبِلُ، وللنار فيه اشتعالٌ شديدٌ، فلذلك جعل الله قُمْصَ أَهْلِ النَّارِ منه، وقرأ عمر بن الخطاب وعليُّ وأبو هريرة وابنُ عَبَّاسٍ وغيرهم^(٣): «مِنْ قَطْرِ آنٍ»، والقِطْرُ: القَضْدِيرُ، وقيل: النُّحَاسُ، وروي عن عمر أنه قال: ليس بالقِطْرَانِ، ولكِنَّهُ النُّحَاسُ يسر بلونه^(٤)، و«آن»: صفة، وهو الذائبُ الحارُّ الذي تناهى حرُّه؛ قال الحَسَنُ: قد سُعِرَتْ عليه جهنم منذ خُلِقَتْ، فتناهى حرُّه^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت...﴾ الآية: جاء من لفظة الكَسْبِ بما يعم المُسِيءَ والمُحْسِنَ؛ لينبئه على أنَّ المحسن أيضاً يجازى بإحسانه خيراً.

وقوله سبحانه: ﴿هذا بلاغٌ للناس...﴾ الآية: إشارةٌ إلى القرآن والوعيد الذي تضمنه، والمعنى: هذا بلاغٌ للناس، وهو لينذروا به وليذكروا أولو الألباب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) ينظر: «التذكرة» (٢٦٣/١).

(٣) وقرأ بها عكرمة، وعلقمة، وسعيد بن جبير، وابن سيرين، والحسن، وسنان بن سلمة بن المحبق، وعمرو بن عبيد، والكلبي، وأبو صالح، وعيسى بن عمر الهمداني، وقتادة، والربيع بن أنس، وعمرو بن فائد.

ينظر: «الشواذ» ص: (٧٤)، و«المحتسب» (٣٦٦/١)، و«المحور الوجيز» (٣٤٨/٣)، و«البحر المحيط» (٤٢٨/٥)، و«الدر المصون» (٢٨٣/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٤٨/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٧٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٤٨٦/٧) برقم: (٢٠٩٩٣)، وذكره ابن عطية (٣٤٨/٣).

تفسير سورة الحجر

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾: قال مجاهد وقتادة: ﴿الكتاب﴾: في الآية: ما نزل من الكتب قبل القرآن^(١)، ويحتمل أن يراد بـ ﴿الكتاب﴾ القرآن: ثم تُعْطَفُ الصِّفَةُ عَلَيْهِ، و«رَبِّمَا»: للتقليل، وقد تجيء شاذة^(٢) للتكثير.

وقال قوم: إن هذه مِنْ ذَلِكَ، وأنكر الزُّجَّاجُ أنْ تجيء «رُبَّ» للتكثير، واختلف المتأولون في الوقت الذي يَوْدُ فيه الكفار أن يكونوا مسلمين، فقالت فرقة: هو عند معاينة الموت، حكى ذلك الضُّحَّاك^(٣)، وقالت فرقة: هو عند معاينة أهوال يوم القيامة، وقال ابن عباس وغيره: هو عند دخولهم النار، ومعرفتهم، بدخول المؤمنين الجنة^(٤)، وروي فيه حديث من طريق أبي موسى.

(١) أخرجه الطبري (٤٨٨/٧) برقم: (٢١٠٠٤)، وابن عطية (٣/٣٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٧١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) رب: فيها قولان، أحدهما: أنها حرف جر، وزعم الكوفيون وأبو الحسن وابن الطراوة أنها اسم، ومعناها التقليل على المشهور. وقيل: تفيد التكثير. وقيل: تفيد التكثير في مواضع الافتخار، وفيها لغات كثيرة أشهرها: «رُبَّ» بالضم والتشديد والتخفيف، و«رَبَّ» بالفتح والتشديد والتخفيف، و«رُبَّ» و«رَبَّ» بالضم، والفتح مع السكون فيهما، وتتصل تاء التانيث بكل ذلك. وبالتاء قرأ طلحة بن مصرف، وزيد بن علي «رُبِّمَا» وإذا اتصلت بها التاء جاز فيها الإسكان، والفتح ك«ثُمَّتْ»، و«لَأَتْ» فتكثر الألفاظ، ولها أحكام كثيرة، منها لزوم تصديرها، ومنها تنكير مجرورها. ينظر: «الدر المصون» (٤/٢٨٥).

(٣) أخرجه الطبري (٤٩١/٧) برقم: (٢١٠٢١).

(٤) أخرجه الطبري (٤٩١/٧) برقم: (٢١٠٢٥)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢١٧٢)، وعزاه لابن المبارك في «الزهد»، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث».

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤) ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ (٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا...﴾ الآية: وعيد وتهديد، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف، وروى ابن المبارك في «واقعه»، قال: أخبرنا الأوزاعي عن عروة بن رُويم، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ وَلِدُوا فِي النَّعِيمِ، وَغَدُوا بِهِ، هِمَّتُهُمْ أَلْوَانُ الطَّعَامِ، وَأَلْوَانُ الثِّيَابِ، يَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلامِ». انتهى^(١).
وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾: وعيد ثانٍ، وحكى الطبري^(٢) عن بعض العلماء؛ أنه قال: الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فكيف تطيب حياةَ بَيْنَ هَذَيْنِ الوعيدين.
وقوله: ﴿ويلهم الأمل﴾: أي: يشغلهم أملهم في الدنيا، والتزيد منها.

قال عبد الحق في «العاية»: أغلَمَ رحمك الله أن تقصير الأمل مع حُب الدنيا متعذر، وانتظار الموت مع الإكباب عليها غير متيسر، ثم قال: وأغلَمَ أن كثرة الاشتغال بالدنيا والميل بالكلية إليها، ولذة أمانيتها تمنع مرارة ذكر الموت؛ أن ترد على القلب، وأن تلج فيه؛ لأن القلب إذا امتلأ بشيء، لم يكن لشيء آخر فيه مدخل، فإذا أراد صاحبه هذا القلب سماع الحكمة، والانتفاع بالموعظة، لم يكن له بُدٌّ من تفريقه، ليجد الذكر فيه منزلاً، وتلغى الموعظة فيه محلاً قابلاً، قال ابن السماك رحمه الله: إن الموتى لم يبكوا من الموت؛ لكنهم بكوا من حسرة الفوت، فانتهم واللّه، دار لم يتزودوا منها؛ ودخلوا داراً لم يتزودوا لها. انتهى. وإنما حصل لهم الفوت؛ بسبب استغراقهم في الدنيا، وطول الأمل الملهي عن المعاد، ألهمنا الله رشدنا بمنه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أهلكنا من قرية...﴾ الآية: أي: فلا تستبطئن هلاكهم، فليس من قرية مهلكة إلا بأجل، وكتاب معلوم محدود.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧) ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (٨) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) ﴿

﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر...﴾ الآية: القائلون هذه المقالة هم كفار قريش، و«لو ما» بمعنى: لولا، فتكون تحضيضاً؛ كما هي في هذه الآية، وفي البخاري:

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٦٢) رقم: (٧٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/٤٩٢).

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾: هَلَا تَأْتِينَا.

وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب^(١)، والظاهر أن معناه كما ينبغي ويحق من الوحي والمنافع التي أراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ثم ذكر عادته سبحانه في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح، إلا ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، والنظرة: التأخير.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾: رد على المستخفين في قولهم: ﴿يأياها الذي نزل عليه الذكر﴾، وقوله: ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: قال مجاهد وغيره: الضمير في «له» عائذ على القرآن^(٢)، المعنى: وإنا له لحافظون من أن يبدل أو يغير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْفُسُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ الآية: تسلياً للنبي ﷺ: أي: لا يضق صدرك، يا محمد، بما يفعله قومك من الاستهزاء في قولهم: ﴿يأياها الذي نزل عليه الذكر﴾، وغير ذلك، و«الشيع»: الفرقة التابعة لرأس ما.

* ت * : قال الفراء ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾: إنه من إضافة الموصوف إلى صفته كـ ﴿حَقَّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و«جَانِبِ الْغَرْبِيِّ» [القصص: ٤٤]، وتأوله البصريون على حذف الموصوف، أي: شيع الأمم / الأولين. انتهى من * ص *.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: يحتمل أن يكون الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ يعود على الذكر المحفوظ المتقدم، وهو القرآن، ويكون الضمير في «به» عائداً عليه أيضاً، ويحتمل أن يعود الضميران معاً على الاستهزاء والشرك ونحوه، والباء في «به»: بآء السبب، أي: لا يؤمنون بسبب شركهم وأستهزائهم، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ عائداً على الاستهزاء والشرك، والضمير في «به» عائداً على القرآن، والمعنى، في ذلك كله، ينظر بعضه إلى بعض،

(١) أخرجه الطبري (٤٩٣/٧) برقم: (٢١٠٢٨)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥١)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٤٧)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤/١٧٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/٣٥٢).

و﴿نسلكه﴾: معناه: ندخله، و﴿المُجْرِمِينَ﴾؛ هنا: يراد بهم كُفَّار قريش، ومعاصرو النبي ﷺ.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عموم، معناه الخصوص فيمن حُتِمَ عليه، وقوله: ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾: أي: على هذه الوتيرة، ﴿ولو فتحنا عليهم﴾، أي: على قريش وكفرة العَصْر، والضمير في قوله: ﴿فَظَلُّوا﴾ عائذٌ عليهم، وهو تأويل الحَسَنِ، و﴿يعرجون﴾: معناه يَصْعَدُونَ، ويحتمل أن يعود على الملائكة، أي: ولو رأوا الملائكة يَصْعَدُونَ ويتصَرَّفون في باب مفتوح في السماء لما آمنوا، وهذا تأويل ابن عباس^(١)، وقرأ السبعة سِوَى ابن كثير: «سُكِّرَتْ» - بضم السين وشد الكاف -، وقرأ ابن كثير^(٢) بتخفيف الكاف، تقول العرب: سَكِرَتِ الرِّيحُ تَسْكُرُ سُكُورًا، إِذَا رَكَدَتْ، ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً، وسَكِرَ الرَّجُلُ مِنَ الشَّرَابِ، إِذَا تَغَيَّرَ حاله وركَّدَ، ولم ينفذ لما كان بسبيله أن ينفذ فيه، وتقول العرب: سَكَّرْتُ البَثْقَ^(٣) في مجاري الماء سكرًا؛ إِذَا طَمَسْتَهُ وَصَرَفْتَ الماء عنه، فلم ينفذ لوجهه.

قال ع^(٤): * فهذه اللفظة «سُكِّرَتْ» - بشد الكاف - إِنْ كَانَتْ مِنْ سُكْرِ الشَّرَابِ، أَوْ مِنْ سُكُورِ الرِّيحِ، فَهِيَ فِعْلٌ عُذِّيٌّ بِالتَّضْعِيفِ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ سَكْرِ مَجَارِي الْمَاءِ، فَتَضْعِيفُهَا لِلْمَبَالِغَةِ، لَا لِلتَّعْذِي، لِأَنَّ الْمُخَفَّفَ مِنْ فِعْلِهِ مُتَعَدٍّ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ مِنْهُمْ: أَي: غَيَّرْتُ أَبْصَارَنَا عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَنْفِذُ وَتَعْطِينَا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ: كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧) ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَأَلْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٨) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَوْبَقْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩) ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِجَاءٍ مَعِيشَ وَمَنْ لَشْتُمْ لَهُمْ إِنْزِلَيْنَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِإِقْدَارٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١)

(١) أخرجه الطبري (٤٩٦/٧) برقم: (٢١٠٤٣)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧٦/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٦٦)، و«الحجة» (٤٣/٥)، و«إعراب القراءات» (١/٣٤٣)، و«معاني القراءات» (٢/٦٨)، و«العنوان» (١١٦)، و«شرح الطيبة» (٤/٤٠٦)، و«شرح شعلة» (٤٥٣)، و«حجة القراءات» (٣٨٢ - ٣٨١)، و«إتحاف» (٢/١٧٤).

(٣) البثق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه.

ينظر: «لسان العرب» (٢٠٨)، و«المعجم الوسيط» (٣٨).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٥٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾: «البروج»: المنازل، واحدها بُرْج، وسمي بذلك لظهوره؛ ومنه تَبَرَّج المرأة: ظهورها وبدوها، و«حِفْظ السماء»: هو بالرجم بالشُّهْب؛ على ما تضمنته الأحاديثُ الصَّحاح، قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَقْرُبُ مِنَ السَّمَاءِ أَفْوَاجًا، قَالَ: فَيَنْفَرُ الْمَارِدُ مِنْهَا، فَيَعْلُو فَيَسْمَعُ، فَيَرْمَى بِالشَّهَابِ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا، فَيَزِيدُ الشَّيَاطِينَ فِي ذَلِكَ، وَيُلْقُونَ إِلَى الْكَهَنَةِ، فَيَزِيدُونَ مَعَ الْكَلِمَةِ مِائَةً وَتَحْوُ هَذَا...» الحديث^(١): و«إِلَّا»: بمعنى: «لَكِنْ»، ويظهر أن الاستثناء من الحِفْظ، وقال محمد بن يحيى عن أبيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾، فإنها لم تُحْفَظْ منه.

وقوله: / ﴿موزون﴾: قال الجمهور: معناه: مقدر محرر بقصد وإرادة، فالوزن على ١٢٧٤ هذا: مستعار.

وقال ابن زَيْد: المراد ما يُوزَنُ حقيقة؛ كالذهب والفضة وغير ذلك مما يُوزَنُ^(٢)، وال ﴿معايش﴾: جمع مَعِيشَةٍ، وقوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾: يحتمل أن يكون عطفًا على ﴿معايش﴾؛ كأن الله تعالى عدّد النعم في المعايش، وهي ما يؤكل ويلبس، ثم عدّد النعم في الحيوان والعبيد وغير ذلك ممّا يتفّع به النَّاسُ، وليس عليهم رِزْقُهُمْ. وقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾.

قال ابن جُرَيْج: هو المطر خاصّة^(٣).

قال * ع^(٤): * وينبغي أن يكون أعمّ من هذا في كثير من المخلوقات.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذْتُمْهُوْا مِمَّا أَنْشَأَ لَكُمْ بَحْرَيْنِ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَنُؤْتِي وَيْحَ الْوَارِثِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَفَقِّدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَسَخِّرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَافِحَ﴾: أي: ذات لفتح؛ يقال: لقحت الناقة والشجر، فهي لاقحة، إذا حملت، فالوجه في الرِّيح مُلْقِحَةٌ، لا لاقحة، قال الداوودي:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٤/٧) برقم: (٢١٠٨٨)، والبغوي ذكره (٤٧/٣)، وابن عطية (٣٥٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧٧/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٥٠٤/٧) برقم: (٢١٠٩٥)، وذكره ابن عطية (٣٥٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧٨/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٥٥/٣).

وعن ابن عُمر: الرِّياحُ ثمان: أَرْبَعُ رَحْمَةٍ، وأَرْبَعُ عَذَابٍ؛ فالرحمة: المرسلات، والمُبَشِّرَات، والنَّاشِرَات، والدَّارِيَات، وأما العذاب: فالصَّرَصَرُ، والعقيم، والقاصِفُ، والعاصِفُ، وهما في البَحْرِ. انتهى.

وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت...﴾ الآيات: هذه الآيات مع الآيات التي قبلها تَضَمَّنَت العِبْرَةَ والدَّلَالَةَ على قدرة الله تعالى، وما يُوجِبُ توحيدَهُ وعبادَتَهُ، المعنى: وإنا لنَحْنُ نحيي من نشاء بإخراجه من العَدَمِ إلى وجودِ الحياة، ونميت بإزالة الحياة عَمَّنْ كان حَيًّا، ﴿ونحن الوارثون﴾، أي: لا يَبْقَى شيء سوانا، وكلُّ شيء هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لا رَبَّ غَيْرَهُ.

﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾: أي: من لَدُنْ آدم إلى يوم القيامة، قال ابن العربي في «أحكامه»: روى الترمذي وغيره في سبب نُزُولِ هذه الآية، عن ابن عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ أَمْرَأَةٌ تَصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قال ابن عَبَّاسٍ: وَلَا، وَاللَّهِ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قال: فَكَانَ بَغْضُ الْمُسْلِمِينَ، إِذَا صَلَّوْا تَقَدَّمُوا، وَبَعْضُهُمْ يَسْتَأْخِرُ، فَإِذَا سَجَدُوا نَظَرُوا إِلَيْهَا مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(١)، ثم قال ابن العربي: في شَرْحِ المَرَادِ بهذه الآية خَمْسَةُ أَقْوَالٍ:

أحدها: هذا.

القول الثاني: المتقدمين في الخَلْقِ إلى اليوم، والمتأخرين الذين لم يخلقوا بَعْدَ، بيان أن الله يَعْلَمُ المَوْجُودَ والمَعْدُومَ، قاله قتادة وجماعة^(٢).

الثالث: مَنْ مات، وَمَنْ بَقِيَ؛ قاله ابن عَبَّاسٍ أيضاً^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الحجر، حديث (٣١٢٢)، وأحمد (١/٣٠٥)، والنسائي (١١٨/٢) كتاب «الإمامة» باب: المنفرد خلف الصف، حديث (٨٧٠)، وابن ماجه (٣٣٢/١) كتاب «الصلاة» باب: الخشوع في الصلاة، حديث (١٠٤٦)، والطيالسي (٢٠/٢ - منحة) رقم: (١٩٦٠)، وابن خزيمة (١٦٩٦ - ١٦٩٧)، وابن حبان (١٧٤٩ - موارد)، والحاكم (٣٥٣/٢)، والبيهقي (٧٨/٣)، والطبراني في «الكبير» (١٧١/١٢) رقم: (١٢٧٩١)، من طريق أبي الجوزاء، عن ابن عباس مرفوعاً به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه ابن خزيمة، وابن حبان، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وينظر: «الدر المنثور» (١٨٠/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٧/٧) برقم: (٢١١٦) بنحوه، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٩/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥٠٨/٧) برقم: (٢١١٢١)، وذكره البغوي (٤٨١٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

الرابع: المستقدمين: سائر الأمم، والمستأخرين أمة سيدنا محمد ﷺ قاله مجاهد^(١).

الخامس: قال الحسن: معناه: المتقدمين في الطاعة، والمستأخرين في المعصية^(٢).

انتهى.

* ت *: والحديث المتقدم، إن صح، فلا بد من تأويله، فإن الصحابة ينزّهون عن فعل ما ذُكر فيه، فيؤول بأن ذلك صدر من بعض المنافقين، أو بعض الأعراب الذين قرب عهدهم بالإسلام، ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم، وأما ابن عباس، فإنه كان يومئذ / صغيراً ب ٢٧٤ بلا شك، هذا إن كانت الآية مدنية، فإن كانت مكية، فهو يومئذ في سن الطفولية، وبالجمله فالظاهر ضعف هذا الحديث من وجوه. انتهى، وباقي الآية بين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦) ﴿وَالْحَمْدُ لَكُمْ مَنْ قَبْلُ مِنْ تَارِ السَّمُورِ﴾ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَتَّبِعْ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٣٣) ﴿

﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾: يعني: آدم، قال ابن عباس: خلق من ثلاثة: من طين لازب، وهو اللازق الجيد، ومن صلصال، وهو الأرض الطيبة يقع عليها الماء، ثم ينحسر؛ فيتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حملا مسنون، وهو الطين فيه الحمأة^(٣)، والـ ﴿مسنون﴾: قال معمر: هو المُنْتِن^(٤)، وهو من أسن الماء؛ إذا تَغَيَّرَ، ورَدَّ من جهة التصريف، وقيل غير هذا، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ التُّرَابِ: الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ، وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ»^(٥).

وقوله: ﴿وَالْجَانَّ﴾: يراد به: جنس الشياطين، وسئل وهب بن مُنبِّه عنهم، فقال هم

(١) أخرجه الطبري (٥٠٩/٧) برقم: (٢١١٢٩)، وذكره البغوي (٤٨١٣).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٩/٧) برقم: (٢١١٣٢)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٥١١/٧) برقم: (٢١١٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ في «العظمة».

(٤) أخرجه الطبري (٥١١/٧) برقم: (٢١١٦٠)، وذكره ابن عطية (٣/٣٥٩).

(٥) تقدم تخريجه من سورة البقرة.

أجناس^(١).

قال * ع^(٢) : * والمراد بهذه الخَلْقَة إبليسُ أبو الجنِّ، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ لأنَّ إبليسَ خُلِقَ قبلَ آدمَ بمدة، و﴿السَّمُومُ﴾؛ في كلام العرب: إفراطُ الحرِّ حتى يقتل: مِنْ نارٍ، أو شمسٍ، أو ريحٍ، وأمَّا إضافة «النار» إلى «السَّمُومِ» في هذه الآية، فيحتملُ أن تكون النار أنواعاً، ويكون السَّمُومُ أمراً يختصُّ بنوعٍ منها، فتصحُّ الإضافة حينئذٍ، وإن لم يكن هذا، فيخرج هذا على قولهم: «مَسْجِدُ الْجَامِعِ، وَدَارُ الْآخِرَةِ»؛ على حذف مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾:

أخبر الله سبحانه الملائكةَ بعُجْبِ عندهم، وذلك أنهم كانوا مَخْلُوقِينَ مِنْ نُورٍ، فهي مخلوقاتٌ لطافٌ، فأخبرهم سبحانه أنه يَخْلُقُ جسماً حياً ذا بَشَرَةٍ، وأنه يخلقه من صلصالٍ، والبَشَرَةُ هي وَجْهُ الجِلْدِ في الأشهر من القول، وقوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾: إضافة خَلْقٍ وَمِلْكٍ إلى خالقي ومالك، وقول إبليس: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ...﴾ الآية: ليس إِبَاءَتُهُ نَفْسَ كُفْرِهِ عِنْدَ الْحَذَاقِ؛ لأنَّ إِبَاءَتَهُ إِنَّمَا هِيَ مَعْصِيَةٌ فَقَطْ، وإِنَّمَا كُفْرُهُ بِمَقْتَضَى قَوْلِهِ، وتعليلِهِ، إِذْ يَقْتَضِي أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقاً مَفْضُولاً، وَكَلَّفَ خَلْقاً أَفْضَلَ مِنْهُ؛ أَنْ يَذِلَّ لَهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وهذا جَوْزٌ، وقد تقدَّم تفسير أكثر هذه المعاني.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِكَّ يَوْمِ الدِّينِ ۖ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِكَّ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۖ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ إِكَّ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: قال أبو عُبَيْدَةَ وغيره: أَفْسَمَ بِالْإِغْوَاءِ^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٥١٤/٧) برقم: (٢١١٧٠)، وذكره البغوي (٤٩١٣) بنحوه، وابن عطية (٣/٣٥٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٥٩).

(٣) ذكره ابن عطية (٣/٣٦٢).

قال * ع^(١) * : كأنه جعله بمنزلة قوله: ربِّ بقدرتِكَ عليّ، وقضائِكَ، ويحتملُ أن تكون بَاءُ السَّبَبِ.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿هذا صراطٌ عليّ مستقيم﴾: المعنى: هذا أمرٌ إليّ يصيرُ؛ والعربُ تقول: طريقتُك في هذا / الأمرِ على فلانٍ، أي: إليه يصيرُ النظرُ في أمرِكَ، والآيةُ تتضمنُ ١٢٧٥ وعيداً، وظاهرُ قوله: ﴿عبادي﴾: الخصوصُ في أهل الإيمان والتقوى، فيكون الاستثناءُ منقطعاً، وإن أخذنا العبادَ عموماً، كان الاستثناءُ متصلاً، ويكون الأقلُّ في القدر من حيث لا قَدَرٌ للكفار؛ والنظرُ الأولُ أحسنُ، وإنما العَرَضُ ألا يقع في الاستثناءِ الأكثرُ من الأقل، وإن كان الفقهاء قد جَوَّزوه.

وقوله: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾: أي: موضعُ اجتماعهم، عافانا الله من عذابه بمنه، وعاملنا بمنحُص جوده وكرمه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلَامٍ ؕ آمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُحْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَجَّى عِبَادِيَ الَّذِينَ أَنَا أَعْلَمُ الرَّحِيمِ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن المتقين في جناتٍ وعيونٍ * ادخلوها بسلام﴾ الآية: ال ﴿سلام﴾؛ هنا: يحتمل أن يكون السَّلامُ، ويحتمل أن يكون التحيّة، وال ﴿غَلٍّ﴾: الحقد، قال الداوديّ: عن النبي ﷺ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ...﴾ الآية، قال: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الصُّرَاطِ، حُبِسُوا عَلَى صِرَاطٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ بِمِطَالِمٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَتُقَوَّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَاللَّهُ، لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ مَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا»^(٢). انتهى.

وال ﴿سُرُرٍ﴾: جمع سرير، و﴿متقابلين﴾: الظاهر أن معناه: في الوجوه، إذ الأسرةُ متقابلةٌ، فهي أحسنُ في الرتبة.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٢١) رقم: (٢١٢٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

قال مجاهد: لَا يَنْظُرُ أَحَدُهُمْ فِي قَفَا صَاحِبِهِ^(١)، وقيل غير هذا مما لَا يُعْطِيهِ اللَّفْظُ،
وال ﴿نَصَبٌ﴾: التَّعَبُ، و﴿نَبِيٌّ﴾: مَعْنَاهُ: أَعْلَمُ.

قال العَزَالِيُّ رحمه الله في «منهاجه»: «ومن الآيات اللطيفة الجامعة بَيْنَ الرِّجَاءِ
وَالْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ثم قال في عَقِبِهِ: ﴿وَأَنَّ
عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾؛ لِئَلَّا يَسْتَوْلِيَ عَلَيْكَ الرِّجَاءُ بِمَرَّةٍ، وقوله تَعَالَى: ﴿شَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، ثم قال في عَقِبِهِ: ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، لِئَلَّا يَسْتَوْلِيَ عَلَيْكَ
الْخَوْفُ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ثم قال
في عَقِبِهِ: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وَأَعْجَبُ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ
الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، فَعَلَّقَ الْخَشْيَةَ بِأَسْمِ الرَّحْمَنِ، دون اسم الْجَبَّارِ أوِ الْمُنتَقِمِ أوِ
الْمُتَكَبِّرِ ونحوه، ليكون تخويفاً في تَأْمِينٍ، وتحريكاً في تَسْكِينٍ كما تقول: «أما تخشى
الوالدةَ الرحيمة، أما تخشى الوالدَ الشَّفِيقَ»، والمراد من ذلك أَنَّ يَكُونَ الطَّرِيقُ عدلاً، فلا
تذهب إلى أَمْنٍ وقنوط جعلنا الله وإياكم من المتدبرين لهذا الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الْعَامِلِينَ بما
فيه، إِنَّهُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ انتهى.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا
تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ (٥٤) قَالُوا
بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاطِنِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)

وقوله سبحانه: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية: هذا ابتداء قصصٍ بعد
أنصرام الغرض الأول، و«الضيف»: مصدرٌ وصف به، فهو للواحدِ ولأثنين والجمع،
والمذكر والمؤنث؛ بلفظ واحد، وقوله: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾، أي: فزعون، وإِنَّمَا وَجَلْ
منهم؛ لما قَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْعَجَلُ الْحَنِيدَ، فلم يرهَم يَأْكُلُونَ، وكانت عندهم العلامةُ الْمُؤْمَنَةُ أَكْلُ
الطعام؛ وكذلك هو في غَايِرِ الدَّهْرِ أُمَّتُهُ لِلنَّازِلِ، والمنزول به.

وقوله: ﴿أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾، أي: في حالةٍ قد مَسَّنِيَ فِيهَا الْكِبَرُ، وقول إبراهيم عليه
السلام: ﴿فَبِمَ تَبَشِّرُونِ﴾: / تقرير على جهة التعجب والاستبعاد، لكبرهما، أو على جهة
الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات الدنيوية، لمضي العمر، وأستيلاء الكِبَرِ، وقولهم:

(١) أخرجه الطبري (٥٢١/٧) برقم: (٢١٢١١)، وذكره ابن عطية (٣/٣٦٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٥٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٨٩)، وعزاه لهناد، وابن أبي شيبة، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿بشرناك بالحق﴾: فيه شدةٌ ما، أي: أبشُر بما بُشِّرْتَ به، ولا تُكُن من القانِطِينَ، والقنوط: أتمُّ اليأس.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٥٨) ﴿إِلَّا مَا لَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَنَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ﴾ (٦٢) ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٦٣) ﴿وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٦٤) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥)

وقوله سبحانه: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾: لفظةُ الخُطبِ إنما تستعمل في الأمور الشَّداد، وقولهم: ﴿إلا آل لوط﴾: استثناءٌ منقطعٌ، و«الآل»: القومُ الذي يؤولُ أمرهم إلى المضافِ إليه؛ كذا قال سيِّوْنِي؛ وهذا نصٌّ في أن لفظة «آل» ليست لفظة «أهل»؛ كما قال اللُّحَاس، و﴿إلا امرأته﴾: استثناءٌ متصلٌ، والاستثناءُ بعد الاستثناءِ يردُّ المستثنى الثاني في حُكْم الأمر الأول، و﴿الغابرين﴾؛ هنا: أي: الباقين في العذاب، و﴿وعبر﴾: من الأضداد، يقال في الماضي وفي الباقي، وقولُ الرُّسل للوط: ﴿بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾، أي: بما وعدك الله من تعذيبهم الذي كانوا يشكُّون فيه، و«القطع»: الجزء من الليل.

وقوله سبحانه: ﴿واتبع أدبارهم﴾، أي: كن خلفهم، وفي ساقطهم، حتى لا يبقى منهم أحد، ﴿ولا يلتفت﴾: مأخوذٌ من الالتفاتِ الذي هو نظر العين، قال مجاهد: المعنى: لا ينظر أحد وراءه،^(١) ونُهِوا عن النظرِ مَخَافَةَ الْعُلُقَةِ، وتعلَّقَ النَّفْسُ بِمَنْ خَلْفَ، وقيل: لِئَلَّا تَنْفَطِرَ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَعَايِنَةِ مَا جَرَى عَلَى الْقَرْيَةِ فِي رَفْعِهَا وَطَرْجِهَا.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (٦٦) ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُون﴾ (٦٨) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ (٦٩) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ أَوْلَىٰ﴾ (٧٠) ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١) ﴿لَمَّا كُنْتُمْ لِي سَكَنًا لِّمَن يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُثْرِقِينَ﴾ (٧٣) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّئِينَ﴾ (٧٥) ﴿وَأَنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيٍّ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧)

وقوله سبحانه: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾، أي: أمضينا وحُكْمنا به، ثم أدخل في

(١) أخرجه الطبري (٥٢٥/٧) برقم: (٢١٢٢٠)، وذكره ابن عطية (٣/٣٦٨).

الكلام إِيَّاهُ من حيثُ أَوْحِيَ ذلكَ إِلَيْهِ، وأعلمه الله به، وقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي: بالأضياف طَمَعاً منهم في الفاحِشَةِ، وقولهم: ﴿أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: روي أنهم كانوا تَقَدَّمُوا إِلَيْهِ فِي الْأَيَّاضِ أَحَدًا، والعمر والعمر - بفتح العين وضمها - واحدٌ، وهما مدة الحياة، ولا يستعملُ في القَسَمِ إِلَّا بِالْفَتْحِ، وفي هذه الآية شَرَفٌ لِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ، ولم يفعل ذلك مع بَشَرٍ سِوَاهُ؛ قاله ابن عباس^(١).

* ت * وقال: * ص *: اللام في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ للابتداء، والكاف خطابٌ لِلْوَطِ عليه السلام، والتقدير: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: لَعَمْرُكَ، واقتصر على هذا.

وما ذَكَرَهُ * ع^(٢): * هو الذي عَوَّلَ عَلَيْهِ عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ.

وقال ابن العربي في «أحكامه»: قال المفسرون بأجمعهم: أَقْسَمَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا أَذْرِي مَا أَخْرَجَهُمْ عَنْ ذِكْرِ لُوطٍ إِلَى ذِكْرِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا الْمَانِعُ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ بِحَيَاةِ لُوطٍ، وَيَبْلُغَ بِهِ مِنَ التَّشْرِيفِ مَا شَاءَ، وَكُلُّ مَا يُعْطِي اللَّهُ لِلْوَطِ مِنْ فَضْلٍ، وَيُؤْتِيهِ مِنْ شَرَفٍ، فَلَنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ضَعْفَاهُ؛ لِأَنَّهُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ، وَإِذَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِحَيَاةِ لُوطٍ، فَحَيَاةِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَزْفَعُ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ كَلَامٍ إِلَى كَلَامٍ آخَرَ غَيْرِهِ، لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ؛ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ. انتهى

* ت *: وما ذَكَرَهُ الْجُمْهُورُ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الْخُطَابَ خُطَابُ مُوَاجَهَةٍ؛ وَلِأَنَّهُ تَفْسِيرُ صَحَابِيٍّ، وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى غَيْرِهِ.

و﴿يَعْمَهُونَ﴾: معناه: يترددون / في حيرتهم، و﴿مُشْرِقِينَ﴾: معناه: قد دَخَلُوا فِي الْإِشْرَاقِ، وَهُوَ سَطْوُ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَظُهُورُهُ؛ قَالَ ابْنُ^(٣) زَيْدٍ، وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ هِيَ صَيْحَةُ الْوُجْبَةِ، وَلَيْسَتْ كَصَيْحَةِ ثَمُودَ، وَأَهْلَكُوا بَعْدَ الْفَجْرِ مُضْبِحِينَ، وَأَسْتَوْفَاهُمْ الْهَلَاكُ مُشْرِقِينَ، وَبَاقِي قِصَصِ الْآيَةِ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٧/ ٥٢٦) بِرَقْمٍ: (٢١٢٣٠)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٣/ ٥٥)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/ ٣٦٩)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/ ٥٥٥)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (٤/ ١٩٢)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ وَالْحَرِثِ بْنِ أَبِي أَسَامَةَ، وَأَبُو يَعْلَى، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ، وَأَبُو نَعِيمٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ مَعًا فِي «الدَّلَائِلِ».

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٣/ ٣٦٩).

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣/ ٣٧٠).

و«المتوسمين»: قال مجاهد: المتفرسون^(١)، وقال أيضاً: المعتبرون^(٢)، وقيل غير هذا، وهذا كله تفسير بالمعنى، وأما تفسير اللفظة، فالمتوسم هو الذي ينظر في وسم المعنى، فيستدل به على المعنى، وكأن معصية هؤلاء أبقت من العذاب والإهلاك وسماء، فمن رأى الوسم، استدل على المعصية به وأقتاده النظر إلى تجنب المعاصي؛ لئلا ينزل به ما نزل بهم؛ ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر: [الطويل]

تَوَسَّمْتُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً عَلَيْهِ وَقُلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ^(٣)
والضمير في قوله: «وإنها لبسبيل مقيم»: يحتمل أن يعود على المدينة المهلكة، أي: أنها في طريقي ظاهر بين للمعتبر، وهذا تأويل مجاهد وغيره^(٤)، ويحتمل أن يعود على الآيات، ويحتمل أن يعود على الحجازة، ويقويه ما روي عنه عليه السلام؛ أنه قال: «إِنَّ حِجَارَةَ الْعَذَابِ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُنْذُ أَلْفِي سَنَةٍ لِعَصَاةِ أُمَّتِي».

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَإِيْمَارٌ مُبِينٌ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآيَيْنَاهُمْ مَا بُدِنُوا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْجُوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتُوا مِنْهَا حِجَابٌ رَحِيماً ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مَوْجِعِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

وقوله سبحانه: «وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم»: ﴿الأيكة﴾: الغيضة والشجر الملتف المخضر، قال الشاعر: [الطويل]

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةٌ أَيْكَةٌ إِذَا أَخْضَرَ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ^(٥)
وكان هؤلاء قوماً يسكنون غيضة، ويرتفعون بها في معاشهم، فبعث إليهم شعيب، فكفروا به، فسلب الله عليهم الحر، فدام عليهم سبعة أيام، ثم رأوا سحابة، فخرجوا،

(١) أخرجه الطبري (٥٢٧/٧)، وذكره البغوي (٥٥/٣)، وابن عطية (٣٧٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» (١٩٢/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «المعظمة».

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٤٤٤/٥)، والقرطبي (٤٣/١٠)، و«الدر المصون» (٣٠٥/٤)، و«روح المعاني» (٧٤/١٤).

(٤) أخرجه الطبري (٥٢٩/٧) برقم: (٢١٢٥٦)، وذكره البغوي (٥٥/٣)، وذكره ابن عطية (٣٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٣/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٣٧١/٣).

فَاسْتَظَلُّوا بِهَا، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا، وَحَكِي^(١) الطبريُّ قَالَ: بُعِثَ شَعِيبٌ إِلَى أُمَّتَيْنِ، فَكَفَرْتَا، فَعَذَّبْنَا بَعْدَانِيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: أَهْلَ مَذْيَنَ عَذَّبُوا بِالصَّيْحَةِ، وَأَصْحَابَ الْاَيْكَةِ بِالظُّلَّةِ^(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا لِبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾: الضميرُ في «إِنَّمَا»: يحتملُ أن يعودَ على مدينةِ قومِ لوطٍ، ومدينةِ أصحابِ الأيكةِ، ويحتملُ أن يعودَ على لوطٍ وشُعَيْبٍ عليهما السلام، أي: إِنَّمَا على طريقِ من الله وَسَّرَعَ مُبِينٍ، و«الإمامُ»، في كلامِ العرب: الشيء الذي يهتدى به، وَيُؤْتَمُّ به؛ فقد يكونُ الطريقُ، وقد يكونُ الكتابُ، وقد يكونُ الرَّجُلُ المقتدى به، ونَحْوُ هذا، وَمَنْ رأى عودَ الضميرِ على المدينتين، قال: «الإمام»: الطريقُ، وقيلَ على ذلك الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما، و«أصحاب الجحجر»: هم ثمود، وقد تقدَّم قصصهم، و«الجحجر»: مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتَبُوك، وقال: «المرسلين»: من حيث يلزم من تكذيبِ رسولٍ واحدٍ تكذيبَ الجميع، إِذِ القولُ في المعتقداتِ واحدٌ.

وقوله: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمَنِينَ﴾: «النحت»: الثَّقَرُ بالمعاولِ، و«آمنين»: قيل: معناه: من أَنهدامها، وقيل: مِنْ حَوَادِثِ الدُّنْيَا، وقيل: من الموتِ؛ لا غتراهم بطول الأعمار، وَأَصْح ما يظهر في ذلك؛ أَنهم كانوا يَأْمَنُونَ عَوَاقِبَ / الآخِرَةِ، فكانوا لا يَعْمَلُونَ بحسبها.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾، أي: لم تخلق عبثاً ولا سدى، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾، أي: فلا تهتمَّ يا مُحَمَّدُ بأعمالِ الكُفْرَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَهُم بِالْمِزْصَادِ، وقوله عَزَّ وَجَلَّ؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾: ذهب ابنُ مسعودٍ وغيره إلى أن السَّبْعَ المَثَانِي هُنَا هي السَّبْعُ الطُّوَالُ: «البقرة»، و«أل عمران»، و«النساء»، و«المائدة»، و«الأنعام»، و«الْمَصَّ»، و«الأنفال» مع «براءة»^(٣)، وذهب جماعةٌ من الصحابةِ وَمَنْ بعدهم

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٣٠/٧).

(٢) الظُّلَّة: سحابة أنشأها الله تعالى كان فيها عذاب مدين؛ قيل: أصابهم ذلك اليومُ حَرٌّ عظيمٌ إلى أن كادوا يهلكون، فأرسل الله ظلة كثيفة، أي: سحابة متراكمة، فهرعوا إليها يستجiron بها من الحر، فلما تكاملوا تحتها أطبقت عليهم بعذابها، فلم ير يوم مثله.

ينظر: «عمدة الحفاظ» (١٠/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥٣٣/٧) برقم: (٢١٢٨١) بنحوه وذكره ابن عطية (٣٧٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٦/٤)، وعزاه لابن جرير.

إلى أن السبغ هنا: آيات الفاتحة، وهو نص حديث أبي بن كعب وغيره^(١).

* ت * : وهذا هو الصحيح، وقد تقدّم بيان ذلك أول الكتاب.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨٨)
 وَقُلْ إِنَّا أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: حكى الطبري عن سفيان بن عيينة؛ أنه قال: هذه الآية أمة بالاستغناء بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا^(٢).

قال * ع^(٣) * : فكأنه قال: آتيناك عظيماً خطيراً، فلا تنظر إلى غير ذلك من أمور الدنيا وزينتها التي متّعنا بها أنواعاً من هؤلاء الكفرة؛ ومن هذا المعنى: قول النبي ﷺ: «مَنْ أُوْتِيَ الْقُرْآنَ، فَرَأَىٰ أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ، فَقَدْ عَظَّمَ صَغِيرًا وَصَغَّرَ عَظِيمًا».

* ت * : وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: «لَا وَاللَّهِ، مَا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِلَّا مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا...» الحديث، وفي رواية: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا»، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ...» الحديث، وفي رواية: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا...» الحديث، انتهى. والأحاديث في هذه الباب أكثر من أن يحصيها كتاب، قال الغزالي في «المنهاج»: وإذا أنعم الله عليك بنعمة الدين، فإياك أن تلتفت إلى الدنيا وحطامها، فإن ذلك منك لا يكون إلا بضرب من التهاون بما أولاك مولاك من نعم الدارين؛ أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ... الآية، تقديره: إن من أوتي القرآن العظيم حقاً له ألا ينظر إلى الدنيا الحقيرة نظرة باستحلاء، فضلاً عن أن يكون له فيها رغبة، فليترجم الشكر على ذلك، فإنه الكرامة التي حرص عليها الخليل لأبيه، والمصطفى عليه السلام لعمه، فلم يفعل، وأما حطام الدنيا، فإن الله سبحانه يصبّه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق

(١) أخرجه الطبري (٥٣٧/٧) برقم: (٢١٣٢٦).

(٢) ذكره الطبري (٥٤٢/٧)، وذكره البغوي (٥٨١٣) بنحوه، وابن عطية (٣/٣٧٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٩٨)، وعزاه لابن المنذر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٧٤).

وجاهلٍ وفاسقٍ؛ الذين هم أَهْوَنُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَيَضُرُّهُ عَنْ كُلِّ نَبِيٍّ وَصَفِيٍّ وَصِدِّيقٍ وَعَالِمٍ وَعَابِدٍ؛ الذين هم أَعَزُّ خَلْقِهِ عَلَيْهِ؛ حتى إنهم لا يَكَادُونَ يُصِيبُونَ كِسْرَةً وَخِزْفَةً، وَيَمْنُ عَلَيْهِمْ سَبْحَانَهُ بَأَلَّا يَلْطَخَهُمْ بِقَدْرَهَا، انتهى.

وقال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: المعنى: أعطيناكَ الآخِرَةَ، فلا تنظرُ إلى الدنيا، وقد أعطيناكَ العلمَ، فلا تتشاغلُ / بالشهواتِ، وقد مَنَحْنَاكَ لَذَّةَ القَلْبِ، فلا تنظرُ إلى لذةِ البَدَنِ، وقد أعطيناكَ القرآنَ، فاستغنى به، فَمَنْ استغنى به، لا يطمَحُ بنظره إلى زخارف الدنيا، وعنده مَعَارِفُ المولى، حَيَّيْ بالباقي، وفَنِّي عن الفاني. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وقلْ إِنِّي أَنَا النذِيرُ الْمُبِينُ﴾ * كما أنزلنا على الْمُقْتَسِمِينَ.

قال * ع^(٢): * والذي أقولُ به في هذا: أَنَّ المعنى: وقلْ أَنَا نَذِيرٌ، كما قال قبلَكَ رُسُلُنَا، ونزلنا عليهم كما أنزلنا عليك، وأختلف في «المقتسمين»، مَنْ هُمْ؟ فقال ابن عباس، وابن جُبَيْر: «المقتسمون»: هم أَهْلُ الكِتَابِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وَجَعَلُوا كِتَابَ اللَّهِ أَعْضَاءَ، آمَنُوا بَبَعْضٍ، وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ؛ وقال نخوَه مجاهد^(٣)، وقالت فرقة: «المقتسمون»: هم كفار قريش جعلوا القرآنَ سِخْرًا وَشِغْرًا وَكَهَانَةً، وجعلوه أَعْضَاءَ بهذا التقسيم، وقالت فرقة: «عِصِينَ»: جمعُ عَصَةٍ، وهي أَسْمٌ للسِّخْرِ خَاصَّةٌ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ؛ وقاله عكرمة^(٤).

* ت * وقال الواحدي: كما أنزلنا عذاباً على المقتسمين الذين أَقْتَسَمُوا طُرُقَ مَكَّةَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ. انتهى من «مختصره».

﴿فَوَرَبِّكَ لَشَفَعْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٦) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٣٦/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٤/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥٤٣/٧) برقم: (٢١٣٦٨)، وبرقم: (٢١٣٧٢)، وذكره ابن عطية (٣٧٤/٣)،

وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٨/٤)، وعزاه للبخاري،

وسعيد بن منصور، والحاكم، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (٥٤٧/٧) برقم: (٢١٣٩٢)، وبرقم: (٢١٣٧٢)، وذكره ابن عطية (٣٧٤/٣)،

وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٨/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٨/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور،

وابن المنذر، وابن جرير.

أَلَيْقِثُ ﴿٩٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَورِكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ...﴾ الآية: ضميرٌ عامٌّ، ووعيدٌ محضٌ، يأخذ كلُّ أحدٍ منه بحَسَبِ جُزْمِهِ وَعِضْيَانِهِ، فالكافرُ يسألُ عن التوحيدِ والرسالةِ، وعن كُفْرِهِ وَقُضْدِهِ بِهِ، والمؤمنُ العاصيُ يسألُ عَنْ تَضْيِيعِهِ، وكلُّ مكلفٍ عما كُلِّفَ الْقِيَامُ بِهِ؛ وفي هذا المعنى أحاديثٌ، قال ابن عباس في هذه الآية يقال لهم: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، قال: وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]: معناه: لا يقال له: مَاذَا أَذْنَبْتَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَ بِذَنْبِهِ مِنْهُ^(١)، وقوله سبحانه: ﴿فَأُصْذِغَ بِمَا تَوَمَّرَ﴾: «أُصْذِغَ»: معناه: أَتْفِذُ، وَصَرَّحَ بِمَا بُعِثْتُ بِهِ.

وقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ﴾: من آيات المهادنة التي نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ^(٢)؛ قاله ابن عباس، ثم أعلمه الله تعالى بأنه قد كَفَّاهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ بِبَوَائِقِ أَصَابَتْهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال ابن إسحاق وغيره: وَهُمْ الَّذِينَ قُذِفُوا فِي قَلْبِ بَذْرِ؛ كَأَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾: آية تأنيس للنبي ﷺ، و﴿الْيَقِينَ﴾؛ هنا: الموت؛ قاله ابن^(٣) عمر وجماعة، قال الداودِيُّ: وعن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ الْمَالَ، وَأَكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَتَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَأَعْبُدَ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينَ»^(٤). انتهى، وباقِي الآية بَيِّنٌ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

(١) أخرجه الطبري (٥٤٨/٧) برقم: (٢١٤٠٣)، وذكره البغوي (٥٨/٣)، وابن عطية (٣٧٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٩/٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٩٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٢) أخرجه الطبري (٥٥٠/٧) برقم: (٢١٤١٥)، وذكره ابن عطية (٣٧٥/٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٦/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٠٣/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٢٠٣/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، والدليمي.

تفسير سورة النحل

وهي مكية غير آيات يسيرة يأتي بيانها إن شاء الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَن أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)

قوله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: روي أن رسول الله ﷺ لما قال جبريل في سرد الوحي: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾، وثب رسول الله ﷺ قائماً، فلما قال: / ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، سَكَنَ، وقوله: ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾: قال فيه جمهور المفسرين: إنه يريد القيامة، وفيها وعيد للكفار، وقيل: المراد نُصِرَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ قال: إن الأمر القيامة، قال: إن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: ردُّ على المكذِّبين بالبعث، القائلين: متى هذا الوعد، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾، فقال مجاهد: الروح: النبوة^(١)، وقال ابن عباس: الروح الوحي^(٢)، وقال قتادة: بالرحمة والوحي^(٣)، وقال الربيع بن أنس: كل كلام الله روح، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾^(٤) [الشورى: ٥٢]، وقال الزجاج^(٥): الروح: ما تحيا به القلوب من هداية الله عز وجل، وهذا قول حسن، قال الداودى، عن ابن عباس^(٦) قال: الروح: خلق من خلق الله، وأمر

ب ٢٧٧

(١) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٤)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨).

(٢) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥١)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٦)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٥/٤)، وعزه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٥)، وذكره ابن عطية (٣/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٦/٤)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٣/١٩٠).

(٦) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٥/٤)، وعزه =

من أمر الله على صُور بني آدم، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه رُوح؛ كالحفيظ عليه، لا يتكلم ولا يراه ملك، ولا شيء مما خلق الله، وعن مجاهد: الروح: خلق من خلق الله، لهم أيد وأرجل^(١). انتهى، والله أعلم بحقيقة ذلك، وهذا أمر لا يقال بالرأي، فإن صح فيه شيء عن النبي ﷺ، وجب الوقوف عنده انتهى، و«من» في قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هي للأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾: يريد بـ «الإنسان» الجنس، وقوله: ﴿خصيم﴾: يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يجادلون في آيات الله؛ قاله^(٢) الحسن البصري، ويحتمل أن يريد أعم من هذا، على أن الآية تعدد نعمة الذهن والبيان على البشر.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا لِيَلَيْسَ إِلَىٰ بَشِقِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْإِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)

وقوله سبحانه: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دِفْءٌ﴾: ال ﴿دِفْءٌ﴾: السخانة، وذهاب البرد بالأكسية ونحوها، وقيل: ال ﴿دِفْءٌ﴾: تناسل الإبل، وقال ابن عباس: هو نسل كل شيء^(٣)، والمعنى الأول هو الصحيح، وال ﴿منافع﴾: ألبانها وما تصرف منها، وحزنها والتضح عليها وغير ذلك.

وقوله: ﴿جمال﴾، أي: في المنظر، و﴿تريحون﴾: معناه: حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل، و﴿تسرحون﴾: معناه: تخرجونها غداة إلى السرح، و﴿الأثقال﴾: الأمتعة، وقيل: الأجسام؛ كقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] أي: أجساد بني آدم، وسميت الخيل خيلاً؛ لاختيالها في مشيتها.

= لآدم بن إياس، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي.

(١) أخرجه الطبري (٥٥٨/٧) برقم: (٢١٤٥٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٥/٤)، وعزه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٧٩/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥٦٠/٧) برقم: (٢١٤٦٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٧٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزه لعبد الرزاق، والفرياحي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

* ت * : ويجبُ على من ملكه الله شيئاً من هذا الحيوان أن يَرْفُقَ به، ويشكر الله تعالى على هذه النعمة التي حَوَّلَهَا، وقد رَوَى مالك في «الموطأ» عن أبي عُبَيْدٍ مولى سليمان بن عبد المَلِكِ، عن خالد بن مَعْدَانَ يرفعه، قال: «إن الله رفيقٌ يحبُّ الرَفْقَ، ويرضاهُ، ويعينُ عليه ما لا يُعِينُ على العُنْفِ، فإذا ركبتم هذه الدوابَّ العُجَمَ، فأنزلوها منازلها، فإن كانت الأرض جَذْبَةً، فانجوا عليها بِنَفْسِهَا^(١)، وَعَلَيْكُمْ بسير اللَّيْلِ؛ فَإِنِ الْأَرْضُ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ ما لا تُطَوَّى بالنهار، وإياكم والتَّغْرِيسَ على الطيرِ؛ فَإِنِهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ، ومأوى الحَيَّاتِ»^(٢).

١٢٧٨ قال أبو عمر في «التمهيد»: هذا الحديث يستندُ عن / النبي ﷺ من وجوه كثيرة، فأما «الرَّفْقُ»، فمحمودٌ في كُلِّ شيء، وما كان الرَّفْقُ في شيء إلا زانه، وقد رَوَى مالك بسنده عن عائشة، وعن النبي ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٣)، وأَمَرَ المسافرين في الْخَضْبِ بأن يمشي رويداً، ويكثر النزول، لترعى دابته، فأما الْأَرْضُ الْجَذْبَةُ، فالسَّيَّةُ لِلْمَسَافِرِ أَنْ يُسْرَعَ السَّيْرُ؛ ليخرج عنها، وبدابته شيء من الشَّحْمِ والقُوَّةِ، و«النَّقْي» في كلام العرب: الشَّحْمُ والوَدَكُ. انتهى.

ورَوَى أبو داود عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَتَابِرَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَبْلُغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَاتِكُمْ» انتهى^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: عبرةٌ منصوبةٌ على العموم، أي: إِنَّ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ مِنَ الْحَيَوَانِ وغيره لا يُحِيطُ بعلمها بشرٍّ، بل ما يخفى عنه أَكْثَرُ مما يعلمه.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ...﴾ الآية: هذه أيضاً من أَجْلِ نعم الله تعالى، أي: على الله تقويمُ طريقِ الهدى، وتبيينُهُ بَنَظْبِ الأدلَّةِ، وبَغْيِ الرسل، وإلى هذا ذهب المتأولون، ويحتمل أن يكون المعنى: أَنَّ مَنْ سَلَكَ السَّبِيلَ الْقَاصِدَ، فعلى الله،

(١) النَّقْوُ: عظم العُضْدِ، وقيل: كل عظم فيه مخ.

ينظر: «لسان العرب» (٤٥٣٢).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٧٩/٢) كتاب «الاستئذان» باب: ما يؤمر به من العمل في السفر، حديث (٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢/٢) كتاب «الجهاد» باب: في الوقوف على الدابة، حديث (٢٥٦٧)، والبيهقي (٥/٢٥٥) من حديث أبي هريرة.

ورحمته وتنعيمه طريقه، وإلى ذلك مصيره، و«طريق قاصِد»: معناه: بين مستقيم قريب، والألف واللام في «السَّيْل»، للعهد، وهي سبيل الشَّرع.

وقوله: «ومنها جائز»: يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم، فالضمير في «منها» يعود على السُّبُل التي يتضمَّنُها معنى الآية.

وقوله سبحانه: «فيه تسمون»: يقال: أسام الرجل ما شِئَتْ؛ إذا أرسلها ترعى.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلْوَنَ إِلَّا فِي ذَلِكَ لَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْمِذَ بِكُمْ وَأَنْهَرًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنِي وَإِلْتَجِمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

وقوله سبحانه: «وما ذرا لكم»: ذرا: معناه: بثَّ ونَشَرَ.

و«مختلفاً ألوانه» أي أصنافه، ويحتمل أن يكون التنبيه على اختلاف الألوان من حُمْرة وصفرة وغير ذلك، والأول أئبُّ.

وقوله سبحانه: «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواجر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»: البحر: الماء الكثير، ملحاً كان أو عذْباً.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: «وتستخرجوا منه حلية تلبسونها»: يعني به اللؤلؤ والمرجان، وهذا أمتنان عام للرجال والنساء، فلا يحرم عليهم شيء من ذلك. انتهى. و«مَواجِرَ»: جمع مَاجِرَة، والمَخْرُ: في اللغة: الصَّوت الذي يكون من هبوب الريح على شيء يشقُّ أو يصحب في الجملة الماء؛ فيترتب منه أن يكون المَخْر من الريح، وأن يكون من السفينة ونحوها، وهو في هذه الآية من الشُّفن، وقال بعض النحاة: المَخْرُ: في كلام العرب: الشَّقُّ؛ يقال: مَخَرَ الماء الأرضَ، وهذا أيضاً بين أن يقال فيه للفلِك مَواجِر.

وقوله: «وسبلاً لعلكم تهتدون»: يحتمل: تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السُّبُل،

ب ٢٧٨ ويحتمل تهتدون بالتَّظَر في دلالة هذه المصنوعات على صانعيها. / ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾: قال ابن عباس: العلامات: معالم الطرق بالنهار، والنجوم: هداية^(١) الليل، وهذا قول حسن؛ فإنه عموم بالمعنى، واللفظة عامة؛ وذلك أن كل ما دل على شيء وأعلم به، فهو علامة، والنجم؛ هنا: اسم جنس، وهذا هو الصواب.

﴿وَإِنْ تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ الآية: وبحسب العجز عن عد نعم الله تعالى يلزم أن يكون الشاكر لها مقصراً عن بعضها؛ فلذلك قال عز وجل: ﴿لغفور رحيم﴾، أي: عن تقصيركم في الشكر عن جميعها؛ نحا هذا المنحى الطبري؛ ويرد عليه أن نعمة الله في قول العبد: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، مع شرطها من النية والطاعة يوازي جميع النعم، ولكن أين قولها بشروطها، والمخاطبة بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾. عامة لجميع الناس. ﴿والذين يدعون من دون الله﴾؛ أي: تدعونهم آلهة، و﴿أموات﴾: يراد به الذين يدعون من دون الله، ورفع ﴿أموات﴾؛ على أنه خبر مبتدأ مضمّر، تقديره: هم أموات، وقوله: ﴿غير أحياء﴾: أي: لم يقبلوا حياة قط، ولا أتصفوا بها، وقوله سبحانه: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾: أي: وما يشعر الكفار متى يبعثون إلى التعذيب.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكِبُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّوا الْمُسْتَكِبِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَّا أَنْزَلَكُمْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطُورُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَارِ الْأَوَّلِينَ لِيُؤْمِنُوا بِغَيْرِ عَلَيْهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥)

وقوله سبحانه: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ أي: منكرة اتحاد الإله.

* ت *: وهذا كما حكى عنهم سبحانه في قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥].

(١) أخرجه الطبري (٥٧١/٧) برقم: (٢١٥٤٤)، وذكره ابن عطية (٣/٣٨٤)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ عبّرت فرقة من اللّغوئين عن معناها بـ «لَا بُدَّ ولا محالة»، وقالت فرقة: معناها: حق أن الله، ومذهب سيبويه أن «لا» نفى لما تقدّم من الكلام، و«جرم»: معناه: وجب أو حقّ ونحوه، هذا مذهب الزّجاج^(١)، ولكن مع مذهبهما، «لا» ملازمة لـ «جرم» لا تنفك هذه من هذه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: عامّ في الكافرين والمؤمنين يأخذ كلُّ أحد منهم بقرينه، قال الشيخ العارف بالله عبّد الله بن أبي جرّة رحمه الله موثّ النفوس حياتها، من أحبّ أن يحيا يموت، ببذل أهل التوفيق نفوسهم وهوانها عليهم، نالوا ما نالوا، ويحبّ أهل الدنيا نفوسهم هانوا وطراً عليهم الهوان هنا وهناك، وقد ورد في الحديث: «أنه ما من عبّد إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك، فإن تعاظم، وأرتفع، ضرب الملك في رأسه، وقال له: اتضع وضعك الله، وإن تواضع رفعة الملك، وقال له: أرتفع، رفعتك الله»، من الله علينا بما به يقربنا إليه بمثله^(٢). انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: يعني: كفّار قريش: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ...﴾ الآية، يقال: إن سببها النظر بن الحارث، واللام في قوله: ﴿ليحملوا﴾ يحتمل أن تكون لام العاقبة، ويحتمل أن تكون لام كني، ويحتمل أن تكون لام الأمر؛ على معنى الحثّ عليهم والصّغار الموجب لهم.

وقوله / سبحانه: ﴿وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: «من»: للتبعية؛ وذلك ١٢٧٩ أن هذا الرأس المضلّ يحمل وزر نفسه ووزراً من وزر كل من ضلّ بسببه، ولا ينقص من أوزار أولئك شيء، والأوزار هي الأثقال.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَأَدْحَلُوا أَتْرَابَهُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ...﴾ الآية: قال ابن

(١) ينظر: «معاني القرآن» (١٩٤/٣).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٠٢/٤)، عن أنس بن مالك، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٥٧٤٤)، وعزا إلى ابن صصري في «أماليه».

عبّاس وغيره من المفسرين^(١): الإشارة بـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى نُمُرُودَ الذي بَنَى صَرْحاً؛ لِيَضَعَدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ بِزَعْمِهِ، فَلَمَّا أَفْرَطَ فِي عُلوِّهِ، وَطَوَّلَهُ فِي السَّمَاءِ فَرَسَخَيْنِ؛ عَلَى مَا حَكَى الثَّقَافُ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحاً، فَهَدَمَتْهُ، وَخَرَّ سَقْفَهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَتْبَاعِهِ، وَقِيلَ: إِنْ جَبْرِيلَ هَدَمَهُ بِجَنَاحِهِ، وَأَلْقَى أَعْلَاهُ فِي الْبَحْرِ، وَأَنْجَعَفَ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَقَالَتْ فِرْعَوْنُ: الْمَرَادُ بِـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: جَمِيعُ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَمَكَرَ، وَنَزَلَتْ بِهِ عَقُوبَةُ، وَقَوْلُهُ: عَلَى هَذَا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تَمَثِيلٌ وَتَشْبِيهُ، أَيْ: حَالُهُمْ كَحَالِ مَنْ فَعَلَ بِهِ هَذَا.

وقوله: ﴿يَخْزِيهِمْ﴾: لَفْظٌ يَعُمُّ جَمِيعَ الْمَكَارِهِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِمْ؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَى إِدْخَالِهِمُ النَّارَ، وَدُخُولِهِمْ فِيهَا.

و﴿تَشَاقُونَ﴾: مَعْنَاهُ: تَحَارِبُونَ، أَيْ: تَكُونُونَ فِي شِقِّ، وَالْحَقُّ فِي شِقِّ، وَ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾: هُمُ الْمَلَائِكَةُ فِيمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

قال * ع^(٢): * وَالصَّوَابُ أَنْ يَعُمَّ جَمِيعُ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَأَنْبِيَاءٍ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْخِزْيِ، وَأَنَّهُ الْفُضِيحَةُ الْمُخْجَلَةُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْعَارَ وَالتَّخْزِيَةَ لَتَبْلُغَ مِنَ الْعَبْدِ فِي الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى مَا أَنْ يَتَمَتَّى أَنْ يُنْطَلَقَ بِهِ إِلَى النَّارِ وَيَنْجُو مِنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ»^(٣) أَخْرَجَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمَسْنَدِ الْمُنْتَخَبِ» لَهُ. انْتَهَى مِنْ «الْكُوكَبِ الدَّرِيِّ».

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: نَعَتْ لـ ﴿الْكَافِرِينَ﴾؛ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُتَأَوِّلِينَ، وَ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: يَرِيدُ الْقَابِضِينَ لِأَرْوَاحِهِمْ، وَ﴿السَّلَامُ﴾: هُنَا: أَلَا سَتَسْلَامُ، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَبْسُ﴾: لَامُ تَأْكِيدٍ، وَالـ ﴿مَثْوًى﴾: مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٥٧٧/٧) بِرَقْمٍ: (٢١٥٦٧)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٦٦/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٨٨/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٦٦/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْتُورِ» (٢١٨/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٨٩/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ» (٢٠٣٩/٦).

الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمْ لِمَلَائِكَةٍ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم...﴾ الآية: لما وصف سبحانه مقالة الكفار الذين قالوا: ﴿أساطير الأولين...﴾ [النحل: ٢٤] عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لكل فريق ما يستحق، وقولهم: ﴿خيراً﴾ جواب بحسب السؤال، واختلف في قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا...﴾ إلى آخر الآية، هل هو ابتداء كلام أو هو تفسير لـ «الخير» الذي أنزل الله في الوحي على نبينا خيراً أن من أحسن في الدنيا بالطاعة، فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة، وروى أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً؛ يَثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿جنات عدن يدخلونها...﴾ الآية: تقدم تفسير نظيرها، و﴿طيبين﴾: عبارة عن صالح حالهم، وأستعدادهم للموت، و«الطيب»؛ الذي لا خبث معه، وقول الملائكة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾: بشارة من الله تعالى، / وفي هذا المعنى أحاديث ٢٧٩ ب صحاح يطول ذكرها، وروى ابن المبارك في «رقائقه» عن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن، جاءه ملك، فقال: السَّلامُ عَلَيْكَ، وليَّ الله، الله يُقْرِئُ عَلَيْكَ السَّلامَ، ثُمَّ نَزَعَ بهذه الآية: ﴿الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمْ لِمَلَائِكَةٍ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ...﴾ انتهى.^(٢)

وقوله سبحانه: ﴿بما كنتم تعملون﴾: علق سبحانه دخولهم الجنة بأعمالهم؛ من حيث جعل الأعمال أمانة لإدخال العبد الجنة، ولا معارضة بين الآية، وقوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ!» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ مِنْهُ وَرَحْمَةٍ»^(٣)، فَإِنَّ الْآيَةَ تَرُدُّ بِالتَّوِيلِ إِلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ.

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢/٤) كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا، حديث (٢٨٠٨/٥٦)، وأحمد (١٢٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٥٨٠/٧) برقم: (٢١٥٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٩/٤)، وعزاه لابن أبي مالك، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «المعظمة»، وأبي القاسم بن منده في كتاب «الأحوال»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) تقدم تخريجه.

قال * ع^(١) : ومن الرحمة والتغمُّد أن يوفق الله العبدَ إلى أعمالٍ برة، ومقصِدُ الحديثِ نفْيُ وجوبِ ذلك على الله تعالى بالعقل؛ كما ذهب إليه فريقٌ من المعتزلة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم﴾: ﴿ينظرون﴾: معناه: ينتظرون، «وَنَظَرَ» متى كَانَتْ من رؤية العين، فإنما تعديها العربُ بـ «إلى» ومتى لم تتعدَّ بـ «إلى»، فهي بمعنى «انتظر»؛ ومنها: ﴿أَنظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، ومعنى الكلام: أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ظالمي أنفسهم.

وقوله: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾: وعيدٌ يتضمَّن قيام الساعة، أو عذاب الدنيا، ثم ذكر تعالى أن هذا كان فعل الأمم قبلهم، فعوقبوا.

وقوله سبحانه: ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾: أي: جزاء ذلك في الدنيا والآخرة، و﴿حاق﴾: معناه: نزل وأحاط.

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء...﴾ الآية: تقدّم تفسير نظيرها في «الأنعام»، وقولهم: ﴿ولا حرّمنّا﴾: يريد: من البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْعُدُوا اللَّهَ وَاحْتَبِئُوا الطَّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَبِئْسَ مَا يَفْعَلُونَ فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٩١).

وقوله سبحانه: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله...﴾ الآية: إلى قوله: ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم^(١): «لَا يَهْدِي» - بفتح الياء وكسر الدال -، وذلك على معنيين: أي: إن الله لا يهدي من قضى بإضلاله، والمعنى الثاني: أن العرب تقول: هدى الرجل، بمعنى أهتدى.

وقوله سبحانه: ﴿وأقسموا بالله جهنم أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾: الضمير في ﴿أقسموا﴾ لكفار قريش، ثم رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بلى﴾، فأوجب بذلك البعث، و﴿أكثر الناس﴾ في هذه الآية: الكفار المكذبون بالبعث.

وقوله سبحانه: ﴿ليبين﴾: التقدير: بلى يبعثه؛ ليبين لهم الذي يختلِفون فيه.

وقوله سبحانه: ﴿إنما قولنا شيء إذا أردناه...﴾ الآية: المقصود بهذه الآية إعلام مُتَكِرِّي البعث بهوان أمره على الله تعالى، وقُزِيه في قدرته، لا رب غيره.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُوتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْدَاؤُا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

وقوله سبحانه: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾: هؤلاء هم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب نزول الآية؛ لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، والآية تتناول كل من هاجر أولاً وآخرأ، وقرأ جماعة^(٢) خارج السبع: «لَنُتَوَيَّنَّهُمْ»، واختلف في معنى الـ ﴿حَسَنَةً﴾ هنا، فقالت فرقة: الحسنَةُ عِدَّةٌ بَبَقْعَةٍ شَرِيفَةٍ، وهي المدينة، وذهبت فرقة إلى أن الحسنَةُ عَامَّةٌ في كل أمر

(١) وقرأ الباقون: «فإن الله لا يهدي» بضم الياء وفتح الدال، والمعنى أي: من أضله الله لا يهديه أحد. ينظر: «السبعة» (٣٧٢)، و«الحجة» (٦٤/٥)، و«معاني القراءات» (٧٩/٢)، و«إعراب القراءات» (١/٣٥٣)، و«حجة القراءات» (٣٨٨)، و«العنوان» (١١٧)، و«شرح الطيبة» (٤١٣/٤)، و«شرح شعلة» (٤٥٧)، و«إتحاف» (١٨٤/٢).

(٢) وقد رويت عن علي، وابن مسعود، ونعيم بن مسيرة، والربيع بن خيثم. ينظر: «المحتسب» (٩/٢)، و«الكشاف» (٦٠٧/٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٩٤/٣)، و«البحر المحيط» (٤٧٧/٥)، و«الدرر المصنوع» (٣٢٧/٤).

مستحسن يناله ابن آدم، وفي هذا القول يدخل ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كان يُعطي المَالَ وَفَت الْقِسْمَةَ الرَّجُلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، ويقول له: خُذْ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ، ثم يتلو هذه^(١) الآية، ويدخل في هذا القول النَّصْرُ عَلَى الْعَدُوِّ، وَفَتْحُ الْبِلَادِ، وَكُلُّ أَمَلٍ بَلَغَهُ الْمُهَاجِرُونَ، وَالضَّمِيرُ فِي «يَعْلَمُونَ» عَائِدٌ عَلَى كِفَارِ قَرِيشٍ.

وقوله: «الذين صبروا»: من صفة المهاجرين.

وقوله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يُوحى إليهم»: هذه الآية ردٌّ على كَفَّارِ قَرِيشٍ الَّذِينَ اسْتَبَعَدُوا أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَاسْأَلُوا»، أَي: قُلْ لَهُمْ: «فَاسْأَلُوا»، وَ«أَهْلُ الذِّكْرِ»؛ هُنَا: أَحْبَابُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٢)، وَهُوَ أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ، وَهُمْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ خَاصَّةٌ إِنَّمَا يَخْبِرُونَ بِأَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْبَشَرِ، وَأَخْبَارُهُمْ حُجَّةٌ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَقَدْ أُرْسِلَتْ قَرِيشٌ إِلَى يَهُودٍ يَثْرِبَ يَسْأَلُونَهُمْ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِمْ.

وقوله: «بالبينات»: متعلق بفعل مضمر، تقديره: أرسلناهم بالبينات، وقالت فرقة: الباء متعلقة بـ «أرسلنا» في أول الآية، والتقدير على هذا: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبُرِ إِلَّا رَجَالًا، فِيهِ الْآيَةُ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَ«الزُّبُرُ»: الْكُتُبُ الْمَزْبُورَةُ.

وقوله سبحانه: «لتبين للناس ما نزل إليهم... الآية».

* ت * : وَقَدْ فَعَلَ ﷺ ذَلِكَ، فَبَيَّنَ عَنِ اللَّهِ، وَأَوْضَحَ، وَقَدْ أُوتِيَ ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، فَأَعْرَبَ عَنِ دِينِ اللَّهِ، وَأَفْصَحَ، وَلَنَذْكُرَ الْآنَ طَرَفًا مِنْ حِكْمِهِ، وَفَصِيحِ كَلَامِهِ بِحَذْفِ أَسَانِيدِهِ، قَالَ عِيَّاضٌ فِي «شِفَاهُ»: وَأَمَّا كَلَامُهُ ﷺ الْمَعْتَادُ، وَفَصَاحَتُهُ الْمَعْلُومَةُ، وَجَوَامِعُ كَلِمِهِ، وَحِكْمُهُ الْمَأْثُورَةُ، فَمِنْهَا مَا لَا يُوَازِي فَصَاحَةً، وَلَا يَبَارِي بِلَاغَةً؛ كَقَوْلِهِ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ»^(٣)، وَقَوْلُهُ: «النَّاسُ

(١) أخرجه الطبري (٥٨٦/٧) برقم: (٢١٥٩٥)، وذكره البغوي (٦٩/٣)، وابن عطية (٣/٣٩٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٧٠/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٥٨٧/٧) برقم: (٢١٦٠٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/٣٩٥) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطيالسي (٣٧/٢ - منحة)، وأحمد (٢/٢١١)، وأبو داود (٣/١٨٣) كتاب «الجهاد» باب: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢/٨٩٥) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٥)، وابن الجارود في «المتقى» (٧٧١)، والبيهقي (٢٩/٨) كتاب =

«الجنایات» باب: فیمن لا قصاص بینہ باختلاف الدینین، وابن أبی شیبہ (٤٣٢/٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٠) من طرق عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»، وللحديث شاهد من حديث علي، وأخرجه أحمد (١٢٢/١)، وأبو داود (٦٦٧/٤) كتاب «الديات» باب: أيقاد المسلم بالكافر؟، حديث (٤٥٣٠)، والنسائي (١٩/٨) كتاب «القسماء» باب: القود بين الأحرار والمماليك في النفس، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» ص: (١٧٩) برقم: (٤٩٥)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٩٢/٣)، وفي «مشكل الآثار» (٩٠/٢)، والدارقطني (٩٨/٣) كتاب «الحدود والديات» (٦١)، والحاكم (١٤١/٢)، والبيهقي (٢٩/٨)، والبخاري في «شرح السنة» (٣٨٨/٥ - بتحقيقنا) من طريق الحسن عن قيس بن عباد قال: انطلقت أنا والأشتر إلى علي فقلنا: هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده للناس عامة؟ قال: «لا إلا ما كان في كتابي هذا»، فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، ومن أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين»، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وفي الباب عن ابن عباس، ومقل بن يسار، وعائشة، وعطاء بن أبي رباح مرسلًا.

حديث ابن عباس: أخرجه ابن ماجه (٨٩٥/٢) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٣)، من طريق حنش عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم»، وذكره الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٣٥٣/٢) وقال: هذا إسناد ضعيف، لضعف حنش، واسمه: حسين بن قيس.

حديث مقل بن يسار: أخرجه ابن ماجه (٨٩٥/٢) كتاب «الديات» باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث (٢٦٨٤)، وابن عدي في «الكامل» (٣٣٢/٥) من طريق عبد السلام بن أبي الجنوب، عن الحسن، عن مقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون يد على من سواهم، وتكافأ دماؤهم».

واللفظ لابن ماجه، أما لفظ ابن عدي: «لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، والمسلمون يد على من سواهم، تتكافأ دماؤهم». وقال ابن عدي: وعبد السلام بن أبي الجنوب بعض ما يرويه لا يتابع عليه منكر.

وذكره الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٣٥٣/٢ - ٣٥٤) وقال: هذا إسناد ضعيف؛ عبد السلام ضعفه ابن المديني، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والبخاري، وابن حبان.

حديث عائشة: أخرجه الدارقطني (١٣١/٣) كتاب «الحدود والديات»، حديث (١٥٥) من طريق مالك بن محمد بن عبد الرحمن عن عمرة، عن عائشة قالت: وجد في قائم سيف رسول الله ﷺ كتابان: إنه أشد الناس عتوّاً في الأرض رجل ضرب غير ضاربه، أو رجل قتل غير قاتله، ورجل تولى غير أهل نعبته فمن فعل ذلك فقد كفر بالله وبرسله، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وفي الآخر: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين».

وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣٩٥/٣)، ومالك هذا هو ابن أبي الرجال أخو حارثة، ومحمد، قال =

كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ»^(١)، «وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٢)، «وَلَا خَيْرَ فِي ضُحْبَةٍ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ»^(٣)، و«النَّاسُ مَعَادِنٌ»^(٤)، و«مَا هَلَكَ أَمْرُؤُ عَرَفَ قَدْرَهُ»، و«الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»، و«هُوَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ»^(٥)، و«رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَعَنِمَ، أَوْ سَكَتَ عَنْ شَرٍّ فَسَلِمَ».

أبو حاتم: هو أحسن حالاً من أخويه ا هـ.

مرسل عطاء: أخرجه أبو عبيد في «الأموال» ص: (٢٩٠) برقم: (٨٠٣)، ثنا ابن أبي زائدة، عن معقل بن عبد الله الجزي، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون إخوة يتكافؤون دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، ومشدهم على مضغفهم ومتسريهم على قاعدتهم».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٢٤٨٢٤)، وينظر: تخريج حديث: «الناس كأسنان المشط».

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: قول الله تعالى: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين»، حديث (٣٣٨٣)، (٢١٢/٨) كتاب «التفسير» باب: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين»، حديث (٤٦٨٩)، ومسلم (١٨٤٦/٤) كتاب «الفضائل» باب: من فضائل يوسف، حديث (٢٣٧٨/١٦٨)، والدارمي (٧٣/١) باب: الاقتداء بالعلماء، وأبو يعلى (٤٣٨/١١) رقم: (٦٥٦٢)، والبخاري في «شرح السنة» (٥٠٧/٦ - بتحقيقنا)، كلهم من طريق عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة به. وأخرجه أحمد (٢٥٧/٢)، والحميدي (٤٥١/٢) رقم: (١٠٤٥) من طريق أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «تجدون الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وأخرجه مسلم (١٩٥٨/٤) كتاب «فضائل الصحابة» باب: خيار الناس، حديث (٢٥٢٦/١٩٩)، وأحمد (٥٢٤/٢ - ٥٢٥)، وابن حبان رقم: (٦٣٦) من طريق يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً باللفظ السابق، وأخرجه أبو يعلى (٤٥٧/١٠ - ٤٥٨) رقم: (٦٠٧٠)، وابن حبان رقم: (٩٢) من طريق أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً: «الناس معادن في الخير والشر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وأخرجه الحميدي (٤٥١/٢) رقم: (١٠٤٦) من طريق يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة به. وللحديث شاهد من حديث معاوية بن أبي سفيان، أخرجه أحمد (١٠١/٤) بلفظ: «الناس تبع لقريش خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٢٣٣/٢) كتاب «الأدب» باب: المستشار مؤتمن، حديث (٣٧٤٦)، والدارمي (٢/٢١٩) كتاب «السير» باب: المستشار، وأحمد (٢٧٤/٥)، وابن حبان (١٩٩١ - موارد)، والبيهقي (١١٢/١٠) كتاب «آداب القاضي» باب: من يشاور، والطبراني في «الكبير» (٢٣٠/١٧) رقم: (٢٣٨) كلهم من طريق أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن أبي عمر الشيباني، عن أبي مسعود به مرفوعاً.

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢٧٤/٢) رقم: (٢٣/١٩): سألت أبي عن حديث رواه الأسود بن عامر... فذكر الحديث وقال: قال أبي: هذا خطأ، إنما أراد: الدال على الخير كفاعله، قلت: الخطأ ممن هو؟ قال: من شريك ا هـ. ومع ذلك فقد صححه ابن حبان.

وقوله: «أَسْلِمَ تَسْلَمَ»، و«أَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»، و«إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي

وقال البوصيري في «الزوائد» (١٨١/٣): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات اهـ.
وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم أبو هريرة، وجابر بن سمرة، وسمرة بن جندب، وأبو
الهيثم بن التيهان، وعمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن الزبير، وأم سلمة.
حديث أبي هريرة: أخرجه أبو داود (٧٥٥/٢) كتاب «الأدب» باب: في المشورة، حديث (٥١٢٨)،
والترمذي (١١٥/٥) كتاب «الأدب» باب: إن المستشار مؤتمن، حديث (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٢/٢)
(١٢٣٣) كتاب «الأدب» باب: المستشار مؤتمن، حديث (٣٧٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد»،
حديث (٢٥٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٩٥/١ - ١٩٦)، والحاكم (١٣١/٤)، والبيهقي (١٠/١٠)
(١١٢) كتاب «آداب القاضي» باب: من يشار، كلهم من طريق عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة بن
عبد الرحمن، عن أبي هريرة، مرفوعاً، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: صحيح
على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
حديث جابر بن سمرة: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢١٤/٢) رقم: (١٨٧٩)، والخطيب في «تاريخ
بغداد» (٩٧/٥) كلاهما من طريق قيس بن الربيع، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة قال:
قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».
والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٠/٨) وقال: رواه الطبراني في «الكبير والأوسط»، وفيه من
لم أعرفه.

حديث سمرة بن جندب: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٦٦/٧) رقم: (٦٩١٤)، وأبو نعيم في
«الحلية» (١٩٠/٦) كلاهما من طريق عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، ثنا سلام بن أبي مطيع، عن
قتادة، عن الحسن، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».
قال أبو نعيم: غريب من حديث سلام، لم نكتبه عالياً إلا من هذا الوجه، وذكره الهيثمي في «المجمع»
(١٠٠/٨) وقال: وفيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك.
حديث أبي الهيثم بن التيهان: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٤٧/٢) رقم: (١٢٤٧) من
طريق محمد بن جامع العطار، حدثنا عبد الحكيم بن منصور، نا عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة،
عن أبي الهيثم بن التيهان مرفوعاً، وقال ابن الجوزي: وهذا لا يثبت، ولا يصح، أما عبد الحكيم فقال
يحيى: كذاب، وقال الرازي: لا يكتب حديثه، وأما محمد بن جامع، فقد ضعفه.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٠/٨)، وقال: رواه الطبراني من طريق جده عبد الرحمن بن
محمد بن زيد، ولم أعرفهما، وبقي رجاله ثقات.

حديث عمر بن الخطاب: أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦٠ - ٦١/٩)، ومن طريقه ابن الجوزي
في «العلل المتناهية» (٧٤٦/٢) من طريق محمد بن سليمان قال: حدثني حزام بن هشام قال: سمعت
أبي يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المستشار مؤتمن».
قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يثبت، كان الحميدي يتكلم في محمد بن سليمان، وضعفه النسائي،
وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع لا في إسناده ولا في متنه.

حديث ابن عباس: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩/١) رقم: (٥)، وذكره الهيثمي في
«المجمع» (٩٩/٨)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك.
حديث ابن الزبير: أخرجه البزار (٤٢٨/٢ - ٤٢٩) رقم: (٢٠٢٧) من طريق أبي عوانة، عن =

مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوْطُؤُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلَمُونَ وَيُؤْلَمُونَ»، وقوله: «لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ، وَيَبْخُلُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ»، وقوله: «ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا» / وَنَهَيْهِ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَعَقُوقِ الْأُمَهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ^(١)، وقوله: «أَتَى اللَّهَ حَيْثُ كُنْتُ، وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا،

عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً، وقال البزار: لا نعلم أحداً تابع ابن إسحاق على هذه الرواية، وقد اختلفوا على عبد الملك، فرواه غير واحد عن أبي عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة مرسلأ، وروي عن عبد الملك بن عمير، عن أبي هريرة، ورواه الحكم بن منصور، عن عبد الملك، عن أبي سلمة، عن أبي الهيثم بن التيهان، ورواه شريك، عن عبد الملك، عن أبي سلمة، عن أم سلمة، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٩/٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح اهـ.

قلت: أما المرسل الذي أشار إليه البزار عن أبي سلمة فأخرجه أحمد في «الزهد» ص: (٣٢). حديث أم سلمة: أخرجه الترمذي (١١٦/٥) كتاب «الأدب» باب: إن المستشار مؤتمن، حديث (٢٨٢٣)، وأبو يعلى (٣٣٣/١٢) رقم: (٦٩٠٦) من طريق داود بن أبي عبد الله، عن ابن جددان، عن جدته، عن أم سلمة مرفوعاً به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أم سلمة. وفي الباب عن علي بن أبي طالب أيضاً، والنعمان بن بشير أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» (٩٩/٨) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» عن شيخه أحمد بن زهير عن عبد الرحمن بن عتبة الطبري، ولم أعرفهما.

وحديث النعمان بن بشير: ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٠/٨) وقال: رواه الطبراني وفيه حفص بن سليمان الأسدي، وهو متروك، وحديث: «المستشار مؤتمن»، ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٦/٢٦٨ - فيض) رقم: (٩٢٠٠ - ٩٢٠١ - ٩٢٠٢)، وقد عده متواتراً في «الأزهار المتناثرة» رقم: (٥٢). وقال المناوي في «الفيض» (٢٦٨/٦): «المستشار مؤتمن» أي: أمين على ما استشير فيه فمن أفضى إلى أخيه بسر، وأمنه على نفسه، فقد جعله بمحلها، فيجب عليه أنه لا يشير عليه إلا بما يراه صواباً، فإنه كالأمانة للرجل الذي لا يأمن على إيداع ماله إلا ثقة، والسر الذي يكون في إذاعته تلف النفس أولى بالأمانة مما لا عند موثوق به، وفيه حث على ما يحصل به معظم الدين، وهو النصح لله ورسوله وعمامة المسلمين وبه يحصل التحاب والاتلاف، وبضده يكون التباغض والاختلاف، قال بعض الكاملين: يحتاج الناصح والمشير إلى علم كبير فإنه يحتاج أولاً إلى علم الشريعة، وهو العلم العام المتضمن لأحوال الناس، وعلم الزمان وعلم المكان، وعلم الترجيح إذا تقابلت هذه الأمور فيكون ما يصلح الزمان يفسد الحال أو المكان، وهكذا فينظر في الترجيح فيفعل بحسب الأرجح عنده؛ مثاله: أن يضيق الزمن عن فعل أمرين اقتضاهما الحال فيشير بأهمهما، وإذا عرف من حال إنسان بالمخالفة وأنه إذا أرشده لشيء فعل ضده يشير عليه بما لا ينبغي ليفعل ما ينبغي، وهذا يسمى علم السياسة، فإنه يسوس بذلك النفوس الجموحة الشاردة عن طريق مصالحها، فلذلك قالوا: يحتاج المشير والناصح إلى علم، وعقل، وفكر صحيح، ورؤية حسنة، واعتدال مزاج، وتودة، وتأن، فإن لم تجمع هذه الخصال فخطأه أسرع من إصابته، فلا يشير ولا ينصح، قالوا: وما في مكارم الأخلاق أدق ولا أخفى ولا أعظم من النصيحة.

وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنِ^(١)؛ و«خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا»، وقوله: «أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَّا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا»، وقوله: «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وقوله في بَعْضِ دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتُلِمُّ بِهَا شَعْبِي^(٢)، وَتُصْلِحُ بِهَا عَائِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُرَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمْنِي بِهَا رَشْدِي، وَتَرْزُقُنِي بِهَا أَلْفَتِي، وَتَعْصِمْنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَوْرَ فِي الْقَضَاءِ، وَنَزَلَ الشُّهَدَاءِ، وَعَيْنِ الشُّعَدَاءِ، وَالتَّصَرُّ عَلَى الْأَعْدَاءِ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَيَانِهِ، وَحُسْنِ كَلَامِهِ مِمَّا رَوَتْهُ الْكَافَّةُ عَنِ الْكَافَّةِ مِمَّا لَا يُقَاسُ بِهِ غَيْرُهُ، وَحَازَ فِيهِ سَبَقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ؛ كَقَوْلِهِ: «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»؛ فِي أَخَوَاتِهَا مِمَّا يَدْرِكُ النَّاضِرُ الْعَجَبَ فِي مَضْمَنُهَا، وَيَذْهَبُ بِهِ الْفَكْرُ فِي أَدَانِي حِكْمِهَا، وَقَالَ ﷺ: «بَيِّنَاتِي مِنْ قُرَيْشٍ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ»، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بِذَلِكَ قُوَّةَ عَارِضَةِ الْبَادِيَةِ وَجَزَالَتِهَا، وَنَصَاعَةَ الْفَاطِ الْحَاضِرَةِ وَرَوْنَقَ كَلَامِهَا، إِلَى التَّايِيدِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَدَّدَهُ الْوَحْيَ، الَّذِي لَا يَحِيطُ بِعِلْمِهِ بِشَرِّهِ. انْتَهَى. وَبِالْجُمْلَةِ فَلَيْسَ بَعْدَ بَيَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَيَانٌ لِمَنْ عَمَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية: تهديدٌ لكفار مكة ونصيب السيئات بـ ﴿مَكَرُوا﴾ و﴿مَكَرُوا﴾ لأنه في معنى عملوا، قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾، أي: في اختلافهم^(٣) انتهى.

وقال المهدوي: قال قتادة: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾: في أسفارهم^(٤)، الضَّحَّاك: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾: بِاللَّيْلِ انتهى.

وقوله: ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، على جهة التخوف، والتخوف التنفُّص، وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خَفِيَ عليه معنى التخوف في هذه الآية، وأراد الكُتْبَ إِلَى الْأَمْصَارِ يسأل عن ذلك، فيروى أنه جاءه فَتَى مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَبِي يَتَخَوَّفُنِي مَالِي، فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُ أَكْبَرُ! ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾^(٥)، ومنه قول النابغة: [الطويل]

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: تجمع بها ما تفرق من أمري.

ينظر: «النهاية» (٢/٤٧٨).

(٣) أخرجه الطبري (٧/٥٩٠) برقم: (٢١٦١٣)، وذكره البغوي (٣/٧٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٢٣)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٧/٥٩٠) برقم: (٢١٦١٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٧١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٢٣)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٧/٥٩١) برقم: (٢١٦/٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/٣٩٦)، والسيوطي في «الدر =

تَخَوْفُهُمْ حَتَّى أَذَلَّ سَرَائِهِمْ بِطَغْنٍ ضِرَارٍ بَعْدَ فَتْحِ الصَّفَائِحِ^(١)
وهذا التنقص يتجه به الوعيد على معنيين:

أحدهما: أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف، أي: أفذاذاً يتنقصهم بذلك الشيء بعد الشيء، ويصيرهم إلى ما أعد لهم من العذاب، وفي هذه الرتبة الثالثة من الوعيد رَأْفَةٌ ورحمة وإمهال؛ ليتوب التائب، ويرجع الراجع، والثاني: ما قاله الضحاك: أن يأخذ بالعذاب طائفة أو قرية، ويترك أخرى، ثم كذلك حَتَّى يَهْلِكَ الْكُلُّ^(٢).

وقالت فرقة: «التخوف» هنا: من الخوف، أي: فيأخذهم بعد تخوف ينالهم / يعذبهم به. ١٢٨١

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُهُمْ يَنْفَعُهُمْ طَلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوِّهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا إِلَهُيَ إِنَّهُ هُوَ إِلَهُي وَحْدَهُ فَإِنِّي قَارَهُونَ ۝ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ نُنْقُونَ ۝ وَمَا يَكُم مِّنْ يَتَمَتَّعَ فَعِنَ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِنِّي نَجِّتُكُمْ ۝﴾

وقوله سبحانه: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء...﴾ الآية: قوله: ﴿شيء﴾ لفظ عام في كل شخص وجزم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك، وقاء الظل رجع، ولا يقال: الشيء إلا من بعد الزوال؛ في مشهور كلام العرب، لكن هذه الآية: الاعتبار فيها من أول النهار إلى آخره فكأن الآية جارية في بغض؛ على تجوز كلام العرب واقتضائه، والرؤية، هنا: رؤية القلب ولكن الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكون في مريئات بالعين، و﴿عن اليمين والشمال﴾؛ هنا: فيه تجوز واتساع، وذكر^(٣) الطبري عن الضحاك، قال: إذا زالت الشمس، سجد كل شيء قبل القبلة من نبت أو شجر^(٤)؛ ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت. قال الداوودي: وعن النبي ﷺ قال: «أزبغ

= المتثور (٢٢٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٣٩٦).

(٢) أخرجه الطبري (٥٩٠/٧) برقم: (٢١٦٢٦)، وذكره البغوي (٧٠/٣) بنحوه، وابن كثير في «تفسيره»

(٥٧١/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٣/٤)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٩٣/٧).

(٤) أخرجه الطبري (٥٩٣/٧) برقم: (٢١٦٣٤)، وذكره ابن عطية (٣/٣٩٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/

٥٧٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٤/٤)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم، عن الضحاك.

قَبْلَ الظُّهْرِ بَعْدَ الزَّوَالِ تُحْسَبُ بِمِثْلِهِنَّ فِي صَلَاةِ السَّحَرِ، قَالَ: «وَلَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبَّحُ لِلَّهِ تِلْكَ السَّاعَةَ»، وقرأ: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالَهُ...﴾^(١) الآية كلها. انتهى^(٢). و«الدَّآخِر»: المتصاغر المتواضع.

وقوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾: عامٌ لجميع الحيوان، و﴿مَنْ فَوْقَهُمْ﴾: يريد: فوقية القَدْر والعظْمة والقَهْر.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾: «السَّمُوت» هنا: كلُّ ما أرتَفَعَ مِنَ الخلق من جهة فَوْق، فيدخل في ذلك العرش والكرسي وغيرهما، و﴿الَّذِينَ﴾: الطاعة والمُلْك، و«الواصب»: الدائم؛ قاله ابن عباس^(٣).

ثم ذكّر سبحانه بِنِعَمِهِ، ثم ذكّر بأوقاتِ المَرَضِ، وَالتَّجَآءِ العِبَادِ إِلَيْهِ سبحانه، وَ«الضَّرُّ»، وَإِنْ كَانَ يَعْمُ كُلُّ مَكْرُوهِ، فَأَكْثَرُ مَا يَجِيءُ عَنْ أَرْزَاءِ الْبَدَنِ، وَ﴿تَجَاوَزُونَ﴾ معناه: ترفعون أصواتكم بِأَسْتِغَاثَةٍ وتَضَرُّعٍ.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهَمُ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ثَالِثَةً لِّتَشْتَبَهَ عَمَّا كُتِبَ ثَمَرُ ٥٦﴾

﴿ثم إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾: الـ ﴿فَرِيقٌ﴾، هنا: يراد به المشركون الذين يَزُورُونَ أَنَّ لِلْأَصْنَامِ أَفْعَالاً مِنْ شِفَاءِ الْمَرَضِ، وَجَلْبِ النَّفْعِ، وَدَفْعِ الضَّرِّ، فَهُمْ إِذَا شَفَاهُمُ اللَّهُ، عَظَّمُوا أَصْنَامَهُمْ، وَأَضَافُوا ذَلِكَ الشِّفَاءَ إِلَيْهَا.

وقوله سبحانه: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾: يجوز أَنْ تَكُونَ اللَّامُ لَامَ الصِّيْرُورَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لَامَ أَمْرٍ؛ عَلَى مَعْنَى التَّهْدِيدِ.

وقوله: ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾: أَي: بِمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٩/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة النحل، حديث (٣١٢٨) من حديث عمر، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٩/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة النحل، حديث (٣١٢٨) من طريق علي بن عاصم، عن يحيى البكاء، حدثني عبد الله بن عمر، عن عمر بن الخطاب به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن عاصم. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٤/٤)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٥٩٥/٧) برقم: (٢١٦٤٢)، وذكره ابن عطية (٤٠٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٥٧٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: أي: لما لا يعلمون له حُجَّةٌ، ولا برهاناً، ويحتمل أن يريد بنفي العِلْمِ الأصنامَ، أي: لجمادات لا تعلم شيئاً نصيباً، و«النصيب» المشار إليه هو ما كانت العرب سَنَّتَه من الذبح لأصنامها، والقَسَم من الغَلَاتِ وغيره.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ...﴾ الآية: تعديد لقبائح الكفرة في قولهم: «الملائكة بنات الله»، تعالى الله عن قولهم، والمراد بقوله: ﴿ولهم ما يشتهون﴾، الذِّكْرَانُ من الأولاد.

وقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: عبارة عما/ يعلو وجهه المغموم.

٢٨١ ب

قال ص * : «ظَلَّ»: تكون بمعنى «صَارَ»، وبمعنى «أقام نهاراً»؛ على الصفة المسندة إلى أسمها، وتحتمل هنا الوجهين. انتهى، و﴿كظيم﴾: بمعنى: كاظم، والمعنى: أنه يُخْفِي وَجْده وهَمَّه بِالْأُنثَى، ومعنى ﴿يَتَوَارَى﴾: يتغيب من القوم، وقرأ^(١) الْجَحْدَرِيُّ: «أَيُمْسِكُهَا أَمْ يَدُسُّهَا»، وقرأ الجمهور^(٢): «على هُونٍ»، وقرأ عاصمُ الْجَحْدَرِيُّ^(٣): «على هَوَانٍ»، ومعنى الآية: يُذْبِرُ، أَيُمْسِكُ هذه الأنثى على هوانٍ يتحمّله، وهم يتجلّد له، أم يئدّها فيدفنّها حيّةً، وهو الدُسُّ في التراب.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٠) وَلَوْ يَوَاسِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسَوَّىٰ لَا جَرَءَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾: قالت فرقة: ﴿مَثَلُ﴾، في هذه الآية: بمعنى صفة، أي: لهؤلاء صفة السَّوْءِ ولله المَثَلُ الأعلى.

(١) ينظر: «الشواذ» (٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٤٠٢/٣)، و«البحر المحيط» (٤٨٨/٥)، و«الدر المنصور» (٣٣٩/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٢/٣)، و«البحر المحيط» (٤٨٨/٥)، و«الدر» (٣٣٩/٤).

(٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

قال * ع^(١) : * وهذا لا يضطر إليه ؛ لأنه خروج عن اللفظ ، بل قوله : ﴿مَثَلٌ﴾ على بابه ، فلهم على الإطلاق مَثَلُ السوء في كل سوء ، ولا غاية أخزى من عذاب النار ، ولله سبحانه ﴿المَثَلُ الأعلى﴾ على الإطلاق أيضاً ، أي : الكمال المستغني .

وقوله سبحانه : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾ : الضمير في «عليها» عائذ على الأرض ، وتمكّن ذلك مع أنه لم يجز لها ذكر ؛ لشهرتها وتمكّن الإشارة إليها ، وسمع أبو هريرة رجلاً يقول : «إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَهْلِكُ إِلَّا نَفْسَهُ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : بَلَى ، إِنَّ اللَّهَ لَيُهْلِكُ الْحَبَّارَ فِي وَكْرَهَا هَذَا هَذَا بِذُنُوبِ الظُّلْمَةِ^(٢) . و«الأجل المسمى» ؛ في هذه الآية : هو بحسب شخص شخص .

وقوله : ﴿ما يكرهون﴾ يريد البنات .

وقوله سبحانه : ﴿وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنی﴾ : قال مجاهد وقتادة ﴿الحسنی﴾ : الذكور من الأولاد^(٣) ، وقالت فرقة : يريد الجنة .

قال * ع^(٤) : * ويؤيده قوله : ﴿لَا جرم أن لهم النار﴾ ، وقرأ السبعة^(٥) سوى نافع : «مُفْرَطُونَ» - بفتح الراء وخفتها - أي : مُقَدَّمُونَ إلى النار ، وقرأ نافع : «مُفْرَطُونَ» - بكسر الراء المخففة - ، أي : متجاوزون الحد في معاصي الله .

﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَأَخْلَفَوْنَهَا غَيْبًا لَّيْلًا نُنَزِّلُ الْأَسْفَلَ نَارًا طَبَخَتْ فِيهَا السَّيِّئَاتِ فَهِيَ هِيَ﴾ وَلَهُمْ فِيهَا أَعْنَابٌ وَعِزٌّ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْغَيْبِ الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهُمْ فِيهَا يُفْرَطُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضُ بِهِ ظُلُمًا مَدًّا وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجْرًا تَجْرِي فِيهِ السَّيِّئَاتِ فَهِيَ هِيَ ﴿٦٤﴾

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٤٠٢/٣) .

(٢) أخرجه الطبري (٦٠١/٧) برقم : (٢١٦٦٩) بنحوه ، وذكره البغوي (٧٤/٣) ، وابن عطية (٤٠٣/٣) ، وابن كثير (٥٧٣/٢) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٨/٤) ، وعزاه لعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، والبيهقي في «الشعب» .

(٣) أخرجه الطبري (٦٠٢/٧) برقم : (٢١٦٧٣) ، (٢١٦٧٤) ، (٢١٦٧٥) ، وذكره ابن عطية (٤٠٣/٣) ، وابن كثير (٥٧٤/٢) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٨/٤) ، وعزاه لابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، ولعبد الرزاق ، وابن المنذر .

(٤) ينظر : «المحرر الوجيز» (٤٠٣/٣) .

(٥) ينظر : «السبعة» (٣٧٣) ، و«الحجة» (٧٣/٥) ، و«معاني القراءات» (٨٠/٢) ، و«إعراب القراءات» (١/٣٥٦) ، و«شرح الطيبة» (٤١٥/٤) ، و«العنوان» (١١٨) ، و«شرح شملة» (٤٥٨) ، و«حجة القراءات» (٣٩١) ، و«إنحاف» (١٨٥/٢) .

وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ ذِي قَرْنٍ وَذِي ثَلَاثِ رِجَالٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآية: هذه آية ضرب مثل لهم بَمَنْ سَلَفَ، في ضِمْنِهَا وعيدٌ لهم، وتأنيسٌ للنبي ﷺ، وقوله: ﴿فهو وليهم اليوم﴾: يحتمل أن يريد بـ ﴿اليوم﴾ يوم الإخبار، ويحتمل أن يريد يوم القيامة، أي: وليهم في اليوم المشهور.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا لَتَبِينَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: ﴿لتبين﴾: في موضع المفعول من أجله، أي: إلا لأجل البيان، و﴿الذي اختلَفُوا فِيهِ﴾: لَفْظٌ عامٌّ لأنواعِ كُفْرِ الكفرة، لكن الإشارة هنا إلى تشريكهم الأضنام في الإلهية.

ثم أَخَذَ سبحانه يَنْصُ العِبَرَ المؤدية إلى بيان وحدانيته، وعظيم قدرته، فبدأ بنعمة المَطَرِ التي هي أبين العبر، وهي ملائكة الحياة، وهي في غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل.

وقوله: ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾: الضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، وهذا كثير.

وقوله سبحانه: ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ / «السائغ»: السهل في الشرب اللذيذ.

١٢٨٢

* ت * : وعن ابن عباس، قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَهُ اللَّهُ طَعَامًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبَنًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِيءُ مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرُ اللَّبَنِ»^(١)، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي، واللفظ له: هذا حديث حسن، انتهى من «السلاح».

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ اللَّبَالِ يَتًّا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ إِلَهُ أَزْدِلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥/٢) كتاب «الأسرية» باب: ما يقول إذا شرب اللبن، حديث (٣٧٣٠)، والترمذي (٥٠٦/٥ - ٥٠٧) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا أكل طعاماً، حديث (٣٤٥٥)، وفي «الشمائل» برقم: (٢٠٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٢٨٦ - ٢٨٧)، وأحمد (٢٢٠/١)، ٢٢٥، (٢٨٤)، من حديث ابن عباس، وقال الترمذي: حديث حسن.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا...﴾ الآية: «السَّكْر»: ما يُسَكَّرُ؛ هذا هو المشهور في اللغة، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر^(١)، وأراد بـ «السَّكْر»: الخمر، وبـ «الرَّزْق الحسن» جميع ما يُشْرَب ويؤكل -حلالاً من هاتين الشجرتين، فالحسن؛ هنا: الحلال، وقال بهذا القول ابن جُبَيْر وجماعة^(٢) وصحَّح ابن العربي^(٣) هذا القول، ولفظه: والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر، فإن هذه الآية مكيَّة باتفاق العلماء، وتحريم الخمر مدني انتهى من «أحكام القرآن»، وقال سجاهد وغيره: السكر المائع من هاتين الشجرتين، كالحل، والرَّب، والنَّيْد، والرَّزْق الحسن: العنب والتمر^(٤).

قال الطبري^(٥): والسَّكْر أيضاً في كلام العرب ما يُطعم، ورجَّح الطبري هذا القول، ولا مدخل للخمر فيه، ولا نسخ في الآية.

وقوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل...﴾ الآية: الوحي؛ في كلام العرب: إلقاء المعنى من الموحى إلى الموحى إليه في خفاء، فمنه الوحي إلى الأنبياء برسالة المَلَك، ومنه وحي الرؤيا، ومنه وحي الإلهام، وهو الذي في آيتنا؛ باتفاق من المتأولين، والوحي أيضاً بمعنى الأمر؛ كما قال تعالى: ﴿بأنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع: إما في الجبال وكواها، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يغرش ابن آدم من الأجباح والحيطان، ونحوها، وعَرَّش: معناه: هيأ، والـ ﴿سُبُل﴾ الطرق، وهي مسالكها في الطيران وغيره، و﴿ذُلُلًا﴾: يحتمل أن يكون حالاً من «النحل»، أي: مطيعةً منقادةً، قاله قتادة^(٦). قال ابن زَيْد: فهم يخرجون بالنحل

(١) ذكره البغوي (٧٥/٣)، وابن عطية (٤٠٥/٢)، وابن كثير (٥٧٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٨/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وأبي داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن مردويه، والحاكم صححه.

(٢) أخرجه الطبري (٦٠٩/٧) برقم: (٢١٧٠٧)، (٢١٧٠٨)، (٢١٧٠٩)، وذكره البغوي (٧٥/٣)، وابن عطية (٤١٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٩/٤)، وعزاه للنسائي.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٥٣/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦١١/٧) برقم: (٢١٧٣٧) بنحوه، وذكره البغوي (٧٥/٣)، وابن عطية (٤٠٥/٣)، وابن كثير (٥٧٧/٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦١١/٧).

(٦) أخرجه الطبري (٦١٣/٧) برقم: (٢١٧٤٨)، وذكره ابن عطية (٤٠٦/٣)، وابن كثير (٥٧٥/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر.

ينتجعون، وهي تبعمهم^(١) وقرأ: ﴿أَوْ لَمْ يَزُوا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا...﴾ [يس: ٧١] الآية، ويحتمل أن يكون حالاً من «السُّبُل»، أي: مَسْهَلَةٌ مستقيمة؛ قاله مجاهد^(٢)، لا يتوَعَّر عليها سبيلٌ تسلكه.

ثم ذكر تعالى؛ على جهة تعديد النعمة، والتنبيه على العبرة - أَمَرَ الْعَسَلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ﴾، وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النُّحْلِ، واختلاف الألوان في العسل بحسب اختلاف النُّحْلِ والمَرَاعِي، أي والفصول.

* ت * قال الهروي: قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مَخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾، وذلك أنه يستحيل في بطونها، ثم تمجُّه من أفواهها انتهى.

٢٨٢ ب وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ الضمير للعسل؛ قاله الجمهور: / قال ابن^(٣) العربي في «أحكامه»؛ وقد روى الأئمة، واللفظ للبخاري، عن عائشة، قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الْخُلُوءَ وَالْعَسَلَ^(٤)، وروى أبو سعيد الخدري: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ فَقَالَ: «أَسْقِهِ عَسَلًا»، ثم أتاه الثانية، فقال: «أَسْقِهِ عَسَلًا»، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: فَقَعَلْتُ فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا اسْتِظْلَاقًا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، أَسْقِهِ عَسَلًا» فسقاه، فبرأ^(٥)، وروي أن عوف بن مالك الأشجعي مريض، فقيل له: أَلَا نَعَالِجُكَ؟ فَقَالَ: أَتُؤْنِي بِمَاءٍ سَمَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩]

(١) أخرجه الطبري (٦١٣/٧) برقم: (٢١٧٤٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٠٦/٣)، وابن كثير (٢/٥٧٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره البغوي (٧٦/٢)، وابن عطية (٤٠٦/٣).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٥٧/٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٧/٩) كتاب «الأطعمة» باب: الحلوى والعسل، حديث (٥٤٣١)، ومسلم (٢/١١٠١) كتاب «الطلاق» باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، حديث (٢١/١٤٧٤)، وأبو داود (٣٦١/٢)، كتاب «الأشربة» باب: في شراب العسل، حديث (٣٧١٥)، والترمذي (٢٧٣/٢٧٤) كتاب «الأطعمة» باب: ما جاء في حب النبي ﷺ الحلوى والعسل، حديث (١٨٣١)، وفي الشامل (١٦٤)، وابن ماجه (١١٠٤/٢) كتاب «الأطعمة» باب: الحلوى، حديث (٣٣٢٣)، والدارمي (١٠٧/٢)، وأحمد (٥٩/٦) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص: (٢٠٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٨٤/٦) - بتحقيقنا، كلهم من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه البخاري (١٣٩/١٠) كتاب «الطب» باب: الدواء بالعسل، حديث (٥٦٨٤)، ومسلم (٤/١٧٣٦) كتاب «السلام» باب: التداوي بسقي العسل، حديث (٢٢١٧/٩١)، وأحمد (١٩/٣)، والبيهقي (٣٤٤/٩)، وفي «دلائل النبوة» (١٦٤/٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٤٩/٦) - بتحقيقنا.

وَأَتُونِي بِعَسَلٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وَأَتُونِي بِزَيْتٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥] فجاءوه بذلك كله فحَلَطَهُ جميعاً، ثم شَرِبَهُ، قَبِراً انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾، وأردل العمر الذي تَفْسُدُ فيه الحواسُّ، ويختلُّ العقلُ، وخص ذلك بالرديلة، وإن كانت حالة الطُفولة كذلك مِنْ حيثُ كانت هذه لا رَجَاءَ معها، وقال بعضُ الناس: أولُ أَرْدَلِ الْعُمُرِ خُمُسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، روي ذلك عن علي^(١) رضي الله عنه.

قال ع^(٢): * وهذا في الأغلب، وهذا لا ينحصرُ إلى مدَّةٍ معيَّنة، وإنما هو بحَسَبِ إنسانٍ إنسانٍ، ورُبُّ مَنْ يَكُونُ ابْنُ خَمْسِينَ سَنَةً، وهو في أَرْدَلِ عمره، ورُبُّ ابْنِ تِسْعِينَ ليس في أَرْدَلِ عمره، واللامُ في ﴿لَكِي﴾ يشبه أن تكون لَامُ الصيرورة، والمعنى: ليصير أمره بَعْدَ الْعِلْمِ بالأشياء إلى ألا يعلم شيئاً، وهذه عبارة عن قَلَّةِ علمه، لا أنه لا يعلم شيئاً ألبتَّةً.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَلِهِمْ يَفْتَحُونَ﴾ (٧١) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ وَرِزْقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتُ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَيَعْبُدُونَ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَلَا تَضُرُّوهُمُ الْآثَانُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤)

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ إخبار يُرَادُ به العبرة وإنما هي قاعدة بني المثل عليها، والمثل هو أن المفضلين لا يصحُّ منهم أن يساهموا ممالئكم فيما أعطوا؛ حتى تستوي أحوالهم، فإذا كان هذا في البشر، فكيف تنسبون أيها الكفرة إلى الله؛ أنه يسمح بأن يشرك في الألوهية الأوثان والأصنام وغيرها ممَّا عُبِدَ مِنْ دونه، وهم خَلَقَهُ ومِلَكُهُ، هذا تأويلُ الطبري، وحكاة عن ابن عباس^(٣) قال المفسرون: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ

(١) أخرجه الطبري (٦١٥/٧) برقم: (٢١٧٥٦)، وذكره البغوي (٧٦/٣)، وابن عطية (٤٠٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٢/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٧/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٦١٥/٧ - ٦١٦) برقم: (٢١٧٥٧)، وذكره ابن كثير (٥٧٦/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٢/٤ - ٢٣٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ... ﴿الآية [الروم: ٢٨]﴾ ثم وقفهم سبحانه على جحدهم بنعمته في تنبيههم لهم على مثل هذا من مواضع النظر المؤدية إلى الإيمان.

وقوله سبحانه: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ هذه أيضاً آيةٌ تعدد نِعَمَ «والأزواج»؛ هنا: الزوجات، وقوله: ﴿من أنفسكم﴾: يحتمل أن يريد خِلَقَةً حَوَاءً مِنْ نَفْسِ آدَمَ، وهذا قول قتادة^(١) والأظهرُ عندي أن يريد بقوله ﴿من أنفسكم﴾، أي: مِنْ نوعكم كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والـ ﴿حفدة﴾: قال ابن عباس: هم أولاد البنين^(٢) وقال الحسن: هم بَنُوكَ وَبَنُوكَ بَنِيكَ^(٣)، وقال مجاهد: الـ ﴿حفدة﴾ الأنصار والأغوان^(٤) وقيل غير هذا، ولا خلاف أن معنى «الحفد» الخدمَةُ والبِرُّ والمشْيُ مسرعاً في الطاعة؛ ومنه في القنوت: «وإِلَيْكَ نَسْعَى وَنُخْفِدُ»، والحَفْدَانُ أيضاً: حَبَبٌ فوق المَشْيِ.

١٢٨٣

وقوله سبحانه: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال...﴾ الآية: أي: لا تمثلوا لله الأمثال، وهو مأخوذٌ من قولك: هذا ضَرِيبٌ هَذَا، أي: مثيله، والضَرْبُ: التَّوَعُّ.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ اللَّهُ إِلَهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَبَرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ النَّفْسِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً﴾ الآية: الذي هو مثالٌ في هذه الآية هو

- (١) أخرجه الطبري (٦١٦/٧) برقم: (٢١٧٦٢)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٣/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
- (٢) أخرجه الطبري (٦١٩/٧) برقم: (٢١٧٩٨ - ٢١٧٩٧)، وذكره البغوي (٧٧/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٠٨)، وابن كثير (٥٧٧/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.
- (٣) أخرجه الطبري (٦١٨/٧) برقم: (٢١٧٨٣)، وذكره ابن عطية (٤٠٨/٣)، وابن كثير (٥٧٧/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٤/٤)، وعزاه لابن جرير.
- (٤) أخرجه الطبري (٦١٨/٧) برقم: (٢١٧٨٧)، وذكره البغوي (٧٧/٣)، وابن عطية (٤٠٨/٣)، وابن كثير (٥٧٧/٢).

عَبْدٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، مَمْلُوكٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ، وَلَا أَمْرٍ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسَخَّرٌ بِإِرَادَةِ سَيِّدِهِ، مَذْبُورٌ، وَبِإِزَاءِ الْعَبْدِ فِي الْمَثَالِ رَجُلٌ مُوسَّعٌ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ بِإِرَادَتِهِ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الَّذِي لَهُ الْمَثَلُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: هُوَ مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ^(١)، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: هَذَا الْمَثَلُ وَالْمَثَالُ الْآخَرُ الَّذِي بَعْدَهُ، إِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْأَصْنَامُ، فَتِلْكَ كَالْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ قُدْرَتَهُ دُونَ مَعْقَبٍ^(٢)، وَكَذَلِكَ فَسَّرَ الزُّجَاجُ عَلَى نَحْوِ قَوْلِ مُجَاهِدٍ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَصَوَّبٌ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ تَكُونُ مِنْ مَعْنَى مَا قَبْلُهَا، وَمَدَارُهَا فِي تَبْيِينِ أَمْرِ اللَّهِ وَالرَّدِّ عَلَى أَمْرِ الْأَصْنَامِ.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ظهور الحجة.

وقوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ...﴾ الآية: هَذَا مَثَلٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْأَصْنَامُ، فَهِيَ كَالْأَبْكَمِ الَّذِي لَا نُطْقَ لَهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، «وَالْكَلُّ» الثَّقِيلُ الْمُؤَوَّنَةُ، كَمَا الْأَصْنَامُ تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تُثَقَّلَ وَتُخَدَّمُ وَيَتَعَذَّبَ بِهَا، ثُمَّ لَا يَأْتِي مِنْ جَهَتِهَا خَيْرٌ أَبَدًا، وَالَّذِي يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ...﴾ الآية: الْمَعْنَى، عَلَى مَا قَالَه قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: مَا تَكُونُ السَّاعَةُ وَإِقَامَتُهَا فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(٣) إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهَا: كُنْ، فَلَوْ اتَّفَقَ أَنْ يَقِفَ عَلَى ذَلِكَ مُحْضَلٌ مِنَ الْبَشَرِ، لَكَانَتْ مِنَ السَّرْعَةِ بِحَيْثُ يَشْكُ، هَلْ هِيَ كَلَمَحِ الْبَصْرِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ، «وَلَمَحَ الْبَصَرُ» هُوَ وَقُوعُهُ عَلَى الْمَرْتِي.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظُلَلٍ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٢٢/٧) بِرَقْمٍ: (٢١٨٠٦ - ٢١٨٠٧ - ٢١٨٠٨)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤١٠/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٧٨/٢) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٢٣٤/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَلَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤١٠/٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٧٨/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٢٣٥/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٢٤/٧) بِرَقْمٍ: (٢١٨١٦) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٢٣٦/٤)، وَعَزَاهُ لَعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمَمِينُ ﴿٨٧﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء...﴾ الآية: «الجو مسافة ما بين السماء والأرض، وقيل: هو ما يلي الأرض منها، والآية عبرة بينة المعنى، تفسيرها تكلف مَحْت، و﴿يوم ظعنكم﴾ معناه رَجِيلكم، والأصواف: للضأن، والأوبار: للإبل، والأشعار: للمعز، ولم تكن بلادهم بلاد قُطْن وكَتَانٍ، فلذلك اقتصر على هذه، ويحتمل أن تَرَكَ ذَكَر القُطْن والكَتَانِ والحريز إعراضاً عن السَّرَف، إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصُوف، قال ابن العربي في «أحكامه» عند قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ﴾ [النحل: ٥]: في هذه الآية دليل على لباس الصُوف، فهو أول ذلك وأولاه، لأنه شعار المتقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وإليه نُسب جماعة من الناس «الصُوفيَّة»؛ لأنه لباسهم في الغالب انتهى.

ب ٢٨٣

/ «والأثاث» متاع البيت، واجدُها أثاثه؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري^(١) وقال غيره: «الأثاث»: جميع أنواع المال، ولا واحد له من لفظه.

قال * ع^(٢) * : والاشتقاق^(٣) يقوي هذا المعنى الأعم؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أثينة؛ كما تقول: شَغُرْ أَثِيثٌ، وَنَبَاتْ أَثِيثٌ، إِذَا كَثُرَ وَالتَّفَّ، والـ ﴿سرابيل﴾: جميع ما يُلْبَسُ عَلَى جميع البدن، وذكر وقاية الحر، إذ هو أمس بتلك البلاد، والبرْد فيها معدوم في الأكثر، وأيضاً: فذكر أحدهما يدل على الآخر، وعن عمر رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ لَبَسَ ثَوْباً جَدِيداً، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي خَلَقَ، فَتَصَدَّقَ بِهِ - كَانَ فِي كَتِفِ اللَّهِ، وَفِي حِفْظِ اللَّهِ، وَفِي سِتْرِ اللَّهِ حَيّاً وَمَيِّتاً^(٤)» رواه الترمذي، واللفظ له، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرک»، وعن عائشة قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ثَوْباً

(١) ذكره ابن عطية (٤١٢/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٢/٣).

(٣) الاشتقاق هو: نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتها معنى وتركيباً، ومغايرتهما في الصيغة، وهو يقابل الجمود ويضاده، وقد اختلف النحاة في الأصل الذي يقع فيه الاشتقاق، وهو ينقسم إلى كبير وصغير. ينظر: «التعريفات» للجرجاني ص: (٣٧) و«معجم المصطلحات النحوية والصرفية» ص: (١١٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٥٥٨/٥) كتاب «الدعوات» باب: (١٠٨)، حديث (٣٥٦٠)، وابن ماجه (١١٧٨/٢) كتاب «اللباس» باب: ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً، حديث (٣٥٥٧)، والحاكم (٥٠٧/١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٦٧) من حديث أبي أمامة.

بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ، فَحَمِدَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَّا لَمْ يَبْلُغْ رُكْبَتَيْهِ حَتَّى يَغْفَرَ اللَّهُ لَهُ»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: هذا الحديث لا أعلم في إسناده أحداً ذكر بجرح. انتهى من «السلح». والسراييل التي تقي البأس: هي الدروع ونحوها، ومنه قول كعب بن زهير في المهاجرين: [البسيط]

شُمَّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لِبُوسُهُمْ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ^(٢)
والبأس: مس الحديد في الحرب، وقرأ الجمهور^(٣) «تُسَلِّمُونَ» وقرأ ابن عباس^(٤): «تُسَلِّمُونَ»؛ من السلامة، فتكون اللفظة مخصوصة في بأس الحرب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا قَوْفًا الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً على كفرهم وإيمانهم، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾، أي: لا يُؤْذَنُ لهم في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن، و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يُعْتَبُونَ؛ تقول: أَعْتَبْتُ الرَّجُلَ، إِذَا كَفَيْتُهُ مَا عَتَبَ فِيهِ؛ كما تقول: أَشْكَيْتُهُ؛ إِذَا كَفَيْتُهُ مَا شَكَا.

وقال قوم: معناه: لا يُسْأَلُونَ أَنْ يَرْجِعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

وقال الطبري^(٥): معنى ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُعْطَوْنَ الرجوع إلى الدنيا فتقع منهم توبة وعمل.

* ت * وهذا هو الراجح، وهو الذي تدلُّ عليه الأحاديث، وظواهر الآيات في غير ما موضع.

(١) أخرجه الحاكم (٥٠٧/١).

(٢) البيت في ديوانه (٢٣).

والعرانين: الأنوف، وتكون أطراف الأنوف، الواحد منها عرنين. والشم: حدة في طرف الأنف مع تشمير.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٣/٣)، و«البحر المحيط» (٥٠٨/٥).

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٤١٣/٣)، و«البحر المحيط» (٥٠٨/٥)، و«الدر المصون» (٣٥٣/٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٣٠/٧).

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: إذا رأوهم بأبصارهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا...﴾ الآية، كأنهم أرادوا بهذه المقالة تذييب المعبودين، وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ...﴾ الآية: الضمير في ﴿أَلْقُوا﴾ للمعبودين؛ أنطقهم الله بتكذيب المشركين، وقد قال سبحانه في آية أخرى: ﴿فَزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] الآية، انظر تفسيرها في سورة يونس وغيرها.

وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ الضمير في ﴿أَلْقُوا﴾ هنا عائذ على «المشركين»، و﴿السَّلَامَ﴾ الاستسلام.

وقوله تعالى: ﴿زَدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ...﴾ الآية: رُوِيَ في ذلك عن ابن مسعود، أَنَّ اللَّهَ سبحانه يسلط عليهم عقاربَ وحياتٍ، لها أنيابٌ، كالنخل الطوال^(١)، وقال عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: حَيَاتٌ لَهَا أَنْيَابٌ كَالنَّخْلِ^(٢) ونحو/ هذا، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن لجهنم سواحِلَ، فيها هذه الحياتُ وهذه العقاربُ، فيفر الكافرون إلى السَّواحِلِ، فتلقاهم هذه الحياتُ والعقاربُ فيفرون منها إلى النار، فتتبعهم حتى تجد حرَّ النار، فتزجج^(٣). قال: وهي في أسراب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩١)

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: رسولها، ويجوز أن يبعث الله شهوداً من الصالحين مع الرسل، وقد قال بعضُ الصحابة: إذا رأيت أحداً على معصية،

(١) أخرجه الطبري (٦٣٢/٧) برقم: (٢١٨٤٧ - ٢١٨٤٨ - ٢١٨٤٩)، وذكره البغوي (٨١/٣)، وابن عطية (٤١٥/٣)، وابن كثير (٥٨١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٩/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي.

(٢) أخرجه الطبري (٦٣٢/٧) برقم: (٢١٨٥٥)، وذكره ابن عطية (٤١٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٩/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٦٣٣/٧) برقم: (٢١٨٥٦)، وذكره ابن عطية (٤١٥/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير.

فأنه، فإن أطاعك، وإلا كنت شاهداً عليه يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ الإشارة بـ«هؤلاء» إلى هذه الأمة.

وقوله عز وجل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾ الآية: قال ابن مسعود رضي الله عنه: أجمع آية في كتاب الله هذه الآية^(١)، ورؤي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه، أنه قال: لما نزلت هذه الآية، قرأتها على أبي طالب، فعجب، وقال: يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا فوالله، إن الله أرسله ليأمر بكمارم الأخلاق^(٢).

قال * ع^(٣) *: ﴿والعدل﴾ فعل كل مفروض، و﴿الإحسان﴾ فعل كل مندوب إليه، و﴿إيتاء ذي القربى﴾: لفظ يقتضي صلة الرجم، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة، و﴿الفحشاء﴾ الزنا؛ قاله ابن عباس^(٤) ويتناول اللفظ سائر المعاصي التي شنعها ظاهرة، و﴿المنكر﴾ أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والذائل، والإذاعات على اختلاف أنواعها، و﴿البغي﴾ هو إنشاء ظلم الإنسان، والسعاية فيه، و﴿كفلاً﴾ معناه: متكفلاً بوفائكم، وباقي الآية بين.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ﴾ لَتَجْزِئَ أَمْرُكُمْ فِي يَوْمٍ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَفْضِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكبت﴾ الآية: شبهت هذه الآية الذي يخلف أو يعاهد ويبرم عقده، بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحكماً، ثم تنقض قوَى ذلك الغزل، فتحله بعد إبرامه، و﴿أنكبت﴾ نصب على الحال، و﴿النكث﴾ النقض، والعرب تقول انتكث الحبل، إذا انتقضت قواه، و﴿الدخل﴾ الدغل بعينه، وهو الذرائع إلى الخدع والغدر،

(١) أخرجه الطبري (٦٣٥/٧) برقم: (٢١٨٦٨ - ٢١٨٦٩) بنحوه، وذكره البغوي (٨٢/٣)، وابن عطية (٤١٥/٣)، وابن كثير (٥٨٢/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٤١/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور البخاري، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي.

(٢) ذكره ابن عطية (٤١٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٤١/٤)، وعزاه لابن النجار من طريق العكلي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٦/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦٣٤/٧) برقم: (٢١٨٦٥)، وذكره البغوي (٨٢/٣)، وابن عطية (٤١٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٤١/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

وذلك أن المحلوف له مطمئن، فيتمكن الحالف من ضرره بما يريد.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ المعنى: لا تنقضوا الأيمان من أجل أن تكون قبيلةً أزيد من قبيلة في العدد والعزة والقوة، و﴿يُبلوكم﴾ أي: يختبركم، والضمير في «به» يحتمل أن يعود على «الرَّبَّاءِ»، أي: أن الله ابتلى عباده بالرِّبَا، وطَلَبَ بعضهم الظُّهورَ على بعض، واختبرهم بذلك؛ ليرى مَنْ يجاهد بنفسه، ممَّن يتَّبِعُ هواها، وباقي الآية وعيدٌ بيوم القيامة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسِنَةً يَمَّا صَدَقْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ...﴾ الآية: «الدَّخَلُ»؛ كما تقدَّم: الغوائل والخدائع، وكرَّرَ مبالغةً، قال الثعالبي: قال أبو عبيدة: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً فهو دَخَلَ انتهى.

وقوله: ﴿فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعارةٌ للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية: هذه آية نهى عن الرِّشَاءِ^(١)، وأخذ الأموال، ثم أخبر تعالى أن ما عنده من نعيم الجنة، ومواهب الآخرة خيرٌ لمن اتقى وعَلِمَ وأهتدى، ثم بيَّن سبحانه الفرق بين حال الدنيا، وحال الآخرة، بأنَّ هذه ب ٢٨٤ تنفذ وتنقضي عن الإنسان، أو ينقضي عنها، ومنَّ الآخرة باقية دائمة، و﴿صبروا﴾ معناه عن الشهوات وعلى مكاره الطاعات، وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المكروهة.

واختلف النَّاسُ في معنى «الحياة الطَّيِّبَةِ» فقال ابن عباس: هو الرِّزْقُ الْحَلَالُ^(٢) وقال

(١) «الرشوة»: هي بكسر الراء وضمة هاء والجمع رِشَاءٌ وقد أرشاه من باب عدا و«ارتشى» أخذ الرشوة و«استرشى» في حكم طلب الرشوة عليه، و«أرشاه» أعطاه الرشوة.

ينظر: «تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهدية» بتحقيقنا (٦٥/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٦٤١/٧) برقم: (٢١٨٩٣ - ٢١٨٩٤)، وذكره ابن عطية (٤١٩/٣)، وذكره ابن كثير (٥٨٥/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٤/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

الحسن وعلي بن أبي طالب: هي القناعة^(١).

قال * ع^(٢): والذي أقول به أن طيب الحياة اللازم للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم وثبُلها وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر مُلِدٌّ، فهذا تطيب حياتهم، وأنهم احتقروا الدنيا، فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مالٌ حلالٌ، وصحةٌ أو قناعةٌ، فذلك كمالٌ، وإلا فالطيب فيما ذكرناه راتبٌ.

وقوله سبحانه: ﴿ولنجزيهم﴾ الآية: وغد بنعيم الجنة.

قال أبو حيان: روي عن نافع: «ولنجزيهم» بالياء؛ التفاتاً من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة، وينبغي أن يكون على تقدير قسم ثانٍ لا معطوفاً على «فلنجزيهم»، فيكون من عطف جملة قسمة على جملة قسمة، وكلتاها محذوفة، وليس من عطف جوابٍ، لتغاير الإسناد. انتهى^(٣).

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّكُمْ لَسَ لَمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ...﴾ الآية: التقدير فإذا أخذت في قراءة القرآن، والاستعاذة نذب، وعن عطاء أن التعوذ واجب^(٤)، ولفظ الاستعاذة هو على رتبة هذه الآية، والرجيم: المزجوم باللغنة، وهو إبليس ثم أخبر تعالى أن إبليس ليس له ملكة ولا رئاسة، هذا ظاهر السلطان عندي في هذه الآية، وذلك أن السلطان إن جعلناه الحجة، فلنيس لإبليس حجة في الدنيا على أحد لا على مؤمن ولا على كافر، إلا أن يتأول متأول: ليس له سلطان يوم القيامة، فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة؛ لأن إبليس له حجة على الكافرين؛ أنه دعاهم بغير دليل، فاستجابوا له من قبل أنفسهم، ويتولونه: معناه يجعلونه ولياً، والضمير في «به» يحتمل أن يعود على أسم الله عز وجل، والظاهر أنه يعود على اسم العدو الشيطان، بمعنى من أجله، وبسببه، فكأنه قال: والذين هم بسببه مشركون

(١) أخرجه الطبري (٦٤٢/٧) برقم: (٢١٩٠٢-٢١٩٠١)، وذكره البغوي (٨٣/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤١٩)، وذكره ابن كثير (٥٨٥/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٩/٣).

(٣) ينظر: «البحر» لأبي حيان (٥١٧/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٢٠/٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٥/٤)، وعزاه لعبد الرزاق في «المصنف»، وابن المنذر.

بالله، وهذا الإخبار بأن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأمر بالاستعاذة - يقتضي أن الاستعاذة تصرف كيده، كأنها متضمنة للتوكل على الله، والانقطاع إليه.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ يعني بهذا التبديل الشسخ، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾: أي قال كفار مكة، و﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: هو جبريل؛ بلا خلاف.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ قال ابن عباس: كان بمكة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له: «بلعام»، فكان النبي ﷺ يُعَلِّمُهُ الإسلام، ويرؤمهُ عليه، فقال بعض الكفار هذا يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا، وقيل: اسمُ الغلام «جبر»، وقيل: يسار، وقيل: يعيش، والأعجمي هو الذي لا يتكلم بالعربية، وأما العجمي، فقد يتكلم بالعربية، ونسبته قائمة^(١).

وقوله: ﴿وهذا﴾ إشارة إلى القرآن والتقدير: وهذا سرُّ لسان، أو نطق لسان.

﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾

وقوله/ سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ﴾: بمعنى: إنما يكذب، وهذه مقاومة للذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١]، ومن في قوله ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿الكَافِرُونَ﴾، فروي: أن قوله سبحانه: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يراد به مقيسٌ بنُ ضَبَابَةٍ وأشباهه ممن كان آمن، ثم ارتدَّ بأختياره من غير إكراه.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾، أي: كبلالٍ وعَمَارٍ بنِ يَاسِرٍ وأُمِّهِ وَخَبَابٍ وَصُهَيْبٍ

(١) أخرجه الطبري (٦٤٨/٧) برقم: (٢١٩٣٣) بنحوه، وذكره البغوي (٨٥/٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٢١)، وذكره ابن كثير (٥٨٥/٢) بنحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٧/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند ضعيف.

وأشباههم؛ مَنْ كَانَ يُؤْذِي فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَرُبَّمَا سَامَحَ بَعْضُهُمْ بِمَا أَرَادَ الْكَفَّارُ مِنَ الْقَوْلِ؛ لِمَا أَصَابَهُ مِنْ تَغْذِيبِ الْكَفْرَةِ، فَيُرْوَى: أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَعَلَ ذَلِكَ^(١)، فَاسْتَنَاهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَبَقِيَّةِ الرِّخْصَةِ عَامَّةٍ فِي الْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَيُرْوَى أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا صَنَعَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَمَا سَامَحَ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ» قَالَ: أَجْدُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، قَالَ: «فَاجِبُهُمْ بِلِسَانِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَإِنْ عَادُوا فَعُدَّ»^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرِّ مَا سَمِعَ بِمَا كَفَرُوا﴾ معناه: أُنْبَسَطَ إِلَى الْكُفْرِ بِأَخْتِيَارِهِ.

* ت * : وَقَدْ ذَكَرَ * ع *^(٣) هُنَا نَبْذًا مِنْ مَسَائِلِ الْإِكْرَاهِ، تَرَكْتُ ذَلِكَ خَشْيَةَ التَّطْوِيلِ، وَإِذَا مَحَلُّ بَسْطِهَا كُتِبَ الْفَقْهُ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١١٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١١٨) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (١١٩)

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ...﴾ الآية: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب، والعَذَابُ الَّذِي تُوعَدُ بِهِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهُمْ لِمَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٠) ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِلٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٢١)

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا...﴾ الآية: قَالَ ابْنُ

(١) أخرجه الطبري (٦٥١/٧) برقم: (٢١٩٤٤ - ٢١٩٤٥ - ٢١٩٤٦)، وذكره البغوي (٨٦/٣)، وذكره ابن عطية (٤٢٢/٣ - ٤٢٣) بنحوه، وذكره ابن كثير (٥٨٧/٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أبي مالك بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٥١/٧) برقم: (٢١٩٤٦)، والحاكم (٣٥٧/٢) من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار، عن أبيه به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٨/٤)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٤/٣).

إسحاق: نزلت هذه الآية في عَمَّار بنَ ياسِر، وعَيَّاش بنِ أَبِي رَيْبَعَةَ، والوليد بنِ الوليد^(١).

قال * ع *: وذكُرَ عَمَّار في هذا عندي غَيْرُ قويم، فَإِنَّهُ أَرْفَعُ من طبقة هؤلاء، وإنما هؤلاء مَنْ تَابَ مِمَّنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صدرًا، فتح اللهُ له بابَ التوبة في آخر الآية^(٢)، وقال عكرمة والحسن: نزلت هذه الآية في شأنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي سَرْجٍ وأشباهه^(٣) فكأنه يقول: مِنْ بَعْدِ ما فَتَنَهُمُ الشَّيْطَانُ، وهذه الآية مدنية بلا خلاف، وإن وجد، فهو ضعيف، وقرأ^(٤) الجمهور: «مِنْ بَعْدِ ما فَتَنُوا»؛ مبنياً للمفعول، وقرأ ابن عامر وخده: «مَنْ بَعْدِ ما فَتَنُوا» - بفتح الفاء والتاء أي فَتَنُوا أنفسهم، والضمير في ﴿بعدها﴾ عائذٌ على الفِتْنَةِ، أو على الفَعْلَةِ، أو الهَجْرَةِ، أو التوبة، والكلام يعطيها، وإن لم يَجِر لها ذكُرٌ صريحٌ.

وقوله: ﴿يوم تأتي كل نفس﴾: المعنى لغفورٌ رحيمٌ يَوْمَ، «ونفس» الأولى: هي النفسُ المعروفة، والثانية هي بمعنى الذات.

* ت *: قال المهدوي: يجوز أن ينتصب ﴿يَوْمَ﴾؛ على تقدير لغفورٌ رحيمٌ يَوْمَ، فلا يوقفُ على ﴿رحيم﴾.

وقال * ص *: ﴿يَوْمَ﴾ تأتي ظرفٌ منصوبٌ بـ ﴿رحيم﴾ أو مفعولٌ به بـ ﴿أذكر﴾ انتهى، وهذا الأخير أظهر، والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾، أي: يجازى كلُّ من أحسن بإحسانه، وكلُّ من أساء بإساءته.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ

(١) أخرجه الطبري (٦٥٤/٧) برقم: (٢١٩٥٤)، وذكره ابن عطية (٤٢٥/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥١/٤)، وعزاه لابن جرير، عن ابن إسحاق بنحوه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٥/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٦٥٤/٧) برقم: (٢١٩٥٥) بنحوه، وذكره البغوي (٨٧/٣)، وذكره ابن عطية (٤٢٥/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٠/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ويكون المعنى على قراءة ابن عامر: أنهم هَجَرُوا أوطانهم وقد عرفوا ما في ذلك من الشدة، فيكونون فتنوا أنفسهم.

ينظر: «الحجة» (٧٩/٥)، و«معاني القراءات» (٨٣/٢)، و«إعراب القراءات» (٣٦١/١)، و«العنوان»

(١١٨)، و«شرح الطيبة» (٤٢٠/٤)، و«شرح شعلة» (٤٦٠)، و«حجة القراءات» (٣٩٤)، و«إتحاف»

(١٩٠/٢).

رَسُولٌ يَنْهَى عَنْكَ فِئَتَهُمْ فَاذْبُوهُ فَالَّذِينَ آذَوْهُ الْمُعَذِّبُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لَيْعٍ إِلَهٍ يَغْتَابُ لَكُمْ مِنْ أَشْطَرِّ عَذَابٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة...﴾ الآية: قال ابن عباس: القرية؛ هنا مكة، والمراد الضمائر كلها في الآية أهل القرية^(١)، ويتوجه عندي في الآية أنها قصيد بها قرية غير معينة جعلت مثلاً لمكة، على معنى التحذير، لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة/ وهو الذي يفهم من كلام حفصة أم المؤمنين، و«أنعم» جمع ٢٨٥ ب نعمة.

وقوله سبحانه: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ استعارات، أي: لما باشرهم ذلك، صار كاللباس، والضمير في ﴿جاءهم﴾ لأهل مكة، والرسول محمد ﷺ، و﴿العذاب﴾: الجوع وأمر بذر ونحو ذلك، إن كانت الآية مدنية، وإن كانت مكية، فهو الجوع فقط.

وقوله سبحانه: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً...﴾ الآية: هذا ابتداء كلام آخر، أي: وأنتم أيها المؤمنون، لستم كهذه القرية فكلوا واشكروا الله على تباين حالكم، من حال الكفرة، وقوله: ﴿حلالاً﴾ حال، وقوله: ﴿طيباً﴾: أي مستلذاً؛ إذ فيه ظهور النعمة، ويحتمل أن يكون «الطيب» بمعنى الحلال، كرر مبالغة وتأكيذاً.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَمَتَّعَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام...﴾ الآية: هذه الآية مخاطبة للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب، قال ابن العربي^(٢) في «أحكامه» ومعنى الآية: لا تصفوا الأعيان بأنها حلال أو حرام من قبل أنفسكم، إنما المحرم والمحلل هو الله سبحانه، قال ابن وهب: قال مالك لم يكن من فتيا الناس أن يقال لهم: هذا حلال، وهذا حرام، ولكن يقول: أنا أكره هذا، ولم أكن لأصنع هذا، فكان الناس

(١) أخرجه الطبري (٦٥٥/٧) برقم: (٢١٩٥٦)، وذكره ابن عطية (٤٢٦/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٨٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥١/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٨٣/٣).

يطيعون ذلك، ويرضونه، ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله؛ كما تقدم بيانه، فليس لأحد أن يصرح بهذا في عين من الأعيان إلا أن يكون الباري تعالى يخبر بذلك عنه، وما يؤدي إليه الاجتهاد أنه حرام يقول فيه: إني أكره كذا، وكذلك كان مالك يفعل، اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى انتهى.

وقوله: ﴿متاع قليل﴾ إشارة إلى عيشهم في الدنيا، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ بعد ذلك في الآخرة، وقوله: ﴿ما قصصنا عليك من قبل﴾ إشارة إلى ما في «سورة الأنعام» من ذي الظفر والشحوم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آخِذًا بِوَعْدِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ هذه آية تأنيس لجميع العالم فهي تتناول كل كافر وعاصٍ تاب من سوء حاله، قالت فرقة: «الجهالة»؛ هنا: العمد، والجهالة؛ عندي في هذا الموضع: ليست ضد العلم، بل هي تعدي الطور ورُكوب الرأس. ومنه قوله ﷺ: «أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(١) وقد تقدم بيان هذا، وقلما يوجد في العصاة من لم يتقدم له علم بحظر المعصية التي يواقع.

وقوله سبحانه: ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله...﴾ الآية: لما كشف الله فعل اليهود وتحكمهم في شرعهم بذكر ما حرّم عليهم - أراد أن يبين بعدهم عن شرع إبراهيم عليه السلام، «والأمة»، في اللغة: لفظة مشتركة تقع للجنين، وللجمع الكثير، وللرجل المنفرد بطريقة وحده، وعلى هذا الوجه سُمي إبراهيم عليه السلام أمة، قال مجاهد: سُمي إبراهيم أمة؛ لأنفراده بالإيمان في وقته مدة ما^(٢)، وفي البخاري؛ أنه قال لِسَارَةَ: «لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ الْيَوْمَ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكَ»، وفي البخاري قال ابن مسعود: الأمة معلّم الخير

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (٦٦١/٧) برقم: (٢١٩٨٠) بنحوه، وذكره البغوي (٨٩١٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٣٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٣/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

والقائِتُ^(١): المطيعُ الدائمُ على العبادة، والحنيف: المائلُ إلى الخير والصَّلاح.

/ وقوله سبحانه: ﴿وَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، الآية «الحسنة»: لسانُ الصدق، وإمامته^{١٢٨٦} لجميع الخلق؛ هذا قول جميع المفسرين، وذلك أنَّ كل أمة متشركة، فهي مقرَّة أنَّ إيمانها إيمان إبراهيم، وأنه قُدَّوتُها، وأنه كان على الصواب.

* ت * : وهذا كلامٌ فيه بعض إجمالٍ، وقد تقدَّم في غير هذا الموضع بيانُه، فلا نطوِّل بسَرِّده.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية: ال «مِلَّة»: الطريقةُ في عقائد الشَّرع.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ...﴾ الآية: أي: لم يكن من مِلَّة إبراهيم، وإنما جعل الله فرضاً عاقب به القومُ المُختَلِفِينَ فيه؛ قاله ابن زَيْد؛ وذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة، وأمرهم أن يكون الجمعة، فقال جمهورهم: بل يكون يومُ السَّبْتِ؛ لأن الله تعالى فرَّغ فيه من خلق مخلوقاته، وقال غيرهم: بل نقبل ما أمر به موسى، فراجعهم الجمهورُ، فتابعهم الآخرون، فالزمهم الله يومُ السَّبْتِ إلزاماً قوياً، عقوبةً لهم، ثم لم يكن منهم ثبوتٌ، بل عصوا فيه، وتعدَّوا فأهلكهم^(٢)، وورد في الحديث الصحيح، أنَّ اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يختص من الجمعة، فأخذ هؤلاء السَّبْتَ، وأخذ هؤلاء الأحد، فهدانا الله نحنُ إلى يوم الجمعة، قال ﷺ: «فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اختلفوا فِيهِ»^(٣) فَلَيْسَ الْاِخْتِلَافُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ هُوَ الْاِخْتِلَافُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

(١) أخرجه الطبري (٦٥/٧) برقم: (٢١٩٧١)، وذكره البغوي (٨٩/٣)، وذكره ابن عطية (٤٣٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٩١/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٣/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم صححه.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٣١/٣).

(٣) سيأتي تخريجه.

* ت * : يعنى أَنَّ الاختلاف المذكورَ في الآيةِ هو بينَ اليهودِ فيما بينهم، والاختلاف المذكور في الحديثِ الصحيح هو فيما بينَ اليهودِ والنصارى.

وقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ هذه الآيةُ نزلتْ بمكةَ، أمر عليه السلام أن يدعو إلى دينِ الله وشرعِهِ بتلطُّفٍ، وهكذا ينبغي أن يوعظَ المسلمون إلى يوم القيامة.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ الآية: أطبق أهل التفسير أَنَّ هذه الآية مدنيّة، نزلت في شأن التمثيل بِخَمَزَةٍ وغيره في يوم أُحُدٍ، ووقع ذلك في «صحيح البخاري» وغيره، وقال النبي ﷺ: «لَيْتَنِي أَظْفَرَنِي اللَّهُ بِهِمْ لَأُمَثِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ»^(١) كتاب «النحاس» وغيره: «بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ»، فقال الناس: إِنْ ظَفَرْنَا، لِنَفْعَلَنَّ وَلِنَفْعَلَنَّ، فنزلت هذه الآية، ثم عزم على النبي ﷺ في الصَّبْر عن المجازاة بالتمثيل في القتلى، ويروى أنه عليه السلام قال لأصحابه: «أَمَّا أَنَا فَأَصْبِرُ كَمَا أُمِرْتُ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟ فَقَالُوا: نَصْبِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا نُنَبِّئُ!!!».

وقوله: ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أي بمعونة الله وتأييده على ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ قيل: الضمير في قوله: ﴿عليهم﴾ يعودُ على الكُفَّار، أي: لا تتأسَف على أن لم يُسَلِّمُوا، وقالت فرقة: بل يعودُ على القَتْلَى حمزة وأصحابه الذين حَزَنَ عليهم ﷺ والأولُ أَصَوَّبُ. ﴿ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون﴾ قرأ الجمهور^(٢): «في ضيقٍ» - بفتح الضاد -، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، وهما لغتان.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: أي بالنصير والمعونة، و﴿اتَّقُوا﴾ يريدُ المعاصيَ، ب ٢٨٦ ﴿ومحسنون﴾ هم الذين يتزيدون فيما نُدبَ إليه من فِعْلِ الْخَيْرِ/ وصَلَّى اللَّهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تسليمًا.

(١) بهذا اللفظ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٥ - ٢٥٦)، وعزاه لابن أبي إسحاق، وابن جرير.

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٧٦)، و«الحجة» (٥/ ٨٠)، و«إعراب القراءات» (١/ ٣٦١)، و«معاني القراءات» (٢/ ٨٤).

و«شرح الطيبة» (٤/ ٤٢٠)، و«شرح شعلة» (٤٦٠)، و«العنوان» (١١٨)، و«حجة القراءات» (٣٩٥) و«إتحاف» (٢/ ١٩١).



هذه السورة مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فِي «بَنِي إِسْرَائِيلَ»، وَ «الْكَهْفِ»: إِنَّهَا مِنَ الْعَتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهِنَّ مِنْ تِلَادِي، يَرِيدُ أَنَّهُنَّ مِنْ قَدِيمِ كَسْبِهِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ. لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١)

قوله عز وجل: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام﴾: جل العلماء على أن الإسراء كان بشخصه ﷺ، وأنه ركب البراق من مكة، ووصل إلى بيت المقدس، وصلى فيه، وقالت عائشة ومعاوية: إنما أسري بروحه^(٢)، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور، ولو كانت منامة، ما أمكن قريشاً التشنيع، ولا فضل أبو بكر بالتصديق، ولا قالت له أم هانئ: لا تحدث الناس بهذا، فيكذبوك، إلى غير هذا من الدلائل، وأما قول عائشة فإنها كانت صغيرة، ولا حدثت عن النبي ﷺ، وكذلك معاوية.

قال ابن^(٣) العربي: قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ قال علماؤنا: لو كان للنبي ﷺ اسم هو أشرف منه، لسماه الله تعالى به في تلك الحالة العلية، وقد قال الأستاذ جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن: لما رفعه الله إلى حضرته السيئة وأرقاه فوق الكواكب العلوية؛ ألزمه اسم العبودية، تواضعاً وإجلالاً للألوهية. انتهى من «الأحكام».

و﴿سبحان﴾ مصدر معناه: تنزيهاً لله، وروى طلحة بن عبيد الله الفيض أحد العشرة، أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى سبحان الله؟ قال: تنزيهه الله من كل سوء^(٤)، وكان

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٤/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٦/٨) برقم: (٢٢٠٣٣)، وذكره البغوي، وابن عطية (٤٣٤/٣).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٩٢/٣).

(٤) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٧/١٠ - ٩٨). وقال: رواه البزار وفيه عبد الرحمن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب هذا، وغيره.

الإسراء فيما قال مقاتل وقَتَادَةُ: قبل الهجرة بعام^(١)، وقيل: بعام ونصف، والمتحقق أن ذلك كان بَعْدَ شَقِّ الصحيفة، وقبل بيعة العقبة، ووقع في «الصحيحين» لشريك بن أبي نمر، وَهُمْ في هذا المعنى؛ فإنه روى حديث الإسراء، فقال فيه: وذلك قبل أن يوحى إليه، ولا خلاف بين المحدثين؛ أن هذا وَهُمْ من شريك.

قال * ص *: ﴿أسرى بعبد﴾ بمعنى: سَرَى، وليست همزته للتعدي، بل كـ«سَقَى وَأَسْقَى»، والباء للتعدي، و﴿لَيْلًا﴾ ظرفٌ للتأكيد؛ لأن السرى لا يكون لغةً إلا ليل، وقيل: يعني به في جوف الليل، فلم يكن إذلاًجاً ولا أدلاًجاً انتهى.

و﴿المسجد الأقصى﴾: بيت المقدس، «والأقصى» البعيد، والبركة حوله من وجهين:

أحدهما: النبوة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذَلِكَ القَطر، وفي نواحيه.

والآخر: النعم من الأشجار والمياه والأرض المفيدة.

وقوله سبحانه: ﴿لنريه﴾ يريد لنري محمداً بعينه آياتنا في السموات والملائكة والجنّة والسُدرة وغير ذلك من العجائب، مما رآه تلك الليلة، ولا خلاف أن في هذا الإسراء فُرِضَت الصلوات الخمس على هذه الأمة.

وقوله سبحانه: ﴿إنه هو/ السميع البصير﴾ وعيد للمكذّبين بأمر الإسراء، أي: هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

١٢٨٧

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا وَلَنُعَلِّقَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

﴿وَأَتَيْنَا موسى الكتاب﴾، أي: التوراة.

وقوله: ﴿ألا يتخذوا من دوني وكيلاً...﴾ الآية: التقدير: فعلنا ذلك؛ لئلا يتخذوا يا ذرية فـ ﴿ذُرِّيَّة﴾: منصوبٌ على النداء، وهذه مخاطبة للعالم، ويتجه نصب (ذُرِّيَّة) على أنه مفعول بـ «يتخذوا»، ويكون المعنى ألا يتخذوا بشراً إلاهاً من دون الله، وقرأ أبو عمرو^(٢)

(١) ذكره البغوي (٩٢/٣)، وابن عطية (٤٣٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٢) وحجته أن الفعل قرب من الخبر عن بني إسرائيل، فجعل الفعل مسنداً إليهم، والمعنى حيثئذ: جعلناه هدى لبني إسرائيل، لئلا يتخذوا من دوني وكيلاً.

وحده: «أَلَا يَتَّخِذُوا» بالياء، على لفظ الغائب، «والوكيل»؛ هنا من التوكيل، أي: متوكلاً عليه في الأمور، فهو نذٌ لله بهذا الوجه، وقال مجاهد: ﴿وكيلاً﴾: شريكاً^(١)، ووصف نوح بالشكر؛ لأنه كان يحمد الله في كل حال، وعلى كل نعمة من المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك ﷺ، قاله سلمان الفارسي وغيره^(٢)، وقال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام قال: يا رب، ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: يَا مُوسَى لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِي^(٣)، انتهى، وقد رُوِيَه مسنداً عن النبي ﷺ أعني قوله: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل...﴾ الآية: قالت فرقة: ﴿قضينا﴾ معناه: في أم الكتاب.

قال * ع^(٥) *: وإنما يُلبَسُ في هذا المكان تعديّة ﴿قضينا﴾ بـ«إلى»، وتلخيصُ المعنى عندي: أنَّ هذا الأمر هو مما قضاه الله عزَّ وجلَّ في أم الكتاب على بني إسرائيل،

ينظر: «السبعة» (٣٧٨)، و«الحجة» (٨٣/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٦٣/١)، و«معاني القراءات» (٢/ ٨٧)، و«شرح الطيبة» (٤٢٢/٤)، و«العنوان» (١١٩)، و«شرح شعبة» (٤٦١)، و«حجة القراءات» (٣٩٦)، و«إتحاف» (١٩٣/٢).

(١) أخرجه الطبري (١٧/٨) برقم: (٢٢٠٣٦)، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٤/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الطبري (١٩/٨) برقم: (٢٢٠٤٤)، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٤/٤)، وعزاه للفرياحي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٣٣٠) رقم: (٩٤٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٤٥٨/٥) كتاب «الدعوات» باب: ما جاء في فضل الذكر حديث (٣٣٧٥)، وابن ماجه (١٢٤٦/٢) كتاب «الأدب» باب: فضل الذكر، حديث (٣٧٩٣)، وابن أبي شيبه (٣٠١/١٠) رقم: (٥٩٠٢)، وأحمد (١٩٠/٤)، وفي «الزهد» ص: (٣٥)، والحاكم (٤٩٥/١)، وابن حبان (٢٣١٧ - موارد)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥١/٩)، وابن المبارك في «الزهد» ص: (٣٢٨) رقم: (٩٣٥)، والبيهقي (٣٧١/٣) كتاب «الجنائز» باب: طوبى لحسن طال عمره وحسن عمله، كلهم من طريق عمرو بن قيس الكندي، عن عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابيان إلى النبي ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله أخبرني بأمر أتثبت به، قال: فذكر الحديث.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٧/٣).

وألزمهم إياه، ثم أخبرهم به في التَّوراة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام لنا بالأمرين جميعاً في إيجاز، جعل ﴿قضينا﴾ دالة على النفوذ في أم الكتاب، وقرن بها «إلى» دالة على إنزال الخير بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصود مفهومٌ خلال هذه الألفاظ، ولهذا فسر ابنُ عباس مرةً بأن قال: ﴿قضينا إلى بني إسرائيل﴾، معناه: أعلمناهم^(١)، وقال مرةً: «قضينا عليهم»^(٢)، و﴿الكتاب﴾ هنا؛ التوراة لأن القسم في قوله: ﴿لتفسدن﴾ غير متوجّه مع أن نجعل ﴿الكتاب﴾ هو اللوح المحفوظ.

وقال * ص * : و﴿قضينا﴾: مضمّن معنى «أوحينا»؛ ولذلك تعدّى به «إلى»، وأصله أن يتعدّى بنفسه إلى مفعولٍ واحدٍ؛ كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] انتهى، وهو حسنٌ موافقٌ لكلام * ع *، وقوله «ولتعلن» أي: لتتجبرن، وتطلبون في الأرض العلوّ، ومقتضى الآيات أن الله سبحانه أعلم بني إسرائيل في التوراة، أنه سيقع منهم عصيانٌ وكفرٌ لينعم الله، وأنه سيرسل عليهم أمةً تغلبهم وتذلّهم، ثم يرحمهم بعد ذلك، ويجعل لهم الكثرة ويردّهم إلى حالهم من الظهور، ثم تقع منهم أيضاً تلك المعاصي والقبائح، فيبعث الله تعالى عليهم أمةً أخرى تخرب ديارهم، وتقتلهم، وتجلبهم جلاءً، مبرحاً، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله، قيل: كان بين المرتين مائتا سنة، وعشر سنين ملكاً مؤيداً بأنبياء، وقيل: سبعون سنة.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ۝ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾

٢٨٧ ب

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ الضمير في قوله: ﴿أُولَاهُمَا﴾ عائذ/ على قوله «مرتين»، وعبر عن الشر بـ«الوعد»؛ لأنه قد صرح بذكر العقاب.

قال * ص * : ﴿وعد أُولَاهُمَا﴾، أي: موعود، وهو العقاب، لأن الوعد سبق

(١) أخرجه الطبري (٢٠/٨) برقم: (٢٢٠٥١)، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠/٨) برقم: (٢٢٠٥٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بذلك، وقيل: هو على حذف مضاف، أي وعد عقاب أولاهما. انتهى، وهو معنى ما تقدّم واختلف الناس في العبيد المبعوثين، وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعداً، عيونه أن بني إسرائيل عَصَوْا وقتلوا زكرياء عليه السلام، فغزاهم سِنْجَارِيْبُ مَلِك بابل، قاله ابن إسحاق وابن جبير^(١).

وقال ابن عباس: غزاهم جالوث من أهل الجزيرة^(٢)، وقيل: غزاهم بُخْت نَصْر، وروي أنه دخل قَبْلُ في جيش من الفرس، وهو خامل يسير في مَطْبَخِ الملك، فَأُطْلِع مِنْ جُور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الْفُرْسُ، فَلَمَّا انصرف الجيش، ذكر ذلك للملك الأعظم، فلما كان بعد مدة، جعله الملك رئيسَ جيش، وبعثه فخرَّب بيت المقدس، وقتلهم، وأجلاهم، ثم انصرف، فوجد المَلِكُ قد مات، فَمَلَّكَ موضعه، وأستمرت حاله حتى ملك الأَرْضَ بعد ذلك، وقالت فرقة: إنما غزاهم بُخْت نَصْر في المرة الأخيرة حين عَصَوْا وقتلوا يحيى بن زكرياء، وصورة قتله: أن الملك أراد أن يتزوج بنتَ امرأته، فنهاه يحيى عنها، فعزَّ ذلك على امرأته، فزينت بنتها، وجعلتها تسقي المَلِك الخمر، وقالت لها: إذا راوَدَكَ عن نفسك، فتمنعي حتى يعطيك المَلِك ما تَمَنَّين، فإذا قال لك: تَمَنِّي عَلَيَّ ما أردت، فقولِي: رأس يحيى بن زكرياء، ففعلت الجارية ذلك، فردَّها الملك مرَّتَيْن، وأجابها في الثالثة، فجيء بالرأس في طَسْتٍ، ولسانه يتكلَّم، وهو يقول: لا تحلِّ لك، وجرى دُمُّ يحيى، فلم ينقطع، فجعل الملك عليه التراب، حتى ساوى سور المدينة، والدم ينبعث، فلما غزاهم المَلِك الذي بُعِثَ عليهم بحسب الخلاف الذي فيه، قَتَلَ منهم على الدم سبعين ألفاً حتى سَكَنَ، هذا مقتضى خبرهم، وفي بعض الروايات زيادة ونقص، وقرأ الناس: «فَجَاسُوا»، وقرأ أبو السَّمَّال^(٣): بالحاء، وهما بمعنى الغلبة والدخول قهراً، وقال مُورِّج: جَاسُوا خِلَالَ الْأَرْقَةِ.

* ت * قال * ص *: ﴿جاسوا﴾ مضارعه يَجُوسُ، ومصدره جَوْسٌ وجَوَسَانٌ،

(١) أخرجه الطبري (٢٧/٨) برقم: (٢٢٠٦٨)، وذكره البغوي (١٠٦/٣)، وابن عطية (٤٣٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٧/٨) برقم: (٢٢٠٦٥)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٥).

(٣) ينظر: «المحتسب» (١٥/٢)، وقرأ بها طلحة كما في «الكشاف» (٦٤٩/٢)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٩/٣)، و«البحر المحيط» (٩/٦)، و«الدر المصون» (٣٧٢/٤)، ووقع في «مختصر الشواذ» ص: (٧٨)، نسبتها إلى أبي السمال بالحاء والشين «فحاشوا».

ومعناه: التردد، ﴿وخلال﴾ ظرف، أي: وسط الديار انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم...﴾ الآية عبارة عما قاله سبحانه لبني إسرائيل في التوراة، وجعل «رددنا» موضع «ترد»، لما كان وعد الله في غاية الثقة، وأنه واقع لا محالة، فعبر عن المستقبل بالماضي، وهذه الكرة هي بعد الجولة الأولى، كما وصفنا، فعَلَبَتْ بنو إسرائيل على بيت المقدس، وملَكُوا فيه، وحَسُنَتْ حالهم بُزْهَةً من الدهر، وأعطاهم الله الأموال والأولاد وجعلهم إذا نفروا إلى أمر أكثر الناس، فلما قال الله: إني سافعل بكم هكذا، عَقِبَ بوصيتهم في قوله: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم...﴾ الآية، المعنى: إنكم بعملكم تُجَازُونَ، و﴿وعد الآخرة﴾ معناه: من المرّتين.

/ وقوله: ﴿ليسوءوا﴾ اللام لام أمر، وقيل: المعنى: بعثناهم، ليسوؤوا وليدخلوا، فهي لام كي كلها، والضمير للعباد أولي البأس الشديد، و﴿المسجد﴾ مسجد بيت المقدس، «وتبر» معناه: أفسد بغشم وركوب رأس.

وقوله: ﴿ما علوا﴾، أي: ما علوا عليه من الأفطار، وملكوه من البلاد، وقيل: «ما» ظرفية، والمعنى مدة علوهم وغلبتهم على البلاد.

وقوله سبحانه: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم...﴾ الآية: يقول الله عز وجل لبقية بني إسرائيل: عسى ربكم إن أطعتم في أنفسكم وأستقمتم أن يرحمكم، وهذه العدة ليست برجوع دولة، وإنما هي بأن يرحم المطيع منهم، وكان من الطاعة أتباعهم لعيسى ومحمد عليهما السلام، فلم يفعلوا، وعادوا إلى الكفر والمعصية، فعاد عقاب الله عليهم بضرب الدلة عليهم، وقتلهم وإذلالهم بيد كل أمة، و«الحصير»: من الحضر بمعنى السجن، وبنحو هذا فسره مجاهد وغيره^(١)، وقال الحسن: «الحصير» في الآية: أراد به ما يفترش ويُبْسَط؛ كالحصير المعروف عند الناس^(٢).

قال * ع^(٣) * : وذلك الحصير أيضاً هو مأخوذ من الحضر.

(١) أخرجه الطبري (٤٢/٨) برقم: (٢٢١٠٦)، ذكره ابن عطية (٤٤٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٢/٨) برقم: (٢٢١٠٩)، وذكره البغوي (١٠٧/٣)، وابن عطية (٤٤٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٠/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٠/٣).

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ الآية: ﴿يَهْدِي﴾، في هذه الآية بمعنى يرشد، ويتوجه فيها أن تكون بمعنى «يدعو» و «التي» يريد بها الحالة والطريقة، وقالت فرقة: «التي هي أقوم»: لا إله إلا الله، والأول أعم، «والأجر الكبير» الجنة؛ وكذلك حيث وقع في كتاب الله فضل كبير، وأجر كبير، فهو الجنة، قال الباجي قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً، فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة. قال أبو سليمان الداراني: ربما أقمت في الآية الواحدة خمس ليال، ولولا أنني أدع التفكير فيها، ما جزتها، وقال: إنما يؤتى على أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة، أراد آخرها. قال الباجي. وروى ابن لبابة عن العتبي عن سحنون؛ أنه رأى عبد الرحمن بن القاسم في النوم، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: وجدت عنده ما أخببت! قال له: فأى أعمالك وجدت أفضل؟ قال: تلاوة القرآن، قال: قلت له: فالمسائل، فكان يشير بأصبعه؛ كأنه يلשיها، فكنت أسأله عن ابن وهب، فيقول لي: هو في عليين. انتهى من «سنن الصالحين».

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (١١) وَجَعَلْنَا لَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ لَيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْيَسِينِ وَالْحَسَابُ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾: سقطت الواو من ﴿يدع﴾ في خط المصحف^(١).

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: هذه الآية نزلت دأمة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم في وقت الغضب والضجر، فأخبر سبحانه أنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت، كما يدعون بالخير في وقت الثبوت، فلو أجاب الله دعاءهم، أهلكتهم، لكنه سبحانه يصفح ولا يجيب دعاء الضجر المستعجل^(٢)، ثم عذر سبحانه بعض العذر في أن الإنسان له عجلة

(١) قال الشيخ البنا: «واتفقوا على كتابة «ويدع الإنسان» بحذف الواو». ينظر: «إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤/٨) برقم: (٢٢١١٢)، وذكره ابن عطية (٤٤١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠١/٤)، وعزاه لابن جرير.

٢٨٨ ب فطرية، ﴿والإنسان﴾ هنا: يراد به/ الجنس؛ قاله مجاهد وغيره^(١).

وقال ابن عباس وسليمان: الإشارة إلى آدم لما نفخ الروح في رأسه، عَطَسَ وأبصر، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقه، أعجبت نفسه، فذهب ليمشي مستعجلاً لذلك^(٢)، فلم يقدر، والمعنى؛ على هذا فأنتم دُؤُوا عَجَلَةً موروثية من أبيكم، وقالت فرقة: معنى الآية: معاتبة الناس في دعائهم بالشرِّ مكاناً ما يجب أن يدعو بالخير.

* ت * : قول هذه الفرقة نقله * ع * غير ملخص، فأنا لخُصته.

وقوله سبحانه: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين...﴾ الآية هنا العلامة المنصوبة للنظر والعبارة.

وقوله سبحانه: ﴿فمحونا آية الليل﴾ قالت فيه فرقة: سبب تعقيب الفاء أن الله تعالى خَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مَضِيئَيْنِ، فمحا بعد ذلك القَمَرَ، محاه جبريلُ بجناحه ثلاث مرَّات، فمِنْ هُنَاكَ كَلَفُهُ، وقالت فرقة: إن قوله: ﴿فمحونا آية الليل﴾ إنما يريدُ في أضلِّ خلقته، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾، أي: يُبَصِّرُ بها ومعها، ليبتغي الناس الرِّزْقَ وَفَضَلَ اللَّهِ، وجعلَ سبحانه القَمَرَ مخالفاً لحالِ الشَّمْسِ؛ ليعلم به العدَدُ من السنينِ والحسابُ للأشهرِ والأيام، ومعرفة ذلك في الشَّرْعِ إنما هو من جهة القمر، لا من جهة الشمس، وحكى عياضُ في «المدارك» في ترجمة الغازي بن قيس قال: روي عن الغازي بن قيس؛ أنه كان يقول: ما مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي إِلَّا وَيَقُولُ: أَنَا خَلَقْتُ جَدِيداً، وَعَلَى مَا يُفْعَلُ فِي شَهِيدٍ، فَخُذُوا مِنِّي قَبْلَ أَنْ أَبِيدَ، فَإِذَا أَمْسَى ذَلِكَ الْيَوْمُ، خَرَّ لِلَّهِ سَاجِداً، وقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي الْيَوْمَ الْعَقِيمَ. انتهى. «والتفصيل» البيان.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عَقْبِهِ وَنُخْرِجُهُ لَوِّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَن أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

وقوله سبحانه: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائرته﴾ قال ابن عباس: ﴿طائرته﴾ ما قُدِّر له

(١) ذكره الطبري (٤٥/٨)، وذكره ابن عطية (٤٤١/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٥/٨) برقم: (٢٢١١٧)، وذكره ابن عطية (٤٤١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/

٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠١/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن عساكر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤١/٣).

وعليه^(١)، وخاطب الله العرب في هذه الآية بما تعرف، وذلك أنه كان من عاداتها التيمُّن والتشاؤم بالطَّير في كونها سانحةً وبارحةً، وكثُر ذلك حتَّى فعلته بالطَّباء وحيوانِ الفلأ، وسُمِّت ذلك كلُّه تطَّيراً، وكانت تعتقد أنَّ تلك الطَّيرة قاضية بما يلقي الإنسان من خيرٍ وشرٍّ، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية بأوجز لفظٍ، وأبلغ إشارةٍ، أن جميع ما يلقي الإنسان من خيرٍ وشرٍّ قد سبق به القضاء، وألزم حفظه وعمله وتكسُّبه في عنقه، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾، فعبر عن الحظِّ والعمل؛ إذ هما متلازمان، بالطائر؛ قاله مجاهد وقتادة^(٢)، بحسب معتقد العرب في التطيُّر، ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾: هذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطيئاته، ﴿اقرأ كتابك﴾ أي: يقال له: اقرأ كتابك، وأسند الطبري عن الحسن، أنه قال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفةً، ووكل بك ملكان كريمان؛ أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك، فأَمِلِل ما شئت وأقلِّل أو أكثِر حتَّى إذا مِتْ طُوِيَتْ صحيفةُك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتَّى تخرُجَ لك/ يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ قد عدلَ والله فيك، مَنْ جعلك حسيبَ نفسك^(٣).

١٢٨٩

قال * ع^(٤) فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسنُ يكون الطائرُ ما يتحصَّل مع ابنِ آدم من عمله في قبره، فتأمَّل لفظه، وهذا قول ابن عباس^(٥)، وقال قتادة في قوله: اقرأ كتابك: إنه سيقراً يومئذ من لم يكن يقرأ^(٦).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۖ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۖ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝١٧﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا

(١) أخرجه الطبري (٤٧/٨) برقم: (٢٢١٣٣)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وذكره ابن عطية (٤٤٢/٣)،

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٣/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٤٧/٨) برقم: (٢٢١٣٣)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وابن عطية (٤٤٢/٣)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٣/٤)، وعزاه لأبي داود في كتاب «القدر»، وابن جرير،

وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره البغوي (١٠٨/٣)، وذكره ابن عطية (٤٤٣/٣)، وذكره ابن كثير (٢٨/٣) بنحوه، وذكره

السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٤/٣)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٣).

(٥) أخرجه الطبري (٤٩/٨) برقم: (٢٢١٤١)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وابن عطية (٤٤٣/٣)،

وابن كثير في «تفسيره» (٢٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٤/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٦) أخرجه الطبري (٥٠/٨) برقم: (٢٢١٤٥)، وذكره البغوي (١٠٨/٣)، وابن عطية (٤٤٣/٣)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٤/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا﴾ قرأ الجمهور^(١): «أَمَرْنَا»؛ على صيغة الماضي، وعن نافع وابن كثير، في بعض ما رُوِيَ عنهما: «أَمَرْنَا» بمد الهمزة؛ بمعنى كَثَرْنَا، وقرأ أبو عمرو بخلاف عنه: «أَمَرْنَا» بتشديد الميم، وهي قراءة أبي عثمان التَّهْدِي، وأبي العالية وابن عَبَّاسٍ، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ، قال الطبري^(٢) القراءة الأولى معناها: أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ، فَعَصَوْا وَفَسَقُوا فِيهَا، وهو قول ابن عباس^(٣) وابن جبير، والثانية: معناها: كَثَرْنَاهُمْ، والثالثة: هي من الإِمَارَةِ، أي مَلَكْنَاهُمْ عَلَى النَّاسِ، قال الثعالبي: واختار أبو عُبَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ قراءة الجمهور، قال أبو عُبَيْدٍ: وإنما اختَرْتُ هذه القراءة، لأنَّ المعاني الثلاثة مجتمعة فيها، وهي معنى الأَمْرِ والإِمَارَةِ والكثرة انتهى.

* ت * : وعبارة ابن العربي^(٤): ﴿أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا﴾ يعني بالطاعة، ففسقوا بالمخالفة انتهى من كلامه على الأفعال الواقعة في القرآن، «والمترف»: الغنيُّ من المالِ المتنعم، والتَرْفَةُ: النِّعْمَةُ، وفي مُصْحَفِ أَبِي بَنِ كَعْبٍ: «قَرْيَةٌ بَعَثْنَا أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا فَمَكَّرُوا فِيهَا».

وقوله سبحانه: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾، أي: وعيدُ اللَّهِ لها الذي قاله رسولهم، «والتدمير» الإهلاك مع طَمَسِ الآثارِ وَهَدَمِ البناءِ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ...﴾ الآية: مثال لقريشٍ ووعيدٍ لهم، أي: لستم ببعيد مما حصلوا فيه إن كذبتُم، وأختلف في القرن، وقد روى مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ فِي حَتِّهِ^(٥) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُسْرِ، قال: وضع رسولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وقال: «سَيَعِيشُ هَذَا الْعُلَامُ قَرْنًا»

(١) ينظر: اختلاف القراء في هذا الحرف في: «السبعة» (٣٧٩)، و«الحجة» (٩١/٥)، و«معاني القراءات» (٨٩/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٢٦/٤)، و«إتحاف» (١٩٥/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٤٤/٣)، و«البحر المحيط» (١٧/٦)، و«الدر المصون» (٣٧٩/٤)، و«المحتسب» (١٥/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٥١/٨).

(٣) أخرجه الطبري (٥١/٨) برقم: (٢٢١٥٠)، وذكره ابن عطية (٤٤٤/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٣٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٧/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١١٩٦/٣).

(٥) في الحديث: علي حَتَّنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، أي زوج ابنته. ينظر: «لسان العرب» (ختن).

قُلْتُ: كم القَرْنُ؟ قَالَ: مِائَةُ سَنَةٍ^(١) قال محمد بن القاسم: فما زِلْنَا نَعُدُّ له حتى كَمَلِ مِائَةُ سَنَةٍ، ثم مات رحمه الله.

والباء في قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ زائدة، التقديرُ وكَفَى رَبُّكَ، وهذه الباء إنما تجيء في الأغلب في مَذْحٍ أو ذَمٍّ، وقد يجيء «كَفَى» دون بَاء، كقول الشاعر: [الطويل]

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا^(٢)

وكقول الآخر: [الطويل]

وَيُخْبِرُنِي عَنْ غَائِبِ الْمَرْءِ هَذِيهِ كَفَى الْهَذِي عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا^(٣)

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ...﴾ الآية: المعنى فَإِنَّ اللَّهَ يَعَجِّلُ لِمَنْ يَرِيدُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَا يَشَاءُ سبحانه؛ على قراءة النون^(٤)، أو ما يشاء هذا المريد؛ على قراءة الياء، وقوله: ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ شرط كافٍ على القراءتين، وقال أبو إسحاق الفَرَارِيُّ: المعنى: لِمَنْ نُرِيدُ هَلَكَتَهُ^(٥)، و«المدحور»: المهان المُبْعَدُ المَذَلُّ المسخوطُ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾، أي: إِرَادَةً يَقِينٍ وَإِيمَانٍ بِهَا، وبِاللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ، ثم شَرَطَ / سبحانه في مريدِ الآخرة أَنْ يَسْعَى لَهَا سَعْيَهَا، وهو ملازمةُ أَعْمَالِ الْخَيْرِ على ٢٨٩ ب

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤/١٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧١/٥)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٢) عجز بيت صدره:

عميرة ودع إن تجهزت غاديا

ينظر: «الإنصاف» (١٦٨/١)، و«خزانة الأدب» (٢٦٧/١)، (١٠٢/٢ - ١٠٣)، و«سر صناعة الإعراب» (١٤١/١)، و«شرح التصريح» (٨٨/٢)، و«شرح شواهد المغني» (٣٢٥/١)، و«الكتاب» (٢٦/٢)، (٢٢٥/٤)، و«لسان العرب» (٢٢٦/١٥) (كفى)، و«مغني اللبيب» (١٠٦/١)، و«المقاصد النحوية» (٦٦٥/٣)، وبلا نسبة في «أسرار العربية» ص: (١٤٤)، و«أوضح المسالك» (٢٥٣/٣)، و«شرح الأشموني» (٣٦٤/٢)، و«شرح عمدة الحفاظ» ص: (٤٢٥)، و«شرح قطر الندى» ص: (٣٢٣)، و«شرح المفصل» (١١٥/٢)، (٨٤/٧)، (١٤٨)، (٢٤/٨)، (٩٣)، (١٣٨)، و«لسان العرب» (٣٤٤/١٥) (نهي).

(٣) البيت لزياد بن زيد العدوي، ينظر: في «الغراء» (١١٩/٢)، و«التهذيب»، و«اللسان» (هدى)، و«البحر» (١٤/٦)، و«الدر» (٣٧٧/٤).

(٤) قرأ الجمهور بالنون «نشاء». ونافع «يشاء» بالياء من تحت. ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٦/٣)، و«البحر المحيط» (١٨/٦).

(٥) أخرجه الطبري (٥٥/٨) برقم: (٢٢١٧١)، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٣).

حُكْمُ الشَّرْعِ، ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مُشْكُورًا﴾ ولا يشكر الله سعيًا ولا عملًا إلا أثاب عليه، وعَفَّرَ بسببه؛ ومنه قوله ﷺ في حديث الرجل الذي سَقَى الْكَلْبَ الْعَاطِشَ: «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَعَفَّرَ لَهُ»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّا نَمْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد به «العطاء» الطاعات لمريد الآخرة، والمعاصي لمريد العاجلة، وروي هذا التأويل عن ابن عباس^(٢)، ويحتمل أن يريد بالعطاء رزق الدنيا، وهو تأويل الحسن بن أبي الحسن، وقتادة^(٣)، المعنى أنه سبحانه يرزق في الدنيا من يريد العاجلة ومريد الآخرة، وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة، ويتناسب هذا المعنى مع قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا﴾، أي: ممنوعاً، وَقَلَّمَا تَصْلُحْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ لِمَنْ يُمَدُّ بِالْمَعَاصِي.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُولًا ﴿٢٢﴾

وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية تدلُّ دلالةً ما على أن العطاء في التي قبلها الرزق، وباقي الآية معناه أَوْضَحُ من أن يبين.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُولًا﴾ هذه الآية خطابٌ للنبي ﷺ والمراد لجميع الخلق، قاله الطبري^(٤) وغيره، ولا مريّة في ذمّ مَنْ نَحَتَ عوداً أو حجراً، وأشركه في عبادة ربه.

قال * ص * : ﴿تَقْعُدَ﴾، أي: فتصير؛ بهذا فسرهُ الفراء وغيره اهـ.

«والخذلان»؛ في هذا بإسلام الله لعبده، ألا يتكفل له بنصر، والمخذول الذي أسلمه ناصروه، والخاذل من الظباء التي تترك ولدها.

﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنَّا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْيَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٢) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢/١٠) كتاب «الأدب» باب: رحمة الناس والبهايم، حديث (٦٠٠٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٤٦/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٥٦/٨) برقم: (٢٢١٧٥) وبرقم: (٢٢١٧٧)، وذكره ابن عطية (٤٤٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» ((٣٠٨/٤))، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الحلية».

(٤) ينظر: «الطبري» (٥٧/٨).

مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكَزُ اعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّكُمْ كَانُوا لِلْأَوَّلِينَ عَفْوًا ﴿٢٥﴾ وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّز تَبْدِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضَن عَنْهُمْ أَيْعَاةَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا ﴿٢٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...﴾ الآية: ﴿قضى﴾، في هذه الآية: هي بمعنى أمر وألزم وأوجب عليكم؛ وهكذا قال الناس، وأقول: إن المعنى وقضى ربك أمره، فالمقضي هنا هو الأمر، وفي مصحف ابن مسعود^(١): «وَوَصَّى رَبُّكَ»، وهي قراءة ابن عباس وغيره، والضمير في ﴿تعبدوا﴾ لجميع الخلق؛ وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور، ويحتمل أن يكون ﴿قضى﴾ على مشهورها في الكلام، ويكون الضمير في ﴿تعبدوا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿فلا تقل لهما أف﴾ معنى اللفظة أنها اسم فعل؛ كأن الذي يريد أن يقول: أضجر أو أتقذر أو أكره، ونحو هذا، يعبر إيجازاً بهذه اللفظة، فتعطي معنى الفعل المذكور، وإذا كان النهي عن التأنيف فما فوقه من باب أخرى، وهذا هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور.

قال * ص *: وقرأ الجمهور ﴿الذَّل﴾ بضم الذال، وهو ضد العز، وقرأ ابن عباس^(٢) وغيره بكسرهما، وهو الانقياد ضد الصعوبة انتهى، وباقي الآية بين.

قال ابن الحاجب في «منتهى الوصول»، وهو المختصر الكبير: المفهوم ما دل عليه اللفظ في غير محل النطق، وهو: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة، فالأول: أن يكون حكم المفهوم موافقاً للمنطوق في الحكم، ويسمى فحوى الخطاب، ولحن الخطاب، كتحريم الضرب من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفُ﴾ وكالجزء/ بما فوق الميثقال من قوله تعالى: ١٢٩٠

(١) وقال ابن عباس: إنما التصقت الواو بالصاد.

ينظر: «مختصر شواذ ابن خالويه» ص: (٧٩)، و«الكشاف» (٢/٦٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/٤٤٧)، وزاد نسبتها إلى النخعي، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران، وأبي بن كعب. وينظر: «البحر المحيط» (٦/٢٣).

(٢) وقرأ بها سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، والمجحدري، وحمام الأسدي، عن أبي بكر رضي الله عنه، ورويت عن عاصم بن أبي النجود.

قال أبو الفتح: الذل في الدابة: ضد الصعوبة، والذل في الإنسان، وهو ضد العز.

ينظر: «المحاسب» (٢/١٨)، و«الشواذ» ص: (٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/٤٤٩)، و«البحر المحيط» (٦/٢٦)، و«الدر المصون» (٤/٣٨٦).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة: ٧]، وكتأدية ما دُونَ الفَنطَار من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] وعدم تأدية ما فوق الدينار من قوله تعالى: ﴿بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] وهو من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى، والأعلى على الأدنى، فلذلك كان الحكم في المسكوتِ أولى، وإنما يكون ذلك إِذَا عُرِفَ المقصودُ من الحكم، وأنه أشدُّ مناسبةً في المسكوت؛ كهذه الأمثلة، ومفهومُ المخالفة: أَنْ يَكُونَ الْمَسْكُوتُ عنه مخالفاً للمنطوق به في الحكم ويسمى دليلَ الخطاب^(١) وهو أقسامٌ: مفهومُ الصفة^(٢)؛ مثل: «في الغنمِ السَّائِمَةِ الزَّكَاةُ»،

(١) تقدم التعريف بـ «دليل الخطاب».

(٢) مفهومُ الصِّفَةِ: هُوَ مَا يفهم من تعليق الحكم على الدَّاتِ بصفة من صفاتها، كما في قوله ﷺ: «في سَائِمَةِ الْغَنَمِ زَكَاةٌ»، فإن الغنم ذاتٌ، والسوم والعلف وصفان لها يعترئانها، وَقَدْ علق الحكم وهو وجوب الزكاة بأحد وصفيها، وهو السوم، فيفهم منه نفي الوجوب عن المعلوفة؛ لانتفاء الصِّفَةِ التي علق الحكم بها، وهي السوم، وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُخَصَّنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نَفْسَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فالنِّسَاءُ: جمع فتاة، وهي ذات يَغْتَوِرُهَا الإيمان والشرك، وقد علق الحكم بأحدهما، وهو الإيمان، فيدل على نفيه عن غَيْرِ الْمُؤْمِنَاتِ. والمراد بالصفة عند الأصوليين: لفظ مقيد لآخر، وليس بشرط، ولا استثناء، ولا غاية، وبعبارة أخرى: هي تقييد لفظ مشترك المعنى بلفظ آخر يختص ببعض معانيه ليس بشرط، ولا استثناء، ولا غاية بعد أن كان صالحاً لما له تلك الصفة ولغيرها، سواء كان ذلك اللفظ المختص نعتاً نحوياً مثل: «في الغنمِ السَّائِمَةِ زَكَاةٌ»، أو مضافاً مثل: «في سَائِمَةِ الْغَنَمِ زَكَاةٌ»، أو مضافاً إليه مثل قوله ﷺ: «مَطْلُ الْعَنِيِّ ظُلْمٌ»، أو ظرف زمان مثل قوله ﷺ: «مَنْ ابْتِغَى تَخْلَافاً بَعْدَ أَنْ تُؤَيَّرَ فَتَمَرَّتْهَا لِلْبَائِعِ»، أو ظرف مكان مثل «بع في مكان كذا»، أو حالاً نحو: «أحسن إلى العَبْدِ مطيعاً»؛ لأن المخصوص بالكون في مكان أو زمانٍ موصوف بالاستقرار فيه، والحال وَصِفٌ لصاحبها في المعنى، أو كان ذلك اللفظ المختص علة مثل: «أعط السائل لحاجته»، فالمفهوم في المثال «الأول»، و«الثاني»: عدم وجوب الزكاة في الغنم المعلوفة. وفي الثالث: أن مَطْلَ الْفَقِيرِ ليس ظُلماً.

وفي الرابع: أن ثمرة النخلة المؤبَّرة بعد البيع ليست للبائع، وإنما تكون للمشتري.

وفي الخامس: عدم البيع في غير المكان المخصوص.

وفي السادس: عدم الإحسان إليه إذا كان عاصياً.

وفي السابع: عدم الإعطاء عند عدم الحاجة؛ لأن المعلول ينتفي بانتفاء علته، فإن الحكم لما عُلِقَ في هذه الأمثلة بصفة خاصة صار ثبوته مرتبطاً بثبوت تلك الصفة، وعليه فانتفاؤها يدل على انتفائه.

والفرق بين مطلق الصفة، وخصوص العلة. أن الصِّفَةَ قد تكون علة كالإشكَار، وقد لا تكون، بل هي متممة لها، كالسُّوم، فإن وجوب الزكاة في الغنم السائمة ليس للسوم فقط، وإلا لوجبت في الوحوش السائمة، وإنما وجبت لنعمة الملك، وهي مع السوم أتم منها مع العلف، فالصفة أعم من العلة. وبذلك يعلم أن الصفة عند الأصوليين أعم منها عند النحويين.

ومفهوم الشرط^(١)، مثل: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلٍ﴾ [الطلاق: ٦]

وقد اختلف في الحكم على المشتق نحو: «في السائمة زكاة» هل ذلك يجري مجرى المقيد بالصفة مثل: «في العنم السائمة زكاة»؟

فقيل: لا يجري مجراه لاختلال الكلام بدونه، فيكون كاللقب.

وقيل: إنه يجري مجراه لدلالته على السؤم الزائد على الذات، بخلاف اللقب، فيفيد نفي الزكاة عن المعلوفة مطلقاً، كما يفيد إثباتها للسائمة مطلقاً، ويؤخذ من كلام ابن السمعاني، كما قال الجلال المحلي: إن الجمهور على الثاني حيث قال: «الاسم المشتق، كالمسلم، والكافر والقاتل، والوارث يجري مجرى المقيد بالصفة عند الجمهور، قال شيخ الإسلام: وهو قوي؛ لأن تعريف الوصف صادق عليه.

غايته أن الموصوف مقدر، وذكر الموصوف أو تقديره لا تأثير له فيما نحن بصده، وذلك نحو قوله ﷺ: «الْيَبُّ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا» فمنطوقه ثبوت أحقية الثيب في تزويج نفسها من وليها، ومفهومه المخالف عَدَمُ أَحَقِّيَّةِ غير الثيب، وهي البكر في تزويج نفسها؛ لانتهاء الصفة التي عُلِّقَ بها الحكم، وهي الثوبية. ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٣٠/٤)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للأمدى (٦٦/٣)، و«التمهيد» للأسنوي (٣٤٥)، و«نهاية السؤل» له (٢٠٥/٢)، و«غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٣٩)، و«المنحول» للغزالي (٢١٣)، و«حاشية البناني» (٢٤٩/١)، و«الإبهاج» لابن السبكي (١/٣٧٠)، و«الآيات البيئات» لابن قاسم العبادي (٢٦/٢)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/٣٢٦)، و«حاشية التفاتزاني» والشريف على «مختصر المنتهى» (١٧٤/٢)، و«شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر التفاتزاني (١٤٣/١)، و«ميزان الأصول» للسمرقندي (٥٧٩/١)، و«نشر البنود» للشنقيطي (٩٦/١)، وينظر: «العدة» (٤٥٣/٢)، و«التبصرة» (٢١٨)، و«المنحول» (٢٠٨)، و«المسودة» (٣٥١، ٣٦٠).

(١) مَفْهُومُ الشَّرْطِ هو: ما يفهم من تعليق الحكم على شَيْءٍ بأداة شرط كـ «إِنْ»، و«إِذَا»؛ مما يدل على سببية الأول، ومُسَبِّبَةِ الثاني، كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]؛ فإنه يفهم منه عند القائلين بمفهوم المخالفة أو غير أولات الأحمال من المطلقات طلاقاً بائناً - لا يجب الإنفاق عليهن، لأن المشروط ينتفي شرطه، وإنما قيدنا الطلاق بـ «البائن»؛ لأن المطلقة طلاقاً رجعيًا يجب الإنفاق عليها في العدة، حاملاً كانت أو لا؛ بالإجماع، والخلاف إنما هو في المبانة.

«والشرط في اللغة»: هو العلامة، وجاء منه أشرط الساعة، أي: علاماتها، وفي العرف العام: ما يتوقف عليه وجود الشيء، وفي اصطلاح المتكلمين: ما يتوقف عليه تحقق الشيء، ولا يكون في ذلك الشيء، ولا مؤثراً فيه.

«وفي اصطلاح النحاة»: ما دخل عليه شَيْءٌ من الأدوات المخصوصة الدالة على سببية الأول ومسببية الثاني ذهنياً أو خارجياً، سواء كَانَ عِلَّةً للجزاء؛ مثل: «إِنْ كانت الشمس طالعة، فالنهار موجود» - أو مَعْلُولاً؛ مِثْلُ: «إِنْ كان النهار موجوداً، فالشمس طالعة» أو غير ذلك؛ مثل: «إِنْ دَخَلَتِ الدَّارُ، فَأَنْتِ طَالِقٌ».

ويسمى شرطاً لَعَوِيّاً أيضاً؛ لأن المركب من «إِنْ» وأخواتها، ومن مدخولها - لفظ مركب وضع لمعنى يعرف من اللغة، وإن كَانَ التحوي يبحث عنه من وجه آخر، وهو المقصود بالذات، هنا لا الشرعي =

كالطهارة للصلاة، ولا العقلي كالحياة للعلم، ولا العادي كنصب السُّلم لصعود السطح، وإنما كان المقصود هو النحوي؛ لأن الكلام هنا فيما يفهم من تعليق الحكم على شيء بأداة مخصوصة، كما هو مقتضى تعريف مفهوم الشرط، وهذا إنما يتأتى في خصوص الشرط النحوي على ما لا يخفى. هذا حاصل القول في تعريف مفهوم الشرط.

قبل الشروع في بيان مذاهب العلماء في حجية مفهوم الشرط واستدلالهم ينبغي أن نحرر محل النزاع في هذا المقام، ومجمل القول في ذلك؛ أنه لا يزاع بين العلماء في انتفاء الحكم عند انتفاء شرطه، وإنما النزاع في الدال على هذا الانتفاء هل هو التعليق بالشرط، أو البراءة الأصلية؟ - وبيان ذلك أن في تعليق الحكم بالشرط؛ مثل: «إن دخلت الدار، فأنت طالق» - أموراً أربعة:

«الأمر الأول: ثبوت الجزاء عند ثبوت الشرط.

«الأمر الثاني: عدم الجزاء عند عدم الشرط.

«الأمر الثالث: دلالة التعليق على الأول.

«الأمر الرابع: دلالته على الثاني.

واتفق العلماء على الثلاثة الأول، وإنما النزاع في الأمر الرابع بعد الاتفاق على أن عدم الجزاء ثابت عند عدم الشرط.

فعد القائلين بالمفهوم: ثبوته لدلالة التعليق عليه، وعند النفاة ثابت بمقتضى البراءة الأصلية، فالنزع إنما هو في دلالة حرف الشرط على العدم، لا على أصل العدم عند العدم؛ فإن ذلك ثابت قبل أن ينطق الناطق بكلام، وهذا الكلام في سائر المفاهيم.

قال أبو زيد الدبوسي، وهو من المنكرين له: «انتفاء المعلق حال عدم الشرط، لا يفهم من التعليق، بل يبقى على ما كان قبل ورود النص».

هذا هو تحرير محل النزاع، وإذا تحقق هذا، فنقول: اختلف العلماء والأصوليون في حجية مفهوم الشرط على مذهبين:

«المذهب الأول»: أنه حجة، أي: أن تعليق الحكم بالشرط يدل على انتفاء ذلك الحكم عند انتفاء الشرط؛ وإلى هذا ذهب جميع القائلين بمفهوم الصفة، وبعض من لم يقل به، كالإمام فخر الدين الرّازي، وابن سريج، وأبي الحسن البصري، وأبي الحسن الكرخي، ونقله أبو الحسين السهيلي في «آداب الجدل» عن أكثر الحنفية، وابن القشيري عن معظم أهل العراق، وإمام الحرمين عن أكثر العلماء. «المذهب الثاني»: أنه ليس بحجة، أي: أن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على انتفاء الحكم عند انتفاء الشرط؛ بل يبقى الحكم عند انتفاء الشرط على العدم الأصلي، وهذا مذهب أبي حنيفة والمحققين من أصحاب مذهبه، وأكثر المعتزلة؛ كما نقله عنهم صاحب «المحصول»، ونقله ابن التلمساني عن الإمام مالك كما اختاره القاضي أبو بكر الباقلاني، وحجة الإسلام الغزالي، وسيف الدين الأمدي، والقفال الشاشي، وأبو حامد المزوزي من الشافعية.

ينظر: «حاشية البناي» (٢٥١/١)، و«الإيهاج» لابن السبكي (٣٨٠/١)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٣٠/٢)، و«حاشية الطار على جمع الجوامع» (٣٢٩/١)، و«تيسير التحرير» لأمر بادشاه (١/١٠٠)، و«حاشية التفتازاني» والشريف على «مختصر المنتهى» (١٨٠/٢)، و«شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (١٥٥/١)، و«ميزان الأصول» للسمرقندي (٥٨٠/١)، =

ومفهوم الغاية^(١)، مثل: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠].....

= ونشر البنود» للشنقيطي (١/٩٨).

(١) «مفهوم الغاية»: هو ما يفهم من تقييد الحكم بأداة غاية؛ كـ «إلى»، و«حتى»، وغاية الشيء آخره، وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فمنطوق الآية تحريم قربان النساء مدة زمان الحيض، وقبل الغسل، وتدل بمفهومها المخالف على جواز القربان منهن بعد انقضاء زمان الحيض، والاعتسال - وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فمنطوقه أن عدم حل المطلقة ثلاثاً لمطلقها - مُغياً بنكاح الزوج الآخر، ومفهومه المخالف أنها تحل له بعد نكاح الزوج الآخر لها بشرطه - وقول النبي ﷺ: «لَا زَكَاةَ فِي مَالٍ، حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ» فالمنطوق عدم وجوب الزكاة في المال قَبْلَ حَوْلَانِ الحول عليه، والمفهوم المخالف وجوب الزكاة في المال بعد حولان الحول عليه - وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ آتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ فإنه يفهم منه عدم وجوب الصيام في الليل.

واختلف الأصوليون في حجية مفهوم الغاية، وبعبارة أخرى في القول به إثباتاً، ونفيًا - على مذهبي: «المذهب الأول»: أنه حجة، بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية يدل على انتفاء ذلك الحكم عما بعدها؛ وإليه ذهب جميع القائلين بمفهوم الصفة والشرط، وبعض من لم يقل بهما؛ كحجة الإسلام الغزالي، وعبد الجبار المعتزلي، والإمام أبي الحسين البصري، والقاضي أبي بكر الباقلاني، وبعض الأصوليين من الحنفية.

وفي هذا يقول سليم الرازي: لم يختلف أهل العراق في ذلك. وقال القاضي في «التقريب»: صار معظم نفاة دليل الخطاب إلى أن التقييد بحرف الغاية يدل على انتفاء الحكم عما وراء الغاية.

قال: ولهذا أجمعوا على تسميتها غاية.

«المذهب الثاني»: أنه ليس حجة، بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية لا يدل على انتفاء الحكم عما بعدها، بل هو مسكوت عنه غير متعرض له بنفي أو إثبات؛ وهو مذهب أصحاب أبي حنيفة، وجماعة من الفقهاء والمتكلمين، واختاره سيف الدين الأمدي؛ طرداً لباب المنع من العمل بالمفاهيم.

هذا حاصل في حجية مفهوم الغاية، وقد اتضح لك أنه مفروض فيما وراء الغاية لا في الغاية نفسها وذهب بعضهم إلى أنه مفروض في الغاية نفسها؛ بمعنى أن تقييد الحكم بالغاية، هل يدل على انتفاء ذلك الحكم في الغاية نفسها أو لا يدل؟ - فالذي يقول بمفهومها، يقول بانتفاء الحكم فيها، ومن لا فلا، وهو مردود؛ لتصريح أكثر العلماء، لا سيما المحققين منهم؛ أن النزاع هنا إنما هو فيما بعد الغاية لا في الغاية نفسها، نعم في الغاية خلاف أيضاً، ولكنه خلاف آخر:

وحاصل هذا الخلاف: هل الغاية داخلية في حكم المغيا أو خارجة عنه؟ وهو خلاف لا دخل له في هذا المقام؛ فإن الكلام هنا في دلالة المخالفة وعدمها، والخلاف هناك في الدخول والخروج، وأين أحدهما من الآخر؟!

فإنه على التقدير الثاني لا يستلزم المخالفة فإن الخروج أعم من أن يدل على المخالفة، أو يكون مسكوتاً عنه بخلاف الأول، وهو ظاهر، على أننا إن قلنا: بخروج الغاية عن المغيا يأتي خلاف المفهوم فيها أيضاً، وبالجمله فهما خلافان متغايران:

ومفهوم إنَّمَا^(١) مثل: «إنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِئَةِ» ومفهوم الاستثناء^(٢) مثل: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ومفهوم العدد الخاص^(٣)، مثل: «فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» [النور: ٤]، ومفهوم حصَر

«أحدهما»: أن تقييد الحكم بالغاية، هل يدل على نفي الحكم عما بعدها أو لا؟
«والثاني»: أن هذه الغاية، هل هي داخلة في حكم المغيا أو لا؟ ولا ربط لأحدهما بالآخر، والمبحوث عنه هنا هو الأول دون الثاني، والثاني يجتمع مع القول بالمفهوم وعدمه كما أن النزاع الأول يجتمع مع القول بالدخول والخروج، ولا تنافي بينهما.

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٤/٤٦)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/٦٦)، و«نهاية السؤل» للأسنوي (٢/٢٠٥)، و«حاشية الباني» (١/٢٥١)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٣٠)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/٣٣٠)، و«تيسير التحرير» لأمير بادشاه (١/١٠٠)، و«حاشية التفتازاني» والشريف على «مختصر المتهى» (٢/١٨١)، و«الوجيز» للكراماسي (٢٤)، وينظر: «المسودة» (٣٥١)، و«الآيات البينات» (٢/٣٠).

(١)

اختلف العلماء في إفادة «إنَّمَا» للحصر على مذهبين:

«المذهب الأول»: إنها تفيد الحصر بمعنى قَصَرِ الأول على الثاني من مدخوليهما؛ بحيث لا يتجاوزهما إلى غيره بمعنى أن تقييد الحكم بها يدل على إثباته للمذكور في الكلام آخراً ونفيه عن غيره مثل «إنَّمَا الشُّفْعَةُ فِيمَا لَمْ يُقْسَمْ» فإنه يدل على إثبات الشفعة في غير المقسوم، ونفيها عما قسم، وهذا مذهب أكثر العلماء.

«المذهب الثاني»: إنها لا تفيد الحصر، بمعنى: أن تقييد الحكم بها لا يدل إلا على تأكيد إثبات الشفعة فيما لم يقسم، ولا دلالة له على نفيها عن غيره، بل هو مسكوت عنه غير متعرض له لا بنفي، ولا بإثبات، وإلَّيْهِ ذَهَبَ أصحاب أبي حنيفة، وجماعة ممن أنكر دليل الخطاب، واختاره سيف الدين الآمدي، وأبو حيان، ونسبه إلى الثَّخَوِيِّينَ، غير أن الكمال بن الهمام تعقب نسبة هذا المذهب إلى الحنفية: بأن الحنفية كثر منهم نسبتهم الحصر إلى «إنَّمَا» كما في «كشف الأسرار»، و«الكافي»، و«جامع الأسرار» وغيرها.

هذا هو حاصل الخلاف في مفهوم الحصر بـ «إنَّمَا».

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٤/٥٠)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/٦٧)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٤٣)، و«حاشية التفتازاني»، والشريف على «مختصر المتهى» (٢/١٨٢ - ١٨٣)، و«نشر البود» للشنقيطي (١/٩٦).

(٢)

«المقصود بمفهوم الاستثناء»: هو ما يفهم من تقييد الحكم بأداة الاستثناء، والاستثناء: هو إخراج ما لولاه لوجب دخوله، والمراد بالاستثناء هنا الاستثناء من الكلام التام الموجب، وذلك مثل: «قَامَ الْقَوْمُ إِلَّا زَيْدًا» فَإِنَّهُ يُفْهَمُ منه انتفاء الحكم الثابت للمستثنى منه، وهو القوم عن المستثنى، وهو زيد، وإنما قيدنا الاستثناء بكونه من الإثبات لإخراج الاستثناء من النفي، فإنه نوع من أنواع الحصر.

ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (٤/٤٩)، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣/٦٧)، و«الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٢/٢٧)، و«حاشية العطار على جمع الجوامع» (١/٣٢٩).

(٣)

إذا علق حكم بعدد معين، مثل: «فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» [النور: ٤] فهل يدل ذلك على نفي الحكم عما عدا ذلك العدد أو لا؟ اختلف العلماء في ذلك على طريقتين:

«الطريق الأول»: أنه يدل، وإليه ذهب مالك ونقله عن الشافعي أبو حامد، وأبو الطيب الطبري، =

المبتدئ^(١) مثل: العالم زَيْد، وشرط مفهوم المخالفة عند قائله ألا يظهر أن المسكوت عنه أولى ولا مساوياً؛ كمفهوم الموافقة، ولا خرج مخرج الأعم الأغلب، مثل: ﴿وَرَبَّائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فأما مفهوم الصفة، فقال به الشافعي، ونفاه الغزالي وغيره. انتهى.

وفسر الجمهور الأوابين بالرجاعين إلى الخير، وهي لفظة لزم عُرْفُها أهل الصلاح.

* ت * : قال عبد الحق الأشبيلي: واعلم أن الميت كالحَيِّ فيما يُعطاه ويُهدى إليه، بل الميت أكثر وأكثر؛ لأن الحي قد يستقل ما يُهدى إليه، ويستحقر ما يُتحف به، والميت لا يستحقر شيئاً من ذلك، ولو كان مقدار جناح بعوضة، أو وزن مثقال ذرة، لأنه يعلم قيمته، وقد كان يقدر عليه، فضيعة، وقد قال عليه السلام: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢) فهذا دعاء

والموردي وغيرهم، ونقله أبو الخطاب الحنبلي في «تمهيد» عن أحمد بن حنبل، وإليه ذهب داود الظاهري، وكذا الطحاوي، وصاحب «الهداية» والكرخي، ورضي الدين صاحب «المحيط» من الحنفية. «الطريق الثاني»: أنه لا يدل، وإليه ذهب أصحاب الشافعي، وأبو حنيفة وأصحابه، وابن داود، والمعتزلة، والأشعرية، والقاضي أبو بكر الباقلاني، واختاره إمام الحرمين، والإمام البيضاوي في «المنهاج»، وجرى عليه الإمام الرازي في «المخصول» والآمدي في «الإحكام».

(١) اختلف العلماء في دلالة تعريف المبتدئ باللام أو الإضافة على الحصر بمعنى نفي الحكم عن غير المذكور وعدمه على مذهبين:

«المذهب الأول»: إنه يدل على الحصر، وهذا مذهب حجة الإسلام الغزالي، وإمام الحرمين، والإمام الرازي، والجمهور من الفقهاء والمتكلمين.

«المذهب الثاني»: إنه لا يدل على الحصر، وإليه ذهب كثير من الحنفية، والقاضي أبو بكر الباقلاني وجماعة من الفقهاء والمتكلمين وهو ما اختاره الآمدي.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٥٥/٣) كتاب «الوصية» باب: ما يلحق الإنسان من الثواب، حديث (١٦٣١/١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم: (٣٨)، وأبو داود (١٣١/٢) كتاب «الوصايا» باب: ما جاء في فضل الصدقة عن الميت، حديث (٢٨٨٠)، والترمذي (٦٦٠/٣) كتاب «الأحكام» باب: في الوقف، حديث (١٣٧٦)، والنسائي (٢٥١/٦) كتاب «الوصايا» باب: فضل الصدقة على الميت، وأحمد (٣٧٢/٢)، وابن خزيمة (١٢٢/٤) رقم: (٢٤٩٤)، وأبو يعلى (٣٤٣/١١) رقم: (٦٤٥٧)، وابن الجارود في «المتقى» رقم: (٣٧٠)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١٩٠/١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٩٠/١)، والبيهقي (٢٧٨/٦) كتاب «الوصايا» باب: الدعاء للميت، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥/١)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٣٧/١) - بتحقيقنا. كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الولد يصل إلى والده، وينتفع به، وكذلك أمره عليه السلام بالسَّلام على أهل القبور والدعاء لهم^(١) ما ذاك إلا لكون ذلك الدعاء لهم والسلام عليهم، يصل إليهم ويأتيهم، والله

(١) أخرجه مالك (٢٨ - ٢٩) كتاب «الطهارة» باب: جامع الوضوء، حديث (٢٨)، ومسلم (٢١٨/١) كتاب «الطهارة» باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل، حديث (٢٤٩/٣٩)، وأبو داود (٢٣٨/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقول إذا زار القبور أو مر بها، حديث (٣٢٣٧)، والنسائي (٩٣/١ - ٩٥) كتاب «الطهارة» باب: حلية الوضوء، وابن ماجه (١٤٣٩/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر الحوض، حديث (٤٣٠٦)، وأحمد (٣٠٠/٢، ٤٠٨)، وأبو عوانة (١٣٨/١)، وأبو يعلى (٣٨٧/١١ - ٣٨٨) رقم: (٦٥٠٢)، وابن حبان (١٠٣٢، ٣١٦٨)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، رقم (١٨٩)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٥٣/١ - بتحقيقنا). كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا نأمن بالله لآحقون...».

وفي الباب عن عائشة وبريدة.

حديث عائشة: أخرجه مسلم (٦٦٩/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (٩٧٤/١٠٢)، والنسائي (٩٣/٤ - ٩٤)، كتاب «الجنائز» باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، والبيهقي (٧٨/٤ - ٧٩) كتاب «الجنائز» باب: ما يقول إذا دخل مقبرة (٢٤٩/٥) كتاب «الحج» باب: في زيارة القبور التي في بقيع الغرقد، والبخاري في «شرح السنة» (٣٠٦/٣ - بتحقيقنا)، وأبو يعلى (١٩٩/٨) رقم: (٤٧٥٨) كلهم من طريق شريك بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا وإياكم متواعدون غداً وموجلون وإنا إن شاء الله بكم لآحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

وأخرجه مسلم (٦٦٩/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (٩٧٤/١٠٣) وعبد الرزاق (٦٧١٢) من طريق محمد بن قيس بن مخزومة، عن عائشة. وأخرجه ابن ماجه (٤٩٣/١) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر، حديث (١٥٤٦)، وأبو يعلى (٦٩/٨) رقم (٤٥٩٣) كلاهما من طريق شريك بن عبد الله، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر، عن عائشة به. بلفظ: فقدت رسول الله ﷺ فاتبعته فأثني البقيع فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنا فرط وإنا بكم لآحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم». وأخرجه أبو يعلى (٨٥/٨ - ٨٦) رقم: (٤٦١٩) من طريق يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، عن عائشة.

حديث بريدة: أخرجه مسلم (٦٧١/٢) كتاب «الجنائز» باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث (٩٧٥/١٠٤)، والنسائي (٩٤/٤) كتاب «الجنائز» باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، وابن ماجه (٤٩٤/١) كتاب «الجنائز»، باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر، حديث (١٥٤٧) وابن أبي شيبة (١٣٨/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم: (٥٨٢)، وأحمد (٣٥٣/٥، ٣٥٩، ٣٦٠)، والبخاري في «شرح السنة» (٣٠٤/٣ - بتحقيقنا)، عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لآحقون أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع نسأل الله العافية».

أعلم، وروي عنه عليه السلام؛ أنه قال: «لكون الميت في قبره كالغريق ينتظر دغوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه، فإذا لحقته، كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها» والأخبار في هذا الباب كثيرة انتهى من «العاقبة».

* ت *: وروى مالك في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: كان يقال: إن الرجل ليزفع بدعاء ولده من بعده وأشار بيده نحو السماء^(١). قال أبو عمرو: وقد رويته بإسناد جيد، ثم أسند عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزفع العبد الدرجة، فيقول: أي رب، أتى لي هذه الدرجة؟ فيقال: باستغفار ولدك لك» انتهى من «التمهيد»^(٢)، وروينا في «سنن أبي داود»؛ «أن رجلاً من بني سلمة قال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء، أبرهما/ به بعد موتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما، ٢٩٠ ب والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقيهما»^(٣) انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ الآية: قال الجمهور: الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي ﷺ والمراد الأمة، «والحق»، في هذه الآية، ما يتعين له؛ من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه؛ قال بنحو هذا الحسن وابن عباس وعكرمة^(٤) وغيرهم، «والتبذير» إنفاق المال في فساد أو في سرف في مباح.

وقوله تعالى: ﴿وإِذَا تَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾، أي: عمن تقدم ذكره من المساكين وابن السبيل، «فقل لهم قولاً ميسوراً»، أي: فيه ترجية بفضل الله، وتأنيس بالميعاد الحسن، ودعاء في توسعة الله وعطائه، وروي أنه ﷺ كان يقول بعد نزول هذه الآية، «إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُعْطَىٰ: يَرْزُقْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ»^(٥) وال «رحمة» على هذا التأويل: الرزق

- (١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢١٧/١) كتاب «القرآن» باب: العمل في الدعاء، حديث (٣٨).
- (٢) أخرجه أحمد (٥٠٩/٢) من حديث أبي هريرة، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢١٣)، وقال: رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط»، ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة، وقد وثق.
- (٣) أخرجه أبو داود (٧٥٨/٢) كتاب «الأدب» باب: في بر الوالدين، حديث (٥١٤٢)، وابن ماجه (٢/١٢٠٨ - ١٢٠٩) كتاب «الأدب» باب: «صل من كان أبوك يصل»، حديث (٣٦٦٤)، والحاكم (٤/١٥٤ - ١٥٥)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
- (٤) أخرجه الطبري (٦٧/٨) برقم: (٢٢٢٤٠)، وذكره ابن عطية (٣/٤٥٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣١٩)، وعزه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن الحسن رضي الله عنه.
- (٥) ينظر: «القرطبي» (١٠/٢٤٩).

المنتظر، وهذا قول ابن عباس^(١) وغيره، والميسور: من اليسر.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكَ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ استعارة لليد المقبوضة عن الانفاق جملة، واستعير لليد التي تستنفذ جميع ما عندها غاية البسطة ضد الغل، وكل هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد، فقليله وكثيره حرام، أو الملامة هنا لاحقة ممن يطلب من المستحقين، فلا يجد ما يعطى، «والمحسور» الذي قد استنفذت قوته، تقول: خسرت البعير؛ إذا أتعبت حتى لم تنب له قوة؛ ومنه البصر الحسير.

قال ابن العربي^(٢) وهذه الآية خطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، وكثيراً ما جاء هذا المعنى في القرآن، فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم، عبر به عنهم، على عادة العرب في ذلك. انتهى من «الأحكام»، «والحسير»: هو الكال.

﴿إن ربك ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ معنى «يقدر»: يضيق.

وقوله سبحانه: ﴿إنه كما بعباده خبيراً بصيراً﴾، أي: يعلم مصلحة قوم في الفقر، ومصلحة آخرين في الغنى.

وقال بعض المفسرين: الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يصلحها الفقر، وكانت إذا شبع، طعت.

* ت * وهذا التأويل يعضده قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية [الشورى: ٢٧] ولا خصوصية لذكر العرب إلا من حيث ضرب المثل.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ نَّرْزُقِهِمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْجَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيسِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّمَا كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْمِيزَانِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...﴾ الآية: نهى عن الوأد الذي

(١) أخرجه الطبري (٧٠/٨) برقم: (٢٢٢٥٩)، وذكره ابن عطية (٤٥٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٢١/٤)، وعزه لابن جرير.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٠٤/٣).

كانت العرب تفعله، «والإملاق». الفقر وعَدَم المال، وروى أبو داود عن ابن عباس، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يَبْذُهَا، وَلَمْ يُهْنِهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا - قال: يَغْنِي الذُّكُورَ - أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(١) انتهى. والحق الذي تُقْتَلُ به النفس: قد فَسَّرَهُ النبي ﷺ في قوله: «لَا يُجِلُّ دَمَ الْمُسْلِمِ إِلَّا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: كُفْرَ بَعْدِ إِيْمَانٍ، أَوْ زِنَا بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ»^(٢) أي: وما في هذا المعنى مِنْ حَرَابَةٍ أَوْ زَنْدَقَةٍ ونحو ذلك.

﴿ومن قتل مظلوماً﴾ أي: بغير الوجوه المذكورة، ﴿فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً﴾، ولا مدخل للنساء في ولاية الدَّم؛ عند جماعة من العلماء، ولهنَّ ذلك عند آخرين، «والسلطان»: الحجة والملك الذي جُعِلَ إليه من التَّخْيِيرِ في قبول الدِّية أو العفو؛ قاله ابن عَبَّاسٍ^(٣). قال البخاريُّ: قال ابن عباس: كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ حُجَّةٌ^(٤). انتهى، وقال قتادة: «السلطان»: القود^(٥).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الشافعي (٩٦/٢) كتاب «الديات»، الحديث (٣١٨)، والطياي ص: (١٣)، الحديث (٧٢)، وأحمد (٦١/١)، والدارمي (٢١٨/٢) كتاب «السير» باب: لا يحل دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله، والترمذي (١٩/٤) كتاب «الديات» باب: ما جاء، لا يحل دم امرئ مسلم، الحديث (١٤٠٢)، والنسائي (١٠٣/٧) كتاب «تحريم الدم» باب: الحكم في المرتد، وابن ماجه (٨٤٧/٢) كتاب «الحدود» باب: لا يحل دم امرئ مسلم إلا في ثلاث، الحديث (٢٥٣٣)، والحاكم (٣٥٠/٤) كتاب «الحدود»، وابن الجارود ص: (٢١٣) رقم (٨٣٦) من حديث عثمان.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأخرجه الطياي ص: (٢١٦)، الحديث (١٥٤٣)، وأحمد (٢١٤/٦)، وأبو داود (٥٢٢/٤) كتاب «الحدود» باب: الحكم فيمن ارتد، الحديث (٤٣٥٣)، والنسائي (١٠١/٧ - ١٠٢) باب: الصلب، والحاكم (٣٦٧/٤) من حديث عائشة، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأخرجه البخاري (٢٠١/١٢) كتاب «الديات» باب: قوله تعالى: ﴿أَنْ النَّفْسَ بِالْنَفْسِ﴾، حديث (٦٨٧٨).

ومسلم (٧٣٠٢/٣) كتاب «القسامة» باب: ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦/٢٥)، والترمذي (١٤٠٢)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والنسائي (٩٢/٧)، وابن ماجه (٢٥٣٤)، والدارمي (٢١٨/٢)، والدارقطني (٣/٨٢)، والبيهقي (١٩/٨)، وأحمد (٣٨٢/١١)، (٤٤٤، ٤٦٥)، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٧٥/٨) برقم: (٢٢٢٨٧)، وذكره ابن عطية (٤٥٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٢٦/٤)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٧٥/٨) برقم: (٢٢٢٨٩)، وذكره ابن عطية (٤٥٣/٣).

(٥) أخرجه الطبري (٧٥/٨) برقم: (٢٢٢٨٧)، وذكره ابن عطية (٤٥٣/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٢٦/٣)، وعزه لابن أبي حاتم.

وقوله سبحانه: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ المعنى: فلا يتعدّ الولي أمر الله بأن يقتل غير قاتل وليه، أو يقتل اثنين بواحد إلى غير ذلك من وجوه التعدي، وقرأ^(١) حمزة والكسائي، وابن عامر: «فَلَا تُسْرِف» - بالتاء من فوق -، قال الطبري^(٢): على الخطاب للنبي ﷺ والأئمة بعده.

قال * ع * : ويصح^(٣) أن يراد به الولي، أي: فلا تسرف أيها الولي، والضمير في «إنه» عائذ على «الولي»، وقيل: على المقتول، وفي قراءة أبي بن كعب: «فَلَا تُسْرِفُوا في القتال إن ولي المقتول كان منضوراً»، وباقي الآية تقدم بيانه، قال الحسن: ﴿القِسْطاس﴾ هو^(٥) القَبَان^(٦)، وهو القرسطون، وقيل: ﴿القِسْطاس﴾: هو الميزان، صغيراً كان أو كبيراً.

قال * ع * : وسمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: رأيت الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله في جامع عمرو بن العاص يعظ الناس في الوزن، فقال في جملة كلامه: إن في هيئة اليد بالميزان عظة، وذلك أن الأصابع يجيء منها صورة المكتوبة ألف ولا مان وهاء، فكان الميزان يقول: الله، الله.

قال * ع * : وهذا وعظ جميل، «والتأويل»، في هذه الآية المأل؛ قاله^(٩) قتادة،

(١) وحجتهم: قراءة عبد الله: «فلا تسرفوا في القتل». وحجة الباين: أن هذا الكلام أتى عقيب خبر عن غائب، وهو قوله: «من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً».

ينظر: «السبعة» (٣٨٠)، و«الحجة» (٩٨/٥ - ٩٩)، و«إعراب القراءات» (٣٧٢/١)، و«معاني القراءات» (٩٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٣٠/٤)، و«العنوان» (١١٩)، و«حجة القراءات» (٤٠٢)، و«شرح شعبة» (٤٦٣)، و«إتحاف» (١٩٧/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٧٦/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٣/٣).

(٤) ينظر: «الشواذ» ص: (٨٠)، و«الكشاف» (٦٦٥/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٥٣/٣)، و«البحر المحيط» (٣١/٦).

(٥) أخرجه الطبري (٧٩/٨) برقم: (٢٢٣٠٤)، وذكره البغوي (١١٤/٣)، وذكره ابن عطية (٤٥٥/٣)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٣٢٩/٤)، وعزاه لابن المنذر، عن الضحاك.

(٦) هو الميزان ذو الذراع الطويلة المقسمة أقساماً، ينقل عليها جسم ثقل يسمى الرمانة لتعين وزن ما يوزن. ينظر: «المعجم الوسيط» (٧٢٠).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٥/٣).

(٨) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٥/٣).

(٩) أخرجه الطبري (٧٩/٨) برقم: (٢٢٣٠٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٥٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» =

ويحتمل أن يكون التأويل مصدر تأول، أي: يتأول عليكم الخير في جميع أموركم، إذا أحسستم الكيل والوزن.

وقال * ص * : ﴿تأويلاً﴾ أي: عاقبة انتهى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)
وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ
عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقف﴾ معناه لا تقل ولا تتبع، واللفظة تستعمل في القذف؛ ومنه قول النبي ﷺ: «نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ لَا نَقْفُوا أَمْنًا، وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَيْمَانًا»، وأصل^(١) هذه اللفظة من اتباع الأثر، تقول: قَفَوْتُ الْأَثَرَ، وحكى الطبري^(٢) عن فرقة؛ أنها قالت: قَفَا وَقَافٌ، مثل عَثَا وَعَاثٌ، فمعنى الآية: ولا تتبع لسانك من القول ما لا عِلْمَ لك به، وبالجمله: فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والمُرَدِيَّة.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ عبّر عن هذه الحواس بـ ﴿أولئك﴾. لأن لها إدراكاً وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالة مَنْ يعقل.

* ت * : قال * ص * : وما توهمه ابنُ عطية ﴿أولئك﴾ تختص بمن يعقل ليس كذلك؛ إذ لا خلاف بين النحاة في جواز إطلاق «أولاء» و «أولئك» على مَنْ لا يعقل.

* ت * : وقد نقل * ع^(٣) * الجَوَازَ عن الزَّجَّاجِ وفي أَلْفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ: [الرجز]

وبأولَى أَشْرَ لَجَمْعٍ مُطْلَقًا (٤)

= (٣/٤٩)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤/٣٢٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/٨٧١) كتاب «الحدود» باب: من نفى رجلاً من قبيلة، حديث (٢٦١٢) من طريق عقيل بن طلحة، عن مسلم بن هيصم، عن الأشعث بن قيس قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة ولا يروني إلا أفضلهم فقلت: يا رسول الله أستم منا؟ فقال: فذكره، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات؛ عقيل بن طلحة وثقه ابن معين والنسائي، وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجال الإسناد على شرط مسلم.

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/٨٠) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٥٦).

(٤) وبعده:

فقال ولده بدر الدين: أي سواء كان مذكراً أو مؤنثاً، وأكثر ما يستعمل فيمن يعقل،
٢٩١ ب وقد يجيء/ لغيره؛ كقوله: [الكامل]

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنَزِلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشُ بَعْدَ أَوْلِيكَ الْإِيَّامِ^(١)
وقد حكى^(٢) ع * * البيت، وقال: الرواية فيه «الأقوام»، والله أعلم انتهى.

والضمير في ﴿عنه﴾ يعود على ما ليس للإنسان به علم، ويكون المعنى: إن الله تعالى يسأل سَمْعَ الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به، فيقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، ويحتمل أن يعود على ﴿كل﴾ التي هي السمع والبصر والفؤاد، والمعنى: إن الله تعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده.

قال صاحب «الكلم الفارقيّة»: لَا تَدْعُ جَذُولَ سَمِغِكَ يَجْرِي فِيهِ أَجَاجُ الْبَاطِلِ؛ فيلهب باطنك بنار الحرص على العاجل، السَّمْعُ قُمْعٌ تغور فيه المعاني المسموعة إلى قرار وعاء القلب، فإن كانت شريفة لطيفة، شرفته ولطفته وهذبته وزكته، وإن كانت رذيلة دنية، ردلته وخبثته، وكذلك البصر مُنْقَذٌ مِنْ مَنَافِذِ الْقَلْبِ، فالحواس الخمس كالجداول والرواضع

= بِأَلْكَافٍ حَرْفًا دُونَ لَامٍ أَوْ مَعْنَى وَالسَّلَامُ إِنْ قَدَّمْتَ «هَا» مُنْتَبِغَةً
أي: يشار إلى الجمع - مذكراً كان أو مؤنثاً - بـ «أولى» ممدوداً أو مقصوراً، والمد أولى، لأنه لغة الحجاز، وبه جاء التنزيل، قال تعالى: ﴿هَآئِنَّمْ أَوْلَآءُ تُجِبْنَہُمْ﴾ والقصر لغة تميم.
وأشار بقوله: «ولدى البعد انطقا...» إلخ: إلى أن المشار إليه له ربتان: قُرْبَى، وَبُعْدَى:
أما المرتبة القُرْبَى: فتكون بدون كاف الخطاب ولام البعد، سواء مع «ها» التنبيه أو بدونها، تقول: (ذا - هذا)، و (ذي - هذي)، و (ذان - هذان)، و (تان - هاتان)، و (أولى - هؤلى)، و (أولاء - هؤلاء).
والمرتبة البُعْدَى: تكون بكاف الخطاب دون لام البعد أو معها، فإن جاءت معها اللام امتنعت «ها» التنبيه، وكنا إن تقدمت «ها» امتنعت اللام، وهذا ما أشار إليه الناظم بقوله: «واللام إن قدمت «ها» ممتنعة»، فتقول: (ذاك - هذاك - ذلك)، و (تيك - هاتيك - تلك)، وعلى ذلك قس، وعلى هذا قول طرفة [من الطويل]:

رَأَيْتُ بَنِي عَبْرَاءَ لَا يُشْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلَ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُمَدِّدِ

(١) البيت لجبرير في «ديوانه» ص: (٩٩٠)، وفيه «الأقوام» مكان «الأيام»، و«تخليص الشواهد» ص: (١٢٣)، و«خزانة الأدب» (٥/٤٣٠)، و«شرح التصريح» (١/١٢٨)، و«شرح شواهد الشافية» ص: (١٦٧)، و«شرح المفصل» (٩/١٢٩)، و«لسان العرب» (١٥/٤٣٧) (أولي)، و«المقاصد النحوية» (١/٤٠٨)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (١/١٣٤)، و«شرح الأشموني» (١/٦٣)، و«شرح ابن عقيل» ص: (٧٢)، و«المقتضب» (١/٨٥).

واستشهد فيه بقوله: «أولئك الأيام» حيث أشار بـ «أولاء» إلى «الأيام» ممّا يدلّ على جواز الإشارة بـ «أولاء» إلى جمع غير العاقل. ويروى «الأقوام» مكان «الأيام»، ولا شاهد فيه حينئذ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٥٦).

تَرْضَعُ مِنْ أَدْدَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَلَايْسُهَا، وتأخذ ما فيها من معانيها وأوصافها، وتؤديها إلى القلب وتنتهيها. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قرأ الجمهور ^(١) ﴿مَرَحًا﴾ بفتح الحاء مصدر: مَرَحَ يَمْرَحُ؛ إِذَا تَسَيَّبَ مَسْرُورًا بِدَنِيَاهُ، مَقْبَلًا عَلَى رَاحَتِهِ، فَتُحْيِي الْإِنْسَانَ أَنْ يَكُونَ مَشِيهِ فِي الْأَرْضِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وقرأت فرقة ^(٢): ﴿مَرَحًا﴾ بكسر الراء، ثم قيل له: إِنَّكَ أَيُّهَا الْمَرِحُ الْمُخْتَالُ الْفَخُورُ، لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ، وَلَنْ تَطَاوِلَ الْجِبَالَ بِفَخْرِكَ وَكِبْرِكَ، «وخرق الأرض» قَطَعَهَا وَمَسَحَهَا وَاسْتَيْفَاؤَهَا بِالْمَشْيِ.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ قرأ نافع وابن كثير ^(٣) وأبو عمرو: «سَيِّئَةً» بالإشارة بذلك على هذه القراءة إلى ما تقدّم ذكره مما نهى عنه كقوله: ﴿أَفُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقذف الناس، والمَرَحُ، وغير ذلك، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي «سَيِّئُهُ» على إضافة «سَيِّئُهُ» إلى الضمير، فتكون الإشارة؛ على هذه القراءة إلى جميع ما ذَكَرَ في هذه الآيات؛ من بَرٍّ ومَعْصِيَةٍ، ثم اختص ذكر السَّيِّئِ منه، بأنه مكروه عند الله تعالى.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩) أَفَاصْفَدُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذُ مِنَ الْمَلَكَةِ إِنْتَأُ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ...﴾ الآية: الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه الآداب التي تَضَمَّنَتْهَا هذه الآيات المتقدمة، و﴿الحكمة﴾: قوانين المعاني المُحَكَّمَة، والأفْعَالِ الفاضلة.

* ت * : فينبغي للعاقل أن يتأدّب بآداب الشريعة، وأن يحسن العشرة مع عبادة الله، قال الإمام فخر الدين ابن الخطيب في «شرح أسماء الله الحسنى» كان بعض المشايخ يقول: مَجَامِعُ الْخَيْرَاتِ محصورة في أمرين صِدْقٍ مَعَ الْحَقِّ، وَخُلُقٍ مَعَ الْخَلْقِ انتهى، وذكر هشام بن عبد الله القرطبي في تاريخه المسمّى بـ «بهجة النفوس»، قال: دخل عبدُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٦/٣)، و«الدر المصون» (٣٩١/٤).

(٢) وقرأ بها يحيى بن يعمر. ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٤٥٧/٣)، و«البحر المحيط» (٣٤/٦)، و«الدر المصون» (٣٩١/٤).

(٣) وحجتهم فيما قال أبو عمرو: «ولا يكون فيما نهى الله عنه شيء حسن، فيكون سيئه مكروهاً». وينظر: «السبعة» (٣٨٠)، و«الحجة» (١٠٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٧٣/١)، و«معاني القراءات» (٩٥/٢)، و«العنوان» (١٢٠)، و«شرح الطيبة» (٤٣١/٤)، و«حجة القراءات» (٤٠٣)، و«شرح شعلة» (٤٦٣)، و«إنحاف» (١٩٧/٢).

١٢٩٢ الملك بْنُ مَرْوَانَ عَلَى معاوية، وعنده عَمْرُو بن العاصِ، فلم يَلْبَثْ أَنْ نَهَضَ، فقال معاوية/ لعَمْرُو: ما أَكْمَلَ مَرْوَةَ هذا الفتى! فقال له عمرو: إنه أخذ بأخلاقٍ أربعية، وترك أخلاقاً ثلاثة، أخذ بأحسن البشر إذا لقي، وبأحسن الاستماع إذا حَدَّثَ، وبأحسن الحديث إذا حَدَّثَ، وبأحسن الردِّ إذا خولفَ، وترك مُزَاحَ من لا يُوثَقُ بعقله، وترك مخالطةَ لئام الناس، وترك مِنَ الحديث ما يُعْتَدَرُ منه. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر...﴾ الآية: خطابٌ للنبي ﷺ، والمراد غيره، «والمدحور» المهان المُبْعَدُ.

وقوله سبحانه: ﴿أفأصفاكم...﴾ الآية خطابٌ للعرب، وتشنيعٌ عليهم فساد قولهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ سَيْلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا عَفُورًا ﴿٤٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليزكروا﴾، أي صرّفنا فيه الحِكمَ والمواعظ.

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال سعيد بن جبّير وغيره: معنى الكلام: لَا تَبْتَغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا فِي إِفْسَادِ مُلْكِهِ وَمُضَاهَاةِ فِي قُدْرَتِهِ^(١)، وعلى هذا: فالآية بيان للتمانع، وجارية مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قال * ع^(٢): ونقتضب شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكونَ مَعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وتعالى إلهٌ غيره؛ على ما قال أبو المَعَالِي وغيره: أنا لو فَرَضْنَاهُ، لَفَرَضْنَا أَنْ يَرِيدَ أَحَدُهُمَا تَسْكِينَ جِسْمٍ وَالْآخَرُ تَحْرِيكَهُ، وَمُسْتَحِيلٌ أَنْ تَنْفِذَ الْإِرَادَتَانِ وَمُسْتَحِيلٌ أَلَّا تَنْفِذَا جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْجِسْمُ لَا مَتَحَرِّكًا، وَلَا سَاكِنًا، فَإِنْ صَحَّتْ إِرَادَةُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ، فَالَّذِي لَمْ تَتَمَّ إِرَادَتُهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، فَإِنْ قِيلَ: نَفَرُضُهُمَا لَا يَخْتَلِفَانِ، قُلْنَا: اخْتِلَافُهُمَا جَائِزٌ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ عَقْلًا، وَالْجَائِزُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ، وَدَلِيلٌ آخَرُ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْإِثْنَانِ، لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونُوا ثَلَاثَةً، وَكَذَلِكَ وَيَتَسَلَّلُ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَدَلِيلٌ آخَرُ: أَنَّ الْجُزْءَ الَّذِي لَا يَتَجَزَأُ مِنَ الْمَخْتَرَعَاتِ لَا تَعَلُّقَ بِهِ إِلَّا قُدْرَةً وَاحِدَةً لَا يَصْحُحُ فِيهَا أَشْتِرَاكُ، وَالْآخَرُ كَذَلِكَ ذَبَابًا، فَكُلُّ جُزْءٍ إِنَّمَا يَخْتَرَعُهُ

(١) ذكره ابن عطية (٤٥٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٣١/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٩).

واحد، وهذه نبرة شرحها بحسب التقصي يطول.

وقوله سبحانه: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده...﴾ الآية: اختلف في هذا «التسبيح»، هل هو حقيقة أو مجاز، * ت * : والصواب أنه حقيقة، ولولا خشية الإطالة، لأننا من الدلائل على ذلك بما يُتلج له الصدر.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ٤٦ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنْ أَدْبَرْتَهُمْ نُفُورًا ٤٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني كفار مكة و﴿حجاباً مستوراً﴾ يحتمل أن يريد به حماية نبيه منهم وقت قراءته وصلاته بالمنجد الحرام؛ كما هو معلوم مشهور ويحتمل أنه أراد أنه جعل بين فهم الكفرة وبين فهم ما يقرؤه ﷺ حجاباً، فالآية على هذا التأويل: في معنى التي بعدها.

وقال الواحدي: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ...﴾ الآية: نزلت في قوم كانوا يؤذون النبي ﷺ، إذا قرأ القرآن فحجبه الله عن أعينهم عند قراءة القرآن، حتى يكونوا يَمُرُّونَ به ولا يَرَوْنَهُ.

وقوله: ﴿مستوراً﴾ معناه: ساتراً انتهى.

«والأكثة» جمع كنان، وهو ما غطي الشيء، «والوقر»: الثقل في الأذن، المانع/ من ٢٩٢ ب السمع، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حَقَّهم الله به.

وقوله سبحانه: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به...﴾ الآية: هذا كما تقول: فلان يستمع بإعراض وتغافل واستخفاف، «وما» بمعنى «الذي»، قيل: المراد بقوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجَوْا﴾ اجتماعهم في دار الندوة، ثم انتشرت عنهم.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٤٨﴾ وَقَالُوا إِذْ كُنَّا عِظَمًا رَفُفْنَا ٤٩ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٥٠ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ٥١ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْزِلُونَ عَلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٥٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال...﴾ الآية: حكى الطبري^(١) أنها

نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه.

وقوله سبحانه: ﴿فَلا يَستطيعون سبيلاً﴾، أي: إلى إفساد أمرك وإطفاء نورك، وقولهم: ﴿أَذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الآية في إنكارهم البعث، وهذا منهم تعجب وإنكار وأستبعاد و«الرفات» من الأشياء: ما مرَّ عليه الزمان حتى بلغ غاية البلى، وقربه من حالة التراب.

وقال ابن عباس: ﴿رُفَاتاً﴾ غباراً^(١) وقال مجاهد: تُراباً^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً...﴾ الآية: المعنى: قل لهم، يا محمد، كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التآني لا بُدَّ من بعثكم، ثم احتجَّ عليهم سبحانه في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم وأخترأهم من تراب.

وقوله سبحانه: ﴿فَسينغصون﴾ معناه يرفعون ويُخفِّضون، يريد على جهة التكذيب والاستهزاء. قال الزجاج: وهو^(٣) تحريك مَنْ يبطل الشيء وَيَسْتَبِطُهُ ومنه قول الشاعر:

[الرجز]

أَنعَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا كَأَمَّا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَا^(٤)
ويقال: أَنْعَضَتِ السَّنُّ؛ إذا تحرَّكت، قال الطبري^(٥) وابن سَلَامٍ: ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، فالمعنى: هو قريب، وفي ضمن اللفظ توعد.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّيْنَتُمْ إِلَّا قَلِيلاً ۖ﴾ (٥٢)

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾: بدل من قوله: ﴿قريباً﴾ ويظهر أن يكون المعنى «هو يَوْمٌ» جواباً لقولهم: «متى هو»، ويريد يدعوكم من قبوركم بالنفخ في الصور لقيام الساعة.

وقوله: ﴿فتستجيون﴾، أي: بالقيام، والعودة والنهوض نَحْوَ الدعوة.

(١) أخرجه الطبري (٨٩/٨) برقم: (٢٢٣٤٧)، وذكره ابن عطية (٣/٤٦٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٤٤).

(٢) والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٣٩)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. (٢) أخرجه الطبري (٨٨/٨) برقم: (٢٢٣٤٥)، وذكره البغوي (٣/١١٨)، وذكره ابن عطية (٣/٤٦٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٤٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٣٩)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/٢٤٥).

(٤) البيت من شواهد: «المحرر الوجيز» (٣/٤٥٢).

(٥) ينظر: «الطبري» (٨/٩٢).

وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ قال ابن جُبَيْر: إن جميع العالمين يقومون، وهم يَحْمَدُونَ اللَّهَ ويمَجِّدُونَهُ، لما يظهر لهم مِنْ قُدْرَتِهِ^(١) * ص * أبو البقاء ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: حامدين، وقيل: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ من قول الرسول، أي: وذلك بحمد الله على صدقِ خَبْرِي، ووقع في لفظ * ع * حين قرر هذا المعنى: «عَسَى أَنْ السَّاعَةُ قَرِيبَةٌ» وهو تركيب لا يجوز؛ لا تقول: عَسَى أَنْ زِيداً قائم انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ يحتمل معنيين.

أحدهما: أنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة، وتصرف الأجساد، وقع لهم ظنُّ أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلا قليلاً لمغيبِ عِلْمِ مقدار الزمان عنهم؛ إذ مَنْ في الآخرة لا يقدر زمن الدنيا؛ إذ هم لا محالة أشدُّ مفارقة لها من النائمين، وعلى هذا التأويل عَوَّل الطبري^(٢).

والآخر: أن يكون الظنُّ بمعنى اليقين، فكأنه قال: يوم يدعوكم فتستجيبون بِحَمْدِهِ، وتيقنون أنكم إنما لبثتم قليلاً من حيث هو منقُصٌ منحصرٌ.

وحكى الطبري عن قتادة أنهم لما رأوا هولَ يوم القيامة، احتقروا/ الدنيا، فظنوا أنهم ١٢٩٣ لبثوا فيها قليلاً^(٣).

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٣ زُكَّرْ أَعْلَمُ يَكْرُ إِنْ يَشَأْ يُزَكِّمَكَ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ اختلف الناس في ﴿التي هي أحسن﴾: فقالت فرقة: هي لا إله إلا الله؛ وعلى هذا، ف«العباد»: جميعُ الخلق، وقال الجمهور ﴿التي هي أحسن﴾: هي المحاوراة الحسنة، بحسب معنى معنى، قال الحسن يقول: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، يَزَحْمُكَ اللَّهُ^(٤) وقوله: ﴿لعبادي﴾ خاص بالمؤمنين، قالت فرقة: أمر

(١) ذكره ابن عطية (٤٦٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٣٩/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «الطبري» (١٠٣/٨).

(٣) أخرجه الطبري (٩٣/٨) برقم: (٢٢٣٦٩)، وذكره البغوي (١١٩/٣)، وابن عطية (٤٦٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٩٣/٨) برقم: (٢٢٣٧٠)، وذكره البغوي (١١٩/٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٤) (٤٦٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير.

الله المؤمنين فيما بينهم بخسن الأدب، وخفض الجناح، وإلانة القول، وأطراح نزعات الشيطان، ومعنى التزُّع: حركات الشيطان بسُرعة؛ ليوْجب فساداً، وعداوة الشيطان البيْنة: هي من قصة آدم عليه السلام، فما بعد، وقالت فرقة: إنما أمر الله في هذه الآية المؤمنين بإلانة القول للمشركين بمكة أيام المُهادنة، ثم نُسِخت بآية السيف.

وقوله سبحانه: ﴿ربكم أعلم بكم﴾: يقوِّي هذا التأويل؛ إذ هو مخاطبة لكفار مكة؛ بدليل قوله: ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلًا﴾ فكان الله عز وجل أمر المؤمنين ألا يخاشنوا الكفار في الدين، ثم قال للكفار إنه أعلم بهم ورجاهم وخوفهم، ومعنى ﴿يزحملك﴾ بالتوبة عليكم من الكفر؛ قاله ابن جريج وغيره^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وأتينا داود زبورًا﴾ قرأ الجمهور^(٢): «زبوراً» بفتح الزاي، وهو قَولٌ بمعنى مفعول، وهو قليل؛ لم يَجِءْ إلا في قَدُوعٍ وَرَكُوبٍ وَخَلُوبٍ، وقرأ حمزة^(٣): بَضَمُ الزاي قال قتادة: زبور داود مَواعظٌ ودعاء، وليس فيه حلالٌ ولا حرام^(٤).

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧) ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ هذه الآية ليست في عبدة الأصنام، وإنما هي في عَبَدَةِ مَنْ يَعْقِل، كعيسى وأمه وعزير وغيرهم. قاله ابن عباس^(٥)، فلا يملكون كَشْفَ الضَّرِّ وَلَا تَحْوِيلَهُ، ثم أخبر تعالى،

(١) أخرجه الطبري (٩٣/٣) برقم: (٢٢٣٧١)، وذكره البغوي (١١٩/٣)، وابن عطية (٤٦٤/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٥/٣).

(٣) قرأ بها يحيى والأعمش. ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٥/٣)، و«السبعة» (٣٨٢)، و«الحجة» (٥/١٠٨)، و«إعراب القراءات» (٣٧٦/١)، و«العنوان» (١٢٠)، و«إنحاف» (٢٠٠/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (٤٦٥/٣) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٩٦/٨) برقم (٢٢٣٨٥)، وذكره البغوي (١٢٠/٣)، وابن عطية (٤٦٥/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٣/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

أَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ يَطْلُبُونَ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّزَلُّفَ إِلَيْهِ، وَأَنَّ هَذِهِ حَقِيقَةُ حَالِهِمْ.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ...﴾ الآية: قال عز الدين بن عبد السلام، في اختصاره لـ «رعاية المحاسبي»: الخوف والرجاء: وسيلتان إلى فعل الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، ولكن لا بد من الإكباب على استحضار ذلك وأستدامته في أكثر الأوقات؛ حتى يصير الثواب والعقاب نُضْبَ عينيه، فيَحْتَأَهُ على فعل الطاعات، وترك المخالفات، ولن يحصل له ذلك إلا بتفريغ القلب من كل شيء سوى ما يفكر فيه، أو يعينه على الفكر، وقد مثل القلب المريض بالشهوات بالشوب المتسخ الذي لا تزول أدرانته إلا بتكرير غسله وحثه وقرضه، انتهى. وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها...﴾ الآية: أخبر سبحانه في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، هذا مع السلامة وأخذها جزءاً جزءاً، أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة.

/ وقوله: ﴿في الكتاب﴾: يريد في سابق القضاء، وما خطه القلم في اللوح ٢٩٣ ب المحفوظ، «والمسطور»: المكتوب أسطراً.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا نُمُودَ النَّافَةِ مُبَصَّرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩).

وقوله سبحانه: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات...﴾ الآية: هذه العبارة في «منعنا» هي على ظاهر ما تفهم العرب، فسمى سبحانه سبق قضائه بتكذيب من كذب وتعذبه - منعاً؛ وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، ونحو هذا من الاقتراحات، فأوحى الله إلى نبيه عليه السلام: إن شئت أفعل لهم ذلك، ثم إن لم يؤمنوا، عاجلتهم بالعقوبة، وإن شئت، استأنيت بهم؛ عسى أن أجتبي منهم مؤمنين، فقال عليه السلام: بل استأن بهم يا رب^(١)، فأخبر سبحانه في هذه الآية؛ أنه لم يمنعه جلّ وعلاً من إرسال الآيات المقتوحة إلا الاستثناء؛ إذ قد سلفت عادته سبحانه بمعالجة الأمم الذين

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨/١)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٠/٦) كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾، حديث (١١٢٩٠)، والطبري في «تفسيره» (٧٤/١٥)، والحاكم (٣٦٢/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧١/٢) من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٤/٤)، وزاد نسبه إلى البزار وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه.

جاءتهم الآيات المقترحة، فلم يؤمنوا كشمود وغيرهم. قال الزجاج^(١): أخبر تعالى أن موعد كفار هذه الأمة الساعة؛ بقوله سبحانه: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] فهذه الآية تنظر إلى ذلك، و﴿مبصرة﴾ أي: ذات إِبصار وهي عبارة عن بيان أمر الناقة، ووضوح إعجازها، وقوله: ﴿فظلّموا بها﴾، أي: بعقرها، وبالكفر في أمرها، ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المُفترحة؛ تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إِمهال، فمن ذلك الكُشوف والرغد والزلزلة وقوس قزح، وغير ذلك، وآيات الله المعتبر بها ثلاثة أقسام: فقسم عام في كل شيء، إذ حيث ما وضعت نظرك، وجدت آية، وهنا فكرة للعلماء، وقسم معتاد غالباً؛ كالكسوف ونحوه، وهنا فكرة الجهلة، وقسم خارق للعادة، وقد انقضى بانقضاء النبوة، وإنما يعتبر به، توهُماً لما سلف منه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُمْ فَمَا يُرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً تَوْفُّورًا (٦٣) وَأَسْتَفِزُّ مِنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَعُدَّتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥)

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ هذه الآية إخبار للنبي ﷺ بأنه محفوظ من الكفرة آمين، أي: قلْتُبلغ رسالة ربك، ولا تتهيب أحداً من المخلوقين؛ قاله الطبري^(٢)؛ ونحوه للحسن^(٣) والسدي.

وقوله سبحانه: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك...﴾ الآية: الجمهور أن هذه الرؤيا رؤيا عين ويقظة، وذلك أن النبي ﷺ لما كان صبيحة الإسراء، وأخبر بما رأى في تلك الليلة من العجائب، قال الكفار: إن هذا لعجب، وأستبعدوا ذلك؛ فأقْتِنَ بهذا قوم من ضَعْفَةِ المسلمين؛ فارتدوا؛ وشق ذلك على النبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآية؛ فعلى هذا يحسن

(١) ينظر: «تفسير الزجاج» (٢٤٧/٣).

(٢) ينظر: «الطبري» (١٠٠/٨).

(٣) أخرجه الطبري (١٠٠/٨) برقم: (٢٢٤٠٨)، وذكره ابن عطية (٤٦٧/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٥/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

١٢٩٤ أن يكون معنى قوله: ﴿أحاط بالناس﴾ في إضلالهم وهدايتهم، أي: فلا تهتم، يا محمد، بكفر من كفر، وقال ابن عباس: الرؤيا في هذه الآية هي رؤيا النبي ﷺ أنه يدخل مكة، فعجل في سنة الحديبية، فصد فافتتن المسلمون لذلك، يعني بعضهم، وليس بفتنة كفر^(١).

وقوله: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ معطوفة على قوله: ﴿الرؤيا﴾، أي جعلنا الرؤيا والشجرة فتنة ﴿والشجرة الملعونة﴾؛ في قول الجمهور: هي شجرة الزقوم، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة «الصافات» قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تثبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أحضر تمرًا وزبدًا، وقال لأصحابه، تزقّموا، فافتتن أيضاً بهذه المقالة بغض الضعفاء، قال الطبري عن^(٢) ابن عباس: أن الشجرة الملعونة، يريد الملعون أكلها؛ لأنها لم يجز لها ذكر^(٣).

قال * ع *^(٤) ويصح أن يريد الملعونة هنا، فأكد الأمر بقوله: ﴿في القرآن﴾، وقالت فرقة: ﴿الملعونة﴾، أي: المبعدة المكروهة، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله، ولا شك أن ما ينبت في أصل الجحيم هو في نهاية البعد من رحمة الله سبحانه. وقوله سبحانه: ﴿ونخوفهم﴾ يريد كفار مكة.

وقوله: ﴿أرايتك هذا الذي كرمت علي﴾ الكاف في «أرايتك» هي كاف خطاب ومبالغة في التنبيه، لا موضع لها من الإعراب، فهي زائدة، ومعنى «أرايت»: أتأملت ونحوه، كأن المخاطب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه بغد.

وقوله: ﴿لاحتنكن﴾ معناه لأميلن ولاجرن، وهو مأخوذ من تخنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل أو غيره، فتقاد، والسنة تخنيك المال، أي: تجتره، وقال الطبري^(٥) «لاحتنكن» معناه لأستأصلن، وعن ابن عباس: لأستولين^(٦)، وقال ابن زيد^(٧): لأضلن.

(١) أخرجه الطبري (١٠٣/٨) برقم: (٢٢٤٣٣)، وذكره ابن عطية (٤٦٨/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٦/٤)، وعزاه لابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٢) ينظر: «الطبري» (١٠٣/٨).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٦٨/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٨/٣).

(٥) ينظر: «الطبري» (١٠٧/٨).

(٦) أخرجه الطبري (١٠٧/٨) برقم: (٢٢٤٦١)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٤٩).

(٧) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٧/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري (١٠٧/٨) برقم: (٢٢٤٦٢)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٣) =

قال * ع * ^(١) وهذا بدل اللفظ، لا تفسير.

وقوله: ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، وما بعده من الأوامر: هي صيغة «افْعَلْ» بمعنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] «الموفور»، المُكْمَل، ﴿وَأَسْتَفْزِزْ﴾ معناه: أَسْتَخِفُّ وَأَخْذَعُ، وقوله: ﴿بَصَوْتِكَ﴾: قيل: هو الغِنَاء والمزامير والمَلَاهِي، لأنها أصواتٌ كُلُّهَا مختصة بالمعاصي، فهي مضافةٌ إلى الشيطان، قاله مجاهد ^(٢)، وقيل: بدعائك إياهم إلى طاعتك. قال ابن عباس: صوته دعاءٌ كُلُّ مَنْ دعا إلى معصية ^(٣) الله، والصوابُ أن يكون الصوتُ يعمُّ جميع ذلك.

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾، أي: هَوِّلْ، و«الْجَلْبَةُ» الصوتُ الكثير المختلطُ الهائل.

وقوله: ﴿يَخِيلُكَ وَرَجْلَكَ﴾ قيل: هذا مجازٌ وأستعارة بمعنى اسع سعيك، وابلغ جهدك، وقيل: حقيقة وإن له خيلاً وَرَجُلًا من الجنِّ، قاله ^(٤) قتادة، وقيل: المراد فرسان الناس، ورجالُهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم ^(٥)؛ قاله مجاهد.

٢٩٤ ب ﴿وَشَارِكْهُمْ/ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ عامٌّ لكل معصية يصنعها الناس بالمال، ولكل ما يصنع في أمر الذرية من المعاصي، كالإيلاد بالزنا وكتسميتهم عَبْدَ شَمْسٍ، وأبا الكُوَيْفَرِ، وَعَبْدَ الْحَارِثِ، وكلُّ اسمٍ مكروه؛ ومن ذلك: وأد البنات؛ ومن ذلك: صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخله النَّقَّاش من وطء الجنِّ، وأنه يُخْبِلُ المرأةَ من الإنس، فضعيفٌ كُلُّهُ.

* ت * : أما ما ذكره من الحبل، فلا شك في ضَعْفِهِ، وفسادِ قولِ ناقله، ولم أر في ذلك حديثاً لا صحيحاً ولا سقيماً، ولو أمكن أن يكون الحَبْلُ من الجنِّ، كما زعم ناقله،

= (٤٩)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٤٧/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم. (١) ينظر: «المحرر» (٤٧٠/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٠٨/٨) برقم: (٢٢٤٦٦)، وذكره البغوي (١٢٣/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٤٨/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاحي» وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٨/٨) برقم (٢٢٤٦٨)، وذكره البغوي (١٢٣/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٤٨/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (١٠٨/٨) برقم: (٢٢٤٧١)، وذكره البغوي (١٢٣/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣)، وذكره ابن كثير (٤٩/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٠٩/٨) برقم: (٢٢٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٧٠/٣).

لكان ذلك شبهة يدرأ بها الحدَّ عمن ظهر بها حبلٌ من النساء اللواتي لا أزواج لهنَّ؛ لاحتمال أن يكون حبلها من الجنِّ؛ كما زعم هذا القائل، وهو باطلٌ، وأما ما ذكره من الوطء، فقد قيل ذلك؛ وظواهر الأحاديث تدلُّ عليه، وقد خرَّج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن ابن عباس، قال: قال النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنَّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(١) فظاهر قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ، جَنَّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنَا» - يقتضي أن لهذا اللعين مشاركةً ما في هذا الشأن، وقد سمعتُ من شيخنا أبي الحسن علي بن عثمان الزواوي المانجلائي سيّد علماء بجاية في وقته، قال: حدثني بعض الناس ممن يوثقُ به يخبر عن زوجته؛ أنها تجدُ هذا الأمر، قال المخبر: وأضعيتُ إلى ما أخبرت به الزوجة، فسمعتُ حسَّ ذلك الشيء، واللَّه أعلم.

﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ يَزِجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْيَمِّ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَحِيمًا ۝١٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْيَمِّ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمْ إِلَى إِلِهِهِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝١٧ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْيَمِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝١٨ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ يَبْدَأُ ۝١٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر﴾: إزجاء الفلك: سَوَّقه بالريح اللينة والمجاذيف، و﴿لَتتبعوا من فضله﴾ لفظ يعمُّ التَّجَرُّ وغيره، وهذه الآية المباركة

- (١) أخرجه البخاري (٢٩١/١) كتاب «الوضوء» باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، حديث (١٤١)، وفي (٣٨٨/٦) كتاب «بدء الخلق» باب: صفة إبليس، وجنوده، حديث (٣٢٨٣)، وفي (١٣٦/٩) كتاب «النكاح» باب: ما يقول الرجل إذا أتى أهله، حديث (٥١٦٥)، وفي (١٩٥/١٠) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا أتى أهله، حديث (٦٣٨٨)، وفي (٣٩٠/١٣ - ٣٩١)، كتاب «التوحيد» باب: السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، حديث (٧٣٩٦)، ومسلم (١٠٥٨/٢) كتاب «النكاح» باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، حديث (١٤٣٤/١٦)، وأبو داود (٦٥٥/٢) كتاب «النكاح» باب: في جامع النكاح، حديث (٢١٦١)، والترمذي (٣٩٢/٣) كتاب «النكاح» باب: ما يقول إذا دخل على أهله، حديث (١٠٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا وقع أهله، وابن ماجه (٦١٨/١) كتاب «النكاح» باب: ما يقول الرجل إذا دخلت عليه أهله، حديث (١٩١٩)، وأحمد (٢١٧/١)، ٢٢٠، ٢٤٣، ٢٨٣، ٢٨٦، وابن أبي شيبه (٣٩٤/١٠)، وعبد الرزاق (١٩٤/٦) رقم: (١٠٤٦٦)، وابن حبان (٩٨٤ - الإحسان)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٣/٣ - بتحقيقنا). كلهم من طريق كريب، عن ابن عباس مرفوعاً.
- وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

توقيفٌ على آلاء الله وَفَضْلِهِ ورحمته بعباده، و﴿الضُرُّ﴾، هنا لفظ يعُمُّ الغرق وغيره، وأحوال حالات البحر وأضرابه وتموجه، و﴿ضَلَّ﴾ معناه تلف وفقد.

وقوله: ﴿أعرضتم﴾، أي: فلم تفكروا في جميل صنع الله بكم.

وقوله: ﴿كفوراً﴾ أي: بالنعم و﴿الإنسان﴾؛ هنا: الجنس، «والحاصب»: العارض الرامي بالبرد والحجارة؛ ومنه الحاصب الذي أصاب قومَ لوط، «والحَضْبُ» الرمي بالحِصْبَاءِ، «والقاصف»: الذي يَكْسِرُ كُلَّ مَا يَلْقَى وَيَفْصِقُهُ، و«تارة» معناه: مرة أخرى، «والتبّع» الذي يطلب ثأراً أو ديناً؛ ومن هذه اللفظة قوله ﷺ: «إِذَا أَتَبَعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيُتَّبِعْ» فالمعنى: لا تجدون مَنْ يَتَّبِعْ فعلنا بكم، ويطلب نُصْرَتَكُمْ وهذه الآيات أنوارها واضحة للمهتدين.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَلَّلْنَاهُمْ فِي الْإِلَهِ وَالْحَرِّ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنْ الْأَطْيَافِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِبَيْسِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُطْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لِتَفَرِّغَ عَلَيْنَا سِعِيرٌ وَإِذَا تَلَّحَّذُواكَ خِلَافًا ۝٧٣﴾

وقوله جَلَّتْ عِظْمَتُهُ ﴿ولقد كرّمنا بني آدم...﴾ الآية: عدّد الله سبحانه على بني آدم ما خَصَّهم به من المزايا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَ، ومن أَفْضَل ما أكرّم به الْآدَمِيَّ / الْعَقْلُ الذي به يعرف الله تعالى، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه.

وقوله سبحانه: ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ المراد بـ«الكثير المفضل» الحيوان والجن، وأما الملائكة، فهم الخارجون عن الكثير المفضل، وليس في الآية ما يقتضي أن الملائكة أَفْضَل من الْإِنْس؛ كما زعمت فرقة؛ بل الأمر محتمل أن يكونوا أَفْضَل من الْإِنْس، ويحتمل التساوي.

وقوله سبحانه: ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾ يحتمل أن يريد باسم إمامهم، فيقول: يا أمة محمد، ويا أتباع فرعون، ونحو هذا، ويحتمل أن يريد: مع إمامهم أن تجيء كل أمة معها إمامها من هادٍ ومضل، واختلف في «الإمام»، فقال ابن عباس والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم^(١)، وقال قتادة ومجاهد: نبيهم^(٢)، وقال ابن زيد: كتابهم الذي

(١) أخرجه الطبري (١١٦/٨) برقم: (٢٢٥٢١)، ويرقم: (٢٢٥٢٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٣/٣)،

وابن كثير في «تفسيره» (٥٢/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥١/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (١١٥/٨) برقم: (٢٢٥١٥)، ويرقم: (٢٢٥١٩)، وذكره البغوي (١٢٥/٣)، =

نَزَلَ عَلَيْهِمْ^(١)، وقالت فرقة: مَتَّبِعُهُمْ مِنْ هَادٍ أَوْ مُضِلٍّ، ولفظه «الإمام» تعمُّ هذا كله.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَوَّاهٍ بِمِيقَاتِهِ﴾: حقيقة في أن في القيامة صحائف تطاير، وتوضع في الأيمان لأهل الأيمان، وفي الشمائل لأهل الكفر والخذلان، وتوضع في أيمان المذنبين الذين ينفذ عليهم الوعيد، فيستفيدون منها أنهم غير مخلدين في النار.

وقوله سبحانه: ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾: عبارة عن السرور بها، أي: يردّدونها ويتأملونها.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: ولا أقل، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الدنيا، أي: مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدارِ أَعْمَى عن النظر في آيات الله وعبره، والإيمان بأنبياؤه^(٢)، فهو في الآخرة أعمى؛ على معنى أنه حيران لا يتوجّه لصواب ولا يلوح له نَجَحٌ. قال مجاهد: فهو في الآخرة أعمى عن حُجَّتِهِ^(٣)، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل، أي: أشدُّ عمى وحيرة؛ لأنه قد باشر الحَيَّةَ ورأى مخايل العذاب؛ ويقوي هذا التأويل قوله، عطفاً عليه: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الذي هو «أَفْعَلُ مِنْ كَذَا» والعمى في هذه الآية هو عمى القلب، وقول سيبويه: لا يقال أعمى مِنْ كَذَا، إنما هو في عمى العين الذي لا تفاضل فيه، وأما في عمى القلب، فيقال ذلك؛ لأنه يقع فيه التفاضل * ت * : وكذا قال * ص * وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ...﴾ الآية: الضمير في قوله: ﴿كَادُوا﴾ هو لقريش، وقيل: لثقيف، فأما لقريش، فقال ابن جبير ومجاهد: نزلت الآية، لأنهم قالوا للنبي ﷺ لَا نَدْعُكَ تَسْتَلِمُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ حَتَّى تَمَسَّ أَيْضاً أَوْثَانَنَا عَلَى مَعْنَى التَّشْرِعِ^(٤)، وقال ابن إسحاق وغيره: إنهم اجتمعوا إليه ليلة، فعظموه، وقالوا له: أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَلَكِنْ أَقْبِلْ عَلَى بَعْضِ أَمْرِنَا، وَثَقِّلْ عَلَى بَعْضِ أَمْرِكَ، فنزلت الآية في ذلك^(٥).

= وابن عطية (٤٧٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(١) أخرجه الطبري (١١٦/٨) برقم: ٢٢٥٢٦، وذكره ابن عطية (٤٧٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢).

(٢) أخرجه الطبري (١١٧/٨) برقم: (٢٢٥٣٠)، وذكره ابن عطية (٤٧٤/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري (١١٨/٨) برقم: (٢٢٥٣٥)، وذكره ابن عطية (٤٧٤/٣).

(٤) أخرجه الطبري (١١٨/٨) برقم: (٢٢٥٣٦)، وذكره البغوي (١٢٦/٣)، وابن عطية (٤٧٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية (٤٧٥/٣).

قال * ع * ^(١): فهي في معنى قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وأما لثقيف، فقال ابن عباس وغيره: لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللات، وقالوا: إنما نريد أن نأخذ ما يهدى لها ولكن إن خفت أن تنكر / ذلك عليك العرب، فقل: أوحى الله ذلك إلي، فنزلت الآية في ذلك ^(٢). * ت ٢٩٥ *: والله أعلم بصحة هذه التأويلات، وقد تقدم ما يجب اعتقاده في حق النبي ﷺ، فالتزمه تفلح.

وقوله: ﴿وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾: توقيف على ما نجاه الله منه من مخالطة الكفار، والولاية لهم.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَادَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ...﴾ الآية تعدد نعمه على النبي ﷺ، وروي أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية، قال: «اللهم، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» ^(٣) وقرأ الجمهور ^(٤) (تركن) بفتح الكاف، والنبي ﷺ لم يركن، لكنه كاد بحسب هممه بموافقتهم؛ طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معنى الآية: لقد كادوا أن يخبروا عنك أنك ركنت ونحو هذا؛ ذهب في ذلك إلى نفي الهم عن النبي ﷺ، فحمل اللفظ ما لا يحتمل؛ وقوله: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ يبطل ذلك.

* ت *: وجزى الله ابن الأنباري خيراً، وإن تنزیه سائر الأنبياء لواجب، فكيف بسيد ولد آدم صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

قال أبو الفضل عياض في «الشفا»: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾: قال بعض المتكلمين: عاتب الله تعالى نبينا عليه السلام قبل وقوع ما يوجب العتاب؛ ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافضة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية، ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عاتبه عليه، وخيف أن يركن إليه، وفي أثناء عتبه

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١١٩/٨) برقم: (٢٢٥٤٠)، وذكره البغوي (١٢٦/٣) بنحوه، وابن عطية (٤٧٥/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٥٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) قرأ ابن مصرف، وقاتدة، وعبد الله بن أبي إسحاق «تركن» بضم الكاف.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/٣)، و«البحر المحيط» (٦٢/٦)، و«الدر المصون» (٤١٠/٤).

بِرَأَءَتُهُ، وفي طَيِّ تخويفه تأمِينُهُ.

قال عياض رحمه الله: ويجبُ على المؤمن المجاهدِ نفسه الرائضِ بزمَامِ الشريعةِ خُلُقُهُ؛ أن يتأدَّبَ بآداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية انتهى.

قال * ع * (١): وهذا الهمُّ من النبي ﷺ إنما كان خَطَرُهُ مما لا يمكنُ دفعه، ولذلك قيل: ﴿كَدَتْ﴾ وهي تعطي أنه لم يقف ركوبٌ، ثم قيل: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾؛ إذ كانت المقاربة التي تضمنتها ﴿كَدَتْ﴾ قليلةً خطرةً لم تتأكد في النفس.

وقوله: ﴿إِذَا لَأَذْنَاكَ...﴾ الآية: يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابنُ الأنباري.

* ت * : وما ذكره * ع * رحمه الله تعالى من البطلان لا يصحُّ، وما قدَّمناه عن عياض حسنٌ؛ فتأمله.

وقوله: ﴿ضعف الحياة﴾: قال ابن عباس وغيره: يريد ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات (٢).

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...﴾ الآية: قال الحَضْرَمِيُّ: الضمير في «كادوا» ليهود المدينة وناحيتها، ذهبوا إلى المَكْرِ بالنبي ﷺ، فقالوا له: إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، فإن كنت نبياً، فأخرج إلى الشام، فإنها أرض الأنبياء، فنزلت الآية، وأخبر سبحانه أن رسول الله ﷺ لو خَرَجَ، / لم يلبثوا بعده إلا (٣) قليلاً، وقالت فرقة: الضمير لقريش، قال ابن عباس: وقد وقع استفزازهم وإخراجهم له، فلم يلبثوا خلفه إلا قليلاً يومَ بَدَرْ (٤).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٠/٨) برقم: (٢٢٥٤٢)، وذكره ابن عطية (٤٧٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٣/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (١٢١/٨) برقم: (٢٢٥٤٩)، وذكره البغوي (١٢٧/٣)، وابن كثير (٥٣/٣) عن عبد الرحمن بن غنم، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٣/٤)، وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (١٢١/٨) برقم: (٢٢٥٥٤)، وذكره ابن عطية (٤٧٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٤/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال مجاهد: ذهبت قريش إلى هذا، ولكنه لم يقف منها؛ لأنه لما أراد الله سبحانه استبقاء قريش، وألاً يستأصلها، أذن لرسوله في الهجرة، فخرج من الأرض بإذن الله، لا بفهر قريش، واستبقيت قريش؛ ليُسَلِّمَ منها ومن أعقابها مَنْ أَسْلَمَ^(١).

* ت * : قال * ص * : قوله ﴿لا يلبثون﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله، إن استغزرت، فخرجت، لا يلبثون خلفك إلا قليلاً. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا...﴾ الآية: معنى الآية الإخبار أن سنة الله تعالى في الأمم الخالية وعادته أنها إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها، نالها العذاب، وأستأصلها، فلم تلبث خلفه إلا قليلاً.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨)

وقوله سبحانه: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس...﴾ الآية: إجماع المفسرين على أن الإشارة هنا إلى الصلوات المفروضة، والجمهور أن دلوك الشمس زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و﴿غسق الليل﴾: أشير به إلى المغرب والعشاء، و﴿قرآن الفجر﴾: يريد به صلاة الصبح، فالآية تعم جميع الصلوات، «والدلوك»؛ في اللغة: هو الميل، فأول الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب، قال أبو حيان^(٢): واللام في ﴿لُدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾: للظرفية بمعنى بَعْدَ انتهى، و﴿وَعَسَقَ اللَّيْلِ﴾: اجتماعه وتكاثف ظلمته، وعبر عن صلاة الصبح خاصة بالقرآن، لأن القرآن هو عظمها؛ إذ قراءتها طويلة مجهور بها.

وقوله سبحانه: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ معناه: يشهده حَفَظَةُ النهار وحَفَظَةُ الليل من الملائكة؛ حسبما ورد في الحديث الصحيح: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ؛ فَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ...» الحديث^(٣) بطوله، وفي «مسند» البزار^(٤) عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ صَلَاةُ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِي جَمَاعَةٍ، وَمَا أَحْسِبُ شَاهِدَهَا مِنْكُمْ إِلَّا مَغْفُورٌ لَهُ»^(٥) انتهى من «الكوكب الدرّي».

(١) أخرجه الطبري (١٢١/٨) برقم: (٢٢٥٥٢)، وذكره البغوي (١٢٧/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٦/٣).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٦٨/٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٦٨/٧) برقم: (١٩٣٠٧)، وعزاه للطبراني، عن ابن عمر.

(٥) أخرجه البزار (٢٩٨/١ - كشف)، برقم: (٦٢١)، من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة به، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧١/٢)، وقال: رواه البزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» كلهم من رواية عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، وهما ضعيفان. ١ هـ.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

﴿ومن الليل فتهجد به﴾ «مِنَ» للتبعية، التقدير: ووقتاً مِنَ الليل، أي: قم وقتاً، والضمير في «به» عائد على هذا المقدّر، ويحتمل أن يعود على القرآن، و«تهجد» معناه: أطرح الهجود عنك، «والهجود»: النوم، المعنى: ووقتاً من الليل أسهر به في صلاة وقراءة، وقال علقمة وغيره: التهجد بعد نومة^(١)، وقال الحجاج بن عمرو: إنما التهجد بعد رقدة^(٢)، وقال الحسن: التهجد ما كان بعد العشاء الآخرة^(٣).

وقوله: ﴿نافلة لك﴾ قال ابن عباس: معناه: زيادة لك في الفرض، قال: وكان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ^(٤)، وقال مجاهد: إنما هي نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له، والناس يحطون بمثل ذلك خطاياهم، يعني: ويجبرون بها فرائضهم؛ حسبما/ ورد في ٢٩٦ ب الحديث^(٥)، قال صاحب «المدخل»، وهو أبو عبد الله بن الحجاج؛ وقد قالوا: إن مَنْ كان يتفلّت منه القرآن، فليقم به في الليل، فإن ذلك يثبت له ببركة امتثال السنّة سيّما الثلث الأخير من الليل؛ لما ورد في ذلك من البركات والخيرات، وفي قيام الليل من الفوائد جملة، فلا ينبغي لطالب العلم أن يفوته منها شيء.

فمنها: أنه يحطّ الذنوب؛ كما يحطّ الريح العاصف الورق اليابس من الشجرة.

وله شاهد من حديث ابن عمر.

أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٠٧/٧)، بلفظ: «أفضل الصوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة».

(١) أخرجه الطبري (١٢٩/٨) برقم: (٢٢٦١١)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة».

(٢) أخرجه الطبري (١٢٩/٨) برقم: (٢٢٦١٦)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٢٩/٨) برقم: (٢٢٦١٥)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٠/٨) برقم: (٢٢٦١٧)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٥/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٥) أخرجه الطبري (١٣٠/٨) برقم: (٢٢٦١٨)، وذكره البغوي (١٢٩/٣)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٦/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، ومحمد بن نصر، والبيهقي في «الدلائل».

الثاني: أنه ينور القلب.

الثالث: أنه يحسن الوجه.

الرابع: أنه يذهب الكسل، وينشط البدن.

الخامس: أن موضعه تراه الملائكة من السماء؛ كما يتراءى الكوكب الدرّي لنا في السماء، وقد روى الترمذي عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ مِنْ دَابِّ الصَّالِحِينَ قَبْلُكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمُنْهَاطٌ عَنِ الْآثَامِ، وَتَكْفِيرٌ لِلْسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»^(١) وروى أبو داود في «سننه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يَكُتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ، كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ» انتهى^(٢) من «المدخل».

وقوله سبحانه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾: عِدَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ، وهو أمر الشفاعة الذي يتدافعهُ الأنبياء حتى ينتهي إليه ﷺ، والحديث بطوله في البخاري ومسلم.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): واختلف في وَجْهِ كَوْنِ قِيَامِ اللَّيْلِ سَبَبًا لِلْمَقَامِ الْمَحْمُودِ؛ عَلَى قَوْلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ:

أحدهما: أن الباري تعالى يجعل ما يشاء مِنْ فَضْلِهِ سَبَبًا لِفَضْلِهِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ لَنَا

(١) أخرجه الترمذي (٥٥٢/٥ - ٥٥٣) كتاب «الدعوات» باب: في دعاء النبي ﷺ، حديث (٣٥٤٩)، من طريق بكر بن خنيس، عن محمد القرشي، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن بلال به، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه من قبل إسناده، قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد القرشي هو: محمد بن سعيد الشامي وهو ابن أبي قيس، وهو محمد بن حسان، وقد ترك حديثه، وقد روى هذا الحديث معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن ابن إدريس الخولاني، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة للإثم»، وقال الترمذي: وهذا أصح من حديث إدريس عن بلال أ. هـ. قلت: ومن الوجه الذي ذكره الترمذي، أخرجه الحاكم (٣٠٨/١)، والبيهقي (٥٠٢/٢)، والبخاري (٤٥٨/٢) - بتحقيقنا، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٢٣/٣).

بَوَّجِهَ الْحِكْمَةَ.

الثاني: أَنَّ قيام الليل فيه الْخَلْوَةُ بالباري تعالى، والمناجاة معه دون الناس، فيعطى الْخَلْوَةُ به ومناجاته في القيامة، فيكون مقاماً محموداً، ويتفاضل فيه الْخَلْقُ؛ بحسب درجاتهم، وأجلهم فيه درجة نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ، فيعطى من المحامد ما لم يعط أحد، وَيُسْفَعُ فَيُسْفَعُ. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ...﴾ الآية: ظاهر الآية: والأخسَنُ أن يكون دعا عليه السلام في أن يحسُنَ الله حالته في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتم عموم، معناه: رب، أضحك لي وزدي في كل الأمور، وصدري.

وذهب المفسرون إلى تخصيص اللفظ، فقال ابن عباس وغيره: أَدْخِلْنِي المدينة، وأخرجني من مكة^(١)، وقال ابن عباس أيضاً: الإدخال بالموت في القبر، والإخراج: البعث^(٢)، وقيل غير هذا، وما قُدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله أصوب، «والصدق»؛ هنا صفة تقتضي رفع المذام وأستيعاب المذم، «واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» قال مجاهد: يعني حجةً تنصرنى بها على الكفار^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ...﴾ الآية: قال قتادة: ﴿الْحَقُّ﴾ القرآن، و﴿الباطل﴾ الشيطان^(٤).

٢٢٩٧

وقالت فرقة: ﴿الحق﴾: الإيمان، و﴿الباطل﴾: الكفران، وقيل غير هذا، والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة؛ فيكون التفسير: جاء الشرع بجميع ما أنطوى فيه، وزهق الكفر بجميع ما أنطوى فيه، وهذه الآية نزلت بمكة، وكان يستشهد بها النبي ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَقَتَ طَعْنِهِ الْأَصْنَامَ وَسُقُوطِهَا لَطْعَنِهِ إِيَّاهَا بِالْمُخَصَّرَةِ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة بني إسرائيل، حديث (٣١٣٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الطبري (١٣٦/٨) برقم: (٢٢٦٤٩)، وذكره ابن عطية (٤٧٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٠/٤)، وعزه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٧/٨) برقم: (٢٢٦٥٧)، وذكره البغوي (١٣٢/٣)، وذكره ابن عطية (٤٨٠/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٩/٣).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٨/٨) برقم: (٢٢٦٦١)، وذكره ابن عطية (٤٨٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٠/٤)، وعزه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء...﴾ الآية: أي شفاء بحسب إزالته للرَّيب، وكشفه غطاء القلب، وشفاء أيضاً من الأمراض بالرقى والتعويد ونحوه.

وقوله سبحانه: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾: يحتمل أن يكون (الإنسان) عامًّا للجنس، فالكافر يبالغ في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظ منه (نأى) أي: بُعد، ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾، أي: على ما يليق به، قال ابن عباس: ﴿على شاكلته﴾ معناه: على ناحيته^(١)، وقال قتادة: معناه: على ناحيته وعلى ما ينوي^(٢). وقوله سبحانه: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ توعد بين.

﴿وَيَسْتَلُونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَئِيدًا ﴿٨٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿ويستلونك عن الروح﴾ روى ابن مسعود أن اليهود قال بعضهم لبغض: سلوا محمداً عن الروح فإن أجاب فيه، عرفتم أنه ليس بنبي.

قال * ع^(٣): * وذلك أنه كان عندهم في التوراة؛ أن الروح ممَّا انفرد الله بعلمه، ولا يطلع عليه أحد من عباده، فسألوه، فنزلت الآية.

وقيل: إن الآية مكّية، والسائلون هم قريش، بإشارة اليهود، واختلف الناس في الروح المسؤول عنه، أي روح هو؟ فقال الجمهور: وقع السؤال عن الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية ما هي، فالروح: اسم جنس على هذا، وهذا هو الصواب، وهو المشكل الذي لا تفسير له.

(١) أخرجه الطبري (١٤١/٨) برقم (٢٢٦٧٠) وذكره البغوي (١٣٣/٣) وابن عطية (٤٨١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٠/٣) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦١/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١٤١/٨) برقم (٢٢٦٧٣)، وذكره البغوي (١٣٣/٣) بنحوه، وابن عطية (٤٨١/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٠/٣) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨١/٣).

وقوله سبحانه: ﴿من أمر ربي﴾ يحتمل أن يريد أن الروح من جملة أمور الله التي استأثر سبحانه بعلمها، وهي إضافة خلق إلى خالق، قال ابن رášid في «مرقبته»: أخبرني شيخي شهاب الدين القرافي عن ابن دقيقي العيد؛ أنه رأى كتاباً لبعض الحكماء في حقيقة النفس، وفيه ثلاثمائة قول، قال رحمه الله: وكثرة الخلاف تؤذن بكثرة الجهالات، ثم علماء الإسلام اختلفوا في جواز الخوض فيها على قولين، ولكل حُجَج يطول بنا سردها، ثم القائلون بالجواز اختلفوا، هل هي عَرَضٌ أو جوهرٌ، أو ليست بجوهر ولا عرض، ولا توصف بأنها داخل الجسم ولا خارجة، وإليه ميل الإمام أبي حامد وغيره، والذي عليه المحققون من المتأخرين أنها جسمٌ نوارني شفاف سارٍ في الجسم سريان النار في الفحم؛ والدليل على أنها في الجسم قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] فلو لم تكن في الجسم، لما قال ذلك، وقد أخبرني الفقيه الخطيب أبو/ محمد البرجيني رحمه الله ب ٢٩٧ عن الشيخ الصالح أبي الطاهر الرُكْرَاقِي رحمه الله قال: حَضَرْتُ عند وَلِيِّ من الأولياء حين النَّزْعِ، فشاهدتُ نَفْسَهُ قد خَرَجَتْ من مواضع من جَسَدِهِ، ثم تشكَّلت على رأسه بشكِّله وصُورَتِهِ، ثم صَعِدَتْ إلى السماء، وصَعِدَتْ نَفْسِي معها، فلما انتهينا إلى السماء الدنيا، شاهدتُ باباً ورجُلَ مَلَكٍ ممدودةً عليه، فأزال ذلك المَلَكُ رجله، وقال لنفس ذلك الولي: اصْعِدِي، فَصَعِدْتُ، فأرادتُ نَفْسِي أَنْ تَصْعَدَ معها، فقال لها: ازْجِعي، فقد بقي لك وقتٌ، قال: فرجعت فشاهدت الناس دائرين على جسمي، وقائل يقول: مات، وآخر يقول: لم يَمُتْ، فدخلت من أنفي، أو قال: مِنْ عَيْنِي، وَقَمْتُ. انتهى.

* ت * : وهذه الحكاية صحيحة، ورجال إسنادها ثقات معروفون بالفضل، فابن رášid هو شارح ابن الحاجب القرعي، والبرجيني معروف عند أهل إفريقية وأبو الطاهر من أكابر الأولياء معظم عند أهل تونس، مزاره وقبره بالزلاج معروف زرتة رحمه الله، وقرأ الجمهور^(١): «وما أوتيتم»، واختلف فيمن خطب بذلك، فقالت فرقة: السائلون فقط، وقالت فرقة: العالم كله، وقد نص على ذلك ﷺ؛ على ما حكاه الطبري^(٢).

وقوله: ﴿ولئن شئنا لنذهبن...﴾ الآية: المعنى وما أوتيتم أنت يا محمد، وجميع الخلائق من العلم إلا قليلاً، فالله يعلم من علمه بما شاء، ويدع ما شاء، ولو شاء لذهب بالوحي الذي آتاك، وقوله ﴿إلا رحمة﴾ استثناء منقطع، أي: لكن رحمة من ربك تمسك

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٨/ ١٤٤).

عليك قال الداوودي: وما روي عن ابن مسعود من أنه سَيَنْزَعُ القرآن من الصدور، وتَرْفَعُ المصاحف^(١) لا يَصِحُّ وإنما قال سبحانه: ﴿وَلَنُثَنِّنَا﴾ فلم يشأ سبحانه، وفي الحديث عنه ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»^(٢) قال البخاري: وهم أهل العلم، ولا يكون العلم مع فقد القرآن. انتهى كلام الداوودي، وهو حسن جداً، وقد جاء في الصحيح ما هو أبين من هذا، وهو قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ...»^(٣)، الحديث.

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ (٨٩)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لئن أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ...﴾ الآية: سبب هذه الآية أن جماعة من قريش قالوا للنبي ﷺ: لَوْ جِئْتَنَا بِآيَةٍ غَرِيبَةٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّا نَقْدِرُ نَحْنُ عَلَى الْمَجِيءِ بِمِثْلِهِ، فنزلت هذه الآية المصروفة بالتعجيز لجميع الخلائق.

قال * ص *: واللام في ﴿لئن أَجْتَمَعَتِ﴾ اللام الموطئة للقسم، وهي الداخلة على الشرط، كقوله: ﴿لئن أَخْرَجُوا﴾ [الحشر: ١٢] ﴿وَلئن قُوتِلُوا﴾ [الحشر: ١٢] والجواب بعد للقسم لتقدمه، إذا لم يسبق ذو خبره لا للشرط، هذا مذهب البصريين خلافاً للفراء في إجازته الأمرين، إلا أن الأكثر أن يجيء جواب قسم، «والظهير» المعين.

/ قال * ع *: ﴿٤﴾: وفهمت العرب الفصحاء بخلوص فهمها في مَنَزِ الكلام ودَربِتها به

٢٢٩٨

(١) أخرجه الطبري (١٤٤/٨) برقم: (٢٢٦٩٠)، وذكره ابن عطية (٤٨٢/٣)، وذكره ابن كثير (٦٢/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٣/٣)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه.

(٢)

تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٤/١) كتاب «العلم» باب: كيف يقبض العلم، حديث (١٠٠)، وفي (٢٩٥/١٣) كتاب «الاعتصام» باب: ما يذكر من ذم الرأي، حديث (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٠٥٨/٤) كتاب «العلم» باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن، حديث (٢٦٧٣/١٣)، والترمذي (٣١/٥)، كتاب «العلم» باب: ما جاء في ذهاب العلم، حديث (٢٦٥٢)، وابن ماجه (٢٠/١) «المقدمة» باب: اجتناب الرأي والقياس، حديث (٥٢)، والدارمي (٧٧/١)، وأحمد (١٦٢/٢)، (١٩٠)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٤٧/١) - بتحقيقنا، من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٣/٣).

ما لا نفهمه نَحْنُ ولا كُلُّ من خالطته حضارة، ففهموا العَجَزَ عنه ضرورة ومشاهدة، وعلمه الناس بعدهم استدلالاً ونظراً، ولكلِّ حصل عِلْمٌ قطعيٌّ، لكن ليس في مرتبة واحدة.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ ﴿٩٥﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَنَاتٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ ﴿٩٦﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ فَيَكْفُرُوا بِمَا كُنْتَ تُزِيلُ عَلَيْهِمْ ۖ ﴿٩٧﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفْرِكَ حَتَّىٰ تُزِيلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴿٩٨﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴿١٠٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾ الآية: روي في قول هذه المقالة للنبي ﷺ حديث طويل، مقتضاه: أَنَّ عُثْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَيْبَعَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَالْضُّفْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ قُرَيْشٍ وَسَادَاتِهَا، اجتمعوا عليه، فعرضوا عليه أَنْ يملكوه إِنْ أَرَادَ الْمُلْكُ، أَوْ يجمعوا له كثيراً من المال؛ إِنْ أَرَادَ الْغِنَى وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ، فدعاهم ﷺ عند ذلك إِلَى اللَّهِ، وَقَالَ: إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَاكُمْ وَدِينَكُمْ، فَإِنْ أَطَعْتُمْ، فَحَسَنٌ، وَإِلَّا صَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^(١) فقالوا له حيثُ: فَإِنْ كَانَ مَا تَزْعُمُ حَقًّا، ففَجِّرْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا... الحديث بطوله، «والينبوع»: الماء النابع، «وخلالها» ظرف، ومعناه أثناءها وفي داخلها.

وقوله: ﴿كما زعمت﴾ إشارة إلى ما تلا عليهم قبل ذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية [سبأ: ٩] «والكسف» الشيء المقطوع، وقال الزجاج^(٢) المعنى: أَوْ تَسْقِطُ السَّمَاءَ عَلَيْنَا طَبَقًا، وقوله: ﴿قِيلَ: وَمِنْهُ الْقِبَالَةُ^(٣)﴾ وهي الضمان، وقيل: معناه نوعاً وجنساً لا نظير له عندنا، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ﴾، قال المفسرون: الزُّخْرُفُ الذَّهَبُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾، أي: فِي الْهَوَاءِ

(١) أخرجه الطبري، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/٣٦٥-٣٦٦)، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «تفسير الزجاج» (٣/٢٥٩).

(٣) الْقِبَالَةُ: الكفالة، وهي فِي الْأَصْلِ: مصدر قَبَلَ: إِذَا كَفَلَ، وَقَبُلَ «بِالضَّمِّ» - إِذَا صَارَ قِبْلًا، أَي: كَفِيلًا، وَتَقَبَّلَ بِهِ: إِذَا تَكَفَّلَ.

ينظر: «اللسان العرب» (٣٥٢).

علوًا، ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، وهو أظهر.

* ت * : وذكر * ع * ^(١) هنا كلمات الواجب طرحها، ولهذا أعرضت عنها، و﴿ترقى﴾ معناه تصعد، ويروى أن قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبي أمية، ويروى أن جماعتهم طلبت هذه النحو منه، فأمره عز وجل أن يقول: ﴿سبحان ربي﴾، أي: تنزيهاً له من الإتيان إليكم مع الملائكة قبلاً، ومن اقتراحي أنا عليه هذه الأشياء، وهل أنا إلا بشر، إنما عليّ البلاغ المبين فقط.

وقوله: ﴿مطمئنين﴾، أي: وادعين فيها مقيمين.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِأَعْيُنٍ حَسِيرَةً﴾ (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَيَكْفُرُوا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْلًا وَرُفَاتًا أَوَلَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)

وقوله سبحانه: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ روي أن من تقدم الآن ذكرهم من قريش، قالوا للنبي ﷺ في آخر قولهم: فلتجيء معك بطائفة من الملائكة تشهد لك بصِدْقك في نبوتك، وروي أنهم قالوا: فمن يشهد لك؟ ففي ذلك نزلت الآية، أي: الله يشهد بيني وبينكم، ثم أخبر سبحانه؛ أنه يحشرهم على الوجوه حقيقة، وفي هذا المعنى حديث، «قيل: يا رسول الله، كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين قادراً على أن يمشيه/ في الآخرة على وجهه؟» ^(٢) قال قتادة: بلى، وعِزَّة رَبَّنَا ^(٣).

* ت * : وهذا الحديث قد خرَّجه الترمذي من طريق أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: رُكْبَانًا، وَمُشَاةً، وَعَلَى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٣٥٠) كتاب «التفسير» باب: ﴿الذين يحشرون على وجوههم﴾، حديث (٤٧٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٦١) كتاب «صفات المنافقين» باب: يحشر الكافر على وجهه، حديث (٢٨٠٦)، والطبري (١٩/ ١٢)، وأبو يعلى (٥/ ٣٨٥ - ٣٨٦) برقم (٣٠٤٦)، وأحمد (٣/ ٢٢٩)، وابن حبان (٧٣٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٨)، وزاد نسبه إلى أبي نعيم في «المعرفة»، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٣) ذكره ابن عطية (٣/ ٤٨٧).

وَجُوهِهِمْ...»^(١) الحديث، وقوله: ﴿كَلِمَا خَبَتْ﴾ أي: كلما فرغت من إحراقهم، فسكن اللهيب القائم عليهم قَدَرًا ما يعادون، ثم يثور، فتلك زيادة السعير، قاله ابن عباس^(٢).

قال *ع*^(٣): فالزيادة في حيزهم، وأما جهنم، فعلى حالها من الشدة، لا فتور، وخَبَتْ النار، معناه: سَكَنَ اللهيب، والجَمْرُ على حاله، وَخَمَدَتْ معناه، سَكَنَ الجَمْرُ وَضَعُفَ، وَهَمَدَتْ معناه: طَفِئَتْ جملة.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا...﴾ الآية: الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الوعيد المتقدم بجهنم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية: الرؤية في هذه الآية هي رؤية القلب، وهذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث، «والأجل»؛ ههنا: يحتمل أن يريد به القيامة، ويحتمل أن يريد أجل الموت.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي...﴾ الآية: الـ ﴿رحمة﴾، في هذه الآية: المال والنعم التي تُصَرَفُ في الأرزاق.

وقوله: ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ المعنى: خشية عاقبة الإنفاق، وهو الفقر، وقال بعض اللغويين، أَتَفَقَ الرجلُ معناه: افتقر؛ كما تقول أَتَرَبَّ وَأَفْتَرَ.

وقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي: ممسكاً، يريد أن في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتنفى، فهو لو ملك خزائن رحمة الله، لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِئْسَ الْيَسَّرَ لَئِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١١١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٥/٥)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الإسراء، حديث (٣١٤٢)، من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وأخرجه أحمد (٣٥٤/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٥٣/٨) برقم: (٢٢٧٢٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٨٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٩/٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد».

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٧/٣).

لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١١٦﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١١٧﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات...﴾ الآية: اتفق المتأولون والرواة؛ أن الآيات الخمس التي في «سورة الأعراف» هي من هذه التسع، وهي: الطوفان والجَزَادُ والقَمْلُ والضَّفَادعُ والدَّمُ، واختلفوا في الأربع. * ت * وفي هذا الاتفاق نظر، ورَوَى في هذا صفوان بن عَسَّالٍ؛ أن يهوديًا من يهود المدينة، قال لآخر: سِرَبْنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ نَسْأَلُهُ عَنْ آيَاتِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ: لَا تَقُلْ لَهُ إِنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنَّهُ لَوْ سَمِعَهَا، صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ، قَالَ: فَسَارَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَاهُ، فَقَالَ: «هِيَ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَمْشُوا فِي بَرِّيءٍ إِلَى السُّلْطَانِ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَسْخَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَقْذِفُوا الْمُحْصَنَاتِ، وَلَا تَقْرَأُوا يَوْمَ الزَّخْفِ، وَعَلَيْكُمْ - خَاصَّةً مَغْسِرِ الْيَهُودِ الْأَتْعَدُوا فِي السَّبْتِ»^(١). انتهى، وقد ذكر * ع * هذا الحديث^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْأَلُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾، أي: إِذْ جَاءَهُمْ مُوسَى واختلف في قوله: ﴿مَسْحُورًا﴾ فقالت فرقة: هو مفعولٌ على بابه، وقال الطبري^(٣): هو بمعنى ساحر، كما قال / ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] وقرأ الجمهور: «لَقَدْ عَلِمْتُ»، وقرأ الكسائي: «لَقَدْ عَلِمْتُ» بقاء المتكلم مضمومة، وهي قراءة علي بن أبي طالب وغيره، وقال: ما علم عدو الله قط، وإنما علم موسى والإشارة بـ ﴿هؤلاء﴾ إلى التسع.

وقوله: ﴿بصائر﴾: جمع بصيرة، وهي الطريقة، أي طرائق يُهْتَدَى بِهَا، و«المثبور» الْمُهْلَكُ؛ قاله مجاهد^(٤)، ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي: يستخفهم ويقتلهم،

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٥/٥ - ٣٠٦) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة بني إسرائيل، حديث (٣١٤٤)، وأحمد (٢٣٩/٤ - ٢٤٠)، والنسائي (١١١/٧ - ١١٢)، كتاب «تحريم الدم» باب السحر، حديث (٤٠٧٨)، والحاكم (٩/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٧/٥ - ٩٨)، والطبري (١٧٢/١٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٣/٨ - ٨٤) برقم: (٧٣٩٦)، وأخرجه ابن ماجه مختصراً برقم: (٣٧٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٠/٤)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن قانع، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي كلاهما في «الدلائل».

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٨/٣).

(٣) ينظر: «الطبري» (١٥٨/٨).

(٤) أخرجه الطبري (١٥٩/٨) برقم: (٢٢٧٥٩)، وذكره البغوي ((١٤٠/٣))، وابن عطية (٤٨٩/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٧/٣).

والأرض هنا أَرْضُ مِصْرَ، ومتى ذكرت الأرض عموماً، فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها، واقتضبت هذه الآية قصص بني إسرائيل مع فرعون، وإنما ذكرت عِظَمَ الأمر وخطيره، وذلك طرفاه؛ أراد فرعون غلبتهم وقتلهم، وهذا كان بدء الأمر؛ فأغرقه الله وجنوده، وهذا كان نهاية الأمر، ثم ذكر سبحانه أمر بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسكنى أرض الشام و﴿وَعَدُ الْآخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة، «واللفيف»: الجَمْعُ المختلط الذي قد لُفَّ بعضه إلى بعض.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِقِرَاءٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وبالحق أنزلناه﴾ يعني القرآن نَزَلَ بالمصالح والسداد للناس، و﴿بالحق نزل﴾ يريد: بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، وقرأ جمهور^(١) الناس: «فَرَقْنَاهُ» بتخفيف الراء، ومعناه: بيّناه وأوضحناه وجعلناه فرقاناً، وقرأ جماعة خارج السبع^(٢): «فَرَقْنَاهُ» بتشديد الراء، أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، لا جملة واحدة، ويتناسق هذا المعنى مع قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ﴾، وتأولت فرقة قوله: ﴿عَلَى مَكْثٍ﴾ أي: على ترسل في التلاوة، وترتل، هذا قول مجاهد وابن عباس وابن جريج وابن زيد^(٣)، والتأويل الآخر، أي على مَكْثٍ وتطاوُل في المدة شيئاً بعد شيء.

وقوله سبحانه: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ فيه تحقيق للكفار، وضرب من التوعّد، ﴿والذين أوتوا العلم من قبله﴾: قالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب، و﴿الأذقان﴾: أسافل الوجوه حيث يجتمع اللُحْيَان.

- (١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٤٩٠)، و«البحر المحيط» (٦/٨٤)، و«الدر المصون» (٤/٤٢٦).
 (٢) وهي قراءة أبي، وابن عباس، ومجاهد، وابن مسعود، وعلي، وأبي رجاء، وقتادة، والشعبي، وحמיד، وعمر بن فائد، وزيد بن علي، وعمر بن ذر، وعكرمة، والحسين.
 ينظر: «مختصر الشواذ» (٨١)، و«المحتسب» (٢/٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/٤٩٠)، و«البحر المحيط» (٦/٨٤)، و«الدر المصون» (٤/٤٢٧).
 (٣) أخرجه الطبري (٨/١٦٢) برقم: (٢٢٧٨٣)، وذكره ابن عطية (٣/٤٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٧٢)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال الواحدي: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ أي: بإنزال القرآن، وبعث محمد ﴿لمفعولاً﴾. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُخَوِّنُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ هذه مبالغة في صفتهم، ومدح لهم وحض لكل من توسم بالعلم، وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرتبة النفيسة وحكى الطبري عن التميمي: أن من أوتي من العلم ما لم يبيكه لخلق ألا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله سبحانه نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية كلها.

* ت *: وإنه والله كذلك، وإنما يخشى الله من عباده العلماء، اللهم انفعنا بما علمتنا، ولا تجعله علينا حجةً بفضلك، ونقل الغزالي عن ابن عباس؛ أنه قال: إذا قرأت سجدَةَ «سُبْحَانَ»، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم، فليبك قلبه. قال الغزالي: فإن لم يحضره حزن وبكاء؛ كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإن ذلك من أعظم المصائب. قال الغزالي: وأعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة/ اليقين الحاصل بعظمة الله تعالى، ومن رزق ذلك، فإنه يكون خاشعاً في الصلاة وغيرها؛ فإن موجب الخشوع استشعار عظمة الله، ومعرفة أطلعه على العبد، ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليست مختصة بالصلاة، ثم قال: وقد دلت الأخبار على أن الأصل في الصلاة الخشوع، وحضور القلب، وأن مجرد الحركات مع العفلة قليل الجدوى في المعاد، قال: وأعلم أن المعاني التي بها تتم حياة الصلاة تجمعها ست جمل، وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء، فحضور القلب: أن يفرغه من غير ما هو ملابس له، والتفهم: أمر زائد على الحضور، وأما التعظيم، فهو أمر وراء الحضور والفهم، وأما الهيبة، فأمر زائد على التعظيم، وهي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم، وأما التعظيم، فهو حالة للقلب تتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله سبحانه وعظمته، والثانية: معرفة حقارة النفس، وأعلم أن حضور القلب سببه الهمة، فإن قلبك تابع لهمتك، فلا يحضر إلا فيما أهمك، ومهما أهمك أمر، حضر القلب، شاء أم أبى، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة، لم يكن متعطلاً؛ بل يكون حاضراً فيما الهمة مصروفة إليه. انتهى من «الإحياء».

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافَتْ يَهَا وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا ۝﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾ الآية: سبب نزول هذه الآية: أن بعض المشركين سمع النبي ﷺ يدعو: يا الله يا رَحْمَان، فقالوا: كان محمدٌ يأمرنا بدعاءِ إله واحد، وهو يدعو إلهين، قاله ابن عباس^(١)، فنزلت الآية مبينةً، أنها أسماء لمسمى واحد، وتقدير الآية: أي الأسماء تدعو به، فأنت مصيبٌ، فله الأسماء الحسنی، وفي «صحيح البخاري» بسنده عن ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ، رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ، سَبُّوا الْقُرْآنَ، وَمِنْ أَنْزَلِهِ، وَمِنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: بقرائكتك، فسمعَ المشركونَ فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عن أصحابك؛ فلا تسمعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢)، وأسند البخاري عن عائشة: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قَالَتْ: أَنْزَلَ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ انْتَهَى^(٣).

قال العزالي في «الإحياء»: وقد جاءت أحاديث تقتضي استحباب السر بالقرآن، وأحاديث تقتضي استحباب الجهر به، والجمع بينهما أن يقال: إن التالي إذا خاف على نفسه الرياء والتضع أو تشويش مُصل، فالسر أفضل، وإن أمن ذلك، فالجهر أفضل؛ لأن العمل فيه أكثر؛ ولأن فائدته أيضاً تتعدى إلى غيره؛ والخير المتعدي أفضل من اللازم؛ ولأنه يوقظ قلب القاريء، ويجمع همته إلى الفكر فيه، ويصرف إليه سمعه، ويطرده عنه النوم برفع صوته، ولأنه يزيد في نشاطه في القراءة، ويقلل من كسله؛ ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم، فيكون سبباً في إعانته على الخير، ويسمعه بطال غافل، فينشط بسببه، ويشتاق لخدمة خالقه، فمهما حَضَرَتْ نِيَّةٌ مِنْ هَذِهِ النِّيَّاتِ، فَالْجَهْرُ أَفْضَلُ، وَإِنْ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ النِّيَّاتُ، تَضَاعَفَ الْأَجْرُ، وَبِكَثْرَةِ النِّيَّاتِ يَزْكُو عَمَلُ الْأَبْرَارِ وَتَضَاعَفَ أَجُورُهُمْ. انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ هذه الآية رادة على كفرة العرب في

(١) أخرجه الطبري (١٦٥/٨) برقم: (٢٢٨٠١)، وذكره البغوي (١٤٢/٣)، وابن عطية (٤٩٢/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٨/٣)، والسيوطي في «الدر المشور» (٣٧٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٧/.)، كتاب «التفسير» باب: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾، حديث (٤٧٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٧/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾، حديث (٤٧٢٣).

قولهم: لولا أولياء الله، لَدَلَّ - تعالى الله عن قولهم - وقيد سبحانه نَفْيَ الولاية له بطريق الدَّلِّ، وعلى جهة الانتصار؛ إذ ولايته سبحانه مَوْجُودَةٌ بفضلِهِ ورحمته لمن والى من صالح عباده.

قال مجاهد: المعنى لم يخالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد سبحانه، لا إله إلا هو^(١) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) أخرجه الطبري (١٧٢/٨) برقم: (٢٢٨٥٠)، وذكره ابن عطية (٤٩٣/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٦٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٦/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن قتادة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾ والأول أصح، وهي من أفضل سور القرآن^(١)، وروي أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بسورة عظمها ما بين السموات والأرض، ولمن جاء بها من الأجر مثل ذلك؟ قالوا: أي سورة هي، يا رسول الله؟ قال: سورة الكهف، من قرأ بها يوم الجمعة، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام»^(٢) وفي رواية أنس: «من قرأ بها، أعطي نوراً بين السماء والأرض، ووقي بها فتنة القبر».

* ت *: وعن البراء بن عازب، قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه فرس مربوط بشطنتين فغشيته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «تلك السكينة نزلت بالقرآن»^(٣) رواه البخاري، واللفظ له، ومسلم والترمذي والنسائي، والرجل المبهم في الحديث هو أسيد بن حضير، وفي الحديث الصحيح من طريق الثؤاس بن سمعان، عن النبي ﷺ: «فمن أدرك الدجال منكُم فليقرأ عليه قوائم سورة الكهف...» وذكر الحديث. رواه مسلم^(٤) وغيره، زاد أبو داود: «فإنها جوازكم من فتنته». وعن أبي الدرداء؛ أن النبي ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال»^(٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، واللفظ ٣٠٠ ب

(١) ذكره ابن عطية (٤٩٤/٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٩/٤)، وعزاه إلى ابن مردويه، عن عائشة.

(٣) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.

(٤) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.

(٥) أخرجه مسلم (٥٥٥/١) كتاب «صلاة المسافرين» باب: فضل سورة الكهف، وآية الكرسي، حديث (٨٠٩/٢٥٧)، وأبو داود (٥٢٠/٢) كتاب «الملاحم» باب: في ذكر خروج الدجال، حديث (٤٣٢٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٩٥١)، وأحمد (١٩٦/٥)، (٤٤٩/٦)، والحاكم (٣٦٨/٢)، وابن حبان (٧٨٥ - ٧٨٦)، والبيهقي (٢٤٩/٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٥/٣) - بتحقيقنا من حديث أبي الدرداء.

لمسلم، وفي رواية لمسلم وأبي داود: «مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ»، وعن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ، كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَمَنْ قَرَأَ بِعَشْرِ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا، فَخَرَجَ الدُّجَالُ، لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ^(١) رواه الترمذي والحاكم في «المستدرک» والنسائي، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وله في رواية: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»^(٢)، وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه الدارمي في مسنده موقوفاً ورواته^(٣) متفق على الاحتجاج بهم إلا أبا هاشم يحيى بن دينار الرُّمائي وقد وثقه أحمد ويحيى وأبو رُزعة وأبو حاتم. انتهى من «السلاح».

﴿لَتَجِدَنَّ أُولَئِكَ أَزْوَاجًا مُتَّحِفِينَ﴾ (١) ﴿فَمَا يَصْبِرُ لَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَأُ﴾ (٢) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَيْتُ إِذْ يُدْعَىٰ إِلَى الْغِيَاثِ﴾ (٣) ﴿وَمَا يَصْبِرُ لَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَأُ﴾ (٤) ﴿فَمَا يَصْبِرُ لَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَأُ﴾ (٥)

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ كان حفص عن عاصم^(٤) يَنْسُكُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿عِوَجًا﴾ سَكَنَةً خفيفة، وعند ﴿مَرْقَدَانًا﴾ في يس [يس: ٥٢] وسبب هذه البداية في هذه السورة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما سأله قريش عن المسائل الثلاث: الروح، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، حسب ما أمرتهم به يهود - قال لهم ﷺ: «عَدَا أُخْبِرَكُمْ بِجَوَابِ مَا سَأَلْتُمْ» ولم يقل: إن شاء الله، فعاتبه الله عز وجل، وأمسك عنه الوحي خمسة عشر يوماً، وأرجف به كفار قريش، وشق ذلك على النبي ﷺ وبلغ منه، فلما انقضى الأمد الذي أراد الله عتاب نبيه، جاءه الوحي بجواب ما سألوه، وغير ذلك، فافتتح الوحي بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، وهو القرآن.

وقوله: ﴿ولم يجعل له عِوَجًا﴾، أي: لم ينزله عن طريق الاستقامة، «والعِوَجُ» فُقْدُ الاستقامة، ومعنى ﴿قِيَمًا﴾، أي: مستقيماً؛ قاله ابن^(٥) عباس وغيره، وقيل: معناه أنه قِيمَ

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٩٥٢، ٩٥٤)، والحاكم (٣٦٨/٢)، والبيهقي (٣/٢٤٩)، عن أبي سعيد مرفوعاً، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه الدارمي (٤٥٤/٢) عن أبي سعيد موقوفاً.

(٢) أخرجه الحاكم (٣٦٨/٢).

(٣) ينظر: «سنن الدارمي» (٤٥٤/٢).

(٤) ينظر: «العنوان» (١٢٢)، و«شرح الطيبة» (٣/٥)، و«شرح شملة» (٤٦٨)، و«إتحاف» (٢٠٨/٢).

(٥) ذكره الطبري (١٧٣/٨ - ١٧٤)، وابن عطية (٤٩٥/٣)، والبغوي (١٤٤/٣)، بلفظ عدلاً، والسيوطي =

على سائر الكتب بتصديقها، ولم يرتضه * ع ^(١)، قال: ويصح أن يكون معنى «قيّم» قيامه بأمر الله على العالم وهذا معنى يؤيده ما بعده من النذارة والبشارة اللتين عمتا العالم، «والبأس الشديد» عذاب الآخرة، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببذر وغيرها، ﴿ومن لدنه﴾، أي: من عنده، والمعنى: لينذر العالم والأجر الحسن» نعيم الجنة، ويتقدمه خير الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، أي: ما يقولون، فهي النافية.

﴿فَلَمَّا كَبَخَعَ نَفْسَكَ عَلَىٰ عِثْرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا (٨) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ هذه آية تسليّة للنبي ﷺ، والباخع نفسه هو مهلكها.

قال * ص: «لعل» للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المحذور، وهي هنا للإشفاق. انتهى.

وقوله: ﴿على آثارهم﴾: استعارة فصيحة من حيث لهم إذار وتباعد عن الإيمان؛ فكانهم من فرط إذارهم قد بغدوا، فهو في آثارهم يحزن عليهم.

وقوله: ﴿بهذا/ الحديث﴾، أي: بالقرآن، «والأسف» المبالغة في حزن أو غضب، ١٣٠١ وهو في هذا الموضع الحزن؛ لأنه على من لا يملك، ولا هو تحت يد الآسف، ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه، لكان غضباً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] أي: أغضبونا. قال قتادة: ﴿أسفأ﴾: حزنأ ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها... الآية: بسط في التسليّة، أي: لا تهتمّ بالدنيا وأهلها، فإن أمرها وأمرهم أقل؛ لفناء ذلك وذهابه، فإنما جعلنا ما على الأرض زينة وامتحاناً واختباراً، وفي معنى هذه الآية قوله ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة،

= (٤/ ٣٨١ - ٣٨٢) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق علي.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٩٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٧٧ - ١٧٨) برقم: (٢٢٨٧٣)، وذكره ابن عطية (٣/ ٤٩٦)، وابن كثير (٣/ ٧٢)، والسيوطي (٤/ ٣٨٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَأَتَقُوا الدُّنْيَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ»^(١)

﴿لنبلوهم﴾ أي: لنختبرهم، وفي هذا وعيدٌ ما.

قال سفيان الثوري: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها^(٢)، وقال أبو عاصم العسقلاني: ﴿أحسن عملاً﴾. الترك لها^(٣).

قال ع * ع *^(٤): وكان أبي رحمه الله يقول: أحسن العمل: أخذٌ بحق، وإنفاقٌ في حق، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

وقوله سبحانه: ﴿وإنا فيها لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي: يرجع ذلك كله تراباً، «والجرز»: الأرض التي لا شيء فيها من عمارة وزينة، فهي البلقع، وهذه حالة الأرض العامرة لا بُدَّ لها من هذا في الدنيا جزءاً جزءاً من الأرض، ثم يعُمُّها ذلك بأجمعها عند القيامة، و«الصعيد» وجه الأرض، وقيل: «الصَّعِيد»: التراب خاصّة.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، أي: ليسوا بعجب من آيات الله، أي: فلا يَعْظُمُ ذلك عليك بحسب ما عَظَّمَهُ السائلون، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم، وهو قول ابن عباس^(٥) وغيره، واختلف الناس في ﴿الرقيم﴾ ما هو؟ اختلافاً كثيراً، ف قيل: «الرقيم» كتابٌ في لوحٍ نحاسٍ، وقيل: في لوحٍ رصاصٍ، وقيل: في لوحٍ حجارةٍ كتبوا فيه قصّة أهل الكهف، وقيل غير هذا، وروي عن ابن عباس؛

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٨/٤) كتاب «الرفائق» باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث (٢٧٤٢/٩٩)، والترمذي (٤٨٣/٤) كتاب «الفتن» باب: ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، حديث (٢١٩١)، وابن ماجه (١٣٢٥/٢) كتاب «الفتن» باب: فتنة النساء، حديث (٤٠٠٠)، وأحمد (١٩/٣، ٢٢، ٤٦)، وأبو يعلى (٣٥٢/٢ - ٣٥٣) برقم: (١١٠١)، وابن حبان (٣٢٢١) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٩٧/٣)، والسيوطي (٣٨٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٧٨/٨) برقم: (٢٢٨٧٨)، وذكره ابن عطية (٤٩٧/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٧/٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٨٠/٨) برقم: (٢٢٨٩٠) بنحوه، وذكره ابن كثير (٧٣/٣)، والسيوطي (٣٨٤/٤) بنحوه، وعزاه لابن أبي حاتم.

أنه قال: ما أَذْرِي مَا الرِّقِيمُ^(١)؟

قال * ع *^(٢): ويظهر من هذه الروايات؛ أنهم كانوا قوماً مؤرخين، وذلك من نبل المملكة، وهو أمر مفيدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾: ﴿الفتية﴾، فيما روي؛ قوم من أبناء أشراف مدينة دَقْيُوسَ المَلِكِ الكافر، ويقال فيه «دقيانوس»، وروي أنهم كانوا مُطَوِّقِينَ مسوَّرين بالذهب، وهم من الروم، واتبعوا دينَ عيسى، وقيل: كانوا قبل عيسى، واختلف الرواة في قصصهم، ونذكر من الخلاف عُيُونَهُ، وما لا تستغني الآية عنه: فروي عن مجاهد عن ابن عباس، أن هؤلاء الفتية كانوا في دينِ مَلِكٍ يعبد الأصنام^(٣)، فوقع للفتية عِلْمٌ من بعض الحواريين، حَسْبَمَا ذكره النَّقَّاشُ، أو من مؤمني الأمم قبلهم، فأمنوا بالله، ورأوا ببصائرهم قَبِيحَ فِعْلِ النَّاسِ، فرفع أمرهم إلى المَلِكِ، فاستحضرَهُمْ، وأمرهم بالرجوع إلى دينه، فقالوا/ له فيما رُوِيَ: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الكهف: ١٤] الآية، ٣٠١ ب فقال لهم الملك: إِنَّكُمْ شُبَّانٌ أَغْمَارٌ، لا عَقْلَ لَكُمْ، وأنا لا أَعْجَلُ عليكم، وَضَرَبَ لَهُمْ أَجْلاً ثم سافر خِلَالَ الأَجَلِ، فتشاور الفتية في الهروبِ بأديانهم، فقال لهم أَحَدُهُمْ: إِنِّي أَغْرِفُ كَهْفاً في جَبَلٍ كَذَا، فلنذهب إليه.

وروت فرقة أنَّ أمر أصحاب الكهف إنما كان أنهم من أبناء الأشراف، فحضر عيد لأهل المدينة، فرأى الفتية ما ينتحله الناسُ في ذلك العيد من الكُفْرِ وعبادة الأصنام، فوقع الإيمانُ في قلوبهم، وأجمعوا على مفارقة دينِ الكُفْرَةِ، وروي أنهم خَرَجُوا، وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِالصُّوْلَجَانِ والكرة، وهم يدرجونها إلى نحو طريقهم؛ لثلاً يشعر الناس بهم؛ حتى وصلوا إلى الكهف، وأما الكلبُ فروي أنه كان كَلْبَ صَيْدٍ لبعضهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم رَاعِياً لَهُ كَلْبٌ، فَاتَّبَعَهُمُ الرَّاعِي على رأيهم، وذهب الكلبُ معهم، فدخلوا الغَارَ، فروت فرقة أن الله سبحانه ضَرَبَ على آذانهم عند ذلك، لما أراد مِنْ سَثَرِهِمْ وَخَفِيِّ عَلَى أَهْلِ المملكة مكانهم، وَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ غَرَابَةِ فَقْدِهِمْ، فَأَرْخَوْا ذَلِكَ وَرَقْمُوهُ فِي لَوْحَيْنِ مِنْ رِصَاصٍ أو نحاسٍ، وجعلوه على باب المدينة، وقيل على الرواية: إن الملك بَنَى باب

(١) أخرجه الطبري (١٨٢/٨) برقم: (٢٢٩٠٥)، وذكره ابن عطية (٤٩٨/٣)، وابن كثير (٧٣/٣)،

والسيوطي (٣٨٤/٤)، وعزاه لابن جرير من طريق ابن جريج.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٧/٣ - ٤٩٨).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٩٨/٣).

الغار، وإنهم دفنوا ذلك في بناء الملك على الغار، وروت فرقة، أن الملك لما علم بدَّهَابِ الفتية، أَمَرَ بِقَصِّ آثارهم إلى باب الغار، وأمر بالدخول عليهم، فَهَابَ الرجالُ ذلك، فقال له بعضُ وزرائه: «أَلَسْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِن أَخْرَجْتَهُمْ قَتَلْتَهُمْ؟ قال: نعم، قال: فَأَيُّ قِتْلَةٍ أُبْلَغُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، أَبْنِ عَلَيْهِمْ بَابَ الْغَارِ، ودغهم يموتوا فيه، ففعل، وقد ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى آذَانِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ، ثم أخبر الله سبحانه عن الفتية أنهم لما أَوْوَأَ إِلَى الْكَهْفِ، أي: دخلوه وجعلوه مأوى لهم وموضعَ اعتصام دَعَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ يُؤْتِيَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ رَحْمَةً، وهي الرِّزْقُ فيما ذكره المفسرون، وأن يَهَيِّئَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ رَشَدًا؛ خلاصاً جميلاً، وهذا الدعاء منهم كان في أمر دينهم، وألفاظهم تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقةٍ من رَشِدِ الآخرة ورحمتها، وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دينه بهذه الآية الكريمة فقط؛ فإنها كافية، ويحتمل ذكر الرحمة أن يراد بها أمر الآخرة.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذَّئُهُمْ هُذًى ﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ...﴾ الآية: عبارة عن إلقاء الله تعالى التَّوَمُّ عليهم.

وقوله: ﴿عَدَدًا﴾ نعت لـ «السنين» والقصد به العبارة عن التكرير.

وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾: عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود، أي: لنعلم ذلك موجوداً وإلا فقد كان سبحانه علم أيَّ الحزبين أَحْصَى الْأَمَدَ، و«الْحِزْبَانِ»: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على / عَهْدِهِمْ حِينَ كَانَ عِنْدَهُمُ التَّارِيخُ بِأَمْرِ الْفَتِيَّةِ، وهذا قول الجمهور من المفسرين، وأما قوله: ﴿أَحْصَى﴾ فالظاهر الجيد فيه أَنَّهُ فَعَلَ ماضٍ، و﴿أَمَدًا﴾ منصوبٌ به على المفعول، و«الأمد»: الغاية، ويأتي عبارة عن المدة، وقال الرَّجَّاجُ: ﴿أَحْصَى﴾ هو «أَفْعَلَ»، ويعترض بأن «أَفْعَلَ» لا يكون من فَعَلَ رباعيٍّ إلا في (١) الشاذِّ،

(١) يجوز فيه وجهان:

«أَحْدَهُمَا»: أنه أفعل تفضيل، وهو خبر لـ «أَيُّهُمْ»، و«أَيُّهُمْ» استفهامية، وهذه الجملة معلقة للعلم قبلها. و﴿لِمَا لَبِئُوا﴾ حال من «أَمَدًا»، لأنه لو تأخر عنه، لكان نعتاً له، ويجوز أن تكون اللام على بابها من العلة، أي: لأجل، قاله أبو البقاء، ويجوز أن تكون زائدة، و«ما» مفعوله إما بـ «أَحْصَى» على رأي مَنْ يعمل أفعل التفضيل في المفعول به، وإما بإضمار فَعَلَ، و«أَمَدًا» مفعول «لَبِئُوا» أو منصوب بفعل مقدَّر يدلُّ عليه أفعل عند الجمهور، أو منصوب بنفس أفعل عند مَنْ يرى ذلك.

و﴿أَحْصَى﴾: فعلٌ رباعيٌّ؛ ويحتجُّ لقول الزَّجاج بأن «أَفْعَلَ» من الرباعيِّ قد كثر كقولك: مَا

«والوجه الثاني»: أن يكون «أَحْصَى» فعلاً ماضياً. و«أَمَدًا» مفعوله، و«لِمَا لَبِثُوا» متعلق به، أو حال من «أَمَدًا» واللام فيه مزيدة، وعلى هذا فـ «أَمَدًا» منصوب بـ «لَبِثُوا»، و«مَا» مصدرية، أو بمعنى الذي، واختار الأول أعني كون «أَحْصَى» للتفضيل الزجاج، والتبريزي، واختار الثاني أبو علي، والزمخشري، وابن عطية، قال الزمخشري: فَإِنْ قُلْتُ فَمَا تقول فيمن جعله أفعَلَ تفضيل؟ قُلْتُ: ليس بالوجه السديد، وذلك أَنَّ بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، نحو: «أَعْدَى مِنَ الْجَرْبِ». و«أَفْلَسَ مِنْ ابْنِ الْمُدَلَّتِي» شاذ، والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟ ولأن «أَمَدًا» إما أن ينتصب بأفعل وأنفعل لا يعمل، وإما أن ينتصب بـ «لَبِثُوا» فلا يسد عليه المعنى، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنِّي أنصبه بفعل مضمر، كما أضمر في قوله:

وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا

فقد أبعدت عن المتناول، حيث أردت أن يكون فعلاً، ثم رجعت مضطراً إليه، وناقشه الشيخ، فقال: أما دعواه أنه شاذ، فمذهب سيبويه خلافه، وذلك أن أَفْعَلَ فيه ثلاثة مذاهب: الجائز مطلقاً، ويُعْرَى لسيبويه. والمنع مطلقاً، وهو مذهب الفارسي. والتفصيل بين أن تكون همزته للتعدية فيمتنع، وبين أن لا تكون، فيجوز، وهذا ليست الهمزة فيه للتعدية، وأما قوله: أفعَلَ لا يعمل فليس بصحيح، لأنه لا يعمل في التمييز، و«أَمَدًا» تمييز لا مفعولاً به كما تقول: زيداً أَقْطَعُ النَّاسَ سَيْفًا، وزيداً أَقْطَعُ لِلْهَامِ سَيْفًا. «قُلْتُ: الذي أحوج الزمخشري إلى عدم جعله تمييزاً مع ظهوره في بادئ الرأي عدم صحة معناه، وذلك أَنَّ التمييز شرطه في هذا الباب أن يصبح نسبة ذلك الوصف الذي قبله إليه، ويتصف به، ألا تَرَى إلى مثاله في قوله: «زيداً أَقْطَعُ النَّاسَ سَيْفًا» كيف يَصِحُّ أن يسند إليه، فيقال: «زيداً أَقْطَعُ سَيْفَهُ، وَسَيْفُهُ قَاطِعٌ» إلى غير ذلك، وهنا ليس الإحصاء من صفة «الأَمَدِ» ولا يصح نسبته إليه، وإنما هو من صفات الحزين، وهو دقيق، وكان الشيخ نقل عن أبي البقاء نصبه على التمييز، وأبو البقاء لم يذكر نصبه على التمييز حال جعله «أَحْصَى» أفعَلَ تفضيل، وإنما ذكر ذلك حين ذكر أنه فعل ماضٍ قال أبو البقاء: في «أَحْصَى» وجهان:

«أحدهما»: هو فعمل ماضٍ، و«أَمَدًا» مفعول «لَبِثُوا». وهو خطأ، وإنما الوجه أن يكون تمييزاً، والتقدير: لما لبثوه.

«الوجه الثاني»: هو اسم، و«أَمَدًا» منصوب بفعل دلَّ عليه الاسم، فهذا تصريح بأن «أَمَدًا» حال جعله «أَحْصَى» اسماً ليس تمييزاً، بل مفعولاً به بفعل مقدَّر، وأنه جعله تمييزاً عن «لَبِثُوا». ثم قال الشيخ: «وأما قوله: وأما أن ينتصب بـ «لَبِثُوا» فلا يسد عليه المعنى، أي: لا يكون معناه سديداً، وقد ذهب الطبري إلى أنه منصوب بـ «لَبِثُوا». قال ابن عطية: وهو غَيْرُ مُتَّجِهٍ انتهى، وقد يتجه، وذلك أَنَّ الأمد هو الغاية، ويكون عبارة عن المَدَّة، من حيث إنَّ المدة غاية في أمد المدة على الحقيقة، و«مَا» بمعنى الذي و«أَمَدًا» منصوب على إسقاط الحرف، وتقديره: لما لبثوا من أمد، أي: من مدة، ويصير «من أمد» تفسيراً لما أبهم من لفظ «مَا»، كقوله: «مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ» - «مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ»، وَلَمَّا سقط الحرف، وصل إليه الفعل. قُلْتُ: يكفي أن مثل ابن عطية جعله غير متجه، وعلى تقدير ذلك، فلا نسلم أَنَّ الطبري عنى نصبه بـ «لَبِثُوا»، مفعولاً به، بل يجوز أن يكون عنى نصبه تمييزاً، كما قاله أبو البقاء، ثم قال: وأما قوله: فَإِنْ زَعَمْتَ إِلَى آخِرِهِ، فنقول: لا نحتاج إلى ذلك، لأن لقاتل ذلك أن يذهب مذهب الكوفيين، في أنه ينتصب القوانس بنفس «أَضْرَبَ»، ولذلك جعل بعض النحاة أَنَّ «أَعْلَمَ» =

أَعْطَاهُ لِلْمَالِ، وكقوله عليه الصلاة والسلام في صفة جهنم: «أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ» وفي صفة حوضه «أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ»^(١).

* ت *: وقد تقدم أن «أَسْوَدَ» من «سود»، وما في ذلك من النقد، وقال مجاهد: ﴿أَمْدًا﴾ معناه عدداً^(٢)، وهذا تفسير بالمعنى.

وقوله سبحانه: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، أي: يسرناهم للعمل الصالح، والانقطاع إلى الله عز وجل، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ وَمَا يَنْبُذُونَ إِلَّا اللَّهُ فَاتُّوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾: عبارة عن شدة عزم، وقوة صبر، ولما كان الفزع وحور النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس، وقوة التصميم أن يشبه الرنط، ومنه يقال: فلان رابط الجاش؛ إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحروب وغيرها، ومنه الرنط على قلب أم موسى.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَامُوا﴾ يحتمل أن يكون وصف قيامهم بين يدي الملك الكافر، فإنه مقام يحتاج إلى الرنط على القلب، ويحتمل أن يعبر بالقيام على انبعاثهم بالعزم على

ناصب لـ «من» في قوله: ﴿أَعْلَمُ مَنْ يَبْلُغُ﴾، وذلك لأن أفعال مضمرة لمعنى المصدر، إذ التقدير: يريد ضربنا القوانس على ضرب غيرنا. قلنا: هذا مزجوج، وأفعال التفضيل ضعيف، وإذا جعلنا «أَخْصَى» اسماً فجوز الشيخ في «أي» أن تكون الموصولة، و«أَخْصَى» خبر لمبتدأ محذوف، هو عائدها، وأن الضمة للبناء على مذهب سيبويه، لوجود شرط البناء، وهو إضافتها لفظاً، وحذف صدر صلتها. وهذا إنما يكون على جعل العلم، بمعنى العزقان، لأنه ليس في الكلام إلا مفعول واحد، وتقدير آخر لا حاجة إليه، إلا أن إسناده «عَلِمَ» بمعنى عَرَفَ إلى الله تعالى إشكالاً، تقدم تحريره في الأنفال وغيرها. وإذا جعلناه فعلاً امتنع أن تكون موصولة، إذ لا حاجة لبنائها حيثنذ وهو حسن.

ينظر: «الدر المصون» (٤٣٧/٤ - ٤٣٨).

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤/١١) كتاب «الرقاق» باب: الحوض، حديث (٦٥٨١)، والترمذي (٤١٩/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكوثر، حديث (٣٣٦٠)، من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه الطبري (١٨٨/٨) برقم: (٢٢٩١٧)، وذكره ابن عطية (٥٠٠/٣)، والبغوي (١٥٣/٣)، والسيوطي (٣٨٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

الهُرُوب إلى الله ومنازمة الناس؛ كما تقول: قَامَ فُلَانٌ إِلَى أَمْرِ كَذَا؛ إذا اعتزم عليه بغاية الجِدِّ، وبهذه الألفاظ التي هي: ﴿قَامُوا فَقَالُوا﴾، تَعَلَّقَتِ الصَّوْفِيَّةُ فِي الْقِيَامِ وَالْقَوْلِ، «وَالشَّطَطُ»: الْجَوْرُ وَتَعْدِي الْحَدِّ وَالْحَقُّ بِحَسَبِ أَمْرِ أَمْرٍ، و«السلطان»: الْحِجَّةُ، وَقَالَ قتادة: المعنى بعذر^(١) بين، ثم عظموا جرم الداعين مع الله غيره، وظلمهم بقولهم: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾، وقولهم: ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ...﴾ الآية: المعنى قال بعضهم لبعض، وبهذا يترجَّح أن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ إنما المراد به إذ عزموا ونَفَّذُوا لأمرهم، وفي مصحف ابن مسعود: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، ومضمَّن هذه الآية الكريمة أن بعضهم قال لبعض: إِذْ قَدْ فَارَقْنَا الْكَفَّارَ، وانفردنا بالله تعالى، فلنجعل الكَهْفَ مأوى، وتكتل على الله تعالى، فإنه سييسِّطُ علينا رحمته، وينشرها علينا ويهيئ لنا من أمرنا مرفقاً، وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وهم على ثقة من الله في أمر آخرتهم، وقرأ نافع وغيره: «مَرْفَقاً» بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ حمزة وغيره بكسر الميم وفتح الفاء، ويقالان معاً في الأمر، وفي الجارحة، حكاية الرَّجَّاجِ^(٢).

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن يَجِدَ لَهُ وَلِئَا مُرْشِدًا ۝٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾

و«تزاور»، أي: تميل، و«تقرضهم» معناه/ تتركهم، والمعنى: أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة، وهو قول ابن عباس^(٣)، وحكى الرَّجَّاجُ^(٤) وغيره، قال: كان باب الكَهْفِ ينظر إلى بنات نعش، وذهب الرَّجَّاجُ^(٥) إلى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكَهْفِ إلى جهة توجب ذلك، والـ ﴿فَجْوَةٌ﴾: المَتَّسِعُ، قال قتادة: في فضاء منه؛ ومنه الحديث: «فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً نَّصَّ»^(٦).

(١) أخرجه الطبري (١٩٠/٨) برقم: (٢٢٩٢٣)، وذكره ابن عطية (٥٠١/٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٩٢/٨) برقم: (٢٢٩٢٦ - ٢٢٩٢٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٣/٣)، وابن كثير (٧٥/٣) بنحوه، والسيوطي (٣٩١/٤) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن عطية (٥٠٣/٣)، والرجاج (٢٧٣/٣)، والبغوي (١٥٤/٣).

(٥) أخرجه ابن عطية (٥٠٣/٣)، والرجاج (٢٧٤/٣).

(٦) أخرجه الطبري (١٩٣/٨) برقم: (٢٢٩٣٩)، وذكره ابن عطية (٥٠٣/٣).

وقوله سبحانه: ﴿ذلك من آيات الله﴾ الإشارة إلى الأمر بجملته.

وقوله سبحانه: ﴿ونقلبهم ذات اليمين...﴾ الآية: ذكر بعض المفسرين أن تقلبهم إنما كان حفظاً من الأرض، وروي عن ابن عباس، أنه قال لو مَسَّتْهُمُ الشَّمْسُ، لأحرقتهم، ولولا التقلب، لأكلتهم^(١) الأرض، وظاهر كلام المفسرين أن التقلب كان بأمر الله وفعل ملائكته، ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على ذلك، وهم في غمرة النوم.

وقوله: ﴿وكلبهم﴾: أكثر المفسرين على أنه كَلَبَ حقيقة.

قال ع^(٢): * : وحدَّثني أبي رحمه الله قال: سَمِعْتُ أبا الفضل بن الجَوْهَرِيَّ في جامعٍ مَضْرٍ يَقُولُ على منبرٍ وعِظُهُ سَنَةٌ تَسْعٌ وَسِتِّينَ وأربعمئة: مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الْخَيْرِ، نَالَ مِنْ بَرَكَتِهِمْ، كَلَبَ أَحَبَّ أَهْلَ الْفَضْلِ، وَصَحِبَهُمْ، فَذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مُحْكَمٍ تَزِيلُهُ.

و«الْوَصِيدُ» الْعَتَبَةُ التي لباب الكهفِ أو موضعها إن لم تكن، وقال ابن عباس: «الوصيد»^(٣) الباب والأول أصح، والباب الموصد هو المُلَقَّ، ثم ذكر سبحانه ما حفَّهم به من الرُّغْبِ، واكتنفهم من الهَيْبَةِ، حفظاً منه سبحانه لهم، فقال: ﴿لو اطلغْتَ عليهم...﴾ الآية.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَذِّبُوكُمْ فِي مَلَبَتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا ﴿١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا مِنْهُمْ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ الإشارة بـ«ذلك» إلى الأمر الذي ذكره الله في جهنم، والعبرة التي فعلها فيهم، «والبعث»: التحريك عن سكون، واللام في قوله: ﴿ليتساءلوا﴾ لام الصيرورة، وقول القائل: ﴿كم لبثتم﴾ يقتضي أنه هَجَسَ في خاطره

(١) أخرجه الطبري (١٩٤/٨) برقم: (٢٢٩٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٤/٣)، وابن كثير (٧٦/٣) بنحوه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٤/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٩٥/٨) برقم: (٢٢٩٥٥)، وذكره ابن عطية (٥٠٤/٣)، والبخاري (١٥٤/٣)، وابن كثير (٧٦/٣)، والسيوطي (٣٩٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

طُولُ نومهم، واستشعر أنَّ أمرهم خَرَجَ عن العادة بعضَ الخروج، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حالٍ من الوقت، والهواء الزماني لا يباين الحالة التي ناموا عليها، وقولهم: ﴿فابعثوا أحدكم بِوَرِقِكُمْ﴾ يروى أنهم انتبهوا، وهُم جِيَاعٌ، وأنَّ المبعوث هو تَمْلِيخًا، وروى أن باب الكهف انهدم بناء الكفار منه؛ لطول السنين، ويروى أن راعياً هدمه؛ ليدخل فيه غنمه، فأخذ تمليخاً ثياباً رثّة منكّرة ولبسها، وخَرَجَ من الكهف، فأنكر ذلك البناء المهذوم؛ إذ لم يعرفه بالأمنس، ثم مشى، فجعل يُنكر الطريق والمعالم، ويتحير وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تاماً، بل يكذب ظنه فيما تغَيَّرَ عنده حتى بَلَغَ بابَ المدينة، فرأى على بابها أُمارة الإسلام، فزادَتْ حَيَرَتُهُ، وقال: كيف هَذَا بَيْلد دَقْيُوس، وبالأمنس كنا معه تَحْتَ ما كنا، فنهض إلى بابٍ آخر، فرأى نحواً من ذلك؛ حتى مشى الأبواب كلها، فزادَتْ حيرته، ولم يميّز بشراً، وسمع الناس يُقسِمُونَ باسم عيسى، فاستراب بِنَفْسِهِ، وظنَّ أنه جنٌّ، أو انفسد عقله، فبقي حَيَران يدعو الله تعالى، ثم نهض إلى باب الطعام الذي أراد / اشتراءه، فقال: يا عبد الله، بَغْنِي من طعامك بهذه الورق، فدفع إليه دَرَاهِمَ، كأخْفَافِ ١٣٠٣ الربع فيما ذُكِرَ، فعجب لها البائع ودَفَعَهَا إلى آخر يُعَجِّبُهُ، وتعاطاها النَّاسُ، وقالوا له: هذه دراهمُ عَهْدِ فلانِ المَلِكِ، مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ وَكَيْفَ وجدت هذا الكَثْرَ، فجعل يبهت ويعجب، وقد كان بالبلد مشهوراً هو وَبَيْتُهُ، فقال: ما أعرفُ غير أُنِّي وأُصْحَابِي خَرَجْنَا بِالْأَمْنَسِ من هذه المدينة، فقال النَّاسُ: هذا مجنونٌ، أذهبوا به إلى المَلِكِ، ففَرَّجَ عند ذلك، فَذُهِبَ به حتى جِيءَ به إلى المَلِكِ، فلما لم يَرِ دَقْيُوسَ الكافِرَ، تَأَنَسَ، وكان ذلك المَلِكُ مؤمناً فاضلاً يسمّى تَبْدُوسِيَسَ، فقال له المَلِكُ: أين وجدت هذا الكَثْرَ؟ فقال له: إنما خرجتُ أنا وأُصْحَابِي أَمْسَ من هذه المدينة، فأوينا إلى الكَهْفِ الذي في جَبَلٍ أنجلوس، فلما سمع المَلِكُ ذلك، قال في بعض ما رَوِيَ: لعلَّ الله قَدْ بعثَ لَكُمْ أَيْهَا النَّاسُ آيَةً فَلَنَسِيزَ إلى الكهف، حتى نرى أصحابه، فساروا، وروى أنه أو بعض جلسائه قال: هؤلاء هُمُ الْفَتِيَّةُ الَّذِينَ وُزَّخَ أمرهم على عهد دَقْيُوسَ المَلِكِ، وكتب على لُوحِ الثُّحَاسِ بباب المدينة، فسار الملك إليهم، وسار الناس معه فلما انتهوا إلى الكهف، قال تَمْلِيخًا: أدخُلْ عليهم لثلاثا يربعوا، فدخل عليهم، فأعلمهم بالأمر، وأن الأمة أُمَّةُ إِسْلَامٍ، فروى أنهم سُرُّوا وخَرَجُوا إلى الملك، وعظَّموه، وعظَّمهم، ثم رَجَعُوا إلى الكهف، وأكثرُ الروايات على أنهم ماثوا حين حَدَّثَهُمْ تَمْلِيخًا، فانتظرهم النَّاسُ، فلما أَبْطَأَ خروجهم، دَخَلَ الناس إليهم، فرعب كلُّ من دخل، ثم أقدموا فوجدوهم موتى، فتنازعوا بِحَسَبِ ما يأتي، وفي هذه القصص من الاختلاف ما تَصِيقُ به الصُّحُفُ فاختصرته، وذكرت المهم الذي به تتفسَّرُ ألفاظ الآية، واعتمدتُ الأصحَّ والله المعينُ برحمته، وفي هذا البَعْثُ بِالْوَرِقِ جَوَازُ الْوَكَالَةِ، وصَحَّتْهَا.

﴿وَأَزْكَى﴾ معناه: أكثر فيما ذكر عكرمة^(١)، وقال ابن جُبَيْر: المراد أَحَلَّ^(٢)، وقولهم: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجاج: بالحجارة، وهو الأصح وقال حَجَّاج: «يرجموكم» معناه: بالقول وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾: الإشارة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى بعثهم ليتساءلوا، أي: كما بعثناهم، أعرضنا عنهم، والضمير في قوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ يحتمل أن يعود على الأمة المسلمة الذين بُعِثَ أهل الكهف على عهدهم، وإلى هذا ذهب الطبري^(٣)؛ وذلك أنهم فيما روي دخلتهم حينئذ فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس، واستبعدوه، وقالوا: إنما تُحْشَرُ الأرواح، فشك ذلك على ملكهم، وبقي حَيْرَان لا يَدْرِي كيف يبين أمرهم لهم، حتى لبس المُسَوِّح، وقعد على الرَّمَاد وتضرع إلى الله في حُجَّة وبيان، فأعثرهم الله على أهل الكهف، فلما بعثهم الله، وتبين الناس أمرهم؛ سُرَّ المَلِكُ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ شَكَّ فِي بَعثِ الأجساد إلى اليقين به، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾؛ على هذا التأويل، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ على أصحاب الكهف، وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾؛ على هذا التأويل: ابتداء خبر عن القوم الذين بُعِثُوا على عهدهم، والتنازع على هذا التأويل إنما هو في أمر البناء أو المسجد، لا في أمر القيامة، وقد قيل: إن التنازع إنما هو في أن أطلعوا عليهم، فقال بعضهم: هم أموات، وبعضهم: هم أحياء، وروي أن بعض القوم ذهبوا إلى طمس الكهف عليهم، وتركهم فيه مغيبين، فقالت الطائفة الغالبة على الأمر: ﴿لَتَتَخَذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾، فاتخذوه، قال قتادة: ﴿الذين غلبوا﴾ هم الولاة^(٤).

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢)

وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾ الآية: الضمير في ﴿سَيَقُولُونَ﴾ يراد به أهل التوراة من معاصري نبيينا محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٣/٨) برقم: (٢٢٩٦١)، وذكره ابن عطية (٥٠٦/٣)، والبغوي (١٥٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٣/٨) برقم: (٢٢٩٦٣)، وذكره ابن عطية (٥٠٦/٣).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢٠٤/٨).

(٤) ذكره ابن عطية (٥٠٧/٣)، والسيوطي (٣٩٢/٤) بنحوه، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾: معناه ظنًا وهو مستعار من الرجم، كأن الإنسان يرمي الموضع المشكّل المجهول عنده بظنه المرة بعد المرة يرجّمه به، عسى أن يصيبه، والواو في قوله: ﴿وِثَامُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: طريق النجاة فيها أنها واو عطف دخلت في آخر الكلام؛ إخباراً عن عددهم، لتفصيل أمرهم، وتدلّ على أن هذا نهاية ما قيل، ولو سقطت، لصح الكلام، وتقول فرقة منهم ابنُ خالَوَيْه: هي^(١) واو الثمانيّة، وذكر ذلك الثعلبي عن أبي بكر بن عيّاش وأن قريشاً كانت تقول في عددها: ستة، سبعة وثمانية تسعة، فتدخل الواو في الثمانية^(٢).

قال ع* ع^(٣): وهي في القرآن في قوله: ﴿وَالثَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] وفي قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وأما قوله: ﴿وَأُبْكَرَ﴾ [التحريم: ٥] وقوله: ﴿وِثَامِيَّةٌ أَيَّامٌ﴾ [الحاقة: ٧] فليست بواو الثمانية بل هي لازمة إذ لا يستغني الكلام عنها، وقد أمر الله سبحانه نبيه في هذه الآية، أن يرد علم عدّتهم إليه، ثم قال: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يعني: من أهل الكتاب، وكان ابن عباس؛ يقول: أنا من ذلك القليل^(٤)، وكانوا سبعة، وثمانهم كلبهم.

(١) في هذه الواو أوجه:

«أحدها»: أنها عاطفة، عطف هذه الجملة على جملة قوله: هم سبعة، فيكونون قد أخبروا بخبرين: «أحدهما»: أنهم سبعة رجال على البتّ.

«والثاني»: أن ثامنهم كلبهم، وهذا يؤذن بأن جملة قوله: ﴿وِثَامِيَّةٌ كَلْبُهُمْ﴾ من المتنازعين فيهم.

«والثالثي»: أن الواو للاستئناف، وأنه من كلام الله تعالى أخبر عنهم بذلك، قال هذا القائل. وجيء بالواو لتعطي انقطاع هذا مما قبله.

«الثالث»: أنها الواو الداخلة على الصفة تأكيداً، ودلالة على لصوق الصفة بالموصوف، وإليه ذهب الزمخشري، ونظره بقوله: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾. وردّ الشيخ عليه «بأنّ أحداً مِنَ الثَّحَاةِ لَمْ يَقُلْهُ».

«الرابع»: أن هذه الواو تسمى واو الثمانية، وأنّ لغة قريش إذا عدوا يقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، فيدخلون الواو على عقد الثمانية خاصة. ذكر ذلك ابن خالويه، وأبو بكر راوي عاصم. قلّت: وقد قال ذلك بعضهم، في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ في الزمر، فقال: دخلت في أبواب الجنة، لأنها ثمانية، ولذلك لم يُجَأَ بها في أبواب جهنم، لأنها سبعة.

ينظر: «الدر المصون» (٤/ ٤٤٥ - ٤٤٦).

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٨).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٦) برقم: (٢٢٩٧٥)، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٨)، والبغوي (٣/ ١٥٦ - ١٥٧)، وابن كثير (٣/ ٧٨)، والسيوطي (٤/ ٣٩٣)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن سعد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

قال * ع ^(١): ويدلُّ على هذا من الآية أنه سبحانه لَمَّا حكى قول من قال: ثلاثة، وخمسة، قرَنَ بالقول؛ أنه رَجَمَ بالغيب، ثم حكى هذه المقالة، ولم يقدِّح فيها بشيء، وأيضاً فَيَقْوَى ذلك على القول بواوِ الثمانية؛ لأنها إنما تكون حيث عدد الثمانية صحيح.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تمار فيهم إلا مرآة لظواهر﴾ معناه على بعض الأقوال: أي: بظاهر ما أوحينا إليك، وهو ردُّ علمِ عدتهم إلى الله تعالى، وقيل: معنى الظاهر؛ أن يقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا يحتجُّ هو على أمر مقرر في ذلك، وقال التبريزي: ﴿ظاهرة﴾ معناه: ذاهباً وأنشد: [الطويل]

وَتَلَكَ شَكَاةَ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارُهَا

ولم يبح له في هذه/ الآية أن يماري، ولكن قوله: ﴿إلا مرآة﴾ مجاز من حيث يماريه أهل الكتاب، سميت مراجعته لهم مرآة، ثم قيد بأنه ظاهر، ففارق المرآة الحقيقي المذموم، و«المرآة»: مشتق من المِرْية، وهو الشك، فكأنه المُشَاكَّة. * ت * وفي سماع ابن القاسم، قال: كان سليمان بن يسار، إذا ارتفع الصوت في مجلسه، أو كان مرآة، أخذ نعليه، ثم قام. قال ابن رشد: هذا من ورعه وفضله، و«المرآة» في العلم منهى عنه، فقد جاء أنه لا تُؤْمَنُ فتنته، ولا تفهم حكمته انتهى من «البيان».

والضمير في قوله: ﴿ولا تستفت فيهم﴾ عائد على أهل الكهف، وفي قوله: ﴿منهم﴾ عائد على أهل الكتاب.

وقوله: ﴿فلا تمار فيهم﴾، أي: في عدتهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ (٢٤) وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ ۖ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ (٢٦)﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله﴾ قد تقدّم

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٥٠٨).

(٢) عجز بيت لأبي ذؤيب وصدره:

وعبّرها الواشون أني أحبها

وهو في ديوانه (١/٢١)، و«اللسان» (ظهر).

أن هذه الآية عتاب من الله تعالى لنيئه حيث لم يستثن، والتقدير: إلا أن تقول إلا أن يشاء الله أو إلا أن تقول: إن شاء الله، والمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله.

وقوله سبحانه: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ قال ابن عباس^(١) والحسن^(٢) معناه: الإشارة به إلى الاستثناء، أي: ولتستثن بعد مدة إذا نسيت، أولاً لتخرج من جملة من لم يعلق فعله بمشيئة الله، وقال عكرمة: وأذكر ربك إذا غصبت^(٣)، وعبارة الواحدي: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾، أي: إذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله، فاذكره وقله إذا تذكرت. ١ هـ.

وقوله سبحانه: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي...﴾ الآية: الجمهور أن هذا دعاء مأمور به، والمعنى: عسى أن يرشدني ربي فيما أستقبل من أمري، والآية خطاب للنبي ﷺ، وهي بعد تعم جميع أمته.

وقال الواحدي: ﴿وقل عسى أن يهدين﴾، أي: يعطيني ربي الآيات من الدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد، وأدل من قصة أصحاب الكهف، ثم فعل الله له ذلك حيث آتاه علم غيوب المرسلين وخبرهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين...﴾ الآية: قال قتادة وغيره: الآية حكاية عن بني إسرائيل^(٤)، أنهم قالوا ذلك؛ واحتجوا بقراءة^(٥) ابن مسعود وفي مصحفه: «وقالوا لبثوا في كهفهم»، ثم أمر الله نبيه بأن يرّد العلم إليه؛ ردّاً على مقالهم وتفنيدهم، وقال المحققون: بل قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم...﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، وقوله تعالى: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾، أي: فليزل اختلافكم أيها المخرّصون، وظاهر قوله سبحانه: ﴿وازدادوا تسعاً﴾ أنها أعوام.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٨/٨)، برقم: (٢٢٩٩٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٩/٣)، والبغوي (٣/١٥٧)، وابن كثير (٧٩/٣)، والسيوطي (٣٩٤/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٨/٨) برقم: (٢٢٩٩٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٠٩/٣)، والبغوي (٣/١٥٧).
(٣) أخرجه الطبري (٢٠٩/٨) برقم: (٢٢٩٩٣) بلفظ: «عصيت»، وذكره البغوي (٣/١٥٧)، وابن كثير (٧٩/٣)، والسيوطي (٣٩٥/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٤) أخرجه الطبري (٢١٠/٨) برقم: (٢٢٩٩٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥١٠/٣)، والبغوي (٣/١٥٧).
(٥) (١٥٨)، وابن كثير (٧٩/٣)، والسيوطي (٣٩٦/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٠/٣).

وقوله سبحانه: ﴿أُبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾، أي: ما أَسْمَعُهُ سبحانه، وما أُبْصِرُهُ، قال قتادة: لا أَحَدَ أُبْصِرُ مِنَ اللَّهِ، ولا أَسْمَعُ^(١).

قال ع*^(٢) وهذه عبارة عن الإدراك، ويحتمل أن يكون المعنى: أُبْصِرْ بِهِ أي: بوحيه وإرشاده، هَذَاكَ، وَحُجَجَكَ، وَالْحَقُّ مِنَ الْأُمُورِ، وَأَسْمِعْ بِهِ الْعَالَمَ، فتكون ٣٠٤ ب اللفظتان/ أمرين لا على وجه التعجب.

وقوله سبحانه: ﴿مَالِهِمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ يحتمل أن يرجع إلى أهل الكهف، ويحتمل أن يرجع إلى معاصري النبي ﷺ من الكفار، ويكون في الآية تهديد لهم.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٧٧)
وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يَرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٧٨)

وقوله سبحانه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، أي: اتبع، وقيل: اسرُد بتلاوتك ما أُوحي إليك من كتاب ربك، لا تَقْصُصْ في قوله، ولا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ، وليس لك سواء جَانِبٌ تَمِيلُ إليه، وتستند، و«الْمُلْتَحَدُ» الجانب الذي يَمَالُ إليه؛ ومنه اللحد.

* ت قال النووي: يستحب لتالي القرآن إذا كان منفرداً أن يكون خَتْمُهُ في الصلاة، ويستحب أن يكون ختمه أول الليل أو أول النهار، ورؤينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته وإتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله تعالى، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: إِذَا وَافَقَ خَتْمُ الْقُرْآنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، صَلَّيْتُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُضْبِحَ، وَإِنْ وَافَقَ خَتْمُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُنْصَبَ^(٣). قال الدارمي: هذا حديث حسن وعن طلحة بن مطرف، قال: مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ آيَةً سَاعَةٍ كَانَتْ مِنَ النَّهَارِ، صَلَّيْتُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُنْصَبَ، وَآيَةً سَاعَةٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، صَلَّيْتُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُضْبِحَ، وعن مجاهد نحوه انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٢١٢/٨) برقم: (٢٣٠٠٦)، وذكره ابن عطية (٥١٠/٣)، وابن كثير (٨٠/٣)، والسيوطي (٣٩٦/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٠/٣).

(٣) أخرجه الدارمي (٤٧٠/٢) كتاب «فضائل القرآن» باب: «في ختم القرآن».

وقوله سبحانه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم...﴾ الآية: تقدم تفسيرها.

وقوله سبحانه: ﴿ولا تعد عينك عنهم﴾، أي: لا تتجاوز عنهم إلى أبناء الدنيا، وقرأ^(١) الجمهور: «مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ» بنصب الباء على معنى جَعَلْنَاهُ غَافِلًا، «والفرط»: يحتمل أن يكون بمعنى التفريط، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف، وقد فسره المتأولون بالعبارتين.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَمْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩)

وقوله سبحانه: ﴿وقل الحق من ربكم﴾ المعنى: وقل لهم يا محمد هذا القرآن هو الحق، * ت * : وقد ذم الله تعالى الغافلين عن ذكره والمُعْرِضِينَ عن آياته في غير ما آية من كتابه، فيجب الحذر مما وقع فيه أولئك، ولقد أحسن العارف في قوله: غَفَلَةُ سَاعَةٍ عَنْ رَبِّكَ مُكْدَرَةٌ لِمَرَاةٍ قَلْبِكَ، فكيف بغفلتك جميع عُمرِكَ. وقد روي أبو هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»^(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن

(١) هذه قراءة الجمهور، وقد قرأ عمرو بن فائد، وموسى الأسواري: «مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ». قال أبو الفتح: يقال أغفلت الرجل: وجدته غافلاً... فإن قيل: فكيف يجوز أن يجد الله غافلاً؟ قيل: لما فعل أفعال من لا يرتقب ولا يخاف، صار كأن الله سبحانه غافل عنه. «المحتسب» (٢٨/٢)، قلت: يعني أنه ظننا غافلين عنه. والقراءة ذكرها ابن عطية في «المحرر» (٥١٣/٣)، ثم قال: وذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة عمرو بن عبيد.

وينظر: «البحر المحيط» (١١٤/٦)، و«الدر المصون» (٤٥٠/٤). (٢) أخرجه الترمذي (٤٦١/٥) كتاب «الدعاء» باب: في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، حديث (٣٣٨٠)، والحاكم (٤٩٦/١)، وأحمد (٤٤٦/٢)، (٤٨١، ٤٨٤، ٤٩٥)، وإسماعيل القاضي في «في فضل الصلاة على النبي» (٥٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٣)، من طريق سفيان الثوري، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه، عن أبي هريرة أ. هـ.

وأخرجه أبو داود (٦٨٠/٢) كتاب «الأدب» باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله، حديث (٤٨٥٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٠٤)، وابن حبان (٨٥٣) من طريق سعيد المقبري، عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد (٤٣٢/٢) من طريق إسحاق مولى عبد الله بن الحارث، عن أبي هريرة، وذكر هذا الطريق الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٣/١٠) وقال: وأبو إسحاق مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل لم يوثقه أحد، ولم يجرحه، وبقي رجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

جَبَّانٌ فِي «صَحِيحِهِمَا» وَهَذَا لَفْظُ التَّرْمِذِيِّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، «وَالْتَّرَةُ» - بِكَسْرِ التَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فَوْقُ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ - النِّقْصُ، وَقِيلَ: التَّبَعَةُ، وَلَفْظُ ابْنِ جَبَّانٍ: «إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ» انْتَهَى مِنَ «السَّلَاحِ».

وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ...﴾ الآية: تَوَعَّدُ وَتَهْدِيدٌ، أَيْ: فَلْيَخْتَرْ كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ مَا يَجِدُهُ غَدًا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ الدَّاوُدِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ يَقُولُ: مَنْ شَاءَ اللَّهُ لَهُ الْإِيمَانُ، آمَنَ، وَمَنْ شَاءَ لَهُ الْكُفْرُ، كَفَرَ، هُوَ كَقَوْلِهِ: ١٣٥ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ/ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التَّكْوِينُ: ٢٩] ^(١) وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فَصَلَتْ: ٤٠] بِمَعْنَى الْوَعِيدِ، وَالْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ. انْتَهَى وَ﴿أَعْتَدْنَا﴾ مَأْخُذٌ مِنَ الْعَتَادِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمُعَدُّ الْحَاضِرُ، «وَالسَّرَادِقُ» هُوَ الْجِدَارُ الْمَحِيطُ كَالْحُجْرَةِ الَّتِي تَدَوَّرُ وَتَحِيطُ بِالْفُسْطَاطِ، قَدْ تَكُونُ مِنْ نَوْعِ الْفُسْطَاطِ أَدِيمًا أَوْ ثَوْبًا أَوْ نَحْوَهُ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ ^(٢): «السَّرَادِقُ»: كُلُّ مَا أَحَاطَ بِشَيْءٍ، وَاخْتَلَفَ فِي سَرَادِقِ النَّارِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَرَادِقُهَا حَائِطٌ مِنْ نَارٍ ^(٣)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: سَرَادِقُهَا دُخَانٌ يَحِيطُ بِالْكَفَّارِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [الْمُرْسَلَات: ٣٠] وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ سَرَادِقُ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ كَيْفَ عَرَضَ كُلُّ جِدَارٍ مَسِيرَةً أَرْبَعِينَ سَنَةً ^(٤) وَ«الْمَهْلُ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: هُوَ دَرْدِيُّ الزَيْتِ، إِذَا انْتَهَى حَرُّهُ ^(٥)، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ وَغَيْرُهُ: هُوَ كُلُّ مَا أَذْيَبَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «الْمَهْلُ» هُوَ الصَّدِيدُ وَالْدَّمُ إِذَا اخْتَلَطَا، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْكَفَنِ: إِنَّمَا هُوَ لِلْمَهْلَةِ ^(٦)، يَرِيدُ لِمَا يَسِيلُ مِنَ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، وَيَقْوَى هَذَا بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ١٦] وَ«الْمُرْتَقِقُ»: الشَّيْءُ الَّذِي يَطْلُبُ رَفْقَهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ

- (١) أخرجه الطبري (٢١٧/٨) برقم: (٢٣٠٣٠)، وذكره البغوي (١٥٩/٣)، والسيوطي (٣٩٩/٤) بلفظ: «هذا تهديد ووعيد»، وعزاه لابن أبي حاتم.
- (٢) ينظر: «تفسير الزجّاج» (٢٨٢/٣).
- (٣) أخرجه الطبري (٢١٧/٨) برقم: (٢٣٠٣٤)، وذكره ابن عطية (٥١٣/٣)، والبغوي (١٦٠/٣)، وابن كثير (٨١/٣)، والسيوطي (٣٩٩/٤)، وعزاه لابن جرير.
- (٤) تقدم تخريجه في سورة هود.
- (٥) تقدم تخريجه.
- (٦) ذكره ابن عطية (٥١٤/٣).

جَعَلْتُ عَذْرَى تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُخَلِّفُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ تقدم تفسير نظيره، واللّه الموفق بفضله، و﴿أساور﴾ جمع «أسوار»، وهي ما كان من الحلي في الذراع، وقيل: «أساور» جمع أسورة، وأسورة جمع أسوار، و«السندس»: رقيق الديباج و«الإستبرق» ما غلظ منه، قيل: إستبرق من البريق، و«الأرائك» جمع أريكة، وهي السرير في الحجال، والضمير في قوله: ﴿وحسنت﴾ للجئات، وحكى النقاش عن أبي عمران الجوني، أنه قال: «الإستبرق»: الحرير المنسوج بالذهب.

وقوله سبحانه: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب...﴾ الآية الضمير في ﴿لهم﴾ عائذ على الطائفة المتجبرة التي أرادت من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين، فالمثل مضروب للطائفتين، إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبري قريش، أو بني تميم؛ على الخلاف في ذلك، والرجل المؤمن المقيم بالربوبية هو بإزاء فقراء المؤمنين، و«حففنا» بمعنى جعلنا ذلك لهما من كل جهة، وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع في الوجود، وعلى ذلك فسر أكثر المتأولين، فروي في ذلك أنهما كانا أخوين من بني إسرائيل، ورثا أربعة آلاف دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكر، واشترى عبيداً، وتزوج، وأثرى، وأنفق الآخر ماله في طاعة الله عز وجل حتى افتقر، والتقى، فافتخر الغني، ووبخ المؤمن، فجزت بينهما هذه المحاور، وروي أنهما كانا شريكين حداثين كسبا مالا كثيراً، وصنعا نحو ما روي/ في أمر الأخوين، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه.

٣٠٥

قال السهيلي: وذكر أن هذين الرجلين هما المذكوران في «الصفات» في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿فَاطْلَعْ قَرَأَةً فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وإلى قوله: ﴿لَمَثَلٍ هَذَا فَلَیْغْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٥ - ٥٥، ٦١] انتهى.

﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لِمَنْ نَمَرُ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا﴾ الأكل: ثمرها الذي يؤكل ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي لم تنقص عن العرف الآثم الذي يشبه فيها، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَيَظْلِمُنِي مَالِي كَذَا وَلَوْ يَدِي لَوَى يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ^(١)
 وقرأ^(٢) الجمهور: «ثُمَرٌ» و «بِثْمَرِهِ» [الكهف: ٤٢] - بضم الثاء والميم - جمع
 «ثِمَارٍ»، وقرأ أبو عمرو - بسكون الميم^(٣) - فيهما، واختلف المتأولون في «الثُمَر» - بضم
 الثاء والميم - فقال ابن عباس وغيره: «الثُمَر»: جميع المال من الذهب والفضة والحيوان
 وغير ذلك^(٤)، وقال ابن زيد: هي الأصول^(٥)، و«المحاورة»: مراجعة القول، وهو من
 «حَارَ يَحُورُ».

وقوله: «أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا»: هذه المقالة بإزاء مقالة متجبري قرينش، أو
 بني تميم، على ما تقدم في «سورة الأنعام». * ت * وقوله: «وأعز نفرا» يضعف قول
 من قال: «إنهما أخوان» فتأمل، والله أعلم بما صح من ذلك.

«وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي
 خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾»

وقوله سبحانه: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ... الآية»: أفرد الجنة من حيث
 الوجود كذلك إذ لا يدخلها معاً في وقت واحد، وظلمه لنفسه هو كفره وعقائده الفاسدة
 في الشك في البعث، وفي شكه في حدوث العالم، إن كانت إشارته بـ «هذه» إلى الهيئة
 من السموات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط، فإنما الكلام
 تسأخف واغترار مفرط، وقلة تحصيل، كأنه من شدة العجب بها والسرور، أفرط في
 وصفها بهذا القول، ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنيا وظن أنه لم يمل له في دنياه إلا لكرامة
 يستوجبها في نفسه، فقال: فإن كان ثم رجوع، فستكون حالي كذاوكذا.

- (١) البيت لأبي زيد الطائي، «اللسان» (ظلم).
- (٢) يعني بهم: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة قراء
 المدينة ومكة، وخالف عاصم، فقرأ بفتح الميم والياء «ثُمَره»، و«بِثْمَرِهِ».
- ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٦/٣)، و«السبعة» (٣٩٠)، و«الحجة» (١٤٢/٥)، و«شرح الطيبة» (٥/
 ٨)، و«العنوان» (١٢٣)، و«حجة القراءات» (٤١٦)، و«إتحاف» (٢١٤/٢).
- (٣) وهي قراءة الأعمش وأبي رجاء.
 ينظر: مصادر القراءة السابقة.
- (٤) أخرجه الطبري (٢٢٣/٨) برقم: (٢٣٠٥٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥١٦/٣)، وابن كثير (٨٣/٣)
 بنحوه، والسيوطي (٤٠٣/٤)، وعزاه لابن عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
- (٥) أخرجه الطبري (٢٢٣/٨) برقم: (٢٣٠٦٣)، وذكره ابن عطية (٥١٦/٣).

وقوله: ﴿قال له صاحبه﴾ يعني المؤمن.

وقوله: ﴿خلقك من تراب﴾ إشارة إلى آدم عليه السلام.

﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨) ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٣٩) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَدْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٤٠) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لِمَ طَلَبًا﴾ (٤١)

وقوله: ﴿لكننا هو الله ربِّي﴾ معناه: لكن أنا أقول هو الله ربِّي، وروى هارون عن أبي عمرو^(١) «لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ رَبِّي»، وباقي الآية بين.

وقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك...﴾ الآية: وصيئة من المؤمن للكافر، ﴿ولولا﴾: تحضيض بمعنى «هلا»، و﴿ما﴾: تحتل أن تكون بمعنى «الذي» بتقدير: الذي شاء الله كائن، وفي ﴿شاء﴾ ضمير عائد على «ما»، ويحتمل أن تكون شرطية بتقدير: ما شاء الله كَانَ، أو خبر مبتدئ محذوف، تقديره: هو ما شاء الله، أو الأمر ما شاء الله.

وقوله: ﴿لا قوة إلا بالله﴾: تسليم، وضد لقول الكافر: ﴿ما أظن أن تبید هذه أبدًا﴾ [الكهف: ٣٥]، وفي الحديث: «إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَنْزٌ مِّنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَسْلَمَ/ عَبْدِي وَأَسْتَسْلِمَ»، قال النووي: ورؤينا في «سنن أبي داود والترمذي ١٣٠٦ والنسائي» وغيرهما، عن أنس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَالَ يَغْنِي - إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدَيْتَ، وَكُفِّيتَ، وَوُقِّيتَ، وَتَنَحَّى عَنْكَ الشَّيْطَانُ»^(٢). قال الترمذي: حديث حسن، زاد أبو داود في روايته: «فَيَأْتِلُ: - يَغْنِي الشَّيْطَانُ لِشَّيْطَانٍ آخَرَ - كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِّي وَوُقِيَ» انتهى. وروى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِّنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»^(٣) انتهى.

قال المحاسب في «وعايته»: وإذا عزم العبد في القيام بجميع حقوق الله سبحانه،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٧/٣ - ٥١٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٤٦/٢ - ٧٤٧) كتاب «الأدب» باب: ما يقول إذا خرج من بيته، حديث (٥٠٩٥)، والترمذي (٤٩٠/٥) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا خرج من بيته، حديث (٣٤٢٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، حديث (٨٩)، وابن السني (١٧٨)، وابن حبان (٢٣٧٥ - موارد) من حديث أنس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وصححه ابن حبان.

(٣) تقدم تخريجه.

فليَرْغَبْ إليه في المَعُونَةِ مِنْ عِنْدِهِ على أداء حقوقه، ورعايتها، وناجاه بِقَلْبٍ رَاغِبٍ رَاهِبٍ؛
إِنِّي أَنَسَى إِنْ لَمْ تَذْكُرْنِي، وَأَعْجِزُ إِنْ لَمْ تُقَوِّنِي، وَأَجْزَعُ إِنْ لَمْ تَصْبِرْنِي، وَعَزَمَ وَتَوَكَّلَ،
وَأَسْتَغَاثَ وَأَسْتَعَانَ، وَتَبَرَّأَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِرَبِّهِ، وَقَطَعَ رَجَاءَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَوَجَّهَ رَجَاءَهُ
كُلَّهُ إِلَى خَالِقِهِ، فَإِنَّهُ سَيَجِدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَرِيباً مَجِيباً مُتَفَضِّلاً مُتَحَنِّناً. انتهى.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١) قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول كما
قال الله تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ انتهى.

وقوله: ﴿فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾ هذا الترجي بعسى يحتمل أن
يريد به في الدنيا، ويحتمل أن يريد به في الآخرة، وتمني ذلك في الآخرة أشرف وأذهب
مع الخير والصلاح، وأن يكون ذلك يراد به الدنيا - أذهب في نكايه هذا المخاطب،
و«الحسبان» العذاب؛ كالبرد والصبر ونحوه، و«الصعيد» وجه الأرض، «والزلق»: الذي لا
تثبت فيه قدم، يعني: تذهب منافعها حتى منفعة المشي فهي وحل لا تثبت فيه قدم.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ
بِرَبِّي أَمْ لَمْ أَتَكُنْ لَمْ فَنَنْتَ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ (١٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ
خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (١٤)

وقوله سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ...﴾ الآية: هذا خبر من الله عز وجل عن إحاطة
العذاب بحال هذا الممثل به، و﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾: يريد يضغ بطن إحداهما على ظهر
الأخرى، وذلك فعل المتلهف المتأسف.

وقوله: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يريد أن السقوف وَقَعَتْ، وهي العروش، ثم تهذمت
الحيطان عليها؛ فهي خاوية والحيطان على العروش.

* ت * : فسر * ع *^(٢) رحمه الله لفظ «خَاوِيَةٌ» في «سورة الحج والنمل»
بـ«خالية»، والأحسن أن تفسر هنا وفي الحج بـ«ساقطة»، وأما التي في «النمل»، فيتجه أن
تفسر بـ«خالية» وبـ«ساقطة» قال الزبيدي في «مختصر العين» خَوَتْ الدَّارُ: باد أهلها،
وَخَوَتْ: تهذمت انتهى، وقال الجوهري في كتابه المسمى بـ«تاج اللغة وصحاح العربية»:
خَوَتْ النجومُ خَيْاً: أَمَحَلَتْ، وذلك إذا سقطت ولم تُنْمِطْ في نَوْنِهَا، وَأَخَوَتْ مثله، وَخَوَتْ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٢٤٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٩).

الدار خُوءًا ممدودًا: / أَقْوَتْ وكذلك إذا سقطت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] أي: خالية، ويقال: ساقطة؛ كما قال: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥] أي ساقطة على سقوفها. انتهى وهو تفسير بارع، وبه أقول، وقد تقدّم إيضاح هذا المعنى في «سورة البقرة».

وقوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ قال بعض المفسرين: هي حكاية عن مقالة هذا الكافر في الآخرة، ويحتمل أن يكون قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حلول المصيبة، ويكون فيها زجرٌ لكفرة قريش وغيرهم، «والفتة»: الجماعة التي يلجأ إلى نصرها.

وقوله سبحانه: ﴿هنالك﴾ يحتمل أن تكون ظرفاً لقوله: ﴿منتصراً﴾ ويحتمل أن يكون ﴿الولاية﴾ مبتدأ، و﴿هنالك﴾: خبره، وقرأ حمزة^(١) والكسائي: «الولاية» - بكسر الواو -، وهي بمعنى الرياسة ونحوه، وقرأ الباقون: «الولاية» - بفتح الواو - وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه، وقرأ أبو عمرو^(٢) والكسائي: «الحق» بالرفع؛ على النعت لـ «الولاية» وقرأ الباقون بالخفض على النعت لـ ﴿الله﴾ عز وجل، وقرأ الجمهور: «عقبا» - بضم العين والقاف - وقرأ حمزة وعاصم - بسكون^(٣) القاف - والعقب والعقب: بمعنى العاقبة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٤٥﴾ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الدُّنْيَا خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ نَارًا تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يريد حياة الإنسان، كما أنزلناه من السماء ﴿فاختلط﴾

(١) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (١٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٩٦/١)، و«معاني القراءات» (١١١/٢)، و«حجة القراءات» (٤١٨)، و«العنوان» (١٢٣)، و«إتحاف» (٢١٦/٢).

(٢) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (١٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٢٩٦/١)، و«معاني القراءات» (١١١/٢)، و«العنوان» (١٢٣)، و«شرح الطيبة» (١٠/٥)، و«شرح شملة» (٤٧٣)، و«حجة القراءات» (٤١٩) و«إتحاف» (٢١٦/٢).

(٣) ينظر: «السبعة» (٣٩٢)، و«الحجة» (١٥٠/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٩٧/١)، و«معاني القراءات» (١١٢/٢)، و«شرح شملة» (٤٧٣)، و«العنوان» (١٢٣)، و«إتحاف» (٢١٦/٢)، و«حجة القراءات» (٤١٩).

به، أي: فاختلط النبات بعضه ببعض بسبب النماء، ﴿فأصبح هشيماً﴾ أصبح عبارة عن صيرورته إلى ذلك، و «الهشيم» المتفتت من يابس العُشب، و﴿تذروه﴾ بمعنى تفرقه، فمعنى هذا المثل تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وبطوره، بالنبات الذي له خُضرة ونُضرة عن الماء النازل، ثم يعود بعد ذلك هشيماً، ويصير إلى عُدْم، فمن كان له عَمَلٌ صالح يبقى في الآخرة، فهو الفَائِزُ.

وقوله سبحانه: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ لفظه الخبر، لكن معه قرينة الصفة للمال والبنين؛ لأنه في المثل قَبْلُ حَقَرُ أَمْرُ الدنيا وبيته؛ فكانه يقول: المال والبنون زينة هذه الحياة الدنيا المحقرة، فلا تُتْبِعُوهَا نُفُوسَكُمْ، والجمهور أن ﴿الباقيات الصالحات﴾ هي الكلمات المذكورة فضلها في الأحاديث: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»، وقد جاء ذلك مصرحاً به من لفظ النبي ﷺ في قوله: «وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ».

وقوله سبحانه: ﴿خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ أي: صاحبها ينتظر الثواب، وينبسط أمله، فهو خَيْرٌ من حال ذي المال والبنين، دون عَمَلٍ صالح، وعن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «اسْتَكْبِرُوا مِنَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ» قِيلَ: وَمَا هُنَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّنْسِيحُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١) رواه النسائي وابن حبان في «صحيحه» انتهى من «السلام».

وفي «صحيح مسلم» عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب، عن النبي ﷺ قَالَ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»^(٢) وفي «صحيح مسلم»، عن أبي مالك الأشعري، عن النبي ﷺ قَالَ: «الطَّهْوَرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...»^(٣) الحديث انتهى.

قال ابن العربي في «أحكامه»: وروى مالك عن سعيد بن المسيب، أن الباقيات الصالحات قول العبد: اللَّهُ أَكْبَرُ، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول

(١) أخرجه أبو يعلى (٥٢٤/٢) برقم: (١٣٨٤)، وابن حبان (٢٣٣٢ - موارد)، والحاكم (٥١٢/١)، والطبري (٢٥٥/١٥)، وأحمد (٧٥/٣).

وقال الحاكم: هذا أصح إسناده للمصريين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٨٥/٣) كتاب «الأدب» باب: كراهية التسمية بالأسماء القبيحة، ونحوه حديث (١٢/٢١٣٧)، وهذا الحديث لم يخرجاه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى مسلم.

(٣) تقدم تخريجه.

وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ^(١) وروي عن ابن عباس وغيره؛ أن الباقيات الصالحات الصلوات الخمس^(٢). انتهى.

* ت *: وما تقدّم أولى، ومن كلام الشيخ الوليّ العارف أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه قال: عليك بالمطهرات الخمس في الأقوال؛ والمطهرات الخمس في الأفعال، والتبرّي من الحول والقوة في جميع الأحوال، وغُص بعقلك إلى المعاني القائمة بالقلب، وأخرج عنها وعنّه إلى الرّب واحفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجذّه أمامك وأعبد الله بها، وكُن من الشاكرين، فالمطهرات الخمس في الأقوال: سُبْحَانَ اللَّهِ، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والمطهرات الخمس في الأفعال: الصلوات الخمس، والتبرّي من الحول والقوة: هو قولك: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وترى الأرض بارزّة﴾: يحتمل أن الأرض؛ لِذَهَابِ الجبال، والضرابِ والشجر - بَرَزَتْ، وانكشفت ويحتمل أن يريد بُرُوزَ أهلها من بطنها للحشر، و«المغادرة»: الترك، وعرضوا على ربك صفًا، أي: صفوفًا وفي الحديث الصحيح: «يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ صُفُوفًا يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ...» الحديث^(٣) بطوله، وفي حديث آخر: «أَهْلُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفًّا، أَنْتُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا»^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾: يفسره قول النبي ﷺ: إنكم تُخْشَرُونَ إلى الله حَفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كما بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ﴾^(٥) نعيده ﴿[الأنبياء: ١٠٤]﴾.

﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٦) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْهُمْ مُشْفِقُونَ

وقوله سبحانه: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه...﴾ الآية:

(١) أخرجه الطبري (٢٣١/٨) برقم: (٢٣٠٩٤)، وذكره ابن كثير (٨٥/٣)، والسيوطي (٤٠٩/٤) بنحوه، وعزه لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد».

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٩/٨ - ٢٣٠) برقم: (٢٣٠٨٢) ويرقم: (٢٣٠٨٥)، ذكره ابن عطية (٥٢٠/٣)، وابن كثير (٨٥/٣)، والسيوطي (٤١٠/٤)، وعزه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

﴿الكتاب﴾ اسم جنس يراد به كُتُب النَّاسِ التي أَحْصَتْهَا الْحَفَظَةُ لَوَاحِدٍ وَاحِدٍ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً، وباقي الآية يبين.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قالت فرقة: إبليس لم يكن من الملائكة، بل هو من الجن، وهم الشياطين المخلوقون من مارج من نار، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور، واختلقت هذه الفرقة، فقال بعضهم: إبليس من الجن، وهو أولهم وبدأتهم، كآدم من الإنس، وقالت فرقة: بل كان إبليس وقبيلة جنًا، لكن جميع الشياطين اليوم من ذريته، فهو كنوح في الإنس، واحتجوا بهذه الآية.

وقوله: ﴿ففسق﴾ معناه فخرج عن أمر ربه وطاعته.

وقوله عز وجل: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ يريد: أَتَتَّخِذُونَهُ إبليس.

وقوله: ﴿وذريته﴾: ظاهر اللفظ يقتضي المؤسوسين من الشياطين، الذين يأمرؤن بالمنكر، ويحملون على الأباطيل.

وقوله تعالى: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ أي: بدل ولاية الله عز وجل بولاية إبليس وذريته، وذلك هو التعوض من الحق بالباطل.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: الضمير في ﴿أشهدتهم﴾ عائذ على الكفار، وعلى الناس بالجملة/ فتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطوائع والمتحكمين من الأطباء، وسواهم من كل من يتخرص في هذه الأشياء، وقيل: عائذ على ذرية إبليس، فالآية على هذا تتضمن تحقيرهم، والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض أولاً بالآية هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم، والمعظمين للجن، حين يقولون: أعوذ بعزير هذا الوادي، إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته، وهم أضل الجميع، فهم المراد الأول بـ ﴿المضلين﴾، وتندرج هذه الطوائف في معناهم، وقرأ الجمهور^(١): «وَمَا كُنْتُ»، وقرأ أبو جعفر^(٢) والجحدري والحسن، بخلاف «وَمَا كُنْتُ»، «وَالْعَصْدُ»: استعارة للمعين والمؤازر، «ويوم يقول نادوا شركائي» أي: على جهة

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٣/٣)، و«البحر المحيط» (١٣٠/٦)، و«الدر المصون» (٤/٤٦٤).

(٢) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

الاستغاثة بهم، واختلف في قوله: ﴿مُوبِقًا﴾، فقال ابن عباس: معناه مهلكاً^(١)، وقال عبد الله بن عمر وأنس بن مالك ومجاهد: ﴿مُوبِقًا﴾ هو وإد في جهنم يجري بدم وصديده^(٢). قال أنس: يحجز بين أهل النار وبين المؤمنين^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، أي: مباشروها، وأطلق الناس أن الظن هنا بمعنى اليقين.

قال * ع *^(٤): والعبارة بالظن لا تجيء أبداً في موضع يقين تام قد قاله الحسن^(٥) بل أعظم درجاته أن يجيء، في موضع متحقق، لكنه لم يقع ذلك المظنون، والأفمذ يقع ويُحس لا يكاد توجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن، وتأمل هذه الآية، وتأمل كلام العرب، وروى أبو سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ، وَيُظَنُّ أَنَّهَا مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(٦)، و«المُضْرِف»: المَغْدِل والمَرَاغ، وهو مأخوذ من الانصراف من شيء إلى شيء.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَهُمْ يُسْتَفْهَرُونَ ۝٥٥ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٦ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۝٥٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ۝٥٨ وَلِسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَا ۝٥٩ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۝٦٠ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٦١ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ ۝٦٢ مَوْيلًا ۝٦٣ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٦٤﴾

(١) أخرجه الطبري (٢٣٩/٨) برقم: (٢٣١٤٢)، وذكره ابن عطية (٥٢٤/٣)، وابن كثير (٩٠/٣)،

والسيوطي (٤١٤/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٠/٨) برقم: (٢٣١٤٩)، وذكره الطبري (٢٤١/٨)، وذكره ابن عطية (٥٢٣/٣)،

وذكره البغوي (١٦٨/٣)، وذكره ابن كثير (٩٠/٣) نحوه، والسيوطي في «الدر» (٤١٤/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٥٢٣/٣).

(٤) ينظر: «المحرر» (٥٢٤/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٥٢٤/٣).

(٦) أخرجه أحمد (٧٥/٣)، وابن حبان (٢٥٨١ - موارد)، والطبري (٢٦٥/١٥)، والحاكم (٥٩٧/٤)، من

حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿الإنسان﴾ هنا يراد به الجنس، وقد استعمل ﷺ الآية على العموم في مروره بِعَلِيِّ لَيْلًا، وأمره له بالصلاة بالليل، فقال علي: إِنَّمَا أَنْفُسُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ بِيَدِ اللَّهِ، أو كما قال، فخرج ﷺ، وهو يضربُ فِخْذَهُ بيده، ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى...﴾ الآية: ﴿النَّاسِ﴾، هنا يراد بهم كفار عصر النبي ﷺ، و﴿سنة الأولين﴾، هي عذاب الأمم المذكورة في القرآن، ﴿أو ياتيه العذاب قُبْلًا﴾، أي: مقابلة عياناً، والمعنى: عذاباً غير المعهود، فتظهر فائدة التقسيم، وقد وَقَعَ ذلك بهم يَوْمَ بدر، وكأنَّ حالهم تقتضي التأسف عليهم، وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخُسران - عافانا الله من ذلك -.

و﴿يُذِحُّوْا﴾ معناه: يُزْهِقُوا، «والدَّخْصُ»: الطين.

وقوله: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا﴾: لفظ عامٌ يراد به الخاصُّ ممن حتم الله عليه أنه لا يؤمن، ولا يهتدي أبداً، كأبي جهل وغيره.

/ وقوله: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ قالت فرقة: هو أَجَلُ الموتِ، وقالت فرقة: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري^(٢) هو يَوْمُ بَدْرٍ وَالْحَشَرِ.

وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾، أي: لا يجدون عنه منجى، يقال: وَآلَ الرَّجُلِ يَيْتُلُ؛ إِذْ نَجَا، ثم عَقِبَ سبحانه توَعْدَهُم بِذِكْرِ الْأَمْثَلَةِ مِنَ الْقَرَى الَّتِي نَزَلَ بِهَا مَا تُوَعِدَ هَؤُلَاءَ بِمَثَلِهِ، و﴿الْقَرَى﴾: المدن، والإشارة إلى عادٍ وثمود وغيرهم، وباقي الآية بين.

قال * ص *: وقوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ في ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾: إِشْعَارٌ بَعْلَةٌ الْإِهْلَاكُ؛ وبهذا استدلل ابن عُصْفُور على حرفية «لَمَّا»؛ لأن الظرف لا دلالة فيه على العِلِّيَّة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِبْرُحُ حَقَّ أَتْلُغَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمَضَى حُقْبًا﴾ ﴿١٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِبْرُحُ...﴾ الآية: ﴿موسى﴾ هو ابنُ عمران، وفتاه هو يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، أن موسى عليه السلام جَلَسَ يَوْمًا فِي مَجْلِسٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَخَطَبَ، فَأَبْلَغَ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٠/٨) كتاب «التفسير» باب: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»، حديث (٤٧٢٤).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٤٣/٨).

مِنْكَ؟ قَالَ: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، ذُلَّنِي عَلَى السَّبِيلِ إِلَى لِقَائِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ بِطُولِ سِنْفِ الْبَحْرِ، حَتَّى يَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، فَإِذَا فَقَدَ الْحُوتَ، فَإِنَّهُ هُنَالِكَ، وَأُمِرَ أَنْ يَتَزَوَّدَ حُوتًا، وَيَزْتَقِبَ زَوَالَهُ عَنْهُ، فَفَعَلَ مُوسَى ذَلِكَ، وَقَالَ لِفَتَاهُ عَلَى جِهَةِ إِمْضَاءِ الْعَزِيمَةِ: لَا أَبْرَحُ أُسِيرُ، أَي: لَا أَزَالُ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَهُوَ سَائِرٌ، قَالَ السَّهْلِيُّ: كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ، وَكَانَ الْخَضِرُ أَعْلَمَ بِعِلْمِ الْبَاطِنِ، وَأَسْرَارِ الْمَلَكُوتِ، فَكَانَا بَخْرَيْنِ اجْتَمَعَا بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، وَالْخَضِرُ شَرِبَ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ، فَهُوَ حَيٌّ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الدَّجَالُ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَقْتُلُهُ الدَّجَالُ، وَقَالَ الْبَخَارِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، مِنْهُمْ شَيْخُنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَاتَ الْخَضِرُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْمِائَةِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لِيَلْتَكُمُ هَذِهِ، فَإِنْ إِلَى رَأْسِ مِائَةِ عَامٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهَا أَحَدٌ»^(١) يعني من كان حيًّا حين قال هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَأَمَّا اجْتِمَاعُ الْخَضِرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعَزُّيْتِهِ لِأَهْلِ بَيْتِهِ، فَمَرْوِيٌّ مِنْ طَرِيقِ صَحَّاحٍ، وَصَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضِرَاءُ»^(٢).

قال الخطابي: الفروة^(٣) وجه الأرض، ثم أنشد على ذلك شاهداً انتهى.

- (١) أخرجه البخاري (٥٤/٢) كتاب «مواقيت الصلاة» باب: ذكر العشاء والعتمة، حديث (٥٦٤)، من حديث عبد الله بن عمر.
- (٢) أخرجه البخاري (٤٩٩/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: حديث الخضر مع موسى، حديث (٣٤٠٢)، والترمذي (٣١٣/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكهف، حديث (٣١٥١)، وأحمد (٣١٨/٢)، وابن حبان (١٠٨/١٤ - ١٠٩) برقم: (٦٢٢٢)، والبيهقي في «معالم التنزيل» (١٧٢/٣)، كلهم من طريق همام بن منبه، عن أبي هريرة به.
- وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٤/٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.
- تنبيه: وهم الحافظ نور الدين الهيثمي فأورد هذا الحديث في كتابه «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» رقم: (٢٠٩٢)، وشرط كتابه كما هو معروف أنه أورد ما هو زائد على «الصحيحين» من «صحيح ابن حبان». وللحديث شاهد من حديث ابن عباس، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٤/٤)، وعزاه إلى ابن عساكر.

(٣) الفرو الحشيش الأبيض وما أشبهه، وقال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش. وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات، وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه، وحكي عن مجاهد أنه قيل له الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله. والخضر قد اختلف في اسمه قبل ذلك وفي اسم أبيه وفي نسبه وفي نبوته وفي تعميره، فقال وهب بن منبه: هو بليا بفتح الموحدة وسكون اللام وبعدها تحناتية، ووجد بخط الدمياطي في أول الاسم بنقطتين، وقيل: كالأول بزيادة ألف بعد الباء، وقيل: =

واختلف الناس في «مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ»، فقال مجاهد وقتادة هو مَجْمَعُ بَحْرِ فَارَسَ وَبَحْرِ الرُّومِ^(١)، وقالت فرقة «مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ»: هو عند طَنْجَة، وقيل غير هذا، واختلف في «الحُقْب»، فقال ابن عباس وغيره: الحُقْب: أزمانٌ غير محدودة^(٢)، وقال عبد الله بن عمرو ثمانون^(٣) سنة، وقال مجاهد: سبعون^(٤)، وقيل: سنة.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ خُوتُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِبْنَانَا عَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ﴾ (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَسْلَيْتُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ ۖ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ﴾ (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَنْ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ﴾ (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحِمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ۖ﴾ (٦٥) قَالَ لَمْ نَسْأَلِ اللَّهَ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ أَنْتَ ۖ قَالَ إِنْ كُنْتَ تُظَنِّىٰ أَنِ اتَّخَذَ الْبَحْرُ مِنْهُ سَبِيلًا لِّئَلَّا تُفْلِكَ ۖ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۖ﴾ (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ﴾ (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْزِمْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ﴾ (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِطُغْيَانِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ﴾ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ﴾ (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ﴾ (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ﴾ (٧٤)

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير في «بينهما»: للبحرين، قاله

اسمه الياس، وقيل: البسج، وقيل: عامر، وقيل: خضرون - والأول أثبت - ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالغ بن أرفشخذ بن سام بن نوح، فعلى هذا فمولده قبل إبراهيم الخليل لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم، وقد حكى الثعلبي قولين في أنه كان قبل الخليل أو بعده، وقال وهب وكنيته أبو العباس، وروى الدارقطني في «الأفراد» من طريق مقاتل عن الضحاك، عن ابن عباس قال: هو ابن آدم لصلبه، وهو ضعيف منقطع، وذكر أبو حاتم السجستاني في «المعمرين» أنه ابن قابيل بن آدم رواه عن أبي عبيدة وغيره، وقيل: اسمه ارميا بن طيفاء حكاها ابن إسحاق، عن وهب، وارميا بكسر أوله وقيل: بضمه وأشبعها بعضهم وواوًا، واختلف في اسم أبيه فقليل: ملكان، وقيل: كليان، وقيل: عاميل وقيل: قابيل والأول أشهر، وعن إسماعيل بن أبي أويس: هو العمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد. ينظر: «فتح الباري» (٩٣/٧ - ٩٤).

(١) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٠)، (٢٤٥/٨)، برقم: (٢٣١٦٩)، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٧)، وابن كثير (٣/٩٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٨)، وابن كثير (٣/٩٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٣)، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٨)، والبغوي (٣/١٧١)، وابن كثير (٣/٩٢).

(٤) أخرجه الطبري (٢٤٦/٨) برقم: (٢٣١٧٤)، وذكره ابن عطية (٣/٥٢٨)، وابن كثير (٣/٩٢) بنحوه.

مجاهد^(١)، وفي الحديث الصحيح: «ثُمَّ انْطَلَقَ، وانْطَلَقَ مَعَهُ/ فَتَاهُ يُوْسَعُ بْنُ نُونٍ، حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا، فَتَامَا، واضْطَرَبَ الْحَوْتُ فِي الْمَكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، أَي: مَسْلَكًا فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْتِ جَزِيَّةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحَوْتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا، وَلَيْلَتِهِمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِّ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ويعني بـ«النَّصَبِ» تعب الطريق، قال: ولم يجذ موسى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾، يريد: ذكر ما جرى فيه، ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ﴾، أَي أَن أَذْكَرَهُ ﴿إِلَّا الشَّيْطَانَ﴾، و«اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا» قال: فكان للحوت سَرَبًا ولموسى وفَتَاهُ عَجَبًا، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: فرجعا يَقْصُصَانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامَ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني: لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي لأن الظواهر التي هي عِلْمُكَ لا تعطيه، وكيف تُصْبِرُ على ما تراه خطأ، ولم تُخَبِّرْ بوجه الحكمة فيه؟ يا موسى، إني على علم من علم الله، عِلْمُنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، يريد: عِلْمُ الْبَاطِنِ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمُكَهُ اللَّهُ، لَا أَعْلَمُهُ، يريد: عِلْمُ الظَّاهِرِ، فقال له موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، فقال له الخضر: ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أَي: حتى أشرح لك ما ينبغي شَرْحُهُ، فانطلقا يمشيان على ساحل الْبَحْرِ، فمرت بهم سفينة، فكلَّموهم أَنْ يَحْمِلُوهم، فعرفوا الْخَضِرَ، فحملوهم بغير نَوْلٍ، يقول: بغير أجر، فلما ركبوا في السفينة، لم يُفَجِّأْ مُوسَى إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاكِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ، فقال له موسى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمِدْتُ إِلَى سَفِينَتِهِمْ، فَخَرَقْتُهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، أَي شنيعاً من الأمور، وقال مجاهد: الْإِمْرُ الْمُنْكَرُ^(٢)، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ قال أَبِي بَنْ كَعْبٍ، قال النَّبِيُّ ﷺ: ﴿فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَزَفِ السَّفِينَةِ، فَتَقَرَّرَ فِي الْبَحْرِ نُقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ﴾،

(١) أخرجه الطبري (٢٤٧/٨) برقم: (٢٣١٧٩)، وذكره ابن عطية (٥٢٨/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٧/٨) برقم: (٢٣٢١٨)، وذكره ابن عطية (٥٣١/٣)، وابن كثير (٩٧/٣).

١٣٠٩ وفي رواية: «وَاللَّهِ، مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ / هَذَا الطَّائِرُ بِمَنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ»، وفي رواية: «مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا بِمُقْدَارِ مَا غَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مَنْقَارَهُ»^(١).

قال^(٢) * ع * : وهذا التشبيه فيه تجوُّز؛ إذ لا يوجد في المخسوسات أقوى في القِلَّة من نقطة بالإضافة إلى البحر، فكأنها لا شيء، ولم يتعرض الخضر لتحرير موازنة بين المِثَال وبين عِلْمِ اللَّهِ تعالى، إذ علمه سبحانه غير متناه، ونُقْطُ البحر متناهية، ثم خَرَجَ من السفينة، فبينما هما يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، إذ أبصر الخضر غَلاماً يَلْعَبُ مع الغلمان، فأخذ الخضرُ رَأْسَهُ بيده، فاقتلعه فَقَتَلَهُ، فقال له موسى: أقتلت نفساً زاكية.

قال^(٣) * ع * : قيل: كان هذا الغلام لم يبلغ الحلم، فلهذا قال موسى: نفساً زاكية، وقالت فرقة: بل كان بالغاً.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يقتضي أنه لو كان عَنْ قَتْلِ نَفْسٍ، لم يكن به بأس، وهذا يدلُّ على كِبَرِ الغلام، وإلا فلو كان لم يحتلم، لم يجب قتله بِنَفْسٍ ولا بغير نفس. * ت * : وهذا إذا كان شَرَعَهُمْ كَشَرَعِنَا، وقد يكون شرعهم أَنَّ النَفْسَ بالنفسِ عموماً في البالغ وغيره، وفي العَمْدِ والخطأ؛ فلا يلزم من الآية ما ذَكَرَ.

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا﴾ معناه: شيئاً ينكر.

قال * ع *^(٤): ونصف القرآن بعد الحروف. انتهى إلى النون من قوله: ﴿نُكْرًا﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّجْنِي فَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا (٧٦) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَمَكَّنْتَهُ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنْثِقُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْكُلْبُ فَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ فَنَحِشِينَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرْدْنَا أَنْ يَبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا حَيْرًا مِنْهُ ذِكْوَةً وَأَقْرَبَ مَحَلًّا (٨١)

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٩/٢) من حديث أبي بن كعب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣١/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٢/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٢/٣).

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ قال: وهذه أشد من الأولى - ﴿قال إن سألتك عن شئٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عذراً﴾ * فأنطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، قال: مائل، فقال الخضر بيده هكذا، فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم، فلم يُطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لو شئت لتخذت عليه أجراً﴾ قال سعيد بن جبّير: أجراً نأكله^(١) - ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾، فقال رسول الله ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا^(٢) قال سعيد: فكان ابن عباس يقرأ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضْبًا»، وكان يقرأ: «وَأَمَّا الْغُلَامُ [فَكَانَ كَافِرًا] وَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ»، وفي رواية للبخاري: يزعمون عن غير سعيد بن جبّير؛ أَنَّ اسم المَلِكِ: هَذُ بْنُ بُدَيْدٍ، والغلام المقتول اسمه يزعمون حَيْسُورُ، ويقال: حَيْسُورُ مَلِكٌ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا﴾، فأردت إذا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدْعَهَا لِعَيْنِهَا^(٣)، فإذا جَاوَزُوا أَصْلَحُوهَا، فانتفعوا بها، ومنهم من يقول: سَدُّوهَا بِقَارُورَةٍ، ومنهم من يقول بالقَارِ، كان أبواه مُؤْمِنَيْنِ، وكان كافرًا، ﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكُفْرًا﴾ أن يحملهما حُبُّه على أن يتابعاه على دينه، ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة﴾ لقوله: «أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَاكِيَةً»، ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتله خضر، وزعم غير سعيد أنهما أُبدلا جارية، وأما داود بن أبي عاصم، فقال عن غير واحد: إنها جارية. انتهى لفظ البخاري.

* ت * : وقد تحرّينا/ في هذا المختصر بحمد الله التحقيق فيما علّقناه جُهد ٣٠٩ ب الاستطاعة، والله المستعان، وهو المسؤول أن ينفع به بجوده وكرمه.

قال * ع *^(٤): ويشبه أن تكون هذه القصة أيضاً أصلاً للأجال في الأحكام التي هي

(١) ذكره ابن عطية (٣/٥٣٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٤٢٠)، وعزاه لعبد بن حميد، ومسلم، وابن مردويه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٨/٢٦٢، ٢٧٧) كتاب «التفسير»، حديث (٤٧٢٥ - ٤٧٢٦ - ٤٧٢٧) من طريق سعيد بن جبّير، عن ابن عباس.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٥٣٢).

ثَلَاثَةً، وَأَيَّامِ التَّلُومِ ثَلَاثَةً، فَتَأَمَّلْهُ.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَبُوا أَنْ يَضِيفُوهُمَا﴾ وفي الحديث: «أَنْتُهُمَا كَأَنَّا يَمْشِيَانِ عَلَى مَجَالِسٍ أُولَئِكَ الْقَوْمُ يَسْتَظْعِمَانِهِمْ».

قال * ع *^(١): وهذه عبرة مصرحة بهوان الدنيا على الله عز وجل. * ص * :
وقوله: ﴿فِرَاقُ بِنِي﴾ الجمهور^(٢) بإضافة «فِرَاق»، أبو البقاء، تفريق واصلنا، وقرأ ابن أبي
عَبْلَةَ «فِرَاق» بالتونين^(٣)، أبو البقاء و«بَيْنَ»: منصوب على الظرف انتهى.

قال^(٤) * ع * : و﴿وراءهم﴾ هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء
مراعى بها الزمان، وذلك أن الحادث المقدم الوجود هو الأمام، والذي يأتي بعد هو
الوراء، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، ومن قرأ^(٥):
«أمامهم»، أراد في المكان.

قال^(٦) * ع * : وفي الحديث، «أَنَّ هَذَا الْعَلَامَ طَبَعَ يَوْمَ طَبَعَ كَافِرًا»، والضمير في
«خشينا» للخضير، قال الداودي: قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا﴾، أي: علمنا انتهى.
«وَالزَّكَاةُ» شرف الخلق والوقار والسكينة المنظوية على خير وثية، «وَالرُّحْمُ» الرحمة، وروي
عن ابن جُرَيْج، أنهما بدلا غلاماً مسلماً^(٧)، وروي عنه أنهما بدلا جارية، وحكى النقَّاش
أنها وَلَدَتْ هي وَذُرِّيَّتُهَا سبعين نبياً، وذكره المهدوي عن ابن عباس^(٨)، وهذا بعيد، ولا
تُعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم، واختلف الناس في هذا
الكنز المذكور هنا، فقال ابن عباس: كان علماً في صُحُف مدفونة^(٩)، وقال عمر مولى
عَفْرَةَ: كان لَوْحاً من ذهب قد كُتِبَ فيه: «عَجَباً لِلْمُوقِنِ بِالرُّزْقِ كَيْفَ يَنْتَعِبُ، وَعَجَباً لِلْمُوقِنِ
بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفُلُ، وَعَجَباً لِلْمُوقِنِ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَقْرَحُ»، وروي نحو هذا مما هو في

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٣/٣).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (١٤٤/٦)، و«الدر المصون» (٤٧٦/٤).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٧٤٠/٢)، و«البحر المحيط» (١٤٤/٦)، و«الدر المصون» (٤٧٦/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٥/٣).

(٥) وقرأ بها ابن عباس، وابن جبير، كما في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٤/١١).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٦/٣).

(٧) أخرجه الطبري (٢٦٧/٨) برقم: (٢٣٢٥٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥٣٦/٣)، والبغوي (١٧٧/٣)،

وابن كثير (٩٨/٣).

(٨) ذكره ابن عطية (٥٣٦/٣).

(٩) أخرجه الطبري (٢٦٨/٨) برقم: (٢٣٢٥٦)، وذكره ابن عطية (٥٣٧/٣)، وابن كثير (٩٨/٣).

معناه، وقال الداوددي: ﴿كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، عن النبي ﷺ قال: «ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ» انتهى، فإن صَحَّ هذا الحديث، فلا نظر لأحدٍ معه، فالله أعلم أي ذلك كَانَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ ظاهر اللفظ، والسابق منه إلى الذهن أنه والدهما دِينِيَّةً^(١)، وقيل: هو الأب السابع، وقيل: العاشر، فَحَفِظًا فِيهِ، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ فِي ذُرِّيَّتِهِ»، وقول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، يقتضي أنه نَبِيٌّ، وقد اختلف فيه، فقيل: هو نبي، وقيل: عَبْدٌ صَالِح، وليس بنبي؛ وكذلك اختلف في موته وحياته، والله أعلم بجميع ذلك، ومما يقتضي بموت الخضر قوله ﷺ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ إِلَى رَأْسِ مَائَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»^(٢).

قال القرطبي في «تذكرته»: وذكر عن عمرو بن دينار: الخضر وإلياس عليهما السلام حَيَّانِ، فإذا رفع القرآن ماتا/ قال القرطبي: وهذا هو الصحيح انتهى، وحكايات مَنْ رَأَى الخضر من الأولياء لا تحصى كثرة فلا نطيل بسردها، وانظر «لطائف الممن» لابن عطاء الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ﴾: أي مآل، وحكى السهيلي أنه لما حان للخضر وموسى أن يفترقا، قال له الخضر: لو صَبَرْتَ، لَأَتَيْتَ عَلَى أَلْفِ عَجَبٍ، كُلُّهَا أَعْجَبُ مِمَّا رَأَيْتَ، فبكى موسى، وقال للخضر: أَوْصِنِي بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ، فقال: يا موسى، اجْعَلْ هَمَّكَ فِي مَعَادِكَ، وَلَا تَخْضُ فيما لَا يَغْنِيكَ، وَلَا تَأْمَنْ مِنَ الْخَوْفِ فِي أَمْنِكَ، وَلَا تَتَيْسَّ مِنَ الْأَمْنِ فِي خَوْفِكَ، وتَدَبَّرِ الْأُمُورَ فِي عِلَانِيَتِكَ، وَلَا تَدَّرِ الْإِحْسَانَ فِي قُدْرَتِكَ، فقال له موسى: زِدْنِي بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ، فقال له الخضر: يا موسى، إِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ، وَلَا تَمُشْ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَا تَضْحَكْ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ، وَلَا تَعِيرِ أَحَدًا، وَاْبِكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ يَا بَنَ عِمْرَانَ. انتهى.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْيَتَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٨٢ إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٣ فَأَنْبَغُ سَبَبًا ۝٨٤ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقَرِّ الشَّمْسِ وَجْدهَا تَقَرَّبُ فِي غَيْبٍ جَمْعٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعْدَبَ وَإِنَّمَا أَنْ نَسْجِدَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكَرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا

(١) يقال: هو ابن عمي دِينِيَّةً، إذا كان ابن عمه لحاً.

ينظر: «لسان العرب» (١٤٣٦).

(٢) تقدم تخريجه.

يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ...﴾ الآية: «ذو القرنين»، هو المَلِكُ الإِسْكَنْدَرُ الْيُونَانِيُّ، واختلف في وَجْه تسميته بـ «ذِي الْقَرْنَيْنِ» وأحسن ما قيل فيه: أنه كان ذا ظَفِيرَيْنِ، من شغرهما قرناه، والتمكين له في الأرض: أنه مَلِكُ الدنيا، ودانَتْ له الملوك كلها، وروي أن جميع من مَلَكَ الدنيا كلُّها أربعة، مُؤْمِنَانِ وكافران؛ فالْمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام، والإِسْكَنْدَرُ، والكافِرَانِ: ثَمْرُود، وَبُخْتَنْصَر.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ معناه: علماً في كل أمر، وأقيسة يتوصل بها إلى معرفة الأشياء، وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عمومٌ معناه الخصوص في كل ما يمكنه أن يعلمه ويحتاج إليه، وقوله: ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾، أي: طريقاً مسلوكة، وقرأ نافع وابن كثير^(١): وحفص عن عاصم: «فِي عَيْنِ حِمَّةٍ»، أي: ذات حَمَاءَ، وقرأ الباقون: «فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ»، أي: حارّة، وذهب^(٢) الطبري إلى الجمع بين الأمرين، فقال: يحتمل أن تكون العين حارّة ذات حَمَاءَ؛ واستدل بعض الناس على أن ذَا الْقَرْنَيْنِ نَبِيٌّ بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾، ومن قال: إنه ليس بنبي، قال كانت هذه المقالة مِنَ اللَّهِ له بِالْهَامِ.

قال * ع^(٣): والقول بأنه نبيّ ضعيف، و﴿إِذَا أَنْ تَعَذَّبَ﴾ معناه: بالْقَتْلِ عَلَى الْكُفْرِ، و﴿وَأَمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا﴾، أي: إن آمنوا، وذهب الطبري^(٤) إلى أن اتخاذه الْحُسْنَ هو الْأَسْرُ مع كُفْرِهِمْ، ويحتمل أن يكون الاتخاذ ضَرْبَ الجزية، ولكن تقسيم ذِي الْقَرْنَيْنِ بعد هذا الأمر إلى كفر وإيمان يردُّ هذا القولُ بِغَضِ الرَّدِّ، و﴿ظَلَمَ﴾؛ في هذه الآية: بمعنى كَفَّرَ، وقوله: ﴿عَذَابًا نُّكَرًا﴾، أي: تنكره الأوهام، لِعَظَمِهِ، وتستهوله، و﴿الْحَسَنَى﴾ يراد بها الْجَنَّةُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ المعنى: ثم سلك ذَا الْقَرْنَيْنِ الطُّرُقَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى مَقْصِدِهِ، وكان ذَا الْقَرْنَيْنِ، على ما وقع في كُتُبِ التَّارِيخِ يَدُوسُ الْأَرْضَ بِالْجِيوشِ الثَّقَالِ،

(١) ينظر: «السبعة» (٣٩٨)، و«الحجبة» (١٦٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٤١٢/١)، و«معاني القراءات» (١٢١/٢)، و«حجة القراءات» (٤٢٨)، و«العنوان» (١٢٤)، و«شرح الطيبة» (١٨/٥)، و«شرح شعلة» (٤٧٨)، و«إتحاف» (٢٢٣/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٧٤/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٩/٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧٥/٨).

والسيرة الحميدة، والحزم المستيقظ، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة، ولا مراً بمدينة إلا ذلّت ودخلت في طاعته، وكل من/ عارضه أو توقف عن أمره، ^{٣١٠} جعله عظة وآية لغيره، وله في هذا المعنى أخبار كثيرة وغرائب، محل ذكرها كتب التاريخ.

وقوله: ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ المراد بـ«القوم» الرّنج، قاله قتادة^(١)، وهم الهنود وما وراءهم، وقال الناس في قوله سبحانه: ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ معناه: أنهم ليس لهم بنيان، إذ لا تحتمل أرضهم البناء وإنما يدخلون من حرّ الشمس في أسراب، وقيل: يدخلون في ماء البحر؛ قاله الحسن^(٢) وغيره، وأكثر المفسرون في هذا المعنى، والظاهر من اللفظ أنها عبارة بليغة عن قُرب الشمس منهم، ولو كان لهم أسرابٌ تغني لكان سترًا كثيفاً.

وقوله: ﴿كذلك﴾ معناه: فعَل معهم كَفِغله مع الأولين أهل المغرب، فأوجز بقوله: ﴿كذلك﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ﴾

وقوله: ﴿حتى إذا بلغ بين السدّين...﴾ الآية: «السّدان»، فيما ذكر أهل التفسير: جبلان سدًا مسالك تلك الناحية، وتبين طرفي الجبلين فتح هو موضع الرّدم، وهذان الجبلان في طرف الأرض ممّا يلي المشرق، ويظهر من ألفاظ التواريخ؛ أنهما إلى ناحية الشمال.

وقوله تعالى: ﴿ووجد عندها قوماً﴾: قال السّهيلي: هم أهل جابلص، ويقال لها بالسُرّانية «جرّجيسا» يسكنها قومٌ من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح.

وقوله تعالى: ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ هم: أهل جابلق، وهم من نسل مؤمني قوم عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لها بالسُرّانية: «مرّقيسيا» ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كل بابين فرسخ، ومر بهم نبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء، فدعاهم فأجابوه، وآمنوا به، ودعا من ورائهم من الأمم، فلم يجيبوه في حديث طويل رواه الطبري عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، والله أعلم. انتهى،

(١) أخرجه الطبري (٢٧٧/٨) برقم: (٢٣٣١٧)، وابن عطية (٥٤٠/٣)، وابن كثير (١٠٣/٣)، والسيوطي (٤٤٨/٤)، وعزه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٢٧٦/٨) برقم: (٢٣٣١٤) بنحوه، والبغوي (١٧٩/٣).

والله أعلم بصحته.

و﴿يأجوج ومأجوج﴾: قبيلان من بني آدم، لكنهم ينقسمون أنواعاً كثيرة، اختلف الناس في عددها، واختلف في إفسادهم الذي وصفوهم به، فقيل: أكل بني آدم، وقالت فرقة: إفسادهم: هو الظلم والغش وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وهذا أظهر الأقوال، وقولهم: ﴿فهل نجعل لك خزجاً﴾: استفهام على جهة حُسن الأدب، «والخزج»: المُجَبَّى، وهو الخزاج، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ^(١) «خزاجاً»، وروي في أمر يأجوج ومأجوج أن أرزاقهم هي من الثَّنين يُمَطَّرُونَ به، ونحو هذا مما لم يصح، وروي أيضاً أن الذَّكر منهم لا يَمُوت حتى يولد له ألف والأنثى كذلك، وروي أنهم يتساقدون في الطُّرُق كالبهائم، وأخبارهم تضيق بها الصُّحف، فاختصرت ذلك؛ لعدم صحته.

* ت *: والذي يصح من ذلك كثرة عددهم على الجملة، على ما هو معلوم من حديث: «أخرج بعث النَّارِ» وغيره من الأحاديث.

وقوله: ﴿ما مكَّنِي/ فيه ربي خير﴾ المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله لي من القدرة والمُلْك خَيْرٌ من خراجكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، وهذا من تأييد الله تعالى له، فإنه تهدي في هذه المحاوراة إلى الأنفع الأتزه، فإن القوم لو جمعوا له الخزاج الذي هو المال، لم يعنه منهم أحد، ولو كَلَّوه إلى البنيان، ومعونتهم بالقوة أجمل به.

﴿أَتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَفْبًا ۖ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ﴿٩٨﴾ ۝ وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجَ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لَجَعْنَهُمْ جَعًا ۖ ﴿٩٩﴾﴾

وقوله: ﴿آتوني زبر الحديد...﴾ الآية: قرأ حمزة ^(٢) وغيره: «أئتوني» بمعنى «جيثوني»، وقرأ نافع وغيره: «آتوني» بمعنى «أعطوني»، وهذا كله إنما هو استدعاء

(١) الثابت أن الأخوين حسب من السبعة قرأ هذا الحرف هكذا، وإنما تابع المصنف ابن عطية في ذكره عاصماً.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٢/٣)، و«السبعة» (٤٠٠)، و«الحجة» (١٧٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٤١٩/١)، و«معاني القراءات» (١٢٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٢٢/٥)، و«العنوان» (١٢٤)، و«حجة القراءات» (٤٣٣)، و«شرح شلعة» (٤٨٠)، و«إنحاف» (٢٢٥/٢ - ٢٢٦).

(٢) والمقصود أن حمزة قرأ: «أئتوني» الثانية من الآية هكذا، وإلا فإن الأولى قرأها أبو بكر، عن عاصم «أئتوني»، دون حمزة، فلم يقرأها هكذا.

المناولة، وإعمال القوة «والزُّبر» جمع زُبرة، وهي القطعة العظيمة منه، والمعنى: فرَصَفَه وبنَّاه ﴿حتى إذا ساوى بين الصَّدَفَيْنِ﴾، وهما الجبلان، وقوله: ﴿قال انفخوا...﴾ إلى آخر الآية، معناه: أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبر والحجارة، ثم يوقد عليها حتى تحمى ثم يؤتى بالثَّحاس المَذاب أو بالرصاص أو بالحديد؛ بحسب الخلاف في «القَطَر»، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتدَّ، استأنف رَصَفَ طاقة أخرى إلى أن استوى العمل، وقال أكثر المفسرين: «القَطَر»: الثَّحاس المَذاب، ويؤيد هذا ما روي أنَّ النبي ﷺ جاءه رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَأَيْتُ سَدًّا يُأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: رَأَيْتُهُ كَالْبُرْدِ الْمُحْبَرِ؛ طَرِيقَةً صَفْرَاءَ، وَطَرِيقَةً حَمْرَاءَ، وَطَرِيقَةً سَوْدَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «قَدْ رَأَيْتُهُ»^(١) و﴿يظهروه﴾ ومعناه: يعلونه بُصُودٍ فيه؛ ومنه قوله في «الموطأ»، «والشَّمْسُ في حُجْرَتِهَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ»، ﴿وما استطاعوا له نَقْبًا﴾ لِبُعْدِ عَرْضِهِ وَقُوَّتِهِ، ولا سَبِيلَ سَوَى هَذَيْنِ: إما ارتقاء، وإما نَقْب، وروي أن في طُولِهِ ما بَيْنَ طَرَفَيْ الْجَبَلَيْنِ مِائَةَ فَرَسَخٍ، وفي عَرْضِهِ خَمْسِينَ فَرَسَخًا، وروي غير هذا مما لم نَقِفْ على صَحَّتِهِ، فاختصرناه، إذ لا غاية للتخِصُّص؛ وقوله في الآية ﴿انفخوا﴾ يريد بالانكِّيار.

وقوله: ﴿هذا رحمة من ربي...﴾ الآية: القائل ذو القرنين، وأشار بـ ﴿هذا﴾ إلى الرِّذَم والقوة عليه، والانتفاع به، والوعدُ يحتملُ أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به وَفَتْ خُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وقرأ^(٢) نافع وغيره: «دَكَّا» مصدر «دَكَ يَدُكُ»، إذا هدم ورض، ونَاقَةً دَكَاءً لا سَنَامَ لَهَا، والضمير في ﴿تركنا﴾ لله عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿يومئذ﴾ يحتمل أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به يَوْمَ كَمَالِ السَّدِّ، والضميرُ في قوله: ﴿بعضهم﴾ على هذا لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، واستعارة المَوْجِ لهم عبارة عن الحَيِّرة، وتردُّدُ بعضهم في بَغْضٍ، كالمُؤَلَّهَيْنِ مِنْ هَمٍّ وَخَوْفٍ وَنَحْوِهِ، فَشَبَّهَهُمْ بِمَوْجِ الْبَحْرِ الَّذِي يَضْطَرِبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ.

وقوله: ﴿ونفخ في الصور...﴾ إلى آخر الآية: يعني به يوم القيامة بلا احتمالٍ

= ينظر: «إتحاف» (٢٢٧/٢)، و«المحرر الوجيز» (٥٤٣/٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (١٧٧/٥ - ١٧٨)،

و«معاني القراءات» (١٢٦/٢)، و«شرح شُعَلَة» (٤٨٢).

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٦٢/١١).

(٢) وقرأ بها أبو عمرو، وابن عامر.

ينظر: «السبعة» (٤٠٢)، و«الحجة» (١٨٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٢٢/١)، و«حجة القراءات»

(٤٣٥)، و«العنوان» (١٢٥)، و«إتحاف» (٢٢٨/٢).

لغيره، ﴿وَالصُّور﴾ في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصَّحاح: هو الْقَرْنُ الذي يَنْفُخُ فيه إسرائيليُّ للقيامة^(١).

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا (١٠٦)

٣١١ ب وقوله سبحانه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ معناه / أبرزناها لَهُمْ؛ لتجمعهم وتحطمهم، ثم أكد بالمصدر عبارة عن شدة الحال.

وقوله: ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ كناية عن البصائر، والمعنى: الذين كَانَتْ فِكْرُهُمْ بينها، وَبَيْنَ ذِكْرِي وَالنَّظَرِ فِي شَرْعِي - حجاب، وعليها غطاء ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يريد لإعراضهم ونفارهم عن دعوة الحق، وقرأ الجمهور^(٢)، «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا» - بكسر السين - بمعنى «أَظُنُّوا» وقرأ علي بن أبي طالب^(٣) وغيره وابن كثير، بخلاف عنه: «أَفَحَسِبُ» بسكون السين وضَمُّ الباء، بمعنى «أَكْفِيهِمْ ومُنْتَهَى غرضهم»، وفي مصحف ابن مسعود^(٤): «أَفَظُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» وهذه حجة لقراءة الجمهور.

وقوله: ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ قال جمهور المفسرين: يريد كُلَّ مَنْ عُدَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ كالملائكة وعزير وعيسى، والمعنى: أَنْ الْأَمْرُ لَيْسَ كَمَا ظَنُّوا، بل ليس لهم من ولاية هؤلاء المذكورين شَيْءٌ، ولا يجدون عندهم منتفعاً و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: يَسِّرْنَا، و«النُّزُلُ» موضع النزول، و«النُّزُلُ» أيضاً: ما يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ أو القادم من الطَّعام عند نزوله، ويحتملُ أَنْ يريد بالآية هذا المعنى: أَنَّ الْمَعْدَّ لَهُؤَلَاءِ بَدَلَ النُّزُلِ جَهَنَّمَ، والآية تحتلُّ الوجهين، ثم قال

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/٥٤٥)، و«الدر المصون» (٤/٤٨٤).

(٣) وقرأ بها ابن عباس، وابن يعمر، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، ونعيم بن ميسرة، والضحاك، ويعقوب، وابن أبي ليلى.

ينظر: «المحتسب» (٢/٣٤)، و«الكشاف» (٢/٧٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/٥٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/١٥٧)، وزاد نسبتها إلى ابن محيصن، وأبي حيو، والشافعي، ومسعود بن صالح، وينظر: «الدر المصون» (٤/٤٨٤)، و«الشواذ» ص: (٨٥).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٢/٧٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/٥٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/١٥٧).

تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الآية: المعنى قل لهؤلاء الكفرة؛ على جهة التوبيخ: هل نخبركم بالذين خَسِرَ عَمَلُهُمْ، وَضَلَّ سَعِيَهُمْ في الحياة الدنيا، وهم مع ذلك يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعوه، فإذا طلبوا ذلك، فقل لهم: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾، وعن سعد بن أبي وقاص في معنى قوله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ قال: هُمُ عِبَادُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَأَهْلُ الصَّوَامِعِ وَالْدِّيَارَاتِ وَعَنْ عَلِيٍّ: هُمُ الْخَوَارِجُ؛ وَيُضَعَّفُ هَذَا كُلُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾، وليس هذه الطوائف ممن يكفر بالله ولقائه، وإنما هذه صفة مشركي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَعَلِيٍّ وَسَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ذَكَرَا قَوْمًا أَخَذُوا بِحُظْمِهِمْ مِنْ صَدْرِ الْآيَةِ^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ يريد أنهم لا حسنة لهم تُوزَنُ؛ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ قَدْ حِطَّتْ، أَيْ: بَطَلَتْ، وَيَحْتَمِلُ الْمَجَازُ وَالِاسْتِعَارَةَ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلَا قَدْرَ لَهُمْ عِنْدَنَا يَوْمَئِذٍ، وَهَذَا مَعْنَى الْآيَةِ عِنْدِي، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِالْأَكُولِ الشَّرُوبِ الطَّوِيلِ فَلَا يَزُنُ جَنَاحُ بَعُوضَةٍ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»^(٢) وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى تَرْكِ إِقَامَةِ الْوِزْنِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٧٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾: اختلف المفسرون في «الْفِرْدَوْسِ» فقال قتادة: إنه أعلى الجنة وَرَبْوَتُهَا^(٣)، وقال أبو هريرة: إنه جَبَلٌ تَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ^(٤)، وقال أبو أمامة: إنه سُرَّةُ الْجَنَّةِ وَوَسْطُهَا^(٥)، وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، أَنَّهُ تَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ^(٦)، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ»^(٧).

(١) ذكره ابن عطية (٥٤٥/٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٧/٤)، وعزاه إلى ابن عدي، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه الطبري (٢٩٦/٣) برقم: (٢٣٤٠٠)، وذكره البغوي (١٨٦/٣)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٧/٣) برقم: (٢٣٤٠٩)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٥٤٦/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٧/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

(٦) أخرجه الطبري (٢٩٧/٣) برقم: (٢٣٤٠٩)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣).

(٧) ينظر: الحديث الآتي:

١٣١٢

* ت * : ففي «البخاري» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ / قَالَ : «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(١) انتهى .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ «الحَوْل» بمعنى المتحوّل .

قال مجاهدٌ : متحوّلًا^(٢) ؛

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ

مَدَدًا﴾

وأما قوله سبحانه : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَمْتُ رَبِّي...﴾ الآية : فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي ﷺ : كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيُّ الْأُمَمِ كُلِّهَا وَأَنَّكَ أُعْطِيتَ مَا يَخْتَاجُهُ النَّاسُ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَنْتَ مُقَصِّرٌ، قَدْ سُئِلْتَ عَنِ الرُّوحِ، فَلَمْ تُجِبْ فِيهِ؟، ونحو هذا من القول؛ فأنزل الله الآية مُغْلِمَةً باتساع معلومات الله عز وجل، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببذع، فالمعنى : لو كان البحر مداداً تكتب به معلوماته تعالى، لَنَفِدَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفِيَهَا، «وكلماتُ ربِّي» هي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله عز وجل لا تتناهى والبحر متناهٍ ضرورة، وذكر الغزالي في آخر «المنهاج» أن المفسرين يقولون في قوله تعالى : ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، أن هذه هي الكلمات التي يقول الله عز وجل لأهل الجنة في الجنة باللطف والإكرام، مما لا تكييفه الأوهام، ولا يحيط به علم مخلوق، وحق أن يكون ذلك كذلك، وهو عطاء العزيز العليم؛ على مقتضى الفضل العظيم، والجلود الكريم، ألا لِمِثْلِ هذا فليعمل العالمون . انتهى .

وقوله : ﴿مَدَدًا﴾، أي زيادة . * ت * : وكذا فسره الهروي ولفظه : وقوله تعالى :

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، أي زيادة انتهى .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

صَالِحًا وَلَا يَتَّبِعْكُمْ بَعَادَةَ رَبِّهِمْ أَحَدًا﴾

(١) أخرجه البخاري (١٤/٦) كتاب «الجهاد» باب : درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٨/٣) برقم : (٢٣٤١٨)، وذكره ابن عطية (٥٤٦/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٤٥٨/٣)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: أنا بشر ينتهي علمي إلى حيث يوحى إليّ، ومما يوحى إليّ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وباقي الآية بين في الشرك بالله تعالى، وقال ابن جُبَيْر في تفسيرها لا يراني في عمله، وقد ورد حديث أنها نزلت في الرياء.

* ت *: وروى ابن المبارك في «رقائقه»، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن زَيْد بن أَسْلَم، عن أبيه، أنه كَانَ يَصِفُ أَمْرَ الرِّيَاءِ، فيقول: مَا كَانَ مِنْ نَفْسِكَ فَرَضِيَّتُهُ نَفْسُكَ لَهَا، فَإِنَّهُ مِنْ نَفْسِكَ فَعَاتِبَهَا، وَمَا كَانَ مِنْ نَفْسِكَ، فَكَرِهَتْهُ نَفْسُكَ لَهَا، فَإِنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَكَانَ أَبُو حَازِمٍ يَقُولُ ذَلِكَ^(١)، وَأَسْنَدُ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: كُلُّ مَا كَرِهَهُ الْعَبْدُ فَلَيْسَ مِنْهُ^(٢)، وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ أَبِي قُصَالَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُتَأَذٍّ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ أَحَدًا، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ»^(٣)، قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَخَرَجَ مُسْلِمٌ مَعْنَاهُ.

* ت *: ومما جربته، وصحَّ من خواصِّ هذه السورة، أن من أراد أن يستيقظ أي وقت شاء من الليل، فليقرأ عند نومه قوله سبحانه: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي/ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ...﴾ إلى آخر السورة، فإنه يستيقظ بإذن الله في الوقت الذي ٣١٢ ب نَوَّاهُ، وَلِتَكُنْ قِرَاءَتُهُ عِنْدَ آخِرِ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ النُّعَاسُ؛ بِحَيْثُ لَا يَتَجَدَّدُ لَهُ عَقَبُ الْقِرَاءَةِ خَوَاطِرُ، هَذَا مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ، وَهُوَ مِنْ عَجَائِبِ الْقُرْآنِ الْمَقْطُوعِ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ بِفَضْلِهِ.

تنبيه: رُوينا في «صحيح مسلم»، عن جابر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُؤَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»^(٤)، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ، فَإِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَعْرِفَ هَذِهِ السَّاعَةَ، فَاقْرَأْ عِنْدَ نَوْمِكَ مِنْ قَوْلِهِ

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٨٧) برقم: (٨٣١).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٢٨٧) برقم: (٨٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الكهف، حديث (٣١٥٤)، وابن ماجه (١٤٠٦/٢) كتاب «الزهد» باب: الرياء والسمعة، حديث (٤٢٠٣)، وأحمد (٤٦٦/٣)، وابن حبان (٢٤٩٩ - موارد)، والدولابي في «الكنى» (٣٥/١)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٧/٢٢) برقم: (٧٧٨). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه ابن حبان.

(٤) أخرجه مسلم (٨٤/٣ - الأبي) كتاب «صلاة المسافرين» باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، حديث (١٦٦ - ٧٥٧/١٧٦) من حديث جابر، وأخرجه أحمد (٣١٣/٣).

تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ إلى آخر السورة، فإنك تستيقظ في تلك الساعة - إن شاء الله تعالى - بفضلته، ويتكرر تيقظك، ومهما استيقظت، فاذع لي ولك، وهذا مما ألهمني الله سبحانه، فاستفذه، وما كتبت إلا بعد استخارة، وإياك أن تدعوا هنا على مسلم، ولو كان ظالماً، فإن خالفتني، فالله حسيبك وبين يديه أكون خصيماً، وأنا أرغب إليك أن تشركني في دعائك، إذ أفدتك هذه الفائدة العظيمة وكنت شيخك فيها، وللقرآن العظيم أسراراً يُطلع الله عليها من يشاء من أوليائه، جعلنا الله منهم بفضلته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء الثالث من تفسير الثعالبي

ويليه الجزء الرابع وأوله :

سورة مريم

ولله الحمد والمنة

محتوى الجزء الثالث من تفسير الثعالبي

| | |
|-----|---------------|
| ٥ | الأعراف |
| ١١٢ | الأنفال |
| ١٦١ | التوبة |
| ٢٣٣ | يونس |
| ٢٧١ | هود |
| ٣١٠ | يوسف |
| ٣٥٨ | الرعد |
| ٣٧٤ | إبراهيم |
| ٣٩٣ | الحجر |
| ٤١٠ | النحل |
| ٤٤٩ | الإسراء |
| ٥٠٥ | الكهف |

طَبَعَ عَلَى مَطَابَعِ
وَلَا زِلْهَيْسًا، النَّزْلَ شَعْرَ الْعَرَبِيِّ

تفسير الثعالبی

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبی المالکی

(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

مقرأته على أربع نسخ خطية وعلى عليه وفتح أمارته

الشيخ علي محمد معوض

والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

خبير التحقيق بمجمع البحوث الإسلامية

وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

وعضو لجنة المصنف بالأزهر الشريف

الجزء الرابع

دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836551 - 836696 - 836766

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الشعالي
الجزء الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ مَرْيَمَ

هذه السورة مكية بإجماع إلا السجدة منها، فقيل: مكية.
وقيل: مدنيّة.

﴿كَهَيْعَصَ﴾ (١) ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِنُّ بُرْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) بَنَزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١).

قوله عز وجل: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ قد تقدّم الكلام في فوائح السور.
وقوله: ﴿ذكر رحمت ربك﴾ مرتفع بقوله: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ في قول فرقة.
وقيل: إنه ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ذكر، وحكى أبو عمرو الداني عن ابن يعمر^(١) أنه قرأ: ﴿ذكر رحمة ربك﴾: بفتح الدال، وكسر الكاف المشددة، ونصب الرحمة.

وقوله ﴿نادى﴾: معناه بالدعاء والرغبة؛ قاله ابن العربي في «أحكامه»^(٢).
وقوله تعالى: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾: يناسب قوله: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾. [الأعراف: ٥٥].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي»^(٣)

(١) ينظر «مختصر الشواذ» ص (٨٦)، و«المحرر الوجيز» (١٤/٤)، و«البحر المحيط» (١٦٣/٦)، و«الدر المصون» (٤٩٠/٤).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٥٠/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

وذلك؛ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ الرِّياءِ، فَأَمَّا دُعَاءُ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّمَا كَانَ خَفِيًّا لَوْجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ لَيْلًا.

والثاني: أَنَّهُ ذَكَرَ فِي دُعَائِهِ أَحْوَالًا تَفْتَقِرُ إِلَى الْإِخْفَاءِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وِرَائِي﴾. وهذا مما يُكْتَمُ. انتهى.

و﴿وَهَنَ الْعَظْمُ﴾ معناه ضَعْفٌ، و﴿اشْتَغَلَ﴾ مُسْتَعَارٌ لِلشَّيْبِ مِنْ اشْتِعَالِ النَّارِ.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ شُكْرٌ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى سَالِفِ أَيْدِيهِ عِنْدَهُ، معناه: قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيَّ فِيمَا سَلَفَ، وَسَعَدْتُ بِدُعَائِي إِيَّاكَ؛ فَالْإِنْعَامُ يَقْتَضِي أَنَّ يَشْفَعَ أَوَّلُهُ آخِرَهُ.

ت: وكذا فُسِّرَ الدَّاءُوُدِيُّ، وَلَفْظُهُ: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»، يَقُولُ: كُنْتُ تَعْرِفْنِي الْإِجَابَةَ فِيمَا مَضَى، وَقَالَه قِتَادَةُ: انتهى.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي...﴾ الآية، قِيلَ: معناه خَافَ أَنْ يَرِثَ الْمَوَالِي مَالَهُ، وَالْمَوَالِي: بَنُو الْعَمِّ، وَالْقَرَابَةُ.

وقوله ﴿مَنْ وِرَائِي﴾ أَيُّ: مَنْ بَعْدِي.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِنَّمَا كَانَ مَوَالِيَهُ مَهْمَلِينَ لِلدِّينِ؛ فَخَافَ بِمَوْتِهِ أَنْ يُضَيَعَ الدِّينُ؛ فَطَلَبَ وَلِيًّا يَقُومُ بِالدِّينِ بَعْدَهُ؛ حَكَّى هَذَا الْقَوْلَ: الزَّجَّاجُ، وَفِيهِ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ زَكَرِيَّا مِنْ يَرِثُ مَالَهُ؛ إِذِ الْأَنْبِيَاءُ لَا تُورَثُ.

قال: *ع^(١)*: وهذا يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(٢). وَالْأَظْهَرُ الْأَلْيَقُ بِزَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرِيدَ وَرَاثَةَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ، فَتَكُونُ الْوَارِثَةُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤ - ٥).

(٢) في ج: قول النبي.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٢٧-٢٢٨) كتاب «فرض الخمس»: باب فرض الخمس، حديث (٣٠٩٤)، (٧/ ٣٨٩) كتاب المغازي باب حديث لبني النضير، حديث (٤٠٣٣)، (٩/ ٤١٣-٤١٢) كتاب «النفقات»: باب حبس الرجل قوت سنة على أهله، حديث (٥٣٥٨)، (١٣/ ٢٩١-٢٩٠) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»: باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع، حديث (٧٣٠٥)، ومسلم (٣/ ١٣٧٧-١٣٧٩) كتاب «الجهاد»: باب حكم الفبيء، حديث (١٧٥٧/٤٩)، وأبو داود (٢/ ١٥٤-١٥٦) كتاب «الخراج»: باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال، حديث (٢٩٦٣)، والترمذي (٤/ ١٥٨) كتاب «السير»: باب ما جاء في تركة رسول الله ﷺ، حديث (١٦١٠)، وفي «الشمائل» (٢١٦)، =

مستعارة، وقد بلغه الله أمله.

قال ابن هشام: «مِنْ وراءِي» متعلّق بِ «الموالي»، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من^(١) الموالي، أو مُضَافٌ إِلَيْهِمْ، أي: كائِنَ مِنْ وَرَائِي، أو فعل الموالي مِنْ وَرَائِي، ولا يصحّ تعلّقه بِ «خِفْتُ»؛ لفساد المعنى. انتهى من «المغني».

و«خِفْتُ الْمَوَالِي» هي قراءة الجمهور^(٢)، وعليها هو هذا التفسير.

وقرأ عثمانُ بْنُ عَمَّانٍ، وزيدُ بْنُ ثابتٍ، وابنُ عباسٍ^(٣)، وجماعةٌ «خَفْتُ» بفتح الخاء، وفتح الفاء وشدها، وكسّر التاء، والمعنى على هذا: قد انقَطَعَ أَوْلِيائِي، وماتوا، وعلى هذه القراءة، فإنما طلب وَلِيًّا يقوم بالدين.

قال ابنُ العربي^(٤) في «أحكامه»: ولم يخف زكرياء وارثَ المالِ، وإنما أراد إِرْثَ

= عبد الرزاق (٩٧٧٢)، وأبو يعلى (١٣، ١٢/١) رقم: (٢، ٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٨/ ٢٠٧- الإحسان) حديث (٦٥٧٤)، والبيهقي (٢٩٧/٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٦٣١، ٦٣٢- بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب به، وفيه قصة طويلة.

وأخرجه مالك (٩٩٣/٢) كتاب الكلام: باب ما جاء في تركة النبي ﷺ، حديث (٢٧)، والبخاري (٨، ٧/١٢) كتاب «الفرائض»: باب قول النبي ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة» حديث (٦٧٢٧، ٦٧٣٠)، ومسلم (١٣٧٩/٣) كتاب «الجهاد والسير»: باب قول النبي ﷺ: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة» حديث (١٧٥٨/٥١)، وأبو داود (١٦٠، ١٦١) كتاب «الخراج والفيء والإمارة»: باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال، حديث (٢٩٧٦، ٢٩٧٧)، والنسائي (١٣٢/٧) كتاب «قسم الفيء»، وأحمد (١٤٥/٦)، وعبد الرزاق (٩٧٧٤)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (١٠٩٨)، وابن حبان (٨/ ٢٠٩- الإحسان) رقم (٦٥٧٧)، والبيهقي (٢٩٧/٦، ٢٩٨) كلهم من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ، قالت عائشة لهن: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»؟! وفي بعض طرق الحديث أن راوي هذا الحديث هو أبو بكر.

- (١) لأنه في الأصل صفة للنكرة، فقدّم عليها.
- (٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٤)، «والبحر المحيط» (١٦٥/٦)، «والدر المصون» (٤٩١/٤).
- (٣) قرأ بها محمد بن علي، وعلي بن الحسن، وسعيد بن العاص، وابن يعمر، وسعيد بن جبير، وشَيْبَل بن عَزْرة.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص (٨٦)، «والمحتسب» (٣٧/٢)، «والكشاف» (٤/٣)، «والمحرر الوجيز» (٥/٤)، «والبحر المحيط» (١٦٥، ١٦٦)، وزاد نسبتها إلى الوليد بن مسلم عن ابن عامر.

وهي في «الدر المصون» (٤٩١/٤).

- (٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٢٥٠).

النبوة، وعليها خاف أن تخرج عن عَقْبِهِ، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّا - مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ - لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ»^(١) انتهى.

وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وغيرهما - رضي الله عنهم - «يَرِثُنِي وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»^(٢).

ت: وقوله: «فهب لي» قال ابن مالك في «شرح الكافية» اللام هنا: هي لام التعديّة؛ وقاله ولده في «شرح الخلاصة».

قال ابن هشام: والأوّل عندني أن يمثل للتعديّة بنحو: ما أكرم زيداً وعمرو، وما أحبه ل بكر، انتهى.

١٢ وقوله: «من آل يعقوب» يريد يرث منهم الحكمة / والعلم، والنبوة، و«رضياً» معناه: مرضياً، والعافر من النساء التي لا تلد من غير كبرة، وكذلك العافر من الرجال.

وقوله: «لم نجعل له من قبل سمياً» معناه في اللغة: لم نجعل له مُشَارِكاً في هذا الاسم، أي: لم يسم به قبل يحيى، وهذا قول ابن عباس^(٣) وغيره.

وقال مجاهد^(٤) وغيره: «سمياً» معناه: مثيلاً، ونظيراً، وفي هذا بعد: لأنه لا

(١) ينظر الحديث السابق.

(٢) وبها قرأ عاصم الجحدري، وابن يعمر، وأبو حرب بن أبي الأسود، والحسن، وقتادة، وأبو نهيك، وجعفر بن محمد.

قال أبو الفتح: هذا ضرب من العربية غريب، ومعناه التجريد، وذلك أنك تريد: فهب لي من لدنك ولياً يرثني منه أو به وارث من آل يعقوب.

وهو الوارث نفسه، فكأنه جرد منه وارثاً. ومثله قول الله تعالى: «لهم فيها دار الخلد» [فصلت: ٢٨]، فهي نفسها دار الخلد، فكأنه جرد من الدار داراً، وعليه قول الأخطل: [الطويل]
بنزوة لص بعد ما مر مصعب بأشعث لا يُفكلى ولا هو يَفْمَلُ
ومصعب نفسه هو الأشعث، فكأنه استخلص منه أشعث. ١. هـ.

ينظر: «المحتسب» (٣٨/٢)، «ومختصر الشواذ» (٨٦)، «والكشف» (٥/٣)، «والمحرر الوجيز» (٤/٥)، «والبحر المحيط» (١٦٥/٦)، «والدبر المصون» (٤٩٢/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٦/٤)، والسيوطي (٤٦٨/٤) وعزاه إلى الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٣٠٩/٨) برقم: (٢٣٥٠٥)، وذكره ابن عطية (٦/٤)، وابن كثير (١١٢/٣)، والسيوطي (٤٦٨/٤).

يفضل على إبراهيم وموسى عليهما السلام إلا أن يفضل في خاص؛ كالسودد^(١)،
والحصر.

والعتي، والعسي: المبالغة في الكبر، أو يُنس العود، أو شيب الرأس، أو عقيدة ما،
وزكرياء: هو من ذرية هارون - عليهما السلام - ومعنى قوله: ﴿سَوِيًّا﴾ فيما قال الجمهور،
صحيحاً من غير علة، ولا خرس.

وقال ابن عباس: ذلك عائذ على الليالي، أراد: كاملات مستويات^(٢).

وقوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ قال قتادة^(٣)، وغيره: كان ذلك بإشارة.

وقال مجاهد^(٤): بل بكتابة في التراب.

قال *ع^(٥): *وَكَلَّا الْوَجْهَيْنِ وَخِي.

وقوله: ﴿أَنْ سَبَحُوا﴾ قال قتادة: معناه صلوا السُّبْحَةَ، والسُّبْحَةُ: الصلاة^(٦)، وقالت
فرقة: بل أمرهم بذكر الله، وقول: سُبْحَانَ اللَّهِ.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾

وقوله - عز وجل - : [﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ المعنى: قال الله له: يَا يَحْيَى^(٧)
خذ الكتاب، وهو التوراة، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: العلم به، والحفظ له، والعمل به،
والالتزام للوازمه.

(١) السُّودْدُ: الشرف، وقد يهمز وتضم الدال.

ينظر: «لسان العرب» (٢١٤٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٣١٤/٨) رقم (٢٣٥٣٩)، وذكره ابن عطية (٧/٤)، والبغوي (٣/١٩٠)، وابن كثير (١١٣/٣).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٧) سقط في ج.

وقوله: ﴿صَبِيًّا﴾ يريد: شاباً لم يبلغ حد الكهولة، ففي لفظ صبي على هذا، تجوُّز، واستصحاب حال.

وروى مَعْمَرُ أَنَّ الصَّبِيَّانِ دَعَا يَخِيَّ إِلَى اللَّعْبِ، وَهُوَ طِفْلٌ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِلْعَبِّ، فَتِلْكَ الْحِكْمَةُ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ صَبِيٌّ^(١)، وقال ابن عباس: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم، فهو ممن أوتي الحكمة صَبِيًّا^(٢). «والحنان»: الرحمة، والشفقة، والمحبة؛ قاله جمهور المفسرين، وهو تَفْسِيرُ اللغة؛ ومن الشواهد في «الْحَنَانِ» قول النابغة: [الطويل]

أَبَا مُنْذِرٍ، أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَغْضَنَا حَنَانِيكَ بَغْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَغْضِ^(٣)
وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ بمعنى تعظيماً مِنْ لَدُنَّا^(٤).

قال *ع^(٥)*: وهو أيضاً ما عظم من الأمر لأجل الله عز وجل ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال: وَاللَّهِ، لَئِنْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْعَبْدَ لَأَتَّخِذَنَّ قَبْرَهُ حَنَانًا^(٦).

قال *ص^(٧)*: قال أبو عبيدة: وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ مَثْنَى. انتهى، والزكاة التنمية، والتطهير في وجوه الخير.

قال مجاهد: كان طعامُ يَخِيَّ العُشْبِ، وكان للدمع في حَذِّهِ مجارٍ ثابتة، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا^(٧)، روي أن يحيى عليه السلام لم يواقع معصية قط صغيرة ولا كبيرة، والبر كثير البر، والجبار: المُتَكَبِّرُ، كأنه يجبر الناس على أخلاقه.

(١) أخرجه الطبري (٣١٥/٨) برقم: (٢٣٥٤٨)، وذكره ابن عطية (٧/٤)، وابن كثير (١١٣/٣)، والسيوطي (٤٧٠/٤)، وعزاه لأحمد في «الزهد»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخراطي، وابن عساكر عن معمر بن راشد.

(٢) ذكره ابن عطية (٧/٤)، والبغوي (١٩٠/٣) والسيوطي (٤٧٠/٤)، وعزاه لابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً.

(٣) البيت لطرفة بن العبد في «ديوانه» ص (٦٦)، و«الدرر» (٦٧/٣)، و«الكتاب» (٣٤٨/١)، و«ولسان العرب» (١٣٠/١٣) (حنن)، و«همع الهوامع» (١٩٠/١)، وبلا نسبة في «جمهرة اللغة» ص (١٢٧٣)، و«شرح المفصل» (١١٨/١)، و«المقتضب» (٢٢٤/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٣١٦/٨) رقم (٢٣٥٥٩)، وذكره ابن عطية (١١٣/٣).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٧) ذكره ابن عطية (٨/٤).

وقوله: ﴿وسلام عليه﴾ قال الطبري^(١)، وغيره: معناه وأمان عليه.

قال *ع^(٢): ﴿والأظهر عندي: أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصّل له بنفي العضيان عنه، وهو أقلّ درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه، وحيّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف، والحاجة، وقلة الحيلة.﴾

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، الكتاب: هو القرآن، والانتباز: التنحي.

قال السدّي: انتبذت لتطهر من حيض^(٣)، وقال غيره: لتعبد الله عز وجل.

قال *ع^(٤): ﴿وهذا أحسن.﴾

وقوله: ﴿شرقياً﴾ يريد: في جهة الشرق من مساكن أهلها، وكانوا يعظمون جهة المشرق؛ قاله الطبري.

وقال بعض المفسرين: اتخذت المكانَ شرقي المحراب.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾، أي: لتستتر به عن الناس؛ لعبادتها. «والروح»: جبريل عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿قالت إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾، المعنى: قالت مريمُ للملك الذي تمثّل لها بشراً، لما رآته قد خرق الحجاب / الذي اتخذته؛ فأساءت به الظن: ٢ ب أعوذ بالرحمن منك إن كنت ذا تقى، فقال لها جبريل عليه السلام: ﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾.

(١) ينظر «الطبري» (٣١٨/٨).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٨/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٩/٨) برقم (٢٣٥٧٢)، وذكره ابن عطية (٩/٤)، وابن كثير (١١٤/٣) بمعناه.

(٤) ينظر «المحرر الوجيز» (٩/٤).

وقرأ أبو عمرو^(١) ونافع بخلاف عنه «لِيَهَبَ»^(٢).

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ (٢٥) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٢٦) ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٧) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلِّتَنِي مَثُ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيًّا﴾ (٢٨).

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾، والبغي: الزانية، وروي: أن جبريل - عليه السلام - حين قاولها هذه المقولة، نفخ في جيب درعها؛ فسرت النفخة بإذن الله تعالى حتى حملت منها؛ قاله وهب بن مُثَبِّه، وغيره^(٣).

وقال أبيُّ بن كعب^(٤): دخل الروح المنفوخ من فمها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: فحملت الغلام، ويذكر أنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة، فلما أَحَسَّت بذلك، وخافت تعنيف الناس، وأن يُظَنَّ بها الشرُّ ﴿انْتَبَذَتْ﴾ أي: تنحت مكاناً بعيداً؛ حياءً وفراراً على وجهها، و﴿أَجَاءَهَا﴾ معناه: اضطرَّها، وهو تعدية [جاء] بالهمزة.

و﴿المخاض﴾: الطَّلُق، وشدة الولادة، وأوجاعها، وروي: أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة بال يابس، في أضله مذود بقرة، على جرية ماء، فاشتدَّ بها الأمرُ هنالك، واحتضنت الجذع؛ لشدة الوجع، وولدت عيسى عليه السلام فقالت عند ولادتها؛ لما رأتَه من صعوبة الحال من غير ما وجه: ﴿يا ليتني مت قبل هذا﴾ فتمنت الموت من جهة الدين؛ أن يُظَنَّ بها الشر، وخوف أن تُفْتَنَّ بتغيير قومها، وهذا مُباح؛ وعلى هذا الحد تمناه عمر - رضي الله عنه -.

(١) وأما قراءتهما، فإنهما أسندا الفعل إلى ضمير «ربك»، فكانه قال: «ليهب الله «أو ربك» لك»، ولم يكن جبريل الذي يهب بل الله سبحانه.

وأما قراءة الباقرين، فقد أسندا الفعل للمتكلم، والهة لله سبحانه، ومنه أمر الرسول والوكيل قد يسندان هذا النحو إلى أنفسهم وإن كان الفعل للمرسل والموكل.

ينظر: «السبعة» (٤٠٨)، و«الحجة» (١٩٥/٥)، و«اعراب القراءات» (١٤/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٣٢)، و«حجة القراءات» (٤٤٠) و«شرح الطيبة» (٣٠/٥)، و«العنوان» (١٢٦)، و«شرح شعلة» (٤٨٥)، و«إتحاف» (٢٣٤/٢).

(٢) في ج: لأهب.

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٢/٨) برقم (٢٣٥٩١)، وذكره ابن عطية (١٠/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (١٠/٤)، والبغوي (١٩٢/٣).

﴿وَكُنْتَ نَسِيًّا﴾ أي: شيئاً مَثْرُوكاً محتقراً، والنَّسيُّ في كلام العرب؛ الشيءُ الحقير الذي شأنه أن يُنسى، فلا يُتَأَلَّمُ لفقده؛ كالوتد، والحبل للمسافر، ونحوه.

وهذه القصة تقتضي أنها حملت واستمرت حاملاً على عُزف البشر، واستخيت من ذلك؛ ومَرَّت بسببه، وهي حاملٌ، وهو قول جمهور المتأولين.

وروي عن ابن عباس أنه قال: ليس إلا أن حملت، فوضعت في ساعة واحدة؛ والله أعلم^(١).

وظاهر قوله: ﴿فَاجْأَهَا الْمَخَاضُ﴾ أنها كانت على عُزف النساء.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكِ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ شَقِيطَ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكَلِمًا أَشْرَى وَفَرَى عَيْنًا فَامَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَبْرُمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَتَأَخَتِ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم^(٢): «فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتِهَا» على أن «مَنْ» فاعل بنادي، والمراد بـ «مَنْ» عيسى؛ قاله مجاهد، والحسن، وابن جبير، وأبي بن كعب^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٣٢٥/٨) برقم (٢٣٦٠٥)، وذكره ابن عطية (١١/٤)، والبغوي (١٩٢/٣)، وابن كثير (١١٦/٣).

(٢) إنما قرأها عاصم هكذا من رواية أبي بكر، وإلا فهي من رواية حفص المشهورة مثل الباقيين «من تحتها». وحجة هؤلاء أنه روي عن أبي قال: الذي خاطبها هو الذي حملته في جوفها. وحجة الباقيين ما روي عن ابن عباس أنه قال: «من تحتها»: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

ينظر: «السبعة» (٤٠٨-٤٠٩)، و«الحجة» (١٩٧/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦/٢)، و«معاني القراءات» (١٣٣/٢)، و«شرح الطيبة» (٣٢/٥)، و«العنوان» (١٢٦)، و«شرح شعلة» (٤٨٥)، و«حجة القراءات» (٤٤١)، و«إتحاف» (٢٣٥/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٧/٨) عن مجاهد برقم (٢٣٦٢٦)، والحسن برقم (٢٣٦٣١)، وابن جبير برقم (٢٣٦٣٣)، وأبي بن كعب (٢٣٦٣٥)، وذكره ابن عطية (١١/٤)، والبغوي (١٩٢/٣) عن مجاهد والحسن، وابن كثير (١١٧/٣) عن مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، والسيوطي (٤٨٢/٤) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

والثاني: عزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن. والثالث: عزاه لابن المنذر عن أبي بن كعب.

وقال ابن عباس: المراد بـ «مَنْ» جِبْرِيلُ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها^(١).
والقول الأول أظهر وأبين، وبه يتبين عُذر مريم، ولا تبقى بها استرابة.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحَفْصٌ عن عاصِم: «مِنْ تَحْتِهَا» بكسر الميم،
واختلفوا أيضاً فقالت فرقة: المرادُ عيسى، وقالت فرقة: المرادُ جِبْرِيلُ المحاور لها قَبْلُ.
قالوا: وكان في بُقعة أخفَضَ من البُقعة التي كانت هي عليها؛ والأول أظهر.
وقرأ ابن عباس^(٢): «فَتَادَاهَا مَلَكٌ مِنْ تَحْتِهَا».

والسري: من الرجال العظيم السيد، والسري: أيضاً الجدول من الماء؛ وبحسب هذا
اختلف الناس في هذه الآية.

فقال قتادة، وابن زيد: أراد جعل تحتك عَظِيماً من الرجال، له شأن^(٣).

وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول، ثم أمرها بهز الجذع اليابس؛ لترى آية
أخرى.

وقالت فرقة: بل كانت النخلة مطعمة رطباً، وقال السدي: كان الجذع مقطوعاً،
وأجري تحتها النهر لحينه^(٤).

قال *ع*^(٥): والظاهر من الآية: أن عيسى هو المكلّم لها، وأن الجذع كان يابساً؛
فهي آيات تسليها، وتسكن إليها.

قال *ص*^(٦): قوله: «وَهْزِي إِلَيْكَ» تقرر في علم النحو أن الفعل لا يتعدى إلى
ضمير مُتَّصِل، وقد رفع المتصل، وهما لمدلول واحد، وإذا^(٦) تقرر هذا؛ فـ «إِلَيْكَ» لا
يتعلق بـ «هْزِي»، ولكن يمكن أن يكون «إِلَيْكَ» حالاً من جذع النخلة؛ فيتعلق بمحذوف؛
أي: هزي بجذع النخلة مُنْتَهِياً إِلَيْكَ. انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٣٢٧/٨) برقم (٢٣٦٢٥)، وذكره ابن عطية (١١/٤)، والبقوي (١٩٢/٣)، وابن كثير (١١٧/٣)، والسيوطي (٤٨٢/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١/٤)، «والبحر المحيط» (١٧٣/٦).

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٠/٨) عن قتادة برقم (٢٣٦٥٦)، وابن زيد برقم (٢٣٦٥٧)، وذكره ابن عطية (٤/١١)، وابن كثير (١١٧/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٣٣٠/٤) برقم (٢٣٦٦٢)، وابن عطية (١١/٤).

(٥) ينظر «المحرر الوجيز» (١١/٤ - ١٢).

(٦) في ج: تقدر.

والباء في قوله: ﴿بِجُذَعٍ﴾: زائدة مؤكدة، ﴿وَجَنِيًّا﴾: معناه: قد طابت / وصلحت ١٣ للاجتناء، وهو من جَنَيْتُ الثمرة.

وقال عَمْرُو بْنُ مَيْمُون^(١): ليس شيءٌ لِلنَّفْسَاءِ خيراً من التَّمْرِ، والرُّطْبِ.

وقرء العَيْنُ مأخوذة من القُرْءِ؛ وذلك، أَنَّهُ يحكى: أَن دَمَعَ الفرح باردُ المَسِّ، ودَمَعَ الحُزْنُ سخن المَسِّ^(٢)، وقيل: غير هذا.

قال *ص*: ﴿وقري عينا﴾ أي: طيبي نفساً. أبو البَقَاء: «عينا»: تمييز. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا...﴾ الآية، المعنى: أَن الله عز وجل أمرها على لسان جِبْرِيلَ عليه السلام أو أبنها؛ على الخلاف المتقدم: بَأَن تُمَسِّكَ عن مخاطبة البشر، وتحيل على أبنها في ذلك؛ ليرتفع عنها خجلها، وتبين الآية؛ فيقوم عذرهما.

وظاهر الآية: أَنها أُبِيحَ لها أَن تقولَ مضمن هذه الألفاظ التي في الآية؛ وهو قول الجمهور.

وقالت فرقة: معنى ﴿قولي﴾ بالإشارة، لا بالكلام.

قال *ص*: وقوله: ﴿فقولي﴾ جوابُ الشرط، وبينهما جملةٌ محذوفةٌ يدل عليها المعنى؛ أي فإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا، وسألك أو حاورك الكلام، فقولي. انتهى.

﴿وصوما﴾ معناه عن الكلام؛ إِذ أَصْلُ الصَّوْمِ الإِمْسَاكُ.

وقرأت فرقة: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَمْتًا» ولا يجوز في شَرْعِنَا نَذَرُ الصَّمْتِ؛ فروي: أَن مريم عليها السلام لما اطمأنت بما رأت مِنَ الْآيَاتِ، وعلمت أَن الله تعالى سيبينُ عذرَها، أَتَتْ به تحمله مدلة من المكان القَصِيّ الذي كانت مُتَبَذَّةً به، والفَرِيُّ: العظيمُ الشَّيْخُ؛ قاله مجاهد^(٣)، والسُّدِّيُّ، وأكثرُ استعماله في السُّوءِ.

(١) ذكره ابن عطية (١٢/٤).

(٢) في ج: الملمس.

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٥/٨) عن مجاهد برقم (٢٣٦٨٢)، وعن السدي برقم (٢٣٦٨٥)، وذكره ابن عطية (١٣/٤)، والبعوي (١٩٣/٢)، وابن كثير (١١٨/٣)، والسيوطي (٤٨٦/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

واختُلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، فقيل: كان لها أخ اسمه هارون؛ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل.

وروى المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ أرسله إلى أهل نَجْرَانَ في أمر من الأمور، فقالت له النصارى: إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون، وبينهما في المدة ست مائة سنة.

قال المغيرة: فلم أدر ما أقول، فلما قدمت على النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: أَلَمْ يَعْلَمُوا أنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين^(١).

قال *ع*^(٢): فالمعنى أنه اسم وافق اسماً.

وقيل: نسبوها إلى هَارُونَ أَخِي مُوسَى؛ لأنها من نسله؛ ومنه قوله ﷺ: «إِنْ أَخَا ضِدَاءٍ أَذَّنَ، وَمَنْ أَذَّنَ، فَهُوَ يُقِيمُ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٦٨٥/٣) كتاب الآداب: باب النهي عن التكني بأبي القاسم، حديث (٢١٣٥/٩)، والترمذي (٣١٥/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة مريم، حديث (٣١٥٥)، والنسائي في التفسير (٢/٢٩) رقم (٣٣٥)، وأحمد (٢٥٢/٤)، وابن أبي شيبه (٥٥١/١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٦/٧٧-٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤١١/٢٠) رقم (٩٨٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/٣٩٢)، وابن حبان (٦٢٥٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/١٩٤) كلهم من طريق عبد الله بن إدريس عن أبيه عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة به.

وقال الترمذي: حديث صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن إدريس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٨٦)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (١٣/٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩/٤)، وأبو داود (٣٥٢/١) كتاب الصلاة: باب في الرجل يؤذن، ويقيم آخر، الحديث (٥١٤)، والترمذي (١/٣٨٤) كتاب الصلاة: باب ما جاء أن من أذن فهو يقيم، الحديث (١٩٩)، وابن ماجه (١/٢٣٧) كتاب الأذان: باب السنة في الأذان، الحديث (٧١٧)، والبيهقي (١/٣٩٩) كتاب الصلاة: باب الرجل يؤذن ويقيم غيره، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/٥٠٣)، وأبو نعيم (١/٢٦٦) في «التاريخ»، من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفرقي، عن زياد بن نعيم الحضرمي، عن زياد بن الحارث الصدائي به، وقال الترمذي: (إنما يعرف من حديث الأفرقي.. وقد ضعفه القطان وغيره.. قال: ورأيت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - يقوي أمره، ويقول: هو مقارب الحديث).

وللحديث شاهد من حديث ابن عمر:

قال: أبطأ بلال يوماً بالأذان، فأذن رجل، فجاء بلال فأراد أن يقيم، فقال رسول الله ﷺ: «يقيم من أذن» =

وقال قتادة: نسبوها إلى هَارُونَ اسم رَجُلٍ صَالِحٍ في ذلك الزمان^(١).

وقالت فرقة: بل كان في ذلك الزمان رجلٌ فَاجِرٌ اسمه هَارُونَ نسبوها إليه؛ على جهة التَّعْيِيرِ.

ت: واللَّهُ أعلمُ بصحة هذا، وما رواه المُغيرةُ إن ثبت هو المعوَّلُ عليه، وقولهم: ﴿ما كان أبوك امرأً سوءاً﴾ المعنى: ما كان أبوك، ولا أمك أهلاً لهذه الفِغلة، فكيف جئت أنت بها؟ والبغي: التي تبغي الزنا، أي: تطلبه.

﴿فَأَسَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسَارَتْ إِلَيْهِ﴾ يقوي قول مَنْ قال: إِنَّ أمرها بـ ﴿قُولِي﴾، إنما أريد به الإشارة.

وقوله: ﴿آتاني الكتاب﴾ يعني الإنجيل، ويحتمل أن يريد التوراة والإنجيل، و«آتاني» معناه: قضى بذلك - سُبْحَانَهُ - وأنفذه في سابقِ حُكْمِهِ، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿آتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ قيل: هما المشروعتان في البدن، والمال.

وقيل: الصلاة: الدعاء، والزكاة: التطهُُّرُ من كُلِّ غَيْبٍ، ونقصٍ، ومعصية. والجبار: المتعظَّمُ؛ وهي خلق مقرونة بالشقاء؛ لأنَّها مناقضة لجميع الناس، فلا يلقي صاحبها من كل أحد إلا مكروهاً، وكان عيسى عليه السلام في غاية التَّوَّاضُعِ؛ يأكل الشجر، ويلبسُ الشَّعْرَ، ويجلس على الأرض، ويأوي حيث جَئَهُ الليل. لَا مَسْكَنَ لَهُ.

= أخرجه عبد بن حميد في «المتخب من المسند» (ص - ٢٥٨)، رقم (٨١١)، والبيهقي (٣٩٩/١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٠٥/٢) من طريق سعيد بن راشد السماك، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر به، وقال البيهقي: تفرد به سعيد بن راشد، وهو ضعيف. وأخرج العقيلي (١٠٥/٢) بسنده عن يحيى بن معين، قال: سعيد بن راشد السماك يروي «من أذن فهو يقيم»، ليس حديثه بشيء.

(١) أخرجه الطبري (٣٣٥/٨) برقم (٢٣٦٨٧)، وذكره ابن عطية (١٤/٤)، والبغوي (١٩٣/٣)، وابن كثير (١١٩/٣).

قال قتادة: وكان يقول: سَلُونِي؛ فَإِنِّي لَتِنَ الْقَلْبِ، صَغِيرٌ فِي نَفْسِي^(١).

وقالت فرقة: إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أُوتِيَ الْكِتَابَ وَهُوَ فِي سِنِّ الطُّفُولِيَّةِ، وَكَانَ يَصُومُ، وَيُصَلِّي.

٣ ب قال *ع^(٢): / وهذا في غاية الضَّعْف.

ت: وضعفه مِنْ جِهَةٍ سَنَدِهِ؛ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ لَا يَجِيلُهُ؛ لَا سِيَّما وَأَمْرُهُ كُلَّهُ خَرَقَ عَادَةً، وَفِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، وَغَيْرِهِ: أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ عِيسَى أَدْعَنُوا وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ عَظِيمٌ.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ المعنى: قل يا محمد، لمعاصريك من اليهود والنصارى ذلك الذي هذه قصته؛ عيسى ابنُ مريم.

وقرأ نافع، وعامة الناس^(٣): «قَوْلَ الْحَقِّ» برفع القول؛ على معنى هذا هو قول الحق.

وقرأ عاصم، وابنُ عامرٍ: «قَوْلَ الْحَقِّ» بنصب اللام^(٤)؛ على المصدر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ...﴾ الآية، هذا من تمام القول الذي أمر به محمد ﷺ: أَنْ يَقُولَهُ، ويحتمل أَنْ يكون من قول عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويكون قوله: «أَنَّ» بفتح الهمزة، عطفاً على قوله: «الكتاب».

وقد قال وَهْبُ بْنُ مُثَنَّبٍ: عهد عيسى إليهم: أَنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣٣٩/٨) برقم (٢٣٧١٣)، وذكره ابن عطية (١٥/٤).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (١٥/٤).

(٣) ينظر: «السبعة» (٤٠٩)، و«الحجة» (٢٠١/٥)، و«إعراب القراءات» (١٨/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٣٥)، و«شرح الطيبة» (٣٣/٥)، و«العنوان» (١٢٧)، و«شرح شعلة» (٤٨٦)، و«حجة القراءات» (٤٤٣)، و«إتحاف» (٢٣٦/٢).

(٤) في ج: القول.

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٢/٨) رقم (٢٣٧٢١) بنحوه، وذكره ابن عطية (١٥/٤).

ت*: وما ذكره وَهَبُ [مصرح به في القرآن، ففي آخر المائدة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...﴾ الآية. [المائدة: ١١٧]. وامترواؤهم^(١) في عيسى هو اختلافهم؛ فيقول بعضهم: لَزَيْتُهُ، وهم اليهود، ويقول بعضهم: هو الله؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فهذا هو امتراؤهم، وسيأتي شرح ذلك بإثر هذا.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧) أَسْبَغَ بِهِمْ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٨) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩).

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ هذا ابتداء خبر من الله تعالى لمحمد ﷺ بأن بني إسرائيل اختلفوا أحزاباً، أي: فرقاً.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ بمعنى: من تلقائهم، ومن أنفسهم ثار شرهم، وإن الاختلاف لم يخرج عنهم؛ بل كانوا هم المختلفين.

وروي في هذا عن قتادة: أَنَّ بني إسرائيل جمعوا من أنفسهم أربعة أحبار غاية في المَكَانَةِ وَالْجَلَالَةِ عندهم وطلبوهم أن يبيئوا لهم أَمْرَ عِيسَى فقال أحدهم: عيسى هو الله؛ تعالى الله عن قولهم.

وقال له الثلاثة: كذبت، واتبعه اليعقوبية، ثم قِيلَ لِلثَلَاثَةِ؛ فقال أحدهم: عيسى ابنُ الله، [تعالى الله عن قولهم]^(٢) فقال له الاثنان: كذبت، واتبعه السُّنْطُورِيَّةُ، ثم قِيلَ لِلَاثْنَيْنِ؛ فقال أحدهما: عيسى أحد ثلاثة: الله إله، ومريم إله، وعيسى إله؛ [تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً]^(٣) فقال له الرابع: كذبت، وَأَتَّبَعْتُهُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ، فَقِيلَ لِلرَّابِعِ؛ فقال: عيسى عبدُ الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، فَاتَّبَعَ كُلُّ وَاحِدٍ فَرِيقٌ مِنْ/بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ اقْتَتَلُوا فَعُلبَ الْمُؤْمِنُونَ، وَقُتِلُوا، وَظَهَرَتِ الْيَعْقُوبِيَّةُ عَلَى الْجَمِيعِ^(٤).

و«الويل»: الحزن، والثبور، وقيل: «الويل»: وادٍ في جهنم، و﴿مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: هو يوم القيامة.

(١) سقط في ج.

(٢) سقط في ب، ج.

(٣) في ب، ج سقط.

(٤) أخرجه الطبري (٣٤٣/٨) برقم (٢٣٧٢٤)، وذكره ابن عطية (١٦/٤)، وابن كثير (١٢١/٣)، والسيوطي (٤٨٨/٤، ٤٨٩)، وعزه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه.

وقوله سبحانه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أَسْمَعَهُمْ، وأبصرهم يوم يرجعون إلينا، ويرَوْنَ ما نصنع بهم، ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أي: في الدنيا في ﴿ضلال مبين﴾ أي بين، ﴿وأُنذِرهم يومَ الحسرة﴾ وهو يوم ذَنَح الموت؛ قاله الجمهور.

وفي هذا حديثٌ صحيحٌ خرجه البخاري وغيره عن النبي ﷺ: أَنَّ الْمَوْتَ يُجَاءُ بِهِ فِي صُورَةٍ كَبِشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ عَلَى الصُّرَاطِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُنَادَى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ لَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأُنذِرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ...﴾^(١) [الآية]^(٢).

قال *ع^(٣): [وعند ذلك تُصِيبُ أَهْلَ النَّارِ حَسْرَةٌ لَا حَسْرَةَ مِثْلَهَا.

وقال ابنُ زيد، وغيره: يَوْمَ الْحَسْرَةِ]^(٤): هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ^(٥).

قال *ع^(٦): ويحتمل أن يكونَ يومَ الحسرة اسمُ جنسٍ شاملٌ لحَسَرَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ بحسبِ مواطنِ الآخرة: منها يومَ مَوْتِ الْإِنْسَانِ، وأَخَذِ الْكِتَابِ بِالشَّمَالِ، وغير ذلك، ﴿وهم في عَفْلَةٍ﴾ يريد: في الدنيا.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢/٨) كتاب التفسير: باب ﴿وأُنذِرهم يومَ الحسرة﴾ حديث (٤٧٣٠)، ومسلم (٤/٢١٨٨-٢١٨٩) كتاب الجنة والنار: باب النار يدخلها الجبارون، حديث (٤٠، ٢٨٤٩/٤١)، والترمذي (٥/٣١٥-٣١٦) كتاب التفسير: باب ومن سورة مريم، حديث (٣١٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (٦/٣٩٣) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وأُنذِرهم يومَ الحسرة﴾، حديث (١١٣١٦)، وأحمد (٣/٩)، وأبو يعلى (٢/٣٦٤) رقم (١١٢٠)، والطبري في «تفسيره» (٨/٣٤٥) رقم (٢٣٧٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٨٩)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/٣٩٣-٣٩٤) كتاب التفسير: باب قوله تعالى ﴿وأُنذِرهم يومَ الحسرة﴾ حديث (١١٣١٧)، والطبري في «تفسيره» (٨/٣٤٥) رقم (٢٣٧٣٤) كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٨٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) سقط في ب.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٧).

(٤) سقط في ب.

(٥) أخرجه الطبري (٨/٣٤٥) برقم (٢٣٧٣٧)، وذكره ابن عطية (٤/١٧)، وابن كثير (٣/١٢٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٧).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ يُتَابِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤١) ﴿يَتَابِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٤٢) ﴿يَتَابِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٣) ﴿يَتَابِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٤) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ (٤٥).

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ...﴾ الآية، عبارة عن بقاءه - جل وعلا - بعد فناء مخلوقاته، لا إله غيره.

وقوله: - عز وجل -: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا / نَبِيًّا...﴾ (٤١) الآية، قوله: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ بمعنى أتْلُ وشهر؛ لأن الله تعالى هو الذاكر؛ ﴿والكتاب﴾: هو القرآن، والصديق: بناءً مبالغةً فكان إبراهيم عليه السلام [يُوصَفُ] ^(١) بالصدق في أفعاله وأقواله.

وقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ...﴾ الآية، قال الطبري ^(٢): «أخاف» بمعنى أعلم.

قال ع ^(٣): ﴿والظاهرُ عندي أنه خوفٌ على بابه؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام في وقتِ هذه المقالة لم يكن آيساً من إيمان أبيه.

*ت: ﴿ونحو هذا عبارة المهدوي ^(٤)، قال: قيل: «أخاف» معناه: أعلم، أي: إني أعلم إن متَّ على ما أنت عليه.

ويجوز أن يكون «أخاف» على بابه، ويكون المعنى: إني أخاف أن تموت على كفرك؛ فيمسك العذاب. انتهى.

وقوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قال الضحاك ^(٥)، وغيره: معناه بالقول، أي: لأشتمنك.

وقال الحسن: معناه: لأزجمنك بالحجارة ^(٦).

(١) سقط في ب.

(٢) ينظر: «الطبري» (٣٤٧/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨/٤).

(٤) ذكره البغوي (١٩٧/٣)، ولم يعزه لأحد.

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٧/٨) برقم (٢٣٧٤١)، وذكره ابن عطية (١٨/٤)، والبغوي (١٩٧/٣)، وابن كثير (١٢٣/٣).

(٦) ذكره ابن عطية (١٨/٤)، والبغوي (١٩٧/٣).

وقالت فرقة: معناه لأَقْتُلَنَّكَ، وهذان القولان بمعنَى واحدٍ.

وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ على هذا التَّأْوِيلِ إنما يترتب بَأْنُهُ أَمْرٌ على حياله؛ كأنه قال: إن لم تَنْتَه قَتْلُكَ بِالرَّجْمِ، ثم قال له: وَاهْجُرْنِي، أي: مع أَنْتَهائِكَ، و﴿مَلِيًّا﴾ معناه: دهرًا طويلاً مأخوذٌ مِنَ الْمَلُونِ؛ وهما اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ؛ هذا قول الجمهور.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَقِيئَةٍ ٤٧﴾ وَأَعْتَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدَعَايَ رَبِّي شَفِيئًا ٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَّلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ٥٠﴾.

وقوله: ﴿قال سلام عليك﴾ اختلف في معنى تسليمه على أبيه، فقال بعضهم: هي تحية مفارقة، وجوزوا تحية الكافر وأن يُبدَأَ بها.

وقال الجمهور: ذلك السلام بمعنى المُسَالَمَةِ، لا بمعنى التَّحِيَّةِ.

وقال الطبري^(١): معناه أَمْنَةٌ مِنِّي لك؛ وهذا قول الجمهور؛ وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسَّلام.

وقال النَّقَّاش: حليمٌ خاطب سَفِيهًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٢) [الفرقان: ٦٣].

وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ معناه: سأَدْعُو اللَّهَ تعالى في أن يَهْدِيكَ، فيَغْفِرَ لك بِإِيمَانِكَ، ولَمَّا تَبَيَّنَ له أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ منه.

والْحَقِيئَةُ: المهتبلُ المتلطفُ، وهذا شُكْرٌ من إبراهيمَ لنعم الله تعالى عليه، ثم أخبر إبراهيمَ عليه السلام بأنه يعتزلهم، أي: يصير عنهم بمَغْزَلٍ، ويروى: أنهم كانوا بأَرْضِ كُوثَى، فرحل عليه السلام حَتَّى نَزَلَ الشَّامَ، وفي سفرته تلك لَقِيَ الْجَبَّارَ الَّذِي أَخْدَمَ هَاجِرَ... الحديث الصحيح بطوله^(٣)، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون.

وقوله: ﴿عَسَىٰ﴾: تَرَجُّجٌ في ضَمْنِهِ خَوْفٌ شديد.

وقوله سبحانه: ﴿فلما أَعْتَزَّلَهُمْ...﴾ إلى آخر الآية: إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ أَنَّهُ لَمَّا رَحَلَ إبراهيم عن بلد أبيه وقومه، عَوَّضَهُ اللَّهُ تعالى من ذلك ابْنَهُ إِسْحَاقَ، وابنَ ابْنِهِ

(١) ينظر: «الطبري» (٣٤٩/٨).

(٢) ذكره ابن عطية (١٩/٤).

(٣) تقدم هذا الحديث في «تفسير سورة إبراهيم».

يَعْقُوبَ - على جميعهم السلام - وجعل الولد له تَسْلِيَةً، وشَدًّا لِعَضْدِهِ.

وإِسْحَاقُ أصغر من إِسْمَاعِيلَ، ولما حملت هاجرُ بِإِسْمَاعِيلَ، غَارَتْ سَارَةُ؛ فحملت بِإِسْحَاقَ، هكذا فيما روي.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يريد: العِلْمَ، والمنزلةَ، والشَّرَفَ في الدنيا، والتَّعْلِيمَ في الآخرة؛ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عز وجل، وَلِسَانُ الصَّدَقِ: هو الثَّنَاءُ الْبَاقِي عَلَيْهِمْ آخر الأبد؛ قاله ابنُ عباس^(١) وإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عليه السلام وذريته مُعْظَمَةٌ في جميع الأُمَمِ والمِلَلِ.

قال *ص*: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا [نَبِيًّا]^(٢)﴾ أبو البقاء: هو منصوبٌ بـ ﴿جَعَلْنَا﴾. انتهى.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَحِيًّا ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾.

وقوله (عز وجل): ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾، أي: على جهة التَّشْرِيفِ له، ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ هو تَكْلِيمُ اللَّهِ له، والأَيْمَنُ: صفةٌ لَجَانِبِ، وكان على يَمِينِ مُوسَى، وإِلا فالجبل نفسه لَا يَمْنَةً له ولا يَسْرَةً، ويحتمل أن يكون الأَمْنُ مأخوذاً من الأَيْمَنِ، ﴿وقربناه﴾ أي: تقرب تشريف، والتَّجِي: من المُنَاجَاةِ.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِنْ تَأَنَّيْ عَلَيْهِمُ بَلِّغْتَ الْرَّحْمَنَ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَبُكِّيًّا ٥٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ هو أيضاً من لسانِ الصَّدَقِ المضمون بقاؤه على إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وإِسْمَاعِيلَ عليه السلام: هو أبو العربِ اليوم؛ وذلك أنَّ الْيَمَنِيَّةَ والمُضَرِّيَّةَ ترجع إلى ولدِ إِسْمَاعِيلَ، وهو الذَّبِيحُ في قول الجمهور.

وهو الرَّاجِحُ؛ من وجوه: / منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ ٤ ب

[هود: ٧١].

(١) أخرجه الطبري (٣٥٠/٨) برقم (٢٣٧٥٨)، وذكره ابن عطية (١٩/٤)، وابن كثير (١٢٤/٣)، والسيوطي (٤٩١/٤) وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) سقط في د، ح.

فَوَلَدَ بُشْرَ أَبَوَاهُ بَأْنَ سَيَكُونُ مِنْهُ وَلَدٌ كَيْفَ يُؤْمَرُ بِذَبْحِهِ؟!

ومنها أَنْ أَمَرَ الذَّبِيحَ كَانَ بِمَنَى بِلَا خِلَافٍ، وَمَا رَوَى قَطُّ أَنَّ إِسْحَاقَ دَخَلَ تِلْكَ الْبِلَادَ، وَإِسْمَاعِيلُ بِهَا نَشَأَ، وَكَانَ أَبُوهُ يُزَوِّرُهُ مِرَاراً كَثِيراً يَأْتِي مِنَ الشَّامِ، وَيَرْجِعُ مِنْ يَوْمِهِ عَلَى الْبُرَاقِ؛ وَهُوَ مَرْكَبُ الْأَنْبِيَاءِ.

ومنها قَوْلُهُ ﷺ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»^(١) وَهُوَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَالذَّبِيحُ الثَّانِي هُوَ إِسْمَاعِيلُ.

ومنها [تَرْتِيبُ] ^(٢) آيَاتِ سُورَةِ «وَالصَّافَّاتِ» يَكَادُ يَنْصُ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ غَيْرُ إِسْحَاقَ، وَوَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِصِدْقِ الْوَعْدِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُبَالِغاً فِي ذَلِكَ؛ وَرَوَى أَنَّهُ وَعَدَ رَجُلًا أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَوْضِعٍ، فَبَقِيَ فِي أَنْتِظَارِهِ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ جَاءَ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ: مَا زِلْتُ هُنَا فِي أَنْتِظَارِكَ مِنْذُ أَمْسٍ، وَقَدْ فَعَلَ مِثْلَهُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ مَبْعَثِهِ، خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ.

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ ^(٣): أَسْوَأُ الْكَذِبِ إِخْلَافُ الْمِيعَادِ، وَرَمَى الْأَبْرِيَاءَ بِالتُّهَمِ.

و﴿أَهْلُهُ﴾ الْمَرَادُ بِهِمْ قَوْمُهُ، وَأُمَّتُهُ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ ^(٤).

وَفِي مُضَحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «وَكَانَ يَأْمُرُ قَوْمَهُ».

وَإِذْرِسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَجْدَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَالَتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبُكِيَ﴾ قَالَتْ فِرْقَةٌ: جَمَعَ ^(٦) بَالِكٌ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْبُكَاءِ؛

التَّقْدِيرُ: وَبُكُوا بُكْيًا.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره ابن عطية (٢١/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢١/٤)، والبيهقي (١٩٩/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٢١/٤).

(٦) في د، ج: هو جمع.

واحتجَّ الطَّبْرِيُّ^(١)، ومَكِّي لهذا القول؛ بأن عُمَرَ رضي الله عنه قرأ سورة مريم، فسجد ثم قال: هذا السُّجُودُ، فَأَيْنَ الْبُكْيُ^(٢)؟ يَغْنِي: الْبُكَاءُ.

قال ع^(٣)*: ويحتمل أن يريد عمر رضي الله عنه فأين الباكون؟ وهذا الذي ذكره عن عُمَرَ، ذكره أَبُو حَاتِمٍ، عن النَبِيِّ ﷺ.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۖ﴾ جَنَّتْ عَدْنُ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُومًا ۖ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۚ﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۚ ﴿١٦٣﴾

وقوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف...﴾ الآية، الخلف، - [بسكون] ^(٤) اللام - مُستعمل إذا كان الآتي مذمومًا؛ هذا مشهورُ كلام العرب، والمراد بالخلف: مَنْ كَفَرَ وَعَصَى بعدَ مَنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ، ثم يتناول معنى الآية مَنْ سِوَاهُمْ إِلَى يوم القيامة، وإضاعة الصَّلَاةِ بتركها وبإضاعتها.

وروى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ في «مُسْنَدِهِ» بسنده عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَحْسَنَ الرَّجُلُ الصَّلَاةَ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا، وَسُجُودَهَا، قَالَتِ الصَّلَاةُ: حَفِظَكَ اللَّهُ؛ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَتَرَفَّعَ، وَإِذَا أَسَاءَ الصَّلَاةَ؛ فَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا، وَلَا سُجُودَهَا، قَالَتِ الصَّلَاةُ: ضَيَّعَكَ اللَّهُ؛ كَمَا ضَيَّعْتَنِي، وَتَلَفَ كَمَا يُلْفُ الثُّوبُ الْخَلْقُ، فَيَضْرِبُ بِهَا وَجْهَهُ». انتهى ^(٥) من «التذكيرة»، والشَّهَوَاتُ: عُومٌ، وَالْعَيُّ: الْخُسْرَانُ؛ قاله ابنُ زَيْدٍ ^(٦).

(١) ينظر: «الطبري» (٣٥٤/٨) برقم: (٢٣٧٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٤/٨) برقم: (٢٣٧٧٧)، وذكره ابن عطية (٢٢/٤)، وابن كثير (١٢٧/٣)، والسيوطي (٤٩٨/٤)، وعزاه لابن أبي الدنيا في «البكاء»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عمر بن الخطاب.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢/٤).

(٤) في ب سقط.

(٥) أخرجه أبو داود الطيالسي (٦٦/١، ٦٧-منحة) برقم: (٢٥٤) من طريق خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت به. وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٩٠٥٤)، وعزاه للطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٦) أخرجه الطبري (٣٥٧/٨) برقم: (٢٣٧٩٨)، وذكره ابن عطية (٢٣/٤).

وقد يَكُونُ [الغي بمعنى الضلال، والتقدير: يَلْقَوْنَ جَزَاءَ الْغَيِّ].

وقال عبد الله بن عمرو، وابن مسعود: الْغَيُّ: وَاِدْفِي^(١) جَهَنَّمَ، وبه وَقَعَ التَّوَعُّدُ في هذه الآية^(٢).

وقال *ص*: الغي عندهم كُلُّ شَرٍّ؛ كما أن الرِّشَادَ كُلُّ خَيْرٍ. [انتهى]^(٣).

و﴿جَنَاتِ عَدْنٍ﴾: بَدَلٌ مِنَ الْجَنَّةِ في قوله ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

وقوله ﴿بِالْغَيْبِ﴾، أَنِي أَخْبَرَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا غَابَ عَنْهُمْ، وفي هَذَا مَذْخٌ لَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ إِيْمَانِهِمْ وَبِدَارِهِمْ إِذْ لَمْ يَعْنُوا، و﴿مَاتِيًّا﴾ مَفْعُولٌ عَلَى بَابِهِ.

وقال جماعة من المفسرين: هو مَفْعُولٌ فِي اللَّفْظِ؛ بِمَعْنَى فاعِلٌ؛ ف ﴿مَاتِيًّا﴾ بِمَعْنَى آتٍ، وَهَذَا بَعِيدٌ.

ت: بل هو الظَّاهِرُ، وعليه اعتمد *ص*.

وَاللَّغْوُ: السَّقَطُ مِنَ الْقَوْلِ.

وقوله ﴿بَكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يريدُ في التَّقديرِ.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاقْصِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٦٥).

وقوله عز وجل: ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك...﴾ / الآية، قال ابن عباس، وغيره: سبب هذه الآية: أن النبي ﷺ أَبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُدَّةً فَلَمَّا جَاءَهُ قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ، قَدْ أَشْتَقْتُ إِلَيْكَ، أَفَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» فنزلت هذه الآية^(٤).

(١) سقط في جـ.

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٦/٨) برقم: (٢٣٧٩٣)، بلفظ «نهر في النار يعذب فيه الذين اتبعوا الشهوات»، وذكره ابن عطية (٢٣/٤)، وابن كثير (١٢٨/٣)، وعزاه لعبد الله بن مسعود، والسيوطي (٥٠٠/٤)، وعزاه للفرجاني، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبري، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث» عن ابن مسعود.

(٣) في ب، ج سقط.

(٤) أخرجه الطبري (٣٥٩/٨) برقم (٢٣٨٠٦)، وذكره البغوي (٢٠٢/٣)، وابن عطية (٢٤/٤)، وابن كثير (١٣٠/٣)، والسيوطي (٥٠٢/٤)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس بنحوه.

وقال الضُّحَّاكُ، ومجاهدٌ: سببها أن جبريلَ تأخَّرَ عن النبي ﷺ عند قَوْلِهِ فِي السُّؤَالَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: «غَدَا أُخْبِرُكُمْ»^(١).

وقال الدَّأُوْدِيُّ عن مجاهدٍ: أَبْطَأَتِ الرِّسْلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَتَى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَا حَبَسَكَ؟ قَالَ: وَكَيْفَ تَأْتِيكُمْ. وَأَنْتُمْ لَا تَقْصُونَ أَظْفَارَكُمْ. وَلَا تَأْخُذُونَ شَوَارِبَكُمْ وَلَا تَسْتَاكُونَ، وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ. انتهى^(٢).

وقد جاءت في فَضْلِ السَّوَاكِ آثارٌ كثيرة، فمنها: ما رواه البزارُ في «مسنده» عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ، فَيَسْمَعُ لِقَاءَ رَبِّهِ، فَيَذْنُو مِنْهُ حَتَّى يَضَعَ قَاةً عَلَى فِيهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلِكِ^(٣). انتهى من «الكوكب الدرّي».

وفيه: عن ابنِ أَبِي شَيْبَةَ، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «صَلَاةٌ عَلَى إِثْرِ سِوَاكِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ صَلَاةً بِغَيْرِ سِوَاكِ»^(٤) انتهى.

(١) ذكره البغوي (٢٠٢/٣)، وابن عطية (٢٤/٤).

(٢) ذكره ابن كثير (١٣٠/٣) وعزاه لمجاهد، والسيوطي (٥٠٢/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه البزار (١/ ٢٤٢ - كشف) رقم (٤٩٦) من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً. وقال البزار: لا نعلمه عن علي بأحسن من هذا الإسناد، وقد رواه بعضهم عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي موقوفاً.

وقال المنذري في «الترغيب» (٣٣٥): رواه البزار، بإسناد جيد لا بأس به. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠٢/٢): رواه البزار، ورجاله ثقات أ. هـ. أما الموقوف الذي أشار إليه البزار، فأخرجه البيهقي (٣٨/١) من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن علي موقوفاً. (٤) أخرجه البزار (١/ ٢٤٥ - كشف) رقم (٥٠٢)، وابن حبان في «المجروحين» (٥/٣)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٣٩٥)، وابن الجوزي في «الواحيات» (٣٣٦/١) من طريق معاوية بن يحيى الصدفي عن الزهري عن عروة عن عائشة.

وقال البزار: لا نعلم رواه إلا معاوية.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، ومعاوية بن يحيى ضعيف. قاله الدارقطني. وللحديث طريق آخر: أخرجه ابن خزيمة (٧١/١) رقم (١٣٧)، والحاكم (١/ ١٤٦)، وأحمد (٦/ ١٤٦)، والبزار (١/ ٢٤٤) رقم (٥٠١) من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة به. وقال ابن خزيمة: أنا استثنت صحة هذا الخبر، لأنني خائف أن يكون محمد بن إسحاق لم يسمع من محمد بن مسلم، وإنما دلَّسه عنه.

أما الحاكم فقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

وضعه النووي في «المجموع» (٣٢٥/١) وقال: ذكره الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح على شرط =

وفي «البخاري»: أَنَّ السَّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ^(١). اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا...﴾ الآية، المقصود بهذه الآية الإشعار بملك الله تعالى لملائكته، وَأَنَّ قَلِيلَ تَصَرُّفِهِمْ، وَكَثِيرَهُ إِنَّمَا هُوَ بِأَمْرِهِ وَانْتِقَالِهِمْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ إِنَّمَا [هو]^(٢) بحد منه.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ممن يلحقه نسيانٌ لبعثنا إليك، ف ﴿نَسِيًّا﴾. فَعِيلٌ مِنَ النِّسْيَانِ، وهو الذُّهُولُ عن الأمور.

وقرأ ابن مسعود^(٣): «وَمَا نَسِيكَ رَبُّكَ».

وقوله ﴿سَمِيًّا﴾ قال قوم: معناه مُوَافَقاً في الاسم.

قال *ع^(٤): وهذا يحسن فيه أن يريد بالاسم ما تقدم من قوله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: [هل]^(٥) تعلم من يسمى بهذا، أو يوصف بهذه الصفة؛ وذلك أن الأمم والفرق لا يسمون بهذا الاسم وَتَنَاءً، وَلَا شَيْئاً سِوَى اللَّهِ تَعَالَى.

= مسلم، وأنكروا ذلك على الحاكم، وهو معروف عندهم بالتساهل في التصحيح، وسبب ضعفه أن مداره على محمد بن إسحاق، وهو مدلس، ولم يذكر سماعه، والمدلس إذا لم يذكر سماعه لا يحتج به بلا خلاف كما هو مقرر لأهل هذا الفن. وقوله: «إنه على شرط مسلم» ليس كذلك، فإن محمد بن إسحاق لم يرو له مسلم شيئاً محتجاً به، وإنما روى له متابعة، وقد علم من عادة مسلم وغيره من أهل الحديث أنهم يذكرون في المتابعات من لا يحتج به للتقوية لا للاحتجاج، ويكون اعتمادهم على الإسناد الأول، وذلك مشهور عندهم.

(١) أخرجه النسائي (١٠/١) كتاب الطهارة: باب الترغيب في السواك، حديث (٥)، وأحمد (٦/١٢٤)، وأبو يعلى (٨/٣١٥) رقم (٤٩١٦)، وابن حبان (١٤٣- موارد)، والحميدي (١٦٢)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٥٩)، والبيهقي (١/٣٤)، وابن خزيمة رقم (١٣٥) من حديث عائشة.

وعلقه البخاري (٤/١٥٨) باب سواك الرطب واليابس للصائم، بصفة الجزم، فهو صحيح عنده. وصححه أيضاً ابن خزيمة، وابن حبان.

وقال البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٩٤- بتحقيقنا): هذا حديث حسن.

وقال النووي في «المجموع» (١/ ٣٢٤): حديث صحيح.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة.

(٢) سقط في جـ.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥).

(٥) سقط في ب.

قال القُشَيْرِيُّ في «التحبير»: قوله تعالى: ﴿واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾: الاضطْبارُ: نهاية الصَّبْرِ، وَمَنْ صَبَرَ ظَفَرَ، وَمَنْ لَازَمَ وَصَلَ؛ وفي مَغْنَاهُ أَنشَدُوا: [البسيط].

[لَا تَيْئَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَابَبَةٌ إِذَا اسْتَعْنَيْتَ بِصَبْرِ أَنْ تَرَى فَرَجًا] ^(١)
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَخْطِئَ بِحَاجَتِهِ وَمُذْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا
وَأَنشَدُوا: [البسيط]

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَخْمُودَةَ الْأَثَرِ
وَقُلْ مَنْ جَدَّ فِي شَيْءٍ يُحَاوِلُهُ ^(٢) وَاسْتَضَحَبَ الصَّبْرُ إِلَّا قَارَ بِالظَّفْرِ
انتهى.

وقال ابن عباس، وغيره: ﴿سَمِيًّا﴾ معناه: مَثِيلاً، أو شَبِيهاً، ونحو ذلك ^(٣)؛ وهذا قول حسن، وكأن السمي بمعنى: المسامي، والمضاهي؛ فهو من السمو.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا ۖ﴾ ^(٦٦) أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ^(٦٧) فَوَرَّيْكَ لِنَحْشُرْنَهُمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَا ^(٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ
مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَمَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ^(٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا ^(٧٠).

وقوله تعالى: ﴿ويقول الإنسان إذا ما مِثٌ لسوف أخرج حياً﴾، الإنسان: اسم جنس يراد به الكافرون ^(٤)، وروي أنَّ سبب نزول هذه الآية هو: أن رجلاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه، وذكر: أن القائل هو أبي بن خلف.

وروي ^(٥) أن القائل هو العاصي بن وائل، وفي قوله تعالى: ﴿ولم يك شيئاً﴾ دليل على أنَّ المعدوم لا يسمى شيئاً.

وقال أبو علي الفارسي: أراد شيئاً موجوداً.

(١) سقط من ج.

(٢) في ب، ج: يطالبه.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٣٦١، ٣٦٢) برقم (٢٣٨٢١، ٢٣٨٢٢)، وذكره البغوي (٣/ ٦٥)، وابن عطية (٤/

٢٥)، وابن كثير (٣/ ١٣١)، والسيوطي (٤/ ٥٠٣)، وعزه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم

عن ابن عباس.

(٤) في ج: النافرين.

(٥) في ب، ج: وقيل.

قال *ع^(١): وهذه من أبي علي نزعاً أعزّالية؛ [فتأملها]^(٢)، والضمير في ﴿لنحشرنهم﴾ عائذ على الكفار القائلين ما تقدم، ثم أخبر تعالى: أنه يقرن بهم الشياطين المغوين لهم، و﴿جنياً﴾ جمع جاث، فأخبر سبحانه: أنه يحضر هؤلاء المُنكرين البعث مع الشياطين [المغوين]^(٣)، فيجثون / حول جهنم؛ وهو^(٤) قعود الخائف الدليل على رُكْبَتِهِ كالأسير، ونحوه.

قال ابن زيد^(٥): الجثي: شُرُّ الجلوس، و«الشيعه»: الفرقة المرتبطة بمذهب واحد، المتعاونة فيه، فأخبر سبحانه أنه ينزع من كل شيعه أغتاها وأولأها بالعذاب، فتكون مقدمتها إلى النار.

قال أبو الأحوص: المعنى: نبدأ بالأكابر^(٦) جرماً^(٧)، وأبي: هنا يُنيث لما حُذِفَ الضمير العائد عليها من صَدَرَ صَلَّتْهَا، وكأن التقدير: أيهم هو أشد، و﴿صلياً﴾: مصدرُ صَلَّى يَصْلِي إذا باشره.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا ثَلَاثَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَرَّ أَهْلُكَا بَيْنَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَنتَا وَرَدَّكَ (٧٤).

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قَسَمَ، والواو تَفْتَضِيهِ، ويفسره قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ، لَمْ تَمْسَهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»^(٨). وقرأ ابن

-
- (١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠/٤).
 (٢) سقط في ج.
 (٣) سقط في ب، ج.
 (٤) في ج: ويعني.
 (٥) أخرجه الطبري (٣٧٠/٨) رقم (٢٣٨٧٢)، وذكره ابن عطية (٢٦/٤).
 (٦) في ح: بالأكابر فالأكابر.
 (٧) أخرجه الطبري (٣٦٣/٧) برقم (٢٣٨٢٧)، وذكره ابن عطية (٢٦/٤)، وابن كثير (١٣١/٣)، والسيوطي (٥٠٤/٤) وعزاه لهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي الأحوص.
 (٨) أخرجه البخاري (١٤٢/٣) كتاب الجنائز: باب فضل من مات له ولد فاحتسبه، حديث (١٢٥١)، ومسلم (٢٠٢٨/٤) كتاب البر والصلة: باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، حديث (٢٦٣٢/١٥٠)، والترمذي (٣٦٥/٣) كتاب الجنائز: باب ما جاء في ثواب من قدم ولداً، حديث (١٠٦٠)، والنسائي (٢٥/٤) كتاب الجنائز: باب من يتوفى له ثلاثة، حديث (١٨٧٥)، وابن ماجه (٥١٢/١) كتاب الجنائز: باب ما جاء في ثواب من أصيب بولده، حديث (١٦٠٣)، وأحمد (٢/٢٣٩-٢٤٠)، والحميدي (٢/٢) =

عباس^(١)، وجماعة: «وإن منهن» بالهاء على إرادة الكفار.

قال ع^(٢): * ولا شغب في هذه القراءة، وقالت فرقة من الجمهور القارئ «منكم»، المعنى: قل لهم يا محمد، فالخطاب بـ «منكم» للكفرة، وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول. وقال الأكثر: المخاطب العالم كله، ولا بد من ورود الجميع، ثم اختلفوا في كيفية ورود المؤمنين، فقال ابن عباس، وابن مسعود، وخالد بن معدان، وابن جريج^(٣)، وغيرهم: هو ورود دخول، لكنها لا تعدو عليهم، ثم يخرجهم الله عز وجل منها بعد معرفتهم حقيقة ما نجوا منه.

وروى^(٤) جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «الورود في هذه الآية هو الدخول»^(٥)، وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق^(٦) الورود مع الجهل بالصدر - جعلنا الله تعالى من الناجين بفضلته ورحمته -، وقالت فرقة: بل هو ورود إشراق، وإطلاع، وقزب، كما تقول: وردت الماء؛ إذا جثته، وليس يلزم أن تدخل فيه، قالوا:

= (٤٤٤) رقم (١٠٢٠)، ومالك (٢٣٥/١) كتاب الجنائز: باب الحسبة في المصيبة، حديث (٣٨)، وأبو يعلى (٢٨٥/١٠) رقم (٥٨٨٢)، والبيهقي (٦٧/٤) كتاب الجنائز: باب ما يرجى في المصيبة بالأولاد إذا احتسبهم، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٢٩٥ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. (١) وقرأ بها عكرمة.

ينظر: «الكشاف» (٣/ ٣٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧)، «البحر المحيط» (٦/ ١٩٧)، «والدر المصون» (٤/ ٥١٩).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧).

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٤/٨) برقم (٢٣٨٣٣) عن ابن عباس، وبرقم (٢٣٨٣٤) عن ابن جريج، وبرقم (٢٣٨٣٦) عن خالد بن معدان، وذكره البغوي (٣/ ٢٠٤) عن ابن عباس، وخالد بن معدان، وعن ابن مسعود بلفظ: «القيامة والكناية راجعة إليها»، وابن عطية (٤/ ٢٧)، والسيوطي (٤/ ٥٠٥)، وعزاه لعبد، الرزاق، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس فقال ابن عباس. (٤) في ج: قال.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٩)، والحاكم (٤/ ٥٨٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٣٦) رقم (٣٧٠) من حديث جابر مرفوعاً.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٨) وقال: رواه أحمد، ورجاله ثقات.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٤/ ٥٠٥)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٦) في ج: تحقيق.

وَحَسِبُ الْمُؤْمِنَ بِهَذَا هَوَلًا؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: الآية ٢٣].

وروت فرقة أثرًا: أن الله تعالى يجعل النَّارَ يوم القيامة جامدةً الأعلى كأنها إهالةٌ فيأتي الخلقُ كلُّهم؛ برُّهم وفاجرهم، فيقفون عليها، ثم تسوخُ بأهلها، ويخرجُ المؤمنون الفائزون، لم ينلهم ضرٌّ، قالوا: فهذا هو الورودُ.

قال المهدي^(١): وعن قتادة قال: يرد النَّاسُ جهنَّمَ وهي سوداءٌ مظلمةٌ، فأما المؤمنون فأضاءت لهم حسناتهم، فَنَجَوْا منها، وأما الكفار فأوبقتهم سيئاتهم، وأُحْتُبِسُوا بذنوبهم. [انتهى]^(٢).

وروت حفصة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَذَرٍ وَالْحَدِيثِيَّةِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فَقَالَ ﷺ: «فَمَهْ»^(٣)، «ثُمَّ تُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا»^(٤) ورجع الزجاج^(٥) هذا القول؛ بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» [الأنبياء: ١٠١].

ت: وحديث حفصة هذا أخرجه مُسلم، وفيه: «أَفَلَمْ تَسْمِعِيهِ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ تُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾»^(٦).

وروى ابنُ المبارك في «رقائقه»: أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ذهب ابن رَوَاحَةَ إلى بَيْتِهِ فَبَكَى [فَجَاءَتْ أَمْرَأَتُهُ، فَبَكَتْ]،^(٧) وَجَاءَتْ الْخَادِمُ فَبَكَتْ، وَجَاءَ

(١) أخرجه الطبري (٨/٣٦٥).

(٢) سقط في جـ.

(٣) في جـ: مه.

(٤) أخرجه أحمد (٦/٢٨٥)، وابن ماجه (٢/١٤٣١) كتاب «الزهد»: باب ذكر البعث، حديث (٤٢٨١)، وهناد في «الزهد» (١/١٦٥) رقم (٢٣٠) كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة به.

قال البوصيري في «الزوائد» (٣/٣١٥): هذا إسناد صحيح إن كان أبو سفيان سمع من جابر بن عبد الله اهـ. وأخرجه أيضاً من طريق الأعمش - أبو يعلى (١٢/٤٧٣) رقم (٧٠٤٤).

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٨٢)، وزاد نسبته إلى ابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأباري، والطبراني، وابن مردويه.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٣/٣٤٠، ٣٤١).

(٦) أخرجه مسلم (٤/١٩٤٢) كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان، حديث (١٦٣/٢٤٩٦)، وأحمد (٦/٤٢٠) كلاهما من طريق حجاج بن محمد: أخبرنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة... فذكر الحديث.

(٧) سقط في جـ.

أَهْلُ الْبَيْتِ فَجَعَلُوا يَبْكُونَ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِبْرَتُهُ، قَالَ: يَا أَهْلَاهُ، مَا يُبْكِيكُمْ، قَالُوا: لَا نَذَرِي، وَلَكِنْ رَأَيْنَاكَ بَكَيتَ فَبَكَيْنَا، فَقَالَ: آيَةٌ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُنْشِئُ فِيهَا رَبِّي أَنِّي وَارِدُ النَّارِ، وَلَمْ يُنْشِئْ أَنِّي صَادِرٌ عَنْهَا، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي^(١). انتهى.

وقال ابن مسعود: ورودهم / هو جوازهم على الصراط^(٢)، وذلك أن الحديث ١٦ الصحيح تضمن أن الصراط مضروب على متن جهنم. والحثم: الأمر المنفذ المجزوم، والذين اتقوا: معناه اتقوا الكفر ونذروا دالة على أنهم كانوا فيها.

قال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد» بعد أن ذكر رواية جابر، وابن مسعود في الورود: وروي عن كعب أنه تلا: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: أتدرون ما ورودها؟ إنه يُجاءُ بجهنم فتمسك للناس كأنها متن إهالة: يعني: الودك الذي يجمد على القدر من المرقية، حتى إذا استقرت عليها أقدام الخلائق: برهم وقاجرهم، نادى مُناد: أَنْ خُذِي أَصْحَابِكَ، وَذَرِي أَصْحَابِي، فَيُخَسَفُ بَكُلِّ وَلِيٍّ لَهَا، فَلَهَايَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلِدِهَا، وينجو المؤمنون ندية ثيابهم^(٣).

وروي هذا المعنى عن أبي نضرة، وزاد: وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِرُّونَ﴾ [يس: ٦٦]. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً...﴾ الآية، هذا افتخار من كفار قريش؛ وأنه إنما أنعم الله عليهم؛ لأجل أنهم على الحق بزعمهم. والثدي، والثادي: المجلس، ثم رد الله تعالى حجتهم وحقر أمرهم؛ فقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِغْيًا﴾ أي: فلم يُغن ذلك عنهم شيئاً^(٤)، والآث: المال العين، والعرض^(٥) والحيوان.

وقرأ نافع^(٦) وغيره: «ورءيا» بهمزة بعدها ياء؛ من رؤية العين.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٢/٤)، وعزاه إلى أحمد، وابن المبارك، كلاهما في «الزهد»، وابن عساکر.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٧/٤)، وابن كثير (١٣٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٥/٨) رقم (٢٣٨٣٨)، وذكره ابن كثير (١٣٣/٣).

(٤) سقط في ج، وفي ب شيئاً.

(٥) في ج: العروض.

(٦) ينظر: «السبعة» (٤١١، ٤١٢)، و«الحجة» (٢٠٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٢٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٣٨)، و«العنوان» (١٢٧)، و«حجة القراءات» (٤٤٦)، و«شرح شملة» (٤٨٧)، و«إتحاف» (٢٣٩/٢).

قال البخاري^(١): ورءياً: منظرأ.

وقرأ نافع أيضاً، وأهل المدينة: «وَرِيّاً» بياء مشددة، ف قيل: هي بمعنى القِرَاءَةِ الأولى، وقيل: هي بمعنى الرِّيِّ في السُّقْيَا؛ إذ أكثر النعمة مِنَ الرِّيِّ والمطر.

وقرأ ابنُ جُبَيْرٍ، وابنُ عباسٍ، ويزيدُ البربري: «وَزِيّاً» بالزاي المعجمة؛ بمعنى: المَلْبَسُ. [وأما]^(٢):

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۖ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ هَدَىٰ وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ حَتَّىٰ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۖ﴾ (٧٦).

قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾، فيحتمل أن يكون بمعنى الدُّعَاءِ والِإِنْتِهَالِ؛ كأنه يقول: الْأَضْلُ مِنَّا ومنكم مد الله له، أي: أَمْلَىٰ له؛ حَتَّىٰ يؤول ذلك إلى عذابه، ويحتمل أن يكون بمعنى الخبر؛ أنه سبحانه هذه عَادَتُهُ: الْإِمْلَاءُ لِلضَّالِّينَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾، أي: في الدنيا بنصر الله لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِم، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ فيصيرون إلى النار، والجنْدُ النَّاصِرُونَ: الْقَائِمُونَ بِأَمْرِ الْحَرْبِ، و﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بِإِزَاءِ قَوْلِهِمْ ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ و﴿أَضْعَفُ جُنْدًا﴾ بِإِزَاءِ قَوْلِهِمْ: ﴿أَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ولما ذكر سبحانه ضَلَالَةَ الْكَفَرَةِ وافتخارَهُم بِنِعَمِ الدُّنْيَا عَقَبَ^(٣) ذلك بذكر نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ في أنه يزيدهم هُدًى في الْارْتِبَاطِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، والمعرفة بِالْأَدْلَالِ الْوَاضِحَةِ، وقد تقدّم تَفْسِيرُ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَأَنْهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» وقد قال ﷺ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ: «خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بِبَيْتِكَ، وَيَبْنِيَهُنَّ؛ فَهِنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ^(٤)»، وعنه ﷺ أنه قال: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ؟ قَالَ: مِنَ النَّارِ، قَالُوا: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَهِنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ»^(٥).

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٠/٨) كتاب التفسير: باب كهيعص.

(٢) سقط في ج.

(٣) في ب، ج: عَقَبَ الله.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩١/١٦)، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٤٣٦٦٤)، وعزاه للطبراني عن أبي الدرداء.

(٥) أخرجه الحاكم (٥٤١/١)، والطبراني في «الصغير» (١٤٥/١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/١٧) =

وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ إِذَا ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ: لَا هَلْلَنَ، وَلَا كُبْرَنَ اللَّهَ، وَلَا سَبْحَنَهُ حَتَّى إِذَا رَأَى الْجَاهِلُ ظَنِّي مَجْنُونًا^(١).

ت: ولو ذكرنا ما ورد من صحيح الأحاديث في هذا الباب، لخرجنا بالإطالة عن مقصود الكتاب.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَكَتَ مِمَّا يَقُولُ وَمُذْ لَمْ مِنَ الْعَذَابِ مَذًا ﴿٧٩﴾﴾

وقوله/ سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ^(٢)﴾ الذي كفر بآياتنا﴾ هو العاصي بْنُ وَائِل السَّهْمِي؛ قاله ٦ ب جمهور المفسرين، وكان خبره أَنَّ حَبَّابَ بْنَ الْأَرْتِ كَانَ قَيْنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَعَمِلَ لَهُ عَمَلًا، واجتمع له عنده ذَنٌّ؛ فجاءه يَتَقَاضَاهُ، فقال له العاصي: لا أقضيك حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فقال حَبَّابٌ: لا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ، ثم يبعثك؛ فقال العاصي: أَوْ مَبْعُوثٌ أَنَا بعد الموت؟! فقال: نعم، فقال: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ، فسيَكُونُ لِي مَالٌ، وَوَلَدٌ، وعند ذلك أَقْضِيكَ ذَنْتَكَ؛ فنزلت الآية في ذلك.

وقال^(٣) الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال: *ع*^(٤): وقد كانت للوليد أيضا، أقوال تشبه هذا الغرض.

ت: إلا أَنَّ المسند الصحيح في «البخاري» هو الأول.

= (١٨)، وابن عدي في «الكامل» (٢٠٨٥/٦) كلهم من طريق محمد بن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة به.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٢/١٠) وقال: رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، ورجاله ثقات.

وقد طعن أبو حاتم كما في «العلل» (١٠٠/٢) رقم (١٧٩٣) في هذا الحديث. وله طريق آخر عند الخطيب: فأخرجه في «تاريخه» (٣٣٦/٩) من طريق صلة بن سليمان العطار عن أشعث عن ابن سيرين عن أبي هريرة به.

ونقل الخطيب عن أبي حاتم قوله في صلة: متروك الحديث، أحاديثه عن أشعث منكورة.

(١) أخرجه الطبري (٣٧٤/٨) رقم (٢٣٨٩٨)، وذكره ابن عطية (٣٠/٤)، وابن كثير (١٣٥/٣).

(٢) في ج: يعني أفرأيت.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٠/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠/٤).

وقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ معناه بالآيمان، والأعمال الصالحات^(١).

و﴿كَلَّا﴾ زَجْرٌ، وردُّ، وهذا المعنى لَازِمٌ لـ «كَلَّا»، ثم أخبر سبحانه: أن قول هذا الكافر سَيُكْتَبُ عَلَى مَعْنَى حِفْظِهِ عَلَيْهِ، ومعاقبته^(٢) به، ومدَّ العذاب: هو إطالته وتَعْظِيمُهُ.

﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٥) وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨٦) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا (٨٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: هذه الأشياء التي سَمَى أَنَّهُ يُؤْتَاهَا فِي الْآخِرَةِ، يرث الله ماله منها [في الدنيا؛ بإهلاكه، وتزكُّه لها، فالوراثة^(٣) مستعارة]^(٤).

وقال النحاس^(٥): ﴿نَرِيئُهُ مَا يَقُولُ﴾ معناه: نحفظه عليه؛ لنعاقبه به؛ ومنه قوله ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرِئَةُ الْأَنْبِيَاءِ» أي: حفظه ما قالوا.

قال ع^(٦): ﴿فَكَأَنَّ هَذَا الْمَجْرَمَ يورث هذه المقالة.

وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ معناه: يجدونهم خِلَافَ ما كانوا أَمْلُوهُ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ؛ فَيَقُولُ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى ذِلَّةٍ، وَضِدًّا مَا أَمْلُوهُ مِنَ الْعِزِّ، وَغَيْرِهِ، وَهَذِهِ صِفَةٌ عَامَّةٌ.

و﴿تَؤْزُهُمْ﴾ معناه: تُقْلِقُهُمْ وَتَحَرِّكُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

قال قتادة^(٧): تَزَعِجُهُمْ إِزْعَاجًا، وقال ابن زيد^(٨): تُسْلِيهِمْ إِشْلَاءً، ومنه: أَرِيزُ الْقَدْرُ، وَهُوَ عَلَيَّانُهُ وَحَرَكَتُهُ؛ ومنه الحديث: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، وَهُوَ يَبْكِي، وَلِصَدْرِهِ أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الْمِرْجَلِ»^(٩).

(١) في ب، ج: الصالحة.

(٢) في ب: ومعاقبته إياه.

(٣) في ج: الوراثة.

(٤) سقط في ب.

(٥) ذكره ابن عطية (٣١/٤).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣١/٤).

(٧) أخرجه الطبري (٣٧٩/٨) رقم (٢٣٩٢٦)، وذكره البغوي (٢٠٨/٣)، وابن عطية (٣٢/٤)، وابن كثير

(١٣٦/٣)، والسيوطي (٥٠٧/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم

عن قتادة.

(٨) أخرجه الطبري (٣٧٩/٨) رقم (٢٣٩٢٧)، وذكره ابن عطية (٣٢/٤).

(٩) أخرجه أبو داود (٣٠٠/١) كتاب الصلاة: باب البكاء في الصلاة، حديث (٩٠٤)، والنسائي (١٣/٣) =

❖❖❖: هذا الحديث خرّجه مسلم، وأبو داود عن مُطَرِّف عن أبيه.

وقال العِراقِي: ﴿تؤزهم﴾ أي: تدفعهم: انتهى.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٥) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٦﴾ لَا يَلِكُونُ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ❖.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: لا تستبطن عذابهم.

وقوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾.

قال ❖❖❖^(١): وظاهر هذه الوفادة^(٢) أنها بعد انقضاء الحساب، وإنما هي النهوض إلى الجنة، وكذلك سوق المجرمين إنما هو لدخول النار.

و﴿وفداً﴾ قال المفسرون: معناه رُكباناً، وهي^(٣) عادة الوفود؛ لأنهم سراءُ الناس، وأحسنهم شكلاً، وإنما شُبِّهَهم بالوفدِ هيئةً، وكرامةً.

وروي عن عليٍّ - رضي الله عنه - أنهم يَجِيئُونَ رُكْبَانًا عَلَى الثُّوقِ المحلاةً بجَلِيَّةِ الجنة: خطمها من يَاقُوتٍ، وَرَبْرَجِدٍ^(٤)، ونحو هذا.

وروي عمرو بن قيس الملائي: أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة، وهي

= كتاب السهو: باب البكاء في الصلاة، حديث (١٢١٤)، والترمذي في «الشمال» رقم (٣٢٣)، وأحمد (٢٥/٤)، وعبد بن حميد في «المتخب من المسند» رقم (٩٠٠)، وابن خزيمة (٩٠٠)، وأبو يعلى (٣/ ٧٥-١٧٤) رقم (١٥٩٩)، وابن حبان (٥٢٢- موارد)، والحاكم (٢٦٤/١)، والبيهقي (٢٥١/٢) كتاب الصلاة، كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه به. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

وصححه ابن خزيمة، وابن حبان.

تنبيه: عزا المؤلف هذا الحديث لمسلم، وقد وهم في ذلك.

وينظر: «تحفة الأشراف» (٣٥٩/٤).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢/٤).

(٢) في ب: الرفادة.

(٣) في ج: وهو.

(٤) أخرجه الطبري (٣٨٠/٨) رقم (٢٣٩٢٩)، وذكره البغوي (٢٠٩/٣)، وابن عطية (٣٢/٤)، وابن كثير (٣٧/٣)، والسيوطي (٥٠٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث» عن علي.

في غَايَةِ الْحُسْنِ^(١).

وروي: أنه يركب كُلُّ واحدٍ منهم ما أَحَبَّ؛ فمنهم: مَنْ يركبُ الإِبِلَ، ومنهم: مَنْ يركبُ الْخَيْلَ، ومنهم مَنْ يركبُ السُّفْنَ، فتجيء عَائِمَةٌ بهم، وقد ورد في «الضَّحَايَا»: أَنَّهَا مَطَايَاكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ^(٢)؛ وَأَكْثَرُ هَذِهِ فِيهَا ضَعْفٌ مِنْ جِهَةِ الْإِسْنَادِ، وَالسُّوْقُ: يَتَضَمَّنُ هَوَانًا، وَالْوَرْدُ: الْعَطَاشُ؛ قَالَه^(٣) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالْحَسَنُ^(٤).

١٧ واخْتَلَفَ فِي الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿[لَا] يَمْلِكُونَ^(٥)﴾ فَقَالَتْ / فِرْقَةٌ: هُوَ عَائِدٌ عَلَى «الْمُجْرِمِينَ» أَي: لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ؛ وَعَلَى هَذَا فَالْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، أَي: لَكِنْ مِنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا يَشْفَعُ لَهُ.

وَالْعَهْدُ عَلَى هَذَا الْإِيمَانِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْعَهْدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٦)، وَفِي الْحَدِيثِ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدِي عَهْدٌ، فَلْيَقُمْ».

قال *ع^(٧): وَيَحْتَمِلُ: أَنَّ يَكُونَ الْمُجْرِمُونَ يَعْمُ الْكَفَرَةَ وَالْعُصَاةَ، أَي: إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا مِنْ عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُ يَشْفَعُ لَهُمْ، وَيَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلًا.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٨٠/٨) رَقْم (٢٣٩٣٢) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٢/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١٣٧/٣) نَحْوَهُ.
(٢) قَالَ السَّخَاوِيُّ فِي الْمَقَاصِدِ ص (٥٨): أَسْنَدُهُ الدَّيْلَمِيُّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ بِهَذَا، وَيَحْيَى ضَعِيفٌ جَدًّا، وَوَقَعَ فِي «الْنَهَايَةِ» لِإِمَامِ الْحَرَمِيِّ، ثُمَّ فِي «الْوَسِيطِ» ثُمَّ فِي «الْعَزِيزِ»: «عَظَمُوا ضَحَايَاكُمْ، فَإِنَّهَا عَلَى الصَّرَاطِ مَطَايَاكُمْ»، وَقَالَ الْأَوَّلُ: مَعْنَاهُ: إِنَّهَا تَكُونُ مَرَاقِبَ لِلْمُضْحِينَ، وَقِيلَ: إِنَّهَا تَسْهَلُ الْجَوَازَ عَلَى الصَّرَاطِ، لَكِنْ قَدْ قَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ: إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ وَلَا ثَابِتٍ فِيمَا عَلِمْنَاهُ. وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «شَرْحِ التِّرْمِذِيِّ»: لَيْسَ فِي فَضْلِ الْأَصْحَابِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَمِنْهَا: قَوْلُهُ: «إِنَّهَا مَطَايَاكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ».

(٣) سَقَطَ فِي ج.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٨١/٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِرَقْم (٢٣٩٣٦)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِرَقْم (٢٣٩٣٧) وَعَنْ الْحَسَنِ بِرَقْم (٢٣٩٣٨)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٢٠٩/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٢/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١٣٨/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٥٠٩/٤، ٥١٠)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ الْبَيْهَقِيِّ فِي «الْبَعْثِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَزَاهُ أَيْضًا لِابْنِ الْمُنْذَرِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَلِهَذَا عَنْ الْحَسَنِ.

(٥) فِي ب، ج: يَمْلِكُونَ.

(٦) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٨١/٨) بِرَقْم (٢٣٩٤٣)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٢٠٩/٣) وَلَمْ يَعْزِهِ لِأَحَدٍ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٤/٣٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ (١٣٨/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٥١٠/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ الْبَيْهَقِيِّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٧) يَنْظُرُ «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٢/٤).

وقالت فِرْقَةٌ: الضميرُ في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ للمتقين .

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ...﴾ الآية أي: إلا من كان له عملٌ صالحٌ مبرورٌ؛ [فيشفع] فيشفع^(٢)، وتحتملُ الآية أن يُرادَ بـ «مَنْ» النبي ﷺ، وبالشَّفَاعَةِ الخاصَّةِ له العامة في أهل الموقف، ويكون الضميرُ في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾^(٣) لجميع أهل الموقف؛ ألا تَرَى أَنَّ سَائِرَ الأنبياء يتدافعون الشفاعةَ إذ ذاك، حَتَّى تصيرَ إليه ﷺ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا﴾.

قال الباجي في «سنن الصالحين» له: رُوِيَ عن ابن مسعود، أنه قال: إِنَّ الجبلَ ليقولُ للجبل: يا فلان، هل مرَّ بك اليومَ ذاكُ الله تعالى؟ فإن قال: نعم، سرَّ به^(٤)، ثُمَّ قرأ عبدُ الله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً جديداً﴾ إلى قوله: ﴿وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا﴾ قال: أترونها تسمع الزور، ولا تسمع الخير^(٥). انتهى.

وهكذا رواه ابنُ المبارك في «رقائقه» وما ذكره ابنُ مسعودٍ لا يقالُ من جهة الرأي، وقد رُوِيَ عن أنس، وغيره نحوه.

قال الباجي يَأْثُرُ الكلامُ المتقدم: وروى جعفرُ بنُ زَيْدٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ أنه قال: مَا مِنْ صَبَاحٍ وَلَا رَوَاحٍ إِلَّا وَتُنَادِي بِقَاعِ الْأَرْضِ بَعْضُهَا بَعْضًا: أَيُّ جَارَةٍ، هَلْ مَرَّ بِكَ الْيَوْمَ عَبْدٌ يُصَلِّي أَوْ يَذْكُرُ اللَّهَ؟ فَمِنْ قَائِلَةٍ: لَا، وَمِنْ قَائِلَةٍ: نَعَمْ، فَإِذَا قَالَتْ: نَعَمْ، رَأَتْ لَهَا فَضلاً بذلك. انتهى.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَخَصَّنَّمْ وَعَدَّهْمْ عَدًّا (٩٤) وَلَكُلُّهُمْ عِندَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا (٩٥)

(١) في ج، ب: في قوله.

(٢) في ب: ليشفع.

(٣) في ج: في يملكون.

(٤) ذكره السيوطي (٥١١/٤) وعزاه لابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة»، والطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن طريق عون عن ابن مسعود.

(٥) ذكره السيوطي (٥١١/٤)، وعزاه لعون.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ الآية، الإِذُّ: الأمرُ الشَّيْئُ الضَّعْفُ.

ت*: وقال العِزَّاقِي: «إِذَا»، أَي: عَظِيمًا، انتهى.

والانْفِطَارُ: الانْشِقَاقُ، والهِدُّ: الانْهِدَامُ، قال محمدُ بْنُ كَعْبٍ^(١): كَادَ أعداءُ اللَّهِ أَنْ يَقِيمُوا عَلَيْنَا السَّاعَةَ.

وقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ...﴾ الآية، إِنَّ نَافِيَةً بِمَعْنَى مَا.

وقوله: ﴿فَرَدًّا﴾ يتضمَّنُ عَدَمَ النَصِيرِ، وَالْحَوْلِ والقُوَّةِ، أَي: لا مُجِيرَ لَهُ مما يُريدُ اللَّهُ بِهِ.

وعبارة الثَّعَالِبِيِّ: «فَرَدًّا» أَي: وحيداً بعمله، ليس معه من الدنيا شيء. اهـ.

ت*: وهذه الآية تُنظرُ إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى...﴾ الآية.

[الأنعام: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ذهب أكثرُ المفسرين إلى: أن هذا الوُدُّ هو القبول الذي يضعه اللَّهُ لمن يحب مِنْ عباده؛ حَسْبَمَا في الحديث الصَّحِيح المأثور، وقال عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - رضي اللَّهُ عنه -: أنها بمنزلة قولِ النَّبِيِّ ﷺ «من أَسَرَ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا»^(٢).

ت*: والحديث المتقدمُ المُشارُ إليه أصلُهُ في «الموطأ» ولفظه: مالك، عن سَهِيلِ بْنِ أَبِي صَالِحِ السَّمَانِ، عن أَبِيهِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ قَالَ لِجَبْرِيلَ: يَا جَبْرِيلُ قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ^(٣): إِنَّ اللَّهَ أَحَبَّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوه، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَضَعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ».

وَإِذَا أَبْغَضَ الْعَبْدَ، قَالَ مَالِكٌ: لَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَالَ فِي [البُغْضِ]^(٤) مِثْلَ ذَلِكَ^(٥).

(١) ذكره ابن عطية (٣٤/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٤/٤).

(٣) في ج: السموات.

(٤) سقط في ب.

(٥) أخرجه مالك (٩٥٣/٢) كتاب الشعر: باب ما جاء في المتحابين في الله، حديث (١٥)، ومسلم (٤/٢٠٣٠) كتاب البر والصلة: باب إذا أحب الله عبداً، حديث (٢٦٣٧/١٥٧)، والترمذي (٣١٧/٥) -

قال أَبُو عُمَرَ [بن عبد البر]^(١) في «التمهيد»^(٢) / ، وممن رَوَى هذا الحديث عن ٧ ب سُهَيْل، بإسناده هذا^(٣) فذكر البُغْضَ من غير شكٍّ معمرُ وعبدُ العزيز بن المختار، وحماد بن سَلَمَة، قالوا في آخره: وَإِذَا أَبْغَضَ بِمِثْلِ^(٤) ذلك، ولم يشكوا.

قال أَبُو عُمَرَ: وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾: يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى النَّاسِ، وقاله مُجَاهِدٌ، وابنُ عباس^(٥)، ثم أسند أَبُو عُمَرَ عن كَعْبٍ أَنَّهُ قال: وَاللَّهِ مَا اسْتَقَرَّ لِعَبْدٍ ثَنَاءٌ فِي أَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَقَرَّ لَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ.

قال كَعْبٌ: وقرأتُ^(٦) في التوراة أنه لم تكن مَحَبَّةٌ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا كَانَ بَدَأَهَا مِنَ اللَّهِ عز وجل ينزلها عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ، ثم ينزلها عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، ثم قرأت القرآن، فوجدتُ فِيهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وأسند أَبُو عُمَرَ، عن قتادة [قال]^(٧): قال هَرَمُ بْنُ حَيَّانٍ: ما أَقْبَلَ عَبْدٌ بقلبه إِلَى اللَّهِ تعالى إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بقلوب أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّةَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ. انتهى^(٨).

قال ابنُ المُبَارَكِ في «رقائقه»: أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عن ثابت قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قال: «مَنْ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلَأَ [اللَّهُ]^(٩) سَمْعَهُ^(١٠) مِمَّا

= ٣١٨ كتاب «التفسير»: باب «ومن سورة مريم»، حديث (٣١٦١)، وأحمد (٢/٢٦٧، ٣٤١)، وعبد الرزاق (١٩٦٧٣)، وابن جبان (٣٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٠٦) كلهم من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه البخاري (٤٦٩/١٣) كتاب التوحيد: باب كلام الرب عز وجل مع جبريل، حديث (٧٤٨٥) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(١) سقط في ب، ج.

(٢) ينظر: «التمهيد» (٢١/٢٣٧-٢٣٨).

(٣) في ج: هذه.

(٤) في ج، ب: مثل.

(٥) أخرجه الطبري (٣٨٥/٨) عن مجاهد برقم (٢٣٩٦١)، وعن ابن عباس برقم (٢٣٩٦٥)، وذكره البغوي (٣/٢١٠)، وعزاه عن مجاهد، والسيوطي (٤/٥١٢)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس بلفظ: «محبة في الناس في الدنيا».

(٦) في ج: قوله.

(٧) سقط في ج.

(٨) أخرجه الطبري (٣٨٦/٨) رقم (٢٣٩٦٧).

(٩) سقط في ب، ج.

(١٠) في ج: مسامعه.

يُحِبُّ» قال: فقيل^(١): يا رسول الله، مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قال: «مَنْ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلَأَ اللَّهُ سَمْعَهُ مِمَّا يَكْرَهُ». انتهى.

قال *ع^(٢): وفي حديث أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ فِي السَّمَاءِ صَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا، وَضِعَ فِي الْأَرْضِ حَسَنًا، وَإِنْ كَانَ سَيِّئًا وَضِعَ فِي الْأَرْضِ سَيِّئًا»^(٣).

ت: وهذا الحديث خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الزَّهْدِ».

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٩٨).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: القرآن ﴿لتبشر به المتقين﴾ أي: بالجنة، والتعظيم الدائم، والعز في الدنيا.

و﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ هم: قريش، ومعناه: مُجَادِلِينَ مُخَاصِمِينَ، والألُدُّ: الْمُخَاصِمُ الْمُبَالِغُ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ مَثَلُ لَهُمْ بِأَهْلَاكِ مَنْ قَبْلَهُمْ إِذْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ، وَأَلَدُّ وَأَعْظَمُ قَدْرًا، و«الركز»: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ.

(١) في ج: قيل.

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٣٤/٤).

(٣) أخرجه البزار (٣٣٠٦. كشف) من حديث أبي هريرة.

وذكره الهندي في «كنز العمال» (٤٣٠٣٨)، وعزاه للبزار عن أبي هريرة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قوله سبحانه وتعالى: ﴿طه﴾ (١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْتَفَى (٣) تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَمْ يَأْمُرْ بِالْمَوْتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) ﴿قوله سبحانه وتعالى: ﴿طه﴾ * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ قيل: طه: أسمٌ من أسماءِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ وقيل: معناه: يا رجلُ؛ بالسُّريانيَّةِ، وقيل: بغيرها مِنْ لُغَاتِ الْعَجَمِ.

قال البخاريُّ: قال ابنُ جُبَيْرٍ: ﴿طه﴾: يا رجلُ، بالثَّبُطِيَّةِ (١). انتهى.

وقيل (٢): إنها لغةُ يَمَانِيَّةٌ في «عك»؛ وأنشد الطبريُّ (٣) في ذلك: [الطويل]

دَعَوْتُ بِـ «طه» فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ فَخِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُوَائِلًا (٤)
وقال آخرُ: [البيسط]

إِنَّ السَّفَاهَةَ (٥) - طه - مِنْ خَلَائِقِكُمْ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَاعِينِ (٦)
وقالت فِرْقَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ قَرِشًا لَمَّا نَظَرَتْ إِلَى عَيْشِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَطَفِهِ وَكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ؛ قَالَتْ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَعَ رَبِّهِ فِي شِقَاءٍ، فَتَلَتْ الْآيَةَ رَاذَةً عَلَيْهِمْ (٧).

(١) أخرجه الطبري (٣٨٩/٨) برقم (٢٣٩٨٨) بلفظ: «يا رجل كلمة بالنبطية»، وذكره ابن كثير (١٤١/٣).

(٢) في ب، ج: وحكى.

(٣) ينظر: «الطبري» (١٣٦/١٦).

(٤) البيت لمتنم بن نورة، و«الموتل»؛ الملجأ، وموائل منه: طالب النجاة، وهو اسم فاعل «وأل» أي: بادر، والشاهد في قوله: «طه» على أنها بمعنى «يا رجل». ينظر البيت في: «تفسير الطبري» (١٦/١٣٦)، وفيه «صفت بطه»، و«روح المعاني» (١٤٨/١٦).

(٥) في ج، ب: الشفاعة.

(٦) والاستشهاد به كالأستشهاد بالبيت السابق - ينظر البيت في «حاشية الشهاب» (١٧٨/٦)، و«الطبري»

(٨/٣٩٠)، و«مجمع البيان» (٢/٤)، و«الفخر الرازي» (٤/٢٢)، و«البحر المحيط» (٦/٢١٢)،

و«الدر المصون» (٣/٥).

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٦/٤) عن الربيع بن أنس، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

وأَسَدٌ عِيَاضٌ فِي «الشفا»^(١) مِنْ طَرِيقِ أَبِي ذَرٍّ الْهَرَوِيِّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ
 ١٨ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى /، قَامَ عَلَى رِجْلٍ وَرَفَعَ الْأُخْرَى، فَأَنْزَلَ اللَّهَ؛ ﴿طه﴾ يَعْنِي: طًا
 الْأَرْضَ يَا مُحَمَّدُ، ﴿ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي هَذَا كُلِّهِ مِنَ الْإِكْرَامِ
 لَهُ (ﷺ) وَحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ. انْتَهَى.

[قال *ص*: ﴿لِتَشْقَى﴾ *إِلَّا تَذَكُّرَةً* عَلَّانٍ لِقَوْلِهِ: ﴿ما أَنْزَلْنَا﴾. انْتَهَى]^(٢).

وقد تقدم القول في مسألة الاستواء، وباقي الآية بين.

قال ابن هشام: قوله تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول﴾ أي: فاعلم أنه غني عن جهره؛
 ﴿فإنه يعلم السر وأخفى﴾، فالجواب محذوف. انْتَهَى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ
 مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هَذِي (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَانْخَلْعْ ثِيَابَكَ
 إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا أَخَذْتُكَ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
 فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤).

وقوله سبحانه: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني
 آنستُ ناراً لعلني آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدى ﴿هذا الاستفهام توقيفٌ مضمّنهُ:
 تنبيه النفس إلى استماع ما يورد عليها، وهذا كما تبدأ الرجل إذا أردت إخباره بأمرٍ غريب؛
 فتقول: أعلمت كذا، وكذا، ثم تبدأ تخبره.

وكان من قصة موسى - عليه السلام - أنه رحل من مدين بأهله بنت شعيب -
 عليه السلام - وهو يريد أرض مضر، وقد طالت مدة جنّيته هنالك، فرجاً خفاءً أمره، وكان
 فيما يزعمون رجلاً غيوراً، فكان يسيّر الليل بأهله، ولا يسيّر بالنهار مخافة كشفه^(٣) الناس،
 فضّل عن طريقه في ليلة مظلمة، فبينما هو كذلك، وقد قدح بزنده، فلم يور شيئاً ﴿إِذْ رَأَى
 نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾، أي: أقيموا، وذهب هو إلى النار، فإذا هي مضطربة في شجرة
 خضراء يانعة، قيل: كانت من عئاب، وقيل: من عوسج^(٤)، وقيل: من عُليق^(٥)، فكلّمها

(١) في ب: عبارة من.

(٢) سقط في ب.

(٣) في ج: كشف.

(٤) العوسج: شجر من شجر الشوك، له ثمر مدور كأنه خرز العقيق. واحدته: عوسجة.

ينظر: «المعجم الوسيط» (٦٠٦).

(٥) في ج، ب: عليقة.

دَنَا مِنْهَا، تَبَاعَدَتْ مِنْهُ، وَمَشَتْ إِذَا رَجَعَ عَنْهَا اتَّبَعَتْهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَيقَنَ أَنَّ هَذَا مِنْ أُمُورِ اللَّهِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، وَنُودِي، وَأَنْقَضَى أَمْرُهُ كُلُّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ؛ هَذَا^(١) قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا حَكِيَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ قَالَ: أَقَامَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ حَوْلًا، فَغَيَّرَ صَحِيحَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢).

﴿أَنْسَتْ﴾: معناه: أَحْسَسْتُ، وَالْقَبَسُ: الْجَذْوَةُ مِنَ النَّارِ، تَكُونُ عَلَى رَأْسِ الْعُودِ.

وَالهُدَى: أَرَادَ هُدَى الطَّرِيقِ، أَيُّ: لِعَلِي أَجِدُ مَرشِدًا لِي، أَوْ دَلِيلًا.

وَفِي قِصَّةِ مُوسَى بِأَسْرَافِهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ تَسْلِيَّةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَمَّا لَقِيَ فِي تَبْلِيغِهِ مِنَ الْمَسْقَاتِ ﷺ وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَاهَا﴾: عَائِدٌ عَلَى النَّارِ.

وقوله: «نُودِي»: كَنَايَةٌ عَنْ تَكْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ (عَلَيْهِ السَّلَام).

وَقَرَأَ نَافِعُ^(٣) وَغَيْرُهُ: إِنِّي - بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ - عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو، وَأَبْنُ كَثِيرٍ: «أَنِّي» - بِفَتْحِهَا - عَلَى مَعْنَى: لِأَجْلِ أَنِّي أَنَا رَبُّكَ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ.

وَاخْتَلَفَ فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أُمِرَ بِخَلْعِ النِّعْلَيْنِ: فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَتْ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ، فَأَمَرَ بِطَرْجِ النَّجَاسَةِ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلْ كَانَتْ نَعْلَاهُ مِنْ جِلْدِ بَقَرَةٍ ذَكِيٍّ؛ لَكِنْ أُمِرَ بِخَلْعِهِمَا لِيَنَالَ بَرَكَهَ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ، وَتَمَسَّ قَدَمَاهُ تُرْبَةَ الْوَادِي.

قَالَ ﴿ع﴾^(٤): وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ مَعْنَى آخَرَ، هُوَ الْأَلِيقُ بِهَا عِنْدِي؛ وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَتَأَذَّبَ، وَيَتَوَاضَعَ؛ لِعَظَمِ الْحَالِ الَّتِي حَصَلَ فِيهَا، وَالْعُرْفُ عِنْدَ الْمُلُوكِ: أَنْ تُخْلَعَ

(١) فِي ج: هَذَا هُوَ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٨/٤).

(٣) وَكَذَلِكَ قَرَأَ عَاصِمٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحُمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، غَيْرَ أَنْ نَافِعًا فَتَحَ الْبَاءَ، وَأَسْكَنَهَا الْبَاقُونَ. يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٤١٧)، وَ«الْحِجَّةُ» (٢١٨/٥)، وَ«إِعْرَابُ الْقِرَاءَاتِ» (٢٨/٢)، وَ«مَعَانِي الْقِرَاءَاتِ» (٢/١٤٣)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيَةِ» (٣٩/٥)، وَ«حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (٤٥١)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٤٩٠)، وَ«إِتْحَافٌ» (٢/٢٤٤).

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٩/٤).

النَّعْلَانِ، و يبلغ الإنسان إِلَى غاية تَوَاضُعِهِ، فَكَأَنَّ مُوسَى - عليه السلام - أُمِرَ بِذَلِكَ عَلَى هَذَا الوجه، وَلَا بُدَّ لِي كَيْفَ كَانَتْ نَعْلَاهُ مِنْ مَيِّتَةٍ أَوْ غَيْرِهَا.

و﴿المقدس﴾: معناه المَطْهُرُ، و﴿طَوَى﴾: [معناه]^(١) مَرَّتَيْنِ.

فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: معناه قُدُسٌ مَرَّتَيْنِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: معناه طُوِيَ لَكَ الْأَرْضُ مَرَّتَيْنِ مِنْ ظَنِّكَ.

قَالَ الْفَخْرُ: وَقِيلَ: إِنَّ طَوَى أَسْمَ وَإِدَّ بِالشَّامِ، وَهُوَ عِنْدَ الطُّورِ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ.

ب ٨ وقيل / : إِنَّ ﴿طَوَى﴾ بِمعنى: يَا رَجُلُ، بِالْعَبْرَانِيَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَا رَجُلَ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ. انتهى «من تفسيره لسورة والنازعات».

قال *ع^(٢): وحدثني أَبِي - رحمه الله - قال: سمعت أبا الفضل بْنَ الجوهري - رحمه الله تعالى - يقول: لما قِيلَ لموسى: استمع لما يُوحَى، وَقَفَ عَلَى حَجَرٍ، وَاسْتَدَّ إِلَى حَجَرٍ، وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ وَأَلْقَى دَقْنَهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَوَقَفَ يَسْتَمِعُ، وَكَانَ كُلُّ لِبَاسِهِ صُوفًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: لِتَذَكُّرْنِي فِيهَا، أَوْ يَرِيدُ: لِأَذْكُرَكَ فِي عِلِّيَّيْنِ بِهَا، فَالْمَصْدَرُ مُحْتَمِلُ الْإِضَافَةِ إِلَى الْفَاعِلِ، أَوْ الْمَفْعُولِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: معنى قوله ﴿لِذِكْرِي﴾ أُنِي: عِنْدَ ذِكْرِي، أُنِي: إِذَا ذَكَرْتَنِي، وَأَمْرِي لَكَ بِهَا.

ت: وفي الحديث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً، فَلْيَصِلْهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ وَقْتُهَا»^(٣)؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. انتهى.

(١) سقط في جـ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٩/٣)، والبخاري (٧٠/٢) «كتاب مواقيت الصلاة» باب من نسي صلاة، الحديث (٥٩٧)، ومسلم (٤٧٧/١) «كتاب المساجد» باب قضاء الصلاة الفائتة، الحديث (٦٨٤/٣١٤)، والترمذي (٣٣٦-٣٣٥/١) «كتاب الصلاة» باب ما جاء في الرجل ينسى، الحديث (١٧٨)، وابن ماجه (٢٢٧/١) «كتاب الصلاة» باب من نام عن الصلاة أو نسيها، حديث (٦٩٦)، والنسائي (٢٩٣/١)، كتاب المواقيت باب فيمن نسي صلاة (٦١٣)، وأبو داود (١٧٤/١) «كتاب الصلاة» باب من نام عن =

فقد بين لك ﷺ ما تحمله الآية، والله الموفق بفضلته؛ وهكذا استدل ابن العربي هنا بالحديث^(١)، ولفظه: وقد روى مالك وغيره: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»^(٢). انتهى من «الأحكام». وقرأت فرقة: «لِلذِّكْرِى»، وقرأت^(٣) فرقة: «لِلذِّكْرِى»، وقرأت فرقة: «لِلذِّكْرِى»^(٤) بغير تعريف.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَاصِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَفْتَنَنَّ سَيْدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِزَيْكٍ مِنْ ءَابِتِنَا الْكَبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَيِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَروَنَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهٖ أَرْزَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَى تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذِّكَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾: يريد^(٥): القيامة آتية، فيه تحذيرٌ ووَعِيدٌ.

وقرأ ابن كثير، وعاصم: «أكاد أخفيها» - بفتح الهمزة - بمعنى: أظهرها، أي: إنها من تيقن وقوعها تكاد تظهر، لكن تَنَحَّجِبُ إلى الأجل المعلوم، والعرب تقول: خَفَيْتُ الشَّيْءَ بمعنى: أظهرته.

= صلاة أو نسيها (٤٤٢)، وأبو عوانة (٣٨٥/١)، والدارمي (٢٨٠/١)، وابن خزيمة (٩٧/٢) رقم (٩٩٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤٦٥/١)، وفي «المشكل» (١٨٧/١)، والبيهقي (٢/٢١٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٧٠/٦)، من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك». وأخرجه مسلم (٤٧٧/١) «كتاب المساجد» باب قضاء الصلاة الفائتة (٣١٦)، وأحمد (٣٦٩/٣)، وأبو نعيم (٥٢/٩)، بلفظ: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى يقول: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾».

(١) ينظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١٢٥٨/٣).

(٢) ينظر الحديث السابق.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩/٤)، و«البحر المحيط» (٢١٨/٦)، و«الدر المصون» (١١/٥).

(٤) في ج: لذكر.

(٥) في ج: يوم.

وقرأ الجمهور^(١): «أَخْفِيهَا» - بضم الهمزة - فقليل: معناه: أظهرها، وزعموا: أَنَّ «أَخْفَيْتُ» من الْأَضْدَادِ.

وقالت فرقة: «أكاذ» بمعنى أريد، أي: أريد إخفاءها عنكم؛ لتجزي كل نفس بما تسعى، واستشهدوا بقول الشاعر: [الكامل]

كَاذَتْ وَكَذَتْ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ (٢)

وقالت فرقة: أكاد: على بابها بمعنى: أنها مقاربة ما لم يَقَعْ لكن الكلام جَارٍ على استعارة العرب، ومَجَازِهَا، فلما كانت الآية عبارة عن شِدَّةِ خَفَاءِ أَمْرِ الْقِيَامَةِ ووقتها، وكان الْقَطْعُ بِإِتْيَانِهَا مع جَهْلِ الْوَقْتِ أَهْيَبَ على النفوس؛ بالغ - سُبْحَانَهُ - في إِبْهَامِ وَقْتِهَا، فقال: «أكاد أخفيها»؛ حَتَّى لَا تَظْهَرُ أَلْبَتَّةَ، ولكن ذلك لا يَقَعُ، ولا بُدَّ مِنْ ظُهُورِهَا، وهذا التَّأْوِيلُ هو الْأَقْوَى عِنْدِي.

وقوله سبحانه: «فلا يصدنك عنها»: أي: عن الإيمان بالسَّاعَةِ، ويحتمل عود الضمير على الصَّلَاةِ.

وقوله: «فتردّي»: معناه فَتَهْلِكْ، والرَّدْيُ: الهلاك، وهذا الخطاب كله لموسى عليه السلام، وكذلك ما بعده.

وقال النقاش: الخطاب بـ «لَا يصدنك»: لنبينا محمد ﷺ وهذا بعيد^(٣).

وقوله سبحانه: «وما تلك بيمينك يا موسى» تقريرٌ مضمّنهُ التَّنْبِيهُ، وجمعُ النَّفْسِ؛ لتلقى ما يورد عليها، وإِلَّا فَقَدْ عِلِمَ سُبْحَانَهُ مَا هِيَ فِي الْأَزَلِ.

(١) ينظر: «المحتسب» (٢/ ٤٧-٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٠)، و«الدر المصون» (٥/ ١١).

(٢) صدر بيت للأخفش، وعجزه:

لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

ينظر «الصحيح» (كود)، و«اللسان» (كود) و (كيد)، و«التاج» (كود).

وقال الزبيدي: وقال الأخفش في تفسير الآية: معناه: أخفيها. وفي «تذكرة أبي علي» أن بعض أهل التأويل قالوا: «أكاذ أخفيها» معناه أظهرها، قال شَيْخُنَا: والأكثر على بقائها على أصلها، كما في «البحر» و«الثَّهَر» و«إِعْرَابُ أَبِي الْبَقَاءِ» و«السَّاقِيسِي»، فلا حاجة إلى الخروج عن الظاهر، والله أعلم، قال السيوطي: وعكسه كقوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» أي يكاد. قلت: وفي «اللسان»: قال بعضهم في قوله تعالى «أكاد أخفيها» أريد أخفيها، فكما جاز أن توضع أريد موضع أكاد في قوله «جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» [الكهف: ٧٧]. فكَذَلِكَ أَكَادُ، فَتَأَمَّلْ.

(٣) ذكره ابن عطية (٤/ ٤٠).

قال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»: وأجاب مُوسَى عليه السلام بقوله: ﴿هي عصاي...﴾ الآية، بأكثر مما وَقَعَ السؤالُ عنه؛ وهذا كقوله ﷺ: «هو الطَّهْرُ ماؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ»^(١) / ١٩
لَمَنْ سَأَلَهُ عَنْ طَهْرِيَّةِ ماءِ الْبَحْرِ. انتهى.

(١) أخرجه مالك (٢٢/١) كتاب الطهارة: باب الطهور للوضوء، الحديث (١٢)، والشافعي في (١٦/١): كتاب الطهارة، ومحمد بن الحسن في «الموطأ» (٤٣) كتاب الطهارة: باب الوضوء بماء البحر، الحديث (٤٦)، وابن أبي شيبة (١٣١/١) كتاب الطهارات: باب من رخص في الوضوء بماء البحر، وأحمد (٢/٣٦١)، والدارمي (١٨٦/١) كتاب الطهارة: باب الوضوء من باب البحر، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤٧٨/٣)، وأبو داود (٦٤/١) كتاب الطهارة: باب الوضوء بماء البحر، الحديث (٨٣)، والترمذي (١٠١-١٠٠/١) كتاب الطهارة: باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، الحديث (٦٩)، والنسائي (١٧٦) كتاب الطهارة: باب الوضوء بماء البحر، وابن ماجه (١٣٦/١) كتاب الطهارة: باب الوضوء بماء البحر، الحديث (٣٨٦)، وابن خزيمة (٥٩/١) كتاب الطهارة: باب الرخصة في الغسل والوضوء من ماء البحر، الحديث (١١١)، وابن حبان في «مؤلفه» (١١١) كتاب الطهارة: باب ما جاء في الماء، الحديث (١١٩)، وابن الجارود ص: (٢٥) باب في طهارة الماء والقدر الذي ينجس الماء والذي لا ينجس، والدارقطني (٣٦/١) كتاب الطهارة: باب في ماء البحر، الحديث (١٣)، والحاكم (١٤٠-١٤١) كتاب الطهارة، والبيهقي في (٣/١) كتاب الطهارة: باب التطهير بماء البحر، وفي «معركة السنن والآثار» (١٥٠-١٥١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣٩/٧)، وابن بشكوال في «الغوامض» (ص ٥٥٥)، والجوزقاني في «الأبواب» رقم (٣٣١)، من رواية مالك عن صفوان بن سليم، عن سعيد بن سلمة عن آل ابن الأزرقي، عن المغيرة بن أبي بردة، أنه سمع أبا هريرة يقول: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن نتوضأ به عطشنا. أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وقد تويع مالك على هذا الحديث فتابعه أبو أويس وعبد الرحمن بن إسحاق وإسحاق بن إبراهيم. فمتابعة الأول رواها أحمد (٣٩٢-٣٩٣)، ومتابعة الثاني والثالث، أخرجهما الحاكم (١٤١/١) كتاب الطهارة، والبيهقي في «معركة السنن والآثار» (١٥٣-١٥٤) كتاب الطهارة: باب ما تكون به الطهارة من الماء.

وقد تابعه أيضاً الجلاح أبو كثير، فرواه عن سعيد بن سلمة. أيضاً أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٤٧٨/٣)، والحاكم (١٤١/١) كتاب الطهارة، والبيهقي (٣/١) كتاب الطهارة: باب التطهير بماء البحر. و«معركة السنن والآثار» (١٥٤/١) كتاب الطهارة باب ما تكون به الطهارة من الماء. وممن روى هذا الحديث عن أبي هريرة غير المغيرة سعيد بن المسيب. أخرجه الدارقطني (٣٧/١) رقم (١٥) والحاكم (١٤٢/١) من طريق عبد الله بن محمد القدامي ثنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به.

وسكت عنه الحاكم والذهبي وعبد الله بن محمد القدامي ضعيف.
قال ابن عدي (٢٥٨/٤): عامة أحاديثه غير محفوظة وهو ضعيف على ما تبين لي من رواياته واضطرابه فيها ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً فأذكره.
أبو سلمة بن عبد الرحمن عنه:

= أخرجه الحاكم (١٤٢/١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٣٢/٢) من طريق سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ثنا محمد بن غزوان قال: ثنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به. ومحمد بن غزوان قال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار ويسند الموقوف. ينظر «المجروحين» (٢٩٩/٢)، «المغني» (٦٢٣/٢) رقم (٥٨٩٢) وقد صحَّح هذا الحديث جمع من الأئمة والحفاظ منهم:

- ١- البخاري فقال: هو حديث صحيح كما نقل عنه الترمذي في «العلل الكبير» (٤١/١) رقم (٣٣).
- ٢- الترمذي فقال: حسن صحيح.
- ٣- ابن خزيمة: بإخراجه في صحيحه وسكوته عليه.
- ٤- ابن حبان: بإخراجه في صحيحه وسكوته عليه، وقال في «المجروحين» (٢٩٩/٢): حديث أبي هريرة صحيح.
- ٥- الحاكم.

٦- البيهقي في «معركة السنن والآثار» (١٥٢/١) ونقل قول البخاري في تصحيح الحديث.

٧- الجوزقاني في «الأباطيل» فقال: هذا حديث حسن وغيرهم كثير.

وفي الباب عن علي، وجابر، وعبد الله بن عمرو، وأبي بكر، وابن عباس، وأنس، والفريسي، وابن عمر، وعبد الله المدلجي، وسليمان بن موسى، ويحيى بن أبي كثير مرسلًا.

أما حديث علي: رواه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٦)، والحاكم (١٤٣-١٤٢) كتاب الطهارة كلاهما من رواية ابن عقدة الحافظ، ثنا أحمد بن الحسين بن عبد الملك، ثنا معاذ بن موسى، ثنا محمد بن الحسين، حدثني أبي عن أبيه، عن جده، عن علي قال: سئل رسول الله ﷺ عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

قال الحافظ في «التلخيص» (١٢/١): وفيه من لا يعرف.

وحديث جابر: رواه أحمد (٣٧٣/٣)، وابن ماجه (١٣٧/١) كتاب الطهارة باب الوضوء بماء البحر، الحديث (٣٨٨)، والدارقطني (٣٤/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٣)، وابن خزيمة (٥٩/١)، وابن حبان (١٢٠- موارد)، وابن الجارود (٨٧٩)، والدارقطني (٣٤/١)، والبيهقي (١/٢٥٣-٢٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٢٩/٩) من طريق إسحاق بن حازم عن عبيد الله بن مقسم عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال: «الحل ميتته، الطهور ماؤه».

قال الحافظ في «تلخيص الجبير» (١١/١): قال أبو علي بن السكن: حديث جابر أصح ما روي في هذا الباب.

وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠٣/٢). الحديث (١٧٥٩)، والدارقطني (٤٣/١)، والحاكم (١٤٣/١) كتاب الطهارة، من وجه آخر من رواية المعافي بن عمران، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر به.

قال الحافظ في «التلخيص» (١١/١) إسناده حسن ليس فيه إلا ما يخشى من التدليس، ورواه الدارقطني (٣٤/١) أيضًا من طريق مبارك بن فضالة، عن أبي الزبير.

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص: - أخرجه الحاكم (١٤٣/١) كتاب الطهارة، من طريق الحكم بن موسى، ثنا معقل بن زياد، عن الأوزاعي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، أن =

= رسول الله ﷺ قال: «ميتة البحر حلال وماؤه طهور»، وقد رواه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٧)، من هذا الوجه أيضاً، من رواية الحكم بن موسى، عن معقل فقال عن المثنى، عن عمرو بن شعيب ومن طريق المثنى أيضاً أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٤١٨/٦) والمثنى بن الصباح ضعفه ابن معين وغيره وقال النسائي: متروك. ينظر «المغني» (٥٤١/٢) رقم (٥١٧٥).

قال الحافظ في «التلخيص» (١٢/١): ووقع من عند الحاكم الأوزاعي بدل المثنى وهو غير محفوظ. وحديث أبي بكر: أخرجه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٤) من طريق عبد العزيز بن أبي ثابت، عن إسحاق بن حازم الزيات، عن وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله، عن أبي بكر الصديق أن رسول الله ﷺ سئل عن البحر، الحديث. وقال الدارقطني: عبد العزيز ليس بالقوي، ورواه ابن حبان في «المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين» (٣٥٥/١)، من وجه آخر عن أبي بكر مرفوعاً، لكنه من رواية السري بن عاصم، قال ابن حبان: يسرق الحديث، ويرفع الموقوف، وأخرجه الدارقطني (٣٥/١)، والبيهقي (٤/١) كتاب الطهارة باب التطهير بماء البحر، عن أبي بكر موقوفاً، وصحح وقفه الدارقطني، وابن حبان في «الضعفاء».

وحديث ابن عباس: أخرجه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (١٠)، والحاكم (١٤٠/١) كتاب الطهارة، كلاهما من رواية سريج بن النعمان، عن حماد بن سلمة، عن أبي التياح، عن موسى بن سلمة، عن ابن عباس، قال: سئل رسول الله ﷺ، عن ماء البحر فقال: «ماء البحر طهور». قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. وأقره الذهبي، لكن الدارقطني قال: الصواب أنه موقوف قال الحافظ في «التلخيص» (١١/١): رواه ثقات لكن صحح الدارقطني وقفه، والموقوف أخرجه أحمد (٢٧٩/١) في مسند ابن عباس رضى الله عنه من طريق عفان، عن حماد بن سلمة به، وفيه: وسألته يعني ابن عباس عن ماء البحر، فقال: ماء البحر طهور.

وحديث أنس: أخرجه عبد الرازق (٩٤/١) كتاب الطهارة باب الوضوء من ماء البحر، الحديث (٣٢٠)، عن الثوري، عن أبان بن أبي عياش، عن أنس، عن النبي ﷺ في ماء البحر قال: «الحلال ميتة الطهور ماؤه» وأخرجه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٨) من طريق محمد بن يزيد، عن أبان به وقال: أبان متروك.

وحديث الفِرَاسِي أو ابن الفِرَاسِي: أخرجه ابن ماجه (١٣٦-١٣٧) كتاب الطهارة باب الوضوء بماء البحر، الحديث (٣٨٧) عن سهل بن أبي سهل عن يحيى بن بكير، عن الليث بن سعد، عن جعفر بن ربيعة، عن بكر بن سوادة، عن مسلم بن مخشي عن ابن الفِرَاسِي قال: كنت أصيد وكانت لي قربة أجعل فيها ماءً، وإني توضأت بماء البحر فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» هكذا قال ابن ماجه: عن ابن الفِرَاسِي.

وأخرجه ابن عبد البر في «المهيد» (٢٢٠/١٦)، من طريق أبي الزنبايع روح بن الفرج القطان، عن يحيى بن بكير، وفيه عن مسلم بن مخشي، أنه حدثه أن الفِرَاسِي قال: كنت أصيد في البحر الأخضر على أرماث وكنت أحمل قربة لي فيها ماء، فذكره.

قال الترمذي في «علله» (ص: ٤١) رقم (٣٤)، قال: سألت البخاري عن حديث ابن الفِرَاسِي في ماء البحر فقال: حديث مرسل، لم يدرك ابن الفِرَاسِي النبي ﷺ. والفِرَاسِي له صحة.

ت: والمستحسن من الجواب: أن يكون مطابقاً للسؤال، أو أعم منه؛ كما في الآية، والحديث، أما كونه أخص منه، فلا. انتهى.

﴿وَأَهْشَ﴾: معناه: أخبط بها الشجر؛ حتى ينتثر الورق للغنم، وعصا موسى عليه السلام هي التي كان أخذها من بيت عصي الأنبياء عليهم السلام الذي كان عند شعيب عليه السلام حين اتفقاً على الرغي^(١)، وكانت عصا آدم عليه السلام، هبط بها من الجنة، وكانت من العير الذي في ورق الریحان، وهو الجسم المستطيل في وسطها، ولما أراد الله سبحانه تدریب موسى في تلقي النبوءة، وتكليفها، أمره بإلقاء العصا، فألقاها، فإذا هي حية تسعى، أي تتنقل، وتمشي، وكانت عصا ذات شعبتين، فصارت الشُعْبَتَانِ فماً^(٢) يلتقم الحجاره، فلما رآها موسى رأى عبرة؛ فولى مذبراً ولم يعقب؛ فقال الله تعالى له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فأخذها بيده، فصارت عصاً كما كانت أول مرة؛ وهي سيرتها الأولى، ﴿وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾، أي: جنبك.

قال *ع*^(٣): وكل مرعوب من ظلمة ونحوها فإنه إذا ضَمَّ يده إلى جناحه، فتر

= قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (١/١٦١): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن مسلماً لم يسمع من الفراسي إنما سمع من ابن الفراسي، وابن الفراسي لا صحبة له وإنما روى هذا الحديث عن أبيه فالظاهر أنه سقط من هذا الطريق.

وحديث ابن عمر: رواه الدارقطني (٤/٢٦٧) باب الصيد والذبائح والأطعمة، الحديث (٢) طريق إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي هريرة، أنه سأل ابن عمر قال: أكل ما طفا على الماء، قال: إن طافه ميتة، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إن ماءه طهور وميته حل». وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي، قال النسائي والدارقطني: متروك، وذكره البخاري في «الضعفاء»، وقال الحافظ: متروك، ينظر «الضعفاء» للنسائي رقم (١٤) والدارقطني (١٣) والبخاري (١٤) و«التقريب» (١/٤٦).

وحديث عبد الله المدلجي: أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (١/٢١٨)، وقال الهيثمي: وفيه عبد الجبار بن عمر ضعفه البخاري والنسائي، وثقه محمد بن سعد. أما مرسل سليمان بن موسى ويحيى بن أبي كثير: فأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١/٩٣) رقم (٣١٩).

وهذا الحديث من الأحاديث التي عدها بعض الحفاظ متواترة كالحافظ السيوطي ص (٢٣) رقم (١١) «الأزهار المتناثرة».

(١) في ب/ ج: الرعية.

(٢) في ج: مما.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٢).

رُغْبُهُ، وربط جأشه^(١)، فجمع الله سبحانه لموسى عليه السلام تَفْتِيرِ الرُّغْبِ مع الآية في اليَدِ.

وروي أَنَّ يَدَ مُوسَى خَرَجَتْ بَيَضَاءً تَشْفَى وَتُضِيءُ؛ كَأَنَّهَا شَمْسٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، أَيْ: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، وَلَا مِثْلَةٍ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ يَنْحَسِرُ، وَيَعُودُ بِحُكْمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَلَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ، عَلِمَ أَنَّهَا الرِّسَالَةُ، وَفَهِمَ قَدْرَ التَّكْلِيفِ؛ فَدَعَا اللَّهَ فِي الْمَعُونَةِ؛ إِذْ لَا حَوْلَ لَهُ إِلَّا بِهِ.

﴿اشرح لي صدري﴾ معناه: لفهم ما يرد عليَّ مِنَ الْأُمُورِ، وَالْعُقْدَةُ الَّتِي دَعَا فِي حُلِّهَا هِيَ الَّتِي أَعْتَرَتْهُ بِالْجَمْرَةِ فِي فِيهِ، حِينَ جَرَّبَهُ فِرْعَوْنَ، وَرَوَى فِي ذَلِكَ: أَنَّ فِرْعَوْنَ أَرَادَ قَتْلَ مُوسَى، وَهُوَ طِفْلٌ حِينَ مَدَّ يَدُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى لِحْيَةِ فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ لَهُ أَمْرَأَتُهُ: إِنَّهُ لَا يَغِقُلُ، فَقَالَ: بَلْ هُوَ يَغِقُلُ، وَهُوَ عَدُوِّي، فَقَالَتْ لَهُ: نَجِرْبُهُ، فَقَالَ لَهَا: أَفْعَلُ، فَدَعَا بِجَمْرَاتٍ مِنَ النَّارِ، وَبَطَّقَ فِيهِ يَأْقُوتُ، فَقَالَا: إِنْ أَخَذَ الْيَأْقُوتُ، عَلِمْنَا أَنَّهُ يَغِقُلُ، وَإِنْ أَخَذَ النَّارُ، عَذَرْنَا، فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ إِلَى جَمْرَةٍ^(٢) فَأَخَذَهَا، فَلَمْ تَعُدْ عَلَى يَدِهِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَأَخْرَقَتْهُ، وَأَوْرَثَتْ لِسَانَهُ عُقْدَةً، وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا طَلَبَ مِنْ حَلِّ الْعُقْدَةِ قَدْرًا يُفْقَهُ مَعَهُ قَوْلُهُ، فَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْعُقْدَةُ قَدْ زَالَتْ كُلُّهَا، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ مِنْهَا الْقَلِيلُ، فَيَجْتَمِعُ أَنْ يُوْتَى هُوَ سُؤْلُهُ، وَأَنْ يَقُولَ فِرْعَوْنَ: ﴿وَلَا يَكَاذُ يَبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

ولو فرضنا زوالَ الْعُقْدَةِ جَمْلَةً، لَكَانَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ سَبًّا لِمُوسَى بِحَالَتِهِ الْقَدِيمَةِ.

وَالْوَزِيرُ: الْمُعِينُ الْقَائِمُ بِوُزْرِ الْأُمُورِ، وَهُوَ ثِقْلُهَا، فَيَحْتَمِلُ الْكَلَامَ أَنَّ طَلَبَ الْوَزِيرِ مِنْ أَهْلِهِ عَلَى الْجَمْلَةِ، ثُمَّ أَبْدَلَ هَرُونَ مِنَ الْوَزِيرِ الْمَطْلُوبِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: وَأَجْعَلْ هَرُونََ وَزِيرًا، فَيَكُونُ مَفْعُولًا أَوَّلًا لـ ﴿أَجْعَلُ﴾، وَكَانَ هَرُونََ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْبَرَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَرْبَعِ سِنِينَ، وَالْأَزْرُ: الظُّهْرُ^(٣)؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ^(٤).

وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: تَسْبِيحًا كَثِيرًا.

(١) فلان قوي الجأش أي القلب.

ينظر: «لسان العرب» (٥٢٩).

(٢) في ج: الجمرات.

(٣) في ب، ج: بمعنى الظهر.

(٤) ذكره ابن عطية (٤٣/٤).

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْتِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ (٤٠) وَقَلَّتِ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْقَرَمِ وَفَتَّاكَ فُتُوًّا فَلْيَتَّ سَبِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِسَّىٰ (٤١) وَأَصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي (٤٢) أَذْهَبَ أَنْتَ وَلِخُوكِ يَتَابَعِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي (٤٣) أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٤) فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لِمَأْمُرُهُمْ يُدْكَرُ أَوْ يَخْشَوْنَ (٤٥) فَلَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَنَّا (٤٦) قَالَ لَا نَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ (٤٧)﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ﴾ قيل: هو وحي إلهام، وقيل: بملك، وقيل: برؤيا رأتها، وكان من قصة موسى عليه السلام فيما روي أن فرعون ذكر له أنَّ خراب مملكه يكون على يد غلام من بني إسرائيل؛ فأمر بقتل كل / مولود يولد لبني إسرائيل، ثم إنه رأى مع أهل مملكته: أنَّ فناء بني إسرائيل يعود على القبط بالضرر؛ إذ هم كانوا عملة الأرض، والصناع، ونحو هذا؛ فعزم على أن يقتل الولدان سنة، ويستحييهم سنة، فولد هرون عليه السلام في سنة الاستحياء، ثم ولد موسى عليه السلام في العام الرابع سنة القتل، فخافت عليه أمه؛ فأوحى الله إليها: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ فأخذت^(١) تابوتا فدفنت فيه موسى راقدًا في فراش، ثم قدفته في يَمِّ النيل، وكان فرعون جالسًا في موضع يشرف منه على النيل إذ رأى التابوت فأمر به، فسيق إليه، وأمراته معه، ففتح فراؤه فرجته^(٢) أمراته؛ وطلبته لتتخذهُ أبنًا، فأباح لها ذلك، ثم إنَّها عرضته للرضاع، فلم يقبل^(٣) امرأة فجعلت تُنادي عليه في المدينة، ويطفأ به يُعرض للمراضع، فكلما عرضت عليه امرأة أباهَا، وكانت أمه قالت لأختها: ﴿قصيه فبصرت به﴾ [القصص: ١١] وفهمت أمره، فقالت لهم: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم له ناصحون، فتعلَّقوا بِهَا، وقالوا: أَنْتِ تَعْرِفِينَ هَذَا الصَّبِيَّ، فَأَنْكَرَتْ، وَقَالَتْ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْجِرَاصَ عَلَى التَّقَرُّبِ إِلَى الْمَمْلَكَةِ، وَالْجَدَّ فِي خِدْمَتِهَا، وَرِضَاهَا، فَتَرَكُوهَا وَسَلَّوْهُمَا الدَّلَالَةَ، فَجَاءَتْ بِأُمِّ مُوسَى، فَلَمَّا قَرَّبَتْهُ، شَرِبَ ثَدْيِهَا، فَسُرَتْ بِذَلِكَ أَسِيَّةُ أُمْرَأَةً فِرْعَوْنَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) وَقَالَتْ لَهَا: كُونِي مَعِي فِي الْقَصْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: مَا كُنْتُ لِأَدْعَ بَيْتِي وَوَلَدِي، وَلَكِنَّهُ يَكُونُ عِنْدِي، فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأَحْسَنْتِ إِلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ،

(١) في ب: فاتخذت.

(٢) في ج: ورحمته.

(٣) في ج: فلم يقبل للرضاع.

واعتَزَّ بنو إِسْرَائِيلَ بهذا الرُّضَاعِ، والسبب من المَمْلَكَةِ، وأقام موسى عليه السلام حتى كَمَلَ رضاعه، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا أَسِيَّةُ: أَنْ جِئْنِي بَوْلَدِي لِيُؤْمَ كَذَا، وَأَمَرْتُ خَدَمَهَا، وَمَنْ مَعَهَا أَنْ يَلْقِيَنِي بِالتَّخَفِ، وَالْهَدَايَا، وَاللِّبَاسِ؛ فَوَصَلَ إِلَيْهَا عَلَى ذَلِكَ، وهو بخيرِ حَالٍ وَأَجْمَلِ ثِيَابٍ، فَسُرَّتْ بِهِ، وَدَخَلَتْ بِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ؟ لِيَرَاهُ وَيَهَبَ لَهُ^(١) فَرَاهُ وَأَعْجَبَهُ، وَقَرَّبَهُ فَأَخَذَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ بِلُحْيَةِ فِرْعَوْنَ، وَجَبَذَهَا، فَاسْتَشَاطَ فِرْعَوْنُ، وَقَالَ: هَذَا عَدُوُّ لِي، وَأَمَرَ بِذُبْحِهِ، فَتَأَسَّدَتْهُ فِيهِ أَمْرَاتُهُ، وَقَالَتْ: إِنَّهُ لَا يَغْقِلُ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ: بَلْ يَغْقِلُ، فَاتَّفَقَا عَلَى تَجْرِيبِهِ بِالْجُمُرَةِ^(٢) وَالْيَاقُوتِ؛ حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ، فَجَاهَ اللَّهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَرَجَعَ إِلَى أُمِّهِ، فَشَبَّ عِنْدَهَا، فَأَعْتَزَّ بِهِ بنو إِسْرَائِيلَ^(٣) إِلَى أَنْ تَرَعَّرَعَ، وَكَانَ فَتًى جَلْدًا^(٤) فَاضِلًا كَامِلًا، فَاعْتَزَّتْ بِهِ بنو إِسْرَائِيلَ بِظَاهِرِ ذَلِكَ الرُّضَاعِ، وَكَانَ يَحْمِيهِمْ، وَيَكُونُ ضِلْعُهُ مَعَهُمْ، وَهُوَ يَغْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَمِنْ صَمِيمِهِمْ، فَكَانَتْ بَصِيرَتُهُ فِي حِمَايَتِهِمْ أَكِيدَةً، وَكَانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ أَعْيَانُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ وَقَعَتْ لَهُ قِصَّةُ الْقَبْطِيِّ الْمُتَقَاتِلِ مَعَ الْإِسْرَائِيلِيِّ عَلَى مَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَعَدَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مُوسَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ: مِنْ لُطْفِهِ سُبْحَانَهُ بِهِ فِي كُلِّ فَضْلٍ، وَتَخْلِيصِهِ مِنْ قِصَّةٍ إِلَى أُخْرَى، وَهَذِهِ الْفُتُونُ الَّتِي فَتَنَتْ بِهَا، أُنِيَ: اخْتَبَرَهُ بِهَا، وَخَلَّصَهُ حَتَّى صَلَحَ لِلنَّبَوَّةِ، وَسَلَمَ لَهَا.

وقوله ﴿مَا يُوْحَى﴾ / إِبْهَامٌ يَتَضَمَّنُ عِظَمَ الْأَمْرِ وَجَلَالَتَهُ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ ١٠ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦] ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠]. وهو كثير في القرآن، والكلام الفصيح.

وقوله: ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمَّ بِالسَّاحِلِ﴾ خبرٌ خرج في صِيغَةِ الْأَمْرِ^(٥) [مُبَالِغَةً؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ «قَوْمُوا فَلَأُصَلِّ لَكُمْ» فَأَخْرَجَ الْخَبَرَ فِي صِيغَةِ الْأَمْرِ لِنَفْسِهِ، مُبَالِغَةً^(٦)، وَهَذَا كَثِيرٌ، وَالْمَرَادُ بِالْعَدُوِّ فِي الْآيَةِ: فِرْعَوْنُ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أُلْقِيَ عَلَيْهِ مَحَبَّةٌ مِنْهُ.

(١) في ج: ويهبه.

(٢) في ج: بالجمرات.

(٣) في ج: بنو إسرائيل بظاهر هذا الرضاع.

(٤) الْجَلْدُ: الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ، وَجَلَّدَ الرَّجُلُ فَهُوَ جَلَّدَ جَلِيدًا.

ينظر: «لسان العرب» (٦٥٤).

(٥) في ج: الأمر لنفسه.

(٦) سقط في ج.

قالت فرقة: أَرَادَ الْقَبُولَ الَّذِي يَضْعُهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ لِخِيَارِ عِبَادِهِ، وَكَانَ حَظُّ مُوسَى مِنْهُ فِي غَايَةِ الْوَفْرِ؛ وَهَذَا أَقْوَى مَا قِيلَ هُنَا مِنَ الْأَقْوَالِ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ^(١): «وَلِتُضْنَعْ» بِكسر اللام، وَضَم التاء؛ عَلَى مَعْنَى: وَلِتُغْذَى، وَتُطْعَمَ، وَتُرَبَّى.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ مَعْنَاهُ: بِمَرَأَى مِثِّي.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ أَيُّ: لِمِيقَاتٍ مَحْدُودٍ لِلنَّبِوَةِ الَّتِي قَدْ أَرَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى، «وَاصْطَنَعْتُكَ»: مَعْنَاهُ جَعَلْتُكَ مَوْضِعَ الصَّنِيعَةِ وَمَقَرَّ الْإِجْمَالِ وَالْإِحْسَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِنَفْسِي﴾ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٍ؛ وَهَذَا كَمَا تَقُولُ: بَيْتُ اللَّهِ، وَنَحْوُهُ: «وَالصِّيَامُ لِي»^(٢) وَعَبَّرَ بِالنَّفْسِ عَنْ شِدَّةِ الْقُرْبِ، وَقُوَّةِ الْاِخْتِصَاصِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنِينَا فِي ذِكْرِي﴾ مَعْنَاهُ: لَا تُبْطِئْنَا وَتَضَعُفَا؛ تَقُولُ: وَنَى فَلَانٌ فِي كَذَا، إِذَا تَبَاطَأَ فِيهِ عَنْ ضَعْفٍ، وَالْوَنَى: الْكَالُ، وَالْفُسْلُ فِي الْبَهَائِمِ وَالْإِنْسِ.

وَفِي مُضَحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٣): «وَلَا تَهِنَا فِي ذِكْرِي» مَعْنَاهُ: لَا تَلِينَا؛ مِنْ قَوْلِكَ: هَيْنٌ لَيْنٌ. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾ أَيُّ: حَسَنًا لَهُ الْكَلِمَةُ مَعَ إِكْمَالِ الدَّعْوَةِ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٤) فِي «أَحْكَامِهِ»: وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِاللَّيْنِ لِمَنْ مَعَهُ الْقُوَّةُ، وَفِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقَامَ بِيَابَ فِرْعَوْنَ سَنَةً لَا يَجِدُ مَنْ يَبْلُغُ كَلَامَهُ حَتَّى لَقِيَهُ جِبْنَ خَرَجَ، فَجَرَى لَهُ مَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِ؛ وَكَانَ ذَلِكَ تَسْلِيَةً لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي سِيرَتِهِمْ مَعَ الظَّالِمِينَ. انْتَهَى.

وَقَوْلُهُمَا: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ﴾ مَعْنَاهُ: يَعْجَلُ، وَيَتَسَرَّعُ إِلَيْنَا بِمَكْرُوهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أَيُّ بِالنَّصْرِ وَالْمُعُونَةِ.

﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنْ أَتَبَعَ أَمْرَنَا﴾ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَكَ وَتَوَلَّى (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَاهُ يَمْوَسَّى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٤)، و«البحر المحيط» (٦/٢٢٧)، و«الدر المصون» (٥/٢٠).

(٢) تقدم تخريجه في سورة البقرة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/٢٣٠).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٢٦٠).

﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَاتِيَاه فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ...﴾ الآية جُمْلَةً ما دُعي إليه فرعون الإيمان، وإرسال بني إسرائيل، وأما تعذيبه بني إسرائيل، فبذبح أولادهم، وتسخيرهم وإذلالهم.

وقولهما: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ يحتمل أن يكون آخر كلام؛ فيقوى أن يكون السلام بمعنى التَّحِيَّة؛ كأنهما رَغِبَا بها عنه، وَجَرَيَا على العُزْف في التسليم عند الفَرَاغ مِنَ القول.

ويحتمل أن يكون في دَزَج القول، فيكون خبراً بأن السلامة للمهتدين، وبهذين المعنيين قالت كل فرقة من العلماء.

وقوله سبحانه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قالت فرقة: المعنى أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته، وصورته، أي: أكمل ذلك له، وأتقنه ﴿ثم هدى﴾، أي: يَسِّرْ كُلَّ شَيْءٍ لِمَنَافِعِهِ؛ وهذا أَحْسَنُ ما قيل هنا، وأشرف معنى وأعم في الموجودات.

وقول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ يحتمل أن يريد ما بال القرون الأولى لم تبعث لها، ولم يوجد أمرك عندها؟ ويحتمل أن يريد فرعون قطع الكلام، والرجوع إلى ١٠ ب سؤال موسى عن حالة مَنْ سلف من الأمم؛ روغاناً في الحجة، وَحَيْدَةً.

وقيل: البال: الحال، فكأنه سأله عن حالهم، وقول موسى [عليه السلام]: ﴿علمها عند ربي في كتاب﴾ يريد في اللُّوحِ المحفوظ، و﴿لا يضل﴾: معناه لا ينتلف ويعمه، «والأزواج» هنا: بمعنى الأنواع.

وقوله: ﴿شَتَّى﴾ نعتٌ للأزواج، أي: مختلفة.

وقوله ﴿كلوا وارْعَوْا﴾ بمعنى هي صالحة للأكل والرعي، فأخرج العبارة في صيغة الأمر؛ لأنه أوجب الأفعال، وأهزها للنفوس. و﴿النهي﴾ جمع نُهْيَةٍ، والنُّهْيَةُ: الْعَقْلُ النَّاهِي عن القبائح.

﴿مِنَّا خَلَقْنَاهُمْ فِيهِمَا نُعِيدُهُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَّى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفْهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ

صَحَّى ﴿٥٩﴾ فَنَوَلَّ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَطَكُم بِذُنُوبٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَجِرَانِ يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّكْلَ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقَى وَإِنَّمَا أَنْ تُكُونَ أَوَّلَ مَنِ أُلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْقَى ﴿٦٦﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿منها خلقناكم﴾ يريد من الأرض ﴿وفيها نعيدكم﴾ أي: بالموت، والدفن. ﴿ومننا نخرجكم﴾ أي: بالبعث ليوم القيامة.

وقوله: ﴿ولقد أريناه آياتنا﴾ إخبار لنبينا محمد ﷺ.

وقوله ﴿كلها﴾ عائد على الآيات التي رآها فرعون، لا أنه رأى كل آية لله عز وجل وإنما المعنى: أن الله أراه آيات ما؛ كاليد، والعصا، والطمس، وغير ذلك. وكانت رؤيته لهذه الآيات مستوعبة يرى الآيات كلها كاملة. ومعنى ﴿سوى﴾ أي: عدلاً ونصفةً، أي: حالنا فيه مستوية.

وقالت فرقة: معناه مستويًا من الأرض؛ لا وهدة فيه، ولا نشز، فقال موسى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ وروي أن يوم الزينة كان عيداً لهم، ويوماً مشهوراً.

وقيل: هو يوم كسر الخليج الباقي إلى اليوم.

وقوله: ﴿وَأَن يُخَشِّرَ النَّاسَ﴾ عطفًا على ﴿الزينة﴾؛ فهو في موضع خفض.

﴿فتولى فرعون فجمع كيدة﴾ أي: جمع السحرة، وأمرهم بالاستعداد لموسى، فهذا هو كيده.

﴿ثم أتى﴾ فرعون بجمعه، فقال موسى للسحرة: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً﴾ وهذه مخاطبةٌ مُحَذِّرٌ^(١)، وندبهم في هذه الآية إلى قول الحق إذا رآوه، وألاً يباهتوا بكذب؛ ﴿فيسحتكم﴾ أي: فيهلككم، ويذهبكم، فلما سمع السحرة هذه المقالة، هالهم هذا المنزع، ووقع في نفوسهم من هيئته شديد الموقع. و﴿تنازعوا أمرهم﴾ والتنازع يقتضي اختلافًا كان بينهم في السر؛ فقاتل منهم يقول: هو محق، وقاتل يقول: هو مبطل، ومعلوم أن جميع تناجيهم إنما كان في أمر موسى عليه السلام و﴿النجوى﴾ المسارة، أي: كل واحد يناجي من يليه سرًا؛ مخافةً من فرعون أن يتبين له فيهم ضعف.

(١) في ج: محذور.

وقالت فرقة: إنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا.

﴿إن هذان لساحران﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة والكسائي^(١): «إن هذان لساحران» فقالت فرقة: قوله: «إن» بمعنى: نعم؛ كما قال ﷺ: «إن الحمد لله، برفع الحمد.

وقالت فرقة: إن هذه القراءة على لغة بلحارث بن كعب، وهي إبقاء ألف التثنية في حال النصب، والخفض، وتغزى هذه اللغة لكثانته، وتغزى لخثعم.

وقال الزجاج^(٢): في الكلام ضمير تقديره: إنه هذان لساحران

وقرأ أبو عمرو وخذه: «إن هذين لساحران».

وقرأ ابن كثير: «إن هذان لساحران» بتخفيف إن، وتشديد نون هذان لساحران^(٣).

وقرأ حفص عن عاصم: «إن» بالتخفيف «هذان» خفيفة أيضاً «لساحران».

وعبر كثير من المفسرين عن الطريقة بالسادة أهل العقل والحجاء؛ وحكوا / أن ١١١ العرب تقول: فلان طريقة قومه، أي: سيدهم، والأظهر في الطريقة هنا أنها السيرة، والمملكة، والحال التي كانوا عليها.

و﴿المثلى﴾ تأنيث أمثل، أي: الفاضلة الحسنة.

وقرأ جمهور^(٤) القراء: «فأجمعوا»: بقطع الهمزة، وكسر الميم؛ على معنى: أنفذوا^(٥)، وأعزموا.

(١) ينظر: «السبعة» (٤١٩)، و«الحجة» (٢٢٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٦/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٤٩)، و«شرح الطيبة» (٤٤/٥)، و«العنوان» (١٢٩)، و«حجة القراءات» (٤٥٤)، و«شرح شعلة» (٤٩٢)، و«إتحاف» (٢/٢٤٨-٢٤٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (٣/٣٦١).

(٣) سقط في ج.

(٤) ينظر «المحرر الوجيز» (٥١/٤)، و«البحر المحيط» (٢٣٩/٦)، و«الدر المصون» (٣٧/٥)، و«السبعة» (٤١٩، ٤٢٠)، و«الحجة» (٢٣٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٠/٢)، و«معاني القراءات» (١٥١/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٥/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«حجة القراءات» (٤٥٦)، و«شرح شعلة» (٤٩٣)، و«إتحاف» (٢/٢٥٠).

(٥) في ج: انفروا.

وقرأ أبو عمرو وَخَدَهُ «فَاجْمَعُوا» من جمع، أي: ضموا سحركم بعضه إلى بعض.

وقوله ﴿صَفَا﴾ أي: مصطفىين، وتداعوا إلى هذا؛ لأنه أهيب، وأظهر لهم، و﴿أَفْلَحَ﴾ معناه: ظفر بُغْيَتِهِ، وباقي الآية بين مما تقدم.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحَرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّمَا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارة عما يعتري نفس الإنسان إذا وقع ظنه في أمر على شيء يسوؤه، وعبر المفسرون عن أَوْجَسَ بأَضْمَر؛ وهذه العبارة أعم من الوجيس بكثير.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ أي الغالب، وروي في قصص هذه الآية: أن فرعون (لعنه الله) جلس في علية له طولها ثمانون ذراعاً، والناس تحته في بسيط، وجاء سَبْعُونَ أَلْفَ ساحرٍ، فألقوا من حبالهم وعصيتهم ما فيه وَفَرُّ ثَلَاثِ مِائَةٍ بَعِيرٍ، فهال الأمر، ثم إن موسى عليه السلام ألقى عَصَاهُ من يده، فأستحالت تُغْبَانًا، وجعلت تَنْمُو حتى روي أنها عبرت النهر بذنبها، وقيل: البحر، وفرعون في هذا كله يضحك؛ ويرى أن الاستواء حاصل، ثم أقبلت تأكل الجبال والعصي حتى أفتتها، ثم فَعَرَتْ فَاهَا نحو فرعون؛ ففرع عند ذلك؛ وأستغاث بموسى، فمد موسى يده إليها، فرجعت عصاً كما كانت، فنظر السحرة، وعلموا الحق، ورأوا عدم الحبال والعصي؛ فأيقنوا أَنَّ الأمر من الله عز وجل فأمنوا رضي الله عنهم.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل *.

قال * ص * : «في» على بابها، وقيل: بمعنى على.

* ت * : والأول أضوب.

﴿ولتعلمن أننا﴾ قوله: ﴿أَيْنَا﴾ يريد نفسه، ورب موسى عليه السلام.

وقال الطَّبْرِيُّ^(١): يريد نفسه، وموسى، والأول أذهب مع مخركة فرعون، وباقي الآية بَيِّنْ، ثم قال السحرة لفرعون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نفضلك، ونفضل السلامة منك على ما رأينا من حُجَّةِ الله تعالى، وآياته، وعلى الذي قَطَرْنَا، هذا على قول جماعة: أَنَّ الواو في قوله ﴿وَالَّذِي﴾: عاطفة.

وقالت فرقة: هي واو القسم، ﴿وَقَطَرْنَا﴾ أي: خلقنا، واخترعنا، فافعل يا فرعون ما شئت؛ وإنما قضاؤك في هذه الحياة الدنيا، والآخرة من وراء ذلك لنا بالنعيم، ولك بالعذاب الأليم.

وهؤلاء السحرة اختلف الناس: هل نفذ فيهم وعيد فرعون، أم لا؟ والأمر في ذلك محتمل.

وقولهم: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ رد لقول فرعون: ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وَلَقَدْ آوَحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى (٧٧) فَأَنْبَعَثَ فِرْعَوْنُ بِمُجْنُودِهِ فَعَسَيْتُمْ مِنْ آلِيهِ مَا عَسَيْتُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩).

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى...﴾ الآية.

قالت فرقة: هذه الآية بجملتها من كلام السحرة لفرعون على جهة الموعظة له، والبيان فيما فعلوه.

وقالت فرقة: بل هي من كلام الله عز وجل لنبيِّنا محمد ﷺ تنبيهاً على قُبْح ما فعل فرعون، وحُسْن ما فعل السحرة، وموعظة، وتحذيراً قد تضمنت القصة المذكورة مثاله.

وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ مختص بالكافر؛ فإنه مُعَذَّب عذاباً ينتهي به إلى الموت، ثم لا يُجْهَز عليه فيستريح / ، بل يُعاد جلده، ويجدد عذابه.

١١ ب

وأما مَنْ يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي، فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة في غمرة

قد قاربوا الموت، إلا أنهم لا يُجهز عليهم، ولا يجدد عذابهم؛ فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار، وفي الحديث الصحيح: «أَنَّهُمْ يُمَاتُونَ فِيهَا إِمَاتَةً»، وهذا هو معناها؛ لأنه لا مَوْت في الآخرة: ﴿تَزَكَّى﴾ معناه: أطاع الله، وأخذ بأزكى الأمور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ هذا أَسْتِثْنَا فإخبار عن شيء من أمر موسى، وباقي الآية بَيِّن، وقد تقدم ذكر ما يخصها من القصص.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافْ ذَرَاكَ﴾ أي: من فرعون، وجنوده، ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ غرقاً من البحر.

وقوله ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ إبهام أهول من النص؛ وهذا كقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾. [النجم: ١٦].

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ يريد: من أول أمره إلى هذه النهاية، ﴿وَمَا هَدَى﴾ مقابل لقوله: ﴿وَمَا أَهْدَيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجَعْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾ (٨٩) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ (٩١) ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٩٢).

وقوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ...﴾ الآية، ظاهر هذه الآية: أنَّ هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذٍ عند حلول النعم التي عددها الله عليهم، ويحتمل أن تكون هذه المقالة خُوطب بها مُعَاصِرُو النَّبِيِّ ﷺ، والمعنى: هذا فِعْلُنَا بِأَسْلَافِكُمْ؛ وتكون الآية على هذا اعتراضاً في أثناء قصة موسى، والقصد به توبيخ هؤلاء الحضور إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله تعالى، والمعنى الأول أظهر وأبين.

وقوله سبحانه: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ...﴾ الآية، وقصص هذه الآية: أن الله تعالى لما أنجى بني إسرائيل، وغرق فرعون، وعد بني إسرائيل أن يسيروا إلى جانب طور سيناء؛ ليكلم فيه موسى، ويناجيه بما فيه صلاحهم، فلما أخذوا في السير، تعجل موسى عليه السلام؛ أبتغاء مَرْضَاةَ رَبِّهِ، حَسْبَمَا يَأْتِي بعد.

وقرأ جمهور الناس^(١): «فَيَحِلُّ» بكسر الحاء، «وَيَحِلُّ» بكسر اللام.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٦/٤)، و«البحر المحيط» (٢٤٦/٦)، و«الدر المصون» (٤٥/٥)، و«السبعة» (٤٢٢)، و«الحجة» (٢٤٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٨/٢)، و«معاني القراءات» (١٥٦/٢)، و«شرح

وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَحَدَّه بَاضِمُهُمَا، وَمَعْنَى الْأَوَّلِ: فَيَجِبُ، وَيَحَقُّ، وَمَعْنَى الثَّانِي: فَيَقَعُ وَيَنْزِلُ، وَ﴿هَوَى﴾ مَعْنَاهُ: سَقَطَ أَيْ: هَرَى فِي جَهَنَّمَ، وَفِي سَخَطِ اللَّهِ - عَافَانَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ -، ثُمَّ رَجَى سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ . .﴾ الْآيَةِ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ تَصِحُّ مَعَ الْإِقَامَةِ عَلَى غَيْرِهِ، وَهِيَ تَوْبَةٌ مُقَيَّدَةٌ، وَإِذَا تَابَ الْعَبْدُ، ثُمَّ عَاوَدَ الذَّنْبَ بَعِينَهُ بَعْدَ مُدَّةٍ؛ فَيَحْتَمِلُ عِنْدَ حُدَاقِ أَهْلِ السَّنَةِ: أَلَّا يُعِيدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الذَّنْبَ الْأَوَّلَ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ قَدْ كَانَتْ مَحْتَمَلَةً، وَيُحْتَمِلُ: أَنْ يُعِيدَهُ؛ لِأَنَّهَا تَوْبَةٌ لَمْ يَوْفِ بِهَا، وَأَضْطَرَبَ النَّاسُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ مِنْ حَيْثُ وَجَدُوا الْهُدَى ضَمِنَ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ؛ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: ثُمَّ لَزِمَ الْإِسْلَامَ حَتَّى يَمُوتَ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: غَيْرَ هَذَا، وَالَّذِي يَقْوِي فِي مَعْنَى: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أَنْ يَكُونَ: ثُمَّ حَفِظَ مَعْتَقِدَاتِهِ مِنْ أَنْ تَخَالَفَ الْحَقَّ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ فَإِنَّ الْإِهْتِدَاءَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ غَيْرُ الْإِيمَانِ، وَغَيْرُ الْعَمَلِ؛ وَزُبُّ مُؤْمِنٍ عَمَلٌ صَالِحًا قَدْ أَوْبَقَهُ عَدَمُ الْإِهْتِدَاءِ؛ كَالْقَدَرِيَّةِ وَالْمُرْجِيَّةِ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْبِدْعِ، فَمَعْنَى: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾: ثُمَّ مَشَى فِي عَقَائِدِ الشَّرْعِ عَلَى طَرِيقِ قَوِيمٍ - جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنَّهُ - وَفِي حِفْظِ الْمَعْتَقَدَاتِ يَنْحَصِرُ مَعْظَمُ أَمْرِ الشَّرْعِ.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتَرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَتَّبِعَ عَلَيْكَ عِدْكَيْنِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَهْزُونُ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْنَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفْعَصَيْتُمْ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمَرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨).

وقوله سبحانه: / ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ الآية، وقصص هذه الآية: أن موسى عليه السلام لما شرع في النهوض ببني إسرائيل إلى جانب الطور؛ حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما لهم فيه شرف العاجل والآجل - رأى موسى عليه السلام على جهة الاجتهاد أن يتقدم وحده مُبادراً لأمر الله سبحانه؛ طلباً لرضائه، وحرصاً على القرب منه، وشوقاً إلى مُناجاته، وأستخلف عليهم هارون، وقال لهم موسى: تسيرون إلى جانب الطور، فلما أنتهى موسى ﷺ وناجى ربه، زاده الله في الأجل عشراً، وحينئذ وقفه على معنى أستعجاله دون القوم؛ ليخبره موسى أنهم على الأثر، فيقع الإعلام له بما صنعوا، وأعلمه موسى أنه إنما أستعجل طلب الرضى، فأعلمه الله سبحانه: أنه قد فتن بني إسرائيل، أي: أختبرهم بما صنع السامري، ويحتمل أن يريد: ألقيناهم في فتنة، فلما أخبر الله تعالى موسى بما وقع، رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، وباقي الآية بين، وقد تقدم قصصها مستوفى؛ وسمى العذاب غضباً من حيث هو عن الغضب.

وقرأ نافع^(١)، وعاصم: «بِمَلَكِنَا» بفتح الميم، وقرأ حمزة، والكسائي: «بِمَلَكِنَا» بضممة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «بِمَلَكِنَا» بكسرة؛ فأما فتح الميم، فهو مصدر من ملك، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأننا ملكنا الصواب، ولا وفقنا له، بل غلبتنا أنفسنا.

وأما كسر الميم، فقد كثر استعماله فيما تحوزه اليد، ولكنه يستعمل في الأمور التي يُبرمها الإنسان، ومعناها كمنى التي قبلها، والمصدر مضاف في الوجهين إلى الفاعل. وقولهم: ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا...﴾ الآية؛ سموها أوزاراً من حيث هي ثِقيلة الأجرام، أو من حيث تأثموا في قذفها، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «حَمَلْنَا» بفتح^(٢) الحاء، والميم.

وقولهم: ﴿فَكَذَلِكُ﴾ أي: فكما قذفنا نحن، فكذلك أيضاً ألقى السامري.

قال ع^(٣): * وهذه الألفاظ تقتضي أن العجل لم يصْغُه السامري، ثم أخبر^(٤) تعالى

(١) ينظر: «السبعة» (٤٢٢، ٤٢٣)، و«الحجة» (٢٤٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٩/٢)، و«معاني القراءات» (١٥٦/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٩/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٦)، و«إتحاف» (٢٥٤/٢).

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٢٣)، و«الحجة» (٢٤٦/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٠/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٥٧)، و«شرح شعلة» (٤٩)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٦)، و«إتحاف» (٢٥٥/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٩/٤).

(٤) في ج: أخبر الله.

عن فعل السامري بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ ومعنى قوله ﴿جَسَدًا﴾ أي شخصاً لا روح فيه، وقيل: معناه جسد لا يتغذى، «والخَوَاز»: صوت البقر.

قالت فرقة منهم ابن عباس: كان هذا العجل يُخَوَّر ويمشي، وقيل غير هذا^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا﴾ يعني: بني إسرائيل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَنَسِي﴾ موسى إلهه، وذهب يطلبه في غير موضعه، ويحتمل أن يكون قوله ﴿قَنَسِي﴾ إخباراً من الله تعالى عن السامري؛ أي: فنسي السامري دينه، وطريق الحق، فالتَّسْيَانُ في التأويل الأول بمعنى الذُّهول، وفي الثاني بمعنى الترك.

ت: وعلى التأويل الأول عَوَّلَ البخاري^(٢): وهو الظاهر.

ولقولهم أيضاً قبل ذلك: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقول هَارُونَ: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فيما ذكرته لكم؛ فقال بنو إسرائيل حين وعظهم هَارُونُ، وندبهم إلى الحق: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَابِدِينَ لِهَذَا إِلَهٍ عَاكِفِينَ عَلَيْهِ، أَي: مُلَازِمِينَ لَهُ.

ويحتمل قوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ أي: ببني إسرائيل نحو جبل الطور، ويحتمل قوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ أي: ألا تسير بسيري، وعلى طريقي في الإصلاح والتَّسْدِيدِ.

/ وقوله: ﴿يَبْنُومُ﴾ قالت فرقة: إِنَّ هَارُونَ لم يكن أخا موسى إلا من أمه.

١٢ ب

قال *ع*^(٣): وهذا ضَعِيفٌ. وقالت فرقة: كان شَقِيقَهُ؛ وإنما دعاه بالأم استعطافاً برحم الأم، وقول موسى: ﴿مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ هو كما تقول: ما شأنك، وما أمرك، لكن لفظه الخطب تقتضي أنتهاراً؛ لأن الخطب مستعمل في المكاره، و﴿بَصُرْتُ﴾ بضم الصاد: من البصيرة، وقرأت فرقة بكسرها^(٤)، فيحتمل أن يراد من البصيرة، ويحتمل من البصر.

(١) ذكره ابن عطية (٥٩/٤).

(٢) ينظر: «البخاري» (٢٨٥/٨) كتاب التفسير: باب سورة طه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٠/٤).

(٤) قرأ بها أبو السَّمَّال والأعمش مع فتح صاد «يبصروا».

كما في «مختصر الشواذ» ص ٩٢.

وينظر: «المحرر الوجيز» (٦١/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٤/٦)، و«الدر المصون» (٤٩/٥)،

و«التخریجات النحوية» ص ٢٩٢.

وقرأ حمزة، والكسائي^(١): «بما لم تُبصروا» بالتاء من فوق، يريد موسى مع بني إسرائيل، والرسول هنا: هو جبريل عليه السلام والأثر: هو تراب تحت حافر فرسه.

وقوله: ﴿فَبَذَلْتُهَا﴾ أي: على الحلي، فكان منها ما ترى، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: وكما وقع وحدث قربت لي نفسي، وجعلت^(٢) لي سؤلاً وإرباً حتى فعلته، وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في حد أو بوخي، فعاقبه بأجتهاد نفسه؛ بأن أبعدته ونحاه عن الناس، وأمر بني إسرائيل بأجتنابه، وأجتناب قبيلته وألاً يؤاكلوا ولا يُناكحوا، ونحو هذا، وجعل له أن يقول مدة حياته: لا مِسَاسَ، أي: لا مِمَاسَةً، ولا إذابة.

وقرأ الجمهور^(٣): «لَنْ تُخْلَفَهُ» بفتح اللام، أي: لن يقع فيه خلف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «تُخْلِفَهُ» بكسر اللام، على معنى لن تستطيع الروغان، والحيدة عن موعد العذاب، ثم وبَّخه عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهَكْ...﴾ الآية، و﴿ظَلَّتْ﴾ وظل معناه: أقام يفعل الشيء نهاراً، ولكنها قد تُستعمل في الدائب ليلاً ونهاراً، بمثابة طَفِقَ.

وقرأ ابن عباس^(٤) وغيره: «لَتُحْرِقَنَّهُ» بضم الراء وفتح النون؛ بمعنى لنبردنه بالمبرد، وقرأ نافع وغيره: «لَتُحْرِقَنَّهُ» وهي قراءة تحتل الحرق بالنار، وتحتل بالمبرد. وفي مصحف ابن مسعود^(٥): «لنذبحنه ثم لنحرقنه ثم لننسفنه» وهذه القراءة هي مع رواية من روى أن العجل صار لحماً ودماً، وعلى هذه الرواية يتركب أن يكون هناك حرق بنار، وإلا فإذا كان جماداً من ذهب ونحوه، فإنما هو حرق بمبرد، اللهم إلا أن تكون إذابة، ويكون النسف مُستعاراً، لتفريقه في اليم مذاباً.

(١) ينظر: «السبعة» (٤٢٤)، و«الحجة» (٢٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٢/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٥٨)، و«شرح الطيبة» (٥٠/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«إتحاف» (٢٥٥/٢).

(٢) في ج: جعلته.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٦/٦)، و«الدر المصون» (٥١/٥)، و«السبعة» (٤٢٤)، و«الحجة» (٢٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٣/٢)، و«معاني القراءات» (١٥٨/٢)، و«شرح الطيبة» (٥٠/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٦)، و«إتحاف» (٢٥٦).

(٤) وقرأ بها علي وعمرو بن فائد.

ينظر: «المحتسب» (٥٨/٢)، و«الكشاف» (٨٥/٣)، و«المحرر الوجيز» (٦٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٦)، وزاد نسبتها إلى حميد، وأبي جعفر في رواية.

وهي في «الدر» (٥٢/٥).

(٥) وقرأ بها أبي.

ينظر: «الكشاف» (٨٥/٣)، و«المحرر الوجيز» (٦٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٦).

وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ: «لَتَنْسِفَنَّهُ» بكسر السين^(١)، وقرأت فرقةً بضمها، والتَّسْفُ: تفريقُ الريح الغبار، وكل ما هو مثله؛ كتفريق الغربال ونحوه، فهو تَسْفٌ، و﴿الْيَم﴾: غمرُ الماءِ من بحرٍ أو نهرٍ، وكل ما غمر الإنسان من الماء فهو يَمٌ، واللام في قوله ﴿لَنَحْرَقَنَّهُ﴾ لام قسم، وقال مكي (رحمه الله تعالى): وأسند أن موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجات، وحينئذ وقع أمر العجل، وأن الله تعالى أعلم موسى بذلك، فكتمه موسى عنهم، وجاء بهم حتى سمعوا لَعَطَ بني إسرائيل حول العجل، فحينئذ أعلمهم.

قال *ع^(٢): وهذه رواية ضعيفة، والجمهور على خلافها، وإنما تعجل موسى عليه السلام وحده فوق أمر العجل، ثم جاء موسى، وصنع ما صنع بالعجل، ثم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل، وأن يطلعهم أيضاً على أمر المناجات، فكان لموسى عليه السلام نهضتان، والله أعلم.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ خَلِيلِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝ (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ (١٠٢) يَخْخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝ (١٠٤)﴾.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ مخاطبة / لنبينا محمد ﷺ أي كما قصصنا عليك نأى بني إسرائيل، كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق مُدَّتِكَ، والذِّكْر: القرآن.

وقوله: ﴿مَن أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يريد بالكُفْر به، و﴿زُرْقًا﴾ قالت فرقةٌ معناه: يُحْشَرُونَ أول قيامهم سود الألوان، زُرْقُ العُيُونِ، فهو تشويه، ثم يعمون بعد ذلك، وهي مواطن.

وقالت فرقة: أراد زرق الألوان، وهي غاية في التشويه، لأنهم يَجِثُونَ كلون الرماد، ومهيع في كلام العرب أن يسمى هذا اللون أزرق: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: يتخافت المجرمون بينهم، أي: يتسارون، والمعنى: أنهم لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم، قد عذب عنهم قُدر مَدَّة لبثهم.

واختلف الناس فيما ذا، فقالت فرقة: في دار الدنيا، ومُدَّة العمر، وقالت فرقة: في الأرض مدة البرزخ.

(١) أما الكسر فهو قراءة السبعة. وأما ضم السين، فقرأ بها عيسى بن عمر، كما في «مختصر الشواذ» ص ٩٢. وينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٦٢)، و«البحر المحيط» (٦/٢٥٧)، و«الدر المصون» (٥/٥٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٦٢).

﴿وَأَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ معناه: أثبتهم نفساً يقول: إن لبثتم إلا يوماً، أي: فهم في هذه المقالة يظنون أن هذا قَدَرٌ لبثهم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ...﴾ الآية، السائل: قيل: رجلٌ من ثقيف، وقيل: السائل: جماعة من المؤمنين، ورؤي: أن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً، فتدكدكها حتى تكون كالعين المنفوش، ثم تتوالى عليها حتى تُعيدّها كالهباء المُنْبَث، فذلك هو النسف.

والقاع: هو المستوي من الأرض، والصَّفْصَف: نحوه في المعنى. والامت: ما يعترى الأرض من ارتفاع وانخفاض.

وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ يحتمل: أن يُريدَ الإخبار به، أي: لا شك فيه، ولا يخالف وجوده خبره، ويحتمل: أن يريد لا مَحِيدَ لأحدٍ عن آتباع الدَّاعي، والمشي نحو صَوْتِه، والخشوع: التَّطَامُّنُ، والتواضع، وهو في الأصوات أَسْتَعَارَةٌ بمعنى الخفاء.

والهَمْسُ: الصَّوْتُ الخَفِيُّ الخَافِئُ، وهو تخافتهم بينهم، وكَلَامُهُم السِّر، ويحتمل أن يريد صوت الأقدام؛ وفي «البخاري»^(١): ﴿هَمْسًا﴾: صوت الأقدام، انتهى. ومن في قوله ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يحتمل أن تكون للشافع، ويحتمل أن تكون للمشفوع فيه.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ معناه: ذَلَّتْ، وخضعت، والعاني: الأسير؛ ومنه قوله ﷺ في أمر النساء: «هن عوان عندكم» وهذه حالة النَّاسِ يومَ القيامة.

قال ص*: وَعَنَتِ: من عَنَّا يَعْنُو: ذَلَّ، وخَضَعَ؛ قال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

[الطويل]

مَلِكٌ عَلَى عَرْشٍ السَّمَاءِ مُهَيَّمٍ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ^(١) انتهى .

ت: وأحاديث الشفاعة قد استفاضت، وبلغت حد التواتر، ومن أعظمها شفاعة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى ففي «صحيح مسلم»، من حديث أبي سعيد الخدري قال: فيقول الله عز وجل: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيُفَضُّ قَبْضَةٌ مِنَ النَّارِ، فَيُخْرَجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَقْوَاهِ الْجَنَّةِ» وفيه: «فَيُخْرَجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ، فِي رِقَابِهِمُ الْحَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمَلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ...»^(٢) الحديث، وخرج أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم الختلي بسنده عن ابن ١٣ ب عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، أَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ؛ أَنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، قَالَ: فَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مِثْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَوْ قَالَ: مِثْلِي أَهْلُ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ: مِثْلِي أَهْلُ الْجَنَّةِ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ: عَتَقَاءُ اللَّهِ.»^(٣) انتهى من «التذكرة».

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، معنى خاب: لم ينجح، ولا ظفر بمطلوبه، والظلم يعمُّ الشُّركَ والمعاصي، وخيبة كلِّ حاملٍ بقدر ما حمل من الظلم.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ معادل لقوله: ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ والظلم والهضم: هما متقاربان في المعنى، ولكن من حيث تناسقاً في هذه الآية؛ ذهب قومٌ إلى تخصيص كل واحدٍ منهما بمعنى، فقالوا: الظلم: أن تعظم عليه سيئاته، وتكثر أكثر مما يجب.

والهضم: أن ينقص من حسناته، ويبخسها.

وكلهم قرأ: «فَلَا يَخَافُ» على^(٤) الخبر غير ابن كثير؛ فإنه قرأ: «فَلَا يَخَفُ» على النهي.

(١) ينظر: «ديوانه» (٢٩)، وهو من شواهد «البحر» (٥٠١/٣)، و«الدر المصون» (٥٣٧/٢)، (٥٧/٥).

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) ينظر: «السبعة» (٤٢٤)، و«الحجة» (٢٥١/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٧/٢)، ولكنه أثبتتها بالتاء

الفوقية، و«معاني القراءات» (١٥٩/٢)، و«شرح الطيبة» (٥٢/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة»

(٤٩٦)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢٥٧/٢).

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ﴾ (١١٣)
فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي
عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ۖ

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ﴾ بحسب توقع البشر،
وترجيهم ﴿يَتَّقُونَ﴾ الله، ويخشون عقابه؛ فيؤمنون ويتذكرون نعمه عندهم، وما حذرهم
من أليم عقابه هذا تأويل فرقة في قوله: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

وقالت فرقة: معناه أَوْ يُكْسِبُهُمْ شَرَفًا، ويبقى عليهم إيمانهم ذكراً صالحاً في الغابرين.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ...﴾ الآية، قالت فرقة: سببها: أن النبي ﷺ كان
يخاف وقت تكليم جبريل له أن ينسى أول القرآن، فكان يقرأ قبل أن يستتم جبريل عليه
السلام الوحي؛ فنزلت في ذلك، وهي على هذا في معنى قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ
لِتَعْجَلْ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦]. وقيل غير هذا.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۖ فَقُلْنَا يَنْبَغُ أَنْ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَجُلٍ ۖ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْفَىٰ﴾ (١١٧).

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ...﴾ الآية، العهد هنا بمعنى
الوصية، والشيء الذي عهد إلى آدم عليه السلام هو ألا يقرب الشجرة.

ت: قال عياض: وأما قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] أي:
جهل، فإن الله تعالى أخبر بعذره بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ
عَزْمًا﴾ قيل: نسي، ولم ينو المخالفة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أي:
قصداً للمخالفة.

ت: وقيل: غير هذا مما لا أرى ذكره هنا، ولله درُّ أبْنِ الْعَرَبِيِّ حيث قال^(١):
يجبُ تنزيه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - عما نَسَبَ إليهم الجهال. ولكن الباري سبحانه
بحكمه النافذ، وقضائه السابق أسلم آدم إلى الأكل من الشجرة متممداً للأكل، ناسياً للعهد،
فقال في تعمله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمَ﴾ وقال في بيان عُذْرِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ﴾
فَمَتَعَلَّقَ العهد غير متعلق النسيان، وجاز للمولى أن يقول في عبده لحقه: عَصَى تَثْرِيبًا،

ويعود عليه بفضلله فيقول: نَسِيَّ تَقْرِيبًا، ولا يجوز لأحد مِنَّا أن يطلق ذلك على آدم، أو يذكره إلا في تلاوة القرآن أو قول النبي ﷺ. انتهى من «الأحكام».

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ المعنى: إِنَّ لَكَ يا آدم في الجنة نعمة تامة، لا يصيبك جوع، ولا عري، ولا ظمأ / ، ولا بروز للشمس يؤذيكَ، وهو ١١٤ الضحاء.

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ يَتَذَكَّرُ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبَلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَءُ ثُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾.

وقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ﴾ *ص*: عَذِي هُنَا ب «إِلَى» على معنى أنهى الوسوسة إليه، وفي «الأعراف» باللام، فقال أبو البقاء: لأنه بمعنى ذكر لهما. انتهى.

ثم أعلمهم سبحانه: أن من اتبع هُذَاهُ فلا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وأن من أعرض عن ذكر الله، وكفر به؛ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، و«الضنك»: النكد الشاق من العيش والمنازل، ونحو ذلك.

وهل هذه المعيشة الضنك تكون في الدنيا، أو في البرزخ، أو في الآخرة؟ أقوال.

ت: وَيُحْتَمَلُ في الجميع، قال القرطبي: قال أبو سعيد الخُدْرِي، وأَبْنُ مسعود: ضَنْكًا: عذاب القبر^(١)، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أَتَذَرُونَ فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾» أَتَذَرُونَ مَا الْمَعِيشَةُ الضَنْكُ؟ قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: عَذَابُ الْكَافِرِ فِي الْقَبْرِ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَسْلُطُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعُونَ تَيْنًا - وَهِيَ الْحَيَاتُ - لِكُلِّ حَيَّةٍ تِسْعَةُ رُؤُوسٍ، يَنْفُخْنَ فِي جِسْمِهِ، وَيَلْسَعُنَهُ

(١) أخرجه الطبري (٤٧٢/٨) رقم (٢٤٤٢٤)، وذكره البغوي (٢٣٥/٣)، والسيوطي (٥٥٧/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، والبيهقي عن ابن مسعود.

وَيَخْدِشْنُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُخَشِّرُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَى مَوْفِقِهِ أَعْمَى^(١). انتهى من «التذكرة» فَإِنْ صَحَّ هذا الحديث، فلا نظر لأحد معه، وإن لم يصح، فالصواب حمل الآية على عمومها؛ والله أعلم.

قال الثَّعْلَبِيُّ: قال ابن عباس: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قال: أجاز الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا، أو يشقى في الآخرة^(٢). وفي لفظ آخر: «ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن...» الحديث، وعنه: مَنْ قرأ القرآن واتباع ما فيه، هداه الله تعالى مِنَ الضَّلَالَةِ ووقاه الله تعالى يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ. انتهى.

وقوله سبحانه: «وَنَخْشِرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» قالت فرقة: وهو عمى البصر، وهذا هو الأوجه، وأما عمى البصيرة، فهو حاصل للكافر.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ النسيان هنا: هو الترك، ولا مدخل للذهول في هذا الموضع، و﴿تَنْسَى﴾ أيضاً بمعنى: تُترك في العذاب.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨) وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَّلَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَتَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ حَرِيرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقَةُ لِلْفَقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣).

وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ المعنى: أفلم^(٣) يبين لهم.

(١) أخرجه أبو يعلى (١١/ ٥٢١-٥٢٢) رقم (٦٦٤٤)، وابن حبان (٨٧٢ - موارد)، والطبري في «تفسيره» (٢٢٨/١٦) من حديث أبي هريرة.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٥٨/٣): رواه أبو يعلى، وفيه دراج، وحديثه حسن، واختلف فيه. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٥٧)، وزاد نسبه إلى ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٤٦٩) برقم (٢٤٤٠٠) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٢٣٥)، وابن كثير (٣/ ١٦٨)، والسيوطي (٤/ ٥٥٦)، وعزاه للفريابي، وسعيد بن منصور، وأبن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريق عن ابن عباس.

(٣) في ج: أو لم.

وقرأت^(١) فرقة: «نَهْد» بالنون، والمراد بالقرون المهلكين: عَادٌ، وَثَمُودٌ، والطوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشام وغيره، ثم أعلم سبحانه نبيه ﷺ أن العذاب كان يصير لهم لزاماً لولا كلمة سبقت من الله تعالى في تأخيرهم عنهم إلى أجل مُسمًى عنده، فتقدير الكلام. ولولا كلمة سبقت في التأخير، وأجل مسمى، لكان العذاب لزاماً؛ كما تقول لكان حتماً، أو واقعاً، لكنه قدم وأخر؛ لتشابه رؤوس الآي.

واختلف في الأجل المسمى: هل هو يوم القيامة، أو موت كل واحد منهم، أو يوم بذر؟ وفي «صحيح البخاري»: ^(٢) أن يوم بذر هو: اللزام، وهو: البطشة الكبرى، يعني: وقع في البخاري من تفسير ابن مسعود، وليس هو من تفسير النبي ﷺ.

قال *ص*: «وَإِذَا مَا مَصْدَرٌ، وَإِذَا بِمَعْنَى مَلَزَمٌ، وَأَجَاز أَبُو الْبَقَاءِ: أَنْ يَكُونَ جَمْعٌ لِأَزَمٍ، كَقَائِمٍ وَقِيَامٍ. انتهى.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالصبر على أقوالهم: إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كاذب^(٣) إلى غير ذلك.

وقوله سبحانه: / ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ...﴾ الآية، قال أكثر المفسرين: هذه إشارة ١٤ ب إلى الصلوات الخمس؛ فقبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر، ومن آناء الليل العشاء، وأطراف النهار المغرب والظهر.

[قال ابن العربي^(٤): والصحيح أن المغرب من طرف الليل، لا من طرف النهار. انتهى من «الأحكام»]^(٥).

وقالت فرقة: آناء الليل: المغرب والعشاء، وأطراف النهار: الظهر وحدها، ويحتمل اللفظ أن يراد به قول: سبحانه الله وبحمده.

(١) وهي قراءة ابن عباس والسلمي.

كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٧٢).

ينظر: «الكشاف» (٣/٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/٦٩)، و«البحر المحيط» (٦/٢٦٧)، و«الدر المصون» (٥/٦٣).

(٢) ينظر «صحيح البخاري» (٨/٣٥٥) كتاب التفسير: باب «فسوف يكون لزاماً» رقم (٤٧٦٧).

(٣) في ج: كذاب.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٢٦٣).

(٥) سقط في ج.

وقالت فرقة: في الآية: إشارة إلى نوافل، فمنها آناء الليل، ومنها قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر.

ت: ويتعذر على هذا التأويل قوله: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ إذ ليس ذلك الوقت وقت نفل^(١)، على ما علم إلا أن يتأول ما قبل الغروب بما قبل صلاة العصر وفيه بعد.

قال *ص*: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي: وأنت حامد. انتهى.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ بفتح التاء، أي: لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): وهذه الآية ثماثل قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

وعنه رحمته أنه قال: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؛ فَإِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا»^(٤) عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَغْيِي: الصُّبْحَ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَأَفْعَلُوا»^(٥).

وفي الحديث الصحيح أيضاً: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٦). انتهى.

وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم^(٧): «تَرْضَى» أي: لعلك تغطي ما يرضيك، ثم أمر سبحانه نبيه عليه السلام بالاحتقار لشأن الكفرة، والإعراض عن أموالهم، وما في أيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك مُنْهِسِرٌ عنهم صائر إلى خزي، والأزواج: الأنواع، فكأنه قال: إلى ما متعنا به أقواماً منهم، وأصنافاً.

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٠/٤)، و«البحر المحيط» (٢٦٩/٦).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٦٣/٣).

(٤) في ج: لا تغموا.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (٥٢/٢) كتاب مواقيت الصلاة: باب فضل صلاة الفجر، حديث (٥٧٤) ومسلم (١/٤٤٠) كتاب المساجد: باب فضل صلاة الصبح والعصر، حديث (٦٣٥/٢١٥)، وأحمد (٨٠/٤)، والدارمي (٣٣١/١)، وابن حبان (١٧٣٩)، والبيهقي (٤٦٦/١)، والبخاري في «شرح السنة» (٢/٣٩). بتحقيقنا.

(٧) ينظر: «السبعة» (٤٢٥)، و«الحجة» (٢٥٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٧/٢)، و«معاني القراءات» (١٦٠/٢)، و«شرح الطيبة» (٥٣/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٧)، و«إتحاف» (٢/٢٥٩).

وقوله: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ شبه سبحانه نعم هؤلاء الكفار بالزهر، وهو ما أضفر من الثور، وقيل: الزهر: النور جملة؛ لأن الزهر له منظر، ثم يضمحل عن قرب، فكذاك مآل هؤلاء، ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ: أن ذلك إنما هو ليختبرهم به، ويجعله فتنة لهم وأمرًا يجازون عليه أسوأ الجزاء؛ لفساد قلوبهم فيه.

ص: ﴿زَهْرَةَ﴾: منصوبٌ على الذم، أو مفعولٌ ثانٍ لـ: ﴿متعنا﴾ مضمن معنى أعطينا. اهـ.

ورزق الله تعالى الذي أحله للمتقين من عباده، خير وأبقى، أي: رزق الدنيا خير ورزق الآخرة أبقى، وبين أنه خير من رزق الدنيا، ثم أمره سبحانه وتعالى بأن يأمر أهله بالصلاة، ويمثلها معهم ويضطر عليها ويلازمها، وتكفل هو تعالى برزقه لا إله إلا هو، وأخبره أن العاقبة للمتقين بنصره في الدنيا، ورحمته في الآخرة، وهذا الخطاب للنبي ﷺ ويدخل في عموميه: جميع أمته.

وروي: أن عُرْوَةَ بِنَ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم، بادر إلى منزله، فدخله وهو يقول: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ الآية إلى قوله ﴿وَأَبْقَى﴾ ثم يتأدي: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ رَحِمَكُمُ اللَّهُ، ويصلي^(١).

وكان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يوقظ أهل داره لِصَلَاةِ اللَّيْلِ ويصلي هو ويتمثل بالآية^(٢).

قال الداودي: وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قال: «كان النبي ﷺ إذا نزل بأهله ضيقٌ أو شدةٌ أمرهم بالصلاة، ثم قرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ إلى قوله ﴿لِلتَّقَى﴾^(٣). انتهى.

قال ابن عطاء الله في «التنوير»: وأعلم أن هذه الآية علمت أهل الفهم عن الله تعالى كيف يطلبون / رزقهم، فإذا توقفت عليهم أسباب المعيشة، أكثروا من الخدمة والموافقة، ١١٥ وقرعوا باب الرزق بمعاملة الرزاق - جل وعلا - ثم قال: وسمعتُ شيخنا أبا العباس

(١) أخرجه الطبري (٤٨٠/٨) رقم (٢٤٤٥٩)، وذكره ابن عطية (٧١/٤)، وابن كثير (١٧١/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٧١/٤)، وابن كثير (١٧١/٣) نحوه، والسيوطي (٥٦١/٤)، وعزاه لمالك، والبيهقي عن أسلم عن عمر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦١/٤)، وعزاه إلى أبي عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني في «الأوسط»، وأبي نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عبد الله بن سلام.

المُرْسِي رضي الله عنه يقول: واللَّه مَا رَأَيْتَ الْعِزَّ إِلَّا فِي رَفْعِ الْهِمَّةِ عَنِ الْخَلْقِ، وَأَذْكُرُ رَحِمَكَ اللَّهُ هُنَا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ففي العز الذي أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنَ رَفْعُ هِمَّتِهِ إِلَى مَوْلَاهُ، وَثِقَتُهُ بِهِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، وَاسْتِحْيَا مِنَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ كَسَاكَ حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَزِينَتِ بَزِينَةِ الْعِزِّفَانِ؛ أَنْ تَسْتَوَلِيَ عَلَيْكَ الْغَفْلَةُ وَالنِّسْيَانُ؛ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى الْأَكْوَانِ^(١)، أَوْ تَطْلُبَ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى وَجُودَ إِحْسَانٍ، ثُمَّ قَالَ: وَرَفْعُ الْهِمَّةِ عَنِ الْخَلْقِ: هُوَ مِيزَانُ ذَوِي الْكَمَالِ وَمُسْبَارِ الرِّجَالِ، كَمَا تَوَزَنَ الدَّوَاتُ كَذَلِكَ تَوَزَنَ الْأَحْوَالُ وَالصِّفَاتُ. انْتَهَى.

وَمِنْ كِتَابِ «صِفْوَةِ التَّصَوُّفِ» لِأَبِي الْفَضْلِ مُحَمَّدَ بْنَ طَاهِرِ الْمُقَدَّسِيِّ الْحَافِظِ حَدِيثُ^(٢) بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي عُمَرَ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدَّثْنِي حَدِيثًا، وَأَجْعَلُهُ مُوجِزًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «صَلِّ صَلَاةَ مُؤَدَّعٍ، كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، تَعِشْ غَنِيًّا، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ» وَرَوَاهُ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ بِمِثْلِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣) انْتَهَى.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بَآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، أَي: بِعَلَامَةٍ مِمَّا اقْتَرَحْنَاهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ وَبَخْهَمُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أَي: [مَا فِي]^(٤) التَّوْرَةِ، وَغَيْرِهَا، فَفِيهَا أَعْظَمُ شَاهِدٍ، وَأَكْبَرُ آيَةٍ لَهُ سَبْحَانَهُ.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾﴾.

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ إِسْرَالِنَا إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا، ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا...﴾ الْآيَةُ، وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَخْتِجُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ، وَالْمَغْلُوبُ

(١) فِي جَدِّ: الْأَخْوَانُ.

(٢) فِي جَدِّ: حَدَّثَ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الزَّهْدِ» (٥٢٨)، وَالْقُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» رَقْم (٩٥٢)، وَابْنُ النِّجَارِ فِي «ذَيْلِ تَارِيخِ بَغْدَادٍ» (١٠٨/١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍ.

وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٢٣٢/١٠)، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَفِيهِ مَنْ لَمْ أَعْرِفْهُمْ.

(٤) سَقَطَ فِي جَدِّ.

عَلَى عَقْلِهِ، وَالصَّبِيَّ الصَّغِيرُ. فَيَقُولُ الْمَغْلُوبُ عَلَى عَقْلِهِ: رَبِّ، لَمْ تَجْعَلْ لِي عَقْلاً، وَيَقُولُ الصَّبِيُّ نَحْوَهُ، وَيَقُولُ الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ. رَبِّ، لَمْ يُرْسِلْ إِلَيَّ رَسُولًا، وَلَوْ جَاءَنِي، لَكُنْتُ أَطْوَعَ خَلْقِكَ لَكَ، قَالَ: فَتَزْتَفِعْ لَهُمْ نَارًا، وَيَقَالُ لَهُمْ: رُدُّوْهَا، فَيَرُدُّهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ سَعِيدٌ وَيَكْفَعُ عَنْهَا الشَّقِيَّ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ فَكَيْفَ بِرُسُلِي لَوْ أَنْتَكُمُ^(١).

قال (ع)^(٢): أما الصبي، والمغلوب على عقله، فبيّن أمرهما، وأما صاحب الفترة، فليس ككفار قريش قبل بعثة النبي ﷺ، لأن كفار قريش، وغيرهم ممن علم وسمع نبوة ورسالة في أقطار الأرض، ليس بصاحب فترة، وقد قال النبي ﷺ لرجل: «أبي وأبوك في النار» ورأى ﷺ، عمرو بن لُحَيٍّ في النار^(٣) وإلى غير هذا مما يطول ذكره، وإنما صاحب الفترة يفرض أنه آدمي لم يطرأ إليه أن الله تعالى بعث رسولاً، ولا دعا إلى دين، وهذا قليل الوجود إلا أن يشذ في أطراف الأرض، والمواضع المنقطعة عن العمران.

ت: والصحيح في هذا الباب: «أَنَّ أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا أَوْلَادُ الْمُسْلِمِينَ فَفِي الْجَنَّةِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ» متفق عليه.

وقد أسند أبو عُمَرَ في «التمهيد»^(٤) من طريق أنس عن النبي ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَبِّي فِي اللَّاهِنِينَ مِنْ ذُرِّيَةِ الْبَشَرِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ فَأَعْطَانِيهِمْ»^(٥). قال أبو عمر: إنما قيل للأطفال:

- (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨١/٨) رقم (٢٤٤٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري.
- (٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤) / ٧١ - ٧٢.
- (٣) أخرجه ابن إسحاق (١/ ٧٨ - ٧٩) «تهذيب سيرة ابن هشام»، ومن طريقه الطبري (٨٩/٥) (١٢٨٣١) عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي، أن أبا صالح السمان حدثه، أنه سمع أبا هريرة يقول... فذكره، وأخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٥) عن محمد بن عمر وعن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً به وصححه، ووافقه الذهبي.
- وله شاهد من حديث أبي بن كعب، رواه أحمد (٥/ ١٣٨)، والحاكم (٤/ ٦٠٥) وصححه، ووافقه الذهبي.
- وأخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣) عن جابر.
- وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٩١): رواه أحمد، وروى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ بمثله. وفي الإسنادين عبد الله بن محمد بن عقيل، وفيه ضعف، وقد وثق.
- (٤) ينظر: «التمهيد» (١٨/ ١١٧)، وينظر: «الاستذكار له» (٨/ ٤٠١ - ٤٠٢).
- (٥) أخرجه أبو يعلى (٦/ ٢٦٧) رقم (٣٥٧٠).
- وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٢٢): رواه أبو يعلى من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن المتوكل، وهو ثقة.

اللَّاهُوتَ^(١)؛ لأن أعمالهم كاللهو، واللعب من غير عقد، ولا عَزْم، ثم أسند أبو عمر،
١٥ ب / عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢).

قال أبو عمر^(٣)، وروى شُعْبَةُ، وسعيد بن أبي عروبة، وأبو عَوَانَةَ، عن قتادة، عن
أبي سريّة العجلي، عن سَلْمَانَ قال: أَطْفَالُ الْمُشْرِكِينَ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وذكر البخاري حَدِيثَ الرُّؤْيَا الطَّوِيلِ، وفيه: «وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرُّؤْيَا،
فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَّا الْوَلَدَانِ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، قَالَ: فَقِيلَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ»، وفي رواية:
«وَالصَّبِيَّانِ حَوْلَهُ أَوْلَادُ النَّاسِ» وظاهره العموم في جميع أولاد الناس. انتهى [من التمهيد]^(٤)
والذَّلُّ، والخِزْيُ مقترنان بعذاب الآخرة.

وقوله: «قُلْ كُلٌّ» أَي: مِنَّا وَمِنْكُمْ «مُتَرَبِّصٌ» والتربصُ: التأنّي، والصُّرَاطُ:
الطريق، وهذا وَعِيدٌ بَيِّنٌ؛ والله الموفق، والهادي إلى الرشاد بفضله.

(١) في ج: اللاهين.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢/ ٢٣٥-منحة) رقم (٢٨٢٢)، وأبو يعلى (١٣١/٧) رقم (٤٠٩٠)، وأبو نعيم في
«الحلية» (٣٠٨/٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٢/٧): رواه أبو يعلى، والبخاري، والطبراني في
«الأوسط» إلا أنهما قالوا: أطفال المشركين، وفي إسناد أبي يعلى يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، وقال فيه
ابن معين: رجل صدق. ووثقه ابن عدي، وبقية رجالهما رجال الصحيح.

والحديث ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٥١/١)، وعزاه للطبراني عن أنس، وسعيد بن منصور
عن سلمان موقفاً، وللبخاري في «تاريخه الأوسط» عن سمرة مرفوعاً.

(٣) ينظر «التمهيد» (١٨/ ١١٦-١١٨) و «الاستذكار» (٨/ ٤٠٢).

(٤) سقط في ج.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مكية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾.

قوله عز وجل: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ...﴾ الآية: روي أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، كان يبني جداراً، فمر به آخر يوم نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل اليوم ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فنفض يديه من البُنيان، وقال: واللّه لا يَبْنِيْتُ. قال أبو بكر بن العربي: قال لي شَيْخِي: في العبادة لا يذهب لك الزمان؛ في مُصَاوَلَةِ الْأَقْرَانِ؛ ومُوَاصَلَةِ الْإِخْوَانِ، ولم أَرِ لِلخُلَاصِ شَيْئاً أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقَيْنِ: إمّا أن يغلق الإنسان على نفسه بابه، وإما أن يخرج إلى مَوْضِعٍ لا يُعْرِفُ فِيهِ، فَإِنْ أَضْطَرَّ إِلَى مَخَالَطَةِ النَّاسِ، فَلْيَكُنْ مَعَهُمْ بَدَنَهُ، ويفارقهم بقلبه ولسانه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فبقَلْبِهِ، ولا يفارق السكوت. قال القُرْطُبِيُّ: ولأبي سليمان الخَطَّابِيُّ في هذا المعنى: [الوافر]

أَنْسَنُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْنِي
وَأَدْبَنِي الزَّمَانَ فَلَا أَبَالِي
وَلَسْتُ بِسَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا
فَدَامَ الْأَنْسُ لِي وَنَمَا السُّرُورُ
بِأَنْفِي لَا أَرَارُ وَلَا أَزُورُ
أَسَارَ الْجَنِيحِ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ

انتهى من «التذكرة».

وقوله: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عامٌ في جميع الناس، وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش؛ ويدل على ذلك ما يأتي بعد من الآيات.

قال *ص*: اقترب: بمعنى الفعل المجزء وهو قَرُبَ، وقيل: اقترب أبلغ للزيادة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ الواو للحال، انتهى.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريد: الكفار، ويأخذ عصاة المؤمنين من هذه الألفاظ قسطنطهم.

١١٦ *ت*: أَيُّهَا الْأَخُّ أَشْعِرْ قَلْبَكَ مَهَابَةَ رَبِّكَ، فَإِلَيْهِ مَالُكَ؛ وَتَأَهَّبْ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ آنَّ أَرْتَحَالَكَ؛ أَنْتَ فِي سَكْرَةٍ لَذَاتِكَ؛ وَغَشِيَتْ شَهَوَاتِكَ؛ وَإِعْغَاءَ غَفْلَاتِكَ؛ وَمِقْرَاضُ / الْفَنَاءِ يَعْمَلُ فِي ثَوْبِ حَيَاتِكَ؛ وَيَفْصِلُ أَجْزَاءَ عَمْرِكَ جُزْءاً جُزْءاً فِي سَائِرِ سَاعَاتِكَ؛ كُلُّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِكَ جُزْءٌ مَنْفَصِلٌ مِنْ جُمْلَةٍ ذَاتِكَ وَبِذَهَابِ الْأَجْزَاءِ تَذَهُبُ الْجُمْلَةُ، أَنْتَ جُمْلَةٌ تُوْخَذُ، آخِادَهَا وَأَبْعَاضُهَا، إِلَى أَنْ تَسْتَوْفِي سَائِرَهَا عَسَاكَرِ الْأَقْضِيَةِ، وَالْأَقْدَارِ مُخْدَقَةٌ بِأَسْوَارِ الْأَعْمَارِ؛ تَهْدِمُهَا بِمَعَاوِلِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ فَلَوْ أَضَاءَ لَنَا مُضْبَاحُ الْإِعْتِبَارِ؛ لَمْ يَبْقَ لَنَا فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِنَا سَكُونٌ وَلَا قَرَارٌ. انْتَهَى مِنْ «الْكَلِمِ الْفَارِقِيَةِ وَالْحَكْمِ الْحَقِيقَةِ».

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تَخَدُّبٌ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ١ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ ٢ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٣ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنَسْ بِتَأْيِيهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ٤.

وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ وما بعده مختص بالكفار، والذكر: القرآن، ومعناه محدث نزوله، لا هو في نفسه.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جملة في موضع الحال، أي: أستماعهم في حال لعب؛ فهو غير نافع، ولا واصل إلى النفس.

وقوله ﴿لَاهِيَةً﴾ حال بعد حال، واختلف النحاة في إعراب قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فمذهب سيويه^(١) (رحمه الله تعالى): أن الضمير في ﴿أَسْرُوا﴾: فاعل، وأن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل منه، وقال: ليس في القرآن لغة من قال: أكلوني البراغيث^(٢)، ومعنى: ﴿أَسْرُوا النَّجْوَى﴾ تكلموا بينهم في السر، ومناجات بعضهم لبعض.

(١) ينظر «الكتاب» (٤١/٢).

(٢) الواو علامة جمع الفاعل، كما يلحق الفعل تاء التأنيث ليدل على تأنيث الفاعل، ك «قامت هند»، وهذه اللغة جارية في المثنى وجمع الإناث أيضاً فيقال: قاما أخواك، وقمن أخواتك كقوله:

وَقَدْ أَسْلَمَاهُ مُبْعَدٌ وَحَمِيمٌ

وقوله:

وَلَكِنْ دِيَانِي أَبُوهُ وَأُمُّهُ بِحَوْرَانٍ يَغْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقَارِبُهُ
واستدل بعضهم بقوله عليه السلام: «يتعاقبون فيكم ملائكة»، ويعبر النحاة عن هذه اللغة بلغة «أكلوني البراغيث»، ولكن الأصح ألا تلحق الفعل علامة، وفرق النحويون بين لحاق علامة التأنيث وعلامة التثنية والجمع بأن علامة التأنيث ألزم؛ لأن التأنيث في ذات الفاعل بخلاف التثنية والجمع فإنه غير لازم.

ينظر: «الدر المصون» (٥٨٠/٢ - ٥٨١).

وقال أبو عبيدة^(١): أسرّوا: أظهروا، وهو من الأضداد، ثم بين تعالى الأمر الذي تناجوا به، وهو قول بعضهم لبعض على جهة التوبيخ بزعمهم: ﴿أَقْتَاتُونَ السَّحَر﴾ المعنى: أفتتبعون السحر وأنتم تبصرون، ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ، أن يقول لهم وللناس جميعاً: قُلْ ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم أقوالكم هذه، وهو بالمرصاد في المجازاة عليها، ثم عدّد سبحانه جميع ما قالته طوائفهم ووقع الاضراب بكلّ مقالة عن المتقدمة لها؛ ليبيّن اضطراب أمرهم فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامُ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ والأضغاث: الأخطا، ثم حكى سبحانه اقتراحهم، آية تضطرهم؛ كناية صالحة وغيرها، وقولهم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ذالّ على معرفتهم بإتيان الرُّسلِ الأمم المتقدمة.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾.

وقوله سبحانه: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ فيه محذوف يدلّ عليه المعنى تقديره: والآية التي طلبوها عادتنا أن القوم إن كفروا بها عاجلناهم، وما آمنت قبلهم قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة، أفهذه كانت تؤمن؟.

وقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ جملة في موضع الصفة لـ ﴿قرية﴾ والجمل: إذا اتبعت التكرات؛ فهي صفات لها، وإذا اتبعت المعارف؛ فهي أحوال منها.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية ردّ على من استبعد منهم أن يبعث الله بشراً رسولاً و﴿الذكر﴾ هو كلّ ما يأتي من تذكير الله عباده، فأهل القرآن أهل ذكر، وأمّا المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت؛ لأنهم كانوا خصومهم، وإنما أحيلوا على سؤال أخبار أهل الكتاب من حيث كانوا موافقين لكفار قريش على ترك الإيمان بمحمد ﷺ.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَدًّا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ﴾ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ قيل: الجَسَدُ من الأحياء: ما لا يَتَغَذَّى، وقيل: الجسد يَعْمُ الْمُتَغَذِّي من الأجسام وغير المتغذي ف ﴿جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً﴾ على التَّأْوِيلِ الأول: مَنَفِيٍّ، وعلى الثاني: مُوجِبٌ، والنفي واقعٌ على صِفَتِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ الآية، هذه آية وعيد.

وقوله: ﴿وَمِنْ نَشَاءٍ﴾ يعني مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، و﴿الْمُسْرِفِينَ﴾: الْكُفَّارُ، ثُمَّ وَخَّهْنَهُمْ تَعَالَى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً﴾ / يعني: القرآن، ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، أي: شَرَفُكُمْ، آخر الدهر، وفي هذا تحريضٌ لهم، ثُمَّ أَكَّدَ التحريضَ بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ و﴿كُمْ﴾ للتكثير، ب ١٦ و﴿قَصْمَنَا﴾ معناه: أَهْلَكْنَا، وَأَصْلُ الْقَصْمِ: الْكُسْرُ فِي الْأَجْرَامِ، فَإِذَا اسْتَعِيرَ لِلْقَوْمِ وَالْقَرِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهُوَ مَا يُسَبِّهُ الْكُسْرَ وَهُوَ إِهْلَاكُهُمْ، و﴿أَنْشَأْنَا﴾، أي: خَلَقْنَا وَبَنَيْنَا أُمَّةً أُخْرَى غَيْرَ الْمُهْلَكَةِ.

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا﴾ وَضُفَّ عَنْ حَالِ قَرِيَةٍ مِنَ الْقُرَى الْمُجْمَلَةِ أَوَّلًا؛ قِيلَ: كَانَتْ بِالْيَمَنِ تُسَمَّى «حُضُور»، بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِهَا رَسُولًا فَقَتَلُوهُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِخُتْنَصْرٍ صَاحِبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَهَزَمُوا جَيْشَهُ مَرَّتَيْنِ، فَتَهَضَّ فِي الثَّالِثَةِ بِنَفْسِهِ، فَلَمَّا هَزَمَهُمْ، وَأَخَذَ الْقَتْلَ فِيهِمْ رَكَضُوا هَارِبِينَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ لَا يَرِيدُ بِالْآيَةِ قَرِيَةً بَعِيْنَهَا، وَأَنَّ هَذَا وَضُفَّ حَالِ كُلِّ قَرِيَةٍ مِنَ الْقُرَى الْمُعَذَّبَةِ إِذَا أَحْسَوْا الْعَذَابَ؛ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ^(١)، أَخَذُوا فِي الْفِرَارِ و﴿أَحْسَوْا﴾ بِأَشْرُوهُ بِالْحَوَاسِّ.

ص: ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ «إِذَا» الْفَجَائِيَّةُ، وَهِيَ وَمَا بَعْدَهَا جَوَابُ لِمَا.

انتهى.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَأَنْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِكُكُمْ لِمَلِكُمْ تَسْتَلُونَ﴾ (١٣) قَالُوا يَنْوَلِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِينَ (١٦).

وقوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ يُحْتَمَلُ عَلَى الرِّوَايَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ رِجَالٍ بُخْتَنَصْرَ عَلَى جِهَةِ الْخُدَاعِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ أَمَرَ بِخُتْنَصْرٍ أَنْ يُنَادِيَ فِيهِمْ: يَا ثَارَاتِ النَّبِيِّ الْمَقْتُولِ^(٢)، فَقَتِلُوا بِالسَّيْفِ عَنْ آخِرِهِمْ.

(١) في ج: أكانوا.

(٢) في ج: المفتول.

قال ﴿١٧﴾: * وهذا كله مزوي، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ: ﴿لا تركضوا﴾ إلى آخر الآية. من كلام ملائكة العذاب على جهة الهُزءِ بهم.

وقوله: ﴿حصيداً﴾ أي: بالعذاب كحصيد الزرع بالمنجل، و ﴿خامدين﴾ أي: موتى مُشَبَّهِينَ بالنار إذا طفت، ثم وَعَظَ سبحانه السَّامِعِينَ بقوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لالعين﴾.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ دُونِ هَذَا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٧) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسْحِرُونَ الْآيِلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠).

وقوله سبحانه: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ الآية: ظاهر الآية: الرَّدُّ على مَنْ قال من الْكُفَّارِ فِي أَمْرِ مَرْيَمَ - عليها السلام -، وما ضارَّعه من الْكُفْرِ تعالى الله عن قَوْلِ الْمُبْطِلِينَ و﴿إن﴾ في قوله: ﴿إن كنا فاعلين﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ شَرْطِيَّةً، ويحتمل أَنْ تَكُونَ نَافِيَّةً بِمَعْنَى: مَا كُنَّا فَاعِلِينَ، وَكُلُّ هَذَا قَدْ قِيلَ، و﴿الْحَقُّ﴾ عام في القرآن والرسالة والشَّرع، وَكُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ، ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ معناه: يُصِيبُ دِمَاعَهُ، وَذَلِكَ مُهْلِكٌ فِي الْبَشَرِ؛ فَكَذَلِكَ الْحَقُّ يُهْلِكُ الْبَاطِلَ، و﴿الْوَيْلُ﴾: الْخِزْيُ.

وقيل: هو اسمُ وادٍ فِي جَهَنَّمَ، وَأَنَّهُ الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَهَذِهِ مُخَاطَبَةٌ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ وَصَفُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ.

وقوله: ﴿ومن عنده...﴾ الآية: عند هنا ليست في المسافات، وَإِنَّمَا هِيَ تَشْرِيفٌ فِي الْمَنْزِلَةِ. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لَا يَكْلُونُ، وَالْحَسِيرُ مِنَ الْإِبِلِ: الْمَعْيِيُّ.

وقوله: ﴿لا يفترون﴾ وفي «الترمذي» عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطُتِ السَّمَاءُ وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَنْطِقَ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلِكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ» (٢١) الْحَدِيثُ. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ عَائِشَةَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَنَسٍ، انْتَهَى مِنْ أَصْلِ التِّرْمِذِيِّ، أَعْنِي: «جَامِعِهِ».

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٧٦).

(٢) تقدم تخريج حديث الأبيط.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يَشْرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُمْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذَكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يَشْرُونَ﴾، أي: يُخَيُّونَ غَيْرَهُمْ، ثم بَيَّنَّ تعالى أَمْرَ التَّمَانَعِ بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وقد تَقَدَّمَ إِيضَاحُ ذَلِكَ عند قوله تعالى: ﴿إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

/ وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِالْإِشَارَةِ بقوله: ﴿هَذَا﴾ إِلَى جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُتَرْتِلَةِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا - أَنَّهَا تُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ الْخَالِقَ وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بقوله: ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنَ وَالْمَعْنَى: فِيهِ نَبَأُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَتَنْصَحُ أَخْبَارَ الْأَوَّلِينَ، وَذَكَرَ الْغُيُوبَ فِي أُمُورِهِمْ، حَسْبَمَا هِيَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَذَكَرَ الْآخِرِينَ بِالْدَّعْوَةِ، وَبَيَّنَّ الشَّرْعَ لَهُمْ، ثُمَّ حَكَّمَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، لِإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى: فَهُمْ مُّعْرِضُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ؛ بَلِ الْمَعْنَى: فَهُمْ مُّعْرِضُونَ، وَلِذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيَّنَّ، ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ نَوْعًا آخَرَ مِنْ كُفْرِهِمْ بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ الْآيَةِ؛ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتًا، وَكَمَا قَالَتِ التَّنَازُلِيُّ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالْيَهُودُ فِي عَزِيرَ.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ عِبَارَةٌ تَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَعِيسَى وَعَزِيرَ. وَقَالَ *ص*: بَلْ إِضْرَابٌ عَنْ نَسَبِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. و﴿عِبَادٌ﴾ خَبَرٌ مُّبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَي: هُمْ عِبَادٌ. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ انْتَهَى.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَلَاكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُّعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْبَإِلَ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ حُسْنِ طَاعَتِهِمْ وَمُرَاعَاتِهِمْ لَامْتِثَالٍ

الأمر، ثم أَخْبَرَ تعالى: أَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللَّهُ أَنْ يُشْفَعَ لَهُ، قال بعضُ المفسرين: لأَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالْمُشْفِقُ: الْمُبَالِغُ فِي الْخَوْفِ، الْمُخْتَرِقُ النَّفْسِ مِنَ الْفَزَعِ عَلَى أَمْرِ مَا.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ...﴾ الآية، المعنى: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ كَذَا أَنْ لَوْ قَالَه، وليس منهم مَنْ قَالَ هذا، وقال بَعْضُ المفسرين: المراد بقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ...﴾ الآية: إبليس، وهذا ضعیف؛ لِأَنَّ إبليسَ لم يُزَوَّ قَطُّ أَنَّهُ ادَّعى الرُّبُوبِيَّةَ، ثُمَّ وَقَّعَهُمْ سبحانه عَلَى عِبْرَةٍ ذَالَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، فقال: ﴿أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ والرتق: الْمُلتَصِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، الذي لَا صَدْعَ فِيهِ وَلَا فَتْحَ، ومنه: امرأةٌ رَتْقاء، واختلِفَ في معنى قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فقالت فرقة: كانت السماء مُلتَصِفَةً بِالْأَرْضِ فَفَتَقَهَا اللَّهُ بِالْهَوَاءِ، وقالت فرقة: كانت السَّمَوَاتُ مُلتَصِفَةً بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَالْأَرْضُ كذلك فَفَتَقَهَا اللَّهُ سَبْعًا سَبْعًا؛ فعلى هذين القولين فالرُّؤْيُ الْمَوْقِفُ عَلَيْهَا رُؤْيُ قَلْبٍ، وقالت فرقة: السماء قبل الْمَطَرِ رَتْقٌ، وَالْأَرْضُ قبل النَّبَاتِ رَتْقٌ فَفَتَقَهَا اللَّهُ تعالى بِالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢].

وهذا قولٌ حَسَنٌ يَجْمَعُ الْعِبْرَةَ وَتَعْدِيدَ النِّعَةِ وَالْحُجَّةَ بِمَحْسُوسٍ بَيِّنٍ، وَيُنَاسِبُ قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾، أي: من الماء الذي كَانَ عَنِ الْفَتْقِ، فَيَظْهَرُ معنى الآية، ويتوجَّه الاعتبارُ بها، وقالت فرقة: السماء وَالْأَرْضُ رَتْقٌ بِالظُّلْمَةِ فَفَتَقَهَا اللَّهُ بِالضُّوءِ؛ وَالرُّؤْيُ عَلَى هذينِ القولين رُؤْيُ الْعَيْنِ، وباقي الآية بَيِّنٌ.

قال *ص*: قال الرَّجَّاجُ: السَّمَوَاتُ جَمْعٌ أُريدَ بِهِ الْوَاحِدُ؛ وَلِذَا قَالَ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾. وقال الْخَوْفِيُّ: «قال: ﴿كانتا﴾ - والسَّمَوَاتُ جَمْعٌ - : لِأَنَّهُ ارَادَ الصَّنْفَيْنِ» انتهى.

وقوله: ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ الْحِفْظُ هُنَا عَامٌّ فِي الْحِفْظِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمِنَ الْوَهْيِ وَالسَّقُوطِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ، وَالْقَلْكَ: الْجِسْمُ الدَّائِرُ دَوْرَةَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلِ / ١٧ ب وَ﴿يَسْبَحُونَ﴾ معناه: يَتَصَرَّفُونَ، وقالت فرقة: الْقَلْكَ مَوْجٌ مَكْفُوفٌ، قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ من السَّباحَةِ وهي: الْعَوْمُ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُمْ بِالنَّفْسِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥).

وقوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ...﴾ الآية، وتقديرُ الكلام:

أَفَهُمُ الْخَالِدُونَ، إِنَّ مِتَّ؟!

وقوله سبحانه: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾ الآية: موعظة^(١) بليغة لِمَنْ وَفَّقَ؛ قال أبو نُعَيْمٍ: كان الثَّوْرِيُّ (رضي الله عنه) إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ لَا يُتَنَفَّعُ بِهِ أَيَّاماً. انتهى. من «التذكرة»^(٢) للقرطبي.

قال عبدُ الحَقِّ في «العاقبة»: وقد أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بذكر الموت، وأَعَادَ الْقَوْلَ فِيهِ؛ تهويلاً لأمرو، وتعظيماً لشأنه، ثم قال: واعلم أَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِ الْمَوْتِ يُزِدُّ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيُلَيِّنُ الْقَلْبَ الْقَاسِي.

قال الحسن: ما رأيت عاقلاً قطُ إِلَّا وَجَدْتَهُ حَذِراً مِنَ الْمَوْتِ، حزيناً من أَجْلِهِ، ثم قال: واعلم: أَنَّ طُولَ الْأَمَلِ يَكْسِلُ عَنِ الْعَمَلِ، وَيُورِثُ التَّوَانِي، وَيَخْلُدُ إِلَى الْأَرْضِ، وَيُمِيلُ إِلَى الْهَوَى، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ شُوهِدَ بِالْعِيَانِ؛ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ، وَلَا يُطَالَبُ صَاحِبُهُ بِالْبِرْهَانِ؛ كَمَا أَنَّ قِصْرَهُ يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ، وَيَحْمِلُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ، وَيَحْتُّ عَلَى الْمَسَابِقَةِ؛ قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا النَّذِيرُ، وَالْمَوْتُ الْمُغِيرُ، وَالسَّاعَةُ الْمَوْعِدُ»^(٣) ذكره القاضي أبو الحسن بن صَخْرٍ في الفوائد. انتهى.

﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ معناه: نَخْتَبِرُكُمْ، وَقَدَّمَ ﴿الشَّرَّ﴾ عَلَى لَفْظَةِ ﴿الْخَيْرِ﴾؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ مِنْ عَادَتِهَا أَنَّ تَقَدَّمَ الْأَقْلَ وَالْأَرْذَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. فبدأ تعالى في تقسيم أُمَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ بِالظَّالِمِ^(٤). و﴿فِتْنَةً﴾ معناه: امتحاناً.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: كأبي جهل وغيره، «وإن» بمعنى: «ما»، وفي الكلام حذف تقديره: يقولون: أهذا الذي؟

(١) في ج: هو عظة.

(٢) ينظر: «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي (١/٢٣).

(٣) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/٣٨٧)، والحديث ذكره الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/٤٥٩).

وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل»، وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين.

(٤) في ج: بالمظالم.

وقال ﴿ص﴾: «إِنَّ»: نافية، والظاهر أنها وما دَخَلَتْ عليه جَوَابُ إِذَا، انتهى.
 قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ رُوِيَ: أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ حِينَ أَنْكَرُوا
 هذه اللفظة، وقالوا: ما نعرفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا فِي الْيَمَامَةِ، وظاهرُ الكلام: أَنَّ ﴿الرَّحْمَنَ﴾
 قُصِدَ بِهِ الْعِبَارَةُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَصِفَ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانُ الَّذِي هُوَ اسْمُ جِنْسٍ بِأَنَّهُ خُلِقَ
 مِنْ عَجَلٍ، وَهَذَا عَلَى جِهَةِ الْمُبَالَغَةِ؛ كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ الْبَطَالُ: أَنْتَ مِنْ لَعِبٍ وَلَهْوٍ.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
 يُنْصَرُونَ﴾ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
 أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ
 بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ
 دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ
 عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا
 أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ
 رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
 شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
 وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ
 مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ...﴾
 الْآيَةُ: حُذِفَ جَوَابُ «لَوْ»؛ إِبْجَازاً لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَتَقْدِيرُ الْمَحْذُوفِ: لَمَا اسْتَعَجَلُوا،
 وَنَحْوَهُ، وَذَكَرَ الْوُجُوهَ؛ لَشَرْفِهَا مِنَ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ ذَكَرَ الظُّهُورَ؛ لِيُبَيِّنَ عُمُومَ النَّارِ لِجَمِيعِ
 أَجْزَائِهِمْ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾: لِلْسَّاعَةِ الَّتِي تُصَيِّرُهُمْ إِلَى الْعَذَابِ،
 وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّارِ، وَ﴿يُنْظَرُونَ﴾: مَعْنَاهُ: يُؤَخَّرُونَ، وَ﴿حَاقَ﴾: مَعْنَاهُ: حَلَّ وَنَزَلَ،
 وَ﴿يَكْلُوكُمْ﴾، أَي: يَحْفَظُكُمْ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يَخْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ:

أحدهما: يَجَارُونَ وَيَمْنَعُونَ.

والآخر: وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ بِخَيْرٍ وَتَرْكِيبَةٍ وَنَحْوِ هَذَا.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾ الْآيَةُ ﴿نَأْتِي
 الْأَرْضَ﴾ مَعْنَاهُ: بِالْقُدْرَةِ، وَنَقْصُ الْأَرْضِ: إِمَّا أَنْ يُرِيدَ بِتَخْرِيبِ الْمَغْمُورِ، وَإِمَّا بِمَوْتِ
 الْبَشَرِ.

وقال قوم: النَّفْصُ من الْأَطْرَافِ: مَوْتُ الْعُلَمَاءِ، ثُمَّ خَاطَبَ سُبْحَانَهُ ﷺ مُتَوَعِّدًا ١٨ لِهَوْلَاءِ / الْكَفَرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ مَسْتَهْمَ نَفْحَةٍ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ...﴾ الآية، وَالنَّفْحَةُ: الْخَطَرَةُ وَالْمَسَّةُ، وَالْمَعْنَى: وَلَنْ مَسْتَهْمَ صَدَمَةُ عَذَابٍ لَيِّنْدُمَنْ، وَلَيَقْرُنَ بِظَلْمِهِمْ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ. وقال الثعالبي: ﴿نَفْحَةٍ﴾، أَي: طَرَفٌ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ^(١)، انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿لَيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال أبو حيان ^(٢): اللام للظرفية بمعنى «في» انتهى.

قال القرطبي ^(٣) في «تذكرته»: قال العلماء: إِذَا انْقَضَى الْحِسَابُ كَانَ بَعْدَهُ وَزَنُ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْوَزْنَ لِلْجَزَاءِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْمُحَاسَبَةِ، وَاخْتَلَفَ فِي الْمِيزَانِ وَالْحَوْضِ: أَيُّهُمَا قَبْلَ الْآخَرِ، قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحَوْضَ قَبْلَ الْمِيزَانِ، وَذَهَبَ صَاحِبُ «الْقَوْت» وَغَيْرُهُ إِلَى: أَنَّ حَوْضَ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ الصِّرَاطِ.

قال القرطبي ^(٤): وَالصَّحِيحُ: «أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَوْضَيْنِ، وَكِلَاهُمَا يُسَمَّى كَوْثَرًا، وَأَنَّ الْحَوْضَ الَّذِي يُدَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ، يَكُونُ فِي الْمَوْقِفِ قَبْلَ الصِّرَاطِ، وَكَذَا حَيَاضُ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - تَكُونُ فِي الْمَوْقِفِ؛ عَلَى مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ» ^(٥) انتهى.

وَالْفُرْقَانُ الَّذِي أُوتِيَ مُوسَى وَهَارُونُ قِيلَ: التَّوْرَةُ، وَهِيَ الضِّيَاءُ وَالذِّكْرُ.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٦/٢٩٤).

(٢) في هذه اللام أوجه: - أحدها: قال الزمخشري مثلها في قولك: جِئْتُ لِحَمْسٍ خَلُونٍ مِنَ الشَّهْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ: [الطويل]

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ
وَالثَّانِي: أَنَّهَا بِمَعْنَى فِي وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ قَتِيْبَةَ وَابْنُ مَالِكٍ وَهُوَ رَأْيُ الْكُوفِيِّينَ وَمِنْهُمْ عِنْدَهُمْ ﴿لَا يُجَلِّيْهَا لِوَقْتِهَا
إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وَلِقَوْلِ مَسْكِينِ الدَّارِمِيِّ: [الطويل]

أُولَئِكَ قَوْمِي قَدْ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ كَمَا مَضَى مِنْ قَبْلُ عَادٌ وَتُبَّعَ
وَكَقَوْلِ الْآخَرِ: [الطويل]

وَكُلُّ أَبٍ وَابْنٍ وَإِنْ عُمُرَا مَعًا مُقِيمِينَ مَفْقُودَ لَوْقَتٍ وَقَاقِدُ
وَالثَّالِثُ: أَنَّهَا عَلَى بَابِهَا مِنَ التَّعْلِيلِ وَلَكِنْ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ لِحِسَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ينظر: «الدر المنصور» (٥/٨٩-٩٠) وينظر: «الكشاف» (٢/٥٧٤)، و «البحر» (٦/٣١٦).

(٣) ينظر: «التذكرة» (٢/٤١٧).

(٤) ينظر: القرطبي (١/٤٠٦-٤٠٧).

(٥) أخرجه مسلم (٤/١٧٩٩) كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ حديث (٣٧/٢٣٠١)، وأحمد (٥/٢٨٠).

وقالت فرقة: الفرقان: هو ما رَزَقَهُمَا اللَّهُ تعالى من نَضْرٍ وظُهُورٍ على فرعون وغير ذلك، والضَّيَاءُ: التوراة، والذِّكْرُ: بمعنى التذكرة.

وقوله سبحانه: ﴿وهذا ذكر مبارك﴾ يعني: القرآن، ثم وَقَفَهُمْ سبحانه؛ تقريراً وتوبيخاً: هل يَصِحُّ لهم إنكارُ بَرَكَتِهِ وما فيه من الدعاءِ إلى الله تعالى وإلى صالح العمل؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَرًا ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّ التَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده...﴾ الآية. الرُّشْدُ عامٌّ، أي: في جميع المَرَاشِدِ وأنواع الخيرات.

وقال الثعلبي: ﴿رُشْدُهُ﴾، أي: توفيقه، وقيل: صَلَاحُهُ، انتهى.

وقوله: ﴿وكنا به عالمين﴾: مَدَحٌ لإبراهيم عليه السلام، أي: عالمين بما هَلْ له؛ وهذا نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] والتماثيل: الأصنام.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقوله: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم...﴾ الآية. رُوِيَ: أَنَّهُ حَضَرَهُمْ عِيدٌ لَهُمْ، فعزم قومٌ منهم على إبراهيم في حُضُورِهِ؛ طمعاً منهم أَنْ يَسْتَحْسِنَ شيئاً من أحوالهم، فَمَشَى معهم، فلما كان في الطريق ثَنَّى عَزَمَهُ على التَّخَلُّفِ عنهم، فقعد، وقال لهم: إني سقيم، فَمَرَّ به جُمُهورُهُمْ، ثم قال في خلوةٍ من نفسه: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ فَمَسَّعَهُ قومٌ من ضَعْفَتِهِمْ مِمَّنْ كان يسير في آخِرِ الناس.

وقوله: ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ معناه: إلى عِيدِكُمْ، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامِهِمْ فدخله، ومعه قدومٌ، فوجد الأصنامَ قد وُقِّتْ، أَكْبَرُهَا أَوَّلٌ، ثم الذي يليه فالذي يليه، وقد جعلوا أَطْعَمَتَهُمْ في ذلك اليوم بين يدي الأصنام؛ تبركاً لينصرفوا من ذلك العيد إلى أَكْلِهِ، فجعل - عليه السلام - يُقَطِّعُهَا بتلك القدوم، وَيُهَشِّمُهَا حتى أَفْسَدَ أَشْكَالَهَا، حاشا الكبير؛ فَإِنَّهُ تَرَكَهُ بحالِهِ وَعَلَّقَ القدومَ في يَدِهِ، وَخَرَجَ عنها، و﴿جذاذا﴾:

معناه: قطعاً صِغَاراً، والجَذُّ: القَطْعُ، والضميرُ في ﴿إليه﴾ أَظْهَرَ ما فيه أَنَّهُ عَائِدٌ على إبراهيم، أي: فَعَلَ هذا كُلُّهُ؛ تَرْجِياً منه أَنْ يَغُفَّ ذلك منهم رَجْعَةً إِلَيْهِ وإِلَى شَرْعِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ على كبيرهم.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاشْأَوْهُمْ هَذَا فَاشْأَوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٦٣﴾.

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا...﴾ الآية. المعنى: فانصرفوا من عيدهم فأروا ١٨ ب ما حَدَّثَ بِآلِهَتِهِمْ، ف ﴿قَالُوا: مَنْ / فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا؟﴾ و﴿قَالُوا﴾ الثاني: الضميرُ فيه للقوم الضَّعْفَةُ الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿على أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ يريدُ في الحَقْل، وبِمَحْضَرِ الجمهور، وقوله: ﴿يشهدون﴾: يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ: الشَّهَادَةَ عَلَيْهِ بفعله، أو بقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾، ويحتملُ أَنْ يَرِيدَ به: المَشَاهَدَةَ، أي: يشاهدون عُقُوبَتَهُ أو غلبته المُوَدِّيَّةَ إِلَى عُقُوبَتِهِ، وقوله عليه السلام: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ على معنى الاحتجاجِ عليهم، أي: إِنَّهُ غَارَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ هو وَتُعْبَدَ الصُّغَارُ معه، ففعل هذا بها لذلك؛ وفي الحديث الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله لِلْمَلِكِ: هِيَ أُخْتِي. وكانت مقالاته هذه في ذات الله، وذهبت فرقة إلى أَنَّ معنى الحديث: لم يكذب إبراهيم، أي: لم يقل كلاماً ظاهره الكذب أو يشبه الكذب، وذهب الفَرَاءُ إلى جهة أخرى في التأويل بأن قال: قوله: ﴿فعله﴾ ليس من الفعل، وإنما هو فعله على جهة التوقع، حُذِفَ اللامُ على قولهم: عَلَّه بمعنى: لَعَلَّه، ثم خُفِّفَتِ اللام.

قال ﴿١﴾: * وهذا تكلف.

قلت: قال عياض: واعلم، (أكرمك الله) أَنَّ هذه الكلمات كلها خارجة عن الكذب، لا في القصد ولا في غيره، وهي داخلة في باب المعارض التي فيها مندوحة عن الكذب، فأما قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ فإنه عَلَّقَ خبره بشرط النطق، كأنه قال: إِنْ كَانَ ينطق فهو فعله؛ على طريق التبيكيت لقومه. انتهى.

ثم ذكر بقية التوجيه وهو واضح لا تطيل بسرده .

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِلَكُمْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾، أي: في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأنتم معكم من تسألون ثم رأوا ببديهة العقل أن الأصنام لا تنطق، فقالوا لإبراهيم حين نكسوا في حيرتهم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجة ووقفهم مؤيخاً لهم بقوله: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً...﴾ الآية. ثم حَقَّرَ شأنهم وشأنها بقوله: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله...﴾ الآية.

*ص^(١): وقولهم: ﴿لقد علمت﴾: جواب قَسَمَ محذوف معمول لقول محذوف في موضع الحال، أي: قائلين، لقد علمت. انتهى.

وقال الثعلبي: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: تفكروا بعقولهم فقالوا: ما نراه إلا كما قال، إنكم أنتم الظالمون في عبادتكم الأصنام الصغار مع هذا الكبير. اهـ.

وما قدمناه عن *ع^(٢) هو الأوجه و﴿أف﴾ لفظة تُقال عند المُسْتَقْدَرَاتِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَيُسْتَعَارُ ذَلِكَ لِلْمُسْتَقْبَحِ مِنَ الْمَعَانِي، ثُمَّ أَخَذْتَهُمُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ وَانصرفوا إلى طريق الغلبة والغشم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾؛ رُوي: أَنَّ قَائِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْأَكْرَادِ مِنْ أَعْرَابِ فَارَسَ، أَي: مِنْ بَادِيَتِهَا، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَرُوي: أَنَّهُ لَمَّا أَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى تَحْرِيقِهِ حَبَسَهُ نَمْرُودُ الْمَلِكُ (لَعَنَهُ اللَّهُ) وَأَمَرَ بِجَمْعِ

(١) [هذه الجملة جواب قسم محذوف والقسم وجوابه معمولان لقول مضمرة وذلك القول المضمرة حال من مرفوع نكسوا أي نكسوا قائلين والله لقد علمت قوله: «مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» يجوز أن تكون ما هذه مجازية فتكون هؤلاء اسمها وينطقون في محل نصب خبرها أو تيمية فلا علم لها والجملة المنفية بأسرها سادة مسد المفعولين إن كانت «عَلِمْتُ» دلي بابها ومسد واحد إن كانت عرفانية].

ينظر: «الدر المصون» (٩٨/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٨/٤).

الْحَطَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَضْرَمَ نَاراً فَلَمَّا أَرَادُوا طَرْحَ إِبْرَاهِيمَ فِيهَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْقَرَبِ مِنْهَا، فَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا أَصْنَعُ لَكُمْ آلَةً يُلْقَى بِهَا، فَعَلَّمَهُمْ صِنْعَةَ الْمُنْجَنِّيقِ، ثُمَّ أَخْرَجَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَشَدَّ رِبَاطاً، وَوَضَعَ فِي كَفَّةِ الْمُنْجَنِّيقِ، وَرَمَى بِهِ، فَتَلَقَّاهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ لَهُ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَ، وَأَمَّا إِلَى اللَّهِ فَبَلَى.

قلت: قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ فِي «التَّنْوِيرِ»: وَكَانَ أَتُّهَا الْأَخُ إِبْرَاهِيمِيًّا؛ إِذْ رُجَّ بِهِ فِي الْمُنْجَنِّيقِ، فَتَعَرَّضَ لَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَ، وَأَمَّا إِلَى رَبِّي، فَبَلَى، قَالَ: فَاسْأَلْهُ. قَالَ: حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي، فَاَنْظُرْ كَيْفَ رَفَعَ هِمَّتَهُ عَنِ الْخَلْقِ، وَوَجَّهَهَا إِلَى الْمَلِكِ الْحَقِّ، فَلَمْ يَسْتَغْثْ بِجَبْرِيلَ، وَلَا احْتَالَ عَلَى السُّؤَالِ، بَلْ رَأَى رَبَّهُ تَعَالَى أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ جَبْرِيلَ وَمِنْ سُؤَالِهِ؛ فَلِذَلِكَ سَلَّمَهُ مِنْ نَمْرُودَ وَنَكَالِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنَوَالِهِ وَأَفْضَالِهِ. انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِيْمَا رَوَى: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ لَمْ يَقُلْ: ﴿وَسَلَامًا﴾ لَهْلَكَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَرْدِ النَّارِ، وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ فِي النَّارِ سَلَّمَهُ اللَّهُ، وَاحْتَرَقَ الْحَبْلُ الَّذِي رُبِطَ بِهِ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي قِصَصِهِ فَاخْتَصَرْنَاهُ؛ لَعَدَمِ صِحَّةِ أَكْثَرِهِ، وَرَوَى: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَهُ بَسْطُ وَطْعَامٍ فِي تِلْكَ النَّارِ كُلِّ ذَلِكَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَرَوَى: أَنَّ الْعِيدَانَ أَيْنَعَتْ وَأَثْمَرَتْ لَهُ هُنَاكَ ثَمَارَهَا، وَرُوِيَ: أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَذِهِ نَارٌ مَسْحُورَةٌ، لَا تَحْرُقُ، فَرَمُوا فِيهَا شَيْخًا مِنْهُمْ فَاحْتَرَقَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ.

قلت: قَالَ صَاحِبُ «غَايَةِ الْمَغْنَمِ فِي اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ» وَهُوَ مِنَ الْأُتَمَّةِ الْمُحَدِّثِينَ، وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ يُكْتَبُ لِلْمَحْمُومِ وَيُعَلَّقُ عَلَيْهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ أَشْفِ حَامِلَهَا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَجَبْرُوتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. انْتَهَى.

وقوله: ﴿وَسَلَامًا﴾ معناه: وسلامة، و«الْكَيْدُ»: هو ما أَرَادُوهُ مِنْ حَرْقِهِ.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا إِذْ أَنْتَنَ حُكْمًا وَعَلَّمَا نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَى إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِئٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ

مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَتَوَّحَّا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿ونجيناه ولوطاً...﴾ الآية. رُوِيَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لما خرج من النار أحضره نمرود، وقال له في بعض قوله: يا إِبْرَاهِيمُ، أين جنود ربك الذي تزعم؟ فقال له عليه السلام: سيريك ففعل أضعف جنوده، فبعث الله تعالى على نمرود وأصحابه سحابة من بعوض فأكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاء، ودخلت منها بعوضة في رأس نمرود، فكان رأسه يُضْرَبُ بالعيدان وغيرها، ثم هلك منها، وخرج إِبْرَاهِيمُ وابن أخيه لوط - عليهما السلام - من تلك الأرض مهاجرين، وهي «كوثى» من العراق، ومع إِبْرَاهِيمَ بنت عمه، سارة زوجته، وفي تلك السفرة لَقِيَ الجبار الذي رام أخذها منه، واختلِفَ في الأرض التي بُورِكَ فيها ونحا إليها إِبْرَاهِيمَ ولوط - عليهما السلام -، فقالت فرقة: هي مَكَّةُ، وقال الجمهور: هي الشام، فنزل إِبْرَاهِيمَ بالسبع من أرض فلسطين، وهي بركة الشام، ونزل لوط بالموتكفة، «والنافلة»: العطية، وباقي الآية بَيْنَ، وخباثت قرية لوط هي إتيان الذكور، وتضارطهم في مجالسهم، إلى غير ذلك من قبيح أفعالهم.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آدَمَ حُكْمًا وَعَلَّمَاهُ وَاسْخَرْنَاهُ مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرُ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتَ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وقوله سبحانه في نوح - عليه السلام -: ﴿ونصرناه من القوم...﴾ الآية، لما كان جُلُّ نُصْرَتِهِ النجاة، وكانت غلبة قومه بأمر أجنبي منه - حَسُنَ أَنْ يَقُولَ: «نصرناه من»، ولا تتمكن هنا «على».

قال ❖ ص: ❖ عُدِّي «نصرناه» بـ «مِنْ»؛ لتضمنه معنى: نجينا، وعصمنا، ومنعنا. وقال أبو عبيدة: «مِنْ» بمعنى «على».

قلت: وهذا أولى، وأما الأول ففيه نظر؛ لأن تلك الألفاظ المُقَدِّمَة كلها غير مرادفة لـ «نصرنا»، انتهى.

قلت: وكذا يظهر من كلام ابن هشام: ترجيحُ الثاني، وذكرُ هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - ضَرْبٌ مَثَلٌ لقصة نبيِّنا محمد ﷺ مع قومه، ونجاة الأنبياء، وهلاكُ مكذبيهم ضمنها تَوْعِدٌ لِكُفَّارِ قريش.

وقوله تعالى: ﴿وداود وسليمان﴾ المعنى: واذكر داود وسليمان، هكذا قَدَّرَهُ جماعة من المفسرين، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المعنى: وآتينا داود، و«النفس»: هو الرعي ليلاً، ومضى الحكم في الإسلام بتضمين أربابِ النعم ما أفسدت بالليل؛ لأنَّ على أهلها أَنْ يثقفوها، وعلى أهل الزروع حفظها بالنهار، هذا هو مُقْتَضَى الحديث في ناقة ابن عازب، وهو مذهب مالك وجمهور الأئمة، وفي كتاب ابن سحنون: إن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان محدقة، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة فيضمن أربابُ النعم ما أفسدت بالليل والنهار.

قال *ص*: والضمير في قوله: ﴿لحكمهم﴾ يعودُ على الحاكمين والمحكوم له؛ وعليه أبو البقاء.

وقيل: الضمير لداود وسليمان - عليهما السلام - فقط، وجمع؛ لأنَّ الاثنين جمع. انتهى.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): المواشي على قسمين: ضوار^(٢)، وغير ضوار، وهكذا قَسَمَهَا مالك، فالضواري: هي المعتادة بأكل الزرع والثمار، فقال مالك: تُعَرَّبُ وتُبَاعُ في بلد لا زرع فيه، ورواه ابن القاسم في الكتاب وغيره.

قال ابن حبيب: وإن كَرِهَ ذلك أربابُها، وكان قول مالك في الدَّابَّةِ التي ضريت بفساد الزرع أَنْ تُعَرَّبَ وتُبَاعَ، وَأَمَّا ما يُسْتَطَاعُ الاحتراز منه فلا يُؤْمَرُ صاحبه بإخراجه عن ملكه، وهذا بَيِّنٌ. انتهى.

وقوله: ﴿يسبحن﴾، أي: يقلن: سبحان الله؛ هذا قول الأكثر، وذهبت فرقة منهم

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٢٧٠).

(٢) الضُّرُو من السباع: ما ضُرِيَ بالصيد ولهج بالفرائس.

ينظر: «لسان العرب» (٢٥٨٣).

منذرُ بن سعيدٍ إلى أنه بمعنى: يُصَلِّينَ معه بصلاته، واللبوس في اللغة: هو السلاح، فمنه الدرع وغيره.

قال *ص*: و﴿لبوس﴾ معناه: ملبوسٌ؛ كالرُّكُوب بمعنى المَرْكُوب؛ قال الشاعر [الطويل].

عَلَيْهَا أَسُودَ ضَارِيَاتٍ لَبُوسُهُنَّ سَوَابِغُ بَيْضٍ لَا تُخَرِّقُهَا النَّبْلُ
﴿ولسليمان الريح﴾، أي: وسخرنا لسليمانَ الريحَ، هذا على قراءة [النصب] ^(١) وقرأت ^(٢) فرقة «الريح» بالرفع، ويروى أَنَّ الريح العاصفة كانت تهبُّ على سرير سليمان الذي فيه بساطه، وقد مد حول البساط بالخشب والألواح حتى صَنَعَ سريراً يَحْمِلُ جميع عسكره وأقواته، فتقله من الأرض في الهواء، ثم تتولاه الريح الرُّخَاءُ بعد ذلك فتحمّله إلى حيث أراد سليمان.

قال *ص*: والعَصْفُ: الشَّدَّةُ، والرُّخَاءُ: اللين. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ اِخْتَلَفَ فيها، فقالت فرقة: هي الشام، وكانت مسكنه وموضع ملكه، وقد قال بعضهم: إِنَّ العاصفة هي في القفول على عادة البشر والدُّوَابِّ في الإسراع إلى الوطن، وَإِنَّ الرُّخَاءَ كانت في البداية حيث أصاب، أي: حيث يقصد؛ لِأَنَّ ذلك وقت تَأَنٍّ / وتدبير وتقلُّبٍ رأي، ويحتمل: أَنْ يريد الأرض التي يسير إليها سليمان كائنة ما كانت، وذلك أَنَّهُ لم يكن يسير إلى أرضٍ إِلَّا أصلحها الله تعالى به ﷺ، ولا بركةَ أعظم من هذا، والغوصُ: الدخول في الماء والأرض، والعمل دون ذلك البنیان وغيره من الصنائع والخدمة ونحوها، ﴿وكنا لهم حافظين﴾ قيل: معناه: مِنْ إفسادهم ما صنعوه، وقيل: غير هذا.

قلت: وقوله سبحانه: ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ هذا الاسم المُبَارَكُ مناسب لحال أَيُّوبَ عليه السلام، وقد روى أسامة بن زيد (رضي الله عنه) أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَكًا مُوَكَّلًا بِمَنْ يَقُولُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ لَهُ الْمَلَكُ: إِنَّ

(١) سقط في ج.

(٢) وقد قرأ بها الأعرج، وأبو بكر عن عاصم.

ينظر: «مختصر الشواذ» (٩٥)، و«الكشاف» (١٣٠/٣)، و«المحرر الوجيز» (٩٣/٤)، و«البحر المحيط» (٣٠٨/٦)، و«الدر المصون» (١٠٣/٥).

أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ؛ فَاسْأَلْ»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک»، وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سَلْ؛ فَقَدْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ»^(٢) رواه الحاكم، انتهى من «السلام». وفي قصص أيوب عليه السلام طُولٌ واختلاف، وتلخيصُ بعض ذلك: أَنَّ أيوبَ عليه السلام أصابه الله تعالى بأكلة في بدنه، فلما عَظُمَتْ، وتَقَطَّعَ بدنه، أخرجته الناس من بينهم، ولم يبقَ معه غيرُ زوجته، ويقال: كانت بنتُ يوسفَ الصديق عليه السلام قيل: اسمها رحمة، وقيل في أيوب: إِنَّهُ من بني إسرائيل وقيل: إِنَّهُ من «الروم» من قرية «عيصو»، فكانت زوجته تسعى عليه، وتأتيه بما يأكل، وتقوم عليه، ودَامَ عليه ضُرُّهُ مدَّةً طويلة، وروي أَنَّ أيوبَ (عليه السلام) لم يزل صابراً شاكراً، لا يدعو في كشف ما به، حتى إِنَّ الدودة تسقط منه فيردها، فمرَّ به قوم كانوا يعادونه فسمتوا به؛ فحينئذٍ دعا رَبَّهُ سبحانه فاستجاب له، وكانت امرأته غائبة عنه في بعض شأنها، فأَتبعَ الله تعالى له عيناً، وأَمَرَ بالشرب منها فبرىء باطنه، وأَمَرَ بالاعتسال فبرىء ظاهره، ورُدَّ إلى أفضل جماله، وأُوتِيَ بأحسن ثياب، وهبَّ عليه رجل من جراد من ذهب فجعل يحتفن منه في ثوبه، فناداه ربه سبحانه وتعالى: «يا أيوب أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيكَ عن هذا؟ فقال: بلى يا رب، ولكن لا أغنى بي عن بركتك» فبينما هو كذلك إذ جاءت امرأته، فلم تره في الموضع، فجذعت وَظَنَّتْ أَنَّهُ أَزِيلَ عنه، فجعلت تتولَّه رضي الله عنها، فقال لها: ما شَأْنُكِ أيتها المرأة؟ فهابته؛ لحسن هيئته، وقالت: إِنِّي فَقَدْتُ مريضاً^(٣) لي في هذا الموضع، ومعالم المكان قد تغيرت، وتأمَلت في أَثْناءِ المقالة^(٤) فرأت أيوبَ، فقالت له: أَنْتَ أيوبُ؟ فقال لها: نعم، واعتنقها، وبكى، فَرَوِيَ أَنَّهُ لم يُفَارِقْهَا حَتَّى أَرَاهُ اللهَ جميعَ مَالِهِ حاضراً بين يديه. واختلف الناس في أهله وولده الذين آتاه الله، فقيل: كان ذلك كله في الدنيا فَرَدَّ الله عليه ولده بأعيانهم، وجعل مثلهم له عدة في الآخرة، وقيل: بل أُوتِيَ جميع ذلك في الدنيا من أهل ومال.

ت: وقد قَدَّمَ *ع*^(٥) في صدر القصة: إِنَّ اللهَ سبحانه أَدْنَى لِإِبْلِيسَ (لعنه الله)

(١) أخرجه الحاكم (٥٤٤/١) من طريق كامل بن طلحة عن فضال بن جبير عن أبي أمامة مرفوعاً، وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: فضال ليس بشيء.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٤٤/١) من حديث أنس بن مالك، وقال الذهبي: لم يصح هذا.

(٣) في ج: كان لي.

(٤) في ج: المقالة.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٤/٤).

في إهلاك مال أيوب، وفي إهلاك بنيه وقراته، ففعل ذلك أجمع، والله أعلم بصحة ذلك، ولو صحَّ لوجب تأويله.

وقوله سبحانه: ﴿وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ﴾، أي: وتذكروا وموعظة للمؤمنين، ولا يعبد الله إلا مؤمن.

﴿وَأَسْمِعِلْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَيَّعْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾ المعنى: واذكر إسماعيل، وقوله سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضَبًا﴾ التقدير واذكر ذا النون، قال السُّهَيْلِيُّ: لما ذكر الله تعالى يُونسَ هنا في معرض الثناء، قال: ﴿وَذَا النُّونِ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [الفلم: ٤٨] / والمعنى واحد، ولكن بين اللفظين تفاوت كثير في حسن ب ١٩ الإشارة إلى الحاليتين، وتنزيل الكلام في الموضعين والإضافة بذی أشرف من الإضافة بصاحب؛ لأن قولك^(١): ذو يضاف بها إلى التابع، وصاحب يُضاف بها إلى المتبوع. انتهى.

والنون: الحوت، والصاحب: يونس بن متى - عليه السلام - وهو نبي من أهل نينوى.

وقوله: ﴿مُغْضَبًا﴾ قيل: إِنَّهُ غَاضِبٌ قومه حين طال عليه أمرهم وَتَعَثُّهُمْ، فذهب فارًا بنفسه، وقد كان الله تعالى أمره بملازمتهم والصبر على دعائهم، فكان ذلك ذنبه، أي: في خروجه عن قومه بغير إذن ربه.

قال عِيَّاض: والصحيح في قوله تعالى: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضَبًا﴾ أَنَّهُ مُغْضِبٌ لقومه؛ لكفرهم، وهو قول ابن عباس، والضَّحَّاك^(٢) وغيرهما، لا لربه؛ إِذْ مُغْضِبَةُ الله تعالى معاداة له، ومعاداة الله كفر لا يليق بالمؤمنين، فكيف بالأنبياء - عليهم السلام -؟! وفراؤ

(١) في ج: قوله وذا.

(٢) أخرجه الطبري (٧٣/٩) برقم (٢٤٧٤٩) عن ابن عباس، (٢٤٧٥٠) عن الضحاك، وذكره السيوطي (٤/ ٥٩٧) وعزاه لليهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك.

يونس عليه السلام خشيةً تكذيب قومه بما وعدهم به من العذاب .

وقوله سبحانه: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ معناه: أن لن نصيق عليه، وقيل: معناه: نقدر عليه ما أصابه، وقد قرئ «نَقْدَرُ» عليه بالتشديد^(١)، وذلك، كما قيل لحسن ظنه بربه: أنه لا يقضي عليه بعقوبة، وقال عياض في موضع آخر: وليس في قصة يونس عليه السلام نص على ذنب، وإنما فيها أبق وذهب مغاضباً، وقد تكلمنا عليه، وقيل: إنما نقم الله - تعالى - عليه خروجه عن قومه، فأزاً من نزول العذاب. وقيل: بل لَمَّا وعدهم العذاب، ثم عفا الله عنهم، قال: واللَّهِ لا ألقاهم بوجه كذابٍ أبداً، وهذا كله ليس فيه نص على معصية. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾. قالت فرقة: معناه: أن لن نصيق عليه في مذهبه؛ من قوله تعالى: ﴿يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقرأ الزُّهْرِيُّ: «نَقْدَرُ»^(٢) بضم النون، وفتح القاف، وشد الدال، ونحوه عن الحسن.

وروي: أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: يريد فيما خالف فيه من ترك ملازمة قومه والصبر عليهم، هذا أحسن الوجوه، فاستجاب الله له.

ت وليس في هذه الكلمة ما يدلُّ أنه اعترف بذنب، كما أشار إليه بعضهم، وفي الحديث الصحيح: «دَعَا أَخِي ذِي الثُّنُونِ، فِي بَطْنِ الْحَوْتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، مَا دَعَا بِهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ - أَوْ قَالَ: مُسْلِمٌ -، إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ»^(٣)

(١) وهي قراءة الزهري والحسن كما ذكرهما المصنف بعد.

وقرأ بها ابن أبي ليلى، وأبو شرق، والكلبي، ويعقوب.

كما في «مختصر الشواذ» ص (٩٥)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٩٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣١١/٦).

ونسبها للزهري حسب. وهي في «الدر المصون» (١٠٥/٥).

وحكاها القرطبي (٢١٩/١١) عن عمر بن عبد العزيز والزهري.

(٢) ينظر القراءة السابقة.

(٣) أخرجه الترمذي (٥٢٩/٥) كتاب الدعوات: باب (٨٢) حديث (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦/

١٦٨) كتاب عمل اليوم والليلة: باب ذكر دعوة ذي النون، حديث (١٠٤٩٢)، وأحمد (١٧٠/١)،

والحاكم (٥٠٥/١)، والطبري (٧٨/٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٢/١) رقم (٦٢٠) كلهم من

حديث سعد بن أبي وقاص.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثنو» (٥٩٩/٤)، وزاد نسبه إلى الحكيم في «توادر الأصول»،

وابن أبي حاتم، والبراز، وابن مردويه.

الحديث، انتهى. وعن سعد بن مالك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّمَا مُسْلِمٍ دَعَا بِهَا فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ - أُعْطِيَ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَإِنْ بَرَى بَرَى وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ^(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، انْتَهَى مِنْ «السَّلَاحِ».

وذكر صاحب «السَّلَاحِ» أيضاً عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي الثُّونِ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ» رواه الترمذي، واللفظ له، والنسائي والحاكم في «الْمُسْتَدْرَكِ»، وقال: صحيح الإسناد، وزاد فيه من طريق آخر: «فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ كَانَتْ لِيُوسَ حَاصَّةٌ، أَمْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)». انتهى.

والغم: ما كان ناله حين التقمه الحوت.

﴿وَكَرِيًّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ (٩٠) وَالَّذِي أَخَصَّنَا فَرَجَهَا فَفَقَّحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١).

١٢٠. وقوله سبحانه: / ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ...﴾ الآية تقدم أمر زكرياء.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ قيل: بَأَن جُعِلَتْ مِنْ تَحْمِلُ وهي عاقر قاعد، وعموم اللفظ يتناول جميع الإصلاح.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ المعنى: أنهم يدعون في وقت تعبداتهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف في حال واحدة؛ لَأَنَّ الرغبة والرهبة متلازمان، والخشوع: التذلل بالبدن المتركب على التذلل بالقلب.

قال القشيري في «رسالته»: سُئِلَ الْجَنِيدُ عَنِ الْخُشُوعِ فَقَالَ: تَذَلُّ الْقُلُوبِ لِعَلَامٍ الْغُيُوبِ، قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَمْ يَقْرَبْ مِنَ الشَّيْطَانِ. انتهى.

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (٥٠٦/١)، وَسَكَتَ عَنْهُ هُوَ وَالذَّهَبِيُّ.

(٢) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ المعنى: واذكر التي أحصنت فرجها، وهي الجارحة المعروفة، هذا قول الجمهور، وفي إحصانها هو المدح، وقالت فرقة: الفرج هنا هو فرج ثوبها [الذي منه نفخ الملك]^(١). وهذا قول ضعيف، وقد تقدم أمرها.

ت: وعكس (رحمه الله) في سورة التحريم النقل، فقال: قال الجمهور: هو فرج الدرع.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَرْجِعُوكَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَإِنَّا لَهُ كَافٍ بَرِينٌ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَىٰ أَنْ يَأْكُلَ كَنْهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ منقطعاً خطاباً لمعاصري النبي ﷺ ثم أخبر عن الناس أَنَّهُمْ تَقَطَّعُوا، ثم وعد وأوعد، ويحتمل أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلاً بقصة مريم وابنها - عليهما السلام -.

ص: أبو البقاء: ﴿وتقطعوا أمرهم﴾ أي، في أمرهم، يريد أنه منصوب على إسقاط حرف الجر.

وقيل: عُدِّي بنفسه؛ لأنه بمعنى قطعوا، أي فرقوا، انتهى.

وقال البخاري: ﴿أمتكم أمة واحدة﴾، أي: دينكم دين واحد^(٢). انتهى.

وقرأ جمهور السبعة: «وحرام»، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم^(٣): «وَحَرَمٌ» - بكسر الحاء وسكون الراء - وهما مصدران بمعنى، فأما معنى الآية، فقالت فرقة: حَرَامٌ وَحَرَمٌ معناه: جزم وحتم، فالمعنى: وحتم على قرية أهلكناها، أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَتُوبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، بل هم صائرون إلى العقاب.

وقالت طائفة: حرام وحرم، أي: ممتنع.

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٩/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة الأنبياء.

(٣) إنما قرأ عاصم هذه القراءة في رواية أبي بكر، لاحفص كما ذكر المصنف، وأما قراءة حفص فهي كقراءة الجمهور.

ينظر: «السبعة» (٤٣١)، و«الحجة» (٢٦١/٥)، و«إعراب القراءات» (٦٨/٢)، و«معاني القراءات» (١٧٠/٢)، و«شرح الطيبة» (٦٠/٥)، و«العنوان» (١٣٢)، و«شرح شعله» (٥٠٠)، و«إتحاف» (٢/٢٦٧).

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦).

وقوله سبحانه: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون...﴾ الآية، تحتل «حتى» في هذه الآية أن تتعلق بـ ﴿يرجعون﴾، وتحتل أن تكون حرف ابتداء، وهو الأظهر بسبب «إذا»؛ لأنها تقتضي جواباً، واختلف هنا في الجواب، والذي أقول به: أن الجواب [في قوله] (١) ﴿فإذا هي شاخت﴾ وهذا هو المعنى الذي قصد ذكره.

قال *ص*: قال أبو البقاء: ﴿حتى إذا﴾ متعلقة في المعنى بـ ﴿حرام﴾ أي: يستمر الامتناع إلى هذا الوقت، ولا عمل لها في «إذا». انتهى.

وقرأ الجمهور: «فُتِحَتْ» بتخفيف التاء، وقرأ ابن عامر (٢) وحده «فُتِحَتْ» بالتشديد، ورؤي أن يأجوج ومأجوج يشرفون في كل يوم على الفتح، فيقولون: غداً نفتح، ولا يردون المشيئة إلى الله تعالى، فإذا كان غد وجدوا الردم كأوليه حتى إذا أذن الله تعالى في فتحه، قال قائلهم: غداً نفتح إن شاء الله تعالى، فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ.

ت وقد تقدم في «سورة الكهف» كثير من أخبار يأجوج ومأجوج فأغنانا عن إعادته، وهذه عادتنا في هذا المختصر أسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم به، ويجعله لنا نوراً بين أيدينا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والحَدَبُ: كل مُسْتَمٍ من الأرض، كالجبل والظرب (٣) والكدية (٤)، والقبر ونحوه.

وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وهم﴾ يأجوج ومأجوج، يعني أنهم يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويملؤون الأرض من كثرتهم.

وقالت فرقة: المراد بقوله: «وهم» جميع العالم، وإنما هو تعريف بالبعث من القبور.

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٣١)، و«الحجة» (٢٦٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٦٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٧٢)، و«العنوان» (١٣٢)، و«حجة القراءات» (٤٧٠)، و«إتحاف» (٢٦٧/٢).

(٣) الظرب: كل ما نتأ من الحجارة، وحُدَّ طرفه، وقيل: هو الجبل المنبسط، وقيل: هو الجبل الصغير، وقيل: الروابي الصغار، والجمع: ظُرَابٌ.

ينظر: «لسان العرب» (٢٧٤٥).

(٤) الكدية: الأرض المرتفعة، وقيل: هو شيء صلب من الحجارة والطين، وهي أيضاً الأرض الغليظة، وقيل: الأرض الصلبة.

ينظر: «لسان العرب» (٣٨٣٨).

وقرأ ابن مسعود^(١): «وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَذَةٍ بِالْجِيمِ والثاء المثلثة، وهذه القراءة تُؤيِّدُ ٢٠ ب / هذا التأويل، و﴿ينسلون﴾: معناه: يسرعون في تطامن، وأسند الطبري عن أبي سعيد قال: «يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحداً إلا قتلوه، إلا أهل الحصون، فيمرُّون على بحيرة طبرية فيمر آخرهم فيقول: كان هنا مرة ماء، قال فيبعث الله عليهم النَّعْفَ حتى تكسر أعناقهم، فيقول أهل الحصون: لقد هلك أعداء الله، فيدلون رجلاً ينظر، فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله من السماء ماءً فيقذف بهم في البحر، فيطهر الله الأرض منهم»^(٢) وفي حديث حذيفة نحو هذا، وفي آخره قال: وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا فِي عَفْوَ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿واقترب الوعد الحق﴾ يريد يوم القيامة.

وقوله: ﴿[إذا] هي﴾^(٣): مذهب سيبويه أنها ضمير القصّة، وجوّز الفراء أن تكون ضمير الإبصار تقدمت؛ لدلالة الكلام، ومجيء ما يفسرها، والشخص بالبصر إحداد النظر دون أن يطرف، وذلك يعتري من الخوف المُفْرِط ونحوه، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم...﴾ الآية: هذه الآية مُحَاظَبَةٌ لِكُفَّارِ مَكَّةَ، أي: إنكم وأصنامكم حصب جهنم، والحصب: ما توقد به النار؛ إمّا

(١) وقرأ بها ابن عباس، والكلبي، والضحاك.

قال أبو الفتح: هو القبر بلغة أهل الحجاز.

ينظر: «المحتسب» (٦٦/٢)، و«مختصر الشواذ» (٩٥)، و«الكشاف» (١٣٥/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠٠/٤)، و«البحر المحيط» (٣١٤/٦)، و«الدر المصون» (١١١/٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٦٣-١٣٦٤) كتاب الفتن: باب فتنة الدجال، حديث (٤٠٧٩)، وأحمد (٣/٧٧)، وأبو يعلى (٣٧٧-٣٧٨) رقم (١١٤٤)، وابن حبان (١٩٠٩-موارد)، والحاكم (٤٨٩/٤)، والطبري في «تفسيره» (٨٦/٩) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري.

وصححه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٣/٤)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن مردويه.

(٣) سقط في ج.

لأنها تحصب به، أي: تُرمى، وإِما أن يكون لغة في الحطب إذا رُمي، وأما قبل أن يرمى فلا يُسمى حصباً إلا بتجوز، وحرقت الأصنام بالنار على جهة التوبيخ لعابديها، ومن حيث تقع «ما» لمن يعقل في بعض المواضع، اعتَرَضَ في هذه الآية عبدُ الله بنُ الزُّبَيْرِ على رسول الله ﷺ فقال: إِنَّ عِيسَى وَعِزْرًا وَنَحْوَهُمَا قَدْ عُبِدَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا حَصَباً لجهنم؛ فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ الْآيَةُ. وَالْوَرُودُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَرُودُ الدُّخُولِ، وَالزَّفِيرُ: صَوْتُ الْمُعَذِّبِ، وَهُوَ كَنَهِقِ الْحَمِيرِ وَشَبْهِهِ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الصَّدْرِ.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَتَلَقَاهُمْ أَلْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمِكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَفًى السَّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥).

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ هذه صفة الذين سبقت لهم الحسنى، وذلك بعد دخولهم الجنة؛ لأنَّ الحديث يقتضي أنَّ في الموقف تفرج جهنم زفرة لا يبقى نبي ولا مَلَكٌ إِلَّا جثا على ركبتيه، قال البخاري^(١): الحسيس والحس: واحد، وهو الصوت الخفي، انتهى. والفرع الأكبر عامٌ في كلِّ هول يكون يوم القيامة، فكأنَّ يوم القيامة بجملته هو الفرع الأكبر.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَتَلَقَاهُمْ أَلْمَلَكَةَ﴾ يريد: بالسلام عليهم والتبشير لهم، أي: هذا يومكم الذي وَعِدْتُمْ فيه الثواب والنعيم، و﴿السجل﴾ في قول فرقة: هو الصحيفة التي يُكْتَبُ فيها، والمعنى: كما يطوى السَّجِلُ من أجل الكتاب الذي فيه، فالمصدر مضاف إلى المفعول؛ وهكذا قال البخاري^(٢): السجل: الصحيفة، انتهى، وما خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «مُرَاسِيلِهِ» مِنْ أَنَّ السَّجِلَ: اسْمُ رَجُلٍ مِنْ كُتَّابِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣). قال السهيلي فيه: هذا غير معروف. انتهى.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٩/٨) كتاب التفسير: باب سورة الأنبياء.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٧/٢) كتاب الخراج والفئ والإمارة: باب في اتخاذ الكاتب، حديث (٢٩٣٥)، والنسائي في التفسير (٧٤/٢) رقم (٣٥٥)، والطبري (٩٤/٩) رقم (٢٤٨٤٩)، وابن عدي في «الكامل» (٧/٢٦٦٢)، والبيهقي (١٠/١٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢/١٧٠) رقم (١٢٧٩٠) من حديث ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦١١)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن منده في «المعرفة»، وابن مردويه، وابن عساكر.

وقوله سبحانه: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون خبراً عن البعث، أي كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال كذلك ننشئهم تارة أخرى، فنبعثهم من القبور.

والثاني أن يكون خبراً عن أنَّ كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها ١٢١ إلى الدنيا، ويؤيد هذا قوله ﷺ: «يُحْشَرُ / النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاءَ غُرْلًا» ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾^(١).

وقوله: ﴿كما بدأنا﴾ الكاف مُتَعَلِّقَةٌ بقوله: ﴿نعيده﴾، وقالت فرقة: ﴿الزبور﴾ هنا يعم جميع الكتب المُتَنَزَّلَةِ؛ لأنه مأخوذ من: زبرت الكتاب إذا كتبته، و﴿الذكر﴾ أراد به اللوح المحفوظ، وقالت فرقة: ﴿الزبور﴾ هو زبور داود عليه السلام، و﴿الذكر﴾: التوراة.

وقالت فرقة: ﴿الزبور﴾: ما بعد التوراة من الكتب، و﴿الذكر﴾: التوراة.

وقالت فرقة: ﴿الأرض﴾ هنا: أرض الدنيا، أي: كل ما يناله المؤمنون من الأرض، وقالت فرقة: أراد أرض الجنة، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهِي وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَادَنُكُم عَلَى سَوَإٍ وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا نَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّكُمْ فَتَنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إن في هذا لبلاغاً﴾: الإشارة بـ «هذا» إلى هذ الآيات المتقدمة في قول فرقة.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥/٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ حديث (٣٣٤٩)، وأطرافه في (٣٤٤٧، ٤٦٢٥، ٤٦٢٦، ٤٧٤٠، ٦٥٢٤، ٦٥٢٥، ٦٥٢٦)، ومسلم (٤/ ٢١٩٤-٢١٩٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب فناء الدنيا، حديث (٢٨٦٠/٥٠٨)، والترمذي (٤/ ٦١٥-٦١٦) كتاب صفة القيامة: باب ما جاء في شأن الحشر، حديث (٢٤٢٣)، والنسائي (٤/ ١١٤) كتاب الجنائز: باب البعث، حديث (٢٠٨٢) من حديث ابن عباس وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقالت فرقة: الإشارة إلى القرآن بجملته، والعبادة تتضمن الإيمان.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: قالت فرقة: هو ﷺ رحمة للعالمين عموماً، أمّا للمؤمنين فواضح، وأمّا للكافرين فلا لأن الله تعالى رفع عنهم ما كان يصيب الأمم والقرون السابقة قبلهم من التعجيل بأنواع العذاب المستأصلة؛ كالطوفان وغيره.

وقوله ﴿أَذْنَتَكُمْ﴾ معناه: عَرَفْتُكُمْ بنذرتي، وأردت أن تشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله تعالى، وقال البخاري: ﴿أَذْنَتَكُمْ﴾: أعلمتكم، فإذا أعلمتهم فأنت وهم على سواء، انتهى، ثم أخبر أنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم، هل هو قريب أم بعيد؟ وهذا أهول وأخوف.

قال *ص*: ﴿وإن أدري﴾ بمعنى: ما أدري، انتهى. والضمير في قوله: ﴿لعله﴾ عائد على الإيماء لهم، و﴿فتنة﴾ معناه: إمتحان وابتلاء، وال ﴿متاع﴾: ما يُسْتَمْتَعُ به مدة الحياة الدنيا، ثم أمره تعالى أن يقول على جهة الدعاء: ﴿رب احكم بالحق﴾ وهذا دعاء فيه توعّد، ثم توكل في آخر الآية واستعان بالله تعالى؛ قال الداوودي: وعن قتادة: أن النبي ﷺ كان إذا شهد قتالاً قال: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾^(١). انتهى.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠٢/٩) رقم (٢٤٨٩٧) عن قتادة مرسلاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٥/٤)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ

[وهي^(١) مَكِّيَّة]

سوى ثلاث آيات وهي^(٢): ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ إلى تمام ثلاث آيات، هذا قول ابن عباس، ومجاهد^(٣).

وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مَكِّيٌّ ومنها مَدَنِيٌّ، وهذا هو الأصح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلة: التحريك العنيف، وذلك مع نفخة الفزع، ومع نفخة الصعق؛ حسبما تضمنه حديث أبي هريرة من ثلاث نفخات، والجمهور على أن «زلزلة الساعة» هي كالمعهودة في الدنيا إلا أنها في غاية الشدة، واختلف المفسرون في الزلزلة المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: [هي في الدنيا، والضمير في «ترونها» عائد عندهم على الزلزلة، وقوى قولهم أن الرضاع^(٤) والحمل إنما هو في الدنيا، وقالت فرقة: الزلزلة في يوم القيامة، والضمير عندهم عائد على الساعة، والذهول: الغفلة عن الشيء بطرياق ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره؛ قال

(١) سقط في ج.

(٢) في ج: قوله.

(٣) ذكره ابن عطية (١٠٥/٤).

(٤) سقط في ج.

ابن زيد: المعنى: تترك وَلَدَهَا للكرب الذي نزل بها^(١).

/ قلت: وَخَرَجَ البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ ٢١ ب عز وجل يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، قِيْلُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، قِيْلُ: أَخْرَجَ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»^(٢) الحديث. انتهى.

وهذا الحديث نَصٌّ صريح في أنه يوم القيامة، وانظر قوله: «يَوْمًا يجعل الولدان شيباً» [المزمل: ١٧]، وقوله: «وَإِذَا الْعِشَاءُ عُطِّلَتْ» [التكوير: ٤] تجذؤه موافقاً للحديث، وجاء في حديث أبي هريرة فيما ذكره علي بن معبد: «أَنَّ نَفْخَةَ الْفَرْعِ تَمْتَدُّ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي النُّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَيَسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ، فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، ثُمَّ تَكُونُ سَرَابًا، ثُمَّ تَرْتَجُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ مَا فِي بُطُونِهَا، وَيَشِيبُ الْوُلْدَانُ، وَيُولِي النَّاسُ مُدْبِرِينَ، ثُمَّ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا هِيَ كَالْمُهْلِ، ثُمَّ انْشَقَّتْ»، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالْمَوْتَى لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ اسْتَفْتَى اللَّهَ عز وجل حِينَ يَقُولُ: «فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ»؟ قَالَ: أُولَئِكَ هُمُ الشُّهَدَاءُ»^(٣). انتهى مختصراً، وهذا الحديث ذكره^(٤) الطبري، والثعلبي، وصححه ابن العربي في «سراج المريدين».

(١) أخرجه الطبري (١٠٨/٩) رقم (٢٤٩١٣)، وذكره ابن عطية (١٠٦/٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠/٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قصة يأجوج ومأجوج، حديث (٣٣٤٨)، وفي (٢٩٥/٨) كتاب التفسير: باب «وترى الناس سكارى» حديث (٤٧٤١) وفي (٣٩٦/١١) كتاب الرقاق: باب قوله عز وجل: «إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ»، حديث (٦٥٣٠)، وفي (٤٦٢/١٣) كتاب التوحيد، حديث (٧٤٨٣)، ومسلم كتاب الإيمان: باب قوله: يقول الله لآدم: «أخرج بعث النار»، حديث (٣٧٩/٢٢٢)، وأحمد (٣/٣٢-٣٣)، وعبد بن حميد في «المستخب من المسند» رقم (٩١٧) والطبري (١٠٦/٩) رقم (٢٤٩٠٧)، والنسائي في «التفسير» (٣٥٩) من حديث أبي سعيد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٨/٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٣٤/٥) مطولاً، وعزاه إلى عبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب «الطاعة والمصيان»، وأبي يعلى، وأبي الحسن القطان في «المطولات»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي موسى المديني كلاهما في «المطولات»، وأبي الشيخ في «المعظمة»، والبيهقي في «البعث والنشور».

(٤) ينظر: «الطبري» (١٠٥/٩).

وقال عبد الحق: بل هو حديث منقطع، لَا يَصِحُّ، والذي عليه المحققون أَنَّ هذه الأهوال هي بعد البعث، قاله صاحب «التذكرة» وغيره، انتهى.

والْحَمْلُ: - بفتح الحاء - ما كان في بطن أو على رأس شجرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ تشبيهاً لهم، أي: من الهم، ثم نفى عنهم السُّكْرَ الحقيقي الذي هو من الخمر، قاله الحسن^(١) وغيره، وقرأ حمزة والكسائي: «سكرى» في الموضعين^(٢).

قال سيبويه^(٣): وقوم يقولون: سَكْرَى جعلوه مثل مرضى، ثم جعلوا: روى مثل سكرى، وهم المستقلون نوماً من شرب الرائب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُيِّبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾.

قال ابن جريج: هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خلف، وقيل في أبي جهل بن هشام^(٤)، ثم هي بعد تناول كل من اتصف بهذه الصفة، ومجادلتهم في أَنَّ الله تعالى لا يبعث مَنْ يَمُوتُ، والشيطان هنا هو مغويهم من الجن، ويحتمل من الأنس، والمريد: الْمُتَجَرِّدُ من الخير للشرِّ، ومنه الأُمرد، وشجرة مرداء، أي: عارية من الورق، وصَرَخَ مُمَرَّدٌ، أي: مملس، والضمير في ﴿عليه﴾ عائد على الشيطان؛ قاله قتادة^(٥)، ويحتمل أَنَّ يعودَ على المجادل، وأنه في موضع رفع على المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله، و«أنَّه» الثانية عطف على الأولى مؤكدة مثلها، وقيل: هي مُكْرَّرَةٌ للتأكيد فقط، وهذا مُعْتَرَضٌ بِأَنَّ الشيء لا يُوَكَّدُ إِلَّا بعد تمامه، وتمام «أَنَّ» الأولى إنما هو بصلتها في قوله:

(١) ذكره ابن عطية (١٠٦/٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٣٤)، و«الحجة» (٢٦٦/٥)، و«إعراب القراءات» (٧٢/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٧٥)، و«شرح الطيبة» (٦٣/٥)، و«العنوان» (١٣٤)، و«حجة القراءات» (٤٧٢)، و«شرح شملة» (٥٠٢)، و«إتحاف» (٢٧٠/٢).

(٣) ينظر: «الكتاب» (٢/ ٢١٢-٢١٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٠٩/٩) برقم (٢٤٩١٨)، وذكره ابن عطية (١٠٧/٤)، وابن كثير (٢٠٦/٣)، والسيوطي (٦١٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج.

(٥) ذكره ابن عطية (١٠٧/٤)، والسيوطي (٦٢٠/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

﴿السعير﴾ وكذلك لا يُعْطَفُ عليه، وليسبويه في مثل هذا: أنه بدل، وقيل: «أنه» الثانية خبر مبتدأ محذوف تقديره: فشأنه أنه يضله.

قال *ع^(١): ويظهر لي أنَّ الضمير في ﴿أنه﴾ الأولى للشيطان، وفي الثانية لمن الذي هو المتولي، وقرأ أبو عمرو^(٢): «فإنَّه» بالكسر فيهما.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِّك أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتُوفٍ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَآنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

وقوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ...﴾ الآية: هذا احتجاج على العالم بالبداة الأولى، وضرب سبحانه وتعالى في هذه الآية مَثَلَيْنِ، إذا اعتبرهما الناظر جَوَزَ في العقل البعثة / من القبور، ثم وَرَدَ الشرعُ بوقوع ذلك.

١٢٢

وقوله: ﴿فإنَّا خلقناكم من تراب﴾ يريد آدم عليه السلام.

﴿ثم من نطفة﴾ يريد: المنى، والنطفة: تقع على قليل الماء وكثيره.

﴿ثم من علقه﴾ يريد: من الدم الذي تعود النطفة إليه في الرحم أو المقارن للنطفة، والعلقُ الدَّمُ الغليظ، وقيل: العلق الشديد الحُمْرة.

﴿ثم من مضغة﴾ يريد مضغة لحم على قدر ما يمزج.

وقوله: ﴿مخلقة﴾ معناه: مُتَمِّمَةٌ، ﴿وغير مخلقة﴾ غير متممة، أي: التي تسقط، قاله مجاهد^(٣) وغيره، فاللفظة بناءً مبالغة من خلق، ولما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة، وكل واحد منها مختص بخلق - حَسُنَ في جملته تضييف الفعل؛ لأن فيه خلقاً كثيراً.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٧/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣٢٦/٦)، وزاد نسبتها إلى الأعمش. وينظر: «الشواذ» ص ٩٦، و«الدر المصون» (١٢٤/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١١١/٩) برقم (٢٤٩٢٦) و (٢٤٩٢٧) بنحوه، وذكره البغوي (٢٧٥/٣)، وابن عطية (١٠٨/٤)، وابن كثير (٢٠٦/٣) بنحوه، والسيوطي (٦٢١/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

وقوله سبحانه: ﴿لَنَبْلِيَنَّكُمْ﴾ قالت فرقة: معناه أمر البعث، ﴿ونقر﴾ أي: ونحن نُقرُّ في الأرحام، والأجل المُسمَّى مختلف بحسب حين حين، فَنَمَّ مَنْ يسقط، ونَمَّ مَنْ يكمل أمره ويخرج حَيًّا.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ قد تقدَّم بيانُ هذه المعاني، والرُّدُّ إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ هو حصول الإنسان في زمانة، واختلال العقل والقوة، فهذا مثال واحد يقتضي للمُعْتَبَرِ به أن القادرَ على هذه المناقل، المُثَقِّنَ لها - قادرٌ على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل، إلى حالها الأولى.

وقوله عز وجل: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ هذا هو المثال الثاني الذي يُعْطَى للمعتبر فيه جوازُ بعث الأجساد؛ وذلك أنَّ إحياء الأرض بعد موتها يَبَيِّنُ؛ فكذلك الأجساد، و﴿هامدة﴾: معناه: ساكنة دارسة بالية، واهتزاز الأرض: هو حركتها بالنبات وغير ذلك مِمَّا يعثر بها بالماء، ﴿وربت﴾: معناه: نشزت وارتفعت؛ ومنه الرُّبُوءُ وهي المكان المرتفع، والزوج: النوع، والبهيج: من البهجة، وهي الحسن؛ قاله قتادة^(١) وغيره.

وقوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى كل ما تقدم ذكره، وباقي الآية بين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ ﴿٨﴾ ثَائِي عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَوْ فِي الذُّبَابِ حِزْبٌ يُنْذِرُكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۖ ﴿١٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم...﴾ الآية، الإشارة بقوله: ﴿ومن الناس﴾ إلى القوم الذين تقدَّم ذكرهم، وكرَّرَ هذه الآية؛ على جهة التوبيخ فكأنه يقول: فهذه الأمثال في غاية الوضوح، ومن الناس مع ذلك من يجادل، و﴿ثاني﴾: حال من الضمير في ﴿يجادل﴾.

(١) أخرجه الطبري (١١٣/٩) برقم (٢٤٩٣٧، ٢٤٩٣٨)، وذكره ابن عطية (١٠٩/٤)، والسيوطي (٦٢٢/٤)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

وقوله: ﴿ثاني عطفه﴾: عبارة عن المُتَكَبِّرِ المُعْرِضِ؛ قاله ابنُ عباس^(١) وغيره؛ وذلك أنَّ صاحبَ الكبر يردُّ وجهه عَمَّنْ يتكبر عنه، فهو يَرُدُّ وجهه يَصْعُرُ خَدَّهُ، ويولي صفْحَتَهُ، ويلوي عُنُقَهُ، ويثني عِطْفَهُ، وهذه هي عبارات المفسرين، والعطف: الجانب.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ أي: يقال له ذلك، واختُلِفَ في الوقف على: ﴿يُداك﴾ فقيل: لا يجوز: لأنَّ التقدير: وبأنَّ الله، أي: أنَّ هذا هو العدل فيك بجرائِمِكَ.

وقيل: يجوز بمعنى: والأمر أنَّ الله ليس بظلام للعبيد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَمِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّى يُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنَ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالْدَّوَابَّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِن مَّكْرٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف...﴾ الآية نزلت في أعراب، وقوم لا يقيِّن لهم؛ كان أحدهم إذا أسلم فاتفق له اتفاقات حسَنان: من نمو مال، وولد يُزْرِقُهُ، وغير ذلك - قال: هذا دينٌ جيِّدٌ، وتمسك به لهذه المعاني، وإنَّ كان الأمر بخلاف ذلك، تشاءم به، وارتد؛ كما فعل العُرَنيون، قال هذا المعنى ابن عباس^(٢) وغيره.

وقوله: ﴿على حرف﴾ معناه: على انحرافٍ منه عن العقيدة البيضاء، وقال البخاري^(٣):

﴿على حرف﴾: على شكٍّ، ثم أسند عن ابن عباس ما تقدم من حال الأعراب، / انتهى. ب ٢٢

وقوله: ﴿يدعوا من دون الله ما لا يضره﴾ يريد الأوثان، ومعنى ﴿يدعوا﴾: يعبد، ويدعو أيضاً في مُلِمَّاتِهِ، واللام في قوله: ﴿لمن ضره﴾: لام مُؤدَّنة بمجيء القسم، والثانية في ﴿لَيْسَ﴾: لام القسم، و﴿العشير﴾: القريب المُعَاشِرُ في الأمور.

(١) أخرجه الطبري (١١٤/٩) برقم (٢٤٩٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (١٠٩/٤)، والسيوطي (٦٢٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١١٥/٩) رقم (٢٤٩٤٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (١١٠/٤)، وابن كثير (٢٠٩/٣) بنحوه، والسيوطي (٦٢٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٦/٨) كتاب التفسير باب ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾.

* وفي الحديث في شأن النساء: «وَيَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ» يعني الزوج.

قال أبو عمر بن عبد البر^(١): قال أهل اللغة: العشيرة: الخليفة من المعاشرة والمخالطة، ومنه قوله عز وجل: «لَبَسَ الْمُؤْمِنُ الْعَشِيرَ» انتهى من «التمهيد»، والذي يظهر: أنَّ المراد بالمؤمِن والعشيرة هو الوثن الذي ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نفعه، وهو قول مجاهد^(٢)، ثم عَقَّبَ سبحانه بذكر حالة أهل الإيمان وذكر ما وعدهم به فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...» الآية، ثم أَخَذَتِ الْآيَةُ فِي تَوْبِيخِ أَوْلَئِكَ الْأَوَّلِينَ كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَؤُلَاءِ الْعَابِدُونَ عَلَى حَرْفٍ صَحَبَهُمُ الْقَلْقُ، وَظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَنْصُرَ مُحَمَّدًا وَأَتْبَاعَهُ، وَنَحْنُ إِنَّمَا أَمْرُنَا هُمُ بِالصَّبْرِ وَانْتِظَارِ وَعْدِنَا، فَمَنْ ظَنَّ غَيْرَ ذَلِكَ فَلْيَمْدِدْ بِسَبَبٍ، وَهُوَ الْحَبْلُ وَلِيَخْتَنُقَ هَلْ يَذْهَبُ بِذَلِكَ غِيْظُهُ؟ قَالَ هَذَا الْمَعْنَى قَتَادَةُ^(٣)، وَهَذَا عَلَى جِهَةِ الْمَثَلِ السَّائِرِ فِي قَوْلِهِمْ: «دُونَكَ الْحَبْلُ فَاخْتَنُقْ»، وَ«السَّمَاءُ» عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: الْهَوَاءُ عُلُوًّا، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ سَقْفًا أَوْ شَجَرَةً، وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «بِسَبَبٍ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ»^(٤)، انْتَهَى، وَالْجَمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْقَطْعَ هُنَا هُوَ الْاِخْتِنَاقُ.

قال الخليل: وقطع الرجل: إذا اختنق بحبل ونحوه، ثم ذكر الآية، ويحتمل المعنى مَنْ ظَنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا لَا يَنْصُرُ فَلْيَمْتِ كَمَدًّا؛ هُوَ مَنْصُورٌ لَا مُحَالَةً، فَلْيَخْتَنُقْ هَذَا الظَّانُّ غِيْظًا وَكَمَدًا، وَيُؤَيِّدُ هَذَا: أَنَّ الطَّبْرِيَّ وَالنَّفَاشَ قَالَا: وَيُقَالُ: نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَعَظَمَانٍ، قَالُوا: نَخَافُ أَلَّا يُنْصَرَ مُحَمَّدٌ؛ فَيَنْقَطِعُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَلَفَائِنَا مِنْ يَهُودٍ مِنَ الْمَنَافِعِ^(٥)، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ الَّذِي قِيلَ لِلْعَابِدِينَ عَلَى حَرْفٍ - لَيْسَ بِهَذَا؛ وَلَكِنَّهُ بِمَعْنَى: مَنْ قَلِقَ وَاسْتَبْطَأَ النَّصْرَ، وَظَنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا لَا يُنْصَرُ فَلْيَخْتَنُقْ سَفَاهَةً؛ إِذْ تَعَدَّى الْأَمْرُ الَّذِي حَدَّ لَهُ فِي الصَّبْرِ وَانْتَظَارِ صَنِيعِ اللَّهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الضَّمِيرُ فِي «يَنْصُرُهُ» عَائِدٌ عَلَى «مَنْ» وَالْمَعْنَى: مَنْ كَانَ مِنَ الْمُتَقَلِّقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٦)، وَمَا فِي قَوْلِهِ: «مَا يَغِيْظُ» بِمَعْنَى الَّذِي، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ تَكُونَ مُصَدَّرِيَّةً حَرْفًا؛ فَلَا عَائِدَ عَلَيْهَا، وَأَبَيَّنُ الْوَجْهَ فِي الْآيَةِ: التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ وَبَاقِيَ الْآيَةِ بَيِّنَ.

وقوله: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»، أَي: سَاجِدُونَ مَرْحُومُونَ بِسُجُودِهِمْ، وَقَوْلُهُ: «وَكَثِيرٌ

(١) ينظر «التمهيد» (٣/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (١١٨/٩) برقم (٢٤٩٥٨)، وذكره ابن عطية (١١١/٤)، وذكره ابن كثير (٣/ ٢١٠).

(٣) أخرجه الطبري (١١٨/٩) برقم (٢٤٩٥٩، ٢٤٩٦٠) نحوه، وذكره ابن عطية (١١١/٤)، وابن كثير (٣/ ٢١٠) نحوه، والسيوطي (٤/ ٦٢٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (١١٩/٩) برقم (٢٤٩٦٦)، وذكره ابن كثير (٣/ ٢١٠) نحوه، وذكره السيوطي (٤/ ٦٢٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) ذكره ابن عطية (١١١/٤).

(٦) ذكره البغوي (٣/ ٢٧٨)، وابن عطية (٤/ ١١١، ١١٢).

حق عليه العذاب ﴿مُعَادِلٌ لَهُ، وَيُؤِيدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ﴾ الآية.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ عَنْهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقَ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْنَعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ الآية، نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر، وهم سِتَّةُ نَفَرٍ: حَمْزَةُ، وَعَلِيٌّ، وَعَبِيدَةُ بْنُ الْحَارِثِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) بَرَزُوا لِعَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عَتَبَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْخَصُومَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَقْسَمَ أَبُو ذَرٍّ ^(١) عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَوَقَعَ فِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» (رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى): أَنَّ الْآيَةَ فِيهِمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِشَارَةُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ^(٢)؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ وَقَعَ بَيْنَهُمْ تَخَاصُمٌ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: نَحْنُ أَقْدَمُ دِينًا مِنْكُمْ، وَنَحْنُ هَذَا؛ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ ^(٣): الْإِشَارَةُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ عَلَى الْعُمُومِ.

قال *ع ^(٤): وَهَذَا قَوْلٌ تَعَضُّدُهُ الْآيَةُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ الْمَعْنَى: هُمْ مُؤْمِنُونَ سَاجِدُونَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ /، ثُمَّ أَشَارَ ١٢٣ إِلَى هَذَيْنِ الصَّنْفَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْإِيمَانَ وَأَهْلَهُ، وَالْكَفَرَ وَأَهْلَهُ - خَصْمَانِ مَذْكَانًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِالْعَدَاوَةِ وَالْجِدَالِ وَالْحَرْبِ، وَخَصْمٌ مُصَدَّرٌ يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، وَيَذَلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الْجَمْعَ قَوْلُهُ: ﴿اخْتَصَمُوا﴾؛ فَإِنَّهُ قِرَاءَةُ الْجَمْعِ ^(٥) وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ: «اخْتَصَمَا».

- (١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٢٩٧/٨) كِتَابُ «التفسير»: بَابُ «هَذَانِ خَصْمَانِ» حَدِيثُ (٤٧٤٣) وَ«مُسْلِمٌ» (٤/٢٣٢٣) كِتَابُ «التفسير»: بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «هَذَانِ خَصْمَانِ» حَدِيثُ (٣٠٣٣/٣٤).
- (٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢٤/٩) بِرَقْمِ (٢٤٩٨٤)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٢٨٠/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (١١٣/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢١٢/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٦٢٨/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.
- (٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢٤/٩) بِرَقْمِ (٢٤٩٨٥)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٢٨٠/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (١١٤/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٢١٢/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٦٢٨/٤)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جُرَيْرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَّاحٍ وَالْحَسَنُ.
- (٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١١٤/٤).
- (٥) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١١٤/٤).
- (٦) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١١٤/٤)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٣٣٤/٦)، وَ«الْدَّرُ الْمَصُونُ» (١٣٤/٥).

جرى معها من ذكر الله وتسبيحه، وتقديسه، وسائر كلام أهل الجنة من محاورة وحديث طيب؛ فإنها لا تسمع فيها لاغية، و﴿صراط الحميد﴾ هو طريق الله الذي دعا عباده إليه، ويحتمل أن يريد بالحميد نفس الطريق، فأضاف إليه على حد إضافته في قوله: ﴿دار الآخرة﴾، وقال البخاري^(١): ﴿وهدوا إلى الطيب﴾: أي: ألهموا إلى قراءة القرآن، ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾: أي: إلى الإسلام، انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يُظْلَمِ تُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْهِمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ٢٨ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَبْطَرُوا بِآيَاتِنَا الْعَمِيقِ ٢٩﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الآية نزلت عام الحُدَيْبِيَّةِ حينُ صُدَّ النبي ﷺ وجاء ﴿يصدون﴾ مستقبلاً؛ إذ هو فعل يُدِيمُونَهُ، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف مُقَدَّرٌ عند قوله: و﴿الباد﴾: تقديره: خسروا أو هلكوا. و﴿العاكف﴾: المقيم في البلد، و﴿البادي﴾: القادم عليه من غيره.

وقوله: ﴿بِالْحَادِ﴾ قال أبو عبيدة^(٢): الباء فيه زائدة.

* قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: وجعل الباء زائدة لا يُحْتَاجُ إليه في سبيل العربية؛ لأنَّ حَمَلَ المعنى على القول أولى من حمله على الحروف، فيقال: المعنى ومن يَهْمُ فيه بميل، لأنَّ الإِلْحَادَ هو الميل في اللغة، إلَّا أَنَّهُ قد صار في عُرْفِ الشرع ميلاً مذموماً، فرفع الله الإشكال، وَبَيَّنَّ سبحانه أَنَّ الميلَ بالظلم هو المراد هنا، انتهى.

/ قال *ع^(٤): * والإِلْحَادُ الميلُ وهو يشمل جميع المعاصي من الكفر إلى الصفات، ٢٣ ب فلعظم حرمة المكان توعده الله تعالى على نية السيئة فيه، وَمَنْ نوى سيئة ولم يعملها - لم

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٢/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة الحج.

(٢) ينظر: «معجاز القرآن» (٤٨/٢).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٧٦/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٦/٤).

يُحَاسَبُ بِذَلِكَ إِلَّا فِي مَكَّةَ. هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة^(١) وغيرهم.

قال *ص*: وقوله: ﴿أَنْ لَا تَشْرِكَ﴾: أَنْ: مفسرة لقول مُقَدِّرٍ، أي: قائلين له، أو موحيين له: لا تشرك، وفي التقدير الأول نَظَرٌ فانظره، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ...﴾ الآية: تطهير البيت عام في الكُفْرِ، والبِدْعِ، وجميع الأتِّجَاسِ، والدماءِ، وغير ذلك، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾: هم المصلون، وَخَصَّ سُبْحَانَهُ بالذكر من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود، وَرُوي: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عليه [الصلاة]^(٢) - وَالسَّلَام - لَمَّا أُمِرَ بِالْأَذَانِ بِالْحَجِّ - قَالَ: يَا رَبِّ، وَإِذَا أَذَّنْتُ، فَمَنْ يَسْمَعُنِي؟ فَقِيلَ لَهُ: نَادِ يَا إِبْرَاهِيمُ، فَعَلَيْكَ النِّدَاءُ وَعَلَيْنَا الْبَلَاغُ؛ فَصَعِدَ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ^(٣)، وَقِيلَ: عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، وَنَادَى: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَكَم بِحَجِّ هَذَا الْبَيْتِ؛ فَحِجُّوا، فَرُوي أَنَّ يَوْمَ نَادَى أَسْمَعَ كُلَّ مَنْ يَحْجُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَأَجَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: مِنْ جَمَادٍ، وَغَيْرِهِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ؛ فَجَرَتْ التَّلْبِيَةُ عَلَى ذَلِكَ». قاله ابن عباس، وابن جبير^(٤)، و﴿رَجَالًا﴾: جمع رَجُلٍ، وَال ﴿ضَامِرٌ﴾: قالت فرقة: أراد بها الناقة؛ وذلك أنه يقال: ناقة ضامرٌ، وقالت فرقة: لفظ «ضامر» يشمل كل من اتصف بذلك من جمل، أو ناقة، وغير ذلك.

قال *ع*^(٥): وهذا هو الأظهر، وفي تقديم ﴿رَجَالًا﴾ تفضيل للمُشَاةِ فِي الْحَجِّ؛ وَإِلَيْهِ نَحَا ابْنُ عَبَّاسٍ^(٦).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٧): قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ رَدُّ الضَّمِيرِ إِلَى الْإِبِلِ؛ تَكْرِمَةً لَهَا لِقَصْدِهَا الْحَجَّ مَعَ أَرْبَابِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العدايات: ١]. فِي خِيَلِ الْجِهَادِ؛ تَكْرِمَةً لَهَا حِينَ سَعَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، انْتَهَى. وَالْفُجْ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعَةُ، وَالْعَمِيقُ:

- (١) ذكره ابن عطية (١١٦/٤) والسيوطي (٦٣٣/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، والطبراني عن ابن مسعود.
- (٢) سقط في ج.
- (٣) جبل مشرف على مكة ينظر: «المراصد» (١٠٦٦/٣).
- (٤) أخرجه الطبري (١٣٤/٩) برقم (٢٥٠٣٩، ٢٥٠٤٠، ٢٥٠٤١) عن ابن عباس، وبرقم (٢٥٠٤٣) عن سعيد بن جبير، وذكره ابن عطية (١١٨/٤)، والسيوطي (٦٣٨/٤)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لابن جرير عن سعيد بن جبير.
- (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٨/٤).
- (٦) أخرجه الطبري (١٣٥/٩، ١٣٦) برقم (٢٥٠٥٢)، وذكره ابن عطية (١١٨/٤)، وابن كثير (٢١٦/٣)، والسيوطي (٦٣٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس.
- (٧) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٧٩/٣).

معناه: البعيد؛ قال الشاعر [الطويل]:

إِذَا الْخَيْلُ جَاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ يَمُدُّ بِهَا فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاحِبٍ^(١)
وال «منافع» في هذه الآية التجارة في قول أكثر المتأولين، ابن عباس^(٢) وغيره،
وقال أبو جعفر محمد بن علي: أراد الأجر ومنافع الآخرة^(٣)، وقال مجاهد بعموم
الوجهين^(٤).

ت: وأظهرها عندي قول أبي جعفر؛ يظهر ذلك من مقصد الآية، والله أعلم.

وقال ابن العربي: الصحيح: القول بالعموم، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ﴾ ذهب قوم إلى: أنَّ المراد ذكر اسم الله على النَّحْرِ والذَّبْح، وقالوا: إِنَّ في ذكر
الأيام دليلاً على أنَّ الذَّبْح في الليل لا يجوز، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي.

وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه: الأيام المعلومات: يومُ النحر ويومان بعده.

وقوله: ﴿فَكُلُوا﴾ ندب، واستحب أهل العلم أن يأكل الإنسان من هَذِيهِ وَأَضْحِيَّتِهِ،
وأن يتصدقَ بالأكثر، والبائس: الذي قد مَسَّهُ ضَرْفُ الْفَاقَةِ وبُؤْسُهَا، والمراد أهل الحاجة،
والتفت: ما يصنعه الْمُخْرِمُ عند جَلِّهِ من تقصير شعر وحلقه، وإزالة شعث ونحوه،
﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: وهو ما معهم من هدي وغيره، ﴿وَلْيُطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: يعني:
طواف الإفاضة الذي هو من واجبات^(٥) الحج.

(١) لم أقف على قائله، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع في الجبل، والعميق البعيد سفلاً، وهو
محل الشاهد، والأشعث المتلبد شعره المتغير، والشاحب المتغير من هزال.

ينظر: «البحر المحيط» (٢/٦)، و«الدر المصون» (٥/١٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٦/٩) برقم (٢٥٠٦٣)، وذكره البغوي (٢٨٤/٣)، وابن عطية (١١٨/٤)، وابن
كثير (٢١٦/٣)، والسيوطي (٦٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٧/٩) برقم (٢٥٠٧٤) بلفظ العفو، وذكره ابن عطية (١١٨/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٧/٩) برقم (٢٥٠٧٢)، وذكره البغوي (٢٨٤/٣)، وابن عطية (١١٨/٤)، وابن
كثير (٢١٦/٣)، والسيوطي (٦٤٠/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

(٥) من أركان الحج الطواف بالبيت، لقوله تعالى: ﴿وَلْيُطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، والمراد به: طواف الإفاضة،
لانعقاد الإجماع على ذلك، ولهذا الطواف أسماء غير ذلك منها طواف الزيارة، وطواف القرص، وقد
يسمى طواف الصَّدْر بفتح الدال: والأشهر أن طواف الصدر هو طواف الوداع.

قال الطبري / : ولا خلاف بين المتأولين في ذلك.

قال مالك: هو واجب، ويرجع تاركه من وطنه إلا أن يطوف طواف الوداع؛ فإنه يجزيه عنه، ويحتمل أن تكون الإشارة بالآية إلى طواف الوداع، وقد أسند^(١) الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلِيُطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طواف الوداع؛ وقاله مالك في «الموطأ»، واختلف في وجه وصف البيت بالعتيق، فقال مجاهد^(٢) وغيره: عتيق، أي: قديم.

وقال ابن الزبير^(٣): لأن الله تعالى أعتقه من الجبابة.

وقيل: أعتقه من غرق الطوفان، وقيل غير هذا.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآتَقَاتُ إِلَّا مَا يَتَلَنَ عَلَيْكُمْ فَأَحْبَبُوا الرَّحْمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَأَحْبَبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حَقَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴿٣١﴾﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير: فرضكم ذلك، أو الواجب ذلك، ويحتمل أن يكون في محل نصب بتقدير: امثلوا ذلك ونحو هذا الإضمار، وأحسن الأشياء مضمراً أحسنها مظهراً؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير: [البسيط]

هَذَا، وَلَيْسَ كَمَنْ يَغْيَا بِخُطْبَتِهِ وَسَطَ السَّيِّ إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقًا^(٤)

والحُرُمَاتُ المقصودة هنا هي أفعال الحج.

= ومحل طواف الإفاضة بعد الخروج من عرفة ولهذا سمي طواف الإفاضة. ويدخل وقته بنصف ليلة النحر لمن وقف قبله قياساً على رمي جمرة العقبة. ولا آخر لوقته إذ الأصل عدم التأقيت إلا إذا دل دليل على ذلك ولا دليل ثمة. ويسن تأخيرها إلى بعد طلوع الشمس للاتباع، ويكره تأخيرها عن يوم النحر وفي تأخيرها عن أيام التشريق كراهة شديدة وعن خروجه من مكة كراهة أشد.

(١) أخرجه الطبري (١٤٢/٩) برقم (٢٥١٢٣)، وذكره ابن عطية (١١٩/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (١١٩/٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤/٥) كتاب «التفسير» باب ومن سورة الحج حديث (٣١٧٠)، والحاكم (٣٨٩/٢) من حديث عبد الله بن الزبير وقال الترمذي: حسن صحيح وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٤) البيت في ديوانه (٤٢)، و «البحر» (٣٣٩/٦)، و «الدر المصون» (١٤٥/٥).

والندي: القوم المجتمعون ومنه النادي، والشاهد في قوله «هذا» حيث أشير باسم الإشارة إلى ما سبق من وصف الهرم.

وقال ابن العربي^(١) في «أحكامه»: الحرمان: امتثال ما أمر الله تعالى به، واجتناب ما نهى عنه؛ فإنَّ للقسم الأوَّل حرمة المبادرة إلى الامتثال، وللثاني حرمة الانكفاف والانزجار^(٢). انتهى.

وقوله: ﴿فهو خير﴾ ظاهر أنها ليست للتفضيل، وإنما هي عِدَّةٌ بخير، ويحتمل أن يجعل ﴿خير﴾ للتفضيل على تجوز في هذا الموضع.

ص: ﴿فهو خير له﴾ أي: فالتعظيم خير له، [انتهى]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ يحتمل معنيين.

أحدهما: أن تكون «من» لبيان الجنس أي: الرجس الذي هو الأوثان؛ فيقع النهي عن رجس الأوثان فقط، وتبقى سائر الأرجاس نَهْيَهَا في غير هذا الموضع.

والمعنى الثاني: أن تكون «من» لابتداء الغاية فكأنه نهاهم سبحانه عن الرجس عموماً، ثم عَيَّنَ لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، ويظهر أن الإشارة إلى الذبائح التي كانت للأوثان فيكون هذا مما يَتَلَى عليهم، والمَرْوِيُّ عن ابن عباس وابن جريج: أن الآية نَهْيٌ عن عبادة الأوثان^(٤)، و﴿الزور﴾ عامٌ في الكَذِبِ والكفر؛ وذلك أن كُلَّ ما عدا الحق فهو كذب وباطل.

وقال ابن مسعود وغيره: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ بِالشَّرْكِ»^(٥)،

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٢٨٤).

(٢) في ج: الازتجار.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الطبري (١٤٤/٩) برقم (٢٥١٢٩) عن ابن عباس، وبرقم (٢٥١٣٠) عن ابن جريج، وذكره ابن عطية (١٢٠/٤)، والسيوطي (٦٤٦/٤)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٢٩/٢) كتاب الأقضية: باب في شهادة الزور حديث (٣٥٩٩) والترمذي (٥٤٧/٤) كتاب الشهادات: باب ما جاء في شهادة الزور حديث (٢٣٠٠) وابن ماجه (٧٩٤/٢) كتاب الأحكام: باب شهادة الزور حديث (٢٣٧٢) وأحمد (٣٢١/٤، ٣٢٢) والطبراني (٢٠٩/٤) رقم (٤١٦٢) والبيهقي (١٢١/١) كلهم من طريق حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك الأسدي به وقال الترمذي: خريم بن فاتك له صحبة وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث وهو مشهور أ.هـ.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦٤٦/٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».

وأخرجه الترمذي (٥٤٧/٤) كتاب الشهادات: باب ما جاء في شهادة الزور حديث (٢٢٩٩) من طريق سفيان بن زياد الأسدي عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث =

وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ «وَالزُّورُ: مُشْتَقٌّ مِنَ الزَّوْرِ، وَهُوَ الْمِيلُ^(١)، وَمِنْهُ فِي جَانِبِ فُلَانٍ زَوْرٌ،

= غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد ولا يعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد. وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤٤/٩) رقم (٢٥١٣٤) عن عبد الله بن مسعود موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٦/٤) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والخرائطي في «مكارم الأخلاق».

(١) الزور: الكذب، والتزوير: تزيين الكذب، وزور الشيء حسنه، وقومه، والزور مأخوذ من زور يزور، بمعنى مال، وانحرف، فالشاهد الذي يشهد بخبر كاذب يسمى شاهد زور، لأنه مائل عن الحق، منحرف عن الصدق.

وشهادة الزور من أكبر الكبائر، وقد قرن الله (تعالى) بينها وبين الشرك، فقال تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾.

وعن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟! قلنا: بلى يا رسول الله، قال «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً، فجلس وقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» حتى قلنا: ليته سكت.

واختلف أهل العلم في كيفية ثبوت شهادة الزور، فقال الحنفية إن شاهد الزور لا يثبت كونه شاهد زور، إلا إذا أقر على نفسه، ولم يدع سهواً، أو غلطاً.

واعترض على هذا صدر الشريعة، بأنه قد يعلم بدونه، كما إذا شهد بموت زيد، أو بأن فلاناً قتله، ثم ظهر زيد حياً، أو برؤية الهلال، فمضى ثلاثون يوماً، وليس في السماء علة، ولم ير الهلال. وإنما لا تثبت شهادة الزور بالبينة، لأنها ستكون بيينة على النفي، والبينة حجة للإثبات دون النفي.

وفي «المهذب» للشافعية: ويثبت أنه شاهد زور من ثلاثة أوجه: أحدها: أن يقر أنه شاهد زور. الثاني: أن تقوم البينة على أنه شاهد زور.

الثالث: أن يشهد بما يقطع بكذبه، بأن شهد على رجل أنه قتل، أو زنى في وقت معين في موضع معين، والمشهود عليه في ذلك الوقت كان في بلد آخر.

وأما إذا شهد بشيء أخطأ فيه، لم يكن شاهد زور، لأنه لم يقصد الكذب.

وإن شهد لرجل بشيء، وشهد به آخر أنه لغيره، لم يكن شاهد زور، لأنه ليس تكذيب أحدهما بأولى من تكذيب الآخر، فلم يقدح ذلك في عدالته.

وكذلك اختلفوا في عقوبة شاهد الزور، فقال أبو حنيفة (رضي الله تعالى عنه): شاهد الزور يعزر بتشهيره على الملأ في الأسواق ليس غير.

وقال الصاحبان: نوجهه ضرباً ونحبسه، وذكر شمس الأئمة السرخسي (رحمه الله تعالى) أنه يشهر عندهما أيضاً، والتعزير والحبس على قدر ما يراه القاضي.

وقال بهذه الرواية مالك، والشافعي، والأوزاعي، وابن أبي ليلى.

لهما ما روي عن عمر (رضي الله تعالى عنه) أنه ضرب شاهد الزور أربعين سوطاً وسخم وجهه، ولا يقال: الاستدلال بهذا غير مستقيم على مذهبهما، لأنهما لا يريان التسخيم، لأنه يحمل التسخيم على أنه كان سياسة.

ويظهر أنَّ الإشارة إلى زور أقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شرعوا في الأنعام، و﴿حنفاء﴾ معناه مستقيمين أو مائلين إلى الحق، بحسب أن لفظة الحنف من الأضداد، تقع على الاستقامة، وتقع على الميل، والسحق: البعيد.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلَاهَا إِلَى آيَاتٍ بَلِيغٍ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ التقدير في هذا الموضع: الأمر ذلك، و﴿الشعائر﴾ جمع شعيرة وهي كُلُّ شيءٍ لله عز وجل فيه أمر أشعر به وأعلم.

قال الشيخ ابن أبي جمره: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ قال:

= واستدل أبو حنيفة. بأن شريحاً كان يشهر، ولا يضرب، وما روي عن عمر من أنه ضرب شاهد الزور أربعين سوطاً وسخم وجهه، فمحمول على السياسة، بدلالة التبليغ إلى الأربعين، والتسخيم. والتشهير منقول عن شريح (رحمه الله تعالى)، فإنه كان يبعثه إلى سوقه إن كان سوقياً، وإلى قومه إن كان غير سوقى بعد العصر أجمع ما كانوا، ويقول إن شريحاً يقرئكم السلام، ويقول: إنا وجدنا هذا شاهد زور، فاحذروه، وحذروا الناس منه.

واختلف القائلون بجواز الضرب، والحبس: فقال ابن أبي ليلى: يجلد خمسة وسبعين سوطاً، وهذه رواية عن أبي يوسف، وفي رواية أخرى عنه: يجلد تسعة وسبعين سوطاً.

وقال الشافعي: لا يزيد على تسعة وثلاثين.

وقال أحمد: لا يزداد على عشر جلدات.

وقال الأوزاعي في شاهدي الطلاق: يجلدان مائة مائة، ويغرمان الصداق.

وقال صاحب «الفتح»: اعلم أنه قد قيل: إن المسألة على ثلاثة أوجه: أن يرجع على سبيل الإصرار، مثل أن يقول لهم: شهدت في هذه بالزور، ولا أرجع عن مثل ذلك، فإنه يعزر بالضرب بالاتفاق، وإن رجع على سبيل التوبة لا يعزر اتفاقاً، وإن كان لا يعرف حاله، فعلى الإختلاف المذكور.

واختلفوا في قبول شهادته بعد توبته، فذهب الحنفية إلى أنه إذا تاب شاهد الزور، وأنت على ذلك مدة، قيل سنة، وقيل ستة أشهر، والصحيح أنها مفوضة لرأي القاضي.

فإن كان فاسقاً تقبل شهادته، لأن الحمل له على الزور فسقه، وقد زال بالتوبة.

وإن كان مستوراً لا يقبل أصلاً، وكذا إذا كان عدلاً، على رواية بشر عن أبي يوسف، لأن الحمل له على ذلك غير معلوم، فكان الحال قبل التوبة وبعدها سواء، وروى أبو جعفر أنها تقبل، قالوا: وعليه الفتوى.

وقال الشافعي، وأبو ثور، وأحمد: تقبل شهادته إذا أتت على ذلك مدة تظهر فيها توبته، ويتبين فيها صدقه، وعدالته..

وقال مالك: لا تقبل شهادته أبداً، لأنه لا يؤمن على قول الصدق.

تعظيم شعائر الله، - كان من البقع أو من البشر أو ممن شاء الله تعالى - زيادة في الإيمان وقوة في اليقين. انتهى.

وقال العراقي في أرجوزته: [الرجز]

أَعْلَامٌ طَاعَةٌ هِيَ الشَّعَائِرُ

٢٤ ب / البيت .

وقالت فرقة: قصد بالشعائر في هذه الآية الهدي والأنعام المشعرة، ومعنى تعظيمها التسمين والاهتبال بأمرها، قاله ابن عباس^(١) وغيره، ثم اختلف المتأولون في قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ...﴾ الآية: فقال مجاهد وقتادة: أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف، واللبن، والذبيح للأكل، وغير ذلك ما لم يبعثها ربها هدياً، فإذا بعثها فهو الأجل المسمى^(٢)، وقال عطاء: أراد لكم في الهدي المبعوث منافع، من الركوب، والاحتلاب لمن اضطر، والأجل نحرها^(٣)، وتكون «ثم» من قوله: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ لترتيب الجمل؛ لأنَّ المحلَّ قبل الأجل، ومعنى الكلام عند هذين الفريقين: ثم محلها إلى موضع النحر، وذكر البيت؛ لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدي وغيره.

وقال ابن زيد، والحسن، وابن عمر، ومالك: الشعائر في هذه الآية: مواضع الحج كلها، ومعالمه بمنى، وعرفة، والمزدلفة، والصفاء والمروة، والبيت وغير ذلك^(٤)، وفي الآية التي تأتي أن البدن من الشعائر، والمنافع: التجارة وطلب الرزق أو الأجر والمغفرة، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة، ومحلها مأخوذ من إحلال المحرم، والمعنى: ثم أخروا هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه، قاله مالك في «الموطأ».

(١) أخرجه الطبري (١٤٦/٩) برقم (٢٥١٤٢)، وذكره البغوي (٢٨٦/٣)، وابن عطية (١٢١/٤)، وابن كثير (٢١٩/٣)، والسيوطي (٦٤٧/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٤٨/٩) برقم (٢٥١٥٦) عن مجاهد، وعن قتادة برقم (٢٥١٦٠)، وذكره البغوي (٣/٣) ٢٨٧، وابن عطية (١٢١/٤)، والسيوطي (٦٤٧/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (١٤٨/٩) برقم (٢٥١٦٢)، وذكره البغوي (٢٨٧/٣)، وابن عطية (١٢١/٤)، والسيوطي (٦٤٧/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك وعطاء.

(٤) أخرجه الطبري (١٤٦/٩) برقم (٢٥١٤٨) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (١٢١/٤).

ت* وأظهر هذه التأويلات عندي تأويل عطاء، وفي الثالث بعض تكلف، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم المؤمنة منسكاً، أي: موضع نسك وعبادة، هذا على أن المنسك ظرف، ويحتمل أن يريد به المصدر كأنه قال: عبادة، والناسك العابد.

وقال مجاهد^(١): سُنَّةٌ في هراقة دماء الذبائح.

وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله، وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازق ذلك، وقوله: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أي: آمنوا، ويحتمل أن يريد استسلموا، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبشّر بشارة على الإطلاق، وهي أبلغ من المفسرة؛ لأنها مرسلّة مع نهاية التخيل للمختبتين المتواضعين الخاشعين المؤمنين، والخبث ما انخفض من الأرض، والمُخْبِتُ المتواضع الذي مشيّه متطامن كأنه في حدود من الأرض، وقال عمرو بن أوس^(٢): المختبتون الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

قال ع*^(٣): وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهيين اللين، وقال مجاهد: هم المطمئنون بأمر الله تعالى، ووصفهم سبحانه بالخوف والوجل عند ذكر الله تعالى، وذلك لقوة يقينهم ومراقبتهم لربهم، وكأنهم بين يديه جلّ وعلا، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها، وروي: أن هذه الآية قوله: ﴿وبشّر المختبتين﴾ نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ (رضي الله عنهم أجمعين).

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَاقَهُ وَالْمَعَرَّةَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦).

وقوله سبحانه: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ البدن: جمع بدنة، وهي ما أشعر من ناقة أو بقرة؛ قاله عطاء وغيره^(٤)، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لأنها تبذن، أي: تسمن.

(١) أخرجه الطبري (١٥٠/٩) برقم (٢٥١٧١)، وذكره ابن عطية (١٢١/٤) والسيوطي (٦٤٨/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (١٥١/٩) برقم (٢٥١٧٧)، وذكره ابن عطية (١٢٢/٤)، وابن كثير (٢٢١/٣)، والسيوطي (٦٤٩/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبه، وابن أبي الدنيا في «ذم الغضب»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عمرو بن أوس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٣/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٥٢/٩) برقم (٢٥١٨٠)، وذكره ابن عطية (١٢٢/٤)، وابن كثير (٢٢١/٣).

وقيل: بل هذا الاسم خاصٌّ بالإبل، والخير هنا قيل فيه ما قيل في المنافع التي تقدّم ذكرها، والصوابُ عُمومُه في خير الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿عليها﴾ يريد عند نحرها، و﴿صوافٌ﴾، أي: مُصَطَفَةٌ، وقرأ ابن مسعود^(١)، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم: «صَوَافِنَ» جمع صَافِنَةٍ، وهي التي رُفِعَتْ إحدى يديها بالعقل؛ لئلاً تضطرب، ومنه في الخيل ﴿الصفانات الجياد﴾ [ص: ٣١]، و«وجبت» معناه: سقطت.

١٢٦ وقوله: ﴿فكلوا منها﴾: / نَذْبٌ، وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أَجْرٌ وامتثالٌ؛ إذ كان أهل الجاهليّة لا يأكلون من هديهم، وتحرير القول في ﴿القانع﴾: أنّه السائل و﴿المعتزُّ﴾ المُتَعَرِّضُ من غير سؤال؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما^(٢)، وعكست فرقة هذا القول، فحكى الطبري^(٣) عن ابن عباس أنّه قال: الْقَانِعُ: الْمُسْتَغْنَى^(٤) بما أعطيته، والمعتزُّ: هو المتعرض^(٥)، وحكي عنه أنّه قال: الْقَانِعُ: الْمُتَعَفِّفُ، والمُعْتَزُّ: السائل^(٦).

قال *ع^(٧): يُقَالُ: قَنَعَ الرَّجُلُ - بفتح النون - يَفْتَحُ قُنُوعاً فهو قَانِعٌ إذا سأل؛ فالقانع: هو السائل بفتح النون في الماضي، وقَنَعَ - بكسر النون - يَفْتَحُ قَنَاعَةً فهو قَنِيعٌ إذا تَعَفَّفَ واستغنى ببلغته؛ قاله الخليل بن أحمد.

-
- (١) وقرأ بها النخعي، وأبو جعفر محمد بن علي، والأعمش.
ينظر: «الشواذ» (٩٧، ٩٨)، و«المحتسب» (٨١/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٢٢/٤)، و«البحر المحيط» (٣٤٢/٦)، و«الدر المصون» (١٥٠/٥).
- (٢) أخرجه الطبري (١٥٧/٩، ١٥٨) برقم (٢٥٢٣١، ٢٥٢٣٢، ٢٥٢٣٣، ٢٥٢٣٦، ٢٥٢٣٧) عن الحسن، وذكره البغوي (٢٨٨/٣)، وابن عطية (١٢٣/٤)، والسيوطي (٦٥٤/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد عن الحسن، وعزاه أيضاً للبيهقي في «سننه» عن مجاهد، وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.
- (٣) سبق تخريجه.
- (٤) في ج: المستغنى والمستغني.
- (٥) أخرجه الطبري (١٥٦/٩) برقم (٢٥٢١٩)، وذكره البغوي (٢٨٨/٣) بنحوه، وابن عطية (١٢٣/٤)، وابن كثير (٢٢٢/٣)، والسيوطي (٦٥٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٦) أخرجه الطبري (١٥٦/٩) برقم (٢٥٢٢٢)، وذكره ابن عطية (١٢٣/٤)، وذكره ابن كثير (٢٢٢/٣)، والسيوطي (٦٥٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٣/٤).

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحْمُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحْمُهَا...﴾ الآية: عبارة مبالغية، وهي بمعنى: لن تُزَفَعَ عنده سبحانه، وتتحصل سبب ثواب، والمعنى: ولكن تُنال الرُّفْعَةُ عنده، وتحصل الحسنة لديه بالتقوى.

وقوله تعالى: ﴿لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ رُوي: أن قوله: «وبشر المحسنين» نزلت في الخلفاء الأربعة حسبما تقدّم في التي قبلها، وظاهر اللفظ العموم في كل مُحْسِنٍ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: «يُدْفَعُ»^(١) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال أبو علي: أجريت «دافع» مُجرى «دفع» كعاقبت اللّصّ وطارت النعل، قال أبو الحسن الأَخْفَشُ: يقولون: دافع الله عنك، ودفع عنك، إِلَّا أَنَّ «دفع» أكثر في الكلام.

قال *ع^(٢): ويحسن «يدافع»؛ لَأَنَّهُ قد عَنَ للمؤمنين مَنْ يدفعهم ويؤذيه، فيجىء دفعه سبحانه مدافعةً عنهم، وروي أَنَّ هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين لَمَّا كَثُرُوا بمكة وآذاهم الكُفَّارُ؛ هَمَّ بعضهم أَنْ يقتل مَنْ أمكنه من الكُفَّارِ، ويغتال، وَيَغْدُرُ، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿كفور﴾، ثم أذن الله سبحانه في قتال المؤمنين لِمَنْ قاتلهم من الكفار بقوله: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾.

وقوله: ﴿بأنهم ظلموا﴾ معناه: كان الإذن بسبب أنهم^(٣) ظلموا، قال ابن جريج^(٤): وهذه الآية أول ما نقضت المَوَادَعَةَ.

(١) وحجتها أن الله - جل وعز - لا يدافعه شيء، وهو يدفع عن الناس، فالفعل له وحده لا لغيره. وحجة الباقي أنه يدافع مرة بعد مرة.

ينظر: «السبعة» (٤٣٧)، و«الحجة» (٢٧٨/٥)، و«إعراب القراءات» (٧٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٨١)، و«شرح الطيبة» (٦٩/٥)، و«العنوان» (١٣٤)، و«حجة القراءات» (٤٧٧)، و«شرح شعلة» (٥٠٤)، و«إتحاف» (٢٧٧/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٣/٤).

(٣) في ج: أنهم عند هجرة النبي ﷺ.

(٤) ذكره ابن عطية (١٢٤/٤).

قال ابن عباس^(١)، وابن جُرَيْج^(٢): نزلت عند هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.
وقال أبو بكر الصديق: لَمَّا سَمِعْتُهَا، عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ^(٣).

قلت: وهذا الحديث خَرَّجَهُ الترمذي، قال ابن العربي: ومعنى ﴿أُذِّنْ﴾: أُبَيِّحُ، وقرئ «يُقَاتِلُونَ» بكسر التاء وفتحها^(٤)، فعلى قراءة الكسر: تكون الآية خبراً عن فعل المأذون لهم، وعلى قراءة الفتح: فالآية خبر عن فعل غيرهم، وأن الإذْن وقع من أجل ذلك لهم، ففي فتح التاء بيان سبب القتال، وقد كان الكفار يتعمدون النبي ﷺ والمؤمنين بالإذابة ويعاملونهم بالنكابة، وقد قتل أبو جهل سُمَيَّةَ أُمَّ عمار بن ياسر، وعُدْبَ بلال، وبعد ذلك جاء الانتصار بالقتال، انتهى، ثم وعد سبحانه بالنصر في قوله: ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَعِيرَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يريد كل من خرج من مكة وآذاه أهلها حتى أخرجوه بإذيتهم، - طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة -، ونسب الإخراج إلى الكفار؛ لأنَّ الكلام في معرض تقرير الذنب، وإلزامه لهم.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥/٥) كتاب «التفسير»: باب ومن سورة الحج حديث (٣١٧١)، وأحمد (١/٢١٦)، والطبري (١٦١/٩) رقم (٢٥٢٥٥) وابن حبان (١٦٨٧ - موارد) والحاكم (٧/٣) والطبراني (١٦/١٢) رقم (١٢٣٣٦) والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٩٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٥٥) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد والبرار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) في ج: حي.

(٣) ينظر الأثر السابق.

(٤) قرأ بفتح التاء كل من نافع، وأبي عمارة، وابن أبي عمير، وهبيرة عن حفص عن عاصم، مع ضم همزة «أذن».

وقرأ بكسر التاء مع ضم الهمزة - عاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو.

وقرأها مكسورة مع فتح همزة «أذن» كل من ابن كثير، وحمزة، والكسائي. وقرأها ابن عامر مفتوحة الهمزة والتاء.

ينظر: «السبعة» (٤٣٧)، و«الحجة» (٥/٢٨٠)، و«إعراب القراءات» (٢/٧٩)، و«معاني القراءات» (٢/١٨٢)، و«شرح الطيبة» (٥/٦٩ - ٧٠)، و«العنوان» (١٣٥)، و«حجة القراءات» (٤٧٨)، و«شرح شملة» (٥٠٤)، و«إتحاف» (٢/٢٧٦).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا / رَبَّنَا اللَّهُ﴾ استثناء مُنْقَطِعٌ.

قال *ص*: وأجاز أبو إسحاق وغيره أن يكون في موضع جرّ بدلاً من حقّ، أي: بغير مُوجِبٍ سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون مُوجِبَ الإقرار، لا مُوجِبَ الإخراج، ومثله: ﴿هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَدًا بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] انتهى، وهو حسنٌ من حيث المعنى، والانتقاد عليه مُزَيَّفٌ.

وقوله: ﴿ولولا دفع الله الناس﴾ الآية تقوية للأمر بالقتال، وذكر أنه مُتَقَدِّمٌ في الأمم، وبه صَلَحَتِ الشرائع، فكأنه قال: أُذِنَ في القتال، فليقاتل المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لَتَغَلَّبَ على الحقّ في كُلِّ أُمّةٍ، هذا أصوب تأويلات الآية، والصومعة: موضع العبادة، وهي بناء مرتفع، منفرد، حديد الأعلى، والأصمع من الرجال: الحديد القول، وكانت قبل الإسلام مُخْتَصَصةً برهبان النصارى، وعُبابد الصابئين^(١)؛ قاله قتادة^(٢)، ثم اسْتُعْمِلَتْ^(٣) في مئذنة المسلمين، والبيع: كنائس النصارى، واحداثها: بيعَةٌ.

وقال الطبري^(٤): قيل: هي كنائس اليهود، ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك، والصلوات مشتركة لكل مِلَّةٍ؛ واستعير الهدم للصلوات من حيث تعطيلها، أو أراد موضع صلوات، وقال أبو العالية^(٥): الصلوات مساجد الصابئين، وقيل: غير هذا.

وقوله: ﴿يذكر فيها﴾ الضمير عائد على جميع ما تَقَدَّمَ، ثم وعد سبحانه بُصْرَةَ دينه وشرعه، وفي ذلك حُضٌّ على القتال والجِدُّ فيه، ثم الآية تَعُمُّ كلَّ مَنْ نصر حقاً إلى يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة...﴾ الآية: قالت فرقة: هذه الآية في الخلفاء الأربعة، والعموم في هذا كله أبين، وبه يَتَجَهُّ الأمر في جميع الناس، وإنما الآية آخذة عهداً على كُلِّ مَنْ مَكَّنَ [في الأرض]^(٦) على قَدَرٍ ما مَكَّنَ، والآية

(١) في ج: الصابئين.

(٢) أخرجه الطبري (١٦٤/٩) برقم (٢٥٢٧٢)، وذكره البغوي (٢٩٠/٣)، وابن عطية (١٢٥/٤)، وابن كثير (٢٢٦/٣)، والسيوطي (٦٥٧/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) في ج: استعمل.

(٤) ينظر: «الطبري» (١٦٤/٩).

(٥) أخرجه الطبري (١٦٥/٩) برقم (٢٥٢٨٥)، وذكره ابن عطية (١٢٥/٤)، وابن كثير (٢٢٦/٣)، والسيوطي (٦٥٧/٤) وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العالية.

(٦) سقط في ج.

أمكن ما هي في الملوك.

وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: تَوَعَّدُ للمخالف عن هذه الأمور التي تقتضيها الآية لمن مكن.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَنَّمِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَتَسْجُدُونَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنَّمِن قَرْيَةٍ أَتَيْتُهَا فَأَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾: يعني: قريشاً، ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى... الآية: فيها وعيد لقريش، و﴿أَمَلَيْتُ﴾ معناه: أمهلت، والنكير مصدر بمعنى الإنكار.

[وقوله^(١): «ويبر معطلة» قيل: هو معطوف على العروش، وقيل: على القرية؛ وهو أصوب.

ثُمَّ وَيَخْهَنُ عَلَى الْغَفْلَةِ وَتَرَكَ الْإِعْتِبَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ وهذه الآية تقتضي أَنَّ العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا يُنْكَرُ أَنَّ للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ.

وقوله: ﴿فَتَكُونُ﴾: نصب بالفاء في جواب الاستفهام؛ صُرِفَ الفعلُ من الجزم إلى النصب.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ لفظ مبالغة كأنه قال: ليس العمى عَمَى العين، وإنما العمى كُلُّ العمى عَمَى القلب، ومعلوم أن الأبصار تعمي، ولكن المقصود ما

ذكرنا؛ وهذا كقوله ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ»^(١)، و«لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَافِ»^(٢)، والضمير في «إِنَّهَا» للقصة ونحوها من التقدير، والضمير في «يَسْتَعْجِلُونَكَ» لقريش.

وقوله: «وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» وعيد وإخبار بأن كل شيء إلى وقت محدود، والوعد هنا مُقَيَّدٌ بالعذاب.

وقوله سبحانه: «وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» / قالت فرقة: معناه ١٢٧ وإنَّ يومًا من أَيَّامِ عَذَابِ اللَّهِ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِنْ هَذِهِ؛ لطول العذاب وبؤسه، فكان المعنى أي من هذه السنين فما أَجْهَلُ مَنْ يَسْتَعْجِلُ هَذَا، وَكُرِّرَ قَوْلُهُ: «وَكَايْنُ»؛ لَأَنَّهُ جَلَبَ مَعْنَى آخَرَ؛ ذَكَرَ أَوَّلًا الْقُرَى الْمُهْلَكَةَ دُونَ إِمْلَاءِ، بَلْ بَعَقِبَ التَّكْذِيبِ، ثُمَّ ثَنَّى سُبْحَانَهُ بِالْمَمْهَلَةِ؛ لثَلَاثًا يَفْرَحُ هَؤُلَاءِ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَبِاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ، وَالرِّزْقُ الْكَرِيمُ: الْجَنَّةُ، وَ«مُعَاجِزِينَ» معناه: مغالِبِينَ، كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا عَجَزَ صَاحِبِ الْآيَاتِ، وَالْآيَاتُ تَقْتَضِي تَعْجِيزَهُمْ؛ فَصَارَتْ مُفَاعَلَةً.

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (٥٢).

وقوله سبحانه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...» الآية.

قلت: قال [القاضي أبو الفضل]^(٣) عياض: وقد توجهت ها هنا لبعض الطاعنين سؤالات منها ما روي من: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ «وَالنَّجْمِ» وَقَالَ: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ» [النجم: ١٩، ٢٠] قَالَ: تِلْكَ الْغَرَائِيقُ الْعُلَى، وَإِنَّ شَفَاعَتَهَا لَتُرْتَجَى»^(٤).

(١) أخرجه مالك (٩٠٦/٢) كتاب «حسن الخلق»: باب ما جاء في الغضب، حديث (١٢)، والبخاري (٥٣٥/١٠) كتاب «الأدب»: باب الحذر من الغضب، حديث (٦١١٤)، ومسلم (٢٠١٤/٤) كتاب «البر والصلة»: باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث (٢٦٠٩/١٠٧)، وأحمد (٢٣٦/٢)، والبخاري في «شرح السنة» (٦/ ٥٣١- بتحقيقنا)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٢١٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٣/١٢) رقم (١٢٤٥٠)، والبراز في «مسنده» كما في «تخريج الكشاف» (٣٩١/٢)، وابن مردويه كما في المصدر السابق، كلهم من طريق يوسف بن حماد ثنا أمية بن خالد، ثنا =

= شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، فذكر القصة.

وقال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، ولا نعلم أحداً أسند هذا الحديث عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس إلا أمية، ولم نسمعه نحن إلا من يوسف بن حماد، وكان ثقة، وغير أمية يحدث به عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلًا، وإنما يعرف هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وأمّية ثقة مشهور. هـ.

وقد مشى الهيثمي على ظاهر السند، فقال في «المجمع» (١١٨/٧): رواه البزار والطبراني، ورجالهما رجال الصحيحين.

وهذا الطريق فيه اضطراب، فقد رواه بعضهم عن أبي بشر عن سعيد مرسلًا وقد أشار إلى ذلك البزار رحمه الله.

وهذا الطريق أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣١) من طريق محمد بن جعفر: ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلًا.

وقد رويت هذه القصة عن محمد بن كعب القرظي، وعن قتادة، وعن أبي العالية مرسلة: أما مرسل محمد بن كعب، فأخرجه الطبري (١٧٥-١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٢٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٦٢)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور.

مرسل قتادة: أخرجه الطبري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٦٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

أما مرسل أبي العالية، فأخرجه الطبري (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٦٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وللحديث طريق موصول عن ابن عباس: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣٣): حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس به.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/٣٩٢): ولكن فيه عدة مجاهيل عينا وحالاً. هـ.

وقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين، قال البيهقي وهو من كبار رجال السنة: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقال القاضي عياض في: «الشفاء»: إن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، والمولعون بكل غريب، المتلفقون من الصحف كل صحيح وسقيم، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين، لم يسندوا أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع منها حديث شعبة، عن أبي البشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب (الشك في وصل الحديث): «أن النبي ﷺ كان بمكة وذكر القصة»: قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل، إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي خالد عن ابن عباس، فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه، مع وقوع الشك فيه، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي: فمما لا يجوز الرواية منه، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه. هـ. وكذا أنكر القصة القاضي أبو بكر بن العربي وطعن فيها من جهة النقل، وسئل محمد بن إسحاق بن خزيمة، عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتاباً، وذهب إلى وضعها الإمام: أبو منصور الماتريدي، في كتاب «حصى الأتقياء» حيث قال: الصواب أن قوله: «تلك الغرائق العلى» من جملة =

= إحياء الشياطين إلى أوليائه من الزنادقة، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين، ليرتابوا في صحة الدين، والرسالة بريئة من مثل هذه الرواية.

فها نحن نرى: أن من أنكرها وقضى بوضعها أكثر ممن صححها اعتماداً على روايات مرسلة. ومما يقلل الثقة بالحديث: اضطراب الروايات اضطراباً فاحشاً.

فقاتل يقول: إنه كان في الصلاة، وقائل يقول: قالها في نادي قومه، وثالث يقول: قالها وقد أصابته سِنَّة. ورابع يقول: بل حدث نفسه فيها. ومن قائل: إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأئك؟ وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان: أن النبي قرأها كما رويت: تلك الغرائق العلى على أنحاء مختلفة، وكل هذا الاضطراب مما يوهن الرواية، ويقلل الثقة بها. والحق أبلغ والباطل لجلج.

وقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية على الحافظ ابن حجر، فصصح القصة، وجعل لها أصلاً، قال في «الفتح»، في تفسير سورة الحج، بعد ما ساق الطرق الكثيرة: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف، وإما منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلاً، مع أن لها طريقين مرسلين آخرين، رجالهما على شرط الصحيح: أحدهما: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فذكر نحوه. والثاني: ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمد بن سليمان، وحمام بن سلمة، فرقهما عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية، وبعد أن ذكر كلام القاضي أبي بكر بن العربي، وعياض قال: وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتبينت مخارجها، دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج، لا اعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك: تعين تأويل ما فيها مما يستنكر، وهو قوله: «ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائق العلاء»، فإنه لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إن كان مغايراً لما جاء به من التوحيد، لمكان عصمته، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك... وبعد أن ذكر الكثير منها، ولم يرتضه، ارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل: وهو أن النبي ﷺ كان يرتل القرآن ترتيلاً، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمة محاكياً نغمته، بحيث سمعها من دنا، فظنه من قوله، وأشاعها بين الناس، قال: وهو الذي ارتضاه عياض وأبو بكر بن العربي ١. هـ، والقاضيان: عياض وأبو بكر رأيهما البطلان نقلاً وعقلاً، ولكنهما ارتضيا ذلك تنزلاً على تسليم الصحة.

والذي أجيب به على ما ذكره الحافظ:

١- أن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل، وجعلوه من قسم الضعيف؛ لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي، وحينئذ: يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة. وعلى الثاني: فلا يؤمن أن يكون كذاباً، والإمام مسلم قال في مقدمة كتابه: والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالإخبار: ليس بحجة. وقال ابن الصلاح في مقدمته: «وذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه: هو الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث، وتداولوه في تصانيفهم»، والاحتجاج به مذهب مالك، وأبي حنيفة والشافعي، بشروط ذكرها في رسالته، ونقلها العراقي في شرح ألفيته، وقد قالوا في مراسيل أبي العالية: إنها كالريح، كما في: «التدريب» وإنني لأذكر الحافظ بما ذكره من البلاء في الاحتجاج بالمراسيل =

قال عياض: اعلم (أكرمك الله) أنَّ لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله.

والثاني: على تقدير تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أنَّ هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رَوَاهُ ثقة بسند مُتَّصِلٍ سليم؛ وإنما أولع به وبمثله المُفَسِّرُونَ والمُؤَرِّخُونَ المُؤَلَّغُونَ بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، وصدق القاضي أبو بكر ابن العلاء المالكي (رحمه الله تعالى) حيث يقول: لقد بُلِيَ الناسُ ببعض أهل الأهواء والتفسير، ثم قال عياض: قال أبو بكر البرزاري: هذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد مُتَّصِلٍ يجوزُ ذكره؛ وإِنَّمَا يُعْرَفُ عن الكلبي. قال عياض: والكلبي ممن لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره؛ لقوَّة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البرزاري، وقد أجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذا، انتهى، ونحو هذا لابن عطية^(١) قال: وهذا الحديث الذي فيه: هن الغرائقة وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يُدْخِلْهُ البخاري ولا مسلم، ولا ذكره - في علمي - مُصَنِّفٌ مشهور؛ بل يقتضي مذهب أهل الحديث أنَّ الشيطان ألقى، ولا يعينون هذا السَّبَب ولا غيره.

= في مقدمة كتابه «لسان الميزان».

٢- الاحتجاج بالمرسل إنما هو في الفرعيات التي يكفي فيها الظن، أما الاحتجاج به على إثبات شيء يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلم، وقد قال علماء التوحيد: إن خبر الواحد لو كان صحيحاً لا يؤخذ به في العقائد؛ لأنه لا يكفي فيها إلا باليقين، فما بالك بالضعيف؟!!

٣- هذا التأويل الذي ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل، فهو يوقع متأوله فيما فر منه، وهو تسلط الشيطان على النبي، فالتسلط عليه بالمحاكاة، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه، كلاهما لا يجوز، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات، وإذا سلمنا أنَّ الشيطان هو الذي نطق في أثناء سكوت الرسول، فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان؟ وإذا سمعنا، فكيف لا يبادر إلى إنكارها؟ والبيان في مثل هذا وجب على الفور، وإذا لم يسمع النبي، ألم يسمع أصحابه؟ وإذا سمعوا، فكيف يسكتون؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع؟

ومثل هذا: ما ذكره موسى بن عقبة في «مغازيه»: من أنَّ المسلمين ما سمعوها، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين، فهل كان الشيطان يسر في آذان المشركين دون المؤمنين؟ ثم كيف يتفق هذا وما روي: من أنَّ النبي حزن حزناً شديداً، وأن جبريل قال له: ما جئتكَ بهذا الحق!!

الحق: أن نسج القصة مهما تأوَّل فيه المتأولون فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث.

ينظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» ص ٢٤٥ وما بعدها بتصرف.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٩/٤).

قال ﴿ع^(١)﴾: وحديثي أبي (رحمه الله تعالى) أَنَّهُ لَقِيَ بِالْمَشْرِقِ مِنْ شُبُوحِ الْعُلَمَاءِ وَالتَّكَلِّمِينَ مَنْ قَالَ: هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ الْمَعْصُومُ فِي التَّبْلِيغِ؛ وَإِنَّمَا الْأَمْرُ يَعْنِي عَلَى تَقْدِيرِ صَحَّتِهِ - أَنَّ الشَّيْطَانَ نَطَقَ بِلَفْظِ أَسْمَعَهُ الْكُفَّارُ عِنْدَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنَاءَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿النَّجْم: ١٩، ٢٠﴾. وَقَرَّبَ صَوْتَهُ مِنْ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى التَّبَسَّ الْأَمْرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَالُوا: مُحَمَّدٌ قَرَأَهَا، هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ صَحَّتِهِ، وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا التَّأْوِيلِ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي الْمَعَالِي.

قلت: قال عياض: وقد أعاذنا الله من صحته، وقد حكى موسى ^(٢) بن عقبة في «مغازيه» نحو هذا، وقال: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَسْمَعُوهَا، وَإِنَّمَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ذَلِكَ فِي أَسْمَاعِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَمْنَى﴾ أَي: تَلَا؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨]. أَي: تِلَاوَةً، ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أَي: يُذْهِبُهُ، وَيَزِيلُ اللَّبْسَ بِهِ وَيُحْكَمُ آيَاتُهُ، وَعِبَارَةُ الْبُخَارِيِّ ^(٣): وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا تَمْنَى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ﴾، أَي: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيُبْطِلُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ / وَيُحْكَمُ ٢٧ ب آيَاتُهُ، وَيُقَالُ: ﴿أَمْنِيَّتُهُ﴾: قِرَاءَتُهُ. انْتَهَى.

قال عياض: وقيل: معنى الآية هو ما يقع للنبي ﷺ من السهو إذا قرأ فيتنبه لذلك، ويرجع عنه، انتهى.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيقَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ الفتنة: الامتحان والاختبار، والذين في قلوبهم مرض: عامة الكفار، والقاسية قلوبهم: خواص منهم عتاة: كأبي جهل وغيره، والشقاق: البعد عن الخير والكون في شق غير شقّ الصلاح، والذين أوتوا العلم: هم أصحاب نبينا محمد ﷺ، والضمير في ﴿أنه﴾: عائد على القرآن، فتخبت

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٩/٤).

(٢) في المطبوعة (محمد) والمثبت من «السير» للذهبي (١١٤/٦) ترجمة (٣١).

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٢٩٢/٨) كتاب التفسير: باب سورة الحج.

له قلوبهم ﴿١﴾: معناه: تتطامن وتَخَضَعُ، وهو مأخوذ من الخبت وهو المطمئن من الأرض كما تقدم.

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي: من القرآن، والمرية: الشك، ﴿حتى تأتيهم الساعة﴾ يعني يوم القيامة، ﴿أو يأتيهم عذاب عقيم﴾ قيل: يوم بدر، وقيل: الساعة ساعة موتهم، واليوم [العقيم] ^(١) يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خِزْيُ الرَّزْقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مِذْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾
 ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾
 ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾
 ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا...﴾ الآية، ابتداءً معنى آخر؛ وذلك أنه لما مات عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلُ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ. فنزلت هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم في أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وليس هذا بقاضٍ بتساويهم في الفضل، وظاهرُ الشريعة أَنَّ الْمَقْتُولَ أَفْضَلُ، وقد قال بعض الناس: المقتول والميت في سبيل الله شهيدان، ولكن للمقتول مزية ما أصابه في ذات الله، والرزق الحسن يحتمل: أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ، ويحتمل أن يريد بعد يوم القيامة في الجنة ^(٢)، وقرأت ^(٣) فرقة: «مَدْخَلًا» - بضم الميم -؛ من أدخل؛ فهو محمولٌ على الفعل [المذكور، وقرأت فرقة: «مَدْخَلًا» - بفتح الميم -؛ من دخل؛ فهو محمولٌ على فعل] ^(٤) مُقَدَّرٌ تقديره: فَيَدْخُلُونَ مَدْخَلًا، ثم أخبر سبحانه عَمَّنْ عَاقَبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ ظَلَمَهُ مِنَ الْكُفْرَةِ، وَوَعَدَ الْمُبَغْيِيَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ يَنْصُرُهُ، وذلك أن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كُفَّارًا في

(١) سقط في جـ.

(٢) ذكره ابن عطية (٤/١٣٠).

(٣) بفتح الميم قرأ نافع، وبضمها قرأ الباقون.

ينظر: «السبعة» (٤٣٩، ٤٤٠)، و«الحجة» (٥/٢٨٤)، و«إعراب القراءات» (٢/٨٣)، و«العنوان» (١٣٥)، و«حجة القراءات» (٤٨١)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/٢٧٨).

(٤) سقط في جـ.

الأشهر الحُرْم؛ فأبى المؤمنون من قتالهم، وأبى المشركون إلا القتال، فلمَّا اقتتلوا، جَدَّ المؤمنون ونصرهم الله تعالى؛ فنزلت الآية فيهم^(١)، وجعل تقصير الليل وزيادة النهار وعكسهما إيلاجاً؛ تجوزاً وتشبيهاً، وباقي الآية بين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٦٣) لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(٦٤).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد قوله: ﴿تُصْبِحُ﴾ عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء؛ وروي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بـ «مكة»^(٢) و«تهامة».

[قال *ع^(٣)]: ومعنى هذا أنه أخذ قوله: ﴿تُصْبِحُ﴾ مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخراً^(٤).

قال *ع^(٥): وقد شاهدتُ هذا في السُّوسِ الأقصى، نزل المطرُ ليلاً بعد قَحْطٍ، وأصبحت تلك الأرض الرملة التي تسفيها الرياح قد اخضرتُ بنبات ضعيف دقيق.

قلت: وقد شاهدتُ أنا ذلك بصحراء سواكن بالمشرق، وهي في حكم مكة إلا أن البحر قد حال بينهما؛ وذلك أن التعديّة من جدة إلى «سواكن» مقدار يومين في البحر أو أقل بالريح المعتدلة، وكان ذلك في أول الخريف، وأجرى الله العادة أن أمطار تلك البلاد تكون بالخريف فقط، هذا هو الغالب، ولما شاهدتُ ذلك تذكّرتُ هذه الآية / الكريمة، ١٢٨ فسبحان الله ما أعظم قدرته! واللطيف: المُحَكِّمُ للأمور برفق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَخْيَاكُمْ ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّسُكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ^(٦٦) لِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَسْكَاةً لَهُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ^(٦٧).

(١) ذكره ابن عطية (١٣١/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (١٣١/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣١/٤).

(٤) سقط في ج.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣١/٤).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: سَخَّرَ لَنَا سبحانه ما في الأرض من الحيوان والمعادين وسائر المرافق، وباقي الآية بَيْنَ مِمَّا ذَكَرَ في غير هذا الموضع.

وقوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ الآية، المنسك: المصدر، فهو بمعنى: العبادة والشُرْعَةُ، وهو أيضاً موضع النسك، وقوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي أَنَّ المنسك: المصدر، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه.

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ...﴾ الآية مُوَادَعَةٌ مَحْضَةٌ نسختها آية السيف^(١)، وباقي الآية وعيد.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يحتمل أَنْ تَكُونَ الإشارة إلى الحكم في الاختلاف.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنْ ذَلِكَُمْ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٢) يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ يعني: أَنْ كُفَّارَ قريش كانوا إِذَا تُلِيَ عليهم القرآن، وسمعوا ما فيه من رفض^(٢) آلهتهم والدعاء إلى التوحيد - عُرِفَت المساءة في وجوهم والمنكر من معتقدهم وعداوتهم، وأنهم يريدون ويتسرعون إلى السطوة بالتأليين، والسطو إيقاع ببطش، ثم أمر تعالى نبيّه عليه السلام

(١) قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية [التوبة ٢٩]. وقيل غير ذلك.

(٢) في ج: بغض.

أن يقول لهم على جهة الوعيد والتفريع: ﴿أفأنبئكم﴾ أي: أخبركم. ﴿بشرٌ من ذلكم﴾: والإشارة بذلكم إلى السطو، ثم ابتداءً بخبر؛ كأن قائلًا قال له: وما هو؟ قال: ﴿النار﴾^(١) أي: نار جهنم.

وقوله: ﴿وعدها الله الذين كفروا﴾ يحتمل أن يكون أراد: أن الله تعالى وعدهم بالنار، فيكون الوعد في الشر، ويحتمل أنه أراد: أن الله سبحانه وعد النار^(٢) بأن يُطعمها الكفار، فيكون الوعد على بابه، إذ الذي يقتضي قولها: ﴿هل من مزيد﴾ [ق: ٣٠] ونحو ذلك، أن ذلك من مسارها.

قلت: والظاهر الأول.

وقوله سبحانه: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه...﴾ الآية: ذكر تعالى أمر سالب الذباب، وذلك أنهم كانوا يضمخون^(٣) أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يتسلط ويذهب بذلك الطيب، وكانوا يتألمون من ذلك، فجعلت مثلاً، واختلَف المتأولون في قوله تعالى: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ فقالت فرقة: أراد بالطالب: الأصنام، وبالمطلوب: الذباب، أي: أنهم ينبغي أن يكونوا طالبين لما يسلب من طيبهم على معهود الأنفة في الحيوان، وقيل: معناه: ضَعُفَ الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأصنام، وضعف الأصنام في إعطاء ذلك وإنالته.

قال *ع^(٤): * ويحتمل أن يريد: ضعف الطالب وهو الذباب في استلابه ما على الأصنام، وضعف الأصنام في أن لا منعة لهم، وبالجمله فدلتهم الآية على أن الأصنام في أخط رتبة، وأحسن منزلة لو كانوا يعقلون. و﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ المعنى: ما وقَّره حقه سبحانه من التعظيم والتوحيد.

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ .

(١) في ج: النار، فيكون الوعد في الشر.

(٢) في ج: الناس.

(٣) الضْمَخُ: لطح الجسد بالطيب حتى كأنما يقطر.

ينظر: «لسان العرب» (٢٦٠٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٤/٤).

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ...﴾ الآية: نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة: ﴿أَنْزَلَ^(١) عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

ص: أبو البقاء: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: رسلاً، انتهى، ثم أمر سبحانه بعبادته ٢٨ ب وَخَصَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ بِالذِّكْرِ؛ تَشْرِيفًا / لِلصَّلَاةِ، واختلف الناس: هل [في]^(٢) هذه الآية سجدة أم^(٣) لا؟.

قال ابن العربي^(٤) في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ تَقَبَّلَهَا قَوْمٌ عَلَى أَنَّهَا سَجْدَةٌ تَلَاوَةٌ؛ فَسَجَدُوهَا.

وقال آخرون: هو سجود الصلاة فقصروه عليه، ورأى عمرُ وابنه عبدُ الله رضي الله عنهما: أنها سجدة تلاوة، وإني لَأَسْجُدُهَا وَأَرَاهَا كَذَلِكَ^(٥)؛ لما رَوَى ابنُ وهب، وغيره عن مالك، وغيره^(٦)، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَاَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ نَذَبَ فِيهَا عِدَا الْوَاجِبَاتِ.

قلت: وهذه الآية الكريمة عامّة في أنواع الخيرات، ومن أعظمها الرأفة والشفقة على خلق الله، ومواساة الفقراء وأهل الحاجة، وقد رَوَى أبو داود والترمذي عن النبي ﷺ [أنه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ»^(٧) كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى غُرِي، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوع، أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ، سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ»^(٨)]. انتهى. وروى علي بن عبد العزيز البغوي في «المسند المُتَّخَب» عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا، كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ مَا بَقِيََتْ عَلَيْهِ مِنْهُ رُقْعَةٌ»^(٩). وروى ابن أبي شيبة في «مسنده» عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا أَهْلٍ

(١) في ج: نزل.

(٢) سقط في ج.

(٣) في ج: أو.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٣٠٤).

(٥) ذكره البغوي (٣/٢٩٩).

(٦) ذكره البغوي (٣/٢٩٩).

(٧) سقط في ج.

(٨) تقدم تخريجه.

(٩) تقدم تخريجه.

عَرَضَ ظِلٌّ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعًا، فَقَدْ بَرِثَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ^(١). انتهى من «الكوكب الدرّي».

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ يِلَّةَ أَيْكُمْ إِيْرَاهِمُ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨).

وقوله سبحانه: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ قالت فرقة: الآية في قتال الكُفَّار.

وقالت فرقة: بل هي أَعَمُّ من هذا، وهو جهاد النفس، وجهاد الكفار والظلمة، وغير ذلك، أمر الله عباده بأن يفعلوا ذلك في ذات الله حقَّ فعله.

قال *ع^(٢): والعموم أحسن، وَبَيَّنَّ أَنَّ عُرْفَ اللفظة يقتضي القتال في سبيل الله.

وقوله: ﴿هو اجتباكم﴾ [أي: تَخَيَّرَكُم] ^(٣)، ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي: من تضييق، وذلك أَنَّ الْمِلَّةَ حَنِيفِيَّةٌ سَمَحَةٌ، ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم، بل فيها التوبة والكفَّارات، والرَّخْصُ، ونحو هذا مِمَّا يكثر عَدُّهُ، ورفع الحرج عن هذه الأمة لمن استقام منهم على منهاج الشرع، وأما السُّلَابَةُ^(٤) والسَّرَاقُ وأصحاب الحدود فهم أَدْخَلُوا الْحَرَجَ على أنفسهم بمفارقتهم الدِّين، وليس في الدِّين أَشَدُّ من إلزام رجل لاثنتين في سبيل الله، ومع صحة اليقين، وجودة العزم ليس بِحَرَجٍ و﴿ملة﴾ نُصِبَ بفعل مُضْمَرٍ من أفعال الإغراء.

(١) أخرجه أحمد (٣٣/٢)، والحاكم (٢/ ١١-١٢)، وأبو يعلى (١١٧/١٠) رقم (٥٧٤٦)، والبخاري (١٣١١- كشف) كلهم من طريق أبي بشر الأملوكي، عن أبي الزاهرية، عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر به.

وقال البخاري: لا نعلمه عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٣٩٢/١) رقم (١١٧٤) عن أبيه: هذا حديث منكر.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠٣/٤): رواه أحمد، وأبو يعلى، والبخاري، والطبراني في «الأوسط»، وفيه أبو بشر الأملوكي، ضعفه ابن معين أ.هـ.

ومن طريق أبي بشر ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٥/٣).

(٣) سقط في جـ.

(٤) السُّلَابُ: جمع سالب، وهم أهل الاختلاس.

ينظر: «لسان العرب» (٢٠٥٧).

وقوله: ﴿هو سماكم المسلمين﴾^(١) قال ابن زيد^(٢): الضمير لـ ﴿إبراهيم﴾ - عليه السلام - والإشارة إلى قوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: الضمير لله عز وجل^(٣). ﴿ومن قبل﴾ معناه: في الكتب القديمة، ﴿وفي هذا﴾ أي: في القرآن، وهذه اللفظة تُضَعِّفُ قولَ مَنْ قال: الضمير لإبراهيم عليه السلام، ولا يتوجه إلا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف.

قال *ص*: ﴿هو﴾ قيل: يعود على الله تعالى، وقيل: على إبراهيم، وعلى هذا فيكون: ﴿وفي هذا﴾: القرآن، [أي]^(٤): وسميت بسببه فيه، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ أي: بالتبليغ.

وقوله: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي: بتبليغ رسلكم إليهم على ما أخبركم نبيكم، ثم أمر سبحانه بالصلاة المفروضة أَنْ تُقَامَ وَيُدَامَ عليها بجميع حدودها، وبالزكاة أَنْ تُؤَدَّى، ثم أمر سبحانه بالاعتصام به، أي: بالتعلق به والخلوص له وطلب النجاة منه، وَرَفُضِ التَّوَكُّلِ على سواه.

وقوله سبحانه: / ﴿هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ المولى: في هذه الآية معناه: الذي يليكم نصره وحفظه، [وباقى الآية بين]^(٥).

(١) في ج: سَمَاكم المسلمين.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٤/٩) برقم (٢٥٤٠٥)، وذكره ابن عطية (١٣٥/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٣٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري (١٩٣/٩، ١٩٤) برقم (٢٥٣٩٩، ٢٥٤٠٠) عن ابن عباس، وبرقم (٢٥٤٠١) عن قتادة، وبرقم (٢٥٤٠٢، ٢٥٤٠٣) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (١٣٥/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٣٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٢/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٤) سقط في ج.

(٥) سقط في ج.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ .

قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * الذي هم في صلاتهم خاشعون ﴿٢﴾ أخبر الله سبحانه عن فلاح المؤمنين، وأنهم نالوا البُغْيَةَ، وأحرزوا البقاء الدائم.

قلت: وعن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ ﷺ دَوِيٌّ كَدَوِي النُّحْلِ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ يَوْماً، فَمَكَّثْنَا سَاعَةً، وَسُرِّي عَنْهُ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَآكِرْمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْظِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَأَرْضَ عَنَّا»، ثُمَّ قَالَ: «أَنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات (١)؛ رواه الترمذي واللفظ له والنسائي والحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «سلاح المؤمن».

قلت: وقد نَصَّ بعض أئمتنا على وجوب الخشوع في الصلاة، قال الغزالي

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنين، حديث (٣١٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٤٥٠/١) كتاب الوتر: باب رفع اليدين في الدعاء، حديث (١٤٣٩)، وأحمد (٣٤/١)، والحاكم (٣٩٢/٢)، وعبد الرزاق (٦٠٣٨)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤٦٠/٤) كلهم من طريق يونس بن سليم قال: أُملى علي يونس بن يزيد عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد القاري عن عمر بن الخطاب به.

وقال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه.

وقال العقيلي في ترجمة يونس: لا يتابع على حديثه هذا ولا يعرف إلا به.

والحديث ذكره السيوطي في «الدرر المشورة» (٤/٥)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة».

- رحمه الله :- ومن مكائد الشيطان أن يَشْغَلَكَ [في الصلاة بفكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات؛ لمتنع عن فهم ما تقرأه، واعلم أن كل ما أشغلك]^(١) عن معاني قراءتك فهو وسواس؛ فإن حركة اللسان غير مقصودة؛ بل المقصود معانيها، انتهى من «الإحياء».

وروي عن مجاهد^(٢): أن الله تعالى لما خلق الجنَّة، وأتقن حُسْنَهَا قال: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين: فقال: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ والخشوع التطامن، وسكون الأعضاء، والوقار، وهذا إنما يظهر في الأعضاء ممن في قلبه خوف واستكانة؛ لأنه إذا خشع قلبه خشعت جوارحه، وروى أن سبب الآية أن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يُمنَّة ويُسرَّة؛ فنزلت هذه الآية، وأمروا أن يكون [بصر]^(٣) المصلي حذاء قبلته أو بين يديه، وفي الحرم إلى الكعبة، و﴿اللغو﴾: سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأصحابه، أي: يُغْرِضُونَ عن اللغو، وكأن الآية فيها مودعة.

﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ ذهب الطبري^(٤) وغيره إلى: أنها الزكاة المفروضة في الأموال، وهذا بَيِّنٌ، ويحتمل اللفظ أن يريد بالزكاة: الفضائل، كأنه أراد الأزكى من كل فعل؛ كما قال تعالى: ﴿خَيْراً مِنْهُ زَكَاةٌ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ٦ ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ٧ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ ٨ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ٩ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١٠ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١١ ﴿.

وقوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلى قوله: ﴿هم العادون﴾ يقتضي تحريم الزنا والاستمناء ومواقعة البهائم، وكل ذلك داخل في قوله: ﴿وراء ذلك﴾ ويريد: وراء هذا الحد الذي حُدَّ، والعادي: الظالم، والأمانة والعهد يجمع كل ما تحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلًا. وهذا يعم معاشره الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك حفظه والقيام به، والأمانة أعم من العهد؛ إذ كل عهد فهو أمانة، وقرأ الجمهور:

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٦/٩) (٢٥٤١١)، وذكره ابن عطية (١٣٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥)، وغزاه لابن جرير عن مجاهد.

(٣) سقط في ج.

(٤) ينظر الطبري (١٩٩/٩).

«صَلَّوَاتِهِمْ» وقرأ حمزة والكسائي: «صلاتهم» بالإنفراد^(١)، و«الوارثون» يريد الجنة، وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَسْكَنًا فِي الْجَنَّةِ، وَمَسْكَنًا فِي النَّارِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَأْخُذُونَ مَنَازِلَهُمْ، وَيَرِثُونَ مَنَازِلَ الْكُفَّارِ، وَيَخْصُلُ الْكُفَّارُ فِي مَنَازِلِهِمْ / فِي النَّارِ».

ب ٢٩

قلت: وَخَرَجَهُ ابن ماجه أيضاً بمعناه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ إِلَّا [مَنْ]»^(٢) لَهُ مَنَزِلَانِ: مَنَزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنَزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ - يَعْنِي الْإِنْسَانَ - وَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنَزِلَهُ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ»^(٣) قال القرطبي في «التذكرة»^(٤): إسناده صحيح، انتهى من «التذكرة».

قال ع*^(٥): ويحتمل أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى حَصُولَهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَرِاثَةً مِنْ حَيْثُ حَصَلُوا دُونَ غَيْرِهِمْ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَحَاطَ بِحَائِطِ الْجَنَّةِ: لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَ غِرَاسَهَا بِيَدِهِ، وَقَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي، فَقَالَتْ: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» فَقَالَ: طُوبَى لَكَ! مَنَزِلُ الْمُلُوكِ»^(٦) خَرَجَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمَسْنَدِ الْمُنْتَقَبِ» لَهُ، أَنْتَهَى مِنْ «الْكُوكَبِ الدَّرِّيِّ».

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» (٧) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا

(١) ينظر: «السبعة» (٤٤٤)، و«الحجة» (٢٨٧/٥)، و«إعراب القراءات» (٨٥/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٨٧)، و«شرح الطيبة» (٧٥/٥)، و«العنوان» (١٣٦)، و«حجة القراءات» (٤٨٣)، و«شرح شعلة» (٥٠٧)، و«إتحاف» (٢/٢٨٢).

(٢) سقط في ج.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٤٥٣/٢) كتاب الزهد: باب صفة الجنة، حديث (٤٣٤١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٠/٩) رقم (٢٥٤٤١) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. قال البوصيري في «الزوائد» (٣٢٧/٣): هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩/٥)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٤) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١٦٦/١)، (٥٦٩/٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٧/٤).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (١٣٧/١) رقم (١٤٠)، وفي «الحلية» (٢٠٤/٦)، والبيهقي في «البعث» (٢٣٦) من حديث أبي سعيد الخدري.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠٠/١٠) وقال: رواه البزار مرفوعاً وموقوفاً، والطبراني في «الأوسط»، ورجال الموقوف رجال الصحيح.

مَآخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين...﴾ الآية: اختلف في قوله: «الإنسان» فقال قتادة وغيره [أراد آدم - عليه السلام -؛ لأنه استل من الطين^(١)].

وقال ابن عباس وغيره^(٢): المراد ابن آدم^(٣)، والقارار المكين من المرأة: هو موضع الولد، والمكين: الممكّن، والعَلَقَةُ: الدّم الغليظ، والمُضْعَةُ: بضعة اللحم قدر ما يُمَضَّعُ، واختلف النَّاسُ في الخلق الآخر، فقال ابن عباس^(٤) وغيره: هو نفخ الروح فيه.

وقال ابن عباس^(٥) أيضاً: هو خروجه إلى الدنيا.

وقال أيضاً^(٦): تَصَرُّفُهُ في أمور الدنيا، وقيل: هو نبات شعره.

قال *ع^(٧): وهذا التخصيص كُلُّهُ لا وجه له، وإنما هو عام في هذا وغيره: من وجوه النطق، والإدراك، وحسن المحاولة، و﴿تبارك﴾ مطاوع بارك، فكانها بمنزلة تعالى وَتَقَدَّسَ من معنى البركة.

وقوله: ﴿أحسن الخالقين﴾ معناه: الصانعين: يقال لمن صنع شيئاً: خَلَقَهُ، وذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس؛ فقال ابن جريج^(٨): إنما قال: ﴿الخالقين﴾؛ لأنه تعالى أَدْنَى لِعِيسَى في أَنْ يَخْلُقَ، واضطرب بعضهم في ذلك.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٢/٩) (٢٥٤٥٢)، وذكره ابن عطية (١٣٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.
(٢) سقط في ج.

(٣) أخرجه الطبري (٢٠٢/٩) (٢٥٤٥٤) بمعناه كما ذكره الطبري، والبغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٠/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٢٠٤/٩) (٢٥٤٥٧)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤١/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٥) أخرجه الطبري (٢٠٤/٩) (٢٥٤٦٦)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/١٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤١/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٢٠٤/٩) (٢٥٤٦٦)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤١/٣).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٣٨).

(٨) أخرجه الطبري (٢٠٥/٩) (٢٥٤٧٣)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن جريج.

قال ﴿ع^(١)﴾: ولا تُنفَى اللفظة عن البشر في معنى الصنع؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوْكَةً كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾^(٢) أي: بعد هذه الأحوال المذكورة، ويريد بالسبع الطرائق: السموات، والطرائق: كُلُّ [ما كان]^(٣) طبقات بعضها فوق بعض؛ ومنه طارقت نعلي. ويجوز أن تكون الطرائق بمعنى المبسوطات؛ من طرقت الشيء.

قلت: وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ...﴾ الآية: ظاهر الآية أنه ماء المطر، وأسند أبو بكر ابن الخطيب في أول «تاريخ»^(٤) بغداد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ: سِيحُونُ: وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ، وَجِيحُونُ: وَهُوَ نَهْرُ بَلْخَ، وَدِجَلَةُ وَالْفُرَاتُ: وَهُمَا نَهْرَا الْعِرَاقِ، وَالنَّيْلُ: وَهُوَ نَهْرُ مِصْرَ، أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُيُونِ الْجَنَّةِ مِنْ أَسْفَلِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَنَّاخِي جَبْرِيلَ، فَاسْتَوْدَعَهَا الْجِبَالَ، وَأَجْرَاهَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ فِيهَا مَنَافِعَ لِلنَّاسِ فِي أَصْنَافٍ مَّعَايِشِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرِيلَ فَرَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ الْقُرْآنَ، وَالْعِلْمَ كُلَّهُ، وَالْحَجَرَ مِنْ رُكْنِ الْبَيْتِ، وَمَقَامَ إِبْرَاهِيمَ، وَتَابَوْتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فِيهِ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ الْخَمْسَةُ، فَيَرْفَعُ ذَلِكَ / كُلُّهُ إِلَى السَّمَاءِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، فَإِذَا رُفِعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَدْ أَهْلَهَا خَيْرَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا. وفي رواية: «خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٥). انتهى، فَإِنَّ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثَ، فَلَا نَظَرَ لِأَحَدٍ مَعَهُ، وَنَقَلَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ» هَذَا الْحَدِيثَ أَيْضاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ: وَهَذَا جَائِزٌ فِي الْقُدْرَةِ إِنْ صَحَّ بِهِ الرَّوَايَةُ، انْتَهَى.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٨/٤).

(٢) سقط في جـ.

(٣) سقط في جـ.

(٤) ينظر: «تاريخ بغداد» (١/ ٥٧ - ٥٨).

(٥) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٥٧ - ٥٨) من طريق مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس.

قال ﴿ع^(١)﴾: قوله تعالى: ﴿ماء بقدر﴾ قال بعض العلماء: أراد المطر.

وقال بعضهم: إنما أراد الأنهار الأربعة سيحان^(٢) وجيحان^(٣) والفرات^(٤) والنيل^(٥).

قال ﴿ع^(٥)﴾: والصواب أن هذا كله داخل تحت الماء الذي أنزله الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لكم فيها فواكه كثيرة﴾ يحتمل: أن يعود الضمير على الجنات؛ فيشمل أنواع الفواكه، ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة؛ إذ فيهما مراتب وأنواع، والأول أعم لسائر الثمرات.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلْأَكْلَيْنِ (٢٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢٦) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ (٢٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٨) فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٩) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَاَتَّبِعُوا بِهِ ۚ حَتَّىٰ جِئَ (٣٠) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بِنَاءً ۚ (٣١)﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وشجرة﴾ عطف على قوله: ﴿جنات﴾ ويريد بها الزيتون، وهي كثيرة في طور سيناء من أرض الشام، وهو الجبل الذي كلم فيه موسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس، وغيره^(٦)، والـ ﴿طور﴾: الجبل في كلام العرب، واختلِف في ﴿سيناء﴾ فقال قتادة: معناه الحسن^(٧)، وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول جبل أحد، وقرأ الجمهور: ﴿تَنْبُتُ﴾ بفتح التاء وضم الباء، فالتقدير تنبت ومعها الدهن؛ كما تقول خرج زيد الجمهور: ﴿تَنْبُتُ﴾ بفتح التاء وضم الباء، فالتقدير تنبت ومعها الدهن؛ كما تقول خرج زيد

(١) ينظر: «المححر الوجيز» (١٣٩/٤).

(٢) (سبحان) نهر كبير بالثغر، من نواحي المضيصة، وهو نهر أدنة بين أنطاكية والروم، يمر بأدنة ثم يفصل عنها نحو ستة أميال؛ فيصب في بحر الروم.

(٣) الفرات: وهو النهر المعروف.

(٤) نيل مصر: قيل هو تعريب نيلوس، فليس في الدنيا نهر يصب من الجنوب إلى الشمال إلا هو، ولا أطول منه.

(٥) ينظر: «المححر الوجيز» (١٣٩/٤).

(٦) أخرجه الطبري (٢٠٨/٩) رقم (٢٥٤٨١)، وذكره ابن عطية (١٣٩/٤).

(٧) أخرجه الطبري (٢٠٧/٩) (٢٥٤٧٩) وذكره البغوي (٣٠٦/٣)، وابن عطية (١٣٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤/٥)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه.

بسلاحه، وقرأ ابن كثير^(١) وأبو عمرو: «تُنْبِتُ» بضم التاء [وكسر الباء]^(٢) واختُلفَ في التقدير على هذه القراءة، فقالت [فرقة: الباء زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقالت]^(٣) فرقة: التقدير تُنْبِتُ جناها ومعه الدُّهُنُ، فالمفعول محذوف، وقيل: نبت وأُنْبِتَ بمعنى؛ فيكونُ المعنى كما مضى في قراءة الجمهور، والمراد بالآية تعديدُ النعم على الإنسان، وباقي الآية يَبَيِّنُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقال المملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم... الآية: هذا ابتداء تمثيلٍ لكُفَّارِ قريش بأممٍ كفرت بأنبياؤها فأهلِكُوا، وفي ضمن ذلك الوعيدُ بأنَّ يَحُلَّ بهؤلاء نحو ما حَلَّ بأولئك، والمملأ: الأشراف، والجنَّةُ، الجنون، و﴿حتى حين﴾ معناه إلى وقت يريحكم القَدْرُ منه، ثم إن نوحاً عليه السلام دعا على قومه حين يَبْسُ منهُم، وإنَّ كان دعاؤه في هذه الآية ليس بِنَصٍّ؛ وإنَّما هو ظاهر من قوله: ﴿بِمَا كَذَبُوا﴾ فهذا يقتضي طلب العقوبة، وأمَّا النصرة بمجردِها فكانت تكون برُدِّهم إلى الإيمان.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا فَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الصَّلَاةُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْهُ مِثْلَ نَارِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾.

وقوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا فَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله في قوله: ﴿بأعيننا﴾ عبارة عن الإدراك هذا مذهبُ الحُدَّاقِ، ووقفت الشريعة على أعين وعين، ولا يجوزُ أن يُقال: عيان من حيث لم توقف الشريعة على التثنية، و﴿وحينا﴾ معناه في كيفية العمل، ووجهُ البيان لجميع حكم السفينة وما يحتاج إليه، و﴿أمرنا﴾ يحتمل أن

(١) ينظر: «السبعة» (٤٤٥)، و«الحجبة» (٢٩١/٥)، و«إعراب القراءات» (٨٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٨٨)، و«شرح الطيبة» (٧٥/٥)، و«العنوان» (١٣٦)، و«حجة القراءات» (٤٨٤)، و«شرح شعلة» (٥٠٧)، و«إتحاف» (٢٨٢/٢).

(٢) سقط في جـ.

(٣) سقط في جـ.

يكون واحد الأوامر، ويحتمل أن يريد واحد الأمور، والصحيح من الأقوال في ﴿التنور﴾ أنه تنور الخبز، وأنها أمانة كانت بين الله تعالى وبين نوح - عليه السلام -.

٣٠ ب وقوله: ﴿فأسلك﴾: معناه: فادخل؛ يقال سلك وأسلك بمعنى، وقرأ حفص / عن عاصم^(١): «مِنْ كُلِّ» بالتنوين، والباقون بغير تنوين، والزوجان: كُلُّ ما شأنه الاصطحاب من كل شيء؛ نحو: الذكر والأنثى من الحيوان، ونحو: النعال وغيرها، هذا موقع اللفظة في اللغة.

وقوله: ﴿وأهلك﴾ يريد: قرابته، ثم استثنى من سبق عليه القول بأنه كافر، وهو ابنه وإمرأته، ثم أمر نوح ألا يراجع ربه، ولا يخاطبه شافعاً في أحد من الظالمين، ثم أمر بالدعاء في بركة المنزل.

وقوله سبحانه: ﴿إن في ذلك لآيات﴾ خطاب لبني محمد ﷺ ثم أخبر سبحانه أنه يبتلي عباده الزمن بعد الزمن على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإخبار، واللام في ﴿لمبتلين﴾ لام تأكيد، و«مبتلين»: معناه: مُصِيبِينَ ببلاء، ومختبرين اختباراً يؤدي إلى ذلك.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقَوْنَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْفُتُورَةِ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلُكُمْ أَتَذْكُرُوا (٣٤) أَيْدِيكُمْ أَتَذْكُرُوا (٣٥) هَٰئِلَاتَ هَٰئِلَاتٍ لِّمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (٣٩) .

وقوله سبحانه: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾.

قال الطبري^(٢) - رحمه الله -: إن هذا القرن هم ثمود، قوم صالح.

قال ع*^(٣): وفي جُل الروايات ما يقتضي أن قوم عاد أقدم، إلا أنهم لم يهلكوا بصيحة.

(١) والمعنى على هذه القراءة: من كل شيء.

ينظر: «السبعة» (٤٤٥)، و«الحجة» (٢٩٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٨٩/٢)، و«العنوان» (١٣٦)،

و«حجة القراءات» (٤٨٦)، و«إتحاف» (٢٨٣/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢١٢/٩).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٢/٤).

قلت: وهو ظاهر ترتيب قَصَصِ القرآن أَنَّ عاداً أقدم، ﴿وَأُتْرَفْنَاهُمْ﴾ معناه نَعَّمْنَاهُمْ، وِسَطْنَا لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَزْزَاقَ وقولهم: ﴿أَيْعِدْكُمْ﴾ استفهام على جهة الاستبعاد و﴿أَنْكُمْ﴾: الثانية بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلَى عند سيبويه، وقولهم: ﴿هِيَ هِيَ هِيَ﴾ استبعاد، وهيات أحياناً تلي الفاعل دون لام، تقول هيات مجيء زيد، أي: بعد ذلك، ومنه قول جرير: [الطويل]:

فَهِيَ هِيَ هِيَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وَهِيَ هِيَ خِلٌ بِالْعَقِيقِ نَوَاصِلُهُ^(١)
وأحياناً يكون الفاعل محذوفاً، وذلك عند وجود اللام كهذه الآية، التقدير: بعد الوجود؛ لما توعدون.

قال *ص*: ورُدُّ بَأَنَّ فيه حذفَ الفاعل، وحذفَ المصدر وهو الوجود وذلك غير جائز عند البصريين، وذكر أبو البقاء: أَنَّ اللام زائدة و«ما» فاعل، أي: بعد ما توعدون.

قال أبو حيان^(٢): وهذا تفسير معنى لا إعراب؛ لَأَنَّهُ لم تَثْبُتْ مُصَدِّرِيَّةُ «هيات»، انتهى. وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أرادوا: أَنَّهُ لَا وَجُودَ لَنَا غَيْرَ هَذَا الْوُجُودِ؛ وَإِنَّمَا تَمُوتُ مِنَّا طَائِفَةٌ فَتَذْهَبُ، وتجيء طائفة جديدة، وهذا هو كُفْرُ الدَّهْرِيَّةِ.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضْهِجُنَّ نَادِمِينَ﴾ (٤١) فَلَاخَذْتَهُمُ الصَّبِيحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٢) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٣) مَا نَسِيقُ مِنَ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ (٤٤) أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٥) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٧) فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرٍ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمْ لَنَا عِذُونَ (٤٨) فَكَذَّبُوهُمْ فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٩).

وقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضْهِجُنَّ نَادِمِينَ﴾ المعنى: قال الله لهذا النَّبِيِّ الدَّاعِي: عَمَّا قَلِيلٍ يَنْدِمُ قَوْمُكَ عَلَى كُفْرِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ، ومن ذكر الصَّبِيحَةَ ذهب الطبري^(٣) إلى

(١) البيت لجرير في «ديوانه» ص ٩٦٥؛ و«الأشباه والنظائر» (١٣٣/٨)، و«الخصائص» (٤٢/٣)، و«الدرر» (٣٢٤/٥)، و«شرح التصريح» (٣١٨/١)، (١٩٩/٢)، و«شرح شواهد الإيضاح» ص ١٤٣، و«شرح المفصل» (٣٥/٤)، و«لسان العرب» (٥٥٣/١٣) (هـ)، و«المقاصد النحوية» (٧/٣)، (٣١١/٤)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (١٩٣/٢)، (٨٧/٤)، و«سمط اللآلي» ص ٣٦٩، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ص ١٠٠١.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٣٧٤/٦).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢١٢/٩).

أنهم قوم ثمود.

وقوله: ﴿بالحق﴾ أي: بما استحقوا بأفعالهم وبما حَقَّ مِنَّا في عقوبتهم، والغناء: ما يحمله السِّلُّ من زَبَدِهِ الذي لا يُتَنَفَّعُ به، فَيَسْبَهُ كُلُّ هَامِدٍ وتالف بذلك.

قال أبو حيان^(١): «وبعداً» منصوبٌ بفعل محذوف، أي: بَعُدُوا بُعْدًا، أي: هلكوا، انتهى، ثم أخبر سبحانه: إِنَّهُ أَنشَأَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ أُمَّةً كَثِيرَةً، كُلُّ أُمَّةٍ بِأَجَلٍ، وفي كتاب لا تتعدها في وجودها وعند موتها، وتترى: مصدر من تَوَاتَرَ الشيء.

وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي: في الإهلاك.

وقوله تعالى: ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ يريد أحاديث مَثَلٍ، وَقَلَّمَا يَسْتَعْمَلُ الْجَعْلُ حَدِيثًا ١٣١ إِلَّا فِي الشَّرِّ، و﴿عالين﴾ / معناه: قاصدين لِنَلْعَلُوا بِالظُّلْمِ، وقولهم: ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ معناه: خادمون متذللون، والطريق الْمُعْبَدُ الْمُذَلَّلُ، و﴿من المهلكين﴾: يريد بالغرق.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني: التوراة، و﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يريد: بني إسرائيل؛ لِأَنَّ التَّورَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَالْقِبْطِ، والرَبْوَةُ: الْمُرتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، والقَرَارُ: التَّمَكُّنُ، وَبَيَّنَّ أَنَّ مَاءَ هَذِهِ الرَبْوَةِ يَرَى مَعِينًا جَارِيًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢)، والمعين: الظاهرُ الجري للعين، فالميم زائدة، وهو الذي يُعَايِنُ جَرِيَهُ، لَا كَالْبَئْرِ وَنَحْوِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَعِنَ الْمَاءُ إِذَا كَثُرَ، وَهَذِهِ الرَبْوَةُ هِيَ الْمَوْضِعُ الَّذِي قَرَّتْ إِلَيْهِ مَرْيَمُ وَقَتَ وَضْعِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَوْضِعِ الرَبْوَةِ، فَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ^(٣): هِيَ الْعُوْطَةُ بِدِمَشْقَ وَهَذَا أَشْهُرُ الْأَقْوَالِ؛ لِأَنَّ صِفَةَ الْعُوْطَةِ أَنَّهَا ذَاتُ قَرَارٍ وَمَعِينٍ عَلَى الْكَمَالِ.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٣٧٥/٦).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٩/٩) (٢٥٥٢٣)، وذكره ابن عطية (١٤٥/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٤٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٢١٨/٩) (٢٥٥١٤)، وذكره البغوي (٣١٠/٣)، وذكره ابن عطية (١٤٥/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٦/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨/٥). وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن سعيد بن المسيب.

وقال كَعْبُ الْأَخْبَارِ^(١): الربوة بيت المقدس، وزعم أن في التوراة أن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء وأنه يزيد على الأرض ثمانية عشر ميلاً.

قال *ع^(٢): «وَيَرْجَحُ: أَنَّ الربوة في بَيْتِ لَحْمٍ من بيت المقدس؛ لِأَنَّ ولادة عيسى هنالك كانت، وحيثُ كان الإيواء، وقال ابن العربي في «أحكامه»: اختلف الناس في تعيين هذه الربوة على أقوال منها: ما تُفسَّر لغةً ومنها: ما تُفسَّر نقلاً، فيفتقر إلى صحة سنده إلى النبي ﷺ، إلا أن ها هنا نُكْتَتُهُ، وذلك أنه إذا نُقِلَ لِلنَّاسِ نُقْلٌ تَوَاتَرَ أَنَّ هذا موضعُ كذا، وأنَّ هذا الأمرُ جرى كذا - وقع العلم به، وَلَزِمَ قبوله، لِأَنَّ الخبر المتواتر ليس من شرطه الإيمان، وخبر الآحاد لا بدُّ من كون المُخْبِر به بصفة الإيمان؛ لِأَنَّهُ بمنزلة الشاهد، والخبر المتواتر بمنزلة العيان، وقد بيَّنا ذلك في «أصول الفقه»^(٣)، والذي شاهدتُ عليه الناس ورأيتهم يعينونه تعيين تواتر - مَوْضِع في سفح الجبل في غربي دمشق، انتهى، وما ذكره: من أنَّ التواتر ليس من شرطه الإيمان هذا هو الصحيح، وفيه خلاف إلا أننا لا نُسلم أنَّ هذا متواتر؛ لاختلال شرطه، انظر «المتهى» لابن الحاجب.

﴿يَأْتِيَا الرُّسُلَ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ وَآلَةُ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْهَرَهُ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فِئُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَصْرَتِهِمْ حَتَّى جَاءَ ﴿٥٤﴾ أَحْسَبُونَ أَنَّمَا يُنذِرُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ سَاعٍ لَهُمْ فِي الْحَيَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقِفُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتَوْنَ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

- (١) أخرجه الطبري (٢١٩/٩) (٢٥٥١٨)، وذكره البغوي (٣/٣١٠)، وابن عطية (٤/١٤٥).
- (٢) ينظر: «المحور الوجيز» (٤/١٤٥).
- (٣) ينظر: الكلام عن المتواتر في «البحر المحيط» للزركشي (٤/٢٣١)، «البرهان» لإمام الحرمين (١/٥٦٦)، «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدني (٢/١٤)، «نهاية السؤل» للإسني (٣/٥٤)، «منهاج العقول» للبدخشي (٢/٢٩٦)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٩٥)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٢/٩٥)، «المنخول» للغزالي (٢٣١)، «المستصفى» له (١/١٣٢)، «حاشية البناني» (٢/١١٩)، «الإبهاج» لابن السبكي (٢/٢٦٣)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٣/٢٠٦)، «حاشية المطار على جمع الجوامع» (٢/١٤٧)، «المعتمد» لأبي الحسين (٢/٨٦)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (١/١٠١)، «تيسير التحرير» لأمير بادشاه (٣/٢٣٢)، «كشف الأسرار» للنسفي (٢/٤)، «شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (٢/٣)، «شرح المنار» لابن ملك (٧٨)، «ميزان الأصول» للسمرقندي (٢/٦٢٧)، «تقريب الوصول» لابن جزي (١١٩)، «إرشاد الفحول» للشوكاني (٤٦).

وقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون معناه: وقلنا يا أيها الرسل، وقالت فرقة: الخطاب بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الرسل﴾ للنبي ﷺ.

قال *ع^(١): * والوجه في هذا أن يكون الخطاب للنبي ﷺ، وخرج بهذه الصيغة، لِيُفْهَمَ وجيزاً أن المقالة قد خُوطِبَ بها كُلُّ نَبِيٍّ، أو هي طريقَتُهُم التي ينبغي لهم الكون عليها؛ كما تقول لعالم: يا علماء إنَّكُمْ أَئِمَّةٌ يُفْتَدَى بِكُمْ؛ فتمسكوا بعلمكم، وقال الطبري^(٢): الخطاب لعيسى - عليه السلام -.

قلت: والصحيح في تأويل الآية: أنه أمر للمُرْسَلِينَ كما هو نص صريح في الحديث الصحيح؛ فلا معنى للتردد في ذلك، وقد روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ / [المؤمنون: الآية ٥١]. وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ [حرام]^(٣) وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟!«^(٤) اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، وهذه الآية تُقَوِّي أن قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرسل﴾ إنما هو مخاطبة لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم، وإذا قُدِّرَتْ: ﴿يَأَيُّهَا الرسل﴾ مخاطبة للنبي ﷺ - قَلَبَ اتصال هذه واتصال قوله: ﴿فتقطعوا﴾، ومعنى الأُمَّة هنا: المِلَّةُ والشرعية، والإشارة بهذه إلى الحنيفية السمحة مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام، وهو دين الإسلام.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٦/٤).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٢٠/٩).

(٣) سقط في جـ.

(٤) أخرجه مسلم (٧٠٣/٢) كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث (١٠١٥/٦٥)، والترمذي (٢٢٠/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة، حديث (٢٩٨٩)، والدارمي (٣٠٠/٢)، وأحمد (٣٢٨/٢) كلهم من طريق الفضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وإنما نعرفه من حديث فضيل بن مرزوق.

وقوله سبحانه: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ يريد الأمم، أي: افترقوا، وليس بفعل مُطَاوَع؛ كما تقول: تقطع الثوب؛ بل هو فعل مُتَعَدٍّ بمعنى قطعوا، وقرأ نافع^(١): «زُبْرًا» جمع زبور، وهذه القراءة تحتمل معنيين:

أحدهما: أَنَّ الْأُمَمَ تنازعت كتباً مُنَزَّلَةً فَاتَّبَعَتْ فرقة الصُّحُفَ، وفرقة التوراة، وفرقة الإنجيل، ثم حَرَفَ الْكُلُّ وَبَدَّلَ، وهذا قول قتادة^(٢) - والثاني: أَنَّهُمْ تنازعوا أمرهم كتباً وضعوها وضلالةً أَلْفَوْهَا؛ قاله ابن زيد^(٣)، وقرأ أبو عمرو^(٤) بخلاف: «زُبْرًا» بضم الزاي وفتح الباء، ومعناها: فرقاً كزبر الحديد، ومن حيث كان ذكرُ الأمم في هذه الآية مثلاً لقريش - خاطب الله سبحانه نبيّه محمداً ﷺ في شأنهم مُتَّصِلاً بقوله: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أي: فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة مَنْ تقدم، والغمرة: ما عَمَّهُمْ من ضلالهم وفعل بهم فعل الماء الغمر بما حصل فيه، والخيرات هنا نِعَمُ الدنيا.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ...﴾ الآية: أسند الطبري^(٥) عن عائشة أنها قالت: قلت: يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أهى في الذي يَزْنِي وَيَسْرِقُ؟ قال: «لا، يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، بَلْ هِيَ فِي الرَّجُلِ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَقَلْبُهُ وَجَلٌ، يَخَافُ أَلَّا يَتَقَبَّلَ مِنْهُ»^(٦).

-
- (١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٧/٤).
- (٢) أخرجه الطبري (٢٢١/٩) برقم (٢٥٥٣٣) وذكره البغوي (٣/٣١١)، وابن عطية (٤/١٤٧)، والسيوطي (٥/٢٠)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة بنحوه.
- (٣) أخرجه الطبري (٢٢٢/٩) برقم (٢٥٥٣٧)، وذكره ابن عطية (٤/١٤٧)، والسيوطي (٥/٢٠)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه.
- (٤) ينظر: مصادر القراءة السابقة.
- (٥) ينظر: «الطبري» (٢٢٥/٩) رقم (٢٥٥٦٢).
- (٦) أخرجه الترمذي (٥/٣٢٧-٣٢٨) كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنين، حديث (٣١٧٥)، وابن ماجه (٢/١٤٠٤) كتاب الزهد: باب التوقي على العمل، حديث (٤١٩٨)، وأحمد (٦/١٥٩، ٢٠٥)، والطبري في «تفسيره» (٩/٢٢٥) رقم (٢٥٥٦٠)، والحاكم (٢/٣٩٤-٣٩٣) كلهم من طريق مالك بن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة به.
- وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢١)، وزاد نسبه إلى القرطبي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «نعت الخائفين»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

قال *ع^(١): ولا نظَرَ مع الحديث، والوَجَلُ: نحو الإشفاق والخوف، وصورة هذا الوجَلِ إمَّا الْمُخَلَّطُ؛ فينبغي أن يكونَ أبدأً تحت خوف من أن يكونَ ينفذ عليه الوعيد بتخليطه، وإمَّا التَّقْيُّ أو التائب، فخوفه أمر الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت، وفي قوله تعالى: ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾: تنبيهٌ على الخاتمة، وقال الحسن: معناه الذين يفعلون ما يفعلون من البرِّ، ويخافون ألا يُنَجِّيَهُمْ ذلك من عذاب ربِّهم^(٢)، وهذه عبارة حسنة، ورُوِيَ عن الحسنِ أيضاً أنه قال: المؤمن يجمع إحساناً وشفقةً، والمنافق يجمع إساءةً وأمناً^(٣).

قلت: ولهذا الخطب العظيم أطال الأولياء في هذه الدار حُزْنَهُمْ وأجروا على الوجنات^(٤) مدامعهم.

قال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا سفيان قال: إنما الحُزْنُ على قَدْرِ البصيرة^(٥).

قال ابن المبارك: وأخبرنا مالك بن مغول عن رجل عن الحسن قال: ما عُبدَ الله بمثل طُولِ الحُزْنِ^(٦)، وقال ابن المبارك أيضاً: أخبرنا مسعر عن عبد الأعلى التميمي قال: إِنَّ مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُنْكِيهِ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِيَ علماً ينفعه؛ لأنَّ الله تعالى نَعَتَ العلماء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ / إلى قوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾^(٧) [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]. انتهى.

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يظَلُمُونَ ﴿١٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ ﴿١٤﴾ لَا يَخْرُجُوا الْيَوْمَ إِنْكُرْنَا لَا نُصْرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٨/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٤/٩) برقم (٢٥٥٤٧)، وذكره البغوي (٣/٣١١)، وابن عطية (١٤٨/٤)، والسيوطي (٢٢/٥)، وعزاه لابن المبارك في «الزهد»، وعبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري (٢٢٤/٩) برقم (٢٥٥٤٩)، وذكره ابن عطية (١٤٨/٤)، والسيوطي (٢١/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن.

(٤) الوجنة: ما ارتفع من الخدين بين الصُّدْغَيْنِ وكففي الأنف.

ينظر: «لسان العرب» (٤٧٧٤).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤٢) رقم (١٢٨).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤١) رقم (١٢٦).

(٧) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤١) رقم (١٢٥).

وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: إليها سابقون، وهذا قول بعضهم في قوله: ﴿لَهَا﴾، وقالت فرقة: معناه وهم من أجلها سابقون، وقال الطبري عن ابن عباس: المعنى: سبقَتْ لهم السعادة في الأزل؛ فهم لها^(١)، وَرَجَّحَهُ الطبري^(٢) بأنَّ اللام متمكنة في المعنى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أظهر ما قيل فيه أنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة، وقيل: الإشارة إلى القرآن، والأول أظهر.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اخْتَلَفَ في الإشارة بقوله: ﴿مِنْ هَذَا﴾ هل هي: إلى القرآن، أو إلى كتاب الإحصاء، أو إلى الدين بجمليته، أو إلى النبي ﷺ؟ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أي: من الفساد ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: في الحال والاستقبال، والمُتَرَفُّ: الْمُتَعَمِّمُ في الدنيا، الذي هو منها في سَرْفٍ، ﴿وَيَجْأُرُونَ﴾ معناه: يستغيثون بصياح كصياح البقر، وكَثُرَ استعمال الجُؤَار في البَشَر؛ ومنه قول الأعشى: [المقارب]

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِكِ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا^(٣)
وقال ص*ص*: جأر الرجل إلى الله تعالى، أي: تَضَرَّعَ؛ قاله الحوفي، انتهى، وذهب مجاهد وغيره إلى أنَّ هذا العذاب المذكور هو الوعيد بيوم بذر^(٤)، وقيل: غير هذا.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَجْرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم يوم العذاب: لا تجأروا اليوم.

﴿فَدَكَانَتْ عَيْنَايَ ثُلَاثًا عَلَيَّكُمْ فَكُنْتُ عَلَى أَغْقَلِكُمْ نَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا

(١) أخرجه الطبري (٢٢٦/٩) برقم (٢٥٥٦٥)، وذكره البغوي (٣/٣١٢)، وذكره ابن عطية (٤/١٤٨)، والسيوطي (٥/٢٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: الطبري (٩/٢٢٦).

(٣) في «ديوانه» (٧٦) وينظر البيت في «تفسير الطبري» (٢/١٠٥)، والصاحبي (٨٤)، و«البحر المحيط» (٥/٥٠٠)، و«روح المعاني» (١٤/١٦٥)، و«الدر المصون» (٤/٣٣٦).

(٤) أخرجه الطبري (٩/٢٢٨، ٢٢٩) برقم (٢٥٥٨١) عن مجاهد، وبرقم (٢٥٥٨٣) عن ابن جريج، وبرقم (٢٥٥٨٤) عن الضحاك، وذكره ابن عطية (٤/١٤٩)، والسيوطي (٥/٢٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، وعزاه أيضاً للنسائي عن ابن عباس.

وعزاه أيضاً لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد عن سعيد بن جبير.

تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ الْآيَاتُ فَهُمْ لَا يَحْقُقُونَ ﴿٧٠﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ الْأُولَىٰ وَمَنْ فِيهِمْ بَلَّ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ قَتَلْتَهُمْ خَيْرًا فَخَرَّاجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَأُ فِي طُغْيَانِهِمْ بِعَمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُونَهُ ﴿٧٦﴾.

وقوله: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ يعني القرآن و﴿تنكصون﴾ معناه: ترجعون وراءكم، وهذه استعارة للإعراض والإدبار عن الحق و﴿مستكبرين﴾ حال والضمير في ﴿به﴾: عائد على الحرم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكر؛ لشهرته، والمعنى: إنكم تعتقدون في نفوسكم أن لكم بالمسجد الحرام أعظم الحقوق على الناس والمنزلة عند الله، فأنتم تستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق.

وقالت فرقة: الضمير عائد على القرآن والمعنى: يُخَدِّثُ لَكُمْ سَمَاعُ آيَاتِي كِبَرًا وَطُغْيَانًا، وهذا قولٌ جيّدٌ، وذكر منذر بن سعيد: أن الضمير للنبي ﷺ وهو متعلّق بما بعده، كأن الكلام تمّ في قوله: ﴿مستكبرين﴾ ثم قال: بمحمد عليه السلام سامراً تهجرون، و﴿سامراً﴾ حال، وهو مفرد بمعنى الجمع؛ يقال: قوم سَمَرٌ وَسَمَرَةٌ وَسَامِرٌ، ومعناه: سَهْرٌ الليل مأخوذ من السَمَر وهو ما يقع على الأشخاص من ضوء القمر، وكانت العرب تجلس للسمر تتحدث وهذا أَوْجَبُ معرفتها بالنجوم؛ لأنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع من الغوارب، وقرأ أبو^(١) رجاء: «سَمَاراً» وقرأ ابن عباس^(٢) وغيره: «سمرا» وكانت قریش تَسْمُرُ حول الكعبة في أباطيلها وكفرها، وقرأ السبعة^(٣) غير نافع: «تَهْجُرُونَ» بفتح التاء

(١) وقرأ بها ابن عباس، وأبو رجاء، وأبو نهيك، وزيد بن علي. قال أبو الفتح: فهذا ك: كاتب وكتاب، وشارب وشراب.

ينظر: «الشواذ» (١٠٠)، و«المحتسب» (٩٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٥٠/٤)، و«البحر المحيط» (٣٨١/٦)، و«الدر المصون» (١٩٦/٥).

(٢) وقرأ بها ابن مسعود، وأبو حيوة، وعكرمة، وابن محيصن، والزعفراني، ومحبوب عن أبي عمرو. ينظر مصادر القراءة السابقة.

(٣) ينظر: «الحجة» (٢٩٨/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٢/٢)، و«معاني القراءات» (١٩٢/٢)، و«العنوان» (١٣٧)، و«شرح الطيبة» (٧٧/٥)، و«حجة القراءات» (٤٨٩)، و«شرح شعلة» (٥٠٨)، و«إتحاف» (٢/٢٨٦).

وضم الجيم؛ قال ابن عباس^(١) معناه: تهجرون الحقَّ وذكَّر الله، وتقطعونه؛ من الهجران المعروف، وقال ابن زيد^(٢): هو من هجر المريض: إذا هذى، أي: تقولون اللغو من القول؛ وقاله أبو حاتم، وقرأ نافع وحده: «تُهَجِّرُونَ» بضم التاء وكسر الجيم وهي قراءة أهل المدينة، ومعناه: تقولون الفُحْشَ والهجر من القول، وهذه إشارة إلى سَبِّهِمُ النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه؛ قال ابن عباس^(٣) أيضاً وغيره، ثم وبخهم سبحانه بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ لأنهم بعد التدبر والنظر الفاسد / قال بعضهم: سَخِرَ وغير ذلك، أم ٣٢ ب جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين أي: ليس يبدع بل قد جاء آباءهم الأولين، وهم سالف الأمم الرُّسُلُ؛ كنوح، وإبراهيم، وإسماعيل وغيرهم، وفي هذا التأويل من التَّجَوُّزِ أَنَّ جَعَلَ سالف الأمم، آباء؛ إذ الناس في الجملة آخِرُهُم من أوليهم.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ المعنى: أَلَمْ يَعْرِفُوا صَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ مَدَّةَ عَمْرِهِ ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

قال ابن جريج^(٤)، وأبو صالح: الحقُّ: الله تعالى.

قال *ع^(٥): * وهذا ليس من نَمَطِ الآية، وقال غيرهما: الحق هنا: الصواب والمستقيم.

قال *ع^(٦): * وهذا هو الأخرى، ويستقيم على هذا فساد السموات والأرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء؛ وذلك أَنَّهُمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَأَوْلَاداً، ولو كان هذا حَقًّا لم تكن لله عز وجل الصفاتُ العَلِيَّةُ، ولو لم تكن له سبحانه - لم تكن الصَّنَعَةُ، ولا الْقُدْرَةُ كما هي، وكان ذلك فساد السموات والأرض ومن فيهن: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

(١) أخرجه الطبري (٢٣١/٩) برقم (٢٥٦٠٨)، وذكره ابن عطية (١٥٠/٤)، والسيوطي (٢٤/٥)، وعزاه للطستي عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٢/٩) برقم (٢٥٦١٤)، وذكره ابن عطية (١٥٠/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣٢/٩) برقم (٢٥٦١٥)، وذكره ابن عطية (١٥٠/٤)، والسيوطي (٢٤/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٢٣٤/٩) برقم (٢٥٦٢٣) عن أبي صالح، وبرقم (٢٥٦٢٥) عن ابن جريج، وذكره البيهقي (٣١٣/٣)، وابن عطية (١٥١/٤)، وابن كثير (٢٥٠/٣) والسيوطي (٢٥/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥١/٤).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥١/٤).

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ قال ابن عباس^(١): بوعظهم، ويحتمل: بشرفهم، وهو مزوي.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ الخَرْجُ والخراج بمعنى، وهو: المال الذي يُجَبَى وَيُؤْتَى به لأوقات محدودة.

وقوله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ﴾ يريد ثوابه، ويحتمل أن يريد بخراج ربك: رِزْقَه، وَيُؤَيِّدُه قوله: ﴿وهو خير الرازقين﴾.

و«الصرط المستقيم» دين الإسلام، «وناكبون»: أي: مجادلون ومُغْرِضُونَ، وقال البخاري: ﴿لَنَاكِبُونَ﴾: لعادلون، انتهى.

قال أبو حيان^(٢): يقال: نكب عن الطريق وَنَكَبَ بالتشديد، أي: عَدَلَ عنه، انتهى، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لو زال عنهم الْقَحْطُ، وَمَنَّ اللَّهُ عليهم بالخصب، وَرَجَمَهُمْ بذلك - لبقوا على كفرهم وَلَجُّوا في طغيانهم، وهذه الآية نزلت في الْمُدَّة التي أصاب فيها قريشاً السُّتُونُ الْجَذْبَةُ وَالْجُوعُ الذي دعا به النبي ﷺ في قوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»^(٣) الحديث.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، قال ابن عباس وغيره^(٤): هو الجوعُ وَالْجَذْبُ حَتَّى أَكَلُوا الجلود وما جرى مجراها، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ لما بلغهم الْجَهْدُ رَكِبَ أَبُو سَفِيان، وجاء إلى النبي ﷺ بالمدينة فقال: يا محمد، أَلَسْتُ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ؟ قال: بلى، قَالَ: قَدْ قَتَلْتُ الْأَبَاءَ بِالسَّيْفِ، وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، وَقَدْ أَكَلْنَا الْعِلْهَ^(٥)؛ فنزلت^(٦) الآية،

(١) أخرجه الطبري (٢٣٤/٩) برقم (٢٥٦٢٦)، وذكره البغوي (٣/٣١٤)، وابن عطية (٤/١٥١)، والسيوطي (٥/٢٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٦/٣٨٣).

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه الطبري (٩/٢٣٥) برقم (٢٥٦٣٢)، وذكره ابن عطية (٤/١٥٢).

(٥) الْعِلْهُ: وَبَرٌّ يُخْلَطُ بدماء الْحَلَمِ، كانت العرب تأكله في الجاهلية؛ تأكله في الجذب.

(٦) أخرجه النسائي في «التفسير» (٢/٩٨-٩٩) رقم (٣٧٢)، والطبري في «تفسيره» (٩/٢٣٥-٢٣٦) رقم (٢٥٦٣٢)، وابن حبان (١٧٥٣-موارد)، والطبراني (١١/٣٧٠) رقم (١٢٠٣٨)، والحاكم (٢/٣٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٩٠-٩١) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

وصححه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢٦)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

﴿استكانوا﴾ معناه: تواضعوا وانخفضوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لِمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد...﴾ الآية توعّد بعذاب غير مُعَيَّن، وهذا هو الصواب، وهذه المَجَاعَةُ إِنَّمَا كانت بعد وقعة بدر، والمُبْلِسُ الذي قد نزل به شَرٌّ وَيُسِسُ من زواله ونَسْخِهِ بخير، ثم ابتدأ تعالى بتعديد نِعَمٍ في نفس تعديدها استدلالاً بها على عِظَم قدرته سبحانه، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار...﴾ الآية، أنشأ بمعنى: اخترع، والأفئدة: القلوب، وذراً: بَثَّ وخلق.

وقوله: ﴿بل﴾ إضراب، والجَحْدُ قبله مُقَدَّر / كأنه قال: ليس لهم نظر في هذه ١٣٣ الآيات أو نحو هذا، و﴿الأولون﴾: يشير به إلى الأمم الكافرة: كعاد وثمود.

وقوله تعالى: ﴿لقد وعدنا نحن وءابؤنا هذا من قبل...﴾ الآية، قولهم: ﴿وءابؤنا﴾ إِن حُكِيَ المقالة عن العرب فمراؤهم مِّن سَلَفٍ من العالم، جعلوهم آباءً من حيث النوع واحد، وكونهم سلفاً، وفيه تَجَوُّزٌ، وَإِن حُكِيَ ذلك عن الأولين فالأمر مستقيم فيهم.

﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَكَاتِ السَّجِيعِ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِصُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن يَبْدَأُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنشَأْنَاهُم بِالْحَقِّ وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأَنَّى تسحرون * أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام بتوقيفهم على هذه الأشياء التي لا

يمكنهم إلا الإقرار بها، ويلزم من الإقرار [بها] ^(١) توحيد الله وإدعانهم لشرعه ورسالة رسله، وقرأ الجميع ^(٢) في الأول: «الله» بلا خلاف، واختلف في الثاني والثالث، فقرأ أبو عمرو وحده: «الله» جواباً على اللفظ، وقرأ باقي السبعة: «الله» جواباً على المعنى، كأنه قال في السؤال: لمن ملك السموات السبع؟

وقوله سبحانه: ﴿فَأَنىٰ تَسْحَرُونَ﴾ استعارة وتشبيه لما وقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها ما يقع من المسحور؛ عبّر عنهم بذلك.

وقالت فرقة: ﴿تَسْحَرُونَ﴾ معناه: تمنعون، وحكى بعضهم ذلك لغة، والإجارة: المنع، والمعنى: أن الله تعالى إذا أراد منع أحد فلا يقدر عليه، وإذا أراد أخذه فلا مانع له.

وقوله سبحانه: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي: فيما ذكره من الصاحبة، والولد، والشريك، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وفي قوله سبحانه: ﴿وما كان معه من إله﴾ [الآية] ^(٣). دليل [التمانع] ^(٤) وهذا هو الفساد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. [الأنبياء: الآية ٢٢]. والجزء المخترع محال أن تتعلّق به قدرتان فصاعداً، وقد تقدم الكلام على هذا الدليل؛ فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿إِذَا﴾ جوابٌ لمحذوف تقديره: لو كان معه [إله] ^(٥) إذا ذهب.

﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِنَّمَا نُرِيِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَّكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَنَدِرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِأَلَمِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر اتفاق الجميع على هذا الحرف، واختلافهم في الثاني والثالث، يعني في قوله تعالى «الله» من الآيتين (٨٧)، (٨٩) - في: «السبعة» (٤٤٧)، و«الحجة» (٣٠٠/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٣/٢)، و«معاني القراءات» (١٩٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٧٨/٥)، و«العنوان» (١٣٧)، و«حجة القراءات» (٤٩٠)، و«شرح شعلة» (٥٠٩)، و«تحاف» (٢٨٧/٢).

(٣) سقط في ج.

(٤) سقط في ج.

(٥) سقط في ج.

وقوله: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ المعنى: هو عالم الغيب، وقرأ أبو عمرو^(١) وغيره: «عَالِمٍ» بالجر؛ اتباعاً للمكتوبة.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُونَ مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَمَرَ اللَّهُ تعالى نبيه - عليه السلام - أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظلمة إن كان قُضِيَ أن يرى ذلك، «وإن» شرطية و«ما» زائدة و«تريني» جزم بالشرط لزمته النون الثقيلة وهي لا تُفَارِقُ، «إمّا» عند المُبرِّد، ويجوزُ عند سيويه أن تفارقَ، ولكن استعمال القرآن لزومها، فمن هنالك ألزمه المبرد، وهذا الدعاء فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأمر المعذب من أجله، ثم نظيره لسائر الأُمّة دُعَاءٌ في حسن الخاتمة، وقوله ثانياً: «رب» اعتراض بين الشرط وجوابه.

وقوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أَمَرَ بالصفح ومكارم الأخلاق، وما كان منها لهذا فهو مُحَكَّمٌ باقٍ في الأُمّة أبداً، وما كان بمعنى المودعة فمنسوخ بآية القتال. وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يقتضي أنها آية مُوَادَعَةٍ.

وقال مجاهد^(٢): الدفع بالتي هي أحسن: هو السلام، تُسَلِّمُ عليه إذا لَقِيْتَهُ.

وقال الحسن^(٣): واللّه لا يُصِيبُهَا / أَحَدٌ حَتَّى يَكْظِمَ غِيظَهُ، وَيَصْفَحَ عَمَّا يَكْرَهُ، وفي ٣٣ ب الآية عِدَّةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أي: اشتغل أنت بهذا وكل أمرهم إلينا، ثم أمره سبحانه بالتَعَوُّذِ من همزات الشياطين، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه؛ وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكُفَّار فتقع المجادلة، ولذلك اتَّصَلَتْ بهذه الآية، وقال ابن زيد: هَمَزُ الشَّيْطَانِ: الْجَنُونُ^(٤)، وفي «مُصَنَّفِ أَبِي دَاوُدَ»: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ: هَمَزِهِ، وَنَفَخِهِ، وَنَفَثِهِ»^(٥). قال أبو داود: همزه: المَوْتَةُ، ونفخه:

- (١) وقرأ بها ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم.
- ينظر: «السبعة» (٤٤٧)، و«الحجة» (٣٠١/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٤/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٩٥)، و«شرح الطيبة» (٧٩/٥)، و«شرح شُعَلَة» (٥٠٩) و«حجة القراءات» (٤٩١)، و«إتحاف» (٢/٢٨٧).
- (٢) أخرجه الطبري (٢٤١/٩) رقم (٢٥٦٤٥)، وذكره ابن عطية (١٥٥/٤).
- (٣) أخرجه الطبري (٢٤١/٩) رقم (٢٥٦٤٧)، وذكره ابن عطية (١٥٥/٤).
- (٤) أخرجه الطبري (٢٤٢/٩) برقم (٢٥٦٤٨)، وذكره ابن عطية (١٥٥/٤)، والسيوطي (٢٨/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد.
- (٥) أخرجه أبو داود (٢٦٢-٢٦٣) كتاب الصلاة: باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، حديث (٧٦٤)، وابن ماجه (٢٦٥/١) كتاب الصلاة: باب الاستعاذة في الصلاة، حديث (٨٠٧)، وأحمد (٨٥/٤) من حديث جبير بن مطعم.

الكِبَرُ، وَنَفَقَةُ: السحر.

قال ﴿ع^(١)﴾: * وَالزَّرَعَاتِ وَسُورَاتِ الْغَضَبِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَهِيَ الْمُتَعَوِّذُ مِنْهَا فِي الْآيَةِ، وَأَصْلُ الْهَمْزِ: الدَّفْعُ وَالْوَكْرُ بِيَدٍ أَوْ غَيْرِهَا.

قلت: قال صاحب «سلاح المؤمن»: وَهَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ: خَطَرَاتُهَا الَّتِي تَخْطُرُهَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ، انْتَهَى.

وقال الواحدي: همزات الشياطين: نَزَعَاتُهَا وَوَسَاوِسُهَا، انْتَهَى.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلَفَحَ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِخْوَنِ ﴿١٠٤﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ﴿حَتَّى﴾ في هذا الموضع حَزَفُ ابتداء، والضمير في قوله: ﴿أَحَدَهُمُ﴾ للكفار، وقوله: ﴿ارْجِعُونِ﴾ أي: إلى الحياة الدنيا، والنون في: ﴿ارْجِعُونِ﴾: نونُ الْعِظَمَةِ؛ وقال النبي ﷺ لعائشة: «إِذَا عَابَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَوْتَ، قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: تُرْجِعُكَ؟» فيقول: إِلَى دَارِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ؟ بَلْ قُدِّمًا إِلَى اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَيَقُولُ: ﴿ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ ﴿٢﴾.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾: رَدٌّ وَزَجْرٌ.

وقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ تحتمل ثلاثة معاني:

أحدها: الإخبار المؤكَّد بأنَّ هذا الشيء يقع، ويقول هذه الكلمة.

الثاني: أن يكون المعنى: إِنَّهَا كَلِمَةٌ لَا تُغْنِي أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ يَقُولُهَا، وَلَا نَفْعَ لَهُ فِيهَا وَلَا غَوْثٌ - الثالث: أن يكون إشارةً إِلَى أَنَّهُ لَوْ رُدَّ لِعَادَ، والضمير في: ﴿وَرَائِهِمْ﴾ للكفار، والبرزخ في كلام العرب: الحاجز بين المسافتين، ثم يُسْتَعَارَ لما عدا ذلك، وهو هنا: لِلْمُدَّةِ الَّتِي بَيْنَ مَوْتِ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ بَعْثِهِ؛ هذا إجماعٌ من المفسرين.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٥/٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٢/٩) رقم (٢٥٦٥٢) عن ابن جريج قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة، فذكره.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩/٥)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ...﴾ الآية: قال ابن مسعود^(١) وغيره: هذا عند النفخة الثانية وقيام الناس من القبور؛ فهم حينئذٍ لهول المَطْلَعِ واشتغال كل امرئ بنفسه قد انقطعت بينهم الوسائل، وزال انتفاع الأنساب؛ فلذلك نفاها سبحانه، والمعنى: فلا أنساب نافعة، ورؤي عن قتادة أنه: ليس أحد أبغض إلى الإنسان في ذلك اليوم ممن يعرف، لأنه يخاف أن يكون له عنده مظلمة^(٢)، وفي ذلك اليوم يفر المرء من أخيه؛ وأمه وأبيه؛ وصاحبه وبنيه، ويفرح كل أحد يومئذ أن يكون له حق على ابنه وأبيه، وقد ورد بهذا حديث، وكأن ارتفاع التساؤل لهذه الوجوه، ثم تأتي في القيامة مواطن يكون فيها السؤال والتعارف.

قال ع^(٣): * وهذا التأويل حسن، وهو مروى المعنى عن ابن عباس^(٤)، وذكر البراء من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالْمِيزَانِ، فَيُؤْتَى بِأَبْنِ آدَمَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كَفَّتَيِ الْمِيزَانِ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ، نَادَى / الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ الْخَلَائِقُ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَ مِيزَانُهُ، نَادَى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ الْخَلَائِقُ: شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْعُدُ بَعْدَهَا أَبَدًا^(٥)»، انتهى من «العاقبة». وروى أبو داود في «سننه» عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يُبْكِيكِ؟ قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ، فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا، عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَغْلَمَ: أَيْخَفُ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حَتَّى يَقُولَ: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ﴾ [الحاقة: ١٩]، حَتَّى يَغْلَمَ أَيْنَ يُعْطَى كِتَابُهُ: أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ، أَمْ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصُّرَاطِ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ^(٦)»، انتهى. ولفح النار: إصابتها بالوهج والإحراق، والكلوح انكشاف الشفتين عن الأسنان، وقد شبه ابن

(١) أخرجه الطبري (٢٤٤/٩) برقم (٢٥٦٦٩) نحوه، وذكره البغوي (٣/٣١٧)، وابن عطية (٣/١٥٦)، والسيوطي (٥/٣٠)، وعزاه لابن المبارك في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الحلية»، وابن عساكر عن ابن مسعود بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٥/٩) برقم (٢٥٦٧١)، وذكره ابن عطية (٤/١٥٦)، والسيوطي (٥/٣٠)، وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٥٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٤٤/٩) برقم (٢٥٦٦٧) نحوه، وذكره البغوي (٣/٣١٧)، وابن عطية (٤/١٥٦).

(٥) أخرجه البراء (٣٤٤٥ - كشف) من حديث أنس بن مالك، وذكره الهيثمي (١٠/٣٥٣) وقال: رواه البراء، وفيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه.

(٦) أخرجه أبو داود (٢/٦٥٤) كتاب السنة: باب في ذكر الميزان، حديث (٤٧٥٥).

مسعود ما في الآية بما يعتري رؤوس الكِبَاشِ إذا شيطت بالنار؛ فإنَّها تكلح، ومنه كلوح الكلب والأسد^(١).

قلت: وفي «الترمذي» عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: ﴿وهم فيها كالحن﴾ قال: تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلع وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة...^(٢) الحديث قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، انتهى.

وهذا هو المَعْوَل عليه في فهم الآية، وأمّا قول البخاري: ﴿كالحن﴾^(٣) معناه: عابسون - فغير ظاهر، ولعله لم يقف على الحديث.

﴿أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَنَلِّي عَلَيَّكُمْ فَكَثُرَ بِهَا تَكْذُوبُ﴾ (١٥٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٥٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألم تكن آتيتي﴾ أي: يقال لهم، والآيات هنا القرآن، وقرأ حمزة: «شَقَاوُنَا» ثم وقع جواب رغبتهم بحسب ما حتمه الله من عذابهم بقوله: ﴿اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾ ويقال: إنَّ هذه الكلمة إذا سمعوها يسوا من كل خير، فتنطبق عليهم جهنم، ويقع اليأس - عافانا الله من عذابه بمتنه وكرمه!

وقوله: ﴿اخسأوا﴾ زجر، وهو مستعمل في زجر الكلاب.

﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥٩)

(١) أخرجه الطبري (٢٤٦/٩) برقم (٢٥٦٧٥)، وذكره ابن عطية (١٥٧/٤)، والسيوطي (٣١/٥) وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه الترمذي (٧٠٨/٤) كتاب صفة جهنم: باب ما جاء في صفة طعام أهل النار، حديث (٢٥٨٧)، وفي (٣٢٨/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنين، حديث (٣١٧٦)، وأحمد (٨/٣)، والحاكم (٢/٣٩٥)، وأبو يعلى (٥١٦/٢) رقم (١٣٦٧) كلهم من طريق ابن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد البخدي مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣١/٥)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية».

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٩/٨) كتاب التفسير: باب سورة المؤمنين.

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٥﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٦﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلَّ الْعَادِينَ ﴿١١٨﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٢٠﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٢١﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢٣﴾

وقوله عز وجل: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا ءامنا...﴾ الآية الهاء في ﴿إنه﴾: مُبْهَمَةٌ: وهي ضمير الأمر والشأن، والفريق المُشَارُ إليه: كُلُّ مُسْتَضْعَفٍ من المؤمنين يَتَّفِقُ أن تكون حاله مع كُفَّارٍ مِثْلَ هذه الحال، ونزلت الآية في كُفَّارٍ قريشٍ مع ضُهَيْبٍ، وعَمَّارٍ، وبلالٍ، ونظرائهم، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديماً وبقية الدهر، وقرأ نافع وحزمة والكسائي: «سُخْرِيًّا» بضم السين^(١)، والباقون بكسرها؛ فقليل همنا، بتمعنى واحد؛ ذكر ذلك الطبري^(٢).

وقال ذلك أبو زيد الأنصاري: إنهما بمعنى الهُزءِ^(٣)، وقال أبو عبيدة وغيره: إن ضم السين من السخرة والاستخدام، وكسرها من السخر وهو الاستهزاء^(٤)، ومعنى الاستهزاء هنا أليق؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾.

وقوله سبحانه: ﴿كم لبستم في الأرض عدد سنين...﴾ الآية قوله: ﴿في الأرض﴾

قال الطبري^(٥) معناه: في الدنيا أحياء، وعن هذا وقع السؤال، ونُسوا لفرط هول العذاب حتَّى قالوا: ﴿يوماً أو بعض يوم﴾، والغرضُ توقيفهم على أنَّ أعمارهم قصيرة أَدَاهُمُ الْكُفْرُ فيها إلى عذاب طويل، عافانا الله من ذلك بِمَنِّهِ وكرمه!

وقال الجمهور: معناه: كم لَبِئْتُمْ في جوف التراب أمواتاً؟ قال ع^(٦): * وهذا هو

(١) وحجتهم: إجماع الجميع على الرفع في سورة الزخرف، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. ينظر: «السبعة» (٤٤٨)، و«الحجة» (٣٠٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٥/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/٨٠)، و«العنوان» (١٣٧)، و«حجة القراءات» (٤٩١)، و«شرح شملة» (٥١٠)، و«إتحاف» (٢٨٨/٢).

(٢) ينظر: الطبري (٢٥٠/٩).

(٣) ذكره ابن عطية (١٥٨/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (١٥٨/٤).

(٥) ينظر «الطبري» (٢٥٣/٩).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٨/٤).

٣٤ ب الأصوب من حيث أنكروا البعث / . وكان قولهم: إنهم لا يقومون من التراب، وقوله آخراً: ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ يقتضي ما قلناه.

قلت: الآيات محتملة للمعنيين، والله أعلم بما أراد سبحانه؛ قال البخاري^(١): قال ابن عباس: ﴿فاسأل العادين﴾ أي: الملائكة^(٢)، انتهى.

ص: قرأ الجمهور: «العَادِينَ»^(٣) - بتشديد الدال - اسم فاعل من «عَدَّ»، وقرأ الحسن والكسائي في رواية: «العَادِينَ»^(٤) بتخفيف الدال، أي: الظَّلَمَة، و«إِنْ» من قوله: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ نافية، أي: ما لبثتم إلا قليلاً، اهـ. و﴿عَبَّأُ﴾: معناه: باطلاً، لغير غاية مُرَادَة، وَخَرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ عَنْ حَنْشِ الصَّنَعَانِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ «أَنَّهُ قَرَأَ فِي أُذُنِ مِبْتَلَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ؟ قَالَ: قَرَأْتُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ...﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُوقِنًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ»، انتهى^(٥)، وَخَرَجَهُ ابْنُ السُّيْتِي أَيْضًا، ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ.

وقوله سبحانه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: المعنى: فتعالى الله عن مقاتلهم في دعوى الشريك والصاحبة والولد، ثم تَوَعَّدَ سبحانه عَبْدَةَ الْأَوْثَانِ بقوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، وفي حرف عبد الله: «عند ربك»، وفي حرف^(٦) أَبِي: «عند الله» ثم أمر تعالى نَبِيَّهٖ ﷺ بالدعاء والذكر له فقال: ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٩/٨) كتاب التفسير: باب سورة المؤمنين.
(٢) أخرجه الطبري (٢٥٢/٩) برقم (٢٥٦٩٥) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (١٥٩/٤) عن مجاهد، والسيوطي (٣٤/٥)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٣٩٠/٦).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٣٩٠/٦)، و«الدر المصون» (٢٠٥/٥)، و«إنحاف فضلاء البشر» (٢٨٩/٢).

(٥) أخرجه أبو يعلى (٤٥٨/٨) رقم (٥٠٤٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١).

كلهم من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة، عن حنش الصنعاني عن ابن مسعود به.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٥/٥)، وقال: رواه أبو يعلى، وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن. اهـ. وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٣٤/٥)، وزاد نسبه إلى الحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٦) في قراءة عبد الله، وقراءة أبي: ينظر «المحرر الوجيز» (١٥٩/٤).

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٩/٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ

وَهِيَ مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَظِرُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سورة أنزلناها وفرضناها...﴾ الآية معنى «فرضنا»: أوجبنا وأثبتنا، وقال الثعلبي والواحدي: ﴿فرضناها﴾ أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام، انتهى، وقال البخاري^(١): قال ابن عباس^(٢): ﴿سورة أنزلناها﴾: بيّناها، انتهى. وما تقدم أُبين.

ص: ﴿فَرَضْنَاهَا﴾ الجمهور: بتخفيف الراء أي: فرضنا أحكامها، وأبو عمرو وابن كثير: بتشديد الراء: إما للمبالغة في الإيجاب، وإما لأن فيها فرائض شتى، انتهى، والآيات البيّنات: أمثالها ومواعظها وأحكامها.

وقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة...﴾ الآية، هذه الآية ناسخة لآية الحبس باتفاق، وحكم المُخَصَّنِينَ منسوخ بآية الرجم والسُّتَةِ المتواترة على ما تقدم في سورة النساء، وقرأ الجمهور^(٣): «رَأْفَةً» بهمزة ساكنة؛ من رَأَفَ إِذَا رَقَّ وَرَجِمَ، والرأفة المنهي عنها هي [في]^(٤) إسقاط الحدِّ، أي: أقيموه ولا بُدَّ، وهذا تأويل ابن عمر^(٥) وغيره.

(١) ينظر: البخاري (٣٠١/٨) كتاب التفسير: باب سورة النور.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٦/٩) برقم (٢٥٧٠٦)، وذكره السيوطي (٣٦/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حارثة عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦١/٤)، و«البحر المحيط» (٣٩٤/٦)، و«الدر المصون» (٢٠٨/٥).

(٤) سقط في جـ.

(٥) أخرجه الطبري (٢٥٦/٩) برقم (٢٥٧٠٩، ٢٥٧١٠)، وذكره البغوي (٣٢١/٣)، وذكره ابن عطية (٤/١٦١)، وابن كثير (٣/٢٦١، ٢٦٢)، والسيوطي (٣٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقال قتادة وغيره: هي في تخفيف الضرب عن الزناة^(١)، ومن رأيهم أن يُخَفَّفَ ضربُ الخمر، والفِرْيَةُ دون ضرب الزنا.

وقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ أي: إغلاظاً على الزناة، وتوبيخاً لهم، ولا خلاف أن الطائفة كُلُّهَا كَثُرَتْ فهو أليق بامثال الأمر، واختلف في أقل ما يجزىء فقال الزُّهْرِيُّ: الطائفة: ثلاثة فصاعداً^(٢)، وقال عطاء: لا بُدَّ من اثنين^(٣)، وهذا هو مشهور قول مالك فراها موضع شهادة.

وقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ مَقْصِدُ الآية تشنيعُ الزنا وتشنيع أمره، وأنه مُحَرَّمٌ على المؤمنين / ويريد بقوله: ﴿لا ينكح﴾ أي: لا يَطَأُ، فإلنكاح هنا بمعنى: الجماع؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. وقد بيَّنه ﷺ في الصحيح أنه بمعنى الوطء، حيث قال: «لَا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ...»^(٤) الحديث، وتحتل الآلة وجوهاً هذا أحسنها.

(١) أخرجه الطبري (٢٥٨/٩) برقم (٢٥٧٢٢، ٢٥٧٢٤)، وذكره البغوي (٣/٣٢١)، وابن عطية (٤/١٦١)، والسيوطي (٣٧/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن، وإبراهيم، وعامر، ولابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن شعبة.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٩/٩) برقم (٢٥٧٣٦)، وذكره البغوي (٣/٣٢١)، وابن كثير (٣/٢٦٢)، والسيوطي (٣٨/٥) وعزاه لابن جرير عن الزهري.

(٣) أخرجه الطبري (٢٥٩/٩) برقم (٢٥٧٣٤)، وذكره البغوي (٣/٣٢١)، وابن كثير (٣/٢٦٢).

(٤) أخرجه مالك (٥٣١/٢) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وما أشبهه، حديث (١٧) من طريق المسور بن رفاعة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، أن رفاعة بن سموال طلق امرأته... ومن طريق مالك أخرجه الشافعي في «الأم» (٢٤٨/٥) باب نكاح المطلقة ثلاثاً، وابن حبان (١٣٢٣- موارد)، والبيهقي (٣٧٥/٧) كتاب الرجعة: باب نكاح المطلقة ثلاثاً.

قال السيوطي في «تنوير الحوالك» (٦/٢) قال ابن عبد البر: كذا لأكثر الرواة مرسل، ووصله ابن وهب عن مالك، فقال: عن أبيه، وابن وهب من أجل من روى عن مالك هذا الشأن، وأثبتهم فيه. وتابعه أيضاً ابن القاسم وعلي بن زياد وإبراهيم بن طهمان وعبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، كلهم عن مالك، وقالوا فيه: عن أبيه، وهو صاحب القصة أ.هـ.

ومن طريق ابن وهب أخرجه ابن الجارود (٦٨٢)، والبيهقي (٣٧٥/٧) كتاب «الرجعة»: باب نكاح المطلقة ثلاثاً.

وأخرجه البزار (٢/ ١٩٤- كشف) رقم (١٥٠٤) من طريق عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ثنا مالك بن أنس عن المسور بن رفاعة، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/٣٤٣): رواه البزار والطبراني، ورجالهما ثقات، وقد رواه مالك في «الموطأ» مرسلًا، وهو هنا متصل أ.هـ.

= وقد ورد هذا الحديث موصولاً من حديث عائشة:

أخرجه أحمد (٢٢٦/٦)، والبخاري (٢٤٩/٥) كتاب «الشهادات»: باب شهادة المختبىء، حديث (٢٦٣٩)، ومسلم (٢/ ١٠٥٥-١٠٥٦) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١)، والترمذي (٢/ ٢٩٣) كتاب النكاح: باب ما جاء فيمن يطلق امرأته ثلاثاً حديث (١١١٨)، والنسائي (٦/ ١٤٨) كتاب الطلاق: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (١/ ٦٢١-٦٢٢) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً، حديث (١٩٣٢) والدارمي (٢/ ١٦١) كتاب الطلاق: باب ما يحل المرأة لزوجها الذي طلقها، والشافعي (٢/ ٣٤٦-٣٤٧) رقم (١١١٣١)، والحميدي (١/ ١١١) رقم (٢٢٦)، وعبد الرزاق (٦/ ٣٤٦-٣٤٧) رقم (١١١٣١)، والطبراني (١/ ٣١٤-٣١٥) رقم (١٦١٢، ١٦١٣)، وسعيد بن منصور (٢/ ٧٣-٧٤)، رقم (١٩٨٥)، وأبو يعلى (٣٩٧)، رقم (٤٤٢٣)، وابن حبان (٤١٩٩-الإحسان)، والبيهقي (٧/ ٣٧٣-٣٧٤)، والبخاري في «شرح السنة» (٥/ ١٦٩-بتحقيقنا) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاق، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدية الثوب، فقال: أتريدن أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طرق أخرى عن عائشة:

فأخرجه البخاري (٩/ ٢٨٤) كتاب الطلاق: باب من قال لامرأته: أنت علي حرام، حديث (٥٢٦٥)، ومسلم (٢/ ١٠٥٧) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١٤)، وأحمد (٦/ ٢٢٩)، والدارمي (٢/ ١٦٢) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

وأخرجه مسلم (٢/ ١٠٥٧) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١٥)، وأحمد (٦/ ١٩٣)، وأبو يعلى (٨/ ٣٧٣-٣٧٤) رقم (٤٩٦٤) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة.

وأخرجه أبو داود (١/ ٧٠٥) كتاب الطلاق: باب في المبتوتة لا يرجع إليها زوجها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (٢٣٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٢) من طريق الأسود عن عائشة.

وأخرجه البخاري (١٠/ ٢٩٣) من طريق عبد الوهاب عن أيوب عن عكرمة [«أَنْ رَفَاعَةَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْقُرَظِيُّ، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَلَيْهَا خِمَارٌ أَخْضَرُ، فَشَكَتْ إِلَيْهَا، وَأَرْثَهَا خُضْرَةً بَجِلْدِهَا فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَالنِّسَاءُ يَنْصُرُ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا - قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا يَلْقَى الْمُؤْمِنَاتُ لَجِلْدِهَا أَشَدَّ خُضْرَةً مِنْ ثَوْبِهَا. قَالَ وَسَمِعْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنَانِ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ، إِلَّا أَنَّ مَا مَعَهُ لَيْسَ بِأَعْنَى عَنِّي مِنْ هَذِهِ - وَأَخَذَتْ هَدِيَّةً مِنْ ثَوْبِهَا - فَقَالَتْ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأَنْفَضُهَا نَفْضَ الْأَدِيمِ، وَلَكِنِّي نَاشِرٌ تَرِيدُ رِفَاعَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَحْلِيْ لَهُ أَوْ تَصْلَحِيْ لَهُ حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عَسِيْلَتِكَ. قَالَ وَأَبْصَرَ مَعَهُ ابْنَيْنِ لَهُ فَقَالَ: بَنُوْكَ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ؟ فَوَاللَّهِ لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ»].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ الآية نزلت بسبب القاذفين، وذكر تعالى في الآية: قَذَفَ النِّسَاءَ مِنْ حَيْثُ هُوَ أَهْمٌ وَأَبْشَعُ، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى والإجماع على ذلك، و﴿المحصنات﴾ هنا: العفاف، وشَدَّدَ تعالى على القاذف بأربعة شهداء؛ رحمةً بعباده، وسترًا لهم، وحكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة مبالغة كالْمِرْوَدِّ فِي الْمَكْحَلَةِ فِي مَوْطِنٍ وَاحِدٍ، فَإِنْ اضْطَرَبَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ

= وفي الباب عن ابن عمر، وعبيد الله بن عباس، وأنس بن مالك، والفضل بن عباس. حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٨٥/٢)، والنسائي (٦/ ١٤٨-١٤٩) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (٦٢٢/١) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً: فتتزوج فيطلقها (١٩٣٣) من طريق محمد بن جعفر: حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد: سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر به. وأخرجه أحمد (٦٢/٢)، والنسائي (٦/ ١٤٩)، والبيهقي (٣٧٥/٧) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان عن ابن عمر. قال النسائي: هذا أولى بالصواب.

وأخرجه أبو يعلى (٣٧٤/٨) رقم (٤٠٦٦) من طريق يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر.

قال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/٤): رواه الطبراني وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح. حديث عبيد الله بن عباس:

أخرجه أحمد (٢١٤/١)، والنسائي (٦/ ١٤٨) كتاب الطلاق: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، عنه أن «الغَمِصَاءَ أَوْ الرِّمِصَاءَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ تَشْتَكِي زَوْجَهَا أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ زَوْجَهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هِيَ كَاذِبَةٌ، وَهُوَ يَصِلُ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّهَا تَرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ حَتَّى تَذُوقِي عَسِيلَتَهُ».

وأخرجه أبو يعلى (٨٥/١٢) رقم (٦٧١٨) عن عبيد الله بن عباس والفضل بن عباس به. وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/٤)، رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

حديث أنس بن مالك:

أخرجه أحمد (٢٨٤/٣)، والبخاري (٢/ ١٩٥- كشف) برقم (١٥٠٥)، وأبو يعلى (٢٠٧/٧) رقم (٤١٩٩) عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت زوجاً، فمات عنها قبل أن يدخل بها هل يتزوجها الأول؟ قال: «لا حتى يذوق عسيلتها».

قال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/٤): رواه أحمد، والبخاري، وأبو يعلى، والطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن دينار الطاحي، وقد وثقه أبو حاتم، وأبو زرعة، وابن حبان، وفيه كلام لا يضر.

حديث الفضل بن عباس: انظر حديث عبيد الله بن العباس.

جُلِدَ الثلاثة، والجلد: الضرب، ثم أمر تعالى: **أَلَّا تُقْبَلَ لِلْقَدَفَةِ المحدودين شهادة أبداً^(١)**،

(١) القاذف هو مَنْ يرمي مُخَصَّنًا أو مُحَصَّنَةً بالزنى ولم يأت بأربعة شهداء يشهدون على صدق قوله، ولا خلاف بين العلماء في شهادة القاذف إذا شهد قبل إقامة الحَدِّ وبعد التوبة، أو بعد إقامة الحَدِّ وقبل التوبة؛ فإنه في الصورة الأولى، تقبل شهادته إجماعاً، وفي الثانية لا تقبل إجماعاً إنما الخلاف في شهادته بعد الحَدِّ وبعد التوبة.

فذهب الإمام الشافعي، ومالك، وأحمد، والبيهي وإسحاق، وأبو عبيدة وأبو المنذر إلى قبول شهادة المحدود في القذف إذا تاب، ورؤي هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذهب الإمام أبو حنيفة وأصحابه وشريح وأحسن وألثجعي وسعيد بن جبيرة والثوري إلى ردِّ شهادة المحدود في القذف وإن تاب. ورؤي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنشأ هذا الاختلاف هو: اختلافهم في فهم الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَخَصَّنَاتِ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾. اختلفوا في الاستثناء: هل هو راجع إلى الكل أو إلى الأخيرة فقط؟ وهذه مسألة أصولية، وسنذكر فيما يلي خلاصة القول فيها: إن الاستثناء إذا وقع بعد جمل متعاطفة بالواو، ونحوها أمكن رده للجميع، وإلى الأخيرة خاصة بلا خلاف، وإنما الخلاف فيما هو ظاهر فيه، فالشافعية يقولون ظاهر في الكل، ولا يرجع للأخيرة فقط إلا بقرينة. والحنفية يقولون: ظاهر في الأخيرة، ولا يرجع للكل إلا بدليل.

وأبو الحسين كالشافعية إلا أنه فصل في القرينة فقال: إن قامت قرينة على الإضراب عن الأول فهو للأخير. وظهور الإضراب يكون باختلاف الجملتين نوعاً: بأن تكون إحداهما خبراً والأخرى إنشاء؛ نحو العلماء مكرمون ولا تكرم الجهال إلا خالداً.

أو تكون إحداهما أمراً والأخرى نهياً نحو: أَكْرَمِ الْعُلَمَاءَ ولا تكرم الجهال إلا من دخل الدار فالاستثناء من الأخير.

أو باختلافهما حكماً: بأن يكون مضمون إحداهما غير مضمون الأخرى نحو: الرجال قائمون، والعلماء جالسون إلا محمداً. أو باختلافهما اسماً بأن يكون الاسم في الأولى غير صالح لتعلق الاستثناء به نحو: أَكْرَمِ الرجال وأعطف على النساء إلا هنداً. ففي هذا كله يرجع الاستثناء إلى الأخير، ظهور الإضراب. لكن محل هذا ما لم يكن الاسم في الجملة الثانية ضمير الاسم في الأولى أو اتفاقاً في الغرض وإلا كان الاستثناء راجعاً للكل مطلقاً وإن اختلفا نوعاً أو حكماً.

وأما الاختلاف في الاسم فلا يمكن معه رجوع الاستثناء للكل، لعدم صلاحيته للتعلق بالكل. مثال الأول: أَكْرَمِ بني تميم وهم مكرمون إلا بكرًا، فهما مختلفان نوعاً لكن الاسم في الثانية ضمير الأول فيرجع للكل. ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فقد أتحد في الغرض وهو الإهانة والانتقام وإن اختلفا نوعاً فيرجع للكل.

وقال ألفاضي وألغزالي: «بالوقف». وقال المرتضي: مُشْتَرَكٌ بين الكل والأخير، ويرجع مذهب الوقف والاشتراك إلى قول الحنفية، لأن مذهب الوقف معناه أن الاستثناء لا يعلم أهو موضوع للإخراج من الكل أو من الأخير؟ ومذهب المرتضي أنه مشترك بين الإخراج من الكل ومن الأخير. فيلزم الرجوع للأخير عليهما؛ لأنه إن كان موضوعاً للأخير فظاهر، وإن كان للكل ففي ضمنه الأخير.

قال الشافعي: توبة القاذف إكذابه نفسه. وفسره الإصطخري (من أصحاب الشافعي): بأن يقول: كذبت

وهذا يقتضي مُدَّة أعمارهم، ثم حكم بفسقهم، ثم استثنى تعالى مَنْ تاب وأصلح من بعد القذف، فالاستثناء غير عامل في جلده بإجماع، وعامل في فسقه بإجماع، واختُلِفَ في عمله في رَدِّ الشهادة، والجمهور أنَّه عامل في رَدِّ الشهادة، فإذا تاب القاذف قُبِلَتْ شهادته، ثم اختلفوا في صورة توبته، فقيل بأن يُكذِّب نفسه، وإلاَّ لم تُقْبَلْ، وقالت فرقة منها مالك: توبته أن يَصْلَحَ وَتَحْسُنَ حاله^(١). وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب واختلف فقهاء المالكية متى تسقط شهادة القاذف فقال ابن الماجشون: بنفس قَذَفِهِ، وقال ابن القاسم وغيره: لا تَسْقُطُ حتى يُجْلَدَ، فَإِنْ مَنَعَ من جلده مانع عفو أو غيره لم تُرَدَّ شهادته، قال اللَّخْمِيُّ: شهادته في مدة الأجل للإثبات موقوفة، و﴿تابوا﴾ معناه: رجعوا، وقد رَجَّح الطبري^(٢) وغيره قول مالك، واختُلِفَ أيضاً على القول بجواز شهادته، فقال مالك: تجوز في كل شيء بإطلاق، وكذلك كُلُّ مَنْ حُدَّ في شيء.

وقال سحنون: مَنْ حُدَّ في شيء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه، واتفقوا فيما أحفظ على ولد الزنا أنَّ شهادته لا تجوز في الزنا.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ...﴾ الآية: لما رَمَى هلال بن أمية الواقفي زوجته بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ - عزم النبي ﷺ على ضَرْبِهِ حَدَّ الْقَذْفِ؛ فَتَزَلَّتْ هذه الآية حسبما هو مشروح في الصَّحاح، فَجَمَعَهُمَا ﷺ في الْمَسْجِدِ،

= فيما قلت، فلا أعود الى مثله. وقال أبو إسحاق المروزي (من أصحاب الشافعي) لا يقول كذبت، لأنه ربما يكون صادقاً، فيكون قوله: «كذبت» كذباً، والكذب معصية. والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى، بل يقول: القذف باطل، وندمت على ما فعلت، ورجعت عنه، ولا أعود إليه. وظاهر كلام أحمد والخرقي أن توبة القاذف (كما قال الشافعي) إكذاب نفسه، فيقول: كذبت فيما قلت. وقال بعض العلماء: توبة القاذف كتوبة غيره، أمر بينه وبين ربه، ومرجعها إلى الندم على ما قال، والعزم على ألا يعود. والسر في أن الشافعية ومن وافقهم أدخلوا في معنى التوبة التلطف باللسان مع أن التوبة من عمل القلب أن يترتب عليها حكم شرعي، وهو قبول شهادة المحدود في القذف إذا تاب، فلا بد أن يعلم الحاكم توبته حتى تقبل شهادته.

(١) في ج: وتحسن حاله.

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٦٥/٩).

وَتَلَاَعْنَا، وجاء أيضاً عُوَيْمِرُ الْعَجْلَانِيُّ فرمى امرأته ولاعن^(١)، والمشهور: أَنَّ نازلة هلال قبل، وأنها سَبَبُ الآية، والأزواج في هذه الآية: يَعُمُّ المسلمات والكافرات والإماء؛ فَكُلُّهُنَّ يُلَاَعْنُهُنَّ الزوج؛ للانتفاء من الحمل، وتختصُّ الحُرَّةُ بدفع حَدِّ القذف عن نفسها، وقرأ السبعة غير نافع^(٢): ﴿أَنْ لَعَنْتَ﴾، و﴿أَنْ غَضِبَ﴾ بتشديد «أَنْ» فيهما وَنَضِبَ اللعنة والغضب، والعذاب المُذَرَّأُ في قول الجمهور: هو الحَدُّ، وجُعِلَتِ اللعنة للرجل الكاذب؛ لَأَنَّهُ مَفْتَرٍ مُبَاهِتٍ، فَأُبْعِدَ باللعنة، وجُعِلَ الغَضَبُ، الذي هو أَشَدُّ على المرأة التي باشرت المعصية بالفعل ثم كذبت وباهتت - بالقول، والله أعلم، وأجمع مالك وأصحابه على وجوب اللعان بادعاء الرؤية زناً لا وطء من / الزوج بعده، وذلك مشهور المذهب. ٣٥ ب

وقال مالك: إِنَّ اللعان يجب بنفي حمل يُدْعَى قبله استبراءً والمُسْتَحَبُّ من ألفاظ اللعان أَنْ يمشي مع ترتيب القرآن ولفظه، فيقول الزوج: أشهد بالله لرأيْتُ هذه المرأة تزني،

(١) تقدم.

حديث ابن عباس في الملاعة.

أخرجه أبو داود (٦٨٨/٢) كتاب الطلاق: باب في اللعان، حديث (٢٢٥٦)، وأحمد (١/ ٢٣٨-٢٣٩)، والطيالسي (١/ ٣١٩-منحة) رقم (١٦٢٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٥-٦٦)، والبيهقي (٧/ ٣٩٤) كتاب «اللعان»: باب الزوج يقذف امرأته، كلهم من طريق عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس، وفيه: فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاءً، فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، فنزلت: ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٣)، وعزاه إلى أحمد، وعبد الرزاق، والطيالسي، وعبد بن حميد، وأبي داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس. أما حديث عويمر: فرواه سهل بن سعد.

وأخرجه مالك (٢/ ٥٦٦-٥٦٧) كتاب الطلاق: باب ماجاء في اللعان، حديث (٣٤)، والبخاري (٩/ ٣٦١) كتاب الطلاق: باب من جوز الطلاق الثلاث، حديث (٥٢٥٩)، ومسلم (٢/ ١١٢٩-١١٣٠) كتاب «اللعان»، حديث (١/ ١٤٩٢)، وأبو داود (٢/ ٦٧٩-٦٨٢) كتاب الطلاق: باب في اللعان، حديث (٢٢٤٥)، والنسائي (٦/ ١٧٠-١٧١) كتاب الطلاق: باب بدء اللعان، وابن ماجه (١/ ٦٦٧) كتاب الطلاق: باب اللعان، حديث (٢٠٦٦)، وأحمد (٥/ ٣٣٦-٣٣٧)، والدرامي (٢/ ١٥٠) كتاب النكاح: باب في اللعان، وابن الجارود في «المنتقى» برقم (٧٥٦)، وابن حبان (٤٢٧١-الإحسان)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٠٢)، والبيهقي (٧/ ٣٩٨-٣٩٩) كتاب «اللعان»: باب سنة اللعان، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٨١-بتحقيقنا) من طريق الزهري عن سهل بن سعد به.

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٥٣)، و«الحجة» (٥/ ٣١٤)، و«إعراب القراءات» (٢/ ١٠١)، و«معاني القراءات» (٢/ ٢٠٢)، و«شرح الطيبة» (٥/ ٨٤)، و«العنوان» (١٣٨)، و«حجة القراءات» (٤٩٤)، و«شرح شعلة» (٥١٢)، و«إتحاف» (٢/ ٢٩٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٢).

وإني في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة: وأَنْ لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين، وأما في لعان نفي الحمل فيقول: ما هذا الولد مِنِّي، وتقول المرأة: أشهد بالله ما زنيْتُ، وأَنْه في ذلك لمن الكاذبين، ثم تقول: غَضِبَ اللهُ عَلَيَّ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَإِنْ مَنَعَ جَهْلُهُمَا مِنْ تَرْتِيبِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ، وَأَتَى بِمَا فِي مَعْنَاهَا أَجْزَاءَ ذَلِكَ، وَمَشْهُورُ الْمَذْهَبِ: أَنَّ نَفْسَ تَمَامِ اللَّعَانِ بَيْنَهُمَا فُرْقَةٌ، وَلَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى تَفْرِيقِ حَاكِمٍ، وَتَحْرِيمِ اللَّعَانِ أَبَدِيٍّ بِاتِّفَاقٍ فِيمَا أَحْفَظُ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: لَكَشَفَ الزَّانَةُ بِأَيْسَرٍ مِنْ هَذَا، أَوْ لَأَخَذَهُمْ بِعِقَابِهِ وَنَحْوِ هَذَا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ إِنَّهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْوَعْدِ إِذْ سَمِعُوا ظَنًّا أَنَّهُمُ الْوَعْدُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ يَأْنِفُسُهُمْ خَيْرٌ وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ١٢ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ١٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ...﴾ الآية: نزلت في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ففي «البخاري» في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْعَشْرَ الْآيَاتِ فِي بَرَاءَتِي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ...﴾ الْآيَاتِ: وَالْإِفْكِ: الزُّورُ وَالْكَذِبُ، وَحَدِيثُ الْإِفْكِ فِي «الْبُخَارِيِّ» وَ«مُسْلِمٍ» وَغَيْرُهُمَا مُسْتَوْعَبٌ، وَالْعُصْبَةُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ الْعَشْرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ﴾ خطاب لِكُلِّ مَنْ سَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: أَنَّهُ تَبَرُّهُ فِي الدُّنْيَا، وَتَرْفِيعُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ نَزَلَ وَخِيَهُ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ ذَلِكَ، وَأَجْرٌ جَزِيلٌ فِي الْآخِرَةِ، وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي غَابِرِ الدَّهْرِ، وَ﴿اِكْتَسَبَ﴾: مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمَأْثَمِ، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ هِيَ إِلَى: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنِي سُلُوفٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَكِبْرُهُ: مُصْدَرُ كَبُرَ الشَّيْءُ وَعَظَمَ وَلَكِنْ اسْتَعْمَلَتْ الْعَرَبُ ضَمَّ الْكَافِ فِي السَّنِّ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنَفُسِهِمْ خَيْرًا...﴾ الآية: الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ حَاشَا مَنْ تَوَلَّى كِبْرَهُ، وَفِي هَذَا عِتَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَي: كَانَ الْإِنْكَارُ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ، وَيُقَيِّسُ فَضْلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَبْعُدُ فِيهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَبْعَدُ، لِفَضْلِيَّتِهَا، وَوَقَعَ هَذَا النَّظَرُ السَّدِيدُ مِنْ أَبِي أَيُّوبَ وَامْرَأَتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: «يَا أَبَا أَيُّوبَ، أَسَمِعْتَ مَا قِيلَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ الْكَذِبُ؛ أَكُنْتَ أَنْتِ يَا أُمُّ أَيُّوبَ

تفعلين ذلك؟ قالت: لا، والله، قال: فعائشة - والله - أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم^(١) فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله فيه المؤمنين؛ إذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: ﴿لولا جاءوا﴾ للذين تولوا كبره.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكُتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾
تَلْقَوْنَهُ بِالسُّنُكْرِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾
وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ١٦﴾ يَعْطُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ هذا عتاب من الله تعالى، ببلغ في تعاطيهم هذا الحديث وإن لم يكن المخبر والمُخْبَر مُصَدِّقَيْنِ، ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث - هو الذي وقع العتاب فيه، وقرأ ابن يعمر^(٢) وعائشة (رضي الله عنها) وهي أعلم الناس بهذا الأمر: «إِذْ تَلْقَوْنَهُ» / - بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف -، ومعنى ١٣٦ هذه القراءة من قول العرب: وَلَقِيَ الرَّجُلُ وَلَقًا إِذَا كَذَبَ، وحكى^(٣) الطبري: أن هذه اللفظة مأخوذة من: الْوَلَقِيَ الذي هو إسراعك بالشئ بعد الشئ؛ يقال: وَلَقِيَ فِي سِيرِهِ إِذَا أَسْرَعَ، والضمير في: ﴿تحسبونه﴾ للحديث والخوض فيه والإداعة له.

وقوله تعالى: ﴿سبحانك﴾ أي: تنزيهاً لله أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ وحقيقة الْبُهْتَانِ: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة: أن يقال في الإنسان ما فيه، ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوَّجَ رَجِيمٌ ٢٠﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

(١) أخرجه الطبري (٢٨٤/٩) برقم (٢٥٨٥٩)، وذكره ابن عطية (١٧٠/٤)، وابن كثير (٢٧٣/٣)، والسيوطي (٦٠/٥)، وعزاه لابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر.

(٢) وقرأ بها ابن عباس، وعثمان الثقفي.
ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٢، و«المحتسب» (١٠٤/٢)، و«الكشاف» (٢١٩/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٧١/٤)، و«البحر المحيط» (٤٠٢/٦)، و«الدر المصون» (٢١٣/٥).
(٣) ينظر: «الطبري» (٢٨٥/٩).

وَالْمُنْكَرُ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُونَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية: قال مجاهد وغيره: الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين، وعذابهم الأليم في الدنيا: الحدود، وفي الآخرة: النار^(١)، وقالت فرقة: الآية عامة في كُلِّ قاذف، و[هذا]^(٢) هو الأظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ معناه: يعلم البريء من المُذْنِبِ، ويعلم سائر الأمور، وجواب ﴿لولا﴾ أيضاً محذوف تقديره: لَفَضَحَكُمْ بذنوبكم، أو لَعَذَّبَكُمْ ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ الآية: خطوات جمع خُطْوَة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأنَّ المعنى: لا تمشوا في سُبُلِهِ وطُرُقِهِ.

قلت: وفي قوله سبحانه: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾: ما يردع العاقل عن الاشتغال بغيره، ويوجب له الاهتمام بإصلاح نفسه قبل هجوم مَنِيَّتِهِ وحُلُولِ رَمْسِهِ، وَحَدَّثَ أَبُو عَمْرِو فِي «الْتَمْهِيد» بسنده عن إسماعيل بن كثير قال: سمعت مجاهداً يقول: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ مَعَ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذَكَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِخَيْرٍ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: وَلَكَ مِثْلُهُ، وَإِذَا ذَكَرَهُ بِشَرٍّ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ابْنَ آدَمَ الْمُسْتَوْرَ عَوْرَتَهُ، أَزِيعَ عَلَى نَفْسِكَ، وَاحْمَدِ اللَّهَ الَّذِي يَسْتَرُ عَوْرَتَكَ» انتهى، ورؤينا في «سنن أبي داود» عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنِيِّ عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ - أَرَاهُ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ بِهِ شَيْئَهُ، حَبَسَهُ اللَّهُ - عز وجل - عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»^(٣)، وروينا أيضاً عن أبي داود بسنده عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاريين أنَّهما قالَا: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَتُنْقَضُ فِيهِ مِنْ عِزِّهِ - إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْقَضُ فِيهِ مِنْ عِزِّهِ، وَتُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ - إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ

(١) أخرجه الطبري (٢٨٧/٩) برقم (٣٥٨٧٠) نحوه، وذكره ابن عطية (١٧١/٤)، والسيوطي (٦١/٥)،

وعزه للقرطبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني عن مجاهد بلفظ: «تظهر».

(٢) سقط في ج.

(٣) أخرجه أبو داود (٦٨٧/٢) كتاب الأدب: باب من رد على مسلم غيبة، حديث (٤٨٨٣)، وابن المبارك

في «الزهد» (٢٣٩).

نُصِرَتْهُ»^(١)، ثم ذكر تعالى أنه يزكي مَنْ شاءِ مِنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّعَادَةُ، وكان عمله الصالح أمانة على سبق السعادة له.

﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ...﴾ الآية: المشهور من الروايات أَنَّ هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر رضي الله عنه وَمِسْطَحِ بْنِ أَثَاثَةَ، وكان من قرابة أبي بكر، وكان أبو بكر ينفق عليه، لمسكنته، فلما وقع أمر الإفك بلغ أبا بكر أنه: وقع مِسْطَحُ مع مَنْ وقع؛ فحلف أبو بكر: لا ينفق عليه، ولا ينفعه بنافعة أبداً، فجاء مِسْطَحُ مُعْتَذِراً / ٣٦ ب وقال: إِنَّمَا كُنْتُ أَسْمَعُ وَلَا أَقُولُ، فنزلت الآية، والفضل: الزيادة في الدين، والسعة هنا: هي المال، ثم قال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ الآية، أي: كما تحبون عفوَ الله لكم عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، فيروى أَنَّ أبا بكر قال: بلى، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، وَرَجَعُ إِلَى مِسْطَحٍ مَا كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ مِنَ النِّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ^(٢).

قال ابن العربي في «أحكامه»: وفي هذه الآية دليل على أَنَّ الحنث إذا رآه الإنسان خيراً هو أولى من البر، ولقول النبي ﷺ: «فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ» انتهى^(٣). وقال بعض الناس: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل من

(١) أخرجه أبو داود (٦٨٧/٢) كتاب الأدب: باب من رد على مسلم غيبة، حديث (٤٨٨٤)، وأحمد (٣/ ٤٤١)، والبخاري في «شرح السنة» (٦/ ٤٩٥-٤٩٦. بتحقيقنا).

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٩/٩) برقم (٢٥٨٧٥)، وذكره البخاري (٣/ ٣٣٤)، وابن عطية (٤/ ١٧٢، ١٧٣)، وابن كثير (٣/ ٢٧٦)، والسيوطي (٥/ ٦٣)، وعزاه لابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧١-١٢٧٢) كتاب الإيمان، باب نذب من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه، حديث (١٦٥٠/ ١١)، والبيهقي (٣٢/ ١٠) كتاب الإيمان، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه.

وأخرجه مسلم (٣/ ١٢٧٢) كتاب الإيمان، باب نذب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، حديث (١٦٥٠/ ١٣). ومن حديث عدي بن حاتم أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وأبو داود الطيالسي (٢٤٧/ ١) كتاب «الإيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه، حديث (١٢١٨)، وأحمد (٤/ ٢٥٦-٢٥٧، ٢٥٨)، والدارمي (٢/ ١٨٦) كتاب «الإيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، ومسلم (٣/ ١٢٧٢-١٢٧٣)، كتاب: الإيمان، باب: نذب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه، حديث (١٦، ١٨، ١٦٥١)، والنسائي (٧/ ١٠-١١) كتاب «الإيمان والنذور»، باب الكفارة بعد الحنث، وابن ماجه (١/ ٦٨١) كتاب «الكفارات»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، =

حيث لطفه سبحانه بالقَدَفَةِ الْعَصَا بِهذا اللفظ.

قال *ع^(١)*: «وإنما تعطي الآية تفضلاً من الله تعالى في الدنيا، وإنما الرجاء في الآخرة، أما أن الرجاء في هذه الآية بقياس، أي: إذا أُمِرَ أُولِي الفضل والسعة بالعفو، فطرد هذا التفضل بسعة رحمته سبحانه لا رَبَّ غيره، وإنما آيات الرجاء: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾

= حديث (٢١٠٨)، والحاكم (٤/ ٣٠٠-٣٠١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب لا نذر في معصية الرب ولا في قطيعة الرحم، والبيهقي (٣٢/ ١٠) كتاب «الآيمان»: باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه، بلفظ «فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه». ومن حديث عبد الرحمن بن سمرة بلفظ «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأتت الذي هو خير وكفر عن يمينك».

ومنهم من قال: «فكفر عن يمينك، وأتت الذي هو خير».

والحديث أخرجه أحمد (٥/ ٦٢-٦٣)، والدارمي (١٨٦/ ٢) كتاب «الآيمان والنذر»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، والبخاري (١١/ ٥١٦-٥١٧) كتاب «الآيمان والنذور»، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...﴾ حديث (٦٦٢٢)، ومسلم (٣/ ١٢٧٣-١٢٧٤) كتاب «الآيمان»، باب نذب من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها، حديث (١٦٥٢/ ٩)، وأبو داود الطيالسي (٢٤٧/ ١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه، حديث (١٢١٩)، والنسائي (١٢/ ٧) كتاب «الآيمان والنذور»، باب الكفارة بعد الحنث، وأبو داود (٣/ ٥٨٤) كتاب «الآيمان والنذور»، باب الرجل يكفر قبل أن يحنث، حديث (٣٢٧٧)، وابن الجارود في «المنتقى» ص (٣١٠): باب ما جاء في الآيمان، حديث (٩٢٩)، والبيهقي (٣١/ ١٠) كتاب «الآيمان»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه.

والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٤٠٠) من طرق عن الحسن عن عبد الرحمن به.

ومن حديث عبد الرحمن بن أذينة عن أبيه أخرجه الطيالسي (٢٤٧/ ١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه، حديث (١٢٢٠). ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رواه أحمد (٢/ ٢٠٤) بلفظ «فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، ورواه الطيالسي (٢٤٧/ ١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، حديث (١٢٢١)، وأحمد (٢/ ٢١٢)، وأبو داود (٣/ ٥٨٢) كتاب «الآيمان والنذور»، باب اليمين في قطيعة الرحم، حديث (٣٢٧٤)، وابن ماجه (١/ ٦٨٢) كتاب «الكفارات»، باب من قال: كفارتها تركها، حديث (٢١١١) بلفظ «فليدعها وليأت الذي هو خير، فإن تركها كفارتها».

وقال أبو داود: الأحاديث كلها عن النبي ﷺ «وليكفر عن يمينه» إلا فيما لا يعبه به.

ومن حديث مالك الجشمي رواه النسائي (٧/ ١١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب الكفارة بعد الحنث، وابن ماجه (١/ ٦٨١) كتاب «الكفارات»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، حديث (٢١٠٩).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٣).

[الشورى: ١٩]. وسمعت أبي رحمه الله يقول: أرجى آية في كتاب الله عندي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]. وقال بعضهم: أرجى آية قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ...﴾ الآية: قال ابن جبير: هذه الآية خاصة في رَمَاة عائشة^(١)، وقال ابن عباس^(٢) وغيره: بل لجميع أزواج النبي ﷺ لمكانهن من الدين ولم يقرن بآخر الآية توبة.

قال *ع^(٣): وقاذف غيرهن له اسم الفسق، وذكرت له التوبة، ولعن الدنيا: الإبعاد، وضرب الحد، والعامل في قوله: ﴿يوم﴾ فعل مضمر تقديره: يُعَذَّبُونَ يَوْمَ أو نحو هذا، والدين في هذه الآية: الجزاء، وفي مصحف ابن مسعود^(٤) وأبي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ دِينَهُمْ﴾ بتقديم الصفة على الموصوف.

وقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ يُقَوِّي قول مَنْ ذهب: أَنَّ الآية في المنافقين عبد الله بن أبي وغيره.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٦٦) يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٦٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آجِعُوا فَأَجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٦٨)﴾.

(١) أخرجه الطبري (٢٩٠/٩) برقم (٢٥٨٨١)، وذكره البغوي (٣/٣٣٤)، وابن عطية (٤/١٧٤)، وابن كثير (٣/٢٧٦)، والسيوطي (٥/٦٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن خفيف.

(٢) أخرجه الطبري (٢٩١/٩) برقم (٢٥٨٨٥)، وذكره البغوي (٣/٣٣٤)، وابن عطية (٤/١٧٤)، وابن كثير (٣/٢٧٦)، والسيوطي (٥/٦٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٧٤).

(٤) ونسبها ابن خالويه إلى قراءة النبي ﷺ. ولكنه ضبطها برفع كلمة «الحق».

ينظر: «المختصر» ص (١٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/١٧٤).

وقوله تعالى: ﴿الْخِيثَاتِ لِلْخَيْثِثِينَ...﴾ الآية: قال ابن عباس^(١) وغيره: الموصوف بالخُبْث والطيب: الأقوال والأفعال، وقال ابن زيد^(٢): الموصوف بالخُبْث والطيب، النساء والرجال، ومعنى هذا التفريق بَيْنَ حكم ابن أُبَيٍّ وأشباهه وبين حكم النبي ﷺ وفضلاء أصحابه وأُمَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مِبْرُءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى الطيبين المذكورين، وقيل: الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى عائشة - رضي الله عنها - ومن في معناها.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ سبب هذه الآية فيما روى الطبري^(٣): أَنَّ امرأة من الأنصار قالت: يا رسولَ الله، إِنِّي أَكُونُ فِي مَنْزِلِي عَلَى الْحَالِ الَّتِي لَا أُحِبُّ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ عَلَيْهَا، لَا وَالَّذِ لَا وَلَدٌ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَدْخُلُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي، وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ^(٤) الآية، ثُمَّ هِيَ عَامَّةٌ فِي الْأُمَّةِ غَايِرَ الدَّهْرِ، وَبَيْتَ الْإِنْسَانِ: هُوَ الَّذِي لَا أَحَدَ مَعَهُ فِيهِ، أَوْ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ زَوْجَتُهُ أَوْ أُمَّتُهُ، وَمَا عَدَا هَذَا ١٢٧ فَهُوَ غَيْرُ بَيْتِهِ، وَ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ معناه: تَسْتَعْمِلُوا / مَنْ فِي الْبَيْتِ، وَتَسْتَبْصِرُوا، تَقُولُ: أَنَسْتُ: إِذَا عَلِمْتُ عَنْ جِسٍّ وَإِذَا أَبْصَرْتُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦].

و«استأنس» وزنه: استفعل، فكأنَّ المعنى في ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾: تَطْلُبُوا أَنْ تَعْلَمُوا مَا يُؤْنِسُكُمْ وَيُؤْنِسُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْكُمْ، وَإِذَا طَلَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْلَمَ أَمْرَ الْبَيْتِ الَّذِي يَرِيدُ دُخُولَهُ، فَذَلِكَ يَكُونُ بِالِاسْتِذْنِاءِ عَلَى مَنْ فِيهِ، أَوْ بِأَنْ يَتَنَحَّنَحَ وَيُشْعِرَ بِنَفْسِهِ بِأَيِّ وَجْهِ أَمْكَنَهُ، وَيَتَأَنَّى قَدَرَ مَا يَتَحَفَظُ مِنْهُ، وَيَدْخُلُ إِثْرَ ذَلِكَ.

وزهد الطبري^(٥) في: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ إِلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى حَتَّى تَوَسَّوْا أَهْلَ الْبَيْتِ بِأَنْفُسِكُمْ بِالتَّحَنُّنِ وَالِاسْتِذْنِاءِ وَنَحْوِهِ، وَتَوَسَّوْا نَفُوسَكُمْ بِأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ قَدْ شُعِرَ بِكُمْ.

(١) أخرجه الطبري (٢٩٣/٩) برقم (٢٥٨٩١)، وذكره ابن عطية (١٧٤/٤)، وابن كثير (٢٧٨/٣)، والسيوطي (٦٦/٥)، وعزاه لابن جرير، ولابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٥/٩) برقم (٢٥٩٠٥)، وذكره البغوي (٣٣٥/٣)، وابن عطية (١٧٤/٤)، وابن كثير (٢٧٨/٣).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢٩٧/٩).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٩٧/٩) رقم (٢٥٩٢١) عن عدي بن ثابت.

(٥) ينظر: «الطبري» (٢٩٨/٩).

قال *ع^(١): «وتصريف الفعل يَأْبَى أَنْ يكون من أنس، وقرأ أُبَيّ وابن عباس^(٢): «حتى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا» وصورة الاستئذان أَنْ يقول الإنسان: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ فَإِنْ أَدْخَلَ لَهُ دَخَلَ، وَإِنْ أَمَرَ بِالرَّجُوعِ انصرفت، وَإِنْ سَكَتَ عَنْهُ اسْتَأْذَنَ ثَلَاثًا ثُمَّ يَنْصَرِفُ، جَاءَتْ فِي هَذَا كُلَّهُ آثَارُ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجِدُوا فِيهَا﴾: لِلْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ الْغَيْرِ، وَأَسَدُ الطَّبْرِيِّ^(٣) عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: لَقَدْ طَلَبْتُ عَمْرِي كُلَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَا أَدْرَكْتُهَا أَنْ اسْتَأْذَنَ عَلَى بَعْضِ إِخْوَانِي فَيَقُولُ لِي: ارْجِعْ، فَأَرْجِعُ وَأَنَا مُغْتَبِطٌ^(٤)؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تَوَعَّدُ لِأَهْلِ التَّجَسُّسِ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا بُدِّعْتُمْ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَاتَهُنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولَى إِلَازِمَةٍ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١).

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة...﴾ الآية: أباح سبحانه في هذه الآية رفع الاستئذان في كُلِّ بَيْتٍ لَا يَسْكُنُهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ فِي الْاسْتِئْذَانِ خَوْفُ الْكَشْفَةِ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ، فَإِذَا زَالَتِ الْعِلَّةُ زَالَ الْحُكْمُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ ظَاهِرُ التَّوَعُّدِ، وَعَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّهُ كَانَ يُسْتَحَبُّ إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ غَيْرَ الْمَسْكُونِ، أَنْ يَقُولَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٥/٤).

(٢) ينظر: «المحتسب» (١٠٧/٢)، و«مختصر شواذ ابن خالويه» ص ١٠٣، ولكنه حكاها هكذا: «حتى يسلموا على أهلها ويستأذنوا»، ونسبها إلى ابن مسعود وابن عباس. وأما قراءة أبي عنده - فهي: حتى يسلموا ويستأذنوا».

وينظر: «الكشاف» (٢٢٧/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٧٥/٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٩/٩) برقم (٢٥٩٣٣)، وذكره ابن عطية (١٧٦/٤)، وابن كثير (٢٨١/٣)، والسيوطي (٧٢/٥)، وعزاه لأبي يعلى، وابن مردويه عن أنس.

الذي يدخله: السَّلامَ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، انتهى، أخرجه^(١) في «الموطأ».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أظهر ما في ﴿من﴾ أن تكون للتبعض، لأنَّ أول نظرة لا يملكها الإنسان؛ وإنما يَغُضُّ فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعض بخلاف الفروج؛ إذ حفظها عامٌ لها، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وحفظ الفرج هو عن الزنا وعن كشفه حيث لا يحل.

قلت: النواظر^(٢) صوارم مشهورة فاغمدتها في غِمدِ الغَضِّ والحياء من نظر المولى وإلا جرحك بها عدوُّ الهوى، لا ترسل بريد النظر فيجلب لقلبك رديء الفكر، غَضُّ البصر يورث القلب نوراً، وإطلاقه يقدح في القلب ناراً. انتهى من «الكلم الفارقية في الحكم الحقيقية».

قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ يريد: أظهر وأنمى، يعني: إذا غَضَّ بصره كان أظهر له من الذنوب وأنمى لعمله في الطاعة.

قال ابن العربي^(٤): ومن غَضَّ البصر: كَفَّ التطلع إلى المباحات من زينة الدنيا وجمالها؛ كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ / الدُّنْيَا لِنَفِثْنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]. يريد ما عند الله تعالى، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن...﴾ الآية: أمر الله تعالى النساء في هذه الآية بِغَضِّ البصر عن كل ما يُكره - من جهة الشرع - النظر إليه، وفي حديث أم سلمة قالت: كُنْتُ أَنَا وَعَائِشَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَجِبْنَ، فَقُلْنَ: إِنَّهُ أَعْمَى! فَقَالَ ﷺ: «أَفَعَمِيََا وَإِنْ أَتَيْتُمَا»^(٥) و﴿من﴾ الكلام فيها كالتي قبلها.

(١) أخرجه مالك (٩٦٢/٢) كتاب «السلام»: باب جامع السلام حديث (٨).

(٢) في ج: النظر.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٣٦٦/٣).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٣٦٦/٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٢٢/٢) كتاب «اللباس»: باب قول الله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ حديث (٤١١٢)، والترمذي (٩٤/٥) كتاب «الأدب»: باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال، حديث (٢٧٧٨)، وأحمد (٢٩٦/٦)، والنسائي في «الكبرى» (٣٩٣/٥) كتاب «عشرة النساء»: باب نظر =

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): وكما لا يَحِلُّ للرجل أن ينظر إلى المرأة، لا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجل، فَإِنَّ عَلاَقَتَهُ بها كعلاقتها به، وقصدَه منها كقصدها منه، ثم استدل بحديث أم سلمة المتقدم، انتهى. وحفظ الفرج يَعْْمُ الفواحش، وستر العورة، وما دون ذلك مِمَّا فيه حفظ، ثم أمر تعالى بِالْأَيُّدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا يَظْهَرُ مِنَ الزينة؛ قال ابن مسعود^(٢): ظاهر الزينة: هو الثياب.

وقال ابن جبير وغيره^(٣): الوجه والكفان والثياب.

وقيل: غير هذا.

قال زينتها*ع^(٤)* ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أَنَّ المرأة مأمورة بِالْأَيْدِي، وَأَنَّ تجتهدَ في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء في كُلِّ ما عليها، فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بُدَّ منه أو إصلاح شأن، فما ظهر على هذا الوجه فهو المَعْفُو عنه، وذكر أبو عمر: الخلاف في تفسير الآية كما تقدم؛ قال: وَرَوَى عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الْقُلُبُ والفتحة.

= النساء إلى الأعمى، حديث (٩٢٤١، ٩٢٤٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١١٦/١)، وأبو يعلى (٣٥٣/١٢) رقم (٦٩٢٢)، وابن حبان (١٩٦٨- موارد)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٤١٦/١)، والبيهقي (٧/ ٩١-٩٢)، وابن سعد في «الطبقات» (١٢٦/٨) كلهم من طريق الزهري عن نبهان مولى أم سلمة عن أم سلمة به. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه ابن حبان.

قال الحافظ في «الفتح» (٣٣٧/٩): وهو حديث أخرجه أصحاب السنن من رواية الزهري عن نبهان مولى أم سلمة عنها، وإسناده قوي، وأكثر ما علل به انفراد الزهري بالرواية عن نبهان، وليست بعلّة قاذحة، فإن من يعرفه الزهري ويصفه بأنه مكاتب أم سلمة ولم يجرحه أحد لا ترد روايته أ.هـ. ينظر: «أحكام القرآن» (١٣٦٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٣/٩، ٣٠٤) برقم (٢٥٩٥١، ٢٥٩٥٢، ٢٥٩٥٣، ٢٥٩٥٤، ٢٥٩٥٥)، وذكره ابن عطية (١٧٨/٤)، وابن كثير (٢٨٣/٣) والسيوطي (٧٤/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه الطبري (٣٠٤/٩) برقم (٢٥٩٦٣)، (٢٥٩٦٤) عن سعيد بن جبير، وبرقم (٢٥٩٦٥) عن عطاء، وذكره ابن عطية (١٧٨/٤)، وابن كثير (٢٨٣/٣)، والسيوطي (٧٥/٥)، وعزاه لابن جرير عن سعيد بن جبير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٨/٤).

قال جرير بن حازم: القُلْبُ: السَّوَارُ، والفتحة: الخاتم، انتهى من «التمهيد».

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُضْرِبَ بِخَمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.

قال ابن العربي^(١): الجيب هو الطَّرْقُ، والخمار: هو المِقْنَعَةُ، انتهى.

قال *ع*^(٢): سبب الآية أَنَّ النساءَ كُنَّ في ذلك الزمان إِذَا غَطَّيْنَ رُؤُوسَهُنَّ بِالْأُخْمَرَةِ سَدَلَتْهُنَّ من وراء الظهر؛ فبقي النَّحْرُ والعُنُقُ والأُذُنَانِ لَا يَسْتَرُّ عَلَى ذَلِكَ، فأمر الله تعالى بِلَيِّ الخمار على الجيوب، وَهَيْئَةُ ذلك يستر جميع ما ذكرناه، وقالت عائشة - رضي الله عنها - رَجِمَ اللَّهُ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولَى؛ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَمَدَنَ إِلَى أَكْثَفِ الْمَرُوطِ^(٣) فَشَقَّقْنَهَا أُخْمَرَةً، وضربن بها على الجيوب^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ يعني جميع المؤمنات، ويخرج منه نساء المشركين، وكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح أَنَّ يَمْنَعُ نِسَاءَ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَنْ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَ مَعَ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَاِمْتَثِلْ^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يدخل فيه الإماماء الكتائبات والعبيد.

وقال ابن عباس وجماعة^(٦): لَا يَدْخُلُ الْعَبْدُ عَلَى سَيِّدَتِهِ فَيَرَى شَعْرَهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَغَدَاً.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ التَّابِعِينَ﴾ يريد التابعين لِيُطْعَمُوا، وهم فُسُوءُ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا إِزْبَةَ لَهُمْ فِي الْوُطْءِ، ويدخل في هذه الصنيفة: المَجْبُوبُ، والشيخ الفاني، وبعضُ المَعْتُوهِينَ، والذي لَا إِزْبَةَ لَهُ مِنَ الرِّجَالِ قَلِيلٌ، والإِزْبَةُ: الْحَاجَةُ إِلَى الْوُطْءِ، والطفل اسم جنس،

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٣٦٩).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٤/١٧٨).

(٣) المِرْطُ: كل ثوب غير مخيط. وبالفتح: كساء من خز أو صوف أو كتان، وقيل: هو الثوب الأخضر، وجمعه مُرْمُطٌ،

ينظر: «لسان العرب» (٤١٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٧/٨) كتاب «التفسير»: باب ﴿وَلِيُضْرِبَ بِخَمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ حديث (٤٧٥٨).

(٥) أخرجه الطبري (٣٠٧/٩) برقم (٢٥٩٨٦)، وذكره ابن عطية (٤/١٧٩)، وابن كثير (٣/٢٨٤)، والسيوطي (٥/٧٧)، وعزاه لسعيد بن منصور، والبيهقي في «سننه»، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب.

(٦) ذكره ابن عطية (٤/١٧٩)، والسيوطي (٥/٧٧) وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه.

/ ويقال: طفل ما لم يُراهق الحُلُم، و﴿يظهروا﴾ معناه: يَطْلِعُوا بالوطء.

١٣٨

وقوله تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن...﴾ الآية، قيل: سببها أن امرأة مَرَّت على قوم فضربت برجلها الأرض فَصَوَّتَ الْخَلْخَالُ، وسماع صوت هذه الزينة أشدَّ تحريكاً للشهوة من إبدائها؛ ذكره الزَّجَّاجُ^(١)، ثم أمر سبحانه بالتوبة مُطْلَقَةً عَامَّةً من كل شيء صغير وكبير.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِنَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَابِتُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَتِينَكُمْ عَلَىٰ الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا لِلْبَتْنِ عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمُ﴾ الأيْم: مَنْ لَا زَوْجَةً لَهُ أَوْ لَا زَوْجَ لَهَا؛ فالأَيْمُ: يقال للرجل والمرأة.

وقوله: ﴿والصالحين﴾ يريد: للنكاح، وهذا الأمر بالنكاح يختلف بحسب شخص شخص، ففي نازلة: يُتَصَوَّرُ وجوبه، وفي نازلة: النَّذْبُ وغير ذلك حسبما هو مذكور في كتب الفقه؛ قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): قوله تعالى: ﴿والصالحين من عبادكم﴾ الأظهر فيه: أنه أمر بِالنَّكَاحِ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ كما أمر بِالنَّكَاحِ الْأَيَامَى، وذلك بيد السادة في العبيد والإماء؛ كما هو في الأحرار بيد الأولياء، انتهى. ثم وعد تعالى بِإِغْنَاءِ الْفُقَرَاءِ الْمُتَزَوِّجِينَ؛ طَلَبَ رضا الله عنهم، واعتصاماً من معاصيه، ثم أمر تعالى كُلَّ مَنْ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ النِّكَاحُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، إذ الغالب من موانع النكاح عَدَمُ الْمَالِ، فوعد سبحانه الْمُتَعَذِّرَ بِالْغِنَى. والمكاتبة: مفاعلة من حيث يَكْتُسِبُ هذا على نفسه وهذا على نفسه، ومذهب مالك: أَنَّ الْأَمَرَ بِالْكِتَابَةِ هو على النَّدْبِ.

وقال عطاء: ذلك واجب، وهو ظاهرُ مذهبِ عمرَ بن الخطاب^(٣) رضي الله عنه.

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٤/٤٠).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٣٧٨).

(٣) أخرجه الطبري (٩/٣١٢) رقم (٢٦٠١٨)، وذكره ابن عطية (٤/١٨١).

وقوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قالت فرقة: الخير هنا المال.

وقال مالك: إِنَّهُ لَيَقَالُ: الْقُوَّةُ وَالْأَدَاءُ، وقال عبيدة السُّلَمَانِيُّ: الخير هو: الصلاح في الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ قال المفسرون: هو أمر لكل مُكَاتِبٍ أَنْ يضع عن العبد من مال كتابته، ورأى مالك هذا الأمر على النَّذْبِ، ولم يَرِ لِقَدْرِ الوُضِيعة حَدًّا، واستحسن^(١) عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يُوضَعَ عنه الرُّبْعُ، وقيل: الثُّلُثُ، وقيل: العشر، ورأى عمر^(٢) أن يكون ذلك من أَوَّلِ نُجُومِهِ؛ مبادرةً إلى الخير، وخوفَ ألا يدرك آخرها، ورأى مالك وغيره: أن يكون الوضع من آخر نَجْمٍ؛ وعِلَّةُ ذلك أَنَّهُ: ربما عجز العبدُ فرجع هو وماله إلى السَّيِّدِ، فعادت إليه وضيعته وهي شبه الصدقة.

قلت: والظاهر أَنَّ هذا لا يُعَدُّ رجوعاً كما لو رجع إليه بالميراث، ورأى الشافعي وغيره: أَنَّ الوُضِيعة واجبة يُحَكِّمُ بها.

وقال الحسن^(٣) وغيره: الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾: للناس أجمعين في أن يتصدقوا على المكاتبين.

وقال زيد بن أسلم^(٤): إِنَّمَا الخطاب لولاة الأمور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الآية: رُوِيَ أَنَّ سبب الآية هو أن عبد الله بن أبي ابن سلول كانت له أُمَةٌ، فكان يأمرها بالزنا والكسب به، فشكَّت ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية فيه، وفيمن فَعَلَ فعله من المنافقين^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣١٥/٩) برقم (٢٦٠٤٦، ٢٦٠٤٧، ٢٦٠٤٨، ٢٦٠٤٩)، وابن عطية (١٨١/٤)، والسيوطي (٨٣/٥) وعزاه لأبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب، وعزاه أيضاً في رواية أخرى لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والديلمي، وابن المنذر، والبيهقي، وابن مردويه.

(٢) ذكره ابن عطية (١٨١/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٧/٩) برقم (٢٦٠٦٦)، وذكره ابن عطية (١٨٢/٤)، والسيوطي (٨٣/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن.

(٤) ذكره ابن عطية (١٨٢/٤)، والسيوطي (٨٣/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم.

(٥) أخرجه الطبري (٣١٨/٩) برقم (٢٦٠٧٣)، وذكره البغوي (٣٤٤/٣)، وابن عطية (١٨٢/٤)، والسيوطي (٨٤/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصَّنَا﴾ راجع إلى الفتيات؛ وذلك أَنَّ الفتاة إِذَا أَرَادَتْ التَّحَصَّنَ فحينئذ يمكن وَيُتَصَوَّرُ أَنَّ يكونَ السيد مُكْرَهَا، ويمكن أَن يُنْهَى عن الإكراه، وَإِذَا كَانَتِ الفتاة لَا تريد التحصن فلا يُتَصَوَّرُ أَنَّ يُقَالَ للسيد: لَا تُكْرِهَهَا: لِأَنَّ الإكراه لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا وهي مريدة للفساد، فهذا أمر في سادة وفتيات حالهم هذه، وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين / : فقال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ راجع إلى الأيامي في قوله: ﴿وَأُنْكَحُوا﴾ ٣٨ ب الأيامي منكم، وقال بعضهم: هذا الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ مَلْغِيٌّ ونحو هذا مِمَّا هو ضعيف، واللَّه الموفق للصواب برحمته.

قلت: وما اختاره *ع^(١) هو الذي عَوَّلَ عليه ابن العربي^(٢) وَنَصَّهُ، وإنما ذكر الله تعالى إرادة التَّحَصَّنِ من المرأة؛ لِأَنَّ ذلك هو الذي يصور الإكراه، فأما إِذَا كَانَتِ هي رَاغِبَةً في الزنا، لم يتحصل الإكراه فحصلوه إِنْ شَاءَ الله، انتهى من «الأحكام» وقرأ ابن مسعود^(٣) وغيره: «فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ [لَهُنَّ]»^(٤) غَفُورٌ رَحِيمٌ ثم عَدَّد سبحانه نِعَمَهُ على المؤمنين في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ لِيُقَعَّ التحفظ مِمَّا وقع أولئك فيه.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي يَوْمٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٨٢).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٣٨٦).

(٣) وقرأ بها ابن عباس، وسعيد بن جبيرة.

قال أبو الفتح: اللام في «لهن» متعلقة بـ «غفور»؛ لأنها أدنى إليها، ولأن فعولا أقعد في التعدي من فعل، فكأنه قال: فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن. ويجوز أن تكون أيضاً متعلقة بـ «رحيم»، وذلك أن ما لا يتعدى قد يتعدى بحرف الجر؛ ألا تراك تقول: هذا مارٌّ يزيد أمس، فتعمل اسم الفاعل، وهو لما مضى؟ فكذلك يجوز تعلق اللام في «لهن» بنفس «رحيم».

ينظر: «المحتسب» (٢/١٠٨)، و«الكشاف» (٣/٢٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/١٨٢)، وزاد نسبتها إلى جابر بن عبد الله.

(٤) سقط في ج.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: النور في كلام العرب الأضواء المُدْرَكَةُ بالبصر، وَيُسْتَعْمَلُ مجازاً فيما صَحَّ من المعاني ولاح؛ فيقال: كلام له نور، ومنه الكتاب المنير، والله تعالى ليس كمثله شيء فواضح أَنَّهُ ليس من الأضواء المُدْرَكَةِ، ولم يبقَ إِلَّا أَنَّ المعنى مُنَوَّرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أي: به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، كما تقول: الملك نور الأمة، أي: به قوام أمورها وصلاخ جملتها، والأمر في الملك مجاز، وهو في صفة الله تعالى حقيقة مَخْصُصَةٌ، وقرأ^(١) أبو عبد الرحمن السلمي وغيره: «اللَّهُ نَوَّرَ» - بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء - والضمير في «نوره» يعود على الله تعالى؛ قاله جماعة، وهو إضافة خلق إلى خالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله، ثم اختلفوا في المراد بهذا النور، فقيل: هو محمد ﷺ، وقيل: هو المؤمن، وقيل: هو الإيمان والقرآن، وفي قراءة أُبَيِّ بن كعب: «مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِينَ» والمشكاة: هي الكُوَّةُ غير النافذة فيها القنديل ونحوه، وهذه الأقوال الثلاثة يَطْرُدُ فيها مقابلة جزء من المثل بجزء من المُمَثَّلِ، فعلى قول مَنْ قال: المُمَثَّلُ محمد ﷺ - وهو قول كعب الأحمار - فرسولُ الله ﷺ هو المشكاة أو صدره، والمصباح هو النبوة وما يَتَّصِلُ بها من علمه وهده، والزجاجة: قلبه، والشجرة المباركة: هي الوحي، والزيت: هو الحجج والبراهين. وعلى قول مَنْ قال: إِنَّ المُمَثَّلَ به هو المؤمن - وهو قول أُبَيِّ بن كعب^(٢) -، فالمشكاة صدره، والمصباح: الإيمان والعلم، والزجاجة: قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها: هو الحجج، والحكمة التي تضمنها قول أُبَيِّ فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي في قبور الأموات، وتحتل الآية معنى آخر، وهو أن يريد: مَثَلُ نُورِ اللَّهِ الذي هو هده في الوضوح كهذه الجملة من النور، الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة؛ التي هي أبلغ صفات النور، الذي هو بين أيديكم أيها البشر؛ وقال أبو موسى: المشكاة: الحديدية أو الرِّصَاصَةُ التي يكون فيها القنديل في جوف الزجاجة، والأوَّلُ أَصَحُّ.

(١) وقرأ بها عبد الله بن أبي ربيعة.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٣/٤)، و«البحر المحيط» (٤١٨/٦)، وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي، وزيد بن علي، وثابت بن أبي حفصة، والقورصي، ومسلمة بن عبد الملك.

وينظر: «الدر المصون» (٢١٩/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٦٠٨٨)، وذكره البغوي (٣٤٥/٣)، وابن عطية (١٨٣/٤)، وابن كثير (٢٨٩/٣)، والسيوطي (٨٧/٥) وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن أبي بن كعب.

وقوله: ﴿فِي زَجَاجَةٍ﴾ لَأَنَّهُ جَسْمٌ شَفَافٌ، المصباحُ فيه أنور منه في غير الزجاجِ، والمصباح: الفتيل بناره.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي / في الإنارة والضوء، وذلك يحتمل معنيين: إمَّا أَنْ يريد أنَّها بالمصباح كذلك، وإمَّا أَنْ يريد أنَّها في نفسها؛ لصفائها وجودة جواهرها، وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور؛ قال الضحَّاك: الكوكب الدُرِّيُّ: الزهرة^(١).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو^(٢): «تَوَقَّدَ» - بفتح التاء والdal -، والمراد: المصباح، وقرأ نافع وغيره: «يُوقَّدُ» أي: المصباح.

وقوله: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي من زيت شجرة، والمباركة: المُنْمَأَةُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال الحسن^(٣): أي: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا؛ وإنما هو مثَّل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إمَّا شَرْقِيَّةً وإمَّا غَرْبِيَّةً، وقيل غير هذا.

وقوله سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ...﴾ الآية مبالغة في صفة صفائه وحُسْنِهِ.

وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: هذه كلها ومعان تكامل بها هذا النور المُمَثِّلُ به، وفي هذا الموضوع تمَّ المثال، وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذُنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ قال ابن عباس وغيره^(٤): هي المساجد المخصوصة بعبادة الله التي من عاداتها أَنْ تُنَوَّرَ بهذا النوع من المصابيح. وقوله: ﴿أُذُنُ اللَّهِ﴾: بمعنى: أمر وقضى، و﴿ترفع﴾ قيل: معناه تُبْنَى وتُعَلَّى؛ قاله مجاهد^(٥) وغيره؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...﴾ [البقرة: ١٢٧].

(١) ذكره ابن عطية (١٨٤/٤)، والسيوطي (٨٩/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحَّاك.

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٥٥-٤٥٦)، و«الحجة» (٣٢٤/٥)، و«إعراب القراءات» (١٠٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢٠٧/٢)، و«شرح الطيبة» (٩٠/٥)، و«العنوان» (١٣٩)، و«حجة القراءات» (٥٠٠)، و«شرح شملة» (٥١٤) و«إتحاف» (٢٩٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٧/٩) برقم (٢٦١٢٤)، وذكره البغوي (٣٤٧/٣) وابن عطية (١٨٥/٤)، والسيوطي (٩٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري (٣٢٩/٩) برقم (٢٦١٢٩، ٢٦١٣٠)، وذكره البغوي (٣٤٨/٣)، وابن عطية (٤/١٨٥)، والسيوطي (٩٠/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (٣٢٩/٩) برقم (٢٦١٣١، ٢٦١٣٢، ٢٦١٣٣)، وذكره البغوي (٣٤٨/٣)، وابن عطية (٤/١٨٦)، والسيوطي (٩١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

وقال الحسن^(١): معناه تُعْظَمُ وَيُزَفَّعُ شأنها، وذكر اسمه تعالى هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلًا، و﴿يسبح له فيها﴾ أي: في المساجد، ﴿بالغدو والآصال﴾ قال ابن عباس^(٢): أراد ركعتي الضحى. [والعصر، وإن ركعتي الضحى]^(٣) لفي كتاب الله وما يغوص عليها إلا عَوَّاصٌ؛ ثم وصف تعالى المسبحين بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى وطلبهم رضاه، لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا.

قلت: وعن عمر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «يُجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ: سَتَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ لِمَنْ الْكِرْمُ الْيَوْمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانَتْ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ؟» [السجدة: ١٦]، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؟ إلى آخر الآية، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: سَتَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ لِمَنْ الْكِرْمُ الْيَوْمَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الْحَمَادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ رَبَّهُمْ؟» مختصراً^(٤) رواه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» وله طرق عن أبي إسحاق، انتهى من «السلام»، ورواه أيضاً ابن المبارك من طريق ابن عباس قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: سَتَعْلَمُونَ الْيَوْمَ مِنْ أَصْحَابِ الْكِرْمِ، لِيَقُمَ الْحَامِدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَيَقُومُونَ، فَيَسْرَحُونَ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُنَادِي ثَانِيَةً: سَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الْكِرْمِ؟ لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانَتْ جُنُوبُهُمْ تَتَجَافَى عَنِ الْمَضَاجِعِ؛ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ؛ قَالَ: فَيَقُومُونَ، فَيَسْرَحُونَ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُنَادِي ثَالِثَةً: سَتَعْلَمُونَ الْيَوْمَ مَنْ أَصْحَابُ الْكِرْمِ؟ لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانَتْ: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ فَيَقُومُونَ، فَيَسْرَحُونَ إِلَى الْجَنَّةِ». انتهى من «التذكرة». والزكاة هنا عند ابن عباس: الطاعة لله^(٥).

وقال الحسن^(٦): هي الزكاة المفروضة في المال، واليوم المخوف: هو يوم القيامة،

(١) أخرجه الطبري (٣٣٠/٩) برقم (٢٦١٤١)، وذكره البغوي (٣٤٨/٣)، وابن عطية (١٨٦/٤)، والسيوطي (٩١/٥)، وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣١/٩) برقم (٢٦١٤٤)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٤)، والسيوطي (٩٣/٥)، وعزاه لابن أبي شيبه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الحاكم (٣٩٩/٢) من حديث عقبة بن عامر الجهني.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، وله طرق عن أبي إسحاق ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه الطبري (٣٣٢/٩) برقم (٢٦١٥٣)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (١٨٦/٤).

ومعنى الآية: إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ لِشِدَّةِ مَوَلِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ فِيهِ مُضْطَرَبَةٌ قَلِقَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ.

/قلت: ومن «الكلم الفارقة»: سعادة القلب إقباله على مُقَلِّبِهِ والعالم بحال مآله ٣٩ ب ومُنْقَلِبِهِ، القلبُ بحرٌ جواهرها المعارفُ، وسواحلها الألسنة وغواصها الفكرة النافذة، غَوَاصُ بحرِ الصُّورِ يغوصُ بصورته في طلب مكسبه، والعارفُ يغوصُ بمعنى قلبه في بحرِ غَيْبِ رَبِّهِ، فيلتقط جواهرَ الحكمة ودُرَرَ الدَّرَايةِ، قلوبُ العارفين كالبحار، تنعقد في أصداف ضمايرهم جواهرُ المعارف والأسرار، القلوب كالأراضي إلى من أسلمت إليه قلبك بذر فيه ما عنده، أَمَّا مَنْ بذر نفسه ووسواسه العفن المسوس، أو بذر فيه معرفته بالرب المقدس، انتهى.

قلت: فَإِنْ أَرَدْتَ سلامتك في ذلك اليوم فليكن قلبك الآن مقبلاً على طاعة مولاك؛ فإنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

قال الواحدي: تتقلب فيه القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تتقلب في أي ناحية يؤخذ بهم أذات اليمين أم ذات الشمال، ومن أي جهة يؤتون كتبهم، انتهى.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسْرَابٍ يَافِقُهُ يُخْسِبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكَدْ يَرَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (٤٠).

وقوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَهُم﴾ أي فعلوا ذلك ليجزيهم «أحسن ما عملوا» أي: ثواب أحسن ما عملوا، ولما ذكر تعالى حالة المؤمنين وتنويره قلوبهم عقب ذلك بذكر الكفرة وأعمالهم، فقال: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ وهي جمع قاع، والقاع: المنخفض البساط من الأرض، ويريد بـ ﴿جاءه﴾: جاء موضعه الذي تخيَّله فيه، ويحتمل أن يعود الضمير في: ﴿جاءه﴾ على السراب ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدل عليه الظاهر تقديره: فكذلك الكافر يوم القيامة، يظن عمله نافعاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

وقوله: ﴿ووجد الله عنده﴾ أي بالمجازات والضمير في ﴿عنده﴾ عائد على العمل، وباقي الآية وعيدٌ بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على قوله: ﴿كَسْرَابٍ﴾ وهذا المثال الأخير تضمن صفة أعمالهم في الدنيا، أي أنهم من الضلال في مثل هذه الظلمات المجتمعة من هذه الأشياء، وذهب بغض الناس إلى أن في هذا المثال أجزاء تقابل أجزاء من المُمَثِّل به فقال: الظلمات: الأعمال الفاسدة والمُعْتَقَدَاتِ الباطلة، والبحر اللُّجِّي: صَدْرُ الكافر وقلبه، واللجي معناه: ذو اللجة وهي مُعْظَمُ الماء وَعَمْرُهُ، واجتماع ما به أَشَدُّ لظلمته، والموج: هو الضلال والجهالة التي قد غمرت قلبه، والسحاب هو شهوته في الكفر وإِعْرَاضُهُ عن الإيمان.

قال ﴿ع^(١)﴾: وهذا التأويل سائغ وألاً يُقَدَّرُ هذا التقابل سائغ.

وقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظلمة، واختلَفَ في هذه اللفظة، هل معناها أَنَّهُ لَمْ يَرِده البتَّة؟ أو المعنى أَنَّهُ رآها بعد عُسْرٍ وَشِدَّةٍ وكاد ألا يراها، ووجه ذلك أَنَّ «كاد» إِذَا صَحِبَهَا حرف النفي، وَجَبَ الفعل الذي بعدها، وَإِذَا لَمْ يَصْحَبْهَا انتفى الفعل، وكاد معناها: قارب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نَوْراً فَمَا لَهُ مِنْ نَوْراً﴾ قالت فرقة: يريد في الدنيا، أي: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ لَمْ يَهْتَدِ، وقالت فرقة: أراد في الآخرة، أي: مَنْ لَمْ يَرْحَمِهِ اللَّهُ وَيُنَوِّرْ حاله بالمغفرة والرحمة فلا رحمة له.

قال ﴿ع^(٢)﴾: وَالْأَوَّلُ أَبِينُ / وأليق بلفظ الآية، وأيضاً فذلك متلازم، ونور الآخرة إِنَّمَا هو لمن نُورَ قلبه في الدنيا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: الرؤية هنا قلبية، والتسبيح: التنزيه والتعظيم، والآية عامة عند المفسرين لكل شيء من العقلاء والجمادات.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٨/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٨/٤).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قال الزَّجَّاجُ^(١) وغيره: المعنى: كُلُّ قَدْ عَلِمَ [الله]^(٢) صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ.

وقال الحسن^(٣): المعنى: كُلُّ قَدْ عَلِمَ صلاة نفسه وتسبيح نفسه.

وقالت فرقة: المعنى: كل قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللذين أمر بهما وهدى إليهما، فهذه إضافة خَلَقَ إِلَى خَالِقِ، وباقى الآية وعيد، و﴿يزجي﴾ معناه: يسوق، والرُّكَّام، الذي يركب بَعْضُهُ بَعْضاً ويتكاثف، والودق: المطر، قال البخاري: ﴿من خلاله﴾ أي: من بين أضعاف السحاب، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ قيل: ذلك حقيقة، وقد جعل الله في السماء جبلاً من بَرَدٍ، وقالت فرقة: ذلك مجاز، وإنَّما أراد وصف كثرتة، وهذا كما تقول: عند فلان جبال من مال وجبال من العلم.

قلت: وَحَمَلُ اللَّفْظِ عَلَى حَقِيقَتِهِ أَوْلَى إِنْ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ، وَمِنْ كِتَابِ «الْفَرْجِ بَعْدَ الشُّدَّةِ» لِلْقَاضِي أَبِي عَلِيٍّ التَّنُوخِي، أَحَدُ الرُّوَاةِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الدَّارَقُطَنِيِّ وَالْمُخْتَصِّصِينَ بِهِ - قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ الصُّوْلِيُّ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ قَالَ: رَأَيْتُ امْرَأَةً بِالْبَادِيَةِ، وَقَدْ جَاءَ الْبَرْدُ فَذَهَبَ بِزَرْعِهَا، فَجَاءَ النَّاسُ يُعْزَوْنَهَا، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَأْمُولُ لِأَحْسَنِ الْخَلْفِ وَبِيدِكَ التَّعْوِضُ مِمَّا تَلْفَ، فَافْعَلْ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلُهُ، فَإِنَّ أَرْزَاقَنَا عَلَيْكَ وَأَمَّا نَا مَصْرُوفَةٌ إِلَيْكَ، قَالَ: فَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى مَرَّ رَجُلٌ مِنَ الْأَجْلَاءِ، فَحَدَّثَ بِمَا كَانَ؛ فَوَهَّبَ لَهَا خَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ، فَأُجَابَ اللَّهُ دَعْوَتُهَا وَفَرَّجَ فِي الْحَيْنِ كَرْبَتَهَا، انْتَهَى. وَالْ«سَنَا» مَقْصُوراً: الضَّوْءُ، وَبِالْمَدِّ: الْمَجْدُ، وَالباء في قوله ﴿بِالْأَبْصَارِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ لُحٌّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَوَى قُلُوبُهُمْ مُرَّضٍ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٤٨/٤).

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٨٩/٤).

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ الآية آية اعتبار، والدابة: كُلُّ مَا دَبَّ من جميع الحيوان، وقوله: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ قال الجمهور: يعني أَنَّ خَلْقَهُ كُلِّ حَيَوَانٍ فِيهَا مَاءٌ؛ كما خُلِقَ آدَمُ مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ، وقال النقاش: أراد مَنِيَّ^(١) الذكور، والمشي على البطن: لِلْحَيَّاتِ، وَالْحُوتِ، وَالذُّودِ، وَغَيْرِهِ، وَعَلَى رَجُلَيْنِ: لِلإِنْسَانِ، وَالطَّيْرِ إِذَا مَشَى، وَعَلَى أَرْبَعٍ لِسَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَفِي مَصْحَفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي»^(٢) عَلَى أَكْثَرِ فَعَمَّ بهذه الزيادة جميع الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾ يَعُمُّ كُلَّ مَا نَصَبَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آيَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني المنافقين؛ رُوي أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ اسْمُهُ بَشَرٌ دَعَاهُ يَهُودِيٌّ إِلَى التَّحَاكُمِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ الْمُنَافِقُ مُنْطَلًا، قَابِي، وَدَعَا الْيَهُودِيَّ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فِيهِ، وَالْحَيْفُ: الْمَيْلُ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية المعنى: إِنَّمَا كَانَ الْوَاجِبُ أَنَّ يَقُولَهُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا دُعُوا إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾.

٤٠ ب. وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ قال الغزالي في «المنهاج»: التَّقْوَى فِي الْقُرْآنِ تُطْلَقُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أحدها: بِمَعْنَى الْخَشْيَةِ وَالْهِيبَةِ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُوا﴾ [البقرة: ٤١]. وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

والثاني: بِمَعْنَى الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَطِيعُوا اللَّهَ حَقَّ طَاعَتِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ.

(١) فِي جَدِّ: أَرَادَ مَنِيَّةً.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١٩١/٤)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤٢٨/٦).

والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأوليين؛ ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عن الذنوب، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم...﴾ الآية: جهد اليمين: بلوغ الغاية في تعقيدها، و﴿ليخرجن﴾ معناه: إلى الغزو، وهذه في المنافقين الذين تولوا حين دُعوا إلى الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة﴾ يحتمل معاني:

أحدها: النهي عن القسم الكاذب؛ إذ قد عُرِفَ أن طاعتهم دغلة فكأنه يقول: لا تغالطوا فقد عُرِفَ ما أنتم عليه.

والثاني: أن المعنى: لا تتكلفوا القسم؛ فطاعة معروفة على قدر الاستطاعة أمثل وأجدر بكم، وفي هذا التأويل إبقاء عليهم، وقيل غير هذا.

وقوله: ﴿تولوا﴾ معناه: تتولوا، والذي حمل النبي ﷺ هو التبليغ، والذي حمل الناس هو السمع والطاعة واتباع الحق، وباقي الآية بين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم...﴾ الآية عامة لأمة نبينا محمد ﷺ في أن يملكهم الله البلاد كما هو الواقع، فسبحانه ما أصدق وعده! وقال الضحاك في كتاب «النقاش»^(١): هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور، واللام في ﴿ليستخلفنهم﴾ لأم القسم.

وقوله: ﴿يعبدونني﴾ فعل مستأنف، أي: هم يعبدونني.

(١) ذكره ابن عطية (١٩٣/٤).

وقوله: ﴿ومن كفر﴾ يحتمل أن يريد كفر هذه النعم، ويحتمل الكفر المُخْرِجَ عن المِلَّةِ عياداً بالله من سخطه! وباقي الآية يَبَيِّنُ مِمَّا تقدم في غيرها.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْعَنُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ﴾ الآية: قيل: «الذين ملكت أيمانهم»: الرجال والنساء، وَرَجَّحَهُ الطبريُّ، وقيل: الرجال خاصة، وقيل: النساء خاصَّة، ومعنى الآية عند جماعة من العلماء: أَنَّ اللَّهَ تعالى أَدَبَ عباده بأن يكون العبيد والأطفال الذين عقلوا معاني الكَشَفَةِ ونحوها - يستأذنون على أهلهم في هذه الأوقات الثلاث، وهي الأوقات التي تقتضي عادة الناس الانكشاف فيها وملازمة التَّعَرِّي في المضاجع، وهي: عند الصباح، وفي وقت القائلة وهي الظهيرة؛ لأنَّ النهار يظهر فيها إذا علا واشتدَّ حرُّه، وبعد العشاء؛ لأنَّه وقت التَّعَرِّي للنوم، وأما في غير هذه الأوقات فالعُزْفُ من الناس التَّحَرُّزُ/ والتَّحَفُّظُ فلا حرج في دخول هذه الصنيفة بغير إذن؛ إذ هم طَوَافُونَ يَمْضُونَ ويَجِيئُونَ، لا يجد الناس بُدًّا من ذلك. ١٤١

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بدل من قوله: ﴿طَوَافُونَ﴾، و﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ نُصِبَ على الظرف؛ لأنَّهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثاً؛ وإِنَّمَا أُمِرُوا بالاستئذان في ثلاث مواطن، فالظرفية في ثلاث بَيِّنَةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يَبَيِّنُ لِلْمُتَأَمِّلِ.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ...﴾ الآية: أَمَرَ تعالى في هذه الآية أَنْ يكونوا إذا بلغوا الحُلُمَ على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت، وهذا بيان من الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ - بَيِّنُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ .

﴿والقواعد من النساء﴾: هن اللواتي قد أَسَنَّ وَقَعَدْنَ عن الولد، واحدتهن قَاعِدٌ، وقال ربيعة: هي هنا التي تُسْتَقْدَرُ من كِبَرِهَا، قال غيره: وقد تَقَعَدُ المرأة عن الولد وفيها مُسْتَمْتَعٌ، ولما كان الغالب من النساء أَنَّ ذوات هذا السِّنِّ لا مذهب للرجال فيهنَّ - أُبِيحَ لَهُنَّ ما لم يُبَحَّ لغيرهنَّ، وقرأ^(١) ابن مسعود وأبى: «أَنْ يَصْغَنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ» والعرب تقول: امرأة واضع للتي كَبُرَتْ، فوضعت خمارها، ثم استثنى عليهن في وضع الثياب ألا يقصدن به التَّبَرُّجَ وإبداء الزينة؛ فَرُبَّ عَجُوزٍ يبدو منها الجِرْصُ على أَنَّ يظهر لها جمال، والتبرج: طلب البُذُو والظهور للعين، ومنه: بُرُوجٌ مُشِيدَةٌ، والذي أُبِيح وضعه لهن الجِلْبَابُ الذي فوق الخمار والرداء، قاله ابن مسعود^(٢) وغيره، ثم ذكر تعالى أَنَّ تَحْفَظَ الْجَمِيعُ مِنْهُنَّ، واستغفاهنَّ عن وضع الثياب، والتزامهنَّ ما يلزم الشَّوَابِ من السَّتر - أَفْضَلُ لَهُنَّ وخير.

وقوله تعالى: «والله سميع عليم» أي: سميع لما يقول كُلُّ قَائِلٍ وَقَائِلَةٍ، عليم بمقصد كل أحد، وفي هاتين الصفتين تواعد وتحذير.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانَكُمْ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَمِيزُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله ﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ظاهر الآية وأمر الشريعة: أَنَّ الْحَرَجَ عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر، وتقتضي نيتهم الإتيان به بالأكمل، ويقتضي العذر أَنْ يَقَعَ منهم الانقاص، فالحرج مرفوع عنهم في هذا، وللناس أقوال في الآية وتخصيصات يطول ذكرها، وذكر الله تعالى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٥/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٩/٩) برقم (٢٦٢٠٦، ٢٦٢٠٧)، وذكره ابن عطية (١٩٥/٤)، وابن كثير (٣/٣٠٤)، والسيوطي (١٠٤/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في «السنن» عن ابن مسعود.

بيوت القربان، وسقط منها بيوت الأبناء؛ فقال المفسرون: ذلك لأنها داخلية في قوله: ﴿من بيوتكم﴾ لأن بيت ابن الرجل بيته.

وقوله تعالى: ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾ يريد ما خزنتم وصار في قبضتكم، فمعظمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وهو تأويل الضحاك ومجاهد^(١)، وعند جمهور المفسرين: يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأجراء بالمعروف. وقرأ^(٢) ابن جبير: «مَفَاتِيحُهُ» مبنياً للمفعول وزيادة ياء بين التاء والحاء، وقرن تعالى في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة؛ لأن قُرْب المودة لصيق؛ قال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الجُب؟ قال: أنت لي صديق، فما هذا الاستئذان؟^(٣) قال ابن عباس^(٤) في «كتاب النقاش»: الصديق أؤكد من القرابة؛ ألا ترى استغاثة الجهنميين: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾: ردّ لمذهب جماعة ب ٤١ من العرب كانت / لا تأكل أفذاذاً البتة، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه، وأن إحضار الأكيل لَحَسَنٌ ولكن بآلاً يحرم الانفراد، قال البخاري^(٥): أشتاتاً وشتى واحد، انتهى.

وقال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة بقوله عليه السلام: «[إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ]^(٦) الحديث، وبقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾

(١) أخرجه الطبري (٣٥٣/٩) برقم (٢٦٢٢٨) عن الضحاك، (٢٦٢٣٠) عن مجاهد، وذكره البغوي (٣/٣٥٨) عن الضحاك، وابن عطية (١٩٦/٤)، والسيوطي (١٠٩/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) ينظر: «مختصر الشواذ» ص (١٠٤)، و«المحرر الوجيز» (١٩٦/٤)، و«البحر المحيط» (٤٣٤/٦)، و«الدر المصون» (٢٣٦/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٥٤/٩) برقم (٢٦٢٣١)، وذكره ابن عطية (١٩٦/٤)، والسيوطي (١٠٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة بنحوه.

(٤) ذكره ابن عطية (١٩٦/٤).

(٥) ينظر البخاري (٣٠١/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة النور.

(٦) أخرجه البخاري (١٩٠/١) كتاب «العلم»: باب قول النبي ﷺ «رُبَّ مبلغ أوعى من سامع»، حديث (٦٧)، (٢٤٠/١) كتاب: العلم، باب: «ليبلغ العلم الشاهد الغائب»، حديث (١٠٥)، (٦٧٠/٤) كتاب

«الحج»: باب الخطبة أيام منى، حديث (١٧٤١)، (٣٣٨/٦) كتاب «بدء الخلق»: باب ما جاء في سبع أرضين، حديث (٣١٩٧)، (٧١١/٧) كتاب «المغازي»: باب حجة الوداع، حديث (٤٤٠٦)، (١٠/

١٠) كتاب «الأصاحي»: باب الأضحى يوم النحر، حديث (٥٥٥٠)، (٢٩/١٣) كتاب «الفتن»: باب =

الآية، ويقول عليه السلام^(١) من حديث ابن عمر: «لَا يَجْلِبَنَّ أَحَدُكُمْ مَاشِيَةً أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ...»^(٢) الحديث.

قلت: والحق أن لا نسخ في شيء مما ذكر، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾: قال النَّخَعِيُّ: أراد المساجد^(٣)، والمعنى: سَلِّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ فَالسَّلَامُ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

وقال ابن عباس^(٤) وغيره: المراد البيوت المسكونة، أي: سَلِّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا، [قَالُوا: وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ غَيْرُ الْمَسْكُونَةِ]^(٥)، وَيُسَلِّمُ الْمَرْءُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ بَأَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

قلت: وفي «سلاح المؤمن»، وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا

= قول النبي - ﷺ - «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ...»، حديث (٧٠٧٨)، (١٣/٤٣٣-٤٣٤) كتاب «التوحيد»: باب قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾، حديث (٧٤٤٧)، ومسلم (٣/١٣٠٥-١٣٠٧) كتاب «القسامة»: باب تغليظ تحريم الدماء، حديث (٢٩، ٣٠، ٣١/١٦٧٩)، وأبو داود (١/٥٩٩) كتاب «المناسك»: باب الأشهر الحرم، حديث (١٩٤٨)، وابن ماجه مختصراً (٨٥/١) المقدمة: باب من بلغ علماً، حديث (٢٣٣)، وأحمد (٣٧/٥، ٤٥، ٤٩)، وابن الجارود في «المتقى» برقم (٨٣٣)، والبيهقي (١٤٠/٥) كتاب «الحج»: باب الخطبة يوم النحر، كلهم من طريق محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه مرفوعاً. تنبيه: سقط من إسناده ابن الجارود «أبو بكر» ولعله سهو من طابع أو ناسخ، فوقع محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: خطبنا رسول الله ﷺ، وعبد الرحمن ليس هو القائل وليست له صحبة. سقط في ج.

(٢) أخرجه البخاري (٨٨/٥) كتاب «اللفظة»: باب لا تحتلب ماشية أحد بغير إذنه، حديث (٢٤٣٥)، ومسلم (٣/١٣٥٢) كتاب «اللفظة»: باب تحريم حلب الماشية بغير إذن مالكها، حديث (١٣/١٧٢٦)، وأبو داود (٤٦/٢) كتاب «الجهاد»: باب فيمن قال: لا يحلب، حديث (٢٦٢٣) كلهم من طريق مالك، وهو في «الموطأ» (٩٧١/٢) كتاب «الاستئذان»: باب ما جاء في أمر الغنم، حديث (١٧) عن نافع عن ابن عمر به. وأخرجه أحمد (٦/٢) من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر، وأخرجه أيضاً (٥٧/٢) من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر بلفظ: نهى أن تحتلب المواشي بغير إذن أهلها. وأخرجه الحميدي في «مسنده» (٣٠٠/٢) رقم (٦٨٣) من طريق إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر.

(٣) أخرجه الطبري (٣٥٧/٩) رقم (٢٦٢٤٧)، وذكره ابن عطية (١٩٦/٤).

(٤) ذكره السيوطي (١٠٧/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس.

(٥) سقط في ج.

فسلموا على أنفسكم» قال: هو المسجد إذا دخلته فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح على شرط الشيخين، يعني البخاري ومسلماً، انتهى، وهذا هو الصحيح عن ابن عباس، وفهم النووي أنَّ الآية في البيوت المسكونة، قال: ففي الترمذي عن أنس قال: قال لي النبي ﷺ: «يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ، فَسَلِّمْ، يَكُنْ بَرَكَهَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»^(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وفي أبي داود عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: [رَجُلٌ خَرَجَ غَارِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ]»^(٣) فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ؛ وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(٤)، حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواه آخرون، والضمان: الرعاية للشيء، والمعنى: أنه في رعاية الله عز وجل، انتهى. وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ﴾ وصفها تعالى بالبركة؛ لأنَّ فيها الدعاء واستجلابَ مودَّةِ المسلم عليه.

قلت: وقد ذكرنا في سورة النساء: ما ورد في المصافحة من رواية ابن السُّنِّي قال النووي: وَرَوَيْنَا فِي «سُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيَّ وَابْنَ مَاجَهَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا»^(٥) انتهى. والكاف من قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾: كاف تشبيه؛ وذلك: إشارة إلى هذه السنن.

وقال أيضاً بعضُ الناس في هذه الآية: أنَّها منسوخة بآية الاستئذان المتقدمة.

قال *ع^(٦): والنسخ لا يُتَصَوَّرُ في شيءٍ من هذه الآيات، بل هي مُحْكَمَةٌ، أمَّا

(١) أخرجه الطبري (٣٥٧/٩) برقم (٢٦٢٤٦)، وذكره البغوي (٣٥٩/٣)، والسيوطي (١٠٨/٥)، وعزاه

لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٩/٥) كتاب «الاستئذان»: باب ما جاء في التسليم إذا دخل بيته، حديث (٢٦٩٨) من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أنس. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه أبو داود (١٠/٢) كتاب «الجهاد»: باب فضل الغزو في «البحر»، حديث (٢٤٩٤)، والحاكم

(٧٣/٢)، وابن حبان (٤١٦-موارد)، والبيهقي (١٦٦/٩) كتاب «السير»: باب فضل من مات في سبيل

الله، من حديث أبي أمامة وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه أيضاً ابن حبان.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٧/٤).

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] ففي التعدي والخدع ونحوه، وأما هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأصناف التي يسرها - استباحة طعامها على هذه الصفة، وأما آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف الكشف، فإذا استأذن المرء ودخل المنزل بالوجه المباح صَحَّ له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة، وليس يكون في الآية نسخ فتأمله.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ سَتَدُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزَلْنَا مِنْهُمْ لِقَاءَ رَسُولِهِمْ فَهُمْ يُخَالِفُونَ﴾ [النور: ٦٢] ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْأَدَّاءَ فَيَحْذَرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَبِهِ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْتَهِمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

وقوله / تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: إنما هنا: ١٤٢ للحصر، والأمر الجامع يُرَادُ به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لمصلحة، فالأدب اللازم في ذلك ألا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، والإمام الذي يُتَرَقَّبُ إذنه هو إمام الإمارة، وروي: أن هذه الآية نزلت في وقت حفر النبي ﷺ خندق المدينة، فكان المؤمنون يستأذنون، والمنافقون يذهبون دون إذن، ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالاستغفار لصنفي المؤمنين: مَنْ أَدْنَى لَهُ، وَمَنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ^(١). وفي ذلك تأنيس للمؤمنين ورأفة بهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تخاطبوه كمخاطبة بعضكم لبعض، وأمرهم تعالى في هذه الآية وفي غيرها أن يدعوا رسول الله بأشرف أسمائه؛ وذلك هو مُقْتَضَى التوقير، فالأدب في الدعاء أن يقول: يا رسول الله، ويكون ذلك بتوقير وبر، وخفض صوت، قاله مجاهد^(٢)، واللواذ: الرُوعَانُ، ثم أمرهم تعالى بالحد من عذاب الله ونقمته إذا خالفوا أمره ومعنى ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: يقع خلافهم بعد أمره، ثم أخبر تعالى أنه قد علم ما أهل الأرض والسماء عليه، وباقي الآية بَيِّنٌ، والحمد لله.

(١) سقط في جـ.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٠/٩) برقم (٢٦٢٦٢، ٢٦٢٦٣)، وذكره البغوي (٣/٣٥٩)، وابن عطية (٤/١٩٨)، وابن كثير (٣/٣٠٦)، والسيوطي (٥/١١١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وسلم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ

[وهي] ^(١) مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمُهورِ

﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ^(١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ لَدَيْهِ ^(٢) وَتَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ^(٣).

قوله تعالى: ﴿تبارك﴾ هو مطاوع «بارك» من البركة، و«بارك» فاعل من واحد، ومعناه: زاد، و«تبارك»: فعل مُخْتَصَّصٌ بِاللَّهِ تعالى، لم يُسْتَعْمَلْ فِي غَيْرِهِ، وهو صفة فعل، أي: كَثُرَتْ بَرَكَاتُهُ، ومن جملتها: إنزال كتابه الذي هو الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

والضمير في قوله: ﴿ليكون﴾، قال ابن زيد ^(٢): هو لمحمد ﷺ وهو عبده المذكور، وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلْفُرْقَانِ.

وقوله: ﴿وخلق كل شيء﴾ عامٌ في كل مخلوق، ثم عَقَّبَ تعالى بالطعن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لها صفات الألوهية. والنشور: بعث الناس من القبور.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ^(٤) وَقَالُوا اسْطِطِئُوا أَنْتَ وَالَّذِينَ اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ عَلَيْهِمْ بُعْثَ رُسُلًا قَدْ جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِنَ رَبِّهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يَصْعَقُونَ فِيهِ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوَاً رَحِيمًا﴾ ^(٦).

﴿وقال الذين كفروا﴾ يعني: قريشاً ﴿إن هذا إلا إفك افتراه﴾: محمد، ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ تقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة النحل، ثم أكذبهم الله تعالى، وأخبر أنهم

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٣/٩) رقم (٢٦٢٦٩)، وذكره ابن عطية (٤/١٩٩).

ما جاؤوا إلا إثمًا وزوراً، أي: ما قالوا إلا باطلاً وبُهتاناً؛ قال البخاري^(١): ﴿تملى عليه﴾ تقرأ عليه؛ من أملت وأملت، انتهى. ثم أمر تعالى نبيّه - عليه السلام - أن يقول: إن الذي أنزله هو الذي يعلم سِرَّ جميع الأشياء التي في السموات والأرض، وعبارة الشيخ العارف بالله، سيدي عبد الله بن أبي جمرة (رضي الله عنه): ولما كان المراد مِنَّا بِمُقْتَضَى الحكمة الربّانيّة العبادة ودوامها؛ ولذلك خُلِقْنَا كما ذكر مولانا سبحانه في الآية الكريمة، يعني: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية [الذاريات: ٥٦]. وهو عزل وجل غني عن عبادتنا وعن كل شيء؛ لكن الحكمة اقتضته لأمر لا يعلمه إلا هو؛ كما قال الله عز وجل: ﴿الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ أي: الذي يعلم الحكمة في خلقها وكذلك في خَلْقِنَا وَخَلَقِ جميع المخلوقات، انتهى.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَى فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَظْرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبْرًا مِمَّنْ ذَلِكَ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا ۝ (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ (١١) إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَفَئِيرًا ۝ (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِيحًا مُقِرَّيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ (١٤)﴾.

/ ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام...﴾ الآية: المعنى عندهم: أن من كان ٤٢ ب رسولاً فهو مُسْتَغْنٍ عن الأكل والمشى في الأسواق، ومُحَاجَّتُهُمْ بهذا مذكورة في السّير، ثم أخبر تعالى عن كفّار قريش، وهم الظالمون المشار إليهم، أنهم قالوا: ﴿إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي: قد سُجِرَ، ثم نبّه تعالى نبيّه مُسَلِّياً له عن مقالتهم فقال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال...﴾ الآية، والقصور التي في هذه الآية تأولها الشعبي وغيره أنّها في الدنيا، والقصور هي البيوت المبنية بالجدران، لأنّها قصرت عن الداخلين والمستأذنين، وباقي الآية بيّن، والضمير في ﴿رأيتهم﴾ لجهم.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا ۝ (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَشْهُولًا ۝ (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ (١٧) قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٨/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة الفرقان.

يَتَّبِعِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ حَتَّىٰ سَأُوا اللَّيْلَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الصائرين إلى هذه الأحوال من النار: أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ، وهذا استفهام على جَهَةِ التوقيف والتوبيخ؛ لِأَنَّ الموقِفَ جائز له أَنْ يُوقِفَ مُحَاوِرَهُ على ما شاء؛ ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ.

وقوله تعالى: «ويوم نحشرهم» يعني الكفار، ﴿وما يعبدون من دون الله﴾ يريد كل شيء عِبْدٌ من دون الله، وقرأ ابن^(١) عامر: «فَنَقُولُ» بالنون، قال جمهور المفسرين: والموقف المجيب كل من ظلم بأن عِبْدَ مِمَّنْ يَعْقِلُ كالملائكة وعيسى وعزير وغيرهم، وقال الضَّحَّاكُ وَعِكْرِمَةُ: الموقف المجيب: الأصنام التي لَا تَعْقِلُ يقدرها الله تعالى على هذه المقالة، ويجيء خزي الكفرة لذلك أبلغ^(٢)، وقرأ الجمهور^(٣): «نَتَّخِذُ» - بفتح النون -، وذهبوا بالمعنى إلى أَنَّهُ مِنْ قَوْلٍ مَنْ يَعْقِلُ، وَأَنَّ هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الآية [سبأ: ٤٠]. وكقول عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقولهم: ﴿حتى نسوا الذكر﴾ أي: ما ذكر به الناس على السنة الأنبياء - عليهم السلام -، وقرأ زيد بن ثابت^(٤) وجماعة: «نَتَّخِذُ» - بضم النون -.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَفْسَهُ

(١) قال أبو علي الفارسي: وقراءة ابن عامر: «ويوم نحشرهم فنقول» حسن؛ لإجرائه المعطوف مجرى المعطوف عليه في لفظ الجمع، وقد قال: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة﴾ [سبأ: ٤٠]، ﴿ويوم نحشرهم ثم نقول للذين أشركوا﴾ [الأنعام: ٢٢]، ﴿وحشرناهم فلم نغادر﴾ [الكهف: ٤٧]. ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٣٣٨/٥)، و«السبعة» (٤٦٣)، و«إعراب القراءات» (١١٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢١٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٩٣/٥)، و«المنوان» (١٤٠)، و«حجة القراءات» (٥٠٩)، و«شرح شملة» (٥١٧)، و«إتحاف» (٣٠٦/٢).

(٢) ذكره البغوي (٣/ ٣٦٣-٣٦٤)، وابن عطية (٢٠٤/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٤/٤)، و«البحر المحيط» (٤٤٦/٦)، و«الدرر المصون» (٢٤٧/٥).

(٤) وقرأ بها أبو جعفر، والحسن، وأبو الدرداء، وأبو رجاء، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وحفص بن حميد، والسلمي.

ينظر «الشواذ» ص (١٠٥)، و«الكشاف» (٢٧٠/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٠٤/٤)، و«البحر المحيط» (٤٤٨/٦)، و«الدرر المصون» (٢٤٧/٥).

عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فقد كذبوكم...﴾ الآية: خطاب من الله تعالى للكفرة، أخبرهم أن مَعْبُودَاتِهِمْ كَذِبَتُهُمْ، وفي هذا الإخبار خِزْيٌ وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ، وقرأ حفص عن عاصم: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ» - بالتاء من فوق ؛ قال مجاهد^(١): الضمير في «يستطيعون» هو للمشركين، و﴿صرفاً﴾ معناه رَدُّ التَّكْذِيبِ أو العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ومن يظلم منكم﴾ قيل: هو خطاب للكُفَّارِ، وقيل: للمؤمنين، والظلم هنا: الشُّرْكُ، قاله الحسن^(٢) وغيره، وقد يحتمل أن يعم غيره من المعاصي، وفي حرف أبي: «وَمَنْ يَكْذِبُ مِنْكُمْ نَذْفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين...﴾ الآية: رَدُّ على قريش في قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ثم أخبر عز وجل أن السبب في ذلك أنه جعل بعض عبده فِتْنَةً لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، والتوقيف بـ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ خاص بالمؤمنين المحققين، قال ابن العربي في «الأحكام»^(٣): ولما كثر الباطل في الأسواق، وظهرت فيه المناكر - كَرِهَ علماؤنا دخولها لأرباب الفضل والمُفْتَدَى يَهِيمُ فِي الدِّينِ؛ تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُغْصَى اللَّهُ تعالى فيها، انتهى. ثم أعرب قوله تعالى: ﴿وكان ربك بصيراً﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين، وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُخَيِّ وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ / وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ ١٤٣ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ»^(٤)، رواه الترمذي وابن ماجه، وهذا لفظ الترمذي، وزاد في رواية أخرى: «وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»، ورواه الحاكم في «المستدرک» من عدة طرق، انتهى من «السلاح».

(١) أخرجه الطبري (٣٧٥/٩) برقم (٢٦٣٠٧، ٢٦٣٠٨)، وذكره ابن عطية (٢٠٤/٤)، والسيوطي (١١٩/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٣٧٦/٩) برقم (٢٦٣١٢) عن الحسن، و(٣٦٣١١) عن ابن جريج. وذكره ابن عطية (٢٠٤/٤)، والسيوطي (١١٩/٥)، وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤١٤/٣).

(٤) تقدم تخريجه في سورة آل عمران.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَيِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّا إِلَيْكَ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا...﴾ الآية: الرجاء هنا على بابه، وقيل: هو بمعنى الخوف، ولما تَمَثَّلَتْ كُفَارُ قَرِيشَ رُؤْيَا رَبِّهِمْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنََّّهُمْ عَظُمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَسَأَلُوا مَا لَيْسُوا لَهُ بِأَهْلٍ.

ص ﴿لقد﴾ جواب قَسَمٍ محذوف، انتهى. والضمير في قوله: ﴿ويقولون﴾ قال مجاهد^(١)، وغيره: هو للملائكة، والمعنى: يقول الملائكة للمجرمين: حِجْرًا مَّحْجُورًا عليكم البُشْرَى، أي: حراماً مُحَرَّمًا، والحِجْرُ: الحرام، وقال [مجاهد أيضاً]^(٢) وابن جريج^(٣): الضمير للكافرين المجرمين، قال ابن جريج: كانت العرب إذا كرهوا شيئاً، قالوا: حِجْرًا، قال مجاهد: حِجْرًا عوداً يستعيذون من الملائكة^(٤).

قال *ع*^(٥): ويحتمل أن يكون المعنى: ويقولون حرام مُحَرَّمٌ علينا العَفْوُ، وقد ذكر أبو عبيدة أن هاتين اللفظتين عوذة للعرب يقولها من خاف آخر في الحرم، أو في شهرٍ حرامٍ إذا لقيه وبينهما تَرَّةٌ؛ قال الداودي: وعن مجاهد^(٦): ﴿وقدمنَّا﴾ أي: عمدنا، انتهى.

قال *ع*^(٧): ﴿وقدمنَّا﴾ أي: قصد حكمنا وإنفاذنا ونحو هذا من الألفاظ اللاتقة، ومعنى الآية: وقصدنا إلى أعمالهم التي لا تَزُنُّ شَيْئاً فصيَرناها هَبَاءً، أي: شَيْئاً لا تحصيلَ له، والهَبَاءُ: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ولا يكاد يرى إلا في الشمس، قاله ابن

(١) أخرجه الطبري (٣٧٩/٩) برقم (٢٦٣٢٢)، وذكره ابن عطية (٢٠٦/٤) عن الحسن، وقتادة، والضحاك ومجاهد، وابن كثير (٣١٤/٣)، والسيوطي (١٢١/٥) وعزاه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) سقط في ج.

(٣) أخرجه الطبري (٣٧٩/٩) برقم (٢٦٣٢٣)، وذكره البغوي (٣٦٥/٣)، وابن عطية (٢٠٦/٤)، والسيوطي (١٢١/٥)، وعزاه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٣٧٩/٩) برقم (٢٦٣٢١)، وذكره البغوي (٣٦٥/٣)، وابن عطية (٢٠٦/٤).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٦/٤).

(٦) أخرجه الطبري (٣٨٠/٩) رقم (٢٦٣٢٤)، وذكره ابن كثير (١٣٤/٣).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٦/٤).

عباس^(١) وغيره، ومعنى هذه الآية: جعلنا أعمالهم لا حُكْمَ لها ولا منزلة، ووصف تعالى الهباء في هذه الآية بمنثور، ووصفه في غيرها بمُنْبَثٌ، فقالت فرقة: هما سواء، وقالت فرقة: المُنْبَثُ: أَرْقُ وَأَدْقُ من المنثور؛ لأنَّ المنثورَ يقتضي أنَّ غيره نَثَرَهُ، والمُنْبَثُ كأنه انبثَّ من دَقَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ مَقِيلًا﴾ ذهب ابن عباس والتَّخَعِيُّ وابن جريج: إلى أن حساب الخلق يَكْمُلُ في وقت ارتفاع النهار، وَيَقِيلُ أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فالمقيل: القائلة^(٢).

قال ع*ع*: وَيُحْتَمَلُ أَنَّ اللفظة إنما تضمنت تفضيلَ الجَنَّةِ جُمْلَةً، وَحُسْنَ هوائها؛ فالعرب تفضِّلُ البلادَ بحُسْنِ المقيل؛ لأنَّ وقت القائلة يُبْدِي فسادَ هواء البلاد، فإذا كان بلد في وقت فساد الهواء حسناً حاز الفضل، وعلى ذلك شواهد.

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنَزَلَ الْمَلَكَةُ تَنْزِيلًا ۝٢٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَنْتُمْ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ۝٢٧﴾ يَوَيْلَئِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ۝٢٩﴾.

﴿ويوم تشقق السماء﴾ يريد: يوم القيامة.

ص: ﴿بالغمام﴾ الباء: للحال، أي: متغيمه، أو للسبب، أو بمعنى «عن»، انتهى. وفي قوله تعالى: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾: دليل على أنه سهل على المؤمنين، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيُهَوِّنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ عَلَيْهِ أَخْفَ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ صَلَّاهَا فِي الدُّنْيَا». وعصُ اليدَين هو فعل النادم؛ قال ابن عباس وجماعة من المفسرين: الظالم في هذه الآية عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ؛ وذلك أنه كان أسلم أو جَنَحَ إلى الإسلام، وكان أَبِيُّ بْنُ خَلْفٍ الذي قتله النبي ﷺ بيده يوم أُحُدٍ خليلاً

(١) أخرجه الطبري (٣٨١/٩) برقم (٢٦٣٣١)، وذكره البغوي (٣/٣٦٦)، وابن عطية (٤/٢٠٧)، والسيوطي (٥/١٢٢)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٣٨٢/٩) برقم (٣٦٣٣٦) عن إبراهيم النخعي، (٣٦٣٣٧) وابن جريج، (٣٦٣٣٥) وابن عباس، وذكره ابن عطية (٤/٢٠٧)، وابن كثير (٣/٣١٥) عن ابن عباس، والسيوطي (٥/١٢٣)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعزاه لابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبي نعيم في «الحلية» عن إبراهيم النخعي.

لْعُقْبَةِ، فنهاء عن الإسلام، فَقَبِلَ نَهْيَهُ؛ فنزلت الآية فيهما^(١)، فالظالم: عقبة، و﴿فلاناً﴾ أبي. قال السهيلي: وَكَتَبَ سبحانه عن هذا الظالم ولم يُصَرِّحْ باسمه؛ ليكون هذا الوعيد غير مخصوص به ولا مقصور عليه؛ بل يتناول جميع مَنْ فعل مثل فعله، انتهى.

٤٣ ب / وقال مجاهد^(٢) وغيره: ﴿الظالم﴾ عام، اسم جنس، وهذا هو الظاهر، وأن مقصد الآية تعظيم يوم القيامة وذكر هولاء بأنه يوم تندم فيه الظلمة، وتتمنى أنها لم تُطع في دنياها أخلاءها، والسبيل الممتنة: هي طريق الآخرة، وفي هذه الآية لكل ذي نهي تنبيه على تجنب قرين السوء، والأحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة، و﴿الذكر﴾: ما ذكر الإنسان أمر آخرته من قرآن، أو موعظة ونحوه.

﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ يحتمل: أن يكون من قول الظالم، ويحتمل: أن يكون ابتداء إخبار من الله عز وجل على وجه التحذير من الشيطان الذي بلغهم ذلك المبلغ.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۖ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۖ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَبَسِيرًا ۚ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الرسول﴾ حكاية عن قول رسول الله ﷺ في الدنيا وتشكيه ما يلقى من قومه؛ هذا قول الجمهور، وهو الظاهر، وقالت فرقة: هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة، و﴿مهجوراً﴾ يحتمل: أن يريد مُبْعِداً مقصياً من الهجر بفتح الهاء، وهذا قول ابن زيد^(٣)، ويَحْتَمَلُ: أن يريد مقولاً فيه الهجر - بضم الهاء -؛ إشارة إلى قولهم: شعر وكهانة ونحوه؛ قاله مجاهد^(٤).

قال *ع^(٥): * وقول ابن زيد مُثَبِّةٌ للمؤمن على مُلازمة المُضَحِّفِ، وألاً يكون الغبار

-
- (١) أخرجه الطبري (٣٨٤/٩) برقم (٢٦٣٤٧)، وذكره ابن عطية (٢٠٨/٤) والسيوطي (١٢٥/٥) وعزاه لأبي نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
 - (٢) ذكره ابن عطية (٢٠٨/٤)، والسيوطي (١٢٧/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد بلفظ: «الشيطان».
 - (٣) أخرجه الطبري (٣٨٦/٩) برقم (٢٦٣٥٧)، وذكره ابن عطية (٢٠٩/٤).
 - (٤) أخرجه الطبري (٣٨٦/٩) برقم (٢٦٣٥٥)، وذكره ابن عطية (٢٠٩/٤)، والسيوطي (١٢٧/٥)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.
 - (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٩/٤).

يعلموه في البيوت، ويشغل بغيره، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَلَّقَ مُصْحَفًا، وَلَمْ يَتَعَاهِذْهُ - جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا؛ أَفْضِرْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» وفي حلية النووي قال: وروينا في «سنن أبي داود» و«مُسْنَدِ الدَّارِمِيِّ» عن سعد بن عُبَادَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْذَمٌ^(١)، وروينا في كتاب أبي داود والترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَدَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي فَلَمْ أَرْ ذَنْبًا أَغْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أَوْيَها رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا»^(٢) تكلم الترمذي فيه، انتهى، ثم سَلَا تَعَالَى عَنْ فِعْلِ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ﴾ أي: فاصبر كما صبروا؛ قاله ابن عباس^(٣)، ثم وعد تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ والباء في ﴿بِرَبِّكَ﴾: للتأكيد ذَالَّةٌ عَلَى الْأَمْرِ؛ إِذَا الْمَعْنَى: اكْتَفَىٰ بِرَبِّكَ.

﴿وقال الذين كفروا﴾^(٤) لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴿قال ابن عباس﴾^(٥) وغيره: قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان من عند الله لنزل جُمْلَةً كالتوراة والإنجيل. وقوله: ﴿كذلك﴾ يحتمل أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ؛ إِشَارَةً إِلَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُسْتَأْنَفِ وَهُوَ أَوَّلِي، وَمَعْنَاهُ: كَمَا نُزِّلَ أَرْدَنَاهُ، فَالْإِشَارَةُ إِلَى نَزُولِهِ مُتَفَرِّقًا، وَالتَّرْتِيلُ: التَّفْرِيقُ بَيْنَ الشَّيْءِ الْمَتَابِعِ، وَمِنْهُ تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى السَّبَبَ فِي نَزُولِهِ مُتَفَرِّقًا: تَثْبِيَتْ قَلْبَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْ يَنْزِلَ فِي النَّوَازِلِ وَالْحَوَادِثِ الَّتِي

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥/١) كتاب الصلاة: باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه، حديث (١٤٧٤)، والدارمي (٤٣٧/٢) كتاب «فضائل القرآن»: باب من تعلم القرآن ثم نسيه، وأحمد (٣٢٣/٥) من حديث سعد بن عبادة.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٩/١) كتاب «الصلاة»: باب في كنس المساجد، حديث (٤٦١)، والترمذي (٥/١٧٨-١٧٩) كتاب «فضائل القرآن»: باب (١٩) حديث (٢٩١٦)، وكلاهما من طريق المطلب بن حنطب عن أنس بن مالك مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه، واستغربه. قال محمد: ولا أعرف للمطلب بن عبد الله سماعاً من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا قوله: حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ.

قال: وسمعت عبد الله بن عبد الرحمن (هو الدارمي) يقول: لا نعرف للمطلب سماعاً من أحد من أصحاب النبي ﷺ قال عبد الله: وأنكر علي بن المديني أن يكون المطلب سمع من أنس.

(٣) أخرجه الطبري (٣٨٦/٩) برقم (٢٦٣٥٨) بنحوه، والسيوطي (١٢٧/٥).

(٤) في ج «وقالوا الذين كفروا».

(٥) ذكره ابن عطية (٢٠٩/٤)، والسيوطي (١٢٧/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس.

قد قَدَّرَهَا وَقَدَّرَ نَزُولَهُ فِيهَا، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةَ لَا يَجِئُونَ بِمِثْلِ يَضْرِبُونَهُ عَلَى جِهَةِ الْمَعَارِضَةِ مِنْهُمْ إِلَّا جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ وَالْجَلِيَّةِ، ثُمَّ هُوَ أَحْسَنُ تَفْسِيرًا، وَأَفْصَحُ بَيَانًا، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ تَقْدِمُ تَفْسِيرَ نَظِيرِهِ، وَالْجُمْهُورُ: أَنَّ هَذَا الْمَشْيَ عَلَى الْوُجُوهِ حَقِيقَةٌ، وَقَدْ جَاءَ كَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]: / أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيْخَشُرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيه عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١) قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةُ رَبِّنَا، انْتَهَى.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۖ ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۖ ﴿٣٦﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ مَآيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۖ ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ۖ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُوهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُكْرًا ۖ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ۖ ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَةً أَفَأَن تَكُونَ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۖ ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۖ ﴿٤٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ الْآيَاتِ تَنْبِيْهِ لِكُفَارِ قَرِيْشٍ، وَتَوَعُّدٍ أَنْ يَجْلِبَ بِهِمْ مَا حَلَّ بِهِؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ؛ قَالَ قَتَادَةُ^(٢): أَصْحَابُ الرَّسِّ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: قَوْمَانِ أُرْسِلَ إِلَيْهِمَا شُعَيْبٌ، وَقَالَ وَهَبُ^(٣) بَنِ مِنْهُ، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ إِبْهَامٌ لَا يَغْلَمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّبَارُ: الْهَلَاكُ، وَالْقَرْيَةُ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ هِيَ: «سُدُومُ» مَدِينَةُ قَوْمِ لُوطَ، وَمَا لَمْ نَذْكُرْ تَفْسِيرَهُ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ لِلْفَاهِمِ الْمُتَّقِظِ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنََّّهُمْ إِذَا رَأَوْا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا عَلَى جِهَةِ الْاسْتِهْزَاءِ: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

قال *ص*: ﴿إِن يَتَخَذُونَكَ﴾ [إِنْ]^(٤) نَافِيَةٌ، جَوَابُ «إِذَا»، انْتَهَى، ثُمَّ أَنَسَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ...﴾ الْآيَةِ، الْمَعْنَى: لَا تَتَأَسَفْ عَلَيْهِمْ،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (٢١٠/٤)، والسيوطي (١٢٩/٥)، وعزاه لابن عساكر.

(٣) ذكره ابن عطية (٢١١/٤).

(٤) سقط في جـ.

ومعنى ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ أي: جعل هواه مطاعاً فصار كالإله. ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ أي: بل هم كالأنعام.

قلت: وعبرة الواحدي: ﴿إن هم﴾ أي: ما هم إلا كالأنعام، انتهى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُخْفِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآيَاتِ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل...﴾ الآية: مد الظل بإطلاق: هو ما بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس، ومن بعد مغيبها أيضاً وقتاً يسيراً؛ فإن في هذين الوقتين على الأرض كلها ظلاً ممدوداً.

﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي: ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ، لكنه جعل الشمس ونسخها إياه، وطردها له من موضع إلى موضع؛ دليلاً عليه مُبَيِّناً لوجوده ولوجه العبرة فيه، وحكى الطبري^(١) أنه: لولا الشمس لم يُعْلَمَنَّ أَنَّ الظل شيء، إذ الأشياء إنما تُعْرَفُ بأضدادها.

وقوله تعالى: ﴿قبضاً يسيراً﴾ يحتمل أن يريد، لطيفاً، أي: شيئاً بعد شيء، لا في مرة واحدة.

قال الداوودي: قال الضحَّاك: ﴿قبضاً يسيراً﴾ يعني: الظل إذا علت الشمس^(٢)، انتهى. قال الطبري^(٣): ووصف الليل باللباس من حيث يستر الأشياء ويغشاها، والسبات: ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضاً، فشبه النوم به، والنشور هنا: الإحياء، شبهة اليقظة به، ويحتمل أن يريد بالنشور وقت انتشار وتفرق، و﴿أناسياً﴾: قيل [هو]^(٤) جمع إنسان،

(١) ينظر: «الطبري» (٣٩٥/٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٤/٩) رقم (٢٦٣٩٨).

(٣) ينظر «الطبري» (٣٩٦/٩).

(٤) سقط في ج.

والياء المُشَدَّدَةُ بدل من النون في الواحد، قاله سيبويه، وقال المُبَرِّدُ: هو جمع إنسي، والضمير في ﴿صرفناه﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر، ويَعْضُدُ ذلك قوله: ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ۝٥٣ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٥ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٥٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾ مرج معناه: خَلَطَ.

قال ﴿ع^(١)﴾: والذي أقول به في معنى هذه الآية: أَنَّ المقصود بها التنبيه على قدرة الله تعالى في أَنَّ بَثَّ في الأرض مياهاً عذبة كثيرة، جعلها خلال الأجاج، وجعل الأجاج خلالها، كما هو مَرَّتِي تجد البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضَفَّتَيْهِ، وتجد الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج، وكُلُّ باقٍ على حاله ومطعمه؛ فالبحران: يراد بهما جميع الماء العذب، وجميع الماء الأجاج، والبرزخ والحجر هو ما بين البحرين من الأرض واليبس؛ قاله ﴿ع^(٢)﴾ الحسن، والفرات: الصافي اللذيذ المطعم، والأجاج أبلغ ما يكون من الملوحة.

٤٤ ب

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء / بشراً...﴾ الآية تعديد نِعَمٍ على الناس، والنسب: هو أَنَّ يجتمع إنسان مع آخر في أب وأُمٍّ، والصُّهْرُ هو تَوَاشُجُ المَنَاحِجِ، فقرابة الزوجة هم الأختان، وقربة الزوج هم الأحماء، والأصهار يقع عاماً لذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي: مُعِيناً؛ يعينون على رَبِّهِمْ غيرهم من الكفرة بطاعتهم للشيطان، وهذا تأويل مجاهد^(٣) وغيره، والكافر هنا اسم جنس، وقال

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٤/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٠/٩) برقم (٢٦٤٣٠)، وذكره ابن عطية (٢١٤/٤)، والسيوطي (١٣٦/٥)، وعزه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠١/٩) برقم (٢٦٤٣٥)، وذكره ابن عطية (٢١٥/٤)، والسيوطي (١٣٧/٥)، وعزه لابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

ابن عباس^(١): هو أبو جهل.

قال *ع^(٢): فيشبهه أن أبا جهل هو سبب الآية، ولكن اللفظ عام للجنس كله.

قلت: والمعنى: على دين ربّه ظهيراً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الظاهر فيه: أنه استثناءٌ مُنْقَطِعٌ، والمعنى: لكن مسؤولي ومطلوبو مَنْ شَاءَ أَنْ يَهْتَدِيَ وَيُؤْمِنَ، ويتخذ إلى رحمة ربّه طريق نجاة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَتَنَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (٥٩).

وقوله سبحانه: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾.

قال القشيري في «التحبير»: وإذا عَلِمَ العبدُ أَنَّ مولاهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، صَحَّ تَوَكُّلُهُ عَلَيْهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ قِيلَ: إِنَّ رَجُلًا كَتَبَ إِلَى آخِرِ أَنَّ صَدِيقِي فَلَانًا قَدْ مَاتَ، فَمِنْ كَثَرَةِ مَا بَكَيْتَ عَلَيْهِ ذَهَبَ بَصْرِي، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: الذُّنْبُ لَكَ حِينَ أَحْبَبْتَ الْحَيَّ الَّذِي يَمُوتُ، فَهَلَا أَحْبَبْتَ الْحَيَّ الَّذِي لَا يَمُوتُ حَتَّى لَا تَحْتَاجَ إِلَى الْبَكَاءِ عَلَيْهِ، انْتَهَى. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا كَرَّيْنِي أَمْرٌ إِلَّا تَمَثَّلَ لِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، قُلْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا» رواه^(٣) الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «السلح».

(١) أخرجه الطبري (٤٠٢/٩) برقم (٢٦٤٤٠)، وابن عطية (٢١٥/٤)، والسيوطي (١٣٧/٥)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٥/٤).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٠٩/١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وذكره الهندي في «كنز العمال» (١١٩ - ١٢٠) رقم (٣٤٢٤)، وعزاه لابن أبي الدنيا في «الفرج».

والبيهقي في «الأسماء» عن إسماعيل بن أبي فديك مرسلاً.

وعزاه لابن صصري في «أماليه» عن أبي هريرة.

وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمده﴾ أي: قل: سبحان الله وبحمده أي: تنزيهه واجب وبحمده أقول، وصح عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةً مَرَّةً غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١) فهذا معنى قوله: ﴿وسبح بحمده﴾ وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان الثقيلتين في الميزان، الحديث في البخاري وغيره^(٢).

ت*: وعن جَوَيرِئة - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: «مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتُ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»^(٣) رواه الجماعة إلا البخاري، زاد النسائي في آخره: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَذَلِكَ» وفي رواية له: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ» انتهى من «السلاح». وقوله سبحانه: ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾: وعيدٌ بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: «الرحمن»: يحتمل أن يكون: رفعه بإضمار مبتدأ، أي: هو الرحمن، ويحتمل أن يكون: بدلاً من الضمير في قوله: ﴿استوى﴾.

وقوله: ﴿فسئل به خبيراً﴾ [فيه تأويلان: أحدهما: فاسأل عنه خبيراً]^(٤) والمعنى: أسأل جبريلَ والعلماءَ وأهل الكتاب، والثاني: أن يكون المعنى كما تقول: لو لقيت فلاناً لقيت به البحرَ كرمًا، أي: لقيت منه، والمعنى: فاسأل الله عن كل أمر، وقال عِيَّاضُ فِي ١٤٥ «الشُّفَا» قال القاضي أبو بكر بن العلاء: المأمور بالسؤال غيرُ النبي ﷺ والمسؤول / الخبير هو النبي ﷺ انتهى.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٩٠/٤) كتاب الذكر والدعاء: باب التسييح أول النهار وعند النوم، حديث (٧٩/٢٧٢٦)، والترمذي (٥٥٦/٥) كتاب الدعوات: باب (١٠٤) حديث (٣٥٥٥)، والنسائي (٧٧/٣) كتاب السهو: باب نوع آخر من عدد التسييح، وابن ماجه (١٢٥١-١٢٥٢) كتاب الأدب: باب فضل التسييح، حديث (٣٨٠٨)، وأحمد (٣٢٤/٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٧)، وابن خزيمة (٧٥٣)، والبخاري في «شرح السنة» (٨٢/٣) بتحقيقنا.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) سقط في ج.

قال أبو حيان^(١): والظاهر تعلق به ﴿فاسأل﴾ وبقاء الباء على بابها، و﴿خبيراً﴾ من صفاته تعالى، نحو: لَقِيْتُ بَزِيدَ أَسَدًا، أي: أَنَّهُ الْأَسَدُ شَجَاعَةً، والمعنى: فاسأل الله الخبير بالأمور، انتهى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۖ﴾ ﴿١٠﴾ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١١﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ يعني أَنَّ كفار قريش قالوا: ما نعرف الرحمن إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ، وهو مُسَيَّلَمَةُ الْكُذَّابِ، وكان مُسَيَّلَمَةُ تَسْمَى بِالرَّحْمَنِ.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ هذا اللفظ ﴿نفوراً﴾ والبروج هي التي عَلِمَتْهَا الْعَرَبُ، وهي المشهورة عند اللغويين وأهل تعديل الأوقات، وكل برج منها على منزلتين وثلاث من منازل القمر التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۖ﴾ ﴿١٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١٣﴾.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ أي: هذا يَخْلُفُ هذا، وهذا يخلف هذا، قال مجاهد وغيره: ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ أي: يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تعالى على آلائه^(٢)، وقال عمر وابن عباس والحسن: معناه: لمن أراد أن يَذَّكَّرَ ما فاتته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه^(٣)، وقرأ حمزة^(٤) وحده: «يَذَّكَّر» بسكون الذال وضم الكاف، ثم لما قال تعالى: ﴿لمن أراد أن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جاء بصفات عباده الذين هم أهل التذكرة والشكور.

وقوله: ﴿الذين يمشون﴾. [خبر مبتدأ، والمعنى: وعباده حَقُّ عبادته هم الذين يمشون].

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٦/٤٦٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٦/٩، ٤٠٧) برقم (٢٦٤٥٨، ٢٦٤٥٩)، وذكره البغوي (٣/٣٧٥)، وابن عطية (٢١٧/٤)، والسيوطي (٥/١٣٩)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/٢١٨)، وابن كثير (٣/٣٢٤) عن ابن عباس، والسيوطي (٥/١٣٩)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد عن الحسن.

(٤) ينظر: «السبعة» (٤٦٦)، و«الحجة» (٥/٣٤٨)، و«العنوان» (١٤١)، و«إتحاف» (٢/٣١٠)، و«حجة القراءات» (٥١٣).

وقوله: ﴿يَمشُونَ﴾^(١) على الأرض عبارة عن عيشهم ومُدَّة حياتهم وَتَصَرُّفَاتِهِمْ، و﴿هَوْنًا﴾ بمعنى أَنَّ أمرهم كله هَيِّنٌ، أي: لَيْسَ حسن؛ قال مجاهد^(٢): بالحلم والوقار. وقال ابن عباس^(٣): بالطاعة والعَفَاف والتواضع، وقال الحسن^(٤): حُلَمَاء، إِنَّ جُهْلَ عليهم لم يجهلوا.

قال الثعالبي: قال الحسن^(٥): يمشون حلماء علماء مثل الأنبياء، لا يؤذون الذرَّ في سكونٍ وتواضع وخشوع، وهو ضدُّ الْمُخْتَالِ الفخور الذي يختال في مشيه، اهـ. قال عياض في صفة نبيِّنا محمد ﷺ: يخطو تكفُّؤاً^(٦)، ويمشي هوناً، كأنما ينحطُّ من صيب، انتهى من «الشفاء».

قال أبو حيان^(٧): ﴿هَوْنًا﴾: نعت لمصدر محذوف، أي: مشياً هوناً، أو حال، أي: هَيِّنِينَ، انتهى، وروى الترمذي عن ابن مسعود أَنَّ النبي ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ، هَيِّنٍ، سَهْلٍ»^(٨)، قال أبو عيسى: هذا

(١) سقط في جـ.

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٧/٩) برقم (٢٦٤٦١)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٤)، والسيوطي (١٤٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٨/٩) برقم (٢٦٤٦٩)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٤) والسيوطي (١٤٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٤٠٨/٩) برقم (٢٦٤٧٤)، وذكره البغوي (٣٧٥/٣)، وابن عطية (٢١٨/٤)، والسيوطي (١٤١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن.

(٥) أخرجه الطبري (٤٠٨/٩) برقم (٢٦٤٧٦)، وذكره البغوي (٣٧٥/٣)، وابن عطية (٢١٨/٤).

(٦) أي تمايل إلى قدام. ينظر: «النهاية» (١٨٣/٤).

(٧) ينظر: «البحر المحيط» (٤٦٩/٦).

(٨) أخرجه الترمذي (٦٥٤/٤) كتاب صفة القيامة: باب (٤٥) حديث (٢٤٨٨)، وأحمد (٤١٥/١)، وأبو يعلى (٤٦٧/٨) برقم (٥٠٥٣)، وابن حبان (١٠٩٦، ١٠٩٧- موارد)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١١)، والطبراني في «الكبير» (٢٨٥/١٠) برقم (١٠٥٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/٥٣٥-٥٣٦) برقم (١١٢٥١، ١١٢٥٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/٤٨٠- بتحقيقنا) كلهم من طريق هشام بن عروة عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمرو الأودي عن ابن مسعود مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وصححه ابن حبان.

وللحديث طريق آخر:

فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١٠٨/٢): سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه مصعب بن عبد الله =

حديث حسن، انتهى.

﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ العامل في ﴿سلاماً﴾ ﴿قالوا﴾، والمعنى: قالوا هذا اللفظ، وقال مجاهد^(١): معنى ﴿سلاماً﴾: قولاً سداداً، أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفقٍ ولينٍ، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فَنُسخَ منها ما يَخُصُّ الكَفَرَةَ، وَبَقِيَ أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة، قال صاحب «الحكم الفارقة»: إذا نازعك إنسان فلا تجبه؛ فإنَّ الكلمة الأولى أنثى وإجابتها فحلها، فإنَّ أمسكت عنها بترتها وقطعت نسلها، وإنَّ أجبتها ألقتها، فكم من نسل مذموم يتولد بينهما في ساعة واحدة، انتهى.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة، قال الحسن: لما [فرغ من]^(٢) وصف نهارهم، وَصَفَ في هذه ليلهم^(٣)، و﴿غراماً﴾: معناه: ملازماً ثقيلاً، و﴿مقاماً﴾: من الإقامة، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ أَلْحَاقَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَتْ / الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ، أَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ أَسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَتْ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ»^(٤)، رواه أبو داود،

= الزبيري عن أبيه عن هشام بن عروة عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ... فذكر الحديث قالوا: هذا خطأ، رواه الليث بن سعد وعبد بن سليمان عن هشام بن عروة عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمرو الأودي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ... وهذا هو الصحيح. (١) أخرجه الطبري (٤٠٩/٩)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٤)، والسيوطي (١٤٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والقرطبي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد.

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره ابن عطية (٢١٩/٤)، والسيوطي (١٤١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن.

(٤) أخرجه الترمذي (٦٩٩- ٧٠٠) كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في صفة أنهار الجنة، حديث (٢٥٧٢)، وابن ماجه (١٤٥٣/٢) كتاب الزهد: باب صفة الجنة، حديث (٤٣٤٠)، والنسائي (٨/ ٢٧٩) كتاب الاستعاذة: باب الاستعاذة من حر النار، وأحمد (١١٧/٣)، وأبو يعلى (٣٥٦/٦) رقم (٣٦٨٢)، وابن حبان (٢٤٣٣- موارد)، وابن أبي شيبة (٤٢١/١٠) رقم (٩٨٥٧)، والحاكم (١/ ٥٣٤- ٥٣٥)، وهناد بن السري في «الزهد» (١/ ١٣٣) رقم (١٧٣) كلهم من حديث أنس.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه أيضاً ابن حبان.

والنسائي، وابن ماجه، وابن جِبَّانَ في «صحيحه» بلفظ واحد، ورواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «السلام».

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا...﴾ الآية: عبارة أكثر المفسرين أن الذي لا يُسْرِفُ هو الْمُتَّقِي في الطاعة وإن أفرط، والمُسْرِفُ هو الْمُتَّقِي في المعصية وإن قَلَّ إنفاقه، وأنَّ الْمُقْتِرَ هو الذي يمنع حَقًّا عليه؛ وهذا قول ابن عباس^(١) وغيره، والوجه أن يقال: إنَّ النفقة في المعصية أمر قد حَظَرَت الشريعة قليله وكثيره، وهؤلاء الموصوفون مُنْزَهُونَ عن ذلك، وإثما التأديب بهذه الآية هو في نفقة الطاعات والمباحات، فأدب الشريعة فيها ألا يفرط الإنسان حتى يُضَيِّعَ حَقًّا آخر أو عيالاً ونحو هذا، وألاً يُضَيِّقَ أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشُّحِّ، والحَسَنُ في ذلك هو القوام، أي: المعتدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخير الأمور أوسطها؛ ولهذا ترك النَّبِيُّ ﷺ أبا بكر الصديق يَتَصَدَّقُ بِجَمِيعِ مَالِهِ؛ لأنَّ ذلك وَسَطٌ بنسبة جَلَدِهِ وَصَبْرِهِ في الدين، ومنع غيره من ذلك.

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين رَوَّجَه ابنته فاطمة: مَا تَفَقَّكَ؟ فقال له عمر: الْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ، ثم تلا الآية^(٢)، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشترأه فأكله^(٣). و﴿قواماً﴾: خبر ﴿كان﴾ واسمها مُقَدَّرٌ، أي: الإنفاق.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧٢﴾.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ الآية: في نحو هذه الآية قال ابن مسعود:

- (١) أخرجه الطبري (٤١١/٩) نحوه، وذكره البغوي (٣٧٦/٣) نحوه، وابن عطية (٢٢٠/٤) والسيوطي (٥/١٤٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٢) ذكره ابن عطية (٢٢٠/٤).
- (٣) ذكره البغوي (٣٧٦/٣)، وابن عطية (٢٢٠/٤)، والسيوطي (١٤٣/٥)، وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

قُلْتُ يَوْمًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ، خَشِيَّةٌ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ؛ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هذه ^(١) الآية والأثم في كلام العرب: العِقَابُ، وبه فُسِّرَ ابن زيد وقتادة هذه الآية.

قال *ع^(٢): ﴿يضاعف﴾: بالجزم بدل من ﴿يلتق﴾ قال سيبويه: مضاعفة العذاب هو لقي الأثم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل، وقد تقدم بيان ذلك في «سورة النساء».

وقوله سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: بأن يجعل أعمالهم بَدَل معاصيهم الأوْلَى طاعةً؛ قاله ابن عباس ^(٣) وغيره، ويحتمل أن يكون ذلك في يوم القيامة، يجعل بدل السيئات الحسنات تَكْرُمًا منه سبحانه وتعالى؛ كما جاء في «صحيح مسلم» ^(٤)، وهو تأويل ابن المُسَيَّب.

*ص: ﴿وَالأوْلَى﴾: ويحتمل أن يكون الاستثناء هنا مُنْقَطِعًا، أي: لكن مَنْ تَاب

(١) حديث: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».

أخرجه البخاري (١٣/٨) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ حديث (٤٤٧٧)، وفي (٨/ ٣٥٠-٣٥١). كتاب التفسير: باب ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، حديث (٤٧٦١)، وفي (١٠/٤٤٨) كتاب الأدب: باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، حديث (٦٠٠١)، وفي (١٢/١١٦) كتاب الحدود: باب إثم الزناة، حديث (٦٨١١)، وفي (١٢/١٩٤)، كتاب الديات: باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾، حديث (٦٨٦١)، وفي (١٣/ ٤٩٩-٥٠٠) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾، حديث (٧٥٢٠)، وفي (١٣/٥١٢)، حديث (٧٥٣٢).

ومسلم (١/ ٩٠-٩١) كتاب الإيمان: باب كون الشرك أقبح الذنوب، حديث (٨٦/١٤١)، وأبو داود (١/٧٠٥)، كتاب الطلاق: باب في تعظيم الزنا، حديث (٢٣١٠)، والترمذي (٥/٣٣٦) كتاب التفسير: باب «ومن سورة الفرقان»، حديث (٣١٨٢) والنسائي (٧/٨٩) كتاب تحريم الدم: باب ذكر أعظم الذنب، حديث (٤٠١٣). وأحمد (١/٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٦٢، ٤٦٤)، والطبراني (٣/ ٤-منحة) وأبو عوانة (١/٥٦)، وأبو نعيم (٤/١٤٥)، والبيهقي (٨/١٨) كتاب الجنائيات: باب قتل الولدان، من حديث ابن مسعود.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٢١).

(٣) أخرجه الطبري (٩/٤١٨) برقم (٢٦٥٢٧) بنحوه، وذكره البيهقي (٣/٣٧٧) وابن عطية (٤/٢٢١)، والسيوطي (٥/١٤٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) تقديم تخريجه.

وَأَمِنْ، وعمل عملاً صالحاً فأولئك يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، انتهى. ثم أَكَّدَ سبحانه أمر التوبة، ومدح المتاب فقال: «ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً» كأنه قال: فإنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً، ثم استمرت الآيات في صفة عباد الله المؤمنين بأن نَفَى / عنهم شهادة الزور، و﴿يشهدون﴾ في هذا الموضع ظاهر، معناها: يُشَاهِدُونَ ١٤٦ وَيَحْضُرُونَ، والزور: كل باطل زُورٌ، وأعظمه الشرك، وبه فسر الضحَّاك^(١)، ومنه الغناء، وبه فُسِّرَ مجاهد^(٢)، وقال عليٌّ وغيره: معناه لا يشهدون بالزور، فهي من الشهادة لا من المشاهدة، والمعنى الأول أعم. واللغو: كل سَقَطَ من فعل أو قول، وقال الثعالبي: اللغو كل ما ينبغي أن يطرح ويُلعَى، انتهى. و﴿كراماً﴾ معناه: معرضين مستحيين، يتجافون عن ذلك، ويصبرون على الأذى فيه.

قال ع^(٣): * : وإذا مرَّ المسلم بمنكر فكَرَّمَهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ، وحدود التغير معروفة.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٣) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٤) ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا غِيَّاتُ سَلَامٍ وَكُلُّهُمْ فِيهَا مِنْ مُّقَنَّنَاتٍ﴾ (٧٥) ﴿وَمُقَامًا﴾ (٧٦).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يريد: ذُكِّرُوا بالقرآن أمر آخرتهم ومعادهم.

وقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما: أن يكون المعنى: لم يكن خُرُورُهم بهذه الصفة؛ بل يكونوا سَجْدًا وَبُكْيًا، وهذا كما تقول: لم يخرج زيد إلى الحرب جزعاً، أي: إنما خرج جريئاً مَقْدَمًا، وكأنَّ الذي يَخِرُّ أَصَمُّ أَعْمَى هو المنافق أو الشَّاكُّ، والتأويل الثاني: ذهب إليه الطبري^(٤) وهو أن: يَخِرُّوا صُمًّا وَعُمْيَانًا، هي صفة للكفار، وهي عبارة عن إعراضهم.

وقال الفراء: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾، أي: لم يقيموا، وهو نحو تأويل الطبري، انتهى. وقال

(١) أخرجه الطبري (٤٢٠/٩) برقم (٢٦٥٣٦)، وذكره البغوي (٣/٣٧٨)، وابن عطية (٤/٢٢٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٢٠/٩) برقم (٢٦٥٣٨)، وذكره ابن عطية (٤/٢٢٢) والسيوطي (٥/١٤٨)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «دم الغضب»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٢٢).

(٤) ينظر: «الطبري» (٩/٤٢٣).

ابن العربي في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾.

قال علماؤنا: يعني الذين إذا قرأوا القرآن قرأوه بقلوبهم قراءة فهم وتثبيت، ولم يثيروه نثر الدقل، فإن المرور عليه بغير فهم ولا تثبيت صمم وعمى، انتهى. وقراءة العين: من القر وهذا هو الأشهر؛ لأن دمع السرور بارد، ودمع الحزن سخن؛ فلهذا يقال: أقر الله عينك، وأسخن الله عين العدو، وقرة العين في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تعالى؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما^(٢)، وبين المقداد بن الأسود الوجه من ذلك بأنه كان في أول الإسلام يهتدي الأب، والابن كافر، أو الزوج والزوجة كافرة، فكانت قرة أعينهم في إيمان أحبابهم.

﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ أي: اجعلنا يأتهم بنا المتقون، وذلك بأن يكون الداعي متقياً قدوة، وهذا هو قصد الداعي، قال النخعي: لم يطلبوا الرياسة، بل أن يكونوا قدوة في الدين، وهذا حسن أن يطلب ويسعى له^(٣).

قال الثعلبي: قال ابن عباس: المعنى: واجعلنا أئمة هدى^(٤)، انتهى، وهو حسن، لأنهم طلبوا أن يجعلهم أهلاً لذلك. والغرفة من منازل الجنة وهي الغرفة فوق^(٥) الغرف، وهي اسم جنس؛ كما قال: [من الهزج]

وَلَوْ لَا الْحَبَّةُ السَّمَرَا ءَلَمْ نَخْلُلْ بِوَادِ يَكُم

ت: وأخرج أبو القاسم، زاهر بن طاهر بن محمد بن الشحامي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا لَيْسَ لَهَا مَعَالِيقُ مِنْ فَوْقِهَا وَلَا عِمَادٌ مِنْ تَحْتِهَا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَدْخُلُهَا أَهْلُهَا؟ قَالَ: يَدْخُلُونَهَا أَشْبَاهُ الطَّيْرِ، قِيلَ: هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ؟ قَالَ: هِيَ لِأَهْلِ / الْأَسْقَامِ وَالْأَوْجَاعِ وَالْبَلَوَى^(٦)». انتهى من ٤٦ ب «التذكرة». وقرأ حمزة^(٧) وغيره: «يَلْقَوْنَ» بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٣٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢٢٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٤/٢٢٢).

(٤) أخرجه الطبري (٩/٤٢٥) برقم (٢٦٥٦٢)، وذكره السيوطي (٥/١٤٩)، وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٥) في ج: الغرفة فوق فوق الغرف.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/١٥٠)، وعزاه إلى زاهر بن طاهر الشحامي عن أنس.

(٧) وقرأ بها الكسائي وأبو بكر.

﴿قُلْ مَا يَعْجُزُا يَكُورِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (٧٧).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُا بَكُمْ﴾ الآية، ما نافية وتحتمل التقرير، ثم الآية تحتمل أن تكون خطاباً لجميع الناس، فكأنه قال لقريش منهم: ما يبالي الله بكم، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه، أن لو كانت، إذ ذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال النقاش وغيره: المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد، وقرأ ابن الزبير^(١) وغيره: «فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ» وهذا يؤيد أن الخطاب بما يعبأ هو لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتهم، ولم تعبدوه فسوف يكون العذاب أو التكرذيب الذي هو سبب العذاب لزاماً، ويحتمل أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش [خاصة]^(٢) وقال الداوودي: وعن ابن عُيَيْنَةَ: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ معناه: لولا دعاؤكم إيَّاه لتطيعوه، انتهى، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): زعم بعض الأدباء أن «لولا دعاؤكم» معناه: لولا سؤالكم إياه وطلبكم منه، ورأى أنه مصدر أضيف إلى فاعل، وليس كما زعم؛ وإنما هو مصدر أضيف إلى مفعول، والمعنى: قل يا محمد للكفار: لولا دعاؤكم بيعتكم الرسول إليكم وتبين الأدلة لكم فقد كذبتهم؛ فسوف يكون لزماً؛ ذكر هذا عند قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. في آخر سورة النور، انتهى.

ت والحق أن الآية محتملة لجميع ما تقدم، ومن ادعى التخصيص فعليه بالدليل، والله أعلم.

ويعبأ: مشتق من العِبَاءِ وهو الثَقْلُ الذي يُعْبَأُ ويرتب كما يعبأ الجيش.

= وحجتهم قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، [مريم: ٥٩]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

وحجة الباقي قوله: ﴿وَلَقَاهُمْ نَصْرٌ وَسُرُورٌ﴾ [الإنسان: ١١].

ينظر: «حجة القراءات» (٥١٥)، و«السبعة» (٤٦٨)، و«الحجة» (٣٥٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٢/١٢٨)، و«معاني القراءات» (٢/٢٢١)، و«شرح الطيبة» (٩٨/٥)، و«العنوان» (١٤١)، و«حجة القراءات» (٥١٥)، و«شرح شملة» (٥٣٠)، و«إتحاف» (٢/٣١١).

(١) وقرأ بها ابن عباس.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٧، و«المحتسب» (٢/١٢٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/٤٧٥)، وزاد نسبتها إلى عبد الله بن مسعود.

(٢) سقط في ج.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤١١).

قال الثعلبي: قال أبو عبيدة: يقال: ما عَبَأْتُ به شيئاً، أي: لم أَعُدَّهُ شيئاً فوجوده وعدمه سواء، انتهى.

وقال العراقي: ﴿ما يعبأ﴾ أي: ما يبالي، انتهى. [وأكثر الناس على أن اللزام المشار إليه هو يوم بدر، وقالت فرقة: هو توعّد بعذاب الآخرة]^(١)، وقال ابن عباس: اللزام الموت^(٢)، وقال البخاري: ﴿فسوف يكون لزاماً^(٣)﴾ أي: هلكة، انتهى.

(١) سقط في جـ.

(٢) أخرجه الطبري (٤٢٨/٩) برقم (٢٦٥٨٤)، وذكره البغوي (٣/٣٨٠)، وابن عطية (٢٢٣/٤)، والسيوطي (١٥٠/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٥/٨) كتاب التفسير: باب ﴿فسوف يكون لزاماً﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ ٣ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةٌ فَقَلَّتْ ظَنَفُكُم مَّا خَضِعِينَ ٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿طَسَمَ * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ تقدم الكلام على الحروف التي في أوائل السور، والباخع: القاتل والمُهْلِكُ نَفْسَهُ بالهم، والخضوعُ للآية المنزلة إمّا لخوف هلاك كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإمّا لأجل الوضوح وبهر العقول، بحيث يقع الإذعان لها. والأعناق الجارحة المعلومة، وذلك أن خضوع العنق والرقبة هو علامة الذلة والانقياد.

وقيل: المراد بالأعناق جماعتهم؛ يقال: جاء عُتُقُ من الناس، أي: جماعة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون * أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم؟ تقدم تفسير / هذه الجملة فانظره في محلّه، وقوله تعالى: ﴿فسيأتيهم﴾ وعيد بعذاب الدنيا كبدر وغيرها، وعيد بعذاب الآخرة، والزوج: النوع والصنف، والكريم: الحسن المُتَقَنُّ قاله مجاهد^(١) وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ حتم على أكثرهم بالكفر، ثم توعدّ تعالى بقوله: ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي: عزيز في انتقامه من الكفار، رحيم بأوليائه المؤمنين.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَنقُوتُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٧﴾ وَيَصْبِيحُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ لِي هَذْرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَمْ يَكُنْ لِي دَلِيلٌ فَآخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٩﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَادْهَبَا بِأَهْلِيكَمَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ سِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٥﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَى﴾ التقدير: واذكر إذ نادى ربك موسى، وسوق هذه القصة تمثيل لكفار قريش في تكذيبهم النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ معناه: يعينني ﴿ولهم علي ذنب﴾ يعني قَتْلَهُ الْقِبْطِيِّ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أي: لا تخف ذلك، وقول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ هو على جهة المَنِّ عليه والاحتقار، أي: رَبَّيْنَاكَ صَغِيرًا، ولم نقتلك في جملة مَنْ قَتَلْنَا ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾: فمتى كان هذا الذي تدعيه، ثم قرره على قتل القبطي بقوله: ﴿وفعلت فعلتك﴾ والفعلَةُ - بفتح الفاء -: المَرَّةُ، وقوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يريد: وقتلت القبطي وأنت في قتلك إياه من الكافرين؛ إذ هو نَفْسٌ لا يحلُّ قتلها؛ قاله الضَّحَّاكُ^(١)، أو يريد: وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ: بنعمتي في قتلك إياه؛ قاله ابن زيد^(٢)؛ ويحتمل أن يريد: وَأَنْتَ الْآنَ مِنَ الْكَافِرِينَ بنعمتي، وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبيًا إلى فرعون - أَحَدَ عَشَرَ عامًا غير أشهر.

وقوله: ﴿قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا﴾: من كلام موسى عليه السلام والضميرُ في قوله: ﴿فَعَلْتَهَا﴾ لِقَتْلِهِ الْقِبْطِيِّ. وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: من الجاهلين بأنَّ وكزتي إياه تأتي على نفسه^(٣)، وقال أبو عبيدة: معناه: من الناسين، ونزع بقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس^(٤): ﴿وَأَنَا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير، و﴿حُكْمًا﴾ يريد: التَّوْبَةُ وحكمتها.

(١) ذكره ابن عطية (٢٢٧/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٤٣٦/٩) برقم (٢٦٦٠٥)، وذكره ابن عطية (٢٢٧/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٣٧/٩) برقم (٢٦٦١١)، وذكره ابن عطية (٢٢٨/٤).

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٧، و«المحرر الوجيز» (٢٢٨/٤)، و«البحر المحيط» (١١/٧)، و«الكشاف» (٣٠٥/٣).

وقوله: ﴿وجعلني من المرسلين﴾ درجة ثانية للثبوت، فرب نبي ليس برسول..

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ﴾ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رِجْزُ رَبِّ أَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمُ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِمَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْا حِجَّتَكَ بِشَيْءٍ مُّبينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾.

وقوله: ﴿وتلك نعمة تمنها علي﴾ الآية: قال قتادة: هذا من موسى على جهة الإنكار على فرعون^(١) كأنه يقول: أو يصح لك أن تعد علي نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي: ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلني ولا تقتلهم^(٢)، ولا تستعبدهم، وقرأ الضحاك^(٣): «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مَا لَكَ أَنْ تَمُنَّهَا عَلَيَّ» وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وقال الطبري^(٤) والسدي: هذا الكلام من موسى عليه السلام علي جهة الإقرار بالنعمة كأنه يقول: نعم^(٥)، وتريبتك نعمة علي؛ من حيث عبّدت غيري وتركتني، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي، ولما لم يجد فرعون حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله: ﴿وما

٤٧ ب رب العالمين﴾ واستفهمه استفهاماً فقال موسى / هو ﴿رب السموات والأرض...﴾ الآية، فقال فرعون^(٦) عند ذلك: ﴿ألا تستمعون﴾: على معنى الإغراء والتعجب من شناعة المقالة [إذ]^(٧) كانت عقيدة القوم؛ أنّ فرعون ربّهم ومعبودهم، والفراغة قبله كذلك، فزاده موسى في البيان بقوله: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ فزاده موسى في بيان الصفات التي تُظهر نقص فرعون، وتبين أنّه في غاية البعد عن القدرة عليها، وهي ربوبية المشرق والمغرب، ولم يكن لفرعون إلا ملك مصر، ولما انقطع فرعون في باب الحجة، رجع إلى الاستعلاء والتغلب فقال لموسى: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ وفي

(١) في ج: فرعون لعنه الله.

(٢) في ج: ولا تقتلهم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٨/٤)، و«البحر المحيط» (١١/٧).

(٤) ينظر: «الطبري» (٤٣٨/٩).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٢٨/٤).

(٦) في ج: فرعون لعنه الله.

(٧) سقط في ج.

توعده بالسجن ضَعْف؛ لَأَنَّهُ خَارَت طَبَاعُهُ مَعَهُ، وَكَانَ فِيهِمَا رُوي أَنَّهُ يَفْزَعُ مِنْ مُوسَى فِرْعَاوَنَ شَدِيداً حَتَّى كَانَ لَا يُمَسِّكُ بَوْلَهُ، وَكَانَ عِنْدَ مُوسَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ مَا لَا يَفِرُّهُ تَوَعُّدُ فِرْعَوْنَ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَى جِهَةِ اللَّطْفِ بِهِ وَالطَّمَعِ فِي إِيْمَانِهِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾: يَتَضَحَّحُ لَكَ مَعَهُ صَدَقِي، فَلَمَّا سَمِعَ فِرْعَوْنَ ذَلِكَ طَمَعَ أَنْ يَجِدَ أَثْنَاءَهُ مَوْضِعَ مَعَارِضَةٍ فَقَالَ لَهُ: ﴿فَأَتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانَهُ وَ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ مِنْ جِيبِهِ ﴿فَإِذَا هِيَ﴾: تَتَلَأَلُ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنَ الشَّمْسِ، فَلَمَّا رَأَى فِرْعَوْنَ ذَلِكَ هَالِكاً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ مَدْفَعٌ غَيْرَ أَنَّهُ فَرَعَ إِلَى رَمِيهِ بِالسَّحَرِ.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّينِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧) ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لَيْلَتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ﴾ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿لَعَلَّآ تَنفَعُ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (٣٩) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرِبِينَ﴾ (٤١) ﴿قَالَ هُمْ مُوسَى أَقْنُوا مَا أَنْتُمْ مُقْتُلُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَأَقْنُوا جَاهِلَهُمْ وَعَصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٤).

وقوله: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ تقدم بيانه، وكذلك قوله: ﴿وابعث في المداين حاشرين﴾ * يأتوك بكل سحار عليم تقدم بيانه.

وقوله تعالى: ﴿قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين﴾ يريد بتقريبهم الجاه الزائد على العطاء الذي طلبوه.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنَاتِ فِرْعَوْنَ﴾ (٤٥) ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٦) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٧) ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٨) ﴿قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مَقْلَبُونَ﴾ (٤٩) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَجَمِّعِينَ﴾ (٥١) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٢) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٣) ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَايُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَأِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (٥٥) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَارِيرٍ كَرِيمٍ﴾ (٥٦) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٧) ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَقِيبِينَ﴾ (٥٨) ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (٥٩) ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٠) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦١) ﴿وَأَرْزَقْنَاهُمْ مِمَّا فِي الْبَحْرِ وَنَعَّمْنَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٦٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعَزُّهُمُ الرَّحِيمُ﴾ (٦٥).

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السِّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون ﴿تقدم بيان هذه الجملة، والحمد لله فانظره في محلّه؛ قال ابن العربي^(١) في «أحكامه»: قال مالك: دعا موسى فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأنّ السحرة آمنوا في يوم واحد، انتهى، وقولهم: ﴿لا ضير﴾ أي: لا يضرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله ورضوانه، وقولهم: ﴿أن كنا أول المؤمنين﴾ يريدون: من القبط وصنيفتهم، وإلا فقد كانت بنو إسرائيل آمنت، والشّرذمة: الجمع القليل المُحتَقَر، وشردمة كل شيء: بَقِيَّتُهُ الخسيسة.

وقوله: ﴿لَغَائِظُونَ﴾ يريد بخلافهم الأمر وبأخذهم الأموال عارية و﴿حَازِرُونَ﴾ جمع حَزَرَ، والضمير في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ عائد على القِطِطِ، والجنات والعيون بحافتي النيل من أسوان إلى رشيد؛ قاله ابن عمر^(٢) وغيره، والمقام الكريم: قال ابن لهيعة: هو الفيوم، وقيل: هو المنابر، وقيل: مجالس الأمراء والحُكّام، وقيل: / المساكن الحسان، ١٤٨ و﴿مَشْرِقِينَ﴾ معناه: عند شروق الشمس، وقيل: معناه: نحو المشرق، والطّود: هو الجبل، و﴿أَزْلَفْنَا﴾ معناه: قَرَّبْنَا، وقرأ ابن عباس^(٣): «وَأَزْلَفْنَا» بالقاف.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾.

﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم...﴾ الآية: هذه الآية تضمنت الإعلام بغيب، والعكوف: اللزوم.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٣٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢٣٢).

(٣) وقرأ بها أبي، وعبد الله بن الحارث.

قال أبو الفتح: ومن قرأ بالقاف فـ «الآخرون»: فرعون، وأصحابه. أي: أهلكنا ثم الآخرين، أي: فرعون وأصحابه.

ينظر: «المحتسب» (٢/١٢٩)، و«مختصر الشواذ» ص ١٠٨، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٣٣)، و«البحر المحيط» (٧/٢٠)، و«الدر المصون» (٥/٢٧٦).

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قالت فرقة: هو استثناء مُتَّصِلٌ، لأنَّ في الآباء الأقدمين مَنْ قد عبد الله تعالى، وقالت فرقة: هو استثناء مُنْقَطِعٌ؛ لأنَّه إِنَّمَا أَرَادَ عِبَادَ الأوثان من كل قرن منهم، وأسند إبراهيم عليه السلام المَرَضَ إلى نفسه والشفاء إلى ربه عز وجل، وهذا حُسْنُ أدب في العبارة، والكل من عند الله، وأوقف عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة، وهذا دليل على شِدَّةِ خوفه مع عُلُوِّ منزلته عند الله، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ زَارَ أَخاً [لَهُ]»^(١) في الله - نَادَاهُ مُنَادٍ: أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْسَاكَ، وَتَبَوَّاتِ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزَلاً»^(٢)، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حَسَنٌ، انتهى. وفي «صحيح مسلم» عن ثوبان مولى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَزَلْ فِي خُزْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا خُزْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا»^(٣) انتهى، وعنه ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَخْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ^(٤) أَنْ يَشْفِيكَ - إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ»^(٥) خرجه أبو داود، والترمذي، والحاكم في «المُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحِينَ» بالإسناد الصحيح، انتهى من «حلية النووي»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَخْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَ رَأْسِهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ - أَنْ يَشْفِيكَ - إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ»^(٦). رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي والنسائي والحاكم وابن جِبَّان في «صحيحيهما» بمعناه، وقال الحاكم: صحيحٌ على شرط الشيخين، يعني: البخاري ومُسْلِمًا، وفي رواية النسائي وابن جِبَّان: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَادَ الْمَرِيضَ، جَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ»، فَذَكَرَ مِثْلَهُ بمعناه انتهى من «السلام».

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٥/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في زيارة الإخوان، حديث (٢٠٠٨)، وابن ماجه (٤٦٤/١) كتاب الجنائز: باب ما جاء في ثواب من عاد مريضاً، حديث (١٤٤٣). كلاهما من طريق أبي سنان القسملبي عن عثمان بن أبي سودة عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٨٩/٤) كتاب البر والصلة: باب فضل عيادة المريض، حديث (٢٥٦٨/٤٢).

(٤) في ج: رب العرش الكريم.

(٥) أخرجه أبو داود (٢٠٤/٢) كتاب الجنائز: باب الدعاء للمريض عند العيادة، حديث (٣١٠٦)،

والترمذي (٤١٠/٤) كتاب الطب: باب (٣٢) حديث (٢٠٨٣)، والحاكم (٣٤٢/١) من حديث ابن عباس. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. وصححه النووي في «الأذكار» (ص - ١٦٧).

(٦) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿خَطِيئَتِي﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى: أنه أراد كَذِبَاتِهِ الثلاث، قوله: هي أختي في شأن سارة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقالت فرقة: أراد بالخطيئة اسم الجنس، فدعا في كل أمره من غير تعيين.
قال ع^(١): * : وهذا أظهر عندي.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِأَيِّئٍ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُنْفِقِينَ (٩٠) وَبُرَزْتُ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبَّكُوا فِيهَا لَهُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَخُودٌ إِلَّا لَيْسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ تُسَوِّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَديقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ (١٠٦).

وقوله: ﴿رب هب لي حكماً﴾: أي حكمةً ونبوءةً، ودعاؤه في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام، ولسان الصّدق: هو الثناء الحسن، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن يتبين له أنه عدوّ لله.

وقوله: ﴿بقلب سليم﴾ معناه: خالص من الشرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة، وإن ٤٨ ب كانت مباحة؛ كالمال والبنين؛ قال سفيان هو الذي يَلْقَى رَبَّهُ / وليس في قلبه شيء غيره.

قال ع^(٢): * : وهذا يقتضي عموم اللفظة، ولكنّ السليم من الشرك هو الأهم، وقال الجُنَيْدُ: بقلب [لديغ من خشية الله، والسليم: اللديغ].

* ص: * : ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ الظاهر أنه استثناء منقطع، أي: لكن مَنْ أَتَى اللَّهَ بقلب﴾^(٣) سليم، نفعته سلامة قلبه، انتهى. ﴿وأزلفت﴾ معناه: قُرِبَتْ، والغاؤون الذين بُرَزَتْ لهم الجحيم هم: المشركون، ثم أخبر سبحانه عن حال يوم القيامة من أنّ الأصنام تُكَبَّكُ في النار، أي: تُلقَى كَبَّةً واحدة.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٣٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٣٥).

(٣) سقط في ج.

وقال *ص*: ﴿فَكَبِكُوا﴾، أي: قُلِّبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وحروفه كلها أصول عند جمهور البصريين، وذهب الزَّجَّاج وابن عطية وغيرهما إلى أَنَّهُ مضاعف الباء من «كَبَّ».

وقال غيرهما: وجعل التَّكْرِيرَ من اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، وذهب الكوفيون إلى: أَنَّ أصله «كَبَّ» والكاف بدلٌ من الباء^(١)، الثانية، انتهى. والغاوون: الكفرة الذين شملتهم الغواية وجنود إبليس: نَسَلُهُ وكل مَنْ يتبعه؛ لأنَّهم جند له وأعوان، ثم وصف تعالى أَنَّ أهل النار يختصمون فيها ويتلاومون قائلين لأَصْنَامِهِمْ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: في أَنَّ نعبدكم ونجعلكم سواءً مع الله الذي هو رب العالمين، ثم عطفوا يَرُدُّون الملامة على غيرهم، أي: ما أضلَّنَّا إِلَّا كِبْرَاؤُنَا وأهل الجرم والجراءة، ثم قالوا على جهة التلهف والتأسف حين رأوا شفاعَةَ الملائكة والأنبياء والعلماء نافعةً في أهل الإيمان عموماً، وشفاعةُ الصَّديق في صديقه خصوصاً: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صديق حميم، والحميم: الوليُّ والقريب الذي يَخْصُصُك أمره وتخصه أمرك، وحامَّة^(٢) الرجل خاصَّته، وباقي الآية بيِّن.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَالِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا نُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤَيِّنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧)

(١) قال الزمخشري: الكَبْكَبَةُ تكرير الكَبَّ وجعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى. وقال ابن عطية نحواً منه قال: وهو الصحيح لأن تكرير الفعل بيِّن نحو صَرَ وَصَرَّصَرَ. وهذا هو مذهب الزَّجَّاج وفي هذا البناء ثلاثة مذاهب:

أحدها: هذا.

والثاني: هو مذهب البصريين أن الحروف كلها أصول.

والثالث: وهو قول الكوفيين أن الثالث مبدل من مثل الثاني فأصل كَبَّكَ كَبَّ بثلاث باءات ومثله لَمَلَمَ وكَفَكَفَ هذا إذا صح المعنى بسقوط الثالث فأما إذا لم يصح المعنى بسقوطه كانت كلها أصولاً من غير خلاف نحو سَمِسَمَ وَخَمَخَمَ، وواو «كَبِكُوا» قيل: للأَصْنَامِ إجراء لها مجرى العقلاء وقيل لعباديتها قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ جملة حالية معترضة بين القول ومعوله الجملة القَسَمِيَّةُ «إِنْ كُنَّا لَفِي» ومذهب البصريين أَنَّ إِنْ مخففة واللام فارقة ومذهب الكوفيين أَنَّ إِنْ نافية واللام بمعنى إِلَّا.

ينظر: «الدر المصون» (٢٨٠/٥).

(٢) في ج: حماة.

فَأَفْتَحَ بَنِي وَيْسَهُمْ فَتَمَّ وَجَّيَ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجْنَحَتْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾.

وقول نوح عليه السلام: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي: أمين على وحي الله ورسالته.

ص: ﴿قرأ الجمهور^(١)﴾ «وَأَتَّبَعَكَ» والجملة حال، أي وقد اتبعك، ويعقوب^(٢): «وَأَتَّبَاعُكَ»، وعن اليماني^(٣): «وَأَتَّبَاعُكَ» بالجر؛ عطفاً على الضمير في «لك» انتهى، و﴿الأردلون﴾: جمع الأرذل، ولا يستعمل إلا مَعْرُفًا أو مضافاً، أو بمن.

قال *ع*^(٤): ويظهر من الآية [أَنْ]^(٥) مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم لا النظر في صنائعهم، وذهب أشراف قوم نوح في استنقاصهم ضَعْفَةَ المؤمنين مَذْهَبَ كُفَّارِ قَرِيشٍ في شأنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ. وَصُهَيْبِ وَبِلَالٍ وَغَيْرِهِمْ، وقولهم: ﴿من المرجومين﴾ يحتمل أَنْ يريدوا بالحجارة أو بالقول والشتيم، وقوله: ﴿افتح﴾ معناه: احكم، والفتاح، القاضي بلغة يَمَانِيَّةٍ، و﴿الْفُلْكَ﴾: السفينة، و﴿المشحون﴾ معناه: المملوء.

﴿أَتَيْنُونَ كُلَّ رِجْعٍ مَائَةً نَعْتُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَنَجِدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَحَنْتٍ وَعْيُونَ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَلَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ ﴿١٣٥﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٩﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٤١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٣٠/٧).

(٢) وقرأ بها عبد الله، وابن عباس، وأبو حيو، والضحاك، وطلحة، وابن السميع، وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري.

ينظر: «المحتسب» (١٣١/٢)، و«البحر المحيط» (٣٠/٧)، و«الدر المصون» (٢٨٠/٥).

(٣) ينظر: «الدر المصون» (٢٨١/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣٧/٤).

(٥) سقط في ج.

وقول هود عليه السلام لقومه: ﴿أَتنبئون﴾ هو على جهة التوبيخ، والرَّيْعُ: المرتفع من الأرض وله في كلام العرب شواهد، وعَبَّرَ المفسرون عن الريع بعبارات، وجملة ذلك أنه المكان المشرف، وهو الذي يتنافس البشر في مبانيه، والآية: البنيان؛ قال ابن عباس: آية علم^(١).

وقال مجاهد: أبراج الحمام^(٢)، وقيل: القصور الطوال، والمصانع جمع مصنع وهو ما صُنِعَ وَأُتِقِنَ في بنيانه من قصر مَشِيد ونحوه، قال البخاري: كل بناء مصنعة، انتهى.

وقوله: ﴿لعلكم تخلدون﴾ أي: كأنكم تخلدون / وكذا نقله البخاري عن ابن عباس ١٤٩ غير مسند، انتهى. والبطش: الأخذ بسرعة، والجبار: الْمُتَكَبِّرُ، ثم ذكَّره عليه السلام بأياد الله تعالى فيما منحهم، وحذَّره من عذابه، فكانت مراجعتهم أن سوا بين وعظه وتركه الوعظ، وقرأ نافع^(٣) وغيره: «خُلِقَ الْأَوَّلِينَ» - بضم اللام - فالإشارة بهذا إلى دينهم، أي ما هذا الذي نحن عليه إِلَّا خُلِقَ النَّاسُ وعادتهم، وقرأ ابن كثير^(٤) وغيره: «خُلِقَ» - بسكون اللام -، فيحتمل المعنى: ما هذا الذي تزعمه إِلَّا أخلاق الأولين من الكَذِبَةِ؛ فأنت على منهاجهم، وروى علقمة عن ابن مسعود،: إِلَّا اخْتِلَاقَ الْأَوَّلِينَ.

﴿أَتَتَّكِرُونَ فِي مَا هُنَّآ ءَامِنِينَ﴾ ١٤٦ ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٤٧ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْهَا هُضَيْمٌ﴾ ١٤٨ ﴿وَنَجَّاتٍ مِنَ الْجِبَالِ يُّرْسًا فَرِهِينَ﴾ ١٤٩ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٥٠ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٥١ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٥٢ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٣ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٥٤ ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ١٥٥ ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسِوْهُ فَإِذَا خَذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٥٦ ﴿فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَارِيبِينَ﴾ ١٥٧ ﴿فَلَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٥٨ ﴿وَلَنْ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٥٩.

وقول صالح لقومه: ﴿أَتتركون فيما ها هنا﴾: تخويف لهم بمعنى: أنطمعون أن تقرؤا

(١) أخرجه الطبري (٤٦٠/٩) برقم (٢٦٦٩٧)، وذكره ابن عطية (٢٣٨/٤)، والسيوطي (١٦٩/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٤٦١/٩) برقم (٢٦٧٠٠)، والسيوطي (١٧٠/٩)، وعزاه للفرجاني، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ينظر: «السبعة» ٤٧٢، و«الحجة» (٣٦٥/٥)، و«إعراب القراءات» (١٣٦/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٢٧)، و«شرح الطيبة» (١٠٠/٥)، و«العنوان» (١٤٢)، و«حجة القراءات» (٥١٨)، و«شرح شعلة» (٥٢١)، و«إتحاف» (٣١٨/٢).

(٤) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

في النعم على معاصيكم، والهضيم: معناه اللَّيْنُ الرَّطْبُ. وَالطَّلُعُ الْكُفْرَى. وهو عُثْقُودُ التمر قبل أن يخرج من الكم في أول نباته، فكأنَّ الإشارة إلى أنَّ طلوعها يتم ويرطب؛ قال ابن عباس: [إذا أُنِيع وبلغ فهو هضيم^(١)]، وقال الزَّجَّاجُ: هو فيما قيل الذي رطبه بغير نوى، وقال الثعلبي: قال ابن عباس^(٢) هضيم: لطيف ما دام في كُفْرَاهُ^(٣)، انتهى. وقرأ الجمهور^(٤): «تَنْجُثُونَ»: بكسر الحاء -، و«فrehين»: من الفراهة وهي جودة منظر الشيء وخبرته وقوته.

وقوله: ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ خاطب به جمهور قومه وعنى بالمُسْرِفِينَ: كبراءهم وأعلام الكفر والإضلال فيهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ أي: قد سُحِرْتَ.

ص: قرأ: الجمهور^(٥): «شِرْبٌ». بكسر الشين -، أي: نصيب، وقرأ ابن أبي عبلة: - بضم الشين - فيهما، انتهى.

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١١١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١١٢) فَاقْنُوا لِلَّهِ وَالطَّيْمُونِ (١١٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١١٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١١٦) قَالُوا لَنْ نَمْنَحَكَ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١١٧) قَالَ إِنِّي لَعَمْرُكَ مِنَ الْقَالِينَ (١١٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١١٩) فَجَنَّبَهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٢٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (١٢١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٢٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٢٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إذ قال لهم أخوهم لوط ﴿قال [النقاش]^(٦) إِنَّ فِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَحْفَصَةَ: «إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ وَسَقَطَ أَخُوهُمْ.

وقوله: ﴿إِنِّي لَعَمْرُكَ مِنَ الْقَالِينَ﴾ الْقَلَى: الْبُغْضُ، فنجاه الله بأن أمره بالرحلة على ما تقدم في قصصهم.

(١) أخرجه الطبري (٩/٤٦٥) برقم (٢٦٧٢١)، وذكره ابن عطية (٤/٢٣٩)، والسيوطي (٤/١٧١)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه.

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره البغوي (٣/٣٩٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٤٠)، و«البحر المحيط» (٧/٣٣)، و«الدر المصون» (٥/٢٨٣).

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٣٤).

(٦) سقط في ج.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِذُ ﴿١٧٧﴾ إِيَّاكُمْ رَسُولٌ آمِينَ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَحْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿كُذِّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قرأ نافع وابن كثير^(١) وابن عامر: «أَصْحَابُ لَيْكَةٍ» على وزن فَعْلَةٍ هنا، وفي [ص] وقرأ الباقون: «الْأَيْكَةِ» وهي: الدوحة المُلْتَمَّة من الشجر على الإطلاق، وقيل من شجر معروف له غضارة تألفه الحمام والقماري ونحوها، و«لَيْكَةٍ» اسم البلد في قراءة مَنْ قرأ ذلك؛ قاله بعض المفسرين، وذهب قوم إلى أنها مُسَهَّلَةٌ من الأيكة، وأنها وقعت في المصحف هنا وفي «ص» بغير ألف.

وقوله تعالى: ﴿كُذِّبَتْ قَوْمَ نوحِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وكذلك ما بعده بلفظ الجمع من حيث إنَّ تكذيب نبيٍّ واحد يستلزم تكذيب جميع الأنبياء؛ لأنَّهم كلهم يدعون الخلق إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وفي قول الأنبياء - عليهم السلام -: «أَلَا تَتَّقُونَ» عرض رفيق وتَلَطَّف، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨] وَالْجِيلَةُ: الخليفة والقرون الماضية، وَالْكَسْفُ: الْقِطْعُ، واحدا كِسْفَةً، و﴿يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾: هو يوم عذابهم، وصورته فيما رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ امْتَحَنَهُمْ بَحْرٌ شَدِيدٌ، وَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابَةً فِي بَعْضِ قَطْرِهِمْ فَجَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى ظِلِّهَا فوجد لها برداً وروحاً، فتداعوا إليها / حتى تكاملوا^{ب ٤٩} فاضطربت عليهم ناراً، فأحرقتهم عن آخرهم.

وقيل غير هذا، والحق أَنَّهُ عَذَابُ جَعَلَهُ اللَّهُ ظِلَّةً عَلَيْهِمْ.

﴿وَلَقَدْ لَنَنَّ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَلَقَدْ لَقِيَ زُحْرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَّلَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا عُلْمَتَنَا بَنَى إِسْرَاءَ بِلَ ﴿١٩٧﴾﴾

(١) ينظر: «السبعة» (٤٧٣)، و«الحجة» (٣٦٧/٥)، و«إعراب القراءات» (١٣٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢٢٩/٢)، و«شرح الطيبة» (١٠١/٥)، و«العنوان» (١٤٢)، و«حجة القراءات» (٥١٩)، و«شرح شعلة» (٥٢١)، و«إتحاف» (٣١٩/٢).

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزَّلَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن.

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُتَعَلِّقٍ بِالنَّزْلِ﴾، أي: سمعه النبي ﷺ من جبريل حروفاً عربيةً، وهذا هو القول الصحيح، وما سوى هذا فمردود.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ﴾ أي: القرآن مذكور في الكتب المنزلة القديمة، مُتَّبَعٌ عَلَيْهِ، مُشَارٌ إِلَيْهِ ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَنَحْوِهِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ^(١)، قَالَ مُقَاتِلٌ^(٢): هَذِهِ الْآيَةُ مَدْنِيَّةٌ، وَمَنْ قَالَ إِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ذَكَرُوا لَقْرِيشَ أَنَّ فِي التَّوْرَةِ صَفَةً النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَأَنَّ هَذَا زَمَانُهُ، فَهَذِهِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَرِيشاً بَعَثَتْ إِلَى الْأَحْبَارِ يَسْأَلُونَهُمْ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَوْ سَمِعُوهُ مِنْ أَعْجَمٍ، أَيْ: مِنْ حَيَوَانَ غَيْرِ نَاطِقٍ، أَوْ مِنْ جَمَادٍ، وَالْأَعْجَمُ: كُلُّ مَا لَا يُفْصِحُ - مَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ، وَالْأَعْجَمُونَ: جَمْعُ أَعْجَمٍ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُفْصِحُ، وَإِنْ كَانَ عَرَبِيَّ النَّسَبِ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِلْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «جُرْخُ الْعَجَمَاءِ جُبَارٌ»^(٣) وَالْعَجَمِيُّ هُوَ الَّذِي نَسَبُهُ

(١) أخرجه الطبري (٤٧٧، ٤٧٦/٩) برقم (٢٦٧٧١) عن ابن عباس، و(٢٦٧٧٢) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٢٤٣/٤)، والسيوطي (١٧٧/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد. ذكره ابن عطية (٢٤٣/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣/٥): كتاب المساقاة: باب من حفر بئراً في ملكه لم يضمن، حديث (٢٢٥٥)، و«مسلم» (١٣٣٤/٣): كتاب الحدود: باب جرح العجماء والمعدن والبئر جبار، حديث (٤٥/١٧١٠)، وأبو داود (١٤): كتاب الخراج والإمارة والقيء: باب ما جاء في الركاز وما فيه، حديث (٣٠٨٥)، والترمذي (٤١٨/٢): كتاب الأحكام: باب ما جاء في العجماء أن جرحها جبار. حديث (١٣٩١)، والنسائي (٤٥/٥): كتاب الزكاة: باب المعدل، وابن ماجه (٨٣٩/٢): كتاب اللقطة: باب من أصاب ركازاً، حديث (٢٥٠٩)، ومالك (٢٤٩/١): كتاب الزكاة: باب زكاة الركاز، حديث (٩)، والشافعي (٢٤٨/١): كتاب الزكاة: الباب الرابع في الركاز والمعادن، حديث (٦٧١، ٦٧٢)، وأبو عبيد (٤٢٠، ٤٢١): كتاب الخمس وأحكامه وسننه: باب الخمس في المعادن والركاز، والطبراني (ص: ٣٠٤)، حديث (٢٣٠٥)، وابن أبي شيبه (٢٢٤/٣، ٢٢٥): كتاب الزكاة: باب في الركاز يجدوه القوم، فيه زكاة، وأحمد (٢٢٨/٢)، وابن الجارود (ص: ١٣٥): كتاب الزكاة، حديث (٣٧٢)، والبيهقي (١٥٥/٤): كتاب الزكاة: باب زكاة الركاز، وعبد الرزاق (٦٦/١٠)، رقم (١٨٣٧٣)، والحميدي (٤٦٢/٢)، رقم (١٠٧٩)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٠٤/٣)، وأبو يعلى (١٠/٤٣٧)، رقم (٦٠٥٠)، والطبراني في «الصغير» (١٢٠-١٢١)، من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العجماء جُبَارٌ، والبئر جبار، والمعدن جبار، وفي الركاز الخمس».

في العَجَم، وإن كان أفصح الناس، وقرأ الحسن^(١): «الْأَعْجَمِيَّينَ».

قال أبو حاتم: أراد جمع الأعجمي المنسوب إلى العجم.

وقال الثعلبي: معنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربي اللسان، فقرأه عليهم بغير لغة العرب - لما آمنوا أَنفَعَهُ من اتباعه، انتهى.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قال ع*^(٢): ﴿وَسَلَكْنَاهُ﴾ معناه: أدخلناه، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٩]، قاله الحسن^(٣)، وقيل الضمير للتكذيب، وقيل للقرآن وَرُجِّحَ بَأْنُهُ المتبادر إلى الذهن، والمجرمون أراد به مجرمي كل أُمَّة، أي: أن هذه عادة الله فيهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، فكُفِّرَ قريش كذلك و﴿هل نحن منظرُونَ﴾ أي: مُؤَخَّرُونَ.

﴿أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجَلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَفْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَوُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَاهَا وَلَٰكِنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِنَّ الشَّيْطَانِ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجَلُونَ﴾ توبيخ لقريش على استعجالهم العذاب، وقولهم للنبي ﷺ: أَسْقِطْ علينا كِسْفًا من السماء، وقولهم: أين ما تعدنا؟ ثم خاطب سبحانه نبيّه - عليه السلام - بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾.

قال عِكْرِمَةُ: ﴿سِنِينَ﴾: يريد عمر الدنيا^(٤)، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية من

(١) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٩، و«المحتسب» (١٣٢/٢)، و«الكشاف» (٣٣٦/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٣/٤)، و«البحر المحيط» (٤٠/٧)، وزاد نسبتها إلى ابن مقسم. وهي في «الدر المصون» (٢٨٩/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٤/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٧٨/٩) برقم (٢٦٧٨٠) بلفظ «خلقناه»، وذكره البغوي (٣٩٩/٣)، وابن عطية (٤/٢٤٤)، والسيوطي (١٧٨/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن بلفظ «جعلناه».

(٤) ذكره ابن عطية (٣٤٤/٤).

الْقُرَى إِلَّا بَعْدَ إِسْرَافٍ مِّنْ يَنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللَّهِ عِزًّا ذَكَرُوا لَهُمْ وَتَبَصَّرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ الضمير في ﴿به﴾ عائد على القرآن.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٢١٦) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَكَوَتْ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٧﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٨﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٩﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢٠﴾ وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢١﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ أي: لأنَّ السماء محروسة بالشُّهْبَ الجارية إثر الشياطين، ثم وصَّى تعالى نبيه بالثبوت على التوحيد والمراد: أمته فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ...﴾ الآية: وفي «صحيح البخاري» وغيره عن ابن عباس: لما نزلت هذه الآية خرج النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ» الحديث^(١)، وَخَصَّ بِإِنْذَارِهِ عَشِيرَتَهُ؛ لِأَنَّهُمْ مَطْنَةُ الطَّوَاعِيَةِ، وَإِذْ يُمْكِنُ مِنَ الْإِغْلَاطِ عَلَيْهِمْ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ غَيْرُهُمْ، وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ غَيْرَ مُتَّهَمٍ عَلَى عَشِيرَتِهِ، وَالْعَشِيرَةِ: قَرَابَةِ الرَّجُلِ، وَخَفِضَ الْجَنَاحَ: اسْتِعَارَةً مَعْنَاهُ: لِيُنِ الْكَلِمَةَ، وَبَسَطَ الْوَجْهَ، وَالْبِرَّ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَصَوْكَ﴾ عَائِدٌ عَلَى عَشِيرَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، ثُمَّ جَاءَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي تَوْسِلُ إِلَى التَّوَكُّلِ وَهِيَ الْعِزَّةُ وَالرَّحْمَةُ.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾.

وقوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يَرَاكَ عبارة عن الإدراك، وظاهر الآية أَنَّهُ أَرَادَ قِيَامَ الصَّلَاةِ، وَيَحْتَمِلُ سَائِرَ التَّصَرُّفَاتِ؛ وَهُوَ تَأْوِيلُ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ قال ابن عباس^(٣) وغيره: يريد أهل

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠/٨) كتاب التفسير: باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ حديث (٤٧٧٠) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٥/٩) برقم (٢٦٨١٤) عن مجاهد، وذكره البغوي (٤٠٢/٣) عن مجاهد، وابن عطية (٢٤٦/٤)، وابن كثير (٣٥٢/٣) عن قتادة، والسيوطي (١٨٣/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن مجاهد، ولعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٥/٩) برقم (٢٦٨١٥) بنحوه، وذكره البغوي (٤٠٢/٣)، وابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٣/٥)، وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

الصلاة، أي: صلاتك مع المصلين.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: هل أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين﴾؟ والأفَّاك: الكذَّاب، والأثيم: الكثير الإثم، ويريد الكهنة؛ لأنَّهم كانوا يتلقَّون من الشياطين الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء فيخلطون معها مائة كذبة، حسبما جاء في الحديث^(١)، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع، والضمير في ﴿يلقون﴾ يحتمل أن يكون للشياطين، ويحتمل أن يكون للكهنة، ولما ذكر الكهنة بإفكهم وحالهم التي تقتضي نفى كلامهم عن كلام الله تعالى - عَقَّبَ ذلك بذكر الشعراء وحالهم؛ لِيُنَبِّهَ على بُعد كلامهم من كلام القرآن، إذ قال بعض الكفرة في القرآن: إنه شعر، والمراد شعراء الجاهلية، ويدخل في الآية كلُّ شاعرٍ مخلطٍ يَهْجُو ويمدح؛ شهوةً، ويقذف المخصَّصات، ويقول الزور.

وقوله: ﴿الغاوون﴾ قال ابن عباس: هم المستحسنون^(٢) لأشعارهم، المصاحبون لهم.

وقال عكرمة: هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر ويغتمون إنشاده^(٣).

وقوله: ﴿في كل واد يهيمون﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من فنَّ الكلام وباطله؛ قاله ابن عباس^(٤) وغيره، وروى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَشَى سَبْعَ خُطَوَاتٍ فِي شِعْرِ، كُتِبَ مِنَ الْغَاوِينَ» ذكره أسدُ بن موسى، وذكره النقاش.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥/١٠) كتاب الأدب: باب قول الرجل للشيء...، حديث (٦٢١٣)، ومسلم (١٧٥٠/٤) كتاب السلام: باب تحريم إتيان الكهان، حديث (٢٢٢٨ / ١٢٣) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٨/٩) برقم (٢٦٩٣٣)، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٦/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٩/٩) برقم (٢٦٨٣٧)، بلفظ «عصاة الجن»، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٦/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن المنذر، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، عن عكرمة بلفظ «عصاة الجن».

(٤) أخرجه الطبري (٤٩٠/٩) برقم (٢٦٨٤٢) نحوه، وبرقم (٢٦٨٤٣)، عن مجاهد، وذكره البغوي (٣/٤٠٣)، وابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٦/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية: هذا الاستثناء هو في شعراء الإسلام؛ كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وكُلٌّ مِّنْ اتصف بهذه الصفة، ويُرَوَّى عن عطاء بن يَسَارٍ وغيره أَنَّ هؤلاء شَقَّ عليهم ما ذَكَرَ قَبْلُ في الشعراء، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت آية الاستثناء بالمدينة.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يحتمل أن يريد في أشعارهم، وهو تأويل ابن زيد^(١)، ويحتمل أن ذلك خُلِقَ لهم وعبادة؛ قاله ابن عباس^(٢)، فكل شاعر في الإسلام يهجو ويمدح عن غير حَقٍّ فهو داخل في [هذه الآية، وكل تَقِيٍّ منهم يُكْثِرُ من الزُّهْدِ، ويمسك عن كل ما يُعَابُ فهو داخل في]^(٣) الاستثناء.

ت* : قد كتبنا - والحمد لله - في هذا الْمُخْتَصَرِ جملةً صالحةً في فضل الأذكار؛ عسى الله أن ينفع به مَنْ وقع بيده، ففي «جامع الترمذي» عن أبي سعيد الخُدْرِي، قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْعِبَادِ أَفْضَلُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، قُلْتُ: وَمِنَ الْعَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟! قَالَ: لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَنْكَسِرَ وَيَخْتَضِبَ دَمًا - لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْهُ»^(٤) / وروى الترمذي، وابن ماجه عن أبي الدرداء، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُتْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَزْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ؟ وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذَكِّرْ اللَّهَ تَعَالَى»^(٥). قَالَ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ «الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ»:

(١) أخرجه الطبري (٤٩١/٩) برقم (٢٦٨٥٦)، وذكره ابن عطية (٢٤٧/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٤٧/٤).

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٢٨/٥) كتاب الدعوات: باب فضل الذكر، حديث (٣٣٧٦)، وأحمد (٧٥/٣) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث دراج.

(٥) أخرجه الترمذي (٤٥٩/٥) كتاب الدعاء: باب (٦) حديث (٣٣٧٧)، وابن ماجه (١٢٤٥/٢) كتاب الأدب: باب فضل الذكر، حديث (٣٧٩٠)، وأحمد (١٩٥/٥)، والحاكم (٤٩٦/١) عن أبي الدرداء مرفوعاً.

هذا حديث صحيح الإسناد، انتهى من «حلية التَّوَوِّي». وقوله: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ إشارة إلى مَا رَدَّ بِهِ حَسَّانٌ وَعَلِيٌّ وَغَيْرُهُمَا عَلَى قَرِيش.

قلت: قيل: وَأَنْصَفُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ: قَوْلُ حَسَّانَ لِأَبِي سُفْيَانَ أَوْ لِأَبِي جَهْلٍ: [الوافر].

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍ فَشَرُّكُمْمَا لِحَيْرُكُمْمَا الْفِدَاءُ^(١)
وَبَاقِي الْآيَةِ وَعِيدٌ لظَلَمَةِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ.

= وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرجه مالك في «الموطأ» (١/٢١١) كتاب القرآن: باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى، حديث (٢٤) عن زياد بن أبي زياد عن أبي الدرداء موقوفاً.

(١) ينظر: البيت في «ديوانه» ص (٧٦)؛ و«خزانة الأدب» (٩/٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧)؛ و«شرح الأشموني» (٣/٣٨٨)؛ و«لسان العرب» (٣/٤٢٠) (ندد)، (٦/٣١٦) (عرش).

واستشهد فيه بقوله: «فشرُّكمما لخيركمما الفداء» حيث ورد أفعال التفضيل («شَرٌّ» و«خَيْرٌ») عارياً عن معنى التفضيل. قال السُّهَيْلِيُّ: «في ظاهر هذا اللفظ شناعة؛ لأنَّ المعروف أن لا يُقال: «هو شرُّهما»، إلا وفي كليهما شَرٌّ، وكذلك شَرُّ منك، ولكنَّ سيويه قال: تقول: مررتُ برجل شرٍّ منك، إذا نقص عن أن يكون مثله. وهذا يدفع الشَّناعة عن الكلام الأوَّل ونحو منه قوله عليه السلام: «شَرُّ صفوف الرِّجال آخرُها»، يريد نقصان حظِّهم عن حظِّ الصَّفِّ الأوَّل، كما قال سيويه. ولا يجوز أن يريد التفضيل في الشَّرِّ، والله أعلم» («الخزانة» ٩/٢٣٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد

تفسير «سورة النمل»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿طَسَّ يَلَكْ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابُ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿طَسَّ يَلَكْ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابُ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم القول في الحروف المقطعة، وعطف الكتاب على القرآن وهما لمسمى واحد؛ من حيث هما صفتان لمعنيين، فالقرآن: لأنه اجتمع، والكتاب: لأنه يكتب، «واقامة الصلاة»: إدامتها وأداؤها على وجهها.

وقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: جعل سبحانه عقابهم على كفرهم أن حتم عليهم الكفر، وحَبَّبَ إليهم الشرك وزَيَّنَهُ في نفوسهم. والعمه: الحيرة والتردد في الضلال. ثم تَوَعَّدَهُمْ تعالى بسوء العذاب؛ فَمَنْ نَالَ مِنْهُ شَيْءٌ في الدنيا بقي عليه عذاب الآخرة، وَمَنْ لَمْ يَنْلَهُ عَذَابُ الدُّنْيَا كَانَ سُوءُ عَذَابِهِ في مَوْتِهِ وفي ما بعده.

﴿وَلَيْكَ لِلْقُرْآنِ الْعَزَاهُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مَبِينٍ فَتَرْتَمَوْا أَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لِلْقُرْآنِ الْعَزَاهُ﴾ تلقى: مضاعف لقي يلقى، ومعناه تُعْطَى، كما قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وهذه الآية رد على كفار قريش في قولهم: إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ تِلْكَاهِ مُحَمَّدٍ؛ و﴿من لدن﴾ معناه: من عنده؛ ومن جهته. ثم قَصَّ - تعالى - خبر موسى؛ حين خَرَجَ بزوجه؛ بنت شُعيب عليه السلام يريد مصر، وقد تقدم في «طه» قصص الآية.

وقوله: ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مَبِينٍ﴾ الآية، أصل الشهاب:

الكوكب المنقض في أثر مسترق السمع؛ وكل ما يقال له «شهاب» من المنيرات؛ فعلى التشبيه، والقبس: يُحْتَمَلُ أَنْ يكون اسماً، ويَحْتَمَلُ أَنْ يكونَ صفةً. وقرأ الجمهور بإضافة «شهاب» إلى «قَبَسٍ»، وقرأ حمزة والكسائي^(١) وعاصم بتنوين «شهابٍ قَبَسٍ»: فهذا على الصفة.

ص: وقوله: ﴿جَاءَهَا﴾ ضميرُ المفعول، عائدٌ على النَّارِ، وقيل على الشَّجَرَةِ، انتهى. و﴿بُورِكَ﴾ معناه: قُدِّسَ ونُمِّي خَيْرُهُ، والبركة، مختصة بالخير.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ قال ابنُ عباس: أرادَ النُّورَ^(٢)، وقال الحسنُ وابنُ عباس: وأرادَ بـ ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكةَ وموسى^(٣).

قال *ع*^(٤): ويَحْتَمَلُ أَنْ تكونَ ﴿مَنْ﴾ للملائكة؛ لأن ذلكَ النورَ الذي حَسِبَهُ موسى نارا؛ لم يخلُ من ملائكة، ﴿ومن حولها﴾ لموسى والملائكة المُطِيفِينَ بِهِ.

وقرأ أبي بن كعب^(٥) «أَنْ بُورِكَتِ النَّارُ وَمَنْ حَوْلَهَا».

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هو تنزيهٌ لله تعالى مما عَسَاهُ أَنْ يَخْطُرَ / ببال؛ في معنى النداء من الشَّجَرَةِ، أي: هو منزَّهٌ عن جميع ما تَتَوَهَّمُهُ الْأَوْهَامُ؛ وعن التشبيه والتكيف، والضميرُ في ﴿إِنَّهُ﴾ للأمر والشأن.

﴿وَأَنِّي عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقِبُ﴾ يُمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجْ

(١) ينظر: «السبعة» (٤٧٨)، و«الحجة» (٣٧٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢٣٣/٢)، و«شرح الطيبة» (١٠٧/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٢)، و«شرح شعلة» (٥٢٤)، و«إنشاف» (٣٢٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٦/٩) رقم (٢٦٨٦٧) بلفظ: «كان نور رب العالمين في الشجرة»، وابن كثير (٣/٣٥٦)، والسيوطي (١٩١/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وابن مردويه عنه عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤٩٧/٩) رقم (٢٦٨٧٦) بنحوه، وابن عطية (٢٥٠/٤)، وابن كثير (٣٥٧/٣) بنحوه.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٠/٤).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٣٤٩/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٥٠/٤).

وقد قرأ بها ابن عباس، ومجاهد، كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠٦/١٣). قال القرطبي: ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صح لكان على التفسير، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى.

يَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ...﴾ الآية، أمره - تعالى - بهذَيْن الأمرين إلقاء العصا، وأمر الِيدِ تدرِياً له في استعمالِهما، والجَان: الحيات؛ لأنها تَجِنُّ أَنْفُسَهَا؛ أي: تَسْتُرُهَا. وقالت فرقة: الجَان: صِغَارُ الْحَيَاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: وَلَّى قَارًا. قال مُجَاهِدٌ: ولم يرجع^(١)، وقال قَتَادَةُ: ولم يَلْتَفِتْ^(٢).

قال ع^(٣): ﴿وَعَقَّبَ الرَّجُلُ إِذَا وَلَّى عَنْ أَمْرٍ؛ ثُمَّ صَرَفَ بَدَنَهُ أَوْ وَجْهَهُ إِلَيْهِ. ثُمَّ نَادَاهُ سُبْحَانَهُ مُؤْنِسًا لَهُ: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال الفَرَّاءُ: وَجَمَاعَةٌ: الاستثناء منقطع، وهو إخبار عن غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ - قال: لكن من ظَلَمَ من النَّاسِ ثُمَّ تَابَ؛ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ، وهذه الآية تَقْتَضِي الْمَغْفِرَةَ لِلتَّائِبِ، وَالْجَيْبُ الْفَتْحُ فِي الثَّوبِ لِرَأْسِ الْإِنْسَانِ.

وقوله تعالى: ﴿فِي سَبْعِ آيَاتٍ﴾ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلْقِ﴾ ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ﴾ وفيه اقْتِضَابٌ^(٤) وحذف، والمعنى فِي جُمْلَةٍ سَبْعِ آيَاتٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا﴾ حُصُولُ الْكُفْرِ عِنَادًا؛ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ خِلَافٍ؛ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا وَ﴿ظَلَمًا﴾ معناه: على غيرِ اسْتِحْقَاقٍ لِلْجُحْدِ، وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ أَعْظَمُ آفَةٍ عَلَى طَالِبِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾

(١) أخرجه الطبري (٤٩٨/٩) رقم (٢٦٨٨٠)، وابن عطية (٢٥١/٤)، والسيوطي (١٩٢/٥)، وعزاه

للغريبي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٨/٩) رقم (٢٦٨٨٢)، والبغوي (٤٠٧/٣)، وابن عطية (٢٥١/٤)، والسيوطي

(١٩٢/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) ينظر: «المحرر» (٢٥١/٤).

(٤) الْقُضْبُ: القطع. ومنه قيل: اقتضبت الحديث، إنما هو انتزعتة واقتطعته.

ينظر: «لسان العرب» (٣٦٥٩).

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَخَيْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكُكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا...﴾ الآية، هذا ابتداءً قَصَصٍ فيه غُيُوبٌ وَعَبْرٌ.

﴿وورث سليمان داود﴾، أي: ورث مملكته ومنزلته من النبوة؛ بعد موت أبيه، وقوله: «عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» إخبارٌ بنعمة الله تعالى عندهما؛ في أن فهمهما من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها، وهذا نحو ما كان النبي ﷺ يَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْحِجَارَةِ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ؛ وغير ذلك حسب ما هو في الآثار.

قال قتادة وغيره: إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي الطَّيْرِ خَاصَّةً، وَالنَّمْلَةُ طَائِرٌ؛ إِذْ قَدْ يَوْجَدُ لَهَا جَنَاحَانِ^(١).

وقالت فرقة: بَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانِ؛ وَإِنَّمَا خَصَّ الطَّيْرَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جُنْدًا مِنْ جُنُودِ سُلَيْمَانَ؛ يَحْتَاجُهُ فِي التَّظْلِيلِ مِنَ الشَّمْسِ؛ وَفِي الْبَغْثِ فِي الْأُمُورِ. وَالنَّمْلُ حَيَوَانٌ فَطِنٌ قَوِيٌّ شَمَامٌ جَدًّا؛ يَدْخِرُ وَيَتَخَذُ الْقَرَى وَيَشُقُّ الْحَبَّ بِقِطْعَتَيْنِ لِيَلَأَّ يُنْبِتَ، وَيَشُقُّ الْكَزْبِرَةَ بِأَرْبَعِ قِطَعٍ؛ لِأَنَّهُ تَنْبِتُ إِذَا قُسِّمَتْ شَقَيْنِ، وَيَأْكُلُ فِي عَامِهِ نِصْفَ مَا جَمَعَ، وَيَسْتَبْقِي سَائِرَهُ عُدَّةً. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٢): وَلَا خِلَافَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ كُلَّهَا لَهَا أَفْهَامٌ وَعُقُولٌ، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ: الْحَمَامُ أَعْقَلُ الطَّيْرِ، انْتَهَى.

وقوله: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: يَضْلُحُ لَنَا وَنَتَمَنَّا؛ وَلَيْسَتْ عَلَى الْعُمُومِ. ثُمَّ ذَكَرَ شُكْرَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاخْتَلَفَ فِي مَقْدَارِ جُنْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتِلَافًا شَدِيدًا؛ لَا أَرَى ذِكْرَهُ؛ لَعَدَمِ صِحَّةِ التَّحْدِيدِ، غَيْرَ أَنَّ الصَّحِيحَ فِي هَذَا أَنَّ مَلَكَهُ كَانَ عَظِيمًا مَلَأَ الْأَرْضَ، وَأَتَقَادَتْ لَهُ الْمَعْمُورَةُ كُلُّهَا، وَكَانَ كُرْسِيُّهُ يَحْمِلُ أَجْنَادَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَكَانَتِ الطَّيْرُ تُظِلُّهُ مِنَ الشَّمْسِ، وَبِعَظْمِهَا فِي الْأُمُورِ، وَ﴿يُوزَعُونَ﴾ معناه: يَرُدُّ أَوَّلَهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَيَكْفُونَ، قَالَ قَتَادَةُ: فَكَأَنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ / ^(٣) وَزَعَةً، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ حِينَ وَلِيَ ب قِضَاءَ الْبَصْرَةِ: لَا بَدَّ لِلْحَاكِمِ مِنْ وَزَعَةٍ^(٤)، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي قُحَافَةَ لِلجَارِيَةِ: ذَلِكَ يَا بَنِيَّةُ

(١) ذكره ابن عطية (٢٥٣/٤).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٤٩/٣).

(٣) ذكره البغوي (٤١٠/٣)، وابن عطية (٢٥٣/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٥٣/٤).

الوازع^(١)؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا فَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ^(٢)
أي: كاف، وهكذا نقل ابن العربي^(٣) عن مالك؛ فقال: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكْفَنُونَ.
قال ابن العربي^(٤): وقد يَكُونُ بمعنى يُلْهَمُونَ؛ من قوله «أَوْزَغَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ»
أي: أُلْهَمَنِي، انتهى من «الإحكام».

﴿فَلَمَّسَ صَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحِمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩) وَتَقَدَّرَ الطَّبَرُ فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَذَا أَمْ كَانَ مِنَ الْعَرَبِيِّينَ (٢٠) لَأَعِدَّ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَدَّبْنَاهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِي يَفِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤).
وقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمْ صَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ التَّبَسُّمُ هو ضِخْكَ الأنبياء في غالب أمرهم؛ لا يَلِيقُ بِهِمْ سِوَاهُ، وكان تَبَسُّمُهُ سروراً بنعمة الله تعالى عَلَيْهِ في إسماعيه وتفهميه.

وفي قول النملة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثناء على سليمان وجنوده يتضمن تنزيههم عن تعمد القبيح. ثم دعا سليمان عليه السلام ربّه أَنْ يُعِينَهُ وَيُقَرِّعَهُ لَشُكْرِ نِعْمَتِهِ، وهذا معنى إيزاع الشُّكْرِ، وقال الثعلبي وغيره: «أَوْزَغَنِي» معناه: أُلْهَمَنِي، وكذلك قال العراقي: ﴿أَوْزَغَنِي﴾ أُلْهَمَنِي، انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٢٥٣/٤).

(٢) البيت للناطقة الذيباني في «ديوانه» ص (٣٢)، و«الأضداد» ص (١٥١)؛ و«جمهرة اللغة» ص (١٣١٥)؛ و«خزانة الأدب» (٤٥٦/٢)، (٤٠٧/٣)، (٥٥٠/٦)، (٥٥٣)؛ و«الدرر» (١٤٤/٣)؛ و«بسر صناعة الإعراب» (٥٠٦/٢)؛ و«شرح أبيات سيويه» (٥٣/٢)؛ و«شرح التصريح» (٤٢/٢)؛ و«شرح شواهد المغني» (٨١٦/٢)، (٨٨٣)؛ و«الكتاب» (٣٣٠/٢)، و«لسان العرب» (٣٩٠/٨) (وزع)، (٧٠/٩) (خشف)؛ و«المقاصد النحوية» (٤٠٦/٣)، (٣٥٧/٤)؛ وبلا نسبة في «الأشياء والنظائر» (١١١/٢)؛ و«الإنصاف» (٢٩٢/١)؛ و«أوضح المسالك» (١٣٣/٣)؛ و«رصف المباني» ص (٣٤٩)؛ و«شرح الأشوموني» (٣١٥/٢)، (٥٧٨/٣)؛ و«شرح شذور الذهب» ص (١٠٢)؛ و«شرح ابن عقيل» ص (٣٨٧)؛ و«شرح المفصل» (١٦/٣)، (٥٩١/٤)، (١٣٧/٨)؛ و«مغني اللبيب» ص (٥٧١)؛ و«المقرب» (٢٩٠/١)، (٥١٦/٢)؛ و«المنصف» (٥٨/١)؛ و«همع الهوامع» (٢١٨/١).

واستشهد فيه بقوله: «على حين»، حيث يجوز في «حين» الإعراب وهو الأصل، والبناء لأنه أضيف إلى مبني، وهو الفعل الماضي «عاب».

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٥٠/٣).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٥٠/٣).

وقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ...﴾ الآية، قالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بالملك والتهمم بكل جزء منها، وهذا ظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير، وقالت فرقة: بل تفقد الطير؛ لأن الشمس دخلت من موضع الهدد؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير؛ ليبين من أين دخلت الشمس، وقال عبد الله بن سلام: إنما طلب الهدد؛ لأنه احتاج إلى معرفة الماء؛ على كم هو من وجه الأرض؛ لأنه كان نزل في مفازة عدم فيها الماء، وأن الهدد كان يرى باطن الأرض وظاهرها؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة، وقيل غير هذا؛ والله أعلم بما صح من ذلك. ثم توعده عليه السلام - الهدد بالعذاب، فروي عن ابن عباس وغيره: أن تعذيبه للطير كان بنتف ريشه^(١). والسلطان: الحجة؛ حيث وقع في القرآن [العظيم]؛ قاله ابن عباس^(٢). وفعل سليمان هذا بالهدد إغلاظاً على العصيان؛ وعقاباً على إخلاله بنبوته ورتبته، والضمير في ﴿مكث﴾ يحتمل أن يكون لسليمان أو للهدد، وفي قراءة ابن مسعود^(٣) «فتمكث ثم جاء فقال» وفي قراءة أبي^(٤) «فتمكث ثم قال أحطت».

ت: وهاتان القراءتان تبيين أن الضمير في «مكث» للهدد؛ وهو الظاهر أيضاً في قراءة الجماعة، ومعنى ﴿مكث﴾: أقام.
وقوله: ﴿غير بعيد﴾ يعني: في الزمن.
وقوله: ﴿أحطت﴾ أي: علمت.

وقرأ الجمهور^(٥) «سبأ» بالصرف على أنه اسم رجل؛ وبه جاء الحديث عن النبي ﷺ من حديث فروة بن مسيك وغيره، سئل - عليه السلام - عن سبأ فقال: «كَانَ رَجُلًا لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْوَلَدِ تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ»^(٦). ورواه الترمذي من طريق فروة بن

(١) أخرجه الطبري (٥٠٦/٩) رقم (٢٦٩١١)، وذكره ابن عطية (٢٥٥/٤)، وابن كثير (٣/٣٦٠)، والسيوطي (١٩٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والحاكم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٧/٩) رقم (٢٦٩٢٤)، وذكره ابن عطية (٢٥٥/٤)، والسيوطي (١٩٧/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٥/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٥/٤).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٥/٤)، و«البحر المحيط» (٦٣/٧).

(٦) أخرجه الترمذي (٣٦١/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة سبأ، حديث (٣٢٢٢) من حديث فروة بن مسيك. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وسياطي تخريجه بأوسع من هنا في سورة سبأ.

مُسَيِّك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو^(١) «سَبَأً» - بفتح الهمزة وتزك الصّرف؛ - على أنه اسم بلدة؛ وقاله الحسن وقتادة.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما تحتاجه المملكة، قال الحسن: من كل أمر الدنيا^(٢)، وهذه المرأة هي «بلقيس»، وَوَصَفَ عَرْشَهَا بِالْعِظَمِ فِي الْهَيْئَةِ وَرَبَّةِ الْمُلْكِ، ١٥٢ وأكثر بعض الناس / في قصصها بما رأيت اختصاره؛ لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية: أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥)
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧)
 أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِذْ يَأْتِي الْغَىٰ إِلَيْكَ كَذِبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِ مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ إلى قوله ﴿العظيم﴾، ظاهره: أنه من قول الهدد؛ وهو قول ابن زيد وابن إسحاق، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى اعتراضاً بين الكلامين، وقراءة التشديد في ﴿أَلَّا﴾ تعطي: أن الكلام للهدد؛ وهي قراءة الجمهور^(٣)، وقراءة التخفيف؛ وهي للكسائي تمنعه^(٤) وتقوي الآخر؛ فتأمله، وقرأ الأعمش^(٥) ﴿هَلَّا يَسْجُدُونَ﴾ وفي حرف عبد الله ﴿أَلَّا هَلْ تَسْجُدُونَ﴾ بالثاء، و﴿الخبء﴾: الخفي من

(١) ينظر: «السبعة» (٤٨٠)، و«الحجة» (٣٨٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢٣٦/٢)، و«شرح الطيبة» (١٠٨/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٥)، و«شرح شملة» (٥٢٤)، و«إتحاف» (٣٢٥/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٩/٩) رقم (٢٦٩٣٥)، وذكره ابن عطية (٢٥٦/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٦/٤)، و«البحر المحيط» (٦٥/٧).

(٤) وقرأ بها ابن عباس، وأبو جعفر، والزهرى، والسلمي، والحسن، وحמיד.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٦/٤)، و«البحر المحيط» (٦٥/٧)، و«الدر المصون» (٣٠٧/٥)، و«السبعة» (٤٨٠)، و«الحجة» (٣٨٣/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٨/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٣٨)، و«شرح الطيبة» (١٠٩/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٦)، و«شرح شملة» (٥٢٥)، و«إتحاف» (٣٢٥/٢).

(٥) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١١٠، وفيه القراءة هكذا: «هلا يسجدوا» بحذف نون الرفع.

وينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٧/٤)، و«البحر المحيط» (٦٥/٧)، و«التخريجات النحوية» (٣٤٤).

الأمر؛ وهو من: خَبَأْتُ الشيءَ، واللفظة تُعَمُّ كل ما خَفِيَ من الأمور؛ وبه فسر ابن عباس^(١). وقرأ الجمهور: «يُخْفُونَ وَيُعْلِنُونَ» بياء الغائب؛ وهذه القراءة تُعْطِي أَنَّ الآيةَ من كلام الهدهد. وقرأ الكسائي وحفص عن^(٢) عاصم «تُخْفُونَ وَتُعْلِنُونَ» بقاء الخطاب؛ وهذه القراءة تُعْطِي أَنَّ الآيةَ من خطاب الله تعالى لأمة سيدنا محمد ﷺ.

قوله: ﴿فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾، قال وهب بن مُنَبِّه: أمره بالتوَلَّى حُسْنُ أدب لِيَتَنَحَّى حَسَبَ مَا يُتَأَدَّبُ بِهِ مع الملوك، بمعنى: وكن قريباً حتى ترى مراجعاتهم، وليكَلِ الأمر، إلى حُكْمِ ما في الكتابِ دُونَ أَنْ تَكُونَ لِلرَّسُولِ ملازمةً ولا إلحاحاً^(٣). وزَوَى وهب بن مُنَبِّه في قصص هذه الآية: أَنَّ الهدهد وصل؛ فَوَجَدَ دُونَ هَذِهِ الْمَلِكَةِ حُجَبَ جدرانٍ، فَعَمَدَ إِلَى كُوَّةٍ كَانَتْ بَلْقِيسُ صَنَعَتْهَا، لِتَدْخُلَ مِنْهَا الشَّمْسُ عند طلوعها؛ لمَعْنَى عِبَادَتِهَا إِيَّاهَا؛ فَدَخَلَ مِنْهَا وَرَمَى بِالْكِتَابِ إِلَيْهَا^(٤)؛ فَقَرَأَتْهُ وَجَمَعَتْ أَهْلَ مُلْكِهَا؛ فَخَاطَبَتْهُمْ بِمَا يَأْتِي بَعْدُ. ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ تعني: الأشراف: ﴿إِنِّي أَلْقِي إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾ وَصَفَتِ الْكِتَابَ بِالْكَرِيمِ إِمَّا لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ عَظِيمٍ، أَوْ لِأَنَّهُ يُدِيءُ بِاسْمِ كَرِيمٍ. ثُمَّ أَخَذَتْ تَصِفُ لَهُمْ مَا فِي الْكِتَابِ، ثُمَّ أَخَذَتْ فِي حَسَنِ الْأَدَبِ مَعَ رَجَالِهَا وَمَشَاوَرَتْهُمْ فِي أَمْرِهَا؛ فَارْجَعُوا قَوْمُهَا بِمَا يَقْرَأُ عَيْنُهَا مِنْ إِعْلَامِهِمْ إِيَّاهَا بِالْقُوَّةِ، وَالْبَأْسِ. ثُمَّ سَلَّمُوا الْأَمْرَ إِلَى نَظَرِهَا؛ وَهَذِهِ مُحَاوَرَةٌ حَسَنَةٌ مِنَ الْجَمِيعِ. وَفِي قِرَاءَةِ^(٥) عَبْدَ اللَّهِ: «مَا كُنْتُ قَاضِيَةً أَمْرًا» بِالضَّادِ مِنَ الْقَضَاءِ، ثُمَّ أَخْبَرَتْ بَلْقِيسُ بِفِعْلِ الْمَلِكِ بِالْقُرَى الَّتِي يَتَغَلَّبُونَ عَلَيْهَا، وَفِي كَلَامِهَا خَوْفٌ عَلَى قَوْمِهَا وَخَيْطَةٌ لَهُمْ، قَالَ الدَّوُودِيُّ: وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قَالَ: إِذَا أَخَذُوهَا عَثْرَةً، أَخْرَبُوهَا^(٦)، انْتَهَى.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قالت فرقة: هو من قول بلقيس، وقال ابن عباس: هو

(١) ذكره ابن عطية (٢٥٧/٤)، وابن كثير (٣٦١/٣)، والسيوطي (١٩٩/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٨١)، و«الحجة» (٣٨٥/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢٣٩/٢)، و«شرح الطيبة» (١١١/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٨)، و«شرح شعلة» (٥٢٧)، و«إتحاف» (٣٢٦/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥١٢/٩) رقم (٢٦٩٤٦)، وذكره ابن عطية (٢٥٧/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٥٧/٤).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٨/٤)، و«البحر المحيط» (٧٠/٧)، و«الكشاف» (٣٦٤/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٥١٥/٩) رقم (٢٦٩٥٩)، وذكره ابن كثير (٣٦٢/٣)، والسيوطي (٢٠٢/٥)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

من قول الله تعالى معرفاً لمحمد عليه السلام وأمته بذلك^(١).

﴿وإني مرسله إليهم بهدية...﴾ الآية، روي أن بلقيس قالت لقومها: إني أجرب هذا الرجل بهدية فيها نفائس الأموال، فإن كان ملكاً ذنبياً أرضاه المال؛ وإن كان نبياً لم يقبل الهدية، ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه، فينبغي أن نؤمن به، ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَيْدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِمِدَّتِكُمْ تَمُرُّونَ﴾ (٣٦) **أَتَجْعَلُ إِلَيْهِمْ فُلْناً لِيُغِيرُوا بِخُدُورٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** (٣٧) **قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَتُكْمُ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** (٣٨) **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** (٣٩) **قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَظْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ** (٤٠) **قَالَ تَكَرَّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ** (٤١) **فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوَيْنَا الْكَلَمَ مِن قَوْلِهَا وَكَانَ سُلَيْمَانُ** (٤٢).

وقوله تعالى: ﴿فلما جاء سليمان﴾ يعني: رسل بلقيس، وقول سليمان: ﴿ارجع﴾ خطاب لرسولها؛ لأن الرسول يقع على الجمع والإفراد والتأنيث. وفي قراءة ابن مسعود^(٢): «فلما جاءوا سليمان» وقرأ «ارجعوا»، ووعد سليمان لهم مقترن بدوامهم على الكفر، قال البخاري: ﴿لا قبل لهم بها﴾ أي: لا طاقة لهم، انتهى. ثم قال سليمان ب ٥٢ لجمعهم / ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرضها﴾.

قال ابن زيد: وغرضه في استدعاء عرشها؛ أن يريها القدرة التي من عند الله وليغرب^(٣) عليها، و﴿مسلمين﴾ في هذا التأويل بمعنى: مستسلمين، ويحتمل أن يكون بمعنى الإسلام.

وقال قتادة: كان غرض سليمان عليه السلام أخذه قبل أن يعصمهم الإسلام؛ فالإسلام على هذا التأويل يراد به الدين^(٤).

(١) أخرجه الطبري (٥١٥/٩) رقم (٢٦٩٦٠)، وذكره ابن عطية (٢٥٨/٤)، وابن كثير (٣٦٢/٣)، والسيوطي (٢٠٢/٥)، وعزه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٣٦٦/٣)، و«البحر المحيط» (٧١/٧)، و«المحرر الوجيز» (٢٥٩/٤)، و«الدر المصون» (٣١٣/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٦٠/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٥٢١/٩) رقم (٢٦٩٨٠) بنحوه.

ت: والتأويل الأول أَلِيقُ يَمْنُصِبُ الثُّبَّةَ، فيتعين حمل الآية عليه، والله أعلم.

وروي أن عرشها كان من ذهب وفضة؛ مُرَصَّعاً بالياقوت والجوهر، وأنه كان في جوفه سبعة أبيات عليها سبعة أغلاق. والعفريت هو من الشياطين: القوي المارد.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قال مجاهد^(١) وقتادة^(٢): معناه: قبل قيامك من مجلس الحكم، وكان يجلس من الصبح إلى وقت الظهر في كل يوم، وقيل: معناه: قبل أن تستوي من جلوسك قائماً. وقول الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال ابن جبير^(٣) وقتادة^(٤): معناه: قبل أن يصل إليك مَنْ يَقَعُ طَرْفُكَ عَلَيْهِ في أبعد ما ترى. وقال مجاهد^(٥): معناه: قبل أن تحتاج إلى التغميض، أي: مدة ما يمكنك أن تمد بصرك دون تغميض؛ وذلك ارتداده.

قال *ع*^(٦): وهذان القولان يقابلان القولين قبلهما.

وقوله: ﴿لَقَوِي أَمِينٌ﴾ معناه: قوي على حمله؛ أمين على ما فيه. ويروى أن الجن كانت تُخْبِرُ سليمانَ بمَنَاقِلِ سَيْرِ بلقيس، فلما قربت، قال: ﴿أَيْكُمْ يَأْتِينِي بَعْرُشَهَا﴾ فدعا الذي عنده علم من التوراة، - وهو الكتاب المشار إليه - باسم الله الأعظم؛ الذي كانت العادة في ذلك الزمان أن لا يدعوه أحد إلا أجيب، فشقت الأرض بذلك العرش، حتى نَبَعَ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ عليه السلام. وقيل: بل جيء به في الهواء. وجمهور المفسرين على أن هذا الذي عنده علم من الكتاب - كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل اسمه (أصف بن برخيا)، روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان [عليه السلام]: يا نبي الله؛ أَمُدُّ بِصْرِكَ

- (١) أخرجه الطبري (٥٢٢/٩) رقم (٢٦٩٨٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٦٠/٤)، وابن كثير (٣/٣٦٣) بنحوه، والسيوطي (٢٠٤/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.
- (٢) أخرجه الطبري (٥٢٢/٩) رقم (٢٦٩٩٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٦٠/٤).
- (٣) أخرجه الطبري (٥٢٤/٩) رقم (٢٧٠٠٣)، وذكره البغوي (٤٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٢٦٠/٤)، والسيوطي (٢٠٥/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير.
- (٤) ذكره البغوي (٤٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٢٦٠/٤).
- (٥) أخرجه الطبري (٥٢٤/٩) رقم (٢٧٠٠٧) بنحوه، وذكره البغوي (٤٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٢٦٠)، والسيوطي (٢٠٥/٥) بنحوه، وعزاه للفرياحي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.
- (٦) ينظر: «المحرر» (٢٦٠/٤).

نحو اليمَن، فمد بصره؛ فإذا بالعرش، فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده. وقال قتادة: اسمه بليخا^(١). وقول سليمان - عليه السلام -: ﴿نكروا لها عرشها﴾ يريدُ تَجَرِبَةَ مَيزَها ونَظَرِها، وروث فرقة أن الجن أحسَّت من سليمان أو ظنت به أنه ربما تزوجها، فكرهوا ذلك وعيَّبوا عنده، بأنها غيرُ عاقلة ولا مميّزة؛ وأن رجلها كحافر دابة، فجرب عَقْلها وميَّزها بتكبير السرير، وجرب أمر رجلها بأمر الصَّرح، لتكشف عن ساقِها عنده، وتكبير العرش: تغيير وضعه وسنُّ بعضه. وقولها ﴿كأنه هو﴾ تحرُّرُ فصيح، وقال الحسن بن الفضل^(٢): شَبَّهوا عَلَيْها فَشَبَّهَتْ عَلَيْهِم. ولو قالوا: ﴿أهذا عرشك؟﴾ ل قالت: نعم، ثم قال سليمان عليه السلام عند ذلك: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ الآية، وهذا منه؛ على جهة تعديد نعم الله تعالى عليه وعلى آبائه.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤).

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ﴾ أي: عن الإيمان، وهذا الكلام يحتمل أن يكونَ مِنْ قولِ سليمان، أو مِنْ قولِ الله، إخباراً لمحمدٍ عليه السلام: قال محمد بن كعب القرظي / وغيره: ولَمَّا وَصَلَتْ بَلْقِيسُ أمر سليمان الجنَّ فَصَنَعَتْ لَهُ صَرْحاً؛ وهو السطح في الصَّخْنِ مِنْ غير سَقْفٍ وَجَعَلَتْهُ مَبْنِئاً كَالصُّهْرِيحِ وملئ ماءً وَبُثَّ^(٣) فِيهِ السَّمَكُ وطَبَّقَهُ بِالزُّجَاجِ الْأَبْيَضِ الشَّفَافِ، وبهذا جاء صَرْحاً. والصَّرحُ أيضاً كل بناء عالٍ، وكل هذا من التصريح؛ وهو الإعلان البالغ. ثم وضع سليمان في وسط الصَّرح كرسياً، فلما وصلته بلقيس؛ قيل لها: ادخلي إلى النبي - عليه السلام -، فلما رأت الصَّرحَ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وهو مُعْظَمُ الْمَاءِ، فَفَزِعَتْ وَظَنَّتْ أَنَّهَا قُصِدَ بِهَا الْعَرَقُ، وَتَعَجَّبَتْ مِنْ كَوْنِ كَرْسِيِّهِ عَلَى الْمَاءِ، وَرَأَتْ مَا هَالَهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بُدٌّ مِنْ امْتِنَالِ الْأَمْرِ، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا، فرأى سليمان سَاقِهَا سَلِيمَةً مِمَّا قَالَتِ الْجَنُّ غَيْرَ أَنَّهَا كَثِيرَةُ الشَّعْرِ، فلما بلغت هذا الحد قال لها سليمان عليه السلام: ﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾ والممرد: المحكوك المُمَلَّسُ؛ ومنه الأمرد، فعند ذلك قالت: ﴿رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ فَرُويَ أن

(١) أخرجه الطبري (٥٢٣/٩) رقم (٢٦٩٩٣) بلفظ «كان اسمه بليخا»، وذكره ابن عطية (٦١/٤)، وابن كثير (٣٦٤/٣)، والسيوطي (٢٥٥/٥)، وعزاه لابن جرير عن قتادة.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٦١/٤).

(٣) في ج: وجعل.

سليمان عليه السلام تَزَوَّجَهَا عند ذلك، وأَسْكَنَهَا الشام؛ قاله الضحاك^(١). وقيل: تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن وكان يأتيها على الريح كلَّ شَهْرٍ مَرَّةً، فَوَلَدَتْ له غلاماً سَمَّاهُ داود؛ مات في حياته. وَرُوِيَ أن سليمان لما أَرَادَ زوالَ شَعْرِ ساقِيهَا؛ أَمَرَ الجَنِّ بالتَّلَطُّفِ في زواله، فَصَنَعُوا الثُّورَةَ^(٢) ولم تَكُنْ قَبْلَ، وصَنَعُوا الحِمَّامَ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوِّمُ لِمَ سَتَعْبُدُونَ بِلِلَّاتِي قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَعْبُدُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَاعَتُكَ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتَ قَوْمٌ مُّشْتَبُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شِعَةٌ رَهَطٌ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يَبُوتُهُمْ حَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً...﴾ الآية، تمثيل لقريش، و﴿فريقان﴾: يريد بهما من آمن بصالح. ومن كفر به. واختصامهم هو تنازعهم. وقد ذكر تعالى ذلك في سورة الأعراف، ثم إن صالحاً - عليه السلام - تَرَفَّقَ بِقَوْمِهِ وَوَقَّفَهُمْ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ في استعجالهم العذاب؛ قبل الرحمة. أو المعصية لله قبل الطاعة، ثم أجابوه بقولهم: ﴿أطيرنا بك﴾ أي: تشاءمنا بك. ﴿وتسعة رهط﴾ هم رجال كانوا من أوجه القوم وأعتاهم؛ وهم أصحاب قدار، والمدينة مُجْتَمَعُ ثَمُودَ وَقَرِيَّتِهِمْ. وقوله تعالى: ﴿تقاسموا﴾.

قال الجمهور: هو فعل أمر، أشار بعضهم على بعض بأن يتخالفوا على هذا الفعل بصالح، وحكى الطبري^(٣) أنه يجوز أن يكون تقاسموا فعلاً ماضياً في موضع الحال، كأنه قال: متقاسمين أو متحالفين بالله لنبئته وأهله، وتؤيده^(٤) قراءة عبد الله: «ولا يصلحون تقاسموا» بإسقاط «قالوا».

(١) ذكره ابن عطية (٤/٢٦٢).

(٢) الثور: الهناء، وفي «التهذيب»: الثور من الحجر الذي يُحْرَقُ وَيُسَوَّى منه الكِلْسُ ويحلق به شعر العانة. ينظر: «اللسان» ٤٥٧٣.

(٣) ينظر: «الطبري» (٩/٥٣٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٦٣).

قال *ع^(١): * وهذه الألفاظ الدالة على قَسَم تجاوب باللام، وإن لم يتقدم قَسَم ظاهر، فاللام في «لنبيته»: جواب القَسَم. ورُوي في قصص هذه الآية أن هؤلاء التسعة؛ لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الثاقبة وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب، اتفق هؤلاء التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا قد عجلناه قبلنا وشفينا به نفوسنا، فجاءوا واختفوا لذلك في غار قريب من داره، فرُوي أنه انحدرت عليهم صخرة شذختهم جميعاً /، ورُوي أنها طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر، وقد كانوا بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح، ويعني بالأهل كل من آمن به؛ قاله الحسن^(٢).

وقوله سبحانه: «ومكرنا مكرأ وهم لا يشعرون» قال ابن العربي الحاتمي: المكر إرداف النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب، انتهى من شرحه لألفاظ الصوفية. والتدمير: الهلاك و«خاوية» معناه: فقرا، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها النبي ﷺ عام تبوك: «لا تدخلوا بيوت المعدبين إلا أن تكونوا بأكين»^(٣). الحديث في «صحيح مسلم» وغيره.

«ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» (٥٤) أيكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (٥٥) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يظفرون (٥٦) فأجبتهم وأهله إلا امرأتهم قدرناها من الفجريت (٥٧) وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المُنذرين (٥٨).

وقوله تعالى: «ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» * أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * تقدم قصص هؤلاء القوم، و«تبصرون» معناه: بقلوبكم.

قال أبو حيان^(٤): «وشهوة» مفعول من أجله، انتهى. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط»^(٥). رواه أبو داود والترمذي والنسائي؛

(١) ينظر «المحرر» (٢٦٤/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٦٤/٤).

(٣) تقدم تخريجه في سورة الحجر.

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٨٣/٧).

(٥) أخرجه ابن حبان (٥٣- موارد) من حديث ابن عباس مرفوعاً: بلفظ: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن =

واللفظ له؛ وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، انتهى من «الصلاح».

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩) **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بِهَيْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** (٦٠) **أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (٦١).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ الآيات: هذا ابتداء تقرير وتنبيه لقريش والعرب وهو بعد يُعْمُ كُلُّ مُكَلَّفٍ مِنَ النَّاسِ جميعاً، واقتتح ذلك بالقول بحمده - سبحانه - وتمجيده وبالسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوة والإيمان، فهذا اللفظ عام لجميعهم من ولد آدم، وكأن هذا صدرُ خُطْبَةٍ للتقرير المذكور، قالت فرقة: وفي الآية حذف مضاف في موضعين، التقدير: أتوحيد الله خير أم عبادة ما تشركون، ف «ما»، على هذا: موصولة بمعنى: الذي، وقالت فرقة: «ما» مصدرية، وحذف المضاف إنما هو أولاً تقديره: أتوحيد الله خير أم شرككم.

ت: ومن كلام الشيخ العارف بالله أبي الحسن الشاذلي قال - رحمه الله -: إن أردت أن لا يصد لك قلب؛ ولا يلحقك هم؛ ولا كرب؛ ولا يبقى عليك ذنب - فأكثر من قولك: «سبحان الله وبحمده؛ سبحان الله العظيم، لا إله إلا الله، اللهم ثبت علمها في قلبي، واغفر لي ذنبي، واغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وما بعدها من التقريرات توبيخ لهم وتقدير على ما لا مندوحة عن الإقرار به، و«الحقائق» مُجْتَمَعُ الشجر من الأعناب والتَّخِيل وغير ذلك، قال قوم: لا يقال حديقة إلا لما عليه جدار قد أحرق له.

وقال قوم: يقال ذلك كان جدار أو لم يكن؛ لأنَّ البَيَاضَ مُخْدِقٌ بالأشجار، والبهجة الجمال والنَّصَارَة.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي: ليس ذلك في قدرتك،

= الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كره أعمى عن السبيل، ولعن الله من سب والديه، ولعن الله من تولى غير مواله، ولعن الله من عملَ عَمَلٍ قوم لوط.

و﴿يعدلون﴾ يجوز أن يراد به: يعدلون عن طريق الحق، ويجوز أن يراد به يعدلون بالله غيره، أي: يجعلون له عديلاً ومثيلاً، و﴿خلالها﴾ معناه: بينها، والرواسي: الجبال، والبحران / : الماء العذب والماء الأجاج؛ على ما تقدم، والحاجز: ما جعل الله بينهما من حواجز الأرض وموانعها على رقيتها في بعض المواضع، ولطافتها؛ لولا قدرة الله لغلب المالح العذب.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٦) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشَرٍّ أَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (١٩) ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٢٠).

وقوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ...﴾ الآية، وعن حبيب بن مسلمة^(١) الفهري؛ وكان مجاب الدعوة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَجْتَمِعُ مَلَأٌ قِدَعُو بَعْضُهُمْ وَيُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ إِلَّا أَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى»^(٢)، رواه الحاكم في «المستدرک»، انتهى من «سلاح المؤمن»، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ»^(٣) رواه الترمذي؛ وهذا لفظه. قال «صاحب السلاح»: ورواه الحاكم في «المستدرک» وقال: مستقيم الإسناد، انتهى. و﴿السُّوءُ﴾ عامٌ في كل ضرر يكشفه الله تعالى عن عباده، قال ابن عطاء الله: ما طُلبَ لك شيءٌ مثل الاضطراب، ولا أسرع بالمواهب لك مثل الدِّلة والافتقار، انتهى. و«الظلمات» عام؛ لظلمة الليل؛ ولظلمة الجهل والضلال، والرزق من

(١) في أ: مسلمة.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٣٤٧)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢١-٢٢) رقم (٣٥٣٦) كلاهما من طريق أبي عبد الرحمن المقرئ: ثنا ابن لهيعة، حدثني ابن هبيرة، عن حبيب بن مسلمة الفهري به. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٠): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٥١٧-٥١٨) كتاب الدعوات: باب (٦٦) حديث (٣٤٧٩)، وابن حبان في «المعجروحين» (١/٣٦٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٣٥٦) من طريق صالح المري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

السماء هو بالمطر؛ ومن الأرض بالنبات؛ هذا هو مشهور ما يحسُّه البشر، وكم لله بغد من لطف خفي. ثم أمر تعالى نبيه - عليه السلام - أن يُوقِفَهُمْ عَلَى أَنَّ الْعَيْبَ مِمَّا انْفَرَدَ اللَّهُ بعلمه؛ ولذلك سُمِّيَ غَيْباً لغيبه عن المخلوقين. رُوِيَ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ﴾ إنما نَزَلَتْ لِأَجْلِ سَوَالِ الْكُفَّارِ عَنِ السَّاعَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا، فجاء بلفظ يَعْلَمُ السَّاعَةَ وغيرها، وأخبر عن البشر أنهم لا يشعرون أيان يبعثون.

ص: ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام بمعنى: متى، وهي معمولة لـ ﴿يُبعثُونَ﴾، والجملة في موضع نصب بـ ﴿يشعرون﴾، انتهى.

وقرأ جمهور القراء: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ﴾ أصله: تَدَارَكَ. وقرأ عاصم^(١) في رواية أبي بكر: ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ على وَزْنِ افْتَعَلَ، وهي بمعنى: تَفَاعَلَ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ وهذه القراءات تحتلُ مَعْنَيْنِ: أحدهما: ادْرَكَ علمهم، أي: تناهى، كما تقول ادْرَكَ النباتُ، والمعنى: قد تناهى علمهم بالآخرة إلى أن لا يعرفوا لها مقداراً، فيؤمنوا وإنما لهم ظنونٌ كاذبةٌ، أو إلى أن لا يعرفوا لها وقتاً، والمعنى الثاني: بل ادْرَكَ بمعنى: يُدْرِكُ أي أنهم في الآخرة يُدْرِكُ علمهم وقت القيامة، ويرون العذاب والحقائق التي كذبوا بها، وأمّا في الدنيا؛ فلا، وهذا هو تأويل ابن عباس^(٢)، ونحا إليه الزجاج^(٣)، فقلوه: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ على هذا التأويل: ظَرْفٌ؛ وعلى التأويل الأول: ﴿فِي﴾ بمعنى الباء. ثم وَصَفَهُمْ عَزَّ وَجَلَّ بأنهم في شكٍ منها، ثم أَرَدَفَ بِصِفَةٍ هي أبلغ من الشك وهي العَمَى بالْجُمْلَةِ عن أمر الآخرة، و﴿عمون﴾: أصله: (عميون) فَعِلُّونَ كَحَذِرُونَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءُ لَمُخْرَجُونَ﴾ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

(١) ينظر: «السبعة» (٤٨٥)، و«الحجة» (٤٠٠/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦١/٢)، و«معاني القراءات» (٢٤٣/٢)، و«شرح الطيبة» (١١٥/٥)، و«العنوان» (١٤٥)، و«حجة القراءات» (٥٣٥)، و«شرح شعلة» (٥٣٠)، و«إتحاف» (٣٣٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٨/١٠) رقم (٢٧٠٦٨ - ٢٧٠٦٩ - ٢٧٠٧٠ - ٢٧٠٧١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٢٦٨)، وابن كثير (٣٧٣/٣) بنحوه، والسيوطي (٢١٤/٥) وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس بنحوه.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» (١٢٧/٤).

صَدِيقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سَتَعْمِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَسْأَفُكُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ صُلَّتِيهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا أؤذا كنا تراباً وأبأونا أننا لمخرجون﴾ * لقد وعدنا هذا نحن وأبأونا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين، هذه الآية معناها واضح مما تقدّم في غيرها. ثم ذكر - تعالى - استعجال كفار قريش أمر السّاعة والعذاب بقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ على معنى التّعجيز، و﴿ردف﴾ معناه: قُرْبَ وَأَرْفَ؛ قاله ابن عباس^(١) وغيره، ولكنها عبارة عما يجيء بعد الشيء قريباً منه، والهاء في ﴿غائبة﴾ للمبالغة، أي ما من شيء في غاية الغيب والخفاء إلا في كتابٍ عند الله وفي مكنون علمه، لا إله إلا هو. ثم نبّه - تعالى - على أن / هذا القرآن يَقُصُّ على بني إسرائيل أكثر الأشياء التي كان بينهم اختلاف في صفتها، جاء بها القرآن على وجهها، ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ كما أنه عمى على الكافرين المحتوم عليهم، ثم سلّى نبيّه بقوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ فشبّههم مرة بالموتى، ومرة بالصّم من حيث إنّ فائدة القول لهؤلاء معدومة.

وقرأ حمزة^(٢): ﴿وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى﴾ بفعل مستقبل، ومعنى قوله تعالى ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾، أي: إذا انتجَزَ وعد عذابهم الذي تضمّنهُ القول الأزلّي من الله في ذلك، وهذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٧١]، فمعنى الآية وإذا أراد الله أن يُنفِذَ في الكافرين مَآبِقَ عِلْمِهِ لَهُمْ من العذاب أَخْرَجَ لَهُمْ دَابَّةً من الأرض، وَرَوَى أَنْ ذَلِكَ حين ينقطع الخبز، ولا يؤمر بمعروف، ولا يُنهى عن منكر، ولا يَبْقَى مَنِيْبٌ ولا تائب،

(١) أخرجه الطبري (١٠/١٠) رقم (٢٧٠٧٧-٢٧٠٧٨) بنحوه، وابن عطية (٤/٢٦٩)، وابن كثير (٣/٣٧٣) بنحوه، والسيوطي (٥/٢١٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «السبعة» ٤٨٦، و«الحجة» (٤٠٤/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٤٦)، و«شرح الطيبة» (١١٦/٥)، و«العنوان» (١٤٦)، و«شرح شعلة» (٥٣٠)، و«إنحاف» (٢/٣٣٤).

و﴿وقع﴾ عبارة عن الثبوت واللزوم، وفي الحديث: أن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراف، وهذه الدابة روي أنها تخرج من الصفا بمكة؛ قاله ابن عمر^(١) وغيره، وقيل غير هذا.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام. وقرأ ابن عباس^(٣) وغيره: ﴿تَكَلِّمُهُمْ﴾ - بفتح التاء وتخفيف اللام -، من الكلم وهو الجرح، وسئل ابن عباس عن هذه الآية «تكلّمهم أو تكلمهم»؟ فقال: كل ذلك، والله تفعل: تُكَلِّمُهُمْ وَتَكَلِّمُهُمْ، وروي أنها تمُرُّ على الناس فتسِمُ الكافر في جبهته وتزبُرُهُ وتُسَمُّهُ وربما خَطَمَتْهُ، وَتَمَسُّحُ على وجه المؤمن فتبيضه، ويعرف بعد ذلك الإيمان والكفر من أثرها، وفي الحديث: «تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا خَاتَمٌ سُلَيْمَانٌ وَعَصَا مُوسَى، فَتَجْلُو وَجُوهَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَصَا؛ وَتَخْتِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتِمِ، حَتَّى إِنَّ النَّاسَ لَيَجْتَمِعُونَ، فَيَقُولُ هَذَا: يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرٍ»^(٤). رواه البزار، انتهى من «الكوكب الدرّي».

وقرأ الجمهور: «إِنَّ النَّاسَ» - بكسر «إن».

وقرأ حمزة^(٥) والكسائي وعاصم: «أَنَّ» بفتحها.

وفي قراءة عبد الله^(٦): «تُكَلِّمُهُمْ بَأَنَّ»، وعلى هذه القراءة؛ فيكون قوله: ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ إلى آخرها من كلام الدابة، وروي ذلك عن ابن عباس. ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى.

(١) ذكره ابن عطية (٢٧٠/٤)، ولم يعزه لأحد.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧١/٤)، و«البحر المحيط» (٩١/٧)، و«الدر المصون» (٣٢٧/٥).

(٣) وقرأ بها سعيد بن جبير، ومجاهد، والجحدري، وأبو زرعة، وعمر بن جرير.
ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١١٢، و«المحتسب» (١٤٤/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٧١/٤)، و«البحر المحيط» (٩٢/٧)، و«الدر المصون» (٣٢٨/٥).

(٤) وهم المؤلف في هذا الحديث، حيث إنه عزا هذا الحديث للبزار، وهو عند من هو أشهر من البزار، فقد أخرجه الترمذي (٣٤٠/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة النحل، حديث (٣١٨٧)، وابن ماجه (٢/١٣٥١-١٣٥٢) كتاب الفتن: باب دابة الأرض، حديث (٤٠٦٦) من حديث أبي هريرة.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) ينظر: «السبعة» (٤٨٦ - ٤٨٧)، و«الحجة» (٤٠٦/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦٤/٢)، و«معاني القراءات» (٢٤٦/٢)، و«المعاني» (١٤٦)، و«حجة القراءات» (٥٣٨)، و«إتحاف» (٣٣٥/٢).

(٦) ينظر: «الشواذ» ص ١١٢، و«المحتسب» (١٤٥/٢)، و«الكشاف» (٣٨٥/٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٧١)، و«البحر المحيط» (٩٢/٧)، و«الدر المصون» (٣٢٨/٥).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَآءَ لَيْسِكُمْ فِيهِ وَلَتَنَهَارٌ مُّبْصِرٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَخِيرٌ﴾ (٨٧).

وقوله تعالى: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾: هو تذكير بيوم القيامة، والفوج: الجماعة الكثيرة، و﴿يوزعون﴾ معناه: يُكْفَوْنَ في السوق، يَحْبِسُ أُولَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ^(١)؛ قاله قتادة، ومنه وَازَعَ الجيش، ثم أخبر - تعالى - عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ: ﴿أكذبتم...﴾ الآية، ثم قال: ﴿أماذا كنتم تعملون﴾ على معنى استيفاء الحُجَج، أي: إن كان لكم عملٌ أو حُجَّةٌ فها توها. ثم أخبر عن وقوع القول عليهم، أي: نفوذ العذابِ وَحْتُمُ الْقَضَاءِ وأنهم لا ينطقون بحجة، وهذا في موطن من مواطن القيامة. ولما تكلم المحاسبُ على أهوال القيامة، قال: واذكر الصُّرَاطَ بِدَقَّتِهِ وهوله؛ وزَلَّتِهِ وَعَظِيمِ خطره؛ وجهنم تخفق بأمواجها من تحته، فيا له مِنْ مَنَظَرٍ؛ ما أَفْطَعَهُ وَأَفْوَلَهُ، فَتَوَهَّمْ ذَلِكَ بقلب فارغ، وعقل جامع، فإن أهوال يوم القيامة إنما خَفَّتْ عَلَى الَّذِينَ تَوَهَّمُوهَا في الدنيا بعقولهم، فَتَحْمَلُوا في الدنيا الهمومَ خَوْفًا مِنْ مَقَامِ رَبِّهِمْ، فَخَفَّفَهَا مَوْلَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْهُمْ، انتهى من «كتاب التوهم».

﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ وهو الْقَرْنُ في قول جمهور الأمة، وصاحب الصور هو إسرافيل - عليه السلام -، وهذه النفخة المذكورة هنا هي نفخة / الْقَرْع، وَرَوَى أَبُو هريرة^(٢) أنها ثلاث نفحات: نفخة الْقَرْع، وهو فزع حياة الدنيا وليس بِالْقَرْعِ الْأَكْبَرِ، ونفخة الصُّعْقِ، ونفخة القيام من القبور. وقالت فرقة: إنما هما نفختان: كأنهم جَعَلُوا الْقَرْعَ وَالصُّعْقَ في نفخةٍ وَاحِدَةٍ مستدلين بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَى...﴾ الآية [الزمر: ٦٨]. قالوا: وأخرى لا يقال إلا في الثانية. قال ع^(٣): * والاول أصح، وأخرى يقال في الثالثة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾. [النجم: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿إلا من شاء الله﴾ استثناء فيمن قَضَى اللَّهُ سبحانه مِنْ ملائكتِهِ، وأنبيائه، وشهداء عبيده أن لا ينالهم فزع النَّفْخِ في الصور، حَسَبَ ما ورد في ذلك من الآثار.

(١) أخرجه الطبري (١٧/١٠) رقم (٢٧١١٣)، وذكره ابن عطية (٤/٢٧١)، وابن كثير (٣/٣٧٦) بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢٧٢).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٢٧٢).

قال *ع^(١): «وإذا كان الفزع الأكبر لا ينالهم فهم حريون أن لا ينالهم هذا.

وقرأ حمزة^(٢): «وكلُّ أتوه» على صيغة الفعل الماضي، والداخر: المندلل الخاضع، قال ابن عباس وابن زيد: الداخر: الصاغر، وقد تظاهرت الروايات بأن الاستثناء في هذه الآية إنما أريد به الشهداء: لأنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وهم أهل للفزع؛ لأنهم بشر لكن فصلوا بالأمن في ذلك اليوم.

*ع: واختار الحلبي هذا القول قال: - وهو مروي عن ابن عباس -: إن المستثنى هم الشهداء. وضعف ما عدها من الأقوال، قال القرطبي^(٣)، في «تذكرته»: وقد ورد في حديث أبي هريرة؛ بأنهم الشهداء، وهو حديث صحيح^(٤)، انتهى.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ لِذِي الْإِقْنِ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَذِئَامُنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتَ وَجْهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة...﴾ الآية، هذا وصف حال الأشياء يوم القيامة عقب النفخ في الصور، والرؤية: هي بالعين، قال ابن عباس: جامدة^(٥): قائمة، والحسنة الإيمان، وقال ابن عباس وغيره: هي «لا إله إلا الله»^(٦) وزوي عن علي بن الحسين أنه قال: كُنت في بعض خلواتي فرفعت صوتي: ب «لا إله إلا الله» فسمعت قائلاً يقول: إنها الكلمة التي قال الله فيها: «من جاء بالحسنة فله خير منها»^(٧).

(١) ينظر: «المحرر» (٢٧٢/٤).

(٢) وبها قرأ حفص عن عاصم. وقرأ الباقون بالمد «أتوه» اسم فاعل، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ [مريم: ٩٥].

ينظر: «الحجة» ٤٠٦/٥، و«السبعة» (٤٨٧)، و«إعراب القراءات» (١٦٥/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٤٧)، و«شرح الطيبة» (١١٧/٥)، و«العنوان» (١٤٦)، و«حجة القراءات» (٥٣٨)، و«شرح شعلة» (٥٣١)، و«إتحاف» (٢/٣٣٥).

(٣) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢٣٣/١).

(٤) هو موقوف عن أبي هريرة.

ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢١/٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير.

(٥) أخرجه الطبري (٢١/١٠) رقم (٢٧١٢٤)، وابن عطية (٢٧٣/٤)، والسيوطي (٢٢١/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري (٢٢/١٠) رقم (٢٧١٣١)، وذكره ابن عطية (٢٧٣/٤)، والسيوطي (٢٢٣/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس.

(٧) ذكره ابن عطية؛ (٢٧٣/٤)، وابن كثير (٣٧٨/٣).

وقال ابن زيد: يُعْطَى بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرًا^(١).

قال *ع^(٢): والسبيئة التي في هذه الآية هي الكُفْر والمَعَاصِي. فيمن حَتَمَ الله عليه من أهل المشيئة بدخول النار.

﴿إِنَّمَا أَمْرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئًا وَأَمْرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَمْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ *.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرْتُ﴾ المعنى: قل يا محمد لقومك: إِنَّمَا أَمْرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، يعني: مكة، ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ معناه: تَابِعْ فِي قِرَاءَتِكَ، أي: بَيْنَ آيَاتِهِ وَاسْرُدْ.

قال *ص*: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا﴾ معطوفٌ على «أَنْ أَكُونَ».

وقرأ عبد الله^(٣): «وَأَنْ أَتْلُ» بغير واو وقوله: ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ جوابه محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: فَوَبَالَ ضَلَالِهِ عَلَيْهِ، أو يكون الجواب: فَقُلْ، وَيُقَدَّرُ ضَمِيرٌ عَائِدٌ مِنَ الْجَوَابِ عَلَى الشَّرْطِ؛ لَأَنَّهُ اسْمٌ غَيْرُ ظَرْفٍ، أي: مِنَ الْمُنذِرِينَ لَهُ، انتهى. وتلاوة القرآن سببُ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ تَوْعَدٌ بِعَذَابِ الدُّنْيَا كَبَدْرٍ وَنَحْوِهِ، وَبِعَذَابِ الْآخِرَةِ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه وعيدٌ.

(١) أخرجه الطبري (٢٣/١٠) رقم (٢٧١٥١)، وذكره ابن عطية (٢٧٣/٤).

(٢) ينظر: «المحرر» (٢٧٤/٤).

(٣) ينظر: «الشواذ» ص ١١٢، و«الكشاف» (٣/٣٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٧٤)، و«البحر المحيط»

(٩٦/٧)، و«الدر المصون» (٥/٣٣٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ الْقَصَصِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

إِلَّا قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ بِالْجُحْفَةِ فِي وَقْتِ هَجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ قَالَ ابْنُ سَلَامٍ وَغَيْرُهُ، وَقَالَ مِقَاتٌ: فِيهَا مِنَ الْمَدِينَةِ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكِ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ فِي أَلَمٍ وَلَا خَافٍ وَلَا تَحَرَّفَ إِنَّا رَاوَدُوهُ إِلَىٰ تِلْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمُّرَاتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾

/ قوله تعالى: ﴿طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى...﴾ ٥٥ ب
الآية، معنى ﴿نتلوا﴾: نَقُصُّ وَخَصَّ تَعَالَى بِقَوْلِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَ﴿علا في الأرض﴾ أي: عَلُو طُغْيَانٍ وَتَغَلُّبٍ، وَ﴿في الأرض﴾ يريد أرض مصر، والشيع: الفرق، والطائفة المستضعفة: هم بنو إسرائيل، ﴿يذبح أبناءهم﴾ خوف خراب مُلْكِهِ عَلَى مَا أَخْبَرْتَهُ كَهَنَتُهُ، أَوْ لِأَجْلِ رُؤْيَا رَأَاهَا؛ قَالَ السُّدِّيُّ^(١). وَطَمَعُ بَجْهَلِهِ أَنْ يَزِدَّ الْقَدْرَ، وَأَيْنَ هَذَا الْمَنْزَعُ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِعُمَرَ: «إِنْ يَكُنْهُ

(١) أخرجه الطبري (٢٧/١٠) رقم (٢٧١٦٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٢٧٦).

فَلَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ، فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ^(١) يعني: ابن صَيَّادٍ؛ إِذْ خَافَ عَمْرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الدَّجَالُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ؛ وَتَقَدَّمَ قِصَصُهُ. وَالْأُثْمَةُ: وَلَاةُ الْأُمُورِ؛ قَالَه قَتَادَةُ^(٢).

﴿وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ يريدُ: أَرْضَ مِصْرَ وَالشَّامَ، وَقَرَأَ حَمْزَةً^(٣): «وَيَرَى فِرْعَوْنَ» - بِالْيَاءِ وَفَتْحِ الرَّاءِ - وَالْمَعْنَى: وَيَقْعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ فِيمَا خَافُوهُ وَحَذَرُوهُ مِنْ جِهَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَظُهُورِهِمْ، وَهَامَانَ: هُوَ وَزِيرُ فِرْعَوْنَ وَأَكْبَرُ رَجَالِهِ، وَهَذَا الْوَحْيُ إِلَى أُمِّ مُوسَى، قِيلَ: وَحْيُ الْهَامِ، وَقِيلَ: بِمَلِكٍ.

وقيل: فِي مَنَامٍ

وجملة الأمر أنها عَلِمَتْ أَنَّ هَذَا الَّذِي وَقَعَ فِي نَفْسِهَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ السَّيِّدِي وَغَيْرُهُ: أُمِرَتْ أَنْ تُزْضِعَهُ عَقِبَ الْوِلَادَةِ، وَتَضَعُ بِهِ مَا فِي الْآيَةِ^(٤)؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ كَانَ عَقِبَ كُلِّ وَلَادَةٍ، وَالْيَمُّ: مُعْظَمُ الْمَاءِ، وَالْمَرَادُ: نَيْلُ مِصْرَ، وَاسْمُ أُمِّ مُوسَى يُوْحَانَدُ^(٥)، وَرُؤْيِي فِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ أُمَّ مُوسَى لَفَتْهُ فِي ثِيَابِهِ وَجَعَلَتْ لَهُ تَابُوتًا صَغِيرًا، وَسَدَّتْهُ عَلَيْهِ بِقُفْلٍ، وَعَلَقَتْ مِفْتَاحَهُ عَلَيْهِ، وَأَسْلَمَتْهُ ثِقَةً بِاللَّهِ وَاتْتَظَارًا لَوَعْدِهِ سَبْحَانَهُ، فَلَمَّا غَابَ عَنْهَا عَاوَدَهَا بِكُفَّهَا وَأَسِفَتْ عَلَيْهِ، وَأَقْنَطَهَا الشَّيْطَانُ فَاهْتَمَّتْ بِهِ وَكَادَتْ تَفْتَضِّحُ، وَجَعَلَتْ الْأُخْتُ تَقْصُّهُ، أَي: تَطْلُبُ أَثَرَهُ، وَتَقَدَّمَ بَاقِي الْقِصَّةِ فِي «طه» وَغَيْرِهَا، وَالِاتِّقَاطُ: الْإِقْلَاقُ عَنْ^(٦) غَيْرِ قِصْدٍ، وَآلُ فِرْعَوْنَ: أَهْلُهُ وَجَمَلَتُهُ، وَاللَّامُ فِي ﴿لِيَكُونَ﴾: لَامُ الْعَاقِبَةِ.

وقال *ص*: ﴿لِيَكُونَ﴾: اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ الْمَجَازِيِّ، وَلَمَّا كَانَ مَالَهُ إِلَى ذَلِكَ، عَبَّرَ عَنْهُ بِلَامِ الْعَاقِبَةِ، وَبِلَامِ الصَّبْرِ وَرَوَّهَ، أَنْتَهَى.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٠/ ٥٧٦-٥٧٧) كِتَابُ الْأَدَبِ: بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ: اخْشَأْ، حَدِيثُ (٦١٧٣-٦١٧٤)، وَمُسْلِمٌ (٤/ ٢٢٤٤-٢٢٤٥) كِتَابُ الْفَتَنِ: بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صِيَادٍ، حَدِيثُ (٢٩٣٠/٩٥) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٠/ ٢٨) رَقْمُ (٢٧١٦٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤/ ٢٧٦)، وَالسَّيُوطِيُّ (٥/ ٢٢٧)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جُرَيْرٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٣) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٤٩٢)، وَ«الْحِجَّةُ» (٥/ ٤٤١)، وَ«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢/ ١٦٨)، وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/ ٢٤٩)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيَّةِ» (٥/ ١٢٠)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١٤٧)، وَ«حِجَّةُ الْقُرْآنِ» (٥٤١)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٥٣٢)، وَ«إِتْحَافُ» (٢/ ٣٤٠).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٠/ ٢٩-٣٠) رَقْمُ (٢٧١٧٣)، (٢٧١٧٦) بَنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٥) فِي أ: بِوَحَاتَةٍ.

(٦) فِي أ: مِنْ.

وقرأ حمزة، والكسائي^(١) «وَحَزْنَا» - بضم الحاء وسكون الزاي -، والخطي: متعمد الخط، والمخطيء الذي لا يتعمده.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بأنه هو الذي يَفْسُدُ ملكُ فرعونَ على يده؛ قاله قتادة^(٢) وغيره.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ فَرِعَّاوْنَ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَظُنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ فَصِيحَةً فَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى آتِيهِ كَى نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾.

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أي: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى^(٣).

قاله ابن عباس.

قال مالك: هو ذهاب العقل، وقالت فرقة: ﴿فارغاً﴾ من الصبر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: أمر ابنها، ورؤي أن النبي ﷺ قال: كادت أم موسى أن تقول: «وَأَبْنَاهُ وَتَخْرُجُ سَائِحَةً عَلَى وَجْهِهَا». والرَبْطُ على القلب: تأنيسه وتقويته، و﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي: من المصدقين بوعد الله سبحانه وما أوحى إليها به، ﴿وعن جنب﴾ أي: ناحية، فمعنى ﴿عن جنب﴾: عن بُعد لَمْ تَدُنْ مِنْهُ فَيُسْعَرَ لَهَا.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: أنها أختها، ووعد الله المشار إليه هو الذي أوحاه إليها أولاً، إمَّا بِمَلَكٍ / أَوْ بِمَنَامَةٍ، حَسْبَمَا تَقَدَّمُ، والقَوْلُ بِالْإِلْهَامِ ضَعِيفٌ أَنْ يَقَالَ ١٥٦ فيه وعد.

وقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ يريد به القَبْطُ، والأشدُّ: شدة البدن واستحكام أمره وقوته،

(١) ينظر: «السبعة» (٤٩٢)، و«الحجة» (٤١٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦٨/٢)، و«معاني القراءات» (٢٤٩/٢)، و«شرح الطيبة» (١٢١/٥)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٢)، و«شرح شعلة» (٥٣٢)، و«إتحاف» (٣٤١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣٤/١٠) رقم (٢٧١٩٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٧٨/٤)، والسيوطي (٥/ ٢٢٨-٢٢٩)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (٣٥/١٠) رقم (٢٧٢٠١)، وذكره ابن عطية (٢٧٨/٤)، وابن كثير (٣٨١/٣)، والسيوطي (٢٢٩/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن أبي شيبه وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس.

﴿استوى﴾ معناه: تَكَامَلَ عَقْلُهُ، وذلك عند الجمهور مع الأربعين. والحكم: الْحِكْمَةُ، والعلم: الْمَعْرِفَةُ بشرع إبراهيم عليه السلام.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَنْزِلْ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾.

قال السدي: كان موسى في وقت هذه القصّة على رَسْمِ التَّعْلِقِ بِفِرْعَوْنَ، وكان يَرْكَبُ مَرَاكِبَهُ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُدْعَى مُوسَى بْنِ فِرْعَوْنَ^(١)، فركب فرعون يوماً وسارَ إلى مدينة من مدائن مِصْرَ، فركبَ مُوسَى بَعْدَهُ وَلَحِقَ بِتِلْكَ الْمَدِينَةِ فِي وَقْتِ الْفَائِلَةِ، وهو حينُ الْغَفْلَةِ؛ قاله ابن عباس^(٢)، وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمَةِ، وقيل غيرُ هذا^(٣).

وقوله تعالى: ﴿هذا من شيعته﴾ أي من بني إسرائيل، و﴿عدوه﴾ هم الْقِبْطُ، و﴿الْوَكْزُ﴾: الضَّرْبُ بِالْيَدِ مَجْمُوعَةً، وقرأ ابن مسعود^(٤): «فَلَكَزَهُ» والمعنى: واحد؛ إلا أن اللَّكْزَ فِي اللَّحْيِ، وَالْوَكْزَ عَلَى الْقَلْبِ، و﴿قضى عليه﴾ معناه: قَتَلَهُ مُجْهَرًا، وَلَمْ يُرَدَّ

(١) أخرجه الطبري (٤٢/١٠) رقم (٢٧٢٥٢)، وذكره البغوي (٤٣٨/٣)، وابن عطية (٢٨٠/٤)، والسيوطي (٢٣١/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٨٠/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٠/٤).

(٤) ينظر: «الشواذ» ص ١١٤، و«الكشاف» (٤٩٨/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٨٠/٤)، و«البحر المحيط» (١٠٥/٧)، و«الدر المصون» (٣٣٥/٥).

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَتَلَ الْقِبْطِيَّ، لَكِنْ وَافَقَتْ وَكَرَّتُهُ الْأَجَلَ، فَتَدِمَ، وَرَأَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ فِي يَدِهِ، ثُمَّ إِنَّ نَدَامَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَتْهُ عَلَى الْخُضُوعِ لِرَبِّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذَنْبِهِ، فَغُفِرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعِيدُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ، حَتَّى إِنَّهُ فِي الْقِيَامَةِ يَقُولُ: «وَقَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا»؛ حَسْبَمَا صَحَّ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، ثُمَّ قَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مُعَاهِدًا لِرَبِّهِ: رَبِّ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَبِسَبَبِ إِحْسَانِكَ وَغُفْرَانِكَ، فَأَنَا مُلْتَزِمٌ أَلَّا أَكُونَ مُعِينًا لِلْمُجْرِمِينَ؛ هَذَا أَحْسَنُ مَا تَأُولُ.

وقال الطبري^(١): إِنَّهُ قَسَمَ؛ أَقْسَمَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدَهُ.

قال ع^(٢): * واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في منع خِذْمَةِ أَهْلِ الْجَوْرِ وَمَعُونَتِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّهَا تَتَنَاولُ ذَلِكَ؛ نَصَّ عَلَيْهِ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَّاحٍ وَغَيْرُهُ.

قال ابن عباس: ثُمَّ إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَرَّ وَهُوَ بِحَالَةِ التَّرَقُّبِ؛ وَإِذَا ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي قَاتَلَ الْقِبْطِيَّ بِالْأَمْسِ يُقَاتِلُ آخَرَ مِنَ الْقِبْطِ^(٣)، وَكَانَ قَتَلَ الْقِبْطِيَّ قَدْ خَفِيَ عَلَى النَّاسِ وَانْتَهَمَ، فَلَمَّا رَأَى الْإِسْرَائِيلِيُّ مُوسَى، اسْتَصْرَخَهُ، بِمَعْنَى صَاحَ بِهِ مُسْتَعِينًا فَلَمَّا رَأَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَتَلَهُ لآخر؛ أَعْظَمَ ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ مُعَاتِبًا وَمُؤْتَبًا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ﴾ وَكَانَتْ إِرَادَةُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ ذَلِكَ، أَنْ يَنْصَرَ الْإِسْرَائِيلِيَّ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمَا، وَحَبَسَ الْإِسْرَائِيلِيَّ وَفَرَّعَ مِنْهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ رُبَّمَا ضَرَبَهُ، وَفَرَعَ مِنْ قُوَّتِهِ الَّتِي رَأَى بِالْأَمْسِ، فَنَادَاهُ بِالْفُضِيحَةِ وَشَهَّرَ أَمْرَ الْمَقْتُولِ، وَلَمَّا اسْتَشْهَرَ أَنَّ مُوسَى قَتَلَ الْقَتِيلَ، وَكَانَ قَوْلُ الْإِسْرَائِيلِيِّ يُغْلِبُ عَلَى النُّفُوسِ تَصْدِيقُهُ عَلَى مُوسَى، مَعَ مَا كَانَ لِمُوسَى مِنَ الْمَقْدَمَاتِ أَتَى رَأْيُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، وَغَلَبَ عَلَى نَفْسِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِفَسَادِ الْمَمْلَكَةِ، فَأَنْقَدَ فِيهِ مَنْ يَطْلُبُهُ وَيَأْتِي بِهِ لِلْقَتْلِ، وَاللَّهُ رَجُلًا؛ يُقَالُ إِنَّهُ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَوْ غَيْرِهِ، فَجَاءَ إِلَى مُوسَى وَبَلَغَهُ قَبْلَهُمْ وَ﴿يَسْعَى﴾ / معناه: يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ؛ قَالَ ه ٥٦ ب الزجاجة^(٤) وَغَيْرِهِ، وَهُوَ دُونَ الْجَزْيِ، فَقَالَ: ﴿يَا مُوسَى إِنْ الْمَلَأُ يَأْتَمِرُونَ بِكَ...﴾ الآية.

* قال الهروي: قوله تعالى: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي

(١) ينظر: «الطبري» (٤٦/١٠).

(٢) ينظر: «المحرر» (٢٨١/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٧/١٠) رقم (٢٧٢٧٧)، وذكره البغوي (٤٤٠/٣)، وابن عطية (٢٨١/٤).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٣٨/٤).

قَتْلِكَ، وقال الأزهري: الباء في قوله: ﴿يَأْتُمِرُونَ بِكَ﴾ بمعنى: «في» يقال: ائْتَمَرَ القومُ إذا شَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، انتهى. وعن أبي مجلز - واسمه لاحق بن حميد - قال: من خاف من أمير ظُلماً فقال: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وبالقرآن حكماً وإماماً، نَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهُ؛ رواه ابن أبي شيبه في «مصنفه»، انتهى من «السلام». و«تلقاء» معناه نَاحِيَّةُ مَدِينٍ، وَبَيْنَ مِصْرَ وَمَدْيَنَ مَسِيرَةٌ ثَمَانِيَّةٌ أَيَّامٌ، وَكَانَ مُلْكُ مَدِينٍ لَغَيْرِ فِرْعَوْنَ، وَلَمَّا خَرَجَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَارًّا بِنَفْسِهِ مَنفَرَدًا حَافِيًا؛ لَا شَيْءَ مَعَهُ وَلَا زَادَ وَغَيْرَ عَارِفٍ بِالطَّرِيقِ؛ أَسْنَدَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَالَ: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ومشى - عليه السلام - حَتَّى وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ، وَوُزُوْدُهُ الْمَاءِ، معناه: بَلُوغُهُ، وَمَدْيَنُ: لَا يَنْصَرِفُ إِذْ هُوَ بِلَدٍ مَعْرُوفٍ، وَالْأُمَّةُ: الْجَمْعُ الْكَثِيرُ، وَ﴿يَسْقُونَ﴾ معناه: مَاشَيْتَهُمْ، وَ﴿مَنْ دُونَهُمْ﴾ معناه: نَاحِيَّةُ إِلَى الْجَهَةِ الَّتِي جَاءَ مِنْهَا، فَوَصَلَ إِلَى الْمَزَاتَيْنِ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى الْأُمَّةِ، وَ﴿تَذُودَانِ﴾ معناه: تَمْنَعَانِ، وَتَحْبِسَانِ عَنَّمَهُمَا عَنِ الْمَاءِ؛ خَوْفًا مِنَ السُّقَاةِ الْأَقْوِيَاءِ، وَ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، أَي: لَا يَسْتَطِيعُ لِضَعْفِهِ أَنْ يُبَاشِرَ أَمْرَ غَنَمِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾.

قالت فرقة: كانت آبارُهم مغطاةً بحجارةٍ كبارٍ، فَعَمَدَ إِلَى بُئْرٍ، وَكَانَ حَجَرُهَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا جَمَاعَةٌ، فَرَفَعَهُ وَسَقَى لِلْمَرَاتَيْنِ. فَعَن رَفَعَ الصَّخْرَةَ وَصَفْتُهُ إِحْدَاهُمَا بِالْقُوَّةِ، وَقِيلَ: وَصَفْتُهُ بِالْقُوَّةِ؛ لِأَنَّهُ رَحِمَ النَّاسَ وَعَلَبَهُمْ عَلَى الْمَاءِ حَتَّى سَقَى لَهُمَا.

وقرأ الجمهور^(١) «يُضْدِرُّ الرُّعَاءَ» - عَلَى حَذْفِ الْمَفْعُولِ - تَقْدِيرُهُ: مَوَاشِيَهُمْ، وَتَوَلَّى مُوسَى إِلَى الظِّلِّ وَتَعَرَّضَ لِسَوْأَلِ مَا يَطْعَمُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرِ فَقِيرٍ﴾ وَلَمْ يُصْرِّحْ بِسَوْأَلٍ؛ هَكَذَا، رَوَى جَمِيعُ الْمَفْسَرِينَ أَنَّهُ طَلَبَ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَا يَأْكُلُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ قَدْ بَلَغَ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجُوعُ إِلَى أَنْ اخْضَرَّ لَوْنُهُ مِنْ أَكْلِ الْبَقْلِ، وَرُئِيتِ خُضْرَةُ الْبَقْلِ فِي بَطْنِهِ، وَإِنَّهُ لَا تَكْرُمُ الْخَلْقَ يَوْمِيذٍ عَلَى اللَّهِ، وَفِي هَذَا مُغْتَبَرٌ وَحَاكِمٌ بِهِوَإِنِ الدُّنْيَا عَلَى^(٢) اللَّهُ تَعَالَى، وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا، فَقَالَ:

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر «حَتَّى يَضْدُرَّ». وقرأ بها الحسن وأبو جعفر.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨٣/٤)، و«السبعة» (٤٩٢)، و«الحجة» (٥/٤١٢)، و«إعراب القراءات» (١٦٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢٥٠)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٣)، و«شرح شملة» (٥٣٣)، و«إتحاف» (٣٤١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٧/١٠) رقم (٢٧٣٤٢) بنحوه، وذكره البغوي (٣/٤٤١-٤٤٢)، وابن عطية (٤/٢٨٤)، وابن كثير (٣/٣٨٣، ٣٨٤)، والسيوطي (٥/٢٣٧)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ - غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ لَيْسَ ثَوْبًا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ^(١) رواه أبو داود؛ واللفظ له، والترمذي وابن ماجه والحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح على شرط البخاري، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ، انتهى من «السَّلاح».

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَنْتِ بِالْحَقِّ بِأَمْرِ رَبِّكَ أَجْرٌ مَا سَفَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبْنَوتُ اسْتَحْيَاءُ إِنَّكِ خَيْرٌ مَنِ اسْتَحْيَاءُ الْقَوَى الْأَمِينِ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هُنْتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ...﴾ الآية: في هذا الموضع اختصارٌ يدلُّ عليه الظاهرُ، قدَّره ابنُ إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما فأخبرتهما بما كان من الرجل، فأمر إحدى ابنتيه أَنْ تدعوه له، فجاءته، على ما في الآية / . وقوله: ﴿على استحياء﴾ أي: خفية، قد سترت وجهها بكم ذرعها؛ قاله عمر بن الخطاب^(٢) - رضي الله عنه - . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَدَأُ مِنَ الْجَفَاءِ؛ وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»^(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٠/١) كتاب اللباس: باب ما جاء في اللباس، حديث (٤٠٢٣)، والترمذي (٥٠٨) كتاب الدعوات: باب ما يقول إذا فرغ من الطعام، حديث (٣٤٥٨)، وابن ماجه (١٠٩٣/٢) كتاب الأطعمة: باب ما يقال إذا فرغ من الطعام، حديث (٣٢٨٥)، وأحمد (٤٣٩/٣)، والحاكم (١/٥٠٧، ١٩٢/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٦١) كلهم من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه به. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الطبري (٥٨/١٠) رقم (٢٧٣٥٤)، وذكره البغوي (٤٤٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٢٨٤/٤)، وابن كثير (٣٨٤/٣)، والسيوطي (٢٣٨/٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٥/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الحياء، حديث (٢٠٠٩)، وأحمد (٢/٥٠١)، وابن حبان (١٩٢٩- موارد)، والبغوي في «شرح السنة» (٥٤٠/٦)، ٥٤١- بتحقيقنا كلهم من طريق محمد بن عمرو.

حسن صحيح؛ انتهى.

والجمهور أن الداعي لموسى - عليه السلام - هو شُعَيْب عليه السلام وأن المرأتين أبنته، ف ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ...﴾ الآية، فَقَامَ يَتَّبِعُهَا فَهَبَّتْ رِيحٌ صَمَتْ قَمِيصَهَا إِلَى بَدَنِهَا فَتَحَرَّجَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا؛ فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي وَأَرشِدْنِي إِلَى الطَّرِيقِ، فَقَهَمَتْ عَنْهُ؛ فَذَلِكَ سَبَبُ وَصْفِهَا لَهُ بِالْأَمَانَةِ؛ قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(١). ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ﴾ فَأَنَسَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فلما فَرَّغَ كَلَامُهُمَا قَالَتْ إِحْدَى الْابْنَتَيْنِ ﴿يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنْ خَيْرٍ مِنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ فقال لها أبوها: وَمَنْ أَيْنَ عَرَفْتَ هَذَا مِنْهُ؟ قَالَتْ: أَمَا قُوَّتُهُ فَمَيَّ رَفَعَ الصَّخْرَةَ، وَأَمَا أَمَانَتُهُ فَمَيَّ تَحَرَّجَهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيَّ؛ قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢) وقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ، فَقَالَ لَهُ الْأَبُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ...﴾ الآية، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: فِي «أَحْكَامِهِ»^(٣) قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَرَضَ لَا عَقْدَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَقْدًا، لَعَيَّنَ الْمَعْقُودَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الْبَيْعِ، إِذَا قَالَ لَهُ: بَعْتُكَ أَحَدَ عَبْدَيْ هَذَيْنِ بِمَنْ كَذَا، فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ فِي النِّكَاحِ؛ لِأَنَّهُ خِيَارٌ وَشَيْءٌ مِنَ الْخِيَارِ لَا يُلْحَقُ بِالنِّكَاحِ^(٤). وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ شُعَيْبٌ: أَتَيْتُهُمَا تَرِيدُ؟ قَالَ: الصَّغْرَى، انْتَهَى. «وَتَأْجِرُ» مَعْنَاهُ: تُثِيبُ وَجَعَلَ شُعَيْبُ الثَّمَانِيَةَ الْأَعْوَامَ شَرْطًا وَوَكَّلَ الْعَامِنِينَ إِلَى الْمُرُوءَةِ، وَلَمَّا فَرَّغَ كَلَامُ شُعَيْبٍ قَرَّرَهُ مُوسَى؛ وَكَرَّرَ مَعْنَاهُ عَلَى جِهَةِ التَّوَثُّقِ فِي أَنَّ الشَّرْطَ إِنَّمَا وَقَعَ فِي ثَمَانٍ حَجَجٍ، وَ﴿أَيَّمَا﴾ اسْتَفْهَامٌ نُصِبَ بِهِ ﴿قَضَيْتُ﴾ و«مَا» صِلَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَ«لَا عُدْوَانَ» لَا يَتَبَاعَةُ عَلَيَّ، وَ«الْوَكِيلُ»: الشَّاهِدُ الْقَائِمُ بِالْأَمْرِ.

(١) أخرجه الطبري (٦١/١٠) رقم (٢٧٣٧٦)، (٢٧٣٧٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٢٨٤) وابن كثير (٣/٣٨٥) بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٦١/١٠) رقم (٢٧٣٧٦)، وذكره ابن عطية (٤/٢٨٤-٢٨٥)، وابن كثير (٣/٣٨٥).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٦٩).

(٤) لا يدخل الخيار شرعاً إلا عقود المعاوضات اللازمة القابلة للفسخ بتراضي العاقدین، فغير المعاوضات كالصدقة والهبة بلا ثواب لا يدخلها أي نوع من أنواع الخيار؛ لأنها شرعت لدفع الضرر، وهذه العقود نفع محض، لعدم المقابل فيها، وأما اشتراط اللزوم، فلأن المعاوضات الجائزة كالشركة والوكالة لكل من العاقدین أن يفسخها متى شاء بمتقضى العقد ذاته، فليست هناك من حاجة تدعو إلى إثبات الخيار فيها، وهو لم يشرع إلا تحت ضغط الحاجة. وأما اشتراط كونها قابلة للفسخ برضا الطرفين، كالبيع، والهبة بثواب، والصلح على مال، فلأنها لو لم تكن قابلة للفسخ بتراضيهما كالنكاح، والخلع، لكان اشتراط الخيار فيها أو ثبوته في أحوال مخصوصة مخالفاً لمقتضاها، لأن الخيار يستلزم جواز الفسخ، وهي لا تقبله.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِصَ إِبْرَاهِيمَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَن أَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِصُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَمَّا ذَكَرَ بَرَهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ مِنْهُمْ نَفْسًا فَآخَأْتُ أَن يَفْعَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَأَخَى هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْشِئُ عَصَاكَ يَأخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْفٰلِغُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ بِآيَاتِهِمَا الْآلَاءُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلٰهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي الْفَلَاحِ فَاجْعَلَ لِي صَرَحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ قال ابن عباس: قضى أكملهما عشر سنين؛ وأسنده إلى النبي ﷺ (١).

وقوله: ﴿ إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ فلما أتاه نودي... الآية، تقدّم قصصها، فانظره في محالّه، قال البخاري: والجذوة قطعة غليظة من الخشب فيها لهب، انتهى. قال العراقي: و«آنس» معناه: أبصر، انتهى.

وقوله: ﴿ من الشجرة ﴾ يقتضي: أن موسى - عليه السلام - سمع ما سمع من جهة الشجرة، وسمع وأدرك غير مكيف ولا محدّد.

قال السهيلي: قيل إن هذه الشجرة عوسجة، وقيل: غليظة، والعوسج إذا عظم قيل له: العرقد، انتهى. ﴿ ولم يعقب ﴾ معناه: لم يرجع على عقبه من تولّيته.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٩/٥)، وعزاه إلى البزار، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه. وصححه الحاكم.

وقوله تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ ذهب مجاهد^(١) وابن زيد^(٢) إلى: أَنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، أَمَرَهُ بِضَمِّ عَضْدِهِ وَذِرَاعِهِ؛ وَهُوَ الْجَنَاحُ إِلَى جَنْبِهِ؛ لِيَخْفَ بِذَلِكَ ٥٧ ب فَرَعُهُ؛ وَرَهْبُهُ، وَمِنْ شَأْنِ / الْإِنْسَانِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي أَوْقَاتِ فِرْعَوَ؛ أَنْ يَقْوَى قَلْبُهُ، وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ إِلَى أَنْ ذَلِكَ عَلَى الْمَجَازِ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِالْعَزْمِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: أَشَدُّ حَيَازِيْمَكَ؛ وَازْبِطْ جَأَشَكَ، أَي: شَمَزْ فِي أَمْرِكَ وَدَغْ عَنكَ الرَّهْبَ.

وقوله تعالى: ﴿فذاذك برهانان من ربك﴾ قال مجاهد^(٣) والسدي^(٤): هي إشارة إلى العَصَا وَالْيَدِ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «رِذَاءٌ» - بِالْهَمْزِ -.

وَقَرَأَ نَافِعٌ^(٥) وَخَدَّه: «رِدَاءٌ» - بِتَنْوِينِ الدَّالِ دُونَ هَمْزٍ وَذَلِكَ عَلَى التَّخْفِيفِ مِنْ رِذَاءٍ، وَالرِّذَاءُ: الْوَزِيرُ الْمَعِينُ، وَشَدُّ الْعَضْدِ: اسْتِعَارَةٌ فِي الْمَعُونَةِ، وَالسُّلْطَانُ: الْحِجَّةُ.

وقوله: ﴿بآياتنا﴾: متعلقٌ بقوله ﴿الغالبون﴾ أَي: تَغْلِبُونَ بآيَاتِنَا؛ وَهِيَ الْمَعِجَزَاتُ، ثُمَّ إِنْ فِرْعَوْنُ اسْتَمَرَّ فِي طَرِيقِ مَخْرَقَتِهِ^(٦) عَلَى قَوْمِهِ، وَأَمَرَ هَامَانَ بِأَنْ يَطْبُخَ لَهُ الْآجَرَ وَأَنْ يَبْنِي لَهُ صَرْحًا أَيْ سَطْحًا فِي أَعْلَى الْهَوَاءِ، مُؤَهِّمًا لِحَاجَةِ قَوْمِهِ أَنْ يَطْلُعَ بِزَعْمِهِ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنِّي لَأُظْهِرُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يَعْنِي: مُوسَى فِي أَنَّهُ أَرْسَلَهُ مُرْسِلًا وَنَبَذْنَاهُمْ﴿﴾ مَعْنَاهُ: طَرَحْنَاهُمْ، وَ«الْيَمِّ»: بَحْرُ الْقُلُزْمِ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ النَّاسِ؛ وَهُوَ الْأَشْهُرُ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ فِي الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣).

(١) أخرجه الطبري (٧٠/١٠) رقم (٢٧٤٣٢) بنحوه، وذكره البغوي (٤٤٥/٣)، وابن عطية (٢٨٧/٤)، وابن كثير (٣٨٨/٣)، والسيوطي (٢٤٣/٥) بنحوه، وعزاه للفرياي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٧٠/١٠) رقم (٢٧٤٣٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٨٧/٤)، وابن كثير (٣٨٨/٣) بنحوه.

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٧/٤)، والسيوطي (٢٤٣/٥)، وعزاه للفرياي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٧١/١٠) رقم (٢٧٤٣٨)، وذكره ابن عطية (٢٨٧/٤).

(٥) ينظر: «السبعة» (٤٩٤)، و«الحجة» (٤٢٠/٥)، و«إعراب القراءات» (١٧٥/٢)، و«معاني القراءات» (٢٥٢/٢)، و«شرح الطيبة» (١٢٢/٥)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٥)، و«إتحاف» (٣٤٣/٢).

(٦) في: ج: متخوفته.

وقوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار...﴾ الآية، عبارة عن حالهم وأفعالهم، وخاتمهم، أي: هم بذلك كالداعين إلى النار؛ وهم فيه أئمة من حيث اشتهروا، وبقي حديثهم، فهم قدوة لكل كافر وعات إلى يوم القيامة، و﴿المقبوحين﴾ الذين يقبح كل أمرهم، قولاً لهم وفعلًا بهم، قال ابن عباس: هم الذين قبحوا بسواد الوجوه ورزقة العيون^(١)، و﴿يوم﴾ ظرف مقدم ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني: التوراة والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش؛ بما تقدم في غيرها من الأمم و﴿بصائر﴾ نصب على الحال، أي: طرائق هادية.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي...﴾ الآية، أي: ما كنت يا محمد حاضراً لهذه الغيوب التي تخبرهم بها، ولكنها صارت إليك بوحي، أي: فكان الواجب أن يسارعوا إلى الإيمان بك.

قال السهيلي: وجانب الغربي هو جانب الطور الأيمن، فحين ذكر سبحانه نداءه لموسى قال: ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن﴾ [مریم: ٥٢] وحين نعى عن محمد ﷺ أن يكون بذلك الجانب قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ والغربي: هو الأيمن، وبين اللفظين في ذكر المقامين ما لا يخفى في حسن العبارة وبديع الفصاحة والبلاغة؛ فإن محمداً عليه السلام لا يقال له: ما كنت بالجانب الأيمن؛ فإنه لم يزل بالجانب الأيمن منذ كان في ظهر آدم عليه السلام، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ [قال الثعلبي: أي: فنسوا عهد الله، انتهى. و﴿قضينا﴾ معناه: أنفذنا، و﴿الأمر﴾ يعني: التوراة.

وقالت فرقة: يعني به: ما أعلمه من أمر محمد ﷺ.

قال *ع^(٢): ﴿وهذا تأويل حسن يلتئم معه ما بعده من قوله﴾ ﴿ولكننا أنشأنا قروناً﴾.

*ت: قال أبو بكر بن العربي: قوله تعالى: ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ معناه:

(١) ذكره البغوي (٤٤٧/٣)، وابن عطية (٢٨٩/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٠/٤).

أعلمناه، وهو أحد ما يرد تحت لفظ القضاء مراداً، انتهى من كتاب «تفسير الأفعال الواقعة في القرآن». و«الثاوي»: المقيم.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

وقوله تعالى: ﴿وما كنت / بجانب الطور﴾ يريد وقت إنزال التوراة إلى موسى - عليه السلام .. وقوله: ﴿إذ نادينا﴾ روي عن أبي هريرة: أنه نودي يومئذ من السماء: «يا أمة محمد، استجب لکم قبل أن تدعوني، وغفرت لکم قبل أن تسألوني»، فحينئذ قال موسى عليه السلام: اللهم، اجعلني من أمة محمد، فالمعنى: إذ نادينا بأمرك وأخبرنا بنبوتك.

وقال الطبري^(١): معنى قوله: ﴿إذ نادينا﴾: بأن «سأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة...» الآية [الأعراف: ١٥٦].

وقوله سبحانه: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة...﴾ الآية، المصيبة: عذاب في الدنيا على كفرهم، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف يقتضيه الكلام؛ تقديره: لعاجلناهم بما يستحقونه. وقال الزجاج^(٢): تقديره: لما أرسلنا الرسل.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْرِى هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٠).

وقوله سبحانه: ﴿فلما جاءهم الحق﴾ يريد القرآن ومحمداً عليه السلام، والمقالة التي قالتها قريش: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ كانت من تعليم اليهود لهم؛ قالوا لهم: لم لا يأتي بآية باهرة كالعصا واليد، وغير ذلك، فعكس الله عليهم قولهم، ووقفهم على أنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاء في هذه، فالضمير في قوله ﴿يكفروا﴾ لليهود، وقرأ الجمهور: «ساحران» والمراد: موسى وهارون.

(١) ينظر: «الطبري» (١٠/٧٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/١٤٧).

قال *ع^(١): * ويحتمل أن يريد بـ ﴿ما أوتي موسى﴾ من أمر محمد والإخبار به الذي هو في التوراة.

وقوله: ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ يؤيد هذا التأويل، وقرأ حمزة والكسائي^(٢) وعاصم: «سحران» والمراد بهما: التوراة والقرآن؛ قاله ابن عباس^(٣)، و﴿تظاهرا﴾: معناه: تعاونا.

وقوله: ﴿أهدى منهما﴾.

قال الثعلبي: يعني: أهدى من كتاب محمد وكتاب موسى؛ انتهى.

ت: ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يكفروا﴾ لقريش كما أشار إليه الثعلبي، وكذا في ﴿قالوا﴾ لقريش عنده. و﴿ساحران﴾ يريدون موسى ومحمداً - عليهما السلام - وهو ظاهر قولهم: ﴿إنا بكل كافرون﴾؛ لأن اليهود لا يقولون ذلك في موسى في عصر نبينا محمد عليه السلام، ويبين هذا كله قوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك...﴾ الآية، فإن ظاهر الآية أن المراد قريش وعلى هذا كله مر الثعلبي، انتهى.

﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ أَقْوَالَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٥١) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) ﴿وَإِذَا نَالَ عَلَيْهِمْ ءَامَنًا مِنْهُ ءِتَاهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٣) ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبِذَرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِيَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْهَدَىٰ مَعَكَ تَنَحَّطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُنْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ ءَأَيْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩) ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠).

(١) ينظر: «المحرر» (٢٩١/٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٩٥)، و«الحجة» (٤٢٣/٥)، و«إعراب القراءات» (١٧٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢٥٤/٢)، و«شرح الطيبة» (١٢٣/٥)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٧)، و«شرح شملة» (٥٣٤)، و«إتحاف» (٣٤٤/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٨٠/١٠) رقم (٢٧٤٨٤)، وذكره ابن عطية (٣٩١/٤)، وابن كثير (٣٩٢/٣)، والسيوطي (٢٤٨/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول...﴾ الآية؛ الذين وصل لهم القول: هم قريش؛ قاله مجاهد^(١) وغيره، قال الجمهور: والمعنى: وأصلنا لهم في القرآن، وتابعناه موصولاً ببعضه ببعض في المواعظ والزواجر، والدعاء، إلى الإسلام. وذهبت فرقة إلى: أن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الألفاظ، فالمعنى^(٢): ولقد وصلنا لهم قولاً معجزاً دالاً على نبوتك.

قال *ع^(٣): والمعنى الأول تقديره: ولقد وصلنا لهم قولاً يتضمن معاني؛ من تدبرها اهتدى. ثم ذكر - تعالى - القوم الذين آمنوا بمحمد من أهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً. واختلف في تعيينهم فقال الزهري: الإشارة: إلى النجاشي^(٤).

وقيل: إلى سلمان، وابن سلام، وأسند الطبري^(٥) إلى رفاعة القرظي، قال: نزلت هذه الآية / في اليهود في عشرة أنا أحدهم، أسلمنا فأوذيتنا^(٦)؛ فنزلت فيها هذه الآية. والضمير في ﴿قبله﴾ يعود على القرآن. و﴿أجرهم مرتين﴾ معناه: على ملتين؛ وهذا المعنى هو الذي قال فيه ﷺ «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي...» الحديث^(٧). و﴿يدرءون﴾ معناه: يدفعون؛ وهذا وصف لمكارم الأخلاق، أي: يتغابون ومن قال لهم سوءاً لا يؤثروه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه، واللغو سقط القول، والقول يسقط لوجوه يعز حصرها، والمراد منه في الآية: ما كان سباً وأذى ونحوه؛ فأدب الإسلام الإعراض عنه. و﴿سلام﴾ في هذا الموضع قصد به المتاركة لا التحية. قال

(١) أخرجه الطبري (٨٤/١٠) رقم (٢٧٥٠١-٢٧٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٢٩١/٤)، وابن كثير (٣/٣٩٣)، والسيوطي (٢٤٩/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن

أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) في ج: لمعنى.

(٣) ينظر: «المحرر» (٢٩١/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٩٢/٤).

(٥) ينظر: «الطبري» (٨٤/١٠).

(٦) ذكره ابن عطية (٢٩٢/٤).

(٧) أخرجه البخاري (٢٢٩/١) كتاب العلم: باب تعليم الرجل أمته (٩٧)، ومن (٢٠٥/٥) كتاب العتق:

باب فضل من أدب جاريته وعلمها (٢٥٤٤)، ومن (٢٠٧/٥) باب العبد إذا أحسن عبادة ربه (٢٥٤٧)،

ومن (٢١٠/٥) باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٥٥١)، ومن (١٦٩/٦) كتاب الجهاد: باب فضل من

أسلم (٣٠١١)، ومن (٥٥١/٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا

تغلوا﴾ (٣٤٤٦)، ومن (٢٩/٩) كتاب النكاح: باب اتخاذ السراي (٥٠٨٣)، ومسلم (١/١٣٤-١٣٥)

كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ (٢٤١/١٥٤).

الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال، و﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ معناه: لا نطلبُهم للجدال والمراجعة والمشاتمة.

ت*: قال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا حبيب بن حجر القيسي، قال: كان يقال: ما أحسن الإيمان يزيئه العلم، وما أحسن العلم يزيئه العمل، وما أحسن العمل يزيئه الرُفْقُ، وما أضفت شيئاً إلى شيء، مثل حلم إلى علم، انتهى. وأجمع جُلُ المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إنما نزلت في شأن أبي طالب، فَرَوَى أبو هريرة وغيره «أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ...» الحديث^(١) قد ذكرناه في سورة: «براءة»، فَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ عَلَى كُفْرِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِ.

قال أبو روق: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى العباس^(٢)، والضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لقريش.

قال ابن عباس: والمُتَكَلِّمُ بذلك فيهم الحارث بن نوفل، وحكى الثعلبي أنه قال له: إنا لنعلم أن الذي تقول حَقٌّ وَلَكِنْ إِنْ اتَّبَعْنَاكَ تَخْطِفُنَا الْعَرَبُ. و﴿تُجَبَّى﴾ معناه: تُجْمَعُ وتُجْلَبُ.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ يريد مما به صلاح حالهم، ثم تَوَعَّدَ قريشاً بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ و﴿بَطَرْتُ﴾ معناه: سَفِهَتْ وَأَشْرَتْ وَطَعَتْ؛ قاله ابن زيد^(٣) وغيره.

ت*: قال الهروي: قوله تعالى: ﴿بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا﴾، أي: في مَعِيشَتِهَا، والبَطْرُ: الطغيانُ عند النعمة، انتهى. ثم أحالهم على الاعتبار في خَرَابِ دِيَارِ الْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ كَحِجْرِ ثَمُودَ، وغيره. ثُمَّ خَاطَبَ تَعَالَى قريشاً مُحَقِّراً لما كانوا يَفْتَخِرُونَ به من مَالٍ وَبَنِينَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا الْفَانِي، وَأَنَّ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

ت*: وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٩٣/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٩٠/١٠) رقم (٢٧٥٣٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٣/٤).

بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً»^(١) رواه الترمذي من طريق سهل بن سعد، قال: وفي الباب عن أبي هريرة، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، انتهى. وباقى الآية بين لمن أبصر واهتدى، جعلنا الله منهم بمنه.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٦١) وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه...﴾ الآية، معناها، يعم جميع العالم ومن المحضرين: معناه: في عذاب الله؛ قاله مجاهد^(٢) وقتادة^(٣)، ولفظة «محضرين» مشيرة إلى سوق [بجبر]^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم﴾ الضمير المتصل بـ «ينادي» لِعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، والإشارة إلى قريش وكفار العرب.

وقوله: ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ هؤلاء / المجيبون هم كل مَعُودٍ دَاعٍ إِلَى الْكُفْرِ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْإِنْسِ؛ طَمَعُوا فِي التَّبَرِّيِّ مِنْ مُتَّبِعِيهِمْ؛ فَقَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ إِنْ مَا أَضَلَّلْنَاهُمْ كَمَا ضَلَّلْنَا نَحْنُ بِاجْتِهَادٍ لَنَا وَلَهُمْ، وَأَحْبَبُوا الْكُفْرَ كَمَا أَحْبَبْنَاهُ «تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون». ثم أخبر تعالى: أنه يقال للكفرة العابدين للأصنام: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ يعني: الأصنام، ﴿فدعوهم﴾ فلم يكن في الجمادات ما يجب، ورأى الكفار العذاب.

١٥٩

(١) أخرجه الترمذي (٥٦٠/٤) كتاب الزهد: باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، حديث (٢٣٢٠)، وابن ماجه (١٣٧٦-١٣٧٧) كتاب الزهد: باب مثل الدنيا، حديث (٤١١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٣/٣) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد به.

وقال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه الطبري (٩٢/١٠) رقم (٢٧٥٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٤)، وابن كثير (٣٩٦/٣) بنحوه، والسيوطي (٢٥٦/٥)، وعزاه للفرابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٩٢/١٠) رقم (٢٧٥٤٢)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٤)، وابن كثير (٣٩٦/٣)، والسيوطي (٢٥٥-٢٥٦/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) سقط في ج.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ذهب الزجاج^(١) وغيره إلى أن جواب «لو» محذوف. تقديره: لَمَا نَالَهُمُ الْعَذَابُ.

وقالت فرقة: لو: متعلقة بما قبلها، تقديره: فَوَدُّوا حِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضُبٍّ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا النداء أيضاً للكفار، و﴿عِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾: معناها أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمْ جِهَاتُهَا.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ معناه، في قول مجاهد: لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَرْحَامِ^(٢) ويحتمل أن يريد أنهم لا يتساءلون عن الأنباء، ليقين جميعهم أنه لا حُجَّةَ لَهُمْ.

وقوله سبحانه: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾.

قال كثير من العلماء: «عسى» من الله واجبة.

قال *ع^(٣): وهذا ظَنٌّ حَسَنٌ بِاللَّهِ تَعَالَى يُشْبِهُ كَرَمَهُ وَفَضْلَهُ سَبْحَانَهُ، وَاللَّازِمُ مِنْ «عَسَى»: أَنَّهَا تَرْجِيَّةٌ لَا وَاجِبَةٌ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحریم: ٥].

ت: ومعنى الوجوب هنا: الوقوع.

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٥١/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٩٤/١٠) رقم (٢٧٥٥٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٥/٤)، وابن كثير (٣٩٧/٣) بنحوه، والسيوطي (٢٥٧/٥)، وعزه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ينظر: «المحرر» (٢٩٥/٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ...﴾ الآية، قيل: سَبَّحَهَا، قولُ قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ونحو ذلك من قولهم؛ فَرَدَّ اللَّهُ عليهم بهذه الآية، وجماعة المفسرين: أن «ما» نافية، أي: ليس لهم الخيرة، وذهب الطبري^(١) إلى أن «ما» مفعولة بـ «يختار» أي: ويختار الذي لهم فيه الخيرة، وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللَّهَ، وَمِنْ شَقَاوَتِهِ تَرْكُهُ»^(٢) رواه الحاكم في «المستدرک»؛ وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «السلام». وباقي الآية بيّن. والسّرْمَدُ مِنَ الْأَشْيَاءِ: الدَّائِمُ الذي لا ينقطع.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

ت: وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ...﴾، الآية معناها بيّن، وينبغي للعاقل ألا يجعل ليله كله نوماً؛ فَيَكُونُ ضَائِعَ الْعُمْرِ جِيفَةً بِاللَّيْلِ بَطَالاً بِالنَّهَارِ، كما قيل: [الطويل]

نَهَارُكَ بَطَالٌ وَلَيْلُكَ نَائِمٌ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ
فَإِنْ أَرَدْتَ أَيُّهَا الْأَخ؛ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَعَلَيْكَ بِالْقِيَامِ فِي الْأَسْحَارِ، وقد نقل صاحب «الكوكب الدري» عن البزار؛ أن النبي ﷺ قال: «أَتَذَرُونَ مَا قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ

(١) ينظر: «الطبري» (٩٥/١٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٥١٨/١)، وأحمد (١٦٨/١) من طريق محمد بن أبي حميد عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. قلت: وهو من أوهامهما، فالحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨٢/٢) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار... وفيه محمد بن أبي حميد، قال ابن عدي: ضعفه بين على ما يرويه، وحديثه مقارب، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وقد ضعفه أحمد والبخاري وجماعة.

ومن طريق محمد بن أبي حميد: أخرجه الترمذي (٤٥٥/٤) كتاب القدر: باب ما جاء في الرضا بالقضاء، حديث (٢١٥١) بلفظ: «من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له».

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، ويقال له أيضاً: حماد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم المدني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث.

لِسَلِيمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: يَا بَنِيَّ، لَا تَكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ، يَدْعُ الرَّجُلَ فَقِيْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١)، انتهى. وابتغاء الفضل: هو بالمشي والتصرف.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: عُذُولُ الْأُمَمِ وأخيارها، فيشهدون على الأمم بخيرها وشرها، فيحقُّ العذابُ عَلَى مَنْ شَهِدَ عَلَيْهِ بِالْكَفْرِ، وقيل له: على جهة الإعذار في المحاوراة: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إرادة الحكم: أَبْقَيْتَ لَكَ حِجَّةً.

﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُتَجَرِّمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَبِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظِيظٌ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...﴾ الآية، كان قارون من قرابة موسى: ممن آمن بموسى وحفظ / التوراة وكان عند موسى عليه السلام من عباد ٥٩ المؤمنين، ثم إن الله أضله وبعى على قومه بأنواع البغي؛ من ذلك كفره بموسى.

وقال الثعلبي: قال ابن المسيب: كان قارون عاملاً لفرعون على بني إسرائيل؛ ممن يبغي عليهم ويظلمهم. قال قتادة: بغى عليهم بكثرة ما له وولده^(٢)، انتهى.

ت: وما ذكره ابن المسيب، هو الذي يصح في النظر لم تأمل الآية، ولولا الإطالة

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢/١) كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في قيام الليل، حديث (١٣٣٢)، والطبراني في «الصغير» (١/ ١٢١-١٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٣/٤) رقم (٤٧٤٦) كلهم من طريق سنيذ بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر به. وقال الطبراني: لم يروه عن محمد بن المنكدر إلا ابنه يوسف، تفرد به سنيذ. قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٣٥): رواه ابن الجوزي عن جابر مرفوعاً، وفي إسناده يوسف بن محمد بن المنكدر متروك. قال في «اللائيء»: قال فيه أبو زرع: صالح الحديث، وقال ابن عدي: أرجو أن لا بأس به. وقد أخرجه ابن ماجه من طريقه، وكذا الطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) أخرجه الطبري (١٠٠/١٠) رقم (٢٧٥٧٤) بنحوه، وذكره البغوي (٤٥٤/٣) بنحوه.

لَبِئْتُ وَجْهَ ذَلِكَ، وَالْمَفَاتِيحُ ظَاهِرُهَا: أَنَّهَا الَّتِي يُفْتَحُ بِهَا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهَا: الْخَزَائِنَ وَالْأَوْعِيَةَ الْكِبَارَ؛ قَالَه الضَّحَّاكُ^(١)؛ لِأَنَّ الْمِفْتَاحَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْخِزَانَةُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَتَنُوءَ﴾ فَمَعْنَاهُ: تَنْهَضُ بِتَحَامِلٍ وَاشْتِدَادٍ، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ الْعُصْبَةَ تَنُوءُ بِالْمَفَاتِيحِ الْمُثْقَلَةِ لَهَا فَقَلَبَ.

❖ قُلْتُ ❖: وَقَالَ عَرِيبُ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي كِتَابِ «الْأَنْوَاءِ»: لَهُ نَوْءٌ كَذَا؛ مَعْنَاهُ: مُثْلُهُ وَمِنْهُ: ﴿لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ﴾، انْتَهَى، وَهُوَ حَسَنٌ إِنْ سَاعَدَهُ الثَّقُلُ. وَقَالَ الدَّأُوْدِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ يَقُولُ تَثْقُلُ؛ وَكَذَا قَالَ الْوَاحِدِيُّ، انْتَهَى. وَاخْتَلَفَ فِي الْعُصْبَةِ: كَمْ هُمْ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: ثَلَاثَةٌ^(٢)، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمْ مِنَ الْعَشِيرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ^(٣)، قَالَ الْبُخَارِيُّ^(٤): يَقَالُ: الْفَرَحَيْنِ الْمَرَحَيْنِ.

قَالَ الْعَزَّالِيُّ فِي «الْإِحْيَاءِ»: الْفَرَحُ بِالْدُنْيَا وَالتَّنْعُمُ بِهَا سُمْ قَاتِلٌ يَسْرِى فِي الْعُرُوقِ؛ فَيُخْرِجُ مِنَ الْقَلْبِ الْخَوْفَ وَالْحَزْنَ وَذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَهْوَالَ الْقِيَامَةِ؛ وَهَذَا هُوَ مَوْتُ الْقَلْبِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَأُولَوُا الْحَزْمَ مِنْ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ جَرَّبُوا قُلُوبَهُمْ فِي حَالِ الْفَرَحِ بِمُؤَاتَاةِ الدُّنْيَا، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّجَاةَ فِي الْحَزَنِ الدَّائِمِ، وَالتَّبَاعِدِ مِنْ أَسْبَابِ الْفَرَحِ، وَالبَطْرِ؛ فَقَطَّعُوا النَّفْسَ عَنْ مَلَذَّهَا وَعَوَّدُوهَا الصَّبْرَ عَنْ شَهَوَاتِهَا؛ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَعَلِمُوا أَنَّ حَلَالَهَا حِسَابٌ وَهُوَ نَوْءٌ عَذَابٍ، وَمَنْ نَوَّعَ الْحِسَابَ عَذَّبَ، فَخَلَّصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، وَتَوَصَّلُوا إِلَى الْحَرِيَّةِ وَالْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ بِالْخُلَاصِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ وَرَقِّهَا، وَالْأُنْسِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالِاشْتِغَالِ بِطَاعَتِهِ، انْتَهَى.

قَالَ ابْنُ الْحَاجِّ فِي «الْمَدْخَلِ»: قَالَ يَمَنُ بْنُ رَزْقٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: وَأَنَا أَوْسِيكَ بِأَنْ تُطِيلَ النَّظَرَ فِي مِزَاةِ الْفِكْرَةِ مَعَ كَثْرَةِ الْخُلُواتِ، حَتَّى يُرِيكَ شَيْنَ الْمَعْصِيَةِ وَقُبْحَهَا، فَيَدْعُوكَ ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَى تَرْكِهَا، ثُمَّ قَالَ يَمَنُ بْنُ رَزْقٍ: وَلَا تَفْرَحَنَّ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ مَعَ قِلَّةِ الْحَزَنِ، وَاعْتَنِمِ قَلِيلَ الْعَمَلِ مَعَ الْحَزَنِ، فَإِنَّ قَلِيلَ حُزْنِ الْآخِرَةِ الدَّائِمِ فِي الْقَلْبِ؛ يَنْفِي كُلَّ سُرُورِ الْفُتَّةِ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا، وَقَلِيلَ سُرُورِ الدُّنْيَا فِي الْقَلْبِ؛ يَنْفِي عَنْكَ^(٥) جَمِيعَ حُزْنِ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٠١/١٠) رَقْم (٢٧٥٨١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٩٨/٤).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٠٢/١٠) رَقْم (٢٧٥٨٩)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٤٥٤/٣) مِنْجَاهُ. وَابْنُ دُودَانَ (٢٩٩/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٠٢/١٠) رَقْم (٢٧٥٨٥)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٤٥٤/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٢٩٩/٤).

وَالسِّيُوطِيُّ (٢٦٠/٥)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٤) يَنْظُرُ: «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» ٣٦٥/٨ كِتَابُ التَّفْسِيرِ: بَابُ «إِنَّكَ لَا يَهْدِي مِنْ أَحْبَبْتَ».

(٥) فِي جَدِّ عَنْهَا.

الْآخِرَةِ. وَالْحُزْنَ لَا يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ إِلَّا مَعَ تَقَيُّظِهِ؛ وَتَقَيُّظُهُ حَيَاتُهُ، وَسُرُورُ الدُّنْيَا لِيَغَيِّرَ الْآخِرَةَ لَا يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ إِلَّا مَعَ غَفْلَتِهِ؛ وَغَفْلَةُ الْقَلْبِ مَوْتُهُ، وَعَلَامَةُ ثَبَاتِ الْيَقِينِ فِي الْقَلْبِ اسْتِدَامَةُ الْحُزْنِ فِيهِ. وَقَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: اَعْلَمْ أَنِّي لَمْ أَجِدْ شَيْئاً أَبْلَغَ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا مِنْ ثَبَاتِ حُزْنِ الْآخِرَةِ فِي الْقَلْبِ، وَعَلَامَةُ ثَبَاتِ حُزْنِ الْآخِرَةِ فِي الْقَلْبِ أَنَّ الْعَبْدَ بِالْوَحْدَةِ، انْتَهَى.

وقولهم له: ﴿وَلَا تَسْ نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

قال ابن عباس والجمهور: معناه: لَا تُضَيِّعْ عُمرَكَ فِي أَلَّا تَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا فِي دُنْيَاكَ؛ إِذِ الْآخِرَةُ إِنَّمَا يُعْمَلُ لَهَا فِي الدُّنْيَا، فَنَصِيْبُ الْإِنْسَانِ عَمْرُهُ وَعَمَلُهُ الصَّالِحُ فِيهَا؛ فَيَنْبَغِي / أَنْ لَا يُهْمَلَهُ. وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ أَنَّهُ قِيلَ: أَرَادُوا بِنَصِيْبِهِ الْكَفْرَ.

١٦٠

قال: *ع^(١)*: وَهَذَا كُلُّهُ وَغُظُّ مَتَّصِلٌ؛ وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

نَصِيْبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ رِذَاءً إِنْ تُلَوِّى فِيهِمَا وَخُسُوطُ^(٢)
وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٣): وَفِي مَعْنَى النِّصِيْبِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ: الْأَوَّلُ: لَا تَنْسَ حَقَّكَ مِنَ الدُّنْيَا، أَيْ: لَا تَغْفَلْ أَنْ تَعْمَلَ فِي الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ، الثَّانِي: أَمْسِكْ مَا يَبْلُغُكَ؛ فَذَلِكَ حَقُّ الدُّنْيَا، وَأَنْفِقِ الْفَضْلَ فَذَلِكَ حَقُّ الْآخِرَةِ، الثَّالِثُ: لَا تَغْفَلْ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ، انْتَهَى. وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَمْرٌ بِصِلَةِ الْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ.

ص: ﴿كَمَا أَحْسَنَ﴾: - الْكَافُ لِلتَّشْبِيهِ أَوْ لِلتَّعْلِيلِ -، انْتَهَى. وَقَوْلُ قَارُونَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قَالَ الْجُمْهُورُ: ادَّعَى أَنَّ عِنْدَهُ عِلْمًا اسْتَوْجَبَ بِهِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ ذَلِكَ الْمَالِ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ، فَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: أَرَادَ عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ^(٤).

وَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِيُّ: أَرَادَ الْعِلْمَ بِالتَّجَارَةِ وَوُجُوهَ تَثْمِيرِ الْمَالِ، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

قال محمد بن كعب: هُوَ كَلَامٌ مَتَّصِلٌ بِمَعْنَى مَا قَبْلَهُ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى مَنْ أَهْلِكَ مِنَ الْقُرُونِ، أَيْ: أَهْلِكُوا وَلَمْ يُسْأَلْ غَيْرُهُمْ بَعْدَهُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، أَيْ: كُلُّ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٩/٤).

(٢) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٢٩٩/٤).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٨٣/٣).

(٤) ذكره البغوي (٤٥٥/٣)، وابن عطية (٣٠٠/٤).

أحد إنما يُكَلِّمُ وَيُعَاتِبُ بِحَسَبِ مَا يَخُصُّهُ، وقالت فرقة: هو إخبار مستأنف عن حال يوم القيامة، وجاءت آيات آخرُ تَقْتَضِي السؤال، فقال الناس في هذا: إنها مواطن وطوائف.

وقيل غير هذا، ويوم القيامة هو مواطن. ثم أخبر تعالى عن خروج قارون على قومه في زينتته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا وأكثر الناس في تحديد زينة قارون وتعيينها بما لا صحة له؛ فتركت، وباقى الآية بين في اغترار الجهلة والأغمار من الناس.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُقْلَهُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٨٠) فَحَسَفْنَا بِهِ وَيَدَارُو الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ بِسُطِّ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢).

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم...﴾ الآية: أخبر تعالى عن الذين أوتوا العلم والمعرفة بالله وبحق طاعته أنهم رَجَرُوا الْأَعْمَارَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا حَالَ قَارُونَ وَحَمَلُوهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى؛ مِنْ أَنَّ النَّظَرَ وَالتَّمَنِّيَ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْمُؤْمِنِ الْعَامِلِ الَّذِي يَنْتَظِرُ ثَوَابَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنْ حَالِ كُلِّ ذِي دُنْيَا. ثم أخبر تعالى عن هذه التَّرَعَّةِ وهذه القُوَّةِ في الخير والدين أنها^(١) ﴿لا يلقاها﴾ أي: لا يُمَكِّنُ فِيهَا وَيُحَوِّلُهَا إِلَّا الصَّابِرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنْ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ؛ وَهَذَا هُوَ جَمَاعُ الْخَيْرِ كُلِّهِ.

وقال الطبري^(٢): الضمير عائد على الكلمة؛ وهي قوله: ﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾، أي: لا يُلَقَّنُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا الصَّابِرُونَ؛ وَعَنْهُمْ تَصَدَّرَ، وَرُويَ فِي الْخَسْفِ بِقَارُونَ وَدَارِهِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَمَضَّهُ فَعَلَ قَارُونَ بِهِ وَتَعَدَّيَهُ عَلَيْهِ؛ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَطَلَبَ النُّصْرَةَ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ الْأَرْضَ أَنْ تَطِيعَكَ فِي قَارُونَ وَأَتْبَاعِهِ، فَقَالَ مُوسَى: يَا أَرْضُ؛ خَذِيهِمْ فَأَخَذْتَهُمْ إِلَى الرِّكْبِ، فَاسْتَغَاثُوا: يَا مُوسَى؛ يَا مُوسَى؛ فَقَالَ: خَذِيهِمْ، فَأَخَذْتَهُمْ شَيْئًا فَشِئًا إِلَى أَنْ تَمَّ الْخَسْفُ بِهِمْ /، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى؛ لَوْ بِي اسْتَغَاثُوا وَإِلَيَّ تَابُوا لَرَحِمْتُهُمْ. قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: رُويَ أَنَّهُ يَخْسَفُ بِهِ كُلُّ يَوْمٍ قَامَةً؛ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.^(٣)

(١) في ج: أنهما.

(٢) ينظر: «الطبري» (١٠/١٠٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/١١٢) رقم (٢٧٦٤٤)، وذكره البغوي (٣/٤٥٧)، وابن عطية (٤/٣٠١)، وابن كثير (٣/٤٠١)، والسيوطي (٥/٤٥٧).

ت: وفي الترمذي؛ عن معاذ بن أنس الجهني، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ تَوَاضَعًا لِلَّهِ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ؛ حَتَّى يُخَيَّرَهُ؛ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»^(١). وروى الترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان لنا قِرَامٌ سِتْرٌ فِيهِ تَمَاثِيلُ عَلَى بَابِي فَرَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَنْزِعِيهِ فَإِنَّهُ يُذَكِّرُنِي الدُّنْيَا»^(٢)، الحديث وروى الترمذي عن كعب بن عياض قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَتُهُ أُمَّتِي: الْمَالُ»^(٣)؛ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ وفيه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ لِأَيِّنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَتُوبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفٌ الْخَبَزِ وَالْمَاءِ»^(٤).

قال النضر بن شميل: «جِلْفُ الْخَبَزِ» يعني: ليس معه إدام. انتهى. فهذه الأحاديث وأشباهها تزهد في زينة الدنيا وغضارة^(٥) عيشها الفاني.

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٠/٤) كتاب صفة القيامة باب (٣٩) حديث (٢٤٨١)، وأحمد (٤٣٩/٣)، والحاكم (١٨٣/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨٤/٨) من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه الترمذي (٦٤٣-٦٤٤) كتاب صفة القيامة: باب (٣٢) حديث (٢٤٦٨)، والنسائي (٨/٢١٣).

كتاب الزينة: باب التصاوير، وأحمد (٢٢٦/٦)، والبيهقي (٢٦٧/٧) من طريق سعد بن هشام عن عائشة.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.
(٣) أخرجه الترمذي (٥٦٩/٤) كتاب الزهد: باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، حديث (٢٣٣٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢٢٢/٧)، وأحمد (١٦٠/٤)، والحاكم (٣١٨/٤)، وابن حبان (٢٤٧٠-موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٧٩/١٩) رقم (٤٠٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/١٢٤) رقم (١٠٢٢) من حديث كعب بن عياض. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان.
(٤) أخرجه الترمذي (٥٧١-٥٧٢) كتاب الزهد: باب (٣٠) حديث (٢٣٤١) من طريق حريث بن السائب، قال: سمعت الحسن يقول: حدثني حمران بن أبان عن عثمان بن عفان به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وصححه الحاكم (٣١٢/٤) ووافقه الذهبي.

(٥) الغضارة: النعمة والسعة في العيش.

ينظر: «لسان العرب» (٣٢٦٤).

وقوله: ﴿وَيَكُنْ﴾ مذهب الخليل وسيبويه: أن «وي» حرف تنبيه منفصلة من (كان)، لكن أضيفت لكثرة الاستعمال.

وقال أبو حاتم وجماعة: وَيَكْ: هي (وَيْلَكَ) حذف اللام منها لكثرة الاستعمال.

وقالت فرقة: «ويكأن» بجملتها كلمة.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا...﴾ الآية: هذا إخبار مستأنف من الله تعالى لنبيه - عليه السلام -، يراد به جميع العالم، ويتضمن الحض على السعي، حسب ما دلت عليه الآية، ويتضمن الانحناء على حال قارون ونظرائه، والمعنى: أن الآخرة ليست في شيء من أمر قارون؛ وأشباهه؛ وإنما هي لمن صفته كذا وكذا، والعلو المذموم: هو بالظلم والتجبر، قال النبي ﷺ: «وذلك أن تريد أن يكون شركك نعلك أفضل من شركك نعل أخيك»، والفساد يعم وجوه الشر.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رِبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْخُكْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قالت فرقة: معناه فرض عليك أحكام القرآن.

وقوله تعالى: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾ قال الجمهور: معناه: لرادك إلى الآخرة، أي: بائعك بعد الموت، وقال ابن عباس وغيره: المعاد: الجنة^(١)، وقال ابن عباس^(٢) أيضاً؛

(١) أخرجه الطبري (١١٦/١٠) رقم (٢٧٦٦٠-٢٧٦٦١)، وذكره ابن عطية (٣٠٣/٤)، وابن كثير (٤٠٢/٣)، والسيوطي (٢٦٦/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٣) والنسائي في «التفسير» (٤٠٦).

وأخرجه الطبري (١١٧/١٠) رقم (٢٧٦٨١)، وذكره البغوي (٤٥٨/٣)، وذكره ابن عطية (٣٠٣/٤)، وابن كثير (٤٠٢/٣)، والسيوطي (٢٦٦/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» من طرق عن ابن عباس.

ومجاهد^(١): المعاد: مكة، وفي البخاري بسنده عن ابن عباس: ﴿لرأدك إلى معاد﴾: إلى مكة، انتهى. وهذه الآية نزلت بالْجُحْفَةِ؛ كما تقدّم، والمعاد: الموضع الذي يعاد إليه.

وقوله تعالى: ﴿وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ هو تعديد نعم، والظهير: المعين.

وقوله تعالى: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله﴾: بأقوالهم؛ ولا تَلْتَفِتْ نحوهم؛ وامضِ لِشَأْنِكَ، وادْعُ إلى ربك، وآيات الموائد كلها منسوخة.

وقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ قالت فرقة: المعنى: كل شيء هالك إلا هو سبحانه؛ قاله الطبري وجماعة منهم أبو المعالي - رحمه الله - وقال الزجاج: إلا إياه.

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١١٧ - ١١٨) رقم (٢٧٦٨٣ - ٢٧٦٨٤ - ٢٧٦٨٥)، وذكره البغوي (٣/ ٤٥٨)، وابن عطية (٤/ ٣٠٣)، وابن كثير (٣/ ٤٠٢)، والسيوطي (٥/ ٢٦٦) بنحوه، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد عن مجاهد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
/ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

١٦١

تَفْسِيرُ «سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

إلا الصدر منها العشر الآيات؛ فإنها مدنية نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة؛ هذا أصح ما قيل هنا والله تعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْم﴾ تقدم الكلام على هذه الحروف.

وقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ نزلت هذه الآية في قوم من المؤمنين بمكة؛ وكان كفار قريش يؤذونهم، ويعذبونهم على الإسلام، فكانت صدورهم تضيق لذلك؛ وربما استنكر بعضهم أن يُمكن الله الكفرة من المؤمنين. قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية، ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين، ليعلم الصادق من الكاذب^(١)، و«أَحَسِبَ» بمعنى^(٢): ظَنَّ.

و﴿الذين من قبلهم﴾ يريد بهم: المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر.

﴿أَمَّ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

(١) ذكره ابن عطية (٤/٣٠٥).

(٢) في ج: معناه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أم: معادلة للهمزة؛ في قوله: ﴿أَحْسِبْ﴾ [العنكبوت: ٢] وكأنه تعالى قرر الفريقين: قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يُفْتَنُونَ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات؛ في تعذيب المؤمنين؛ وغير ذلك على ظنهم؛ أنهم يسبقون عقاب الله تعالى؛ ويعجزونه، ثم الآية بَعْدَ تَعَمُّ كُلِّ عَاصٍ، وعامل سيئة من المسلمين؛ وغيرهم، وفي الآية وعيد شديد للكفرة الفاتنين، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ تثبت للمؤمنين، وباقي الآية بَيِّنٌ، والله الموفق.

وقال *ص*: قول *ع*^(١): أم: معادلة للألف في قوله: ﴿أَحْسِبْ﴾ يقتضي أنها هنا متصلة؛ وليس كذلك؛ بل «أم» هنا: منقطعة مقدرة بـ «بل»؛ للإضراب، بمعنى: الانتقال؛ لا بمعنى الإبطال، وهمزة الاستفهام؛ للتقرير والتوبيخ؛ فلا تقتضي جواباً، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. إخبار عن المؤمنين المهاجرين الذين هم في أعلى رتبة من البدار إلى الله تعالى؛ نوه بهم - عز وجل - وبحالهم؛ ليقيم نفوس المتخلفين عن الهجرة؛ وهم الذين فتنهم الكفار.

﴿ولنجزيهم أحسن﴾، أي: ثواب أحسن الذي كانوا يعملون.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ رُوي عن قتادة^(٢) وغيره: أنها نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص؛ وذلك أنه هاجر؛ فحلفت أمه أن لا تستظل بظل حتى يرجع إليها؛ ويكفر بمحمد، فليج هو في هجرته، ونزلت الآية.

وقيل: بل نزلت في عياش بن ربيعة؛ وكانت قصته كهذه ثم خدعه أبو جهل؛

(١) ينظر: «المحرر» (٣٠٦/٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٤/١٠) رقم (٢٧٧٠١)، وذكره ابن عطية (٣٠٧/٤)، والسيوطي (٢٧٠/٥) بنحوه، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة.

ورده إلى أمه. الحديث في كتب السيرة، وباقي الآية بيّن. ثم كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين؛ ليحرك النفوس إلى نيل مراتبهم.

قال الثعالبي: قوله تعالى: ﴿لندخلهم في الصالحين﴾ / أي: في زمرتهم.

٦١ ب

وقال محمد بن جرير^(١): في مدخل الصالحين: وهو الجنة.

وقيل: ﴿في﴾ بمعنى: «مع» و«الصالحون»: هم الأنبياء والأولياء، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ إلى قوله: ﴿المنافقين﴾، نزلت في المتخلفين عن الهجرة؛ المتقدم ذكرهم؛ قاله ابن عباس^(٢). ثم قرأهم تعالى على علمه بما في صدورهم، أي: لو كان يقيهم تاماً وإسلامهم خالصاً؛ لما توقّفوا ساعة ولركبوا كلّ هول إلى هجرتهم ودار نبيهم.

وقوله تعالى: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ هنا انتهى المدني من هذه السورة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَفْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا...﴾ الآية، روي: أن قائل هذه المقالة هو: الوليد بن المغيرة، وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش؛ لاتباع النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم...﴾ الآية، لأنه يلحق كل داع إلى ضلالة؛ كفل منها حسباً صرّح به الحديث المشهور^(٣).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ

(١) ينظر: «الطبري» (١٠/١٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/١٢٥) رقم (٢٧٧٠٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٣٠٨) بنحوه.

(٣) تقدم تخريجه، وهو حديث: «من دعا إلى ضلالة...».

وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم...﴾ الآية، العطف بالفاء يقتضي ظاهره أنه لبث هذه المدة رسولاً؛ يدعو إلى عبادة الله تعالى، و﴿الطوفان﴾: العظيم الطامي، ويقال ذلك لكل طام خرج عن العادة من ماء، أو نار، أو موت.

وقوله: ﴿وهم ظالمون﴾ يريد: بالشرك. ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وقومه، وذلك أيضاً تمثيل لقريش.

وقوله تعالى: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ قال ابن عباس^(١): هو نحت الأصنام.

وقال مجاهد^(٢): هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان؛ وغير ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُسَوِّدُ اللَّهُ وُجُوهَهُمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ۖ وَلَيَعْلَمَنَّ بِعَعْضِكُم بَعْضًا ۖ وَمَا أَوْثَانُكُمْ إِلَّا نَارٌ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده...﴾ الآية، هذه الحالة هي على ما يظهر مع الأحياء من إحياء الأرض، والنبات؛ وإعادته؛ ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور، ثم أمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، ويحتمل أن يكون إبراهيم عليه السلام بأن يأمرهم على جهة الاحتجاج، بالسير في الأرض، والنظر في أقطارها، و﴿النشأة الآخرة﴾: نشأة القيام من القبور.

وقوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء...﴾ الآية، قال ابن

(١) أخرجه الطبري (١٢٩/١٠) رقم (٢٧٧٢٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١١/٤)، وابن كثير (٣/٤٠٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٩/١٠) رقم (٢٧٧١٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١١/٤)، والسيوطي (٢٧٤/٥) بنحوه، وعزه للفرجاني، وابن جرير عن مجاهد.

زيد^(١): لا يعجزه أهل الأرض في الأرض، ولا أهل السماء في السماء؛ إن عصوه. وقيل: معناه: ولا في السماء لو كنتم فيها. وقيل: المعنى: ليس للبشر حيلة إلى صعود أو نزول؛ يفلتون بها. قال قتادة: دَمَّ اللَّهُ قوماً هانوا عليه؛ فقال: ﴿أولئك يئسوا من رحمتي...﴾ الآية.

قال *ع^(٢)*: وما تَقَدَّمَ من قوله: ﴿أولم يروا كيف...﴾ إلى هذه الآية المستأنفة؛ يُحْتَمَلُ أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم عليه السلام؛ ومحاورة لقومه؛ وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه.

وقوله تعالى: ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي بأن جعلها برداً وسلاماً.

قال كعب^(٣) الأحبار - رضي الله عنه -: ولم تحرق النار إلا الجبل الذي أوثقوه به؛ وجعل سبحانه ذلك آية، وعبرة، ودليلاً على توحيدهم لمن شرح صدره؛ ويسره للإيمان. ثم ذكر تعالى أن إبراهيم - عليه السلام - قرهم على أن اتخذهم الأوثان؛ إنما كان اتباعاً من بعضهم لبعض؛ وحفظاً لمودتهم الدنيوية؛ وأنهم يوم القيامة يَجْحَدُ بعضهم بعضاً، ويتلاعنون؛ لأن توادهم كان على غير تقوى، ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿فَمَنْ لَمْ يُطِيعْهُ أَفَأَمْرًا أَتَىٰ لَمَّا كَانَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ فَاعِلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْوَعْدَ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ وَآيَاتِنَا أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَيْنَكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ

(١) أخرجه الطبري (١٠/١٣١) رقم (٢٧٧٢٦).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٣١٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/١٣٢) رقم (٢٧٧٢٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٣١٢-٣١٣)، والسيوطي (٥/٢٧٤) بنحوه، وعزاه لكعب.

وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُكُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيرِ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَاءَ بِهِمْ مَضَاهُ
بِهِمْ ذَرْبًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيرِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا
مِنْهَا آيَةً يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَأَمِنْ لَهُ / لوط﴾ معناه: صدق، وآمن: يتعدى باللام والباء، والقائل ١٦٢
﴿إني مهاجر﴾ هو إبراهيم عليه السلام. قاله قتادة والنخعي^(١)؛ وقالت فرقة: هو لوط -
عليه السلام ..

وقوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه
أجره في الدنيا...﴾ الآية، الأجر الذي آتاه الله في الدنيا: العافية من النار ومن المَلِكِ
الجائر. والعملُ الصالح؛ أو الثناء الحسن؛ قاله مجاهد^(٢) ويدخل في عموم اللفظ غير ما
ذُكِرَ.

قوله تعالى: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، أي: في عداد الصالحين الذين
نالوا رضا الله عز وجل، وقول لوط عليه السلام: ﴿أنكم لتأتون الرجال وتقطعون
السبيل﴾، قالت فرقة: كان قطع الطريق بالسلب فاشياً فيهم، وقيل غير هذا، والنادي،
المجلس الذي يجتمع الناس فيه. واختلف في هذا المنكر الذي يأتونه في ناديهم: فقالت
فرقة: كانوا يحذفون الناس بالحبصاء؛ وَيَسْتَحِقُّونَ بالغريب والخاطر عليهم؛ وروته أم
هانيء عن النبي ﷺ: ﴿وَكَانَتْ خُلُقُهُمْ مُهْمَلَةً؛ لَا يَرِبُهُمْ دِينَ؛ وَلَا مُرُوءَةً، وقال

(١) ذكره ابن عطية (٣١٤/٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٤/١٠) رقم (٢٧٧٣٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١٤/٤)، وابن كثير (٣/٤١١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٢/٥) كتاب التفسير: باب «ومن سورة العنكبوت»، حديث (٣١٩٠)، وأحمد (٦/٣٤١)، والطبري في «تفسيره» (١٣٦/١٠) رقم (٢٧٧٤٥)، والحاكم (٤٠٩/٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/٤١١-٤١٢) رقم (١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢) كلهم من طريق أبي صالح مولى أم هانيء عن أم هانيء به..

وقال الترمذي: حديث حسن.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٦/٥)، وزاد نسبه إلى الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «الصمت»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والشاشي في «مسنده»، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، وابن عساكر.

مجاهد^(١): كانوا يأتون الرجال في مجالسهم؛ وبعضهم يرى بعضاً.

وقال ابن عباس^(٢): كانوا يتصارتون ويتصافعون في مجالسهم، وقيل غير هذا، وقد تقدم قصص الآية مكرراً والرجز: العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ولقد تركنا منها﴾؛ أي: من خبرها وما بقي من آثارها، والآية: موضع العبرة، وعلامة القدرة، ومزجر النفوس عن الوقوع في سُخط الله تعالى.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يقيموا عبادة الله وارجلوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (٣٦) ﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جثمين﴾ (٣٧) ﴿وعادوا ومموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبشرين﴾ (٣٨) ﴿وقرئوا وفرعون وهنك ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سافقين﴾ (٣٩) ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليطلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (٤٠) ﴿مثل الذين أخذوا من دواب الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهك البيوت لبيث العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ (٤١).

وقوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجلوا اليوم الآخر...﴾ الآية، الرجاء في الآية: على بابه، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى: وخافوا، و﴿تعثوا﴾ معناه: تفسدوا، و﴿السبيل﴾: هي طريق الإيمان، ومنهج النجاة من النار، و﴿ما كانوا سابقين﴾، أي: مفلتين أخذنا وعقابنا، وقيل: معناه: وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر، وباقي الآية بين.

﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم﴾ (٤٢) ﴿ولذلك الأمثل نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (٤٣) ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ (٤٤) ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلوة إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ (٤٥).

(١) أخرجه الطبري (١٣٧/١٠) رقم (٢٧٧٥٢)، وذكره البغوي (٤٦٦/٣)، وابن عطية (٣١٥/٤)، والسيوطي (٢٧٦/٥)، وعزاه للقرطبي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» عن مجاهد.

(٢) ذكره ابن عطية (٣١٥/٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، قيل: معناه: إن الله يعلم الذين تدعون من دونه من جميع الأشياء، وقيل: ما نافية؛ وفيه نظر، وقيل: ما استفهامية، قال جابر: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾: الْعَالِمُ: مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ وَأَنْتَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لا للعبث واللعب؛ بل ليدل على سلطانه؛ وتثبيت شرائعه، ويضع الدلالة لأهلها ويعم بالمنافع؛ إلى غير ذلك مما لا يُخَصِّصُ عدلاً. ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالنفوذ لأمره؛ وتلاوة القرآن الذي أُوحِيَ إليه، وإقامة الصلاة، أي: إدامتها؛ والقيام بحدودها. ثم أخبر سبحانه حكماً منه أن الصلاة تنهى صاحبها وممثلها عن الفحشاء والمنكر.

قال ع^(١): ﴿وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع، والإخبات^(٢) وتذكر الله، وتوهم الوقوف بين يديه، وإن قلبه وإخلاصه مُطْلَعٌ عليه مَرْقُوبٌ صَلَحَتْ لِدَلِكِ نَفْسُهُ، وَتَذَلَّتْ، وَخَامَرَهَا ارْتِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَاطْرَدَ ذَلِكَ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَنْتَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَمْ يَكْذِبْ تَقَرُّرُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى تَظْلَهُ صَلَاةٌ أُخْرَى؛ يَرْجِعُ بِهَا إِلَى أَفْضَلِ حَالِهِ؛ فَهَذَا مَعْنَى هَذَا الْإِخْبَارِ؛ لِأَنَّ صَلَاةَ الْمُؤْمِنِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ ارْتَعَدَ، وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، فَكُلَّمْ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي أَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى.

قال ع^(٣): ﴿فهذه صلاة تنهى - ولا بد - عن الفحشاء/ والمنكر، وأما من كانت ٦٢ صلاته دائرةً حول الإجزاء، بلا تذكر ولا خشوع، ولا فضائل؛ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كانَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس^(٤) وأبو الدرداء^(٥) وسلمان^(٦) وابن

(١) ينظر: «المحرر» (٣١٩/٤).

(٢) أخبت لله: خشع. وأخبت إلى ربه أي اطمأن إليه. والإخبات: الخشوع والتواضع.

ينظر: «لسان العرب» ١٠٨٧.

(٣) ينظر: «المحرر» (٣١٩/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٤٦/١٠) رقم (٢٧٧٩٠)، وذكره البغوي (٤٦٩/٣)، وابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨٠/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (١٤٧/١٠) رقم (٢٧٨٠١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨١/٥)، بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير عن أبي الدرداء.

(٦) أخرجه الطبري (١٤٧/١٠) رقم (٢٧٨٠٢)، وذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣).

مسعود^(١) وأبو قرة^(٢): معناه: ولذكر الله إياكم؛ أكبر من ذكركم إياه.

وقيل: معناه: ولذكر الله أكبر؛ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر. وقال ابن زيد وغيره: معناه: ولذكر الله أكبر^(٣) من كل شيء. وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ ﴿ولذكر الله أكبر﴾. والأحاديث في فضل الذكر كثيرة؛ لا تنحصر.

وقال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: ذكر الله لكم أفضل من ذكركم له؛ أضاف المصدر إلى الفاعل.

الثاني: ذكر الله أفضل من كل شيء.

الثالث: ذكر الله في الصلاة؛ أفضل من ذكره في غيرها؛ يعني: لأنهما عبادتان.

الرابع: ذكر الله في الصلاة؛ أكبر من الصلاة؛ وهذه الثلاثة الأخيرة من إضافة المصدر إلى المفعول، وهذه كلها صحيحة، وإن للصلاة بركة عظيمة، انتهى.

قال ع^(٥): * وعندي، أن المعنى: ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة؛ يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة، لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله تعالى، مراقب له، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى، كما في الحديث الصحيح: «وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(٦) والحركات التي في الصلاة؛ لا تأخير لها في نهى، والذكر النافع هو مع العلم؛ وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله تعالى. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكر الله تعالى للعبد؛ هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه؛ وذلك ثمرة ذكر العبد ربّه.

(١) ذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في «زوائد الزهد»، وابن جرير عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه الطبري (١٤٧/١٠) رقم (٢٧٨٠٣)، وذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، والسيوطي (٢٨٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن جابر قال: سألت أبا قرة.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٢٠/٤).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٨٧/٣).

(٥) ينظر: «المحور» (٣٢٠/٤).

(٦) تقدم تخريجه، وهو حديث: «أنا عند ظن عبدي بي».

قال الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وعبارة الشيخ ابن أبي جمرة: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ معناه: ذكره لك في الأزل أن جعلك من الذاكرين له؛ أكبر من ذكرك أنت الآن له، انتهى.

قال القُشَيْرِيُّ في «رسالته»: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه؛ وهو العمدة في هذا الطريق؛ ولا يصل أحد إلى الله سبحانه إلا بدوام الذكر، ثم الذكر على ضربين: ذكر باللسان، وذكر بالقلب، فذكر اللسان: به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبد ذاكرةً بلسانه، وقلبه؛ فهو الكامل في وصفه، سمعتُ أبا علي الدقاق يقول: الذكر منشورُ الولاية، فمن وُفِّقَ للذكر؛ فقد وُفِّقَ للمنشور، ومن سُلِبَ الذكر فقد عُرِّلَ، والذكر بالقلب مستدام في عموم الحالات. وأسند القشيري عن المظفر الجصاص قال: كنت أنا ونصر الخراط ليلةً في موضع؛ فتذاكرنا شيئاً من العلم؛ فقال الخراط: الذاكر لله تعالى فائدته في أول ذكره: أن يعلم أن الله ذكره؛ فبذكر الله له ذكره، قال: فخالفته، فقال: لو كان الخضرُ ها هنا لشهد لصحته، قال: فإذا نحن بشيخ يجيء بين السماء والأرض، حتى بلغ إلينا وقال: صدق؛ الذاكر لله بفضل الله، وذكره له ذكره، فعلمنا أنه الخضر عليه السلام، انتهى. وباقي الآية ضربٌ من التوعيد وحثٌ على المراقبة، قال الباجي في «سنن الصالحين»: / قال بعض العلماء: إن الله عز وجل يقول: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَطَّلَعْتُ عَلَى قَلْبِهِ؛ فَرَأَيْتُ الْعَالِبَ عَلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِذِكْرِي؛ تَوَلَّيْتُ سَيَّاسَتَهُ، وَكُنْتُ جَلِيسَهُ وَمُحَادِثَهُ وَأَيَّسَهُ». انتهى.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَمْتَ أَتُطْلَوْنَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذه الآية مكية، ولم يكن يومئذ قتال، وكانت اليهود يومئذ بمكة؛ وفيما جاورها، فربما وقع بينهم وبين بعض المؤمنين جدالٌ واحتجاجٌ في أمر الدين؛ وتكذيب، فأمر الله المؤمنين ألا يجادلوهم إلا بالتي هي أحسن؛ دعاء إلى الله تعالى وملاينة، ثم استثنى من ظلم منهم المؤمنين؛ وحصلت منه أذية؛ فإن هذه الصنيفة استثنى لأهل الإسلام معارضتها؛ بالتغيير عليها،

والخروج معها عن التي هي أحسن. ثم نُسيخَ هذا بآية القتال؛ وهذا قول قتادة^(١)؛ وهو أحسن ما قيل في تأويل الآية.

***: قال عز الدين بن عبد السلام في «اختصاره لقواعد الأحكام»^(٢): فائدة: لا يجوز الجدل والمناظرة إلا لإظهار الحق ونُصْرَتِه؛ لِيُعْرَفَ وَيُعْمَلَ بِهِ، فمن جادل لذلك؛ فقد أطاع، ومن جادل لغرض آخر، فقد عصى وخَاب، ولا خير فيمن يتحیلُ لِتُصْرَةِ مذهبه؛ مع ضعفه ويُعَدِّ أدلته من الصواب، انتهى.

تنبيه: رَوَى الترمذي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ الثَّقَافِ»^(٣). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيعَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا» حديث^(٤)

(١) أخرجه الطبري (١٥٠/١٠) رقم (٢٧٨٢٢) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٢١) بنحوه، وابن كثير بنحوه (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨٢/٥)، وعزاه لأبي داود في «ناسخه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» عن قتادة.

(٢) قال «المقري» في «قواعده»: لا يجوز التعصب إلى المذاهب بالانتصاب للانتصار بوضع الحجاج، وتقريبها على الطرق الجدلية مع اعتقاد الخطأ، أو المرجوحية عند المجيب، كما يفعله أهل الخلاف، إلا على وجه التدريب على نصب الأدلة، والتعليم لسلوك الطريق بعد بيان ما هو الحق، فالحق أعلى من أن يُعْلَى، وأغلب من أن يُغْلَب. وقال أيضاً: ولا يجوز رد الأحاديث إلى المذاهب على وجه ينقص من بهجتها، ويذهب بالثقة بظاهرها؛ فإن ذلك إفساد لها، وغض من منزلتها، لا أصلح الله المذاهب بفسادها، ولا رفعها بخفض درجاتها، فكل كلام يؤخذ منه ويرد إلا ما صح لنا عن سيدنا رسول الله ﷺ، بل لا يجوز الرد مطلقاً؛ لأن الواجب أن ترد المذاهب إليها كما قال «الإمام الشافعي»، لا أن ترد هي إلى المذاهب ولله درُّ علي - رضي الله عنه - أي بحر علم ضم جنباه! - إذ قال لكميل بن زياد لما قال له: أترانا نعتقد أنك على الحق، وأن طلحة، والزبير على الباطل؟! : اعرف الرجل بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

وما أَحْسَنَ قَوْلَ أَرْسَطُو لما خالف أستاذهم أفلاطون: تَخَاصَمَ الْحَقُّ وَأَفْلَاطُونُ، وكلاهما صديق لي، والحق أصدق منه. انظر «القواعد» (٣٩٧/٢) وما بعدها بتصرف، وينظر: «القواعد الصغرى» بتحقيقنا ص ١٠٩.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٥/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في العي، حديث (٢٠٢٧)، وأحمد (٥/٢٦٩)، والحاكم (٩/١)، والبغوي في «شرح السنة» ٦/ ٤١٠. بتحقيقنا كلهم من طريق محمد بن مطرف أبي غسان عن حسان بن عطية عن أبي أمامة مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث أبي غسان محمد بن مطرف.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٢٠/٢) كتاب الأدب: باب ما جاء في المشتدق في الكلام، حديث (٥٠٠٥)، والترمذي (١٤١/٥) كتاب الأدب: باب ما جاء في الفصاحة والبيان، حديث (٢٨٥٣)، وأحمد (٢/١٦٥)، (١٨٧) من طريق نافع بن عمر الجمحي عن بشر بن عاصم عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

غريب، انتهى؛ وهما في «مصباح البغوي». وروى أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لَيْسَبِي بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ، أَوْ النَّاسِ - لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»^(١) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وقولوا آمنا﴾ الآية، قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية؛ ويفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»^(٢)، وقولوا: ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ وروى ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ؛ وَقَدْ ضَلُّوا: إِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقِّ، وَإِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ يريد: التوراة والإنجيل؛ كانوا في وقت نزول الكتاب عليهم يؤمنون بالقرآن. ثم أخبر عن معاصري نبينا محمد ﷺ أن منهم أيضاً مَنْ يؤمن به ولم يكونوا آمنوا بعد، ففي هذا إخبارٌ بغيث؛ بيَّنه الوجودُ بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يُزَادَ بهذا الانحناء كفار قريش. ثم بين تعالى الحجة وأوضح البرهان: أن مما يقوي أن نزول هذا القرآن من عند الله؛ أن محمداً - عليه السلام - جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمن للغيوب، وغير ذلك؟ وهو أمي؛ لا يقرأ ولا يكتب؛ ولا يتلو كتاباً / ولا يخط حروفاً؛ ولا سبيل له إلى ٦٣ ب التعلم، ولو كان ممن يقرأ أو يخط، لارتاب المبطلون، وكان لهم في ارتيابهم مُعَلِّقٌ، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة؛ فظاهرُ فساده.

قوله تعالى: ﴿بل هو آيات بينات﴾ يعني: القرآن، ويحتمل: أن يعود على أمر محمد ﷺ و﴿الظالمون﴾ و﴿المبطلون﴾ يَغْمُ لفظهما كلَّ مكذبٍ للنبي ﷺ، ولكنَّ عظم

(١) أخرجه أبو داود (٧٢٠/٢) كتاب الأدب: باب ما جاء في المتشدد في الكلام، حديث (٥٠٠٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥/١٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب قول النبي ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ»، حديث (٧٣٦٢) وفي (٥٢٥/١٣) كتاب التوحيد: باب ما يجوز من تفسير التوراة، حديث (٧٥٤٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥١/١٠) رقم (٢٧٨٢٣) من حديث أبي هريرة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٢/٥)، وزاد نسبه إلى النسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥١/١٠) رقم (٢٧٨٢٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢٨٢)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق.

الإشارة بهما إلى قريش؛ لأنهم الأهم؛ قاله مجاهد^(١).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٥ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٦﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٥٧﴾.

﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ الضمير في: ﴿قالوا﴾ لقريش ولبعض اليهود؛ لأنهم كانوا يعلمون قريشاً مثل هذه الحجة؛ على ما مر في غير ما موضع. ثم احتج عليهم في اقتراحهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات؛ ومعجز للجن والإنس؛ فقال سبحانه: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب... الآية﴾.

وقوله: ﴿آمنوا بالباطل﴾ يريد: الأصنام وما في معناها. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٤﴾ يَوْمَ يَعْشَقُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾ يَبْعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونَ ٥٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ يريد: كفار قريش، وباقي الآية بين مما تقدم مكرراً والله الموفق بفضلِهِ. و﴿بغتة﴾: معناه: فجأة؛ وهذا هو عذاب الدنيا؛ كيوم بدر ونحوه. ثم توعدهم سبحانه بعذاب الآخرة في قوله: ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم... الآية﴾.

وقوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون...﴾ الآيات، هذه الآيات نزلت في تحريض المؤمنين الكائنين بمكة على الهجرة. قال ابن جُبَيْر^(٢)، وعطاء^(٣) ومجاهد^(٤): إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر؛ تترتب فيها هذه الآية وتلزم

- (١) أخرجه الطبري (١٥٢/١٠) رقم (٢٧٨٣٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٢/٤)، والسيوطي (٢٨٣/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.
- (٢) أخرجه الطبري (١٥٦/١٠) رقم (٢٧٨٤٥-٢٧٨٤٦) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٣٢٤/٤)، والسيوطي (٢٨٥/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شبة عن سعيد بن جبير.
- (٣) أخرجه الطبري (١٥٦/١٠) رقم (٢٧٨٤٧) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٢٤)، والسيوطي (٢٨٥/٥)، وعزاه لابن أبي الدنيا في «العزلة»، وابن جرير عن عطاء.
- (٤) أخرجه الطبري (١٥٦/١٠) رقم (٢٧٨٤٩) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٢٤)، والسيوطي (٢٨٥/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن جرير عن مجاهد.

الهجرة عنها إلى بلد حق؛ وقاله (١) مالك .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَعْزُّ الْعَالَمِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَدَقُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تحقيق لأمر الدنيا ومخاوفها، كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه؛ أنه يموت أو يجوع ونحو هذا؛ فحقر الله سبحانه شأن الدنيا، أي وأنتم لا محالة ميتون ومُحْسَرُونَ إلينا، فالبدارُ إلى طاعة الله والهجرة إليه أولى ما يُمْتَثَلُ. ذكر هشام بن عبد الله القرطبي في تاريخه المسمى بـ «بهجة النفس» قال: بينما المنصور جالس في منزله في أعلى قصره؛ إذ جاءه سهم عائر فسقط بين يديه؛ فذعر المنصور منه ذعراً شديداً، ثم أخذه فجعل يقلبه، فإذا مكتوب عليه بين الرِيشَتَيْنِ: [الوافر]

أَتَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى التَّنَادِي
وَتَحْسَبُ أَنَّ مَا لَكَ مِنْ مَعَادٍ
سَتُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِكَ وَالْخَطَايَا
وَتُسْأَلُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْعِبَادِ

ومن الجانب الآخر: [البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّنَاكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ
وَسَاعَدْتَنَا اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا
وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْذُ الْكَدَرُ

وفي الآخر: [البسيط]

هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْيُنِهَا
يَوْمًا تُرِيكَ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ
فَأَضْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالٍ
إِلَى السَّمَاءِ وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي

/ ثم قرأ على الجانب الآخر من السهم: [البسيط]

مَنْ يَضْحَكِ الدَّهْرَ لَا يَأْمَنْ تَصْرُفُهُ
يَوْمًا فَلِلدَّهْرِ إِخْلَاءٌ وَإِمْرَارُ

لِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ إِذَا أَنْتَهَى مَدُّهُ لَا بُدَّ إِقْصَارٍ
انتهى.

وقرأ حمزة^(١): «الشونهم من الجنة غرافاً»: من أثنى يُثوي بمعنى: أقام.

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ...﴾ الآية: تحريضٌ على الهجرة؛ لأن بعض المؤمنين فكّر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة، وقالوا: غربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار، ولا من يطعم، فمثل لهم بأكثر الدواب التي لا تنقوت ولا تدخر، ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فقلوه: ﴿لا تحمل﴾ يجوز أن يريد من الحمل، أي: لا تتنقل ولا تنظر في ادخاره.

قاله مجاهد^(٢) وغيره.

قال ع^(٣): * والادّخار ليس من خُلُقِ الموقنين، وقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لابنِ عُمَرَ: «كَيْفَ بِكَ إِذَا بَقِيَتْ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ؛ يُحَبِّتُونَ رِزْقَ سَنَةٍ بِضَعْفِ الْيَقِينِ»^(٤)، ويجوز أن يريد من الحماله؛ أي: لا تتكفل لنفسها.

قال الداوودي: وعن علي بن الأقرم: ﴿لا تحمل رزقها﴾ أي: لا تدخر شيئاً لغد، انتهى. وفي الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»^(٥). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انتهى.

(١) ينظر: «السبعة» (٥٠٤)، و«الحجة» (٤٣٨/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٠/٢)، و«معاني القراءات»

(٢/٢٦١)، و«شرح الطيبة» (١٢٩/٥)، و«العنوان» (١٥٠)، و«حجة القراءات» (٥٥٤)، و«شرح شعلة»

(٥٣٨)، و«إتحاف» (٣٥٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٥٨/١٠) رقم (٢٧٨٥٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٥/٤).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣٢٥/٤).

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه الترمذي (٥٧٣/٤) كتاب الزهد: باب في التوكل على الله، حديث (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٢/

١٣٩٤)، كتاب الزهد: باب التوكل واليقين، حديث (٤١٦٤)، وأحمد (٣٠/١)، وأبو يعلى (١/

٢١٢)، رقم (٢٤٧)، وابن حبان (٥٠٩/٢) رقم (٧٣٠)، وابن المبارك في «الزهد» (ص: ١٩٦ - ١٩٧)

رقم (٥٥٩)، والحاكم (٣١٨/٤)، وأبو نعيم (١٦٩/١٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم

(١٤٤٥)، والبخاري في «شرح السنة» (٧/ ٣٢٨ - بتحقيقنا) كلهم من حديث عمر بن الخطاب. وقال

الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ثم خاطب تعالى في أمر الكفار وإقامة الحجة عليهم، بأنهم إن سئلوا عن الأمور العظام التي هي دلائل القدرة، لم يكن لهم إلا التسليم بأنها لله تعالى، ﴿ويؤفكون﴾ معناه: يصرفون.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَخَدُّهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرَكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْطِفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩).

وقوله تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ وصف الله تعالى الدنيا في هذه الآية بأنها لهو ولعب، أي: ما كان منها لغير وجه الله تعالى؛ وأما ما كان لله تعالى فهو من الآخرة، وأما أمور الدنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش، والقوة على الطاعات؛ فإنما هي لهو ولعب، وتأمل ذلك في الملابس، والمطاعم، والأقوال، والمكتسبات، وغير ذلك، وانظر أن حالة الغني والفقير من الأمور الضرورية واحدة: كالتنفس في الهواء، وسد الجوع، وستر العورة، وتوقي الحر والبرد؛ هذه عظم أمر العيش، و﴿الحيوان﴾ و﴿الحياة﴾ بمعنى، والمعنى: لا موت فيها، قاله مجاهد وهو حسن^(١)، ويقال: أصله: حيوان؛ فأبدلت إحداهما وأوا لاجتماع المثلين. ثم وقفهم تعالى على حالهم في البحر؛ عند الخوف العظيم؛ ونسيانهم عند ذلك للأصنام، وغيرها، على ما تقدم بياؤه في غير هذا الموضع: و﴿ليكفروا﴾ نصب بـ «لام كي» ثم عدّد تعالى على كفره قريش نعمته عليهم في الحرّم؛ و«المثوى»: موضع الإقامة، وألفاظ هذه الآية في غاية الاقتضاب والإيجاز؛ وجمع المعاني. ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه.

وقوله: ﴿فينا﴾ معناه: في مرضاتنا وبغية ثوابنا.

قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال^(٢).

قال ع^(٣): * / قَبْلَ الْجِهَادِ الْعُرْفِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ جِهَادٌ عَامٌّ فِي دِينِ اللَّهِ وَطَلَبَ ٦٤ ب مرضاته.

(١) أخرجه الطبري (١٥٩/١٠) رقم (٢٧٨٥٨)، وذكره ابن عطية (٤/٣٢٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٣٢٦).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٣٢٦).

قال الحسن بن أبي الحسن^(١): الآية في العباد. وقال إبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما علموا^(٢). وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدو فقط؛ بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين؛ وأعظمه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله عز وجل وهو الجهاد الأكبر؛ قاله الحسن^(٣) وغيره، وفيه حديث عن النبي ﷺ «رَجَعْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^(٤) و«السُّبُل» هنا يحتمل أن تكون طرق الجنة ومسالكها، ويحتمل أن تكون سبل الأعمال المؤدية إلى الجنة، قال يوسف بن أسباط: هي إصلاح النية في الأعمال، وحب التزويد والتفهم، وهو أن يجازى العبد على حسنة بازدياد حسنة ويعلم ينقذ من علم متقدم.

قال *ص*: ﴿والذين جاهدوا﴾: مبتدأ خبره القسم المحذوف، وجوابه وهو: ﴿لنهديهم﴾، انتهى.

وقال الثعلبي: قال سهل بن عبد الله: ﴿والذين جاهدوا﴾ في إقامة السنة ﴿لنهديهم﴾ سبل الجنة؛ انتهى. واللام في قوله ﴿لمع﴾ لام تأكيد.

(١) ذكره ابن عطية (٣٢٦/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٢٦/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٢٦/٤).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٩٣/١٣) من حديث جابر.

وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٧/٣): أخرجه البيهقي في «الزهد» من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تفسير «سورة الروم»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ اتَّفَقَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ يَنْفَكِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿الْم * غلبت الروم﴾ قرأ الجمهور^(١): «غلبت» - بضم الغين، - وقالوا: معنى الآية: أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزم جيش الروم بأذرعَاتٍ؛ وهي أدنى الأرض إلى مكة؛ قاله عكرمة^(٢). فسر بذلك كفار مكة فبشر الله تعالى المؤمنين بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى المسجد الحرام؛ فقال للكفار: أسركم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى: أنهم سيغلبون في بضع سنين، فقال له أبي بن خلف وأخوه أمية بن خلف: يا أبا بكر: تعال فلتنأخَب، أي: نتراهن في ذلك، فراهنهم أبو بكر على خمس قلائص^(٣)، والأجل ثلاث سنين، وذلك قبل أن يحرم القمار، فأخبر النبي ﷺ بذلك؛ فقال له: إن البضع إلى التسع، ولكن زدهم في

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٧/٤)، و«البحر المحيط» (١٥٧/٧)، و«الدر المصون» (٣٧٠/٥).

(٢) ذكره البغوي (٤٧٧/٣)، وابن كثير (٤٢٣-٤٢٤)، والسيوطي (٢٩١/٥)، وعزاه لابن جرير عن عكرمة.

(٣) القلائص: جمع قُلوص، وهي الفِئّة من الإبل بمنزلة الجارية الفتاة من النساء. وقيل: هي الثِيبة، وقيل: هي ابنة المخاض. وقيل: هي كل أنثى من الإبل حين تركب.

ينظر: «لسان العرب» ٣٧٢٢.

الرهن؛ واستزدهم في الأجل، ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائص مائة، والأجل تسعة أعوام، فَعَلَبَتِ الرومُ فارسَ في أَثْنَاءِ الأَجَلِ يوم بدر. وَرُوِيَ أَن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَّةِ، يوم بيعة الرضوان؛ وفي كلا اليومين كان نصرٌ من الله تعالى للمؤمنين، وذكر الناس سرور المؤمنين بغلبة الروم؛ من أجل أنهم أهل كتاب، وفرحت قريش بغلبة الفرس؛ من أجل أنهم أهل أوثان ونحوه من عبادة النار.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾. أي: له إنفاذ الأحكام من قبل ومن بعد هذه الغلبة التي بين هؤلاء؛ ثم أخبر تعالى أن يوم غلبة الروم للفرس يفرح المؤمنون بنصر الله، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يريد: كُفَّار قريش والعرب، أي: لا يعملون ١٦٥ أن الأمور من عند الله، وأن وعده لا يُخْلَفُ، وأن ما يورده / نبئهُ حق.

قال *ع^(١): وهذا الذي ذكرناه عُمْدَةٌ ما قيل. ثم وصف تعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله وصدق وعده بأنهم إنما: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾، قال صاحب «الكلم الفارقية»: الدنيا طَبَقٌ مسموم، لا يعرف ضرره إلا أربابُ الفهوم. قوة الرغبة في الدنيا علامة ضعفها في الآخرة. بحسب انصراف الرغبة إلى الشيء، يجدُّ الراغب في طلبه، وتتوفَّر دواعيه على تحصيله. المطلوبات تُظهر وتبيِّن أقدارَ طلبائها؛ فمن شَرَفَتْ هِمَّتُهُ شَرَفَتْ رَغْبَتُهُ وعزت طلبته. يا غافل، سكر حبك لدنياك؛ وطول مُتَابِعَتِكَ لَغَاوِي هَواك - أنساك عظمة مولاك؛ وَتَنَّاكَ عن ذكره وأهالك؛ وَصَرَفَ وجه رغبتك عن آخرتك إلى دنياك. إن كنت من أهل الاستبصار، فآلِقِ ناظرَ رغبتك عن زخارف هذه الدار؛ فإنها مجمعُ الأكدار، ومنبَعُ المضار؛ وسِجْنُ الأبرار؛ ومجلس سرور الأشرار. الدنيا كالحية تجمع في أنيابها؛ سُمُومٌ نَوَائِبُهَا؛ وتفرغه في صميم قلوب أبنائها، انتهى. قال عياض في «الشفاء»: قال أبو العباس المبرِّد - رحمه الله - قَسَمَ كَسَرَى أَيَّامَهُ؛ فَقَالَ: يَصْلُحُ يَوْمُ الرِّيحِ للنوم، ويومُ الغَيمِ للصيد، ويومُ المَطَرِ للشُّرْبِ واللَّهْوِ، ويومُ الشَّمْسِ للحِوَانِجِ. قال ابن خَالَوَيْهِ: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾، لكن نبينا محمداً ﷺ جزأها ثلاثة أجزاء: جزءاً لله تعالى، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه. ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس؛ فكان يستعين بالخاصة على العامة؛ وَيَقُولُ: أَبْلِغُوا حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاجِي؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ، أَمَّنَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، انتهى. والمؤمن المنهمك في أمور الدنيا التي هي أكبر همه، يأخذ من هذه الآية بحظ. نَوَّرَ اللَّهُ قُلُوبَنَا بهداه.

***: قد تقدم ما جاء في الفكرة في «آل عمران». قال ابن عطاء الله: الفكرة سراج القلب؛ فإذا ذهبت فلا إضاءة له. وقال: ما نفع القلب شيء مثل عزلته يدخل بها ميدان فكرة، انتهى وباقي الآية يبين.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَذَّوِلُ الْحَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وقوله عز وجل: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض...﴾ الآية، يريد أثاروا الأرض بالمباني، والحرب، والحروب وسائر الحوادث التي أحدثوها هي كلها إثارة للأرض؛ بعضها حقيقة وبعضها بتجوز، والضمير في ﴿عمروها﴾ الأول للماضين، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين.

وقوله تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أي أن كذبوا بآيات الله﴾.

قرأ نافع^(١) وغيره: «عَاقِبَةُ» - بالرفع - على أنها اسم ﴿كان﴾، والخبر يجوز أن يكون ﴿السوء أي﴾، ويجوز أن يكون ﴿أن كذبوا﴾، وتكون ﴿السوء أي﴾ على هذا مفعولاً بـ ﴿أساءوا﴾ وإذا كان ﴿السوء أي﴾ خبراً فـ ﴿أن كذبوا﴾ مفعول من أجله.

وقرأ^(٢) حمزة والكسائي وغيرهما «عَاقِبَةُ» بالنصب على أنها خبر مقدم، واسم كان أحد ما تقدم، و﴿السوء أي﴾: مصدر كالرجعى، والشورى، والفثيا. قال ابن عباس: ﴿أساءوا﴾ هنا بمعنى: كفروا^(٣)، و﴿السوء أي﴾ هي النار. وعبارة البخاري: وقال مجاهد ﴿السوء أي﴾ أي: الإساءة جزاء المسيئين^(٤)، انتهى. والإيلاس: الكون في شر، مع اليأس من الخير.

(١) ينظر: «السبعة» (٥٠٦)، و«الحجة» (٤٤٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢٦٣/٢)، و«شرح الطيبة» (١٣١/٥)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٦)، و«شرح شعلة» (٥٣٩)، و«إتحاف» (٣٥٤/٢).

(٢) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٣) أخرجه الطبري (١٧١/١٠) رقم (٢٧٩٠٧)، وذكره ابن عطية (٣٣١/٤)، والسيوطي (٢٩٣/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) ذكره السيوطي (٢٩٣/٥)، وعزاه للفرغاني، وابن أبي شيبة عن مجاهد.

ص: وقال الزجاج^(١): المَبْلِسُ: الساكت المنقطع / في حجته؛ اليائس من أن يَهْتَدِيَ إليها، انتهى.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾.

وقوله جلت عظمتة: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ معناه: في المنازل والأحكام والجزاء. قال قتادة^(٢): فُرْقَةٌ؛ واللّه - لا اجتماع بعدها. و﴿يحبرون﴾ معناه يُتَعَمَّوْنَ؛ قاله مجاهد^(٣). والحبرة والحبور: السرور، وقال يحيى بن أبي كثير: ﴿يحبرون﴾ معناه: يسمعون الأغاني؛ وهذا نوع من الحبرة.

ت: وفي الصحيح من قول أبي موسى: لو شعرت بك يا رسول الله لحبّرته لك تخبيراً؛ أو كما قال.

وقال *ص*: ﴿يحبرون﴾: قال الزجاج^(٤): التَّخْيِيرُ: التحسين، والحبور العالم، إنما هو من هذا المعنى؛ لأنه مُتَخَلِّقٌ بأحسن أخلاق المؤمنين، والحبور المداد إنما سمي به؛ لأنه يُحَسِّنُ به، انتهى. قال الأصمعي: ولا يقال: روضة حتى يكون فيها ماء؛ يشرب منه. ومعنى: ﴿في العذاب محضرون﴾ أي: مجموعون له؛ لا يغيب أحد عنه.

﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافَ السَّيِّئَاتِ وَالْوَنُكْرَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَتَابِرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَيُّهَا قَوْمٌ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٧٩/٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٧٢/١٠) رقم (٢٧٩١١)، وذكره ابن عطية (٣٣١/٤)، وابن كثير (٤٢٨/٣)، والسيوطي (٢٩٣/٥)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (١٧٣/١٠) رقم (٢٧٩١٣)، وذكره البغوي (٤٧٩/٣)، وابن عطية (٣٣١/٤)، وابن كثير (٤٢٨/٣)، والسيوطي (٢٩٤/٥)، وعزه للفريابي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٨٠/٤).

﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قُنُوتٍ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فسبحان الله...﴾ الآية خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات، كأنه يقول سبحانه: إذا كان أمر هذه الفرق هكذا من النعمة والعذاب، فجدد أيها المؤمن في طريق الفوز برحمة الله. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾ أَذْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ هُنَّ حِينَ يُمَسِّي أَذْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي لَيْلَتِهِ»^(١). رواه أبو داود، انتهى من «السلام».

قال ابن عباس وغيره: في هذه الآية تنبيه على أربع صلوات: المغرب، والصبح، والظهر، والعصر^(٢)، قالوا: والعشاء الأخيرة هي في آية أخرى: في زلف الليل، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في محاله.

وقوله تعالى: ﴿يخرج الحي من الميت...﴾ الآية، تقدم بيانها. ثم بعد هذه الأمثلة القاضية بتجوير بعث الأجساد عقلاً؛ ساق الخبر سبحانه بأن كذلك خروجنا من قبورنا، و«نتنشرون» معناه: نتصرفون وتفرقون، والمودة والرحمة: هما على بابهما المشهور من التواد والتراحم؛ هذا هو البليغ. وقيل: غير هذا.

(١) أخرجه أبو داود (٧٤٠/٢) كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح حديث (٥٠٧٦) والطبراني في «الكبير» (٢٣٩/١٢) رقم (١٢٩٩١) كلاهما من طريق محمد بن عبد الرحمن البيلماني عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً. وعبد الرحمن البيلماني وابنه لا يحتج به.

والحديث ضعفه الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٥٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٧٤/١٠) رقم (٢٧٩١٩ - ٢٧٩٢٠ - ٢٧٩٢١ - ٢٧٩٢٣) بنحوه، وذكره البيهقي (٣/٤٧٩)، وابن عطية (٤/٣٣٢)، والسيوطي (٥/٢٩٥)، بنحوه وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس.

وقرأ الجمهور: «للعالمين» - بفتح اللام - يعني: جميع العالم. وقرأ حفص^(١) عن عاصم - بكسرهما - على معنى: أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم، وباقي الآية اطلبه في محالّه؛ تجده إن شاء الله مبيّناً، وهذا شأننا الإحالة في هذا المختصر؛ على ما تقدم بيانه، فاعلمه راشداً.

ت: وهذه الآيات والعبر إنما يعظم موقعها في قلوب العارفين بالله سبحانه، ومن أكثر التفكر في عجائب صنع الله تعالى حصّلت له المعرفة بالله سبحانه.

قال الغزالي في «الإحياء»: وبحر المعرفة لا ساحل له؛ والإحاطة بكنهه جلال الله محالّ، وكلما كثرت المعرفة بالله تعالى وصفاته وأفعاله وأسرار مملكته وقويّت - كثر النعيم في الآخرة؛ وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن - كثر الزرع وحسن.

وقال أيضاً في كتاب «شرح عجائب القلب» من «الإحياء»: وتكون سعة ملك العبد في الجنة؛ بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلّى له من عظمة الله - سبحانه -، وصفاته، وأفعاله، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ معناه: تثبت، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

وهذا كثير، والدعوة من الأرض: هي البعث ليوم القيامة، قال مكي: والأحسن عند أهل النظر أن الوقف في هذه الآية يكون في آخرها، ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لأن مذهب سيويّه والخليل في «إذا» الثانية: أنها جواب / الأولى، كأنه قال: ثم إذا دعاكم خرجتم؛ وهذا أسدُّ الأقوال. ١٦٦

وقال *ص*: ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾، «إذا»: للمفاجأة، وهل هي ظرف مكان أو ظرف زمان؟ خلاف، و﴿مَنْ الْأَرْضُ﴾ علّقهُ الحوفي بـ «دَعَا»، وأجاز *ع^(٢)*: أن يتعلق بـ «دعوة» انتهى.

وقرأ حمزة^(٣) والكسائي: «تَخْرُجُونَ» - بفتح التاء، والباقون بضمها -، والقنوت هنا

(١) ينظر: «الحجة» (٥/٤٤٤)، و«إعراب القراءات» (٢/١٩٤)، و«معاني القراءات» (٢/٢٦٤)، و«شرح الطيبة»

(٥/١٣٢)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٧)، و«شرح شملة» (٥٤٠)، و«إتحاف» (٢/٣٥٦).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٣٣٤).

(٣) وحجتها قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: ٧]، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾

[يس: ٥١]. وحجة الباقيين قوله سبحانه: ﴿يَا وَلِدْنَا مِن بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدْنَا هَذَا﴾ [يس: الآية ٥٢].

بمعنى الخضوع، والانقياد في طاعته سبحانه. وإعادة الخلق: هو بعثهم من القبور.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: المعنى: وهو هين^(١) عليه، وفي مصحف ابن مسعود^(٢) «وهو هين عليه»، وفي بعض المصاحف «وكل هين عليه».

وقال ابن عباس أيضاً وغيره: المعنى: وهو أيسر^(٣) عليه، قال: ولكن هذا التفضيل إنما هو بحسب معتقد البشر؛ وما يعطيهم النظر في الشاهد من أن الإعادة في كثير من الأشياء أهون علينا من البداية. ولما جاء بلفظ فيه استعارة، وتشبيه^(٤) بما يعهده الناس من أنفسهم خُلصَ جانبُ العظمة؛ بأن جعل له المثل الأعلى الذي لا يلحقه تكيف ولا تماثل مع شيء. ثم بين تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يُشركها بالله - بضربه هذا المثل -: وهو قوله: ﴿ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية، ومعناه: أنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيدٌ تملكونهم؛ فإنكم لا تشركونهم في أموالكم، ومهم أموركم، ولا في شيء على جهة استواء المنزلة. وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم، أو يقاسموكم إياها في حياتكم، كما يفعل بعضكم ببعض؛ فإذا كان هذا فيكم، فكيف تقولون: إن من عبيده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته؛ هذا تفسير ابن عباس^(٥) والجماعة.

﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) ﴿مُتَّبِعِينَ لِّئَلَّا يَقْتُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٢).

ينظر: «حجة القراءات» (٥٥٧)، و«السبعة» (٥٠٦)، و«الحجة» (٤٤٥/٥)، و«إعراب القراءات»، (٢/ ١٩٥)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٧)، و«إتحاف» (٣٥٦/٢).

(١) أخرجه الطبري (١٧٩/١٠) رقم (٢٧٩٣٩)، وذكره البغوي (٤٨١/٣)، وابن عطية (٣٣٥/٤)، وابن كثير (٤٣١/٣)، والسيوطي (٢٩٨/٥)، وعزاه لابن الأنباري عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٣٥/٤)، و«البحر المحيط» (١٦٥/٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٧٩/١٠) رقم (٢٧٩٤٠)، وذكره ابن عطية (٣٣٥/٤)، وابن كثير (٣٤٠/٣)، والسيوطي (٢٩٧/٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) في ج: التشبيه.

(٥) أخرجه الطبري (١٨١/١٠) رقم (٢٧٩٤٩) بنحوه، وذكره البغوي، (٤٨٢/٣)، وابن عطية (٣٣٥/٤).

(٣٣٦)، والسيوطي (٢٩٨/٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ الآية، إقامة الوجه: هي تقويم المقصد والقوة على الجِدِّ في أعمال الدين. وخص الوجه؛ لأنه جامع حواس الإنسان؛ ولشرفه. و﴿فطرت الله﴾ نُصِبَ على المصدر.

وقيل: بفعل مضمر تقديره: اتبع أو التزم فطرة الله، واختُلِفَ في الفطرة ها هنا، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخَلْقَةُ والهَيْئَةُ التي في نفس الطفل التي هي مُعَدَّةٌ مُهَيَّئَةٌ لَأَن يَمِيزَ بها مصنوعات الله، ويستدلُّ بها على ربِّه، ويعرف شرائعه؛ ويؤمن به، فكانه تعالى، قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فُطِرَ البشر؛ لكن تعرضهم العوارض؛ ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ...» الحديث^(١)، ثم يقول:

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣/١١) كتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا عاملين، الحديث (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٠٤٨/٤): كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٢٦٥٨/٢٥)، وأبو داود (٨٦/٥): كتاب السنة: باب في ذراري المشركين، الحديث (٤٧١٤)، والترمذي (٣٠٣/٣): كتاب القدر: باب كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٣٢٢٣)، ومالك (٢٤١/١): كتاب الجنائز: باب جامع الجنائز، الحديث (٥٢)، وأحمد (٢٣٣/٢)، والحميدي (٤٧٣/٢)، رقم (١١١٣)، وعبد الرزاق (٢٠٠٨٧)، وأبو يعلى (١٩٧/١١)، رقم (٦٣٠٦) وابن حبان (١٢٨، ١٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٨/٩)، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج الإبل جمعاء، هل تحس فيها من جدعاء، قالوا: يا رسول الله: رأيت الذي يموت وهو صغير، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين. ولفظ مسلم مصدراً بلفظ: كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم، كل إنسان تلده أمه، يلکز الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها. وفي الباب عن جابر والأسود بن سريع وابن عباس وسمرة بن جندب.

- حديث جابر:

أخرجه أحمد (٣٥٣/٣) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٢١/٧) وقال: رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات.

- حديث الأسود بن سريع:

أخرجه أحمد (٤٣٥/٣)، وابن حبان (١٦٥٨-موارد)، وأبو يعلى (٢٤٠/٢) رقم (٩٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٨٣/١) رقم (٨٢٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٦٣/٢) من حديث الأسود بن سريع بمثل حديث جابر.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١٩/٥) وقال: رواه أحمد بأسانيد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»... وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

﴿فَطَرَتِ اللَّهُ...﴾ الآية، إلى ﴿القيم﴾ فذكر الأبوين إنما هما مثال للعوارض التي هي كثيرة. وقال البخاري: فِطْرَةُ اللَّهِ: هِيَ الْإِسْلَامُ^(١)، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد بها هذه الفطرة، ويحتمل أن يريد بها الإنحاء على الكفرة؛ اعترض به أثناء الكلام؛ كأنه يقول: أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا، فإن هؤلاء الكفرة قد خَلَقَ اللَّهُ لَهُمُ الْكُفْرَ، و﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾، أي: أنهم لا يفلحون، وقيل غير هذا، وقال البخاري: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لدين الله، وخلق الأولين: دينهم. انتهى. و﴿القيم﴾ بناء مبالغة من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة، و﴿مبينين﴾ يحتمل أن يكون حالاً من قوله ﴿فطر الناس﴾ لا سيما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله ﴿أقم وجهك﴾ وجمعه: لأن الخطاب بإقامة الوجه هو للنبي ﷺ ولأمته نظيرها قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ ب ٦ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]. والمشركون المشار إليهم في هذه الآية: هم اليهود والنصارى؛ قاله قتادة^(٢)، وقيل غير هذا.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمْنَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنَةٌ أَوْ قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧) ﴿فَاتَّبَعْنَا ذَا الْقَرْنَيْنِ هَوَاهُ وَآلَيْهِ السَّبِيلُ ذَلِكَ جَزَاءُ لِلَّذِينَ يُبْذِلُونَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَعِفُونَ﴾ (٣٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ ثُمَّ

= - حديث ابن عباس:

أخرجه البزار في «مسنده» (٢١٦٧- كشف). وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢١/٧) بلفظ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه».

وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه ممن لم أعرفه غير واحد.

- حديث سمرة بن جندب:

أخرجه البزار (٢١٦٦- كشف) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢١/٧)، وقال: رواه البزار وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف. ونقل عن القطان أنه وثقه.

(١) ينظر: «البخاري» (٣٧٢/٨) كتاب التفسير: باب: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾.

(٢) أخرجه الطبري (١٨٥/١٠) رقم (٢٧٩٧٣)، وذكره ابن عطية (٣٣٧/٤)، والسيوطي (٣٠٠/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة.

يُخَيِّكُم هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ
 الْفَسَادُ فِي الْإِبْرَةِ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ
 سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَرُوا وَجْهَكَ
 لِلَّذِينَ الظَّالِمِينَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ
 عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ
 أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضَرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ...﴾ الآية، ابتداءً إنحاء
 على عَبْدَةِ الْأَصْنَامِ.

قال ﴿ع^(١)﴾: ويلحق من هذه الألفاظ شيءٌ للمؤمنين؛ إذا جاءهم فَرَجٌ بعد شدة؛
 فغلغلقوا ذلك بمخلوقين، أو بِحُذُوقِ آرائهم، وغير ذلك؛ لأن فيه قلة شكر لله تعالى؛ ويسمى
 تَشْرِيكًا مجازاً. والسلطان هنا البرهان من رسولٍ أو كتاب، ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ معناه فهو يُظْهِرُ حُجَّتَهُمْ، ويغلبُ مذهبَهُمْ، وينطق
 بشركهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا بِهَا...﴾ الآية، وكل أحد يأخذ
 من هذه الخُلُقِ بقسط، فالمقل والمكثر، إلا من ربطت الشريعة جأشه، ونَهَجَتِ السَّنةُ
 سبيله، وتَأَدَّبَ بِآدَابِ اللَّهِ، فصبر عند الضراء؛ وشكر عند السراء، ولم يَبْطُرْ عند النِّعَمَةِ،
 ولا قنط عند الابتلاء، والقَنْطُ: اليأس الصريح. ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره؛ لم
 يَيَاسْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ - وهو أنه سبحانه يَخْصُصُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِسُطِّ الرِّزْقِ، ويقدر على
 مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ. فينبغي لكل عَبْدٍ أَنْ يَكُونَ رَاجِيًا مَا عِنْدَ رَبِّهِ. ثم أمر تعالى نبيه -
 عليه السلام - أَمْرًا تَدْخُلُ فِيهِ أُمَّتُهُ - على جهة النَّدْبِ - بِإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى حَقَّهُ مِنْ صِلَةِ
 الْمَالِ، وحسنِ المعاشرة ولين القول، قال الحسن^(٢): حقه المواساة في اليسر، وقول
 مَيْسُورٍ فِي الْعُسْرِ.

قال ﴿ع^(٣)﴾: ومعظم ما قُصِدَ أَمْرُ الْمُعَوْنَةِ بِالْمَالِ.

(١) ينظر: «المحرر» (٤/٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/١٨٧) رقم (٢٧٩٧٦)، وذكره ابن عطية (٤/٣٣٨).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٣٣٨).

وقرأ الجمهور: ﴿وما آتيتكم﴾ بمعنى: أعطيتكم، وقرأ ابن كثير^(١) بغير مد، بمعنى: وما فعلتم، وأجمعوا على المد في قوله ﴿وما آتيتكم من زكاة﴾ والربا: الزيادة.

قال ابن عباس^(٢) وغيره: هذه الآية نزلت في هبات الثواب.

قال ع^(٣): ﴿وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه؛ كالسلم وغيره، فهو وإن كان لا إثم فيه؛ فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى، وما أعطى الإنسان تنمية لماله وتطهيراً؛ يريد بذلك وجه الله تعالى؛ فذلك هو الذي يجازى به أضعافاً مضاعفة على ما شاء الله له. وقرأ جمهور السبعة «ليربوا» بإسناد الفعل إلى الربا، وقرأ^(٤) نافع وحده «ليزبوا» وباقي الآية بين. ثم ذكر تعالى - على جهة العبرة - ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي، قال مجاهد: البرُّ البلاد البعيدة من البحر، والبحرُ السواحل والمدن التي على ضفة البحر^(٥)، وظهور الفساد فيهما: هو بارتفاع البركات، ووقوع الرزايا، وحدوث الفتن وتغلب العدو، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر، قال ابن عباس: الفساد في البحر: انقطاع صيده بذنوب بني آدم^(٦)، وقلما توجد أمة فاضلة مطمئنة مستقيمة الأعمال؛ إلا يدفع الله عنها هذه الأمور، والأمر بالعكس في المعاصي، وبطر النعمة؛ ليزيقهم عاقبة بعض ما عملوا ويعفوا عن كثير. و﴿لعلهم يرجعون﴾، أي: يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة ربهم؛ ثم حذر - تعالى - من يوم القيامة تحذيراً يعمُّ العالم وإياهم المقصد بقوله ﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ الآية و﴿لا مرد له﴾: معناه: ليس فيه رجوع لعمَل، ويَحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ / لَا يَرُدُّهُ رَأْدٌ. وهذا ظاهر بحسب اللفظ ١٦٧ و﴿يصدعون﴾: معناه: يَتَفَرَّقُونَ بعد جمعهم إلى الجنة وإلى النار. ثم ذكر تعالى من آياته أشياء وهي ما في الرِّيح من المنافع وذلك أنها بشرى بالمطر ويلقح بها الشجر، وغير ذلك،

(١) ينظر: «السبعة» (٥٠٧)، و«الحجة» (٤٤٦/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٦/٢)، و«معاني القراءات»

(٢/٢٦٤)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٨)، و«إتحاف» (٣٥٧/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٣٩/٤).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣٣٩/٤).

(٤) فالتاء ها هنا للمخاطبين، والواو واو الجمع. وحجته أنها كتبت في المصاحف بألف بعد واو. وحجة الباقي قوله بعده: ﴿فلا يربو عند الله﴾.

ينظر: «حجة القراءات» (٥٥٩)، و«السبعة» (٥٠٧)، و«الحجة» (٤٤٧/٥)، و«إعراب القراءات» (٢/

١٩٦)، و«معاني القراءات» (٢/٢٦٥)، و«شرح الطيبة» (٥/١٣٢)، و«العنوان» (١٥١)، و«شرح شعلة»

(٥٤٠)، و«إتحاف» (٣٥٧/٢).

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩٠ - ١٩١) رقم (٢٧٩٩٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٣٤٠).

(٦) ذكره ابن عطية (٤/٣٤٠).

وتجري بها السفن في البحر. ثم آتس سبحانه نبيه عليه السلام بقوله: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات...﴾ الآية، ثم وعد تعالى محمداً عليه السلام وأمنه النصر بقوله: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ وحقاً خبر كان قدّمه اهتماماً.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدَّحَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ إِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْيَنَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ أَعْمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...﴾ الآية. الإثارة: تحريكها من سكونها، وتسييرها، وبسطه في السماء هو نشره في الآفاق، والكسف: القطع.

وقوله: ﴿من قبله﴾: تأكيد أفاد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلas إلى الاستبشار، والإبلas: الكون في حال سوء مع اليأس من زوالها.

وقوله تعالى: ﴿كيف يحيي الضمير في يحيي﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلْأَثَرِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ أَظْهَرُ. ثم أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ تَقَلُّبِ بَنِي إِدَمَ، فِي أَنَّهُ بَعْدَ الْاِسْتِبْشَارِ بِالْمَطَرِ، إِنْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا فَاصْفَرَّ بِهَا النَّبَاتُ؛ ظَلُّوا يَكْفُرُونَ فَلَقَا مِنْهُمْ وَقِيلَ تَسْلِيمَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْضَّمِيرُ فِي «رَأَوْهُ» لِلنَّبَاتِ وَاللَّامُ فِي «لَئِنْ» مُؤَذِّنَةٌ بِمَجِيءِ الْقَسَمِ وَفِي «ظَلُّوا» لَامُ الْقَسَمِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى...﴾ الآية: استعارة للكفار وقد تقدم بيان ذلك في «سورة النمل».

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِدُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَنَّاهُمْ بِآيَاتِنَا يَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ قال كثير من اللغويين: ضَمُّ الضَّادِ فِي الْبَدَنِ، وَفَتْحُهَا فِي الْعَقْلِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ إِنَّمَا يَرَادُ بِهَا حَالُ الْجِسْمِ، وَالضُّعْفُ الْأَوَّلُ هُوَ: كَوْنُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَالْقُوَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ: الشَّيْبَةُ وَشِدَّةُ الْأَسْرِ، وَالضُّعْفُ الثَّانِي هُوَ الْهَرَمُ وَالشَّيْخُوخَةُ، هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ^(١) وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَنْتَفُوا الشَّيْبَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشَيْبُ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢). وَفِي رَوَايَةٍ «إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»^(٣) انتهى.

ثم أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا﴾ أَي: تَحْتَ التَّرَابِ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وَقِيلَ: الْمَعْنَى: مَا لَبِثُوا فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ اسْتَقْلَوْهَا. ﴿كَذَلِكَ كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يُؤْفِكُونَ﴾ أَي: يُضَرِّفُونَ عَنِ الْحَقِّ.

قال *ص*: ﴿مَا لَبِثُوا﴾: جَوَابُ الْقِسْمِ عَلَى الْمَعْنَى، وَلَوْ حُكِيَ قَوْلُهُمْ لَكَانَ مَا لَبِثْنَا؛ انْتَهَى. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكَفَرَةَ لَا يَنْفَعُهُمْ يَوْمُئِذٍ اعْتِدَارٌ وَلَا يُعْطَوْنَ عُتْبَى، وَهِيَ الرِّضَا وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٨/١٠) رَقْم (٢٨٠٢٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٤٣/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ (٣٠٥/٥) بِنَحْوِهِ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٤/٢) كِتَابَ التَّرَجُّلِ: بَابُ فِي نَفْسِ الشَّيْبِ، حَدِيثُ (٤٢٠٢).

(٣) يَنْظُرُ: الْحَدِيثُ السَّابِقُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تفسير «سورة لقمان»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

غَيْرِ آيَتَيْنِ قَالَ قَتَادَةُ: أُولَهُمَا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ثَلَاثٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُرَوِّفُونَ الْيَتَامَى وَالْمَسْكِينَةَ وَهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين: خصه للمحسنين من حيث لهم نفعه، وإلا فهو هدى في نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ / رَوَى: أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ؛ اشْتَرَى جَارِيَةً مَغْنِيَةً؛ لِتَغْنِيَ لَهُ بِهَجَاءِ النَّبِيِّ ﷺ.

وقيل: إنه ابن خطل.

وقيل: نَزَلَتْ فِي النُّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا، وَالَّذِي يَتَرَجَّحُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي لَهْوَ حَدِيثٍ مُضَافٍ إِلَى كُفْرٍ؛ فَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ أَلْفَاظُ الْآيَةِ، وَ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ كُلُّ مَا يُلْهِي مِنَ غِنَاءٍ وَخِنَاءٍ. وَنَحْوِهِ، وَالْآيَةُ بَاقِيَةُ الْمَعْنَى فِي الْأَمَةِ غَابِرَ الدَّهْرِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا لِيَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا، وَلَا عَلَيْهِمْ هَذَا الْوَعِيدُ؛ بَلْ لِيُعْطِلُوا عِبَادَةَ، وَيَقْطَعُوا زَمَنًا بِمَكْرُوهِه.

قال ابن العربي^(١) في «أحكامه»: وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ:

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٩٣).

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَنْزَهُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ عَنِ اللَّهِ وَمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ؛ أَدْخَلُوهُمْ فِي أَرْضِ الْمَسْكِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: أَسْمَعُوهُمْ ثَنَائِي وَحَمْدِي؛ وَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. انتهى.

﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝٨ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١١﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الوقُرُّ في الأذن: الثَّقُلُ الذي يَغْسُرُ معه إدراك المسموعات، و«الرواسي»: هي الجبال و«المئيد»: التحرك يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وما قرب من ذلك، والزوج: النوع والصنف. و«كريم»: مدحه بكرم جواهره، وحسن منظره، وغير ذلك. ثم وقف تعالى الكفرة على جهة التوبيخ فقال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝١٢ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ اختلف في لقمان؛ هل هو نبي أو رجل صالح فقط، وقال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا؛ وَلَكِنْ كَانَ عَبْدًا كَثِيرَ التَّفَكُّيرِ، حَسَنَ الْيَقِينِ، أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحَبَّهُ، فَمَنْ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ وَخَيْرُهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ خَلِيفَةً؛ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ، فَقَالَ: رَبِّ إِنْ خَيْرْتَنِي، قَبِلْتُ الْعَافِيَةَ، وَتَرَكْتُ الْبَلَاءَ، وَإِنْ عَزَمْتَ عَلَيَّ، فَسَمْعًا وَطَاعَةً، فَإِنَّكَ سَتَغْصِمَنِي، وَكَانَ قَاضِيًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نُوبِيًّا أَسْوَدَ، مَشَقَّقَ الرَّجُلَيْنِ، ذَا^(١) مَشَافِرٍ»، قاله سعيد بن المسيب^(٢) وابن عباس^(٣) وجماعة: وقال له رَجُلٌ -

(١) المَشَقَّرُ والمَشَقَّرُ للبعير: كالشفة للإنسان، وقد يقال للإنسان مشافر على الاستعارة. قال أبو عبيد: إنما قيل: مشافر الجش تشبيهاً بمشافر الإبل.

ينظر: «لسان العرب» ٢٢٨٧، ٢٢٨٨.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٨/١٠) رقم (٢٨٠٨٦)، وذكره ابن عطية (٣٤٧/٤)، وابن كثير (٤٤٣/٣)، والسيوطي (٣١٠/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب.

(٣) أخرجه الطبري (٢٠٨/١٠) رقم (٢٨٠٨٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٤٧/٤)، وابن كثير (٤٤٣/٣)، والسيوطي (٣١١/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن المنذر عن ابن عباس.

كان قد رعى معه الغنم :- مَا بَلَغَ بِكَ يَا لَقْمَانُ مَا أَرَى؟ قَالَ: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وتركِي ما لا يعنيني، وَحَكْمُ لُقْمَانَ كَثِيرَةٌ مَأْثُورَةٌ.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): وَرَوَى عُلَمَاؤُنَا عَنْ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَطَاوَلُوا عَلَيْهِمْ مَا يُوْعَدُونَ، وَهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ سِرَاعاً يَذْهَبُونَ، وَإِنَّكَ قَدْ اسْتَذْبَرْتَ الدُّنْيَا مَذْكَبَةً، وَاسْتَقْبَلْتَ الْآخِرَةَ مَعَ أَنْفَاسِكَ، وَإِنْ دَاراً سَتَسِيرُ إِلَيْهَا؛ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ دَارٍ تَخْرُجُ مِنْهَا، انْتَهَى.

وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ يجوز أن تكون «أَنْ» في مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى إِسْقَاطِ حَرْفِ الْجَرِّ، أَي: بِأَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَفْسُورَةً، أَي: كَانَتْ حَكْمَتُهُ دَائِرَةً عَلَى الشُّكْرِ لِلَّهِ، وَجَمِيعُ الْعِبَادَاتِ دَاخِلَةٌ فِي الشُّكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَ﴿حَمِيدٌ﴾ بِمَعْنَى: مُحَمَّدٌ، أَي: هُوَ مُسْتَحَقُّ ذَلِكَ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَّةً أُمًّا وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلْنَا فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٤) وَإِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَعَالَى إِلَهِي إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ حَبِيبٌ مِّنْ خَدِّلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَبْنِيْ أَقْبَرُ الصُّلُوَّةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١).

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَّةً أُمًّا وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ هَاتَانِ الْآيَتَانِ اعْتِرَاضٌ أَثْنَاءَ وَصِيَةِ لَقْمَانَ وَ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ مَعْنَاهُ ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: حَمَلْتُهُ أُمًّا، وَالضَّعْفُ يَتَزِيدُ بَعْدَ الضَّعْفِ إِلَى أَنْ يَنْقُضِي أَمْدَهُ.

وقال *ص*: ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ حَالٌ مِنْ أُمِّهِ أَيْ شِدَّةٌ بَعْدَ شِدَّةٍ، أَوْ جَهْدٌ عَلَى جَهْدٍ، وَقِيلَ ﴿وَهْنًا﴾ نَظْفَةً، ثُمَّ عِلْقَةً، فَيَكُونُ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ فِي ﴿جَمَلْتُهُ﴾. انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ﴾.

قال سفيان بن عُيَيْنَةَ: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في إدبار الصلوات فقد شكرهما.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي...﴾ الآية رُوي أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاص وأمه حَمْنَةَ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ، على ما تقدم بيانه، وجملته هذا الباب؛ أن طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات وتستحسن في ترك الطاعات الندب.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصية لجميع العالم. وهذه سبيل الأنبياء والصالحين.

وقوله تعالى - حاكياً عن لقمان ﴿يَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ إِنَّا تَكْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ...﴾ الآية: ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّهُ أَرَادَ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمَعَاصِي وَالطَّاعَاتِ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَتَحَصَّلُ فِي الْمَوْعِظَةِ تَرْجِيَةٌ وَتَخْوِيفٌ مُنْضَافٌ إِلَى تَبْيِينِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يَقْتَضِي حُضّاً عَلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ نَالَ ضَرَرًا، فَهُوَ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمَغْيِيرَ يُوْذِي أحياناً.

وقوله: ﴿إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مَا عَزَمَهُ اللَّهُ وَأَمَرَ بِهِ، قَالَه ابْنُ جَرِيرٍ^(١): وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَعِزَائِمِ أَهْلِ الْحِزْمِ السَّالِكِينَ طَرِيقَ النِّجَاةِ؛ قَالَه جَمَاعَةٌ. وَالصَّغَرُ: الْمَيْلُ، فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَلَا تُمِلْ خَذْلَكَ لِلنَّاسِ كِبَرًا عَلَيْهِمْ وَإِعْجَابًا وَاحْتِقَارًا لَهُمْ؛ قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢) وَجَمَاعَةٌ. وَعِبَارَةُ الْبُخَارِيِّ: وَلَا تُصَاغِرْ، أَي: لَا تَعْرِضْ، وَالتَّصَاغُرُ: الْإِعْزَاضُ بِالْوَجْهِ؛ انْتَهَى. وَالْمَرَحُ: النَّشَاطُ، وَالْمَشْيُ مَرَحًا: هُوَ فِي غَيْرِ شُغْلٍ، وَلِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَأَهْلُ هَذِهِ الْخُلُقِ مُلَازِمُونَ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ، فَالْمَرَحُ مُخْتَالٌ فِي مَشْيِهِ، وَقَدْ وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ وَعَيْدٌ شَدِيدٌ يَطُولُ بِنَا سَرْدُهُ.

(١) أخرجه الطبري (٢١٤/١٠) رقم (٢٨١٠٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥١/٤)، والسيوطي (٣٢٠/٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٢١٤-٢١٥) رقم (٢٨١٠٩)، (٢٨١١٠) بنحوه، وذكره البغوي (٤٩٢/٣)، وابن عطية (٣٥١/٤)، والسيوطي (٣٢٠/٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

قال عيَّاضٌ: كان أبو إسحاق الجبنياني قلَّ ما يترك ثلاثَ كَلِمَاتٍ؛ وفيهن الخيرُ كُلُّهُ: اتَّبِعْ وَلَا تَتَّبِعْ، اتَّضِعْ وَلَا تَزْتَفِعْ، مَنْ وَرَعَ لَا يَتَّسِعْ، انتهى. وغَضُّ الصوتِ أَوْقَرُ للمتكلم وأبْسَطُ لنفس السامع وفهِّمهُ، ثم عَارَضَ بمثلاً بصوت الحَمِيرِ على جهة التشبيه، أي: تلك هي التي بَعُدَتْ عن الغَضِّ فَبُهِتَ أَنْكَرُ الأصوات، فكَذَلِكَ ما بَعُدَ عن الغَضِّ من أصوات البشر؛ فهو في طريق تلك، وفي الحديث: «إِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الحَمِيرِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا».

وقال سفيانُ الثوري: صياح كل شيءٍ تسبيحٌ إلا صياحَ الحمير.

ت: ولفظ الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَّاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا»^(١)، رواه الجماعة إلا ابن ماجه. وفي لفظ النسائي: «إِذَا سَمِعْتُمْ الدِّيَكَةَ تَصِيحُ بِاللَّيْلِ»، وعن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ نَبَّاحَ الْكِلَابِ وَنَهْيَ الحَمِيرِ مِنَ اللَّيْلِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ فَإِنَّهَا تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَقْلَبُوا الخُرُوجَ إِذَا جَدَّتْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْثُ فِي لَيْلِهِ مِنْ خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ»^(٢). رواه أبو داود والنسائي والحاكم في «المستدرک». واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم؛ انتهى من «السلاح».

/ وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

٦٨ ب

قال المُحَاسِبِيُّ - رحمه الله - الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم العقبى. والظاهر عندي التعميم. ثم وقف تعالى الكفرة على اتِّبَاعِهِمْ دين آبائهم أَيْكونُ وهم بحالٍ من يصير

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣/٦) كتاب بدء الخلق: باب وبث فيها من كل دابة، حديث (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٠٩٢/٤) كتاب الذكر والدعاء: باب استحباب الدعاء عند صياح الديك، حديث (٢٧٢٩/٨٢)، وأبو داود (٧٤٨/٢) كتاب الأدب: باب ما جاء في الديك والبهايم، حديث (٥١٠٢)، والترمذي (٥٠٨/٥) كتاب الدعوات: باب ما يقول إذا سمع نهيق الحمار، حديث (٣٤٥٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٤٣، ٩٤٤)، وأحمد (٣٢١/٢)، وابن أبي شيبة (٤٢٠/١٠)، وابن حبان (٢٨٥/٣). (٢٨٦) رقم (١٠٠٥)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٦/٣). بتحقيقنا كلهم من طريق الأعرج عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٤٨، ٧٤٩) كتاب الأدب: باب نهيق الحمار ونباح الكلاب، حديث (٥١٠٣)، وأحمد (٣٠٦/٣)، والحاكم (٢٨٤/٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٣٤)، وأبو يعلى (٤/١٥٥) رقم (٢٢٢١)، وابن حبان (١٩٩٦-موارد)، وابن خزيمة (٢٥٥٩) من حديث جابر.

إلى عذاب السعير، فكأنَّ القاتل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير. فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف؛ كما كان اتساق الكلام فيه؛ فتأمله.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ معناه يُخْلِصُ وَيُوجِّهُ ويستسلم به، والوجه هنا: الجارحة، استعير للمقصد؛ لأنَّ القاصد إلى شيء فهو مستقبله بوجهه، فاستعير ذلك للمعاني، والمحسن: الذي جَمَعَ القول والعمل، وهو الذي شَرَحَهُ ﷺ حين سأله جبريل - عليه السلام - عن الإحسان. والمتاع القليل هنا هو العمر في الدنيا .. وقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ظهور الحجة.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّسٌ وَاحِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبِتُ اللَّهُ لِرَبِّكَ مِنْ مَّاءٍ لَيْتَمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُلُومٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْبَرْ فَعَنَّهُمْ مَّقْنَصُدٌ وَمَا يَحْمَدُ بِنَائِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾ الآية. روي عن ابن عباس: أن سبب نزولها أن اليهود قالت: يا محمد؛ كيف عَيَّنَّا بهذا القول ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراة تبييناً لكل شيء؟ فنزلت الآية^(١)، وقيل غير هذا.

قال ع^(٢): * وهذه الآية بخرُ نظر وفكرة، نَوَّرَ اللَّهُ قُلُوبَنَا بهداه.

(١) ذكره ابن عطية (٤/ ٣٥٣-٣٥٤)، وابن كثير (٣/ ٤٥١)، والسيوطي (٥/ ٣٢٢)، وعزاه لابن إسحاق،

وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/ ٣٥٤).

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسًا وَاحِدَةً﴾ أي: لأنه كله بـ «كن فيكون»، قاله مجاهد^(١).

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يريد: القيامة.

وقوله: ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات، فالباء: للإلحاق، ويحتمل أن يريد بالريح وتسخير الله البحر ونحو هذا، فالباء بـ السبب. وذكر تعالى من صفات المؤمن الصَّبَّارَ والشَّكُورَ؛ لأنهما عَظُمَ أخلاقه، الصبر على الطاعات وعلى النوائب، وعن الشهوات، والشكر على الضراء والسراء. وقال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصفه الآخر، واليقين الإيمان^(٢) كله. و«عَشي» غطى أو قارب، والظَّلَل: السحاب.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾.

قال الحسن: منهم مؤمن^(٣) يعرف حق الله في هذه النعم، والختار القبيح^(٤) العذر، وذلك أن من الله على العباد كأنها عهود ومن يلزم عنها أداء شكرها، والعبادة لمسيديها، فمن كفر ذلك وجحد به، فكأنه ختر وخان، قال الحسن: الختار هو الغدار^(٥). و﴿كفور﴾: بناء مبالغة.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ...﴾ الآية يَجْزِي مَعْنَاهُ يَقْضِي، والمعنى: لا ينفعه بشيء، وقرأ الجمهور: «الغُرور»^(٦): - بفتح

(١) أخرجه الطبري (٢٢٢/١٠) رقم (٢٨١٥١)، وذكره السيوطي (٣٢٤/٥)، وعزه لابن أبي شيبة، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٣/١٠) رقم (٢٨١٥٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥٥/٤).

(٣) في ج: من.

(٤) ذكره ابن عطية (٣٥٥/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٢٢٤-٢٢٥) رقم (٢٨١٦٢)، وذكره ابن عطية (٣٥٦/٤).

(٦) ينظر: «البحر المحيط» (١٨٩/٧)، و«الدر المصون» (٣٩٢/٥).

الْعَيْنِ - وهو الشيطان؛ قاله مجاهد^(١) وغيره، واعلم أيها الأخ أن مَنْ فهِمَ كَلَامَ رَبِّهِ وَزَوَّقَ التَّوْفِيقَ لَمْ يَنْخُدْ بِغُرُورِ الدُّنْيَا وَزَحْرَفِهَا الْفَانِي؛ بَلْ يَصْرِفُ هِمَّتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَى التَّزَوُّدِ لِآخِرَتِهِ؛ سَاعِيًا فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ، وَأَنْ مَنْ يَقْنَأَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَطْلُبُهُ صَدَقَ الطَّلَبُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهِ. وَإِنَّهُ لَا بَدَ لِبِنَاءِ هَذَا الْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ وَأَنْ تَسْلُبَ كِرَائِمُهُ، فَالْعَاقِلُ؛ مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَى أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَى، قَدْ أَشْرَقَ نُورُهُ وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ، فَصَدَفَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ مُغْضِيًا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مَوْلِيًا، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطَنًا، وَلَا جَعَلَهَا / ١٦٩ سَكَنًا؛ بَلْ أَنْهَضَ الْهَمَّةَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِينًا بِهِ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لَا يَقِرُّ قَرَارُهَا. دَائِمًا تَسْيَارُهَا، إِلَى أَنْ أَخَذَتْ بِحَضْرَةِ الْقُدُسِ، وَبَسَاطِ الْأَنْسِ، أَنْتَهَى.

وَرَوَيْنَا فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَى أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٍ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلَاةِ، أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ؛ لَا يَسْأَرُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا؛ فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ نَفَضَ بِيَدِهِ فَقَالَ: عُجِّلْتَ مَنِيَّتُهُ، قُلْتَ نَوَائِحُهُ؛ قُلْ تَرَاتُّهُ»، قَالَ أَبُو عِيْسَى: وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءً^(٢) مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا، يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبِعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، أَوْ قَالَ: ثَلَاثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَإِذَا جُعْتُ، تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»^(٣). قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، أَنْتَهَى. وَالْغُرُورُ: التَّطْمِيعُ بِمَا لَا يَحْصُلُ. وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنْ تَعْمَلَ الْمَعْصِيَةَ وَتَتَمَتَّى بِالْمَغْفِرَةِ^(٤)، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: عَنْهُ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ مِنَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ وَتِلَا الْآيَةِ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَنْزِلُ الْغَيْثُ...» إِلَى آخِرِهَا»^(٥). قَالَ أَبُو حَيَّانَ: «بَأَيَّ أَرْضٍ»: - الْبَاءُ ظَرْفِيَّةٌ وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ نَضْبٍ - ب «تَذَرِي» . أَنْتَهَى.

(١) أخرجه الطبري (٢٢٥/١٠) رقم (٢٨١٦٩)، وذكره ابن عطية (٣٥٦/٤)، وابن كثير (٤٥٣/٣).

(٢) هو مَسِيلٌ وادِيهَا. ينظر: «النهاية» (١٣٤/١).

(٣) أخرجه الترمذي (٥٧٥/٤) كتاب الزهد: باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) أخرجه الطبري (٢٢٦/١٠) رقم (٢٨١٧٢)، وذكره البغوي (٤٩٦/٣)، وابن عطية (٣٥٦/٤)،

والسيوطي (٣٢٥/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن جبيرة.

(٥) تقدم تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ السَّجْدَةِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ غَيْرُ ثَلَاثِ آيَاتٍ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ

وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ إلى تمام ثلاث آيات.

﴿الْعَلَمُ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفَرَّغَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِنَذِيرٍ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا سَفِيحٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

قال جابر: ما كان رسول الله ﷺ ينام حتى يقرأ: ﴿الْم﴾ السجدة، و﴿تبارك الذي بيده الملك﴾. و﴿تنزيل﴾ يصح أن يرتفع بالابتداء، والخبر: ﴿لا ريب﴾، ويصح أن يرتفع على أنه خبر مبتدئ محذوف، أي: ذلك تنزيل، والريب: الشك، وكذلك هو في كل القرآن إلا قوله ﴿ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠].

وقوله: ﴿أم يقولون﴾ إضراب؛ كأنه قال: بل يقولون: ثم رد على مقاتلهم وأخبر أنه الحق من عند الله.

وقوله سبحانه: ﴿ما آتاهم﴾ أي: لم يباشرهم ولا رأوه هم ولا آباؤهم العرب.

وقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] يعم من بوشر من النذر ومن سمع به، فالعرب من الأمم التي خلت فيها النذر على هذا الوجه، لأنها علمت بإبراهيم وبنيه، وبدعوتهم، ولم يأتهم نذير مباشر لهم سوى محمد ﷺ.

وقال ابن عباس ومقاتل^(١): المعنى: لم يأتهم نذير في الفترة بين عيسى ونبينا محمد ﷺ.

(١) ذكره البغوي (٣/٤٩٧)، وابن عطية (٤/٣٥٧).

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥) ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ الآية، الأمر اسم جنس لجميع الأمور، والمعنى يُنْقِذُ سُجْحَانَهُ قَضَاءَهُ بِجَمِيعِ مَا يَشَاءُ، ثم يعرج إليه خبرُ ذلك في يوم من أيام الدنيا؛ مقداره أن لو سِيرَ فِيهِ السَّيْرَ المعروف من البشر ألف سنة، أي: نزولاً وعروجاً لأن ما بين السماء والأرض خمس مائة سنة، هذا قول ابن عباس^(١) ومجاهد^(٢) وغيرهما.

وقيل: المعنى: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض في مدة الدنيا، ثم يعرج إليه يوم القيامة، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من عَدْنَا، وهو على الكفار قَدْرُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. وقيل: غَيْرَ هذا، وقرأ الجمهور / : «الذي أحسن كل شيء خلقه»: - بفتح اللام - ٦٩ ب على أنه فعلٌ ماضٍ، ومعنى: «أحسن»: أَتَقَرَّنَ وَأَحْكَمَ فهو حَسَنٌ من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «خَلَقَهُ»^(٣) - بسكون اللام -.. وذهب بعض الناس على هذه القراءة إلى أن: «أحسن» هنا معناه: أَلْهَمَ، وأن هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: الآية ٥٠]. أي: أَلْهَمَ. والإنسان هنا آدم - عليه السلام -، وَالْمَهِينُ: الضعيف، ﴿ونفخ﴾: عبارة عن إفاضة الروح في جسد آدم عليه السلام والضمير في ﴿روحه﴾ لله تعالى، وهي إضافة مُلْكٍ إِلَى مَالِكٍ وَخَلْقٍ إِلَى خَالِقٍ، وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْمَ جَنْسٍ وَ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (١٠) ﴿يَتَوَفَّنَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرِمُونَ نَاكِسُوا

- (١) أخرجه الطبري (٢٣١/١٠) رقم (٢٨١٩١)، وذكره ابن عطية (٣٥٨/٤)، والسيوطي (٣٣١/٥)، بنحوه وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.
- (٢) أخرجه الطبري (٣٣٠/١٠) رقم (٢٨١٨٧)، وذكره البغوي (٤٩٧-٤٩٨) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٥٨)، وابن كثير (٤٥٧/٣)، والسيوطي (٣٣١/٥)، وعزاه لابن جرير عن مجاهد.
- (٣) ينظر: «السبعة» (٥١٦)، و«الحجة» (٤٦٠/٥)، و«معاني القراءات» (٢٧٣/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/١٤٠)، و«العنوان» (١٥٣)، و«شرح شُعَلَة» (٥٤٣)، و«إتحاف» (٣٦٦/٢)، و«حجة القراءات» (٥٦٧).

رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَنَحْنُ عَلَى الْقَوْلِ مَنِيّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وقالوا أءذا ضللنا في الأرض﴾ أي: تَلَفْنَا وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالُنَا، فذهبنا في التراب حَتَّى لَمْ نُوجَدْ؛ ﴿إِنَّا لفي خلق جديد﴾ أي: أَنُحْلِقَ بَعْدَ ذَلِكَ خَلْقًا جَدِيدًا؛ إنكاراً منهم للبعث واستبعاداً له، و﴿يتوفاكم﴾ معناه يَسْتَوْفِيكُمْ؛ رُوي عَنْ مجاهد: أن الدنيا بَيْنَ يَدَيِ مَلَكِ الْمَوْتِ كَالطُّسْتِ بَيْنَ يَدَيِ الْإِنْسَانِ يَأْخُذُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَ^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾ الآية تَغْجِيبُ لِمَحْمَدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمْتِهِ مِنْ حَالِ الْكُفْرَةِ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ، وَجَوَابُ ﴿لو﴾ محذوف؛ لِأَنَّ حَذْفَهُ أَهْوَلُ فِي النَفُوسِ، وَتَنَكُّيسُ رُءُوسِهِمْ هُوَ مِنَ الذِّلِّ وَالْيَأْسِ وَالْهَمِّ بِحُلُولِ الْعَذَابِ. وَقَوْلُهُمْ ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: مَا كُنَّا نُخْبِرُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ طَلَبُوا الرَّجْعَةَ حِينَ لَا يَنْفَعُ ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهْدَى النَّاسَ أَجْمَعِينَ؛ بَأَن يَلْطَفَ بِهِمْ لُطْفًا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَخْتَرِعَ الْإِيمَانَ فِي نَفُوسِهِمْ، هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَ﴿الْجِنَّة﴾: الشَّيَاطِينُ، وَ﴿نَسِيتُمْ﴾ معناه: تَرَكْتُمْ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢) وَغَيْرُهُ.

وقوله: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ سَمَّى الْعُقُوبَةَ بِاسْمِ الذَّنْبِ. ثُمَّ أَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ، وَوَصَفَهُمْ بِالصِّفَةِ الْحُسْنَى مِنْ سَجُودِهِمْ عِنْدَ التَّذْكِيرِ، وَتَسْبِيحِهِمْ وَعَدَمِ اسْتِكْبَارِهِمْ.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوءِ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾ .

(١) أخرجه الطبري (٢٣٦/١٠) رقم (٢٨٢١٦)، وذكره البغوي (٤٩٩/٣)، وابن عطية (٣٦٠/٤)، وابن كثير (٤٥٨/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٧/١٠) رقم (٢٨٢٢١)، وذكره ابن عطية (٣٦١/٤).

وقوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾ الآية، تَجَافَى الجنبُ عن موضِعِهِ إذا تَرَكَه، قال الزجاج وغيره: التَّجَافَى التَّنَحَّى إلى فوق.

قال *ع^(١): ﴿وهذا قول حسن، والجنوبُ جَمْعُ جَنْبٍ، والمضاجِعُ مَوْضِعُ الاضطجاع للنوم.

ت: وقال الهَرَوِيُّ: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع وتتباعَدُ، والجَفَاءُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ التَّبَاعُدُ، انتهى. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: [الطويل]

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَثْلُو كِتَابَهُ إِذَا أَسْتَقَى مَعْرُوفٍ مِنَ الْقَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَسِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا أَسْتَقَلْتُ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ
انتهى. وجمهور المفسرين: على أن المراد بهذا التجافي صلاةُ النوافل بالليل.

قال *ع^(٢): ﴿وعلى هذا التأويل أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح وفيه أحاديث عن النبي ﷺ يذكر عليه السلام قيام الليل؛ ثم يستشهد بالآية؛ ففي حديث معاذٍ «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ / ، حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾» رَوَاهُ ١٧. الترمذي^(٣)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وَرَجَّحَ الزَّجَّاجُ^(٤) ما قاله الجمهور بأنهم: جُوزُوا بِإِخْفَاءٍ، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ إِخْفَاءٌ أَيْضاً، وَهُوَ قِيَامُ اللَّيْلِ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ أَي: مِنْ عَذَابِهِ ﴿وَطُمَعًا﴾، أَي: فِي ثَوَابِهِ.

(١) ينظر: «المحرر» (٤/٣٦٢).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٣٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ١١-١٢) كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥) كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٣)، والنسائي في «التفسير» (٤١٤)، وأحمد (٥/٢٣١)، والحاكم (٢/٧٦، ٤١٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٣٠-١٣١) رقم (٢٦٦) من طرق عن ابن مسعود.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٣٧)، وزاد نسبه إلى ابن نصر في «كتاب الصلاة»، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/٢٠٧).

قال *ص*: ﴿تتجافى﴾ أعربه أبو البقاء: حالاً، و﴿يدعون﴾: حال أو مُستأنف و﴿خوفاً وطمعاً﴾: مفعولان من أجله أو مصدران في موضع الحال؛ انتهى. وفي «الترمذي» عن معاذ بن جبل قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ؛ تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يعملون﴾. ثم قال: أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَكَلُمُ بِهِ؟ فَقَالَ: تُكَلِّتُكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»^(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح. انتهى.

وقرأ حمزة وحده^(٢): «أُخْفِي» - يسكون الياء كأنه قال: أُخْفِي أَنَا. وقرأ الجمهور «أُخْفِي» - بفتح الياء -، وفي معنى هذه الآية قال ﷺ: «قال الله - عز وجل -: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ دُخْرًا بَلَّهَ مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ، وَأَقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ الآية» انتهى.

قال القرطبي في «تذكرته»^(٣): «وبلَّه» معناه: غَيَّرَ، وقيل: هو اسم فعل بمعنى دَغَ، وهذا الحديث خَرَّجَهُ البخاري، وغيره^(٤).

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) ينظر: «السبعة» (٥١٦)، و«الحجة» (٤٦٣/٥)، و«معاني القراءات» (٢٧٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/١٤٠)، و«العنوان» (١٥٣)، و«حجة القراءات» (٥٦٩)، و«شرح شعلة» (٥٤٣)، و«إتحاف» (٢/٣٦٧).

(٣) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢/٥٩٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥/٨) كتاب التفسير: باب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ حديث (٤٧٧٩)، ومسلم (٢١٧٤/٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث (٢٨٢٤/٢)، والترمذي (٥/٣٤٦-٣٤٧) كتاب التفسير: باب «ومن سورة السجدة»، حديث (٣١٩٧)، والطبري في «تفسيره» (١٠/٢٤٣) رقم (٢٨٢٥٣، ٢٨٢٥٤)، وأحمد (٢/٣١٣)، والحميدي (٢/٤٨٠)، وهناد في «الزهد» رقم (١، ٢) من حديث أبي هريرة.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٣٩)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن الأنباري.

ت*: وفي رواية للبخاري: قال أبو هريرة: «أَقْرَؤُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ...﴾»^(١) الآية. انتهى.

وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوب «عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(٢)، وباقي الآية بَيِّن؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقْنَهُمْ﴾ لكفار قريش، ولا خلاف أن العذاب الأكبر هو عذاب الآخرة، واختلف في تعيين العذاب الأذنى؛ فقيل هو السنون التي أجاعهم الله فيها، وقيل هو مصائب الدنيا من الأمراض؛ ونحوها، وقيل هو القتل بالسيف كَبَدْرٍ وغيرها.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ ظاهر الإجماع هنا أنه الكفر، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ: أنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ، فَقَدْ أَجْرَمَ: مَنْ عَقَدَ لَوَاءً فِي غَيْرِ حَقٍّ، وَمَنْ عَتَى وَالِدَيْهِ، وَمَنْ نَصَرَ ظَالِمًا»^(٣).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ يَا مَرْيَمُ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ اختلّف في الضمير الذي في ﴿لِقَائِهِ﴾ على من يعود؟ فقال قتادة وغيره: يعود على موسى، والمعنى: فلا تكن يا محمد، في شك من أنك تلقى موسى، أي: في ليلة الإسراء، وهذا قول جماعة من السلف، وقالت فرقة: الضمير: عائد على الكتاب، أي: فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب.

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٢/١٠) رقم (٢٨٢٤٧)، وذكره ابن عطية (٢٦٣/٤)، والسيوطي (٣٣٩/٥)، وعزاه للفريايبي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٩/١٠) رقم (٢٨٢٩٨)، والطبراني في «الكبير» (٦١/٢٠) رقم (١١٢) كلاهما من طريق عبد العزيز بن عبيد الله عن عباد بن نسي عن جندة بن أبي أمية عن معاذ بن جبل مرفوعاً. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٣/٧) وقال: وفيه عبد العزيز بن عبيد الله بن حمزة، وهو ضعيف.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٢/٥)، وزاد نسبه إلى ابن منيع، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وضعف السيوطي سنده.

٧٠ ب

ص: وقيل: يعود على الكتاب / على تقدير مُضْمَرٍ، أي: من لقاء مثله، أي: آتيناك مثل ما آتينا موسى، والتأويل الأول هو الظاهر، انتهى. والمِرْيَةُ: الشُّكُّ، والضميرُ في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ يعودَ على الكتابِ أو على موسى؛ قاله قتادة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ...﴾ الآية، حُكْمُ يَغْمُ جميعَ الخلق، وذهب بعضهم إلى تخصيص الضمير وذلك ضعيف.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ فَجَعَلْنَاهُمْ زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَهْدِ﴾ معناه يُبَيِّنُ؛ قاله ابن عباس، والفاعل بـ ﴿يَهْدِ﴾ هو الله؛ في قول فرقة، والرسول في قول فرقة، وقرأ أبو عبد الرحمن^(١): «نهد» - بالنون - وهي قراءة الحسن وقاتدة، فالفاعل الله تعالى، والضمير في «يمشون» يُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ للمخاطبين أو للمُهْلَكِينَ، و﴿الجزز﴾: الأرض العاطشة التي قد أكلت نباتها من العطش والقيظ؛ ومنه قيل للأكل جُرُوزٌ. وقال ابن عباس^(٢) وغيره: ﴿الأرض الجزز﴾: أرض أبين من اليمن وهي أرض تشرب بسيول لا بِمَطَرٍ، وفي «البخاري»: وقال ابن عباس: ﴿الجزز﴾: التي لم تُمَطَّرْ إِلَّا مَطَرًا لَا يُغْنِي عنها^(٣) شَيْئًا. انتهى.

ثم حكى سبحانه عن الكفرة أنهم يَسْتَفْتِحُونَ؛ ويستعجلون فَضْلَ الْقَضَاءِ بينهم وبين الرُّسُلِ على معنى الهُزْءِ والتكذيب، و﴿الفتح﴾: الْحُكْمُ، هذا قول جماعة من المفسرين، وهو أقوى الأقوال.

(١) وقد قرأ بها علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما.

ينظر: «مختصر شواذ» ابن خالويه ص ١١٩، و«المحور الوجيز» (٤/٣٦٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/٢٥٢) رقم (٢٨٣٠٥) بنحوه، وذكره البغوي بلفظ «هي أرض باليمن»، وابن عطية (٤/٣٦٦)، وابن كثير (٣/٤٦٤)، والسيوطي (٥/٣٤٣-٣٤٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/٢٥٢) رقم (٢٨٣٠٩)، وذكره ابن كثير (٣/٤٦٤)، والسيوطي (٥/٣٤٣)، وعزاه للفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

قال مجاهد و﴿الفتح﴾ هنا هو حُكْم الآخرة. ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالإعراض عن الكفرة وانتظار الفرج، وهذا مما نَسَخَتْه آية السَّيْف. وقوله: ﴿إنهم منتظرون﴾ أي: العذاب بمعنى هذا حُكْمُهُمْ وإن كانوا لا يَشْعُرُونَ.

تَفْسِيرُ «سُورَةِ الْأَخْزَابِ»

وَهِيَ مَدِينَةٌ بِإِجْمَاعٍ فِيمَا عَلِمْتُ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَاتَّبِعُوا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ (٤) أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ (٥)﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ...﴾ الآية. قوله: ﴿اتَّقِ﴾ معناه: دُم على التقوى، ومتى أمر أحد بشيء وهو به مُتَلَبِّسٌ؛ فإنما معناه الدوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية. وحذره تعالى من طاعة الكافرين والمنافقين تنبيهاً على عداوتهم، وألاً يَظْمِنَنَّ إلى ما يُبْدُوهُ من نَصَائِحِهِمْ. والباء في قوله: ﴿وكفى بالله﴾ زائدة على مذهب سيبويه، وكأنه قال وكفى الله، وغيره يَرَاهَا غَيْرَ زائدة متعلقة بـ «كفى» على أنه بمعنى: اكتف بالله. واختلف في السبب في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ فقال ابن عباس^(١): سببها أن بعض المنافقين قال: إن محمداً له قلبان، وقيل غير هذا.

قال *ع^(٢): ويظهر من الآية بِجُمْلَتِهَا أَنَّهَا نَفْيٌ لِأَشْيَاءَ كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْتَقِدُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وإعلام بحقيقة الأمر، فمنها أن العرب كانت تقول: إن الإنسان له قلبٌ يأمره، وقلب ينهيه، وكان تضادُّ الخواطر يحملها على ذلك، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظاهر منها بمنزلة الأم، وتراه طلاقاً، وكانت تعتقد الدَّعِيَّ الْمُتَبَنَّى ابناً، فَتَنَى اللَّهُ مَا اعتقدوه من ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وما جعل أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ سببها أمرُ زيد بن حارثة كانوا يَدْعُوْنَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، و﴿السَّبِيلُ﴾ هنا سبيلُ الشرع والإيمان. ثم أمر تعالى في هذه الآية بدعاء

(١) أخرجه الطبري (٢٥٥/١٠) رقم (٢٨٣١٨)، وذكره ابن عطية (٣٦٧-٣٦٨)، وابن كثير (٤٦٦/٣)، والسيوطي (٣٤٧/٥)، وعزاه لأحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والضياء عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٦٨/٤).

الأدعياء لأبائهم، أي: إلى آبائهم للصلب، فمن جهل ذلك فيه؛ كان مولى وأخاً في الدين، فقال الناس: زيد بن حارثة وسالم مولى أبي حذيفة، إلى غير ذلك و﴿أقسط﴾: معناه: أعدل.

وقوله عز وجل: ﴿وليس عليكم جناح...﴾ الآية: رَفَعَ الحرجَ عَمَّنْ وَهَمَ ونَسِيَ وأخطأ، فَجَرَى على العادة من نسبة زيد إلى محمد، وغير ذلك: مما يشبهه، وأبقى الجناح في الْمُتَعَمِّدِ، والخطأ مرفوعٌ عَنْ هذه الأمة عقابه؛ قال ﷺ: «وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١). وقال - عليه السلام -: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْخَطَأَ وَإِنَّمَا أَخْشَى الْعَمْدَ»^(٢).

قال السُّهَيْلِيُّ: وَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ وَامْتَثَلَهَا زَيْدٌ فَقَالَ: أَنَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ؛ جَبَرَ اللَّهُ وَخَشَتَهُ وَشَرَّفَهُ بِأَنْ سَمَّاهُ بِاسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ [الأحزاب: ٣٧] وَمَنْ ذَكَرَهُ سَبَّحَانَهُ بِاسْمِهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، حَتَّى صَارَ اسْمُهُ قِرَاءَانًا يُتْلَى فِي الْمَحَارِبِ، فَقَدْ نَوَّهَ بِهِ غَايَةَ التَّنْوِيهِ، فَكَانَ فِي هَذَا تَأْنِيْسٌ لَهُ وَعِوَضٌ مِنَ الْفَخْرِ بِأَبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لَهُ؛ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ حِينَ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ سُورَةَ كَذَا، فَبَكَى أَبِي وَقَالَ: أَوْ ذُكِرْتُ هُنَالِكَ»^(٣)، وَكَانَ بَكَؤُهُ مِنَ الْفَرْحِ حِينَ أُخْبِرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ؛ فَكَيْفَ بَمَنْ صَارَ اسْمُهُ قِرَاءَانًا يُتْلَى مَخْلُداً لَا يَبِيدُ، يَتْلُوهُ أَهْلُ الدُّنْيَا إِذَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ كَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ زَادَهُ فِي الْآيَةِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ أَنْ قَالَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يَعْنِي بِالْإِيمَانِ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ أُخْرَى هِيَ غَايَةُ مَتَهَيِّ أَمْنِيَةِ الْإِنْسَانِ، انْتَهَى.

١٧١

﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٨/٢)، والحاكم (٥٣٤/٢)، وابن حبان (٢٤٧٩- موارد) من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي وصححه ابن حبان.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٢٤/٣)، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٨/٧) كتاب مناقب الأنصار: باب مناقب أبي بن كعب، حديث (٣٨٠٩)، وفي

(٥٩٧/٨) كتاب التفسير: باب سورة (لم يكن)، حديث (٤٩٥٩، ٤٩٦٠، ٤٩٦١)، ومسلم (٤/

١٩١٤)، كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بن كعب، حديث (٧٩٩/١٢٢) من حديث

أنس.

كَتَبَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ .

وقوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أزال الله بهذه الآية أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها أن النبي ﷺ كان لا يصلي على ميت عليه دين، فذكر الله تعالى؛ أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فجمع هذا أن المؤمن يلزم أن يحب النبي ﷺ أكثر من نفسه، حسب حديث عمر بن الخطاب، ويلزم أن يمثّل أوامره، أحبّ نفسه ذلك أو كرهه، وقال النبي ﷺ حين نزلت هذه الآية: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من ترك مالا فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ، أنا وليّه، أفرّوا إن شئتم: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...﴾» .

ت: ولفظ البخاري من رواية أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، أفرّوا إن شئتم: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾»، قائماً مؤمن ترك مالا فلورثته عصبت من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فلأنتني فأنا مولا»^(١). قال ابن العربي: في «أحكامه»^(٢): فهذا الحديث هو تفسير الولاية في هذه الآية. انتهى.

قال *ع*^(٣): وقال بعض العارفين: هو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

قال *ع*^(٤): ويؤيد هذا قوله ﷺ: «فأنا أخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحمون فيها تقحم الفرائس».

قال عياض في «الشفاء»: قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أي: ما أنفذه فيهم من أمر؛ فهو ماضٍ عليهم؛ كما يمضي حكم السيد على عبده، وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس. انتهى، وشرّف تعالى أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين في المبرّة وحرمّة النكاح، وفي مصحف أبي بن كعب^(٥):

(١) أخرجه البخاري (٦١/٥)، كتاب الاستقراض: باب الصلاة على من ترك ديناً (٢٣٩٩)، وأخرجه مسلم

(٣/١٢٣٧)، كتاب الفرائض: باب «من ترك مالا فلورثته» الحديث (١٥/١٦١٩).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٥٠٨).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٣٧٠).

(٤) ينظر: «المحرر» (٤/٣٧٠).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٣٧٠)، و«البحر المحيط» (٧/٢٠٨).

«وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» وقرأ ابن عباس^(١) «مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» ووافقه أبي^{٧١} ب على ذلك. ثم حكم تعالى: بَأَن أُولَى الْأَزْوَاجِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي التَّوَارِثِ، مما كانت الشريعة قررتها من التوارث بأخوة الإسلام، وفي كتاب الله ﴿يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ الْقُرْآنُ أَوْ اللُّوْحَ الْمَحْفُوظَ.

وقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أُولَى﴾ الثانية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ يريدُ الأحسانَ في الحياةِ والصَّلَةِ والوَصِيَّةِ عند الموتِ و«الكتابُ المسطورُ»: يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾ لَيْسَتْ أَلْصَدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ المعنى واذكر إذ أخذنا من النبيين، وهذا الميثاق:

قال الزجاج^(٢) وغيره: إنه الذي أخذ عليهم وَقْتُ استخراجِ الْبَشَرِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كَالذَّرِّ، بالتبليغِ وبجميعِ مَا تَضَمَّنَتْهُ النَّبُوءَةُ. وروي نحوه عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ^(٣).

وقالت فرقة: بل أشار إلى أخذ الميثاقِ عليهم وَقْتُ بَعْثِهِمْ وَإِقَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، وذكر تعالى النبيينَ جملةً، ثم خَصَّصَ أُولَى الْعَزْمِ مِنْهُمْ تَشْرِيفًا لَهُمْ، واللام في قوله ﴿لِيَسْأَلَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لَامٌ كِي، أَوْ لَامٌ الصَّيْرُورَةِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ١٥﴾ هَٰذَا الَّذِي آتَيْنَاكَ الْيَقِينَ وَالْمُؤْمِنُونَ زُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا ١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٨] نزلت في شأن غزوة

(١) ونسبها الزمخشري في «الكشاف» (٥٢٣/٣) إلى ابن مسعود. وينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٠/٤)، و«البحر المحيط» (٢٠٨/٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢١٦/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧١/٤)، وابن كثير (٤٦٩/٣) بنحوه.

الخندي، وما اتَّصَلَ بها مِنْ أَمْرِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وذلك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ مِنْ مَوْضِعِهِمْ عِنْدَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرٍ، فَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ، وَخَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ مُسْتَنْهَضِينَ قُرَيْشًا إِلَى حَزْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَسَرُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَازَمَعَتْ^(١) قُرَيْشَ السَّيْرِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَنَهَضَ الْيَهُودُ إِلَى غَطَفَانَ، وَبَنِي أَسَدٍ، وَمَنْ أَمَكْتَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ وَتِهَامَةٍ، فَاسْتَنْفَرُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَتَحَرَّبُوا وَسَارُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاتَّصَلَ خَبَرُهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَحَفَرَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَحَصَّنَهَا، فَوَرَدَتِ الْأَحْزَابُ، وَحَصَرُوا الْمَدِينَةَ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ خَمْسٍ، وَقِيلَ: أَرْبَعٌ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَكَانَتْ قَرِيزَةُ قَدْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَاقَدُوهُ أَلَّا يَلْحَقَهُ مِنْهُمْ ضَرَرٌ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ ذَلِكَ الْحِصَارُ، وَدَاخَلَهُمْ بَنُو النَّضِيرِ عَدَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَقَضُوا عَهْدَهُ، وَضَاقَ الْحَالُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَنَجَّمَ النِّفَاقُ وَسَاءَتْ طُنُونُ قَوْمٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ ذَلِكَ يُبَشِّرُ وَيَعِدُّ النَّصْرَ، فَالْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وَتَخَاذَلُوا وَيَسُّوا مِنَ الظُّفْرِ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا وَهِيَ الصَّبَا، وَمَلَأَتْهُ / تُسَدُّ الرِّيْحَ، وَتَفْعَلُ نَحْوَ فَعْلِهَا، وَتُلْقِي الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ الْكُفَرَةِ، وَهِيَ الْجَنُودُ الَّتِي لَمْ تَرَ، فَارْتَحَلَ الْكُفْرَةُ وَانْقَلَبُوا خَائِبِينَ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يريد: أهل نَجْدٍ مَعَ عَيْيَنَةَ بْنِ حِصْنٍ ﴿وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ﴾: يريد أهل مَكَّةَ وَسَائِرَ تِهَامَةٍ قَالَه مُجَاهِدٌ^(٢). ﴿وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ معناه مَالَتْ عَنْ مَوَاضِعِهَا وَذَلِكَ فِعْلُ الْوَالِهِ الْفَرْعِ الْمُخْتَلِلِ. ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ عبارة عَمَّا يَجِدُهُ الْهَلُوعُ مِنْ تَوَرَّانِ نَفْسِهِ وَتَفَرُّقِهَا وَبِجْدِ كَأَنَّ حُشَوَتَهُ وَقَلْبَهُ يَصْعَدُ غُلُوءًا، وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؛ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قُولُوا: «اللَّهُمَّ، اسْتَرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا» فَقَالُواهَا؛ فَضَرَبَ اللَّهُ وُجُوهَ الْكُفَّارِ بِالرِّيْحِ فَهَزَمَهُمْ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَتَتَنَبَّهُونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا...﴾ الآية: عبارة عن خَوَاطِرِ خَطَرَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا يُمْكِنُ الْبُشْرَ دَفْعَهَا، وَأَمَّا الْمَنَافِقُونَ فَتَطَقُّوا، وَنَجَّمَ نِفَاقَهُمْ. ﴿وَابْتُلِيَ

(١) الزَّمْعُ: الْمَضَاءُ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزْمُ عَلَيْهِ. وَأَزَمَعَ الْأَمْرُ، وَبِهِ، وَعَلَيْهِ: مَضَى فِيهِ، فَهُوَ مُزْمَعٌ. ينظر: «اللسان العرب» ١٨٦٢.

(٢) أخرجه الطبري (٢٦٥/١٠) رقم (٢٨٣٦٧)، وذكره ابن عطية (٣٧٢/٤)، والسيوطي (٣٥٧/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه أحمد (٣/٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٦٣/١٠) رقم (٢٨٣٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٥/٥)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

المؤمنون ﴿معناه: اِخْتَبِرُوا﴾ وزلزلوا ﴿معناه: حُرِّكُوا بعنف﴾. ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب؛ على جهة الذم لهم ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ فَرُوي عَنْ يزيد بن رومان أن مُعَتَّب بن قُشَيْر قال: يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ أَنْ نَفْتَحَ كنوز كِسْرَى وقصر ومكة؛ ونحن الآن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط؛ ما يعدنا إلا غروراً، وقال غيره من المنافقين نحو هذا.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبْأَهْلَ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ أَلَدْبَارًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعْدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْصِقِينَ مَصْرَهمْ وَالْقَالِيلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا موضع قيام وممانعة، فازجعوا إلى منازلكم وبيوتكم، وكان هذا على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ، والفريق المستأذن هو أوس بن قيطي؛ استأذن في ذلك على اتفاق من أصحابه المنافقين؛ فقال: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: من نواحيها، واشتد الخوف الحقيقي، ثم سئلوا الفتنة والحرب لمحمد ﷺ وأصحابه لبادروا إليها وآتوها محبين فيها ولم يتلَبَّثُوا في بيوتهم لحفظها إلا يسيراً، قيل: قَدَّرَ ما يأخذون سلاحهم.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم قد كانوا عاهدوا الله إثر أحدٍ لا يُؤَلَّفُونَ الأَذْبَارَ وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ تَوَعَّدُ وباقي الآية بَيِّن. ثم وَبَّخَهُمْ بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْصِقِينَ مِنْكُمْ﴾ وهم الذين يُعَوِّفُونَ النَّاسَ عَنْ نُصْرَةِ الرُّسُولِ ويمنعونهم بالأقوال والأفعال من ذلك وَيَسْعَوْنَ عَلَى الدِّينِ، وأما القائلون لإخوانهم هَلْمْ إِلَيْنَا فقال ابن زيد وغيره: أراد

من كان من المنافقين يقول لإخوانه في النَّسَب وَقَرَابَتِهِ هَلُمَّ، أي: إلى المنازل والأكل والشرب، واترك القتال^(١). وَرُوي: أَنَّ جماعةً منهم فَعَلَتْ ذلك وأَصْلُ ﴿هَلُمَّ﴾: ها المم. وهذا مِثْلُ تعليل «رَدَّ» من «ازْدَدَ» والبأسُ: القتالُ و﴿إلا قليلاً﴾ معناه إلا إتياناً قليلاً، و﴿أشحة﴾ جمع شَحِيحٍ والصَّوَابُ تَغْيِيمُ الشَّحِّ أَنْ يكون بِكُلِّ ما فيه للمؤمنين منفعة.

وقوله: ﴿فإذا جاء الخوف﴾ قيل: معناه: فإذا قوي الخوف رأيت هؤلاء المنافقين ينظرون إليك / نَظَرَ الهَلِيعِ الْمُخْتَلِطِ؛ الذي يُغْشَى عليه، فإذا ذهب ذلك الخوف العظيم وَتَنَفَّسَ الْمُخْتَبِثُ: ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ أي: خاطبوكم مخاطبةً بليغة، يقال: خطيب سَلَأَقٌ ومِسْلَأَقٌ ومِسْلَقٌ وَلِسَانٌ أيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدراً ووصف الألسنة بالحدة لِقَطْعِهَا المعاني ونفوذها في الأقوال، قالت فرقة: وهذا السَّلَقُ هو في مخادعة المؤمنين بما يُرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة.

وقوله: ﴿أشحة﴾ حال من الضمير في ﴿سَلَقُوكُمْ﴾.

وقوله: ﴿على الخير﴾ يدل على عموم الشح في قوله أولاً: ﴿أشحة عليكم﴾ وقيل: المراد بالخير: المال، أي: أشحة على مال الغنائم، والله أعلم. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لم يؤمنوا، وجمهور المفسرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان، ويكون قوله: ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي: أنها لم تُقْبَل قط، والإشارة بذلك في قوله ﴿وكان ذلك﴾ إلى حبط أعمال هؤلاء المنافقين، والضمير في قوله: ﴿يحسبون الأحزاب﴾ للمنافقين، والمعنى: أنهم من الفزع والجزع بحيث رَحَلَ الأحزاب وهزمهم الله تعالى، وهؤلاء يظنون أنها من الخُدَع؛ وأنهم لم يَذْهَبُوا، ﴿وإن يأت الأحزاب﴾، أي: يرجعوا إليهم مرة ثانية ﴿يودوا﴾ من الخوف والجبن ﴿لو أنهم بادون﴾ أي: خارجون إلى البادية. ﴿في الإعراب﴾ وهم أهل العَمُودِ لَيْسَلُمُوا من القتال. ﴿يسئلون﴾ أي من وَرَدَ عليهم. ثم سأل سبحانه عنهم وَحَقَّرَ شأنهم بِأَنْ أَخْبَرَ أنهم لو حَضَرُوا لَمَا أَغْتَوَا وَلَمَّا قَاتَلُوا إِلَّا قِتَالاً قَلِيلاً؛ لا نفع له. ثم قال تعالى - على جهة الموعظة -: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ حين صَبَرَ وَجَادَ بنفسه، و﴿أسوة﴾ معناه قُدْوَةٌ، وَرَجَاءُ اللَّهِ تَابِعٌ لِلْمَعْرِفَةِ به، ورجاء اليوم الآخر ثمرة العمل الصالح، وذكر الله كثيراً من خَيْرِ الأعمال فَنَبَّهَ عليه.

ت: وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَاتُهُ»^(١). رواه ابن ماجه، واللفظ له وابن حبان في «صحيحه» ورواه الحاكم في «المستدرک» من حديث أبي الدرداء.

وروى جابر بن عبد الله؛ قال: خرج علينا النبي ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ لِلَّهِ سَرَايَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَحُلُّ وَتَقِفُ عَلَى مَجَالِسِ الذِّكْرِ فِي الْأَرْضِ، فَأَرْتَعُوا فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، قَالُوا: وَأَيْنَ رِيَاضِ الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَجَالِسُ الذِّكْرِ؛ فَأَعْدُوا وَرُوحُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ؛ وَذَكِّرُوهُ أَنْفُسَكُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَظَلَّتْهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَظَلَّتْهُ اللَّهُ عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ، حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ»^(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد.

وعن معاذ بن جبل قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه»، انتهى من «السَّالِح». ولولا خشية الإطالة، لَأَتَيْتُ فِي هَذَا الْبَابِ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ» قَالَ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عَيْنَةَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ؛ حَتَّى يَذْكُرَ اللَّهَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا، انْتَهَى. وَفِي «مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ»^(٤) «يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ / قَدْ ذَهَبُوا فَإِذَا وَجَدُوهُمْ لَمْ يَذْهَبُوا وَدُّوا ١٧٣ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَغْرَابِ».

(١) أخرجه أحمد (٥٤٠/٢)، وابن ماجه (١٢٤٦/٢)، كتاب الأدب: باب فضل الذكر، حديث (٣٧٩٢)، والحاكم (٤٩٦/١)، وابن حبان (٩٧/٣) رقم (٨١٥) من طريق أم الدرداء عن أبي هريرة. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٤/١)، وأبو يعلى (٣٩٠-٣٩١) رقم (١٨٦٥) من طريق عمر بن عبد الله مولى غفرة عن أيوب بن خالد بن صفوان عن جابر به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: عمر ضعيف.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨٠/١٠): رواه أبو يعلى، والبزار، والطبراني في «الأوسط»، وفيه عمر بن عبد الله مولى غفرة، وقد وثقه غير واحد، وضعفه جماعة، وبقية رجالهم رجال الصحيح. (٣) أخرجه ابن حبان (٩٩-١٠٠) رقم (٨١٨)، وابن السني رقم (٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/١٠٧) رقم (٢١٢)، والبزار (٣٠٥٩ كشف) من حديث معاذ بن جبل. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧٧/١٠)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذه الطريق خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك ضعفه جماعة، ووثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله ثقات، ورواه البزار من غير طريقه، وإسناده حسن.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٧/٤).

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٣﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٥﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٦﴾﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب...﴾ الآية. قالت فرقة: لما أمر - رسول الله ﷺ - بحفر الخندق أعلمهم بأنهم سيُخصَّرون، وأمرهم بالاستعداد لذلك، وأعلمهم بأنهم سينصرون بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب: ﴿قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ الآية، وقالت فرقة: أرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿قريب﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ع^(١): ﴿ويُحْتَمَلُ أنهم أرادوا جميع ذلك. ثم أثنى سبحانه على رجال عاهدوا الله على الاستقامة فوفوا، وقضوا نحبهم، أي: نذرهم، وعاهدهم، «والنَّحْبُ» في كلام العرب: النَّذْرُ والشَّيْءُ الذي يلتزمه الإنسان، وقد يُسمَّى الموت نحباً، وبه فسر ابن عباس^(٢) وغيره هذه الآية، ويقال للذي جاهد في أمر حتى مات: قضى فيه نجه، ويقال لمن مات: قضى فلان نجه؛ فممن سمى المفسرون أنه أُشير إليه بهذه الآية أنس بن النضر عم أنس بن مالك، وذلك أنه غاب عن بدر فساءه ذلك، وقال لئن شهدت مع رسول الله ﷺ مشهداً ليرين الله ما أضنع. فلما كان أحد أبلى بلاء حسناً حتى قُتِلَ ووُجِدَ فيه تيف على ثمانين جرحاً، فكانوا يرون أن هذه الآية في أنس بن النضر ونظرائه.

وقالت فرقة: الموصوفون بقضاء النحب؛ هم جماعة من أصحاب النبي ﷺ وفوا بعهود الإسلام على التمام، فالشهداء منهم، والعسرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة منهم، إلى من حصل في هذه المرتبة ممن لم ينص عليه، ويصحح هذه المقالة أيضاً ما روي أن رسول الله ﷺ كان على المنبر، فقال له أغرابي: يا رسول الله، من الذي قضى نجه؟ فسكت عنه النبي ﷺ ساعة، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد، وعليه ثوبان أخضران، فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل؟ فقال: هأنذا، يا رسول الله، قال:

(١) ينظر: «المحرر» (٤/٣٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/٢٨٠) رقم (٢٨٤٢٦).

هَذَا مِمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ»^(١).

قال *ع^(٢): فهذا أدل دليل على أن النَّحْبَ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ الْمَوْتُ.

وقال معاوية بن أبي سفيان: إني سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: طَلَحَةُ مِمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ^(٣)، وَرَوَتْ عَائِشَةُ نَحْوَهُ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ يريدُ ومنهم من ينتظر الحصول في أعلى مراتب الإيمان والصالح، وهم بسبيل ذلك وما بدلوا ولا غيروا، واللام في: ﴿ليجزى﴾ يحتمل أن تكون لام الصيرورة أو «لام كي»، وتعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم، والتوبة موازية لتلك الإدامة، وثمره التوبة تركهم دون عذاب، فهما درجتان: إدامة على نفاق أو توبة منه، وعنهما ثمرتان: تعذيب أو رحمة. ثم عدّد سبحانه - نعمه على المؤمنين في هزم الأحزاب؛ فقال: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم...﴾ الآية.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ يريد: بني قُرَيْظَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا عَدَرُوا وَظَاهَرُوا الْأَحْزَابَ، أَرَادَ اللَّهُ الثَّقَمَةَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا ذَهَبَ الْأَحْزَابُ؛ جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَتَّ الظُّهْرَ؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِالْخُرُوجِ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَنَادَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ، وَقَالَ لَهُمْ: / «لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»^(٥)، ب ٧٣ فَخَرَجَ النَّاسُ إِلَيْهِمْ، وَحَصَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ نَزَلُوا عَلَىٰ حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ؛ فَحَكَمَ فِيهِمْ سَعْدٌ بِأَن تَقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَتُسَبَى الدَّرِيَّةُ وَالْعِيَالُ وَالْأَمْوَالُ، وَأَن تَكُونَ الْأَرْضُ وَالشَّمَارُ لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَتْ لَهُ الْأَنْصَارُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَرَدْتُ أَن يَكُونَ لِلْمُهَاجِرِينَ أَمْوَالٌ كَمَا لَكُمْ أَمْوَالٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمٍ

(١) تقديم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٧٨/٤).

(٣) ينظر: الحديث السابق.

(٤) ينظر: الحديث السابق.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧١/٧) كتاب المغازي: باب مرجع النبي ﷺ حديث (٤١١٩)، ومسلم (١٣٩١/٣).

كتاب الجهاد: باب المبادرة بالغزو، حديث (١٧٧٠/٦٩) من حديث ابن عمر.

الْمَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ فَأَمَرَ ﷺ بِرِجَالِهِمْ فَضَرَبَتْ أَعْنَاقَهُمْ، وَفِيهِمْ^(١) حَبِيبُ بْنُ أَخْطَبَ النَّضِيرِي، وَهُوَ الَّذِي كَانَ أَدْخَلَهُمْ فِي الْعَذْرِ، وَظَاهَرُوهُمْ: معناه: عاونوهم، و«الصياصي»: الحُصُون، واحداها صيصية وهي كل ما يَتَمَنَعُ به، ومنه يقال لقرون البقر: الصياصي، والفريقُ المقتول: الرجال، والفريقُ المأسور: العيال والذرية.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوْهَا﴾ يريد بها: البلاد التي فتحت على المسلمين بعدُ كالعراق والشام واليمن وغيرها، فوعد الله تعالى بها عند فتح حصون بني قريظة، وأخبر أنه قد قضى بذلك. قاله عكرمة^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْ تُنْكِرُونَ﴾ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعِّفْ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُمْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآية، ذكرَ جُلُ المفسرين أن أزواج النبي ﷺ سألته شيئاً من عَرْضِ الدنيا، وأذِنَتْه بزيادة التفَقَّة والغَيْرَةِ، فَهَجَرَهُنَّ وَأَلَى أَلَا يَقْرِبَهُنَّ شَهْرًا، فنزلت هذه الآية، فبدأ بعائشة، وقال: «يا عائشة، إِنِّي ذَاكِرٌ لِكَ أَمْرًا وَلَا عَلَيْكَ أَلَا تُعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوبِكَ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهَا الآية، فَقَالَتْ لَهُ: وَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ^(٣) أَبُوي؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ، قَالَتْ^(٤): وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبُوي لَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، ثُمَّ تَتَابَعَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مِثْلِ قَوْلِ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥/٧) كتاب المغازي: باب مرجع النبي ﷺ من غزوة الخندق، حديث (٤١٢٢)، ومسلم (١٣٨٩/٣) كتاب الجهاد: باب جواز قتال من نقض العهد، حديث (١٧٦٩/٦٥).

(٢) ذكره البغوي (٥٢٥/٣) بنحوه، وابن عطية (٣٨٠/٤)، والسيوطي (٣٦٩/٥)، وعزاه للفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٣) كذا في ج، وفي المطبوعة (استمر).

(٤) في ج: ثم قالت.

عَائِشَةَ، فَأَخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ - رَضِيَ^(١) اللَّهُ عَنْهُنَّ.

قَالَتْ فِرْقَةٌ قَوْلُهُ: ﴿بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ يَعُمُّ جَمِيعَ الْمَعَاصِي وَلَزِمَهُنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ بِحَسَبِ مَكَانَتِهِنَّ، أَكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ غَيْرَهُنَّ، فَضُوعِفَ لَهُنَّ الْأَجْرُ وَالْعَذَابُ.

وقوله: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ معناه: يكونُ العذابُ عذابَيْنِ، أي: يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخرٌ مثله، و﴿يَقْنَتُ﴾: معناه: يُطِيعُ وَيَخْضَعُ بِالْعُبُودِيَّةِ؛ قاله الشعبي^(٢) وقتادة^(٣). والرزقُ الكريمُ: الجنة. ثم خاطبَهُنَّ اللَّهُ سبحانه بأنَّهُنَّ لَسْنَ كَأَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ عَصْرِهِنَّ؛ فَمَا بَعْدُ، بَلْ هُنَّ أَفْضَلُ بِشَرِّ النَّفَوَى، وإنما خصصنا النساءَ لأنَّ فيمن تقدم آسية ومريم فتأملهُ؛ وقد أشار إلى هذا قتادة. ثم نَهَاهُنَّ سبحانه عما كانت الحالُ عليه في نساء العرب من مكالمَةِ الرجال برَّخيم القول؛ و﴿لا تخضعن﴾ معناه: لا تُلِنَّ.

قال ابن زيد: خَضَعُ الْقَوْلُ مَا يُدْخِلُ فِي الْقُلُوبِ الْغَزْلَ^(٤)؛ والمرضُ في هذه الآية قال قتادة: هو النفاق^(٥).

وقال عكرمة: الْفِسْقُ^(٦) والغزل، والقولُ المعروفُ هو الصوابُ الذي لا تنكره الشريعةُ ولا النفوسُ. وقرأ الجمهور: «وَقَزْنَ» - بكسر القَافِ -، وقرأ نافع وعاصم: «وَقَزْنَ» - بالفتح^(٧) -، فأما الأولى فيصح أن تكونَ من الوقار، ويصحُّ أن تكونَ من القَرَارِ، وأما قراءة الفتح فعلى لغة العرب قَرِزْتُ - يَكْسِرُ الرَّاءَ -، أقر - بفتح القاف في المكان /، وهي لغة ذكرها أبو عبيد في «الغريب» المصنف وذكرها الزَّجَّاجُ^(٨) وغيره، ١٧٤ فأمرَ اللَّهُ تعالى في هذه الآية نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بملازمةِ بيوتِهِنَّ، ونَهَاهُنَّ عن التبرج؛

(١) أخرجه مسلم (١١٠٤/٢) ١٨ - كتاب الطلاق: ٤ - باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، حديث (١٤٧٨/٢٩) من حديث جابر.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٨٢/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٩٢/١٠) رقم (٢٨٤٧١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٨٢/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٣/١٠) رقم (٢٨٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٢٩٣/١٠) رقم (٢٨٤٧٥)، وذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٧) ينظر: «السبعة» (٥٢٢)، و«الحجة» (٤٧٥/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٩/٢)، و«معاني القراءات»

(٢٨٢/٢)، و«شرح الطيبة» (١٤٧/٥)، و«العنوان» (١٥٥)، و«حجة القراءات» (٥٧٧)، و«شرح شاملة»

(٥٤٩)، و«إتحاف» (٣٧٥/٢).

(٨) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢٢٥/٤).

والتبرج إظهار الزينة والتّصنّع بها، ومنه البروج لظهورها وانكشافها للعيون، واختلف الناس في ﴿الجاهلية الأولى﴾ فقال الشعبي: ما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام -^(١)، وقيل: غير هذا.

قال *ع^(٢)*: والذي يظهر عندي؛ أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقنها فأمرن بالثقلّة عن سيرتهنّ فيها، وهي ما كان قبل الشّرع من سيرة الكفّرة، وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام، وليس المعنى. أن تمّ جاهليّة آخرّة، و﴿الرجس﴾ اسم يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى التّجاسّات والنّقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت، قالت أم سلمة: نزلت هذه الآية في بيتي؛ فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فدخّل معهم تحت كساء خيبري، وقال: «هؤلاء أهل بيتي، وقرأ الآية، وقال اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت أم سلمة: فقلت: وأنا يا رسول الله، فقال: أنت من أزواج النّبي ﷺ وأنت إلى خير^(٣)». والجمهور على هذا، وقال ابن عباس^(٤) وغيره: أهل البيت أزواجه خاصة، والجمهور على ما تقدم.

قال *ع^(٥)*: والذي يظهر لي: أن أهل البيت أزواجه وبنته وبنوها وزوجها أعني علياً، ولفظ الآية: يقتضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن والمخاطبة لهن.

قال *ص*:^(٦) ﴿أهل البيت﴾: منصوب على النداء أو على المذح أو على الاختصاص وهو قليل في المخاطب، وأكثر ما يكون في المتكلم، كقوله [الرجز]:

(١) ذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٨٤/٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٩٨/١٠) رقم (٢٨٤٩٩)، والترمذي (٣٥١/٥) كتاب التفسير: باب «ومن سورة الأحزاب»، حديث (٣٢٠٥) من طريق عطاء بن أبي رباح عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٦-٣٧٧/٥)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٨/١٠) رقم (٢٨٥٠٣) عن عكرمة. وذكره البغوي (٥٢٨١٣)، وابن عطية (٣٨٤١٤)، وابن كثير في تفسيره (٤٨٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٦/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن عساكر من طريق عكرمة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ينظر: «المحرر» (٣٨٤/٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ...﴾ الآية. وفي الحديث: ^{٧٤} ب الصحيح عنه ﷺ قال: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ! قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ، / يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»^(١) رواه مسلم واللفظ له، والترمذي، وعنده: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُفْرَدُونَ؟ قَالَ: «الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ، يَضَعُ الذِّكْرَ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا»^(٢).

قال عياض: «والمُفْرَدُونَ» صَبَطْنَاهُ عَلَى مُتَقْنِي شَيْوَحْنَا - بفتح الفاء وكسر الراء ..

وقال ابن الأعرابي: فَرَدَّ الرَّجُلُ إِذَا تَفَقَّهَ وَاعْتَزَلَ النَّاسَ، وَخَلَا لِمُرَاعَاةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وقال الأزهري: هُمُ الْمُتَخَلُّونَ مِنَ النَّاسِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وقوله: الْمُسْتَهْتَرُونَ^(٣) في ذكر الله هو - بفتح التاءين المشتايتين - يعني: الذين أُولِعُوا بِذِكْرِ اللَّهِ، يقال: أَسْتَهْتَرَ فَلَانٌ بِكَذَا، أَي: أُولِعَ بِهِ، انتهى من «سلاح المؤمن».

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...﴾ الآية: قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظه النفي، ومعناه الحظر والمنع والخيرة مصدر بمعنى التَّخِيرِ.

قال ابن زيد: نزلت هذه الآية بسبب أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهبت نفسها للنبي، فزوجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها، فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد^(٤)، وقيل غير هذا، والعصيان هنا يعم الكفر فما دون، وفي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) عبارة المجد في «قاموسه» «وهم المهتزون بذكر الله تعالى، قال الشيخ نصر الهوريني في تعليقه قوله: المهتزون هكذا بالزاي في النسخ المطبوعة ولعلها رواية وفي نسخة الشارح المهتزون بالراء وكتب عليها كما جاء في رواية نصها قال: «والذين اهتروا في ذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافاً» اهـ. قلت اهتر الرجل: فقد عقله من الكبر أو المرض أو الحزن فهو مهتر بفتح التاء، واهتر فلان مجهولاً: أولع بالقول في الشيء فهو مهتر، «واهتروا في ذكر الله»: أي خرفوا وهم يذكرون الله اهـ.

(٤) أخرجه الطبري (٣٠١/١٠) رقم (٢٨٥١٧)، وذكره ابن عطية (٣٨٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٨٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨١/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه.

حديث الترمذي؛ عن النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ لَهُ»^(١) انتهى.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٣٧).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ...﴾ الآية: ذهب جماعة من المتأولين إلى أن الآية لا كَبِيرَ عَثَبٍ فيها على النَّبِيِّ ﷺ؛ فَرُوي عن علي بن الحسين: أن النَّبِيَّ ﷺ كان قد أُوجِي إليه أن زيدا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها له، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خُلِقَ زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له النَّبِيُّ ﷺ على جهة الأدب والوصية: «اتَّقِ اللَّهَ - أَي: فِي قَوْلِكَ - وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» - وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَفَارِقُهَا - وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْفَى ﷺ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَرُدْ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالطَّلَاقِ لِمَا عَلِمَ مِنْ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا، وَخَشِيَ ﷺ أَنْ يُلْحَقَهُ قَوْلُ مَنْ النَّاسِ، فِي أَنْ يَتَزَوَّجَ زَيْنَبَ بَعْدَ زَيْدٍ، وَهُوَ مَوْلَاهُ وَقَدْ أَمَرَهُ بِطُلَاقِهَا، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ أَنْ خَشِيَ النَّاسَ فِي شَيْءٍ؛ قَدْ أَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ.

قال عياض: وتأويل علي بن الحسين أحسن التأويلات وأصحها، وهو قول ابن عطاء، وصححه واستحسنه، انتهى.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني بالإسلام وغير ذلك ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يعني بالعِثْقِ، وهو زيد بن حارثة، وزينب هي بنت جحش، بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ؛ ثم أعلم - تعالى - نبيه أنه زَوَّجَهَا مِنْهُ لَمَّا قَضَى زَيْدٌ وَطَرَهُ مِنْهَا؛ لِتَكُونَ سَنَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ، وَلِيُبَيِّنَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَحَرَمَةِ الْبَنُوَّةِ، وَالْوَطَرُ: الْحَاجَةُ وَالْبُغْيَةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾: فيه حذف مضافٍ تقديره: وَكَانَ حَكْمُ أَمْرِ اللَّهِ، أَوْ مُضْمَنُ أَمْرِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَالْأَمْرُ قَدِيمٌ لَا يوصف بأنه مفعول، ويحتمل أن يكون الأمر واحد الأمور التي شأنها أن تفعل / وعبرة الواحدي: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كائناً ١٧٥ لا محالة، وَكَانَ قَدْ قَضَى فِي زَيْنَبَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. انتهى.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨) الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له...﴾ الآية: هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة؛ أعلمهم أنه لا حرج على نبيه في نيل ما فرض الله له وأباحت له من تزويجه لزينب بغير زيد، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء، من أن ينالوا ما أحله الله لهم، وعبرة الواحدي: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أي: أحل الله له من النساء. ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾، يقول: هذه سنة قد مضت لغيرك؛ يعني كثرة أزواج داود وسليمان - عليهما السلام - ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ قضاء مقضياً. وقوله تعالى: ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ من نعت قوله: ﴿في الذين خلوا من قبل﴾، انتهى.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَخِّوْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَحْنُ نَحْمَدُكَ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ إلى قوله ﴿كرماً﴾ أذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم؛ لأنهم استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفي القرآن تلك البتوة، وقوله: ﴿أبا أحد من رجالكم﴾ يعني المعاصرين له وباقي الآية بين. ثم أمر سبحانه عباده بأن يذكروه ذكراً كثيراً، وجعل تعالى ذلك دون حد ولا تقدير؛ لسهولة على العبد، ولعظم الأجر فيه. قال ابن عباس: لم يُعذَر أحد في ترك ذكر الله عز وجل إلا من غلب على عقله^(١)، وقال: الذكر الكثير أن لا تنساه أبداً.

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ «أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ؛ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ»^(٢). *ت:

(١) أخرجه الطبري (٣٠٦/١٠) رقم (٢٨٥٣١)، وذكره البيهقي (٥٣٤/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤٩٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨٦/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٦٨/٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص ٢٨٩) رقم (٩٢٥)، وأبو يعلى (٥٢١/٢) رقم (١٣٧٦)، وابن حبان (٨٠٥)، والحاكم (٤٩٩/١) كلهم من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٩/١٠) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، وفيه دراج وقد ضعفه جماعة، وبقي رجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

وهذا الحديث خرَّجه ابن جَبَّان في «صحيحه».

وقوله: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أراد في كل الأوقات فحدَّد الزمَنَ بطرفَي نهاره وليلته، والأصيل من العَصْرِ إلى الليل، وعن ابن أبي أوفى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْأَظْلَةَ لِذِكْرِ اللَّهِ»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک»، انتهى من «السلاح».

وقوله سبحانه: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته...﴾ الآية: صلاةُ الله على العبد هي رحمتهُ له، وصلاة الملائكة هي دعاؤهم للمؤمنين. ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم.

وقوله تعالى: ﴿تحتيتهم يوم يلقونه سلام﴾ قيل: يوم القيامة تُحَيِّ الملائكةُ المؤمنين بالسلام، ومعناه: السلامة من كل مكروه، وقال قتادة: يوم دُخِلَ لهم الجنةُ يحيي بعضهم بعضاً بالسلام^(٢)، والأجرُ الكريم: جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (٤٥) ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ (٤٦) ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ (٤٧) ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (٤٨) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ نَعْتَدُ لِهِنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سِرَاحاً جَمِلاً﴾ (٤٩).

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً...﴾ الآية، هذه الآية فيها تأنيسٌ للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريمٌ لجميعهم.

وقوله: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي: بأمره ﴿وسراجاً منيراً﴾ استعارة للنور الذي تَضَمَّنَهُ شَرْعُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾.

(١) أخرجه الحاكم (٥١/١)، والبيهقي (٣٧٩/١)، كتاب الصلاة: باب مراعاة أداء المواقيت، من حديث ابن أبي أوفى مرفوعاً.

وقال الحاكم: إسناده صحيح. ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٦/١٠) رقم (٢٨٥٣٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٩٦/٣). والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه.

بهن ﴿[الأحزاب: ٥٢] فيجيء هذا الضميرُ مقطوعاً من الأول عائداً على أزواجه التسع فقط؛ على الخلاف في ذلك، وتأول غير ابن زيد في قوله: ﴿أحللنا لك أزواجك﴾ من في عِصْمَتِهِ ممن تزوجها بمهر؛ وأن ملك اليمين بعد حلال له؛ وأن الله أباح له مع المذكورات بنات عمه وعماته، وخاله، وخالاته، ممن هاجر معه، والواهبات خاصة، فيجيء الأمر على هذا التأويل أضيق على النبي ﷺ، ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس: كان النبي ﷺ يتزوج في أي النساء شاء، وكان ذلك يشق على نسائه، فلما نزلت هذه الآية، وحرم عليه بها النساء؛ إلا من سمي سر نسائه بذلك^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي...﴾ الآية، قال السهيلي: ذكر البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كانت حولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن؛ لرسول الله ﷺ، فدل على أنهن كن غير واحدة^(٢)، انتهى: وقوله: ﴿خالصة لك﴾ أي: هبة النساء أنفسهن خاصة بك دون أمته.

قال *ع*^(٣): ويظهر من لفظ أبي بن كعب أن معنى قوله: «خالصة لك» يراد به جميع هذه الإباحة؛ لأن المؤمنين لم يباح لهم الزيادة على أربع^(٤). وقوله تعالى: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ يريد هو كون النكاح بالولي والشاهدين، والمهر، والاقتصار على أربع؛ قاله قتادة ومجاهد.

وقوله: ﴿لكي لا﴾ أي: بينا هذا البيان. ﴿لكي لا يكون عليك حرج﴾ ويظن بك أنك قد أثمت عند ربك.

﴿ترجي من تشاء منهم وتقوى إليك من تشاء ومن أبغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ ذلك أدلة أن نقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آلتتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً ﴿٥١﴾.

وقوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهم...﴾ الآية، ترجي معناه: تؤخر وتؤوي.

(١) ذكره ابن عطية (٣٩١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٣/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره البخاري تعليقاً (٦٨/٩) كتاب النكاح: باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد، حديث (٥١١٣).

(٣) ينظر: «المحور» (٣٩٢/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٣١١/١٠) رقم (٢٨٥٥٢).

وذكره ابن عطية (٣٩٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٠٠/٣).

معناه: تَضُمُّ وتُقَرَّب، ومعنى هذه الآية: أن الله تعالى فَسَّحَ لِنَبِيِّهِ فيما يفعله في جَهَةِ النساء، والضمير في «منهن» عائذ على مَنْ تَقَدَّمَ ذكره من الأصناف؛ حَسَبَ الخِلافِ المذكور في ذلك، وهذا الإرجاء والإيواء يحتمل معاني؛ منها: أن المعنى في القَسَمِ، أي: تُقَرَّبُ مَنْ شِئْتَ فِي الْقِسْمَةِ لَهَا مِنْ نَفْسِكَ وَتُوَخَّرُ عَنْكَ مِنْ شِئْتَ وَتُكْثَرُ لِمَنْ شِئْتَ وَتُقَلُّ لِمَنْ شِئْتَ، لا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا عَلِمَنْ هُنَّ أَنَّ هَذَا هُوَ حُكْمُ اللَّهِ / لَكَ؛ رَضِيْنَ وَقَرَّتْ أَعْيُنُهُنَّ؛ وهذا تأويل مجاهد وقتادة والضحاك^(١).

قال ع^(٢): * لأن سَبَبَ هذه الآية تَغَايُرَ وَقَعَ بَيْنَ رُؤُجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ تَأْدَى بِهِ.

وقال ابن عباس^(٣): المعنى في طلاق مَنْ شَاءَ وإمساك مَنْ شَاءَ.

وقال الحسن بن أبي الحسن^(٤): المعنى في تَزُوجٍ مَنْ شَاءَ؛ وترك مَنْ شَاءَ.

قال ع^(٥): * وعلى كُلِّ مَعْنَى فالآية معناها: التَّوَسُّعُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ والإباحة له وذهب هبة الله في «الناسخ والمنسوخ» له إلى أن قوله «ترجي من تشاء...» الآية، ناسخ لقوله: «لا يحل لك النساء من بعد» [الأحزاب: ٥٢] الآية.

وقوله تعالى: «ومن ابتغيت ممن عزلت» يحتمل معاني: أحدها؛ أن تكون «من» للتبعيض، أي: من أردت؛ وطلبته نفسك ممن كنت قد عزلته وأخرته؛ فلا جناح عليك في رده إلى نفسك وإيوائه إليك، ووجه ثانٍ؛ وهو أن يكون مُقَوِّياً ومؤكدًا لقوله: «ترجي من تشاء» و«تؤوي من تشاء» فيقول بعدُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ وَمَنْ عَزَلْتَ فَذَلِكَ سِوَايَ؛ لا جناح عليك في رده إلى نفسك وإيوائه إليك.

وقوله: «ويرضين بما آتيتهن» أي من نفسك، ومالك، واتفقت الروايات على أنه -

(١) أخرجه الطبري (٣١٣/١٠) عن قتادة برقم (٢٨٥٦٦)، وعن الضحاك برقم (٢٨٥٦٨)، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٤)، وابن كثير في تفسيره (٥٠١/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٩٣/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٣/١٠) رقم (٢٨٥٧٠)، وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٧/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٣١٤/١٠) رقم (٢٨٥٧١) بنحوه. وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٧/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه بنحوه.

(٥) ينظر: «المحرر» (٣٩٣/٤).

عليه السلام - مع ما جعلَ الله له من ذلك كان يُسوِّي بينهم في القَسَمِ تَطْيِيباً لِنَفْسِهِمْ؛ وأخذاً بالفضل، وما خصه الله من الخلق العظيم - صلى الله عليه وعلى آله - غير أن سودة وهبت يومها لعائشة تَقَمُّناً لمسرة رسول الله ﷺ.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَضِينَ لِخَدِيعٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجْ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجْ مِنَ الْغَوِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ إِنْ بُدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي ءَابَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَائِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَيْنَ اللَّهُ إِلَهُكَ اللَّهُ كَانُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ قيل كما قدمنا: إنها حظرت عليه النساء إلا التسع وما عُطِفَ عَلَيْهِنَّ؛ على ما تقدم لابن عباس وغيره، قال ابن عباس وقتادة: جَازَاهُنَّ اللَّهُ بذلك، لما اخترنَ الله ورسوله^(١)، ومن قال: بأن الإباحة كانت له مُطْلَقَةً قَالَ هنا: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ معناه: لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات، ولا ينبغي أن يكنَّ أمهات المؤمنين؛ وروى هذا عن مجاهد^(٢) وكذلك قَدَّرَ: ولا أن تبدل اليهوديات والنصرانيات بالمسلمات؛ وهو قول أبي رزين وابن جبير^(٣) وفيه بُعْدٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ هذه الآية تضمنت قِصَّتَيْنِ: إحداهما: الأدب في أمر الطَّعَامِ والجلوس، والثانية: أمرُ الحِجَابِ.

(١) أخرجه الطبري (٣١٦/١٠) رقم (٢٨٥٨١) عن ابن عباس، وعن قتادة برقم (٢٨٥٨٢)، وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٠١/٣). والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٩/٥)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٣١٨/١٠) (٢٨٥٨٩)، وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٤/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٩/٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٩٤/٤).

قال الجمهور: سببها أن النبي ﷺ لما تزوج زَيْنَب بنت جَحْش، أَوْلَمَ عَلَيْهَا؛ وَدَعَا النَّاسَ، فَلَمَّا طَعِمُوا، قَعَدَ نَفَرٌ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، فَقُتِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَكَانُهُمْ، فَخَرَجَ؛ لِيُخْرِجُوا بِخُرُوجِهِ، وَمَرَّ عَلَى جِحْرِ نِسَائِهِ، ثُمَّ عَادَ فَوَجَدَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ، وَزَيْنَبُ فِي الْبَيْتِ مَعَهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ وَرَأَاهُمْ انصَرَفَ، فَخَرَجُوا عِنْدَ ذَلِكَ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَأُعْلِمَ أَوْ^(١) أَعْلَمْتُهُ بِأَنْصِرَافِهِمْ، فَجَاءَ، فَلَمَّا وَصَلَ الْحُجْرَةَ، أَرَاخَى السُّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ وَدَخَلَ، وَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ بِسَبَبِ ذَلِكَ^(٢).

قال إسماعيل بن أبي حكيم: هذا أَدَبٌ أَدَّبَ اللَّهُ بِهِ الثُّقَلَاءَ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ وَجَمَاعَةٌ: سَبَبُ الْحِجَابِ: كَلَامُ عُمَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَرَاراً فِي أَنْ يَحْجُبَ نِسَاءَهُ^(٣)، و﴿ناظرين﴾ معناه: مُنْتَظِرِينَ، و﴿إناه﴾: مصدر «أنى» الشيء يَأْنِي أني، إِذَا قَرَعَ وَحَانَ، وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ يُقَالُ: إِنَاهُ: إِدْرَاكُهُ أَنَّى يَأْنِي إِنْاءَهُ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ معناه: لَا يَقَعُ مِنْهُ تَرْكُ الْحَقِّ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ يَقَعُ مِنَ الْبَشَرِ لِعِلَّةِ الْاسْتِحْيَاءِ؛ نَفَى عَنْهُ تَعَالَى الْعِلَّةَ الْمَوْجِبَةَ لِذَلِكَ فِي الْبَشَرِ، وَعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَهُنَّ؛ لَا يَوْمُ رَجُلٍ قَوْماً؛ ب ٧٦ فَيُخَصَّ نَفْسُهُ بِالِدُّعَاءِ دُونَهُمْ؛ فَإِنْ فَعَلَ، فَقَدْ خَانَهُمْ، وَلَا يَنْظُرُ فِي قَعْرِ بَيْتٍ /؛ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ؛ فَإِنْ فَعَلَ، فَقَدْ خَانَ، وَلَا يُصَلِّي وَهُوَ حَاقِنٌ حَتَّى يَتَخَفَّفَ»^(٤). رواه أبو داود

(١) في ج: و.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٧/٨) كتاب التفسير: باب ﴿لَا تَدْخُلُوا بِيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، حديث (٤٧٩١، ٤٧٩٢، ٤٧٩٣، ٤٧٩٤)، وفي (١٣٤/٩) كتاب النكاح: باب الهدية للعرس، حديث (٥١٦٣)، وفي (٩/ ١٣٧-١٣٨) كتاب النكاح: باب الوليمة حق، حديث (٥١٦٦)، وفي (١١/ ٢٤) كتاب الاستئذان: باب آية الحجاب، حديث (٦٢٣٨، ٦٢٣٩)، ومسلم (١٠٥٠-١٠٥٢) كتاب النكاح: باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، حديث (٩٣، ٩٤ / ١٤٢٨)، والنسائي في «التفسير» (٤٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠ / ٣٢٣-٣٢٤) رقم (٢٨٦٠٨-٢٨٦٠٥)، والبيهقي (٧/ ٨٧) كتاب النكاح: باب سبب نزول آية الحجاب، كلهم من حديث أنس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٠١)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ٣٢٦) (٢٨٦١٩)، وذكره البغوي (٣/ ٥٤٠)، وابن عطية (٤/ ٣٩٥)، وابن كثير في «تفسيره» (١٣/ ٥٠٥) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٠٣)، وعزاه لابن جرير عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٤) أخرجه أبو داود (١/ ٧٠) كتاب الطهارة: باب أيصلي الرجل وهو حاقن، حديث (٩٠)، والترمذي (٢/ ١٨٩) كتاب الصلاة: باب ما جاء في كراهية أن يخص الإمام نفسه بالدعاء، حديث (٣٥٧)، وابن ماجه (٢٠٢/١) كتاب الطهارة: باب ما جاء في النهي للحاقن أن يصلي، حديث (٦١٩)، وأحمد (٥/ ٢٨٠)

واللفظ له، وابن ماجه، والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن، ورواه أبو داود أيضاً من حديث أبي هريرة^(١)، انتهى من «السلام».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً...﴾ الآية، هي آية الحِجَابِ، والمتاع عام في جميع ما يمكن أن يُطلب من المَوَاعِينِ وَسَائِرِ المَرَافِقِ، وباقي الآية يبين. وقد تقدّم في سورة النور طَرْفٌ من بَيَانِهِ فَأَعْنَى عن إعادته.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ
 يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ
 لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَنْهُنَّ مِنْ جَلْبَسِهِنَّ ذَلِكَ آدَقُّ أَنْ يَعْرِفُوا فَلَا يُؤْذُونَ وَكَانَ اللَّهُ
 عَافِيًا رَحِيمًا ٥٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ الآية، تَضَمَّنَتْ شَرْفَ النبي ﷺ وعظيم منزلته عند الله تعالى.

قالت فرقة: تقدير الآية: أن الله يُصَلِّي وملائكته يصلُّون، فالضمير في قوله ﴿يصلُّون﴾: للملائكة فقط. وقالت فرقة: بل الضمير في ﴿يصلُّون﴾ لله والملائكة؛ وهذا قول من الله تعالى، شَرَّفَ به ملائكته؛ فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِ الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب: مَنْ يُطِيع اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَقَدْ ضَلَّ، فَقَالَ النبي ﷺ: «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ»^(٢). وهذا القدر كافٍ هنا، وصلاة الله تعالى: رحمة منه وبركة، وصلاة الملائكة: دعاء، وصلاة المؤمنين: دعاء، وتعظيم، والصلاة على النبي ﷺ في كل حين؛ من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها؛ وَلَا يُغْفَلُهَا إِلَّا مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، وفي حديث ابن عباس: أنه لما نزلت هذه الآية؛ قال قوم من الصحابة: «هَذَا السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟» الحديث^(٣).

= من حديث ثوبان. وله شاهد من حديث أبي هريرة:

أخرجه أبو داود (١/ ٧٠-٧١) كتاب الطهارة: باب أيضا لي الرجل وهو حاقن، حديث (٧١).

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤) كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة حديث (٤٨/ ٨٧٠)، وأبو داود

(١/ ٣٥٥-٣٥٦) كتاب الصلاة: باب الرجل يخطب على قوس حديث (١٠٩٩)، والنسائي (٦/ ٩٠)

وأحمد (٤/ ٢٥٦، ٣٧٩)، والحاكم (١/ ٢٨٩).

(٣) تقدم تخريجه.

ت*: ولفظ البخاري: عن كعب بن عُجْرَةَ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَقَدْ عَرَفْتَاهُ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(١). انتهى؛ وفيه طرقٌ يزيدُ فيها بعضُ الرواةِ على بعض، وفي الحديث عنه ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»^(٢) الحديث رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، واللفظ لأبي داود، ورواه الحاكم في «المستدرک» من حديث أبي مسعود الأنصاري، وقال: صحيح الإسناد، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي؛ حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»^(٣) وعنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»^(٤). رواهما أبو داود، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢/٨) كتاب التفسير: باب «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» حديث (٤٧٩٧)، ومسلم كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد حديث (٤٠٥/٦٦)، وأبو داود (٢٥٧/١) كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد حديث (٩٧٦) والترمذي (٣٥٢/٢)، كتاب الصلاة: باب ما جاء في صفة الصلاة على النبي ﷺ حديث (٤٨٣) والنسائي (٤٧/٣) كتاب السهو: باب (٥١) حديث (١٢٨٨)، وابن ماجه (١/٢٩٢-٢٩٣) كتاب إقامة الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ حديث (٩٠٤)، وأبو عوانة (٢/٢١٢-٢١٣) والدارمي (٣٠٩/١) كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ، وأحمد (٤/٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤)، وأبو داود الطيالسي (١/١٠٣-منحة) رقم (١٠٣) وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص - ١٤٤) رقم (٣٦٨) والحميدي (٢/٣١٠-٣١١) رقم (٧١١، ٧١٢)، وابن الجارود في «المتقى» رقم (٢٠٦)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/٣١)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (٥٦، ٥٧، ٥٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/٧٢-٧٣) وابن حبان (٣/٣١٧) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٩٣) والطبراني في «الصغير» (١/٨٥-٨٦) وفي «الكبير» (١٩/١١٦) رقم (٢٤١، ٢٤٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٣٥٦) والبيهقي في «سننه» (٢/١٤٧-١٤٨)، كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد، وفي «شعب الإيمان» (٢/٢٠٧) رقم (١٥٤٨) والبيهقي في «شرح السنة» (٢/٢٨١-بتحقيقنا) والحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/١٨٤-١٨٥) كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة به وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (١/٦٣٥) كتاب الصلاة: باب فضل الجمعة حديث (١٠٤٧) والنسائي (٣/٩١-٩٢) كتاب الجمعة: باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، وابن ماجه (١/٥٢٤) كتاب الجنائز: باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ حديث (١٦٣٦)، وأحمد (٤/٨)، والدارمي (١/٣٦٩) كتاب الصلاة: باب في فضل الجمعة.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٥٢٧)، وأبو داود (١/٦٢٢) كتاب المناسك: باب زيارة القبور، حديث (٢٠٤١)، والبيهقي (٥/٢٤٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) تقدم تخريجه قريباً، وهو حديث أوس بن أوس: «إِنَّ أَفْضَلَ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ».

النبي ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة»^(١). رواه الترمذي، وابن حبان في «صحيحه»، ولفظهما سواء، وقال الترمذي: حسن غريب. انتهى من «السلح».

وقوله سبحانه: ﴿يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الجلابب: ثوبٌ أكبر من الخمار، ورؤي عن ابن عباس وابن مسعود: أنه الخمار، واختلف في صورة إدائه: فقال ابن عباس^(٢) / وغيره: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عينٌ واحدة تبصر بها، وقال ١٧٧ ابن عباس أيضاً وقتادة: ذلك أن تلويه على الجبين وتشده، ثم تغطّقه على الأنف، وإن ظهرت عيناها؛ لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه^(٣).

وقوله: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن﴾: أي حتى لا يختلطن بالإماء، فإذا عرفن لم يقابلن بأذى من المعارضة؛ مراقبةً لرتبة الحرائر، وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى يعلم من هي؛ وكان عمر إذا رأى أمة قد تقنعت قنعتها بالدرة محافظةً على زي الحرائر.

﴿لَنْ يَرَىٰ يَنْتَهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقُولُوا تَقْبِلَا﴾ (٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٤) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٥) ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا أَطْعَنَا اللَّهُ وَأَطْعَنَا أَلرَّسُولَ﴾ (٦٦) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَانَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ (٦٧) ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِيهِمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْتِمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ (٦٨) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (٦٩) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١).

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَرَىٰ يَنْتَهَ الْمُنَافِقُونَ...﴾ الآية. اللام في قوله: ﴿لَنْ يَرَىٰ﴾ هي المؤذنة بمجيء القسم، واللام في ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: هي لام القسم.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤/٢) كتاب الصلاة: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، حديث (٤٨٤)، وابن حبان (١٩٢/٣)، رقم (٩١١)، من حديث ابن مسعود.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٢/١٠) عن ابن عباس برقم (٢٨٦٤٧)، وذكره البغوي (٥٤٤/٣)، وابن عطية (٤/٣٩٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٥/٨) عن ابن عباس رضي الله عنه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤١٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٩٩/٤).

قلت: وَرَوَى الترمذِيُّ عن ابنِ عُمَرَ قَالَ: صَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَنْبَرَ، فَتَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ قَدْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَفُضْ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ؛ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ...» الحديث^(١). انتهى. ورواه أبو داود في «سننه» من طريق أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ^(٢) وتوَعَّدَ اللَّهُ سبحانه هذه الأصناف في هذه الآية.

وقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المرض، هنا: هو الغَزَلُ وحب الزنا؛ قاله عكرمة^(٣). ﴿وَالْمَرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾: هم قوم كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة؛ ونحو هذا مما يُرْجَفُونَ بِهِ نَفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ، فيحتمل أن تكونَ هذه الْفِرْقُ دَاخِلَةً في جملة المنافقين، ويحتمل أن تكونَ متباعدةً و﴿نَغْرِينُكَ﴾ معناها: نحضك عليهم بعد تعيينهم لك. وفي «البخاري»: وقال ابن عباس^(٤): ﴿لنغرينك﴾: لنسلطنك. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ أَيُّ: بعد الإغراء لأنك تَنْفِيهِمْ بِالْإِخَافَةِ وَالْقَتْلِ.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل: أن يريد إلا جَوَارًا قَلِيلًا، أو وقتًا قَلِيلًا، أو عددًا قَلِيلًا، كأنه قال: إلا أَقْلَاءَ، و﴿ثَقُفُوا﴾: معناه: حَصِرُوا وَقُدِرَ عَلَيْهِمْ و﴿أَخْذُوا﴾: معناه: أُسِرُوا والأَخِيذُ الأسِيرُ. و﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم منافقوا الأمم، وباقي الآية مُتَضِحٌ الْمَعْنَى. و﴿السَّبِيلَا﴾: مفعول ثانٍ؛ لَأَنَّ ﴿أَضَلَّ﴾ متعدٍ بِالْهَمْزَةِ، وهي سبيلُ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى،

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في تعظيم المؤمن، حديث (٢٠٣٢) من حديث ابن عمر.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وأخرجه أبو داود (٦٨٦/٢) كتاب الأدب: باب في الغيبة، حديث (٤٨٨٠) من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٢) تقدم تخريجه، وينظر الحديث السابق.

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٣/١٠) (٢٨٦٥٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥١٩) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار عن عكرمة بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري (٣٣٤/١٠) (٢٨٦٦١)، وذكره ابن عطية (٤٠٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٨/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والذين آذوا موسى: هم قوم من بني إسرائيل. قال ابن عباس وأبو هريرة وجماعة: الإشارة إلى ما تضمنه حديث النبي ﷺ «من أن بني إسرائيل كانوا يَغْتَسِلُونَ عَرَاءً، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا سَتِيرًا حَيًّا، لَا يَكَاذُ يُرَى مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ؛ فَقَالُوا: وَاللَّهِ، مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آذَرُ أَوْ بِهِ بَرَصٌ، فَذَهَبَ يَغْتَسِلُ؛ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَلَجَّ مُوسَى فِي إِثَرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ، فَمَرَّ بِهِمْ فَتَنَظَرُوا إِلَيْهِ؛ فَقَالُوا: وَاللَّهِ، مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ». الحديث^(١) خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، وَقِيلَ فِي إِذَابَتِهِمْ غَيْرُ هَذَا. ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ والوجية: المَكْرَمُ الوجه، والقول السَّيِّدُ: يَغُمُّ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ. وقال عكرمة: أراد «لا إله إلا الله»^(٢) وباقي الآية بَيِّن.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، ذهب الجمهور: إلى أن الأمانة كل شيء يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَشَأْنٍ دِينٍ وَدُنْيَا؛ فَالشَّرْعُ / كله أمانة؛ ومعنى الآية: إِنَّا عَرَضْنَا عَلَى هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعِظَامِ أَنْ تَحْمِلَ الْأُمُورَ ٧٧ ب وَالتَّوَاهِي وَلَهَا الثَّوَابُ إِنْ أَحْسَنْتِ، وَالْعِقَابُ إِنْ أَسَاءَتْ، فَأَبَتْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ وَأَشْفَقَتْ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا بِإِدْرَاكِ يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَرَضُ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَحَمَلَ الْإِنْسَانُ الْأَمَانَةَ، أَيْ: التَّزَمَ الْقِيَامَ بِحَقِّهَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ ظُلُومٌ لِنَفْسِهِ جَهُولٌ بِقَدْرِ مَا دَخَلَ فِيهِ؛ وَهَذَا هُوَ تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جَبْرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابُهُ: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ آدَمُ تَحْمِلُ الْأَمَانَةَ؛ فَمَا تَمَّ لَهُ يَوْمَ حَتَّى وَقَعَ فِي أَمْرِ الشَّجَرَةِ^(٣). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الْإِنْسَانُ﴾: النَّوْعُ كُلُّهُ؛ فَعَلَى تَأْوِيلِ الْجُمْهُورِ يَكُونُ قَوْلُهُمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ إِبَاجَةً لِأَمْرِ أَمْرٍ بِهِ وَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ إِبَاجَةً وَإِشْفَاقًا مِنْ أَمْرِ عَرَضَ عَلَيْهَا وَخُيِّرَتْ فِيهِ.

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري (١٠/٢٣٨) (٢٨٦٨٠)، وذكره البغوي (٣/٥٤٦)، وذكره ابن عطية (٤/٤٠١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٢١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/٢٣٩) (٢٨٦٨٣)، وذكره ابن عطية (٤/٤٠٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢٢) والسيوطي في «الدر المنثور» وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ﴾: اللامُ لامُ العاقِبةِ، وكذا قال أبو حيان: اللام في ﴿لِيُعَذِّبَ﴾: لِلصَّيْرُورَةِ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْ الْأَمَانَةَ لِيُعَذِّبَ، ولكن آل أمره إلى ذلك.

ص: أبو البقاء: اللام تتعلّق بـ: ﴿حَمَلَهَا﴾ وقرأ^(١) الأعمش: «ويتوب» بالرفع على الاستِثْناءِ، والله أعلم. انتهى. وباقي الآية بيّن.

(١) قال الزمخشري: وقرأ الأعمش «ويتوب»؛ لجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، ويتبدى: ويتوب الله. ومعنى قراءة العامة: ليعذب الله حامل الأمانة، ويتوب على غيره ممن لم يحملها؛ لأنه إذا تيب على الوافي، كان ذلك نوعاً من عذاب الغادر. والله أعلم.

ينظر: «الكشاف» (٥٦٥/٣)، و«مختصر الشواذ» ص (١٢١)، و«البحر المحيط» (٢٤٤/٧)، و«الدر المصون» (٤٢٧/٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ سَبَا»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

واختلف في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية. فقيل: ذلك مكِّي، وقيل: مدني.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُتْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُتْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الألف واللام في ﴿الحمد﴾: لاستغراق جنس المحامد، أي: الحمد على تنوعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة، و﴿يلج﴾ معناه: يدخل، و﴿يعرج﴾ معناه: يصعد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يُعَذِّبُهُ عَنْهُ مَنَاقِلُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
﴿يَجْزِيكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم مَغْفِرُونَ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾
﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا عَلَيْنَا فَمَنَعْنَاهُمْ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ﴾
﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَتَّبِعُكُمُ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مَرْجَفٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾
﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾
﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن شَاءَ نُخِفِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ﴾
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِيَّ مَعَهُ وَالظُّلُمَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدُ﴾
﴿أَن أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَرَّزًا فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ روي: أن قائل هذه المقالة هو أبو

سفيان بن حرب^(١)، واللام من قوله: ﴿ليجزى﴾ يصح أن تكون متعلقة بقوله: ﴿لتأينكم﴾ و﴿الذين﴾ معطوف على ﴿الذين﴾ الأولى، أي: وليجزى ليجزي الذين سَعَوْا و﴿معاجزين﴾ معناه: مُحَاوِلِينَ تَعْجِيزَ قَدْرَةِ اللَّهِ فِيهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ يَرْوُونَ الْوَحْيَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَقًّا، وَ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾ قِيلَ: هُمْ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ الْمُؤْمِنُونَ^(٢) بِهِ، ثُمَّ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْكُفَّارِ مَقَالَتَهُمُ الَّتِي قَالُوهَا عَلَى جِهَةِ التَّعْجِبِ وَالْهَزْءِ وَاسْتِغْثَادِ الْبَغْثِ، ﴿هَلْ نَذَلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾؛ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقٍ﴾ بِالْبَلَى وَتَقَطُّعِ الْأَوْصَالِ فِي الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا و﴿جديد﴾ بمعنى مُجَدِّدٍ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هُوَ أَيْضًا مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْ قَوْلِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ﴾: يُرِيدُ عَذَابَ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ عَذَابَ الدُّنْيَا أَيْضًا، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفْلَمْ يَرَوْا﴾ لَهُوَلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؛ وَقَفَّهَمُ اللَّهُ عَلَى قَدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ إِحَاطَتِهَا بِهِمْ، وَالْمَعْنَى: أَلَيْسَ يَرَوْنَ أَمَامَهُمْ وَوَرَاءَهُمْ سَمَائِي وَأَرْضِي، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ، ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ / احْتِجَاجًا عَلَى مَا مَنَحَ مُحَمَّدًا، و﴿أُوبِي﴾ مَعْنَاهُ: رَجَعِي مَعَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: يَا جِبَالَ سَبِّحِي مَعَهُ، أَيْ: يُسَبِّحُ هُوَ وَتَرْجِعُ هِيَ مَعَهُ التَّسْبِيحَ، أَيْ: تُرَدِّدُهُ بِالذِّكْرِ^(٣).

١٧٨

وقال مؤرج: ﴿أُوبِي﴾ سَبِّحِي بِلُغَةِ الْحَبَشَةِ، وَقَرَأَ^(٤) عَاصِمٌ: «والطير» - بالرفع - عَطْفًا عَلَى لَفْظِ قَوْلِهِ: «يا جبال» وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ: «والطير» - بِالنَّصْبِ ..

- (١) ذكره ابن عطية (٤/٤٠٥).
 - (٢) أخرجه الطبري (٣٤٧/١٠) (٢٨٧١١)، وذكره البغوي (٣/٥٤٩)، وابن عطية (٤/٤٠٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٢٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.
 - (٣) أخرجه الطبري (٣٥٠/١٠) (٢٨٧١٩)، وذكره ابن عطية (٤/٤٠٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٢٦)، وعزاه لابن أبي شيبة في «المنصف»، وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.
 - (٤) يعني قرأ عاصم في غير رواية حفص. وبها قرأ الأعرج وقرأ بها يعقوب كما ذكر الأزهري في «معاني القراءات» (٢/٢٩٠). وقرأ بقراءة الجمهور عاصم في رواية حفص، والحسن، وابن أبي إسحاق، وأبو جعفر. وبالجملية فقد قال الأزهري (٢/٢٨٩): واتفق القراء على نصب قوله: «يا جبال أو بي معه والطير».
- وينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٠٧)، و«البحر المحيط» (٧/٢٥٣)، و«الدر المصون» (٥/٤٣٤).

قَالَ سَيَبَوِّئُهُ: عَطَفَ عَلَى مَوْضِع قَوْلِهِ: «يا جبال» لِأَنَّ مَوْضِعَ الْمُنَادَى الْمَفْرَدِ نَضْبٌ، وَقِيلَ: نَضَبُهَا بِإِضْمَارِ فِعْلِ تَقْدِيرِهِ: وَسَخَرْنَا الطَّيْرَ، ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ مَعْنَاهُ: جَعَلْنَاهُ لَيْنًا، وَرَوَى قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: أَنَّ الْحَدِيدَ كَانَ لَهُ كَالشَّمْعِ؛ لَا يَخْتِاجُ فِي عَمَلِهِ إِلَى نَارٍ^(١)، وَ«السَّابِغَاتُ»: الدُّرُوعُ الْكَاسِيَّاتُ ذَوَاتُ الْفُضُولِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الَّذِي أَمَرَ بِهِ هُوَ فِي قَدَرِ الْحَلَقَةِ، أَيُ: لَا تَعْمَلُهَا صَغِيرَةً فَتَضْعَفَ؛ فَلَا يَقْوَى الدُّرْعُ عَلَى الدَّفَاعِ، وَلَا تَعْمَلُهَا كَبِيرَةً، فَيُنَالَ لَابِسُهَا مِنْ خِلَالِهَا^(٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّقْدِيرُ: الَّذِي أَمَرَ بِهِ هُوَ فِي الْمِسْمَارِ^(٣)، وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ذَلِكَ؛ فَقَالَ: الْمَعْنَى: لَا تَدِقُ الْمِسْمَارَ فَيَتَسَلَّلَ وَلَا تُغْلِظُهُ فَيَنْقُصِمَ بِالْقَافِ، وَبِالْفَاءِ أَيْضًا رَوَايَةٌ.

ت: قَالَ الْهَرَوِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ «السرد» مُتَابَعَةُ حَلَقِ الدُّرْعِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى يَتَنَاسَقَ، يُقَالُ: فَلَانَ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا، أَيُ: يَتَابَعُهُ. انْتَهَى.

﴿وَلِسْلَيْتَيْنَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ أَلْجَى مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنَ رَيْبَةٍ وَمَنْ يُرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْدَبٍ وَتَمْشِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِسْلَيْمَانَ الرِّيحِ﴾ الْمَعْنَى: وَلِسْلَيْمَانَ سَخَرْنَا الرِّيحَ، وَغُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ.

قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: إِنَّهَا كَانَتْ تَقْطَعُ بِهِ فِي الْعُدُوِّ إِلَى قُرْبِ الزَّوَالِ؛ مَسِيرَةَ شَهْرٍ،

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٥١/١٠) (٢٨٧٣٠) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٠٧/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ٥٢٧) بَنَحُوهُ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ»، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ قَتَادَةَ بَنَحُوهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٥١/١٠) (٢٨٧٣٤) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٠٨/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٥٢/١٠) رَقْمَ (٢٨٧٣٥) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٠٨/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٧/٥) بَنَحُوهُ، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَالْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَتَقَطَّعَ فِي الرِّوَّاحِ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ، مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَكَانَ سَلِيمَانُ إِذَا أَرَادَ قَوْماً لَمْ يَشْعُرُوا حَتَّى يُظِلَّهُمْ فِي جَوْ السَّمَاءِ^(١). وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظَرِ﴾:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُ: كَانَتْ تَسِيلُ لَهُ بِالْيَمَنِ عَيْنٌ جَارِيَةٌ مِنْ نُحَاسٍ؛ يُصْنَعُ لَهُ مِنْهَا جَمِيعُ مَا أَحَبَّ، وَ﴿الْقَظَرُ﴾: النُّحَاسُ^(٢)، وَ﴿يَزِغُ﴾: مَعْنَاهُ: يَمِلُ، أَيْ: يَنْحَرِفُ عَاصِياً، وَقَالَ: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: «عَنْ إِرَادَتِنَا» لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ يَخَالِفُ إِرَادَتَهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى وَيَقَعُ مَا يَخَالِفُ الْأَمْرَ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ عَذَابُ السَّعِيرِ﴾ قِيلَ: عَذَابُ الْآخِرَةِ.

وقيل: بَلْ كَانَ قَدْ وُكِّلَ بِهِمْ مَلَكٌ بِيَدِهِ سَوْطٌ مِنْ نَارِ السَّعِيرِ؛ فَمَنْ عَصَى ضَرَبَهُ فَأَخْرَقَهُ، وَ«الْمَحَارِبُ»: الْأُبْنِيَّةُ الْعَالِيَةُ الشَّرِيفَةُ، قَالَ قَتَادَةُ: الْقُصُورُ وَالْمَسَاجِدُ وَالتَّمَائِيلُ^(٣)، قِيلَ: كَانَتْ مِنْ زُجَاجٍ وَنُحَاسٍ تَمَائِيلُ أَشْيَاءَ لَيْسَتْ بِحَيَوَانٍ، «وَالْجَوَابِي»: جَمْعُ جَابِيَةٍ وَهِيَ الْبِرْكَةُ الَّتِي يُجْبَى إِلَيْهَا الْمَاءُ وَ﴿رَاسِيَاتٌ﴾ مَعْنَاهُ: ثَابِتَاتٌ لِكِبَرِهَا، لَيْسَتْ مِمَّا يُنْقَلُ أَوْ يُحْمَلُ وَلَا يَسْتَطِيعُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْجُنُّ، ثُمَّ أَمُرُوا مَعَ هَذِهِ النِّعَمِ بِأَنْ يَغْمُلُوا بِالطَّاعَاتِ، وَ﴿شُكْرًا﴾ يُحْتَمَلُ نَضْبُهُ عَلَى الْحَالِ، أَوْ عَلَى جِهَةِ الْمَفْعُولِ، أَيْ: اْعْمَلُوا عَمَلًا هُوَ الشُّكْرُ كَأَنَّ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا هِيَ نَفْسُ الشُّكْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعَدَ الْمَنْبَرَ فَقَتَلَ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ الْعَمَلَ شُكْرًا: الْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْعُصْبُ، وَالْقُضْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»^(٤)، وَهَكَذَا نَقَلَ ابْنُ

- (١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٥٣/١٠) بِرَقْم (٢٨٧٤٠) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «فِي تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٠٨)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٧/٥) بَنَحُوهُ، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.
- (٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٥٣/١٠) بِرَقْم (٢٨٧٤٥) عَنْ قَتَادَةَ، وَرَقْم (٢٨٧٤٦) عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، وَرَقْم (٢٨٧٤٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٥١/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٠٩)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٨/٣) بَنَحُوهُ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٨/٥) بَنَحُوهُ، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.
- (٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٥٤/١٠) رَقْم (٢٨٧٥١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٠٩)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٨/٣)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٩/٥) وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ قَتَادَةَ.
- (٤) ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥/٤٣٠-٤٣١)، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ الْمُنْذِرِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مَرْسَلًا، وَإِلَى ابْنِ مَرْدُوَيْهِ عَنْ حَفْصَةَ مَرْفُوعًا. وَالْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا. وَابْنُ النُّجَّارِ فِي «تَارِيخِهِ» عَنْ أَبِي ذَرٍّ. وَذَكَرَهُ الْهِنْدِيُّ فِي «كَنْزِ الْعَمَالِ» (٤٣٢٢٤)، وَعَزَاهُ لِلْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

الْعَرَبِيُّ هَذَا الْحَدِيثُ فِي «أَحْكَامِهِ» وَعِبَارَةُ الدَّأُوْدِيِّ: وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾، وَقَالَ: ثَلَاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ آلَ دَاوُدَ: الْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى/ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»^(١) ٧٨ ب قَالَ الْقُرْطُبِيُّ^(٢) الشُّكْرُ تَقْوَى اللَّهِ وَالْعَمَلُ بِطَاعَتِهِ. انْتَهَى.

قَالَ ثَابِتٌ: رُوِيَ أَنَّ دَاوُدَ كَانَ قَدْ جَزَأَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَى أَهْلِهِ؛ فَلَمْ تَكُنْ تَأْتِي سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ إِلَّا وَإِنْسَانٌ مِنْ آلِ دَاوُدَ قَائِمٌ يُصَلِّي؛ يَتَنَاقَبُونَ دَائِمًا^(٣)، وَكَانَ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيمَا رُوِيَ - يَأْكُلُ الشَّعِيرَ وَيُطْعِمُ أَهْلَهُ الْخُشَكَارَ، وَيُطْعِمُ الْمَسَاكِينَ الدَّرْمَكَ^(٤)، وَرُوِيَ أَنَّهُ مَا شَبِعَ قَطُّ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ: أَخَافُ إِنْ شَبِعْتُ أَنْ أَتَسَى الْجِيَاعَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ يُحْتَمَلُ: أَنْ تَكُونَ مَخَاطَبَةً لِآلِ دَاوُدَ، وَيَحْتَمَلُ: أَنْ تَكُونَ مَخَاطَبَةً لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى كُلِّ وَجْهِ؛ فَيُحِبُّهَا تَخْرِيسٌ وَتَنْبِيْهُ، قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ فِي «الْحَكَمِ»: مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعَقَالِهَا.

وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَلِمِ الْفَارِقِيَّةِ»: لَا تَغْفُلْ عَنْ شُكْرِ الصَّنَائِعِ؛ وَسُرْعَةَ اسْتِزْجَاعِ الْوَدَائِعِ، وَقَالَ أَيْضًا: يَا مَيِّتًا نُشِرَ مِنْ قَبْرِ الْعَدَمِ، بِحُكْمِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، لَا تَنْسَ سَوَالِفَ الْعُهُودِ وَالذَّمَمِ، اذْكُرْ عَهْدَ الْإِبْجَادِ، وَذِمَّةَ الْإِحْسَانِ وَالْإِزْفَادِ، وَحَالَ الْإِضْدَارِ وَالْإِيرَادِ، وَفَاتِحَةَ الْمَبْدِإِ وَخَاتِمَةَ الْمَعَادِ، وَقَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : يَا دَائِمَ الْغَفْلَةِ عَنْ عَظَمَةِ رَبِّهِ، أَيْنَ النَّظَرُ فِي عَجَائِبِ صُنْعِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِي غَرَائِبِ حُكْمَتِهِ، أَيْنَ شُكْرُ مَا أَفَاضَ عَلَيْكَ مِنْ مَلَائِسَ إِحْسَانِهِ وَنِعَمِهِ، يَا ذَا الْفِطْنَةِ، اغْتَنِمِ نِعْمَةَ الْمُهَلَّةِ، وَفُرْصَةَ الْمُكْنَةِ، وَخِلْسَةَ السَّلَامَةِ، قَبْلَ حُلُولِ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ. انْتَهَى.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْنَا عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) ينظر: «القرطبي» (١٧٧/٤).

(٣) ذكره البخاري في «تفسيره» (٥٥٢/٣)، وابن عطية في «تفسيره» (٤١٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/

٥٢٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ثابت البناني.

(٤) الدرر: هو الدقيق الحواري.

ينظر: «النهاية» (١١٤/٢).

تَبَيَّنَتْ لِحِجْنُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فلما قضينا عليه الموت...﴾ الآية. رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(١) وَابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ كَلَامَ طَوِيلٍ، حَاصِلُهُ: أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَحْسَنَ بِقُرْبِ أَجَلِهِ؛ اجْتَهَدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَجَدَ فِي الْعِبَادَةِ؛ وَجَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ أَمِيرُ بَقْبُضِ رُوحِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا مُدَّةٌ يَسِيرَةٌ.

قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَقَالَ سُلَيْمَانُ عِنْدَ ذَلِكَ: اللَّهُمَّ، عَمَّ عَلَى الْجِنِّ مَوْتِي؛ حَتَّى يَعْلَمَ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَكَانَتْ الْجِنُّ تُخْبِرُ الْإِنْسَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ أَشْيَاءَ، وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا فِي عَدِي، وَلَمَّا أَعْلَمَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِقُرْبِ الْأَجْلِ؛ أَمَرَ حَبِيبُذَ الْجِنِّ، فَصَنَعَتْ لَهُ قُبَّةً مِنْ رُجَاجٍ تَشْفُ؛ وَدَخَلَ فِيهَا يَتَعَبَّدُ؛ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا بَابًا، وَتَوَكَّأَ عَلَى عَصَاهُ عَلَى وَضْعِ يَتَمَسَّكَ مَعَهُ وَإِنْ مَاتَ، ثُمَّ تَوَفَّى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَلَمَّا مَضَى لِمَوْتِهِ سَنَةً، خَرَّ عَنْ عَصَاهُ، وَالْعَصَا قَدْ أَكَلَتْهَا الْأَرْضُ؛ وَهِيَ الدُّودَةُ الَّتِي تَأْكُلُ الْعُودَ؛ فَرَأَتْ الْجِنُّ أَنْخِرَازَهُ فَتَوَهَّشَتْ مَوْتَهُ؛ «وَالْمَنْسَاءُ»: الْعَصَا، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ﴾ بِإِسْنَادِ الْفَعْلِ إِلَيْهَا، أَي: بَانَ أَمْرُهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: افْتُضِحَتْ الْجِنُّ، أَي: لِلْإِنْسِ، هَذَا تَأْوِيلٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ﴾ بِمَعْنَى: عَلِمَتِ الْجِنُّ وَتَحَقَّقَتْ، وَيُرِيدُ بِالْجِنِّ: جُمْهُورَهُمْ، وَالْخِدْمَةَ مِنْهُمْ، وَيُرِيدُ بِالضَّمِيرِ فِي ﴿كَانُوا﴾: رُؤَسَاءَهُمْ وَكِبَارَهُمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ عِلْمَ الْغَيْبِ لِاتِّبَاعِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

١٧٩

/ وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: «تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ» عَلَى بِنَاءِ الْفَعْلِ لِلْمَفْعُولِ، أَي: تَبَيَّنَتْهَا النَّاسُ، وَ«الْعَذَابُ الْمُهِينُ»: مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخِدْمَةِ وَالتَّسْخِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانَتْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ لَمَّا خَفِيَ عَلَيْهَا مَوْتُ سُلَيْمَانَ؛ وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهَا بِدَوَامِهَا فِي الْخِدْمَةِ الصَّغْبَةِ، وَهُوَ مَيِّتٌ فِ «الْمُهِينِ» الْمَذِلُّ، مِنَ الْهَوَانِ، وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ: أَنَّ الشَّيَاطِينَ قَالَتْ لِلْأَرْضِ: لَوْ كُنْتَ تَأْكُلِينَ الطَّعَامَ لَأَتَيْنَاكِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَكِنَّا سَنَنْقُلُ إِلَيْكَ الْمَاءَ وَالطِّينَ؛ فَهَمْ يَنْقُلُونَ إِلَيْهَا ذَلِكَ حَيْثُ كَانَتْ شُكْرًا لَهَا، أَنْتَهَى.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٨/١٠) رقم (٢٨٧٧٧)، ورقم (٢٨٧٧٨) بنحوه، وذكره البغوي في «تفسيره» (٥٥٢/٣)، وابن عطية في «تفسيره» (٤١١/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٢/٥)، وعزاه للبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن السني في «الطب النبوي»، وابن مردويه عن ابن عباس.

بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ رَبُّ عَفْوٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ لِشَجَرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾ .

وقوله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية...﴾ الآية، هذا مثل لقريش يقوم أنعم الله عليهم فلم يشكروا؛ فأنقم منهم، أي: فأنتم أيها القوم مثلهم، و﴿سبأ﴾ هنا يراد به القبيل، واختلِف: لم سمي القبيل بذلك؟ فقالت فزقة: هو اسم امرأة.

وقيل: اسم موضع سمي به القبيل، وقال الجمهور: هو اسم رجل، هو أبو القبيل كله، وفيه حديث فزقة بن مسنيك المتقدم في «سورة النمل»؛ خرجه الترمذي^(١)، و﴿آية﴾: معناه: عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته، و﴿جنتان﴾: مبتدأ وخبره: ﴿عن يمين وشمال﴾، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي جنتان، وقيل: ﴿جنتان﴾ بدل من ﴿آية﴾ وضعف، وروي في قصصهم أنه كان في ناحية اليمن وادٍ عظيم بين جبلين، وكانت جنتا الوادي فواكه وزروعاً، وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبلين؛ جسر عظيم من حجارة من الجبل إلى الجبل، فاحتبس الماء فيه، وصار بحيرة عظيمة، وأخذ الماء من جنتيها فمشى مرتفعاً يسقي جئات كثيرة جنتي الوادي، قيل: بنته بلقيس، وقيل بنتا حمير أبو القبائل اليمنية كلها، وكانوا بهذه الحال في أزعد عيش، وكانت لهم بعد ذلك قرى ظاهرة متصلة من اليمن إلى الشام، وكانوا أزياب تلك البلاد في ذلك الزمان.

ت: وقول *ع*(٢): «وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبلين» صوابه: وكان قد بُني في أسفل الوادي عند آخر الجبلين، و﴿كلوا﴾: فيه حذف معناه: قيل لهم: كلوا، و﴿طيبة﴾ معناه: كريمة الثربة حسنة الهواء، وروي أن هذه المقالة؛ من الأمر بالأكل والشكر والتوقيف على طيب البلدة وغفران الرب مع الإيمان به؛ هي من قول الأنبياء لهم، وبعث إليهم فيما روي ثلاثة عشر نبياً فكفروا بهم وأعرضوا؛ فبعث الله على ذلك السد جزداً أعشى؛ توالد فيه؛ وخرقه شيئاً بعد شيء؛ فأنخرق السد وقاص الماء على أموالهم وجناتهم فغرقها؛ وأهلك كثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار، واختلِف في ﴿العرم﴾. فقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: هو كل ما بُني أو سُم ليُمسك^(٣) الماء، وقال ابن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٤١٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٢/١٠) رقم (٢٨٧٨٩) عن المغيرة بن حكيم، ورقم (٢٨٧٩٠) عن أبي ميسرة، كلاهما بنحوه، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤١٤) عنهما.

عَبَّاسٌ وَغَيْرُهُ: ﴿الْعَرَمُ﴾: اسْمُ وَادِي ذَلِكَ الْمَاءِ بِعَيْنِهِ الَّذِي كَانَ السَّدُّ بَيْنِي ^(١) لَهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً: ﴿الْعَرَمُ﴾ الشَّدِيدُ ^(٢).

قَالَ *ع* ^(٣): فَكَأَنَّهُ صِفَةُ لِلْسَّيْلِ مِنَ الْعَرَامَةِ، وَالْإِضَافَةُ إِلَى الصِّفَةِ مُبَالَغَةٌ؛ وَهِيَ كَثِيرَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَقِيلَ: ﴿الْعَرَمُ﴾: صِفَةُ لِلْمَطَرِ الشَّدِيدِ الَّذِي كَانَ عَنْهُ ذَلِكَ السَّيْلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ فِيهِ تَجَوُّزٌ وَأَسْتِعَارَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْبَدَلَ - مِنْ الْخَمْطِ وَالْأَثْلِ - لَمْ يَكُنْ جَنَّتًا؛ لِكِنَّ هَذَا كَمَا تَقُولُ لِمَنْ جَرَّدَ ثَوْبًا جَيْدًا وَضَرَبَ ظَهْرَهُ: هَذَا الضَّرْبُ ثَوْبٌ صَالِحٌ لَكَ؛ وَنَحْوُ هَذَا، وَ«الْخَمْطُ»: شَجَرُ الْأَرَاكِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ^(٤)، وَقِيلَ: «الْخَمْطُ»: كُلُّ شَجَرٍ لَهُ شَوْكٌ وَتَمَرَّتُهُ كَرِبَهُ الطَّعْمِ بِمَرَارَةٍ أَوْ حُمُوضَةٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَمِنْهُ تَخَمَّطَ اللَّبَنُ إِذَا تَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَ«الْأَثْلُ»: ضَرْبٌ مِنَ الطَّرْفَاءِ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَ«السَّدْرُ»: مَعْرُوفٌ وَهُوَ لَهُ نَبَقٌ شَبَّهِ الْعُنَابِ لِكُنْهُ دُونَهُ فِي الطَّعْمِ بِكَثِيرٍ، وَلِلْخَمْطِ ثَمَرٌ غَثٌ هُوَ الْبَرِيرُ، وَلِلْأَثْلِ ثَمَرٌ قَلِيلٌ الْعَنَاءُ غَيْرُ حَسَنِ الطَّعْمِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ ^(٥) وَابْنُ كَثِيرٍ: «أُكِلَ»: - بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْكَافِ -، وَالْبَاقُونَ: - بِضَمِّهِمَا - وَهُمَا بِمَعْنَى الْجَنَى وَالثَّمَرَةِ، وَمِنْهُ: ﴿تَوْتِي أْكُلْهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥]. أَي: جَنَاهَا، وَقَرَأَ ^(٦) أَبُو عَمْرٍو: «أُكِلَ خَمْطٌ» بِإِضَافَةٍ «أُكِلَ» إِلَى «خَمْطِ».

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٢/١٠) رَقْم (٢٨٧٩٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَقْم (٢٨٧٩٣) عَنْ قَتَادَةَ، وَرَقْم (٢٨٧٩٤) عَنْ الضَّحَّاكِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤١٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْثَوْر» (٥/٤٣٧). وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَابْنِ جَرِيرٍ عَنْ الضَّحَّاكِ.

وَلَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٣/١٠) رَقْم (٢٨٧٩٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤١٤).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ» (٤/٤١٤).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٤/١٠)، رَقْم (٢٨٨٠١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَقْم (٢٨٨٠٢) عَنْ الْحَسَنِ، (٢٨٨٠٣) عَنْ مُجَاهِدٍ، (٢٨٨٠٥) عَنْ قَتَادَةَ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٥٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤١٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٣٣) وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْثَوْر» (٥/٤٣٧).

وَعَزَاهُ لِلْفَرْيَابِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السَّدِيِّ، وَلَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٥) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٥٢٨)، وَ«الْحَبَّةُ» (٦/١٤)، وَ«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢/٢١٧)، وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/٢٩٢)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١٥٦)، وَ«إِتْحَافُ» (٢/٣٨٥).

(٦) يَنْظُرُ: مَصَادِرُ الْقِرَاءَةِ السَّابِقَةِ، وَ«حَبَّةُ الْقُرْآنِ» (٥٨٧)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيَّةِ» (٥/١٥٥)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٥٥٣).

وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما أخرجه عليهم.

وقوله: «وهل يجازي»، أي: يناقش ويُقَارَضُ بمثل فعله قَدْرًا بقدر، لأنَّ جزاء المؤمن إنما هو بِتَفْضِيلٍ وَتَضْعِيفِ ثَوَابٍ، وَأَمَّا الَّذِي لَا يَزَادُ وَلَا يَنْقُصُ فَهُوَ الْكَافِرُ، وَقَرَأَ^(١) حمزة والكسائي: «وهل تُجَازِي» - بالنون وكسر الزاي «الكفور» - بالنصب ..

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى...﴾ الآية، هذه الآية وَمَا بَعْدَهَا وَصَفَ حالهم قَبْلَ مَجِيءِ السَّيْلِ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَ مَا كَانَ مَنَحَهُمْ مِنَ الْجَنَّتَيْنِ وَالتَّعَمَّةِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ؛ كَأَنَّ قَدْ أَضْلَحَ لَهُمُ الْبِلَادَ الْمُتَّصِلَةَ؛ وَعَمَّرَهَا وَجَعَلَهُمْ أَزْبَابَهَا؛ وَقَدَّرَ السَّيْرَ بِأَنَّ قَرَبَ الْقُرَى بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ؛ حَتَّى كَانَ الْمَسَافِرُ مِنْ مَأْرَبٍ إِلَى الشَّامِ يَبِيتُ فِي قَرْيَةٍ وَيَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى حَمَلِ زَادٍ، وَ﴿القرى﴾: الْمُدُنُ، وَالْقُرَى الَّتِي بُورِكَ فِيهَا: هِيَ بِلَادُ الشَّامِ بِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ، وَالْقُرَى الظَّاهِرَةُ: هِيَ الَّتِي بَيْنَ الشَّامِ وَمَأْرَبٍ وَهِيَ أَسْمُ بِلَدِهِمْ.

قال ابن عباس^(٢) وغيره: هِيَ قُرَى عَرَبِيَّةٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ. وَأَخْتَلَفَ فِي مَعْنَى ﴿ظاهرة﴾ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَاهُ: مُسْتَعْلِيَّةٌ مُزْتَفِعَةٌ فِي الْأَكَامِ وَهِيَ أَشْرَفُ الْقُرَى، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَاهُ: يَظْهَرُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ؛ فَهِيَ أَبْدَأُ فِي قَبْضَةِ عَيْنِ الْمَسَافِرِ؛ لَا يَخْلُو عَنْ رُؤْيَةِ شَيْءٍ مِنْهَا.

قَالَ *ع^(٣): * والَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ مَعْنَى ﴿ظاهرة﴾ خَارِجَةٌ عَنِ الْمُدُنِ فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقُرَى الصَّغَارِ الَّتِي هِيَ فِي ظَوَاهِرِ الْمُدُنِ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَ﴿آمنين﴾، أَي: مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَأَفَاتِ السَّفَرِ، ثُمَّ حَكَى - سُبْحَانَهُ - عَنْهُمْ مَقَالََةً قَالُوهَا عَلَى جِهَةِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ؛ وَهِيَ طَلَبُ الْبُعْدِ بَيْنَ الْأَسْفَارِ كَأَنَّهُمْ مَلُّوا التَّعَمَّةَ فِي الْقُرْبِ وَطَلَبُوا اسْتِبْدَالَ الَّذِي

(١) قرأ الأخوان وحفص «تُجَازِي» بنون العظمة وكسر الزاي أي نحن «إِلَّا الْكُفُورَ» مفعول به . والباقون بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول «إِلَّا الْكُفُورَ» رَفَعَ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، وَمُسْلِمٌ بن جندب «يُجَازِي» مبنياً للمفعول «إِلَّا الْكُفُورَ» رَفَعَا وَقَرَأَ «يُجَازِي» مبنياً للفاعل وهو الله تعالى . «الْكُفُورَ» نَصَبًا عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ . ينظر: «حجة القراءات» ص ٥٨٧، و«الدر المصون» (٥/٤٤١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٧/١٠) رقم (٢٨٨١٨) عن ابن عباس، ورقم (٢٨٨٢٠) عن الضحاك، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤١٥/٤) عنهما، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٣٣).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤١٦/٤).

هُوَ أَذْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَفَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ؛ وَمِنْهُ الْمَثَلُ السَّائِرُ «تَفَرَّقُوا أَيَادِي سَبَا وَأَيْدِي سَبَا» يُقَالُ الْمَثَلُ بِالْوَجْهَيْنِ؛ وَهَذَا هُوَ تَمْزِيْقُهُمْ كُلُّ مَمْزَقٍ؛ فَتَيَامَنُ مِنْهُمْ سِتَّةُ قَبَائِلَ، وَتَسَاءَمَتْ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ حَسْبَمَا فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ وَأُمَّتَهُ عَلَى جِهَةِ التَّنْبِيهِ؛ بَأَنَّ هَذَا الْقَصَصَ فِيهِ آيَاتٌ وَعِبَرٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مُتَّصِفٍ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلْ أَدْعُوا إِلَيْكَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِلَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ...﴾ الآية، قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: «وَلَقَدْ صَدَقَ» بِتَخْفِيفِ الدَّالِ، وَقرأ حمزة والكسائي^(١): «صَدَقَ» بِتَشْدِيدِهَا؛ فَالظَّنُّ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ مَفْعُولٌ «بِصَدَقَ» وَمَعْنَى / الآية: أَنَّ إِبْلِيسَ ظَنَّ فِيهِمْ ظَنًّا حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وَغَيْرَ ذَلِكَ فَصَدَقَ ظَنَّهُ فِيهِمْ؛ وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُوَ اتَّبَاعٌ فِي كُفْرٍ لِأَنَّهُ فِي قِصَّةِ قَوْمٍ كُفَّارٍ.

وقوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَ«مِنْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَي: مِنْ حُجَّةٍ، قَالَ الْحَسَنُ: وَاللَّهُ مَا كَانَ لَهُ سَيْفٌ وَلَا سَوْطٌ وَلَكِنَّهُ اسْتَمَالَهُمْ فَمَالُوا بِتَرْزِيئِهِ^(٢).

(١) وَقرأ عاصمٌ بِتَقْلِيلِهَا - كَمَا قرأ الأخوان.

ينظر: «السبعة» (٥٢٧)، و«الحجة» (٢٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٢١٩)، و«معاني القراءات» (٢/٢٩٤)، و«شرح الطيبة» (١٥٦/٥)، و«العنوان» (١٥٦)، و«حجة القراءات» (٥٨٨)، و«شرح شُعَلَة» (٥٥٤)، و«إتحاف» (٢/٣٨٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٧١/١٠) رَقْم (٢٨٨٣٥) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤١٧) بِلَفْظِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٣٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْتَوَر» (٥/٤٤٠) كَلَاهِمَا بِنَحْوِهِ.

وَعَزَاهُ السِّيُوطِيُّ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يريد: الأَصْنَامَ والمَلَائِكَةَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ؛ وَهَذِهِ آيَةٌ تَعْجِيزٌ وَإِقَامَةٌ حُجَّةٍ؛ وَيُرْوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ عِنْدَ الْجُوعِ الَّذِي أَصَابَ قُرَيْشًا، ثُمَّ جَاءَ بِصِفَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ إِلَهًا أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مُلْكَ اخْتِرَاعِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؛ وَأَنَّهُمْ لَا شِرْكَ لَهُمْ فِيهِمَا، وَهَذَانِ نَوْعَا الْمُلْكِ: إِمَّا اسْتِنْدَادٌ وَإِمَّا مُشَارَكَةٌ؛ فَتَقَى عَنْهُمْ جَمِيعَ ذَلِكَ وَتَقَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى مُعِينٌ فِي شَيْءٍ، وَ«الظَّهِيرُ»: الْمُعِينُ، ثُمَّ قَرَّرَ فِي الْآيَةِ بَعْدَ أَنَّ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ؛ لَا تَصِحُّ مِنْهُمْ شَفَاعَةٌ لَهُمْ إِذْ هَؤُلَاءِ كَفَرُوا وَلَا يَأْذُنُ اللَّهُ فِي الشَّفَاعَةِ فِي كَافِرٍ، وَقَرَأَ حَمْزُهُ وَالْكَسَائِيُّ وَأَبُو عَمْرٍو «أُذِنَ» - بِضَمِّ الْهَمْزَةِ - (١).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾ الآية، الضَّمِيرُ فِي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَهًا.

قال ع* (٢): وَتَطَاهَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ - أَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾ - إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَلَائِكَةِ؛ إِذَا سَمِعَتْ الْوَحْيَ إِلَى جِبْرِيلَ، أَوْ الْأَمْرَ يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ، سَمِعَتْ كَجَرِّ سِلْسِلَةِ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفْوَانِ، فَتَفَزَعُ عِنْدَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا وَهَيْبَةً لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقِيلَ: خَوْفًا أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ؛ فَإِذَا فَرَعَ ذَلِكَ، فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، أَي: أُطِيرَ الْفَزَعُ عَنْهَا وَكُشِفَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَلِجِبْرِيلَ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيَقُولُ الْمَسْئُولُونَ: قَالَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

ت* (٣): وَلَفُظُ الْحَدِيثِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ أَمْرًا فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» (٣) انتهى.

(١) وحجة الباقيين في فتح الهمزة قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٣٨]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذُنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.
ينظر: «حجة القراءات» (٥٨٩)، و«السبعة» (٥٢٩ - ٥٣٠)، و«الحجة» (٢١/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٢٠/٢)، و«معاني القراءات» (٢٩٥/٢)، و«شرح الطيبة» (١٥٧/٥)، و«العنوان» (١٥٧)، و«شرح شعله» (٥٥٤)، و«إتحاف» (٣٨٦/٢).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤١٨/٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٨/٨) كتاب التفسير: باب ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ حديث (٤٨٠٠)، والترمذي (٣٦٢/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة سبأ، حديث (٣٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٦٩ - ٧٠) المقدمة: باب فيما أنكرت الجهمية، حديث (١٩٤)، والطبري في «تفسيره» (٣٧٣/١٠) رقم (٢٨٨٤٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ «فُزِعَ» - بِضَمِّ الْفَاءِ - وَمَعْنَاهُ أُطِيرَ الْفَزَعُ عَنْهُمْ وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ تَمْجِيدٌ وَتَحْمِيدٌ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى جَهَةِ الْاِخْتِجَاجِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى الرَّازِقِ لَهُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَنْ هُوَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَفْتَضِبَ الْاِخْتِجَاجَ بِأَنْ يَأْتِيَ بِجَوَابِ السُّؤَالِ؛ إِذْ هُمْ فِي بَهْتَةٍ وَوَجَمَةٍ مِنَ السُّؤَالِ؛ وَإِذْ لَا جَوَابَ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: هُوَ اللَّهُ، وَهَذِهِ السَّبِيلُ فِي كُلِّ سُؤَالٍ جَوَابُهُ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ؛ لِأَنَّ الْمُخْتَجَّ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَضِبَ وَيَتَجَاوَزَ إِلَى حُجَّةٍ أُخْرَى يوردُهَا، وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ تَلَطَّفَ فِي الدَّعْوَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ وَالْمَعْنَى: كَمَا تَقُولُ لِمَنْ خَالَفَكَ فِي مَسْأَلَةٍ: أَحَدُنَا مُخْطِئٌ تَثَبُّتْ وَتَنَبَّهْ، وَالْمَفْهُومُ مِنْ كَلَامِكَ أَنَّ مُخَالَفَكَ هُوَ الْمَخْطِئُ فَكَذَلِكَ هَذَا، مَعْنَاهُ: وَإِنَّا لَعَلَى هَدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ؛ وَإِنَّكُمْ لَعَلَى هَدًى أَوْ ٨٠ ب فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ؛ فَتَنَبَّهُوا، وَالْمَقْصِدُ أَنَّ الضَّلَالَ فِي حَيْزِهِمْ؛ / وَحَذَفَ أَحَدُ الْخَبَرَيْنِ لِدَلَالَةِ الْبَاقِي عَلَيْهِ.

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْتَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْفَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَفِيدُونَ ﴿٣٠﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ﴾ الْآيَةُ مُهَادَنَةٌ وَمُتَارَكَةٌ مَسْخُوحَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ إِخْبَارٌ بِالْبَعْثِ ﴿وَيَفْتَحُ﴾ مَعْنَاهُ: يَحْكُمُ: وَالْفَتَّاحُ: الْقَاضِي، وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي لَعَةِ الْيَمَنِ ﴿وَأَرُونِي﴾: هِيَ رُؤْيَا قَلْبٍ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، أَي: أَرُونِي بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِشْرَاقِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ...﴾ الْآيَةُ: إِغْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ وَهِيَ إِخْدَى خَصَائِصِهِ الَّتِي خُصَّ بِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٤٢)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. والبيهقي في «الأسماء والصفات».

قال أبو عبيدة: الوعد والوعيد والمنيعة؛ بمعنى؛ وخولف في هذا، والذي عليه الناس أن الوعد إذا أطلق ففي الخير؛ والوعيد في المكروه؛ والمنيعة يقع لهذا ولهذا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْضُوعُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمَاسٍ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَعْمَلْ لَهُمْ أَعْدَاءً وَأَسْرَأُوا أَنْدَامَةً لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَعْبُرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ هذه المقالة قالها بعض قرينس وهي أنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بالذي بين يديه من التوراة والإنجيل والزبور، فكأنهم كذبوا بجميع كتب الله - عز وجل - وإنما فعلوا هذا لما وقع الاحتجاج عليهم بما في التوراة من أمر محمد - عليه السلام -.

قال الواحدي: قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾، أي: في التلاوم، انتهى. وبأقي الآية بين. وقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، المعنى: بل كفرننا بمكركم بنا في الليل والنهار؛ وأضاف المكر إلى الليل والنهار من حيث هو فيهما، ولتدل هذه الإضافة على الذؤوب والدوام، والضمير في ﴿أسروا﴾ عام لجميعهم من المستضعفين والمستكبرين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَافٌ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ هذه الآية تسليية للنبي ﷺ عن فعل قرينس وقولها، أي: هذو يا محمد سيرة الأمم، فلا يهمنك أمر قومك، والقرية: المدينة، والمترف: الغني المنعم، القليل تعب النفس والبدن، فعادتهم المبادرة بالتكذيب.

وقوله: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً...﴾ الآية: يُخْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ فِي ﴿قالوا﴾ على المترفين؛ وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِقَرْنِس، وَيَكُونُ كَلَامُ الْمُتَرَفِينَ قَدْ تَمَّ قَبْلَهُ، وَفِي «صحيح مسلم» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى

قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١). انتهى.

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْمَالَ الرَّائِدَ عَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ قَلَّ أَنْ يَسْلَمَ صَاحِبُهُ مِنَ الْآفَاتِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

وَقَدْ جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَغَيْرِهِ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي دَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَكْثَرُونَ مَا لَا هُمْ الْأَقْلَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا»^(٢). - وَأَشَارَ ابْنُ شِهَابٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» اهـ. وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رَقَائِقِهِ» قَالَ: أَخْبَرَنَا حَيُّوَةُ بْنُ شَرَنْجٍ عَنْ عَقِيلِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: / «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: لَنْ يَنْجُو مِنِّي الْعَبْدُ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ أَزِينَ مَالَهُ فِي عَيْنَيْهِ فَيَمْنَعُهُ مِنْ حَقِّهِ؛ وَإِمَّا أَنْ أَسْهَلَ لَهُ سَبِيلَهُ فَيَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ؛ وَإِمَّا أَنْ أُحْبِبَّهُ فَيَكْسِبُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ»^(٣)؛ انتهى. و«الزَّلْفَى»: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْقُرْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «جزاء»^(٤) الضعف، بِالِإِضَافَةِ وَ«الضعف»: هُنَا اسْمُ جِنْسٍ، أَي: بِالتَّضْعِيفِ، إِذْ بَغَضَهُمْ يُجَارَى إِلَى عَشْرَةٍ، وَبَغَضَهُمْ أَكْثَرُ صَاعِدًا إِلَى سِتِّ مِائَةٍ بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ وَمَشِيئَةِ اللَّهِ فِيهَا.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٢٨) قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٢٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَايَ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نُنْفَخُ النَّفْثَ مِنْ عِصْفَرِكُمْ وَقُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ السَّعِيدِ ﴿٤٣﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٥﴾

(١) أخرجه مسلم (١٩٨٧/٤) كتاب البر والصلة: باب تحريم ظلم المسلم، حديث (٢٥٦٤/٣٤)، وابن ماجه (١٣٨٨/٢) كتاب الزهد: باب القناعة، حديث (٤١٤٣)، وأحمد (٥٣٩/٢)، وفي «الزهد» (ص ٥٩)، وابن حبان (٣٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٨/٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٧/٣٥٤ بتحقيقنا) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٣/١١) كتاب الأيمان والنذور: باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ، حديث (٦٦٣٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ١٩٢-١٩٣) رقم (٥٤٧)، والطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (٢٤٨/١٠)، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٧٣/٧)، و«الدر المصنوع» (٥/٤٥٠).

إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدِّكَرَ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ .

وقوله تعالى: ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ تقدم تفسيره و﴿محضرون﴾ من الإخضار والإعداد، ثم كرر القول ببسط الرزق لا على المعنى الأول؛ بل هذا هنا على جهة الوعظ، والتزويد في الدنيا، والحض على الثقة في الطاعات، ثم وعد بالخلف في ذلك. إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وفي «البخاري» أن ملكاً ينادي كل يوم: اللهم، أعط منفقاً خلفاً، ويقول ملك آخر: اللهم، أعط ممسكاً تلفاً^(١). وروى الترمذي عن أبي كبشة الأنصاري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أفسم عليهن وأحدنكم حديثاً فأحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاء، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، أو كلمة نحوها»^(٢) الحديث، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، انتهى. وقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم...﴾ الآية: تقدم تفسير نظيرها مكرراً، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها؛ ثم قال تعالى: ﴿فاليوم﴾ أي: يقال لمن عبد ومن عبد: «اليوم لا يملك بغضكم لينقض نفعا ولا ضرا».

﴿وَمَا إِلَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آلَيْنَاهُمْ فكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ ثُمَّ تَنَفَّكُوا عَنْهُ قَدْ تَأْتِيَكُمُ الْغَائِيَةُ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وما آتيناكم من كتب يدرسونها...﴾ الآية المعنى: أن هؤلاء الكفرة يقولون بآرائهم في كتاب الله، فيقول بغضهم: سحر، وبغضهم: افتراء، وذلك منهم تسوؤ لا يستندون فيه إلى أثارة علم؛ فإنما ما آتيناكم من كتب يدرسونها؛ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير يباشرهم ويشافهم فيمكنهم أن يسندوا دعواهم إليه.

وقوله تعالى: ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناكم﴾ الضمير في: ﴿بلغوا﴾ يعود على قرئش، وفي آتيناكم على الأمم الذين من قبلهم، والمعنى: من القوة والنعم والظهور في

(١) أخرجه البخاري (٣/٣٥٧) كتاب الزكاة: باب قول الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى...﴾ حديث (١٤٤٢)، ومسلم (٢/٧٠٠) كتاب الزكاة: باب في المنفق، حديث (١٠١٠/٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٥٦٢-٥٦٣) كتاب الزهد: باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، حديث (٢٣٢٥). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الدُّنْيَا؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ^(١): وَالْمِغْسَارُ: الْعُشْرُ وَلَمْ يَأْتِ هَذَا الْبِنَاءُ إِلَّا فِي الْعَشْرَةِ وَالْأَرْبَعَةِ، فَقَالُوا: مِزْبَاعٌ وَمِغْسَارٌ؛ وَ«التَّكْيِيرُ» مَصْدَرٌ كَالْإِنْكَارِ فِي الْمَعْنَى، وَكَالْعَذِيرِ فِي الْوَزْنِ، وَ«كَيْفَ»: تَعْظِيمٌ لِلْأَمْرِ وَلَيْسَتْ اسْتِفْهَامًا مُجَرَّدًا؛ وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِقُرَيْشٍ، أَيْ: أَنَّهُمْ مُتَعَرِّضُونَ لِتَكْيِيرٍ مِثْلِهِ، ثُمَّ أَمَرَ - تَعَالَى - نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَالنَّظَرُ فِي حَقِيقَةِ ثُبُوتِهِ هُوَ، وَيَعْظُمُهُمْ بِأَمْرِ مُقَرَّبٍ لِلْأَفْهَامِ، فَقَوْلُهُ: ﴿يَوَاحِدَةً﴾ مَعْنَاهُ: بِقَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ إِيْجَازًا لَكُمْ وَتَقْرِيْبًا عَلَيْكُمْ وَهُوَ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ، أَيْ: لِأَجْلِ اللَّهِ أَوْ لَوَجْهِ اللَّهِ مِثْنَى أَيْ: اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مُتَنَاطِرَيْنِ وَفَرَادَى، أَيْ: وَاحِدًا وَاحِدًا، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا، هَلْ بِصَاحِبِكُمْ جَنَّةٌ، أَوْ هُوَ بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَالْوَقْفُ عِنْدَ أَبِي حَاتِمٍ ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾ / فَيَجِيءُ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ نَفْيًا مُسْتَأْنَفًا، وَهُوَ عِنْدَ سَيِّوِيهِ جَوَابٌ مَا تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْقَسَمِ؛ وَقِيلَ فِي الْآيَةِ غَيْرُ هَذَا مِمَّا هُوَ بَعِيدٌ مِنَ الْفَاطِهَا فَتَعَيَّنَ تَرْكُهُ.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧) قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَماً الْيُوسُفَ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِيْ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠).

وقوله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾ معنى الآية بين واضح لا يفتقر إلى بيان.

وقوله: ﴿يقذف بالحق على يوسف﴾ يريد بالوحي وآيات القرآن واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكميه.

وقوله سبحانه: ﴿قل جاء الحق﴾ يريد الشرع بجملته، ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ قالت فزقة: الباطل غير الحق من الكذب والكفر ونحوه، استعار له الإبداء والإعادة ونفاهما عنه، كأنه قال: وما يصنع الباطل شيئاً.

وقوله: ﴿فبما يوحى﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨٤/١٠) رقم (٢٨٨٧٧) عن ابن عباس بنحوه، ورقم (٢٨٨٧٩) عن قتادة، (٢٨٨٨٠) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٢٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٠/٥).

وعزه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولابن المنذر عن ابن جريج، ولعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

التَّائُوْشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُوْنَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُوْنَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوْا فِيْ شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ .

وقوله - تعالى :- ﴿ولو ترى إذ فرعوا...﴾ الآية. قَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: ذَلِكَ فِي الْكُفَّارِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ فِي الْقِيَامَةِ^(١).

قال ع^(٢): ﴿وَهُوَ أَرْجَحُ الْأَقْوَالِ هُنَا، وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ فَهُوَ التَّعَجُّبُ مِنْ حَالِهِمْ إِذَا فَرَعُوا مِنْ أَخَذِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَلَمْ يَتِمَّكُنْ لَهُمْ أَنْ يَمُوتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ﴾ وأخذوا من مكان قريب، ﴿أَي: أَنَّ الْأَخْذَ يَجِيئُهُمْ مِنْ قُرْبٍ فِي طَمَآئِنِّيَّتِهِمْ وَبَعْقِبِيَّهَا، بَيْنَمَا الْكَافِرُ يُؤْمَلُ وَيَتَرَجَّى إِذْ غَشِيَهُ الْأَخْذُ، وَمَنْ غَشِيَهُ أَحْذَ مِنْ قُرْبٍ؛ فَلَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا رَوْيَةَ، وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ - تعالى -، وَقِيلَ: عَلَى مُحَمَّدٍ وَشَرَعِهِ وَالْقُرْآنِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَعَامَّةُ الْقُرَاءِ: «التَّائُوْشُ» دُونَ هَمْزٍ وَمَعْنَاهُ التَّائُوْلُ، مِنْ قَوْلِهِمْ نَاشَ يَتَّوْشُ إِذَا تَنَاوَلَ، وَعِبَارَةُ الْوَاحِدِيِّ ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّائُوْشُ﴾ أَي: كَيْفَ يَتَنَاوَلُونَ التَّوْبَةَ وَقَدْ بَعُدَتْ عَنْهُمْ. انتهى.

وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَحَمْزَةً^(٣) وَالْكَسَائِيُّ: «التَّائُوْشُ» بِالْهَمْزِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُهُ كَالْقِرَاءَةِ الْأُولَى، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الطَّلَبِ؛ تَقُولُ: ائْتَأَشْتُ الْخَيْرَ إِذَا طَلَبْتَهُ مِنْ بَعْدٍ.

ت*: ﴿وَقَالَ الْبَحَارِيُّ: التَّائُوْشُ الرُّدُّ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَى الدُّنْيَا، انتهى.

﴿ويقدفون بالغيب﴾ أَي: يَرْجُمُونَ بِظُنُونِهِمْ وَيَرْمُزُونَ بِهَا الرُّسُولَ وَكِتَابَ اللَّهِ، وَذَلِكَ غَيْبٌ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ سِحْرٌ وَافْتِرَاءٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٤)، وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدَفَهُمْ بِالْغَيْبِ هُوَ قَوْلُهُمْ: لَا بَعَثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣٨٨/١٠) رقم (٢٨٨٩٤)، وذكره ابن عطية (٤٢٦/٤)، وابن كثير (٥٤٤/٣)، والسيوطي (٤٥١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٢) ينظر: «المحرر» (٤٢٦/٤).

(٣) ينظر: «السبعة» (٥٣٠)، و«الحجة» (٢٣/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٢١/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٩٧)، و«شرح الطيبة» (١٥٨/٥)، و«العنوان» (١٥٧)، و«حجة القراءات» (٥٩٠)، و«شرح شعلة» (٥٥٥)، و«إتحاف» (٣٨٩/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٣٩٠/١٠) رقم (٢٨٩١٠)، وذكره ابن عطية (٤٢٧/٤)، وابن كثير (٥٤٥/٣)، والسيوطي (٤٥٤/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري (٣٩١/١٠) رقم (٢٨٩١١)، وذكره ابن عطية (٤٢٧/٤)، وابن كثير (٥٤٥/٣)، والسيوطي (٤٥٤/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾.

قَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الْإِنَابَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ^(١)، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اسْتَهْوَوْهُ فِي وَقْتٍ لَا تَنْفَعُ فِيهِ التَّوْبَةُ. وَقَالَهُ أَيْضاً قَتَادَةُ^(٢)؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا^(٣).

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَالْأَشْيَاعُ الْفِرَقُ الْمُتَشَابِهَةُ، فَأَشْيَاعٌ هَؤُلَاءِ هُمْ الْكَفَرَةُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ.

ص: قَالَ أَبُو حَيَّانٍ^(٤): وَ﴿مَرِيبٌ﴾ اسْمٌ فَاعِلٍ مِنْ أَرَابَ، أَي: أَتَى بِرَبِيبَةٍ وَأَرْبَتُهُ أَوْفَعَتْهُ فِي رَبِيبَةٍ، وَنَسَبَهُ الْإِرَابَةَ إِلَى الشُّكِّ مَجَازًا.

قَالَ *ع*^(٥): وَالشُّكُّ الْمَرِيبُ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الشُّكِّ وَأَشَدُّهُ إِظْلَامًا، انْتَهَى.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩١/١٠) رَقْم (٢٨٩١٣، ٢٨٩١٤، ٨٩١٥) وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٧/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٤٥/٣)، وَالسِّيُوطِيُّ (٤٥٤/٥)، وَعِزَّاهُ لَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩١/١٠) رَقْم (٢٨٩١٧) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٧/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩١/١٠) رَقْم (٢٨٩١٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٧/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٤٥/٣)، وَالسِّيُوطِيُّ (٤٥٤/٥)، وَعِزَّاهُ لِلْفَرَايِبِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ مُجَاهِدٍ نَحْوَهُ.

(٤) يَنْظُرُ: «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٢٨١/٧).

(٥) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ» (٤٢٧/٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنًى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ بَيَّأَهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا يَمَسَّ اللَّهُ عَلَيْكَ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُوَفَّكَونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولاً﴾ الملائكة رسلاً أولاً ١٨٢
أجنحة... الآية ﴿رسلاً﴾ معناه: بالوحي وغير ذلك من أوامره سبحانه، كجبريل وميكائيل وعزرائيل رسل، والملائكة المتعاقبون رسل وغير ذلك، و﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ ألفاظ معدولة عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة، عدلت في حالة التنكير فتعرفت بالعدل فهي لا تنصرف للعدل والتعريف، وقيل: للعدل والصفة، وفائدة العدل الدلالة على التكرار لأن مثنى بمنزلة قولك: اثنين اثنين.

قال قتادة: إن أنواع الملائكة هم هكذا منها ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أربعة، ويشد منها ما له أكثر من ذلك، وروى^(١): أن لجبريل - عليه السلام - ست مائة جناح منها اثنان يتلغان من المشرق إلى المغرب.

وقوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب عند الخبر بالملائكة أولي الأجنحة، أي: ليس هذا بيد في قدرة الله تعالى، فإنه يزيد في الخلق ما يشاء؟ وروى عن الحسن وأبن شهاب أنهما قالاً: المريد هو حسن الصوت^(٢)،

(١) أخرجه الطبري (٣٩٣/١٠) برقم (٢٨٩٢٣)، وذكره البغوي (٥٦٤/٣)، وابن عطية (٤٢٩/٤)، والسيوطي (٤٥٨/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) ذكره البغوي (٥٦٤/٣)، وابن عطية (٤٢٩/٤)، وابن كثير (٥٤٦/٣)، والسيوطي (٤٥٩/٥)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الزهري.

قَالَ الْهَيْثَمُ الْفَارِسِيُّ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ فَقَالَ لِي: أَنْتَ الْهَيْثَمُ الَّذِي تُزَيِّنُ الْقُرْآنَ بِصَوْتِكَ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا.

وَقِيلَ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي الزِّيَادَةِ غَيْرَ هَذَا وَذَلِكَ عَلَى جِهَةِ الْمِثَالِ لَا أَنَّ الْمَقْصِدَ هِيَ فَقَطُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ﴾ ﴿مَا﴾ شَرْطٌ وَ﴿يَفْتَحُ﴾ مَجْزُومٌ بِالشَّرْطِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ عَامٌّ فِي كُلِّ خَيْرٍ يُعْطِيهِ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ فِيهِ حَذْفُ مُضَافٍ، أَيْ: مِنْ بَعْدِ إِمْسَاكِهِ وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ سَمَّيْتُ الصُّوفِيَّةَ مَا تَغَطَّاهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَطَاعِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ «الْفَتْوحَاتِ».

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۚ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۚ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ وَهُوَ مُتَوَجَّهٌ لِكُلِّ كَافِرٍ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

ت: هذه الآية معانها بين، قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ: يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُقَلِّلَ الدُّخُولَ فِي أَسْبَابِ الدُّنْيَا فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ قَلِيلَ الدُّنْيَا يُلْهِي عَنْ كَثِيرِ الْآخِرَةِ» وَقَالَ ﷺ: «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلَّا وَبِجَنَّتِيهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى»^(١). انْتَهَى مِنَ «لَطَائِفِ الْمَنَنِ». وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ: «الغُرور» - يَفْتَحِ الْعَيْنَ - وَهُوَ الشَّيْطَانُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الْآيَةُ: يَقْوِي قِرَاءَةَ الْجُمْهُورِ «فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا». أَيْ: بِالْمَبَايَنَةِ وَالْمَقَاطَعَةِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ.

(١) أخرجه ابن حبان (٢٤٧٦- موارد)، وأحمد (١٩٧/٥)، وفي «الزهد» (ص ١٩)، وعبد بن حميد في «المنتخب» رقم (٢٠٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٣- ٢٣٤). والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٥) رقم (٨١٠) من حديث أبي الدرداء.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٢٢) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٥/١٠) (٢٨٩٢٧)، وذكره ابن عطية (٤٢٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٤٧).

﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهُ يُضِلِّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُسَوِّرُ ﴿١٠﴾﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ تَوْقِيفٌ وَجَوَابُهُ مُحْذَوْفٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدَّرَ كَمَنْ اهْتَدَى وَنَحْوَ هَذَا مِنَ التَّقْدِيرِ وَأَحْسَنُ التَّقْدِيرِ مَا دَلَّ اللَّفْظُ بَعْدَ عَلَيْهِ ^(١)؛ وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ - يَفْتَحُ التَّاءَ وَالْهَاءَ - : ﴿نَفْسُكَ﴾ - بِالرَّفْعِ - ، وَقَرَأَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ ^(٢) «تَذْهَبْ» - بِضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ الْهَاءِ - «نَفْسُكَ» - بِالنَّصْبِ - وَزُوِيَتْ عَنْ نَافِعٍ ^(٣) ، وَالْحَسْرَةُ هُمْ النَّفْسُ عَلَى قَوَاتٍ أَمْرٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَنْ كُفْرِ قَوْمِهِ، وَوَجِبَ التَّسْلِيمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِضْلَالٍ مَنْ شَاءَ وَهَدَايَةٍ مَنْ شَاءَ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ هَذِهِ آيَةٌ اخْتِجَاجٌ عَلَى الْكُفْرَةِ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَغْتِ مِنَ الْقُبُورِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ يُخْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ بِمُغَالَبَةِ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ: أَي: لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ وَلَا تَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَنَحَا إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَقَالَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ^(٤).

قال *ع* ^(٥): ﴿وَهَذَا تَمَسُّكٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١].

وَيُخْتَمَلُ / أَنْ يُرِيدَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ وَطَرِيقَهَا الْقَوِيمَ وَيُحِبُّ تَبَلُّغَهَا عَلَى وَجْهِهَا فَلِلَّهِ ٨٢ ب

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨٨)، و«الدر المصون» (٥/ ٤٦٠).

(٢) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٢٤، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨٨)، وزاد نسبتها إلى أبي حية، وشيبة، وحמיד، والأعمش، وابن محيصن. وهي في «الدر» (٥/ ٤٦٠).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨٨).

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ٣٩٨) (٢٨٩٣٥)، وذكره ابن عطية (٤/ ٤٢٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٦١)، وعزاه للفرياي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه.

(٥) ينظر: «المحرر» (٤/ ٤٣١).

العِزَّة، أي: به، وَعَنْ أَوَامِرِهِ، لَا تُنَالُ عِزَّتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَنَحَا إِلَيْهِ ^(١) قَتَادَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي: التوحيد، والتحميد، وذكر الله ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قيل: المعنى؛ يرفعه الله، وهذا أرجح الأقوال.

وقال ابن عباس ^(٢) وغيره: إن العمل الصالح هو الرفع للكلم، وهذا التأويل إنما يستقيم بأن يتأول على معنى أنه يزيد في رفعه وحسن موقعه.

ت: وعن ابن مسعود؛ قال: «إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه: «إن العبد إذا قال: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر وتبارك الله» قَبَضَ عليهن ملك؛ فضمهن تحت جناحه؛ وصعد بهن لا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يُجاء بهن وجه الرحمن سبحانه. ثم تلا عبد الله بن مسعود: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ^(٣). رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد: انتهى من «السلام». و«يمكنون السيئات» أي: المكرات السيئات. و«يبور» معناه: يفسد ويبقى لا نفع فيه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَرَرَى الْفَلَكُ فِيهِ مَوَازِيرٌ لِيَتَنَبَّهُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا

(١) أخرجه الطبري (٣٩٨/١٠) (٢٨٩٣٦)، وذكره البغوي (٥٦٦/٣)، وذكره ابن عطية (٤٢٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٩/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٩/١٠) (٢٨٩٤٠)، وذكره البغوي (٥٦٦/٣)، وابن عطية (٤٣١/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٢/٥)، وعزاه لابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٩٨/١٠) (٢٨٩٣٧)، وذكره البغوي (٥٦٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٢/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُنْثِقُ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ الآية. قيل: معنى الأزواج هنا: الأنواع، وقيل: أراد تزويج الرجال النساء، والضمير في ﴿عمره﴾ قال ابن عباس وغيره، ما مقتضاه: أنه عائد على ﴿معمر﴾ الذي هو اسم جنس^(١)؛ والمراد غير الذي يعمر، وقال ابن جبير وغيره: بل المراد شخص واحد وعليه يعود الضمير، أي: ما يعمر إنسان ولا ينقص من عمره بأن يحصي ما مضى منه إذا مرَّ حَوْلُ كتب ما مضى منه، فإذا مرَّ حول آخر كتب ذلك، ثم حول، ثم حول؛ فهذا هو النقص.

قال ابن جبير: فما مضى من عمره؛ فهو النقص وما يستقبل؛ فهو الذي يعمره^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ تقدم تفسير نظير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ الآية: الأجل المسمى هو قيام الساعة، وقيل: آماذ الليل، وآماذ النهار، والقَطْمِير: القشرة الرقيقة التي على نوى التمرة. وقال الضحاك وغيره: القَطْمِير القِمْع الذي في رأس التمرة^(٣)، والأول أشهر وأصوب. ثم بين تعالى بطلان الأصنام بثلاثة أشياء: أوَّلها: أنها لا تسمع إن دُعِيَتْ، والثاني: أنها لا تجيب إن لو سمعت، وإنما جاء بهذه؛ لأن القائل متعسف أن يقول: عساها تسمع، والثالث: أنها تَبَرُّأ يوم القيامة من الكفرة.

وقوله تعالى: ﴿ولا يَنْثِقُ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ قال المفسرون: الخَيْرُ هنا هو الله سبحانه فهو

(١) أخرجه الطبري (٤٠٠/١٠) (٢٨٩٤٩)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٥٠)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥/٤٦٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه الطبري (٤٠١/١٠) (٢٨٩٥٢)، وذكره البغوي (٤/٥٦٦)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥/٤٦٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة» عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٣/١٠) (٢٨٩٦٦)، عن جوبير عن بعض أصحابه. وذكره ابن عطية (٤/٤٣٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥/٤٦٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك.

الخبير الصادق الخبر، ونبأ بهذا؛ فلا شك في وقوعه.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) **﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية: آية وعظ وتذكير، والإنسان فقير إلى الله - تعالى - في دقائق الأمور وجلالها؛ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرَفَةٌ عَيْنٍ؛ وهو به مستغن عن كل أحد، ﴿والله هو الغني / الحميد﴾ أي: الم محمود بالإطلاق. ١٨٣

وقوله: ﴿بعزيز﴾ أي: بمُتَنَبِّع و﴿تزر﴾ تَحْمِلُ، وهذه الآية في الذنوب، وأُنْتُث وازرة﴾ لأنه ذهب بها مذهب النفس وعلى ذلك أُجريت ﴿مُثْقَلَةٌ﴾، واسم ﴿كان﴾ مضمراً تقديره: ولو كان الداعي. ثم أخبر تعالى نبيه أنه إنما ينذر أهل الخَشْيَةِ. ثم حض على التزكي بأن رجى عليه غاية الترجية. ثم توعده بعد ذلك بقوله: ﴿والى الله المصير﴾.

قال *ع^(١): وكلُّ عبارة فهي مقصورة عن تفسير هذه الآية، وكذلك كتاب الله كله، ولكن يظهر الأمر لنا نحن في مواضع أكثر منه في مواضع؛ بحسبِ تَقْصِيرِنَا.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَارُ وَلَا الْأَمْثَلُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُتَخِلِّفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيمٌ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ ۖ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ الآية: مُضْمَنُ هذه الآية الطعن على الكفرة وتمثيلهم بالعمي والظلمات؛ وتمثيل المؤمنين بإزائهم بالبصراء والأنوار. و﴿الحرور﴾: شدة الحر.

قال الفراء وغيره: إن السموم يختص بالنهار ﴿والحرور﴾ يقال في حرّ الليل وحرّ النهار. وتأول قوم الظلّ في هذه الآية الجنة والحرور جهنم، وشبه المؤمنين بالأحياء، والكفرة بالأموات؛ من حيث لا يفهمون الذكر ولا يُقبلون عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ تمثيل بما يحسّه البشر ويَعْهده جميعاً من أن الميت الشخص الذي في القبر لا يسمع، وأما الأرواح فلا نقول إنها في القبر، بل تتضمّن الأحاديث أن أرواح المؤمنين؛ في شجر عند العرش، وفي قناديل وغير ذلك، وأن أرواح الكفرة في سجين، ويجوز في بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور؛ فربما سمعت، وكذلك أهل قليب بذّر إنما سمعت أرواحهم؛ فلا تعارض بين الآية وحديث القليب.

وقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ معناه: أن دعوة الله تعالى قد عمّت جميع الخلق، وإن كان فيهم من لم يُبَاشِرْهُ النَّذَارَةُ؛ فهو ممن بلغته؛ لأن آدم بُعث إلى بيته، ثم لم تنقطع النذارة إلى زمن محمد ﷺ، و﴿البيّنات﴾ و﴿الزّبر﴾ و﴿الكتاب المنير﴾: شيء واحد؛ لكنه أكد أوصاف بعضها ببعض.

وقوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد...﴾ الآية: جمع «جُدَّة» وهي: الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطة العظيمة المتصلة طويلاً، وحكى أبو عبيدة في بعض كتبه: أنه يقال: جُدَّد في جمع «جديد»، ولا معنى لمدخل الجديد في هذه الآية، وقال الثعلبي: وقيل الجُدَّد القِطْع؛ جُدِّدَت الشيء؛ إذا قطعت، انتهى.

وقوله: ﴿وغرابيب سود﴾ لفظان لمعنى واحد، وقَدَّمَ الوصف الأبلغ، وكان حقّه أن يتأخّر، وكذلك هو في المعنى؛ لكنّ كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا النحو، والمعنى: ومنها، أي: من الجبال؛ سودّ غرابيب، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَنْبَغُزُ الشَّيْخَ الْغَرِيبَ»^(١)؛ يعني: الذي يَخْضُبُ بالسَّوَادِ. ﴿ومن الناس والدواب والأنعام﴾، أي: خلُقَ مختلف ألوانه.

وقوله تعالى: ﴿كذلك﴾ يحتمل أن يكون من الكلام الأول فيجيء الوقف عليه حسناً، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين. ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني؛ خرَجَ مخرج السبب كأنه قال: كما جاءت القدرة في هذا كله كذلك ﴿إنما يخشى الله من عباده

(١) ذكره السيوطي في «الجامع الكبير» (٥١٧٨)، وعزاه للدليمي في «مسند الفردوس» عن أبي هريرة.

٨٣ ب العلماء، أي: المحصلون لهذه العبر، الناظرون فيها، / وفي الحديث عن النبي ﷺ: (١) «أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»؛ وقال ﷺ «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ» (٢).

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم (٣)، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: كفى بالزهدي علماً (٤)، ويقال: إن فاتحة الزبور: «رأس الحكمة خشية الله» وقال ابن مسعود (٥): كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً.

وقال مجاهد والشعبي (٦): إنما العالم من يخشى الله. و«إنما» في هذه الآية تَحْضِيضٌ لِلْعِلْمِ؛ لا للحصر. قال ابن عطاء الله في «الحكم»: العلم النافع هو الذي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شِعَاعُهُ، وَيُكْشِفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قَنَاعَهُ، خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ؛ وَالْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ؛ وَإِلَّا؛ فَعَلَيْكَ.

وقال في «التنوير»: أعلم أن العلم؛ حيث ما تكرر في الكتاب العزيز أو في السنة؛ فإنما المراد به العلم النافع الذي تَقَارَنُ بِهِ الْخَشْيَةُ وَتَكْتَنِفُهُ الْمَخَافَةُ: قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فَيَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْخَشْيَةَ تُلَازِمُ الْعِلْمَ، وَفُهُمَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْعِلْمَاءَ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ الْخَشْيَةِ. انتهى.

قال ابن عباد في «شرح الحكم»: وأعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف؛ إنما هو العلم الذي يؤدي صاحبه إلى الخوف، والخشية، وملازمة التواضع، والذلة، والتخلق بأخلاق الإيمان، إلى ما يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الدُّنْيَا، وَالزَّهَادَةِ فِيهَا، وَإِثَارِ الْآخِرَةِ عَلَيْهَا، وَلِزُومِ الْأَدَبِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْعَلِيَّةِ وَالْمَنَاجِي السَّنِيَّةِ. انتهى. وهذه المعاني كلها مُحَصَّلَةٌ فِي كِتَابِ الْغَزَالِيِّ وَغَيْرِهِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ، وَنَفَعْنَا بِبِرْكَاتِهِمْ.

- (١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١٥٢/٣): غريب، وذكره الثعالبي هكذا.
- (٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١١٦) عن عقبة بن عامر، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٠/١ - ٤٧١) رقم (٧٤٤) من حديث ابن مسعود، وضعفه البيهقي.
- (٣) ذكره ابن عطية (٤٣٧/٤).
- (٤) ذكره ابن عطية (٤٣٧/٤).
- (٥) ذكره ابن عطية (٤٣٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبه، وأحمد في «الزهد»، وعبد بن حميد، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه.
- (٦) ذكره البغوي (٥٧٠/٣)، وابن عطية (٤٣٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد عن مجاهد.

قال صاحب: «الكلم الفارقة والحكم الحقيقية»: العلم النافع ما زهّدك في دنياك، ورغّبك في أخراك، وزاد في خوفك وتّقواك، وبعثك على طاعة مولاك، وصفّاك من كدر هَواك. وقال - رحمه الله -: العلوم النافعة ما كانت لِلْهِمَمِ رافعة، وللأهواء قامعة، وللشكوك صارقة دافعة. انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبْوَءَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ (٢٩) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ (٣٠)﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ...﴾ الآية، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: هذه آية^(١) القراء.

قال *ع^(٢): وهذا على أن ﴿يتلون﴾ بمعنى: يقرؤون، وإن جعلناه بمعنى: يتبعون، صح معنى الآية؛ وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية، وكتاب الله هو القرآن، وإقامة الصلاة، أي: بجميع شروطها، والنفقة هي في الصدقات ووجوه البر و﴿لن تبور﴾ معناه: لن تكسَد. و﴿يزيدهم من فضله﴾ قالت فرقة: هو تَضْعِيفُ الحسنات، وقالت فرقة: هو إما النظر إلى وجه الله عز وجل، وإما أن يجعلهم شافعين في غيرهم؛ كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

*ت: وَقَدْ خَرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الثَّوْرِيِّ عَنِ شَقِيقٍ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ قال: أجورهم: يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله: الشفاعة لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ مِمَّنْ صَنَعَ إِلَيْهِ الْمَعْرُوفَ فِي الدُّنْيَا. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي «سُنَنِهِ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ /، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُصَفُّ النَّاسُ ١٨٤ صُفُوفًا». وَقَالَ ابْنُ نُعَيْمٍ: أَهْلُ الْجَنَّةِ - فَيَمُرُّ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَسْقَيْنْتَنِي، فَسَقَيْتَكَ شَرْبَةً؟ قَالَ: فَيَشْفَعُ لَهُ. وَيَمُرُّ

(١) أخرجه الطبري (٤١٠/١٠) (٢٨٩٨٨)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/

٥٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٧١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير،

ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «المحرر» (٤٣٨/٤).

الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ: أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ نَاوَلْتُكَ طَهُورًا؟ فَيَشْفَعُ لَهُ، قَالَ ابْنُ ثُمَيْرٍ: «وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ؛ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثْتَنِي لِحَاجَةٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَهَبْتُ لَكَ؟ فَيَشْفَعُ لَهُ»^(١). وخرجه الطحاوي وابن وضاح بمعناه، انتهى من «التذكرة».

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا...﴾ الآية: ﴿أَوْرَثْنَا﴾ معناه: أعطيناه فرقة بعد موت فرقة، و﴿الكتاب﴾ هنا يريد به: معاني الكتاب، وعلمه، وأحكامه، وعقائده، فكان الله تعالى لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن؛ وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة قبله؛ فكانه ورث أمة محمد الكتاب الذي كان في الأمم قبلها. قال ابن عطاء الله في «التنوير»: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله تعالى -: أكرم المؤمنين؛ وإن كانوا عصاة فاسقين، وأمرهم بالمعروف، وأنهم عن المنكر، وأهجرهم رحمة بهم؛ لا تعزراً عليهم، فلو كشف عن نور المؤمن العاصي، لطبق السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع، ويكفيك في تعظيم المؤمنين - وإن كانوا عن الله غافلين - قول رب العالمين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ فانظر كيف أثبت لهم الاصطفاء مع وجود ظلمهم، واعلم أنه لا بد في مملكته من عباد هم نصيب الحلم، ومحل ظهور الرحمة والمغفرة، ووقوع الشفاعة، انتهى. و﴿الذين اصطفينا﴾ يريد بهم أمة محمد ﷺ. قاله ابن عباس وغيره^(٢). و﴿اصطفينا﴾ معناه: اخترنا وفضلنا، والعباد عالم في جميع العالم، واختلِف في عود الضمير من قوله: ﴿فمنهم﴾ فقال ابن عباس وغيره؛ ما مقتضاه: إن الضمير عائذ على

(١) أخرجه ابن ماجه (١٢١٥/٢) كتاب الأدب: باب فضل صدقة الماء، حديث (٣٦٨٥) من طريق يزيد الرقاشي عن أنس.

وقال البوصيري في «الزوائد»: في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) (٢٨٩٩٣)، وذكره البغوي (٥٧٠/٣)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٤)، وذكره ابن كثير (٥٥٥/٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٢/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس بنحوه.

﴿الذين اصطفينا﴾ وإن الأصناف الثلاثة هي كلها في أمة نبينا محمد ﷺ^(١)، فالظالم لنفسه: العاصي المسرف، والمقتصد: متقي الكبائر، وهُم جمهور الأمة، والسابق: المتقي على الإطلاق، وقالت هذه الفرقة: الأصناف الثلاثة في الجنة، وقاله أبو سعيد الخدري^(٢)، والضمير في ﴿يدخلونها﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، قالت عائشة - رضي الله عنها - وكعب - رضي الله عنه -: دخلوها كلهم ورب الكعبة^(٣)، وقال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم^(٤) ناج.

وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث: ثلث: يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث: يحاسبون حساباً يسيراً؛ ثم يدخلون الجنة، وثلث: يجيئون بذنوب عظام؛ فيقول الله - عز وجل -: ما هؤلاء؟ - وهو أعلم بهم - فتقول الملائكة: هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا؛ فيقول - عز وجل - أدخلوهم في سعة رحمتي^(٥). وروى أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلهم في الجنة» وقرأ عمرُ هذه الآية، ثم قال / : قال ٨٤ رسول الله ﷺ سابقاً سابقاً، ومقتصدناً ناج، وظالمناً مغفور له^(٦)؛ وقال عكرمة والحسن وقتادة^(٧)؛ ما مقتضاه: أن الضمير في ﴿منهم﴾ عائد على العباد، فالظالم لنفسه: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: التقي على الإطلاق^(٨). وقالوا هذه الآية نظير قوله

(١) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) (٢٨٩٩٣) بنحوه، وذكره البغوي (٥٧١/٣) وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره ابن كثير (٥٥٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤١٤/١٠)، رقم (٢٩٠١٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره ابن كثير (٣/٥٥٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٢/٥)، وعزاه للطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) رقم (٢٨٩٩٦، ٢٨٩٩٨) عن كعب، وذكره البغوي (٥٧١/٣) عن عائشة، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٢/٥، ٤٧٣)، وعزاه للطيالسي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن عقبة بن صهبان عن عائشة، وعزاه أيضاً لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر، والبيهقي عن كعب الأبحار بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري (٤١٢/١٠) رقم (٢٩٠٠٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) رقم (٢٨٩٩٤٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره ابن كثير (٣/٥٥٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٣/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن مسعود بنحوه.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٦/٥)، وعزاه إلى الطبراني، والبيهقي في «البعث».

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٧/٥)، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث».

(٨) أخرجه الطبري (٤١٢/١٠، ٤١٣) رقم (٢٩٠٠٧، ٢٩٠٠٨) عن الحسن وقتادة، وذكره البغوي (٣/٥٧١)، وابن عطية (٤٣٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٤/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة، وله والبيهقي عن الحسن بنحوه.

تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] الآية.

والضمير في ﴿يدخلونها﴾ على هذا التأويل خاص بالمقتصد والسابق، وباقي الآية بين، و﴿الحزن﴾ في هذه الآية عام في جميع أنواع الأحزان، وقولهم: ﴿إن ربنا لغفور شكور﴾ وصفوه سبحانه بأنه يغفر الذنوب، ويجازي على القليل من الأعمال بالكثير من الثواب، وهذا هو شكره، لا رب سواه، و﴿دار المقامة﴾: الجنة، و﴿المقامة﴾: الإقامة و﴿النَّصَبُ﴾: تعب البدن و﴿اللغوب﴾: تعب النفس اللازم عن تعب البدن.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا حَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرْوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ رَأَيْتَا بِرَأْسِكَ أَنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١).

وقوله سبحانه: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ هذه الآية تؤيد التأويل الأول من أن الثلاثة الأصناف هي كلها في الجنة، لأن ذكر الكافرين أفردها هنا. وقوله: ﴿لا يقضى عليهم﴾ أي لا يُجهز عليهم.

وقولهم: ﴿ربنا أخرجنا﴾ أي: يقولون هذه المقالة فيقال لهم على جهة التوبيخ: ﴿أو لم نعمركم﴾ الآية. واختلف في المدة التي هي حد للتذكر، فقال الحسن بن أبي الحسن: البلوغ، يريد أنه أول حال التذكر^(١). وقال ابن عباس أربعون سنة؛ وهذا قول حسن^(٢)؛ ورويت فيه آثار. وروى أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب؛ مسح الشيطان على وجهه، وقال: بأبي وجه لا يفلح، وقيل: الستين وفيه حديث.

ت: وفي «البخاري»: من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه؛ لقوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ يعني: الشيب. ثم أسند عن أبي هريرة عن

(١) ذكره ابن عطية (٤/٤٤١).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٤٤١)، وابن كثير (٣/٥٥٨) بنحوه.

النبي ﷺ قال: «أَعَذَّرَ اللَّهُ أَمْرًا أَوْخَرَ أَجَلُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً»^(١). انتهى. و﴿النذير﴾ في قول الجمهور: الأنبياء. قال الطبري^(٢): وقيل: النذير: الشيب، وهذا أيضاً قول حسن.

وقوله: ﴿فَعَلِيهِ كُفْرُهُ﴾ أي وبأل كُفْرِهِ و﴿المقت﴾: احتقاركَ الإنسان من أجل مَعْصِيَتِهِ، والخَسَارُ: مُصَدَّرٌ خَسِرَ يَخْسِرُ، و﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، تنزل عند سيبويه منزلة أخبروني، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين، والرؤية في قوله ﴿أروني﴾ رؤية بصر.

ت: قال ابن هشام: قوله ﴿من الأرض﴾، «من»: مرادفة «في». ثم قال: والظاهر أنها لبيان الجنس، مثلها: ﴿ما ننسخ من آية...﴾ [البقرة: ١٠٦] الآية. انتهى. ثم أَضْرَبَ سبحانه عنهم بقوله: ﴿بل إن يعد﴾ أي: بل إنما يعدون أنفسهم غروراً.

وقوله: ﴿أَن تَزُولَا﴾ أي: لثلا تزولا، ومعنى الزوال هنا: التنقل من مكانها، والسُقُوطُ من عُلوِّها. وعن ابن مسعود أن السماء لا تدور وإنما تجري فيها الكواكب^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ولئن زالتا﴾ قيل: أراد يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أي: من بعد تركه الإمساك.

قال *ص*: ﴿إن أمسكهما﴾: إن: نافية بمعنى، ما، وأمسك: جواب القسم المقدّر قبل اللام الموطئة في ﴿لئن﴾، وهو بمعنى: يمسك؛ لدخول إن الشرطية؛ كقوله تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥] أي: ما يتبعون / ١٨٥ وكقوله: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً﴾ الآية إلى قوله: ﴿لظلوا من بعده﴾ [الروم: ٥١] أي: لَيَظْلُونَ، وحذف جواب إن في هذه المواضع لدلالة جواب القسم عليه.

وقوله: ﴿من أحد﴾ ﴿من﴾: زائدة لتأكيد الاستغراق انتهى.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقَوُّرًا ۚ﴾ (٤٢) ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِثَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِثَ اللَّهُ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٤٣) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُم مِّن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ۚ﴾ (٤٤) ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣/١١) كتاب الرقاق: باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر، حديث (٦٤١٩).

(٢) ينظر: «الطبري» (٤١٩/١٠).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٤٢/٤).

تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ يعني: قريشاً ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ الآية: وذلك أنه روي: أن كُفَّارَ قريش كانت قبل الإسلام تنكر على اليهود والنصارى، وتأخذ عليهم في تكذيب بعضهم بعضاً وتقول: لو جاءنا نحن رَسُولٌ لَكنا أهدى من هؤلاء، و﴿إحدى الأمم﴾: يريدون: اليهود والنصارى، ﴿فلما جاءهم نذير﴾ وهو: محمد ﷺ ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ وقرأ ابن مسعود^(١): و«مكراً سيئاً»، و﴿يحيق﴾: معناه: يحيط ويحل وينزل، ولا يستعمل إلا في المكروه و﴿ينظرون﴾ معناه: ينتظرون والسنة: الطريقة والعادة. وقوله: ﴿فلن تجد لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لتعذيبه الكفرة المكذبين، وفي هذا وعيدٌ بيّن.

وقوله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ لَمَّا توعدهم سبحانه بسنة الأولين وقفهم في هذه الآية على رؤيتهم لما رأوا من ذلك في طريق الشام وغيره؛ كديارِ ثمود ونحوها، و«يعجزه»: معناه: يفوته ويفلته.

وقوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ الآية: قوله: ﴿من دابة﴾: مبالغة، والمراد: بنو آدم؛ لأنهم المُجَاوِزْنَ، وقيل: المراد الإنس والجن، وقيل: المراد: كُلُّ ما دبَّ من الحيوان وأكثره إنما هو لِمَنْفَعَةِ ابنِ آدَمَ، وبسببه، والضمير في: ﴿ظهرها﴾ عائذ على الأرض، والأجل المسمى: القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فإن الله كان بعباده بصيراً﴾: وعيدٌ، وفيه للمتقين وعدٌ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله على ما أنعم به.

(١) قال أبو الفتح: يشهد لتكثيره تنكير ما قبله من قول الله سبحانه: «استكباراً في الأرض». وقراءة العامة أقوى معنى؛ وذلك أن «المكر» فيها معرفة لإضافته إلى المعرفة، أعني السيئ، فكانه قال: والمكر السيئ الذي هو عال مستكره مستنكر في النفوس.
ينظر: «المحتسب» (٢/٢٠٢)، و«الكشاف» (٣/٦١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/٤٤٣)، و«البحر المحيط» (٧/٣٠٥)، و«الدر المصون» (٥/٤٧٣).

محتوى الجزء الرابع من تفسير «الشعالي»

| اسم السورة | رقم الصفحة |
|------------|------------|
| مريم | ٥ |
| طه | ٤٣ |
| الأنبياء | ٧٩ |
| الحج | ١٠٦ |
| المؤمنون | ١٤١ |
| النور | ١٦٧ |
| الفرقان | ٢٠٢ |
| الشعراء | ٢٢٤ |
| النمل | ٢٤٢ |
| القصص | ٢٦٣ |
| العنكبوت | ٢٨٨ |
| الروم | ٣٠٥ |
| لقمان | ٣١٨ |
| السجدة | ٣٢٦ |
| الأحزاب | ٣٣٤ |
| سبا | ٣٦٣ |
| فاطر | ٣٨١ |

تفسير الثعالبی

المسمى

بالجواهر الحسان في تفسير القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زبير الثعالبی المالکي

(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

تمت إنبؤله على أربع نسخ خطية وعلم عليه وفتح أهارشه

الشيخ علي محمد معوض

والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

خبير التحقيق بمجمع البحوث الإسلامية

وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

وعضو لجنة المصنف بالأزهر الشريف

الجزء الخامس

دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836766 - 836696 - 836551

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الثعالبي
الجزء الخامس

تفسير سورة يَس

وَهِيَ مَكْنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

إلا أن فرقة قَالَتْ: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ نَزَلَتْ في بني سلمة حين أرادوا أن ينتقلوا إلى جوار مسجد النبي ﷺ، وورد في فضل يَس آثارٌ عديدة، فعن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، أن النبي ﷺ قال: «قَلْبُ الْقُرْآنِ يَسَ لَا يَقْرُوهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غَفَرَ لَهُ، أَقْرُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ»^(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم في «المستدرک»، وهذا لفظ النسائي، وهو عند الباقيين مختصر. انتهى من «السَّلاح».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسَ ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلَ ٥ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٦ لَنُنْزِلَنَّ قَوْمًا مَّا أَتَدْرَأُ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٧ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٨﴾

قوله عز وجل: ﴿يَسَ﴾ والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * قد تقدّم الكلام في الحروف المقطّعة، ويختص هذا الموضع بأقوال، منها: أن ابن جبير قال: يَسَ أَسْمُ من أسماء محمد - عليه السلام^(٢) - وقال ابن عباس: معناه: يا إنسان، بالحشية^(٣).

وقال أيضاً: هو بلغة طييء^(٤)، وقال قتادة: «يَسَ» قسم و«الصراط» الطريق، والمعنى: إنك على طريق هدى بين ومهيع رشاد^(٥)، واختلف المفسرون في قوله تعالى:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٢٤) برقم: (٢٩٠٤٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٨٤)، كلهم عن ابن عباس، وعزه السيوطي لابن مردويه عن ابن عباس، وذكره ابن كثير (٣/٥٦٣) عن سعيد بن جبير.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٥)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٥).

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٥/٥).

﴿مَا أَنْذَرُ آبَاؤَهُمْ﴾ فقال عِكْرَمَةُ: «ما» بمعنى: الذي^(١)، والتقدير: الشيء الذي أَنْذَرُ آبَاؤُهُمْ ٨٥ ب من النار/ والعذاب، ويحتمل أن تكون «ما» مصدرية على هذا القول، ويكون الآباء هُم الأَقْدَمُونَ على مر الدهر.

وقوله: ﴿فَهُمْ﴾ مع هذا التأويل بمعنى: فَإِنَّهُمْ، دخلت الفاء لِقَطْعِ الجملة من الجملة، وقال قتادة: «ما» نافية^(٢)، فالآباء على هذا هم الأَفْرَبُونَ مِنْهُمْ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] وهذه النذارة المنفية: هي نذارة المباشرة، كما قَدَمْنَا، و﴿حَقُّ الْقَوْلِ﴾ معناه: وَجَبَ العذابُ وَسَبَقَ القضاءُ بِهِ، وهذا فيَمَنْ لم يؤمن من قريش كَمَنْ قُتِلَ بِبَذَرٍ، وغيرهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ ٨٠ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٨١ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٨٢

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا...﴾ الآية.

قال مكي: قيل: هي حقيقة في الآخرة إذا دخلوا النار^(٣).

وقال ابن عباس وغيره: الآية استعارة لحال الكفرة الذين أرادوا النبي ﷺ بسوء، فجعل الله هذه مثلاً لهم في كفهم إياهم عنه ومنعهم من إذايته حين بيئوه^(٤).

وقالت فرقة: الآية مُسْتَعَارَةٌ المعاني مِنْ مَنَعَ الله تعالى إياهم مِنَ الْإِيمَانِ، وَحَوْلَهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وهذا أرجح الأقوال، و«الغل»: ما أحاط بالعنق على معنى التثقيب والتضييق والتغذيب.

وقوله: ﴿فَهُيَ﴾ يحتمل أن تعود على الأغلال، أي: هي عريضة تبلغ بحرفها الأَذْقَانَ، والدَّقْنُ: مُجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ، فَيُضْطَرُّ المَغْلُولُ إلى رفع وجهه نحو السماء، وذلك هو الإقْمَاحُ، وهو نحو الإقْنَاعِ في الهيئة.

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٦).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٦).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٦).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٧).

قال قتادة: المقمح: الرافع رأسه^(١)، ويحتمل - وهو قول الطبري^(٢) - أن تعود (هي) على الأيدي؛ وذلك أن الغل إنما يكون في العنق مع اليدين، ورؤي أن في مصحف ابن مسعود^(٣) وأبي «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ» وفي بعضها «فِي أَيْدِيهِمْ»، وأرى الناس علي بن أبي طالب الإفمّاح فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسه^(٤)، وقرأ الجمهور: «سُدًّا» - بضم السين في الموضعين -، وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما^(٥) (سُدًّا) - بفتح السين -، فقل: هما بمعنى، أي: حائلًا يسد طريقهم، وقال عكرمة: ما كان مما يفعل البشّر فهو بالضّم، وما كان خلقة فهو بالفتح^(٦)، ومعنى الآية: أن طريق الهدى سدّ دونهم.

﴿إِنَّمَا تُذَكِّرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُذَكِّرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ...﴾ الآية، «إنما» ليست للحصر هنا؛ بل هي على جهة تخصيص من ينفعه الإنذار، «واتباع الذكر» هو العمل بما في كتاب الله والافتداء به. قال قتادة: الذكر: القرآن^(٧).

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾، أي: بالخلوات عند مغيب الإنسان عن أعين البشر. ثم أخبر - تعالى - بإحيائه الموتى ردًا على الكفرة، ثم توعدّهم بذكر كتب الآثار وإحصاء كل شيء، وكل ما يصنعه الإنسان فيدخل فيما قدّم، ويدخل في آثاره، لكنه سبحانه؛ ذكر الأمر من الجهتين؛ ولينبّه على الآثار التي تبقى، وتذكر بعد الإنسان من خير وشر.

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٧/٤) عن قتادة، وابن كثير في «تفسيره» (٥٦٤/٣) عن أم زرع.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٦/١٠).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٦/٤)، و«المحرر» (٤٤٧/٤).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٧/٤).

(٥) وقرأ بها حفص عن عاصم.

وفي قراءة الباقي قال قوم: ما كان من فعل بني آدم فهو السد، وما وجد مخلوقاً فهو السد. وعكس أبو عمرو.

ينظر: «إعراب القراءات» (٢٢٩/٢)، و«السبعة» (٥٣٩)، و«الحجة» (٣٧/٦)، و«حجة القراءات» (٥٩٦)، و«العنوان» (١٥٩)، و«إتحاف» (٣٩٧/٢).

(٦) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٧/٤).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٩/١٠) برقم: (٢٩٠٦٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٨/٤)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٧/٥).

وعزه السيوطي لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقال جابر بن عبد الله وأبو سعيد: إن هذه الآية نزلت في بني سلمة^(١)؛ على ما تقدم، وقول النبي - عليه السلام - لهم: «دياركم تكتب آثاركم»، والإمام المبین: قال قتادة وابن زيد: هو اللوح المخفوظ^(٢)، وقالت فرقة: أراد صُحف الأعمان.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا لَآلِئُكَ أَلْبَلُغُ الْبُعْدِ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ إِنَّا لَمَّا تَطَّيَّرُكُمْ لَنَنَّهُوَ وَلَرَجِئَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ إِن دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِرُوا اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا بَسْتَكُورَ أَجْرًا وَهُمْ يُنْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

١٨٦

وقوله تعالى: / ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية...﴾ الآية، روي عن ابن عباس والزهري وعكرمة: أن القرية هنا هي أنطاكية^(٣)، واختلف في هؤلاء المرسلين؛ فقال قتادة وغيره: كانوا من الحواريين الذين بعثهم عيسى حين رفع، وضلّب الذي ألقى عليه شبهه، فتفرّق الحواريون في الآفاق، فقصّ الله - تعالى - هنا قصّة الذين نهضوا إلى أنطاكية^(٤).

وقالت فرقة: بل هؤلاء أنبياء من قبل الله عز وجل.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٩/١٠) برقم: (٢٩٠٧٢) عن جابر، وعن أبي سعيد رقم: (٢٩٠٧٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٨/٤) عن ابن عباس وجابر وأبي سعيد، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥٦٥/٣) عنهما، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٨/٥) عن أبي سعيد، وعزاه لعبد الرزاق، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وعن جابر بن عبد الله، وعزاه لمسلم، وابن مردويه.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٨/٤) عن مجاهد، وقاتة، وابن زيد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣١/١٠) برقم: (٢٩٠٨٣) عن عكرمة، وعن ابن عباس وغيره رقم (٢٩٠٨٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٩/٤) عن ابن عباس، والزهري، وعكرمة، وابن كثير في «تفسيره» (٥٦٦/٣) عنهما، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٩/٥) عن ابن عباس، وعزاه للفرجاني، وعن عكرمة، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣١/١٠) برقم: (٢٩٠٨٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٤٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

قال * ع^(١) : وهذا يُرْجَحُهُ قَوْلُ الْكَفَرَةِ ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فإنها محاورَةٌ إنما تقال لمن ادّعى الرِّسَالَةَ من الله تعالى، والآخِرُ مُحْتَمَلٌ، وَذَكَرَ المفسرون في قَصَصِ الْآيَةِ أَشْيَاءَ يَطُولُ ذِكْرُهَا وَالصَّحَّةُ فِيهَا غَيْرُ مُتَيَقِّنَةٍ، فَاخْتَصَرْتُهُ وَاللَّازِمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولَيْنِ، فَدَعَا أَهْلَ الْقَرْيَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، فَكَذَّبُوهُمَا فَشَدَّدَ اللَّهُ أَمْرَهُمَا بِثَالِثٍ، وَقَامَتِ الْحِجَّةُ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ، وَأَمِنَ مِنْهُمْ الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ يَسْعَى، وَقَتْلُوهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ وَكَفَرُوا، وَأَصَابَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَخَمَدُوا، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ^(٢) : «فَعَزَّزْنَا بِشَدِّ الزَّايِ، عَلَى مَعْنَى: قَوَّيْنَا. وَشَدَّدْنَا؛ وَبِهَذَا فَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(٣)، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَنْكَرَتْ النَّبَوَاتِ بِقَوْلِهَا: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُتَأَوِّلِينَ: لَمَّا كَذَّبَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ الْمُرْسَلِينَ أَسْرَعَ فِيهِمُ الْجَذَامُ.

وقال مقاتل: اخْتَبَسَ عَنْهُمْ الْمَطَرُ؛ فَلِذَلِكَ قَالُوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾^(٤)، أَي: تَشَاءُ مِنَّا بِكُمْ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ تَطَيَّرَ هُؤَلَاءِ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ مَا دَخَلَ قَرْيَتَهُمْ مِنْ اخْتِلَافٍ كَلِمَتِهِمْ وَافْتِتَانِ النَّاسِ.

وقوله: ﴿أَتُنْذِرْتُمْ﴾ جوابه محذوف، أَي: تَطَيَّرْتُمْ، قَالَهُ أَبُو حِيَانٍ^(٥) وَغَيْرُهُ، انْتَهَى، وَقَوْلُهُمْ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾، مَعْنَاهُ: حَظُّكُمْ وَمَا صَارَ لَكُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مَعَكُمْ أَي: مِنْ أَفْعَالِكُمْ وَمِنْ تَكْسِبَاتِكُمْ، لَيْسَ هُوَ مِنْ أَجْلُنَا، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَابْنُ عَامِرٍ: «أَإِنْ دُكِّرْتُمْ» بِهَمْزَيْنِ^(٦)؛ الثَّانِيَةُ مَكْسُورَةٌ. وَقَرَأَ نَافِعٌ وَغَيْرُهُ بِتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ، وَرَدُّهَا يَاءً: «أَيْنَ دُكِّرْتُمْ». وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ رَجُلٍ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى؛ سَمِعَ الْمُرْسَلِينَ وَفِيهِمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَدَعَا عِنْدَ ذَلِكَ قَوْمَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ وَالْإِيمَانِ بِهِمْ، إِذْ هُوَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٤٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٤٩)، و«البحر المحيط» (٧/٣١٣)، و«الدر المصون» (٥/٤٧٧).

وقد قرأ أبو بكر بالتخفيف، وقرأ بها الحسن، وأبو حيو، وأبان، والمفضل.

ينظر: «السبعة» (٥٣٩)، و«الحجة» (٦/٣٨)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٣٠)، و«معاني القراءات» (٢/٣٠٤)، و«شرح الطيبة» (٥/١٦٦)، و«العنوان» (١٥٩)، و«حجة القراءات» (٥٩٧)، و«شرح شعلة» (٥٥٧)، و«إتحاف» (٢/٣٩٨).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٣١) برقم: (٢٩٠٨٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٩).

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٤٩)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٩)، ولم يعزه لأحد.

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٣١٤).

(٦) وقرأها هكذا حفص، وقرأها المفضل مثل قراءة نافع، يعني بتسهيل الهمزة الثانية.

ينظر: «السبعة» (٥٤٠)، و«الحجة» (٦/٣٨)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٣٠)، و«معاني القراءات» (٢/٣٠٦)، و«شرح الطيبة» (٥/١٦٧)، و«العنوان» (١٥٩)، و«إتحاف» (٢/٣٩٨).

الحق. فَرُوِيَ عن ابن عباس وغيره، أن اسمَ هذا الرجل حبيب، وكان نَجَّاراً^(١) وكان فيما قال وهب بن مَثْبُة: قد تَجَدَّم^(٢).

وقيل: كَانَ فِي غَارٍ يَغْبُدُ رَبَّهُ فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآية، وذكر الناس في أسماء الرسل: صَادِق، وَصَدُوق، وَشَلُوم، وغير هذا، واللَّه أعلم بصحَّته، واخْتَلَفَ المفسِّرونَ في قوله ﴿فاسمعون﴾ فقال ابن عباس وغيره: خاطب بها قومه^(٣)، أي: على جهة المبالغة والتثنية.

وقيل: خَاطَبَ بها الرُّسُلَ على جهة الاستشهاد بهم والاستحفاظ للأمر عندهم.

قال * ع^(٤) *: وهنا محذوفٌ تَوَاتَرَتْ به الأحاديثُ والرِّوَايَاتُ وهم أنهم قَتَلُوهُ فَقِيلَ له عند موته: ﴿ادخل الجنة﴾ فَلَمَّا أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بما رَأَى من الكَرَامَةِ قَالَ: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ...﴾ الآية، قيل: / أراد بذلك الإشفاق والنصح لَهم أي: لو عَلِمُوا ذلك، لَأَمَنُوا بالله تعالى، وقيل: أراد أن يَعْلَمُوا ذلك فَيَنْدَمُوا على فِعْلِهِمْ به، ويخزيهم ذلك، وهذا موجود في جِبِلَّةِ البشر إذا نال الشخصُ عِزًّا وَخَيْرًا في أرض غُزْبَةٍ وَدَّ أَنْ يَعْلَمَ ذلك جِيرَانُهُ وَأَثَرَابُهُ الذين نَشَأَ فيهم، كما قيل: [السريع]

الْعِزُّ مَطْلُوبٌ وَمُلْتَمَسٌ وَأَحَبُّهُ مَا نِيلَ فِي الْوَطَنِ^(٥)

قال * ع^(٦) *: والتأويلُ الأولُ أشبهُ بهذا العبدِ الصالح؛ وفي ذلك قولُ النبي ﷺ: نَصَحَ قَوْمَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا؛ وقال قتادة: نَصَحَهُمْ على حالة الْعُصْبِ وَالرِّضَا وَكَذَلِكَ لَا تَجِدُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا لِلنَّاسِ^(٧).

-
- (١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٠)، وأخرجه الطبري (١٠/٤٣٣) برقم: (٢٩٠٩٤)، وذكره ابن كثير (٣/٥٦٨)، والسيوطي (٥/٤٩١)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٣٣) برقم: (٢٩٠٩٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٦٨).
- (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٣٥) برقم: (٢٩١٠١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٦٨) كلهم عن ابن عباس، وكعب، وهب.
- (٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٥١).
- (٥) البيت من شواهد «المحرر الوجيز» (٤/٤٥١).
- (٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٥١).
- (٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٣٦) برقم: (٢٩١٠٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥١)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٦٨) بنحوه.

﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) **﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾** (٢٩) **﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** (٣٠) **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾** (٣١) **﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** (٣٢)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ...﴾ الآية، مخاطبة للنبي ﷺ فيها توعدٌ لقرئش وتخديرٌ أن ينزل بهم من العذابِ ما نزل بقوم حبيبِ التجار.

قال مجاهد: لم ينزل الله عليهم من جندٍ أراد أنه لم يُرسل إليهم رسولاً ولا استعذبهم^(١)، قال قتادة: وَاللَّهِ، مَا عَاتَبَ اللَّهُ قَوْمَهُ بَعْدَ قَتْلِهِ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ^(٢).

وقال ابن مسعود: أراد: لَمْ يَخْتَجِ فِي تَغْذِيهِمْ إِلَى جُنْدٍ، بَلْ كَانَتْ صَيْحَةً وَاحِدَةً؛ لأنهم كانوا أيسرَ وأهونَ من ذلك^(٣)، واختلف في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ فقالت فرقة: «ما» نافية، وقالت فرقة: «ما» عطفٌ على جندٍ، أي: من جند ومن الذي كنا منزلين على الأمم مثلهم قبل ذلك، و«خامدون» أي: ساكنون موتى.

وقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ﴾ الحسرة التلُفُّ: وذلك أن طِبَاعَ كُلِّ بَشَرٍ تُوَجِبُ عِنْدَ سَمَاعِ خَالِهِمْ وَعَذَابِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ، أَنْ يُشْفِقَ وَيَتَحَسَّرَ عَلَى الْعِبَادِ، وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ: قَالَ الضَّحَّاكُ: إِنَّهَا حَسْرَةُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْعِبَادِ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَلُّوا مَحَلَّ مَنْ يَتَحَسَّرُ عَلَيْهِ، انتهى. وقرأ الأعرج^(٤) وأبو الزناد ومسلم بن جندب: (يَا حَسْرَةَ) بالوقفِ على الهاء وهو أبلغ في معنى التَحَسُّرِ والتَّشْفِيقِ وَهَرُّ النَّفْسِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ...﴾ الآية، تمثيلٌ لِفِعْلِ قُرَيْشٍ؛ وإيّاهاً عنى

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٧/١٠) برقم: (٢٩١١١)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٦٩/٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٧/١٠) برقم: (٢٩١١٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٦٩/٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٧/١٠) برقم: (٢٩١١٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٦٩/٣).

(٤) وقد استقلها أبو الفتح، وأطال الكلام حولها.

ينظر: «المحتسب» (٢٠٨/٢، ٢١١)، و«مختصر الشواذ» (١٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٤٥٢/٤)، و«البحر المحيط» (٣١٨/٧)، و«الدر المصون» (٤٨١/٥).

بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وقرأ جمهور الناس «لَمَّا جَمِيعٌ» - بتخفيف الميم -، وذلك على زيادة «ما» للتأكيد والمعنى: لَجَمِيعٌ، وقرأ عاصمٌ والحسنُ وابن جبير^(١) (لَمَّا) - بشد الميم -، قالوا: هي بمنزلة «إلا» و﴿مُحْضَرُونَ﴾ قال قتادة: مُحْشَرُونَ يوم القيامة^(٢).

﴿وَأَيُّ لَهْمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبُتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْتَهَا...﴾ الآية، و﴿آية﴾: معناه وعلامة على الحشرِ وَيَغْثِ الْأَجْسَادِ، والضميرُ في (لهم) لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ، والضميرُ في (ثَمَرِهِ) قيل هو عائدٌ على الماء الذي تَضَمَّنَتْهُ ذُكُرُ الْعُيُونِ، وقيل: هو عائدٌ على جميع ما تَقَدَّمَ مُجْمَلًا: كأنه قال: مِنْ ثَمَرٍ مَا ذَكَرْنَا «وما» في قوله: ﴿وما عملته أيديهم﴾ قال الطبري^(٣): هي اسمٌ معطوفٌ على الثمر، أي: يقع الأكل من الثمر، ومما عملته الأيدي بالْعَرَسِ وَالزَّرَاعَةِ ونحوه.

وقالت فرقة: هي مصدريةٌ وقيل: هي نافيةٌ، والتقديرُ أنهم يأكلون من ثمره وهو شيءٌ لَمْ تَعْمَلْهُ أَيْدِيهِمْ؛ بل هي نعمةٌ مِنَ اللَّهِ تعالى عليهم، والأزواجُ: الأنواع من جميع الأشياء.

وقوله: ﴿ومما لا يعلمون﴾ نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

﴿وَأَيُّ لَهْمُ أَيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(١) وقرأ بها ابن عامر، وحزمة، والكسائي.

ينظر: «معاني القراءات» (٣٠٥/٢)، و«العنوان» (١٥٩)، و«حجة القراءات» (٥٩٧)، و«إتحاف» (٢/٤٠٠)، و«المحرر الوجيز» (٤٥٢/٤)، و«البحر المحيط» (٣١٩/٧).

(٢) أخرجه الطبري (٤٣٩/١٠) برقم: (٢٩١١٩)، بلفظ: أي هم يوم القيامة، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥٢/٤)، والسيوطي في «تفسيره» (٤٩٣/٥)، بلفظ: «يوم القيامة»، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٤٠/١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ هذه الآيات جعلها الله عز وجل أدلة على قدرته ووجوب الألوهية له، و﴿نسلخ﴾ معناه نكسب ونقشُر: فهي استعارة.

قلت: قال الهروي: قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نخرجه منه إخراجاً لا يَبْقَى من ضوء النهار معه شيء، انتهى. و﴿مظلمون﴾ داخلون في الظلام، ومُسْتَقَرُّ الشَّمْسِ: - على ما في الحديث عن النبي ﷺ من طريق أبي ذرٍّ - «بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ تَسْجُدُ فِيهِ كُلُّ لَيْلَةٍ بَعْدَ غُرُوبِهَا» وهو في البخاري^(١)؛ وفي حديث آخر «أَنَّهَا تَسْجُدُ فِي ١٨٧ عَيْنِ حَمِيَّةٍ»^(٢) و﴿منازل﴾ منصوب على الظرف وهي المنازل المعروفة عند العرب، وهي ثمانية وعشرون منزلة يقطع القمر منها كل ليلة منزلة، وعودته هي استهلاله رقيقاً وحينئذ يشبه العرجون، وهو الغصن من التخلّة الذي فيه شَمَارِيخُ التَّمَرِ، فإنه ينحنني ويصفر إذا قَدِمَ، ويحيى أشبه شيء بالهلال؛ قاله الحسن^(٣)، والوجود يشهد له، و﴿القديم﴾ معناه: العتيق الذي قد مرّ عليه زمن طويل، و﴿يتنبي﴾ هنا مُسْتَعْمَلَةٌ فيما لا يمكن خلافه؛ لأنها لا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وال«فلك» فيما روي عن ابن عباس مُتَحَرِّكٌ مُسْتَدِيرٌ كَفَلَكَه المَغْزَلُ فِيهِ جَمِيعُ الْكَوَاكِبِ^(٤) و﴿يسبحون﴾ معناه: يَجْرُونَ وَيَعْمُونَ.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَلَئِنْ نَشَأْ نُغْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦).

(١) أخرجه البخاري (١٣/٤١٥) كتاب «التوحيد» باب: وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم برقم: (٧٤٢٤)، (٨/٤٠٢) كتاب «التفسير» باب: «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم» (٤٨٠٢)، (٦/٣٤٢ - ٣٤٣)، كتاب «بدء الخلق»، باب: «صفة الشمس والقمر» (بحسبان) (٣١٩٩)، ومسلم (١/٤٥٣ - ٤٥٤) - الأبي، كتاب «الإيمان» باب: «الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان» (١٥٩/٢٥٠)، وأبو داود (٢/٤٣٣)، كتاب «الحروف والقراءات» باب: (١)، (٤٠٠٢) نحوه، والترمذي (٤/٤٧٩)، كتاب «الفتن» باب: ما جاء في طلوع الشمس من مغربها (٢١٨٦)، والنسائي في «التفسير» (٢/٢٠٤ - ٢٠٥)، تفسير سورة يس (٤٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦/٤٣٩) كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: «والشمس تجري لمستقر لها» (١/١١٤٣٠).

قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: الحديث السابق.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/٤٤٢) برقم: (٢٩١٢٥)، وذكره ابن عطية (٤/٤٥٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٩٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٤٣) برقم: (٢٩١٣٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٧٣).

وقوله تعالى: «وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ» الآية، ذَكَرَ الذَّرِيَّةَ لِضَعْفِهِمْ عَنِ السَّفَرِ، فَالْنَعْمَةُ فِيهِمْ أَمْكَنُ، وَالضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ بِالذَّرِيَّاتِ، هُوَ ضَمِيرُ الْجِنْسِ، كَأَنَّهُ قَالَ: ذُرِّيَّاتُ جَنْسِهِمْ أَوْ نَوْعِهِمْ؛ هَذَا أَصَحُّ مَا يَتَجَهُّ فِي هَذَا.

وأما معنى الآية؛ فقال ابن عباس وجماعة: يريد بالذَّرِيَّاتِ المَحْمُولِينَ: أَصْحَابَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَيُرِيدُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ مِثْلُهُ﴾ السَّفْنَ الْمَوْجُودَةَ فِي جَنَسِ بَنِي آدَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاهَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾^(١)، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: «أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ»: السَّفْنَ الْمَوْجُودَةَ فِي بَنِي آدَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُرِيدُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الْإِبِلَ وَسَائِرَ مَا يُرْكَبُ؛ فَتَكُونُ الْمِمَّاثِلَةُ فِي أَنَّهُ مَرْكُوبٌ مُبْلَغٌ إِلَى الْأَقْطَارِ فَقَطْ، وَيَعُودُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ عَلَى السَّفَنِ الْمَوْجُودَةِ فِي النَّاسِ^(٢)، وَالصَّرِيحُ؛ هُنَا بِمَعْنَى الْمُضْرِيخِ الْمَغِيثِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ قَالَ الْكَسَائِيُّ: نَصَبَ ﴿رَحْمَةً﴾ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا أَنَّ تَرْحَمَهُمْ.

وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ يُرِيدُ إِلَى آجَالِهِمُ الْمَضْرُوبَةِ لَهُمْ، ثُمَّ ابْتَدَأَ الْإِخْبَارَ عَنْ عُتُوِّ قَرِيشَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمِقَاتِلُ: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: هُوَ عَذَابُ الْأَمَمِ الَّذِي قَدْ سَبَقَهُمْ فِي الزَّمَنِ^(٣)؛ وَهَذَا هُوَ النَّظَرُ الْجَيِّدُ: وَقَالَ الْحَسَنُ: خُوفُوا بِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِمْ؛ وَبِمَا يَأْتِي مِنْهَا^(٤)، قَالَ * ع * : وَهَذَا نَحْوُ الْأَوَّلِ فِي الْمَعْنَى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية، الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٥).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٧/١٠) برقم: (٢٩١٦٨) عن قتادة، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٤).

(٤) وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٥) كلاهما عن قتادة ومقاتل، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٩٨)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٥).

﴿لَهُمْ﴾ لقريش؛ وسبب الآية أن الكفار لما أسلم حواشيهم من الموالى وغيرهم، والمستضعفين، قطعوا عنهم نفقاتهم وصلاتهم، وكان الأمر بمكة أولاً فيه بعض الاتصال في وقت نزول آيات المؤادعة، فندب أولئك المؤمنون قراتيتهم من الكفار، إلى أن يصلوهم وينفقوا عليهم، مما رزقهم الله؛ فقالوا عند ذلك: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾.

وقالت فرقة: سبب الآية أن قريشاً شحّت بسبب أزمة على المساكين جميعاً مؤمن وغير مؤمن، فندبهم النبي ﷺ إلى الثقة على المساكين، وقولهم يَحْتَمِلُ معينين:

أحدهما: يخرج على اختيار لجهال العرب، فقد روي أن أغرابياً كان يرعى إبله فيجعل السمان في الخضب، والمهازيل في المكان الجذب، ف قيل له في ذلك؛ فقال: أَكْرِمَ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ وَأَهِنَ مَا أَهَانَ اللَّهُ، فيخرج قول قريش على هذا المعنى، ومن أمثالهم: «كُنْ مَعَ اللَّهِ عَلَى الْمَدِيرِ».

والتأويل الثاني: أن يكون كلامهم بمعنى الاستهزاء بقول محمد - عليه السلام -: إِنَّ تَمَّ إِلَهًا هُوَ الرِّزَاقُ، فكانهم قالوا: لِمَ لَا يَرْزُقُهُمُ إِلَهٌ الذي تزعم، أي: نحن لا نطعم من لو يشاء هذا الإله الذي زعمت، لأطعمه.

/ وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ الْكَفَرَةِ ٨٧ ب للمؤمنين، أي: في أمركم لنا بالنفقة؛ وفي غير ذلك من دينكم، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى للكفرة. وقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: متى يوم القيامة.

وقيل: أرادوا: متى هذا العذاب الذي تتهادونا به، و﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي: يَنْتَظِرُونَ، و﴿مَا﴾ نافية، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة؛ وهي النَّفْخَةُ الْأُولَى، وفي حديث أبي هريرة^(١) أن بعدها نفخة الصَّعْقِ، ثم نفخة الحشر، وهي التي تدوم؛ فَمَا لَهَا مِنْ قَوَاقٍ، وأصل ﴿يَخْضَمُونَ﴾: يَخْتَصِمُونَ، والمعنى: وهم يَتَحَاوَرُونَ ويتراجعون الأقوال بينهم، وفي مُضْخَفِ أَبِي بَن كَغَبٍ «يختصمون»^(٢)، ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لإعجال الأمر، بَلْ تَقِيضُ أَنْفُسُهُمْ؛ حيثَ مَا أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ.

(١) أخرجه البخاري (١١٦/٨) كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ برقم: (٤٦٠٤)، ومسلم (١٨٤٣/٤) كتاب «الفضائل» باب: من فضائل موسى عليه السلام (١٥٩/٢٣٧٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣٢٥/٧)، و«الدر المصون» (٤٨٧/٥).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَتَوَلَّانا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤).

وقوله سبحانه: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ هذه نَفْخَةُ البعث، والأجداث: القبور، و﴿ينسلون﴾ أي يَمْشُونَ مُسْرِعِينَ. وفي قراءة ابن مسعود^(١): «مَنْ أَهْبَأَ مِنْ مَرْقَدِنَا»، وَرَوَى عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَغَيْرِهِ: أَنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ يَتَأَمُّونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْحَشْرِ^(٢).

قال * ع^(٣) *: وهذا غير صحيح الإسناد، وإنما الوجه في قولهم: ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾: أنها استعارة؛ كَمَا تَقُولُ فِي قِتِيلٍ: هذا مرقده إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ جَوَزَ الزَّجَّاجُ أَنْ يَكُونَ «هذا» إشارة إلى المَرْقَدِ، ثم اسْتَأْنَفَ «ما وعد الرحمن» وَيُضْمِرُ الْخَبَرَ «حق» أو نحوه، وقال الجمهور: ابتداء الكلام: ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ واختُلِفَ في هذه المقالة مَنْ قَالَهَا؟ فقال ابن زيد: هِيَ مِنْ قَوْلِ الْكُفْرَةِ^(٤)، وقال قتادة ومجاهد: هي من قول المؤمنين للكفار^(٥).

وقال الفراء: هي مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ^(٦)، وقالت فرقة: هي مِنْ قَوْلِ اللَّهِ - تعالى - على جَهَةِ التَّوْبِيخِ، وباقي الآية بَيِّنٌ.

- (١) ينظر: «المحتسب» (٢/٢١٤)، و«الكشاف» (٤/٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/٤٥٨).
- (٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٥١) برقم: (٢٩١٨٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٧٤)، والسيوطي في «تفسيره» (٥/٤٩٩)، وعزاه لابن الأنباري عن أبي بن كعب.
- (٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٥٨).
- (٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٥١) برقم: (٢٩١٨٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٧٤).
- (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٥١) برقم: (٢٩١٨٤) عن مجاهد، وعن قتادة برقم: (٢٩١٨٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٥) عن مجاهد، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٧٤) عن غير واحد من السلف، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٠٠)، وعزاه لهناد في «الزهد» وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري عن مجاهد، ولعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.
- (٦) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٥٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٧٤) عن الحسن، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٠٠)، وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا فَتَكُهُهُمْ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو افْتِضَاضُ الْأَبْكَارِ^(١).

وقال ابن عباس أيضاً: هو سماع الأوتار^(٢).

وقال مجاهد: معناه: نعيمٌ قَدْ شَغَلَهُمْ^(٣).

قال * ع^(٤) * : وهذا هو القول الصحيح؛ وتعيين شيءٍ دون شيءٍ لا قياس له.

وقوله سبحانه: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ جاء في «صحيح البخاري» وغيره عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسْجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ؛ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٥) انتهى. وهذا الظلُّ المذكورُ في الحديث؛ هو في المَحْشَرِ.

قال الشيخ ابن أبي جَمْرَةَ (رضي الله عنه): وظلالُ الآخِرَةِ، ما فيها مُبَاحٌ؛ بل كُلُّهَا قد تملكُ بالأَعْمَالِ التي عملها العاملون الذين هَدَاهُمُ اللَّهُ تعالى؛ فليس هناك لصعلوكِ الأَعْمَالِ ظلٌّ، انتهى؛ وهو كما قال، فَشَمَّرَ عَنْ سَاقِ الْجِدِّ؛ إن أردتَ الفوزَ؛ أيها الأخُ والسلام. و﴿الأرائكُ﴾: السررُ المفروشةُ، قيل: وَمِنْ شَرَطِهَا أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا حَجَلَةٌ وَإِلَّا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٢/١٠) عن عبد الله بن مسعود برقم: (٢٩١٨٧)، وعن ابن عباس برقم: (٢٩١٨٨)، وعن سعيد بن المسيب برقم: (٢٩١٩١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٥/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٥٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٧٥/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس. ولعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن المنذر عن ابن مسعود.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٧٥/٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٢/١٠) برقم: (٢٩١٩٢)، بلفظ: «في نعمة»، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥٨/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٥٨/٤).

(٥) تقدم تخريجه.

فليست بأريكة؛ وبذلك قيدها ابن عباس وغيره^(١).

وقوله: ﴿ما يدعون﴾ بمنزلة ما يتمنون.

قال أبو عبيدة: العرب تقول: أدع علي ما شئت/ بمعنى: تمن علي.

١٨٨

وقوله: ﴿سلام﴾ قيل: هي صفة، أي: مسلم لهم، وخالص، وقيل: هو مبتدأ،

وقيل: هو خبر مبتدأ.

﴿وَأَمَّا يَوْمَ الْاِتِّمَاعِ الْمُتَعَمِّدُونَ﴾ ٥٩ ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ بِالَّذِينَ حَقَّنْهُمُ فِي الْبَحْرِ فَأَنجَيْنَاهُمْ أُولَئِكَ﴾ ٦٠ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ٦١ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ٦٢ ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ٦٣ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنصِتُ أَزْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٦٤.

وقوله تعالى: ﴿وامتازوا اليوم﴾ فيه حذف تقديره؛ ونقول للكفرة، «وامتازوا» معناه: انفصلوا وانحجزوا؛ لأن العالم في الموقف إنما هم مختلطون. قلت: وهذا يحتاج إلى سند صحيح، وفي الكلام إجمال، ويوم القيامة هو مواطن، ثم خاطبهم تعالى لما تميزوا، توبيخاً وتوقيفاً على عهده إليهم ومخالفتهم له، وعبادة الشيطان هي طاعته والانقياد لإغوائه.

وقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ إشارة إلى الشرائع؛ إذ بعث الله آدم إلى ذريته؛ ثم لم تخل الأرض من شريعة إلى ختم الرسالة بسيدنا محمد خاتم النبيين، و«الجبل»: الأمة العظيمة، ثم أخبر سبحانه نبيه محمداً - عليه السلام - أخباراً تشاركه فيه أمته؛ بقوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ وذلك أن الكفار يخحدون، ويطلبون شهيداً عليهم من أنفسهم؛ حسباً ورد في الحديث الصحيح؛ فعند ذلك يختم الله - تعالى - على أفواههم، ويأمر جوارحهم بالشهادة؛ فتشهد.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ٦٦ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَسَخَنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَائِهِمْ فَمَا أَسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ٦٧ ﴿وَمَنْ تَعَمَّرَ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ٦٨ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ٦٩.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٤/١٠) عن ابن عباس برقم: (٢٩١٩٩) وعن مجاهد (٢٩٢٠٠)، وعن عكرمة (٢٩٢٠٣)، وعن قتادة (٢٩٢٠٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥٩/٤)، وزاد نسبه للحسن، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥٧٥/٣).

وقوله سبحانه: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ الضمير في «أَعْيُنِهِمْ» لكفار قريش، ومعنى الآية: تَبَيَّنُ أَنَّهُمْ في قَبْضَةِ الْقُدْرَةِ، وبمَدْرَجِ الْعَذَابِ.

قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَرَادَ الْأَعْيُنَ حَقِيقَةً^(١)، والمعنى: لِأَعْمَيْنَاهُمْ؛ فَلَا يَرَوْنَ كَيْفَ يَمْشُونَ؛ وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَجَانَسَةُ الْمَسْخِ لِلْعَمَى الْحَقِيقِيِّ.

وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ﴾ معناه: عَلَى الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَوْ شِئْنَا لِأَعْمَيْنَاهُمْ، فَأَخْسِبْ أَوْ قَدْزُ أَنْتُمْ يَسْتَبِقُونَ الصِّرَاطَ؛ وَهُوَ الطَّرِيقُ، فَأَتَى لَهُمْ بِالْإِبْصَارِ، وَقَدْ أَعْمَيْنَاهُمْ، وَعِبَارَةُ الثُّغَلِيِّ: وَقَالَ الْحَسَنُ وَالسَّدي: وَلَوْ نَشَاءَ لَتَرَكْنَاهُمْ عُمِيًّا يَتَرَدَّدُونَ؛ فَكَيْفَ يُبْصِرُونَ الطَّرِيقَ حِينَئِذٍ، انْتَهَى، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ: أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ^(٢)؛ وَالْمَعْنَى: لَوْ شِئْنَا لَحَتَمْنَا عَلَيْهِمُ بِالْكَفْرِ؛ فَلَمْ يَهْتِدِ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَبَدًا، وَبَيَّنَّ تَعَالَى فِي تَنْكِيسِهِ الْمُعَمَّرِينَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ سَبْحَانَهُ، وَتَنْكِيسُهُ: تَحَوُّلُ خَلْقِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الضَّعْفِ؛ وَمِنْ الْفَهْمِ إِلَى الْبَلَهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَأْدًا عَلَى مَنْ قَالَ مِنَ الْكُفْرَةِ: إِنَّهُ شَاعِرٌ وَإِنَّ الْقُرْآنَ شِغْرٌ - بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ...﴾ الآية.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٠) ﴿وَلَوْ أَنَّا حَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِيًا أَنْفَعْنَا لَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (٧١) ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٣) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ (٧٤) ﴿فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٥).

وقوله تعالى: «التنذر من كان حياً» أي: حَيِّ الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَيِّتًا لِكُفْرِهِ؛ وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ، قَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ معناه: عَاقِلًا^(٣)، ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ﴾ معناه:

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٥٩/١٠) عَنْ الْحَسَنِ بِرَقْمٍ: (٢٩٢١٧) وَعَنْ قَتَادَةَ (٢٩٢١٨)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٦١/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٧٧/٣)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥/٥٠٤)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْحَسَنِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٥٨/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٢١٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٦١/٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٧٧/٣)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥٠٤/٥)، وَعَزَاهُ السِّيُوطِيُّ لِابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنِ بَيْهَقِيٍّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ».

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٦١/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٢٣١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٦٢/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٨٠/٣)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥٠٦/٥)، وَعَزَاهُ لِلْبَيْهَقِيِّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ».

يُحْتَمَّ العذابُ وَيَجِبَ الخُلُودُ.

وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا خلقنا﴾ الآية. مخاطبة لقريش أيضاً.

وقوله: ﴿أيدينا﴾ عبارة عن القدرة، والله تعالى مُنَزَّهٌ عَنِ الجَارِحَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فهم لها مالكون﴾ تنبيه على النعمة.

وقوله: ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ أي: يُخَضَّرُونَ لَهُمْ في الآخرة عَلَى معنى التوبيخ والنقمة، وَسَمَّى الْأَصْنَافَ جُنُوداً؛ إِذْ هُمْ عُدَّةٌ لِلنَّقْمَةِ مِنَ الكُفْرِ، ثُمَّ آتَى اللَّهَ نَبِيَّهُ - عليه الصلاة والسلام - بقوله: ﴿فلا يحزنك قولهم﴾ وَتَوَعَّدَ الْكُفْرَةَ بقوله: ﴿إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) .

وقوله تعالى: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة...﴾ الآية، والصحيح في سبب نزول الآية هو ما رواه ابن وهب عن مالك؛ وقاله ابن إسحاق وغيره أن أبا بن خلف؛ جاء بعظم / رميم، فَقَفَّتْ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ وَجِيَالَهُ، وَقَالَ: مَنْ يُحْيِي هَذَا يَا مُحَمَّد^(١)؛ وَلَا يَبِي هَذَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَقَامَاتٍ وَمَقَالَاتٍ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ يَوْمَ أُحُدٍ؛ طَعَنَهُ بِحَرْبَةٍ فِي عُنُقِهِ.

ب ٨٨

وقوله: ﴿ونسى خلقه﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَسِيَانُ الدُّهُولِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَسِيَانُ التَّرَكِّ، وَالرَّمِيمُ: البالي الْمُتَفَتَّتُ، وَهُوَ الرُّفَاتُ، ثُمَّ دَلَّاهُمْ سَبْحَانَهُ عَلَى الْاِغْتِيَابِ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى، ثُمَّ عَقَّبَ تَعَالَى بِدَلِيلٍ ثَالِثٍ فِي إِجَادِ النَّارِ فِي الْعُودِ الْأَخْضَرِ الْمُزْتَوِي مَاءً، وَهَذَا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٦٤) برقم: (٢٩٢٤٠) عن مجاهد، وبرقم: (٢٩٢٤٢) عن قتادة، وذكره البغوي (٤/٢٠)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٦٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٨١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٠٧)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

هو زِنَادُ الْعَرَبِ، وَالنَّارُ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ عَوْدٍ غَيْرِ أَنَّهَا فِي الْمُتَخَلِّجِ الْمَفْتُوحِ الْمَسَامِ أَوْجَدُ،
وكَذَلِكَ هُوَ الْمَرْخُ وَالْعَفَّارُ، وَجَمَعَ الضَّمِيرَ جَمَعَ مَنْ يَغْفِلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِثْلَهُمْ﴾؛ مِنْ حَيْثُ
إِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَتَضَمَّنَةٌ مَنْ يَغْفِلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْثَّقَلَيْنِ؛ هَذَا تَأْوِيلُ جَمَاعَةٍ، وَقِيلَ:
﴿مِثْلَهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى النَّاسِ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الصَّافَّاتِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالَّتِي لَبَّيْنَ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيْنَا أَلَمْنَا دُنْيَا بُرْنِيَةِ الْكُوكَبِ ۝٦ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ تَارِبٍ ۝٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ ۝١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿والصافات صفا﴾ الآية، أقسم تعالى في هذه الآية بأشياء من مخلوقاته، قال ابن مسعود وغيره: «الصافات» هي الملائكة تصف في السماء في عبادة الله عز وجل^(١).

وقالت فرقة: المراد: صفوف بني آدم في القتال في سبيل الله، قال ع^(٢) * واللفظ يَحْتَمِلُ أَنْ يَعْمَ هذه المذكورات كلها، قال مجاهد: «والزاجرات» هي الملائكة تَزْجُرُ السحاب وغير ذلك من مخلوقات الله تعالى^(٣)، وقال قتادة: «الزاجرات» هي آيات القرآن^(٤)، و«التاليات ذكراً» معناه: القارئات، قال مجاهد: أراد الملائكة التي تَتْلُو ذكره^(٥)،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٧/١٠) عن مسروق برقم: (٢٩٢٤٧) وعن عبد الله (٢٩٢٤٨)، وعن قتادة برقم: (٢٩٢٤٩)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٢/٤) عن ابن عباس والحسن وقتادة، وابن عطية في «تفسيره» (٤٦٥/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥١٠)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٥/٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٧/١٠) برقم: (٢٩٢٥٢) عن مجاهد وبرقم: (٢٩٢٥٣) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٥/٤) عنهما، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥١٠)، وعزاه لابن المنذر، وأبي الشيخ في «المعظمة» عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٨/١٠) برقم: (٢٩٢٥٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٢/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٦٥/٤)، وابن كثير (٢/٤) عن الربيع بن أنس، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥١٠)، وعزاه لابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٨/١٠) برقم: (٢٩٢٥٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٢٢/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٦٥/٤).

وقال قتادة: أراد بني آدم الذين يَتَلَوْنَ كُتُبَهُ المنزلة وتسييحه وتكبيره ونحو ذلك^(١)، والمُقَسَّم عليه: قوله: ﴿إِنْ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

وقوله: ﴿مَارِدٌ﴾ قال العراقي: مَارِدٌ سَخِطَ عَلَيْهِ، وهكذا ﴿مَرِيدٌ﴾ [الحج: ٣] انتهى؛ وَهَذَا لَفْظُهُ، وَالْمَلَأَ الْأَعْلَى: أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَمَا فَوْقَهَا، وَسُمِّيَ الْكُلُّ مِنْهُمْ أَعْلَى؛ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَلَأِ الْأَرْضِ الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يَسْمَعُونَ﴾ لِلشَّيَاطِينِ، وَقَرَأَ حَمَزَةً، وَعَاصِمٌ فِي رَوَايَةِ حَفْصٍ: «لَا يَسْمَعُونَ»، - بشد السين والميم^(٢)، -، بمعنى: لَا يَسْمَعُونَ، فَيَنْتَفِي عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ سَمَاعُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا يَسْتَمْعُونَ؛ وَهُوَ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ، وَيَغْضُذُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] «وَيَقْذِفُونَ» معناه: يُزَجِّمُونَ، وَالذُّخْرُ: الْإِضْغَارُ وَالْإِهَانَةُ، لِأَنَّ الدُّخْرَ هُوَ الدَّفْعُ يَغْنَفُ، وَقَالَ الْبَخَارِيُّ: ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ يُزَمُّونَ^(٣) و﴿دَحْورًا﴾ مُطْرَدِينَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَدْحُورًا» مُطْرُودًا^(٤)، انْتَهَى، وَالْوَاصِبُ: الدَّائِمُ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(٥)، وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: الْوَاصِبُ: الْمَوْجِعُ^(٦)، وَمِنْهُ الْوَصْبُ، وَالْمَعْنَى: هَذِهِ الْحَالُ هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى جَمِيعِ الشَّيَاطِينِ إِلَّا مَنْ شَدَّ فَخَطَفَ خَبْرًا أَوْ نَبَأً، «فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ» فَأَحْرَقَهُ، وَالثَّاقِبُ، النَّافِذُ بِضُوئِهِ وَشِعَاعِهِ الْمَنِيرِ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ^(٧).

﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (١١) ﴿كُلٌّ عَجِبَتْ وَاسْتَحْزَنُوا﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ (١٣).

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٥/٤).

(٢) قرأ بها الكسائي.

ينظر: «السبعة» (٥٤٦)، و«الحجة» (٥٢/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٤٤/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٣١٦)، و«شرح الطيبة» (١٨٠/٥)، و«العنوان» (١٦١)، و«حجة القراءات» (٦٠٥)، و«شرح شعلة» (٥٦٢)، و«إتحاف» (٤٠٨/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٥/٨) كتاب «التفسير» باب: سورة الصافات، معلقاً عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧٢/١٠) برقم: (٢٩٢٧١) عن مجاهد بلفظ: «مطرودين»، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٦/٤) عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧٣/١٠) برقم: (٢٩٢٧٦) عن مجاهد، ويرقم: (٢٩٢٧٧) عن ابن عباس ويرقم: (٢٩٢٧٨) عن عكرمة، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٦) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٦/٤).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧٤/١٠) برقم: (٢٩٢٨٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٦٧/٤) عن قتادة، والسدي، وابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَهُمْ أَهْمَ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مِنْ خَلْقِنَا﴾ أي: فلا يُمكنُهُمْ أن يقولوا إلا أن خلق من سواهم من الأمم والملائكة، والجنّ والسّموات والأرض والمشارق والمغارب وغير ذلك - هو أشد من هؤلاء المخاطبين، وبأن الضمير/ في ﴿خَلَقْنَا﴾ يراؤ به ما تقدم ذكره، قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ويؤيده ما في مصحف ابن مسعود «أَمْ مَنْ عَدَدْنَا»^(١)؛ وكذلك قرأ الأعشى^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي: خلق أصلهم وهو آدم - عليه السلام -، واللازب: اللازم: يلزم ما جاوره ويلصق به، وهو الصلصال، ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من إغراضهم عن الحق، وقرأ حمزة والكسائي «بَلْ عَجِبْتُ» - بضم التاء -^(٣)؛ وذلك على أن يكون تعالى هو المتعجب ومعنى ذلك من الله تعالى: أنه صفة فعل، ونحوه قوله ﷺ: «يَعْجِبُ اللَّهُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبَوَةٌ» فإنما هي عبارة عما يظهره الله - تعالى - في جانب المتعجب منه من التعظيم أو التحقير حتى يصير الناس متعجبين منه، قال الثعالبي: قال الحسين بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء، وتعظيمه؛ وهو لغة العرب، انتهى.

وقوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: وهم يسخرون من نبوتك.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَوَدَا مِنَّا وَكَأَنَّا نُرَابَا وَعَقَلْنَا أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَوَدُّونَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُكَ (٢١) ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاقْدُرْهُمْ لَكُمْ صَرْطَ الْحَجِيمِ (٢٣) وَفَقُودُهُمْ لِمَنْهُمْ مَسْغُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ آلُيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ (٢٦) ﴿

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ﴾ يريد بالآية: العلامة والدلالة، ورؤي أنها نزلت في زكّانة وهو رجل من المشركين من أهل مكة؛ لقيه النبي ﷺ في جبل خال وهو يزعم غنما له؛ وكان أقوى أهل زمانه، فقال له النبي ﷺ: «يَا زُكَّانَةُ؛ أَرَأَيْتَ إِنْ صَرَعْتُكَ؛ أَتَوْ مِنْ بِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ دُعَاءِ شَجَرَةٍ وَإِقْبَالِهَا،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٦٧)، و«البحر المحيط» (٧/٣٣٩).

(٢) يعني: مخففة الميم.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٦٧)، و«البحر المحيط» (٧/٣٣٩)، و«الدر المصون» (٥/٤٩٧).

(٣) ينظر: «السبعة» (٥٤٧)، و«الحجة» (٦/٥٣)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٤٥)، و«معاني القراءات» (٢/٣١٧)، و«شرح الطيبة» (٥/١٨١)، و«العنوان» (١٦١)، و«حجة القراءات» (٦٠٦)، و«شرح شعلة» (٥٦٢)، و«إتحاف» (٢/٤٠٨).

وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اخْتَلَفَتْ فِيهِ أَلْفَاظُ الْحَدِيثِ، فَلَمَّا فَرَعَ ذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنْ، وَجَاءَ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: يَا بَنِي هَاشِمٍ، سَاخِرُوا بِصَاحِبِكُمْ أَهْلَ الْأَرْضِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِ وَفِي نُظَرَائِهِ، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: «يَسْخَرُونَ»^(١)، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهٖ أَنْ يُجِيبَ تَقْرِيرَهُمْ وَأَسْتَفْهَامَهُمْ عَنِ الْبَعْثِ بِ﴿نَعَمْ﴾، وَأَنْ يَزِيدَهُمْ فِي الْجَوَابِ، أَنََّّهُمْ مَعَ الْبَعْثِ فِي صَعَارٍ وَذَلَّةٍ وَاسْتِكَانَةٍ، وَالذَّاخِرُ: الصَّاعِرُ الذَّلِيلُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ غَيْرَ مَا مَرَّةً، وَالزُّجْرَةُ الْوَاحِدَةُ: هِيَ نَفْحَةُ الْبَغِثِ، قَالَ الْعِرَاقِيُّ: الزُّجْرَةُ: الصَّنِيعَةُ بِأَنْتِهَارٍ، انْتَهَى. وَ﴿الَّذِينَ﴾: الْجَزَاءُ، وَأَجْمَعَ الْمَفْسُورُونَ عَلَى أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ لَيْسَ هُوَ مِنْ قَوْلِ الْكُفْرَةِ وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: يُقَالُ لَهُمْ.

وقوله: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ مَعْنَاهُ: أَنْوَاعُهُمْ وَضُرَبَاؤُهُمْ؛ قَالَهُ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ^(٢)، وَمَعَهُمْ ﴿مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ * مِنْ دُونِ اللَّهِ * مِنْ آدَمِيِّ رَضِيَ بِذَلِكَ، وَمِنْ صَنَمٍ وَوَتْنٍ؛ تَوْبِيخًا لَهُمْ وَإِظْهَارًا لِسُوءِ حَالِهِمْ، وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ نَسَاؤُهُمُ الْمُشْرِكَاتُ؛ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا^(٣).

وقوله تَعَالَى: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ مَعْنَاهُ: قَدَّمُوهُمْ وَاحْمِلُوهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِوَقُوفِهِمْ - عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ لَهُمْ - وَالسُّؤَالِ، قَالَ جَمْهُورُ الْمَفْسُرِينَ: يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَيُوقَفُونَ عَلَى قُبْحِهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٌ...» الْحَدِيثُ، قَالَ * ع^(٤) * وَيَحْتَمِلُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى عَلَى نَحْوِ مَا فَسَّرَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٧٧/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٣٠٢) عَنْ قَتَادَةَ وَبِرَقْمٍ: (٢٩٣٠٣) عَنْ مُجَاهِدٍ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٦٨/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥١٣/٥)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ، وَلِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٧٩/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٣١٢) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَبِرَقْمٍ: (٢٩٣١٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٦٨/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤) عَنْ عُمَرَ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥١٣/٥)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَالْفَرِيَابِيِّ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنِ مَنِيعٍ فِي مُسْنَدِهِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ، وَابْنُ بَيْهَقِيٍّ فِي «الْبَعْثِ» مِنْ طَرِيقِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ عُمَرَ، وَلِلْفَرِيَابِيِّ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ بَيْهَقِيٍّ فِي «الْبَعْثِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَلِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ مَرْدُوَيْهِ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٦٩/٤) عَنْ الْحَسَنِ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤٦٩/٤).

تَنَاصَرُونَ ﴿١﴾ أي: إنهم مسؤولون عن امتناعهم عن التناصُر؛ وهذا على جهة التوبيخ، وقرأ خلق^(١) «لا تَتَنَاصَرُونَ». * ت * قال عِيَاضُ فِي «المدارك»: كان أبو إسحاق الجبيني ظَاهِرَ الْحُزْنِ، كَثِيرَ الدَّمْعَةِ يَسْرُدُ الصَّيَّامَ، قال ولده أبو الطاهر: قال لي أبي: إن إنساناً بقي في آية سنة لَمْ يَتَجَاوَزْهَا، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ فقلت له: أَنْتَ هُوَ؟ فَسَكَتَ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ/ هو، وكانَ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ: لَوْ سَقَطَ الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ فِيهِ، مَا التَفَّتْ، إِقْبَالاً عَلَى صَلَاتِهِ، وَاشْتِغَالاً بِمَنَاجَاةِ رَبِّهِ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَضَيُّقاً عَلَى نَفْسِهِ؛ ثُمَّ عَلَى أَهْلِهِ، وَكَانَ يَأْكُلُ الْبَقْلَ الْبَرِّيَّ وَالْجَرَادَ إِذَا وَجَدَهُ وَيَطْحَنُ قُوَّتَهُ بِيَدِهِ شَعِيرًا، ثُمَّ يَجْعَلُهُ بِخَالَتِهِ دَقِيقًا فِي قِدْرِ مَعَ مَا وَجَدَ مِنْ بَقْلِ بَرِّيٍّ وَغَيْرِهِ، حَتَّى إِذَا رُمِيَ بِشَيْءٍ مِنْهُ لِكَلْبٍ أَوْ هِرٍّ؛ فَلَا يَأْكُلُهُ، وَكَانَ لِبَاسُهُ يَجْمَعُهُ مِنْ خِرْقِ الْمَزَابِلِ وَيَرْقَعُهُ، وَكَانَ يَتَوَطَّأُ الرَّمْلَ، وَفِي الشِّتَاءِ يَأْخُذُ قِفَافَ الْمَعَاصِرِ الْمُلقَاةِ عَلَى الْمَزَابِلِ يَجْعَلُهَا تَحْتَهُ، قَالَ وَلَدُهُ أَبُو الطَّاهِرِ: وَكَانَ إِذَا بَقِيَْنَا بِلَا شَيْءٍ نَفَثَاتِهِ، كُنْتُ أَسْمَعُهُ فِي اللَّيْلِ يَقُولُ: [البسيط]

مَالِي تِلَادَ وَلَا أَسْتَظَرْتُ مِنْ نَشَبٍ وَمَا أُوْمَلُ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
إِنَّ الْقُنُوعَ بِحَمْدِ اللَّهِ يَمْنَعُنِي مِنْ التَّعَرُّضِ لِلْمِثَالَةِ التَّكِيدِ
انتهى.

﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكْ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ هذه الجماعة التي يَقْبَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ هي جَنٌّ وَإِنْسٌ؛ قاله قتادة^(٢)، وَتَسَاءَلُ لَهُمْ هو على معنى التَّفَرُّعِ وَاللُّومِ وَالتَّسْخِطِ، والقائلون: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ إما أَنْ يَكُونَ الْإِنْسُ يَقُولُونَهَا لِلشَّيَاطِينِ؛ وهذا قول مجاهد وابن زيد^(٣)، وإما أَنْ يَكُونَ ضَعْفَةُ الْإِنْسِ يَقُولُونَهَا لِلْكِبَرَاءِ وَالْقَادَةِ، وَاضْطَرَبَ

(١) وقع في المطبوعة: «وقرأ خالد»، وهو تحريف، والصواب: خلق، كما أثبتناه.

وينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٦٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨١/١٠) برقم: (٢٩٣٢٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٦٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥١٥)، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨١/١٠) برقم: (٢٩٣٢٨) عن مجاهد وبرقم: (٢٩٣٣١) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٦٩) عنهما، وابن كثير في «تفسيره» (٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥١٥)، كلاهما عن مجاهد، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

الْمُتَأَوِّلُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِمْ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ فَعَبَّرَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ عَنْهُ بِطَرِيقِ الْجَنَّةِ^(١)، وَنَحْوِ هَذَا مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي هِيَ تَفْسِيرٌ بِالْمَعْنَى، وَلَا يَخْتَصُّ بِنَفْسِ اللَّفْظَةِ، وَالَّذِي يَخْصُهَا مَعَانٍ: مِنْهَا أَنْ يَرِيدَ بِالْيَمِينِ: الْقُوَّةَ. أَيْ: تَحْمِلُونَنَا عَلَى طَرِيقِ الضَّلَالَةِ بِقُوَّةٍ، وَمِنْهَا أَنْ يَرِيدَ بِالْيَمِينِ: الْيُمْنُ، أَيْ: تَأْتُونَا مِنْ جِهَةِ النَّصَائِحِ وَالْعَمَلِ الَّذِي يُتِمَّنُّ بِهِ، وَمِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَحْتَمِلُهَا الْآيَةُ؛ أَنْ يَرِيدُوا: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَجِيئُونَنَا مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ، وَأَكْثَرُ مَا يَتِمَّكُنْ هَذَا التَّأْوِيلُ مَعَ إِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى تَحْلِفُونَ لَنَا، فَالْيَمِينُ عَلَى هَذَا: الْقَسَمُ، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي ذِكْرِ إِبْلِيسَ جِهَاتِ بَنِي آدَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْجِنَّ الْمُجِيبِينَ لَهُؤُلَاءِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ؛ بَلْ كَانَ لَكُمْ اِكْتِسَابُ الْكُفْرِ؛ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ، وَنَحْوِ هَذَا فَسَّرَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ قَوْلُ الْجِنَّ إِلَى ﴿غَاوِينَ﴾^(٢). ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ جَمِيعاً فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ، وَأَنَّ هَذَا فَعَلُهُ بِأَهْلِ الْجُزْمِ وَالْكُفْرِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰذَا لَشَاعِرٍ يُخَوِّنُ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُم لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَجُزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ الآية، قُلْتُ: جَاءَ فِي فَضْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ؛ فَمِنْهَا مَا رَوَاهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ؛ عَلَّمَنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ بِهِ، وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئاً تَخْصُنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فِي كِفَّةٍ - مَالَتْ بِهِنَّ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣) - رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جِبَّانٍ فِي

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٦٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٨٢) برقم: (٢٩٣٣٢)، بلفظ: قَالَ: قَالَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ: ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿قَوْمًا طَاغِينَ﴾، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تفسيره» (٤/٤٧٠).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٠٢/١٤) كتاب «التاريخ» باب: ذَكَرَ سَوَالُ كَلِيمِ اللَّهِ رَبِّهِ أَنْ يَعْلَمَهُ شَيْئاً يَذْكُرُهُ، برقم: (٦٢١٨)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «الكبرى» (٦/٢٠٨ - ٢٠٩) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: أَفْضَلُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، برقم: (٤/١٠٦٧٠)، وَالحَاكِمُ فِي «المستدرک» (١/٥٢٨)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الأسماء وَالصِّفَاتِ» ص ١٠٢، ١٠٣، وَأَبُو يَعْلَى (٢/٥٢٨)، برقم: (١٣٩٣/٤٢٠)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الحلية» (٨/٣٢٨).

١٩٠ «صحيحه»، واللفظ لابن جبان، وعنه رحمته قال: «وقول لا إله إلا الله/ لا تترك ذنباً ولا يُشبهها عمل»^(١)، رواه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» وقال صحيح الإسناد، انتهى من «السلاح»، والطائفة التي قالت: «أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» هي قريش وإشارتهم بالشاعر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فردّ الله عليهم بقوله: «بل جاء بالحق وصدق المرسلين» الذين تقدّموه، ثم أخبر تعالى مخاطباً لهم بقوله: «إنكم لذائقوا العذاب الأليم» الآية.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ﴾ (٤١) أُولَئِكَ لَمْ يَرَوْا مَعْلُومٌ (٤٢) فَوَكَهَهُمْ مَلَكٌ مِّنْهُمْ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فِرْعَوْنٍ مِّنْ مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَدَفٍّ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْآطَرِيقِ (٤٨).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع وهؤلاء المؤمنون.

وقوله: ﴿مَعْلُومٌ﴾ معناه: عندهم.

وقوله: ﴿بَيْضَاءَ﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْكَأْسِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْخَمْرِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، قَالَ الْحَسَنُ: خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ^(٢)، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٣): «صفراء» فهذا وصف الخمر وحدها، وَالْعَوْلُ: اسْمٌ عَامٌّ فِي الْأَذَى، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْعَوْلُ: وَجَعٌ فِي الْبَطْنِ^(٤)، وَقَالَ قَتَادَةُ هُوَ صُدَاعٌ فِي الرَّأْسِ^(٥) وَ«يُنْزَفُونَ» مِنْ

= قال الحاكم: هذا حديث صحيح.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٥/١٠): رواه أبو يعلى، ورجاله وثقوا، وفيهم ضعف.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥١٤/١)، وقال: صحيح.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٢/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٧٢/٤)، و«البحر المحیط» (٣٤٤/٧)، و«الدر المصنوع» (٥٠١/٥)، و«مختصر الشواذ» ص: (١٢٨)، وزاد نسبتها إلى الحسن والضحاك.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٥/١٠) برقم: (٢٩٣٤٩) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٣٥٠) عن مجاهد، وبرقم: (٢٩٣٥١) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٢/٤) عنهم، وابن كثير في «تفسيره» (٦/٤) أيضاً عنهم، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١٧/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس، ولهناد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد، ولعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٥/١٠) برقم: (٢٩٣٤٨) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٢/٤) عن ابن عباس، وقَتَادَةُ، وابن كثير في «تفسيره» (٧/٤) عنهما، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١٦/٥) أيضاً عنهما، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس، ولعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

قولك: نُزِفَ الرَّجُلُ إِذَا سَكِرَ، وبإذهابِ الْعَقْلِ فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١)، وقرأ حمزة والكسائي «يُنْزِفُونَ» بكسر الزاي^(٢) من «أَنْزَفَ» وله معنيان:

[أحدهما: سَكِرَ.

والثاني: نَفَذَ شَرَابَهُ.

وهذا كله مَنْفِيٌّ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

﴿قاصرات الطرف﴾^(٣) قال ابن عباس وغيره معناه على أزواجهن^(٤)، أي: لا ينظرن إلى غيرهم، و﴿عِين﴾: جَمْعُ «عَيْنَاء»، وهي الكِبِيرَةُ الْعَيْنِيْنِ فِي جَمَالٍ.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ﴾^(٥) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتَيْتَكَ لِيَنِ الْمَصْدِقَيْنِ ﴿٥٢﴾ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكًا وَعَظْمًا أَوْفًا لَكَيْتُونَ ﴿٥٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ﴾ قال ابن جبير والسُّدِّيُّ: شَبَّهَ أَلْوَانَهُنَّ بِلَوْنِ قَشْرِ الْبَيْضَةِ الدَّاخِلِيِّ، وهو المَكْنُونُ^(٥)، أي المَصُونُ، وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ^(٦)، وقال الجمهور: شَبَّهَ أَلْوَانَهُنَّ بِلَوْنِ قَشْرِ الْبَيْضَةِ مِنَ النَّعَامِ، وهو بِياضٌ قَدْ خَالَطَتْهُ صُفْرَةٌ حَسَنَةً، و﴿مَكْنُونٌ﴾ أي: بِالرَّيْشِ، وقال ابن عباس فيما حَكَى الطَّبْرِيُّ: «الْبَيْضُ الْمَكْنُونُ» أَرَادَ بِهِ الْجَوْهَرَ

- (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٦/١٠) برقم: (٢٩٣٥٦) عن ابن عباس وبرقم: (٢٩٣٥٨) عن مجاهد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٢/٤) عن ابن عباس وقتادة، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١٦/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس.
- (٢) ينظر: «السبعة» (٥٤٧)، و«الحجة» (٥٤/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٤٦/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٣١٨)، و«شرح الطيبة» (١٨٣/٥)، و«العنوان» (١٦١)، و«حجة القراءات» (٦٠٨)، و«شرح شعلة» (٥٦٢)، و«إتحاف» (٢/٤١١).

(٣) سقط في: د.

- (٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٧/١٠) برقم: (٢٩٣٦٢) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٣٦٣) عن مجاهد، وبرقم: (٢٩٣٦٤) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٣/٤) وزاد نسبه لابن زيد وقتادة، وابن كثير في «تفسيره» (٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١٧/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس، ولعبد بن حميد عن مجاهد.
- (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٨/١٠) برقم: (٢٩٣٧١) عن سعيد بن جبير وبرقم: (٢٩٣٧٢) عن السدي.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٨٩/١٠)

المَصُون^(١)، قال * ع^(٢) * : وهذا يَرُدُّهُ لَفْظُ الْآيَةِ، فَلَا يَصِحُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال قائل منهم... ﴿الآيَةِ، هَذَا التَّسَاوُلُ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ هُوَ تَسَاوُلُ رَاحَةٍ وَتَنَعُّمٍ؛ يَتَذَكَّرُونَ أُمُورَهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَأُمُورَ الدُّنْيَا وَحَالَ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ فِيهَا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ قَائِلٍ مِنْهُمْ فِي قِصَّتِهِ، وَهُوَ مِثَالُ لِكُلِّ مَنْ لَهُ قَرِينٌ سَوَاءٌ، فَيُعْطِي هَذَا الْمِثَالَ التَّحْفُظَ مِنْ قُرْنَاءِ السَّوِّءِ، قَالَ الثَّعَالِبِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ شَيْطَانًا^(٣)، انْتَهَى، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: كَانَ هَذَا مِنَ الْبَشَرِ؛ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ^(٤)، وَقَالَ فُرَاتُ بْنُ نُعْلَبَةَ الْبَهْرَانِيُّ فِي قِصَصِ هَذَيْنِ: إِنَّهُمَا كَانَا شَرِيكَيْنِ بِثَمَانِيَةِ آلَافٍ دِينَارٍ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا مَشْغُولًا بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَكَانَ الْآخَرُ كَافِرًا مُقْبِلًا عَلَى مَالِهِ، فَحَلَّ الشَّرِكَهَ مَعَ الْمُؤْمِنِ وَبَقِيَ وَحْدَهُ لِتَقْصِيرِ الْمُؤْمِنِ فِي التَّجَاوُزِ، وَجَعَلَ الْكَافِرُ كُلَّمَا اشْتَرَى شَيْئًا مِنْ دَارٍ أَوْ جَارِيَةٍ أَوْ بَسْتَانٍ وَنَحْوِهِ، عَرْضَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَفَخَّرَ عَلَيْهِ، فَيَمُضِي الْمُؤْمِنُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَتَصَدَّقُ بِنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِيَشْتَرِيَ بِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا فِي الْآخِرَةِ مَا تَصَمَّنْتُهُ هَذِهِ^(٥) الْآيَةِ، وَحَكَى السُّهَيْلِيُّ أَنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ هُمَا الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ...﴾ الْآيَةِ [الكهف: ٣٢] انْتَهَى، وَ«مَدْيُونُونَ» مَعْنَاهُ: مُجَاوِزُونَ مُحَاسِبُونَ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٦).

- (١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٨٩/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٣٧٥) بَلْفَظٍ: اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٧٣/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٧/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْتَوَر» (٥١٧/٥)، وَعَزَاهُ لِابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «الْبَعْث» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.
- (٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤٧٣/٤).
- (٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٩٠/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٣٧٩)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٨/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٧٣/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٨/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْتَوَر» (٥/٥١٨)، وَعَزَاهُ السِّيُوطِيُّ لِلْفَرِيَّابِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.
- (٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٩٠/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٣٨٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٢٨/٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٧٣/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٨/٤)، كِلَاهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.
- (٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٩٠/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٣٨١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٧٣/٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٨/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْتَوَر» (٥١٩/٥)، وَعَزَاهُ السِّيُوطِيُّ لِسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ.
- (٦) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٩١/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٣٨٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٧٤/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٨/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْتَوَر» (٥٢١/٥)، وَعَزَاهُ السِّيُوطِيُّ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، وَلَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ (٥٤) فَأُطْلِعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفُوزِ الْعَظِيمِ (٦٠) لِيُنَالِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴿

وقوله تعالى: ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ الآية، / في الكلام حذف، تقديره: فقال لهذا ٩٠ ب الرجل حاضرؤه من الملائكة: إِنَّ قَرِينَكَ هذا في جَهَنَّمَ يُعَذَّبُ فقال عند ذلك: ﴿هل أنتم مطلعون﴾ يخاطب بـ«أنتم» الملائكة أو رفقاءه في الجنة أو خدمته؛ وكل هذا حكى المَهْدَوِيُّ، وقرأ أبو عمرو في رواية حُسَيْن «مُطْلِعُونَ» بسكون الطاء وفتح النون^(١)، وقرىء شاذاً «مُطْلِعُونَ» - بسكون الطاء وكسر النون^(٢) -، قال ابن عباس وغيره: ﴿سواء الجحيم وَسَطُهُ﴾^(٣)، فقال له المؤمن عند ذلك: ﴿تالله، إِنْ كِدْتَ لتردين﴾ أي: لَتَهْلِكُنِي بِأَغْوَانِكَ، وَالرَّدَى: الهلاك، وقول المؤمن: ﴿أفما نحن بميتين﴾ إلى قوله: ﴿بمعذبين﴾ يحتمل أن تكون مخاطبة لِرَفَقَائِهِ في الجنة، لَمَّا رَأَى مَا نَزَلَ بِقَرِينِهِ، وَنَظَرَ إِلَى حَالِهِ فِي الجنةِ وَحَالِ رَفَقَائِهِ؛ قَدَّرَ النعمةَ قَدْرَهَا، فَقَالَ لَهُمْ عَلَى جهة التوقيفِ عَلَى النعمة: أفما نحن بميتين ولا معذبين، ويجيء على هذا التأويل قوله: ﴿إِنْ هذا لهو الفوز العظيم﴾ إلى قوله: ﴿العاملون﴾ مُتَّصِلًا بِكَلَامِهِ خِطَابًا لِرَفَقَائِهِ، ويحتمل قوله: ﴿أفما نحن بميتين﴾ أن تكون

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٧٤).

ووقع في رواية أبي بكر بن مجاهد أن أبا عمرو قرأها مثل قراءة الباقيين، غير أنه قرأ: «فأُطْلِعَ» مبنياً للمجهول.

ينظر: «السبعة» (٥٤٨)، و«الحجة» (٦/٥٥ - ٥٦)، و«مختصر الشواذ» ص: (١٢٨)، و«المحتسب» (٢/٢١٩).

(٢) وقرأ بها أبو البرهسم، وعمار بن عمار.

قال ابن عطية: وردَّ هذه القراءة أبو حاتم وغيره ولحنوها؛ وذلك أنها جمعت بين ياء الإضافة ونون المتكلم، والوجه أن يقال: «مطلعي». ووجه القراءة أبو الفتح بن جني، وقال: أنزل الفاعل منزل الفعل المضارع، وأنشد الطبري [الوافر]:

وما أدري وظن كل ظن أمسلمني إلى قومي شراحي

وقال الفراء: يريد شراحيل.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٧٤)، و«المحتسب» (٢/٢٢٠)، و«البحر المحيط» (٧/٣٤٦)، و«الدر المصنوع» (٥/٥٠٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٩١) برقم: (٢٩٣٨٥) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٣٨٧) عن الحسن، وبرقم: (٢٩٣٨٩) عن قتادة، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٢٨) عن ابن عباس، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٢١)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

مخاطبةً لقرينه؛ على جهة التوبيخ، كأنه يقول: أين الذي كنت تقول من أننا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب، ويكون قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من خطاب المؤمنين لقرينه؛ وإليه ذهب قتادة^(١)، ويحتمل أن يكون من خطاب الله - تعالى - لمحمد - عليه السلام - وأمثه، ويقوي هذا قوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ وهو حصص على العمل؛ والآخرة ليست بدار عمل.

﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (١٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (١٨) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (١٩) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٢٠) ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا قَائِلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ﴾ (٢٢) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاةٌ أَتَابَهُمُ صَّالِينَ﴾ (٢٤) ﴿فَهُمْ عَلَى عَاقِبِهِمْ مُرْغَوُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُذِيرِينَ﴾ (٢٧)

وقوله تعالى: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ المراد بالآية: تقرير قريش والكفار، قال * ع^(٢): وفي بعض البلاد الجذبة المجاورة للصحارى - شجرة مَرَّة مَسْمُومَةٌ لَهَا لَبَنٌ، إِنْ مَسَّ جِسْمَ أَحَدٍ تَوَرَّمَ وَمَاتَ مِنْهُ فِي أَغْلَبِ الْأُمُرِ؛ تُسَمَّى شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، وَالتَّرْقُّمُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْبَلْعُ عَلَى شِدَّةٍ وَجَهْدٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قال قتادة ومجاهد والسدي: يريد أبا جهل ونظراءه^(٣)، وقد تقدم بيان ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ اختلف في معناه؛ فقالت فرقة: شَبَّهَ طَلْعُهَا بِشَمْرِ شَجَرَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُقَالُ لَهَا «رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ»، وهي بناحية اليمَن، يقال لها: «الْأَسْتَرُ»، وقالت فرقة: شَبَّهَ بِرُؤُوسِ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَاتِ يُقَالُ لَهَا «الشَّيَاطِينِ»، وهي ذوات أعراف، وقالت فرقة: شَبَّهَ بِمَا اسْتَقَرَّ فِي الثُّفُوسِ مِنْ كَرَاهَةِ رُؤُوسِ الشَّيَاطِينِ وَقُبْحِهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ لَا تُرَى؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا وَصَفُوا شَيْئًا بِغَايَةِ الْقُبْحِ قَالُوا: كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ؛ وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ امْرِئٍ الْقَيْسِ: [الطويل].

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٧٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٩٤) برقم: (٢٩٣٩٩) عن السدي، وبرقم: (٢٩٤٠٠) عن مجاهد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٧٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/١٠) عن مجاهد، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٢٢)، وعزه لعبد بن حميد عن مجاهد، ولابن مردويه عن ابن عباس.

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْئُونَةٌ رُزُقَ كَأَنْيَابِ أَغْوَالٍ^(١)

فإنما شبه بما استقر في النفوس من هيئتها، والشؤب: المزاج والخلط؛ قاله ابن عباس وقتادة^(٢)، والحميم: السخن جداً من الماء؛ ونحوه، فريد به هنا شرابهم الذي هو طينة الخبال صديدهم وما ينماع منهم؛ هذا قول جماعة من المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ مَرَجَعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ أَلفُوا آبَاءَهُمْ...﴾ الآية، تمثيل لقريش و﴿يهرعون﴾ معناه: يسرعون؛ قاله قتادة وغيره^(٣)، وهذا تكسبهم للكفر وجرضهم عليه.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴿

وقوله تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ يقتضي الإخبار بأنه عذبهم؛ ولذلك حسن الاستثناء في قوله: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ ونداء نوح تضمن أشياء؛ كطلب النصرة والدعاء على قومه وغير ذلك، قال أبو حيان^(٤): وقوله: ﴿فلنعم المجيبون﴾ جواب قسم كقوله: [من الطويل]

يَمِيناً لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا^(٥)

(١) من قصيدة أولها:

ألاً عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي
ينظر: «ديوانه» (٣٣)، «معاهد التنصيص» (٧/٢)، «الكامل» (٩٦/٣)، «البحر المحيط» (٣٦٣/٧)، و«الدر المصون» (٥٠٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٥/١٠) برقم: (٢٩٤٠٢) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٤٠٤) عن قتادة، و (٢٩٤٠٥) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٦/٤) عنهما، وابن كثير في «تفسيره» (١١/٤) عن ابن عباس، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٢/٥)، وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٦/١٠) برقم: (٢٩٤١٣) عن قتادة، وبرقم: (٢٩٤١٤) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٣/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٣٤٩/٧).

(٥) صدر بيت لزهير بن أبي سلمى وعجزه:

على كل حال من سحيل ومُبَرَم

البيت في «ديوانه» ص: (١٤)، و«الأشباه والنظائر» (٢١٠/٨)، و«جمهرة اللغة» ص: (٥٣٤)، و«خزانة الأدب» (٦/٣)، (٣٨٧/٩)، و«الدرر» (٢٢٧/٤)، و«شرح عمدة الحافظ» ص: (٧٩٢)، و«مجمع الهوامع» (٤٢/٢)، وبلا نسبة في «خزانة الأدب» (٣٩٠/٩).

والمخصوصُ بِالْمَدْحِ محذوفٌ، أي: فَلَنِعْمَ الْمَجِيئُونَ نَحْنُ، انتهى.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَلْبَايِنَ ۖ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۖ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٨٢ ﴿

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقيين﴾ قال ابن عباس وقتادة: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح^(١)، وقالت فرقة: إن الله تعالى أبغى ذرية نوحَ وَمَدَّ نَسْلَهُ، وليس الأمرُ بأنَّ أهل الدنيا انحصروا إلى نسله، بل في الأمم من لا يرجع إليه، والأول أشهر عن علماء الأمة، وقالوا: نوح هو آدم الأصغر، قال السهيلي: ذَكَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أنه قال في قوله - عز وجل -: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقيين﴾: [إنهم] سامٌ وحامٌ ويافث^(٢)، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ معناه: ثناءً حسناً جميلاً باقياً آخر الدهر؛ قاله ابن عباس وغيره^(٣)، و﴿سلام﴾ رفعٌ بالابتداء مُسْتَأْنَفٌ، سَلَّمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ لِيَقْتَدِيَ بِذَلِكَ الْبَشَرُ. * ت * قال أبو عَمَرَ في «التمهيد»: قال سعيد - يعني: ابن عبد الرحمن الجُمَحِيُّ -: بَلَّغْنِي أَنَّهُ مَنْ قَالَ جِئَ يُنْمِئِي: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ لَمْ تَلْدَغْهُ عَقْرَبٌ، ذَكَرَ هَذَا عِنْدَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلأَسْلَمِيِّ الَّذِي لَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ: «أَمَا لَوْ أَنَّكَ قُلْتَ جِئَ أُمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٤)، قَالَ أَبُو

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٨/١٠) برقم: (٢٩٤٢٠) عن قتادة، وبرقم: (٢٩٤٢١) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٤/٥)، كلهم عن ابن عباس، وقتادة، وعزاه السيوطي لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولابن المنذر عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٦٥/٥)، كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة الصفات برقم: (٣٢٣٠)، والطبري (٤٩٧/١٠) برقم: (٢٩٤١٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٤/٥)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن بشير.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٨/١٠) برقم: (٢٩٤٢٢) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٤٢٤) عن قتادة، وذكره ابن عطية (٤٧٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٤/٥). وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولابن المنذر عن ابن عباس.

(٤) هذا الحديث روي من طريق أبي هريرة، وخولة بنت حكيم، وعمرو بن العاص، وسهيل بن أبي صالح عن أبيه.

أما طريق أبو هريرة: أخرجه مسلم (٢٨١/٤) «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»، باب: في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، برقم: (٢٧٠٩)، وأبو داود (٤٠٦/٢) كتاب «الطب» باب: كيف الرقي، برقم: (٣٨٩٩)، وابن حبان (٣٨٦/٧) - الموارد برقم: (٢٣٦٠) ولم يذكر نبأ الأسلمي، =

عُمَرَ: وَرَوَى [ابْنُ وَهْبٍ] ^(١) هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ مَالِكٍ يَغْنِي: حَدِيثٌ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَامَاتِ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَ مَا فِي «الْمَوْطَأِ»، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: «لَمْ يَضُرْك شَيْءٌ» ^(٢) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ قال جماعة من العلماء: إِنَّ الْغَرَقَ عَمَّ جَمِيعَ النَّاسِ، وَأَسْنَدُوا فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ، قَالُوا: وَلَمْ يَكُنِ النَّاسُ حِينَئِذٍ بِهَذِهِ الْكَثْرَةِ؛ لِأَنَّ عَهْدَ آدَمَ كَانَ قَرِيبًا، وَكَانَتْ دَعْوَةُ نُوحٍ وَتَبَوُّثُهُ قَدْ بَلَغَتْ جَمِيعَهُمْ، لِطُولِ الْمَدَّةِ وَاللَّبْثِ فِيهِمْ، فَتَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَلَمْ يَقْبَلُوا مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ؛ فَلِذَلِكَ أَغْرَقَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ.

﴿وَإِذْ مَنَّ رَبُّكَ عَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَكَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ^(٨٤) إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ^(٨٥) أَفَبِكُلِّ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ^(٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٨٧) ﴿

= والنسائي في «الكبرى» (١٥٢/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا خاف شيئاً من الهوام حين يمسي، برقم: (٤/١٠٤٢٤)، وأبو يعلى (٤٤/١٢) برقم: (٦٦٨٨/٨٤٨)، ومالك في «الموطأ» (٢/٩٥١) كتاب «الشعر» باب: ما يؤمر به من التعوذ، برقم: (١١)، وأحمد (٣٧٥/٢)، وابن ماجه (٢/١١٦٢) كتاب «الطب» باب: رقية الحية والعقرب برقم: (٣٥١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٤٣/٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٨٠/١).

أما الحديث من طريق خولة بنت حكيم: أخرجه مسلم (٢٠٨/٤) كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب: في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، برقم: (٢٧٠٨/٥٤)، (٥٥/٢٧٠٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٤٤/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا نزل منزلاً، برقم: (١٠٣٩٤/١ - ٢)، والترمذي (٤٩٦/٥) كتاب «الدعوات» باب: ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً، برقم: (٣٤٣٧)، وابن ماجه (١١٧٤/٢)، كتاب «الطب» باب: الفزع والأرق وما يتعوذ منه، برقم: (٣٥٤٧)، وأحمد (٣٧٧/٦)، والبيهقي في «السنن» (٢٥٣/٥) كتاب «الحج» باب: ما يقول إذا نزل منزلاً، ومالك في «الموطأ» (٩٧٨/٢) كتاب «الاستئذان» باب: ما يؤمر به من الكلام في السفر، والدارمي (٢٨٩/٢) كتاب «الاستئذان» باب: ما يقول إذا نزل منزلاً، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/١٦٦)، كتاب «المناسك» باب: ما يقول إذا نزل منزلاً، رقم: (٩٢٦١)، وابن حبان (٤١٨/٦)، كتاب «الصلوة» باب: ذكر الشيء الذي إذا قال المسافر في منزله أمن الضرر من كل شيء حتى يرتحل منه، برقم: (٢٧٠٠).

ولم تأت من هذا الطريق قصة الأسلمي. قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأما طريق عمرو بن العاص: أخرجه أبو داود (٤٠٥/٢)، كتاب «الطب» باب: كيف الرقي؟ رقم: (٣٨٩٣) نحو حديث أبي هريرة.

وأما طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه: أخرجه أبو داود (٤٠٦/٢) كتاب «الطب» باب: كيف الرقي؟ رقم: (٣٨٩٨).

(١) سقط في: د.

(٢) ينظر: الحديث السابق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: الضمير عائذ على نوح^(١)، والمعنى: في الدين والتوحيد، وقال الطبري وغيره عن القراء: الضمير عائذ على محمد، والإشارة إليه.

وقوله: ﴿أَنْفَكَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، أي: أكذباً ومَحَالاً، ﴿أَلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ توبيخ وتحذير وتوعّد.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ٨٨ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ٨٩ ﴿فَقَوْلًا عَنْهُ مُذِيرٌ﴾ ٩٠ ﴿

وقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ روي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه فدعوا إبراهيم - عليه السلام - إلى الخروج معهم، فنظر حينئذ، واعتذر بالسقم، وأراد البقاء ليخالقهم إلى الأضنام، وروي أن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مستعملاً؛ فأوهمهم هو من تلك الجهة، قالت فرقة: وقوله: ﴿إني سقيم﴾ من المعارض الجائزة.

﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ٩١ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطُقُونَ﴾ ٩٢ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ٩٣ ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ﴾ ٩٤ ﴿فَالِ أَنْعِدُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ ٩٥ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٩٦ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجِيمِ﴾ ٩٧ ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ٩٨ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْكُمْ رَبِّ سَبِّحِينَ﴾ ٩٩ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١٠٠ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ١٠١ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِلَيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ١٠٢ ﴿قَالَ يَتَابِعُ فَعَلَّ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾ ١٠٣ ﴿

وقوله تعالى: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ «راغ» معناه: مال.

وقوله: ﴿ألا تأكلون﴾ هو على جهة الاستهزاء بعبدة تلك الأضنام، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأضنام بفأس حتى جعلها جذأ، واختلف في معنى قوله: ﴿باليمين﴾ ٩١ ب فقال ابن عباس: أراد يمتني يديه^(٢)، وقيل: أراد بقوة؛ لأنه كان يجمع يديه معاً بالفأس، وقيل: أراد باليمين، القسم في قوله: ﴿وتالله لأكيدن أضنامكم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، والضمير

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٩/١٠) برقم: (٢٩٤٢٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٥/٥) كلهم عن ابن عباس، وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠٢/١٠) برقم: (٢٩٤٥٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٧٩/٤).

في «أقبلوا» لَكُفَّارِ قَوْمِهِ ﴿يَزِفُونَ﴾ معناه: يُسْرِعُونَ، وَاخْتَلَفَ المتأولونَ في قوله: ﴿وما تعملون﴾ فَمَذَهَبُ جماعةٍ من المفسرين: أن «ما» مصدرية، والمعنى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَأَعْمَلَكُمْ، وهذه الآيةُ عندهم قَاعِدَةٌ في خَلْقِ اللَّهِ تعالى أفعالَ العبادِ؛ وهو مَذَهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ^(١)، وقالت فرقة: «ما» بمعنى: الَّذِي، و«البيان» قيل: كَانَ في مَوْضِعِ إيقَادِ النَّارِ،

(١) المراد من أفعال العباد: المعنى الحاصل بالمصدر الذي هو متعلق بالإيجاد والإيقاع، أعني ما نشاهده من الحركات والسكنات مثلاً، لا المعنى المصدري الذي هو الإيجاد والإيقاع، لأنه من الأمور اللاموجودة واللامعدودة المسماة بالحال كما ذهب إليه مشايخ الحنفية، واختاره القاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين من الأشاعرة؛ أو هو أمر اعتياري عند نفاة الحال، فلا يتعلق به خلق ولا إيجاد وإلا لزم التسلسل، وإطلاق المصدر على المعنى الحاصل بالمصدر، وإن كان مجازاً من قبيل إطلاق اللازم وإرادة الملزوم، إلا أنه كثير الوقوع، فلا يحتاج إلى قرينة. وتنقسم أفعال العباد إلى: اختيارية، كحركة البطش، وإلى: اضطرارية، كحركة الارتعاش، وإلى أفعال مباشرة، وإلى أفعال متولدة، كحركة المفتاح المتولدة من حركة اليد، ثم إن أفعال العباد منها ما يتعلق بالجوارح، ومنها ما يتعلق بالقلوب، هذا كله بالنسبة للمستيقظ.

وأما أفعال النائم فقد اختلفوا فيها، فقال بعضهم: إنها مقدورة مكتسبة للنائم، والنوم لا يضاد القدرة، وإن كان يضاد العلم وغيره من الإرادات، وقال بعضهم: إنها غير مقدورة له، وأن النوم يضاد القدرة كما يضاد العلم، وبعضهم لا يقطع بكونها مكتسبة، ولا بكونها ضرورية بل كل من الأمرين ممكن. وقد استدلل القائلون بأن أفعال النائم مقدورة له بما يأتي:

«أولاً: بأن النائم كان قادراً في يقظته، وقدرته باقية، والنوم لا ينافيها، فوجب استصحاب حكمها. «ثانياً: بأن النائم إذا انتبه فهو على ما كان عليه في نومه، ولا يتجدد أمر وراء زوال النوم، وهو قادر بعد الانتباه، وزوال النوم غير موجب للاقتدار، ولا وجوده نافياً للقدرة. «ثالثاً: قد يوجد من النائم، ما لو وجد منه في حال اليقظة، لكان واقعاً على حسب الداعي والاختيار، والنوم، وإن نافي القصد فلا ينافي القدرة.

«رابعاً: نجد تفرقة ضرورية بين حركة النائم، وحركة المرتعش، وما ذاك إلا أن حركته مقدورة له، وحركة المرتعش غير مقدورة له.

وقال النافون المقدرة: قولكم: النوم لا ينافي القدرة: دعوى كاذبة؛ فإن النائم منفعل محضاً متأثر صرفاً ولهذا لا يتمتع ممن يؤثر فيه، وقولكم: لم يتجدد له أمر غير زوال النوم، غير مسلم به؛ لأن التجدد: زوال المانع من القدرة، فعاد إلى ما كان عليه؛ كمن أوثق غيره رباطاً، ومنعه من الحركة، فإذا حُلَّ رباطه، تجدد زوال المانع.

والتحقيق: أن حركة النائم ضرورية له غير مكتسبة، وكما فرقنا في حق المستيقظ بين حركة ارتعاشه وحركة تصفيقه، كذلك نجد تفرقة ضرورية بين حركة النائم وحركة المستيقظ.

وعلى كل حال فالمثبتون للقدرة وهم المعتزلة وبعض الأشعرية والنافون لها وهم: أبو إسحاق وغيره، والمتوقفون في ذلك هم: جمهور الأشعرية، والقاضي أبو بكر، متفقون على أن أفعال النائم غير داخلية تحت التكليف.

أما أفعال الساهر فاختيارية؛ لأنه وإن كان يفعل الفعل مع غفلته وذهوله، فهو إنما يفعله بقدرته؛ إذ لو كان عاجزاً لما تأتى منه الفعل وله إرادة لكن غافل عنها؛ فالإرادة شيء، والشعور بها شيء آخر. =

وقيل: بَلْ كَانَ لِلْمَنْجِنِيِّ الَّذِي رُمِيَ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

= فالعبد قد يكون له إرادة وهو ذاهلٌ عن شعوره بها؛ لاشتغال محل التصور منه بأمر آخر منعه من الشعور بالإرادة، فعملت عملها، وهي غير مشعور بها، وإن كان لا بد من الشعور عند كل جزء. ومع كل فالفعل الاختياري يستلزم الشعور بالفعل في الجملة، وأما الشعور به بالتفصيل فلا يستلزمه. وأما زائل العقل بجنون أو سكر، فليست أفعاله اضطرارية، كأفعال الملجأ، ولا اختيارية بمنزلة أفعال العاقل العالم بما يفعله، بل هي نوع آخر يشبه الاضطرارية، وأفعاله كفعل الحيوان وفعل الصبي الذي لا تمييز له؛ إذ لكل واحد من هؤلاء داعية إلى الفعل يتصورها، وإرادة يقصد بها، وقدرة ينفذ بها، فهذه أفعال طبيعية، وأقعة بالداعي والإرادة والقدرة، وإن كانت الداعية التي فيهم غير داعية العاقل العالم بما يفعله؛ لأنه يتصور ما في الفعل من الغرض، ثم يريد به ويفعله، ولهذا لم يكلف أحد من هؤلاء بالفعل، فأفعالهم لا تدخل تحت التكليف، وليست كأفعال الملجأ ولا المكره. وهي مضافة إليهم مباشرة، وإلى خالق ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم خلقاً. فهي مفعولة وأفعال لهم.

لا خلاف في أن أفعال العباد اضطرارية، مخلوقة لله تعالى، ولا في أن الكلام اللفظي القائم بالنبي ﷺ على تقدير حدوثه مخلوق له تعالى. أما عند أهل السنة فظاهر، وأما عند المعتزلة، فإما بنفي اختيارته، أو باستثنائه من الكلية. وأما أفعال العباد الاختيارية، فقد اختلفوا في الخالق لها، فقالت الجبرية: الخالق لأفعال العباد الاختيارية هو الله فقط ولا دخل لقدرة العبد في فعله البتة، بل هو مجبورٌ ومقهور، وأن حركته الاختيارية، لا اختيار له فيها، وأنها كحركة الأشجار عند هبوب الرياح، وكحركة الأمواج، وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء.

وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري: فعل العبد واقع بقدرة الله، ومخلوق له، وأن قدرة العبد لها دخل في الفعل الاختياري بالكسب والاختيار، وأن الله قد جرت عادته بأن يخلق فعل العبد الاختياري مقارناً لقدرته، وهذا هو الكسب عنده.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: أصل الفعل واقع بقدرة الله تعالى، وأما وصفه فواقع بقدرة العبد، كما في لطم اليتيم تأديباً وإيذاءً، فإن ذات اللطم واقعة بقدرة الله تعالى، وكونه طاعة على الأول ومعصية على الثاني بقدرة العبد. والظاهر أنه لم يرد أن قدرة العبد مستقلة في خلق وصف الفعل، وإلا لزم عليه ما لزم على المعتزلة، بل أراد أن القدرة لها دخل في ذلك الوصف فهو بالنسبة إلى العبد طاعة ومعصية، كذا ذكره المحقق الديواني، وقد ورد على مذهبه: أن هذه الصفات أمورٌ اعتبارية تلزم فعل العبد باعتبار موافقتها للشرع، أو مخالفتها له، فلا وجه لكون وصف الفعل واقعاً بقدرة العبد، وهذا مدفوع بأن كون الفعل طاعة أو معصية إنما هو بالنية والإرادة الجزئية والعزم، وهي مقدورة للعبد وبسببها يكون الفعل طاعة أو معصية، وهذا بعينه ما ذهب إليه الماتريدية.

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني من أهل السنة، وكذا النجار من المعتزلة: إن أصل الفعل ووصفه، واقع بمجموع القدرتين، قدرة الله وقدرة العبد، ثم الأستاذ إن أراد: أن قدرة العبد غير مستقلة بالتأثير وأنها إذا انضمت إليها قدرة الله تعالى صارت مستقلة بتوسط هذه الإعانة على ما قدره البعض فقريب من الحق، وإن أراد أن كلاً من القدرتين مستقلة بالتأثير كما اشتهر عنه في مذهبه فباطل، لامتناع مؤثرين على أثر واحد، وإن جوز اجتماعهما كما اشتهر عنه.

وقال صاحب المسامرة وهو الكمال بن الهمام: إن جميع ما يتوقف عليه أفعال الجوارح، والنفوس من =

الميل والداعية والاختيار لا تأثير لقدرة العبد فيه، وإنما محل قدرته العزم المصمم، فإذا أوجد العبد ذلك العزم المصمم خلق الله له الفعل عقبه، وهذا ينطبق على كلام القاضي أبي بكر الباقلاني، لأن كون الفعل طاعة أو معصية إنما هو بالنية، والإرادة الجزئية، والعزم عنده «أي عند القاضي».

وقال بعض المحققين من أهل السنة: الله خالق لفعل العبد الاختياري والعبد فاعل له حقيقة. وبيان ذلك أن الله خلق قدرة العبد وأذن لها أن تتصرف في المقدور حسب اختيار العبد فيكون الفعل مخلوقاً لله، لأنه واقع بالقدرة التي خلقها الله فيه، وقد جعلها تتصرف في المقدور ويكون الفعل المقدور واقعاً بالقدرة الحادثة، ومضافاً إلى العبد كسباً وفعلاً حقيقة، «ومثال ذلك»: أن العبد لا يملك التصرف في مال سيده، ولو استبد بالتصرف في مال سيده لم ينفذ تصرفه، فإذا أذن له في بيع ماله فباعه نفذ، والبيع في التحقيق معزى إلى السيد من حيث إن سببه إذنه، ولولا إذنه لم ينفذ التصرف، ولكن العبد يؤمر بالتصرف، ويُنهى ويؤمّر على المخالفة، فالعبد فعلها حقيقة والله خالقها، وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة، وخالق فاعليته، والعبد غير مستقل بالإيجاد، لأن قدرته وإرادته جزء سبب أو شرط.

وقال الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي: المختار عندنا أن عند حصول القدرة والداعية المخصوصة يجب الفعل، وعلى هذا التقدير يكون العبد فاعلاً على سبيل الحقيقة، ومع ذلك فتكون الأفعال بأسرها واقعة بقضاء الله تعالى وقدره، وذلك أنا لما اعترفنا بأن الفعل واجب الحصول عند مجموع القدرة والداعي؛ فقد اعترفنا بكون العبد فاعلاً وجاعلاً فلا يلزمنا مخالفة ظاهر القرآن، وإذا قلنا بأن المؤثر في الفعل مجموع القدرة والداعي، مع أن هذا المجموع حصل بخلق الله تعالى، فقد قلنا بأن الكل بقضاء الله تعالى وقدره.

وقال جمهور المعتزلة: فعل العبد واقع بقدرته وحدها على سبيل الاستقلال بلا إيجاب بل باختيار. وقال إمام الحرمين: فعل العبد واقع بقدرته وإرادته بالإيجاب استقلالاً لا بالاختيار فيكون موافقاً لمذهب الحكماء وهذا ما اشتهر عنه بين القوم، ولكن تحقيق مذهبه أن الخالق لفعل العبد الاختياري هو الله تعالى كما صرح به في الإرشاد، حيث قال: «اتفق أئمة السلف قبل ظهور البدع والأهواء على أن الخالق هو الله تعالى ولا خالق سواه، وأن الحوادث كلها حدثت بقدرة الله تعالى من غير فرق بين ما تتعلق به قدرة العباد، وبين ما لا تتعلق به، فإن تعلق الصفة بشيء لا يستلزم تأثيرها فيه، كالعلم بالعلوم، والإرادة بفعل الغير، فالقدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها، واتفقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ على أن العباد موجودون لأفعالهم مخترعون لها بقدرهم».

واحتج أهل الحق القائلون بأن الله هو الخالق لأفعال العباد بأيات كثيرة تدل على أن الله هو الخالق لأفعال العباد، وأنها داخلة تحت قدرته ومشيتته كما دخلت تحت علمه فمنها: قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، [الزمر: ٦٢] وهذا عام لا يخرج عنه شيء من العالم، أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه، فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه، وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه، ولا عن قدرته، ولا عن خلقه ومشيتته.

ومنها: قول الله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أَعْبُدُونِ مَا نَحْتَدُونَ وَاللَّهُ

= خلقكم وما تعملون ﴿[الصفات: ٩٥ - ٩٦] أي عملكم «فما» مصدرية كما قدره بعضهم والاستدلال بها ظاهر، ولكن ليس بقوي، إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينتونه بأيديهم وبين إخبارهم؛ لأن الله خالق لأعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك فالأولى: أن تكون «ما» موصولة، أي: والله خلقكم وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم فهي مخلوقة له لا لآلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معموله، وقد «خلق» عملهم وصنعهم، ولا يقال المراد مادته، فإن مادته غير معموله لهم، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم. وقال بعضهم: لا مانع من جعل «ما» مصدرية لحصول الطباق مع المصدرية إذ المعنى: إنكم تعبدون منحوتاً تصيرونه بعملكم صنماً، والحال أن الله تعالى خلق خلقكم وخلق عملكم الذي به يصير المنحوت صنماً، فإنهم لم يعبدوا الأصنام من حيث كونها حجارة، وإنما عبدوها من حيث أشكالها، فهم في الحقيقة، إنما عبدوا عملهم، وبذلك تقام عليهم الحجة بأنهم وعملهم مخلوقان لله تعالى، فكيف يعبد المخلوق مخلوقاً مثله، مع أن المعبود كسب العابد وعمله.

ولكن ينبغي أن يجعل هذا المصدر بمعنى المعمول أي: المعنى الحاصل بالمصدر ليصح تعلق الخلق به، ثم تحمل الإضافة بمعونة المقام على الاستغراق، لأن المقام مقام التمدح، وإن كان أصل الإضافة للعهد لئتم المقصود إذ على تقدير: ألا تكون الإضافة للاستغراق يجوز أن يكون المراد ببعض المعمولات أمثال السرير بالنسبة إلى النجار فلا يتم المقصود، وهو إثبات أن جميع أفعال العباد، ومعمولاتهم مخلوقة له تعالى.

والرد على المعتزلة إذ لا خلاف لهم: في أن أمثال هذا المعمول من الجواهر مخلوقة له تعالى لا مدخل للعبد فيها، وإنما الخلاف فيما يقع بكسب العبد ويسند إليه، مثل الصوم، والصلاة، والزكاة، والأكل، والشرب، والقعود، ونحو ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾، فأخبر سبحانه: أنه هو الذي جعل السراويل، وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سراويل إلا بعد صنع آدميين لها، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها وصورتها ومادتها وهيئتها، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠].

فأخبر سبحانه: أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصناعة الآدمية، ومنها قوله تعالى - حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله: ﴿فاجْعَلْ أَئْتِدَءَ مِنَ النَّاسِ تُهَوِّيَ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقوله: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً، ورهبانيةً﴾ [الحديد: ٧]، وقوله: - حكاية عن زكريا - أنه قال عن ولده: ﴿واجعله رب رضيعاً﴾ [مريم: ٦]. ومن السنة قول النبي ﷺ: «اللهم اجعلني لك شكراً، لك ذكراً، لك رهباً، لك مطوعاً، مُخْتَبِئاً إليك، أَوْاهاً مُنِيباً».

فسأل ربه أن يجعله كذلك، وهذه كلها أفعال اختيارية، واقعة بقدرة الله خلقاً وبقدرة العبد كسباً. احتج أهل الحق على أن العبد فاعل مختار بالمعقول، والمنقول، أما المعقول: فإن الإنسان يُدْرِك إدراكاً حسياً، ويعلم بضرورة العقل وبديته، علماً لا يخالجه شك، ولا يداخله مرية، أن بين صحيح الأعضاء وبين من لا صحة لأعضائه فرقاً كبيراً، فإن صحيح الأعضاء بفعل القيام والعقود وسائر الحركات مختاراً غير مكروه ولا يضطر ولكن سقيم الأعضاء لم يفعل أصلاً، فهذا الفرق يدل على أن العبد فاعل مختار، =

وقوله: ﴿إني ذاهب إلى ربي...﴾ الآية، قالت فرقة: كان قوله هذا بعد خروجه من النار، وأنه أشار بذهابه إلى هجرته من [أرض] ^(١) بابل؛ حيث كانت مملكة نمرود، فخرج إلى الشام، وقالت فرقة: قال هذه المقالة قبل أن يطرح في النار؛ وإنما أراد لقاء الله؛ لأنه ظن أن النار سيموت فيها، وقال: ﴿سيهدين﴾ أي: إلى الجنة؛ نحا إلى هذا المعنى قتادة ^(٢)، قال * ع ^(٣): * وللعارفين بهذا الذهاب تمسك واحتجاج في الصفاء، وهو محمل حسن في ﴿إني ذاهب﴾ وخذه، والتأويل الأول أظهر في نطم الآية، بما يأتي بعد؛ لأن الهداية معه تترتب، والدعاء في الولد كذلك، ولا يصح مع ذهاب الموت، وبقي الآية تقدم قصصها، وأن الراجح أن الذبيح هو إسماعيل، وذكر الطبري ^(٤) أن ابن عباس قال: الذبيح، إسماعيل ^(٥)، وتزعم اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود، وذكر أيضاً أن عمر بن عبد العزيز سأل عن ذلك رجلاً يهودياً كان أسلم وحسن إسلامه، فقال: الذبيح هو إسماعيل ^(٦)، وإن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يخسدونكم معشر العرب: أن تكون هذه

= وإن كان الخالق لفعله هو الواحد القهار.

أما المنقول: قال الله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾، ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢]، ﴿وعملوا الصالحات﴾ [البقرة: ٢٥].

فقتضى سبحانه وتعالى على أننا نعمل ونفعل، فالعبد مختار والله خالق، وقال تعالى: ﴿وفاكهة مما يخيرون﴾ [الواقعة: ٢٠] فهذا يدل على أن للإنسان اختياراً؛ لأن أهل الدنيا وأهل الجنة سواء، في أن الله تبارك وتعالى خالق أعمال العباد جميعاً.

ينظر: «أفعال العباد» لشيخنا عبد الرحمن إبراهيم ص: (٢) وما بعدها.

(١) سقط في: د.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٨٠).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٨٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/٥١٣).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥١٢) برقم: (٢٩٥٠٩)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٣٢)،

وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٨١).

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٣٢)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٨١)، والسيوطي في «الدر المنثور»

(٥/٥٣٠)، وعزه لابن إسحاق، عن محمد بن كعب.

والحق أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهو الذي يدل عليه ظواهر الآيات القرآنية، فلا عجب إن ذهب إليه جمهرة الصحابة والتابعين ومن بعدهم وأئمة الحديث منهم السادة العلماء: علي، وابن عمر، وأبو هريرة، وأبو الطفيل، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن المسيب، وأبو جعفر محمد الباقر، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والكلبي، وأبو عمرو بن العلاء، وأحمد بن حنبل، وغيرهم وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس وفي «زاد المعاد» لابن القيم: أنه الصواب عند علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وهذا الرأي هو المشهور عند العرب =

= قبل البعثة، وذكره أمية بن أبي الصلت في شعر له.

وقد نقل العلامة ابن القيم عن شيخه الإمام ابن تيمية في هذا كلاماً قوياً حسناً، أحببت نقل خلاصته لما فيه من الحجة الدامغة قال: «ولا خلاف بينهم - أي: النسابين - أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»، وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه يقول: «هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم»، فإن فيه: «أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره» وفي لفظ «وحيدة»، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده. والذي غرَّ أصحاب هذا القول: أن في التوراة التي بأيديهم: «اذبح ابنك إسحاق» قال: وهذه الزيادة من تحريفهم، وكذبهم، لأنها تناقض قوله: «اذبح بكرك ووحيدك»، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب وبأبي الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق؟ والله تعالى قد بشر أم إسحاق به، وبأنه يعقوب فقال تعالى - حكاية لقول الملائكة لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَزِيلُنَا إِلَى قَوْمٍ لَوُطٌ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَمَّا بَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧٠ - ٧١].

فمحال أن يبشرها بأن يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات (الآيات: ١٠٣، ١١١).

ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] فهذه بشارة من الله تعالى له: شكراً على صبره على ما أمر به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول، بل هو كالتنص فيه. وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل، زماناً ومكاناً، ولو كان الذبيح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى سمي الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبيح طاعةً لربه، ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ... إلى أن قال: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٨].

وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته، وهي المبشرة، وأما إسماعيل فمن السرية - يعني: هاجر - وأيضاً فلأنهما بُشِّرَا به على الكبر، واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك. وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة فإنها كانت جارية. فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة فأمر الله سبحانه أن يُعَدَّ عنها هاجر وابنها، ويسكنها في أرض مكة، لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمة الله تعالى بها ورافته وإبعاده الضرر عنها، وجبره =

الآيَاتُ وَالْفَضْلُ وَاللَّهُ فِي أَيْكُمُ، وَالسَّعْيُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْعَمَلُ وَالْعِبَادَةُ وَالْمَعُونَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١) وَغَيْرُهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: السَّعْيُ عَلَى الْقَدَمِ يَرِيدُ سَعْيًا مَتَمِّكِنًا^(٢)، وَهَذَا فِي الْمَعْنَى نَحْوُ الْأَوَّلِ.

وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ...﴾ الْآيَةُ، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ رَأَى ذَلِكَ بَعَيْنِهِ؛ وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخَيٍّ، وَعَيْنَ لَهُ وَقْتُ الْأَمْتِثَالِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَمَرَ فِي نَوْمِهِ بِذَنْبِهِ، فَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بقوله: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ أَي: أَرَى مَا يَوْجِبُ أَنْ أَذْبَحَكَ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٣): وَاعْلَمْ أَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخَيٍّ فَمَا أُلْقِيَ إِلَيْهِمْ، وَنَفَثَ بِهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِمْ، وَضَرَبَ الْمَثَلَ لَهُ عَلَيْهِمْ - فَهُوَ حَقٌّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يُنْزَلُ فِي قُرْآنٍ يُثَلَّى، وَلِكُنِّي رَجَوْتُ أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ الرُّؤْيَا، وَأَنَّ الْبَارِيَّ - تَعَالَى - يَضْرِبُهَا مَثَلًا لِلنَّاسِ، فَمِنْهَا أَسْمَاءُ وَكُتَي، وَمِنْهَا رُؤْيَا تَخْرُجُ بِصِفَتِهَا، وَمِنْهَا رُؤْيَا تَخْرُجُ بِتَأْوِيلِ، وَهُوَ كُنَيْتُهَا. وَلَمَّا اسْتَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لِقَضَاءِ اللَّهِ، أُعْطِيَ إِبْرَاهِيمُ ذَبِيحًا فِدَاءً، وَقِيلَ لَهُ: هَذَا فِدَاءٌ وَلَدِكَ، فَامْتِثِلْ فِيهِ مَا رَأَيْتَ؛ فَإِنَّهُ حَقِيقَةُ مَا خَاطَبْنَاكَ فِيهِ، وَهُوَ كِتَابَةٌ لَا أَسْمَ، وَجَعَلَهُ مُصَدِّقًا لِلرُّؤْيَا بِمَبَادِرَةِ الْأَمْتِثَالِ، انْتَهَى.

١٩٢

= لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية؟! بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية فحيثئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليرى عباده جَبْرَهُ بعد الكسر، وَلُطْفَهُ بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد - آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعبداً لهم إلى يوم القيامة بذلة وانكسار.

ثم أيهما أشد وقعاً على النفس وأعظم بلاء: أن يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق وله ولد آخر يجد فيه إبراهيم بعض المعروض عن الابن المذبح؟ أم يؤمر بذبح ولده ووحيدة وبكره الذي رُزِقَهُ على كبر، وأتى بعد طول انتظار وشدة اشتياق ولم يكن هناك بارقة أمل في أن يرزق إبراهيم بولد بعده؟.

إن الله تعالى قد وصف واقعة الذبح هذه بأنها البلاء المبين أي: الابتلاء والاختبار المبين الذي يتميز فيه المخلص من غيره، ولا ينطبق هذا الوصف ولا يتحقق هذا البلاء إلا إذا كان الذبيح هو إسماعيل الابن الوحيد البكر.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠٦/١٠) برقم: (٢٩٤٦٩) بلفظ: العمل، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨١/٤) عن ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٧/٥)، بلفظ: العمل، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨١/٤).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٦١٧/٤).

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١١٣﴾ وَتَدَبَّرْتَهُ أَنْ يَبْرِزَهُ ١١٤ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ١١٦ ﴿وَقَدَرْتَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١١٨ ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٢٠ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١٢١﴾ وَتَرْتَنَّهُ يَأْخُذُ بَنِيًّا مِنَ الْقَلْبِ ١٢٢ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ١٢٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ١٢٤ ﴿وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ١٢٥﴾ وَنَضَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَٰلِغِينَ ١٢٦ ﴿وَوَآفَيْنَاهُمَا الْكَتَبَ الْمُسَوِّينَ ١٢٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١٢٨ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ١٣٠ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٣١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١٣٢ ﴿وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ١٣٤ ﴿

وقوله تعالى: ﴿فلما أسلما﴾ أي: أسلما أنفسهما، واستسلما لله - عز وجل -، وقرأ ابن عباس وجماعة: «سَلَّمَ»^(١)، والمعنى قَوْضًا إِلَيْهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ - سبحانه -، فأسلم إبراهيم ابنه، وأسلم الابن نفسه، قال بغض البصريين^(٢): جواب «لما» محذوف تقديره: فلما أسلما وتلَّهُ للجبين، أجزَلَ أجزُهُما، ونحو هذا مما يَقْتَضِيهِ المعنى، ﴿وتلَّهُ﴾ معناه: وَضَعَهُ بِقُوَّةٍ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي الْقَدْحِ: فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ^(٣)، أي: وضعه بقوة، و﴿للجبين﴾ معناه: لتلك الجهة وعليها، كما يقولون في المثل: [الطويل]

وَحَرَّ صَرِيحاً لِّلْيَدَيْنِ وَلِلْقَمِ

(١) وقرأ بها ابن مسعود، والحسن، وحמיד، وعلي، ومجاهد، والضحاك، والأعمش، والثوري، وجعفر بن محمد.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٢٨)، و«المحتسب» (٢/٢٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/٤٨١)، و«البحر المحيط» (٧/٣٥٥)، و«الدر المصون» (٥/٥١٠).

(٢) في جوابها ثلاثة أوجه:

«أحدها»: - وهو الظاهر - أنه محذوف، أي: نادته الملائكة أَوْ ظَهَرَ صبرهما أَوْ أَجَزَلْنَا لهما أَجْرَهُما، وقدره بعضهم بَعْدَ الرُّؤْيَا أَي: كان ما كان مما يُنْطِقُ بِهِ الْحَالُ وَالْوَصْفُ مما لا يدرك كُنْهَهُ. ونقل ابن عطية أن التقدير: فلما أسلما أسلما وتلَّهُ قال كقولهم:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَقِّ وَاتَّحَى بِنَا بطن خَبْتِ ذِي قَفَافٍ عَقْنَقَلِ أَي: فَلَمَّا أَجَزْنَا وَاتَّحَى. ويُعْزَى هَذَا لِسَيُوبَةَ، وشيخه الخليل، وفيه نظرٌ من حيث اتحاد الفعلين الجارين مُجْرَى الشَّرْطِ وَالْجَوَابِ إِلَّا أَنْ يَقَالَ: جُعِلَ التَّغَايُرُ فَلَيْسَ الْآيَةُ بِالْعُطْفِ عَلَى الْفِعْلِ، وَفِي الْبَيْتِ يَعْمَلُ الثَّانِي فِي سَاحَةِ وَالْعُطْفِ عَلَيْهِ أَيْضاً. والظاهر أَنَّ مَثْلَ هَذَا لَا يَكْفِي فِي التَّغَايُرِ. ينظر: «الدر المصون» (٥/٥٠٩ - ٥١٠).

(٣) هذا حديث متفق على صحته بلفظ: «أن رسول الله ﷺ: أتني بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن شماله الأشياخ - فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: واللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أُؤْذِرُ بِنَصِيْبِي مِنْكَ أَحَدًا، قَالَ: فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ» عن سهل بن سعد.

وكما تقول: سَقَطَ لِشِقْهِ الْأَيْسَرِ، وَالْجَيْنَانِ: مَا اكْتَنَفَ الْجَبْهَةُ مِنْ هَهْنَا، وَمِنْ هَهْنَا، وَ«أَنَّ» مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ مُفَسَّرَةٌ لَا مَوْضِعَ لَهَا مِنَ الْإِغْرَابِ، وَ«صَدَقْتَ الرُّؤْيَا» يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِقَبْلِكَ أَوْ بِعَمَلِكَ، وَ«الرُّؤْيَا» اسْمٌ لِمَا يُرَى مِنْ قِبَلِ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَالْمَنَامُ وَالْحُلْمُ: اسْمٌ لِمَا يُرَى مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ»، وَ«الْبَلَاءُ»: الْاِخْتِبَارُ، وَالذَّنْحُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ: كَبِشَ أَبْيَضُ أَعْيُنَ، وَجَدَهُ وَرَأَاهُ مَرْبُوطاً بِسَمَرَةٍ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُسَخَّ فِيهَا الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ؛ خِلَافاً لِلْمَعْتَزِلَةِ، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرِ الدَّوَوْدِي: وَإِنْ نَسَخَ اللَّهُ آيَةَ قَبْلِ الْعَمَلِ بِهَا؛ فَإِنَّمَا يَنْسَخُهَا بَعْدَ اغْتِقَادِ قَبُولِهَا وَهُوَ عَمَلٌ انْتَهَى مِنْ تَفْسِيرِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦]، قَالَ * ع^(١): * وَلَا خِلَافَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَمَرَ الشُّفْرَةَ عَلَى حَلْقِ ابْنِهِ فَلَمْ تَقْطَعْ، وَالْجُمْهُورُ أَنَّ أَمْرَ الذَّنْحِ كَانَ بِمَعْنَى، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: رَأَيْتُ قَرْنِي كَبِشَ إِبْرَاهِيمَ مُعْلَقَتَيْنِ فِي الْكَعْبَةِ^(٢)، وَرَوَى عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ، قُومِي لِأُضْحِيَّتِكَ، فَأَشْهَدِيهَا؛ فَإِنَّهُ يُغْفَرُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دِمَهِهَا كُلِّ ذَنْبٍ عَمِلْتِيهِ، وَقُولِي: إِنَّ صَلَاتِي وَتُسْكِ وَمَخِيَّايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» قَالَ عِمْرَانُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ خَاصَّةً، أَمْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً؟ قَالَ: «لَا، بَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً» رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»^(٣) انْتَهَى مِنْ «السَّلَاحِ».

وقوله تعالى: ﴿وظالم لنفسه﴾ تَوَعَّدَ لِمَنْ كَفَرَ مِنَ الْيَهُودِ بِمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَ«الْكِتَابُ الْمُسْتَبِينُ»: هُوَ التَّوْرَةُ، قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ مَسْعُودٍ: إِيْلَاسُ: هُوَ إِدْرِيسُ - عَلَيْهِ

= والحديث أخرجه البخاري (٨٩/١٠) كتاب «الأشربة» باب: هل يستأذن الرجل عن يمينه في الشرب ليعطي الأكبر، رقم: (٥٦٢٠)، (١٢٣/٥) كتاب «المظالم» باب: إذا أذن له أو أحله ولم يبين كم هو، (٢٤٥١)، (٢٦٧/٦) كتاب «الهيئة» باب: الهيئة المقبوضة وغير المقبوضة، والمقسومة وغير المقسومة (٢٦٠٥)، ومسلم (١٦٠٤/٣) كتاب «الأشربة» باب: استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما، عن يمين المبتدئ (٢٠٣٠/١٢٧)، ومالك في «الموطأ» (٩٢٧، ٩٢٦/٢) كتاب «صفة النبي ﷺ» (١٨)، وأبو داود الطيالسي (٣٣٢/١) كتاب «الأشربة» باب: إيثار من على اليمين بالشرب برقم: (١٦٨١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٨٦/٧) كتاب «الصدائق» باب: الأيمن فالأيمن في الشرب، وأحمد (٣٣٣/٥)، والطبراني (١٧٠/٦) (٥٨٩٠).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩١/٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥١٣/١٠) برقم: (٢٩٥٢٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٣/٤).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢٢٢/٤)، كتاب «الأضاحي».

قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٣٨/٢، ٣٩) برقم: (١٥٩٦) - قال: منكر.

السلام -^(١)، وقالت فرقة: هو من وَلَدَ هَارُونَ، وقرأ نافع وابن عامر: «عَلَى آلِ يَاسِينَ»، وقرأ الباقون: «عَلَى إِيَّاسِينَ» - بألف مكسورة ولام ساكنة^(٢) -، فَوُجِّهَتِ الْأَوَّلَى؛ عَلَى أَنَّهَا بمعنى: «أهل»، و«يَاسِينَ»: اسمٌ لِإِيَّاسٍ، وقيل: هو اسم لمحمَّد - عليه السلام -، وَوُجِّهَتِ الثَّانِيَةُ عَلَى أَنَّهَا جَمْعُ «إِيَّاسِيٍّ»، وقرأ ابن مسعود والأعمش: «وَأَنَّ إِذْرِيْسَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ، وَسَلَامٌ عَلَى إِذْرِيْسِينَ»، قال السُّهَيْلِيُّ: قال ابن جُنَيْدٍ: العربُ تتلاعبُ بالأسماءِ الأعجميةِ تلاعباً؛ ف «ياسين»، و«إِيَّاسٌ» و«إِيَّاسِينَ» شيءٌ واحدٌ، انتهى.

* ت *: وحكى الثعالبي هنا حكايةً عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَادٍ، عَنْ رَجُلٍ لَقِيَ إِيَّاسَ فِي أَيَّامِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، وَأَخْبَرَهُ بِعَدَدِ الْأَبْدَالِ وَعَنْ الْخَضِرِ فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَا يَنْبَغِي إِنْكَارُ مِثْلِهَا؛ فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ يُكَاشِفُونَ بَعْجَاتِبَ، فَلَا يُحْرَمُ الْإِنْسَانُ التَّضَدِيقَ بِهَا، جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْ زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ، انتهى.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۖ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (١٢٦) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۖ﴾ (١٢٧) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾ (١٢٨) ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۖ﴾ (١٢٩) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ۖ﴾ (١٣٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ﴾ (١٣١) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (١٣٢) ﴿وَلَئِنْ لَوْطَا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾ (١٣٣) ﴿إِذْ جَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ (١٣٤) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِينَ ۖ﴾ (١٣٥) ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۖ﴾ (١٣٦) ﴿وَلَا تَكُونُوا لِمَن يُدْعَوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۖ﴾ (١٣٧) ﴿وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ﴾ (١٣٨)

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ معناه: أَتُعْبُدُونَ، قَالَ الْحَسَنُ وَالضُّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: بَعْلٌ: اسْمٌ صَمٌّ: كَانَ لَهُمْ، وَيُقَالُ لَهُ: بَعْلَتَكَ^(٣)، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ فِرْقَةٍ: أَنَّ بَعْلًا اسْمُ امْرَأَةٍ كَانَتْ أَتَتْهُمْ بِضَلَالَةٍ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَعَاصِمٌ: «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ»^(٤) كُلُّ ذَلِكَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٠/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٥٦٩) عَنْ قَتَادَةَ وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٣٦) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٨٣/٤) وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثْنُورِ» (٥٣٧/٥)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنِ عَسَاكِرَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَلِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٥٤٨ - ٥٤٩)، و«الْحِجَّةُ» (٥٩/٦)، و«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢/٢٤٩)، و«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/٣٢٢)، و«شَرْحُ الطَّيْبَةِ» (٥/١٨٤)، و«الْعُنْوَانُ» (١٦٢)، و«حِجَّةُ الْقُرْآنِ» (٦١٠)، و«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٥٦٣)، و«إِتْحَافٌ» (٢/٤١٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢١/١٠) بِرَقْمٍ: (٢٩٥٧٦) عَنْ الضُّحَّاكِ، وَبِرَقْمٍ: (٢٩٥٧٧) عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٨٤/٤) وَزَادَ نِسْبَتَهُ لِلْحَسَنِ.

(٤) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٥٤٩)، و«الْحِجَّةُ» (٦٣/٦)، و«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢/٢٥١)، و«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/٣٢١)، و«شَرْحُ الطَّيْبَةِ» (٥/١٨٧)، و«الْعُنْوَانُ» (١٦٢)، و«حِجَّةُ الْقُرْآنِ» (٦١٠)، و«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٥٦٤)، و«إِتْحَافٌ» (٢/٤١٥).

بِالنَّصَبِ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وقرأ الباقونَ كُلَّ ذَلِكَ بِالرَّفْعِ عَلَى الْقَطْعِ والاستئناف، والضميرُ في ﴿كَذَّبُوهُ﴾ عائِدٌ عَلَى قَوْمِ إِيَّاسَ، و﴿مَحْضَرُونَ﴾ معناه: مَجْمُوعُونَ لِعَذَابِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ مخاطبةٌ لقريشٍ، ثم وَبَّحَهُمْ بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ يُؤْخَذِ لَكَ مِنَ الرِّسَالِ ١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُونُسَ...﴾ الآية/ هو يونسُ بن مَتَّى عليه السلام، وهو مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ...﴾ الآية، وذلك أنه لما أَخْبَرَ قَوْمَهُ بِوَقْتِ مَجِيءِ الْعَذَابِ، وَغَابَ عَنْهُمْ، ثُمَّ إِنَّ قَوْمَهُ لَمَّا رَأَوْا مَخَايِلَ الْعَذَابِ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ، فَقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ، فَلَمَّا مَضَى وَقْتُ الْعَذَابِ، وَلَمْ يُصِبْهُمْ، قَالَ يُونُسُ: لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَرُوي أَنَّهُ كَانَ فِي سِيرَتِهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا الْكَذَّابَ فَأَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ، أَيُّ: أَرَادَ الْهُرُوبَ، وَدَخَلَ فِي الْبَحْرِ، وَعَبَّرَ عَنْ هُرُوبِهِ بِالْإِبَاقِ مِنْ حَيْثُ [إِنَّهُ] فَرَّ عَنْ غَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ، فَرُوي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّهُ لَمَّا حَصَلَ فِي السَّفِينَةِ، وَأُبْعِدَتْ فِي الْبَحْرِ، رَكَدَتْ وَلَمْ تَجِرْ؛ وَغِيرَها مِنَ السُّفْنِ يَجْرِي يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ أَهْلُهَا إِنَّ فِينَا لَصَاحِبَ ذَنْبٍ وَبِهِ يَخْبِسُنَا اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالُوا: لِنَقْتَرِغْ، فَأَخَذُوا لِكُلِّ وَاحِدٍ سَهْمًا، وَاقْتَرَعُوا، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ، ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَطَرَحَ حِينَئِذٍ نَفْسَهُ، وَالتَقَمَهُ الْحُوتُ^(١)، وَرُوي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى الْحُوتِ أَنِّي لَمْ أَجْعَلْ يُونُسَ لَكَ رِزْقًا، وَإِنَّمَا جَعَلْتُ بَطْنَكَ لَهُ جِزْأً وَسِجْنًا، فَهَذَا مَعْنَى ﴿فَسَاهَمَ﴾.

والمُدْحَضُ: الْمَغْلُوبُ فِي مُحَاجَّةٍ أَوْ مَسَاهَمَةٍ، وَعبارةُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ فِي «الْأَحْكَامِ»^(٢): «وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْحُوتِ: إِنَّا لَمْ نَجْعَلْ يُونُسَ لَكَ رِزْقًا، وَإِنَّمَا جَعَلْنَا بَطْنَكَ لَهُ مَسْجِدًا» الْحَدِيثُ، انْتَهَى، وَلَفْظُهُ «مَسْجِدٌ»: أَحْسَنُ مِنَ السُّجْنِ، فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا لَزِمَ الْأَدَبَ لَا سِيَّمًا مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، وَال«مُلِيمٌ»: الَّذِي أَتَى مَا يُلَاحَظُ عَلَيْهِ؛

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٢/٤) عن ابن عباس ووهب، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٥/٤) عن ابن مسعود.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٦٢٢/٤).

وبذلك فسر مجاهد وابن زيد^(١).

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ (١٤٣) ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤)

وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ قيل: المراد: القائلين: سُبْحَانَ اللَّهِ فِي بَطْنِ الْخَوْبِ؛ قاله ابن جُرَيْج^(٢)، وقالت فِرْقَةٌ: بَلِ التَّسْيِيحُ هُنَا الصَّلَاةُ، قال ابن عباس وغيره: صَلَاتُهُ فِي وَقْتِ الرَّخَاءِ نَفَعَتْهُ فِي وَقْتِ الشَّدَّةِ^(٣)؛ وقال هذا جماعة من العلماء، وقال الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى مَثَرِهِ: اذْكُرُوا اللَّهَ؛ عِبَادَ اللَّهِ؛ فِي الرَّخَاءِ يَذْكُرْكُمْ فِي الشَّدَّةِ، إِنْ يُوسَسَ كَانَ عَبْدًا لِلَّهِ ذَاكِرًا لَهُ، فَلَمَّا أَصَابَتْهُ الشَّدَّةُ نَفَعَهُ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ * للبت في بطنه إلى يوم يبعثون^(٤)، وإن فرعونَ كَانَ طَاغِيًا بَاغِيًا فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ، قَالَ: آمَنْتُ، فَلَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ، فَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي الرَّخَاءِ يَذْكُرْكُمْ فِي الشَّدَّةِ^(٥)، وقال ابن جُبَيْرٍ: الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) [الأنبياء: ٨٧].

﴿فَبَدَّنَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٥) وَأَنْلَتَنَا عَلَيْهِ سَجَرَةٌ مِّنْ يَّقْطِينٍ﴾ (١٤٦)

وقوله سبحانه: ﴿فَبَدَّنَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾... الآية، «العراء»: الأرضُ الفِجَاءُ التي لَا شَجَرَ فِيهَا وَلَا مَعْلَمَ، قال ابن عباس وغيره في قوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: إِنَّهُ كَالطِّفْلِ الْمَنْفُوسِ، بُضْعَةُ لَحْمٍ^(٦)، وقال بعضهم كَاللَّحْمِ النَّيِّءِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَنْقُضْ مِنْ خَلْقِهِ شَيْءٌ، فَانْعَشَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّ الْيَقْطِينَةِ بَلْبِنِ أَرْوِيَّةٍ [كَانَتْ تُعَادِيهِ وَتُرَاوِحُهُ، وَقِيلَ: بَلْ كَانَ يَتَعَدَّى مِنَ الْيَقْطِينَةِ،

- (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٧/١٠) برقم: (٢٩٥٩٦) عن مجاهد، وبرقم: (٢٩٥٩٨) عن ابن زيد بلفظ: مذنب، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤٣/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٨٦/٤) عنهما، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٢/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.
- (٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٦/٤).
- (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٨/١٠) برقم: (٢٩٦٠٠) عن قتادة، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٦/٤) عن ابن عباس، وقاتدة، وأبي العالية، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٣/٥)، وعزاه لأحمد، وابن أبي حاتم عن قتادة.
- (٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٨/١٠) برقم: (٢٩٦٠٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٣/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة.
- (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٩/١٠) برقم: (٢٩٦٠٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤٣/٤).
- (٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٩/١٠) برقم: (٢٩٦١٤) عن السدي، ورقم: (٢٩٦١٥) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢١/٤).

ويجدُ منها ألوانَ الطَّعامِ وأنواعَ^(١) شهواتِهِ، قال ابن عباس وأبو هريرة وعمرو بن ميمون: اليقطين: القَرْعُ خاصَّةً^(٢)، وقيل، كُلُّ مَا لَا يَقُومُ عَلَى ساقٍ كَالْبَقُولِ والقَرْعِ والبَطِيخِ ونحوه مما يَمُوتُ؛ من عَامِيهِ، ومشهورُ اللَّعَةِ أَنَّ اليقطينَ هو القَرْعُ، فَتَبَّتْ لَحْمُ يُونُسَ - عليه السلام - وَصَحَّ، وَحَسَنَ لَوْنُهُ، لِأَنَّ وَرَقَ القَرْعِ أَنْفَعُ شَيْءٍ لِمَنْ تَسَلَّخَ جِلْدُهُ، وَهُوَ يَجْمَعُ خِصَالاً حَمِيدَةً، بَرْدُ الظِّلِّ [وليس] المَلَمَسُ، وَأَنَّ الدُّبَابَ لَا يَقْرُبُهَا، حَكَى النَّقَّاشُ أَنَّ مَاءَ وَرَقِ القَرْعِ إِذَا رَشَّ بِهِ مَكَانٌ، لَمْ يَقْرَبْهُ دُبَابٌ، وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَوْمًا نَائِمًا، فَأَيَسَّ اللَّهُ تِلْكَ الْيَقِطِيَّةَ، وَقِيلَ: بَعَثَ عَلَيْهَا الْأَرْضُ فَقَطَعَتْ وَرَقَهَا، فَانْتَبَهَ يُونُسُ لِحَرِّ الشَّمْسِ، فَعَزَّ عَلَيْهِ شَأْنُهَا، وَجَزَعَ لَهُ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا يُونُسُ، جَزِعْتَ لِيُنْسِ الْيَقِطِيَّةَ، وَلَمْ تَجْزَعْ لِإِهْلَاكِ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ تَابُوا فَتُبَّتْ عَلَيْهِمْ.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) ﴿فَاتَّبَعُوا مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٤٨) ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ الْرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ (١٤٩) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (١٥٠) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لِقَوْلِي﴾ (١٥١) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكِدُونُ﴾ (١٥٢) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٤) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ (١٥٦) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٥٧) ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٥٧)

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال الجمهور: إِنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةُ هِيَ رِيسَالَتُهُ الْأُولَى ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي آخِرِ الْقَصَصِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: هَذِهِ رِيسَالَةٌ أُخْرَى بَعْدَ أَنْ بُدِيَ بِالْعَرَاءِ، وَهِيَ إِلَى أَهْلِ «نَيْنَوَى» مِنْ نَاحِيَةِ الْمَوْصِلِ^(٣)، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ^(٤): «أَوْ يَزِيدُونَ» فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَوْ» بِمَعْنَى «بَل»^(٥) وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ^(٦) قَرَأَ: «بَل يَزِيدُونَ» وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «أَوْ» هُنَا بِمَعْنَى الْوَاوِ، وَقَرَأَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ^(٧): «وَيَزِيدُونَ» وَقَالَ الْمُبَرِّدُ، وَكَثِيرٌ مِنْ

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٠/١٠) برقم: (٢٩٦٢١) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٦٢٢) عن عمرو بن ميمون، وبرقم: (٢٩٦٢٥) عن أبي هريرة بلفظ: الشجرة الذُّبَابُ، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤٣/٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٦/٥)، وعزاه لابن جرير من طريق ابن قسيط عن أبي هريرة، ولابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٧/٤) عن ابن عباس، وقَتَادَةُ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣٦٠/٧).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣١/١٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٢/٤).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٧/٤).

(٧) ينظر: «المحتسب» (٢٢٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٨٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣٦٠/٧).

البَصْرِيِّينَ: قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ المعنى: على نَظَرِ البَشَرِ وحَزَرِهِم، أي: من رَأَاهُمْ قال: مائة ألف أو يزيدون، وَرَوَى أَبُو بَنِي كَعْبٍ عن النبي ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا. * ت *: وعبارة أحمد بن نَصْرِ الدَّاءُودِي: وعن أبي بن كَعْبٍ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عن الزِّيَادَتَيْنِ: ﴿الحَسَنَى وَزِيَادَةَ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال يزيدون عشرين ألفاً، وأحسبه قال: الحَسَنَى: الجنة، «والزِّيَادَةُ» النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ - عز وجل^(١) -، انتهى، وفي قوله: ﴿فَأَمَّنُوا فَمْتَغَنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ مثلاً لقريش إن آمنوا، وَمِنْ هُنَا حَسُنَ انْتِقَالُ الْقَوْلِ وَالْمَحَاوَرَةِ إِلَيْهِمْ بقوله: ﴿فَاسْتَفْتَهُمْ﴾؛ فَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى ضَمِيرِهِمْ، عَلَى مَا فِي الْمَعْنَى مِنْ ذِكْرِهِمْ، وَالِاسْتِفْتَاءُ: السُّؤَالُ؛ وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ فِي جَعْلِهِمُ الْبَنَاتِ لِلَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ [اللَّهُ] تَعَالَى عَنْ فَرْقَةٍ مِنْهُمْ بَلَّغَ بِهَا الْإِفْكَ وَالْكَذِبَ إِلَى أَنَّ قَالَتْ: وَلَدَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ؛ لِأَنَّهُ نَكَحَ فِي سَرَوَاتِ الْجَنِّ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ، وَهَذِهِ فَرْقَةٌ، مِنْ بَنِي مُذَلِّجٍ فِيمَا رُوِيَ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ^(٢): «أَضْطَفَى الْبَنَاتِ» بِهَمْزَةٍ الْاسْتِفْهَامِ عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيعِ^(٣) وَالتَّوْبِيخِ.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٥٨) سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٠)

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ الْجِنَّةُ هُنَا: قِيلَ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ: لِأَنَّهَا مُسْتَجَنَّةٌ، أَي: مُسْتَبْتَرَةٌ، وَقِيلَ: الْجِنَّةُ هُمُ الشَّيَاطِينُ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿جَعَلُوا﴾ لِفَرْقَةٍ مِنْ كِفَارِ قَرِيشٍ وَالْعَرَبِ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَي: سَتَحْضُرُ أَمْرُ اللَّهِ وَثَوَابُهُ وَعِقَابُهُ، ثُمَّ نَزَّ - تَعَالَى - نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْكُفْرَةُ، وَمِنْ هَذَا اسْتثنَى عِبَادَهُ الْمُخْلَصِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَهُ بِصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَقَالَتْ فَرْقَةٌ: اسْتثنَاهُمْ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ وَعِبَارَةُ الثَّعَالِبِيِّ:

(١) ورد سؤال أَبِي بَنِي كَعْبٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فَقَالَ: يَزِيدُونَ عِشْرُونَ أَلْفًا، وَذَلِكَ فِي حَدِيثٍ: أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٥/٥) كِتَابُ «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» بَابُ: وَمِنْ سُورَةِ الصَّافَّاتِ بِرَقْمٍ: (٣٢٢٩).

قال الترمذي: هذا حديث غريب.

أما الزيادة الثانية، وهي التي في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى وَزِيَادَةً﴾ فالحديث: أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٥١/٦) بِرَقْمٍ: (١٧٦٤٨)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْتَوَرِ» (٥٤٧/٣) تَفْسِيرَ سُورَةِ يُونُسَ: آيَةُ رَقْمٍ (٢٦)، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَالدَّارِقُطَنِيِّ، وَابْنِ مَرْدُودِيهِ وَاللَّالِكَاثِيِّ، وَابْنِ بَيْهَقِيِّ فِي كِتَابِ «الرُّوْيَةِ» عَنْ أَبِي بَنِي كَعْبٍ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٨٨/٤)، و«البحر المحيط» (٣٦١/٧)، و«الدَّر المصنوع» (٥١٤/٥).

(٣) في د: التقرير.

﴿ولقد علمت الجنة﴾ أي: الملائكة أن قائلِي هذه المقالة من الكفرة ﴿لمحضرون﴾ في النار، وقيل للحساب، والأول أولى لأن الإحضار متى جاء في هذه الصورة غني به العذاب ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ فإنهم ناجون من النار، انتهى، وفي البخاري ﴿لمحضرون﴾ أي: سيُحضرون للحساب، انتهى.

﴿فإنكم وما تعبدون﴾ (١٦١) ﴿ما أنتم عليه بفنيين﴾ (١٦٢) ﴿إلا من هو صالح الجحيم﴾ (١٦٣) ﴿وما منّا إلا له مقام معلوم﴾ (١٦٤) ﴿وإنّا لنحن الصّافون﴾ (١٦٥) ﴿وإنّا لنحن المسبحون﴾ (١٦٦) ﴿وإن كانوا يقولون﴾ (١٦٧) ﴿لو أنّ عندنا ذكراً من الأولين﴾ (١٦٨) ﴿لكنّا عباد الله المخلصين﴾ (١٦٩) ﴿فكفروا به فسوف يعلمون﴾ (١٧٠) ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ (١٧١) ﴿إنهم هم المنصورون﴾ (١٧٢) ﴿وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾ (١٧٣) ﴿

وقوله تعالى: ﴿فإنكم وما تعبدون﴾ بمعنى: قل لهم يا محمد، إنكم وأصنامكم ما أنتم بمضلين أحداً بسببها وعليها إلا من قد سبق عليه القضاء؛ فإنه يصلّي الجحيم في الآخرة وليس لكم إضلال من هدى الله تعالى، وقالت فرقة: ﴿عليه﴾ بمعنى: «به» والفاتن: المضل في هذا الموضع؛ وكذلك فسره ابن عباس وغيره^(١)، وحذفت الياء من ﴿صالح﴾ للإضافة.

ثم حكى - سبحانه - قول الملائكة ﴿وما منّا إلا له مقام معلوم﴾؛ وهذا يؤيد أن الجنة أراد بها الملائكة، وتقدير الكلام وما منا ملك، وزوت عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ: «أن السماء ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو واقف يصلّي»، وعن ابن مسعود وغيره نحوه^(٢).

﴿والصّافون﴾ معناه: الواقفون صفوفاً، و﴿المسبحون﴾، يحتمل أن يريد به الصلاة، ويحتمل أن يريد قول: سبحانه الله، قال الزهراوي: قيل: إن المسلمين إنما اضطفوا في الصلاة؛ ثم نزلت هذه الآية، ولا يصطف أحد من أهل الملل غير المسلمين، ثم ذكر تعالى مقالة بغض الكفار، قال قتادة وغيره: فإنهم قبل نبوة نبينا محمد ﷺ، قالوا: لو كان لنا كتاب أو جاءنا رسول، لكنّا عباد الله المخلصين، فلما جاءهم محمد كفروا به، فسوف

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٦/١٠) برقم: (٢٩٦٦١) عن ابن عباس بنحوه، وبرقم: (٢٩٦٦٤)

عن الحسن، وبرقم: (٢٩٦٦٧) عن إبراهيم، وذكره البغوي (٤٥/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٨٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٨/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٩/١٠) برقم: (٢٩٦٨٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٨٩/٤)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن

حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود.

يَعْلَمُونَ^(١)، وهذا وَعِيدٌ مَخْضٌ، ثم آنَسَ تعالى نبيّه وأوليائه بأنَّ الْقَضَاءَ قد سَبَقَ، والكلمةُ قَدْ حَقَّتْ بأنَّ رُسُلَهُ سبحانه هم المنصُورُونَ، على من نَاوَاهُمْ، وَجُنْدُ اللَّهِ هُمُ الغزاةُ.

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۖ (١٧٥) أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۖ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ۖ (١٧٧) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۖ (١٧٩) سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۖ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ (١٨٢)﴾

وقوله تعالى: ﴿فتول عنهم﴾ أمرٌ لنبيّه بالمُؤَادَعَةِ، وَوَعْدٌ جَمِيلٌ، و﴿حتى حين﴾ قيل هو يومٌ بَدْرٍ، وقيل: يومُ القيامةِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وَغَدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَوَعِيدٌ لَهُمْ، ثم وَبَّخَهُمْ على استعجالِ الْعَذَابِ ﴿فإِذَا نَزَلَ﴾ أي: الْعَذَابُ، ﴿بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ والسَّاحَةُ الْفَنَاءُ، وَسُوءُ الصَّبَاحِ: أَيْضاً مُسْتَعْمَلٌ فِي وَرُودٍ^(٢) الْعَارَازِ، قُلْتُ: ومنه قولُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى خَيْبَرَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، خَرِبْتُ خَيْبَرَ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»^(٣) انتهى،

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٨٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) في ج: هنا: انتقل من سورة ص إلى الترقيم في المخطوط برقم: (١) وقد سرنا نحن معه على تسلسل الترقيم.

(٣) هذا حديث صحيح متفق على صحته: أخرجه البخاري (٢/١٠٧) كتاب «الأذان» باب: ما يُحَقَّقُ بالأذان من الدماء. (١٠/٦١٠)، (١/٥٧٢) كتاب «الصلاة» باب: ما يذكر في الفخذ (١/٣٧١)، (٢/٥٠٧ - ٥٠٨) كتاب «الخوف» باب: التبكير والغسل بالصبح والصلاة عند الإغارة والحرب (٧/٩٤٧)، (٤/٤٨٩) كتاب «اليوم» باب: بيع العبد والحيوان بالحيوان نسيئة (٢٢٢٨) طرفاً منه، (٤/٤٩٤) كتاب «اليوم» باب: هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها؟ (٢٢٣٥)، (٦/٩٨) كتاب «الجهاد والسير» باب: فضل الخدمة في الغزو (٢٨٨٩)، (٦/١٠١ - ١٠٢) كتاب «الجهاد والسير» باب: من غزا بصبي للخدمة (٢٨٩٣)، (٦/١٣٠) كتاب «الجهاد والسير» باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة (٢٩٤٣ - ٢٩٤٤ - ٢٩٤٥)، (٦/١٥٦) كتاب «الجهاد والسير» باب: التكبير عند الحرب (٢٩٩١)، (٦/٢٢٢ - ٢٢٣) كتاب «الجهاد والسير» باب: ما يقول إذا رجع من الغزو (٣٠٨٥ - ٣٠٨٦)، (٦/٢٢٤) كتاب «الجهاد والسير» باب: الصلاة إذا قدم من سفر (٣٠٨٧)، (٦/٧٣٢) كتاب «المناقب» باب: (٢٨) (٣٦٤٧)، (٧/٤٣٦) كتاب «المغازي» باب: أحد جبل يحبنا ونحبه (٤٠٨٣ - ٤٠٨٤)، (٧/٥٣٤) كتاب «المغازي» باب: غزوة خيبر (٤١٩٧ - ٤١٩٨ - ٤١٩٩ - ٤٢٠٠ - ٤٢٠١)، (٧/٥٤٧) كتاب «المغازي» باب: غزوة خيبر (٤٢١١ - ٤٢١٢ - ٤٢١٣)، (٩/٢٩) كتاب «النكاح» باب: اتخاذ السراري، ومن أعتق جارية ثم تزوجها (٥٠٨٥)، (٩/١٣٢) كتاب «النكاح» باب: البناء في السفر (٥١٥٩)، (٩/١٤٠) كتاب «النكاح» باب: الوليمة ولو بشاة (٥١٦٩)، (٩/٤٤٠) كتاب «الأطعمة» باب: الخبز المرقق، والأكل على الخوان

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «فَيْئِسَ صَبَاحُ»^(١)، والعزة في قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ هي العزة المَخْلُوقَةُ الكائِنَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ؛ وكذلك قال الفقهاء مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ؛ قال محمدُ بنُ سُخْنُونٍ وغيره: مَنْ حَلَفَ بِعِزَّةِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانَ أَرَادَ صِفَتَهُ الدَّائِيَّةَ، فَهِيَ يَمِينٌ، وَإِنْ كَانَ أَرَادَ عِزَّتَهُ الَّتِي خَلَقَ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَهِيَ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ فَلَيْسَتْ بِيَمِينٍ، وَرُويَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ، فَسَلِّمُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا أَحَدُهُمْ»^(٢) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَسَلَّم.

والسفرة (٥٣٨٧)، (٤٦٥/٩) كتاب «الأطعمة» باب: الحيس برقم: (٥٤٢٥)، (٤٦٦/٩) كتاب «الأطعمة» باب: ذكر الطعام (٤٤٢٨)، (٥٧٠/٩) كتاب «الذبائح والصيد» باب: لحوم الحمر الإنسية برقم: (٥٥٢٨)، (٢٦/١٠) كتاب «الأضاحي» باب: ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها (٥٩٦٨)، (٥٨٤/١٠) كتاب «الأدب» باب: قول الرجل: «جعلني الله فداك» (٦١٨٥)، (١١/١٧٧) كتاب «الدعوات» باب: التعوذ من غلبة الرجال (٦٣٦٣)، (١٨٢/١١) كتاب «الدعوات» باب: الاستعاذة من الجبن والكسل (٦٣٦٩)، (٣١٦/١٣) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» باب: إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة (٧٣٣٣)، ومسلم (١٠٤٣/٢ - ١٠٤٤) كتاب «النكاح» باب: فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها (١٣٦٥/٨٤)، والنسائي (١٣١/٦، ١٣٤) كتاب «النكاح» باب: البناء في السفر (٣٣٨٠)، وأحمد (١٠١/٣، ١٠٢، ١١١، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٦، ٢٠٦، ٢٤٦، ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٧١)، والبيهقي (٢٣٠/٢) كتاب «الصلاة» باب: من زعم أن الفخذ ليست بعورة، وما قيل في السرة والركبة (٥٥/٩) كتاب «السير» باب: قسمة الغنيمة في دار الحرب (٧٩/٩ - ٨٠) كتاب «السير» باب: قتل النساء والصبيان في التبيت والغارة من غير قصد، وما ورد في إباحة التبيت، وابن حبان (١١/٥١ - ٥٢) كتاب «السير» باب: ذكر البيان على المرء إذا أتى دار الحرب أن لا يشن الغارة حتى يصبح (٤٧٤٧)، ومالك في «الموطأ» (٤٦٨/٢ - ٤٦٩) كتاب «السير» باب: الخروج وكيفية الجهاد (٤٧٤٦)، والترمذي (١٢١/٤) كتاب «السير» باب: في البيات والغارات (١٥٥٠).

(١) ينظر: «الكشاف» (٦٨/٤)، و«المحرر الوجيز» (٤٩٠/٤)، و«البحر المحيط» (٣٦٤/٧).

(٢) أخرجه الطبري (٥٤٣/١٠) برقم: (٢٩٧٠٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٤/٥) - ط دار المعرفة، وعزه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «ص»

[وَهِيَ] مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ۝٢ كَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَدَادُوا وَلَا تَحِينَ مَوَاسِي ۝٣ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾

قرأ أبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق: «صَادٍ» - بِكسْرِ الدال^(١) -، والمعنى: مائِل القرآن بِعَمَلِكَ، وقَارِبُهُ بِطَاعَتِكَ، وكذا فَسَّرَهُ الْحَسَنُ^(٢)، أي: انظر أين عَمَلُكَ مِنْهُ، وقال الجمهور: إنه حَرْفٌ مُعْجَمٌ يَدْخُلُهُ مَا يَدْخُلُ أَوَائِلَ السُّورِ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَيَخْتَصُّ هَذَا بِأَنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: معناه: صَدَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وقال الضَّحَّاكُ: معناه: صَدَقَ اللَّهُ^(٣)، وقال محمد بن كعب القُرْطُبِيُّ: هو مِفْتَاحُ أَسْمَاءِ اللَّهِ: صَمَدٌ صَادِقٌ، ونحوه^(٤).

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ قَسَمَ؛ قال ابن عباس وغيره: معناه: ذِي الشَّرَفِ الباقي الْمُخَلَّدِ^(٥)،

(١) وقرأ بها أبو السمال.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٢٩)، و«المحتسب» (٢/٢٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/٤٩١)، و«البحر المحيط» (٧/٣٦٦)، وزاد نسبتها إلى ابن أبي عجلة، ونصر بن عاصم، وهي في «الدر المصون» (٥/٥١٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٤٤) برقم: (٢٩٧٠٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٦)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٤٥) برقم: (٢٩٧١٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٧)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٦)، وعزاه لابن جرير.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٧)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩١).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٤٦) برقم: (٢٩٧١٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٧)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩١)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٦) كلهم عن ابن عباس.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذِي التَّذْكَرَةِ لِلنَّاسِ وَالْهَدَايَةِ لَهُمْ^(١)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: ذِي الذِّكْرِ لِلأَمَمِ وَالْقَصَصِ وَالْغُيُوبِ، * ت * : وَلَا مَانِعَ [مِنْ] أَنْ يُرَادَ الْجَمِيعُ، قَالَ * ع *^(٢) : * وَأَمَّا جَوَابُ الْقَسَمِ، فَأَخْتَلَفَ فِيهِ؛ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿صَ﴾؛ إِذْ هُوَ بِمَعْنَى: صَدَقَ اللَّهُ أَوْ صَدَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَالَ الْكُوفِيُّونَ وَالرَّجَّاجُ^(٣): الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، وَقَالَ بَعْضُ الْبَصَرِيِّينَ وَمِنْهُمْ الْأَخْفَشُ: الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ﴾ [ص: ١٤]، قَالَ * ع *^(٤) : * وَهَذَا الْقَوْلَانِ بَعِيدَانِ، وَقَالَ قَتَادَةُ^(٥) وَالطَّبْرِيُّ^(٦): الْجَوَابُ مُقَدَّرٌ قَبْلَ «بَلْ»، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَتَقْدِيرُهُ: وَالْقُرْآنُ، مَا الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ التَّقْدِيرِ، فَتَدَبَّرْهُ، وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ^(٧): الْجَوَابُ: إِنَّكَ لَمَنْ الْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ مَا أَثْبَتَ جَوَابًا لِلْقُرْآنِ حِينَ أَقْسَمَ بِهِ، انْتَهَى، وَهُوَ حَسَنٌ، قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَقَوْلُهُ: ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ هِيَ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ، وَعَنِ الْكَسَائِيِّ^(٨) بِالْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَالرَّاءِ، أَيْ: فِي عَفْلَةٍ، انْتَهَى.

وَالْعِزَّةُ هُنَا: الْمُعَازَةُ وَالْمُعَالَبَةُ وَالشَّقَاقُ وَنَحْوُهُ، أَيْ: هُمْ فِي شِقِّ، وَالْحَقُّ فِي شِقِّ، وَكَمْ لِلتَّكْثِيرِ، وَهِيَ خَبَرٌ فِيهِ مِثَالٌ وَوَعِيدٌ، وَهِيَ فِي مَوْضِعِ نَضْبٍ بِ﴿أَهْلَكُنَا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَنَادُوا﴾ مَعْنَاهُ: مُسْتَعِثِينَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ بَعْدَ الْمُعَالِيَةِ، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي وَفْتٍ نَفْعٍ، وَ﴿لَاتٍ﴾ بِمَعْنَى: لَيْسَ، وَأَسْمُهَا مُقَدَّرٌ عِنْدَ سَيِّبَوْنِهِ، تَقْدِيرُهُ: وَلَاتَ الْحَيِّ حِينَ مَنَاصٍ، وَالْمَنَاصُ: الْمَقَرُّ، نَاصٍ يَنْوَصُ: إِذَا فَرَّ وَفَاتَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَعْنَى: لَيْسَ بِحَيٍّ تَزُو وَلَا فِرَارٍ ضَبَطَ الْقَوْمُ^(٩)، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَجَبُوا﴾ لِكِفَارِ قَرِيشٍ.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٦/١٠) برقم: (٢٩٧١٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٩١/٤)،

وابن كثير في «تفسيره» (٢٦/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩١/٤).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» (٣١٩/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩١/٤).

(٥) ذكره الطبري في «تفسيره» (٥٤٧/١٠) عن قتادة، وابن عطية في «تفسيره» (٤٩٢/٤).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٤٧/١٠).

(٧) ينظر: «البحر المحيط» (٣٦٧/٧).

(٨) قرأ بها حماد بن الزبرقان، وأبو جعفر، والجحدري.

ينظر: «البحر المحيط» (٣٦٧/٧)، و«الدر المصون» (٥٢٠/٥).

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٨/١٠) برقم: (٢٩٧٢٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٩٢/٤)،

وابن كثير في «تفسيره» (٢٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٦/٥)، وعزاه السيوطي للطيالسي،

وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن التميمي.

﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٦) مَا سَمِعْنَا هَذَا فِي
الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلَاقُ (٧) أَمْزَلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيِّنَاتٍ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفَعُوا
عَذَابِ (٨) ﴿

١٩٤

قوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِتِكُمْ...﴾ الآية،
رُويَ فِي قَصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا عِنْدَ مَرَضِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالُوا: إِنَّ
مِنَ الْقَبِيحِ عَلَيْنَا أَنْ يَمُوتَ أَبُو طَالِبٍ، وَتُؤَذِيَ مُحَمَّدًا بَعْدَهُ، فَتَقُولُ الْعَرَبُ: تَرْكُوهُ مُدَّةَ عَمَّةٍ،
فَلَمَّا مَاتَ آذَوْهُ، وَلَكِنْ لِنَذْهَبَ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَيُنْصِفَنَا مِنْهُ وَيَرْبِطَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ رِبْطًا، فَتَهَضُّوا
إِلَيْهِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَسُبُّ آلَهُتَنَا، وَيُسَفِّهُ آراءَنَا، وَنَحْنُ لَا نُقَارُهُ عَلَى
ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَفْضَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي حَيَاتِكَ بَأَنْ يُقِيمَ فِي مَنْزِلِهِ يَعْبُدُ رَبَّهُ الَّذِي يَزْعُمُ وَيَدْعُ آلَهُتَنَا
وَسَبَّهَا، وَلَا يَغْرِضُ لِأَحَدٍ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، فَبِعَثَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:
يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ دَعَوْكَ إِلَى التَّصَفَةِ، وَهِيَ أَنْ تَدْعَهُمْ وَتَعْبُدَ رَبَّكَ وَخَدَكَ، فَقَالَ: أَوْ
غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَمُّ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: يُعْطُونَنِي كَلِمَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَذِي إِيَّاهُمْ
الْجِزْيَةَ بِهَا الْعَجَمُ، قَالُوا: وَمَا هِيَ؟ قَالُوا: نَبَادِرُ إِيَّاهَا! قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ فَتَفَرُّوا عِنْدَ
ذَلِكَ، وَقَالُوا: مَا يُرْضِيكَ مِنَّا غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: «وَاللَّهِ، لَوْ أُعْطِيتُمُونِي الْأَرْضَ ذَهَبًا وَمَالًا»^(١)
وَفِي رَاوِيَةِ «لَوْ جَعَلْتُمُ الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي مَا أَرْضَيْتُ مِنْكُمْ غَيْرَهَا» فَقَامُوا
عِنْدَ ذَلِكَ، وَبَغَضَهُمْ يَقُولُ لِبَغْضٍ: «أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ»،
وَيُرَدِّدُونَ هَذَا الْمَعْنَى، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ يَقُولُ: «امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِتِكُمْ»، فَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ﴾ عبارةٌ عَنْ خُرُوجِهِمْ عَنْ أَبِي طَالِبٍ وَأَنطَلَاqِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْعِ،
هَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

وقوله: ﴿أَنْ امْشُوا﴾ نَقَلَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ^(٢) أَنَّ «أَنْ» بِمَعْنَى: «أَيَّ»، انْتَهَى، وَقَوْلُهُمْ:
﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يَرِيدُونَ ظَهْرَ مُحَمَّدٍ وَعَلَوَهُ، أَيُّ: يُرَادُ مِنَّا الْإِنْقِيَادُ لَهُ، وَأَنْ نَكُونَ لَهُ
أَتْبَاعًا، وَيَرِيدُونَ بِالْمِلَّةِ الْآخِرَةِ مِلَّةَ عِيسَى، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُ^(٣)؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا مِلَّةٌ شَهَرَ
فِيهَا التَّثْلِيثُ.

(١) أخرجه الطبري (٥٥٣/١٠) برقم: (٢٩٧٥٠) وعن السدي برقم: (٢٩٧٥١)، وعن ابن عباس

مختصراً، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٦/٥) - ط دار المعرفة، وعزاه إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٥٦/٢٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٥٢/١٠) برقم: (٢٩٧٤٢) عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره»

(٤٩/٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٩٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨/٤)، وذكره السيوطي

في «الدر المنثور» (٥٥٨/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد.

ثم تَوَعَّدَهُمْ - سبحانه - بقوله: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٌ﴾ أي: لو ذاقوه، لَتَحَقَّقُوا أَنَّ هذه الرسالة [حق].

﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَتَمُودُ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبِ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ...﴾ الآية، عبارة الثعلبي: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: مفاتيح النبوة حتى يُعْطُوا مِنْ أَخْتَارُوا، نظيرها ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: أَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ تعالى؛ يَضْطَفِي مَنْ يَشَاءُ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ﴿فَلْيَضَعُوا فِيْمَا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى السَّمَوَاتِ، فَلْيَأْتُوا مِنْهَا بِالْوَحْيِ إِلَى مَنْ يَخْتَارُونَ، وهذا أَمْرٌ تَوْبِيخٍ وَتَعْجِيزٍ، انتهى، ونحوه كلامٌ * ع^(١) *.

ثم وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّهُ النَّصْرَ، فقال: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ أي: مَغْلُوبٌ مَمْنُوعٌ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ، ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من جملة الأحزاب، قال * ع^(٢) * : وهذا تأويل قوي، وقالت فرقة: الإشارة بـ﴿هنالك﴾ إلى حماية الْأَصْنَامِ وَعَضِدِهَا، أي: هؤلاء القَوْمُ جُنْدٌ مَهْزُومٌ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ، وقال مجاهد: الإشارة بـ﴿هنالك﴾ إلى يوم بدر^(٣)، وهي من الْأُمُورِ الْمُعَيَّنَةِ أَخْبَرَ بِهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

«وما» في قوله: ﴿جُنْدٌ مَا﴾ زائدة مؤكدة، وفيها تخصيص، وباقي الآية بين.

وقال أبو حيان^(٤) ﴿جُنْدٌ﴾ خَبَرٌ مَبْتَدِئٌ مَحْذُوفٌ، أي: هُمْ جُنْدٌ وَمَا زَائِدَةٌ أَوْ صِفَةٌ أُرِيدَ بِهَا التَّعْظِيمُ عَلَى سَبِيلِ الْهَزْءِ بِهِمْ/ أَوْ الْاسْتِخْفَافِ؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ تُسْتَعْمَلُ عَلَى هَذَيْنِ ٩٤ المعنيين، و﴿هنالك﴾ ظرفٌ مَكَانٍ يُشَارُ بِهِ إِلَى الْبَعِيدِ، فِي مَوْضِعٍ صِفَةٍ لـ﴿جُنْدٌ﴾، أي: كَائِنٌ هُنَالِكَ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿مَهْزُومٌ﴾، انتهى.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٩٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٥٥) برقم: (٢٩٧٦٦)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩٥) عن مجاهد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٨)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٣٧٠).

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فُوقٍ﴾ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَيِّحْنَ بِالْعِيشِ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّبَرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ﴾ أي: ينتظر، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال قتادة: تَوَعَّدَهُمْ سُبْحَانَهُ بِصَيْحَةِ الْقِيَامَةِ وَالنْفَخِ فِي الصُّورِ^(١)، قَالَ الثَّعَالِبِيُّ: وقد رُوِيَ هذا التفسير مرفوعاً، وقالت طائفة: تَوَعَّدَهُم اللَّهُ بِصَيْحَةٍ يَهْلِكُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا، ﴿مَا لَهَا مِنْ فُوقٍ﴾ قرأ الجمهور - بفتح الفاء -، وقرأ حمزة والكسائي «فُوقاً» - بضم الفاء^(٢) -، قال ابن عباس: هما بمعنى، أي: ما لها من انقطاع وَعَوْدَةٍ، بَلْ هِيَ مُتَّصِلَةٌ حَتَّى تُهْلِكَهُمُ^(٣)، ومنه: فُوقُ الْحَلْبِ، وَهُوَ الْمُهْلَةُ الَّتِي بَيْنَ «الشُّحْبَيْنِ»، وقال ابن زَيْد وغيره: المعنى مُخْتَلِفٌ^(٤)، فَالضَّمُّ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى فُوقِ النَّاقَةِ، وَالْفَتْحُ بِمَعْنَى الْإِفَاقَةِ، أَيْ: لَا يُفَيِّقُونَ فِيهَا كَمَا يُفَيِّقُ الْمَرِيضُ، وَالْمَعْشِيُّ عَلَيْهِ، وَالْقِطُّ: الْحِطُّ وَالنَّصِيبُ، وَالْقِطُّ أَيْضاً الصَّكُّ وَالْكِتَابُ مِنَ السُّلْطَانِ بِصِلَةٍ، وَنَحْوِهِ، وَاخْتَلَفَ فِي الْقِطِّ هُنَا، مَا أَرَادُوا بِهِ؟ فَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: أَرَادُوا بِهِ: عَجَلُ لَنَا نَصِيبَنَا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّعِيمِ فِي دُنْيَانَا^(٥)، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَرَادُوا عَجَلُ لَنَا صُحُفَنَا بِأَيْمَانِنَا^(٦)؛ وَذَلِكَ لَمَّا سَمِعُوا فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الصُّحُفَ تُعْطَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَرَادُوا ضِدَّ هَذَا مِنَ الْعَذَابِ وَنَحْوِهِ^(٧)، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِمْ ﴿فَأَمْطِرْ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «السبعة» (٥٥٢)، و«الحجة» (٧/٦٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٥٥)، و«معاني القراءات» (٢/٣٢٥)، و«شرح الطيبة» (٥/١٩٠)، و«العنوان» (١٦٣)، و«حجة القراءات» (٦١٣)، و«شرح شعبة» (٥٦٤)، و«إتحاف» (٢/٤١٩).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٥٨) برقم: (٢٩٧٧٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٥٠)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٩)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٥٨) برقم: (٢٩٧٨٢)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩٦).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٦٠) برقم: (٢٩٧٨٩)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٥٠)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩٦).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٦٠) عن آخرين، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩٦) عن أبي العالية، والكلبي.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٥٩) برقم: (٢٩٧٨٣) عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٥٠)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٤٩٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٥٩)، وعزاه للطستي عن ابن عباس.

عَلَيْنَا حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ﴿[الأنفال: ٣٢] قال * ع^(١) * : وعلى كل تأويل، فَكَلَامُهُمْ خَرَجَ عَلَى جِهَةِ الاسْتِخْفَافِ وَالْهُزْءِ.

﴿واذكر عبدنا داودَ ذا الأيدِ﴾ أي: فَتَأَسَّ بِهِ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى هَؤُلَاءِ، «والأيدِ» القُوَّةُ فِي الدِّينِ وَالشَّرْعِ وَالصَّدْعُ بِهِ، وَالـ﴿أَوَابُ﴾ الرَّجَاجُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ^(٢) وَفَسَّرَهُ السُّدِّيُّ: بِالْمُسَبِّحِ^(٣)، وَتَسْبِيحُ الْجِبَالِ هُنَا حَقِيقَةٌ، وَ﴿الْإِشْرَاقُ﴾: ضِيَاءُ الشَّمْسِ وَارْتِفَاعُهَا، وَفِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ كَانَتْ صَلَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَلَيْسَ الْإِشْرَاقُ طُلُوعَ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا هُوَ صَفَاؤُهَا وَضَوْءُهَا، انْتَهَى. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٤): قَالَ [ابْنُ عَبَّاسٍ]^(٥): مَا كُنْتُ أَعْلَمُ صَلَاةَ الضُّحَى فِي الْقُرْآنِ حَتَّى سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَسْبَحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(٦) قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٧): أَمَّا صَلَاةُ الضُّحَى فَهِيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَافِلَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُصَلَّى حَتَّى تَتَبَيَّنَ الشَّمْسُ طَالِعَةً قَدْ أَشْرَقَ نُورُهَا، وَفِي صَلَاةِ الضُّحَى أَحَادِيثُ أُصُولُهَا ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُضْبِحُ عَلَى كُلِّ سَلَامَةٍ مِنْ ابْنِ آدَمَ صَدَقَةٌ؛ تَسْلِمُهُ عَلَى مَنْ لَقِيَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُهُ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيُهُ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِمَاتَتُهُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَبُضْعُهُ أَهْلَهُ صَدَقَةٌ، وَيَجْزِيءُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ رَكْعَتَانِ مِنَ الضُّحَى»^(٨).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩٦/٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦١/١٠) برقم: (٢٩٧٩٦) عن مجاهد، وبرقم: (٢٩٨٠٠) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٩٦/٤) عنهما، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٢/١٠) برقم: (٢٩٧٩٩) عن السدي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٥١) عن سعيد بن جبير، وابن عطية في «تفسيره» (٤٩٦/٤) عن السدي، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٠/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس، ولابن جرير عن مجاهد، ولابن أبي حاتم عن عمرو بن شرحبيل.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٤/١٦٢٤).

(٥) سقط في: د.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٢/١٠) برقم: (٢٩٨٠٣)، و (٢٩٨٠٤) عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٥١)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٩٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٣٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦١/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن عطاء الخرساني عن ابن عباس، ولعبد بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس، ولابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٧) ينظر: «أحكام القرآن» (٤/١٦٢٥).

(٨) تقدم تخريجه.

الثاني: حديث سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه؛ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ حِينَ يَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، حَتَّى يُسَبِّحَ رَكَعَتَيِ الضُّحَى لَا يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١).

الثالث: حديث أم هانئ أن النبي ﷺ صَلَّى يَوْمَ الْفَتْحِ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ^(٢)، انتهى.

* ت * : وَرَوَى أَبُو عِيسَى / الترمذي وَغَيْرُهُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَةٍ»^(٣)، قَالَ الترمذي: حديث حسن، انتهى. قال الشيخ أبو الحسن بن بطال في شرحه للبخاري: وعن زيد بن أسلم قال: سمعتُ عبد الله بن عمر يقول لأبي ذر: أَوْصِنِي يَا عَمُّ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا سَأَلْتَنِي؛ فَقَالَ: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى رَكَعَتَيْنِ، لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ صَلَّى أَرْبَعًا، كُتِبَ مِنْ

١٩٥

- (١) أخرجه أبو داود (٤١١/١) كتاب «الصلاة» باب: صلاة الضحى برقم: (١٢٨٧)، وأحمد (٤٣٩/٣)، والبيهقي (٤٩/٣) كتاب «الصلاة» باب: من استحَبَّ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ.
- (٢) أخرجه البخاري (٤٦٩/١) كتاب «الصلاة» باب: الصلاة في الثوب الواحد، حديث (٣٥٧)، ومسلم (٤٩٨/١) كتاب «صلاة المسافرين» باب: استحباب صلاة الضحى، حديث (٣٣٦/٨٢)، وأبو داود (٤١٢/١) كتاب «الصلاة» باب: صلاة الضحى، حديث (١٢٩٠ - ١٢٩١)، والنسائي (١٢٦/١) كتاب «الطهارة» باب: ذكر الاستئذان عند الاغتسال، حديث (٢٢٥)، والترمذي (٧٣/٥ - ٧٤) كتاب «الاستئذان» باب: ما جاء في مرجأ، حديث (٢٧٣٤)، وابن ماجه (٤٣٩/١) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في صلاة الضحى، حديث (١٣٧٩)، ومالك (١٥٢/١) كتاب «قصر الصلاة في السفر» باب: صلاة الضحى، حديث (٢٧ - ٢٨)، وأحمد (٣٤١/٦ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٤٢٣ - ٤٢٥)، وأبو عوانة (٢/٢٦٩ - ٢٧٠)، والدارمي (٣٣٨/١ - ٣٣٩) كتاب «الصلاة» باب: صلاة الضحى، والحميدي (١/١٥٨، ١٦٠) برقم: (٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣)، والبيهقي (٤٨/٣) كتاب «الصلاة» باب: ذكر من رواها ثمان ركعات، والبخاري في «شرح السنة» (٥١٧/٢) - بتحقيقنا من طرق عن أم هانئ أن النبي ﷺ دخل بيته يوم فتح مكة فاغتسل وصلى ثمان ركعات، فلم أر صلاة قط أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

- (٣) أخرجه الترمذي (٤٨١/٢) كتاب «الصلاة» باب: ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، من حديث أنس.
- قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وفي الباب من حديث أبي أمامة: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠٩/٨)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٧/١٠) كتاب «الأذكار» باب: ما يفعل بعد صلاة الصبح والمغرب.
- قال الهيثمي: إسناده جيد.

الْعَابِدِينَ، وَمَنْ صَلَّى سِتًّا، لَمْ يَلْحَقْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ذَنْبٌ، وَمَنْ صَلَّى ثَمَانِيًا، كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ صَلَّى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ^(١) انتهى.

﴿والطير﴾: عَطَفَ عَلَى الْجِبَالِ، أي: وَسَخَّرْنَا الطَّيْرَ، و﴿محشورة﴾: معناه مجموعة، والضمير في «له» قَالَتْ فِرْقَةٌ: هو عائد على الله. عز وجل - ف ﴿كُلُّ﴾ على هذا، يُرَادُ بِهِ: دَاوُدَ والجبال والطير، وقالت فرقة: هو عائد على داود ف ﴿كُلُّ﴾ على هذا يُرَادُ بِهِ الجبال والطير.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَأَيَّانَهُ الْجَنَّةَ وَفَصَّلَ الْخَطَابِ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿وَهَلْ أُنْتُكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَحْفَ خَصَمَانِ بَعْى بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ﴿٢٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾: عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجند ونعمة، و﴿فَصَّلَ الْخَطَابِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو فَضْلُ الْقَعْدَاءِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وإصابته وفهمه^(٢)، وقال الشعبي: أَرَادَ قَوْلَ «أَمَّا بَعْدُ» فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَهَا^(٣)، قال * ع^(٤): * والذي يُعْطِيهِ اللفظ أنه آتاه فَضْلُ الْخَطَابِ، بمعنى أنه إِذَا خَاطَبَ فِي نَازِلَةٍ، فَصَّلَ الْمَعْنَى وَأَوْضَحَهُ، لَا يَأْخُذُهُ فِي ذَلِكَ حَصَرٌ وَلَا ضَعْفٌ.

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠) كتاب «العيدين» باب: صلاة الضحى، وعزاه إلى البزار.

قال الهيثمي: فيه حسين بن عطاء ضعفه أبو حاتم، وغيره، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: يخطئ ويدلس. اهـ.

وفي الباب من حديث أبي أمامة: ذكره الهيثمي أيضاً في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٤٠)، وعزاه إلى الطبراني في «الكبير».

قال الهيثمي: فيه موسى بن يعقوب الزمعي، وثقه ابن معين وابن حبان، وضعفه المديني وغيره، وبقي رجاله ثقات. اهـ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٦٤) برقم: (٢٩٨١٤) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٨١٥) عن مجاهد، و (٢٩٨١٦) عن السدي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٥٢)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/ ٤٩٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٦٣)، وعزاه للحاكم عن السدي، ولابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولابن المنذر، عن مجاهد، ولعبد بن حميد، وابن المنذر، عن أبي عبد الرحمن، ولعبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٦٥) برقم: (٢٩٨٢٦)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٥٢)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/ ٤٩٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٦٤)، وعزاه لابن جرير عن الشعبي، ولابن أبي حاتم، والديلمي عن أبي موسى الأشعري.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٧).

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ...﴾ الآية مخاطبة للنبي ﷺ، واستفتحت بالاستفهام؛ تَعْجِيباً مِنَ الْقِصَّةِ وتفخيماً لها، والخصم يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْإِثْنَانِ وَالْجَمْعُ، ﴿تَسَوَّرُوا﴾ معناه: عَلَوْا سُورَهُ، وهو جَمْعُ «سُورَةٍ» وهي القطعة من البناء، وَتَحْتَمِلُ هذه الآية أَنْ يَكُونَ الْمُتَسَوِّرُ اثْنَيْنِ فَقَطْ، فَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِلَفْظِ الْجَمْعِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمَيْنِ جَمَاعَةٌ، وَ﴿الْمُخْرَابُ﴾ الْمَوْضِعُ الْأَرْفَعُ مِنَ الْقَصْرِ أَوِ الْمَسْجِدِ، وهو موضع التعبد، وَإِنَّمَا فَرَعَ مِنْهُمْ مِنْ حَيْثُ دَخَلُوا مِنْ غَيْرِ الْبَابِ، ودون استئذان، ولا خلاف بين أهل التأويل أَنَّ هَذَا الْخَصْمَ إِنَّمَا كَانُوا مَلَائِكَةً بَعَثَهُمُ اللَّهُ ضَرْبَ مَثَلٍ لِدَاوُدَ، فَاخْتَصَمُوا إِلَيْهِ فِي نَازِلَةٍ قَدْ وَقَعَ هُوَ فِي نَحْوِهَا، فَأَفْتَاهُمْ بِقُتْيَا هِيَ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ فِي نَازِلَتِهِ، وَلَمَّا شَعَرَ وَفَهُمُ الْمُرَادَ، خَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ، وَاسْتَغْفَرَ، وَأَمَّا نَازِلَتُهُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا، ففِيهَا لِلْقُصَّاصِ تَطْوِيلٌ، فَلَمْ تَرَ سَوْقَ جَمِيعِ ذَلِكَ لِإِعْدَمِ صِحَّتِهِ.

وروي في ذلك عن ابن عباس ما معناه؛ أَنَّ دَاوُدَ كَانَ فِي مِخْرَابِهِ يَتَعَبَّدُ؛ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ طَائِفٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ؛ لِيَأْخُذَهُ، فَزَالَ مُطْمِعاً لَهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، حَتَّى أَطْلَعَ عَلَى امْرَأَةٍ لَهَا مَنْظَرٌ وَجَمَالٌ، فَخَطَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ لَوْ كَانَتْ مِنْ نِسَائِهِ، وَسَأَلَ عَنْهَا، فَأُخْبِرَ أَنَّهَا امْرَأَةٌ أُورِيَا، وَكَانَ فِي الْجِهَادِ قَبْلَهُ أَنَّهُ اسْتَشْهَدَ فَخَطَبَ الْمَرْأَةَ، وَتَزَوَّجَهَا، فَكَانَتْ أُمَّ سُلَيْمَانَ فِيمَا رَوَى عَنْ قَتَادَةَ، فَبَعَثَ اللَّهُ الْخَصْمَ لِيُفْتِيَ^(١)، قَالَتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْمَعَاتِبَةُ عَلَى/ هَمِّهِ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ شَيْءٌ سِوَى الْهَمِّ، وَكَانَ لِدَاوُدَ فِيمَا رَوَى تِسْعٌ وَيَسْعُونَ امْرَأَةً، وَفِي كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ صُورٌ لَا تَلِيْقُ، وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: مَنْ حَدَّثَ بِمَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْقُصَّاصُ فِي أَمْرِ دَاوُدَ، جَلَدْتُهُ حَدِيثَيْنِ لِمَا أَرْتَكِبُ مِنْ حُرْمَةِ مَنْ رَفَعَ اللَّهُ قَدْرَهُ^(٢).

وقوله: ﴿خَصْمَانِ﴾ تقديره: نَحْنُ خَصْمَانِ، وَ﴿بَغَى﴾ معناه: اغْتَدَى وَاسْتَطَالَ، وَ﴿لَا تَشْطُطْ﴾ معناه: وَلَا تَتَعَدَّ فِي حُكْمِكَ، وَ﴿سِوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ معناه: وَسَطُهُ.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسَعْ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَيْنِيَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِيَتَّبِعُنَّهُمْ عَلَى بَعْضِ الْأَذِينَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَفَرْنَا لَكُمْ ذَلِكَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٠/١٠) عن ابن عباس برقم: (٢٩٨٥٢)، وبرقم: (٢٩٨٥٣) عن السدي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٥٢/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤٩٨/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٤/٥)، وعزه لابن أبي شيبه في «المصنف»، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٩٩/٤).

وَأَنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزُفَى وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٢٥﴾

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ [إعراب «أخي»]^(١) عطف بيان، وذلك أن ما جرى من هذه الأشياء صفة كالحلق والحلق وسائر الأوصاف، فإنه نعت مخص، والعامل فيه هو العامل في الموصوف، وما كان منها مما ليس يوصف به بته، فهو بدل والعامل فيه مكرّر أي: تقديرًا يقال: جاءني أخوك زيد، فالتقدير: جاءني أخوك، جاءني زيد، وما كان منها مما لا يوصف به وأحتيج إلى أن يبين به، ويجري مجرى الصفة، فهو عطف بيان.

«والنعجة» في هذه الآية عبر بها عن المرأة، والنعجة في كلام العرب: تقع على أنثى بقر الوحش، وعلى أنثى الضأن، وتعبّر العرب بها عن المرأة.

وقوله: ﴿أكفليها﴾ أي: رُدّها في كفّالتي، وقال ابن كيسان: المعنى: أجعلها كفلي، أي: نصيبي، ﴿وعزني﴾ معناه: غلبني، ومنه قول العرب: «من عزّ بَرٌّ» أي: من غلب، سلب، ومعنى قوله: ﴿في الخطاب﴾ أي: كان أوجه مني، فإذا خاطبته، كان كلامه أقوى من كلامي، وقوته أعظم من قوتي.

ويروى أنه لما قال: ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك﴾، تبسّم عند ذلك، وذهبا، ولم يَرهما لحيته، فسعر حينئذ للأمر، ويروى أنهما ذهبا نحو السماء برأى منه.

﴿والخبطاء﴾: الشركاء في الأملاك، والأمور، وهذا القول من داود وعظ لقاعدة حق، ليحذر الخصم من الوقوع في خلاف الحق.

وقوله تعالى: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»: قال أبو حيان^(٢): ﴿وقليل﴾ خبر مقدم، و«ما» زائدة تفيد معنى التعظيم، انتهى.

وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «أشدُّ الأعمال ذكْرُ اللَّهِ على كلِّ حال، والإنصاف من نفسك، ومواساة الأخ في المال»^(٣) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ معناه: شعر للأمر وعلمه، و﴿فتناه﴾ أي: ابتليناه وامتحنناه، وقال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فتناه﴾ أي: اختبرناه، وأسند البخاري

(١) سقط في: د.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٣٧٧/٧).

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في «اللسان الميزان» (٣٢٦/٦) من طريق الشافعي عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، وقال: وهذا موضوع على هؤلاء رقم: (١١٦٣).

عن مجاهد قال: سألت ابن عباس عن سجدة «ص» أين تسجد، فقال: أو ما تقرأ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أمر نبيكم أن يفتدي به، فسجدها داود؛ فسجدها رسول الله ﷺ^(١)، انتهى، فتأمل ما فيه من الفقه، وقرأ أبو عمرو في رواية علي بن نصر: «فتنأه» - بتخفيف التاء والنون - على إسناد الفعل للخضمين^(٢)، أي: أمتحنه عن أمرنا، قال أبو سعيد الخدري: «رأيتني في النوم أكتب سورة «ص» فلما بلغت/ قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ سجد القلم، ورأيتني في منام آخر، وشجرة تقرأ سورة «ص» فلما بلغت هذا، سجدت، وقالت: اللهم، اكتب لي بها أجراً، وحط عني بها وزراً، وارزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، فقال النبي ﷺ: وسجدت أنت يا أبا سعيد؟ قلت: لا، قال: أنت كنت أحق بالسجدة من الشجرة، ثم تلا نبي الله الآيات حتى بلغ: ﴿وَأَنَابَ﴾، فسجد، وقال كما قالت الشجرة».

﴿وَأَنَابَ﴾ مغناه: رجع، * ت * : وحديث سجود الشجرة رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وابن حبان في «صحيحتهما»، وقال الحاكم: هو من شرط الصحة، انتهى من «السلام».

والزلفى: القرية والمكانة الرفيعة، والمآب: المَرْجِعُ في الآخرة من آب يؤوب: إذا رجع.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٢٨) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ تقدير الكلام: وقلنا له يا داود، قال * ع * (٣): ﴿وَلَا يُقَالُ: خَلِيفَةُ اللَّهِ إِلَّا لِرَسُولِهِ، وَأَمَّا الْخُلَفَاءُ، فَكُلُّ وَاحِدٍ

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥/٨) كتاب «التفسير» باب: سورة ص: (٤٨٠٧)، (٤٨٠٦) نحوه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٠/١) كتاب «الصلاة» باب: من قال في ص سجدة وسجد فيها (٤٢٥٥)، (٤٢٥٩)، (٤٢٦٨) عن ابن عباس نحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥٧١).

(٢) ينظر: «السبعة» (٥٥٣)، و«الحجة» (٧٠/٦)، و«معاني القراءات» (٣٢٧/٢)، و«إتحاف» (٤٢١/٢)، وذكرها الأخير عن الشبوذى. وينظر: «المحتسب» (٢٣٢/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٢/٤).

خَلِيفَةً لِلَّذِي قَبْلَهُ، وَمَا يَجِيءُ فِي الشَّعْرِ مِنْ تَسْمِيَةِ أَحَدِهِمْ خَلِيفَةَ اللَّهِ! فذلِكَ تَجَوُّزٌ وَغُلُوٌّ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الصُّحَابَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - حَزَرُوا هَذَا الْمَعْنَى، فَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، وَبِهَذَا كَانَ يُدْعَى مَدَّةَ خِلَافَتِهِ، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ؛ قَالُوا: يَا خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، فَطَالَ الْأَمْرُ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ سَيَطُولُ أَكْثَرُ؛ فَدَعَوْهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَصَرَ هَذَا الْأِسْمُ عَلَى الْخُلَفَاءِ.

وقوله: ﴿فِيضْلُكَ﴾ قَالَ أَبُو حِيَانٍ^(١): مَنْصُوبٌ فِي جَوَابِ التَّهْنِئَةِ، (ص) أَبُو الْبَقَاءِ وَقِيلَ: مَجْزُومٌ عَطْفًا عَلَى التَّهْنِئَةِ وَفُتِحَتْ [اللام] ^(٢) لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ، انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: اغْتِرَاضُ فَصِيحٍ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ مِنْ أَمْرِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، وَهُوَ خُطَابُ لَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعِظَةٌ لِأُمَّتِهِ، وَ﴿نَسُوا﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعْنَاهُ تَرَكُوا، ثُمَّ وَقَفَ تَعَالَى عَلَى الْفَرْقِ عِنْدَهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ بِالصَّالِحَاتِ وَبَيْنَ الْمُفْسِدِينَ الْكَافِرَةِ وَبَيْنَ الْمُتَّقِينَ وَالْفُجَّارِ، وَفِي هَذَا التَّوْقِيفِ حُضْرٌ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَتَرْغِيبٌ فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٣): نَفَى اللَّهُ تَعَالَى الْمَسَاوَاةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَبَيْنَ الْمُتَّقِينَ وَالْفُجَّارِ؛ فَلَا مُسَاوَاةَ بَيْنَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ وَلَا فِي الدُّنْيَا أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مَعْصُومُونَ دَمًا وَمَالًا وَعَرْضًا، وَالْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَالْفُجَّارُ مُبَاخُونَ الدَّمِ وَالْمَالِ وَالْعَرْضِ، فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِصِ الْمَفْسُورِينَ بِذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ دُونَ الدُّنْيَا، انْتَهَى مِنْ «الْأَحْكَامِ»؛ وَهَذَا كَمَا قَالَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الْجَانَّةِ: ٢١] يَشْهَدُ لَهُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَبَّوْا عَنْهُ﴾ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّغِيرَتُ الْإِحْيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَلَطْفٌ مَسْكُونٌ وَالْأَغْنَى ﴿٣٣﴾

وقوله تعالى: ﴿كَتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَبَّوْا عَنْهُ﴾ قَالَ الْعَرَالِيُّ فِي «الْإِحْيَاءِ»: اَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ تَحْذِيرٌ وَتَخْوِيفٌ لَا يَتَفَكَّرُ فِيهِ مُتَفَكِّرٌ إِلَّا وَيَطُولُ حُرْثُهُ، وَيَعْظُمُ خَوْفُهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِمَا فِيهِ، وَتَرَى النَّاسَ يَهْذُونَهُ هَذَا، يُخْرِجُونَ الْحُرُوفَ مِنْ مَخَارِجِهَا، وَيَتَنَظَّرُونَ عَلَى خَفْضِهَا وَرَفْعِهَا وَنَضْبِهَا، لَا يَهْمُهُمُ الْإِلْتِفَاتُ إِلَى مَعَانِيهَا وَالْعَمَلِ

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٣٧٨/٧).

(٢) سقط في: د.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٦٤٦/٤).

٦٦ ب بما فيها، وهل/ في العلم غرورٌ يزيدُ على هذا، انتهى من كتابِ دَمِ الغُرور.

واختلف المتأولون في قصص هذه الخيل المعروضة على سليمان - عليه السلام - فقال الجمهور: إنَّ سليمانَ - عليه السلام - عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أبوه، فأجريت بين يديه عشاء، فتشاعل بجريها ومحببتها، حتى فاتته وقت صلاة العشي، فأسف لذلك؛ وقال: زدوا علي الخيل؛ فطفق يمسح سوقها وأغناقها بالسيف، قال الثعلبي وغيره، وجعل ينحرها تقرباً إلى الله تعالى؛ حيث اشتغل بها عن طاعته، وكان ذلك مباحاً لهم كما أبيع لنا بهيمة الأثعام، قال * ع^(١): * فروي أنَّ الله تعالى أبدله منها أسرع منها، وهي الريح، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): و«الخير» هنا هي الخيل؛ وكذلك قرأها ابن مسعود: «إني أحببتُ حبَّ الخيل»^(٣) انتهى، و«الصفان»: الذي يرفع إحدَى يديه؛ وقد يفعل ذلك برجله؛ وهي علامة الفراهية؛ وأنشد الزجاج^(٤): [الكامل]

ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيراً^(٥)
قال بغض العلماء: «الخير» هنا أراد به الخيل، والعرب تسمي الخيل، الخير، وفي مصحف ابن مسعود: «حبَّ الخيل» باللام.

والضمير في «توارت» للشمس، وإن كان لم يتقدم لها ذكر، لأنَّ المعنى يفتضحها، وأيضاً فذكر العشي يتضمَّنهما، وقال بعض المفسرين «حتى توارت بالحجاب»، أي: الخيل دخلت إضطباتلها، وقال ابن عباس والزهرى: مسح بالسوق والأغناق لم يكن بالسيف؛ بل بيده تكريماً لها؛ ورَّجحه الطبري^(٦)، وفي البخاري: «فطفق مسحاً» يمسح أعراف الخيل وعراقيبها؛ انتهى، وعن بعض العلماء أنَّ هذه القصة لم يكن فيها قوت صلاة، وقالوا: عرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة، فأشار إليهم؛ أي: إني في صلاة،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٣/٤).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٦٤٨/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٤/٤).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» (٣٣٠/٤).

(٥) البيت بلا نسبة في «الأزهية» ص: (٨٧)، و«أمالى ابن الحاجب» (٦٣٥/٢)، و«شرح شواهد المغني» (٧٢٩/٢)، و«لسان العرب» (٢٤٨/١٣) (صنف)، و«مغني اللبيب» (٣١٨/١)، وينظر: «الكشاف» (٢/٢٨٤)، و«البحر المحيط» (٣٨٨/٧)، و«الدر» (٥٣٤/٥).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٩/١٠) برقم: (٢٩٨٩٢) عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره» (٦١/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٠٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٤/٤)، والسيوطي في «الدر المتثور» (٥٨٠/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

فَأَزَالُوهَا عَنْهُ حَتَّى أَذْخُلُوهَا فِي الْإِضْطَبْلَاتِ، فَقَالَ هُوَ، لَمَّا فَرَعَ مِنْ صَلَاتِهِ: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ، أَي: الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ؛ بِسَبَبِ ذِكْرِ رَبِّي، كَأَنَّهُ يَقُولُ: فَشَغَلَنِي ذَلِكَ عَنْ رُؤْيَا الْخَيْلِ، حَتَّى أَذْخَلْتُ إِضْطَبْلَاتِهَا، رُدُّوَهَا عَلَيَّ، فَطَفِقَ يَمْسَحُ أَعْرَافَهَا وَسُوقَهَا، تَكْرِمَةً لَهَا، أَي: لِأَنَّهَا مَعْدَّةٌ لِلْجِهَادِ، وَهَذَا هُوَ الرَّاجِعُ عِنْدَ الْفَخْرِ^(١)، قَالَ: وَلَوْ كَانَ مَعْنَى مَسَحَ السُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ قَطَعَهَا لَكَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قَطَعَهَا * ت * : وَهَذَا لَا يِلْزُمُ لِلْقِرْيَةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، أَهـ. قَالَ أَبُو حَيَّانَ^(٢): ﴿وَحُبُّ الْخَيْرِ﴾ قَالَ الْفَرَاءُ: مَفْعُولٌ بِهِ، ﴿وَأَحْبَبْتُ﴾ مُضَمَّنٌ مَعْنَى آثَرْتُ، وَقِيلَ: مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ التَّشْبِيهِ، أَي: حُبًّا مِثْلَ حُبِّ الْخَيْرِ، انْتَهَى.

وقوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ «عَنْ» عَلَى كُلِّ تَأْوِيلٍ هُنَا لِلْمَجَاوِزَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وَتَدَبَّرْهُ فَإِنَّهُ مُطَرِّدٌ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...﴾ الآية، * ت * : اَعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَكْثَرُوا فِي قَصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا لَا يُوقَفُ عَلَى صِحَّتِهِ، وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ؛ أَنَّ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا فُتِنَ، سَقَطَ الْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ، وَكَانَ فِيهِ مُلْكُهُ، فَأَعَادَهُ إِلَى يَدِهِ، فَسَقَطَ؛ وَأَيَّقَنَ بِالْفِتْنَةِ، وَأَنَّ أَصِفَ بْنَ بَرْخِيَّ قَالَ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّكَ مَفْتُونٌ؛ وَلِذَلِكَ / لَا يَتَمَاسَكَ الْخَاتَمُ فِي يَدِكَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْماً؛ فَفَرَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تَائِباً مِنْ ١٩٧ ذَنْبِكَ، وَأَنَا أَقُومُ مَقَامَكَ فِي عَالَمِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ، فَفَرَّ سُلَيْمَانُ هَارِباً إِلَى رَبِّهِ مُتَفَرِّداً لِعِبَادَتِهِ، وَأَخَذَ أَصِفُ الْخَاتَمَ، فَوَضَعَهُ فِي يَدِهِ، فَثَبَّتَ، وَقِيلَ: إِنْ الْجَسَدَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ هُوَ أَصِفُ كَاتِبُ سُلَيْمَانَ، وَهُوَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ، وَأَقَامَ أَصِفُ فِي مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَعِيَالِهِ يَسِيرُ بِسِيرَتِهِ الْحَسَنَةِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْماً إِلَى أَنْ رَجَعَ سُلَيْمَانُ إِلَى مَنْزِلِهِ تَائِباً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مُلْكَهُ، فَأَقَامَ أَصِفُ عَنْ مَجْلِسِهِ، وَجَلَسَ سُلَيْمَانُ عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَأَعَادَ الْخَاتَمَ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنْ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - اخْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ يَا سُلَيْمَانُ، اخْتَجَبْتَ عَنِ النَّاسِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمْ

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١٧٩/٢٦).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٣٨٠/٧).

تَنْظُرُ فِي أُمُورِ عِبَادِي، وَلَمْ تُنْصِفْ مَظْلُومًا مِنْ ظَالِمٍ، وَذَكَرَ حَدِيثَ الْخَاتَمِ كَمَا تَقَدَّمَ، انْتَهَى، وَهَذَا الَّذِي نَقَلْنَاهُ أَشْبَهُ مَا ذُكِرَ، وَأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَالَ عِيَاضُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ مَعْنَاهُ: ابْتَلَيْنَاهُ، وَابْتِلَاؤُهُ: هُوَ مَا حُكِيَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُطَوَّقَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ كُلُّهُنَّ يَأْتِينَ بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَقُلْ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ»^(١)، الْحَدِيثُ، قَالَ أَصْحَابُ الْمَعَانِي: وَالشَّقُّ هُوَ الْجَسَدُ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ حِينَ غُرِضَ عَلَيْهِ؛ وَهِيَ كَانَتْ عَقُوبَتُهُ وَمَحْنَتُهُ، وَقِيلَ: بَلْ مَاتَ، وَالْقِيَّ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيِّتًا، وَأَمَّا عَدَمُ اسْتِثْنَائِهِ، فَأَحْسَنُ الْأَجُوبَةِ عَنْهُ، مَا رَوَى فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَقُولَ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، وَلَا يَصِحُّ مَا نَقَلَهُ الْأَخْبَارِيُّونَ مِنْ تَشْبِهِ الشَّيْطَانِ بِهِ وَتَسْلُطِهِ عَلَى مُلْكِهِ، وَتَصَرُّفِهِ فِي أَمْتِهِ؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يُسَلِّطُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا، وَقَدْ عُصِمَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ مِثْلِهِ، انْتَهَى، * ت * قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ يَعْنِي جَسَدَهُ لَا أَجْسَادَ الشَّيَاطِينِ؛ كَمَا يَقُولُهُ الضَّعَفَاءُ، انْتَهَى مِنْ «كِتَابِ تَفْسِيرِ الْأَفْعَالِ» لَهُ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»: وَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنْ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَخَذَ خَاتَمَهُ، وَجَلَسَ مَجْلِسَهُ، وَحَكَّمَ الْخَلْقَ عَلَى لِسَانِهِ - قَوْلٌ بَاطِلٌ قَطْعًا -؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَتَصَوَّرُونَ بِصُورِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَلَا يُمَكِّنُونَ مِنْ ذَلِكَ؛ حَتَّى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُمْ مَعَ نَبِيِّهِمْ فِي حَقٍّ، وَهُمْ مَعَ الشَّيَاطِينِ فِي بَاطِلٍ؛ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَوَهَبَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ [وَالدِّينِ] لِمَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مَا يَزَعُهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَيَمْتَنِعُهُ مِنْ أَنْ يَسْطُرَهُ فِي دِيْوَانٍ مِنْ بَعْدِهِ، انْتَهَى.

وقوله: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ...﴾ الْآيَةُ، قَالَ * ع *^(٢): مِنَ الْمَقْطُوعِ بِهِ أَنَّ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّمَا قَصَدَ بِذَلِكَ قَصْدًا بَرًّا؛ لِأَنَّ لِلْإِنْسَانَ أَنْ يَرِغَبَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ؛ لَا سِيمَا بِحَسَبِ الْمَكَانَةِ وَالنَّبُوَّةِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤١/٦) كِتَابَ «الْجِهَادِ وَالسِّيرِ» بَابُ: مَنْ طَلَبَ الْوَلَدَ لِلْجِهَادِ (٢٨١٩)، (٥٢٨/٦) كِتَابُ «أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ» بَابُ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٤٢٤)، (٢٥٠/٩) كِتَابُ «النِّكَاحِ» بَابُ: قَوْلُ الرَّجُلِ لِأَطُوفِنَ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي (٥٢٤٢)، (٥٣٣/١١) كِتَابُ «الْإِيمَانِ وَالنَّدْوَرِ» بَابُ: كَيْفَ كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ؟ (٦٦٣٩)، (٦١٠/١١) كِتَابُ «كَفَارَاتِ الْيَمِينِ» بَابُ: الْإِسْتِثْنَاءُ فِي الْإِيمَانِ (٦٧٢٠)، (٤٥٥/١٣) كِتَابُ «التَّوْحِيدِ» بَابُ: فِي الْمَشِيتَةِ وَالْإِرَادَةِ (٧٤٦٩)، وَمُسْلِمٌ (١٢٧٥/٣، ١٢٧٦)، كِتَابُ «الْإِيمَانِ» (٧٤٦٩) بَابُ: يَمِينُ الْحَافِلِ عَلَى نِيَّةِ الْمُسْتَحْلِفِ (٢٣/١٦٥٤ - ١٦٥٤/٢٥) وَالنِّسَائِيُّ (٢٥/٧، ٢٦) كِتَابُ «الْإِيمَانِ وَالنَّدْوَرِ»، بَابُ: إِذَا حَلَفَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، هَلْ لَهُ اسْتِثْنَاءٌ؟ (٣٨٣١).

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥٠٥/٤).

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (٣٧) ﴿وَأَخْرَيْنَ مُفْرِّقِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨) ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا وَحَسَنَ مَتَابٍ﴾ (٤٠) ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَتَىٰ مَسْنَىٰ الشَّيْطَانُ يَنْصُبُ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (٤٣) ﴿وَحَذَّ بَيْدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ يَدَهُ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤) ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٤٥) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) ﴿وَلِنَاهُمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٧) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٨) ﴿

وقوله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ...﴾ الآية، كَانَ لِسُلَيْمَانَ كُرْسِيٌّ فِيهِ جُنُودُهُ، وَتَأْتِي/ عَلَيْهِ الرِّيحُ الْإِعْصَارُ، فَتَنْقُلُهُ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى يَخْصُلَ فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ تَتَوَلَّاهُ الرِّيحَاءُ؛ ٩٧ ب وَهِيَ اللَّيْنَةُ الْقَوِيَّةُ لَا تَأْتِي فِيهَا دَفْعٌ مُفْرِطَةٌ فَتَحْمِلُهُ؛ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ، و﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: معناه: حَيْثُ أَرَادَ؛ قَالَه وَهْبٌ وَغَيْرُهُ^(١)، قَالَ * ع^(٢) *: وَيُشْبِهُهُ أَنَّ (أَصَابَ) مُعَدَّى «صَابَ يَصُوبُ»، أَي: حَيْثُ وَجَّهَ جُنُودُهُ، وَقَالَ الرَّجَّاجُ^(٣): معناه: قَصْدٌ، قُلْتُ: وَعَلَيْهِ اقْتَصَرَ أَبُو حَيَّانَ؛ فَإِنَّه قَالَ: أَصَابَ: أَي قَصَدَ؛ وَأَشَدُّ الثَّعْلِيُّ: [الْمُقَارَبُ]

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَا الْجَوَابَ لَدَى الْمَفْصِلِ^(٤) انتهى.

وقوله: ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ «الشَّيَاطِينِ» و﴿مُفْرِّقِينَ﴾ معناه: مُوْتَقِّعِينَ؛ قَدْ قُرِنَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، و﴿الْأَصْفَادِ﴾ الْقَيْدُ وَالْأَغْلَالُ، قَالَ الْحَسَنُ: وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا...﴾ الآية، إِلَى جَمِيعِ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْمَلِكِ^(٥)؛ وَأَمْرَهُ بِأَنْ يَمُنَّ عَلَى مِنْ شِئَاءٍ وَيُمْسِكَ عَمَّنْ يَشَاءُ، فَكَأَنَّهُ وَقَفَهُ عَلَى قَدْرِ النُّعْمَةِ، ثُمَّ أَبَاحَ لَهُ التَّصَرُّفَ فِيهِ بِمَشِئَتِهِ؛ وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ وَأَجْمَعُهَا لِتَفْسِيرِ الْآيَةِ، وَتَقَدَّمَ قِصَّةُ أَيُّوبَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

- (١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٨٤/١٠) بِرَقْم: (٢٩٩١٧) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِرَقْم: (٢٩٩١٩) عَنْ مُجَاهِدٍ، وَبِرَقْم: (٢٩٩٢٠) عَنْ الْحَسَنِ، وَ (٢٩٩٢٣) عَنْ وَهْبِ بْنِ مَنبِهِ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦٥/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٠٦/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمَشْتُور» (٥٨٧/٥)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ عَنْ قَتَادَةَ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ عَنْ الضَّحَّاكِ.
- (٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥٠٦/٤).
- (٣) يَنْظُرُ: «مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٣٣٣/٤).
- (٤) يَنْظُرُ: الْبَيْتُ فِي «الْبَحْرِ الْمَحِيْطِ» (٣٨٢/٧)، وَ«الدَّر الْمَصُونُ» (٥٣٦/٥) وَالْقُرْطُبِيُّ (١٣٤/١٥).
- (٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٨٥/١٠) بِرَقْم: (٢٩٩٢٩) عَنْ الْحَسَنِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٠٦/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمَشْتُور» (٥٨٨/٥)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

وقوله: ﴿أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِضُضٍ...﴾ الآية، التُّضْبُ: المَشَقَّةُ، فيحتمل أن يشير إلى مسه حين سلطه الله على إهلاك ماله وولده وجسمه؛ حسبما روي في ذلك، وقيل: أشار إلى مسه إياه في تعرضه لأهله؛ وطلبه منها أن تُشرك بالله؛ فكأنَّ أيوبَ تشكَّى هذا الفضل، وكان عليه أشدُّ من مرضه، وهنا في الآية محذوف تقديره: فاستجاب له وقال: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فَرُوي أن أيوبَ ركض الأرض فنبعث له عين ماء صافية باردة؛ فشرب منها، فذهب كلُّ مرضٍ في داخل جسده، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه، وروي أن الله تعالى وهب له أهله وماله في الدنيا، وردَّ من مات منهم، وما هلك من ماشيته وحاله، ثم بارك له في جميع ذلك، وروي أن هذا كله وعده به في الآخرة، والأول أكثر في قول المفسرين.

* ت * وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ، إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ، إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ أَسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبِيعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ غَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: أَجَلٌ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»^(١). قال صاحب «السلح»: رواه الحاكم في «المستدرک»، وابن حبان في «صحيحه». * ت * ورويناه من طريق النووي عن ابن السني بسنده عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ وفيه: «أَنَا عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ فِي قَبْضَتِكَ»، وفيه: «فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ الْمَغْبُورَ لَمَنْ عُيِّنَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ: أَجَلٌ، فَقُولُوهُنَّ / وَعَلِّمُوهُنَّ؛ مَنْ قَالَهُنَّ، أَلْتَمَسَ مَا فِيهِنَّ أَذْهَبَ اللَّهُ تَعَالَى حُزْنَهُ وَأَطَالَ فَرَحَهُ»^(٢) انتهى.

(١) أخرجه أحمد (٤٥٢/١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٣/٣) كتاب «الرفائق» باب: الأدعية ذكر الأمر لمن أصابه هم أو حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرحاً (٩٧٢)، وابن حبان (٤٠٤/٧، ٤٠٥). الموارد باب: ما يقول إذا أصابه هم أو حزن (٢٣٧٢)، وأبو يعلى (١٩٨/٩ - ١٩٩) (٥٢٩٧/٣٣١)، والحاكم (٥٠٩/١) كتاب «الدعاء» والشجري في «أمالیه» (٢٩٩/١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٩/١٠)، (١٨٩/١٠ - ١٩٠).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه. ا هـ.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٩/١٠) رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٣٤).

وقوله: ﴿وَذَكِّرْ﴾ معناه: موعظةً وتذكرةً يَعتَبِرُ بها أولُو العقول، وَيَتَأَسُّونَ بِصَبْرِهِ في الشدائد، ولا يَتَسَوَّنَ من رحمة الله على حال.

وروي أن أيوب - عليه السلام - كانت زوجته مدّة مَرَضِهِ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ فَيَتَلَقَّاهَا الشيطانُ في صورة طَيِّبٍ، ومرةً في هيئة نَاصِحٍ؛ وعلى غير ذلك، فيقول لها: لو سَجَدَ هَذَا المَرِيضُ لِلصَّنَمِ الْفُلَانِيِّ لَبَرِئَ، لَوْ ذَبَحَ عَنَاقًا لِلصَّنَمِ الْفُلَانِيِّ لَبَرِئَ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا وَجُوهًا من الكفر، فكأنّت هي ربّما عرضت شيئاً من ذلك على أيوب، فيقول لها: لَقِيتِ عَدُوَّ اللَّهِ في طريقك، فلَمَّا أَغْضَبْتُهُ بهذا ونحوه؛ حَلَفَ عَلَيْهَا لَئِنْ بَرِئَ من مَرَضِهِ لِيضْرِبَنَّهَا مِائَةً سَوْطٍ، فلما بَرِئَ؛ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَأْخُذَ ضِغْثًا فِيهِ مِائَةُ قَضِيبٍ، «وَالضِغْثُ»: القَبْضَةُ الكبيرة من القَضْبَانِ ونحوها مِنَ الشَّجَرِ الرَّطْبِ؛ قاله الضَّحَّاكُ^(١) وأهل اللغة، فيضربُ به ضربةً واحدةً، فَتَبْرُ يَمِينُهُ؛ وهذا حَكَمٌ قد وَرَدَ في شَرَعِنَا عن النَّبِيِّ ﷺ [مِثْلُهُ في حَدِّ الزَّنا لِرَجُلٍ زَمِنَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] بِعَذْقِ نَخْلَةٍ فِيهِ شَمَارِيخُ مِائَةٍ أو نَحْوُهَا، فَضُرِبَ ضَرْبَةً^(٢)، ذكر الحديثُ أبو داود، وقال بهذا بعضُ فقهاء الأمة، وَلَيْسَ يَرى ذلك مالِكُ بْنُ أَنَسٍ وأصحابه، وكذلك جمهورُ العلماء على ترك القول به، وأن الحدودَ والبِرَّ في الأيمانِ لا تقعُ إلا بتمامِ عَدَدِ الضَّرَبَاتِ، وقرأ الجمهورُ «أولي الأيدي»^(٤) يعني: أُولي القُوَّة في طاعةِ اللَّهِ؛ قاله ابن عباس ومجاهد^(٥)، وقالت فرقة: معناه: أُولي الأيدي والتَّعَمُّ التي أسَدَّها اللَّهُ إِلَيْهِم من النُّبُوَّة والمكانة، «وَالْأَبْصَارُ» عبارةٌ عن البصائر، أي: يُبْصِرُونَ الحقائقَ وينظرونَ بنورِ اللَّهِ تَعَالَى، وقرأ نافعٌ وحده: «بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ»^(٦)، على

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩١/١٠) برقم: (٢٩٩٥٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٠٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٢) سقط في: د.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٦٧/٢) كتاب «الحدود» باب: في إقامة الحد على المريض (٤٤٧٢)، وابن ماجه (٨٥٩/٢) كتاب «الحدود» باب: الكبير والمريض يقام عليه الحد (٢٥٧٤)، وأحمد (٢٢٢/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٠٩/٤)، و«البحر المحيط» (٣٨٥/٧)، و«الدر المصون» (٥٣٧/٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٢/١٠) برقم: (٢٩٩٦٠) عن ابن عباس، وبرقم: (٢٩٩٦٣) عن مجاهد، وذكره البغوي في «تفسيره» (٦٦/٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٠٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولعبد بن حميد عن مجاهد.

(٦) ينظر: «السبعة» (٥٥٤)، و«الحجة» (٧٢/٦)، و«معاني القراءات» (٣٢٨/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/١٩٢)، و«العنوان» (١٦٣)، و«حجة القراءات» (٦١٣)، و«شرح شعلة» (٥٦٥)، و«إتحاف» (٢/٤٢٢).

الإضافة، وقرأ الباقون «بِخَالِصَةٍ» على تنوين «خَالِصَةٍ» ف«ذُكِرَى» على هذه القراءة بدل من خَالِصَةٍ فيحتمل أن يكون معنى الآية: أنا أخلصناهم بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة ودعاء الناس إليها؛ وهذا قول قتادة^(١)، وقيل المعنى: أنا أخلصناهم، بأن خلص لهم ذكرهم للدار الآخرة وخوفهم لها والعمل بحسب ذلك؛ وهذا قول مجاهد^(٢)، وقال ابن زيد: المعنى أنا وهبناهم أفضل ما في الدار الآخرة، وأخلصناهم به، وأعطيناهم إياه^(٣)، ويحتمل أن يريد بالدار دار الدنيا على معنى ذكر الشاء والتعظيم من الناس.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْهُنَّ لَهُمُ الْآيَاتُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِحَتِهِمْ كَثِيرَةٍ وَشَرَّابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرِاتٌ مُّزْنًا ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا نُوعِدُونَ لِيَوْمٍ هَئِذَا هُمْ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَمْ يَنْفَكُوا مِنْهَا ﴿٥٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هذا ذكر﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يشير إلى مَدْحٍ مَنْ ذُكِرَ وإبقاء الشَّرَفِ له، فيتأيد بهذا قول مَنْ قَالَ: إن الدار يراؤ بها الدنيا.

والثاني: أن يُشير بهذا إلى القرآن، أي: ذكر للعالم.

﴿وجنات﴾ بدل من ﴿حسن مآب﴾ و﴿مفتحة﴾ نعت لـ ﴿جنات﴾، و﴿الأبواب﴾ مفعول لَمْ يَسْمَ فاعله، وباقي الآية بين.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّ أَلْهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَصِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِلَّا فِي سَعَةِ النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمُرْجَأُونَ كَمَا كُنْتُمْ أَفْقَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٣/١٠) برقم: (٢٩٩٦٩)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٦٦/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٠٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٥)، وعزاه لابن المنذر عن الضحاك.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٣/١٠) برقم: (٢٩٩٧٠) عن مجاهد، و(٢٩٩٧١) عن السدي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٦٦/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٠٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٥)، وعزاه لابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٤/١٠) برقم: (٢٩٩٧٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٦٦/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٠٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن.

وقوله سبحانه: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ...﴾ الآية، التقدير: الأمر/ هذا، ويحتمل أن يكون التقدير: هذا واقع أو نحوه، و«الطغيان» هنا في الكفر.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا فليذوقوه حميم وغساق﴾ قرأ الجمهور: «غَسَاقٌ» - بتخفيف السين^(١) - وهو اسم بمعنى السائل، قال قتادة: الغَسَاقُ: ما يَسِيلُ من صديد أهل النار^(٢)، قال ص: * الغَسَاقُ السَّائِلُ، وعن أبي عبيدة أيضاً: الباردُ المُنْتِنُ بُلْعَةُ التُّرْكِ^(٣)، انتهى، قال الفخر^(٤): ﴿هَذَا فليذوقوه حميم وغساق﴾ فيه وجهان: الأول على التقديم والتأخير، والتقدير: هذا حميمٌ وغساقٌ أي: منه حميمٌ وغساقٌ، انتهى، * ت: * والوجه الثاني: أن الآية ليس فيها تقديم ولا تأخير وهو واضح، وقرأ الجمهور ﴿وَأَخْرَجَ﴾ بالإنفراد، ولهم عذاب آخر، ومعنى ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ أي: من مثله وضربه، وقرأ أبو عمرو وحده: «وَأَخْرَجَ» على الجمع^(٥)، و«أزواج» معناه: أنواع، والمعنى: لهم حميمٌ وغساقٌ، وأغذية أخر من ضرب ما ذُكِرَ.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا فوج﴾ هو مما يُقَالُ لأهل النار، إذا سبقَ عامةُ الكفارِ والأتباع إليها؛ لأن رؤساءهم يَدْخُلُونَ النارَ أولاً، والأظهر أن قائل ذلك لهم ملائكة العذاب، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره، ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض، فيقول البعض الآخر: ﴿لا مرحباً بهم﴾ أي، لا سعة مكان، ولا خير يلقونه.

وقوله: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ حكاية لقول الأتباع لرؤسائهم، أي: أنتم قدّمتموه لنا يا غوايكم وأسلمتم لنا ما أوجب هذا، قال العرّاقِي: [الرجز]

(١) قرأ حمزة، والكسائي، وحفص بتشديد السين.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٠/٤)، و«السبعة» (٥٥٥)، و«الحجة» (٧٨/٦)، و«معاني القراءات» (٢/٣٣٠)، و«شرح الطيبة» (١٩٣/٥)، و«العنوان» (١٦٣)، و«حجة القراءات» (٦١٥)، و«شرح شعلة» (٥٦٥)، و«إتحاف» (٤٢٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٨/١٠) برقم: (٢٩٩٩٠)، وذكره البيهقي في «تفسيره» (٦٧/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥١٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٤/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد عن أبي رزين، ولهناد عن عطية.

(٣) ذكره البيهقي في «تفسيره» (٦٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٤/٥)، وعزاه لابن جرير عن عبد الله بن بريدة.

(٤) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١٩٢/٢٦).

(٥) ينظر: «السبعة» (٥٥٥)، و«الحجة» (٧٨/٦)، و«معاني القراءات» (١٩٣/٥)، و«العنوان» (١٦٣)، و«حجة القراءات» (٦١٥)، و«شرح شعلة» (٥٦٦)، و«إتحاف» (٤٢٣/٢).

مُفْتَحِحِمٌ أَنَّى دَاخِلٌ بِشِدَّةٍ مُجَاوِزٌ لِمَا أَفْتَحِحِمُ بِالشَّدَّةِ انتهى .

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا...﴾ الآية، هو حكاية لقول الأتباع أيضاً دَعَوْا عَلَى رُؤَسَائِهِمْ؛ بَأَن يَكُونَ عَذَابُهُمْ مُضَاعَفًا.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ٦٣﴾ اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ٦٤ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ٦٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ٦٦ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ٦٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٦٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار...﴾ الآية: الضمير في ﴿قالوا﴾ لأشراف الكفار ورؤسائهم، وهذا مطَّرد في كل أمة، ورؤي أن قائلِي هذه المقالة أهل القليب؛ كأي جَهْلٍ وأُمِّيَّةٍ بِنِ خَلْفٍ وَعُتْبَةٍ بِنِ رَيْبَةٍ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ، وَأَنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ يَشِيرُونَ إِلَيْهِمْ هُم كَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَبِلَالٍ وَصُهَيْبٍ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ، قَالَه مُجَاهِدٌ^(١) وَغَيْرُهُ، وَالْمَعْنَى: كُنَّا فِي الدُّنْيَا نَعُدُّهُمْ أَشْرَارًا، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي وَأَبُو عَمْرٍو «اتَّخَذْنَاهُمْ» بِصَلَةِ الْأَلْفِ^(٢)، عَلَى أَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِرِجَالٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ «اتَّخَذْنَاهُمْ» بِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ، وَمَعْنَاهَا: تَقْرِيرُ أَنْفُسِهِمْ عَلَى هَذَا؛ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ لَهَا وَالْأَسْفِ، أَي: اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَحَمْزَةً وَالْكَسَائِي: «سِخْرِيًّا» - بضم السين - من السُّخْرَةِ، وَالِاسْتِخْدَامِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: «سِخْرِيًّا» - بكسر السين^(٣) -، وَمَعْنَاهَا الْمَشْهُورُ مِنَ السَّخْرِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْهُزْءِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مُعَادَلَةٌ لِمَا فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى﴾ وَالتَّقْدِيرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَمْفَقُودُونَ هُم أَمْ هُمْ مَعْنَا، وَلَكِنْ زَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُنَا، فَلَا نَرَاهُمْ، وَالزَّيْغُ: الْمَيْلُ.

ثم أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهَ بِقَوْلِهِ: / ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ وَالْإِشَارَةُ

١٩٩

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٢/١٠) برقم: (٣٠٠١٤) وبرقم: (٣٠٠١٥) عن مجاهد، وذكره البغوي (٦٨/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥١٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٥/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عن مجاهد.
(٢) ينظر: «السبعة» (٥٥٦)، و«الحجة» (٨٢/٦)، و«معاني القراءات» (٣٣١/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/١٩٣)، و«العنوان» (١٦٣)، و«حجة القراءات» (٦١٧)، و«شرح شعلة» (٥٦٦)، و«إتحاف» (٢/٤٢٣).

(٣) ينظر: «الحجة» (٨٥/٦)، و«العنوان» (١٦٣)، و«حجة القراءات» (٦١٨)، و«إتحاف» (٢/٤٢٤).

بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ إلى التوحيد والمعاد، فهي إلى القرآن وجميع ما تَصَمَّنَ، وعظمته أن التصديق به نجاة والتكذيب به هلكة، ووبَّخَهُمْ بقوله: ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾، ثم أَمَرَ - عليه السلام - أن يقول محتجاً على صحَّة رسالته: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ لولا أن الله أَخْبَرَنِي بذلك» والملا الأعلى أَرَادَ بِهِ: الملائكة، واخْتَلَفَ فِي الشَّيْءِ الذي هُوَ اخْتِصَامُهُمْ فِيهِ؛ فقالت فرقة: اخْتِصَامُهُمْ فِي شَأْنِ آدَمَ: كقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا يَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ، وقالت فرقة: بل اخْتِصَامُهُمْ فِي الْكُفَارَاتِ وَغَفْرِ الذُّنُوبِ، ونحوه فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا فَعَلَ حَسَنَةً، اخْتَلَفَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي قَدْرِ ثَوَابِهِ فِي ذَلِكَ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بِمَا شَاءَ، وروي في هذا حديث فَسَّرَهُ ابْنُ فُورَكٍ بِتَضَمُّنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ رَبُّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي نَوْمِهِ: «أَتَذَرِي فِيَّ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: اخْتَصِمُوا فِي الْكُفَارَاتِ وَالذَّرَجَاتِ، فَأَمَّا الْكُفَارَاتُ: فَإِسْبَاطُ الْوُضُوءِ فِي الْعَدَوَاتِ الْبَارِدَةِ، وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَأَمَّا الذَّرَجَاتُ: فَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» الحديث^(١) قال ابن العربي في «أحكامه»: وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ صَحِيحاً، وفيه «قال: سَلْ؛ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ، فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مُفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَعَملاً يُقَرِّبُ إِلَيَّ حُبَّكَ» قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا حَقٌّ فَارْزُمُوهَا، ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا»، انتهى.

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾

وقوله: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قال الفراء: إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ «أَنَّمَا» فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا الْإِنذَارُ، أَوْ: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنِّي نَذِيرٌ مُبِينٌ، انتهى، وهكذا قال أَبُو حَيَّان^(٢): «إِنْ» بمعنى: «مَا» وباقي الآية بَيَّنَّ مِمَّا تَقَدَّمَ فِي «الْبَقَرَةِ» وغيرها.

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣/٥) عن معاذ بن جبل. وفي الباب من حديث ابن عباس أخرجه الترمذي (٣٦٦/٥)

- (٣٦٧) كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة ص (٣٢٣٣ - ٣٢٣٤)، وقال: حديث حسن غريب من

هذا الوجه.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٣٩١/٧).

وقوله تعالى: ﴿بِيدِي﴾ عبارة عن القُدْرَة والقُوَّة.

وقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾: المعنى: أ حَدَثَ لَكَ الاستكبارُ الآن أم كنت قديماً مِمَّنْ لا يليق أن تُكَلَّفَ مِثْلَ هذا لِعُلُوِّ مَكَانِكَ؛ وهذا على جهة التوبيخ له.

﴿قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبَعُ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴿

وقوله تعالى: ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم﴾ الآية، «الرجيم» أي: المرجوم بالقول السيئ، واللعة: الإبعاد.

وقوله سبحانه: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ قال مجاهد: المعنى: فالحق أنا^(١)، وقرأ الجمهور: «فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ» بِنَصْبِ الاثنين، فأما الثاني، فمنصوبٌ بـ«أقول» وأما الأولُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الْإِغْرَاءِ، ويحتملُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الْقَسَمِ، على إسقاط حرفِ الْقَسَمِ، كأنه قال: فَوَالْحَقُّ؛ ثُمَّ حَذَفَ الْحَرْفَ؛ كَمَا تَقُولُ: اللَّهُ، لَأَفْعَلَنَّ، تريدُ وَاللَّهِ؛ وَيَقْوِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وقد قال سيبويه: قلتُ لِلْخَلِيلِ: ما مَعْنَى: «لَأَفْعَلَنَّ» إذا جَاءَتْ مبتدأة؟ فقال: هي بتقديرِ قَسَمَ مَنَوِي، وقالتِ فرقة: «الْحَقُّ» الأول/ منصوبٌ بفعلٍ ومضمر، وقرأ ابن عباس: «فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ»^(٢) برفع الاثنين، وقرأ عاصمٌ وحمزة: «فَالْحَقُّ» بالرفع، وَ«الْحَقُّ» - بالنصب^(٣)، - وهي قراءةٌ مجاهدٍ وغيره^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٧/١٠) برقم: (٣٠٠٣٣)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٠/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥١٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٤/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٠/٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) وبها قرأ الأعمش ومجاهد.
ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٣١)، و«المحرر الوجيز» (٥١٦/٤)، و«البحر المحيط» (٣٩٣/٧)، و«الدر المصون» (٥٤٧/٥).

(٣) ينظر: «السبعة» (٥٥٧)، و«الحجة» (٨٧/٦)، و«معاني القراءات» (٣٣٣/٢)، و«شرح الطيبة» (١٩٤/٥)، و«العنوان» (١٦٤)، و«حجة القراءات» (٦١٨)، و«شرح شعلة» (٥٦٦)، و«إتحاف» (٤٢٥/٢).

(٤) وقرأ بها الأعمش وأبان بن تغلب.
ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٦/٤)، و«البحر المحيط» (٣٩٣/٧)، وزاد نسبتها إلى طلحة، وخلف، والعبيسي، وحمزة، وعاصم.

ثم أمر تعالى نبيه [أن] يخبرهم بأنه ليس بسائل منهم عليه أجراً وأنه ليس ممن يتكلف ما لم يجعل إليه، ولا يختلي بغير ما هو فيه، قال الزبير بن العوام: نادى منادي النبي ﷺ: «اللهم، اغفر للذين لا يدعون، ولا يتكلفون؛ ألا إني بريء من التكلف وصالحو أمتي».

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يريد القرآن و﴿ذِكْرٌ﴾ بمعنى تذكيرة، ثم توعدهم بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ﴾ نبأه بعد حين ﴿وَهَذَا عَلَى حَذْفٍ تَقْدِيرُهُ: لَتَعْلَمَنَّ صِدْقَ نَبَأِهِ بَعْدَ حِينٍ﴾، قال ابن زيد: أشار إلى يوم القيامة^(١)، وقال قتادة والحسن: أشار إلى الآجال التي لهم^(٢)؛ لأن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٩/١٠) برقم: (٣٠٠٤١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٠/٤) عن عكرمة، وابن عطية في «تفسيره» (٥١٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» عن عكرمة، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠١/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن زيد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٨/١٠) برقم: (٣٠٠٣٩) عن قتادة والحسن، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٠/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥١٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٤/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ

[وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ]

غير ثلاث آيات نزلت في شأن وخشي قاتل حمزة بن عبد المطلب، وهي ﴿قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم...﴾ الآية، وقالت فرقة: إلى آخر السورة هو مدني، وقيل: فيها مدني سبع آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ أَتِلٌ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُونُ اللَّيْلُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ...﴾ الآية، ﴿تَنْزِيلٌ﴾ رفع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿من الله﴾ وقالت فرقة: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا تنزيل، والإشارة إلى القرآن؛ قاله المفسرون، ويظهر لي أنه اسم عام لجميع ما تنزل من عند الله، فكأنه أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزلها من الله تعالى، وجعل هذا الإخبار مقدمةً وثبوتاً لقوله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: متضمناً للحق، أي: بالحق فيه، وفي أحكامه وأخباره، و﴿الدِّينَ﴾ هنا يُعْمُ الْمُعْتَقَدَاتِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، قال قتادة: و﴿الدِّينَ الْخَالِصَ﴾: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦١١/١٠) برقم: (٣٠٠٤٦)، وذكره البخاري في «تفسيره» (٧١/٤)، وابن عطية (٥١٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٥/٤)، والسيوطي في «الدر المشور» (٦٠٢/٥)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية، أي: يقولون مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وفي مصحف ابن مسعود: «قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ»^(١) وهي قراءة ابن عباس وغيره، وهذه المقالة شائعة في العرب في الجاهلية يقولون في معبوداتهم مِنَ الْأَصْنَامِ وغيرها: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ، قال مجاهد: وقد قال ذلك قومٌ من اليهود في عُزَيْرٍ، وقومٌ من النصارى في عيسى^(٢).

و﴿زُلْفَى﴾ بمعنى قُرْبَةٍ وَتَوْصِلَةٍ، [كَأَنَّهُمْ] قَالُوا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ تَقَرُّبًا، وَكَأَنَّ هَذِهِ الطَّوَائِفَ كُلُّهَا تَرَى نُفُوسَهَا أَقْلٌ مِنْ أَنْ تَتَّصِلَ هِيَ بِاللَّهِ، فَكَانَتْ تَرَى أَنْ تَتَّصِلَ بِمَخْلُوقَاتِهِ.

و﴿زُلْفَى﴾ عند سيبويه، مَضَدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ كَأَنَّهُ تَنَزَّلَ مَنَزِلَةً «مُتَزَلِّفِينَ» وَالْعَامِلُ فِيهِ «يُقَرِّبُونَا»، وَقَرَأَ الْجَحْدَرِيُّ^(٣) «كَذَّابٌ كَفَّارٌ» بِالْمَبَالِغَةِ فِيهِمَا، وَهَذِهِ الْمَبَالِغَةُ إِشَارَةٌ إِلَى التَّوَعُّلِ فِي الْكُفْرِ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ معناه: اتَّخَذَ التَّشْرِيفِ وَالتَّبَنَّى؛ وَعَلَى هَذَا يَسْتَقِيمُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا صُفَى/ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ وَأَمَّا الْإِتِّخَاذُ الْمَعْهُودُ فِي الشَّاهِدِ ١٠٠ فَمُسْتَحِيلٌ أَنْ يُتَوَهَّمَ فِي جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا صُفَى مِمَّا يَخْلُقُ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] لَفْظٌ يَعْمُ اتِّخَاذُ النِّسْلِ وَاتِّخَاذُ الْأَصْطِفَاءِ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَمَعْقُولٌ، وَأَمَّا الثَّانِي فَمَعْرُوفٌ بِخَبَرِ الشَّرْعِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَنْ يَتَّخِذَ﴾ إِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهِ اتِّخَاذُ أَصْطِفَاءٍ، وَتَبَيَّنَ - قَوْلُهُ: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أَي: مِنْ مَوْجُودَاتِهِ وَمُخْدَعَاتِهِ - ثُمَّ نَزَّهَ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ تَنْزِيهًا مُطْلَقًا عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ سُبْحَانَهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ...﴾ الآية، معناه: يُعِيدُ مِنْ هَذَا عَلَى هَذَا، وَمِنْهُ كُورُ الْعِمَامَةِ الَّتِي يَلْتَوِي بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَكَأَنَّ الَّذِي يَطُولُ مِنَ النَّهَارِ أَوْ اللَّيْلِ

(١) وَقَرَأَ بِهَا مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَبْرِ.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٥١٨/٤)، و«الكشاف» (١١١/٤)، و«البحر المحيط» (٣٩٨/٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦١١/١٠) بِرَقْمٍ: (٣٠٠٤٨)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥١٨/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٦٠٣/٥)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ.

(٣) ينظر: «مختصر الشواذ» (١٣١)، و«المحرر الوجيز» (٥١٨/٤)، وَزَادَ نَسْبَتَهَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ قَالَ: وَرَوَيْتُ عَنْ الْحَسَنِ، وَالْأَعْرَجِ، وَيَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ.

وينظر: «البحر المحيط» (٣٩٩/٧)، و«الدَّرِّ الْمَصُونِ» (٥/٦).

١٢ يصيرُ منه على الآخرِ جزءٌ فيسْتَرُهُ، وكان الآخرُ الذي يَقْصُرُ يَلْجُ في الذي ^(١) / يَطُولُ، فيسْتَرُ فيه.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطْنٍ أُنْثَيْتَكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِنٌ تُصِرُّونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قيل: «ثُمَّ» هنا: لترتيب الإخبارِ لا لترتيب الوجودِ ^(٢)، وقيل: قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: هو أخذ الذرية من ظهر آدم، وذلك شيء كان قبل خلق حواء، * ت * وهذا يحتاج إلى سند قاطع.

وقوله سبحانه: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ قالت فرقة: الأولى هي ظَهْرُ الْأَبِ، ثُمَّ رَحِمُ الْأُمِّ، ثُمَّ الْمَشِيمَةُ فِي الْبَطْنِ، وقال مجاهد وغيره: هي الْمَشِيمَةُ وَالرَّحِمُ وَالْبَطْنُ ^(٣)، وهذه الآيات كلها فيها عبرٌ وتنبية على توحيد الخالق الذي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ وتوهينٌ لأمر الأصنام.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنْكُمْ...﴾ الآية، قال ابن عباس: هذه

(١) من هنا انتقلنا بالترقيم من على المخطوط من النسخة (د).

(٢) في (ثُمَّ) هذه أوجه:

«أحدها»: أنها على بابها من الترتيب بمُهَلَّة، وذلك أنه يُزَوَّى أنه تعالى أخرجنا من ظهر آدم كالدِّرِ ثُمَّ خَلَقَ حَوَاءَ بعد ذلك بزمان.

«الثاني»: أنها على بابها أيضاً، ولكن لِمُدْرَكِ آخر وهو أن يُعْطَفَ بها ما بعدها على ما فهم من الصفة في قوله «وَاحِدَةٍ»؛ إذ التقدير من نفس وَحَدَثَ أَي: انفردت ثم جُعِلَ مِنْهَا زَوْجَهَا.

«الثالث»: إنها للترتيب في الإخبارِ لا في الزمان الوجودي؛ كانه قيل: كان مِنْ أُمِّهَا قبل ذلك أَنْ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا.

ينظر: «الدر المصون» (٦/٥ - ٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦١٥/١٠) برقم: (٣٠٠٦٩) عن عكرمة، و (٣٠٠٧١) عن ابن عباس، و (٣٠٠٧٢) عن مجاهد، وبرقم: (٣٠٠٧٣) عن قتادة، وبرقم: (٣٠٠٧٤) عن السدي، وذكره البخاري في «تفسيره» (٧٢/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٢٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦٠٣/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة، ولعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد.

هذه الآية مخاطبة للكفار^(١)، قال * ع^(٢) : * وتحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس، لأن الله سبحانه غني عن جميع الناس، وهم فقراء إليه، واختلف المتأولون من أهل السنة في تأويل قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ فقالت فرقة: «الرضا» بمعنى الإرادة، والكلام ظاهره العموم، ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان، وحثمه له، فعباده على هذا ملائكتهم ومؤمنو الإنس والجن، وهذا يترغب على قول ابن عباس^(٣)، وقالت فرقة: الكلام عموم صحيح، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى، إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم، ومعنى لا يرضاه: لا يشكره لهم، ولا يثيبهم به خيراً، فالرضا: على هذا هو صفة فعل بمعنى القبول، ونحوه، وتأمل الإرادة فإنما هي حقيقة فيما لم يقع بعد، والرضا، فإنما هو حقيقة فيما قد وقع، واغتنر هذا في/ آيات القرآن تجده، وإن كانت ٢ ب العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وإن تشكروا يرضه لکم﴾ عموم، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمان، قال النووي: وروينا في «سنن أبي داود» عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٤) انتهى.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّضِلِّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتَ ءَانَاءَ آيَاتِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ...﴾ الآية: ﴿الإنسان﴾ هنا: الكافر، وهذه الآية بين تعالى بها على الكفار، أنهم على كل حال يلجئون إليه في حال الضرورات، و﴿خوله﴾ معناه ملكه وحكمه فيها ابتداء من الله لا مجازاة، ولا يقال في الجزاء «خول».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦١٧/١٠) برقم: (٣٠٠٧٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٢٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٤/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢١/٤).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٢١/٤).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥١٨/١) كتاب «الدعاء». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ قالت فرقة: «ما» مصدرية، والمعنى: نسي دعاءه إليه في حال الضرورة، وَرَجَعَ إِلَى كُفْرِهِ، وقالت فرقة: «ما» بمعنى الذي، والمراد بها الله تعالى، أي: نسي الله، وعبرة الثعلبي: قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: تَرَكَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّضَرُّعَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ فِي حَالِ الضَّرِّ انْتَهَى وباقى الآية بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ» بتخفيف الميم، هي قراءة نافع وابن كثير وحمزة^(١)، والهمزة للتقرير والاستفهام، وكأنه يقول: أهذا القانتُ خَيْرٌ أم هذا المذكورُ الذي يتمتع بكُفْرِهِ قليلاً، وهو من أصحاب النار، وقرأ الباقر: «أَمَّنْ» بتشديد الميم، والمعنى: أهذا الكافرُ خَيْرٌ أمَّنْ هُوَ قَانِتٌ؟ والقانتُ: المطيعُ؛ وبهذا فسره ابن عباس - رضي الله عنهما^(٢) -، والقنوتُ في الكلام يَقَعُ عَلَى الْقِرَاءَةِ وَعَلَى طَوِيلِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ؛ وبهذا / فسره ابن عمر - رضي الله عنهما^(٣) - قال الفخر^(٤): قيل: إن المراد بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُخَيِّبُ اللَّيْلَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى فَضْلِ قِيَامِ اللَّيْلِ، انْتَهَى، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَهْوَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْوَقْفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَرَهُ اللَّهُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً»^(٥)، * ت * قال الشيخ عبد الحق في «العاقبة»: وعن قبيصة بن سفيان قال: رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في المنام بعد موته؛ فقلتُ له: ما فعل الله بك؟ فقال: [الطويل]

نَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عَيْنَانَا فَقَالَ لِي هَنِيئاً رِضَائِي عَنْكَ يَا بَنَ سَعِيدٍ
لَقَدْ كُنْتَ قَوَاماً إِذَا اللَّيْلُ قَدْ دَجَا بِعَبْرَةٍ مَخْزُونٍ وَقَلْبٍ عَمِيدٍ
قَدُونِكَ فَأَخْتَرْتُ أَيَّ قَضَرٍ تُرِيدُهُ وَرُزْنِي فَإِنِّي مِنْكَ غَيْرُ بَعِيدٍ^(٦)

وَكَانَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ، وَمِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ، رَجُلَيْنِ فَاضِلَيْنِ، وَكَانَا مِنْ ثِقَاتِ الْمُحَدِّثِينَ وَحُقَّاطِهِم، وَكَانَ شُعْبَةُ أَكْبَرَ قَمَاتَا، قَالَ أَبُو أَحْمَدَ الْيَزِيدِيُّ، فَرَأَيْتُهُمَا فِي النَّوْمِ،

(١) ينظر: «الحجة» (٩٢/٦)، و«معاني القراءات» (٣٣٥/٢)، و«شرح الطيبة» (١٩٦/٥)، و«العنوان» (١٦٥)، و«حجة القراءات» (٦٢٠)، و«شرح شعلة» (٥٦٧)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٤٢٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢١/١٠) برقم: (٣٠٠٨٨) عن ابن عباس وبرقم: (٣٠٠٨٩) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٢٣/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧/٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢١/١٠) برقم: (٣٠٠٨٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٣/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٢٣/٤).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢١٩/٢٦).

(٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٢٣/٤).

(٦) ينظر: الأبيات في «العاقبة» (١٣٧).

وَكُنْتُ إِلَى شُعْبَةَ أُمَيْلَ مَيِّ إِلَى مُسْعِرٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا سِنطَامَ؛ مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: وَقَفَكَ اللَّهُ يَا بُنَيَّ، أَحْفَظْ مَا أَقُولُ:

حَبَانِي إِلَهِي فِي الْجِنَانِ بِقُبَّةٍ لَهَا أَلْفُ بَابٍ مِنْ لَجِينٍ وَجَوْهَرَا
وَقَالَ لِي الْجَبَّارُ: يَا شُعْبَةُ الَّذِي تَبَحَّرَ فِي جَمْعِ الْعُلُومِ وَأَكْثَرَا
تَمَتَّعَ بِقُرْبِي إِنِّي عَنْكَ ذُو رِضَا وَعَنْ عَبْدِي الْقَوَامِ فِي اللَّيْلِ مُسْعَرَا
كَفَى مُسْعَرًا عِزًّا بِأَنْ سَيَزُورُنِي وَأَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ وَيَذْنُو لِي نَظْرَا
وَهَذَا فِعَالِي بِالَّذِينَ تَسْكُوا وَلَمْ يَأْلُقُوا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ مُنْكَرَا^(١)

انتهى. «والآناء»: الساعات واحدها/ «إِنِّي»؛ كـ«مَعَى» ويقال: «إِنِّي» - بكسر الهمزة ب ٣ وسكون النون -، و«أَنَّى» على وزن «قَفَا».

وقوله سبحانه: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ قال ابنُ الجوزي في «الْمُنْتَخَبِ»: يقولُ اللهُ تعالى: «لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلَا أَمْنَيْنِ؛ مَنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا، أَمِنْتُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا خَوَّفْتُهُ فِي الْآخِرَةِ»، يَا أَخِي؛ امْتَطَى الْقَوْمُ مَطَايَا الدُّجَى عَلَى مَرْكَبِ السَّهْرِ، فَمَا حَلُّوا وَلَا حَلُّوا رِحَالَهُمْ حَتَّى السَّحَرِ، دَرَسُوا الْقُرْآنَ فَغَرَسُوا بِأَيْدِي الْفِكْرِ أَزْكَى الشَّجَرِ، وَمَالُوا إِلَى الثُّفُوسِ بِاللُّومِ؛ فَلَا تَسْأَلُ عَمَّا شَجَرَ، رَجَعُوا بِنَيْلِ الْقَبُولِ مِنْ ذَلِكَ السَّفَرِ، وَوَقَفُوا عَلَى كَنْزِ النَّجَاةِ وَمَا عِنْدَكَ خَبَرٌ، فَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ قَدَّمُوا طَعَامَ الْجُوعِ، وَقَالُوا لِلنَّفْسِ: هَذَا الَّذِي حَضَرُ، حَدِّثُوا عِزَمَاتِ طَاحَتِ الْأَرْضِ بَيْنَهَا، فَصَارَ سِرَاهُمْ فِي ظُهُورِ الْعِزَائِمِ، تَرَاهُمْ نُجُومَ اللَّيْلِ مَا يَتَبَعُونَهُ عَلَى عَاتِقِ الشَّغَرَى وَهَامِ الثَّعَائِمِ، مَالَتْ بِالْقَوْمِ رِيحُ السَّحَرِ مِثْلَ الشَّجَرِ بِالْأَغْصَانِ، وَهَزَّ الْخَوْفُ أَفْنَانَ الْقُلُوبِ فَأَنْتَشَرَتِ الْأَفْنَانُ، فَالْقَلْبُ يَخْشَعُ وَاللِّسَانُ يَضْرَعُ وَالْعَيْنُ تَذْمَعُ وَالْوَقْتُ بُسْتَانٌ، خَلَوْتُهُمْ بِالْحَبِيبِ تَشْغَلُهُمْ عَنْ نِعَمٍ وَنِعْمَانٍ، سُرُورُهُمْ أَسَاوِرُهُمْ وَالْخُشُوعُ تَبِيجَانٌ، خُضُوعُهُمْ حُلَاهُمْ وَمَاءُ دَمْعِهِمْ دُرٌّ وَمَرْجَانٌ، بَاغُوا الْحَرَصَ بِالْقَنَاعَةِ فَمَا مُلْكُ أُنُوشِرَوَانَ، فَإِذَا وَرَدُوا الْقِيَامَةَ تَلَقَّاهُمْ بَشَرٌ: لَوْلَاكُمْ مَا طَابَ الْجِنَانُ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْهُمْ يَا نَائِمٌ كَيْفَظَانُ، كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَيْنَ الشُّجَاعُ مِنَ الْجَبَانِ، مَا لِلْمَوَاعِظِ فِيكَ نُجَحٌ، مَوْضِعُ الْقَلْبِ/ بِاللَّهُوِ مِنْكَ مَلَانٌ، يَا أَخِي، قِفْ عَلَى بَابِ النَّجَاحِ وَلَكِنْ وَقُوفَ لَهْفَانٍ، وَأَرْكَبْ سَفْنَ الصَّلَاحِ، فَهَذَا الْمَوْتُ طُوفَانٌ، إِخْوَانِي، إِنَّمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَاجِلُ؛ وَمَرْكَبُ الْعُمُرِ قَدْ قَارَبَ السَّاجِلَ، فَأَنْتَبِهْ لِنَفْسِكَ وَأَزْدَجْ يَا غَافِلٌ، يَا هَذَا، أَنْتَ مُقِيمٌ فِي مَنَاخِ الرَّاحِلِينَ؛ وَنَحْكَ أَغْتَنِمَ أَيَّامَ الْقُدْرَةِ قَبْلَ

صَبِيحَةَ الْاِتِّزَاعِ، فَمَا أَقْرَبَ مَا يُنْتَظَرُ، وَمَا أَقَلَّ الْمُكْثُ فِيمَا يَزُولُ وَيَتَغَيَّرُ. انتهى.

﴿قُلْ يَعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١١) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٢﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَلْقَ لَفِي حَيْثُ رَأَيْتُمْ خَلْقًا لَكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ خَلْقٌ فَلَنْ أَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعِبَادُ فَاتَّقُوا﴾ (١٦)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يُزَوِّى أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ، حِينَ عَزَمُوا عَلَى الْهَجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ^(١)، ووعد سبحانه بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ فقوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿أَحْسَنُوا﴾، والمعنى: إِنَّ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ فِي الدُّنْيَا لَهُمْ حَسَنَةٌ فِي الْآخِرَةِ، وهي الجنة والنعيم؛ قاله مقاتل^(٢) ويحتمل أن يريد: أَنَّ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ لَهُمْ حَسَنَةٌ فِي الدُّنْيَا، وهي العافية والظهور وولاية الله تعالى؛ قاله السُّدِّي^(٣)، والأوَّلُ أرجح أن الحسنة هي في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ حَضَّ عَلَى الْهَجْرَةِ، ثُمَّ وَعَدَ تَعَالَى عَلَى الصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَالْخُرُوجِ مِنَ الْوَطَنِ وَنُصْرَةِ الدِّينِ وَجَمِيعِ الطَّاعَاتِ - بِتَوْفِيقِ الْأَجْوَرِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ الصَّابِرَ يُؤْتَى أَجْرُهُ وَلَا يَحَاسِبُ عَلَى نَعِيمٍ وَلَا يَتَابَعُ بِذُنُوبٍ، وَيَكُونُ فِي جَمَلَةِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

والثاني من المعنيين: أَنَّ أَجْوَرَ الصَّابِرِينَ تُؤَفَّى بِغَيْرِ حَضَرٍ وَلَا عَدٍّ، بَلْ جُزَافًا، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ لِلْكَثْرَةِ الَّتِي لَا تَحْصَى؛ وَإِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْمَفْسِّرِينَ، حَتَّى قَالَ قَتَادَةُ: لَيْسَ ثُمَّ وَاللَّهِ/ مَكِّيًّا وَلَا مِيزَانًا^(٤)، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ

- (١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧٤/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٢٣/٤).
- (٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧٣/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٢٣/٤).
- (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢٢/١٠) برقم: (٣٠٠٩٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٣/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٢٣/٤).
- (٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢٢/١٠) برقم: (٣٠٠٩٦)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٤/٤) عن علي رضي الله عنه، وابن عطية في «تفسيره» (٥٢٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٥/٥)، وعزاه لعبد بن حميد.

يَسْأَلُ [البقرة: ٢٦١] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ، زِدْ أُمَّتِي»، فَتَزَلَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] فَقَالَ: «اللَّهُمَّ زِدْ أُمَّتِي» حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قَالَ: «رَضِيتُ يَا رَبَّ».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من المعلوم أنه - عليه السلام - معصوم من العُصَيَانِ، وإنما الخطابُ بِالْآيَةِ لِأَمَّتِهِ يَعْطُهُمْ حُكْمَهُ، وَيَحْفُهُمْ وَعِيدُهُ.

وقوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ هذه صيغةُ أَمْرٍ عَلَى جَهَةِ التَّهْدِيدِ، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، وَ«الظُّلَّةُ» مَا غَشِيَ وَعَمَّ كَالسَّحَابَةِ وَسَقَفِ الْبَيْتِ، وَنَحْوِهِ.

[وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ يَخُوفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ يريد: جميع العالم].

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَمَنْ عَادَ﴾ (٧) ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٨)

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ...﴾ الآية، قال ابن زيد: إن سببَ نزولها زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ، وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهِمْ^(١).

* ت * : سَلِيمَانُ إِنَّمَا أَسْلَمَ بِالْمَدِينَةِ، فَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ مَدِينَةً، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: الْإِشَارَةُ بِهَا إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَالزُّبَيْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ سَمِعُوا ذَلِكَ؛ فَجَاؤُوهُ، فَقَالُوا: أَأَسْلَمْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ وَذَكَرَهُمُ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَأَمَّنُوا بِأَجْمَعِهِمْ، فَتَزَلَّتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَامَّةٌ فِي النَّاسِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَتَنَاولُهُمْ حُكْمُهَا، وَ«الطَّاغُوتُ»: كُلُّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾: كَلَامٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَقْوَالِ، وَالْمَقْصِدُ الثَّنَاءُ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي نَفْوَذِ بَصَائِرِهِمْ، وَقَوَامِ نَظَرِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا قَوْلًا مَيِّزُوهُ وَاتَّبَعُوا أَحْسَنَهُ، قَالَ أَبُو حَيَّانَ^(٢): ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ صِفَةً لِعِبَادِ﴾، ١٥ وَقِيلَ: الْوَقْفُ عَلَى عِبَادِ، ﴿وَالَّذِينَ﴾ مَبْتَدَأُ خَبْرُهُ ﴿أُولَئِكَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ، انْتَهَى.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٦٢٥) برقم: (٣٠١٠٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٧٥)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٢٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٠٧)، وعزاه لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٤٠٤).

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُمُ رَيْبَيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ قالت فرقة: معنى الآية: أَفَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُهُ، لكنه زَادَ الهمزة الثانية؛ توكيداً، وأظهر الضمير تشهيراً لهؤلاء القوم وإظهاراً لِحُصْنَةِ منازلهم.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ...﴾ الآية مُعَادَلَةٌ وَتَخْصِيصٌ عَلَى التَّقْوَى، وَعَادَلَتْ ﴿غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الظُّلُلِ فَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ، ثُمَّ وَقَفَ تَعَالَى نَبِيَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَأَمَّتَهُ عَلَى مُعْتَبَرٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ الآية، قَالَ الطَّبْرِيُّ^(١): الْإِشَارَةُ إِلَى مَاءِ الْمَطَرِ وَتَبَعِ الْعَيُونِ مِنْهُ، ﴿وَسَلَكَهُ﴾ مَعْنَاهُ: أَجْرَاهُ وَأَدْخَلَهُ فِي الْأَرْضِ، وَ﴿يَهِيحُ﴾ مَعْنَاهُ: يَنْبَسُ، وَهَاجَ الزَّرْعُ وَالنَّبَاتُ: إِذَا يَبَسَ، وَالْحُطَامُ: الْيَابِسُ الْمُتَفَتَّتُ، وَمَعْنَى ﴿لَذِكْرَى﴾: أَيْ: لِلْبَعَثِ مِنَ الْقُبُورِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى؛ عَلَى قِيَاسِ هَذَا الْمِثَالِ الْمَذْكُورِ.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي صَلَاحٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٢)

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ...﴾ الآية، رُوي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ وَحَمْزَةٍ، وَأَبِي لَهَبٍ وَابْنِهِ؛ وَهَمَّا اللَّذَانِ كَانَا مِنَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ^(٢)، وَفِي الْكَلَامِ مَحذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ؛ تَقْدِيرُهُ: أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ كَالْقَاسِيَةِ الْقَلْبِ الْمُغْرَضِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَشَرَحَ الصَّدْرَ: اسْتِعَارَةٌ لِتَحْصِيلِهِ لِلنَّظَرِ الْجَيِّدِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالتَّوَرُّ: هِدَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالضُّوءِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ أَنْشَرَا الصَّدْرَ؟ قَالَ: إِذَا دَخَلَ التَّوَرُّ الْقَلْبَ، أَنْشَرَا وَانْفَسَحَ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْعُرُورِ، وَالتَّأَهُبُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ^(٣)، وَالْقِسْوَةُ: شِدَّةُ الْقَلْبِ، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنْ قِسْوَةِ الْحَجَرِ، شَبَّهَ قَلْبَ الْكَافِرِ بِهِ فِي

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/٦٢٦).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٢٧).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٠٩)، وعزا إلى ابن مردويه.

صَلَاتِيهِ وَقِلَّةِ أَنْفَعَالِهِ، لِلْوَغْظِ، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي»^(١)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. انْتَهَى وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: مَا ضَرَبَ عَبْدٌ [بِعَقُوبَةٍ] أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ قَلْبِهِ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ «مِنْ» هُنَا: مُرَادِفَةٌ «عَنْ»، وَقِيلَ: هِيَ لِلتَّلْعِيلِ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ، قَسَتْ قُلُوبُهُمْ؛ عِيَاذًا بِاللَّهِ، وَقِيلَ: هِيَ لِلإِبْتِدَاءِ، انْتَهَى مِنَ «الْمَغْنَى».

قَالَ الْفَخْرُ^(٢): أَعْلَمَ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ سَبَبٌ لِحَصُولِ الثَّوَرِ وَالْهَدَايَةِ وَزِيَادَةِ الْأَظْمِثَانِ فِي النُّفُوسِ الطَّاهِرَةِ الرُّوحَانِيَةِ، وَقَدْ يُوجِبُ الْقَسْوَةَ وَالْبُعْدَ عَنِ الْحَقِّ فِي النُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ الشَّيْطَانِيَةِ، فَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَتَقُولُ: إِنَّ رَأْسَ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَفِيدُ الصَّحَّةَ الرُّوحَانِيَةَ وَرُتْبَتَهَا هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ، فَإِذَا اتَّفَقَ لِبَعْضِ النُّفُوسِ أَنْ صَارَ ذِكْرُ اللَّهِ سَبَبًا لِزِيَادَةِ مَرَضِهَا، كَانَ مَرَضُ تِلْكَ النُّفُوسِ مَرَضًا لَا يُزْجَى زَوَالُهُ، وَلَا يُتَوَقَّعُ عِلَاجُهُ، وَكَانَتْ فِي نِهَآيَةِ الشَّرِّ وَالرَّذَاةِ، فَلهَذَا الْمَعْنَى قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ﴾ وَهَذَا كَلَامٌ كَامِلٌ مُحَقَّقٌ، انْتَهَى.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّدًا مَثَانِي نَفْسٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْتَوُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣)

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يريد القرآن، وروى عن ابن عباس أن سَبَبَ هذه الآية أن قومًا من الصحابة قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدَّثْنَا بِأَحَادِيثٍ حَسَنَةٍ، / وَأَخْبِرْنَا بِأَخْبَارِ الدَّهْرِ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٦٠٧/٤)، كتاب «الزهد» باب: منه برقم: (٢٤١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٥/٤) باب: في حفظ اللسان (٤٩٥١) من طريق عبد الله بن عمر، وأخرجه مالك مرسلاً، قال: إنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقول: «لا تكثرُوا الكلام...» الحديث نحوه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب.

(٢) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٢٦/٢٣٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٦٢٩) برقم: (٣٠١٢٥)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٠٩)، وعزاه لابن جرير.

وقوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ معناه مُسْتَوِيًّا لَا تَنَاقُضَ فِيهِ وَلَا تَدَافُعَ، بَلْ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي رَضْفِ اللَّفْظِ، وَوَثَاقَةِ الْبَرَاهِينِ، وَشَرْفِ الْمَعَانِي؛ إِذْ هِيَ الْيَقِينُ فِي الْعَقَائِدِ فِي اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرَعِهِ، وَ﴿مَثَانِي﴾ معناه: مَوْضِعُ تَثْنِيَةِ الْقَصَصِ وَالْأَقْصِيَّةِ وَالْمَوَاعِظِ تُثْنَى فِيهِ وَلَا تُمَلُّ مَعَ ذَلِكَ وَلَا يَغْرِضُهَا مَا يَغْرِضُ الْحَدِيثَ الْمُعَادَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، ثُنِيَ فِيهِ الْأَمْرُ مِرَارًا^(١)، وَلَا يَنْصَرَفُ ﴿مَثَانِي﴾ لِأَنَّهُ جَمْعٌ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْوَاحِدِ.

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عبارة عَنْ قَفِّ شَعْرِ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يَدْخُلُهُ خَوْفٌ وَلِيْنُ قَلْبٍ عِنْدَ سَمَاعِ مَوْعِظَةٍ أَوْ زَجْرِ قُرْآنٍ وَنَحْوِهِ، وَهَذِهِ عَلَامَةٌ وَقُوعِ الْمَعْنَى الْمُخْشِعِ فِي قَلْبِ السَّامِعِ، وَفِي الْحَدِيثِ؛ أَنَّ أَبِي بَنَ كَعْبٍ قَرَأَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَزَجَّتِ الْقُلُوبُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَغْتَنِمُوا الدُّعَاءَ عِنْدَ الرَّقَّةِ؛ فَإِنَّهَا رَحْمَةٌ»^(٢) وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَقْشَعَرَ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَتَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا»، وَقَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ تَذَمُّعُ أَغْنِيَهُمْ وَتَقْشَعُرُّ جُلُودُهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، قِيلَ لَهَا: إِنْ أَقْوَامًا الْيَوْمَ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ»^(٣)، وَعَنْ ابْنِ عَمْرِو نَحْوِهِ، وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: بَيْنَمَا وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُضْرَعُونَ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَنْ يُجْعَلَ أَحَدُهُمْ عَلَى حَائِطٍ [مَاذَا] رَجُلَيْنِ، ثُمَّ يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، فَإِنْ رَمَى بِنَفْسِهِ، فَهُوَ صَادِقٌ^(٤).

* ت * : وَهَذَا كُلُّهُ تَغْلِيظٌ عَلَى الْمُرَائِيَيْنِ وَالْمُتَصَنِّعِينَ، وَلَا خِلَافَ أَعْلَمُهُ بَيْنَ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ وَأَثَمَةِ التَّصَوُّفِ أَنَّ الْمُتَصَنِّعَ عِنْدَهُمْ بِهَذِهِ الْأُمُورِ مَنفُوثٌ، وَأَمَّا مَنْ غَلَبَهُ الْحَالُ لِضَعْفِهِ وَقَوِي الْوَارِدُ عَلَيْهِ حَتَّى أَذْهَبَهُ عَنْ حِسِّهِ؛ فَهُوَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ السَّادَةِ الْأَخْيَارِ وَالْأَوْلِيَاءِ الْأَبْرَارِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْيَارِ يَطُولُ تَعْدَادُهُمْ؛ كَابْنِ وَهْبٍ وَأَحْمَدَ بْنِ مُعْتَبٍ الْمَالِكِيِّينَ، ذَكَرَهُمَا عِيَاضُ فِي «مَدَارِكِهِ»، وَأَنْهُمَا مَاتَا مِنْ ذَلِكَ؛ وَكَذَلِكَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ مَاتَ

- (١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦٢٨/١٠) بِرَقْمٍ: (٣٠١٢١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٧/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٦١٠/٥) بِنَحْوِهِ، وَعَزَاهُ لِابْنِ مَرْدُودِيَّةٍ.
- (٢) الْقَضَاعِيُّ فِي «مَسْنَدِ الشَّهَابِ»، (٦٩٢) وَذَكَرَهُ الْهِنْدِيُّ فِي «كَزْزِ الْعَمَالِ» (١٠٢/٢) (٣٣٤١)، وَالْعَجْلُونِيُّ فِي «كَشْفِ الْخُفَاءِ وَمَزِيلِ الْإِلْبَاسِ» (١٦٨/١) (٤٤٠).
- (٣) ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٧٧/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٨/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٦١٠/٥)، وَعَزَاهُ لِسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ مَرْدُودِيَّةٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنِ عَسَاكِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ جَدِّهِ أَسْمَاءَ.
- (٤) ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٧٧/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٢٨/٤).

مِنْ ذَلِكَ؛ ذَكَرَهُ عَبْدُ الْحَقِّ فِي «الْعَاقِبَةِ»، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَا يَحْصِي كَثْرَةً، وَمِنْ كَلَامِ عَزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي قَوَاعِدِ الصُّغَرَى قَالَ: وَقَدْ يَصِيحُ بَعْضُهُمْ لِعَلْبَةِ الْحَالِ عَلَيْهِ، وَإِلْجَائِهَا إِيَّاهُ إِلَى الصِّيَاحِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مَعْدُورٌ، وَمَنْ صَاحَ لِغَيْرِ ذَلِكَ، فَمُتَّصِعٌ لَيْسَ مِنَ الْقَوْمِ فِي شَيْءٍ، وَكَذَلِكَ مِنْ أَظْهَرِ شَيْئًا مِنَ الْأَحْوَالِ رِيَاءٌ أَوْ تَسْمِيعًا، فَإِنَّهُ مَلْحَقٌ بِالْفُجَّارِ دُونَ الْأَبْرَارِ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى الْقُرْآنِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى الْخَشْيَةِ وَأَقْشِرَارِ الْجُلُودِ، أَيْ: ذَلِكَ أَمَارَةٌ هَدَى اللَّهُ.

قال الغزالي في «الإحياء»: والمستحب من التالي للقرآن أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغير ذلك، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، انتهى، قال الشيخ الولي عبد الله بن أبي جمرة: وكان النبي ﷺ في قيامه يكسوه من كل آية يقرأها حال يناسب معنى تلك الآية، وكذلك ينبغي أن تكون تلاوة القرآن والأل يكون تاليه كمثل الحمار يخمل أسفاراً، انتهى.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاَذَاهُمْ اللَّهُ لِلْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ...﴾ الآية، تقرير بمعنى التعجيب، والمعنى: أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ كَالْمُنْعَمِينَ فِي الْجَنَّةِ، قال مجاهد^(١): ﴿يتقي بوجهه﴾، أي: يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ.

وقالت فرقة: ذَلِكَ لِمَا رَوِيَ أَنَّ الْكَافَرَ يُلْقَى فِي النَّارِ مَكْتُوفاً مَرْبُوطَةً يَدَاهُ إِلَى رِجْلَيْهِ مَعَ عُنُقِهِ، وَيُكَبُّ عَلَى وَجْهِهِ، فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَتَّقِي بِهِ إِلَّا وَجْهَهُ، وقالت فرقة: المعنى في ذَلِكَ صِفَةُ كَثْرَةِ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ يَتَّقِيهِ بِكُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُ حَتَّى بِوَجْهِهِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ جَوَارِحِهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَبْيَنُ بِلَاغَةٍ، ثُمَّ مَثَلٌ لِقَرِيشٍ بِالْأَمَمِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمَا نَالَهُمْ مِنَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٣٠) برقم: (٣٠١٢٧)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦١١)، وعزه السيوطي للفرابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

العذاب في الدنيا المتَّصِل بعذاب الآخرة الذي هو أكبر، ونَفَى اللَّهُ سبحانه عن القرآن العوج؛ لأنه لا اختلاف فيه، ولا تناقض، ولا مغمز بوجه.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مِثٌّ وَلِأَنَّهُمْ مِثُّونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّصُونَ ﴿٣١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ...﴾ الآية، هذا مَثَلُ ضربه الله سبحانه في التوحيد، فَمَثَلُ تَعَالَى الكافر العابد للأوثان والشياطين بِعَبْدٍ لِرَجَالٍ عِدَّةٍ؛ في أخلاقهم شكاسةً وَعَدَمُ مَسَامَحَةٍ؛ فهم لذلك يُعَذَّبُونَ ذلك العبد بتضايقهم في أوقاتهم، ويضايقون العبد في كثرة العمل؛ فهو أبدأ في نَصَبٍ منهم وعناء، فكَذَلِكَ عَابِدُ الأوثان الذي يَغْتَفِدُ أَنَّ ضَرَّهُ وَنَفْعُهُ عِنْدَهَا؛ هو معذَّبُ الْفِكْرِ بِهَا وبحراسة حاله مِنْهَا، وَمَتَى تَوَهَّمُ أَنَّهُ أَرْضَى صَنَمًا بِالذَّبْحِ لَهُ فِي زَعَمِهِ، تَفَكَّرَ فيما يصنع مع الآخر؛ فهو أبدأ تَعَبٌ فِي ضلالٍ، وكذلك هو الْمُضَانِغُ لِلنَّاسِ الْمُتَمَتِّحِينَ بِخِدْمَةِ الملوِكِ، / وَمَثَلُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؛ بِعَبْدٍ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ يُكَلِّفُهُ شُغْلَهُ؛ فهو يعمل على تَوَدَّةٍ وَقَدْ سَاسَ مَوْلَاهُ، فالمولى يَغْفِرُ زَلَّتْهُ وَيَشْكُرُهُ على إِجَادَةِ عَمَلِهِ، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول بـ﴿ضرب﴾ و﴿رجلاً﴾ نَصَبٌ على الْبَدَلِ و﴿متشاكسون﴾ معناه: لا سَمَحَ فِي أخلاقهم؛ بل فيها لَجَاجٌ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «سالمًا»^(١) أي: سالمًا من الشَّرْكَةِ، ثُمَّ وَقَفَ تَعَالَى الْكَفَارَ بِقوله: ﴿هل يستويان مَثَلًا﴾ وَنَصَبٌ ﴿مَثَلًا﴾ على التمييز؛ وهذا التوقيف لا يجيب عنه أَحَدٌ إِلَّا بِأَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ؛ فلذلك عَامَلَتْهُمُ الْعِبَارَةُ الْوَجِيزَةُ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ أَجَابُوا، فقال: ﴿الحمد لله﴾ أي: على ظهور الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ من أقوالكم، وباقي الآية بين.

والاخْتِصَامُ فِي الآية قِيلَ: عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، قال * ع^(٢) * : ومعنى الآية عندي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَعَّدَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيَخَصِّصُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَعْنَى رُدِّهِمْ فِي وَجْهِ الشَّرِيعَةِ وَتَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَتُكْرَرُ

(١) ينظر: «السبعة» (٥٦٢)، و«الحجة» (٩٤/٦)، و«معاني القراءات» (٣٣٨/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/ ١٩٧)، و«العنوان» (١٦٥)، و«حجة القراءات» (٦٢٢)، و«شرح شعلة» (٥٦٧)، و«إتحاف» (٢/ ٤٢٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٠/٤).

عَلَيْنَا الْخُصُومَةُ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: إِنَّ الْأَمْرَ إِذَنْ لَشَدِيدٌ^(١) انتهى .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ...﴾ الآية، الإشارة بهذا الكذب إلى قولهم: «إن لله صاحبةً ولدًا» وقولهم: هذا حلال، وهذا حرام، افتراءً على الله، ونحو ذلك، وكذبوا أيضاً بالصِّدْقِ، وذلك تكذيبهم بما جاء به محمد ﷺ، ثم توعدَّهم سبحانه تَوَعُّدًا فيه احتقارهم بقوله: ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ وقرأ ابن مسعود: «وَالَّذِينَ جَاءُوا/ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ»^(٢) والصِّدْقُ هنا القرآن والشرعُ بِجُمْلَتِهِ؛ وقالت فرقة «الذي» يراد به: «الذين»، وَخُذِفَتِ النُّونُ، قال * ع * : وهذا غيرُ جَيِّدٍ وَتَرْكِيبُ «جاء» عليه يَرُدُّ ذلك، بل «الذي» ههنا هي للجنس، والآية مُعَادِلَةٌ لقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾. قال قتادة وَغَيْرُهُ: الذي جاء بالصِّدْقِ هو محمدٌ - عليه السلام - وَالَّذِي صَدَّقَ بِهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ^(٣)؛ وهذا أَصَوَّبُ الأقوالِ، وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَن الذي صَدَّقَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، وقيل: عليٌّ وَتَغْيِيمُ اللفظ أَصَوَّبٌ.

وقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتَّقُوا الشَّرَّ^(٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠/٥) كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة الزمر (٣٢٣٦)، والحاكم (٤٣٥/٢) كتاب «التفسير»، والحميدي (٣٣٣/١ - ٣٤) (٦٢)، وأحمد (١٦٤/١، ١٦٧)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٣/٥ - ٦١٤)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن منيع، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «البعث والنشور».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) ينظر: «الكشاف» (١٢٨/٤)، و«المحرر الوجيز» (٥٣١/٤)، و«البحر المحيط» (٤١١/٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/١١) برقم: (٣٠١٤٥) عن قتادة، وبرقم: (٣٠١٤٦) عن ابن زيد وذكره البغوي في «تفسيره» (٧٩/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٣١/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦١٥/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/١١) برقم: (٣٠١٥٠)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٣٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦١٥/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرَ﴾ يحتمل أن يتعلّق بقوله: ﴿المحسنين﴾ أي: الذين أحسنوا، لكنّي يكفّر؛ وقاله ابن زيد^(١)، ويحتمل أن يتعلّق بفعل مضمر مَقْطُوعٍ مما قبله؛ تقديره: يَسْرَهُمُ اللَّهُ لذلك؛ لِيَكْفُرَ، لأنّ التَّكْفِيرَ لا يكون إلا بَعْدَ التَّيْسِيرِ لِلْخَيْرِ.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضَرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْصِتَةٌ إِلَيْهِ قَالَ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَلِهَا إِلَىٰ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمْ آخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كُنَّا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾

وقوله تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ تقويةً لنفْسِ النبي ﷺ، وقرأ حمزة والكسائي: «عباده»^(٢) يريد الأنبياء، وأنت يا محمد أحدُهم، فيدخل في ذلك المؤمنون المطيعون والمتوكلون على الله سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ أي: بالذين يعبُدون، وباقي الآية بين، وقد تقدّم تفسير نظيره.

وقوله تعالى: ﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾، أي: فلنفسه عمل وسعى، ومن ضلّ فعليها جَنَى، ثم نبّه تعالى على آية من آياته الكبرى، تدلّ الناظر على الوجدانية، وأنّ ذلك لا شِرْكَةَ فيه لِصَنَمٍ، وهي حالة التَّوَفِّي، وذلك أنّ ما تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى على الكَمَالِ، فهو الذي يَمُوتُ، وما تَوَفَّاهُ تَوْفِيًّا غَيْرَ مُكَمَّلٍ فهو الذي يكون في الثَّوَمِ، قال ابن زيد: النُّومُ وفاةٌ

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٣٢/٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٥٦٢)، و«الحجة» (٩٥/٦)، و«معاني القراءات» (٣٣٨/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/١٩٨)، و«العنوان» (١٦٥)، و«حجة القراءات» (٦٢٢)، و«شرح شعلة» (٥٦٧)، و«إتحاف» (٢/٤٢٩).

والموت وفاة^(١) / وكثر الناس في هذه الآية، وفي الفرق بين النفس والروح، وفرق قوم بين نفس التمييز ونفس التخيل؛ إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة ظن، وحقيقة الأمر في هذا هي مما استأثر الله به وعيَّبه عن عباده في قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، ويكفيك أن في هذه الآية ﴿يتوفى الأنس﴾، وفي الحديث الصحيح: إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا جِئْنَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْنَا جِئْنَ شَاءَ^(٢). وفي حديث بلال في الوادي؛ فقد نطقت الشريعة بقَبْضِ الروح والنفس، وقد قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ والظاهر أن الخوض في هذا كُلِّهِ عَنَاءٌ، وإن كان قد تعرض للقول في هذا ونحوه أئمة، ذكر الثعلبي عن ابن عباس؛ أنه قال: «في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله تعالى نفسه ولم يقبض روحه»^(٣)، وجاء في آداب التَّوَمُّ وأذكار النائم أحاديث صحيحة؛ ينبغي للعبد ألا يُخلِّي نفسه منها، وقد روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أوى الرجل إلى فراشه، أبتدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطَانٌ، فيقول المَلَكُ: أَخْتِمُ بِخَيْرٍ، ويقول الشَّيْطَانُ: أَخْتِمُ بِشَرٍّ، فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى، ثُمَّ نَامَ؛ بَاتَ الْمَلَكُ يَكْلُؤُهُ، فَإِنْ أَسْتَيْقَظَ، قَالَ الْمَلَكُ: افْتَحْ بِخَيْرٍ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ: افْتَحْ بِشَرٍّ، فَإِنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ إِلَيَّ نَفْسِي، وَلَمْ يُمِثِّهَا فِي مَمَامِهَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُنْفِصُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُنْفِصُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ، فَإِنْ وَقَعَ مِنْ سَرِيرِهِ، فَمَاتَ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤)، رواه

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠) برقم: (٣٠١٦٣)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/ ٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩/ ٨٠) كتاب «مواقيت الصلاة» باب: الأذان بعد ذهاب الوقت برقم: (٥٩٥)، (٤٥٥/ ١٣) كتاب «التوحيد» باب: في المشيئة والإرادة (٧٤٧١)، وأحمد (٣٠٧/ ٥)، والبيهقي (١/ ٤٠٣ - ٤٠٤) كتاب «الصلاة» باب: الأذان والإقامة للفتة، (٢/ ٢١٦) كتاب «الصلاة» باب: لا تفرط على من نام عن صلاة أو نسيها، وأبو داود (١٧٤/ ١) كتاب «الصلاة» باب: من نام عن صلاة أو نسيها (٤٣٩)، والنسائي (٢/ ١٠٥ - ١٠٦) كتاب «الإمامة» باب: الجماعة للفتة من الصلاة برقم: (٨٤٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤٨/ ٤) كتاب «الصلاة» باب: ذكر خبر أوهم غير المتبحر في صناعة العلم: أن الصلاة الفاتنة لا تؤدي عند طلوع الشمس حتى تبيض، (١٥٧٩)، وذكره البغوي في «شرح السنة» (٢/ ٨٦) كتاب «الصلاة» باب: الأذان للفتة والإقامة لها (٤٣٩).

كلهم عن أبي قتادة عن أبيه، إلا أن بعضهم زاد، وبعضهم رواه مختصراً.

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/ ٥٣٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦١٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١/ ٥٤٨) كتاب «الدعاء»، وابن حبان (٧/ ٣٨٩ - ٣٩٠) - الموارد

النسائي، واللفظ له، والحاكم في «المستدرک» وابن جبان في «صحيحه»، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وزاد آخره: «الحمد لله الذي يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير» انتهى من «السلاح»، وفيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ؛ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، - غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ أَوْ خَطَايَاهُ - شَكَّ مَسْعَرٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١) رواه ابن جبان في «صحيحه»، ورواه النسائي موقوفاً، انتهى، وروى الترمذي عن أبي أمامة قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ طَاهِراً يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى يُذَرِّكَهُ النَّعَاسُ، لَمْ يَنْقَلِبْ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئاً مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»^(٢)، انتهى، والأجل المُسمَّى

(٣٣٦٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٣/٢) كتاب «الزينة والطيب» باب: آداب الطعام ذكر الشيء الذي إذا قاله المرء عند استيقاظه من النوم دخل الجنة بقوله ذلك؛ إن أدركته منيته (٥٥٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (٢١٣/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا انتبه من منامه (١/١٠٦٨٩)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤٦٩/١)، كتاب «النوافل» باب: الترغيب في كلمات يقولهن حين يأوي إلى فراشه، وما جاء فيمن نام ولم يذكر الله تعالى (٨٨١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٢٣) كتاب «الأدعية» باب: ما يقول إذا أوى إلى فراشه وإذا انتبه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ١ هـ.

وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وهو عنده (٣٢٦/٣ - ٣٢٧) برقم: (١٧٩١)، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي وهو ثقة. ١ هـ بتصرف.

(١) أخرجه ابن حبان (٣٩٤/٧) - الموارد (٢٣٦٥)، وابن حبان (٣٣٨/١٢) كتاب «الزينة والطيب» باب: آداب الطعام، وذكر الشيء الذي يغفر الله ذنوب قائله إذا أوى إلى فراشه (٥٥٢٨)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٧٢٧)، وأبو نعيم في «أخبار أصفهان» (١/٢٦٧)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤٦٨/١) كتاب «النوافل» باب: الترغيب في كلمات يقولهن حين يأوي إلى فراشه وما جاء فيمن نام ولم يذكر الله تعالى، برقم: (٨٧٩)، والهندي في «كنز العمال» (١٥/٣٤٧ - ٣٤٨) (٤١٣٢٣) وفي الباب من حديث أبي هريرة أخرجه أحمد في «المستد» (١٠/٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٤٠/٥) كتاب «الدعوات» باب: (٩٣) (٣٥٢٦) والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/١٤٧) (٧٥٦٨)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤٦٣/١)، كتاب «النوافل» باب: الترغيب في أن ينام الإنسان طاهراً ناوياً للقيام (٨٦٩)، والنووي في «الأذكار» (١٣٤) كتاب «ما يقوله إذا دخل في الصلاة» باب: ما يقرأ في الوتر وما يقوله بعدها (٢٦/٢٤٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وللحديث شاهد نحوه من حديث معاذ بن جبل: أخرجه ابن ماجه (١٢٧٧/٢) كتاب «الدعاء» باب: ما يدعو به إذا انتبه من الليل (٣٨٨١)، والنسائي في «الكبرى» (٢٠١/٦)، كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ثواب من أوى طاهراً إلى فراشه يذكر الله تعالى حتى تغلبه عيناه (٢/١٠٦٤٢)، وأبو داود (٣٧٠/٢) كتاب «الأدب» باب: في النوم على طهارة (٥٠٤٢)، وأحمد (٥/٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٤)، وذكره

في هذه الآية: هُوَ عُمْرُ كُلِّ إِنْسَانٍ، والضمائر في قوله تعالى: ﴿أُولُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾: للأصنام.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...﴾ الآية، قال مجاهد وغيره^(١) نَزَلَتْ فِي قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ سُورَةِ النَّجْمِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ بِمَخْضَرٍ مِنَ الْكُفَّارِ، وَقُرَأَ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى...﴾ [النجم: ١٩] الآية، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ يَغْنِي فِي أَسْمَاعِ الْكُفَّارِ (تِلْكَ الْغَرَانِقَةُ الْعُلَى) عَلَى مَا مَرَّ فِي سُورَةِ الْحَجِّ، فَاسْتَبْشَرُوا، وَاشْمَأَزَّتْ نَفُوسُهُمْ: معناه: تَقَبَّضَتْ كِبَرًا وَأَنْفَقَ وَكَرَاهِيَةً وَنُفُورًا.

وقوله/ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ...﴾ الآية، أَمَرَ لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - بِ ٩
بِالدَّعَاءِ إِلَيْهِ وَرَدَّ الْحُكْمَ إِلَى عَذْلِهِ، وَمَعْنَى هَذَا الْأَمْرِ تَضَمُّنُ الْإِجَابَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ قال الثعلبي: قال السُّدِّيُّ: ظَنُّوا أَشْيَاءَ أَنَّهَا حَسَنَاتُ فَبَدَتْ سَيِّئَاتُ^(٢)، قال * ع *: قال سفيان الثوري: وَيَلْ لَأَهْلِ الرِّيَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ^(٣)، وقال عكرمة بن عمار: جَزَعَ مُحَمَّدٌ بْنُ الْمُكَدِّرِ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ

المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/٤٦٢) كتاب «النوافل» باب: الترغيب في أن ينام الإنسان طاهرًا ناويًا للقيام (٨٦٧).

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٨١) عن مجاهد ومقاتل، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٣٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦١٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٨٢).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٣٥).

له: ما هَذَا؟ فقال: أَخَافُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا...﴾ الآية، قال الزَّجَّاجُ^(٢): التَّخْوِيلُ الْعَطَاءُ عَنْ غَيْرِ مُجَازَاةٍ، وَالتَّعْمَةُ هُنَا عَامَّةٌ فِي الْمَالِ وَغَيْرِهِ، وَتَقْوَى الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ قال قتادة: يريد إنما أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوَجْهِ الْمَكَايِبِ وَالتَّجَارَاتِ^(٣)، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ فِيَّ وَأَسْتَحْقَاقِ خُرُتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، فِي هَذَا التَّأْوِيلِ اغْتِرَارٌ بِاللَّهِ، وَفِي الْأَوَّلِ إِعْجَابٌ بِالنَّفْسِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ؛ بَلْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ بِهِ فِتْنَةٌ لَهُ وَابْتِلَاءٌ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْكُفَرَةِ؛ أَنَّهُمْ قَدْ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ كَقَارُونَ وَغَيْرِهِ، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ، ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الْمَعَاصِرِينَ لَكَ، يَا مُحَمَّدُ، ﴿سَيَصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾. قَالَ أَبُو حَيَّانَ: ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» نَافِيَةً أَوْ اسْتِفْهَامِيَّةً فِيهَا مَعْنَى التَّفْيِ، انْتَهَى.

﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ آسَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٥٤)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾ الآية، هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ النَّاسِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَتَوْبَةُ الْكَافِرِ تَمْحُو ذَنْبَهُ، وَتَوْبَةُ الْعَاصِي تَمْحُو ذَنْبَهُ؛ عَلَى مَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ، وَاخْتَلَفَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ عطاء بن يسار: نَزَلَتْ فِي وَخْشِي قَاتِلِ حَمْزَةَ^(٤)، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ بِمَكَّةَ آمَنُوا، وَلَمْ يُهَاجِرُوا وَفَتَنَتْهُمْ قُرَيْشٌ، فَأَفْتَتَنُوا، ثُمَّ نَدِمُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا تَوْبَةَ لَهُمْ، [فَنَزَلَتْ] الْآيَةُ فِيهِمْ، مِنْهُمْ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَهَشَامُ بْنُ الْعَاصِي^(٥)؛ وَهَذَا قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَأَنَّهُ كَتَبَهَا بِيَدِهِ إِلَى هَشَامِ بْنِ الْعَاصِي، الْحَدِيثُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كُفَّارٍ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، قَالُوا: وَمَا يَنْفَعُنَا الْإِسْلَامُ، وَنَحْنُ قَدْ زَنَيْنَا وَقَتَلْنَا النَّفْسَ، وَأَتَيْنَا كُلَّ كَبِيرَةٍ،

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٨٢/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٣٥/٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (٣٥٧/٤).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٣٦/٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/١١) برقم: (٣٠١٧٦)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٨٣/٤)،

وابن عطية في «تفسيره» (٥٣٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٢١/٥)، وعزاه لابن جرير عن عطاء بن يسار.

(٥) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٣٧/٤) عن قتادة والسدي، وابن أبي إسحاق.

فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِمْ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عُمَرَ: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ^(١)، وَرَوَى ثَوْبَانُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَحَبُّ أَنْ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ^(٢)» قُلْ يَا عِبَادِيَ... ﴿وَأَسْرَفُوا﴾ معناه أَفْرَطُوا، وَالْقَنْطُ أَغْظَمُ الْيَأْسِ، وَقُرْأَ نَافِعٌ وَالْجُمْهُورُ «تَقْنُطُوا» بفتح النون^(٣)، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: فِيلِزْمُهُمْ أَنْ يَقْرَؤُوا «مِنْ بَعْدِ مَا قَنُطُوا» [الشورى: ٢٨] - بِكسرهما - وَلَمْ يَقْرَأْ بِهِ أَحَدٌ، وَقُرْأَ أَبُو عَمْرٍو «تَقْنُطُوا» - بِالْكَسْرِ^(٤) -.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عمومٌ بمعنى الخصوص؛ لِأَنَّ الشُّرَكَاءَ لَيْسَ بِدَاخِلٍ فِي الْآيَةِ إِجْمَاعًا، وَهِيَ أَيْضًا فِي الْمَعَاصِي مَقْبِلَةٌ بِالمشيئة، وَرُويَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا يَبَالِي»^(٥) وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(٦): «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ» وَأَنْبِئُوا معناه: أَرْجِعُوا.

﴿وَأَنْبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأًائِي فَكُذِّبَتْ بِهَا وَأَسْتَكَرَتْ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥/١١) برقم: (٣٠١٨١) عن ابن مسعود وبرقم: (٣١٠٨٤) عن علي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٣٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٢١/٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥/٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٣/٥) باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة (٧١٣٧)، والطبري (١٦/١١) (٣٠١٨٧)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٣١/٥)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٧/٤).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي، ويعقوب، وخلف.

ينظر: «العنوان» (١٦٥)، و«إتحاف» (٤٣٠/٢).

(٥) أخرجه الحاكم (٢٤٩/٢) كتاب «التفسير»، والترمذي (٣٧٠/٥)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الزمر (٣٢٣٧).

قال الحاكم: هذا حديث غريب عالٍ، ولم أذكر في كتابي هذا عن شهر غير هذا الحديث الواحد. اهـ. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر بن حوشب قال: وشهر بن حوشب يروي عن أم سلمة الأنصارية وأم سلمة الأنصارية هي أسماء بنت يزيد.

(٦) ينظر: «الشواذ» ص: (١٣٢)، و«الكشاف» (١٣٥/٤)، وزاد نسبتها إلى ابن عباس.

وينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣٧/٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ﴾ معناه: أن القرآن العزيز تَضَمَّنَ عقائد نيرةً وأوامر ونواهي مَنجِيَّةً وَعِدَاتٍ على الطاعات، والبرِّ، وتَضَمَّنَ أيضاً حدوداً على المعاصي ووَعِيداً على بَعْضِهَا/ فالأحسنُ للمرء أن يسلك طريق الطاعة والانتهاز عن المعصية والعفو في الأمور ونحو ذلك مِنْ أن يسلك طريقَ الغفلة والمعصية؛ فَيُحَدِّدُ أو يَقَعُّ تَحْتَ الوعيد، فهذا المعنى هو المقصود بـ«أَحْسَنَ»، وليس المعنى: أن بعض القرآن أحسنُ مِنْ بعض من حيث هو قرآن، * ت * وَرَوَى أبو بكر بنُ الخَطِيبِ بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: في قولِ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ قال: الحسرةُ أن يرى أهلُ النارِ منازلَهُمْ من الجنة، قال: فهي الحسرةُ^(١)، انتهى.

وقوله: ﴿فرطت في جنبِ اللَّهِ﴾ أي: في جَهَّة طاعته وتضييع شريعته والإيمان به، وقال مجاهد: ﴿في جنبِ اللَّهِ﴾ أي: في أمرِ اللَّهِ^(٢)، وقولُ الكافر: ﴿وإن كنتُ لمن السَّاحِرِينَ﴾ نَدَامَةٌ على استهزائه بِأَمْرِ اللَّهِ - تَعَالَى -، و«كرة» مصدرٌ مِنْ كَرَّ يَكُرُّ، وهذا الكونُ في هذه الآية داخلٌ في التَّمَنِّي، وباقي الآية أنواره لائحةٌ، وَحُجَّجُهُ واضحةٌ، ثم خاطبَ تعالى نبيه بِخَبَرٍ مَا يَرَاهُ يومَ القيامة من حالةِ الكُفَّار، وفي ضَمَنِ هذا الخبرِ وَعِيدٌ بَيِّنٌ لمعاصريه - عليه السلام - فقال: ﴿ويومَ القيامة ترى الذين كَذَبُوا على اللَّهِ وجوههم مسودةٌ﴾ ﴿تَرَى﴾ من رُؤْيَةِ العَيْنِ، وظاهرُ الآية أن وجوههم تَسْوَدُ حقيقةً.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١) اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَامِرَوْفٍ أَعْبُدْ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)

وقوله سبحانه: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازاتهم...﴾ الآية، ذَكَرَ تعالى حالةَ الْمُتَّقِينَ ونجاتهم؛ لِيُعَادِلَ بِذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ من شَقَاوَةِ الْكَافِرِينَ، وفي ذلك تَرْغِيبٌ في حالةِ الْمُتَّقِينَ؛ لأن الأشياءَ تَتَبَيَّنُ بِأَضْدَادِهَا، و«مفازتهم» مصدرٌ مِنَ الْفُوزِ، وفي الكلام حَذْفُ مضافٍ، تقديرُهُ: وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِأَسْبَابِ مَفَازَتِهِمْ، والـ«مقاليد»: المفاتيح؛ وقاله

(١) أخرجه الطبري في (١٧٨/٥) برقم: (١٣١٨٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/٣٨٩) برقم:

(١٥٠٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي

الشيخ، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٩/١١) برقم: (٣٠١٩٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٨٥)،

وابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٣٨).

ابن عباس^(١)، «واحدها «مِفْلَادٌ» كـ «مِفْتَاحٍ»، وقال عثمان بن عفّان: سألت النبي ﷺ عن ﴿مَقَالِيدِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: «هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ يُخَيِّي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قالت فرقة: المعنى: ولقد أوحى إلى كل نبي؛ لئن أشركت ليخبطن عملك، * ت * : قد تقدّم غير ما مرّة، بأن ما ورد من مثل هذا، فهو محمول على إرادة الأمة لعظمة النبي ﷺ، وإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطب هو ﷺ تعظيماً للأمر، قال * ص * : ﴿ليخبطن﴾ جواب القسم، وجواب الشرط محذوف؛ لدلالة جواب القسم عليه، انتهى.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَنَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ السَّائِغَاتُ وَالشَّهَدَاءُ وَوُضِعَ إِلَيْهِمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ معناه وما عظموا الله حق عظمته، ولا وصفوه بصفاته، ولا نفوا عنه ما لا يليق به، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كفار قريش الذين كانت هذه الآيات كلها محاورة لهم، ورداً عليهم^(٣)، وقالت فرقة: نزلت في

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/١١) برقم: (٣٠٢٠٥) عن ابن عباس، وبرقم: (٣٠٢٠٦) عن قتادة، وذكره البغوي في «تفسيره» (٨٦/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٣٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٥/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٦/٥)، وعزاه إلى أبي يعلى، ويوسف القاضي في «سننه»، وأبي الحسن القطان في «المطولات»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/١١) برقم: (٣٠٢٠٩)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٤٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٦٢/٤) عن مجاهد.

قوم من اليهود تَكَلَّمُوا في صفاتِ الله تعالى، فَأَلَحَدُوا وَجَسَّمُوا وَأَتَوْا بِكُلِّ تَخْلِيلٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ معناه: في قَبْضَتِهِ، واليمينُ هنا، والقَبْضَةُ عبارةٌ عَنِ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، وما أَخْتَلَجَ في الصُّدُورِ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ بَاطِلٌ، و﴿صَعَقَ﴾ في هذه الآية، معناه: خَرَّ مَيِّتاً، و﴿الصُّورُ﴾: الْقُرْنُ، ولا يُتَصَوَّرُ هنا غَيْرُ هذا، وَمَنْ يَقُولُ: ب ١١ ﴿الصُّورُ﴾ جمع صُورَةٍ، فَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ قَوْلُهُ فِي نَفْخَةِ الْبَغْثِ، وقد تَقَدَّمَ بَيَانُ تَظْهِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ هي نفخة الْبَغْثِ، وفي الحديث: «أَنَّ بَيْنَ الثَّفَحَتَيْنِ أَرْبَعِينَ» لَا يَذَرِي أَبُو هُرَيْرَةَ سَنَةً أَوْ شَهْراً أَوْ يَوْماً أَوْ سَاعَةً * ت * : ولفظُ مُسْلِمٍ: عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا بَيْنَ الثَّفَحَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْراً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ يَوْماً؟ قَالَ: أَبَيْتُ الْحَدِيثُ، قَالَ صَاحِبُ «التَّذَكُّرَةِ»^(١): فَقِيلَ: معنى قوله: «أَبَيْتُ» أَي: أَمْتَنَعْتُ مِنْ بَيَانِ ذَلِكَ؛ إِذْ لَيْسَ هُوَ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَةٌ، وَعَلَى هَذَا كَانَ عِنْدَهُ عِنَّمُ ذَلِكَ، وَقِيلَ: المعنى: أَبَيْتُ أَنْ أَسْأَلَ^(٢) النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا: فَلَا عِلْمَ عِنْدَهُ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وقد جاء أَنَّ مَا بَيْنَ الثَّفَحَتَيْنِ أَرْبَعِينَ عَاماً، انتهى، وقد تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّحِيحَ فِي الْمُسْتَثْنَى فِي الْآيَةِ أَنَّهُمْ الشُّهَدَاءُ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ بُرَيْزَةَ فِي «شرح الأحكام الصغرى» لعبد الحق: الذي تلقيناه من شيوخنا المحققين أن العوالم التي لَا تَقْنَى سَبْعَةُ: الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ، وَاللُّوحُ، وَالْقَلَمُ، وَالْجَنَّةُ، وَالتَّارُ، وَالْأَرْوَاحُ. انتهى.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ معناه: أَضَاءَتْ وَعَظُمَ نُورُهَا، و﴿الْأَرْضُ﴾ في هذه الآية: الْأَرْضُ الْمُبْدَلَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَعْرُوفَةِ.

وقوله: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إِضَافَةٌ مُخْلُوقٍ^(٣) إِلَى خَالِقِهِ، و﴿الْكِتَابُ﴾ كِتَابُ حِسَابٍ

(١) ينظر: «التذكرة» (١/٢٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٤/٨) كتاب «التفسير» باب: «ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» (٤٨١٤)، (٥٥٨/٨) كتاب «التفسير» باب: «يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا» (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٢٧٠/٤) كتاب «الفتن وأشراط الساعة» باب: ما بين الثفحتين (٢٩٥٥/١٤١)، (٢٩٥٥/١٤٣)، وأخرجه مختصراً مالك (٢٣٩/١) كتاب «الجنائز» باب: جامع الجنائز (٤٨)، والنسائي (١١١/٤ - ١١٢)، كتاب «الجنائز» باب: أرواح المؤمنين برقم: (٢٠٧٧)، وابن ماجه (١٤٢٥/٢)، كتاب «الزهد» باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٦).

(٣) في د: خلق.

الخلاقي، وَوَحَّدَهُ عَلَى اسْمِ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَهُ كِتَابٌ عَلَى حِدَةٍ، «وجيء بالنبيئين» أي: لِيَشْهَدُوا عَلَى أُمَّهِمْ، ﴿والشهداء﴾ قيل: هو جمع «شاهد» وقيل: هو جمع «شَهِيد» في سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْأَوَّلُ أَتَيْنُ فِي مَعْنَى التَّوَعُّدِ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ / عَائِدٌ عَلَى الْعَالَمِ ١١٢ بِأَجْمَعِهِ، إِذِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَيْهِمْ، وَ﴿زَمَرًا﴾ مَعْنَاهُ: جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً، وَاحِدَتَهَا: زُمْرَةٌ.

وقوله: ﴿فَتَحَّتْ﴾ جواب «إِذَا»، وَالْكَلَامُ هُنَا يَقْتَضِي أَنْ فَتَحَهَا إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ مَجِيئِهِمْ، وَفِي وَقُوفِهِمْ قَبْلَ فَتْحِهَا مَذَلَّةٌ لَهُمْ، وَهَكَذَا هِيَ حَالُ السُّجُونِ وَمَوَاضِعِ الثَّقَافِ وَالْعَذَابِ؛ بِخِلَافِ قَوْلِهِ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿وَفُتِحَتْ﴾، فَالَوَاوُ مُؤْذِنَةٌ بِأَنَّهُمْ يَجِدُونَهَا مَفْتُوحَةً كَمَنَازِلِ الْأَفْرَاحِ وَالسُّرُورِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رِسَالٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ...﴾ الآية، فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْكُمْ﴾ أَغْظَمُ فِي الْحُجَّةِ، أَي: رُسُلٌ مِنْ جِنْسِكُمْ؛ لَا يَضَعُبُ عَلَيْكُمْ مَرَامُهُمْ، وَلَا فَهْمُ أَقْوَالِهِمْ.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَرَأَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتُضَى بَيْنَهُمُ الْوُحُوقُ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾: لَفْظٌ يَعْمُ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشُّرْكَ، وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ مُؤْذِنَةٌ بِأَنَّهُمَا قَدْ فَتَحَتْ قَبْلَ وَصُولِهِمْ إِلَيْهَا، وَقَالَتْ فِرْعَوْنُ: هِيَ زَائِدَةٌ وَقَالَ قَوْمُ: أَشَارَ إِلَيْهِمْ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، وَضَعَفَ قَوْلُهُمْ: هَذِهِ وَاوُ الثَّمَانِيَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا، وَجَوَابُ «إِذَا» فُتِحَتْ، وَعَنِ الْمُبَرِّدِ: جَوَابُ «إِذَا» مُحذوفٌ، تَقْدِيرُهُ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿خَالِدِينَ﴾: سُعِدُوا وَسَقَطَتْ هَذِهِ الْوَاوُ فِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ، ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تَحِيَّةٌ، وَ﴿طِبْتُمْ﴾ مَعْنَاهُ: أَعْمَالًا وَمُعْتَقَدًا وَمُسْتَقَرًّا وَجَزَاءً، ﴿وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ﴾ يُرِيدُ: أَرْضَ الْجَنَّةِ، وَ﴿نَتَّبِعُوهُ﴾ مَعْنَاهُ: نَتَّخِذُ أَمْرَهُ وَمَسَاكِينِ، ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى حَالَةَ الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْعَرْشِ وَحُفُوفَهُمْ بِهِ وَالْحُقُوفُ الْإِخْدَاقُ بِالشَّيْءِ، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْحِفَافِ، وَهُوَ الْجَانِبُ، قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ»: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ أَبِي

إِسْحَاقَ/ عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ؛ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ١٢ ب الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ قَالَ: وَجَدُوا عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَخْرُجُ مِنْ سَاقِهَا عَيْنَانِ، فَعَمَدُوا إِلَى إِحْدَاهُمَا كَأَنَّمَا أَمْرُوا بِهَا، فَاجْتَسَلَوْا بِهَا، فَلَمْ تَشْعَثْ رُؤُوسُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَمْ تَتَغَيَّرْ جُلُودُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا كَأَنَّمَا دَهْنُهَا بِالدَّهْنِ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الْأُخْرَى، فَسَرَبُوا مِنْهَا،

فَطَهَّرَتْ أَجْوَأَهُمْ، وَغَسَلَتْ كُلَّ قَدِيرٍ فِيهَا، وَتَتَلَقَّاهُمْ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ مَلَائِكَةٌ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، ثُمَّ تَتَلَقَّاهُمُ الْوَلَدَانِ يُطِيفُونَ بِهِمْ كَمَا يُطِيفُ وَلَدَانُ الدُّنْيَا بِالْحَمِيمِ، يَجِيءُ مِنَ الْعَيْنَةِ يَقُولُونَ: أَبْشِرْ، أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ كَذَا وَكَذَا، وَأَعَدَّ اللَّهُ لَكَ كَذَا، ثُمَّ يَذْهَبُ الْغُلَامُ مِنْهُمْ إِلَى الزَّوْجَةِ مِنْ أَزْوَاجِهِ، فيقول: قَدْ جَاءَ فَلَانٌ بِاسْمِهِ الَّذِي كَانَ يَدَّعِي بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَتَقُولُ لَهُ: أَنْتَ رَأَيْتَهُ؟ فَيَسْتَحِفُّهَا الْقَرْحُ حَتَّى تَقُومَ عَلَى أَسْكَفَةِ بَابِهَا، ثُمَّ تَرْجِعُ، فيجِيءُ، فَيَنْظُرُ إِلَى تَأْسِيسِ بِنْيَانِهِ مِنْ جَنْدِلِ اللَّوْلُو أَخْضَرَ وَأَضْفَرُ وَأَحْمَرُ؛ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ ثُمَّ يَجْلِسُ فَيَنْظُرُ؛ فَإِذَا زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ - فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ ذَلِكَ، لَأَذْهَبَ بَصَرُهُ - إِنَّمَا هُوَ مِثْلُ الْبَرْقِ؛ ثُمَّ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قَالَتْ فَرْقَةٌ مَعْنَاهُ: أَنَّ تَسْبِيحَهُمْ يَتَأْتِي بِحَمْدِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَقَالَتْ فَرْقَةٌ: تَسْبِيحُهُمْ هُوَ بِتَرْيِيدِ حَمْدِ اللَّهِ، وَتَكَرَّارِهِ، قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: مُتَلَذِّذِينَ لَا مُتَعَبِّدِينَ مُكَلَّفِينَ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خَتَمَ لِلْأَمْرِ، وَقَوْلُ جَزْمٍ عِنْدَ فَصْلِ ١١٣ الْقَضَاءِ، أَي: أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ/ الْحَاكِمَ الْعَادِلَ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَدَ عِنْدَ نَفُوزِ حُكْمِهِ وَإِكْمَالِ قَضَائِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ جُعِلَتْ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خَاتَمَةَ الْمَجَالِسِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ فِي الْعِلْمِ، قَالَ قَتَادَةُ: فَتَحَ اللَّهُ أَوَّلَ الْخَلْقِ بِالْحَمْدِ، فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١] وَخَتَمَ الْقِيَامَةَ بِالْحَمْدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ^(٢).

قال * ع^(٣): ﴿وَجَعَلَ سُبْحَانَهُ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿فَاتِحَةَ كِتَابِهِ؛ فَبِهِ يُبْدَأُ كُلُّ أَمْرٍ وَبِهِ يُخْتَمُ، وَحَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقْدِيسُهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِ؛ كَمَا قِيلَ: [الطويل] وَآخِرُ شَيْءٍ أَنْتَ فِي كُلِّ ضَجْعَةٍ وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتَ عِنْدَ هُبُوبِي^(٤)

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٤٤/٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦/١١) برقم: (٣٠٢٦٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٤٤/٤)،

وابن كثير في «تفسيره» (٦٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٢/٥)، وعزاه لعبد الرزاق،

وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٤/٤).

(٤) ينظر: المصدر السابق (٥٤٤/٤).

تَفْسِيرُ «سُورَةِ غَافِرٍ»

[وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

رَوَى أَنَسٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: الْحَوَامِيمُ ذِيَابُ الْقُرْآنِ^(١)، وَمَعْنَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ: أَنَّهَا خَلَّتْ مِنَ الْأَحْكَامِ وَقُصِّرَتْ عَلَى الْمَوَاعِظِ وَالزُّجَرِ وَطُرُقِ الْآخِرَةِ مَخْضًا، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَزْتَغِيَ فِي رِيَاضٍ مُؤَنِقَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلْيَقْرَأِ الْحَوَامِيمَ»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يَجِدُلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعَزَّزُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيُأْخَذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾: تَقْدِمُ الْقَوْلُ فِي الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ، وَيَخْتَصُّ هَذَا الْمَوْضِعُ بِقَوْلِ آخَرَ قَالَهُ الضُّحَّاكُ وَالْكَسَائِيُّ؛ أَنَّ ﴿حَمْدٌ﴾ هِجَاءٌ (حَمْدٌ) - بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة -؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: حَمْدُ الْأَمْرِ وَوَقَعَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ^(٣)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرَّ، وَحَمْدٌ، وَنَ، هِيَ حُرُوفُ الرَّحْمَنِ مُقْطَعَةٌ فِي سُورِ^(٤)، وَسَأَلَ أَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ حَمْدٍ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: بِذَلِكَ الْأَسْمَاءِ، وَقَوَاتِجُ سُورٍ، وَ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ معناه: ذِي/ التَّطَوُّلِ وَالْمَنْ بِكُلِّ نَعْمَةٍ، فَلَا خَيْرَ إِلَّا مِنْهُ سُبْحَانَهُ، فَتَرْتَّبَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَعِيدٌ بَيْنَ وَغْدَيْنِ، وَهَكَذَا رَحْمَتُهُ سُبْحَانَهُ تَغْلِبُ غَضَبُهُ، قَالَ * ع^(٥) *: سَمِعْتُ هَذِهِ التَّرْعَةَ مِنْ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَهُوَ نَحْوُ مِنْ قَوْلِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ»^(٦) * ت *: هُوَ حَدِيثٌ، وَالطُّوْلُ: الْإِنْعَامُ، وَعِبَارَةُ الْبَخَارِيِّ: الطُّوْلُ: التَّفَضُّلُ، وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ عَنْ أَهْلِ الْإِشَارَةِ أَنَّهُ

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٤٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ، وأبي نعيم، والديلمي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٥٤٥).

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٩٠)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٤٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٣٧) برقم: (٣٠٢٦٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٩٠)،

وابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٤٥).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٥٤٦).

(٦) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٤٦).

تعالى: غَافِرُ الذَّنْبِ فَضْلًا، وَقَابِلُ التَّوْبِ وَغَدًا، شَدِيدُ الْعِقَابِ عَذْلًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ فَرْدًا، وقال ابن عباس: الطُّولُ: السَّعَةُ، والغنى^(١)، وتقلب الذين كفروا في البلاد: عبارة عن تَمَتُّعِهِم بِالْمَسَاكِينِ وَالْمَزَارِعِ وَالْأَسْفَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذَهُمْ» أي: لِيُهْلِكَوَهُ، كما قال تعالى: «فَأَخَذْتَهُمْ»، والعرب تقول لِلْقَتِيلِ: أَخَذَ، وَلِلْأَسِيرِ كَذَلِكَ؛ قال قتادة: «لِيَأْخُذُوهُ» مَغْنَاةً: لِيَقْتُلُوهُ^(٢)، و«لِيُدْحِضُوا» معناه لِيُزْلِقُوا وَيَذْهَبُوا، وَالْمَذْحَضَةُ: الْمَزْلَّةُ، وَالْمَزْلَقَةُ.

وقوله: «فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ»: تَعْجِيبٌ وَتَعْظِيمٌ، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر.

«وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

وقوله سبحانه: «وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» الآية، في مصحف ابن مسعود «وَكَذَلِكَ سَبَقَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ»^(٣) والمعنى: وَكَمَا أَخَذْتَ أَوْلَئِكَ الْمَذْكُورِينَ فَأَهْلَكْتَهُمْ، فكذلك حَقَّتْ كَلِمَاتِي عَلَى جَمِيعِ الْكُفَّارِ، مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَمَنْ تَأَخَّرَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ.

وقوله تعالى: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ...» الآية، أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِخَبْرٍ يَتَضَمَّنُ تَشْرِيفَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُعْظِمُ الرَّجَاءَ لَهُمْ، وَهُوَ ١١٤ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْحَامِلِينَ لِلْعَرْشِ وَالَّذِينَ/ حَوْلَ الْعَرْشِ؛ وَهَؤُلَاءِ أَفْضَلُ الْمَلَائِكَةِ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ لَهُمُ الرَّحْمَةَ وَالْجَنَّةَ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ، «كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَغَدًا مَسْنُورًا» [الفرقان: ١٦] أَي سَأَلْتُهُ الْمَلَائِكَةَ، قَالَ * ع^(٤) * : وَفَسَّرَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٩/١١) برقم: (٣٠٢٧١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٠/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٤٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٥/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠/١١) برقم: (٣٠٢٧٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩١/٤) عن ابن عباس، وابن عطية في «تفسيره» (٥٤٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٦/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٧/٤)، و«البحر المحيط» (٤٣٢/٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٧).

في هذه الآية المُجْمَل الذي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَسْتَغْفِرُ لَكَافِرٍ، وقد يجوز أن يُقَالَ: إِنَّ اسْتَغْفَارَهُمْ لَهُمْ بِمَعْنَى طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ، وبلغني أن رجلاً قال لبعض الصالحين: أَدْعُ لِي، وَاسْتَغْفِرْ لِي، فَقَالَ لَهُ: تَبْ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ اللَّهِ يَسْتَغْفِرْ لَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، وتلا هذه الآية، وقال مُطَرِّفُ بْنُ الشَّخِيرِ: وَجَدْنَا أَنْصَحَ الْعِبَادِ لِلْعِبَادِ الْمَلَائِكَةَ، وَأَعَشَّ الْعِبَادِ لِلْعِبَادِ الشَّيَاطِينُ^(١)، وتلا هذه الآية، وروى جابر؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ^(٢)، قال الداودِيُّ: وعن هارونَ بْنِ رِيَابٍ قَالَ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةٌ يَتَجَاوِبُونَ بِصَوْتٍ حَسَنٍ، فَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ عَلَى جِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، انتهى. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ [مَسِيرَةَ] سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»^(٣)، انتهى، وقد تقدّم.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ معناه: وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ

شَيْءٍ.

وقوله: «وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ»: رُوِيَ عَنْ سَعِيدٍ/ بْنِ جُبَيْرٍ فِي ١٤ ب ذلك: أَنَّ الرَّجُلَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَبْلَ قَرَابَتِهِ، فَيَقُولُ: أَتَيْنَ أَبِي؟ أَتَيْنَ أُمِّي، أَتَيْنَ ابْنِي، أَتَيْنَ زَوْجِي، فَيُلْحَقُونَ بِهِ؛ لِصَلَاحِهِمْ وَلْتَنْبِيهِهِ عَلَيْهِمْ، وَطَلَبِهِ إِيَّاهُمْ، وَهَذِهِ دَعْوَةُ الْمَلَائِكَةِ^(٤).

وقولهم: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ معناه: اجْعَلْ لَهُمْ وَقَايَةً تَقِيهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَاللَّفْظُ يَحْتَمِلُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣/١١) برقم: (٣٠٢٨٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٣/٤)،

وابن عطية في «تفسيره» (٥٤٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور»

(٦٤٩/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير.

(٢) أخرجه أبو داود (٦٤٥/٢) كتاب «السنّة» باب: في الجهمية والمعتزلة (٤٧٢٧)، والخطيب في «تاريخ

بغداد» (١٩٤/١٠ - ١٩٥) (٥٣٣٤).

وقال أبو نعيم في «الحلية» (١٥٨/٣): غريب من حديث محمد عن ابن عباس، لم نكتبه إلا من حديث

جعفر عن ابن عجلان، وحديث جابر قد رواه عن محمد غيره.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال «الصحيح».

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢/١١) برقم: (٣٠٢٨٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٣/٤)،

وابن عطية في «تفسيره» (٥٤٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٢/٤).

أَنْ يَكُونَ الدَّعَاءُ فِي أَنْ يَدْفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنْفُسَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى لَا يَنَالَهُمْ عَذَابٌ مِنْ أَجْلِهَا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الدَّعَاءُ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ اللَّاحِقِ مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَيَكُونُ فِي اللَّفْظِ عَلَى هَذَا حَذْفٌ مُضَافٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَقِهِمْ جَزَاءَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ الْفَخْرُ^(١): «وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ» يعني: مَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ رَحِمْتَهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٦) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَيَّيْنَا أَتَنَتَيْنِ فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية، رُوي أَنَّ هَذِهِ الْحَالُ تَكُونُ لِلْكَفَّارِ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا^(٢) فِيهَا مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَنَادَوْا بِمَلَايَكَةِ الْعَذَابِ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِخِ: لِمَقْتُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا؛ إِذْ كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ، أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ، هَذَا هُوَ مَعْنَى الْآيَةِ؛ وَبِهِ فَسَّرَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ^(٣)، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَقْتُ﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَامَ ابْتِدَاءٍ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَامَ قَسَمٍ، وَهُوَ أَصَوْبٌ، وَ﴿أَكْبَرُ﴾ خَبَرُ الْابْتِدَاءِ، وَأُخْتَلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِمْ: ﴿أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ...﴾ الآية، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَرَادُوا مَوْتَهُ كَوْنَهُمْ فِي الْأَصْلَابِ، ثُمَّ إِحْيَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِمَاتَتَهُمُ الْمَوْتُ الْمَعْرُوفُ، ثُمَّ إِحْيَاءَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ كَالَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا...﴾^(٤) [البقرة: ٢٨]

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٣٤/٢٧).

(٢) في د: ادخلوا.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣/١١) برقم: (٣٠٢٨٦) عن مجاهد، وبرقم: (٣٠٢٨٧) عن قتادة، وبرقم: (٣٠٢٨٩) عن ابن زيد، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٣/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٤٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٩/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن، ولعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤/١١) برقم: (٣٠٢٩٠) عن قتادة، وبرقم: (٣٠٢٩٢) عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٣/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٤٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٣/٤) عن ابن مسعود، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٠/٥)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، ولابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس، ولعبد بن حميد عن أبي مالك، ولعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة.

الآية، وقال السُّدِّيُّ: أرادوا أنه/ أحيَاهم في الدنيا، ثم أماتهم، ثم أحيَاهم في القبر وقت السؤال، ثم أماتهم فيه، ثم أحيَاهم في الحشر^(١)، قال * ع^(٢) *: هذا فيه الإحياء ثلاث مِرَارٍ، والأول أثبت، وهذه الآية متصلة المعنى بالتى قبلها، ويغد قولهم: ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ محذوف يدل عليه الظاهر، تقديره. لا إسعاف لطلبتكم، أو نحو هذا من الرد.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾
 ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مَّآيَتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾
 فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى العذاب الذي هم فيه، أو إلى مقتلهم أنفسهم أو إلى المنع والزجر والإهانة.

وقوله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده﴾ معناه بحالة توحيد ونفي لما سواه، كَفَرْتُمْ، وإن يُشْرَكَ به اللاآت والعزى وغيرهما، صدقتم، فالحكم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار لله؛ لا لتلك التي كنتم تُشركونها معه في الألوهية.

وقوله سبحانه: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين...﴾ الآية مخاطبة للمؤمنين أصحاب نبينا محمد ﷺ و«ادعوا» معناه: اعبدوا.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾
 ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا سَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿رفع الدرجات﴾ يحتمل أن يريد بالدرجات صفاته العلى، وعبر بما يقرب من أفهام السامعين، ويحتمل أن يريد: رفع الدرجات التي يغطيها للمؤمنين، ويتفضل بها على عباده المخلصين في جنّته، و«العرش» هو الجسم المخلوق الأعظم الذي السموات السبع والكرسي والأرضون فيه كالذنانير في الفلاة من الأرض.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥/١١) برقم: (٣٠٢٩٦)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٣/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٤٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٣/٤).
 (٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٩/٤).

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ قال الضَّحَّاك: الرُّوحُ هنا هو: الْوَحْيُ الْقُرْآنُ وغيره مما لَمْ يُثَلَّ^(١) وقال قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: الرُّوحُ: النُّبُوَّةُ^(٢) ومكانتها؛ كما قال تعالى: ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وَسَمَّى هذا رُوحاً؛ لَأَنَّهُ تَحْيَا بِهِ / الْأَمَمُ وَالْأَزْمَانُ كما يَحْيَا الْجَسَدُ بِرُوحِهِ، ويَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إلقاء الرُّوحِ عامّاً لِكُلِّ مَا يُنْعِمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُهْتَدِينَ فِي تَفْهِيمِهِ الْإِيمَانَ والمعقولات الشريفة، والمُنْذِرُ بِيَوْمِ التَّلَاقِ عَلَى هذا التَّأْوِيلِ هو اللَّهُ تعالى، قال الرَّجَّاجُ: الرُّوحُ كُلُّ مَا فِيهِ حَيَاةُ النَّاسِ، وَكُلُّ مُهْتَدٍ حَيٍّ، وَكُلُّ ضَالٍّ كَالْمَيِّتِ.

وقوله: ﴿مَنْ أَمْرِهِ﴾ إِنْ جَعَلْتَهُ جِنْساً لِلْأُمُورِ ف«مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ أَوْ لابتدَاءِ الْغَايَةِ، وَإِنْ جَعَلْتَ الْأَمْرَ مِنْ مَعْنَى الْكَلَامِ ف«مِنْ» إِمَّا لابتدَاءِ الْغَايَةِ، وَإِمَّا بِمَعْنَى الْبَاءِ، وَلَا تَكُونُ لِلتَّبْعِيضِ بَيِّنَةً، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «لَتُنْذِرَ» بِالتَّاءِ عَلَى مَخَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَرَأَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَجَمَاعَةٌ: «لَيُنْذِرَ»^(٣) بِالْيَاءِ، ﴿وَيَوْمَ التَّلَاقِ﴾ مَعْنَاهُ: تَلَاقِي جَمِيعِ الْعَالَمِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ يَتَّفَقْ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ مَعْنَاهُ فِي بَرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُقَرِّرُ هَذَا التَّقْرِيرَ، وَيَسْكُتُ الْعَالَمُ هَبِيئَةً وَجَزَعاً، فَيَجِيبُ - سُبْحَانَهُ - هُوَ نَفْسُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ثُمَّ يُعْلِمُ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْمَوْقِفِ أَنَّ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَبَاقِي الْآيَةِ تَكَرَّرَ مَعْنَاهُ، فَانْظُرْهُ فِي مَوَاضِعِهِ.

ثم أمر الله تعالى نبيه - عليه السلام - بِإِنْذَارِ الْعَالَمِ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ، وَ«الْآزِفَةُ»: الْقَرِيبَةُ مِنْ أَزَفِ الشَّيْءِ إِذَا قَرُبَ، وَ«الْآزِفَةُ» فِي الْآيَةِ: صِفَةُ لَمَحْذُوفٍ قَدْ عُلِمَ وَاسْتَقَرَّ فِي النَفُوسِ هَوْلُهُ، وَالتَّقْدِيرُ يَوْمَ السَّاعَةِ الْآزِفَةِ، أَوْ الطَّامَةِ: الْآزِفَةُ، وَنَحْوُ هَذَا.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦/١١) برقم: (٣٠٣٠١) عن الضحاك، وبرقم: (٣٠٣٠٠) عن قتادة، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٥٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧/١١) برقم: (٣٠٣٠٣) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٥٠/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٥١/٤)، و«البحر المحيط» (٤٣٧/٧)، و«الدر المصون» (٣٣/٦).

وقوله - سبحانه -: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ معناه: عندَ الحناجر، أي/ قد ١١٦
صَعِدَتْ من شِدَّةِ الهولِ والجزع، وَالكَاطِمُ الَّذِي يَرُدُّ غِيْظَهُ وَجَزَعَهُ فِي صَدْرِهِ، فمعنى الآية:
أَنَّهُمْ يَطْمَعُونَ فِي رَدِّ مَا يَجِدُونَهُ فِي الْحَنَاجِرِ، والحال تغالبهم، و﴿يطاع﴾ في مَوْضِعِ الصِّفَةِ
لـ﴿شَفِيع﴾؛ لأنَّ التَّقْدِيرَ: وَلَا شَفِيعَ مِطَاعٍ، قَالَ أَبُو حَيَّانَ^(١) ﴿يطاع﴾ في مَوْضِعِ صِفَةِ
لـ﴿شَفِيع﴾، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ عَلَى اللَّفْظِ، أَوْ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى
المَوْضِعِ، ثُمَّ يَحْتَمِلُ النَّفْيُ أَنْ يَكُونَ مُنْسَجَبًا عَلَى الوُضْفِ فَقَطْ، فَيَكُونُ ثُمَّ شَفِيعٌ، وَلَكِنَّهُ لَا
يُطَاعُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَنْسَجِبَ عَلَى الموصوفِ وصفته، أي: لَا شَفِيعَ فِيطَاعٍ، انتهى. وهذا
الاحتمالُ الأخير هو الصواب، قَالَ * ع^(٢) *: وَهَذِهِ الْآيَةُ كُلُّهَا عِنْدِي اعْتِرَاضٌ فِي الْكَلَامِ
بَلِيغٌ.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ١٩ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا
يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ٢٠ ﴿

وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿سَرِيعَ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] وقالت
فرقة: ﴿يَعْلَمُ﴾ مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦] وهذا قولٌ
حَسَنٌ يَقْوِيهِ تَنَاسُبُ الْمَعْنَيْنِ، وَيُضَعِّفُهُ بُعْدُ الْآيَةِ مِنَ الْآيَةِ وَكَثْرَةُ الْحَائِلِ، وَالْخَائِنَةُ: مُصَدِّرُ
كَالْخِيَانَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ ﴿خَائِنَةُ﴾ اسْمٌ فاعِلٌ، أي: يَعْلَمُ الْأَعْيُنُ إِذَا خَانَتْ فِي نَظَرِهَا،
قَالَ أَبُو حَيَّانَ^(٣): وَالظَّاهِرُ أَنَّ: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الموصوفِ، أي:
الْأَعْيُنِ الْخَائِنَةُ، كقوله: [البسيط]

وَأِنْ سَقَيْتَ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقَيْنَا^(٤)

أي: النَّاسَ الْكِرَامَ، وَجَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ ﴿خَائِنَةُ﴾ مُصَدَّرًا، كـ«العافية» أي: يَعْلَمُ خِيَانَةَ
الْأَعْيُنِ، انتهى، وَهَذِهِ الْآيَةُ عِبَارَةٌ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ - تَعَالَى - بِجَمِيعِ الْخَفِيَّاتِ، فَمِنْ ذَلِكَ كَسْرُ

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤٣٨/٧).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٥٢/٤).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٤٣٩/٧).

(٤) عجز بيت لبشامة بن حزن النهشلي صدره:

إنا محبوبك يا سلمى فحيناً

ينظر: «خزانة الأدب» (٣٠٢/٨)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ص: (١٠٠)، و«المقاصد

النحوية» (٣٧٠/٣)، و«البحر» (٤٥٧/٧)، و«الدر المصون» (١٣٦/٦)، والشاهد في قوله: «كرام

الناس» حيث أضاف الصفة إلى الموصوف.

الْخُفُونِ وَالْعَمَزُ بِالْعَيْنِ، أَوِ النَّظَرَةُ الَّتِي تُفْهِمُ مَعْنَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ [لأَصْحَابِهِ فِي شَأْنِ رَجُلٍ أَرْتَدَّ ثُمَّ جَاءَ يُسْلِمُ: «هَلَّا قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْكُمْ حِينَ تَلَكَأْتُ عَنْهُ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا؟» فَقَالَ ﷺ] ^(١): مَا يَنْبَغِي لِئَنِّي أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ» ^(٢)،
 ١٦ ب وفي بعض الكتب المنزلة مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ /: أَنَا مِرْصَادُ الْهَمَمِ أَنَا الْعَالِمُ بِمَجَالِ الْفِكْرِ وَكَسْرِ الْجُفُونِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ»: مُسَارَقَةُ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَجُوزُ ^(٣)، ثُمَّ قَوَّى تَعَالَى هَذَا الْإِخْبَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَخْفِي الصُّدُورُ﴾ مِمَّا لَمْ يَظْهَرْ عَلَى عَيْنٍ وَلَا غَيْرِهَا، وَأَسْنَدَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْخَطِيبِ عَنْ مَوْلَى أُمِّ مَعْبِدٍ الْخُرَاعِيَّةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ، وَعَمَلِي مِنَ الرِّيَاءِ، وَلِسَانِي مِنَ الْكَذِبِ، وَعَيْنِي مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» ^(٤)، انْتَهَى. قَالَ الْقُشَيْرِيُّ فِي: «التَّحْبِيرِ» وَمَنْ عَلِمَ أَطْلَاعَ الْحَقِّ - تَعَالَى عَلَيْهِ - يَكُونُ مُرَاقِبًا لِرَبِّهِ؛ وَعَلَامَتُهُ أَنْ يَكُونَ مُحَاسِبًا لِنَفْسِهِ، وَمَنْ لَمْ تَصِحَّ مُحَاسِبَتُهُ، لَمْ تَصِحَّ مُرَاقِبَتُهُ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَمَّا يَسْتَعِينُ بِهِ الْعَبْدُ عَلَى حِفْظِ الْبَصَرِ، فَقَالَ: يَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِعَلْمِهِ أَنَّ نَظَرَ اللَّهِ إِلَيْهِ سَابِقٌ عَلَى نَظَرِهِ إِلَى مَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ، انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أَي: يَجَازِي الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ وَالسَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، وَيُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْضِيَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَالْأَضْنَامُ لَا تَقْضِي بِشَيْءٍ، وَلَا تُنْفَذُ أَمْرًا، وَ﴿يَدْعُونَ﴾ مَعْنَاهُ: يَعْْبُدُونَ.

﴿أَوَّلَ مَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ^(٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تِلْكَ أَعْيُنُهُمْ رُؤُسُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ^(٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ^(٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْدَنَ وَفَرَّوْنَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ^(٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ^(٢٥) ﴿

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه النسائي (١٠٥/٧) كتاب «تحريم الدم» باب: الحكم في المرتد برقم: (٤٠٦٧)، والحاكم (٢/٥٤)، والدارقطني (٥٩/٣)، والبيهقي (٢٠٢/٨) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠/١١) برقم: (٣٠٣١٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٥/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٥٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٣/٥)، وعزه السيوطي لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٦٨/٥)، وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٨٤/٢) (٣٦٦٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٩/٥)، وعزه إلى الحكيم الترمذي.

وقوله سبحانه: ﴿أَو لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ الضميرُ في: ﴿يَسِيرُوا﴾ لكفارِ قُرَيْشٍ، والآثارُ في الأرضِ هي المباني والمآثرُ والصيْتُ الدُّنْيَوِيُّ، ودُّنُوبُهُمْ كَانَتْ تَكْذِيبُ الْأَنْبِيَاءِ، والواقِي الساترُ المانعُ؛ مأخوذٌ من الوَقَايَةِ، وباقي الآيةِ بَيِّنٌ، وَخَصَّ تَعَالَى هَامَانَ وَقَارُونَ بِالذِّكْرِ تَنْبِيْهًا عَلَى مَكَانِهِمَا مِنَ الْكُفْرِ؛ وَلَكُونِهِمَا أَشْهَرُ رَجَالٍ فِرْعَوْنَ، / وقيل: إِنْ قَارُونَ هَذَا لَيْسَ بِقَارُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقِيلَ: هُوَ ١١٧ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُنْقَطِعًا إِلَى فِرْعَوْنَ خَادِمًا لَهُ مُسْتَغْنِيًا مَعَهُ.

وقوله: ﴿سَاحِرٌ﴾ أَي: فِي أَمْرِ الْعَصَا، وَ﴿كَذَابٌ﴾ فِي قَوْلِهِ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِالنَّبُوءَةِ وَالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ قَالَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ وَأَجْمَعَ رَأْيَهُمْ عَلَى أَنْ يُقْتَلَ أَبْنَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَتْبَاعَ مُوسَى، وَشُبَّانُهُمْ وَأَهْلُ الْقُوَّةِ مِنْهُمْ، وَأَنْ يُسْتَخْيَا النِّسَاءُ لِلْخِدْمَةِ وَالْإِسْتِزْقَاقِ، وَهَذَا رَجُوعٌ مِنْهُمْ إِلَى نَحْوِ الْقَتْلِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ مِيلَادِ مُوسَى، وَلَكِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ لَمْ يَتِمَّ لَهُمْ فِيهِ عَزْمَةٌ، وَلَا أَعَانَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا قَتْلٌ غَيْرُ الْأَوَّلِ الَّذِي [كَانَ] حَذَرَ الْمَوْلُودِ^(١)، وَسَمَّوْا مَنْ ذَكَرْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْنَاءً؛ كَمَا تَقُولُ لِأَنْجَادِ الْقَبِيلَةِ أَوْ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ الظُّهُورِ فِيهَا: هَؤُلَاءِ أَبْنَاءُ فَلَانَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنِدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ عبارةٌ وَجِيزَةٌ تُعْطِي قُوَّتَهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ لَمْ يَقْدِرْهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَتْلِ أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا نَجَحَتْ لَهُمْ فِيهِمْ سِيَاعَةٌ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٢١) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٢) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٣) يَقُولُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا

(١) أخرج الطبري في «تفسيره» (٥٢/١١) برقم: (٣٠٣٢١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٥/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٥٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٤/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَفْقَهُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ ذَٰبِ قَوْمِ نُوحٍ وَكَادَ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَتَفْقَهُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُ أَلْسِنَةً حَثْصَةً وَمِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى...﴾ الآية، الظاهر من أمر فرعون أنه لما بهرتهم آيات موسى - عليه السلام - أنهذ ركنه، واضطربت معتقداً أصحابه، ولم يفقد منهم من يجاذبه الخلاف في أمره، وذلك بين من غير ما موضع من قصتهما، وفي هذه الآية على ذلك دليلاً:

أحدهما: قوله: ﴿ذروني﴾؛ فليست هذه من ألفاظ الجبارة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم.

والدليل الثاني: مقالة المؤمنين وما صدع به، وإن مكاشفته لفرعون أكثر من مسأرتيه، وحكمه بنو موسى أظهر من توريته في أمره، وأما فرعون فإنما نحا إلى المخرفة والتمويه والاضطراب، ومن ذلك قوله: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾ أي: إني لا أبالي برّب موسى، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم، فقال: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ والدين: السلطان؛ ومنه قول زهير: [البسيط]

لئن خللت بحَيٍّ في حني أسدٍ في دين عمرو وحالت بيننا فذاك^(١)

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ» وقرأ الباقون: «وَأَنْ يُظْهِرَ»^(٢)؛ فعلى القراءة الأولى: خاف فرعون أحد أمرين، وعلى الثانية: خاف الأمرين معاً، ولما سمع موسى مقالة فرعون دعا، وقال: ﴿إني عذت بربي وربكم...﴾ الآية، ثم حكى الله سبحانه مقالة رجل مؤمن من آل فرعون؛ شرفه بالذكر وخلد ثناءه في الأمم غابر الدهر، قال ع^(٣): * سمعت أبي - رحمه الله - يقول: سمعت أبا الفضل ابن الجوهري على المنبر يقول: وَقَدْ سُئِلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، فَأُطْرِقَ قَلِيلاً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَأَنشَدَ: [الطويل]

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٥٥/٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٥٦٩)، و«الحجة» (١٠٧/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٦٥)، و«معاني القراءات» (٢/٣٤٤)، و«شرح الطيبة» (٢٠٥/٥)، و«العنوان» (١٦٧)، و«حجة القراءات» (٦٢٩)، و«شرح شعلة» (٥٧٠)، و«إتحاف» (٤٣٦/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٥٥/٤).

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ مُقْتَدٍ^(١)
 مَاذَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمٍ قَرَنَهُمُ اللَّهُ بِنَبِيِّهِ، وَخَصَّهُمْ بِمُشَاهَدَةِ وَحْيِهِ، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى
 عَلَى رَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، كَتَمَ إِيمَانَهُ وَأَسْرَهُ، فَجَعَلَهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَأَثَبَتْ ذِكْرَهُ فِي
 الْمَصَاحِفِ، لِكَلَامِ قَالِهِ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْكُفْرِ، وَأَيُّنَ هُوَ مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
 - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -؛ إِذْ جَرَّدَ سَيْفَهُ بِمَكَّةَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ، لَا أَعْبُدُ اللَّهَ سِرًّا بَعْدَ الْيَوْمِ، قَالَ
 مُقَاتِلُ: كَانَ هَذَا الْمُؤْمِنُ ابْنُ عَمِّ فِرْعَوْنَ^(٢)، قَالَ الْفَخْرُ^(٣): قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّ لِفِرْعَوْنَ،
 وَكَانَ جَارِيًا مَجْرِيًّا وَلِيِّ الْعَهْدِ لَهُ، وَمَجْرِيٌّ صَاحِبُ السَّرِّ لَهُ، وَقِيلَ: كَانَ قَبْطِيًّا مِنْ قَوْمِ
 / فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ؛ لِأَن لَفْظَ الْآلِ يَقَعُ عَلَى
 الْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ، انْتَهَى.

قال الثعلبي: قال ابن عباس وأكثَرُ الْعُلَمَاءِ: كَانَ اسْمُهُ «حَزْقِيلَ»^(٤)، وَقِيلَ: حَزِيقَالُ،
 وَقِيلَ: غَيْرَ هَذَا، انْتَهَى.

وقوله: ﴿يَصْبِكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ قال أبو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ: ﴿بَعْضُ﴾ هُنَا بِمَعْنَى:
 «كُلٌّ»^(٥)، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ الْإِزَامُ الْحُجَّةُ بِأَيْسَرِ مَا فِي الْأَمْرِ^(٦)، وَلَيْسَ فِيهِ تَفْئِي إِصَابَةِ
 الْكُلِّ، قَالَ * ع^(٧) *: وَيُظْهَرُ لِي أَنَّ الْمَعْنَى: يُصْبِكُمْ الْقَسْمُ الْوَاحِدُ مِمَّا يَعْدُ بِهِ، [لِأَنَّهُ
 - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَعَدَهُمْ إِنْ آمَنُوا بِالنَّعِيمِ، وَإِنْ كَفَرُوا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا،
 فَالْعَذَابُ بَعْضُ مَا وَعَدَ بِهِ]^(٨)، وَقَوْلُ الْمُؤْمِنِ: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي
 الْأَرْضِ﴾ اسْتِثْنَالُ لَهُمْ وَوَعْظٌ.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يَرِيدُ أَرْضَ مِصْرَ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ تَقْتَضِي زَوَالَ هَيْبَةِ فِرْعَوْنَ؛

(١) البيت ذكره الخطابي في «العزلة» ص: (٦٩).

ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٥٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤/١١) برقم: (٣٠٣٢٣) عن السدي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٩٦).

وابن عطية في «تفسيره» (٥٥٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٧/٤).

(٣) ينظر: «الفخر الرازي» (٥٠/٢٧).

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٩٦/٤) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٥/٥)،

وعزاه لابن المنذر.

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٩٦/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٥٦/٤).

(٦) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٥٦/٤).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٥٦/٤).

(٨) سقط في: د.

ولذلك استنكَانَ هُوَ، وَزَاجَعَ بقوله: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ واختَلَفَ النَّاسُ مِنَ الْمُرَادِ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾، فقال الجمهور: هو الْمُؤْمِنُ الْمَذْكُورُ؛ فَصَّ اللَّهُ تَعَالَى أَقَاويله إلى آخر الآيات، وقالت فرقة: بَلْ كَلَامُ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ قَدْ تَمَّ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ تَعَالَى: ﴿بِالَّذِي آمَنَ﴾ مُوسَى - عليه السلام - مُخْتَجِينَ بِقُوَّةِ كَلَامِهِ، وَذَكَرَ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَغَيْرَ ذَلِكَ؛ وَلَمْ يَكُنْ كَلَامُ الْأَوَّلِ إِلَّا بِمَلَائِنَةٍ لَهُمْ.

وقوله: ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: مِثْلَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِمْ؛ لِأَنَّ عَذَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِ وَاحِدٍ، وَالْمُرَادُ بِالْأَحْزَابِ الْمُتَحَرِّضُونَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَ﴿مِثْلَ﴾ الثَّانِي: بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ، وَالدُّبُّ: الْعَادَةُ، «ويوم التنادي» معناه: يَوْمٌ يُنَادِي قَوْمٌ قَوْمًا، وَيُنَادِيهِمُ الْآخَرُونَ؛ وَاخْتَلَفَ فِي التَّنَادِي الْمُشَارَ إِلَيْهِ، فَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ نِدَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ، ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا^(١)﴾ [الأعراف: ٤٤] وقيل: هُوَ النِّدَاءُ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] قَالَ * ع^(٢) *: وَيَحْتَمَلُ/ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ التَّذْكِيرَ بِكُلِّ نِدَاءٍ فِي الْقِيَامَةِ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ؛ وَذَلِكَ كَثِيرٌ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ: «يَوْمَ التَّنَادِ» بِشَدِّ الدَّالِ^(٣)؛ وَهَذَا مَعْنَى آخَرُ لَيْسَ مِنَ النِّدَاءِ، بَلْ هُوَ مِنْ: نَدَّ الْبَعِيرُ: إِذَا هَرَبَ؛ وَبِهَذَا الْمَعْنَى فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ هَذِهِ^(٤) الْآيَةَ، وَزَوَّدَ هَذِهِ الْفِرْقَةُ، فِي هَذَا الْمَعْنَى حَدِيثًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا طَوَى السَّمَوَاتِ نَزَلَتْ مَلَائِكَةُ كُلِّ سَمَاءٍ، فَكَانَتْ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ مُسْتَدِيرَةً بِالْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا النَّاسُ لِلْحِسَابِ؛ فَإِذَا رَأَى الْخَلْقُ هَوْلَ الْقِيَامَةِ، وَأُخْرِجَتْ جَهَنَّمُ عِنَقًا إِلَى أَصْحَابِهَا، قَرَّ الْكُفَّارُ وَنَدُّوا مَذْبِرِينَ إِلَى كُلِّ جِهَةٍ، فَتَرَدُّهُمْ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْمَخْشَرِ؛ لَا عَاصِمَ لَهُمْ، وَالْعَاصِمُ: الْمُنْجِي.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦/١١) برقم: (٣٠٣٣١)، (٣٠٣٣٢) عن قتادة، (٣٠٣٣٣) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٥٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٦/٥)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ينظر: «المحور الوجيز» (٥٥٨/٤).

(٣) قرأ بها الكلبي.

ينظر: «المحتسب» (٢٤٣/٢)، و«الشواذ» ص: (١٣٣)، و«المحور الوجيز» (٥٥٨/٤)، و«البحر المحيط» (٤٤٤/٧)، وزاد نسبتها إلى ابن مقسم، والزعفراني. وهي في «الدر المصون» (٣٩/٦).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧/١١) برقم: (٣٠٣٣٥) عن الضحَّاك، (٣٠٣٣٦) عن السدي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٩٧/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٥٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٧٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٦/٥)، وعزاه لابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الضحَّاك.

فَلْتَمَنَّ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صِرْمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَضَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُورُوا أَهْلَكُمْ سَبِيلَ الرَّسَادِ ﴿٣٨﴾ يَقْتُورُوا إِنَّمَا هَؤُلَاءِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُتِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

وقوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف...﴾ الآية، قالت فرقة منهم الطبري^(١): يوسف المذكور هنا هو يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - ورؤي عن وهب بن ميثبه؛ أن فرعون موسى هو فرعون يوسف عمر إلى زمن موسى^(٢)، ورؤي أشهب عن مالك أنه بلغه أن فرعون عمر أربعين سنة وأربعين سنة، وقالت فرقة: بل هو فرعون آخر.

وقوله: ﴿كبر مقتاً﴾ أي: كبر مقتاً جدالهم عند الله، فأختصر ذكر الجدال؛ لدلالة تقدم ذكره عليه، وقرأ أبو عمرو وخذه: «على كل قلب» بالتنوين، وقرأ الباقر وغير تنوين^(٣)، وفي مصحف ابن مسعود^(٤): «على قلب [كل]»^(٥) متكبر جبار، ثم إن فرعون لما أغيتته الجبل في مقاومة موسى، نحا إلى المخارقة، ونادى هامان وزيره أن يبنني له صرحاً؛ فيزوي أنه طبخ الأجر لهذا الصرح، ولم يطبخ قبله، وبناء ارتفاع أربعين ذراع، فبعث الله جبريل فمسحه/ بجناحه، فكسره ثلاث كسر، تفرقت اثنتان، ووقعت ثالثة في البحر، ﴿والأسباب﴾ الطروق؛ قاله السدي^(٦)،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٨/١١).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٥٩/٤).

(٣) وقرأ بها: ابن ذكوان عن ابن عامر.

ينظر: «إعراب القراءات» (٢/٢٦٨)، و«حجة القراءات» (٦٣٠)، و«النسبة» (٥٧٠)، و«الحجة» (٦/

١٠٩)، و«معاني القراءات» (٢/٣٤٦)، و«شرح الطيبة» (٥/٢٠٦)، و«المعاني» (١٦٧)، و«شرح شملة» (٥٧١)، و«إتحاف» (٢/٤٣٧).

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/٥٥٩).

(٥) سقط في: د.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٦٠) برقم: (٣٠٣٤٢) عن أبي صالح، و (٣٠٣٤٣) عن السدي،

وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٦٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٨٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٥٧)، وعزه لعبد بن حميد عن أبي صالح.

وقال قتادة: أَرَادَ الأبوابَ^(١)، وقيل عَنَى لَعَلَّهُ يَجِدُ مَعَ قُرْبِهِ مِنَ السَّمَاءِ سَبِيًّا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

وَقَرَأَ حِمَزةً وَالْكَسَائِيَّ وَعَاصِمٌ: «وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ» - بضم الصاد وفتح الدال -، عطفًا على ﴿زَيْنٍ﴾، والباقون - بفتح الصاد^(٢) - والتَّابُ: الخسران؛ ومنه ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] وبه فَسَرَهَا مجاهدٌ وقاتدة^(٣)، ثم وعظهم الذي آمن، فدعا إلى آتباع أمر الله.

وقوله: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ يَقْوِي أَنَّ الْمُتَكَلَّمَ مُوسَى، وَإِنْ كَانَ الْآخَرُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، أَي: اتَّبِعُونِي فِي اتِّبَاعِ مُوسَى، ثُمَّ زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهَا شَيْءٌ يُتَمَتَّعُ بِهِ قَلِيلًا، وَرَعَبٌ فِي الْآخِرَةِ، إِذْ هِيَ دَارُ الْاسْتِغْرَارِ، قَالَ الْغَزَالِيُّ فِي «الْإِحْيَاءِ»: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَلْيَسْتَغْرِقْ أَوْقَاتِهِ فِي التَّلَاوَةِ وَالذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي حَسَنِ الْمَآبِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ تَرْجَحَ كِفَّةُ حَسَنَاتِهِ وَتَثْقُلَ مُوَازِينُ خَيْرَاتِهِ، فَلْيَسْتَوْعِبْ فِي الطَّاعَةِ أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ، فَإِنْ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَاغْمُرْهُ فِي خَطَرٍ، لَكِنَّ الرَّجَاءَ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، وَالْعَفْوُ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ مُنْتَظَرٌ، انْتَهَى.

﴿وَيَقْوِي مَا لِي أَتَعُوذُكُمْ إِلَى النَّارِ ۖ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَعِيَّاتٍ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِإِلَافِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۖ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠/١١) برقم: (٣٠٣٤٤)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٦٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٨٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٢) ينظر: «السبعة» (٥٧٠)، و«الحجة» (١١١/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٧٠/٢)، و«العنوان» (١٦٧)، و«حجة القراءات» (٦٣٢)، و«إتحاف» (٤٣٧/٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦١/١١) برقم: (٣٠٣٤٧) عن ابن عباس، وبرقم: (٣٠٣٤٨) عن مجاهد، و(٣٠٣٤٩) عن قتادة، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥٦٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٨٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة، ولأبْنِ الْمُنْذَرِ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُن تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِكْرَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ يَغْتَرِ سُلْطَانُ أَتْلَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة...﴾ الآية، قد تقدّم ذكر الخلاف، هل هذه المقالات لموسى أو لمؤمن آل فرعون، والدعاء إلى النجاة هو الدعاء إلى سببها؛ وهو توحيد الله تعالى وطاعته، وباقي الآية بين.

وقوله: ﴿أن ما تدعونني﴾ المعنى: وإن الذي تدعونني إليه من عبادة غير الله ليس له دعوة، أي: قدّر وحقّ يجب أن يدعى أحد إليه ثم توعدّهم بأنهم سيذكرون قوله عند حلول العذاب بهم، والضمير في ﴿وقاه﴾ يحتمل أن يعود على موسى، أو على مؤمن ١٩ ب آل فرعون؛ على ما تقدّم من الخلاف.

وقال القائلون بأنه مؤمن آل فرعون: إن ذلك المؤمن نجا مع موسى - عليه السلام - في البحر، وفّر في جملة من قرّ معه من المتبعين.

وقوله تعالى في آل فرعون: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً...﴾ الآية، قوله: ﴿النار﴾ رفع على البدل من قوله: ﴿سوء﴾ وقيل رفع بالابتداء، وخبره ﴿يعرضون﴾ قالت فرقة: هذا الغدو والعشي هو في الدنيا، أي: في كل غدو وعشي من أيام الدنيا يعرض آل فرعون على النار، قال القرطبي في «التذكرة»^(١): وهذا هو عذاب القبر في البرزخ، انتهى؛ وكذا قال الإمام الفخر^(٢)، وزوي في ذلك أن أرواحهم في أجواف طير سود تروح بهم وتغدو إلى النار؛ وقاله الأوزاعي^(٣) - عافانا الله من عذابه -، وخرج البخاري ومسلم عن

(١) ينظر: «التذكرة» (١/١٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٧/٦٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٦٦) برقم: (٣٠٣٧٠) عن الأوزاعي، وبرقم: (٣٠٣٦٨) عن الهذيل بن شرحبيل (٣٠٣٦٩) عن السدي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٩٩)، وابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٦٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٨٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥/٦٥٩)، وعزاه لابن أبي شبة، وهناد، وعبد بن حميد عن هذيل بن شرحبيل، ولعبد بن حميد عن الضحاك، ولعبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

ابن عمر؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، انتهى.

وقوله [تعالى] ﴿وَيَوْمَ [تقوم الساعة]^(٢)﴾ أي: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وآل فرعون: أَتْبَاعُهُ وَأَهْلُ دِينِهِ، والضمير في قوله: ﴿يَتَحَاجُّونَ﴾ لجميع كفار الأمم، وهذا ابتداء قصص لا يَخْتَصُّ بِآلِ فِرْعَوْنَ، والعامِلُ في: «إِذَا» فَعْلٌ مضمَرٌ، تقديره: أَذْكَرُ، ثم قال جميع مَنْ في النَّارِ لَحَزْنَتِهَا: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ فَرَجَعَتْهُمْ الْحَزْنَةُ عَلَى مَغْنَى التَّوْبِخِ والتَّعْزِيرِ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، فَأَقْرَ الْكُفَّارُ عِنْدَ ذَلِكَ، و﴿قَالُوا/ بلى﴾، أي: قَدْ كَانَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمُ الْحَزْنَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: ادْعُوا أَنْتُمْ إِذَنْ، وهذا على معنى الْهَزْءِ بِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ قيل: هو من قول الْحَزْنَةِ، وقيل: هو من قول اللَّهِ تعالى إخباراً منه لمُحَمَّدٍ - عليه السلام -، ثم أَخْبَرَ تعالى أَنَّهُ يَنْصُرُ رُسُلَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ دَاخِلٍ فِي نَصْرِ الرُّسُلِ، وَأَيْضاً، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْفَضْلَ وَدَا، وَوَهَبَهُمْ نَصْراً إِذَا ظَلِمُوا، وَحَضَّتِ الشَّرِيعَةُ عَلَى نَصْرِهِمْ؛ وَمِنَ قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ رَدَّ عَنْ أَخِيهِ فِي عِزِّهِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ»^(٣)،

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦/٣) كتاب «الجنائز» باب: الميت يعرض عليه مقعده بالغدَاة والعشي (١٣٧٩)، (٣٦٦/٦) كتاب «بدء الخلق» باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٠)، (٣٦٩/١١) كتاب الرقاق، باب: سكرات الموت (٦٥١٥)، ومسلم (٢١٩٩/٤) كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٦٥ - ٢٨٦٦/٦٦)، وابن حبان (٤٠٠ - ٤٠١)، كتاب «الجنائز» باب: ذكر الإخبار بأن أهل القبور تعرض عليهم مقاعدهم التي يسكنونها في كل يوم مرتين (٣١٣٠)، ومالك (٢٣٩/١) كتاب «الجنائز» باب: جامع الجنائز (٤٧)، وأحمد (١١٣/٢، ١١٦)، والترمذي (٣٧٥/٣) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء في عذاب القبر (١٠٧٢)، والترمذي (١٠٧/٤) كتاب «الجنائز» باب: وضع الجريدة على القبر (٢٠٧٢)، وابن ماجه (١٤٢٧/٢) كتاب «الزهد» باب: ذكر القبر والبلى (٤١٧٠)، والطيالسي (١٥٣/١) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء في حسن الظن بالله والكشف لكل إنسان عن مصيره (٧٣٦).

قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح.

(٢) في د: ويوم القيامة.

(٣) أخرجه البيهقي (١٦٨/٨) كتاب «قتال أهل البغي» باب: ما جاء في الشفاعة والذب عن عرض أخيه المسلم من الأجر، وأحمد (٤٥٠/٦)، والترمذي (٣٢٧/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في الذب عن عرض المسلم برقم: (١٩٣١)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥٠١/٣) كتاب «الأدب وغيره» باب: الترهيب من الغيبة والبهت وبيانهما، والترغيب في ردهما برقم: (٤١٩٤) عن أبي الدرداء

وقوله - عليه السلام -: «مَنْ حَمَى مُؤْمِناً مِنْ مُنَافِقٍ يَغْتَابُهُ، بَعَثَ اللَّهُ مَلَكاً يَحْمِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يريدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قال الزَّجَّاجُ^(٢)، و﴿الْأَشْهَادُ﴾: جَمْعُ شَهِيدٍ، وقال الطبري^(٣): جمع شهيد، كَشَرِيفٍ وَأَشْرَافٍ، و﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ، وَالْمَعْذَرَةُ، مَصْدَرٌ، كَالْعُذْرِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِقِصَّةِ مُوسَى وَمَا آتَاهُ مِنَ الثُّبُوءِ، تَأْنِيساً لِمُحَمَّدٍ، وَضَرْبَ أُسْوَةٍ وَتَذْكِيراً بِمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُهُ مِنْ أَمْرِ مُوسَى، فَبَيَّنَ ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرِّسَالِ، وَالْهُدَى: الثُّبُوءُ وَالْحِكْمَةُ؛ التَّوْرَةُ تُعَمُّ جَمِيعَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قال الطبري^(٤): ﴿الْإِبْكَارُ﴾: مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقِيلَ: مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى ارْتِفَاعِ الضُّحَى، وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿بِالْعِشِيِّ﴾ يَرِيدُ صَلَاةَ الْعَصْرِ، ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ يَرِيدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [أي: ليسوا على شيء، بل في صدورهم كِبَرٌ]^(٦) وَأَنْفَقَ عَلَيْكَ، ثُمَّ نَفَى أَنْ يَكُونُوا يَبْلُغُونَ أَمَالَهُمْ بِحَسَبِ ذَلِكَ الْكِبَرِ، ثُمَّ أَمَرَهُ تَعَالَى بِ۲٠ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ كُلِّ مُسْتَعَاذٍ مِنْهُ.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ^(٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ^(٥٩) ﴿

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾: فِيهِ تَوْبِيخٌ لِهَؤُلَاءِ

كلهم بنحوه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(١) أخرجه أبو داود (٦٨٧/٢) كتاب «الأدب» باب: من رد عن مسلم غيبته برقم: (٤٨٨٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣٧٧/١) برقم: (١١٩٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (٣٧٦/٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٧٠/١١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٧١/١١).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٠١/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (٥٦٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور»

(٥/٦٦١)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة.

(٦) سقط في: د.

الكفرة المتكبرين، كأنه قال: مخلوقات الله أكبر وأجل قَدْرًا مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ، فما لأحدٍ منهم يَتَكَبَّرُ على خالقه، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ في مَعْنَى الْبَغْثِ، وأن الذي خلقَ السموات والأرضَ قادِرٌ على خَلْقِ النَّاسِ تَارَةً أُخْرَى، والخلْقُ هنا: مَصْدَرٌ مضافٌ إلى المفعول، ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعادلهم قوله: ﴿ولا المسيء﴾ وهو اسمُ جنسٍ يعمُ المسيئين.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٦)

وقوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ آية تَفْضِيلٍ وَنِعْمَةٍ وَوَعْدٍ لَأَمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِجَابَةِ عِنْدَ الدُّعَاءِ؛ قال النووي: ورؤينا في «كتاب الترمذي» عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ [عَنْهُ] مِنَ الشَّوْءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَجِمَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذَنْ نُكْثِرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ»^(١). قال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «المستدرک» من رواية أبي سعيد الخدري، وزاد فيه: «أَوْ يَدْخِرَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَهَا»^(٢)، انتهى، قال ابنُ عَطَاءٍ اللّهُ: لَا يَكُنْ تَأَخَّرُ أَمَدَ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِبًا لِيَأْسِكَ؛ فَهُوَ ضَمَنٌ لَكَ الْإِجَابَةُ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ لَا فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ، انتهى، وعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي» رواه الجماعةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ^(٣): واللفظُ لِمُسْلِمٍ، انتهى من «السَّلاَحِ»، وقالت فرقة: معنى ﴿ادعوني﴾: أَعْبُدُونِي، و﴿أستجب﴾: معناه: بِالنَّصْرِ وَالثَّوَابِ؛ ويدلُّ على هذا قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي...﴾

(١) أخرجه الترمذي (٥٦٦/٥) كتاب «الدعوات» باب: في انتظار الفرج وغير ذلك، برقم: (٣٥٧٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٣/١) كتاب «الدعاء»، وأحمد (١٨/٣).

قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد، إلا أن الشيخين لم يخرجاه عن علي بن علي الرفاعي.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٥/١٣) كتاب «التوحيد» باب: قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وقوله عز وجل: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ برقم: (٧٤٠٥)، وطرفاه في (٧٥٠٥، ٧٥٣٧)،

ومسلم (٢٠٦١/٤) كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب: الحث على ذكر الله تعالى، برقم:

(٢٥٧٦/٢)، (٢٠٦٨/٤)، (٢٦٧٥/٢١)، والترمذي (٥٨١/٥) كتاب «الدعوات» باب: في حسن الظن

بالله عز وجل، برقم: (٣٦٠٣)، وأحمد (٢٥١/٢).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الآية، * ت * : وهذا التأويل غير صحيح، والأول هو الصواب - إن شاء الله -؛ للحديث الصحيح؛ فقد روى النعمان بن بشير - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة». وقرأ: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين»^(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وابن حبان في «صحيحيهما»؛ وقال الترمذي، - واللفظ له -: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، انتهى من «السلاح» والذاخر، الصاغر الدليل.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾ الآيات، هذا تنبيه على آيات الله وعبره، متى تأملتها العاقل أدته إلى توحيد الله سبحانه، والإقرار برُبوبيته، و﴿تؤفكون﴾ معناه: تُضَرَفُونَ عن طريق النظر والهدى، ﴿كذلك يؤفك﴾ أي: على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله تعالى الكفار الجاحدين بآيات الله من الأمم المتقدمة عن طريق الهدى.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رَّبِّكُمْ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلَ مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٤/٥ - ٣٧٥) كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة المؤمن، برقم: (٣٢٤٧)، وابن ماجه (١٢٥٨/٢)، كتاب «الدعاء» باب: فضل الدعاء، برقم: (٣٨٢٨)، وأحمد (٢٦٧/٤)، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٧، والطيايسي (٢٥٣/١) كتاب «الأذكار والدعوات» باب: ما جاء في فضل الدعاء وآدابه، برقم: (١٢٥٢)، والحاكم في «المستدرک» (٤٩١/١) كتاب «الدعاء»، وابن حبان (٣٢/٨) - الموارد باب: ما جاء في فضل الدعاء، برقم: (٢٣٩٦).

قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه شعبة، وجري عن منصور عن ذر. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ مِنْ نَفْسَةٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شِيوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلِ﴾ الآية، تنبيه على الوُحْدَانِيَّةِ بالعبرة في ابن آدم وتدرج خلقه.

٢١ ب وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلِ﴾ عبارة/ تُرَدَّدُ في الأذراج المذكورة، فمن الناس مَنْ يَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ طِفْلاً وَآخَرُونَ قَبْلَ الْأَشَدِّ، وَآخَرُونَ قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ، وَلَتَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى، أي: لِيَبْلُغَ كُلُّ وَاحِدٍ أَجْلاً مُسَمًّى لَا يَتَعَدَّاهُ، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الحقائق إِذَا نَظَرْتُمْ فِي هَذَا وَتَذَبَّرْتُمْ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَاجِدُلُونَ فِي مَآيَةِ اللَّهِ أَنَّهُ يُصْرَفُونَ﴾ (٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) فِي اللَّعِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنَّى كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَنَازِلَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧)

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية في الكُفَّارِ الْمُجَادِلِينَ فِي رِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَام - ﴿وَيَسْحَبُونَ﴾ معناه يُجْرُونَ، وَالسَّحْبُ: الْحَرْ، وَالْحَيِيمُ الذَّائِبُ الشَّدِيدُ الْحَرِّ مِنَ النَّارِ، وَ﴿يَسْجَرُونَ﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ^(١): مَعْنَاهُ تُوَقَّدُ النَّارُ بِهِمْ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: سَجَزْتُ الثَّنُورَ: إِذَا مَلَأْتُهُ نَاراً، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يُسْجَرُونَ: يَخْرَقُونَ^(٢)، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ: أَيْنَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُونَ: ضَلُّوا، أَيْ: تَلَفُوا لَنَا وَغَابُوا، ثُمَّ تَضَطَّرَبُ أَقْوَالُهُمْ وَيَفْرَعُونَ إِلَى الْكَذِبِ، فَيَقُولُونَ: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ ثُمَّ يَقَالُ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارِ الْمَعْذِينِ: ﴿ذَلِكَ﴾: الْعَذَابُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْمَعَاصِي وَالْكَفْرِ، وَ﴿تَمْرَحُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٧٨/١١) بِرَقْم: (٣٠٤٠١)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١٠٥/٤)، وَزَادَ نَسْبَهُ لِمُقَاتِلٍ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥٦٩/٤)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٦٧٠/٥)، وَعَزَاهُ لِلْفَرَايِبِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٧٨/١١) بِرَقْم: (٣٠٤٠٢)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥٦٩/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٧٩/١١) بِرَقْم: (٣٠٤٠٥)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (١٠٥/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥٧٠/٤)، =

وقوله تعالى: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ معناه: يقال لَهُمْ قبل هذه المحاورَة في أول الأمر: ادخلوا؛ لأنَّ هذه المخاطبة إنما هي بعد دخولهم، ثم آتسَ تعالى نبيّه، ووَعَدَهُ بقوله: ﴿فَأُصِبرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌ﴾ أي: في نصرِكَ وإظهار أمرِكَ؛ فإنَّ ذلك أمرٌ إما أن تَرَى بَغْضَهُ في حياتِكَ، فَتَقَرَّرَ عَيْنُكَ بِهِ، وإما أن تَمُوتَ قَبْلَ ذلك، فإِلَى أمرنا وَتَعْذِيبِنَا يَصِيرُونَ وَيَرْجِعُونَ.

قال أبو حيَّان^(١): «ما» في «إِذَا» زائدة لتأكيد معنى الشَّرْطِ، انتهى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨) **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** (٧٩) **وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ** (٨٠) **وَرَبِّكُمْ آيَاتِهِ فَآيَ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ** (٨١)

وقوله تعالى: / ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ هذه الآية رَدٌّ عَلَى العرب الذين استبعدوا أن يبعثَ اللَّهُ بشراً رسولاً.

وقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أمر الله قضى بالحق...﴾ الآية، يحتمل أن يريد بأمر الله القيامة، فتكون الآية توعداً لهم بالآخرة، ويحتمل أن يريد بأمر الله إرسال رسول وبغثة نبي قضى ذلك وأنفذه بالحق؛ وخسر كل مُبْطِل. * ت * : والأول أَيْبُنُ.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها...﴾ الآية، هذه آيات فيها عِبَرٌ وتعليمٌ نَعَم، و﴿الأنعام﴾: الأزواجُ الثمانية، و﴿منها﴾ الأولى للتبويض، وقال الطبري^(٢) في هذه الآية: الأنعام تَعْمُ الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وغير ذلك مما يُنْتَفَعُ به من البهائم، ف﴿منها﴾ في الموضعين عَلَى هذا للتبويض.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** (٨٣) **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا**

= والسبوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٧٠)، وعزاه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٤٥٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/٨٠).

يَا لِلّٰهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سَلَّتْ آلَهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا
أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون...﴾ الآية، هذا
احتجاج على قريش بما أظهر سبحانه في الأمم السالفة من نِقَمَاتِهِ في الكفار الذين كانوا أَكْثَرَ
منهم، وأشد قوة قال أبو حيان^(١): ﴿فما أغنى﴾ «مَا» نافية أو استفهامية بمعنى النفي،
انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ الآية، الضمير في (جاءتهم) عائذ
على الأمم المذكورة، واختلف المفسرون في الضمير في ﴿فرحوا﴾ على مَنْ يَعُودُ؟ فقال
مجاهد وغيره: هو عائذ على الأمم المذكورين^(٢)، أي: فرحوا بما عندهم من العلم في
ظَنُّهُمْ وَمُعْتَقَدِهِمْ من أنهم لا يَبْعَثُونَ ولا يحاسبون، قال ابن زيد: واعتروا بعلمهم بالدنيا
والمعاش، وظنوا أنه لا آخرة؛ ففرحوا^(٣)/ وهذا كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] وقالت فرقة: الضمير في ﴿فرحوا﴾ عائذ على الرُّسُلِ، وفي هذا التأويل
حَذَفَ وتقديره: فلما جاءتهم رسلهم بالبينات، كذبوهم ففرح الرُّسُلُ بما عندهم من العلم
باللَّهِ والثقة به، وبأنه سينصرونهم، والضمير في ﴿بهم﴾ عائذ على الكفار بلا خلاف، ثم
حكى سبحانه حالة بَعْضِهِمْ مِّمَّنْ آمَنَ بَعْدَ تَلَبُّسِ الْعَذَابِ بِهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ؛ وفي ذكر
هذا حض على المبادرة.

و﴿سُنَّتْ﴾ نصب على المصدر، * ت * : وقيل: المعنى: اخذوا سُنَّةَ اللَّهِ،
كقوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣] قَالَ الْفَخْرُ، وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾: اسْمُ مَكَانٍ مُّسْتَعَارٍ
لِلزَّمَانِ، أي: وخسروا وقت رؤية البأس، انتهى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه، وسلم تسليماً.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٤٥٧).

(٢) أخرجه الطبري (٨٢/١١) برقم: (٣٠٤١٣)، وذكره البغوي (٤/١٠٦)، وابن عطية (٤/٥٧١)،
وابن كثير في «تفسيره» (٨٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٧٠)، وعزاه لعبد بن حميد،
وابن المنذر عن مجاهد.

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٥٧١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَصَلَت

وَهِيَ مَحِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَذَّبَتْ فَضْلَتْ ءَايَتُهُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ ءَادَانَا وَقَدْ رَمِىْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَبَابًا فَاَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ مَمْنُونٌ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءُتَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ قَوْقَهَا وَنَزَلَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾

رُوي أَنَّ عُثْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ لِيَحْتَجَّ عَلَيْهِ، وَيَبَيِّنَ لَهُ أَمْرَ مُخَالَفَتِهِ لِقَوْمِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ عُثْبَةُ مِنْ كَلَامِهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»:
 ﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فَضَّلَتْ آيَاتُهُ ﴿٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [السجدة: ١٣] فَأَرْعَدَ الشَّيْخُ، وَقَفَّ شَعْرُهُ، وَأَمْسَكَ عَلَى فَمِ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَاشَدَهُ بِالرَّحِمِ أَنْ يُنْسِكَ^(١)، وَقَالَ جِبْنَ فَارَقَهُ: وَاللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ شَيْئًا مَا هُوَ بِالشَّعْرِ، وَلَا هُوَ بِالْكَهَانَةِ، وَلَا هُوَ بِالسَّحْرِ، وَلَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ صَاعِقَةَ الْعَذَابِ عَلَى رَأْسِي، وَ﴿الرحمن الرحيم﴾: صِفَتَا رَجَاءٍ وَرَحْمَةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَ﴿فُضِّلَتْ﴾ معناه بَيَّنَّتْ ﴿آيَاتُهُ﴾ أَي: فَسَّرَتْ مَعَانِيهِ، / فَفُضِّلَ بَيْنَ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، ١٢٣ وَقِيلَ: فَضِّلَتْ فِي التَّنْزِيلِ، أَي: نَزَلَ نَجُومًا، وَلَمْ يَنْزِلْ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَقِيلَ: فَضِّلَتْ بِالْمَوَاقِفِ وَأَنْوَاعِ أَوَاجِرِ الْآيِ، وَلَمْ يَكُنْ يَرْجِعُ إِلَى قَافِيَةٍ وَنَحْوِهَا؛ كَالسَّجْعِ وَالشَّعْرِ.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قالت فرقة: يعلمون الأشياء، ويعقلون الدلائل، فكان القرآن فَضِّلَتْ آيَاتُهُ لَهُؤْلَاءِ؛ إِذْ هُمْ أَهْلُ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا، فَخُصُّوا بِالذِّكْرِ؛ تَشْرِيفًا، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ:

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٧٣)، وعزاه إلى ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل»، وابن عساکر.

﴿يعلمون﴾: متعلق في المعنى بقوله: ﴿عريباً﴾ أي: لقوم يعلمون ألفاظه، ويتحققون أنها لم يخرج شيء منها عن كلام العرب، وكأن الآية على هذا التأويل رادة على من زعم أن في كتاب الله ما ليس في كلام العرب، والتأويل الأول أبين وأشرف معنى، ويبين أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب، إما من أصل لغتها، وإما مما عرّيته من لغة غيرها، ثم ذكر في القرآن وهو مُعَرَّبٌ مُسْتَعْمَلٌ.

وقوله تعالى: ﴿فهم لا يسمعون﴾ نفي لسماعهم النافع الذي يُعَدُّ به، ثم حكى عنهم مقالاتهم التي باعدوا فيها كل المباحة، وأرادوا أن يؤسوه من قبولهم ما جاء به، وهي: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وأكنة: جمع كنان، والوقر: الثقل في الأذن الذي يمنع السمع.

وقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين﴾ الذين لا يؤتون الزكاة... الآية: قال الحسن: المراد بالزكاة: زكاة المال^(١)، وقال ابن عباس والجمهور: الزكاة في هذه الآية: لا إله إلا الله التوحيد^(٢)؛ كما قال موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨] ويرجع هذا التأويل أن الآية مكيّة، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة؛ وإنما هذه زكاة القلب والبدن، أي: تطهيره من المعاصي؛ وقاله مجاهد والربيع^(٣)، وقال الضحاك ومقاتل: معنى الزكاة هنا: النفقة في الطاعة^(٤)، و﴿غير ممنون﴾ قال ابن عباس: معناه: غير منقوص^(٥)، وقالت فرقة: معناه: غير مقطوع؛ يقال: مَنَنْتُ الحبل: إذا قَطَعْتُهُ، وقال مجاهد: معناه: غير محسوب^(٦)، قال ع^(٧): * ويظهر في الآية أنه وصفه بعدم المن والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى، فهو شريف لا من فيه، وأعطيات البشر هي التي يدخلها المن، والأنداد: الأشباه والأمثال، وهي إشارة إلى كل ما عُدَّ من دُونِ الله.

(١) أخرجه الطبري (٨٦/١١) برقم: (٣٠٤٢٤) عن قتادة، وذكره البغوي (١٠٧/٤) آية رقم: (٧)، وذكره ابن عطية (٤/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨٦/١١) برقم: (٣٠٤٢٢)، وذكره البغوي (١٠٧/٤)، وابن عطية (٥/٥)، وابن كثير (٩٢/٤) ط الحلبي، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٥/٥)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٣) ذكره ابن عطية (٥/٥).

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٠٨/٤)، وابن عطية (٥/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٨٦/١١) برقم: (٣٠٤٢٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٠٨/٤)، وابن عطية (٥/٥).

(٦) أخرجه الطبري (٨٦/١١) برقم: (٣٠٤٢٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٠٨/٤) آية رقم: (٨)، وابن عطية (٥/٥).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٥).

وقوله تعالى: ﴿وبارك فيها﴾ أي: جعلها منبئةً للطَّيِّبَات والأطعمة، وجعلها طهوراً إلى غير ذلك من وجوه البركة، وفي قراءة ابن مسعود: «وَقَسَمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا»^(١) واختلَف في معنى قوله: ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ فقال السُّدِّيُّ: هي أقواتُ البَشَرِ وأَرْزَاقُهُمْ، وأضافها إلى الأرض، من حيث هي فيها وَعَنْهَا^(٢)، وقال قتادة: هي أقواتُ الأرض: من الجبال، والأنهار، والأشجار، والصُّخُور، والمعادن، والأشياء التي بها قِوَامُ الْأَرْضِ وَمَصَالِحُهَا^(٣)، وروى ابنُ عباس في هذا حديثاً مرفوعاً، فسبَّهها بالقُوَّة الذي به قِوَامُ الحيوان، وقال مجاهدٌ أراد أقواتَهَا من المَطَرِ والمياه، وقال الضَّحَّاكُ وغيره: أراد بقوله: ﴿أَقْوَاتَهَا﴾: خصائصها التي قَسَمَهَا في البلاد من المَلْبُوسِ والمَطْعُومِ^(٤)، فجعل في بَلَدٍ وفي قُطْرٍ ما ليس في الآخر، لِيَحْتَاجَ بعضُهُمْ إِلَى بعضٍ، وَيَتَقَوَّتَ مِنْ هَذِهِ فِي هَذِهِ، وهذا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿في أربعة أيام﴾ يريد: باليومين الأولين، وقرأ الجمهور: «سَوَاءً» بالنصب على الحال^(٥)، أي: سَوَاءٌ هي وما أَنْقَضَى فيها، وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاعِ: «سَوَاءً»^(٦) - بالرفع -، أي: هِيَ سَوَاءٌ، وقرأ الحسن^(٧): «سَوَاءٌ» بالخفض على نعت الأيام، واختلَف في معنى: «للسائلين»: فقال قتادة معناه: سواءَ لِمَنْ سَأَلَ وَأَسْتَفْهَمَ/ عن الأمرِ ١٢٤ وحقِيقَةُ وُقُوعِهِ، وأراد العِبْرَةَ فيه، فَإِنَّهُ يَجِدُهُ^(٨)، كما قال تعالى، وقال ابن زيد وجماعة: معناه: مستوٌ مُهَيَّأٌ أمر هذه المخلوقات ونَفْعُهَا للمحتاجين إِلَيْهَا من البشر، فَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِـ«السَّائِلِينَ» بمعنى «الطالبيين»؛ لِأَنَّهُ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَلَا بُدَّ طَلَبٍ ما يَنْتَفِعُونَ بِهِ، فَهَمَّ فِي حُكْمٍ مَنْ سَأَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، إِذْ هُمْ أَهْلُ حَاجَةٍ إِلَيْهَا، وَلَفْظَةُ «سَوَاءً» تَجْرِي مَجْرَى عَذْلِ وَزُورٍ، فِي أَنْ تَرَدَّ عَلَى الْمَفْرُودِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤنَّثِ.

- (١) ينظر: «الكشاف» (١٨٨/٤)، و«المحرر الوجيز» (٦/٥).
- (٢) أخرجه الطبري (٨٩/١١) برقم: (٣٠٤٣٦)، وذكره ابن عطية (٦/٥).
- (٣) أخرجه الطبري (٨٩/١١) برقم: (٣٠٤٣٨ - ٣٠٤٣٩)، وذكره ابن عطية (٦/٥).
- (٤) أخرجه الطبري (٩٠/١١) برقم: (٣٠٤٤٦)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٠٨/٤) آية رقم: (١٠)، وابن عطية (٦/٥).
- (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/٥)، و«البحر المحيط» (٤٦٥/٧)، و«الدر المصون» (٥٧/٦).
- (٦) وذكرت عن يعقوب.
- ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٦/٥)، و«البحر المحيط» (٤٦٥/٧).
- (٧) وقرأ بها عيسى، وابن أبي إسحاق، وعمرو بن عبيد، وزيد بن علي، ويعقوب.
- ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/٥)، و«البحر المحيط» (٤٦٥/٧)، و«الدر المصون» (٧٥/٦).
- (٨) أخرجه الطبري (٩١/١١) برقم: (٣٠٤٤٨ - ٣٠٤٤٩)، وذكره ابن عطية (٦/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦٧٧/٥)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ معناه: بقدرته واختراعه إلى خلق السماء وإيجادها.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ دَخَانٌ﴾ رُوي: أنها كانت جسماً رخواً؛ كالدُّخَانِ أَوْ البُّخَارِ، وَرُوي: أَنَّهُ مِمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضَعَدَ مِنَ الْمَاءِ، وَهنا محذوف، تقديره: فأوجدَهَا، وأتقنها، وأكمل أمرَهَا، وحينئذ قال لها وللأرض ائتيا بمعنى ائتيا أمري وإرادتي فيكما، وقرأ ابن عباس: «آتِيَا»^(١) بمعنى: أعطيا مِنْ أَنْفُسِكُمَا من الطاعة ما أَرَدْتُهُ مِنْكُمَا^(٢)، والإشارة بهذا كله إلى تسخيرهما وما قَدَرَهُ اللَّهُ من أعمالهما.

وقوله: ﴿أَوْ كَرِهَا﴾ فيه محذوف تقديره آتِيَا طَوْعاً وَإِلَّا أَتَيْتُمَا كرهاً.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتَا﴾ أراد الفرقتين جعل السمواتِ سماءً والأرضين أرضاً، وأُخْتُلِفَ في هذه المقالة مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، هَلْ هُوَ نُطْقٌ حَقِيقَةٌ أَوْ هُوَ مَجَازٌ؟ لما ظهر عليها من التذلل والخضوع والانقياد الذي يتنزل منزلة النطق، قال * ع^(٣) *: والقول الأول: أَنَّهُ نُطْقٌ حَقِيقَةٌ - أَحْسَنُ؛ لَأَنَّهُ لَا شَيْءَ يَدْفَعُهُ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِهِ أَتَمُّ وَالْقُدْرَةُ فِيهِ أَظْهَرُ.

﴿فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَوَّلَ يُرَآءُ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدِثُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ معناه: فَصَنَعَهُنَّ وَأَوْجَدَهُنَّ، ومنه قول أبي ذؤيب:

[الكامل]

ب ٢٤ وَعَلَيْهِمَا / مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغَ تَبِعَ^(٤)

(١) وقرأ بها سعيد بن جبير، ومجاهد.

ينظر: «المحتسب» (٢/٢٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/٧)، و«البحر المحيط» (٧/٤٦٦)، و«الدر المصون» (٦/٥٨).

(٢) أخرجه الطبري (١١/٩٢) برقم: (٣٠٤٥٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٠٩) آية رقم (١١)، وابن عطية (٥/٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٧).

(٤) وهو لأبي ذؤيب «في سر صناعة الإعراب» (٢/٧٦٠)، و«شرح أشعار الهذليين» (١/٣٩)، و«شرح المفصل» (٣/٥٩)، و«لسان العرب» (٨/٣١) (تبع)، (٨/٢٠٩) (صنع)، (١٥/١٨٦) (قضى)، و«المعاني الكبير» ص: (١٠٣٩)، وبلا نسبة في «شرح المفصل» (٣/٥٨).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال مجاهد وقتادة: أَوْحَىٰ إِلَىٰ سُكَّانِهَا وَعَمَّرَئِهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَإِلَيْهَا هِيَ فِي نَفْسِهَا - مَا شَاءَ تَعَالَى - مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي بِهَا قَوَّامُهَا وَصَلَّاحُهَا^(١).

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جَمِيعِ ما ذكر، أي: أَوْجَدَهُ بِقُدْرَتِهِ، وَأَحْكَمَهُ بِعِلْمِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني: قريشاً، والعرب الذين دَعَوْتُهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ وقرأ الثَّخَعِيُّ وغيره: ﴿صَعِقَةً﴾ فيهما^(٢)، وهذه قراءة بَيِّنَةُ المعنى؛ لِأَنَّ الصَّعِقَةَ الْهَلَاكُ الْوَحْيُ، وَأَمَّا الْأَوَّلَىٰ فَهِيَ تَشْبِيهُ بِالصَّاعِقَةِ، وَهِيَ الْوَقْعَةُ الشَّدِيدَةُ مِنْ صَوْتِ الرَّعْدِ، فَشَبَّهَتْ هُنَا وَقْعَةَ الْعَذَابِ بِهَا؛ لِأَنَّ عَادًا لَمْ تُعَذَّبْ إِلَّا بِرِيحٍ، وَإِنَّمَا هَذَا تَشْبِيهُ وَأَسْتِعَارَةٌ، وَعِبَارَةُ الثَّخَلْبِيِّ: ﴿صَاعِقَةً﴾ أَي: وَاقِعَةٌ وَعَقُوبَةٌ مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ، انْتَهَى، قَالَ * ع^(٣) * وَخَصَّ عَادًا وَثُمُودَ بِالذِّكْرِ؛ لَوْ قُوفِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ بِلَادِهَا فِي الْيَمَنِ وَفِي الْحِجْرِ فِي طَرِيقِ الشَّامِ، قَالَ الثَّخَلْبِيُّ: وَ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني: قَبْلَهُمْ وَبَعْدَهُمْ، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّذَارَةَ عَمَتَهُمْ خَبَرًا وَمُبَاشَرَةً، وَقَالَ * ع^(٤) * قوله: ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أَي: جَاءَهُمْ رَسُولٌ بَعْدَ اكْتِمَالِ أَعْمَارِهِمْ وَبَعْدَ تَقَدُّمِ وَجُودِهِمْ فِي الزَّمَنِ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ وَلَا يَتَوَجَّهَ أَنْ يَجْعَلَ ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ عِبَارَةً عَمَّا أَتَىٰ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَلْحَقُهُمْ مِنْهُ تَقْصِيرٌ.

* ت * وما تقدم للثَّخَلْبِيِّ وغيره أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ مَقْصِدَ الْآيَةِ اتِّصَالَ النَّذَارَةِ بِهِمْ وَبِمَنْ قَبْلَهُمْ وَبِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ إِذْ مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَفِيهَا نَذِيرٌ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلْنَا تَنَرَاءُ...﴾ [المؤمنون: ٤٤] وَأَيْضًا فَإِنَّهُ جَمَعَ فِي اللَّفْظِ عَادًا وَثُمُودَ وَبِالضَّرُورَةِ أَنَّ/ الرِّسُولَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَىٰ ثُمُودَ هُوَ بَعْدَ عَادٍ، فَلَيْسَ لِرَدِّ * ع * وَجْهٌ؛ فَتَأَمَّلْهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٩٢/١١ - ٩٣) بِرَقْم: (٣٠٤٥٥ - ٣٠٤٥٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٧/٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ (٩٣/٤) وَلَمْ يَعْزِزْ لِأَحَدٍ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٦٧٨/٥)، وَعَزَاهُ إِلَىٰ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَالْفَرَّابِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) وَرَأَى بِهَا: ابْنُ الزَّبِيرِ، وَالسَّلْمِيُّ، وَابْنُ مُحِيسَنٍ.
يَنْظُرُ: «مَخْتَصَرُ الشَّوَّازِ» ص: (١٣٤)، وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٨/٥)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ» (٤٦٨/٧)، وَ«الدَّرُّ الْمَصُونُ» (٥٩/٦).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٨/٥).

(٤) يَنْظُرُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَجَيْنَا آلَ لَيْثٍ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلِدْنَا لِهَذَا لَعْنَتًا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيهِ تَرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا...﴾ الآية، تقدم قصص هؤلاء، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير: ﴿نَحْسَاتٍ﴾ - بسكون الحاء^(١)، وهي جمع «نَحْس» وقرأ الباقون: ﴿نَحْسَاتٍ﴾ - بكسر الحاء - جمع «نَحْسٍ» على وزن حَذِرٍ، والمعنى في هذه اللفظة: مشائيم من النَحْس المعروف، قاله مجاهد وغيره^(٢)، وقال ابن عباس: ﴿نَحْسَاتٍ﴾ معناه مُتَابِعَاتٍ^(٣)، وقيل: معناه: شديدة، أي: شديدة البرد.

وقوله تعالى: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ معناه: بَيَّنَّا لَهُمْ؛ قاله ابن عباس وغيره، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام مُبَيَّنَّةٌ لليهود والنصارى الْمُخْتَلِطِينَ بنا، ولكنهم يعرضون ويشتغلون بالضد، فذلك أَسْتَحْبَابُ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، و﴿العذاب الهون﴾ هو الذي معه هَوَانٌ وإِذْلَالٌ؛ قال أبو حيان^(٤): «الهون» مضدٌّ بمعنى «الهَوَانِ»، وَصِفَ به العذاب، انتهى، و﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ هم الكفار المخالفون لأمر الله سبحانه، و﴿يُوزَعُونَ﴾ معناه: يُكْفَى أَوْلَهُمْ حَسَباً على آخرهم؛ قاله قتادة، والسُّدِّيُّ^(٥)، وأهل اللغة، وهذا وصف حال من أحوال الكفرة في بعض أوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جَهَنَّمَ، فإنه سبحانه يستقرهم عند ذلك على أنفسهم، ويسألون سؤالَ توبيخ عن كفرهم فيجحدون، ويحسبون أن لا شاهد

(١) ينظر: «السبعة» (٥٧٦)، و«الحجة» (١١٦/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٧٥)، و«إعراب القراءات» (٢/٣٥١)، و«شرح الطيبة» (٥/٢١٠)، و«العنوان» (١٦٩)، و«حجة القراءات» (٦٣٥)، و«شرح شعلة» (٥٧٢)، و«إتحاف» (٢/٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (٩٦/١١) برقم: (٣٠٤٦٨)، (٣٠٤٧٠) عن مجاهد، (٣٠٤٧١) عن السدي، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٩/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٩٥/١١) برقم: (٣٠٤٦٧)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٩/٥)، وابن كثير (٤/٩٥) ولم يعزه لأحد.

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٤٧١).

(٥) أخرجه الطبري (٩٨/١١ - ٩٩) برقم: (٣٠٤٨٣ - ٣٠٤٨٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١١٢) آية رقم (١٩)، وابن عطية (١٠/٥).

عليهم، ويطلبون شهيداً عليهم من أنفسهم، وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ الْعَبْدَ - يَغْنِي الْكَافِرَ - يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَيْسَ وَعْدَتِي أَلَّا تَظْلِمَنِي؟ قَالَ: فَإِنَّ ذَلِكَ لَكَ، قَالَ: فَإِنِّي لَا أَقْبِلُ عَلَى شَاهِدٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، قَالَ فَيُخْتَمَ عَلَى فِيهِ، وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُنَّ: بُعْدًا لَكُنَّ، وَسُخْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَدَافِعُ»^(١) / الحديث، قال أبو حَيَّان^(٢): ﴿حتى إذا ٢٥ ب ما جاءوها﴾: «ما» بعد «إذا» زائدة للتوكيد، انتهى.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ (٢٣) ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٢٤) ﴿وَقَضَيْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَقَيْنَاهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وما كنتم تستترون﴾ يحتمل أن يكون من كلام الجلود، ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل، وجمهور الناس على أن المراد بالجلود الجلود المعروفة، وأما معنى الآية فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يريد وما كنتم تتصاونون وتَحْجِزُونَ أَنْفُسَكُمْ عن المعاصي والكفر؛ خوف أن يشهد، أو لِأَجْلِ ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ...﴾ الآية، وهذا هو مَنْحَى مجاهد^(٣)، والمعنى الثاني أن يريد: وما يمكنكم ولا يَسْعُكُمْ الاختفاء عن أَعْضَائِكُمْ، والاستتار عنها بِكُفْرِكُمْ ومعاصيكم، وهذا هو مَنْحَى السُّدِّي^(٤)، وعن ابن مسعود قال: «إِنِّي لَمَسْتَرٌّ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، إِذْ دَخَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: قُرَشِيَّانِ وَتَقْفِيَّيَّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيَّيَّ، قَلِيلٌ فَفَهُ قُلُوبُهُمْ، كَثِيرٌ شَخْمٌ بَطُونُهُمْ، فَتَحَدَّثُوا بِحَدِيثٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَرَى اللَّهَ يَسْمَعُ مَا قُلْنَا؟ فَقَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِذَا رَفَعْنَا، وَلَا يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ كُلُّهُ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ﴾، وقرأ حتى بلغ: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾»^(٥).

(١) ينظر: «الدر المنثور» (٣٥/٥).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٤٧١/٧).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١١/٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٠٠/١١) برقم: (٣٠٤٩٣)، وابن عطية (١١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٨٠).

(٥) أخرجه البخاري مختصراً (٤٢٤/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ (٤٨١٦)، (٤٢٤/٨ - ٤٢٥) =

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زَيْد في آخر: «مُخْتَصَرِ الْمُدَوَّنَةِ» له: واعلم أنَّ [الأجساد التي أطاعت أو عصت، هي التي تُنْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِشَجَارَتِي، والجلود التي كانت في الدنيا، والألسنة]^(١)، والأيدي، والأرجل هي التي تشهد عليهم يوم القيامة على مَنْ تشهد، انتهى.

قال القرطبي في «تذكرته»^(٢): واعلم أنَّ عند أهل السنة أنَّ تلك الأجساد الدُّنْيَوِيَّةُ تُعَادُ بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم في ذلك، انتهى، ومعنى «أرداكم»: أهلككم، والرَّدَى: الهلاك؛ وفي صحيح «البخاري» و«مسلم» عن جابر قال: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ قبل وفاته ثلاث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣) وذكره ابن أبي الدنيا في «كتاب حسن الظنِّ بالله عز وجل»، وزاد فيه: «فَإِنْ قَوْمًا قَدْ أَزْدَاهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَزْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾» انتهى، ونقله أيضاً صاحب «التذكرة».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ مخاطبة للنبي ﷺ والمعنى: فَإِنْ يَصْبِرُوا أَوْ لَا يَصْبِرُوا، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ معناه: وَإِنْ طَلَبُوا الْعُتْبَى، وهي الرضا فما هم ممن يُعْطَاهَا وَيَسْتَوْجِبُهَا؛ قال أبو حيان^(٤): قراءة الجمهور: «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» مبنياً للفاعل^(٥)، و: ﴿مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ مبنياً للمفعول، أي: وَإِنْ يَعْتَدِرُوا فما هم من المَعْدُورِينَ، انتهى.

= كتاب «التفسير» باب: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَزْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٨١٧)، (٥٠٤/١٣) كتاب «التوحيد» باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٥٢١)، و«مسلم» (٢١٤١/٤) كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» باب: (٢٧٧٥/٥)، وابن حبان (١١٦/٢) كتاب «البر والإحسان» باب: الإخلاص وأعمال السر (٣٩٠)، والحميدي (٤٧/١) (٨٧)، والترمذي (٣٧٥/٥) كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة حم السجدة، (٣٢٤٨ - ٣٢٤٩)، وأحمد (٣٨١/١)، وأحمد (٤٠٨، ٤٢٦، ٤٤٢، ٤٤٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

- (١) سقط من: د.
- (٢) ينظر: «التذكرة» (٢٢٧/١).
- (٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤/٤) كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث (٢٨٧٧/٨١) من حديث جابر.
- (٤) ينظر: «البحر المحيط» (٤٧٢/٧).
- (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢/٥)، و«البحر المحيط» (٤٧٢/٧)، و«الدر المصون» (٦٤/٦).

ثم وصف تعالى حالهم في الدنيا وما أصابهم به حين أعرضوا، فحُتّم عليهم، فقال: ﴿وَقَيضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾، أي: يَسْرُنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ سَوْءٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَغَوَاةِ الْإِنْسِ.

وقوله: ﴿فَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عَلَّمُوهُمْ، وَقَرَّرُوا لَهُمْ فِي نَفْسِهِمْ مَعْتَقَدَاتٍ سَوْءٍ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَقَدَّمَتْهُمْ مِنْ أَمْرِ الرُّسُلِ وَالنَّبُوءَاتِ، وَمَذَحَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَاتَّبَاعَ فِعْلِ الْأَبَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُقَالُ: إِنَّهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَذَلِكَ كُلُّ مَا تَقَدَّمَهُمْ فِي الزَّمَنِ، وَاتَّصَلَ إِلَيْهِمْ أَثَرُهُ أَوْ خَبْرُهُ، وَكَذَلِكَ أَعْطَوْهُمْ مَعْتَقَدَاتٍ سَوْءٍ فِيمَا خَلْفَهُمْ، وَهُوَ كُلُّ مَا يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنَ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: سَبَقَ عَلَيْهِمُ الْقَضَاءُ الْحَتْمُ، وَأَمَرَ اللَّهُ بِتَغْذِيهِمْ فِي جَمَلَةٍ أَمَمٍ مُعَذِّبِينَ، كُفَّارٍ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ.

وقالت فرقة: «في» بمعنى «مع»، أي: مع أمم، قال * ع^(١): * والمعنى/ يتأدى ب٢٦ بالحرفين، ولا نحتاج أن نجعل حرفاً بمعنى خزف، إذ قد أبى ذلك رؤساء البصريين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٢٦) ﴿فَلَنَذِقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آصَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩)

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن...﴾ الآية: حكاية لما فعله بعض كفار قريش، كأبي جهل وغيره، لما خافوا استمالة القلوب بالقرآن، قالوا: متى قرأ محمد فالغطوا بالصفيير والصياح وإنشاد الشعر؛ حتى يخفى صوته، فهذا الفعل منهم هو اللغو، وقال أبو العالية: أرادوا: قَعُوا فِيهِ وَعَيَّبُوهُ، وقولهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: تطمسون أمر محمد، وتُمَيِّتُونَ ذَكَرَهُ، وَتَضْرِفُونَ عَنْهُ الْقُلُوبَ، فهذه الغاية التي تمنوها، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وقوله تعالى: ﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً...﴾ الآية، قوله: ﴿فلنذيقن﴾: الفاء دخلت على لام القسم، وهي آية وعيد لقريش، والعذاب الشديد: هو عذاب الدنيا في بذرٍ وغيرها، والجزاء بأسوا أعمالهم هو عذاب الآخرة.

* ت * حَدَّثَ أَبُو عَمَرَ فِي «كِتَابِ التَّمْهِيدِ» قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ قَاسِمٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى بْنِ جَمِيلٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا

عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، قال: حدثنا العتكي. قال: حدثنا خالد أبو يزيد الرقي عن يحيى المدني، عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: خرجت مرة، فمررت بقبر من قبور الجاهلية، فإذا رجل قد خرج من القبر، يتأجج ناراً، في عنقه سلسلة، ومعني أداة من ماء، فلما رأيته قال: يا عبد الله، أسقني، قال: فقلت: عرّفي، فدعاني باسمي، أو كلمة تقولها العرب: يا عبد الله، إذ خرج على أثره رجل من القبر، فقال: يا عبد الله، لا تسقه، فإنه كافر، ثم أخذ السلسلة فأجذبته، فأدخله القبر. قال: ثم أضافني الليل إلى بيت عجوز، إلى جانبها قبر، فسمعت من القبر صوتاً يقول: / بول وما بول، شن وما شن، فقلت للعجوز: ما هذا؟ قالت: كان زوجاً لي، وكان إذا بال لم يتقّ البول، وكنت أقول له: ونحك! إنَّ الجمّل إذا بال تفاج، وكان يأبى، فهو ينادي من يوم مات: بول وما بول، قلت: فما الشن؟ قالت: جاء رجل عطشان فقال: أسقني! فقال: دونك الشن، فإذا لبس فيه شيء؛ فخرّ الرجل ميتاً، فهو ينادي منذ مات: شن وما شن، فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته، فنهى: أن يسافر الرجل وخذه. قال أبو عمر: هذا الحديث في إسناده مجهولون، ولم نوردّه للاحتجاج به؛ ولكن للاعتبار، وما لم يكن حكم، فقد تسامح الناس في روايته عن الضعفاء، انتهى من ترجمة عبد الرحمن بن حزملة، وكلامه على قول النبي ﷺ: «الشيطان بهم بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم بهم بهم»^(١) وقد ذكرنا الحكاية الأولى عن الزائلي في سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ بغير هذا السند، وأن الرجل الأول هو أبو جهل، انتهى، ثم ذكر تعالى مقالة كفار يوم القيامة إذا دخلوا النار؛ فإنهم يرون عظيم ما حلّ بهم وسوء متعلّ بهم، فتجول أفكارهم فيمن كان سبب غوايتهم ومبادي ضلالتهم، فيعظم غيظهم وحنقهم عليه، ويودّون أن يخلص في أشدّ عذاب، فحينئذ يقولون: ﴿ربنا أرنا اللذين أضلانا﴾ وظاهر اللفظ يقتضي أن الذي في قولهم: ﴿اللذين﴾ إنما هو للجنس، أي: أرنا كل مغو من الجن والإنس، وهذا قول جماعة من المفسرين.

وقيل: طلبوا ولد آدم الذي سنّ القتل والمعصية من البشر، وإبليس الأبالسة من الجن، وهذا قول لا يخفى ضعفه، والأوّل هو/ القوي، وقولهم: ﴿نجعلهما تحت أقدامنا﴾ يريدون في أسفل طبقة في النار؛ وهي أشدّ عذاباً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾

(١) أخرجه مالك (٩٧٨/٢) كتاب «الاستئذان» باب: ما جاء في الوحدة في السفر للرجال والنساء (٣٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١٨/٣).
قال الهيثمي: رواه البزار وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف.

وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا فَشَتْتِهِيَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَلَّ مِنْ عَفْوَِرٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ قال سفيان بن عبد الله الثَّقَفِيُّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِأَمْرِ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: «قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِيمْ»^(١).

* ت * : هذا الحديث خَرَّجَهُ مسلم في «صحيحه»، قال صاحب «المُفْهَم»: جوابه ﷺ من جوامع الكلم، وكأنَّه مُنْتَزَعٌ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ الآية، وتلخيصه: اعتدَلُوا على طاعته قولاً وفِعْلاً وعقداً، انتهى من «شرح الأربعين حديثاً» لابن الفاكهاني، قال * ع^(٢) * : واخْتَلَفَ النَّاسُ في مقتضى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فذهب الحسن وجماعةٌ إلى أَنَّ معناه: اسْتَقَامُوا بالطاعاتِ وأجتنابِ المعاصي، وتلا عَمْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - هذه الآية على المُنْبَرِ، ثم قال: استقاموا - واللَّهِ - بطاعته، ولم يروغوا روغانِ الثَّعَالِبِ، قال * ع^(٣) * : فذهب - رحمه الله - إلى حَمَلِ الناس على الاتِّمِّ الأَفْضَلِ، وإلَّا فيلزم على هذا التأويل من دليل الخطاب أَلَّا تَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ الموت على غير مستقيم على الطاعة، وذهب أبو بكر - رضي الله عنه - وجماعةٌ معه إلى أَنَّ المعنى: ثم: استقاموا على قولهم: رَبُّنَا اللَّهُ، فلم يختل توحيدُهُمْ، ولا أَضْطَرَبَ إيمانهم، قال * ع^(٤) * : وفي الحديث الصحيح: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٥)

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢/١) - الأبي كتاب «الإيمان» باب: جامع أوصاف الإسلام (٣٨/٦٢)، والترمذي (٦٠٧/٤) كتاب «الزهد» باب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٠)، وابن ماجه (١٣١٤/٢) كتاب «الفتن» باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٢)، والدارمي (٢٩٨/٢) كتاب «الرقاق» باب: في حفظ اللسان، وابن حبان (٢٣٧/٨) - الموارد (٢٥٤٣)، وأخرجه الحاكم (٣١٣/٤)، والطبراني (٧٨/٧) (٦٣٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٥/١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٣٤/٩) (٤٨٧٧).

وأخرجه ابن حبان (٢٢١/٣ - ٢٢٢) كتاب «الرقائق» باب الأدعية: ذكر ما يجب على المرء من سؤال الباري تعالى الثبات والاستقامة على ما يقربه إليه بفضل الله علينا بذلك (٩٤٢)، بلفظ: «قل أمنت بالله...» الحديث، وأحمد (٤١٣/٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثَّقَفِي.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤/٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤/٥).

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٥١/١، ٥٠٠)، وأبو داود (٢٠٧/٢) كتاب «الجنائز» باب: في التلقين برقم: (٣١١٦)، وأحمد (٢٣٣/٥، ٢٤٧) من حديث معاذ بن جبل.

وهذا هو الْمُعْتَقَدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وذلك أَنَّ الْعَصَاةَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهَا فَرَقَتَانِ: فَأَمَّا مَنْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَتَرَكَ تَعْذِيبَهُ، فَلَا مُحَالَةَ أَنَّهُ مِمَّنْ / تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْبَشَارَةِ، وَهُوَ إِنَّمَا اسْتِقَامَ عَلَى تَوْحِيدِهِ فَقَطُّ، وَأَمَّا مَنْ قَضَى اللَّهُ بِتَعْذِيبِهِ مُدَّةً، ثُمَّ [يَأْمُرُ] بِإِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ، فَلَا مُحَالَةَ أَنَّهُ يَلْقَى جَمِيعَ ذَلِكَ عِنْدَ مَوْتِهِ وَيَعْلَمُهُ، وَلَيْسَ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ حَالُهُ كَحَالَةِ الْكَافِرِ وَالْيَائِسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا فَقَدْ حَصَلَتْ لَهُ بَشَارَةٌ بِالْأَيَّامِ بِخُذِّ الْخُلُودِ، وَلَا يَحْزَنُ مِنْهُ، وَيَدْخُلُ فِيْمَنْ يَقَالُ لَهُمْ: ﴿أَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَوَعْدُونَ﴾ وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَلَا يَخْتَلِفُ فِي أَنَّ الْمُوَحِّدَ الْمُسْتَقِيمَ عَلَى الطَّاعَةِ أَتَمَّ حَالًا وَأَكْمَلَ بَشَارَةً، وَهُوَ مَقْصِدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَبِالْجُمْلَةِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْمَرْءُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا، كَانَ أَسْرَعَ فَوْزًا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أَيُّ: عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا﴾ قَالَ وَكِيعٌ: وَالبُشْرَى فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَعِنْدَ الْبَعْثِ، وَفِي الْبَخَارِيِّ: ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أَيُّ: عِنْدَ الْمَوْتِ^(١)، انْتَهَى، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٢): ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَنَا أَقُولُ: كُلُّ يَوْمٍ، وَأَوْكَدَ الْأَيَّامَ: يَوْمُ الْمَوْتِ، وَحِينَ الْقَبْرِ، وَيَوْمُ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَفِي ذَلِكَ آثَارٌ بَيِّنَاتُهَا فِي مَوْضِعِهَا، انْتَهَى، قَالَ ع^(٣): * قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أَمَنَةٌ عَامَّةٌ فِي كُلِّ هَمٍّ مُسْتَأْنَفٍ، وَتَسْلِيَةٌ تَامَّةٌ عَنْ كُلِّ فَائِتٍ مَاضٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَى: لَا تَخَافُونَ مَا تَقْدُمُونَ عَلَيْهِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا خَلَفْتُمْ مِنْ دُنْيَاكُمْ.

= قَالَ الْحَاكِمُ (٣٥١/١): هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يَخْرُجْ، وَقَدْ كُنْتُ أَمْلَيْتُ حِكَايَةَ أَبِي زُرْعَةَ وَآخِرَ كَلَامِهِ كَانَ سِيَاقُهُ هَذَا الْحَدِيثَ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَلْخِصِ الْعَبِيرِ» (٢١١/٢) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ»، أَعْلَهُ ابْنُ الْقَطَّانِ بِصَالِحِ بْنِ أَبِي عَرِيبٍ، وَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ، وَتَعَقَّبَ بِأَنَّهُ رَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَانَ فِي «الثَّقَاتِ».

وَفِي الْبَابِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَانَ (٤٦٣/٢) - الْمَوَارِدُ (٩١٧) نَحْوَهُ، وَابْنُ حَبَانَ (٧/٢٧٢) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ: فَصْلُ فِي الْمَحْتَضَرِّ، ذَكَرَ الْعِلَّةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أُمِرَ بِهَذَا الْأَمْرِ (٣٠٠٤)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ فِي «الْمَصْنُفِ» (٣٨٧/٣) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ: تَلْقِنَةُ الْمَرِيضِ (٦٠٤٥) نَحْوَهُ.

وَأَخْرَجَهُ مُخْتَصَرًا: مُسْلِمٌ (٦٣١/٢) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ: تَلْقِينُ الْمَوْتَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٩١٧/٢)، وَأَبُو يَعْلَى (٤٤/١١) (٤٤٤/٣٤٤) (٦١٨٤)، وَابْنُ مَاجَهَ (٤٦٤/١) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ: مَا جَاءَ فِي تَلْقِينِ الْمَيِّتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (١٤٤٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٣٨٣/٣) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ: مَا يَسْتَحِبُّ مِنْ تَلْقِينِ الْمَيِّتِ إِذَا حَضَرَ، وَابْنُ الْجَارُودِ فِي «الْمُنْتَقَى» (١٣٦)، (٥١٣).

(١) يَنْظُرُ: «صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ» (٤١٨/٨) كِتَابُ «التَّفْسِيرِ» بَابُ: سُورَةُ حَمِّ السَّجْدَةِ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْأَحْكَامُ» (١٦٦١/٤).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١٥/٥).

* ت * وذكر أبو نُعَيْمٍ عن ثابتِ البُنَانِيِّ أَنَّهُ قرأ: حم السجدة حَتَّى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، فوقف، وقال: بلغنا أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ حِينَ يَبْعَثُ مِنْ قَبْرِهِ يَتَلَقَّاهُ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ كَانَا مَعَهُ فِي الدُّنْيَا، فيقولانِ لَهُ: لَا تَخَفْ، وَلَا تَحْزَنْ، وَأَبشِرْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتَ تُوعَدُ، قال: فَأَمَّنَ اللَّهُ خَوْفَهُ، وَأَقَرَّ عَيْنَهُ، الحديث^(١). انتهى. قال ابن المبارك في «رقائقه»: سمعتُ سفيانَ يَقُولُ في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: أي عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾: ما أمامكم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: على ما خلفتم من ضَيَعَاتِكُمْ ﴿وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قال: يُبَشِّرُ^(٢) بثلاثِ بشاراتٍ: عند الموت، وإذا خرج من القبر، وإذا فَرَّغَ، ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: كانوا معهم، قال ابن المبارك: وأخبرنا رَجُلٌ عن منصورٍ، عن مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: قُرْنَاؤُهُمْ يَلْقَوْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقولون: لا نفارقُكُمْ حَتَّى تدخلوا الجنة، اهـ.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ المتكلم به ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ هم الملائكة القائلون: ﴿لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق: نحن كُنَّا أَوْلِيَاءُكُمْ فِي الدُّنْيَا، ونحن هُمُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ قال السُّدِّيُّ: المعنى: نحن حَفَظْتُكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْآخِرَةِ^(٣)، والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائذٌ على الآخرة، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تَطْلُبُونَ؛ قال الفَخْرُ^(٤): ومعنى كونهم أَوْلِيَاءَ للمؤمنين، إشارةٌ إلى أَنَّ للملائكة تأثيراتٍ في الأرواح [البشرية، بالإلهاماتِ والمُكَاشَفَاتِ اليَقِينِيَّةِ والمُنَاجَاتِ الْخَفِيَّةِ؛ كما أَنَّ للشياطين تأثيراتٍ في الأرواح]^(٥) بِإِلْقَاءِ الْوَسَاوِسِ، وبالجملَةِ، فَكُونُ الْمَلَائِكَةِ أَوْلِيَاءَ لِلأرواحِ الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرَةِ، حَاصِلٌ مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ مَعْلُومَةٍ لِأَرْبَابِ الْمَكَاشَفَاتِ وَالْمَشَاهِدَاتِ، فَهُمُ يَقُولُونَ: كما أَنَّ تلكَ الْوَلَايَاتِ حَاصِلَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَهِيَ تَكُونُ بَاقِيَةً فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ تِلْكَ الْعِلَاقَ ذَاتِيَّةً/ لازمة، غير ماثلة إلى الزوال؛ بل تصير بعد الموت أَقْوَى وَأَبْقَى؛ وذلك لِأَنَّ جَوْهَرَ النَّفْسِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ، وَهِيَ كَالشُّغْلَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَطْرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَحْرِ، وَإِنَّمَا التَّعْلُقَاتُ الْجَسَدَانِيَّةُ

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٣/٥)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) في د: يبشروهم.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٩/١١) برقم: (٣٠٥٣٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١١٤/٤)، وابن عطية (٥/١٥).

(٤) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١٠٦/١٤).

(٥) سقط في: د.

والتدبيرات البدنية هي الحائلة بينها وبين الملائكة، فإذا زالت تلك العلائق، فقد زال الغطاء، واتصل الأثر بالمؤثر، والقطرة بالبحر، والشعلة بالشمس، انتهى.

* ت * : وقد نقل الثعلبي من كلام أرباب المعاني هنا كلاماً كثيراً حسناً جذاً، موقظاً لأرباب الهمم، فأنظره إن شئت، وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده عن النبي ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا فَنِيَتْ أَيَّامُ الدُّنْيَا عَنْ هَذَا الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ مَنْ يَتَوَقَّاهَا، قَالَ: فَقَالَ صَاحِبَاهُ اللَّذَانِ يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ عَمَلَهُ: إِنَّ هَذَا قَدْ كَانَ لَنَا أَخًا وَصَاحِبًا، وَقَدْ حَانَ الْيَوْمُ مِنْهُ فِرَاقُ، فَأَذْنُوا لَنَا، أَوْ قَالَ: دَعُونَا نُنْشِ عَلَى أَحِبَّنَا، فَيُقَالُ: أَثْنِيَا عَلَيْهِ، فَيَقُولَانِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، وَرَضِي عَنْكَ، وَغَفَرَ لَكَ، وَأَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ؛ فَنِعْمَ الْأَخُ كُنْتَ وَالصَّاحِبُ؛ مَا كَانَ أَيْسَرَ مُؤْتَنِكَ، وَأَحْسَنَ مَعُونَتِكَ عَلَى نَفْسِكَ، مَا كَانَتْ خَطَايَاكَ تَمْنَعُنَا أَنْ نَضَعَدَ إِلَى رَبِّنَا، فَتُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ، وَتُقَدَّسَ لَهُ، وَتُسَجَّدَ لَهُ، وَيَقُولَ الَّذِي يَتَوَقَّى نَفْسَهُ: أَخْرُجْ أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ إِلَى خَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ، فَنِعْمَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ، أَخْرُجْ إِلَى الرُّوحِ وَالرِّيحَانِ وَجَنَاتِ النَّعِيمِ وَرَبِّ عَلَيْكَ غَضَبَانِ، وَإِذَا فَنِيَتْ أَيَّامُ الدُّنْيَا عَنِ الْعَبْدِ الْكَافِرِ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ مَنْ يَتَوَقَّاهَا، فَيَقُولُ صَاحِبَاهُ اللَّذَانِ كَانَا يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ عَمَلَهُ: إِنَّ هَذَا قَدْ كَانَ لَنَا صَاحِبًا، وَقَدْ حَانَ مِنْهُ فِرَاقُ/، فَأَذْنُوا لَنَا، وَدَعُونَا نُنْشِ عَلَى صَاحِبِنَا، فَيُقَالُ: أَثْنِيَا عَلَيْهِ فَيَقُولَانِ: لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ عَلَيْهِ، وَلَا غَفَرَ لَهُ، وَأَدْخَلَهُ النَّارَ فَبُئِسَ الصَّاحِبُ؛ مَا كَانَ أَشَدَّ مُؤْتَنَةً، وَمَا كَانَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ؛ إِنْ كَانَتْ خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ لَتَمْنَعُنَا أَنْ نَضَعَدَ إِلَى رَبِّنَا فَتُسَبِّحَ لَهُ، وَتُقَدَّسَ لَهُ، وَتُسَجَّدَ لَهُ، وَيَقُولَ الَّذِي يَتَوَقَّى نَفْسَهُ: أَخْرُجْ أَيُّهَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ إِلَى شَرِّ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ، فَبُئِسَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ، أَخْرُجْ إِلَى الْحَمِيمِ وَتَضْلِيلَةِ الْجَحِيمِ وَرَبِّ عَلَيْكَ غَضَبَانِ»^(١)، انتهى.

ب ٢٩

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا سَتَوَى الْحَسَنَةَ وَلَا الْسَيِّئَةَ أَدْفَعُ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية ابتداء توصية لنبيه عليه السلام -، وهو لفظ يعُمُّ كلَّ مَنْ دعا قديماً وحديثاً إلى الله عزَّ وجلَّ من الأنبياء والمؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن قولاً ممَّنْ هذه حاله، وإلى العموم ذهب الحسن

(١) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٤٠ - ٤١) باب: ما يبشر به الميت عند الموت، وثناء الملكين عليه.

ومقاتل وجماعة^(١)، وقيل: إِنَّ الآية نزلت في المؤذنين، وهذا ضعيف؛ لأن الآية مكية، والأذان شريعت بالمدينة، قال أبو حيان^(٢): ﴿ولا السيئة﴾ «لا» زائدة للتوكيد، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ آية جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الجلم، والمعنى: أدفع ما يعرض لك مع الناس في مخالطتهم بالفعل أو بالسيرة التي هي أحسن، قال ابن عباس: أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والجلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل المؤمنون ذلك، عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، «كانه ولي حميم»^(٣) البخاري: «ولي حميم» أي: قريب، انتهى،، وفسر مجاهد وعطاء هذه الآية بالسلم عند اللقاء^(٤)، قال * ع^(٥) *: ولا شك أن السلام هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن، وهو جزء منه، والضمير في قوله: ﴿يلقاها﴾ عائد على هذه الخلق التي يقتضيها قوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾، وقالت فرقة: / المراد: وما يلقي «لا» إله إلا الله، وهذا تفسير لا يقتضيه اللفظ.

وقوله سبحانه: ﴿إلا الذين صبروا﴾: مدح بليغ للصابرين، وذلك بين للمتأمل؛ لأن الصبر على الطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها، والحظ العظيم: يحتمل أن يريد من العقل والفضل؛ فتكون الآية مدحاً للمتمصيف بذلك، ويحتمل أن يريد: ذو حظ عظيم من الجنة وثواب الآخرة، فتكون الآية وعداً، وبالجنة فسر قتادة الحظ هنا^(٦).

﴿وَمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ آتِلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْكَبُوا فَإَلْذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١٠٩ - ١١٠) برقم: (٣٠٥٣٩) عن الحسن، و (٣٠٥٤٠) عن قتادة بنحوه، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ١١٤) عن الحسن، وابن عطية (٥/ ١٥).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤٧٦).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ١١١) برقم: (٣٠٥٤٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ١١٥)، وابن عطية في «تفسيره» (٥/ ١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٨٥)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ١١١) برقم: (٣٠٥٤٥ - ٣٠٥٤٦)، وذكره ابن عطية (٥/ ١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٨٥)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٦).

(٦) أخرجه الطبري (١١/ ١١٢) برقم: (٣٠٥٤٩)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ١١٥)، وابن عطية (٥/ ١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٨٥)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد.

يَسْمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الْأَشْيَاطَ لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ «إمّا»: شرط وجواب الشرط قوله: ﴿فاستعذ﴾ والنزغ: فعل الشيطان في قلب أو يد من إلقاء غضب، أو حقد، أو بطش في اليد.

فمن الغضب هذه الآية، ومن الحقد قوله: ﴿نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، ومن البطش قول النبي ﷺ: «لَا يُشْرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ؛ لَا يَنْزِعُ الشَّيْطَانُ فِي يَدِهِ فَيُلْقِيهِ فِي حُفْرَةٍ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»^(١). ومن دعاء الشيخ الولي العارف بالله سبحانه، محمد بن مسرة القرطبي: اللَّهُمَّ، لَا تَجْعَلْ صَدْرِي لِلشَّيْطَانِ مَرَاغًا، وَلَا تُصَيِّرْ قَلْبِي لَهُ مَجَالًا، وَلَا تَجْعَلْنِي، مِمَّنْ اسْتَفْزَهُ بِصَوْتِهِ، وَأَجْلَبَ عَلَيْهِ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، وَكُنْ لِي مِنْ حَبَائِلِهِ مُنْجِيًا، وَمِنْ مَصَائِدِهِ مُنْقِذًا، وَمِنْ غَوَايَتِهِ مُبْعِدًا، اللَّهُمَّ إِنَّهُ وَسَّوسَ فِي الْقَلْبِ، وَأَلْقَى فِي النَّفْسِ مَا لَا يَطِيقُ اللِّسَانُ ذِكْرَهُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ النَّفْسُ نَشْرَهُ مِمَّا نَزَّهَكَ عَنْهُ غُلُوُّ عِزِّكَ، وَسُمُوُّ مَجْدِكَ، فَأَزِلْ يَا سَيِّدِي مَا سَطَرَ، وَأَمْحُ مَا زَوَّرَ بِوَابِلٍ مِنْ سَحَابِ عَظَمَتِكَ وَطُوفَانٍ مِنْ بَحَارِ نُصْرَتِكَ، وَأَسْلُلْ عَلَيْهِ سَيْفَ إِبْعَادِكَ، وَأَرْشُقْهُ بِسَهَامِ إِقْصَائِكَ، وَأُخْرِفْهُ بِنَارِ / أَنْتِقَامِكَ، وَاجْعَلْ خَلَاصِي مِنْهُ زَائِدًا فِي حُزْنِهِ، وَمُؤَكِّدًا لِأَسْفِهِ، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: اعْلَمْ ب ٣٠ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ الْعَبْدُ فِي خَلْقِهِ مُشْتَغَلًا بِتَلَاوَتِهِ، وَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَسْوسَةِ مَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، حَتَّى لَا يَجِدَ لَطْعَمَ الذِّكْرِ حَلَاوَةً، وَيَجِدُ فِي قَلْبِهِ قَسَاوَةً، وَرُبَّمَا اعْتَرَاهُ ذَلِكَ مَعَ الْجَاهِدِ فِي قِرَاءَتِهِ؛ وَعِلَّةُ ذَلِكَ أَنَّ الذِّكْرَ ذِكْرَانِ: ذِكْرُ خَوْفٍ وَرَهْبَةٍ، وَذِكْرُ أَمْنٍ وَغَفْلَةٍ، فَإِذَا كَانَ [الذِّكْرُ بِالْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ، خَسَسَ الشَّيْطَانُ، وَلَمْ يَحْتَمِلِ الْحَمَلَةَ، وَأَذْهَبَ الْوَسْوسَةُ؛ لِأَنَّ الذِّكْرَ إِذَا كَانَ]^(٢) بِاجْتِمَاعِ الْقَلْبِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ، لَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ قُوَّةٌ عِنْدَ ذَلِكَ، وَانْقَطَعَتْ عِلَاقَتُهُ حَيْلِهِ؛ وَإِنَّمَا قُوَّتُهُ وَوَسْوسَتُهُ مَعَ الْغَفْلَةِ، وَإِذَا كَانَ [الذِّكْرُ بِالْأَمْنِ وَالْغَفْلَةِ لَمْ تَفَارِقْهُ الْوَسْوسَةُ، وَإِنْ اسْتَدَامَ الْعَبْدُ الذِّكْرَ وَالْقِرَاءَةَ؛ لِأَنَّ عَلَى قَلْبِ الْغَافِلِ غَشَاوَةٌ؛ وَلَا يَجِدُ]^(٣) صَاحِبُهَا لَطْعَمَ الذِّكْرِ حَلَاوَةً، فَتَحَفَّظَ عَلَى دِينِكَ مِنْ هَذَا الْعَدُوِّ، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَزِيلَهُ عَنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٦/١٣) كتاب «الفتن» باب: قول النبي ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا» (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٠٢٠/٤) كتاب «البر والصلة والآداب» باب: النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٢٦١٧/١٦)، وأحمد (٣١٧/٢).

(٢) سقط في: د.

(٣) سقط في: د.

مرتبته، ولا أَنْ تَرْيَحَهُ عَنْ وَطْنِهِ، وَإِنَّمَا أُبَيِّحُ لَكَ مُجَاهَدَتَهُ، فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ يُعْنِكَ، وَثِقْ بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْذُلُكَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، انتهى من تصنيفه - رحمه الله -.

ونذب سبحانه في الآية المتقدمة إلى الأخذ بمكارم الأخلاق، ووعد على ذلك، وَعَلِمَ سبحانه أَنَّ خَلْقَهُ الْبَشَرُ تَغْلِبُ أحياناً وَتَثُورُ بِهِمْ سَوْرَةُ الْغَضَبِ وَتَنْزُعُ الشَّيْطَانُ؛ فَدَلَّاهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا يَذْهَبُ ذَلِكَ، وَهِيَ الْاسْتِعَاذَةُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ عَدَّدَ سبحانه آيَاتِهِ؛ لِيَعْتَبِرَ فِيهَا، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾؛ وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فِيهِمَا مَنَافِعٌ؛ لِأَنَّ النِّفْعَ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ بِتَسْخِيرِ اللَّهِ إِيَّاهُمَا، فَهُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسَجَّدَ لَهُ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ قِيلَ: هُوَ عَائِدٌ عَلَى الْآيَاتِ الْمَتَقَدِّمِ ذِكْرَهَا، وَقِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْاِثْنَانِ جَمْعٌ، وَأَيْضاً جَمْعٌ مَا لَا يَغْلِبُ يُونُثُ/، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ وَمِنْ حَيْثُ يَقَالُ: شُمُوسٌ وَأَقْمَارٌ؛ لِاخْتِلَافِهِمَا بِالْأَيَّامِ سَاغَ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ مَجْمُوعاً، وَقِيلَ: هُوَ عَائِدٌ عَلَى الْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ.

* ت * : وَمِنْ كِتَابِ «الْمُسْتَغِيثِينَ بِاللَّهِ» لِأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ بَشْكُوَالٍ حَدَّثَ بِسَنَدِهِ إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: تَقْرَأُ «حَمَّ السَّجْدَةِ»، وَتَسْجُدُ عِنْدَ السَّجْدَةِ، وَتَدْعُو؛ فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَكَ، قَالَ الرَّاوِي: وَجَرَّبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ مُسْتَجَاباً، انْتَهَى، ثُمَّ خَاطَبَ جُلَّ وَعِلَا نَبِيَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِمَا يَتَضَمَّنُ وَعِيدَهُمْ وَحَقَازَةَ أَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا...﴾ الْآيَةِ، وَقَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ﴾ يَعْنِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ هُمْ صَافُونَ يَسْبَحُونَ، وَ﴿عِنْدَ﴾ هُنَا لَيْسَتْ بِظَرْفِ مَكَانٍ؛ وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى الْمَنْزِلَةِ وَالْقَرْبَةِ؛ [كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ عِنْدَ الْمَلِكِ جَلِيلٍ، وَيُزَوَّيْ أَنْ تَسْبِيحَ الْمَلَائِكَةُ قَدْ صَارَ لَهُمْ كَالنَّفْسِ لِبَنِي آدَمَ، وَلَا يَسْتَمُونَ] مَعْنَاهُ: لَا^(١) يَمْلُونَ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى آيَةً مَنْصُوبَةً؛ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فِي أَمْرِ الْبَعْثِ مِنَ الْقُبُورِ، وَيَسْتَدِلُّ بِمَا شُوهِدَ مِنْ هَذِهِ عَلَى مَا لَمْ يُشَاهَدْ، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً...﴾ الْآيَةِ، وَخُشُوعُ الْأَرْضِ هُوَ مَا يَظْهَرُ عَلَيْهَا مِنْ اسْتِكَانَةٍ وَشَعَثٍ بِالْجَذْبِ، فَهِيَ عَابِسَةٌ كَمَا الْخَاشِيعُ عَابِسٌ يَكَادُ يَبْكِي، وَأَهْتَازُ الْأَرْضُ: هُوَ تَخَلُّلُ أَجْزَائِهَا وَتَشَقُّقُهَا لِلنَّبَاتِ، وَرُبُوبُهَا: هُوَ انْتِفَاحُهَا بِالمَاءِ وَعُلُوُّ سَطْحِهَا بِهِ، وَعبارة البخاري: اهتزت بالنبات، وَرَبَّتْ: ارْتَفَعَتْ أَهْ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى بِالْأَمْرِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُقَاسَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَالْعِبْرَةُ، وَذَلِكَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَالشَّيْءُ فِي اللُّغَةِ: الْمَوْجُودُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَ آيَاتَنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ عَزِيزٌ ﴿٤٢﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٣﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّعْفَرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا...﴾ الآية، آية وعيد،
ب ٣١ والإلحاد: الميل، وهو هنا ميل عن الحق؛ / ومنه لَحْدُ المَيْتِ؛ لأنه في جانب، يقال: لَحَدَ الرَّجُلُ، وألحد بمغنى.

وَاخْتَلَفَ فِي إلْحَادِهِمْ هَذَا: ما هو؟ فقال قتادة وغيره: هو إلحاد بالتكذيب^(١)، وقال مجاهد وغيره^(٢): هو بالمكأء والصفير واللغو الذي ذهبوا إليه، وقال ابن عباس: إلحادهم: وَضَعُهُمْ لِلْكَلامِ غَيْرَ موضعه، ولفظة^(٣) الإلحاد تَعْمُ هذا كُلُّه، وباقي الآية بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وعيدٌ في صيغة الأمر؛ بإجماع من أهل العلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ...﴾ الآية: يريد بـ﴿الذين كفروا﴾ قريشاً، و﴿الذكر﴾: القرآن؛ بإجماع.

واخْتَلَفَ فِي الخبر عنهم: أين هو؟ فقالت فرقة: هو في قوله: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت: ٤٤]، ورُدَّ بكثرة الحائل، وأنَّ هنالك قوماً قد ذكروا بحسن رد قوله: ﴿أولئك ينادون عليهم﴾، وقالت فرقة: الخبر مُضْمَرٌ، تقديره: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ، هَلَكُوا أَوْ ضَلُّوا، وقيل: الخبر في قوله: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ وهذا ضعيف لا يتجه، وقال عمرو بن عُبيد: معناه في التفسير: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ كَفَرُوا بِهِ، وإنه لكتاب عزيز؛ قال * ع^(٤) * : والذي يَحْسُنُ في هذا هو إضمار الخبر، ولكِنَّهُ عند قوم في غير هذا الموضع الذي قَدَّرَهُ هؤلاء فيه؛ وإِنَّمَا هو بعد ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وهو أَشَدُّ

(١) أخرجه الطبري (١١٥/١١) برقم: (٣٠٥٦٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١١٦/٤)، وابن عطية (٥/١٨)، وابن كثير (١٠٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٨/٥)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري (١١٥/١١) برقم: (٣٠٥٦١)، والبغوي في «تفسيره» (١١٦/٤)، وابن عطية (٥/١٨).

(٣) أخرجه الطبري (١١٥/١١) برقم: (٣٠٥٦٥)، وابن عطية (١٨/٥)، وابن كثير (١٠٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٧/٥)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩/٧).

إِظْهَاراً لِمَدْمَةِ الْكُفَّارِ بِهِ؛ وذلك لأنَّ قوله: ﴿وَإِنَّ لِكِتَابٍ﴾ داخل في صفة الذكر المُكذَّبِ به؛ فلم يتم ذكر المُخْبَر عنه إلا بعد استيفاء وصفه، ووصف الله تعالى الكتاب بالعِزَّة؛ لأنه بصحة معانيه مُمْتَنِعُ الطَّغْنُ فيه والإِزْراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى؛ قال ابن عباس: معناه: كريمٌ على الله تعالى^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ قال قتادة والسُّدِّي: يريد: الشيطان^(٢)، وظاهر ١٣٣ اللفظ يُعَمُّ الشيطان، وأنَّ يجيء أمرٌ يُبْطِلُ منه شيئاً.

وقوله: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ معناه: ليس فيما تقدم من الكتب ما يُبْطِلُ شيئاً منه.

وقوله: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس يأتي بعده من نَظَرٍ ناظر وفِكْرَةٍ عاقل ما يبطل شيئاً منه، والمراد باللفظة عل الجملة: لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات.

وقوله: ﴿تَنْزِيلٍ﴾ خبر مبتدأ، أي: هو تنزيلٌ.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَقَالَ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾: يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون تسليّةً لِلنَّبِيِّ ﷺ عن مقالات، قومه وما يلقاه من المكروه منهم.

والثاني: أن يكون المعنى: ما يقال لك من الوحي، وتُخَاطَبُ به من جهة الله تعالى إلا ما قد قيل للرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمَلِ ﴿٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا...﴾ الآية، الأعجميُّ: هو الذي لا يفصح، عربيًّا كان أو غير عربيٍّ، والعجميُّ: الذي ليس من العرب، فصيحاً كان أو غير فصيح، والمعنى: ولو جعلنا هذا القرآن أعجميًّا، لا يبين لقالوا واعتراضوا: لولا بينت

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (١١٦/٤)، وابن عطية (١٩/٥).

(٢) أخرجه الطبري (١١٧/١١) برقم: (٣٠٥٧١ - ٣٠٥٧٢)، وذكره البغوي (١١٦/٤)، وابن عطية (٥/١٩).

١٩، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٩/٥)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن الضريس.

آياته، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أقوالهم من أجل حروف وقعت في القرآن، وهي ممّا عُرِّبَ من كلام العجم؛ كسَجِّينَ وإِسْتَبْرَقَ ونحوه، وقرأ الجمهور: ﴿أَعْجَمِي وَعَرَبِي﴾ على الاستفهام وهمزة ممدودة قبل الألف، وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «أَعْجَمِي» بهمزتين^(١)، وكأنهم يُنْكَرُونَ ذلك، ويقولون: أَعْجَمِي وَعَرَبِي مُخْتَلِطٌ؟ هذا لا يحسن [ثم قال تعالى]^(٢): ﴿قُلْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنُورٌ﴾ واختلف الناس في قوله: ﴿هُوَ عَلَيْهِمْ/عَمَى﴾ فقالت فرقة: يريد بـ«هو» القرآن، وقالت فرقة يريد بـ«هو» الوقْرَ، وهذه كلها استعارات، والمعنى: أنهم كالأعمى وصاحب الوقْر؛ وهو الثَّقُلُ في الأذن، المانع من السمع؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ ينادون من مكان بعيد﴾ يحتمل معنيين، وكلاهما مقول للمفسرين:

أحدهما: أنها استعارة لِقَلَّةِ فِهمهم، شَبَّهَهُم بِالرَّجُلِ ينادى على بُعْدٍ، يَسْمَعُ منه الصوت، ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه، وهذا تأويل مجاهد^(٣).

والآخر: أن الكلام على الحقيقة، وأن معناه: أنهم يوم القيامة يُنادُونَ بكفرهم وقبيح أعمالهم من بعد؛ حتى يَسْمَعَ ذلك أهل الموقف؛ لِيَفْضَحُوا على رؤوس الخلائق، ويكون أعظم لتوبيخهم؛ وهذا تأويل الضحاك^(٤).

قال أبو حيان^(٥): ﴿عَمَى﴾ - بفتح الميم - مصدر عَمِيَ، انتهى.

ثم ضرب الله تعالى أمر موسى مثلاً للنبي - عليه السلام - ولقريش، أي: فعَلْ أولئك كأفعال هؤلاء، حين جاءهم مثل ما جاء هؤلاء، والكلمة السابقة هي حَتْمُ اللَّهِ تعالى بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، والضمير في قوله: ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على موسى، أو على كتابه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ...﴾ الآية: نصيحةً بليغةً لِلْعَالَمِ، وتحذيرٌ وترجيّةٌ.

(١) بل قراءة عاصم بالهمزتين، إنما هي من رواية أبي بكر عنه، لا من رواية حفص، وقرأ الأخير بالمد كقراءة الباقرين.

ينظر: «السبعة» (٥٧٦)، و«الحجة» (١١٩/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٧٨/٢)، و«معاني القراءات» (٣٥٢/٢)، و«المعنوان» (١٦٩)، و«حجة القراءات» (٦٣٧)، و«إتحاف» (٤٤٤/٢).

(٢) سقط في: د.

(٣) أخرجه الطبري (١٢٠/١١) برقم: (٣٠٥٨٧)، وذكره ابن عطية (٢١/٥)، وابن كثير (١٠٣/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٢٠/١١) برقم: (٣٠٥٩٠)، وذكره ابن عطية (٢١/٥).

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (٤٨١/٧).

﴿إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعْذَرَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧) وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَكُم مِّنْ حَاجٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَكِن أَدْفَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَّسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إليه يرد علم الساعة...﴾ الآية، المعنى: إن علم الساعة ووقت مجيئها يَرُدُّهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ متكلم فيه إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم أين شركائي...﴾ الآية، التقدير: واذكر يوم يناديهم، والضمير في ﴿يناديهم﴾ الأظهر والأسبق فيه للهم: أنه يريد الكفار عِدَّةَ الأوثان، ويحتمل أن يريد كُلَّ مَنْ عُبِدَ من دون الله من إنسانٍ وغيره، وفي هذا ضَعْفٌ، وأمَّا الضمير/ في ١٣٣ قوله: ﴿وضل عنهم﴾ فلا احتمال لِعَوْدَتِهِ إِلَّا عَلَى الكفار، و﴿أذنالك﴾ قال ابن عباس وغيره: معناه: أعلمناك ما مِنَّا مَنْ يشهد، ولا مَنْ شهد بأن لك شريكاً ﴿وضل عنهم﴾ أي: نسوا ما كانوا يقولون في الدنيا، ويدعون من الآلهة والأصنام، ويحتمل أن يريد: وضل عنهم الأصنام، أي: تلفت، فلم يجدوا منها نَصراً، وتلاشى لهم أمرها.

وقوله: ﴿وظنوا﴾ يحتمل أن يكونَ متصلاً بما قبله، ويكون الوقف عليه، ويكون قوله: ﴿ما لهم من محيص﴾ استئنافاً، نفى أن يكونَ لهم مَلْجَأٌ أو مَوْضِعٌ رَّوْعَانٍ، تقول: حَاصَ الرَّجُلُ: إِذَا رَاغَ لَطَلَبِ النِّجَاةِ مِنْ شَيْءٍ؛ ومنه الحديث: «فَحَاصُوا حَيَضَةَ حُمِرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ»^(١)، ويكون الظنُّ على هذا التأويل على بابه، أي: ظنوا أنَّ هذه المقالة ﴿ما مِنَّا من شهيد﴾ مَنجاةٌ لهم، أو أمر يموهون به، ويحتمل أن يكون الوقف في قوله: ﴿من قبل﴾، ويكون ﴿وظنوا﴾ متصلاً بقوله: ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: ظنوا ذلك، ويكون الظن على هذا التأويل بمعنى اليقين، وقد تقدّم البحث في إطلاق الظن على اليقين.

* ت * : وهذا التأويل هو الظاهر، والأوّل بعيدٌ جداً.

وقوله تعالى: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ هذه آيات نزلت في كفّار، قيل: في

(١) أخرجه البخاري (٤٢/١ - ٤٣ - ٤٤) كتاب «بدء الرّوح» باب: (٦) (٧)، (٨/٦٢ - ٦٣)، كتاب «التفسير» باب: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله﴾ (٤٥٥٣).

الوليد بن المُغيرة، وقيل: في عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، وَجُلُّ الآيَةِ يُعْطَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كُفَّارٍ، وَإِنْ كَانَ أَوَّلُهَا يَتَضَمَّنُ خُلُقًا رُبَّمَا شَارَكَ فِيهَا بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ.

و﴿دُعَاءُ الْخَيْرِ﴾ إِضَافَتُهُ إِضَافَةٌ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، وَفِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١): «مِنْ دُعَاءٍ بِالْخَيْرِ» وَالْخَيْرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَالُ وَالصَّحَّةُ، وَبِذَلِكَ تَلِيقُ الْآيَةِ بِالْكَفَّارِ.

٣٣ ب وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي﴾ أَي: بِعَمَلِي وَبِمَا سَعَيْتُ/ وَلَا يَرَى أَنَّ النَّعَمَ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ قَالَ * ص * : ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: هُوَ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَالْفَاءُ مَحْذُوفَةٌ، وَقِيلَ: هُوَ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، قَالَ * ص * : قُلْتُ: هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَالْأَوَّلُ غَلَطٌ؛ لِأَنَّ الْقَسَمَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْتَن﴾ فَالْجَوَابُ لَهُ، وَلِأَنَّ حَذْفَ الْفَاءِ فِي الْجَوَابِ لَا يَجُوزُ، انْتَهَى، وَفِي تَغْلِيظِ الصَّفَافُيِّ لِأَبِي الْبَقَاءِ نَظَرٌ.

وقوله: ﴿وَمَا أَظُنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ قَوْلٌ بَيَّنَّ فِيهِ الْجَحْدُ وَالْكُفْرُ، ثُمَّ يَقُولُ هَذَا الْكَافِرُ: ﴿وَلْتَن رَجَعْتَ إِلَى رَبِّي﴾: كَمَا تَقُولُونَ: «إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ» أَي: حَالًا تَرْضِيَنِي مِنْ مَالٍ، وَبَنِينَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ * ع *^(٢): وَالْأَمَانِيُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرَكَ الْجَدُّ فِي الطَّاعَةِ مَذْمُومٌ لِكُلِّ أَحَدٍ؛ فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ»^(٣).

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ٥١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٢ سَتَرِبَهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَنْتَبِهُوا بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٍ ٥٤

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ...﴾ الْآيَةِ، ذَكَرَ سَبْحَانَهُ الْخُلُقَ الذَّمِيمَةَ مِنَ الْإِنْسَانِ جَمْلَةً، وَهِيَ فِي الْكَافِرِ بَيِّنَةٌ مَّتَمَكَّنَةٌ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَفِي الْأَغْلَبِ يَشْكُرُ عَلَى النِّعْمَةِ، وَكَثِيرًا مَا يَصْبِرُ عِنْدَ الشَّدَةِ، وَ﴿نَأَى﴾ مَعْنَاهُ: بَعْدَ وَلَمْ يَعْمَلْ إِلَى شُكْرٍ وَلَا طَاعَةٍ.

وقوله: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أَي: وَطَوِيلٍ أَيْضًا، وَعِبَارَةُ الثَّعَالِبِيِّ: ﴿عَرِيضٍ﴾ أَي:

(١) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٣٥)، و«الكشاف» (٢٠٥/٤)، و«المحرر الوجيز» (٢٢/٥)، و«البحر المحيط» (٤٨٢/٧)، و«الدر المصون» (٧١/٦).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢/٥).

(٣) تقدم.

كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض كليهما في الكثرة من الكلام، انتهى.

ثم أمر تعالى نبيه أن يوقف قريشاً على هذا الاحتجاج، وموضع تغريهم بأنفسهم، فقال: ﴿قل أرايتم إن كان من عند الله﴾، وخالفتموه أستم على هلكة؟ فمن أضل ممن يبقى على مثل هذا العر مع الله؛ وهذا هو الشقاق؛ ثم وعد تعالى / نبيه - عليه السلام - ١٣٤ بأنه سيبري الكفار آياته، وأختلف في معنى قوله سبحانه: ﴿في الآفاق وفي أنفسهم﴾ فقال المنهال والسدي وجماعة: هو وعد بما يفتح الله على رسوله من الأقطار حول مكة، وفي غير ذلك من الأرض؛ كخبر ونحوها ﴿وفي أنفسهم﴾: أراد به فتح مكة^(١)؛ قال ع^(٢): * وهذا تأويل حسن، يتضمن الإعلام بغيب ظهر بعد ذلك، وقال قتادة والضحاك ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾: هو ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً^(٣)، ﴿وفي أنفسهم﴾: يوم بدر، والتأويل الأول أزجج، والله أعلم، والضمير في قوله تعالى: ﴿أنه الحق﴾ عائد على الشرع والقرآن فيأظهار الله نبيه وفتح البلاد عليه يتبين لهم أنه الحق.

وقوله: ﴿بربك﴾ قال أبو حيان^(٤): الباء زائدة، وهو فاعل ﴿يكف﴾ أي: أو لم يكفهم ربك، انتهى، وباقي الآية بين.

(١) أخرجه الطبري (١٢٥/١١) برقم: (٣٠٦٠٤) عن السدي، وذكره ابن عطية (٢٣/٥)، وابن كثير (٤/١٠٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣/٥).

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (١١٨/٤) عن مجاهد، والحسن، والسدي، والكلبي، وابن عطية (٥/١١٨).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٤٨٣/٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

وقال مُقَاتِلٌ: فيها مدني [قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبْشُرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾ إلى ﴿الْصُّدُورِ﴾] ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ عَسَقَ﴾ قال الثعالبي: قال ابن عباس: إِنَّ ﴿حَمْدٌ عَسَقَ﴾ هذه الحروف بأعيانها نزلت في كُلِّ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ^(٢)، وقرأ الجمهور: ﴿يُوحَىٰ﴾ بإسناد الفعل إلى الله تعالى، وقرأ ابن كثير وحده: «يُوحَى» - بفتح الحاء - على بناء الفعل لِلْمَفْعُولِ ^(٣)، والتقدير: يُوحَىٰ إِلَيْكَ الْقُرْآنُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: يريد من الأنبياء الذين نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ، وقرأ نافع والكسائي «يَتَفَطَّرْنَ»، وقرأ أبو عمرو، وعاصم: «يَتَفَطَّرْنَ» ^(٤) والمعنى فيهما: يتصدَّعن ويتشقَّقن، خضوعاً وخشيةً من الله تعالى، وتعظيماً وطاعةً.

(١) سقط في: د.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (١١٩/٤)، وذكره ابن عطية (٢٥/٥).

(٣) ينظر: «السبعة» (٥٨٠)، و«الحجة» (١٢٦/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٨١/٢)، و«معاني القراءات» (٣٥٥/٢)، و«شرح الطيبة» (٢١٢/٥)، و«العنوان» (١٧٠)، و«حجة القراءات» (٦٣٩)، و«شرح شعلة» (٥٧٤)، و«إتحاف» (٤٤٨/٢).

(٤) يعني من رواية أبي بكر، وأما رواية حفص فمثل الباقيين.

ينظر: «السبعة» (٥٨٠)، و«الحجة» (١٢٧/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٨٣/٢)، و«العنوان» (١٧٠)، و«حجة القراءات» (٦٤٠)، و«إتحاف» (٤٤٨/٢).

وقوله: ﴿مَنْ فَوْقَهُنَّ﴾ أي: من أعلاهن، وقال الأخفش، عليُّ بْنُ سُلَيْمَانَ: الضمير في ﴿مَنْ فَوْقَهُنَّ﴾ للكُفَّار، أي: من فوق الجماعات الكافرة والفرق المُلْحِدة مِنْ أَجْلِ أقوالها تَكَاذُ السَّمَوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ، فهذه الآية على هذا كالتى في «كهيعص»: ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] الآية، وقالت فرقة: معناه: من فوق الأرضين، إِذْ قَدْ جَرَى ذِكْرُ الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَتْ فرقة: هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] قال * ع^(١) *: وهذا قول ضعيف، لَأَنَّ النَّسْخَ فِي الْأَخْبَارِ لَا يَتَصَوَّرُ، وقال السُّدِّيُّ ما معناه: إِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ الْعُمُومُ، ومعناها الخصوصُ فِي الْمُؤْمِنِينَ، فكأنه قال: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٢)، وقالت فرقة: بل هِيَ عَلَى عَمُومِهَا: لَكِنَّ اسْتِغْفَارَ الْمَلَائِكَةِ لَيْسَ بِطَلَبِ غَفْرَانٍ لِلْكَفَرَةِ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَإِنَّمَا اسْتَغْفَرَهُمْ لَهُمْ بِمَعْنَى طَلَبِ الْهَدَايَةِ الَّتِي تُوْدِي إِلَى الْغَفْرَانِ لَهُمْ، وَتَأْوِيلُ السُّدِّيِّ أَرْجَحُ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَسَاءٍ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ هذه آية تسليية للنبي ﷺ ووعيد للكافرين، والمعنى: ليس عليك إلا البلاغ فقط، فلا تَهْتَمَّ بعدم إيمان قريش وغيرهم، الله هو الحفيظ عليهم كُفْرَهُمُ الْمُخْصِي لأعمالهم، الْمُجَازِي عليها، وَأَنْتَ لَسْتَ بِوَكِيلٍ عَلَيْهِمْ، وما في هذه الألفاظ مِنْ مَوَادَعَةٍ فَمَنْسُوخٌ؛ قال الإمام الفخر في شرحه لأسماء الله/ الحسنی، عند كلامه على اسمه سبحانه «الحفيظ»: قال ١٣٥ بعضهم: ما من عبد حَفِظَ جَوَارِحَهُ إِلَّا حَفِظَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وما من عبد حَفِظَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ إِلَّا جَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى عِبَادِهِ، انتهى، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [المعنى: وكما قضينا أمرك هكذا، وأمضيناه في هذه السورة كذلك أوحينا إليك قرآنًا عَرَبِيًّا]^(٣) مبیناً لهم، لا يحتاجون إِلَى آخَرِ سِوَاهُ؛ إِذْ فَهْمُهُ مُتَأَتٍّ لَهُمْ، ولم نَكْلُفْكَ إِلَّا إِنْذَارَ مَنْ ذَكَرَ، و﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ هي مكة، و﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ هو يوم القيامة، أي: تخوفهم بِإِيَّاهُ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٩/١١) برقم: (٣٠٦١٥).

(٣) سقط في: د.

وقوله: ﴿فريق﴾ مرتفع على خبر الابتداء المضمر؛ كأنه قال: هم فريق في الجنة، وفريق في السعير، ثم قوى تعالى تسليّة نبيه بأن عرّفه أن الأمر موقوف على مشيئة الله من إيمانهم أو كفرهم، وأنه لو أراد كونهم أمة واحدة على دين واحد، لجمعهم عليه؛ ولكنه سبحانه يدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته، ويُسّرّه في الدنيا لعمل أهل السعادة، وأن الظالمين بالكفر المُيسرين لعمل الشقاوة ما لهم من ولي ولا نصير، قال عبد الحق - رحمه الله - في «العاقبة»: وقد علمت (رحمك الله) أن الناس يوم القيامة صنفان:

صنف مُقَرَّبٌ مُصَانٌّ.

وآخر مُبْعَدٌ مُهَانٌ.

صنف نُصِبَتْ لَهُمُ الْأَسْرَةُ وَالْحِجَالُ؛ والأرائك والكلال؛ وَجُمِعَتْ لَهُمُ الرِّغَائِبُ وَالْآمَالُ.

وآخَرُونَ أُعِدَّتْ لَهُمُ الْأَرَاقِمُ وَالصُّلَالُ؛ والمقامع والأغلال؛ وضروب الأهوال والأُنْكَال، وأنت لا تعلم من أيهما أنت؛ ولا في أي الفريقين كنت: [الكامل]

نَزَلُوا بِمَكَّةَ فِي قَبَائِلٍ نَوَقِلٍ وَنَزَلْتُ بِالْبَيْدَاءِ أَبْعَدَ مَنَزِلٍ
وَتَقَلَّبُوا فَرِحِينَ تَحْتَ ظِلَالِهَا وَطَرَحْتُ بِالصَّخْرَاءِ غَيْرَ مُظَلِّلٍ
ب ٣٥ وَسَقُوا مِنَ الصَّافِي الْمُعْتَقِ رِيْهِمُ وَسَقَيْتُ دَمْعَةً / وَإِلَيْهِ مُتَمَلِّلٍ

بكى سفيان الثوري - رحمه الله - ليلة إلى الصبح، فقيل له: أبكاؤك هذا على الذنوب؟ فأخذ يبتّ من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا؛ إنما أبكي؛ خوف الخاتمة، وبكى سفيان، وغير سفيان، وإنه للأمر يبكي عليه؛ ويصرف الاهتمام كله إليه.

وقد قيل: لا تَكُفْ دَمْعَكَ؛ حَتَّى تَرَى فِي الْمَعَادِ رَبَّنَا.

وقيل: يابن آدم، الأقلام عليك تجري؛ وأنت في غفلة لا تدري، يابن آدم دَعِ التَّنَافُسَ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ حَتَّى تَرَى مَا فَعَلْتَ فِي أَمْرِكَ الْأَقْدَارَ، سمع بعض الصالحين مُنْشِدًا ينشد: [الطويل]

أَيَا رَاهِبِي نَجْرَانَ مَا فَعَلْتَ هُنْدُ

فبكى ليلة إلى الصباح، فسئل عن ذلك فقال: قلت في نفسي: ما فعلت الأقدار في؛ وماذا جرّث به علي؟ انتهى.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَالَ هُوَ أَوْلَىٰ ۖ هُوَ أَلْوَلٌ ۚ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۚ يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَكُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي...﴾ الآية، قوله: ﴿أم اتخذوا﴾: كلام مقطوع مما قبله، وليست بمعادلة، ولكن الكلام كأنه أضرب عن حجة لهم أو مقالة مقررّة، فقال: ﴿بل اتخذوا﴾ هذا مشهور قول التحوّيين في مثل هذا، وذهب بعضهم إلى أنّ «أم» هذه هي بمنزلة ألف الاستفهام دون تقدير إضراب، ثم أثبت الحكم بأنّه عز وجل هو الولي الذي تنفع ولايته.

وقوله تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله...﴾ الآية، المعنى: قل لهم يا محمّد: وما اختلفتم فيه، أيها الناس، من تكذيب وتصديق، وإيمان وكفر، وغير ذلك فالحكم فيه والمجازاة عنه ليست إلّاي ولا بيدي؛ وإنّما ذلك إلى الله تعالى، الذي صفاته ما ذكر من إحياء الموتى والقدرة على كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ يريد: زوج الإنسان الأنثى، وبهذه / النعمة اتفق الذرء، وليست الأزواج هنا الأنواع.
وقوله: ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ الظاهر أيضاً فيه والمُتَسِقُ أنّه يريد إناث الذكّران، ويحتمل أن يريد الأنواع، والأوّل أظهر.

وقوله: ﴿يذُرُوكُمْ﴾ أي: يخلقكم نسلًا بعد نسل، وقرناً بعد قرن؛ قاله مجاهد والناس، فلفظة «ذراً» تزيد على لفظة «خلق» معنى آخر ليس في «خلق»، وهو توالي طبقات على مرّ الزمان.

وقوله: ﴿فيه﴾ الضمير عائد على الجعل يتضمّنه قوله: ﴿جعل لكم﴾ وهذا كما تقول: كلّمت زيداً كلاماً أكرّمته فيه، وقال القُتَيْبِيُّ: الضمير للتزويج، ولفظة «في» مشتركة على معانٍ، وإن كان أصلها الوعاء، وإليه يردها النظر في كل وجه.

وقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ الكاف مؤكّدة للتشبيه، فنفي التشبيه أوكدّ ما يكون؛ وذلك أنّك تقول: زيد كعمرو، وزيدٌ مثل عمرو، فإذا أردت المبالغة التامة قلت: زيدٌ كمثّل عمرو، وجرت الآية في هذا الموضع على عَرَفِ كلام العرب، وعلى هذا المعنى

شواهد كثيرة، وذهب الطبري^(١) وغيره إلى أنَّ المعنى: ليس كهو شيء، وقالوا: لفظة ﴿مثل﴾ في الآية تأكيد، وواقعة موقع «هو»، و«المقاليد»: المفاتيح؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢)، وقال مجاهد هذا أصلها بالفارسية^(٣)، وهي ههنا استعارة لوقوع كل أمر تحت قدرته سبحانه، وقال السدي: المقاليد: الخزائن^(٤)، وفي اللفظ على هذا حذف مضاف، قال قتادة: مَنْ ملك مقاليد خزائن، فالخزائن في ملكه^(٥).

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَلَمُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا...﴾ الآية، المعنى: شرع لكم وبين من المعتقدات والتوحيد ما وصَّى به نوحاً قبل.

وقوله: ﴿والذي﴾ عطف على ﴿ما﴾، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدين مشروع اتفقت الثبوت فيه؛ وذلك في المعتقدات، وأمّا الأحكام بانفرادها فهي في الشرائع مختلفة، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ [المائدة: ٤٨] وإقامة الدين هو توحيد الله ورفض سواه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتفرقوا﴾: نهى عن المهلك من تفرق الأنحاء والمذاهب، والخير كله في الألفة واجتماع الكلمة، ثم قال تعالى لنبيه - عليه السلام -: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾: من توحيد الله ورفض الأوثان؛ قال قتادة: كبر عليهم «لا إله إلا الله» وأبى الله إلا نصرها^(٦)، ثم سلاّه تعالى عنهم بقوله: ﴿اللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/١٣٣).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٢٩/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١١/١٣٣، ١٣٤) برقم: (٣٠٦٣٠)، وذكره ابن عطية (٢٩/٥).

(٤) أخرجه الطبري (١١/١٣٤) برقم: (٣٠٦٣٢)، وذكره ابن عطية (٢٩/٥).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٩/٥).

(٦) أخرجه الطبري (١١/١٣٥) برقم: (٣٠٦٤٠)، وذكره ابن عطية (٢٩/٥).

أي: يختار ويصطفي؛ قاله مجاهد وغيره^(١) و﴿ينيب﴾ يرجع عن الكفر ويحرص على الخير ويطلبه.

﴿وما تفرقوا﴾ يعني: أوائل اليهود والنصارى ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾.

وقوله: ﴿بغياً بينهم﴾ أي: بغى بعضهم على بعض، وأداهم ذلك إلى اختلاف الرأي وافتراق الكلمة، والكلمة السابقة قال المفسرون: هي حتمه تعالى القضاء بأن مجازاتهم إنما تقع في الآخرة، ولولا ذلك لفصل بينهم في الدنيا، وغلب المحق على المبطل.

وقوله تعالى: ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب﴾ إشارة إلى معاصري نبينا محمد - عليه السلام - من اليهود والنصارى.

وقيل: هو إشارة إلى العرب؛ والكتاب على هذا هو القرآن، والضمير في قوله: ﴿لني شك منه﴾ يحتمل أن يعود على الكتاب، أو على محمد، أو على الأجل المسمى، أي: في شك من البعث؛ على قول من رأى أن الإشارة إلى العرب، ووصف الشك بـ﴿مريب﴾؛ مبالغة فيه، واللام في قوله تعالى: ﴿فلذلك فادع﴾ قالت فرقة: هي بمنزلة «إلى»؛ كأنه قال: فإلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد فأذع، وقالت فرقة: بل هي بمعنى «من أجل» كأنه قال: من أجل أن الأمر كذا وكذا، ولكونه كذا فأذع أنت إلى ربك، وبلغ ما أُرسلت به، وقال الفخر^(٢): يعني فلأجل ذلك التفرق، ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها؛ كما أمرك الله، ولا تتبع أهواءهم الباطلة، انتهى، وخطب - عليه السلام - بالاستقامة، وهو قد كان مستقيماً بمعنى: دُم على استقامتك، وهكذا الشأن في كل أمور بشيء هو مثبسط به، إنما معناه الدوام، وهذه الآية ونحوها كانت نُصِبَ عيني النبي - عليه السلام -، وكانت شديدة الموقع من نفسه، أعني قوله تعالى: ﴿واستقم كما أمرت﴾، لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوة، وفي هذا المعنى - قال عليه السلام -: «شيتني هود وأخواتها»، فقيّل له: لم ذلك، يا نبي الله؟ فقال: لأن فيها: ﴿فأستقم كما أمرت﴾^(٣) [هود: ١١٢] وهذا الخطاب له - عليه السلام - بحسب قوته في أمر الله عز وجل، وقال: هو لأمتيه بحسب ضعفهم: استقيموا ولن تحصوا.

(١) ذكره ابن عطية (٢٩/٥).

(٢) ينظر: «الفخر الرازي» (١٣٦/١٤).

(٣) تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: فُرْيُشًا.

* ت * : وفَرَضَ الْفَخْرُ هذه الْقَضِيَّةَ في أَهْلِ الْكِتَابِ، وذكر ما وقع من اليهود ومحاجَّتهم في دفع الْحَقِّ وَجَحْدِ الرِّسَالَةِ، وعلى هذا فالضمير في: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ عائِدٌ عليهم، واللَّهِ أَعْلَمُ. اهـ.

ثم أَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ: ﴿آمَنْتَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾، وهو أَمْرٌ يَعُمُّ سَائِرَ أُمَّتِهِ.

وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ لَأَعْدَلَ بَيْنَكُمْ﴾ قالت فرقة: اللام في ﴿لَأَعْدَلَ﴾ بمعنى: أَنْ أَعْدَلَ بَيْنَكُمْ، وقالت فرقة: المعنى وَأَمَرْتُ بِمَا أَمَرْتُ بِهِ مِنَ التَّبْلِيغِ وَالشَّرْعِ؛ لِكُنِّي أَعْدَلَ بَيْنَكُمْ.

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ إلى آخر الآية - ما فيه من مُوَادَعَةٍ مَنْسُوخٍ بِآيَةِ السَّيْفِ.

وقوله: ﴿لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا جدال، ولا مناظرة؛ قد وَضَحَ الْحَقُّ، وَأَنْتُمْ تَعَانِدُونَ، وفي قوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾: وعيدٌ بَيِّنٌ.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِيشٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ...﴾ الآية، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في طائفة من بني إسرائيل هَمَّتْ بِرَدِّ النَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَإِضْلَالِهِمْ^(١)، وقيل: نزلت في قريش؛ لأنها كانت أبداً تحاول هذا المعنى، و﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ معناه: في دين الله أو توحيد الله، أي: يحاجُّون فيه بالإبطال والإلحاد وما أشبهه، والضمير في ﴿له﴾ يحتمل أَنْ يَعُودَ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويحتمل أَنْ يَعُودَ عَلَى الدِّينِ وَالشَّرْعِ، ويحتمل أَنْ يَعُودَ عَلَى النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - و﴿دَاحِضَةٌ﴾ معناه: زاهقة، والدَّخْضُ الزَّهْقُ، وباقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

(١) أخرجه الطبري (١١/١٣٨ - ١٣٩) برقم: (٣٠٦٤٩، ٣٠٦٥١)، وذكره ابن عطية (٥/٣١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٩٦ - ٦٩٧)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد نحوه.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ معناه: مضمناً الحق، أي: بالحق في أحكامه، وأوامره، ونواهيه، وأخباره، ﴿والميزان﴾ هنا: العدل؛ قاله ابن عباس ومجاهد^(١)، والناس، وحكى الثعلبي عن مجاهد؛ أنه قال: هو هنا الميزان الذي بأيدي الناس^(٢)، قال * ع^(٣) *: ولا شك أنه داخل في العدل وجزء منه.

وقوله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ وعيد للمشركين، وجاء لفظ ﴿قريب﴾ مذكراً من حيث تأنيث الساعة - غير حقيقي -، وإذ هي بمعنى الوقت.

* ت *: ينبغي للمؤمن العاقل أن يتدبر هذه الآية ونظائرها، ويقدر في نفسه أنه المقصود بها: [البسيط]

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدْنِيهِ وَالْآيَاتُ تَنْبَعُهُ وَالْقَبْرُ غَايَتُهُ وَاللَّحْدُ مَأْوَاهُ
يَلْهُو فُلُوكَ كَانَ يَذْرِي مَا أَعَدَّ لَهُ إِذْ أَنْزَلْنَاهُ مَا كَانَ أَلْهَاهُ

قال العزالي في «الإحياء» قال أبو زكريا التيمي: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام؛ إذ أوتي بحجر منقوش، فطلّب من يقرؤه، فأوتي بهوب بن منبه، فإذا فيه: ابن آدم، إنك لو رأيت قُرب ما بقي من أجلك، لزهدت في طول أملك؛ ولزغبنت في الزيادة من عمّلك، ولقصّرت من حرصك وجيلك، وإنما يلقاتك غداً ندّمك؛ لو قد زلت بك قدّمك، وأسلمك أهلك وخسّمك، ففارقك الولد والقريب؛ ورَفَضَكَ الوالد والنسيب، فلا أنت إلى دُنياك عائد؛ ولا في حسَنَاتِكَ رائد، فأعمل ليوم القيامة، قبل الحسرة والندامة. فبكى سليمان بكاء شديداً، انتهى، ، وباقي الآية بين.

ثم رَجَى تبارك وتعالى عباده بقوله: ﴿اللَّهُ لطيف بعباده﴾ و﴿لطيف﴾ هنا بمعنى رفيق متحف، والعباد هنا المؤمنون.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ﴾ (٢٥) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٦) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا

(١) أخرجه الطبري (١٣٩/١١) برقم: (٣٠٦٥٥) عن مجاهد، وذكره البغوي (١٢٣/٤) عن قتادة، ومجاهد، ومقاتل، وابن عطية (٣١/٥)، وابن كثير (١١١/٤)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٥/٦٩٧)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) ذكره ابن عطية (٣١/٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣١/٥).

كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾ معناه: إرادة مُسْتَعِدُّ عاملٍ، لا إرادة مُتَمَنِّ مُسَوِّفٍ، والحرث في هذه الآية: عبارة عن السَّعي والتكسب والإعداد.

وقوله تعالى: ﴿نزد له في حرثه﴾ ونزد له في حرثه؟ قال الفخر^(١): وفي تفسير قوله: ﴿نزد له في حرثه﴾ قولان:

الأول: نزد له في توفيقه وإعانتة، وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه، وقال مقاتل: نزد له في حرثه بتضعيف الثواب؛ قال تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠] انتهى، وقوله: ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ معناه: ما شئنا منها ولمن شئنا، قُرْبُ مُتَمَتِّحٍ مُضَيِّقٍ عليه حريصٌ على حرث الدنيا، مريدٌ له، لا يحسُ بغيره، نعوذ بالله من ذلك! وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نفى أن يكون له نصيب في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ «أم» هذه منقطعة لا معادلة، وهي بتقدير «بل»، وألف الاستفهام، والشركاء في هذه الآية يحتمل أن يكون المراد بهم الشياطين والمُغْوِيْنَ من أسلافهم، ويكون الضمير في ﴿لهم﴾ للكفار المعاصرين لمحمد - عليه السلام - فالاشتراك ههنا هو في الكفر والغواية، وليس بشركة الإشرak بالله - ويحتمل أن يكون المراد بالشركاء: الأصنام والأوثان؛ على معنى: أم لهم أصنام جعلوها شركاء لله في ألوهيته، ويكون الضمير في ﴿شرعوا﴾ لهؤلاء المعاصرين من الكفار ولآبائهم، والضمير في ﴿لهم﴾ للأصنام الشركاء، و﴿شرعوا﴾ معناه: أثبتوا، ونهجوا، ورسموا و﴿الدين﴾ هنا: العوائد والأحكام والسيرَة، ويدخل في ذلك أيضاً المعتقدات السوء؛ لأنهم في جميع ذلك وضعوا أوضاعاً فاسدة، وكلمة الفصل هي ما سبق من قضاء الله تعالى بأنه يُؤَخَّرُ عقابهم للدار الآخرة، والقضاء بينهم هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم.

وقوله تعالى: ﴿ترى الظالمين﴾ هي رؤية بَصَرٍ، و﴿مشفقين﴾ حال، وليس لهم في هذا الإشفاق مدح؛ لأنهم إنما أشفقوا حين نزل بهم، وليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مُشْفِقُونَ من أمر الساعة، كما تقدم، وهو واقع بهم.

(١) ينظر: «الفخر الرازي» (١٤/١٤٠).

أبو حيان^(١): ضمير ﴿هو﴾ عائد على العذاب، أو على ما كسبوا بحذف مضاف، أي: وبال ما كسبوا، انتهى، والروضات: المواضع الموثقة للنصرة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَصَلُّوا الصَّلَاةَ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَّهٗ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَسَتَجِدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده﴾ إشارة إلى قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ [الأحزاب: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في التبري﴾ اختلاف الناس في معناه فقال ابن عباس وغيره: هي آية مكية نزلت في صدر الإسلام، ومعناها: استكفاف شر الكفار ودفع أذاهم، أي: ما أسألكم على القرآن إلا أن تؤدوني لقراءة بيني وبينكم؛ فتكفوا عني أذاكم^(٢)، قال ابن عباس، وابن إسحاق، وقتادة: ولم يكن في قريش بطن إلا وللنبي ﷺ فيه نسب أو صهر^(٣)، فالآية على هذا فيها استعطاف مآ، ودفع أذى، وطلب سلامة منهم، وذلك كله منسوخ بآية السيف، ويحتمل هذا التأويل أن يكون معنى الكلام استدعاء نصرهم، أي: لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن تؤدوني لقرايتي منكم، وأن تكونوا أولى بي من غيركم، قال ع^(٤): ﴿وقريش كلها عندي قريبي، وإن كانت تتفاضل، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِهِمْ، لَمْ يَشْمَ رائحة الجنة»^(٥)، وقال ابن عباس أيضاً: ما يقتضي أن الآية مدنيّة، وأن

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤٩٣/٧).

(٢) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٣/٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦/٨) كتاب «التفسير» باب: إلا المودة في القربى (٤٨١٨) عن ابن عباس، والترمذي (٣٧٧/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة حم عسق (٣٢٥١)، وابن جرير في «تفسيره» (١٤٢/١١) (٣٠٦٦٢ - ٣٠٦٦٣)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٢٥/٤) عن ابن عباس جميعهم، وابن عطية (٣٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٩٩/٥)، وعزاه إلى مسلم وابن مردويه، وعبد بن حميد، وأحمد عن ابن عباس.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٤/٥).

(٥) ينظر: القرطبي (٢٣/١٦) تفسير سورة الشورى.

الأنصار جَمَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَالاً وَسَاقَتْهُ إِلَيْهِ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ^(١)، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا، وَعَلَى كُلِّ قَوْلٍ، فَالْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَ﴿إِلَّا﴾ بِمَعْنَى «لَكِنْ» وَ﴿يَقْتَرِفُ﴾ مَعْنَاهُ: يَكْتَسِبُ، وَرَجُلٌ قُرْفَةٌ إِذَا كَانَ مُحْتَالًا كَسُوبًا وَ﴿غَفُورٌ﴾ مَعْنَاهُ: سَاتَرُ عُيُوبَ عِبَادِهِ، وَ﴿شَكُورٌ﴾ مَعْنَاهُ: مُجَازٍ عَلَى الدَّقِيقَةِ مِنَ الْخَيْرِ، لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ لِعَامِلٍ عَمَلٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ «أَمْ» هذه مقطوعة مضمنة إضراباً عن كلام متقدم، وتقريراً على هذه المقالة منهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ مَعْنَاهُ: فِي قَوْلِ قِتَادَةَ وَفَرْقَةَ مِنْ ٣٦ ب المفسرين: ينسبك/ القرآن^(٢)، والمراد الرَّدُّ عَلَى مَقَالَةِ الْكُفَّارِ، وَبَيَانُ إِبْطَالِهَا، كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَفْتَرِيًّا، وَأَنْتَ مِنَ اللَّهِ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ؟ هُوَ قَادِرٌ لَوْ شَاءَ أَنْ يَخْتِمَ عَلَى قَلْبِكَ؛ فَلَا تَعْقِلُ، وَلَا تَنْتَقِ، وَلَا يَسْتَمِرُّ افْتِرَاؤُكَ؛ فَمَقْصِدُ اللَّفْظِ: هَذَا الْمَعْنَى، وَحُذِفَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ؛ اخْتِصَاراً وَاقْتِصَاراً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَى: فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ بِالصَّبْرِ لِأَذَى الْكُفَّارِ، وَيَرْبِطُ عَلَيْكَ بِالْجَلْدِ^(٣)، فَهَذَا تَأْوِيلٌ لَا يَتَضَمَّنُ الرَّدُّ عَلَى مَقَالَتِهِمْ؛ قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَذَكَرَ الْقُشَيْرِيُّ أَنَّ الْخُطَابَ لِلْكَفَّارِ، أَيْ: يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ أَيْهَا الْقَائِلُ؛ فَيَكُونُ انْتِقَالًا مِنَ الْغَيْبَةِ لِلْخُطَابِ، وَ﴿وَيَمْنَحُ﴾: اسْتِثْنَاءُ إِخْبَارٍ؛ لَا دَاخِلَ فِي الْجَوَابِ، وَتَسْقُطُ الْوَائِ مِنْ اللَّفْظِ؛ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَمِنْ الْمَصْحَفِ؛ حَمَلًا عَلَى اللَّفْظِ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ﴾ فعل مستقبل، خبر من الله تعالى أَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ، وَلَا بُدَّ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ، وَهَذَا بِحَسَبِ نَازِلَةِ نَازِلَةٍ، وَكُتِبَ ﴿يَمْحُ﴾ فِي الْمَصْحَفِ بِحَاءٍ مَرْسَلَةً، كَمَا كَتَبُوا: ﴿وَيَذُغُ الْإِنْسَانَ﴾ [الإسراء: ١١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَهَبُوا فِيهِ إِلَى الْحَذْفِ وَالْإِخْتِصَارِ.

وقوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ مَعْنَاهُ: بِمَا سَبَقَ فِي قَدِيمِ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ مِنْ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ، فَالْكَلِمَاتُ: الْمَعَانِي الْقَائِمَةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى النِّعْمَةَ فِي تَفْضِيلِهِ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْ عِبَادِهِ، وَقَبُولِ التَّوْبَةِ فِيمَا يَسْتَأْنِفُ الْعَبْدُ مِنْ زَمَانِهِ وَأَعْمَالِهِ - مُقْطُوعٌ بِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَمَّا مَا سَلَفَ مِنْ أَعْمَالِهِ فَيَنْقَسِمُ، فَأَمَّا التَّوْبَةُ مِنَ الْكُفْرِ فَمَاجِيَةٌ كُلُّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَظَالِمِ الْعِبَادِ

(١) ذكره ابن عطية (٣٤/٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٤٦/١١) برقم (٣٠٦٩١)، وذكره ابن عطية (٣٤/٥) والسيوطي (٧٠٣/٥) وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٥/٥).

الفائتة وغير ذلك، وأمّا التوبة من المعاصي فلاهل السُّئَة فيها قولان: هل تُذهب المعاصي السالفة للعبد بينه وبين خالقه؟ فقالت فرقة: هي مُذهِبَةٌ لها، وقالت فرقة: هي في مشيئة الله تعالى، / وأجمعوا أنّها لا تُذهب مظالم العباد، وحقيقة التوبة: الإِقْلَاعُ عن المعاصي، ١٣٧ والإقبال، والرجوعُ إلى الطاعات، ويلزمها النَّدَمُ عَلَى ما فَاتَ؛ والعَزْمُ على ملازمة الخَيْرَات.

وقال سَرِي السَّقَطِيّ: التوبة: العَزْمُ على ترك الذنوب؛ والإقبال بالقلب على علّام الغيوب، وقال يحيى بن مُعَاذٍ: التائب: مَنْ كَسَرَ شَبَابَهُ عَلَى رأسه، وكَسَرَ الدنيا على رأس الشيطان، [ولزم الفِطَام] ^(١) حتى أتاها الحِمَام ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ بمعنى مِنْ عِبَادِهِ، وكأنه قال: التوبة الصادرة عن عباده، وقرأ الجمهور: «يَفْعَلُونَ» بالياء على الغَيْبَةِ، وقرأ حمزة والكسائي: «تَفْعَلُونَ» بالتاء على المخاطبة ^(٣)، وفي الآية توعّد.

وقوله تعالى: «وَيَسْتَجِيبُ» قال الرَّجَّاجُ وغيره: معناه: يجيب، والعَرَبُ تَقُولُ: أجاب وأَسْتَجَابَ بمعنى، و﴿الَّذِينَ﴾ على هذا التأويل: مفعول «يستجيب»، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جَبَل، ونحوه عن ابن عباس ^(٤)، وقالت فرقة: المعنى: ويستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحات، ودلّ قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على أنّ المعنى: فيجيبهم، و﴿الَّذِينَ﴾ على هذا القول فاعِلٌ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾، وقالت فرقة: المعنى: ويجيب المؤمنون رَبَّهُمْ، ف﴿الَّذِينَ﴾ فاعِلٌ بمعنى: يجيبون دَعْوَةَ شَرْعِهِ ورسالاتِهِ، والزيادة من فضله هي تضعيف الحسنات، وروى عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هِيَ قَبُولُ الشُّفَاعَاتِ فِي الْمُذْنِبِينَ، وَالرِّضْوَانُ».

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

(١) سقط في: د.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٥/٥).

(٣) وقرأ بها حفص عن عاصم.

ينظر: «السبعة» (٥٨٠)، و«الحجة» (١٢٨/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٨٣/٢)، و«معاني القراءات»

(٣٥٦/٢)، و«شرح الطيبة» (٢١٢/٥)، و«العنوان» (١٧٠)، و«حجة القراءات» (٦٤١)، و«إنحاف»

(٤٥٠/٢).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٥/٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ قال عمرو بن حَرْبٍ وغيره: إِنَّهَا نَزَلَتْ؛ لِأَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الصِّفَّةِ طَلَبُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُغْنِيَهُمْ/ اللَّهُ، وَيَبْسُطَ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَرْزَاقَ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ جَاءَ الرِّزْقُ عَلَى اخْتِيَارِ الْبَشَرِ وَأَقْتِرَاحِهِمْ، لَكَانَ سَبَبٌ بَغِيهِمْ وَإِفْسَادُهُمْ؛ وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمُ بِالْمُصْلَحَةِ فِي كُلِّ أَحَدٍ: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾: بِمَصَالِحِهِمْ، فَهُوَ يَنْزِلُ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْقَدَرَ الَّذِي بِهِ صَلَاحُهُمْ؛ فَرُبَّ إِنْسَانٍ لَا يَصْلُحُ، وَتَنَكَّفُ عَادِيَتُهُ إِلَّا بِالْفَقْرِ.

ب ٣٧

* ت * : وقد ذكرنا في هذا المختصر أحاديث كثيرة مختارة في فضل الفقراء الصابرين - ما فيه كفاية لمن وفق، وقد روى ابن المبارك في «رقائقه» عن سعيد بن المسيب قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ بِجُلَسَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: هُمُ الْخَائِفُونَ، الْخَاضِعُونَ، الْمُتَوَاضِعُونَ، الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَمُ أَوَّلُ النَّاسِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: الْفُقَرَاءُ يَسْقُونَ النَّاسَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَتَخْرُجُ إِلَيْهِمْ مِنْهَا مَلَائِكَةٌ، فَيَقُولُونَ: أَزْجِعُوا إِلَى الْحِسَابِ، فَيَقُولُونَ: عَلَامَ نَحَاسِبُ، وَاللَّهِ مَا أَفِيضَتْ عَلَيْنَا الْأَمْوَالُ فِي الدُّنْيَا فَتَقْبِضَ فِيهَا وَتَبْسُطَ، وَمَا كُنَّا أُمَرَاءَ نَعْدِلُ وَنَجُورُ؛ وَلَكِنَّا جَاءَنَا أَمْرُ اللَّهِ فَعَبَدْنَاهُ حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ»^(١) انتهى.

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا...﴾ الآية، تعديد نعم الله تعالى الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ الْمَوْلَى الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «قَنَطُوا» بفتح النون، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: «قَنَطُوا» بكسرها، وهما لغتان^(٢)، وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قِيلَ لَهُ: أَجْدَبْتَ الْأَرْضَ، وَقَنَطَ النَّاسَ، فَقَالَ: مُطَرُّوا إِذَنْ، بِمَعْنَى أَنَّ الْفَرَجَ عِنْدَ الشَّدَّةِ.

١٣٨

وقوله تعالى/ ﴿وَيَنْشُرْ رَحْمَتَهُ﴾ قيل: أَرَادَ بِالرَّحْمَةِ: الْمَطَرُ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالرَّحْمَةِ هُنَا: الشَّمْسُ، فَذَلِكَ تَعْدِيدُ نِعْمَةٍ غَيْرِ الْأُولَى، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطَرَ إِذَا أَلَمَّ بَعْدَ الْقَنَطِ حَسَنُ مَوْقِعُهُ، فَإِذَا دَامَ سُيُمَ، فَتَجِيءُ الشَّمْسُ يَعْدُهُ عَظِيمَةً الْمَوْقِعِ.

(١) أخرجه أبو نعيم بن حماد في «زوائد» على الزهد (٨٠) (٢٨٣).

(٢) وقراً بها يحيى بن وثاب.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦/٥)، و«البحر المحيط» (٤٩٥/٧)، و«الدر المصون» (٨١/٦).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: مَنْ هذه أفعاله هو الذي ينفع إذا وَالَى، وتُحْمَدُ أفعاله ونعمه، قال الْقُشَيْرِيُّ: اسمه تعالى: «الولي»، أي: هو المتولي لأحوال عباده، وقيل: هو من الوالي، وهو الناصر، فأولياء الله أنصار دينه، وأشياغ طاعته، والولي: في - صفة العبد - مَنْ يُوَاطِبُ على طاعة رَبِّه، وَمِنْ علامات مَنْ يكونُ الْحَقُّ سبحانه وَلِيَّه - أَنْ يصونه، ويكفِيه في جميع الأحوال، وَيُؤَمِّنُه، فيغَارَ على قلبه أَنْ يتعلَّقَ بمخلوق في دفع شَرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ؛ بل يكونُ سبحانه هو القائمُ عَلَى قلبه في كُلِّ نَفْسٍ، فيحققُ آماله عند إشاراته، ويعجلُ مَآرِبَه عند خَطَرَاتِه، ومن أماراتِ ولايته لِعَبْدِه: أَنْ يُدِيمَ توفيقَه حتَّى لو أرادَ سوءاً، أو قصدَ محظوراً - عَصَمَه عن ارتكابه، أو لو جنح إلى تقصير في طاعة، أبى إلا توفيقاً وتأييداً، وهذا من أماراتِ السعادة، وعكسُ هذا مِنْ أماراتِ الشقاوة، ومن أماراتِ ولايته أيضاً أَنْ يرزقه مَوَدَّةً في قُلُوبِ أوليائه، انتهى من «التحبير».

ثم ذكر تعالى الآية الكُبْرَى الدَّالَّةَ على الصَّانِعِ، وذلك خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ.

وقوله [تعالى]: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يتخرَّجُ عَلَى وجوه: منها: أَنْ يريدَ إِخْدَاهُمَا، وهو ما بَثَّ في الأرضِ دُونَ السَّمَوَاتِ، ومنها: أَنْ يكونَ تعالى قد خلق في السَّمَوَاتِ وَبَثَّ دوابَّ لا نَعْلَمُهَا نَحْنُ، ومنها: أَنْ يريدَ الحيواناتِ التي تُوجَدُ في السحابِ، وقد تَفَعَّ أحياناً كالضفادع/ ونحوها؛ فَإِنَّ السَّحَابَ داخل في اسم السماء.

٣٨ ب

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ يريد: يَوْمَ القيامة عند الحشر من القبور.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْمَجَارِفُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ قرأ جمهور القُرَّاء: «فِيمَا» بفاء، وكذلك هي في جُلِّ المصاحف، وقرأ نافع وابن عامر: «بِمَا» دون فاء^(١)، قال أبو علي الفارسي: أصاب من قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ يحتمل أَنْ يكون في موضع جَزْم، وتكون «ما» شرطية، وعلى هذا لا يجوزُ حَذْفُ الفاءِ عِنْدَ سِبْوَئِهِ، وجَوَزُ حَذْفِهَا أَبُو الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ، وبعضُ

(١) وقراءة الجمهور أجود في العربية، لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، والمعنى: ما يصيبكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم.

ينظر: «حجة القراءات» (٦٤٢)، و«السبعة» (٥٨١)، و«الحجة» (٦/١٢٨)، و«معاني القراءات» (٢/

٣٥٦)، و«شرح الطيبة» (٥/٢١٤)، و«العنوان» (١٧٠)، و«شرح شعلة» (٥٧٤)، و«إتحاف» (٢/

(٤٥٠).

البغداديين؛ على أنها مرادة في المعنى، ويحتمل أن يكون «أصاب» صلة لـ «ما»، وتكون «ما» بمعنى «الذي»، وعلى هذا يتجه حذف الفاء وثبوتها، لكن معنى الكلام مع ثبوتها التلازم، أي: لولا كَسْبُكُمْ ما أصابكم مصيبة، والمصيبة إنما هي بكسب الأيدي، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أن يكون التلازم، ويجوز أن يُعْرَى منه، قال * ع^(١) : «وَأَمَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَالتَّلَازُمُ مُطَرِّدٌ مَعَ الثَّبُوتِ وَالْحَذْفِ، وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ، فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ الرِّزَايَا وَالْمَصَائِبَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا هِيَ مَجَازَاتٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذُنُوبِ الْمَرْءِ وَخَطَايَاهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْفو عَنْ كَثِيرٍ، فَلَا يَعَاقِبُ عَلَيْهِ بِمُصِيبَةٍ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ خَذْشُ عَوْدٍ، أَوْ عَثْرَةُ قَدَمٍ، وَلَا اخْتِلَاجُ عِزْقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفو عَنْهُ أَكْثَرُ»^(٢)، وَقَالَ مُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ: رَأَيْتُ عَلَى ظَهْرِ شُرَيْحٍ قُرْحَةً، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِمَا كَسَبْتُ يَدَيَّ، وَيَعْفو [اللَّهُ]^(٣) عَنْ كَثِيرٍ، وَقِيلَ لِأَبِي سَلِيمَانَ الدَّارَانِيِّ: مَا بَالُ الْفَضْلَاءِ لَا يَلُومُونَ مَنْ أَسَاءَ/ إِلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: لَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَبْتَلَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ عَقُوبَةٍ، أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا - فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُنْثِيَ عَلَيْكُمْ الْعُقُوبَةَ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، فَاللَّهُ أَحْلَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِيهِ بَعْدَ عَفْوِهِ»^(٤) وَقَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَى الْآيَةِ فِي الْحُدُودِ، أَي: مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ، وَيَعْفو اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ، فَيَسْتَرِهِ عَلَى الْعَبْدِ حَتَّى لَا يُحَدِّثَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُصُورِ ابْنِ آدَمَ وَضَعْفِهِ، وَأَنَّهُ فِي قَبْضَةِ الْقُدْرَةِ لَا يَعْجُزُ طَلَبُ رَبِّهِ، وَلَا يُمَكِّنُهُ الْفِرَارُ مِنْهُ، وَ«الْجَوَارِي»: جَمْعُ جَارِيَةٍ وَهِيَ السَّفِينَةُ، وَ«الْأَعْلَامُ»: الْجِبَالُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ، فِيهِ الْمَوْعِظَةُ وَتَشْرِيفُ الصَّبْرِ الشُّكُورِ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧/٥).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٣/٧) (٩٨١٥) عن قتادة، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٣/٣٤١) (٦٨٤٩)، وعزاه إلى سعيد بن منصور.

(٣) سقط في: د.

(٤) أخرجه أحمد (٨٥/١)، وأبو يعلى (٣٥٢/١) (٤٥٣/١٩٣)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٠٧).

قال الهيثمي: رواه أحمد، وأبو يعلى، وفيه أزهري بن راشد وهو ضعيف. وله شاهد من طريق آخر منه: أخرجه الترمذي (١٦/٥) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢/٨٦٨) كتاب «الحدود» باب: الحد كفارة (٢٦٠٤)، وأحمد (٩٩/١)، (١٥٩)، والحاكم (٢/٤٤٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمَا كَسَبُوا وَيَعَفَّ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ ﴿٣٥﴾ فَأَؤْتَيْتُم مِّن شَيْءٍ فَنَنُتِلَّ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرٌ إِلَّا الَّذِينَ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمَا كَسَبُوا﴾: أُوْبِقْتُ الرَّجُلُ: إِذَا أُتْسِبَتْهُ فِي أَمْرِ يَهْلِكُ فِيهِ، وهو في السفنِ تغريقها ﴿يَمَا كَسَبُوا﴾ أي: بذنوب رُكَّابها، وقرأ نافع، وابن عامر: «وَيَعْلَمُ» بالرفع؛ على القطع والاستئناف، وقرأ الباقون والجمهور: «وَيَعْلَمُ» بالنصب^(١)؛ على تقدير «أَنْ»، و«الْمَحِصُ»: الْمَنْجَى، وموضع الرُّوْعَانِ.

ثم وعظ سبحانه عباده، وحقر عندهم أمر الدنيا وشأنها، ورغَّبَهُمْ فيما عنده من النعيم والمنزلة الرفيعة لديه، وعظم قدر ذلك في قوله: ﴿فَمَا أُوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [وزينتها] وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ وقرأ الجمهور^(٢): ﴿كَبَائِرُ﴾ على الجمع؛ قال الحسن: هي كُلُّ مَا تُوعَدُ فِيهِ بِالنَّارِ^(٣)، وقد تقدَّم ما ذَكَرَهُ / الناس في الكبائر في سورة النساء وغيرها، ﴿والفواحش﴾: قال السُّدِّيُّ^(٤): الزنا، وقال ٣٩ ب مقاتل: مُوجِبَاتُ الحدود^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ حَضَّ عَلَى كَسْرِ الْغَضَبِ وَالتَّوَدُّبِ فِي إِطْفَائِهِ؛ إِذْ هُوَ جَمْرَةٌ مِنْ جَهَنَّمَ، وَبَابٌ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ»^(٦)، وَمَنْ جَاهَدَ

(١) ينظر: «السبعة» (٥٨١)، و«الحجة» (١٣٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٨٥/٢)، و«معاني القراءات» (٣٥٧/٢)، و«شرح الطيبة» (٢١٤/٥)، و«العنوان» (١٧٠)، و«حجة القراءات» (٦٤٣)، و«إتحاف» (٤٥٠/٢).

(٢) وقد قرأ حمزة والكسائي بالإنفراد «كبير».

ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩/٥)، و«السبعة» (٥٨١)، و«الحجة» (١٣٢/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٨٦)، و«معاني القراءات» (٣٥٨/٢)، و«شرح الطيبة» (٢١٥/٥)، و«العنوان» (١٧٠)، و«حجة القراءات» (٦٤٣)، و«شرح شعلة» (٥٧٤)، و«إتحاف» (٤٥١/٢).

(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣٩/٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٥٤/١١) برقم: (٣٠٧٢٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٢٩/٤)، وابن عطية (٥/٣٩).

(٥) أخرجه البغوي (١٢٩/٤)، وذكره ابن عطية (٣٩/٥).

(٦) أخرجه البخاري (٥٣٥/١٠) كتاب «الأدب» باب: الحذر من الغضب (٦١١٦)، والبيهقي (١٠٥/١٠) كتاب «آداب القاضي» باب: لا يقضي وهو غضبان، نحوه من حديث أبي هريرة، والترمذي (٣٧١/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في كثرة الغضب (٢٠٢٠)، نحوه حديث البخاري والبيهقي عنه. =

هذا العَارِضَ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى عَلَبَهُ، فَقَدْ كُفِيَ هَمًّا عَظِيمًا فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

ت * : وروى مالك في «الموطأ» أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ أَعِيشُ بِهِنَّ وَلَا تُكْثِرَ عَلَيَّ فَأَنْسَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَغْضَبُ»^(١) قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَرَادَ: عَلَّمَنِي مَا يَنْفَعُنِي بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ؛ لِثَلَا أَنْسَى إِنْ أَكْثَرْتَ عَلَيَّ، ثُمَّ أَسْنَدَ أَبُو عُمَرَ مِنْ طُرُقٍ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ عَمِّهِ جَارِيَةٍ بِنِ قُدَامَةَ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي قَوْلًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، وَأَقْلِلْ لِي؛ لَعَلِّي أَغْفِلُهُ، قَالَ: «لَا تَغْضَبُ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ مِرَارًا، كُلُّهَا يُرْجَعُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ: لَا تَغْضَبُ»، انْتَهَى^(٢) مِنْ «التمهيد»، وَأَسْنَدَ أَبُو عُمَرَ فِي «التمهيد» أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْهَذِيلِ قَالَ: لَمَّا رَأَى يَحْيَى أَنَّ عَيْسَى مُفَارِقُهُ قَالَ لَهُ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبُ، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: لَا تَقْتَنِ مَالًا، قَالَ عَسَى. انْتَهَى. وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ» بِسَنَدِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَغْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ عَنْهُمْ، وَقَاهُ اللَّهُ عَذَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣)، قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: وَأَخْبَرَنَا/ ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَمَنْ ذَكَرَنِي حِينَ يَغْضَبُ ذَكَرْتُهُ حِينَ أَغْضَبُ فَلَمْ أَمْحَقْهُ فِيمَنْ أَمْحَقُ»^(٤) انْتَهَى.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴿

= قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وفي الباب من حديث جارية بن قدامة التيمي رضي الله عنه: أنه قال: يا رسول الله ﷺ قل لي قولاً ينفعني الله به، وأقلل لعلني لا أغفلُهُ، قال: «لا تغضب...» الحديث.

أخرجه ابن حبان (٥٠٢/١٢) كتاب «الخطر والإباحة» باب: الاستماع المكروه وسوء الظن والغضب والفحش، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من ذم النفس عن الخروج إلى ما لا يرضي الله - جل وعلا - بالغضب (٥٦٨٩ - ٥٦٩٠)، وأحمد (٤٨٤/٣)، (٣٤/٥)، والحاكم (٦١٥/٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢٣٧/٢) (٢٣٠٩)، والطبراني (٢٦٢/٢) (٢٠٩٤) (٢١٠٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠٨/٣) (١١١٠).

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٠٦/٢) كتاب «حسن الخلق» باب: ما جاء في الغضب (١١).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤٦/٧)، وانظر الحديث قبل السابق.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٥٧) (٧٤٥)، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٣٥٤/٣) (٦٩٠٢)، وعزاه إلى الديلمي.

(٤) تقدم تخريج هذا الحديث مسنداً.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ مَذْحٌ لِّكُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَقَبِلَ شَرْعَهُ، وَمَذْحُ اللَّهِ تعالى الْقَوْمَ الَّذِينَ أَمَرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ؛ لَأَنَّ فِي ذَلِكَ اجْتِمَاعَ الْكَلِمَةِ، وَالتَّحَابَّ، وَاتِّصَالَ الْأَيْدِي، وَالتَّعَاوُذَ عَلَى الْخَيْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا هَدُوا لِأَخْسَنِ، مَا يَحْضُرَتِهِمْ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ معناه: فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَبِرِسْمِ الشَّرْعِ؛ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ...﴾ الآية، نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ^(٢)، وَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَدَحَ كُلَّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَهَلْ حَصَلَ الْأَنْصَارُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ إِلَّا بَعْدَ سَبَبِ الْمَاهِجَرِينَ إِلَيْهَا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ -.

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾: مَدَحَ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْمًا بِالْإِنتِصَارِ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ، وَرَجَّحَ ذَلِكَ قَوْمَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَقَالُوا: الْإِنتِصَارُ بِالْوَاجِبِ تَغْيِيرُ مَنْكَرٍ، قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ [الثَّخَفِيُّ] فِي هَذِهِ الْآيَةِ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَدْلُوا، فَإِذَا قَدَرُوا عَفَا، انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ قِيلَ: سُمِّيَ الْجَزَاءُ بِاسْمِ الْإِبْتِدَاءِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَيِّئَةٌ، لِتَشَابُهِمَا فِي الصُّورَةِ، قَالَ * ع^(٣) *: وَإِنْ أَخَذْنَا السَّيِّئَةَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَصِيبَةِ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، أَيْ: يَسُوءُ هَذَا هَذَا وَيَسُوءُ الْآخَرُ - فَلَسْنَا نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نَقُولَ: سُمِّيَ الْعُقُوبَةُ بِاسْمِ الذَّنْبِ؛ بَلِ الْفِعْلُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ سَيِّئَةٌ، قَالَ الْفَخْرُ: أَعْلَمَ أَنَّهُ تَعَالَى / لَمَّا قَالَ: ٤٠ ب ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أَرَدَفَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْإِنتِصَارَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُقَيَّدًا بِالْمِثْلِ؛ فَإِنَّ النِّقْصَانَ حَيْفٌ، وَالزِّيَادَةُ ظُلْمٌ، وَالمَسَاوَاةُ هُوَ الْعَدْلُ؛ فَلِهَذَا السَّبَبُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ انْتَهَى؛ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ وَنَحْوَهُ مِنَ الْآيِ، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ لَامُ التَّقَاءِ الْقِسْمِ.

وقوله: ﴿مَنْ سَبِيلٌ﴾ يَرِيدُ: مَنْ سَبِيلٌ حَرَجٌ وَلَا سَبِيلَ حَكَمٍ، وَهَذَا إِبْلَاحٌ فِي إِبَاحَةِ الْإِنتِصَارِ، وَالْخِلَافُ فِيهِ: هَلْ هُوَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُشْرِكِ، أَوْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ؟.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَقْرَدِ» (٨١) بَابُ: الْمَشُورَةِ (٢٥٣) نَحْوَهُ، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (٧٠٧/٥)، وَعَزَاهُ إِلَى عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٥٤/١١) بِرَقْمٍ: (٣٠٧٢٣)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٩/٥).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤٠/٥).

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ^(٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوتُ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ^(٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ^(٤٥) ﴿

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ...﴾ الآية، المعنى: إنما سبيل الحكم والإثم على الذين يظلمون الناس، روى الترمذي عن كعب بن عُجرَةَ قال: قال لي النبي ﷺ: «أَعِيدُكَ بِاللَّهِ يَا كَعْبُ مِنْ أَمْرٍ يَكُونُونَ، فَمَنْ عَشِيَ أَبْوَابُهُمْ فَصَدَقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَا يَرِدْ عَلَيَّ الْحَوْضُ، يَا كَعْبُ، الصَّلَاةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، يَا كَعْبُ لَا يَزِيدُ لَحْمٌ نَبْتٌ مِنْ سُخْتٍ إِلَّا كَانَتْ النَّارُ أَوْلَى بِهِ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وخرجه أيضاً في «كتاب الفتن» وصححه^(١)، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ إلى قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾: اعتراض بين الكلامين، ثم عاد في قوله: ﴿ولمن صبر﴾ إلى الكلام الأول، كأنه قال: ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، ﴿ولمن صبر وغفر...﴾ الآية، واللام في قوله: ﴿ولمن صبر﴾ يصح أن تكون لام قَسَم، ويصح أن تكون لام الابتداء، و﴿عزم الأمور﴾: مُحْكَمُهَا وَمُتَقَنُّهَا، والحميد^{١٤١} العاقبة منها، فَمَنْ رَأَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هي فيما بين المؤمنين والمشركون، وأن الصبر للمشركون كان أفضل قال: إِنَّ الْآيَةَ نَسَخَتْ بِآيَةِ السَّيْفِ، وَمَنْ رَأَى أَنَّ الْآيَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، قال: هي مُحْكَمَةٌ، والصبر والغفران أفضل إجماعاً، وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ، فَيَقُومُ عَنَقَ مِنَ النَّاسِ كَبِيرٍ، فَيُقَالُ: مَا أَجْرُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمْنَا فِي الدُّنْيَا»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ تحقير لأمر الكفرة، أي: فلا يُبَالِي بهم أحدٌ من المؤمنين؛ لأنهم صائرون إلى ما لا فلاح لهم معه، ثم وصف تعالى

(١) أخرجه الترمذي (٥٢٥/٤) كتاب «الفتن» باب: (٧٢) (٢٢٥٩)، والنسائي (١٦٠/٧ - ١٦١) كتاب «البيعة» باب: من لم يعن أميراً على الظلم (٤٢٠٨)، وابن حبان (١٤١/٥) (١٥٦٩)، وأحمد (٣/٣٩٩) كلهم نحوه.

قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب، لا نعرفه من حديث مشعرٍ إلا من هذا الوجه.

(٢) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٢٦٥/٣).

لنبيِّه حالهم في القيامة عند رؤيتهم العذاب، وقولهم: ﴿هل إلى مرد من سبيل﴾ ومرادهم: الرُّدُّ إلى الدنيا، والرؤية هنا رؤية عَيْنٍ، والضميرُ في قوله: ﴿عليها﴾ عائِدٌ على النار، وإن لم يتقدَّم لها ذِكْرٌ من حيث دَلَّ عليها قوله: ﴿رأوا العذاب﴾.

وقوله: ﴿من الذل﴾ يتعلق بـ﴿خاشعين﴾.

وقوله تعالى: ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال قتادة والسُّدِّيُّ^(١): المعنى: يسارقون النَّظَرَ؛ لما كانوا فيه من الهمِّ وسوء الحال لا يستطيعون النَّظَرَ بجميع العَيْنِ؛ وإنَّما ينظرون ببعضها؛ قال الثعلبيُّ: قال يونس: ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء، ينظرون بطرف خفيٍّ، أي: ضعيف؛ من أجل الذلِّ والخوف، ونحوه عن الأخفش، انتهى، وفي البخاريّ ﴿من طرف خفي﴾، أي: ذليل.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين ءامنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة...﴾ الآية، وقول ﴿الذين آمنوا﴾ هو في يوم القيامة عند ما عاينوا حال الكفار وسوء مُنْقَلَبِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين/ يومئذ، حكاه الله عنهم، ويحتمل أن يكون استئنافاً من قول الله عز وجل ٤١ ب وأخبره لنبيه محمد - عليه السلام -.

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٦) ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) ﴿إِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحْنَا بِهَا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِنِينَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨)

وقوله تعالى: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله...﴾ الآية، إنحاء على الأصنام والأوثان التي أظهر الكفار ولايتها، واعتقدت ذلك ديناً، ثم أمر تعالى نبيِّه أن يأمرهم بالاستجابة لدعوة الله وشريعته من قبل إتيان يوم القيامة الذي لا يُرَدُّ أحد بعده إلى عمل، قال * ع^(٢) *: في الآية الأخرى في سورة «آلم غلبت الروم»: ويحتمل أن يريد: لا يُرَدُّه رَادٌّ حتى لا يقع، وهذا ظاهر بحسب اللفظ، و«النكير»: مصدر بمعنى الإنكار؛

(١) أخرجه الطبري (١٥٩/١١) برقم: (٣٠٧٣٨ - ٣٠٧٣٩)، وذكره ابن عطية (٤١/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢/٥).

قال الثعلبي: ﴿ما لكم من ملجأ﴾: أي مَقِيل، ﴿وما لكم من نكير﴾ أي: من إنكارٍ على ما ينزل بكم من العذاب بغير ما بكم، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا...﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ، والإنسان هنا اسم جنس، وَجَمَعَ الضمير في قوله: ﴿تصبهم﴾ وهو عائد على لفظ الإنسان من حيث هو اسم جنس.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَرَ ۚ أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾ الآية، هذه آية اعتبار دالٌّ على الْفُذْرَةِ وَالْمُلْكِ المحيط بالجميع، وَأَنَّ مشيئته تعالى نافذة في جميع خلقه وفي كُلِّ أمرهم، وهذا لا مدخل لصنم فيه، فَإِنَّ الذي يخلق ما يشاء هو الله تبارك وتعالى، وهو الذي يقسم الخلق؛ فيهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الأولاد الذكور، ﴿أَوْ يَزْوَجُهُمْ﴾ أي: ينوعهم ذكراً وإناثاً، وقال محمد ابن الْحَنَفِيَّة: يريد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزْوَجُهُمْ﴾ التَّوَامَ، أي: يجعل في بطن زوجاً من الذَّرِيَّة ذكراً وأنثى^(١)، و«العقيم»: الذي لا يُولدُ له، وهذا كله مُدَبَّرٌ بالعلم والقدرة/ وبدأ في هذه الآية بذكر الإناث؛ تأنيساً بِهِنَّ لِيُهَيِّمَ بصونهنَّ والإحسانَ إِلَيْهِنَّ، وقال النبي - عليه السلام -: «مَنْ أَبْثَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»^(٢)، وقال واثله بَنُ الْأَسْقَعِ: مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ تَبْكِيرُهَا بِالْأُنْثَى قَبْلَ الذَّكَرِ^(٣)؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ بِذِكْرِ الْإِنَاثِ؛ حَكَاهُ عَنْهُ الثَّعْلَبِيُّ قَالَ: وَقَالَ

(١) ذكره ابن عطية (٤٣/٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢/٣) كتاب «الزكاة» باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة، والقليل من الصدقة (١٤١٨)، (٤٤٠/١٠) كتاب «الأدب» باب: رحمة الولد وتقبيله ومعافاته (٥٩٩٥)، ومسلم (٤/٢٠٢٧) كتاب «البر والصلة والأدب» باب: فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩/١٤٧)، والترمذي (٤/٣١٩) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في النفقة على البنات والأخوات (١٩١٣)، وابن حبان (٧/٢٠١) كتاب «الجنائز» باب: ما جاء في الصبر وثواب الأعمال، ذكر الاستتار من النار - نعوذ بالله منها - للمسلم إذا ابتلي بالبنات فأحسن صحبتهم (٢٩٣٩)، وأحمد (٣٣/٦)، والبيهقي (٤٧٨/٧) كتاب «النفقات» باب: النفقة على الأولاد.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) ذكره ابن عطية (٤٣/٥).

إِسْحَاقَ بْنِ بَشَرَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْبِيَاءِ^(١)، ثُمَّ عَمَّتْ فِي يَهَبٍ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً يَعْنِي: لَوْطًا - عَلَيْهِ السَّلَام -، وَيَهَبٍ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ يَعْنِي إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام -، وَأَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنِثَاءً يَعْنِي: نَبِيئًا مُحَمَّدًا - عَلَيْهِ السَّلَام -، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا يَعْنِي: يَخَيُّ بْنُ زَكْرِيَّا - عَلَيْهِمَا السَّلَام -.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا...﴾ الآية، نَزَلَتْ بِسَبَبِ خَوْضِ كَانَ لِلْكَفَّارِ فِي مَعْنَى تَكْلِيمِ اللَّهِ مُوسَى وَنَحْوِ ذَلِكَ، ذَهَبَ قَرِيشٌ وَالْيَهُودُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَجْسِيمِ وَنَحْوِهِ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ مُبَيِّنَةً صَوْرَةَ تَكْلِيمِ اللَّهِ عِبَادَهُ، كَيْفَ هُوَ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ، وَلَا يُمْكِنُ فِيهِ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا بِأَنْ يُوْحِيَ إِلَيْهِ أَحَدَ وَجُوهِ الْوَحْيِ مِنَ الْإِلْهَامِ؛ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَوْ الثَّقِثُ فِي الْقَلْبِ^(٢)، أَوْ وَحْيٍ فِي مَنْامٍ، قَالَ الثَّخَعِيُّ: وَكَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يُخَطُّ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَنَحْوِ هَذَا، أَوْ بِأَنْ يُسْمِعَهُ كَلَامَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ هُوَ لِلْمُتَكَلِّمِ جِهَةً وَلَا حَيْزًا كَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام -، وَهَذَا مَعْنَى ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أَي: مِنْ خَفَاءٍ عَنِ الْمُكَلَّمِ لَا يَحُدُّهُ وَلَا يَتَسَوَّرُ بِذَهْنِهِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ كَالْحِجَابِ فِي الشَّاهِدِ، أَوْ بِأَنْ يَرْسِلَ إِلَيْهِ مَلَكًا يُشَافِهُهُ بِوَحْيِ اللَّهِ/ عَزَّ ٤٢ ب وَجَلَّ، قَالَ الْفَخْرُ^(٣): قَوْلُهُ: ﴿فِيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: فِيُوحِي ذَلِكَ الْمَلَكُ بِإِذْنِ اللَّهِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ أَنْتَهَى، وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَّاءِ وَالنَّاسُ: «أَوْ يُرْسِلُ» بِالنَّصْبِ «فِيُوحِي» بِالنَّصْبِ أَيْضًا، وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ: «أَوْ يُرْسِلُ» بِالرَّفْعِ فِيُوحِي - بِسُكُونِ الْيَاءِ^(٤) -، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ «مِنْ» مُتَعَلِّقَةٌ بِفِعْلٍ يَدُلُّ ظَاهِرُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: أَوْ يَكْلِمُهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرِّسَالَةَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْلِيمِ، وَأَنَّ مَنْ حَلَفَ: لَا يَكْلِمُ فُلَانًا، وَهُوَ لَمْ يَنْوِ الْمَشَافَهَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولًا حَيْثُ.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ أَمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلٰهَ إِلَّا إِلٰهُ تَصَدَّقُوا بِالْأُمُورِ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ أَمَرْنَا...﴾ الآية، المعنى: وبهذه الطرق، ومن هذا الجنس أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، أَي: بِالرَّسُولِ، وَ«الرُّوحُ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْقُرْآنُ

(١) ذكره ابن عطية (٤٣/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤٣/٥).

(٣) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٦٣/٢٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣/٥)، و«البحر المحيط» (٥٠٤/٧)، و«الدر المصون» (٨٨/٦).

آن وهدى الشريعة، سَمَاهُ رُوحاً من حيث يُخَيِّي به الْبَشَرُ وَالْعَالَمُ؛ كَمَا يُخَيِّي الْجَسَدَ بالروح، فهذا على جهة التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَمَرْنَا﴾ أي: واحد من أمورنا، ويحتمل أَنْ يكون الأمر بمعنى الكلام، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية.

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ توقيفٌ عَلَى مِقْدَارِ النعمة، والضميرُ في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائِدٌ عَلَى الْكِتَابِ، و﴿نَهْدِي﴾ بمعنى: نُزْشِدُ، وقرأ جمهور الناس: «وَأِنَّكَ لَنَهْدِي» - بفتح التاء وكسر الدال -، وقرأ حَوْشَبُ: «لَنَهْدِي» - بضم التاء وفتح الدال -، وقرأ عاصم: «لَنَهْدِي» - بضم التاء وكسر الدال -.

وقوله: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ يعني: صراط شرع الله، ثم استفتح سبحانه الْقَوْلَ فِي الْإِخْبَارِ بصيرورة الأمور إليه سبحانه؛ مبالغةً وتحقيقاً وتثبيتاً، فقال: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ قال الشيخ/ العارف بالله أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَغْلِبَ الشَّرَّ كُلَّهُ، وتلحق الخير كُلَّهُ، ولا يَسْبِقَكَ سَابِقٌ، وَإِنْ عَمِلَ مَا عَمِلَ - فقل: يَا مَنْ لَهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، فَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، أَسْأَلُكَ بِالْهَادِي مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَغْفِرَةً تَشْرَحُ بِهَا صَدْرِي، وَتَضَعُ بِهَا وَزْرِي، وَتَرْفَعُ بِهَا ذِكْرِي، وَتُسِّرُ بِهَا أَمْرِي، وَتُنَزِّهَ بِهَا فِكْرِي، وَتُقَدِّسَ بِهَا سِرِّي، وَتَكْشِفَ بِهَا ضُرِّي، وَتَرْفَعُ بِهَا قَدْرِي؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اهـ.

١٤٣

* قلت *: قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾: هَذَا بَيِّنٌ، وقوله: ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾: فِيهِ تَأْوِيلَاتٌ: قِيلَ مَعْنَاهُ: وَلَا شَرَائِعَ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمَهُ؛ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَعْنِي: الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِيمَانِ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْقَاضِلِ: يَعْنِي أَهْلَ الْإِيمَانِ، مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ، وَقَالَ ابْنُ حُزَيْمَةَ: الْإِيمَانُ هُنَا الصَّلَاةُ؛ دَلِيلُهُ: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ» [البقرة: ١٤٣] قَالَ ابْنُ أَبِي الْجَعْدِ وَغَيْرُهُ: احْتَرَقَ مُضَحَفٌ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ وَغَرِقَ مُصْحَفٌ فَامْحَى كُلُّهُ إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ نَقَلَهُ الثَّعْلَبِيُّ وَغَيْرُهُ^(١)، انْتَهَى.

قال العبد الفقير إلى الله تعالى، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، لَطَفَ اللَّهُ بِهِ فِي الدَّارَيْنِ: قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَحْرِيرِ هَذَا الْمُخْتَصَرِ، وَقَدْ أَوْدَعْتُهُ بِحَمْدِ اللَّهِ

جزيلاً من الدُّرر، قد استوعبت فيه بحمد الله مُهمَّات ابنِ عطية، وزدته فوائد جليلة من غيره، وليس الخبرُ كالعيان، تَوَخَّيت فيه بحمد/ الله الصَّواب؛ وجعلته ذخيرةً عند الله ليومِ المآب، لا يَسْتَغْنِي عنه المُنتهي؛ وفيه كفايةٌ للمُبتدي، يستغني^(١) به عن المُطوَّلات؛ إذ قد حَصَلَ منها لُبَّابُهَا؛ وكشَفَ عن الحقائق حِجَابُهَا.

{ التَّغْرِيفُ بِرِخْلَةِ الْمُؤَلِّفِ }

رحلتُ في طَلَبِ العِلْمِ في أواخر القَرْنِ الثَّامِنِ، ودخلتُ بِجَايَةٍ في أوائل القرن التاسع، فلقيتُ بها الأئمةَ المُقتدَى بهم، أصحابَ سيدي عبد الرحمن الوغليسي متوافرين، فحضرتُ مجالسَهُمْ، وكانتْ عُمْدَةُ قراءتي بها على سيدي [علي بن]^(٢) عثمان المَانِجِلَاتِي - رحمه الله - بِمَسْجِدِ عَيْنِ البَرَزَرِ، ثم ارتحلْتُ إلى تُوس، فلقيتُ بها سيدي عيسى الغبريني والأبِّي، والبرزلي، وغيرهم، وأخذتُ عنهم، ثم ارتحلْتُ إلى المشرق، فلقيتُ بِمِصْرَ الشَيْخِ وَلِيِّ الدِّينِ العِرَاقِي، فأخذتُ عنه علوماً جَمَّةً مُعْظَمُهَا عِلْمُ الحديث، وفتح الله لي فيه فتحاً عظيماً، وكتب لي وأجازني جميع ما حضرته عليه، وأطلق في غيره، ثم لقيتُ بِمَكَّةَ بعضَ المُحدثين، ثم رجعتُ^(٣) إلى الديار المصرية وإلى تُوس، وشاركتُ مَنْ بها، ولقيتُ بها شيخنا أبا عبد الله مُحَمَّدَ بْنَ مَرْزُوقٍ قَادِماً لِإِرَادَةِ الْحَجِّ، فأخذتُ عنه كثيراً، وأجازني [التدريس] في أنواعِ الفُنُونِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَحَرَّضَنِي عَلَى إِتِمَامِ تَقْيِيدِ وَضْعَتِهِ عَلَى ابْنِ الْحَاجِبِ الفرعي.

قلت: ولما فرغتُ من تحرير هذا المختصرِ وافقَ قَدُومَ شَيْخِنَا أَبِي عبد الله مُحَمَّدِ بنِ مَرْزُوقٍ عَلَيْنَا فِي سَفَرَةٍ سَافَرَهَا مِنْ تَلِمَسَانَ مُتَوَجِّهاً إِلَى تُوس، ليصلحَ/ بَيْنَ سُلْطَانِهَا وَبَيْنَ صَاحِبِ تَلِمَسَانَ، فأوقفته على هذا الكتاب، فنظر فيه وأمعن النظر، فَسَّرَ به سروراً كثيراً ودعا لنا بخير، والله الموفقُ بِفَضْلِهِ.

(١) في د: يستعين.

(٢) سقط في: د.

(٣) في د: رجعتنا.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّخْرَفِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَلْتِيبِ لَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾

﴿حَمْدٌ﴾ والكتاب المبين: ﴿والكتاب﴾: خُفِضَ بواو القَسَمِ، والضمير في ﴿جعلناه﴾ عائذ على الكتاب، ﴿وإنه﴾ عطف على ﴿جعلناه﴾، وهذا الإخبار الثاني واقع أيضاً تحت القَسَمِ، و﴿أم الكتاب﴾: اللوح المحفوظ، وهذا فيه تشريف للقرآن، وترفيه، واختلاف المتأولون: كيف هو في أم الكتاب؟ فقال قتادة وغيره: القرآن بأجمعه فيه منسوخ، ومنه كان جبريل ينزل، وهنالكَ هو عليّ حكيم^(١)، وقال جمهور الناس: إنما في اللوح المحفوظ ذكره ودرجته ومكانته من العلو والحكمة.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿أفَنَضْرِبُ﴾ بمعنى: أفنترك؛ تقول العرب: أضربْتُ عن كذا وضربْتُ: إذا أَعْرَضْتُ عنه وتركتهُ، و﴿الذكر﴾ هو: الدعاء إلى الله، والتذكير بعذابه، والتخويف من عقابه، وقال أبو صالح: الذِّكْرُ هنا أراد به العذاب نفسه^(٢)، وقال الضُّحَّاك ومجاهد: الذكر القرآن^(٣).

وقوله: ﴿صَفْحًا﴾: يحتمل أن يكون بمعنى العفو والغفر للذنوب، فكأنه يقول: أفنترك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم، وغفراً لإجرامكم؛ من أجل أن كنتم قوماً مسرفين، أي: هذا لا يصلح؛ وهذا قول ابن عباس ومجاهد^(٤) ويحتمل قوله: ﴿صَفْحًا﴾ أن يكون

(١) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٥/٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري (١٦٧/١١) برقم: (٣٠٧٧٠-٣٠٧٧١) عن قتادة نحوه، والبيهقي في «تفسيره» (٤/١٣٤).

بمعنى مغفولاً عنه، أي: نتركه يَمُرُّ لا تؤخذون/ بقبوله ولا بتدبره، فكأن المعنى: أفتترككم ٤٤ ب سُدَى، وهذا هو مَنْحَى قتادة وغيره، وقرأ نافع وحمزة والكسائي: «إِنْ كُنْتُمْ بِكسر الهمزة^(١)»، وهو جزاء دَلَّ ما تقدّمه على جوابه، وقرأ الباقون بفتحها بمعنى: من أجل أن، والإسراف في الآية هو كُفْرُهُمْ.

«وكم أرسلنا من نبيء في الأولين» أي: في الأمم الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم.

«وما يأتيهم من نبيء إلا كانوا به يستهزءون» أي: كما يستهزئ قومك بك، وهذه الآية تسلية للنبي ﷺ، وتهديد بأن يصيب قريشاً ما أصاب من هو أشدُّ بطشاً منهم.

﴿ومضى مثل الأولين﴾ أي: سلف أمرهم وسُتُّهم، وصاروا عبرة غابر الدهر، أنشد صاحب «عنوان الدرّاية» لشيخه أبي عبد الله التميمي: [البيسط]

| | |
|--|---|
| يَا وَيْحَ مَنْ عَرَهُ دَهْرٌ فَسُرَّ بِهِ | لَمْ يَخْلُصِ الصَّفْوُ إِلَّا شَيْبَ بِالْكَدْرِ |
| هُوَ الْجَمَامُ فَلَا تُبْعِدْ زِيَارَتَهُ | وَلَا تَقُلْ لَيْتَنِي مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ |
| انْظُرْ لِمَنْ بَادَ تَنْظُرَ آيَةٍ عَجَباً | وَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَالْعَبَرِ |
| أَيْنَ الْأَلَى جَنَّبُوا خَيْلاً مُسَوِّمَةً | وَشَيَّدُوا إِرَماً خَوْفاً مِنَ الْقَدْرِ |
| لَمْ تُغْنِهِمْ خَيْلُهُمْ يَوْماً وَإِنْ كَثُرَتْ | وَلَمْ تُفِذْ إِرْمَ لِلْحَادِثِ النُّكْرِ |
| بَادُوا قَعَادُوا حَدِيثاً إِنْ ذَا عَجَبٍ | مَا أَوْضَحَ الرُّشْدَ لَوْلَا سَيِّئُ النَّظَرِ |
| تَنَافَسَ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمُوا | أَنَّ الْمَقَامَ بِهَا كَالْمُحِ بِالْبَصْرِ |

انتهى.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢﴾ لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ

(١) ينظر: «السبعة» (٥٨٤)، و«الحجة» (١٣٨/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٢٩٢)، و«معاني القراءات» (٢/٣٦١)، و«شرح الطيبة» (٥/٢١٧)، و«العنوان» (١٧١)، و«حجة القراءات» (٦٤٤)، و«شرح شعلة» (٥٧٥)، و«إتحاف» (٢/٤٥٣).

الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَيْكَ رَتْنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾: الآية ابتداء احتجاج على قرئش/ يوجب عليهم التناقص من حيث أقرؤا بالخالق، وعبدوا غيره، وجاءت العبارة عن الله بـ ﴿العزيز العليم﴾؛ ليكون ذلك توطئة لما عدّد سبحانه من أوصافه التي ابتداء الإخبار بها، وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قرئش.

وقوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾ الآية، هذه أوصاف فعل، وهي نعم من الله سبحانه على البشر، تقوم بها الحجة على كل مشرك.

وقوله: ﴿الذي جعل لكم﴾ ليس هو من قول المسؤولين، بل هو ابتداء إخبار من الله تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ قيل: معناه: بقدر في الكفاية للصلاح لا إكثار فيفسد، ولا قلة فيقصر؛ بل غيثاً مغيثاً، وقيل: ﴿بقدر﴾ أي: بقضاء وحتم، وقالت فرقة: معناه: بتقدير وتحرير، أي: قدر ماء معلوماً، ثم اختلف قائلو هذه المقالة فقال بعضهم: ينزل في كل عام ماءً قدراً واحداً، لا يفضل عام عاماً، لكن أكثر مرة ههنا ومرة ههنا، وقال بعضهم: بل ينزل تقديراً ما في عام، وينزل في آخر تقديراً ما، وينزل في آخر تقديراً آخر بحسب ما سبق به قضاؤه لا إله إلا هو.

قلت: وبعض هذه الأقوال لا تُقال من جهة الرأي، بل لا بُد لها من سند، و﴿أنشرونا﴾ معناه: أحييننا؛ يقال: نُشِرَ المَيِّتُ وأُنْشِرَهُ اللهُ، والأزواج هنا الأنواع من كل شيء، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾ للتبويض، والضمير في ﴿ظهوره﴾ عائذ بـ ٤٥ على/ النوع المركوب الذي وقّعت عليه «ما»، وقد، بيّنت آية أخرى ما يقال عند ركوب الفلّك، وهو: «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» [هود: ٤١] وإنما هذه خاصة فيما يُركب من الحيوان، وإن قدرنا أن ذكر النعمة هو بالقلب، والتذكّر بدء الراكب بـ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، وهو يرى نعمة الله في ذلك وفي سواه و﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين، وقال أبو حيّان ﴿مُقْرِنِينَ﴾: خبر كان، ومعناه غالبن ضابطين، انتهى، وهو بمعنى الأول، ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أمر بالإقرار بالبعث.

* ت * : وعن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَى ظَهْرِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ، فَإِذَا رَكِبْتُمُوهَا فَسَمُوا اللَّهَ» رواه ابن حبان في «صحيحه»^(١)، انتهى من «السلام»، وينبغي لمن ملكه الله شيئاً من هذا الحيوان أَنْ يَرْفُقَ بِهِ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِ؛ لِيَنَالَ بِذَلِكَ رِضَا اللَّهَ تَعَالَى، قال القُشَيْرِيُّ في «التحبير»: وينبغي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ مُعَظِّمًا لِرَبِّهِ، نَفَاعًا لَخَلْقِهِ، خَيْرًا فِي قَوْمِهِ، مُشْفِقًا عَلَى عِبَادِهِ؛ فَإِنَّ رَأْسَ الْمَعْرِفَةِ تَعْظِيمُ أَمْرِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهَ، انتهى، وَرَوَى مَالِكٌ فِي «الْمَوْطِئِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ إِذْ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَتَزَلَّ فِيهَا فَشَرِبَ، فَخَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ مِنِّي، فَتَزَلَّ الْبِئْرُ فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ حَتَّى رَفَى فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟!» فَقَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»^(٢). ١٤٦

قال أبو عُمَرَ في «التمهيد»: وكذا في الإساءة إلى الحيوان إنَّمِ، وقد رَوَى مَالِكٌ، عن نافع، عن ابن عمر؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَطْلَقَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٣)، ثم أسند أبو عُمَرَ؛ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ حَائِطًا مِنْ

(١) أخرجه أحمد (٤٩٤/٣)، وابن حبان (٦٠٢/٤ - ٦٠٣) كتاب «الصلاة» باب: شروط الصلاة، ذكر البيان بأن قوله ﷺ: «فإنها خلقت من الشياطين» لفظة أطلقها على المجاوزة لا على الحقيقة برقم: (١٧٠٣)، والطبراني (١٧٠٦/٣) (٢٩٩٣).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٤/١٠): رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن حمزة، وهو ثقة.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦/٥) كتاب «المظالم» باب: الآبار التي على الطريق إذا لم يتأذى بها (٢٤٦٦)، ومسلم (١٧٦١/٤) كتاب «السلام» باب: فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (١٥٣/٢٢٤٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٩/٦) كتاب «بدء الخلق» باب: إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء، وخمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣٣١٨)، ومسلم (١٧٦٠/٤) كتاب «السلام» باب: تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢/١٥١)، و (٢٠٢٢/٤) كتاب «البر والصلة والآداب» باب: تحريم تعذيب الهرة ونحوها (٢٢٤٢/١٢٣)، (٢٢٤٢/١٣٤)، وابن حبان (٣٠٥/٢) كتاب «البر والإحسان» باب: فصل من البر والإحسان، ذكر استحباب الإحسان إلى ذوات الأربع رجاء النجاة من العقبي به (٥٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٥) (٣٧٩)، والدارمي (٣٣٠ - ٣٣١) كتاب «الرفاق» باب: دخلت امرأة النار في هرة، البيهقي (٢١٤/٥) كتاب «الحج» باب: كراهية قتل النملة للمحرم وغير المحرم، وكذلك ما لا ضرر فيه مما لا يؤكل، (١٣/٨) كتاب «التفقات» باب: نفقة الدواب، وأحمد (١٥٩/٢)، (١٨٨).

وفي الباب من حديث أبي هريرة: أخرجه مسلم (٢٠٢٣/٤) كتاب «البر والصلة والآداب» باب: تحريم تعذيب الهرة ونحوها، من الحيوان الذي لا يؤذى برقم: (٢٦١٩/١٣٥)، وأحمد (٢٦١/٢)، (٢٦٩)، (٢٨٦، ٣١٧، ٤٢٤، ٤٥٧، ٤٦٧، ٤٧٩، ٥٠١، ٥٠٧، ٥١٩)، وابن ماجه (١٤٢١/٢) كتاب =

حِيطَانِ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلُ قَدْ آتَى فَجُرْجَرٍ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرَاتَهُ وَذَفَرَاهُ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟ فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ؛ إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُذْيِبُهُ^(١) ومعنى ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، أَي: قَطَرَتْ دُمُوعُهُمَا قَطْرًا ضَعِيفًا، وَالسَّرَاةُ الظَّهْرُ، «وَالذَّفْرَى»: مَا وَرَاءَ الْأُذُنَيْنِ عَنْ يَمِينِ الثُّفْرَةِ وَشِمَالِهَا، انتهى.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْفِصَاوِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتُ آشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكَبُّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وجعلوا له من عبادِهِ جزءاً﴾ أَي: جَعَلَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ والعَرَبُ لِلَّهِ جزءاً، أَي: نَصِيباً وَحِطًّا، وَهُوَ قَوْلُ الْعَرَبِ: «الملائكة بنات الله»؛ هذا قول كثير من المتأولين، وقال قتادة: المراد بالجزء: الْأَصْنَامُ وَغَيْرَهَا^(٢) فـ﴿جزءاً﴾ معناه: نِذَا.

* ت * : وباقي الآية يُرْجَحُ تَأْوِيلُ الْأَكْثَرِ.

وقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾: إِضْرَابٌ وَتَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ؛ إِذِ الْمَحْمُودُ الْمَحْبُوبُ مِنَ الْأَوْلَادِ قَدْ خَوَّلَهُ اللَّهُ بَنِي آدَمَ، فَكَيْفَ يَتَّخِذُ هُوَ لِنَفْسِهِ النِّصِيبَ الْأَدْنَى، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ مِمَّا ذُكِرَ فِي «سورة النحل» وَغَيْرِهَا.

ثم زاد سبحانه في توبيخهم وإفساد رأيهم بقوله: ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ التقدير: أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ هُوَ الَّذِي خَصَّصْتُمْ بِهِ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ، وَالْحِلْيَةُ: الْحُلْيُ مِنَ الذَّهَبِ/ وَالْفِضَّةِ وَالْأَحْجَارِ، وَ﴿يَنْشَأُ﴾ معناه: يَنْبَتُ وَيَكْبُرُ، وَ﴿الْخِصَامُ﴾: الْمَحَاجَّةُ وَمُجَادَبَةُ الْمَحَاوِرَةِ، وَقُلُّ مَا تَجِدُ امْرَأَةً إِلَّا تُفْسِدُ الْكَلَامَ وَتَخْلُطُ الْمَعَانِي، وَفِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٣): «وَهُوَ فِي الْكَلَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» وَالتقدير: غَيْرُ مُبِينٍ غَرَضًا أَوْ مَنْزَعًا وَنَحْوَ هَذَا،

«الزهد» باب: ذكر التوبة برقم: (٤٢٥٦)، وابن حبان (٤٣٨/١٢ - ٤٣٩) كتاب «الحظر والإباحة» باب: فصل فيما يتعلق بالدواب، ذكر الخبر الدال على أن المسيء إلى ذوات الأربع قد يتوقع له دخول النار في القيامة بفعله ذلك، برقم: (٥٦٢١).

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧٢/١١) برقم: (٣٠٧٨٩ - ٣٠٧٩٠) عن قتادة، وذكره ابن عطية (٥/ ٤٨ - ٤٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧١٧/٥)، وعزاه إلى ابن حميد، وعبد الرزاق، وابن المنذر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٩/٥).

وقال ابن زيد: المراد بـ﴿مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾: الأصنام والأوثان، لأنهم كانوا يجعلون الحَلِيَّ عَلَى كثير منها، ويتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة^(١)، وقرأ أكثر السبعة: «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا» وقرأ الحَرَمِيُّانِ وابنُ عَامِرٍ: «عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَانًا» وهذه القراءة أدلُّ على رفع المنزلة^(٢).

وقوله تعالى: «أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ» معناه أَخْضَرُوا خَلَقَهُمْ، وفي قوله تعالى: ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وعيدٌ مُفْصِحٌ، وأسند ابن المبارك عن سليمان بن راشد؛ أنه بلغه أَنَّ أَمْرًا لَا يشهد شهادة في الدنيا إِلَّا شَهِدَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَلَا يَمْتَدِحُ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَمْتَدَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، قال القرطبي في «تذكرته»: وهذا صحيح؛ يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ قوله تعالى: ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ وقوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] انتهى.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِرُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَرٍّ وَأَنَا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ فَهُمْ هَدُونَا (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾ الآية، أي: ما عبدنا الأصنام.

* ت * وقال قتادة وغيره: يعني: ما عبدنا الملائكة^(٣)، وجعل الكفار إمهال الله لهم دليلاً على رضاه عنهم، وأن ذلك كالأمر به، ثم نفى سبحانه علمهم بهذا، وليس عندهم كتاب مُنَزَّلٌ يقتضي ذلك؛ وإنما هم يَظُنُّونَ ويَحدسون/ وَيُخَمِّنُونَ، وهذا هو ١٤٧ الحَرْصُ والتَّخَرُّصُ، والأُمَّة هنا بمعنى الملة والديانة، والآية على هذا تُعَيَّبُ عليهم التقليد،

(١) أخرجه الطبري (١٤٧/١١) برقم: (٣٠٨٠٠)، وذكره ابن عطية (٤٩/٥).

(٢) ينظر: «السبعة» (٥٨٥)، و«الحجة» (١٤٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٩٥/٢)، و«معاني القراءات» (٣٦٢/٢)، و«شرح الطيبة» (٢١٨/٥)، و«العنوان» (١٧١)، و«حجة القراءات» (٦٤٧)، و«شرح شعلة» (٥٧٦)، و«إتحاف» (٤٥٤/٢).

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٣٦/٤) آية رقم: (٢٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧١٩/٥)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

وذكر الطبري^(١) عن قوم أنّ الأئمة الطريقة، ثم ضرب الله المثل لنبيه محمد - عليه السلام - وجعل له الأسوة فيمن مضى من النذر والرسول؛ وذلك أنّ المترفين من قومهم، وهم أهل التنعم والمال، قد قابلوهم بمثل هذه المقالة، وفي قوله عز وجل: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ...﴾ الآية: وعيد لقريش، وضرب مثل لهم بمن سلف من الأمم المعذبة المكذبة لأنبيائها.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَافِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ المعنى: واذكر إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: فافعل أنت فعله، وتجلّد جلده، و﴿بَرَاءٌ﴾: صفة تجري على الواحد والاثنين والجمع؛ كَعَدَلٍ وَزَوْرٍ، وقرأ ابن مسعود: «بريء»^(٢).

وقوله: «إلا الذي فطرني» قالت فرقة: الاستثناء مُتَّصِلٌ، وكانوا يعرفون الله ويعظمونه، إلا أنّهم كانوا يشركون معه أصنامهم، فكأن إبراهيم قال لهم: أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الذي فطرني، وقالت فرقة: الاستثناء مُنْقَطِعٌ، والمعنى: لكنّ الذي فطرني هو معبودي الهادي المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاء لهم، وترغيب في طاعة الله، وتطمين في رحمته.

والضمير في قوله: ﴿وجعلها كلمة...﴾ الآية، قالت: فرقة: هو عائد على كلمته بالتوحيد في قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ وقال مجاهد وغيره: المراد بالكلمة: لا إله إلا الله^(٣)، وعاد عليها الضمير، وإن كان لم يجر لها ذكر؛ لأنّ اللفظ يتضمنها، والعقب: الذرّة، ووَلَدَ الْوَلَدَ ما امتدّ فرعهم.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَيَاتٍ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيعَشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/١٧٦).

(٢) وقرأ بها الأعمش.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٣٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/٥١)، و«البحر المحيط» (٨/١٣)، و«الدر المصون» (٦/٩٦).

(٣) أخرجه الطبري (١١/١٧٩) برقم: (٨٠٨١٨ - ٨٠٨١٩)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٣٧)، وابن عطية (٥/٥٢)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥/٧٢٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

لَمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ إِبْطِيَوتُمْ سُقًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِبْطِيَوتُمْ آبَوًا وَسُرًّا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

وقوله: / ﴿بل تمتعت هؤلاء﴾ يعني قريشاً ﴿حتى جاءهم الحق ورسول﴾، وذلك هو ٤٧ ب
 شرع الإسلام، والرسول [هو] محمد ﷺ و﴿مبين﴾ أي: يبين لهم الأحكام، والمعنى في
 الآية: بل أمهلت هؤلاء و﴿ممتعتهم بالنعمة﴾ ولما جاءهم الحق ﴿يعني القرآن﴾ قالوا هذا
 سحر.

﴿وقالوا﴾ يعني قريشاً: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ يعني:
 من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف، ورجل مكة هو الوليد بن المغيرة في قول ابن
 عباس وغيره^(١)، وقال مجاهد: هو عتبة بن ربيعة^(٢)، وقيل غير هذا، ورجل الطائف: قال
 قتادة: هو عروة بن مسعود^(٣)، وقيل غير هذا، قال ع^(٤) * : وإنما قصدوا إلى من عظم
 ذكره بالسُّن، وإلا فرسول الله ﷺ كان أعظم من هؤلاء؛ إذ كان المسمى عندهم «الأمين»،
 ثم وبَّخهم سبحانه بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ و«الرحمة» اسم عام يشمل النبوة
 وغيرها، وفي قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾ تزييد في السعيات، وعون على
 التوكل على الله عز وجل؛ ولله در القائل: [الرجز]

لَكُمْ جَاهِلٍ يَمْلِكُ دُورًا وَقَرَى
 لَمَّا سَمِعْنَا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ
 نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ زَالَ الْمِرَا

وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا
 أَرْضَاهُ بِمَا قَسَمَ لَهُ، وَبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَإِذَا لَمْ يَرْضَ بِهِ خَيْرًا، لَمْ يُرْضِهِ بِمَا قَسَمَ لَهُ، وَلَمْ يُبَارِكْ لَهُ
 فِيهِ»^(٧) انتهى، و﴿سخرى﴾ بمعنى التسخير، ولا مدخل لمعنى الهزء في هذه الآية.

- (١) أخرجه الطبري (١٨١/١١) برقم: (٣٠٨٢٩)، وذكره ابن عطية (٥٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٢٦ - ١٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٢١/٥)، وعزاه إلى ابن مردويه، وابن أبي حاتم.
- (٢) أخرجه الطبري (١٨١/١١) برقم: (٣٠٨٣٠)، وذكره البغوي (٤/١٣٧)، وابن عطية (٥٢/٥)، وابن كثير (٤/١٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٢١/٥)، وعزاه إلى ابن عساكر.
- (٣) أخرجه الطبري (١٨١/١١) برقم: (٣٠٨٣١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٣٧)، وابن عطية (٥/ ٥٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٢١/٥)، وعزاه إلى عبد بن حميد.
- (٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣/٥).
- (٥) سقط في: د.
- (٦) ذكر بعضه ابن عطية في «المحرر» (٥٣/٥).
- (٧) ذكره السيوطي في «الجامع الكبير» (١١١٧)، وعزاه للدليمي عن أبي هريرة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحِمْتَ رِبَكَ خَيْرَ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال قتادة والسُّدِّي: يعني الجنة^(١)، قال * ع^(٢): ﴿وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْغَايَةُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا بِالْهُدَايَةِ وَالْإِيمَانِ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَالٍ، وَفِي هَذَا اللَّفْظِ تَحْقِيرٌ لِلدُّنْيَا، وَتَزْهِيدٌ فِيهَا، ثُمَّ اسْتَمَرَّ الْقَوْلُ فِي تَحْقِيرِهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ الآية؛ وذلك أَنَّ معنى الآية أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْقَى عَلَى عِبَادِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِمِرَاعَاةِ بَقَاءِ الْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ، وَشَاءَ حِفْظَهُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ بَقِيَّةَ الدَّهْرِ، وَلَوْلَا كِرَاهِيَةُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُفَّارًا كُلُّهُمْ، وَأَهْلَ حُبِّ فِي الدُّنْيَا وَتَجَرُّدٍ لَهَا - لَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ غَايَةَ التَّوَسُّعِ، وَمَكَّنْتَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا؛ وَذَلِكَ لِحَقَارَتِهَا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهَا لَا قَدْرَ لَهَا وَلَا وَزْنَ؛ لِفَنَائِهَا وَذَهَابِ رُسُومِهَا، فَقَوْلُهُ: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ معناه فِي الْكُفْرِ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٣)، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ ﷺ: «لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَزِرُنْ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»^(٤) وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ» بِسَنَدِهِ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «أَضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ الْحَصِيرُ فِي جَنْبِهِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، جَعَلْتُ أَمْسَحُ عَنْهُ، وَأَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَدْتَنِي قَبْلَ أَنْ تَنَامَ عَلَى هَذَا الْحَصِيرِ، فَأَبْسُطَ لَكَ عَلَيْهِ شَيْئًا يَقْبِكَ مِنْهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَمَا لِي مَا أَنَا وَالِدُنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلُّ فِي فَنٍّ أَوْ ظِلِّ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(٥) انْتَهَى، وَقَدْ خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَ﴿سَقْفًا﴾ جَمْعُ

(١) أخرجه الطبري (١٨٤/١١) برقم: (٣٠٨٤١ - ٣٠٨٤٢)، وذكره ابن عطية (٥٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٢٢/٥)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٣/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٨٤/١١) برقم: (٣٠٨٤٣)، وذكره ابن عطية (٥٣/٥)، وابن كثير (١٢٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٢٢/٥)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس، ولعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة، وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) أخرجه الترمذي (٥٦٠/٤) كتاب «الزهد» باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٣/٣).

قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٥) أخرجه الترمذي (٥٨٨/٤ - ٥٨٩) كتاب «الزهد» باب: (٤٤) (٢٣٧٧)، وأحمد (٣٩١/١)، (٤٤١)، وابن ماجه (١٣٧٦/٢) كتاب «الزهد» باب: مثل الدنيا (٤١٠٩)، وأخرجه في «دلائل النبوة» (١/٣٣٧ - ٣٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١١/٧) (١٠٤١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٣٤/٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال أبو نعيم: غريب من عمرو وإبراهيم، تفرد به المسعودي، ورواه المعافي بن عمران، ووکیع بن الجراح، ويزید بن هارون عن المسعودي مثله، وحدث به جریر عن الأعمش عن إبراهيم، وهو غريب =

سَقَف، والمعارج: الأدراج التي يُطْلَعُ عليها؛ قاله ابن عباس وغيره^(١)، و﴿يظهرون﴾ معناه: يعلنون؛ ومنه حديث عائشة - رضي الله عنها - والشمس في حجرتها لم تظهر/ بعد، ٤٨ ب والسرُّر: جمع سرير، والزُّخْرُفُ: قال ابن عَبَّاس، والحسن، و قتادة والسُّدِّي: هو الذهب^(٢)، وقالت فرقة: الزُّخْرُفُ: التزاويق والثَّقَش ونحوه؛ وشاهده: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤] وقرأ الجمهور: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا﴾ - بتخفيف الميم - من «لما»؛ ف«إِنْ» مُحَقَّقة من الثَّقيلة، واللام في «لما» داخلَةٌ؛ لتَفْصِلَ بين النفي والإيجاب، وقرأ عاصم، وحزمة، وهشام بخلافٍ عنه - بتشديد الميم - من «لَمَّا»^(٣)؛ ف«إِنْ» نافيةٌ بمعنى «مَا»، و«لَمَّا» بمعنى^(٤) «إِلَّا»، أي: وما كُلُّ ذلك إِلَّا متاعُ الحياة الدنيا، وفي قوله سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ و«غَدٌ كريمٌ»، وتحريضٌ على لزوم التقوى، إذ في

= وفي الباب من حديث ابن عباس نحوه: أخرجه ابن حبان (٢٠٩/٨) - الموارد (٢٥٢٦)، وابن حبان (٢٦٥/١٤) كتاب «التاريخ» باب: صفته ﷺ وأخباره، ذكر ما مثل المصطفى ﷺ نفسه والدنيا بمثل ما مثل به (٦٣٥٢)، وأحمد (٣٠١/١)، والحاكم (٣٠٩/٤)، والطبراني (٣٢٧/١١) (١١٨٩٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٢/٧) (١٠٤/٧).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ١ هـ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٩/١٠): ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب، وهو ثقة. ١ هـ.

وفي الباب من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة رضي الله عنها فوجد على بابها سترًا... إلى أن قال: «وما أنا والدنيا وما أنا والرقم...» الحديث. أخرجه البخاري (٢٧٠/٥) كتاب «الهيئة» باب: هدية ما يكره لبسها (٢٦١٣)، وأبو داود (٤٧٠/٢) كتاب «اللباس» باب: في اتخاذ الستور (٤١٤٩)، وأحمد (٢١/٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٦٧/١٤) كتاب «التاريخ» باب: صفته ﷺ وأخباره، وذكر ما مثل به المصطفى ﷺ نفسه والدنيا بمثل ما مثل به. (٦٣٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٢/٧) (١٠٤/٦).

(١) أخرجه الطبري (١٨٦/١١) برقم: (٣٠٨٥٠، ٣٠٨٥٤) عن ابن عباس، و (٣٠٨٥١) عن قتادة، و (٣٠٨٥٢) عن السدي، و (٣٠٨٥٣) عن قتادة، و (٣٠٨٥٥) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (٥٤/٥)، وابن كثير (١٢٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٢٢/٥)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٨٦/١١ - ١٨٧) برقم: (٣٠٨٥٨، ٣٠٨٦٢)، وذكره ابن عطية (٥٤/٥)، وابن كثير (١٢٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٢٢/٥)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ينظر: «السبعة» (٥٨٦)، و«الحجة» (١٤٩/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٩٧/٢)، و«معاني القراءات» (٣٦٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٢٢٠/٥)، و«المنوان» (١٧١)، و«حجة القراءات» (٦٤٩)، و«إنحاف» (٤٥٦/٢).

(٤) سقط في: د.

الآخرة هو التباين الحقيقي في المنازل؛ قال الفخر^(١): بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَهِيَ بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ، وَهِيَ عِنْدَ اللَّهِ وَفِي حُكْمِهِ لِلْمُتَّقِينَ الْمُغْرَضِينَ عَنْ حُبِّ الدُّنْيَا، الْمُقْبِلِينَ عَلَى حُبِّ الْمَوْلَى، انْتَهَى.

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَسْرِ قَرِينٌ قَرِينٌ﴾ (٣٨) ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩) ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠) ﴿فَأَمَّا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ (٤١) ﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢) ﴿

وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الآية، وَعِشَا يَغْشُو مَعْنَاهُ: قَلَّ الْإِبْصَارُ مِنْهُ، وَيُقَالُ أَيْضًا: عِشِيَ الرَّجُلُ يَغْشَى: إِذَا فَسَدَ بَصَرُهُ، فَلَمْ يَرِ، أَوْ لَمْ يَرَ إِلَّا قَلِيلًا، فَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: وَمَنْ يَقِلُّ بَصَرُهُ فِي شَرِّعِ اللَّهِ، وَيَغْمُضُ جَفُونَهُ عَنِ النَّظَرِ فِي ذِكْرِ الرَّحْمَنِ، أَي: فِيمَا ذَكَرَ بِهِ عِبَادَهُ، أَي: فِيمَا أَنْزَلَهُ مِنْ كِتَابِهِ، وَأَوْحَاهُ إِلَى نَبِيِّهِ.

وقوله: ﴿تُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ أَي: يُنْسِزُ لَهُ، وَنُعِدَّ، وَهَذَا هُوَ الْعِقَابُ عَلَى الْكُفْرِ بِالْحَقِّ وَعَدَمِ الْفَلَاحِ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعَاقِبُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ بِالتَّزْيِيدِ فِي الْمَعَاصِي، وَيَجَازِي عَلَى الْحَسَنَةِ بِالتَّزْيِيدِ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الْمَعْنَى مَرْفُوعًا. قَالَ * ص * : ﴿وَمَنْ يَغْشَى﴾ الْجُمْهُورُ بِضَمِّ الشَّيْنِ^(٢)، أَي: يَتَعَامَّ وَيَتَجَاهَلُ، فَ﴿مَنْ﴾ شَرْطِيَّةٌ، وَ﴿يَغْشَى﴾ مَجْزُومٌ بِهَا، وَ﴿تُفَيِّضُ﴾ / جَوَابُ ﴿مَنْ﴾، انْتَهَى، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى الشَّيَاطِينِ، وَفِيمَا بَعْدَهُ عَائِدٌ عَلَى الْكُفَّارِ، وَقُرَأَ نَافِعٌ وَغَيْرُهُ^(٣): «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا»؛ عَلَى الثَّنِيَّةِ، يَرِيدُ: الْعَاشِي وَالْقَرِينُ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ^(٤)، وَقُرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَغَيْرُهُ: «جَاءَنَا» يَرِيدُ الْعَاشِي وَحْدَهُ^(٥)، وَفَاعِلُ ﴿قَالَ﴾ هُوَ الْعَاشِي، قَالَ الْفَخْرُ^(٦): وَرُوي أَنَّ الْكَافِرَ

(١) ينظر: «الرازي» (١٨٢/٢٧).

(٢) ينظر: «الدر المصون» (٩٨/٦).

(٣) قرأ بها ابن كثير وابن عامر، وأبو بكر.

ينظر: «السبعة» (٥٨٦)، و«الحجة» (١٥٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٩٧/٢)، و«معاني القراءات»

(٣٦٥/٢)، و«شرح الطيبة» (٢٢٢/٢)، و«العنوان» (١٧١)، و«حجة القراءات» (٦٥٠)، و«شرح شملة»

(٥٧٧)، و«إتحاف» (٤٥٦/٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٨٩/١١) برقم: (٣٠٨٦٩)، وذكره ابن عطية (٥٥/٥).

(٥) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٦) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١٨٣/٢٧).

إِذَا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قَبْرِهِ أَخَذَ شَيْطَانٌ بِيَدِهِ، فَلَمْ يُفَارِقْهُ حَتَّىٰ يَصِيرَهُمَا اللَّهُ إِلَى النَّارِ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ انتهى.

وقوله: ﴿بعد المشرقين﴾ يحتمل معانِي:

أحدها: أن يريد بُعْدَ المشرق من المغرب، فَسَمَاهُمَا مَشْرِقَيْنِ؛ كما يقال الْقَمَرَانِ، وَالْعُمَرَانِ.

والثاني: أن يريد مشرق الشمس في أطول يوم، ومشرقها في أقصر يوم.

والثالث: أن يريد بعد المشرقين من المغربيين، فاكتمى بذكر المشرقين.

قلت: واستبعد الفخر التأويل الثاني قال: لأنَّ المقصودَ من قوله: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بعد المشرقين﴾ المبالغة في حصول البُعد، وهذه المبالغة إنما تحصل عند ذكر بُعْدٍ لا يمكن وجود بُعْدٍ أزيد منه، والبُعد بين مشرق الشتاء ومشرق الصيف ليس كذلك، فَيَبْغُضُ حَمْلُ اللَّفْظِ عليه؛ قال: وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ...﴾ الآية، حكاية عن مقالة تُقَالُ لهم يوم القيامة، وهي مقالة مُوجِشَةٌ فيها زيادةٌ تعذيبٌ لهم ويأسٌ من كل خير، وفاعل ﴿يَنْفَعُكُمْ﴾ الاشتراك، ويجوز أن يكون فاعل ﴿يَنْفَعُكُمْ﴾ التَّبَرِّي الذي يدل عليه قوله: ﴿يَا لَيْتَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ...﴾ الآية، خطابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وباقي الآية / تكرر معناه غير ما مرَّ.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَكَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي: بما جاءك من عند الله من الوحي المثلوث وغيره.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ﴾ يحتمل أن يريد: وإِنَّهُ لشرف في الدنيا لك وَلِقَوْمِكَ يعني: قُرَيْشًا؛ قاله ابن عباس وغيره^(١)، ويحتمل أن يريد: وإِنَّهُ لتذكرة وموعظة، ف«القوم» على هذا أُمَّتُهُ بآجمعها، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن^(٢).

(١) أخرجه الطبري (١٩١/١١) برقم: (٣٠٨٧٧)، وذكره ابن عطية (٥٧/٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ذكره ابن عطية (٥٧/٥).

وقوله: ﴿وسوف تستلون﴾ قال ابن عباس وغيره: معناه: عن أوامر القرآن ونواهيهِ^(١)، وقال الحسن: معناه: عن شكر النعمة فيه^(٢)، واللفظ يحتمل هذا كله ويعمه.

وقوله تعالى: ﴿واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا...﴾ الآية، قال ابن زيد، والزهرى: أما إن النبي ﷺ لم يسأل الرسل ليلة الإسراء عن هذا؛ لأنه كان أثبت يقيناً من ذلك، ولم يكن في شك، وقال ابن عباس وغيره: أراد: وأسأل أثبائع من أرسلنا وحملة شرائعهم^(٣)، وفي قراءة ابن مسعود وأبي: «واسئل الذين أرسلنا إليهم»^(٤).

* ت * قال عياض: قوله تعالى: «واسئل من أرسلنا من قبلك...» الآية: الخطابُ مواجهةً للنبي ﷺ، والمراد المشركون؛ قاله القتيبي، ثم قال عياض: والمراد بهذا، الإعلام بأن الله عز وجل لم يأذن في عبادة غيره لأحد؛ ردًا على مشركي العرب وغيرهم في قولهم: ﴿ما نعبدُهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] انتهى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعٌ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوُا آلِيَّ مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا...﴾ الآية، ضربُ مثلٍ وأسوةٍ للنبي ﷺ بموسى - عليه السلام - ولِكُفَّارِ قريشٍ بقوم فرعون.

وقوله: ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ أي: كالطوفان والجراد والقمل والضفادع، / وغير ١٥٠ ذلك ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي: يتوبون ويرجعون عن كفرهم، وقالوا لما عاينوا العذاب لموسى: ﴿يَأْتِيهِ السَّاحِرُ﴾ [أي]: العالم، وإنما قالوا هذا على جهة التعظيم والتوقير؛ لأنَّ عِلْمَ السحر عندهم كان علماً عظيماً، وقيل: إنما قالوا ذلك على جهة الاستهزاء، والأوَّلُ أرجح، وقولهم: ﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون﴾ أي: إن نفعنا دَعْوَتَكَ.

(١) ينظر: المصدر السابق.

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه الطبري (١٩٢/١١) برقم: (٣٠٨٨٧) عن ابن زيد نحوه، وذكره ابن عطية (٥٧/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٧/٥).

وقوله: ﴿أليس لي ملك مصر...﴾ الآية: مضر من بحر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل، والأنهار التي أشار إليها هي الخُلجان الكبار الخارجة من النيل.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَّعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِفِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ قال سيبويه: «أَمْ» هذه المعادلة، والمعنى: أفأنتم لا تبصرون؟ أم تبصرون، وقالت فرقة: «أَمْ» بمعنى «بل»، وقرأ بعض الناس^(١): «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» حكاه الفراء، وفي مصحف أبي بن كعب^(٢): «أَمْ أَنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا» و﴿مَهِينٌ﴾ معناه: ضعيف، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى من أثر الجفرة، وكانت أحدثت في لسانه عُقْدَةً، فَلَمَّا دعا في أَنْ تُحْلَلَ لِيُفْقَهُ قَوْلُهُ، أَجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، لِكِنَّهُ بَقِيَ أَثَرُ كَانَ الْبَيَانُ يَقَعُ مَعَهُ، فَعَيَّرَهُ فِرْعَوْنُ بِهِ.

وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يقتضى أَنَّهُ كَانَ يُبِينُ.

وقوله: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾: يريد من السماء، على معنى التكرمة، وقرأ الجمهور: «أَسَاوِرَةً» وقرأ حفص عن عاصم: «أَسْوِرَةً»^(٣) وهو ما يجعل في الدَّرَاعِ من الحلي، وكانت عادة الرجال يومئذ لبس ذلك والتزيين به.

* ت *: وذكر بعض المفسرين عن مجاهد أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَوَّدُوا رِجَالًا سَوَّرُوهُ بِسَوَارٍ، وَطَوَّقُوهُ بِطَوَّقٍ مِنْ ذَهَبٍ؛ علامة لسيادته، فقال فرعون: هلا/ ألقى رب موسى ٥٠ ب على موسى أساوراً من ذهب، أو جاء معه الملائكة مقترنين مُتَّابِعِينَ، يُقَارِنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، يمشون معه شاهدين له، انتهى، وقال * ع^(٤) *: قوله: ﴿مَقْتَرَنِينَ﴾: أي: يحمونه، ويشهدون له، ويقيمون حُجَّتَهُ.

* ت *: وما تقدّم لغيره أحسن، ولا يُشْكُ أَنْ فِرْعَوْنَ شَاهَدَ مِنْ حِمَايَةِ اللَّهِ لِمُوسَى

(١) ينظر: «الكشاف» (٢٥٨/٤)، و«المحرر الوجيز» (٥٩/٥)، و«البحر المحيط» (٢٣/٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٩/٥).

(٣) ينظر: «الحجة» (١٥١/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٠٠/٢)، و«معاني القراءات» (٣٦٦/٢)، و«شرح الطيبة» (٢٢٢/٥)، و«العنوان» (١٧١)، و«حجة القراءات» (٦٥١)، و«شرح شعلة» (٥٧٧)، و«إتحاف» (٤٥٧/٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٠/٥).

أموراً لم يَبْقَ معه شَكٌّ في أَنَّ اللَّهَ قَدْ مَنَعَهُ مِنْهُ .

وقوله سبحانه: ﴿ءَاسِفُونَا﴾ معناه: أغضبونا بلا خلاف .

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ «السلف»: الفارط المُتَقَدِّم، أي: جعلناهم متقدمين في الهلاك؛ لِيَتَّعِظَ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وقال البخاري: قال قتادة: ﴿مثلاً للآخرين﴾ عِظَةٌ^(١)، انتهى .

﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا ءَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٩)﴾

وقوله سبحانه: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً . . . الآية﴾، روي عن ابن عباس وغيره في تفسيرها؛ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] الآية، وَكَوْنُ عِيسَى مِنْ غَيْرِ فَخْلٍ - قالت قريش: ما يريد محمدٌ من ذكر عيسى إِلَّا أَن نَعْبُدَهُ نَحْنُ كَمَا عَبَدَتِ النَّصَارَى عِيسَى، فهذا كان صدودُهُمْ^(٢) .

وقوله تعالى: ﴿وقالوا آللهتنا خير أم . . .﴾ هذا ابتداء معنى ثان، وذلك أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ وَمَا تُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآية، قال [ابن] الزَّيْغَرِيُّ ونظراؤه: يا محمد، آللهتنا خير أم عيسى؟ فنحن نرضى أَنْ تَكُونَ آللهتنا مع عيسى؛ إِذْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا، وَإِذْ قَدْ عُبِدَ، فَهُوَ مِنَ الْحَصَبِ إِذَنْ، فقال الله تعالى: ﴿ما ضربوه لك إِلَّا جدلاً﴾ ومغالطة، وَنَسُوا أَنَّ عِيسَى لَمْ يُعْبَدْ بِرِضًا مِنْهُ، وقالت فرقة: المراد بـ﴿هُوَ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ وهو قول قتادة^(٣)، وفي مصحف [أبي]: «خَيْرٌ أَمْ هَذَا»^(٤) فالإشارة إِلَى / نَبِيِّنَا محمد - عليه السلام -، وقال ابن زيد وغيره: المراد بـ﴿هُوَ﴾ عيسى^(٥)، وهذا هو الراجح، ثم أخبر تعالى عنهم أَنَّهُمْ أَهْلُ خِصَامٍ وَلَدَدٍ، وأخبر عن عيسى بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بالنبوة والمنزلة العالية .

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨/٨) كتاب «التفسير» باب: سورة الزخرف، معلقاً، ووصله الفريابي عن مجاهد، وزاد لمن بعدهم، والحديث: أخرجه الطبري (٢٠٠/١١) برقم: (٣٠٩١٧) عن قتادة .

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٠/١١) برقم: (٣٠٩١٧ - ٣٠٩١٨ - ٣٠٩١٩) عن مجاهد وقاتدة، وذكره ابن عطية (٦٠/٥) .

(٣) ذكره ابن عطية (٦١/٥) .

(٤) تقدمت .

(٥) أخرجه الطبري (٢٠٢/١١) برقم: (٣٠٩٣٧)، وذكره ابن عطية (٦١/٥) .

* ت * : وَرَوَيْنَا فِي «جامع الترمذي» عن أبي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾»^(١) قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، انْتَهَى .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا﴾ أَي : عِبْرَةٌ وَآيَةٌ ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ والمعنى : لَا تَسْتَغْرِبُوا أَنْ يُخْلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ فَحُلٍ ؛ فَإِنَّ الْفُذْرَةَ تَقْتَضِي ذَلِكَ ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ .

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (٦٠) وَإِنَّهُمْ لَعِلَّمُ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) ﴿

وقوله : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ معناه : لَجَعَلْنَا بَدَلًا مِنْكُمْ ، أَي : لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ بَدَلًا مِنْ بَنِي آدَمَ مَلَائِكَةً يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ ، وَيَخْلُقُونَ بَنِي آدَمَ فِيهَا ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : يَخْلِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا^(٢) ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلَّمُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : الْإِشَارَةُ بِهِ إِلَى عِيسَى^(٣) ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ : إِلَى الْقُرْآنِ^(٤) .

* ت * : وَكَذَا نَقَلَ أَبُو حَيَّانَ^(٥) هَذِهِ الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ ، وَلَوْ قِيلَ : إِنَّهُ ضَمِيرُ الْأَمْرِ وَالشَّأْنِ ؛ اسْتِعْظَامًا وَاسْتِهْوَالًا لِأَمْرِ الْآخِرَةِ مَا بَعْدَ ، بَلْ هُوَ الْمَتَبَادَرُ إِلَى الذَّهْنِ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ : ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٦) ، وَجَمَاعَةٌ : «لَعَلَّمُ» - بَفَتْحِ الْعَيْنِ

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨/٥ - ٣٧٩) كتاب «تفسير القرآن» باب : ومن سورة الزخرف (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (١٩/١) المقدمة : باب : (٧) (٤٨) ، والحاكم في «المستدرک» (١١٢/٢) ، والطبراني في «الكبير» (٨/٣٣٣) (٣٠٦٧) .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، إنما نعرفه من حديث حجاج بن دينار ، وحجاج ثقة مقارب الحديث ، وأبو غالب اسمه : حَزَّوْر . ا هـ .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ا هـ .

قال الذهبي : صحيح .

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٨/٨) كتاب «التفسير» باب : سورة الزخرف ، معلقاً وهو موصول عند عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، والطبري (٢٠٤/١١) (٣٠٩٤٤) عن ابن عباس ، (٣٠٩٤٧) عن قتادة ، وابن عطية (٦١/٥) .

(٣) ذكره ابن عطية (٦١/٥) .

(٤) أخرجه الطبري (٢٠٥/١١) برقم : (٣٠٩٦١) عن قتادة ، والحسن ، وذكره ابن عطية (٦١/٥) .

(٥) ينظر : «البحر المحيط» (٢٦/٨) .

(٦) قرأ بها أبو هريرة ، وقَتَادَةُ ، والضَّحَّاك ، ومُجَاهِدٌ ، وأبو نُضْرَةَ ، ومَالِكُ بْنُ دِينَارٍ .

ينظر : «مختصر الشواذ» ص : (١٣٦) ، و«الكشاف» (٢٦١/٤) ، و«المحرر الوجيز» (٦١/٥) ، و«البحر المحيط» (٢٦/٨) ، و«الدر المصون» (١٠٦/٦) .

واللام -، أي: أمانة، وقرأ عِكْرِمَةُ^(١): «لَلْعِلْمِ» بلامين الأولى مفتوحة، وقرأ أُبَيٌّ: «لَذِكْرُ لِلْسَّاعَةِ»^(٢) فمن قال: إِنَّ الإشارة إلى عيسى حَسَنٌ مع تأويله «عِلْمٌ» و«عَلَمٌ»، أي: هو إشعارٌ بالساعة، وشَرْطٌ/ من أشراتها، يعني: خروجه في آخر الزمان، وكذلك مَنْ قال: الإشارة إلى النبي ﷺ، أي: هو آخر الأنبياء، وقد قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» يعني السبابة والوسطى، وَمَنْ قال: الإشارة إلى القرآن حَسَنٌ قوله مع قراءة الجمهور، أي: يعلمكم بها وبأحوالها.

وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: إشارة [إلى] الشرع.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (١٤) فَاتَّخَلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوِيلٌ لَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (١٥)﴾

وقوله تعالى: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات﴾ يعني: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك، وباقى الآية تكرر معناه.

وقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ حكاية عن عيسى - عليه السلام -، إذ أشار إلى شرعه.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٦) الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (١٧)﴾

وقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون﴾ يعني: قريشاً، والمعنى: ينتظرون و﴿بغته﴾ معناه: فجأة، ثم وَصَفَ سُبْحَانَهُ بَعْضَ حَالِ الْقِيَامَةِ، فقال: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وذلك لهولِ مطلعها والخوف المُطِيفِ بالناس فيها؛ يتعاضد ويتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى؛ لَأَنَّهُ يرى أَنَّ الضَّرَرَ دخل عليه من قِبَلِ خليله، وَأَمَّا الْمُتَّقُونَ فَيَرَوْنَ أَنَّ النِّفْعَ دخل من بعضهم على بعض، هذا معنى كلام علي - رضي الله عنه - وَخَرَجَ الْبَزَارُ عن ابن عباس قال: «قيل: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ ذَكَرَكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَتُهُ، وَزَادَكُمْ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَرَكُمْ بِاللَّهِ عَمَلُهُ»^(٣) اهـ، فَمِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ تَصْلُحُ الْأُخُوَّةُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦١/٥)، و«البحر المحيط» (٢٦/٨)، و«الدر المصون» (١٠٦/٦).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٢٦١/٤)، و«المحرر الوجيز» (٦١/٥).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٣٢٦/٤) (٢٤٣٧) من حديث ابن عباس، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٨١)، وقال: رواه البزار عن شيخه علي بن حرب ولم أعرفه، وبقيته رجاله وثقوا.

وذكره المحافظ في «المطالب العالية» (٣٢٣٣)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وأبي يعلى.

الحقيقية، واللّه المستعان، ومن كلام الشيخ أبي مَدِين - رضي الله عنه -: دليلُ تخليطِكَ صُحْبَتِكَ للمخلّطين، ودليلُ انقطاعِكَ صُحْبَتِكَ لِلْمُنْقَطِعِينَ، وقال ابن عطاء الله في «التنوير»: قُلْ مَا تَصِفُوا لَكَ الطَّاعَاتِ، أَوْ تَسْلَمُوا/ من المخالقات، مع الدخول في الأسباب، لاسْتِزَامِهَا لمعاشرة الأضداد؛ ومخالطة أهل العَفَلَةِ والبَعَادِ، وَأَكْثَرُ ما يعينك على الطاعات رؤية المُطِيعِينَ، وَأَكْثَرُ ما يَدْخُلُكَ في الذَّنْبِ رؤية المُذْنِبِينَ، كما قال - عليه السلام -: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُحَالِلُ»^(١) والنفس من شأنها التَّشَبُّهَ والمحاكاة بصفات مَنْ قَارَنَهَا، فصحبة الغافلين مُعِينَةٌ لها على وجود العَفَلَةِ، انتهى، وفي «الحكم الفاروقية»: مَنْ ناسب شيئاً انجذب إليه؛ وظَهَرَ وَضْفُهُ عليه، وفي «سماء المُتَبَيِّنَةِ» قال مالك: لا تصحب فاجراً؛ لئلا تتعلم من فجوره، قال ابن رُشْدٍ: لا ينبغي أَنْ يصحب إلا مَنْ يُقْتَدَى به في دينه وخيره؛ لَأَنَّ قَرِينَ السوء يُزِدِي؛ قال الحكيم: [الطويل]

[إِذَا كُنْتُ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبِ خِيَارَهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِيِّ]
عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَفْتَدِي
انتهى.

* ت * : وحديث: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ» أخرجه أبو داود، وأبو بكر بن الخطيب وغيرهما، وفي «الموطأ» من حديث معاذ بن جبل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ»^(٢) قال أبو عمر: إسناده صحيح عن أبي إدريس الخولاني عن معاذ، وقد رواه جماعة عن معاذ، ثم أسند أبو عمر من طريق أبي مسلم الخولاني، عن معاذ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَتَابَرٍ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلُّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(٣)، قال أبو مسلم: فخرجت فلقيت عُبادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فذكرتُ له حديث

(١) أخرجه الترمذي (٥٨٩/٤) كتاب «الزهد» باب: (٤٥) (٢٣٧٨)، وأحمد (٣٠٣/٢)، والحاكم (١٧١/٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الحاكم: حديث أبي الجبابر صحيح إن شاء الله تعالى ولم يخرجاه. ا هـ.

قال الذهبي: صحيح إن شاء الله.

قال أبو نعيم في «الحلية» (١٦٥/٣): غريب من حديث سعيد وصفوان تفرد به عنه فيما قيل محمد بن إبراهيم الأسلمي.

(٢) أخرجه مالك (٩٥٣/٢ - ٩٥٤) كتاب «الشعر» باب: ما جاء في المتحابين في الله (١٦)، وأحمد (٥/٢٤٧).

(٣) أخرجه الحاكم (٤٢٠/٤)، وأحمد (٢٣٦/٥ - ٢٣٧).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٥٢ ب / مُعَاذٍ، فقال: وَأَنَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ: قَالَ: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(١) انتهى من «التمهيد».

﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

وقوله تعالى: ﴿يا عبادي﴾ المعنى: يقال لهم، أي: للمتقين، وذكر الطبري^(٢) عن المعتمر عن أبيه أنه قال: سمعت أن الناس حين يُنْعَثُونَ ليس منهم أحدٌ إلا فزع، فينادي مناد: يا عبادي، لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون، فيرجوها الناس كلهم، فيتبعوها: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ قال: فيُنشئ منها جميع الكفار.

وقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ نعت للعباد، و﴿تحبرون﴾ معناه: تنعمون وتُسَرُّون، و«الحبرة»: السرور، و«الأكواب»: ضربٌ من الأواني؛ كالأباريق، إلا أنها لا آذان لها ولا مقابض.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفَقَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَادْعُوا بِمَلِكِكُمْ لِيُقْضَىٰ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾

وقوله تعالى: ﴿إن المجرمين﴾ يعني: الكفار، و«المُبْسَوْنَ»: المُبْعَدُ اليأس من الخير؛ قاله قتادة وغيره^(٣)، وقولهم: ﴿ليقض علينا ربك﴾ أي: لِيُمِثَّنَا رَبُّكَ؛ فنستريح، فالقضاء في هذه الآية: الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، ورؤي في تفسير هذه الآية عن ابن عباس؛ أن مالكا يقيم بعد سؤالهم ألف سنة، ثم حينئذ

(١) أخرجه الحاكم (١٦٩/٤)، وأحمد (٢٣٩/٥)، وابن حبان (١٩١/٨) (٢٥١٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٣١/٢).

قال الحاكم: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه هـ. ووافقه الذهبي.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨٢/١٠): رواه عبد الله بن أحمد، والطبراني باختصار، والبخاري بعد حديث عبادة فقط، ورجال عبد الله، والطبراني وثقوا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٠٩/١١).

(٣) أخرجه الطبري (٢١٢/١١) برقم: (٣٠٩٨٩)، وذكره ابن عطية (٦٤/٥).

يقول لهم: ﴿إِنَّكُمْ مَّاكُثُونَ﴾^(١).

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٨) أَمْ أَمْرُؤًا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَبْخُسُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿لقد جئناكم﴾ يحتمل أن يكون من تمام قول مالك لهم، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى لقريش، فيكون فيه تخويف فصيح بمعنى: انظروا كيف يكون حالكم؟!.

وقوله تعالى: ﴿أم/ أبرموا أمراً﴾ أي: أحكموا أمراً في المكر بالنبي ﷺ ﴿فإننا مبرمون﴾ أي: مُحَكِّمُونَ أمراً في نَصْرِهِ ومجازاتهم، والمراد بـ«الرسال» هنا: الحَقَقَةُ من الملائكة يكتبون أعمال العباد، وتُعَدُّ للجزاء يوم القيامة.

«واخْتَلَفَ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ فقال مجاهد: المعنى إن كان لله ولد في قولكم، فإننا أول من عَبَدَ اللَّهَ وَوَحَّدَهُ وَكَذَّبَكُمْ^(٢)، وقال ابن زيد وغيره: «إن»: نافية بمعنى «ما»؛ فكأنه قال: قل ما كان للرحمن ولد^(٣)، وهنا هو الوقف على هذا التأويل، ثم يبتدىء قوله: ﴿فإننا أول العابدين﴾ قال أبو حاتم قالت فرقة: العابدون في الآية: من عَبَدَ الرجل: إِذَا أَنْفَ وَأَنْكَرَ، والمعنى: إن كان للرحمن ولد في قولكم، فإننا أول الأنفين المُنْكَرِينَ لذلك، وقرأ أبو عبد الرحمن: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ» قال أبو حاتم: الْعَبْدُ - بكسر الباء -: الشَّدِيدُ الغضب، وقال أبو عُبَيْدَةَ: معناه: أول الجاحدين^(٤)، والعَرَبُ تقول: عَبَدَنِي حَقِّي، أي: جَحَدَنِي، وباقي الآية تنزيه لله سبحانه، ووعيد للكافرين، ويومهم الذي يوعدون ﴿هو يوم القيامة، هذا قول الجمهور، وقال عِكْرَمَةُ وغيره: هو يوم بَذْرِ^(٥)».

(١) أخرجه الطبري (٢١٣/١١) برقم: (٣٠٩٩١)، وذكره ابن عطية (٦٤/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٥/١١) برقم: (٣١٠٠٦)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٦٥/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (١٣٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٣٥/٥)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري (٢١٥/١١) برقم: (٣١٠٠٩)، وذكره ابن عطية (٦٥/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٦٦/٥).

(٥) ذكره ابن عطية (٦٦/٥).

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وهو الذي في السماء إله...﴾ الآية، آية تعظيم وإخبار بألوهيته سبحانه، أي: هو النافذ أمره في كُلِّ شيء، وقرأ عمر بن الخطاب، وأبي، وابن مسعود، وغيرهم^(١): «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللَّهُ وَفِي الْأَرْضِ اللَّهُ» وباقي الآية بَيِّنْ، ثم [أَعْلَمَ سبحانه] أَنَّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ شَفَاعَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ، وهم الملائكة، وعيسى/ وعزير؛ فَإِنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ؛ بَأَن يَمْلِكُهَا اللَّهُ إِيَّاهُمْ؛ إِذْ هُمْ مِمَّنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ، وهم يعلمونه، فالاستثناء على هذا التأويل مُتَّصِلٌ، وهو تأويل قتادة^(٢)، وقال مجاهد وغيره: الاستثناء في المشفوع فيهم^(٣)، فكأنه قال: لَا يَشْفَعُ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ، وعيسى، وعزير إِلَّا فِيمَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ، أي: بالتوحيد فأَمِنَ على عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، فالاستثناء على هذا التأويل مُنْفَصِلٌ، كأنه قال: لَكِنْ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ؛ فَيَشْفَعُ فِيهِمْ هَؤُلَاءِ، والتأويل الأوَّلُ أَصَوَّبٌ، وقرأ الجمهور: «وَقِيلَ» بالنصب^(٤)، وهو مصدر؛ كَالْقَوْلِ، وَالضَّمِيرُ فِيهِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَاخْتَلَفَ فِي النَّاصِبِ لَهُ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿سِرُّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ولفظ البخاري ﴿وَقِيلَ يَا رَبُّ﴾: تَفْسِيرُهُ: أَيَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ [و] لَا نَسْمَعُ قِيلَهُ يَا رَبُّ، انتهى، وقيل: العامل فيه «يَكْتُبُونَ» ونزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَبُّ﴾ بمنزلة شَكْوَى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَاسْتِغَاثَتِهِ مِنْ كُفْرِهِمْ وَغَتُّوهُمْ، وقرأ حمزة وعاصم: «وَقِيلَ» بالخفض^(٥)؛ عطفًا على الساعة.

(١) وقرأ بها علي ويحيى بن يعمر، واليماني.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٣٧)، و«المحرر الوجيز» (٦٦/٥)، وزاد نسبتها إلى جابر بن زيد، وأبي الشيخ، والحكم بن أبي العاصي، وبلال بن أبي بردة، وابن السميع. وزاد أبو حيان (٢٩/٨): عمر بن عبد العزيز، وحמיד، وابن مقسم، وهي في «الدر المصون» (١٠٩/٦).

(٢) أخرجه الطبري (٢١٨/١١) برقم: (٣١٠١٩)، وذكره ابن عطية (٦٦/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٦٦/٥).

(٤) وقرأ برفعه الأعرج، وأبو قلابة، ومجاهد.

ينظر: «المحتسب» (٢٥٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (٦٧/٥)، و«البحر المحيط» (٣٠/٨)، وزاد نسبتها إلى الحسن، وقاتدة، ومسلم بن جندب.

وينظر: «الدر المصون» (١١٠/٦)، وقراءة السبعة ستأتي.

(٥) وقرأ الباقر بالنصب. قال السمين، وأما قراءة النصب ففيها ثمانية أوجه: =

وقوله سبحانه: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: مُوَادَعَةٌ منسوخةٌ ﴿وقل سلام﴾ تقديره: أمري سلام، أي: مسالمة ﴿فسوف تعلمون﴾.

= «أحدها»: أنه منصوب على محل «الساعة»؛ كأنه قيل: إنه يَعْلَمُ السَّاعَةَ وَيَعْلَمُ قِيلَهُ كذا.
«الثاني»: أنه معطوف على «سِرُّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ»، أي: لا يَعْلَمُ سِرُّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ولا يعلم قيله.
«الثالث»: عطف على مفعول «يَكْتُبُونَ» المحذوف، أي: يَكْتُبُونَ وَيَكْتُبُونَ قِيلَهُ كذا أيضاً.
«الرابع»: أنه عطف على مفعول «يَعْلَمُونَ» المحذوف، أي: يعلمون ذلك ويعلمون قِيلَهُ.
«الخامس»: أنه مَصْدَرٌ أي: قَالَ قِيلَهُ.
«السادس»: أن ينتصب بإضمارِ فِعْلٍ، أي: اللَّهُ يَعْلَمُ قِيلَ رَسُولِهِ وهو محمد ﷺ.
«السابع»: أن ينتصب على محل «بِالْحَقِّ»، أي: شَهِدَ بِالْحَقِّ وبقيله.
«الثامن»: أن ينتصب على حذف حرف القسم كقوله:

فَذَٰكَ أَمَانَةُ اللَّهِ التَّيْرِيذُ

ينظر: «الدرر المصون» (١٠٩/٦ - ١١٠)، و«السبعة» (٥٨٩)، و«الحجة» (١٥٩/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٠٤/٢)، و«معاني القراءات» (٣٦٩/٢)، و«شرح الطيبة» (٢٢٧/٥)، و«العنوان» (١٧٢)، و«حجة القراءات» (٦٥٥)، و«شرح شعلة» (٥٧٩)، و«إتحاف» (٤٦٠/٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴿حَمْدٌ ٢﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ... الآية، قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قَسَمَ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يحتمل أَنْ يَقَعَ الْقَسَمُ عَلَيْهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِلْكِتَابِ، وَيَكُونُ الَّذِي وَقَعَ الْقَسَمُ عَلَيْهِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، ١٥٤ / وَاخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، فَقَالَ قَتَادَةُ، وَالْحَسَنُ، وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ^(١)، وَمَعْنَى هَذَا النَّزُولِ أَنَّ ابْتِدَاءَ نَزُولِهِ كَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ؛ وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ^(٢)، قَالَ الْفَرُطِيُّ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي يُفْرَقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ، انْتَهَى مِنْ «التَّذَكُّرَةِ»، وَنَحْوُهُ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَى لَهُمُ الدَّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لَبِئْسَ تُحْنُوتُ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْفِعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معناه يُفْصَلُ مِنْ غَيْرِهِ وَيَتَخَلَّصُ، فَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُفْصَلُ ذَلِكَ لِلْمَلَائِكَةِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ^(٣)، وَفِي بَعْضِ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢٢٠/١١) بِرَقْم: (٣١٠٢٦، ٣١٠٢٨) عَنْ قَتَادَةَ، وَابْنِ زَيْدٍ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٤٨/٤) عَنْهُمَا، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٦٨/٥)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ» (٧٣٨/٥)، وَعَزَاهُ إِلَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٦٨/٥).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢٢٣/١١) بِرَقْم: (٣١٠٣٩).

الأحاديث عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «تُقَطَّعُ الْأَجَالُ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى شَعْبَانَ، حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْكِحُ وَيُوَلِّدُ لَهُ، وَلَقَدْ خَرَجَ أَسْمُهُ فِي الْمَوْتَىٰ»^(١) وقال قتادة، والحسن، ومجاهد: يُفْصَلُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ كُلُّ مَا فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ، مِنَ الْأَقْدَارِ، وَالْأَرْزَاقِ، وَالْأَجَالِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَ«أَمْرًا» نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ^(٢).

وقوله: «إِنَّا كُنَّا مَرْسَلِينَ» يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ الرُّسُلَ وَالْأَشْيَاءَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ الرَّحْمَةَ الَّتِي ذَكَرَ بَعْدُ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي «الدَّخَانِ» الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِارْتِقَابِهِ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ مِنْهَا عَلِيُّ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ عَمْرٍ، وَالْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: هُوَ دُخَانٌ يَجِيءُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْهُ مِثْلُ الزَّكَامِ، وَيَنْصَحُ رُؤُوسَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ، حَتَّى تَكُونَ كَأَنَّهَا مَضْلِيَّةٌ حَنِيدَةٌ^(٣)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ، مِنْهَا ابْنُ مَسْعُودٍ: هَذَا الدَّخَانُ قَدْ رَأَتْهُ قَرِيشٌ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِ كَسْبَعٍ يُوسُفَ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَرَى مِنَ الْجُوعِ دُخَانًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ^(٤)؛ وَمَا يَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ يُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَقَوْلُهُمْ: «إِنَّا مُؤْمِنُونَ» كَانَ ٥٤ ب ذَلِكَ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ حَقِيقَةٍ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أَتُنِي لَهُمُ الذِّكْرَىٰ» أَي: مِنْ أَيْنَ لَهُمُ التَّذَكُّرُ وَالِاتِّعَاضُ بَعْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ؟ «وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ» يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ فَ«تَوَلَّوْا عَنْهُ»، أَي: أَعْرَضُوا «وَقَالُوا: مَعْلَمٌ مَجْنُونٌ».

وقوله: «إِنكُمْ عَائِدُونَ» أَي: إِلَى الْكُفْرِ، وَاخْتَلَفَ فِي يَوْمِ الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ: هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ^(٥).

﴿أَنْ أَدُوًّا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٨) وَأَنْ لَا تَقْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُبْعِثَ مِثْلَ ﴿وَلِي عِزَّتِي بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْحَمُونِ﴾ (١٠) وَأَنْ لَرَّ تَوَمُّنًا لِي فَاعْبُدُونِ ﴿١١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١١٥/٢) (٢٢٢٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٦/٦)، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٦٩٤/١٥) (٤٢٧٨٠) وكلاهما عزاه إلى ابن زنجويه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٢/١١) برقم: (٣١٠٣٥) عن مجاهد، (٣١٠٣٦ - ٣١٠٣٧) عن قتادة، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٤٨/٤)، وابن عطية (٦٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن نصر، والبيهقي عن قتادة.

(٣) ذكره ابن عطية (٦٩/٥).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٤/٥)، وعزاه إلى البيهقي في «دلائل النبوة».

(٥) أخرجه الطبري (٢٣٠/١١) برقم: (٣١٠٧٠) عن ابن مسعود، (٣١٠٧١) عن مسروق، (٣١٠٧٢) عن ابن مسعود، (٣١٠٧٣ - ٣١٠٧٤) عن مجاهد، (٣١٠٧٥) عن أبي العالية، (٣١٠٧٦) عن ابن عباس، (٣١٠٧٩) عن أبي بن كعب، (٣١٠٨٠) عن الضحاك، وذكره ابن عطية (٧٠/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٥/٥)، وعزاه إلى ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه.

﴿تُجْرَمُونَ﴾ (٢٢) فَأَتَرَ بَعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرَفُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله: ﴿أَنْ أَدُوا﴾ مأخوذ من الأداء، كأنه يقول: أَنْ اذْفَعُوا إِلَيَّ، وأعطوني، وَمَكَّنُونِي من بني إسرائيل، وَإِيَّاهُمْ أراد بقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾، وقال ابن عباس: المعنى: اتبعوني إلى ما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ من الْحَقِّ^(١)، فعباد الله على هذا مُنَادَى مضاف، والمؤدَّى هي الطاعة، والظاهر من شرع موسى - عليه السلام - أَنَّهُ بُعِثَ إِلَى دَعَاءِ فِرْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَنْ يَرْسَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا أَبَى أَنْ يُؤْمِنَ ثَبَتَ الْمَكَافَحَةُ فِي أَنْ يَرْسَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وقوله بعد: ﴿وَإِنْ لَمْ تَوْمِنُوا لِي فَاَعْتَزِلُون﴾ كَالنَّصِّ فِي أَنَّهُ آخِرُ الْأَمْرِ، إِنَّمَا يُطْلَبُ إِرسَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَطْ.

وقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ...﴾ الآية: المعنى: كانت رسالته، وقوله: ﴿أَنْ أَدُوا﴾ ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: على شرع الله، وَعَبَّرَ بِالْعُلُوِّ عَنِ الطَّغْيَانِ وَالْعُتُوِّ، و﴿أَنْ تَرْجَمُونَ﴾ معناه: الرجم بالحجارة الْمُؤَدَّى إِلَى الْقَتْلِ؛ قَالَه قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ^(٢)، وَقِيلَ: أَرَادَ الرِّجْمَ بِالْقَوْلِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي عَادَ مِنْهُ، وَلَمْ يَعْذُ مِنْ الْآخِرِ.

* قلت *: وعن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكَمُ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ بِمَعْرُوفٍ / فَكَافَتْهُ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(٣)، رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وابن حبان في «صحيحيهما»، واللفظ للنسائي، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين - يعني البخاري ومسلمًا - أهد من «السلح».

وقوله: ﴿فَاعْتَزِلُون﴾ متاركة صريحة، قال قتادة: أراد خَلُّوا سَبِيلِي.

(١) ذكره ابن عطية (٧٠/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٣/١١) برقم: (٣١٠٩٨ - ٣١٠٩٩) عن قتادة، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٥١) عنه، وابن عطية في «تفسيره» (٧١/٥)، وابن كثير (١٤١/٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٤/١) كتاب «الزكاة» باب: عطية من سأل بالله عز وجل (١٦٧٢)، (٧٥٠/٢) كتاب «الأدب» باب: في الرجل يستعيز من الرجل (٥١٠٩)، وأحمد (٦٨/٢)، (١٢٧)، والنسائي (٥/٨٢) كتاب «الزكاة» باب: من سأل بالله عز وجل (٢٥٦٧)، والحاكم (٤١٢/١)، وابن حبان (١٩٩/٨) كتاب «الزكاة» باب: المسألة والأخذ وما يتعلق به من المكافأة والثناء والشكر، ذكر الأمر بالمكافأة لمن صنع إليه معروف (٣٤٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٦/٩).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، قد تابع عمار بن زريق على إقامة هذا الإسناد: أبو عوانة، وجريز بن عبد الله الحميد، وعبد العزيز بن مسلم القملي عن الأعمش.

وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ قبله محذوف، تقديره: فما أجابوه لِمَا طَلِبَ منهم.

وقوله: ﴿فَأَسْرَى﴾ قبله محذوف، أي: قَالَ اللَّهُ لَهُ فَأَسْرَى بِعِبَادِي، قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): السَّرَى: سَيَّرُ الليل، و«الإِذْلَاجُ» سَيَّرُ السَّحَرِ، و«التَّأْوِيْبُ»: سير النهار، ويقال: سَرَى وأسْرَى، انتهى.

واخْتُلِفَ في قوله تعالى: ﴿وَاتَرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ متى قالها لموسى؟ فقالت فرقة: هو كلامٌ مُتَّصِلٌ بما قبله، وقال قتادة وغيره: خُوطِبَ به بعد ما جاز البحر^(٢)، وذلك أَنَّهُ هَمَّ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ؛ لِيَلْتَمَّ خَشْيَةً أَنْ يَدْخُلَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ وَرَاءَهُ، و﴿رَهْوًا﴾ معناه: ساكنًا كما جُزَّتْهُ، قاله ابن عباس^(٣)، وهذا القول هو الذي تؤيده اللغة؛ ومنه قول القُطَامِيِّ: [البسيط]

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلُّ^(٤)
ومنه: [البسيط]

وَأُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْوًا إِلَى عِيدٍ
أي: خرجوا في سُكُونٍ وَتَمَهُّلٍ.

فَقِيلَ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: أَتُرِكَ الْبَحْرَ سَاكِناً عَلَى حَالِهِ مِنَ الْانْفِرَاقِ؛ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا.

﴿كَذَلِكَ نَكْتُبُكَ مِنْ جَنَّتٍ وَعَبُودٍ^(٢٥) وَرُذُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ^(٢٦) وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَتَكِهِينَ^(٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ^(٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ^(٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُ بِنَجْوَى إِسْرَافٍ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ^(٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ^(٣١) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ^(٣٢) وَأَنبَأْنَاهُمْ مِنَ الْأَيْتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ^(٣٣) إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ^(٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ^(٣٥) فَأَنزَلْنَا بِعَابِقٍ إِنَّا كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٣٦)﴾

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٤/١٦٩١).

(٢) أخرجه الطبري (١١/٢٣٤) برقم: (٣١١٠١ - ٣١١٠٢) عن قتادة نحوه، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٥١)، وابن عطية (٥/٧٢).

(٣) أخرجه الطبري (١١/٢٣٤ - ٢٣٥) برقم: (٣١١٠٣، ٣١١٠٥)، وذكره ابن عطية (٥/٧٢)، وابن كثير (٤/١٤١).

(٤) البيت في «ديوانه» ص: (٤)، وينظر: «البحر المحيط» (٨/٣١)، و«المحرر الوجيز» (٥/٧٢)، و«الدر المصون» (٦/١١٥)، في «المحرر»: «يمشون».

وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ «كم» للتكثير، أي: كَمْ تَرَكَ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَرُونَ من كثرة
 ٥٥ ب الجَنَّاتِ والعيون، فَرُوي أَنَّ الجَنَاتِ كَانَتْ مُتَّصِلَةً/ ضِفَّتِي النِيلَ جميعاً من رشيد إلى
 أُسْوَانَ، وَأَمَّا العيونُ فيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ الحُلُجَّانَ، فشبَّهها بالعيون، ويَحْتَمِلُ أَنَّهَا كَانَتْ
 وَنَضِبَتْ، ذَكَرَ الطَّرْطُوشِيُّ فِي «سِرَاجِ المُلُوكِ» لَهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدُونَ: كُنْتُ
 مَعَ الْمُتَوَكِّلِ لَمَّا خَرَجَ إِلَى دِمَشْقَ، فَرَكِبَ يَوْمًا إِلَى رُصَافَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَنَظَرَ إِلَى
 قُصُورِهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَنَظَرَ إِلَى دَيْرٍ هُنَاكَ قَدِيمٍ حَسَنِ البِنَاءِ بَيْنَ مَزَارِعَ وَأَشْجَارٍ، فَدَخَلَهُ،
 فَبَيْنَمَا هُوَ يَطُوفُ بِهِ إِذْ بَصُرَ بِرُقْعَةٍ قَدْ أُلْصِقَتْ فِي صَدْرِهِ؛ فَأَمَرَ بِقَلْعِهَا، فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ هَذِهِ
 الأَيَّاتُ: [الطويل]

أَيَا مَنْزِلًا بِالدَّيْرِ أَضْبَحَ خَالِيَا
 كَأَنَّكَ لَمْ يَسْكُنْكَ بِيضُ أَوَانِسْ
 وَأَبْنَاءُ أَمْلَاكَ غَوَاشِمُ سَادَةٌ
 إِذَا لَبِسُوا أَذْرَاعَهُمْ فَعَوَابِسْ
 عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ ضَرَاغِمُ
 لَيَالِي هِشَامَ بِالرُّصَافَةِ قَاطِنُ
 إِذِ الْعَيْشُ غَضُّ وَالْخِلَافَةُ لَذَّةُ
 وَرَوْضُكَ مُزْتَادٌ وَتَوْرُكُكَ مُزْهَرُ
 بَلَى فَسَقَاكَ الْعَيْثُ صَوْبَ سَحَابِ
 تَذَكَّرْتُ قَوْمِي فِيكُمْ فَبَكَيْتُهُمْ
 فَعَزَّيْتُ نَفْسِي وَهِيَ نَفْسٌ إِذَا جَرَى
 لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمْ
 فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَتَنَعَّمَ بِأَنْسِ
 ١٥٦ رُوَيْدَكَ إِنَّ/ الدَّهْرَ يَتَّبِعُهُ عَدُوُّ

تَلَاعَبَ فِيهِ شَمَالٌ وَدُبُورُ
 وَلَمْ تَتَبَخَّزْ فِي قَبَابِكَ حُورُ
 صَغِيرُهُمْو عِنْدَ الْأَتَامِ كَبِيرُ
 وَإِنْ لَبِسُوا تَبِجَانَهُمْ فَبُدُورُ
 وَأَنَّهُمْو يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورُ
 وَفِيكَ أَبْنَاهُ يَا دَيْرُ وَهُوَ أَمِيرُ
 وَأَنْتَ طَرُوبُ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ
 وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فِيكَ نَضِيرُ
 عَلَيْكَ لَهَا بَغْدُ الرُّوَّاحِ بُكُورُ
 بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِأَلْبُكَاءِ جَدِيرُ
 لَهَا ذِكْرُ قَوْمِي - أَنَّهُ وَزْفِيرُ
 لَهُمْ بِالَّذِي تَهْوَى الثُّفُوسُ - يَدُورُ
 وَيُطْلَقُ مِنْ ضَيْقِ الْوَثَاقِ أَسِيرُ
 وَإِنَّ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فلما قرأها المتوكل، ارتاع، ثم دعا صاحب الدَّيْرِ، فسأله عَمَّنْ كَتَبَهَا، فقال: لَا عِلْمَ
 لي به، وانصرف، انتهى، وفي هذا وشبهه عِبْرَةٌ لأُولِي البصائرِ المَسْتَقِظِينَ، اللهم، لَا
 تَجْعَلَنَا مِمَّنْ أَغْتَرَّ بِزَخَارِفِ هَذِهِ الدَّارِ!!.

[من الطويل]

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَخْلَامٍ نَّائِمٍ وَمَا خَيْرٌ عَيْشٍ لَّا يَكُونُ بِدَائِمٍ
 وقرأ جمهور الناس: «وَمَقَامٍ» - بفتح الميم -^(١)؛ قال ابن عباس وغيره: أراد
 المنابر^(٢).

وعلى قراءة ضم الميم^(٣) قال قتادة: أراد: المواضع الحسنان من المساكن وغيرها^(٤)،
 والقول بالمنابر بعيد جداً، و«النَّعْمَةُ» - بفتح النون -: غَضَارَةُ العيش وَلَذَّةُ الحياة،
 و«النَّعْمَةُ» - بكسر النون -: أَعْمٌ من هذا كُلِّه، وقد تكون الأمراض والمصائب نِعَمًا، ولا
 يقال فيها: «نَعْمَةٌ» - بالفتح -، وقرأ الجمهور: «فاكهين»^(٥) ومعناه: فَرِحِينَ مسرورين
 كذلك وأورثناها قومًا آخرين* أي: بعد القَبْطِ، وقال قتادة: هم بنو إسرائيل^(٦)، وفيه
 ضعف، وقد ذكر الثعلبي عن الحسن: أن بني إسرائيل رَجَعُوا إِلَى مِصْرَ بعد هلاك
 فِرْعَوْنَ^(٧)، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾،
 فقال ابن عباس وغيره: وذلك أَنَّ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ، بَكَى عليه من الأرض موضع
 عبادته أربعين صباحًا، وبَكَى عليه من السماء مَوْضِعُ صُعودِ عمله، قالوا: ولم يكن في قوم
 فرعونَ مَنْ هذه حاله، فَتَبَكَّى عليهم السماء والأرض^(٨)، قال ع*^(٩): والمعنى الجِدُّ
 في الآية: أَنَّهَا استعارةٌ فصیحةٌ تَتَضَمَّنُ تحقير أمرهم، وأنَّه لم يتغير لأجل هلاكهم شيء،
 ومثله قوله ﷺ: «لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنَزَانٌ»، وفي الحديث عن النبي ﷺ/ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مَاتَ ٥٦ ب

- (١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٢/٥)، و«البحر المحيط» (٣٦/٨)، و«الدر المصون» (١١٥/٦).
- (٢) أخرجه الطبري (٢٣٦/١١) برقم: (٣١١١٦-٣١١١٥) عن مجاهد، وسعيد بن جبیر، وذكره ابن عطية (٧٢/٥)، وابن كثير (١٤١/٤) عن مجاهد، وسعيد بن جبیر، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٧٤٧)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٣) قرأ بها ابن هرمز، وقاتدة، وابن السميع، ونافع في رواية خارجة.
- ينظر: «البحر المحيط» (٣٦/٨)، و«الدر المصون» (١١٥/٦).
- (٤) أخرجه الطبري (٢٣٦/١١) برقم: (٣١١١٧) عن قتادة نحوه، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٥١/٤)، وابن عطية (٧٢/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٧/٥)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.
- (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٣/٥)، و«البحر المحيط» (٣٦/٨)، و«الدر المصون» (١١٥/٦).
- (٦) أخرجه الطبري (١٣٩/١١) برقم: (٣١١١٩)، وذكره ابن عطية (٧٣/٥).
- (٧) ذكره ابن عطية (٧٣/٥).
- (٨) أخرجه الطبري (٢٣٧-٢٣٨) برقم: (٣١١٢٢، ٣١١٢٧)، وذكره ابن عطية (٧٣/٥)، وابن كثير (١٤٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٧/٥)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان».
- (٩) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٣/٥).

مُؤْمِنٌ فِي غُرْبَةٍ غَابَتْ عَنْهُ فِيهَا بَوَاكِيهِ، إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ: إِنَّهُمَا لَا يَبْكِيَانِ عَلَيَّ كَافِرٍ^(١) قال الداوددي. وعن مجاهد: ما مات مؤمنٌ إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وقال: أفي هذا عجب؟! وما للأرضِ لَا تَبْكِي عَلَيَّ عَبْدٍ كَانَ يَغْمُرُهَا بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وما للسماءِ لَا تَبْكِي عَلَيَّ عَبْدٍ كَانَ لَتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ فِيهَا دَوِيٌّ كَدَوِيٍّ النَّحْلُ؟^(٢) انتهى.

وروى ابن المبارك في «رقائقه» قال: أخبرنا الأوزاعي قال: حدثني عطاء الخراساني، قال: مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً فِي بُقْعَةٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، إِلَّا شَهِدَتْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبَكَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ يَمُوتُ، انتهى، وروى ابن المبارك أيضاً عن أَبِي عُبَيْدٍ صَاحِبِ سُلَيْمَانَ «أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ تَنَادَتْ بِقَاعُ الْأَرْضِ: عَبْدَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِ مَاتَ قَالَ: فَتَبْكِي عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، فيقولُ الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَا يُبْكِيكُمَا عَلَيَّ عَبْدِي؟ فَيَقُولَانِ: يَا رَبَّنَا، لَمْ يَمْشِ عَلَيَّ نَاحِيَةً مِثْلَ قَطْ إِلَّا وَهُوَ يَذْكُرُكَ». اهـ.

و﴿منظرين﴾ أي: مُؤَخَّرِينَ ﴿والعذاب المهيئ﴾: هو ذبح الأبناء، والتَّسْخِيرُ، وغيرُ ذلك.

وقوله: ﴿على علم﴾ أي: على شَيْءٍ قَدْ سَبَقَ عِنْدَنَا فِيهِمْ، وَثَبَتَ فِي عِلْمِنَا أَنَّهُ سَيَنْفُذُ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: على علم لهم وفضائل فيهم على العالمين، أي: عَالِمِي زَمَانِهِمْ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿وَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾: لفظ جامع لما أجرى الله من الآيات على يدي موسى، ولما أنعم به على بني إسرائيل، والبلاء في هذا الموضوع: الاختبارُ والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ١٥٧ [الأنبياء: ٣٥] الآية، و﴿مُبين﴾ بمعنى: بَيِّنُ/ ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى قَرِيشاً عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ لِقَوْلِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا هِيَ﴾ أي: ما هي ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين، وقولُ قُرَيْشٍ: ﴿فَأَتَوْا بِآبَائِنَا﴾ مُخَاطَبَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ طلبوا منه أَنْ يُخَيِّيَ اللَّهُ لَهُمْ بَغْضَ آبَائِهِمْ، وَسَمَّوْا لَهُ قُصِيًّا وَغَيْرَهُ، كَيْ يَسْأَلُوهُمْ عَمَّا رَأَوْا فِي آخِرَتِهِمْ.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٨/١١) برقم: (٣١١٢٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٨/٥)، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٨/١١) برقم: (٣١١٢٥، ٣١١٢٨) عن مجاهد، وابن كثير في «تفسيره» (٤/١٤٢).

﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّعُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿أهم خير أم قوم تبع...﴾ الآية، آية تقرير ووعيد، و﴿تبع﴾: مَلِكٌ حَمِيرِيٌّ، وكان يقال لكل ملك منهم: «تبع» إلا أَنَّ المُشَارَ إليه في هذه الآية رَجُلٌ صالحٌ؛ رَوِيَ عن النبي ﷺ من طريق سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ «أَنَّ تَبَعًا هَذَا أَسْلَمَ وَأَمَنَ بِاللَّهِ»^(١)، وقد ذكره ابن إسحاق في السيرة، قال السَّهْلِيُّ: وَبَعْدَ مَا غَزَا تُبَعَ المدينة، وأراد خَرَابَهَا أَخْبَرَ بِأَنَّهَا مُهَاجِرُ نَبِيِّ أَسْمُهُ أَحْمَدُ، فانصرف عَنْهَا، وقال فيه شعراً وأودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر، إلى أَنَّ هاجر إليهم النبي - عليه السلام - فَأَذُوهُ إِلَيْهِ، ويقال: إِنَّ الكتاب والشعر [كانا] عند أَبِي أَيُوبَ الْأَنْصَارِيِّ [ومنه]: [من المتقارب]

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ لَكُنْتُ وَزِيْرًا لَهُ وَأَبْنَ عَمٍّ^(٢)

وذكر الرَّجَّاجُ^(٣)، وابن أبي الدنيا: أَنَّهُ حُفِرَ قَبْرُ بـ«صنعاء» في الإسلام، فَوُجِدَ فيه امرأتانِ صحيحتان، وعند رأسهما لَوْحٌ من فِصَّةٍ مكتوبٌ فيه بالدَّهَبِ: هذا قَبْرُ حُبَيٍّ وَلَمِيسَ، وَيَزُورُ: وَتَمَاضِرَ أَتَيْتِي تُبَعَ، ماتتا وهما تَشْهَدَانِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ولا تُشْرِكَانِ به شَيْئًا، وعلى ذلك مَاتَ الصَّالِحُونَ قَبْلَهُمَا، انتهى، و﴿يوم الفصل﴾: هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ/ وهذا هو الْإِخْبَارُ بِالْبَغْثِ، و«المولى» في هذه الآية: يَعُمُّ جميعَ المَوَالِي.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ حُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُوءًا رَأْسَهُ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم﴾ رَوِيَ عن ابن زيد؛ أَنَّ الْأَثِيمَ

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٩/٥)، وعزاه إلى الطبراني، وابن مردويه.

(٢) وبعدها:

وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل هم

ينظر: «الروض الأنف» (٣٥/١).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» (٤٢٧/٤).

المشار إليه أبو جهل، ثم هي بالمعنى تتناول كل أثيم، وهو كل فاجر، روي أنها لما نزلت، جمع أبو جهل عَجْوَةً وَزَيْدًا، وقال لأصحابه: تَزَقُّمُوا، فهذا هو الزَقُّوم، وهو طَعَامِي الذي حَدَّثَ به محمد، قال * ع^(١): * وإِنَّمَا قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتليس على الجهلة.

وقوله سبحانه: ﴿كالمهل﴾ قال ابن عباس، وابن عمر^(٢): «المهل»: دُرْدِي الرِّبِّ وَعَكْرُهُ، وقال ابن مسعود وغيره^(٣): «المهل»: ما ذاب من ذهب أو فضة، والمعنى: أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم، صارت في جوفه تفعل كما يفعل المهل المذاب من الإحراق والإفساد، و﴿الحميم﴾: الماء السخن الذي يتطاير من غليانه.

وقوله: ﴿خذوه...﴾ الآية، أي: يقال يومئذ للملائكة: خذوه، يعني الأثيم ﴿فاعتلوه﴾ و﴿العتل﴾: السَّوْقُ بعُتْفٍ وإهانة، ودَفْعٌ قَوِيٌّ مُتَّصِلٌ، كما يساق أبدأ مرتكب الجرائم، و﴿السَّوَاءُ﴾: الوَسَطُ، وقيل: المُعْظَمُ، وذلك متلازم.

وقوله تعالى: ﴿ذوق إنك أنت العزيز الكريم﴾ مُحَاطَبَةٌ على معنى التَّفْرِيعِ.

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ٥٠ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ٥١ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ٥٣ ﴿كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ٥٤ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾: عبارة عن قول يُقَالُ للكفرة، ثم ذكر تعالى حالة الْمُتَّقِينَ، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: مأمون، «والسُّنْدُسُ»: رقيق الحرير، و«الِإِسْتَبْرَقُ»: خَشِيشُهُ.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: وَصَفٌ لمجالس أهل الجنة، لأن بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس، وقرأ الجمهور: ﴿وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ وقرأ ابن مسعود: «بِعِيسٍ عِينٍ» وهو جمع «عِيسَاءَ»، وهي البيضاء^(٤)؛ وكذلك هي من الثَّوْقِ، وروى أبو قِرْصَافَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِخْرَاجُ الْقَمَامَةِ مِنَ الْمَسْجِدِ مُهُورُ الْحُورِ الْعِينِ» قال الثعالبي: قال مجاهد: يَحَارُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٣/١١ - ٢٤٤) برقم: (٣١١٥٢، ٣١١٥٥) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية (٥/٧٦).

(٣) أخرجه الطبري (٢١٨/٨) برقم: (٢٣٠٤٠)، وذكره ابن عطية (٥/٧٦).

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٣٨)، و«المحتسب» (٢/٢٦١)، و«الكشاف» (٤/٢٨٣)، و«المحرر الوجيز» (٧٨/٥).

فِيهِنَّ الطَّرْفُ مِنْ بَيَاضِهِنَّ وَصَفَاءَ لَوْنِهِنَّ، يُرَى مُخٌ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهِنَّ، وَيَرَى النَّاظِرُ وَجْهَهُ فِي كَعْبٍ إِحْدَاهُنَّ كَالْمَرَأَةِ مِنْ رِقَّةِ الْجِلْدِ وَصَفَاءِ اللَّوْنِ^(١)، انتهى.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهِةٍ ءَامِينٍ﴾ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يَلِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة﴾ أي: يدعون الخدمة والمتصرفين.

قال أبو حيان^(٢): ﴿إلا الموتة﴾: استثناء منقطع، أي: لكن الموتة الأولى ذاقوها، انتهى، ، والضمير في ﴿يسرناه﴾ عائد على القرآن ﴿بلسانك﴾ أي: بلغة العرب؛ قال الواحدي: ﴿لعلهم يتذكرون﴾: أي: يتعظون، انتهى، وفي قوله تعالى: ﴿فارتقب إنهم مرتقبون﴾ وعذ للنبي ﷺ ووعيد للكافرين.

(١) أخرجه الطبري (٢٤٨/١١) برقم: (٣١١٧٦)، عن ابن نجيج عن مجاهد، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٥٥/٤).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٤١/٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

﴿حَم﴾ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَخِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَبِئْسَ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنْتَلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً يَخَذَابِ أَلِيمٍ (٨) ﴿

قوله عز وجل: ﴿حَم﴾ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين ﴿ قال أبو حيان^(١): أجاز الفخر الرازي في ﴿العزيز الحكيم﴾ أن يكونا صفتين لـ«الله»، وهو الراجح، أو لـ«الكتاب»؛ ورد بأنه لا يجوز أن يكونا صفتين للكتاب من وجوه، انتهى.

وذكر تبارك وتعالى هنا الآيات التي في السموات والأرض مَجْمَلَةً غَيْرَ مُفَصَّلَةٍ، فكأنها إحالة على غوامض تثيرها الفكر، ويُخبر بكثير منها الشُّرْع؛ فلذلك جعلها للمؤمنين، ثم ذكر سبحانه خلق البشر والحيوان، وكأنه أَعْمَضُ؛ فجعله/ للموقنين الذين لهم نظر يُؤدِّيهم إلى اليقين، ثم ذكر اختلاف الليل والنهار، والعبرة بالمطر والرياح، فجعل ذلك لقوم يعقلون؛ إذ كُلُّ عاقل يُحْصِلُ هذه ويفهم قَدْرَهَا.

قال ﴿ع﴾^(٢): * وإن كان هذا النَّظَرُ لَيْسَ بِإِلْزَامٍ وَلَا بُدَّ، فإن اللفظ يعطيه، والرزق المُنَزَّل من السماء هو: الماء، وسَمَاءُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ رِزْقًا بِمَالِهِ، لأنَّ جَمِيعَ ما يَرْتَزِقُ، فَعَنِ الماءِ هُوَ.

وقوله: ﴿تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والإعلام بحقائق الأمور في أنفسها.

وقال جلَّتْ عِظَمَتُهُ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ آية تقريع وتوبيخ، وفيها

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤٣/٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٩/٥).

قُوَّةٌ تهديد، والأفَّاكُ: الكَذَابُ الذي يَقَعُ منه الإِفْكَ مِرَاراً، والأَيْثِمُ: بناءٌ مُبَالَعَةٌ، اسمُ فاعِلٍ من أَيْثَمَ يَأْتِمُ، وَرُوِيَ أَنَّ سَبَبَ الآيَةِ أَبُو جَهْلٍ، وقيل: النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، والصواب أنها عامَّةٌ فيهما وفي غيرهما، وأنها تُعْمُ كُلُّ مَنْ دَخَلَ تحت الأوصافِ المذكورةِ إلى يومِ القيامةِ و﴿يُصِرُّ﴾ معناه: يَثْبُتُ على عقيدته من الكُفْرِ.

وقوله: ﴿فبشره بعدذاب أليم﴾ أي: مُؤْلِمٌ.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

وتوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ أي: أَخْبَرَ بشيءٍ من آياتنا، فعلم نفس الخبر لا المعنى الذي تَضَمَّنَهُ الخبرُ، ولو عَلِمَ المعاني التي تَضَمَّنَهَا أخبارُ الشَّرْعِ، وَعَرَفَ حَقَائِقَهَا - لكان مؤمناً.

* ت * : وفي هذا نظر؛ لأنه ينحو إلى القول بأن الكفر لا يُتَصَوَّرُ عناداً مَحْضاً، وقد تَقَدَّمَ اختيازه - رحمه الله - لذلك في غير هذا المَحَلِّ، فَقِفْ عليه، وَخَشْيَةُ الإِطَالَةِ مَعْتَنِي مِنْ تَكَرُّرِهِ هنا.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابَت رَيْبِهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ * ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْريَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَسْتَفْعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِمَّنْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿هذا هدى﴾ إشارة إلى القرآن.

وقوله: ﴿لهم عذاب﴾ بمنزلة قولك: لهم حَظٌّ، فَمِنْ هذه الجهة/ وَمِنْ جِهَةٍ تَغَايِرِ ١٥٩ اللفظَيْنِ حَسَنُ قوله: ﴿عذاب من رجز﴾، إذ الرُّجْزُ هو العذاب.

وقوله: ﴿لتجري الفلُكُ فيه بأمره﴾ أَقَامَ الْقُدْرَةَ وَالْإِذْنَ مُنَابَ أَنْ يَأْمُرَ الْبَحْرَ وَالنَّاسَ بذلك، وقرأ مَسْلَمَةُ بْنُ مُحَارِبٍ^(١): «جَمِيعاً مِمَّنْ» بضم التاء، وقرأ أيضاً: «جَمِيعاً مِمَّنْ» [بفتح الميم وشد النون والهاء]^(٢) وقرأ ابن عباس: «مِثَّةً» بالنصب على المصدر^(٣).

(١) أما الأولى فذكرها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨٢/٥)، وأما القراءة الثانية عنه، فقد ذكرها ابن عطية أيضاً، وكذلك ابن خالويه في «مختصر الشواذ» ص: (١٣٩)، وابن جني في «المحتسب» (٢٦٢/٢)، والزمخشري في «الكشاف» (٢٨٨/٤).

(٢) سقط في: د.

(٣) وقرأ بها عبيد بن عمير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والجحدري.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال الغزالي في «الإحياء»: الفِكْرُ والدُّكْرُ أعلى مقامات الصالحين، وقال - رحمه الله -: اعلم أنَّ الناظرين بأنوار البصيرة عِلِمُوا أَنَّ لا نِجَاةَ إِلَّا فِي لِقَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ لا سَبِيلَ إِلَى اللِّقَاءِ إِلَّا بِأَنَّ يَمُوتَ الْعَبْدُ مُجِبًّا لِلَّهِ تَعَالَى، وَعَارِفًا بِهِ، وَأَنَّ الْمَحَبَّةَ وَالْأَنْسَ لا يَتَحَصَّلَانِ إِلَّا بِدَوَامِ ذِكْرِ الْمَحْبُوبِ، وَأَنَّ الْمَعْرِفَةَ لا تَحْصُلُ إِلَّا بِدَوَامِ الْفِكْرِ، وَلَنْ يَتَيَسَّرَ دَوَامُ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ إِلَّا بِوَدَاعِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَالْاجْتِرَاءِ مِنْهَا بِقَدْرِ الْبُلْغَةِ وَالضَّرُورَةِ، ثُمَّ قَالَ: وَالْقُرْآنُ جَامِعٌ لِفَضْلِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ وَالِدُّعَاءِ مَهْمَا كَانَ بِتَدْبِيرٍ، انْتَهَى.

﴿قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَءَاتَيْنَاهُمْ يَنبَتَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)

وقوله تعالى: ﴿قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا...﴾ الآية، قال أكثر الناس: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: بل هي مُحْكَمَةٌ؛ قال * ع^(١) *: الآية تتضمن الغفرانَ عُمُومًا، فينبغي أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْأُمُورَ الْعِظَامَ، كَالْقَتْلِ وَالْكُفْرِ مُجَاهَرَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ - قَدْ نَسَخَتْ غُفْرَانَهُ، آيَةُ السَّيْفِ وَالْجَزْيَةِ، وَمَا أَحْكَمَهُ الشَّرْعُ لا مُحَالَةَ، وَأَنَّ الْأُمُورَ الْحَقِيرَةَ كَالْجَفَاءِ فِي الْقَوْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ تَحْتَمِلُ أَنْ تَبْقَى مُحْكَمَةً، وَأَنْ يَكُونَ الْعَفْوُ عَنْهَا أَقْرَبَ إِلَى التَّقْوَى.

وقوله ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قالت فرقة: معناه: أيام إنعامه، ونَصْرِهِ، وتنعيمه/ في الجنة، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وقال مجاهد: ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾: أَيَّامُ نَقْمِهِ وَعَذَابِهِ^(٢)، وباقي الآية بَيِّنٌ.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ...﴾ الآية، قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ نَظِيرِهَا فِي سُورَةِ يُوسُفَ وَغَيْرِهَا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ

= ينظر: «الشواذ» ص: (١٣٩)، و«المحتسب» (٢/٢٦٢)، و«الكشاف» (٤/٢٨٨)، و«المحرر» (٥/٨٢).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨/٨٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٨٣).

وَهَذَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر...﴾ الآية: «الشريعة» لغة: مَورِدُ المياه، وهي في الدين من ذلك؛ لأنَّ الناس يَرُدُّونَ الدينَ ابتغاءَ رحمةِ اللَّهِ والتقربِ منه، و«الأمر» واحدُ الأمور، ويحتمل أن يكون واحدَ الأوامِرِ، و﴿الذين لا يعلمون﴾ هم: الكُفَّارُ، وفي قوله تعالى: ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾ تحقيرٌ للكفرة من حيث خروجهم عن ولاية الله تعالى.

* ت * وقد قال ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: «أَجِيبُوهُمْ فَقُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(١)، وذلك أن قريشاً قالوا للصحابه: لنا العزى، ولا عَزَى لَكُمْ.

وقوله عز وجل: ﴿هذا بصائر للناس﴾ يريد: القرآن، وهو جمع «بَصِيرَةٍ»، وهو الْمُعْتَقَدُ الوثيق في الشيء، كأنه من إِبْصَارِ الْقَلْبِ؛ قال أبو حَيَّان: وقُرِئَ: «هذه» أي: هذه الآيات، انتهى.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ قيل: إن الآية نزلت بسبب افتخارِ كان للكُفَّارِ على المؤمنين، قالوا: لئن كانت آخرة، كما تزعمون، لنُفَضِّلَنَّ عليكم فيها، كما فَضَّلْنَا في الدُّنْيَا.

و﴿اجترحوا﴾ معناه: اكتسبوا، وهذه الآية متناولة بلفظها حالَ الْعَصَاةِ من حال أهل التقوى، وهي موقف للعارفين يَبْكُونُ عنده، ورُوِيَ عن الرَّبِيعِ بْنِ خَنِيْمٍ، أَنَّهُ كَانَ يَرُدُّهَا لَيْلَةً حَتَّى أَضْبَحَ^(٢)، وكذلك عن الْفَضْلِ بْنِ عِيَّاضٍ^(٣)، وكان يقول لنفسه: لَيْتَ / شِعْرِي! ١٦٠ مِنْ أَيِّ الْقَرِيقَيْنِ أَنْتَ؟ وقال الثعلبي: كانت هذه الآية تُسَمَّى مَبَكَاةَ الْعَابِدِينَ^(٤)، قال ع^(٥) * : وَأَمَّا لَفْظُهَا فَيُعْطَى أَنَّهُ اجْتِرَاحُ الْكُفْرِ، بدليل معادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (٨٥/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٨٥/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٨٥/٥).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٥/٥).

المعادلة بَيْنَ الاجْتِرَاحِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَيَكُونُ الْإِيمَانُ فِي الْفَرِيقَيْنِ، وَلِهَذَا بَكَى الْخَائِفُونَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

* ت * : وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده؛ أَنَّ تَمِيمَ الدَّارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بَاتَ لَيْلَةً إِلَى الصُّبْحِ، يَزْكَعُ وَيَسْجُدُ، وَيُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الْآيَةَ، وَيَبْكِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، انتهى.

وقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: «ما» مصدرية، والتقدير: ساء الحكم حكمهم.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤)

وقوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ...﴾ الْآيَةَ: تسلية للنبي ﷺ أي: لا تَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْكَفَرَةِ مِنْ أَجْلِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى الْأَصْنَافِ؛ إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَا يَهُوُونَ مِنَ الْحَجَارَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَى: لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا رَكْبَهُ، لَا يَخَافُ اللَّهُ^(١)؛ فَهَذَا كَمَا يَقَالُ: الْهَوَى إِلَهٌ مَعْبُودٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي هَوَى الْكُفْرِ؛ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِكُلِّ هَوَى الْهَوَى الْهَوَى؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(٢)، وَقَالَ سَهْلُ التُّسْتَرِيِّ: هَوَاكَ دَاوُكُ؛ فَإِنْ خَالَفْتَهُ فِدَاوُكُ، وَقَالَ وَهْبٌ: إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرَانِ، وَشَكُكْتَ فِي خَيْرِهِمَا، فَأَنْظِرْ أَبْعَدَهُمَا مِنْ هَوَاكَ فَأَتِيهِ؛ وَمِنَ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا قَوْلُ الْقَائِلِ: [الطويل]

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَغْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالٌ

٦٠ ب قال الشيخ ابن أبي جَمْرَةَ: قَوْلُهُ/ ﷺ: «فَيُقَالُ: مَنْ كَانَ يَغْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ» «شَيْئًا» يَعْمُ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ، مُذْرَكَةٌ كَانَتْ أَوْ غَيْرَ مُذْرَكَةٍ، فَالْمُذْرَكُ: كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَغَيْرُ الْمُذْرَكِ، مِثْلُ: الْمَلَائِكَةِ وَالْهَوَى؛ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، انْتَهَى، قَالَ الْقُسَيْرِيُّ فِي «رِسَالَتِهِ»: وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْوَاسِطِيِّ قَالَ: أَنْكَسَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ، فَبَقِيتُ أَنَا وَأَمْرَأَتِي عَلَى لَوْحٍ، وَقَدْ وَلَدْتُ فِي تِلْكَ الْحَالِ صَبِيَّةً، فَصَاحَتْ بِي، وَقَالَتْ: يَقْتُلُنِي الْعَطَشُ، فَقُلْتُ: هُوَ ذَا يَرَى حَالَنَا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا رَجُلٌ فِي الْهَوَاءِ جَالِسٌ فِي يَدِهِ سِلْسِلَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَفِيهَا كُوْرٌ مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ، فَقَالَ: هَاكَ،

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٥٩/٤، ١٦٠) آية رقم: (٢١).

(٢) تقدم.

أَشْرَبًا، قَالَ: فَأَخَذْتُ الْكَوْزَ فَشَرَبْنَا مِنْهُ، فَإِذَا هُوَ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ - رَجِمَكَ اللَّهُ؟ - فَقَالَ: عَبْدٌ لِمَوْلَاكَ، فَقُلْتُ لَهُ: بِمِمْ وَصَلْتُ إِلَى هَذَا؟ فَقَالَ: تَرَكْتُ هَوَايَ لِمَرْضَاتِهِ، فَأَجْلَسَنِي فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ غَابَ عَنِّي، وَلَمْ أَرَهُ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ قال ابن عباس^(١): المعنى: على علم من الله تعالى سابق، وقالت فرقة: أي: على علم من هذا الضال بتزكيه للحق وإعراضه عنه، فتكون الآية على هذا التأويل من آيات العناد؛ من نحو قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ استعارات كلها. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: من بعد إضلال الله إياه، واختلف في معنى قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فقالت فرقة: المعنى: يموت الآباء، ويحيى الأبناء، وقالت فرقة: المعنى: نحيا ونموت، / فوقع في اللفظ تقديم وتأخير، وقولهم: ١٦١ ﴿وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: طول الزمان.

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لِكُلِّ أَلْفَيْتَةٍ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ بِنَفْثِ الْأَنفُسِ كُلِّ أُمَّةٍ جَايئةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: قریشاً، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا﴾ أي: يا محمد، أخي لنا قُصِيًّا حَتَّىٰ نَسْأَلَهُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذَا النُّحُو، فنزلت الآية في ذلك، ومعنى ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في قولكم أَنَّا نُبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

ثم أمر الله تعالى نبيه أَن يخبرهم بالحال السابقة في علم الله التي لا تُبْدَلُ بَأَنَّهُ يَحْيِي الْخَلْقَ ثُمَّ يَمِيتُهُمْ... إلى آخر الآية، وباقي الآية بَيِّنٌ.

(١) أخرجه الطبري (٢٦٢/١١) برقم: (٣١٢٠٣)، وذكره ابن عطية (٨٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٥٨/٥)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، واللالكائي في «السنة»، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

و﴿المبطلون﴾: الداخلون في الباطل.

وقوله سبحانه: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ هذا وصف حال القيامة وهولها، والأمة: الجماعة العظيمة من الناس، وقال مجاهد^(١): الأمة: الواحد من الناس؛ قال * ع^(٢) * : وهذا قلق في اللغة، وإن قيل في إبراهيم «أمة» وفي قس بن ساعدة، فذلك تجوز على جهة التشريف والتشبيه، و﴿جاثية﴾ معناه: على الركب؛ قاله مجاهد وغيره^(٣)، وهي هيئة المذنب الخائف، وقال سليمان: في القيامة ساعة قدر عشر سنين، يخر الجميع فيها جثاة على الركب.

وقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ قالت فرقة: معناه: إلى كتابها المنزل عليها، فتحاكم إليه، هل وافقته أو خالفته؟ وقالت فرقة: أراد إلى كتابها الذي كتبه الحفظة على كل واحد من الأمة.

وقوله سبحانه: ﴿هذا كتابنا﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى الكتب المنزلة، أو إلى اللوح المحفوظ أو إلى كتب الحفظة؛ وقال ابن قتيبة: إلى القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ قال الحسن: هو كتب الحفظة على بني آدم^(٤)، وروى ابن عباس وغيره حديثاً؛ أن الله تعالى يأمر/ بعرض أعمال العباد كل يوم خميس، فينقل من الصحف التي كانت ترفع الحفظة - كل ما هو معد أن يكون عليه ثواب أو عقاب، ويلقى الباقي؛ فهذا هو النسخ من أضل.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِيَنِ تِلْكَ عَلَيْنَا فَأَنْتَ أَكْبَرُ مِنْهُمْ قَوْمًا فَتُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: في جنته.

(١) ذكره ابن عطية (٨٨/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٨/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦٥/١١) برقم: (٣١٢١٣) عن مجاهد، (٣١٢١٤) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (٨٨/٥)، وابن كثير (١٥٢/٤).

(٤) ذكره البغوي (١٦١/٤) آية رقم: (٢٩)، وابن عطية (٨٩/٥).

﴿وأما الذين كفروا أفلم تكن﴾ أي: فيقال لهم: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ وقرأ حمزة وحده: «وَالسَّاعَةَ»^(١) - بالنصب ؛ عطفاً على قوله: ﴿وعد الله﴾، وقرأ ابن مسعود^(٢): «وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا»، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا...﴾ الآية، حكاية حال يوم القيامة ﴿وحاق﴾ معناه: نزل وأحاط، وهي مُستعملة في المَكْرُوه، وفي قوله: ﴿ما كانوا﴾ حذف مضاف، تقديره: جزاء ما كانوا به يستهزئون.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكَ كَمَا نَسِفْنَا يَوْمَكَ هَذَا وَمَا تَكُنُّ النَّارُ وَمَا لَكَ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَتَقَدَّمَ أَيْتُ اللَّهِ هَؤُلَاءِ وَغَرَّتْكَ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

وقوله عز وجل: ﴿وقيل اليوم نساكم﴾ معناه: نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا، و﴿آيات الله﴾ هنا: لفظ جامع لآيات القرآن وللأدلة التي نصبها الله تعالى، للنظر، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: لا يطلب منهم مراجعة إلى عمل صالح.

وقوله سبحانه: ﴿فله الحمد رب السموات ورب الأرض...﴾ إلى آخر السورة - تحميداً لله عز وجل، وتحقيقاً لألوهيته، وفي ذلك كسر لأمر الأصنام وسائر ما تعبده الكفرة، و﴿الكبرياء﴾: بناءً مبالغة.

(١) وعلى قراءة الباقي فيها ثلاثة أوجه: الابتداء، وما بعدها من الجملة المنفية خبرها.

«الثاني»: العطف على محل اسم «إن»؛ لأنه قبل دخولها مرفوع بالابتداء.

«الثالث»: أنه عطف على محل «إن» واسمها معاً، لأن بعضهم - كالفارسي والمخشي - يرون: أن لـ «إن» واسمها موضعاً، وهو الرفع بالابتداء.

ينظر: «الدر المصون» (١٣٢/٦)، و«السبعة» (٥٩٥)، و«الحجة» (١٧٩/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/

٣١٥)، و«معاني القراءات» (٣٧٧/٢)، و«شرح الطيبة» (٢٣٥/٥)، و«العنوان» (١٧٤)، و«حجة

القراءات» (٦٦٢)، و«شرح شعله» (٥٨٢)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٤٦٨/٢).

(٢) وينظر: «المحرر الوجيز» (٨٩/٥).

تفسير سورة الأحقاف

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

إِلَّا آيَتَيْنِ، وهما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ...﴾ الآية، وقوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ﴾ الآية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ/

١٦٢

﴿حَمَّ﴾ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) ﴿

قوله سبحانه: ﴿حَمَّ﴾ * تنزيل الكتاب * يعني: القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ والذين كفروا عما أُنذروا معرضون: هذه الآية موعظة، وَرَجَزٌ، المعنى: فانتبهوا أيها الناس، وَأَنْظَرُوا ما يُرَادُ بكم وَلَمْ خَلَقْتُمْ، «وَالْأَجَلُ الْمُسَمًّى»: هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [معناه^(١)]: مَا تَعْبُدُونَ، ثم وقفهم على السَّمَوَاتِ؛ هَلْ لَهُمْ فِيهَا شِرْكٌ، ثم استدعى منهم كتاباً مُتَزَلَّاً قَبْلَ الْقُرْآنِ يتضمن عبادة الأصنام، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): هذه الآية مِنْ أَشْرَفِ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهَا اسْتَوْفَتْ الدَّلَالََةَ عَلَى الشَّرَائِعِ عَقْلِيَّهَا وَسَمْعِيَّهَا؛ لقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ فهذا بيانٌ لِأَدْلَةِ الْعَقْلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّوْحِيدِ، وَخُدُوثِ الْعَالَمِ، وَانْفِرَادِ الْبَارِي تَعَالَى بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْوُجُودِ وَالْخَلْقِ، ثم قال: ﴿أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾: على ما تقولون، وهذا بيانٌ لِأَدْلَةِ السَّمْعِ؛ فَإِنَّ مَدْرَكَ الْحَقِّ إِنَّمَا يَكُونُ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ أَوْ بِدَلِيلِ الشَّرْعِ، حَسْبَمَا بَيَّنَّا مِنْ مَرَاتِبِ الْأَدْلَةِ فِي كِتَابِ الْأَصُولِ،

(١) سقط في: د.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٤/١٦٩٦).

ثم قال: ﴿أو إثارة من علم﴾ يعني: أو عِلْمٍ يُؤَثَّرُ، أي: يُزَوَّى وَيُنْقَلُ، وإن لم يكن مكتوباً، انتهى.

وقوله: ﴿أو إثارة﴾ معناه: أو بَقِيَّةٌ قَدِيمَةٌ من عِلْمٍ أحد العلماء، تقتضي عبادة الأصنام، و«الإثارة» البَقِيَّةُ من الشيء، وقال الحسن: المَعْنَى: من عِلْمٍ تَسْتَخْرِجُونَهُ فَتَشِيرُونَهُ^(١)، وقال مجاهد: المعنى: هل مِنْ أَحَدٍ يَأْثُرُ علماً في ذلك^(٢)، وقال القرطبي: هو الإسناد؛ ومنه/ قول الأعشى: من [السريع]

٦٢ ب

إِنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَازِيْتُمَا بَيْنَ لِسَامِعٍ وَالْآثِرِ^(٣)
أي: وللمُسْنِدِ عن غيره، وقال ابن عباس^(٤): الإثارة: الخَطُّ في التراب، وذلك شيء كَانَتِ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ، والضمير في قوله: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ هو للأصنام في قول جماعة، ويحتمل أن يكون لِعِبَادَتِهَا.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (٦) وَإِذَا نُنَاجَيْتُهُمْ عَلَىٰ أَن نَّبْتَلُكُم مِّنْ أَفْرَاقٍ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ رَّجِيمٌ ﴿٧﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مَنِ الرُّسُلِ وَمَا آدَرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ وَصَفَ ما يكون يومَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَأَصْنَامِهِمْ مِنَ التَّبَرُّيِّ وَالْمُنَاكَرَةِ، وقد بَيَّنَّ ذلك في غير هذه الآية.

﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: آيات القرآن، ﴿قال الذين كفروا للحق﴾ يعني: القرآن ﴿هذا سحر مبين﴾ أي: يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرءِ وَبَيْنِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿قل إن أفترتكم فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ المعنى: إن افترتكم،

(١) أخرجه الطبري (١١/٧٧٢) برقم: (٣١٢٢٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥/٩٢)، وابن كثير (٤/١٥٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٩٢).

(٣) البيت في «ديوانه» (٩٢)، «اللسان» (أثر)، و«المحرر الوجيز» (٥/٩٢)، والآثر: الذي يحفظ الأثر، أي: الرواية.

(٤) أخرجه الطبري (١١/٢٧٢) برقم: (٣١٢٢٣)، وذكره ابن عطية (٥/٩٢)، وابن كثير (٤/١٥٤)، والسيوطي (٦/٤)، وعزاه إلى ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والفريابي، وعبد بن حميد.

فَاللَّهُ حَسْبِي فِي ذَلِكَ، وَهُوَ كَانَ يَعَاقِبُنِي وَلَا يُنْهَلُنِي، ثُمَّ رَجَعَ الْقَوْلُ إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِسْتِسْلَامِ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَاتِّظَارِ مَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُ بِمَا يُفِيضُونَ فِيهِ مِنَ الْبَاطِلِ وَمُرَادَةِ الْحَقِّ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي مُعَاقَبَتَهُمْ؛ فَفِي الْفِظِ تَهْدِيدٌ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تَرْجِيَةٌ وَاسْتِدْعَاءٌ إِلَى التَّوْبَةِ، ثُمَّ أَمْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَالْبِدْعُ وَالْبَدِيعُ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَمْ يَرِ مِثْلُهُ، الْمَعْنَى: قَدْ جَاءَ قَبْلِي غَيْرِي؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(١).

* ت * : وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أَي: لَسْتُ بِأَوَّلِ الرُّسُلِ^(٢)، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ: كَانَ هَذَا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَرَفَهُ/ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَبِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلٌ كَبِيرٌ، وَهُوَ الْجَنَّةُ، وَبِأَنَّ الْكَافِرِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ^(٣)؛ وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي وَقَعَ فِي جَنَازَةِ عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ يُؤَيِّدُ هَذَا^(٤)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَى الْآيَةِ: وَمَا أُدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَبِعْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ مَعْنَاهُ: الْإِسْتِسْلَامُ وَالتَّبَرُّيُّ مِنْ عِلْمِ الْمُعْصِيَّاتِ، وَالْوُقُوفُ مَعَ النَّذَارَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامُنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كَتَبْتُ مُصَدِّقًا لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُسْنَدَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴿

(١) أخرجه البخاري (٤٣٩/٨) كتاب «التفسير» باب: سورة الأحقاف تعليقاً، وقال ابن حجر: وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وللطبري من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد مثله، والطبري (٢٧٥/١١) (٣١٢٢٣)، وذكره ابن عطية (٩٣/٥)

(٢) انظر السابق.

(٣) ذكره ابن عطية (٩٤/٥).

(٤) ينظر: «مجمع الزوائد» (٣٠٥/٩)، كتاب «المناقب» باب: فضل عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَهِيدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية، جوابُ هذا التوقيفِ محذوفٌ، تقديره: أَلَيْسَ قَدْ ظَلَمْتُمْ؟! وَذَلَّ عَلَى هَذَا الْمُقَدَّرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قال مجاهد وغيره: هذه الآية مدنية^(١)، والشاهد عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وقد قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: فِي نَزَلْتُ، وَقَالَ مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ والجمهور: الشاهد مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ - عليه السلام -، والآية مكية^(٢)، وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ^(٣).

وقوله: ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ يريد بالمثل التوراة، والضمير عائد في هذا التأويل على القرآن، أي: جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله أَنَّهُ من عند الله سبحانه.

وقوله: ﴿فَأَمِنْ﴾، على هذا التأويل، يعني به تصديق موسى وتبشيرُه بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ ﴿كِتَابِ مُوسَى﴾ يعني: التوراة ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ للتوراة التي تَضَمَّنَتْ خبره، وفي مصحف ابن مسعود^(٤): «مُصَدِّقٌ / لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيْهِ» و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم: الكفار، وَعَبَّرَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ٦٣ بـ بالمحسنين؛ لِيُنَاسِبَ لَفْظَ «الْإِحْسَانِ» فِي مُقَابَلَةِ «الظَلَمِ».

ثم أخبر تعالى عن حُسْنِ [حال] المستقيمين، وذهب كثيرٌ من الناس إلى أَنَّ المعنى: ثم استقاموا بالطاعات والأعمال الصالحات، وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - المعنى: ثم استقاموا بالدَّوامِ على الإيمان^(٥)؛ قال * ع^(٦) *: وهذا أَعْمُ رَجَاءٍ وَأَوْسَعُ، وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمْلَةِ الْمُؤْمِنَةُ مَنْ يُعَذَّبُ وَيُنْفَذُ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ، فَهُوَ مِمَّنْ يَخْلُدُ فِي الْجَنَّةِ، وَيَنْتَفِي عَنْ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ الْحَالِ بِالْكَفَرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قد جعل الله سبحانه الأعمالَ أَمَارَاتٍ عَلَى مَا سَيَصِيرُ إِلَيْهِ الْعَبْدُ، لَا أَنَّهَا تَوْجِبُ عَلَى اللَّهِ شَيْئاً.

(١) ذكره ابن عطية (٩٤/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٩٤/٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٨١/١١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٥/٥).

(٥) ذكره ابن عطية (٩٦/٥).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٦/٥).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّيْ تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِيَّكَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنْقُبُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ووصينا الإنسان﴾ يريد: النوع، أي: هكذا مضت شرائعي وكنبي، فهي وصية من الله في عباده، وبر الوالدين واجب، وعقوقهما كبيرة، وقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ إِلَّا شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدَيْنِ»^(١) قال ع^(٢): * : «ولن يدعوا في الغالب إلا إذا ظلمهما الولد، فهذا يدخل في عموم قوله - عليه السلام - : «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(٣) ثم عدّد سبحانه على الأبناء من الأمهات.

وقوله تعالى: ﴿حملته أمه كرها﴾ قال مجاهد، والحسن، وقتادة: حملته مشقة، ووضعته مشقة، قال أبو حيان^(٤): ﴿وحمله﴾ على حذف مضاف، أي: مدة حملها، انتهى.

١٦٤

وقوله: ﴿ثلاثون شهرا﴾ يقتضى أن مدة الحمل والرّضاع هي هذه المدة، وفي البقرة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فيرتب من هذا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأقل ما يرضع الطفل عام وتسعة أشهر، وإكمال الحولين هو لمن أراد أن يتم الرضاعة، وهذا في أمد الحمل، هو مذهب مالك وجماعة من الصحابة، وأقوى الأقوال في بلوغ الأشد ستة وثلاثون سنة، قال ع^(٥): * : «وإنما ذكر تعالى الأربعين؛ لأنها حد للإنسان في فلاحه ونجاته، وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرُ يَدُهُ عَلَى وَجْهِ مَنْ زَادَ عَلَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَتُبْ، فَيَقُولُ: يَا بَيْي، وَجْهٌ لَا يُفْلَحُ».

* ت * : وحَدَّثَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي «تَارِيخِ بَغْدَادَ» بِسَنَدِهِ الْمُتَّصِلِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا بَلَغَ الْعَبْدُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، أَمَنَهُ اللَّهُ مِنَ الْبَلَايَا الثَّلَاثِ: الْجُنُونِ، وَالْجُدَامِ، وَالْبَرَصِ، فَإِذَا بَلَغَ خَمْسِينَ سَنَةً خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُ الْحِسَابَ، فَإِذَا بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً رَزَقَهُ

(١) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٣٣١٨)، وعزاه إلى ابن النجار في «التاريخ».

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٦/٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٣/٣) من طريق أنس.

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٦١/٨).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٧/٥).

اللَّهُ الْإِنَابَةَ لِمَا يُحِبُّ، فَإِذَا بَلَغَ سَبْعِينَ سَنَةً عَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَشَفَعَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، وَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: هَذَا أَسِيرُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ^(١) انتهى، وهذا - والله أعلم - في العبد المُقْبِلِ على آخرته، المشتغل بطاعة ربه.

وقوله: ﴿رب أوزعني﴾ معناه: ادفَع عني الموانع، وأَجْزني من القواطع؛ لأجل أن أشكر نعمتك، ويحتمل أن يكون ﴿أوزعني﴾ بمعنى: اجعل حَظِّي ونصيبِي، وهذا من التوزيع.

* ت * وقال الثعلبي وغيره ﴿أوزعني﴾: معناه: ألهمني، وعبارة الفخر^(٢): قال ابن عباس ﴿أوزعني﴾: معناه: ألهمني^(٣)، قال صاحب «الصحاح» استوزعت/ الله ٦٤ ب فأوزعني، أي: استلهمته فألهمني، انتهى، قال ابن عباس ﴿نعمتك﴾: في التوحيد

(١) أخرجه أحمد (٨٩/٢)، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٦٧٠/١٥) (٤٢٦٦٢)، وعزاه إلى الديلمي عن أنس، قال ابن حجر في «القول المسدد» في الذب عن مسند الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا أنس بن عياض حدثني يوسف بن أبي ذرة عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعاً من البلاء: الجنون، والجذام، والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله عليه الحساب، فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين قبل الله حسناته، وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ تسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، وسمي أسير الله في أرضه، وشفع لأهل بيته». ورواه أحمد أيضاً موقوفاً على أنس:

قال: حدثنا أبو النضر، ثنا الفرج، ثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبيد الله، عن جعفر بن عمرو، عن أنس بن مالك قال: إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة آمنه الله من أنواع من البلاء: من الجنون، والجذام، والبرص، وإذا بلغ الخمسين لين الله عز وجل عليه حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليه، وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته، ومحا عنه سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي: أسير الله في الأرض، وشفع في أهله. وعلّة الحديث المرفوع يوسف بن أبي ذرة، وفي ترجمته أورده ابن حبان في «تاريخ الضعفاء» وقال: يروي المناكير التي لا أصل لها من كلام رسول الله ﷺ، لا يحل الاحتجاج به بحال. روي عن جعفر بن عمرو عن أنس ذلك الحديث، وأورد ابن الجوزي في «الموضوعات» هذا الحديث من الطريقتين: المرفوع والموقوف، وقال: هذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ، وأعل الحديث الموقوف بالفرج بن فضالة، وحكى أقوال الأئمة في تضعيفه، قال: وأما محمد بن عامر فقال ابن حبان: يقلب الأخبار ويروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم. وأما محمد بن عبيد الله فهو العزمي، قال أحمد: ترك الناس حديثه. قلت: وقد خلط فيه الفرج بن فضالة فحدث به هكذا وقلب إسناده مرة أخرى فجعله من حديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً، رواه أحمد أيضاً.

ينظر: «القول المسدد» (٧ - ٨).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١٨/٢٨).

(٣) أخرجه الطبري (٢٨٤/١١) برقم: (٣١٢٦٢، ٣١٢٦٤)، وذكره ابن عطية (٩٧/٥).

﴿صالحاً ترضاه﴾: الصلوات، والإصلاح في الذرية: كونهم أهل طاعة وخير^(١)، وهذه الآية معناها: أن هكذا ينبغي للإنسان أن يكون، فهي وصية الله تعالى للإنسان في كل الشرائع، وقول من قال: إنها في أبي بكر وأبويه - ضعيف؛ لأن هذه الآية نزلت بمكة بلا خلاف، وأبو قحافة أسلم عام الفتح، وفي قوله تعالى: «أولئك الذين يتقبل عنهم...» الآية: دليل على أن الإشارة بقوله: ﴿ووصينا الإنسان﴾ إنما أراد بها الجنس.

وقوله: ﴿في أصحاب الجنة﴾ يريد: الذين سبقت لهم رحمة الله، قال أبو حيان^(٢) ﴿في أصحاب الجنة﴾ قيل: ﴿في﴾ على بابها، أي: في جملتهم؛ كما تقول: أكرمني الأمير في ناس، أي: في جملة من أكرم، وقيل: ﴿في﴾ بمعنى مع، انتهى.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ أَنْ تُعَذِّبَنِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿والذي قال لولآذيه﴾ قال الثعلبي: معناه: إذ دَعَاؤه إلى الإيمان^(٣)، ﴿أف لكما...﴾ الآية، انتهى، ﴿الذي﴾ يعني به الجنس على حد العموم في التي قبلها في قوله: ﴿ووصينا الإنسان﴾؛ هذا قول الحسن وجماعة^(٤)، ويشبه أن لها سبباً من رجل قال ذلك لأبويه، فلما فرغ من ذكر الموفق، عَقَّبَ بذكر هذا العاق، وقد أنكرت عائشة أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت: ما نزل في آل أبي بكر من القرآن غير بَرَاءتي^(٥).

* ت * ولا يُفْتَرَضُ عليها بقوله تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ﴾ [النور: ٢٢] كما بيَّنا ذلك في غير هذه الآية، قال * ع *^(٦) :

(١) ذكره ابن كثير ولم يعزه إلى أحد.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٨/٦١).

(٣) ذكره ابن عطية (٥/٩٨).

(٤) ينظر: المصدر السابق.

(٥) أخرجه الحاكم (٤/٤٨١)، والنسائي في «التفسير» (٥١١)، والخطابي في «غريب الحديث» (٢/٥١٧).

من طريق محمد بن زياد عن عائشة. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي فقال: محمد لم يسمع من عائشة.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٩٩).

والأصوب أن تكون الآية عامّة في أهل هذه الصفات، والدليل القاطع على ذلك: قوله تعالى: ﴿أولئك الذين/ حق عليهم القول في أمم﴾ وكان عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنه - من أفاضل الصحابة، ومن أبطال المسلمين، وممن له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره، و﴿أف﴾ بالتنوين قراءة نافع وغيره^(١)، والتنوين في ذلك علامة تنكير؛ كما تستطعم رجلاً حديثاً غير معين فتقول: «إيه» منونة، وإن كان حديثاً مُشاراً إليه قلت: «إيه» بغير تنوين.

وقوله: ﴿أتعداني أن أخرج﴾ المعنى: أن أخرج من القبر إلى الحشر، وهذا منه استفهام بمعنى الهُزء والاستبعاد. ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ معناه: هلكت ومضت، ولم يخرج منهم أحد، ﴿وهما يستغيثان الله﴾ يعني: الوالدين يقولان له: ﴿ويلك آمن﴾.

وقوله: ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: ما هذا القول الذي يتضمن البعث من القبور إلا شيء سطره الأولون في كتبهم، يعني: الشرائع، وظاهر ألفاظ هذه الآية أنها نزلت في مُشارٍ إليه، قال: وقيل له، فعنى الله إلينا أقواله؛ تحذيراً من الوقوع في مثلها.

وقوله: ﴿أولئك﴾ ظاهره أنها إشارة إلى جنس، و﴿حق عليهم القول﴾ أي: قول الله: إِنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ؛ قال أبو حيان^(٢) ﴿في أمم﴾ أي: في جملة أمم ﴿في﴾ على بابها، وقيل: ﴿في﴾ بمعنى مع، وقد تقدم ذلك، انتهى.

وقوله: ﴿قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ يقتضى أن الجن يموتون، وهكذا فهم الآية قتادة^(٣)، وقد جاء حديث يقتضي ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ولكل درجات﴾ يعني: المحسنين والمسيئين، قال ابن زيد: ودرجات المحسنين تذهب/ علواً، ودرجات المسيئين تذهب سفلاً^(٤)، وباقي الآية بين في ٦٥ ب أن كل امرئ يجتني ثمرة عمله من خير أو شر، ولا يظلم في مجازاته.

(١) وقرأ بها حفص.

ينظر: «السبعة» (٥٩٧)، و«الحجة» (١٨٥/٦)، و«إعراب القراءات» (٣١٧/٢)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٤٧١/٢).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٦٢/٨).

(٣) أخرجه الطبري (٢٨٨/١١) برقم: (٣١٢٧٨)، وذكره ابن عطية (١٠٠/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٢٨٨/١١) برقم: (٣١٢٧٨)، وذكره ابن عطية (١٠٠/٥).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ * وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكًا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ *

وقوله عز وجل: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار...﴾ الآية، المعنى: واذكر يوم يُعْرَضُ، وهذا العرض هو بالمباشرة ﴿أذهبتهم﴾ أي: يقال لهم: ﴿أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ و«الطَّيِّبَاتُ» هنا: المَلَأُ، وهذه الآية، وإن كانت في الكُفَّار، فهي رادة لأولي النُّهَى من المؤمنين عن الشهوات واستعمال الطَّيِّبَاتِ؛ ومن ذلك قولُ عُمَرَ - رضي الله عنه -: أَتَنْظُرُونَ أَنَّا لَا نَعْرِفُ طَيِّبَ الطَّعَامِ؟ ذلك لُبَّابُ الْبَرِّ بِصَغَارِ الْمِغْزَى، ولكنِّي رأيتُ الله تعالى نَعَى عَلَى قوم أَنَّهُمْ أَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ في حياتِهِمْ الدنيا، ذَكَرَ هذا في كلامِهِ مع الرُّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ^(١)، وقال أيضاً نحو هذا لخالِد بن الوليد حين دَخَلَ الشَّامَ، فَقَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامَ طَيِّبٍ، فقال عمر: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الَّذِينَ ماتوا ولم يَشْبَعُوا من خُبْرِ الشَّعِيرِ؟ فقال خَالِدٌ: لَهُمُ الْجَنَّةُ، فبَكَى عُمَرُ، وقال: لَيْسَ كَانَ حَظُّنَا فِي الْحُطَّامِ، وَذَهَبُوا بِالْجَنَّةِ - فَقَدْ بَانُوا بَوْنًا بَعِيدًا^(٢)، وقال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: اشتريت لحمًا بدرهم، فرآني عمر، فقال: أَوَكَلَّمَا اسْتَهَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا اشتراه فَأَكَلَهُ؟! أَمَا تَخْشَى أَنْ تكون من أهل هذه الآية، وتلا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾^(٣) * * ت: والاثار في هذا المعنى كثيرة جدًا، فمنها ما رواه أبو داود في سُنَنِهِ، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ أَنَّ رجلاً من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، رَحَلَ إِلَى فَصَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، وهو بِمَضَرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فقال: أَمَا إِنِّي لَمْ أَتِكَ زَائِرًا وَلَكِنْ سَمِعْتُ أَنَا وَأَنْتَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ، قال: ما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: فمالي أَرَاكَ شَغُورًا وَأَنْتَ أَمِيرُ الْأَرْضِ؟! قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كان يَنْهَى عن كثير من الإِرْفَاءِ^(٤)، قال: فمالي لَا أَرَى عَلَيْكَ حِذَاءً؟ قال: كان رسول الله ﷺ، يأمرنا أَنْ نَحْتَفِيَ أحيانًا، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قال: ذكر أصحاب النبي ﷺ، يوماً عنده الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَسْمَعُونَ أَنَّ الْبَذَاةَ مِنَ الْإِيمَانِ؟ إِنَّ الْبَذَاةَ مِنَ

(١) ذكره ابن عطية (١٠١/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (١٠١/٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٤/٢) كتاب «الرجل» باب: (١) (٤١٦٠).

الإِيمَانِ، إِنَّ الْبِدَاةَ مِنَ الْإِيمَانِ^(١) قال أبو داود: يعني: التَّقْوَى، وفسر أبو عمر بن عبد البر: «الْبِدَاةُ» بِرُثْ الْهَيْئَةِ، ذكر ذلك في «التمهيد»، وكذلك فَسَّرَهَا غيره، انتهى،، وروى ابن المبارك في «رقائقه» من طريق الحسن عن النبي ﷺ أَنَّهُ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ إِلَى بَقِيعِ الْعَرْقَدِ، فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَاكُمْ اللَّهُ مِنْهُ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ! ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْكُمْ؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِخْوَانُنَا، أَسْلَمْنَا كَمَا أَسْلَمُوا، وَهَاجَرْنَا كَمَا هَاجَرُوا، وَجَاهَدْنَا كَمَا جَاهَدُوا، وَأَتَوْنَا عَلَى آجَالِهِمْ فَمَضَوْا فِيهَا وَبَقِينَا فِي آجَالِنَا، فَمَا يَجْعَلُهُمْ خَيْرًا مِنَّا؟! قال: هَؤُلَاءِ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَخَرَجُوا وَأَنَا الشَّهِيدُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّكُمْ قَدْ أَكَلْتُمْ مِنْ أُجُورِكُمْ، وَلَا أَذْرِي مَا تُخْدِثُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قال: فَلَمَّا سَمِعَهَا الْقَوْمُ عَقَلُوهَا وَانْتَنَعُوا بِهَا، وَقَالُوا: إِنَّا لَمُحَاسِبُونَ بِمَا/ أَصَبْنَا مِنَ الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ لَمُنْتَقِصٌ بِهِ مِنْ أُجُورِنَا»^(٢) انتهى،، ومنها حديث ٦٦ ب ثَوْبَانَ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»: قَالَ ثَوْبَانُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ كَانَ آخِرُ عَهْدِهِ بِإِنْسَانٍ مِنْ أَهْلِهِ فَاطِمَةً، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهَا فَاطِمَةً، فَقَدِمَ مِنْ غَزَاةٍ، وَقَدْ عَلَّقَتْ مِسْحًا أَوْ سِتْرًا عَلَى بَابِهَا، وَحَلَّتِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ قُلَيْبَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ، فَلَمْ يَدْخُلْ، فَظَنَّتْ أَنَّهَا مَنَعَهُ أَنْ يَدْخُلَ مَا رَأَى؛ فَهَتَكَتِ السِّتْرَ، وَكَفَّتِ الْقُلَيْبَيْنِ عَنِ الصَّبِيِّينَ وَقَطَعَتْهُمَا عَنْهُمَا، فَأَنْطَلَقَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَبْكِيَانِ، فَأَخَذَهُمَا مِنْهُمَا، وَقَالَ: يَا ثَوْبَانُ، أَذْهَبَ بِهِمَا إِلَى آلِ فُلَانٍ؛ إِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي أَكْرَهُ أَنْ يَأْكُلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، يَا ثَوْبَانُ، أَشَدَّ لِفَاطِمَةَ قِلَادَةً مِنْ عَضْبٍ وَسَوَازِينٍ مِنْ عَاجٍ انتهى^(٣)، * ص: * قرأ الجمهور: «أَذْهَبْتُمْ» على الخبر، أي: فيقال لهم: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ، وابن كثير بهمزة بعدها مَدَّةٌ مُطَوَّلَةٌ، وابن عامر بهمزتين حَقَّقَهُمَا ابْنُ ذَكْوَانَ، وَلَيْتَنِ الثَّانِيَةَ هَشَامٌ وابن كثير في رواية^(٤)، والاستفهامُ هنا على معنى التوبيخ والتقرير، فهو خبر في المعنى، ولهذا حَسُنَتِ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَالْيَوْمَ﴾، ولو كان أَسْتَفْهَامًا مَخْضًا لَمَا دَخَلَتِ الْفَاءُ، انتهى، و﴿عَذَابُ الْهُونِ﴾ هو الذي اقترن به هَوَانٌ، فَالْهُونُ وَالْهُوَانُ بِمَعْنَى.

-
- (١) أخرجه أبو داود (٤٧٤/٢) كتاب «الترجل» باب: (١) (٤١٦١)، والحميدي (١٧٣/١) (٣٥٧)، وابن ماجه (١٣٧٩/٢) كتاب «الزهد» باب: من لا يؤبه له (٤١١٨)، والحاكم (٩/١).
- (٢) أخرجه ابن المبارك (١٧١/١) برقم: (٤٩٨).
- (٣) أخرجه أبو داود (٤٨٦/٢ - ٤٨٧) كتاب «الترجل» باب: ما جاء في الانتفاع بالعاج، (٤٢١٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣/٦)، وعزاه إلى أحمد، والبيهقي في «شعب الإيمان».
- (٤) ينظر: «الحجة» (١٨٨/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٢٠/٢)، و«معاني القراءات» (٣٨١/٢)، و«العنوان» (١٧٥)، و«حجة القراءات» (٦٦٥)، و«إتحاف» (٤٧٢/٢).

ثم أمر تعالى نبيه بذكر هود وقومه عاد؛ على جهة المثال لقريش، وقد تقدّم قصص عاد مُستوفى في «سورة الأعراف»، فليُنظر هناك، والصحيح من الأقوال أن بلاد عاد كانت باليمن، ولهم كانت إرم ذات العماد، و«الأحقاف»: جَمْعُ «حِفْيف» وهو الجبل المستطيل المَعْوَجُ/ من الرَّمْل. ١٦٧

وقوله سبحانه: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ «خَلَّتْ» معناه: مَضَتْ إلى الأرض الخلاء، و«النذر» جمع نَذِير، وقولهم: ﴿لنأفكننا﴾ معناه: لِنَضْرِفَنَّا، وقولهم: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ تصميم منهم على التكذيب، وتعجيز له في زعمهم.

﴿قَالَ إِنَّمَا إِلَهُمُ الْعَدُّ وَالْإِلَافُ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا يَجَاهِلُونَ﴾ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنَّا فِيهَا إِنَّمَكِّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿قال إنما العلم عند الله...﴾ الآية، المعنى: قال لهم هود: إن هذا الوعيد ليس من قبلي، وإنما الأمر فيه إلى الله، وعلم وقته عنده، وإنما عليّ أن أبلغ فقط، والضمير في «رأوه» يحتمل أن يعود على العذاب، ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم، وهو الذي فسرّ قوله: «عارضاً» و«العارض»: هو ما يعرض في الجوّ من السحاب المُمطر؛ قال ابن العربي في «أحكامه» عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]: كل شيء عَرَضٌ، فقد منع، ويقال لما عَرَضَ في السماء من السحاب: «عارض»؛ لأنه منع من رؤيتها ومن رؤية البدر والكواكب، انتهى، وروي في معنى قوله: «مستقبل أوديتهم»؛ أن هؤلاء القوم كانوا قد قَحَطُوا مَدَّةً، فطلع هذا العارض من جهة كانوا يُمَطَّرُونَ بها أبداً، جاءهم من قِبَلٍ وإد لهم يسمونه المَغِيثُ، قال ابن عباس: ففرحوا به، وقالوا: هذا عارضٌ مُمطرنا، وقد كذب هود فيما أوعده به، فقال لهم هود: عليه السلام -: ليس الأمر كما رأيتم، بل هو ما/ استعجلتم به في قولكم: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ثم قال: «ريح فيها عذاب أليم» وفي قراءة ابن مسعود^(١): «مُمطرنا قال هود: بَلْ هُوَ رِيحٌ بِإِظْهَارِ الْمُقَدَّرِ وَتَدْمِيرِ» معناه:

(١) ينظر: «المحتسب» (٢/٢٦٥)، و«الكشاف» (٤/٣٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/١٠٢).

تُهْلِكُ، و«والدمار»: الهلاك، وقوله: ﴿كل شيء﴾ ظاهره العموم، ومعناه الخُصُوصُ في كُلِّ ما أُمرَتْ بتدميره، وروي أَنَّ هذه الرياح رمتهم أجمعين في البَحْرِ.

ثم خاطب جلَّ وعلا قريشاً على جهة الموعظة بقوله: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ ف«ما» بمعنى «الذي»، و«إن» نافية وقعت مكان «ما» لمختلف اللفظ، ومعنى الآية: ولقد أعطيناَهُم من القُوَّةِ والغِنَى والبَسْطِ في الأموال والأجسام - ما لم نُعطِكُمْ، ونالهم بسبب كُفْرِهِم هذا العَذَابُ؛ فأنتم أحرى بذلك؛ إذا تماديتُم في كُفْرِكُم، وقالت فرقة: «إن» شرطية، والجواب محذوف، تقديره: في الذي إن مكنَّاكم فيه طغيتم، وهذا تنطع في التأويل، و«ما» نافية في قوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾؛ ويقوي ذلك دخول «من» في قوله: ﴿من شيء﴾، وقالت فرقة: بل هي استفهام؛ على جهة التقرير؛ و﴿من شيء﴾ - على هذا - تأكيد؛ وهذا على غير مذهب سيَّوْنِه في دخول «من» في الجواب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧) ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٢٨) ﴿

وقوله عز وجل: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات...﴾ الآية، مخاطبة لقريش على جهة التمثيل ﴿وصرفنا الآيات﴾ يعني: لهذه القرى.

وقوله سبحانه: ﴿فلولا نصرهم...﴾ الآية، يعني: فهلا نصرتهم أصنامهم، «بل صَلَّوْا عَنْهُمْ» أي: انتلفوا عنهم وقت/ الحاجة ﴿وذلك إفكهم﴾ إشارة إلى قولهم في ١٦٨ الأصنام: إنها آلهة.

وقوله: ﴿وما كانوا يفترون﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فلا تحتاج إلى عائد، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» فهناك عائد محذوف، تقديره: يفترونه.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٠) ﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٣١) ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ يَخْلُقْهُنَّ يَخْلُقْ عَلَى أَنْ يَخْتِىَ الْمَوْتُ بَلَى إِنَّكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ...﴾ الآية، ابتداءً وُضِفَ قِصَّةُ الْجِنِّ ووفادتهم على النبي ﷺ، وقد اختلفت الرواؤه هنا: هل هذا الجِنُّ هُمُ الْوَفْدُ أَوْ

الْمُتَجَسِّسُونَ؟ واختلفت الروايات أيضاً عن ابن مسعود وغيره في هذا الباب .

والتحريير في هذا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جاءه نَقَرٌ من الْجِنِّ دون أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ، وهم المتجسسون المتفترقون من أَجْلِ رَجْمِ الشُّهْبِ الَّذِي حَلَّ^(١) بِهِمْ، وهؤلاء هُم المراد بقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾ [الجن: ١] الآية، ثم بعد ذلك وفد عليه وفدُهُمْ؛ حَسْبَمَا وَرَدَ في ذلك من الآثار^(٢).

وقوله: ﴿نفراً﴾ يقتضي أَنَّ المصروفين كانوا رجالاً لا أنثى فيهم، والنَّقَرُ والرَّهْطُ هم: القوم الذين لا أنثى فيهم.

وقوله تعالى: ﴿فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ فيه تَأْدُبٌ مع العلم، وتعليم كيف يُتَعَلَّمُ ﴿فلما قضي﴾ أي: فرغ من تلاوة القرآن واستماع الجن، قال جابر بن عبد الله وغيره: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قرأ عليهم سورة «الرحمن» فكان إذا قال: ﴿قَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمْا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] قالوا: لا بشيءٍ مِنْ آلائِكَ نُكَذِّبُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَلَمَّا وَلَّتْ هذه الجملة ٦٨ ب تفرقت/ على البلاد مُنْذَرَةً لِلْجِنِّ، وقولهم: ﴿إنا سمعنا كتاباً﴾ يَعْنُونَ: القرآن.

* ت * : وقولهم: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يحتمل أَنَّهُمْ لم يعلموا بِعِيسَى؛ قاله ابن عباس^(٣)، أو أَنَّهُمْ على دين اليهود، قاله عطاء^(٤)؛ نقل هذا الثعلبي، ويحتمل ما تقدّم ذكره

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧/٨ - ٥٣٨) كتاب «التفسير» باب: سورة ﴿قل أوحى إلي﴾ (٤٩٢١)، ومسلم (٤٠٣/٢) - النووي، كتاب «الصلاة» باب: الجهر بالقراءة في الصبح (١٤٩، ٤٤٩)، والترمذي (٥/٤٢٦) كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة الجن (٣٣٢٣)، وأحمد (٢٥٢/١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٨/٧) كتاب «مناقب الأنصار» باب: ذكر الجن، وقول الله تعالى: ﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ (٣٨٦٠).

وعن عامر أنه سأل علقمة: «هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟...» الحديث. أخرجه مسلم (٤٠٤/٢) - النووي، كتاب «الصلاة» باب: الجهر بالقراءة في الصبح (٤٥٠/١٥٠)، وأبو داود (٦٩/١) كتاب «الطهارة» باب: الوضوء بالنبذ (٨٥) نحوه، والترمذي (٢٩/١) كتاب «الطهارة» باب: ما جاء في كراهية ما يستنجى به (١٨) نحوه، (٣٨٢/٥) كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة الأحقاف (٣٢٥٨) نحوه.

وروي من حديث ابن عباس: أخرجه مسلم (٤٠٥/٢) - النووي، كتاب «الصلاة» باب: الجهر بالقراءة في الصبح (٤٥٠/١٥١)، وأخرجه أحمد (٣٩٨/١)، وابن ماجه (١٣٥/١)، كتاب «الطهارة» وسننها» باب: الوضوء بالنبذ (٣٨٤) نحوه، وأبو داود (٦٩/١) كتاب «الطهارة» باب: الوضوء بالنبذ (٨٤) مختصراً نحوه.

(٣) ذكره ابن عطية (١٠٦/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (١٠٥/٥).

في غير هذا، وأنهم ذكروا المُتَّفَقَ عليه، انتهى.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهي التوراة والإنجيل، وداعي الله هو محمد ﷺ ﴿وَأَمِنُوا بِهِ﴾ أي: بالله ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ...﴾ الآية.

* ت *: وذكر الثعلبي خلافاً في مؤمني الجن، هل يُثَابُونَ على الطاعة ويدخلون الجنة، أو يُجَارُونَ من النار فقط؟ الله أعلم بذلك، قال الفخر: والصحيح أنهم في حكم بني آدم يستحقون الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وهو قول مالك، وابن أبي ليلى؛ قال الضحاك: يدخلون الجنة، ويأكلون ويشربون^(١)، انتهى، وقد تقدّم ما نقلناه عن البخاري في سورة الأنعام؛ أنهم يُثَابُونَ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ...﴾ الآية: يحتمل أن يكون من تمام كلام المُنْذِرِينَ، ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل، و«المُعْجِزُ»: الذاهب في الأرض الذي يُعْجِزُ طَالِيَهُ؛ فلا يَقْدِرُ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ الضمير لقريش؛ وذلك أنهم أنكروا البعث وعوّد الأجساد، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَأَقِيمَتَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ * ص *: قال أبو حيان^(٢): والباء في قوله: ﴿بِقَادِرٍ﴾ زائدة، انتهى.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٤) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥)

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ المعنى: واذكر يوم، وهذا وعيد لكفار قريش وغيرهم، / وهذا عرضٌ مباشرة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم: أليس هذا بالحق؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فصّدّقوا بذلك حيث لا ينفعهم التصديق، فَرُوي عن الحسن؛ أنه قال: إنهم ليعذبون في النار، وهم راضون بذلك لأنفسهم يعترفون أنه العدل^(٣).

واختُلِفَ في تعيين أولي العزم من الرسل، ولا محالة أن لكل نبي ورسول عزمًا وصبراً.

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/١٧٥).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٨/٦٦).

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/١٠٧).

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ معناه: ولا تستعجل لهم عذاباً؛ فإنهم إليه صائرون، ولا تَسْتَطِيعُ تعميرهم في هذه النعمة؛ فإنهم يوم يَرَوْنَ العذاب كأنهم لَمْ يَلْبَثُوا في الدنيا إلا ساعةً لإحراقهم ذلك؛ لأنَّ المنقضي من الزمان يصير عدماً.

* ت * : وإذا علمت - أيها الأخ - أنَّ الدنيا أضغاثٌ أخلام، كان من الحزم اشتغالك الآن بتحصيل الزاد للمعاد، وحفظ الحواس، ومراعاة الأنفاس، ومراقبة مولاك، فاتخذهُ صاحباً، وذَرِ الناس جانباً؛ قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله -: اعلم أنَّ صاحبك الذي لا تفارقه في حَضْرِكَ وَسَفْرِكَ، وَتَوَكُّمِكَ وَيَقْظَتِكَ، بل في حياتك، وموتك - هو ربك، ومولاك، وسيِّدك، وخالقك، ومهما ذكرته فهو جليستك؛ إذ قال تعالى: «أَنَا جَلِيسٌ مِّنْ دَكْرَنِي»، ومهما أنكسر قلبك حُزناً على تقصيرك في حق دينك، فهو صاحبك وملازمك؛ إذ قال: «أَنَا عِنْدَ الْمُتَكَسِّرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي»^(١) فلو عرفته يا أخي حق معرفته لاتخذته صاحباً، وتركْتَ الناس جانباً، فإن لم تقدر/ على ذلك في جميع أوقاتك، فإنَّك أن تُخْلِي ليلتك ونهارك عن وَقْتٍ تخلو فيه بمولاك، وتلذذ بمناجاته، وعند ذلك فعليك بآداب الصُحبة مع الله تعالى، وآدابها: إطراق الطَّرْفِ، وَجَمْعُ الهَمِّ، ودَوَامُ الصَّمْتِ، وسُكُونُ الجَوَارِحِ، ومُبَادَرَةُ الأمرِ، واجتنابُ النَّهْيِ، وقِلَّةُ الاعتراضِ على القَدْرِ، ودَوَامُ الذِّكْرِ باللسان، ومُلازِمَةُ الفِكرِ، وإيثارُ الحقِّ، واليأسُ من الخَلْقِ، والخضوعُ تحت الهيبة، والانكسارُ تحت الحياة، والسُّكُونُ عن حِيلِ الكَسْبِ ثقةً بالضَّمانِ، والتَّوَكُّلُ على فضل الله معرفةً بحسن اختياره؛ وهذا كله ينبغي أن يكون شعارك، في جميع ليلتك ونهارك، فإنَّه آداب الصُحبة مع صاحب لا يفارقه، والخلق كلُّهم يفارقونك في بَعْضِ أوقاتك، انتهى من «بداية الهداية».

وقوله: ﴿بَلَاغٌ﴾ يحتمل معاني:

أحدها: أن يكون خبر مبتداً محذوف، أي: هذا إنذارٌ وتبليغٌ.

ويحتمل أن يريد: كأن لم يلبثوا إلا ساعةً كانت بلاغهم، وهذا كما تقول: متاع قليل، وقيل غَيْرُ هذا، وقرأ أبو مجلَزٍ وغيره^(٢): ﴿بَلِّغْ﴾ على الأمر، وقرأ الحسنُ بْنُ أَبِي

(١) ينظر: «إتحاف السادة المتقين» للزبيدي (٦٣).

(٢) وقرأ بها أبو سراج الهذلي.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٤٠)، و«المحتسب» (٢/٢٦٨)، و«المحرر الوجيز» (١٠٨/٥)،

و«البحر المحيط» (٨/٦٨)، و«الدر المصون» (٦/١٤٥).

الحَسَنِ: ﴿بَلَاغٌ﴾ بالخَفْضِ نعتاً لـ ﴿نَهَارٍ﴾^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ و﴿قُرِءَ شَاذًا﴾^(٢): ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ ببناء الفعل للفاعل، وفي هذه الآية وعيدٌ مَخْضٌ، وإنذارٌ بَيِّنٌ؛ وذلك أَنَّ اللهَ عز وجل جعل الحسنه بعشر أمثالها والسيئه بمثلها، وغفر الصغائر باجتناب الكبائر، ووعد الغفران على التوبه، فلن يهلك على الله إِلَّا هَالِكٌ؛ كما قال ﷺ، قال الثعلبي: يقال: إن قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أَرْجَى آية في كتاب الله / عز وجل للمؤمنين.

١٧٠

(١) وقرأ بها عيسى.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٨/٥)، و«البحر المحيط» (٦٨/٨)، و«الدر المصون» (١٤٥/٦).

(٢) قرأ بها ابن محيصن، وروي عنه كسر اللام. قال أبو الفتح: وأما «يهلك» بفتح الياء واللام جميعاً فشاذة، ومرغوب عنها، لأن الماضي هَلَكَ، فعل مفتوحة العين، ولا يأتي يَقْعَلُ، بفتح العين فيهما جميعاً إلا الشاذ.

ينظر: «المحتسب» (٢٦٨/٢)، و«مختصر الشواذ» ص: (١٤١)، و«المحرر الوجيز» (١٠٨/٥)، و«البحر المحيط» (٦٨/٨)، و«الدر المصون» (١٤٥/٦).

تفسير سورة محمد

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٣)

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿الذين كفروا﴾: إشارة إلى أهل مكة الذين أخرجوا النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية: إشارة إلى الأنصار الذين آووا، ونصروا، وفي الطائفتين نزلت الآيتان؛ قاله ابن عباس ومجاهد^(١)، ثم هي بعد تعم كل من دخل تحت ألفاظها.

وقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أتلّفها، ولم يجعل لها نفعاً.

* ت * : وقد ذكرنا في سورة «الصف» أن اسم محمد ﷺ لم يتسم به أحد قبله إلا قوم قليلون، رجاء أن تكون النبوة في أبنائهم، واللّه أعلم حيث يجعل رسالته، قال ابن القطّان: وعن خليفة والد أبي سويد قال: سألت محمد بن عدي بن أبي ربيعة: كيف سمّاك أبوك محمداً؟ قال: سألت أبي عمّا سألتني عنه، فقال لي: كنت رابع أربعة من بني عثم أنا فيهم، وسفيان بن مجاشع بن جرير، وأمّامة بن هند بن خنيد. ويزيد بن ربيعة، فخرجنا في سفرة نريد ابن جفنة ملك عسّان، فلما شارفنا الشام، نزلنا على عدير فيه شجرات، وقريته شخص نائم، فتحدثنا فاستمع كلامنا، فأشرف علينا، فقال: إن هذه لغة، ما هي لغة هذه البلاد، فقلنا: نحن قوم من مضر، فقال: من أي المضرين؟ قلنا: من خنيد، قال: إنه يبعث فيكم خاتم النبيين، فسارعوا إليه، وخذوا بحظكم منه ترشدوا، قلنا: ما أسمه؟ قال: محمد، فرجعنا، فولد لكل واحد منّا ابن سماه محمداً، وذكره

(١) أخرجه الطبري (٣٠٤/١١) برقم: (٣١٣٣٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٧٧/٤) عن ابن عباس، وابن عطية (١٠٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩/٦)، وعزاه إلى الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه.

المدائني، / انتهى.

وقوله تعالى في المؤمنين: ﴿وَأُضْلِحَ بِالْهَمِّ﴾ قال قتادة: معناه: حالهم^(١)، وقال ابن عباس: شأنهم^(٢).

وتحريزُ التفسير في اللفظة أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان، وهو القلب، فإذا ضلح ذلك منه، فقد ضلح حاله، فكأن اللفظة مُشيرةً إلى صلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابع، فقولك: خطر في بالي كذا، وقولك: أضلح الله بالك: المراد بهما واحد؛ ذكره المبرد، والبال: مصدر كالحال والشأن، ولا يستعمل منه فعل، وكذلك عُرِفَ لا يُتَى ولا يُجمَع، وقد جاء مجموعاً شاذاً في قولهم: «بالآت».

و﴿الباطل﴾ هنا: الشيطان، وكل ما يأمر به؛ قاله مجاهد^(٣)، و﴿الحق﴾ هنا: الشرع ومحمد - عليه السلام -.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ﴾: الإشارة إلى الاتباع المذكورين من الفريقين.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُّوا فَنُفِثُوا أَلَمًا مَّا بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوَّارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَلَهُمْ ④ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ ⑥ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيَبْنِي أقدامَكُمْ ⑦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ⑧ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ⑨﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ...﴾ الآية: قال أكثر العلماء: إن هذه الآية وآية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] مُحْكَمَتَانِ، فقوله هنا: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ بمثابة قوله هنالك: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وصرح هنا بذكر المَن والفداء، ولم يصرح به هنالك، فهذه مُبَيَّنَةٌ لِيْلِكَ، وهذا هو القول القوي، وقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ مصدر بمعنى

(١) أخرجه الطبري (٣٠٥/١١) برقم: (٣١٣٣٧ - ٣١٣٣٨)، وذكره ابن عطية (١٠٩/٥)، وابن كثير (٤/

١٧٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩/٦)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٤/١١) برقم: (٣١٣٣٥) بمعناه، (٣١٣٣٦) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٥/

١٠٩)، وابن كثير (١٧٢/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣٠٥/١١) برقم: (٣١٣٤٠)، وذكره ابن عطية (١١٠/٥)، والسيوطي في «الدر

المنثور» (٢٠/٦)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

الفِعل، أي: فاضربوا رقابهم وعَيْنَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ أَشْهَرُهُ، والمراد: أَقْتُلُوهُمْ بِأَيِّ وَجْهِ أَمَكَّنْ؛ وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال: «لَا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِلُهُ فِي النَّارِ أَبَدًا»^(١).
 ١٧١ وفي «صحيح البخاري» عنه ﷺ قال: «مَا اغْبَرْتُ / قَدَمًا عَبْدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَتَمَسَّهُ النَّارُ»^(٢). انتهى.

والإِثْخَانُ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَكْثُرَ فِيهِمُ الْقَتْلَى وَالْجِرْحَى، ومعنى: ﴿فَقُتِلُوا الْوَرَقَ﴾ أي: بمن لم يُقْتَلَ، ولم يترتب فيه إِلَّا الْأَسْرُ، وَمَنَّا وَفْدَاءً: مصدران منصوبان بفعلين مُضْمَرَيْنِ.

وقوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ معناه: حتى تذهب الحرب وتزول أثقالها، والأوزار: الأثقال؛ ومنه قول عمرو بن معدٍ يكرب: [من المتقارب]

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً^(٣)

واختلف المتأولون في الغاية التي عندها تضع الحرب أوزارها، فقال قتادة: حتى يُسَلِّمَ الْجَمِيعُ^(٤)، وقال حذافٍ أهل النظر: حتى تغلبهم وتقتلُوهم، وقال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم^(٥)، قال * ع^(٦) *: وظاهر اللفظ أنه استعارة يُرَادُ بِهَا التَّزَامُ الْأَمْرُ أَبَدًا؛ وذلك أَنَّ الْحَرْبَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ لَا تَضَعُ أَوْزَارَهَا، فجاء هذا كما تقول: أنا أفعل كذا وكذا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا تَرِيدُ أَنَّكَ تَفْعَلُهُ دَائِمًا.

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٠٥) كتاب «الإمارة» باب: من قتل كافراً ثم سدد، حديث (١٣٠/١٨٩١)، وأحمد (٣٩٧/٢)، والبيهقي (١٦٥/٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥/٦) كتاب «الجهاد والسير» باب: من اغبرت قدماه في سبيل الله، وقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولٍ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] (٢٨١١)، والبيهقي (١٦٢/٩) كتاب «السير» باب: فضل المشي في سبيل الله.

(٣) البيت للأعشى ميمون بن قيس، وهو في «ديوانه» (٧١)، «مشاهد الإنصاف» (٢٥١/١)، «التهذيب» (٢٤٤/١٣) (وزر)، «اللسان» (وزر)، و«البحر المحيط» (٧٥/٨) منسوباً لعمرو بن معدي كرب، وقال: أنشده ابن عطية لعمرو هذا، وأنشده الزمخشري للأعشى. ينظر: «الكشاف» (٣١٧/٤)، و«الدر المصون» (١٤٧/٦).

(٤) أخرجه الطبري (٣٠٨/١١) برقم: (٣١٣٥٤ - ٣١٣٥٥)، وذكره ابن عطية (١١١/٥)، وذكره ابن كثير (١٧٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١/٦)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري (٣٠٨/١١) برقم: (٣١٣٥٣)، وذكره ابن عطية (١١١/٥)، وابن كثير (١٨٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١/٦)، وعزاه إلى الفريابي، وعبد بن حميد.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١١/٥).

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: بعذابٍ مِنْ عنده، ولكن أراد سبحانه اختبارَ المؤمنين، وأن يَنْلَوْ بعضَ الناس ببعضٍ، وقرأ الجمهور: ﴿قَاتِلُوا﴾ وقرأ عاصم بخلاف عنه: ﴿قَتِلُوا﴾ - بفتح القاف والتاء -، وقرأ أبو عمرو وحفص: ﴿قَتِلُوا﴾ - بضم القاف وكسر التاء^(١) -، قال قتادة: نزلت هذه الآية فيمن قُتل يوم أُحُدٍ من المؤمنين^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى طريقِ الجَنَّةِ.

* ت *: ذكر الشيخ أبو نعيم الحافظ أن ميسرة الخادم قال: غزونا في بعض الغزوات، فإذا فتى إلى جانبي، وإذا هو مُقَنَّعٌ بالحديد، فحملَ على الميمنة، فثناها، ثم ٧١ ب على الميسرة حتى ثناها، وحملَ على القلبِ حتى ثناه، ثم أنشأ يقول: [الرجز]

أَحْسِنْ بِمَوْلَاكَ سَعِيدُ ظَنًّا هَذَا الَّذِي كُنْتَ لَهُ تَمَنَّى
تَنَحَّ يَا حُورَ الْجِنَانِ عَنَّا مَالِكَ قَاتِلُنَا وَلَا قَتِلُنَا
لَكِنْ إِلَيَّ سَيِّدُكُنَّ أَشْتَقْنَا قَدْ عَلِمَ السُّرَّ وَمَا أَغْلُنَا

قال: فحمل، فقاتل، فَقَتَلَ منهم عدداً، ثم رَجَعَ إلى مَصَافِهِ، فتكالبَ عليه العدو، فإذا هو - رضي الله تعالى عنه - قد حمل على الناس، وأنشأ يقول: [الرجز]

قَدْ كُنْتُ أَزْجُو وَرَجَائِي لَمْ يَخْبَ أَلَا يَضِيعُ الْيَوْمَ كَدِّي وَالطَّلَبُ
يَا مَنْ مَلَأَ تِلْكَ الْقُصُورَ بِاللُّعْبِ لَوْلَاكَ مَا طَابَتْ وَلَا طَابَ الطَّرَبُ

ثم حَمَلَ - رضي الله عنه - فقاتل، فَقَتَلَ منهم عدداً، ثم رجع إلى مَصَافِهِ، فتكالبَ عليه العدو فحملَ - رضي الله عنه - في المرة الثالثة، وأنشأ يقول: [الرجز]

يَا لُغْبَةَ الْخُلْدِ قِفِي ثُمَّ أَسْمَعِي مَالِكَ قَاتِلُنَا فَكُفِّي وَأَزْجِعِي
ثُمَّ أَرْجِعِي إِلَى الْجِنَانِ وَأَسْرِعِي لَا تَطْمَعِي لَا تَطْمَعِي لَا تَطْمَعِي

فقاتل - رضي الله عنه - حتَّى قُتِلَ، انتهى من ابن عَبَّاد شارح «الحكم».

(١) ينظر: «السبعة» (٦٠٠)، و«الحجة» (١٩٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٢٣/٢)، و«معاني القراءات» (٣٨٥/٢)، و«شرح الطيبة» (٧/٦)، و«العنوان» (١٧٦)، و«حجة القراءات» (٦٦٦)، و«شرح شعلة» (٥٨٥)، و«إتحاف» (٤٧٥/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٩/١١) برقم: (٣١٣٥٨ - ٣١٣٥٩)، وذكره ابن عطية (١١١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣/٦)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ قال أبو سعيد الخُدْرِيُّ، وقتادة، ومجاهد^(١): معناه: بَيَّنَّهَا لَهُمْ، أي: جعلهم يعرفون منازلهم منها، وفي نحو هذا المعنى قول النَّبِيِّ ﷺ: «لَأَحَدُكُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَعْرَفُ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا»^(٢) قال القرطبي في «التذكرة»: وعلى هذا القول أكثر المفسرين قال: وقيل: إِنَّ هذا التعريفَ إلى المنازلِ هو بالدليل، وهو المَلَكُ المُوَكَّلُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ، يمشي بين يَدَيْهِ، انتهى، وقالت فرقة: معناه: سَمَّاها لَهُمْ، وَرَسَمَهَا كُلُّ مَنْزِلٍ بِاسْمِ صَاحِبِهِ، فهذا نحو من التعريف، وقالت فرقة: معناه/ شَرَّفَهَا لَهُمْ ورفعها وعلاها، وهذا من الأعراف التي هي الجبال، ومنه أعرافُ الخَيْلِ، وقال مُورِجٌ وغيره: معناه: طَيَّبَهَا؛ مأخوذاً من العَرَفِ، ومنه طَعَامٌ مُعَرَّفٌ، أي: مُطَيَّبٌ، وعَرَفْتُ الْقِدْرَ: طَيَّبْتُهَا بِالْمِلْحِ وَالتَّابِلِ، قال أبو حَيَّان^(٣): «وَأَصْلَحَ بِالْهَمْ» البال: الْفِكْرُ وَلَا يُتَنَّى وَلَا يُجْمَعُ، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دينَ اللَّهِ ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ بخلقِ القُوَّةِ لكم وغير ذلك من المعاون، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: في مواطنِ الْحَرْبِ، وقيل: على الصراط في القيامة.

وقوله: ﴿فَتَنَفَّسْ لَهُمُ﴾ معناه: عَثَاراً وَهَلَاكاً لَهُمْ، وهي لفظة تقال للعائِرِ، إِذَا أُرِيدَ بِهِ الشَّرُّ؛ قال ابن السَّكَيْتِ: التَّنَفُّسُ: أَنْ يَخْرُ عَلَى وَجْهِهِ.

وقوله تعالى: ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يريد: القرآن ﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال * ع^(٤): * ولا خلاف أَنَّ الكافر له حَفْظَةٌ يكتبون سَيِّئَاتِهِ، واختلف الناس في حَسَنَاتِهِمْ، فقالت فرقة: هي مُلْعَاةٌ يثابُونَ عليها بِنِعَمِ الدُّنْيَا فَقَطْ، وقالت فرقة: هي مُخَصَّاةٌ من أَجْلِ ثَوَابِ الدُّنْيَا، ومن أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ يُسَلِّمُ فَيَنْصَافُ ذَلِكَ إِلَى حَسَنَاتِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وهذا أحدُ التَّأْوِيلَيْنِ في قوله ﷺ لِحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ: «أَسْلَمْتُ عَلَى مَا سَلَفَ لَكَ مِنْ خَيْرٍ»^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣٠٩/١١ - ٣١٠) برقم: (٣١٣٦٠، ٣١٣٦٢)، وذكره ابن عطية (١١١/٥)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٢٣/٦)، وعزاه إلى عبد بن حميد عن مجاهد، وقتادة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣/١١) كتاب «الرقاق» باب: القصاص يوم القيامة، وهي الحاقة، لأن فيها الثواب، وحواق الأمور، برقم: (٦٥٣٥).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٧٠/٨).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٢/٥).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٠/٤) كتاب «اليبوع» باب: شراء المملوك من الحربي وهبته وعته (٢٢٢٠)، (٥/٢٠٠)

كتاب «العق» باب: عتق المشرک (٢٥٣٨)، (٣/٣٥٤) كتاب «الزكاة» باب: من تصدق في

الشرك ثم أسلم (١٤٣٦)، (١٠/٤٣٨) كتاب «الأدب» باب: من وصل رحمه في الشرك ثم أسلم =

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَالُهَا ۚ﴾ (١١) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (١٣)

وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: توقيف لقريش، وتوبيخ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد: ثمود وقوم شعيب وغيرهم، والدمار: الإفساد، وهدم البناء، وإذ هاب العُمران، والضمير في قوله: ﴿أَمْتَالُهَا﴾ يصح أن يعود على العاقبة، ويصح أن يعود على الفعلة التي يتضمنها قوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية، المولى: الناصر الموالى، قال قتادة: نزلت هذه الآية يوم أُحُد^(١)، ومنها انتزع النبي ﷺ ردة على أبي ٧٢ ب سُفْيَانَ حين قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: أكلاً مجرداً عن الفكر والنظر، وهذا كما تقول: الجاهل يعيش كما تعيش البهيمة، والمعنى: يعيش عديم الفهم والنظر في العواقب.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٤) ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَى يَتِيمٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَمْ يَسُوْهُ عَلَيْهِمْ وَابْتَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَقْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥)

وقوله سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ يعني: مكة ﴿الَّتِي أَخْرَجْتَكَ﴾ معناه: وقت الهجرة، ويقال: إن هذه الآية نزلت إثر خروج النبي ﷺ من مكة،

= (٥٩٩٢)، ومسلم (٣٨٧/١ - ٣٨٨). الأبي، كتاب «الإيمان» باب: بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده (١٢٣/١٩٤)، وأحمد (٤٠٢/٣)، والبيهقي (١٢٣/٩) كتاب «السير» باب: ترك أخذ المشركين بما أصابوا، وابن حبان (٣٧/٢ - ٣٨) كتاب «البر والإحسان» باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر إطلاق اسم الخير على الأفعال الصالحة إذا كانت من غير المسلمين (٣٢٩)، والحميدي (٢٥٣/١) (٥٥٤)، والطبراني في «الكبير» (٢١٠/٣) (٣٠٧٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٤٥٣/١٠ - ٤٥٤)، كتاب «الجامع» باب: حديث النبي ﷺ (١٩٦٨٥).

(١) ذكره ابن عطية (١١٣/٥).

(٢) تقدم.

وقيل غَيْرُ هذا^(١).

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ...﴾ الآية، توقيفٌ وتقريرٌ، وهي معادلةٌ بين هذين الفريقين، واللفظ عامٌ لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر، و﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: على يقين وطريق واضحة وعقيدة نيرة بَيِّنَةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ...﴾ الآية، قال النَّضْرُ بن شَمِيلٍ وغيره ﴿مَثَلٌ﴾ معناه: صفةٌ؛ كأنه قال: صفة الجنة: ما تسمعونَ فيها كذا وكذا.

وقوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ معناه: غيرٌ مُتَغَيَّرٍ؛ قاله ابن عباس وقتادة^(٢)، وسواءٌ أتنَّ أو لم يُتَنَّ.

وقوله في اللبن: ﴿لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾: نفى لجميع وجوه الفساد فيه.

وقوله: ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ جمعت طيب الطَّغَمِ وزوال الآفات من الصَّدَاعِ وغيره، وتصفيَةُ العَسَلِ مذهبٌ لمومه وضَرَره.

* ت: * وروينا في «كتاب الترمذي» عن حَكِيم بن مُعَاوِيَةَ عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ، وَبَحْرَ الْعَسَلِ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ، وَبَحْرَ الْحَمْرِ، ثُمَّ تَشْقُقُ الْأَنْهَارُ بَعْدُ»^(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ، انتهى.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من هذه الأنواع/ لكنها بعيدة الشبه؛ تلك لا عَيْبَ فيها ولا تَعَبَ.

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه: وتنعيمٌ أعطته المغفرةُ وَسَبَّيْنَةُ، وإِلَّا فالمغفرةُ إنما هي قبل دخول الجنة.

(١) أخرجه الطبري (٣١٣/١١) برقم: (٣١٣٧٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٤/٦)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وأبي يعلى، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٣١٣/١١ - ٣١٤) برقم: (٣١٣٧٣ - ٣١٣٧٤) بمثله ومعناه، وذكره ابن عطية (٥/١١٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥/٦)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة بمعناه.

(٣) أخرجه الترمذي (٦٩٩/٤) كتاب «صفة الجنة» باب: ما جاء في صفة أنها الجنة (٢٥٧١)، وأحمد (٥/٥)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٦٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥/٦)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن مردويه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

أشراط الساعة: مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لأنه آخر الأنبياء، وقال - عليه السلام - : «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(١) والأحاديث كثيرة في هذا الباب.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ الآية: إضرابٌ عن أمرٍ هؤلاء المنافقين، وذكر الأهم من الأمر، والمعنى: دُم عَلَى عِلْمِكَ، وهذا هو القانون في كُلِّ مَنْ أُمِرَ بِشَيْءٍ هو مُتَلَبِّسٌ به، وكُلُّ واحدٍ مِنَ الْأُمَّةِ داخلٌ في هذا الخطاب، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ مَا أُجْتَنِبَتْ الْكِبَائِرُ»^(٢)، رواه الترمذي والنسائي، وقال

(١) يروى هذا الحديث عن جمع من الصحابة، منهم: أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وسهل بن سعد.

فأما حديث أنس رضي الله عنه: أخرجه البخاري (٣٥٥/١١) كتاب «الرقاق» باب: قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٢٦٨/٤)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة» باب: قرب الساعة (١٣٣ - ٢٩٥١/١٣٤)، والترمذي (٤٩٦/٤) كتاب «الفتن» باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين - يعني السبابة والوسطى» (٢٢١٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٨١/٦)، وأحمد (١٢٣/٣)، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١، ١٩٣، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٧٤، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أما طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أخرجه مسلم (٤١٨/٣) - النووي كتاب «الجمعة» باب: تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧/٤٣)، والنسائي (١٨٨/٣) كتاب «الخطبة» باب: كيف الخطبة (١٥٧٨)، وابن ماجه (١٧/١) «المقدمة» باب: (٧) (٤٥)، وابن حبان (١٨٦/١) المقدمة: باب: الاعتصام بالسنة (١٠)، وأبو يعلى (٨٥/٤) (٢١١١/٣٤٦)، وابن خزيمة (١٤٣/٣) كتاب «جماع أبواب الأذان والخطبة في الجمعة» باب: صفة خطبة النبي ﷺ وبدؤه فيها بحمد الله والثناء عليه (١٧٨٥)، والبيهقي (٢٠٦/٣)، كتاب «الجمعة» باب: رفع الصوت في الخطبة (٢١٣/٩)، كتاب «الجمعة» باب: كيف يستحب أن تكون الجمعة، وأحمد (٣١٠/٣ - ٣١١).

وفي الباب من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٣٥٥/١١)، كتاب «الرقاق» باب: قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» (٦٥٠٥)، وابن ماجه (١٣٤/٢)، كتاب «الفتن» باب: أشراط الساعة (٤٠٤٠)، وابن حبان (١٣/١٥ - ١٤)، كتاب «التاريخ» باب: إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث (٦٦٤١).

أما من طريق سهل بن سعد الساعدي: أخرجه البخاري (٣٥٥/١١) كتاب «الرقاق» باب: قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» (٦٥٠٣)، (٣٤٨/٩)، كتاب «الطلاق» باب: اللعان (٥٣٠٢)، وأحمد (٣٣١، ٣٣٥، ٣٣٨، ٣٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٧٥/٥)، كتاب «الدعوات» باب: دعاء أم سلمة (٣٥٩٠)، والنسائي (٢٠٨/٦) - «الكبرى»، كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: أفضل الذكر وأفضل الدعاء (٣/١٠٦٦٩)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٩٢/٢) (٢٢٥٥) كلهم قال: «... أبواب السماء...»، وليس أبواب الجنة. وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٩٤/١١) (٦٢٧١) نحوه. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

الترمذي واللفظ له: حديث حسن غريب، انتهى من «السلام».

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: لِمَنْ تَسْتَعِزُّ أَمْتُكَ بِسُتَيْكَ.

* ت * : هذا لفظ الشعبى، وهو حسن، وقال عياض: قال مكى: مخاطبة النبي ﷺ ههنا هي مخاطبة لأُمِّتِهِ، انتهى.

قال * ع ^(١) * : وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» ^(٢) وَتَوْبَ الْبَخَارِيِّ - رحمه الله - العِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...﴾ الآية: وواجب على كل مؤمن أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، وقال الطبري وغيره ^(٣): «مُتَقَلِّبُكُمْ»: مُتَصَرِّفُكُمْ في يقظتكم ﴿وَمُتَوَاكُم﴾ منامكم، وقال ابن عباس: «متقلبكم» تَصَرِّفُكُمْ في حياتكم الدنيا ﴿وَمُتَوَاكُم﴾: إقامتكم في قبوركم، وفي آخركم ^(٤).

وقوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ...﴾ الآية: هذا ابتداء وَصْفِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ؛ عَلَى جِهَةِ الْمَدْحِ لَهُمْ، وَوَصْفِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ؛ عَلَى جِهَةِ الذَّمِّ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ حِرْصُهُمْ عَلَى الدِّينِ يَبْعَثُهُمْ عَلَى تَمَنِّيِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَتَمَنِّيِ قِتَالِ الْعَدُوِّ، وَكَانُوا يَأْنِسُونَ بِالْوَحْيِ، وَيَسْتَوْحِشُونَ/ إِذَا أَبْطَأَ، وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ. ١٧٤

وقوله: ﴿مُخَكَّمَةٌ﴾ معناه: لا يَقَعُ فِيهَا نَسْخٌ، وَأَمَّا الْإِحْكَامُ الَّذِي هُوَ الْإِتْقَانُ، فَالْقِرَآنُ كُلُّهُ سِوَاهُ فِيهِ، وَالْمَرَضُ الَّذِي فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ هُوَ فَسَادُ مُعْتَقَدِهِمْ، وَنَظَرُ الْخَائِفِ الْمَوَلِّهِ قَرِيبٌ مِنْ نَظَرِ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ، وَخَسَسَهُمْ هَذَا الْوَصْفُ وَالتَّشْبِيهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ﴾ «أُولَىٰ»: وَزَنَاهَا أَفْعَلُ، مِنْ وَلِيكَ الشَّيْءِ يَلِيكَ، وَالْمَشْهُورُ مِنْ أَسْتَعْمَالِ أُولَىٰ أَنَّكَ تَقُولُ: هَذَا أُولَىٰ بِكَ مِنْ هَذَا، أَيْ: أَحَقُّ، وَقَدْ تَسْتَعْمِلُ الْعَرَبُ «أُولَىٰ لِكَ» فَقَطْ عَلَى جِهَةِ الْاِخْتِصَارِ، لَمَّا مَعَهَا مِنَ الْقَوْلِ عَلَى جِهَةِ الزَّجْرِ وَالتَّوَعُّدِ،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٦/٥).

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١٣/١٠) كتاب «التوبة» باب: الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات. قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه من لم أعرفهم.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣١٨/١١).

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٨٣/٤) برقم: (١٩)، وابن عطية (١١٦/٥).

فتقول: **أُولَى لَكَ يَا فُلَانُ**، وهذه الآية من هذا الباب؛ ومنه قوله تعالى: **﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾** [القيامة: ٣٤] وقالت فرقة: **﴿أُولَى﴾** رُفِعَ بالابتداء، و**﴿طاعة﴾** خبره، قال ع^(١): * وهذا هو المشهور من استعمال «أُولَى»، وقيل غير هذا، قال أبو حيان^(٢): قال صاحب «الصَّحاح»: **﴿أُولَى لَكَ﴾**: تهديدٌ ووعيدٌ، قال أبو حيان^(٣): والأكثر على أنه اسم مُشْتَقٌّ من الولي، وهو القُرْبُ، وقال الجُرْجَانِيُّ: هو مأخوذ من الوَيْلِ، فَقَلِبَ، فوزنه «أَفْلَعُ»، انتهى.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾: ناقضوا وعصوا، قال البخاري: قال مجاهد: **﴿عَزَمَ الْأَمْرُ﴾** جَدَّ الْأَمْرُ^(٤). انتهى.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾** (٢٣) **﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** (٢٤)

وقوله سبحانه: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾** مخاطبةٌ لهؤلاء الذين في قلوبهم مرضٌ، والمعنى: فهل عسى أن تفعلوا إِنْ تَوَلَّيْتُمْ غير أن تُفْسِدُوا في الأرض، وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، ومعنى **﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾** أي: إِنْ أعرضتم عن الحقِّ، وقيل المعنى: إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أمور الناس من الولاية؛ وعلى هذا قيل: **﴿إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَنِي هَاشِمٍ، وَبَنِي أُمَيَّةَ ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ﴾**.

* ت * وهو عندي بعيدٌ لقوله: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾** فتعيَّن التأويل ٧٤ ب / الأول، والله أعلم.

وفي البخاري عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: **﴿لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ﴾**^(٥)

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٧/٥).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٨١/٨).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٨١/٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٢/٨) كتاب «التفسير» باب: سورة محمد ﷺ معلقاً بصيغة الجزم، ووصله الفريابي من طريق ابن أبي نجيع عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٤٢٨/١٠) كتاب «الأدب» باب: إثم القاطع (٥٩٨٤)، ومسلم (١٩٨١/٤)، كتاب «البر والصلة والآداب» باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (١٨ - ٢٥٥٦/١٩)، وأبو داود (٥٣٠/١)، كتاب «الزكاة» باب: في صلة الرحم (١٦٩٦)، والترمذي (٣١٦/٤)، كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في صلة الرحم (١٩٠٩)، والبيهقي (٢٧/٧)، كتاب «الصدقات» باب: الرجل يقسم صدقته على قرابته وجيرانه، إذا كانوا من أهل السهمان، كما جاء في صلة الرحم وحق الجار، وأحمد (٨٠/٤)، ٨٣، ٨٤، وابن حبان (١٩٩/٢)، كتاب «البر والإحسان» باب: صلة الرحم وقطعها، ذكر نفي دخول الجنة عن قاطع رحمه (٤٥٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٦٩/١١ - ١٧٠)، كتاب «الجامع» باب: صلة

يعني: قاطع رحم، وفيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ - فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(١). اهـ، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ»^(٢) وفي رواية: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»^(٣) وفي طريق: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٤) وخَرَّجَه البخاري من طريق أبي هريرة^(٥)؛ على ما تقدم، وخَرَّجَ البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَتْ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَهُوَ لَكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَافْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»^(٦) وفي رواية: قال الله «مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ»^(٧) انتهى.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا الرَّحْمَنُ، وَهِيَ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّهْتُ»^(٨). انتهى.

الرحم (٢٠٢٢٩)، والطبراني (١١٨/٢، ١٢٠، ١٥٠٩، ١٥١٩)، والحميدي (٢٥٤/١) (٥٥٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧) باب: إثم قاطع الرحم (٦٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣٠٨/٧).
(١) روى هذا الحديث أنس بن مالك، وأبو هريرة رضي الله عنهما.
فأما حديث أنس: أخرجه البخاري (٣٥٣/٤) كتاب «البيوع» باب: من أحب البسط في الرزق (٢٠٦٧)، ومسلم (١٩٨٢/٤) كتاب «البر والصلة والآداب» باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٠ - ٢١/٢٥٥٧)، وأبو داود (٥٢٩/١) كتاب «الزكاة» باب: في صلة الرحم (١٦٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (٤٣٨/٦)، كتاب «التفسير» باب: سورة فاطر (١/١١٤٢٩).
وأما من طريق أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه البخاري (٤٢٩/١٠)، كتاب «الأدب» باب: من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٥٩٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٨١/٤)، كتاب «البر والصلة والآداب» باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (١٧/٢٥٥٥) عن عائشة.

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه البخاري (٤٣٠/١٠)، كتاب «الأدب» باب: من وصل وصله الله، برقم: (٥٩٨٧).

(٧) أخرجه البخاري (٤٣٠/١٠)، كتاب «الأدب» باب: من وصل وصله الله، (٥٩٩٨).

(٨) أخرجه أبو داود (٥٣٠/١)، كتاب «الزكاة» باب: في صلة الرحم (١٦٩٥)، والترمذي (٣١٥/٤)،

كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في قطيعة الرحم (١٩٠٧)، والبيهقي (٢٦/٧)، كتاب «الصدقات» باب:

الرجل يقسم صدقته على قرابته وجيرانه إذا كانوا من أهل السهمين لما جاء في صلة الرحم وحق الجار.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى المرضى القلوب المذكورين.

وقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾: استعارة لعدم فهمهم.

وقوله عز من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ/ الْقُرْآنَ...﴾ الآية: توقيف وتوبيخ، وتذبر القرآن زعيم بالتبيين والهدى لمتأمله. ١٧٥

* ت * قال الهروي: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ معناه: أفلا يتفكرون فيعتبرون؛ يُقَالُ: تَذَكَّرْتُ الأمر: إذا نظرت في أدباره وعواقبه، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ معناه: بل على قلوب أقفالها، وهو الرزق الذي منعهم من الإيمان، ورؤي أن وفد اليمين وفد على النبي ﷺ وفيهم شاب، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية، فقال الفتى: عَلَيْهَا أَقْفَالُهَا حَتَّى يَفْتَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَيُرْجَحَهَا، قَالَ عُمَرُ: فَعَظَمَ فِي عَيْنِي، فَمَا زَالَتْ فِي نَفْسِ عُمَرَ - رضي الله عنه - حَتَّى وَلِيَ الْخِلَافَةَ فَاسْتَعَانَ بِذَلِكَ الْفَتَى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَأَ لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتَّبِعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَرَهُمْ (٢٩)﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ...﴾ الآية: قال قتادة: نزلت في قوم من اليهود^(١)، وقال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم نافقت قلوبهم^(٢)، والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر، و﴿سَوَّلَ﴾ معناه: رجّاهم سؤلهم وأمانيتهم، ونقل أبو الفتح عن بعضهم؛ أنه بمعنى دلائهم مأخوذ من السؤل، وهو الاسترخاء والتدلي، وقال العراقي ﴿سَوَّلَ﴾ أي: زين سوء الفعل.

قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٨٤/٤)، وابن عطية في «تفسيره» (١١٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣/٦)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (٣٢٢/١١) برقم: (٣١٤١٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٨٤/٤)، وابن عطية (٥/١١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣/٦).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا...﴾ الآية، قيل: إنها نزلت في بني إسرائيل الذين تقدم ذكرهم الآن، وروى أن قوماً من قرينة النصير كانوا يعدون المنافقين في أمر رسول الله ﷺ والخلاف عليه بنصر ومؤازرة؛ فذلك قولهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وقرأ الجمهور: «أَسْرَارُهُمْ» - بفتح الهمزة -، وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «إِسْرَارُهُمْ» - بكسرها^(١) -.

وقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: ملك الموت وأعوانه، ٧٥ ب والضمير في ﴿يَضْرِبُونَ﴾ للملائكة، وفي نحو هذا أحاديث تقتضي صفة الحال، ﴿وَمَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾: هو الكفر، والرضوان: هنا الحق والشرع المؤدي إلى الرضوان.

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ الآية، توبيخ للمنافقين وقضخ لسرائرهم، والضغن: الحقد، وقال البخاري: قال ابن عباس: «أَضْغَانُهُمْ» حسدهم^(٢)، انتهى.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنَ يَصُدُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُ أَعْمَالُهُمْ (٣٢)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ...﴾ الآية، لم يعينهم سبحانه بالأسماء والتعريف التام؛ إبقاء عليهم وعلى قراتهم، وإن كانوا قد عرفوا بلحن القول، وكانوا في الاشتهار على مراتب كابن أبي وغيره، والسما: العلامة، وقال ابن عباس والضحاك: إن الله تعالى قد عرفه بهم في سورة براءة بقوله: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾^(٣)

(١) وحجة من أفرد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨] فلما أفرد السر ولم يجمع فكذلك قال: «إسراهم». وأما الآخرون، فكانهم جمعوا لاختلاف في ضروب السر، وقد قيل: إنه جمع فأخرج الأسرار بعددهم، كما قال بعدها: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

ينظر: «حجة القراءات» (٦٦٩)، و«السبعة» (٦٠١)، و«الحجة» (١٩٦/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٣٢٦)، و«معاني القراءات» (٣٨٧/٢)، و«شرح الطيبة» (١٠/٦)، و«العنوان» (١٧٦)، و«حجة القراءات» (٦٦٩)، و«شرح شعلة» (٥٨٦)، و«إتحاف» (٤٧٨/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢/٨)، كتاب «التفسير» باب: سورة محمد ﷺ معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٨٥/٤)، والسيوطي (٥٤/٦)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٤/١١) برقم: (٣١٤١٦ - ٣١٤١٧)، وذكره ابن عطية (١٢٠/٥).

[التوبة: ٨٤] وفي قوله: «قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا» [التوبة: ٨٣] قال ع * : وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تام، ثم أخبر تعالى أنه سيعرفهم في لحن القول، أي: في مذهب القول ومنحاه ومقصده، واحتج بهذه الآية من جعل الحد في التعريض بالقذف.

* ص * : قال أبو حيان^(١): «ولتعرفنهم» اللام جواب قسم محذوف، انتهى.

وقوله سبحانه: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر.

وقوله سبحانه: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ...» الآية، كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا.

وقوله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ...» الآية، ١٧٦ قالت فرقة: نزلت في بني إسرائيل، وقالت/ فرقة: نزلت في قوم من المنافقين، وهذا نحو ما تقدم، وقال ابن عباس: نزلت في المطعمين في سفرة بدر^(٢)، وقالت فرقة: بل هي عامة في كل كافر.

وقوله: «لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا» تحقير لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥)

وقوله سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» روي أن هذه الآية نزلت في بني أسد من العرب، وذلك أنهم أسلموا، وقالوا للنبي - ﷺ -: نحن آثرناك على كل شيء، وجئناك بأنفسنا وأهلينا، كأنهم يمتنون بذلك، فنزل فيهم: «يَمْتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...» الآية، ونزلت فيهم هذه الآية وظاهر الآية العموم.

وقوله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ...»

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٨/ ٨٤).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ١٧٦)، وابن عطية (٥/ ١٢١).

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٦٧)، كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: «يؤمنون عليك أن أسلموا»

(١/ ١١٥١٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١١٣)، وعزاه إلى البزار، وابن مردويه.

الآية، رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ حَاتِمًا كَانَتْ لَهُ أَفْعَالٌ بِرٍّ فَمَا حَالُهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هُوَ فِي النَّارِ فَبَكَى عَدِيٌّ، وَوَلَّى فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «أَبِي وَأَبُوكَ وَأَبُو إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ فِي النَّارِ» وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ^(١)، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْعُمُومُ فِي كُلِّ مَا تَنَاوَلَتْهُ الصِّفَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ معناه: لَا تَضَعُفُوا ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي: إِلَى الْمَسَالِمَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَى الْآيَةِ: لَا تَكُونُوا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ ضَرَعَتْ لِلْآخَرَى^(٢)، قَالَ * ع^(٣) وَهَذَا حَسَنٌ مُلْتَمِثٌ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، الْمَعْنَى: فَلَا تَهْتُوا وَأَنْتُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارًا بِمَغِيبِ أَمْرِهِ الْوُجُودُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْأَعْلَوْنَ: مَعْنَاهُ الْغَالِبُونَ وَالظَّاهِرُونَ مِنَ الْعُلُوِّ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معناه: / بِنَصْرِهِ وَمُعُونَتِهِ وَيَتَرُ مَعْنَاهُ: يُنْقِصُ وَيُذْهِبُ، ٧٦ ب وَالْمَعْنَى: لَنْ يَتَرَكَمَ ثَوَابَ أَعْمَالِكُمْ.

﴿إِنَّمَا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ (٣٦) ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّرْ أَصْفَنَّاكُمْ﴾ (٣٧) ﴿هَآئِنْتَ هَؤُلَاءِ نَدْعُونَ لِیُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَهْوٌ﴾ تحقير لأمر الدنيا.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ معناه: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنْكُمْ، لَا غَيْرِهِ؛ لَا تُسْأَلُونَ أَمْوَالَكُمْ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ مُنْبَهًا عَلَى خُلُقِ ابْنِ آدَمَ: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ وَالْإِحْفَاءُ هُوَ أَشَدُّ السُّؤَالِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَ الْمَسْئُولِ كَرهًا.

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨/٤) بلفظ: قلت: يا رسول الله، إن أبي كان يصل الرحم ويفعل كذا وكذا، قال: «إن أباك أراد أمراً فأدركه».

(٢) أخرجه الطبري (٣٢٦/١١)، (٣٢٧) برقم: (٣١٤٢٦، ٣١٤٢٨)، وذكره ابن عطية (١٢٢/٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٢/٥).

* ت * : وقال الثعلبي: ﴿فيحفكم﴾ أي: يجهدكم ويلحف عليكم.

وقوله: ﴿تبخلوا﴾ جزماً على جواب الشرط «ويخرج أضغانكم» أي: يخرج الله أضغانكم، وقرأ يعقوب: «وَنُخْرِجُ» بالنون، والأضغان: مُعَقَّدَاتُ السوء^(١)، وهو الذي كان يخاف أن يعتري المسلمين، ثم وقف الله تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم بقوله: ﴿هَآئِثُمْ هَؤُلَاءِ﴾ وكرر «هآء» التنبيه؛ تأكيداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: بالثواب ﴿وَاللَّهُ الْعَنِي﴾ أي: عن صدقاتكم ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إلى ثوابها.

* ت * : هذا لفظ الثعلبي، قال * ع * : يقال: بَخُلْتُ عليك بكذا، وبخلت عنك بمعنى أمسكت عنك، وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. غريب، انتهى^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قالت فرقة: هذا الخطاب لجميع المسلمين والمشركون والعرب حينئذ، والقوم الغير هم فارس، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ سُئِلَ عَنْ هَذَا وَكَانَ سَلْمَانَ إِلَى جَنْبِهِ قَوْضَعٌ يَدُهُ عَلَى فَخِذِهِ وَقَالَ: «قَوْمٌ هَذَا»

(١) وقرأ بها ابن عباس.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: ١٤٢، و«المحرر الوجيز» (١٢٣/٥)، و«البحر المحيط» (٨٥/٨)، و«الدر المصون» (١٥٨/٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٢/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في السخاء، حديث (١٩٦١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١١٧/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٩/٧) (١٠٨٥٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٨٠/٢). بتحقيقنا، كلهم من طريق سعيد بن محمد الوراق عن يحيى بن سعيد عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث يحيى بن سعيد عن الأعرج عن أبي هريرة إلا من حديث سعيد بن محمد، وقد خولف سعيد بن محمد في رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد إنما يروى عن يحيى بن سعيد عن عائشة شيء مرسل. اهـ.

وقال العقيلي: ليس لهذا الحديث أصل من حديث يحيى ولا غيره وقال ابن الجوزي: لا يصح، المتهم به سعيد بن محمد الوراق، قال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بثقة. وقال البيهقي: تفرد به سعيد بن محمد وهو ضعيف.

= وقال السيوطي في «اللاكيء المصنوعة» (٩١/٢) قلت) أخرجه الترمذي، وابن حبان في «روضة العقلاء»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والخطيب في كتاب «الخلاء» من طريق عن سعيد الوراق به، وقال ابن حبان: غريب، وقال البيهقي: تفرد به سعيد بن محمد الوراق وهو ضعيف، والله أعلم. ا هـ. وللحديث شواهد من حديث عائشة، وأنس، وجابر. حديث عائشة:

أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «اللاكيء» (٩٢/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٨/٧) - (٤٢٩) (١٠٨٥٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٨١/٢) - بتحقيقنا، من طريق سعيد بن مسلمة، حدثنا يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار، والبخیل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله من العاقل البخیل». قال ابن الجوزي: سعيد بن مسلمة، قال يحيى: ليس بشيء، وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً فاحش الخطأ، وقال ابن عدي: ليس لهذا الحديث أصل من حديث يحيى بن سعيد ولا غيره، وقال الدارقطني: لهذا الحديث طرق لا يثبت منها شيء بوجه ا هـ. وللحديث طريق آخر عن عائشة:

أخرجه الخطيب في كتاب «الخلاء» كما في «اللاكيء» (٩٢/٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٨١) من طريق خالد بن يحيى القاضي عن غريب بن عبد الواحد القرشي عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب عن عائشة مرفوعاً.

وقال ابن الجوزي: خالد وغريب مجهولان.

وقال السيوطي: أقره صاحب «الميزان» على أن اسمه غريب، والذي في كتاب «الخلاء» للخطيب: عنبة بن عبد الواحد. ا هـ.

وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٨/٧) (١٠٨٤٧) من طريق تليد بن سليمان، وسعيد بن مسلمة عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم عن علقمة بن وقاص عن عائشة مرفوعاً. وقال البيهقي: تليد وسعيد ضعيفان.

وأقره صاحب «اللاكيء» (٩٢/٢).

حديث أنس:

أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٨٠/٢) - بتحقيقنا، من طريق محمد بن تميم، حدثنا قبيصة بن محمد عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً: «لما خلق الله الإيمان قال: إلهي، قوني، فقواه بحسن الخلق، ثم خلق الكفر فقال الكفر: إلهي قوني، فقواه بالبخل، ثم خلق الجنة، ثم استوى على العرش، ثم قال: ملائكتي فقالوا: ربنا، ليك وسعديك قال: السخي قريب من جنتي قريب من ملائكتي بعيد من النار، والبخیل بعيد مني بعيد من ملائكتي قريب من النار».

قال ابن الجوزي: المتهم به محمد بن تميم قال ابن حبان: كان يضع الحديث.

وقال السيوطي في «اللاكيء» (٩٢/٢) محمد بن تميم يضع.

حديث جابر:

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٨/٧) (١٠٨٤٨) من طريق سعيد بن مسلمة، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر مرفوعاً.

لَوْ كَانَ الدِّينُ فِي الثَّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ قَارِسٍ^(١).

= وقد تقدم ضعف سعيد: وللحديث شاهد أيضاً من حديث ابن عباس: أخرجه تمام في فوائده كما في «اللائي» (٩٣/٢)، وفيه محمد بن زكريا الغلابي.

قال الدارقطني: يضع الحديث.

ينظر: «تنزيه الشريعة» (١٠٥/١).

والحديث: ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (١٣٨/٤) - فيض، برقم: (٤٨٠٤)، من حديث أبي هريرة، وجابر، وعائشة، ورمل له بالضعف، ووافقه المناوي في «شرح» وقال المناوي في «الفيض» (١٣٨/٤ - ١٣٩): (السخي قريب من الله أي: من رحمته وثوابه، فليس المراد قرب المسافة، تعالى الله عنه، إذ لا يحل الجهات، ولا ينزل الأماكن، ولا تكتنفه الأقطار، (قريب من الناس) أي: من محبتهم فالمراد: قرب المودة، (قريب من الجنة) لسعيه فيما يدينه منها، وسلوكه طريقها، فالمراد هنا قرب المسافة، وذلك جائز عليها؛ لأنها مخلوقة، وقربه منها: برفع الحجاب بينه وبينها، وبعده عنها: كثرة الحجب، فإذا قلت الحجب بينك وبين الشيء. قلت مسافته، أنشد بعضهم:

يقولون لي دار الأحبة قد دنت وأنت كئيب إن ذا لعجيب

فقلت وما تغني ديار قريبة إذا لم يكن بين القلوب قريب

والجنة والنار محجوبتان عن الخلق بما حفتا به من المكارة والشهوات، وطريق هتك هذه الحجب مبينة في مثل: «الإحياء»، و«القوت» من كتب القوم، (بعيد من النار والبخل بعيد من الله) أي: من رحمته، (بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار)، وقال الغزالي: والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة، والسخاء: ينشأ من حقيقة التوحيد والتوكل والثقة بوعد الله وضمانه للرزق، وهذه أغصان شجرة التوحيد التي أشار إليها الحديث، والبخل: ينشأ من الشرك وهو الوقوف مع الأسباب والشك في الوعد، قال الطيبي: التعريف في السخي والبخل للعهد الذهني وهو ما عرف شرعاً أن السخي من هو والبخل من هو، وذلك أن من أدى الزكاة فقد امتثل أمر الله، وعظمه، وأظهر الشفقة على خلقه، وواساهم بماله، فهو قريب من الله وقريب من الناس، فلا تكون منزلته إلا الجنة، ومن لم يكن كذلك فبالعكس؛ ولذلك كان جاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل، كما قال: (ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل) فحولف ليفيد أن الجاهل غير العابد السخي أحب إلى الله من العابد العالم البخيل، فيالها من حسنة غطت على عيبين عظيمين، ويا لها من سيئة حطت حستين خطيرتين، على أن الجاهل السخي سريع الانقياد بما يؤمر به من نحو تعلم، وإلى ما ينهى عنه بخلاف العالم البخيل، (تنبيه) قال الراغب: من شرف السخاء والجود، أن الله قرن اسمه بالإيمان، ووصف أهله بالفلاح، والفلاح أجمع لسعادة الدارين، وحق للجود أن يقترن بالإيمان، فلا شيء أخص منه به ولا أشد مجانسة له فمن صفة المؤمن: انشراح الصدر «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً»، وهما من صفة الجواد والبخل لأن الجواد يوصف بسعة الصدر والبخل بضيقه هـ.

(١) أخرجه البخاري (٥١٠/٨) كتاب «التفسير» باب: قوله: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» (٤٨٩٧)،

ومسلم (١٩٧٢/٤)، كتاب «فضائل الصحابة» باب: فضل فارس (٢٣٠ - ٢٣١/٢٣١)، وأحمد (٢/٣٠٩).

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ معناه: في الخلاف والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا، وحكى الثعلبي قولاً أن القوم الغير هم الملائكة.

* ت *: وليس لأحد مع الحديث: إذا صَحَّ نظر، ولولا الحديث لاحتُمَل أن يكون الغير ما يأتي من الخَلَف بعد ذهاب السَلَف، على ما ذكر في غير هذا الموضع.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ

وَهِيَ مَدِينَةٌ

هذه السورة نزلت على النَّبِيِّ ﷺ مُنْصَرَفَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وفي ذلك أحاديث كثيرة عن أنس^(١) وابن مسعود غيرهما^(٢)، وفي تلك السفارة قال النبي ﷺ لعمر: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» خَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وغيره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَبُشِّرَكَ اللَّهُ بِبُشْرَى غَيْرِهَا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدَهُمْ لَيْسَانًا مَعَ أَيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...﴾ الآية، قال قوم: يريد فتح مكة، وقال جمهور الناس، وهو الصحيح الذي تَعَضَّدُهُ قصة الحديبية: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إِنَّمَا مَعْنَاهُ هُوَ مَا يَسَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ فِي تِلْكَ الْخُرُوجَةِ مِنَ الْفَتْحِ الْبَيِّنِ الَّذِي اسْتَقْبَلَهُ، وَنَزَلَتْ السُّورَةُ مُؤْنَسَةً لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا اسْتَوْحَشُوا مِنْ رَدِّ قُرَيْشٍ لَهُمْ وَمِنْ تِلْكَ الْمَهَادَنَةِ الَّتِي جَعَلَهَا/ اللَّهُ سَبَبًا لِلْفَتْوحَاتِ، وَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي تِلْكَ السَّفَرَةِ أَنَّهُ هَادَنٌ عَدُوَّهُ رِيثَمَا يَتَّقَوْهُ هُوَ، وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ آيَةُ الْمَاءِ فِي بَثْرِ الْحَدَيْبِيَّةِ؛ حَيْثُ وَضَعَ فِيهِ

(١) أخرجه البخاري ((٥١٦/٧)) كتاب «المغازي» باب: غزوة الحديبية، قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] (٤١٧٢)، (٤٤٧/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (٤٨٣٤)، ومسلم (٤١٣/٣) كتاب «الجهاد والسير» باب: صلح الحديبية في الحديبية (٩٧، ٩٨، ٩٩)، (١٧٨٦/٩٧)، والترمذي (٣٨٦-٣٨٥/٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الفتح (٣٢٦٣)، وأحمد (١٧٣/٣)، وابن ماجه (٩٢/٢)، (٩٤) كتاب «البر والإحسان» باب: ما جاء في الطاعات وثوابها (٣٧٠-٣٧١)، والبيهقي (٢١٧/٥) كتاب «الحج» باب: المحصر يذبح ويحل حيث أحصر.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (٤٨٣٣)، والترمذي (٥/٣٨٥) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الفتح (٣٢٦٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤٦١/٦)، كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١/١٤٩٩)، وأحمد (٣١/١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٥٤/٤) كلهم عن عمر بن الخطاب.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، رواه بعضهم عن مالك مرسلاً.

سهمه، وثاب الماء حتى كَفَى الجيش، وَأَتَقَفْتُ بَيْعَةَ الرضوان، وهي الفتح الأعظم؛ قاله جابر بن عبد الله والبراء بن عازب^(١)، وبلغ هَذِيهُ مَجَلَّهُ؛ قاله الشَّعْبِيُّ^(٢)، واستقبل فتح خيبر، وامتلات أيدي المؤمنين، وظهرت في ذلك الوقت الروم على فارس، فكانت من جملة الفتح؛ فَسَّرَ بِهَا ﷺ هو والمؤمنون؛ لظهور أهل الكتاب على المجوس، وَشَرَّفَهُ اللَّهُ بِأَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، أي: وإن لم يكن ذنب.

* ت: * قال الثعلبي: قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قال أبو حاتم: هذه لام القسم، لما حُذِفَتِ النون من فعله كُسِرَتْ، وَنُصِبَ فعلها؛ تشبيهاً بلام «كي»، انتهى.

قال عياض: ومقصد الآية أنك مغفور لك، غير مؤاخذ بذنب، إن لو كان، انتهى.

قال أبو حيان^(٣): ﴿لِيَغْفِرَ﴾ اللام لِلْعَلَّةِ، وقال * ع: * هي لام الصيرورة، وقيل: هي لام القسم، وَرَدَّ بِأَنَّ لَامَ الْقَسَمِ لَا تُكْسَرُ وَلَا يُنْصَبُ بِهَا، وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْكُسْرَ قَدْ عُلِّلَ بِالْحَمْلِ عَلَى «لام كي» وَأَمَّا الْحَرَكَةُ فَلَيْسَتْ نَصْبًا؛ بل هي الفتحة الموجودة مع النون، بَقِيََتْ بَعْدَ حَذْفِهَا ذَالَةً عَلَى الْمَحذُوفِ، وَرَدَّ بِأَنَّهُ لَمْ يُحْفَظْ مِنْ كَلَامِهِمْ: وَاللَّهُ لَيَقُومُ وَلَا بِاللَّهِ لِيُخْرِجَ زَيْدَ، انتهى.

وفي «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا»: الحديبية^(٤)، انتهى.

١٧٨ وقوله سبحانه: ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: / بإظهارك وتغليبك على عَدُوِّكَ، والَرْضَوَانُ فِي الْآخِرَةِ وَالسَّكِينَةُ فِعْلَةٌ مِنَ السَّكُونِ، وَهُوَ تَسْكِينُ قُلُوبِهِمْ لَتِلْكَ الْهُدْنَةِ مَعَ قَرِيشٍ حَتَّى اطمأنَّتْ، وعلموا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

﴿لِيُخْلِصَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ

(١) أخرجه الطبري (٣٣٤/١١) برقم: (٣١٤٦١ - ٣١٤٦٢)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٨٨/٤) عن البراء بن عازب، وذكره ابن عطية (١٢٥/٥)، وابن كثير (١٨٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٨).

(٢) ذكره ابن عطية (١٢٥/٥).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٩٠/٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٧/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (٤٨٣٤)، والطبري (١١/٣٣٣) (٣١٤٥٨)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٨٨/٤)، وابن عطية، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨/٦)، وعزاه إلى ابن أبي شيبه، وابن مردويه، والبيهقي.

ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ الآية، رُوِيَ في معنى هذه الآية أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] تَكَلَّمَ فِيهَا أَهْلُ الْكُفْرِ، وَقَالُوا: كَيْفَ نَتَّبِعُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا يُفْعَلُ بِهِ وَبِالنَّاسِ؟! فَبَيَّنَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا يَفْعَلُ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَلَمَّا سَمِعَهَا الْمُؤْمِنُونَ قَالُوا: هَنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَا يَفْعَلُ بِنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَصِيرًا﴾ فَعَرَفَهُ اللَّهُ مَا يَفْعَلُ بِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَبِالْكَافِرِينَ، وَذَكَرَ النِّقَاشَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ «عَكَ» قَالَ: هَذَا الَّذِي لِرَسُولِ اللَّهِ، فَمَا لَنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هِيَ لِي وَلِأُمَّتِي كَهَاتَيْنِ، وَجَمَعَ بَيْنَ إِضْبَعَيْهِ».

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ هو من ترتيب الجمل في السرد، لا ترتيب وقوع معانيها؛ لِأَنَّ تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ.

وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ قيل: معناه: من قولهم: ﴿لَنْ يَنْقَلِبَ الرُّسُولُ...﴾ [الفتح: ١٢] الآية، وقيل: هو كونهم يعتقدون الله بغير صفاته العلى.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [أي: دائرة السوء]^(١) الذي أرادوه بكم في ظَنِّهِمْ ٧٨ ب السوء، ويقال للأقدار والحوادث التي هي في طَيِّ الزَّمان: دائرة، / لِأَنَّهَا تَدُورُ بِدَوْرَانِ الزَّمان.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَعَزَّوهُ وَنُقَرِّوهُ وَنُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا...﴾ الآية، مَنْ جَعَلَ الشَّاهِدَ مُحْصِلَ الشَّهَادَةِ مِنْ يَوْمٍ يَحْصِلُهَا، فَقَوْلُهُ: ﴿شَاهِدًا﴾ حَالُ وَاقِعَةٍ، وَمَنْ جَعَلَ الشَّاهِدَ مُؤَدِّيَ الشَّهَادَةِ فَهِيَ حَالُ مُسْتَقْبَلَةٍ، وَهِيَ الَّتِي يَسْمِيهَا النَّحَاةُ الْمُقَدَّرَةُ، وَالْمَعْنَى: شَاهِدًا عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَقْوَالِهِمْ حِينَ بَلَّغْتَ، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: أَهْلَ الطَّاعَةِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، ﴿وَنَذِيرًا﴾: مَنْ عَذَابَ اللَّهِ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ، وَمَعْنَى ﴿نَعَزَّوهُ﴾ تَعْظُمُوهُ وَتَكْبَرُوهُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢)، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٧/١١) برقم: (٣١٤٦٨)، وذكره ابن عطية (١٢٩/٥).

وغيره: ﴿تُعْزِزُوهُ﴾ بزاءين من العِزَّة^(١)، قال الجمهور: الضمير في ﴿تُعْزِزُوهُ وتوقروه﴾ للنبي ﷺ وفي ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ لله عز وجل، والبُكَرَةُ: الغُدُو، والأصيل: العشي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾: يريد في بيعة الرضوان، وهي بيعة الشجرة، حين أخذ رسول الله ﷺ الأبهة لقتال قريش، لما بلغه قتل عثمان بن عفان، رسوله إليهم، وذلك قبل أن ينصرف من الحُدَيْبِيَّةِ، وكان في ألف وأربعمائة، وبايعهم ﷺ على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد حتى قال سلمة بن الأكوع وغيره: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت^(٢)، وقال عبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نفر^(٣)، والمبايعة في هذه الآية مُفَاعَلَةٌ من البيع؛ لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ومعنى ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أَنَّ صَفَقَتَهُمُ إِنَّمَا يَمْضِيهَا ويمُنح/ الثمن الله تعالى.

* ت *: وهذا تفسير لا يَمَسُّ الآية، ولا بُدَّ، وقال الثعلبي: «إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» أي: أخذك البيعة عليهم عقد الله عليهم، انتهى، وهذا تفسير حسن.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ قال جمهور المتأولين: اليد بمعنى النعمة، إذ نعمة الله في نفس هذه المبايعة لما يستقبل من محاسنها «فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»: التي مَدُّوها لبيعتك، وقيل: المعنى: قُوَّةُ اللَّهِ فوق قُوَّاهُمْ في نصرك.

* ت *: وقال الثعلبي: «يد الله فوق أيديهم» أي: بالوفاء والعهد، وقيل: بالشواب، وقيل: «يد الله»: في المِنَّةِ عليهم «فوق أيديهم»: في الطاعة عند المبايعة، وهذا حَسَنٌ قريب من الأول.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ أي: فَمَنْ نقض هذا العهد، فإنما يجني على نفسه وَمَنْ

(١) وقرأ بها محمد بن السميع البماني.
ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٩/٥)، و«البحر المحيط» (٩٢/٨). وقال السمين: وقرأ الجحدري «تعزروه» كالعامة إلا أنه بزاءين من العزة. «الدر المصون» (١٦٠/٦).
(٢) أخرجه الطبري (٣٤٨/١١) برقم: (٣١٥٢٠) عن عمرو بن الأشج.
(٣) أخرجه الطبري (٣٤٩/١١) برقم: (٣١٥٢٧) عن قتادة، وذكره ابن كثير (١٨٦/٤) عن جابر بن عبد الله.

أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً، وهو الجنة.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَيْنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظُرُقَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ١٢ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ١٣ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٤ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِرِكُمْ إِنَّا نَأْخُذُهَا بِدُرُونَا نَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأَنْسٍ شَدِيدٍ يُقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنََوَّلُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهد وغيره^(١): هم جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ، ومن كان حول المدينة من الأعراب؛ وذلك أَنَّ النبي ﷺ حين أراد المسير إلى مَكَّة عام الحديبية مُعْتَمِرًا، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي؛ ليخرجوا معه؛ حذراً من قريش، وأحرم بالعمرة، وساق معه الهدي؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتناقل عنه هؤلاء المُخَلَّفُونَ، ورأوا أَنَّهُ [يستقبل]^(٢) عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة، وهم الأحابيش، ولم يكن يمكن إيمان هؤلاء المُخَلَّفِينَ، ففقدوا/ عن النبي - ﷺ - وتخلَّفوا وقالوا: لَنْ يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة، ففضحهم الله في هذه الآية، وأَعْلَمَ نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ بقولهم، واعتذارهم قبل أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ، فكان كما أخبر الله سبحانه، فقالوا: «شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا عَنْكَ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا» وهذا منهم خُبْنٌ وإبطال، لأنَّهم قالوا ذلك مُصَانَعَةً من غير توبة ولا ندم؛ فلذلك قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِآلِسَيْنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ثم قال تعالى لنبيِّه - عليه السلام -: ﴿قُلْ: لَهُمْ﴾ ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً﴾ أي: مَنْ يحمي منه أموالكم وأهلكم إِنْ أَرَادَ بِكُمْ فيها سوءاً، وفي مصحف ابن مسعود^(٣): إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً

(١) أخرجه الطبري (١١/٣٤٠) برقم: (٣١٤٨٤)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/١٦١)، وابن عطية (٥/١٣٠)

(٢) سقط في: د.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/١٣٠).

ثم رَدَّ عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ثم فَسَّرَ لهم الْعِلَّةَ التي تَخْلُقُوا من أجلها بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ...﴾ الآية، و﴿بوراً﴾ معناه: هلكى فاسدين، والبوار الهلاك، والبور في لغة «أزد عمان»: الفاسد، ثم رَجَى سبحانه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ ثم إِنَّ اللَّهَ سبحانه أَمَرَ نَبِيَّه [على] ما رُوِيَ [بغزو] خيبر، ووعد بفتحها، وأعلمه أَنَّ الْمُخْلَفِينَ إذا رَأَوْا مسيرَ رسولِ اللَّهِ - ﷺ - إلى يهود، وهم عَدُوٌّ مُسْتَضْعَفٌ - طلبوا الكونَ معه؛ رغبةً في عَرَضِ الدنيا والغنيمة، فكان كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ معناه: أَنْ يغيروا وعده لأهلِ الْحَدِيثِ بِغنيمة/ خيبر، وقال ابن زيد^(١): كلام الله هو قوله تعالى: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عَدُوّاً﴾، قال * ع * : وهذا ضعيف؛ لأنَّ هذه الآية نزلت في غزوة تبوك في آخر عمره ﷺ وآية هذه السورة نزلت عامَ الحديبية، وأيضاً فقد عَزَتْ جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ بعد هذه المدة مع رسول الله ﷺ يعني غزوة الفتح، فتح مَكَّة.

* ت * : قال الثعلبي: وعلى التأويل الأول عامة أهل التأويل، وهو أصوب من تأويل ابن زيد.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يريد وعده قبل باختصاصهم بها، وباقي الآية

بين -

وقوله سبحانه: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال قتادة وغيره: هم هوازن وَمَنْ حارب النبي - عليه السلام - يومَ حُنَيْنٍ^(٢)، وقال الزُّهْرِيُّ وغيره^(٣): هم أهل الرَّدَّةِ وبنو حنيفة باليمامة، وحكى الثعلبي عن رافع بن خديج أَنَّهُ قال: واللَّهِ لقد كُنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى، ولا نعلم مَنْ هم حَتَّى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أَنَّهُمْ هم المراد^(٤)، وقيل: هم فارس والروم، وقرأ الجمهور: «أَوْ يُسْلِمُونَ»^(٥) على القطع أي: أو

(١) أخرجه الطبري (٣٤٣/١١) برقم: (٣١٤٩٢)، وذكره ابن عطية (١٣١/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٥/١١) برقم: (٣١٥٠٤ - ٣١٥٠٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٩٢/٤)، وابن عطية (١٣٢/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٤٥/١١) برقم: (٣١٥٠٦)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٩٢/٤)، وابن عطية (٥/٥) (١٣٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٦/٦)، وعزاه إلى ابن المنذر، والطبراني.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٩٢/٤)، وابن عطية (١٧٦/٥).

(٥) وقرأ أبي بن كعب فيما حكى الكسائي: «أو يسلموا» بنصب الفعل على تقدير: أو يكون أن يسلموا، =

هم يسلمون دون حرب، قال ابن العربي^(١): والذين تَعَيَّنَ قتالهم حتى يسلموا مِنْ غير قبول جزية، هم العرب في أَصَحِّ الأقوال، أو المرتدون، فأما فارس والروم فلا يُقَاتَلُونَ إلى أن يسلموا؛ بل إن بذلوا الجزية قُبِلَتْ منهم، وهذه الآية إخبار بمغيب؛ فهي من معجزات النبي ﷺ، انتهى من «الأحكام».

وقوله: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أي: فيما تُدعون إليه، وباقي الآية بَيِّنٌ.

ب ٨٠

ثم ذكر تعالى أهل / الأعداء، وَرَفَعَ الحرج عنهم، وهو حكم ثابت لهم إلى يوم القيامة، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو، وأجرهم فيه مُضَاعَفٌ، وقد غزا ابن أم مكتوم [وكان يُمَسِّكُ الرَّايَةَ في بعض حروب القادسية، وقد خَرَجَ النسائي هذا المعنى، وذكر ابن أم مكتوم]^(٢) رحمه الله.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾

وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية، تشریف لهم - رضي الله عنهم - وقد تَقَدَّمَ القول في المبالغة ومعناها، وكان سبب هذه المبايعة أن رسول الله ﷺ أراد أن يبعث إلى مَكَّةَ رجلاً يُبَيِّنُ لهم أَنَّ النبي ﷺ لا يريد حرباً؛ وإنما جاء مُعْتَمِراً، فبعث إليهم خدّاش بن أُمَيَّةَ الْخَزَاعِيَّ، وحمله ﷺ على جَمَلٍ له يقال له: الثعلب، فلما كَلَّمَهُمْ عَقَرُوا الجمل، وأرادوا قتل خدّاش فمنعته الأحابيش، وبلغ ذلك النبي ﷺ فأراد بَعَثَ عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، إِنِّي أخاف قريشاً على نفسي، وليس بِمَكَّةَ من بني عَدِيٍّ أَحَدٌ يحميني، ولكن ابعث عثمان؛ فهو أَعَزُّ بِمَكَّةَ مِنِّي، فبعثه النبي ﷺ فذهب، فلقيه أبان بن سعيد بن العاصي فنزل عن دَابَّتِهِ فحمله عليها، وأجاره حتى بلغ

= ومثله قول امرئ القيس [الطويل]:

فقلت له لا تبك عينك إنما تحاول ملكاً أو تموت فتُغْذَرَا

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٢/٥)، و«البحر المحيط» (٩٤/٨)، وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، وهي في «الدر المصون» (١٦٢/٦).

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٧٠٥/٤).

(٢) سقط في: د.

الرسالة، فقالوا له: **إِنْ شِئْتَ يَا عَثْمَانُ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ قُطُفَ بِهِ**، فقال: ما كنت لأطوف حتى يطوف به النبي ﷺ ثم **إِنْ بَنِي سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِي حَبَسُوا عَثْمَانَ عَلَى جِهَةِ الْمَبْرَةِ، فَأَبْطَأَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَتِ الْحُدَيْبِيَّةُ مِنْ مَكَّةَ عَلَى نَحْوِ عَشْرَةِ أَمْيَالٍ، فَصَرَخَ صَارِخٌ مِنْ عَسْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: قُتِلَ عَثْمَانُ**، فجثا رسول الله ﷺ والمؤمنون، وقالوا: لا نبرح - **إِنْ كَانَ** ١٨١ هذا - حتى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ، ثم دعا الناس إلى البيعة فبايعوه ﷺ ولم يَتَخَلَّفْ عَنْهَا إِلَّا الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ الْمَنَاظِقَ، وجعل النبي ﷺ يَدُهُ عَلَى يَدِهِ، وقال: **هَذِهِ يَدُ لِعَثْمَانَ^(١)**، وهي خير، ثم جاء عثمَانُ سالماً والشجرة سمرة كانت هنالك ذهبت بعد سنين.

وقوله سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال الطبري^(٢)، ومنذر بن سعيد: معناه: من الإيمان وصِحِّهِ، والحب في الدين والحزب فيه، وقرأ الناس: «وَأَتَابَهُمْ»^(٣) قال هارون: وقد قرأت: «وَأَتَاهُمْ» بالتاء بنقطتين^(٤)، والفتح القريب: خير، والمغانم الكثيرة: فتح خير.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية، مخاطبة للمؤمنين، ووعد بجميع المغانم التي أخذها المسلمون ويأخذونها إلى يوم القيامة؛ قاله مجاهد وغيره^(٥).

وقوله: ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يريد خير، وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة: خير^(٦)، وهذه إشارة إلى البيعة والتخلص من أمر قريش، وقاله ابن عباس^(٧).

(١) ورد ذكر البيعة في حديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٢٧١/٦) كتاب «فرض الخمس» باب: إذا بعث الإمام رسولاً في حاجة أو أمره بالمقام هل يسهم له؟ (٣١٣٠) وأطرافه في (٣٦٩٨، ٣٧٠٤، ٤٠٦٦، ٤٥١٣، ٤٥١٤، ٤٦٥٠، ٧٠٩٥)، والترمذي (٦٢٩/٥)، كتاب «المناقب» باب: في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧٠٦)، وأحمد (١٢٠/٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٥٠/٩) (٤٥٠٩٩/١٨٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٥٠/١١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٤/٥)، و«البحر المحيط» (٩٦/٨).

(٤) قرأ بها الحسن ونوح القاري.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٤٢)، و«البحر المحيط» (٩٦/٨).

(٥) أخرجه الطبري (٣٥١/١١) برقم: (٣١٥٣٣)، وذكره ابن عطية (١٣٤/٥)، وابن كثير (١٩١/٤)، والسيوطي في «الدر الثمور» (٧٠/٦).

(٦) أخرجه الطبري (٣٥١/١١) برقم: (٣١٥٣٤) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (١٣٥/٥).

(٧) أخرجه الطبري (٣٥١/١١) برقم (٣١٥٣٧) وذكره ابن عطية (١٣٥/٥)، وابن كثير (١٩١/٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ قال قتادة: يريد كف أيديهم عن أهل المدينة في مغيب النبي ﷺ والمؤمنين^(١)، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً﴾ أي: علامة على نصر المؤمنين، وحكى الثعالبي عن قتادة أن المعنى: كف الله غطفان ومن معها حين جاؤوا لنصر خيبر^(٢)، وقيل: أراد كف قريشاً.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١) وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْنَرُ ثُمَّ لَا يَحْدُوثُ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنْ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُضَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥)

وقوله سبحانه: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ قال ابن عباس: الإشارة إلى بلاد فارس ٨١ ب والروم^(٣)، وقال قتادة والحسن: الإشارة إلى مكة^(٤)، وهذا قول يتسق معه المعنى ويتأيد.

وقوله: قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا معناه: بالقُدْرَةِ وَالْقَهْرِ لأهلها، أي: قد سبق في علمه ذلك، وظهر فيها أنهم لم يقدرُوا عليها.

* ت *: قوله: وظهر فيها إلى آخره كلام غير محصل، ولفظ الثعالبي: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أي: وعدكم فتح بلدة أخرى لم تقدرُوا عليها، قد أحاط الله بها لكم حتى يفتحها عليكم، وقال ابن عباس^(٥): علم الله أنه يفتحها لكم، قال مجاهد^(٦): هو ما فتحوه حتى اليوم، ثم ذكر بَيِّنَةُ الأقوال، انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٣٥٢/١١) برقم: (٣١٥٣٨ - ٣١٥٣٩)، وذكره ابن عطية (١٣٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧٧/٦)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) ذكره ابن عطية (١٣٥/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٥٣/١١) رقم (٣١٥٤١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٩٨/٤) وابن عطية (١٣٥/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٣٥٤/١١) برقم: (٣١٥٥١ - ٣١٥٥٢) عن قتادة، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤).

(٥) (١٩٨)، وابن عطية (١٣٥/٥)، وابن كثير (١٩١/٤) عن قتادة، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦).

(٦) وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (١٩٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١٩٢/٤).

(٦) أخرجه الطبري (٣٥٣/١١) برقم: (٣١٥٤٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (١٩٨/٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني^(١): كفار قريش في تلك السنة ﴿لَوَلَوْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

وقوله: سنة الله أي: كَسُنَّةِ الله، إشارة إلى وقعة بدر، وقيل: إشارة إلى عادة الله من نصر الأنبياء، ونصب «سنة» على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ...﴾ الآية، رُوِيَ في سببها أَنَّ قريشاً جمعت جماعة من فتيانها، وجعلوهم مع عَكْرِمَةَ بن أبي جهل، وخرجوا يطلبون غزاة في عسكر النبي ﷺ واختلف الناس في عدد هؤلاء اختلافاً متفاوتاً؛ فلذلك اختصرته، فلماً أَحَسَّ بهم المسلمون بعث رسول الله ﷺ في أَثَرِهِمْ خالد بن الوليد، وَسَمَّاهُ يومئذٍ سَيْفَ الله في جملة من الناس، فَفَرُّوا أمامهم، حَتَّى أَدخلوهم بُيُوتَ مَكَّةَ، وَأَسْرَوْا منهم جملة، فَمَسَقُوا إلى النبي ﷺ فَمَنْ عَلَيْهِمْ وَأَطلقهم^(٢)؛ قال الواحدي: وكان ذلك سَبَبَ الصلح بينهم، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿وَصَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: منعوكم من العمرة، وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خرج من المدينة إلى الحديبية في ١٨٢ ذي القعدة سنة ست يريد العمرة وتعظيم البيت وخرج معه بمائة بدنة وقيل بسبعين فأجمعت قريش لحربه وغوروا المياه التي تقرب من مكة فجاء ﷺ حتى نزل على بئر الحديبية وحينئذ وضع سهمه في الماء فجرى غمراً حتى كفى الجيش ثم بعث ﷺ إليهم عثمان كما تقدم وبعثوا هم رجالاً آخرهم سهيل بن عمرو وبه انعقد الصلح على أن ينصرف ﷺ ويعتمر من قابل فهذا صداهم إياه وهو مستوعب في السير، و﴿الهدى﴾ معطوف على الضمير في «صدوكم» [أي] وصدوا الهدى، و﴿معكوفاً﴾ حال، ومعناه: محبوساً، تقول عكفت الرجل عن حاجته إذا حبسته، وحبس الهدى من قبل المشركين هو بصداهم، ومن قبل المسلمين لرؤيتهم ونظَرِهِمْ في أمرهم؛ لأجل أَنَّ يَبْلُغُ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، وهو مَكَّةُ وَالْبَيْتُ، وهذا هو حَبْسُ المسلمين، وذكر تعالى الْعِلَّةَ في أَنَّ صَرَفَ المسلمين، ولم يمكنهم من دخول مَكَّةَ في تلك الوجهة، وهي أَنَّهُ كَانَ بمكة مؤمنون من رجال ونساء خَفِيَ إيمانهم، فَلَوْ استباح المسلمون بيضتها أهلكوا أولئك المؤمنين؛ قال قتادة^(٣): فدفع الله عن المشركين بأولئك

(١) في د: يتغي.

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٦/١١) برقم: (٣١٥٦٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٥/٦)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبيز.

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٣/١١) برقم: (٣١٥٧٣)، وذكره البغوي (٢٠٤/٤)، وابن عطية (١٣٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٦/٦)، وعزاه لابن جرير.

المؤمنين، والوَطْءُ هنا: الإهلاك بالسيف وغيره؛ ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضِرٍّ^(١)» قال أبو حيان^(٢): «وَلَوْلَا رِجَالُ» جوابها محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، أي: ما كَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ، انتهى، والمَعْرَةُ: السوء والمكروه اللاحق؛ مأخوذ من العُرِّ والعُرَّة وهو الجَرْبُ الصَّغْبُ اللَّازِمُ، وأُخْتَلَفَ/ في تعيين هذه المَعْرَةِ، فقال الطبري^(٣): وَحَكَاهُ الثَّعْلَبِيُّ: ٨٢ ب هي الكَفَّارَةُ، وقال مُنْذِرُ: المَعْرَةُ: أَنْ يَعْيِبَهُمُ الْكُفَّارُ، ويقولوا: قتلوا أهل دينهم، وقال بعضُ المفسرين: هي المَلَامُ، والقولُ في ذلك، وتَأَلَّمَ النَّفْسُ في باقي الزمان، وهذه أقوالٌ حَسَنٌ، وجواب «لولا» محذوف، تقديره: لولا هؤلاءِ لدخلتم مَكَّةَ، لكن شَرَفْنَا هؤلاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ رَحِمْنَاهُمْ، ودفعنا بسببهم عن مَكَّةَ ليدخل الله، أي: لِيُبَيِّنَ لِلنَّازِلِ أَنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ أَوْ، أي: لِيَقَعَ دُخُولُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ودفعه عنهم.

* ت * وقال الثَّعْلَبِيُّ: قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ» يحتمل أَنْ يريد بغير علمٍ مِمَّنْ تَكَلَّمَ بهذا، والمَعْرَةُ: المشقة «لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» أي: في دين الإسلام «مَنْ يَشَاءُ»: من أهل مكة قبل أن تدخلوها، انتهى.

وقوله تعالى: «لَوْ تَزَيَّلُوا» أي: لو ذهبوا عن مَكَّةَ؛ تقول: زِلْتُ زَيْدًا عن موضعه إِزَالَةً، أي: أذهبته، وليس هذا الفعل من «زَالَ يَزُولُ»، وقد قيل: هو منه، وقرأ أبو حيوة

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢/٢) كتاب «الاستسقاء» باب: دعاء النبي ﷺ: «واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» (١٠٠٦)، (٤٨١/٦) كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: قول الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِلِينَ» (٣٣٨٦)، (٥٩٦/١٠) كتاب «الأدب» باب: تسمية الوليد (٦٢٠٠)، (١١/١٩٧) كتاب «الدعوات» باب: تكرير الدعاء (٦٣٩٣)، ومسلم (١٩٠/٣ - ١٩١) كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة، إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٢٩٤، ٢٩٤/٢٩٥)، (٦٧٥/٢٩٥)، وابن حبان (٣٠١/٥) كتاب «الصلاة» باب: صفة الصلاة (١٩٦٩، ١٩٧٢)، باب: فصل في القنوت (١٩٨٦)، وأبو داود (٤٥٧/١٠) كتاب «الصلاة» باب: القنوت في الصلاة (١٤٤٢)، وأحمد (٢٣٩/٢، ٢٥٥، ٢٧١، ٣٩٦، ٤٠٧، ٤١٨، ٥٠٢، ٥٢١)، وابن ماجه (١/٣٩٤) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب: ما جاء في القنوت في صلاة الفجر (١٢٤٤)، والبيهقي (١٩٧/٢، ١٩٨، ٢٠٠) كتاب «الصلاة» باب: القنوت في الصلاة عند النازلة، (٢٠٧/٢) كتاب «الصلاة» باب: الدليل على أنه يفتن بعد الركوع، (٢٤٤/٢) كتاب «الصلاة» باب: ما يجوز من الدعاء في الصلاة، (١٤/٩) كتاب «السير» باب: ما جاء في عذر المستضعفين، والدارقطني (٣٨/٢) كتاب «الوتر»، وأنه ليس بفرض، والوتر على البعير، باب: صفة القنوت وبيان موضعه برقم: (٧)، والحميدي (٤١٩/٢) (٩٣٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٧٦/٤).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٩٧/٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٦٣/١١).

وقتادة: «تَرَايَلُوا» بـالف^(١)، أي: ذهب هؤلاء عن هؤلاء، وقال النَّحَّاس: وقد قيل: إنَّ قوله: «وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ...» الآية: يريد: مَنْ في أصلاب الكافرين مِمَّنْ سَيُؤْمِنُ في غابر الدهر، وحكاه الثعلبيُّ والنَّقَّاش عن عليِّ بنِ أبي طالب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ مرفوعاً، والْحَمِيَّةُ التي جعلوها هي حَمِيَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ في الصَّدِّ؛ قال الزُّهْرِيُّ: وهي حمية سُهَيْلٍ وَمَنْ شَاهَدَ مِنْهُمْ عَقْدَ الصُّلْحِ، وجعلها سبحانه حَمِيَّةً جاهلية، لأنَّها كانت منهم بغير حُجَّةٍ، إذ لم يأتِ ﷺ مُحَارِباً لهم، وإنما جاء معتمراً معظماً لبيت الله، والسكينة: هي الطَّمَأْنِينَةُ إلى أمرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، والثقة بوعده الله، والطاعة، وزوالُ/ الأَثَقَةِ التي لحقت ١٨٣ عُمَرَ وغيره، «وَكَلِمَةُ التَّقْوَى»: قال الجمهور: هي لا إله إلا الله، ورُوي ذلك عن النبي ﷺ وفي مصحف ابن مسعود^(٢): «وَكَانُوا أَهْلَهَا [وَأَحَقَّ بِهَا] والمعنى: كانوا أهلها» على الإطلاق في علم الله وسابق قضائه لهم، وروى أبو أمامة عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا نَادَى الْمُتَنَادِي فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَاسْتَجِيبَ الدُّعَاءُ، فَمَنْ نَزَلَ بِهِ كَرْبٌ أَوْ شِدَّةٌ فَلْيَتَحَيَّنِ الْمُتَنَادِي، فَإِذَا كَبَّرَ كَبْرًا، وَإِذَا تَشَهَّدَ تَشَهُدًا، وَإِذَا قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، وَإِذَا قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، ثُمَّ يَقُولُ: رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الصَّادِقَةُ الْمُسْتَجَابُ لَهَا، دَعْوَةُ الْحَقِّ وَكَلِمَةُ التَّقْوَى، أَخْبِنَا عَلَيْهَا، وَأَمِئْنَا عَلَيْهَا، وَابْعَثْنَا عَلَيْهَا، وَاجْعَلْنَا مِنْ خِيَارِ أَهْلِهَا أَخْيَاءَ وَأَمْوَاتًا، ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ حَاجَتَهُ» رواه الحاكم في «المُسْتَدْرَكِ»، وقال: صحيح الإسناد^(٣)، انتهى من «السَّلَاحِ».

فقد بيَّنَ ﷺ في هذا الحديث معنى «كلمة التقوى» على نحو ما فُسرَ به الجمهور، والصحيح أنه يعوض عن الْحَيَعَلَةِ الْحَوْقَلَةِ؛ ففي «صحيح مسلم»: «ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ^(٤)» الحديث، انتهى.

وقوله تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» إشارة إلى علمه بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية؛ فيُروى أَنَّهُ لما انعقد

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٧/٥)، و«البحر المحيط» (٩٨/٨)، وزاد نسبتها إلى ابن أبي عتبة، وابن مقسم، وابن عون. وهي في «الدر المصون» (١٦٤/٦).

(٢) وهي في مختصر ابن خالويه ص: (١٤٣) هكذا: وكانوا أهلها أحق من غير واو. ونسبها إلى أصحاب عبد الله بن مسعود. وكما أثبتها «المصنف» عند ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣٨/٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٥٤٦/١ - ٥٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٣/١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٣٢١/٢) كتاب «الصلاة» باب: استحباب القول مثل قول المؤذن، برقم: (١٢/٣٨٥).

٨٣ ب الصلحُ آمِنُ الناسُ في تلك المدة الحرب والفتنة، وامتزجوا وعلت دعوة الإسلام، / وانقاد إلى الإسلام كُلُّ مَنْ له فهم، وزاد عدد الإسلام في تلك المدة أضعاف ما كان قبل ذلك؛ قال * ع *^(١): «ويقتضي ذلك أَنَّ النبي ﷺ، كان في عام الحديبية في أَرْبَعِ عَشْرَةِ مائة، ثم سار إلى مَكَّةَ بعد ذلك بعامين في عَشْرَةِ آلاف فارس - ﷺ -».

* ت * : المعروف عَشْرَةُ آلاف، وقوله فارس ما أَظْنُهُ يَصِحُّ فتأمله في كتب السيرة.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨)

وقوله سبحانه: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ...» الآية: «رُؤْيَ في تفسيرها أَنَّ النبي ﷺ رَأَى في مَنَامِهِ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى الْعُمْرَةِ أَنَّهُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، بَعْضُهُمْ مُحَلِّقُونَ، وَبَعْضُهُمْ مُقَصِّرُونَ»^(٢) وقال مجاهد: رَأَى ذلك بالحديبية فأخبر الناس بهذه الرؤيا، فَوَثَّقَ الجميعُ بِأَنَّ ذلك يكون في وجهتهم تلك، وقد كان سَبَقَ في علم الله أَنَّ ذلك يكون، لكن ليس في تلك الوجهة، فَلَمَّا صَدَّهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ قال المنافقون: وأين الرؤيا؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء من ذلك، فأجابهم النبي ﷺ بِأَنَّ قَالَ: «وَهَلْ قُلْتُ لَكُمْ: يَكُونُ ذَلِكَ فِي عَامِنَا هَذَا»، أَوْ كَمَا قَالَ، ونطق أبو بكر قبل ذلك بنحوه^(٣)، ثم أنزل الله عز وجل: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ...» الآية، واللام في: «لَتَدْخُلَنَّ» لامُ الْقَسَمِ.

وقوله: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» اخْتَلَفَ في هذا الاستثناء، فقال بعض العلماء: إِنَّمَا استثنى ١٨٤ من حيثُ إِنَّ كل واحد من الناس متى رَدَّ هذا الوعد إلى نفسه، / أمكن أَنْ يَتِمَّ الوعد فيه وألَّا يَتِمَّ؛ إذ قد يموت الإنسان أو يمرض لحينه، فليذلك استثنى عز وجل في الجملة؛ إذ فيهم - ولا بُدَّ - مَنْ يموت أو يمرض.

* ت * : وقد وقع ذلك حسبا ذكر في السَّيَرِ، وقال آخرون: هو أخذ من

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٨/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٧/١١) برقم: (٣١٦٠٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٩/٦).

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٧/١١) برقم: (٣١٦٠١)، وذكره ابن عطية (١٣٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٩/٦)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل».

اللَّهُ تعالى [على عباده] ^(١) بأدبه في استعمال الاستثناء في كل فعل .

* ت * : قال ثعلب : استثنى الله تعالى فيما يعلم ؛ ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، وقيل غير هذا ، ولما نزلت هذه الآية عَلِمَ المسلمون أَنَّ تلك الرؤيا ستخرج فيما يستأنفونه من الزمان ، فكان كذلك ، فخرج ﷺ في العام المُقْبِلِ واعتمر .

وقوله سبحانه : ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يريد ما قَدَّرَهُ من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه .

وقوله : ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي : من قبل ذلك ، وفيما يدنو إليكم ، واختلف في الفتح القريب ، فقال كثير من العلماء : هو بيعة الرضوان وصلح الحديبية ، وقال ابن زيد ^(٢) : هو فتح خيبر .

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَوَرَضُوا لَهُمْ سِيَمَاءَهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩)

وقوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قال جمهور الناس : هو ابتداء وخبر ، استوفى فيه تعظيم منزلة النبي ﷺ .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ابتداء ، وخبره : ﴿أَشِدَّاءُ﴾ و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر ثانٍ ، وهذا هو الراجح ؛ لِأَنَّهُ خبر مضاد لقول الكفار : «لا تكتب مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» ، ﴿والذين معه﴾ إشارة إلى جميع الصحابة عند الجمهور ، وحكى الثعلبي عن ابن عباس أَنَّ الإشارةَ إِلَى مَنْ شَهِدَ الحديبية ^(٣) .

* ت * : ووصف تعالى الصحابة بأنَّهُم رحماء بينهم ، وقد جاءت أحاديث صحيحة في تراحم المؤمنين ؛ حدثنا الشيخ ولي الدين العراقي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ؛ اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ» ٨٤ ب

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٨/١١) برقم: (٣١٦١٠)، وذكره ابن عطية (٥/١٤٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧٩/٦)، وعزاه لابن جرير.

(٣) ذكره ابن عطية (٥/١٤٧).

يَزَحْمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١) وأخرج الترمذي من طريق أبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُنَزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ [قَلْبٍ] شَقِيٍّ»^(٢) وَخَرَجَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَا يَزَحِمُ النَّاسَ، لَا يَزَحِمُهُ اللَّهُ»^(٣) قَالَ أَبُو عَيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَهَذَا الْحَدِيثُ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَرِيرٍ، وَخَرَجَ مُسْلِمٌ أَيْضاً مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «مَنْ لَا يَزَحِمُ لَا يَزَحِمُ»^(٤) انْتَهَى، وَبِالْجُمْلَةِ: فَأَسْبَابُ الْأَلْفَةِ وَالتَّرَاحُمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ كَثِيرَةٌ، وَلَوْ بَأَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ، وَكَذَلِكَ بِذُلِّ السَّلَامِ وَطَيْبِ الْكَلَامِ، فَالْمَوْفَقُ لَا يَحْتَقِرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي كِتَابِ «خَتَمِ الْأَوْلِيَاءِ» لَهُ بِسَنَدِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَحْسَنُهُمَا بِشِراً بِصَاحِبِهِ» أَوْ قَالَ: «أَكْثَرُهُمَا بِشِراً بِصَاحِبِهِ، فَإِذَا

(١) أخرجه أبو داود (٧٠٣/٢) كتاب «الأدب» باب: في الرحمة (٤٩٤١)، والترمذي (٣٢٣/٤ - ٣٢٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في رحمة المسلمين (١٩٢٤)، وأحمد (١٦٠/٢)، والحاكم في «المستدرک» (١٥٩/٤)، والبيهقي (٤١/٩) كتاب «السير» باب: ما على الوالي من أمر الجيش، والحميدي (٢٦٩/٢) (٥٩١).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٠٣/٢) كتاب «الأدب» باب: في الرحمة (٤٩٤٢)، والترمذي (٣٢٣/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في رحمة المسلمين (١٩٢٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٢/١٠) كتاب «الأدب» باب: رحمة الناس والبهائم (٦٠١٣)، ومسلم (١٨٠٩/٤) كتاب «الفضائل» باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه وفضل ذلك (٦٦، ٢٣١٩/٦٦)، والطبراني (٣٥٥ - ٣٥٤/٢) (٣٥٥ - ٢٤٩٢ - ٢٤٩٣ - ٢٤٩٥)، والبيهقي (١٦١/٨) كتاب «قتال أهل البغي» باب: ما على السلطان من القيام فيما ولي بالقسط والنصح للرعية، والرحمة بهم، والشفقة عليهم والعفو عنهم ما لم يكن حداً، والحميدي (٣٥١/٢) (٨٠٢)، وأحمد (٣٥٨/٤)، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٥.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٠/١٠) كتاب «الأدب» باب: من ترك صبية غيره حتى تلعب به، أو قبلها أو مازحها (٥٩٩٧)، ومسلم (١٨٠٨/٤ - ١٨٠٩) كتاب «الفضائل» باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٦٥، ٢٣١٨/٦٥)، وأبو داود (٧٧٧/٢) كتاب «الأدب» باب: في قبلة الرجل ولده (٥٢١٨)، والترمذي (٣١٨/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في رحمة الولد (١٩١١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥) (٩١)، وابن حبان (٢٠٢/٢) كتاب «البر والإحسان» باب: الرحمة (٤٥٧)، (٤٦٣)، (٤٠٦/١٢ - ٤٠٧) كتاب «الحظر والإباحة» باب: ذكر الإباحة أن يقل الرجل ولده، وولد ولده وما بعده (٥٥٩٤، ٥٥٩٦)، (٤٣١/١٥) كتاب «إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة» باب: ذكر ملاعبة المصطفى ﷺ للحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٦٩٧٥)، وأحمد (٢٢٨/٢)، ٢٤١، ٢٦٩، (٥١٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

تَصَافَحَا، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، تَسْعُونَ مِنْهَا لِلَّذِي بَدَأَ، وَعَشْرَةٌ لِلَّذِي صُفِّحَ^(١)، انتهى.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا﴾ أي: ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم و﴿يبتغون﴾: معناه: يطلبون.

وقوله سبحانه: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ قال مالك بن أنس: كانت جباههم مَثْرَبَةً من كثرة السجود في التراب؛ وقاله عكرمة^(٢)، ونحوه لأبي العالية^(٣)، وقال ابن عباس وخالد الحنفي/ وعطية: هو وعد بحالهم يوم القيامة من الله تعالى، يجعل لهم نوراً من أثر السجود^(٤)، قال ع^(٥): * كما يجعل غُرَّةً من أثر الوضوء، حسبما هو في الحديث، ويؤيد هذا التأويل اتصال القول بقوله: «فَضْلًا مِنَ اللَّهِ» وقال ابن عباس: السَّمْتُ الْحَسَنُ هو السِّمَا، وهو خشوع يبدو على الوجه^(٥)، قال ع^(٦): * وهذه حاله مُكْثِرِي الصَّلَاةِ؛ لَأَنَّهَا تَنْهَاهُمْ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وقال الحسن بن أبي الحسن، وشُمْرُ بْنُ عَطِيَّةَ: «السِّمَا»: بَيَاضٌ وَصْفَرَةٌ وَتَبْهِيْجٌ يَعْتَرِي الْوُجُوْهَ مِنَ السَّهْرِ^(٧)، وقال عطاء بن أبي رباح، والربيع بن أنس: «السِّمَا»: حُسْنٌ يَعْتَرِي وَجُوْهَ الْمُصَلِّينَ^(٨)، قال ع^(٩): * ومن هذا الحديث الذي في «الشَّهَابِ»: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنَ وَجْهُهُ

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (١١٤/٩) (٢٥٢٤٥)، وعزاه لأبي الشيخ، والحكيم الترمذي عن عمر.

(٢) أخرجه الطبري (٣٧١/١١) عن عكرمة برقم: (٣١٦٣٢)، وذكره البغوي (٢٠٦/٤) عن عكرمة، وأبي العالية، وابن عطية (١٤١/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٧٠/١١) عن ابن عباس برقم: (٣١٦١٣)، وعن خالد الحنفي برقم: (٣١٦١٤)، وذكره البغوي (٢٠٦/٤) عن ابن عباس، وابن عطية (١٤١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٨٢)، وعزاه للبخاري في «تاريخه»، وابن نصر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤١/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٣٧٠/١١) برقم: (٣١٦٢١)، وذكره البغوي (٢٠٦/٤)، وابن عطية (١٤١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٠٤/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٨١)، وعزاه لمحمد بن نصر في كتاب «الصلوة»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه».

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤١/٥).

(٧) أخرجه الطبري (٣٧١/١١) عن الحسن برقم: (٣١٦٢٨)، وعن شمر بن عطية برقم: (٣١٦٣٠)، وذكره ابن عطية (١٤١/٥).

(٨) ذكره البغوي (٢٠٦/٤)، وذكره ابن عطية (١٤١/٥).

(٩) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤١/٥).

بِالنَّهَارِ^(١) قَالَ * ع^(٢) *: وهذا حديث غَلَطَ فيه ثابت بن موسى الزاهد، سَمِعَ شَرِيكَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي سَفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ، ثُمَّ نَزَعَ شَرِيكَ لَمَّا رَأَى ثَابِتًا الزَّاهِدَ فَقَالَ يَعْنِيهِ: مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ، حَسَنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ، فَظَنَّ ثَابِتٌ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَدِيثٌ مَتْرُكٌ عَلَى السَّنَدِ الْمَذْكُورِ، فَحَدَّثَ بِهِ عَنْ شَرِيكَ.

* ت * : واعلم أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ جَعَلَ حُسْنَ الثَّنَاءِ عِلَامَةً عَلَى حَسَنِ عُقْبَى الدَّارِ، وَالْكُونِ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْأَبْرَارِ، جَاءَ بِذَلِكَ صَحِيحُ الْأَثَارِ عَنِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ؛ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَ«مُسْلِمٍ» عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَتْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَجِبَتْ، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَتْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: / وَجِبَتْ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا وَجِبَتْ؟ فَقَالَ: هَذَا أَتَيْنْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتَيْنْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(٣)، انْتَهَى، وَنَقَلَ صَاحِبُ «الْكُوكَبِ الدَّرِّيِّ» مِنْ مَسْنَدِ الْبَزَّازِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُوشِكُ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِمَ؟ قَالَ: بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ»^(٤)، انْتَهَى، وَنَقَلَهُ صَاحِبُ كِتَابِ «التَّشَوُّفِ إِلَى رِجَالِ التَّصَوُّفِ» وَهُوَ الشَّيْخُ الصَّالِحُ أَبُو يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنَ يَحْيَى التَّاذِلِي، عَنْ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَلَفْظُهُ: وَخَرَجَ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه (٤٢٢/١) كِتَابَ «إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالسَّنةِ فِيهَا» بَاب: مَا جَاءَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ (١٣٣٣)، وَالْخَطِيبُ فِي «تَارِيخِ بَغْدَادِ» (٣٤١/١) (٢٥٧)، (٣٨/١٣) (٦٩٩٥)، وَابْنُ الشَّجَرِيِّ فِي «أَمَالِيهِ» (١/٢٠٥، ٢٠٨).

قَالَ الْعَجْلُونِي فِي «كُشْفِ الْخُفَاءِ وَمَزِيلِ الْإِلْيَاسِ» (٣٣٨/٢) (٢٥٨٧): لَا أَصْلَ لَهُ، وَإِنْ رَوَى مِنْ طَرِيقٍ عِنْدَ ابْنِ مَاجَهَ بَعْضُهَا عَنْ جَابِرٍ، وَأُورِدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا عَنِ الْقَضَاعِيِّ وَغَيْرِهِ، قَالَ: وَلَكِنْ قَرَأْتُ بِخَطِّ شَيْخِنَا فِي بَعْضِ أَجْوِبَتِهِ أَنَّهُ ضَعِيفٌ، بَلْ قَوَاهُ بَعْضُهُمْ؛ وَالْمَعْتَمَدُ الْأَوَّلُ، وَأُطْنَبُ ابْنِ عَدِي فِي رَدِّهِ، قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ: ظَنُّ الْقَضَاعِيِّ أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ لَكثَرَةِ طَرِيقِهِ، وَهُوَ مُعْذَرٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَافِظًا انْتَهَى. وَاتَّفَقَ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ: ابْنُ عَدِي، وَالدَّارِقُطْنِي، وَالْعَقِيلِي، وَابْنُ حِبَانَ، وَالْحَاكِمُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ شَرِيكَ لِثَابِتٍ، وَقَالَ ابْنُ عَدِي: سَرَقَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ ثَابِتٍ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَبْرَةَ الشَّرِيكِيِّ، وَعَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ بَحْرٍ، وَغَيْرَهُمَا، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ الْمَكِّي فِي «الْفَتَاوَى»: أَطْبَقُوا عَلَى أَنَّهُ مُضَوِّعٌ، مَعَ أَنَّهُ فِي «سَنَنِ ابْنِ مَاجَهٍ».

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (١٤١/٥).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٠/٣) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ» بَاب: ثَنَاءُ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ (١٣٦٧) (٢٩٩/٥) كِتَابَ «الشَّهَادَاتِ» بَاب: تَعْدِيلُ كَمْ يَجُوزُ؟ (٢٦٤٢)، وَمُسْلِمٌ (٦٥٥/٢) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ» بَاب: فِيمَنْ يَتَسَنَّى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ (٦٠، ٩٤٦/١)، وَابْنُ مَاجَه (٤٧٨/١) كِتَابَ «الْجَنَائِزِ» بَاب: مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ (١٤٩١).

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه (١٤١١/٢) كِتَابَ «الزَّهْدِ» بَاب: الثَّنَاءُ الْحَسَنُ (٤٢٢١)، وَابْنُ بَيْهَقٍ (١٢٣/١٠) كِتَابَ «آدَابِ الْقَاضِي» بَاب: اعْتِمَادُ الْقَاضِي عَلَى تَرْكِةِ الْمُشْرِكِينَ وَجَرَحَهُمْ، وَالْحَاكِمُ (١٢٠/١). قَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ.

أبو بكر بن أبي شيبة أَنَّهُ قَالَ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ: «تَوَشَّكُوا أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ قَالَ: خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، وَبِالْثَّنَاءِ السَّيِّئِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ»^(١). ومن كتاب «التشوف» قال: وَخَرَجَ الْبَزَّازُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: مَنْ لَا يَمُوتُ حَتَّى تُمْلَأَ مَسَامِعُهُ مِمَّا يُحِبُّهُ، قِيلَ: فَمَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قَالَ: مَنْ لَا يَمُوتُ حَتَّى تُمْلَأَ مَسَامِعُهُ مِمَّا يَكْرَهُ» قال: وَخَرَجَ الْبَزَّازُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَذْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، وَأَتَاهُ آخَرُ، فَقَالَ: مَتَى أَعْلَمُ أَنِّي مُحْسِنٌ؟ قَالَ: إِذَا قَالَ جِيرَانُكَ: إِنَّكَ مُحْسِنٌ، فَإِنَّكَ مُحْسِنٌ، وَإِذَا قَالُوا: إِنَّكَ مُسِيءٌ، فَإِنَّكَ مُسِيءٌ»^(٢) انتهى، ونقل القرطبي في «تذكرته» عن عبد الله بن السائب قال: مَرَّتْ جَنَازَةٌ بِابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ لِرَجُلٍ: قُمْ فَانْظُرْ أَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هُوَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا يُدْرِينِي أَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هُوَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: انْظُرْ مَا ثَنَاءَ النَّاسِ عَلَيْهِ، فَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، / انتهى وبالله التوفيق، ١٨٦ وإياه نستعين.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ...﴾ الآية: قال مجاهد وجماعة من المتأولين: المعنى: ذلك الوصف هو مَثَلُهُمْ في التوراة ومثلهم في الإنجيل^(٣)، وتم القول، و﴿كَزَرَ﴾ ابتداء تمثيل، وقال الطبري وحكاه عن الضحاك^(٤): المعنى: ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة، وتم القول، ثم ابتداء ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرَ﴾^(٥).

* ت * وقيل غير هذا، وأبينها الأول، وما عداه يفتقر إلى سند يقطع الشك.

وقوله تعالى: ﴿كَزَرَ﴾ على كل قول هو مَثَلٌ للنبي - عليه السلام - وأصحابه في أَنَّ النبي - عليه السلام - بُعِثَ وَخَذَهُ فَكَانَ كَالزَّرْعِ حَبَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ فَهَمَّ كَالشَّطَاءِ، وَهُوَ فَرَاخُ السُّنْبُلَةِ الَّتِي تَنْبَتُ حَوْلَ الْأَصْلِ؛ يُقَالُ: أَشْطَأَتِ الشَّجَرَةُ؛ إِذَا أَخْرَجَتْ غُصُونَهَا، وَأَشْطَأَ الزَّرْعُ؛ إِذَا أَخْرَجَ شَطْأَهُ، وَحَكَى النِّقَاشُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الزَّرْعُ: النَّبِيُّ ﷺ، ﴿فَآزَرَهُ﴾: عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾: بِأَبِي بَكْرٍ، ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ﴾: بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ.

(١) أخرجه أحمد (٤٦٦/٦)، والبيهقي (١٢٣/١٠) كتاب «آداب القاضي» باب: اعتماد القاضي على تركية المشركين وجرحهم.

(٢) تقدم تخريجه شاهداً لحديث: «لا تغضب».

(٣) أخرجه الطبري (٣٧٣/١١) برقم: (٣١٦٤١)، وذكره ابن عطية (١٤٢/٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٧٢/١١).

(٥) أخرجه الطبري (٣٧٢/١١) برقم: (٣١٦٣٥)، وذكره ابن عطية (١٤٢/٥).

* ت * : وهذا لَيِّنُ الإسناد والمتن، كما ترى، واللَّه أعلم بِصِحَّتِهِ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَآزَرَهُ﴾ له معنيان:

أحدهما: ساواه طولاً.

والثاني: أَنْ: «آزَرَهُ» و«وَآزَرَهُ» بِمعنى: أعانه وَقَوَّاهُ؛ مأخوذاً من الْأَزْر، وفَاعِلُ «آزَرَ» يحتملُ أَنْ يكون الشُّطَّءُ، ويحتملُ أَنْ يكون الزُّرْعُ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ ابتداء كلام قبله محذوف، تقديره: جعلهم الله بـ ٨٦ بهذه الصفة؛ ليغيب بهم الكفار، قال/ الحسن: مِنْ غَيْظِ الْكُفَّارِ قَوْلُ عُمَرَ بِمَكَّةَ: لَا يُعْبَدُ اللَّهُ سِرّاً بَعْدَ الْيَوْمِ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ هي لبیان الجنس، وليست للتبعض؛ لأنَّه وعد مرجٍ للجميع.

(١) ذكره ابن عطية (١٤٢/٥).

(٢) ذكره البخوي (٢٠٦/٤)، وابن عطية (١٤٣/٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْحَجَرَاتِ»

وَهِيَ مَدِينَةُ بَاجِمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْمِضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَآجُرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: قال ابن زيد: معنى: ﴿لا تقدموا﴾ لا تمشوا^(١)، وقرأ ابن عباس، والضحاك، ويعقوب: - بفتح التاء والدال^(٢)، - على معنى: لا تتقدموا، وعلى هذا يجيء تأويل ابن زيد، والمعنى على ضم التاء: بين يدي قول الله ورسوله، ورؤي أن سبب هذه الآية أن وفد بني تميم لما قديم، قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: يا رسول الله، لو أمرت القعقاع بن معبد؟ وقال عمر: لا يا رسول الله، بل أمر الأقرع بن حابس، فقال له أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، وازنعت أضواتهما، فنزلت الآية، وذهب بعض قائلي هذه المقالة إلى أن قوله: ﴿لا تقدموا﴾: أي: ولاة، فهو من تقديم الأمراء، وعموم اللفظ أحسن، أي: اجعلوه مبدءاً في الأقوال والأفعال، وعبارة البخاري: وقال مجاهد: «لا تقدموا»: لا تقفأوا على رسول الله ﷺ حتى يقضي الله عز وجل على لسانه، انتهى^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الآية، هي أيضاً في هذا الفن المتقدم؛ فروي أن سببها ما تقدم عن أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - والصحيح أنها نزلت بسبب عادة الأعراب من الجفأ وعلو الصوت، وكان ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه - ممن

(١) ذكره ابن عطية (١٤٤/٥).

(٢) ينظر: «المحتسب» (٢٧٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٤٤/٥)، و«البحر المحيط» (١٠٥/٨)، وزاد نسبتها إلى أبي حيو، وابن مقسم، وهي في «الدر المصون» (١٦٨/٦).

(٣) أخرجه الطبري (٣٧٧/١١) برقم: (٣١٦٥٩)، وذكره البغوي (٢٠٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٠٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٨٦/٦)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

١٨٧ في صوته/ جهارة فلما نزلت هذه الآية اهتَمَّ وخاف على نفسه، وجلس في بيته لم يخرج، وهو كئيب حزين حتى عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ خبره فبعث إليه، فأنسه، وقال له: «امش في الأرض بَسْطًا؛ فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، وَقَالَ لَهُ مَرَّةً: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتَمُوتَ شَهِيدًا؟»^(١) فعاش كذلك، ثم قُتِلَ شَهِيدًا بِالْيَمَامَةِ يَوْمَ مُسَيْلَمَةَ.

* ت * : وحديث ثابت بن قيس وتبشيريه بالجنة خَرَّجَهُ البخاري، وكذلك حديث أبي بكر وعمر وارتفاع أصواتهما خَرَّجَهُ البخاري أيضًا، انتهى.

وقوله: ﴿كَجَهْرٍ بَغْضِكُمْ لِبَغْضِ﴾ أي: كحال أحدكم في جفائه، فلا تنادوه باسمه: يا محمد، يا أحمد؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢)، فأمرهم الله بتوقيره، وأن يدعو بالنبوة والرسالة، والكلام اللين، وكَرِهَ العلماء رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ وبحضرة العالم وفي المساجد، وفي هذه كلها آثار؛ قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): وَحُزْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَيِّتًا كَحَرَمَتِهِ حَيًّا، وكلامه المأثور بعد موته في الرُّفْعَةِ مِثْلُ كَلَامِهِ الْمَسْمُوعِ مِنْ لَفْظِهِ، فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُهُ وَجِبَ عَلَى كُلِّ حَاضِرٍ أَلَّا يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْرِضَ عَنْهُ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تَلْقُظِهِ بِهِ، وقد نَبَّهَ اللَّهُ تعالى على دوام الحُزْمَةِ المذكورة على مرور الأزمنة بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وكلام النبي ﷺ هو من الوحي، وله من الحُزْمَةِ مِثْلُ ما للقرآن، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ مفعول من أجله، أي: مخافة أن تحبط، ثم مدح سبحانه ٨٧ ب الذين يَغْضُونَ/ أصواتهم عند رسول الله، وَغَضُّ الصَّوْتِ خَفْضُهُ وَكُسْرُهُ، وكذلك البصر، وَرُؤْيٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ كَانَا بَعْدَ ذَلِكَ لَا يُكَلِّمَانِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحْتَاجُ مَعَ عُمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى اسْتِعَادَةِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَسْمَعُهُ مِنْ إِخْفَائِهِ إِيَّاهُ^(٤)، و﴿امتنح﴾ معناه: اختبر وطهر كما يُمْتَحَنُ الذَّهَبُ بِالنَّارِ، فَيَسْرَهَا وَهَيَّأَهَا لِلتَّقْوَى، وقال عمر بن الخطاب: امتنحها للتقوى: أذهب عنها الشهوات^(٥).

(١) أخرجه الحاكم (٣/٢٣٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره ابن عطية (١٤٥/٥).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٤/١٧١٤ - ١٧١٥).

(٤) أخرجه الطبري (١١/٣٨٠) برقم: (٣١٦٧٣)، وذكره البغوي (٤/٢١٠)، وابن عطية (١٤٥/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٠٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٨٦)، وعزاه للبخاري، وابن عدي، والحاكم، وابن مردويه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٥) ذكره ابن عطية (١٤٥/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٠٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٨٩)، وعزاه لأحمد في «الزهد» عن مجاهد.

قال * ع^(١) : * من غلب شهوته وغضبه فذلك الذي امتحن الله قلبه للتعقوى، وبذلك تكون الاستقامة، وقال البخاري: ﴿امتحن﴾: أخلص، انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلِئِهِمْ فَنُصِصُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنُرْسِلَنَّ اللَّهُ حَبَّ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَرَزَقَكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾

ونوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ نزلت في وفد بني تميم وقولهم: يا محمد، اخرج إلينا، يا محمد، اخرج إلينا، وفي مصحف ابن مسعود: «أَكْثَرُهُمْ بَنُو تَمِيمٍ لَا يَعْقِلُونَ» وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وقرئ «فَتَبَيَّنُوا» رُوِيَ في سبب الآية: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى بَنِي الْمُضْطَلِقِ مُصَدِّقًا، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْهُمْ خَرَجُوا إِلَيْهِ، فَفَزِعَ مِنْهُمْ، وَظَنَّ بِهِمْ شَرًّا، فَرَجَعَ، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: قَدْ مَنَعُونِي الصَّدَقَةَ، وَطَرَدُونِي، وَأَزْتَدُوا، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ يَغْزَوُهُمْ، فَوَرَدَ وَفْدُهُمْ مُنْكَرِينَ لِذَلِكَ»^(٢)، وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا قَرَّبَ مِنْهُمْ بَلَغَهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا نَطِيعُ الصَّدَقَةَ وَلَا نَطِيعُهُ، فَقَالَ مَا ذَكَرْنَاهُ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ، وَ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ معناه: مخافة أن تصيبوا، ١٨٨ قال قتادة: وقال النبي ﷺ عندما نزلت هذه الآية: «التَّثَبُّتُ مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»^(٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٦/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣٨٣/١١ - ٣٨٤) برقم: (٣١٦٨٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٩٢/٦)، وعزاه إلى ابن مئذنه، وابن مردويه.

(٣) أخرجه البيهقي (١٠٤/١٠) كتاب «آداب القاضي» باب: التثبت في الحكم، وأبو يعلى (٢٤٧/٧) - ٢٤٨، (٤٢٥٦/١٥٠١).

قال الهيثمي في «المجمع» (٢٢/٨): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح. قلت: فيه سعد بن سنان، ويقال له: سنان بن سعد، وقد قال المزي في «تهذيب الكمال»: وقال أبو حاتم بن جبان في كتاب «الفتا»: حَدَّثَ عَنْهُ الْبَصْرِيُّونَ، وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَارْجُو أَنْ يَكُونَ الصَّحِيحُ سِنَانُ بْنُ سَعْدٍ، وَقَدْ اعْتَبَرْتُ حَدِيثَهُ، فَرَأَيْتُ مَا رَوَى عَنْ سِنَانِ بْنِ سَعْدٍ يَشْبَهُ أَحَادِيثَ الثَّقَاتِ، وَمَا رَوَى عَنْ سَعْدِ بْنِ سِنَانٍ، وَسَعِيدِ بْنِ سِنَانٍ فِيهِ الْمَنَائِكِرُ، كَأَنَّهُمَا اثْنَانِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا داود عن سنان بن سعد، فقال: كان أحمد لا يكتب حديثه. =

وقوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾^(١) توبيخ للكذبة، والعنت: المشقة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ رجوع من الخطاب إلى الغيبة، كأنه قال: ومن اتصف بما تقدم من المحاسن أولئك هم الراشدون.

وقوله سبحانه: ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: كان هذا فضلاً من الله ونعمة، وكان قتادة - رحمه الله - يقول: قد قال الله تعالى لأصحاب محمد - عليه السلام -: ﴿واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ وأنتم والله أسخف رأياً، وأطيش أحلاماً، فَلْيَنْتَهُمْ رَجُلٌ نَفْسَهُ، وليتصح كتاب الله تعالى^(١).

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢)
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣)

وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ سبب الآية - في قول الجمهور - هو ما وقع بين المسلمين المتحزبين في قضية عبد الله بن أبي بن سلول حين مر به النبي ﷺ راكباً على حماره متوجّهاً إلى زيارة سعد بن عبادَةَ في مرضه، حسبما

= قال أبو داود: قلت لأحمد بن صالح: سنان بن سَعْدٍ سمع أنساً؟ فغضب من إجلاله له.
وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه: تركت حديثه؛ لأن حديثه مضطرب، غير محفوظ. قال: وسمعت مرة أخرى يقول: يشبه حديثه حديث الحسن، لا يشبه حديث أنس.
وقال أحمد بن أبي يحيى، عن أحمد بن حنبل: لم أكتب أحاديث سنان بن سَعْدٍ؛ لأنهم اضطربوا فيها، فقال بعضهم: سَعْدٌ بن سنان، وبعضهم: سنان بن سَعْدٍ.
وقال محمد بن علي الوراق، عن أحمد بن حنبل: روى خمسة عشر حديثاً منكراً كلُّها، ما أعرف منها واحداً.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة. سألت يحيى بن معين عن سَعْدٍ بن سنان الذي روى عنه يزيد بن أبي جبيب، فقال: ثقة.

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: أحاديثه واهية، لا تشبه أحاديث الناس عن أنس.
وقال النسائي: منكر الحديث.

وقال أبو أحمد بن عدي: وهذه الأحاديث يحول بعضها بغضاً، وليس هذه الأحاديث ممّا يجب أن يترك أصلاً، كما ذكر ابن حنبل: أنه ترك هذه الأحاديث.

روى له البخاري في «الأدب»، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

(١) أخرجه الطبري (٣٨٦/١١) برقم: (٣١٦٩٣)، وذكره ابن عطية (١٤٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٩٤/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

هو معلوم في الحديث الطويل، ومدافعة الفئة الباغية مُوجَّهة في كل حال، [وَأَمَّا التَّهْيُؤُ] لقتالهم فمع الولاة، وقال النبي ﷺ: «حَكَمَ اللَّهُ فِي الْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةِ أَلَّا يُجْهَزَ عَلَى جَرِيحِهَا، وَلَا يُطْلَبَ هَارِبُهَا، وَلَا يُقْتَلَ أَسِيرُهَا، وَلَا يُقَسَمَ فَيْئُهَا»^(١) و«تفيء» معناه: ترجع، وقرأ الجمهور: «بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» وذلك؛ رعاية لحال أقل عدد يقع فيه القتال والتشاجر، وقرأ ابن عامر: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ»^(٢) وقرأ عاصم الجحدري: «بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ»^(٣) وهي قراءة حسنة؛ لأن الأكثر في جمع الأخ في الدين ونحوه من غير النسب: «إِخْوَان»، والأكثر في جمعه من ٨٨ ب النسب: «إِخْوَةٌ» و«أَخَاء»، وقد تتداخل هذه الجموع، وكلها في كتاب الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا أَن يَغْفِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ الآية: هذه الآية والتي بعدها نزلت في خلقي أهل الجاهلية؛ وذلك أنهم كانوا يجرون مع شهوات نفوسهم، لم يقومهم أمر من الله ولا نهي، فكان الرجل يسخر، ويلمز، وينبذ بالألقاب، ويظن الظنون، ويتكلم بها، ويغتاب، ويفتخر بنسبه، إلى غير ذلك من أخلاق النفوس البطالة، فنزلت هذه الآية؛ تأديباً لهذه الأمة، وروى البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: عِرْضُهُ، وَمَالُهُ، وَدَمُهُ، التَّقْوَى ههنا، بِحَسَبِ أَمْرٍ مِّنَ الشَّرِّ أَنْ يَخْتَقِرَ

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٤٦/٦)، وقال: رواه البزار، والطبراني في «الأوسط»، وقال لا يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، وفيه كوثر بن حكيم، وهو ضعيف.

(٢) ينظر: «السبعة» (٦٠٦)، و«الحجة» (٢٠٧/٦)، و«معاني القراءات» (٢٤/٣)، و«شرح الطيبة» (٦/١٥)، و«حجة القراءات» (٦٧٥)، و«إنحاف» (٤٨٦/٢).

(٣) وقرأ بها زيد بن ثابت، وابن مسعود، والحسن، وابن سيرين. قال ابن خالويه: وسمعت ابن مجاهد يقول: روى عبد الوارث عن أبي عمرو أنه كان ربما قرأ «بين إخوانكم»، وربما قرأ بالنون «إخوانكم»، وربما قرأ بالياء «بين أخويكم».

ينظر: «الشواذ» ص: (١٤٤)، و«المحتسب» (٢٧٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٤٩/٥)، وزاد نسبتها إلى حماد بن سلمة.

وينظر: «البحر المحيط» (١١١/٨)، وزاد نسبتها إلى ثابت البناني. وهي في «الدر» (١٧٠/٦).

أَخَاهُ الْمُسْلِمِ»^(١) انتهى، ويسخر معناه: يستهزئ، وقد يكون ذلك المُسْتَهْزَأُ به خيراً من السّاحر، والقوم في كلام العرب واقع على الذُّكْرَانِ، وهو من أسماء الجَمْعِ؛ ومن هذا قول زُهَيْر: [من الوافر]

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي أَقْوَمَ آلَ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءً^(٢)

وهذه الآية أيضاً تقتضي اختصاص القوم بالذكور، وقد يكون مع الذكور نساء، فيقال لهم قوم؛ على تغليب حال الذكور، و﴿تَلْمِزُوا﴾ معناه: يطعن بعضكم على بعض بذكر النقائص ونحوه، وقد يكون التَّمْزُّ بالقول وبالإشارة ونحوه ممّا يفهمه آخر، والهمز لا يكون إلا باللسان، وحكى الثعلبي أنّ التمز ما كان في المشهد، والهمز ما كان في المغيب، وحكى الزهراوي عكس ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَنْفُسُكُمْ﴾ معناه: بعضكم بعضاً؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] كأنّ المؤمنين كنفس واحدة، إذ هم / إخوة؛ كما قال ﷺ: ١٨٩ «كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٣)، وهم كما قال أيضاً: «كَالْبُتَيْنِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»، والتنازع: التَّلَقُّبُ، والتَّنْبِزُ واللقب واحدٌ، واللقب - يعني المذكور في الآية - هو: ما يُعرَفُ به الإنسان من الأسماء التي يكره سماعها، وليس من هذا قول المُحَدِّثِينَ: سليمان الأعمش، وواصل الأحمد ونحوه ممّا تدعو الضرورة إليه، وليس فيه قصد استخفاف وأذى، وقال ابن زيد: معنى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يَقُلْ أَحَدٌ لآخر: يا يهودي، بعد إسلامه، ولا: يا فاسق، بعد توبته، ونحو هذا.

وقوله سبحانه: ﴿بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: بئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونبزكم بالألقاب فتكونون فُسَاقاً بالمعصية بعد إيمانكم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «ديوانه» ص: (٧٣)، و«الاشتقاق» ص: (٤٦)، و«جمهرة اللغة» ص: (٩٧٨)، و«الدرر» (٢/ ٢٦١، ٢٨/٤، ١٢٦/٥)، و«شرح شواهد الإيضاح» ص: (٥٠٩)، و«شرح شواهد المغني» ص: (١٣٠، ٤١٢)، والصاحبي في «فقه اللغة» ص: (١٨٩)، و«مغني اللبيب» ص: (٤١، ١٣٩، ٣٩٣، ٣٩٨)، وبلا نسبة في «همع الهوامع» (١/ ١٥٣، ٢٤٨، ٧٢/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٢/١٠) كتاب «الأدب» باب: رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩ - ٢٠٠٠) كتاب «البر والصلة والآداب» باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٦، ٦٦/ ٢٥٨٥).

والثاني: بش قول الرجل لأخيه: يا فاسق بعد إيمانه؛ وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: شَكَّوتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَرْبَ لِسَانِي، فَقَالَ: «أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ؟! إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١) رواه النسائي واللفظ له، وابن ماجه، والحاكم في «المُسْتَدْرَكِ»، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وفي رواية للنسائي: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢)، والذَّربُ - بفتح الذال والراء - هو الفُحْشُ، انتهى من «السَّلاحِ»، ومنه عن ابن عمر: «إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وهذا لفظه، والترمذي والنسائي، / وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، وقال الترمذي: حسن ٨٩ ب صحيح غريب، انتهى.

ثم أمر تعالى المؤمنين باجتناب كثير من الظن، وألَّا يعملوا ولا يتكلموا بحسبه؛ لما في ذلك وفي التجسس من التقاطع والتدابر، وحكم على بعضه أنه إثم، إذ بعضه ليس بإثم، والظن المنهي عنه هو أن تَظُنَّ شَرًّا بِرَجُلٍ ظاهره الصلاح، بل الواجب أن تزيل الظن وحكمه، وتتأول الخير؛ قال ع*^(٤) *: وما زال أولو العزم يحترسون من سوء الظن، ويجتنبون ذرائعه، قال النووي: واعلم أنَّ سوء الظن حرام، مثل القول، فكما يَحْرُمُ أَنْ تَحْدُثَ غَيْرَكَ بِمَسَاوِيءِ إِنْسَانٍ - يَحْرُمُ أَنْ تَحْدُثَ نَفْسَكَ بِذَلِكَ، وتسيء الظنَّ به؛ وفي الصحيح عنه ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّهُ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(٥) والأحاديث بمعنى ما ذكرناه

(١) أخرجه النسائي (١١٧/٦) - «الكبرى» كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول من كان ذرب اللسان (١٠٢٨٤/٣)، وابن ماجه (١٢٥٤/٢) كتاب «الأدب» باب: الاستغفار (٣٨١٧)، والحاكم (٥١١/١) نحوه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه النسائي (١١٧/٦)، كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول من كان ذرب اللسان (١٠٢٨٢/١).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٥/١) كتاب «الصلاة» باب: في الاستغفار (١٥١٦)، والترمذي (٤٩٤/٥ - ٤٩٥) كتاب «الدعوات» باب: ما يقول إذا قام من المجلس (٣٤٣٤)، وابن ماجه (١٢٥٣/٢) كتاب «الأدب» باب: الاستغفار (٣٨١٤)، وأحمد (٢١/٢، ٦٧، ٨٤)، وابن حبان (١١٤/٨) - الموارد (٢٤٥٩)، و (٢٠٦/٣ - ٢٠٧) كتاب «الرقاق» باب: الأدعية ذكر وصف الاستغفار الذي كان يستغفر ﷺ بالعدد الذي ذكرناه (٩٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٩/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: كيف الاستغفار (١٠٢٩٢/١).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥١/٥).

(٥) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٤٤١/٥)، كتاب «الوصايا» باب: قول الله عز وجل: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يوصي بها أَوْ دِينَ﴾ [النساء: ١٢]، وقال ابن حجر: هو طرف من حديث وصله المصنف في

كثيرة، والمراد بذلك عَقْدُ القلب وحكمه على غيره بالسوء، فأما الخواطر وحديث النفس، إذا لم يستقر، ويستمر عليه صاحبه - فَمَعْفُوٌّ عنه باتفاق العلماء؛ لَأَنَّهُ لا اختيار له في وقوعه، ولا طريق له إلى الانفكاك عنه، انتهى.

قال أبو عمر في «التمهيد»: وقد ثبت عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ، وَمَالَهُ، وَعِزَّهُ، وَأَلَّا يُظَنَّ بِهِ إِلَّا الْخَيْرُ»^(١) انتهى، ونقل في موضع آخر بسنده: أَنَّ عمر بن عبد العزيز كان إذا ذُكِرَ عنده رجل بفضله أو صلاح قال: كيف هو إذا ذُكِرَ عنده إخوانه؟ فَإِنْ قالوا: إِنَّهُ يَنْقُصُهُمْ، وينالُ منهم، قال عمر: ليس هو كما تقولون، وإن قالوا: إِنَّهُ يذكر منهم جميلاً وخيراً، وَيُحْسِنُ الثَّنَاءَ عليهم، قال: هو كما تقولون إن شاء الله، انتهى من «التمهيد»، وروى أبو داود في «سننه» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ/ قال: «حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ»^(٢) انتهى. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: لا تبحثوا عن مخبآت أمور الناس، وادفعوا بالتّي هي أحسن، واجتزئوا بالظواهر الحسنة، وقرأ الحسن وغيره: «وَلَا تَحَسَّسُوا» بالحاء المهملة؛ قال بعض الناس: التَّجَسُّسُ بالجيم في الشرّ، وبالحاء في الخير، قال ع* ع*^(٣): وهكذا ورد القرآن، ولكن قد يتداخلان في الاستعمال.

«الأدب» من وجهين عن أبي هريرة، وقد أخرجه (١٠٦/١٠) كتاب «النكاح» باب: لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (٥١٤٣) موصولاً عن أبي هريرة، وأخرجه أيضاً (٤٩٦/١٠) كتاب «الأدب» باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابير، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (٦٠٦٤)، (١٠/٤٩٩)، كتاب «الأدب» باب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (٦٠٦٦)، (٦/١٢) كتاب «الفرائض» باب: تعليم الفرائض رقم: (٦٧٢٤)، وأبو داود (٢/٦٩٧) كتاب «الأدب» باب: في الظن برقم: (٤٩١٧)، والترمذي (٣٥٦/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في ظن السوء (١٩٨٨)، وأحمد (٢/٢٤٥، ٢٨٧، ٣١٢، ٣٤٢، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٩١، ٤٩٢، ٥٠٤، ٥١٧، ٥٣٩)، وابن حبان (١٢/٤٩٩ - ٥٠٠)، كتاب «الحظر والإباحة» باب: الاستماع المكروه، وسوء الظن، والغضب والفحش، ذكر الزجر عن سوء الظن بأحد المسلمين (٥٦٨٧)، ومالك (٢/٩٠٧ - ٩٠٨) كتاب «حسن الخلق» باب: ما جاء في المهاجرة (١٥٠)، والبيهقي (٦/٨٥) كتاب «الإقرار» باب: ما جاء في إقرار المريض لورثته (٧/١٨٠) كتاب «النكاح» باب: لا يخطب الرجل على خطبة أخيه إذا رضيت به المخطوبة أو رضي به أبو البكر حتى يأذن أو يترك، (٨/٣٣٣) كتاب «الأسربة والحد فيها» باب: ما جاء في النهي عن التجسس، (١٠/٢٣١) كتاب «الشهادات» باب: شهادة أهل العصبية.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

- (١) أخرجه الطبراني (٣٧/١١) برقم: (١٠٩٦٦).
- (٢) أخرجه أبو داود (٧١٦/٢ - ٧١٧) كتاب «الأدب» باب: في حسن الظن (٤٩٩٣)، والحاكم (٤/٢٥٦)، وأحمد (٢/٤٧٢، ٤٩١)، وابن حبان (٨/٣٠ - ٣١) - الموارد (٢٣٩٥)، وابن حبان (٢/٣٩٩) كتاب «الرفائق» باب: حسن الظن بالله تعالى، وذكر البيان بأن حسن الظن للمسلم من حسن العبادة (٦٣١).
- (٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/١٥١).

* ت * : وقد وردت أحاديث صحيحة في هذا الباب، لولا الإطالة لجلبناها.

﴿وَلَا يَغْتَبِ﴾ معناه: لا يذكر أحدكم من أخيه شيئاً هو فيه، ويكره سماعه، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا ذُكِرَتْ مَا فِي أَخِيكَ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِذَا ذُكِرْتَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١)، وفي حديث آخر: «الْغِيْبَةُ أَنْ تَذْكُرَ الْمُؤْمِنَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: وَإِنْ كَانَ حَقًّا؟ قَالَ: إِذَا قُلْتَ بَاطِلًا فَذَلِكَ هُوَ الْبُهْتَانُ»^(٢) وحكى الزهراوي عن جابر عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْغِيْبَةُ أَشَدُّ مِنْ الزُّنَا، قِيلَ: وَكَيْفَ؟! قَالَ: لِأَنَّ الزَّانِيَ يَتُوبُ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَغْتَابُ لَا يُتَابُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَحِلَّ»^(٣)، قال * ع^(٤) * : وقد يموت من اغْتَيْبَ، أو يَأْبَى، وروى أبو داود في «سننه» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي مَرَزْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ، يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟! قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٥) انتهى.

والْغِيْبَةُ مشتقة من «غَابَ يَغِيْبُ» وهي القول في الغائب، واستعملت في المكروه، ولم يُنَّحَ في هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه، من تجريح الشهود، وفي التعريف/ بمن ٩٠ استنصح في الخطاب ونحوهم: لقول النبي ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكَ لَا مَالَ لَهُ» وما يقال في الْفَسَقَةِ أيضاً، وفي وَلَاةِ الْحَوْرِ، ويُقْصَدُ به: التحذير منهم؛ ومنه قوله - عليه السلام -: «أَعَنِ الْفَاجِرِ تَرْعَوُونَ؟! اذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ، مَتَى يَعْرِفُهُ النَّاسُ إِذَا لَمْ تَذْكُرُوهُ؟!»^(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠١/٤) كتاب «البر والصلة والأداب» باب: تحريم الغيبة (٢٥٨٩/٧٠)، وأبو داود (٦٨٥/٢) كتاب «الأدب» باب: في الغيبة (٤٨٧٤)، والترمذي (٣٢٩/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في الغيبة (١٩٣٤)، وأحمد (٢٣٠/٢)، وأحمد (٤٥٨، ٣٨٦).

(٢) ينظر ما قبله.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠٦/٥) باب: في تحريم أعراض الناس (٦٧٤١) عن أبي سعيد الخدري، وجابر.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٤/٨ - ٩٥): رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك أ هـ.

وللبهقي رواية عن أنس في «شعب الإيمان» (٣٠٦/٥) (٦٧٤٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥١/٥).

(٥) أخرجه أبو داود (٦٨٥/٢ - ٦٨٦) كتاب «الأدب» باب: في الغيبة (٤٨٧٨)، وذكره الألباني في «الصحيحة» (٥٩/٢) (٥٣٣).

(٦) أخرجه البيهقي (٢١٠/١٠) كتاب «الشهادات» باب: الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث، فيقول: كفوا عن حديثه لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع، أو أنه لا يبصر الفتوى.

قال المعجلوني في «كشف الخفاء» (١١٤/١)، رواه ابن أبي الدنيا، وابن عدي، والطبراني، والخطيب عن معاوية بن حيدة، وقال في «التمييز»: أخرجه أبو يعلى، ولا يصح. أ هـ.

* ت * : وهذا الحديث خَرَّجَهُ أيضاً أبو بكر ابن الخطيب بسنده عن بهز، عن أبيه، عن جدّه، عن النبي ﷺ قال: «اتَزَعُوا عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ، اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ؛ يَحْذَرُهُ النَّاسُ»^(١) ولم يذكر في سنده مَطْعَنًا، انتهى، ومنه قوله - عليه السلام - : «يُنْسِ ابْنُ الْعَشِيرَةِ»^(٢).

ثُمَّ مَثَّلَ تعالى الغيبة بأكل لحم ابن آدم الميت، ووقف تعالى على جهة التوبيخ بقوله: «أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» أي: فكذلك فاكروها الغيبة، قال أبو حيان^(٣): «فكرهتموه» قيل: خبر بمعنى الأمر، أي: فاكروهوه، وقيل على بابه، فقال الفراء: فقد كرهتموه، فلا تفعلوه، انتهى.

وقد روى البخاري عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزِمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفُسُوقِ، وَلَا يَزِمِيهِ بِالْكُفْرِ إِلَّا أَتَدَثَّ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ»^(٤) وفي رواية مسلم: «مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوٌّ لِلَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ - إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»^(٥) وفي الصحيحين عنه ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ: كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»^(٦) انتهى، وباقي الآية بَيَّنَّ.

= قال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٢٠): الجارود بن يزيد العامري - أبو علي من أهل نيسابور، يروي عن بهز بن حكيم، والثوري، روى عنه سلمة بن شعيب يتفرد بالمناكير عن المشاهير، ويروي عن الثقات ما لا أصل له، روى عن بهز بن حكيم، عن أبيه عن جدّه قال: «اتَزَعُوا عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ» ١ هـ. وجدُّ بهز بن حكيم هو معاوية بن حيدة.

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٦/١٠) كتاب «الأدب» باب: ما يجوز من اغتيال أهل الفساد والريب (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٠٠٢/٤) كتاب «البر والصلة والآداب» باب: مداراة من يتقى فحشه (٧٣، ٧٣/٢٥٩١)، وأبو داود (٦٦٦/٢) كتاب «الأدب» باب: في حسن العشرة (٤٧٩٢)، والترمذي (٢٥٩/٤) كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في المداراة (١٩٩٦)، ومالك (٩٠٣/٢) كتاب «حسن الخلق» باب: ما جاء في حسن الخلق (٤)، وأحمد (١٥٨/٦).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٨/ ١١٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٩/١٠) كتاب «الأدب» باب: ما ينهى عن السباب واللعن (٦٠٤٥)، وأحمد (١٨١).

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٠/١) - الأبي كتاب «الإيمان» باب: بيان حال من رغب عن أبيه وهو يعلم. (١١٢/ ٦١)، وأحمد (٢٦٦/٥).

(٦) أخرجه البخاري (٥٣١/١٠) كتاب «الأدب» باب: من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٦١٠٤)، ومسلم (٢٧٩/١ - ٢٨٠)، كتاب «الإيمان» باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر (١١١/ ٦٠) عن عبد الله بن دينار، والترمذي (٢٢/٥) كتاب «الإيمان» باب: ما جاء فيمن رمى أخاه بكفر (٢٦٣٧).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآ مَآ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَكِنَّا لَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنَ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ...﴾ الآية: المعنى: يا أيها الناس، أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون، وإنما جعلتم قبائل؛ لأن تتعارفوا، أو لأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف والكرم فهو/ بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب، وقرأ ابن مسعود: ١٩١ ﴿لِتَعَارَفُوا بَيْنَكُمْ وَخَيْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَانُكُمْ﴾^(١) وقرأ ابن عباس: ﴿لِتَعَارَفُوا أَنْ﴾^(٢) عَلَى وزن «تَفَعَّلُوا» بكسر العين - وبفتح الهمزة من «أَنْ»، وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ»^(٣) وأما الشعوب فهو جمع شُعْبٍ، وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطاً بنسب واحد؛ كمُضَرٍّ وَرَبِيعَةٍ وَجَمِيرٍ، ويتلوه القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، والأسرة وهما قرابة الرجل الأذنون، ثم نَبَّةٌ سبحانه على الحذر بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: بالمتقي الذي يستحق رُتْبَةَ الكرم، وَخَرَجَ مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٤) وروى أبو داود والترمذي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ، إِنَّمَا هُمْ فَحَمٌ مِنْ جَهَنَّمَ - أَوْ لَيَكُونُنَّ عَلَى اللَّهِ أَهْوَنَ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدْهِدُهُ الْخُرَاءُ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا؛ إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ، كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمٌ مِنْ تَرَابٍ»^(٥) انتهى، ونقله البغوي في «مصابيح».

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٣/٥).

(٢) وقرأ بها أبان عن عاصم. قال أبو الفتح: المفعول هنا محذوف، أي: لتعرفوا ما أنتم محتاجون إلى معرفته من هذا الوجه.

ينظر: «المحتسب» (٢٨٠/٢)، و«الشواذ» ص: (١٤٤)، و«المحرر الوجيز» (١٥٣/٥)، و«البحر المحيط» (١١٦/٨)، و«الدر المصون» (١٧٢/٦).

(٣) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٣٧٣/١) وقال: رواه البيهقي، وأبو يعلى، والطبراني، وأبو نعيم، والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، لكن قال البيهقي في «الزهد»: تكلما في هشام بن زياد أحد رواة الحديث.

(٤) أخرجه مسلم (٢١٩٩/٤) كتاب «الجنة» وصفة نعيمها وأهلها» باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، وأهل النار (٢٨٦٥/٦٤)، وأبو داود (٦٩١/٢) كتاب «الأدب» باب: في التواضع (٤٨٩٠)، وابن ماجه (١٣٩٩/٢) كتاب «الزهد» باب: البراءة من الكبر، والتواضع (٤١٧٩).

(٥) أخرجه أبو داود (٧٥٢/٢) كتاب «الأدب» باب: في التفاخر بالأحساب (٥١١٦) بنحوه، والترمذي (٥/٧٣٤) كتاب «المناقب» باب: في فضل الشام واليمن (٣٩٥٥)، وأحمد (٥٢٤/٢).

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قال مجاهد: نزلت في بني أسد^(١)، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة، أظهروا الإسلام، وفي الباطن إنما يريدون المغانم وعَرَضَ الدنيا، ثم ب ٩١ أمر الله تعالى نبيّه أَنْ يقول لهؤلاء المُدَّعِينَ للإيمان: / ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لم تصدقوا بقلوبكم، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا، والإسلام يقال بمعنيين:

أحدهما: الذي يَعُمُّ الإيمانَ والأعمالَ، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] والذي في قوله - عليه السلام -: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»^(٢).

والمعنى الثاني للفظ الإسلام: هو الاستسلام، والإظهار الذي يُسْتَعَصَمُ به ويحقن الدم، وهذا هو الذي في الآية، ثم صَرَّحَ بأنَّ الإيمان لم يدخل في قلوبهم، ثم فتح باب التوبة بقوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية، وقرأ الجمهور: «لَا يَلْتَكُمُ» من «لَاتَ يَلِيتُ» إذا نقص؛ يقال: لَاتَ حَقُّهُ إِذَا نَقَصَهُ مِنْهُ، وقرأ أبو عمرو: «لَا يَأْلَتُكُمُ» من «أَلَتْ يَأْلَتْ»^(٣) وهي بمعنى لَاتَ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إنما هنا حاصرة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكوا، ثم أمر الله تعالى نبيّه - عليه السلام - بتوبيخهم بقوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: بقولكم آمنا، وهو يعلم منكم خلاف ذلك؛

(١) أخرجه الطبري (٣٩٩/١١) برقم: (٣١٧٧٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢١٩/٤)، والسيوطي في «الدر المشثور» (١١١/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) تقدم.

(٣) وحجة أبي عمرو في قراءته، قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ﴾ [الطور: ٢١] ف«أَلْتَنَاهُمْ» مضارعه «يألتكم». وحجة الباقي: أنهم زعموا أنه ليس في الكتاب ألف، ولو كانت منه كتبت بالألف، كما يكتب في يأمر، ويأبى.

ينظر: «الحجة» (٢١٠ - ٢١١)، و«السبعة» (٦٠٦)، و«معاني القراءات» (٢٥/٣)، و«شرح الطيبة» (١٦ - ١٥/٦) و«المعنوان» (١٧٨)، و«حجة القراءات» (٦٧٦)، و«إتحاف» (٤٨٧/٢).

لِأَنَّهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وقوله سبحانه: ﴿يَمْتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ نزلت في بني أسد أيضاً، وقرأ ابن مسعود: «يَمْتُونُ عَلَيْكَ إِسْلَامَهُمْ» وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية: «وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ»^(١).

(١) ينظر: «السبعة» (٦٠٦)، و«الحجة» (٢١١/٦)، و«شرح الطيبة» (١٦/٦)، و«العنوان» (١٧٨)، و«حجة القراءات» (٦٧٧)، و«شرح شاملة» (٥٨٨)، و«إتحاف» (٤٨٧/٢).

تفسير سورة «ق»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَقْلٌ عَنِ عِيسَى ٢
 إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيطٌ ٤ بَلْ
 كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ٥ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا
 وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ٦ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٧ تَبَيَّرَ
 وَذُكِّرُوا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ٩
 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ١٠ رَزَقْنَا السَّيِّدَ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتْ
 قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٍ وَأَصْحَبُ الرَّسِّ وَشُودُ ١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ١٣ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَّعَ كُلٌّ
 كَذَّبَ الرُّسُلَ هُوَ عِيسَى ١٤﴾

قوله عز وجل: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وابن زيد، وعكرمة: ١٩٢ ق اسم الجبل المحيط بالدنيا، وهو فيما يزعمون أنه من / زمردة خضراء، منها خضرة السماء وخضرة البحر^(١)، وقيل في تفسيره غير هذا، و﴿المجيد﴾: الكريم في أوصافه الذي جمع كل مغلاة، و﴿ق﴾ مفسم به وبالقرآن؛ قال الزجاج^(٢): وجواب القسم محذوف تقديره: ق والقرآن المجيد لتبعثن، قال ع^(٣)*: وهذا قول حسن، وأحسن منه أن يكون الجواب هو الذي يقع عنه الإضراب ببيل، كأنه قال: والقرآن المجيد ما ردوا أمرك بحجة، ونحو هذا، مما لا بد لك من تقديره بعد الذي قدره الزجاج، وباقي الآية بين مما تقدم في «ص» و«يونس» وغيرهما، ثم أخبر تعالى؛ ردًا على قولهم بأنه سبحانه يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم، وما تبقي منه، وأن ذلك في كتاب، والحفيظ: الجامع الذي لم يفته شيء؛ وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ الْأَرْضَ تَأْكُلُ ابْنَ آدَمَ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ» وهو عظم

(١) ذكره البيهقي (٢٢٠/٤) عن عكرمة، والضحاك، وابن عطية (١٥٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٥/٦)، وعزه لعبد الرزاق عن مجاهد.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (٤١/٥).

(٣) ينظر: «المححر الوجيز» (١٥٥/٥).

كَالْخَرْدَلَةِ، فَمِنْهُ يُرْكَبُ ابْنُ آدَمَ^(١)، قَالَ * ع^(٢) * : وَحِفْظُ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ إِنَّمَا هُوَ لِيَعُودَ بَعِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورُ: الْمَعْنَى: مَا تَنْقُصُ مِنْ لِحُومِهِمْ وَأَبْشَارِهِمْ وَعِظَامِهِمْ^(٣)، وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ﴾ أَي: مَا يَحْصُلُ فِي بَطْنِهَا مِنْ مَوْتَاهُمْ^(٤)، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ مُضْمَنُ الْوَعِيدِ، وَالْمَرِيضُ: مَعْنَاهُ الْمُخْتَلَطُ؛ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ^(٥)، أَي: بَعْضُهُمْ يَقُولُ: سَاحِرٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: كَاهِنٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: شَاعِرٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَخْلِيْطِهِمْ، قَالَ * ع^(٦) * : وَالْمَرِيضُ: الْمَضْطَرَبُ أَيْضًا، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ؛ وَمِنْهُ مَرَجَتْ عُهْدُهُمْ، وَمِنْ الْأَوَّلِ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣].

ثُمَّ دَلَّ تَعَالَى عَلَى الْعِبَرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَقَلَّمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ/...﴾ الْآيَةُ، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ ٩٢ ب أَي: بِالنَّجُومِ، وَالْفُرُوجِ: الْفُطُورُ وَالشَّقُوقُ خِلَالِهَا وَأَثْنَاءُهَا؛ قَالَه مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(٧).

* ت * : وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ بِأَثَرِ كَلَامٍ لِلْكَسَائِيِّ: يَقُولُ: كَيْفَ بَنَيْنَاهَا بِلا عَمَدٍ، وَزَيَّنَّاهَا بِالنَّجُومِ، وَمَا فِيهَا فَتُوقُ؟ ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ أَي: بِسَطْنَاهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، انْتَهَى، وَالرُّوَاسِي: الْجِبَالُ، وَالزُّوجُ: النَّوْعُ، وَالبَهِيجُ: الْحَسَنُ الْمُنْظَرُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٨)، وَالْمُنِيبُ: الرَّاجِعُ إِلَى الْحَقِّ عَنْ فِكْرَةٍ وَنَظَرٍ؛ قَالَ قَتَادَةُ^(٩): هُوَ الْمُقْبِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤١٤/٨) كِتَابُ «التفسير» بَاب: ﴿وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ...﴾ (٤٨١٤)، (٥٥٨/٨) كِتَابُ «التفسير» بَاب: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (٤٩٣٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٧٠/٤) كِتَابُ «الفتن» بَاب: مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ (٢٩٥٥/١٤١)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢/١٥٤) كِتَابُ: «الزَّهْدِ»، بَاب: ذِكْرُ الْقَبْرِ وَابِلَى (٤٢٦٦)، وَمَالِكٌ (٢٣٩/١) كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَاب: جَامِعُ الْجَنَائِزِ (٤٨).

(٢) يَنْظُرُ: «المحرر الوجيز» (١٥٦/٥).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٧/١١) بِرَقْمٍ: (٣١٨٠٠)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٥٧/٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تفسيره» (٢٢٢/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدر المنثور» (١١٦/٦)، وَعِزَّاهُ لَابِنِ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٧/١١) بِرَقْمٍ: (٣١٨٠٣) عَنْ قَتَادَةَ، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٢٢٠/٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٥٧/٥).

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٨/١١) بِرَقْمٍ: (٣١٨١٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (١٥٧/٥).

(٦) يَنْظُرُ: «المحرر الوجيز» (١٥٧/٥).

(٧) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٩/١١) بِرَقْمٍ: (٣١٨١٤)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٥٧/٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تفسيره» (٢٢٢/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدر المنثور» (١١٦/٦)، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ عَنْ مُجَاهِدٍ.

(٨) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٠٩/١١) بِرَقْمٍ: (٣١٨١٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٥٧/٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدر المنثور» (١١٦/٦)، وَعِزَّاهُ لِلطُّسْتِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٩) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤١٠/١١) بِرَقْمٍ: (٣١٨١٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٥٧/٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدر المنثور» (١١٦/٦)، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ الرِّزَّاقِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جَرِيرٍ.

وَحَصَّ هذا الصنف بالذكر؛ تشريفاً لهم من حيث انتفاعهم بالتبصرة والذكرى، ﴿وَحَبَّ الحصيد﴾: البُرُّ، والشعير، ونحوه ممَّا هو نبات مُحَبَّبٌ يُخَصَّدُ؛ قال أبو حيان^(١): ﴿وَحَبَّ الحصيد﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته على قول الكوفيين، أو على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أي: حب الزرع الحصيد على قول البصريين، و﴿باسقات﴾ حال مُقَدَّرَةٌ؛ لِأَنَّهَا حالة الإنبات ليست طوالاً، انتهى، و﴿باسقات﴾: معناه طويلات ذاهبات في السماء، وَالطَّلْعُ أول ظهور التمر في الكُفْرَى، قال البخاري: و﴿نضيد﴾ معناه: مَنْضُودٌ بعضه على بعض، انتهى، ووصف البلدة بالميت على تقدير القطر والبلد.

ثم بيَّن سبحانه موضع الشَّبه فقال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ يعني: من القبور، وهذه الآيات كلها إنما هي أمثلة وأدلة على البعث، ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾: قوم كانت لهم بثر عظيمة، وهي الرِّسُّ، وكلُّ ما لم يُطَوَّ من بثر، أو مَعْدِنٍ، أو نحوه فهو رَسٌّ، وجاءهم نبيٌّ/ يُسَمَّى حَنْظَلَةَ بن سفيان - فيما رُوِيَ - فجعلوه في الرِّسِّ ورددوا عليه، فأهلكهم الله، وقال الضَّحَّاك: الرِّسُّ بثر قُتِلَ فيها صاحب «يس»^(٢)، وقيل: إنَّهم قوم عاد، والله أعلم.

وقوله: ﴿كُلُّ﴾ قال سيبويه: التقدير: كُلُّهم، والوعيد الذي حَقَّ: هو ما سبق به القضاء من تعذيبهم.

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّ إِلَيْهِ مِّنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿أَفَعِينَا﴾ توقيف للكفار، وتوبيخ، والخلق الأول: إنشاء الإنسان من نُطْقَةٍ على التدرج المعلوم، وقال الحسن^(٣): الخلق الأول: آدم، واللُّبْسُ: الشُّكُّ والريب، واختلاط النظر، والخلق الجديد: البعث من القبور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ...﴾ الآية: الإنسان: اسم جنس، و﴿تُوَسَّوَسُ﴾ معناه: تتحدث في فكرتها، والوسوسة إنما تُسْتَعْمَلُ في غير الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: عبارة عن قُدْرَةِ اللَّهِ على العبد،

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٨/١٢١).

(٢) أخرجه الطبري (١١/٤١٢) برقم: (٣١٨٣٩)، وذكره ابن عطية (٥/١٥٨).

(٣) ذكره ابن عطية (٥/١٥٩).

وكون العبد في قبضة القدرة والعلم قد أُحيط به، فالقرب هو بالقدرة والسلطان، إذ لا يَنْحَجِبُ عن علم الله لا باطن ولا ظاهر، والوريد: عرق كبير في العنق، ويقال: إنَّهما وريدان عن يمين وشمال.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فقال المفسرون: العامل في إذ ﴿أقرب﴾ ويحتمل عندي أن يكون العامل فيه فعلاً مُضَمَّراً تقديره: اذكر إذ يتلقى المتلقيان، و﴿المتلقيان﴾: الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بكل إنسان، مَلَكُ اليمين الذي يكتب الحسنات، وملك الشمال الذي يكتب السيئات؛ قال الحسن: الحَقْفَةُ أربعة: اثنان بالنهار، واثنان بالليل^(١)، قال * ع^(٢): * ويؤيد ذلك الحديث الصحيح: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ، مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ»^(٣) الحديث/ بكماله، وَيُزَوَّى أَنَّ مَلَكُ اليمين أمير على ملك الشمال، وَأَنَّ العبد إذا ٩٣ ب أَذْنَبَ يقول ملك اليمين للآخر: تَبَّتْ؛ لَعَلَّهُ يَتُوبُ؛ رواه إبراهيم التيمي، وسفيان الثوري، و﴿قعيد﴾: معناه قاعد.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ مَحِيدًا ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَتَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ...﴾ الآية، قال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: يكتب الملكان جميع الكلام، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات، ويمحو غير هذا^(٤)، وهذا هو ظاهر هذه الآية، قال أبو الجوزاء، ومجاهد: يكتبان عليه كُلُّ شيء حتى أُنْبِئَ في مرضه^(٥)، وقال عِكْرَمَةُ: يكتبان الخير والشر فقط^(٦)؛ قال * ع^(٧): * والأوَّلُ أصوب.

* ت * وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ يَتَكَلَّمُ بِهِ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ، إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، فَأَحَبُّ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ، فَلْيَأْتِ، فَلْيُمَدِّ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ

(١) أخرجه الطبري (٤١٦/١١) برقم: (٣١٨٦٣) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية (١٦٠/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٠/٥).

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه الطبري (٤١٧/١١) برقم: (٣١٨٦٥)، وذكره ابن عطية (١٦٠/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٤١٧/١١) برقم: (٣١٨٦٨) عن ابن زيد، وذكره البغوي (٢٢٢/٤)، وابن عطية (١٦٠/٥).

(١٦٠)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن المنذر عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري (٤١٦/١١) برقم: (٣١٨٦٤)، وذكره البغوي (٢٢٢/٤)، وابن عطية (١٦٠/٥)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٩/٦)، وعزاه لابن المنذر.

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٠/٥).

عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْهَا، لَا أَرْجِعُ إِلَيْهَا أَبَدًا، فَإِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُ مَا لَمْ يَرْجِعْ فِي عَمَلِهِ ذَلِكَ» رواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح على شرط الشيخين، يعني البخاري ومسلماً^(١)، انتهى من «السلاح»، قال التَّوَوِيُّ - رحمه الله تعالى -: ينبغي لكل مُكَلَّفٍ أَنْ يحفظ لسانه من جميع الكلام إلا كلاماً تظهر فيه مصلحته، ومتى استوى الكلام وتركه بالمصلحة فالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ؛ فَإِنَّهُ قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وهذا هو الغالب، والسلامة لا يعدلها شيء، وقد صَحَّ عنه عليه السلام فيما رواه البخاري ومسلم أَنَّهُ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢) وهو نَصٌّ صريح فيما قلناه، قال: وَرَوَيْنَا في «كتاب الترمذي» / و«ابن ماجه» عن النبي صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ» قال الترمذي: حديث حسن^(٣)، وفيه عن عُقْبَةَ بن عامر «قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسْغُكْ بَيْتُكَ، وَأَبْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ» قال الترمذي: حديث حسن^(٤)، وفيه عنه عليه السلام قَالَ: «مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» قال الترمذي: حديث حسن^(٥)، انتهى، والرقيب: المَرَاقِبُ، والعَتِيد: الحَاضِر.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٢٩/١)، (٢٦١/٤).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه الترمذي (٥٥٨/٥) كتاب «الزهد» باب: (١١) (٢٣١٧)، وابن ماجه (١٣١٥/٢ - ١٣١٦) كتاب «الفتن» باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٦) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا من هذا الوجه.

والحديث أخرجه أحمد (٢٠١/١)، هذا اللفظ، وله رواية أخرى بلفظ «من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه»، كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١/٨): رواه أحمد، والطبراني في الثلاثة، ورجال أحمد و«الكبير» ثقات، وعن زيد بن ثابت، رواه الطبراني في «الصغير» وفيه محمد بن كثير بن مروان وهو ضعيف. أخرجه الترمذي (٦٠٥/٤) كتاب «الزهد» باب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٦)، وأحمد (٢٥٩/٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٢).

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٥) أخرجه الترمذي (٦٠٦/٤) كتاب «الزهد» باب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٩)، والحاكم (٤/٣٥٧)، وابن حبان (٩/١٣ - ١٠) كتاب «الحظر والإباحة» باب: ما يكره من الكلام وما لا يكره، ذكر البيان بأن من عصم من فتنه فمه وفرجه رُجِّي له دخول الجنة (٥٧٠٣).

قال الترمذي: أبو حازم الذي روى عن أبي هريرة اسمه: سلمان مولى عزة الأشجعية وهو كوفي، وأبو حازم الذي روى عن سهل بن سعد هو: أبو حازم الزاهد مدني، واسمه: سلمة بن دينار، وهذا حديث

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ﴾ عطف، عندي، على قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ فالتقدير: وإذا تجيء سكرة الموت.

* ت * قال شيخنا، زين الدين العراقي في أرجوزته: [الرجز]

وَسَكْرَةُ الْمَوْتِ أَخْتِلَاطُ الْعَقْلِ
البيت. انتهى.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بقاء الله، وفقد الحياة الدنيا، وفراق الحياة حق يعرفه الإنسان، ويحيد منه بأمله، ومعنى هذا الحيد أنه يقول: أعيش كذا وكذا، فمتى فكر حاد بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزمان، وهذا شأن الإنسان، حتى يفاجئه الأجل؛ قال عَبْدُ الْحَقِّ في «العاقبة»: وَلَمَّا اخْتَصَرَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَنَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ: لِيُعَايِنَنَّ النَّاسُ غَدَاً مِنْ عَفْوِ اللَّهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، كُشِفَ لَهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَكَثْرَةِ عَفْوِهِ وَعَظِيمِ تَجَاوُزِهِ مَا أَوْجِبَ أَنْ قَالَ هَذَا، وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: دَخَلْنَا عَلَى عَابِدِ نَزْوَرِهِ، وَقَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْنَا لَهُ: مَا يَبْكِيكَ - رَحِمَكَ اللَّهُ؟! - فَأَنْشَأَ يَقُولُ: [الطويل]

وَحَقٌّ لِمِثْلِي الْبُكَاءُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَمَالِي لَا أَبْكِي / وَمَوْتِي قَدْ اقْتَرَبَ ٩٤ ب
وَلِي عَمَلٌ فِي اللَّوْحِ أَحْصَاهُ خَالِقِي فَإِنْ لَمْ يَجْذِبْ الْعَفْوُ صِرْتُ إِلَى الْعَطَبِ
انتهى، و«يوم الوعيد»: هو يوم القيامة، والسائق: الحادث على السير، واختلف الناس في السائق والشهيد، فقال عثمان بن عفان وغيره: هما مَلَكَانِ مُوَكَّلَانِ بكل إنسان أحدهما يسوقه، والآخر مِنْ حَفَظَتِهِ يشهد عليه^(١)، وقال أبو هريرة: السائق: مَلَكٌ،

حسن غريب.

وفي الباب من حديث عطاء بن يسار نحوه، أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٨٧/٢ - ٩٨٨) كتاب «الكلام» باب: ما جاء فيما يخاف من اللسان (١١).

وفي الباب من حديث سهل بن سعد، أخرجه البخاري (٣١٤/١١) كتاب «الرقاق» باب: حفظ اللسان، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت (٦٤٧٤)، (١١٥/١٢) كتاب «الحدود» باب: فضل من ترك الفواحش (٦٨٠٧) نحوه.

وفي الباب عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أخرجه أحمد (٣٦٢/٥).

(١) أخرجه الطبري (٤١٨/١١) برقم: (٣١٨٧١)، وذكره ابن عطية (١٦١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٢٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢٣/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في «الكنى»، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور»، وابن عساكر عن عثمان بن عفان.

والشهيد: العمل^(١)، وقيل: الشهيد: الجوارح، وقال بعض النظار: سائق اسم جنس وشهيد كذلك، فالسَّاقَةُ للناس ملائكة مُوَكَّلُونَ بذلك، والشهداء: الحَقَّةُ في الدنيا، وكل مَنْ يشهد.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ يَعْمُ الصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّمَا مَعْنَى الْآيَةِ شَهِيدٌ بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَيَقْوَى فِي شَهِيدِ اسْمِ الْجَنَسِ، فَتَشْهَدُ الْمَلَائِكَةُ، وَالْبَقَاعُ وَالْجَوَارِحُ؛ وَفِي الصَّحِيحِ: «لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ إِنْسٌ، وَلَا جِنٌّ، وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي: يقال للكافر^(٣): لقد كنت في غفلة من هذا، فلَمَّا كُشِفَ الْغَطَاءُ عَنْكَ الْآنَ اخْتَدَّ بَصْرُكَ، أي: بصيرتك؛ وهذا كما تقول: فلان حديد الذَّهْنِ ونحوه، وقال مجاهد^(٤): هو بصر العين، أي: اخْتَدَّ التَّفَاتِهِ إِلَى مِيزَانِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ.

والوجه عندي، في هذه الآية، ما قاله الحسن وسالم بن عبد الله^(٥): إِنَّهَا مُحَاطَبَةٌ لِلْإِنْسَانِ ذِي النَفْسِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَهَكَذَا، قَالَ الْفَخْرُ^(٦): قَالَ: وَالْأَقْوَى أَنْ يَقَالَ: هُوَ خُطَابٌ عَامٌّ مَعَ السَّامِعِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ أَيُّهَا السَّامِعُ، انْتَهَى، ١٩٥ وَيَنْظُرُ إِلَى مَعْنَى كَشْفِ الْغَطَاءِ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا»^(٧).

(١) ذكره ابن عطية (١٦١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢٣/٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في «الكنى»، وابن مردويه، والبيهقي.
(٢) أخرجه البخاري (١٠٤/٢) كتاب «الأذان» باب: رفع الصوت بالنداء (٦٠٩)، (٣٩٥/٦) كتاب «بدء الخلق» باب: ذكر الجن وثوابهم وعقابهم (٣٢٩٦)، (٥٢٨/١٣) كتاب «التوحيد» قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام البررة، وزينوا القرآن بأصواتكم»، (٧٥٤٨)، وابن ماجه (٢٣٩/١) - (٢٤٠) كتاب «الأذان والسنة فيه» باب: فضل الأذان وثواب المؤذنين (٧٢٣)، ومالك (٦٩/١) كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في النداء للصلاة (٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٠٣/١) كتاب «الصلاة» باب: فضل الأذان ورفع الصوت به وشهادة من يسمعه من حجر ومدبر وشجر وجن وإنس للمؤذن، (٣٨٩)، والحميدي (٣٢١/٢)، (٧٣٢)، وأحمد (٦/٣) كلهم عن أبي سعيد الخدري مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٣) أخرجه الطبري (٤٢٠/١١) برقم: (٣١٨٨٥)، وذكره ابن عطية (١٦٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٢٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢٣/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) ذكره البغوي (٢٢٣/٤)، وابن عطية (١٦٢/٥).

(٥) ذكره ابن عطية (١٦٢/٥).

(٦) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤٢/١٤).

(٧) أورده الغزالي في «الإحياء» (٢٣/٤).

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرًا فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ قال جماعة من المفسرين: يعني قرينه من زبانية جهنم، أي: قال هذا العذاب الذي لدي لهذا الكافر، حاضر، وقال قتادة وابن زيد^(١): بل قرينه الموكَّل بسوقه، قال * ع^(٢) * : ولفظ القرين اسم جنس، فسأقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين، والكُلُّ تحتمله هذه الآية، أي: هذا الذي أحصيته عليه عتيد لَدَيَّ، وهو مُوجِبُ عذابه، والقرين الذي في هذه الآية غير القرين الذي في قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع.

وقوله سبحانه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ المعنى: يقال: أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ، واختُلِفَ لمن يُقَالُ ذلك، فقال جماعة: هو قول لِمَلَكَيْنِ من ملائكة العذاب.

وقال عبد الرحمن بن زيد^(٣): هو قول للساتق والشهيد.

وقال جماعة من أهل العلم باللغة: هذا جارٍ على عادة كلام العرب الفصيح أَنْ يُخَاطَبَ الواحدُ بلفظ الاثنين؛ وذلك أَنَّ العربَ كانَ الغالبُ عندها أَنْ يترافقَ في الأسفار ونحوها ثلاثة، فكلُّ واحدٍ منهم يخاطبُ اثنين، فَكثُرَ ذلك في أشعارها وكلامها، حتَّى صار عُرْفًا في المخاطبة، فاستُعْمِلَ في الواحد، ومن هذا قولهم في الأشعار:

[من الطويل]

خَلِيلِي (٤)

= قال العجلوني في «كشف الخفاء ومزيل الإلباس»: هو من قول علي بن أبي طالب، لكن عزاه الشعراني في «الطبقات» لسهل التُّسْتَرِي، ولفظه في ترجمته ومن كلامه: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا ماتوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم اهـ.

(١) ذكره ابن عطية (١٦٢/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٣/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (١٦٣/٥).

(٤) مطلع قصيدة لامرئ القيس، وتمام البيت:

... مُرَا بِي عَلَى أَمْ جُنْدَبٍ نُقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ
ينظر: «ديوانه» ص: (٤١).

و

- (١) صَاحِبِي [ومن الطويل]
- (٢) قَفَانِيكَ ونحوه.

وقال بعض المتأولين: المراد «الْقَيْن»، فَعُوْضَ من النون أَلْفٌ، وقرأ الحسن بن أبي ٩٥ ب الحسن: «أَلْقِيَا» بتنوين الياء^(٣)، و«عنيد» معناه: عَانِدٌ عن الحق، أي: مُنْحَرِفٌ/ عنه.

وقوله تعالى: ﴿مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ﴾ لفظ عامٌ للمالِ والكلامِ الحَسَنِ والمُعَاوَنَةِ على الأشياءِ، و﴿مُعْتَدٍ﴾ معناه: بلسانه ويده.

- (١) وجاء منه قول أبي تمام [الكامل]:
يَا صَاحِبِي تَقْضِيَا نَظْرِيكُمَا تَرَيَا وَجْهَ الرُّؤُوسِ كَيْفَ تُصَوِّرُ
وجاء منه مخاطبة الصاحب بالمشي كقول الشاعر:
وَقُلْتُ لِصَاحِبِي لَا تَخْبِسَانَا بِنَزْعِ أَصُولِهِ وَاجْدَزْ شَيْحَا
البيت من الوافر، وهو لمضرس بن ربيعي في «شرح شواهد الشافية» ص: (٤٨١)، وله أو ليزيد بن الطثرية في «لسان العرب» (٣١٩/٥ - ٣٢٠) (جز)، و«المقاصد النحوية» (٥٩١/٤)، وبلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (٨٥/٨)، و«خزانة الأدب» (١٧/١١)، و«سر صناعة الإعراب» ص: (١٨٧)، و«شرح الأشموني» (٨٧٤/٣)، و«شرح شافية ابن الحاجب» (٢٢٨/٣)، و«شرح المفصل» (٤٩/١٠)، والصاحبي في «فقه اللغة» ص: (١٠٩، ٢١٨)، و«لسان العرب» (١٢٥/٤) (جر)، و«المقرب» (٢/ ١٦٦)، و«المتع في التصريف» (٣٥٧/١).
- (٢) مطلع قصيدة لامرئ القيس، وتما البيت:
..... مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بَيْقِطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ وَخَوْمِلِ
ينظر: «ديوانه» ص: (٨)، و«الأزهرية» ص: (٢٤٤)، و«جمهرة اللغة» ص: (٥٦٧)، و«الجنى الداني» ص: (٦٣ - ٦٤)، و«خزانة الأدب» (٣٣٢/١، ٢٢٤/٣)، و«الدرر» (٧١/٦)، و«سر صناعة الإعراب» (٥٠١/٢)، و«شرح شواهد الشافية» ص: (٢٤٢)، و«شرح شواهد المغني» (٤٦٣/١)، و«الكتاب» (٢٠٥/٤)، و«لسان العرب» (٢٠٩/١٥) (قوا)، (٤٢٨)، و«مجالس ثعلب» ص: (١٢٧)، و«معجم الهوامع» (١٢٩/٢)، وبلا نسبة في «الإنصاف» (٦٥٦/٢)، و«أوضح المسالك» (٣٥٩/٣)، و«جمهرة اللغة» ص: (٥٨٠)، و«خزانة الأدب» (٦/١١)، و«الدرر» (٨٢/٦)، و«رصف المباني» ص: (٣٥٣)، و«شرح الأشموني» (٤١٧/٢)، و«شرح شافية ابن الحاجب» (٣١٦/٢)، و«شرح قطر الندى» ص: (٨٠)، والصاحبي في «فقه اللغة» ص: (١١٠)، و«مغني اللبيب» (١٦١/١، ٢٦٦)، و«المتنصف» (١/ ٢٢٤)، و«معجم الهوامع» (١٣١/٢).
- (٣) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٤٥)، و«المحتسب» (٢٨٤/٢)، و«الكشاف» (٣٨٧/٤)، و«المحرر الوجيز» (١٦٤/٥)، و«البحر المحيط» (١٢٥/٨)، و«الدر المصون» (١٧٨/٦).

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ...﴾ الآية، يحتمل أن يكون ﴿الذي﴾ بدلاً من ﴿كفار﴾، أو صفة له، وَيَقْوَى عندي أن يكون ﴿الذي﴾ ابتداءً ويتضمن القول حينئذ بني آدم والشياطين المغوين لهم في الدنيا، ولذلك تحرك القريّن، الشيطان المغوي، فرام أن يُبْرِئ نفسه ويخلصها بقوله: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ﴾.

وقوله: ﴿ربنا ما أطعته﴾ ليست بحجة؛ لأنه كَذَبَ أن نفى الإطغاء عن نفسه جملةً، وهو قد أطغاه بالسوسة والتزوين، وأطغاه الله بالخلق والاختراع حسب سابق قضائه الذي هو عدل منه، سبحانه لا رَبَّ غَيْرُهُ.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ معناه: قال الله: لا تختصموا لدي بهذا النوع من المقالوة التي لا تفيد شيئاً ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ وهو ما جاءت به الرسل والكتب، وجمّع الضمير؛ لأنه مخاطبة لجميع القرناء؛ إذ هو أمر شائع لا يقف على اثنين فقط.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْسَيِّدِ﴾ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لِنُثَبِّتَ فِيهَا رِجْدًا (٣١)

وقوله سبحانه: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي: لا ينقض ما أبرمه كلامي من تعذيب الكفرة، ثم أزال سبحانه موضع الاعتراض بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: هذا عدل فيهم؛ لأنني أُنذرت، وأمهلت، وأنعمت، وقرأ الجمهور: «يَوْمَ نَقُولُ» بالنون، وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر بالياء، وهي قراءة أهل المدينة/ (١)، قال * ع (٢) * : والذي ١٩٦ يترجّع في قول جهنم: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أنها حقيقة، وأنها قالت ذلك، وهي غير ملأى، وهو قول أنس بن مالك، ويبين ذلك الحديث الصحيح، وهو قوله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأَتْ؟ وَنَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟! حَتَّى يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ، وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ» (٣) ولفظ البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ:

(١) ينظر: «السبعة» (٦٠٧)، و«الحجة» (٢١٣/٦)، و«معاني القراءات» (٢٧/٣)، و«شرح الطيبة» (٦/١٧)، و«العنوان» (١٧٩)، و«حجة القراءات» (٦٧٨)، و«شرح شعلة» (٥٨٨)، و«إتحاف» (٤٨٩/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٥/٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٤/١١) كتاب «الآيمان والنذور» باب: الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، برقم: (٦٦٦١)، ومسلم (٢١٨٧/٤) كتاب «الجنة» وصفة نعيمها وأهلها: باب: الناري دخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٣٧، ٣٨-٣٧، ٢٨٤٨/٣٨)، والترمذي (٣٩٠/٥) كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة ق (٣٢٧٢)، وأحمد (١٣٤/٣)، ١٤١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢٧/٥).

تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُورِثْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي، لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟! فَقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلُؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِيءُ حَتَّى يَضَعَ [الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ] ^(١) فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا تَمْتَلِيءُ وَيَزْوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا ^(٢) انتهى، قال * ع ^(٣) * : ومعنى: «قدمه» ما قَدَّمَ لها من خلقه وجعلهم في علمه ساكنيها؛ ومنه: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وملاك النظر في هذه الحديث أَنَّ الجارحة، والتشبيه، وما جرى مجراه - مُتَنَفِّ كُلُّ ذَلِكَ عَنِ اللَّهِ سبحانه، فلم يبقَ إِلَّا إِخْرَاجُ اللَّفْظِ عَلَى الْوَجْهِ السَّائِغَةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ معناه: قُرِبَتْ، ولما احتمل أَنْ يَكُونَ معناه بالوعد والإخبار رفع الاحتمال بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قال أبو حيان ^(٤): ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: مكاناً غيرَ بعيد؛ فهو ٩٦ ب منصوب على الظرف، وقيل: منصوب/ على الحال من الجنة، انتهى.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ ^(٣٧) مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ إِلَهَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ^(٣٨) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ^(٣٩) لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ^(٤٠) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّخِيصٍ ^(٤١) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ^(٤٢)

وقوله سبحانه: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يحتمل أَنْ يَكُونَ معناه: يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة: هذا الذي كنتم توعدون به في الدنيا، ويحتمل أَنْ يَكُونَ خطاباً لِلْأُمَّةِ، أي: هذا ما توعدون أيها الناس ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾: وَالْأَوَّابُ: الرَّجَّاعُ إِلَى الطَّاعَةِ وَإِلَى مِرَاشِدِ

(٢٥٥١) عن أنس بن مالك نحوه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٠/٨) كتاب «التفسير» باب: وتقول هل من مزيد (٤٨٥٠)، ومسلم (٢١٨٦/٤) - (٢١٨٧) كتاب «الجنة وصفة نعيمها» باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء (٣٥ - ٣٦/٢٨٤٦)، (٢٨٤٧) نحوه، والنسائي (٤١٤/٤ - ٤١٥) كتاب «النعوت» باب: قوله: ﴿وَلُتَضَّعَ عَلَى عَيْنِي﴾، (٨٠/٧٧٤٠)، وابن حبان (٤٨٢/١٦) كتاب «إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة» باب: وصف الجنة وأهلها (٧٤٤٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٥/٥).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (١٢٦/٨).

نفسه، وقال ابن عباس وعطاء^(١): الْأَوَابُ: الْمُسِيحُ؛ من قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] وقال الْمُحَاسِبِيُّ^(٢): هو الراجع بقلبه إلى ربه، وقال عبيد بن عمير^(٣): كُنَّا نتحدث أَنَّهُ الذي إذا قام من مجلسه استغفر الله مِمَّا جرى في ذلك المجلس، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل^(٤)، والحفيظ معناه: لأوامر الله، فيمثلها، ولنواهيه فيتركها، وقال ابن عباس^(٥): حفيظ لذنوبه حَتَّى يرجع عنها، والمُنِيبُ: الراجع إلى الخير المائِلُ إليه؛ قال الدَّأُوْدِيُّ^(٦): وعن قتادة ﴿بقلب منيب﴾ قال: مُقْبِلٌ على الله سبحانه، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿اذْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم: ادخلوها.

وقوله عز وجل: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ خبر بأنهم يُغَطَّرُونَ آمالهم أجمع، ثم أبهم تعالى الزيادة التي عنده للمؤمنين الْمُتَّعِمِينَ، وكذلك هي مُبْهَمَةٌ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقد فسر ذلك الحديث الصحيح، وهو قوله - عليه السلام -: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَغْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَا لَا أَعَيْنُ رَأْتُ، وَلَا أَدُنُّ سَمِعْتُ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، بَلَهُ مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ»^(٧) قال ع^(٨): * وقد ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة، وأشياء ضعيفة؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ﴾ وهم يعينونها تكلفاً ١٩٧ وتعسفاً.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبُّوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: ولجوا البلاد من أنقابها؛ طمعاً في النجاة من الهلاك ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيص لهم، وقرأ ابن عباس وغيره: «فَتَقَبُّوا» على

(١) أخرجه الطبري (٤٢٨/١١) برقم: (٣١٩٢٦) عن ابن عباس، وذكره البغوي (٢٢٥/٤)، وابن عطية (١٦٦/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (١٦٦/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (١٦٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٢٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٢٦)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر.

(٤) ذكره الهندي في «كنز العمال» (١٥٣/٧) برقم: (١٨٤٧٨)، وعزاه إلى ابن السني عن عبد الله الحضرمي.

(٥) أخرجه الطبري (٤٢٨/١١) برقم: (٣١٩٣٣)، وذكره البغوي (٢٢٥/٤)، وابن عطية (١٦٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢٦/٦)، وعزاه لابن جرير، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن التميمي.

(٦) أخرجه الطبري (٤٢٩/١١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٧) تقدم.

(٨) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٦/٥).

الأمر لهؤلاء الحاضرين^(١).

* ت * : وعبارة البخاري «فَتَقَبَّوْا» : ضربوا^(٢)، وقال الداودي : وعن أبي عبيدة «فَتَقَبَّوْا فِي الْبِلَادِ» : طافوا، وتباعدوا، انتهى.

وقوله تعالى : «إِنَّ فِي ذَلِكَ» يعني : إهلاك مَنْ مَضَى «لَذِكْرَى» أي : تذكرة، والقلب عبارة عن العقل ؛ إذ هو مَحِلُّهُ، والمعنى : لمن كان له قلب واعٍ ينتفع به، وقال السبلي : معناه : قلب حاضر مع الله، لا يغفل عنه طرفة عين.

وقوله تعالى : «أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» معناه : صَرَفَ سَمْعَهُ إِلَى هَذِهِ الْأَنْبَاءِ الْوَاعِظَةِ، وأثبتته في سماعها «وَهُوَ شَهِيدٌ» قال بعض المتأولين : معناه : وهو مشاهد مُقْبِلٌ عَلَى الْأَمْرِ، غَيْرُ مُغْرِضٍ وَلَا مُفَكِّرٍ فِي غَيْرِ مَا يَسْمَعُ.

* ت * : ولفظ البخاري «أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ» أي : لا يحدث نفسه بغيره «شَهِيدٌ» أي : شاهد بالقلب، انتهى، قال المُحَاسِبِيُّ فِي «رَعَايَتِهِ» : وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَحْضَكَ عَلَى حُسْنِ الْإِسْتِمَاعِ ؛ لِتَدْرِكَ بِهِ الْفَهْمَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَنَا فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ اسْتَمَعَ كَمَا يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى وَيَرْضَى، كَانَ لَهُ فِيمَا يَسْتَمَعُ إِلَيْهِ ذِكْرَى، يَعْنِي : اتِّعَاضًا، وَإِذَا سَمِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ كَمَا سَمَى، وَهُوَ وَاصِلٌ إِلَيْهِ كَمَا أَخْبَرَ ؛ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» / قَالَ مُجَاهِدٌ^(٣) : شَاهِدَ الْقَلْبِ، لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ لَيْسَ بِغَائِبٍ الْقَلْبِ، فَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ إِلَى حِكْمَةٍ، أَوْ إِلَى عِلْمٍ، أَوْ إِلَى عِظَةٍ، لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ مَا يَسْتَمَعُ إِلَيْهِ، قَدْ أَشْهَدَ قَلْبُهُ مَا اسْتَمَعَ إِلَيْهِ، يَرِيدُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ : - كَانَ لَهُ فِيهِ ذِكْرَى ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ ذَلِكَ، فَهُوَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ، انْتَهَى كَلَامُ الْمُحَاسِبِيِّ، وَهُوَ ذُرٌّ نَفِيسٌ، فَحَصَّلُهُ، وَاعْمَلْ بِهِ تَرْشُدْ، وَقَدْ وَجَدْنَاهُ، كَمَا قَالَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

- (١) وقرأ بها أبو العالية، ويحيى بن يعمر، ونصر بن سيار.
ينظر : «المحتسب» (٢/٢٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/١٦٧)، و«البحر المحيط» (٨/١٢٧)، وزاد نسبتها إلى أبي حيو، والأصمعي عن أبي عمرو. وهي في «الدر المصون» (٦/١٨١).
(٢) ينظر : «صحيح البخاري» (٨/٤٥٨)، تفسير سورة (ق).
(٣) أخرجه الطبري (١١/٤٣٣) برقم : (٣١٩٥٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٢٩)، وعزاه للفرغاني، وابن جرير.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ (٤٠)

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية: خَبَرٌ مضمَّنُه الرَّدُّ على اليهود الذين قالوا: إِنَّ اللَّهَ خلق الأشياء كلها، ثم استراح يَوْمَ السبت، فنزلت: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ واللُّغُوبُ: الإعياء والتَّصَبُّ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقوله الكفرة من أهل الكتاب وغيرهم، وعَمَّ بذلك جميع الأقوال الزائغة من قريش وغيرهم ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: صَلِّ بإجماع من المتأولين.

* ت * وفي الإجماع نظر؛ وقد قال الشعلبي ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل سبحان الله والحمد لله؛ قاله عطاء الخراساني، انتهى، ولكن المخرَجُ في الصحيح إنما هو أمر الصلاة، وقال ابن العربي في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أَنَّهُ تسبيحُ اللَّهِ في الليل، وَيَعْضُدُ هذا القول الحديثُ الصحيح: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢) الحديث، وقد ذكرناه في سورة «المزمل».

والثاني: أَنَّهَا صلاةُ الليل.

والثالث: أَنَّهَا ركعتا الفجر.

/ والرابع: أَنَّهَا صلاةُ العشاء الآخرة، انتهى.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الباء للاقتران، أي: سَبِّحْ سبحة يكون معها حَمْدٌ، و﴿قَبْلَ

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٤/١٧٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨/٣) كتاب «التَّهَجُّد» باب: فضل من تعارَّ من الليل فصلى (١١٥٤)، وأبو داود (٢/٧٣٤)، كتاب «الأدب» باب: ما يقول الرجل إذا تعارَّ من الليل (٥٠٦٠)، وابن ماجه (١٢٧٦/٢) كتاب «الدعاء» باب: ما يدعو به إذا انتبه من الليل (٣٨٧٨)، والترمذي (٤٨٠/٥)، كتاب «الدعوات» باب: ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل (٣٤١٤)، وأحمد (٣١٣/٥)، والنسائي في «الكبرى» (٢١٥/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا انتبه من منامه (٩/١٠٦٩٧)، وابن حبان (٣٣١/٦) كتاب «الصلاة» باب: فصل في قيام الليل (٢٥٩٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الباء للاقتران، أي: سَبَّحَ سبحة يكون معها حَمْدٌ، و﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ هي الصبح، و﴿قَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: هي العصر؛ قاله ابن زيد والناس^(١)، وقال ابن عباس^(٢): الظهر والعصر، و﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾: هي صلاة الْعِشَاءَيْنِ، وقال ابن زيد^(٣): هي العشاء فقط، وقال مجاهد^(٤): هي صلاة الليل.

وقوله: ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال عمر بن الخطاب وجماعة^(٥): هي الرُّكْعَتَانِ بعد المغرب، وأسنده الطبري عن ابن عباس عن النبي ﷺ^(٦) قال ع^(٧) * : كَأَنَّهُ رُوعِي أَدْبَارُ صلاة النهار، كما رُوعِي أَدْبَارُ النجوم في صلاة الليل، وقال ابن عباس أيضاً، وابن زيد، ومجاهد^(٨): هي النوافل إثر الصلوات، وهذا جارٍ مع لفظ الآية، وقرأ نافع، وابن كثير، وحزمة: «وَأَذْبَارَ» بكسر الهمزة، وهو مصدر، وقرأ الباقون بفتحها، وهو جمع دُبُرٍ؛ كطُتِبَ وَأُطْنَبَ^(٩)، أي: وفي أَدْبَارِ السجود، أي: في أعقابه.

﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ غَنِيٌّ وَنُيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَسْقُطُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ واستمع بمنزلة: وانتظر،

- (١) أخرجه الطبري (٤٣٥/١١) برقم: (٣١٩٧٠)، وذكره ابن عطية (١٦٨/٥).
- (٢) ذكره البغوي (٢٢٦/٤)، وابن عطية (١٦٨/٥).
- (٣) أخرجه الطبري (٤٣٥/١١) برقم: (٣١٩٧١)، وذكره ابن عطية (١٦٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٠/٦)، وعزاه لابن جرير.
- (٤) أخرجه الطبري (٤٣٥/١١) برقم: (٣١٩٧٢)، وذكره البغوي (٢٢٧/٤)، وابن عطية (١٦٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٠/٦)، وعزاه لابن جرير.
- (٥) أخرجه الطبري (٤٣٦/١١) برقم: (٣١٩٧٥) عن علي رضي الله عنه، وذكره البغوي (٢٢٧/٤)، وابن عطية (١٦٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣١/٦)، وعزاه لابن المنذر، ومحمد بن نصر.
- (٦) أخرجه الطبري (٤٣٧/١١) برقم: (٣١٩٨٥).
- (٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦٩/٥).
- (٨) أخرجه الطبري (٤٣٨/١١) برقم: (٣١٩٩٧) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (١٦٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٠/٦)، وعزاه لابن جرير.
- (٩) ينظر: «الحجة» (٢١٣/٦)، و«السبعة» (٦٠٧)، و«معاني القراءات» (٢٧/٣)، و«شرح الطيبة» (٦/١٧)، و«حجة القراءات» (٦٧٨)، و«المنوان» (١٧٩)، و«شرح شعلة» (٥٨٨)، و«إتحاف» (٢/٤٨٩).

وكذا، أي: كُنْ مُنْتَظَرًا لَهُ، مستمعًا له، فعلى هذا فَتَضُبُّ «يوم» إنما هو على المفعول الصريح.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قيل: وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلق، ورؤي عن النبي ﷺ: «إِنَّ مَلَكًا يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ: أَيُّهَا الْأَجْسَامُ الْهَامِدَةُ، وَالْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، - وَالرَّمَمُ الدَّاهِيَةُ - هَلُمِّي إِلَى الْحَشْرِ وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» والصيحة: / هي صيحة المنادي، والخروج: هو من القبور، ويومُه هو يومُ القيامة، ويومُ الخروج في ٩٨ ب الدنيا: هو يوم العيد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾: معادل لقول الكفرة: ﴿ذلك رجع بعيد﴾ [ق: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وعيد محض للكفرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ قال الطبري وغيره^(١): معناه: وما أنت عليهم بمسلط، تُجْبِرُهُمْ على الإيمان.

وقال قتادة^(٢): هو نهْيٌ من الله تعالى عن التجبر، والمعنى: وما أنت عليهم بمتعظم من الجبروت، وروى ابن عباس أنَّ المؤمنين قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ خَوْفُنَا! فَتَزَلَّتْ: ﴿فَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِي﴾^(٣).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٩/١١).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٠/١١) برقم: (٣٢٠٠٤)، وذكره ابن عطية (١٧٠/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧٢/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري (٤٤٠/١١) برقم: (٣٢٠٠٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٣٢/٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الذَّارِيَاتِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ ١ ﴿فَالْمُحَلَّلَاتِ وَقَرًا﴾ ٢ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ٣ ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ ٤ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ٥ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُ ۖ﴾ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ۖ﴾ ٧ ﴿

قوله عز وجل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا...﴾ الآية، أقسم الله عز وجل بهذه المخلوقات؛ تنبيهاً عليها، وتشريفاً لها، ودلالةً على الاعتبار فيها، حَتَّى يَصِيرَ النَّاظِرُ فِيهَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عز وجل، فقوله: ﴿والذاريات﴾: هي الرياح بإجماع و﴿ذُرُوءًا﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، و﴿الحاملات وقرأ﴾ قال عليّ: هي السحاب، وقال ابن عباس وغيره^(١): هي السفن الموقورة بالناس وأمتعتهم، وقال جماعة من العلماء: هي أيضاً مع هذا جميع الحيوان الحامل، وفي جميع ذلك مُعْتَبَرٌ، و﴿الجاريات يسراً﴾ قال عليّ وغيره^(٢): هي السفن في البحر، وقال آخرون: هي السحاب، وقال آخرون: هي الكواكب؛ قال ع^(٣): * واللفظ يقتضي جميع هذا، و﴿يسراً﴾ نعت لمصدر محذوف، وصفات/ المصادر المحذوفة تعود أحوالاً، و﴿يسراً﴾ معناه: بسهولة و﴿الْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾: الملائكة، والأمر هنا: اسم جنس، فكأنه قال: والجماعات التي تقسم أمور الملكوت، من الأرزاق، والآجال، والخلق في الأرحام، وأمر الرياح والجبال، وغير ذلك؛ لِأَنَّ كُلَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ بِمَلَائِكَةٍ تَخْدُمُهُ، وَأَنَّ «المقسمات» من حيث أراد الجماعات، وهذا الْقَسْمُ واقع على قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ

(١) أخرجه الطبري (٤٤٢/١١) برقم: (٣٢٠٢١)، وذكره ابن عطية (١٧١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٣/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، والحاثر بن أبي أسامة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف»، والحاكم وصححه.

(٢) ذكره ابن عطية (١٧١/٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧١/٥).

لَصَادِقٌ... الآية، و﴿توعدون﴾ يحتمل أن يكونَ من الوعد، ويحتمل أن يكون من الإيعاد، وهو أظهر، و﴿الدين﴾: الجزاء، وقال مجاهد: الحساب^(١).

ثم أقسم تعالى بمخلوق آخر، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ والْحُبُكُ: الطرائق التي هي على نظام في الأجرام، ويقال لما تراه من الطرائق في الماء والرمال إذا أصابته الريح: حُبْك، ويقال لِتَكَسَّرِ الشعر: حُبْك، وكذلك في المنسوجات من الأكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هي حُبْك؛ وذلك لجودة خَلْقَةِ السماء؛ ولذلك فَسَّرَهَا ابن عباس وغيره^(٢) بذات الخلق الحَسَنَ وقال الحسن^(٣): حُبْكُهَا كَوَاكِبُهَا.

﴿إِنَّا لَنُفِئُ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩) قِيلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُوتَ (١١) يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ (١٢) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنُفِئُ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لجميع الناس، أي: منكم مؤمن بمحمد، ومنكم مكذِّب له، وهو قول قتادة^(٤)، ويحتمل أن يكون خطاباً للكفرة فقط؛ لقول بعضهم: شاعر، وبعضهم: كاهن، وبعضهم: ساحر، إلى غير ذلك؛ وهذا قول ابن زيد^(٥).

و﴿يُؤْفَكُ﴾ معناه: يُصْرَفُ، أي: يصرف من الكفار عن كتاب الله مَنْ صُرِفَ مِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ شَقَاؤُهُ، وَغُرِفَ الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ دعاء عليهم؛ كما تقول: قاتلك الله، وقال بعض المفسرين. معناه: لُعِنَ الْخَرَّاصُونَ، وهذا تفسير لا يعطيه اللفظ.

* ت * والظاهر ما قاله هذا المفسر؛ قال عِيَاضُ فِي «الشفاء» وقد يقع القتل بمعنى اللعن؛ قال الله تعالى: ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ و﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]

(١) أخرجه الطبري (٤٤٤/١١) برقم: (٣٢٠٣٦)، وذكره ابن عطية (١٧٢/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٥/١١) برقم: (٣٢٠٤٠)، وذكره البغوي (٢٢٩/٤)، وذكره ابن عطية (١٧٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٢/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٤٥/١١) برقم: (٣٢٠٥٢)، وذكره البغوي (٢٢٩/٤)، وابن عطية (١٧٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٢/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٤٤٦/١١) برقم: (٣٢٠٦٠)، وذكره ابن عطية (١٧٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٢/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٤٤٦/١١) برقم: (٣٢٠٦١)، وذكره ابن عطية (١٧٣/٥).

أي: لعنهم الله، انتهى، وقد تقدّم للشيخ عند قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] قال: كُلُّ ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل، فَإِنَّمَا هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لِأَنَّ الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته، انتهى بلفظه، وظاهره مخالف لما هنا، وسيبينه في «سورة البروج»، والخَرَّاصُ: الْمُخَمَّنُ القائل بِظَنِّهِ، والإشارة إلى مُكَذِّبِي النبي ﷺ، والعَمْرَةُ: ما يَغْشَى الإنسان ويغطيه؛ كغمرة الماء، و﴿ساهون﴾ معناه: عن وجوه النظر.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، وذلك منهم على جهة الاستهزاء.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (١٣) دُوقُوا فَنَتَكَمَّرْ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَتَمَجُلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ءَاخِذِينَ مَا ءَأْتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِئِيلٍ مَا يَهْتَمُونَ (١٧) ﴿

وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال الزَّجَّاجُ^(١): التقدير: هو كائن يوم هم على النار يُفْتَنُونَ، و﴿يفتنون﴾ معناه: يُحْرِقُونَ وَيُعَذِّبُونَ في النار؛ قاله ابن عباس والناس^(٢)، وَفَتَنَتْ الذهبَ أَحرقته، و﴿دُوقُوا فَنَتَكَمَّرْ﴾ أي: حرقكم وعذابكم؛ قاله قتادة وغيره^(٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ...﴾ الآية، روى الترمذي عن النبي ﷺ قال: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ حَدَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن^(٤)، انتهى، وقوله سبحانه في المتقين: ﴿أَخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: مُحْصِلِينَ ما أعطاهم رَبُّهم سبحانه من جناته، ورضوانه، وأنواع كراماته ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾: يريد في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾: بالطاعات والعمل الصالح.

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٥٢/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٩/١١) برقم: (٣٢٠٧٩)، وذكره ابن عطية (١٧٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٢/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٥٠/١١) برقم: (٣٢٠٩٢)، وذكره ابن عطية (١٧٤/٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٦٣٤/٤) كتاب «صفة القيامة» باب: (٩) (٢٤٥١)، وابن ماجه (١٤٠٩/٢) كتاب «الزهد» باب: الورع والتقوى (٤٢١٥)، والبيهقي (٣٣٥/٥) كتاب «اليوع» باب: كراهية مبايعة من أكثر ماله من الربا أو ثمن المحرم، والطبراني (١٦٩/١٧)، (٤٤٦)، والحاكم (٣١٩/٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

* ت * : وروى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ مَا يُقْلُ ظَفَرٌ مِّمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَأَ تَتَرَخَّرَفُ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَ، فَبَدَأَ أَسَاوِرُهُ، لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ؛ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ»^(١) انتهى، ومعنى قوله: «كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» أَنَّ نومهم كان قليلاً؛ لاشتغالهم بالصلاة والعبادة، والهجوم: النوم، وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية: كابدوا قيام الليل، لا ينامون منه إلا قليلاً^(٢)، وأمّا إعراب الآية فقال الضحاك في كتاب الطبري: ما يقتضي أَنَّ المعنى: كانوا قليلاً في عددهم، وتَمَّ خبر «كان»، ثم ابتدأ «من الليل ما يهجعون» فما نافية و«قليلاً» وقف حسن، وقال جمهور النحويين: ما مصدرية و«قليلاً» خبر «كان»، والمعنى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، وعلى هذا الإعراب يجيء قول الحسن وغيره، وهو الظاهر عندي أَنَّ المراد كان هُجُوعُهُمْ من الليل قليلاً؛ قيل لبعض التابعين: مَدَحَ اللَّهُ قَوْمًا «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» ونَحْنُ قَلِيلًا من الليل ما نقوم! فقال: رَحِمَ اللَّهُ امرأ رقد إذا نعى، وأطاع رَبَّهُ إذا استيقظ.

﴿وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال الحسن^(٣): معناه: يدعون في طلب المغفرة، ويُرَوَّى أَنَّ أبواب الجنة تُفْتَحُ سَحَرُ كُلِّ لَيْلَةٍ، قال ابن زيد^(٤): السَّحَرُ: السُّدُسُ الآخر من الليل، والباء في قوله «بِالْأَشْحَارِ» بمعنى في؛ قاله أبو البقاء، انتهى، ومن كلام [ابن] الجوزي في «المنتخب»: يا أخي، علامة المَحَبَّةِ طَلَبُ الْخُلُوةِ بِالْحَبِيبِ، وبيداء الليل / فلوأث الخلوات، لَمَّا سَتَرُوا قِيَامَ اللَّيْلِ فِي ظِلَامِ الدُّجَى؛ غَيْرَةَ أَنْ يَطْلُعَ الْغَيْرُ عَلَيْهِمْ ٩٩ ب - سَتَرَهُمْ سَبْحَانَهُ بَسْتَر -، «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُورَةٍ أَعْيَنَ» [السجدة: ١٧]، لَمَّا صَفَّتْ خُلُوتُ الدُّجَى، ونادى أذان الوصال: أقم فلاناً، وأنم فلاناً - خرجت بالأسماء

- (١) أخرجه الترمذي (٦٧٨/٤)، كتاب «صفة الجنة» باب: ما جاء في صفة أهل الجنة، وأحمد (١٧١/١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢٠٨/٦) (٢١٩٠)، وابن المبارك في «الزهد» (١٢٦/٢) (٤١٦). قال الترمذي: هذا الحديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من حديث ابن لهيعة.
- (٢) أخرجه الطبري (٤٥٣/١١) برقم: (٣٢١١٦)، وذكره ابن عطية (١٧٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٢٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٤/٦)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير.
- (٣) أخرجه الطبري (٤٥٦/١١) برقم: (٣٢١٤٠)، وذكره البغوي (٢٣٠/٤)، وذكره ابن عطية (١٧٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٥/٦)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن نصر، وابن جرير، وابن المنذر.
- (٤) أخرجه الطبري (٤٥٦/١١) برقم: (٣٢١٤٢)، وذكره ابن عطية (١٧٥/٥).

الجرائد؛ وفاز الأحباب بالفوائد، وأنت غافل راقد. آه لو كنت معهم! أسفاً لك! لو رأيتمهم لأبصرت طلائع الصديقين في أول القوم، وشاهدت ساقاة المستغفرين في الركب، وسمعت استغاثة المحبين في وسط الليل، لو رأيتمهم يا غافل، وقد دارت كؤوس المناجات؛ بين مظاهر التلاوات، فأسكرت قلب الواجد، ورقمت في مصاحف الوجنات. تعرفهم بسيماهم، يا طويل النوم، فأتتك مذحة تتجافى [السجدة: ١٦]، وحُرمت منحة [والمستغفرين] [آل عمران: ١٧]، يا هذا، إنَّ لله تعالى ريحاً تُسمى الصبيحة مخزونة تحت العرش، تهبُّ عند الأسحار، فتحمل الدعاء والأنين والاستغفار إلى حضرة العزيز الجبار، انتهى.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ...﴾ الآية، الصحيح أنها مُحْكَمَةٌ وأنَّ هذا الحق هو على وجه الندب، و﴿معلوم﴾ [المعارج: ٢٤] يُرَادُّ به: مُتَعَارَفٌ، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض، وأكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات، والمحروم هو الذي تَبْعُدُ عنه مُمَكِّنَاتُ الرِّزْقِ بعد قربها منه، فينال حرمان وفاقَةً، وهو مع ذلك لا يسأل، فهذا هو الذي له حَقٌّ في أموال الأغنياء، كما للسائل حَقٌّ، وما وقع من ذكر الخلاف فيه فيرجع إلى هذا، ١١٠٠ وبعد هذا محذوف تقديره: فكونوا/ أيها الناس مثلهم وعلى طريقهم، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾: لمن اعتبر وأيقن.

وقوله سبحانه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان، وما فيه من العبر، وأمر النفس، وحياتها، ونطقها، واتصال هذا الجزء منها بالعقل؛ قال ابن زيد: إنما القلب مُضَعَّةٌ في جوف ابن آدم، جَعَلَ الله فيه العقل، أفيدري أحد ما ذلك العقل، وما صِفَتُهُ، وكيف^(١) هو.

* ت *: قال ابن العربي في رحلته: اعلم أنَّ معرفة العبد نفسه من أولى ما عليه وآكدِه؛ إذ لا يَعْرِفُ رَبَّهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ؛ قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وغير ما آية في ذلك، ثم قال: ولا ينكر عاقل وجود الروح من نفسه، وإن كان لم يدرك حقيقته، كذلك لا يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَ وجود الباري سبحانه الذي دَلَّتْ أفعاله عليه، وإن لم يدرك حقيقته، انتهى.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ لَحَقُّ يَثَلِ مَا أَنْكُمْ تَطْفُونَ ﴿٢٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال مجاهد وغيره^(١): هو المطر، وقال واصل الأحدب: أراد القضاء والقدر^(٢)، أي: الرزق عند الله يأتي به كيف شاء سبحانه لا ربَّ غيره، و﴿تُزْعَدُونَ﴾ يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الوعيد؛ قال الضحاك. المراد: من الجنة والنار^(٣)، وقال مجاهد^(٤): المراد: الخير والشر، وقال ابن سيرين^(٥): المراد: الساعة، ثم أقسم سبحانه بنفسه على صحة هذا القول والخبر، وشبهه في اليقين به بالنطق من الإنسان، وهو عنده في غاية الوضوح، و«ما» زائدة تعطي تأكيداً، والنطق في هذه الآية هو الكلام/ بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني، وروى أن بغض ١٠٠ ب الأعراب الفصحاء سمع هذه الآية فقال: من أخوج الكريم إلى أن يحلف؟! والحكاية بتمامها في كتاب الثعلبي، وسبل الخيرات، وروى أن النبي ﷺ قال: «قَاتَلَ اللَّهُ قَوْمًا، أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ بِنَفْسِهِ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ» وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ فَرَّ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَتَبِعَهُ كَمَا يَتَّبِعُهُ الْمَوْتُ»^(٦) وأحاديث الرزق كثيرة، ومن كتاب «القصد إلى الله سبحانه» للمحاسبي: قال: قلت لشيخنا: من أين وقع الاضطراب في القلوب، وقد جاءها الضمان من الله عز وجل؟ قال: من وجهين.

أحدهما: قلة المعرفة بحسن الظن، وإلقاء التهم عن الله عز وجل.

والوجه الثاني: أن يعارضها خوف الفوت، فتستجيب النفس للداعي، ويضعف اليقين، ويعيد الصبر، فيظهر الجزع.

قلت: شيء غير هذا؟ قال: نعم، إن الله عز وجل وعد الأرزاق، وضمن، وعيَّب الأوقات؛ ليختبر أهل العقول، ولولا ذلك لكان كل المؤمنين راضين صابرين متوكِّلين، لكن الله عز وجل أعلمهم أنه رازقهم، وحلف لهم على ذلك، وعيَّب عنهم أوقات العطاء،

-
- (١) أخرجه الطبري (٤٦١/١١) برقم: (٣٢١٨٤)، وذكره البغوي (٢٣١/٤).
 (٢) أخرجه الطبري (٤٦١/١١) برقم: (٣٢١٨٦)، وذكره ابن عطية (١٧٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٥/٤).
 (٣) أخرجه الطبري (٤٦١/١١) برقم: (٣٢١٨٩)، وذكره البغوي (٢٣١/٤)، وابن عطية (١٧٦/٥)، والسيوطي في «الدر المشور» (١٣٧/٦)، وعزاه لأبي الشيخ، وابن جرير.
 (٤) أخرجه الطبري (٤٦١/١١) برقم: (٣٢١٨٧)، وذكره البغوي (٢٣١/٤)، وابن عطية (١٧٦/٥)، والسيوطي في «الدر المشور» (١٣٧/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.
 (٥) ذكره ابن عطية (١٧٦/٥).
 (٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٥/٤): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» وفيه عطية العوفي وهو ضعيف. اهـ.

فَمِنْ هَا هُنَا عُرِفَ الْخَاصُّ مِنَ الْعَامِّ، وتفاوت العبادُ في الصبر، والرضا، واليقين، والتوكل، والسكون، فمنهم - كما علمت - ساكنٌ، ومنهم متحركٌ، ومنهم راضٍ، ومنهم ساحطٌ، ومنهم جَزَعٌ، فعلى قَدَرٍ ما تفاوتوا في المعرفة - تفاوتوا في اليقين، وعلى قَدَرٍ ما تفاوتوا في اليقين - تفاوتوا في السكون والرضا والصبر والتوكل . اهـ.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَى إِلَهُه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَبِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِعِلْمٍ عَلَيْهِمْ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) * قَالَ مَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ...﴾ / الآية، قد تقدم قَصُّهَا، و«عليم» أي: عالم، وهو إسحاق - عليه السلام --

* ت * : ولنذكر هنا شيئاً من الآثار في آداب الطعام، قال النووي: روى ابن السني بسنده عن النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي الطَّعَامِ إِذَا قُرِبَ إِلَيْهِ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيْمَا رَزَقْتَنَا، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، بِأَسْمِ اللَّهِ» انتهى^(١)، وفي «صحيح مسلم» عن جابر عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ - قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»^(٢)، وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَلَّا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٣) الحديث، انتهى،

(١) أخرجه ابن السني (٤٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩٨/٣) كتاب «الأشربة» باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠١٨/١٠٣)، وأبو داود (٣٧٤/٢) كتاب «الأطعمة» باب: التسمية على الطعام (٣٧٦٥)، وابن ماجه (١٢٧٩/٢)، كتاب «الدعاء» باب: ما يدعو به إذا دخل بيته (٣٨٨٧)، وأحمد (٣٤٦/٣)، والبيهقي (٢٧٦/٧)، كتاب «الصدائق» باب: التسمية على الطعام، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣١٩) (١١٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٩٧/٣) كتاب «الأشربة» باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠١٧/١٠٢)، وأبو داود (٣٧٤/٢) كتاب «الأطعمة» باب: التسمية على الطعام (٣٧٦٦)، وأحمد (٣٨٣/٥)، والحاكم في «المستدرک» (١٠٨/٤).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وللحديث شاهد من رواية جابر بن عبد الله، أخرجه أبو داود (٣٧٤/٢) كتاب «الأطعمة»، باب:

والصُّرَّةُ: الصبيحة^(١)؛ كذا فسره ابن عباس وجماعة، قال الطبري عن بعضهم^(٢): قَالَتْ: «أَوْه»؛ بِصِيَّاحٍ وَتَعْجَبٍ؛ وَقَالَ النَّحَّاسُ: ﴿فِي صُرَّةٍ﴾ فِي جَمَاعَةِ نِسْوَةٍ.

وقوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: معناه: ضربت وجهها؛ استهواً لما سمعت، وقال سفيان وغيره: ضَرَبَتْ بِكَفِّهَا جَبْهَتَهَا^(٣)، وهذا مُسْتَعْمَلٌ فِي النَّاسِ حَتَّى الْآنَ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أَي: كَقَوْلِنَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ.

وقوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ بَيَّانٌ يَخْرُجُ عَنْ مُغْتَادِ حِجَارَةِ الْبَرْدِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَاءٍ، وَيُزَوَّى أَنَّهُ طِينٌ طَبَخَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى صَارَ حِجَارَةً كَالْأَجْرِ، وَ﴿مُسْوَمَةً﴾ نَعْتٌ لِحِجَارَةٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَخْرَجَ بِأَمْرِهِ مَنْ كَانَ فِي قَرْيَةِ «لُوطٍ» مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْجِيًّا لَهُمْ، وَأَعَادَ الضَّمِيرَ عَلَى الْقَرْيَةِ، / وَإِنْ لَمْ يَجِرْ لَهَا قَبْلَ ذَلِكَ ذِكْرٌ؛ لَشَهْرَةِ أَمْرِهَا، قَالَ الْمَفْسُرُونَ: ١٠١ ب لَا فَرْقَ بَيْنَ تَقْدِيمِ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَأْخِرِهِ؛ وَإِنَّمَا هُمَا وَصْفَانِ ذَكَرَهُمْ أَوَّلًا بِأَحَدِهِمَا، ثُمَّ آخَرًا بِالثَّانِي، قِيلَ: فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِسْلَامُ، قَالَ * ع^(٤) * : وَيُظْهِرُ لِي أَنَّ فِي الْمَعْنَى زِيَادَةَ تَحْسِنِ التَّقْدِيمِ لِلْإِيمَانِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَكَرَهُ مَعَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الْقَرْيَةِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: نَفَّذْنَا أَمْرَنَا بِإِخْرَاجِ كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِالطَّاعَاتِ؛ بَلِ التَّصَدِيقُ فَقَطْ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ حَالِ الْمَوْجُودِينَ ذَكَرَهُمْ بِالْصِفَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ الْكَامِلَةُ التَّصَدِيقُ وَالْأَعْمَالُ، وَالْبَيْتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُوَ بَيْتُ لُوطٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ هُوَ وَابْنَتُهُ، وَفِي كِتَابِ الثَّعْلَبِيِّ: وَقِيلَ: لُوطٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ، وَهَلَكْتَ امْرَأَتُهُ فِيمَنْ هَلَكَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ذُكِرَتْ عَلَى جِهَةِ ضَرْبِ الْمَثَلِ لِقَرِيشَ، وَتَحْذِيرًا أَنْ يَصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ.

﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧) وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى رُكُوبَهُ وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ (٤٢) وَفِي ثُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَمَتَّعْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) ﴿

التسمية على الطعام (٣٧٦٥)، والنسائي (١٧٤/٤)، كتاب «آداب الأكل» باب: ذكر الله تعالى وتبارك عند الطعام (١/٦٧٥٧).

(١) أخرجه الطبري (٤٦٣/١١)، وذكره ابن عطية (١٧٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» ((٢٣٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣٨/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٦٣/١١).

(٣) أخرجه الطبري (٤٦٤/١١) برقم: (٣٢٢٠٦)، وذكره ابن عطية (١٧٨/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٩/٥).

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: في القرية، وهي سدوم ﴿آيَةً﴾، قال أبو حيان^(١): ﴿وفي موسى﴾، أي: وفي قصة موسى، [انتهى].

وقوله سبحانه في فرعون: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي: أعرض عن أمر الله، ورُكْنُهُ: هو سلطانه وجُنْدُهُ وشِدَّةُ أمره، وقول فرعون في موسى: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ هو تقسيم، ظَنَّ أنَّ موسى لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ هَذَيْنِ الْقَسَمَيْنِ، وقال أبو عبيدة: «أو» هنا بمعنى الواو، وهذا ضعيف لا داعية إليه في هذا الموضع.

وقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: ما تدع من شيء أتت عليه مِمَّا أَذِنَ لَهَا ١١٠٢ في إهلاكه ﴿إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾: وهو الفاني الْمُتَقَطِّعُ؛ يَسَا أَوْ قَدَمًا مِنَ الْأَشْجَارِ/ وَالْوَرَقِ وَالْعِظَامِ، وَرَوِيَ فِي حَدِيثٍ: أَنَّ تِلْكَ الرِّيحَ كَانَتْ تَهْبُ عَلَى النَّاسِ فِيهِمُ الْعَادِيُّ وَغَيْرُهُ، فَتَنْزِعُ الْعَادِيَّ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَتَذْهَبُ بِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَفِي ثُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا﴾ أي: إِذْ قِيلَ لَهُمْ فِي أَوَّلِ بَعْثِ صَالِحٍ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ^(٢)، وَيَحْتَمِلُ: إِذْ قِيلَ لَهُمْ بَعْدَ عَقْرِ النَّاقَةِ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَاءِ^(٣).

وقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: يَبْصُرُونَ بَعْيُونَهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ الطَّبْرِيِّ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ يَرِيدُ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ^(٤).

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ ٤٥ ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ٤٦ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ٤٧ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ﴾ ٤٨ ﴿

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي: من مصارعهم؛ قاله بعض المفسرين، وقال قتادة وغيره^(٥): معناه من قيام بالأمر النازل بهم ولا دَفْعِهِ عَنْهُمْ.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ بالنصب، وهو عَظْفٌ إِمَّا عَلَى الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾، إِذْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِكْتَهُمْ، وَإِمَّا عَلَى الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (١٣٩/٨).

(٢) ذكره ابن عطية (١٨٠/٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٠/١١) برقم: (٣٢٢٤٠)، وذكره ابن عطية (١٨٠/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٤٧١/١١) برقم: (٣٢٢٤٢)، وذكره البغوي (٢٣٤/٤)، وابن عطية (١٨١/٥).

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ نُصِيبُ بِإِضْمَارِ فعل تقديره: وَبَنَيْنَا السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا، والأيد: القوة؛ قاله ابن عباس وغيره^(١) ﴿وَأِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: في بناء السماء، أي: جعلناها واسعة؛ قاله ابن زيد^(٢).

أبو البقاء: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: نحن، فحذف المخصوص. انتهى.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّ (٥٢) اتَّوَصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) قَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرَ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ قال مجاهد: معناه: أَنَّ هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء؛ كالليل والنهار، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والإيمان والكفر، ونحو هذا، وَرَجَّحَهُ الطبري^(٣) بأنه أدل على القدرة التي تُوجَدُ الضدين، وقال ابن زيد وغيره^(٤): هي إشارة إلى الأنثى والذكر من كل حيوان.

* ت * : والأوَّلُ أحسن؛ لشموله لما ذكره ابن زيد.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وَتَبَّهَ بلفظ الفرار على أَنَّ وراء الناس عقاباً وعذاباً يفرُّ منه، فجمعت لفظة «فروا» بين التحذير والاستدعاء.

* ت * : وأسند أبو بكر، أحمد بن الحسين البيهقي في «دلائل النبوة» (تصنيفه) عن كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جدِّه «أَنَّ رسول الله ﷺ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ، فَسَمِعَ كَلَاماً مِنْ زَاوِيَتِهِ، وَإِذَا هُوَ بِقَائِلٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَى مَا يُنْجِينِي مِنْهَا خَوْفَتَنِي، فَقَالَ

(١) أخرجه الطبري (٤٧٢/١١) برقم: (٣٢٢٤٥)، وذكره ابن عطية (١٨١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٠/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) أخرجه الطبري (٤٧٢/١١) برقم: (٣٢٢٥١)، وذكره ابن عطية (١٨١/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٤٧٢/١١) برقم: (٣٢٢٥٢)، وذكره ابن عطية (١٨١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٠/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٣/١١) برقم: (٣٢٢٥٤)، وذكره ابن عطية (١٨١/٥).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ: أَلَا تَضُمُّ إِلَيْهَا أُخْتَهَا؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ، ارْزُقْنِي شَوْقَ الصَّادِقِينَ إِلَى مَا شَوْقَتُهُمْ إِلَيْهِ. وفيه: «فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ، فَإِذَا هُوَ الْخَضِرُ - عليه السلام -»، انتهى مختصراً^(١).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: سيرة الأمم كذلك؛ قال عياض: فهذه الآية ونظائرها تسليّة للنبي ﷺ، عزّاه الله - عز وجل - بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقالاتها لأنبيائها، وأنّه ليس أوّل مَنْ لَقِيَ ذلك، انتهى من «الشفاء».

وقوله سبحانه: ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ﴾ توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفّرة في تكذيب الأنبياء على تفرّق أزمانهم، أي: لم يتواصوا، لكنّهم فعلوا فعلاً كأنّه فعل مَنْ تواصى، والعلة في ذلك أنّ جميعهم طاغ، والطاغي المستعلي في الأرض، المُفسِد.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: عن الحرص المُفْرِط عليهم، ودَهَابِ النفس حَسْرَاتٍ، ولست بملوم؛ إذ قد بَلَّغْتَ ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى﴾: نافعة للمؤمنين، ولمن قُضِيَ له أن يكون منهم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُريدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُريدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَهْلِيهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ (٥٩) قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ / قال ابن عباس وعليّ^(٢): المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا لأمرهم بعبادتي، وليقرّوا لي بالعبوديّة، وقال زيد بن أسلم^(٣) وسفيان: هذا خاص، والمراد: ما خلقت الطائعين من الجن والإنس إلا لعبادتي، ويؤيد هذا التأويل أنّ ابن عباس رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَرَأَ: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»، وقال ابن عباس أيضاً^(٤): معنى «ليعبدون»: ليتذلّلوا لي ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قوانين شرع، وعلى هذا التأويل فجميعهم من مؤمن

١١٢

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤٢٣/٥)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٩٣/١)، (١٩٥).

(٢) ذكره ابن عطية (١٨٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٤٧٥/١١) برقم (٣٢٢٦٣) (٣٢٢٦٥)، وذكره البغوي (٢٣٥/٤)، وابن عطية (٥/١٨٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٢/٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٦/١١) برقم (٣٢٢٦٨)، وذكره ابن عطية (١٨٣/٥).

وكافر مُتَذَلِّلٌ لِلَّهِ عز وجل؛ ألا تراهم عند القحوط والأمراض وغير ذلك كيف يخضعون لله ويتذللون؟!.

* ت * : قال الفخر^(١) : فَإِنْ قِيلَ : ما العبادة التي خلق الله الجن والإنس لها؟ قلنا: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله؛ فَإِنَّ هَذِينَ النُّوعَيْنِ لَمْ يَخْلُ شَرْعٌ مِنْهُمَا، وَأَمَّا خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها: بالوضع والهيئة، والقِلَّة والكثرة، والزَّمان والمكان، والشَّرَاطِيط والأركان، انتهى، ونقل الثعلبي وغيره^(٢) عن مجاهد: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعرفوني، قال صاحب «الكلم الفارقية»: المعرفة بالله تملأ القلب مَهَابَةً ومَخَافَةً، والعَيْنُ عِبْرَةً وَعِزَّةً وحياءً وَخَجَلَةً، وَالصَّدْرُ خُشُوعاً وَحُزْمَةً، والجوارح استكانةً وَذَلَّةً وطاعةً وخدمةً، واللسان ذكراً وحمداً، والسمع إصغاءً وَتَفَهُمًا، والخواطر في مواقف المناجات خموداً، والوساوس اضمحلالاً، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي: أَنْ يَرْزُقُوا أَنْفُسَهُمْ ولا غيرهم.

وقوله: ﴿أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ أي: أَنْ يَطْعَمُوا خَلْقِي؛ قاله ابن عباس^(٣)، ويحتمل أَنْ يَرِيدَ: أَنْ يَنْفَعُونِي، و«المتين»: الشديد.

١٠٣ ب

* ت * : وَرَوَيْنَا فِي «كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا بَنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأُ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وَرَوَيْنَا فِيهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(٤) انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: يَرِيدُ أَهْلَ مَكَّةَ، وَالذُّنُوبُ: الْحِطُّ وَالنَّصِيبُ،

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/٢٠٠).

(٢) ذكره البغوي (٤/٢٣٥).

(٣) أخرجه الطبري (١١/٤٧٦) برقم: (٣٢٢٦٩)، وذكره ابن عطية (٥/١٨٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/٦٤٢ - ٦٤٣) كتاب «صفة القيامة» باب: (٣٠) (٢٤٦٦)، وابن ماجه (٢/١٣٧٦).

كتاب «الزهد» باب: الهم بالدنيا (٤١٠٧)، وأحمد (٢/٣٥٨).

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وأصله من الدَّلْو؛ وذلك أَنَّ الدُّنُوبَ هو مِلْءُ الدَّلْوِ من الماء، وكذا قال أبو حيان^(١):
 ﴿دُنُوبًا﴾، أي: نصيباً، انتهى، و﴿أصحابهم﴾: يُرَادُ بهم مَنْ تقدم من الأمم المُعَذَّبَةِ،
 وباقي الآية وعيد بَيِّنٌ.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٨/١٤١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الطُّورِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠﴾ نَوِيلٌ يَوْمِيذٍ ١١﴾ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٢﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٣﴾ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ١٤﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٥﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٦﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ...﴾ الآية، هذه مخلوقات أقسم الله - عز وجل - بها؛ تنبيهاً على النظر والاعتبار بها، المؤدّي إلى توحيد الله والمعرفة بواجب حقّه سبحانه؛ قال بعض اللغويين: كلُّ جبل طُورٌ، فكأنّه سبحانه أقسم بالجبال، وقال آخرون: الطور: كلُّ جبل أجرد لا ينبت شجراً، وقال نون البكالي: المراد هنا جبل طور سيناء، وهو الذي أقسم الله به؛ لفضله على الجبال، والكتاب المسطور: معناه/ بإجماع: ١٥٤ المكتوب أسطواراً، واختلف الناس في هذا الكتاب المُقسّم به، فقال بعض المُفسّرين: هو الكتاب المُتَنَسَخُ من اللوح المحفوظ للملائكة؛ لتعرف منه جميع ما تفعله وتصرفه في العالم، وقيل: هو القرآن؛ إذ قد علم تعالى أنّه يتخلد في رَقٍّ منشور، وقيل: هو الكُتُبُ المُتَزَلَّةُ، وقيل: هو الكتاب الذي فيه أعمال الخلق، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، والرَّقُّ: الورق المُعَدَّة للكتب، وهي مُرَقَّقة؛ فلذلك سُمِّيَتْ رَقًّا، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان، والمنشور خلاف المَطْوِي، ﴿والبيت المعمور﴾: هو الذي ذُكِرَ في حديث الإسراء؛ قال جبريل للنبي ﷺ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخَرٌ مَا عَلَيْهِمْ^(١)، وبهذا هي عمارته، وهو في السماء السابعة، وقيل: في السادسة، وقيل: إنّهُ مُقَابِلٌ لِلْكَعْبَةِ، لو وَقَعَ حجر منه، لَوَقَعَ عَلَى ظَهْرِ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨/٦، ٣٥٠)، كتاب «بدء الخلق» باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٧)، وكتاب «مناقب الأنصار» باب: المعراج (٣٨٨٧)، والنسائي (٢١٧/١، ٢٢٠)، كتاب «الصلاة» باب: فرض الصلاة وذكر اختلاف الناقلين في إسناد حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، واختلاف ألفاظهم فيه، وأحمد (١٤٨/٣ - ١٤٩)، (٢٠٨/٤، ٢١٠).

الكعبة، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: في كل سماء بيت معمور، وفي كل أرض كذلك، وهي كُلُّها على خط من الكعبة، وقاله علي بن أبي طالب^(١)، قال السَّهْلِيُّ: والبيت المعمور اسمه «عريباً»، قال وهب بن مُنْبِه: مَنْ قال: سُبْحَانَ اللَّهِ وبحمده، كان له نور يملأ ما بين عريباً وحريباً، وهي الأرض السابعة، انتهى.

﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾: هو السماء، واختلف الناس في «البحر المسجور» فقال مجاهد وغيره^(٢): الْمَوْقَدُ ناراً، وَرُوي أَنَّ الْبَحْرَ هُوَ جَهَنَّمُ، وقال قتادة^(٣): «المسجور»: ب ١٠٤ المملوء، وهذا معروف من اللغة، وَرَجَّحَهُ الطبري^(٤)، وقال ابن عباس^(٥): هو الذي ذهب مأؤه، فالمسجور الفارغ، وَرُوي أَنَّ الْبَحَارَ يَذْهَبُ مَأْوَاهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وهذا معروف في اللغة، فهو من الأضداد، وقيل: يوقد البحر ناراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فذلك سجره، وقال ابن عباس أيضاً^(٦): «المسجور»: المحبوس؛ ومنه ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد تمسكه، وكذلك لولا أَنَّ الْبَحْرَ يُمَسِّكُ لَفَاضَ عَلَى الْأَرْضِ، والجمهور على أَنَّهُ بحر الدنيا، وقال منذر بن سعيد^(٧): الْمُقْسَمُ به جهنم، وَسَمَّاهَا بَحْرًا؛ لِسَعْيِهَا وتموجها؛ كما قال ﷺ في الفرس: «وَأِنْ وَجَدْنَاهُ لَبَحْرًا»^(٨)، والقسم واقع على قوله: «إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ

- (١) ذكره ابن عطية (١٨٦/٥) عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد.
- (٢) أخرجه الطبري (٤٨٢/١١) برقم: (٣٢٣١١)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٦/٦)، وعزاه لابن جرير.
- (٣) أخرجه الطبري (٤٨٣/١١) برقم: (٣٢٣١٣)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٦/٦)، وعزاه لابن جرير.
- (٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٨٣/١١).
- (٥) أخرجه الطبري (٤٨٣/١١) برقم: (٣٢٣١٤)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٦/٦)، وعزاه للشيرازي في «الألقاب» من طريق الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن ذي الرمة.
- (٦) أخرجه الطبري (٤٨٣/١١) برقم: (٣٢٣١٥)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤٥/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.
- (٧) ذكره ابن عطية (١٨٧/٥).
- (٨) أخرجه البخاري (٢٨٤/٥ - ٢٨٥) كتاب «الهيئة» باب: من استعار من الناس الفرس، حديث (٢٦٢٧)، (٤٢/٦) كتاب «الجهاد والسير» باب: الشجاعة في الحرب والجبن، حديث (٢٨٢) (٦٩/٦) كتاب «الجهاد والسير» باب: اسم الفرس والحمار، حديث (٢٨٥٧)، (٧٨/٦)، باب: الركوب على الدابة الصعبة والفحولة من الخيل، حديث (٢٨٦٢)، (٨٣/٦) باب: الفرس القطوف، حديث (٢٨٦٧)، (١٤٣/٦) كتاب «الجهاد والسير» باب: مبادرة الإمام عند الفرع، حديث (٢٩٦٨)، باب: السرعة والركض في الفرع، حديث (٢٩٦٩)، (٦٠٩/١٠ - ٦١٠)، كتاب «الأدب» باب: المعارض مندوحة على الكذب، حديث (٦٢١٢)، ومسلم (١٨٠٢/٤)، كتاب «الفضائل» باب: في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب، حديث (٢٣٠٧/٤٩)، وأبو داود (٧١٥/٢)، كتاب «الأدب» باب: ما روي في

لَوَاقِعُ» يريد: عذاب الآخرة واقع للكافرين؛ قاله قتادة^(١)، قال الشيخ عبد الحق في «العاقبة»: «وَيُزَوَّى أَنَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سَمِعَ قارئاً يقرأ: «والطور * وكتاب مسطور» قال: هذا قَسَمٌ حَقٌّ، فلما بلغ القارئ إلى قوله - عز وجل -: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» ظَنَّ أَنَّ العذاب قد وقع به فَعُشِيَ عليه، انتهى، و«تمور» معناه: تذهب وتجيء بالرياح متقطعة مُتَفَتِّتَةً، وسير الجبال: هو في أول الأمر، ثم تَفَتَّتْ حتى تصير آخراً كالعهن المنفوش، و«يدعون» قال ابن عباس وغيره^(٢): معناه: يُدْفَعُونَ في أعناقهم بشدة وإهانة وَتَعْتَعَةٍ، ومنه: «يَدْعُ الْيَتِيمَ» [الماعون: ٢]، وفي الكلام محذوف، تقديره: يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون؛ توبخاً وتقريعاً لهم، ثم وقفهم سبحانه بقوله: «أَفَسِحْرٌ هَذَا...» الآية: ثم قيل لهم على جهة قطع رجائهم: اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سواء عليكم، أي: عذابكم حتم، فسواء جَزَعُكُمْ/ وَصَبْرُكُمْ، لا بُدَّ ١١٠٥ من جزاء أعمالكم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَتْهُمْ رَحْمَتُ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ...﴾ الآية: يحتمل أن يكون من خطاب أهل النار، فيكون إخبارهم بذلك زيادةً في غمهم وسوء حالهم، نعوذ بالله من سخطه! ويحتمل، وهو الأظهر، أن يكون إخباراً للنبي ﷺ ومعاصريه، لما قرع من ذكر عذاب الكفار عَقَبَ بذكر نعيم المتقين - جعلنا الله منهم بفضله - ليبين الفرق، ويقع التحريض على الإيمان، والمتقون هنا: مُتَّقُوا الشُّرْكَ؛ لأنهم لا بُدَّ من مصيرهم إلى الجنات، وكلما زادت الدرجة في التقوى قَوِيَ الحصولُ في حكم الآية، حَتَّى إِنَّ المتقين

الرخصة في ذلك، حديث (٤٩٨٨)، والترمذي (١٧١/٤ - ١٧٢)، كتاب «الجهاد» باب: ما جاء في الخروج عند الفزع، حديث (١٦٨٥ - ١٦٨٦ - ١٦٨٧)، وابن ماجه (٩٢٦/٢)، كتاب «الجهاد» باب: الخروج في النفي، حديث (٢٧٧٢)، وأحمد (١٤٧/٣)، وأبو داود الطيالسي (١٢١/٢) - منحة رقم: (٢٤٣٨)، وأبو يعلى (٣٣٦/٥) رقم: (٢٩٦٢)، والبيهقي (١٠/٢٥) كتاب «السبق والرمي» باب: ما جاء في تسمية البهائم والدواب (١٠/٢٠٠)، كتاب «الشهادات» باب: من سمى المرأة قارورة، من حديث أنس بن مالك.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه الطبري (٤٨٤/١١) برقم: (٣٢٣١٩).

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٤/١١) برقم: (٣٢٣٢٩)، وذكره ابن عطية (١٨٧/٥)، والسيوطي في «الدر

المشثور» (١٤٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

على الإطلاق هم في هذه الآية قطعاً على الله تعالى بحكم خبره الصادق، وقرأ جمهور الناس: «فاكهين»^(١) ومعناه: فَرَجَيْنِ مسرورين، وقال أبو عُبَيْدَةَ: هو من باب: «لَابِنٌ» و«تَامِرٌ»، أي: لهم فاكهة^(٢)، قال * ع^(٣): والمعنى الأول أبرع، وقرأ خالد فيما روى أبو حاتم: «فَكِهَيْنِ»^(٤) والفَكِهُ والفاكه: المسرور المتنعم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: من إنعامه ورضاه عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ هذا متمكن في مُتَقِي المعاصي، الذي لا يدخل النار ﴿وَوَقَاهُمْ﴾ مشتق من الوقاية، وهي الحائل بين الشيء وبين ما يضره.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا، و«هنيثاً» نُصِبَ على

المصدر.

وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه: أَنَّ رُتَبَ الْجَنَّةِ ونعيمها بحسب الأعمال، وأما نَفْسُ دخولها فهو برحمة الله وفضله، وأعمالُ العباد الصالحات لا تُوجِبُ على الله تعالى التنعيم إيجاباً؛ لِكُنْه سبْحانه قد جعلها أَمَارَةً على مَنْ سبق في علمه تنعيمه، وَعَلَّقَ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ بالتكسب الذي في الأعمال، والخُورُ: جمع حَوَراءَ، وهي البيضاء القوية بياض ١٠٥ ب بياضٍ/ العَيْنِ وَسَوَادٍ سَوَادِهَا، والعَيْنُ: جمع عَيْنَاءَ، وهي كبيرة العينين مع جمالهما، وفي قراءة ابن مسعود والتَّخَعِّي: «وَرَزَوْنَاهُمْ بِعِيسِ عَيْنٍ»^(٥) قال أبو الفتح: العِيسَاءُ: البيضاء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ﴾ (٢١) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْيِيْدٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفًا لَهُمْ مَا كَانَتْ تُؤَلُّوْا مَكُونُ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ (٢٦) فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السُّمُورِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٨/٥)، و«البحر المحيط» (١٤٥/٨)، و«الدر المصون» (١٩٧/٦).

(٢) ذكره ابن عطية (١٨٨/٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٨/٥).

(٤) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٥) ينظر: «المحتسب» (٢٩٠/٢)، و«مختصر الشواذ» ص: (١٤٦)، و«المحرر الوجيز» (١٨٨/٥).

وقال: وحكى أبو عمرو عن عكرمة أنه قرأ «بعيس عين» على إضافة «عيس» إلى «عين».

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ اختلَف في معنى الآية، فقال ابن عباس، وابن جبير، والجمهور: أخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين اتبعتهم ذريتهم في الإيمان يلحق الأبناء في الجنة بمراتب الآباء، وإن لم يكن الأبناء في التقوى والأعمال كالآباء؛ كرامةً للآباء^(١)، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي ﷺ فجعلوا الحديث تفسيراً للآية، وكذلك وردت أحاديث تقتضي أن الله تعالى يرحم الآباء؛ رعيًا للأبناء الصالحين، وقال ابن عباس أيضاً والضحاك. معنى الآية: أن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار بأحكام الآباء المؤمنين، يعني في الموارثة والدفن في مقابر المسلمين، وفي أحكام الآخرة في الجنة^(٢)، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار لا في الكبار^(٣)؛ قال ع^(٤) * : وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول؛ لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة، فذكر من جملة إحسانه سبحانه أنه يزعم المحسن في المسيء، ولفظة ﴿أَلْحَقْنَا﴾ تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال.

* ت * : وأظهر من هذا ما أشار إليه الثعلبي في بعض أنقاله: أن الله تعالى يجمع لعبده المؤمن ذريته في الجنة، كما كانوا في الدنيا، انتهى، ولم يتعرض لذكر الدرجات في هذا التأويل، وهو أحسن؛ لأنه قد تقرر أن رفع الدرجات هي بأعمال العاملين، والآيات / والأحاديث مَصْرَحَةٌ بذلك، ولما يلزم على التأويل الأول أن يكون كل من دخل الجنة مع آدم - عليه السلام - في درجة واحدة؛ إذ هم كلهم ذريته، وقد فتحت لك باباً للبحث في هذا المعنى من معني من إتمامه ما قصدته من الاختصار، وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ﴾ أي: نقصناهم، ومعنى الآية أن الله سبحانه يلحق الأبناء بالآباء، ولا يُنْقِصُ الآباء من أجورهم شيئاً، وهذا تأويل الجمهور، ويحتمل أن يريد: من عمل الأبناء من شيء من حسن أو قبيح، وهذا تأويل ابن زيد^(٥)، ويُؤيده قوله سبحانه: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ والرهين: المُرْتَهَنُ، وفي هذه الألفاظ وعيد، وأمددت الشيء: إذا سُرِبَتْ إليه شيئاً آخر يكثره أو يكثر لديه.

(١) أخرجه الطبري (٤٨٧/١١) برقم: (٣٢٣٣٨)، و (٤٨٨/١١) برقم: (٣٢٣٣٩)، وذكره البغوي (٤/٢٣٩)، وابن عطية (١٨٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٤٨)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (١٨٩/٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٩/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٤٩١/١١) برقم: (٣٢٣٦٤)، وذكره ابن عطية (١٩٠/٥).

وقوله: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إشارة إلى ما رُوِيَ من أَنَّ الْمُنْعَمَ إِذَا اشْتَهَى لَحْمًا نَزَلَ ذَلِكَ الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها، وليس يكون في الجنة لحم يحتز، ولا يُتَكَلَّفُ فيه الذبح، والسلخ، والطبخ، وبالجمله لا كَلَفَةٌ في الجنة، و﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ معناه: يتعاطون؛ ومنه قول الأخطل: [البسيط]

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشُّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي^(١)،
قال الفخر^(٢): ويحتمل أن يقال: التنازع: التجاذب، وحينئذ يكون تجاذبُهُمْ تجاذبٌ مُلَاعَبَةٌ، لا تجاذبٌ منازعة، وفيه نوعٌ لَذَّةٌ، وهو بيان لما عليه حال الشُّرَابِ في الدنيا؛ فَإِنَّهُمْ يتفاخرون بكثرة الشرب، ولا يتفاخرون بكثرة الأكل، انتهى، والكأس: الإناء فيه الشراب، ولا يقال في فارغ كأس؛ قاله الرَّجَّاجُ^(٣)، واللغو: السَّقَطُ من القول، والتأثيم: ١٠٦ ب يلحق خَمَرَ الدنيا في نفس شُرْبِهَا وفي الأفعال التي تكون من شاربها، وذلك كُلُّهُ مُتَنَفٍّ في الآخرة.

* ت * قال الثعالبي: وقال ابن عطاء: أَيُّ لَغْوٍ يكون في مجلس: مَحَلُّهُ جَنَّةٌ عدن، والساقى فيه الملائكة، وشربهم على ذكر الله، ورِيحَانُهُمْ تحيةٌ من عند الله، والقوم أضياف الله.

﴿وَلَا تَأْثِمُ﴾ أي: فعل يُؤْثِمُهُمْ، وهو تفعليل من الإثم، أي: لا يَأْثِمُونَ في شربها، انتهى، واللؤلؤ المكنون أجملُ اللؤلؤ؛ لِأَنَّ الصَّوْنَ وَالْكُنَّ يُحَسِّنُهُ، قال ابن جبير: أراد الذي في الصَّدَفِ لم تنله الأيدي^(٤)، وقيل للنبي ﷺ: «إِذَا كَانَ الْعِلْمَانُ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ فَكَيْفَ الْمَخْدُومُونَ؟ قال: هُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ»^(٥).

* ت * وهذا تقريب للأفهام، وإلا فجمال أهل الجنة أعظم من هذا، يَدُلُّ على ذلك أحاديث صحيحة؛ ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:

(١) ينظر: البيت في «ديوانه» (١٤٢)، و«جمهرة أشعار العرب» (٧٢٥)، والقرطبي (٤٦/١٧)، و«روح المعاني» (٣٤/٢٧)، و«البحر المحيط» (١٤٧/٨).

والساري: الذي يمشي ليلاً.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢١٨/١٤).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» (٦٣/٥).

(٤) ذكره البغوي (٢٤٠/٤)، وابن عطية (١٩٠/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٤٩٢/١١) برقم: (٣٢٣٦٩)، و(٣٢٣٧٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/

١٤٩)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن المنذر.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ - وفي رواية: «مِنْ أُمَّتِي» عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً»^(١)، وفي رواية: «ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ» الحديث، وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقاً يَأْتُونَهَا كُلُّ جُمُعَةٍ، فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَخْتَفُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، وَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ، لَقَدْ أَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا! فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ، لَقَدْ أَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»^(٢)، انتهى، وقد أشار الغزالي وغيره إلى طَرْفٍ من هذا المعنى، لَمَّا تَكَلَّمَ على رؤية العارفين لله سبحانه في الآخرة، قال بعد كلام: ولا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ أَلْطَافُ الْكُشْفِ وَالنَّظَرِ فِي الْآخِرَةِ مُتَوَالِيَةً إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ، فلا يَزَالُ النِّعِيمُ وَاللَّذَّةُ مُتَزَايِدًا أَبَدَ الْأَبَادِ، وللشيخ أبي الحسن الشاذلي هنا كلام حسن قال: لو كُشِفَ عن نور المؤمن لعبد من دون الله، ولو كُشِفَ عن نور المؤمن العاصي لطبق السماء والأرض، فكيف بنور المؤمن المطيع؟! نقل كلامه هذا ابن عطاء الله وابن عباد، انظره.

١١٠٧

ثم وصف تعالى عنهم أَنَّهُمْ في جملة تنعمهم ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: عن أحوالهم وما نال كُلُّ واحد منهم، وَأَنَّهُمْ يتذكرون حالَ الدنيا وخشيَتهم عذابَ الآخرة، والإِشْفَاقُ أَشَدُّ الخشية ورِقَّةُ القلب، و﴿السَّمُومُ﴾: الحارُّ، و﴿نَدْعُوهُ﴾: يحتمل أَنْ يريد: الدعاء على بابه، ويحتمل أَنْ يريد نعبده، وقرأ نافع والكسائي: «أَنَّهُ» - بفتح الهمزة -، والباقون بكسرها^(٣) و﴿الْبُرُّ﴾ الذي يَبْرُ وَيُحْسِنُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧/٦) كتاب «بدء الخلق» باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٥، ٣٢٤٦، ٣٢٥٤)، (٤١٧/٦)، كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: خلق آدم وذريته (٣٣٢٧)، ومسلم (٤/٢١٧٨، ٢١٨٠)، كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب: أول زمرة تدخل الجنة على هيئة القمر ليلة البدر، وصفاتهم وأزواجهم (٢٨٣٤/١٤) - مكرر، (١٥ - ١٦/٢٨٣٤)، والترمذي (٤/٦٧٨)، كتاب «صفة الجنة» باب: في صفة أهل الجنة (٢٥٣٧)، وأحمد (٢٠، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٥٧، ٣١٦، ٥٠٢، ٥٠٧)، وابن ماجه (١٤٤٩/٢)، كتاب «الزهد» باب: صفة الجنة (٤٣٣٣)، وابن حبان (١٦/٤٣٦)، كتاب «إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة» باب: وصف الجنة وأهلها (٧٤٢٠)، (١٦/٤٦٣ - ٤٦٤)، كتاب «إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة» باب: وصف الجنة وأهلها (٧٤٣٦ - ٧٤٣٧)، والحميدي (٢/٤٨٣ - ٤٨٤) (١١٤٣)، والدارمي (٢/٣٣٣ - ٣٣٤)، كتاب «الرقائق» باب: في أول زمرة يدخلون الجنة، وابن المبارك في «الزهد» (١/٥٤٩) (١٥٧٥)، (١/٥٥٢) (١٥٨٥) مثله ونحوه. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢١٧٨)، كتاب «الجنة وصفة نعيمها» باب: في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم (٢٨٣٣/١٣).

(٣) ينظر: «السبعة» (٦١٣)، و«الحجة» (٢٢٧/٦)، و«معاني القراءات» (٣/٣٤)، و«شرح الطيبة» (٦/٢٣)، و«العنوان» (١٨١)، و«حجة القراءات» (٦٨٣)، و«شرح شعلة» (٥٩٠)، و«إتحاف» (٢/٤٩٧).

﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِيلِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أمر لنبيه - عليه السلام - بإدامة الدعاء إلى الله عز وجل، ثم قال مؤنساً له: ﴿فَمَا أَنْتَ﴾: بإنعام الله عليك ولطفه بك - كاهنٌ ولا مجنون.

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ...﴾ الآية: رُوِيَ أَنَّ قَرِيشاً اجتمعت في دار الندوة، فَكَثُرَتْ آرَاؤُهُمْ فِي النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى قَالَ قَاتِلُ مِنْهُمْ: تَرَبَّصُوا بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، أي: حوادث الدهر، فَيَهْلِكْ كَمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ: زُهَيْرٌ، وَالنَّابِغَةُ، وَالْأَعَشَى، وَغَيْرُهُمْ، فَافْتَرَقُوا عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ، وَالتَّرَبُّصُ: الْإِنْتَظَارُ، وَالْمَنُونُ: مِنْ أَسْمَاءِ الْمَوْتِ، وَبِهِ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ (١)، وَهُوَ أَيْضاً مِنْ أَسْمَاءِ الدَّهْرِ، وَبِهِ فَسَّرَ مُجَاهِدٌ (٢)، وَالرَّيْبُ هُنَا: الْحَوَادِثُ وَالْمَصَائِبُ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيئُنِي مَا رَابَهَا» (٣) الْحَدِيثُ.

وقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ وعيد في صيغة أمر.

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ الأحلام: العقول، وقوله: ﴿بهذا﴾ يحتمل أَنْ يَشِيرَ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ: هُوَ شَاعِرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَشِيرَ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ١٠٧ ب وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَتَقَوْلُهُ معناه: قَالَ عَنِ الْغَيْرِ أَنَّهُ قَالَ، فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَذِبٍ مُخْصَصٍ، ثُمَّ عَجَّزَهُمْ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ وَالضَّمِيرُ فِي ﴿مِثْلِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ.

وقوله: ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٩٤/١١) بِرَقْم: (٣٢٣٧٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٩١/٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٤٣/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (١٥٠/٦)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٩٤/١١) بِرَقْم: (٣٢٣٧٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (١٩١/٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (١٥٠/٦)، وَعَزَاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٩٠٢/٤ - ١٩٠٣)، كِتَابُ «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ» بَابُ: فَضَائِلُ فَاطِمَةَ بِنْتِ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - (٩٣، ٢٤٤٩/٩٥)، وَأَحْمَدُ (٤٣٢٣، ٤٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٢)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» (٤١/٢).

* ت * : أي: في أَنَّ مُحَمَّدًا تَقَوَّلَهُ؛ قاله الثعلبي.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ قال الثعلبي: قال ابن عباس: من غير أب ولا أم، فهم كالجماد لا يعقلون، ولا تقوم لله عليهم حجة، أليسوا خُلِقُوا من نطفة وعلقة، وقال ابن كيسان: أَمْ خُلِقُوا عَبَثًا، وَتَرَكُوا سُدىً من غير شيء، أي: لغير شيء لا يؤمرون ولا يُنْهَوْنَ ﴿أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾: لأنفسهم، فلا يأتُمرون لأمر الله، انتهى، وعَبَّرَ * ع^(١): عن هذا بأن قال: وقال آخرون: معناه: أَمْ خُلِقُوا لغير عِلَّةٍ ولا لغاية عقاب وثواب؛ فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون.

* ت * : وقد يحتمل أَنْ يَكُونَ المعنى: أَمْ خُلِقُوا من غير شيء خَلَقَهُمْ، أي: من غير مُوجِدٍ أَوْجَدَهُمْ، وَيَدُلُّ عليه مقابلته بقوله: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهكذا قال الغزالي في «الإحياء»، قال: وقوله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: من غير خالق، انتهى بلفظه من كتاب، آداب التلاوة قال الغزالي: ولا يَتَوَهَّمُ أَنَّ الآيةَ تَدُلُّ أَنَّهُ لَا يُخْلَقُ شَيْءٌ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ! انتهى، وقال الفخر^(٢): قوله تعالى: ﴿مَنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فيه وجوه، المنقول منها: أَمْ خُلِقُوا من غير خالق، [وقيل: أَمْ خُلِقُوا لا لغير شيء عَبَثًا]^(٣)، وقيل: أَمْ خُلِقُوا من غير أب وأم، انتهى، وأحسنها الأول؛ كما قال الغزالي، والله أعلم بما أراد سبحانه، وفي الصحيح عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْمُصْطَفِرُونَ﴾ - كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»، وفي رواية: «وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا/ وَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي»^(٤) انتهى، وأسند ١١٠٨ أبو بكر ابن الخطيب في «تاريخه» عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَهْلِ بَدْرٍ، فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَكَأَنَّمَا تَصَدَّعَ قَلْبِي حِينَ سَمِعْتُ الْقُرْآنَ» انتهى.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفِرُونَ﴾ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعِمُّهُمْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٢/٥).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٢٣/١٤).

(٣) سقط في: د.

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٩/٨)، كتاب «التفسير» برقم: (٤٨٥٤).

يُسْطَلِّقُ مِيْنِ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَتْ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ بمنزلة قوله: أَمْ عندهم الاستغناء في جميع الأمور؟ والمصيطر: القاهر، وبذلك فسر ابن عباس^(١) الآية، والسُّلْمُ: السبب الذي يُضَعَّدُ به، كان ما كان من خشب، أو بناء، أو حبال، أو غير ذلك، والمعنى: أَلَهُمْ سُلْمٌ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ، أي: عليه أو منه، وهذه حروف يَسُدُّ بِعُضْهَا مَسَدًا بَعْضُ، والمعنى: يَسْتَمْعُونَ الْخَبْرَ بِصِحَّةٍ مَا يَدْعُونَهُ، فليأتوا بِالْحُجَّةِ المبينة في ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ الآية، قال ابن عباس^(٢): يعني أَمْ عندهم اللُّوْحُ المحفوظ، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾: ما فيه، ويخبرون به، ثم قال: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾: بك وبالشرع، ثم جزم الخبر بأنَّهم ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم المغلوبون، فَسَمَّى غَلَبَتَهُمْ كَيْدًا؛ إِذْ كَانَتْ عَقُوبَةُ الْكَيْدِ، ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾: يعصمهم ويمنعهم من الهلاك، قال الثعالبي: قال الخليل: ما في سورة الطور كُلُّهَا من ذكر «أَمْ» كُلُّهُ استفهام لهم، انتهى.

ثم نَزَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴿٤٩﴾

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ أي: قطعةً يقولون لشدة معاندتهم هذا ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾: بعضه على بعض، وهذا جوابٌ لقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] يقول: لو فعلنا هذا ١٠٨ ب بهم لما آمنوا، ولقالوا: سحاب مركوم.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾، وما جرى مَجْرَاهُ من الموداعة - منسوخٌ بآية السيف،

(١) أخرجه الطبري (٤٩٦/١١) برقم: (٣٢٣٨٦)، وذكره ابن عطية (١٩٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٠/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره البغوي (٢٤٢/٤)، وذكره ابن عطية (١٩٣/٥).

والجمهورُ أَنَّ يومهم الذي فيه يُضَعَّقُونَ، هو يوم القيامة، وقيل: هو موتهم واحداً واحداً، ويحتملُ أَنَّ يكون يومٌ بدر؛ لِأَنَّهُمْ عَذَّبُوا فيه، والصعق: التعذيب في الجملة، وإن كان الاستعمالُ قد كَثُرَ فيما يصيب الإنسانَ من الصَّيْحَةِ الْمُفْرِطَةِ ونحوه، ثُمَّ أَخْبَرَ تعالى بِأَنَّ لَهُمْ دُونَ هذا اليوم، أي: قبله ﴿عَذَابًا﴾ واخْتَلَفَ في تعيينه، فقال ابن عباس وغيره^(١): هو بدر ونحوه، وقال مجاهد^(٢): هو الجُوعُ الذي أصابهم، وقال البراءُ بْنُ عَازِبٍ وابن عباس أيضاً^(٣): هو عذاب القبر، وقال ابن زيد^(٤): هي مصائب الدنيا، إذ هي لهم عذاب.

* ت * ويحتملُ أَنَّ يكون المراد الجميع؛ قال الفخر^(٥): إِنَّ قُلْنَا إِنَّ العَذَابَ هو بدر فالذين ظلموا هم أهل مَكَّةَ، وَإِنْ قُلْنَا: العَذَابُ هو عذابُ القبر، فالذين ظلموا عامٌ في كل ظالم، انتهى.

ثم قال تعالى لِنَبِيِّهِ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى ومنظر، نرى وَنَسْمَعُ ما تقول، وَأَنَّكَ في حفظنا وحيطتنا؛ كما تقول: فلان يرعاه المَلِكُ بعين، وهذه الآية ينبغي أَن يُقَرَّرَها كُلُّ مؤمن في نفسه؛ فَإِنها تُفَسِّحُ مضائق الدنيا.

وقوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قال أبو الأحوص^(٦): هو التسبيح المعروف، يقول في كل قيام: سبحان الله وبحمده، وقال عطاء^(٧): المعنى حين تقوم من كُلِّ مجلس.

* ت * وفي تفسير أحمد بن نصر الداوودي قال: وعن ابن المُسَيَّب قال: حَقُّ على كل مسلم أَن يقول حين يقوم إلى الصلاة: سبحان الله وبحمده؛ لقول الله سبحانه لِنَبِيِّهِ ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾، انتهى، / وقال ابن زيد^(٨): هي صلاة النوافل، وقال ١١٠٩

(١) ذكره البغوي (٢٤٣/٤)، وابن عطية (١٩٤/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٩/١١) برقم: (٣٢٣٩٨)، وذكره البغوي (٢٤٣/٤)، وابن عطية (١٩٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥١/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري (٤٩٩/١١) برقم: (٣٢٣٩٤)، (٣٢٣٩٥)، وذكره ابن عطية (١٩٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٠/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري (٤٩٩/١١) برقم: (٣٢٣٩٩)، وذكره ابن عطية (١٩٤/٥).
(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٣٥/١٤).

(٦) أخرجه الطبري (٥٠٠/١١) برقم: (٣٢٤٠١)، وذكره ابن عطية (١٩٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (١٩٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥١/٦)، وعزاه لابن أبي شبة.

(٧) ذكره البغوي (٢٤٣/٤)، وابن عطية (١٩٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (١٩٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥١/٦)، وعزاه للفرياحي، وابن المنذر.

(٨) ذكره ابن عطية (١٩٤/٥).

الضَّحَّاكُ^(١): هي الصلوات المفروضة، وَمَنْ قال هي النوافل جعل أدبار النجوم رُكْعَتِي الفجر، وعلى هذا القول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، وقد رُوِيَ مرفوعاً، وَمَنْ جعله التسبيح المعروف جعل قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مثلاً، أي: حين تقوم وحين تَقْعُدُ، وفي كل تَصَرُّفِكَ، وحكى منذر عن الضَّحَّاكِ أَنَّ المعنى: حين تقوم في الصلاة [بعد] تكبيرة الإحرام، فقل: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ»^(٢) الحديث.

(١) ينظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٥/١)، كتاب «الصلاة» باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك وبحمدك (٧٧٥)، والترمذي (٩/٢ - ١٠)، كتاب «الصلاة» باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٢)، وابن ماجه (٢/٢٦٤)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها» باب: افتتاح الصلاة (٨٠٤)، والنسائي (١٣٢/٢)، كتاب «الافتتاح» باب: نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة (٨٩٩)، وأحمد (٥٠/٣، ٦٩)، (١/٢٨٢)، كتاب «افتتاح الصلاة» باب: ما يقال بعد افتتاح الصلاة، وابن خزيمة (٢٣٨/١) جماع أبواب الأذان والإقامة، باب: إباحة الدعاء بعد التكبير وقبل القراءة... (٤٦٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «النَّجْمِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

وهي أولُ سورة أعلن بها رسول الله ﷺ، وَجَهَرَ بقراءتها في الحرم، والمشركون يستمعون، وفيها سَجَدَ وسجد معه المؤمنون والمشركون والجنُّ والإنسُ غيرَ أبي لهب، فَإِنَّهُ رفع حَفَنَةً من ترابٍ إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا.

* ت * : والذي خَرَّجَهُ البخاريُّ في صحيحه عن ابنِ مسعود: «فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تَرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قَتَلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ»^(١) انتهى، وسبب نزولها أَنَّ المشركين قالوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَقُولُ الْقُرْآنَ، ويخلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ الآية، قال الحسن وغيره: النجم الْمُقْسَمُ به هنا: اسمُ جنس، أراد به النجوم^(٢)، ثم اختلفوا في معنى ﴿هَوَى﴾ فقال جمهور المفسرين: هَوَى لِلْغُرُوبِ، / وهذا هو السابق ١٠٩ ب إلى الفهم من كلام العرب، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي^(٣): هَوَى فِي الانْقِضَاضِ فِي إِثْرِ الْعَفْرِيتِ عِنْدَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ، وقال مجاهد وسفيان^(٤): النجم في قسم الآية: الثُّرَيَّا، وَسُقُوطُهَا مَعَ الْفَجْرِ هُوَ هَوَىُّهَا، والعرب لا تقول: النجم مطلقاً إِلَّا لِلثُّرَيَّا، والقسم واقع على قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠/٨)، كتاب «التفسير» باب: فاسجدوا لله واعبدوا (٤٨٦٣).

(٢) ذكره ابن عطية (١٩٥/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (١٩٥/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٥٠٣/١١) برقم: (٣٢٤١٤)، (٣٢٤١٥)، وذكره ابن عطية (١٩٦/٥)، وابن كثير

(٢٤٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٤/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد،

وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

* ص * : ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أبو البقاء : العامل في الظرف فعلُ الْقَسَمِ المحذوف ، أي : أقسم بالنجم وَقَتَ هَوَىٰهٖ ، وجوابُ الْقَسَمِ : ﴿مَا ضَلَّ﴾ ، انتهى ، قال الفخر^(١) : أكثر المفسرين لم يُفَرِّقُوا بين الْعَيِّ والضلال ، وبينهما فرق ؛ فالعَيُّ : في مقابلة الرُّشْدِ ، والضلال أَعَمُّ منه ، انتهى . ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ : يريد محمداً ﷺ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ عَنْ هَوَاهُ ، أي : بهواه وشهوته ، وقال بعض العلماء : وما يَنْطِقُ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ عَنْ هَوَىٰ .

* ت * : وهذا تأويل بعيد من لفظ الآية كما ترى .

﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿

وقوله : ﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ يراد به القرآن بإجماع .

* ت * : وليس هذا الإجماع بصحيح ، ولفظُ الثعلبي ﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ أي : ما نُطْفِئُهُ فِي الدِّينِ إِلَّا بِوَحْيٍ ، انتهى ، وهو أحسن إن شاء الله ، قال الفخر^(٢) : الوحي اسم ، ومعناه : الكتاب ، أو مصدر وله معانٍ : منها الإرسال ، والإلهام ، والكتابة ، والكلام ، والإشارة ، فإن قلنا : هو ضمير القرآن فالوحي اسم معناه الكتاب ، ويحتمل أن يُقَالَ : مصدر ، أي : ما القرآن إِلَّا إِزْسَالٌ ، أي : مُرْسَلٌ ، وإن قلنا : المراد من قوله : ﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ قولُ محمد وكلامه فالوحي حينئذ هو الإلهام ، أي : كلامه مُلْهِمٌ مِنَ اللَّهِ أَوْ مَرْسَلٌ ، انتهى ، والضمير في ﴿عَلَّمَهُ﴾ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، والمُعَلَّمُ هو جبريل - عليه السلام - قاله ابن عباس وغيره^(٣) ، أي : عَلَّمَ مُحَمَّدًا الْقُرْآنَ ، / و﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ معناه : ذُو قُوَّةٍ ؛ قاله قتادة وغيره^(٤) ؛ ومنه قوله - عليه السلام - : «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سِوَيَّ»^(٥) . وَأَضْلُ الْمِرَّةِ مِنْ مَرَائِرِ الْحَبْلِ ، وهي فتله وإحكام عمله .

(١) ينظر : «تفسير الرازي» (٢٤١/١٤) .

(٢) ينظر : «تفسير الرازي» (٢٤١/١٤) .

(٣) ذكره ابن عطية (١٩٦/٥) .

(٤) ينظر : المصدر السابق .

(٥) أخرجه أبو داود (٥١٤/١) ، كتاب «الزكاة» باب : من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣٤) ، والترمذي

(٢٣/٣) كتاب «الزكاة» باب : ما جاء من لا تحل له الصدقة (٦٥٢) ، وابن ماجه (٥٨٩/١) ، كتاب

«الزكاة» باب : من سأل عن ظهر غنى (١٨٣٩) ، والحاكم (٤٠٧/١) نحوه ، والنسائي (٩٩/٥) ، كتاب

«الزكاة» باب : إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها (٢٥٩٧) ، وابن حبان (١٠٢/٣) - الموارد (٨٠٦) ،

وعبد الرزاق في «المصنف» (١١٠/٤) (٧١٥٥) .

قال الترمذي : حديث عبد الله بن عمر حديث حسن .

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ قال الربيع والزجاج، المعنى: فاستوى جبريل في الجو، وهو إذ ذاك بالأفق الأعلى؛ إذ رآه رسول الله ﷺ بحراً، قد سدَّ الأفق، له ستمائة جناح، وحيثذا دنا من محمد - عليه السلام - حتى كان قاب قوسين، وكذلك رآه نزلةً أخرى في صفته العظيمة، له ستمائة جناح عند السدرة.

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ قال الجمهور: المعنى: دنا جبريل إلى محمد في الأرض عند حراء، وهذا هو الصحيح أنَّ جميع ما في هذه الآيات من الأوصاف هو مع جبريل، و﴿دنا﴾ أعم من ﴿تدلى﴾ فبيّن تعالى بقوله: ﴿فَتَدَلَّى﴾ هيئة الدنو كيف كانت، و﴿قَابَ﴾: معناه: قَدَّر، قال قتادة وغيره^(١): معناه: من طرف العود إلى طرفه الآخر، وقال الحسن ومجاهد^(٢): من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المُقبَض.

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ معناه: على مقتضى نظر البشر، أي: لو رآه أَحَدُكُمْ لقال في ذلك: قوسان أو أدنى من ذلك، وقيل: المراد بقوسين، أي: قَدَّر الذراعين، وعن ابن عباس^(٣): أنَّ القوس في الآية ذراع يُقَاسُ به، وذكر الثعلبي أنَّها لغة بعض الحجازيين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قال ابن عباس^(٤): المعنى: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى، وفي قوله: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ إبهام على جهة التفضيم والتعظيم؛ قال عياض: ولما كان ما كاشفهُ - عليه السلام - من ذلك الجبروت، وشاهدُهُ من عجائب / الملكوت، لا تُحِيطُ به العبارات، ولا تستَقِلُّ بحمل سماع أذناه العقول - رَمَزَ عنه تعالى ١١٠ بـ بالإيماء والكناية الدالة على التعظيم، فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد والبلاغة بالوحي والإشارة، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز، انتهى.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١١) ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (١٤) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (١٥)

(١) ذكره البغوي (٢٤٦/٤)، وابن عطية (١٩٧/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٧/١١ - ٥٠٨) برقم: (٣٢٤٤٠، ٣٢٤٤٢)، وذكره البغوي (٢٤٦/٤)، وابن عطية (١٩٧/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٨/٦)، وعزاه لآدم بن أبي إياس، والفريابي، والبيهقي.

(٣) ذكره ابن عطية (١٩٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٧/٦)، وعزاه للطبراني، وابن مردويه، والضياء.

(٤) أخرجه الطبري (٥٠٩/١١) برقم: (٣٢٤٥٤)، وذكره البغوي (٢٤٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٨/٦)، وعزاه للنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ المعنى: لم يُكَذِّبْ قَلْبُ مُحَمَّدٍ الشَّيْءَ الذي رَأَى، بل صَدَّقَهُ وَتَحَقَّقَهُ نَظَرًا؛ قال أهل التأويل منهم ابن عباس وغيره^(١): رأى محمد الله بفؤاده، وقال النبي ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ نُورَ بَصَرِي فِي فُؤَادِي، فَتَنَظَّرْتُ إِلَيْهِ بِفُؤَادِي»، وقال آخرون من المتأولين: المعنى: ما رأى بعينه لم يُكَذِّبْ ذلك قلبه، بل صدقه وتحققه، وقال ابن عباس فيما روي عنه^(٢): إِنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ، وَأُنْكَرَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ، وَقَالَتْ: أَنَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ فَقَالَ لِي: «هُوَ جِبْرِيلُ فِيهَا كُلُّهَا» قال * ع^(٣) *: وهذا قول الجمهور، وحديث عائشة عن النبي ﷺ قاطع بكل تأويل في اللفظ؛ لأن قول غيرها إنما هو مُتَنَزَّعٌ من ألفاظ القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ قرأ حمزة والكسائي «أَفْتَمَرُونَهُ» - بفتح التاء دون ألف^(٤) -، أي: أفتجحدونه.

* ت *: قال الثعلبي: واختار هذه القراءة أبو عبيد: قال إنهم لا يمارونه، وإنما جحدوه، واختلِفَ في الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ حسبما تقدم، فقالت عائشة والجمهور^(٥): هو عائد على جبريل، و﴿نَزَلَهُ﴾ معناه: مَرَّةً أُخْرَى، فجمهور العلماء أَنَّ الْمَرْثِيَّ هو جبريل - عليه السلام - في / المرتين، مَرَّةً فِي الْأَرْضِ بِحَرَاءَ، وَمَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، رآه على صورته التي خُلِقَ عليها، وسدرة المتهى هي: شجرة نَبَقٍ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَقِيلَ لَهَا: سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى؛ لَأَنَّهَا إِلَيْهَا يَنْتَهِي عِلْمُ كُلِّ عَالَمٍ، وَلَا يَعْلَمُ مَا وَرَاءَهَا صَعْدًا إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لَأَنَّهَا إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَنْ مَاتَ عَلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ * ع^(٦) *: وهم المؤمنون حقًا من كل جيل.

(١) أخرجه الطبري (٥١١/١١) برقم: (٣٢٤٦٦)، وذكره البغوي (٢٤٦/٤)، وذكره ابن عطية (١٩٨/٥)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (١٦٠/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية.

(٢) أخرجه الطبري (٥١١/١١) برقم: (٣٢٤٦٧)، وذكره البغوي (٢٤٧/٤)، وابن عطية (١٩٨/٥)،

وابن كثير في «تفسيره» (٢٥٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥٩/٦)، وعزاه لابن مردويه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٨/٥).

(٤) ينظر: «السبعة» (٦١٤)، و«الحجة» (٢٣٠/٦)، و«معاني القراءات» (٣٧/٣)، و«شرح الطيبة» (٦/

٢٤)، و«العنوان» (١٨٢)، و«حجة القراءات» (٦٨٥)، و«شرح شعلة» (٥٩١)، و«إتحاف» (٥٠٠ -

٥٠١).

(٥) أخرجه الطبري (٥١٢/١١) برقم: (٣٢٤٧٥)، وذكره ابن عطية (١٩٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره»

(٢٥١/٤).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٨/٥).

وقوله سبحانه: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ قال الجمهور: أراد سبحانه أن يُعْظَمَ مَكَانَ السدرة، وَيُسْرَفَ بِأَنَّ جنة المأوى عندها، قال الحسن^(١): هي الجنة التي وُعدَ بها المؤمنون.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُرَى (١٩) وَمَنُوءَ النَّالَةِ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ أي: غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا، فما يستطيع أحد أن يصفها، وقد ذكر المفسرون في وصفها أقوالاً هي تَكَلَّفُ فِي الْآيَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبْهَمَ ذَلِكَ، وَهُمْ يَرِيدُونَ شَرْحَهُ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَذْرِي مَا هِيَ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ قال ابن عباس^(٣): معناه: ما جال هكذا ولا هكذا.

وقوله: ﴿وَمَا طَغَى﴾ معناه: ولا تجاوز المرئي، وهذا تحقيق للأمر، ونفي لجوهِ الريب عنه.

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال جماعة: معناه: لقد رأى الكبرى من آيَاتِ رَبِّهِ، أي: ممَّا يُمْكِنُ أَنْ يَرَاهَا الْبَشَرُ، وَقَالَ آخَرُونَ: الْمَعْنَى: لَقَدْ رَأَى بَعْضاً مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ^(٤): رَأَى رَفِيفاً أَخْضَرَ مِنَ الْجَنَّةِ، قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ.

(١) أخرجه الطبري (٥١٧/١١) عن ابن عباس برقم: (٣٢٥١١)، وذكره ابن عطية (١٩٩/٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٧/١ - ٥٤٨)، كتاب «الصلاة» باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء؟ (٣٤٩)، (٤٣١/٦ - ٤٣٢)، كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: ذكر إدريس عليه السلام (٣٣٤٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥١٨/١١) برقم: (٣٢٥٢٥)، وذكره ابن عطية (٢٠٠/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٥٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٦٢/٦)، وعزاه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (٥١٩/١١) برقم: (٣٢٥٣١) عن ابن مسعود، وذكره ابن عطية (٢٠٠/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٦٢/٦)، وعزاه للفرابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي معاً في «الدلائل».

* ت * : وزاد الثعلبي: وقيل: المعراج، وما رأى في تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه؛ دليلاً قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا...﴾ [الإسراء: ١] الآية، قال عياض: ١١١ ب / وقوله تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ انحصرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى، وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى، وقد اشتملت هذه الآيات على إعلام الله بتزكية جملته - عليه السلام - وعِصْمَتِهَا من الآفات في هذا المسرى، فزكى فؤاده ولسانه وجوارحه؛ فقلبه بقوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١]، ولسانه - عليه السلام - بقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣]، وبصره بقوله تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ اهـ.

ولما فرغ من ذكر عظمة الله وقدرته قال على جهة التوقيف: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى...﴾ الآية، أي: أرايتم هذه الأوثان وحقارتها وبُعْدَهَا عن هذه القدرة والصفات العَلِيَّةِ، واللات: صنم كانت العرب تعظمه، والعزى: صخرة بيضاء كانت العرب أيضاً تعبدُها، وأمّا مناة: فكانت بالمشلل من قديد، وكانت أعظم هذه الأوثان عندهم، وكانت الأوس والخزرج تهل لها، ووقف تعالى الكُفَّار على هذه الأوثان، وعلى قولهم فيها: إنها بنات الله، فكأنه قال: أرايتم هذه الأوثان وقولكم: هي بنات الله ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ثم قال تعالى على جهة الإنكار: ﴿تِلْكَ إِذَا قَسَمَ ضَبْرِي﴾ أي: عوجاء؛ قاله مجاهد^(١)، وقيل: جائرة قاله ابن عباس^(٢)، وقال سفيان^(٣): معناه: منقوصة، وقال ابن زيد^(٤): معناه: مخالفة، والعرب تقول: ضَبْرْتُهُ حَقَّةً أَضْيَرُهُ بمعنى: منعته، وضَبْرِي من هذا التصريف؛ قال أبو حيان^(٥): ﴿والثالثة الأخرى﴾ صفتان لمناة؛ للتأكيد، قيل: وأكْذَتْ بهذين الوصفين؛ لِعَظَمَتِهَا عندهم، وقال الزمخشري: والأخرى ذمٌّ، وهي المتأخرة الوضيعة ١١٢ المقدار، وتُعَقَّبُ/ بأنَّ أخرى مؤنث آخر، ولم يَوْضَعَا لِلذَّمِّ ولا للمدح.

* ت * : وفي هذا التعقب تعسف، والظاهر أنَّ الوصفين معاً سيقاً مَسَاقَ الذَّمِّ؛ لأنَّ هؤلاء الكُفَّارَ لم يكتفوا بضلالهم في اعتقادهم ما لا يجوز في اللات والعزى، إلى أن

(١) أخرجه الطبري (٥٢٢/١١) برقم: (٣٢٥٤٦)، وذكره البغوي (٢٥٠/٤)، وابن عطية (٢٠١/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥٢٢/١١) برقم: (٣٢٥٤٩)، وذكره البغوي (٢٥٠/٤)، وابن عطية (٢٠١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٦٤/٦)، وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٥٢٢/١١) برقم: (٣٢٥٥٠)، وذكره ابن عطية (٢٠١/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٥٢٢/١١) برقم: (٣٢٥٥١)، وذكره ابن عطية (٢٠١/٥).

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (١٦٠/٨).

أضافوا إلى ذلك مئة الثالثة الأخرى الحقيرة، وكل أصنامهم حقير، انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ يعني: إن هذه الأوصاف من أنها إناث، وأنها آلهة تغبد، ونحو هذا - إِلَّا أَسْمَاءٌ، أي: تسميات اخترعتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها برهاناً ولا حجة، وما هو إِلَّا أَتْبَاعُ الظن، ﴿وما تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وهوى الأنفس هو إرادتها المملدة لها، وإنما تجد هوى النفس أبداً في ترك الأفضل؛ لأنها مجبولة بطبعها على حب الملد، وإنما يزدعها ويسوقها إلى حسن العاقبة العقل والشرع.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ فيه توبيخ لهم، إذ يفعلون هذه القبائح والهدى حاضر، وهو محمد وشرعه، والإنسان في قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ﴾ اسم جنس، كأنه يقول: ليست الأشياء بالتمني والشهوات، وإنما الأمر كله لله، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه، فليس لكم - أَيُّهَا الْكَافِرَةُ - مُرَادُكُمْ في قولكم: هذه آلهتنا، وهي تشفع لنا، وتقرّبنا إلى الله زُلْفَى، ونحو هذا ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي: له كل أمرهما: مُلْكاً، ومقدوراً، وتحت سلطانه، قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «عيوب النفس»: ومن عيوب النفس كثرة التمني، والتمني هو الاعتراض على الله عز وجل في قضائه وقدره، ومداواتها/ أن يعلم أنه لا يدري ما يعقبه التمني، أيجزه إلى خير أو إلى شر؟ فإذا تيقن إبهام عاقبة تمنيه، أسقط عن نفسه ذلك، ورجع إلى الرضا والتسليم، فيستريح، انتهى.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ لِللَّهِكَ سَمِيَةً الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْلَعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرَدُّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْشَأَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)

وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ...﴾ الآية: رد على قريش في قولهم: الأوثان شفعاؤنا، ﴿وكم﴾ للتكثير، وهي في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿لا تغني﴾ والغنى جلب النفع ودفع الضرر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغناء.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: كفار العرب.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: في الْمُعْتَقَدَاتِ، والمواضع التي يريد الإنسان أَنْ يُحَرَّرَ مَا يَفْقَلُ ويعتقد؛ فَإِنَّهَا مواضع حقائق، لا تنفعُ الظنونُ فيها، وَأَمَّا في الأحكام وظواهرها فيجتزئ فيها بالمظنونات.

ثم سَلَّى سبحانه نَبِيَّه وأمره بالإعراض عن هؤلاء الكُفَرَةِ.

وقوله: ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ قال الثعلبي: يعني القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية متصلة في معنى التسلية، ومتضمنة وعيداً للكافرين، ووعداً للمؤمنين، والحُسْنَى: الجنة ولا حسنى دونها، وقد تقدم نقلُ الأقوال في الكبائر في سورة النساء وغيرها، وتحريمُ القول في الكبائر أَنَّهَا كُلُّ معصيةٍ يوجد فيها حَدٌّ في الدنيا أو تَوَعُّدٌ عليها بِالنَّارِ في الآخرة، أو لعنة، ونحو هذا.

وقوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ هو استثناءٌ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا، وَإِنْ قدرته مُنْقَطِعًا ساغ ذلك، وَيَكُلُّ قد قيل، واختُلِفَ في معنى ﴿اللَّمَمَ﴾ فقال أبو هريرة، وابن عباس، والشَّعْبِيُّ، وغيرهم^(١): اللمم: صِغَارُ الذنوب التي لا حَدَّ فيها ولا وَعِيدَ عليها؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَتَخَلَّصُونَ مِنْ مُوَاقَعَةِ هذه الصغائر، ولهم مع ذلك الحُسْنَى / إِذَا اجْتَنَبُوا الكبائر، وتظاهر العلماء في هذا القول، وكَثُرَ المائِلُ إليه، وحُكِيَ عن ابن المُسَيَّبِ أَنَّ اللمم: ما خطر على القلب، يعني بذلك لَمَّةَ الشيطان^(٢)، وقال ابن عباس^(٣): معناه: إِلَّا مَا أَلْمُوا بِهِ مِنَ المعاصي القَلْتَةُ والسَّقَطَةُ دون دوام ثم يتوبون منه، وعن الحسن بن أبي الحسن^(٤) أَنَّهُ قال: في اللَّمَّةِ من الزنا، والسَّرِيقَةِ، وشرب الخمر ثم لا يعود، قال * ع^(٥) *: وهذا التأويل يقتضي الرِّفْقَ بالناس في إدخالهم في الوعد بالحسنى؛ إِذْ الغالب في المؤمنين مَوَاقِعَةُ

(١) أخرجه الطبري (٥٢٨/١١) عن ابن عباس برقم (٣٢٥٨٤)، وذكره ابن عطية (٢٠٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٥٦/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٦٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٢) ذكره البغوي (٢٥٣/٤)، وابن عطية (٢٠٤/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٢٢٨/١١) برقم: (٣٢٥٧٧)، وذكره البغوي (٢٥٢/٤)، وابن عطية (٢٠٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٥٦/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٦٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد عن أبي صالح.

(٤) أخرجه الطبري (٥٢٧/١١) برقم: (٣٢٥٧٠)، وذكره البغوي (٢٥٢/٤)، وابن عطية (٢٠٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٥٦/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٦٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٤/٥).

المعاصي، وعلى هذا أنشدوا، وقد تَمَثَّلَ به النبي ﷺ: [الرجز]

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا^(١)
وقوله سبحانه: ﴿إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يريد: خلق أبيهم آدم، ويحتمل أن يراد به إنشاء الغذاء، وأجئة: جمع جنين.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن تزكية الإنسان نفسه، ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يزكي بعض الناس بعضاً، وإذا كان هذا، فإنما يُنْهَى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا أو القطع بالتزكية، وأمّا تزكية الإمام والقُدوة أحياناً لِيُؤْتَمَّ به أو لِيَتَهَمَّ الناس بالخير، فجائز، وفي الباب أحاديث صحيحة، وباقي الآية بَيِّنٌ.

* ت * : قال صاحبُ «الكَلِمِ الْفَارِقَةِ»: أعرفُ الناسِ بنفسه أشدُّهم إيقاعاً للتهمة بها في كل ما يبدو ويظهر له منها، وأجهلهم بمعرفتها وخفايا آفاتِها وكوامن مكرها من زكّائها، وأحسن ظنّه بها؛ لأنّها مُقْبِلَةٌ على عاجل حظوظها، مُعْرِضَةٌ عَنِ الاستعداد لآخرتها، انتهى، وقال ابن عطاء الله: أضلُّ كل معصية وغفلة - وشهوة/ - الرضا عن النفس، وأصل كل ١١٣ ب طاعة، ويقظة، وعِقَّة - عَدَمُ الرضا منك عنها؛ قال شارحه ابن عباد: الرضا عن النفس: أصل جميع الصفات المذمومة، وعَدَمُ الرضا عنها أصل الصفات المحمودة، وقد اتَّفَقَ على هذا جميعُ العارفين وأرباب القلوب؛ وذلك لأنَّ الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساوئها، وعَدَمُ الرضا عنها على عكس هذا؛ كما قيل: [الطويل]
وَعَيْنُ الرُّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا
انتهى.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعْنَدُ عَلَيْهِ أَعْيَبٌ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَا نَزَرُ وَزَرَ وَذَرَ أُخْرَى (٣٨) ﴿
وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى...﴾ الآية، قال مجاهد، وابن زيد، وغيرهما^(٢):

(١) أخرجه الحاكم (٤٦٩/٢)، والترمذي (٣٩٦/٥ - ٣٩٧) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة النجم (٣٢٨٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري (٥٣٠/١١) عن مجاهد برقم: (٣٢٥٩٥) وعن ابن زيد برقم: (٣٢٥٩٦)، وذكره ابن عطية (٢٠٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٦٨/٦)، وعزه للفرياحي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي؛ وذلك أَنَّهُ سَمِعَ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَوَعِظَهُ فَقَرَّبَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَطَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي إِسْلَامِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ عَاتَبَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ لَهُ: أَتَتَرَكُ مِلَّةَ آبَائِكَ؟ ارْجِعْ إِلَى دِينِكَ، وَاثْبَتْ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَتَحْمِلُ لَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ تَخَافُهُ فِي الْآخِرَةِ، لَكِنْ عَلَى أَنْ تَعْطِينِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ، فَوَافَقَهُ الْوَلِيدُ عَلَى ذَلِكَ، وَرَجَعَ عَمَّا هَمَّ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَأَعْطَى بَعْضَ ذَلِكَ الْمَالِ لَذَلِكَ الرَّجُلِ، ثُمَّ أَمْسَكَ عَنْهُ وَشَحَّ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِيهِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ^(١): نَزَلَتْ فِي الْعَاصِي بْنِ وَاثِلٍ؛ قَالَ * ع^(٢) *: فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ عَلَى هَذَا - هُوَ فِي الْمَالِ، وَقَالَ مِقَاتِلُ^(٣) فِي كِتَابِ الثَّعْلَبِيِّ: الْمَعْنَى: أَعْطَى الْوَلِيدُ قَلِيلًا مِنَ الْخَيْرِ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ ﴿أَكْدَى﴾، أَي: انْقَطَعَ مَا أَعْطَى، وَهَذَا بَيِّنٌ مِنَ اللَّفْظِ، وَالْآخِرُ يَحْتَاجُ إِلَى رَوَايَةٍ، وَ﴿تَوَلَّى﴾ مَعْنَاهُ: أَدْبَرَ وَأَعْرَضَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَ﴿أَكْدَى﴾ مَعْنَاهُ: انْقَطَعَ عَطَاؤُهُ، وَهُوَ مُشَبَّهٌ بِالَّذِي/ يَحْفَرُ فِي الْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا انْتَهَى فِي حَفْرِ بئرٍ وَنَحَوَهُ إِلَى كُذْيَةٍ، وَهِيَ مَا صَلَبَ مِنَ الْأَرْضِ - يَتَّسِرُ مِنَ الْمَاءِ، وَانْقَطَعَ حَفْرُهُ، وَكَذَلِكَ أَجْبَلَ إِذَا انْتَهَى فِي الْحَفْرِ إِلَى جَبَلٍ، ثُمَّ قِيلَ لِمَنْ انْقَطَعَ: عَمَلُهُ أَكْدَى وَأَجْبَلَ.

* ت *: قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَأَصْلُهُ مِنَ الْكُذْيَةِ، وَهُوَ حَجَرٌ فِي الْبئرِ يُؤَسُّ مِنَ الْمَاءِ؛ قَالَ الْكَسَائِيُّ: تَقُولُ الْعَرَبُ: أَكْدَى الْحَافِرُ وَأَجْبَلَ: إِذَا بَلَغَ فِي الْحَفْرِ إِلَى الْكُذْيَةِ وَالْجَبَلِ، انْتَهَى.

وقوله عز وجل: ﴿أَعْنِدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ مَعْنَاهُ: أَعْلِمَ مِنَ الْغَيْبِ أَنَّ مَنْ تَحْمَلُ ذُنُوبَ آخِرِ انْتَفَعَ بِذَلِكَ الْمُتَحَمِّلُ عَنْهُ؛ فَهُوَ لِهَذَا الَّذِي عِلْمُهُ يَرَى الْحَقَّ وَلَهُ فِيهِ بَصِيرَةٌ؟ أَمْ هُوَ جَاهِلٌ، لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صَحْفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى بِمَا أُزِيلَ بِهِ، مِنْ أَنَّهُ لَا تَزُرُ وَازِرَةً، أَي: لَا تَحْمَلُ حَامِلَةً حَمْلَ أُخْرَى؛ وَفِي الْبُخَارِيِّ ﴿وَأِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾: وَفَّى مَا قُرِضَ عَلَيْهِ^(٤)، انْتَهَى.

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٢٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ (٤١)

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ وما بعده، كل ذلك معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تَزُرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ والجمهور أَنَّ قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾

(١) ذكره البغوي (٢٥٣/٤)، وابن عطية (٢٠٥/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٥/٥).

(٣) ذكره البغوي (٢٥٣/٤)، وابن عطية (٢٠٥/٥).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٩/٨)، كتاب «التفسير» باب: سورة النجم.

مُحَكَّمٌ لَا نَسْخَ فِيهِ، وهو لفظ عام مخصص.

وقوله: ﴿وَأَنْ سَغِيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي: يراه الله، ومن شاهد تلك الأمور، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريف للمحسنين وتوبيخ للمسيئين، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِأَخِيهِ فِيمَا يَكْرَهُ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ وعيد للكافرين، ووعد للمؤمنين.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْسِنَةٌ ۖ وَأَنَّ هُوَ أَصْحَكَ وَأَنَّكَ ۖ وَأَنَّ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۖ وَأَنَّ هُوَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تَثَنَّى ۖ وَأَنَّ عَلَيْهِ أَلْشَّاءَ الْآخِرَىٰ ۖ وَأَنَّ هُوَ أَعْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۖ وَأَنَّ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ ۖ وَأَنَّ هَٰذَا آدَا الْأَوَّلَىٰ ۖ وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ۖ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ ۖ وَالْمُؤَنَّفَكَ أَهْوَىٰ ۖ فَفَسَّنَا مَا عَنَىٰ ۖ﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أي: مُنتهى الخلق ومصيرهم، اللهم أطلعنا

على خيرك بفضلك، ولا تفضحنا بين خلقك، / وجُد علينا بسترِكَ في الدارين! وَحَقُّ لَعْدِ ١١٤ ب يعلم أنه إلى ربه متناه؛ أن يرفض هواه؛ ويَهْد في دنياء، ويُقْبَل بقلبه على مولاه؛ ويقتدي بنبيِّ فَضَّلَهُ اللَّهُ على خلقه وارتضاه؛ ويتأمل كيف كان زهده ﷺ في دنياء؛ وإقباله على مولاه؛ قال عياض في «شفاه»: وأما زُهدُ ﷺ، فقد قدمنا من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي، وحسبك من تقلله منها وإعراضه عنها وعن زهرتها، وقد سبقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحاتها - أنه تُوَفِّي ﷺ وِدْرَعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ^(٢)، وهو يدعو، ويقول:

(١) أخرجه البخاري (١٣٨/١٣)، كتاب «الأحكام» باب: من شاق شاق الله عليه (٧١٥٢)، ومسلم (٤/٢٢٨٩)، كتاب «الزهد والرقائق» باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٦/٤٩)، والترمذي (٣/٣٩٥)، كتاب «النكاح» باب: ما جاء في الوليمة (١٠٩٧) نحوه، ورواه البخاري من طريق صفوان، وجندب، ومسلم من طريق ابن عباس، والترمذي من طريق ابن مسعود، وأحمد (٤٠/٣) من طريق أبي سعيد الخدري (٣١٣/٤)، (٤٥/٥) من طريق أبي بكرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٢/٤) كتاب «اليوع» باب: شراء النبي بالنسيئة، حديث (٢٠٦٩)، وأحمد (٣/١٣٣)، والنسائي (٢٨٨/٧) كتاب «اليوع» باب: الرهن في الحضر، وابن ماجه (٨١٥/٢)، كتاب «الرهن» باب: (١)، حديث (٢٤٣٧)، والترمذي (٥١٩/٣ - ٥٢٠)، كتاب «اليوع» باب: ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل، حديث (١٢١٥)، وأبو يعلى (٣٩٤/٥) (٣٠٦١)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (ص: ٢٦٣)، والبيهقي (٣٦/٦)، كتاب «الرهن» باب: جواز الرهن، كلهم من حديث قتادة عن أنس، أنه مشى إلى النبي ﷺ بخبز شعير، وإهالة سِنَخَة، ولقد رهن النبي ﷺ درعاً له بالمدينة، عند يهودي وأخذ منه شعيراً لأهله، ولقد سمعته يقول: ما أمسى عند آل محمد ﷺ صاع بر ولا صاع حب، وإن عنده لتسع نساء. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا».

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما شَبَعَ آلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعَا حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ^(١).

وعنها - رضي الله عنها - قالت: «لَمْ يَمْتَلِءْ جَوْفُ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ شَبَعًا قَطُّ، وَلَمْ يَبْتَ شَكْوَى إِلَى أَحَدٍ، وَكَانَتْ الْفَاقَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْغَنَى، وَإِنْ كَانَ لَيَطْلُ جَائِعًا يَلْتَوِي طَوْلَ لَيْلَتِهِ مِنَ الْجُوعِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ صِيَامَ يَوْمِهِ، وَلَوْ شَاءَ سَأَلَ رَبَّهُ جَمِيعَ كُثُورِ الْأَرْضِ وَثِمَارِهَا وَرَغْدِ عَشِيرَتِهَا، وَلَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي لَهُ؛ رَحْمَةً مِمَّا أَرَى بِهِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِي عَلَى بَطْنِهِ مِمَّا بِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَأَقُولُ: نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءَ لَوْ تَبَلَّغْتَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَقُوتُكَ! فَيَقُولُ: يَا عَائِشَةُ، مَا لِي وَلِلدُّنْيَا! إِخْوَانِي مِنَ أُولَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، فَمَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ، فَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ فَأَكْرَمَ مَا بِهِمْ، وَأَجَزَلَ ثَوَابَهُمْ، فَأَجِدُنِي أَسْتَحْيِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي/ أَنْ يُقْصَرَ بِي عَدَا دُونَهُمْ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِإِخْوَانِي وَأَخْلَائِي، قَالَتْ: فَمَا أَقَامَ بَعْدَ إِلَّا أَشْهُرًا حَتَّى تُوَفِّي - صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه - انتهى، وباقِي الآيَةِ دلالة على التوحيد واضحة، و﴿النشأة الأخرى﴾: هي إعادة الأجسام إلى الحشر بعد البلى، و﴿أقنى﴾ معناه: أَكْسَبَ مَا يُقْتَنَى؛ تقول: قَنَيْتَ الْمَالَ، أَي: كَسَبْتَهُ، وقال ابن عباس: ﴿أقنى﴾: قَنَعَ^(٢)، قال * ع^(٣) * : والقناعة خير قُنْيَةٍ، والغنى عرض زائل، فَلِلَّهِ دَرُّ ابْنِ عَبَّاسٍ! و﴿الشَّغْرَى﴾: نجم في السماء، قال مجاهد وابن زيد^(٤): هو مرزم الجَوَازِءِ، وهما شِغْرَيَانِ: إِحْدَاهُمَا الْغُمِيصَاءُ، وَالْأُخْرَى الْعَبُورُ؛ لِأَنَّهَا عَبَّرَتِ الْمَجْرَةَ، وَكَانَتْ خُرَاعَةً مِمَّنْ يَغْبُدُ هَذِهِ الشَّغْرَى الْعَبُورَ، ومعنى الآيَةِ: وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ رَبُّ هَذَا الْمَعْبُودِ الَّذِي لَكُمْ و﴿عاداً الأولى﴾: اختلف في معنى وصفها بالأولى، فقال الجمهور: سُمِّيَتْ «أولى» بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأُمَمِ الْمَتَأَخِّرَةِ عَنْهَا، وقال الطبري^(٥) وغيره: سُمِّيَتْ أُولَى؛ لِأَنَّ ثَمَّ عَاداً آخِرَةً، وَهِيَ قَبِيلَةٌ كَانَتْ بِمَكَّةَ مَعَ الْعَمَالِيقِ، وَهُمْ بَنُو لَقِيمِ بْنِ هِزَالٍ، وَاللَّهُ

١١٥

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٨٢/٤)، كتاب «الزهد والرقائق» باب: (٢٥/٢٩٧١)، بهذا اللفظ.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٠٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧١/٦)، وعزاه للفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٨/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٥٣٧/١١) عن مجاهد برقم: (٣٢٦٣٧) وعن ابن زيد برقم: (٣٢٦٤٠)، وذكره

ابن عطية (٢٠٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٥٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٧٢/٦)،

وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي الشيخ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٣٧/١١).

أعلم، وقرأ الجمهور^(١): «وَتُمُودًا» بالنصب؛ عطفًا على «عادًا» «وقوم نوح» عطفًا على «ثمود».

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لأنهم كانوا أوّل أمة كذّبت من أهل الأرض، و﴿المؤتفكة﴾: قرية قوم لوط ﴿أهوى﴾ أي: طرحها من هواء عالٍ إلى سفلى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلَةِ ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ مخاطبة للإنسان الكافر؛ كأنه قيل له: هذا هو الله الذي له هذه الأفعال، وهو خالقك المُنعمُ عليك بكلّ النعم، ففي أيّها تشك وتتمارى؟! معناه: تتشكك، وقال مالك الغفاري: إنّ قوله: ﴿أَلَا تَزِرُ﴾ إلى قوله: ﴿تتمارى﴾ / هو في صحف إبراهيم وموسى.

وقوله سبحانه: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يحتمل أن يشير إلى نبينا محمد ﷺ، وهو قول قتادة وغيره^(٢)، وهذا هو الأشبه، ويحتمل أن يشير إلى القرآن، وهو تأويل قوم، و﴿نذير﴾ يحتمل أن يكون بناء اسم فاعل، ويحتمل أن يكون مصدرًا، ونُذِر جمع نذير.

وقوله تعالى: ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ معناه: قربت القربة، والآفة: عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين، وأَرَفَ معناه قُرِبَ جدًا؛ قال كعب بن زهير: [البسيط]

بَانَ الشَّبَابُ وَآهَا الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا وَلَا أَرَى لَشَبَابٍ ذَاهِبٍ خَلْفَا^(٣)

و﴿كاشفة﴾ يحتمل أن تكون صفة لمؤنث التقدير: حال كاشفة ونحو هذا التقدير، ويحتمل أن تكون بمعنى: كاشف؛ قال الطبري^(٤) والزجاج: هو من كشف السرّ، أي:

(١) وقرأها غير مصروفة حمزة، وعاصم، والحسن وعصمة.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٨/٥)، و«البحر المحيط» (١٦٦/٨)، و«معاني القراءات» (٤٠/٣)، و«العنوان» (١٨٢)، و«حجة القراءات» (٦٨٨)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٥٠٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٤٠/١١) برقم: (٣٢٦٥٦)، وذكره البغوي (٢٥٦/٤)، وذكره ابن عطية (٢٠٩/٥)، والسيوطي في «الدرر المشورة» (١٧٢/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) وبعده:

عاد السواد بياضاً في مفارقه لا مرحباً لها بهذا اللون الذي ردفا

ينظر: «ديوانه» (٧٠)، «المحرر الوجيز» (٢١٠/٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٤١/١١).

ليس من دون الله مَنْ يكشف وَفَتَّهَا ويعلمه، وقال منذر بن سعيد^(١): هو من كشف الضَّر ودفعه، أي: ليس مَنْ يكشف خَطْبَهَا وهولها إِلَّا اللهُ.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۖ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۖ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ۖ﴾ (٦١) ﴿فَاتَّعِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ۖ﴾ (٦٢)

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ...﴾ الآية: روى سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ بِخَوْفٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا» ذكره الثعالبي، وأخرج الترمذي والنسائي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَلِجُ النَّارَ مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي مَنْجَرٍ أَبَدًا» قال النسائي: ويروى: «فِي جَوْفِ أَبَدًا»: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ فِي قَلْبِ أَبَدًا»^(٢) قال الترمذي: وقال النبي ﷺ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣) انتهى من «مصابيح/ البغوي». قال أبو عمر بن عبد البر: رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ؛ فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقُلُوبَ، وَيَذْهَبُ بِنُورِ الْوَجْهِ»^(٤) انتهى من «بهجة المجالس»، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَأْخُذْ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؛ فَيَعْمَلْ بِهِنَّ، أَوْ يَعْلَمْ مَنْ يَعْمَلْ بِهِنَّ؟»

(١) ذكره ابن عطية (٢٠٩/٥).

(٢) أخرجه النسائي (١٢/٦)، كتاب «الجهاد» باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٠٨)، و«الكبرى» (٩/٣) كتاب «الجهاد» باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدميه (٤٣١٦/٣)، والترمذي (١٧١/٤)، كتاب فضائل «الجهاد» باب: ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله (١٦٣٣)، وأحمد (٥٠٥/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٠/١) (٨٠٠)، والحاكم (٦٥/٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي (١٧٥/٤)، كتاب «فضائل الجهاد» باب: ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله (١٦٣٩).

قال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزق.

(٤) أخرجه الترمذي (٥٥١/٥)، كتاب «الزهد» باب: من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥) عن أبي هريرة نحوه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان، والحسن، ولم يسمع من أبي هريرة شيئاً أ هـ.

وأخرجه ابن ماجه (١٤٠٣/٢)، كتاب «الزهد» باب: الحزن والبكاء (٤١٩٣)، و (١٤١٠/٢)، كتاب «الزهد» باب: الورع والتقوى (٤٢١٧)، نحوه من طريق آخر عن أبي هريرة.

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَعَدَّ خَمْسًا، وَقَالَ: اتَّقِ الْمَحَارِمَ، تَكُنْ أَغْبَدَ النَّاسِ، وَأَرْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ، تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَخْسِنَ إِلَى جَارِكَ، تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحَبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ يُمِيتُ الْقَلْبَ»^(١) انتهى، والسامد: اللاعب اللاهي، وبهذا فسّر ابن عباس وغيره من المفسرين^(٢)، وسمد بلغة حمير: غني، وهو كُله معنى قريب بعضه من بعض، ثم أمر تعالى بالسجود له والعبادة؛ تخويفاً وتحذيراً، وههنا سجدة في قول كثير من العلماء، ووردت بها أحاديث صحاح، ولم ير مالك بالسجود هنا، وقال زيد بن ثابت: إِنَّهُ قَرَأَ بِهَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَسْجُدْ^(٣). قال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): وكان مالك يسجدُها في خاصّة نفسه، انتهى.

(١) انظر السابق.

(٢) أخرجه الطبري (٥٤٢/١١) برقم: (٣٢٦٦٤)، وذكره البغوي (٢٥٧/٤)، وابن عطية (٢١٠/٥).

(٣) أخرجه النسائي (١٦٠/٢)، كتاب «الافتتاح» باب: ترك السجود في «النجم» (٩٦٠)، وأبو داود (١/٤٤٦)، كتاب «الصلاة» باب: من لم ير السجود في «المفصل» (١٤٠٣).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٧٣٥/٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «القمر»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

إِلَّا آيَةً وَاحِدَةً، قوله: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ...﴾ الآية. ففيها خلاف، والجمهور أنها أيضاً مكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْمِرٌ ۚ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُنِنِ الْتُدْرُ ۚ (٥) فَبَوَّأَهُمْ لَبَنِ الْوَادِي ۚ (٦) حُسْبًا أَنْصَرُهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ۚ (٨)﴾

قوله سبحانه: ﴿اَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ معناه: قربت الساعة، وهي القيامة، وأمرها مجهول التحديد، وكل ما يُزَوَّى في عمر الدنيا من التحديد فضعيف.

وقوله: ﴿وانشق القمر﴾ إخبار عما وقع؛ وذلك أَنَّ قريشاً سألت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ / آيَةً فَأَرَاهُمُ اللَّهُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ، فَرَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَشْهَدُوا^(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٢١/٧)، كتاب «مناقب الأنصار» باب: انشقاق القمر (٣٨٦٩، ٣٨٧١)، (٤٨٣/٨) - (٤٨٤)، كتاب «التفسير» باب: ﴿وانشق القمر﴾ * وإن يروا آية يعرضوا ﴿٤٨٨٤ - ٤٨٨٥﴾، ومسلم (٤/٢١٥٨)، كتاب «صفات المنافقين» باب: انشقاق القمر (٤٣، ٤٥/٢٨٠٠)، وأحمد (٢٧٥/٣) مثله، ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وفي الباب عن أنس بن مالك رضي الله عنه نحوه، أخرجه البخاري (٢٢١/٧)، كتاب «مناقب الأنصار» باب: انشقاق القمر (٣٨٦٨)، (٤٨٤/٨) كتاب «التفسير» باب: ﴿وانشق القمر﴾ وإن يروا آية يعرضوا ﴿٤٨٦٧ - ٤٨٦٨﴾.

ومسلم (٢١٥٩/٤) كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم باب: انشقاق القمر (٤٦ - ٤٧/٢٨٠٢). وفي «الصحيحين» نحوه عن عبد الله بن عباس: أخرجه البخاري (٤٨٤/٨)، كتاب «التفسير» باب: ﴿وانشق القمر﴾ وإن يروا آية يعرضوا ﴿٤٨٦٦﴾، ومسلم (٤/٢١٥٩)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» باب: انشقاق القمر (٤٨/٢٨٠٣).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾: جاء اللفظ مستقبلاً، لينتظم ما مضى وما يأتي، فهو إخبار بأن حالهم هكذا.

وقوله: ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾: قال الزَّجَّاجُ: قيل معناه: دائم متماّد، وقال قتادة وغيره^(١): معناه: ما زل ذاهب عن قريب يزول، ثم قال سبحانه على جهة جزم الخبر: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ كأنه يقول: وكل شيء إلى غاية عنده سبحانه، و﴿مُزْدَجَرٌّ﴾ معناه: موضع زجر.

وقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ﴾: يحتمل أن تكون «ما» نافية، ويحتمل أن تكون استفهامية.

ثم سأل سبحانه نبيه - عليه السلام - بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وتَمَّ القول في قوله: ﴿عَنْهُمْ﴾ ثم ابتداء وعيدهم بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ والعامل في [﴿يَوْمَ﴾] قوله ﴿يَخْرُجُونَ﴾ وقال الرُّمَّانِيُّ: المعنى: فتولَّ عنهم، واذكر يوم^(٢)، وقال الحسن: المعنى: فتولَّ عنهم إلى يوم^(٣).

وقرأ الجمهور^(٤): «نُكِرَ» - بضم الكاف -؛ قال الخليل: التُّكْرُ: نعت للأمر الشديد والرجل الداهية، وَخَصَّ الأبصارَ بالخشوع، لأنَّه فيها أظهرُ منه في سائر الجوارح، وكذلك سائر ما في نفس الإنسان من حياء أو صلفٍ أو خوف ونحوه، إنَّما يظهرُ في الأبصار، و﴿الأحداث﴾: جمع حَدَثٍ وهو القبر، وشَبَّهَهُمْ سبحانه بالجراد المنتشر، وقد شبههم سبحانه في آية أخرى بالفراش المبثوث، وفيهم من كل هذا شَبَّةٌ، وذهب بعض المفسرين إلى أنَّهم أَوَّلًا كالْفراش حين يَمُوجُ بعضهم في بعض؛ ثم في رتبة أخرى كالجراد إذا توجَّهوا نحو المَحْشَرِ والداعي، والمُهْطِعُ: المُسْرِعُ في مشيه نحو الشيء مع هَزٍّ وَرَهَقٍ ومَدٍّ بَصَرٍ نحو المَقْصِدِ، إمَّا لخوف، / أو طمع ونحوه؛ قال أبو حيان^(٥): ﴿مهطعين﴾ أي: ١١٧ مسرعين، وقيل: فاتحين أذانهم للصوت، انتهى.

و﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ لما يرون من مخايل هَوَلِهِ وعلامات مشقته.

(١) أخرجه الطبري (٥٤٨/١١) برقم: (٣٢٧٢٢)، وذكره البغوي (٤٥٨/٤)، وابن عطية (٢١٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦٣/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٢١٢/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٢١٢/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٢/٥)، و«البحر المحيط» (١٧٣/٨)، و«الدر المصون» (٢٢٢/٦).

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (١٧٤/٨).

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (٩) ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ (١٠) ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (١١) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (١٢) ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ (١٣) ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ (١٤) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ﴾ (١٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ الآية: وعيد لقريش، وضرب مثل لهم.

وقوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾: إخبار من الله عز وجل أنهم زَجَرُوا نوحاً - عليه السلام - بالسَّبِّ والنَّجْوِ^(١) والتخويف، قاله ابن زيد^(٢).

وقوله: ﴿فَأَنْتَصِرْ﴾ أي: فانتصر لي منهم بأن تهلكهم.

وقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ قال الجمهور: هذا مجاز وتشبيه؛ لأنَّ المطر كَأَنَّهُ من أبواب، وهذا مبدأ الانتصار من الكفار، والمُنْهَمِرُ: الشديد الوقوع الغزير، وقرأ الجمهور^(٣): ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ يعني: ماء السماء وماء العيون.

وقوله سبحانه: ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قد قُضِيَ وَقُدِرَ في الْأَزَلِ، و﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾: هي السفينة، والدُّسْرُ: المسامير، واحداها: دِسَارٌ؛ وهذا هو قول الجمهور، وقال مجاهد^(٤): الدُّسْرُ: أضلاع السفينة، قال العراقي: والدُّسَارُ أيضاً: ما تُشَدُّ به السفينة، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ معناه: بحفظنا وتحت نظر مئنا، قال البخاري: قال قتادة: أبقى الله عز وجل سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة، انتهى، وقرأ جمهور^(٥) الناس: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ مبنياً للمفعول، قال مكِّي: قيل: «مَنْ» يراذ بها نوح والمؤمنون؛ لأنهم كفروا من حيث كُفِرَ بهم، فجزاهم الله بالنجاة، وقرئ شاذاً: «كُفْرًا»

(١) النَّجْوِ: استقبالك الرجل بما يكره، وردك إياه عن حاجته، وقيل: هو أفحج الرد. ينظر: «لسان العرب» (٤٣٥٩).

(٢) أخرجه الطبري (٥٥١/١١) برقم: (٣٢٧٤٠)، وذكره ابن عطية (٢١٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦٣/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٤/٥)، و«البحر المحيط» (١٧٥/٨)، و«الدر المصون» (٢٢٦/٦).

(٤) أخرجه الطبري (٥٥٣/١١) برقم: (٣٢٧٥٦)، وذكره ابن عطية (٢١٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦٤/٤).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٥/٥)، و«البحر المحيط» (١٧٦/٨)، و«الدر المصون» (٢٢٧/٦).

مبنيًا للفاعل، والضمير في ﴿تركناها﴾ قال مكي: هو عائد على هذه الفعلة والقصة، وقال قتادة وغيره^(١): هو عائد على السفينة، / و﴿مذكر﴾ أصله: مذكر؛ أبدلوا من التاء دالاً، ١١٧ ب ثم أدمغوا الدال في الدال، وهذه قراءة الناس، قال أبو حاتم: ورويت عن النبي ﷺ بإسناد صحيح.

﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ١١١ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ١١٧ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ ١١٨ ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ١١٩ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ ١٢٠

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾: توقيف لكفار قريش، والنذر: هنا جمع نذير، وهو المصدر، والمعنى: كيف كان عاقبة إنذاري لمن لم يحفل به كأنتم أيها القوم؟ و﴿يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ أي: سهّلناه وقرّناه، والذكر: الحفظ عن ظهر قلب؛ قال * ع^(٢) * : يُسَّرَ بما فيه من حسنِ النظم وشرفِ المعاني، فله حلاوة في القلوب، وامتزاج بالعقول السليمة.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾: استدعاء وحض على ذكره وحفظه؛ لتكون زواجه وعلومه حاضرة في النفس، فله در من قبل وهدى.

* ت * : وقال الثعلبي: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: من متعطل.

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ الآية: ورد في بعض الأحاديث في تفسير هذه الآية: ﴿يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾: يوم الأربعاء، ومستمر معناه: متتابع.

﴿تَنَزَّعَ النَّاسُ عَنْهُمْ أَحْزَارٌ فَخَلَّيْ مُتَفَعِّرٍ﴾ ١٢٠ ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ١٢١ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ ١٢٢ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ١٢٣ ﴿كَذَّبَتْ نُودٌ بِالْأَنْذَرِ﴾ ١٢٤ ﴿فَقَالُوا أَأَشْرًا مِمَّا وَجَدَا نَجَعَهُ إِيَّا إِذَا لَيْلَى ضَلَّالٍ وَسُعُرٍ﴾ ١٢٥ ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ﴾ ١٢٦ ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَابِ الْآثِرِ﴾ ١٢٧ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا السَّاعَةِ فَمَنْهُمْ مَرْفُوعٌ وَاصْطَرٍ﴾ ١٢٨ ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شِرْبٍ خَصَّصَتْ﴾ ١٢٩ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ ١٣٠ ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ١٣١ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَظِيرِ﴾ ١٣٢ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ١٣٣ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأَنْذَرِ﴾ ١٣٤ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَامِيًا﴾ ١٣٥ ﴿إِلَّا مَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ ١٣٦ ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرَى مِنْ شَكْرٍ﴾ ١٣٧ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ ١٣٨

(١) أخرجه الطبري (٥٥٤/١١) برقم: (٣٢٧٦١)، وذكره البغوي (٢٦١/٤)، وابن عطية (٢١٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦٤/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (١٨٠/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٥/٥).

فَتَمَارَوْا بِالْأُنْذَرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَافِيَةٍ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ
بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ الْأُنْذَرُ ﴿٤١﴾

وقوله: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ معناه: تقلعهم من مواضعهم قلعاً فتطرحهم، ورؤي عن مجاهد أن الريح كانت تُلْقِي الرجل على رأسه؛ فافتت رأسه وعُنُقُهُ، وما يلي ذلك من بدنه^(١)، قال ع^(٢): * فلذلك حسن التشبيه بأعجاز النخل؛ وذلك أن المنقلع هو الذي ينقلع من قعره، وقال قوم: إنما شَبَّهَهُم بأعجاز النخل؛ لأنهم كانوا يحتفرون حفراً ليمتنعوا فيها من الريح، فكأنه شَبَّهَ تلك الحُفَرِ بعد النزع بحفر أعجاز النخل، والنخل: تُذَكِّرُ وتُؤَنِّتُ، وفائدة تكرار قوله: ﴿فكيف كان عذابي وَنُذِرِي﴾ التخويف وهزُّ النفوس، وهذا موجود في تَكَرَّرِ الكلام؛ كقوله ﷺ: «أَلَا هَلْ / بَلَّغْتُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ»^(٣) ونحوه، و[قول] ثمود لصالح: ﴿أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ﴾: هو حسد منهم، واستبعاد منهم أن يكون نوع البشر يفضل هذا التفضيل، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى على من رَضِيَهُ، وقولهم: ﴿إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ﴾ أي: في ذهاب وانتلاف عن الصواب، ﴿وَسُعْرٍ﴾ معناه: في احتراق أنفس واستعارها حقناً، وقيل: في جنون؛ يقال: ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هائمة على وجهها، والأشْرُ: البَطْرُ، وقرأ الجمهور^(٤): ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بالياء، وقرأ حمزة وحفص: «سَتَعْلَمُونَ» بالتاء من فوق؛ على معنى: قل لهم يا صالح.

ثم أمر الله صالحاً بارتقاب الفرج والصبر.

(١) أخرجه الطبري (٥٥٩/١١) برقم: (٣٢٧٨٦)، وذكره ابن عطية (٢١٦/٥)، والسيوطي في «الدر

المثثور» (١٨٢/٦)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٦/٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) قراءة الجمهور هي قراءة علي بن أبي طالب، وقرأ بالتاء من فوق ابن عامر وحمزة، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش.

وأما حفص فقرأ بقراءة الجمهور، وليس كما ذكر المصنف متابعة لابن عطية، وإنما قراءته بالتاء من طريق هبيرة عن حفص.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٧/٥)، و«الحجة» (٢٤٣/٦)، و«معاني القراءات» (٤٣/٣)، و«شرح

الطبية» (٢٧/٦)، و«حجة القراءات» (٦٨٩)، و«العنوان» (١٨٣)، و«شرح شعلة» (٥٩٢)، و«إتحاف»

(٥٠٧/٢)، و«التخریجات النحوية» (٢٥٨).

ت * : وقال الثعلبي: ﴿فارتقبهم﴾ أي: انتظرهم؛ ما يصنعون، ﴿وَبَيَّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ وبين الناقة، لها شِرْبٌ ولهم شِرْبٌ يوم معلوم، و﴿مُحْتَضِرٌ﴾: معناه: محضور مشهود متواسى فيه، وقال مجاهد^(١): ﴿كل شرب﴾ أي: من الماء يوماً ومن لبن الناقة يوماً محتضر لهم، فكأنه أنبأهم بنعمة الله سبحانه عليهم في ذلك، و﴿صاحبهم﴾: هو قدار بن سالف، و﴿تعاطى﴾ مطاوع «عاطى» فكأن هذه الفعلة تدافعها الناس، وأعطاهما بعضهم بعضاً فتعاطاهما هو، وتناول العقر بيده؛ قاله ابن عباس^(٢)، وقد تقدم قَصَصُ القوم، و«الهشيم»: ما تفتت وتَهَشَّمَ من الأشياء، و﴿المحتظر﴾: معناه: الذي يصنع حظيرة، قاله ابن زيد وغيره^(٣)، وهي مأخوذة من الحَظَرِ وهو المنع، والعرب وأهل البوادي يصنعونها للمواشي وللشكوى/ أيضاً من الأغصان والشجر المورق، والقصب، ونحوه، وهذا كله ١١٨ ب هشيم يتفتت، إمّا في أول الصنعة، وإمّا عند بلى الحظيرة وتساقط أجزائها، وقد تقدم قَصَصُ قوم لوط، والحاصب: مأخوذ من الحصباء.

وقوله: ﴿تَتَمَارَوْا﴾ معناه: تشككوا، وأهدى بعضهم الشكَّ إلى بعض بتعاطيهم الشبه والضلال، و﴿النذر﴾: جمع نذير، وهو المصدر، ويحتمل أن يراد بالنذر هنا وفي قوله: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ - جمع نذير، الذي هو اسم فاعل.

وقوله سبحانه: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ قال قتادة^(٤): هي حقيقة؛ جرّ جبريل شيئاً من جناحه على أعينهم فاستوت مع وجوههم، قال أبو عبيدة: مطموسة بجلدة كالوجه، وقال ابن عباس والضحاك^(٥): هذه استعارة؛ وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً فجعل ذلك كالطمس.

وقوله: ﴿بُكَرَةٌ﴾ قيل: عند طلوع الفجر.

(١) أخرجه الطبري (٥٦١/١١) برقم: (٣٢٧٩١)، وذكره البغوي (٢٦٢/٤)، وابن عطية (٢١٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٦٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨٢/٦)، وعزاه للقرطبي، وعبد بن حميد، وابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (٥٦١/١١) برقم: (٣٢٧٩٣)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨٢/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٥٦٢/١١) برقم: (٣٢٨٠٠) عن الضحاك، وذكره ابن عطية (٢١٨/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٥٦٤/١١) برقم: (٣٢٨٠٦)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨٣/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري (٥٦٤/١١): (٣٢٨٠٥) عن ابن عباس، وعن الضحاك برقم: (٣٢٨٠٨)، وذكره البغوي (٢٦٣/٤) عن الضحاك، وابن عطية (٢١٨/٥).

وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾: يحتمل أن يكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، ونُذِرِي: جمع المصدر، أي: وعاقبة إنذاري، و﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: دائم استقرار فيهم حتى يُفْضِيَ بهم إلى عذاب الآخرة، و﴿آل فرعون﴾: قومه وأتباعه.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَكْثَرُ وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يحتمل أن يريد آل فرعون، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ [القمر: ٤١] - كلاماً تاماً -، ثم يكون قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعود على جميع من ذُكِرَ من الأمم.

وقوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ خطاب لقريش على جهة التوبيخ.

وقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ﴾ أي: من العذاب ﴿في الزُّبُرِ﴾ أي: في كتب الله المُنَزَّلَةِ؛ قاله ابن زيد وغيره^(١).

ثم قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ/ نَحْنُ﴾: واثقون بجماعتنا، منتصرون بقوةنا على جهة الإعجاب؛ سَيُهْزَمُونَ، فلا ينفع جمعهم، وهذه عِدَّةٌ من الله تعالى لرسوله أَنْ جَمَعَ قَرِيشٍ سَيُهْزَمُ، فكان كما وعد سبحانه؛ قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: كنت أقول في نفسي: أَيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ؟! فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَثْبُجُ فِي الدَّرْعِ، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾^(٢) والجمهور على أَنَّ الآية نزلت بِمَكَّةَ، وقول مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا نزلت يَوْمَ بَدْرٍ ضَعِيفٌ، والصواب أَنَّ الوعد نُجِزَ يَوْمَ بَدْرٍ، قال أبو حيان^(٣): ﴿وَيُوَلُّونَ﴾: الجمهور بباء الغيبة، وعن أبي عمرو بقاء الخطاب، والدُّبُرُ: هنا اسم جنس، وحسن إفراذه؛ كونه فاصلةً، وقد جاء مجموعاً في آية أخرى، وهو الأصل، انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٥٦٧/١١) برقم: (٣٢٨٢١)، وابن عطية (٥/٢٢٠).

(٢) أخرجه الطبري (٥٦٧/١١) برقم: (٣٢٨٢٣)، وذكره البغوي (٤/٢٣٨)، وابن عطية (٥/٢٢٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٦٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/١٨٤)، وعزه لابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٨/١٨١).

ثم أضرب سبحانه تهميماً بأمر الساعة التي هي أشدُّ عليهم من كُلِّ هزيمة وقَتْلٍ، فقال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ و﴿أَدْهَى﴾: أفعل من الداهية، وهي الرِّزِيَّةُ العُظْمَى تنزل بالمرء، و﴿وَأَمْرٌ﴾ من المראה.

* ت * وقال الثعلبي: الداهية الأمر: الشديد الذي لا يُهْتَدَى للخلاص منه، انتهى.

ثم أخبر تعالى عن المجرمين أنهم في الدنيا في حيرة وانتلاف، وفقد هدى، وفي الآخرة في احتراق وتسعر، وقال ابن عباس^(١): المعنى: في خسران وجُنُونٍ، والسُّعْرُ: الجنون، وأكثر المفسرين على أَنَّ المجرمين هنا يَرَادُ بهم الكُفَّارُ، والسُّخْبُ: الجرُّ.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴿٥٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿كُلٌّ﴾ بالنصب، وقالوا: المعنى: إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ سابق، وليست خلقنا في موضع الصفة لشيء، وهذا مذهب أهل السُنَّةِ وهذا المعنى يقتضى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مخلوق إِلَّا ما قام عليه الدليل ب ١١٩ أنه ليس بمخلوق؛ كالقرآن والصفات.

* ت * قال الثعلبي: قال ابن عباس^(٢): خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ بِقَدَرٍ، وَخَلَقَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخَيْرُ الْخَيْرِ: السَّعَادَةُ، وَشَرُّ الشَّرِّ: الشَّقَاوَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ قال * ع^(٣) *: أي: إِلَّا قَوْلُهُ وَاحِدَةٌ، وهي «كن».

* ت * قوله: إِلَّا قَوْلُهُ فِيهِ قَلْبٌ مَا، وكأنه فهم أَن معنى الآية راجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤] وعبارة الثعلبي: أي: وما أمر الساعة إِلَّا واحدة، أي: إِلَّا رَجْفَةً وَاحِدَةً، قال أبو عبيد: هي نعت للمعنى

(١) ذكره ابن عطية (٥/٢٢١).

(٢) أخرجه الطبري (١١/٥٦٩) برقم: (٣٢٨٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٨٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر،

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٢١).

دون اللفظ، مجازة: وما أمرنا إلا مرة واحدة كن فيكون ﴿كلمح بالبصر﴾، أي: كخطف بالبصر، فقليل له: إنه يعني الساعة، فقال: الساعة وجميع ما يريد، انتهى، وكلام أبي عبيد عندي حسن.

والأشياء: الفرق المتشابهة في مذهب، أو دين، ونحوه، الأول شيعة للآخر، والآخر شيعة للأول، وكل شيء فعلته الأمم المهلكة في الزبر، أي: مكتوب محفوظ عليهم إلى يوم الحساب؛ قاله ابن عباس وغيره^(١)، و﴿مُسْتَطَرَّ﴾ أي: مُسَطَّر، وقرأ الجمهور^(٢): و﴿نَهَرٍ﴾ - بفتح النون والهاء -؛ على أنه اسم الجنس يريد به الأنهار، أو على أنه بمعنى: وسعة في الأرزاق والمنازل، قال أبو حيان^(٣): وقرأ الأعمش «وَنَهَرٍ» - بضم النون والهاء - جمع نَهَرٍ؛ ك«رَهْنٍ» و«رَهْنٍ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يحتمل أن يريد به الصدق الذي هو ضد الكذب، أي: المقعد الذي صدقوا في الخبر به، ويحتمل أن يكون من قولك: عود صدق، أي: ١٢٠ جيد، وَرَجُلٌ/ صِدْقٌ، أي: خير، والمليك المقتدر: الله تعالى.

* ت * وقال الثعلبي: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، وهو الجنة عند ملك مقتدر، و﴿عند﴾: إشارة إلى القرية والرثبة، انتهى.

* ص * قال أبو البقاء: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: بدل من قوله: ﴿فِي جَنَاتٍ﴾ انتهى، قال المُحَاسِبِيُّ: وإذا أخذ أهل الجنة مجالسهم، واطمأنوا في مقعد الصدق الذي وعده الله لهم، فهم في القرب من مولاهم سبحانه على قدر منازلهم عنده، انتهى من كتاب «التَّوَهُُّم» ثم قال المُحَاسِبِيُّ بإثر هذا الكلام: فلو رأيتهم، وقد سمعوا كلام ربهم، وقد داخل قلوبهم السرور، وقد بلغوا غاية الكرامة ومنتهى الرضا والغبطة، فما ظنك بنظرهم إلى العزيز العظيم الجليل الذي لا تقع عليه الأوهام؛ ولا تحيط به الأفهام، ولا تحده الفطن، ولا تكيفه الفكر، الأزلي القديم، الذي حارت العقول عن إدراكه، وكَلَّتِ الألسن عن كُنْهِ صفاته؟! انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٢٢٢/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٨٦/٦)، وعزاه لابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٢/٥)، و«البحر المحيط» (١٨٢/٨)، و«الدر المصون» (٢٣٤/٦).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (١٨٢/٨)، وفيه أيضاً: أنها قراءة زهير الفرقي وأبي نهيك، وأبي مجلز، واليماني.

وينظر: «المحتسب» (٣٠٠/٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ

عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٥ مِحْسَبَانِ ۝٦﴾

قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الرحمن: بناء مبالغة من الرحمة، وقوله: ﴿علم القرآن﴾ تعديد نعمة، أي: هو مَنْ به، وَعَلَّمَهُ النَّاسَ، وَخَصَّ حُقَاطَهُ وَفَهْمَتَهُ بالفضل؛ قال النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(١)، ومن الدليل على أَنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ، أَنَّ الله تعالى ذكر القرآن في كتابه في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضعٌ صَرَّحَ/ فيه بلفظ الخلق، ولا أشار إليه، وذكر الإنسانَ على الثُلُثِ من ذلك في ثمانية عَشَرَ ١٢٠ ب موضعاً كُلُّهَا نَصَّتْ على خلقه، وقد اقترن ذكرُهُمَا في هذه السورة على هذا النحو، والإنسان هنا اسم جنس؛ قاله الزُّهْرَاوِيُّ وغيره، قال الفخر^(٢): ﴿الرحمن﴾: مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي هي ﴿علم القرآن﴾، انتهى، و﴿البيان﴾: التُّطْقُ والفهم والإبانة عن ذلك بقول؛ قاله الجمهور، وبذلك فَضِّلَ الإنسان من سائر الحيوان، وكل المعلومات داخله في

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢/٨)، كتاب «فضائل القرآن» باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧ - ٥٠٢٨)، وأبو داود (٤٦٠/١)، كتاب «الصلاة» باب: في ثواب قراءة القرآن (١٤٥٢)، والترمذي (٥/١٧٣ - ١٧٤)، كتاب «فضائل القرآن» باب: ما جاء في تعليم القرآن (٢٩٠٧ - ٢٩٠٨)، وابن ماجه (١/٧٦ - ٧٧) «المقدمة» باب: فضل من تعلم القرآن وعمله (٢١١)، وأحمد (٨٥/١)، والدارمي (٢/٤٣٧)، كتاب «فضائل القرآن» باب: خياركم من تعلم القرآن وعلمه عن عثمان بن عفان. وفي الباب عن علي رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (٥/١٧٥)، كتاب «تفسير القرآن» باب: ما جاء في تعليم القرآن (٢٩٠٩)، وأحمد (١٥٣/١)، والدارمي (٢/٤٣٧)، كتاب «فضائل القرآن» باب: خياركم من تعلم القرآن.

قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه من حديث علي عن النبي ﷺ إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق.

(٢) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٧٥/١٥).

البيان الذي علّمه الإنسان، فمن ذلك البيان: كَوْنُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِحُسْبَانٍ: وهذا ابتداء تعديد نَعَم، قال قتادة^(١): ﴿بحسبان﴾: مصدر كالحساب، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى والضَّحَّاك^(٢): هو جمع حساب، والمعنى: أنَّ هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حسابات شَتَّى، وهذا مذهب ابن عباس وغيره^(٣)، وقال قتادة: الحسبان^(٤): الفلك المستدير، شَبَّهَهُ بِحُسْبَانِ الرَّحَى، وهو العود المستدير الذي باستدارته تستدير المطحنة.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝١ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٢ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٣ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٤ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝٥ فِيهَا فَتَكِهَةٌ ۝٦ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝٧ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ۝٨ وَالرَّيْحَانُ ۝٩ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٠﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن عباس وغيره^(٥): النجم: النبات الذي لا ساق له. قال * ع^(٦): * وَسُمِّيَ نَجْمًا؛ لَأَنَّهُ نَجَمٌ، أي: ظَهَرَ، وهو مناسب للشجر نسبةً بَيِّنَةً، وقال مجاهد وغيره: النجم: اسم الجنس من نجوم السماء^(٧)، قال * ع^(٨): * والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض؛ لَأَنَّهُمَا فِي ظَاهِرِهِمَا، وَسُمِّيَ الشَّجَرُ؛ من اشتجار غصونه، وهو تداخلها، قال مجاهد^(٩): وسجودُهُمَا عبارة عن التذلل والخضوع.

- (١) أخرجه الطبري (٥٧٣/١١) برقم: (٣٢٨٦٢)، وذكره ابن عطية (٢٢٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٠/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.
- (٢) ذكره ابن عطية (٢٢٤/٥).
- (٣) أخرجه الطبري (٥٧٣/١١) برقم: (٣٢٨٦٠)، وذكره البغوي (٢٦٧/٤)، وابن عطية (٢٢٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٠/٦)، وعزاه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه.
- (٤) أخرجه الطبري (٥٧٤/١١) عن مجاهد برقم: (٣٢٨٦٧).
- (٥) أخرجه الطبري (٥٧٥/١١) برقم: (٣٢٨٦٩)، وذكره ابن عطية (٢٢٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٧٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩١/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة» عن ابن رزين، والحاكم وصححه.
- (٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٤/٥).
- (٧) أخرجه الطبري (٥٧٥/١١) برقم: (٣٢٨٧٣)، وذكره البغوي (٢٦٧/٤)، وابن عطية (٢٢٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٧٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩١/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.
- (٨) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٤/٥).
- (٩) ذكره ابن عطية (٢٢٤/٥).

وقوله سبحانه: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾: يريد به العدل؛ قاله أكثر الناس.

وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ يريد به الميزان المعروف وألاً هو بتقدير لثلاً، أو مفعول من أجله، وفي مصحف ابن مسعود^(١): «لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ» وقرأ بلال بن أبي بردة^(٢): «تَخْسِرُوا» - بفتح التاء وكسر السين -؛ من خَسَرَ، ويقال: خَسَرَ وأَخْسَرَ بمعنى نَقَصَ، وأفسد؛ كَجَبَرَ وأَجْبَرَ.

والأنام: قال الحسن بن أبي الحسن^(٣): هم الثقلان، الإنس والجن، وقال ابن عباس، وقتادة وابن زيد والشَّعْبِيُّ^(٤): هم الحيوان كله.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ وذلك أَنَّ طَلْعَهَا فِي كُمٍ وفروعها أيضاً في أكمَامٍ مِنْ لَيْفِهَا، والْكُمُ مِنَ النَّبَاتِ: كُلُّ مَا أَلْتَفَّ عَلَى شَيْءٍ وَسَتَرَهُ: ومنه كمائم الزَّهْرِ، وبه شُبَّهَ كُمُ الثَّوْبِ.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾: هو البُرُّ والشَّعِيرُ وما جرى مجراه، قال ابن عباس^(٥): الْعَصْفُ: الثَّنْبُنُ، واخْتَلَفَ فِي الرِّيحَانِ، فقال ابن عَبَّاسٍ وغيره^(٦): هو الرُّزْقُ، وقال الحسن: هو رِيحَانُكُمْ^(٧) هذا، وقال ابن زيد وقتادة^(٨): الرِّيحَانُ هو كُلُّ مَشْمُومٍ طَيِّبٍ، قال

- (١) ينظر: «الكشاف» (٤/٤٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/٢٢٥).
- (٢) ينظر: «الشواذ» ص: (١٤٩)، و«المحتسب» (٢/٣٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/٢٢٥)، و«البحر المحيط» (٨/١٨٨)، و«الدر المصون» (٦/٢٣٧).
- (٣) أخرجه الطبري (١١/٥٧٧) برقم: (٣٢٨٩٣)، وذكره ابن عطية (٥/٢٢٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٩٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.
- (٤) أخرجه الطبري (١١/٥٧٧) برقم: (٣٢٨٩١)، عن ابن عباس، وعن قتادة برقم: (٣٢٨٩٥)، وعن ابن زيد (١١/٥٧٨) برقم: (٣٢٨٩٦)، وذكره ابن عطية (٥/٢٢٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٧٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٩٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
- (٥) أخرجه الطبري (١١/٥٧٧) برقم: (٣٢٩٠٤)، وذكره البغوي (٤/٢٦٨)، وابن عطية (٥/٢٢٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٧١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٩٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
- (٦) أخرجه الطبري (١١/٥٨٠) برقم: (٣٢٩١٥)، وذكره البغوي (٤/٢٦٨)، وابن عطية (٥/٢٢٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٩٢)، وعزاه لابن جرير.
- (٧) أخرجه الطبري (١١/٥٨٠) برقم: (٣٢٩٢٢)، وذكره البغوي (٤/٢٦٨)، وابن عطية (٥/٢٢٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٧١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٩٢)، وعزاه لابن جرير.
- (٨) أخرجه الطبري (١١/٥٨٠) برقم: (٣٢٩٢٣)، عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (٥/٢٢٥).

* ع^(١): وفي هذا النوع نعمة عظيمة، ففيه الأزهار، والمندل والعقاير، وغير ذلك، وقرأ الجمهور^(٢): «وَالرَّيْحَانُ» بالرفع؛ عطفاً على «فاكهة» وقرأ حمزة والكسائي: «وَالرَّيْحَانِ» بالخفض؛ عطفاً على «العصف»، ف«الريحان» على هذه القراءة: الرزق، ولا يدخل فيه المشموم إلا بتكلف، و«ريحان» أصله «رَوْحَان»؛ فهو من ذوات الواو؛ والآلاء: النعم، والضمير في قوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ للجن والإنس اللذين تضمنهما لفظ الأنام، وأيضاً ساغ تقديم ضميرهما عليهما؛ لذكر الإنسان والجان عقب ذلك، وفيه اتساع، وقال منذر بن سعيد: حُوِطَ مَنْ يَعْقِلُ؛ لأنَّ المخاطبة بالقرآن كُله هي للإنس والجن^(٣)، وعن جابر قال: «قرأ علينا النبي ﷺ سورة الرحمن، حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «مَالِي أَرَأَيْكُمْ سُكُوتًا؟! لِلْجَنِّ كَانُوا أَحْسَنَ رَدًّا مِنْكُمْ؛ مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: لَا بَشَيءٍ مِنْ نِعْمِكُمْ رَبَّنَا نَكْذُبُ»^(٤).

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ الآية: اختلف في اشتقاق «الصلصال»؛ فقيل: هو من صل: إذا أثن، فهي إشارة إلى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٥/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٥/٥)، و«البحر المحيط» (١٨٨/٨ - ١٨٩)، و«السبعة» (٦١٩)، و«الحجة» (٢٤٥/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٣٣/٢)، و«معاني القراءات» (٤٤/٣)، و«شرح الطيبة» (٢٩/٦)، و«العنوان» (١٨٤)، و«حجة القراءات» (٦٩٠)، و«شرح شعلة» (٥٩٣)، و«إتحاف» (٢/٥٥٩).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٢٦/٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٩٩/٥)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الرحمن (٣٢٩١)، والحاكم في «المستدرک» (٤٧٣/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٣٢/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٨٩)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، قال أحمد بن حنبل: كان زهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يروي عنه بالعراق كأنه رجل آخر قلبوا اسمه، يعني لما يروون عنه من المناكير، وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير، وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة. ١ هـ من كلام الترمذي. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

الْحَمَاءُ، وقال الجمهور: هو من صَلَّ: إِذَا صَوَّتَ، وذلك في الطين لجودته، فهي إشارة إلى ما كان في تربة آدم من الطين الحُرِّ؛ وذلك أَنَّ اللَّهَ تعالى خلقه من طين مختلِفٍ، فمِرَّةٌ ذكر في خلقه هذا، ومِرَّةٌ هذا، وكُلُّ ما في القرآن صفات ترددت على التراب الذي خُلِقَ منه، و«الْفَخَّارُ»: الطين الطَّيِّبُ إِذَا مَسَّهُ الماءُ فخر، أي: رَبَّاءٌ وَعَظُمَ، والجَانُّ: اسم جنس كالجِنَّةِ، قال الفخر: وفي الجَانُّ وجه آخر: أَنَّهُ أَبُو الْجِنِّ، كما أَنَّ الْإِنْسَانَ هنا أَبُو الْإِنْسِ خُلِقَ من صَلْصَالٍ، وَمَنْ بعده خُلِقَ من صَلْبِهِ: كذلك الْجَانُّ هنا أَبُو الْجِنِّ خُلِقَ من نارٍ، وَمَنْ بعده من ذُرِّيَّتِهِ، انتهى، و«المارج»: اللهب الْمُضْطَرِبُّ من النار، قال ابن عباس^(١): وهو أَحْسَنُ النَّارِ الْمُخْتَلِطِ من ألوانِ شَتَّى، قال أبو حيان^(٢): الْمَارِجُ الْمُخْتَلِطُ من أَصْفَرٍ، وَأَخْضَرٍ، وَأَحْمَرٍ، انتهى.

وَكَرَّرَ سبحانه قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ تأكيداً وتنبيهاً للنفوس، وتحريكاً لها، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة، وهي من كتاب الله في مواضع؛ وفي حديث النبي ﷺ،/ وفي كلام العرب، وذهب قوم إلى أَنَّ هذا التكرار إنما هو لما اختلفت النعم المذكورة كَرَّرَ التوقيفَ مع كُلِّ واحدة منها، قال * ع^(٣): * وهذا حَسَنٌ، وقال الحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: التكرار لِطَرْدِ الْعَقْلَةِ، وللتأكيد^(٤)، وَخَصَّ سبحانه ذَكَرَ الْمَشْرِقَيْنِ والمغربين بالتشريف في إضافة الرب إليهما؛ لعظمهما في المخلوقات.

* ت * وتحتمل الآية أَنَّ يرادَّ المشرقين والمغربين وما بينهما كما هو في «سورة الشعراء» واختلف الناس في ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾؛ قال * ع^(٥): * والظاهر عندي أَنَّ قوله تعالى: ﴿البحرين﴾ يريد بهما نَوْعِي الماءِ الْعَذْبِ والأجاجِ، أي: خلطهما في الأرض، وأرسلهما متداخلين في وضعهما في الأرض، قريب بعضهما من بعض، ولا بَغْيٍ، قال * ع^(٦): * وذكر الثعلبي في «مرج البحرين» أَلْغَاظاً وأقوالاً باطنةً يجب ألاَّ يُلْتَفَتَ إِلَى شَيْءٍ منها.

(١) أخرجه الطبري (٥٨٤/١١) برقم: (٣٢٩٤٥)، وذكره ابن عطية (٢٢٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٧١/٤).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (١٨٩/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٦/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٢٦/٥).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٧/٥).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٧/٥).

* ت * : ولا شَكَّ في اطْرَاحِهَا، فمنها نقله عن الثوري ﴿مرج البحرين﴾: فاطمة وعلي، ﴿اللؤلؤ والمرجان﴾: الحسن والحسين، ثم تَمَادَى في نحو هذا مِمَّا كَانَ الْأَوَّلَى به تركه، وَمَرَجَ الشَّيْءُ، أي: اختلط، و«الْبَرْزَخُ»: الحاجز، قال البخاري ﴿لا يبغيان﴾: لا يختلطان، انتهى، قال ابن مسعود^(١): ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾: حجر أحمر، وهذا هو الصواب، قال عطاء الخراساني^(٢): وهو البُسْد^(٣).

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٢٢) فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال جمهور من المتأولين: إنما يخرج ذلك من «الأجاج» في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة؛ فلذلك قال: ﴿منهما﴾.

* ت * : وهذا بناء على أَنَّ الضمير في ﴿منهما﴾ للعذب والمالح، وأمَّا على قول ١٢٢ ب / مَنْ قَالَ: إِنَّ الْبَحْرَيْنِ بَخْرُ قَارِسَ وَالرُّومِ، أَوْ بَخْرُ الْقُلُزْمِ وَبَخْرُ الشَّامِ - فلا إشكال -؛ إِذْ كُلُّهَا مَالِحَةٌ، وقد نقل الأخفش عن قوم؛ أَنَّهُ يَخْرُجُ اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ مِنَ الْمَالِحِ وَمِنَ الْعَذْبِ، وليس لِمَنْ رَدَّهُ حُجَّةً قاطعة، وَمَنْ أَثْبَتَ أَوَّلَى مِمَّنْ نَفَى، قال أبو حيان^(٤): والضمير في ﴿منهما﴾ يعود على البحرين، بعني: العذب والمالح، والظاهرُ خروجُ اللَّوْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ مِنْهُمَا، وحكاها الأخفش عن قوم، انتهى، والجواري: جمع جارية، وهي السفن، وقرأ حمزة وأبو بكر^(٥): «الْمُنْشآتُ» - بكسر الشين -، أي: اللواتي أنشأن جزيهن، أي: ابتدأنه، وقرأ الباقر - بفتح الشين -، أي: أنشأها الله أو الناس، وقال مجاهد: «الْمُنْشآتُ»: ما رُفِعَ قَلْعُهُ مِنَ السَّفَنِ ﴿كالأعلام﴾، أي: كالجبال^(٦).

(١) أخرجه الطبري (٥٨٩/١١) برقم: (٣٢٩٩٥)، وذكره ابن عطية (٢٢٨/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥٨٩/١١) برقم: (٣٢٩٩٠) عن كعب الأحبار، وذكره البغوي (٢٦٩/٤).

(٣) البُسْد: نوع من الجوهر. وهي كلمة غير عربية.

ينظر: «لسان العرب» (٢٧٩).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (١٩٠/٨).

(٥) ينظر: «السبعة» (٦٢٠)، و«الحجة» (٢٤٧/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٣٧/٢)، و«معاني القراءات»

(٤٦/٣)، و«شرح الطيبة» (٣٠/٦)، و«العنوان» (١٨٤)، و«حجة القراءات» (٦٩١)، و«شرح شعلة»

(٥٩٣)، و«إتحاف» (٥١٠/٢).

(٦) أخرجه الطبري (٥٩١/٥) برقم: (٣٣٠٠٠)، وذكره ابن عطية (٢٢٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/

٢٧٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٦/٦)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير.

* ت * : ولفظ البخاري: ﴿المنشآت﴾: ما رُفِعَ قَلْعُهُ من السفن، فأما ما لا يرفع قَلْعُهُ، فليس بمنشآت، انتهى.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض ﴿فَانٍ﴾ والإشارة بالفناء إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره، والوجه: عبارة عن الذات، لأن الجارحة منفية في حق سبحانه؛ قال الداودي: وعن ابن عباس ﴿ذو الجلال﴾: قال: ذو العظمة والكبرياء، انتهى.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْشِرُ اللَّيْلِ وَالْأَيَّامِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من ملك، وإنس، وجن، وغيرهم، لا غنى لأحد منهم عنه سبحانه، كلهم يسأله حاجته، إما بلسان مقال، وإما بلسان حاله.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي: يُظْهِرُ شَأْنًا من قدرته التي قد سبقت في الأزل في ميقاته من الزمان، من إحياء وإماتة، ورفعة وخفض، وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلا هو سبحانه، و«الشأن»: هو اسم جنس للأمور، قال الحسين بن الفضل^(١): معنى الآية: سَوْقُ المقادير إلى المواقيت؛ وفي الحديث: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا الشَّأْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجُ كَرْبًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ»^(٢) وذكر الثَّقَاشُ أَنَّ سَبَبَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُ الْيَهُودِ: اسْتَرَاحَ اللَّهُ يَوْمَ السَّبْتِ، فَلَا يُنْفَذُ فِيهِ شَيْئًا.

وقوله تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾: عبارة عن إتيان الوقت الذي قَدَّرَ فيه، وقَضَى أَنْ يَنْظَرَ فِي أُمُورِ عِبَادِهِ، وذلك يوم القيامة، وليس المعنى: أَنْ تَمَّ شَغْلًا يَتَفَرَّغُ مِنْهُ؛ إِذْ لَا يَشْغَلُهُ سَبْحَانَهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَإِنَّمَا هِيَ إِشَارَةٌ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ، قال البخاري: وهو

(١) ذكره البغوي (٤/٢٧٠)، وابن عطية (٥/٢٢٩).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٩٧)، وعزاه إلى البزار.

معروف في كلام العرب؛ يقال: لأَفْرَعَنَّ لَكَ، وما به شُعْلٌ، انتهى، و﴿الثقلان﴾: الإنس والجن؛ يقال: لكل ما يَعْظُمُ أمرُهُ: ثَقُلٌ، وقال جعفر بن محمد الصادق: سُمِّيَ الإنس والجنُّ ثَقَلَيْنِ؛ لأنَّهُما ثَقُلَا بالذنوب^(١)، قال * ع^(٢) * : وهذا بارِعٌ ينظر إلى خلقهما من طين ونار، واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا...﴾ الآية: فقال الطبري^(٣): قال قوم: المعنى: يُقَالُ لهم يوم القيامة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية، قال الضحَّاك: وذلك أَنَّهُ يَفِرُّ الناسُ في أقطار الأرض، والجنُّ كذلك؛ لما يَرَوْنَ من هول يوم القيامة، فيجدون سَبْعَةَ صفوف من الملائكة، قد أحاطت بالأرض، فيرجعون من حيثُ جاؤوا، فحينئذٍ يقال لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾^(٤)، وقال بعض المفسرين: هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى: إِنْ اسْتَطَعْتُمْ الْفِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ بَأَنْ تَنْفُذُوا من أقطار السموات والأرض، فأنفذوا.

١٢٣ ب / * ت * : والصواب الأول.

وقوله: ﴿فَانْفُذُوا﴾: صيغة أمر، ومعناه: التعجيز، و﴿الشَّوْاطُ﴾: لَهَبُ النار؛ قاله ابن عباس وغيره^(٥)، قال أبو حيان^(٦): الشَّوْاطُ: هو اللهب الخالص بغير دُخانٍ، انتهى، و﴿النَّحَّاسُ﴾: هو المعروف؛ قاله ابن عباس وغيره^(٧)، أي: يُدَابُّ وَيُرْسَلُ عليهما، ونحوه في البخاري، قال * ص * : وقال الخليل: «النَّحَّاسُ» هنا هو: الدُّخانُ الذي لا لَهَبَ له، ونقله أيضاً أبو البقاء وغيره، انتهى.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَإِنِّي مَآلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْمِعُنَا عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَإِنِّي مَآلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِيمَتَهُمْ فَيَوْمَئِذٍ بِالنَّاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَإِنِّي مَآلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بِنَهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَإِنِّي مَآلَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾

(١) ذكره البخاري (٢٧١/٤)، وابن عطية (٢٣٠/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣٠/٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٩٤/١١).

(٤) أخرجه الطبري (٥٩٤/١١) برقم: (٣٣٠١٧)، وذكره ابن عطية (٢٣٠/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٥٩٦/١١) برقم: (٣٣٠٢٨)، وذكره ابن عطية (٢٣٠/٥)، وابن كثير في «تفسيره»

(٢٧٤/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٨/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

حاتم.

(٦) ينظر: «البحر المحيط» (١٩٣/٨).

(٧) ذكره ابن عطية (٢٣١/٥).

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾: جواب «إذا» محذوف مقصود به الإيهام؛ كأنه يقول: فإذا انشقت السماء، فما أعظم الهول! قال قتادة^(١): السماء اليوم خضراء، وهي يوم القيامة حمراء، فمعنى قوله: ﴿وَرْدَةٌ﴾ أي: مُحَمَّرَةٌ كالوردة، وهي الثوار المعروف؛ وهذا قول الزجاج وغيره.

وقوله: ﴿كَالدَّهَانِ﴾ قال مجاهد وغيره^(٢): هو جمع دهن؛ وذلك أن السماء يعترها يوم القيامة دُوبٌ وتَمِيعٌ من شدة الهول، وقال ابن جريج^(٣): من حر جهنم، نقله الثعلبي، وقيل غير هذا.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ قال قتادة وغيره^(٤): هي مواطن؛ فلا تعارض بين الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ قال ابن عباس^(٥): يُؤْخَذُ كُلُّ كَافِرٍ بناصيته وقدميه، ويُطَوَّى، ويُجْمَعُ كَالْحَطَبِ، ويُلقَى كذلك في النار، وقيل: المعنى: أن بعض الكفرة يُؤْخَذُونَ بالنواصي، وبعضهم يُسْحَبُونَ، ويُجْرُونَ بالأقدام.

وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: يقال لهم على جهة التوبيخ، وفي مصحف ابن مسعود^(٦): «هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبَانِ لَا تَمُوتَانِ فِيهَا وَلَا تَحْيَاانِ».

وقوله سبحانه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ المعنى: / أنهم يترددون بين نار ١٢٤ جهنم وجمرها، وبين حميم، وهو ما غلي في جهنم من مائع عذابها، وآن الشيء: خضر، وآن اللحم أو ما يطبخ أو يُقْلَى: نضج وتناهى حره، وكونه من الثاني أئين.

(١) أخرجه الطبري (٥٩٨/١١) برقم: (٣٣٠٥٤)، وذكره البغوي (٢٧٢/٤)، وابن عطية (٢٣١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٧٥/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٥٩٩/١١) برقم: (٣٣٠٥٧)، وذكره ابن عطية (٢٣١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٧٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٩٩/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ذكره البغوي (٢٧٢/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٣٢/٥).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٣٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٧٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٠٠)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور».

(٦) وزاد ابن خالويه فيها: «تصليانها» لا تموتان... ينظر: «الشواذ» ص: (١٥٠)، و«الكشاف» (٤/٤٥١)، و«المحرر الوجيز» (٢٣٢/٥).

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٧) ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٩) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٥٠) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٥١) ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنَكْهَمَ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٥٣) ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ﴾ (٥٤) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٥٥) ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌّ﴾ (٥٦) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٥٧) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: موقفه بين يدي ربه، وقيل في هذه الآية: إِنَّ كُلَّ خَائِفٍ لَهُ جَنَّاتٍ.

* ت * قال الثعالبي: قال محمد بن علي الترمذي: جَنَّةٌ لخوفه من ربه، وجَنَّةٌ لتركه شهوته، و«الْأَفْنَانُ»: يحتمل أن تكون جمع «فَنَنٍ»، وهو الغُصْنُ، وهذا قول مجاهد^(١)، فكأنه مدحها بظلالها وتكاثف أغصانها، ويحتمل أن تكون جمع «فَنٍ»، وهو قول ابن عباس^(٢)، فكأنه مدحها بكثرة فواكهها ونعيمها، و«زَوْجَانِ» معناه: نَوْعَانِ.

* ت * ونقل الثعالبي عن ابن عباس^(٣) قال: ما في الدنيا شجرة حُلُوَّةٌ ولا مُرَّةٌ إِلَّا وهي في الجنة، حتى الحَظَلُّ إِلَّا أَنَّهُ حُلُوٌّ انتهى.

و﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾: حال، وقرأ الجمهور^(٤): ﴿عَلَى فُرُشٍ﴾ - بضم الراء -، وروى في الحديث «أَنَّهُ قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَذِهِ الْبَطَّائِنُ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، فَكَيْفَ الظَّوَاهِرُ؟! قَالَ: هِيَ مِنْ نُورٍ يَتَلَوَّلُ»، والإِسْتَبْرَقُ: ما خَشَنَ وَحَسَنَ مِنَ الدِّيْبَاجِ، والسُّنْدُسُ: ما رَقَّ مِنْهُ، وقد تقدّم القول في لفظ الإِسْتَبْرَقِ، والضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ لِلْفُرُشِ، وقيل: للجنات، إذ الجنتان جناتٌ في المعنى، و«الْجَنَّتِي»: ما يُجَنَّى مِنَ الثَّمَارِ، ووصفه بالدُّنُو؛ لَأَنَّهُ يَدْنُو إِلَى مَشْتَبِهِ، فيتناولُه كيف شاء من قيام، أو جلوس، أو اضطجاع، رُوِيَ معناه في الحديث، و﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: هُنَّ الْحُورُ، قَصَرْنَ الْحَاضِئُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ﴾ أي: لم يفتضحْنَ؛ لِأَنَّ الطَّمْتَ دَمُ الْفَرْجِ.

(١) أخرجه الطبري (٦٠٤/١١) برقم: (٣٣١٠٠)، وذكره البغوي (٢٧٤/٤)، وابن عطية (٢٣٣/٥)،

وابن كثير في «تفسيره» (٢٧٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٣/٦)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٣٣/٥).

(٣) ذكره البغوي (٢٧٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٧٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٤/٦)،

وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣٣/٥)، و«البحر المحيط» (١٩٥/٨)، و«الدر المصون» (٢٤٦/٦).

وقوله: ﴿وَلَا جَانٌ﴾ قال مجاهد: الجن قد/ تُجامع نساء البشر مع أزواجهن^(١) إذا لم ١٢٤ ب يذكر الزوج اسم الله، فنفي سبحانه في هذه الآية جميع المجامعات.

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ فَإِنِّي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ۝٦٠﴾ فَإِنِّي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ الآية، الياقوت والمرجان هي من الأشياء التي قد برع حسنها، واستشعرت النفوس جلالها، فوقع التشبيه بها فيما يشبه، ويحسن بهذه المشبهات، فالياقوت في أملاسه وشفوفه، ولو أدخلت فيه سلكا، لرأيته من ورائه، وكذلك المرأة من نساء الجنة يرى منح ساقها من وراء العظم، والمرجان في أملاسه وجمال منظره.

وقوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾: آية وعِد وبَسْط لنفوس جميع المؤمنين؛ لأنها عامة؛ قال ابن المنكدر، وابن زيد، وجماعة من أهل العلم^(٢): هي للبر والفاجر، والمعنى: أن جزاء من أحسن بالطاعة أن يحسن إليه بالتعظيم، وحكى النقاش أن النبي ﷺ فسر هذه الآية: هل جزاء التوحيد إلا الجنة^(٣).

* ت * : ولو صحَّ هذا الحديث، لوجب الوقوف عنده، ولكن الشأن في صحته، قال الفخر^(٤): قوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فيه وجوه كثيرة، حتى قيل: إن في القرآن ثلاث آيات، في كل واحدة منها مائة قول، إحداها: قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وثانيتهما: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] وثالثتها: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ولنذكر الأشهر منها والأقرب:

أما الأشهر فوجوه:

أحدها: هل جزاء التوحيد إلا الجنة، أي: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله إلا دخول الجنة.

(١) أخرجه الطبري (٦٠٧/١١) برقم: (٣٣١٢١)، وذكره البغوي (٢٧٥/٤)، وابن عطية (٢٣٤/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٣٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٨/٦)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري في «الأدب»، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن محمد ابن الحنفية.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠٧/٦)، وعزاه إلى الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، والبغوي في «تفسيره»، والدليمي في «مسند الفردوس».

(٤) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١١٥/١٥).

ة، قال البخاري: ﴿مَذْهَامَتَانِ﴾: سَوَادَاوَانِ مِنَ الرَّيِّ^(١)، انتهى، والنَّضَّاحَةُ: الْفَوَارَةُ الَّتِي يَهْبِجُ مَائُهَا، وَكَرَّرَ النَّخْلَ وَالرُّمَانَ، وَهَمَا مِنْ أَفْضَلِ الْفَاكِهَةِ؛ تَشْرِيفًا لِهَمَّا، وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قَالَ: خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ، حِسَانُ الْوُجُوهِ» وَفَرِيءٌ شَاذًا: «خَيْرَاتٌ» - بِشَدِّ الْيَاءِ الْمَكْسُورَةِ^(٢) - ..

* ت * وفي «صحيح البخاري» من حديث أنس عن النبي ﷺ: لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ غَدَوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَوْسٌ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعٌ قِنْدِ سَوَاطِيهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ أَمْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَتَصَيَّفُهَا عَلَى رَأْسِهَا - يَعْنِي الْخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا^(٣).
وقوله سبحانه «مَقْصُورَاتٌ» أَي: مُحْجُوبَاتٌ مَضُونَاتٌ فِي الْخِيَامِ، وَخِيَامُ الْجَنَّةِ بَيُوتُ اللَّوْلُؤِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤) -: هِيَ دُرٌّ مُجَوَّفٌ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ الدَّوودِيُّ: وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٥): وَالْخِيَمَةُ لَوْلُؤَةٌ مُجَوَّفَةٌ فَرَسَخٌ فِي فَرَسَخٍ،

(١) ينظر «صحيح البخاري» (٤٨٧/٨) كتاب: «التفسير»، باب: سورة الرحمن قال ابن حجر: وصله الفريابي.

(٢) قرأ بها أبو عثمان النهدي، وأبو بكر بن حبيب السهمي.

ينظر: «الشواذ» ص: (١٥١)، و«المحرر الوجيز» (٢٣٥/٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٧/٦)، كتاب «الجهاد والسير»، باب الغدوة والروحة في سبيل الله وقاب قوس أحدكم في الجنة (٢٧٩٢) باب: الحور العين وصفتهم (٢٧٩٦)، (٤٢٥/١١) كتاب: «الرقاق»، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٦٨)، ومسلم (١٤٩٩/٣)، كتاب «الإمارة» باب: فضل الغدوة والروحة في سبيل الله (١١٢/١٨٨٠).

وفي الباب من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (١٧/٦)، كتاب «الجهاد والسير» باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم في الجنة (٢٧٩٣)، مسلم (١٥٠٠/٣)، كتاب «الإمارة» باب: فضل الغدوة والروحة في سبيل الله (١١٤/١٨٨٢).

وفي الباب من حديث سهل بن سعد: أخرجه البخاري (١٧/٦)، كتاب «الجهاد والسير» باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم في الجنة (٢٧٩٤)، (١٠٠/٦) باب: فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، (٢٣٦/١١) كتاب «الرقاق» باب: مثل الدنيا في الآخرة (٦٤١٥)، ومسلم (٣/١٥٠٠) كتاب «الإمارة» باب: فضل الغدوة والروحة في سبيل الله (٨١٨١/١١٣)، والترمذي (٤/١٨٨)، كتاب «فضائل الجهاد» باب: ما جاء في فضل المرباط (١٦٦٤)، والترمذي (٤/١٨٨)، والنسائي (١٥/٦)، كتاب «الجهاد» باب: فضل غدوة في سبيل الله (٣١١٨)، وابن ماجه (٩٢١/٢) كتاب «الجهاد» باب: فضل الغدوة والروحة في سبيل الله (٢٧٥٦)، وأحمد (٥/٣٣٩).

(٤) أخرجه الطبري (٦١٦/١١) برقم: (٣٣١٩٩)، وذكره ابن عطية (٢٣٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢١٠)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي الأحوص.

(٥) أخرجه الطبري (٦١٦/١١) برقم: (٣٣١٩٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٨٠)، والسيوطي في «الدر»

لها أربعة آلاف مِصْرَاعٍ، انتهى.

و«الرَّفَرُفُ»: ما تَدَلَّى من الأَسِرَّةِ من عالي الثياب والبُسْطِ، وقاله ابن عَبَّاس وغيره^(١)، وما يتدلى حول الخَبَاءِ مِنَ الخَزَقَةِ الهَفَافَةِ يُسَمَّى رَفَرَفًا، وكذلك يُسَمَّى النَّاسُ اليَوْمَ، وقيل غَيْرُ هذا، وما ذكرناه أَضَوْبُ، والعَبْقَرِيُّ: بُسْطُ جَسَانٍ، فيها صُورٌ وَغَيْرُ ذلك، تُصْنَعُ بِعَبْقَرٍ، وهو موضعٌ يُعْمَلُ فيه الوَشْيُ والدِّبَاجُ ونحوه، قال ابن عباس: العَبْقَرِيُّ^(٢): الزَّرَابِيُّ^(٣)، وقال ابن زيد^(٤): هي الطَّنَافِسُ^(٥)، قال الخليل والأصمعي: العَرَبُ إِذَا اسْتَحْسَنَتْ شَيْئًا واستجاذته قَالَتْ: عَبْقَرِيٌّ، قال ع^(٦) * : ومنه قوله ﷺ في عُمَرَ: «قَلَمَ أَرَّ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّةً»^(٧).

وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: هذا الموضع مما أُريدَ فيه

- = المتنور (٢١٠/٦)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».
- (١) أخرجه الطبري (٦١٩/١١) برقم: (٣٣٢٢٥)، وذكره البغوي (٢٧٨/٤)، وابن عطية (٢٣٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٣/٦)، وعزاه للقرطبي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.
- (٢) أخرجه الطبري (٦٢٠/١١) برقم: (٣٣٢٣٥)، وذكره ابن عطية (٢٣٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٤/٦)، وعزاه لعبد بن حميد.
- (٣) وهي جمع زُرْبِيَّة، وهو نوع من الثياب مُحَبَّرٌ منسوب إلى موضع، وقال المؤرخ: زرابي البيت: ألوانه... وقيل: هي البُسْطُ العراض. وقيل: ما بها خملة.
- ينظر: «عمدة الحفاظ» (١٥٦/٢).
- (٤) أخرجه الطبري (٦٢٠/١١) برقم: (٣٣٢٤١)، وذكره ابن عطية (٢٣٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٣/٦)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر.
- (٥) جمع طِنْفَسَةٍ: بكسر الطاء والفاء، وبضمهما، وبكسر الطاء وفتح الفاء، وهي: البساط الذي له خمل رقيق.
- ينظر: «النهاية» (١٤٠/٣).
- (٦) ينظر «المحور الوجيز» (٢٣٧/٥).
- (٧) أخرجه البخاري (٢٣/٧)، كتاب «فضائل الصحابة» باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً (٣٦٦٤)، ومسلم (١٨٦١/٤)، كتاب «فضائل الصحابة» باب: من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه (١٧ - ٢٣٩٢/١٨)، وأحمد (٣٦٨/٢)، (٤٥٠) عن أبي هريرة.
- وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما: أخرجه البخاري (٥٠/٧)، كتاب «فضائل الصحابة» باب: مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣٦٨٢)، ومسلم (١٨٦٢/٤)، كتاب «فضائل الصحابة» باب: فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٣/١٩)، وأحمد (٢٧/٢)، (٢٨، ٣٩، ٨٩، ١٠٤، ١٠٧).

بالاسم مُسَمَّاهُ، والدعاء بهاتين الكلمتين حَسَنٌ مَرْجُوٌّ الإجابة، وقد قال ﷺ: «أَلِظُوا بـ: «يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١).

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩/٥)، كتاب «الدعوات» باب: (٩٢) (٣٥٢٤)، وأحمد (١٧٧/٤). قال الترمذي: هذا حديث غريب.

[تفسير] سُورَةِ الْوَاقِعَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ مِمَّنْ يُعْتَدُ بِقَوْلِهِ

١١٦ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ / أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ دَامَ عَلَى قِرَاءَةِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، لَمْ يَفْتَقِرْ» أَوْ قَالَ: «لَمْ تُصِبْهُ قَافَةٌ أَبَدًا»^(١)، قَالَ * ع^(٢) *: «لَأَنَّ فِيهَا ذِكْرَ الْقِيَامَةِ، وَحُطُوظَ النَّاسِ فِي الْآخِرَةِ»، وَفَهُمْ ذَلِكَ غَنَى لَا فَقْرَ مَعَهُ، وَمَنْ فُهِمَهُ شُغِلَ بِالِاسْتِعْدَادِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبٌ ۚ﴾ (١) ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ﴾ (٢) ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَسَبَّتْ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ﴾ (٣)

قوله سبحانه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ الآية، الواقعة: اسمٌ من أسماء القيامة؛ قاله ابن عباس^(٣)، وقال الضَّحَّاك^(٤): الواقعة: الصيحة، وهي النفخة في الصور، و﴿كَاذِبٌ﴾: يحتمل أن يكون مصدرًا، فالمعنى: ليس لها تكذيب ولا ردٌّ ولا مثنوية؛ وهذا قول مجاهد والحسن^(٥)، ويحتمل أن يكون صفة لمقدّر، كأنه قال: ليس لوقعتها حال كاذبة.

وقوله سبحانه: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال قتادة وغيره^(٦): يعني القيامة تخفّض أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى الجنة، وقيل: إنّ بانفطار السموات والأرض والجبال وانهدام هذه

(١) أخرجه الشجري في «أماليه» (٢٣٨/٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٢/١) باب: ثواب من قرأ سورة الواقعة (١٥١).

قال ابن الجوزي: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، وشجاع والسري لا أعرفهما.
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣٨/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٦٢٢/١١) برقم: (٣٣٢٤٥)، وذكره ابن عطية (٢٣٨/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢١٥/٦)، وعزه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (٦٢٢/١١) برقم: (٣٣٢٤٤)، وذكره ابن عطية (٢٣٨/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٦٢٢/١١) برقم: (٣٣٢٤٦) عن قتادة، وذكره ابن عطية (٢٣٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٢/٤).

(٦) أخرجه الطبري (٦٢٣/١١) برقم: (٣٣٢٥٠)، وذكره ابن عطية (٢٣٩/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢١٦/٦)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير.

البنية، ترتفع طائفة من الأجرام، وتَنْخَفِضُ أُخْرَى، فكأنها عبارة عن شِدَّةِ هول القيامة.

* ت : * والأوَّلُ أبين، وهو تفسير البخاري، ومعنى ﴿رُجَّتْ﴾: رُزِلَتْ وَحُرِّكَتْ بعنف؛ قاله ابن عباس^(١)، ومعنى ﴿يُسَّتْ﴾: فُتَّتْ كما تُبْسُ البَسِيسَةُ وهي السَّوِيْقُ؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢)، وقال بعض اللغويين: «بست» معناه: سيَّرت، والهباء: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا يكاد يُرى إلا في الشمس إذا دخلت من كُوَّةٍ؛ قاله ابن عباس وغيره^(٣)، والمُنْبَثُّ - بالثاء المثناة -: الشائع في جميع الهواء، والخطاب في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ لجميع العالم، والأزواج: الأنواع، قال قتادة^(٤): هذه منازل الناس يوم القيامة.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١١) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: ابتداء، و﴿ما﴾ ابتداء ثانٍ، و﴿أَصْحَابُ﴾ ١٢٦ ب المَيْمَنَةِ: خبر ﴿ما﴾، والجملة خبر الابتداء الأوَّل، وفي الكلام معنى التعظيم؛ كما تقول: زيد ما زيد، ونظير هذا في القرآن كثير، والميمنة أظهر ما في اشتقاقها أنها من ناحية اليمين، وقيل من اليمن، وكذلك المشأمة: إما أن تكون من اليد الشؤمي، وإما أن تكون من الشؤم، وقد فُسِّرَتِ الآيةُ بهذين المعنيين.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾: ابتداء، و﴿السَّابِقُونَ﴾ الثاني: قال سيبويه: هو خبر الأوَّل، وهذا على معنى تفخيم الأمر وتعظيمه، وقال بعض النحاة: السابقون الثاني نَعْتُ للأوَّل، ومعنى الصفة أن تقول: والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة والرحمة أولئك، وَيَنْجِيهِ هذا المعنى على الابتداء والخبر.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾: ابتداء وخبر، وهو في موضع الخبر؛ على قول مَنْ

(١) أخرجه الطبري (٦٢٣/١١) برقم: (٣٣٢٥٤)، وذكره ابن عطية (٢٣٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٦/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٦٢٤/١١) برقم: (٣٣٢٥٨)، وذكره ابن عطية (٢٣٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٦/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره ابن عطية (٢٣٩/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٦٢٦/١١) برقم: (٣٣٢٧٣)، وذكره ابن عطية (٢٤٠/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٧/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

قال: ﴿السابقون﴾ الثاني صِفَةٌ، و﴿المقربون﴾: معناه: مِنَ اللَّهِ سبحانه في جَنَّةٍ عَدَنٍ، فالسابقون معناه: الذين قد سبقت لهم السعادة، وكانت أعمالُهُمْ في الدنيا سبقاً إلى أعمال البرِّ وإلى ترك المعاصي، فهذا عمومٌ في جميع الناس، وَخَصَّصَ المفسرون في هذه أشياء تفتقر إلى سند قاطع، وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ السَّابِقِينَ؟ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبِلُوهُ، وَإِذَا سُئِلُوا بِذَلُّوهُ، وَحَكَمُوا لِلنَّاسِ بِحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ» والمقربون عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة، قال جماعة من أهل العلم: هذه الآية متضمنة أَنَّ العالم يوم القيامة على ثلاثة أصناف.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) يَكْوَابُ وَأَبَارِقُ وَكَأْسٌ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (١٩) وَفَكَهْفٌ وَمَا يَنْخَعِزُونَ (٢٠) وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ يُشَبِّهُونَ (٢١) وَخُورٌ عَيْنٍ (٢٢) كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ الْمَكُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) ﴿

١١٢٧ وقوله سبحانه: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ الثُّلَّةُ: الجماعة، قال الحسن بن أبي الحسن وغيره^(١): المراد: السابقون من الأمم والسابقون من هذه الأمة، وَرَوَى أَنَّ الصَّحَابَةَ حَزَنُوا لِقَلَّةِ سَابِقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠] فَرَضُوا، وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ^(٢) أَنَّهَا تَأَوَّلَتْ: أَنَّ الْفَرَقَتَيْنِ فِي أُمَّةٍ كُلِّ نَبِيٍّ هِيَ فِي الصَّدْرِ ثَلَاثَةٌ وَفِي آخِرِ الْأُمَّةِ قَلِيلٌ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فِيمَا رَوَى عَنْهُ: «الْفِرَقَتَانِ فِي أُمَّتِي، فَسَابِقُ أَوَّلِ الْأُمَّةِ ثُلَّةٌ، وَسَابِقُ سَائِرِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَلِيلٌ» قَالَ السَّهْلِيُّ: وَأَمَّا آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا، فَرَجُلٌ اسْمُهُ جُهَيْنَةُ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: تَعَالَوْا نَسْأَلْهُ فَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ، فَيَسْأَلُونَهُ: هَلْ بَقِيَ فِي النَّارِ أَحَدٌ بَعْدَكَ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَهَذَا حَدِيثٌ ذَكَرَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ طَرِيقِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، يَرْفَعُهُ بِإِسْنَادٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ رِوَاةِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣) -، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة بتركيب بعض أجزائها على

(١) أخرجه الطبري (٦٢٦/١١) برقم: (٣٣٢٧٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٧/٦)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٤١/٥).

(٣) قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» (٥١١) (١٢٨): قال في «الذيل»: هذا حديث باطل.

بعض، كحلق الذرع، ومنه وَضِئُ الناقة وهو جزأُها؛ قال ابن عباس^(١): ﴿موضونة﴾: مرمولة بالذهب، وَقَالَ عِكْرَمَةُ^(٢): مُسَبَّكَةٌ بِالذَّرِّ وَالْيَاقوت ﴿يطوف عليهم﴾: للخدمة ﴿ولدان﴾: وهم صغار الخدمة، ووصفهم سبحانه بالخلد، وإن كان جميع ما في الجنة كذلك، إشارة إلى أنهم في حال الولدان مُخَلَّدُونَ، لا تكبر لهم سنٌ، أي: لا يحولون من حالة إلى حالة؛ وقاله ابن كيسان، وقال القراء: ﴿مخلدون﴾ معناه: مقرطون بالخلدات وهي ضرب من الأقراط والأول أصوب، / لأنَّ العرب تقول للذي كَبُرَ ولم يَشِبْ: إِنَّهُ لَمْخَلَّدٌ، والأكواب: ما كان من أواني الشرب لا أَذُنْ له ولا خُرْطُومٌ، قال قتادة^(٣): ليست لها عُرَى، والإبريق: ماله خرطوم، والكأس: الآنية المُعَدَّة للشرب بشرطة أن يكون فيها خمر، ولا يقال لآنية فيها ماء أو لبن كأس.

وقوله: ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ قال ابن عباس^(٤): معناه من خمر سائلة جارية معينة.

وقوله: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أنَّ المعنى: لا يلحق رؤوسهم الصداغ الذي يَلْحَقُ من خمر الدنيا، وقال قوم: معناه: لا يفرقون عنها بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب، كما يفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق، ﴿ولا يُنْزِفُونَ﴾ معناه: لا تذهب عقولهم سكرًا؛ قاله مجاهد وغيره^(٥)، والنزيف: السكران، وباقي الآية بيّن، وَخَصَّ المكنون باللؤلؤ؛ لأنه أصفى لونا وأبعد عن الغير، وسألت أُمَّ سَلَمَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذَا التَّشْبِيهِ، فَقَالَ: «صَفَاؤُهُنَّ كَصَفَاءِ الذَّرِّ فِي الْأَصْدَافِ الَّذِي لَا تَمْسُهُ الْأَيْدِي»^(٦) و﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّ هذه الرتب والنعيم هي لهم بحسب أعمالهم؛ لأنَّه رُوي أنَّ المنازل والقسم في الجنة هي مقسمة على قَدْرِ الأعمال، ونَفْسُ

(١) أخرجه الطبري (٦٢٨/١١) برقم: (٣٣٢٨١)، وذكره ابن عطية (٢٤١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٩/٦)، وعزاه لسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٢) أخرجه الطبري (٦٢٨/١١) برقم: (٣٣٢٨٥)، وذكره ابن عطية (٢٤١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٦/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٦٣٠/١١) برقم: (٣٣٣٠٣)، وذكره ابن عطية (٢٤٢/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٦٣٠/١١) برقم: (٣٣٣٠٥)، وذكره ابن عطية (٢٤٢/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٦٣٠/١١) برقم: (٣٣٣١٦)، وذكره ابن عطية (٢٤٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٨٦/٤).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٣/١١) برقم: (٣٣٣٣٠)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٢٢) في حديث طويل.

قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبي حاتم وابن عدي.

دخول الجنة هو برحمة الله وفضله، لا بعمل عامل؛ كما جاء في الصحيح^(١).

﴿إِلَّا قِيلَا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُورٍ مَّرْجُوعٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَعَلَلْنَهُنَّ أَكْبَارًا (٣٦) عُرِيًّا أَزْوَاجًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ﴿

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلَا سَلَامًا سَلَامًا﴾ قال أبو حيان^(٢): «إِلَّا قِيلَا سَلَامًا سَلَامًا» الظاهر أَنَّ الاستثناء مُنْقَطِعٌ؛ لَأَنَّهُ لَا يَنْدَرُجُ فِي اللَّغْوِ وَالتَّائِيهِ، وَقِيلَ مُتَّصِلٌ، وَهُوَ بَعِيدٌ، انْتَهَى، قَالَ الزَّجَّاجُ^(٣): وَ«سَلَامًا» مُصَدَّرٌ، كَأَنَّهُ يَذْكُرُ أَنَّهُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلَامًا سَلَامًا.

١١٢٨ * ت * قال الثعالبي: وَالسُّدْرُ: شَجَرُ النَّبِيِّ وَ«مَخْضُودٌ»/ أَي: مَقْطُوعُ الشَّوْكِ، قَالَ ع^(٤) * * * وَلَأَهْلُ تَحْرِيرِ النَّظَرِ هُنَا إِشَارَةٌ فِي أَنَّ هَذَا الْخُضْدَ بِإِزَاءِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي سَلِمُوا مِنْهَا؛ إِذْ أَهْلُ الْيَمِينِ تَوَابُوا لَهُمْ سَلَامٌ، وَلَيْسُوا بِسَاقِيْنَ، قَالَ الْفَخْرُ: وَقَدْ بَانَ لِي بِالْدَّلِيلِ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ: النَّاجُونَ الَّذِينَ أَذْنَبُوا وَأَسْرَفُوا، وَعَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِسَبَبِ أَدْنَى حَسَنَةٍ؛ لَا الَّذِينَ غَلَبَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَكَثُرَتْ، انْتَهَى.

وَالطَّلْحُ (مِنَ الْعِضَاءِ) شَجَرٌ عَظِيمٌ، كَثِيرُ الشَّوْكِ، وَصِفُهُ فِي الْجَنَّةِ عَلَى صِفَةِ مَبَايِنَةِ لِحَالِ الدُّنْيَا، وَ«مَنْضُودٌ» مَعْنَاهُ: مُرَكَّبٌ ثَمَرُهُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مِنْ أَرْضِهِ إِلَى أَعْلَاهُ، وَقَرَأَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَغَيْرُهُ: «وَطَلْعٌ»^(٥) فَقِيلَ لِعَلِيٍّ: إِنَّمَا هُوَ: «وَطَلْحٌ» فَقَالَ: مَا لِلطَّلْحِ وَالْجَنَّةِ؟! قِيلَ لَهُ: أَنْضِلْهَا فِي الْمَصْحَفِ؟ فَقَالَ: إِنَّ الْمَصْحَفَ الْيَوْمَ لَا يُهَاجُ وَلَا يُغَيَّرُ.

(١) رَوَى فِي هَذَا الْمَعْنَى أَنَسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ (٢١٧٠/٤)، كِتَابُ «صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ» بَابُ: لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ، بَلْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى (٧١)، (٢٨١٦-٢٨١٧/٧٦)، وَ (٧٧- ٢٨١٨/٧٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَائِشَةَ، وَجَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٥٦/٢)، (٣٣٦، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٠، ٤٦٩، ٤٧٣، ٥٠٩، ٥١٩، ٥٢٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (٣٩٤/٣) عَنْ جَابِرٍ، (٥٢/٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٢٠٦/٨).

(٣) يَنْظُرُ: «مَعَانِي الْقُرْآنِ» (١١٢/٥).

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٢٤٣/٥).

(٥) يَنْظُرُ: «مَخْتَصَرُ الشَّوَاذِ» ص: (١٥١)، وَ«الْكَشَافُ» (٤٦١/٤)، وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٢٤٤/٥)، وَزَادَ نَسَبَتَهَا إِلَى جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ.

وَيَنْظُرُ: «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٢٠٦/٨)، وَ«الدَّرُ الْمَصُونُ» (٢٥٩/٦)، وَزَادَ نَسَبَتَهَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

وقال علي أيضاً وابن عباس^(١): الطلح الموز، والظل الممدود: معناه: الذي لا تنسخه شمس، وتفسير ذلك في قوله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاَكِبُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَقْطَعُهَا»^(٢)، وَاقْرَؤُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: «وُظِلَّ مَمْدُودٌ»، إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى.

* ت *: وفي «صحيح البخاري ومسلم» عن النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاَكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ»^(٣) انتهى.

﴿وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ﴾ أي: جارٍ في غير أخذود.

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا مقطوعة بالأزمان كحال فاكهة الدنيا، ولا ممنوعة بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا، والفرش: الأسرّة؛ وعن أبي سعيد الخدري^(٤): «إِنَّ فِي ارْتِفَاعِ السَّرِيرِ مِنْهَا مَسِيرَةَ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ».

* ت *: وهذا إن ثبت فلا بُدَّ فيه، إذ أحوال الآخرة كلها خَزَقُ عادة، وقال ١٢٨ ب أبو عبيدة وغيره: أراد بالفرش النساء^(٥)، و﴿مرفوعة﴾ معناه: في الأقدار والمنازل، و﴿أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ معناه: خلقناهن شيئاً بعد شيء؛ وقال النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: «هُنَّ

(١) أخرجه الطبري (١١/٦٣٦) عن ابن عباس برقم: (٣٣٣٥٠)، وعن علي رضي الله عنه برقم: (٣٣٣٥٥)، وذكره ابن عطية (٥/٢٤٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٨٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٢٢)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري (١١/٤٢٤) كتاب «الرقاق» باب: «صفة الجنة والنار» (٣/٦٥٥)، ومسلم (٤/٢١٧٦)، كتاب «الجنة» وصفة نعيمها وأهلها» باب: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» (٢٨٢٨) عن أبي سعيد الخدري.

(٣) وهَمَّ المؤلف فجعل الحديثين حديثاً واحداً، فالطرف الأول: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ... لَا يَقْطَعُهَا» في «الصحيحين» كما قال. وانظر السابق.

أما الطرف الثاني: فقد أخرجه البخاري (٦/١٧)، كتاب «الجهاد والسير» باب: «الغدوة والروحة في سبيل الله وقاب قوس أحدكم في الجنة» (٢٧٩٣)، (٦/٣٦٨)، كتاب «بدء الخلق» باب: «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٢٣٥٣)، وأحمد (٢/٤٨٢) عن أبي هريرة، والترمذي (٤/١٨١)، كتاب «فضائل الجهاد» باب: «ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله» (١٦٥١)، وأحمد (٣/١٤١)، (١٥٣)، (١٥٧)، (٢٠٧)، (٢٦٣)، (٢٦٤) عن أنس رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ذكره ابن عطية (٥/٢٤٤).

عَجَائِزُ كُنَّ فِي الدُّنْيَا عُمْشاً رُمْصاً جَعَلَهُنَّ اللَّهُ بَعْدَ الْكَبِيرِ أَثْرَاباً^(١)، وَقَالَ لِلْعُجُوزِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا الْعُجُوزُ، فَحَزِنْتَ، فَقَالَ: إِنَّكَ إِذَا [دَخَلْتَ الْجَنَّةَ أُنْشِئْتَ خَلْقًا آخَرَ]^(٢)».

وقوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ قيل: معناه: دائمة البكارة، متى عاود الوطء^(٣) وجدها بكراً، والعُربُ: جمع عُرُوبٍ، وهي الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى زوجها بإظهار محبته؛ قاله ابن عباس^(٤)، وعبر عنهنَّ ابن عباس أيضاً بالعواشق^(٥)، وقال زيد: العروب: الحسنه الكلام^(٦).

* ت * قال البخاري: والعروب يسميها أَهْلُ مَكَّةَ الْعَرَبِيَّةِ، وأهل المدينة: الْعَنَجَةِ، وأهل العراق: الشَّكَلَةَ، انتهى.

وقوله: ﴿أَثْرَاباً﴾ معناه: في الشكل والقَدِّ، قال قتادة^(٧): ﴿أَثْرَاباً﴾ يعني: سناً واحدة، وَيُزَوَّى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ هُمْ عَلَى قَدِّ ابْنِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ عَاماً فِي الشَّبَابِ، وَالتُّصْرَةِ، وقيل: على مثال أبناء ثلاث وثلاثين سنة، مُزْدَاً بِيضاً، مُكْحَلِينَ، زاد الثعلبي: على خَلْقِ آدَمَ، طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعاً فِي سَبْعَةِ أَذْرَعٍ.

(١) أخرجه الترمذي (٤٠٢/٥)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة، وي زيد بن أبان الرقاشي يضعفان الحديث، ومن طريق عائشة رضي الله عنها: أخرجه الطبري (١١/٦٤١) (٣٣٠٤٢) نحوه.

(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (١٩٧، ١٩٩) (٢٤١)، والغزالي في «الإحياء» (١٢٩/٣). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٤/٦)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث» عن الحسن.

وفي الباب عن عائشة، ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٢٢/١٠)، كتاب «صفة الجنة» باب: فيمن يدخل الجنة من عجايز الدنيا.

قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه مسعد بن اليسع وهو ضعيف.

(٣) سقط في: د.

(٤) أخرجه الطبري (١١/٦٤٢) برقم: (٣٣٤٠٦)، وذكره البغوي (٢٨٤/٤)، وابن عطية (٥/٢٤٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٥/٦)، وعزاه لابن جرير.

(٥) أخرجه الطبري (١١/٦٤١) برقم: (٣٣٤٠٥)، وذكره ابن عطية (٥/٢٤٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٥/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي.

(٦) أخرجه الطبري (١١/٦٤٢) برقم: (٣٣٤١٥)، وذكره البغوي (٤/٢٨٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٩٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٦/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري (١١/٦٤٤)، برقم: (٣٣٤٣٥)، وذكره ابن عطية (٥/٢٤٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٥/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ ﴿٤٦﴾ فِي سَمُومٍ
وَجِيمٍ ﴿٤٧﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْتُمُونَ ﴿٤٨﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٤٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٥٠﴾ وَكَانُوا
يُصْرَفُونَ عَلَى الْيَنْبِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا
الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن
وغيره: الأولون سالف الأمم، منهم جماعة عظيمة أصحاب يمين، والآخرُونَ: هذه الأمة،
منهم جماعة عظيمة أهل يمين^(١)، قال * ع^(٢) *: بل جميعهم إلا مَنْ كان مِنَ السابقين،
وقال قوم من المتأولين: هاتان الفرقتان في أمة محمد، وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أَنَّهُ
قال: «الثَّلَثَانِ مِنْ أُمَّتِي»^(٣)، وروى ابن المبارك في «رقائقه» عن الثَّيْبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «إِنَّ
أُمَّتِي ثَلَاثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ عَشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، وَإِنَّ أُمَّتِي مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ
صَفًّا»^(٤) انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِ...﴾ الآية: في الكلام معنى الإنحاء عليهم
/ وتعظيم مصائبهم، والسَّمُومُ: أشد ما يكون من الحرِّ اليابس الذي لا بَلَلَ معه،
والحميم: السخن جدًا من الماء الذي في جهنم، واليَحْمُومُ: هو الدخان الأسود يُظَلُّ
أهل النار؛ قاله ابن عباس^(٥) والجمهور، وقيل: هو سرادق النار المحيط بأهلها؛ فَإِنَّهُ
يرتفع من كل ناحية حتى يُظَلُّهُمْ، وقيل: هو جبل في النار أسود.

وقوله: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ معناه: ليس له صفة مدح، قال الثعلبي: وعن ابن المُسَيَّبِ
﴿ولا كريم﴾ أي: ولا حسن^(٦) نظيره من كل زوج كريم، وقال قتادة: ﴿لا بارد﴾: النزول
﴿ولا كريم﴾: المنظر^(٧)، وهو الظل الذي لا يغني من اللمب، انتهى، والمُتْرَفُ: الْمُتَعَمُّ

(١) أخرجه الطبري (١١/٦٤٤)، برقم: (٣٣٤٣٨)، وذكره ابن عطية (٥/٢٤٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٤٥).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٢٧) موقوفاً على ابن عباس، وعزاه إلى عبد الرزاق،
وابن المنذر، وابن مردويه.

(٤) أخرجه نعيم بن حماد في زياداته على كتاب «الزهد» (١١٣) (٣٧٩).

(٥) أخرجه الطبري (١١/٦٤٦)، برقم: (٣٣٤٥٠)، وذكره ابن عطية (٥/٢٤٦)، وابن كثير في «تفسيره»

(٤/٢٩٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٢٨)، وعزاه للفرياحي، وسعيد بن منصور، وعبد بن

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه.

(٦) ذكره البغوي (٤/٢٨٦).

(٧) أخرجه الطبري (١١/٦٤٨) برقم: (٣٣٤٦٤)، وذكره البغوي (٤/٢٨٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/

٢٩٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٢٨)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر.

في سَرَفٍ، وتخوض، و﴿يَصْرُونَ﴾ معناه: يعتقدون اعتقاداً لا ينزعون عنه، و﴿الْحِنْثُ﴾: الإثم، وقال الثعلبي: ﴿وكانوا يصرون﴾: يقيمون ﴿على الحنث العظيم﴾ أي: الذنب، انتهى، ونحوه للبخاري، وهو حسنٌ نحو ما في الرسالة، قال قتادة وغيره^(١): والمراد بهذا الإثم العظيم: الشرك، وباقي الآية في استبعادهم للبعث، وقد تقدم بيانه.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَاطَا الضَّالُّونَ الْمَكِيدُونَ ٥١﴾ لَّاكُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ٥٢﴾ قَالُونَ مَنَّا الْبُطُونَ ٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمِيمِ ٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرَبَ أَلِيمٍ ٥٥﴾ هَذَا تَزَلُّمٌ يَوْمَ الدِّينِ ٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَاطَا الضَّالُّونَ﴾: مخاطبة لِكُفَّار قريش وَمَن كَانَ فِي حالهم، و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن زُقُومٍ﴾ لبيان الجنس، والضمير في ﴿منها﴾ عائد على الشجر، والضمير في ﴿عليه﴾ عائد على المأكول، و﴿الهِيم﴾ قال ابن عباس وغيره^(٢): جمع «أهيم» وهو الجمل الذي أصابه الهَيَامُ - بضم الهاء - وهو داء مُغَطِّش يشرب الجمل حتى يموت أو يسقم سَقَمًا شديدًا، وقال قوم هو: جمع «هائم» وهو أيضاً من هذا المعنى؛ ب ١٢٩ لَأَنَّ الْجَمَلَ إِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ الدَّاءُ، هَامَ عَلَى / وجهه وذهب، وقال ابن عباس أيضاً وسفيان الثوري^(٣): ﴿الهِيم﴾: الرمال التي لا تُرَوَى من الماء، والتَّزُلُّ أول ما يأكل الضيف، و﴿الدِّين﴾: الجزء.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ٥٨﴾ مَا أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦٠﴾ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَسْلَاحَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ٦٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ الآية: وليس يوجد مفطور، يخفى عليه أَنَّ الْمَنِيَّ الذي يخرج منه ليس له فيه عمل ولا إرادة ولا قدرة، وقرأ الجمهور: «قَدَرْنَا» وقرأ ابن كثير وحده^(٤): «قَدَرْنَا» بتخفيف الدال، فيحتمل أَنْ يَكُونَ المعنى فيهما: قضينا وأثبتنا، ويحتمل

(١) أخرجه الطبري (٦٤٨/١١) برقم: (٣٣٤٧٤)، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٥/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٦٥٠/١١) برقم: (٣٣٤٧٧)، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٨/٦)، وعزاه للطستي.

(٣) أخرجه الطبري (٦٥١/١١) برقم: (٣٣٤٨٥)، عن سفيان، وذكره ابن عطية (٢٤٧/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٩/٦)، وعزاه لسفيان بن عيينة في جماعة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: «السبعة» (٦٢٣)، و«الحجة» (٢٦١/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٤٧/٢)، و«حجة القراءات»

أن يكون بمعنى: سَوَّيْنَا، قال الثعلبي عن الضحاك^(١): أي: سَوَّيْنَا بين أهل السماء وأهل الأرض.

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: على تبدلكم إن أردناه، وَأَنْ تُنْشِئَكُمْ بأوصاف لا يصلها علمكم، ولا يحيط بها فكركم، قال الحسن^(٢): من كونهم قردة وخنازير؛ لأن الآية تنحو إلى الوعيد، و﴿النشأة الأولى﴾: قال أكثر المفسرين: إشارة إلى خلق آدم، وقيل: المراد: نشأة الإنسان في طفولته، وهذه الآية نص في استعمال القياس والحض عليه، وعبارة الثعلبي: ويقال: ﴿النشأة الأولى﴾ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ولم يكونوا شيئاً ﴿فلولا﴾ أي: فهلا تذكرون أنني قادر على إعادتكم كما قَدَرْتُ على إيدائكم، وفيه دليل على صحة القياس؛ لأنه عَلَّمَهُمْ سبحانه الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، انتهى.

﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَتَعْلَمُ لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي: زرعاً يتم ﴿أم نحن﴾: وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَقُلْ: زَرَعْتُ، وَلَكِنْ قُلْ حَرَنْتُ، ثُمَّ تَلَا أَبُو هُرَيْرَةَ هَذِهِ الآية»^(٣) والحطام: اليباس الْمُتَفَتَّتُ من النبات الصائر إلى ذهاب، وبه شبه حطام الدنيا / و﴿تَفَكَّهُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره^(٤): معناه تعجبون، أي: مِمَّا نزل بكم، وقال ابن

(٦٩٦)، و«العنوان» (١٨٥)، و«شرح الطيبة» (٣٧/٦)، و«شرح شعلة» (٥٩٦)، و«إتحاف» (٥١٦/٢)، و«معاني القراءات» (٥١/٣).

(١) ذكره البغوي (٢٨٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٥/٤).

(٢) ذكره البغوي (٢٨٧/٤)، وابن عطية (٢٤٨/٥).

(٣) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (٤١١) (٧١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢١١ - ٢١٢) (٥٢١٧)، وابن جرير الطبري في «تفسيره» (٦٥٢/١١)، برقم: (٦٥٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٦)، وزاد نسبه إلى البزار، وأبي نعيم.

(٤) أخرجه الطبري (٦٥٣/١١)، برقم: (٣٣٤٩٣)، وذكره ابن عطية (٢٤٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٦)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

زيد^(١): معناه: تتفجعون، قال * ع^(٢): * وهذا كله تفسير لا يَخُصُّ اللفظة، والذي يخص اللفظة هو تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وقولهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ قبله محذوف تقديره: يقولون، وقرأ عاصم الجَحْدَرِيُّ^(٣): ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ بهمزيين على الاستفهام، والمعنى يحتمل أَنْ يَكُونَ: إِنَّا لَمُغْرَمُونَ من الغرام، وهو أَشَدُّ العذاب، ويحتمل: إِنَّا لمحملون الغرم، أي: غرمتنا في النفقة، وَذَهَبَ رَزْعُنَا، وقد تَقَدَّمَ تفسيرُ المحروم، وأَنَّهُ الذي تبعد عنه مُمَكِّنَاتُ الرزق بعد قُزْبِهَا منه، وقال الثعلبي: المحروم ضد المرزوق، انتهى، و﴿المُزْنُ﴾: هو السحاب، والأجاج: أشدُّ المياه ملوحة، و﴿تُورُونَ﴾ معناه: تقتدحون من الأزند؛ تقول: أوريث النار من الزناد، والزناد: قد يكون من حجر وحديدة، ومن شجر، لا سيما في بلاد العرب، ولا سيما في الشجر الرَّخْو؛ كالمرخ والعفار والكلخ، وما أشبهه، ولعادة العرب في أزمانهم من شجر قال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ أي: التي تقدح منها ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنِشُونَ﴾ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا: يعني نار الدنيا ﴿تَذَكُّرَةً﴾ للنار الكبرى، نار جهنم؛ قاله مجاهد وغيره^(٤)، والمتاع: ما يُنْتَفَعُ به، والمُفَوِّينَ: في هذه الآية الكائنين في الأرض القَوَاءِ، وهي الفَيَافِي، ومن قال معناه: للمسافرين فهو نحو ما قلناه، وهي عبارة ابن عباس^(٥) - رضي الله عنه - تقول: أَقْوَى الرَّجُلُ: إِذَا دَخَلَ فِي الْأَرْضِ الْقَوَاءِ.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُمْ لَقَسَمُوا لَوْ قَتَلُوا عَظِيمًا (٧٦) إِنَّهُمْ لَقَرَأُوا كَرِيمًا (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ الآية: قال بعض النحاة: «لا» زائدة،

(١) ذكره ابن عطية (٢٤٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٦/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥١/٥).

(٣) وقرأ بها الأعمش، وأبو بكر.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٩/٥)، و«البحر المحيط» (٢١١/٨)، و«الدر المصون» (٢٦٤/٦)، و«حجة القراءات» (٦٩٧).

(٤) أخرجه الطبري (٦٥٦/١١)، برقم: (٣٣٥١١)، وذكره البغوي (٢٨٨/٤)، وابن عطية (٢٤٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٦)، وعزاه لهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري (٦٥٦/١١)، برقم: (٣٣٥١٤)، وذكره ابن عطية (٢٥٠/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٠/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

/ والمعنى: فأقسم، وزيادتها في بعض المواضع معروفة، وقرأ الحسن وغيره: «فَلَأُقْسِمَ» ١٣٠ ب من غير ألف، وقال بعضهم: «لا» نافية كأنه قال: فلا صِحَّةَ لما يقوله الكفار، ثم ابتداءً: أقسم بمواقع النجوم، والنجوم: هنا قال ابن عباس وغيره^(١): هي نجوم القرآن؛ وذلك أنه روي أن القرآن نزل في ليلة القدر إلى سماء الدنيا، وقيل: إلى البيت المعمور جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك على النبي ﷺ نُجُوماً مُقَطَّعَةً مدة من عشرين سنة، قال ع^(٢): * ويؤيده عود الضمير على القرآن في قوله: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» وقال كثير من المفسرين: بل النجوم هنا هي الكواكب المعروفة، ثم اختلف هؤلاء في مواقعها، فقليل: غروبها وطلوعها، وقيل: مواقعها عند انقضاها إثر العفاريث.

[وقوله: «وَأِنَّهُ لَقَسَمٌ»: تأكيد.

وقوله: «لَوْ تَعْلَمُونَ»: اعتراض.

وقوله: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»: هو الذي وقع القسم عليه.

وقوله: «فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ» الآية: المكنون: المصون؛ قال ابن عباس وغيره^(٣): أراد الكتاب الذي في السماء، قال الثعلبي: ويقال: هو اللوح المحفوظ.

وقوله: «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» يعني: الملائكة، وليس في الآية على هذا التأويل تَعَرُّضٌ لحكم مَسَّ المصحف لسائر بني آدم، وقال بعض المتأولين: أراد بالكتاب مصاحف المسلمين، ولم تكن يومئذ، فهو إخبار بغيب مضمونه النهي، فلا يَمَسُّ المصحف من بني آدم إِلَّا الظاهر من الكفر والحديث؛ وفي كتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: «لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»^(٤)، وبه أخذ مالك، وقرأ سليمان^(٥): «إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» - بكسر الهاء ..

(١) أخرجه الطبري (١١/٦٥٨)، برقم: (٣٣٥٢٨)، وذكره البغوي (٤/٢٨٩)، وذكره ابن عطية (٥/٢٥١)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٩٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٣١)، وعزاه لابن مردويه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٥١).

(٣) أخرجه الطبري (١١/٦٥٩)، برقم: (٣٣٥٣٣)، وذكره ابن عطية (٥/٢٥١)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٢٩٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٣٢)، وعزاه لآدم، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «المعرفة».

(٤) تقدم.

(٥) وقرأ بها أبان بن تغلب.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/٢٥٢)، و«البحر المحيط» (٨/٢١٤)، و«الدر المصون» (٦/٢٦٨).

﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ ۖ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٦) ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٧) وَأَنْتُمْ حِينُ تَنْظُرُونَ﴾ (٨٨)

١١٣١ وقوله تعالى: ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ﴾: / يعني القرآن المتضمن البعث، و﴿مُذْهَبُونَ﴾ معناه: يلاين بعضكم بعضاً، ويتبعه في الكفر؛ مأخوذ من الذَّهْنِ للينه واملأه، وقال ابن عباس^(١): الْمُدَاهَنَةُ: هي المهاددة فيما لا يَحِلُّ، والمُدَارَاةُ: هي المهاددة فيما يَحِلُّ، ونقل الثعلبي أَنَّ أدهن وداهن بمعنى واحد، وأصله من الذَّهْنِ، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: أجمع المفسرون على أَنَّ الآية توبيخ للقاتلين في المطر الذي ينزله الله تعالى رزقاً للعباد: هذا يتوَّع كذا، والمعنى: وتجعلون سُكْرَ رزقكم، وحكى الهيثم بن عدي أَنَّ من لغة أزد شنوءة: ما رزق فلان بمعنى ما شكر، وكان عليّ يقرأ^(٢): ﴿وَتَجْعَلُونَ سُكْرَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ وكذلك قرأ ابن عباس^(٣)، ورويت عن النبي ﷺ وقد أخبر الله سبحانه فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩، ١٠، ١١] فهذا معنى قوله: ﴿أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: بهذا الخبر، قال * ع^(٤) *: والمنهي عنه هو أَنَّ يعتقد أَنَّ للنجوم تأثيراً في المطر.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ يعني: بلغت نفس الإنسان، والحُلُقُومُ: مجرى الطعام، وهذه الحال هي نزع المرء للموت.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ إشارة إلى جميع البشر حينئذ، أي: وقت النزع ﴿تَنْظُرُونَ﴾: إليه، وقال الثعلبي: ﴿وَأَنْتُمْ حِينُ تَنْظُرُونَ﴾ إلى أمري وسلطاني، يعني: تصرفه سبحانه في الميت، انتهى، والأوَّلُ عندي أحسن، وعزاه الثعلبي لابن عباس.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدُّ مِنْ أَنْ تَنْظُرُوا﴾ (٨٥) ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عِزَّ مَدِينٍ﴾ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٨٧)

(١) أخرجه الطبري (١١/٦٦١)، برقم: (٣٣٥٥١)، عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٥/٢٥٢)، والسيوطي

في «الدر المنثور» (٦/٢٣٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٥٢)، و«المحتسب» (٢/٣١٠)، و«الكشاف» (٤/٤٦٩)، و«المحرر

الوجيز» (٥/٢٥٢)، و«البحر المحيط» (٨/٢١٤)، و«الدر المصون» (٦/٢٦٩).

(٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٥٣).

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي: / بالقدرة والعلم، ولا قدرة لكم على دفع شيء عنه، ١٣١ ب
وقيل: المعنى: وملائكتنا أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرونهم، وعلى التأويل الأول من
البصر بالقلب.

﴿قُلْ لَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: مملوكين أذلاء، والمدین: المملوك، هذا أصح ما
يقال في هذه اللفظة هنا، وَمَنْ عَبَّرَ عَنْهَا بِمُجَازَى أَوْ بِمُحَاسَبٍ، فذلك هنا قلق، والمملوك
مُقَلَّبٌ كيف شاء المالك، ومن هذا الملك قول الأخطل: [الطويل]

رَبِّتْ وَرَبَا فِي حَجْرِهَا أَبْنِ مَدِينَةً تَرَاهُ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكَلُ^(١)
أراد ابن أمة مملوكة، وهو عبد يخدم الكرم، وقد قيل في معنى البيت: [إنه] أراد
أكاراً حضرياً، فنسبه إلى المدينة، فمعنى الآية: فهل لا ترجعون النفس البالغة الحلقوم إن
كنتم غير مملوكين مقهورين؟.

وقوله: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ سَدَّ مَسَدَ الأجوبة، والبيانات التي تقتضيها التحضيضات.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنْتٌ يَعِيرُ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ الآية، ذكر سبحانه في هذه الآية حال
الأزواج الثلاثة المذكورين في أول السورة، وحال كُلِّ امرئٍ منهم، فَأَمَّا المرء من السابقين
المقربين، فَيَلْقَى عند موته رَوْحاً وَرِيحَاناً، وَالرَّوْحُ: الرحمة والسعة والفرح؛ ومنه: ﴿وَلَا
تَنَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] والريحان: الطيب، وهو دليل النعيم، وقال
مجاهد^(٢): الريحان: الرزق، وقال الضحَّاك^(٣): الريحان الاستراحة، قال * ع^(٤): *
الريحان ما تنبسط إليه النفوس، ونقل الثعلبي عن أبي العالية قال: لا يفارق أحد من

(١) البيت في «ديوانه» (٢٢٤).

وينظر: «البحر المحيط» (٢١٤/٨)، «المحرر الوجيز» (٢٥٣/٥)، ويترك: يفت ما اجتمع من الرمل
بقدميه، وهنا يقصد: رمل الكرم الذي زرعت فيه أم الخمرة، واصفاً مهارة صاحب هذا الكرم.

(٢) أخرجه الطبري (٦٦٦/١١)، برقم: (٣٣٥٧٩)، وذكره البغوي (٢٩١/٤)، وابن عطية (٢٥٤/٥)،
وابن كثير في «تفسيره» (٣٠٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٩/٦)، وعزه لهناد بن السري،
وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري (٦٦٥/١١) برقم (٣٣٥٧٧) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية (٢٥٤/٥)، والسيوطي في
«الدر المنثور» (٢٤٠/٦) وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٤/٥).

المقربين الدنيا حتى يُؤْتَى بغصنٍ من ريحان الجنة فَيَسْمُهُ، ثم يُقْبَضُ روحه فيه، ونحوه عن الحسن^(١)، انتهى.

فإن أردت يا أخي اللحق بالمقربين؛ والكون في زمرة السابقين، فاطرح عنك دنياك؛ وأقبل/ على ذكر مولاك، واجعل الآن الموت نصب عينيك، قال الغزالي: وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب عينيك، لا تغفل عنه ساعة، فليكن الموت على بالك يا مسكين؛ فإن السير حاث بك، وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل، وقطعت المسافة فلا يكن اهتمامك إلا بمبادرة العمل، اغتناماً لكل نفس أمهلت فيه، انتهى من «الإحياء»، قال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: ما مِنْ مَيِّت يموت، إلا عرض عليه أهل مجلسه: إن كان من أهل الذِّكْرِ فمن أهل الذِّكْرِ، وإن كان من أهل اللّهُو فمن أهل اللّهُو، انتهى^(٢).

﴿سَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْأَصْلَافِ (٩٢) فَزُلْ مِنْ جَمِيمِ (٩٣) وَنَصْلِهِ جَمِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾: عبارة تقتضي جملة مدح وصفة تخلص، وحصول عالٍ من المراتب، والمعنى: ليس في أمرهم إلا السلام والنجاة من العذاب؛ وهذا كما تقول في مدح رجل: أمّا فلان فناهيك به، فهذا يقتضي جملة غير مفصلة من مدحه، وقد اضطربت عبارات المتأولين في قوله تعالى: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ﴾ فقال قوم: المعنى: فيقال له سلام لك إنك من أصحاب اليمين، وقال الطبري^(٣): ﴿فَسَلَامٌ لَكَ﴾: أنت من أصحاب اليمين، وقيل: المعنى: فسلام لك يا محمد، أي: لا ترى فيهم إلا السلامة من العذاب.

* ت * : ومن حصلت له السلامة من العذاب فقد فاز دليله ﴿فَمَنْ رُخِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال * ع *^(٤): * : فهذه الكاف في ﴿لَكَ﴾ إمّا أن تكون للنبي ﷺ وهو الأظهر، ثم لكل مُغْتَبِرٍ فيها من أمته، وإمّا أن تكون لمن يخاطب من

(١) أخرجه الطبري (٦٦٦/١١) برقم (٣٣٥٨٢) عن أبي العالية، وعن الحسن برقم (٣٣٥٨١)، وذكره البغوي (٢٩١/٤)، وابن عطية (٢٥٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٠٠/٤) عن أبي العالية، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٠/٦)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٩)، برقم: (٩٣٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٦٧/١١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٤/٥).

أصحاب اليمين، وغير هذا - مما قيل - تَكَلَّفُ، ونقل الثعلبي/ عن الرَّجَّاج: ﴿فسلام لك﴾ ١٣٢ ب أي: إنَّك ترى فيهم ما تحب من السلامة، وقد علمت ما أعدَّ الله لهم من الجزاء بقوله: ﴿في سدر مخضود﴾ الآيات...

والمكذبون الضالُّون: هم الكفار، أصحاب الشمال والمشأمة، والنُّزُل: أول شيء يقدم للضيف، والتصلية: أن يباشر بهم النار، والجحيم معظم النار وحيث تراكمها.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ المعنى: إنَّ هذا الخبر هو نفس اليقين وحقيقته.

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ عبارة تقتضي الأمر بالإعراض عن أقوال الكفار وسائر أمور الدنيا المختصة بها، وبالإقبال على أمور الآخرة وعبادة الله تعالى، والدعاء إليه.

* ت * : وعن جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ [الْعَظِيمِ] وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(١). رواه الترمذي، والنسائي، والحاكم، وابن حبان في «صحيحهما»، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وعند النسائي: «شَجَرَةٌ» بدل «نَخْلَةٌ»، وعن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ التَّسْبِيحَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّحْمِيدَ يَنْعَظِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيُّ كَدَوِيِّ النَّخْلِ، تَذْكُرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَّا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يَذْكُرُ بِهِ»^(٢)، ورواه

(١) أخرجه الترمذي (٥١١/٥)، كتاب «الدعوات» باب: (٦٠) (٣٤٦٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦/٢٠٧)، كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ثواب من قال: سبحان الله العظيم (١٠٦٦٣/١)، والحاكم (٥٠١/١ - ٥٠٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠٩/٣)، كتاب «الرقاق» باب: الأذكار، ذكر تفضل الله جلّ وعلا بالأمر بغرس النخيل في الجنان لمن سبحه معظماً له (٨٢٦)، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن هذا الخبر تفرد به حجاج الصواف (٨٢٧).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر. ا هـ. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وتعبه الذهبي، وقال: على شرط البخاري فقط ا هـ.

وللحديث شاهد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أخرجه البزار (٣٠٧٩) - كشف. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٧/١٠)، رواه البزار وإسناده جيد.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٢٥٢/٢)، كتاب «الأدب» باب: فضل التسبيح (٣٨٠٩)، والحاكم (٥٠٠/١). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي وقال: موسى بن سالم: قال أبو حاتم: منكر الحديث.

قال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وأخو عوف اسمه عبيد الله بن عتبة.

أيضاً ابن المبارك في «وقائقه» عن كعب، وفيه أيضاً عن كعب أنه قال: «إِنَّ لِلْكَلامِ الطَّيِّبِ حَوْلَ الْعَرْشِ دَوِيًّا كَدَوِيَّ النَّحْلِ يُذَكِّرُنَ بِصَاحِبِهِنَّ» انتهى، وعن أبي هريرة «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْسًا فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا الَّذِي تَغْرِسُ؟ قُلْتُ: غِرَاسًا، قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ يَغْرِسُ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ/ شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ» روى هذين الحديثين ابن ماجه واللفظ له، والحاكم في ١١٣٣ «المستدرک»، وقال في الأول: صحيح على شرط مسلم، انتهى من «السلام»، وروى عُقْبَةُ بْنُ عامر قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال النبي ﷺ: اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ؛ فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قَالَ: اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»^(١)، فيحتمل أن يكون المعنى: سبح الله بذكر أسمائه العلاء، والاسم هنا بمعنى: الجنس، أي: بأسماء ربك، والعظيم: صفة للرب سبحانه، وقد يحتمل أن يكون الاسم هنا واحداً مقصوداً، ويكون «العظيم» صفة له، فكأنه أمره أن يسبحه باسمه الأعظم، وإن كان لم ينص عليه، ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد وأولها فيها التسبيح، وجملة من أسماء الله تعالى، وقد قال ابن عباس^(٢): اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد، فتأمل هذا، فإنه من دقيق النظر، والله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدركها.

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٢/١)، كتاب «الصلاة» باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩)، وابن ماجه (٢٨٧/١)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها» باب: التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧)، وأحمد (١٥٥/٤)، والدارمي (٢٩٩/١)، كتاب «الصلاة» باب: ما يقال في الركوع، وابن خزيمة (١/٣٠٣)، جماع أبواب الأذان والإقامة باب: الأمر بتعظيم الرب جلّ وعلا في الركوع (٦٠٠)، والبيهقي (٨٦/٢)، كتاب «الصلاة» باب: القول في الركوع، والحاكم (٢٢٥/١)، (٤٧٧/٢)، وابن حبان (٥/٢٢٥)، كتاب «الصلاة» باب: صفة الصلاة (١٨٩٩).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه على ذلك الذهبي.
في «نصب الراية» (٣٧٦/١) قال الزيلعي: قال يعني الحاكم: وقد اتفقا على الاحتجاج بروايته غير إياس بن عامر، وهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٢) ذكره ابن عطية (٢٥٥/٥).

[تفسير] سُورَةُ الْحَدِيدِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ وَيُشَبَّهُ صَدْرُهَا أَنْ يَكُونَ مَكْنًا

روي عن ابن عباس^(١): أَنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ هُوَ فِي سِتِّ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْحَدِيدِ، وَرُوِيَ أَنَّ الدُّعَاءَ بَعْدَ قِرَاءَتِهَا مُسْتَجَابٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَمْ تُلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيَى وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَمْ تُلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاللَّهُ ثَبَاطُ الْأُمُورِ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

قوله عز وجل: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: قال أكثر المفسرين: التسبيح هنا هو التنزيه المعروف في قولهم: سبحان الله، وهذا عندهم إخبار بصيغة الماضي مضمينه الدوام والاستمرار، ثم اختلفوا: هل هذا التسبيح حقيقة أو مجاز على معنى أَنَّ أثر الصنعة فيها تُثَبِّتُ الرائي على التسبيح؟ قال الزَّجَّاجُ^(٢) وغيره: والقول بالحقيقة أحسن، وهذا كله في الجمادات، وأمَّا ما يمكن التسبيح منه فقول واحد: إن تسبيحهم حقيقة.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [أي]: [الذي] ليس لوجوده بداية مُفْتَتَحَةٌ ﴿وَالْآخِرُ﴾: الدائم الذي ليس له نهاية منقضية، قال أبو بكر الْوَرَّاقُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾: بالازلية ﴿وَالْآخِرُ﴾: بالأبدية.

﴿وَالظَّاهِرُ﴾: معناه بالأدلة وَنَظَرِ الْعُقُولِ فِي صِنْعَتِهِ.

(١) ذكره ابن عطية (٢٥٦/٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (١٢١/٥).

﴿والباطن﴾: بلطفه وغوامض حكمته وباهر صفاته التي لا تصل إلى معرفتها على ما هي عليه - الأوهام، وباقي الآية تقدم تفسير نظيره.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ معناه: بقدرته وعلمه وإحاطته، وهذه آية أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها، وباقي الآية بين.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتِهِ يَتَنَزَّلُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: أمر للمؤمنين بالثبوت على الإيمان، ويُرْوَى أَنَّ هذه الآية نزلت في غزوة العُسرة، قاله الضَّحَّاك^(١)، وقال: الإشارة بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ إلى عثمان بن عفان، يريد: ومن في معناه؛ كعبد الرحمن بن عوف، وغيره.

وقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾: ترهيد وتنبية على أَنَّ الأموال إنَّما تصير إلى الإنسان من غيره، ويتركها لغيره، وليس له من ذلك إلا ما أكل فأفنى، أو تصدق فأمضى، ويروى أَنَّ رجلاً مرَّ بأعرابي له إبل فقال له: يا أعرابي، لِمَنْ هذه الإبل؟ قال: هي لله عندي، فهذا مُوَفَّقٌ مصيب إنَّ صحب قوله عمله.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ الآية: توطئة لدعائهم (رضي الله عنهم) ١١٣٤ لأنَّهم أهل هذه الرُّتَبِ الرفيعة، وإذا تقرر أَنَّ الرسول يدعوهم، وأنَّهم ممَّن أخذ الله ميثاقهم - فكيف يمتنعون من الإيمان؟

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنَّ دُئِمْتُ على إيمانكم، و﴿الظلمات﴾: الكفر، و﴿النور﴾: الإيمان، وباقي الآية وعد وتأنيس.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ أَكْثَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَأَنَّ اللَّهَ الْحَسِيُّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

[المعنى: وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله، وأنتم تموتون وتتركون أموالكم، فتاب مناب هذا القول قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفيه زيادة تذكير بالله وعبرة، وعنه يلزم القول الذي قدرناه.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ...﴾ الآية: الأشهر في هذه الآية أنها نزلت بعد الفتح، واختُلِفَ في الفتح المشار إليه؛ فقال أبو سعيد الخُدريّ والشَّعْبِيُّ^(١): هو فتح الحديبية، وقال قتادة، ومجاهد، وزيد بن أسلم^(٢): هو فتح مكة الذي أزال الهجرة، قال * ع^(٣): * وهذا هو المشهور الذي قال فيه النبي ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيَّةٌ»^(٤)، وحكم الآية باقي غابر الدهر؛ مَنْ أنفق في وقت حاجة

(١) أخرجه الطبري (١١/٦٧٤)، برقم: (٣٣٦١٠) عن أبي سعيد الخدري، وذكره البغوي (٤/٢٩٤) عن الشعبي، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٢٤٩) عن أبي سعيد الخدري، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الدلائل» من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه الطبري (١١/٦٧٣ - ٦٧٤)، برقم: (٣٣٦٠٤ - ٣٣٦٠٥) عن قتادة، وزيد بن أسلم، وذكره ابن عطية (٥/٢٥٩)، والسيوطي (٦/٢٤٨ - ٢٤٩) عن قتادة، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٥٩).

(٤) ورد ذلك من حديث ابن عباس، وعائشة، ومجاشع بن مسعود، وصفوان بن أمية، ويعلى بن أمية التيمي، وقول ابن عمر، وقول عمر، وحديث أبي سعيد الخدري.
فأما حديث ابن عباس: فأخرجه البخاري (٦/٤٥) في «الجهاد» باب: وجوب النفير (٢٨٢٥)، (٦/٢١٩) باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٧)، ومسلم (٣/١٤٨٧)، في «الإمارة» باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، وبيان معنى: لا هجرة بعد الفتح (٨٥/١٣٥٣)، وأبو داود (٢/٦)، في «الجهاد» باب: في الهجرة هل انقطعت (٢٤٨٠)، والنسائي (٧/١٤٦)، في «اليعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، والترمذي (١٥٩٠)، وأحمد (١/٢٦٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣٤٤)، وعبد الرزاق (٥/٣٠٩) (٩٧١٣)، والدارمي (٢/٢٣٩)، في «السير» باب: لا هجرة بعد الفتح، وابن حبان (٧/٤٨٤٥)، والطبراني في «الكبير» (١١/٣٠ - ٣١) (١٠٩٤٤)، وابن الجارود في «المنتقى» (١٠٣٠)، والبيهقي (٥/١٩٥)، و (٩/١٦)، وفي «دلائل النبوة» (٥/١٠٨)، والبغوي في «شرح السنة» بتحقيقنا (٤/١٧٩) (١٩٩٦)، و (٥/٥٢٠) (٢٦٣٠) من طريق منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس مرفوعاً به.

وتابعه إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن طاوس، أخرجه الطبراني (١١/١٨) (١٠٨٩٨).

وأخرجه الطبراني (١٠/٤١٣) (١٠٨٤٤)، عن شيبان عن الأعمش عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأما حديث عائشة: أخرجه البخاري (٦/٢٢٠) في «الجهاد» باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٨٠) (٧/٢٦٧).

في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٠) (٧٠/٦٢٠)، في=

السبيل، أعظم أجراً مِمَّنْ أنفق مع استغناء السبيل، و﴿الحسنى﴾: الجنة، قاله مجاهد

«المغازي» باب: (٥٣) (٤٣١٢)، ومسلم (١٤٨٨/٣) في «الإمارة» باب: المبايعات بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير... (٨٦-١٨٦)، وأبو يعلى (٤٩٥٢)، واللفظ لمسلم، ولأبي يعلى من طريق عطاء عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة؟ فقال: «لا هجرة بعد الفتح...» الحديث. وفي لفظ البخاري عن عطاء قال: زرت عائشة مع عبيد بن عمير. فسألها عن الهجرة؟ فقالت: لا هجرة لليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية. وهكذا: أخرجه البيهقي (١٧/٩).

وأما حديث مجاشع بن مسعود: أخرجه البخاري (١٣٧/٦) في «الجهاد» باب: البيعة في الحرب ألا يفروا... (٢٩٦٢-٢٩٦٣)، (٢١٩/٦)، باب: لا هجرة بعد الفتح (٣٠٧٨-٣٠٧٩)، و (٦١٩/٧)، في «المغازي» باب: (٥٣) (٤٣٠٥، ٤٣٠٨)، ومسلم (١٤٨٧/٣)، في «الإمارة» باب: المبايعات بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (٨٣-١٨٦٣/٨٤)، وأحمد (٤٦٨/٣-٤٦٩)، و (٧١/٥)، والحاكم (٣١٦/٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٥٢/٣)، والبيهقي (١٦/٩)، وفي «الدلائل» (١٠٩/٥) من طريق أبي عثمان النهدي، حدثني مجاشع قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئت بك بأخي لتباعه على الهجرة. قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقلت: على أي شيء تباعه؟ قال: «أبباعه على الإسلام، والإيمان، والجهاد»، فقلت: معبداً بعد - وكان أكبرهما - فسألته؟ فقال: صدق مجاشع.

وأما حديث صفوان بن أمية: أخرجه النسائي (١٤٥/٧) في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٤٠١/٣) عن وهيب بن خالد عن عبد الله بن طائوس عن أبيه عن صفوان بن أمية، قال: قلت: يا رسول الله إنهم يقولون: إن الجنة لا يدخلها إلا مهاجر. قال: «لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية. فإذا استغفرتهم فأنفروا».

وأخرجه أحمد (٤٠١/٣)، و (٤٦٥/٦) عن الزهري عن صفوان بن عبد الله بن صفوان عن أبيه، أن صفوان بن أمية بن خلف قيل له: هلك من لم يهاجر. قال: فقلت: لا أصل إلى أهلي حتى آتي رسول الله ﷺ، فركبت راحلتي، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، زعموا أنه هلك من لم يهاجر. قال: «كلا أبا وهب، فارجع إلى أباطح مكة».

وأما حديث يعلى بن أمية: أخرجه النسائي (١٤١/٧)، في «البيعة» باب: البيعة على الجهاد، (٧/١٤٥)، في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٣٢٣/٤-٣٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/٢٥٧) (٢٦٤-٢٦٥)، والبيهقي (١٦/٩) من طريق ابن شهاب عن عمرو بن عبد الرحمن بن أمية، أن أباه أخبره: أن يعلى قال: جئت إلى رسول الله ﷺ بأبي يوم الفتح. فقلت: يا رسول الله، بايع أبي على الهجرة. قال رسول الله ﷺ: «أبباعه على الجهاد وقد انقطعت الهجرة».

وأما حديث أبي سعيد الخدري: أخرجه أحمد (٢٢/٣)، و (١٨٧/٥)، والطبراني (٦٠١، ٩٦٧، ٢٢٠٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٠٩/٥)، عن أبي البختري الطائي يحدث عن أبي سعيد الخدري، قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَمْرُؤًا * قَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى خَتَمَهَا وَقَالَ: «الناس خير، وأنا وأصحابي خير»، وقال: «لا هجرة بعد الفتح. ولكن جهاد ونية»، فحدثت به مروان بن الحكم وكان على المدينة فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن

وقتادة^(١)، والقرض: السلف، والتضعيف من الله تعالى هو في الحسنات، وقد مر ذكر ذلك، والأجر الكريم الذي يقترون به رضى وإقبال، وهذا معنى الدعاء بـ«يا كريم» العفو، أي: إن مع عفو رضى وتنعيماً.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرُكُكُمْ أَلَيْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لَئِذَا آمَنَّا أَنْظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِالطَّنْبِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُوا مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية، العامل في «يوم» قوله: ﴿وله أجر كريم﴾ والرؤية هنا رؤية عين، والجمهور أن النور هنا هو نور حقيقة، وقد روي في هذا عن ابن عباس وغيره^(٢) آثار مضمونها: أن كل مؤمن ومظهري للإيمان، يُعطى/ يوم القيامة نوراً فيُطْفَأُ نُورُ كُلِّ مُنَافِقٍ، ويبقى نور المؤمنين، حتى ١٣٤ ب إنَّ منهم مَنْ نُورُهُ يضيء كما بين مكَّة وصنعاء؛ رفعه قتادة إلى النبي ﷺ^(٣)، ومنهم مَنْ نُورُهُ كالنخلة السحوق، ومنهم مَنْ نُورُهُ يضيء ما قَرُبَ من قدميه؛ قاله ابن مسعود^(٤)، ومنهم مَنْ يَهُمُّ بالانطفاء مرة وَبَيِّنُ مرة على قدر المنازل في الطاعة والمعصية، قال

= خديج، وزيد بن ثابت، وهما قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه من عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فسكتا، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رآيا ذلك قالوا: صدق.

أما قول ابن عمر: فأخرجه البخاري (٢٦٧/٧)، في «مناقب الأنصار» باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٨٩٩)، و (٦٢٠/٧) في «المغازي» باب: (٥٣) (٤٣٠٩، ٤٣١١)، من طريق عطاء عن ابن عمر كان يقول: لا هجرة بعد الفتح.

وفي لفظ آخر: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: إني أريد أن أهاجر إلى الشام. قال: لا هجرة، ولكن جهاد، فانطلق فاعرض نفسك، فإن وجدت شيئاً وإلا رجعت.

وأما قول عمر: أخرجه النسائي (١٤٦/٧)، في «البيعة» باب: الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأبو يعلى في «مسنده» (١٨٦) عن شعبة عن يحيى بن هانئ عن نعيم بن دجاجة قال: سمعت عمر يقول: لا هجرة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه الطبري (٦٧٥/١١)، برقم: (٣٣٦١٢)، وذكره ابن عطية (٢٦٠/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٤٨/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٦١/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٢٥١/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٢٥٠/٦)، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الحاكم موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه (٤٧٨/٢)، ومثل هذا له حكم الرفع؛ لأن ليس =

الفخر^(١): قال قتادة^(٢): ما من عبد إلا وينادي يوم القيامة: يا فلان، هذا نورك، يا فلان، لا نور لك، نعوذ بالله من ذلك! واعلم أن العلم الذي هو نور البصيرة أولى بكونه نوراً من نور البصر، وإذا كان كذلك ظهر أن معرفة الله تعالى هي النور في القيامة، فمقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا، انتهى، ونحوه للغزالي، وخصّ تعالى بين الأيدي بالذكر؛ لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور، واختلّف في قوله تعالى: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ فقال بعض المتأولين: المعنى: وعن أيمانهم، فكأنه خصّ ذكر جهة اليمين؛ تشريفاً، وناب ذلك مناب أن يقول: وفي جميع جهاتهم، وقال جمهور المفسرين: المعنى: يسعى نورهم بين أيديهم، يريد الضوء المنبسط من أصل النور، ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾: أصله، والشئ الذي هو مُتَقَدِّ فيه، فتضمن هذا القول أنهم يحملون الأنوار، وكونهم غير حاملين أكرم؛ ألا ترى أن فضيلة عباد بن بشر وأسيد بن حضير إنما كانت بنور لا يحملانه، هذا في الدنيا، فكيف بالآخرة؟! * ت * وفيما قاله * ع^(٣): * عندي نظر، وأيضاً فأحوال الآخرة لا تُقاس على أحوال الدنيا!.

وقوله تعالى: ﴿بُشْرَاكُمْ﴾ / أي: يقال لهم: بشاركم ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي دخول جنات. ١١٣٥
* ت * وقد جاءت - بحمد الله - آثار بتبشير هذه الأمة المحمدية، وخرّج ابن ماجه قال: أخبرنا جُبَارَةُ بن المغلس، قال: حدثنا عبد الأعلى، عن أبي بردة، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا جَمَعَ [اللَّهُ] الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَذِنَ لِأَمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي السُّجُودِ، فَسَجَدُوا طَوِيلًا، ثُمَّ يُقَالُ: ازْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ، فَقَدْ جَعَلْنَا عِدَّتَكُمْ فِدَاءَكُمْ مِنَ النَّارِ»^(٤)، قال ابن ماجه: وحدثنا جُبَارَةُ بن المغلس، حدثنا كثير بن سليمان: عن أنس بن مالك، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، عَذَابُهَا بِأَيْدِيهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَيُقَالُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ

مما يقال بالرأي، وابن جرير (٦٧٦/١١) (٣٣٦١٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٠/٦)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي، وقال: بل على شرط البخاري فقط.

- (١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١٩٤/٢٩) عن مجاهد.
- (٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» عن جنادة بن أمية (٣٠٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٠/٦)، وعزه لابن المنذر عن يزيد بن شجرة.
- (٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٦١/٥).
- (٤) أخرجه ابن ماجه (١٤٣٤/٢)، كتاب «الزهد» باب: صفة محمد ﷺ (٤٢٩١)، قال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد ضعيف لضعف جبارة بن المغلس.

النَّارِ^(١)، وفي «صحيح مسلم»: «دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ» انتهى من «التذكرة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قيل: ﴿يوم﴾ هو بدل من الأول، وقيل: العامل فيه «اذكر»، قال * ع^(٣): * ويظهر لي أَنَّ العاملَ فيه قوله تعالى: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ ويجيء معنى الفوز أَفْحَمَ؛ كأنه يقول: إِنَّ المؤمنين يفوزون بالرحمة يومَ يعتري المنافقين كذا وكذا، لأنَّ ظهورَ المرءِ يومَ خمولِ عَدُوِّهِ وَمُضَادَّهُ أَبْدَعُ وَأَفْحَمُ، وقول المنافقين هذه المقالة المحكية، هو عند انطفاء أنوارهم، كما ذكرنا قبل، وقولهم: «انظُرُونَا» معناه: انتظرونا، وقرأ حمزة وحده^(٤): «انظُرُونَا» - بقطع الألف وكسر الظاء - ١٣٥ ب ومعناه أَخْرُونَا؛ ومنه: ﴿فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ ومعنى قولهم أَخْرُونَا، أي: أَخْرُوا مشيكم لنا؛ حَتَّى نلتحق فنقتبسَ من نوركم، واقتبس الرجل: أخذ من نور غيره قَبَسًا، قال الفخر^(٥): الْقَبَسُ: الشعلة من النار والسراج، والمنافقون طَمِعُوا في شيء من أنوار المؤمنين، وهذا منهم جهل؛ لأنَّ تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا، وهم لم يقدموها، قال الحسن: يُعْطَى يومَ القيامة كُلُّ أحدٍ نوراً على قَدْرِ عمله، ثم يؤخذ من حجر جهنم ومِمَّا فيها من الكلابيب والحسك ويُلقَى على الطريق، ثم تمضي زمرة من المؤمنين، وَجُوهُهُمْ كالقمر ليلة البدر، ثم تمضي زمرة أخرى كأضواء كوكب في السماء، ثم على ذلك، ثم تغشاهم ظلمة تُطْفِئُ نورَ المنافقين، فهناك يقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿انظرونا نقتبسَ من نوركم﴾، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ازْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين [لهم]، [ويحتمل أن يكون من قول]^(٦) الملائكة، والقول لهم: ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾: هو على معنى

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٣٤/٢)، كتاب «الزهد» باب: صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٩٢)، وأحمد (٤٠٨/٤). قال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد ضعيف لضعف كثير وجارة، وقد أعله البخاري، قد تقدم في الحديث الذي قبله.

(٢) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٥٦٧/٢ - ٥٦٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٦١/٥).

(٤) ينظر: «السبعة» (٦٢٦)، و«الحجة» (٢٦٩/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٥٠/٢)، و«حجة القراءات» (٦٩٩)، و«العنوان» (١٨٦)، و«شرح شملة» (٥٩٨)، و«شرح لطيفة» (٣٩/٦)، و«إتحاف» (٥٢١/٢)، و«معاني القراءات» (٥٥/٣).

(٥) ينظر: «الفخر الرازي» (١٦٩/٢٩).

(٦) سقط في: د.

التوبيخ لهم، أي: إنكم لا تجدونه، ثم أعلم تعالى أنه يضرب بينهم في هذه الحال بسورٍ حاجز، فيبقى المنافقون في ظُلْمَةٍ وعذاب.

وقوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: جهة المؤمنين ﴿وظَاهِرُهُ﴾: جهة المنافقين، والظاهر هنا: البادي؛ ومنه قول الكتاب: من ظاهر مدينة كذا، وعبارة الثعلبي: ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بَسُورًا﴾: وهو حاجز بين الجنة والنار، قال أبو أمامة الباهلي^(١): فيرجعون إلى المكان الذي قُسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم، وقد ضُربَ بينهم/ بسور، قال قتادة^(٢): حائط بين الجنة والنار، له باب ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾، يعني: الجنة، ﴿وظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ يعني النار، انتهى، قال * ص *: قال أبو البقاء: الباء في ﴿بَسُورًا﴾ زائدة، وقيل: ليست بزائدة، قال أبو حيان^(٣): والضمير في ﴿بَاطِنُهُ﴾ عائذ على الباب، وهو الأظهر لأنه الأقرب، وقيل: على سور، أبو البقاء: والجملة صفة لـ «باب» أو لـ «سور»، انتهى.

﴿يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (١٤) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَفِيهَا الْمَصِيرُ﴾ (١٥)

وقوله تعالى: ﴿يَنَادُونَهُمْ﴾ معناه: ينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾: في الدنيا، فيرد المؤمنون عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾: كنتم معنا، ولكن عَرَضْتُمْ أَنْفُسَكُمْ للفتنة، وهي حُبُّ العاجل والقتال عليه، قال مجاهد^(٤): فتنتم أنفسكم بالنفاق و﴿تَرَبَّصْتُمْ﴾ معناه هنا: بإيمانكم فأبطأتم به، حَتَّىٰ مُثَم، وقال قتادة^(٥): معناه: تَرَبَّصْتُمْ بِنَا وبمحمد ﷺ الدوائر، وشككتكم، والارتياب: التشكك، والأمانى التي غرتهم هي قولهم: سَيَهْلِكُ محمد هذا العام، سَتَهْزِمُهُ قريش، ستأخذة الأحزاب... إلى غير ذلك من أمانيتهم، وطول الأمل:

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣٠٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٠/٦)، وعزاه لابن المبارك، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي أمامة الباهلي.

(٢) أخرجه الطبري (٦٧٨/١١)، برقم: (٣٣٦٢١)، وذكره ابن عطية (٢٦٢/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٢/٦) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٢٢١/٨).

(٤) أخرجه الطبري (٦٧٩/١١)، برقم: (٣٣٦٢٩)، وذكره ابن عطية (٢٦٣/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٦٧٩/١١)، برقم: (٣٣٦٣١)، وذكره ابن عطية (٢٦٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٠٩/٤).

غرار لكل أحد، وأمر الله الذي جاء هو: الفتح وظهور الإسلام، وقيل: هو موتهم على النفاق الموجب للعذاب، و﴿الغرور﴾: الشيطان بإجماع المتأولين، وينبغي لكل مؤمن أن يعتبر هذه الآية في نفسه، وتسويقه في توبته، واعلم أيها الأخ أن الدنيا غرارة للمقبلين عليها، فإن أردت الخلاص والفوز بالنجاة، فازهد فيها، وأقبل على ما يعينك من إصلاح دينك والتزود لآخرتك، وقد روى ابن المبارك في «رقائقه» عن أبي الدرداء أنه قال - يعني لأصحابه -: لئن حلفتم لي على رجل منكم/ أنه أزهكم، لأحلفن لكم أنه خيركم^(١)، ١٣٦ ب وروى ابن المبارك بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «يَبْعَثُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِهِ كَانَا عَلَى سِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، أَحَدُهُمَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ، وَالْآخَرُ مَوْسَعٌ عَلَيْهِ [فَيُقْبَلُ الْمَقْتُورُ عَلَيْهِ]^(٢) إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَنْتَهِي عَنْهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى أَبْوَابِهَا، فَيَقُولُ حَاجِبَتُهَا: إِلَيْكَ إِلَيْكَ! فَيَقُولُ: إِذْنٌ لَا أَرْجِعُ، قَالَ: وَسَيَفُهُ فِي عُنُقِهِ فَيَقُولُ: أُعْطِيتُ هَذَا السِّيفَ فِي الدُّنْيَا أَجَاهِدُ بِهِ، فَلَمْ أَزَلْ مُجَاهِدًا بِهِ حَتَّى قُبِضْتُ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ، فَيَرْمِي بِسَيْفِهِ إِلَى الْخَزَنَةِ، وَيَنْطَلِقُ، لَا يُثْنُوهُ وَلَا يَخْسِبُونَهُ عَنِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا، فَيَمْكُثُ فِيهَا ذَهْرًا، ثُمَّ يَمُرُّ بِهِ أَخُوهُ الْمَوْسَعُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا فَلَانُ، مَا حَبَسَكَ؟! فَيَقُولُ: مَا خَلَّي سَبِيلِي إِلَّا الْآنَ، وَلَقَدْ حُبِسْتُ مَا لَوْ أَنَّ ثَلَاثِمِائَةَ بَعِيرٍ أَكَلْتُ خَمْطًا، لَا يَرِدُنْ إِلَّا خِمْسًا وَرَدَّنْ عَلَى عِزْقِي لَصَدَرَنَ مِنْهُ رِيًّا^(٣)» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ...﴾ الآية: استمرار في مخاطبة المنافقين؛ قاله قتادة وغيره^(٤).

وقوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ قال المفسرون: معناه: هي أولى بكم، وهذا تفسير بالمعنى، وإنما هي استعارة؛ لأنها من حيث تضمهم وتباشرهم هي تواليهم وتكون لهم مكان المولى، وهذا نحو قول الشاعر: [الوافر]

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(٥)

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٩٣)، برقم: (٥٥٠).

(٢) سقط في: د.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٩٥)، برقم: (٥٥٦).

(٤) أخرجه الطبري (١١/٦٨٠)، برقم: (٣٣٦٣٨)، وذكره ابن عطية (٥/٢٦٣)، والسيوطي في «الدر

المشور» (٦/٢٥٣)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) عجز بيت وصدرة:

وخيل قد دلفت لها بخيل

وهو لعمر بن معد يكرب في «ديوانه» ص: (١٤٩)، و«خزانة الأدب» (٩/٢٥٢، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١، =

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦)

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: ابتداء معنى مستأنف، ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: ألم يحين؛ يقال: أنى الشيء يأتي إذا حان، وفي الآية معنى الحَضُّ والتقريع، قال ابن عباس: عُوتِبَ المؤمنون بهذه الآية^(١)، وهذه الآية كانت سبب توبة الفضيل وابن المبارك، والخشوع: الإخبات والتضامن/ وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب؛ ولذلك حَضَّ تعالى القلب بالذكر، وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لأجل ذكر الله تعالى ووحيه، أو لأجل تذكير الله إياهم وأوامره فيهم، والإشارة في قوله: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى - عليه السلام - ولذلك قال: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وإثما شبه أهل عصر نبي [بأهل عصر نبي].

وقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ قيل: معناه: أمد الحياة، وقيل: أمد انتظار القيامة، قال الفخر^(٣): وقال مقاتل بن حيان: الأمد هنا: الأمل، أي: لما طالت آمالهم، لا جَرَمَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، انتهى، وباقي الآية بيّن.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) إِنَّ الْمُصْذِفِينَ وَالْمُصْذِفَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)

- ٢٦٢، ٢٦٣)، و«شرح أبيات سيويه» (٢/٢٠٠)، و«الكتاب» (٣/٥٠)، و«نوادير أبي زيد» ص: (١٥٠)، وبلا نسبة في «أمالي ابن الحاجب» (١/٣٤٥)، و«الخصائص» (١/٣٦٨)، و«شرح المفصل» (٢/٨٠)، و«الكتاب» (٢/٣٢٣)، و«المقتضب» (٢/٢٠)، (٤/٤١٣).
- (١) ذكره البغوي (٤/٢٩٧)، وابن عطية (٥/٢٦٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٣١٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٥٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.
- (٢) أخرجه الطبراني (٧/٣٥٤)، برقم: (٧١٨٣) من طريق عمران القطان عن قتادة عن الحسن عن شداد بن أوس به.
- قال الهيثمي في «المجمع»: عمران بن داود القطان ضعفه ابن معين، والنسائي، وثقه أحمد، وابن حبان.
- (٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/٢٠٠).

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ الآية، مخاطبة لهؤلاء المؤمنين الذين نُدِبُوا إلى الخشوع، وهذا ضرب مَثَل، واستدعاء إلى الخير برفق وتقريب بليغ، أي: لا يبعد عنكم أيها التاركون للخشوع رُجُوعُكُمْ إِلَيْهِ وتلبسكم به، فَإِنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، فكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِالْقُلُوبِ، يَرْدُّهَا إِلَى الْخَشُوعِ بَعْدَ بُعْدِهَا عَنْهُ، وترجع هي إِلَيْهِ إِذَا وَقَعَتِ الْإِنَابَةُ وَالتَّكَسُّبُ مِنَ الْعَبْدِ بَعْدَ نَفُورِهَا مِنْهُ، كما يحيي الأرض بعد أن كانت ميتة، وباقي الآية بين، و﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾: يعني به المتصدقين، وباقي الآية بين.

* ت * : وقد جاءت آثار صحيحة في الحَضُّ على الصدقة، قد ذكرنا منها جملة في هذا المختصر، وأسند مالك في «الموطأ» عن النبي ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ إِحْدَاكُنَّ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ كُرَاعَ شَاةٍ مُحْرَقًا»^(١) وفي «الموطأ» عنه ﷺ/ «رُدُّوا السَّائِلَ بِ ١٣٧ وَلَوْ بِظُلْفٍ مُحْرَقٍ»^(٢) قال ابن عبد البر في «التمهيد»: ففي هذا الحديث الحَضُّ على الصدقة بكل ما أمكن من قليل الأشياء وكثيرها، وفي قول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]: أوضح الدلائل في هذا الباب، وتصدقت عائشة - رضي الله عنها - بحبتين من عنب، فنظر إليها بعض أهل بيتها فقالت: لَا تَعْجَبِينَ؛ فكم فيها من مثقال ذرة، ومن هذا الباب قوله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»^(٣) وإذا كان الله عز وجل يُزِيهِ الصدقاتِ، ويأخذ الصدقة بيمينه فَيُرِيَّهَا، كما يُرِيَّ أَحَدُنَا قُلُوبَهُ أَوْ قَصِيْلَهُ - فما بَالُ مَنْ عَرَفَ هَذَا يَعْمَلُ عَنْهُ! وما التوفيق إِلَّا بِاللَّهِ، انتهى من «التمهيد»، وروى ابن المبارك في «رقائقه» قال: أخبرنا حرملة بن عمران أَنَّهُ سَمِعَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي حَبِيبٍ يَحْدُثُ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٩/١٠)، كتاب «الأدب» باب: لا تحقرن جارة جاريتها (٦٠١٧)، ومسلم (٢/٧١٤)، كتاب «الزكاة» باب: الحث على الصدقة ولو بالقليل (١٠٣٠/٩٠)، والترمذي (٤٤١/٤)، كتاب «الولاء والهمة» باب: في حث النبي ﷺ على التهادي (٢١٣٠)، وأحمد (٢/٢٦٤)، ٤٣٢، ٤٩٣، ٥٠٦)، والبيهقي (١٧٧/٤١) كتاب «الزكاة» باب: التحريض على الصدقة وإن قلت، (١٦٩/٦)، كتاب «الهبات» باب: التحريض على الهبة والهدية صلة بين الناس.

(٢) أخرجه النسائي (٨١/٥)، كتاب «الزكاة» باب: رد السائل (٢٥٦٥)، وأحمد (٧٠/٤)، والبيهقي (٤/١٧٧)، وابن حبان (٧٢٣/٣) - الموارد (٨٢٥)، وابن خزيمة (١١١/٤) (٢٤٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٢/٣)، كتاب «الزكاة» باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة، والقليل من الصدقة (١٤١٧) (٤٠٨/١١) كتاب «الرقاق» باب: من نوقش الحساب عذب (٦٥٤٠)، (٤٨٢/١٣)، كتاب «التوحيد» باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٢)، ومسلم (٧٠٣/٢)، كتاب «الزكاة» باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة، فإنها حجاب من النار (٦٦، ٧٧، ٧٨، ٦٨/١٠١٦)، وابن حبان (٢٢٠/٢)، كتاب «البر والإحسان» باب: حسن الخلق (٤٧٣)، (٤٤٠/٢) كتاب «الرقاق» باب: الخوف والتقوى (٦٦٦)، (٤٣/٧)، كتاب «الصلاة» باب: صلاة الجمعة (٢٨٠٤)، وأحمد (٢٥٦/٤)، والنسائي (٧٥/٥)، كتاب «الزكاة» باب: القليل من الصدقة (٢٥٥٣).

ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاستئناف، فقال بعضها: معنى الآية: والشهداء بأنهم صديقون حاضرون عند ربهم، وعنى بالشهداء الأنبياء - عليهم السلام -.

* ت * : وهذا تأويل بعيد من لفظ الآية، وقال بعضها: قوله: ﴿والشهداء﴾ ابتداء يريد به الشهداء في سبيل الله، واستأنف الخبر عنهم بأنهم: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فكأنه جعلهم صنفًا مذكورًا وحده.

* ت * : وأبين هذه الأقوال الأول، وهذا الأخير، وإن صحَّ حديث البراء لم يعدل عنه، قال أبو حيان^(١): والظاهر أن ﴿الشهداء﴾ مبتدأ خبره ما بعده، انتهى.

وقوله تعالى ﴿ونورهم﴾ قال الجمهور: هو حقيقة حسبما تقدم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَقَدْ وَزَّيْنَتْ وَفَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثَرُوا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ هذه الآية وعظ، وتبيين لأمر الدنيا ووضعة منزلتها، والحياة الدنيا في هذه الآية: عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله تعالى، وما كان في الضرورات التي تقيم الأود وتعين على الطاعات - فلا مدخل له في هذه الآية، وتأمل حال الملوك بعد فقرهم، يبين لك أن جميع ترفههم لعب ولهو، والزينة: التحسين الذي هو خارج عن ذات الشيء، والتفاخر بالأموال والأنساب وغير ذلك على عادة الجاهلية، ثم ضرب الله عز وجل مثل الدنيا، فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ...﴾ الآية: وصورة هذا المثال أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك، فيشرب في النعمة، ويقوى، ويكسب المال والولد، ويغشاه الناس، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط، ويشيب، ويضعف ويسقم، وتصيبه النوائب في ماله وذريته، ويموت، ويضمحل أمره، وتصير أمواله لغيره، وتتغير رؤسومه؛ فأمره مثل مطر أصاب أرضاً، فنبت عن ذلك الغيث نباتاً معجباً أنيقاً، ثم هاج، أي: ييس، واضفر، ثم تحطم، ثم تفرق بالرياح واضمحل.

وقوله: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي: الزراع؛ فهو من كَفَرَ الْحَبَّ، أي: ستره، وقيل: يحتمل أن يعني الكفار بالله، لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا، ثم قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ... الآية: كأنه قال: والحقيقة هاهنا، وذكر العذاب أولاً؛ تَهْمُماً به من حيث الحذر في الإنسان، ينبغي أن يكون أولاً، فإذا تحرز من المخاوف مدَّ حينئذ أمله، فذكر تعالى ما يحذر قبل ما يطمع فيه، وهو المغفرة والرضوان، وعبارة الثعلبي: ﴿ثم يهيج﴾ أي: يجفُّ ﴿وفي الآخرة/ عذاب شديد﴾: لأعداء الله ﴿ومغفرة﴾: لأولائه، وقال القراء ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة﴾ أي: إمّا عذاب شديد، وإمّا مغفرة ﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾: هذا تزهيد في العمل للدنيا، وترغيب في العمل للآخرة، انتهى، وهو حسن، وعن طارق قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعَمَتِ الدَّارُ الدُّنْيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ، وَبُئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ صَدَّتهُ عَنْ آخِرَتِهِ، وَقَصَّرَتْ بِهِ عَنْ رِضَا رَبِّهِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: قَبِّحَ اللَّهُ الدُّنْيَا قَالَتِ الدُّنْيَا: قَبِّحَ اللَّهُ أَغْصَانًا لِرَبِّهِ»^(١). رواه الحاكم في «المستدرک»، انتهى من «السلاح»، ولا يشك عاقل أن خطام الدنيا مشغول عن التأهب للآخرة؛ قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «فضل العلم»: وقد زوي مرفوعاً: «لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٢) قال أبو عمر: ثم نقول: إن الزهد في الحلال، وترك الدنيا مع القدرة عليها - أفضل من الرغبة فيها في حلالها، وهذا ما لا خلاف فيه بين علماء المسلمين قديماً وحديثاً، والآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين في فضل الصبر والزهد فيها، وفضل القناعة، والرضا بالكفاف، والاقتصار على ما يكفي دون التكاثر الذي يُلْهِي وَيُطْغِي -: أكثر من أن يحيط بها كتاب، أو يشمل عليها باب، والذين زوى الله عنهم الدنيا من الصحابة، أكثر من الذين فتحها عليهم أضعافاً مضاعفة، وقد روينا عن عبد الرحمن بن عوف أنه لما حضرته الوفاة بكى بكاءً شديداً، وقال: كان مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ خيراً مِنِّي؛ تُوَفِّي وَلَمْ يَتْرُكْ مَا يُكْفِنُ فِيهِ، وَبَقِيَتْ بَعْدَهُ حَتَّى أَصَبْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَصَابَتْ مِنِّي، وَلَا أَحْسِبُنِي إِلَّا سَاخِسَ عَنْ أَصْحَابِي بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، وجعل يبكي حتى

- (١) أخرجه الحاكم (٣١٢/٤).
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي، وقال: بل منكر، وعبد الجبار لا يعرف، روى عنه يحيى بن أيوب العابد.
(٢) أخرجه الترمذي (٥٦٩/٤)، كتاب «الزهد» باب: ما جاء أن فتنه هذه الأمة في المال (٢٣٣٦)، وابن حبان (١٢٨/٨) - الموارد (٢٤٧٠)، والنسائي كما في «التحفة» (٣٠٩/٨) (١١١٢٩)، والحاكم (٣١٨/٤).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث معاوية بن صالح.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٩٨/٢)، وهذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال العقيلي: ليس له أصل من وجه يثبت. اهـ.

فاضت نفسه، وفارق الدنيا رحمة الله عليه، فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ جاهلٌ أَنَّ الاستكثار من الدنيا ليس به بأس، أو غلب عليه الجهل؛ فَظَنَّ أَنَّ ذلك أفضل من طلب الكفاف منها، وشُبِّهَ عليه بقول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] فيما عَدَّه سبحانه على نبيه ﷺ من نعمه عنده - فَإِنَّ ذلك ليس كما ظَنَّ؛ بل ذلك غنى القلب، دَلَّتْ على ذلك الآثارُ الكثيرة؛ كقوله عليه السلام: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(١) انتهى.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآية: لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة، ندب في هذه الآية إلى المسارعة إليها والمسابقة، وهذه الآية حُجَّةٌ عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات، وقد استدلل بها بعضهم على أَنَّ أَوَّلَ أوقات الصلوات أفضل؛ لِأَنَّهُ يقتضي المسارعة والمسابقة، وذكر سبحانه العَرَضَ من الجنة؛ إِذِ المعهودُ أَنَّهُ أَقَلُّ من الطول، وقد ورد في الحديث: «أَنَّ سَقْفَ الْجَنَّةِ الْعَرْشُ» وورد في الحديث: «أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ كَالدَّهْمِ فِي الْفَلَاةِ، وَأَنَّ الْكُرْسِيَّ فِي الْعَرْشِ كَالدَّهْمِ فِي الْفَلَاةِ»^(٢).

* ت * : أيها الأخ، أَمَرَكَ المولى سبحانه بالمسابقة والمسارعة؛ رحمةً منه وفضلاً، فلا تغفل عن امتثال أمره وإجابة دعوته: [الخفيف]

السَّبَاقُ السَّبَاقُ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذَرَ النَّفْسِ خَسِرَةَ/ الْمَسْبُوقِ ١٤٠

ذكر صاحب «معالم الإيمان، وروضات الرضوان» في مناقب صلحاء القيروان، قال: ومنهم أبو خالد عبد الخالق المتعبد، كان كثيرَ الخوف والحزن، وبالخوف مات؛ رأى يوماً خَيْلاً يسابق بها، فتقدمها فرسان، ثم تقدم أحدهما على الآخر، ثم جدَّ التالي حتى سَبَقَ الأول، فتخلَّلَ عبد الخالق النَّاسَ حَتَّى وصلَ إلى الفرس السابق، فجعل يُقَبِّلُهُ ويقول: بارك الله فيك، صَبَرْتَ فظفرت، ثم سقط مغشياً عليه، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية: قال ابن زيد وغيره^(١): المعنى: ما حدث من حادث، خيرٍ وشرٍّ، فهذا على معنى لفظ أصاب، لا على عُزِفِ المصيبة؛ فَإِنَّ عُزِفَهَا فِي الشَّرِّ، وقال ابن عباس^(٢) ما معناه: أَنَّهُ أَرَادَ عَرَفَ المصيبة، فقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: بالقحوط، والزلازل، وغير ذلك و﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: بالموت، والأمراض، وغير ذلك.

وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ معنا: إِلَّا والمصيبة في كتاب و﴿نُبْرَاهَا﴾ معناه: نخلقها؛ يقال: برأ الله الخلق، أي: خلقهم، والضمير عائد على المصيبة، وقيل: على الأرض، وقيل: على الأنفس؛ قاله ابن عباس وجماعة^(٣)، وذكر المهدوي جوازَ عود الضمير على جميع ما ذُكِرَ، وهي كُلُّهَا معانٍ صَحَاحٌ.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: يريد تحصيل الأشياء كلها في كتاب، وقال الثعالبي: وقيل المعنى: إِنَّ خَلَقَ ذَلِكَ وَحَفِظَ جميعه، على الله يسير، انتهى.

وقوله: ﴿لَكِنِّي لَا تَأْسُو﴾ معناه: فَعَلَّ اللَّهُ هَذَا كُلَّهُ، وأعلمكم به؛ ليكون سَبَبَ تسليتكم وقلةً اكتراثكم بأمور الدنيا، فلا تحزنوا على فائت، ولا تفرحوا الفرح المبطر بما ١٤٠ ب آتاكم/ منها، قال ابن عباس^(٤): ليس أحدٌ إِلَّا يحزنُ أو يفرحُ، ولكن مَنْ أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فليجعلها صبراً، وَمَنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ فليجعلهُ شكرًا؛ وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد وأبي هريرة، أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ، حَتَّى يَهْمَ يَهُمُّهُ - إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»^(٥)، وفي «صحيح مسلم» عن

(١) أخرجه الطبري (٦٨٦/١١)، برقم: (٣٣٦٦٢)، وذكره ابن عطية (٢٦٨/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٦٨/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٦٨٥/١١)، برقم: (٣٣٦٥٧)، وذكره ابن عطية (٢٦٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٧/٦)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٦٨٧/١١)، برقم: (٣٣٦٦٦)، وذكره ابن عطية (٢٦٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٧/٦)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٥) أخرجه البخاري (١٠٧/١٠)، كتاب «المرضى» باب: ما جاء في كفارة المريض وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَجْزِ بِهِ﴾ (٥٦٤١ - ٥٦٤٢)، ومسلم (١٩٩٢/٤، ١٩٩٣)، كتاب «البر والصلة والآداب» باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٣/٥٢)، وأحمد (٣٠٣/٢، ٣٣٥)، (٣/١٨ - ١٩، ٤٨) عن أبي هريرة، (٣٠٣/٢، ٣٣٥)، (٣/١٨ - ١٩، ٤٨) عن أبي سعيد، والبيهقي (٣/٣٧٣)، كتاب «الجنائز» باب: ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من

عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا قَوْفَهَا، إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيتَ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»^(١)، وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى التَّكْبَةِ يُنْكِبُهَا وَالشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا»^(٢)، انتهى، وقد تقدم كثير في هذا المختصر من هذا المعنى، فالله المسؤول أن ينفع به كُلُّ مَنْ حَصَلَهُ أو نظر فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: يدل على أَنَّ الفَرَحَ المنهَى عنه إِنَّمَا هو ما أَدَّى إلى الاختيال والفخر، وَأَمَّا الفَرَحُ بنعم الله المقترن بالشكر والتواضع، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ دَفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَا حَرَجَ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْذُرُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى عَادِهِمْ رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا يَعْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ (٢٧)

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ قال بعضهم: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الذين يبخلون، وقال بعضهم: هو في موضع نصب؛ صِفَةً لـ ﴿كُلِّ﴾، وَإِنْ كَانَ نَكْرَةً فَهُوَ يُخَصَّصُ نوعاً ما؛ فيسوغ لذلك وصفه بالمعرفة، وهذا مذهب الأخفش، و﴿الكتاب﴾ هنا: اسم جنس لجميع الكتب الْمُتَنَزَّلَةِ، ﴿والميزان﴾: العدل/ في تأويل الأكثرين.

١٤٤١

= الصبر على الأمراض والأوجاع والأحزان، لما فيها من الكفارات والدرجات، عنهما جميعاً، وابن الشجري في «أمالیه» (٢٧٩/٢) عن أبي سعيد، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٤٥) (٤٨٨).

(١) أخرجه البخاري (١٠٧/١٠) كتاب «المرضى» باب: ما جاء في كفارة المريض، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (٥٦٤٠)، ومسلم (١٩٩٢/٤) (١٩٩٣)، كتاب «البر والصلة والآداب» باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها (٤٦)، (٢٥٧٢/٥١). والبيهقي (٣٧٣/٣)، كتاب «الجنائز» باب: ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه من الأمراض والأوجاع، والأحزان لما فيها من الكفارات، والدرجات، وأحمد (٢٤٧/٦)، (٢٤٨)، وابن الشجري في «الأمالیه» (٢٧٩/٢).

(٢) ينظر: السابق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ عَبَّرَ سبحانه عن خلقه الحديدَ بالإِزال؛ كما قال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر: ٦] الآية، قال جمهورٌ من المفسرين: الحديد هنا أراد به جِسْمُهُ من المعادن وغيرها، وقال خُذَّاقٌ من المفسرين: أراد به السلاح، ويترتب معنى الآية بأنَّ الله أخبر أنَّه أرسل رُسُلًا، وأنزل كتبًا، وعدلاً مشروعاً، وسلاحاً يُحَارِبُ به مَنْ عاند، ولم يقبل هدى الله؛ إذ لم يبقَ له عذر، وفي الآية - على هذا التأويل - حَصُّ على القتال في سبيل الله وترغيب فيه.

وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يقوِّي هذا التأويل.

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ معناه: بما سمع من الأوصاف الغائبة عنه فآمن بها، وباقي الآية

بين.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَيَّنَا﴾ معناه: جئنا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، أي: جيء بالثاني في قفا الأول، فيجيء الأول بين يدي الثاني، وقد تقدم بيانه.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾: الجعل في هذه الآية بمعنى الخلق.

وقوله: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾: صفة لرهبانية، وَخَصَّهَا بِأَنَّهَا ابْتَدِعَتْ؛ لِأَنَّ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ فِي الْقَلْبِ، لَا تَكْسِبُ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا، وَأَمَّا الرَّهْبَانِيَّةُ فَهِيَ أَعْمَالُ بَدَنٍ مَعَ شَيْءٍ فِي الْقَلْبِ، فَفِيهَا مَوْضِعٌ لِلتَّكْسِبِ، وَنَحْوُ هَذَا عَنْ قَتَادَةَ^(١)، وَالْمَرَادُ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ حُبٌّ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ وَتَوَادُّهُمْ، وَالْمَرَادُ بِالرَّهْبَانِيَّةِ: رَفْضُ النِّسَاءِ، وَاتِّخَاذُ الصَّوَامِ وَالِدِيَّاتِ، وَالتَّفَرُّدُ لِلْعِبَادَاتِ، وَهَذَا هُوَ ابْتِدَاعُهُمْ، وَلَمْ يَقْرُضِ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لَكِنْهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ؛ هَذَا تَأْوِيلُ جَمَاعَةٍ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(٢): / «مَا كَتَبْنَاَهَا عَلَيْهِمْ لَكِنْ ابْتَدَعُوَهَا» وَقَالَ مَجَاهِدٌ^(٣): الْمَعْنَى: كَتَبْنَاَهَا عَلَيْهِمْ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، فَالِاسْتِثْنَاءُ عَلَى هَذَا مُتَّصِلٌ، وَاخْتِلَفَ فِي الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ مِنَ الْمَرَادِ بِهِ؟ فَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ^(٤): هُوَ عَائِدٌ عَلَى الَّذِينَ ابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ، وَفِي هَذَا التَّأْوِيلِ لَزُومُ الْإِتِمَامِ لِكُلِّ مَنْ بَدَأَ بِتَطَوُّعٍ وَنَفْلِ، وَأَنَّهُ

(١) أخرجه الطبري (١١/٦٩٠)، برقم: (٣٣٦٧٣)، وذكره ابن عطية (٥/٢٧٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٢٧٠).

(٣) ذكره ابن عطية (٥/٢٧٠).

(٤) أخرجه الطبري (١١/٦٩٢)، برقم: (٣٣٦٧٨)، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وذكره ابن عطية

(٥/٢٧٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٥٩)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد،

وابن جرير، وابن مردويه، وابن نصر.

يلزمه أن يرهه حَقُّ رعيه، وقال الضُّحَّاك وغيره^(١): الضمير للأخلاف الذي جاؤوا بعد المبتدعين لها، ورؤيتنا في «كتاب الترمذي» عن كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جدّه: «أن النبي ﷺ قال لبلال بن الحارث: اغلّم، قال: ما أغلّم يا رسول الله؟ قال: اغلّم يا بلال! قال: ما أغلّم يا رسول الله؟ قال: أنه من أخيا سُنّة من سُنّتي قد أُميتت بَغدي، فإنّ له من الأجرِ مثل من عمِلَ بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن ابتَدَعَ بدعةً ضلالةً، لا يرضى الله ورَسُولُهُ بها - كان عليه مثل آثام من عمِلَ بها، لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً»^(٢). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، انتهى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ قالت فرقة: الخطاب بهذه الآية لأهل الكتاب، ويؤيده الحديث الصحيح: «ثلاثة يُؤْتون أجْرهم مرّتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بِنبيّه وآمنَ بي» الحديث^(٣)، وقال آخرون: الخطاب للمؤمنين من هذه الأمة، ومعنى «آمنوا برسوله» أي: اثبتوا على ذلك ودوموا عليه، «يؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ» أي: نصيبين بالإضافة إلى ما كان الأمم قبل يعطونه، قال أبو موسى: «كفّلين»: ضعفين بلسان الحبشة، والنور هنا: إمّا أن يكون وعداً بالنور الذي يسعى بين الأيدي يوم القيامة، وإمّا أن يكون استعارة للهدى الذي يمشى به في طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾ الآية: روي أنه لما نزل هذا الوعد المتقدم للمؤمنين، حسدهم أهل الكتاب على ذلك، وكانت اليهود تُعْظَمُ دينها وأنفسها، وتزعم أنهم أجباء الله وأهل رضوانه، فنزلت هذه الآية معلّمة أن الله فعل ذلك، وأعلم به؛ ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون، و«لا» في قوله: ﴿لَيْلًا﴾ زائدة، وقرأ ابن عباس والجحدري^(٤): «لَيَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ»، وروى إبراهيم

(١) أخرجه الطبري (٦٩٢/١١)، برقم: (٣٣٦٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره ابن عطية (٥/٢٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٥/٥)، كتاب «العلم» باب: ما جاء في الأخذ بالسنة، واجتناب البدع (٢٦٧٧). قال الترمذي: هذا حديث حسن وللحديث شواهد في الصحيح.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) قرأ بها عبد الله.

التمي عن ابن عباس: «كَيْ يَغْلَمَ» وروي عن حِطَّانَ الرُّقَاشِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ^(١): «لِأَنَّ يَغْلَمَ». وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ﴾ معناه: أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ فَضْلَ اللَّهِ، وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ قُدْرِهِمْ، وباقي الآية بَيِّنٌ.

= ينظر: «الشواذ» (١٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٧١/٥)، و«البحر المحيط» (٢٢٧/٨)، وزاد نسبتها إلى ابن مسعود، وعكرمة، وعبد الله بن سلمة، وهي في «الدر المصون» (٢٨٢/٦).
(١) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

[تفسير] سورة المجادلة

وَهِيَ مَدِينَةٌ إِلَّا أَنَّ النَّقَّاشَ حَكَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ...﴾ الآية، مَكِّي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ نُوعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ سَكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤)

قوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾ الآية: اختلف

الناس في اسم هذه المرأة على أقوال، واختصار ما رواه ابن عباس والجمهور «أَنَّ أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيَّ، أَخَا عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ خَوْلَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وَكَانَ الظَّاهِرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُوجِبُ عَنْهُمْ فُرْقَةً مُؤَبَّدَةً، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ أَوْسٌ جَاءَتْ زَوْجَتُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَوْسًا أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، فَلَمَّا كَبُرَتْ وَمَاتَ أَهْلِي، ظَاهَرَ مِنِّي! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: / مَا أَزَالُ إِلَّا حُرْمَتِ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي وَحِيدَةٌ لَيْسَ لِي أَهْلٌ سِوَاهُ، فَزَاجَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ مَقَالَتِهِ فَزَاجَعَتْهُ، فَهَذَا هُوَ جِدَالُهَا، وَكَانَتْ فِي خِلَالِ جِدَالِهَا تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو حَالِي وَأَنْفِرَادِي وَفَقْرِي إِلَيْهِ، وَرَوِي أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنَّ لِي مِنْهُ صَبِيَّةً صَغَارًا، إِنَّ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا، فَهَذَا هُوَ أَشْتِكَاؤُهَا إِلَى اللَّهِ، فَتَنَزَّلَتِ الْآيَةُ،

فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوْسٍ، وَأَمَرَهُ بِالتَّكْفِيرِ، فَكَفَّرَ بِالْإِطْعَامِ، وَأَمْسَكَ أَهْلَهُ^(١) قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٢): وَالْأَشْبَهُ فِي اسْمِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنَّهَا حَوَّلَتْ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ، امْرَأَةً أَوْسٍ بْنِ الصَّامِتِ، وَعَلَى هَذَا اعْتَمَدَ الْفَخْرُ؛ قَالَ الْفَخْرُ^(٣): هَذِهِ الْوَاقِعَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ فِي مُهِمِّهِ أَحَدٌ إِلَّا الْخَالِقُ - كَفَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ الْمَهْمَ، انْتَهَى، وَالْمَحَاوِرَةُ: مَرَاجَعَةُ الْقَوْلِ وَمِعَاطَاتُهُ، وَفِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٤): «تُحَاوِرُكَ فِي رَوْحِهَا» وَالظَّهَارُ: قَوْلُ الرَّجُلِ لَامْرَأَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي، يَرِيدُ فِي التَّحْرِيمِ؛ كَأَنَّهَا إِشَارَةٌ إِلَى الرُّكُوبِ، إِذْ عَزَفَتْ فِي ظَهْرِ الْحَيَوَانِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، فَردَّ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى فَعْلِهِمْ، وَأَخْبَرَ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ أَنَّ الْأُمَّ هِيَ الْوَالِدَةُ، وَأَمَّا الزَّوْجَةُ فَلَا يَكُونُ حُكْمُهَا حُكْمَ الْأُمِّ، وَجَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْقَوْلَ بِالظَّهَارِ مُتَكَرراً وَزُوراً، فَهُوَ مُحَرَّمٌ، لِكَيْتَهُ إِذَا وَقَعَ لَزِمَ؛ هَكَذَا قَالَ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ، لَكِنَّ تَحْرِيمَهُ تَحْرِيمُ الْمَكْرُوهَاتِ جِداً، وَقَدْ رَجَى اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَهُ بِأَنَّهُ عَفْوٌ غَفُورٌ مَعَ الْكُفَّارَةِ.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ...﴾ الآية.

١٤٣ ت * : اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى الْعَوْدِ، وَالْعَوْدُ فِي «الْمَوْطِئِ»: الْعَزْمُ عَلَى الْوُطْءِ وَالْإِمْسَاكِ مَعاً، وَفِي «الْمُدَوَّنَةِ»: الْعَزْمُ عَلَى الْوُطْءِ خَاصَّةً.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾، قَالَ الْجُمْهُورُ: وَهَذَا عَامٌّ فِي نَوْعِ الْمَسِيسِ الْوُطْءِ وَالْمُبَاشَرَةِ، فَلَا يَجُوزُ لِمُظَاهِرِ أَنْ يَطَأَ، وَلَا أَنْ يُقَبَّلَ أَوْ يَلْمَسَ بِيَدِهِ، أَوْ يَفْعَلَ شَيْئاً مِنْ هَذَا النَّوْعِ إِلَّا بَعْدَ الْكُفَّارَةِ؛ وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى التَّحْذِيرِ، أَيِ: فَعَلَ ذَلِكَ؛ عِظَةً لَكُمْ لَتَنْتَهَوْا عَنِ الظَّهَارِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾: قَالَ الْفَخْرُ^(٥): الْإِسْتَطَاعَةُ فَوْقَ الْوُسْعِ؛ وَالْوُسْعُ فَوْقَ الطَّاقَةِ، فَلَا اسْتَطَاعَةَ هِيَ أَنْ يَتِمَّكَنَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْفِعْلِ عَلَى سَبِيلِ السَّهُولَةِ، انْتَهَى،

(١) أخرجه أبو داود (٢/٢٦٥)، كتاب «الطلاق» باب: في الظهار، حديث (٢٢١٣).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٤/١٧٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/٢١٨).

(٤) ينظر: «الشواذ» ص: (١٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/٢٧٣).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/٢٢٧).

وفروع الظهار مُستَوفاة في كتب الفقه، فلا نطيل بذكرها.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: إشارة إلى الرخصة والتسهيل في النقل من التحرير إلى الصوم والإطعام، ثم شَدَّدَ سبحانه بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: فالتزموها، ثم تَوَعَّدَ الكافرين بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ وَفَدَّ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتِنَا بِنَسْتٍ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَتْلُمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ ۚ مَعَهُمْ آيُنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (٧)﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا...﴾ الآية: نزلت في قوم من المنافقين واليهود، كانوا يتربصون برسول الله ﷺ وبالمؤمنين الدوائر، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك؛ وكُبت الرجل: إذا بقي خزيًا يُبصر ما يكره، ولا يقدر على دفعه، وقال قوم منهم أبو عبيدة: أصله كبدوا، أي: أصابهم داء في أكبادهم، فأبدلت الدال تاءً، وهذا غير قوي، والذين من قبلهم: منافقو الأمم الماضية، ولفظ البخاري: ﴿كُتِبُوا﴾: أخزنوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ: العامل في ﴿يوم﴾ ١٤٣ ب قوله: ﴿مهيين﴾، ويحتمل أن يكون فعلاً مضمراً تقديره: اذكر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي: بعلمه وإحاطته وقُدْرَتِهِ، وعبارة الشعلبي ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: يعلم ويسمع نجواهم، يدل على ذلك افتتاح الآية وخاتمتها، انتهى.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُمْ عَنْهُ وَيَنْتَحُونَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ
الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ بَصُلُوهُنَّ فِتْنَى الْمَصِيدِ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَيْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ
الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّفْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ...﴾ الآية، قال ابن

عباس^(١): نزلت في اليهود والمنافقين، ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ﴾: هو قولهم: السَّامُ عليكم، يريدون الموت، ثم كشف الله تعالى خُبْتَ طَوِيَّتِهِمْ وَالْحُجَّةَ التي إليها يستروحون، وذلك أَنَّهُمْ كانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لعذبنا بهذه الأقوال التي تسيئه، وجَهِلُوا أَنَّ أمرهم مُؤَخَّرٌ إلى عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ...﴾ الآية: وصِيَّةٌ منه سبحانه للمؤمنين ألاَّ يتناجوا بمكروه، وذلك عامٌ في جميع الناس إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ أي: بالإثم ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وقرأ نافع وأهل المدينة^(٢): «لِيُخْرَنَ» - بضم الياء وكسر الزاي - والفعل مُسْنَدٌ إلى الشيطان، وقرأ أبو عمرو وغيره: «لِيُخْرَنَ» - بفتح الياء وضم الزاي -، ثم أخبر تعالى أَنَّ الشيطان أو التناجي الذي هو منه، ليس بضارٍّ أحداً إلاَّ أَنْ يَكُونَ ضَرًّا بِإِذْنِ اللَّهِ، أي: بأمره وقَدَرِهِ، ثم أمر بتوكُّلِ المؤمنين عليه تبارك وتعالى.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١) يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرُّسُولَ فَفَعِدُوا بَيْنَ يَدَيْ فَجْوَكَ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطَهَرَ فَإِنْ لَرَّ تَعَدُّوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ (١٢) ﴿

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ...» الآية، وقرأ عاصم^(٣): «في الْمَجَالِسِ» قال زيد بن أسلم وقتادة^(٤): هذه الآية نزلت بسبب تضايق الناس

(١) أخرجه الطبري (١٤/١٢) برقم: (٣٣٧٦٠) عن مجاهد، و (١٥/١٢) عن ابن عباس برقم: (٣٣٧٦٤)، وذكره ابن عطية (٢٧٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٠/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) وقرأ بقراءة أبي عمرو - الحسن، وعاصم. ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧٨/٥).

(٣) يعني: جعله عاماً في المجالس، وأما قراءة الباقيين على التوحيد، فمعناها: في مجلس رسول الله ﷺ خاصة.

ينظر: «السبعة» (٦٢٩)، و«الحجة» (٢٨٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٥٥/٢)، و«حجة القراءات» (٧٠٤)، و«العنوان» (١٨٧)، و«شرح الطيبة» (٤٦/٦)، و«شرح شعلة» (٦٠٠)، «إتحاف» (٥٢٧/٢)، و«معاني القراءات» (٦٠/٣).

(٤) أخرجه الطبري (١٨/١٢)، برقم: (٣٣٧٧٦) عن قتادة، وذكره البغوي (٣١٩/٤)، وابن عطية (٥/٢٧٨).

في مجلس النبي ﷺ؛ وذلك أَنَّهُمْ كانوا يتنافسون في القُرْبِ منه وَسَمَاعِ/ كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحقُّ والسُّنُّ والقَدَمُ في الإسلام، فلا يجد مكاناً، فنزلت بسبب ذلك، وروى أبو هريرة أَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَثْمُ أَحَدٌ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ الرَّجُلُ، وَلَكِنْ تَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ»^(١). قال جمهور العلماء: سبب نزول الآية مجلس النبي ﷺ ثم الحكم مُطَرِّدٌ في سائر المجالس التي هي للطاعات؛ ومنه قوله ﷺ: «أَحْبَبُكُمْ إِلَيَّ اللَّهُ أَلْيَنُكُمْ مَنَاقِبَ فِي الصَّلَاةِ، وَرُكْبًا فِي الْمَجَالِسِ»^(٢)، وهذا قول مالك رحمه الله، وقال: ما أرى الحكم إلا يَطْرُدُ في مجالس العلم ونحوها غَايِرَ الدهر؛ قال * ع^(٣) *: فالسنة المندوبُ إليها هي التفسُّحُ، والقيامُ مَنْهِيٌّ عنه في حديث النبي ﷺ، حيثُ نَهَى أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ؛ فَيَجْلِسَ الْآخَرُ مَكَانَهُ»^(٤).

* ت *: وقد روى أبو داودَ في «سننه» عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ قَالَ: «جَاءَنَا أَبُو بَكْرَةَ فِي شَهَادَةٍ، فَقَامَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ مَجْلِسِهِ فَأَبَى أَنْ يَجْلِسَ فِيهِ، وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ ذَلِكَ، وَنَهَى أَنْ يَمْسَحَ الرَّجُلُ يَدَهُ بِثَوْبٍ مَنْ لَمْ يَكْسُهُ»^(٥) وروى أبو داودَ عن ابن عمر قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَذَهَبَ لِيَجْلِسَ فِيهِ، فَنَهَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٦) انتهى، قال * ع^(٧) *: فَأَمَّا الْقِيَامُ إِجْلَالاً فَجَائِزٌ بِالْحَدِيثِ، وَهُوَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ أَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ: «قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدُكُمْ»^(٨). وواجب على الْمُعْظَمِ أَلَّا يُحِبَّ ذَلِكَ وَيَأْخُذَ النَّاسُ بِهِ؛ لقوله - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٩).

* ت *: وفي الاحتجاج بقضية/ سعد نظر؛ لِأَنَّهَا اخْتَفَتْ بِهَا قِرَائِنُ سَوَعَتْ ذَلِكَ؛ ١٤٤ ب

- (١) تقدم تخريجه.
- (٢) أخرجه أبو داود (٢٣٦/١)، كتاب «الصلاة» باب: تسوية الصفوف، حديث (٦٧٢).
- (٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٧٩/٥).
- (٤) تقدم تخريجه.
- (٥) تقدم.
- (٦) أخرجه أبو داود (٦٧٤/٢)، كتاب «الأدب» باب: في الرجل يقوم للرجل من مجلسه (٤٨٢٧).
- (٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٩٠/٥).
- (٨) أخرجه البخاري (٤٧٥/٧)، كتاب «المغازي» باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٤١٢١)، ومسلم (١٣٨٨/٣)، كتاب «الجهاد والسير» باب: جواز قتال من نقض العهد (١١٧٦٨/٦٤)، وأحمد (٣/٢٢، ٧١)، والبيهقي (٩٧/٩)، كتاب «السير» باب: نزول أهل الحصن أو بعضهم على حكم الإمام أو غير الإمام، إذا كان المنزول على حكمه مأموناً.
- (٩) تقدم.

انظر السير، وقد أطنب صاحب المدخل في الإنحاء والرّد على المجيزين للقيام، والسلامة عندي ترك القيام.

وقوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: في رحمته وجبته.

* ص *: ﴿يفسح﴾ مجزوم في جواب الأمر، انتهى، ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا﴾ معناه: ارتفعوا، وقوموا فافعلوا ذلك؛ ومن «رياض الصالحين» للنووي: وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا»^(١) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن، وفي رواية لأبي داود: «لَا يَجْلِسُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا» وعن حذيفة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ: «لَعَنَ مَنْ جَلَسَ وَسَطَ الْحَلْقَةِ»^(٢)، رواه أبو داود بإسناد حسن، وروى الترمذي عن أبي مجلز: أن رجلاً قعد وسط الحلقة، فقال حذيفة: «مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ»، أو لعن الله على لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ جَلَسَ وَسَطَ الْحَلْقَةِ»^(٣) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...﴾ الآية: قال جماعة: المعنى: يرفع الله المؤمنين العلماء درجات؛ فلذلك أمر بالتفسيح من أجلهم، وقال آخرون: المعنى: يرفع الله المؤمنين والعلماء الصنفين جميعاً درجات، لكنا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أخر؛ فلذلك جاء الأمر بالتفسيح عاماً للعلماء وغيرهم، وقال ابن مسعود وغيره^(٤): «يرفع الله الذين آمنوا منكم» وهنا تم الكلام، ثم ابتدأ بتخصيص العلماء بالدرجات، ونصّبهم بإضمار فعل، فللمؤمنين رفع على هذا/ التأويل، وللعلماء درجات، وعلى هذا التأويل قال مطرف بن عبد الله بن الشخير^(٥): «فَضَّلَ الْعِلْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرٌ دِينَكُمْ الْوَرَعُ»، وروى البخاري وغيره عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ مَا

(١) أخرجه أبو داود (١٧٥/٥)، كتاب «الأدب» باب: في الرجل يجلس بين الرجلين (٤٨٤٥)، والترمذي (٨٩/٥)، كتاب «الأدب» باب: ما جاء في كراهية الجلوس بين الرجلين بغير إذنهما (٢٧٥٢)، وأحمد (٢١٣/٢).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٦٧٤/٢)، كتاب «الأدب» باب: الجلوس وسط الحلقة (٤٨٢٦)، والترمذي (٩٠/٥)، كتاب «الأدب» باب: ما جاء في كراهية القعود وسط الحلقة (٢٧٥٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر الحديث السابق.

(٤) ذكره ابن عطية (٢٧٩/٥).

(٥) أخرجه الطبري (١٩/١٢)، وابن عطية (٢٧٩/٥).

بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَا لَمْ يَكُنْ لَكَ الْبَصِيرَةُ أَصَابَ الْأَرْضَ، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأُتْبِيتَ الْكَلَاءُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ؛ فَتَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَفَعَّ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزِفْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» انتهى^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجَعْتُمْ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ روي عن ابن عباس وقتادة في سببها: أَنَّ قوماً من شباب المؤمنين وأغفالهم كَثُرَتْ مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة، وكان ﷺ سَمَحاً، لَا يَرُدُّ أَحَدًا، فنزلت هذه الآية مُشَدَّدَةً عليهم^(٢)، وقال مقاتل: نزلت في الأغنياء؛ لِأَنَّهُمْ غلبوا الفقراء على مناجاة النبي ﷺ ومجالسته^(٣)، قال جماعة من الرواة: نُسِخَتْ هذه الآية قبل العمل بها، لكن استقر حُكْمُهَا بالعزم عليه، وَصَحَّ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ: مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ غَيْرِي، وَأَنَا كُنْتُ سَبَبَ الرُّخْصَةِ وَالتَّخْفِيفِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: ثُمَّ فَهِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةُ قَدْ شَقَّتْ/ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ لِي: يَا عَلِيُّ، كَمْ تَرَى أَنْ يَكُونَ حَدُّ هَذِهِ الصَّدَقَةِ؟ أَتَرَاهُ دِينَارًا؟^{١٤٥} قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَنِصْفُ دِينَارٍ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَكَمْ؟ قُلْتُ: حَبَّةٌ مِنْ شَعِيرٍ، قَالَ: إِنَّكَ لَزَهِيدٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الرُّخْصَةَ^(٤)، يريد لِلرَّاجِدِينَ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَجِدْ فَالرُّخْصَةُ لَهُ ثَابِتَةٌ؛ بقوله: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا» قال الفخر^(٥): قوله عليه السلام لعليٍّ: «إِنَّكَ لَزَهِيدٌ» معناه: إِنَّكَ قَلِيلُ الْمَالِ، فَقَدَّرْتَ عَلَى حَسْبِ حَالِكَ، انتهى.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

- (١) أخرجه البخاري (٢١١/١)، كتاب «العلم» باب: فضل من عِلِمَ وَعَلِمَ (٧٩)، ومسلم (١٧٨٧/٤)، كتاب «الفضائل» باب: بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢/١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٤٢٧/٣)، كتاب «العلم» باب: مثل من فقه في دين الله تعالى (١/٥٨٤٣).
- (٢) ذكره البغوي (٣١٠/٤)، وابن عطية (٢٧٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٢/٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
- (٣) ذكره البغوي (٣١٠/٤)، وابن عطية (٢٧٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٢/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.
- (٤) أخرجه الترمذي (٤٠٦/٥ - ٤٠٧)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة المجادلة، حديث (٣٣٠٠)، وقال: حسن غريب.
- (٥) ينظر: «الفخر الرازي» (٢٣٧/٢٩).

الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾

وقوله سبحانه: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ...﴾ الآية: الإشفاق: هنا الفزع من العجز عن الشيء المتصدق به، أو من ذهاب المال في الصدقة.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ...﴾ الآية: المعنى: دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم، ومن قال: إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة؛ فقلوه ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾: نزلت في قوم من المنافقين، تولوا قوماً من اليهود، وهم المغضوب عليهم، قال الطبري^(١): ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾: يريد به المنافقين ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: ولا من اليهود، وهذا التأويل يجري مع قوله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] كالشاة العائرة بين الغنمين، وتحتمل الآية تأويلاً آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿مَا هُمْ﴾ يريد به اليهود ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريد به المنافقين، ﴿ويحلفون﴾: يعني المنافقين، وقرأ الحسن: ﴿اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ﴾ - بكسر الهمزة^(٢) -، والجئة: ما يُتَسَرَّرُ به، ثم أخبر تعالى عن المنافقين في هذه الآية أنه ستكون لهم أيمان يوم القيامة بين يدي الله تعالى، يخيل إليهم بجهلهم أنها تنفعهم، وتُقبلُ منهم، وهذا هو حسابهم ﴿أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: على شيء نافع لهم.

﴿أَسْحَوْذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَآسَهُمْ وَكَرَّ اللَّهُ أَوْلِيَّكَ حِزْبَ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلِيَّكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَى أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ فَوْقُ عَرْشِهِ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلِيَّكَ أَوْلِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْلِيَّكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/١٢).

(٢) ينظر: «المحتسب» (٣١٥/٢)، و«البحر المحيط» (٢٣٦/٨)، و«الدر المصون» (٢٩٠/٦).

وقوله تعالى: ﴿اسْتَخَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ معناه: تَمَلَّكَهُمْ من كل جهة، / وغلب على ١١٤٦ نفوسهم، وَحَكِي أَنْ عَمِرَ قَرَأَ: «اسْتَحَاذَ»^(١)، ثم قضى تعالى على مُحَاذِهِ بِالذُّلِّ، وباقي الآية بَيِّنٌ.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية: نَفَتْ هذه الآية أَنْ يُوجَدَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، ويلتزم شُعْبَهُ على الكمال - يُوَادُّ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا، و﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾: معناه: أثبتته وخلقته بالإيجاد.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة إلى المؤمنين الذين يقتضيهـم معنى الآية؛ لِأَنَّ المعنى: لكنك تجدهم لا يوادون مَنْ حَادَّ اللَّهَ.

وقوله تعالى: ﴿بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ معناه: بهدى منه ونور وتوفيق إلهي ينقذ لهم من القرآن وكلام النبي ﷺ و«الحزب»: الفريق، وباقي الآية بَيِّنٌ.

(١) حكاها القراء في كتاب «اللغات»، كما في «المحرر الوجيز» (٢٨١/٥)، و«البحر المحيط» (٢٣٧/٨)، و«الدر المصون» (٢٩٠/٦).

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ الْحَشْرِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِاتِّفَاقٍ

وهي سورة بني النَّضِيرِ؛ وذلك أَنَّهُمْ كانوا عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ وهم يرون أَنَّهُ لا تُرَدُّ له راية، فلَمَّا كان شَأْنُ أُحُدٍ وما أَكرمَ اللهَ بهِ المسلمين، ارتابوا، وداخلوا قريشاً، وغدروا، فلما رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ من أُحُدٍ حاصِرهَم حتى أَجلاهم عن أرضهم، فارتحلوا إلى بلادٍ مختلفة: خَيْبَرَ، والشَّامَ، وغير ذلك، ثم كان أَمْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ مَرْجَعُهُ مِنَ الْأَحْزَابِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبِصَرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الآية: تقدم الكلام في تسبيح الجمادات و﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾: هم بنو النضير.

وقوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾: قال الحسن بن أبي الحسن وغيره^(١): يريد حشر القيامة، ١٤٦ ب أي: هذا أوَّلُهُ والقيامُ من القبور آخره، وقال عِكْرَمَةُ وغيره^(٢): المعنى: / لأول موضع

(١) ذكره ابن عطية (٢٨٣/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٨/١٢)، برقم: (٣٣٨١٥) عن قتادة، وذكره ابن عطية (٢٨٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٧/٦)، وعزاه للبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الحشر، وهو الشام؛ وذلك أَنَّ أكثرهم جاء إلى الشام، وقد رُوِيَ أَنَّ حشرَ القيامة هو إلى بلاد الشام.

وقوله سبحانه: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾: يريد لمنعتهم وكثرة عددهم.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كُلُّما هدم المسلمون من تحصينهم في القتال هدموا هم من البيوت؛ ليجبروا الحصن.

* ت *: والحاصل أَنَّهُم يخربون بيوتهم حساً ومعنى؛ أَمَّا حساً فواضح، وأَمَّا معنى فبسوء رأيهم وعاقبة ما أضمرُوا من خيانتهم وغدرهم، ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾: من الوطن ﴿لَعَذَّبْتُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾: بالسبي والقتل، قال البخاري: والجلَاء: الإخراج من أرض إلى أرض، انتهى.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أَوَّلِهَا فَإِذِنْ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ...﴾ الآية سببها قول اليهود: ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد؟! فَرَدَّ اللَّهُ عليهم بهذه الآية، قال ابن عباس وجماعة من اللغويين^(١): اللينة من النخل: ما لم يكن عجوة، وقيل غير هذا.

* ص *: أصل «لينة»: لونة، فقلبوا الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، وجمعه لين؛ كَتَمَرَةٍ وَتَمَرٍ، قال الأخفش: واللينة كأنها لونٌ من النخل، أي: ضرب منه، انتهى.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ...﴾ الآية، إعلام بأن ما أخذ لبني النضير ومن فُذِّك، هو خاصٌّ بالنبي ﷺ، وليس على حكم الغنيمة التي يوجف عليها ويقال فيها؛ بل على حكم خُمُسِ الغنائم؛ وذلك أَنَّ بني النضير لم يُوجَفَ عليها ولا قُوتِلَتْ كبير قتال، فأخذ منها ﷺ قُوت عياله، وقَسَمَ سائرَها في المهاجرين، وأدخل معهم أبا دُجَانَةَ وسَهْلَ بن حنيف/ من الأنصار؛ لأنَّهما شكيا فقراً، والإيجاف: سرعة السير، ١١٤٧ والوجيف دون التقريب؛ يقال: وَجَفَ الفرسُ وأوجفه الراكب.

(١) أخرجه الطبري (٣٢/١٢)، برقم: (٣٣٨٤٣)، وذكره البيهقي (٣١٦/٤)، وابن عطية (٢٨٥/٥).

وقوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى...﴾ الآية: أهل القرى في هذه الآية: هم أهل الصفراء والينبوع ووادي القرى وما هنالك من قرى العرب، وذلك أنها فُتِحَتْ في ذلك الوقت من غير إيجاف، وأعطى رسولُ الله ﷺ جميع ذلك للمهاجرين، ولم يحبس منها لنفسه شيئاً، ولم يعط الأنصار شيئاً لغناهم، والقُرْبَى في الآية: قرابته ﷺ مُنِعُوا الصدقةَ فَعُوْضُوا من الفيء.

وقوله سبحانه: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾: مخاطبة للأنصار؛ لأنه لم يكن في المهاجرين في ذلك الوقت غنيٌّ، والمعنى: كي لا يتداول ذلك المال الأغنياء بتصرفاتهم، ويبقى المساكين بلا شيء، وقد مضى القول في الغنائم في سورة الأنفال، ورُوي أن قوماً من الأنصار تكلَّمُوا في هذه القرى المُفْتَتَحَةِ، وقالوا: لنا منها سهمنا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ...﴾ الآية: فَرَضُوا بذلك، ثم اطرَدَ بعدُ معنى الآية في أوامر النبي ﷺ ونواهيهِ، حتَّى قال قوم: إِنَّ الخمرَ مُحَرَّمَةٌ في كتاب الله بهذه الآية، وانتزع منها ابن مسعود لعنة الواشمة، الحديث^(١).

* ت * وبهذا المعنى يحصل التعميم للأشياء في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩)

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾: بيان لقوله: ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وكرر لام الجر، لما كانت الجملة الأولى مجرورة باللام؛ ليبين أن البدل إنما هو منها، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم، وتوجب الشفقة عليهم، وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: يريد به الآخرة والجنة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في الأقوال والأفعال والنيات ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾: هم الأنصار - رضي الله عن جميعهم -، والضمير في ﴿من قبلهم﴾ للمهاجرين، والدار هي المدينة، والمعنى: تبوَّءوا الدار مع الإيمان، وبهذا الاقتران يتضح معنى قوله تعالى: ﴿من قبلهم﴾ فتأمل، قال * ص * : ﴿والإيمان﴾ منصوب بفعل مُقَدَّر، أي: واعتقدوا الإيمان، فهو من عطف

الجميل؛ كقوله: [من الرجز]

عَلَفْتُهَا تَبْنَاءَ وَمَاءَ بَارِدًا

انتهى، وقيل غير هذا، وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأنهم يحبون المهاجرين، وبأنهم يؤثرون على أنفسهم، وبأنهم قد وقوا شح أنفسهم.

* ت * : وروى الترمذي عن أنس قال: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ لِكَثِيرٍ وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ؛ لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤَوَّةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمِهْنَةِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا، مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ وَأَتَيْتُمُ عَلَيْنِهِمْ»^(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، انتهى، والحاجة: الحسد في هذا الموضع؛ قاله الحسن^(٢)، ثم يعم بعد وجوهاً، وقال الثعلبي: «حاجة» أي: حَزَاةٌ، وقيل: حَسَدًا «مِمَّا أُوتُوا» أي: مما أعطي المهاجرون من أموال بني النضير والقرى، انتهى.

وقوله تعالى: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»: صفة للأنصار، وجاء الحديث الصحيح من غير ما طريق، أنها نزلت/ بسبب رجل من الأنصار وصنيعه مع ضيف رسول الله ﷺ؛ إذ نَوِّمَ صبيانه، وَقَدَّمَ للضيف طعامه، وأطفأت أهلكه السراج، وأوهما الضيف أنهما يأكلان معه، وباتا طاويين؛ فلما غدا الأنصاري على رسول الله ﷺ قال له: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ فِعْلِكُمَا الْبَارِحَةَ»^(٣) ونزلت الآية في ذلك، قال صاحب «سلاح المؤمن»: الرجل الأنصاري

(١) أخرجه أبو داود (٦٧١/٢)، كتاب «الأدب» باب: في شكر المعروف (٤٨١٢)، والترمذي (٦٥٣/٤)، كتاب «صفة القيامة» باب: (٤٤) (٢٤٨٧)، والحاكم في «المستدرک» (٦٣/٢)، والبيهقي (١٨٣/٦)، كتاب «التهب» باب: شكر المعروف.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري (٤١/١٢)، برقم: (٣٣٨٧٥)، وذكره ابن عطية (٢٨٧/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٣٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٨/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٠/٨)، كتاب «التفسير» باب: «والذين تبوءوا الدار والإيمان» (٤٨٨٩)، والحاكم (١٣٠/٤)، والبيهقي (١٨٥/٤)، كتاب «الزكاة» باب: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وابن الشجري في «أمالیه» (٢٨٣/١).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. قلت: وهو وهم من الحاكم فقد أخرجه البخاري كما بينا.

الذي أضاف هو، أبو طلحة انتهى، قال الترمذي الحكيم في كتاب «ختم الأولياء» له: حدثنا أبي قال: حدثنا عبد الله بن عاصم: حدثنا الجماني: حدثنا صالح المُرِّي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ بَدَلَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ؛ إِنَّمَا دَخَلُوهَا بِسَلَامَةِ الصُّدُورِ، وَسَخَاوَةِ الْأَنْفُسِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَالرَّحْمَةِ بِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ»^(١) انتهى، والإيثار على النفس أكرم خلق، قال أبو يزيد البسطامي: قدم علينا شاب من بلخ حاجاً فقال لي: ما حدُّ الزهد عندهم؟ فقلت: إِذَا وَجَدْنَا أَكْلَنَا، وَإِذَا فَقَدْنَا صَبْرَنَا، فَقَالَ: هكذا عندنا كلاب بلخ! فقلت له: فما هو عندهم؟! فقال: إِذَا فَقَدْنَا صَبْرَنَا، وَإِذَا وَجَدْنَا آثَرَنَا، وَرَوَى أَنَّ سبب هذه الآية أَنَّ النبي ﷺ، لَمَّا فَتَحَ هَذِهِ الْفَرَى قَالَ لِلْأَنْصَارِ: «إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ لِمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ؛ وَشَارَكْتُمُوهُمْ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَمْسَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ وَتَرَكْتُمْ لَهُمْ هَذِهِ الْغَنِيمَةَ، فَقَالُوا: بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا، وَنَتْرُكُ لَهُمْ هَذِهِ الْغَنِيمَةَ، فنزلت الآية، والخصاصة: الفاقة والحاجة، وشح النفس: هو/ كثرة طمعها. وضبطها على المال، والرغبة فيه، وامتداد الأمل؛ هذا جماع شح النفس. وهو داعية كل خلق سوء، وقد قال رسول الله ﷺ: مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِيَةِ - فَقَدْ بَرِيَءَ مِنَ الشُّحِّ، وَإِلَى هَذَا الَّذِي قُلْنَاهُ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ وَالْعَارِفُونَ بِالْكَلَامِ، وَقِيلَ فِي الشُّحِّ غَيْرَ هَذَا، قَالَ * ع^(٢) * : وَشَحُّ النَّفْسِ فَقَرُّ لَا يَذْهَبُهُ غِنَى الْمَالِ، بَلْ يَزِيدُهُ، وَيَنْصِبُ بِهِ؛ وَ﴿يُوقُ﴾ مِنْ وَقَى يَقِي، وَقَالَ الْفَخْرُ: اعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الشُّحِّ وَالْبَخْلِ هُوَ أَنَّ الْبَخْلَ نَفْسُ الْمَنَعِ، وَالشُّحُّ هُوَ الْحَالَةُ النَّفْسَانِيَّةُ الَّتِي تَقْتَضِي ذَلِكَ الْمَنَعَ، وَلَمَّا كَانَ الشُّحُّ مِنْ صِفَاتِ النَّفْسِ لَا جَرَمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَوقْ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَي: الظَّافِرُونَ بِمَا أَرَادُوا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَنْ لَمْ يَأْخُذْ شَيْئاً نَهَاهُ اللَّهُ عَنْ أَخْذِهِ، وَلَمْ يَمْنَعْ شَيْئاً أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِعْطَائِهِ - فَقَدْ وَقَى شَحَّ نَفْسِهِ^(٣)، انتهى.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِئْوَ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٩/٧)، (١٠٨٩٢)، وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٢/١٨٨)، وزاد نسبه إلى الحكيم، وابن أبي الدنيا في كتاب «السخاء»، وذكره العجلوني في «كشف

الخفاء» (٢٥٩/٢) (٢٢٠٢)، شامداً.

(٢) ينظر: «المحور الوجيز» (٢٨٨/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٤٢/١٢)، برقم: (٣٣٨٨٦)، وذكره البغوي (٣٢٠/٤)، وابن عطية (٢٨٨/٥).

قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْكِلَنَّ الْأَذْبَرُ نَصْرَهُمْ لَا يُصَرُّونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَغْنِلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرْدَةٍ جَدِيدٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ الآية: قال جمهور العلماء: أراد مَنْ يجيء من التابعين وغيرهم إلى يوم القيامة، وقال الفراء: أراد الفرقة الثالثة من الصحابة، وهي مَنْ آمَن في آخر مُدَّةِ النبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾: حال فيها الفائدة، والمعنى: والذين جاؤوا قائلين كذا، وروى أم الدرداء، وأبو الدرداء عن النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مَوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ قَالَ الْمَلَكُ الْمَوْكَلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ مِثْلُهُ»^(١) رواه مسلم، انتهى، قال * ع^(٢): * ولهذه الآية قال مالك وغيره: إِنَّهُ مَنْ كَانَ لَهُ فِي أَحَدٍ مِنَ/ الصحابة رأيٌ سوءٌ أو بغضٌ، فلا حَظَّ لَهُ فِي فِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ، وقال ١٤٩ عبد الله بن يزيد: قال الحسن: أدركت ثلاثمائة مِنْ أصحاب النبي ﷺ منهم سبعون بَدْرِيًّا كُلُّهُمْ يَحْدِثُنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شَيْبَرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»^(٣) فالجماعة أَلَّا تَسْبُوا الصَّحَابَةَ، وَلَا تَمَارُوا فِي دِينِ اللَّهِ، وَلَا تُكْفَرُوا أَحَدًا مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِذَنْبٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَلَقِيْتُ أَبَا أَمَامَةَ وَأَبَا الدَّرْدَاءَ وَوَالِدَهُ وَأَنْسَأَ، فَكُلُّهُمْ يَحْدِثُنِي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ الْحَسَنِ، وَالْغُلُّ: الْحَقْدُ وَالِاعْتِقَادُ الرَّدِيءُ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ...﴾ الآية: نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول، ورفاعة بن التابوت وقوم من منافقي الأنصار؛ كانوا بعثوا إلى بني النضير، وقالوا لهم: اثبتوا في معانقلكم، فَإِنَّا مَعَكُمْ كَيْفَمَا تَقْلِبْتِ حَالَكُمْ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ كَاذِبِينَ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ أَنَّ تَقْوَى نَفْسِهِمْ؛ عَسَى أَنْ يَشْتَبُوا حَتَّى لَا يَقْدِرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ، فَيَتَمَّ مَرَادُهُمْ، وَجَاءَتْ الْأَفْعَالُ غَيْرَ مَجْزُومَةٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ لِأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى حُكْمِ الْقِسْمِ، لَا إِلَى حُكْمِ الشَّرْطِ، وَالضَّمِيرُ فِي

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٥/٤) كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٨٦، ٨٧/٢٧٣٢)، (٢٧٣٣/٨٨)، (٢٧٣٢/٢٧٣٢)، وابن ماجه (٩٦٦/٢)، (٩٧٧) كتاب: المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨٨/٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٦٥٥/٢)، كتاب «السنة» باب: الخوارج (٤٧٥٨).

﴿صدورهم﴾ يعود على اليهود والمنافقين، والضمير في قوله: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ لبني النضير وجميع اليهود، هذا قول جماعة المفسرين، ومعنى الآية: لا يبرزون لحربكم، ١٤٩ ب وإنما/ يقاتلون متحصنين بالقرى والجدران؛ للرعب والرهب الكائن في قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: في غائلتهم وإحنيهم ﴿تحسبهم جميعاً﴾ أي: مجتمعين ﴿وقلوبهم شتى﴾ أي: متفرقة؛ قال * ع^(١): * وهذه حال الجماعة المتخاذلة، وهي المغلوبة أبداً في كل ما تحاول، واللفظة مأخوذة من الشتات، وهو التفرق ونحوه.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا آلٍ وَآلٍ أَمَرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٥) ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧)

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال ابن عباس^(٢): هم بنو قينقاع، لأن النبي ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير، والوَبَالُ: الشدة والمكروه، وعاقبة السوء والعذاب الأليم: هو في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ معناه: أن هاتين الفرقتين من المنافقين وبني النضير، كمثل الشيطان مع الإنسان؛ فالمنافقون مثلهُم الشيطان، وبني النضير مثلهم الإنسان، وذهب مجاهد وجمهور من المتأولين^(٣) إلى أن الشيطان والإنسان في هذه الآية اسما جنس، فكما أن الشيطان يغوي الإنسان، ثم يفر عنه بعد أن يورطه؛ كذلك أغوى المنافقون بني النضير وحرصوهم على الثبوت، ووعدوهم النصر، فلما نشب بنو النضير، وكشفوا عن وجوههم - تركهم المنافقون في أسوأ حال، وذهب قوم من رواة القصص إلى أن هذا في شيطان مخصوص مع عابد مخصوص، اسمه «برصيصا»، استودع امرأة جميلة، وقيل: سيقث إليه ليشفيها بدعائه من الجنون، فسؤل له الشيطان الوقوع عليها، فحملت منه، فحشي الفضيحة، فسؤل له قتلها ودفعها، ففعل، ثم شهرة، فلما استخرجت المرأة،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٠/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦/١٢)، برقم: (٣٣٩٠٠)، وذكره البغوي (٣٢٢/٤)، وابن عطية (٢٩٠/٥)، وابن كثير (٣٤٠/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٨/١٢)، برقم: (٣٣٩٠٦)، وابن عطية (٢٩٠/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٧/٦)، وعزاه لعبد بن حميد.

وَحُمِلَ الْعَابِدُ شَرَّ حَمَلٍ، / وَصُلِبَ - جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهُ: اسجد لي سجدةً وأنا ١٥٠
أَخْلَصُكَ، فسجد له، فقال له الشيطان: هذا الذي أردت منك أن كفرت بربك، إني بريء
منك، فضرب الله تعالى هذا المثل لليهود بني النضير والمنافقين، وهذا يحتاج إلى صحة
سند، والتأويل الأول هو وجه الكلام.

* ت * قال السهيلي: وقد ذكر هذه القصة هكذا القاضي إسماعيل وغيره من
طريق سفيان عن عمرو بن دينار، عن عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرْقِيِّ، عن
النبي ﷺ: «أَنَّ رَاهِبًا كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(١) فذكر القصة بكمالها، ويقال: إِنَّ اسْمَ هَذَا
الراهب «بَرْصِيصًا»، ولم يذكر اسمه القاضي إسماعيل، انتهى، قال * ع^(٢) * وقول
الشيطان: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» رياء من قوله، وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف الله حق
معرفته، ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلى آخر ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾
يعني: الشيطان والإنسان على ما تقدم من حملهما على الجنس أو الخصوص.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي
أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

وقوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾ الآية:
هذه آية وعظ وتذكير، وتقريب للآخرة، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية، وقوله تعالى:
﴿لغد﴾: يريد يوم القيامة، والذين نسوا الله: هم الكفار، والمعنى: تركوا الله وغفلوا
عنه، حَتَّى كَانُوا كَالنَّاسِينِ، فعاقبهم بأن [جعلهم]^(٣) ينسون أنفسهم، وهذا هو الجزاء على
الذنب بالذنب، قال سفيان^(٤): المعنى: حَظُّ أَنْفُسِهِمْ، وَيُعْطِي لَفْظُ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ
وَلَمْ يَنْسَهَا عَرَفَ رَبَّهُ تعالى، وقد قال علي بن أبي طالب^(٥)، - رضي الله عنه -: اعْرِفْ
نَفْسَكَ تَعْرِفْ رَبَّكَ، وروى عنه أيضاً أنه قال: مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ، لَمْ يَعْرِفْ رَبَّهُ.

﴿لَوْ أَرْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩٦/٦)، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان»،

وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٠/٥).

(٣) سقط في: د.

(٤) أخرجه الطبري (٥٠/١٢)، برقم: (٣٣٩١١)، وابن عطية (٢٩١/٥).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٩١/٥).

نَصَرَبَهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴿

١٥٠ ب وقوله / سبحانه: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل...﴾ الآية: موعظة للإنسان، ودِّم لأخلاقه وإعراضه وغفلته عن تدبُّر كلام خالقه، وإذا كان الجبل، على عظمه وقوَّته، لو أنزل عليه القرآن وفهم منه ما فهمه الإنسان، لخشع واستكان، وتصدَّع، خشية لله تعالى -: فالإنسان على حقارته وضغيفه أولى بذلك، وضرب الله سبحانه هذا المثل؛ ليتفكر فيه العاقل، ويخشع ويلين قلبه.

وقوله سبحانه: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ الآية: لما قال تعالى: ﴿من خشية الله﴾، جاء بالأوصاف العلية التي تُوجب لمخلوقاته هذه الخشية، وقرأ الجمهور^(١): «الْقُدُّوسُ» - بضم القاف -؛ من تَقَدَّسَ إذا تطهَّر وتنزَّه.

وقوله: ﴿السلام﴾ أي: ذو السلام؛ لأنَّ الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلام كُلُّها، و﴿المؤمن﴾: اسم فاعل من آمن بمعنى أمن من الأمن، وقيل: معناه: الْمُصَدِّقُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ، و﴿المهيمن﴾: معناه: الحفيظ والأمين؛ قاله ابن عباس^(٢)، و﴿الجبار﴾: هو الذي لا يدانيه شيء، ولا تُلْحَقُ رتبته، قال الفخر^(٣): وفي اسمه تعالى: ﴿الجبار﴾ وجوه:

أحدها: أَنَّهُ فَعَّالٌ؛ من جَبَرَ إذا أغنى الفقير وجبر الكسير.

والثاني: أَنَّهُ يَكُونُ الْجَبَّارُ مِنْ جَبَرَةٍ إِذَا أَكْرَهَهُ؛ قال الأزهري: وهي لغة تميم، وكثير من الحجازيين يقولونها بغير ألف في الإكراه، وكان الشافعي رحمه الله يقول: جَبَرَهُ السُّلْطَانُ عَلَى كَذَا بغير ألف، وجعل الفراء ﴿الجبار﴾ بهذا المعنى من أجبر بالألف، وهي

(١) وقرأ بها أبو السمال بفتح القاف، ورويت عن الكسائي. قال أبو الفتح: فَعُولٌ في الصفة قليل، وذكر سيويه في الصفة السُّبُوح، والقُدُّوس.

ينظر: «المحتسب» (٣١٧/٢)، و«مختصر الشواذ» ص: (١٥٥)، وذكر ابن عطية في «المحرر الوجيز»

(٢٩٢/٥) أنها رويت عن أبي ذر. وزاد أبو حيان (٢٤٩/٨) نسبتها إلى: أبي دينار الأعرابي.

(٢) أخرجه الطبري (٥٣/١٢)، برقم: (٣٣٩٢٥)، وذكره ابن عطية (٢٩٢/٥).

(٣) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٢٩٥/٢٩٥).

اللغة المعروفة في الإكراه، انتهى، و﴿المتكبر﴾: معناه: الذي له التكبرُ حقًا و﴿البارئ﴾
بمعنى: الخالق، و﴿المُصور﴾: هو الذي يوجد الصور، وباقي الآية بيّن، وروى معقل بن
يسار عن النبي ﷺ/ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ
مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَقَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ -: وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ
مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، حَتَّى يُمِسي، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ
يُمِسي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ^(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، انتهى.

(١) أخرجه الترمذي (١٨٢/٥)، كتاب «فضائل القرآن» باب: (٢٢) (٢٩٢٢).
قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُصْتَحَنَةِ

وَهِيَ مَدِينَةُ بِاجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضًا يُفْسِرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية: المراد بالعدو ههنا: كُفَّار قريش، وسبب نزول هذه الآية حاطب بن أبي بلتعة؛ وذلك أن النبي ﷺ أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية.

* ت * : بل عام فتح مكة، فكتب حاطب إلى قوم من كُفَّار مكة يخبرهم بقصد رسول الله ﷺ ولم يكن ذلك منه ارتداداً، فنزل الوحي مخبراً بما صنع حاطب، فبعث النبي ﷺ علياً والزبير وثالثاً - قيل هو المقداد - وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، وخلّوا سبيلها، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب! ففتشوا رحلها فما وجدوا شيئاً فقال علي: ما كذب رسول الله ﷺ، ولا كذب، والله، لتُخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فقالت: أغرضوا عني، فحلته من قرون رأسها، فجاؤوا به النبي ﷺ فقال لحاطب: مَنْ كَتَبَ هَذَا؟ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ فَوَاللَّهِ، مَا كَفَرْتُ مِنْذُ أَسْلَمْتُ، وَمَا/ فَعَلْتُ ذَلِكَ أَرْتَدَاداً عَنْ دِينِي وَلَا رَغْبَةً عَنْهُ؛ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا وَلَهُ^(١) بِمَكَّةَ مَنْ يَمْنَعُ عَشِيرَتَهُ، وَكُنْتُ أَمِراً مُلَصِّقاً فِيهِمْ، وَأَهْلِي بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَخَشِيتُ عَلَيْهِمْ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عَنْدَهُمْ

ب ١٥١

يَدَا، فَصَدَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ وقال: لَا تَقُولُوا لِحَاطِبٍ إِلَّا خَيْرًا^(١) وروي أَنَّ حَاطِباً كَتَبَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَكُمْ فِي مِثْلِ اللَّيْلِ وَالسَّيْلِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ، لَوْ غَزَاكُمْ وَخَذَهُ، لَنُصِرَ عَلَيْكُمْ، فَكَيْفَ وَهُوَ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ؟! * ص * : ﴿تُلْقُونَ﴾ مفعوله محذوف، أي: تلقون إليهم أخبارَ الرسول وأسراره، و﴿بالمودة﴾: الباء للسبب، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾: مفعول من أجله، أي: أخرجوكم من أجل أن آمنتم بربكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾: شرط، جوابه متقدم في معنى ما قبله، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط، والتقدير: إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، فَلَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ، و﴿جِهَاداً﴾ منصوب على المصدر، وكذلك ﴿ابْتِغَاءَ﴾ ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً من أجله، والمرضاة: مصدر كالرضى و﴿تسرون﴾ حال من ﴿تلقون﴾، ويجوز أن يكون في موضع خبر ابتداء، كأنه قال: أنتم تُسِرُّونَ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِعْلاً ابْتَدَى بِهِ الْقَوْلَ.

وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ﴾ يحتمل أن يكون أفعال، ويحتمل أن يكون فعلاً؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: علمت بكذا فتدخل الباء.

* ص * : والظاهر أنه أفعال تفضيل؛ ولذلك عُدِّي بالباء، انتهى، و﴿سواء﴾ يجوز أن يكون مفعولاً ب﴿ضَلَّ﴾ على تعدي «ضل»، ويجوز أن يكون ظرفاً/ على غير التعدي؛ لِأَنَّهُ يَجِيءُ بِالْوَجْهَيْنِ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ فِي الْمَعْنَى، وَالسَّوَاءُ: الْوَسْطُ، و﴿السَّيْلُ﴾: هُنَا شَرَعَ اللَّهُ وَطَرِيقُ دِينِهِ.

﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ يَالْسُوِ وَيَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ...﴾ الآية: أخبر تعالى أن مُدَارَاةَ هؤلاء الكفرة غير نافعة في الدنيا، وأنها ضارّة في الآخرة؛ ليبين فساد رأي مُصَاحِبِهِمْ،

(١) أخرجه البخاري (١٦٦/٦)، كتاب «الجهاد والسير» باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، وأطرافه (٣٠٨١)، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩، ومسلم (٤/١٩٤١ - ١٩٤٢)، كتاب «فضائل الصحابة» باب: من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب من أبي بلتعة (١٦١، ٢٤٩٤/١٦١)، وأبو داود (٥٤/٢)، كتاب «الجهاد» باب: في حكم الجاسوس إذا كان مسلماً (٢٦٥٠)، والترمذي (٥/٦٩٧)، كتاب «المناقب» باب: (٥٩) (٣٨٦٤).

فقال: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إِنْ يَتِمَكَّنُوا مِنْكُمْ وَتَحَصَّلُوا فِي ثِقَافِهِمْ ظَهَرَتْ عداوتهم، وانبسطت إليكم أيديهم بِضَرَرِكُمْ وَقَتْلِكُمْ، وانبسطت ألسنتهم بسبكم، وأشدُّ من هذا كله إِنْما يقتنعهم أَنْ تكفروا، وهذا هو ودهم، ثم أخبر تعالى أَنَّ هذه الأرحام التي رغبتم في وصلها، ليست بنافعة يَوْمَ القيامة، فالعامل في ﴿يَوْمَ﴾ قوله ﴿تَنفَعُكُمْ﴾، وقيل: العامل فيه ﴿يفصل﴾ وهو مِمَّا بعده لا مِمَّا قبله، وعبارة الثعلبي ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قرابتكم منهم ﴿ولا أولادكم﴾: الذين عندهم بمكة ﴿يَوْمَ القيامة﴾: إِذا عصيتم الله من أجلهم ﴿يفصل بينكم﴾: فيدخل المؤمنون الجنة، والكافرون النار، انتهى.

* ت * : وهذه الآية تنظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى...﴾ [سبأ: ٣٧] الآية: واعلم أَنَّ المال والسبب النافع يَوْمَ القيامة، ما كان لِلَّهِ وَقَصِدَ به العونُ على طاعة الله، وإِلَّا فهو على صاحبه وَبَالٌ وطول حساب، قال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن الحارث ١٥٢ ب يُحَدِّثُ عن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أَنَّهُ سمعه يقول: ويجمعون - يعني ليوم القيامة - فيقال: أين فقراء هذه الأمة ومساكينها؟ فيبرزون، فيقال: ما عندكم؟ فيقولون: يا رَبَّنَا، ابْتُلِينَا فَصَبِّرْنَا، وَأَنْتَ أَعْلَمُ، أَحْسَبُهُ، قال: ووليت الأموال والسلطانَ غَيْرِنَا، فيقال: صدقتم، فيدخلون الجنة قبل سائر الناس بزمان، وتبقى شِدَّةُ الحساب على ذَوِي السلطان والأموال، قال: قلت: فأين المؤمنون يومئذ؟ قال: توضع لهم كراسي من نور، ويُظَلَّلُ عليهم الغمام، ويكون ذلك اليَوْمُ أقصرَ عليهم من ساعة من نهار، انتهى، وفي قوله تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾: وعيدٌ وتحذير.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة﴾ أي: قدوة ﴿في إبراهيم﴾: الخليل ﴿والذين معه﴾: قيل: مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، وقال الطبري وغيره^(١): ﴿الذين معه﴾: هم الأنبياء المعاصرون له أو قريباً من عصره، قال * ع^(٢): وهذا أرجح؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُزَوَّ أَنْ لإبراهيم

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٩/١٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٥/٥).

أتباعاً مؤمنين في وقت مكافحته نمروداً، وفي البخاري: أنه قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلد النمرود: ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك، وهذه الأسوة مقيّدة في التبري من المشركين وإشراكهم، وهو مُطَرَّد في كل ملّة، وفي نبينا مُحَمَّد - عليه السلام - أسوة حسنة على الإطلاق في العقائد وفي أحكام الشرع كلّها.

وقوله: ﴿كفرنا بكم﴾ أي: كذبناكم في عبادتكم الأصنام.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ يعني: تأسوا بإبراهيم، إلّا في استغفاره لأبيه، فلا تتأسوا به فتستغفروا للمشركين، لأنّ استغفاره إنّما كان عن موعدة وعدّها/ إيّاه؛ وهذا تأويل قتادة، ومجاهد، وعطاء الخراساني وغيرهم^(١).

وقوله: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو حكاية عن قول إبراهيم والذين معه، وهذه الألفاظ بيّنة ممّا تقدم في آي القرآن.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ قيل: المعنى: لا تغلبهم علينا، فنكون لهم فتنّة وسبب ضلالة؛ نحا هذا المنحى قتادة وأبو مجلّز^(٢)، وقد تقدم مُسْتَوْفَى في سورة يونس، وقال ابن عباس^(٣): المعنى: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا عن أدياننا، فكأنّه قال: لا تجعلنا مفتونين، فعبّر عن ذلك بالمصدر، وهذا أرجح الأقوال؛ لأنّهم إنّما دعوا لأنفسهم، وعلى منحى قتادة: إنّما دعوا للكفار، أمّا أنّ مقصدهم إنّما هو أنّ يندفع عنهم ظهور الكفار الذي بسببه فتن الكفار، فجاء في المعنى تحليق بليغ.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٦﴾ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

وقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم﴾^(٤) أي: في إبراهيم والذين معه، وباقي الآية

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٠) عن مجاهد برقم: (٣٣٩٤١) وعن قتادة برقم: (٣٣٩٤٣)، وذكره ابن عطية (٢٩٥/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٣٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٠٤)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٦١)، برقم: (٣٣٩٤٧)، وذكره ابن عطية (٥/٢٩٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٣٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٠٤)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٦١)، برقم: (٣٣٩٤٨)، وذكره ابن عطية (٥/٢٩٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٣٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٠٤)، وعزاه لابن المنذر، والحاكم وصححه.

(٤) سقط في: د.

بَيِّنْ، وروي أَنَّ هذه الآيات لما نزلت، وَعَزَمَ المؤمنون على امتثالها، وَصَرَمَ حِبَالِ الْكُفْرَةِ - لحقهم تَأْسُفٌ وَهُمْ من أَجَلِ قَرَابَاتِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يَهْتَدُوا، حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُم التَّوَادُّ والتَّوَاضُّلُ، فنزلت: ﴿عَسَى اللَّهُ...﴾ الآية: مُؤَسَّةٌ فِي ذلك، وَمُرْجِيَّةٌ أَنَّ يَقَعَ، فَوْقَ ذلك بِإِسْلَامِهِمْ فِي الفَتْحِ، وَصَارَ الْجَمِيعُ إِخْوَانًا، وَعَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةُ الْوُقُوعِ.

* ت * : قد تقدم تحقيق القول في ﴿عسى﴾ في سورة القصص، فأغنى عن إعادته.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَيُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَامِنْتُمُوهُنَّ أَجْرُهُنَّ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي عِيصَمِ الْكَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُنَّ فَكْرًا فَكُفُّوا إِلَيْكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْهَى عَنْهُنَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُم إِلَى الْكُفَّارِ فَعَقَبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ يَتْلُ مَا أَنفَقُوا وَآتُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ...﴾ الآية: اختلف في هؤلاء الذين لم يَنَهَ عنهم أَنْ يَبْرُوا، فقيل: أراد المؤمنين التاركين للهجرة، وقيل: خُرَاعَةٌ وَقِبَائِلٌ من العرب، كانوا مظاهرين للنبي ﷺ / ومُجِبِّينَ لظهوره، وقيل: أراد النساء والصبيان من الْكُفْرَةِ، وقيل: أراد من كُفَّارٍ قَرِيشٍ مَنْ لَمْ يِقَاتِلْ وَلَا أَخْرَجَ، وَلَمْ يُظْهِرْ سُوءًا؛ وَعَلَى أَنَّهَا فِي الْكُفَّارِ فَالْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِالْقِتَالِ، وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوهُمْ هُم مَرَدَّةُ قَرِيشٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ الآية نزلت إثر صلح الحديبية؛ وذلك أَنَّ ذلك الصلح تَضَمَّنَ أَنَّ مَنْ أَتَى مُسْلِمًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، رُدَّ إِلَيْهِمْ، سِوَاءَ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً، فَتَقَضَّى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ أَمْرَ النِّسَاءِ بِهذه الآية، وَحُكْمَ بَأْنِ المِهَاجِرَةِ الْمُؤْمِنَةِ لَا تُرَدُّ إِلَى دَارِ الْكُفْرِ، وَ﴿امْتَحِنُوهُنَّ﴾: معناه: جربوهن واستخبروهن حقيقة ما عندهن.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ إشارة إلى الاسترابة ببعضهن.

* ت * : وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ...﴾ الآية: العلم هنا: بمعنى الظن، وذكر الله تعالى الْعِلَّةَ فِي أَلَّا يُرَدُّ النِّسَاءُ إِلَى الْكُفَّارِ وَهُوَ امْتِنَاعُ الْوُطْءِ وَخُرْمَتُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا...﴾ الآية: أمر بأن يؤتى الكفار مهوَر نسايتهم التي هاجرَن مؤمناتٍ، ورفع سبحانه الجناح في أن يتزوجنَ بصدقاتٍ هي أجورهن، وأمر المسلمين بفراق الكافراتِ وألاً يتمسكوا بعصمهن، فقيل: الآية في عادات الأوثان ومن لا يجوزُ نكاحها ابتداءً، وقيل: هي عامَّةٌ تُسخ منها نساء أهل الكتاب، والعصم: جمع عِصْمَة، وهي أسباب الصحة والبقاء في الزوجية، وأمر تعالى أن يسأل أيضاً المؤمنون: ما أنفقوا؟ فرؤي عن ابن شهاب أن قريشاً لَمَّا بلغهم هذا الحكم، قالوا: نحن لا نرضى بهذا ^{١١٥٤} الحكم، ولا نلتزمه، ولا ندفع لأحد صدقاً، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ...﴾ الآية: فأمر الله تعالى المؤمنين أن يدفعوا إلى من قرئت زوجته ففاتت بنفسها إلى الكفار صدقته الذي أنفق، واختلِف: من أي مال يدفع إليه الصدق؟ فقال ابن شهاب ^(١): يُدفعُ إليه من الصدقات التي كانت تُدفعُ إلى الكفار بسبب من هاجر من أزواجهم، وأزال الله دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه، قال * ع ^(٢): وهذا قول صحيح يقتضيه قوله: ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ وقال قتادة ^(٣) وغيره: يُدفعُ إليه من مغانم المغازي، وقال هؤلاء: التعقيب هو الغزو والمغنم، وقال ابن شهاب ^(٤) أيضاً: يدفع إليه من أي وجه الفتي أمكن، والمعاقبة في هذه الآية ليست بمعنى مجازاة السوء بسوء، قال الثعلبي: وقرأ مجاهد: ﴿فَأَعْقَبْتُمْ﴾ ^(٥) وقال: المعنى: صنعتم بهم كما صنعوا بكم، انتهى، قال * ع ^(٦): أي: وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجهم، وهكذا هو التعاقب على الجمل والدواب أن يركب هذا عقبة وهذا عقبة، ويقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا، أي: جاء ففعل كل واحد منهما بعقب فعل الآخر، وهذه الآية كلها قد ارتفع حكمها.

(١) أخرجه الطبري (٧١/١٢)، برقم: (٣٣٩٩٤)، وذكره ابن عطية (٢٩٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٩/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبي داود في «ناسخه»، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٨/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٧٢/١٢)، برقم: (٣٤٠٠٠)، وذكره ابن عطية (٢٩٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٩/٦)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد.

(٤) أخرجه الطبري (٧٢/١٢)، برقم: (٣٤٠٠٣)، وذكره ابن عطية (٢٩٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٣٥٢/٤).

(٥) وقرأ بها الحسن.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٥٦)، و«المحتسب» (٣٢٠/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٩٨/٥).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٨/٥).

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفَرِّقَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٨﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ...﴾ الآية: هذه بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على الصفا، وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال.

١٥٤ ب * ت * : وخَرَجَ الْبَخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ / يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ﴾ الآية^(١).

وكذا روى البخاري من طريق ابن عباس أنه - عليه السلام - تلاَ عَلَيْهِنَّ الْآيَةَ يَوْمَ الْفِطْرِ عَقِبَ الصَّلَاةِ^(٢)، وَنَحْوَهُ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةٍ فِي الْبَخَارِيِّ: «وَقَرَأَ عَلَيْهِنَّ الْآيَةَ أَيْضًا فِي ثَانِي يَوْمٍ فَتَنَحَّ مَكَّةَ»^(٣) وكلام * ع * : يُوْهِمُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَيْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا يَرِيدُ أَنَّهُ أَعَادَ الْآيَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَبَايِعْهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالْإِتْيَانُ بِالْبُهْتَانِ: قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسِرِينَ: مَعْنَاهُ أَنْ تَنْسَبَ إِلَى زَوْجِهَا وَلَدًا لَيْسَ مِنْهُ، قَالَ * ع *^(٤): وَاللَّفْظُ أَعَمُّ مِنْ هَذَا التَّخْصِيسِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: يعم جميع أوامر الشريعة، فَرَضَهَا وَنَذَّبَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ جَمَاعَةَ نُسُوهُ قُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُبَايِعُكَ عَلَى كَذَا وَكَذَا الْآيَةَ، فَلَمَّا فَرَّغْنَ قَالَ ﷺ: فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ، فَقُلْنَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنَّا لِأَنْفُسِنَا»^(٥). وقوله تعالى: ﴿فَبَايَعْنَهُنَّ﴾ أي: أَمَضَ لَهُنَّ صَفْقَةَ الْإِيمَانِ؛ بِأَنْ يُعْطِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ، وَيُعْطِينَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَاخْتَلَفَ فِي هَيْئَةِ مَبَايَعَتِهِ ﷺ النِّسَاءَ بَعْدَ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ تَمَسَّ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ قَطُّ؛ وَالْمَرْوِيُّ عَنْ عَائِشَةَ وَغَيْرِهَا: «أَنَّهُ بَايَعَ بِالسَّانِ قَوْلًا، وَقَالَ: إِنَّمَا قَوْلِي

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤/٨)، كتاب «التفسير» باب: إذا جاءك المؤمنات مهاجرات (٤٨٩١)، (٥٢/٧)، كتاب «المغازي» باب: غزوة خيبر (٤١٨٢)، ومسلم (١٤٨٩/٣)، كتاب «الإمارة» باب: كيفية بيعة النساء (١٨٦٦/٨٨)، وابن ماجه (٩٥٩/٢ - ٩٦٠)، كتاب «الجهاد» باب: بيعة النساء (٢٨٧٥)، وأحمد (٢٧٠/٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٩٢).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٩٩/٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٩٥٩/٢)، كتاب «الجهاد» باب: بيعة النساء (٢٨٧٤).

لِمِائَةِ أَمْرَأَةٍ كَقَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ»^(١).

و﴿قوماً غضب الله عليهم﴾: هم اليهود في قول ابن زيد وغيره^(٢)، ويأسهم من الآخرة: هو يأسهم من نعيمها مع التصديق بها، وقال ابن عباس^(٣): ﴿قوماً غضب الله عليهم﴾: في هذه الآية / كُفَّارُ قَرِيشَ.

١١٥٥

وقوله: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾: على هذا التأويل هو على ظاهره في اعتقاد الكفرة إذا مات لهم حميم قالوا: هَذَا آخِرُ الْعَهْدِ بِهِ لَا يَبْعَثُ أَبَدًا.

(١) ينظر: حديث عائشة السابق في المبايعه.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٠٠/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٠٠/٥).

[تفسير] سورة الصف

وَهِيَ مَدِينَةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ وَقِيلَ: مَكَّةُ

والأول أصح: لأن معاني السورة تغضده ويُشبه أن يكون فيها المكي والمدني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قد تقدم تفسيره، واختلف في السبب الذي نزلت فيه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فقال ابن عباس وغيره: نزلت بسبب قوم قالوا: لَوْ عَلِمْنَا أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَسَارَعْنَا إِلَيْهِ، ففرض الله الجهاد وأعلمهم بفضله؛ وأنه يُحِبُّ الْمُقَاتِلِينَ فِي سَبِيلِهِ كَالْبَنِيَانِ الْمَرْصُوصِ، فَكَرِهَهُ قَوْمٌ مِنْهُمْ، وَقَرُّوا يَوْمَ الْغَزْوِ فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَةِ (١)، وقال قتادة والضحاك: نزلت بسبب جماعة من شباب المسلمين كانوا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِي الْغَزْوِ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (٢)، قال ﴿ع (٣)﴾: وَحُكْمُ هَذِهِ الْآيَةِ بَاقٍ غَايِبَ الدَّهْرِ، وَكُلُّ مَنْ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ فَهُوَ مَمْقُوثُ الْكَلَامِ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ يَتَرَجَّحُ بِمَا يَأْتِي [مَنْ أَمَرَ] (٤) الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ، وَالْمَقْتُ الْبَغْضُ، مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ، أَوْ رِييَّةٍ، أَوْ دَنَاءَةٍ يَضْنَعُهَا الْمَمْقُوثُ، وَقَوْلُ الْمَرْءِ

(١) أخرجه الطبري (٧٩/١٢)، برقم: (٣٤٠٤٣)، وذكره ابن عطية (٣٠١/٥)، وابن كثير (٣٥٨/٤)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٣١٧/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٧٩/١٢)، برقم: (٣٤٠٤٦)، (٣٤٠٤٨)، وذكره البغوي (٣٣٧/٤)، وابن كثير (٤/٣٥٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠١/٥).

(٤) في د: بأمر.

مَا لَا يَفْعَلُ مُوجِبٌ مَقَّتَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ فَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَنِ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ وَأَثَرُوا السَّكُوتَ، / * قلت * : وَهَذَا بِحَسَبِ فِقْهِ الْحَالِ ؛ إِنْ وَجَدَ الْإِنْسَانُ مَنْ يَكْفِيهِ هَذِهِ الْمَوْثُوتَةُ ١٥٥ ب فِي وَقْتِهِ، فَقَدْ يَسَعُهُ السَّكُوتُ وَإِلَّا فَلَا يَسَعُهُ، قَالَ الْبَاجِي فِي «سُنَنِ الصَّالِحِينَ» لَهُ : قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : بَلَّغْنِي أَنَّ بَغْضَ الْحُكَمَاءِ كَانَ يَقُولُ : إِنِّي لِأَعْظَمُكُمْ وَإِنِّي لَكَثِيرُ الذُّنُوبِ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا لَا يَعِظُ أَخَاهُ حَتَّى يُخَيِّمَ أَمْرُ نَفْسِهِ لَشَرَّ الْأَمْرِ بِالْخَيْرِ، وَاقْتَصِرَ عَلَى الشَّرِّ، وَلَكِنَّ مُحَادَثَةَ الْإِخْوَانِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَجَلَاءَ النَّفُوسِ وَتَذْكِيرٌ مِنَ النِّسْيَانِ، وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : إِنِّي لِأَعْظُ النَّاسَ وَمَا أَنَا بِمَوْضِعٍ لِلْوَعْظِ^(١)، وَلَكِنْ أُرِيدُ بِهِ نَفْسِي، وَقَالَ الْحَسَنُ لِمَطْرِفٍ : عِظْ أَضْحَابَكَ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ فَقَالَ : رَحِمَكَ اللَّهُ؛ وَإِنِّي أَفْعَلُ مَا يَقُولُ، وَدَّ الشَّيْطَانُ أَنْهُ لَوْ ظَفَرَ مِنْكُمْ بِهِذِهِ فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدًا مِنْكُمْ بِمَعْرُوفٍ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مَنكَرٍ، انْتَهَى.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ يُنَبِّئُ مَرْصُوصٌ ٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٩﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ...﴾ الآية، قال معاذ بن جبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةً فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا، ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ»^(٢)،

(١) في د: للموعظ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥/٢)، كتاب «الجهاد» باب: فيمن سأل الله تعالى الشهادة (٢٥٤١)، والترمذي (٤/١٨٣)، كتاب «فضائل الجهاد» باب: ما جاء فيمن سأل الشهادة (١٦٥٤) مختصراً، والنسائي (٦/٢٥٠ - ٢٦)، كتاب «الجهاد» باب: ثواب من قاتل في سبيل الله فواق ناقة (٣١٤١)، وابن ماجه (٢/٩٣٣ - ٩٣٤)، كتاب «الجهاد» باب: القتال في سبيل الله سبحانه (٢٧٩٢)، والحاكم (٢/٧٧)، وابن حبان (١٠/٤٧٨ - ٤٧٩)، كتاب «السير» باب: فضل «الجهاد»: ذكر إيجاب الجنة لمن قاتل في سبيل الله قل ثباته فيه أو كثر (٤٦١٨) مختصراً، وأخرجه البيهقي (٩/١٧٠)، كتاب «السير» باب: تمنى الشهادة ومسألها، وأحمد (٥/٢٣٠ - ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤٣ - ٢٤٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/٢٥٥)، كتاب «الجهاد» باب: الفرار من الزحف (٩٥٣٤)، والدارمي (٢/٢٠١)، كتاب «الجهاد» باب: من قاتل في سبيل الله فواق ناقة.

مختصر رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، واللفظ لأبي داود، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ انْتَهَى مِنْ «السَّلاَحِ»، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَقَالََةَ مُوسَى، وَذَلِكَ ضَرْبُ مَثَلٍ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَحْذَرُوا مَا وَقَعَ فِيهِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْعَصْيَانِ وَقَوْلِ الْبَاطِلِ.

وقوله: ﴿لَمْ تُؤْذَوْنِي﴾ أي: بتعنيّكم وعصيانكم واقتراحاتكم، وأسند الزبيغ إليهم؛ لكونه فعل حطيطة، وهذا بخلاف قوله تعالى: / ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] فَأَسْنَدَ التَّوْبَةَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ لِكُونِهَا فِعْلَ رِفْعَةٍ، وَ«زَاغَ» معناه مَالَ وَصَارَ عُرْفُهَا فِي الْمِيلِ عَنِ الْحَقِّ، وَ«أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» معناه طَبَعَ عَلَيْهَا وَكَثُرَ مِيلُهَا عَنِ الْحَقِّ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْعُقُوبَةُ عَلَى الذَّنْبِ بِالذَّنْبِ.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ قال عياض في «الشفاء»: سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ فِي كِتَابِهِ مُحَمَّدًا وَأَحْمَدَ؛ فَأَمَّا اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَ«أَفْعَلٌ» مَبَالِغَةٌ مِنْ صِفَةِ الْحَمْدِ، وَمُحَمَّدٌ «مُفْعَلٌ» مِنْ كَثَرَةِ الْحَمْدِ، وَسَمِيَ أُمَّتُهُ فِي كِتَابِ أَنْبِيَائِهِ بِالْحَمَادَيْنِ؛ ثُمَّ فِي هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ مِنْ عَجَائِبِ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ وَبِدَائِعِ آيَاتِهِ؛ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَمَى أَنْ يَتَسَمَّى بِهِمَا أَحَدٌ قَبْلَ زَمَانِهِ، أَمَّا أَحْمَدُ الَّذِي أَتَى فِي الْكُتُبِ وَبَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ؛ فَمَنْعَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَتَسَمَّى بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ؛ حَتَّى لَا يَدْخُلَ بِذَلِكَ لَبْسٌ عَلَى ضَعِيفِ الْقَلْبِ؛ وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ أَيْضًا لَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ وَلَا غَيْرِهِمْ إِلَى أَنْ شَاعَ قَبِيلُ وَجُودِهِ ﷺ وَمِيلَادُهُ أَنْ نَبِيًّا يَبْعَثُ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ؛ فَسَمَّى قَوْمٌ قَلِيلٌ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءَهُمْ بِذَلِكَ؛ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ هُوَ، وَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْيَاةِ الْأَوْسِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ بَرَاءِ الْبَكْرِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سَفْيَانَ بِالْيَمَنِ، وَيَقُولُونَ: بَلْ مُحَمَّدُ بْنُ الْيَحْيَى مِنَ الْأَزْدِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سُودَاةٍ مِنْهُمْ؛ لَا سَابِقَ لَهُمْ، وَلَمْ يَدَّعِ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّبُوَّةَ أَوْ يَظْهَرُ عَلَيْهِ سَبَبٌ يَشْكُكُ النَّاسَ، انْتَهَى، وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُسَمُّوْا أَوْلَادَكُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تَلْعَنُوهُمْ»^(١)، رَوَاهُ ١٥٦ ب الْحَاكِمُ / فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، انْتَهَى مِنْ «السَّلاَحِ».

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ الْآيَةُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ «عِيسَى» وَيَحْتَمِلُ

= قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله إسناده صحيح على شرط الشيخين مختصراً.

وفي الباب: شاهد عن عمرو بن عنبسة، أخرجه أحمد (٣٨٧/٤)، (٤٤٣/٦ - ٤٤٤) عن أبي الدرداء. ذكره الهيثمي في «المجمع» (٥١/٨)، وقال: رواه أبو يعلى، والبزار، وفيه الحكم بن عطية، وثقه ابن معين، وضعفه غيره، وبقي رجاله رجال «الصحيح».

أن يريد محمداً ﷺ لأنه تقدّم ذكره، * ت * : والأول أظهر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَكْرَهٍ تُجِيبُكُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ ۖ تَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ يَقِفْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَمَّاكَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ...﴾ الآية: نَذْبٌ وَخَصٌّ عَلَى الْجِهَادِ بِهَذِهِ التِّجَارَةِ الَّتِي بَيَّنَّهَا سُبْحَانَهُ، وَهِيَ أَنْ يَبْذُلَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ، وَيَأْخُذَ ثَمَنًا جَنَّةَ الْخُلْدِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ^(١) وَحْدَهُ: «تُجِيبُكُمْ» - بَفَتْحِ النُّونِ وَشَدِّ الْجِيمِ -.

وقوله: ﴿تَؤْمِنُونَ﴾ معناه: الأمر، أي: آمنوا، قَالَ الْأَخْفَشُ: وَلِذَلِكَ جَاءَ «يَغْفِرُ» مُجْزُومًا، وَفِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «آمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجَاهِدُوا». وقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارةٌ إِلَى الْجِهَادِ وَالْإِيمَانِ، وَ﴿خَيْرٌ﴾ هُنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِلتَّفْضِيلِ، فَالْمَعْنَى: مِنْ كُلِّ عَمَلٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارًا أَنَّ هَذَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهِ، وَ﴿مَسَاكِينَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿جَنَّاتٍ﴾ وَطَيْبُ الْمَسَاكِينِ: سِعَتُهَا وَجَمَالُهَا، وَقِيلَ: طَيْبُهَا الْمَعْرِفَةُ بِدَوَامِ أَمْرِهَا.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ قَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا...﴾ الآية، قَالَ الْأَخْفَشُ، «وَأُخْرَىٰ» هِيَ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ عَطْفًا عَلَى «تِجَارَةٍ»، وَهَذَا قَلِيلٌ، وَقَدْ رَدَّ النَّاسُ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُخْرَىٰ لَيْسَتْ بِمِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا هِيَ مِمَّا أُعْطِيَ ثَمَنًا وَجَزَاءً عَلَى الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: «وَأُخْرَىٰ» فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، وَقِيلَ: فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِإِضْمَارِ فِعْلِ تَقْدِيرِهِ: وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ وَيَمْنَحُكُمْ أُخْرَى؛ وَهِيَ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ الْقَرِيبُ، وَقِصَّةُ عِيسَى مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ قِيلَ ذَلِكَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - / وَبَعْدَ فِتْرَةٍ مِّنْ رَّفْعِ عِيسَى؛ رَدَّ اللَّهُ الْكَرَّةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ فَغَلَبُوا الْكَافِرِينَ الَّذِينَ قَتَلُوا ١١٥٧ صَاحِبَهُ الَّذِي أَلْقَى عَلَيْهِ السُّبَّةَ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ بِالْحُجَّةِ.

(١) ينظر: القرطبي (٥٧/١٨)، وابن عطية (٣٠٤/٥)، و«البحر المحيط» (٨/٢٦٠).

[تفسير] سُورَةُ الْجُمُعَةِ

وَهِيَ مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالِى مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا يَتْسَى مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴿

قوله تعالى: ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾ تقدم القول في مثل ألفاظ الآية، والمراد بالأميين جميع العرب، واختلف في المعنيين بقوله تعالى: ﴿وآخرين منهم﴾ فقال أبو هريرة وغيره: أراد فارس (١) «وقد سئل رسول الله ﷺ: من الآخرون؟ فأخذ بيد سليمان، وقال: لو كان الدين في الثريا لئاله رجال من هؤلاء» خرجه مسلم والبخاري (٢)، وقال ابن زيد ومجاهد والضحاك وغيرهم: أراد جميع طوائف الناس (٣)، فقوله: ﴿منهم﴾ على هذين القولين إنما يريد في البشرية والإيمان، وقال مجاهد أيضاً وغيره: أراد التابعين من أبناء العرب، فقوله: ﴿منهم﴾ يريد في النسب والإيمان.

وقوله: ﴿لما يلحقوا﴾ نفى لما قرب من الحال، والمعنى أنهم مزمعون أن يلحقوا، فهي «لَمْ» زيدت عليها «ما» تأكيداً.

و﴿الذين حمّلوا التوراة﴾ هم بنو إسرائيل الأبحار المعاصرون للنبي ﷺ، و﴿حمّلوا﴾ معناه كلّفوا القيام بأوامرها ونواهيها، فهذا كما حمّل الإنسان الأمانة، وذكر تعالى أنهم لم يحملوها، أي: لم يطيعوا أمرها ويقفوا عند حدودها حين كذبوا نبيّه محمداً ﷺ، والتوراة

(١) أخرجه البخاري حديث (٤٨٩٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري (٩٠/١٢ - ٩١)، برقم: (٣٤٠٨٨)، (٣٤٠٨٩) عن ابن زيد، ومجاهد، وغيرهم، وذكره ابن عطية (٣٠٧/٥)، والبقوي (٣٣٩/٤)، وابن كثير (٣٦٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٢١/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد، وعزاه لابن المنذر عن الضحاك.

تَنطِقُ بِنَبِوتِهِ، فَكَانَ كُلُّ خَبِيرٍ لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا حُمِّلَ كَمَثَلِ جِمَارٍ عَلَيْهِ أَسْفَارٌ، وَفِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١) / «كَمَثَلِ جِمَارٍ» بِغَيْرِ تَعْرِيفٍ، وَالسُّفْرُ الْكِتَابُ الْمَجْتَمِعُ الْأَوْرَاقِ مَنْصُودَةٌ. ب ١٥٧

وقوله: ﴿يُثَسِّسُ مِثْلَ الْقَوْمِ﴾ التفسير: يَثَسِّسُ الْمِثْلُ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، * ص : ﴿وَرَدُّ بَأْنٍ فِيهِ حَذْفُ الْفَاعِلِ وَلَا يَجُوزُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ ﴿مِثْلُ الْقَوْمِ﴾ فَاعِلٌ ﴿يُثَسِّسُ﴾، وَالَّذِينَ كَذَبُوا﴾ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ عَلَى حَذْفِ مِثْلُ الَّذِينَ كَذَبُوا، انْتَهَى.

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن رَّعَيْتُمْ أَنَا لَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا لَمَوْتٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَلَا يَمَتُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّا أَلَمَوْا الَّذِي نَقُورُونَ مَدَّةً فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَفِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن رَّعَيْتُمْ...﴾ الآية، رَوَى أَنَّهُا نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ لَمَّا ظَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَاطَبُوا يَهُودَ خَيْبَرَ فِي أَمْرِهِ، وَذَكَرُوا لَهُمْ نَبُوَّتَهُ، وَقَالُوا إِن رَأَيْتُمْ أَتْبَاعَهُ أَطْعَمْنَاكُمْ وَإِن رَأَيْتُمْ خِلَافَهُ خَالَفْنَاهُ مَعَكُمْ، فَجَاءَهُمْ جَوَابُ أَهْلِ خَيْبَرَ يَقُولُونَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ؛ وَأَبْنَاءُ عَزِيرِ بْنِ اللَّهِ وَمِنَّا الْأَنْبِيَاءُ، وَمَتَى كَانَتْ النُّبُوَّةُ فِي الْعَرَبِ؟، نَحْنُ أَحَقُّ بِالنُّبُوَّةِ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ اتِّبَاعِهِ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ بِمَعْنَى: أَنْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَقُرْبُهُ وَفِرَاقُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْخَاسِيسَةِ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ، فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَمَتُّونَهُ أَبَدًا لَعَلَّهُمْ بِسُوءِ حَالِهِمْ، وَرَوَى كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ اللَّهَ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - جَعَلَ هَذِهِ الْآيَةَ مُعْجَزَةً لِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ﷺ فِيهِمْ، فَهِيَ آيَةٌ بَاهِرَةٌ؛ وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ إِن تَمَنَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ الْمَوْتَ فِي أَيَّامِ مَعْدُودَاتِ مَاتَ وَفَارَقَ الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَمَتَّوْا الْمَوْتَ، عَلَى جِهَةِ التَّعْجِيزِ وَإِظْهَارِ الْآيَةِ، فَمَا تَمَنَّا أَحَدٌ مِنْهُمْ خَوْفًا/ مِنَ الْمَوْتِ وَثِقَةً بِصَدَقِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

١٥٨

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَبِيرُ الرَّزِيقِينَ ﴿١٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ الآية، النداء: الْأَذَانُ، وَكَانَ عَلَى الْجِدَارِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي «مَصْنَفِ أَبِي دَاوُدَ»: كَانَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ

(١) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٣٠٧/٥)، و«البحر المحيط» (٢٦٣/٨)، و«الدر المصون» (٣١٦/٦).

وهو على المنبر أذاناً، ثم زاد عثمانُ النداءَ على الزوراء ليسمع الناسُ.

* ت * وفي البخاري والترمذي وصححه عن السائب بن يزيد قال: كَانَ النداء يومَ الجمعةِ أوَّلُهُ إذا جَلَسَ الإمامُ على المنبر؛ على عهد النبي ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ، فلما تَوَلَّى عثمانُ وكثُرَ الناسُ، زَادَ الأَذَانَ الثَّالِثَ فَأَذَّنَ بِهِ عَلَى الزُّورَاءِ^(١)، فَتَبَتِ الأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ^(٢)، قِيلَ: فَقَوْلُهُ «الثَّالِثُ» يَقْتَضِي أَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَةً، وَفِي طَرِيقٍ آخَرَ «الثَّانِي» بَدَلَ «الثَّالِثِ» وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُمَا اثْنَانِ، انْتَهَى، وَخَرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ، ثُمَّ أَنْصَتَ لِلْإِمَامِ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى، وَفَضَّلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»^(٣)، انْتَهَى، وَخَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ سُليْمَانَ.

وقوله: ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ قال ابن هشام: «من» مرادفة «في»، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ الآية، السعي في الآية لَا يَرَادُ بِهِ الإسْرَاعُ فِي الْمَشْيِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] فَالسَّعْيُ هُوَ بِالنِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ؛ مِنْ وَضْعٍ، وَغُسْلٍ، وَمَشْيٍ، وَلُبْسِ ثَوْبٍ؛ كُلُّ ذَلِكَ سَعْيٌ، وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا تُؤْتَى الصَّلَاةُ بِالسَّكِينَةِ، * ت * وهو نص الحديث الصحيح، وهو قوله ﷺ فِي الصَّلَاةِ: / «فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ وَأَتُوهَا [و] عَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ»، * ت * : ١٥٨ ب والظاهر أَنَّ المراد بالسعي هنا المضي إلى الجمعة، كما فسره الثعالبي، ويدل على ذلك إطلاق العلماء لفظ الوجوب عليه، فيقولون السَّعْيُ إِلَى الْجُمُعَةِ واجبٌ، ويدل على ذلك قراءة عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وابن الزبير وجماعة من التابعين^(٤):

(١) الزُّورَاءُ: دار عثمان بن عفان بالمدينة. وقيل: موضع عند سوق المدينة قرب المسجد. ينظر: «مراصد الاطلاع» (٦٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦١/٢)، كتاب «الجمعة» باب: التأذين عند الخطبة (٩١٦)، وأبو داود (٣٥٢/١). (٣٥٣)، كتاب «الصلاة» باب: النداء يوم الجمعة (١٠٨٧)، والترمذي (٣٩٢/٢)، كتاب «الصلاة» باب: ما جاء في أذان الجمعة (٥١٦)، والنسائي (١٠٠/٣ - ١٠١)، كتاب «الجمعة» باب: الأذان للجمعة (١٣٩٢)، (١٣٩٣ - ١٣٩٤) نحوه، وابن ماجه (٣٥٩/١)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها» باب: ما جاء في الأذان يوم الجمعة (١١٣٥).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٥٧)، و«المحتسب» (٣٢٢/٢)، و«الكشاف» (٥٣٤/٤)، و«المحرر الوجيز» (٣٠٩/٥)، و«البحر المحيط» (٢٦٥/٨).

﴿فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وقال ابن مسعود: لَوْ قَرَأْتُ: ﴿فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لَأَسْرَعْتُ حَتَّى يَقَعَ رِدَائِي، وقال العِرَاقِيُّ: ﴿فَاسْعُوا﴾ معناه بَادِرُوا، انتهى، وقوله: ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هو وعظُ الخطبة؛ قاله ابن المسيب، ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَلِأَوَّلٍ، فَإِذَا جَلَسَ [الإِمَامُ] طَوَرُوا الصُّحُفَ، وَجَاؤُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ» الحديثُ خَرَّجَهُ البخاري ومسلم، واللفظُ لمسلم، وَالْخُطْبَةُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ شَرْطٌ فِي انْعِقَادِ الْجُمُعَةِ^(١)، وعن أبي موسى الأشعري أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَبْعَثُ الْآيَّامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهَا، وَيَبْعَثُ الْجُمُعَةَ زَهْرَاءَ مُنِيرَةٍ، أَهْلُهَا مُحْفَوْنَ بِهَا؛ كَالْعُرُوسِ تُهْدَى إِلَى كَرِيمِهَا، تُضِيءُ لَهُمْ؛ يَمْشُونَ فِي ضَوْئِهَا؛ أَلْوَانُهُمْ كَالثَّلْجِ بَيَاضاً، وَرِيحُهُمْ يَسْطَعُ كَالْمِسْكِ، يَخُوضُونَ فِي جِبَالِ الْكَافُورِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الثَّقَلَانِ، مَا يَظَرُفُونَ تَعَجُّباً، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ لَا يَخَالِطُهُمْ إِلَّا الْمُؤَدُّونَ الْمُخْتَسِبُونَ» خَرَّجَهُ الْقَاضِي الشَّرِيفُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْهَاشِمِيُّ، قَالَ صَاحِبُ «التَّذَكُّرَةِ»^(٢): وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى السعي وترك البيع.

وقوله: ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ أجمع الناس على أَنَّ مُقْتَضَى هَذَا الْأَمْرِ الْإِبَاحَةُ، وكذلك قوله: «وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» أَنَّهُ الْإِبَاحَةُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] إِلَّا مَا رَوَى عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ذَلِكَ الْفَضْلُ الْمُبْتَغَى هُوَ عِيَادَةُ مَرِيضٍ، أَوْ صِلَةُ صَدِيقٍ، أَوْ اتِّبَاعُ جَنَازَةٍ»، قَالَ * ع^(٣): * وَفِي هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ بَقِيَّةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَنَحْوَهُ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْفَضْلُ الْمُبْتَغَى: الْعِلْمُ فَيَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ إِثْرُ الْجُمُعَةِ.

(١) إنما اشترط تقديم الخطبتين، لأن النبي ﷺ لم يفعلها إلا كذلك مع خبر: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، ولإجماع السلف والخلف على ذلك.

ومخالفة الحسن البصري باجتهاده في جوازها بعد الصلاة، شاذة مردودة، لأنها بعد انعقاد الإجماع فهي غير معتبرة، ولأنها شرط، والشرط مقدم على المشروط، وقال الشيخ الرملي: وللتمييز بين الفرض والنفل، وليدرك الصلاة من يدرك الخطبة، ولظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أباح الانتشار بعدها، ولو جاز تأخيرها لما أباح الانتشار.

وقال في «شرح المذهب»: ثبتت صلاته ﷺ بعد الخطبتين، وروى الشيخان عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين يجلس بينهما.

(٢) ينظر: «التذكرة» (١/٢٦٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٣٠٩).

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...﴾ الآية، قال معاذ بن جبل: مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ^(١): رواه الترمذي واللفظ له، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرک»؛ وقال صحيح الإسناد، انتهى من «السلام».

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا...﴾ الآية، نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ كَانَ قَائِمًا عَلَى الْمَنبِرِ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَقْبَلَتْ عِيرٌ مِنَ الشَّامِ تَحْمِلُ مِيرَةً، وَصَاحِبَ أَمْرِهَا دَخِيَّةَ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَكَانَ مِنْ عُرْفِهِمْ أَنْ تَدْخُلَ عِيرُ الْمَدِينَةِ بِالطَّبَلِ وَالْمَعَازِفِ، وَالصِّيَاحِ سُرُورًا بِهَا، فَدَخَلَتْ الْعِيرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَانْقَضَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ إِلَى رُؤْيَةِ ذَلِكَ وَسَمَاعِهِ؛ وَتَرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا عَلَى الْمَنبِرِ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا^(٢)، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَحَدُهُمْ، قَالَ * ع^(٣) *: وَلَمْ تَمُرَّ بِي تَسْمِيَتُهُمْ فِي دِيوَانٍ فِيمَا أَذْكَرُ الْآنَ، إِلَّا أَنِّي سَمِعْتُ أَبِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: هُمُ الْعَشْرَةُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَاخْتَلَفَ فِي الْحَادِي عَشَرَ، فَقِيلَ: عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَقِيلَ: ابْنُ مَسْعُودٍ، * ت * *: وَفِي تَقْيِيدِ أَبِي الْحَسَنِ الصَّغِيرِ: وَالْإِثْنَا عَشَرَ الْبَاقُونَ^(٤) / هُمُ الصَّحَابَةُ الْعَشْرَةُ، وَالْحَادِي عَشَرَ: بِلَالٌ، وَاخْتَلَفَ فِي الثَّانِي عَشَرَ، فَقِيلَ: عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَقِيلَ: ابْنُ مَسْعُودٍ، انْتَهَى، قَالَ السَّهْلِيُّ: وَجَاءَتْ تَسْمِيَةُ الْإِثْنَيْ عَشَرَ فِي حَدِيثِ مُرْسَلٍ رَوَاهُ أَسَدُ بْنُ عَمْرٍو وَالْأَسَدُ، وَفِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ؛ حَتَّى الْعَشْرَةِ، وَقَالَ: وَبِلَالٌ وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَفِي رَاوِيَةٍ: عَمَارُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَفِي «مَرَّاسِيلِ أَبِي دَاوُدَ» ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ تَرَخَّصُوا، فَقَالَ: إِنَّ الْخُطْبَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَانَتْ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَتَأَوَّلُوا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّهُمْ قَدْ قَضَوْا مَا عَلَيْهِمْ، فَحَوَّلَتْ الْخُطْبَةُ بَعْدَ

(١) أخرجه ابن ماجه (١٢٤٥/٢)، كتاب «الأدب» باب: فضل الذكر (٣٧٩٠)، عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَمَنْ أَنْ تَلْقَوْا عِدْوَكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «ذَكَرَ اللَّهُ».

وقال معاذ بن جبل: «مَا عَمَلٌ أَمْرُؤٌ يَعْمَلُ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ».

وأخرجه الترمذي (٤٥٩/٥) (٣٣٧٧) نحوه، قال الترمذي: وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدٍ مِثْلَ هَذَا الْإِسْنَادِ وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْهُ فَأَرْسَلَهُ، وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (١/٤٩٦)، وَقَالَ: هَذَا صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْ.

(٢) أخرجه الطبري (٩٩/١٢)، برقم: (٣٤١٤٦)، وذكره ابن عطية (٣٠٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٣١/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠٩/٥).

(٤) في د: الباقيين.

ذلك قبل الصلاة، فهذا الحديث وإن كان مرسلاً فالظن الجميل بأصحاب النبي ﷺ يوجب أن يكون صحيحاً، والله أعلم؛ انتهى، ورؤي أن النبي ﷺ قال: «لَوْلَا هَؤُلَاءِ لَقَدْ كَانَتْ الْحِجَارَةُ سُومَتْ عَلَى الْمُتَفَضِّلِينَ مِنَ السَّمَاءِ»، وفي حديث آخر: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ تَتَابَعْتُمْ حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ لِسَالِ بِكُمْ الْوَادِي نَاراً»^(١)، قَالَ البخاري: «أَنْفَضُوا» معناه تَفَرَّقُوا، انتهى، وقرأ ابن مسعود^(٢): «وَمِنَ التَّجَارَةِ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» وإنما أعاد الضمير في قوله: «إِلَيْهَا» على التجارة وَخَدَهَا لِأَنَّهَا أَهَمُّ، وهي كَانَتْ سَبَبَ اللُّهُو، * ص * وقرئ^(٣) «إِلَيْهِمَا» بالتثنية.

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٥/٥ - ٢٣٦)، برقم: (٦٤٩٥)، .

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣١٠/٥).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٥٣٧/٤)، و«البحر المحيط» (٢٦٥/٨)، و«الدر المصون» (٣١٨/٦).

[تفسير] سُورَةُ «الْمُنَافِقُونَ»

وَهِيَ مَدِينَةُ بَاجِمَاعٍ

وَنَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُضْطَلِقِ، بِسَبَبِ أَنَّ أَبْنَأَبِي سَلُولَ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعَزْوَةِ أَقْوَالٌ مُنْكَرَةٌ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] (١)

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) أَخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴿

قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ...﴾ الآية/ فَصَحَّ اللَّهُ سرائِرَ الْمُنَافِقِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ؛ وَهُمْ فِي إِخْبَارِهِمْ هَذَا كَاذِبُونَ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْكَذِبِ أَنْ يُخْبِرَ الْإِنْسَانُ بِضِدِّ مَا فِي قَلْبِهِ، وَهَذِهِ كَانَتْ حَالُهُمْ؛ وَقَرَأَ النَّاسُ: «أَيْمَانِهِمْ» جَمْعُ يَمِينٍ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ (٢): «إِيمَانُهُمْ» - بِكُسْرِ الْهَمْزَةِ -، وَالْجُنَّةُ: مَا يُتَسَتَّرُ بِهِ فِي الْأَجْرَامِ وَالْمَعَانِي.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ فِعْلِ اللَّهِ بِهِمْ فِي فَضْحِهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ سُوءِ مَا عَمِلُوا، فَالْمَعْنَى سَاءَ عَمَلُهُمْ بِأَن كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانٍ.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَٰعَجُوا وَاجْلَسُوهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُصْبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ فَتَنَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَهُمْ أَتَىٰ يَوْمَهُمْ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾ ﴿

(١) سقط في: د.

(٢) قال أبو الفتح: هذا على حذف المضاف، أي: اتخذوا إظهار إيمانهم جنة.

ينظر: «المحتسب» (٢/٣٢٢)، و«الكشاف» (٤/٥٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/٣١١)، و«البحر المحيط» (٨/٢٦٧).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ هذا توبيخ لهم؛ إِذْ كَانَ مَنْظَرُهُمْ يَرُوقُ جَمَالًا وَقَوْلُهُمْ يَخْلِبُ بَيَانًا؛ لَكُنْهُمْ كَالْخَشَبِ الْمُسْتَدَّةِ؛ إِذْ لَا أَفْهَامَ لَهُمْ نَافِعَةً، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُنَيْسٍ سَلُولَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَافِقِينَ، وَأَطُولُهُمْ، وَيدلّ على ذلك أَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ قَمِيصٌ يَكْسُو الْعَبَّاسَ غَيْرَ قَمِيصِهِ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لَاسْتِوَاءٍ خَلَقَهَا وَطُولَ قَامَتِهَا وَحُسْنَ صُورَتِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَسِيمًا صَبِيحًا فَصِيحًا ذَلِقَ اللِّسَانِ، فَإِذَا قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قوله ^(١)، وَوَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَمَامِ الصُّورَةِ وَحُسَنِ الْإِبَانَةِ، ثُمَّ شَبَّهَهُمُ بِالْخَشَبِ الْمُسْتَدَّةِ إِلَى الْحَاطِطِ، لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَفْقَهُونَ أَشْبَاحَ بِلَا أَزْوَاجٍ، وَأَجْسَامَ بِلَا أَحْلَامٍ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ هَذَا أَيْضًا فَضَحَ لِمَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنَ الْخَوْفِ/ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَأْمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ اللَّهِ بِقَتْلِهِمْ، قَالَ مَقَاتِلُ: فَكَانُوا ب ١٦٠ مَتَى سَمِعُوا نُشْدَانَ ضَالَةٍ، أَوْ صِيَاحًا بِأَيِّ وَجْهِ، أَوْ أَخْبَرُوا بِزُيُولِ وَخِي طَارَتْ عَقُولُهُمْ حَتَّى يَسْكُنَ ذَلِكَ وَيَكُونَ فِي غَيْرِ شَأْنِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ هُمُ الْعَدُوُّ وَحَدَّرَ مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دُعَاءٌ يَتَضَمَّنُ الْإِفْصَاءَ وَالْمُنَابَذَةَ لَهُمْ، وَ﴿أَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ مَعْنَاهُ كَيْفَ يُضَرَّفُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ...﴾ الْآيَةُ، سَبَبُ نُزُولِهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَزَا بَنِي الْمُضْطَلِقِ، فَازْدَحَمَ أَجِيرٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يُقَالُ لَهُ «جَهْجَاهُ» مَعَ سِنَانِ بْنِ وَبَرَةَ الْجُهَنِيِّ، حَلِيفٌ لِلْأَنْصَارِ، عَلَى الْمَاءِ فَكَسَعَ جَهْجَاهُ سِنَانًا فَتَنَّاوَرَا، وَدَعَا جَهْجَاهُ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَدَعَا سِنَانٌ: يَا لِلْأَنْصَارِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا بَالُ دَعَايَ الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَلَمَّا أَخْبِرَ بِالْقِصَةِ، قَالَ: دَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: أَوْقَدْ فَعَلُوهَا؟ وَاللَّهِ، مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُ جَلَابِيبِ قُرَيْشٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، وَقَالَ: لَيْتَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، ثُمَّ قَالَ: لِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَنَافِقِينَ: إِنَّمَا يُقِيمُ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ مَعَ مُحَمَّدٍ بِسَبَبِ مَعُونَتِكُمْ لَهُمْ، وَلَوْ قَطَعْتُمْ ذَلِكَ عَنْهُمْ؛ لَفَرُّوا، فَسَمِعَهَا مِنْهُ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَعَاتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي عِنْدَ رَجَالٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَجَاءَ وَحَلَفَ مَا قَالَ ذَلِكَ، وَحَلَفَ مَعَهُ قَوْمٌ مِنَ / الْمُنَافِقِينَ، وَكَذَّبُوا زَيْدًا، فَصَدَّقَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَبَقِيَ زَيْدٌ فِي مَنْزِلِهِ لَا يَنْصَرِفُ حَيَاءً مِنَ النَّاسِ ١٦١ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى زَيْدٍ وَقَالَ لَهُ: لَقَدْ صَدَّقَكَ اللَّهُ يَا زَيْدُ،

فَحَزَرِي عِنْدَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَمَقَّتَهُ النَّاسُ وَلَامَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ قَوْمِهِ، وَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ:
امْضِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاغْتَرِفْ بِذَنْبِكَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ، فَلَوَّى رَأْسَهُ إِتْكَاراً لِهَذَا الرَّأْيِ، وَقَالَ
لَهُمْ: لَقَدْ أَشْرَئْتُمْ عَلَيَّ بِالْإِيمَانِ فَأَمَنْتُ، وَأَشْرَئْتُمْ عَلَيَّ بِأَنْ أُعْطِيَ زَكَاةَ مَالِي فَفَعَلْتُ، وَلَمْ يَبْقَ
لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَأْمُرُونِي بِالسُّجُودِ لِمُحَمَّدٍ، فَهَذَا قَصَصُ هَذِهِ السُّورَةِ مُوجِزاً، وَقُرْأَ نَافِعٌ وَالْمُفَضَّلُ
عَنْ عَاصِمٍ: «لَوْأ» - بِتَخْفِيفِ الْوَاوِ - وَقُرْأَ الْبَاقُونَ بِتَشْدِيدِهَا.

وقوله تعالى: ﴿سِوَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتُ لَهُمْ...﴾ الآية، رَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا زِيْدَنَّ عَلَى
السَّبْعِينَ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ لَعَفَرْتُ لَهُمْ لَزِدْتُ، وَفِي
هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى رَفْضِ دَلِيلِ الْخَطَابِ، فَلَمَّا فَعَلَ ابْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ مَا فَعَلُوا شَدَّدَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ دُونَ حُدِّ فِي الْأَسْتَغْفَارِ.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا
الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ﴾ إشارة إلى ابنِ أَبِي وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ، ثُمَّ سَفِهَ تَعَالَى
أَحْلَامَهُمْ فِي أَنْ ظَنُّوا أَنَّ انْفِاقَهُمْ هُوَ سَبَبُ رِزْقِ الْمُهَاجِرِينَ، وَنَسُوا أَنَّ جَرَيَانَ الرِّزْقِ
بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذَا انْسَدَّ بَابُ انْفَتْحَ غَيْرُهُ ثُمَّ أَعْلَمَ تَعَالَى أَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ،
ب ١٦١ وَفِي ذَلِكَ وَعِيدٌ وَرُوي/ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا لَمَّا سَمِعَ
الْآيَةَ، جَاءَ إِلَى أَبِيهِ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ وَاللَّهُ يَا أَبَتِ الدَّلِيلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ الْعَزِيزُ، وَوَقَفَ عَلَى
بَابِ السُّكَّةِ الَّتِي يَسْلُكُهَا أَبُوهُ، وَجَرَّدَ السَّيْفَ وَمَتَّعَهُ الدُّخُولَ، وَقَالَ: وَاللَّهُ لَا دَخَلَ إِلَى
مَنْزِلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ فِي ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فِي أَذَلِّ حَالٍ، وَبَلَغَ ذَلِكَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَنْ خَلَّهْ يَمْضِي إِلَى مَنْزِلِهِ، فَقَالَ: أَمَّا الْآنَ، فَتَعَمَّنْ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْفَكَّ أَعْدَاكُمْ أَمْوَالُكُمْ يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا
أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾
الآية، الْإِلَهَاءُ: الْأَشْتِغَالُ بِمَلَذَ وَشَهْوَةٍ، وَذَكَرَ اللَّهُ هُنَا عَامًّا فِي الصَّلَوَاتِ، وَالتَّوْحِيدِ،

والدعاء، وغير ذلك مِنْ مَفْرُوضٍ، ومندوبٍ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وأنفقوا من ما رزقناكم﴾ عامٌ من المفروض والمندوب؛ قاله جماعة من المفسرين، قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «عيوب النفس»: وَمِنْ عيوبِها تضييع أوقاتها بالاشتغال بما لا يَغْنِي مِنَ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَالْحَوْضُ فِيهَا مَعَ أَهْلِهَا، وَمُدَاوَأُهَا أَنْ يَغْلَمَ أَنْ وَقْتَهُ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ فَيَشْغَلَهُ بِأَعَزِّ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ، وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُطَالَبَةُ الْإِخْلَاصِ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ»^(١) وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ مَنْصُورٍ: عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ فَإِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا شَغَلْتُكَ، انتهى.

وقوله: ﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾ طَلَبُ لِلْكَرَّةِ وَالِإِمْهَالِ، وَسَمَاءٌ قَرِيباً لِأَنَّهُ آتٍ، وَأَيْضاً فَإِنَّمَا يَتَمَنَّى ذَلِكَ لِيَقْضِيَ فِيهِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ فَقَطْ/ وليس يَتَسَيَّعُ الْأَمَلُ حِينَئِذٍ ١١٦٢ لِيَطْلُبَ الْعَيْشَ وَنَظَرَتِهِ. وقوله: ﴿وأكن من الصالحين﴾ ظاهره العموم، وقال ابن عباس: هو الحجج^(٢) وَرَوَى الترمذي عنه أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي الزُّكَاةَ وَلَا يَحُجُّ إِلَّا طَلَبَ الْكَرَّةَ عِنْدَ مَوْتِهِ^(٣)، قَالَ الثعلبي: قَالَ ابن عباس: ﴿إلى أجل قريب﴾ يريد مثل آجالنا في الدنيا^(٤)، انتهى، وقرأ أبو عمرو^(٥): «وَأَكُونُ»، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُوَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ حَصٌّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَمُسَابَقَةِ الْأَجَلِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (١١٠/١٢ - ١١١)، بأرقام (٣٤١٨١ - ٣٤١٨٢، ٣٤١٨٥)، وذكره ابن عطية (٥/٣١٥)، والبغوي (٤/٣٥١)، وابن كثير (٤/٣٧٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٤١)، وعزاه لابن المنذر.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٤١٨)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة المنافقون (٣٣١٦)، وابن جرير (١٢/١١٠) (١١٠/٣٤١٨٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٤٠)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني.

(٤) ذكره الفخر الرازي (١٠/١٧).

(٥) ينظر: «السبعة» (٦٣٧)، و«إعراب القراءات» (٢/٣٦٩)، و«حجة القراءات» (٧١٠)، و«العنوان» (١٩١)، و«شرح الطيبة» (٦/٥٦)، و«شرح شملة» (٦٠٣)، و«إتحاف» (٢/٥٤٠)، و«معاني القراءات» (٣/٧١).

[تفسير] سُورَةُ «التَّغَابُنِ»

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ وَقَالَ آخَرُونَ : مَكِّيَّةٌ

إِلَّا مِنْ قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، فإنه مَدَنِيٌّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْبِخُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَدُّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)

قوله تعالى : ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ أي : في أصل الخلق^(١)، وهذا يجري مع قول المَلَكِ : يَا رَبِّ، أَشَقِيئُ أَمْ سَعِيدٌ، الحديث، وذلك في بطن أمه، وقيل : الآية تعديدي نعم، فقوله : ﴿هو الذي خلقكم﴾ هذه نعمة الإيجاد، ثم قال : ﴿فمنكم كافر﴾ أي : بهذه النعمة؛ لجهله بالله، ﴿ومنكم مؤمن﴾ بالله، والإيمان به شكرٌ لنعمته، فالإشارة على هذا التأويل في الإيمان والكفر، هي إلى اكتساب العبد؛ وهذا قول جماعة، وقيل غير هذا.

وقوله تعالى : ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي : لم يخلقها عبثاً ولا لغير معنى.

وقوله تعالى : ﴿فأحسن صوركم﴾ هو تعديدي نعم، والمراد الصورة الظاهرة، وقيل : المراد صورة الإنسان المعنوية من حيث هو إنسان مُدْرِكٌ عاقلٌ، والأول أجزى على لغة العرب.

﴿الَّذِينَ يَأْتِيكُمُ النَّبِيُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَلَاءٍ وَرَبِّ لَيُبَئِثُنَّ ثُمَّ لَنَنْبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿الم/ يأتكم﴾ جَزَمَ أضله «يأتكم» والخطابُ في هذه الآية لقريش، ١٦٢ ب
ذُكِرُوا بِمَا حَلَّ بِعَادٍ وَثَمُودَ، وغيرهم ممن سَمِعَتْ قريشُ بِأخبارِهِم، وَوَبَالَ الْأَمْرِ: مكروهه
وما يسوء منه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْهُ﴾ إشارة إلى ذَوِّ الْوَبَالِ، وباقي الآية بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾ يريد قريشاً، ثم هي بَعْدُ تَعَمُّ كُلَّ
كافرٍ بالبعث، ولا تُوجَدُ (زَعَمَ) مستعملةً في فصيحِ الكلامِ إلا عبارةً عَنِ الْكَذِبِ، أو قولٍ
انْقَرَدَ به قائله.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ هذه الآيةُ دعاءٌ مِنَ اللَّهِ،
وتبليغٌ وتحذيرٌ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، والنُّورُ القرآنُ ومعانيه، ويَوْمُ الْجَمْعِ هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وهو
يَوْمُ التَّغَابُنِ يَغْنُبُ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ، نَحَا هَذَا الْمُنْحَى مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ (١).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ أَمْرَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ يحتملُ أن يريد المصائب التي هي زَرَايَا،
ويحتملُ أن يريد جميعَ الحوادثِ من خيرٍ وشرٍ، والكلُّ بِإِذْنِ اللَّهِ، والإِذْنُ هنا عبارةٌ عَنِ
العلمِ والإِرَادَةِ وَتَمَكِينِ الْوُقُوعِ.

(١) أخرجه الطبري (١٢/١١٥)، برقم: (٣٤١٩١)، وذكره ابن عطية (٥/٣١٩)، وابن كثير (٤/٣٧٥)،
والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٣٤)، وعزاه للفريايبي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد،
وابن المنذر عن مجاهد.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ قال فيه المفسرون: المعنى وَمَنْ آمَنَ وَعَرَفَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَعِلْمِهِ، هَانَتْ عَلَيْهِ مُصِيبَتُهُ وَسَلَّم لِأَمْرِ اللَّهِ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وعيد وَتَبَرُّتُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا أَرْزَأْتُمْ وَأَوْلَدْتُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا فَاتَّ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا أَرْوَاكُمْ﴾ إلى آخر السورة قرآن مدني واختلف في سببه، فقال عطاء بن أبي رباح: إِنَّهُ نَزَلَ فِي عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ، وذلك أَنَّهُ أَرَادَ غَزَاً ١١٦٣ مع النبي ﷺ، فَاجْتَمَعَ أَهْلُهُ وَأَوْلَادُهُ، وَتَشَكَّوْا إِلَيْهِ فِرَاقَهُ، فَفَرَّقَ لَهُمْ فَتَبَطُّوهُ وَلَمْ يَغْزُ، ثُمَّ إِنَّهُ نَدِمَ وَهُمْ بِمَعَاقِبَتِهِمْ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ^(١) بِسَبَبِهِ مُحَذَّرَةً مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ وَفِتْنَتِهِمْ. ثُمَّ صَرَفَ تَعَالَى عَنْ مَعَاقِبَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا﴾ وقال بعض المفسرين: سَبَبُ الْآيَةِ أَنَّ قَوْمًا آمَنُوا وَتَبَطُّهُمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ عَنِ الْهَجْرَةِ فَلَمْ يَهَاجِرُوا إِلَّا بَعْدَ مَدَّةٍ، فَوَجَدُوا غَيْرَهُمْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، فَتَدَمَّوْا وَهُمْ بِمَعَاقِبَةِ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ فِتْنَةٌ تَشْغُلُ الْمَرْءَ عَنْ مَرَاثِدِهِ، وَتَحْمِلُهُ مِنَ الرُّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا لَا يَحْمَدُهُ فِي آخِرَتِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مُجَبَّنَةٌ» ^(٢)، وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ حَدِيثًا فِي مُصْنَفِهِ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ حَتَّى جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَجْرَانِهِمَا، يَغُثَّرَانِ وَيَقُومَانِ، فَتَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمِنْبَرِ حَتَّى أَخَذَهُمَا، وَصَعِدَ بِهِمَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ: إِنِّي

(١) أخرجه الطبري (١٢/١٧٧)، برقم: (٣٤٢٠١)، وذكره ابن عطية (٥/٣٢٠).

(٢) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن سلام قال: جاء الحسن والحسين يستبقان إلى النبي ﷺ فضمهما إليه، وذكره، وللعسكري والحاكم عن الأسود بن خلف أن النبي ﷺ أخذ حسناً فقبله، ثم أقبل عليهما فقال: إن الولد مَجَبَّنَةٌ مَبْخَلَةٌ، وأحسبه قال: مَجْهَلَةٌ، وللعسكري أيضاً: عن أشعث بن قيس قال: مررت على النبي ﷺ، فقال لي: «ما فعلت بنتُ عمك؟» قلت: نُفِستُ بغلام، والله لوددت أن لي به سبعة، فقال: «أما لئن قلتُ إنهم لَمَجَبَّنَةٌ مَبْخَلَةٌ، وإنهم لقرة العين وثمرة الفؤاد»، وله أيضاً عن عمر بن عبد العزيز، قال: زعمت المرأة الصالحة خولة ابنة حكيم، أن رسول الله ﷺ خرج وهو يحتضن حسناً أو حسيناً، وهو يقول: «إِنَّكُمْ لَتَجَبَّنُونَ وَتُجْهَلُونَ، وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رِيحَانِ اللَّهِ»، وأخرجه أبو يعلى والبخاري بسند ضعيف عن أبي سعيد بلفظ: «الولد ثمرة القلب، وإنه مَبْخَلَةٌ مَجَبَّنَةٌ مَخْرَنَةٌ».

ينظر: «كشف الخفاء» (٢/٤٧٠).

رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَضِيرْ، ثُمَّ أَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ^(١)، قَالَ * ع^(٢) * : وَهَذِهِ وَنَحْوُهَا هِيَ فِتْنَةُ الْفَضْلَاءِ، فَأَمَّا فِتْنَةُ الْجُهَالِ السَّفَسَةِ؛ فَمُؤَدِّيَةٌ إِلَى كُلِّ فِعْلٍ مُهْلِكٍ، وَفِي «صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «هُمْ الْأَخْسَرُونَ، وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، هُمْ الْأَخْسَرُونَ، وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، قُلْتُ: مَا شَأْنِي أَيْرَى فِي شَيْئًا؟ فَجَلَسْتُ وَهُوَ يَقُولُ؛ فَمَا أَسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْكُتَ وَتَغَشَّانِي مَا شَاءَ اللَّهُ فَقُلْتُ: مَنْ هُمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمْ الْأَكْثَرُونَ مَالًا إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا^(٣)»/ وَفِي رَوَايَةٍ: «إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ ١٦٣ ب الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ، هَكَذَا وَهَكَذَا، - وَأَشَارَ ابْنُ شِهَابٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ -، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» انْتَهَى، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٦) إِنَّ تَقَرُّرَ اللَّهِ قَرَضًا حَسَنًا يُضْلِعُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَبْرِ الْحَكِيمِ ﴿١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ تَقَدَّمَ الْخِلَافُ هَلْ هَذِهِ الْآيَةُ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَتَّى تَقَاتِيَهُ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أَوْ لَيْسَتْ بِنَاسِخَةٍ، بَلْ هِيَ مُبَيِّنَةٌ لَهَا،

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٥٨/١)، كِتَابُ «الصَّلَاةِ» بَابُ: الْإِمَامُ يَقْطَعُ الْخُطْبَةَ لِلأَمْرِ يَحْدُثُ (١١٠٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٦٥٩/٥)، كِتَابُ «الْمَنَاقِبِ» بَابُ: مَنَاقِبُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (٣٧٧٤)، وَالنَّسَائِيُّ (١٠٨/٣)، كِتَابُ «الْجُمُعَةِ» بَابُ: نَزُولُ الْإِمَامِ عَنِ الْمِنْبَرِ قَبْلَ فَرَاغِهِ مِنْ خُطْبَتِهِ وَقَطْعِهِ كَلَامَهُ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ (١٤١٣)، (١٩٢/٣)، كِتَابُ «الْعِيدِينَ» بَابُ: نَزُولُ الْإِمَامِ عَنِ الْمِنْبَرِ قَبْلَ فَرَاغِهِ مِنَ الْخُطْبَةِ (١٥٨٥)، وَابْنُ مَاجَةَ (١١٩٠/٢)، كِتَابُ «اللباس» بَابُ: لبس الأحمر للرجال (٣٦٠)، وَأَحْمَدُ (٣٥٤/٥).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٠/٥).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣/١١)، كِتَابُ «الاستئذان» بَابُ: مَنْ أَجَابَ بِلَبِيكٍ وَسَعْدِيكَ (٦٢٦٨)، (١١/٥٣٣)، كِتَابُ «الْإِيمَانِ وَالنُّذُورِ» بَابُ: كَيْفَ كَانَ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ (٦٦٣٩)، وَمُسْلِمٌ (٦٨٦/٢)، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ: تَغْلِيظُ عَقُوبَةٍ مِنْ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ (٩٩٠/٣٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣/٣)، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ: مَا جَاءَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَنْعِ الزَّكَاةِ مِنَ التَّشْدِيدِ (٦١٧)، وَالنَّسَائِيُّ (١٠/٥)، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ: التَّغْلِيظُ فِي حِسِّ الزَّكَاةِ (٢٤٤٠)، وَأَحْمَدُ (١٥٢/٥)، (١٥٨ - ١٥٩)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٩٧/٤)، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ: جَمَاعُ أَبْوَابِ صَدَقَةِ الْبَقَرِ السَّائِمَةِ، (٢٧/١٠)، كِتَابُ «الْإِيمَانِ» بَابُ: الْحَلْفُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ اسْمُ مَنْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ (٩/٤)، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ: صِفَاتُ أُلُوَانِ عَذَابِ مَنْعِ الزَّكَاةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَبْلَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلْقِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِهِ (٢٢٥١)، وَالحَمِيدِيُّ (٧٧/١)، بِرَقْمٍ: (١٤٠)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» (٣٦٤/٧).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وَأَنْ الْمَعْنَى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ؛ وهذا هو الصحيح، قال الثعالبي: قال الربيع بن أنس: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: جَهْدَكُمْ، وقيل: معناه: إِذَا أُمَكَّنَكُمْ الْجِهَادُ وَالْهَجْرَةُ، فَلَا يُفَتِنَنَّكُمْ الْمَيْلُ إِلَى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَاسْمَعُوا مَا تُوعِظُونَ بِهِ، وَأَطِيعُوا فِيمَا تَوْمَرُونَ بِهِ^(١)، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْذُوقْ شَحْمَ نَفْسِهِ﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ، وَأَسْنَدَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْخَطِيبِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَغْصَانُهَا فِي الدُّنْيَا، فَمَنْ كَانَ سَخِيًّا أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا؛ فَلَمْ يَتْرُكْهُ الْغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَالشُّحُّ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ وَأَغْصَانُهَا فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ كَانَ شَحِيحًا، أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَلَمْ يَتْرُكْهُ الْغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ»^(٢) انتهى، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

(١) ذكره ابن كثير (٣٧٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٤/٧ - ٤٣٥) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، و (١٠٨٧٧) عن أبي هريرة، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٥٤٥/١)، وزاد نسبه إلى الديلمي في «الأفراد».

[تفسير] سُورَةُ الطَّلَاقِ

وَهِيَ مَدِينَةٌ

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] ^(١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنِيئَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَجْلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْتُمْ تُوعَظُ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَبِرِزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: إذا أردتم طلاقهن؛ قاله الثعلبي وغيره: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ وطلاق النساء حل/ عصمتهن، وصورة ذلك وتنويعه مما لا ١٦٤ يَخْتَصُّ بالتفسير، ومعنى ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ أي: لاستقبال عدتهن، وعبرة الثعلبي: أي: ليطهرهن الذي يُخَصِّصُهُ مِنْ عِدَّتِهِنَّ، وهو طهر لم يجامعها فيه، انتهى، قال * ع ^(٢) * : ومعنى الآية أن لا يطلق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسه فيه، وهذا على مذهب مالك ومن قال بقوله؛ القائلين بأن الأقراء عندهم هي الأطهار، فيطلق عندهم المطلق في طهر لم يمسه فيه، وتعد به المرأة، ثم تحيض حيضتين تعدت بالطهر الذي بينهما ثم تقيم في الطهر الثالث معتدة به، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حلت، ومن قال بأن الأقراء: الحيض وهم العراقيون، قال: ﴿لعدتهن﴾ معناه أن تطلق طاهراً فتستقبل بثلاث حيض كوايل فإذا رأت الطهر بعد الثالثة، حلت، والأصل في منع طلاق الحائض حديث ابن عمر، ثم أمر تعالى بإحصاء العدة لما يلحق ذلك من أحكام الرجعة والسكنى، والميراث، وغير ذلك، وعبرة الثعلبي: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: ا حفظوا عدد قروئها الثلاثة ونحوه تفسير ابن العربي؛ قال:

(١) سقط في: د.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٣٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ معناه اخفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق لما يترتب على ذلك من الأحكام، انتهى من «أحكامه»، ثم أخبر تعالى بأنهن أحق بسكنى بيوتهن التي طلقن فيها فنهى سبحانه عن إخراجهن وعن خروجهن، وسنة ذلك ألا تبيت عن بيتها ولا تبغيب عنه نهائراً إلا في ضرورة وما لا خطب له من جائز/ التصريف، وذلك لحفظ النسب والتحرز بالنساء، واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ فقال الحسن وغيره: ذلك الزنا فيخرجن للحد^(١)، وقال ابن عباس: ذلك البذاء على الأحماء، فتخرجن ويسقط حقها من المسكن، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذ حفظاً للنسب^(٢)، وفي مصحف^(٣) أبي «إِلَّا أَنْ يَفْخُشْنَ عَلَيْكُمْ» وعبارة الثعلبي: عن ابن عباس: «إِلَّا أَنْ تَبْذَوْ عَلَى أَهْلِهَا فَيَحِلَّ لَهُمْ إِخْرَاجُهَا»، انتهى، وهو معنى ما تقدم، وقرأ الجمهور: «مُبَيِّنَةٍ» - بكسر الياء -، تقول بأن الشيء وبيّن بمعنى واحد إلا أن التضعيف للمبالغة، وقرأ عاصم^(٤): «مُبَيِّنَةٍ» - بفتح الياء -.

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع أوامره في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قال قتادة وغيره: يريد به الرجعة، أي: أخصوا العدة وامثلوا ما أمرتم به تجدوا المخلص إن ندمتم؛ فإنكم لا تدرون لعل الرجعة تكون بعد^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾ يريد به آخر القروء، «فأمسكوهن بمعروف» وهو حسن العشرة، «أو فارقوهن بمعروف» [وهو] أداء جميع الحقوق، والوفاء بالشروط حسب نازلة نازلة، وعبارة الثعلبي: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾ أي: أشرفن على انقضاء عدتهن، انتهى وهو حسن.

(١) أخرجه الطبري (١٢/١٢٥ - ١٢٦)، برقم: (٣٤٢٥٢)، و (٣٤٢٥٥)، وذكره ابن عطية (٥/٣٢٣)،

وابن كثير (٤/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٣٥٢)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن.

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٣٢٣)، وابن كثير (٤/٣٧٨)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٣٥٢)، وعزاه

لعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/٥٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/٣٢٣).

(٤) ينظر: «العنوان» (١٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/٣٢٣)، وإنما قرأ بها عاصم من رواية أبي بكر، وكذلك قرأ بها ابن كثير.

(٥) أخرجه الطبري (١٢/١٢٨)، بأرقام (٣٤٢٦٤، ٣٤٢٦٦)، وذكره ابن عطية (٥/٣٢٣)، وابن كثير (٤/٣٧٨).

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يريد: على الرَّجْعَةِ وذلك شَرْطٌ في صحة الرَّجْعَةِ، وَتَمْنَعُ الْمَرْأَةُ الزَّوْجَ مِنْ نَفْسِهَا حَتَّى يُشْهَدَ، وقال ابن عباس: عَلَى الرَّجْعَةِ وَالطَّلَاقِ مَعًا^(١)، قال النخعي: الْعَدْلُ مَنْ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ رِيبَةٌ^(٢)، والعدلُ حَقِيقَةٌ/ الذي لا ١١٦٥ يخاف إلا الله.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أمرٌ للشهود.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ﴾ إشارةٌ إلى إقامة الشهادة؛ وذلك أَنَّ فُصُولَ الْأَحْكَامِ تدور على إقامة الشهادة.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ قال بعض رواة الآثار، نزلت هذه الآية في عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ؛ أَسِيرَ وَلَدَهُ وَقَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَهُ بِالتَّقْوَى، فلم يلبث أن تَفَلَّتْ وَلَدُهُ وَأَخَذَ قُطِيعَ غَنَمٍ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ أَسْرَوْهُ، فَسَأَلَ عَوْفُ النَّبِيَّ ﷺ: أَتَطِيبُ لَهُ تِلْكَ الْغَنَمُ؟ فقال: نَعَمْ^(٣)، قال أبو عمر بن عبد البر: قال النبي ﷺ: «أَبَى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَجْعَلَ أَرْزَاقَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ»^(٤) وقال - عليه السلام - لابن مسعود: «لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ، يَا عَبْدَ

(١) أخرجه الطبري (١٢/١٢٩)، برقم: (٣٤٢٧٦)، وذكره ابن عطية (٥/٣٢٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٣٢٤)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه الحاكم (٢/٤٩٢).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ١ هـ.

قال الذهبي - معقباً على كلام الحاكم -: بل منكر وعباد رافضي جبل، وعبيد متروك، قاله الأزدي. ١ هـ.

(٤) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/٣٤ - ٣٥)، بلفظ: «أَبَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ»، وقال في «التمميز» تبعاً للأصل: أخرجه الديلمي من حديث أبي هريرة من رواية عمر بن راشد وهو ضعيف جداً، وقال البيهقي: ضعيف بالمرّة، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، وزاد في الأصل: ورواه القضاعي في «مسنده» فقال: اجتمع أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، فتمارزوا في شيء، فقال لهم علي: انطلقوا بنا إلى رسول الله، فلما وقفوا عليه قالوا: يا رسول الله، جئنا نسألك عن شيء، فقال: «إِنْ شِئْتُمْ، فَسْأَلُوا، وَإِنْ شِئْتُمْ خَبِرْتُمْ بِمَا جِئْتُمْ لَهُ»، فقال لهم: «جِئْتُمْ تَسْأَلُونِي عَنِ الرِّزْقِ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي؟ وكيف يَأْتِي؟»، فذكر: أَبَى اللَّهُ - الحديث المذكور -، ورواه الديلمي كما في «الدر» عن أبي هريرة: بلفظ: «أَبَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»، ورواه العسكري، وابن ماجه بسند ضعيف عن علي رفعه إنما تكون الصنعة إلى ذي دين أو حسب، وجهاد الضعفاء الحج، وجهاد المرأة حسن الثَّيْلِ لزوجها، والتودد نصف الإيمان، وما علل أمر على اقتصاد، واستنزوا الرزق بالصدقة، وأبى الله إلا أن يجعل أرزاق عباده المؤمنين من حيث لا يحتسبوا. قال النجم: ولا يصح شيء منها انتهى. وأقول: الحديث بطرقه معناه صحيح وإن كان ضعيفاً، ففي التنزيل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ والمعنى: كما قال البيهقي وغيره: - أَبَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ أَرْزَاقَ

اللَّهُ؛ مَا يُقَدَّرُ يَكُنْ وَمَا تُرْزَقُ يَأْتِكَ^(١)، وعنه عليه السلام «اسْتَزِلُّوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ»^(٢)، انتهى من كتابه المسمى بـ «بهجة المجالس وأنس المجالس».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ هذه الآيات كلها عِظَةٌ لجميع الناس، ومعنى حَسْبُهُ: كَافِيهِ. وقال ابن مسعود: هذه أَكْثَرُ الآيات حَضًّا على التفويض لله^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ بَيَّانٌ، وَحَضٌّ عَلَى التَّوَكُّلِ، أَي: لَا بُدَّ مِنْ نَفُوذِ أَمْرِ اللَّهِ؛ تَوَكَّلْتُ أَيُّهَا الْمَرْءُ أَوْ لَمْ تَتَوَكَّلْ؛ قَالَهُ مَسْرُوقٌ؛ فَإِنْ تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ كَفَاكَ وَتَعَجَّلْتَ الرَّاحَةَ وَالْبَرَكَهَ، وَإِنْ لَمْ تَتَوَكَّلْ وَكَلَّكَ إِلَى عَجْزِكَ وَتَسَخُّطِكَ، وَأَمْرُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْوَجْهِينَ نَافِذٌ.

﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿١﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَتَزَلُّهُ إِيَّاكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٢﴾ أَتَسْكُنُونَهُ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا رِزْقَهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى ﴿٣﴾﴾

وقوله سبحانه: / ﴿وَاللَّاتِي يَسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ...﴾ الآية، «اللاتي» جمع «التي» والبيانات من المحيض على مراتب؛ مَحَلٌّ بِسَطْحِهَا كُتِبَ الْفِقْهُ، وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ خَالِدٍ؛ أَنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَخَلَادُ بْنُ الثَّعْمَانِ، لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛

عباده من حيث يحتسبون، وهو كذلك، فإن الله تعالى يرزق عباده على حيث يحتسبون تارة كالتجارة والحراثة، وتارة يرزقهم من حيث لا يحتسبون، كالرجل يصيب معدناً، أو ركازاً، أو يرث قريباً له يموت، أو يعطيه أحد ماله من غير استشراف نفس ولا سؤال، وآية ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ليس فيها حصر فليتأمل!!

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٥٢٣)، وقال: رواه أبو نعيم عن خالد بن رافع، وهو مختلف في صحبته، والأصبهاني في «ترغيبه» عن مالك بن عمرو المغافري مرسلاً، ولأبي نعيم أيضاً عن أنس قال: خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما لامني فيما نسيت ولا فيما ضيَّعت، فإن لامني بعض أهله قال: دَعُوهُ، فما قُدِّرَ فهو كائن، وفي رواية: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، وكان بعض أهله إذا قال لي شيئاً قال: دَعُوهُ، فما قُدِّرَ سيكون.

(٢) انظر الحديث قبل السابق.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/١٣٢)، برقم: (٣٤٢٩٧)، وذكره ابن عطية (٥/٣٢٤).

فَمَا عِدَّةٌ مِنْ لَا قَرَاءَ لَهَا؛ مِنْ صِغَرٍ أَوْ كِبَرٍ^(١)، فنزلت هذه الآية، فقال قائل منهم: فَمَا عِدَّةُ الْحَامِلِ فنزلت: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهو لفظٌ يَعُمُّ الحوامل المطلقات والمعتدات من الوفاة، والارتباب المذكور قيل: هو بأمر الحمل.

وقوله سبحانه: ﴿أَسْكَنْهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكْتُمْ...﴾ الآية، أمر بإسكان المطلقات ولا خلاف في ذلك؛ في التي لَمْ تَبْتَ وَأَمَّا الْمَبْتُوتَةُ؛ فَمَالِكٌ يَرَى لَهَا السُّكْنَى لِمَكَانٍ حِفْظِ النِّسْبِ، وَلَا يَرَى لَهَا نَفَقَةً؛ لِأَنَّ النِّفَقَةَ يَأْزَاءُ الْإِسْتِمْتَاعِ، وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكْتُمْ﴾ أي: فِي مَسَاكِنِكُمْ الَّتِي طَلَقْتُمُوهُنَّ فِيهَا، انْتَهَى، وَالْوَجْدُ السُّعَّةُ فِي الْمَالِ، وَأَمَّا الْحَامِلُ فَلَا خِلَافَ فِي وَجُوبِ سُكْنَاهَا وَنَفَقَتِهَا؛ بَتَتْ أَوْ لَمْ تَبْتَ؛ لِأَنَّهَا مُبَيَّنَّةٌ فِي الْآيَةِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي نَفَقَةِ الْحَامِلِ الْمُتَوَقَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، هَلْ يُنْفَقُ عَلَيْهَا مِنَ التَّرَكَةِ، أَمْ لَا، وَكَذَلِكَ التَّفَقُّهُ عَلَى الْمَرْضِعِ الْمَطْلُوقَةِ وَاجِبَةٌ، وَبَسَطُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْفَقْهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي لِيَأْمُرَ كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ بِخَيْرٍ، وَلِيَقْبَلَ كُلُّ أَحَدٍ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ﴾ أي: تَشَطَّطَتْ^(٢) المرأة في الحد الذي يكون أجره على الرضاع، فللزَّوْجِ أَنْ يَسْتَرْضِعَ/ بِمَا فِيهِ رَفْقُهُ إِلَّا أَلَّا يَقْبَلَ الْمَوْلُودَ غَيْرَ أُمِّهِ، فَتُجَبَّرُ هِيَ ١١٦ جَبْدًا عَلَى رَضَاعِهِ بِأَجْرَةِ مِثْلِهَا وَمِثْلُ الزَّوْجِ فِي حَالِهِمَا وَغَنَاهُمَا.

* ت * وهذا كله في المطلقة الباتن، قال ابن عبد السلام من أصحابنا: الضمير في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ عائِدٌ عَلَى الْمَطْلُوقَاتِ وَكَذَلِكَ قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وَأَمَّا ذَاتُ الزَّوْجِ أَوْ الرَّجْعِيَّةُ، فَيَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَرْضِعَ مِنْ غَيْرِ أَجْرٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ شَرِيفَةً فَلَا يُلْزَمُهَا ذَلِكَ، انْتَهَى.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّتْهَا عَذَابًا ثَكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا حُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْآلِيبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ

(١) ذكره ابن عطية (٣٢٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٨/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر من طريق الثوري.

(٢) الشَّطَطُ: مجاوزة القدر في بيع أو طلب أو احتكام أو غير ذلك من كل شيء.
ينظر: «لسان العرب» (٢٢٦٣).

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ...﴾ الآية، عَدَلَ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ لِثَلَا تَضِيعَ هِيَ وَلَا يُكَلِّفَ هُوَ مَا لَا يُطِيقُ، ثُمَّ رَجَّى تَعَالَى بِالْيُسْرِ تَسْهِيلاً عَلَى النَفُوسِ وَتَطْيِيباً لَهَا.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ﴾ الثعلبي: وكأين: أي: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ، ﴿عَتَتْ﴾ أي: عَصَتْ.

وقوله: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ قال * ع^(١) *: قال بعض المتأولين: الآية في أحوال الآخرة، أي: ثُمَّ هُوَ الْحِسَابُ وَالتَّعْذِيبُ وَالدُّوْقُ وَخَسَارُ الْعَاقِبَةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَعْنَى ﴿حَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ أي: لَمْ تُغْتَفَرْ لَهُمْ زَلَّةٌ، بَلْ أُخِذَتْ بِالْذَّقَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ، ثُمَّ نَذَبَ تَعَالَى أُولَى الْأَبَابِ إِلَى التَّقْوَى تَحْذِيراً.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ رسولاً * اختَلَفَ فِي تَقْدِيرِهِ، وَأَبَيَّنَ الْأَقْوَالِ فِيهِ مَعْنَى أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ الْقُرْآنُ، وَالرَّسُولُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَالْمَعْنَى وَأَرْسَلَ رَسُولاً لَكُنَّ الْإِيجَازَ اقْتَضَى اخْتِصَارَ الْفِعْلِ النَّاصِبِ لِلرَّسُولِ؛ وَنَحَا هَذَا الْمَنْحَى السَّيِّئُ، وَسَائِرُ الْآيَةِ بَيْنَ (٢).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ ﴿١٣﴾

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لا خِلَافَ بَيْنَ ١٦٦ ب الْعُلَمَاءِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعٌ وَأَمَّا الْأَرْضُ فَالْجُمْهُورُ: عَلَى أَنَّهَا سَبْعُ أَرْضِينَ، وَهُوَ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَإِنَّمَا الْمُمَازِلَةُ فِي الْعَدَدِ، وَبَيَّنَّاهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ غَصَبَ شِبْرًا مِنْ أَرْضٍ طَوَّقَهُ اللَّهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا وَرَدَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ، وَرُويَ عَنْ قَوْمٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ مِمَازِلَةُ لِكُلِّ سَمَاءٍ بِانْفِرَادِهَا فِي ارْتِفَاعِ جُزْمِهَا، وَفِي أَنَّ فِيهَا عَالِماً يَعْبُدُ اللَّهَ كَمَا فِي كُلِّ سَمَاءٍ عَالَمٌ يَعْبُدُ اللَّهَ.

وقوله سبحانه: ﴿يَنْتَزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الْأَمْرُ هُنَا يَعْمُ الْوَحْيُ وَجَمِيعُ مَا يَأْمُرُ بِهِ سَبْحَانَهُ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٧/٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/١٤٤)، برقم: (٣٤٣٦٩)، وذكره ابن عطية (٣٢٧/٥).

من تَضْرِيفِ الرياحِ، والسحابِ، وغير ذلك من عجائب صنعه؛ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَبَاقِي السُّورَةِ وَغَطُّ وَحَضُّ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ - عز وجل - .

وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عُمُومٌ معناه الْخُصُوصُ فِي الْمَقْدُورَاتِ .

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عُمُومٌ عَلَى إِطْلَاقِهِ .

[تفسير] سُورَةُ التَّخْرِيمِ

وَهِيَ مَدِينَةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ تَبَيَّنَىٰ رِضَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ مَحَلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ ۝٣ إِنَّ نَبُوءًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكُوتِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ فَاِتِّمَاتِ تَبَيَّنَتْ عَلَيْكَ سَوَاحِطُ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...﴾ الآية، وفي الحديث مِنْ طُرُقٍ مَا مَعْنَاهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى بَيْتِ حَفْصَةَ، فَوَجَدَهَا قَدْ مَرَّتْ لَزِيَارَةِ أَبِيهَا، فَدَعَا ﷺ جَارِيَتَهُ مَارِيَّةَ، فَقَالَ مَعَهَا، فَجَاءَتْ حَفْصَةُ وَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَفِي بَيْتِي وَعَلَى فِرَاشِي؟ فَقَالَ لَهَا ﷺ: مَرْضِيًّا لَهَا: «أَيُضِيكِ أَنْ أُحَرِّمَهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ؛ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ حَرَّمْتُهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَقَالَ مَعَ ذَلِكَ: وَاللَّهِ، لَا أَطُوهَا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: لَا تُخْبِرِي بِهِذَا أَحَدًا^(١)، ثُمَّ إِنَّ حَفْصَةَ قَرَعَتْ الْجِدَارَ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَائِشَةَ، وَأَخْبَرَتْهَا لِشِرِّهَا بِالْأَمْرِ، وَلَمْ تَرَ فِي إِفْشَائِهِ إِلَيْهَا حَرَجًا، وَأَسْتَكْتَمَتْهَا، / فَأَوْحَى اللَّهُ بِذَلِكَ إِلَى نَبِيِّهِ، وَنَزَلَتْ الْآيَةُ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ هَذَا التَّخْرِيمَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ؛ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ الْعَسَلِ الَّذِي شَرِبَهُ ﷺ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَتَمَالَاتُ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَسَوَدَةُ عَلَى أَنْ يَقُولَ لَهُ؛ مَنْ دَنَا مِنْهَا: إِنَّا نَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرٍ، أَأَكَلْتَ مَغَافِيرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَالْمَغَافِيرُ: صَمْعُ الْعُرْفُطِ، وَهُوَ حُلُوُ كَرِيهِ الرَّائِحَةِ، فَفَعَلَنَ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: مَا أَكَلْتُ مَغَافِيرَ، وَلَكِنِّي شَرِبْتُ عَسَلًا، فَقُلْنَ لَهُ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطُ^(٢)؟ فَقَالَ: ﷺ لَا أَشْرَبُهُ أَبَدًا، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ تُوْجَدَ مِنْهُ رَائِحَةُ كَرِيهِةٍ، فَدَخَلَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى زَيْنَبَ فَقَالَتْ: أَلَا أَسْقِيكَ مِنْ ذَلِكَ الْعَسَلِ؟ فَقَالَ:

(١) أخرجه الطبري (١٢/١٤٨ - ١٤٩)، برقم: (٣٤٣٩٢)، (٣٤٣٩٧)، وذكره ابن كثير (٤/٣٨٦)،

والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٦٧)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر.

(٢) العُرْفُطُ: شجر الطلح، وله صمغ كرية الرائحة، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه.

ينظر: «المنهاج» (٣/٢١٨).

لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: تَقُولُ سَوْدَةُ حِينَ بَلَعْنَا أَمْتِنَاغُهُ: وَاللَّهِ، لَقَدْ حَرَمْنَاهُ، فَقُلْتُ لَهَا: أَسْكُتِي، قَالَ * ع^(١) *: وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ مَارِيَةِ أَصْحَ وَأَوْضَحَ، وَعَلَيْهِ تَفَقُّهُ النَّاسُ فِي الْآيَةِ، وَمَتَى حَرَّمَ الرَّجُلُ مَالًا أَوْ جَارِيَةً فَلَيْسَ تَحْرِيمُهُ بِشَيْءٍ، * ت *: وَالْحَدِيثُ الثَّانِي هُوَ الصَّحِيحُ خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا، وَدَعَا اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِاسْمِ النَّبُوءَةِ الَّذِي هُوَ دَالٌّ عَلَى شَرَفِ مَنْزِلَتِهِ وَفَضِيلَتِهِ الَّتِي خَصَّهُ بِهَا، وَقَرَّرَهُ تَعَالَى كَالْمُعَاتِبِ لَهُ عَلَى تَحْرِيمِهِ عَلَى نَفْسِهِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ غَفَرَ لَهُ تَعَالَى مَا عَاتَبَهُ فِيهِ وَرَحِمَهُ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾ أي: بَيَّنَّ وَأَثَبَتْ، فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَكْفِيرِ التَّحْرِيمِ، وَقَالَ آخَرُونَ هِيَ: إِشَارَةٌ إِلَى تَكْفِيرِ الْيَمِينِ الْمُقْتَرِنَةِ بِالتَّحْرِيمِ، وَالتَّحِلَّةُ مَضْدَرٌ وَزَنْهَا «تَفَعَّلَ» وَأَذْعَمَ لِاجْتِمَاعِ الْمُثْلِينَ، وَأَحَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْآيَةِ الَّتِي ١٦٧ ب فُسِّرَ فِيهَا الْإِطْعَامُ فِي كِفَارَةِ الْيَمِينِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْمَوْلَى الْمُوَالِي النَّاصِرُ.

﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يَعْنِي حَفْصَةَ ﴿حَدِيثًا﴾ قَالَ الْجُمْهُورُ الْحَدِيثُ هُوَ قَوْلُهُ فِي أَمْرِ مَارِيَةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ قَوْلُهُ: إِنَّمَا شَرِبْتُ عَسَلًا.

وقوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾ الْمَعْنَى مَعَ شِدِّ الرَّاءِ: أَعْلَمَ بِهِ وَأَثَبَ عَلَيْهِ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ، أَي: تَكْرُمًا وَحَيَاءً وَحُسْنَ عَشْرَةٍ، قَالَ الْحَسَنُ: مَا اسْتَقْصَى كَرِيمٌ قَطُّ^(٢)، وَالْمَخَاطَبَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ هِيَ لِحَفْصَةَ وَعَائِشَةَ، وَفِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ، وَغَيْرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ: مِنَ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ^(٣).

وقوله: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ مَعْنَاهُ مَالَتْ، وَالصَّغْيُ الْمِيلُ، وَمِنْهُ أَصْعَى إِلَيْهِ بِأُذُنِهِ، وَأَصْعَى الْإِنَاءَ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٤): «فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا» وَالزَّيْغُ: الْمِيلُ وَعُرْفُهُ فِي خِلَافِ الْحَقِّ، وَجَمَعَ الْقُلُوبَ مِنْ حَيْثُ الْإِثْنَانِ جَمْعٌ، * ص *: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ الْقِيَاسُ فِيهِ: قَلْبَاكُمَا مُثْنًى، وَالْجَمْعُ أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا وَحُسْنُهُ إِضَافَتُهُ إِلَى مَثْنًى، وَهُوَ ضَمِيرُهُمَا؛ لِأَنَّهُمْ كَرِهُوا اجْتِمَاعَ تَشْيِئَتَيْنِ، انْتَهَى، وَمَعْنَى الْآيَةِ إِنْ تُبَيَّنَّا فَقَدْ كَانَ مِنْكُمَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَابَ مِنْهُ، وَهَذَا الْجَوَابُ الَّذِي لِلشَّرْطِ هُوَ مُتَقَدِّمٌ فِي الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا تَرْتَّبَ جَوَابًا فِي اللَّفْظِ، ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا﴾ مَعْنَاهُ: تَتَعَاوَنَا وَأَصْلُ: ﴿تَظَاهَرَا﴾ تَتَظَاهَرَا، ﴿مَوْلَاهُ﴾ أَي: نَاصِرُهُ، ﴿وَجَبْرِيلُ﴾

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٣٠/٥).

(٢) ذكره البغوي (٣٦٤/٤)، وابن عطية (٣٣١/٥).

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٥٦٦/٤)، و«المحرر الوجيز» (٣٣١/٥)، و«البحر المحيط» (٢٨٦/٨)، و«الدر

المصون» (٣٣٥/٦).

وَمَا بَعْدَهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَظْفاً عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَبْرِيلُ رُفْعاً بِالْإِبْتِدَاءِ وَمَا بَعْدَهُ عَظْفٌ عَلَيْهِ وَ﴿ظَهِيرٌ﴾ هُوَ الْخَبِيرُ، وَخَرَجَ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(١)، انْتَهَى، وَ﴿قَانِتَاتٌ﴾ مَعْنَاهُ مُطِيعَاتٌ، وَالسَّائِحَاتُ قِيلَ: مَعْنَاهُ صَائِمَاتٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: / مُهَاجِرَاتٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ذَاهِبَاتٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَشُبِّهَ الصَّائِمُ بِالسَّائِحِ مِنْ حَيْثُ يَنْهَجِلُ السَّائِحُ وَلَا يَنْظُرُ فِي زَادٍ وَلَا مَطْعَمٍ، وَكَذَلِكَ الصَّائِمُ يُنْسِيكَ عَنْ ذَلِكَ، فَيَسْتَوِي هُوَ وَالسَّائِحُ فِي الْإِمْتِنَاعِ، وَشُظِّفَ الْغَيْشُ لِفَقْدِ الطَّعَامِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِلَّا تَجْعَلُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ تُوهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَاْمَنِيهِمْ يَقُولُونَ بَرَكَاتٌ رَبِّكَ إِنَّمَا لَنَا تُوْبَةٌ وَأَعْتَفْنَا لَنَّا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَمِنْهَا مَصِيرٌ﴾ (٤)

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ الآية، ﴿قُوا﴾ معناه اجْعَلُوا وَقَايَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّارِ، وقوله: ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ معناه بِالْوَصِيَّةِ لَهُمْ وَالتَّقْوِيمَ وَالْحَمْلَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَالَ: يَا أَهْلَاهُ صَلَاتِكُمْ، صِيَامِكُمْ، [زَكَاتِكُمْ]، مَسْكِينِكُمْ، يَتِيمِكُمْ»^(٢) * ت * : وَفِي «الْعَتَبِيَّة» عَنْ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِي أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ لَمُخْفِقُ الطَّيْرِ سَبْعِينَ عَامًا»^(٣)، انْتَهَى، وَبَاقِي الْآيَةِ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ، نَجَانًا لِلَّهِ مِنْ عَذَابِهِ بِفَضْلِهِ، وَالتَّوْبَةُ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَهِيَ النَّدَمُ عَلَى فَارِطِ الْمَعْصِيَةِ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ مِثْلِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، هَذَا مِنَ الْمَتَمَكِّنِ، وَأَمَّا غَيْرُ الْمَتَمَكِّنِ كَالْمَجْبُوبِ فِي الزُّنَا فَالنَّدَمُ وَحْدَهُ يَكْفِيهِ، وَالتَّوْبَةُ عِبَادَةٌ كَالصَّلَاةِ، وَغَيْرَهَا، فَإِذَا تَابَ الْعَبْدُ وَحَصَلَتْ تَوْبَتُهُ بِشَرْطِهَا وَقَبِلَتْ، ثُمَّ عَاوَدَ الذَّنْبَ فَتَوْبَتُهُ الْأُولَى لَا تَفْسُدُهَا عَوْدَةٌ بَلْ هِيَ كَسَائِرِ مَا تَحْصُلُ مِنْ

(١) أخرجه الطبري (١٥٥/٦)، برقم: (٣٤٤٢٥)، (٣٤٤٢٧)، وذكره ابن عطية (٣٣٢/٥)، وذكره ابن كثير (٣٩٠/٤).

(٢) ذكره الزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار» (٦٦/٤)، وقال: غريب.

(٣) تقدم تخريجه.

العبادات، والنُّصُوح بناءً مبالغٍ من التُّضَح، أي: توبة نَصَحَتْ صَاحِبَهَا، وأرشدته، وعن عمر: التوبة النصوح: هي أن يتوب ثم لا يعود ولا يريد أن يعود^(١)، وقال أبو بكر الوراق، هي أن تَضِيقَ عَلَيْكَ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبْتَ كِتَابَةَ الَّذِينَ خُلِفُوا. وَرَوِي/ في معنى قوله تعالى: ١٦٨ ب «يوم لا يخزي الله النبي» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَضَرَّعَ مَرَّةً إِلَى اللَّهِ - عز وجل - في أَمْرِ أُمَّتِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنْ شِئْتَ جَعَلْتُ حِسَابَهُمْ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِذْنٌ لَا أَخْزِيكَ فِيهِمْ^(٢).

وقوله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يَحْتَمِلُ: أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى النَّبِيِّ فَيُخْرِجُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْخِزْي، وَيَحْتَمِلُ: أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً، و﴿نُورُهُمْ يَسْعَى﴾: جَمْلَةٌ هِيَ خَبْرُهُ، وقولهم: ﴿أَنْتُمْ لَنَا نُورًا﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: هو عِنْدَمَا يَرَوْنَ مِنْ انْطِقَاءِ نُورِ الْمُنَافِقِينَ^(٣) حَسْبَمَا تَقْدِمُ تَفْسِيرَهُ، وَقِيلَ: يَقُولُهُ مِنْ أَعْطَى مِنَ النُّورِ بِقَدَرِ مَا يَرَى مَوْضِعَ قَدَمِهِ فَقَطْ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ مِمَّا تَقْدِمُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوَارِ الْمَظْلَمِينَ ﴿١١﴾﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِينِ ﴿١٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ...﴾ الْآيَةُ، هَذَانِ الْمَثَلَانِ اللَّذَانِ لِلْكَفَارِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعْنَاهُمَا: أَنَّ مَنْ كَفَرَ لَا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْفَعُهُ سَبَبٌ، وَإِنَّ مَنْ آمَنَ لَا يَدْفَعُهُ عَنْ رِضْوَانِ اللَّهِ دَافِعٌ وَلَوْ كَانَ فِي أَسْوَأِ مَنْشَأٍ وَأَحْسَنِ حَالٍ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ فِي الْمَثَلَيْنِ عِبْرَةً لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ بَعِيدٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: «خَانَتَاهُمَا»: أَيِ فِي الْكُفْرِ^(٤)، وَفِي أَنَّ امْرَأَةَ نُوحٍ كَانَتْ تَقُولُ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَأَنَّ امْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتْ تَنْتُمُ

(١) أخرجه الطبري (١٥٦/٦)، برقم: (٣٤٤٤٤)، والبيهقي (٣٦٧/٤)، وابن عطية (٣٣٤/٥)، وابن كثير (٣٩٢/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٧٦/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٣٤/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٥٩/١٢)، برقم: (٣٤٤٥٧ - ٣٤٤٥٨)، وذكره ابن عطية (٣٣٤/٥)، وابن كثير (٣٩٢/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٣٥/٥)، وابن كثير (٣٩٣/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٣٧٧/٦)، وعزاه

إلى قَوْمِهَا خَيْرَ أَضْيَافِهِ، قال ابن عباس: وَمَا بَعَثَ رَوْجَةً نَبِيٍّ قَطُّ^(١)، وامرأة فرعون اسمُها آسية، وقولها: ﴿وَعَمَلِهِ﴾ تعني كُفْرَهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ.

وقوله: ﴿التي أحصنت فرجها﴾ الجمهور أنه فَرْجُ الدَّعِ، وقال قوم: هو الفَرْجُ الجَارِحَةُ وإحصائه صَوْنُهُ.

وقوله سبحانه: ﴿فَنفَخْنَا فِيهِ﴾ عبارة عَنْ فِعْلِ جَبْرِيلَ، / * ت * : وقد عَكَسَ - رحمه الله - نَقَلَ مَا نَسَبَهُ للجمهور في سورة الأنبياء فقال: الْمَعْنَى وَاذْكُرِ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا وهو الجَارِحَةُ المعروفة، هذا قول الجمهور، انظر بقية الكلام هناك.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، كما تقول بَيِّتَ اللَّهِ، وَنَافَقَ اللَّهَ، وكذلك الرُّوحُ الجنسُ كُلُّهُ هو روح الله، وقرأ الجمهور^(٢): ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ بِالْجَمْعِ فَيَقْوِي أَنْ يَرِيدَ التَّوْرَةَ، ويحتملُ أَنْ يَرِيدَ أَمْرَ عِيسَى، وَقَرَأَ الجحدري^(٣): «بِكَلِمَةٍ» فَيَقْوِي أَنْ يَرِيدَ أَمْرَ عِيسَى، ويحتملُ أَنْ يَرِيدَ التَّوْرَةَ، فتكون الكلمة اسم جنس، وقرأ نافع^(٤) وغيره: «وَكِتَابِهِ» وقرأ أبو عمرو وغيره: «وَكُتْبِهِ» - بضم التاء - وَالْجَمْعُ، وذلك كُلُّهُ مرادُ به التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، قال الثعلبي: واختار أبو حاتم قراءة أبي عمرو بِالْجَمْعِ لعمومها، واختار أبو عبيدة قراءة الإفراد؛ لأن الكتاب يُرَادُ به الجنس، انتهى؛ وهو حَسَنٌ، ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانَتِينَ﴾ أي: من القوم القانتين؛ وهم المطيعون العابدون، وقد تقدّم بيانه.

لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس.

(١) أخرجه الطبري (١٢/١٦١)، برقم: (٣٤٤٦٢، ٣٤٤٦٤)، وذكره البغوي (٤/٣٦٨)، وابن عطية (٥/

٣٣٥)، وابن كثير (٤/٣٩٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٧٧)، وعزاه لابن المنذر.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٣٣٥ - ٣٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/٢٩٠)، و«الدر المصون» (٦/٣٣٩).

(٣) وقرأ بها مجاهد، والحسن.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/٣٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/٢٩٠)،

و«الدر المصون» (٦/٣٣٩).

(٤) وقرأ بها ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر، والكسائي، وحزمة. وقرأ بقراءة أبي عمرو -

حفص عن عاصم، وخارجة عن نافع.

ينظر: «السبعة» (٦٤١)، و«الحجة» (٦/٣٠٤)، و«إعراب القراءات» (٢/٣٧٦)، و«حجة القراءات»

(٧١٥)، و«العنوان» (١٩٣)، و«شرح الطيبة» (٦/٦١)، و«إتحاف» (٢/٥٤٩)، و«معاني القراءات» (٣/

(٧٨).

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ الْمَلِكِ

[وَهِيَ] مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرُؤُهَا عِنْدَ اخْتِزَامِ مَضْجَعِهِ؛ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ مَرْفُوعاً^(١)، وَرَوَى أَنَّهَا تُنْجِي مِنَ عَذَابِ الْقَبْرِ^(٢)، وَتُجَادِلُ عَنْ صَاحِبِهَا، حَتَّى لَا يَعْذَّبَ^(٣)، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَدِدْتُ أَنَّ سُورَةَ «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ» فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»^(٤)، * ت * : وَقَدْ خَرَّجَ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ»: أَنَّهَا تُجَادِلُ عَنْ صَاحِبِهَا؛ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ / وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ صَخْرٍ، وَأَبُو ذَرِّ الْهَرَوِيُّ، وَغَيْرُهُمْ أَحَادِيثَ فِي فَضْلِ ١٦٦ ب هَذِهِ السُّورَةِ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ، وَلَوْلَا مَا قَصَدْتُهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ لَنَقَلْتُهَا هُنَا، وَلَكِنْ خَشِيتُ الْإِطَالََةَ مَنَعْتَنِي مِنْ جَلْبِ كَثِيرٍ مِنَ الْآثَارِ الصَّحِيحَةِ، فِي هَذَا الْمَخْتَصَرِ، وَانْظُرِ الْغَافِقِي؛ فَقَدْ اسْتَوْفَى

(١) ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٣٨١/٦)، وَعِزَّاهُ إِلَى ابْنِ مَرْدُودِيهِ.

(٢) أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي هَذَا الْمَعْنَى حَدِيثاً (١٦٤/٥)، كِتَابُ «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» بَابُ: مَا جَاءَ فِي فَضْلِ سُورَةِ الْمَلِكِ (٢٨٩٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، بَلَفَظَ: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ جَبَاءَهُ عَلَى قَبْرِ وَهُوَ لَا يَخْشَبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ: «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ» حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ضَرَبْتُ جَبَائِي عَلَى قَبْرِ، وَأَنَا لَا أَخْشَبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الْمُلْكُ حَتَّى خَتَمَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنَ عَذَابِ الْقَبْرِ». قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٤٩٨/٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، بَلَفَظَ: «يُؤْتِي الرَّجُلَ فِي قَبْرِهِ، فَتُؤْتَى رِجْلَاهُ فَتَقُولُ رِجْلَاهُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قَبْلِي سَبِيلٌ، كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمَلِكِ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قَبْلِ صَدْرِهِ، أَوْ قَالَ: بَطْنِهِ، فَيَقُولُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قَبْلِي سَبِيلٌ، كَانَ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ الْمَلِكِ، ثُمَّ يُؤْتَى رَأْسُهُ فَيَقُولُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قَبْلِي سَبِيلٌ، كَانَ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ الْمَلِكِ، قَالَ: فَهِيَ الْمَانِعَةُ تَمْنَعُ مِنَ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَهِيَ فِي التَّوْرَةِ سُورَةُ الْمَلِكِ مِنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْنَبَ». وَابْنُ هَيَّاقٍ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٤٩٤/٢) (٢٥٠٩)، قَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

(٤) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٥٦٥/١)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٣٨٠/٦)، وَزَادَ نَسْبَتَهُ إِلَى ابْنِ مَرْدُودِيهِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَالطَّبْرَانِيُّ. قَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا إِسْنَادٌ عِنْدَ الْيَمَانِيِّينَ صَحِيحٌ وَلَمْ يَخْرُجْهُ، وَتَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ، وَقَالَ: لِحَفْصٍ وَابْنِ

نقل الآثار في فضل هذه السورة.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ مِنَ الْبَرَكَةِ وَهِيَ التَّزْيِيدُ فِي الْخَيْرَاتِ، قَالَ الثَّعَالِبِيُّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أَي: تَعَالَى وَتَعَاطَمَ وَقَالَ الْحَسَنُ: تَقَدَّسَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾: يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ^(٢). انْتَهَى.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ الْبَصَرُ كَرَبٍّ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ...﴾ الآية، الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ مَعْنِيَانِ يَتَعَاقَبَانِ جِسْمَ الْحَيَوَانِ، يَرْتَفِعُ أَحَدُهُمَا بِحُلُولِ الْآخَرِ، وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «يُوتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَنْذَبُ عَلَى الصُّرَاطِ»^(٣) الْحَدِيثُ، فَقَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّمَا ذَلِكَ تِمَثَالُ كَبْشٍ يُوقِعُ اللَّهُ الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ لِأَهْلِ الدَّارَيْنِ أَنَّهُ الْمَوْتُ الَّذِي ذَاقُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَكُونُ ذَلِكَ التَّمَثَالُ حَامِلًا لِلْمَوْتِ، لَا عَلَى أَنَّهُ يَحُلُّ الْمَوْتَ فِيهِ فَتَذْهَبُ عَنْهُ حَيَاةٌ، ثُمَّ يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ التَّمَثَالِ إِعْدَامَ الْمَوْتِ.

وقوله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أَي: جَعَلَ لَكُمْ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ لِيَبْلُوَكُمْ، أَي: لِيُخْتَبِرَكُمْ فِي حَالِ الْحَيَاةِ وَيُجَازِيَكُمْ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ، وَنَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مَعْنَى قَوْلِهِ/ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ فَقَالَ: يَقُولُ: أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَأَشَدُّكُمْ لِلَّهِ خَوْفًا، وَأَخْسَنُكُمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ نَظَرًا، وَإِنْ كَانُوا أَقْلَكُمْ تَطَوُّعًا^(٤)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَزْهَدُكُمْ فِي

(١) ذكره القرطبي (١٨/١٣٤).

(٢) ذكره القرطبي (١٨/١٣٤)، وابن عطية (٥/٣٣٧).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره ابن عطية (٥/٣٣٧).

الدنيا^(١)، قال القرطبي^(٢): وقال السدي: (أَحْسَنُكُمْ عَمَلًا)، أي: أكثركم للموت ذِكْرًا، وله أَحْسَنُ استعدادًا، ومنه أَشَدُّ خوفًا وحذرًا، انتهى من «التذكرة»، ولله در القائل: [الطويل]

وَفِي ذِكْرِ هَؤُلَاءِ الْمَوْتِ وَالْقَبْرِ وَالْبَلَى
أَبْغَدَ اقْتِرَابِ الْأَزْجَعِينَ تَرْتِصُ
فَكُنْ فِي بُطُونِ الْأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِهَا
وَأَنْتَ عَلَى الدُّنْيَا مُكِبٌ مُنَافِسٌ
عَلَى خَطَرِ ثُمَاسِي وَتُضْبِحُ لَاهِيًا
وَإِنْ أَمْرًا يَسْعَى لِدُنْيَاهُ جَاهِدًا
كَأَنَّكَ مُغْتَرٌّ بِمَا أَنْتَ صَائِرٌ
فَجِدْ وَلَا تَغْفُلْ فَعَيْشُكَ زَائِلٌ
وَلَا تَطْلُبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ طِلَابَهَا
وَكَيْفَ يَلْدُ الْعَيْشُ مَنْ هُوَ مُوقِنٌ
لَقَدْ خَضَعْتَ وَأَسْتَسَلَمْتَ وَتَضَاءَلَتْ

انتهى، ، و«طَبَاقًا» قال الرَّجَّاجُ: هو مصدرٌ، وقيل: جمعُ طَبَقَةٍ، أو جمعُ طَبَقٍ، والمعنى: بعضها فوق بعض، وقال إبان بن ثعلب: سمعتُ أغرابيًا يذمُّ رجلاً فقال: شَرُّهُ طَبَاقٌ / وَخَيْرُهُ غَيْرُ بَاقٍ، وما ذكره بعضُ المفسرين في السمواتِ مِنْ أَنَّ بعضها مِنْ دَهَبٍ ١٧٠ ب وَفَضَّةٍ وَيَاقُوتٍ ونحو هذا، ضعيفٌ لم يثبت بذلك حديثٌ.

وقوله سبحانه: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ معناه مِنْ قِلَّةٍ تَنَاسُبٍ، وَمِنْ خُرُوجٍ عَنْ إِتْقَانٍ، قال بعض العلماء: خَلَقَ الرَّحْمَنُ، معنيٌّ بِهِ السَّمَوَاتُ وَإِيَّاهَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ وبقوله: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ...﴾ الآية، وقال آخرون: بَلْ يَعْنِي بِهِ جَمِيعُ مَا خَلَقَ سبحانه مِنَ الْأَشْيَاءِ فَإِنَّهَا لَا تَفَاوُتُ فِيهَا، وَلَا فُتُورَ جَارِيَةً عَلَى غَيْرِ إِتْقَانٍ، قال منذر بن سعيد: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ وَخَلْقِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِتَكْرِيرِ النَّظَرِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ مَتَى نَظَرَهَا نَاطِرٌ لِيَرَى فِيهَا خَلَلًا أَوْ نَقْصًا فَإِنَّ بَصَرَهُ يَنْقَلِبُ خَاسِئًا

(١) ذكره البغوي (٣٦٩/٤) عن الحسن.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٣٥/١٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٨٢/٦)، وعزاه لابن أبي

الدنيا، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) في د: حين.

حَسِيرًا، وَرَجُعَ البَصَرِ: ترديده في الشيءِ الْمُبْصَرِ، و﴿كَرْتَيْنِ﴾ معناه مرتين، والخاصة المْبَعْدُ عن شيءٍ أَرَادَهُ، وَحَرَصَ عَلَيْهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْسَثُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وكذلك الْبَصَرُ يَحْرُصُ عَلَى رُؤْيَا فُطُورٍ أَوْ تَفَاوُتٍ، فَلَا يَجِدُ ذَلِكَ، فَيَنْقَلِبُ خَاسِئًا، وَالْحَسِيرُ الْعَبِيُّ الْكَالُ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَصَابِيحٍ﴾ يعني: النجوم، قال الفخر^(١): ومعنى ﴿السَّامَاءِ الدُّنْيَا﴾ أي: القَرِيبَةُ مِنَ النَّاسِ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَوَاكِبَ مَرْكَوزَةٌ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّمَوَاتِ إِذَا كَانَتْ شَقَافَةً فَالْكَوَاكِبُ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، أَوْ كَانَتْ فِي سَمَوَاتٍ أُخْرَى فَوْقَهَا، فَهِيَ لَا بَدَأَ أَنْ تَظْهَرَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتَلُوحَ فِيهَا، فَعَلَى كَلَا التَّقْدِيرَيْنِ فَالسَّمَاءُ^(٢) الدُّنْيَا مُزَيَّنَةٌ بِهَا، انتهى.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ معناه وَجَعَلْنَا مِنْهَا وَيُوجِبُ/ هذا التأويلُ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْكَوَاكِبَ الثَّابِتَةَ، وَالْبُرُوجَ، وَكُلَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ لَيْسَتْ بِرَاجِمَةٍ، وَهَذَا نَصٌّ فِي حَدِيثِ السَّيْرِ قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ يُرْجَمُونَ بِهَا إِذَا اسْتَرْقَوْا السَّمْعَ فَلَا تُخْطِئُهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُقْتَلُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْبَلُ، انتهى.

﴿وَاللَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ① إِذَا أَلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهْقًا وَهِيَ تَفُورُ ② تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ③ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ④ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑤ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قال * ع^(٣): * تضمنت الآية أنَّ عَذَابَ جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِ الْمُخَلَّدِينَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ: أَنَّهُ يَمُرُّ عَلَى جَهَنَّمَ زَمَانٌ تُخْفِقُ أَبْوَابُهَا، قَدْ أَخْلَتْهَا الشَّفَاعَةُ، وَالَّذِي يَقَالُ فِي هَذَا أَنَّ جَهَنَّمَ اسْمٌ تُخْتَصُّ بِهِ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا مِنَ النَّارِ، ثُمَّ قَدْ تُسَمَّى الطَّبَقَاتُ كُلُّهَا بِاسْمِ بَعْضِهَا، فَالَّتِي فِي الْأَثَرِ هِيَ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا لِأَنَّهَا مَقَرُّ الْعَصَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالَّتِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ جَهَنَّمَ بِأَسْرَها، أي: جميع الطبقات، وَالشَّهِيقُ أَقْبَحُ مَا يَكُونُ مِنْ صَوْتِ الْحِمَارِ، فَاشْتِعَالَ النَّارِ وَغَلِيَانُهَا يَصُوتُ مِثْلَ ذَلِكَ.

وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ أي يُزَايِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا لَشِدَّةِ الاضْطِرَابِ، و﴿الْغَيْظِ﴾

(١) ينظر: «الفخر الرازي» (٣٠/٥٣).

(٢) في د: في السماء.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٣٣٩).

معناه: على الكفرة بالله، والفوج: الفريق من الناس، وظاهر الآية أنه لا يلقى في جهنم أحد إلا سئل على جهة التوبيخ.

وقوله سبحانه: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة، ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفار للندب، قال الفخر^(١): وقوله - تعالى - عنهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ قيل إنما جَمَعُوا بين السمع والعقل؛ [لأن مَذَارَ التكليف على أدلة السمع والعقل]، انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢) ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥) ﴿أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿أَمْ أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبَضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّونَ مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٢٠)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما بالغيب الذي/ أخبروا به من النشور والحشر والجنة والنار، فأمنوا بذلك وخشوا ربهم فيه؛ ونحا إلى ١٧١ ب هذا قتادة^(٢)، والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم في صلاتهم وعبادتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ...﴾ الآية، خطاب لجميع الخلق، و﴿ذُلُولًا﴾ بمعنى مذلولة، و﴿مَنَاكِبُهَا﴾ قال مجاهد: هي الطرق والفجاج^(٣)، وقال البخاري: ﴿مَنَاكِبُهَا﴾: جوائبها، قال الغزالي - رحمه الله -: جَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْأَرْضَ ذُلُولًا لِعِبَادِهِ لَا لِيَسْتَقِرُّوا فِي مَنَاكِبِهَا، بَلْ لِيَتَّخِذُوا مَثَرًا فَيَتَزَوَّدُوا مِنْهَا مُخْتَرِزِينَ مِنْ مَصَائِدِهَا وَمَعَاطِبِهَا، وَيَتَحَقَّقُوا أَنَّ الْعُمَرَ يَسِيرُ بِهِمْ سَيْرَ السَّفِينَةِ بِرَاكِبِهَا، فَالنَّاسُ فِي هَذَا الْعَالَمِ سُفْرٌ وَأَوَّلُ مَنَازِلِهِمُ الْمَهْدُ، وَآخِرُهَا اللَّحْدُ، وَالْوَطَنُ هُوَ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ، وَالْعُمُرُ مَسَافَةُ السَّفَرِ، فَيَسْنُوهُ مَرَاجِلُهُ، وَشُهُورُهُ

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٥٧/٣٠).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٤٠/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٦٩/١٢)، برقم: (٣٤٥٠٥)، وذكره البغوي (٣٧١/٤)، وابن عطية (٣٤١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨٤/٦)، وعزاه للرياني، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

فَرَأْسُخُهُ، وَأَيَّامُهُ أَمْيَالُهُ، وَأَنْفَاسُهُ خُطَوَاتُهُ، وَطَاعَتُهُ بَضَاعَتُهُ، وَأَوْقَاتُهُ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِ، وَشَهَوَاتُهُ وَأَغْرَاضُهُ قِطَاعُ طَرِيقِهِ، وَرَبُّهُ الْفَوْزُ بِلِقَاءِ اللَّهِ - عز وجل - في دار السلام مع الْمَلِكِ الْكَبِيرِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَخَسْرَانُهُ الْبُغْدُ مِنَ اللَّهِ - عز وجل - مع الْإِنْكَالِ وَالْأَغْلَالِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ، فَالْغَافِلُ عَنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ، حَتَّى يَنْقُضِي فِي غَيْرِ طَاعَةٍ تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زُلْفَى مُتَعَرِّضٌ فِي يَوْمِ التَّغَابُنِ لِعَبِيَّةٍ وَحَسْرَةٍ مَا لَهَا مُنْتَهَى، وَلِهَذَا الْخَطَرِ الْعَظِيمِ وَالْخَطْبِ الْهَائِلِ شَمَّرَ الْمُوَفَّقُونَ عَنْ سَاقِ الْجِدِّ، وَوَدَّعُوا بِالْكَلِيَّةِ مِلَادَ النَّفْسِ، وَاعْتَنَمُوا بِقَايَا الْعُمَرِ، فَعَمَّرُوهَا بِالطَّاعَاتِ، بِحَسَبِ تَكَرُّرِ الْأَوْقَاتِ، انْتَهَى، قَالَ الشَّيْخُ أَبُو ١١٧٢ مَدِين - رَحِمَهُ اللَّهُ -: عُمْرُكَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ فَاخْرِضْ [أَنْ يَكُونَ] لَكَ / لَا عَلَيْكَ، انْتَهَى، وَاللَّهُ الْمُوَفَّقُ بِفَضْلِهِ، وَ﴿النَّشُورُ﴾: الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَ﴿تَمُورٌ﴾ مَعْنَاهُ: تَذَهَّبُ وَتَجِيءُ، كَمَا يَذْهَبُ التَّرَابُ الْمَوَارِ فِي الرِّيحِ، وَالْحَاصِبُ الْبَرْدُ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ، وَالنَّكِيرُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ، وَالنَّذِيرُ كَذَلِكَ وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ: [الوافر]

فَأَنْذِرْ مِثْلَهَا نُضْحًا قُرَيْشًا مِنْ الرِّخْمَنِ إِنْ قَبِلْتَ نَذِيرِي^(١)
ثم أحوال - سبحانه - على العبرة في أمر الطير وما أحكم من خَلْقَتِهَا، وَذَلِكَ بَيْنَ عَجَزِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ عَنْهُ، وَ﴿صَافَاتٌ﴾ جَمْعُ صَافَةٍ، وَهِيَ الَّتِي تَبْسُطُ جَنَاحَهَا وَتَصْفُفُهَا، وَقَبْضُ الْجَنَاحِ ضَمُّهُ إِلَى الْجَنْبِ، وَهَاتَانِ حَالَتَانِ لِلطَّائِرِ يَسْتَرِيحُ مِنْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْآخَرَى.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَفُورٍ﴾ (٢٦) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٧) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٨) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٩)

وقوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ هذا أيضاً توقيفٌ على أمرٍ لَا مَدْخَلَ لِلْأَصْنَامِ فِيهِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ قال ابن عباس والضحاك ومجاهد: نَزَلَتْ مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ؛ عَلَى الْعَمُومِ^(٢)، وَقَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ مُخْبِرَةً عَنْ حَالِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْكَافَرَ يَمْشُونَ عَلَى وَجْهِهِمْ، وَالْمُؤْمِنِينَ يَمْشُونَ عَلَى اسْتِقَامَةٍ^(٣)، كَمَا جَاءَ

(١) البيت في «ديوانه» (٢٤٥)، وفيه فَأَزْدِفُ بدل فَأَنْذِرُ.

(٢) أخرجه الطبري (١٧١/١٢)، برقم: (٣٤٥١٠، ٣٤٥١٢)، وذكره ابن عطية (٣٤٢/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٧١/١٢ - ١٧٢)، برقم: (٣٤٥١٣، ٣٤٥١٥)، وذكره البغوي (٣٧٢/٤)،

وابن عطية (٣٤٢/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨٥/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وعبد الرزاق،

وابن المنذر.

في الحديث، ويُقال: أَكَبَّ الرجلُ إذا دَرَّ وَجْهَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَكَبَّهَ غَيْرُهُ، قال - عليه الصلاة والسلام -: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا خَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(١) فَهَذَا الْفِعْلُ عَلَى خِلَافِ الْقَاعِدَةِ الْمَعْلُومَةِ؛ لِأَنَّ «أَفْعَلَ» هُنَا لَا يَتَعَدَّى، وَ«فَعَلَ» يَتَعَدَّى، وَنَظِيرُهُ قَشَعَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ فَانْقَسَعَ، وَقَالَ * ص * : ﴿مُكَبِّا﴾ حَالٌ وَهُوَ مِنْ أَكَبَّ غَيْرَ مُتَعَدٍّ، وَكَبَّ مُتَعَدٍّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] وَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلدَّخُولِ فِي الشَّيْءِ، أَوْ لِلصَّيْرُورَةِ، وَمَطَاوَع/ كَبَّ: انْكَبَّ، تَقُولُ كَبَيْتَهُ فَانْكَبَّ، قَالَ بَغُضُّ النَّاسِ: ١٧٢ ب وَلَا شَيْءَ مِنْ بِنَاءِ «أَفْعَلَ» مَطَاوَعًا، انْتَهَى، وَ﴿أَهْدَى﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَفْضِيلٌ مِنْ الْهَدَى.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِتًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلَوٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يريدونَ أَمْرَ الْقِيَامَةِ وَالْعَذَابِ الْمَتَّوَعَّدِ بِهِ، ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ يُخَبِّرَهُمْ بِأَنْ عِلْمَ الْقِيَامَةِ وَالْوَعْدِ الصَّدَقِ مِمَّا تَفَرَّدَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِعِلْمِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضَّمِيرُ لِلْعَذَابِ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ الْوَعْدُ، وَهَذِهِ حِكَايَةُ حَالٍ تَأْتِي، وَالْمَعْنَى: فَإِذَا رَأَوْهُ.

و﴿زُلْفَةً﴾ معناه قريباً، قال الحسن: عَيْنَانَا^(٢).

﴿وسَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه: ظَهَرَ فِيهَا السُّوْءُ.

و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تَتَدَاعَوْنَ أَمْرَهُ بَيْنَكُمْ، وَقَالَ الْحَسَنُ: تَدْعُونَ أَنَّهُ لَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ^(٣)، وَرُويَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ...﴾ الْآيَةِ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ بِالْهَلَاكِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: قُلْ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٧٢ - ١٧٣)، برقم: (٣٤٥١٦ - ٣٤٥١٧)، وذكره ابن عطية (٥/ ٣٤٣).

(٣) ذكره ابن عطية (٥/ ٣٤٣).

إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا، فَمَنْ يُجِيرُكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُوجِبُهُ كُفْرُكُمْ؟، ثُمَّ وَقَّعَهُمْ سَبْحَانَهُ عَلَى مِيَاهِهِمُ الَّتِي يَعْيشُونَ مِنْهَا، إِنْ غَارَتْ، أَيْ: ذَهَبَتْ فِي الْأَرْضِ، مَنْ يَجِئُهُمْ بِمَاءٍ كَثِيرٍ كَافٍ؟ * ص *: وَالْعَوْرُ: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْعَائِرِ، انْتَهَى، وَالْمَعِينُ: فَعِيلٌ مِنْ مَعَنَ الْمَاءُ إِذَا كَثُرَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعِينٌ عَذَبٌ^(١):

(١) أخرجه الطبري (١٢/١٧٤)، برقم: (٣٤٥٢٤)، وذكره ابن عطية (٣٤٤/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٨٦)، وعزاه لعبد بن حميد.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَلَمِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِلَا خِلَافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَحْجُورٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴿

قوله عز وجل: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿تَ﴾ حَرْفٌ مَقْطَعٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ، فَيَدْخُلُهُ مِنَ الْاِخْتِلَافِ مَا يَدْخُلُ أَوَائِلَ السُّورِ، وَيَخْتَصُّ هَذَا الْمَوْضِعَ مِنَ الْأَقْوَالِ، بَأَنَّهُ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿تَ﴾ اسْمُ الْحَوِثِ الْأَعْظَمِ/ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِيمَا يُزَوَّى^(١)، ١٧٣ وقال ابن عباس أيضاً وغيره: ﴿تَ﴾ اسْمُ الدَّوَاةِ^(٢)، فَمَنْ قَالَ بِأَنَّهُ اسْمُ الْحَوِثِ جَعَلَ [الْقَلَمَ] الْقَلَمَ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ وَأَمَرَهُ بِكُتُبِ الْكَائِنَاتِ، وَجَعَلَ الضَّمِيرَ فِي ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لِلْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ قَالَ بِأَنَّهُ ﴿تَ﴾ اسْمُ الدَّوَاةِ جَعَلَ الْقَلَمَ هَذَا الْقَلَمَ الْمُتَعَارَفَ بِأَيْدِي النَّاسِ؛ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَعَلَ الضَّمِيرَ فِي ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لِلنَّاسِ فَجَاءَ الْقَسَمُ عَلَى هَذَا بِمَجْمُوعِ أُمْرِ الْكِتَابِ الَّذِي هُوَ قِيَامٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَأُمُورِ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ الْقَلَمَ أَخُو اللِّسَانِ، وَعَضُدُ الْإِنْسَانِ، وَمَطِيئَةُ الْفِطْنَةِ، وَنِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَامَّةٌ، وَرَوَى معاويةُ بن قرة أن النبي ﷺ قال: «﴿تَ﴾ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ».

(١) ذكره البغوي (٤/٣٧٤)، وابن عطية (٥/٣٤٥)، وابن كثير (٤/٤٠٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٨٧)، وعزاه لابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس، (٦/٣٨٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/١٧٦)، برقم: (٣٤٥٣٨ - ٣٤٥٣٩)، وذكره ابن عطية (٥/٣٤٥)، وابن كثير (٤/٤٠١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٨٨)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر

وقال ابن عباس أيضاً وغيره: ﴿نَ﴾ هو حَرْفٌ من حروفِ الرَّحْمَنِ^(١)، وقالوا إنه تَقَطَّعَ في القرآن ﴿الرَّ﴾ و﴿حَمَ﴾ و﴿نَ﴾، و﴿يَسْطُرُونَ﴾: معناه: يَكْتُبُونَ سَطُوراً، فَإِنْ أَرَادَ الملائكةُ فَهُوَ كَتَبَ الأَعْمَالِ وَمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَإِنْ أَرَادَ بني آدم؛ فهي الكُتُبُ المنزلَةُ والعلوم وما جَرَى مَجْرَاهَا، قال ابن العربي في «أحكامه»: رَوَى الوليدُ بن مُسْلِمٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ سَمِيِّ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ خَلَقَ التَّوَنَ، وَهِيَ الدَّوَاءُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿نَ﴾ وَالْقَلَمُ» ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَكْتُبْ؟ قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: ثُمَّ خَتَمَ الْعَمَلَ، فَلَمْ يَنْطِقْ وَلَا يَنْطِقْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ خَلَقَ الْعَقْلَ، فَقَالَ الْجَبَّارُ: مَا خَلَقْتَ خَلْقاً أَعْجَبَ إِلَيَّ مِنْكَ، وَعِزَّتِي لَأَكْمَلَنَّكَ فِيمَنْ أَحْبَبْتُ، وَلِأَنْقُصَنَّكَ فِيمَنْ أَبْغَضْتُ، / قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلاً أَطَوْعُهُمْ لِلَّهِ وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ^(٢)، انتهى، * ت * وهذا الحديث هُوَ الَّذِي يُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ، لَصَحَّتْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٌ﴾ هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ، وَ﴿مَا﴾ هُنَا عَامِلَةٌ لَهَا اسْمٌ وَخَبَرٌ، وَكَذَلِكَ هِيَ مَتَى دَخَلَتِ الْبَاءُ فِي الْخَبَرِ، وَقَوْلُهُ: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ اغْتِرَاضٌ، كَمَا تَقُولُ لِإِنْسَانٍ: أَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ فَاضِلٌ، وَسَبَبُ الْآيَةِ هُوَ مَا كَانَ مِنْ قَرِيشٍ فِي رَمِيهِمُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْجُنُونِ، فَتَقَى اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَنْهُ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ لَهُ الْآخِرُ، وَأَنَّهُ عَلَى الْخُلُقِ الْعَظِيمِ تَشْرِيفاً لَهُ، وَمَذْحاً وَاخْتِلَافَ فِي مَعْنَى «مَمْنُونٌ» فَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ: هُوَ الْوَاحِدُ الْمُنْقَطِعُ، يَقَالُ: حَبْلٌ مَمْنُونٌ أَيْ: ضَعِيفٌ، وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ: غَيْرُ مَمْنُونٍ عَلَيْكَ، أَيْ: لَا يُكَدِّرُهُ مَنْ بِهِ، وَفِي الصَّحِيحِ: سُبُلْتُ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنْ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»، وَقَالَ الْجَنَيْدُ: سَمِيَ خُلُقُهُ عَظِيماً؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ عَاشَرَ الْخَلْقَ بِخُلُقِهِ، وَزَايَلَهُمْ بِقَلْبِهِ فَكَانَ ظَاهِرُهُ مَعَ الْخَلْقِ، وَبَاطِنُهُ مَعَ الْحَقِّ، وَفِي وَصِيَّةِ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ: عَلَيْكَ بِالْخُلُقِ مَعَ الْخَلْقِ، وَبِالصُّدُقِ مَعَ الْحَقِّ، وَحَسُنَ الْخُلُقُ

(١) ذكره ابن عطية (٣٤٥/٥).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٠/١٣).

قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» (٤٧٩).

قال ابن عدي: باطل منكراً؛ آتاه محمد بن وهب الدمشقي.

وقال في الميزان: صدق ابن عدي في أن هذا الحديث باطل، وقد أخرجه الدارقطني في «الغرائب» من طريقه.

ورواه ابن عساكر عن أبي هريرة مرفوعاً، والخطيب عن علي مرفوعاً. ١ هـ من كلام الشوكاني.

خيرَ كلِّه، وقال - عليه السلام - : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ، صَائِمِ النَّهَارِ» وَجَاءَ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ آثَارٌ كَثِيرَةٌ مَنَعْنَا مِنْ جَلْبِهَا خَشْيَةُ الْإِطَالَةِ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ / النَّارَ؟ فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ»^(١)، قَالَ أَبُو عِيسَى: ١٧٤ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، انْتَهَى، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ»^(٢)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، انْتَهَى، قَالَ أَبُو عُمَرَ فِي «الْتَمْهِيدِ»: قَالَ اللَّهُ - عز وجل - لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: كَانَ خُلُقُهُ مَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] انْتَهَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسْتَبْصِرْ﴾ أَي: أَتَتْ وَأَمْتَكْ، ﴿وَيَبْصُرُونَ﴾ أَي: هُمْ، ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ قَالَ الْأَخْفَشُ: وَالْعَامِلُ فِي الْجُمْلَةِ الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهَا الْإِبْصَارُ، وَأَمَّا الْبَاءُ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرٌ وَقَتَادَةُ: هِيَ زَائِدَةٌ وَالْمَعْنَى: أَيَكُمُ الْمَفْتُونُ^(٣)، قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: الْمَفْتُونُ الْمَجْنُونُ الَّذِي فَتَنَهُ الشَّيْطَانُ، انْتَهَى.

﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ٨ وَدُّوْا لَوْ تَذَهَبُ فَيَذْهَبُونَ ٩ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَالٍ مَعَهُ ١٠ هَمَزٌ مَشْلُومٌ نَسِيمٌ ١١ ﴿

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: قريشاً، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات للنبي ﷺ: لَوْ عَبَدْتَ آلِهَتَنَا وَعَظَّمْتَهَا لَعَبَدْنَا إِلَهَكَ وَعَظَمْنَاهُ، وَدُّوْا أَنْ يَذَاهَنَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَمِيلَ إِلَى مَا قَالُوا، فَيَمِيلُوا هُمْ أَيْضاً إِلَى قَوْلِهِ وَدِينِهِ، وَالْإِذْهَانُ الْمَلَايَنَةُ فِيمَا لَا

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣/٤)، كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٤)، وابن حبان (٩٩/٦) - الموارد، (١٩٢٣)، والحاكم في «المستدرک» (٣٢٤/٤)، وابن ماجه (١٤١٨/٢)، كتاب «الزهد» باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٦)، والبخاري (٨٩) (٢٩٩١)، وأحمد (٣٩٢/٢).

قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود (٦٦٩/٢)، كتاب «الأدب» باب: في حسن الخلق (٤٧٩٩) مختصراً، والترمذي (٤/٣٦٢)، كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٤٣/٥) مختصراً.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٤٦/٥).

يَجْلُ، والمُدَارَاةُ الملاينة فيما يحل.

وقوله: ﴿فیدهنون﴾ معطوف وليس بجواب، لأنه لَوْ كَانَ لُنَصِبَ، والحلافُ المردّد لحلفه الذي قد كثر منه، والمهين الضعيف الرأي، والعقل؛ قاله مجاهد^(١)، وقال ابن عباس: المهين الكذاب^(٢)، والهمأز الذي يَقَعُ في النَّاسِ بلسانه^(٣)، قال منذر بن سعيد: ١٧٤ ب وبَعَيْنِهِ وإِشارَتِهِ، / والتَّيْمِيمُ مَضَدَرٌ كالتَّيْمِيمَةِ، وهو نَقْلٌ مَا يَسْمَعُ مما يَسُوءُ وَيُحَرِّشُ النفوسَ، قال أبو عمر بن عبد البر في كتابه المسمّى بـ«بَهجة المجالس» قال النبي ﷺ: «مَنْ كَفَّ عَنْ أَغْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ لِسَانَهُ؛ أَقَالَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَثْرَتَهُ»^(٤)، وقال - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «شِرَارُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الْمَشَاوُونَ بِالتَّيْمِيمَةِ، الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِأَهْلِ الْبِرِّ الْعَثْرَاتِ»^(٥) انتهى، وَرَوَى حذيفةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ»^(٦)، وهو التَّمَامُ، وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ هِيَ أَجْنَأَسُ لَمْ يَزِدْ بِهَا رَجُلٌ بَعَيْنِهِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ نَزَلَتْ فِي مَعْنَى، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ،

- (١) ذكره ابن عطية (٣٤٧/٥)، وابن كثير (٤٠٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٢/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.
- (٢) أخرجه الطبري (١٨٣/١٢)، برقم: (٣٤٥٨١)، وذكره البغوي (٣٧٧/٤)، وذكره ابن عطية (٥/٣٤٧)، وابن كثير (٤٠٣/٤).
- (٣) ذكره ابن عطية (٣٤٧/٥).
- (٤) تقدم تخريجه.
- (٥) أخرجه أحمد (٢٢٧/٤).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٦/٨): رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقيّة رجال أحمد أسانيد رجال «الصحيح».

- (٦) أخرجه مسلم (١٠١/١)، كتاب «الإيمان» باب: بيان غلظ تحريم النيمة، حديث (١٠٥/١٦٨)، وأحمد (٣٩١/٥، ٣٩٦، ٣٩٨، ٤٠٦) من طريق واصل الأحذب، عن أبي وائل عن حذيفة بن اليمان، أنه بلغه: أن رجلاً كان ينم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام».

وللحديث طريق آخر عن حذيفة، وفيه قتات بدل نمام، أخرجه البخاري (٤٨٧/١٠)، كتاب «الأدب» باب: ما يكره من النيمة، حديث (٦٠٥٦)، ومسلم (١١/١)، كتاب «الإيمان» باب: بيان غلظ تحريم النيمة (١٠٥/١٦٩)، وأبو داود (٦٨٤/٢)، كتاب «الأدب» باب: في القتات، حديث (٤٨٧١)، والترمذي (٣٢٩/٤)، كتاب «البر والصلة» باب: ما جاء في النمام، حديث (٢٠٢٦)، وأحمد (٥/٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩٢، ٤٠٢، ٤٠٤)، والبيهقي (١٦٦/٨)، كتاب «قتال أهل البغي» باب: ما على من رفع إلى السلطان ما فيه ضرر، والبغوي في «شرح السنة» (٥٢٣/٦) - بتحقيقنا، والطبراني في «الصغير» (٢٠٣/١)، وفي «الكبير» (١٨٦/٣)، برقم: (٣٠٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٩/٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٣٧/١١) من طريق همام بن الحارث عن حذيفة مرفوعاً.

وقيل هو: الأخنس بن شريق، ويؤيد ذلك أنه كَانَتْ له زَنْمَةٌ في حَلْقِهِ كَزَنْمَةِ^(١) الشَّاةِ، وأيضاً فكانَ من ثَقِيفٍ مُلَصِّقاً في قُرَيْشٍ، وقيل: هو أبو جهل، وقيل: هو الأسود بن عبد يَعُوثَ، قال * ع^(٢) *: وظاهر اللفظ عمومٌ مَنِ اتَّصَفَ بهذه الصفات، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة بآقي الزمان، لا سيما لَوْلَاةِ الأمور.

﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ﴾ (١٢) عَثَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمْ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) ﴿

وقوله تعالى: ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِرِينَ: الْخَيْرُ هُنَا الْمَالُ فَوَصَفَهُ بِالشَّحْ، وقال آخرون: بَلْ هُوَ عَلَى عُمُومِهِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وَالْمُعْتَدِي الْمَتَجَاوِزُ لِحُدُودِ الْأَشْيَاءِ، وَالْأَثِيمُ فَعِيلٌ مِنَ الْإِثْمِ، وَالْعَثَلُ: الْقَوِيُّ الْبَنِيَّةِ، الْغَلِيطُ الْأَعْضَاءِ، الْقَاسِي الْقَلْبِ، الْبَعِيدُ الْفَهْمِ، الْأَكُولُ الشَّرُوبُ، الَّذِي هُوَ بِاللَّيْلِ جِيفَةً وَبِالنَّهَارِ جِمَارٌ، وَكُلُّ مَا عَبَّرَ بِهِ الْمَفْسَرُونَ عَنْهُ مِنْ خِلَالِ النَقْصِ، فَعَنَ هَذِهِ الَّتِي ذَكَرْتُ / تَصَدَّرُ، وَقَدْ ذَكَرَ النِقَاشُ أَنَّ^{١٧٥} النَّبِيَّ ﷺ فَسَّرَ الْعَثَلَ بِنَحْوِ هَذَا، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ كَثِيرَةٌ التَّلَازُمِ، وَالزَّيْنِمُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمُلَصَّقُ فِي الْقَوْمِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَّانَ: [الطويل]

وَأَنْتَ زَيْنِمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خَلَفَ الرَّائِبِ الْقَدَحُ الْقَرْدُ
فَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِرِينَ: هُوَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بِالزَّيْنِمِ؛ أَنَّ لَهُ زَنْمَةً فِي عُنُقِهِ^(٣)، وَكَانَ الْأَخْنَسُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَقِيلَ: الزَّيْنِمُ: الْمُرِيبُ الْقَبِيحُ الْأَفْعَالِ.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لَئِنْ قِيلَ لَهُمْ مَصِيبٌ ۖ وَلَا يَسْتَنْتُونَ (١٨) فَنُفِثَ عَلَيْهِمْ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُوَ ظَاهِرٌ لَّهُمْ فَاذْهَبُوا (١٩) فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَنَادَوْا مُصِيبِينَ (٢١) أَنْ ائْتِدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّا الْيَوْمَ الْيَتْرَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاذْهَبُوا (٢٤) وَادْعُوا عَلَىٰ حَرْبٍ قَدِيدَةٍ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَاوُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ خَرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْنَ (٣٠) قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا حَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴿

وقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ معناه: عَلَى الْأَنْفِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الضَّرْبُ

(١) زَنْمَةُ الشاة: هتة معلقة في حلقها تحت لحيتها، وخص بعضهم به العنز.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٤٧/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٨٦/١٢)، برقم: (٣٤٦١٤)، وذكره البغوي (٣٧٨/٤)، وذكره ابن عطية (٥/

٣٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٤/٦)، وعزه لابن جرير، وابن المنذر.

بِالسَّيْفِ فِي وَجْهِهِ وَعَلَى أَنْفِهِ^(١)، وَقَدْ حَلَّ ذَلِكَ بِهِ يَوْمَ بَذْرِ، وَقِيلَ: ذَلِكَ الْوَسْمُ هُوَ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ سَتَفَعَلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الدَّمِّ لَهُ وَالْمَقَتِ وَالْأَشْيَهَارِ بِالْشَّرِّ، مَا يَبْقَى فِيهِ وَلَا يَخْفَى بِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَالْوَسْمِ عَلَى الْأَنْفِ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يريد: قريشاً، أي: اِمْتَحَنَّاهُمْ، و﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ فيما دُكِرَ كانوا إخوة، وكانَ لِأَيُّهُمْ جَنَّةٌ وَحَزْتُ يَغْتَلُّهُ، فَكَانَ يُمَسِّكُ مِنْهُ قُوَّتَهُ، وَيَتَصَدَّقُ عَلَى الْمَسَاكِينِ بِبَاقِيهِ، وَقِيلَ: بَلْ كَانَ يَحْمِلُ الْمَسَاكِينَ مَعَهُ فِي وَقْتِ حَصَادِهِ وَجَدَّهُ فَيَجْدِيهِمْ مِنْهُ، فَمَاتَ الشَّيْخُ، فَقَالَ وَلَدُهُ: نَحْنُ جَمَاعَةٌ وَفَعَلُ آبِينَا كَانَ خَطَأً فَلَنَذْهَبَ إِلَى جَنَّتِنَا، وَلَا يَدْخُلْنَهَا عَلَيْنَا مَسْكِينٌ، وَلَا نُعْطِي مِنْهَا شَيْئاً، قَالَ: قَبِيتُوا أَمْرَهُمْ وَعَزَمَهُمْ، قَبِعَتِ اللَّهُ عَلَيْهَا طَائِفاً مِنْ نَارٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَاخْتَرَقَتْ، فَقِيلَ: فَأُضْبَحَتْ سَوْدَاءَ، وَقِيلَ: بَيَضَاءَ كَالزَّرْعِ الْيَاسِرِ الْمَحْصُودِ، فَلَمَّا أَضْبَحُوا إِلَى جَنَّتِهِمْ؛ لَمْ يَرَوْهَا فَحَسِبُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَوْا الطَّرِيقَ، ثُمَّ تَبَيَّنُوا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ/ أَصَابَهُمْ فِيهَا، فَتَابُوا حِينَئِذٍ فَكَانُوا^(٣) مُؤْمِنِينَ أَهْلَ كِتَابٍ، فَشَبَّهَ اللَّهُ قُرَيْشاً بِهِمْ فِي أَنَّهُ أَمْتَحَنَهُمْ بِالْمَصَائِبِ، فِي دُنْيَاهُمْ لِعَدَمِ اتِّبَاعِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ التَّوْبَةُ مُعَرَّضَةٌ لِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿لَيُضْرَمَنَّهَا﴾ أي: لَيُجْدُنَّهَا، و﴿مُضْجِحِينَ﴾ معناه: دَاخِلِينَ فِي الصَّبَاحِ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ [أي: لَا يَسْتَفْتُونَ]^(٤) عَنْ رَأْيِ مَنْعِ الْمَسَاكِينِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ وَلَا يَقُولُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٥). وَالصَّرِيمُ، قَالَ جَمَاعَةٌ: أَرَادَ بِهِ اللَّيْلَ مِنْ حَيْثُ اسْوَدَّتْ جَنَّتُهُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الصَّرِيمُ: الرَّمَادُ الْأَسْوَدُ بُلْعَةً خُرَيْمَةً، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرَامِ النَّخْلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ إِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ عَزْمٍ وَإِقْدَامٍ عَلَى رَأْيِكُمْ، مِنْ قَوْلِكَ سَيْفٌ صَارِمٌ^(٦)، و﴿يَتَخَفَتُونَ﴾: مَعْنَاهُ يَتَكَلَّمُونَ كَلَاماً خَفِيّاً، وَكَانَ هَذَا التَّخَافُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَشْعَرَ بِهِمُ الْمَسَاكِينُ، وَكَانَ لَفْظُهُمُ الَّذِي يَتَخَفَتُونَ بِهِ: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾.

(١) أخرجه الطبري (١٨٨/١٢)، برقم: (٣٤٦٢٨)، وذكره البغوي (٣٧٩/٤)، وابن عطية (٣٤٩/٥)، وابن كثير (٤٠٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٤/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) ذكره البغوي (٣٧٩/٤)، وابن عطية (٣٤٩/٥)، وابن كثير (٤٠٥/٤).

(٣) في ط: وكانوا.

(٤) سقط في: د.

(٥) ذكره ابن عطية (٣٤٩/٥).

(٦) ذكره البغوي (٣٧٩/٤)، وابن عطية (٣٤٩/٥)، وابن كثير (٤٠٦/٤).

وقوله: ﴿على حرد﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ عَلَى مَنَعٍ، من قولهم: حَارَدَتِ الْإِبِلُ إِذَا قَلَّتْ ألبانها فَمَنَعَتْهَا، وَحَارَدَتِ السَّنَةُ إِذَا كَانَتْ شَهْبَاءَ لَا غَلَّةَ لَهَا، ويحتملُ أَنْ يَرِيدَ بِالْحَرْدِ الْعَضْبُ، يقال حَرَدَ الرَّجُلُ حَرْدًا إِذَا غَضِبَ، قال البخاري قَالَ قَتَادَةُ: ﴿عَلَى حَرْدٍ﴾ [أي: على جدًّا] ^(١) في أنفسهم، انتهى ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قادرين﴾ يحتملُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْقُدْرَةِ، أي: قادرون في زعمهم وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ التَّقْدِيرِ الَّذِي هُوَ تَضْيِيقٌ، كأنهم قَدْ قَدَرُوا عَلَى الْمَسَاكِينِ، أي ضَيَّقُوا عليهم، ﴿فلما رأوها﴾ أي: مُخْتَرِفَةً ﴿قالوا إنا لضالون﴾ طريقَ جَنَّتِنَا فَلَمَّا تَحَقَّقُوها/ عَلِمُوا ١١٧٦ أَنهَا قَدْ أَصِيبَتْ فَقَالُوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ أي: قَدْ حُرِمْنَا غَلَّتْهَا وَبَرَكَتْهَا، فقال لهم أعدلهم قَوْلًا وَعَقْلًا وَخُلُقًا وَهُوَ الْأَوْسَطُ؛ ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ قِيلَ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ، فَبَادَرَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَابُوا وَسَبَّحُوا، واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم مَنَعَ الْفُقَرَاءَ، وَلَمْ يَعْضَمُوا بَعْضًا وَاعترفوا بأنهم طَعَوْا، أي: تَعَدَّوْا مَا يَلْزَمُ مِنْ مُوَاسَاةِ الْمَسَاكِينِ، ثم انصرفوا إِلَى رَجَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَانْتَظَرِ الْفَضْلَ مِنْ لَدُنْهُ فِي أَنْ يُبَدِّلَهُمْ بِسَبَبِ تَوْبَتِهِمْ، وَإِنَابَتِهِمْ خَيْرًا مِنْ تِلْكَ الْجَنَّةِ، قال الثعلبي: قال ابن مسعود: بلغني أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا أَخْلَصُوا وَعَلِمَ اللَّهُ صِدْقَهُمْ أَبْدَلَهُمُ اللَّهُ - عز وجل - بها جَنَّةً يُقَالُ لَهَا الْحَيَوَانُ، فِيهَا عِنَبٌ يَحْمِلُ الْبَغْلُ الْعَنْقُودَ مِنْهَا ^(٣)، وعن أبي خالد اليماني أَنَّهُ رَأَى تِلْكَ الْجَنَّةَ وَرَأَى كُلَّ عَنْقُودٍ مِنْهَا كَالرَّجُلِ الْأَسْوَدِ الْقَائِمِ، انتهى، ، وَقَدَرَهُ اللَّهُ أَعْظَمَ فَلَا يُسْتَغْرَبُ هَذَا إِنْ صَحَّ سنده.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَتَجْمَلُ الشَّيْءَ كَالْجَرِيمِ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْتَوُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانُ عَلَيْنَا بَلْفَقَةٍ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ رَعَفَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِكُونَ (٤٣) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿كذلك العذاب﴾ أي: كَفَعَلْنَا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ نَفْعَلُ بِمَنْ تَعَدَّى حَدُودَنَا.

﴿ولعذاب الآخرة أكبر﴾ أي: أعظم مما أصابهم، إِنْ لَمْ يَتُوبُوا فِي الدُّنْيَا.

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/١٩١)، برقم: (٣٤٦٤٤)، وذكره البغوي (٤/٣٨٠)، وابن كثير (٤/٤٠٦).

(٣) ذكره البغوي (٤/٣٨١).

ثم أَخْبَرَ تعالى بِ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فَرَوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَتْ قَرِيشٌ: إِنْ كَانَ ثَمَّ جَنَّاتٍ نَعِيمٍ فَلَنَّا فِيهَا أَكْبَرُ الْحَظِّ، فَنَزَلَتْ ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةُ؛ تَوْيخًا لَهُمْ.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَذَرُسُونَ فِيهِ أَنَّ لَكُمْ مَا تَخْتَارُونَ مِنَ النَّعِيمِ، فَ﴿إِنْ﴾ مَعْمُولَةٌ لـ ﴿تَذَرُسُونَ﴾ وَكُسِرَتِ الْهَمْزَةُ مِنْ ﴿إِنْ﴾ لِدخولِ اللامِ فِي الْخَبَرِ، وَهِيَ فِي ١٧٦ ب مَعْنَى (أَنْ) - بَفَتْحِ الْأَلِفِ - وَقُرِئَ شَاذًا^(١): «أَنَّ لَكُمْ» بِالْفَتْحِ، وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ^(٢): «أَنْ/ لَكُمْ فِيهِ» عَلَى الْاسْتِفْهَامِ، ثُمَّ خَاطَبَ تَعَالَى الْكَفَّارَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ هَلْ أَقْسَمْنَا لَكُمْ قَسَمًا فَهُوَ عَهْدٌ لَكُمْ بَأَنَّا نُنْعِمُكُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا بَعْدَهُ، وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ^(٣): «أَنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ» عَلَى الْاسْتِفْهَامِ، أَيْضًا.

﴿سَلِّمُوا لَهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أَي: ضَامِنٌ * ت * قَالَ الْهَرَوِيُّ: وَقَوْلُهُ: ﴿أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ﴾ أَي مُؤَكَّدَةٌ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ قِيلَ: هُوَ اسْتِدْعَاءٌ وَتَوْقِيفٌ فِي الدُّنْيَا، أَي: لِيُخْضِرُواهُمْ حَتَّى يُرَى هَلْ هُمْ بِحَالٍ مَنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ أَمْ لَا؟ وَقِيلَ: هُوَ اسْتِدْعَاءٌ وَتَوْقِيفٌ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٤): «تُكْشَفُ» - بِضَمِّ التَّاءِ - عَلَى مَعْنَى: تُكْشَفُ الْقِيَامَةُ وَالشَّدَّةُ وَالْحَالُ الْحَاضِرَةُ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥) أَيْضًا: «تُكْشَفُ» - بِفَتْحِ التَّاءِ - عَلَى أَنَّ الْقِيَامَةَ هِيَ الْكَاشِفَةُ، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ مَفْسَّرَةٌ لِقِرَاءَةِ الْجَمَاعَةِ، فَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَالْآيَةِ مِنْ كَشْفِ السَّاقِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ.

وقوله - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ -: ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السَّجْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «فَيَخِرُّونَ لِلَّهِ سُجَّدًا أَجْمَعُونَ وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَلَا سَمْعَةً وَلَا نِفَاقًا إِلَّا صَارَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا؛ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ»^(٦)، الْحَدِيثُ، وَفِي

(١) قَرَأَ بِهَا الْأَعْرَجُ، كَمَا ذَكَرَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي «مَخْتَصَرِ الشَّوَاذِ» ص: (١٦٠)، وَقَرَأَ بِهَا طَلْحَةُ، وَالضُّحَّاكُ، كَمَا فِي «الدَّرِّ الْمَصُونِ» (٣٥٧/٦).

(٢) يَنْظُرُ: «مَخْتَصَرِ الشَّوَاذِ» ص (١٦٠)، وَ«الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٣٥٢/٥) وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٣٠٩/٨)، وَ«الدَّرِّ الْمَصُونِ» (٣٥٧/٦).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٣٥٢/٥)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٣٠٩/٨).

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْتَسِبُ» (١٦٠/٢)، وَ«الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٣٥٣/٥).

(٥) يَنْظُرُ: مَصَادِرُ الْقِرَاءَةِ السَّابِقَةِ.

(٦) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٣١/٨)، كِتَابُ «التَّفْسِيرِ» بَاب: يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ (٤٩١٩) نَحْوَهُ.

الحديث: «فَيَسْجُدُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَتَرْجِعُ أَضْلَابُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَفَّارِ، كَصَيَاصِي الْبَقَرِ، عَظْمًا وَاحِدًا؛ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سُجُودًا» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود﴾ يريد في دار الدنيا، ﴿وهم سالمون﴾ مما نال عظام ظهورهم من الاتصال والعنق.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ يَهْدِ الْيَدِ سَتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٤) وَأَتَى لَّهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرُوقٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْتُ فهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَلَاحِ الْخَوَاتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُنَّ رَيْمَهُ مِنْ رَبِّهِ لَئِيدٌ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الْمَسْلُومِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنْ سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ يَهْدِ الْيَدِ سَتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ الآية، وَعَيْدٌ وَتَهْدِيدٌ والحديث المشار إليه/ هو القرآن، وباقي الآية بَيِّنٌ مِمَّا ذُكِرَ فِي غير هذا الموضع، ثم أَمَرَ ١١٧٧ اللَّهُ - تعالى - نَبِيَّهَ بِالصَّبْرِ لِحُكْمِهِ وَأَنْ يَمْضِيَ لِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ التَّبْلِغِ وَاجْتِمَالِ الْأَذَى وَالْمَشَقَّةِ، وَنُهِيَ عَنِ الضَّجْرِ وَالْعَجَلَةِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا يُونُسُ ﷺ ثُمَّ اقْتَضَبَ الْقِصَّةَ وَذَكَرَ مَا وَقَعَ فِي آخِرِهَا مِنْ نَادَائِهِ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أَي: وَهُوَ كَاطِمٌ لِحُزْنِهِ وَنَدَمِهِ، وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ، وَنَحْوُهُ فِي الْبَخَارِيِّ: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أَي: مَمْلُوءٌ غَمًّا وَكَرْبًا، انْتَهَى وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْمَعْنَى، وَقَالَ الثَّقَفِيُّ: الْمَكْظُومُ الَّذِي أَخَذَ بِكَظْمِهِ، وَهِيَ مَجَارِي الْقَلْبِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(١) وَغَيْرُهُ: «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكْتَهُ نِعْمَةً» وَالنِّعْمَةُ الَّتِي تَدَارَكْتَهُ هِيَ الصَّفْحُ وَالْاجْتِنَابُ الَّذِي سَبَقَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ - عز وجل - ﴿لَنَبْذُ بِالْعَرَاءِ﴾ أَي: لَطَرَحَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ الْفَضَاءُ الَّذِي لَا يُوَارِي فِيهِ جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ وَقَدْ نُبِذَ يُونُسَ - عليه السلام - بِالْعَرَاءِ وَلَكِنْ غَيْرَ مَذْمُومٍ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ قَالَتْ: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ عِنْدَ

= ومن طريق أخرى غير هذه، أخرج الحاكم حديثاً في هذا المعنى (٥٨٩/٤، ٥٩٢) في حديث طويل. قال الحاكم: رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات، غير أنهما لم يخرجوا أبداً خالد الدالاني في «الصحيحين»، لما ذكر في انحرافه عن السنة في ذكر الصحابة، فأما الأئمة المتقدمون فكلهم شهدوا لأبي خالد بالصدق، والإنفاق، والحديث صحيح ولم يخرجاه، وأبو خالد الدالاني ممن يجمع حديثه في أئمة أهل الكوفة.

قال الذهبي: ما أنكره حديثاً على جودة إسناده!! وأبو خالد شيعي منحرف. (١) وقرأ بها ابن عباس وأبي بن كعب.

ينظر: «مختصر الشواذ» (ص: ١٦١)، و«الكشاف» (٥٩٦/٤)، و«البحر المحيط» (٣١١/٨)، و«المحرر الوجيز» (٣٥٤/٥)، و«الدر المصون» (٣٥٩/٦).

الكَرْبِ أَوْ فِي الْكَرْبِ، اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي لَا أَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً^(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وأخرجه الطبراني في كتاب «الدعاء»، انتهى من «الصلاح»، ثم قال تعالى لنبيه: ﴿وَأَن يَكَادَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ المعنى يكادُونَ مِنَ الْغَيْظِ والعداوة يُزْلِقُونَهُ فَيُذْهِبُونَ قَدَمَهُ مِنْ مَكَانِهَا، وَيُسْقِطُونَهُ، قال عياض: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ: «كَادَ» فَهُوَ مَا لَا يَكُونُ، قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَآ بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣] وَلَمْ يَذْهَبْهَا وَ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] وَلَمْ يَفْعَلْ، انتهى؛ ذكره إثر قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]. وقرأ الجمهور: «لَيُزْلِقُونَكَ» / - بَضَمَ الْيَاءِ - مِنْ: أَزْلَقَ، وَنَافِعٌ يَفْتَحُهَا^(٢)، مِنْ: زُلِقَتِ الرَّجُلُ، وفي هذا المعنى قول الشاعر: [الكامل]

يَتَقَارَضُونَ إِذَا أَلْتَقَوْا فِي مَجْلِسٍ نَظَرًا يَزِلُّ مَوَاطِئَ الْأَقْدَامِ^(٣)
وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْمَفْسِرِينَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى: يَأْخُذُونَكَ بِالْعَيْنِ، وقال الحسن: دَوَاءٌ مَنْ أَصَابَتْهُ الْعَيْنُ أَنْ يقرأ هذه الآية^(٤)، والذَّكْرُ فِي الْآيَةِ: الْقُرْآنُ.

-
- (١) أخرجه أبو داود (٤٧٧/١)، كتاب «الصلاة» باب: في الاستغفار (١٥٢٥)، والنسائي (١٦٦/٦) - «الكبرى»، كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ما يقول إذا غلبه أمر (٢٢/١٠٤٨٤ - ٢٣/١٠٤٨٥)، وابن ماجه (١٢٧٧/٢)، كتاب «الدعاء» باب: الدعاء عند الكرب (٣٨٨٢)، وأحمد (٣٦٩/٦).
(٢) ينظر: «السبعة» (٦٤٧)، و«الحجة» للقراء السبعة (٣١٢/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٨٢/٢)، و«حجة القراءات» (٧١٨).
(٣) البيت في «الكشاف» (٥٩٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣١١/٨)، والقرطبي (١٦٦/١٨)، و«المحرر الوجيز» (٣٥٤/٥)، «اللسان» (زلق).
(٤) ذكره البغوي (٣٨٥/٤)، وابن عطية (٣٥٥/٥).

[تفسير] سُورَةُ «الْحَاقَّةِ»

[وَهِيَ] مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْخَاقَّةُ ٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَاقَّةُ ٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطُغْيَانِهِ وَاتَّخَذَ ٤﴾

قوله عز وجل: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ * ما الحاقة ﴿المُرَادُ بِالْحَاقَّةِ: القيامة، وهي اسمُ فاعلٍ مِنْ حَقَّ الشَّيْءُ يَحِقُّ؛ لَأَنَّهَا حَقَّتْ لِكُلِّ عَامِلٍ عَمَلَهُ، قال ابن عباس وغيره: سُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ حَاقَّةً لَأَنَّهَا تُبْدِي حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ^(١)، و﴿الْحَاقَّةُ﴾: مبتدأ و﴿مَا﴾: مبتدأ ثانٍ، والْحَاقَّةُ الثَّانِيَةُ خَبَرُ ﴿مَا﴾ والجملةُ خَبَرُ الْأَوَّلَى، وهذا كما تقول: زَيْدٌ مَا زَيْدٌ عَلَى معنى التعظيم له، وإِنْهَامُ التعظيم أَيْضاً لِيَتَخَيَّلَ السَّامِعُ أَقْصَى جُهْدِهِ.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ مبالغة في هذا المعنى: أي: أن فيها ما لَمْ تَذَرِهِ مِنْ أَهْوَالِهَا، وَتَفَاصِيلِ صِفَاتِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى تَكْذِيبَ ثَمُودَ وَعَادٍ بِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ حَقٌّ مُشِيراً إِلَى أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِذَلِكَ يَنْزِلُ بِهِ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ، و﴿الْقَارِعَةُ﴾: من أسماء القيامة أيضاً؛ لَأَنَّهَا تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِصَدْمَتِهَا.

﴿ثُمَّ نَآثُتُ ثَمُودَ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦﴾ سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَحَاحٌ لِبَالٍ وَنَمْنِيَّةٌ أَبْيَارٌ حُشُومًا ٧﴾ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَجْرَارٌ نَحْلٌ ٨﴾ فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٩﴾ وَجَاءَ دُجُونٌ وَمِنْ قَبْلِهِمُ الْمُتَفَيِّكُونَ ١٠﴾ فَعَصَا رَسُولٌ فِيهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١١﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْخَوَاصِرِ ١٢﴾ لِنَجْلِيَنَّهُمْ لَكُنْ نَذِيرٌ ١٣﴾ وَتَعْبَاهَا أَذُنٌ رَابِعَةٌ ١٤﴾ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ ١٥﴾ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ١٦﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ١٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٨﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٩﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ٢٠﴾ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنَدِينٌ ٢١﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ قال قتادة: معناه: بالصَّيْحَةِ الَّتِي خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ كُلِّ صَيْحَةٍ^(٢)، وقيل: المعنى بِسَبَبِ الْفِتْنَةِ الطَّاغِيَةِ، وقيل: بِسَبَبِ الْفَعْلَةِ الطَّاغِيَةِ، وقال ابن زيد ما معناه: الطَّاغِيَةُ مُصَدَّرٌ كَالْعَاقِبَةِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ بِطُغْيَانِهِمْ^(٣)؛ وقاله أبو

(١) ذكره ابن عطية (٣٥٦/٥).

(٢) ذكره البغوي (٣٨٦/٤)، وذكره ابن عطية (٣٥٦/٥)، وذكره ابن كثير (٤١٢/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٠٧/١٢)، رقم: (٣٤٧٢٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥٧/٥).

عبيدة، وَيُقَوِّي هذا قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١] وأوَّلَى الأقوال ١٧٨ وأصوبها الأول، وباقي/ الآية تقدم تفسير نظيره، وما في ذلك من القصص، والعائيتة: معناه الشديدة المخالفة، فكانت الريح قد عَثَّتْ على خُرَانِها بخلافها، وعلى قوم عاد بشدتها، ورُوِيَ عن عليّ وابن عباس أنهما قالا: لَمْ يَنْزِلْ مِنَ السَّمَاءِ قطرة ماءٍ قط إلا بمكيالٍ عَلَى يَدِ مَلَكٍ، ولا هبَّتْ رِيحٌ إِلَّا كَذَلِكَ؛ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ طُوفَانِ نُوحٍ، وريح عادٍ، فَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَهُمَا فِي الْخُرُوجِ دُونَ إِذْنِ الْخُرَانِ^(١)، و﴿حُسُومًا﴾: قال ابن عباس وغيره: معناه كَامِلَةٌ تَبَاعًا لم يتخللها غير ذلك^(٢)، وقال ابن زيد: ﴿حُسُومًا﴾ جمع حَاسِمٍ، ومعناه أَنَّ تِلْكَ الْأَيَّامَ قَطَعَتْهُمْ بِالْإِهْلَاكِ^(٣)، ومنه حَسَمَ الْعِلَلَ، ومنه الحُسَامُ، والضميرُ في قوله: ﴿فِيهَا صَرَغَى﴾ يُحْتَمِلُ عُودَهُ عَلَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَيُحْتَمِلُ عُودَهُ عَلَى دِيَارِهِمْ، وقيل: على الريح، * ص * : «ومن قَبْلَهُ» النحويان وعاصمٌ في رواية - بكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ - أي: أجناده وأهل طاعته، وقرأ الباقون^(٤): «قَبْلَهُ» ظَرَفَ زَمَانٍ، انتهى.

وقوله: ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ صفةٌ لمحدوف، أي: بالفعلِ الخاطئة، وال«راية» الثَّامِيَّة التي قد عَظُمَتْ جَدًّا، ومنه رَبَا الْمَالِ، ومنه ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ [الحج: ٥]، ثم عدد تعالى على الناس نِعَمَهُ في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ يعني في وَقْتِ الطُوفَانِ الذي كَانَ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ، و﴿الْجَارِيَةِ﴾ سَفِينَةُ نُوحٍ؛ قاله منذر بن سعيد^(٥)، والضميرُ في: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ عَائِدٌ عَلَى الْجَارِيَةِ أو على الفعلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَعِيهَا أَذُنٌ وَاغِيَةٍ﴾: عبارةٌ عن الرجلِ الْفَهْمِ الْمُتَوَرِّ الْقَلْبِ الذي يَسْمَعُ الْقُرْآنَ؛ فيتلقيه بفَهْمٍ وتدبُّرٍ، قال أبو عمران الجوني: ﴿وَاغِيَةٍ﴾ عَقَلَتْ عَنِ اللَّهِ تعالى، وقال الثعالبي: المعنى: لِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أُذُنٍ فَتَكُونَ عِظَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدُ، تقول وَعَيْتَ الْعِلْمَ إِذَا

(١) أخرجه الطبري (٢٠٧/١٢ - ٢٠٨)، رقم: (٣٤٧٢٧)، (٣٤٧٢٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥٧/٥)، وذكره ابن كثير (٤١٣/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٥/٦)، وعزاه للفرابي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٨/١٢)، رقم: (٣٤٧٣٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥٧/٥)، وذكره ابن كثير (٤١٢/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٢٠٩/١٢)، رقم: (٣٤٧٤٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥٧/٥).

(٤) ينظر: «السبعة» (٦٤٨)، و«الحجة» (٣١٤/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٨٥/٢)، و«حجة القراءات» (٧١٨)، و«معاني القراءات» (٨٦)، و«العنوان» (١٩٦)، و«شرح شعلة» (٦٠٦)، و«شرح الطيبة» (٦/٦٦)، و«إنحاف» (٥٥٧/٢).

(٥) ذكره ابن عطية (٣٥٨/٥).

حَفِظْتَهُ، انتهى، ثم / ذَكَرَ تعالى بأمر القيامة، وقرأ الجمهور^(١): «وَحُمِلَتْ» بتخفيف الميم ١٧٨ ب
بمعنى: حَمَلَتْهَا الرِّيحُ أو القدرة، و﴿ذُكِّنَا﴾ معناه سُوِّيَ جميعها، وانشقاقُ السماء هو
تَقَطُّرُهَا وتميُّزُ بعضها من بعض، وذلك هو الوَهْيُ الذي ينالها، كما يقال في الجدران البالية
المتشققة واهية، والملكُ اسْمُ الجنسِ يريدُ به الملائكة، وقال جمهور من المفسرين:
الضميرُ في ﴿أَرْجَائِهَا﴾ عائِدٌ على السَّمَاءِ أي: الملائكة على نَوَاحِيهَا، والرَّجَا الجَانِبُ مِنْ
البئر أو الحائط؛ ونحوه، وقال الضحاك وابن جبير وغيرهما: الضميرُ في: ﴿أَرْجَائِهَا﴾ عائِدٌ
على الأرض^(٢)، وإن كان لم يتقدم لها ذكرٌ قريبٌ؛ لأنَّ القصة واللفظ يقتضي إفهام ذلك،
وَقَسَرُوا هذه الآية بما رُوِيَ من أن الله تعالى يأمر ملائكةَ سَمَاءِ الدنيا، فيقفون صفًا على
حَاقَاتِ الأرض، ثم يأمر ملائكة السماء الثانية؛ فَيَصْفُونَ خَلْقَهُمْ، ثم كذلك ملائكة كُلِّ
سماءٍ، فكلما نَدَّ أَحَدٌ من الجنِّ أو الإنسِ، وَجَدَ الأرضَ قد أُحِيطَ بها، قالوا: فهذا تفسير
هذه الآية؛ وهو أيضاً معنى قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وهو
تفسير: «يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُولَدُونَ مُذْهِبِينَ» [غافر: ٣٢-٣٣] على قراءة من شَدَّدَ الدال،
وهو تفسيرُ قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ...﴾ [الرحمن: ٣٣] الآية، واختلف الناس في
الثمانية الحاملين للعرش، فقال ابن عباس: هي ثمانية صفوفٍ مِنَ الملائكة لا يَعْلَمُ أَحَدٌ
عِدَّتَهُمْ^(٣)، وقال ابن زيد: هُمْ ثمانية أملاكٍ على هيئةِ الوُغُولِ^(٤)، وقال جماعة من
المفسرين: هم على هيئة الناس أرجلهم تَحْتَ الأرضِ السابعة، ورؤوسهم وكواهلهم فَوْقَ
السماءِ السابعة، قال الغزالي في «الدرة الفاخرة»: هم ثمانية أملاكٍ قَدَّمَ الْمَلِكُ مِنْهُمْ مسيرةَ
عشرين ألف سنة، انتهى، والضميرُ في قوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ قيل: هو للملائكة/ الحَمَلَة، ١٧٩
وقيل: للعالم كله.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (٧٨) فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَتَبَهُ يَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً
(١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءُ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ

- (١) وقرأ ابن عباس، والأعمش، وابن أبي عبيدة، وابن مقسم بتشديد الميم.
ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦١)، و«المحرر الوجيز» (٣٧٩/٥)، و«البحر المحيط» (٣١٧/٨)،
و«الدر المصون» (٣٦٣/٦)، و«التخریجات النحویة» (٢٣٨).
(٢) ذكره ابن عطية (٣٥٩/٥).
(٣) أخرجه الطبري (٢١٥/١٢ - ٢١٦)، رقم: (٣٤٧٨٨، ٣٤٧٩٠) بنحوه، وذكره البغوي (٣٨٨/٤)،
وذكره ابن عطية (٣٥٩/٥)، وذكره ابن كثير (٤١٤/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦/٤٠٩)،
وعزه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه الطبري (٢١٦/١٢)، رقم: (٣٤٧٩٢) بنحوه. وذكره ابن عطية (٣٥٩/٥).

﴿٢٣﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كَبْبُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأَيْتُ كَنِينِي ﴿٢٥﴾ وَلَرَأَيْتُ مَا حَسَابِي ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةُ ﴿٢٧﴾ مَا آغَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ خطاب لجميع العالم، وفي الحديث الصحيح: «يُعْرَضُ النَّاسُ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرَضَتَانِ؛ فَعِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ، فَعِنْدَهَا تَنْطَايِرُ الصُّحُفِ فِي الْأَيْدِي، فَأَخِذْ بِيَمِينِهِ، وَأَخِذْ بِشِمَالِهِ»^(١)، قال الغزالي: يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ الْبِدَارُ، إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَرَنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُرَنُوهَا^(٢)، وَإِنَّمَا حِسَابُهُ لِنَفْسِهِ، أَنْ يَتُوبَ مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ قَبْلَ الْمَوْتِ تَوْبَةً نُّصُوحًا، وَيَتَذَكَّرَ مَا فَرَّطَ فِيهِ مِنْ تَقْصِيرٍ فِي فَرَائِضِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَيُرَدِّ الْمَظَالِمَ حَبَّةَ حَبَّةً، وَيَسْتَحِلَّ كُلَّ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ بِلِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَسُوءَ ظَنِّهِ بِقَلْبِهِ، وَيُطِيبَ قُلُوبَهُمْ حَتَّى يَمُوتَ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ فَرِيضَةٌ وَلَا مَظْلَمَةٌ، فَهَذَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، انْتَهَى مِنْ آخِرِ «الْإِحْيَاءِ»، وَنَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «تَذَكُّرَتِهِ» هَذِهِ الْأَلْفَافَ بَعِينَهَا.

وقوله: ﴿هَآؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ﴾ معناه تَعَالَوْا، وَقَوْلُهُ: ﴿اقْرَءُوا كِتَابِيهِ﴾ هُوَ اسْتِشَارٌ وَسُرُورٌ * ص * : ﴿هَآؤُمْ﴾ «هَا» بِمَعْنَى خُذْ، قَالَ الْكَسَائِيُّ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ: هَآءِ يَا رَجُلُ، وَلِلثَانَيْنِ؛ رَجُلَيْنِ أَوْ امْرَأَتَيْنِ: هَآؤُمَا، وَلِلرَّجَالِ: هَآؤُمْ، وَلِلْمَرْأَةِ: هَآءِ بِهَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ مِنْ غَيْرِ يَاءٍ، وَلِلنِّسَاءِ: هَآؤُنَّ، وَزَعَمَ الْقُتَيْبِيُّ أَنَّ الْهَمْزَةَ بَدَلُ مِنَ الْكَافِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، إِلَّا أَنْ يُعْنِيَ أَنَّهَا تَحُلُّ مَحَلَّهَا فِي لُغَةٍ مَنْ قَالَ: هَآكَ وَهَآكِ، وَهَآكُمَا وَهَآكُنَّ، فَذَلِكَ مُمَكِّنٌ، ب ١٧٩ لَا أَنَّهُ بَدَلُ صَنَاعِيٍّ؛ لِأَنَّ الْكَافَ/ لَا تُبَدَلُ مِنَ الْهَمْزَةِ وَلَا الْهَمْزَةُ مِنْهَا. انْتَهَى.

وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ﴾ عبارة عن إيمانه بالبعث وغيره، و﴿ظَنَنْتُ﴾ هُنَا وَاقِعَةٌ مَوْقِعٌ: تَبَيَّنْتُ، وَهِيَ فِي مُتَبَيَّنٍّ لَمْ يَقَعْ بَعْدُ وَلَا خَرَجَ إِلَى الْحُسِّ، وَهَذَا هُوَ بَابُ الظَّنِّ الَّذِي يَوْقِعُ مَوْقِعَ الْيَقِينِ، و﴿رَاضِيَةً﴾ بِمَعْنَى مَرْضِيَّةٍ، وَالْقُطُوفُ: جَمْعُ قُطْفٍ وَهُوَ مَا يُجْتَنَى مِنَ الشَّامِرِ، وَيُقْطَفُ، وَدَنُوهَا هُوَ أَنَهَا تَأْتِي طَوَّعَ التَّمَنِّيِّ فَيَأْكُلُهَا الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ

(١) أخرجه الترمذي (٦١٧/٤)، كتاب «صفة القيامة» باب: ما جاء في العرض (٢٤٢٥)، وابن ماجه (٢/٤٣٠)، كتاب «الزهد» باب: ذكر البعث (٤٢٧٧)، وأحمد (٤١٤/٤).

قال الترمذي: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤١٠/٦)، وعزاه لابن المبارك.

والمضطجعُ بفيه من شجرتها، و﴿بما أسلفتم﴾ معناه بما قدَّمتم من الأعمالِ الصالحة، و﴿الأيامِ الخالية﴾ هي أيام الدنيا، لأنها في الآخرة قد خلت وذَهَبَتْ، وقال وكيع وغيره: المراد بـ«ما أسلفتم» من الصوم^(١)، وعموم الآية في كل الأعمالِ أولى وأحسن، * ت * : ويدلُّ على ذلك الآيةُ الأخرى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤٣] قال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا مالك بن مغول أنه بلغه أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قبل أن تحاسبوا؛ فإنه أهونُ أو أيسرُ لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ قال ابن المبارك: أخبرنا معمر عن يحيى بن المختار، عن الحسن قال: إن المؤمن قَوَّامٌ على نفسه، يحاسبُ نفسه لله، وإنما خَفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حَاسَبُوا أنفسهم في الدنيا، وإِنَّمَا شَقَّ الحسابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ على قوم أَخَذُوا هذا الأَمْرَ عن غير محاسبة^(٢)، انتهى، والذين يُؤْتَوْنَ كِتَابَهُمْ بشمائلهم هم المَخْلُدُونَ/ في النارِ أهلُ الكفر، فيتمنون أن لو كانوا مَعْدُومِينَ.

وقوله: ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ إشارة إلى موتة الدنيا، أي: ليتها لم يكن بعدها رجوع، * ص * : ﴿ما أغنى﴾ «ما» نافية أو استفهامية انتهى، والسلطانُ في الآية الحجة، وقيل: إنه ينطبقُ بذلك مُلُوكُ الدنيا، والظاهر أنَّ سلطانَ كلِّ أحدٍ حاله في الدنيا من عَدَدٍ وعَدَدٍ، ومنه قوله ﷺ «لَا يُؤْمِنُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَجْلِسُ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»^(٣).

﴿خُذُوهُ فَعْلُوهُ ۖ (٣٠) ثُمَّ لَبِّجْهُمْ صَلَوةً ۖ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ (٣٢) إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ (٣٣)﴾

وقوله سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَعْلُوهُ﴾ الآية، المعنى يقول الله تعالى، أو الملك بأمره

(١) ذكره ابن عطية (٣٦٠/٥).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤١٢/٦)، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب «المساجد» باب: من أحق بالإمامة، حديث (٢٩٠ - ٢٩١)، وأبو داود (٢١٥/١)، كتاب «الصلاة» باب: في من أحق بالإمامة (٥٨٢)، والترمذي (٤٥٨/١ - ٤٥٩)، كتاب «المواقيت» باب: من أحق بالإمامة (٢٣٠)، والنسائي (٧٦/٢)، كتاب «الإمامة» باب: من أحق بالإمامة (٧٨٠)، (٧٧/٢)، كتاب «الإمامة» باب: اجتماع القوم وفيهم الوالي (٧٨٣)، وابن ماجه (٣١٣/١ - ٣١٤)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها» باب: من أحق بالإمامة (٩٨٠)، وأحمد (١١٨/٤ - ١٢١ - ١٢٢)، (٢٧٢/٥)، وهو في الترمذي أيضاً (٩٩/٥)، كتاب «الأدب» باب: (٢٤) (٢٧٢٢). قال الترمذي: حسن صحيح.

للزبانية: خذوه واجعلوا في عنقه غلاً، قال ابن جُرَيْج: نزلت في أبي جهل^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْلُكُوهُ﴾ معناه: أدخلوه، ورُوي أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دُبُرِهِ، فهي في الحقيقة التي تسلك فيه، لكنَّ الكلامَ جَرَى مَجْرَى: أَدْخَلْتُ الْقَلَنْسُوَةَ فِي رَأْسِي، ورُوي أن هذه السلسلة تُلَوَّى حَوْلَ الكافرِ حتى تعمه وتَضَعُطه، فالكلامُ على هذا على وجهه وهو المسلوكُ.

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ خُصَّتْ هذه الخلَّة بالذكر، لأنها من أَضْرَّ الْخِلَالَ بالبشر؛ إذا كَثُرَتْ في قوم هَلَكَ مساكينهم، * ت * : وَنَقَلَ الْفَخْرُ^(٢) عن بعض الناس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾: دليلاً قوياً على عَظَمِ الْجَزْمِ فِي جَرْمَانِ الْمَسَاكِينِ، أحدهما: عَطْفُهُ على الكفر وجَعْلُهُ قريباً له، والثاني: ذِكْرُ الْحَضِّ دُونَ الْفِعْلِ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ تَارَكَ الْحَضَّ بِهذه المنزلة، فكيف بمن ترك الفعل، قال الفخر^(٣): ودلت الآية على أَنَّ الْكَفَّارَ يُعَاقَبُونَ على ترك الصلاة والزكاة، وهو المراد من قولنا: إنهم مخاطَبُونَ بفروع الشريعة/ وعن أبي الدُّزْدَاءِ أنه: كَانَ يَحْضُ امرأته على تكثير المَرَقِ؛ لأجل المساكين، ويقول: خَلَعْنَا نِصْفَ السِّلْسِلَةِ بِالْإِيْمَانِ، أَفَلَا نَخْلَعُ النِّصْفَ الثَّانِي^(٤)، انتهى.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي صديق لطيف المودة؛ قاله الجمهور، وقيل: الحميم الماء السُّخْنُ، فكأنه تعالى أخبر أن الكافر ليس له ماء ولا شيء مائع ولا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ، وهو ما يجري من الجراح، إذا غسَلْتُ، وقال ابن عباس: الغسلين هو صديق أهل النار^(٥)، وقال قوم: الغسلين: شيء يجري من صريع النار، * ص * : ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾ أبو البقاء: النون في (غسلين) زائدة: لأنه عُسَّالُهُ أهل النار، انتهى،

(١) ذكره ابن عطية (٣٦١/٥) عن ابن جرير.

(٢) ينظر: «الفخر الرازي» (١٠٢/٣٠).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤١٢/٦)، وعزاه لأبي عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي الدرداء.

(٥) أخرجه الطبري (٢٢١/١٢)، رقم (٣٤٨٢٥)، وابن عطية (٣٦١/٥)، وابن كثير (٤١٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٢/٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

والخاطيء الذي يفعل ضد الصواب.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فلا أقسم﴾ قيل: «لا» زائدة وقيل: «لا» رد لما تقدّم من أقوال الكفار، والبذأة: أقسم.

وقوله: ﴿بما تبصرون * وما لا تبصرون﴾ قال قتادة: أراد الله تعالى أن يعم بهذا القسم جميع مخلوقاته^(١)، والرسول الكريم قيل: هو جبريل، وقيل: هو نبينا محمد ﷺ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَآهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا آفَاقِيلُ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وما هو بقول شاعر﴾ نفى سبحانه أن يكون القرآن من قول شاعر؛ كما زعمت قريش، و﴿قليل﴾ نصب بفعل مضمر يدل عليه ﴿تؤمنون﴾ و﴿ما﴾ يحتمل أن تكون نافية فينتفي إيمانهم ألبنة، ويحتمل أن تكون مصدرية فيتصف إيمانهم بالقلّة، ويكون إيماناً لغوياً؛ لأنهم قد صدّقوا بأشياء يسيرة لا تُغني عنهم شيئاً، ثم أخبر سبحانه أن محمداً - عليه السلام - لو تقول عليه لعاقبه بما ذكر، * ص * : الآفويل جمع أقوال، وأقوال جمع قول، فهو جمع الجمع، انتهى.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ قال ابن عباس: المعنى لأخذنا منه بالقوة، أي لئلاّ منه عقابه بقوة/ منا^(٢)، وقيل: معناه لأخذنا بيده اليمنى؛ على جهة الهوان، كما يقال ١٨١ لِمَنْ يَسْجُنُ أَوْ يَقَامُ لِعُقُوبَةٍ: خُذُوا بِيَدِهِ أَوْ بِيَمِينِهِ، والوترين نياط القلب؛ قاله ابن عباس، وهو عِزْقٌ غليظ تصادفه شفرة الناجر^(٣)، فمعنى الآية: لأذهبنا حياته معجلاً، والحاجز: المانع والضمير في قوله: ﴿وإنه لتذكرة﴾ عائد على القرآن، وقيل: على النبي ﷺ،

(١) ذكره البغوي (٤/٣٩٠)، وذكره ابن عطية (٥/٣٦٢).

(٢) ذكره البغوي (٤/٣٩٠)، وذكره ابن عطية (٥/٣٦٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٢٢٣)، رقم: (٣٤٨٣٢ - ٣٤٨٣٣، ٣٤٨٣٤) بنحوه، والبغوي (٤/٣٩١)،

وابن عطية (٥/٣٦٣)، وابن كثير (٤/٤١٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤١٣)، وعزاه

لابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس.

* ص * : ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ﴾ : ضمير (إنه) يعودُ على التَّكْذِيبِ المفهوم من ﴿مُكَذِّبِينَ﴾ ، انتهى ، وقال الفخر^(١) : الضميرُ في قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه يعودُ على القرآن ، أي : هو على الكافرين حَسْرَةٌ ، إمَّا يوم القيامة إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ الْمُصْذِقِينَ به ، أو في الدنيا إِذَا رَأَوْا دَوْلَةَ الْمُؤْمِنِينَ ، والثاني : قال مقاتلٌ : وَإِنَّ تَكْذِيبَهُم بِالْقُرْآنِ لَحَسْرَةٌ عَلَيْهِمْ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿أَنْ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ ، انتهى ، ثم أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَهُ بِالتَّسْبِيحِ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ ، وَلَمَّا نَزَلَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ .

(١) ينظر : «الفخر الرازي» (١٠٦/٣٠) .

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «المعارج»

[وَهِيَ] مَكِّيَّةٌ بِلاَ خِلَافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ﴾ قرأ جمهور السبعة: ﴿سَأَلَ﴾ بهمزة محققة، قالوا: والمعنى دَعَا داع، والإشارة إلى مَنْ قال من قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ...﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، وقولهم: ﴿عَجَلْ لَنَا قِطْنًا﴾ [ص: ١٦] ونحو ذلك، وقال بعضهم: المعنى بَحَثَ بَاحِثٌ وَاسْتَفْهَمَ مُسْتَفْهِمٌ، قالوا: والإشارة إلى قول قريش: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [الملك: ٢٥] وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ؛ قاله الحسن وقتادة، والباء على هذا التأويل في قوله: ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى «عن» وقرأ نافع وابن عامر^(١): «سَال سَائِلٌ» ساكنة الألف، واختلف القراء بها/ فقال بعضهم: هي «سأل» ب ١٨١ المهموزة إلا أن الهمزة سُهِّلَتْ، وقال بعضهم هي لغة من يقول: سَلْتُ أَسْأَلُ وَيَسْأَوُلَانِ، وهي لغة مشهورة، وقال بعضهم في الآية: هي من سَال يَسِيلُ إذا جَرَى، وليست من معنى السؤال، قال زيد بن ثابت وغيره: في جهنم وادٍ يَسْمَى سَائِلًا^(٢)؛ والإخبار هنا عنه، وقرأ ابن عباس^(٣): «سَال سِيل» - بسكون الياء - وسؤال الكفار عن العذاب - حَسَبَ قراءة الجماعة - إنما كَانَ عَلَى أَنَّهُ كَذَبٌ، فوصفه الله تعالى بأنه وَاقِعٌ وعيداً لهم.

وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ قال بعض النحاة: اللام بمعنى «على»، وَرُوِيَ: أَنَّهُ كَذَلِكَ فِي

(١) ينظر: «السبعة» (٦٥٠)، و«الحجة» (٣١٧/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٨٩/٢)، و«حجة القراءات» (٧٢٠)، و«معاني القراءات» (٨٨/٣)، و«شرح الطيبة» (٦٨/٦)، و«العنوان» (١٩٧)، و«شرح شعلة» (٦٠٨). و«إتحاف» (٥٦٠/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٦٤/٥).

(٣) قال أبو الفتح: السيل هنا: الماء السائل، وأصله المصدر، من قولك: سَال الماء سَيْلًا، إلا أنه أوقع على الفاعل، كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]، أي: غائراً.

ينظر: «المحتسب» (٣٣٠/٢)، و«مختصر الشواذ» ص: (١٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٦٥/٥).

مصحف^(١) أُبَيٍّ: «على الكافرين» والمعارج في اللغة الدَّرَج في الأجرام، وهي هنا مستعارة في الرُّتَب والفضائل، والصفات الحميدة؛ قاله ابن عباس وقتادة^(٢)، وقال الحسن: هي المَرَاقِي في السماء^(٣)، قال عياض، في «مشارك الأنوار»: قوله ﷺ «فَعَرَجَ بي إلى السَّمَاء»، أي: ارتقى بي، والمعرَج الدَّرَج وقيل: سُلَّم تَعْرُج فيه الأرواح، وقيل: هو أَحْسَنُ شيء لا تتمالك النفس إذا رآته أن تَخْرُجَ، وإليه يَشْخُصُ بَصَرُ المَيِّتِ مِنْ حُسْنِهِ، وقيل: هو الذي تَضَعُدُ فيه الأَعْمَالُ، وقيل: قوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ مَعَارِجِ الملائكة، وقيل: ذي الفواضِل، انتهى.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ﴾ معناه تَضَعُدُ، والروحُ عِنْدَ الجمهورِ هو جبريل عليه السلام - وقال مجاهد: الروحُ ملائكةٌ حَفَظَةُ لِلْمَلَائِكَةِ الحافظين لبني آدم لا تَراهم الملائكة؛ كَمَا لا نرى نحن الملائكة^(٤)، وقال بعض المفسرين: هو اسم جنس لأرواح الحيوان.

وقوله سبحانه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو ١٨٨٢ يوم القيامة^(٥)، ثم اختلفوا؛ فقال بعضهم: قَدَرُهُ فِي الطَّوْلِ قَدَرُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وقال بعضهم: بل قَدَرُهُ فِي الشَّدَّةِ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الظَّاهِرُ، وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُوَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ صَفَاتُحٌ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ بِهَا جَنَّتُهُ وَظَهْرُهُ وَجَنْبَاهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». قال أبو سعيد الخدري: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَطْوَلُ يَوْمًا مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ! فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَخِفُّ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفُّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ»^(٦)، قال ابن المبارك: أَخْبَرَنَا مُعَمَّرٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٦٥/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٦/٦)، رقم: (٣٤٨٥٤ - ٣٤٨٥٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٦٥/٥)، وابن كثير (٤١٨/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٦/٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٦٥/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٦٥/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٢٢٧/١٢)، رقم: (٣٤٨٦٤) بنحوه، وذكره البغوي (٣٩٢/٤)، وابن عطية (٥/٥) (٣٦٥)، وابن كثير (٤١٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٦/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٦) أخرجه أحمد (٧٥/٣)، والطبري (٢٢٧/١٢) (٣٤٨٦٧).

زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: يَقْضَرُ يَوْمُنَا عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ كَوَقْتِ الصَّلَاةِ^(١)،
انتهى، قال * ع^(٢) * : وَقَدْ ورد في يوم القيامة أنه كَأَلْفِ سَنَةٍ، وهذا يشبه أن يكون في
طوائف دُونَ طوائفَ، * ت * : قال عبد الحق في «العاقبة» له: اغْلَمَ رَحِمَكَ اللَّهُ؛ أَنْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ لَيْسَ طَوْلُهُ كَمَا عَهْدَتْ مِنْ طَوْلِ الْأَيَّامِ، بَلْ هُوَ آلاَفٌ مِنَ الْأَعْوَامِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِ هَذَا
الْأَنَامُ، عَلَى الْوُجُوهِ وَالْأَقْدَامِ، حَتَّى يَنْقُذَ فِيهِمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَلَيْسَ
يَكُونُ خَلَاصُهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَلَا فَرَاغُهُمْ فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ؛ بَلْ يَتَخَلَّصُونَ وَيَفْرَغُونَ شَيْئًا بَعْدَ
شَيْءٍ، لَكِنَّ طَوْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَيَفْرَغُونَ بِفَرَاغِ الْيَوْمِ، وَيَفْرَغُ الْيَوْمُ
بِفَرَاغِهِمْ، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَطُولُ مَقَامُهُ وَحُبُّهُ إِلَى آخِرِ الْيَوْمِ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَكُونُ انْفِصَالُهُ فِي
ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي مِقْدَارِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، أَوْ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِهِ، أَوْ فِي أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ،
وَيَكُونُ رَائِحًا فِي ظِلِّ كَسْبِهِ وَعَرْشِ رَبِّهِ، وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا
عَذَابٍ، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ وَقُوفٍ وَلَا انْتِظَارٍ، / أَوْ ١٨٢ ب
بَعْدَ يَسِيرٍ مِنْ ذَلِكَ، انتهى.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ٦ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ ٨
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٩ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ١٠ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَعْجَمِ لَوْ يَقْدَرُ مِنْ عَذَابٍ
يَوْمَئِذٍ بَيْنِهِ ١١ وَصَجَّجَتْهُ وَآخِيهِ ١٢ وَفَصَّلَتْهُ أَلَّتْهُ تَوْبِهِ ١٣ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ١٤
كَلَّا إِنَّمَا لَطَى ١٥ نَزَاعَةَ لِلشَّوَى ١٦ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أمر للنبي ﷺ بالصبر على أذى قومه، والصبر
الجميل الذي لَا يُلْحَقُهُ عَيْبٌ وَلَا شَكٌّ وَلَا قِلَّةٌ رَضَى، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ
مُحْكَمٌ فِي كُلِّ حَالَةٍ، أَعْنِي: لَا نَسْخَ فِيهِ، وَقِيلَ: إِنَّ آيَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ؛ فَهِيَ
مَنْسُوخَةٌ، * ت * : وَلَوْ قِيلَ: هَذَا خُطَابٌ لَجَنَسِ الْإِنْسَانِ فِي شَأْنِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ مَا
بَعُدَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ يعني يوم القيامة، والمهل: عَكَرَ الزَّيْتِ؛ قَالَ ابْنُ

= قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١٠/٣٤٠): رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ عَلَى ضَعْفِ رَاوِيهِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١/٣٢٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢/٦٧٣)، كِتَابُ «الْأَدَبِ» بَابُ: فِي التَّحْلُقِ (٤٨٢٣)، وَأَحْمَدُ (٥/٩٣، ١٠١، ١٠٧)، وَابْنُ هَبَّيْثٍ (٣/٢٣٤)، كِتَابُ «الْجُمُعَةِ» بَابُ: مَنْ كَرِهَ التَّحْلُقَ فِي الْمَسْجِدِ.

(٢) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ» (٥/٣٦٥).

عباس^(١) وغيره، فُهي لسوايها وانكدار أنوارها، تشبه ذلك، والمهل أيضاً: ما أذيب من فضة ونحوها؛ قاله ابن مسعود وغيره^(٢)، والعهنُ الصوفُ، وقيل: هو الصوف المضبوغ، أي لُونُ كَانَ، والحميمُ في هذا الموضع: القريبُ والوليُّ، والمعنى: ولا يسأله نصرةً ولا منفعةً، ولا يجدها عنده، وقال قتادة: المعنى: ولا يسأله عن حاله؛ لأنها ظاهرة قد بَصَرَ كُلُّ أَحَدٍ حَالَةَ الجميع، وشغلَ بنفسه^(٣)، قال الفخر^(٤): قوله تعالى: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ تقول: بَصَّرَنِي زَيْدٌ كَذَا، وَبَصَّرَنِي بِكَذَا، فإذا بَيَّنَّتِ الْفِعْلُ لِلْمَفْعُولِ وَحَذَفَتِ الْجَارَ، قُلْتُ: بَصَّرْتُ زَيْدًا، وهكذا معنى: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ وكأنه لما قال: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قيل: لعله لَا يُنْصِرُهُ؛ فَقَالَ: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ وَلَكِنْ لَا يَسْأَلُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَسْأُلِهِمْ، انتهى، وقرأ ابن كثير^(٥) بخلافٍ عنه: «وَلَا يُسْتَلُّ» عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ، فالمعنى: وَلَا يُسْأَلُ إِخْضَارُهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُجْرِمٍ لَهُ سِيْمَا يُعْرَفُ بِهَا، كَمَا أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ لَهُ سِيْمَا خَيْرٍ، وَالصَّاحِبَةُ هُنَا: الزَّوْجَةُ، وَالْفَصِيلَةُ هُنَا: قَرَابَةُ الرَّجُلِ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى﴾ رد لما ودَّوه، أي: ليس الأمرُ كذلك، و«لُظِيَ» طَبَقَةٌ ١٨٣ مِنْ طَبَقَاتِ جَهَنَّمَ، وَالشَّوَى/ جُلْدُ الْإِنْسَانِ وَقِيلَ: جُلْدُ الرَّأْسِ.

﴿تَدْعُوا مِنْ أَدْبَرٍ وَتَوَلَّى﴾ يريدُ الْكُفَّارَ، قال ابن عباس وغيره: تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم^(٦)، ﴿وَجَمَعَ﴾ أي جَمَعَ الْمَالِ و﴿أَوْعَى﴾ جَعَلَهُ فِي الْأَوْعِيَةِ، أي: جَمَعُوهُ مِنْ غَيْرِ حَلٍّ وَمَنْعُوهُ مِنْ حَقْقِ اللَّهِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَكِيمٍ لَا يَزِيْطُ كَيْسَهُ، وَيَقُولُ: سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

﴿وَإِذَا الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴿

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ عمومٌ لاسم الجنس، لكنَّ الإشارةَ هنا إلى الْكُفَّارِ،

- (١) ذكره ابن عطية (٣٦٦/٥)، وابن كثير (٤٢٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٨/٦)، وعزاه للطستي عن ابن عباس.
- (٢) ذكره ابن عطية (٣٦٦/٥).
- (٣) أخرجه الطبري (٢٢٩/١٢)، رقم: (٣٤٨٧٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٦٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٨/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.
- (٤) ينظر: «الفخر الرازي» (١١١/٣٠).
- (٥) ينظر: «السبعة» (٦٥٠)، و«الحجة» (٣٢٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٣٩٢/٢)، و«معاني القراءات» (٨٩/٣)، و«شرح الطيبة» (٦٩/٦)، و«إتحاف» (٥٦١/٢).
- (٦) ذكره البغوي (٣٩٤/٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٦٧/٥).

وَالهَلَعُ فَزَعٌ واضْطِرَابٌ يعترى الإنسانَ عِنْدَ المخاوفِ وَعِنْدَ المطامعِ .

وقوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ...﴾ الآية، مُفسَّرٌ لِلهَلَعِ .

﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ﴾ أي: إلا المؤمنين الذين أُمِرُوا بِالْآخِرَةِ عَلَيْهِمْ أَوْكُذٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، والمعنى أن هذا المعنى فِيهِمْ يَقِلُّ لَأَنَّهُمْ يُجَاهِدُونَهُ بِالتَّقْوَى .

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: مواظبون، وقد قال - عليه السلام - «أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ» . * ت * : وقد تقدم في سورة «قَدْ أَفْلَحَ» ما جَاءَ فِي الْخُشُوعِ، قَالَ الْغَزَالِيُّ: فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفْهَمَ مَا تَقْرُوهُ فِي صَلَاتِكَ وَلَا تَغْفُلَ فِي قِرَاءَتِكَ عَنْ أَمْرِهِ^(١) سُبْحَانَهُ، وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ، وَوَعِيدِهِ، وَمَوَاعِظِهِ وَأَخْبَارِ أَنْبِيَائِهِ، وَذِكْرِ مِثْنَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ حَقٌّ؛ فَالرَّجَاءُ حَقُّ الْوَعْدِ، وَالْخَوْفُ حَقُّ الْوَعِيدِ، وَالْعَزْمُ حَقُّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالِإِتْعَاطُ حَقُّ الْمَوْعِظَةِ، وَالشُّكْرُ حَقُّ ذِكْرِ الْمِنَّةِ، وَالِاعْتِبَارُ حَقُّ ذِكْرِ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ الْغَزَالِيُّ: وَتَكُونُ هَذِهِ الْمَعَانِي بِحَسَبِ دَرَجَاتِ الْفَهْمِ، وَيَكُونُ الْفَهْمُ بِحَسَبِ وَقُورِ الْعِلْمِ. وَصَفَاءِ الْقَلْبِ، وَدَرَجَاتِ ذَلِكَ لَا تَنْحَصِرُ، فَهَذَا حَقُّ الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَقُّ الْأَذْكَارِ، وَالتَّسْبِيحَاتِ أَيْضًا، ثُمَّ يُرَاعَى الْهَيْئَةُ فِي/ الْقِرَاءَةِ، فَيَرْتَلُّ وَلَا يَسْرُدُ فَإِنْ ذَلِكَ أَيْسَرُ لِلتَّامِلِ، ١٨٣ ب وَيُفَرِّقُ بَيْنَ نِعَمَاتِهِ فِي آيَاتِ الرَّحْمَةِ وَآيَاتِ الْعَذَابِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّعْظِيمِ، انْتَهَى مِنْ «الْإِحْيَاءِ»، وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ» قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ حَدَّثَهُ قَالَ: سَأَلْنَا عَقَبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجَهَنِّيَّ عَنْ قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أَهْمُ الَّذِينَ يَصَلُّونَ أَبَدًا؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُ الَّذِي إِذَا صَلَّى لَمْ يَلْتَفِتْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ شِمَالِهِ، وَلَا خَلْفَهُ^(٢)، انْتَهَى .

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُتَشَفِّعُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ قال ابن عباس وغيره: هذه الآية

(١) في د: أمر الله .

(٢) ذكره ابن عطية (٣٦٨/٥)، وابن كثير (٤٢١/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٠/٦)،

وعزاه لابن المنذر .

في الحَقُوقِ التي في المَالِ سِوَى الزَّكَاةِ^(١)، وهي ما نَدَبَتْ إِلَيْهِ الشَّرِيعَةُ مِنَ المَوَاسَاةِ، وهذا هو الْأَصَحُّ في هذه الآية؛ لأن السُّورَةَ مَكِيَّةً وَفَرَضَ الزَّكَاةَ وَبَيَّانُهَا إِنَّمَا كَانَ بِالمَدِينَةِ، وباقِي الآية تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ نَظِيرِهِ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٣٢) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٣٤) ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ﴾ (٣٥) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ جَمَعَ الْأَمَانَةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَتْنُوعَةٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَسْرَارِ، وَفِيمَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ وَنَهَاةً عَنْهُ، وَالْعَهْدُ كُلُّ مَا تَقَلَّدَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، أَوْ مَوَدَّةٍ، إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى مَنَهِاجِ الشَّرِيعَةِ فَهُوَ عَهْدٌ يَنْبَغِي رَعِيَهُ وَحَفَظَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ معناه في قول جماعة من المفسرين: أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ مَا يَشْهَدُونَ فِيهِ، وَيُقِيمُونَهُ، وَيَقُومُونَ بِمَعَانِيهِ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُمْ فِيهِ تَقْصِيرٌ وَهَذَا هُوَ وَصْفُ مَنْ يَمْتَثِلُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «عَلَى مِثْلِ الشَّمْسِ فَأَشْهَدُ»، وَقَالَ آخَرُونَ: معناه: الَّذِينَ إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ شَهَادَةٌ وَرَأَوْا حَقًّا يَذَرُسُ أَوْ حُزْمَةً لِلَّهِ تُنْتَهَكُ؛ قَامُوا لِلَّهِ بِشَهَادَتِهِمْ.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكْ مُهْطِعِينَ﴾ (٣٦) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عَزِيزَ﴾ (٣٧) ﴿

وقوله تعالى: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ الآية نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنْ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ أحياناً وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ يَقُومُونَ مِنْ مَجَالِسِهِمْ مُسْرِعِينَ إِلَيْهِ يَسْتَمْعُونَ قِرَاءَتَهُ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: شَاعِرٌ وَكَاهِنٌ، وَمُفْتَرٍ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَ﴿قِبَلَكْ﴾ معناه فِيمَا بِلَيْكَ، وَالْمُهْطِعُ الَّذِي يَمْشِي مُسْرِعاً إِلَى شَيْءٍ قَدْ أَقْبَلَ بَبَصَرِهِ عَلَيْهِ، وَ﴿عَزِيزَ﴾ جَمْعُ عِزَّةٍ، وَالْعِزَّةُ: الْجَمْعُ الْيَسِيرُ كَأَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَةً ثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً أَرْبَعَةً، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ حَلَقٌ مُتَفَرِّقُونَ، فَقَالَ: مَالِي أَرَاكُم عَزِيزِينَ»^(٢).

﴿أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةً نَّعِيمٍ﴾ (٣٨) ﴿لَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ﴿لَّا أَقِيمُ

١٨٤

(١) أخرجه الطبري (٢٣٦/١٢)، رقم: (٣٤٩١٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٦٨/٥).

(٢) أخرجه مسلم (٣٢٢/١)، كتاب «الصلاة» باب: الأمر بالسكون في الصلاة، حديث (٤٣٠/١١٩)، وأبو داود (١٦٣/٥)، كتاب «الأدب» باب: في التحلق، حديث (٤٨٢٣)، وأحمد (٩٣/٥).

رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَائِدُونَ ﴿٤١﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْشَوْنَ وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكُ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٥﴾

وقوله تعالى: ﴿أَيْطَمِعُ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ نزلت لِأَنَّ بَعْضَ الْكُفَّارِ قَالَ: إِنْ كَانَتْ ثَمَّ آخِرَةٌ وَجَنَّةٌ فَنَحْنُ أَهْلُهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنْعِمِ عَلَيْنَا فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ إِلَّا لِرِضَاهُ عَنَا.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِمْ وَطَمَعِهِمْ، أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِمْ مِنْ نَظْفَةِ قَذَرَةٍ، وَأَحَالٍ فِي الْعِبَارَةِ عَلَى عِلْمِ النَّاسِ، أَي: فَمِنْ خُلُقٍ مِنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِنَفْسٍ خَلَقَهُ يُعْطَى الْجَنَّةَ، بَلْ بِالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رِقَائِقِهِ» قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكُ بْنُ مَخُولٍ؛ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا رِبِيعَةَ يَحْدُثُ عَنِ الْحَسَنِ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، جَعَلْنَا اللَّهَ فِدَاءَكَ، قَالَ: فَأَقْصِرُوا مِنَ الْأَمَلِ، وَتَبَتُّوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ، وَاسْتَخَيُّوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا نَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ، قَالَ: لَيْسَ كَذَلِكَ الْحَيَاءُ، وَلَكِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ اللَّهِ أَلَّا تَنْسُوا الْمَقَابِرَ وَالْإِلَى، وَلَا تَنْسُوا الْجَوْفَ وَمَا وَعَى، وَلَا تَنْسُوا الرُّؤُوسَ وَمَا حَوَى/، وَمَنْ ١٨٤ ب يَشْتَهِي كَرَامَةَ الْآخِرَةِ يَدْعُ زِينَةَ الدُّنْيَا، هُنَالِكَ اسْتَخَيَا الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ، هُنَالِكَ أَصَابَ وَلَايَةَ اللَّهِ»^(١)، انْتَهَى، وَقَدْ رَوَيْنَا أَكْثَرَ هَذَا الْحَدِيثِ، مِنْ طَرِيقِ أَبِي عَيْسَى التِّرْمِذِيِّ، وَبَاقِي الْآيَةِ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ نَظِيرِهِ، وَالْأَجْدَاثُ الْقُبُورُ، وَالنُّصُبُ: مَا نُصِبَ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ يَقْصِدُهُ مَسْرَعًا إِلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ بِنَاءٍ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾: مَعْنَاهُ: إِلَى غَايَاتٍ يَسْتَبِقُونَ، وَ﴿يُوفِضُونَ﴾: مَعْنَاهُ: يَسْرِعُونَ، وَ﴿خَشِيعَةً﴾: أَي: ذَلِيلَةً مَنكِسِرَةً.

تفسير سورة نوح

عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ قَالَ يَتَوَوَّرُونَ بِي نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّركُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٤ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٥﴾

قوله سبحانه: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم﴾ هذا العذاب الذي توعّدوا به، الأظهر أنه عذاب الدنيا، ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة.

وقوله: ﴿من ذنوبكم﴾ قال قوم: «من» زائدة وهذا نحو كوفي، وأما الخليل وسيبويه؛ فلا يجوز عندهم زيادة «من» في الموجب^(١)، وقال قوم: هي للتبويض، قال ع^(٢) * : وهذا القول عندي أثبت الأقوال هنا؛ وذلك أنه لو قال: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ؛ لَعَمَ هذا اللفظ ما تقدّم من الذنوب، وما تأخّر عن إيمانهم، والإسلام إنما يجب ما قبله.

وقوله سبحانه: ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ كأن نوحاً - عليه السلام - قال لهم: وآمنوا بين لنا أنكم ممن قضي له بالإيمان والتأخير، وإن بقيتم على كفركم فسيبين أنكم ممن قضي عليه بالكفر والمعاجلة، ثم تبين هذا المعنى ولاح بقوله تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾ وجواب لو مقدّر/ يقتضيه المعنى، كأنه قال: فما كان أخزكم أو أسرعكم إلى التوبة لو كنتم تعلمون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغِيَةً ۝٧ وَأَمَّا أَنَّهُمْ فَتَبَيَّنُوا أَنَّهُمْ أُخْزُوا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَهْلَكْتُ لَهُمْ أَهْلًا وَمَالًا ۝٩ فَفُتِحَتْ بَابُ الْجَنَّةِ ۝١٠﴾

(١) في د: الواجب.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٣٧٢).

وقوله تعالى: ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ الآية، هذه المقالة قالها نوح عليه السلام - بعد طول عمره وبأسه من قومه.

﴿واستغشوا ثيابهم﴾: معناه: جعلوها أغشية على رؤوسهم.

﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (١١) ﴿وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيءٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (١٢)

وقوله: ﴿يرسل السماء﴾ الآية، روي أن قوم نوح كانوا قد أصابتهُم قحوط وأزمة فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر، و﴿مِدْرَارًا﴾ من الدَّر، وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(١)؛ رواه أبو داود واللفظ له، والنسائي وابن ماجه، ولفظ النسائي^(٢): «من أكثر من الاستغفار»، انتهى من «الصلاح».

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

طَبَاقًا (١٥)

وقوله: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ قال أبو عبيدة وغيره: ﴿تَرْجُونَ﴾ معناه تخافون^(٣)، قالوا: والوقار بمعنى العظمة، فكأن الكلام على هذا التأويل وعيد وتخويف، وقال بعض العلماء: تَرْجُونَ على بابها، وكأنه قال: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله، و﴿وقاراً﴾ يكون على هذا التأويل منهم كأنه يقول: تؤذون منكم وتمكنوا في النظر.

وقوله: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ قال ابن عباس وغيره: هي إشارة إلى التدرج الذي للإنسان في بطن أمه^(٤)، وقال جماعة: هي إشارة إلى العبرة في اختلاف خلق ألوان الناس

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٦/١)، كتاب «الصلاة» باب: في الاستغفار (١٥١٨)، وابن ماجه (١٢٥٤/٢)، (١٢٥٥)، كتاب «الأدب» باب: الاستغفار (٣٨١٩)، والبيهقي (٣٥١/٣)، كتاب «صلاة الاستسقاء» باب: ما يستحب من كثرة الاستغفار في خطبة الاستسقاء، وأبو نعيم في «الحلية» (٢١١/٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٨/٦)، كتاب «عمل اليوم والليلة» باب: ثواب ذلك (٢/١٠٢٩٠)، والحاكم في «المستدرک» (٢٦٢/٤).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي قائلاً: الحكم فيه جهالة.

(٢) في د: وابن ماجه.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٤/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٢٥١/١٢)، رقم: (٣٥٠١٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٧٤/٥)، وابن كثير (٤/٤٢٥).

وخلّقهم، وملّهم، والأطوار: الأحوال المختلفة.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۖ (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ (١٧) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۖ (١٨) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۖ (١٩) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۖ (٢٠) وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ۖ (٢١) وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۖ (٢٢) وَقَدْ أَضَلُّوا كَبِيرًا ۖ (٢٣) وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۖ (٢٤)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً...﴾ الآية، قال عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس: إن الشمس والقمر أفقاؤهما إلى الأرض، وإقبال/نورهما وارتفاعه في السماء^(١)؛ وهذا الذي يقتضيه لفظ السراج.

﴿أنبتكم من الأرض﴾: استعارة من حيث خلق آدم - عليه السلام - من الأرض.

﴿ونباتاً﴾ مصدرٌ جاء على غير المصدر، التقدير: فَنَبَتُمْ نَبَاتًا، والإعادة فيها بالدَّفْنِ، والإخراج هو بالبعث، وظاهر الآية: أَنَّ الْأَرْضَ بَسِيطَةٌ غَيْرُ كُرِّيَّةٍ، واعتقاد أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ غَيْرُ قَادِحٍ فِي الشَّرْعِ بِنَفْسِهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَتَرْتَبَ^(٢) عَلَى الْقَوْلِ بِالْكُرِّيَّةِ نَظَرٌ فَاسِدٌ، وأما اعتقاد كونها بسيطةً، فهو ظاهرُ كتابِ الله تعالى، وهو الذي لَا يَلْحَقُ عَنْهُ فَسَادُ الْأَبْتَةِ، واستدل ابن مجاهد على صِحَّةِ ذَلِكَ بِمَاءِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِالْمَغْمُورِ فَقَالَ: لَوْ كَانَتِ الْأَرْضُ كُرِّيَّةً لَمَا اسْتَقَرَّ الْمَاءُ عَلَيْهَا^(٣)، والسُّبُلُ الطَّرِيقُ، والفجاء الواسعة، وقولُ نوح: ﴿واتبعوا من لم يزد ماله...﴾ الآية، المعنى: اتَّبِعُوا أَشْرَاقَهُمْ وَغَوَاتِهِمْ، ﴿خَسَارًا﴾: معناه: خُسْرَانًا، ﴿كِبَارًا﴾: بناءً مبالغٍ نَحْوُ: حُسَّانٌ وَقُرِيءٌ^(٤) شاذًّا: «كِبَارًا» - بكسر الكاف - قال ابن الأنباري: جَمْعُ كَبِيرٍ.

(١) أخرجه الطبري (٢٥٢/١٢)، رقم: (٣٥٠٢٠) بنحوه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وذكره البغوي (٣٩٨/٤)، وابن عطية (٣٧٥/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٢٥/٦ - ٤٢٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ في «المعظمة» عن عبد الله بن عمرو، وعزاه أيضاً لأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٢) في د: يتركب.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧٥/٥).

(٤) قرأ بها ابن محيصن، وعيسى بن عمر.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٣٧٦/٥)، و«البحر المحيط» (٣٣٥/٨)، وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، وهي في «الدر المصون» (٣٨٥/٦).

﴿وَذَاقَ﴾ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ أَسْمَاءُ أَضْنَامَ، وَرَوَى البخاري وغيره عن ابن عباس: أَنَّهَا كَانَتْ أَسْمَاءَ رَجَالٍ صَالِحِينَ، مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا؛ أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَاسْمُهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا^(١)، فَلَمْ تُعْبَذْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَئِكَ وَتُنْصَخَ الْعِلْمُ عُيِدَتْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثُمَّ صَارَتْ هَذِهِ الْأَوْثَانُ الَّتِي فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ^(٢)، انْتَهَى.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَضْلَوْا كَثِيرًا﴾ هُوَ إِخْبَارُ نُوحٍ عَنِ الْأَشْرَافِ، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَزِيدَهُمْ إِلَّا ضَلَالًا، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ أَضْلَوْا﴾ الْأَضْنَامَ الْمَذْكُورَةَ^(٣). ١١٨٦

﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا﴾ ابْتِدَاءَ إِخْبَارٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَ«مَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا﴾: زَائِدَةٌ فَكَأَنَّهُ قَالَ: مِنْ خَطِيئَتِهِمْ، وَهِيَ لَابْتِدَاءُ الْغَايَةِ، * ص * : ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ﴾ مِنَ السَّبَبِ، * ع *^(٤) : لَابْتِدَاءُ الْغَايَةِ وَ«مَا» زَائِدَةٌ لِلتَّوَكُّيدِ، انْتَهَى، ﴿فَأَذْخَلُوا نَارًا﴾ يَعْنِي جَهَنَّمَ، وَقَوْلُ نُوحٍ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَذَعْ نُوحٌ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾^(٥) [هود: ٣٦] وَ«دَيَّارًا» أَضْلُهُ: دَيَّوَارٌ مِنَ الدَّوَارِ، أَي: مَنْ يَجِيءُ وَيَذْهَبُ.

وقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَكْفُرْ لِنُوحٍ أَبٌ مَا بَيَّنَّهُ وَبَيْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٦)، وَقَرَأَ أَبُو بَنِي كَعْبٍ^(٧): «وَلِأَبَوَيَّ»، وَبَيَّنَّهُ الْمَسْجِدُ؛ فِيمَا قَالَهُ ابْنُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٢٥٤/١٢)، رَقْمٌ: (٣٥٠٣١) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ (٤٢٦/٤).

(٢) ذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٣٩٩/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٤٢٦/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٧/٦)، وَعَزَاهُ لِلْبُخَارِيِّ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٧٦/٥).

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٧٦/٥).

(٥) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٧٧/٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٨/٦)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدِ بَنٍ حَمِيدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ.

(٦) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٧٧/٥).

(٧) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٧٧/٥).

عباس^(١)، وجمهورُ المفسرين، وقال ابن عباس أيضاً: بيّنه شريعته ودينه؛ استعار لها بيتاً كما يقال قُبّة الإسلام وقُسْطَاطُ الدين^(٢)، وقيل: أراد سفينته.

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تَعْمِيمٌ بالدعاء لمؤمني كل أمة، وقال بعض العلماء: إن الذي استجاب لنوح - عليه السلام - فأغْرَقَ بدعوته أَهْلَ الْأَرْضِ الْكَفَّارِ، لَجْدِيرٌ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فَيَرْحَمَ بدعوته الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّابِرُ: الْهَلَاكُ.

(١) ذكره ابن عطية (٣٧٧/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٧٧/٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنِيعَهُ وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ هؤلاء النفَرُ من الجن هم الذين صادفوا النبي ﷺ يقرأ ببطن نخلة في صلاة الصبح، وقد تقدّم قصصهم في سورة الأحقاف، وقول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا...﴾ الآيات، هو خطابٌ منهم لقومهم.

و﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾: معناه: ذَا عَجَبٍ؛ لأن العَجَبَ مصدرٌ يقع من سامِعِ القرآن لبراعته

/وفصاحته ومُضْمَنَاتِهِ.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قَالَ الجمهورُ: معناه: عَظَمَةُ رَبِّنَا، وروي عن أنس أنه قال: كان الرجلُ إذا قرَأَ البقرةَ، وآلَ عمرانَ جَدَّ في أعيننا، أي: عَظُمَ^(١)، وعن الحسن: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ غِنَاهُ^(٢) وقال مجاهد: ذِكْرُهُ^(٣)، وقال بعضهم: جَلَالُهُ، وَمَنْ فَتَحَ الْأَلْفَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى﴾ اخْتَلَفُوا في تأويل ذلك، فقال بعضهم: هو عَظْفٌ على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ فيجيء على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى﴾ مما أَمَرَ أَنْ يَقُولَ النبيُّ إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ هو من كلام الجنِّ، وفي هذا قَلْبٌ، وقال بعضهم: بل هو عطف على الضمير في ﴿بِهِ﴾ كأنه يقول: فَأَمَّا بِهِ وبأنه تعالى، وهذا القولُ أُبَيِّنَ في المعنى، لكنَّ فيه من جهة النحو

(١) ذكره البغوي (٤/٤٠١)، وذكره ابن عطية (٥/٣٧٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٢٦٠)، رقم: (٣٥٠٥٦)، (٣٥٠٥٧)، (٣٥٠٥٨)، وذكره البغوي (٤/٤٠١)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٤٣٠)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٢٦٠)، رقم: (٣٥٠٦١)، وذكره ابن عطية (٥/٣٧٩)، وابن كثير (٤/٤٢٨)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٤٣٠)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

العطف على الضمير المخفوض دُونَ إِعَادَةِ الْخَافِضِ، وذلك لَا يَحْسَنُ * ت * : بَلْ هُوَ حَسَنٌ؛ إِذْ قَدْ أَتَى فِي النِّظْمِ وَالتَّنْثِيرِ ^(١) الصَّحِيحَ، مُثَبَّتًا، وَقَرَأَ عَكْرَمَةَ ^(٢) : «تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا» - يَفْتَحُ الْحَجِيمَ وَضَمَّ الدَّالِ وَتَنْوِينِهِ وَرَفَعَ الرَّبَّ -، كَأَنَّهُ يَقُولُ: تَعَالَى عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا، فَ«رَبِّنَا» بَدَلٌ وَالْجَدُّ: الْعَظِيمُ فِي اللُّغَةِ، وَقَرَأَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «تَعَالَى ذِكْرُ رَبِّنَا» وَرُوي عَنْهُ: «تَعَالَى جَلَالُ رَبِّنَا».

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ^(٣) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهًا﴾ لَا خِلَافَ أَنْ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْجِنِّ، وَالسَفِيهَةُ: الْمَذْكُورُ قَالِ جَمْهُورٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ: هُوَ إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللَّهُ -، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ اسْمُ جَنْسٍ لِكُلِّ سَفِيهِ مِنْهُمْ وَلَا مَحَالَةَ أَنْ إِبْلِيسَ صَدَّرَ فِي السَّفَاهَةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَحْسَنُ، وَالشَّطَطُ: التَّعَدِّيُّ وَتَجَاوُزُ الْحَدِّ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، * ص * : ﴿شَطَطًا﴾ أَبُو الْبَقَاءِ: نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَي: قَوْلًا شَطَطًا، انْتَهَى، ثُمَّ قَالَ أَوْلَيْكَ الْفَرْ: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ قَبْلَ إِيْمَانِنَا ﴿أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فِي جَهَةِ الْأُلُوهِيَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَجَالُ مِنْ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ^(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَمِسَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَحِدُّ لَكُمْ شَهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

(١) في د: النثر والنظم.

(٢) قال أبو الفتح: وَغَلَطَ الَّذِي رَوَاهُ (يعني عن عكرمة)، قال:

فَأَمَّا «جَدُّ رَبِّنَا» فَإِنَّهُ عَلَى إِنكَارِ ابْنِ مَجَاهِدٍ صَحِيحٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ: وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ جَدُّ رَبِّنَا عَلَى الْبَدَلِ، ثُمَّ حَذَفَ الثَّانِي، وَأَقَامَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ مَقَامَهُ. وَهَذَا عَلَى قَوْلِهِ (سبحانه): «إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ»، أَي: زِينَةِ الْكَوَاكِبِ، فَ«الْكَوَاكِبِ» إِذَا بَدَلَ مِنْ «زِينَةِ».

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنَّ الْكَوَاكِبَ قَدْ تَسْمَى زِينَةً، وَالرَّبُّ (تعالى) لَا يُسَمَّى جَدًّا.

قِيلَ: الْكَوَاكِبُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ زِينَةً، لَكِنَّا ذَاتُ الزَّيْنَةِ. أَلَا تَرَى إِلَى الْقِرَاءَةِ بِالْإِضَافَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: «بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ»؟ وَأَنْتَ أَيْضًا تَقُولُ: تَعَالَى رَبِّنَا، كَمَا تَقُولُ: تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا. فَالتَّعَالَى مُسْتَعْمَلٌ مَعَهُمَا جَمِيعًا، كَمَا يُقَالُ: يَسْرَنِي زَيْدٌ قِيَامُهُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: يَسْرَنِي زَيْدٌ وَيَسْرَنِي قِيَامُهُ. وَهَذَا بَيَانٌ مَا أَنْكَرَهُ ابْنُ مَجَاهِدٍ.

ينظر: «المحتسب» (٣٣٢/٢)، و«مختصر الشواذ» ص: (١٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٣٧٩/٥)،

و«البحر المحيط» (٣٤١/٨)، و«الدر المصون» (٣٩٠/٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ...﴾ الآية، ١٨٧
 مِنَ الْقُرَاءِ مَنْ كَسَرَ الهمزة مِنْ «إِنَّهُ»، ومنهم من فَتَحَهَا^(١)، والكسْرُ أَوْجَهُ، والمعنى في
 الآية: ما كَانَتْ العربُ تفعله في أسْفَارِهَا من أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَرَادَ الْمَبِيتَ بِوَادٍ، صَاحَ بِأَعْلَى
 صَوْتِهِ: يَا عَزِيزَ هَذَا الْوَادِي؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ السُّقَهَاءِ الَّذِينَ فِي طَاعَتِكَ، ويعتقدُ بذلك أَنَّ
 الْجِنِّيَّ يَحْمِيهِ وَيَمْنَعُهُ، قال قتادة: فكانت الجنُّ تحتقرُ بني آدَمَ وتزدرِيهم لِمَا تَرَى مِنْ
 جَهْلِهِمْ، فكانوا يَزِيدُونَهُمْ مَخَافَةً، ويتعرضون لِلتَّخِيلِ لَهُمْ، وَيُغْوَوْنَهُمْ، في إِرَادَتِهِمْ، فهذا
 هو الرَّهَقُ الَّذِي زَادَتْهُ الْجِنُّ بَنِي آدَمَ^(٢)، وقال مجاهد وغيره: بنو آدَمَ هُمُ الَّذِينَ زَادُوا الْجِنَّ
 رَهَقًا وَهِيَ الْجَزَاءَةُ وَالطُّغْيَانُ^(٣) وَقَدْ فَسَّرَ قَوْمُ الرَّهَقِ بِالْإِثْمِ.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ يريدُ به بني آدَمَ.

وقوله: ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ مخاطبةٌ لقومهم من الجنِّ وقولهم: ﴿أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾
 يحتملُ معنيين: أَحَدُهُمَا بَعَثَ الْحَشَرَ مِنَ الْقُبُورِ، وَالْآخَرُ بَعَثَ آدَمِيَّ رَسُولًا، وذكر
 المهدوي تأويلًا ثالثًا، أَنَّ المعنى: وَأَنَّ الْجِنَّ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الْإِنْسُ، فهي مخاطبةٌ من
 اللَّهِ تعالى، قال الثعلبي: وقيل: إن قَوْلَهُ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ...﴾ الآية، ابتداء
 إخبارٍ مِنَ اللَّهِ تعالى، ليس هو من كلام الجنِّ، انتهى، فهو وَفَاقٌ لما ذكره المهدوي،
 وقولهم: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ قال جمهورُ المتأولين: معناه التَّمَسُّنَا، والشُّهُبُ كَوَاكِبُ
 الرَّجْمِ وَالْحَرَسُ يحتملُ أن يريدَ الرَّمْيَ بِالشُّهُبِ، وَكَرَّرَ الْمَعْنَى بِلَفْظٍ مُخْتَلَفٍ، ويحتملُ أن
 يريدُ الْمَلَانِكَةَ، و﴿مَقَاعِدَ﴾: جَمْعُ مَقْعَدٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ، وقولهم:
 ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ...﴾ الآية، قَطَعَ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ اسْتَمَعَ الْآنَ أَخْرَقَهُ شَهَابٌ [فليسَ هنا

(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: «لأنه تعالى جد ربنا» بكسر الهمزات، إلا قوله: «أنه استمع»، و«أن لو استقاموا»، و«أن المساجد لله»، فإنهم قرؤوا بالفتح. وزاد ابن كثير، وأبو عمرو عليهما: «وأنه لما قام عبد الله».

وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي كل ذلك بالفتح إلا ما جاء بعد قول، أو بعد فاء جزاء، وحفص عن عاصم مثل حمزة.

ينظر: «العنوان» (١٩٨)، و«شرح شملة» (٦٠٩)، و«إنحاف» (٥٦٥/٢)، و«السبعة» (٦٥٦)، و«الحجة» (٣٣٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٠٠/٢)، و«حجة القراءات» (٧٢٧)، و«معاني القراءات» (٩٦/٣)، و«شرح الطيبة» (٧٣/٦).

(٢) أخرجه الطبري (٢٦٤/١٢)، رقم: (٣٥٠٧٦) بنحوه. وذكره ابن عطية (٣٨٠/٥)، وابن كثير (٤/٤٢٨).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦٤/١٢)، رقم: (٣٥٠٨٠) بنحوه، وذكره البغوي (٤٠٢/٤)، وابن كثير (٤/٤٢٨)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٣٢/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

ب ١٨٧ بَعْدُ سَمِعَ إِنَّمَا الإِحْرَاقُ عِنْدَ الإِسْتِمَاعِ^(١)، وهذا يقتضي أَنَّ الرَّجَمَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمُسْتَأْصِلٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، اشْتَدَّ الْأَمْرُ؛ حَتَّى لَمْ يَكُنْ فِيهِ وَلَا/ يَسِيرُ سَمَاحَةً، وَرَّصَدًا: نَعَتْ لـ «شِهَابٍ» وَوَصَفَهُ بِالْمُضْدِرِّ، وَقَوْلُهُمْ: «وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ بَمَنْ فِي الْأَرْضِ...» الآية، معناه: لَا نَدْرِي أَيُّ مَنِ النَّاسِ بِهَذَا النَّبِيِّ فَيَزْشُدُوا، أَمْ يَكْفُرُونَ بِهِ فَيَنْزِلُ بِهِمُ الشَّرُّ، وَعِبَارَةُ الثَّعَالِبِيِّ: «وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ بَمَنْ فِي الْأَرْضِ» حِينَ حُرِسَتْ السَّمَاءُ وَمُنِعْنَا السَّمْعُ، «أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبَّهُمْ رَشْدًا»، انتهى.

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ (١١) ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٢) ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (١٣) ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا﴾ (١٤) ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥)

وقولهم: «وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ» إِلَى آخِرِ قَوْلِهِمْ: «وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ» هُوَ مِنْ قَوْلِ الْجَنِّ، وَقَوْلُهُمْ: «وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ» أَي: غَيْرُ صَالِحِينَ، * ص *: «دُونَ ذَلِكَ» قِيلَ: بِمَعْنَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَقِيلَ: دُونَ ذَلِكَ فِي الصَّلَاحِ، فَ«دُونَ» فِي مَوْضِعِ الصُّفَةِ لِمَحْذُوفٍ، أَي: وَمِنَّا قَوْمٌ دُونَ ذَلِكَ، انتهى، وَالطَّرَائِقُ: السَّيَرُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقِدْدُ كَذَلِكَ هِيَ الْأَشْيَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ كَأَنَّهُ قَدْ قُدَّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَفُصِّلَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: «طَرَائِقُ قِدْدًا» أَهْوَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ^(٢). وَقَوْلُهُمْ: «وَأَنَا ظَنَنَّا» أَي: تَبَيَّنَّا، فَالظَّنُّ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ «أَنْ لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ...» الآية، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُمْ عَنْ حَالِهِمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِمَا سَمِعُوا مِنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَ«الْمَدَى» يُرِيدُونَ بِهِ الْقُرْآنَ، وَالْبَخْسُ النُّقْصُ، وَالرَّهَقُ تَحْمِيلُ مَا لَا يَطَاقُ، وَمَا يَثْقُلُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْبَخْسُ نَقْصُ الْحَسَنَاتِ^(٣)، وَالرَّهَقُ الزِّيَادَةُ فِي السَّيِّئَاتِ.

وقوله تعالى: «فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا» الْوَجْهُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مُخَاطَبَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيُؤَيِّدُهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَ«تَحَرَّوْا» مَعْنَاهُ: طَلَبُوا بِاجْتِهَادِهِمْ.

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٢٦٦)، رقم: (٣٥٠٨٩) بنحوه. وذكره ابن عطية (٥/٣٨٢)، وابن كثير (٤/٤٣٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٣٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٢٦٧)، رقم: (٣٥٠٩٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٥/٣٨٢)، وابن كثير (٤/٤٣٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٣٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۖ﴾ ﴿١٦﴾ لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۖ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۖ﴾ ﴿١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ...﴾ الآية، قال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جبير: الضمير في قوله: ﴿اسْتَقَامُوا﴾ عائذ على القاسطين، والمعنى: لو اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَالْحَقِّ لَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ^(١)، وهذا المعنى نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا...﴾ [المائدة: ٦٥] الآية إلى قوله: ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ والقاسط الظالم، والماء العَذَق هو الماء الكثير، و﴿لِنَفْسِهِمْ﴾: معناه: لنختبرهم، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: حيث يكون الماء فَتَمَّ الْمَالُ، وَحَيْثُ الْمَالُ فَتَمَّ الْفِتْنَةُ^(٢)، ونَزَعَ بهذه الآية، وقال الحسن وجماعة من التابعين: كانت الصحابة - رضي الله عنهم - سامعين مُطِيعِينَ فَلَمَّا فُتِحَتْ كُنُوزُ كِسْرَى وَقَيَصَرَ عَلَى النَّاسِ، ثَارَتِ الْفِتْنُ^(٣)، و«نُسلكه» نُذِخْهُ، و﴿صَعَدًا﴾: معناه: شاقًا، وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري: ﴿صَعَدًا﴾ جَبَلَ فِي النَّارِ^(٤)، و﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ قيل: أَرَادَ الْبُيُوتَ الَّتِي لِلْعِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ فِي كُلِّ مَلَةٍ، وقال الحسن: أَرَادَ بِهَا كُلَّ مَوْضِعٍ يُسَجَّدُ فِيهِ؛ إِذِ الْأَرْضُ كُلُّهَا جُعِلَتْ مَسْجِدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ^(٥)، وَرُوي: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ تَغَلُّبِ قُرَيْشٍ عَلَى الْكَعْبَةِ حِينَئِذٍ، فَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: الْمَوَاضِعُ كُلُّهَا لِلَّهِ فَأَعْبَدْهُ حَيْثُ كُنْتَ، قَالَ ﷺ ع^(٦): * وَالْمَسَاجِدُ الْمَخْصُوصَةُ بِنَبِيٍّ التَّمَكَّنَ فِي كَوْنِهَا لِلَّهِ تَعَالَى، فَيَصْلُحُ أَنْ تُفْرَدَ لِلْعِبَادَةِ، وَكُلُّ مَا هُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ لَا يُتَحَدَّثَ بِهَا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَلَا يُجْعَلَ فِيهَا لِعَبِيرِ اللَّهِ نَصِيبٌ.

﴿وَأَنْتُمْ لَنَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ﴾ ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا

(١) أخرجه الطبري (٢٦٨/١٢ - ٢٦٩)، أرقام: (٣٥١٠٤، ٣٥١٠٥)، (٣٥١٠٨ - ٣٥١٠٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٨٢/٥)، وابن كثير (٤٣١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٥/٦ - ٤٣٦)، وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة، وعزاه أيضاً لابن أبي حاتم، عن ابن عباس، ولعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٢٦٩/١٢)، رقم: (٣٥١١٧) بنحوه وذكره ابن عطية (٣٨٣/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٨٣/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٢٧٠/١٢)، رقم: (٣٥١٢٣) بنحوه عن ابن عباس. وذكره ابن عطية (٣٨٣/٥)، وابن كثير (٤٣١/٤).

(٥) ذكره البغوي (٤٠٤/٤)، وذكره ابن عطية (٣٨٣/٥).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٣/٥).

﴿٢٥﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله﴾ يحتمل: أن يكون خطاباً من الله تعالى، ويحتمل: أن يكون إخباراً عن الجن، وعبد الله هو محمد ﷺ، والضمير في ﴿كادوا﴾ يحتمل: أن يكون لكفار قريش، وغيرهم في اجتماعهم على رد أمره ﷺ، وقيل: الضمير للجن، والمعنى أنهم كادوا يتنصّفون عليه^(١)؛ لاستماع القرآن، وقال ابن جبير: معنى الآية أنها قول الجن لقومهم؛ يحكون لهم، والعبد محمد - عليه السلام^(٢) -، والضمير في ﴿كادوا﴾ ب ١٨٨ / لأصحابه الذين يطيعون له ويقتدون به في الصلاة فهم عليه لبّد، واللبّد: الجماعات شُبّهت بالشّيء المتلبّد، وقال البخاري: قال ابن عباس: ﴿لبّدًا﴾ أغواناً^(٣)، انتهى، و﴿يدعوه﴾ معناه: يغبّده، وقيل: عبد الله في الآية المراد به نوح، وقرأ جمهور السبعة: «قال إنما أَدْعُوا رَبِّي» وقرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو بخلاف عنه^(٤): «قل»، ثم أمر الله تعالى محمداً - عليه السلام - بالتَّبَرِّي مِنَ الْقَذَرَةِ، وأنه لا يَمْلِكُ لِأَحَدٍ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، والملتحد: المَلْجَأُ^(٥) الذي يَمَالُ إليه، ومنه الإنحاد وهو الميل.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَن أضعف ناصراً وأقلَّ عدداً ﴿٢٤﴾

وقوله: ﴿إلا بلاغاً﴾ قال قتادة: التقدير: لا أَمْلِكُ إِلَّا بَلَاغًا إِلَيْكُمْ، فأما الإيمان والكُفْرُ، فَلَا أَمْلِكُهُ^(٦)، وقال الحسن: ما معناه أنه استثناء منقطع، والمعنى: لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ

(١) أي يزدحمون عليه. ينظر: «لسان العرب» (٣٦٥٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٧٢/١٢)، رقم: (٣٥١٣٣) بنحوه، وذكره البغوي (٤/٤٠٤)، وابن عطية (٥/٣٨٤)، وابن كثير (٤/٤٣٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٧٣/١٢)، رقم: (٣٥١٤١)، وذكره ابن عطية (٥/٣٨٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٧/٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) حجة هؤلاء إجماع على ما بعده على الأمر فَرُدُّ ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. وحجة الباقي أن ذكر الغيبة قد تقدم، وهو قوله: «وأنه لما قام عبد الله»، وقوله: «قال إنما أَدْعُوا».

ينظر: «السبعة» (٦٥٧)، و«الحجة» (٣٣٣/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٤٠٢)، و«حجة القراءات»

(٧٢٩)، و«معاني القراءات» (٣/٩٨)، و«شرح الطيبة» (٦/٧٦)، و«العنوان» (١٩٨)، و«شرح شعلة»

(٦١٠)، و«إتحاف» (٢/٥٦٧).

(٥) في د: الملتجأ.

(٦) أخرجه الطبري (٢٧٥/١٢)، رقم: (٣٥١٥٠).

اللَّهُ أَحَدٌ إِلَّا بِلَاغًا^(١) فَإِنِّي إِن بَلَّغْتُ، رَحِمَنِي بِذَلِكَ، أَي: بِسَبَبِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ يَرْغَبْ﴾ بالكفر، بدليل تأييد الخلود.

﴿قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَمْ رَبِّي أَمَدًا ۖ ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۖ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ﴾ يعني عَذَابَهُم الذي وَعَدُوا به، والأمد المدة والغاية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ معناه فإنه يُظْهِرُهُ عَلَى مَا شَاءَ مما هو قليل من كثير، [ثم] يَبْنُ تَعَالَى حَوْلَ ذَلِكَ الْمَلِكِ الرَّسُولِ حَفَظَةً رَصَدًا لِإِبْلِيسَ وَحِزْبِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا...﴾ الآية، قال ابن جُبَيْر: لِيَعْلَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْحَفَظَةَ الرَّصَدَ النَّازِلِينَ بَيْنَ يَدَيِ جَبْرِيلَ وَخَلْفَهُ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ^(٢)، وقال مجاهد: معناه لِيَعْلَمَ مَنْ كَذَّبَ أَوْ أَشْرَكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغَتْ^(٣)، وقيل: المعنى لِيَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى رُسُلَهُ مُبَلَّغَةً خَارِجَةً إِلَى الْوُجُودِ، لِأَنَّ عِلْمَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدْ تَقَدَّمَ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَحَاطَ﴾ و﴿أَخْصَى﴾ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ لَا غَيْرَ.

(١) ذكره ابن عطية (٣٨٤/٥)، وذكره أبو حيان (٣٤٦/٨).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٨٥/٥)، وابن كثير (٤٣٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٨/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة».

(٣) أخرجه الطبري (٢٧٧/١٢)، رقم: (٣٥١٦٣) بنحوه، وابن عطية (٣٨٥/٥)، وابن كثير (٤٣٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٩/٦)، وعزاه لعبد بن حميد.

تفسير سورة المزمل

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿إِنْ رِبِّكَ يَعْلَمُ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَمَدَنِيٌّ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ: هِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ①﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② يَضَعُهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَقِلَ الْقُرْآنَ تَرِيلاً ④﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ نداء للنبي ﷺ، قال السهيلي: الْمَزْمِلُ اسمٌ مشتقٌ من حالته التي كَانَ عليها - عليه السلام - حينَ الخطاب، وكذلك المَدَّثِرُ، وفي خطابه بهذا الاسم فائدَتَان: إحداهما: الملاطفةُ فَإِنَّ العربَ إِذَا قَصَدَتْ مِلَاطَفَةَ الْمُخَاطَبِ، وَتَرَكَ مَعَاتِبَتَهُ سَمَّوْهُ بِاسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنْ حَالَتِهِ، كَقَوْلِهِ - عليه السلام - لِعَلِي حِينَ غَاضَبَ فَاطِمَةَ: قُمْ أَبَا تُرَابٍ، إِشْعَاراً لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ عَاتِبٍ عَلَيْهِ، وَمِلَاطَفَةً لَهُ، وَالفائدةُ الثانية: التنبيةُ لِكُلِّ مُتَزَمِّلٍ رَاقِدٍ لَيْلَهُ؛ لِيَنْتَبِهَ إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَذِكْرِ اللَّهِ فِيهِ، لِأَنَّ الْاسْمَ الْمَشْتَقَّ مِنَ الْفِعْلِ، يَشْتَرِكُ فِيهِ مَعَ الْمُخَاطَبِ كُلُّ مَنْ عَمِلَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ، وَأَتَّصَفَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، أَنْتَهَى، وَالتَزَمُّلُ الْإِلْتِفَافُ فِي الشَّيْبِ، قَالَ جَمْهُورُ الْمُفْسِّرِينَ وَهُوَ فِي الْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا جَاءَهُ الْمَلَكُ فِي غَارِ حِرَاءَ وَحَاوَرَهُ بِمَا حَاوَرَهُ بِهِ، رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى حَدِيْجَةَ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي؛ فَنَزَلَتْ «يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ» وَ[عَلَى هَذَا نَزَلَتْ «يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ»] ^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قَالَ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: هُوَ أَمْرٌ نَذْبٌ، وَقِيلَ كَانَ فَرَضاً وَقَدْ نَزَلَ الْآيَةُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ فَرَضاً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً وَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى تُؤْفَى، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿نُصْفَهُ﴾ يحتمل: أن يكونَ بَدَلًا من قوله قليلاً، * ص * : ﴿إلا قليلاً﴾ استثناء من الليل، و﴿نُصْفَهُ﴾ قيل: بَدَل من الليل وعلى هذا يكون استثناء ﴿إلا قليلاً﴾ منه، أي: قم نصف الليل إلا قليلاً منه، والضمير في قوله: ﴿أو انقص منه﴾، ﴿أو زد عليه﴾ عائذ على النصف وقيل: ﴿نُصْفَهُ﴾: بدل من قوله: / ﴿إلا قليلاً﴾ قَالَ أَبُو ١٨٩ ب البَقَاء؛ وهو أشبه بظاهر الآية، انتهى، قال * ع ^(١) * : وَكَيْفَ مَا تَقَلَّبَ الْمَعْنَى فَإِنَّهُ أَمْرُ بَقِيَامِ نَصْفِ اللَّيْلِ، أَوْ أَكْثَرَ شَيْئًا أَوْ أَقَلَّ شَيْئًا، فَلَا أَكْثَرَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ لَا يُزِيدُ عَلَى الثَّلَاثِينَ، وَالْأَقْلُ لَا يَنْحَطُّ عَنِ الثَّلَاثِ، وَيَقْوِي هَذَا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي مَبِيتِهِ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ؛ قَالَ: فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ * ع ^(٢) * : وَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا الْبَدَلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنْ يَكُونَ نَصْفُ اللَّيْلِ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْوَصْفُ بِقَلِيلٍ، وَقَدْ يَحْتَمَلُ عِنْدِي قَوْلُهُ: ﴿إلا قليلاً﴾ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءُ مِنَ الْقِيَامِ، فَنَجْعَلُ اللَّيْلَ اسْمَ جَنْسٍ ثُمَّ قَالَ: ﴿إلا قليلاً﴾ أَي: إِلَّا اللَّيَالِي الَّتِي تُخِلُّ بِقِيَامِهَا لِعَذْرِ، وَهَذَا [النَّظَرُ يَخْسُنُ مَعَ الْقَوْلِ بِالنَّدْبِ جِدًّا، قَالَ * ص * : وَهَذَا [النَّظَرُ خِلَافَ ظَاهِرِ الْآيَةِ، انْتَهَى، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿منه﴾ وَ﴿عليه﴾ عَائِدَانِ عَلَى ^(٣) النصف.

وقوله سبحانه: ﴿ورتل﴾: معناه في اللغة: تَمَهَّلَ وَفَرَّقَ بَيْنَ الْحُرُوفِ، لَتَبِينَ، وَالْمَقْصِدُ أَنْ يَجِدَ الْفِكْرَ فَسْحَةً لِلنَّظَرِ وَفَهْمِ الْمَعَانِي، وَبِذَلِكَ يَرِقُّ الْقَلْبُ، وَيَقْبِضُ عَلَيْهِ الثَّوْرُ وَالرَّحْمَةُ، قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: الْمُرَادُ: تَفَهُمُهُ تَالِيًا لَهُ، وَرُوي فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ: أَنْ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ بَيْنَهُ مُتْرَسَلَةً، لَوْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ الْحُرُوفَ لَعَدَّهَا، قَالَ الْغَزَالِيُّ فِي «الْإِحْيَاءِ»: وَاعْلَمْ أَنَّ التَّرْتِيلَ وَالتَّوَدُّةَ أَقْرَبُ إِلَى التَّوْقِيرِ وَالْإِحْتِرَامِ، وَأَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْهَذَرَمَةِ وَالِاسْتِعْجَالِ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْقِرَاءَةِ التَّفَكُّرُ، وَالتَّرْتِيلُ مُعِينٌ عَلَيْهِ، وَلِلنَّاسِ عَادَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي الْخَتْمِ، وَأَوَّلَى مَا يُزَجَّعُ إِلَيْهِ فِي التَّقْدِيرَاتِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ، لَمْ يَفْقَهُهُ» وَذَلِكَ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَيْهَا تَمْنَعُ التَّرْتِيلَ الْمَطْلُوبَ، وَقَدْ كَرِهَ جَمَاعَةُ الْخَتْمِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَالتَّفْصِيلُ فِي مَقْدَارِ الْقِرَاءَةِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ التَّالِي مِنَ الْعِبَادِ السَّالِكِينَ طَرِيقَ الْعَمَلِ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ خَتْمَتَيْنِ فِي الْأَشْبُوعِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ السَّالِكِينَ بِأَعْمَالِ الْقَلْبِ وَضُرُوبِ الْفِكْرِ، / أَوْ مِنَ الْمَشْغُولِينَ بِتَبَشِيرِ ١٩٠ الْعِلْمِ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَنْقُصَ فِي الْأَشْبُوعِ عَلَى خَتْمَةٍ، وَإِنْ كَانَ نَافِذَ الْفِكْرِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ فَقَدْ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٧/٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) سقط في: د.

يكتفي في الشهر بمرة لحاجته إلى كثرة التزديد والتأمل، انتهى، وروى ابن المبارك في «رقائقه»: قال: حدثنا إسماعيل عن أبي المتوكل الناجي: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ ذَاتَ لَيْلَةٍ بِأَيَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُكْرِّرُهَا عَلَى نَفْسِهِ»^(١)، انتهى.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (٦) ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ (٧) ﴿وَاذْكُرْ أَمَّمَ رَبِّكَ وَبَسَّطَ إِلَيْهِ تَبْيِيلًا﴾ (٨) رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩) وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني القرآن، واختُلفَ لم سَمَاهُ ثَقِيلًا، فقال جماعة من المفسرين: لِمَا كَانَ يَحُلُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ ثِقَلِ الْجَنَسِ؛ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى نَافَتِهِ؛ بَرَكْتَ بِهِ وَحَتَّى كَادَتْ فَخْذُهُ أَنْ تَرْضُصَ^(٢) فَخَذَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ - رضي الله عنه -، وقيل: لِثِقَلِهِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ بِإِعْجَازِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَقَالَ خُذَّاقُ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَاهُ: ثَقِيلُ الْمَعَانِي مِنَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَاتِ، وَالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْجِهَادِ، وَمَزَاوِلَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ دَائِمًا، قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ الْهَذَا خَفِيفٌ وَلَكِنَّ الْعَمَلَ ثَقِيلٌ^(٣) ت * * وَالصَّوَابُ عِنْدِي أَنْ يُقَالَ: أَمَا يُقَالُ بِاعْتِبَارِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهُوَ مَا كَانَ يَجِدُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنَ الثَّقَلِ الْمَحْسُوسِ وَأَمَا يُقَالُ بِاعْتِبَارِ سَائِرِ الْأَمَةِ فَهُوَ مَا دُكِرَ مِنْ ثِقَلِ الْمَعَانِي، وَقَدْ رَجَرَ مَالِكٌ سَائِلًا سَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ وَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؛ إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ؛ فَعَضِبَ مَالِكٌ وَقَالَ: لَيْسَ فِي الْعِلْمِ خَفِيفٌ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ فَالْعِلْمُ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، انتهى من «المدارك» لعياض.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن جُبَيْرٍ وغيره: هِيَ لَفْظَةٌ حَبَشِيَّةٌ؛ نَشَأَ الرَّجُلُ ١٩٠ ب إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ^(٤) فَ«نَاشِئَةٌ» عَلَى هَذَا جَمْعُ نَاشِئٍ أَي: قَائِمٌ، و«أَشَدُّ وَطْأً» مَعْنَاهُ: ثُبُوتًا وَاسْتِقْلَالًا بِالْقِيَامِ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَجَمَاعَةٌ كَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزَّبِيرِ

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص: (٣٥)، رقم: (١٠٤).

(٢) الرُّضْ: اللَّذْقُ الْجَرِيشُ. ينظر: «النهاية» (٢/٢٢٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٢٨١)، رقم: (٣٥١٩٠) بنحوه، والبعوي (٤/٤٠٨) بنحوه، وابن عطية (٥/٣٨٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٤٣)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن نصر.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/٢٨٢)، رقم: (٣٥١٩٦) بنحوه عن ابن جبير عن ابن عباس. وذكره البغوي (٤/٤٠٨)، وابن عطية (٥/٣٨٧)، وابن كثير (٤/٤٣٥)،

وغيرهم^(١): «وِطَاءٌ» - بكسر الواو - مَمْدُوداً عَلَى وَزْنِ «فِعَالٍ» على معنى المَوَاطِئِ والمَوَاقِفِ، وهو أن يواطىء قلبه لسانه، والموَاطِئُ هي المَوَاقِفُ، فهذه مَوَاطِئُ صحيحة؛ لخلو البَالِ من أَشْغَالِ النَّهَارِ، وبهذا المعنى قَسَّرَ اللفظُ مجاهداً^(٢) وغيره، قال الثعلبي: واختارَ هذه القراءة أبو عبيدٍ وقال جماعة: ﴿ناشئة الليل﴾ سَاعَاتُهُ كُلُّهَا، لَأَنَّهَا تَنْشَأُ شَيْئاً بعد شيء، وقيل في تفسير ﴿ناشئة الليل﴾ غَيْرُ هذا، قرأ أنس بن مالك «وَأَضُوبٌ قِيلاً» فقليل له: إنما هو ﴿أَقُومٌ﴾ فَقَالَ: أَقُومٌ وَأَضُوبٌ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ أي: تَصَرُّفاً وَتَرَدُّداً فِي أُمُورِكَ، ومنه السَّبَاحَةُ فِي الْمَاءِ، ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ معناه: انْقَطَعَ إِلَيْهِ انْقِطَاعاً؛ هذا لفظ ابن عطاء على ما نقله الثعلبي، انتهى، وأما * ع^(٣) فقال: معناه انْقَطَعَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْهُ وَأَفْرَغَ إِلَيْهِ، قال زيد بن أسلم: التَّبَتَّلُ: رَفَضَ الدُّنْيَا^(٤)، ومنه بُتِلَ الْحَبْلُ، و﴿تَبَتَيْلًا﴾ مُضَدَّرٌ عَلَى غَيْرِ الصُّدْرِ، قال أبو حيان^(٥): وَحُسْنُهُ كَوْنُهُ فَاصِلَةً، انتهى، قال ابن العربي في «أحكامه»: فَالتَّبَتَّلُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الْآيَةِ الْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الْبَخَارِيِّ وَالتَّبَتَّلُ الْمَنْهِي عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ هُوَ سُلُوكُ مَسَلِّكَ النَّصَارَى فِي تَرْكِ النَّكَاحِ وَالتَّرَهُّبِ فِي الصَّوَامِعِ، انتهى، وَالْوَكِيلُ الْقَائِمُ بِالْأَمْرِ الَّذِي تُوكَلُ إِلَيْهِ الْأَشْيَاءُ.

وقوله: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السِّيفِ.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَهُمْ يَكْفُرُونَ قَلِيلاً﴾ (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيًّا مِهْلًا (١٤)

وقوله سبحانه: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ الْآيَةُ، وَعِيدٌ بَيِّنٌ، وَالْمَعْنَى لَا تَشْغَلْ بِهِمْ فِكْرَكَ وَكُلُّهُمْ إِلَيَّ، وَالنَّعْمَةُ: غَضَارَةُ الْعَيْشِ وَكَثْرَةُ الْمَالِ وَالْمَشَارُ إِلَيْهِمْ كَفَارٌ قَرِيشٍ أَصْحَابُ/ الْقَلِيبِ بِبَدْرِ، و﴿لَدَيْنَا﴾ بِمَنْزِلَةِ «عِنْدِنَا» وَالْأَنْكَالُ: جَمْعُ نَكَلٍ، وَهُوَ الْقَيْدُ ١١٩١

(١) ينظر: «السبعة» (٦٥٨)، و«الحجة» (٣٣٥/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٠٥/٢)، و«حجة القراءات» (٧٣٠)، و«معاني القراءات» (٩٩/٣)، و«شرح الطيبة» (٧٧/٦)، و«المعنوان» (١٩٩)، و«شرح شملة» (٦١١)، و«إتحاف» (٥٦٨/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٤/١٢)، رقم: (٣٥٢١٩، ٣٥٢٢٠، ٣٥٢٢١)، وذكره ابن عطية (٣٨٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٥/٦)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٨/٥).

(٤) ينظر: ابن عطية (٣٨٨/٥).

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (٣٥٥/٨).

من الحديد، ويُرَوَّى أَنَّهَا قِيوَدٌ سَوْدٌ مِنَ النَّارِ، وَالطَّعَامُ ذُو الْغُصَّةِ شَجَرَةُ الرَّقُومِ، قَالَه مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(١)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَوْكٌ مِنْ نَارٍ يَغْتَرِضُ فِي حُلُوقِهِمْ^(٢) وَكُلُّ مَطْعُومٍ هُنَالِكَ فَهُوَ ذُو غُصَّةٍ، وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَصَعِقَ^(٣)، وَالرَّجْفَانُ الْاهْتِزَازُ وَالْأَضْطِرَابُ مِنَ فَرْعٍ وَهَوْلِ، وَ«الْمَهِيلُ»: اللَّيْنُ الرَّخْوُ الَّذِي يَذْهَبُ بِالرَّيْحِ، وَقَالَ الْبَخَارِيُّ: «كَثِيبًا مَهِيلًا» رَمَلًا سَائِلًا، انْتَهَى.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (١٥) فَصْنَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولُ فَاحْتَدَتْهُ أَخَذًا وَيَلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾
وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ...﴾ الآية، خطابٌ للعالم لكن المواجهون قريش، و﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ نحو قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وَالْوَيْلُ: الشَّدِيدُ الرَّذَى.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ معناه: كَيْفَ تَجْعَلُونَ وَقَايَةً لَأَنْفُسِكُمْ، و﴿يَوْمًا﴾ مفعولٌ بـ﴿تَتَّقُونَ﴾، وقيل: هو مفعولٌ بـ﴿كَفَرْتُمْ﴾ ويكون ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بمعنى: جَحَذْتُمْ، فـ﴿تَتَّقُونَ﴾ على هذا من التقوى، أي: تَتَّقُونَ عَذَابَ اللَّهِ، ويجوز أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ ظرفاً والمعنى: تَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ يَوْمًا، وعبارة الثعالبي: ﴿كَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي كيف تَتَحَصَّنُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ يَشِيبُ فِيهِ الطُّفْلَ لَهْوِهِ إِنْ كَفَرْتُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَمَا تَقْدَمُ، انْتَهَى، وَحَكَى * ص *، عَنْ بَعْضِ النَّاسِ جَوَازَ أَنْ يَكُونَ ﴿يَوْمًا﴾ ظرفاً أي: فَكَيْفَ لَكُمْ بِالتَّقْوَى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ كَفَرْتُمْ فِي الدُّنْيَا، * ت * : وَهَذَا هُوَ مُرَادُ * ع *^(٤)، قَالَ أَبُو حَيَّانَ^(٥): وَ﴿شِيبًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿يَجْعَلُ﴾ وَهُوَ جَمْعُ أَشْيَبَ، انْتَهَى.

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ كَانَ وَعْدُهُمْ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ نَذِيرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

- (١) أخرجه الطبري (٢٨٩/١٢)، رقم: (٣٥٢٦٧)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد.
- (٢) أخرجه الطبري (٢٨٩/١٢)، رقم: (٣٥٢٦٦)، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٥)، وابن كثير (٤٣٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، في صفة النار، وعبد الله في «زوائد الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وصححه البيهقي في «البعث».
- (٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٦/٦)، وعزاه إلى أحمد في «الزهد»، وهناد وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر عن حمران به.
- (٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٨٩/٥).
- (٥) ينظر: «البحر المحيط» (٣٥٧/٨).

وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مَنْفَطَرُ بِهِ﴾ أي ذات انْفِطَارٍ، والانْفِطَارُ التَّصَدُّعُ والانشِقَاقُ، والضميرُ في ﴿به﴾ قال منذر وغيره: عائِد على اليوم؛ وكذا قال * ص: * إن ضمير ﴿به﴾ يعودُ على اليوم والباء سببية/ أو ظرفية، انتهى، وفي «صحيح مسلم» من رواية ١٩١ ب عبد الله بن عمرو: وَذَكَرَ ﷺ: بَعَثَ النَّارَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاجِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وذلك ﴿يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] الحديث^(١)، انتهى، وقيل: عائِد على الله، أي مُنْفَطِرٌ بِأَمْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، والضميرُ في قوله: ﴿وعده﴾ الظاهر أنه يعود على الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ...﴾ الآية، الإِشَارَةُ بـ«هذه» تحتمل: إلى ما ذُكِرَ من الأَنْكَالِ والجحيم، والأَخِذِ الوِبيل، وتحتمل: أنْ تَكُونَ إلى السورة بِجُمْلَتِهَا، وتحتمل: أنْ تَكُونَ إلى آيَاتِ الْقُرْآنِ بِجُمْلَتِهَا.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ لَيْسَ معناه إِبَاحَةُ الْأَمْرِ وَضِدُّهُ، بل الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَالسَّبِيلُ هُنَا سَبِيلُ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلَيْلٍ وَيَصْفُمُ ثُلُثَهُمْ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ رَّجُلٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦٠)

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ...﴾ الآية، المعنى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَنْتَ وَغَيْرُكَ مِنْ أُمَّتِكَ قِيَامًا مُخْتَلِفًا مَرَّةً يَكْثُرُ وَمَرَّةً يَقَلُّ، وَمَرَّةً أَدْنَىٰ مِنَ الثَّلَاثِينَ،

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠/٦)، كتاب «أحاديث الأنبياء» باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨)، (٨/ ٢٩٥)، كتاب «التفسير» باب: ﴿وترى الناس سكارى﴾ (٤٧٤١)، (٣٩٦/١١)، كتاب «الرقاق» باب: قول الله عز وجل: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ (٦٥٣٠)، (٤٦٢/١٣)، كتاب «التوحيد» باب: قول الله تعالى: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا. الحق وهو العلي الكبير﴾ (٧٤٨٣)، ومسلم (٦٤٢/٢ - ٤٦٣) - الأبي، كتاب «الإيمان» باب: يقول الله لأدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (٣٧٩)، والنسائي (٤٠٩/٦) - «الكبرى»، كتاب «التفسير» باب: ﴿وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى﴾ (١/١١٣٣٩).

وفي الباب من حديث أبي هريرة في «الصحيح»: أخرجه البخاري (٣٨٥/١١)، كتاب «الرقاق» باب الحشر (٢٥٢٩).

ومرة أدنى من النصف، ومرة أدنى من الثلث، وذلك لِعَدَمِ تَخْصِيلِ الْبَشَرِ لِمَقَادِيرِ الزَّمانِ، مع عُذْرِ النَّوْمِ، وتقديرُ الزَّمانِ حَقِيقَةً إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا الْبَشَرُ فَلَا يُحْصِي ذَلِكَ، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَي: رَجَعَ بِهِمْ مِنَ الثَّقَلِ إِلَى الْخِفَّةِ وَأَمَرَهُمْ بِقِرَاءَةِ مَا تيسَّرَ، وَنَحَوَ هَذَا تُعْطِي عِبَارَةُ الْفَرَاءِ، وَمَنْدَرُ فَإِنَّهُمَا قَالَا: تُخْصُوهُ تَحْفَظُوهُ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ هُوَ عَلَى قِرَاءَةِ الْخَفْضِ عَطْفًا عَلَى الثَّلَثِينَ وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو وَنَافِعِ وَابْنِ عَامِرٍ، وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: «وَنَصْفَهُ وَثُلُثَهُ» بِالتَّضْبِ عَطْفًا عَلَى أَذْنَى وَهِيَ قِرَاءَةُ بَاقِي السَّبْعَةِ^(١)، فَالْمَعْنَى عِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ الزَّمانَ عَلَى نَحْوِ مَا أَمَرَ بِهِ تَعَالَى، فِي قَوْلِهِ: ﴿نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ * [المزمل: ٣- ٤] فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿أَنْ لَنْ تَحْصُوهُ﴾ فَمَعْنَاهُ لَنْ يُطِيقُوا قِيَامَهُ ١٩٢ / لِكَثْرَتِهِ وَشِدَّتِهِ، فَحَقَّقَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَضْلًا مِنْهُ؛ لَا لِعِلَّةٍ جَهْلُهُمْ بِالتَّقْدِيرِ وَإِحْصَاءِ الْأَوْقَاتِ، وَنَحَوَ هَذَا تُعْطِي عِبَارَةُ الْحَسَنِ وَابْنِ جَبْرِ؛ فَإِنَّهُمَا قَالَا: تَحْصُوهُ: تُطِيقُوهُ^(٢)، وَعِبَارَةُ الثَّعْلَبِيِّ: وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّضْبِ؛ فَالْمَعْنَى: وَتَقْوُمُ نَصْفُهُ وَثُلُثُهُ، قَالَ الْفَرَاءُ: وَهُوَ الْأَشْبَهُ بِالصَّوَابِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ أَقَلَّ مِنَ الثَّلَثِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ تَفْسِيرَ الْقَلَّةِ لَا تَفْسِيرَ أَقَلَّ مِنَ الْقَلَّةِ، انْتَهَى، وَلَوْ عَبَّرَ الْفَرَاءُ بِالْأَرْجَحِ، لَكَانَ أَحْسَنَ أَدْبًا، وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٣) ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّى قَبِلَتْ صَلَاتُهُ»، رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا مُسْلِمًا، وَتَعَارَّ - بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ - مَعْنَاهُ: اسْتَيْقَظَ، انْتَهَى مِنَ «السَّالِحِ».

وقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ قال الثَّعْلَبِيُّ أَي: مَا خَفَّ وَسَهَّلَ بغيرِ مِقْدَارٍ مِنَ الْقِرَاءَةِ، وَالْمُدَّةِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى فَصَلُّوا مَا تيسَّرَ فَعَبَّرَ بِالْقِرَاءَةِ عَنْهَا. * ت * : وهذا هو الْأَصَحُّ عِنْدَ ابْنِ الْعَرَبِيِّ، انْتَهَى، قَالَ * ع *^(٤) : قَوْلُهُ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنَ

(١) ينظر: «الحجة» (٣٣٦/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٠٧/٢)، و«معاني القراءات» (١٠٠/٢)، و«شرح الطيبة» (٧٧/٦)، و«العنوان» (١٩٩)، و«حجة القراءات» (٧٣١)، و«شرح شعلة» (٦١٢)، و«إتحاف» (٥٦٩/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٣/١٢ - ٢٩٤)، رقم: (٣٥٢٩٢ - ٣٥٢٩٣)، عن الحسن، ورقم (٣٥٢٩٤) عن سعيد، وذكره البغوي (٤١١/٤)، وابن عطية (٣٩٠/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٤٨/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) في د: بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٠/٥).

القرآن ﴿ هو أَمْرٌ نَذِبَ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ: هُوَ فَرَضٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَوْ خَمْسِينَ آيَةً، وَقَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ: قِيَامُ اللَّيْلِ فَرَضٌ ^(١) وَلَوْ قَدَرُ حَلَبٍ شَاةٍ، إِلَّا أَنَّ الْحَسَنَ قَالَ: مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ لَمْ يُحَاجَّهُ الْقُرْآنُ ^(٢)؛ وَاسْتَحْسَنَ هَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَالرُّكْعَتَانِ بَعْدَ الْعِشَاءِ مَعَ الْوُثْرِ دَاخِلَتَانِ فِي امْتِثَالِ هَذَا الْأَمْرِ؛ وَمَنْ زَادَ زَادَهُ اللَّهُ ثَوَابًا، * ت * يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى تَخْصِيلِ الْخَيْرَاتِ قَبْلَ هُجُومِ صَوْلَةِ الْمَمَاتِ، قَالَ الْبَاجِي فِي «سُنَنِ الصَّالِحِينَ» لَهُ: قَالَتْ بِنْتُ الرَّبِيعِ بْنِ خُنَيْمٍ لِأَبِيهَا: يَا أَبَتِ/ مَا لِي أَرَى ١٩٢ ب النَّاسَ يَنَامُونَ وَأَنْتَ لَا تَنَامُ، قَالَ: إِنَّ أَبَاكَ يَخَافُ الْبَيَاتِ، قَالَ الْبَاجِي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: وَلِي فِي هَذَا الْمَعْنَى: [مَنْ الرِّجْز]

قَدْ أَفْلَحَ الْقَانِتُ فِي جُنْحِ الدُّجَى يَثْلُو الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ الثَّيْرَا
[فَقَائِمًا وَزَاكِعًا وَسَاجِدًا] مُبْتَهَلًا مُسْتَغِيرًا مُسْتَغْفِرًا ^(٣)
لَهُ حَنِينٌ وَشَهِيْقٌ وَبُكََا يَبُلُّ مِنْ أَدْمَعِهِ تُرْبَ الثَّرَى
إِنَّا لَسَفَرٌ نَبْتَغِي نَيْلَ الْهُدَى فَفِي السُّرَى بُغْيَتْنَا لَا فِي الْكُرَى
مَنْ يَنْصَبِ اللَّيْلَ يَنْلُ رَاحَتَهُ عِنْدَ الصُّبْحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السُّرَى

انتهى، والضربُ في الأرض هو السَّفَرُ للتجارة ابتغاءَ فضلِ الله سبحانه، فذكر الله سبحانه أَعْدَارَ بَنِي آدَمَ الَّتِي هِيَ حَائِلَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قِيَامِ اللَّيْلِ، ثُمَّ كَرَّرَ سُبْحَانَهُ الْأَمْرَ بِقِرَاءَةِ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ تَأْكِيدًا، وَالصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ هُنَا هُمَا الْمَفْرُوضَتَانِ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْقِيَامَ مِنَ اللَّيْلِ غَيْرُ وَاجِبٍ؛ قَالَ: مَعْنَى الْآيَةِ خُذُوا مِنْ هَذَا الثَّقَلِ بِمَا تَيَسَّرَ وَحَافِظُوا عَلَى فَرَائِضِكُمْ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ شَيْئًا مِنَ الْقِيَامِ وَاجِبٌ؛ قَالَ: قَدْ قَرَنَهُ اللَّهُ بِالْفَرَائِضِ؛ لِأَنَّهُ فَرَضَ وَإِقْرَاضَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ إِسْلَافُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ عِنْدَهُ، وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ ^(٤) «هُوَ خَيْرٌ» عَلَى أَنْ يَكُونَ «هُوَ» فَضْلًا، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْإِسْتِغْفَارُ بَعْدَ الصَّلَاةِ مُسْتَنْبَطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ١٧ - ١٨] قَالَ

(١) ذكره ابن عطية (٣٩٠/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٤/١٢)، رقم: (٣٥٣٠١)، وذكره ابن عطية (٣٩٠/٥ - ٣٩١).

(٣) سقط في: د.

(٤) قرأ محمد بن السميع، وأبو السمال: «هُوَ خَيْرٌ» بالرفع.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٣٩١/٥)، و«البحر المحيط» (٣٥٩/٨)، و«الدر المصون» (٤١٠/٦).

* ع^(١) : وَعَهَذْتُ أَبِي - رحمه الله - يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِثْرَ كُلِّ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثًا بِعَقَبِ السَّلَامِ،
ويأثر في ذلك حديثاً، فكان هذا الاستغفار من التقصير وتَقَلُّبِ الْفِكْرِ أثناء الصلاة، وكان
السلف الصالح يُصَلُّونَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ؛ ثُمَّ يَجْلِسُونَ لِلِاسْتِغْفَارِ. * ت : وما ذكره
* ع : - رحمه الله - عَنْ أَبِيهِ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ
ثُوبَانَ قَالَ : «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَنْصَرَفَ / مِنْ صَلَاتِهِ، اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ : «اللَّهُمَّ، أَنْتَ
السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٢)، قَالَ الْوَلِيدُ : فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ : كَيْفَ
الِاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ : تَقُولُ : اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ مِنْ
حَدِيثِ عَائِشَةَ : «يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، انْتَهَى مِنْ «سَلَاكِ الْمُؤْمِنِ».

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٣٩١/٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥/٢٦ - ١٣٦)، وأبو داود (٤٧٤/١)، كتاب «الصلاة» باب : ما يقول الرجل إذا
سَلَّمَ (١٥١٢)، والتِّرْمِذِيُّ (٩٥/٢ - ٩٦)، كتاب «الصلاة» باب : ما جاء إذا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ (٢٩٨ -
٢٩٩)، وابن ماجه (٢٩٨/١)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها» باب : ما يقال بعد التسليم (٩٢٤)،
وابن حبان (٣٤٠/٥ - ٣٤١)، كتاب «الصلاة» باب : فصل في القنوط (٢٠٠٠ - ٢٠٠١)، وأحمد (٦/
١٨٤)، والنسائي (٦٩/٣)، كتاب «السهو» باب : الذكر بعد الاستغفار (١٣٣٨)، وفي «الكبرى» (١/
٣٩٧)، كتاب «صفة الصلاة» باب : الاستغفار بعد السلام (١٢٦١).

قال التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثُ عَائِشَةَ، حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وفي الباب من حديث ثوبان : أخرجه أبو داود (٤٧٥/١)، كتاب «الصلاة» باب : ما يقول الرجل إذا سلم
(١٥١٣)، والنسائي (٦٩/٣)، كتاب «السهو» باب : الاستغفار بعد السلام (١٣٣٧)، وفي «الكبرى»
(٣٩٧/١)، كتاب «صفة الصلاة» باب : الاستغفار بعد السلام (١٢٦١)، والطيالسي (١٠٥/١)، كتاب
«الصلاة» باب : أذكار متنوعة تقال بعد الخروج من الصلاة (٤٧٦)، وابن حبان (٣٤٣/٥ - ٣٤٤)، كتاب
«الصلاة» باب : فصل في القنوط.

تفسير سورة المدثر

وهي مكية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبِّكَ فَكَذِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَفِّرْ ④ وَالرَّجَزَ فَاهْبِجْ ⑤ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرَ ⑥﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ الآية، اختلف في أول ما نزل من القرآن، فقال الجمهور هو: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وهذا هو الأصح، وقال جابر وجماعة هو: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾^(١)، * ص: * والتدثر: لبس الثوب، وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار الثوب الذي يلي الجسد؛ ومنه قوله: - عليه السلام -: «الأنصار شعار، والناس دثار» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قم فأندِر﴾ بغنة عامة إلى جميع الخلق.

﴿وربك فكبر﴾ أي: فعظم.

﴿وثيابك فطهر﴾ قال ابن زيد وجماعة: هو أمر بتطهير الثياب حقيقة^(٢)، وذَهَبَ الشافعي وغيره من هذه الآية إلى: وجوب غسل النجاسات من الثياب، وقال الجمهور: هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس، والغرض، وهذا كما تقول: فلان طاهر الثوب، ويقال للفاجر: دَنَسُ الثَّوْبِ، قال ابن العربي في «أحكامه»: والذي يقول إنها الثياب المجازية أكثر، وكثيراً ما تستعمله العرب، قال أبو كبشة: [الطويل]

(١) أخرجه الطبري (٢٩٧/١٢)، رقم: (٣٥٣٠٩)، وذكره البغوي (٤/٤١٢، ٤١٣)، وابن عطية (٥/

٣٩٢)، وابن كثير (٤/٤٤٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٥٠)، وعزاه للطيالسي، وعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن الضريس، وابن جزي، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن الأنباري في المصاحف.

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٧/١٢)، رقم: (٣٥٣٣٧)، وذكره البغوي (٤/٤١٣)، وابن عطية (٥/٣٩٢)،

وابن كثير (٤/٤٤١) بنحوه.

ثِيَابَ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةً وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ غُرَانُ^(١)
يعني: بطهارة ثيابهم وسلامتهم من الدنئات، وقال غِيلَانُ بْنُ سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ:
[الطويل]

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثُوبَ فَاجِرٍ لَيْسْتُ وَلَا مِنْ عَذْرَةٍ أَتَقَنَّعُ^(٢)

١٩٣ ب

وليسَ يمتنع أن تُحْمَلَ الآيةُ على عموم المراد فيها بالحقيقة^(٣) / والمجاز^(٤) على ما بيّناه في أصولِ الفقه، وإذا حملناها على الثيابِ المعلومة؛ فهي تتناول معنيين: أحدهما: تَقْصِيرُ الْأَذْيَالِ؛ فإنها إذا أُزِيلَتْ تَدَنَسَتْ، وَتَقْصِيرُ الذَّيْلِ أَتَقَى لثَوْبِهِ وَأَتَقَى لِرَبِّهِ، الْمَعْنَى الثَّانِي: غَسْلُهَا مِنَ التَّجَاسَةِ فَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْهَا صَحِيحٌ فِيهَا، انتهى، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رضي الله عنه -: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، طَهَّرْ ثِيَابَكَ مِنَ الدَّنَسِ، تَخْطُ بِمَدَدِ اللَّهِ فِي كُلِّ نَفْسٍ، فَقُلْتُ: وَمَا ثِيَابِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَسَاكَ [حُلَّةَ الْمَعْرِفَةِ، ثُمَّ]^(٥) حُلَّةَ الْمَحَبَّةِ، ثُمَّ حُلَّةَ التَّوْحِيدِ، ثُمَّ حُلَّةَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ حُلَّةَ

(١) البيت في «ديوانه» (٨٣)، و«المحكم» (١٧٥/٤)، و«المعين» (١٩/٤)، و«الصحاح» (طهر)، و«البحر المحيط» (٣٦٣/٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٢/٥)، «البحر المحيط» (٣٦٣/٨)، القرطبي (٤٢/١٩).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (١٥٢/٢)، «سلاسل الذهب» له ص: (١٨٢)، «التمهيد» للأسنوي ص: (١٨٥)، «نهاية السؤل» له (١٤٥/٢)، «منهاج العقول» للبدخشي (٣٢٧/١)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري ص: (٤٦)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٢٢١/١)، «المستصفى» للغزالي (٣٤١/١)، «حاشية البناني» (٣٠٠/١)، «الإبهاج» لابن السبكي (٢٧١/١)، «الآيات البينات» لابن القاسم العبادي (١٥٢/٢)، «تخريج الفروع على الأصول» للزنجاني ص: (٦٨)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (٣٩٣/١)، «المعتمد» لأبي الحسين (١٤/١، ٤٠٥/٢)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٤٣٧/٤)، «التحرير» لابن الهمام ص: (١٦٠)، «تيسير التحرير» لأمير بادشاه (٧٢/١، ٢/٢).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» للزركشي (١٥٨/٢)، «سلاسل الذهب» له ص: (١٩٠)، «التمهيد» للأسنوي ص: (١٨٥)، «نهاية السؤل» له (١٤٥/٢)، «منهاج العقول» للبدخشي (٣٥٤/١)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري ص: (٤٧)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٢٢١/١)، «المستصفى» للغزالي (٣٤١/١)، «حاشية البناني» (٣٠٤/١)، «الإبهاج» لابن السبكي (٢٧١/١)، «الآيات البينات» لابن القاسم العبادي (١٥٢/٢)، «تخريج الفروع على الأصول» للزنجاني ص: (٣٨٧)، «حاشية العطار على جمع الجوامع» (٣٩٩/١)، «المعتمد» لأبي الحسين (١٤/١، ٤٠٥/٢)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٤٣٧/٤)، «التحرير» لابن الهمام ص: (١٦٠)، «تيسير التحرير» لأمير بادشاه (٧٣/١، ٣/٢)، «كشف الأسرار» للنسفي (٢٢٦/١).

(٥) سقط في: د.

الإِسْلَامَ، فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ صَغُرَ لَدَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَحَبَّ اللَّهَ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ وَحَدَ اللَّهَ، لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ آمِنَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَسْلَمَ لِلَّهِ قَلَمًا يَعْصِيهِ، وَإِنْ عَصَاهُ، أَعْتَدَرَ إِلَيْهِ، وَإِذَا أَعْتَدَرَ إِلَيْهِ، قَبِلَ عُذْرَهُ، قَالَ: فَفَهِمْتُ حِينَئِذٍ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ﴾ انتهى من «التنوير» لابن عطاء الله.

﴿والرُّجْزُ﴾ يعني الأضنام والأوثان، وقال ابن عباس: الرُّجْزُ السَّخَطُ^(١) يعني: اهْجُرْ ما يؤدي إليه ويوجبه، واخْتَلَفَ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ﴾ فقال ابن عباس وجماعة: معناه لَا تَغْطِ عَطَاءً لِنُغْطِي أَكْثَرَ مِنْهُ^(٢)، فكأنه من قولهم: مَنْ إِذَا أُعْطِيَ، قَالَ الضحاك: وَهَذَا خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَمُبَاحٌ لِأُمَّتِهِ، لَكِنْ لَا أَجْرَ لَهُمْ فِيهِ^(٣)، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه وَلَا تَمُنُّنَ عَلَى اللَّهِ بِجِدِّكَ، تَسْتَكْبِرُ أَعْمَالَكَ، وَيَقَعُ لَكَ بِهَا إِعْجَابٌ^(٤)، قَالَ ع^(٥): * وَهَذَا مِنَ الْمَنِّ الَّذِي هُوَ تَعْدِيدُ الْيَدِ وَذِكْرُهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: معناه وَلَا تَضَعُفُ تَسْتَكْبِرُ مَا حَمَلْنَاكَ مِنْ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ، وَتَسْتَكْبِرُ مِنَ الْخَيْرِ؛ وَهَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ حَبْلٌ مَنِينٌ أَي: ضَعِيفٌ^(٦).

/ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (٧) فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْوَصِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عِزٌّ يَسِيرٌ ﴿١٠﴾

﴿ولربك فاصبر﴾ أي لوجه ربك وطلب رضا فاصبر على أذى الكفار، وعلى العبادة وعن الشهوات وعلى تكاليف الثبوة، قال ابن زيد: وعلى حزب الأحمَر، والأسود^(٧)، وَلَقَدْ حُمِّلَ أَمْرًا عَظِيمًا ﷺ، وَالنَّاقُورُ: الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ، وَهُوَ الصُّور؛ قَالَه ابن عباس

- (١) أخرجه الطبري (٣٠٠/١٢)، رقم: (٣٥٣٣٨)، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٥).
- (٢) أخرجه الطبري (٣٠١/١٢)، رقم: (٣٥٣٤٦) عن ابن عباس، وغيره رقم: (٣٥٣٤٧)، (٣٥٣٤٨)، (٣٥٣٤٩)، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٥)، وابن كثير (٤٤١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٥٢)، وعزه للطبراني.
- (٣) أخرجه الطبري (٣٠٢/١٢)، رقم: (٣٥٣٦٢)، وذكره البغوي (٤١٤/٤)، وابن عطية (٣٩٣/٥)، وابن كثير (٤٤١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٥٢)، وعزه لعبد بن حميد.
- (٤) أخرجه الطبري (٣٠٢/١٢)، رقم: (٣٥٣٦٣)، (٣٥٣٦٤)، وذكره البغوي (٤١٤/٤)، وابن عطية (٣٩٣/٥).
- (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٣/٥).
- (٦) أخرجه الطبري (٣٠٣/١٢)، رقم: (٣٥٣٦٧)، وذكره البغوي (٤١٤/٤)، وابن عطية (٣٩٣/٥)، وابن كثير (٤٤١/٤). والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٥٢)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر.
- (٧) أخرجه الطبري (٣٠٣/١٢)، رقم: (٣٥٣٧٠)، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٥).

وعكرمة؛ وهو قَاعُولٌ مِنَ الثَّقْرِ^(١)، قال أبو حباب القصاب: أَمَّا زُرَّارَةُ بْنُ أَوْفَى؛ فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَإِذَا تُقَرَّ فِي النَّاقُورِ﴾ خَرَّ مَيِّتًا، قال الفخر^(٢): قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمُنَا يَوْمُ عَسِيرٍ﴾ أي: على الكافرين، لَأَنَّهُمْ يُنَاقِشُونَ ﴿غَيْرَ يَسِيرٍ﴾ أي: بل كَثِيرٌ شَدِيدٌ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَسِيرٌ؛ لَأَنَّهُمْ لَا يُنَاقِشُونَ، قال ابن عباس: ولما قال تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾ ذَلَّ على أنه يسيرٌ على المؤمنين^(٣)، وهذا هو دَلِيلُ الْخَطَابِ، ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا وَصَفَهُ تَعَالَى بِالْعُسْرِ لِأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ كَذَلِكَ لِلْجَمِيعِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ هَؤُلَ الْكَافَرِ فِيهِ أَكْثَرُ وَأَشَدُّ، وعلى هذا القولِ يَحْسُنُ الْوَقْفُ على قوله: ﴿يوم عسير﴾ انتهى.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١١) وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُمْ تَهْمِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآية، لا خلافَ بَيِّنِ الْمَفْسَرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ الْمَخْزُومِي، فَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يُلَقَّبُ الْوَحِيدَ أَي: لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي مَالِهِ وَشَرَفِهِ فِي بَيْتِهِ، فَذَكَرَ الْوَحِيدَ فِي جُمْلَةِ النِّعَمِ الَّتِي أُعْطِيَ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ معناه: مَنْفَرِدًا قَلِيلًا ذَلِيلًا، وَالْمَالُ الْمَمْدُودُ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَبْرِ: هُوَ أَلْفُ دِينَارٍ^(٤)، وَقَالَ سَفِيَانٌ: بَلَغَنِي أَنَّهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ؛ وَقَالَ قَتَادَةُ^(٥)، وَقِيلَ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ، قَالَ * ع^(٦): * وَهَذَا مَدَّ فِي الْعَدَدِ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: الْمَالُ الْمَمْدُودُ: الرَّيْعُ الْمَسْتَعْلُ مُشَاهَرَةً^(٧).

١٩٤ ب ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ أَي حُضُورًا، قِيلَ عَشْرَةٌ وَقِيلَ ثَلَاثَةُ عَشَرَ، قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: / أَسْلَمَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَهِشَامُ، وَعِمَارَةُ، قَالُوا: فَمَا زَالَ الْوَلِيدُ بَغْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي نَقْصَانِ مِنْ مَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّى هَلَكَ، انْتَهَى.

(١) أخرجه الطبري (٣٠٤/١٢)، رقم: (٣٥٣٧٦) عن عكرمة، ورقم: (٣٥٣٨٠) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٢/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد عن عكرمة.

(٢) ينظر: «الفخر الرازي» (١٧٤/٣٠).

(٣) ذكره الرازي (١٧٤/٣٠).

(٤) أخرجه الطبري (٣٠٦/١٢)، رقم: (٣٥٣٩٦ - ٣٥٣٩٥)، وذكره البغوي (٤١٤/٤)، وابن عطية (٥/٣٩٤).

(٥) أخرجه الطبري (٣٠٦/١٢)، رقم: (٣٥٣٩٧)، وذكره البغوي (٤١٤/٤)، وابن عطية (٥/٣٩٤).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٤/٥).

(٧) أخرجه الطبري (٣٠٦/١٢ - ٣٠٧)، رقم: (٣٥٤٠٠، ٣٥٤٠٣)، وذكره ابن عطية (٥/٣٩٤).

﴿ومهدت له تمهيداً﴾ قال سفيان: المعنى بَسَطْتُ له العيشَ بَسْطاً^(١).

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَن لَّابْتِئْنَا عِندَآ (١٦) سَأُرْهِقُهُمْ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُمْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِن هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا بَقِيَ وَلَا تَذَرُ (٢٨)﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَذُعٌ وَزَجْرٌ له على أَمْنِيَّتِهِ، و﴿أُرْهِقَهُ﴾ معناه أَكَلَفُهُ بِمَشَقَّةٍ وَعُسْرٍ، وَصَعُودٌ عَقَبَةٌ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ، روى ذلك أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: كُلُّمَا وُضِعَ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنَ الْإِنْسَانِ ذَابَ، ثُمَّ يَعُودُ، وَالصَّعُودُ فِي اللُّغَةِ: الْعَقَبَةُ الشَّاقَّةُ.

وقوله تعالى مخبراً عن الوليد: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآية، روى جمهور من المفسرين: أَنَّ الْوَلِيدَ سَمِعَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا أَعْجَبَهُ وَمَدَحَهُ، ثُمَّ سَمِعَ كَذَلِكَ مَرَاراً، حَتَّى كَادَ أَنْ يُقَارِبَ الْإِسْلَامَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ كَلَاماً مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ، وَلَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْجَنِّ، إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَغْلَاهُ لَمُشَرٍّ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٍ، وَإِنَّهُ يَغْلُو، وَمَا يُغْلَى، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: صَبَأَ الْوَلِيدُ وَاللَّهُ لَتَصْبَأَنَّ قُرَيْشٌ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَنَا أَكْفِيكُمْوه فَحَاجَّهُ أَبُو جَهْلٍ وَجَمَاعَةٌ حَتَّى غَضِبَ الْوَلِيدُ، وَقَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يُخَنِّقُ قَطُّ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَاعِرٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَنْطِقُ بِشَعْرٍ قَطُّ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَاهِنٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَكَهَّنُ قَطُّ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذَابٌ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنَ الْكُذْبِ قَطُّ؟ قَالُوا: لَا، وَكَانُوا يُسْئِلُونَهُ قَبْلَ النَّبِوةِ الْأَمِينِ لِصِدْقِهِ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا عِنْدَكَ فِيهِ؟ فَتَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: مَا أَرَى فِيهِ شَيْئاً مِمَّا ذَكَرْتُمُوهُ فَقَالُوا: هُوَ سَاحِرٌ، فَقَالَ: أَمَا هَذَا فُئِشِيهِ، / وَأَلْفَاظُ الرِّوَاةِ هُنَا مُتَقَارِبَةٌ الْمَعَانِي مِنْ رِوَايَةِ الزَّهْرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ﴾ قَالَ الثَّعْلَبِيُّ وَغَيْرُهُ: ﴿قَتَلَ﴾ معناه: لَعِنَ، انْتَهَى.

﴿وَبَسَرَ﴾ أَي قَطَّبَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَزْبَدَ وَجْهَهُ ثُمَّ أَدْبَرَ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ أَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: ﴿إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ أَي: يُزَوَّى، أَي: يرويه محمدٌ عن غيره.

و﴿سَقَرَ﴾ هِيَ الدَّرَكُ السَّادِسُ مِنَ النَّارِ، ﴿لَا تُبْقِي﴾ عَلَى مَنْ أَلْقَى فِيهَا ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ غَايَةً مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا وَصَلَتْهُ إِلَيْهِ.

﴿وَأَوَّلَهُ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلَكًا وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا

فَتَنَّهُ لِيَلْزِمَنَّ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْكَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَآيَةٌ لِّلْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿لواحة للبشر﴾ قال ابن عباس وجمهور الناس: معناه مُعْرِضَةٌ لِلْبَشَرَاتِ وَمُحَرِّقَةٌ لِلْجُلُودِ مُسَوِّدَةٌ لَهَا^(١)، فالبشر جمع بشرة، وقال الحسن وابن كيسان: ﴿لواحة﴾ بناء مبالغة من لآح يُلَوِّحُ إِذَا ظَهَرَ، فالمعنى أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام، وذلك لعظمتها وهولها وزفيرها^(٢).

وقوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ لا خلاف بين العلماء أنهم خَزَنَةُ جَهَنَّمَ المحيطون بأمرها الذين إليهم جماع أمر زبائيتها، وروي أن قريشاً لما سمعت هذا كُتِرَ لَعَطُهُمْ فيه، وقالوا: وَلَوْ كَانَ هَذَا حَقًّا، فَإِنَّ هَذَا الْعَدَدَ قَلِيلٌ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَؤُلَاءِ تِسْعَةُ عَشَرَ، وَأَنْتُمْ الدُّهُمُ أَي: الشُّجْعَانُ: أَفْتَعَجَزْ عَشْرَةٌ مِّنَّا عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْ أَقْوَالِهِمُ السَّخِيفَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ تبيين لفساد أقوال قريش، أي: إنا جعلناهم خلقاً لا قَبْلَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بِهِمْ وَجَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ هَذَا الْقَدَرُ فَتَنَةً لِلْكَفَّارِ لِيَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ التَّعَاطِي وَالطَّمَعِ فِي الْمَغَالِبَةِ مَا وَقَعَ، وَلِيَسْتَيْقِنَ أَهْلُ الْكِتَابِ - التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ - أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِذْ هُمْ يَجِدُونَ هَذِهِ الْعِدَّةَ فِي كُتُبِهِمُ الْمُنْزَلَةِ، قَالَ هَذَا الْمَعْنَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٣)، وَبُزُودُ الْحَقَائِقِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - يَزْدَادُ كُلَّ ذِي إِيْمَانٍ إِيْمَانًا، وَيَزُولُ الرَّيْبُ عَنِ الْمُصْذِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

١٩٥ ب / وقوله سبحانه: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض...﴾ الآية، نوع من الفتنة لهذا الصنف المنافق أو الكافر، أي حَارُوا وَلَمْ يَهْتَدُوا لِمَقْصِدِ الْحَقِّ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَسْتَفْهِمُ بَعْضًا عَنْ مَرَادِ اللَّهِ بِهَذَا الْمَثَلِ، اسْتِبْعَادًا أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ الْحَسَنِ بْنُ الْفَضْلِ: السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ نِفَاقٌ وَإِنَّمَا الْمَرَضُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْاضْطِرَابُ وَضَعْفُ الْإِيْمَانِ^(٤)، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ إغلاماً بأن الأمر فوق ما يتوهم،

(١) أخرجه الطبري (٣١١/١٢)، رقم: (٣٥٤٣٤)، وذكره البغوي (٤١٦/٤)، وابن عطية (٣٩٥/٥)، وابن كثير (٤٤٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره البغوي (٤١٦/٤)، وابن عطية (٣٩٦/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٣/١٢)، رقم: (٣٥٤٤٧)، وذكره ابن عطية (٣٩٦/٥).

(٤) ذكره ابن عطية (٣٩٦/٥).

وَأَنَّ الْخَبَرَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ بَغْضِ الْقُدْرَةِ لَا عَنْ كُلِّهَا، * ت * : صوابه أَنْ يَقُولَ عَنْ بَغْضِ
 الْمَقْدُورَاتِ لَا عَنْ كُلِّهَا؛ وهذا هو مُرَادُهُ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ
 مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قَالَ: يعني بشيءٍ مِنْ مَعْلُومَاتِهِ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى لَا يَتَجَزَأُ، فَافْهَم
 رَاشِدًا، وَالسَّمَوَاتُ كُلُّهَا عَامِرَةٌ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؛ كُلُّهُمْ فِي عِبَادَةٍ مُتَّصِلَةٍ وَخُشُوعٍ دَائِمٍ، لَا
 فِتْرَةَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا دَقِيقَةً وَاحِدَةً، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هِيَ﴾
 لِلنَّارِ الْمَذْكُورَةِ، أَي: يُذَكِّرُ بِهَا الْبَشَرُ فَيَخَافُونَهَا، فَيَطِيعُونَ اللَّهَ^(١)، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ:
 ﴿وَمَا هِيَ﴾ يَرَادُ بِهَا الْحَالُ وَالْمَخَاطَبَةُ وَالنَّذَارَةُ، وَأَقْسَمَ تَعَالَى بِالْقَمَرِ وَمَا بَعْدَهُ تَنْبِيْهَا عَلَى
 النَّظَرِ فِي ذَلِكَ وَالْفِكْرِ الْمُؤَدِّي إِلَى تَعْظِيمِهِ تَعَالَى وَتَحْصِيلِ مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى مَالِكِ الْكُلِّ وَقَوَامِ
 الْوُجُودِ، وَنُورِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْقَهَّارُ، وَأَذْبَرَ اللَّيْلُ مَعْنَاهُ وَلَّى،
 وَأَسْفَرَ الصَّبْحَ أَضَاءً وَانْتَشَرَ ضَوْوَهُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا لِأَحَدٍ
 الْكَبِيرِ﴾ لَجَهَنَّمَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلنَّذَارَةِ وَأَمْرِ الْآخِرَةِ؛ فَهُوَ لِلْحَالِ وَالْقِصَّةِ^(٢)،
 * ص * : وَالْكَبَرُ جَمْعُ كَبُرَى، وَفِي * ع *^(٣) : جَمْعُ كَبِيرَةٍ وَلَعَلَّهُ وَهُمْ مِنَ النَّاسِخِ،
 انْتَهَى.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً (٣٨) إِلَّا
 أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَسْقَوْنَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) ﴿﴾

وقوله سبحانه: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ قال الحسن: لَا نَذِيرَ أَذْهَى مِنَ النَّارِ^(٤)، وقال ابن
 زيد: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قال الحسن: هو وعيد نحو
 قوله: ﴿فَمَنْ/ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٦) [الكهف: ٢٩]، ثُمَّ قَوَّى سَبْحَانَهُ هَذَا ١٩٦
 المعنى بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً﴾: إِذْ لَزِمَ بِهَذَا الْقَوْلُ أَنَّ الْمُقْصَرَّ مَرْتَهَنٌ بِسُوءِ
 عَمَلِهِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: المعنى: كُلُّ نَفْسٍ حَقَّتْ عَلَيْهَا كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَلَا يَرْتَهَنُ تَعَالَى أَحَدًا

(١) أخرجه الطبري (٣١٤/١٢)، رقم: (٣٥٤٥٧)، وذكره ابن عطية (٣٩٧/٥)، وابن كثير (٤٤٦/٤)،
 والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٧/٦)، وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري (٣١٦/١٢)، رقم: (٣٥٤٦٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٧/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٣١٦/١٢)، رقم: (٣٥٤٦٧)، وذكره البغوي (٤١٨/٤)، وابن عطية (٣٩٨/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٣١٧/١٢)، رقم: (٣٥٤٦٩)، وذكره البغوي (٤١٨/٤)، وابن عطية (٣٩٨/٥).

(٦) ذكره ابن عطية (٣٩٨/٥).

من أهل الجنة إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ استثناء ظاهره الانفصال، تقديره: لكن أصحاب اليمين في جنات.

* ص *: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: هم في جنات، فيكون خبر مبتدأ محذوف.

* م *: وأعربه أبو البقاء حالاً من الضمير في ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، انتهى.

قال ابن عباس: ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ هنا الملائكة^(٢)، وقال الضحَّاك: هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى^(٣)، وقال الحسن وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتبهين^(٤).

* ت *: وأسند أبو عمر بن عبد البر عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيَّةٌ﴾ * ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ قال: أصحاب اليمين: أطفال المسلمين^(٥)، انتهى من «التمهيد».

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ٤٢ ﴿قَالُوا لَوْ نَكَّ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ ٤٣ ﴿وَلَوْ نَكَّ نَطَعُمُ الْمُسْكِينِ﴾ ٤٤ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاضِلِينَ﴾ ٤٥ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ٤٦ ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ ٤٧ ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةَ الشَّافِعِينَ﴾ ٤٨ ﴿فَمَا لَمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ٤٩

وقولهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أي: ما أدخلكم، فيحتمل أن يكون من قول أصحاب اليمين الآدميين أو من قول الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿لَمْ نَكَّ مِنْ الْمُصَلِّينَ...﴾ الآية، وفي نفي الصلاة يدخل الإيمان بالله، والمعرفة به، والخشوع له ﴿وَلَمْ نَكَّ نَطَعُمُ الْمُسْكِينِ﴾ يشمل الصدقة فرضاً كانت أو نفلاً، والخوض مع الخائضين: عرّفه في الباطل والتكذيب بيوم الدين كفر صراح ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني الموت؛ قاله المفسرون.

(١) أخرجه الطبري (٣١٨/١٢)، رقم: (٣٥٤٤٦)، وذكره ابن عطية (٣٩٨/٥).

(٢) ذكره البغوي (٤١٨/٤)، وابن عطية (٣٩٨/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٩٨/٥).

(٤) ذكره البغوي (٤١٨/٤)، وابن عطية (٤٩٨/٥).

(٥) أخرجه الطبري (٣١٨/١٢)، رقم: (٣٥٤٧٩)، وذكره البغوي (٤١٨/٤)، وابن عطية (٤٩٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٩/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم.

قال * ع^(١) : * : وعندي : أَنَّ اليقين صِحَّةُ ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله والدار الآخرة ، وقد تقدم ذكر أحاديث الشفاعة ؛ قال الفخر^(٢) : واحتج أصحابنا بهذه الآية على أَنَّ الكفار يُعَذَّبُونَ بترك فروع الشريعة ، والاستقصاء فيه قد ذكرناه في المحصول ، انتهى .

﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ۖ ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۖ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۖ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۖ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۖ ﴿٥٦﴾﴾

وقوله تعالى في صفة الكفار / المعرضين : ﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ إثبات لجهلهم ؛ ١٩٦ ب لأنَّ الحمر من جاهل الحيوان جدًّا ، وفي حَرْفِ ابن مسعود^(٣) : «حُمْرٌ نَافِرَةٌ» قال ابن عباس وأبو هريرة وجمهور من اللغويين : القسورة : الأسد^(٤) ، وقيل غير هذا ، ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ أي : من هؤلاء ﴿أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ أي : يريد كل إنسان منهم أَنْ ينزل عليه كتاب من الله ، ومنشرة ، أي : منشورة غير مطوية .

وقوله : ﴿كَلَّا﴾ رَدُّ على إرادتهم ، أي : ليس الأمر كذلك ، ثم قال : ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ المعنى : هذه هي العلة والسبب في إعراضهم ، فكان جهلهم بالآخرة سَبَبَ امتناعهم من الهدى حتى هلكوا ، ثم أعاد تعالى الرد والزجر بقوله : ﴿كَلَّا﴾ وأخير أَنَّ هذا القول والبيان وهذه المحاوراة بجملتها ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ : ووفقه الله لذلك ، ذَكَرَ معاذة ؛ فعمل له ، ثم أخبر سبحانه أَنَّ ذكر الإنسان مَعَادَةٌ وجريه إلى فلاحه ؛ إِنَّمَا هو كله بمشيئة الله تعالى ، وليس يكون شيء إلاَّ بها ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن كثير : «يَذْكُرُونَ» بالياء من تحت^(٥) .

وقوله سبحانه : ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ خبر جزم معناه : أَنَّ الله عز وجل

(١) ينظر : «المحرر الوجيز» (٣٩٩/٥) .

(٢) ينظر : «الفخر الرازي» (١٨٦/٣٠) .

(٣) ينظر : «المحرر الوجيز» (٣٩٩/٥) .

(٤) أخرجه الطبري (٣٢٢/١٢) ، رقم : (٣٥٥١٢ ، ٣٥٥١٥) ، وذكره البغوي (٤١٩/٤) عن أبي هريرة فقط ، وابن عطية (٣٩٩/٥) ، وابن كثير (٤٢٧/٤) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦١/٦) ، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس ولعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن أبي هريرة .

(٥) ينظر : «إعراب القراءات» (٤١٣/٢) ، و«معاني القراءات» (١٠٤/٢) ، و«شرح الطيبة» (٨٠/٦) ، و«العنوان» (١٩٩) ، و«شرح شعله» (٦١٣) ، و«حجة القراءات» (٦٣٥) ، و«إتحاف» (٥٧٢/٢) .

أَهْلٌ بِصِفَاتِهِ الْعُلَى وَنِعْمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى لِأَنَّهُ يُتَّقَى وَيُطَاعَ أَمْرُهُ، وَيُخْذَرُ عَصْيَانُهُ، وَأَنَّهُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَهْلٌ أَنْ يَغْفِرَ لِعِبَادِهِ إِذَا اتَّقَوْهُ؛ رَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَنَسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَلَا يُجْعَلُ مَعِيَ إِلَهٌ آخَرُ، فَمَنْ اتَّقَانِي فَلَمْ يُجْعَلْ مَعِيَ إِلَهًا آخَرَ، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ» وَأَخْرَجَهُ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ بِمَعْنَاهُ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١)، انْتَهَى.

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ (١٤٣٧/٢)، كِتَابُ «الزَّهْدِ» بَابُ: مَا يَرْجَى مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤٢٩٩).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ

وَهِيَ مَكْنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيْخَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾
بَلْ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُوِّيَ بَنَاتُهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾ إِذَا رَقَّ الْعَصْرُ ﴿٧﴾
وَحَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾

قوله عز وجل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿١﴾ هذه قراءة ١١٩٧ الجمهور، وقرأ ابن كثير^(١): «لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ» فقليل: على قراءة الجمهور «لا» زائدة، وقال الفراء: «لا» نفي لكلام الكفار، وزجر لهم، ورد عليهم، وجمهور المتأولين على أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَبِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ تَنْبِيْهًا مِنْهُ عَلَى عِظَمِهِ وَهَوْلِهِ؛ قَالَ الْحَسَنُ: النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ: هِيَ اللَّوَامَةُ لِصَاحِبِهَا فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ^(٢)، فَهِيَ عَلَى هَذَا مَمْدُوحَةٌ؛ وَلِذَلِكَ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: اللَّوَامَةُ: هِيَ الْفَاجِرَةُ، اللَّوَامَةُ لِصَاحِبِهَا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ سَعْيِ الدُّنْيَا^(٣) وَأَعْرَاضِهَا، وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَحْسَنُ نَفْيُ الْقَسَمِ بِهَا، وَالنَّفْسُ فِي الْآيَةِ اسْمُ جِنْسٍ.

قال * ع^(٤): * وكل نفس متوسطة ليست بالمُطْمَئِنَّةِ وَلَا بِالْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ فَإِنَّهَا لَوَّامَةٌ فِي الطَّرَفَيْنِ، مَرَّةً تَلُومُ عَلَى تَرْكِ الطَّاعَةِ، وَمَرَّةً تَلُومُ عَلَى فَوْتِ مَا تَشْتَهِي، فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتْ خَلَصَتْ وَصَفَتْ، قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: لَتُبْعَثَنَّ، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿أَيَخْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أَي: لِلْإِحْيَاءِ وَالْبَعْثِ، وَالْإِنْسَانُ هُنَا الْكَافِرُ الْمُكَذِّبُ

(١) ينظر: «السبعة» (٦٦١)، و«الحجبة» (٣٤٣/٦)، و«إعراب القراءات» (٤١٤/٢)، و«حجة القراءات»

(٧٣٥)، و«معاني القراءات» (١٠٥/٣)، و«العنوان» (٢٠٠)، و«إتحاف» (٥٧٣/٢).

(٢) ذكره البغوي (٤٢١/٤)، وذكره ابن عطية (٤٠٢/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٤/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا.

(٣) ذكره ابن عطية (٤٠٢/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٢/٥).

بالبعث، انتهى، والبنان: الأصابع، و﴿نُسَوِّي بَنَانَهُ﴾ معناه: نتقنها سَوِيَّةً؛ قاله القتيبي، وهذا كله عند البعث، وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: المعنى: بل نحن قادرون أن نسوي بنانه، أي: نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير أو كحافر الحمار، لا يمكنه أن يعمل بها شيئاً، ففي هذا تَوَعُّدٌ ما، والقول الأول أجرى مع رصف الكلام^(١).

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ معناه: أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه؛ ليمضي فيها أبداً ركباً رأسه، ومطيعاً أمله، ومُسَوِّفاً توبته؛ قال البخاري: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يقول: سوف أتوب، سوف أعمل^(٢)، انتهى.

١٩٧ ب / قال الفخر^(٣): قوله: ﴿ليفجر أمامه﴾ فيه قولان:

الأول: ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان، لا ينزع عنه؛ فعن ابن جُبَيْر: يقدم الذنب، ويؤخَّرُ التوبة^(٤)، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله.

القول الثاني: ﴿يفجر أمامه﴾ أي: يُكذِّبُ بما أمامه من البعث والحساب؛ لأنَّ من كذب حقاً كان مفاجراً، والدليل على هذا القول قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: متى يكون ذلك؛ تكديماً له، انتهى.

وسؤال الكفار ﴿أَيَّانَ﴾ هو على معنى التكذيب والهاء، و﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى: متى، وقرأ نافع وعاصم بخلاف: ﴿بَرَقَ الْبَصَرُ﴾ - بفتح الراء^(٥) - بمعنى: لَمَعَ وصار له بريق، وحرار عند الموت، وقرأ أبو عمرو وغيره بكسرها بمعنى: شَخَصَ، والمعنى متقارب، قال

(١) أخرجه الطبري (٣٢٨/٢)، رقم: (٣٥٥٤٠ - ٣٥٥٤١)، وذكره ابن عطية (٤٠٢/٥)، وابن كثير (٤/٤٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٤/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٥٤٧/٨)، كتاب «التفسير».

(٣) ينظر: «الفخر الرازي» (١٩٢/٣٠).

(٤) أخرجه الطبري (٣٣٠/١٢)، رقم: (٣٥٥٥٥)، وذكره البغوي (٤٢١/٤)، وابن عطية (٤٠٢/٥)، وابن كثير (٤٤٨/٤).

(٥) وعاصم قرأها هكذا من رواية أبان.

ينظر: «السبعة» (٦٦١)، و«الحجة» (٣٤٥/٦)، و«معاني القراءات» (١٠٦/٣)، و«إعراب القراءات»

(٤١٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٨١/٦)، و«المنوان» (٢٠٠)، و«حجة القراءات» (٧٣٦)، و«شرح شملة»

(٦١٣)، و«إتحاف» (٥٧٤/٢).

مجاهد: هذا عند الموت^(١)، وقال الحسن: هذا في يوم القيامة^(٢)، قال أبو عبيدة وجماعة من اللغويين: الخسوف والكسوف بمعنى واحد^(٣)، وقال ابن أبي أُوَيْس: الكسوف: ذهاب بعض الضوء، والخسوف: ذهاب جميعه، وروى عروة وسفيان أن النبي ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا كَسَفَتِ الشَّمْسُ، وَلَكِنْ قُولُوا: خَسَفَتْ»^(٤) وقرأ ابن مسعود: «وَجُمِعَ^(٥) بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» واختلف في معنى الجمع بينهما فقال عطاء: يجمعان فيقذفان في النار^(٦)، وقيل: في البحر فيصيرا نار الله العظمى، وقيل: يُجْمَعُ الضَّوْءَانِ فيذهب بهما؛ قال الثعلبي: وقال علي وابن عباس: يعلان في نور الحجب^(٧)، انتهى.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْآخِرَ ۖ كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ﴾ (١٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ التَّنَجُّثُ ۚ﴾ (١١) ﴿يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۚ﴾ (١٢)

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْآخِرَ ۖ أَي: أين الفرار ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ، و﴿المستقر﴾ موضع الاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [أي]: يعلم بكل ما فعل، ١٩٨ ويجده مُحَصَّلًا، وقال ابن عباس وابن مسعود: بما قَدَّمَ في حياته، وما أَخَّرَ من سنة بعد مماته^(٨).

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ﴾ (١٤) ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَكُنَّ عَذَابُهُمْ ۖ لَا تَحْرُكُهُمْ ۖ لَإِسْكَانَكَ لَتَجَعَلَ يَوْمَ ۖ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعَقُوا قُرْآنَهُ ۚ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ (١٩)

(١) أخرجه الطبري (٣٣١/١٢)، رقم: (٣٥٥٦٣)، وذكره ابن عطية (٤٠٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٥/٦)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٠٣/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٠٣/٥).

(٤) أخرجه مسلم (٦٢٥/٢)، كتاب «الكسوف» باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٥/١٣).

(٥) هكذا في القرطبي (٦٣/١٩). وذكر ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤٠٣/٥) أنها قراءة ابن أبي عبل.

(٦) أخرجه الطبري (٣٣٢/١٢)، رقم: (٣٥٥٦٩)، وذكره البغوي (٤٢٢/٤)، وابن عطية (٤٠٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٥/٦)، وعزه لابن جرير، وابن المنذر.

(٧) ذكره القرطبي (٦٣/١٩)، وذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٣٧٧/٨).

(٨) أخرجه الطبري (٣٣٥/١٢)، رقم: (٣٥٥٩١)، (٣٥٥٩٢)، وذكره البغوي (٤٢٢/٤)، وابن عطية (٤٠٣/٥).

والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٦/٦)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود، وعزه أيضاً لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي: للإنسان على نفسه من نفسه بصيرة رقباء يشهدون عليه، وهم جوارحه وحَفَظَتُهُ^(١)، ويحتمل أن يكون المعنى: بل الإنسان على نفسه شاهد؛ ودليله قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] قال الثعلبي: قال أَبَانُ بْنُ ثَعْلَبٍ: البصيرة والْبَيِّنَةُ والشاهد بمعنى واحد انتهى، ونحوه للهروي؛ قال * ع^(٢) * : والمعنى على هذا التأويل الثاني: أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ وَفِي عَقْلِهِ وَفَطْرَتِهِ حُجَّةٌ وَشَاهِدًا مُبْصِرًا عَلَى نَفْسِهِ.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ أي: ولو اعتذر عن قبيح أفعاله، فهو يعلمها، قال الجمهور: والمعاذير هنا جمع مَعْذِرَةٍ، وقال الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ: هي الستور بلغة اليمن؛ يقولون للستر: المَعْذَارُ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ الآية، قال كثير من المفسرين، وهو في «صحيح البخاري» عن ابن عباس قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً وَكَانَ مِمَّا يُحْرِكُ شَفَتَيْهِ؛ مُحَافَةً أَنْ يَذْهَبَ عَنْهُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَتَرَلَّتِ الْآيَةُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَأَعْلَمَهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَجْمَعُهُ لَهُ فِي صَدْرِهِ^(٤).

وقوله: ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ يحتمل أن يريد وقراءته، أي: تقرأه أنت يا محمد.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: قرأه المَلَكُ الرسول عَنَّا ﴿فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ﴾، قال البخاري: ١٩٨ ب قال ابن عباس: ﴿فاتبع﴾، أي: اعمل به، وقال البخاري أيضاً قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي: تأليف بعضه إلى بعض ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ﴾ أي: ما جمع فيه، فاعمل بما أمرك، واتبته عَمَّا نهاك عنه انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ قال قتادة وجماعة: معناه: أَنْ يُبَيِّنَهُ لَكَ^(٥)، وقال البخاري: أَنْ يُبَيِّنَهُ عَلَى لِسَانِكَ.

(١) أخرجه الطبري (٣٣٦/١٢)، رقم: (٣٥٦٠١)، وذكره البغوي (٤٢٣/٤)، وابن كثير (٤٤٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٧/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحور الوجيز» (٤٠٤/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٨/١٢)، رقم: (٣٥٦١٢) عن السدي، وذكره البغوي (٤٢٣/٤)، وابن عطية (٥/٤٠٤)، والسيوطي (٤٦٧/٦)، وعزاه لابن المنذر عن الضحاك بنحوه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٧/٨ - ٥٤٨)، كتاب «التفسير» باب: سورة القيامة (٤٩٢٧)، (٥٤٩/٨)، باب: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٤٩٢٨).

(٥) ذكره ابن عطية (٤٠٥/٥)، وابن كثير (٤٤٩/٤) بنحوه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُودَ يَوْمِئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَيْ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَجُودَ (٢٤) يَوْمِئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٥) تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿ (٢٥)

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا وشهواتها؛ قال الغزالي في «الإحياء»: اعلم أن رأس الخطايا المهلكة هو حُب الدنيا، ورأس أسباب النجاة هو التجافي بالقلب عن دار الغرور، وقال رحمه الله: اعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله سبحانه في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأُنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأُنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقلاع حُب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتبهات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقِمُ الشهوات بشيء كما تنقِمُ بنار الخوف المُخْرِقة للشهوات، انتهى.

وقرأ ابن كثير^(١) وغيره: «يُحِبُّونَ» و«يَذَرُونَ» بالياء على ذكر الغائب، ولما ذكر سبحانه الآخرة، أخبر بشيء من حال أهلها فقال: «وَجُودَ يَوْمِئِذٍ نَّاصِرَةٌ» أي: ناعمة، والثُّصْرَةُ: النعمة وجمال البشرة؛ قال الحسن: وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْصُرَ وهي تنظر إلى خالقها^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ حمل جميع أهل السُّنَّةِ هذه الآية على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله عز وجل بلا تكييف ولا تحديد/ كما هو معلوم موجود، لا يشبهه ١٩٩ الموجودات، كذلك هو سبحانه مُرَيُّ لا يشبه المَرِيَّاتِ في شيء؛ فإنه ليس كمثله شيء لا إله إلا هو، وقد تقدم استيعاب الكلام على هذه المسألة، وما في ذلك من صحيح الأحاديث، والباسرة: العابسة المغمومة النفوس، والبسور: أشد الغُبُوسِ، وإنما ذكر تعالى الوجوه؛ لأنه فيها يظهر ما في النفس من سرور أو غَمٍّ، والمراد أصحاب الوجوه، والفاقرة: المصيبة التي تكسر فقار الظهر؛ وقال أبو عبيدة: هي من فَقَرْتُ [البعير] إذا وسمت أنفه بالنار^(٣).

(١) قرأ بها أبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب.

ينظر: «إعراب القراءات» (٤١٦/٢)، و«معاني القراءات» (١٠٦/٣)، و«شرح الطيبة» (٨١/٦)،

و«العنوان» (٢٠٠)، و«حجة القراءات» (٧٣٦)، و«شرح شملة» (٦١٤)، و«إتحاف» (٥٧٤/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٣/١٢) رقم (٣٥٦٥٤)، وذكره البغوي (٤٢٤/٤)، وابن عطية (٤٠٥/٥)،

وابن كثير (٤٥٠/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٠٥/٥).

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقَ ۖ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ (٢٨) وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۖ (٢٩) إِلَىٰ رِجْلِكَ يَوْمَئِذٍ السَّاقُ ۖ (٣٠)﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ...﴾ زجر وتذكير أيضاً بموطن من مواطن الهول، وهي حالة الموت الذي لا مَجِيدَ عنه، و﴿بَلَغَتْ﴾ يريد: النفس و﴿النراقي﴾ جمع تَرْقُوةٍ، وهي عظام أعلى الصدر، ولكل أحد تَرْقُوتَانِ، لكن جُمِعَ من حيث أَنَّ النفس المرادة اسمُ جنس، والنراقي هي موارد للحلاقيم، فالأمر كله كناية عن حال الحَشْرَجَةِ ونزع الموت - يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْنَا بِمَنِّهِ، وجعله لنا راحةً من كل شَرٍّ - واختُلِفَ في معنى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ فقال ابن عباس وجماعة: معناه: مَنْ يُرْقِي، وَيَطْبُ، وَيَشْفِي^(١)، ونحو هذا مما يتمناه أهل المريض، وقال ابن عباس أيضاً، وسليمانُ التَّيْمِيُّ، ومقاتل: هذا القول للملائكة، والمعنى: مَنْ يرقى بروحه، أي: يصعد بها إلى السماء أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب^(٢).

﴿وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أي: أيقن، وهذا يقين فيما لم يَقَعْ بعد؛ ولذلك اسْتَعْمِلَتْ فيه لَفْظَةُ الظن.

ب ١٩٩ / وقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال ابن المُسَيَّبِ، والحسن: هي حقيقة، والمراد: ساقا المَيِّتِ عند تكفينه، أي: لَفُّهُمَا الكَفْنُ^(٣)، وقيل: هو التفافهما من شدة المرض، وقيل غير هذا.

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمَنِّطُ ۖ (٣٣)﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ الآية: قال جمهور المتأولين: هذه الآية كلها إنما نزلت في أبي جهل؛ قال * ع^(٤) * : ثم كادت هذه الآية أَنْ تُصْرِّحَ به في قوله:

(١) ذكره ابن عطية (٤٠٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٧/٦)، وعزاه لعبد بن حميد عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٦/١٢)، رقم: (٣٥٦٨٢)، وذكره ابن عطية (٤٠٦/٥)، وابن كثير (٤٥١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٧/٦)، وعزاه لابن أبي الدنيا في ذكر الموت، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٤٨/١٢)، رقم: (٣٥٧٠٦ - ٣٥٧٠٧)، وذكره البغوي (٤٢٥/٤)، وابن عطية (٥/٤٠٦)، وابن كثير (٤٥١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٨/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٦/٥).

﴿يَتَمَطَّى﴾ فَإِنَّهَا كَانَتْ مَشِيَّتَهُ، وقوله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ تقديره: فلم يُصَدِّقْ ولم يُصَلِّ فـ«لا» في الآية: نفي لا عاطفة.

* ص * : ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ فيه دليل على أَنَّ «لا» تدخل على الماضي فتنتفيه؛ كقول الراجز: [من الرجز]

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا^(١)
انتهى.

و﴿صَدَقَ﴾ معناه: برسالة الله ودينه، وذهب قوم إلى أَنَّهُ من الصَّدَقَةِ، والأول أصوب و﴿يَتَمَطَّى﴾ معناه: يمشي المَطيَّاء، وهي مشية بتبخر، وهي مؤخوذة من المَطَا وهو الظهر؛ لأنَّهُ يَتَشَنَّى فيها، زاد * ص * : وقيل: أصله يتمطط، أي: يتمدد في مشيه ومَدَّ مَنَكِبَيْهِ، انتهى.

﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ﴾ (٢٤) ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ (٢٥) ائْتَسَبَ الْإِنْسَنَ أَنْ يُتَرَكَ سُدَى (٣٦) أَلَرَّ بِكَ تُلْفَةً مِّنْ مِّنِّي يَمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْفَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيْكَ أَنْ يُجْعَلَ لَكُلُّوْكَ (٤٠) ﴿

وقوله: ﴿أَوَّلَى لَكَ﴾: وعيد.

﴿فَأَوَّلَى﴾ وعيد ثانٍ، وكرَّر ذلك؛ تأكيداً، ومعنى ﴿أولى لك﴾ الازدجار والانتهار، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً؛ ومنه فأولى لهم طاعة، وَيُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبَّبَ أَبَا جَهْلٍ يَوْمًا فِي الْبَطْحَاءِ وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾» فنزل القرآن على نحوها^(٢)؛ وفي شعر الخنساء: [المتقارب]

(١) لأبي خراش في «الأزمية» ص: (١٥٨)، و«خزانة الأدب» (١٩٠/٧)، و«شرح أشعار الهذليين» (٣/ ١٣٤٦)، و«شرح شواهد المغني» ص: (٦٢٥)، و«لسان العرب» (١٠٤/١٢) (جسم)، و«المقاصد النحوية» (٢١٦/٤)، ولأمية بن أبي الصلت في «الأغاني» (١٣١/٤)، و«خزانة الأدب» (٤/٤)، و«لسان العرب» (٥٥٣/١٢) (لمم)، ولأمية أو لأبي خراش في «خزانة الأدب» (٢٩٥/٢)، و«لسان العرب» (٥٤٩/١٢) (لمم)، وبلا نسبة في «الإنصاف» ص: (٧٦)، و«جمهرة اللغة» ص: (٩٢)، و«الجنى الداني» ص: (٢٩٨)، و«لسان العرب» (٤٦٧/١٥) (لا)؛ و«مغني اللبيب» (١/٢٤٤).

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥٠٤/٦)، كتاب «التفسير» باب: قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ * إلى ربها ناظرة ﴿ (٢/١١٦٣٨)، والحاكم (٥١٠/٢)، وابن جرير في «تفسيره» (٣٥١/١٢) (٣٥٧٣٤) نحوه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٩/٦)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

هَمَمْتُ بِنَفْسِي كُلَّ النُّمُومِ فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا^(١)
 وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ﴾: توبيخ و﴿سُدَى﴾: معناه: مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى، ثم
 ١٢٠٠ قَرَّرَ تعالى أحوال ابن آدم في بدايته التي إِذَا تُؤْمِلْتُ لَمْ / يُنْكَرْ معها جوازُ البعث من القبور
 عاقلٌ، وَالْعَلَقَةُ القطعة من الدم.

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي: فخلق الله منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة، فسواه شخصاً
 مستقلاً، و﴿الزوجين﴾: النوعين، ثم وقف تعالى توقيفَ توبيخ بقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ
 عَلَى أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَى﴾ رُوِيَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: بَلَى، وَرُوِيَ أَنَّهُ
 كَانَ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، بَلَى»^(٢) انظر «سنن أبي داود».

(١) ينظر: البيت في «الديوان» (٨٢)، و«الدر المصون» (٦/٤٣٣).

(٢) تقدم تخريجه في أول التفسير.

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «الْإِنْسَانِ»

قِيلَ: مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ

وقال الحسن وعكرمة: منها آية مكية^(١)، وهي [قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ أَيْمَانًا أَوْ كُفُورًا﴾ والباقي مدني.

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّا الْآبَرَارَ يُشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) ﴿

[قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ...﴾ الآية، ﴿هل﴾ في كلام العرب قد تجيء^(٢) [بمعنى ﴿قد﴾؛ حكاة سيبويه، لكنها لا تخلو من تقرير، وبابها المشهور الاستفهام المَحْضُ، والتقرير أحياناً؛ قال ابن عباس: «هل» بمعنى «قد»، والإنسان يراد به آدم^(٣)، وقال أكثر المتأولين: «هل» تقرير، الإنسان: اسم جنس، أي: إذا تَأَمَّلَ كُلُّ إِنْسَانٍ نفسه علم بِأَنَّهُ قد مَرَّ حِينٌ مِنَ الدهر عظيم لم يكن فيه شيئاً مذكوراً، وهذا هو القوي أَنَّ الإنسان اسم جنس، وَأَنَّ الْآيَةَ جُعِلَتْ عبرة لكل أحد من الناس؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْخَالِقَ لَهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ.

* ص * : ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ في موضع حال من ﴿الإنسان﴾ أو في موضع صفة لـ ﴿حين﴾ والعائد عليه محذوف، أي: لم يكن فيه، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ...﴾ الآية، الإنسان هنا: اسم جنس بلا خلاف، وأمشاج معناه: أخلاط؛ قيل: هو ﴿أمشاج﴾ ماء الرجل بماء المرأة، وَنَقَلَ الْفَخْرُ أَنَّ

(١) ذكره البغوي (٤/٤٢٦)، وابن عطية (٥/٤٠٨).

(٢) سقط في: د.

(٣) ذكره ابن عطية (٥/٤٠٨).

٢٠٠ ب الأمشاج لفظ/ مفرد، وليس يُجْمَع، بدليل أنه وقع صفةً للمفرد، وهو قوله: ﴿نطفة﴾، انتهى.

﴿تَبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره بالإيجاد والكون في الدنيا، وهو حال من الضمير في ﴿خلقنا﴾ كأنه قال: مختبرين له بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ عطفُ جملة نَعَم على جملة نَعَمْ، وقيل: المعنى: فلنبتليه جعلناه سميعاً بصيراً و﴿هديناه﴾: يحتمل: أن يكون بمعنى أرشدناه، ويحتمل: أن يكون بمعنى أريناه، وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإيمان، وعبرة الثعلبي: ﴿هديناه السبيل﴾ بيّنّا له وعرفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر؛ كقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان، وقسمتهما ﴿إمّا﴾، و﴿الأبرار﴾: جمع بَارٍ؛ قال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذّر، ولا يرضون الشر^(١)، قال قتادة: نعم قوم يمزج لهم بالكافور، ويختّم لهم بالمسك^(٢)، قال الفراء: يقال إن في الجنة عيناً تسمى كافوراً.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ① يُؤْتُونَ بِالْذِّرِّ وَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ سُوءٌ مُسْتَظِيرًا ⑦ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَامَ عَلَى حَيْدٍ وَنَيْمًا وَأَسِيرًا ⑧

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ قيل: هو بدل من قوله: ﴿كافوراً﴾ وقيل: هو مفعول بقوله: ﴿يشربون﴾ أي: ماء هذه العين من كأس عطرية كالكافور، وقيل: نصب ﴿عيناً﴾ على المدح أو بإضمار «أعني».

قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ بمنزلة [يشربها]، فالباء زائدة؛ قال الثعلبي: قال الواسطي: لما اختلفت أحوالهم في الدنيا اختلفت أشربتهم في الآخرة، انتهى.

قال * ص * وقيل: الباء في ﴿بها﴾ للإلصاق والاختلاط، أي: يشرب بها عباد الله الخمر؛ كما تقول: شربت الماء بالعدل، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ معناه: يفتقونها ويقودونها حيث شاؤوا/ من منازلهم

١٢٠١

(١) ذكره ابن عطية (٤٠٩/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٧/١٢)، (٣٥٨)، رقم: (٣٥٧٦٧)، وذكره البغوي (٤٢٦/٤)، والسيوطي في «الدر المشثور» (٤٨٣/٦)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة بنحوه.

وقصورهم، فهي تجري عند كل أحد منهم، ورُدَّ بهذا الأثر، وقيل: عين في دار النبي ﷺ تفجر إلى دُور الأنبياء والمؤمنين؛ قال * ع^(١) : وهذا قول حسن، ثم وصف تعالى حال الأبرار فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: ممتدًا مُتَّصِلًا شائعًا.

وقوله تعالى: ﴿على حُبِّهِ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الطعام، وهو قول ابن عباس^(٢)، ويحتمل أن يعود على الله تعالى؛ قاله أبو سليمان الداراني^(٣).

وقوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال الحسن: ما كان أسراهم إلا مشركين؛ لأن في كل ذي كبد رطبة أجرًا^(٤).

* ت * وفي «العتبية» سُئِلَ مالك عن الأسير في هذه الآية أم مسلم هو أم مشرك، فقال: بل مشرك، وكان ببدر أسارى، فأنزلت فيهم هذه الآية؛ فقال ابن رشد: والأظهر حمل الآية على كل أسير، مسلماً كان أو كافراً، انتهى يعني: وإن كان سبب نزولها ما ذكر فهي عامة في كل أسير إلى يوم القيامة، وقال أبو سعيد الخدري: قال النبي ﷺ: ﴿مُسْكِينًا﴾ [قال:] فَقِيرًا ﴿وَتَيْمًا﴾ قال: لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال: الْمَمْلُوكُ وَالْمَسْجُونُ^(٥)، وأسند القشيري في رسالته عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ، وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسَاكِينِ، وَالْفَقَرَاءُ الصُّبْرُ هُمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٦) انتهى.

وروى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ، أَخْبِنِي مِسْكِينًا، وَأَمْنِي مِسْكِينًا، وَأَخْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا، يَا عَائِشَةُ، لَا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ، وَلَوْ بِشِقِّ بَ ٢٠١ ثَمَرَةٍ، يَا عَائِشَةُ، أَحْبِبِي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْرُبُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال أبو عيسى: هذا حديث غريب^(٧)، انتهى.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٤١٠).

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٤١٠).

(٣) ذكره ابن عطية (٥/٤١٠).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/٣٦٠)، رقم (٣٥٧٨٢)، وذكره البغوي (٤/٤٢٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٨٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه عن الحسن بنحوه.

(٥) ينظر: «الدر المنثور» (٦/٤٨٥).

(٦) ينظر: «كنز العمال» (٦/٤٦٩)، رقم: (١٦٥٨٧).

(٧) أخرجه الترمذي (٤/٥٧٧، ٥٧٨)، كتاب «الزهد» باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل

﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِ اللَّهِ لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ (١٠)
 فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى
 الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا نَذِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِي
 مِنْ فَضْلٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا
 عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٧) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمُ حَابَتْهُمْ حَبِيبَتُهُمْ لَوْلَا مَنُورًا﴾ (١٨) ﴿

أغنيائهم (٢٣٥٢)، والبيهقي (١٢/٧)، كتاب «الصدقات» باب: ما يستدل به على أن الفقير أمس حاجة من المسكين.

قال الترمذي: هذا حديث غريب - يعني: ضعيف، وهو مصطلح خاص به.
 وفي الباب من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أخرجه الحاكم (٣٢٢/٤)، وابن ماجه (٢/١٣٨١)، كتاب «الزهد» باب: مجالسة الفقراء (٤١٢٦)، والخطيب (٤/١١١) (١٧٧٠)، قال العجلوني في «كشف الخفاء» (١/٢٠٦ - ٢٠٧): رواه الترمذي، وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، قال أحبوا المساكين، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في دعائه، ورواه الطبراني عن عطاء بسند ضعيف بلفظ: «اللهم توفني إليك فقيراً، ولا توفني غنياً، واحشرنني في زمرة المساكين يوم القيامة»، وأخرجه الحاكم في «مستدركه» بزيادة «وإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة»، وقال صحيح الإسناد، ورواه البيهقي في «الشعب» عن أبي سعيد بلفظ: «يا أيها الناس لا يحملنكم العسر على أن تطلبوا الرزق من غير حله»، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول، وذكره بالزيادة المذكورة، وله شواهد، فرواه الترمذي والبيهقي في «الشعب» بسند فيه منكر عند بعضهم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم آحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين يوم القيامة»، فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال: «إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً، يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمر، يا عائشة آحبي المساكين وقربهم فإن الله يقربك يوم القيامة»، وقال: إنه غريب، ورواه الطبراني في «الدعاء» بسند رجاله ثقات عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم آحيني مسكيناً، وتوفني مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين»، ومع وجود هذه الطرق لا يحسن الحكم عليه بالوضع، وقال في «الدور» رواه الترمذي عن أنس، وابن ماجه عن أبي سعيد عن أبي عبادة، وادعى ابن الجوزي، وابن تيمية أنه موضوع، وليس كما قالوا انتهى، وقال ابن حجر في «التحفة» إن الحديث ضعيف ومعارض بما روي أنه ﷺ استعاذ من المسكنة، وفُسِّرَت المسكنة المسؤولة بسكون القلب، وفسر شيخ الإسلام زكريا هذا الحديث فقال معناه طلب التواضع والخضوع، وأن لا يكون من الجابرة المتكبرين والأغنياء المترفين، وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/٢٧٥). هذا إسناد ضعيف، أبو المبارك لا يعرف اسمه وهو مجهول وي زيد بن سنان التيمي أبو فروة ضعيف رواه أبو بكر بن أبي شيبة في «مسنده» هكذا. ورواه عبد بن حميد في «مسنده»، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا أبو خالد الأحمر فذكره بإسناده ومثته. ورواه الحاكم في «المستدرک» من طريق خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

قلت: ورواه البيهقي في «سننه الكبرى» عن الحاكم به.

وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت، ومن حديث أنس بن مالك، رواه البيهقي في «الكبرى».

ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» من طريق أبي خالد الأحمر.

وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ...﴾ الآية، قال مجاهد، وابن جبير: ما تكلموا به، ولكنه علمه الله من قلوبهم، فأنتى عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب^(١)، وَوَصَفُ الْيَوْمِ بِعَبُوسٍ تَجُوزُ، والقَمْطَرِيُّ: هو في معنى العبوس والإزبداد؛ تقول: أَقْمَطَرُ الرَّجُلُ: إذا جمع ما بين عَيْنَيْهِ. غضباً، وقال ابن عباس: يعبس الكافر يومئذ حتّى يسيل ما بين عينيه كالقَطْرَانِ^(٢)، وَعَبَّرَ ابن عباس عن القمطير بالطويل^(٣)، وَعَبَّرَ عنه غيره بالشديد؛ وذلك كله قريب في المعنى، والنضرة: جمال البشرة وذلك لا يكون إلا مع فرح النفس وقرة العين.

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عامٌ في الصبر عن الشهوات وعلى الطاعات والشدائد، وفي هذا يدخل كُلُّ ما خصص المفسرون من صوم، وفقر، ونحوه.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا...﴾ الآية، عبارة عن اعتدال هوائها وذهابِ ضَرَرِي الْحَرِّ وَالْقَرِّ، والزَّمْهَرِيرُ: أشدُّ البرد، والقطوف: جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوه، والقوارير: الزجاج.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾ يقتضي أنها من زجاج ومن فضة، وذلك متمكن؛ لكونه من زجاج في شفوهِ ومن فضة في جَوْهَرِهِ، وكذلك فضة الجنة شَفَافَةٌ، [قال القرطبي في «تذكرته»: وذلك أَنَّ لكل قوم من تراب أرضهم قَوَارِيرَ، وَأَنَّ تراب الجنة فضة، فهي قوارير من فضة؛ قاله ابن عباس^(٤)، انتهى^(٥)].

وقوله تعالى: ﴿قَدَرُواْ تَفْدِيرًا﴾ أي: على قَدَرِ رِيْهِمْ؛ قاله مجاهد^(٦)، أو على قدر الأكْفُ قاله الربيع^(٧)، وضمير ﴿قَدَرُواْ﴾ يعود إما على الملائكة، أو على الطائفين، أو على المنعمين.

(١) أخرجه الطبري (٣٦١/١٢)، رقم: (٣٥٧٨٧، ٣٥٧٨٨)، وذكره البغوي (٤٢٨/٤)، وابن كثير (٤/٤٥٥) بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦١/١٢)، رقم: (٣٥٧٨٩)، وذكره ابن عطية (٤١١/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٢/١٢)، رقم: (٣٥٨٠٠)، وذكره ابن عطية (٤١١/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٣٦٥/١٢)، رقم: (٣٥٨١٧)، وذكره ابن كثير (٤٥٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٧/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث» من طريق عكرمة، عن ابن عباس بنحوه.

(٥) سقط في: د.

(٦) أخرجه الطبري (٣٦٦/١٢)، رقم: (٣٥٨٣١)، وذكره ابن عطية (٤١٢/٥)، وابن كثير (٤٥٦/٤).

(٧) ذكره ابن عطية (٤١٢/٥)، وابن كثير (٤٥٦/٤).

وقوله سبحانه: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً﴾ «عيناً» بدل من «كأس» أو من «عين» على ١٢٠٢ القول الثاني، و«سلسيلاً» قيل: هو اسم بمعنى/ السِّلْسُ المنقاد الجرية، وقال مجاهد: حديدة الجرية^(١)، وقال آخرون: «سلسيلاً» صفة لقوله: «عيناً» و«تُسَمَّى» بمعنى تُوصَفُ وتشهر، وكونه مصروفاً مما يؤكد كونه صفة للعين لا اسماً.

وقوله تعالى: ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ قال الإمام الفخر^(٢): وفي كيفية التشبيه وجوه:

أحدها: أَنَّهُمْ شُبِّهُوا في حسنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم في أنواع الخدمة - باللؤلؤ المنثور، ولو كانوا صفّاً لَشُبِّهُوا باللؤلؤ المنظوم؛ ألا ترى أَنَّهُ تعالى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين.

الثاني: أَنَّ هذا من التشبيه العجيب؛ لأنَّ اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسنَ في المنظر؛ لوقوع شعاع بعضه على بعض.

الثالث: أَنَّهُمْ شُبِّهُوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه؛ لأنَّه أحسن وأجمل، انتهى.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُيْ خَضَرٌ وَإِسْتَبَقُوا وَطُؤًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَدْتُمْ رِجْلَهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ قال الفراء: التقدير: وإذا رأيت ما ثَمَّ رأيت نعيماً، فحذِثَ «ما» وكُرِّرَتِ الرؤية؛ مبالغة «وَمُلْكًا كَبِيرًا»: وهو أَنَّ أَدْنَاهُمْ مَنْزِلَةً يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ عَامٍ، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وخرَّجَه الترمذي، وفي الترمذي أيضاً من رواية أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً، وَتُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ كَمَا يَبْنِي الْجَابِيَةُ إِلَى صَنْعَاءَ»^(٣) انتهى، وقال سفيان: الملك الكبير هو استئذان الملائكة، وتسليمهم عليهم،

(١) أخرجه الطبري (٣٦٨/١٢)، رقم: (٣٥٨٤٣ - ٣٥٨٤٤)، وذكره البغوي (٤٣٠/٤)، وابن عطية (٤١٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٨/٦)، وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن مجاهد.

(٢) ينظر: «الفخر الرازي» (٢٢٢/٣٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٦٩٥/٤)، كتاب «صفة الجنة» باب: ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٢). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث رشدين.

وتعظيمهم لهم، قال الثعلبي: قال محمد^(١) بن علي الترمذي: يعني ملك التكوين إذا أرادوا شيئاً كان، انتهى.

* ت * : وجميع ما ذكر داخل في الملك / الكبير، وقرأ نافع وحزمة: «عَالِيَهُمْ» ٢٠٢ ب وقرأ الباقون^(٢): «عَالِيَهُمْ» بالنصب، والمعنى: فوقهم، قال الثعلبي: وتفسير ابن عباس قال: أما رأيت الرجل عليه ثياب يعلوها أفضل منها^(٣)، انتهى، وقرأ حمزة والكسائي: «خُضِرَ وَإِسْتَبْرَقَ» بالخفض فيهما^(٤)، وباقي الآية بَيِّنْ.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ٢٣ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا﴾ ٢٤ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ بِكُورَةٍ أَوْ صِيلًا﴾ ٢٥ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ ٢٦ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ...﴾ الآية تثبت للنبي ﷺ وتقوية لنفسه على أذى قريش، والآثم هنا هو الكفور، واللفظ أيضاً يقتضي نهى الإمام عن طاعة آثم من العصاة أو كفور بالله، ثم أمره تعالى بذكر ربه دأباً ﴿بكورة وأصيلاً﴾ ﴿ومن الليل﴾: بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أن يريد قول: سبحانه الله، قال ابن زيد وغيره: كان هذا فرضاً ثم نُسخ^(٥)، وقال آخرون: هو مُحْكَمٌ على وجه النذب، وقال ابن العربي في «أحكامه»: أمّا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ فإنه عبارة عن قيام الليل، وقد كان النبي ﷺ يفعله كما تقدم، وقد يحتمل أن يكون هذا خطاباً للنبي ﷺ، والمراد الجميع، ثم نُسخ عَثَا، وبقي عليه ﷺ، والأول أظهر، انتهى.

﴿إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْعَالَمَةَ وَتَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَفِيلًا﴾ ٢٧ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَنَاتَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ ٢٨ ﴿

(١) في د: مجاهد.

(٢) وقرأ بها أبان عن عاصم.

ينظر: «السبعة» (٦٦٤)، و«الحجة» (٣٥٤/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٢٢/٢)، و«معاني القراءات»

(١٠٩/٣)، و«شرح الطيبة» (٨٨/٦)، و«العنوان» (٢٠١)، و«حجة القراءات» (٧٣٩)، و«شرح شملة»

(٦١٦)، و«إتحاف» (٥٧٨/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٤١٤/٥).

(٤) ينظر: «السبعة» (٦٦٥)، و«الحجة» (٣٥٧/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٢٢/٢)، و«معاني القراءات»

(١٠٩/٢)، و«شرح الطيبة» (٨٨/٦ - ٨٩)، و«حجة القراءات» (٧٤٠)، و«شرح شملة» (٦١٦)، و«إتحاف» (٥٧٨/٢).

(٥) ذكره القرطبي (٩٧/١٩)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٣٩٣/٨)، وابن عطية (٤١٤/٥).

وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني كُفَّارَ قريشٍ ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يعني: الدنيا، واعلم أنَّ حُبَّ الدنيا رأسُ كل خطيئة، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَأَزْهَدُ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(١) رواه ابن ماجه وغيره بأسانيدَ حَسَنَةٍ، قال ابن الفاكهاني: قال القاضي أبو الوليد بن رشد: وأما الباعث على الزهد فخمسة أشياء: أحدها: أنَّها فانية شاغلة للقلوب عن التفكير في أمر الله تعالى.

١٢٠٣

والثاني: أنَّها تنقص عند الله/ درجات من ركن إليها.

والثالث: أنَّ تركها قربة من الله تعالى وعلو مرتبة عنده في درجات الآخرة.

والرابع: طول الحبس والوقوف في القيامة للحساب والسؤال عن شكر النعيم.

والخامس: رضوان الله تعالى والأمن من سخطه، وهو أكبرها؛ قال الله عز وجل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] قال ابن الفاكهاني: ولو لم يكن في الزهد في الدنيا إلا هذه الخصلة التي هي رضوان الله تعالى - لكان ذلك كافياً -، فنعوذ بالله من إيثار الدنيا على ذلك، وقد قيل: من سُمِّيَ باسم الزهد فقد سُمِّيَ بألف اسم ممدوح، هذا مع ما للزاهدين من راحة القلب والبدن في الدنيا والآخرة، فالزُّهَّادُ هم الملوك في الحقيقة، وهم العقلاء؛ لإيثارهم الباقي على الفاني، وقد قال الشافعية: لو أوصى لأعقل الناس صُرِفَ إلى الزهاد، انتهى من «شرح الأربعين حديثاً»، ولفظ أبي الحسن الماوردي: وقد قيل: العاقل مَنْ عقل من الله أمره ونهيه حتَّى قال أصحاب الشافعي فيمن أوصى بثلاث ماله: لأعقل الناس أنَّه يكون مصروفاً للزُّهَّاد؛ لأنهم انقادوا للعقل، ولم يغتروا بالأمل، انتهى، والأسر الخلقة واتساق الأعضاء والمفاصل، وعبرة البخاري: ﴿أسرهم﴾: شِدَّةُ الخلق، وكل شيء شدته من قتب أو غبيط فهو مأسور، والغبيط شيء يركبه النساء شبه المحفة، انتهى؛ قال *ع^(٢): * ومن اللفظة: الإِسَارُ، وهو القيد الذي يُشَدُّ به الأسير، ثم تَوَعَّدَهُم سبحانه بالتبديل، وفي الوعيد بالتبديل احتجاج على مُنْكَرِي البعث، أي: مَنْ هذه قدرته في الإيجاد والتبديل فكيف تتعذر عليه الإعادة؟!.

٢٠٣ ب

وقال الثعالبي: ﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ قال ابن عباس: يقول: أهلكناهم، / وجئنا بأطوعَ لله منهم، انتهى^(٣).

(١) تقدم تخریجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٥/٥).

(٣) ذكره القرطبي (٩٩/١٩).

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۚ﴾ ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۚ﴾ ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۚ﴾ ﴿٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ القول فيها كالتي في سورة المزمل.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ كلام واضح لا يفتقر إلى تفسير، جعلنا الله ممن اهتدى بأنواره، وعَمَّتْ عليه بركته في أفعاله وأقواله؛ قال الباجي: قال بعض أهل داود الطائفي: قلت له يوماً: إنك قد عرفت فأوصني، قال: قَدِمَعْتَ عيناه ثم قال: يا أخي، إنما الليل والنهار مراحلُ يرحلُها الناس مرحلةً مرحلةً، حَتَّى تنتهي بهم إلى آخر سفرهم، فَإِنْ استطعت أَنْ تُقَدِّمَ من أوَّلِ مرحلة زاداً لما بين يديك فافعل؛ فَإِنْ انقطع السفر قريب، والأمر أعجل من ذلك؛ فتزوَّد لسفرك، واَقْضِ ما أنت قاضٍ من أمرك، فكأنَّ بالأمر قد بَعَثَكَ، ثم قام وتركني، انتهى من «سنن الصالحين».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: نفي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في نفوسهم، ولا يَزُدُّ هذا وجود مالهم من الاكتساب، وقرأ عبد الله^(١): «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ معناه: يعلم ما ينبغي أَنْ ييسر عبده إليه، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه.

(١) ينظر: «الشواذ» ص: (١٦٧)، و«الكشاف» (٦٧٦/٤)، و«المحرر الوجيز» (٤١٥/٥)، و«البحر المحيط» (٣٩٣/٨).

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «الْمُرْسَلَاتِ»

[وَهِيَ] مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

وقيل: فيها من المدني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَزَكُّوْنَ﴾ قال ابن مسعود: نزلت هذه السورة ونحن مع النبي ﷺ بِحَرَاءَ... الحديث^(١).

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ① فَأَلْصَقَتْ عَصَا ② وَالنَّشْرِ نَشْرًا ③ فَأَلْفَرَقَتْ ذَرَا ④ فَأَلْمَلَقَتْ ذِكْرًا ⑤ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ⑥ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ يعني: الرياح يَتَّبِعُ بعضها بعضاً، قاله ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وقتادة^(٢)، وقيل: المرسلات: الملائكة، وقيل: جماعات الأنبياء، و﴿عُرْفًا﴾ معناه: إفضالاً من الله تعالى، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿عُرْفًا﴾ أي: متتابعة، ويحتمل أن يريد/ بالأمر المعروف، ويحتمل أن يكون ﴿عُرْفًا﴾ بمعنى، والمرسلات: الرياح التي يعرفها الناس ويعهدونها، ثم عَقَّبَ بذكر الصنف الضَّارِّ منها، وهي العاصفات الشديدة القاصفة للشجر وغيره، واخْتَلَفَ في قوله: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ فقال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي الرياح تَنْشُرُ رحمة الله ومطره^(٣)، وقيل: الملائكة، وقيل غير هذا، والفارقات قال ابن عباس وغيره: هي الملائكة تَفَرِّقُ بين الْحَقِّ

(١) ذكره ابن عطية (٤١٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩١/٦)، وعزاه للحاكم، وصححه ابن مردويه عن ابن مسعود بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٣٧٧/١٢)، رقم: (٣٥٨٨٠ - ٣٥٨٨١ - ٣٥٨٨٢ - ٣٥٨٨٣ - ٣٥٨٨٤ - ٣٥٨٨٥ - ٣٥٨٨٨)، وذكره ابن عطية (٤١٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٢/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العبيدين عن ابن مسعود، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٨٠/١٢)، رقم: (٣٥٩١٠، ٣٥٩١٤، ٣٥٩١٧)، وذكره البغوي (٤٣٢/٤)، وابن عطية (٤١٧/٥).

والباطل والحلال والحرام^(١)، وقيل: هي آيات القرآن، وأمّا الملقيات ذكرأ فهي في قول الجمهور الملائكة، وقال آخرون: هي الرسل، والذكر: الكتب المنزلة والشرائع ومضمناتها، والمعنى: أنّ الذكر يلقي بإعذار وإنذار.

﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (٨) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ﴾ (٩) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ﴾ (١٠) ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ (١١) ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ﴾ (١٢) ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ (١٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ (١٤) ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٥) ﴿

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ هو الجواب الذي وقع عليه القسم، والإشارة إلى البعث وأحوال القيامة، والطُّمُسُ محو الأثر، فطمس النجوم: ذهاب ضوءها، وفرج السماء: هو بانفطارها وانشقاقها.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ أي: جُمِعَتْ لميقات يوم معلوم، وقرأ أبو عمرو وحده^(٢): «وَقُنْتُ» والواو هي الأصل؛ لأنها من الوقت، والهمزة بدل؛ قال الفراء: كل واو انضمت وكانت ضميتها لازمة، جاز أن تُبدَل منها همزة، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ﴾ تعجيب وتوقيف على عظم ذلك اليوم وهوله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ يعني: بين الخلق في منازلتهم وحسابهم ومنازلهم من جنة أو نار، ومن هذه الآية انتزع القضاة الآجال في الحكومات؛ ليقع فصل القضاء عند تمامها، ثم عظمَ تعالى يومَ الفصل بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ على نحو قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] وغير ذلك، ثم أثبت الويل للمُكَذِّبِينَ، والويل: هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرء، ويُرْوَى أَنَّهُ وادٍ في جهنم.

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾ (١٧) ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (١٨) ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٩) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٢١) ﴿إِلَّا قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢٢) ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٤) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ (٢٦) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا شَهِينًا وَسَاقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾ (٢٧) ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٨) ﴿أَنطَلِقُوا إِلَيَّ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) ﴿أَنطَلِقُوا إِلَيَّ غُلِيٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠) ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِيبِ﴾ (٣١) ﴿إِنَّمَا تَرَىٰ يَشْكُرُ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) ﴿كَأَنَّهُ جُمُلٌ صُمْرٌ﴾ (٣٣) ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٤) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنِدُونَ﴾

(١) أخرجه الطبري (٣٨١/١٢)، رقم: (٣٥٩٢٥) بنحوه، وذكره البيهقي (٤٣٢/٤)، وابن عطية (٥/

٤١٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٢/٦)، وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «السبعة» (٦٦٦)، و«الحجة» (٣٦٤/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٢٨/٢)، و«معاني القراءات»

(١١٢/٣)، و«شرح الطيبة» (٩٢/٦)، و«المنوان» (٢٠٢)، و«حجة القراءات» (٧٤٢)، و«شرح شعلة»

(٦١٧)، و«إتحاف» (٥٨٠/٢).

﴿٣٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

٢٠٤ ب وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ تُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ...﴾ / الآية، قرأ الجمهور: «تُنْبِئُهُم» - بضم العين - على استئناف الخبر، ورُوِيَ عن أبي (١) عمرو: «تُنْبِئُهُم» بجزم العين؛ عطفًا على «نهلك» وهي قراءة الأعرج، فَمَنْ قرأ الأولى جعل الأولين الأَمَمَ التي تقدمت قريشاً بأجمعها، ثم أخبر أنه يتبع الآخرين من قريش وغيرهم سنن أولئك إذا كفروا وسلكوا سبيلهم، وَمَنْ قرأ الثانية جعل الأولين قَوْمَ نوح وإبراهيم وَمَنْ كان معهم، والآخرين قوم فرعون وكل مَنْ تأخَّرَ وَقَرُبَ من مُدَّةِ النبي ﷺ ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: في المستقبل، فیدخل هنا قريش وغيرها، وأما تكرار قوله تعالى: ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة فقليل: ذلك لمعنى التأكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاء الوعيد على التكذيب بذلك الذي في الآية، والماء المهيئ: معناه الضعيف، والقرار المكين: الرَّحِمُ وَبَطْنُ المرأة، والقدر (٢) المعلوم: هو وقت الولادة [ومعناه] معلوم عند الله، وقرأ نافع والكسائي: «فَقَدَّرْنَا» - بتشديد الدال -، والباقون بتخفيفها، وهما بمعنى من القدرة والقدر ومن التقدير والتوقيت.

* ت * : وفي كلام * ع * : تلفيف، وقال غيره: فَقَدَّرْنَا بالتشديد من التقدير وبالتخفيف من القدرة، وهو حسن.

وقوله: ﴿القادرون﴾ يَرْجُحُ قراءة الجماعة إِلَّا أَنَّ ابن مسعود رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ فَسَّرَ «القادرون» بالمقدرين، والكِفَاتُ: الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع؛ تقول: كفت الرجل شعره إذا جمعه بخرقه، والأَرْضُ تكفت الأحياء على ظهرها، وتكفَّتْ الأموات في بطنها، وَخَرَجَ الشَّعْبِيُّ إِلَى جنازة فنظر إلى الجبَّانة فقال: هذه كفات الموتى، ثم نظر إلى البيوت فقال: وهذه كفات الأحياء.

١٢٠٥ قال/ * ع * (٣): * : ولما كان القبر كفاتاً كالبيت، قُطِعَ من سَرَقَ منه، والرواسي: الجبال، والشوامخ: المرتفعة، والفرات: الصافي العذب، والضمير في قوله: ﴿انْطَلِقُوا﴾

(١) وقرأ بها الأعرج كما في «المحتسب» (٣٤٦/٢).

وينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٤١٨/٥)، و«البحر المحيط» (٣٩٧/٨)، و«الدر المصون» (٤٥٦/٦).

(٢) ينظر: «السبعة» (٦٦٦)، و«الحجة» (٣٦٥/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٢٨/٢)، و«شرح الطيبة» (٦/٩٣)، و«العنوان» (٢٠٢)، و«حجة القراءات» (٧٤٣)، و«شرح شعلة» (٦١٧)، و«إتحاف» (٥٨١/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤١٩/٥).

هو للمُكَذِّبِينَ الذين لهم الويل، ثم يَبَيِّنُ الْمُنْطَلَقَ إِلَيْهِ؛ قال عطاء: الظل الذي له ثلاث شعب هو دُخَانُ جَهَنَّمَ^(١)، وقال ابن عباس: هذه المخاطبة تقال يومئذ لِعَبْدَةِ الصليب^(٢) إذا اتَّبَعَ كُلُّ أَحَدٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ، فيكون المؤمنون في ظل الله ولا ظل إلا ظله، ويقال لِعَبْدَةِ الصليب: انطلقوا إلى ظِلِّ مَعْبُودِكُمْ، وهو الصليب له ثلاث شعب، ثم نفى تعالى عنه محاسن الظل، والضميرُ في «إِنَّهَا» لجهنم «تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ» أي: مثل القصور من البنيان؛ قاله ابن عباس وجماعة من المفسرين^(٣)، وقال ابن عباس أيضاً: القصر خشب كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَدْخِرُهُ لِلشَّتَاءِ^(٤)، وقرأ ابن عباس^(٥): «كَالْقَصْرِ» - بفتح الصاد - جمع قَصْرَةٍ وهي أعناق النخل والإبل، وقال ابن عباس: جذور النخل^(٦)، واخْتَلَفَ فِي الْجَمَالَاتِ: فقال جمهور من المفسرين: هي جمع جَمَالٍ؛ كرجال ورجالات، وقال آخرون: أراد بِالضُّفْرِ السود، وقال جمهور الناس: بل الصفر: الفاقعة؛ لَأَنَّهَا أَشْبَهَ بِلَوْنِ الشَّرِّ، وقال ابن عباس: الجمالات: حبال السفن، وهي الحبال العظام إذا جُمِعَتْ مستديرة بعضها إلى بعض^(٧)، وقرأ ابن عباس^(٨): «جُمَالَةٌ» - بضم الجيم - من الجملة لا من الجمل، ثم

(١) ذكره ابن عطية (٤١٩/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤١٩/٥ - ٤٢٠).

(٣) أخرجه الطبري (٣٨٨ - ٣٨٧/١٢)، رقم: (٣٥٩٦٣ - ٣٥٩٦٤ - ٣٥٩٦٥)، وذكره البغوي (٤٣٤/٤)، وابن عطية (٤٢٠/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٣٨٨/١٢)، رقم: (٣٥٩٦٦)، وذكره البغوي (٤٣٤/٤)، وابن عطية (٤٢٠/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٩٥/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، والبخاري، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم عن عبد الرحمن بن عباس عن ابن عباس بنحوه.

(٥) وقرأ بها سعيد بن جبيرة. ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦٧)، و«المحتسب» (٣٤٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٢٠/٥)، و«البحر المحيط» (٣٩٨/٨)، وزاد نسبتها إلى مجاهد، والحسن، وابن مقسم. وهي في «الدر المصون» (٤٥٨/٦).

(٦) أخرجه الطبري (٣٨٨/١٢)، رقم (٣٥٩٧١)، وذكره ابن عطية (٤٢٠/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٩٥/٦)، وعزاه لسعيد بن منصور عن ابن عباس بنحوه.

(٧) أخرجه الطبري (٣٩٠/١٢)، رقم: (٣٥٩٨٣ - ٣٥٩٨٤ - ٣٥٩٨٥)، وذكره البغوي (٤٣٥/٤)، وابن عطية (٤٢٠/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٩٤/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، والبخاري، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم عن عبد الرحمن بن عباس عن ابن عباس بنحوه.

(٨) وقرأ بها أبو حيوة، والسلمي، والأعمش، وأبو بحرية، وابن أبي عتبة، ورويس. ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٤٢٠/٥)، و«البحر المحيط» (٣٩٨/٨)، و«المحتسب» (٣٤٧/٢)، و«الدر المصون» (٤٥٩/٦).

م خاطب تعالى نبيه - عليه السلام - بقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ...﴾ الآية، وهذا في موطنٍ خاص إذ يومُ القيامة هو موطنٌ.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي ظُلُمٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفُورَكِهِمْ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

وقوله تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم...﴾ مخاطبة للكفار يومئذ، ثم وقفهم بقوله: ﴿فإن كان لكم كيد فكيديهم﴾ أي: إن كان لكم حيلة أو مكيدة تُنجيكم فافعلوها، ٢٠٥ ب ثم ذكر سبحانه حالة المتقين وما أعد لهم، والظلال في الجنة: عبارة عن/ تكاثف الأشجار وجودة المباني وإلا فلا شمس تؤذي هناك حتى يكون ظلٌ يُجيرُ من حرها.

﴿كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ﴾ (٤٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

وقوله تعالى: ﴿كلوا وتمتعوا﴾ استئناف خطاب لقريش على معنى: قل لهم يا محمد، وهذه صيغة أمر معناها التهديد والوعيد، ومن جعل هذه الآية مدنية قال هي في المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ قال قتادة والجمهور^(١)، هذه حال كفار قريش في الدنيا؛ يدعوهم النبي ﷺ فلا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة، وقيل: هي حكاية حال المنافقين في الآخرة يوم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون؛ على ما تقدم؛ قاله ابن عباس وغيره^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ يؤيد أن الآية كلها في قريش، والمراد بالحديث هنا: القرآن، ورُوي عن يعقوب^(٣) أنه قرأ: «تؤمنون» بالتاء من فوقٍ على المواجهة، ورُوي عن ابن عامر.

(١) ذكره ابن عطية (٤٢١/٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ورويت عن ابن عامر.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٤٢٢/٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّبَاِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصل «عم»: «عن ما» ثم أذغمت النون بعد قلبها [في الميم لاشتراكهما في الغنة] فبقي «عما» في الخبر وفي الاستفهام، ثم حذفوا الألف في الاستفهام فرقاً بينه وبين الخبر، ثم من العرب من يخفف الميم فيقول: «عم»، وهذا الاستفهام بـ«عم» استفهام توقيف وتعجيب، و﴿النبي العظيم﴾ قال ابن عباس وقتادة: هو الشرع الذي جاء به محمد ﷺ^(١)، وقال مجاهد: هو القرآن^(٢) خاصة، وقال قتادة أيضاً: هو البعث من القبور^(٣)، والضمير في: ﴿يتساءلون﴾ لكفار قريش ومن نحا نحوهم، وأكثر النحاة أن قوله: ﴿عن النبي العظيم﴾ متعلق بـ﴿يتساءلون﴾، وقال الزجاج: الكلام تام في قوله: ﴿عم يتساءلون﴾ ثم كان مقتضى القول/ أن يجيب مجيب فيقول: يتساءلون عن النبا ١٢٠٦ العظيم، وله أمثلة في القرآن اقتضاها إيجاز القرآن وبلاغته، واختلافهم هو شك بعض وتكذيب بعض، وقولهم: سحر وكهانة إلى غير ذلك من باطلهم.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوَلَّى كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ رد على الكفار في تكذيبهم ووعيد لهم في المستقبل، وكرّر عليهم الزجر والوعيد تأكيداً، والمعنى: سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثم وقفهم تعالى ودلهم على آياته، وغرائب مخلوقاته، وقدرته التي توجب للناس فيها الإفراز بالبعث والإيمان بالله تعالى، * ت * وفي ضمن ذلك تعديد نعمه سبحانه التي يجب

(١) ذكره ابن عطية (٤٢٣/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤٢٣/٥)، والبغوي (٤٣٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٢/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٨/٦) بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٩٦/١٢)، (٣٦٠٠)، وذكره ابن عطية (٤٢٣/٥)، والبغوي (٤٣٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٢/٤).

شكرها، والمهاد: الفراش الممهّد، وشبه الجبال بالأوتاد؛ لأنها تمنع الأرض أن تَمِيد بهم.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِإِسَاءَ ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَبَّتْ أَلْفَاقًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِلظَّالِمِينَ مَنَاقِبًا ۝٢٢ لِيَشِيبَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣﴾

﴿وخلقناكم أزواجًا﴾ أي: أنواعاً، والسُّبَاتُ: السُّكُونُ، وَسَبَّتَ الرجلُ: معناه استراح، وَرَوَيْنَا فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرِ [اللَّهِ] طَاهِرًا فَيَتَعَارَى مِنَ اللَّيْلِ، فَيَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ»؛ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ بَعْضِ آلِ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ: كَانَ فِرَاشُ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوًا مِمَّا يَوْضَعُ الْإِنْسَانُ فِي قَبْرِهِ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ عِنْدَ رَأْسِهِ، انْتَهَى، وَ﴿لِبَاسًا﴾ مُصَدَّرٌ، وَكَأَنَّ اللَّيْلَ كَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ يَغْشَى الْأَشْخَاصَ، فَهِيَ تَلْبِسُهُ وَتَتَدَرَّعُهُ، وَ﴿النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ عَلَى حَذْفِ مضافٍ، أَوْ عَلَى النَّسَبِ، وَالسَّبْعُ الشِّدَادُ: السَّمَوَاتُ، وَالسَّرَاجُ: الشَّمْسُ، وَالْوَهَّاجُ: الْحَارُّ الْمُضْطَرِّمُ الْإِتْقَادِ الْمُتَعَالِي اللَّهَبِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: «الْمُعْصِرَاتِ» السَّحَابُ الْقَاطِرَةُ^(١)، وَهُوَ مَأْخُودٌ مِنَ الْعَصْرِ؛ لِأَنَّ السَّحَابَ يَنْعَصِرُ فَيُخْرِجُ/ مِنْهُ الْمَاءَ، وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَالتَّجَّاجُ: السَّرِيعُ الْإِنْدِفَاعِ، كَمَا يَنْدَفِعُ الدَّمُ مِنْ عُرُوقِ الذَّبِيحَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ وَقَدْ قِيلَ لَهُ مَا أَفْضَلُ الْحَجِّ؟ فَقَالَ: «الْعَجُّ وَالتَّجُّ»^(٢) أَرَادَ التَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالِدَعَاءِ

(١) أخرجه الطبري (٣٩٩/١٢) (٣٦٠٢٢)، وذكره ابن عطية (٤٢٤/٥)، والبخاري (٤٣٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٢/٤) بنحوه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٠/٣)، كتاب «الحج» باب: ما جاء في فضل التلبية والنحر. (٨٢٧)، وابن ماجه (٩٧٥/٢)، كتاب «المناسك» باب: رفع الصوت بالتلبية (٢٩٢٤)، والبيهقي (٤٢/٥ - ٤٣)، كتاب «الحج» باب: رفع الصوت بالتلبية، والحاكم في «المستدرک» (٤٥٠/١ - ٤٥١) عن أبي بكر الصديق. قال الترمذي: حديث أبي بكر حديث غريب لا نعرفه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وفي الباب من حديث عبد الله بن عمر: أخرجه الترمذي (٢٢٥/٥)، كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة آل عمران رقم: (٢٩٩٨)، وابن ماجه (٩٦٧/٢)، كتاب «المناسك» باب: ما يوجب الحج، رقم: (٢٨٩٦)، والدارقطني (٢١٧/٢)، كتاب «الحج» رقم: (١٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/٣٣٠)، كتاب «الحج» باب: الرجل يطيق المشي.

قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه من حديث ابن عمر إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي، وقد تكلم بعض أهل الحديث في يزيد من قبل حفظه.

الْجَهِيرِ، وَذُنُجِ الْهَذِي، و﴿الْفَافَا﴾ أي: مُلْتَفَّةُ الْأَغْصَانِ وَالْأَوْرَاقِ، و﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْأَفْوَاجُ: الْجَمَاعَاتُ، يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا، «وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ» بِتَشْدِيدِ التَّاءِ قِرَاءَةٌ نَافِعٍ وَأَبِي عَمْرٍو وَابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامَرٍ، وَالْبَاقُونَ دُونَ تَشْدِيدِ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ قيل معناه: تَتَشَقَّقُ حَتَّى يَكُونَ فِيهَا فُتُوحٌ كَالْأَبْوَابِ فِي الْجُدُرَاتِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا تَتَقَطَّعُ السَّمَاءُ قِطْعًا صَغَارًا حَتَّى تَكُونَ كَالْوَلَحِ الْأَبْوَابِ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَحْسَنُ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: تَتَفْتَحُ فِي السَّمَاءِ أَبْوَابٌ لِلْمَلَائِكَةِ مِنْ حَيْثُ يَنْزِلُونَ وَيَصْعَدُونَ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سُرَابًا﴾ عبارةٌ عَنْ تَلَاثِيهَا بَعْدَ كَوْنِهَا هَبَاءً مُنْبَثًا، و﴿مِرْصَادًا﴾: مَوْضِعُ الرِّصْدِ، وَقِيلَ: ﴿مِرْصَادًا﴾ بِمَعْنَى رَاصِدٍ، وَالْأَحْقَابُ: جَمْعُ حُقْبٍ وَهِيَ الْمُدَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الدَّهْرِ غَيْرَ مَحْدُودَةٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عَمْرٍو الْحُقْبُ: ثَمَانُونَ سَنَةً^(٢). وَقَالَ أَبُو أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي هَذَا، وَاللَّازِمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَلْبَثُونَ أَحْقَابًا، كُلَّمَا مَرَّ حُقْبٌ جَاءَ غَيْرُهُ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ، نَجَانَا اللَّهُ مِنْ سَخَطِهِ، قَالَ الْحَسَنُ: لَيْسَ لِلْأَحْقَابِ عِدَّةٌ إِلَّا الْخُلُودُ فِي النَّارِ^(٣).

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) إِلَّا حَيْمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِمَّنْ رَزَقَهُ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا...﴾ الآية، قال الجمهور: البردُ في الآية مَسُّ الْهَوَاءِ الْبَارِدِ، أي: لَا يَمْسُهُمْ مِنْهُ مَا يُسْتَلَذُّ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ: الْبَرْدُ فِي الْآيَةِ النَّوْمُ^(٤)،

(١) ينظر: «السبعة» (٦٦٨)، و«الحجة» (٣٦٨/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٣١/٢)، و«معاني القراءات» (١١٦/٦)، و«العنوان» (٢٠٢)، و«حجة القراءات» (٧٤٥)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٥٨٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٤/١٢) (٣٦٠٥٣) عن ابن عباس، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤٦٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٢/٦) عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٥/١٢) (٣٦٠٥٨)، وذكره البغوي (٤٣٨/٤)، وابن عطية (٤٢٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٤/٤).

(٤) ذكره البغوي (٤٣٨/٤)، وابن عطية (٤٢٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٤/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٣/٦).

١٢٠٧ والعَرَبُ تُسَمِّيهِ/ بذلك لأنه يُبَرِّدُ سورةَ الْعَطَشِ، وقال ابن عباس: البردُ الشرابُ البارد المستلذ^(١)، وقال قتادة وجماعة: الْعَسَاقُ: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَفَاقًا﴾ معناه لأعمالهم وكفرهم، و﴿لا يرجون﴾ قال أبو عبيدة وغيره معناه: لا يخافون، وقال غيره: الرجاء هنا على بابهِ^(٣)، و﴿كذابًا﴾ مصدر، لغةً فصيحَةً يَمَانِيَّةٌ، وعن ابن عمر قال: ما نزلت في أهل النار آية أشد من قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾^(٤) ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ، والحدائق: هي البساتين عليها حلق وحظائر وجدرات، في البخاري: ﴿وكواعب﴾ أي: نواهد، انتهى، والدّهاق: المُتْرَعَة؛ فيما قال الجمهور، وقيل: الصافية، وقال مجاهد: متتابعة^(٥)، وعبارة البخاري وقال ابن عباس: ﴿دهاقًا﴾: ممتلئة، انتهى^(٦)، و﴿كذابًا﴾: مصدر وهو الكذب.

وقوله: ﴿عطاء حسابًا﴾ أي: كافياً؛ قاله الجمهور من قولهم، أَحَسَبَنِي هَذَا الأَمْرُ، أي: كَفَانِي، ومنه حَسَبِي اللّهُ، وقال مجاهد: ﴿حسابًا﴾ معناه: بتَقْصِيطٍ، فَالْحِسَابُ عَلَى هَذَا بِمَوَازِنَةِ أَعْمَالِ الْقَوْمِ؛ إذ منهم الْمُكْثِرُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْمُقِلُّ وَلِكُلِّ بِحَسَبِ عَمَلِهِ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير للكفار، أي: لَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَفْضَالِهِ وَإِجْمَالِهِ سبحانه أَنْ يَخَاطَبُوهُ بِمَعْذَرَةٍ وَلَا غَيْرِهَا؛ وهذا أيضاً في موطنٍ خاص.

﴿يَوْمَ يَوْمُ الرُّجُ وَالْمَلِكَةِ صَفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ

(١) ذكره ابن عطية (٤٢٧/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٦/١٢) (٣٦٠٦٩)، وذكره ابن عطية (٤٢٧/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٦٤) بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٩/١٢) (٣٦٠٩١) عن قتادة، وذكره ابن عطية (٤٢٧/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٤١٠/١٢) (٣٦٠٩٤) بنحوه عن عبد الله بن عمرو، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٦٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٤/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن الحسن بن دينار.

(٥) أخرجه الطبري (٤١٢/١٢) (٣٦١٢١)، وذكره البغوي (٤٣٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٦٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٥/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري (٤١١/١٢) (٣٦١٠٩)، وذكره البغوي (٤٣٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٦٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٥/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري (٤١٣/١٢) (٣٦١٢٦)، وذكره ابن عطية (٤٢٨/٥).

الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا ﴿٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح﴾ اختُلف في الروح المذكور هنا فقال الشعبي والضحاك: هو جبريل - عليه السلام^(١) -؛ وقال ابن مسعود: هو ملك عظيم أكبر الملائكة خَلَقَهُ يَسْمَى الرُّوح^(٢)، وقال ابن زيد^(٣): هو القرآن، وقال مجاهد: الروح خُلِقَ على صورة بني آدم يأكلون ويشربون^(٤)، / وقال ابن عباس عن النبي ﷺ: «الرُّوحُ خَلِقَ غَيْرَ الْمَلَائِكَةِ ب ٢٠٧ هُمْ حَفَظَةٌ لِلْمَلَائِكَةِ كَمَا الْمَلَائِكَةُ حَفَظَةٌ لَنَا»^(٥)، وقيل الروح اسم جنس لأرواح بني آدم، والمعنى: يوم تقوم الأرواح في أجسادها إثر البعث، ويكون الجميع من الإنس والملائكة صفاً ولا يتكلم أحد منهم هيئةً وفزعاً إلا مَنْ أذن له الرحمن مِنْ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ؛ وكان أهلاً أَنْ يقول صواباً في ذلك الموطن، وقال البخاري: ﴿صواباً﴾: حقاً في الدنيا وعَمِلَ به، انتهى، وفي قوله: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ وعدٌ ووعدٌ وتحريضٌ، والعذاب القريب: هو عذاب الآخرة، إذ كُلُّ آتٍ قريبٌ، وقال أبو هريرة وعبدُ الله بن عمر: إن الله تعالى يُخَضِّرُ البهائم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيقتصر لبعضها من بعض، ثم يقول لها بَعْدَ ذَلِكَ: كوني تراباً فيعود جميعها تراباً؛ فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾^(٦)

(١) أخرجه الطبري (٤١٥/١٢) (٣٦١٣٦) (٣٦١٣٧)، وذكره البغوي (٤٤٠/٤)، وابن عطية (٤٢٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٦/٦)، وعزه لعبد بن حميد وأبي الشيخ عن الضحاك.

(٢) أخرجه الطبري (٤١٥/١٢) (٣٦١٣٣)، (٣٦١٣٤) عن ابن عباس بنحوه، وذكره البغوي (٤٤٠/٤)، وابن عطية (٤٢٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٦/٦)، وعزه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (٤١٦/١٢) (٣٦١٤٧) عن ابن زيد عن أبيه، وذكره ابن عطية (٤٢٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٥/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٤١٥/١٢) (٣٦١٣٨)، وذكره البغوي (٤٤٠/٤)، وابن عطية (٤٢٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٥/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٥/٦)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن مجاهد.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٥/٦)، وعزه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه.

(٦) أخرجه الطبري (٤١٨/١٢) عن عبد الله بن عمرو برقم: (٣٦١٦٠)، وعن أبي هريرة برقم: (٣٦١٦١) بنحوه، وذكره البغوي (٤٤٠/٤) عن عبد الله بن عمرو، وابن عطية (٤٢٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٧/٦)، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث والنشور» عن أبي هريرة.

* قلت *: وَأَعْلَمَ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَى حَدِيثٍ صَحِيحٍ فِي عَوْدِهَا تَرَابًا، وَقَدْ نَقَلَ الشَّيْخُ [أَبُو الْعَبَّاسِ الْقَسْطَلَانِيُّ عَنْ] الشَّيْخِ أَبِي الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الرَّجَالِ إِنكَارَ هَذَا الْقَوْلِ، وَقَالَ: مَا نُفِثَ رَوْحُ الْحَيَاةِ فِي شَيْءٍ فَقَنِي بَعْدَ وَجُودِهِ، وَقَدْ نَقَلَ الْفَخْرُ هُنَا عَنْ قَوْمٍ بَقَاءَهَا وَأَنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ إِذَا انْتَهَتْ مَدَّةُ إِعْرَاضِهَا جَعَلَ اللَّهُ كُلَّ مَا كَانَ مِنْهَا حَسَنَ الصُّورَةِ ثَوَابًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَا كَانَ قَبِيحَ الصُّورَةِ عِقَابًا لِأَهْلِ النَّارِ، انْتَهَى، وَالْمَعْوَلُ عَلَيْهِ فِي هَذَا: النُّقْلُ فَإِنَّ صَحَّ فِيهِ شَيْءٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَجَبَ اغْتِقَادُهُ وَصِيرَ إِلَيْهِ، وَإِلَّا فَلَا مَدْخَلَ لِلْعَقْلِ هُنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



/ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّيِّحَاتُ سَيْحًا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيِّقَاتُ سَيْقًا﴾ (٤)
﴿فَالْمُدْرَاتُ أَمْرًا﴾ (٥) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ (٦) ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادَةُ﴾ (٧) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) ﴿أَبْصَرُهَا﴾
﴿خَمِصَةٌ﴾ (٩)

قوله عز وجل: ﴿والنازعات غرقًا﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: ﴿النازعات﴾: الملائكة، تنزِعُ نفوسَ بني آدم^(١)، و﴿غرقًا﴾ على هذا القول إما أن يكونَ مصدرًا بمعنى الإغراقِ والمبالغةِ في الفعل، وإما أن يكونَ كما قال علي وابن عباس: تُغْرِقُ نفوسَ الكفرة في نار جهنم^(٢)، وقيل غيرُ هذا، واختلفَ في ﴿الناشِطَاتُ﴾ فقال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكةُ تنشِطُ النفوسَ عند الموتِ، أي: تَحُلُّهَا كَحَلِّ الْعِقَالِ، وَتَنْشِطُ بِأَمْرِ اللَّهِ إِلَى حَيْثُ شَاءَ^(٣)، وقال ابن عباس أيضًا: الناشطاتُ النفوسُ المؤمِنَةُ تَنْشِطُ عِنْدَ الْمَوْتِ لِلخروجِ^(٤)، * ت * زاد الشعلبيُّ عنه: وذلك أنه ليسَ مؤمنٌ يَحْضُرُهُ الموتُ إِلَّا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ فَيَرى فيها أَشْبَاهًا مِنْ أَهْلِهِ وَأَزْوَاجِهِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَهُمْ يَدْعُونَهُ إِلَيْهَا فَتَنْفُسُهُ إِلَيْهِمْ نَشِيطَةٌ أَنْ تَخْرُجَ فَتَأْتِيَهُمْ، انتهى، وقيل غيرُ هذا واختلفَ في ﴿السَّابِحَاتُ﴾ هنا فقيل: هي النجومُ، وقيل: هي الملائكةُ؛ لِأَنَّهَا تَتَّصِرُفُ فِي الْآفَاقِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وقيل: هي الخيلُ، وقيل: هي السفنُ، وقيل: هي الحيتانُ ودوابُّ الْبَحْرِ، واللَّهِ أَعْلَمُ، واختلفَ في

(١) أخرجه الطبري (٤٢٠/١٢) عن عبد الله برقم (٣٦١٦٦)، وذكره البغوي (٤٤١/٤)، وابن عطية (٥/٤٣٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٨/٦)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٣٠/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٦٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٠٨)، وعزاه لابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤٢١/١٢) عن ابن عباس، برقم: (٣٦١٧٨)، وذكره ابن عطية (٤٣٠/٥).

(٤) ذكره البغوي (٤٤١/٤)، وابن عطية (٤٣١/٥).

﴿السابقات﴾، فقليل هي الملائكة، وقيل: الرياح^(١)، وقيل: الخيل، وقيل: الثُجُوم، وقيل: المَنَيا تَسْبِقُ الآمالَ، وأما ﴿المدبرات﴾ فهي الملائكة قولاً واحداً فيما علمت، تدبر الأمور التي سخرها الله لها وصرفها فيها؛ كالرياح والسحاب، وغير ذلك، و﴿الرافقة﴾ ٢٠٨ ب النفخة الأولى، و﴿الرادفة﴾ النفخة الأخيرة، وقال ابن زيد: / ﴿الرافقة﴾: الموت، و﴿الرادفة﴾: الساعة^(٢)، وفي «جامع الترمذي» عن أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ: إِذَا ذَهَبَ ثُلَاثُ اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَذْكُرُوا اللَّهَ، أَذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ، تَتْبُعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، [جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ] الحديث^(٣)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، انتهى، وقد أتى به * ع^(٤) * هنا وقال: إِذَا ذَهَبَ رُبُعُ اللَّيْلِ، والصواب ما تقدم، ثم أخبر تعالى عن قلوب تجف [في] ذلك اليوم، أي: تزتعد خوفاً وقرقاً من العذاب، واختلِفَ في جواب القسم: أين هو؟ فقال الزجاج والفراء: هو محذوفٌ دلَّ عليه الظاهرُ تقديره: لَتَبَعُنَّ ونحوه، وقال آخرون: هو موجودٌ في جملة قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة﴾ كأنه قال لَتَجِفَّنَّ قلوب قوم يوم كذا.

﴿يَقُولُونَ أَأَنْتَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظَمًا خِجْرَةً﴾ (١١) ﴿قَالُوا يَلَكُ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٢) ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طَوًى﴾ (١٦) ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَى﴾ (١٧) ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾ (١٨) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (١٩) ﴿فَأَرَاهُ آيَةَ الْكِبَرَى﴾ (٢٠) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ (٢٢) ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٢٤) ﴿فَأَنذَرَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٢٦) ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَعْتَكُمْ فَشَوَّهَا﴾ (٢٨) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يقولون أننا لمردودون في الحافرة﴾ حكاية حالهم في الدنيا، والمعنى: هم الذين يقولون، و﴿الحافرة﴾: قال مجاهد والخليل: هي الأرض، حافرة بمعنى مخفورة، والمراد: القبور والمعنى: أننا لمردودون أحياء في قبورنا؟، وقيل غير

(١) في د: وهي الرياح.

(٢) أخرجه الطبري (٤٢٥/١٢) (٣٦٢٠٧)، وذكره ابن عطية (٤٣١/٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٦٣٦/٤ - ٦٣٧)، كتاب «صفة القيامة» باب: (٢٣) (٢٤٥٧)، (٤٢١/٢)، وأحمد

(١٣٦/٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٥٦/١).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣١/٥).

هذا^(١)، و﴿نخرة﴾ معناه بالية، وقرأ حمزة «نَاخِرَةً» بآلف^(٢)، والنَّاخِرَةُ المصوَّنة بالريح المَجْوُوفَةُ، وَحُكِّي عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ وغيره: أن الناخرة والنَّخِرَةُ بمعنى واحد^(٣)، وقولهم: ﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: إذ هي إلى النار لتكذيبهم بالبعث، وقال الحسن: ﴿خاسرة﴾ معناه عندهم كاذبة، أي: ليست بكائنة^(٤)، ثم أخبر تعالى عن حال القيامة فقال: «إنما هي زجرة واحدة» أي: نفخة في الصور، ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ وهي أرض المحشر.

وقوله: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ استدعاء حسن، والتركي: التطهر من النقايس، والتلبس بالفضائل، ثم فسر له موسى التزكي الذي دَعَاهُ إليه/ بقوله: ﴿وأهديك إلى ربك﴾ ١٢٠٩ فتحشى ﴿والعلم تابع للهدى، والخشية تابعة للعلم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ﴿والآية الكبرى﴾ العصا واليد؛ قاله مجاهد وغيره^(٥): و﴿أدبر﴾: كناية عن إغراضه، وقيل: حقيقة قام موليًا عن مُجَالَسَةِ موسى، ﴿فحشر﴾ أي: جمع أهل مملكته، وقولُ فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ نهاية في السخافة والمخرقة، قال ابن زيد: ﴿نكال الآخرة﴾ أي: الدار الآخرة، ﴿والأولى﴾: يعني: الدنيا، أخذَه اللهُ بعذاب جهنم وبالغرق، وقيل غير هذا^(٦)، ثم وقفهم سبحانه مخاطبةً منه تعالى للعالم؛ والمقصود الكفار فقال: ﴿عانتُم أشد خلقاً...﴾ الآية، والسَّمْكُ: الارتفاع، الثعلبي: والمعنى: أنتم أيها المنكروون للبعث أشد خلقاً أم السماء أشد خلقاً، ثم بيّن كيف خلقها، أي: فالذي قدّر على خلقها قادرٌ على إحيائكم بعد الموت، نظيره: ﴿أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [يس: ٨١] الآية، انتهى، و﴿أعطش﴾ معناه: أظلم.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٥) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣٦) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٧) مَنَّا لَكَ (٣٨) وَلَأَنقُصَنَّكَ (٣٩) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٤٠) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٤١) وَبُورِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٤٢)

(١) أخرجه الطبري (٤٢٧/١٢) (٣٦٢٢٢٢) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٤٣٢/٥).

(٢) وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر.

ينظر: «السبعة» (٦٧٠ - ٦٧١)، و«إعراب القراءات» (٤٣٥/٢)، وزاد نسبتها إلى الكسائي، و«معاني القراءات» (١١٩/٣)، و«حجة القراءات» (٧٤٨)، و«شرح الطيبة» (٩٧/٦)، و«شرح شعلة» (٦١٨)، و«اتحاف» (٥٨٥/٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٣٢/٥).

(٤) ينظر: المصدر السابق.

(٥) أخرجه الطبري (٤٣٢/١٢) (٣٦٢٥٧)، وذكره ابن عطية (٤٣٣/٥).

(٦) أخرجه الطبري (٤٣٤/١٢) (٣٦٢٧٠)، وذكره ابن عطية (٤٣٤/٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «عَبَسَ»

وَهِيَ مَكْنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكَى ۚ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ (٥) فَأَن تَلَمْ تَصَدَّى ۙ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى ۚ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۙ (٨)﴾

قوله تعالى: ﴿عبس وتولى﴾ * أن جاءه الأعمى ﴿سببها﴾: أن النبي ﷺ كَانَ يدعُو بعض صناديد قريش ويقرأ عليه القرآن ويقول له: هل ترى بما أقول بأساً، فكان ذلك الرجل يقول: لا والدُمى يعني الأضنام؛ إذ جاء ابنُ أم مكتوم؛ فَقَالَ: يا رسول الله! استدني وعلمني مما علمك الله؛ فكان [في] ذلك كله قطعٌ لحديث النبي ﷺ مع الرجل، فلما شَغَبَ عليه ابنُ أم مكتوم عَبَسَ ﷺ وأغرض عنه؛ فنزلت الآية، قال سفيان الثوري: فَكَانَ بعد ذلك إذا رأى ابنُ أم مكتوم قال: مَرْحَباً بمن عَاتَبَنِي فيه ربِّي - عز وجل - وبَسَطَ له رداءه واستخلفه على المدينة مرتين^(١)، * ت * والكافر المشار إليه في الآية هو: الوليد بن المغيرة؛ قاله ابنُ إسحاق، انتهى، ثم أكد تعالى عَتَبَ نبيه بقوله: ﴿أما من استغنى﴾ أي بماله، ﴿فأنت له تصدى﴾ أي: تتعرض.

﴿وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَن تَعَنَّى ۙ (١٠) كَلَّا إِنهَا لَذِكْرَةٌ ۙ (١١) فَن شَاءَ ذَكَرُ ۙ (١٢)﴾

وقوله: ﴿وهو يخشى﴾ أي: يخشى الله، ﴿فأنت عنه تلهى﴾ / أي تشتغل، تقول ١٢١٠ لَهَيْتُ عن الشيء أَلْهَيْتُ إِذَا اشْتَغَلْتُ عَنْهُ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ، وهذه الآية السبب فيها هذا؛ ثم هي بَعْدَ تَتَنَاولُ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ، فَحَمَلَةُ الشَّرْعِ وَالْعِلْمِ مُخَاطَبُونَ بِتَقْرِيبِ الضَّعِيفِ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَتَقْدِيمِهِ عَلَى الشَّرِيفِ الْعَارِي مِنَ الْخَيْرِ، مَثَلُ مَا خُوْطِبَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، قَالَ عِيَاضٌ: وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عبس وتولى﴾ الآية، مَا يَقْتَضِي إثبات ذَنْبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَوْ أَنَّهُ خَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا فِي الْآيَةِ الْإِعْلَامُ بِحَالِ

(١) أخرجه الطبري (٤٤٤/١٢) عن قتادة وغيره (٣٦٣٢٢)، وذكره ابن عطية (٤٣٦/٥) بنحوه.

الرجلين، وتَوَهَّينَ أَمْرَ الْكَافِرِ، والإشارةُ إِلَى الإِعْرَاضِ عَنْهُ، انتهى، قال السهيلي: وانظر كيف نزلت الآية بلفظ الإخبار عن الغائب فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ولم يقل: عَبَسَتْ وتَوَلَّيْتُ، وهذا يُشْبِهُ حال العائِبِ الْمُعْرِضِ، ثم أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِمُوجَّهَةِ الْخُطَابِ فقال: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي﴾ الآية، علماً منه سبحانه أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ إِلَّا الرِّغْبَةَ فِي الْخَيْرِ ودخول ذلك المَشْرُوكِ فِي الْإِسْلَامِ؛ إِذْ كَانَ مِثْلُهُ يُسْلِمُ بِإِسْلَامِهِ بَشَرٌ كَثِيرٌ، فَكَلَّمَ نَبِيَّهُ حِينَ ابْتَدَأَ الْكَلَامَ بِمَا يَشْبَهُ كَلَامَ الْمُعْرِضِ عَنْهُ الْعَائِبِ لَهُ، ثُمَّ وَاجَّهَهُ بِالْخُطَابِ تَأْنِيْساً لَهُ - عَلَيْهِ السَّلَام -، انتهى، ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يَا مُحَمَّدُ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا فَعَلْتَ، إِنَّ هَذِهِ السُّورَةُ أَوْ الْقِرَاءَةُ أَوْ الْمَعَاتِبَةُ تَذْكِرَةٌ، وعِبَارَةُ الثَّعْلَبِيِّ: إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ، وقيل: هذه الموعظة، وقال مقاتل: آيات القرآن^(١) تذكرة، أي: مَوْعِظَةٌ وَتَبْصِرَةٌ لِلْخَلْقِ، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ أي: اتَّعَظَ بِآيِ الْقُرْآنِ وبِمَا وَعَظْتُكَ / وَأَدْبَتُكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، انتهى. * ص * : ذَكَرْهُ ﴿ذَكَرْهُ﴾ ذَكَرَ الضَّمِيرُ؛ لِأَنَّ التَّذْكَرَةَ هِيَ الذِّكْرُ، انتهى.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۖ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۖ﴾ (١٦)

وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن، والصحف هنا قيل إنه اللوح المحفوظ: وقيل صحف الأنبياء المنزلة. قال ابن عباس: السَّفَرَةُ هُمُ الْمَلَائِكَةُ، لَأَنَّهُمْ كَتَبُوا يَقَالُ: سَفَرْتُ، أي: كَتَبْتُ، ومنه السَّفَرُ، وقال ابن عباس أيضاً: الْمَلَائِكَةُ سَفَرَةٌ لَأَنَّهُمْ يَسْفِرُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ^(٢)، وفي البخاري: سَفَرَةُ الْمَلَائِكَةِ [وَاحِدُهُمْ سَافِرٌ]^(٣)، سَفَرْتُ أَضْلَحْتُ بَيْنَهُمْ وَجَعَلْتُ الْمَلَائِكَةَ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وتَأْدِيتِهِ كَالسَّفِيرِ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ الْقَوْمِ، انتهى، قال * ع^(٤) * : ومن اللفظة قول الشاعر: [الوافر]

وَمَا أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَسْعَى بِغُشٍّ إِنْ مَسَّنِيْتُ^(٥)
وَالصُّحُفُ عَلَى هَذَا: صُحُفٌ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ اللُّوحُ.

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤٤٧/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٦/١٢) (٣٦٣٣٠)، وذكره البغوي (٤٤٧/٤)، وابن عطية (٥/٤٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥١٩/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن المنذر من طريق علي عن ابن عباس.

(٣) سقط في: د.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٣٨/٥).

(٥) ينظر: البيت في «البحر» (٤١٧/٨)، و«المحرر الوجيز» (٤٣٨/٥)، والقرطبي (١٤١/١٩)، و«الدر المصون» (٤٨٠/٦)، و«فتح القدير» (٣٨٣/٥).

﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْفَرَهُ﴾ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ تُطْفَأَ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾: دعاء على اسم الجنس، وهو عموم يراد به الإنسان الكافر، ومعنى ﴿قَتَلَ﴾: أي: هو أهل أن يدعى عليه بهذا، وقال مجاهد: ﴿قَتَلَ﴾ معناه: لَعِنَ وَهَذَا تَحْكُمُ * ت * ليس بتحكم وقد تقدم نحوه عن غير واحد^(١).

وقوله تعالى: ﴿ما أكفره﴾: يحتمل معنى التعجب، ويحتمل الاستفهام توبيخاً، وقيل: الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاصب أباه فأتى النبي ﷺ فأسلم ثم إن أباه استضلحه وأعطاه مالا وجهزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر برب النجم إذا هوى فدعا عليه النبي ﷺ وقال: «اللهم ابعث عليه كلبك حتى يأكله»، ثم إن عتبة خرج في سفرة/ فجاء الأسد فأكله من بين الرُفقة.

١٢١١

وقوله تعالى: ﴿من أي شيء خلقه﴾ استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيء الذي خلق الإنسان منه، ﴿فقدره﴾ أي جعله بقدر وحد معلوم، ﴿ثم السبيل يسره﴾ قال ابن عباس وغيره: هي سبيل الخروج من بطن أمه^(٢)، وقال الحسن، ما معناه أن السبيل هي سبيل النظر المؤدي إلى الإيمان^(٣).

وقوله ﴿فأقبره﴾ معناه: أمر أن يجعل له قبر، وفي ذلك تكريم له؛ لئلا يطرح كسائر الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء﴾ يريد: إذا بلغ الوقت الذي قد شاء؛ وهو يوم القيامة، و﴿أنشره﴾ معناه: أحياه.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُوْهُ﴾ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَنَبَاً وَقَضَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّاهَا غُثًّا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلًّا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَّعْنَا لَهُمْ أَهْلَهُمْ أَجَلًا ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ ﴿٣٣﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ أي لم يقض ما أمره، ثم أمر الله تعالى الإنسان

(١) أخرجه الطبري (٤٤٦/١٢) (٣٦٣٣٥)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٥٢٠)، وعزاه لابن المنذر عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٤٤٧/١٢)، برقم: (٣٦٣٣٧)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٥)، وابن كثير (٤٧٢/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٥٢١)، وعزاه للعوفي عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤٤٨/١٢)، رقم: (٣٦٣٤٦)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٥).

بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه وكيف يسره له بهذه الوسائط، والحَبُّ جمعُ حَبَّةٍ - بفتح الحاء -، وهو كل ما يتخذُه الناسُ ويربونه، والحَبَّةُ: بكسر الحاءِ كُلُّ مَا يَنْبُتُ مِنَ الْبُزُورِ لَا يُخْفَلُ بِهِ، وَلَا هُوَ بِمَتَّخِذٍ، وَالْقَضْبُ قِيلَ هِيَ الْفِضْفِصَةُ وَهَذَا عِنْدِي ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ الْفِضْفِصَةَ لِلْبَهَائِمِ وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْأَبِّ؛ وَالَّذِي أَقُولُ بِهِ أَنَّ الْقَضْبَ هُنَا هُوَ كُلُّ مَا يَقْضَبُ لِأَكْلِهِ ابْنُ آدَمَ غَضًّا مِنَ النَّبَاتِ كَالْبَقُولِ وَالْهَلْيُونِ وَنَحْوِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَطْعُومِ جِزْءٌ عَظِيمٌ وَلَا ذِكْرَ لَهُ فِي الْآيَةِ إِلَّا فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَالْحَدِيقَةُ: الشَّجَرُ الَّذِي قَدْ أُخِذَ بِجِدَارِ وَنَحْوِهِ، وَالْعُلْبُ: الْغُلَاطُ النَّاعِمَةُ، وَالْأَبُّ الْمَرْعَى وَالْكَلاؤُ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(١)، وَقَدْ تَوَقَّفَ فِي تَفْسِيرِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢) - وَ﴿مَتَاعًا﴾: نَضَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَالْمَعْنَى: تَتَمَتَّعُونَ بِهِ أَنْتُمْ وَأَنْعَامُكُمْ؛ فَابْنُ آدَمَ فِي السَّبْعَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَالْأَنْعَامُ فِي الْأَبِّ، ٢١١ ب وَ﴿الصَّاحَّةُ﴾: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. * ص * قَالَ الْخَلِيلُ: الصَّاحَّةُ صَنِحَةٌ تَصُحُّ الْأَذَانُ صَحًّا، أَي: تُصِمُّهَا لَشِدَّةٍ وَقَعَتْهَا، انْتَهَى.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأَخِيهِ وَأَيُّهُ (٣٥) وَصَنْجِيهِهِ وَيَبِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ يَنْتَهِي يَوْمَهُمْ شَأْنٌ يُعْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَهُمْ مُسْفِرَةٌ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَهُمْ عَلَيْهَا عَذَرٌ (٤٠) تَرَفُّهَا قَرَّةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢) ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية، قال جمهورُ الناسِ: إنما ذلك لشدَّةِ الْهَوْلِ كُلِّ يَقُولُ نَفْسِي نَفْسِي، وَقِيلَ: فَرَاظُهُمْ خَوْفًا مِنَ الْمُطَالَبَاتِ، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ﴾ عن اللقاءِ مَعَ غَيْرِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى اخْتِلَافَ الْوُجُوهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْوَاقِفِينَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ؛ حِينَ بَدَتْ لَهُمْ تَبَاشِيرُهَا، وَمِنَ الْكَافِرِينَ حِينَ عَلَاهَا قَتَرُهَا، وَ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ معناه: نَيِّرَةٌ بِإِدْ ضَوْءِهَا وَسُرُورِهَا، وَالْعَبْرَةُ الَّتِي عَلَى الْكَفَرَةِ: هِيَ مِنَ الْعُبُوسِ كَمَا يُرَى عَلَى وَجْهِ الْمَهْمُومِ وَالْمَيِّتِ وَالْمَرِيضِ شَبْهُ الْعُبَارِ، * ص * وَالْقَتَرُ سَوَادٌ كَالدُّخَانِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ الْعُبَارُ، انْتَهَى، ثُمَّ فَسَّرَ سَبْحَانَهُ أَصْحَابُ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْمُغْبِرَّةِ بِأَنَّهُمْ ﴿الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ﴾.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٥٢/١٢) (٣٦٣٧٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ (٤٧٣/٤)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْتُورِ» (٥٢١/٦)، وَعَزَاهُ لِلْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٥١/١٢)، رَقْمٌ: (٣٦٣٦٧)، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ (٤٤٩/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٣٩/٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٤٧٣/٤).

تفسير سورة «التكويد»

[وهي] مكية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) ﴿٥﴾

قوله سبحانه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذه كلها أوصاف يوم القيامة، وتكويد الشمس هو أن تدار كما يدار كور العمامة ويذهب بها إلى حيث شاء الله - تعالى -، وعبر المفسرون عن ذلك بعبارات؛ فمنهم من قال: ذهب نورها؛ قاله قتادة^(١)، ومنهم من قال: رمي بها؛ قاله الربيع بن خثيم^(٢) وغير ذلك مما هو أسماء توابع لتكويدها، وانكدار النجوم هو انقضاءها وهبوطها من مواضعها، وقال ابن عباس: انكدرت: تغيرت من قولهم ماء كدر^(٣) و«العشائر»: جمع عسراء وهي الناقة التي قد مرر لحملها عشرة أشهر، وهي أنفس ما عند العرب، وإنما تعطل عند أشد الأحوال.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الْصُفُوفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُهَا (١٤) ﴿١٥﴾

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال أبي بن كعب وابن عباس وغيرهما: / معناه أضربت نارا، كما يسجر الثور^(٤)، ويحتمل أن يكون المعنى ملكت وقيدت، فتكون اللفظة مأخوذة

(١) أخرجه الطبري (٤٥٧/١٢) (٣٦٤٠٢)، وذكره البغوي (٤٥١/٤)، وابن عطية (٤٤١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧٥/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥٢٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٤٥٧/١٢) (٣٦٤١٠)، وذكره ابن عطية (٤٤١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧٥/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٥٨/١٢) (٣٦٤١٧)، وذكره ابن عطية (٤٤١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧٥/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٤٦٠/١٢)، عن أبي بن كعب، برقم: (٣٦٤٣٢) وعن ابن عباس برقم: (٣٦٤٣٤)، وذكره البغوي (٤٥١/٤)، وابن عطية (٤٤٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧٦/٤) بنحوه.

من سَاجِرِ الْكَلْبِ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «سَجِرَتْ» بتخفيف^(١) الجيم، والباقون بتشديدها، وتزويج النفوس: هو تزويجها؛ لأن الأزواج هي الأنواع، والمعنى: جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن، وكل شكل مع شكله؛ رواه النعمان بن بشير عن النبي ﷺ؛ وقاله عمر بن الخطاب وابن عباس^(٢)؛ وقال: هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] وفي الآية على هذا حصص على خليل الخير، فقد قال - عليه السلام -: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، وقال: «فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»، وعبارة الثعالبي: قال النعمان بن بشير: قال النبي ﷺ: «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ»، قَالَ الضَّرْبَاءُ: كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ، انتهى، وقال مقاتل بن سليمان معناه: زوجت نفوس المؤمنين بزواجتهن من الحور، وغيرهن^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ الموءودة اسم معناه المُنْقَلَّ عليها بالتراب، وغيره حتى تموت؛ وكان هذا صنيع بعض العرب بناتهم يدفنونهن أحياء، وقرأ الجمهور^(٤): «سُئِلَتْ» وهذا على جهة التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك؛ واستدل ابن عباس بهذه الآية على^(٥) أن أولاد المشركين في الجنة، لأن الله قد انتصر لهم ممن ظلمهم^(٦).

(١) وحجتها قوله سبحانه: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] ولم يقل الْمُسَجَّر. وحجة الباقي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ﴾ ولو كان واحداً لكان تخفيفاً، والعرب تقول: سَجَرَتِ التَّنُورُ، وَسَجَرَتِ التَّنَائِيرُ. ينظر: «حجة القراءات» (٧٥٠)، و«السبعة» (٦٧٣)، و«الحجة» (٣٧٩/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٤٤٤)، و«شرح الطيبة» (١٠١/٦)، و«معاني القراءات» (١٢٣/٣)، و«العنوان» (٢٠٤)، و«شرح شملة» (٦١٩)، و«إتحاف» (٥٩١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٢/١٢) عن عمر برقم: (٣٦٤٤٩)، وعن ابن عباس برقم: (٣٦٤٥٢)، وذكره البغوي (٤٥٢/٤)، وابن عطية (٤٤٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره البغوي (٤٥٢/٤)، وابن عطية (٤٤٢/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٨/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن الكلبي بنحوه.

(٤) وقرأ ابن عباس، وأبي، وجابر بن زيد، وأبو الضحى، ومجاهد، وجماعة منهم: ابن مسعود، والربيع بن خيثم «سألت».

ينظر: «مختصر الشواذ» ص: (١٦٩)، و«المحرر الوجيز» (٤٤٢/٥)، و«البحر المحيط» (٤٢٤/٨) - (٤٢٥)، و«الدر المصون» (٤٨٦/٦).

(٥) في د: في.

(٦) ذكره ابن عطية (٤٤٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٧٧/٤).

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قيل: هي صُحُفُ الْأَعْمَالِ، وقيل: هي الصُّحُفُ الَّتِي تَتَطَايَرُ بِالْإِيمَانِ وَالشَّمَائِلِ، وَالْكَشْطُ: التَّقْشِيرُ وَذَلِكَ كَمَا يُكَشِّطُ جِلْدُ الشَّاةِ حِينَ تُسْلَخُ، وَكَشَطُ السَّمَاءِ هُوَ طَيُّهَا/ كَطَيِّ السَّجْلِ، و﴿سَعَرَتْ﴾ معناه: أَضْرِمَتْ^(١) نَارَهَا، وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ [ق: ٣١]. ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿مَا أَحْضَرْتَ﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؛ وَهُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ ﴿إِذَا الشَّمْسُ﴾ وَمَا بَعْدَهَا، انْتَهَى.

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ٢٣﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ﴾ لَا إِمَّا زَائِدَةٌ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ رَدًّا لِقَوْلِ قَرِيشٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ نَبُوَّةَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَام -، ثُمَّ أَقْسَمَ تَعَالَى بِالْخَنَسِ الْجَوَارِ الْكُنَسِ، وَهِيَ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ: الدَّرَارِي السَّبْعَةُ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَزُحَلُ وَعُطَارِدُ وَالْمَرِيخُ وَالزُّهْرَةُ وَالْمُشْتَرِي، وَقَالَ عَلِيٌّ: الْمَرَادُ الْخَمْسَةُ دُونَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ تَخْنَسُ فِي جَزْيِهَا أَيْ: تَنْقَهَقَرُ فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ، وَهِيَ جَوَارٍ فِي السَّمَاءِ، وَهِيَ تَكْنَسُ فِي أَبْرَاجِهَا أَيْ: تَسْتَرُ^(٢)، الثَّلْبِي: وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ تَخْنَسُ؛ أَيْ: تَتَأَخَّرُ عَنْ مَطَالِعِهَا كُلِّ سَنَةٍ، وَتَكْنَسُ بِاللُّهَارِ، أَيْ: تَسْتَرُ فَلَا تُرَى، انْتَهَى^(٣)، وَعَسَسَ اللَّيْلُ فِي اللَّغَةِ إِذَا كَانَ غَيْرَ مُسْتَحْكَمٍ الْإِظْلَامَ، قَالَ الْخَلِيلُ: عَسَسَ اللَّيْلُ: إِذَا أَقْبَلَ وَأَذْبَرَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: وَقَعَ الْقَسَمُ بِإِقْبَالِهِ^(٤)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: بَلَّ وَقَعَ بِإِدْبَارِهِ^(٥)، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: أَقْسَمَ بِإِقْبَالِهِ وَإِدْبَارِهِ^(٦)

(١) في د: ضرمت.

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٧/١٢) (٣٦٤٨٤)، وذكره البغوي (٤/٤٥٣)، وابن عطية (٥/٤٤٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٧٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢٨)، وعزاه لسعيد بن منصور والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٤٦٧/١٢) (٣٦٤٨٧). والبغوي (٤/٤٥٣).

(٤) أخرجه الطبري (٤٧٠/١٢) (٣٦٥١٢)، وذكره البغوي (٤/٤٥٣)، وابن عطية (٥/٤٤٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٧٩) بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري (٤٦٩/١٢) (٣٦٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٥/٤٤٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٧٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٣٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس.

(٦) ذكره ابن عطية (٥/٤٤٤).

معاً، وعبارة الثعالبي: قَالَ الْحَسَنُ عَسَسَ اللَّيْلُ: أَقْبَلَ بِظِلَامِهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: أَذْبَرَ بِظِلَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَالْمَعْنَيَانِ يَزُجَعَانِ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ ابْتِدَاءُ الظَّلَامِ فِي أَوَّلِهِ وَإِدْبَارُهُ فِي آخِرِهِ، انْتَهَى، وَتَنْفَسَ الصَّبْحُ، اتَّسَعَ ضَوْؤُهُ، وَالضَّمِيرُ فِي «إِنَّهُ» لِلْقُرْآنِ، وَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ؛ هُوَ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْآيَةِ كُلِّهَا، / وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَ﴿كَرِيمٌ﴾ صِفَةٌ تَقْتَضِي رَفْعَ الْمَذَامِ، وَ﴿مَكِينٌ﴾ مَعْنَاهُ: لَهُ مَكَانَةٌ وَرِفْعَةٌ، وَقَالَ عِيَاضُ فِي «الشِّفَا» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾: أَكْثَرُ الْمَفْسُرِينَ عَلَى أَنَّهُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، انْتَهَى، قَالَ * ع^(١) *: وَأَجْمَعَ الْمَفْسُرُونَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ يَرَادُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَ﴿الضَّمِيرُ﴾ فِي رَأَاهُ لَجَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَهَذِهِ الرُّوْيَةُ الَّتِي كَانَتْ بَعْدَ أَمْرِ غَارِ جِرَاءٍ، وَقِيلَ: هِيَ الرُّوْيَةُ الَّتِي رَأَاهُ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤) وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانِي تَجِيرُ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴿

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ بِالضَّادِ بِمَعْنَى: بِبَخِيلٍ تَبْلِيغِ مَا قِيلَ لَهُ؛ كَمَا يَفْعَلُ الْكَاهِنُ حِينَ يُغْطَى حُلُونَاهُ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَالْكَسَائِيُّ: «بِظَنِينٍ» بِالظَّاءِ^(٢)، أَي: بِمَتْنِهِمْ، ثُمَّ نَفَى سَبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ شَيْطَانٍ عَلَى مَا قَالَتْ قَرِيشٌ، وَ﴿رَجِيمٌ﴾ أَي: مَرْجُومٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ وَالْمَعْنَى: أَيْنَ الْمَذْهَبُ لِأَحَدٍ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ وَالْبَيَانِ الَّذِي فِيهِ شِفَاءٌ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أَي: تَذَكُّرٌ، * ت *: رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ؛ فَلْيَقْرَأْ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾» قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، انْتَهَى.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٤٤/٥).

(٢) ينظر: «السبعة» (٦٧٣)، و«الحجة» (٣٨٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٤٦/٢)، و«معاني القراءات» (١٢٤/٣)، و«العنوان» (٢٠٤)، و«حجة القراءات» (٧٥٢)، و«شرح شعلة» (٦٢٠)، و«إتحاف» (٢/٥٩٢).



وَمِنْ مَكْنِيَّةٍ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي: انشَقَّتْ، ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ قيل: فُجِّرَ بعضها إلى بعض، ويحتمل أن يكون تَفَجَّرَتْ من أعاليها، ويحتمل أن يكون تفجير تفريغ من قيعانها/ فَيُذْهِبُ اللَّهُ مَاءَهَا حيث شاء، ٢١٣ ب وبكل قيل، وبعثرة القبور: نبشها عن الموتى.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هو جواب ﴿إِذَا﴾ و﴿نَفْسٌ﴾ هنا اسم جنس، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ إنها عبارة عن جميع الأعمال من طاعة أو معصية.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَهَا، فقال: «غَرَّةُ جَهْلُهُ»^(١)، فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَرْحَمَهُ بِعِبَادِهِ، قال الثعلبي: قال أهل الإشارة: إِنَّمَا قَالَ:

(١) قال الزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار» (١٦٧/٤) (١٤٦٤): وقال: رواه الثعلبي: أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه - واسمه الحسين بن محمد - ثنا أبو علي بن حنش المقرئ، ثنا أبو القاسم بن الفضل المقرئ، ثنا علي بن الحسين المقدمي، وعلي بن هاشم قالوا: ثنا كثير بن هشام، ثنا جعفر بن برقان، ثنا صالح بن مسمار قال: بلغني أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ قال: «غره جهله».

وعن الثعلبي رواه الواحدي في «تفسيره الوسيط» بسنده ومثله.

ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب «فضائل القرآن» حدثنا كثير بن هشام وذكره سواء إلا أنه قال: «غره حلمه»، والنسخة صحيحة.

﴿بربك الكريم﴾، دون سائر أسمائه تعالى وصفاته، كأنه لقَّنه جوابه؛ حتى يقول: غَرَنِي كَرَمُكَ، انتهى، وقرأ الجمهور: «فَعَدْلُكَ» وكان النبي ﷺ إذا نظَّر إلى الهلال؛ قال: «أَمَنْتُ بالذي خلقك فسواك فَعَدْلُكَ» وقرأ حمزة والكسائي وعاصم بتخفيف الدال^(١)، والمعنى عَدْلُ أَعْضَاءِكَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، أي: وازنَ بينها.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ٨ ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ٩ ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحَفِظِينَ﴾ ١٠ ﴿كِرَامًا كَنِينٍ﴾ ١١ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ١٢ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ١٣ ﴿وَلَنْ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ١٤ ﴿

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ذهب الجمهور إلى أن «في» متعلقة بـ«رَكَّبَكَ»، أي: في صورة حسنة أو قبيحة، أو سليمة، أو مشوهة، ونحو هذا، و«ما» في قوله: ﴿ما شاء ركبك﴾ زائدة فيها معنى التأكيد، قال أبو حيان^(٢): ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ وَزَجْرٌ، انتهى، والذَّيْنِ هنا يحتمل أن يريد الشرع، ويحتمل أن يريد الجزاء والحساب، وباقي الآية واضحة لِمُتَأَمِّلِهِ.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٥ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ١٦ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٧ ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٨ ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ١٩ ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ [قال جماعة: معناه: ما هم عنها بغائبين]^(٣)

(١) قال الفراء: وجهه - والله أعلم - فصرفتك إلى أي صورة شاء، إما حسن أو قبيح، أو طويل أو قصير. وعن أبي نُجَيْج قال: (في صورة أب أو في صورة عم). وليست في من صلة «عدلك» لأنك لا تقول: (عدلتك في كذا)، إنما تقول: (عدلتك إلى كذا) أي: صرفتك إليه؛ وإنما هي متعلقة بـ«رَكَّبَكَ». كأن المعنى: (في أي صورة شاء أن يركبك).

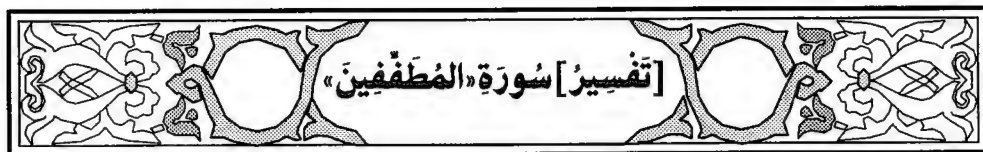
وقال آخرون: (فعدلك: فسوى خلقك). قال محمد بن يزيد (المبرد): فعدلك أي: قصد بك إلى الصورة المستوية ومنه العدل الذي هو الإنصاف، أي: هو قصد إلى الاستواء. فقولك: (عدل الله فلاناً) أي: سوى خلقه. فإن قيل: فأين الباء التي تصحب القصد حتى يصح ما تقول؟ قلت: إن العرب قد تحذف حروف الجر، قال الله عز وجل: «وإذا كالوهم أو وزنوهم» فحذف اللامين، فكذلك «فعدلك» بمعنى: فعدل بك.

ينظر: «حجة القراءات» (٧٥٢ - ٧٥٣)، و«السبعة» (٦٧٤)، و«حجة القراءات» (٣٨٢/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٤٨/٢)، و«معاني القراءات» (١٢٦/٣)، و«شرح الطيبة» (١٠٣/٦)، و«العنوان» (٢٠٤)، و«شرح شملة» (٦٢٠)، و«إتحاف» (٥٩٤/٢).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٤٢٨/٨).

(٣) سقط في: د.

فِي الْبَرْزَخِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ غَدَوَةً وَعَشِيَّةً ؛ فَهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُشَاهِدِينَ لَهَا ؛
نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدَّارَيْنِ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ ، ثُمَّ عَظَّمَ تَعَالَى قَدَرَ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِقَوْلِهِ :
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ الْآيَةُ .



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ جَمَاعَةٍ

١٢١٤

وقال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وعنه: نَزَلَ بِغُضُّهَا بِمَكَّةَ وَنَزَلَ أَمْرُ التَّطْفِيفِ بِالْمَدِينَةِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وبلِّ للمطففين﴾ الآية، الْمُطَفَّفُ الذي يُنْقِصُ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، والتطفيف: الثَّقْصَانُ، أصله من الشيء الطفيف، وهو التَّزْرُ، والمطفف إنما يأخذ بالميزان أو بالمكيال شيئاً خفيفاً، و﴿اكتالوا على الناس﴾ معناه قَبَضُوا مِنْهُمْ، و﴿كالوهم﴾ معناه: قَبَضُوهُمْ، و﴿يخسرون﴾ معناه: يُنْقِصُونَ.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿ألا يظن﴾ بمعنى: يَغْلَمْ ويتحقق، وقال * ص *: ﴿ألا يظن﴾ ذكر أبو البقاء أن «لا» هنا هي النافية دَخَلَتْ عَلَيْهَا هَمْزَةُ الاسْتِفْهَامِ، وليست «ألا» التي للتنبيه والاستفتاح؛ لأن مَا بَعْدَ «ألا» التنبيهية مُثَبَّتٌ وهو هنا منفيٌّ، أنتهى،، وقيام الناس لرب العالمين يومئذ، يختلف الناس فيه بحسب منازلهم، ورُوي أنه يُخَفَّفُ عن المؤمن حتى يكون على قدر الصلاة المكتوبة، وفي هذا القيام هو إلجام العرق للناس؛ كما صرح به النبي ﷺ في الحديث الصحيح، والناس أيضاً فيه مختلفون بالتخفيف والتشديد، قال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ عن أَبِي عَثْمَانَ النَّهْدِيِّ عن سلمان، قال: تُذَنِّى الشمسُ من الناس يوم القيامة حتى تكون من رؤوسهم قَابَ قَوْسٍ أو قَابَ قَوْسَيْنِ فَتُعْطِي حَرَّ عَشْرِ سِنِينَ؛ وليس على أحد يومئذ طَحْرِبَةٌ ولا تُرَى فيه عورة مؤمن ولا مؤمنة، ولا يَضْرُ حُرُّهَا يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة، وأما الآخرون؛ أو قال الكفار فَتَطْبُخُهُمْ، فإنما تقول أجوافهم

٢١٤ ب عَقَى عَقَى، قال نعيم: الطحربة: الخِرْقة/ انتهى،، ونحو هذا للمحاسبي قال في «كتاب

التوهُمُ»: فَإِذَا وَافَى الْمَوْقِفُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ؛ كُشِيتِ الشَّمْسُ حَرٌّ عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ أُذْنِيتُ مِنَ الْخَلَائِقِ قَابَ قَوْسٍ أَوْ قَابَ قَوْسَيْنِ، فَلَا ظِلَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا ظِلُّ عَرْشِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَكُم بَيْنَ مُسْتَظِلِّ بَظِلِّ الْعَرْشِ وَبَيْنَ وَاقِفٍ لِحَرِّ الشَّمْسِ قَدْ أَضْهَرَتْهُ؛ وَاشْتَدَّ فِيهَا كَرْبُهُ وَقَلْقُهُ، فَتَوَهُمَ نَفْسَكَ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ؛ فَإِنَّكَ لَا مُحَالَةَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، انْتَهَى، اللَّهُمَّ، عَامِلُنَا بِرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ فِي الدَّارَيْنِ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ.

﴿كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْفُجَّارَ لَفِي سَجِينٍ﴾ (٧)

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْفُجَّارَ...﴾ يعني: الكفار وكتائبهم يراد به الذي فيه تحصيل أمرهم، وأفعالهم، ويحتمل عندي أن يكون المعنى وعداؤهم وكتاب كونهم هو في سجين؛ أي: هنالك كُتِبُوا فِي الْأَزْلِ، واختلف في ﴿سجين﴾ ما هو؟ والجمهور أن سجيناً بناءً مبالغة من السجن، قال مجاهد: وذلك في صخرة تحت الأرض السابعة^(١).

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾ (٨) ﴿كُنْتُ مَرْقُومٌ﴾ (٩) ﴿وَلِيَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١١) ﴿إِذَا نُفِثَ عَلَيْهِ مَا يُنْثَى قَالَ أَطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢) ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٣) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ يُعَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٦) ﴿كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْآبَرَارَ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ (١٧) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (١٨) ﴿كُنْتُ مَرْقُومٌ﴾ (١٩) ﴿يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ﴾ (٢٠) ﴿إِنَّ الْآبَرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢١) ﴿عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٢٢) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٣) ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُورٍ﴾ (٢٤) ﴿خَتَمُكُمْ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢٥)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾ تعظيم لأمر هذا السجين وتعجيب منه، ويحتمل أن يكون تقرير استفهام، أي: هذا مما لم تكن تعلمه قبل الوحي، و﴿كتاب مرقوم﴾ على القول الأول: مرتفع على خبر «إن» وعلى القول الثاني مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو كتاب مرقوم، ويكون هذا الكلام مفسراً لـ ﴿سجين﴾ ما هو؟ و﴿مرقوم﴾ معناه: مكتوب لهم بشر، وباقي الآية بين، ثم أوجب أن ما كسبوا من الكفر والعنوة قد ران على قلوبهم، أي: غطى عليها؛ فهم مع ذلك لا يبصرون رشداً، يقال:

(١) أخرجه الطبري (٤٨٦/١٢) (٣٦٦٠٠)، وذكره البغوي (٤٥٨/٤)، وابن عطية (٤٥١/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٨/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه بنحوه.

١٢١٥ رَأَتْ الخمرُ على قلبِ شاربِها، ورَأَى العَشْيُ على قلبِ المريض، وكذلك الموتُ، / قال الحسنُ وقتادة: الرِّينُ الذَّنْبُ على الذَّنْبِ حتى يموتَ القلبُ^(١)، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَذْنَبَ نُكِثَتْ نَكَتُهُ سَوْدَاءً فِي قَلْبِهِ، ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى يَتَغَطَّى فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»، قال الفخر^(٢): قال أبو معاذ النَّخَوِيُّ: الرِّينُ سَوَادُ الْقَلْبِ مِنَ الذَّنُوبِ، وَالطَّنْبُ أَنْ يُطْبَعَ عَلَى الْقَلْبِ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الرِّينِ، وَالْإِفْقَالُ أَشَدُّ مِنَ الطَّبْعِ؛ وَهُوَ أَنْ يُقْفَلَ عَلَى الْقَلْبِ، انْتَهَى، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ﴾ لِلْكَفَارِ أَيْ: هُمْ مَحْجُوبُونَ لَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ، قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَمَّا حَجَبَ اللَّهُ قَوْمًا بِالسَّخَطِ دَلَّ عَلَى أَنْ قَوْمًا يَرُونَهُ بِالرُّضَى، قَالَ الْمُحَاسِبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِ «تَوْبِيعِ النَّفْسِ»: وَيَنْبَغِي لِلْعَبِيدِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا رَأَى الْقِسْوَةَ مِنْ قَلْبِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا مِنَ الرِّينِ فِي قَلْبِهِ فَيَخَافُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَجَبَ قَلْبَهُ عَنْهُ بِالرِّينِ وَالْقِسْوَةَ أَنْ يَحْجِبَهُ غَدًّا عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿إِحْدَاهُمَا تَلَوُ الْأُخْرَى؛ لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَعْنَى ثَالِثٌ، فَإِنْ اعْتَرَضَ لِلْمَرِيدِ خَاطِرٌ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَقْتَطِعَهُ عَنِ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى تَحُلَّ بِهِ هَاتَانِ الْعُقُوبَتَانِ فَقَالَ إِنَّمَا نَزَلْنَا فِي الْكَافِرِينَ؛ فَلْيَقُلْ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَوْمَنْ مِنْهُمَا كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ حَذَّرَ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِمَا يُعَاقِبُ بِهِ الْكَافِرِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، انْتَهَى، وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَ كِتَابِ الْفَجَارِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ كِتَابِ ضِدِّهِمْ؛ لِيُبَيِّنَ الْفَرْقَ بَيْنَ الصُّنْفَيْنِ، وَاخْتَلَفَ فِي الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِـ﴿عَلِيِّينَ﴾ مَا هُوَ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: السَّمَاءُ السَّابِعَةُ تَحْتَ الْعَرْشِ^(٣)، وَرَوَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٤)، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ سِدْرَةُ الْمُتَنَهَّى^(٥)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: عَلِيُونَ: الْجَنَّةُ^(٦).

ب ٢١٥

- (١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢/٤٩٠) (٣٦٦٢٧) عَنِ الْحَسَنِ، وَعَنْ قَتَادَةَ بِرَقْمٍ: (٣٦٦٤٠)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٤/٤٦٠)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٤٥٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٨٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٦/٥٤٠)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ.
- (٢) يَنْظُرُ: «الْفَخْرُ الرَّازِيُّ» (٣١/٨٦).
- (٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢/٤٩٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ كَعْبٍ بِرَقْمٍ: (٣٦٦٥٧)، وَ (٣٦٦٤٩)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٤/٤٦٠)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٤٥٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٨٦) بِنَحْوِهِ.
- (٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥/٤٥٢).
- (٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢/٤٩٤)، (٣٦٦٥٩)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٤/٤٦٠)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٤٥٢)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ»، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ مِنْ طَرِيقِ الْأَجْلَحِ عَنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٦) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢/٤٩٤)، (٣٦٦٥٨)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٤/٤٦٠)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٤٥٢)، وَابْنُ كَثِيرٍ =

وقوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني الملائكة؛ قاله ابن عباس وغيره^(١)، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه إلى ما عندهم من النعيم، والنَّضْرَةُ: النعمة والرونق، والرحيق: الخمر الصافية، و﴿مَخْتُومٌ﴾ يحتمل أنه يُخْتَمُ على كؤوسه التي يشرب بها تَهْمُمًا وتنظفًا، والظاهر أنه مختوم شربه بالرائحة المسكية؛ حَسَبًا فسره قوله: ﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال ابن عباس وغيره: خاتمة شربه مسك^(٢)، [وقرأ الكسائي^(٣): «خَاتَمُهُ مِسْكٌ»]، ثم حرَّض تعالى على الجنة بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَنْسِيمٍ﴾ (٧٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ المزاج: الخلط، قال ابن عباس وغيره: ﴿تسنيم﴾: أشرف شراب في الجنة، وهو اسمٌ مذكرٌ لِمَاءٍ عَيْنٍ في الجنة، وهي عين يشرب بها المقربون صرفاً ويُمزَجُ رحيقُ الأبرار بها^(٤)؛ وهذا المعنى في «صحيح البخاري»، وقال مجاهد ما معناه: أن تسنيمًا مصدرٌ من سَنَمْتُ: إِذَا عَلَوْتُ، ومنه السَّنامُ، فكانه عينٌ قد عَلَيَتْ على أهل الجنة فهي تَنَحْدِرُ، وقاله مقاتل^(٥)، وجمهور المتأولين أن منزلة الأبرار دون منزلة المقربين، وأن الأبرار هم أصحاب اليمين، وأن المقربين هم السابقون.

وقوله: ﴿يشرب بها﴾ بمعنى يشربها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ قَالِیْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

= في «تفسيره» (٤٨٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤١/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس.

(١) أخرجه الطبري (٤٩٥/١٢)، (٣٦٦٦٣) عن قتادة، وذكره ابن عطية (٤٥٣/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٨/١٢)، (٣٦٦٨٣)، وذكره البغوي (٤١٦/٤)، وابن عطية (٤٥٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٨٦/٤).

(٣) ينظر: «الحجة» (٣٨٦/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٥١/٢)، و«معاني القراءات» (١٣١/٣)، و«شرح الطيبة» (١٠٤/٦)، و«العنوان» (٢٠٥)، و«حجة القراءات» (٧٥٤)، و«إتحاف» (٥٩٧/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٥٠٠/١٢)، (٣٦٧٠٠)، وعن أبي صالح برقم: (٣٦٧٠٣)، وذكره البغوي (٤/٤).

(٥) ابن عطية (٤٥٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٨٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري (٤٩٩/١٢)، (٣٦٦٩١) عن مجاهد، وابن عطية (٤٥٣/٥).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا﴾ يعني في الدنيا، ﴿يُضْحَكُونَ﴾ من المؤمنين، رُوي أن هذه الآية نزلت في صناديد قريش وضعة المؤمنين، والضمير في ﴿مروا﴾ للمؤمنين ويحتمل أن يكون للكفار، وأما ضمير ﴿يتغامزون﴾ فهو للكفار؛ لا ١٢١٦ يحتمل غير ذلك، و﴿فاكهين﴾ أي: أصحاب فكاهاة/ ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين، وأما الضمير في ﴿أروهم﴾ وفي ﴿قالوا﴾ فقال الطبري^(١) وغيره: هو للكفار، وقال بعضهم: بل المعنى بالعكس، وإنما المعنى وإذا رأى المؤمنون الكفار قالوا: ﴿إن هؤلاء لصالون﴾، وما أزيل المؤمنون حافطين على الكفار، وهذا كله منسوخ على هذا التأويل، * ت * : والأول أظهر.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٥) هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله تعالى: ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي: إلى أعدائهم في النار، قال كعب: لأهل الجنة كوى ينظرون منها^(٢)، وقال غيره: بينهم جسم عظيم شفاف يرون معه حالهم، * ت * : قال الهروي: قوله تعالى: ﴿على الأرائك ينظرون﴾، قال أحمد بن يحيى: الأريكة: السرير في الحجلة ولا يسمى منفرداً أريكة، وسمعت الأزهري يقول: كل ما أتكىء عليه فهو أريكة، انتهى، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: جزاء ما كانوا يفعلون، و﴿هل ثوب﴾ تقرير وتوقيف للنبي ﷺ وأُمَّتِهِ.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٠٢/١٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٢/١٢)، (٣٦٧١١)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤٦٢/٤)، وابن عطية (٥/٤٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٥/٤)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة عن كعب.

[تفسير] سُورَةُ «الانشقاق»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِلاَ خِلَافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) ﴿

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ الآية، هذه أوصاف يوم القيامة و﴿أذنت﴾ معناه: استمعت وسمعت أمر ربها؛ ومنه قوله ﷺ: «ما أذن الله لشيءٍ أذنه لِنَبِيِّ يَتَعَنَّى بِالْقُرْآنِ»، و﴿حقت﴾^(١) قال ابن عباس: معناه: وحق لها أن تسمع وتطيع^(٢)، ويحتمل أن يريد: وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى، ومد الأرض هي إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عوج ولا أمت، وفي الحديث: «تُمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ»، و﴿أَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ يعني: من / الموتى؛ ٢١٦ ب قاله الجمهور. وخرَّج الختلي أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم في كتاب «الديباج» له بسنده عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله - عز وجل -: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ قال: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ فَأَجْلِسُ جَالِسًا فِي قَبْرِي، فَيُفْتَحُ لِي بَابٌ إِلَى السَّمَاءِ بِحِجَالِ رَأْسِي حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الْعَرْشِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ مِنْ تَحْتِي؛ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ؛ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الثَّرَى، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنَازِلِ أَصْحَابِي، وَإِنَّ الْأَرْضَ تَحَرَّكَتْ تَحْتِي فَقُلْتُ: مَا لَكَ أَيْتُهَا الْأَرْضُ؟ قَالَتْ: إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُلْقِيَ مَا فِي جَوْفِي، وَأَنْ أَتَخَلَّى؛ فَأَكُونُ كَمَا كُنْتُ؛ إِذْ لَا شَيْءَ فِيَّ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، و﴿أذنت لربها وحقت﴾ أي: سمعت وأطاعت، وحق لها أن تسمع وتطيع^(٣)، الحديث، انتهى من «التذكرة»^(٤)، و﴿تخلت﴾ معناه خلَّتْ عَمَّا كَانَ فِيهَا لَمْ تَتَمَسَّكْ مِنْهُمْ بشيء.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٤٥٦).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤٧)، وعزاه إلى أبي القاسم الختلي في «الديباج».

(٤) ينظر: «التذكرة» (١/٢٥١).

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْبُورِ كِنْدَةً كَنُتَبُ بِسَمِيَّةٍ﴾ (٧)
 فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠)
 فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) ﴿

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ...﴾ الآية، الكادح: العامل بشدة واجتهاد، والمعنى: إنك عامل خيراً أو شراً، وأنت لا محالة ملاقيه، أي: فكن على حذر من هذه الحال، واعمل صالحاً تجده، وأما الضمير في ﴿ملاقيه﴾ فقال الجمهور: هو عائذ على الرب تعالى، وقال بعضهم: هو عائذ على الكدح * ت *: وهو ظاهر الآية، والمعنى ملاق جزاءه، والحساب اليسير: هو العرض؛ ومن ثوقش الحساب هلك؛ كذا في الحديث الصحيح، وعن عائشة: هو أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه، ونحوه في الصحيح عن ابن عمر، انتهى، وفي الحديث/ عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بغض صلاته: «اللَّهُمَّ حَاسِبِي حِسَابًا يَسِيرًا، فَلَمَّا اتَّصَرَفَ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْحِسَابُ الْيَسِيرُ؟ قَالَ: أَنْ يَنْظُرَ فِي كِتَابِهِ وَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ؛ إِنَّهُ مَنْ ثَوَّقَشَ الْحِسَابَ - يَا عَائِشَةُ - يَوْمَئِذٍ هَلَكَ، وَكُلُّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَةُ تَشُوكُهُ» (١)، قال صاحب «السلح»: رواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح على شرط مسلم، انتهى، وروى ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا، هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ قال عز الدين بن عبد السلام في اختصاره لـ «رعاية المحاسبي»: أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفس فيما سلف من الأعمال وفيما يستقبل منها، «فَالْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ»، انتهى.

﴿وينقلب إلى أهله﴾ أي: الذين أعدهم الله له في الجنة، وأما الكافر فروي أن يده تدخل من صدره حتى تخرج من وراء ظهره فيأخذ كتابه بها.

و﴿يدعوا ثبوراً﴾ معناه: يصيح متنجساً: وا ثبوراه؛ وا حزناه، ونحو هذا، والثبور اسم جامع للمكارة، كالويل.

(١) أخرجه أحمد (٤٨/٦)، وابن خزيمة (٣٠/٢)، جماع أبواب الكلام المباح في الصلاة والدعاء والذكر، ومسألة الرب عز وجل - وما يضاها هذا ويقاربه: باب مسألة الرب جل وعلا - في الصلاة محاسبة يسيرة، إذ المحاسبة بجميع ذنوبه والمناقشة به تهلك صاحبها (٨٤٩)، والحاكم (٥٧/١ - ٢٥٥)، (٤/ ٢٤٩، ٥٨٠).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه بهذا اللفظ، إنما اتفقا على حديث أبي مليكة، ومن ثوقش الحساب عذب، ووافقه الذهبي.

﴿إِنَّمَا كَانَ فِي آهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) ﴿إِنَّمَا ظَنَّ أَنَّ لَن يَحُورَ﴾ (١٤) ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥) ﴿

وقوله تعالى: ﴿إِنَّه كان في أهله﴾ يريد في الدنيا، ﴿مسروراً﴾ أي: تملكه ذلك لا يدري إلا السرور بأهله دون معرفة ربه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّه ظن أن لن يحور﴾ معناه: أن لن يرجع إلى الله مبعوثاً محشوراً، قال ابن عباس: لم أعلم ما معنى ﴿يحور﴾؛ حتى سمعتُ امرأةً أعرابيةً تقول لبنيّة لها: حوري؛ أي: أزجي^(١)، * ص * : ﴿بلى﴾ إيجابٌ بعد النفي، أي: بلى؛ ليحورن أي: ليرجعن، انتهى.

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشفقِ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٩) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥) ﴿

وقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ «لا» / زائدة وقيل: «لا» رد على أقوال الكفار، ٢١٧ ب و ﴿الشفق﴾ الحُمْرة التي تَغُبُّ غَيْبُوبَةَ الشمس مع البياض التابع لها في الأغلب، و ﴿وسق﴾ معناه: جُمِعَ وَضُمَ ومنه الوَسْقُ أي: الأضْوَغُ المجموعَةُ، والليل يَسِقُ الحيوانَ جملةً أي: يجمعها ويضمُّها، وكذلك جميعُ المخلوقات التي في الأرض والهواء من البحار والجبال والرياح وغير ذلك، واتساقُ القمر كماله وتماؤه بدرأ، والمعنى امتلاً من النور، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: «لَتَرْكَبُنَّ» - بضم الباء^(٢) - والمعنى: لتركبنَّ الشدايد: الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال، و«عن» تعجُّ بمعنى «بعد» كما يقال: ورث المجد كائناً عن كائناً، وقيل: غير هذا، وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير: «لَتَرْكَبُنَّ»^(٣) - بفتح الباء - على معنى أنت يا محمد، فقيل: المعنى حالاً بعد حالٍ من معالجة الكفار، وقال ابن عباس:

(١) أخرجه الطبري (٥٠٩/١٢) (٣٦٧٤٦)، وذكره ابن عطية (٤٥٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٨٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٨/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس بنحوه.

(٢) وقرأ بها عاصم.

ينظر: «السبعة» (٦٧٧)، و«الحجة» (٣٩١/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٥٥/٢)، و«معاني القراءات»

(١٣٤/٣)، و«شرح الطيبة» (١٠٥/٣)، و«العنوان» (٢٠٥)، و«حجة القراءات» (٧٥٦)، و«شرح شعلة»

(٦٢١)، و«إتحاف» (٦٠٠/٢).

(٣) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

سماء بعد سماء في الإسراء^(١)، وقيل: هي عِدَّة بالنَّصْرِ أي لتركبن أمر العرب قَبِيلًا بعد قَبِيل؛ كما كان، وفي البخاري عن ابن عباس: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ حالاً بَعْدَ حَالٍ؛ هَكَذَا قَالَ نَبِيُّكُمْ ﷺ^(٢)، انتهى، ثم قال تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾، أي: ما حجتهم مع هذه البراهين الساطعة، و﴿يوعون﴾ معناه: يَجْمَعُونَ من الأعمال والتكذيب كأنهم يجعلونها أوعية، تقول وَعَيْتُ العلم، وَأَوْعَيْتُ المتاع، و﴿ممنون﴾ معناه: مقطوع.

(١) أخرجه الطبري (٥١٥/١٢) عن الحسن، وأبي العالية، برقم: (٣٦٨٠٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٩/٦)، وعزاه للطيالسي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس بنحوه.
(٢) أخرجه الطبراني (١٠١/١١)، (١١١٧٣).

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «الْبُرُوجِ»

وَهِيَ مَكْنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّمْلَةَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَالشَّاهِدِ وَمَشْهُودِ ﴿٣﴾﴾

الجمهور: أنَّ «البروج» هي المنازل التي عَرَفَتْهَا العربُ، وقد تقدم الكلامُ عليها،
﴿واليوم الموعود﴾: هو يومُ الْقِيَامَةِ باتفاق؛ كما جاء في الحديث، وإنما اختلفَ الناسُ في
الشاهد والمشهدِ اختلافاً كثيراً، فقال ابن عباس: الشاهد: الله / والمشهد: يومُ
القيامة^(١)، وقال الترمذي: الشاهد: الملائكةُ الحفظةُ، والمشهد [أي] عليه: الناسُ، وقال
أبو هريرة عن النبي ﷺ: الشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة، * ت * : ولو صحَّ
لوجب الوقوفُ عنده.

﴿قُتِلَ أَحَبُّ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتَ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُرِّعَتْهَا فُجُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ معناه فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ؛ لأنَّهم أهل له؛
فهو على جهة الدعاء بحسبِ البشر، لا أنَّ الله يدعُو على أحدٍ، وقيل عن ابن عباس: معناه
لُعِنَ وهذا تفسِيرٌ بالمعنى، وقال الثعلبي: قال ابن عباس: كل شيء في القرآن ﴿قُتِلَ﴾ فهو:
لُعِنَ، انتهى^(٢)، وقيل: هو إخبارٌ بأنَّ النَّارَ قَتَلَتْهُمْ؛ قاله الربيع بن أنس^(٣)، * ص * :
وجوابُ الْقَسَمِ محذوفٌ أي: والسماءُ ذاتُ البروجِ لَتُبْعَثُنَّ، وقال المبرد: الجواب: ﴿إن
بطش ربك لشديد﴾، وقيل الجواب: ﴿قُتِلَ﴾ واللامُ محذوفةٌ أي: لَقُتِلَ، وإذا كانَ ﴿قتل﴾

(١) أخرجه الطبري (١٢/٥٢٢)، (٣٦٨٦٤)، وذكره البغوي (٤/٤٦٧)، وابن عطية (٥/٤٦٠)، والسيوطي
في «الدر المنثور» (٦/٥٥٣)، وعزاه لابن جرير.

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٤٦١).

(٣) ذكره ابن عطية (٥/٤٦١).

هو الجواب فهو خَبَرُ انتهى، وصَاحِبُ الأخدود: مذكور في السِّير وغيرها وحديثه في مُسَلِّمٍ مُطَوَّلٌ وهو مَلَكٌ دَعَا الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ إِلَى الرَّجُوعِ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى دِينِهِ، وَخَذَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَادِيدَ طَوِيلَةً؛ وَأَضْرَمَ لَهُمْ نَاراً وَجَعَلَ يَطْرَحُ فِيهَا مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ؛ حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا صَبِيٌّ فَتَقَاعَسَتْ؛ فَقَالَ لَهَا الطِّفْلُ: يَا أُمُّهُ؛ اضْبِرِّي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ، فَافْتَحَمَتِ النَّارَ.

وقوله: ﴿النار﴾ بدلٌ من الأخدود وهو بدلٌ اشتمالٍ، قال * ع^(١): وقال الربيع بن أنس وأبو إسحاق وأبو العالية: بعث الله على أولئك المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم أو نحو هذا، وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود؛ وعلى هذا يجيء ﴿قتل﴾ خبراً لا دعاء^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (١١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١٢) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٣)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية، فَتَنُوهُمْ، أي: أحرقوهم، * ت: قال الهروي: قوله تعالى: ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ أي: لهم / عذاب لكفرهم وعذاب بإخراقهم المؤمنين، انتهى، قال * ع^(٣): وَمَنْ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ آيَاتِ الْأَوَاخِرِ فِي قَرِيشٍ جَعَلَ الْفِتْنَةَ الْامْتِحَانَ وَالْعَذِيبَ، وَيَقْوِي هَذَا التَّأْوِيلَ بَعْضُ التَّقْوِيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾، لِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ فِي قَرِيشٍ أَشْبَهَ مِنْهُ فِي أَوْلَئِكَ، وَالْبَطْشُ: الْأَخْذُ بِقُوَّةٍ.

﴿إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ (١٣) وَهُوَ الْفُتُورُ الْوُدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجَنُودِ (١٧) رِيعُونَ وَشُعُودٌ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

وقوله: ﴿إنه هو يبدى ويعيد﴾ قال الضحاك وابن زيد: معناه: يُبْدِي الخلق بالإنشاء، وَيُعِيدُهُم بِالْحَشْرِ^(٤)، وقال ابن عباس ما معناه: إِنَّ ذَلِكَ عَامٌ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٢/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥٢٥/١٢)، (٣٦٨٧٥) عن الربيع بن أنس، وذكره البغوي (٤٧٠/٤)، وابن عطية (٤٦٢/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٩٦/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٢/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٥٢٨/١٢) عن الضحاك، برقم: (٣٦٨٨٥)، وعن ابن زيد برقم: (٣٦٨٨٦)، وذكره ابن عطية (٤٦٢/٥).

فهي عبارة على أنه يفعل كل شيء، أي: يُبْدِي كل ما يُبْدَأ وَيُعِيد كل ما يُعَاد، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأشياء^(١)، و﴿الجنود﴾ الجموع، و﴿فرعون﴾ و﴿ثمود﴾ في موضع خفض على البدل من الجنود، ثم ترك القول بحالِهِ، وأضرب عنه إلى الإخبار بأن هؤلاء الكفار بمحمدٍ وشرعه؛ لا حجةَ لهم ولا رهان؛ بل هو تكذيبٌ مُجرَّدٌ سببه الحسدُ، ثم تَوَعَّدَهم سبحانه بقوله: ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي: عذابُ الله ونقمته من ورائهم، أي: يأتي بَعْدَ كفرهم وعُصيانهم، وقرأ الجمهور: «في لوح محفوظ» بالخفضِ صفةً لـ «لوح» وقرأ نافع^(٢): «محفوظ» بالرفع، أي: محفوظ في القلوب لا يدركه الخطأ والتبديل.

(١) ذكره ابن عطية (٤٦٢/٥).

(٢) ينظر: «السبعة» (٦٧٨)، و«الحجة» (٣٩٦/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٥٨/٢)، و«معاني القراءات» (١٣٦/٣)، و«شرح الطيبة» (١٠٦/٦)، و«العنوان» (٢٠٦)، و«حجة القراءات» (٧٥٧)، و«شرح شملة» (٦٢١)، و«إتحاف» (٦٠١/٢).

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «الطَّارِقِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِلَّاهِ خِلَافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾

أقسم الله تعالى بالسماء المعروفة في قول الجمهور، وقيل: السماء هنا هو المطر،
 ﴿والطارق﴾: الذي يأتي ليلاً، ثم فسّر تعالى هذا الطارق بأنه: ﴿النجم الثاقب﴾ واختلّف
 في ﴿النجم الثاقب﴾ فقال الحسن/ بن أبي الحسن ما معناه؛ أنه اسم جنس؛ لأنها كلّها
 ١٢١٩ ثاقبة، أي: ظاهرة الضوء، يقال: ثَقَبَ النَجْمُ إِذَا أَضَاءَ^(١)، وقال ابن زيد: أَرَادَ نَجْماً
 مخصوصاً؛ وهو زُحَلُ^(٢)، وقال ابن عباس: أَرَادَ الْجُذْيَ^(٣)، وقال ابن زيد أيضاً: هو
 الثُّرَيَّا^(٤)، وجواب القسم في قوله: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ...﴾ الآية، و«إِنْ» هي المخففة من
 الثقيلة، واللام في «لَمَّا» لا تأكيد الداخلة على الخبر؛ هذا مذهب خُذَّاقِ البصريين، وقال
 الكوفيون «إِنْ» بمعنى «ما» النافية، واللام بمعنى «إلا» فالتقدير: ما كل نفس إلا عليها
 حافظ، ومعنى الآية فيما قال قتادة وغيره: إِنَّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَكْلُفَةً حَافِظاً يُخَصِّي أَعْمَالَهَا
 وَيُعِدُّهَا لِلْجَزَاءِ عَلَيْهَا^(٥)، وقال أبو أمامة قال النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: «إِنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ
 حَفَظَةً مِنَ اللَّهِ يَذْبُونُ عَنْهَا كَمَا يَذْبُ عَنْ قَضْعَةِ الْعَسَلِ الذُّبَابُ، وَلَوْ وَكِلَ الْمَرْءُ إِلَى نَفْسِهِ
 طَرْفَةً عَيْنٍ لَاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ».

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَلٍّ ذَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾

- (١) ذكره ابن عطية (٤٦٤/٥).
- (٢) أخرجه الطبري (٥٣٣/١٢)، وذكره ابن عطية (٤٦٤/٥).
- (٣) ذكره ابن عطية (٤٦٤/٥).
- (٤) أخرجه الطبري (٥٣٣/١٢)، وذكره البغوي (٤٧٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٦٠)، وعزاه لابن جرير.
- (٥) أخرجه الطبري (٥٣٤/١٢)، وذكره ابن عطية (٤٦٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٦٠)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ توقيفٌ لمنكري البعث على أصل الخلق الدال على أن البعث جائزٌ ممكن، ثم بادَرَ اللفظ إلى الجواب اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة، فقال: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ يخرج من بين الصلب والترائب ﴿قال الحسن وغيره: معناه: من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة، وترايبه^(١)، وقال جماعة: من بين صلب الرجل وترائب المرأة [والتريبة من الإنسان: ما بين الترقوة إلى الثدي، قال أبو عبيدة معلق الحلي إلى الصدر، وقيل غير هذا]^(٢)﴾.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (٨) ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩) ﴿فَأَلَمْ يَنْفَخْ فِي قُودٍ وَلَا نَافِثٍ﴾ (١٠) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (١١) ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّلْعِ﴾ (١٢) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (١٣) ﴿وَمَا هُوَ بِالْفَزْلِ﴾ (١٤) ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦) ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُكُمُ رُؤُوسًا﴾ (١٧) ﴿

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾^(٣) على رجعه لقادر ﴿قال ابن عباس وقتادة: المعنى أن الله على رد الإنسان حياً بعد موته لقادر^(٤)، وهذا أظهر الأقوال هنا وأبينها، و﴿دافق﴾ قال كثير من المفسرين: هو بمعنى مذقوق، والعامل في ﴿يوم﴾ الرجوع من قوله: ﴿على رجعه﴾.

و﴿تبلى السرائر﴾ معناه تُختبر وتكشف بواطنها، وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ: أن السرائر التي يتبليها الله من العباد: التوحيد، والصلاة، والزكاة، والغسل من الجنابة، قال ٢١٩ ب ع^(٥) * وهذه معظم الأمور، وقال قتادة: الوجه في الآية العموم في جميع السرائر^(٦)، ونقل ابن العربي في «أحكامه» عن ابن مسعود: أن هذه المذكورات [من] الصلاة والزكاة والوضوء والوديعة كلها أمانة، قال: وأشد ذلك الوديعة تمثل له، أي: لمن خانها على هيئتها يوم أخذها فترمى في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها فيجعلها في عنقه فإذا أراد أن يخرج بها زلت منه فيتبعها؛ فهو كذلك دهر الداهرين، انتهى، * ت * قال أبو عبيد الهروي: قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ الواحدة سريرة وهي الأعمال التي أسرها

(١) ذكره ابن عطية (٤٦٥/٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤٦٥/٥).

(٣) سقط في: د.

(٤) أخرجه الطبري (٥٣٧/١٢)، (٣٦٩٣٧) عن قتادة، وذكره البغوي (٤٧٣/٤)، وابن عطية (٤٦٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦١/٦)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة بنحوه.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٦/٥).

(٦) ذكره ابن عطية (٤٦٦/٥).

العباد، انتهى، و﴿الرجع﴾ المطر وماؤه، وقال ابن عباس: الرجع: السحاب فيه المطر^(١)، قال الحسن: لأنه يزج بالرزق كل عام^(٢)، وقال غيره: لأنه يرجع إلى الأرض، و﴿الصّدع﴾ النبات؛ لأن الأرض تتصدع عنه، والضمير في ﴿إنه﴾ للقرآن، و﴿فصل﴾ معناه: جزم فصل الحقائق من الأباطيل، و﴿الهزل﴾ اللعيب الباطل، ثم أخبر تعالى عن قريش أنهم يكيدون في أفعالهم وأقوالهم بالنبي - عليه السلام -، و﴿أكيد كيداً﴾ وهذا على ما مر من تسمية العقوبة باسم الذنب، و﴿رويداً﴾ معناه: قليلاً؛ قاله قتادة^(٣)، وهذه اللفظة؛ إذا تقدمها شيء تصفه كقولك: سيراً رويداً، أو تقدمها فعل يعمل فيها كهذه، وأما إذا ابتدأت بها فقلت: رويداً يا فلان؛ فهي بمعنى الأمر بالتماهل، * ص * : ﴿رويداً﴾ قال أبو البقاء: نعت لمصدر محذوف، أي: إمهالاً رويداً، و﴿رويداً﴾ تصغير «رؤد» وأنشد أبو عبيدة: [البيسط]

يَمْشِي وَلَا تَكَلِّمُ الْبَطَحَاءَ مَشِيَّتَهُ كَأَنَّهُ تَمِلُ يَمْشِي عَلَى رَوْدِ
أي: على مهل ورفق، انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٥٣٨/١٢)، (٣٦٩٤٤)، وذكره ابن عطية (٤٦٦/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٤٩٨).

(٢) أخرجه الطبري (٥٣٨/١٢)، (٣٦٩٤٧)، وذكره ابن عطية (٤٦٦/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٥٤١/١٢)، (٣٦٩٦٧)، وذكره ابن عطية (٤٦٧/٥).

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «الأعلى»

/ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) ﴿

﴿سَبِّحْ﴾ في هذه الآية بمعنى: نَزَّهَ وَقَدَّسَ وَقُلَّ: جَلَّ سُبْحَانَهُ عَنِ النِّقَائِصِ وَالْغَيْرِ جَمِيعاً، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»^(١)، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَمْرٍ وَابْنُ الزَّبِيرِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَلَمَّا نَزَلَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»^(٢)، وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَفْتِيحُ دُعَاءً إِلَّا اسْتَفْتَحَهُ بِ«سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى الْوَهَّابِ»^(٣) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، انْتَهَى مِنْ «سَلَاحِ الْمُؤْمِنِ».

و«سَوَّى» مَعْنَاهُ: عَدَّلَ وَاتَّقَنَ.

وقوله: ﴿فَهَدَى﴾ عامٌ لوجوه الهداياتِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ، وَقَالَ الْفَرَاءُ: مَعْنَاهُ هَدَى وَأَضَلَّ؛ وَالْعَمُومُ فِي الْآيَةِ أَصُوبٌ، وَ«الْمَرْعَى»: النَّبَاتُ، وَ«الْغُثَاءُ»: مَا يَبْسُ وَجَفَّ وَتَحَطَّمَ مِنَ النَّبَاتِ؛ وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُ السَّيْلُ، وَ«الْأَحْوَى» قِيلَ هُوَ الْأَخْضَرُ الَّذِي عَلَيْهِ سَوَادٌ مِنْ شِدَّةِ الْخُضْرَةِ وَالْغَضَارَةِ، فَتَقْدِيرُ الْآيَةِ: الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أَحْوَى أَيَّ أَسْوَدَ مِنْ خَضْرَتِهِ وَغَضَارَتِهِ فَجَعَلَهُ غُثَاءً عِنْدَ يُبْسِهِ ف«أَحْوَى» حَالٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَعْنَى: فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى أَيَّ أَسْوَدَ؛ لِأَنَّ الْغُثَاءَ إِذَا قَدِمَ وَأَصَابَتْهُ الْأَمْطَارُ اسْوَدَّ وَتَغَعَّنَ

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٦/٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٩٨/١). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

فَصَارَ أَحْوَى، فَهَذَا صِفَةٌ^(١).

﴿سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ① إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ⑦

وقوله تعالى: ﴿سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ قال الحسن وقتادة ومالك بن أنس: هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ...﴾ [القيامة: ١٦] الآية، وَعَدَهُ اللَّهُ أَنْ يُقْرِئَهُ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَا يَنْسَى نَسْيَانًا لَا يَكُونُ بَعْدَهُ ذِكْرٌ^(٢)، وقيل: بل المعنى: أنه أمره تعالى بأن لا يَنْسَى على معنى التَّثْبِيثِ والتأكيد، وقال الجنيدي: معنى ﴿لَا تَنْسَى﴾ لَا تُتْرَكِ الْعَمَلُ/ بما تَضُمَّنَ مِنْ أَمْرِ ونهي.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال الحسن وغيره: معناه: مما قَضَى اللَّهُ بِنَسْخِهِ وَرَفَعَ تِلَاوَتَهُ وَحُكْمَهُ^(٣)، وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: أَنْ يُنْسِيَكَ؛ لِيُسْنِ بِهِ^(٤)؛ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «إِنِّي لَأَنْسَى أَوْ أُنْسَى لِأُسْنٍ». قَالَ * ع^(٥) * : وَنَسْيَانُ النَّبِيِّ ﷺ مَمْتَنٌّ فِيمَا أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ؛ إِذْ هُوَ مَعْصُومٌ فَإِذَا بَلَغَهُ وَوَعَى عَنْهُ؛ فَالنَّسْيَانُ جَائِزٌ عَلَى أَنْ يَتَذَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ عَلَى أَنْ يُسْنَّ، أَوْ عَلَى النِّسْخِ.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ⑧ فَذَكَرْ إِن نَفَعْتَ الذِّكْرَى ⑨ سَيَذَكَّرُكَ مَنْ يَخْشَى ⑩ وَنَجِّنِيهَا الْأَشَقَى ⑪
الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكَرَى ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ⑬

وقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ معناه: نَذْهَبُ بِكَ نَحْوَ الْأُمُورِ الْمُسْتَحْسَنَةِ فِي دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَرِفْعَةِ الرِّسَالَةِ وَعِلْوِ الْمَنْزِلَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالرَّفْعَةِ فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَمَرَهُ تَعَالَى بِالتَّذْكِيرِ، قَالَ بَعْضُ الْحَذَّاقِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى﴾ اغْتِرَاضُ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ لِقَرِيشٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَذَكَّرُكَ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلُّ بِقَدْرِ مَا وَفَّقَ لَهُ، وَيَتَجَنَّبُ الذِّكْرَى وَتَفْعَاهَا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ.

(١) أخرجه الطبري (٥٤٤/١٢)، (٣٦٩٧٧)، وذكره ابن عطية (٤٦٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٠٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٦/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٥٤٥/١٢) عن قتادة، برقم: (٣٦٩٨٢)، وابن عطية (٤٦٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٠٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٧/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (٥٤٥/١٢)، (٣٦٩٨١) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٤٦٩/٥).

(٤) ذكره أبو حيان (٤٥٣/٨)، وذكره ابن عطية (٤٦٩/٥).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٦٩/٥).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ١٤ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ١٥ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ١٦ ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ ١٧ ﴿وَابْقَى﴾

و﴿تَزَكَّى﴾ معناه: طَهَّرَ نَفْسَهُ ونماها بالخير، وَمِنْ «الأربعين حديثاً» المسندة لأبي بكر محمد بن الحسين الأجرى الإمام المحدث قال في آخرها: وحديث تمام الأربعين حديثاً؛ وهو حديث كبير جامع لكل خير؛ حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي إماماً في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين؛ قال: حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال: حدثني أبي عن جدي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال: «دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، لِلْمَسْجِدِ تَحِيَّةٌ، وَتَحِيَّتُهُ رَكْعَتَانِ؛ فَمِمَّا فَازَكُغُهُمَا، قَالَ: فَلَمَّا رَكَعْتُهُمَا، جَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ أَمَرْتَنِي بِالصَّلَاةِ، فَمَا الصَّلَاةُ؟/ قَالَ: خَيْرٌ مَوْضُوعٌ، فَأَسْتَكْخِزُ أَوْ أَسْتَقِيلُ» الحديث، وفيه: «قُلْتُ: ١٢٢١ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كِتَابًا أَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -؟ قَالَ: مِائَةٌ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةٌ كُتِبَ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ: عَلَى شَيْثَ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى خَانُوحَ ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَةِ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ، وَالزَّبُورَ، وَالْفُرْقَانَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: كَانَتْ أَمْثَالاً كُلُّهَا: أَيْهَا الْمَلِكُ الْمُسَلِّطُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ، إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلِكَيْ بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنِّي لَا أَرُدُّهَا وَلَوْ مِنْ كَافِرٍ، وَكَانَ فِيهَا أَمْثَالٌ: وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَةٌ يُتَاجَى فِيهَا رَبُّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُفَكِّرُ فِي صُنْعِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَيْهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يَكُونَ ظَالِمًا إِلَّا لِثَلَاثٍ: تَزُودَ لِمَعَادٍ، أَوْ مَوْدَةَ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةً فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَانِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، وَمَنْ حَسِبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ؛ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَغْنِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى؟ قَالَ: كَانَتْ عِبْرًا كُلُّهَا: عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلَّبَهَا بِأَهْلِهَا؛ ثُمَّ أَطْمَأَنَّ إِلَيْهَا، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَدًا ثُمَّ لَا يَغْمَلُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَلْ فِي أَيْدِينَا شَيْءٌ مِمَّا كَانَ فِي أَيْدِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى؛ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَفْرَأُ يَا أَبَا ذَرٍّ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿إِلَى آخِرِ هَذِهِ﴾ [السورة] - ٢٢١ ب

يعني: أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَاتِ لَفِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى - قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَأَوْصِنِي، قَالَ: أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ زِدْنِي؛ قَالَ: عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ لَكَ فِي السَّمَاءِ

وَنُورُكَ فِي الْأَرْضِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ: وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةُ الصَّحَابِ؛ فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَيَذْهَبُ بِنُورِ الْوَجْهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ زِدْنِي، قَالَ: عَلَيْكَ بِالْجَهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةٌ أُمِّيَّةٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ زِدْنِي، قَالَ: عَلَيْكَ بِالصُّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ؛ فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ وَعَوْنٌ لَكَ عَلَى أَمْرِ دِينِكَ^(١) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي: وَحَدَّثَهُ وَصَلَّى لَهُ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةَ وَغَيْرَهَا، وقال أبو سعيد الخدري وغيره: هذه الآية نزلت في صَبِيحَةِ يَوْمِ الْفِطْرِ^(٢)، فـ﴿تَرْكَيْ﴾: أَدَّى زَكَاةَ الْفِطْرِ، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ في طريق المصلي، وصلى صلاة العيد، ثم أخبر تعالى الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، وسبب الإيثار حب العاجل والجهل ببقاء الآخرة وفضلها، وروينا في كتاب الترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أَسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ الْإِسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»^(٣) انتهى، قال الغزالي: وإيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ثم بيّن سبحانه أن الشرّ قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال: ﴿إِنْ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ * صحف إبراهيم وموسى، انتهى من «الإحياء».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (٥/٤٧٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/٦٣٧)، كتاب «صفة القيامة» باب: (٢٤) (٢٤٥٨)، وأحمد (١/٣٨٧)، والحاكم (٤/٣٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٠٩)، والشجري في «الأمالي» (٢/١٩٦ - ١٩٧)، والطبراني في «معجمه الكبير» (١٠/١٠٢٩٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد ا هـ.

قال المزي في «تهذيب الكمال» (٥/٢): قال أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز البغدادي، عن يحيى بن معين: ليس به بأس، وقال أحمد بن عبد الله العجلي: ثقة. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك ا هـ من «تهذيب الكمال»، وقال أيضاً عن الصباح بن محمد بن أبي حازم البجلي (١٣/١١٠) من «تهذيب الكمال»: روى له الترمذي حديثاً واحداً عن مرة عن ابن مسعود: «استحيوا من الله حق الحياء». وقال: غريب إنما نعرفه من هذا الوجه. ا هـ. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وللحديث شاهد من حديث الحكم بن عمير، أخرجه الطبراني (٣/٢٤٦)، (٣١٩٢). قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٧٨): رواه الطبراني وفيه عيسى بن إبراهيم القرشي، وهو متروك.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) ﴿صُحُفٍ إِنْزَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٩)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ قال ابن زيد: الإشارة بـ«هَذَا» إلى هذين الخبرين: إفلاح مَنْ تَزَكَّى، وإيثارِ الناسِ للدنيا مَعَ فَضْلِ الآخرةِ عليها، وهذا هو الأرجحُ لقرب المشارِ إليه^(١)، وعن أبي بن كعب قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يقرأُ في الوُثْرِ بـ«سبح اسم ربك الأعلى» و«قل يأيها الكافرون» و«قل هو الله أحد»؛ فإذا سَلَّمَ قال: سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ؛ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَمُدُّ صَوْتَهُ فِي الثَّالِثَةِ، وَيَرْفَعُ، رواه أبو داود والنسائي؛ وهذا لفظه، ورواه الدارقطني في سُنَنِهِ، ولفظه: «فَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ فِي الْأَخِيرَةِ، وَيَقُولُ: رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»، انتهى من «السلاح»، قال النووي وَرَوَيْنَا فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» وَ«الترمذي» وَ«النسائي» عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ وَثْرِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عِقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢) قَالَ الترمذي: حديث حسن، انتهى.

(١) أخرجه الطبري (١٢/٥٤٩)، (٣٧٠٠١)، وذكره ابن عطية (٥/٤٧١)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٠٢) بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الغَاشِيَةِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشَعَةٌ﴾ (٢)

قال بعض المفسرين: ﴿هَلْ﴾ بمعنى «قَدْ» وقال الحُذَاق: هي على بابها توقيفٌ فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقّي الخبر، و﴿الغَاشِيَةِ﴾ القيامة، لأنها تَغْشَى العالم كله بهولها، والوجوه الخاشعة هي وجوه الكفار وخشوعها ذلّها وتغييرها بالعذاب.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٣) ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) ﴿شَقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ (٥) ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) ﴿لَا يَسْنُوْنَ وَلَا يَنْفَى مِنْ جُوعٍ﴾ (٧) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (٨) ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ (٩) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٠)

وقوله سبحانه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قال الحسن وغيره: لم تعمل لله في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار، والنَّصَبُ التَّعَبُ^(١)، وقال ابن عباس وغيره: المعنى عاملة في الدنيا ناصبة فيها على غير هدى فلا ثمرة لعملها، إلا النَّصَبُ، وخاتمتها النار^(٢)، قالوا: والآية في القسّيسين وكل مجتهد في كفر، وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو «تُضَلَّى» - بضم التاء والباقون بفتحها^(٣) - والآية: التي قد انتهت حرّها كما قال تعالى ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِنْ﴾ [الرحمن: ٤٤] وقال ابن زيد: آنية: حاضرة^(٤)، والضريع: قال الحسن وجماعة: هو الزقوم^(٥)، وقال ابن عباس وغيره: الضريع شبرق النار^(٦)، وقال النبي ﷺ الضريع شوك

(١) أخرجه الطبري (٥٥١/١٢) (٣٧٠١٠)، وذكره البغوي (٤٧٨/٤) بنحوه.

(٢) ذكره البغوي (٤٧٨/٤). وذكره ابن عطية (٤٧٢/٥).

(٣) ينظر: «السبعة» (٦٨١)، و«الحجة» (٣٩٩/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٦٩/٢)، و«معاني القراءات» (١٤٠/٣)، و«شرح الطيبة» (١٠٩/٦)، و«العنوان» (٢٠)، و«حجة القراءات» (٧٥٩)، و«شرح شعلة» (٦٢٢)، و«إتحاف» (٦٠٥/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٥٥٢/١٢) (٣٧٠٢٠)، وذكره ابن عطية (٤٧٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٣/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره ابن عطية (٤٧٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٣/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري (٥٥٢/١٢) (٣٧٠٢١)، وذكره البغوي (٤٧٨/٤)، وابن عطية (٤٧٣/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٣/٦)، وعزاه لعبد بن حميد عن ابن عباس.

في النار، * ت * : وهذا إن صَحَّ فلا [يُعْدَلُ] عنه، وقيل غير هذا، ولما ذَكَرَ تعالى وجوه أهل النار عَقَّبَ ذلك بذكر وجوه أهل الجنة ليبين الفرق، وقوله تعالى: ﴿لِسَعِيهَا﴾ يريد لَعْمَلِهَا في الدنيا وطاعتها، والمعنى لِقَوَابِ سَعِيهَا؛ والتَّشْعِيمُ عليه، ووصف سبحانه الجنة بالْعُلُوِّ وذلك يصح من جهة المسافة والمكان، ومن جهة المكانة والمنزلة أيضاً.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ (١١) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ (١٣)

﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ قيل: المعنى كلمة لاغية، وقيل جماعة لاغية، أو فئة لاغية، واللَّغْوُ سَقَطُ القول، قال الفخر^(١): قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية في الهواء؛ وذلك لأجل أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه الله تعالى في الجنة من النعيم والملك، قال خارجة بن مصعب: بلغنا أن بعضها فوق بعض فترتفع ما شاء الله؛ فإذا جاء ولي الله ليجلس عليها تطامنت له فإذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث شاء الله سبحانه، انتهى.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ (١٤) ﴿وَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٥) ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (١٦) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢)

﴿وأكواب موضوعة﴾ أي: بأشربتها معدة، والنمرقة: الوسادة، والزرابي: واحدها زريبة، وهي كالطنافس لها حمل؛ قاله الفراء^(٢)، وهي ملونات و﴿مبثوثة﴾ معناه كثيرة متفرقة، ثم وقفهم سبحانه على مواضع العبرة في مخلوقاته، و﴿الإبل﴾ في هذه الآية هي الجمال المعروفة هذا قول الجمهور، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل، / وكان شريح^{١٢٢} القاضي يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى الكناسة، حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت^(٣)، وقال المبرد: الإبل هنا السحاب لأن العرب قد تسميها بذلك، إذ تأتي أرسالاً كالإبل، و﴿نُصِبَتْ﴾: معناه: أُثْبِتَتْ قائمة في الهواء، وظاهر الآية أن الأرض سطح لا كرة^(٤)، وهو الذي عليه أهل العلم، وقد تقدم الكلام على هذا المعنى، ثم نفى أن يكون النبي ﷺ مُصَيِّرًا على الناس، أي: قاهرًا جابرًا لهم مع تكبر مُتَسَلِّطًا عليهم.

(١) ينظر: «الفخر الرازي» (١٤٢/٣١).

(٢) ذكره البغوي (٤٧٩/٤)، وابن عطية (٤٧٤/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٥٥٦/١٢)، (٣٧٠٤٤)، وذكره البغوي (٤٨٠/٤)، وابن عطية (٤٧٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٠٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٥/٦)، وعزه لابن حميد عن شريح بنحوه.

(٤) وهو الذي تراه العين ظاهراً، ولا يخفى أن حقيقة الأرض بيضاوية.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ قال بعض المتأولين: الاستثناء متصل، والمعنى: إلا مَنْ تولى فإِنَّكَ مُصِيطِرٌ عليه، فالآية على هذا لا تَسْخَ فيها، وقال آخرون: الاستثناء مُتَفَصِّل، والمعنى: لست عليهم بمصيطرٍ لَكِنَّ مَنْ تَوَلَّى وكفر فيعذبه الله، وهي آية مُوَادَعَةٍ مَنسُوخَةٌ بِالسَّيْفِ وهذا هو القول الصحيح؛ لأنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ وَالْقِتَالُ إِنَّمَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ * ص * : وقرأ زيد بن أسلم: «ألا من تولى»: حرف تنبيه واستفتاح، انتهى، وقال ابن العربي في «أحكامه»: روى الترمذي وغيره أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(١)، ثم قرأ: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لست عليهم بمصيطر﴾ مفسراً معنى الآية وكاشفاً خفاء الخفاء عنها، المعنى: إذا قال الناس: لا إله إلا الله فَلَنْتَ بِمَسْلُطٍ على سَرَائِرِهِمْ وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الظَّاهِرُ، وَكُلُّ سَرَائِرِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وهذا الحديث صحيح المعنى، والله أعلم، انتهى، ﴿وَإِيَابَهُمْ﴾: مصدرٌ مِنْ آبٍ يُوُوبُ: إِذَا رَجَعَ.

٢٢٢ ب

(١) أخرجه الطبري (٥٥٨/١٢)، (٣٧٠٥٧)، وذكره البغوي (٤٨١/٤)، وابن عطية (٤٧٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٨/٦)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «الْفَجْرِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَشْهُرُ

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾

الْفَجْرُ هنا عند الجمهور: هو المشهور المعروف الطالع كل يوم، وقال ابن عباس وغيره: الفجر الذي أقسم الله به صلاة الصبح، وقيل غير هذا. [واختلف في الليالي العشر فقيل: العشر الأول من رمضان، وقيل: العشر الأواخر منه، وقيل: عشر ذي الحجة، وقيل: غير هذا]^(١) والله أعلم بما أراد، فإن صحَّ عن النبي ﷺ شيء في هذا صير إليه، واختلف في «الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» ما هما؟ على أقوال كثيرة، وروى عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الصلوات منها الشَّفْعُ ومنها الوتر»^(٢)، وسري الليل: هو ذهابه وانقراضه؛ هذا قول الجمهور، وقيل: المعنى: إذا يسري فيه.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ٩﴾ فَمِنْ عَادٍ طَغَوْا ١٠﴾ فِي الْبَلَدِ ١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُرْصِدٌ ١٤﴾

﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي: هل في هذه الأقسام مُفْتَعٍ لذي عقل؟ ثم وَقَفَ تعالى على مصارع الأمم الخالية «وعاد»: قبيلة بِلَا خلاف، واختلف في: «إِرَم» فقال

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٤٠/٥)، كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة الفجر (٢٣٤٢)، وأحمد (٤/٤٣٨)، (٤٤٢/٤)، والطبراني (٢٣٢/١٨)، والحاكم (٥٢٢/٢).

قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث قتادة. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

مجاهد: هي القبيلة بعينها^(١)، وقال ابن إسحاق: إرم: هو أبو عادٍ كلها^(٢)، وقال الجمهور: إرم: مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، واختلِف في قوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ فمن قال: إرم مدينة قال: العمداء أعمدة الحجارة التي بُنيت بها، وقيل القصور العالية، والأبراج يقال لها عمداء، ومن قال إرم قبيلة قال: العمداء إما أعمدة بنيانهم، وإما أعمدة بيوتهم التي يزحلون بها؛ قاله جماعة والضمير في ﴿مِثْلُهَا﴾ يعود إما على المدينة وإما على القبيلة.

و﴿جَابُوا الصَّخْرَ﴾ معناه: خرّفوه ونَحَتْوه، وكانوا في واديهم قد نَحَتُوا بيوتهم في حجارة، و﴿فَزَعُونَ﴾ هو فزعون موسى، واختلِف في أوتاده ف قيل: أبنيتُه العالية، وقيل جنوده الذين بهم يثبت ملكه، وقيل/ المراد أوتاد أخبية عساكره، وذكرَتْ لكثرتها؛ قاله ابن عباس^(٣)، وقال مجاهد: كان يؤتد الناس بأوتادٍ حديد، يقتلهم بذلك: يضربها في أبدانهم حتّى تنفذ إلى الأرض^(٤)، وقيل: غير هذا، والصَّبُ مستعمل في السوط وإنما خُصَّ السوط بأن يُستعار للعذاب؛ لأنه يقتضي من التكرار والتّرداد ما لا يقتضيه السيف، ولا غيره وقال بعض اللّغويين: السُّوط هنا مصدر من سَاطَ يسوط إذا خلط فكَانَ قال خلط عذاب.

* ص *: قال ابن الأنباري: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ هو جواب القسم، وقيل: محذوف، وقيل: الجواب: ﴿هل في ذلك﴾ و﴿هل﴾ بمعنى «إن» وليس بشيء، انتهى، و﴿المِرْصَادُ﴾ والمَرَصْدُ: موضع الرّصد، قاله بعض اللّغويين، أي: أنّه تعالى عند لسان كل قائل ومَرَصِدٍ لكل فاعل، وإذا عَلِمَ العبد أنّ مولا له بالمرصاد ودَامَتْ مراقبته في الفؤاد، خَضِرَ الخوف والحذر لا محالة، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَغْلِبُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] قال أبو حامد في «الإحياء»: وبحسب معرفة العبد بعيوب نفسه، ومعرفة بجلال ربه وتعالیه واستغنائيه، وأنه لا يُسأل عما يفعل؛ تَكُونُ قُوَّةُ خوفه، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذا قال ﷺ: «أنا أخوفكم لله»، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ثم إذا كَمَلَتِ المعرفة أورشَتِ الخوف واختراق القلب، ثم

(١) ذكره ابن عطية (٤٧٧/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٥٦٧/١٢)، (٣٧١٣٠)، وذكره البغوي (٤٨٢/٤)، وابن عطية (٤٧٧/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٠٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٣/٦)، وعزاه لابن المنذر عن السدي.

(٣) ذكره ابن عطية (٤٧٨/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٥٧٠/١٢)، (٣٧١٥٠)، وذكره ابن عطية (٤٧٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٠٨) بنحوه.

يُفِيضُ أَثْرَ الْحُرْقَةِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى الْبَدَنِ فَتَنْقِمُ الشَّهَوَاتُ، وَتَحْتَرِقُ بِالْخَوْفِ، وَيَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ الذَّبُولُ وَالْخَشُوعُ وَالذَّلَّةُ وَالْاسْتِكَانَةُ، وَيَصِيرُ الْعَبْدُ مُسْتَوْعِبَ الْهَمِّ بِخَوْفِهِ وَالنَّظَرِ فِي خَطَرٍ/ عَاقِبَتِهِ؛ فَلَا يَتَفَرَّغُ لغيره، وَلَا يَكُونُ لَهُ شُغْلٌ إِلَّا الْمَرَاqَبَةُ وَالْمَحَاسِبَةُ وَالْمُجَاهَدَةُ ٢٢٣ ب وَالضُّئَةُ بِالْأَنْفَاسِ وَاللَّحْظَاتِ، وَمُواخَذَةُ النَّفْسِ فِي الْخَطَرَاتِ وَالْخُطُوبَاتِ وَالْكَلِمَاتِ، ثُمَّ قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا تَنْقِمُ الشَّهَوَاتُ شَيْءً كَمَا تَنْقِمُ بَنَارُ الْخَوْفِ، انْتَهَى.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦) ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْإِنِئَمَ﴾ (١٧) ﴿وَلَا تَخْشَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ (١٨) ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاتِ أَكْلًا لَمَّا﴾ (١٩) ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠) ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٢١) ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ...﴾ الآية، ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا كَانَتْ قَرِيشٌ تَقُولُهُ وَتَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى إِكْرَامِ اللَّهِ وَهَانَتِهِ لِعَبْدِهِ، وَجَاءَ هَذَا التَّوْبِيخُ فِي الْآيَةِ لَجَنَسِ الْإِنْسَانِ، إِذْ قَدْ يَقَعُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْمَنْزَعِ، وَ﴿ابْتِلَاءٌ﴾ مَعْنَاهُ: اخْتَبَرَهُ، وَ﴿نَعَّمَهُ﴾ أَيَّ جَعَلَهُ ذَا نِعْمَةٍ.

و﴿قَدَرَ﴾ بِتَخْفِيفِ الدَّالِ بِمَعْنَى: ضَيَّقَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ رَدًّا عَلَى قَوْلِهِمْ وَمَعْتَقَدِهِمْ، أَيَّ: لَيْسَ إِكْرَامُ اللَّهِ تَعَالَى وَهَانَتُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ ابْتِلَاءٌ فَحَقُّ مِنْ ابْتِلَائِي بِالْغِنَى أَنْ يَشْكُرَ وَيَطِيعَ، وَمَنْ ابْتَلَيْتُ بِالْفَقْرِ أَنْ يَشْكُرَ وَيَصْبِرَ، وَأَمَّا إِكْرَامُ اللَّهِ فَهُوَ بِالتَّقْوَى وَهَانَتِهِ فَبِالْمَعْصِيَةِ، وَ﴿طَعَامٌ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى: إِطْعَامٌ، ثُمَّ عَدَّدَ عَلَيْهِمْ جَدَّهُمْ فِي أَكْلِ التَّرَاتِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُورَثُونَ النِّسَاءَ وَلَا صَغَارَ الْأَوْلَادِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَأْخُذُ الْمَالُ مَنْ يَقَاتِلُ وَيَحْمِي الْحَوَزَةَ، وَاللَّمَّ الْجَمْعُ وَاللَّفُّ، قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْمِيرَاثِ حَظَّهُ وَحَظَّ غَيْرِهِ^(١)، وَالْجَمُّ الْكَثِيرُ الشَّدِيدُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الرجز]

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِيرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا^(٢)
ومنه الْجَمُّ مِنَ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ الْأَرْضُ تَسْوِيهَا.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢) ﴿وَجِئْتَهُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّ لَهُ أَلَدًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) ﴿

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِي (٥٧٤/١٢)، (٣٧١٧١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّة (٤٨٠/٥)، وَالسَّيُوطِي فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥٨٦/٤)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ بِنَحْوِهِ.

(٢) تَقْدِمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ معناه جَاءَ أَمْرُهُ وقضاؤه، وقال منذرُ بْنُ سعيدٍ: معناه ظهورُهُ لِلخَلْقِ، هنالك؛ ليس مجيءً نَقْلَةً وكذلك مجيءُ الصاخَّةِ، ومجيءُ الطامة^(١)، والمَلَكُ اسم جنس يريد به جميع الملائكة، و﴿صَفَا﴾/ أي صُفُوفًا حَوْلَ الْأَرْضِ يوم القيامة على ما تقدم في غير هذا الموضع، و﴿جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ رُوِيَ في قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ بأنها تساقُ إلى المحشر بسبعين ألفَ زِمَامٍ يُمَسِّكُ كُلُّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فيخرجُ منها عُنُقٌ فينتقي الجابرة من الكفار، في حديثٍ طويلٍ باختلاف ألفاظ.

١٢٢٤

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ معناه: يتذكر عصيانه وما فاتَه من العمل الصالح، وقال الثعلبي: «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ» أي يَتَعَبَّزُ ويتوب، «وَأَنى لَهُ الذِّكْرَى»، انتهى.

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٤) ﴿فِيَوْمٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ (٢٥) وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً (٢٨) فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي (٢٩) وَأَدْخِلْ جَنِّي (٣٠)

وقوله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ قال الجمهور: معناه لحياتي الباقية يريدُ في الآخرة.

﴿فِيَوْمٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ أي لَا يُعَذِّبُ كَعَذَابِ اللَّهِ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدٌ، ويحتمل المعنى أَنَّ اللَّهَ تعالى لَا يَكِلُ عَذَابَ الْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَحَدٍ، وقرأ الكسائي - بفتح الذالِ والثاء^(٢) - أي: لَا يُعَذِّبُ كَعَذَابِ الْكَافِرِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ عَقَّبَ تعالى بذكر نفوس المؤمنين وحالهم فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآية، والمطمئنة معناه: الموقنة غاية اليقين، أَلَا تَرَى قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فهي درجةٌ زائدةٌ على الإيمانِ، واختُلِفَ في هذا النداء: متى يقع؟ فقال جماعة: عند خروجِ رُوحِ المؤمن، ورُوِيَ في ذلك حديثٌ، و﴿فِي عِبَادِي﴾ أي: فِي عِبَادِ عِبَادِي الصَّالِحِينَ، وقال قوم: النداء عند قيام الأجساد من القبور، فقوله: ﴿أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ﴾ معناه بالبعث، و﴿ادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي فِي الْأَجْسَادِ، وقيل: النداء هو الْآنَ

(١) ذكره ابن عطية (٤٨١/٥).

(٢) ينظر: «السبعة» (٦٨٥)، و«الحجة» (٤١١/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٨٠/٢)، و«معاني القراءات»

(١٤٥/٣)، و«شرح الطيبة» (١١١/٦)، و«العنوان» (٢٠٩)، و«حجة القراءات» (٧٦٣)، و«شرح شعلة»

(٦٢٤)، و«إتحاف» (٦٠٩/٢).

للمؤمنين، وقال آخرون: هذا النداء إنما هو في الموقف عندما يُنطَلَقُ بأهل النار إلى النار.
 * ت * : ولا مانع/ أن يكون النداء في جميع هذه المواطن، ولما تكلّم ابن عطاء الله في ٢٢٤ ب
 مراعاة أحوال النفس قال: رَبِّ صَاحِبِ وَزْدٍ عَطَّلَهُ عَنْ وَزْدِهِ وَالْحُضُورِ فِيهِ مَعَ رَبِّهِ هُمُ التَّدْبِيرُ
 فِي الْمَعِيشَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَصَالِحِ النَّفْسِ، وَأَنْوَاعِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ فِي التَّدْبِيرِ لَا تَنْحَصِرُ،
 وَمَتَى أَعْطَاكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْفَهْمَ عَنْهُ عَرَفْتَكَ كَيْفَ تَصْنَعُ، فَأَيُّ عَبْدٍ تَوَقَّرَ عَقْلُهُ وَاتَّسَعَ نَوْرُهُ
 نَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ مِنْ رَبِّهِ فَسَكَنَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْاضْطِرَابِ، وَوَقِفَتْ بِوَلِيِّ الْأَسْبَابِ، فَكَانَتْ
 مَطْمَئِنَّةً، أَيْ: خَامِدَةً سَاكِنَةً مُسْتَسْلِمَةً لِأَحْكَامِ اللَّهِ ثَابِتَةً لِأَقْدَارِهِ وَمَمْدُودَةً بِتَأْيِيدِهِ وَأَنْوَارِهِ،
 فَاطْمَأْنَنْتَ لِمَوْلَاهَا؛ لَعَلِمِهَا بِأَنَّهُ يَرَاهَا: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾
 [فَصَلَتْ: ٥٣] فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ﴿يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً
 مَرْضِيَّةً﴾ وفي الآية خصائص عظيمة لها منها ترفيع شأنها بِتَكْنِيَّتِهَا وَمَذْجِهَا بِالطَّمَأْنِينَةِ ثَنَاءً مِنْهَا
 سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا بِالِاسْتِسْلَامِ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْمَطْمَئِنُّ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ، فَلَمَّا
 انْخَفَضَتْ بِتَوَاضُعِهَا وَانْكَسَارِهَا؛ أَثْنَى عَلَيْهَا مَوْلَاهَا، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿رَاضِيَةً﴾ أَيْ: عَنِ اللَّهِ
 فِي الدُّنْيَا بِأَحْكَامِهِ، وَ﴿مَرْضِيَّةً﴾ فِي الْآخِرَةِ بِجُودِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ لَا
 يَخْضَلُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مَرْضِيًّا عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ حَتَّى يَكُونَ رَاضِيًّا عَنِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، انْتَهَى
 مِنْ «التَّنْوِيرِ».

[تفسير] سُورَةُ «الْبَلَدِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ وَقِيلَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾

١٢٢٥ قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الكلام في لا تقدم في / ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ [القيامة: ١] والبلد هو: «مكة».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ قال ابن عباس وجماعة: معناه وأنت حلالٌ بهذا البلد، يحلُّ لك فيه قتلٌ من شئت، وكان هذا يومُ فتح مكة، وعلى هذا يتركب قول من قال: السورة مدنية نزلت عام الفتح^(١)، وقال آخرون: المعنى وأنت حالٌ ساكنٌ بهذا البلد.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَلَدًا ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ووالد وما ولد﴾ قال مجاهد: هو آدم وجميع ولده^(٢)، وقال ابن عباس: ما معناه أنَّ الوالد والولد هنا على العموم فهي أسماء جنسٍ يدخل فيها جميع الحيوان^(٣)، والقسم واقع على قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال الجمهور: الإنسان اسم جنس والكبد المشقة والمكابدة، أي: يُكابد أمر الدنيا والآخرة، ورؤي: أن سبب نزول هذه الآية رجلٌ من قريش يقال له أبو الأشد، وقيل نزلت في عمرو بن عبد ود،

(١) أخرجه الطبري (٥٨٥/١٢)، (٣٧٢٣١)، وذكره ابن عطية (٤٨٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١١)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه للحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٥٨٦/١٢)، (٣٧٢٤٨)، وذكره ابن عطية (٤٨٣/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٦)، وعزاه للفرياحي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٥٨٦/١٢)، (٣٧٢٤٧)، وذكره ابن عطية (٤٨٣/٥).

وقال: مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل؛ أذنب فاستفتى النبي ﷺ فأمره بالكفارة، فقال: لقد أهلك ما في الكفارات والنفقات، مذ تبت محمدًا، وكان كل واحد منهم قد ادعى أنه أنفق مالا كثيرا على إفساد أمر النبي ﷺ أو في الكفارات على ما تقدم.

وقوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ أي: أنفقت مالا كثيرا، ومن قال: أن المراد اسم الجنس غير معين، جعل قوله: ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ بمعنى: أيظن الإنسان أن ليس عليه حفظه يرون أعماله ويخصونها؛ إلى يوم الجزاء، قال السهيلي: وهذه الآية وإن نزلت في أبي الأشد فإن الألف واللام في الإنسان للجنس، فيشترك معه في الخطاب كل من ظن ظنه وفعل مثل فعله/ وعلى هذا أكثر القرآن، ينزل في السبب الخاص بلفظ عام يتناول ب ٢٢٥ المعنى العام انتهى، وخرج مسلم عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله، من أين اكتسبه وفيم أنفق^(١)، وخرجه أيضا الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح^(٢)، انتهى، وقرأ الجمهور^(٣): ﴿لُبَدًا﴾ أي: كثيرا متلبدا بعضه فوق بعض، ثم عدّد تعالى على الإنسان نعمه في جوارحه، و﴿التجدين﴾: قال ابن عباس والناس: هما طريقا الخير والشر، أي: عرضنا عليه طريقهما، وليس الهداية هنا بمعنى الإرشاد^(٤)، وقال الضحاك: التجدان ثديا الأم، وهذا مثال، والنجد: الطريق المرتفع^(٥).

- (١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/١٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٢٨٦) (١٧٨٥).
- قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٣٤٩): رواه الطبراني والبخاري بنحوه ورجال الطبراني رجال «الصحيح» غير صامت بن معاذ، وعدي بن عدي الكندي وهما ثقتان.
- (٢) أخرجه الترمذي (٤/٦١٢)، كتاب «صفة القيامة» باب: في القيامة (٢٤١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٢٧٦)، (١٧٨٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
- قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث من قبل حفظه.
- وفي الباب عن أبي برزة رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (٤/٦١٢)، كتاب «صفة القيامة» باب: في القيامة (٢٤١٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/٢٣٢)، وأبو يعلى (١٣/٤٢٨)، (٧٤٣٤).
- (٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٤٨٤)، و«البحر المحيط» (٨/٤٧٠)، و«الدر المصون» (٦/٥٢٥).
- (٤) أخرجه الطبري (١٢/٥٩١)، (٣٧٢٩٣)، وذكره ابن عطية (٥/٤٨٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١٢) بنحوه.
- (٥) أخرجه الطبري (١٢/٥٩١) (٣٧٣٠٧)، وذكره البغوي (٤/٤٨٩)، وابن عطية (٥/٤٨٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٩٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنه.

﴿فَلَا أَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٧﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَمِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسَكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ﴾ الآية، قوله «فَلَا» هو عند الجمهور تحضيضٌ بمعنى: ألا أقْتَحِمَ، والعقبة في هذه الآية على غَرْفِ كلام العرب استعارة لهذا العمل الشاق على النفس، من حيث هو بذل مالٍ، تشبیه بعقبة الجبل، و﴿أَقْتَحِمَ﴾: معناه: دَخَلَهَا وَجَاوَزَهَا بسرعة وضغط وشدة، ثم عَظُمَ تعالى أمر العقبة في النفوس بقوله: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ ثم فُسِّرَ اقْتِحَامُ الْعَقَبَةِ بقوله: ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ الآية، وهذا على قراءة مَنْ قرأ: ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ بالرفع على المضمر وأما من قرأ: ﴿فَكُ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ﴾ على الفعل، ونَصَبَ الرقبة، وهي قراءة أبي عمرو^(١)، فليس يحتاج أن يُقَدَّرَ: وما أدراك ما اقْتِحَامٌ بل يكون التعظيم للعقبة نفسها ويجيء ﴿فَكُ﴾ بدلاً من ﴿اقْتَحِمَ﴾ ومبيناً له، وفَكُ الرقبة هو عَقْفُهَا من رِبْقَةٍ ١٢٢٦ الأسر أو الرق، وفي الحديث/ عن النبي ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ نَسَمَةً مُؤِمَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ غُضُو مِنْهَا غُضُوًّا مِنْهُ مِنَ النَّارِ»^(٢)، والمسْغَبَةُ: المجاعة، والساغِبُ: الجائع و﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: معناه: ذَا قَرَابَةٍ؛ لتجتمع الصدقة والصلة، و﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: معناه: مُدْفَعاً قَدْ لَصِقَ بالتراب وهذا ينحو إلى أن المسكين أشدَّ فاقةً من الفقير، قال سفيان: هم المَطْرُوحُونَ على ظهر الطريق فَعُوداً على التراب لا يَبُوتَ لهم^(٣)، وقال ابن عباس: هو الذي يَخْرُجُ من بيته ثم يَقلِبُ وجهه إلى بيته مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب^(٤).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَقْتَحِمَ﴾ والمعنى: ثم كان وقت اقْتِحَامِ الْعَقَبَةِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا.

(١) وهي قراءة ابن كثير والكسائي.

ينظر: «السبعة» (٦٨٦)، و«الحجة» (٤١٣/٦)، و«معاني القراءات» (١٤٧/٣)، و«شرح الطيبة» (٦/١١٤)، و«العنوان» (٢١٠)، و«حجة القراءات» (٧٦)، و«شرح شعلة» (٦٢٤)، و«اتحاف» (٢/٦١٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري (٥٩٦/١٢)، (٣٧٣٤٤) عن ابن عباس، وذكره ابن عطية (٤٨٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٧/٦)، وعزاه للفرياحي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الطبري (٥٩٦/١٢)، (٣٧٣٤٥)، وذكره ابن عطية (٤٨٦/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٨/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ معناه: على طاعة الله وبلائه وقضائه وعن الشهوات والمعاصي، و﴿الْمَرْحَمَةُ﴾ قال ابن عباس: كل ما يؤدي إلى رحمة الله تعالى^(١)، وقال آخرون: هو التراحم والتعاطف بين الناس، وفي ذلك قوام الناس؛ ولو لم يتراحموا جُمْلَةً لَهَلَكُوا، و﴿الْمَيْمَنَةُ﴾، فيما روي عن يمين العرش وهو موضع الجنة، ومكان المرحومين من الناس، و﴿الْمَشَامَةُ﴾: الجانب الأشأم وهو الأيسر؛ وفيه جهنم؛ وهو طريق المعذبين، و﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ مغناه: مُطَبَّقة مغلقة.

[تفسير] سُورَةُ «الشَّمْسِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهِ ۝٢﴾

أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالشَّمْسِ: إما على التنبيه منها على الاعتبار المؤدّي إلى معرفة الله تعالى، وإما على تقدير وَرَبِّ الشَّمْسِ، وَالضُّحَى - بالضم والقصر -: ارتفاع ضوء الشمس وإشراقه، قاله مجاهد^(١) وقال مقاتل: ﴿ضَحَاهَا﴾ حَرُّهَا كَقَوْلِهِ فِي طه: ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩]، وَالضُّحَاءُ - بفتح/ الضاد والمد -: ما فَوْقَ ذَلِكَ إِلَى الزَّوَالِ، وَالْقَمَرُ ب ٢٢٦ يتلو الشمس من أول الشهر إلى نصفه في الغروب تغرب هي ثم يغرب هو، ويتلوها في النصف الآخر بنحو آخر وهو أن تغرب هي فيطلع هو^(٢)، وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿تَلَاهَا﴾ معناه تَبِعَهَا دَابًّا فِي كُلِّ وَقْتٍ لِأَنَّهُ يَسْتَضِيءُ مِنْهَا فَهُوَ يَتْلُوهَا لِذَلِكَ^(٣)، وَقَالَ الزَّجَاجُ وَغَيْرُهُ: تَلَاهَا فِي الْمَنْزِلَةِ مِنَ الضِّيَاءِ وَالْقَدَرِ: لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَوَاكِبِ شَيْءٌ يَتْلُو الشَّمْسَ فِي هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ الْقَمَرِ.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَبَّاهَا ۝٦﴾
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾

وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ﴾ ظاهرُ هذه السورة والتي بعدها أن النهارَ من طلوع الشمس، وكذلك قال الزجاج في كتاب «الأَنْوَاء» وغيره، واليوم من طلوع الفجر، وَلَا يُخْتَلَفُ أَنَّ نَهَائَتَهُمَا مَغِيبُ الشَّمْسِ، والضمير في «جَلَّاهَا» يحتمل أن يعودَ على الشمس، ويحتمل أن

(١) أخرجه الطبري (١٢/٥٩٩)، (٣٧٣٥٨)، وذكره البغوي (٤/٤٩١)، وابن عطية (٥/٤٨٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١٥)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٥٩٨)، وعزاه للحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس بنحوه.

(٢) ذكره البغوي (٤/٤٩١)، وابن عطية (٥/٤٨٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٦٠٠) عن مجاهد برقم: (٣٧٣٦٠)، وذكره ابن عطية (٥/٤٨٧)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦/٦٠٠)، وعزاه لابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس.

يعود على الأرض، أو على الظلمة، وإن كان لم يجزِ لذلك ذكر، فالمعنى يقتضيه؛ قاله الزجاج، و«جَلَى» معناه كَشَفَ وَضَوَى والفاعل بـ«جَلَى» على هذه التأويلات النهار، ويحتمل أن يكون الفاعل الله تعالى، كآته قال: والنهار، إذ جَلَى الله الشمس، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته، و«يَغْشَى» معناه: يُعْطِي، والضمير للشمس على تجوز في المعنى أو للأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ وكل ما بعده من نظائره في السورة يحتمل أن تكون «ما» فيه بمعنى الذي قاله أبو عبيدة، أي: وَمَنْ بَنَاهَا، وهو قول الحسن ومجاهد، فيجيء القسم بالله تعالى^(١)، ويحتمل أن تكون ما في جميع ذلك مصدرية؛ قاله قتادة والمبرد والزجاج، كآته قال: والسماء وبناؤها^(٢)، و«طحا» بمعنى: دَحَا، * ت * : قال الهروي: قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي بَسَطَهَا فَأَوْسَعَهَا، ويقال طَحَا بِهِ الأمر أي اتَّسَعَ بِهِ في المذهب، انتهى، / والنفس التي أفسَمَ بها سبحانه اسم جنس، وتسويتها إكمال عقلها ١٢٢٧ ونظرها.

الثعلبي: ﴿فسواها﴾ أي: عَدَلَ خَلَقَهَا، انتهى.

﴿فَالَهُمَا فُجُورُهُمَا وَتَقْوَاهُ﴾ ٨ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ٩ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ١٠ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ١١ ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ ١٢ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ ١٣ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ١٤ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ١٥ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿فَالَهُمَا فُجُورُهُمَا وَتَقْوَاهُ﴾ أي: عَرَّفَهَا طرق^(٣) ذلك، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفُجُور أو اكتساب التقوى، وجواب القسم في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ والتقدير: لَقَدْ أَفْلَحَ، زاد * ص * : وَخُذِفَتِ اللَّامُ لِلطُّوْلِ، انتهى، والفاعل بـ«زكى» يحتمل أن يكون الله تعالى؛ قاله ابن عباس وغيره^(٤)، ويحتمل أن يكون الإنسان؛ قاله

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٠١) عن مجاهد، برقم: (٣٧٣٦٨)، وذكره ابن عطية (٥/٤٨٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٩٩)، وعزاه للحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٦٠١)، (٣٧٣٦٧) عن قتادة، وذكره البغوي (٤/٩٩٢)، وابن عطية (٥/٤٨٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥١٥) عن قتادة.

(٣) في ٥: طريق.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/٦٠٣)، (٣٧٣٨٣)، وذكره ابن عطية (٥/٤٨٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٢)، وعزاه لحسين في «الاستقامة»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

الحسن وغيره^(١)، و﴿زَكَاةً﴾ أي طَهَّرَهَا وَنَمَّاهَا بِالْخَيْرَاتِ و﴿دَسَاةً﴾ معناه: أَخْفَاهَا وَحَقَّرَهَا وَصَغَّرَ قَدْرَهَا بِالْمَعَاصِي وَالْبَخْلِ بِمَا يَجِبُ وَأَصْلُ «دَسَى»: دَسَسَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

وَدَسَسْتَ عَمْرًا فِي الثَّرَابِ فَأَضْبَحْتَ حَلَالُهُ مِنْهُ أَرَامِلَ ضِيَعَا^(٢)

* ت * قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: ومن عيوب النفس الشفقة عليها، والقيام بتعهداتها وتحصيل مآربها، ومدادائها الإعراض عنها وقله الاشتغال بها، كذلك سمعت جدي يقول: مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَ عَلَيْهِ دِينُهُ، انتهى من تأليفه في عيوب النفس، وروي: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَاةً أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَاةَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»^(٣)، قال «صاحب الكلم الفارقيّة والحكم الحقيقية»: النفس الزكية زينتها نزاهتها، وعافيتها عفتها، وطهارتها ورعها، وغناها ثقتها بمولاه؛ وعلمها بأنه لا ينساها، انتهى، ولما ذكر تعالى خيبة مَنْ دَسَى نَفْسَهُ؛ ذكر فرقة فَعَلْتَ ذَلِكَ لِيَعْتَبَرَ بِهِمْ، وينتهي / عن مثل فعلهم، والطغوى: مصدر وقال ابن عباس: الطغوى هنا العذاب. كذبوا به حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ وَيُؤْيِدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاعِثَةِ﴾^(٤) [الحاقة: ٥] وقال جمهور من المتأولين: الباء سببية والمعنى: كَذَبَتْ ثَمُودُ نَبِيَّهَا بِسَبَبِ طُغْيَانِهَا، و﴿أَشْقَاهَا﴾: هو قدار بن سالف، وقد تقدم قصصهم، * ت * و﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ قيل: نَضَبَ بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ تَقْدِيرُهُ اخْفَظُوا أَوْ دَرُّوا، وقال * ص * و﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ الجمهور: بنصب «نَاقَةَ» على التحذير أي احذروا ناقة الله، وهو مما يجب إضمار عامله، انتهى، و﴿ذَمْدَمَ﴾ معناه أُنْزَلَ الْعَذَابُ مُقْلِقًا لَهُمْ مَكْرَرًا ذَلِكَ، وهي الدَّمْدَمَةُ، الثعلبي: قال مؤرج: الدمدمة إهلاك باستتصال، انتهى، وكذلك قال أبو حيان^(٥)، وقال الهروي: قال الأزهرى: ﴿ذَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، وقيل

(١) أخرجه الطبري (٦٠٣/١٢) عن قتادة، برقم: (٣٧٣٨٦)، وذكره ابن عطية (٤٨٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠١/٦)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن.

(٢) البيت لرجل من طي. ينظر: «اللسان» (دسا)، «البحر المحيط» (٤٧٢/٨)، و«الدر المصون» (٥٣١/٦)، و«المحرر الوجيز» (٤٨٨/٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري (٦٠٥/١٢)، (٣٧٣٩٨)، وذكره ابن عطية (٤٨٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٢/٦)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (٤٧٦/٨).

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غَضِبَ عَلَيْهِمْ، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي فَسَوَّى الْقَبِيلَةَ فِي الْهَلَاكِ؛ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وقرأ نافع وابن عامر^(١): «فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا» والمعنى: فَلَا دَرَكَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَعْلِهِ بِهِمْ؛ وهذا قول ابن عباس والحسن^(٢)، ويحتملُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ بِ﴿يَخَافُ﴾ صَالِحاً - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أي: لَا يَخَافُ عُقْبَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ بِهِمْ؛ إِذْ كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ، وقرأ الباقون: «وَلَا يَخَافُ» بِالْوَاوِ فَتَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ، وَتَحْتَمِلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ وَجْهًا ثَلَاثًا: أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ بِ﴿يَخَافُ﴾ الْمُنْبِعُ؛ قَالَهُ الزَّجَاجُ وَالضَّحَّاكُ وَالسَّدي، وَغَيْرُهُمْ، وَتَكُونُ الْوَاوُ وَآوَ الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: انْتَبَعْتُ لِعَقْرِهَا وَهُوَ لَا يَخَافُ عُقْبَى فَعْلِهِ^(٣).

(١) ينظر: «السبعة» (٦٨٩)، و«الحجة» (٤٢٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٤٩١/٢)، و«معاني القراءات» (١٥٠/٣)، و«شرح الطيبة» (١١٦/٦)، و«العنوان» (٢١)، و«حجة القراءات» (٧٦٦)، و«شرح شعلة» (٦٢٥)، و«إتحاف» (٦١٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٦٠٦/١٢) عن ابن عباس برقم: (٣٧٤٠٩)، وعن الحسن برقم: (٣٧٤١٠)، وذكره البغوي (٤٩٤/٤)، وابن عطية (٤٨٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٢/٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري (٦٠٦/١٢) عن السدي برقم: (٣٧٤١٧)، وذكره البغوي (٤٩٤/٤)، وابن عطية (٥٠٥/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥١٧/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٢/٦)، وعزاه لابن جرير عن الضحاك.

[تفسير] سُورَةُ «اللَّيْلِ»

١٢٢٨

/ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾

أَقْسَمَ تَعَالَى بِاللَّيْلِ إِذَا غَشِيَ الْأَرْضَ وَجَمِيعَ مَا فِيهَا، وَبِالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى، أَي: ظَهَرَ وَضَوَى الْأَفَاقِ، وَقَالَ * ص * : ﴿يَغْشَى﴾: مَفْعُولُهُ مَحْذُوفٌ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّهَارُ كَقَوْلِهِ: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] أَوِ الشَّمْسُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤] وَقِيلَ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا، انْتَهَى.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَكُنَّ ۝ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ۝ فَسَنِيْرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَفْتَنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۝ فَسَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ يحتمل أن تكون «ما» بمعنى: «الذي» ويحتمل أن تكون مصدرية، والذكر والأنثى هنا عام، وقال الحسن: المراد آدم وحواء^(١)، والسُّعْيُ الْعَمَلُ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى مُقْسِمًا أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ شَتَّى، أَي: مُفْتَرَقَةٌ جَدًّا؛ بَعْضُهَا فِي رِضَى اللَّهِ، وَبَعْضُهَا فِي سَخَطِهِ، ثُمَّ قَسَمَ تَعَالَى السَّاعِينَ فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الْآيَةُ، وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..

وقوله تعالى: ﴿وصدق بالحسنى﴾ قيل هي: لا إله إلا الله، وقيل: هي الخَلْفُ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِهِ، وَقِيلَ: هي الجنة، وقال كثير من المتأولين: الحسنى: الأجر والشواب مُجْمَلًا، وَالْعُسْرَى: الحال السيئة في الدنيا والآخرة، وَمَنْ جَعَلَ ﴿بَخِلَ﴾ فِي الْمَالِ خَاصَّةً؛ جَعَلَ ﴿اسْتَفْتَنَى﴾ فِي الْمَالِ أَيْضًا، لِتَعْظِيمِ الْمَذْمَةِ، وَمَنْ جَعَلَ ﴿بَخِلَ﴾ عَامًا فِي جَمِيعِ مَا يَتَّبِعِي أَنْ يَنْذَلَ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ؛ قَالَ: ﴿اسْتَفْتَنَى﴾ عَنْ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِزَعْمِهِ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ:

(١) ذكره البغوي (٤/٤٩٤)، وابن عطية (٥/٤٩٠).

﴿وما يغني عنه ماله﴾ أَنَّ الإِعْطَاءَ والبَخْلَ المذكورين إنما هما في المال.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾، قال قتادة وغيره: معناه تَرَدَّى في جهنم^(١). وقال مجاهد: ﴿تَرَدَّى﴾ معناه: هَلَكَ من الرَدْيِ^(٢)، وَخَرَجَ البخاري وغيره عن علي رضي الله عنه - قال: «كُنَّا مع النَّبِيِّ ﷺ في بَقِيعِ الْعَرْقَدِ في جَنَازَةٍ، فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، أَوْ مَا/ مِنْ نَفْسٍ مَفْتُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ، فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ؛ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ؛ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ؟ قَالَ: أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَى﴾ وفي رواية، لَمَّا قِيلَ لَهُ: أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، قَالَ: لَا؛ بَلِ اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» الحديث، وَخَرَّجَهُ الترمذي أيضاً، انتهى، قال ابن العربي في «أحكامه»: «وَسَأَلَ شَابَانُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: الْعَمَلُ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ أَمْ فِي شَيْءٍ مُسْتَأْنَفٍ؟ فَقَالَ: بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلِ إِذَنْ؟ قَالَ: اعْمَلُوا؛ فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِعَمَلِهِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ» قالوا: فَلَا نَحْجُذُ وَنَعْمَلُ^(٣) انتهى، وقال قوم: معنى تَرَدَّى، أي: بِأَكْفَافِهِ مِنَ الرَّدَاءِ؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

(١) أخرجه الطبري (٦١٧/١٢)، (٣٧٤٨١)، وذكره البغوي (٤٩٦/٤)، وابن عطية (٤٩١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٦/٦)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري (٦١٧/١٢)، (٣٧٤٨٢)، وذكره البغوي (٤٩٦/٤)، وابن عطية (٤٩١/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٠/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٦/٦)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠/١١)، كتاب «القدر» باب: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً» (٦٦٠٥)، (١٣/٥٣١)، كتاب «التوحيد» باب: قول الله تعالى: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» (٧٥٥٢)، ومسلم (٢٠٣٩/٤)، (٢٠٤٠)، كتاب «القدر» باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٦- ٧/٢٦٤٧)، وأبو داود (٢/٦٣٤ - ٦٣٥)، كتاب «السنة» باب: في القدر (٤٦٩٤)، والترمذي (٤٤٥/٤)، كتاب «القدر» باب: ما جاء في الشقاوة والسعادة (٢١٣٦)، (٥/٤٤١)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة: «والليل إذا يغشى» (٣٣٤٤)، وأحمد (٨٢/١)، (١٢٩، ١٣٢ - ١٣٣، ١٤٠، ١٥٧)، وابن حبان (٢/٤٣ - ٤٤ - ٤٥)، كتاب «البر والإحسان» باب: ما جاء في الطاعات وثوابها (٢٣٣ - ٢٣٤)، والطيالسي (١/٣٢)، كتاب «القدر» باب: ما جاء في العمل مع القدر (٦١)، وابن ماجه (١/٣٠ - ٣١)، «المقدمة» باب: في القدر (٧٨).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

نُصِيبُكَ وَمَا تَجْمَعُ الدَّهْرُ كُلَّهُ رَدَاءً إِنْ تُلَوَّى فِيهِمَا وَحَنُوطٌ^(١)
ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً، أي: تعريفهم بالسبل كلها، وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان، ولو كان ذلك لَمْ يَوْجَدْ كَافِرٌ، قال البخاري: «تَلَطَّى»: تَوَهَّجَ وقال الثعالبي: تَتَوَقَّدُ، وتَوَهَّجَ، انتهى.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَتَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُوَفِّي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ ﴿

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ المعنى: لا يضلّاها صِلَى خُلُودٍ، ومن هنا ضَلَّتِ الْمُرْجِئَةُ؛ لأنها أَخَذَتْ نَفْيَ الصِّلَى مُطْلَقاً، ولم يَخْتَلَفْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أن المراد بالآتَى إلى آخر السورة/ أبو بكر الصديق، ثم هي تَتَنَاوَلُ كُلُّ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ، وباقي الآية بَيِّنٌ، ثم وَعَدَهُ تعالى بِالرِّضَى فِي الْآخِرَةِ وهذه [عِدَّةٌ] لأبي بكرٍ - رضي الله عنه ..

[تفسير] سُورَةُ «الضُّحَى»

[وَهِيَ] مَكِّيَّةٌ بِلاَ خِلَافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافَى (٦) ﴿

تقدّم تفسير ﴿الضحى﴾ بأنه: سَطُوعُ الضُّوءِ وَعِظْمُهُ، وقال قتادة: ﴿الضحى﴾ هنا النهار كله^(١) و﴿سَجَى﴾ معناه سَكَنَ واستقرَّ لَيْلاً تامًّا، وقيل: معناه أَقْبَلَ، وقيل: معناه أَذْبَرَ، والأولُّ أصحُّ، وعليه شواهدُ، وقال البخاريُّ: قال مجاهد: ﴿إِذَا سَجَى﴾ اسْتَوَى^(٢)، وقال غيره: أَظْلَمَ وسَكَنَ، انتهى،، وقرأ الجمهور: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ - بشدِّ الدالِّ - من التَّوَدَّيعِ وُقْرَى^(٣) بالتخفيف بمعنى: ما تَرَكَكَ، وقال البخاريُّ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ بالتشديد والتخفيف: ما تَرَكَكَ، انتهى.

و﴿قَلَى﴾ أَبْغَضَ، نزلت بسبب إبطاء الوحي مدَّة ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ يعني: الدار الآخرة خير لك من الدنيا، ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قيل: هي أَرْجَى آية في القرآن؛ لأنه ﷺ لا يرضى، وواحدٌ من أمته في النار، ورُوي أنه - عليه الصلاة والسلام - قال لما نَزَلَتْ: «إِذْ نَأْتِيَنَّكُمْ أَمْثَلُ الْعِلْفِ عَلَى الْحِمْلِ إِذْ يُبْعَثُونَ» قال عِيَاضُ: وهذه آية جامعةٌ لوجوه الكرامة وأنواع

(١) أخرجه الطبري (٦٢١/١٢)، (٣٧٤٩٢)، وذكره البغوي (٤/٤٩٨)، وابن عطية (٥/٤٩٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٩) وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٦٢٢/١٢) (٣٧٤٩٦)، وذكره البغوي (٤/٤٩٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٩)، (٦٠٩) وعزاه للفرابي وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه.

(٣) حكيت عن النبي ﷺ، وكذلك عروة بن الزبير. ينظر: «الشواذ» ص: (١٧٥)، و«المحتسب» (٢/٣٦٤)، و«الكشاف» (٤/٧٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/٤٩٣)، و«البحر المحيط» (٨/٤٨٠)، و«الدر المصون» (٦/٥٣٧).

السعادة في الدارين، انتهى، [* ت *]: وفي «صحيح مسلم» من رواية عبد الله بن عمرو بن العاصي: أن النبي ﷺ تلا قول الله - عز وجل - في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِن تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ، أُمِّتِي أُمِّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - يَا جَبْرِيلُ؛ أَذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمِّكَ وَلَا نَسُوؤُكَ، انتهى مختصراً^(١)، ثُمَّ وَقَفَ تَعَالَى نَبِيُّهُ عَلَى الْمَرَاتِبِ الَّتِي دَرَجَهُ عَنْهَا بِإِنْعَامِهِ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ٧ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ٨ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٠ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١١ ﴿

وقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ اختلَفَ الناسُ في تأويله، والضلالُ يَخْتَلِفُ، ٢٢٩ ب فمنه البعيدُ ومنه القريبُ؛ فالبعيدُ ضلالُ الكفارِ، وهذا قد عَصَمَ اللَّهُ مِنْهُ نَبِيَّهُ فَلَمْ يَغْبُدْ / ﷺ صَنَمًا قط، ولا تَابَعَ الكفارَ على شيءٍ مما هم عليه من الباطلِ، وإنما ضلالُهُ ﷺ هو كَوْنُهُ واقعاً لا يَمِيزُ الْمَهْيَعِ، بل يُذَبِّرُ وَيَنْظُرُ، وقال الترمذي وعبد العزيز بن يحيى: ﴿ضالاً﴾ معناه: خاملُ الذِّكْرِ لا يعرفُك الناسُ؛ فهداهم إليك ربُّك، والصوابُ أنه ضلالٌ مَنْ تَوَقَّفَ لا يَذَرِي، كما قال عز وجل: ﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال الثعالبي: قال بعض المتكلمين: إذا وَجَدَتِ العربُ شَجَرَةً مفردة في فلاة سَمَوْهَا ضالَّةً فَيُهْتَدَى بها إلى الطريقِ، أي: فَوَجَدْتُكَ وَحيداً ليس معَكَ نبيٌّ غيرُكَ فهديتُ بك الخلقَ إليَّ، انتهى، قال عياض: وقال الجنيد: المعنى: وَوَجَدَكَ متحيراً في بيانِ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ فهداك لبيانه، لقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ...﴾ [النحل: ٤٤] الآية، قال عياض: ولا أعلم أحداً من المفسرين قال فيها ضالاً عَنْ الْإِيمَانِ، وكذلك في قصة موسى - عليه السلام - قوله: ﴿فَعَلَّيْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي المخطئين، وقال ابن عطاء: ﴿وَوَجَدَكَ ضالاً﴾ أي: مُجِبّاً لمعرفتي، والضالُّ: المَحْبُجُّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: محببتك القديمة، انتهى، والعائِلُ: الفقيرُ ﴿فَأَغْنَى﴾ أي: بالقناعة والصبر، ثم وصاه تعالى بثلاث وصايا؛ بإزاء هذه النعم الثلاث، و﴿السائل﴾ هنا قال أبو الدرداء: هو السائلُ عن العلم^(٢)، وقيل: هو سائلُ المالِ، وقال

(١) سقط في: د.

(٢) ذكره ابن عطية (٤٩٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦١٢/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال يحملنا زادنا إلى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال مجاهد وغيره: معناه بُثَّ القرآن وبلغ ما أرسلت به^(١)، قال عياض: / وهذا الأمر يُعَمُّ الأمة، انتهى، وقال آخرون: بل هو عُموم ١٢٣. في جميع النعم، وفي «سُنَن أبي داود» عن النبي ﷺ قال: «أَعْطُوا الْأَجِيرَ حَقَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»^(٢)، وَأَعْطُوا السَّائِلَ، وَإِنْ جَاءَ عَلَى قَرَسٍ^(٣) قال البغوي في «المصابيح»: هذا حديث مُرْسَلٌ انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٤٩٥/٥)، وذكره أبو حيان (٤٨٢/٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٨١٧/٢)، كتاب «الرهون» باب: إجارة الأجير على طعام بطنه (٢٤٤٣)، قال البوصيري في «الزوائد» (٢٥٩/٢): هذا إسناد ضعيف، وهب بن سعيد هو: عبد الوهاب بن سعيد وعبد الرحمن بن زيد وهما ضعيفان، لكن نقل عبد العظيم المنذري الحافظ في كتاب «الترغيب» له: ابن عبد الرحمن بن زيد وثق، وقال: قال ابن عدي: أحاديثه حسان قال: وهو محن احتمله الناس وصدقه بعضهم وهو ممن يكتب حديثه، قال: وهب بن سعيد وثقه ابن حبان وغيره انتهى.

فعلى هذا يكون الإسناد حسناً والله أعلم، وأصله في «صحيح البخاري» وغيره من حديث أبي هريرة. أخرجه مالك (٩٩٦/٢)، كتاب «الصدقة» باب: الترغيب في الصدقة (٣)، مرسلًا.

(٣) قال العجلوني في «كشف الخفا» (١٦١/١): رواه مالك في «الموطأ» مرسلًا عن زيد بن أسلم، قال ابن حجر في خطبة «اللاكي» المتشورة، وهو أحد الأحاديث الخمسة التي قال فيها علي بن المديني: خمسة أحاديث يروونها عن رسول الله ﷺ ولا أصل لها عنه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الشرح»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْبُحْرُورُ ﴿٣﴾ وَوَضَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

عَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِ فِي أَنْ شَرَحَ صَدْرَهُ لِلنَّبِوَّةِ، وَهَيَّأَ لَهَا، وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنْ شَرَحَ الصَّدْرَ الْمَذْكُورَ إِنَّمَا هُوَ تَنْوِيرُهُ بِالْحِكْمَةِ، وَتَوْسِيْعُهُ لَتَلْقَى مَا يُوحَى إِلَيْهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ: هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى شَرْجِهِ بِشَقِّ جَبْرِيلَ عَنْهُ فِي وَقْتِ صِغَرِهِ، وَفِي وَقْتِ الْإِسْرَاءِ؛ إِذَا التَّشْرِيعُ شَقُّ اللَّحْمِ، وَالْوِزْرُ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ عِنْدَ بَعْضِ الْمُتَأَوِّلِينَ الثَّقَلُ الَّذِي كَانَ يَجِدُهُ ﷺ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَجْلِ مَا كَانَتْ قَرِيشٌ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ فَزَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ الثَّقَلَ بِنَبِوَّتِهِ وَإِسْرَالِهِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ: الْمَعْنَى: خَفَّفْنَا عَنْكَ أَثْقَالَ النَّبِوَّةِ وَأَعْيَاكَ عَلَى النَّاسِ^(١)، وَقِيلَ الْوِزْرُ هُنَا: الذُّنُوبُ، نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ [الفتح: ٢] وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، الثَّعْلَبِيُّ: وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: عَصَمْنَاكَ مِنْ احْتِمَالِ الْوِزْرِ، انْتَهَى. ﴿وَأَنْقَضَ﴾ مَعْنَاهُ: جَعَلَهُ نَقْضًا، أَي: هَزِيلًا، مِنْ الثَّقَلِ، قَالَ عِيَّاضٌ: وَمَعْنَى أَنْقَضَ، أَي: كَادَ يَنْقُضُهُ، انْتَهَى، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أَي نَوَّهْنَا بِاسْمِكَ، قَالَ * ع^(٢): * وَرَفَعَ الذِّكْرَ نِعْمَةً عَلَى الرَّسُولِ وَكَذَلِكَ هُوَ جَمِيلٌ حَسَنٌ لِلْقَائِمِينَ بِأُمُورِ النَّاسِ، وَخَمُولُ الْأَسْمِ وَالذِّكْرُ حَسَنٌ لِلْمَنْفَرِدِينَ لِلْعِبَادَةِ، / وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: التَّغْيِيدُ: أَنَّا قَدْ فَعَلْنَا جَمِيعَ هَذَا بِكَ؛ فَلَا تَكْتَرِثْ بِأَذَى قَرِيشٍ؛ فَإِنَّ الَّذِي فَعَلَ بِكَ هَذِهِ النِّعَمَ سَيُظْفَرُكَ بِهِمْ، قَالَ عِيَّاضٌ: وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَأْتِي جَبْرِيلَ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبُّكَ يَقُولُ: أَتَذَرِي كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، قَالَ: إِذَا ذُكِّرْتَ ذُكِّرْتَ مَعِيَ»، انْتَهَى، ثُمَّ قَوَّى سُبْحَانَهُ رَجَاءَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وَكَرَّرَ تَعَالَى

ب ٢٣٠

(١) ذكره البغوي (٤/٥٠٢)، وابن عطية (٥/٤٩٦).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٤٩٧).

ذلك مبالغة، وذهب كثير من العلماء إلى أن مع كل عُسْر يُسْرَيْن بهذه الآية، من حيث إنَّ العُسْر مُعَرَّفٌ للعَهْدِ واليسر مُنْكَرٌ فالأولُ غَيْرُ الثاني، وقد جاء في هذا التأويل حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»^(١)، ثم أمر تعالى نبيه إذا فَرَعَ مِنْ شُغْلٍ مِنْ أَشْغَالِ النُّبُوَّةِ والعبادة أن يَنْصَبَ في آخِرِهِ، والنَّصَبُ: التعبُ، والمعنى: أن يَذْأَبَ على مَا أَمَرَ بِهِ وَلَا يَفْتَرُ، وقال ابن عباس: إذا فَرَعْتَ مِنْ فَرَضِكَ فَاَنْصَبْ فِي التَّنْفُلِ عِبَادَةً لِرَبِّكَ^(٢)، ونحوه عن ابن مسعود وعن مجاهد: «فإذا فرغت من العبادة فأنصب في الدعاء»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾: أَمُرُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ - عز وجل - وَصَرْفِ وُجُوهِ الرَّعَبَاتِ إِلَيْهِ لَا إِلَىٰ سِوَاهُ.

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري (٦٢٨/١٢)، (٣٧٥٤٢)، وذكره ابن عطية (٤٩٧/٥)، وأبو حيان (٤٨٤/٨)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦١٧/٦)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٦٢٨/١٢)، (٣٧٥٤١) عن ابن عباس، وذكره البغوي (٥٠٣/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٦/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٦١٧/٦)، وعزاه لابن أبي الدنيا.

[تفسير] سُورَةُ «التِّين»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينَ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴿﴾

قال ابن عباس وغيره: «التين والزيتون» المقسم بهما هما المعروفان، وقال السهيلي: أقسم تعالى بطور تينا، وطور زيتا، وهما جبلان عند بيت المقدس، وكذلك طور سيناء، ويقال: إن سيناء هي الحجاره، والطور عند أكثر الناس هو الجبل، وقال الماوردي: / ليس كل جبل يقال له: طور إلا أن تكون فيه الأشجار والثمار، وإلا فهو جبل فقط، انتهى، ﴿وطور سينين﴾ جبل بالشام، و﴿البلد الأمين﴾ مكة، والقسم واقع على قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [أي: في أحسن تقويم] ^(١) ينبغي له، وقال بعض العلماء بالعموم، أي: الإنسان أحسن المخلوقات تقويماً، ولم ير قوم الجثث على من حلف بالطلاق أن زوجته أحسن من الشمس؛ محتجين بهذه الآية، وحسن التقويم يشمل جميع محاسن الإنسان الظاهرة والباطنة؛ من حسن صورته، وانتصاب قامته، وكمال عقله، وحسن تمييزه، والإنسان هنا اسم جنس، وتقدير الكلام: في تقويم أحسن تقويم؛ لأن ﴿أحسن﴾ صفة لا بد أن تجري على موصوف.

﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ قال قتادة وغيره: معناه بالهزم وذلول العقل وهذه عبرة منصوبة ^(٢)، وعبارة الثعلبي: ﴿في أحسن تقويم﴾ قيل: اعتداله واستواء شباوه، وهو أحسن ما يكون، ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ بالهزم؛ كما قال: ﴿إلى أزدل العمر﴾ [الحج: ٥]، والسافلون: الهزمتي والزمتي والذين حبسهم عذرهم عن الجهاد في عهد النبي ﷺ، فأنزَل

(١) سقط في: د.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٦٣٨)، (٤٣٧٢٤)، وذكره ابن عطية (٤/٥٠٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢١)، وعزه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

اللَّهُ غُذِرَهم وأخبرهم أن لهم أجرهم الذي عَمِلُوا قبل أن تَذْهَبَ عقولهم، انتهى، وفي البخاري عنه ﷺ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا» وهكذا قال في الذين حَبَسَهُم الْعَذْرُ، انتهى، قال * ص * : ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ قيل: منقطع بناء على أَنَّ مَعْنَى ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾: بِالْهَرَمِ وَذَهْوِ الْعَقْلِ، وقيل متصل بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ فِي النَّارِ عَلَى كُفْرِهِ، انتهى، قال * ع * ^(١): وفي حديث/ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا بَلَغَ الْمُؤْمِنُ خَمْسِينَ سَنَةً خَفَّفَ اللَّهُ حِسَابَهُ، فَإِذَا بَلَغَ سِتِينَ؛ رَزَقَهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، فَإِذَا بَلَغَ سَبْعِينَ أَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فَإِذَا بَلَغَ ثَمَانِينَ كُتِبَتْ حَسَنَاتُهُ وَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، فَإِذَا بَلَغَ تِسْعِينَ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَشَفَعَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَكَانَ أَسِيرَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، فَإِذَا بَلَغَ مِائَةً وَلَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صِحَّتِهِ وَلَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ» ^(٢)، وفي حديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا رُذِيَ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ كُتِبَ لَهُ خَيْرٌ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي قَوْتِهِ» ^(٣). وذلك أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ، ثم قال سبحانه إلزامًا لِلْحُجَّةِ وَتَوْبِيخًا لِلْكَافِرِ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أيها الإنسان، أي: فَمَا يُجْعَلُكَ أَنْ تُكَذِّبَ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ بِالْدِينِ، وقال قتادة: الْمَعْنَى: فَمَنْ يُكَذِّبُكَ يَا مُحَمَّد، فِيمَا تُخْبِرُ بِهِ مِنَ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ ^(٤)، وهو الدين، بَعْدَ هَذِهِ الْعِبَرِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِ﴿الدين﴾ جَمِيعَ دِينِهِ وَشَرْعِهِ،، وَرُويَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ قَالَ: بَلَى؛ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»: رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى» ^(٥)؛ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ: «إِذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ أَوْ سَمِعَ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠] فَلْيَقُلْ: بَلَى» ^(٦) انتهى، * ت * : وهذان الحديثان، وَإِنْ كَانَ قَدْ ضَعَّفَهُمَا ابْنُ الْعَرَبِيِّ فَهُمَا مِمَّا يَنْبَغِي ذِكْرُهُمَا فِي فُضَائِلِ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم.

(٤) ذكره ابن عطية (٥/ ٥٠٠).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

/ [تفسير] سُورَةِ «العلق»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴿

[قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾]: هو أول ما نَزَلَ من كِتَابِ اللَّهِ تعالى، نَزَلَ صَدْرُ [هذه الآية] إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ في غَارِ جِرَاءٍ حَسَبَ مَا ثَبَتَ في «صحيح البخاري» وغيره، ومعنى قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ هذا القرآنَ بِاسْمِ رَبِّكَ، أي: مبتدئاً بِاسْمِ رَبِّكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المقروء الذي أُمِرَ بقراءته هو ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ كأنه قيل له: اقرأ هذا اللفظ، والعلق: جمع علقَةٍ وهي القطعةُ اليسيرةُ من الدَّمِ، والإنسانُ هنا اسمُ جنسٍ، ثم قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ على جهة التأنيس كأنه يقول: افضِ لِمَا أُمِرْتَ به، وَرَبُّكَ ليس كهذه الأرباب؛ بل هو الأكرمُ الذي لَا يُلْحَقُهُ نقصٌ، ثم عدَّدَ تعالى نِعْمَةً الكتابيةَ بالقلم على الناس، وهي من أعظم النعم.

و﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قيل: هو آدمٌ وقيل: [هو] اسمُ جنسٍ؛ وهو الأظهر.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْعَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ إلى آخرِ السورة نَزَلَتْ في أبي جهلٍ، وذلك أَنَّهُ طَعَى لِيَعْنَاهُ وكثرةَ مَنْ يَغْشَى ناديه، فَنَاصَبَ رسولَ اللَّهِ ﷺ ونَهَاهُ عَنِ الصَّلَاةِ في المسجدِ، وقال: لَيْتَنِي رَأَيْتُ محمداً يسجُدُ عندَ الكعبةِ لأَطْأَنَّ عُنُقَهُ، فيُرَوِّى أَنَّ النبي ﷺ رَدَّ عليه القولَ وانتَهَرَهُ، وعبارةُ الداودِي: فَتَهَدَّدَهُ النبي ﷺ، فَقَالَ أبو جهلٍ: أَتَهْدُدُنِي؟ أما واللهِ إِنِّي لَأَكْثَرُ أَهْلِ الْوَادِي نَادِيًا فَتَزَلَّتِ الآيةُ، انتهى.

و﴿كَلَّا﴾ ردَّ على أبي جهلٍ، وَيُتَّجِهُ أَنْ تَكُونَ بمعنى: حقًا، والضميرُ في ﴿رَأَاهُ﴾ للإنسانِ المذكورِ، كأنه قال: أَن رَأَى نَفْسَهُ غَيًّا وَهِيَ رُؤْيَةٌ قَلِيَّةٌ؛ ولذلك جازَ أَنْ يَعْمَلَ فعلٌ

الفاعل في نفسه؛ كما تقول: وجذتني / وظنتني، ثم حقر تعالى غنى هذا الإنسان وحاله ٢٣٢ ب بقوله: ﴿إِن إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعَىٰ﴾ أي: بالحشر والبعث يوم القيامة، وفي هذا الخبر وعيد للطاعين من الناس، ثم صرح بذكر الناهي لمحمد - عليه السلام -، ولا خلاف أن الناهي أبو جهل، وأن العبد المصلي هو محمد - عليه السلام -.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ١٤ ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ١٥ ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَالِفَةٍ﴾ ١٦ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ١٧ ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ١٨ ﴿كَلَّا لَا نُطْعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ١٩ ﴿

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ إكمال للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاث، يصلح مع كل واحد منها، * ت * وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يثير الهمم الزاكدة، ويسيل العيون الجامدة، وينعث على الحياء والمراقبة، قال الغزالي: اعلم أن الله مطلع على ضميرك، ومشرف على ظاهرك وباطنك، فتأذّب أيها المسكين ظاهراً وباطناً بين يديه سبحانه؛ واجتهد أن لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، ولا تدع عنك التفكر في قرب الأجل، وحلول الموت القاطع للأمل، وخروج الأمر من الاختيار، وحصول الحسرة والندامة بطول الاغترار، انتهى، ثم توعد تعالى لئن لم ينته ليؤخذن بناصيته، فيجروا إلى جهنم ذليلاً، تقول العرب: سفعت بيدي ناصية الفرس، والرجل إذا جذبته مذللة، وقال بعض العلماء بالتفسير: معناه لتخرقن، من قولهم: سفته النار، واكتفى بذكر الناصية لدلاليتها على الوجه والرأس، والناصية مقدم شغل الرأس، ثم أبدل النكرة من المعرفة في قوله: ﴿ناصية كاذبة﴾ ووصفها بالكذب والخطأ من حيث هي صفات لصاحبها.

قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي أهل مجلسه، والثادي والثادي: المجلس، ومنه دار الندوة، وقال البخاري قال مجاهد: ناديه: عشيرته^(١).

وقوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي: ملائكة العذاب، ثم قال - تعالى - لنبيه - عليه السلام -: ﴿كَلَّا لَا تَطْعُهُ﴾ أي: لا تلتفت إلى نهيه وكلامه و﴿اسْجُدْ﴾ لربك و﴿اقْتَرِبْ﴾ إليه بسجودك، وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد، فأكثرُوا مِنَ الدُّعَاءِ فِي السُّجُودِ، فَقَمِنَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»، ورؤي ابن وهب عن جماعة من أهل العلم: أن قوله: ﴿واسجد﴾: خطاب للنبي ﷺ وأن قوله: ﴿واقترِبْ﴾: خطاب لأبي جهل، أي: إن

(١) أخرجه الطبري (٦٤٩/١٢)، (٣٧٦٩٠) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٧)، وعزاه للقرطبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

تَجْتَرِيءُ حَتَّى تَرَى كَيْفَ تَهْلِكُ، * ت * : والتأويل الأول أظهر؛ يدل عليه قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١) وعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع النبي ﷺ فأتته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سل؛ فقلت: أسألك مُرافقتك في الجنة، قال أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(٢) رواه الجماعة إلا البخاري، ولفظ الترمذي: «كُنْتُ أبيتُ عِنْدَ بَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَعْطِيَهُ وَضُوءَهُ، فَأَسْمَعُهُ الْهُوَيَّ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَأَسْمَعُهُ الْهُوَيَّ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٣)، قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وليس لربيعة في الكتب الستة سوى هذا الحديث، انتهى من «السلام»، وروى أن أبا جهل جاء والنبي ﷺ يُصَلِّي، فَهَمَّ بِأَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ الصَّلَاةِ، ثُمَّ كَعَّ وَوَلَّى نَاصِصًا عَلَى عَقْبَيْهِ مُتَقِيًا بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: لَقَدْ عَرَضَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقٌ مِنْ نَارٍ، وَهَوْلٌ وَأَجْنَحَةٌ، فَيَزْوِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ۲۳۳ ب قَالَ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا»^(٤) / * ت * : ولما لم يَنْتَه عَدُوُّ اللَّهِ أَخَذَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَذْرِ، وَأَمَكَنَ مِنْهُ، وَذَكَرَ الْوَالِدِيُّ الْحَافِظُ فِي كِتَابِ «الْإِبَانَةِ» لَهُ مِنْ حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ مَغُولٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ بِجَنَابَاتِ بَذْرِ إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الْأَرْضِ فِي عُنُقِهِ سِلْسِلَةٌ يُنْمِسُكَ طَرَفُهَا أَسْوَدٌ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، اسْقِنِي، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا أَذْري أَعَرَفَ أَسْمِي، أَوْ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، فَقَالَ لِي الْأَسْوَدُ: لَا تَسْقِهِ؛ فَإِنَّهُ كَافِرٌ، ثُمَّ أَجْتَذَبَهُ، فَدَخَلَ الْأَرْضَ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «أَوْ قَدْ رَأَيْتَهُ؟ ذَلِكَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ، وَهُوَ عَذَابُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» انتهى من «التذكرة» للقرطبي، وقد ذَكَرْتُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَنْ أَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ بِأَثَمٍ مِنْ هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا...﴾ [فصلت: ٢٧] الآية.

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٣٧٩/٢ - ٣٨٠) - الأبي، كتاب «الصلاة» باب: فضل السجود والحث عليه (٢٢٦/٤٨٩)، وأبو داود (٤٢١/١)، كتاب «الصلاة» باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣٢٠)، والترمذي (٤٨٠/٥ - ٤٨١)، كتاب «الدعوات» باب: منه (٣٤١٦)، والنسائي (٢٢٧/٢)، كتاب «الافتتاح» باب: فضل السجود (١١٣٨)، وابن ماجه (١٢٧٦/٢ - ١٢٧٧)، كتاب «الدعاء» باب: ما يدعو به إذا تنبه من الليل (٣٨٧٩)، وأحمد (٥٩/٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ينظر: الحديث السابق.

(٤) أخرجه مسلم (٢١٥٤/٤)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم» باب: قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾ (٢٧٩٧/٣٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْقَدْرِ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ مَدْيَنَةٌ وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَكَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴿

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ الضميرُ في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن قال الشعبي وغيره: المعنى: إنا ابتدأنا إنزالَ هذا القرآن إليك في ليلة القدر، وقد روي: أن نزولَ الملك في جِراءٍ كان في العشر الأواخر من رمضان، فيستقيم هذا التأويل^(١) وقال ابن عباس وغيره: أنزله الله تعالى ليلة القدر إلى سماء الدنيا جملة، ثم نَجَّمَهُ على محمد ﷺ عشرين سنة، وليلة القدر خَصَّهَا اللَّهُ تعالى بِفَضْلِ عَظِيمٍ، وَجَعَلَهَا أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ لَا لَيْلَةَ قَدْرٍ فِيهَا؛ قاله مجاهد وغيره^(٢)، وَخُصَّتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بهذه الفضيلة لَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ وَتَقَاضَرَهَا/ وَخَشِيَ أَلَّا يَبْلُغُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمُرِ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، قال ابن العربي في «أحكامه»: وقد روى مالك هذا الحديث في «الموطأ»^(٣)؛ ثَبَّتَ ذَلِكَ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ وغيره، انتهى، ثم فَخَّمَهَا سبحانه بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ قال ابن عيينة في «صحيح البخاري»: ما كان في القرآن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فَقَدْ أَعْلَمَهُ، وَمَا قَالَ: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْلِمَهُ، وذكر ابن عباس وغيره: أنها سُمِّيَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْدُرُ فِيهَا الْأَجَالَ وَالْأَرْزَاقَ وَحَوَادِثَ الْعَامِ كُلِّهَا،

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٥١)، (٣٧٧٠١)، وذكره ابن عطية (٥/٥٠٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٦٥١)، (٣٧٦٩٧)، وذكره ابن عطية (٥/٥٠٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/

٥٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٨)، وعزاه لابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر

وابن أبي حاتم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس.

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٦٥)، (٧٠٥) مرسلًا.

ويدفع ذلك إلى الملائكة لَتَمْتِثِلَهُ^(١)، قال * ع^(٢) * : وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ مُسْتَدِيرَةٌ فِي أَوْتَارِ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ؛ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ الْمَعُولُ عَلَيْهِ، وَهِيَ فِي الْأَوْتَارِ بِحَسَبِ الْكَمَالِ وَالنَّقْصَانِ فِي الشَّهْرِ، فَيَنْبَغِي لِمُرْتَقِبِهَا أَنْ يَزْتَقِبَهَا مِنْ لَيْلَةِ عَشْرِينَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ، وَصَحَّ عَنْ [أَبِي بَن] كَعْبٍ وَغَيْرِهِ: أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ^(٣)، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ وَهِيَ ثَمَانُونَ سَنَةً وَثَلَاثَةُ أَعْوَامٍ وَثُلُثُ عَامٍ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٤) ﴿وَالرُّوحُ﴾: هُوَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقِيلَ هُوَ صِنْفٌ حَفَظَةُ لِلْمَلَائِكَةِ، قَالَ الْفَخْرُ^(٥): وَذَكَرُوا فِي الرُّوحِ أَقْوَالَ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ مَلَكٌ عَظِيمٌ لَوْ نَقَمَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ لُقْمَةً وَاحِدَةً، وَقِيلَ: الرُّوحُ: طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَرَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا لَيْلَةَ الْقَدْرِ، كَالرُّهَادِ الَّذِينَ لَا تَرَاهُمْ إِلَّا يَوْمَ الْعِيدِ، وَقِيلَ: خَلَقَ مِنَ خَلْقِ اللَّهِ يَأْكُلُونَ [وَيَشْرَبُونَ] وَيَلْبَسُونَ لَيْسُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ٢٣٤ ب وَلَا مِنْ / الْإِنْسِ وَلَعَلَّهُمْ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: الرُّوحُ أَشْرَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ: الرُّوحُ هُمُ الْحَفَظَةُ الْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ وَالْأَصَحُّ أَنَّ الرُّوحَ هَاهُنَا هُوَ جِبْرِيلُ، وَتَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ لَزِيَادَةِ شَرْفِهِ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿يَا ذُنُوبَهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ إِلَى قَابِلٍ﴾؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، ثُمَّ تَبَدَّى فَنَقُولُ: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ سَلَامَةً، انْتَهَى، قَالَ * ع * : وَعَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ، يَجِيءُ ﴿سَلَامٌ﴾ خَبَرَ ابْتِدَاءٍ مُسْتَأْنَفًا، أَي: سَلَامٌ هِيَ هَذِهِ اللَّيْلَةُ إِلَى أَوَّلِ يَوْمِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ مَا تَقَدَّمَ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَمَنْصُورٌ: ﴿سَلَامٌ﴾ بِمَعْنَى: التَّحِيَّةِ أَي: تُسَلِّمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ^(٦).

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٥٢)، (٣٧٧٠٨) عن الحسن، وذكره ابن عطية (٥/٥٠٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٥٠٥).

(٣) ذكره البغوي (٤/٥١١).

(٤) تقدم.

(٥) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٣٢/٣٣).

(٦) ذكره البغوي (٤/٥١٢)، وابن عطية (٥/٥٠٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٣١)، والسيوطي في

«الدر المنثور» (٦/٦٣٠)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر بنحوه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْبَيِّنَةِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۗ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝﴾

[قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) وفي حرف ابن مسعود^(٢): «لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مُنْفَكِينَ».

وقوله تعالى: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ معناه: مُنْفَصِلِينَ متفرقين، تقول: انفك الشيء عن الشيء؛ إذا انفصل عنه، وأما انفك التي هي مِنْ أَخَوَاتِ «كَانَ» فلا مَدْخَلَ لَهَا هُنَا، قَالَ مجاهد وغيره: لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِينَ عَنِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ حَتَّى جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ^(٣)، وَأَوْقَعَ الْمُسْتَقْبَلُ مَوْقِعَ الْمَاضِي فِي تَأْتِيهِمْ، وَالْبَيِّنَاتُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَشَرْعُهُ، قَالَ الثعلبي: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: مِنَ الْعَرَبِ وَهُمْ عَبْدَةُ الْأَوْثَانِ، انْتَهَى، وَقَالَ الْفَرَاءُ وغيره: لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِينَ عَنْ مَعْرِفَةِ صَحَةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالتَّوَكُّفِ لِأَمْرِهِ حَتَّى جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ فَتَفَرَّقُوا عِنْدَ ذَلِكَ، / وَيَتَجَهَّ ١٢٣٥ فِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلُ ثَالِثٍ بَارِعٍ الْمَعْنَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ يَكُونُ الْبِمَرَادِ: لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ

(١) سقط في: د.

(٢) ينظر: «الشواذ» ص: (١٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/٥٠٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٦٥٤)، (٣٧٧٢٢)، وذكره ابن عطية (٥/٥٠٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٣٧)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد بنحوه.

منفكين مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَظَرِهِ لَهُمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا؛ تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةُ، وَتَتِمُّ عَلَى مَنْ آمَنَ بِهِ النِّعْمَةُ فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَا كَانُوا لِيُتْرَكُوا سُدىً، ، وَالصَّحْفُ الْمَطْهُرَةُ: الْقُرْآنُ فِي صَحْفِهِ؛ قَالَه قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ^(١)، وَقَالَ الْحَسَنُ: الصَّحْفُ الْمَطْهُرَةُ فِي السَّمَاءِ^(٢)، ﴿فِيهَا كُتِبَ﴾ أَي: أَحْكَامُ كِتَابٍ، وَ﴿قِيَمَةٌ﴾ مَعْنَاهُ قَائِمَةٌ مَعْتَدِلَةٌ آخِذَةٌ لِلنَّاسِ بِالْعَدْلِ، ثُمَّ ذَمَّ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يَتَفَرَّقُوا فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ الْوَاضِحَةَ؛ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ مُتَّفَقِينَ عَلَى بُبُوتِهِ وَصِفَتِهِ، وَ﴿خُنَفَاءَ﴾: جَمْعُ حَنِيفٍ وَهُوَ الْمُسْتَقِيمُ، وَذَكَرَ الزَّكَاةَ مَعَ ذِكْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَوِّي قَوْلَ مَنْ قَالَ: السُّورَةُ مَدِينَةٌ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ إِنَّمَا فُرِضَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا دُفِعَ إِلَى مَنَاقِضَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْمَدِينَةِ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ» عَلَى مَعْنَى الْجَمَاعَةِ وَالْفِرْقَةِ الْقِيَمَةِ، وَقَالَ * ص: * قِرَاءَةُ الْجُمْهُورُ: «وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ» عَلَى تَقْدِيرِ الْأُمَّةِ الْقِيَمَةِ؛ أَي: الْمُسْتَقِيمَةِ أَوْ الْكُتُبِ الْقِيَمَةِ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ^(٣): «وَذَلِكَ الدِّينُ الْقِيَمَةُ» بِتَعْرِيفِ الدِّينِ وَرَفْعِ الْقِيَمَةِ صِفَةً، وَالْهَاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ أَوْ عَلَى تَأْوِيلِ أَنَّ الدِّينَ بِمَعْنَى الْمِلَّةِ، انْتَهَى، وَ﴿الْبَرِّيَّةُ﴾ جَمِيعُ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَرَاهُمْ أَي: أَوْجَدَهُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ.

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ قِيلَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا؛ فَرِضَاهُ عَنْهُمْ هُوَ مَا أَظْهَرَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمَارَاتِ رَحْمَتِهِ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ؛ هُوَ رِضَاهُمْ بِجَمِيعِ مَا قَسَمَ لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْزَاقِ وَالْأَقْدَارِ، وَقَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: / رَضِيَ الْعِبَادُ عَنِ اللَّهِ رِضَاهُمْ بِمَا يَرُدُّ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَرِضَاهُ عَنْهُمْ أَنْ يُؤَقِّفَهُمْ لِلرِّضَى عَنْهُ، وَقَالَ سُرِيُّ السَّقَطِي: إِذَا كُنْتُ لَا تَرْضَى عَنْ اللَّهِ فَكَيْفَ تَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَرْضَى عَنْكَ، وَقِيلَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَخَصَّ تَعَالَى بِالذِّكْرِ أَهْلَ الْحَشِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا رَأْسُ كُلِّ بَرَكَةٍ وَهِيَ الْأَمْرَةُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَةِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

ب ٢٣٥

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٥٦/١٢)، (٣٧٧٢٦) عَنْ قَتَادَةَ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥٠٧/٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي

«تفسيره» (٥٣٧/٤)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمَشْهُورِ»، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ بِنَحْوِهِ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥٠٧/٥).

(٣) يَنْظُرُ: «مَخْتَصَرُ الشَّوَاذِ» (١٧٧)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٤٩٥/٨)، وَ«الدَّر الْمَصُونُ» (٥٥٢/٦).

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «الزَّلْزَلَةِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ، وَمُقَاتِلٌ: هِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾

[قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾] قد تقدّم معنى الزلزلة، والاثْقَالُ: الموتى؛ قاله ابن عباس^(١)، وقيل أخرجت موتها، وكنوزها، وقول الإنسان: ﴿مَا لَهَا﴾ هو على معنى التعجب من هول ما يرى، قال الجمهور: الإنسان هنا الكافر، وقيل عام في المؤمن والكافر، وإخبار الأرض قال ابن مسعود وغيره: هي شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح وفاسد^(٢)، ويؤيد هذا التأويل قوله ﷺ: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

* ت * : وخرّج الترمذي في «جامعه» عن أبي هريرة قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: أتدرون ما أخبّارها؟ قالوا: الله ورَسُولُهُ أَعْلَمُ؛ قال: فإنّ أخبّارها: أن تشهد على كل عبّد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل عليّ يوم كذا - كذا؛ فهذه أخبّارها»^(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ انتهى، وكذا رواه أبو بكر بن الخطيب، وفيه: عمل عليّ في يوم كذا وكذا/ وفي يوم كذا وكذا.

١٢٣٦

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٥٩)، (٣٧٧٣٤)، وذكره ابن عطية (٥/٥١٠)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٣٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٦٦٠)، (٣٧٧٤٠) عن سفيان، وذكره ابن عطية (٥/٥١٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٤٤٦ - ٤٤٧)، كتاب «التفسير» باب: ومن سورة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (٣٣٥٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۖ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ الباء باء السبب وقال ابن عباس وغيره: المعنى أَوْحَىٰ إِلَيْهَا^(١)، قال * ص * المشهور أَنَّ ﴿أَوْحَىٰ﴾ يتعدى بـ «إلى» وعُدِّي هنا باللام مُرَاعَاةً لِلْفَوَاصِلِ، وقال أبو البقاء: ﴿لَهَا﴾ بِمَعْنَى إِلَيْهَا، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ بمعنى: يَنْصَرِفُونَ مِنْ مَوْضِعٍ وَرُودِهِمْ مُخْتَلِفِي الْأَحْوَالِ، قال الجمهور: وَرُودُهُمْ بِالموت، وصدورهم هو القيام إلى البَغْتِ والكلِّ سائر إلى العَرَضِ ليرى عَمَلَهُ، ويقفُ عليه، وقيل: الورد هو ورود المَحْشَرِ والصدْر أَشْتَاتًا هُوَ صَدْرٌ قَوْمٍ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَوْمٍ إِلَى النَّارِ ليروا جزاء أعمالهم.

وقوله - جلّت عظمتة -: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَمِّي هَذِهِ الْآيَةَ الْجَامِعَةَ الْفَادَةَ، وَيُرْوَى أَنَّهُ «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَسْأَلُ عَنْ مِثْقَالِ الذَّرِّ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا رَأَيْتُهُ فِي الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُ فِيمِثْقَالِ ذَرِّ الشَّرِّ، وَيَذْخُرُ لَكَ اللَّهُ مِثْقَالُ ذَرِّ الْخَيْرِ إِلَى الْآخِرَةِ»^(٢)، قال الداودِي: بَيْنَمَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِطَرِيقِ مَكَّةَ لَيْلًا، إِذَا رَكْبٌ مُقْبِلِينَ مِنْ حِجَّةٍ، فَقَالَ لِبَعْضِ مَنْ مَعَهُ: سَلُهُمْ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلُوا؟ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ، نُرِيدُ الْبَلَدَ الْعَتِيقَ، فَأُخْبِرَ عَمْرٌ بِذَلِكَ، فَقَالَ: أَوْقَعُوا فِي هَذَا؟ قُلْ لَهُمْ، فَمَا أَعْظَمَ، آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَأَخْكُمْ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَأَعْدَلُ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَأَزْجَى آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَأَخَوْفُ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ فَأَيْلَهُمْ: أَعْظَمُ آيَةٌ فِي / كِتَابِ اللَّهِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ [البقرة: ٢٥٥]، وَأَخْكُمْ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وَأَعْدَلُ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وَأَزْجَى آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَأَخَوْفُ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] فَأُخْبِرَ عَمْرٌ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ عَمْرٌ: أَفَيْكُمْ ابْنُ أُمِّ عَبْدِ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، وَهُوَ الَّذِي [كَلَّمَكَ]، قَالَ

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٦١)، (٣٧٧٤٣)، وذكره البغوي (٤/٥١٥)، وابن عطية (٥/٥١١)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٣٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (٦/٦٥٤).

عُمَرُ: كُنَيْفٌ مُلَىءٌ عِلْماً أَثَرْنَا بِهِ أَهْلَ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى أَنْفُسِنَا. قال الداوودي، ومعنى أعظم آية يُريدُ في الثواب، انتهى^(١).

(١) ذكره البيهقي (٥١٦/٤) عن ابن مسعود قال: أحكم آية في كتاب الله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره^{*}.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْعَادِيَّاتِ»

وَهِيَ مَكْتَبَةٌ فِي قَوْلِ جَمَاعَةٍ، وَقِيلَ: مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمَدِينَةِ ضُبَّانًا ۝١﴾ قَالُمُورِيَّةٌ قَدْحًا ۝٢﴿ قَالُمُورِيَّةٌ ضُبَّانًا ۝٣﴾ فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْعًا ۝٤﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦﴿

قال ابن عباس وغيره: المراد بـ﴿العاديَّاتِ﴾: الخيل؛ لأنها تغدو بالفرسان، وتضبح بأصواتها^(١)، وعن ابن مسعود وعلي أن ﴿العاديَّاتِ﴾ هنا: الإبل لأنها تضبح في عدوها^(٢)، قال علي - رضي الله عنه -: والقسم بالإبل العاديَّاتِ مِنْ عَرَفَةٍ وَمِنْ الْمُزْدَلِفَةِ، إذا دفع الحاج، وبابل غزوة بدر^(٣)، والضبح تصويت جهير عند العدو، قال الداودي: وهو الصوت الذي يسمع من أجوافها وقت الركض، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قَالُمُورِيَّاتٍ قَدْحًا﴾ قال علي وابن مسعود هي: الإبل؛ وذلك بأنها [في] عدوها تزجم الحصباء بالحصباء فتطأير منها النار، فذلك القدح، وقال ابن عباس: هي الخيل؛ وذلك بحوافرها في الحجارة، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة: الكلام/ عامٌ يَدْخُلُ فِي الْقَسَمِ كُلُّ مَنْ يَظْهَرُ بِقَدْحِهِ نَارًا. * ص *: ﴿قَدْحًا﴾ أبو البقاء: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ؛

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٦٤)، (٣٧٧٦٣)، وذكره البغوي (٤/٥١٧)، وابن عطية (٥/٥١٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٠)، وعزاه لليزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٦٦٧)، (٣٧٧٨٥)، وذكره البغوي (٤/٥١٧)، وابن عطية (٥/٥١٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٤١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٦٦٦)، (٣٧٧٨١)، وذكره البغوي (٤/٥١٧)، وابن عطية (٥/٥١٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٤١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٢)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف»، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس بنحوه.

لَأَنَّ الْمُورِيَّ هُوَ الْقَادِحُ، انتهى، ﴿فَالْمَغِيرَاتُ صَبْحًا﴾ قال علي وابن مسعود هي: الإبل من مزدلفة إلى منى، وفي بدر، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة: هي الخيل، واللفظة من العارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأمم وعزف العارات أنها مع الصبح، والثقع الغبار الساطع المثار، والضمير في ﴿به﴾ ظاهره أنه للصبح المذكور، ويحتمل أن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى، ومشهور إثارة الثقع هو للخيل، وقال علي: هو هنا للإبل.

﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال علي وابن مسعود هي: الإبل، و﴿جمعاً﴾ هي المزدلفة، وقال ابن عباس وجماعة: هي الخيل، والمراد جمع من الناس هم المغزؤون، والقسم واقع على قوله: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ وزوي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَتَذَرُونَ مَا الْكَنُودُ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: هُوَ الْكَفُورُ الَّذِي يَأْكُلُ وَخَدَهُ، وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ، وَيَضْرِبُ عَبْدَهُ»، وقد يكون في المؤمنين الكفور بالنعمة فتقدير الآية: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِنِعْمَةِ رَبِّهِ لَكَنُودٌ، وأرض كنود: لا تثبت شيئاً، والكنود: العاصي بلغة كندة، ويقال للبخيل: كنود، وفي البخاري عن مجاهد: الكنود الكفور، انتهى^(١).

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ إِلَىٰ أَلْقَابُورٍ﴾ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَذِيقُ الْخَيْرِ ﴿١١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يحتمل الضمير أن يعود على الله تعالى؛ وقاله قتادة^(٢)، ويحتمل أن يعود على الإنسان؛ أنه شاهد على نفسه بذلك؛ وهذا قول مجاهد وغيره^(٣).

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: وإن الإنسان لحب الخير، والمعنى من أجل حب الخير، ﴿لَشَدِيدٌ﴾/ أي: بخيل بالمال ضابط له، والخير هنا المال، ويحتمل أن يراد هنا الخير بـ ٢٣٧ الدنيوي من مال، وصحة، وجاء عند الملوك، ونحوه؛ لأن الكفار والجُهال لا يعرفون غير ذلك، وأما [الحب في خير الآخرة فَمَمْدُوحٌ؛ مَرَجَوْهُ الْفُورُ، وقال الفراء: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ

(١) أخرجه الطبري (٦٧٢/١٢)، (٣٧٨٢٩)، وذكره البغوي (٥١٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٣)، وعزاه للفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد، وذكره البخاري (٥٩٩/٨)، كتاب «التفسير» معلقاً.

(٢) أخرجه الطبري (٦٧٣/١٢)، (٣٧٨٤٤)، وذكره ابن عطية (٥١٤/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة.

(٣) ذكره ابن عطية (٥١٥/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٤٢)، والسيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه لابن أبي حاتم.

الإنسان لشديد الحب للخير ولما تقدم [الخير قبل «شديد» حذف من آخره؛ لأنه قد جرى ذكره؛ ولرؤوس الآي، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ توقيف، أي: أفلا يعلم مآله ومصيره فيستعد له.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: مُيِّزَ وَأُبْرَزَ مَا فِيهَا ليقع الجزاء عليه، ويفسر هذا قوله ﷺ: «يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وعيد، * ص *: والعامل في ﴿يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ على تضمينه معنى: لمجاز؛ لأنه تعالى خير دائماً، انتهى.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْقَارِعَةِ»

وَهِيَ مَكْنِيَةٌ بِلَا خِلَافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنْقَارَةٌ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴿

قَالَ الْجُمْهُورُ: «الْقَارِعَةُ» الْقِيَامَةُ نَفْسُهَا، وَالْفَرَاشُ: الطَّيْرُ الَّذِي يَتَسَاقَطُ فِي النَّارِ؛ وَلَا يَزَالُ يَتَقَحَّمُ عَلَى الْمَصْبَاحِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ صَغِيرُ الْجَرَادِ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِي الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ، وَفِي الْبَخَارِيِّ: «كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ»: كَغَوْغَاءِ الْجَرَادِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ كَذَلِكَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ؛ يَجُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، انْتَهَى، وَ«الْمَبْثُوثُ» هُنَا مَعْنَاهُ: الْمَتَفَرِّقُ جَمْعُهُ؛ وَجَمَلَتُهُ مَوْجُودَةٌ مُتَصِلَةٌ، وَالْعِهْنُ هُوَ: الصُّوفُ وَالنَّفْسُ خَلَخَلَتْ الْأَجْزَاءَ وَتَفَرَّقَتْ عَنْ تَرَاصِيهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ: الْمُرَادُ بِالْأُمِّ نَفْسُ الْهََاوِيَةِ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ لِلْأَرْضِ أُمُّ النَّاسِ؛ لِأَنَّهَا تُؤْوِيهِمْ، وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ/ وَغَيْرُهُ: الْمُرَادُ أُمُّ رَأْسِهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَهْوُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ^(١)؛ وَزَوَى الْمَبْرُذُ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: قَالَ لِرَجُلٍ: لَا أُمُّ لَكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَدْعُونِي إِلَى الْهُدَى وَتَقُولُ: لَا أُمُّ لَكَ، فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: إِنَّمَا أَرَدْتُ لَا نَارَ لَكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ».

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٦٧٧/١٢)، (٣٧٨٦٥)، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ (٥١٩/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥١٧/٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٤٣/٤)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمَشْهُورِ»، وَعِزَّاهُ لِابْنِ جَرِيرٍ.

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ «التَّكْوِيْنِ»

وَمِنْ مَكْنَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④

قوله تعالى: ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾ أي: شَغَلَكُمُ الْمَبَاهَةُ وَالْمَفَاخِرَةُ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْعَدَدِ، وَهَذَا هَجِيرَى أَبْنَاءِ الدُّنْيَا الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الْمُتَّقُونَ، قَالَ الْفَخْرُ: فَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي «التَّكْوِيْنِ» لَيْسَ لِلِاسْتِغْرَاقِ بَلْ لِلْمَغْهُودِ السَّابِقِ فِي الدُّهْنِ، وَهُوَ التَّكْوِيْنُ فِي الدُّنْيَا؛ وَلِذَلِكَ وَعَلَائِقُهَا؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ؛ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مُقَرَّرًا فِي الْعُقُولِ وَمُتَّفَقًا عَلَيْهِ فِي الْأَدْيَانِ لَا جَرَمَ؛ حَسَنَ دُخُولُ حَرْفِ التَّعْرِيفِ عَلَيْهِ؛ فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ التَّكْوِيْنَ وَالتَّفَاخُرَ بِمَا ذُكِرَ مَذْمُومٌ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى مُثِّمٌ فَذُنُوبُكُمْ فِي الْمَقَابِرِ وَهَذَا خَبَرٌ فِيهِ تَفْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ وَتَحَسُّرٌ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا بَنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْنَيْتُ أَوْ لَبَسْتُ فَأَبْلَيْتُ أَوْ تَصَدَّقْتُ فَأَمْضَيْتُ»^(١) قَالَ * ص: * قَرَأَ الْجُمْهُورُ: «أَلْهَأَكُمُ» عَلَى الْخَبَرِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ بِالْمَدِّ، وَالْكَسَائِيُّ^(٢) فِي رَوَايَةٍ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٢٧٣/٤)، كِتَابُ «الزَّهْدِ وَالرَّقَائِقِ» بَابُ: (٢٩٥٨/٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤٤٧/٥)، كِتَابُ «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» بَابُ: وَمِنْ سُورَةِ التَّكْوِيْنِ (٣٣٥٤)، (٥٧٢/٤)، كِتَابُ «الزَّهْدِ» بَابُ: مِنْهُ (٢٣٤٢)، وَالنَّسَائِيُّ (٢٣٨/٦)، كِتَابُ «الْوَصَايَا» بَابُ: الْكَرَاهِيَّةُ فِي تَأْخِيرِ الْوَصِيَّةِ (٣٦١٣)، وَأَحْمَدُ (٢٤/٤)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٢١١/٢).

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَفِي الْبَابِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَحْوَهُ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٢٧٣/٤)، كِتَابُ «الزَّهْدِ وَالرَّقَائِقِ» بَابُ: (٢٩٥٩/٤)، وَالبَيْهَقِيُّ (٣٦٩/٣)، كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ: مَا يَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَعْمَلَ مِنْ قَعْرِ الْأَمَلِ، وَابْنُ حِبَّانٍ فِي «صَحِيحِهِ» (٣٥/٨ - ٣٦) كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْحَرَصِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ (٣٢٤٤).

(٢) يَنْظُرُ: «مَخْتَصَرُ الْقُرْآنِ» (١٧٩)، وَ«الْبَحْرُ الْمُحِيطُ» (٥٠٦/٨).

بهمزتين، ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقرير، انتهى، قال الفخر: اعلم أن أهم الأمور وأولها بالرعاية تزيق القلب، وإزالة حب الدنيا منه، ومشاهدة القبور تؤرث ذلك؛ كما ورد/ به الخبر، انتهى.

ب ٢٣٨

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجر ووعيد، ثم كرر تأكيداً، ويأخذ كل إنسان من هذا الزجر والوعيد المكرر على قدر حظّه من التوغل فيما يُكره؛ هذا تأويل الجمهور، وقال علي: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر، ﴿ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في البعث^(١)، قال الفخر^(٢): وفي الآية تهديد عظيم للعلماء فإنها دالة على أنه لو حصل اليقين لتركوا التكاثر والتفاخر؛ فهذا يقتضي أن من لا يترك التكاثر والتفاخر أن لا يكون اليقين حاصلاً له؛ فالويل للعالم الذي لا يكون عاقلاً؛ ثم الويل له، انتهى.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ جواب «لو» محذوف تقديره لآزدجرتكم، [وبادرتكم] إنقاذ أنفسكم من الهلكة، واليقين أعلى مراتب العلم، ثم أخبر تعالى الناس أنهم يرون الجحيم، وقال ابن عباس: هذا خطاب للمشركين والمعنى على هذا التأويل: أنها رؤية دخول وصلي؛ وهو عين اليقين لهم^(٣)، وقال آخرون: الخطاب للناس كلهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مریم: ٧١] فالمعنى أن الجميع يراها؛ ويجوز الناجي ويتكدرس فيها الكافر، * ص *: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ابن عامر والكسائي - بضم التاء -، والباقون بفتحها^(٤)، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ تأكيد في الخبر، وعين اليقين: حقيقته وغايته، ثم أخبر تعالى أن الناس مسؤولون يومئذ عن نعيمهم في الدنيا؛ كيف نالوه ولم آثروه، وتتوجه في هذا أسئلة كثيرة بحسب شخص شخص، وهي مُقَادَّة لِمَنْ أُعْطِيَ فهُمَا في كتاب الله - عز وجل -، وقد قال ﷺ / لأصحابه: «والذي نفسي بيده، لتسألن عن

(١) أخرجه الطبري (١٢/٦٧٩)، (٣٧٨٧٣) عن علي رضي الله عنه، وذكره ابن عطية (٥/٥١٩).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٣٢/٧٦).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/٦٨٠)، (٣٧٨٧٨)، وابن عطية (٥/٥١٩).

(٤) ينظر: «السبعة» (٦٩٥)، و«الحجة» (٦/٤٣٤)، و«إعراب القراءات» (٢/٥٢٤)، و«معاني القراءات»

(٣/١٦٠)، و«شرح الطيبة» (٦/١٣٣)، و«العنوان» (٢١٣)، و«حجة القراءات» (٧٧١)، و«شرح شعلة»

(٦٢٦)، و«إتحاف» (٢/٦٢٦).

نَعِيمٌ هَذَا الْيَوْمُ»^(١)، الحديث في الصحيح؛ إِذْ ذَبَحَ لَهُمْ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ شَاةً وَأَطْعَمَهُمْ خُبْزاً وَرُطْباً، وَأَسْتَعَذَّبَ لَهُمْ مَاءً، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي حَدِيثِهِ فِي مَسِيرِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَى بَيْتِ أَبِي الْهَيْثَمِ، وَأَكْلِهِمُ الرُّطْبَ وَاللَّحْمَ وَشُرْبَهُمُ الْمَاءَ، وَقَوْلُهُ ﷺ هَذَا هُوَ النَّعِيمُ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ ذَلِكَ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَصَبْتُمْ مِثْلَ هَذَا وَضَرَبْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ، فَقُولُوا: بِأَسْمِ اللَّهِ، وَعَلَى بَرَكَاتِهِ، وَإِذَا شَبِعْتُمْ، فَقُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَشْبَعَنَا وَأَزَوَانَا، وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا وَأَفْضَلَ، فَإِنَّ هَذَا كَفَافٌ [بِذَلِكَ]» هذا مختصر^(٢) رواه الحاكم في المستدرک، انتهى من «سلاح المؤمن» قال الداودی: وعن الحسن وقتادة: ثَلَاثٌ لَا يَسْأَلُ اللَّهُ عَنْهُنَّ ابْنُ آدَمَ وَمَا عَدَاهُنَّ فِيهِ الْحِسَابُ وَالسُّؤَالُ؛ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ: كَسَوَّةٍ يُوَارِي بِهَا سُوءَهُ، وَكِسْرَةٍ يَشُدُّ بِهَا صُلْبَهُ، وَبَيْتٍ يُكْنِئُهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، انتهى.

(١) أخرجه مسلم (٣/١٦٠٩ - ١٦١٠)، كتاب «الأشربة» باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يشق برضاه بذلك، فيتحققه تحققاً تاماً، واستحباب الاجتماع على الطعام (١٤٠، ٢٠٣٨/١٤٠).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤/١٠٧) مختصراً. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي: صحيح.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «العصر»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

قال ابن عباس: ﴿العصر﴾ الدهر^(١)، وقال مقاتل: العصرُ هي صلاةُ العصر، وهي الوسطى، أقسم الله بها^(٢)، وقال أبي بن كعب: سألتُ النبي ﷺ عن ﴿وَالْعَصْرِ﴾ فَقَالَ: «أَقْسَمَ رَبُّكُمْ بِأَخْرِ النَّهَارِ»، و﴿الْإِنْسَانِ﴾ هنا اسمُ جنسٍ والخُسْرُ: النُّقْصَانُ وَسُوءُ الْحَالِ، وَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مُدَّةِ عَمَرِهِ فِي التَّوَّاصِي بِالْحَقِّ، وَالصَّبْرِ، وَالْعَمَلِ؛ بِحَسَبِ الْوَصَاةِ فَلَا خُسْرَ مَعَهُ وَقَدْ جَمَعَ الْخَيْرَ كُلَّهُ.

(١) أخرجه الطبري (٦٨٥/١٢)، (٣٧٩٠٨) عن ابن عباس، وذكره البغوي (٥٢٢/٤)، وابن عطية (٥/٥٢٠).

(٢) ذكره البغوي (٥٢٢/٤)، وابن عطية (٥٢٠/٥).

[تفسير] سُورَةُ «الْهُمَزَةُ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ ۖ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۚ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ۚ (٦) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ ۚ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۚ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۚ (٩)﴾

تقدم تفسير: ﴿وبئس﴾ والـ «هُمَزَةٌ»: الذي يَهْمِزُ النَّاسَ بِلِسَانِهِ، أي: يَعْيبُهُمْ وَيَغْتَابُهُمْ، والـ «لُّمَزَةٌ»: قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى مِنْ هَذَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ [التوبة: ٧٩] وغيره، قيل: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ، وَقِيلَ فِي جَمِيلِ بْنِ عَامِرٍ، ثُمَّ هِيَ تَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

﴿وَعَدَّدَهُ﴾ معناه: أَخْصَاهُ وَحَافِظَ عَلَى عَدَدِهِ أَنْ لَا يَنْتَقِصَ، وَقَالَ الدَّوَّادِيُّ: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾: أَي: اسْتَعَدَّهُ، انْتَهَى، ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾: لَيُطْرَحَنَّ * ص * : ﴿نَارُ اللَّهِ﴾: خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَي: هِيَ نَارُ اللَّهِ، انْتَهَى.

و﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾: أَي: الَّتِي يَنْبَلُغُ إِخْرَاقُهَا وَالْمَهَا الْقُلُوبُ.

و«موصدة»: أَي مُطَبَّقَةٌ مُغْلَقَةٌ.

﴿في عمَدٍ﴾ جَمْعُ عَمُودٍ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(١): «مُؤَصَّدَةٌ بِعَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ» وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمَعْنَى: فِي عَمَدٍ حَدِيدٍ مَغْلُولِينَ بِهَا، وَالْكُلُّ مِنْ نَارٍ^(٢)، عَافَا اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٢٢/٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٦٩٠)، (٣٧٩٤٧)، وذكره ابن عطية (٥٢٢/٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْفِيلِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَعَمَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

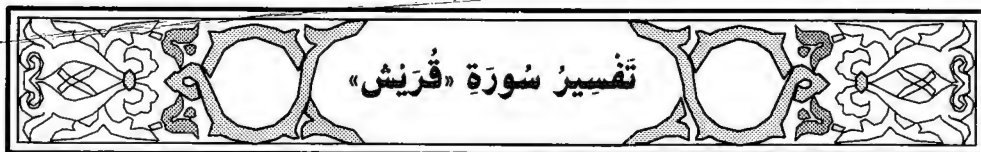
هذه السورة تنبيه على العبرة في أخذ الله تعالى لأبرهة أمير الحبشة، حين قصّد الكعبة ليهدمها، وكان صاحب فيل يزكبه، وقصته شهيرة في السير فيها تطويل، واختصارها أن أبرهة بنى في اليمن بيتاً وأراد أن يرد إليه حج العرب، فذهب أعرابي وأحدث في ذلك البيت، فعصّب أبرهة واختفل في جموعه، وركب الفيل وقصّد مكة، فلما قرب منها، فرث قريش إلى الجبال والشعاب من معرة الجيش، ثم تهيأ أبرهة لدخول مكة ٢٣٩ ب وهياً الفيل، فأخذ ثقيّل بن حبيب بأذن الفيل وكان اسمه محموداً، فقال له: ابرك، محمود؛ فإنك في حرم الله، وازجغ من حيث جئت راشداً، فبرك الفيل بذي الغميس، فبعثوه فأبى فصرّبوا رأسه بالمغول، وراموه بمحاجنهم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهزول، فبعث الله عليهم طيراً جماعات سوداً من البحر، عند كل طائر ثلاثة أحجار؛ في منقاره، ورجليه، كل حجر فوق العدة ودون الحمصة، ترميهم بها، فماتوا في طريقهم متفرقين وتقطع أبرهة أنملة أنملة حتى مات، وحوى الله بيته، والأبابيل: الجماعات تجيء شيئاً بعد شيء، قال أبو عبيدة: لا واحد له من لفظه^(١)، قال الفخر^(٢): ﴿في تضليل مغناه: في تضريع وإبطال، يقال: ضلل كيده، إذا جعله ضالاً ضائعاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿وما كيد الكافرين﴾ [إلا في ضلال] [غافر: ٢٥] انتهى، والعصف: ورق الحنطة وبتنه، والمعنى صاروا طحيناً ذاهباً كورق حنطة أكلته الدواب، ورائته، فجمع

(١) ذكره الطبري (١٢/٦٩٠)، والبغوي (٤/٥٢٨)، وابن عطية (٥/٥٢٣).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» (٣٢/٩٤).

لَهُمَّ الْمَهَانَةُ وَالْخِسَّةَ وَالتَّلَفَ، قال الفخر: وقيل المعنى: كَعَضَفٍ صَالِحٍ لِلْأَكْلِ، والمعنى جَعَلَهُمْ كَتَيْنٍ تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ؛ وهو قولٌ عكرمة والضحاك، انتهى^(١)، ومن كتاب «وسائل الحاجات وآداب المناجات» للإمام أبي حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - قال: وَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّالِحِينَ وَأَرْبَابِ الْقُلُوبِ أَنَّهُ مِنْ قَرَأَ فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ؛ فِي الْأُولَى الْفَاتِحَةَ وَ«أَلَمْ نَشْرَحْ»، وَفِي الثَّانِيَةِ الْفَاتِحَةَ وَ«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ» قَصُرَتْ يَدُ كُلِّ عَدُوٍّ عَنْهُ، وَلَمْ يُجْعَلْ لَهُمْ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، قال الإمام أبو حامد: وهذا صحيح / لَا شَكَّ فِيهِ، انتهى. ١٢٤٠

(١) أخرجه الطبري (٦/٦٩٨)، (٣٧٩٩٥) عن الضحاك، وذكره البغوي (٤/٥٢٩)، وابن عطية (٥/٥٢٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧٦)، وعزاه لعبد بن حميد عن عكرمة.



وَمِنْ مَكِّيَّةٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٌ ۝١ إِذَا لَفِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

قريش، ولد النضر بن كنانة، والتقرش: التكبُّب، والمعنى أن الله تعالى جعل قريشاً يالْفُونَ رَحْلَتَيْنِ في العام، واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف، قال ابن عباس: كانوا يَرْحَلُونَ في الصيف إلى الطائف؛ حيث الماء والظلُّ ويرحلون في الشتاء إلى مكة^(١)، قال الخليل: معنى الآية؛ لأنَّ فَعَلَ اللهُ بقريش هذا ومكَّنهم من إلفهم هذه النعمة فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ معناه أنَّ أهل مكة قاطنون بوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عُزْصَةً للجوع والجذب؛ لولا فضلُ الله عليهم.

(١) أخرجه الطبري (٧٠٣/١٢)، (٣٨٠/١٤)، وذكره البغوي (٥٣٠/٤)، وابن عطية (٥٢٥/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٨/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

[تفسير] سُورَةُ «الْمَاعُونِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ (١) ﴿فَذَلَّلَاكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ (٢) ﴿وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٣) ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥) ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (٦) ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧) ﴿

قوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالدينِ﴾ الآية، توقيف وتنبية لِتَتَذَكَّرَ نَفْسُ السامِعِ كُلٌّ مِنْ تَعْرِفِهِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، والدينُ: الجزاء.

ودعُ اليتيم: دَفَعُهُ بِعَنْفٍ؛ إِمَّا عَنْ إِطْعَامِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَإِمَّا عَنْ حَقِّهِ وَمَالِهِ، وَهُوَ أَشَدُّ، وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَعْضِ الْمُضْطَرِّينَ فِي الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ، لَمْ يُحَقِّقُوا فِيهِ، وَفَتِنُوا فَافْتَتَنُوا، وَرَبِّمَا كَانَ يَصْلِي بَعْضُهُمْ أحياناً مَعَ الْمُسْلِمِينَ مَدَافِعَةً وَخَيْرَةً، فَقَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الْآيَةَ، وَنَقَلَ الثَّعَالِبِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ؛ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، انْتَهَى^(١)، وَقَالَ السَّهْلِيُّ: قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: نَزَلَ أَوَّلُ السُّورَةِ بِمَكَّةَ فِي أَبِي جَهْلٍ، وَهُوَ الَّذِي يَكْذِبُ/ بِالدينِ، وَنَزَلَ آخِرُهَا بِالْمَدِينَةِ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَلَدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ، انْتَهَى، قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَهَا عَنْ وَفَّيْهَا»^(٢)، يَرِيدُ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - تَأْخِيرَ تَرْكِ وَإِهْمَالِ، وَإِلَى هَذَا نَحْنُ مُجَاهِدٌ^(٣)، وَقَالَ

(١) ذكره البغوي (٤/٥٣١).

(٢) أخرجه البيهقي (٢/٢١٤)، كتاب «الصلاة» باب: الترغيب في حفظ وقت الصلاة والتشديد على من أضاعه.

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣٣): رواه أبو يعلى وإسناده حسن. قال ابن أبي حاتم في «محل الحديث» (١/١٧٨)، فسمعت أبا زرعة يقول: هذا خطأ والصحيح موقوف. أخرجه الطبري (١٢/٧٠٧)، (٤٨/٣٨٠)، وذكره ابن عطية (٥/٥٢٧).

عطاء بن يسار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: فِي صَلَاتِهِمْ^(١).
وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ بيان أن صلاة هؤلاء ليست لله تعالى بإيمان، وإنما هي رياء للبشر، فلا قبول لها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ وصف لهم بقلة النفع لعباد الله، وتلك شر خضلة، وقال علي بن عمر: ﴿الماعون﴾: الزكاة^(٢)، وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة: هو ما يتعاطاه الناس كالفأس، والدلو، والآنية، والمقص؛ ونحوه^(٣)، وسئل النبي ﷺ: مَا الشَّيْءُ الَّذِي لَا يَحِلُّ مَنَعُهُ فَقَالَ: الْمَاءُ وَالنَّارُ، وَالْمِلْحُ، وَرَوْنَةُ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، وَفِي بَعْضِ الطَّرِيقِ زِيَادَةُ الْإِبْرَةِ، وَالْحَمِيرُ، قَالَ الْبُخَارِيُّ: الْمَاعُونُ: الْمَعْرُوفُ كُلُّهُ، وَقَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ: الْمَاعُونُ: الْمَاءُ، وَقَالَ عِكْرَمَةُ: أَعْلَاهُ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ، وَأَدْنَاهُ عَارِيَةُ الْمَتَاعِ، انتهى^(٤).

(١) أخرجه الطبري (٧٠٨/١٢)، (٣٨٠٥٦)، وذكره ابن عطية (٥٢٧/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٣/٦)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٥/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٧١٠/١٢) عن علي برقم: (٣٨٠٧٢)، وعن ابن عمر برقم: (٣٨٠٧٣)، وذكره البغوي (٥٣٢/٤)، وابن عطية (٥٢٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٥/٦)، وعزاه للفرجاني، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في «سننه».

(٣) أخرجه الطبري (٧١٠/١٢)، (٣٨٠٧٧)، عن ابن مسعود، وعن ابن عباس برقم: (٣٨١١٥)، وذكره البغوي (٥٣٢/٤)، وابن عطية (٥٢٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٤/٦)، وعزاه للطبراني عن ابن مسعود.

(٤) ذكره البغوي (٥٣٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٥/٦)، وعزاه لابن أبي حاتم عن عكرمة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْكَوْثَرِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

قال جماعة من الصحابة والتابعين: «الكوثر» نهر في الجنة حافتاه قباب من لؤلؤ مجوَّف، وطينه مسك وحضباؤه ياقوت، ونحو هذا من صفاته، وإن اختلفت ألفاظ رواته، وقال ابن عباس: الكوثر: الخير الكثير/ قال ابن جبير: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه^(١) * ت * : وخرَّج مسلم عن أنس قال: «بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا؛ إذ أغفى إغفاءً، ثم رفع رأسه متبسماً، فقال: نزلت عليّ آية سورة، فقراً: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إلى آخرها، ثم قال: أتذكرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدني ربي عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أممي يوم القيامة» الحديث، انتهى، وخرَّج ابن ماجه من حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «أول من يرد على الحوض فقراء المهاجرين الدُّنس ثياباً الشُّعْثُ رؤوساً، الذين لا ينكحون الممتنعات، ولا تُفتح لهم أبواب السُّددِ»^(٢)، قال الراوي: فبكى عمر بن عبد العزيز حتى أخضل لحيته، حين بلغه الحديث، وقال: لا جرم، إني لا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ، ولا أذهن رأسي حتى يشعث، وخرَّجه أبو عيسى الترمذي عن ثوبان عن النبي ﷺ بمعناه^(٣)، ونقل صاحب «التذكرة»^(٤) عن أنس بن مالك قال: أول من يرد الحوض على النبي ﷺ

(١) أخرجه الطبري (٧١٧/١٢)، (٣٨١٤٩)، وذكره البغوي (٥٣٣/٤)، وابن عطية (٥٢٩/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٧/٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٣٨/٢ - ١٤٣٩)، كتاب «الزهد» باب: ذكر الحوض (٤٣٠٣)، وأحمد (٥/٢٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٦٢٩/٤)، كتاب «صفة القيامة» باب: (١٥) (٢٤٤٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) ينظر: «التذكرة» (٤١٠/١).

الذَّابِلُونَ النَّاجِلُونَ السَّائِحُونَ الَّذِينَ إِذَا أَجْتَهُمُ اللَّيْلُ اسْتَقْبَلُوهُ بِالْحُزَنِ، انتهى من «التذكرة»،
 وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 فَتَنَزَّلْنَا مَنَزِلًا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ جُزْءٍ مِمَّنْ يَرُدُّ عَلَى الْحَوْضِ، قَالَ: قُلْتُ:
 كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: سَبْعُمِائَةٍ، أَوْ ثَمَانِمِائَةٍ، انتهى^(١).

وقوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ أُمِرَ بالصلاة على العموم، والنَّحْرُ/ نَحْرُ الْهَدْيِ، ٢٤١ ب
 والنُّسْكُ، والضَّحَايَا عَلَى قول الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ شِئْتَ لَوِ الْبُتْرُ﴾ رُدُّ عَلَى مَقَالَةٍ بَعْضُ سَفَهَاءِ قَرِيشٍ كَأَبِي جَهْلٍ
 وَغَيْرِهِ، قَالَ عِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُ: مَاتَ وَلَدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: بُتِرَ مُحَمَّدٌ، فنزلت
 السُّورَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ شِئْتَ لَوِ الْبُتْرُ﴾ أَي: الْمَقْطُوعُ الْمَبْتُورُ مِنْ رَحْمَةِ^(٢) اللَّهِ،
 وَالشَّانِيءُ الْمُبْغِضُ، قَالَ الدَّادُودِيُّ: كُلُّ شَانِيءٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ أُبْتَرٌ، لَيْسَ لَهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ شَفِيعٌ وَلَا حَمِيمٌ يَطَاعُ، انتهى.

(١) أخرجه أبو داود (٦٥٠/٢)، كتاب «السنة» باب: في الحوض (٤٧٤٦)، أخرجه أحمد (٣٦٧/٤)،

٣٦٩، ٣٧١، (٣٧٢) عن زيد بن أرقم.

(٢) ذكره ابن عطية (٥٣٠/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٥٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/

٦٩١)، وعزاه لابن أبي حاتم عن عطاء بنحوه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْكَافِرُونَ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ إِجْمَاعًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

رُوِيَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ ^(١) أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: دَعْ مَا أَنْتَ فِيهِ وَنَحْنُ نُمَوِّلُكَ، وَنُمَلِّكَكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَذَا فَلتَعْبُدْ آلِهَتَنَا، وَتَعْبُدْ إِلَهَكَ، حَتَّى نَشْتَرِكَ؛ فَحَيْثُ كَانَ الْخَيْرُ نَلْنَاهُ جَمِيعًا، وَرُوِيَ: أَنَّ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ الْمَذْكُورَةَ هُمْ: الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ، وَالْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ، وَأُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَأَبِيُّ بْنُ خَلْفٍ، وَأَبُو جَهْلٍ، وَأَبْنَاءُ الْحِجَاجِ، وَنَظَرَاؤُهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُكْتَبْ لَهُ الْإِسْلَامُ، وَخُتِمَ بِشِقَاوَتِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ ﷺ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّهُ لَا يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُونَ وَأَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِدِي مَا يَعْبُدُ، وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ مُحْتَمَلًا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْآنَ وَيَبْقَى الْمُسْتَأْنَفُ مُنْتَظَرًا، مَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، جَاءَ الْبَيَانُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أَي: أَبْدَأُ، ثُمَّ جَاءَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ الثَّانِي حَتْمًا/ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ أَبْدَأُ، كَالَّذِي كَشَفَ الْغَيْبَ، ثُمَّ زَادَ الْأَمْرَ بَيَانًا وَتَبَرُّيًا مِنْهُمْ قَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: فِي هَذِهِ الْأَلْفَافِ مُهَادَنَةٌ مَا؛ وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ.

١٢٤٢

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٢/٦٢٧)، (٣٨٢٢٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٥/٥٣١)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٦/٦٩٢)، وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَالتَّبْرَانِيَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.



وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

رَوَتْ عائشةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ وَأَسْلَمَتِ الْعَرَبُ، جَعَلَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَقَالَ لَهَا مرة: مَا أَرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجْلِي، وَتَأَوَّلَهُ عُمَرُ وَالْعَبَّاسُ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَصَدَّقَهُمَا، وَنَزَعَ هَذَا الْمَنْزَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، ﴿وَالْفَتْحُ﴾ هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ؛ كَذَا فَسَّرَهُ ﷺ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، وَالْأَفْوَاجُ: الْجَمَاعَةُ إِثْرَ الْجَمَاعَةِ، * ص * : «بِحَمْدِ رَبِّكَ» أَيِ مُتَلَبِّسًا، فَالْبَاءُ لِلْحَالِ، أَنْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ بِعَقَبِ ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ تَرْجِيَةً عَظِيمَةً لِلْمُسْتَغْفِرِينَ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِحُجَّتِهِ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ وَعَاشَ بَعْدَهَا ثَمَانِينَ يَوْمًا، أَوْ نَحْوَهَا^(١).

(١) ذكره ابن عطية (٥/٥٣٢)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٦١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩٦)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبزار، وأبي يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عمر بنحوه.

[تفسير] سُورَةُ «المسد»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ (٥)﴾

في «صحيح البخاري» وغيره عن ابن عباس: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ورهطك منهم المخلصين خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصُّفَا فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا/ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ مَا جَرَيْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَّكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ فَتَرَلَّتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ إِلَى آخِرِهَا^(١)، وَ﴿تَبَّتْ﴾ معناه: خَسِرْتَ وَالتَّبَابُ الْخُسْرَانُ، وَالذَّمَارُ، وَأَسَدَ ذَلِكَ إِلَى الْيَدَيْنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْيَدَ مَوْضِعُ الْكَسْبِ وَالرَّزِيقِ، وَضَمَّ مَا يُمْلِكُ، ثُمَّ أَوْجَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ تَبَّ، أَي: حُتِمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٢): «وَقَدْ تَبَّ»، وَأَبُو لَهَبٍ هُوَ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ وَلَكِنْ سَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ، قَالَ السَّهَيْلِيُّ: كُنَاهُ اللَّهُ بِأَبِي لَهَبٍ لَمَّا خَلَقَهُ سَبَحَانَهُ لِلَّهِ وَلِلَّهِ مَصِيرُهُ أَلَا تَرَاهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فَكَأَنَّهُ كُنِيَّتُهُ بِأَبِي لَهَبٍ تَقَدَّمَتْ لَمَّا يَصِيرُ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهَبِ، انْتَهَى.

وقوله سَبَحَانَهُ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» نَافِيَةً عَلَىٰ مَعْنَى الْخَبَرِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» اسْتِفْهَامِيَّةً عَلَىٰ وَجْهِ التَّقْرِيرِ أَي: أَيْنَ الْعَنَاءُ الَّذِي لِمَالِهِ وَكَسْبِهِ، ﴿وَمَا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩/٨)، كتاب «التفسير» باب: سورة: تبت حديث (٤٩٧١).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٨١٤/٤)، و«المحرر الوجيز» (٥٣٤/٥)، و«البحر المحيط» (٥٢٦/٨)، و«الدر المصون» (٥٨٥/٦).

كَسَبَ ﴿ يَرَاذُ بِهِ عَرَضُ الدُّنْيَا، مِنْ عَقَارٍ، وَنَحْوِهِ، وَقِيلَ: كَسَبُهُ بَثْوُهُ.

وقوله سبحانه: ﴿سَيُضْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ حَتَمَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ وَإِعْلَامٌ أَنَّهُ يُتَوَفَّى عَلَى كَفْرِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ وَذَلِكَ الشَّقَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ أَخْتُ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَكَانَتْ مُؤَذِّبَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِلِسَانِهَا وَغَايَةَ قُدْرَتِهَا، وَكَانَتْ تَطْرَحُ الشُّوكَ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ وَطَرِيقِ أَصْحَابِهِ لِيَغْقِرَهُمْ؛ فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١)، وَقِيلَ هُوَ اسْتِعَارَةٌ لِذُنُوبِهَا، قَالَ عِيَّاضُ: وَذَكَرَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: كَانَتْ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ تَضَعُ الْعِصَاةَ، وَهِيَ جَمْرٌ عَلَى طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَأَنَّمَا يَطْوُهَا كَثِيبًا أَهْيَلًا، انْتَهَى، * ص * وَقُرِئَ شَاذًا: «وَمُرْتَبَتُهُ» بِالتَّصْغِيرِ^(٢)، وَالْجِدُّ هُوَ الْعَتَقُ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ: الْإِشَارَةُ إِلَى الْحَبْلِ حَقِيقَةً، الَّذِي رَبَطَتْ بِهِ الشُّوكَ^(٣)، وَالْمَسَدُ: اللَّيْفُ، وَقِيلَ لَيْفُ الْمُقْلِ، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: يُقَالُ مِنْ مَسَدٍ لَيْفُ الْمُقْلِ وَهِيَ السَّلْسَلَةُ الَّتِي فِي النَّارِ، انْتَهَى، وَرُوي فِي الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ لَمَّا نَزَلَتْ وَقُرِئَتْ؛ بَلَغَتْ أُمُّ جَمِيلٍ فَجَاءَتْ أَبَا بَكْرٍ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَبِيَدِهَا فَهْرٌ حَجَرٌ، فَأَخَذَ اللَّهُ بِبَصَرِهَا وَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكِ هَجَانِي، وَلَوْ وَجَدْتُهُ لَضَرَبْتُهُ بِهَذَا الْفِهْرِ، وَإِنِّي لَشَاعِرَةٌ وَقَدْ قُلْتُ فِيهِ: [مَنْهُوكِ الرَّجْزِ]

مُذَمَّمًا قَلْبِنَا وَوَدَيْنَا أَبِينَا^(٤)
فَسَكَتَ أَبُو بَكْرٍ، وَمَضَتْ هِيَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ حَجَبْتَنِي عَنْهَا مَلَائِكَةٌ فَمَا رَأَيْتَنِي وَكَفَّانِي اللَّهُ شَرَّهَا.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٧٣٥/١٢)، (٣٨٢٦٩)، وَذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٥٤٣/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥٣٥/٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٦٤/٤)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٧٠٣/٦)، وَغَرَاهُ لَابَنُ جَرِيرٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ»، وَابْنُ عَسَاكِرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قَرَأَ بِهَا ابْنُ مَسْعُودٍ، كَمَا فِي «الشَّوَازِ» ص: (١٨٢)، وَ«الْمَحْتَسِبِ» (٣٧٥/٢)، وَيَنْظُرُ: «الْكَشَافُ» (٤/٨١٥)، وَ«الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥٣٥/٥)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٥٢٧/٨)، وَ«الدَّرُّ الْمَصْبُونُ» (٥٨٦/٦).

(٣) ذَكَرَهُ الْبَغْوِيُّ (٥٤٤/٤)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ (٥٣٥/٥).

(٤) تَقْدِمُ وَيَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٥٣٥/٥)، وَ«الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٥٢٨/٨).

[تفسير] سُورَةُ «الإِخْلَاصِ»

قِيلَ: مَكِّيَّةٌ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَدْيَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ
كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١﴾

رُوي أَنَّ الْيَهُودَ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ؛ صِفْ لَنَا رَبَّكَ وَانْسِبْهُ،
فَإِنَّهُ وَصَفَ/ نَفْسَهُ فِي التَّوْرَةِ وَنَسَبَهَا، فَازْتَعَدَّ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ حَتَّى خَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ،
٢٤٣ ب وَنَزَلَ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ السُّورَةِ.

و﴿أَحَدٌ﴾ مَعْنَاهُ: وَاحِدٌ فَرَّدَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ و﴿هُوَ﴾
ابْتِدَاءٌ، و﴿اللَّهُ﴾ ابْتِدَاءٌ ثَانٍ، و﴿أَحَدٌ﴾ خَبَرُهُ وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ الْأَوَّلِ، وَقِيلَ هُوَ ابْتِدَاءٌ و﴿اللَّهُ﴾
خَبَرُهُ و﴿أَحَدٌ﴾ بَدَلٌ مِنْهُ، وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَغَيْرُهُ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ»
و﴿الصَّمَدُ﴾ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ السَّيِّدُ الَّذِي يُضْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ وَيَسْتَقِيلُ بِهَا وَأَنْشَدُوا:
[الطويل]

لَقَدْ بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدٍ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ
وبهذا تَفَسَّرُ هَذِهِ الْآيَةُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - هُوَ مُوجِدُ الْمَوْجُودَاتِ وَإِلَيْهِ
تَضُمُّ وَبِهِ قَوَامُهَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ..

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ رَدٌّ عَلَى إِشَارَةِ الْكُفَّارِ فِي النَّسَبِ الَّذِي سَأَلُوهُ،
وقال ابن عباس: تَفَكَّرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ ^(١)، قال * ع ^(٢) *: لِأَنَّ
الْأَفْهَامَ تَقِفُ دُونَ ذَلِكَ حَسِيرَةً.

(١) ذكره ابن عطية (٥/٥٣٧).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/٥٣٧).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ معناه ليس له ضدٌّ، وَلَا يَدُّ وَلَا شَيْبَةٌ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وَالْكُفُوُ النَّظِيرُ وَ«كُفُوًا» خبر كان وَأَسْمُهَا «أَحَدٌ». قال * ص * : وَحَسَنَ تَأْخِيرُ اسْمِهَا لِوُقُوعِهِ فَاصِلَةً، وَلَهُ مُتَعَلِّقٌ بِـ «كُفُوًا» أَي: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ كُفُوًا لَهُ، وَقَدْ اِهْتِمَامًا بِهِ لِاسْتِمَالِهِ عَلَى ضَمِيرِ الْبَارِي سَبْحَانَهُ، انْتَهَى، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ إِنَّ «قُلَّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ^(١)، قَالَ * ع * : لِمَا فِيهَا مِنَ التَّوْحِيدِ، وَرَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ الدَّارِمِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَزِيدٍ حَدَّثَنَا حَيوةٌ/ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَقِيلٍ، أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ اخْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا عَشْرِينَ مَرَّةً، بُنِيَ لَهُ قَصْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا ثَلَاثِينَ مَرَّةً؛ بُنِيَ لَهُ ثَلَاثَةُ قُصُورٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِذَنْ تَكْثُرُ قُصُورُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ»^(٢) [أَي: فَضْلُ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ]^(٣). قَالَ الدَّارِمِيُّ: أَبُو عَقِيلٍ هُوَ زَهْرَةُ بْنُ مَعْبُدٍ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنَ الْأَبْدَالِ، انْتَهَى مِنَ «التَّذَكُّرَةِ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٣/٣٥٥) - النووي، كتاب «صلاة المسافرين» باب: فضل قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢٦١ - ٢٦٢/٢٦٢)، والترمذي (١٦٨/٥)، كتاب «فضائل القرآن» باب: ما جاء في سورة الإخلاص (٢٨٩٩)، وابن ماجه (٢/١٢٤٤)، كتاب «الأدب» باب: ثواب القرآن (٣٧٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الباب من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٢/١٧٣)، والطبراني (١٢/٤٠٥) (١٣٤٩٣).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٢٢١): رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو يعلى بنحوه، ورجال أبي يعلى ثقات. اهـ مختصراً.

وفي الباب عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أخرجه ابن ماجه (٢/١٢٤٤)، كتاب «الأدب» باب: ثواب القرآن (٣٧٨٨).

وفي الباب عن امرأة أبي أيوب: أخرجه النسائي (٢/١٧٢)، كتاب «الافتاح» باب: في قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٩٩٦)، وأحمد (٥/٤١٨) عن أبي أيوب.

(٢) ذكره الهندي في «كنز العمال» (١/٥٨٥)، (٢٦٥٧)، وعزاه إلى أحمد عن معاذ بن أنس مختصراً.

(٣) سقط في: د.

(٤) ينظر: «التَّذَكُّرَةُ» (٢/٦٢٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ «الْفَلَقِ»

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَدَنِيَّةٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴿

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ والمُرَادُ هُوَ وَآحَادُ أُمَّتِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْفَلَقُ الصُّبْحُ (١)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: الْفَلَقُ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ (٢)، وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يَعُمُّ كُلَّ مَوْجُودٍ لَهُ شَرٌّ، وَاخْتُلِفَ فِي: «الغَاسِقِ» فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْغَاسِقُ اللَّيْلُ وَوَقَبَ: أَظْلَمَ، وَدَخَلَ عَلَى النَّاسِ (٣)، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَشَارَ إِلَى الْقَمَرِ وَقَالَ: يَا عَائِشَةُ؛ تَعُوذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ، قَالَ السَّهْلِيُّ: وَهَذَا أَصَحُّ مَا قِيلَ لِهَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، انْتَهَى، وَلَفْظُ صَاحِبِ «سَلَاحِ الْمُؤْمِنِينَ»: عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ؛ اسْتَعِذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّ هَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ (٤)، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ

(١) أخرجه الطبري (٧٤٧/١٢)، (٣٨٣٥١)، وذكره البغوي (٥٤٧/٤)، وابن عطية (٥٣٨/٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٧٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧١٧/٦)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٧٤٧/١٢)، (٣٨٣٤٥)، عن السدي. وذكره ابن عطية (٥٣٨/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٧٤٨/١٢)، (٣٨٣٦٤)، وذكره البغوي (٥٤٧/٤)، وابن عطية (٥٣٨/٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧١٨/٦)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٥٢/٥)، كتاب «تفسير القرآن» باب: ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦)، وأحمد (٦/٢٠٦، ٢١٥، ٢٣٧، ٢٥٢)، والحاكم (٥٤١/٢).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي: صحيح.

والنسائي، والحاكم في «المستدرک»، واللفظ للترمذي، وقال حسنٌ صحيحٌ، وقال /الحاكم: صحيح الإسناد، ووقَّب القمر وقوباً: دَخَلَ فِي الظِّلِّ الَّذِي يَكْسِفُهُ؛ قَالَ ابْن ٢٤٤ ب سَيِّدَة، انْتَهَى مِنْ «السَّلاَح».

و«الثَّقَاتُ فِي الْعَقْدِ» السَّوَاجِرُ، وَيُقَالُ: إِنْ الْإِشَارَةَ أَوَّلًا إِلَى بَنَاتِ لَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ الْيَهُودِيِّ؛ كُنَّ سَاجِرَاتٍ، وَهُنَّ اللَّوَاتِي سَحَرْنَ مَعَ أَبِيهِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالثَّقْتُ شِبْهُ الثَّفْحِ دُونَ ثَقْلِ رِبْقٍ، وَهَذَا الثَّقْتُ هُوَ عَلَى عَقْدٍ تُعْقَدُ فِي خِيوطٍ، وَنَحْوِهَا؛ عَلَى اسْمِ الْمَسْحُورِ فَيُؤْذَى بِذَلِكَ.

قَالَ * ع * : وَهَذَا الشَّأْنُ فِي زَمَانِنَا مَوْجُودٌ شَائِعٌ فِي صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ، وَحَدَّثَنِي ثَقَّةٌ أَنَّهُ رَأَى عِنْدَ بَعْضِهِمْ خَيْطاً أَخْمَرَ قَدْ عُقِدَتْ فِيهِ عُقْدَةٌ عَلَى فُضْلَانٍ، فَمَنَعَتْ بِذَلِكَ رِضَاعَ أُمَهَاتِهَا فَكَانَ إِذَا حَلَّ عُقْدَةً جَرَى ذَلِكَ الْفَصِيلُ إِلَى أُمِّهِ فِي الْحَيْنِ، فَرَضَعَ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ شَرِّ السَّحْرِ وَالسَّحَرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مِنْ شَرِّ عَيْنِهِ وَنَفْسِهِ^(١)، يَرِيدُ بِ«النَّفْسِ»: السَّغْيَ الْخَبِيثَ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الشُّرُورَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ خَتَمَهَا بِالْحَسَدِ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ أَخْسُ الطَّبَائِعِ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ كَمَا ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٦/٧١٩).

تفسير سورة الناس

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هِيَ مَدِينَةٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَكَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣) ﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَاسِ الْخَنَاسِ﴾ (٤) ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٥) ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (٦) * قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ أَلْوَسَاسِ الْخَنَاسِ﴾: ﴿أَلْوَسَاسٌ﴾: اسم من أسماء الشيطان، وقوله: ﴿الْخَنَاسُ﴾ معناه: الرَّاجِعُ عَلَى عَقِبِهِ الْمُسْتَتِرُ أحياناً، فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ اللَّهَ تَعَالَى وَتَعَوَّذَ، تَذَكَّرَ فَأَبْصَرَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ...﴾ [الأعراف: ٢٠١] الآية: قَالَ الثَّوَوِيُّ^(١): قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يُسْتَحَبُّ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِمَنْ أَبْثَلِيَ بِالْوَسْوَاسَةِ فِي الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ وَشِبْهِهِمَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ الذِّكْرَ، خَسَسَ، أَيْ: تَأَخَّرَ وَبَعُدَ، وَ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: رَأْسُ الذِّكْرِ؛ وَلِلذَلِكَ اخْتَارَ السَّادَةُ الْجَلَّةُ مِنْ صَفْوَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَهْلَ تَرْبِيَةِ السَّالِكِينَ وَتَأْدِيبِ الْمُرِيدِينَ - قَوْلَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لِأَهْلِ الْخَلْوَةِ -، وَأَمَرُوهُمْ بِالْمَدَامَةِ عَلَيْهَا، وَقَالُوا: أَنْفَعُ عِلَاجٌ فِي دَفْعِ الْوَسْوَاسَةِ الْإِقْبَالُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِكْتِنَارُ مِنْهُ، وَقَالَ السَّيِّدُ الْجَلِيلُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْخَوَارِثِيِّ: شَكَّوتُ إِلَى أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّرَانِيِّ الْوَسْوَاسَ، فَقَالَ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْقَطَعَ عَنْكَ، فَأَيُّ وَقْتٍ أَحْسَنْتَ بِهِ، فَأَفْرَحْ، فَإِنَّكَ إِذَا فَرِحْتَ بِهِ، أَنْقَطَعَ عَنْكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْغَضُ إِلَى الشَّيْطَانِ مِنْ سُرُورِ الْمُؤْمِنِ، وَإِنْ أَغْتَمَمْتَ بِهِ، زَادَكَ، * ت * وَهَذَا مِمَّا يُؤْيِدُ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ؛ أَنَّ الْوَسْوَاسَ إِنَّمَا يُتَبَلَّى بِهِ مَنْ كَمَلَ إِيمَانُهُ؛ فَإِنَّ اللَّصَّ لَا يَقْصُدُ بَيْتاً خَرَباً. انتهى، * ت * وَرَأَيْتُ فِي «مَخْتَصَرِ الطَّبْرِيِّ» نَحْوَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ يعني: الشياطينَ، ويظهر أَنَّ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَالنَّاسِ﴾ يراد به: مَنْ يُوسَّسُ بِخَدْعَةٍ مِنَ الشَّرِّ، وَيَدْعُو إِلَى الْبَاطِلِ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ كَالشَّيْطَانِ، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرِ الدَّوَوْدِيِّ: وَعَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ قَالَ: «إِنَهُمَا وَسْوَاسَانِ، فَوْسْوَاسٌ مِنَ الْجِنَّةِ، وَوَسْوَاسٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ» انتهى، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، أَنَّ

(١) ينظر: «الأذكار» ص: (١٦١).

النَّبِيِّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ»، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا مِنْ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ؛ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا^(١) ..

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مَخْلُوفٍ الثَّعَالِبِيُّ لَطَفَ اللَّهُ بِهِ فِي الدَّارَيْنِ: قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِمْتَامِ تَلْخِيصِ هَذَا الْمَخْتَصَرِ؛ وَقَدْ أَوْدَعْتُهُ بِحَوْلِ اللَّهِ جَزِيلًا مِنَ الدَّرَرِ، قَدْ اسْتَوْعَبْتُ فِيهِ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مُهِمَّاتِ ابْنِ عِطِيَّةَ، وَأَسْقَطْتُ كَثِيرًا مِنَ التَّكْرَارِ، وَمَا كَانَ مِنَ الشَّوَادِ فِي غَايَةِ الْوَهْيِ، وَزِدْتُ مِنْ غَيْرِهِ جَوَاهِرَ وَنَفَائِسَ لَا يُسْتَعْنَى عَنْهَا مِمِيزَةٌ مَعْرُوءَةٌ لِمَحَالِّهَا مَنْقُولَةٌ بِالْفَاظِهَا، وَتَوَخَّيْتُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ الصَّدْقَ وَالصَّوَابَ، وَإِلَى اللَّهِ أَرْغَبُ فِي جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَقَدْ تَبَهَّتْ بَغْضُ تَنْبِيهِ، وَعَرَفْتُ بِأَيَّامِ رِخْلَتِي فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بَغْضُ تَعْرِيفٍ عِنْدَ خَتْمِي لِتَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّورَى؛ فَلْيَنْظُرْ هُنَاكَ، وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا السَّغْيَ مَنَا خَالِصًا لَوَجْهِهِ، وَعَمَلًا صَالِحًا يَقْرُبُنَا إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَمَنْ وَجَدَ فِي هَذَا الْكِتَابِ تَضْحِيفًا أَوْ خَلَلًا فَارْغَبْ إِلَيْهِ أَنْ يُضْلِحَهُ مِنَ الْأُمِّهَاتِ الْمَنْقُولِ مِنْهَا مَثْبُتًا فِي ذَلِكَ لَا بَرَأْيَهُ وَبِدِيهَةِ عَقْلِهِ: [من الوافر]

فَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَأَقْتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ تَأْلِيْفِهِ فِي الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ ثَلَاثَةِ وَثَلَاثِينَ وَتَمَانِمَائَةٍ وَأَنَا أَرْغَبُ إِلَى كُلِّ أَخٍ نَظَرَ فِيهِ أَنْ يُخْلِصَ لِي وَلَهُ بَدْعُوهَ صَالِحَةً، وَهَذَا الْكِتَابُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُو عَنْهُ مُتَدَيِّنٌ، وَمُجِبُّ لِكَلَامِ رَبِّهِ، فَإِنَّهُ يَطْلُعُ فِيهِ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ أَجْمَعَ فِي أَقْرَبِ مُدَّةٍ، وَلَيْسَ الْحَبْرُ كَالْعَيْنَانِ؛ هَذَا مَعَ مَا خُصَّ بِهِ مِنْ تَحْقِيقِ كَلَامِ الْأُيُمَةِ الْمُحَقِّقِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - نَقَلْتُهُ عَنْهُمْ بِالْفَاظِ لَهُمْ مَتَحَرِّيًا لِلصَّوَابِ، وَمِنَ اللَّهِ أَرْتَجِي حُسْنَ الْمَآبِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

محتوى الجزء الخامس من تفسير الثعالبي

| | |
|-----|---------------|
| ٥ | سورة يس |
| ٢٢ | سورة الصافات |
| ٥٤ | سورة ص |
| ٧٨ | سورة الزمر |
| ١٠٣ | سورة غافر |
| ١٢٥ | سورة فصلت |
| ١٤٨ | سورة الشورى |
| ١٧٢ | سورة الزخرف |
| ١٩٤ | سورة الدخان |
| ٢٠٤ | سورة الجاثية |
| ٢١٢ | سورة الأحقاف |
| ٢٢٨ | سورة محمد |
| ٢٤٨ | سورة الفتح |
| ٢٦٧ | سورة الحجرات |
| ٢٨٠ | سورة ق |
| ٢٩٦ | سورة الذاريات |
| ٣٠٩ | سورة الطور |
| ٣٢١ | سورة النجم |
| ٣٣٦ | سورة القمر |
| ٣٤٥ | سورة الرحمن |
| ٣٦٠ | سورة الواقعة |
| ٣٧٧ | سورة الحديد |
| ٣٩٧ | سورة المجادلة |
| ٤٠٦ | سورة الحشر |
| ٤١٦ | سورة الممتحنة |
| ٤٢٤ | سورة الصف |

| | |
|-----------|----------------|
| ٤٢٨ | سورة الجمعة |
| ٤٣٤ | سورة المنافقون |
| ٤٣٨ | سورة التغابن |
| ٤٣٧ | سورة الطلاق |
| ٤٥٠ | سورة التحريم |
| ٤٥٥ | سورة الملك |
| ٤٦٣ | سورة القلم |
| ٤٧٣ | سورة الحاقة |
| ٤٨١ | سورة المعارج |
| ٤٨٨ | سورة نوح |
| ٤٩٣ | سورة الجن |
| ٥٠٠ | سورة المزمل |
| ٥٠٩ | سورة المدثر |
| ٥١٩ | سورة القيامة |
| ٥٢٧ | سورة الإنسان |
| ٥٣٦ | سورة المرسلات |
| ٥٤١ | سورة النبأ |
| ٥٤٧ | سورة النازعات |
| ٥٥١ | سورة عبس |
| ٥٥٥ | سورة التكويد |
| ٥٥٩ | سورة الانفطار |
| ٥٦٢ | سورة المطففين |
| ٥٦٧ | سورة الانشقاق |
| ٥٧١ | سورة البروج |
| ٥٧٤ | سورة الطارق |
| ٥٧٧ | سورة الأعلى |
| ٥٨٢ | سورة الغاشية |
| ٥٨٥ | سورة الفجر |
| ٥٩٠ | سورة البلد |
| ٥٩٤ | سورة الشمس |

| | |
|-----------|---------------|
| ٥٩٨ | سورة الليل |
| ٦٠١ | سورة الضحى |
| ٦٠٤ | سورة الشرح |
| ٦٠٦ | سورة التين |
| ٦٠٨ | سورة العلق |
| ٦١١ | سورة القدر |
| ٦١٣ | سورة البينة |
| ٦١٥ | سورة الزلزلة |
| ٦١٨ | سورة العاديات |
| ٦٢١ | سورة القارعة |
| ٦٢٢ | سورة التكاثر |
| ٦٢٥ | سورة العصر |
| ٦٢٦ | سورة الهمزة |
| ٦٢٧ | سورة الفيل |
| ٦٢٩ | سورة قُريش |
| ٦٣٠ | سورة الماعون |
| ٦٣٢ | سورة الكوثر |
| ٦٣٤ | سورة الكافرون |
| ٦٣٥ | سورة النصر |
| ٦٣٦ | سورة المَسَد |
| ٦٣٨ | سورة الإخلاص |
| ٦٤٠ | سورة الفَلَق |
| ٦٤٢ | سورة الناس |

ثبت وبيان بأهم مراجع التحقيق

حرف الألف

- ١ - آداب اللغة لجورجي زيدان، طبعة القاهرة ١٩٥٧
- ٢ - الآيات البينات لابن قاسم العبادي، طبعة بولاق
- ٣ - الإبانة عن أصول الديانة للأشعري، طبع دار الأنصار
- ٤ - الإيهاج في شرح المنهاج لعلي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦هـ)، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٥ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تصوير دار الفكر.
- ٦ - إتحاف فضلاء البشر لأحمد بن محمد البنا (ت ١١١٧هـ)، تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، مكتبة الكليات الأزهرية، طبعة أولى
- ٧ - الإتيقان في علوم القرآن تأليف: شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ)، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥١م، ط. الحلبي
- ٨ - الإحكام في أصول الأحكام تأليف الشيخ الإمام العلامة سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي - تحقيق أحد الأفاضل - ط زاهد القدسي طبع ونشر وتوزيع ٢٤ شارع طلعت حرب القاهرة
- ٩ - إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، دار المعرفة - بيروت
- ١٠ - أخبار أصبهان لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ١١ - أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد الحسن السيرافي (ت ٣٦٨ هـ)، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مصطفى البابي الحلبي
- ١٢ - الاختيار لتعليل المختار تأليف عبد الله بن محمود بن مودود الموصللي، مطبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت
- ١٣ - الأدب المفرد للبخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق كمال الحوت، عالم الكتب
- ١٤ - الأذكار لمحيي الدين أبي زكريا النووي (ت ٦٧٦ هـ) المكتبة العلمية - بيروت
- ١٥ - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، لياقوت الحموي، طبعة مرجليوث بمصر

- ١٦ - إرشاد الفحول لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٥) - طبعة أولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م
- ١٧ - الأزهية في علم الحروف تأليف: علي بن محمد الهروي، تحقيق: عبد المعين الملوح، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٨٢ م.
- ١٨ - أساس البلاغة تأليف: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط. دار صادر - بيروت، سنة ١٩٧٩ م.
- ١٩ - أسباب النزول للإمام أبي الحسين علي بن أحمد بن الواحدي النيسابوري، ط. عالم الكتب بيروت.
- ٢٠ - الاستيعاب لابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية.
- ٢١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين ابن الأثير أبي الحسن الجزري (ت ٦٣٠ هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٢٢ - الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، لمحمد بن محمد أبو شهبة، مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر
- ٢٣ - إسعاف المبطل برجال الموطأ لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي
- ١٤ - الأسماء والصفات لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٢٥ - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لأبي عبد الله القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، تحقيق د. محمد حسن جبل وآخرون، دار الصحابة للتراث - طبعة أولى
- ٢٦ - أهل المدارك شرح إرشاد السالك لأبي بكر بن حسن الكشناوي، عيسى البابي الحلبي
- ٢٧ - الأشباه والنظائر في النحو لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم مؤسسة الرسالة - طبعة أولى
- ٢٨ - إصلاح المنطق لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف
- ٢٩ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم تأليف: أبي عبد الله الحسين بن أحمد، المعروف بابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ)، مكتبة المثنى
- ٣٠ - إعراب القراءات السبع وعللها لأبي عبد الله الحسن بن خالويه (ت ٣٧٠ هـ)، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان بن عثيمين، مكتبة الخانجي - طبعة أولى
- ٣١ - الأعلام للزركلي لخير الدين الزركلي ط ٣ مكتبة المثنى - القاهرة

- ٣٢ - أعلام الموقعين عن رب العالمين لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) طبعة الكليات الأزهرية
- ٣٣ - أعلام النساء لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت
- ٣٤ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق علي النجدي ناصف دار الكتب المصرية
- ٣٥ - الإقناع للخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٣٦ - الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب لعلي بن هبة الله أبي نصر بن مأكولا (ت ٤٧٥ هـ)، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٣٧ - الأم لمحمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة
- ٣٨ - أمالي ابن الشجري ليحيى الشجري، عالم الكتب، طبعة ثالثة
- ٣٩ - أمالي المرتضى للشرىف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الحلبي - القاهرة
- ٤٠ - إمتاع الأسماع للمقريزي، طبع في القاهرة ١٩٤١ م.
- ٤١ - إنباء الغمر بأبناء العمر للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، دائرة المعارف العثمانية - الهند، دار الكتب العلمية طبعة ثانية
- ٤٢ - إنباء الرواة على أنباء النحاة للوزير جمال الدين أبي الحسن القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية - بيروت
- ٤٣ - الأنساب للسمعاني - أبي سعيد عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢ هـ)، تصحيح عبد الرحمن بن يحيى - طبعة مجلس المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن - الهند سنة (١٣٨٥ هـ)
- ٤٤ - الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري (٥١٣ - ٥٧٧ هـ) ومعه كتاب «الانتصاف من الإنصاف» للمرحوم محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار الجيل سنة ١٩٨٢ م.
- ٤٥ - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لعلاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرادوي الحنبلي (ت ٨٨٥ هـ) تحقيق محمد حامد الفقي الطبعة الأولى سنة (١٣٧٤ هـ) / (١٩٥٥ م) مطبعة السنة المحمدية - ١٧ شارع شريف باشا بالقاهرة
- ٤٦ - أنيس الفقهاء لقاسم القنوي (ت ٩٧٨ هـ)، تحقيق د. أحمد بن عبد الرزاق الكبسي، دار الوفاء - جدة - طبعة ثانية
- ٤٧ - الأوسط في السنن لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر (ت ٣١٨ هـ)، تحقيق د. أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف، دار طيبة.
- ٤٨ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك تأليف: أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت سنة ٧٦١ هـ)، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار

الجيل، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٩م.

٤٩ - إيضاح الوقف والابتداء لمحمد بن القاسم أبي بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ) تحقيق محيي الدين رمضان، طبع دمشق - مجمع اللغة العربية ١٩٧١م

حرف الباء

٥٠ - البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض دار الكتب العلمية - طبعة أولى

٥١ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين أبي بكر الكاساني (ت ٥٨٧هـ) مطبعة الإمام بالقاهرة

٥٢ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي الشهير «بابن رشد الحفيد» (ت ٥٩٥هـ) ط الحلبي الطبعة الثانية سنة ٣٧٠هـ / سنة ١٩٥٠م ونسخه المكتبة التجارية الكبرى.

٥٣ - البداية والنهاية للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة (٧٧٤هـ) الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م مكتبة المعارف بيروت

٥٤ - البدر الطالع لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) مكتبة ابن تيمية - القاهرة

٥٥ - البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨هـ)، تحقيق د. عبد العظيم الديب دار الأنصار - طبعة ثانية

٥٦ - البرهان في علوم القرآن للزركشي بدر الدين (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - بيروت - طبعة أولى

٥٧ - البعث والنشور للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الجنان

٥٨ - بغية الملتمس للحافظ صلاح الدين أبي سعد العلائي (ت ٧٦١هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي عالم الكتب - طبعة أولى

٥٩ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة تأليف: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الحلبي، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤م.

٦٠ - بهجة النفوس لابن أبي جمرة، دار الجيل - بيروت

حرف التاء

٦١ - تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، الناشر دار ليبيا - للنشر والتوزيع بنغازي - ليبيا - ط المطبعة الخيرية القاهرة. ومطبعة الكويت بتحقيق نخبة من العلماء

٦٢ - تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف - مصر

- ٦٣ - تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، القاهرة - دار المعارف - الطبعة الخامسة.
- ٦٤ - تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي - بيروت طبعة ثانية
- ٦٥ - تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر بن أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ) الناشر دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.
- ٦٦ - تاريخ الثقات للحافظ أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٦٧ - تاريخ جرجان للسهمي (ت ٤٢٧هـ)، عالم الكتب - بيروت
- ٦٨ - تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى عام (٩١١هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - الطبعة الثانية سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م - مطبعة المدني بالعباسية - القاهرة
- ٦٩ - التاريخ الصغير لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة - طبعة أولى
- ٧٠ - التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، تصحيح عبد الرحمن اليماني وجماعة حيدر آباد - الهند، دائرة المعارف العثمانية
- ٧١ - تاريخ ابن النجار (ت ٦٤٣هـ) دار الكتاب العربي
- ٧٢ - تاريخ يحيى بن معين لأبي زكريا يحيى البغدادي (ت ٢٣٣هـ)، مجمع اللغة العربية
- ٧٣ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، دار الكتب العلمية تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة ثالثة
- ٧٤ - التبصرة والتذكرة للحافظ العراقي (ت ٨٠٦هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٧٥ - التبصرة والتذكرة لأبي محمد عبد الله بن علي بن إسحاق الصيمري، تحقيق د. فتحي أحمد علي الدين دار الفكر - بيروت
- ٧٦ - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٧٧ - التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الشام للتراث - بيروت
- ٧٨ - تبين الحقائق شرح كنز الدقائق لعثمان بن علي الزيلعي (ت ٧٤٣هـ)، المطبعة الأميرية ببولاق
- ٧٩ - تبين كذب المفترى لابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١ هـ)، دار الكتاب العربي
- ٨٠ - تجريد أسماء الصحابة لشمس الدين أبي عبد الله بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار

المعرفة - بيروت

- ٨١ - تجريد التمهيد لأبي عُمر، يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية بيروت
- ٨٢ - التجبير في علم التفسير لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق د. فتحي عبد القادر فريد، دار المنار
- ٨٣ - التحزير في أصول الفقه لِكَمال الدين محمد الشهير بابن همام الإسكندري (ت ٨٦١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي
- ٨٤ - التحصيل من المحصول لسراج الدين محمود الأرموي (ت ٦٨٢هـ)، تحقيق د. عبد الحميد علي أبو زنيد، مؤسسة الرسالة - طبعة أولى
- ٨٥ - التحفة اللطيفة لشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، تحقيق حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية
- ٨٦ - تخريج الفروع على الأصول لأبي المناقب شهاب الدين الزنجاني (ت ٦٥٦هـ) تحقيق د. محمد أديب صالح، مؤسسة الرسالة - طبعة رابعة
- ٨٧ - تخريج الكشف للحافظ جمال الدين الزيلعي (ت ٧٦٢هـ)، دار ابن خزيمة
- ٨٨ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة - دار التراث - القاهرة
- ٨٩ - التذكرة لشمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق. السيد الجميلي، دار ابن زيدون - بيروت، مكتبة مدبولي - القاهرة
- ٩٠ - تذكرة الحفاظ للإمام أبي عبد الله شمس الدين الذهبي (ت سنة ٧٤٨هـ) ط. دار الفكر العربي - القاهرة
- ٩١ - تذكرة النخاة لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق د. عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة - طبعة أولى
- ٩٢ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض اليحصبي السبتي، تحقيق الدكتور أحمد بكير، مكتبة الحياة بيروت، مكتبة الفكر طرابلس - ليبيا ١٣٨٧هـ
- ٩٣ - الترغيب والترهيب لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ) تحقيق مصطفى محمد عمارة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي
- ٩٤ - تسمية من أخرج لهم البخاري ومسلم للحاكم صاحب المستدرک (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق كمال الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الجنان - طبعة أولى
- ٩٥ - التعديل والتجريح فيمن روى عن البخاري في الصحيح لأبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق د. أبو لبابة حسين، دار اللواء - الرياض

- ٩٦ - التعليق المغني على الدارقطني لأبي الطيب شمس الحق آبادي بأسفل سنن الدارقطني، عالم الكتب
- ٩٧ - تفسير بحر العلوم للسمرقندي، تحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية، طبعة أولى
- ٩٨ - تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل للحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ)، تحقيق خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة - بيروت - طبعة أولى
- ٩٩ - تفسير الجامع لأحكام القرآن للعلامة محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١ هـ) طبعة دار الشعب بمصر
- ١٠٠ - تفسير سفيان الثوري لسفيان الثوري (ت ٧٧٧ هـ)، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ١٠١ - تفسير عبد الرزاق لعبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١ هـ)، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد - طبعة أولى
- ١٠٢ - تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦ هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ١٠٣ - تفسير غريب القرآن لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية
- ١٠٤ - تفسير ابن كثير لإسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) القاهرة، مكتبة أسامة - ٢٣ ش الصناديق بالأزهر
- ١٠٥ - تفسير الماوردي لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري (ت ٤٥٠ هـ)، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى
- ١٠٦ - التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة - طبعة ثالثة
- ١٠٧ - تقريب التهذيب تأليف: أحمد بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف، ط. دار المعرفة للطبع والنشر، بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥ م.
- ١٠٨ - تقريب الوصول لابن جزي، طبعة تونس
- ١٠٩ - التقرير والتجريب لابن أمير الحاج (ت ٨٧٩ هـ)، دار الكتب العلمية - طبعة ثانية
- * - التقصي لحديث الموطأ = ينظر التجريد
- ١١٠ - تقييد العلم لأبي بكر الخطيب البغدادي (ت ٤٦٢ هـ)، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية
- ١١١ - تلقيح مفهوم أهل الأثر لعبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق مكتبة الآداب - القاهرة، مكتبة الآداب - القاهرة

- ١١٢ - التمهيد لأبي عُمر، يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مؤسسة قرطبة
- ١١٣ - التمهيد في تخريج الفروع على الأصول لجمال الدين أبي محمد الإسنوي (ت ٧٧٢ هـ)، تحقيق د، محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، طبعة ثالثة
- ١١٤ - تنزيه الشريعة لأبي الحسن ابن عراق الكناني (ت ٩٦٣ هـ)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية - طبعة ثانية
- ١١٥ - تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، لجلال الدين السيوطي، طبعة عيسى البابي الحلبي
- ١١٦ - تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي المتوفى سنة (٦٧٦ هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- ١١٧ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، دار المسيرة بيروت
- ١١٨ - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (ت سنة ٨٥٢ هـ) ط. مطبعة مجلس المعارف النظامية في الهند، الطبعة الأولى
- ١١٩ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال تأليف: جمال الدين أبي الحجاج يوسف الميزي (٦٥٤ - ٧٤٢ هـ) تحقيق د/ بشار عواد معروف، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥ م.
- ٢٢٠ - تيسير التحرير لمحمد أمين المعروف بأمير بادشاه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي

حرف الثاء

- ١٢١ - الثقات للحافظ محمد بن حبان (ت ٣٥٤ هـ)، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند

حرف الجيم

- ١٢٢ - جامع بيان العلم لأبي عُمر، يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي - طبعة أولى
- ١٢٣ - جامع البيان في تفسير القرآن تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ)، ط. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٠ م.
- ١٢٤ - جامع التحصيل في أحكام المراسيل للحافظ صلاح الدين أبي سعيد كيكليدي العلائي (ت ٧٦١ هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة النهضة العربية - بيروت
- ١٢٥ - الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. الحلبي - الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨ م.
- ١٢٦ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق محمود الطحان الطبعة الأولى مكتبة المعارف - الرياض
- ١٢٧ - جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس لابن القاضي، طبع بفاس

- ١٢٨ - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدي (ت ٤٨٨ هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة
- ١٢٩ - الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن محمد الرازي، طبع في حيدر آباد ١٩٥٢، ومصورة دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
- ١٣٠ - الجمع بين رجال الصحيحين لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧ هـ)، المعروف بابن القيسراني، دار الباز
- ١٣١ - الجمل على المنهج لسليمان الجمل، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- ١٣٢ - جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، ط. المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤ م.
- ١٣٣ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم المتوفى (٤٥٦ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف
- ١٣٤ - الجني الداني للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية
- ١٣٥ - حاشية البناي على المحلي للبناني، طبعة الحلبي
- ١٣٦ - حاشية التفتازاني والشريف لابن الحاجب المالكي (ت ٦٤٦ هـ)، المطبعة الأميرية ببولاق - طبعة أولى
- ١٣٧ - حاشية الدسوقي على الشرح الكبير لشمس الدين محمد عرفة الدسوقي، عيسى البابي الحلبي
- ١٣٨ - حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب بشرح تحرير تنقيح اللباب للشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشهير بالشرقاوي (ت ١٢٢٦ هـ) على تحفة الطلاب بشرح تحرير تنقيح اللباب للشيخ أبي يحيى زكريا الأنصاري (ت ٩٢٥ هـ) ط. عيسى الحلبي
- ١٣٩ - حاشية الشيخ زاده على تفسير البضاوي، المكتبة الإسلامية محمد ازدمير ديار بكر - تركيا
- ١٤٠ - حاشية العطار على جمع الجوامع تصوير دار الكتب العلمية بيروت
- ١٤١ - حاشية نسمات الأسفار لابن عابدين مصطفى البناي الحلبي
- ١٤٢ - الحاوي الكبير في فقه الإمام الشافعي، لأبي الحسن الماوردي، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ١٤٣ - الحجة على أهل المدينة لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ) عالم الكتب - طبعة ثالثة

١٤٤ - حجة القراءات لأبي زرعة بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، منشورات جامعة بنغازي طبعة أولى

١٤٥ - الحجة للقراء السبعة لأبي علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي (ت ٣٧٧ هـ)، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جوبجاتي، دار المأمون للتراث - دمشق طبعة ثانية.

١٤٦ - الحدود في الأصول لأبي الوليد سليمان الباجي (ت ٤٧٤ هـ) تحقيق د. نزيه حماد، مؤسسة الزغبى للطباعة والنشر - طبعة أولى

١٤٧ - حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء لسيف الدين أبي بكر الشاشي القفال، دار الباز تحقيق د. ياسين أحمد إبراهيم درادكة، مكتبة الرسالة الحديثة طبعة أولى

١٤٨ - حماسة البحري (للوليد بن عبيد) بيروت

١٤٩ - الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن الحسن البصري (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق عادل جمال سليمان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

حرف الخاء

١٥٠ - خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي

١٥١ - الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط. دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت: الطبعة الثانية

١٥٢ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال لصفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي، تحقيق محمود عبد الوهاب فايد، مكتبة القاهرة

حرف الدال

١٥٣ - دائرة المعارف الإسلامية إصدار دار الشعب - طبعة أولى

١٥٤ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لشهاب الدين أبي العياش السمين الحلبي، تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية

١٥٥ - الدر المنثور لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار الكتب العلمية

١٥٦ - الدرر الكامنة، لأحمد بن حجر العسقلاني القاهرة: دار الكتب الحديثة بعابدين

١٥٧ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فَرْحُون المالكي القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فَرُود المتوفى سنة (٧٩٩ هـ) تحقيق وتعليق الدكتور أحمد محمد أبو النور مدرس الحديث بجامعة الأزهر دار التراث للطبع والنشر - ٢٢ شارع الجمهورية القاهرة.

١٥٨ - دلائل النبوة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، تحقيق د. عبد المعطي

القلعجي، دار الكتب العلمية - طبعة أولى

١٥٩ - ديوان الإسلام لشمس الدين أبي المعالي ابن الغزي (ت ١١٦٧ هـ)، تحقيق سيد كسروي

حسن دار الكتب العلمية - طبعة أولى

١٦٠ - ديوان امرئ القيس تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - ط. دار المعارف، الطبعة الثانية

١٦١ - ديوان عمرو بن معد يكرب لمطاع الطرابيشي، مطبوعات مجلة اللغة العربية - دمشق - طبعة ثانية

١٦٢ - ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، مكتبة القدسي

١٦٣ - ديوان الهذليين نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، سنة ١٩٦٥ م

حرف الراء

١٦٤ - الرسالة لمحمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار التراث - طبعة ثانية

١٦٥ - الرسالة المستطرفة للسيد محمد بن جعفر الكتاني، دار الكتب العلمية - طبعة ثانية

١٦٦ - رصف المباني في شرح حروف المعاني لأحمد بن عبد النور المالقي (ت ٧٠٢ هـ)، تحقيق أحمد محمد الخراط - مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٦٧ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثاني تأليف: أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت سنة ١٢٧٠ هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي

١٦٨ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الموسوي، طهران، المطبعة الحيدرية

١٦٩ - روضة الطالبين لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - طبعة أولى

١٧٠ - روضة الناظر وجنة المناظر لموفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ)، تحقيق د. عبد الكريم بن علي النملة، مكتبة الرشد - الرياض طبعة ثالثة

حرف الزاي

١٧١ - زاد المسافر لصفوان بن إدريس التجيبي المرسى، طبع في بيروت ١٩٣٩

١٧٢ - زاد المعاد لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق شعيب الأناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الخامسة عشر

١٧٣ - الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي لأبي منصور الأزهري، تحقيق د. محمد جبر الألفي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت - طبعة أولى

- ١٧٤ - الزهد لعبد الله ابن المبارك (ت ١٨١ هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - دار الكتب العلمية
- ١٧٥ - الزوائد للبوصيري (ت ٨٤٠ هـ)، تحقيق موسى محمد علي ود. عزت علي عطية، دار الكتب الإسلامية
- * - زوائد المسند لعبد الله بن أحمد بن حنبل = المسند أحمد بن حنبل

حرف السين

- ١٧٦ - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام للإمام محمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني (ت ١١٨٢ هـ) ط الحلبي الرابعة سنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م وأيضاً نسخة أخرى بتصحيح وتعليق محمد عبد العزيز
- ١٧٧ - سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني (ت سنة ٣٩٢ هـ)، تحقيق الدكتور: حسن الهنداوي - ط. دار القلم، بدمشق - الطبعة الأولى ١٩٨٥ م
- ١٧٨ - سلاسل الذهب لبدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، تحقيق محمد المختار بن محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية - طبعة أولى
- ١٧٩ - سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - طبعة رابعة
- ١٨٠ - السلسلة الضعيفة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي
- ١٨١ - سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ) تحقيق: محمد فؤاد - ط. دار الفكر العربي
- ١٨٢ - سنن الدارمي للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت سنة ٢٥٥ هـ)، ط. دار الكتب العلمية، بيروت
- ١٨٣ - سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) تحقيق: المرحوم محمد محيي الدين عبد الحميد - ط. دار الكتب العلمية - بيروت
- ١٨٤ - سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي - ط. المكتبة العلمية - بيروت
- ١٨٥ - سؤالات البرذهي للبرذهي، تحقيق: د. سعدي الهاشمي، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
- ١٨٦ - سؤالات البرقاني للدارقطني للبرقاني، كتب خانة جميلي - باكستان
- ١٨٧ - سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وجماعة، مؤسسة الرسالة - طبعة أولى
- ١٨٨ - السيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي، طبع مصر

- ١٨٩ - السيرة مع الروض الأثف لأبي القاسم عبد الرحمن الخشعي (٥٨١هـ)، مكتبة عبد السلام بن محمد بن شقرون
- ١٩٠ - سيرة ابن هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام (ت ١٨٣ هـ)، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث - طبعة أولى

حرف الشين

- ١٩١ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، دار الفكر
- ١٩٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)، دار الكتب العلمية
- ١٩٣ - شرح أبيات سيبويه لأبي محمد يوسف المرزبان السيرافي (ت ٣٨٥ هـ)، تحقيق محمد علي الريح هاشم، مكتبة الكليات الأزهرية ودار الفكر
- ١٩٤ - شرح أبيات مغني اللبيب لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ)، تحقيق عبد العزيز رباح، أحمد يوسف دقاق دار البيان - دمشق
- ١٩٥ - شرح الأشموني على ألفية ابن مالك فيصل عيسى البابي الحلبي
- ١٩٦ - شرح البهجة لذكريا الأنصاري، المطبعة الميمنية بمصر
- ١٩٧ - شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ) دار الكتب العلمية
- ١٩٨ - شرح تنقيح الفصول لشهاب الدين أبي العباس القرافي (ت ٦٨٤ هـ)، شركة الطباعة الفنية المتحدة - طبعة أولى
- ١٩٩ - شرح الخريدة البهية لأبي البركات الشيخ أحمد بن محمد الدردير العدوي (ت ١٢٠١ هـ)، تحقيق السيد علي بن السيد عبد الرحمن الهاشم، طبع الإمارات العربية المتحدة
- ٢٠٠ - شرح ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، دار المعارف تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، طبعة ثالثة
- ٢٠١ - شرح ديوان الحماسة لأبي تمام شرح الإمام الشيخ أبي زكريا يحيى التبريزي، عالم الكتب
- ٢٠٢ - شرح الزرقاني على الموطأ لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢ هـ)، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٢٠٣ - شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ)، دار الكتب العلمية تحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود
- ٢٠٤ - شرح شعلة على الشاطبية لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن الحسين الموصلي (ت ٦٥٦ هـ)، الاتحاد العام لجماعة القراء

- ٢٠٥ - شرح شواهد المغني لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار مكتبة الحياة بيروت
- ٢٠٦ - شرح العضد على المختصر لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت ٧٥٦ هـ) دار الكتب العلمية - طبعة ثانية
- ٢٠٧ - شرح فتح القدير للعاجز الفقير كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام (ت ٦٨١ هـ)، دار إحياء التراث العربي
- ٢٠٨ - شرح قطر الندى لجمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ)، مطبعة السعادة - الطبعة الثانية عشرة
- ٢٠٩ - شرح الكافية لابن مالك، تحقيق عبد المنعم هريدي، طبعة دار المأمون للتراث
- ٢١٠ - شرح مختصر المنار للكوراني، دار السلام - القاهرة
- ٢١١ - شرح مسند أحمد بن حنبل تحقيق أحمد شاكر، طبعة دار المعارف القاهرة
- ٢١٢ - شرح المفصل لموفق الدين يعيش النحوي (ت ٦٤٣ هـ)، عالم الكتب - بيروت
- ٢١٣ - شرح منتهى الإرادات لمنصور بن يونس البهوتي (ت ١٠٥١ هـ)، عالم الكتب - طبعة أولى
- ٢١٤ - شرح المذهب لأبي زكريا محيي الدين النووي، تحقيق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد جدة
- ٢١٥ - شرف أصحاب الحديث لأبي بكر أحمد الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق د. محمد سعيد خطيب أوغلي، دار إحياء السنة النبوية
- ٢١٦ - شعب الإيمان لأحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، تحقيق أبو هاجر، دار الكتب العلمية
- ٢١٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري، دار المعارف - القاهرة تحقيق أحمد محمد شاكر
- ٢١٨ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي
- ٢١٩ - شواذ القرآن لابن خالويه، مكتبة المتنبّي

حرف الصاد

- ٢٢٠ - صحيح البخاري، بحاشية السندي للعلامة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - ط. الحلبي
- ٢٢١ - صحيح ابن حبان لابن حبان (ت ٣٥٤ هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية - المدينة المنورة
- ٢٢٢ - صحيح ابن خزيمة لابن خزيمة (ت ٣١١ هـ)، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب

الإسلامي - بيروت طبعة أولى

- ٢٢٣ - صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)،
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت
- ٢٢٤ - صحيفة ابن أبي طلحة حَقَّقَهَا راشد عبد المنعم الرجال مكتبة السنة
- ٢٢٥ - صفة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، حيدر آباد - الهند
- ٢٢٦ - صفة الكلام للشيخ الظهوري شيخ الجامع الأزهر، مطبعة الحلبي

حرف الضاد

- ٢٢٧ - الضعفاء للبخاري (ت ٢٥٦ هـ)، تحقيق بوران ضناوي، عالم الكتب - بيروت - طبعة أولى
- ٢٢٨ - الضعفاء لأبي جعفر العقيلي تحقيق د. عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة أولى
- ٢٢٩ - الضعفاء والمتروكين للنسائي (ت ٣٠٣ هـ)، تحقيق محمود إبراهيم زايد - دار الوعي - طبعة أولى
- ٢٣٠ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) منشورات دار مكتبة الحياة

حرف الطاء

- ٢٣١ - الطالع السعيد لجعفر الأدفوي (ت ٧٤٨ هـ) تحقيق سعد محمد حسن - مطابع سجل العرب
- ٢٣٢ - طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، دار الثقافة - بيروت
- ٢٣٣ - طبقات الخواص لأحمد بن أحمد الشرجي الزبيدي، طبع بمصر
- ٢٣٤ - طبقات الشافعية لأبي بكر بن هداية الله الحسيني المتوفى سنة (١٠١٤ هـ)، حَقَّقَهُ عادل نويهض - الطبعة الأولى سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م - دار الأوقاف الجديدة - بيروت لبنان.
- ٢٣٥ - طبقات الشافعية تأليف: جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي - المتوفى سنة (٧٧٢ هـ) تحقيق عبد الله الجبوري، الجمهورية العراقية رئاسة ديوان الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي بغداد سنة ١٣٩٠ هـ، ودار الكتب العلمية بيروت لبنان
- ٢٣٦ - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٢٧ - ٧٧١ هـ) تحقيق محمود محمد وعبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الأولى - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه سنة ١٣٨٣ هـ / سنة ١٩٦٤ م
- ٢٣٧ - طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ)، تحقيق نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي - القاهرة - طبعة ثالثة
- ٢٣٨ - طبقات الفقهاء لأبي إسحق الشيرازي الشافعي (٣٩٣ - ٤٧٦ هـ) تحقيق الدكتور إحسان

- عباس، الناشر دار الرائد العربي بيروت لبنان سنة ١٩٧٠م
- ٢٣٩ - طبقات الفقهاء الشافعية لأبي عاصم محمد بن أحمد العبادي المتوفى سنة (٤٥٨هـ)، طبعة ليدن سنة ١٩٦٤م
- ٢٤٠ - طبقات ابن قاضي شهبة لأبي بكر تقي الدين ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ)، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - طبعة أولى
- ٢٤١ - طبقات القراء لابن الجزري، مكتبة المتنبي
- ٢٤٢ - الطبقات الكبرى لابن سعد - دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م
- ٢٤٣ - طبقات المفسرين للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، تحقيق: علي محمد عمر - الناشر: مكتبة وهبه - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦م
- ٢٤٤ - طبقات المفسرين تصنيف: الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي المتوفى سنة ٩٤٥هـ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م
- ٢٤٥ - طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
- ٢٤٦ - طبعة النشر في القراءات العشر لأبي القاسم النوري تحقيق عبد الفتاح السيد أبو سنة مجمع البحوث الإسلامية

حرف العين

- ٢٤٧ - العبر في خبر من غير للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، وزارة الإعلام - الكويت
- ٢٤٨ - الاعتصام لأبي إسحاق اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)، المكتبة التجارية الكبرى بمصر
- ٢٤٩ - العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩ هـ)، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة - الرياض - طبعة أولى
- ٢٥٠ - العلل لأبي محمد عبد الرحمن الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) دار المعرفة
- ٢٥١ - العلل المتناهية لأبي الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق إرشاد الحق الأثري، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٢٥٢ - العلل الواردة في الأحاديث النبوية لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي (ت ٣٨٥ هـ) دار طيبة - طبعة أولى
- ٢٥٣ - علوم الحديث للحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق د. السيد معظم حسين، مكتبة المتنبي - القاهرة

٢٥٤ - العلوم المستودعة في السبع المثاني للتجيبى الأقليشي، مخطوط تفسير بالأزهر [٢٥٥] ٤٢٥٣

٢٥٥ - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لأحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق الدكتور محمد التونجي، عالم الكتب، طبعة أولى

٢٥٦ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي - طبعة أولى

٢٥٧ - عمل اليوم والليلة لأبي بكر أحمد بن إسحاق الدينوري (ابن السنّي) (ت ٣٦٤هـ)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا - دار المعرفة - بيروت

٢٥٨ - العنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري تحقيق الدكتور زهير زاهد والدكتور خليل العطية، عالم الكتب، بيروت - لبنان

حرف الغين

٢٥٩ - غاية النهاية في طبقات القراء تأليف: شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري (المتوفى سنة ٨٣٣هـ)، عُنِي بنشره ج. براجستراسر - ط. دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٢

٢٥٩ - غاية الوصول شرح لب الأصول لذكريا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي

حرف الفاء

٢٦١ - فتاوى ابن تيمية لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، مطابع الرياض - الطبعة الأولى

٢٦٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية - القاهرة - طبعة ثانية

٢٦٣ - فتح العلام للشيخ زكريا الأنصاري، دار الكتب العلمية، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود - طبعة أولى

٢٦٤ - فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب لأبي يحيى زكريا الأنصاري (ت ٩٣٥هـ)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي

٢٦٥ - فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف المملكة المغربية

٢٦٦ - فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي المكتبة التجارية الكبرى (١٣٤٦ - ١٩٢٧)

٢٦٧ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، طبع في الرباط (١٣٤٠هـ)

٢٦٨ - الفهرست لابن النديم - الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت

٢٦٩ - فوائح الرحموت شرح مسلم الثبوت لعبد العلي محمد الأنصاري (ت ١١٨٠ هـ)، المطبعة الأميرية - بولاق

٢٧٠ - فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (ت ١٠٣١ هـ)، دار الفكر - طبعة ثانية

حرف القاف

٢٧١ - القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ)، دار الفكر - بيروت

حرف الكاف

٢٧٢ - الكاشف على المحصول للأصبهاني، مخطوط

٢٧٣ - الكافي في فقه أهل المدينة المالكي لأبي عَمَر يوسف بن عبد البرّ، دار الكتب العلمية - طبعة أولى

٢٧٤ - الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (ت ٣٦٥ هـ)، دار الفكر - طبعة ثالثة

٢٧٥ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧م

٢٧٦ - كشف القناع عن متن الإقناع للشيخ العلامة فقيه الحنابلة منصور بن يونس بن إدريس البهوتي - نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة

٢٧٧ - كشف الأسرار للنسفي، دار الكتب العلمية

٢٧٨ - كشف الخفاء لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ)، مؤسسة الرسالة - بيروت - طبعة ثالثة

٢٧٩ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعالم الفاضل الأديب المؤرخ مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، المكتبة الإسلامية ب طهران - الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٥٧م

٢٨٠ - الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، مطبعة السعادة - طبعة أولى

٢٨١ - كنز العمال لعلاء الدين المتقي الهندي (ت ٩٧٥ هـ)، مؤسسة الرسالة

٢٨٢ - الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ)، تحقيق عبد الرحيم أحمد القشقرى، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - طبعة أولى

٢٨٣ - الكوكب المنير لمحمد بن أحمد الفتوحى (ت ٩٧٢ هـ)، تحقيق، د/ محمد الزحيلي ود/ نزيه حماد - مكتبة العبيكان

حرف اللام

- ٢٨٤ - لب اللباب في تحرير الأنساب لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز وأشرف أحمد عبد العزيز دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٢٨٥ - اللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين ابن الأثير الجزري، دار صادر - بيروت
- ٢٨٦ - لسان العرب لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي - دار المعارف - مصر
- ٢٨٧ - لسان الميزان للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ، حيدر آباد الهند، تصوير ونشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان - الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ / سنة ١٩٧١م
- ٢٨٨ - اللمع في العربية لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق حامد المؤمن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية طبعة ثانية

حرف الميم

- ٢٨٩ - المبسوط لشمس الدين السرخسي، دار المعرفة بيروت
- ٢٩٠ - مجاز القرآن صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت ٢١٠هـ)، تحقيق: د/ محمد فؤاد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجي
- ٢٩١ - مجمع الأنهر طبعة مصطفى البابي الحلبي
- ٢٩٢ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، مؤسسة المعارف بيروت
- ٢٩٣ - المجيد في إعراب القرآن المجيد لإبراهيم محمد الصفاقسي (ت ٧٤٢هـ)، تحقيق موسى محمد زنين، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي
- ٢٩٤ - المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني تحقيق: د/ عبد الفتاح شليبي وعلي النجدي ناصف - ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٦٩م
- ٢٩٥ - المُحدَّث الفاصل بين الراوي والواعي للقاضي الرَّامهُزْمِيّ (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دار الفكر
- ٢٩٦ - المحلى لابن حزم (ت ٤٥٦هـ) طبعة: دار الفكر - تحقيق أحمد شاكر
- ٢٩٧ - المحلى على المنهاج لجلال الدين المحلي مطبعة مصطفى البابي الحلبي
- ٢٩٨ - مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م
- ٢٩٩ - مختصر المنتهى لأبي عمر عثمان بن عُمر المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) مطبعة

کردستان بالقاهرة

- ٣٠٠ - مختلف الرواية لعلاء الدين محمد بن عبد الحميد أبي الفتح السمرقندي (ت ٥٥٢هـ) تحقيق عيسى زكي عيسى - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت
- ٣٠١ - المخصص تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي، اللغوي، الأندلسي المعروف بابن سيده (ت ٤٥٨هـ)، ط. دار الفكر
- ٣٠٢ - المدخل للبيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق د/ محمد ضياء الرحمن الأعظمي، نشر دار الخلفاء بالكويت
- ٣٠٣ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان تأليف الإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة ٧٦٨هـ مطبوعات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٠هـ/ سنة ١٩٧٠م
- ٣٠٤ - المراسيل للحافظ أبي داود سليمان السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - طبعة أولى
- ٣٠٥ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي
- ٣٠٦ - المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، دار المعرفة - بيروت
- ٣٠٧ - المستصفى في علم الأصول لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة - بيروت
- ٣٠٨ - مسند البزار = كشف الأستار للهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة بيروت
- ٣٠٩ - مسند الحميدي للحافظ أبي بكر الحميدي (ت ٢١٩هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٣١٠ - مسند الشافعي لمحمد بن إدريس الشافعي، تحقيق السيد يوسف الزواوي الحسيني، السيد عزت العطار الحسيني، دار الكتب العلمية
- ٣١١ - مسند الشهاب للقاضي محمد بن سلامة القضاءي (ت ٤٥٤هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ)، مؤسسة الرسالة - بيروت
- ٣١٢ - المسودة في أصول الفقه لآل تيمية، دار الكتاب العربي - بيروت
- ٣١٣ - مشكل الآثار للطحاوي (ت ٣٢١هـ)، حيدر آباد - الهند
- ٣١٤ - مشيخة ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق محمد محفوظ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ دار الغرب - بيروت
- ٣١٥ - المصاحف لأبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦هـ)،

الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية

٣١٦ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي - أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت ٧٧٠هـ) ط ١٣٩٧هـ/ سنة ١٩٧٧ وأيضاً ط المطبعة العلمية الطبعة الأولى سنة ١٣١٥هـ

٣١٧ - المصنف لعبد الله بن محمد بن أبي شيبه (ت ٢٣٥هـ)، حيدر آباد - الهند - طبعة أولى

٣١٨ - المصنف للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)، ط ١ سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م طبعة المجلس العلمي - المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان

٣١٩ - المطالب العالية لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار المعرفة - طبعة أولى

٣٢٠ - المطلع على أبواب المقنع لشمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي، المكتب الإسلامي

٣٢١ - المعارف لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، حققه دكتور ثروت عكاشة الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٢٢ - معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، دار المعرفة تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار

٣٢٣ - معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، شرح وتحقيق: د/ عبد الجليل شلبي - عالم الكتب - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م

٣٢٤ - معاني القراءات لأبي منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق د/ عيد مصطفى درويش ود/ عوض بن حمد القوزي طبعة أولى

٣٢٥ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣هـ)، عالم الكتب - بيروت

٣٢٦ - المعتمد لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب المعتزلي (ت ٤٣٦هـ)، دار الكتب العلمية - طبعة أولى

٣٢٧ - معجم الأدباء لياقوت - ط. الحلبي - الطبعة الأخيرة

٣٢٨ - المعجم الأوسط لأبي القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض - طبعة أولى

٣٢٩ - معجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية - بيروت، طبعة أولى

٣٢٠ - معجم الشعراء للمرزباني مكتبة القدسي - القاهرة طبعة ثانية

٣٣٠ - معجم طبقات الحفاظ للمفسرين لعبد العزيز عز الدين السيروان، عالم الكتب

- ٣٣٢ - معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت
- ٣٣٣ - المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي
بغداد - وزارة الأوقاف
- ٣٣٤ - معجم المصطلحات النحوية والصرفية للدكتور محمد سمير نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة،
دار الفرقان
- ٣٣٥ - معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق شهاب
الدين أبي عمرو، دار الفكر - بيروت - طبعة أولى
- ٣٣٦ - المعرفة والتاريخ لأبي يوسف يعقوب الفسوي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة تحقيق د. أكرم
ضياء العمري
- ٣٣٧ - المغني في أصول الفقه لعمر بن محمد الخبازي (ت ٦٩١ هـ)، تحقيق محمد مطهر بقا
- ٣٣٨ - مغني اللبيب لابن هشام (ت ٧٦١ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة
المدني
- ٣٣٩ - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج لشمس الدين الخطيب الشربيني، تحقيق
الشيخ علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية - طبعة أولى
- ٣٤٠ - المغني والشرح الكبير لعبد الله بن أحمد بن قدامة (ت ٦٢٠ هـ) على مختصر الإمام أبي
القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله بن أحمد الخرقى، ومعه الشرح الكبير على متن المقنع
تأليف الشيخ الإمام شمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن
قدامة المقدسي (ت ٦٨٢ هـ) ط دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع بيروت - لبنان سنة
١٣٩٢هـ.
- ٣٤١ - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٤هـ)، دار الكتب العلمية طبعة أولى
- ٣٤٢ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده، حيدر آباد - الهند
- ٣٤٣ - المفضليات للمفضل الضبي - تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط. دار
المعارف - الطبعة السادسة
- ٣٤٤ - المفهوم لشيخنا محمد الحضراوي، مخطوط
- ٣٤٥ - المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية لمحمود بن أحمد العيني، دار صادر
- ٣٤٦ - المقتضب صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرّد (٢١٠ - ٢٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد
الخالق عزيمة ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
- ٣٤٧ - المقدمة لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، دار نهضة مصر طبعة ثالثة

٣٤٨ - مقدمة ابن الصلاح لابن الصلاح، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٤٩ - المغرب تأليف: علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور (ت ٦٦٩ هـ) تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري. مطبعة العاني، بغداد - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ م.

٣٥٠ - المكتفى في الوقف والابتداء للداني تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن مرعشلي - مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤ هـ، وطبعة أخرى قامت بنشرها مؤسسة الحلبي

* ملحق ديوان الأعشى = انظر ديوان الأعشى

* - ملحق ديوان كعب بن زهير = انظر ديوان كعب بن زهير

٣٥١ - الممتع في التصريف - لابن عصفور الإشبيلي (٥٩٧ - ٦٦٩ هـ)، تحقيق د/ فخر الدين قباوة - ط. منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٩ م.

٣٥٢ - مناهج العقول لمحمد بن الحسن البدخشي، دار الكتب العلمية - طبعة أولى

٣٥٣ - مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة عيسى البابي الحلبي - طبعة ثالثة

٣٠٤ - المنتخب من المسند لأبي محمد عبد بن حميد (ت ٢٤٩ هـ) مكتبة السنة بالقاهرة تحقيق السيد صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي

٣٥٥ - المنتقى شرح موطأ مالك للقاضي سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٩٤ هـ) الطبعة الأولى مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ

٣٥٦ - منتهى الإرادات لتقي الدين الفتوح الحنبلي الشهير بابن النجار، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، عالم الكتب

٣٥٧ - المنحول من تعليقات الأصول لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، تحقيق د. محمد حسن هيتو، دار الفكر - دمشق - طبعة ثانية

٣٥٨ - المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء للآمدي (الحسن بن بشر)، مكتبة القدسي

٣٥٩ - موارد الظمان إلى زوائد بن حبان لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، (ت ٨٠٧ هـ) تحقيق حسين سليم أسد، عبده علي كوشك - دار الثقافة العربية طبعة أولى

٣٦٠ - الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)، تحقيق الشيخ عبد الله دراز دار المعرفة - بيروت - طبعة ثانية

٣٦١ - الموضوعات لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، عام ١٣٨٦ هـ

٣٦٢ - ميزان الأصول في نتائج العقول لعلاء الدين شمس النظر السمرقندي، تحقيق د. عبد الملك

عبد الرحمن السعدي لجنة إحياء التراث العربي والإسلامي مكة المكرمة، طبعة أولى ١٩٨٧
 ٣٦٣ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي - ط. دار المعارف - بيروت

حرف النون

٣٦٤ - الناسخ المنسوخ في الحديث لابن شاهين (ت ٣٨٥ هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية - بيروت، طبعة أولى

٣٦٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة

٣٦٦ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، تحقيق: د/ إبراهيم السامرائي - مكتبة المنار بالأردن - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٥ م.

٣٦٧ - نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس للعباس بن علي الموسوي، طبع في مصر (١٢٩٣ هـ)

٣٦٨ - نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض لأحمد شهاب الدين الخفاجي المصري، مكتبة المشهد الحسيني

٣٦٩ - نشر البنود على مراقي السعود لعبد الله بن إبراهيم الشنقيطي، دار الكتب العلمية - طبعة أولى

٣٧٠ - نشر الطوالع للعلامة المرعشي الشهير بساجقلي زادة مكتبة العلوم العصرية - طبعة أولى

٣٧١ - نصب الراية لأحاديث الهداية للإمام الحافظ البار العلامة جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي (ت ٧٦٢ هـ) الناشر المكتبة الإسلامية، لصاحبها الحاج رياض الشيخ، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م

٣٧٢ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري (ت ١٠٤١ هـ)، طبع دار صادر، تعليق الدكتور إحسان عباس

٣٧٣ - نقعة الصديان للحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني (ت ٦٥٠ هـ)، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - طبعة أولى

٣٧٤ - النكت الظراف لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، تصحيح عبد الصمد بن شرف، طبع بحاشية تحفة الأشراف للمزي، الطبعة الأولى، الدار القيمة الهند

٣٧٥ - نكت الهيمنان في نكت العميان لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، المطبعة الجمالية بمصر

٣٧٦ - نهاية الأرب لشهاب الدين النويري، دار الكتب المصرية، (١٩٢٣ م)

- ٣٧٧ - نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول لعبد الرحيم الأسنوي (ت ٧٧٢هـ)، المطبعة السلفية - عالم الكتب - بيروت
- ٣٧٨ - النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير - تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي - طبعة الحلبي - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣م.
- ٣٧٩ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس ليبيا - طبعة أولى
- ٣٨٠ - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للإمام المجتهد قاضي قضاة القطر اليماني محمد بن علي بن محمد الشوكاني، طبعة الحلبي الأخيرة ونسخة أخرى طبعة المكتبة التوفيقية بالقاهرة

حرف الهاء

- ٣٨١ - الهداية شرح بداية المبتدئ لبرهان الدين الميرغاني (ت ٥٩٣هـ)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي
- ٣٨٢ - هذئي الساري للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية بالقاهرة - طبعة ثانية
- ٣٨٣ - هدية العارفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر
- ٣٨٤ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، عُنِي بتصحيحه: السيد محمد بدر الدين النعساني، ط. دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت

حرف الواو

- ٣٨٥ - الوافي بالوفيات تأليف صلاح الدين خليل بن الصفدي ط ٢ دار النشر بقرسبادن النشرات الإسلامية (٣٨١هـ / ١٩٦٢م)
- ٣٨٦ - الوصول إلى الأصول لأحمد بن علي بن برهان (ت ٥١٨هـ)، تحقيق عبد الحميد علي أبو زنيد، مكتبة المعارف - الرياض - طبعة أولى
- ٣٨٨ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان سنة (٦٠٨ - ٦٨١) حققه الدكتور/ إحسان عباس، دار صادر بيروت سنة ١٩٦٨م

طَبَعَ عَلَى مِطَابَعِ
وَلَا زِلَعِيَّاءَ النَّزْلِ شِخْرِ الْعَرَبِيِّ